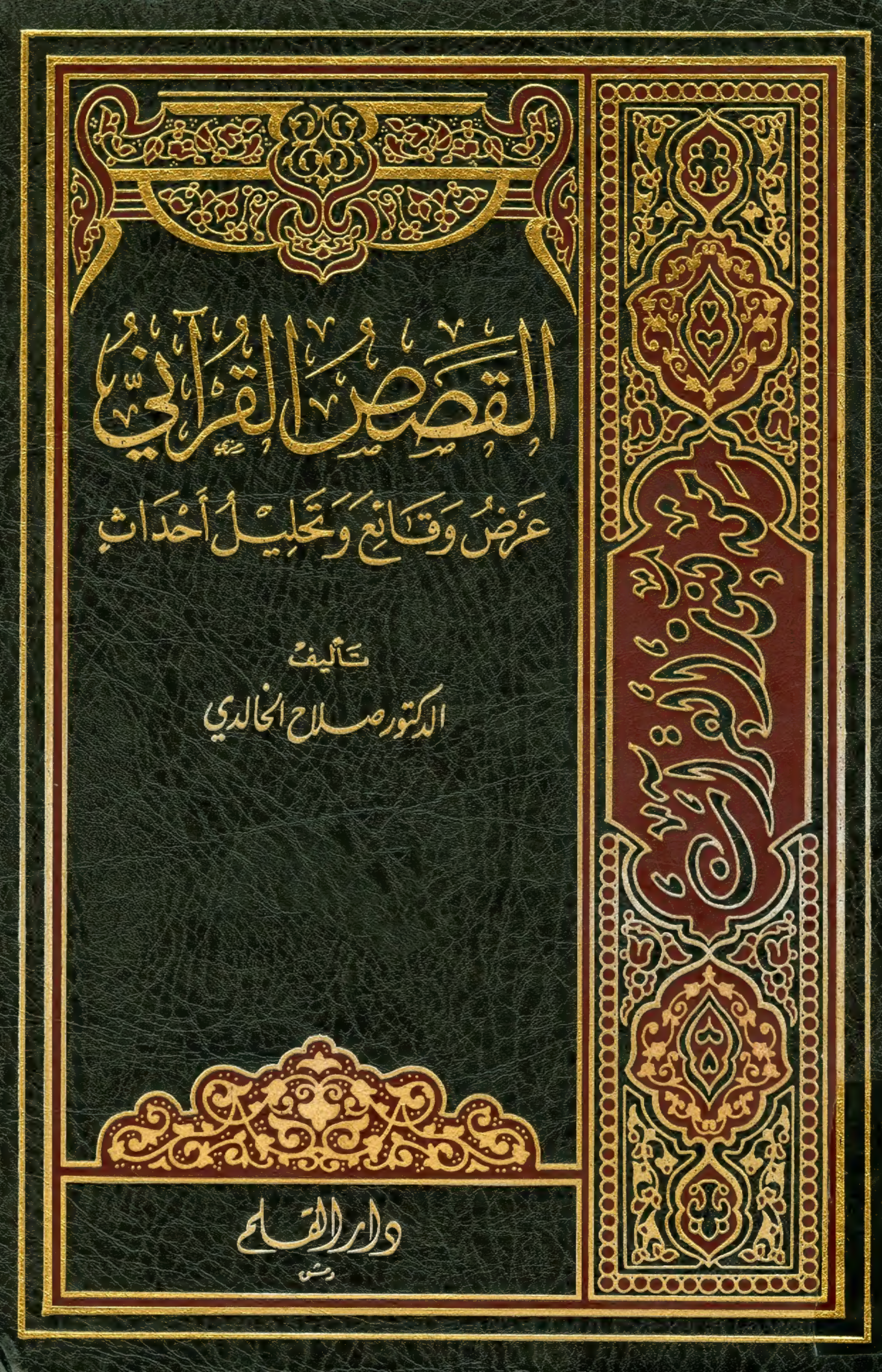

القصص القرآني
عرض وقائع وتحليل أحداث
تأليف
الدكتور صلاح الخالدي
دار القلم
دمشق

من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

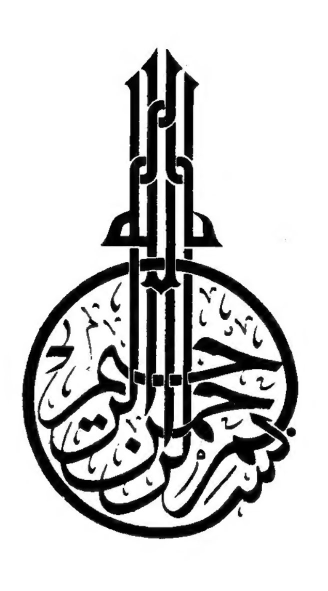
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الأول

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


القصص القرآني

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب، ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمنا بالله، وما أنزل إلينا» [صحيح البخاري].





مقدمة

إِن الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينهُ، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، وسيئاتِ أعمالنا، مَن يهدِ اللَّهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد قصَّ علينا في القرآن الكريم قَصصَ أقوام سابقين، وعرضَ لنا بعضَ ما جرى لأنبياء ومرسلين عليهم الصلاةَ والسلام.

وأخبرَنا اللَّهُ أنَّ قصصَ هؤلاء في القرآن هو أحسنُ القَصص، وهو القصصُ الحق، لأنه هو الذي تفضَّلَ بقَصِّه وذِكْره، وأخبرَنا أن القَصصَ القرآنيَّ في القرآن ليس لمجرّدِ التّسلية والاستمتاع، وإنما هو معروضٌ لتحقيقِ أهدافِ علمية وفكرية، وتربويةٍ ودعوية.

إنَّ السّامعين يتفكّرون عندما يسمعون قَصص القرآن: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وإنّ أولي الألباب يَعتبرون من قصص القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنَّ الدعاةَ يزدادون ثَباتاً على الحق، وإصراراً على مواجهةِ الباطل، عندما يطَّلعون على مواقفِ الأنبياء والمرسلين من أقوامهم:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ولذلكَ وردَ القَصصُ القرآني في آيات عديدة من سور القرآن، وأخذَ مساحةً عريضة من القرآن، وكان من أهمّ موضوعاته وأوّلياته.

وقد أقبلَ علماءُ المسلمين على القَصصِ القرآني دارسين وباحثين، ومتدبرين محلِّلين، سواء كانوا من المفسرين أو المؤرخين، أو من غيرهم من العلماء والمؤلفين.

فما من مؤرخٍ من المسلمين إلا وقد وقفَ أمام قَصص القرآن أثناء حديثِهِ عن حلقاتِ التاريخ البشري الماضي، وما من مفسرٍ إلا وقد وقفَ أمام قصص القرآن، وهو يُفسرُ الآياتِ التي تتحدث عنه.

وقد خصَّ بعضُ المؤلفين قَصص القرآن بمؤلَّفٍ خاص، وكتاب مستقل، وتحدث فيه عن تلك القَصَص.

ووقفَ الكاتبون المعاصرون أَمام قَصص القرآن، جامعين محللين، ودارسين متدبرين، وظهرتْ عدةُ مؤلَّفات في هذا العصر، تتحدثُ عن قصص القرآن، وتحللُ أحداثَه ووقائعَه.

منها: قصصُ الأنبياء في القرآن لعبد الوهاب النجار، وقصصُ القرآن لمحمد أحمد جاد المولى، وتاريخُ الأنبياء في القرآن لمحمد الطيب النجار.

ومِن أكثرِ الكتبِ انتشاراً كتاب «قصص الأنبياء» للإمام ابن كثير، الذي كان أولَ مَن أصدره هو الدكتور مصطفى عبد الواحد.

وفي الحقيقة: إن الإمامَ ابن كثير لم يؤلّف كتاباً خاصاً في قصص الأنبياء، وإنما تحدثَ عنهم في بدايةِ تاريخه الذي سماه «البداية والنهاية» فقام الدكتور مصطفى عبد الواحد ـ سامحه الله ـ بأخْذِ كلام ابن كثير عن الأنبياء من تاريخه، وإصدارِه في كتاب، دونَ أنْ يشيرَ إلى أنَّ هذا الكلام مأخوذٌ من تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية»، فظنَّ القراءُ أنَّ عبد الواحد قد حققَ كتاباً خاصاً أفرده ابن كثير لقصص الأنبياء.

ولدى مقارنةٍ سريعة بين «قصص الأنبياء» وتاريخ «البداية والنهاية»، نرى أنَّ الكلامَ في الموضعيْن واحد، لا يزيد ولا ينقص. وكان على عبد الواحد أنْ ينصَّ على غلافِ الكتاب أنه مُسْتَلٌّ من تاريخ ابن كثير بالنص، لئلا يوقع القراءَ في هذا اللَّبس!.

ومن الكتبِ المعاصرة في قصص الأنبياء كتاب عفيف عبد الفتاح طبارة: «مع الأنبياء في القرآن»، الذي قدَّمَ فيه تحليلاتٍ جيدة في قصصهم، لكنه لا يخلو من بعضِ المؤاخذات، منها قَبولُه لبعض الروايات غير الموثوقة في أَحداث القصص، التي استمدَّها من كُتب التاريخ والإسرائيليات.

ومن الكتب المعاصرة أيضاً كتاب «القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته» للدكتور فضل عباس، وقد أَدارَ الدكتورُ كتابَه على موضوع واحد، وهو نفيُ التكرار عن القرآن، وهو يوردُ القصص في سوره، وقد بيَّنَ الدكتور ما أضافَتْه كلُّ سورة من إضافات، فيما عرضَتْه من لقطاتِ ومشاهدِ القصة.

ومن آخرِ ما نشر حول القصص القرآني، كتاب «نظرات في أحسن القصص» للدكتور محمد السيد الوكيل، الذي نشرتْه له دار القلم عام ١٩٩٤ في مجلّديْن. وسجّلَ الدكتورُ الوكيل نظراتٍ طيبة، وتحليلاتٍ رائعة، لكن مما يؤخَذُ عليه أنه لم يلتزمْ بالمصادرِ والموارد اليقينية الصحيحة، المحصورةِ في آيات القرآن، وما صحّ من أحاديث رسول الله ﷺ، وإنما أخذ بعضَ المعلوماتِ والتفصيلات عن بعضِ العلماء السابقين، الذين أَخذوها بدورهم عن الإِسرائيليات.

وكم كنا نتمنى لو بقيَ الدكتورُ الوكيل مع الآيات والأحاديث الصحيحة، وهو يثبتُ أحداثَ ووقائعَ القصص، إذنْ لكان كتابه من أجودِ ما كُتب في موضوعه.

ورغمَ كثرةِ ما ظهرَ من كتبٍ ودراسات قديمة ومعاصرة عن

قصص القرآن، فإنني أعتقدُ أن الساحةَ العلميةَ والثقافيةَ الإسلامية تتسعُ للمزيد، وأنَّ قصص القرآن تُعطي الجديدَ المفيد من الفوائد والدروس للناظرين والدارسين والباحثين.

وقد سبقَ أنْ أَصْدَرْتُ دراسةً عن بعض جوانبِ القصص القرآني، وهي «مع قصص السابقين في القرآن» بحلقاتها الثلاث، التي صدرتْ قبل أكثر من خمسِ سنوات.

وقد خصصتُ تلك الدارسةَ لتدُّبر وتحليل قصصِ غيرِ الأنبياء في القرآن، كقصةِ ابنَيْ آدم، وقصة هاروت وماروت، وقصة الذي مر على قرية، وقصة الذي انسلخ من آيات الله، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة قارون، وقصة لقمان، وقصة سبأ، وقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وهكذا.

وقد درَّسْتُ مادةَ «القصص القرآني» في كليةِ الشريعة في الجامعة الأردنية، وفي كليةِ الدعوة وأصول الدين، أكثرَ من مرة، كما أَلقيتُ دروساً دوريةً في تحليلات القصص القرآني في أكثر من مسجد، ولله الحمد.

وكنتُ وما زلتُ أُطالبُ بالاكتفاءِ بالمصادرِ اليقينية الصحيحة، التي نأخذُ منها القصصَ القرآني، وهذه المصادرُ محصورةٌ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ النبوية الصحيحة، ولا أُجيزُ أَخْذَ وقائع وأحداثِ القصصِ القرآني من الإِسرائيليات، أو غيرِها من المصادرِ غيرِ الموثوقة الأخرى.

وإنَّ مما يؤسَفُ له أن الكتبَ القديمةَ والمعاصرة، التي تتحدثُ عن وقائع القصص القرآني لم تسلَمْ من وجود إسرائيلياتٍ فيها، على تفاوتٍ في الكميةِ الموجودة فيها من تلك الإِسرائيليات! وفسَّرَ أصحابُ تلك الكتب آياتِ القرآن بتلك الأقاويلِ والإِسرائيليات.

وكثيراً ما كنتُ أُسْأَلُ من قِبَلِ الطلبة أو المتابعين، عن أجودِ كتابٍ يتحدثُ عن أحداث القصص القرآني بطريقةٍ موضوعية، وليس فيه إسرائيليات، فلا أجدُ كِتَاباً شاملاً لذلك وخالياً من الإِسرائيليات، وكنتُ أقول لهم: أجودُ كتابٍ قديم هو كتابُ قصص الأنبياء لابن كثير، وأجودُ كتاب معاصرٍ هو «مع الأنبياء في القرآن» لعفيف طبارة، مع ما عليهما من مآخذَ منهجية بسبب اعتمادهما على الإِسرائيليات أحياناً، لكنهما أجودُ الكتب الموجودة، حتى إشعارٍ آخر!

وكانوا يستحثّونني على إِصدارِ كتاب يتّصفُ بما كنتُ أقرّرُه وأوضّحُه من منهجِ إثباتِ وقائع القصص القرآني، والاكتفاءِ في ذلك بالقرآن والحديث الصحيح، فكنتُ أَعِدُ خيراً، وأَكِلُ هذا إلى إرادةِ الله وقَدره ومشيئته سبحانه، ولا ندري ما يقدِّره لنا، ومتى يشاءُ ذلك!

وأَبديتُ رغبةً لأخي الأستاذ الشيخ إبراهيم العلي بضرورةِ قيام أحد العلماء بجمْعِ ما صحَّ من أحاديث رسول الله ﷺ، حول وقائعِ وأحداثِ القصص القرآني، جَمْعُها مِن كُتُب الحديث المتفرقة، وتخريجها، وتحقيقها، وتقديمُها للقارئ، ليستغنيَ ويكتفيَ بها عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وعن الإِسرائيلياتِ والأساطير، التي تسلَّلَتْ إلى كلِّ الكتبِ المؤلفة في القصص القرآني.

وسرعانَ ما لبّى أخي الشيخ إبراهيم العلي الرغبة، وقامَ بجمْعِ الأحاديثِ الصحيحة، وهو من أهلِ هذا الفنِّ والعلم الحديثي النابهين، وسجَّلها في رسالته «الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء».

وقد أَكرمني بإعطائي نسخةً من هذه الرسالة قبل طباعتِه لها، حيث استفدتُ منها كثيراً في هذه الدراسة، واعتمدتُ عليها في أخذ الأحاديثِ الصحيحة المتعلقة بالقصص القرآني، واعتمدتُ تخريجه لتلك الأحاديث وحكْمَه عليها، وأثبتُّ ذلك في هوامش الصفحات، فجزاه الله عني وعن العلم وأهلِه وعن حديثِ رسول الله ﷺ خيرَ الجزاء!!.

إنني أعتقدُ أن الحاجةَ ماسةٌ لإِصدارِ عدةِ دراساتٍ حول القصص القرآني، وهي:

١ ـ **القصص القرآني**: عرض وقائع وتحليل أحداث: يكونُ جهدُ الباحثِ فيه محصوراً في إثباتِ تفصيلات وأحداثِ القصص القرآني، ويجبُ أن يكونَ استمداده لها من المصادر الصحيحة، المتمثلةِ في القرآن والحديث الصحيح.

٢ ـ **القصص القرآني**: توجيه مواقف وحل إشكالات:

يجمعُ الباحثُ فيه الآيات القرآنية التي تسجلُ بعضَ المواقف لبعض الأنبياء، والتي اختلفَ الناسُ في فهمها وتوجيهها، وذَهبوا إلى الإِسرائيليات في حلِّ إشكالاتِها، فوقعوا في إشكالاتٍ أشدّ.

فيتولّى الباحثُ توجيهَ تلك المواقف، وحلَّ تلك الإِشكالات، انطلاقاً من المنهج العلمي في استمدادِ ذلك من الكتاب والسنة.

من تلك الإِشكالاتِ على سبيل المثال: التوفيقُ بين نبوةِ آدم ومعصيته، وكيفَ وسوسَ إبليسُ لآدم مع طرده من الجنة؟ وكيف سأَل نوحٌ ربه عن ابنه الكافر؟ وتوجيهُ قتلِ موسى للقبطي، وتوجيهُ قصة داود مع الخصمين والمئة نعجة، وتوجيهُ قصة سليمان مع الجسدِ على كرسيه، وتوجيهُ رفع عيسى للسماء مع توفيةِ الله له، وتوجيهُ قصةِ الرسول ﷺ مع زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. . .

٣ ـ **القصص القرآني**: أصولٌ جوامع وقواعدُ مشتركات:

ينظرُ فيه الباحث في القصص القرآني، من خلالِ جمعِ القِصص كلِّها، واستخراجِ أصولٍ عامة جامعة، وقواعدَ مطردة مشتركة، وسننٍ ربانية ثابتة، ومواقفَ دعوية مؤثرة، وتقديمِ دروسٍ جامعة من القِصص كلِّها، في الإِيمانِ والدعوة، وفي المواجهةِ والتحدي، وفي الجهادِ والثبات، وفي مواقفِ الأعداء وحربهم للأنبياء، وتوظيف الأدلة على كل مسألةٍ من مشاهِد ووقائعِ القصص القرآني المبثوثةِ في السور والآيات.

٤ ـ القصص القرآني: ظواهرُ عامة وسماتُ شخصيات:

يقومُ فيه الباحثُ بتدبُّرِ الآيات التي تتحدثُ عن أشخاصِ القصصِ، سواء كانوا أنبياء وأتباعاً مؤمنين، أو كانوا أعداءً لهم محاربين، ويحلّلُ الباحثُ نفسياتِ وحركات وبواعث ومواقف كل نموذج، سواء كان سلبياً أو إيجابياً ويبينُ الباحثُ الصفات العامة الجامعة لهم على اختلاف الزمان والمكان، ويوردُ الشواهدَ على هذا من النماذج المعروضة أمامه في القرآن.

هناك ما يسمّى بالظواهرِ العامة للشخصيات القرآنية، المعروضةِ في القصص القرآني.

هناك ظواهرُ فاضلة في الجانبِ الإيجابي، مثل: الظاهرة الآدمية، والظاهرة الإِبراهيمية، والظاهرة اليوسفية، والظاهرة الموسوية، فما هي أهمُّ ملامحِ وسمات كل ظاهرة، باعتبارِها ظاهرةً إيمانية ـ بغض النظر عن كون صاحبها نبي ـ تتكررُ في أيِّ زمان مكان، وتتمثلُ بصورة أبطالِ روادِ هنا أو هناك.

وهناك ظواهرُ سلبيةٌ معقدة في القصص القرآني، مثل: الظاهرة الإِبليسية، والظاهرة الفرعونية، والظاهرة القارونية، والظاهرة اليهودية، والظاهرة النصرانية. فما هي أهمُّ سماتِ وملامح كل ظاهرة، وكيف يُنزلُ هذه الظاهرةَ على أشخاص أو أقوام، يوجَدون في أي زمان ومكان، وكيف يُحذِّرُ من الاتصافِ بتلك الملامح والسمات!

نرى أن هذه الدراسات لا بدَّ من إعدادِها وإصدارها، لتغطيةِ هذه الجوانب في القصص القرآني، وتقديم خدمةٍ ضرورية لمسلمي هذا الزمان، وبالذات العلماء والدعاة وأهلِ الإِصلاح منهم.

ونعتقدُ أنَّ كلَّ هذه الدراسات تعتمدُ على الدراسة الأولى: «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث»، لأنَّ هذه الدراسةَ

تضعُ بين أَيدي الباحثين المادةَ الأوليةَ لأحداثِ القصص القرآني، مستمدةً من القرآن والحديث الصحيح، وعليهم هم بعد ذلك أنْ يَستنبطوا منها ما يَفتحُ الله به عليهم من نتائجَ وتحليلات!

وها قد بدأتُ بإعدادِ الدراسة الأولى: «**القصص القرآني**: عرض وقائع وتحليل أحداث» ولله الحمد. ولا أَدري ما يقدرهُ اللّٰهُ لي في المستقبل! فإنْ يَسَّرَ اللّٰهُ اللطيفُ بلطفه، وأعانني على إصدار تلك الدراسات الثلاث الأخرى المتعلقة بالقصص القرآني، فهذا فضلٌ وكرمٌ وإِنعامٌ منه سبحانه، وأرجو أنْ يعينني بعون منه على ذلك.

وإنْ لم يقدّر اللّٰهُ لي ذلك، وقدَّره لغيري ممن هو أفضلُ مني من الباحثين، فأنا راضٍ بما يقدره ويريده سبحانه، وأعتقدُ أنه عليمٌ حكيم خبير في كل ما يُقَدِّر. وله الحمد والشكر.

ولقد جاءت هذه الدراسة «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» في أربعة أجزاء.

الجزء الأول: بدأتُه بتقرير المنهجِ المعتمدِ في إثباتِ وقائع وأحداث القصص القرآني، ذلك المنهجُ المستمدُّ من الآياتِ والأحاديث الصحيحة، وأوضحتُ كلَّ ذلك في «كلمة في المنهج» في مطلعِ هذا القسم.

ثم تحدثتُ عن وقائعِ وأحداث وتفصيلات قصص الأنبياء الكرام: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولوط، عليهم الصلاة والسلام.

وعرضتُ وقائعَ قصص هؤلاء الأنبياء الثمانية عليهم الصلاة والسلام، من خلال الآياتِ القرآنية، وما صحَّ من أحاديثِ رسول الله ﷺ، واعتمدتُ في الأحاديث على رسالةِ أخي الأستاذ الشيخ إبراهيم العلي «الأحاديث الصحيحة في قصص الأنبياء» جزاه الله خيراً.

وقدمتُ هذه الوقائعَ بدونِ تحليلاتٍ أو استنتاجات، لأنَّ هدفي هو

تقديمُ تصوُّرٍ كاملٍ لقصة كلِّ نبي منهم مع قومه، كما هي في الكتابِ والسنة، أما النتائجُ والدروسُ والعبرُ والعظات، فنتركُها لدراسةٍ قادمة، إنْ قدَّرَ اللّهُ وأنسأ في الأجل، ومنحَ الصحةَ والعافيةَ والقدرةَ على العمل!!

الجزء الثاني: عرضت فيه قصة شعيب، وقصة يعقوب، وقصة يوسف، والقسم الأول من قصة موسى، عليهم الصلاة والسلام.

الجزء الثالث: استكملت فيه قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل، ثم عرضت قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

الجزء الرابع: عرضت فيه قصص أنبياء آخرين بعد داود وسليمان. وهم: أيوب، ويونس، وإدريس، وإلياس، واليسع، وذو الكفل، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم، عليهم الصلاة والسلام.

إنني قد تعهَّدْتُ في هذه الدراسة أَنْ أُنَزِّهها عن إيرادِ أيٍّ من الإسرائيلياتِ والأخبارِ والروايات غير الصحيحة، والتزمْتُ بأن لا أزيدَ على ما في الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة من وقائع وتفصيلات، وألزمتُ نفسي أثناءَ إعداد الدراسة أنْ أبقى مع الآيات والأحاديث، فقلتُ بما قالَتْ به، وتوقفْتُ عند ما توقفَتْ عنده، وسكَتُّ عما سكتَتْ عنه تلكَ النصوص.

وإنني أقدمُ هذه الدراسة للإِخوة الدارسين والباحثين، راجياً منهم التَكَرّم بالدعاءِ لي بظهر الغيب، طالبين من اللّهِ الأجرَ والثوابَ وحسنَ الجزاء لي إنْ راقَ لهم بعضُ كلامي، وطالبين من اللّهِ العفوَ والتجاوزَ عني، إنْ رأَوْا خطأً وَقَعْتُ فيه، وأرجو إكرامي بإخباري عن ذلك، لأَتلافاهُ فيما بعد.

وإلى الله أتوجه بهذا العمل، راجياً منه حسن القبول، وجزيل الجزاء، وكريم الثناء.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي
الأردن - صويلح

الإثنين ١/٨/١٤١٨هـ
١/١٢/١٩٩٧م

«كلمة في المنهج»

القصص القرآني
بين
صادق المعلومات وادعاءات الإسرائيليات

القَصصُ في اللغة

معنى القصص في اللغة:

مادةُ «قَصَص» واردةٌ في اللغة.

قال الإمامُ ابنُ فارس في «معجم مقاييس اللغة» عن القَصص: «القَصّ: يدلُّ على تَتَبُّعِ الشيء. مأخوذٌ من قولك: اقتصَصْتُ الأَثَر: إذا تتبَّعْتُه.

ومن ذلك اشتقاقُ «القِصاص» في الجِراح. وذلك أَنه يُفْعَلُ به مثلُ فعْلِه بالأَول، فكأنه اقتصَّ أَثَره.

ومن الباب: القِصةُ والقَصص: حيثُ يُتَتَبَّعُ فَيُذْكَر.

والصدرُ هو القَصّ، وهو عندنا قياسُ الباب، لأنه متساوي العظام، كأَنَّ كلَّ عظمٍ منها يَتْبعُ الآخَر.

ومن الباب: قصُّ الشعْر. وذلك أنكَ إذا قصَصْتَه فقد سَوَّيْتَ بين كلِّ شعرةٍ وأختها، فصارت الواحدةُ كأنها تابعةٌ للأخرى مساويةٌ لها في طريقها»[1].

وقال الإمامُ الراغب الأصفهاني في كتاب «المفردات» عن القَصص: «القص: تتبع الأثر. يقال: قصصت أثره. والقصص: الأثر.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥:١١.

والقَصص: الأخبار المتَتَبَّعَة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]»[١].

وقال الإِمامُ أبو البقاءِ الكَفَوي في كتاب «الكليات» عن القَصص: «القصةُ هي: الأمر، والخبر.

وقَصَصْتُ الحديث: روَيتُه على وجهه.

ومعنى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]: نحن نبينُ لك أحسنَ البيان.

وقَصَّ عليه الخبر قَصَصاً. بفتح القاف.

والقِصَص: بكسرِ القاف: جمعُ قِصة»[٢].

والخلاصةُ من الأقوالِ السابقة أنَّ مادة «قصص» تقومُ على التَّتَبُّع، سواء كانَ التتبعُ مادياً كقصِّ العِظام، وقصِّ الشعر، وقص الأثر، أو كان التتبعُ معنوياً كقصِّ الأخبار، وقصِّ الكلام.

شرطان للقصص:

وهذا التتبعُ والقَصُّ لا بدَّ فيه من أمرين:

الأول: تَتَبُّعُ الشيء أو الخبر كما هو، وعلى وجهِه الصحيح الذي حدثَ عليه.

والثاني: التساوي عند التتبع، والحرصُ على المساواة أثناءَ المتابعة، ففي القصِّ المادي تكونُ المساواةُ ماديةً ملحوظة، فقصُّ الشعر والحجر والعظم، يكونُ بوضعِ الجميع على قَصٍّ ومقاسٍ واحد، لا يطولُ ولا يقصر.

وفي القصِّ المعنويِّ للروايات والأخبار: لا بدَّ من المساواة عند

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٧١.

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٧٣٤.

التتبع والمتابعة، بأنْ يكونَ الخبرُ مروياً ومقصوصاً كما هو، لا يزيدُ القاصُّ شيئاً من الأحداثِ والإضافاتِ على الأصل، فعليه أنْ يكونَ كلامُه مساوياً للخبرِ الواقع من قبل، بدون زيادةٍ ولا نقصان.

ولهذا قال أبو البقاء: قصصتُ الحديث: رويتُه على وجهِه. أي: رويتهُ كما هو بحسنِ التتبع، ودقةِ التساوي، بأن لا يزيدَ عليه ولا يُنقصَ منه.

ولا بدَّ من تحقيقِ الأمريْن في كل روايةٍ أو قصٍّ أو إخبارٍ عن أحداث السابقين ووقائعهم، التي وردتْ في القرآن: حُسْنُ التتبعِ والجمع لهذه القصص، وحُسْنُ التساوي بين الروايةِ والحدثِ السابق.

ونقدم هذيْن الشرطيْن للذين يتعاملون مع القَصص القرآني، وذلك ليلتزموا بهما، بدونِ زيادةٍ ولا نقصان.

ونُذَكِّرُ بالفرقِ بين القَصص ـ بالفتح ـ وبين القِصص ـ بالكسر ـ فالقِصص ـ بكسر القاف ـ هي جمعُ قصة. تقول: فلانٌ يكتبُ القِصَصَ ويرويها.

أما القَصص ـ بفتح القاف ـ فهو الأخبارُ والرواياتُ التي يتتبعها القاصُّ ويرويها. كما أنه يَرِدُ بمعنى المصدر، تقول: قَصَّ قَصّاً وقصصاً.



القَصصُ في القرآنِ

وردتْ مادةُ «قَصص» على اختلافِ اشتقاقاتِها وتصريفاتها في القرآنِ ثلاثينَ مرة:

في صورةِ الفعل الماضي، أربعَ مرات.

وفي صورةِ الفعل المضارع، أربعَ عشرة مرة.

وفي صورةِ فِعْل الأمر، مرتان.

وفي صيغة «القصص»، ست مرات.

وفي صيغة «القِصاص»، أربع مرات.

وفيما يلي وقفةٌ سريعة مع هذه المادة في القرآن.

وقفة سريعة مع القصص في القرآن:

١ ـ القِصاص: وهو حكمٌ جنائي، يقوم على الاقتصاص من الجاني، سواء كانت جنايتهُ قتلًا أو إفساداً، أو جرحاً وإتلافاً. والقِصاصُ يقوم على تتبعِ الشيء والفعل، فيُفعلُ بالجاني كما فَعل هو بالمجنيِّ عليه.

٢ ـ قَصَصاً: منصوبة منونة نكرة. وردتْ مرةً واحدة في القرآن.

في الإِخبارِ عن موسى عليه السلام وفتاه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: ٦٤].

فعندما أَضاعَ فتاه الحوت، وسارا مسافةً طويلة، شعرا فيها بالنصَبِ والتعب، تذكَّر الفتى فقدان الحوت، واقترحَ على موسى العودةَ إلى الصخرة، فاتفقا على ذلك، وعادا إلى الصخرة، يسيران على آثارِ أقدامهما، ويقصّانِ آثارَ سيرهما، كاقتصاص الأثر.

و«قَصصاً»: مصدرٌ وقعَ حالاً، ويُرادُ به اسمُ الفاعل. أي: ارتدّا على آثارهما، مقتَصِّين أَثَر الأقدام اقتصاصاً.

وهي واردةٌ بمعنى القَصّ والاقتصاصِ المادي، الذي يقومُ على تتبعِ الأثر.

إسناد القصص إلى الله:

٣ ـ أُسندَ القَصصُ إلى الله تعالى في القرآن أحياناً، فاللّهُ بذاته العلية سبحانه، يقومُ بالقصِّ على رسولهِ ﷺ قصص السابقين، وذلك عن طريقِ تتبع أَحداثهم ورواياتها، وقَصِّها على الرسولِ عليه الصلاة والسلام، في آيات القرآن.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١].

ومنها قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

إسناد القصص إلى الرسل والقرآن:

٤ ـ وأُسندَ القَصصُ إلى الرسلِ أحياناً، لأنهم هم الذين يقصون آياتِ الله على الناس.

وهذا الإسنادُ في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٥ ـ وأُسندَ القصصُ إلى القرآن نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

٦ ـ وأَخبرَ القرآنُ عن ما جرى لموسى عليه السلام، عندما غادرَ مصر إلى أرضِ مدين، والتقى هناكَ مع الرجلِ الصالح، وقصَّ عليه ما جرى له، فطمأنه الرجلُ الصالح.

قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

٧ ـ ولما وضعتْ أمُ موسى ابنَها في اليم، كما أمرها الله، أَمرتْ أختَه أنْ تتابعَ سيرَ التابوت الذي فيه موسى، لتعرفَ أينَ يستقر. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

٨ ـ وأمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ أنْ يقصَّ القصص الذي أخبره الله به، لعلَّ الناسَ يتفكَّرون ويتعظون، وجاءَ الأمر بهذا في التعقيبِ على قصة الذي آتاه الله آياتِه فانسلخَ منها، كما أوردَتْها آياتُ سورة الأعراف.

وقد وردَ، التعقيب في قوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

٩ ـ وأخبَر اللّهُ أنَّ مَنْ يسمعُ قصصَ السابقين المذكورَة في القرآن، فإنه يعتبرُ ويتعظ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

١٠ ـ وجاءَ وصفُ القصص القرآني بأنه القصصُ الحق، وكان هذا الوصف في سياقِ جدالِ الرسول ﷺ مع النصارى بشأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٦٢ ـ ٦٣].





القَصصُ القرآنيّ
صفاته وأهدافه

قصَّ اللّهُ سبحانه وتعالى علينا في القرآن قصصَ كثيرٍ من السابقين، وأخبرَنا عما جرى للأنبياءِ مع أقوامهم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد شملَ القصَصُ مساحةً كبيرة في القرآن، بحيث لا تكادُ تخلو منه سورة، وبعضُ السور استغرقَ القصصُ آياتِها، كسورةِ القصص وسورة يوسف.

ذكرَ اللّهُ لنا قصصَ بعض الأنبياء، ولم يذكُرْ لنا قَصصهم كلِّهم، وعلى هذا وردَ قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

ومَنْ لم يَذكر اللّهُ قَصصهم من الأنبياء أضعافُ مَن ذكرهم، والأنبياءُ المذكورون في القرآن، لم تُذكر قصصُهم مفصَّلة، بل المذكورُ جزءٌ يسير من قصصهم، ومشاهدُ ولقطاتٌ مختارة منها، تحققُ الهدفَ والعبرة.

وسُميتْ بعضُ السورِ بأسماءِ بعضِ الأنبياء، الذين وردتْ قصتُهم في القرآن، وهي سور: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومحمد، ونوح، عليهم الصلاة والسلام.

وقصصُ بعضِ الأنبياء مطولة، كقصةِ إبراهيم وقصة موسى، وقصة يوسف عليهم الصلاة والسلام.

وقصصُ بعضِ الأنبياء متوسطة في الطول، لا هي قصيرة ولا هي مطولة، كقصةِ يونس، وقصة سليمان، وقصة لوط، عليهم الصلاة والسلام.

وقصصُ بعض الأنبياء قصيرة، كقصةِ إسماعيل، وقصة إسحاق.

وهناك بعضُ الأنبياء لا نعرفُ عنه إلا اسمه، مثل إلياس، واليسع، وذي الكفل، عليهم الصلاة والسلام.

تقسيم القصص القرآني:

والقصص القرآني نوعان:

الأول: قَصص الأنبياء: والأنبياءُ الذين وردت قصصهم في القرآن ـ مع التفاوتِ في المادة المعروضة ـ هم: آدم، نوح، هود، صالح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، لوط، شعيب، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، يونس، إلياس، إدريس، زكريا، يحيى، عيسى، ثم مُحمد، عليهم الصلاة والسلام.

الثاني: قَصصُ غير الأنبياء: وهي: قصةُ ابنَيْ آدم، وقصة هاروت وماروت، وقصة الذي مر على القرية، وقصة الذي انسلخ من آيات الله، وقصة أصحاب السبت، وقصة أصحاب القرية، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين.

وهناك قَصصٌ لا نجزمُ أنَّ أصحابَها أنبياء، لعدمِ ورودِ حديثٍ صحيح معتمد، يُثبتُ لهم النبوة، كقصة لقمان.

وهناك قَصصٌ متصلةٌ مع قصص الأنبياء، فقصة أُمّ موسى متصلةٌ بقصة موسى، ومما يتصل بقصة موسى أيضاً، قصةُ قارون، وقصةُ مؤمن آل فرعون، وقصةُ بقرة بني إسرائيل، وقصةُ تيه بني إسرائيل، وقصةُ رحلة موسى مع الخضر.

وقصةُ ملكة سبأ متصلةٌ مع قصة سليمان، وقصةُ مريم متصلة مع قصة عيسى، وقصة المائدة متصلة مع قصة عيسى، وقصة طالوت وجالوت متصلة مع قصة داود.

هو أحسن القصص:

وقد وردتْ آياتٌ في القرآن، تشيرُ إلى طبيعةِ القصص القرآني، وتتحدثُ عن صفاته، وتخبرُ عن أهدافه.

من هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

تخبرُ الآيةُ أن اللّهَ بذاته العلية سبحانه هو الذي تولّى القصَّ على رسولهِ ﷺ، وهذا كرمٌ منه وفضل، وهذا يدلُّ على أهميةِ القصص في التوجيه والدعوة، وهذا يدعو إلى الثقةِ بكلِّ ما قصه الله علينا وتصديقِه، والجزمِ بأنه وقعَ كما أخبر الله، والاكتفاءِ بما ذكره الله، وعدمِ خلطه بما لم يصح في الإِسرائيليات والأساطير.

ووَصفت الآيةُ قصصَ القرآن بأنه أحسنُ القصص، أي أنه أحسنُ من القصص البشري، مهما كانَ أسلوبُ القاص من البشر، ومهما كانت بلاغتُه وموهبتُه.

وحُسنُ القصص القرآني يتجلّى في: الحُسْنِ الفني، فهو معروضٌ في القرآن بأسلوبِ التصوير الفني، والجمال البياني المؤثر المعجز.

ويتجلّى في الحسن الموضوعي، حيث يَعرضُ لنا أخباراً أو معلوماتٍ عن ذلك التاريخ الماضي وأحداثه.

ويتجلّى في الحُسْنِ الأخلاقي، لأن كلَّ ما فيه حق وصدق، لا كذبَ فيه ولا تصرفَ بزيادةٍ أو نقصان.

ويقدمُ القصصُ القرآني الدروسَ والعبر والعظات والدلالات المختلفة، سواء كانت دلالاتٍ عقيدية أو علمية أو دعوية أو جهادية أو تاريخية أو أدبية أو فنية.

وقد جعلَ القرآنُ ورودَ القصص فيه دليلاً على نبوة مُحمد ﷺ، فهنا في الآية يقولُ اللّهُ لرسوله ﷺ: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾. أي: لم تكن تعرف أنت هذا القصص، لأنك أمي وسط قوم أميين، والله هو الذي أعلمك بها في القرآن، لأن القرآن كلامه، وأنت رسول له سبحانه.

وبعد سردِ قصةِ يوسف عليه السلام، نصت الآياتُ على هذا الأمر مرةً أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

هو القصص الحق:

وقد وُصفَ القصصُ القرآنيُّ بصفةٍ أخرى، وهي الحقُّ والصدق، ووردَ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: ٦٢].

قصصُ القرآن هو القصصُ الحق، والحقُّ هنا معناه الصدق والصحة والصواب، من حيثُ المعنى والمضمون والمحتوى، فكلُّ ما وردَ في القرآن من القصص فهو حق، سواء كان موضوعُه عقيدةً أو دعوة، أو تشريعاً أو توجيهاً.

ولا ننسى أن هذه الآية واردةٌ في سياقِ آياتٍ أخرى، نزلتْ في جدالِ ونقاشِ الرسول ﷺ مع نصارى نجران، بشأن عيسى بن مريم عليه السلام، فمن المعلوم أنَّ النصارى كانوا يؤلِّهون عيسى عليه السلام، ويجعلونَه إلهاً أو ابناً لله، وأكد لهم رسولُ الله ﷺ أن عيسى هو عبدُ الله ورسوله.

وأنزلَ اللّهُ آياتٍ من سورة آل عمران، تتحدثُ عن ولادةِ مريم أولاً، ثم عن حملِها بعيسى بأمر الله، وولادتِها له، وكلامِ عيسى في المهد، وتقريرِه أنه عبد الله، وليس ابناً له.

وختمت الآياتُ قصةَ عيسى عليه السلام بقولها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿٦٢﴾﴾. وهـذا يدلُّ على تكذيبِ النصارى في مزاعمهم حول عيسى، وعلى تقريره أن كلَّ ما خالف وناقض قصص القرآن الحقُّ الصادق، فهو كذبٌ وزور وباطل!.

إنَّ الوصفيْن الوارديْن للقصص القرآني في القرآن وصفان دالاّن كاشفان، ويُشيران إلى طبيعةِ هذا القصص: إنه أحسن القصص، وإنه القصصُ الحق، الذي تولّى اللّهُ قصَّه على رسوله ﷺ، وأخبرنا به في القرآن، كرماً منه وفضلاً.

قـال تـعـالـى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠١].

أهمية القصص القرآني:

ونظراً لأهميةِ القصص القرآني، بحيث تولّى الله قصَّه على رسوله، فقد جاء الأمْرُ صريحاً من الله إلى رسوله ﷺ بأن يقصَّ القصصَ القرآني على الناس.

جاء هذا الأمْرُ الإلهيُّ الصريحُ في التعقيبِ على قصة الذي انسلخ من آيات الله، في سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ

ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام مأموراً بقصِّ القصص على الأتْباع وعلى المخالفين، فإنَّ هذا الأمرَ ينسحبُ على مَن بعدَه مِن العلماءِ والخطباء، والدعاةِ والمصلحين، والمتحدثين والكاتبين. وعلى هؤلاء أن يستخدموا في وسائِلهم وأساليبهم مادةَ «القصص القرآني»، وأن يستمدّوها من القرآنِ والحديث الصحيح، وأنْ لا يَزيدوا على هذين المصدريْن، وأنْ يجعلوا هذا القصصَ القرآنيَّ وسيلةً من وسائل التأثير والتوجيه والتقرير والتعليم، لما فيه من دروسٍ ودلالات، وعِبر وعظات.

وهذا يتطلبُ منهم حُسْنَ تعلمٍ وإدراكٍ واستيعابٍ للقصص القرآني، من خلال دراستِه وتعلمِه، وفهمِه وتدبره، والوقوفَ طويلاً أمامه، والالتفاتَ إلى عبره ودلالاته، واستخراجَ حقائقه ولطائفه، وحسنَ عرض ذلك على الآخرين، وأن لا يكتفوا بمجردِ السرد القصصي، بدون وقفاتٍ أو استنتاجات أو تحليلات وتوجيهات.

القصص القرآني والتفكر:

أَما أهدافُ القصصِ القرآني المنصوص عليها في القرآن، فإننا نذكر ثلاثةً منها:

الهدف الأول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وهذا الهدفُ وردَ في التعقيبِ على قصةِ ذلك التعيسِ الذي انسلخَ من آياتِ الله، وسار مع الباطل، وأتبعه الشيطان، وكانَ من الغاوين،

وصارَ يلهثُ لهاثاً دائماً كالكلب، وكان بإمكانه أنْ يرتفعَ ويرتقي، في عالمِ الفضلِ والعزة والكرامة.

يطالبُ اللّهُ رسولَه ﷺ أنْ يقصَّ قصةَ هذا التعيسِ المنسلخ من آياتِ الله، وأمثالِه وأشباهه، وأنْ يقدمَها للناس، لعلَّهم يتفكرون ويتَّعظون، ويستفيدون ويرتدعون.

إذنْ من أهدافِ القصص القرآني تَفَكُّرُ الناس واتِّعاظُهم، لأن الأصلَ أنْ يفتحوا عقولَهم وقلوبهم لما يسمعونَ من حوادثِ القصص القرآني، وأنْ يَعتبروا بما جرى للهالكين، وأنْ يقتدوا بالصالحين.

والتفكيرُ واجبٌ قرآني، وفريضة إسلامية، لا يجوزُ تعطيلُها، ومن لم يتفكَّر ويتَّعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة. قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ ـ ٤٦].

القصص القرآني والاعتبار:

الهدف الثاني: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

إنه الاعتبارُ بما جرى للسابقين، والاستفادةُ من ذلك، ولا يَعتبرُ بهذا إلاّ أولو الألباب والأبصار.

وقد وردَ الهدفُ صريحاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

هذه هي الآيةُ الأخيرة في سورة يوسف، وهي تعقيبٌ على قصة يوسف في السورة، وتُبينُ الهدفَ من ذكرِ القصة، وهو ليس التسليةَ أو المتعةَ القصصية، أو السردَ التاريخي، وإنما هو العبرةُ والعظة.

ومن لطائفِ العرضِ القرآني لقصةِ يوسف في سورة يوسف، أنه سبقَ العرضَ الحديثُ عن صفةِ وطبيعةِ القصص القرآني، وتقريرُ أنه أحسن القصص، وأنَّ اللَّهَ تولى عرضه وقصه، وأنه دليلٌ على النبوة والوحي.

وختم ذلك العرضَ باستخلاصِ الهدف والنتيجة منه، وتأكيدِ تقرير حقيقة دلالته على النبوة والوحي.

كان افتتاحُ قصة يوسف بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣].

وكان اختتامُ قصة يوسف بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

قالَ الإمامُ الراغب في معنى «عبرة» واشتقاقِها: «أَصْلُ العَبْر: تجاوُزٌ من حالٍ إلى حال. واشْتُقَّ منه عِبَرُ العين للدمع. والعَبْرَةُ كالدمعة.

والاعتبارُ والعِبْرة: بالحالةِ التي يُتَوَصَّلُ بها من معرفةِ المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَد. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: ١٣][1].

ويكونُ الاعتبارُ بقصصِ القرآن لأولي الألباب، وهم أصحابُ العقولِ الواعية، والبصائر المنيرة، الذين يحسنون استخدامَ عقولهم وحواسهم، ويستفيدون مِن كلِّ ما يشاهدون أو يسمعون، أو يقرؤون ويطالعون.

---

(١) المفردات للراغب: ٥٤٣.

هؤلاء المتيقظون عندما يسمعونَ أو يقرؤونَ القصصَ القرآني، وكلامَه عن الأمم السابقة يَعتبرون، حيثُ يقيسون الأحداثَ الماضية على حياتهم وواقعهم، فيستفيدون من ذلك، ويكونُ الجانبُ الإِيجابيُّ في القصص القرآني قدوةً ودرساً لهم، يقتدون فيه بمواقفِ الأنبياء والمرسلين، وأَتْباعهم من الصالحين العاملين. ويكون الجانب السلبيُّ منه المتمثلُ في مواقف الكفار تحذيراً لهم، فيحذرون السيرَ على طريق أولئك، لئلا يصيبهم ما أصابَهم!.

لكنَّ الغافلين اللاهين لا يَعتبرون من القصص القرآني، ويمرونَ على آياتِه وهم معرضون، لأنَّ عقولهم معطلة، وبصائرهم مطموسة.

القصص القرآني وتثبيت الفؤاد:

الهدف الثالث: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾.

إنَّ اللَّهَ أرادَ من إيرادِ القصص القرآني تثبيتَ فؤادِ النبي ﷺ، وقلوبِ أصحابه وأَتْباعه، وقلوبِ أمته في أي زمان ومكان.

وجاءَ هذا في صريح قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

وهذه الآيةُ من أواخرِ آيات سورة هود، جاءتْ تعقيباً على ذكْرِ مجموعةٍ من قصص الأنبياء في السورة. والقِصصُ المذكورةُ في هذه السورة هي: قصةُ نوح، وقصةُ هود، وقصة صالح، وقصة إبراهيم، وقصة لوط، وقصة شعيب، وقصة موسى. عليهم الصلاة والسلام.

قبلَ البدء بسرد هذه القصص جاءَ قولُه تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وبعدَ سرد القصص جاء ذكرُ الهدفِ من ذلك: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾.

قصصُ الأنبياءِ في القرآن تثبيتٌ لقلب النبي مُحمد ﷺ، لأنه ليس وحده على طريقِ الدعوة والرسالة، وإنما سبقَه على هذه الطريق إخوةٌ أنبياءُ كِرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهو يواجِهُ كما واجَهوا، ويَسمعُ كما سمعوا، ويُؤذىٰ كما أُوذوا، فعليهِ أنْ يصبرَ كما صبروا، لينتصرَ كما انتصروا..

وإنَّ قصصَ الأنبياءَ يزيدُ يقينَ رسول الله ﷺ أنه على حق، وأَن أعداءَه الكفار على باطل، وأنه سيظفرُ وينتصر، وأنّ دينَه سيعلو وينتشر، وأنَّ أعداءه سيهزمون ويخسرون.

والقصصُ القرآنيُّ تثبيتٌ لأفئدةِ أصحابِ رسول الله ﷺ على الحق، وزيادةُ يقينهم وطمأنينتهم، وزيادةُ دعوتهم وتبليغهم، وزيادةُ مواجهتِهم وتحدِّيهم وجهادِهم لأعدائهم.

حاجتنا إلى القصص القرآني:

والقَصصُ القرآنيُّ يحققُ هذا الهدفَ الرائعَ لكلِّ مَنْ سارَ على طريق رسولِ الله ﷺ في التربية والدعوة، وفي الإِصلاحِ والجهادِ والمواجهة.

كلُّ الدعاة والمصلحين تثبتُ أفئدتُهم وقلوبهم على الحق، عندما يقفون مع القصصِ القرآني ويتدبرونه ويفهمونه، ويقدمُ لهم هذا القصصُ الزادَ والعدة، ويقدمُ لهم المعرفةَ والفائدة، ويمنحهم الوعيَ والبصيرة، ويشحذُ هِمَمهم، ويرفعُ معنوياتِهم، ويسمو بنفوسِهم، ويصوبُ مسيرتَهم وحركتهم.

ما أحوجَ دعاةِ هذا العصر للوقوفِ طويلاً أمام القصص القرآني، وذلك لتحقيقِ هذا الهدفِ الإِيمانيِّ الجهادي الدعوي الحركي، كَي تثبت أفئدتُهم وقلوبُهم، لأنهم يعيشون معركةً شديدةً قاسية مع قوى الباطل، حيث تداعَتْ عليهم أممُ وجيوشُ وأحزابُ الكفر والباطل، واتفقَ الجميعُ على حربِ ومواجهة هؤلاء الدعاة، وإنَّ التاريخ يعيدُ نفسه،

وعندما يحققُ الدعاةُ هذا الهدف من القصص القرآني، فإنهم يحسِنون التعاملَ مع هذه المرحلة، والنجاح في هذه المواجهة.

أهدافُ القصص القرآني الثلاثة هي:

- شَحْذُ العقولِ والأفكار: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
- تقديمُ العبرِ والعظات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.
- تثبيتُ القلوبِ على الدعوة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.





القَصصُ القرآني
استمداده وموارده

القصصُ القرآنيُ هو القصصُ الحق، وهو أحسنُ القصص، وقد قصَّه اللّهُ على رسولِهِ ﷺ، ليثبتَ به فؤادَه، وأَمَره بقصِّه على الآخرين لعلَّهم يتفكرون، وجعلَه عبرةً لأُولي الألباب.

ولم يذكر اللّهُ في القرآن كلَّ قصص الأنبياء والسابقين، فهناك الكثيرُ من الأنبياء لم نعرفْ عنهم شيئاً، لأن اللّهَ لم يقصَّ علينا قصصَهم: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ﴾.

ومعظمُ الأنبياء الذين ذُكرتْ قِصصهم في القرآن كانوا يقيمون في منطقةِ العراقِ والشام ومصر والجزيرة العربية. ولم يخبرنا القرآنُ شيئاً عن الأنبياء الذين بعثَهم اللّهُ إِلى الأَقوام الآخرين، كالفرس والروم والهنود والصينيين، وغيرهم.

والأَنبياءُ والأقوامُ المذكورةُ قصصُهم في القرآن، لم تُذكر كلُّ مشاهدِ ولقطاتِ قِصصهم بالتفصيل، وإنما ذُكرتْ منها المشاهدُ واللقطاتُ التي تحقّقُ العبرةَ والعظة.

طريقة القرآن في عرض قصصه:

للقرآن طريقةٌ مطردةٌ في عرض قصص السابقين، فلم يكن هدفُه الاستعراضَ الشاملَ الدقيق لأحداث القصة، ولا متابعةَ كلِّ وقائِعها بالتفصيل الدقيق، ولا السردَ التاريخيَّ المتدرج المنظم.

إنَّ هذه هي مهمةُ المؤرخ، المعنيّ بالمتابعةِ المفصَّلة لكل مشهدِ

أو لقطة أو حدث، والذي يهمهُ تسجيلُ كلِّ جزئية أو خبرٍ أو معلومة، ومَن يريدُ هذه الأشياءَ لن يجدَها في القرآن الكريم، وعليه بمراجعةِ كتبِ التاريخ ليأخذها منها.

علماً بأنَّ التاريخَ الدقيقَ، المفصَّل لكلِّ التفاصيل والجزئيات، لا ينطبقُ على الأقوام السابقين، لأنهم وُجدوا وعاشوا وماتوا قبل المؤرخين المعنيّين بالتفاصيل والجزئيات، والتاريخُ مولودٌ حديثُ العهد، وفاتَه كثيرٌ من التفصيلاتِ المتعلقة بالسابقين، ويستحيلُ على المؤرخين معرفتُها والجزمُ بها!!.

الذي يَعني القرآنَ أثناءَ القَصِّ لقصصِه هو المشاهدُ واللقطاتُ التي تحوي الدروسَ والدلالات، وتقدمُ العبرَ والعظات، فتجدُه يوردُها ويسجلُها ويثبتها، لتقدمَ دروسَها.

إننا لن نجدَ في القرآن سَرْداً تاريخياً مفصَّلاً للقصة، ولا عرضاً شاملاً لكلِّ أحداثها ومواقفِ أشخاصها، والباحثون عن هذه التفاصيلِ لن يجدوها في القرآن.

القرآنُ الكريم لم يَعرضْ إلاّ أقلَّ القليل من أحداثِ قَصصه ومشاهدها، وهي التي تحققُ ما يريدُ من عرضها، وما سكَتَ عنه القرآنُ منها أضعافُ أضعافُ ما ذكره!.

مبهمات في القصص القرآني:

كم في العرضِ القرآني لقصصه من الحلقاتِ المفقودة، والفجواتِ الموجودة، وذلكَ عن قصدٍ لا عن غفلةٍ أو جهل!!.

النبيُّ من الأنبياءِ عاش مع قومه عشرات السنين، وكانت حياتُه معهم حافلةً بالأحداث والوقائع، ومع هذا لم يذكر القرآنُ إلا النزرَ اليسيرَ منها، وقصةُ ذلك النبيِّ في القرآن لا تتجاوزُ بضعَ صفحات، وأحياناً قد لا تزيدُ على صفحة!!.

إنَّ ما عرضَه القرآنُ من قصته هو الذي فيه العبرةُ والعظة، ويكفينا ما في القرآن عنه، ويجبُ أنْ نستغنيَ به، وأنّ نتوقفَ عنده، وأن نسكتَ عما سكتَ عنه!.

ثم إن الجزءَ المذكورَ من قِصَّةِ النبي في القرآن، كان يُذكَرُ أحياناً بدون تحديدٍ أو تعيينٍ لبعضِ التفاصيل غيرِ الضرورية، ونرى فيه إبهاماً مقصوداً لأسماءِ بعضِ الأشخاص والأماكن، وتفاصيلِ بعضِ الخفايا والمسائل.

في القصصِ القرآني مبهماتٌ مقصودة، تُسمى «مبهمات القرآن» وتتعلقُ بأسماءِ أشخاص أو بلدان، أَو تحديدِ زمانٍ أو مكان. ويجبُ علينا أنْ نُبقِيها على إبهامها، ونتوقفَ عند ما عرضَه القرآنُ منها، ولا نحاولُ تبيينَ أو تحديدَ هذه المبهمات، من مصادر غير يقينية، كالأساطيرِ والإسرائيليات!!.

مصدران للقصص القرآني:

هناكَ مصدرانِ لاستمدادِ القصص القرآني، يمكنُ للناظرِ أو الباحث أو الدارس أنْ يعودَ إليهما، ويستمدَّ منهما أحداثَ القصص.

المصدرُ الأول: ما كان موثوقَ المعلومات، صادقَ الأخبار، يرجعُ الباحثُ إليه ويستمدُّ منه، وهو مطمئنٌ لما يأخذُ من ما فيه.

المصدر الثاني: ما لم يكن كذلك، ولا تتوفرُ في أَخباره ومعلوماتِه تلك الصفات، ومن ثم لا يمكنُ للباحثِ الموضوعيِّ أنْ يجعلَه من مصادره وموارده في القصص القرآني، ولا يستمدُّ منه تفصيلاتِ أحداثِ القصص اليقينية.

فما هما هذان المصدران؟

المصدرُ الأول اليقيني: هو الموجودُ في الكتاب الكريم، وفي ما صحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ.

إنَّ القرآنَ الكريم كلامُ الله، وكلُّ ما وردَ في القرآن عن قصص السابقين فهو حقٌ وصدق، وصوابٌ وصحيح، يوقنُ الباحثُ المسلمُ بذلك، ويطمئنُّ إليه، فيستمدُّ منه ويأخذ به.

ولا يجوزُ الشكُّ في أيِّ جزئيةٍ أو معلومة أو لقطة تتعلق بقصص السابقين في القرآنَ، لأنها كلامُ الله، واللَّهُ عالم بكل شيء، واللَّهُ كان مع السابقين يعلمُ ماذا يفعلون، وما ذكره في كتابه عنهم فهو صحيحٌ وحق وصواب. ومَن شكَّ فيما وردَ في القرآن من ذلك فكأنما كذَّبَ اللَّهَ سبحانه، ومَن فعلَ ذلك فقد كفرَ وخرجَ من دين الله!.

وجوب اعتماد الأحاديث الصحيحة:

وبالنسبةِ لرسولِ الله مُحمد ﷺ فإن اللَّهَ هو الذي أوحى إليه بالقرآن، باللفظِ والمعنى، لأن القرآنَ كلامُ الله. وهو الذي أوحى له بالمعلوماتِ والأخبار عن بعضِ وقائعِ وأحداث قصصِ السابقين، الواردةِ في كلامه وحديثه عليه الصلاة والسلام، فالمضمونُ من الله تعالى، والتعبيرُ لرسول الله ﷺ.

وهذا يعني أنْ نأخذَ الأخبارَ والمعلوماتِ حول قصص السابقين، الواردةَ في الأحاديث الصحيحةِ لرسول الله ﷺ، نأخذَها باليقين والثقة والطمأنينة، وأنْ لا نشكَّ فيها.

واجبنا تجاهَ أحاديثِ رسول الله ﷺ التي تَعرضُ معلوماتٍ عن قصص السابقين أنْ نبحثَ في صحةِ الحديث النبوي وثبوته، وذلك في كُتُبِ الرجال والتخريج. فإذا كان الحديثُ ضَعِيفاً، ولم تَثبت صحتُه عند علماء الحديث، وجب علينا ردُّه، وعدمُ أخذِ المعلومات المتعلقة بقصص السابقين منه.

وإذا صحَّ الحديثُ عند علماء الحديث وجب علينا قبولُه وأَخذه، واعتمادُه مصدراً لقصصِ السابقين، والاستفادةُ مما فيه من معلومات.

إن المصدرَ اليقينيَّ الموثوق المضمون الذي نرجعُ إليه، ونجعله مورداً لقصص السابقين، هو آياتُ القرآن الصريحة، والأحاديثُ النبوية الصحيحة.

وأيُّ مؤرخٍ أو عالم أو متكلم أو كاتب من المسلمين، يوردُ معلومات وأخباراً عن قصص السابقين فلا بدَّ أنْ نسأله عن مرجعِه الذي استمدَّ منه، ومصدرِه الذي أخذَ منه، فإنْ أظهرَ لنا دليلَه من القرآن الصريح أو الحديث الصحيح، قَبِلْنا كلامَه.

وإن اعتمدَ على غير ذلك، وأخذَ من أخبار التاريخ وأقوالِ أهل الكتاب، رددْنا كلامَه، ولم نأخذ منه شيئاً.

الإسرائيليات مصدر غير صحيح:

المصدرُ الثاني الذي أَشرنا له من قبل: هو الرواياتُ والأقوالُ والأخبار المتعلقةُ بالسابقين، والتي لم تردْ في القرآن والحديثِ الصحيح، وإنما أُخذت من كتب السابقين وأقوالِ أهل الكتاب، وهي المسماة عند العلماء بالإِسرائيليات.

إنَّ المذكورَ في الإِسرائيليات عن قصصِ القرآن، هو معلوماتٌ غيرُ موثوقة، ولا يقينية، لأنها مستمدَّةٌ من بني إسرائيل، وبنو إسرائيل غيرُ مؤتمنين على توراتهم ولا على دينهم، فكيف يؤتمنون على أخبارِ ورواياتِ التاريخ؟ إن الذي يتجرأُ على تحريفِ الكتاب السماوي التوراة، يَهونُ عليه تحريفُ أخبار التاريخ!!.

وبما أنَّ هذه هي صفةُ الأخبار المذكورة في الإِسرائيليات، فلا يجوزُ أنْ نجعلَها مصدراً من مصادر القصص القرآني، ولا مورداً من موارده، ولا أنْ نستمدَّ منها معلوماتِ أو تفاصيلَ أحداث ذلك القصص، ولا يجوزُ أنْ نفسرَ كلامَ الله الصادقَ الصحيحَ في القرآن، المتعلقَ بذلك القصص، بهذه المعلوماتِ والروايات الإِسرائيلية المكذوبة المحرفة!!.

توجيهات قرآنية حول فهم قصصه:

إننا نجدُ في القرآن الكريم توجيهات معبرة بشأن القصص القرآني وفهمِ وقائعه وأَحداثه، تطالبُ بالاعتماد على الموارد اليقينية الموثوقة، المُتمثلةِ في القرآن الكريم، والحديثِ الصحيح، وتنهى عن العودةِ إلى بني إسرائيل وغيرِهم من الكافرين، غيرِ المؤتمنين على أحداث التاريخ.

من هذه التوجيهات القرآنية:

١ ـ أحداثُ القصص غيبٌ لا يعلمه إلا الله:

أشارَ القرآنُ إلى أنَّ أحداثَ القصص القرآني غيب، من غيب الماضي، وهذا الغيبُ أعلمَ اللَّهُ به رسولَه مُحمداً ﷺ، ولولا ذلك لما علمه رسولُ الله ﷺ.

قال تعالى في التعقيب على قصة مريم في سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال تعالى في التعقيب على قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالى في التعقيب على قصة نوح عليه السلام: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وإذا كانتْ أحداثُ ووقائع القصص القرآني من أنباءِ الغيب، فلا يجوزُ أنْ نأخذَ هذه الأنباءَ الغيبية من الإسرائيليات وما شابهها من المصادر والموارد غير الموثوقة، لأنها لا تُستمدُّ إلا من المصادرِ الصحيحة.

٢ ـ ما كان المتوسعون في قصصهم عندهم:

عندما نقفُ متدبرين لجملةٍ وردتْ في الآيتين السابقتين عن أنباء الغيب في القصصِ القرآني، وهي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، فإننا نأخذُ من هذه الجملة توجيهاً قرآنياً مقصوداً.

إنَّ اللّٰهَ يقولُ لرسوله ﷺ عن تآمُرِ إخوة يوسف ضد أخيهم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. [يوسف: ١٠٢].

ويقولُ له عن اختلاف العابدين في كفالةِ الطفلةِ الصغيرة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. [آل عمران: ٤٤].

صحيحٌ أن هذه الجملةَ الواردة في الآيتين تقررُ نبوةَ مُحمد ﷺ، وتثبتُ مصدرَ القرآن الرباني، حيث تعتبرُ ذكرَ هذه التفاصيل الدقيقةِ الجزئية في قصة يوسف وقصة مريم دليلاً على النبوة، وأن القرآنَ كلامُ الله، ولو لم يكن القرآنُ كلامَ الله، ولو لم يكن مُحمدٌ رسولَ الله ﷺ فمن أدراه بهذه التفاصيل؟ ومن أين أخذها؟.

صحيحٌ أنَّ هذا مرادٌ من الجملة، لكن نرى أنَّ الجملةَ تقدم لنا توجيهاً تاريخياً، وهو أننا لم نكنْ مع السابقين وهم يعيشون أحداثَ قصصهم، فمن أينَ نعرفُ هذه التفاصيل، واليهودُ الكاتبون المحرفون لم يكونوا لدى من سبقهم من الأقوام، فكيف يَفترضون أحداثَهم ووقائعَهم؟.

نقولُ لكلِّ مَن أوردَ تفاصيلَ لأحداث القصص القرآني، غيرَ مذكورة في الآياتِ والأحاديث الصحيحة: مَن أدراك بهذا؟ وكيفَ عَرَفْتَها؟ وأنتَ لم تكن لديهم وهم يعيشونها؟ فمن أينَ أخذْتَها؟ إن أخذتَها من الإِسرائيليات فمن أين أخذَها كتبةُ الإِسرائيليات؟ هل كانوا لديهم وهم يعيشونها؟

إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ دعوةٌ لكلِّ باحثٍ ودارسٍ للقصص القرآني، أنْ يقفَ عند المصادرِ اليقينية الصحيحة في ذلك، وهي الآياتُ والأحاديث الصحيحة!.

٣ ـ لا يعلم كل تفاصيلهم إلا الله:

أَخبرَنا اللَّهُ عزَّ وجلَّ في القرآن، أنَّ البشرَ يعلمونَ بعض أحداثِ قصص السابقين، لكنهم لا يعلمونَها كلَّها، بكامل تفاصيلها وجزئياتها، إن العلمَ الكاملَ الشامل لكلِّ التفاصيل والفقرات والأحداث خاصٌّ بالله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٩].

تشيرُ هذه الآيةُ إلى أنَّ بني إسرائيل جاءهم في التوراة نبأ بعض الأقوام الذين من قبلهم، كقومِ نوحٍ، وعاد، وثمود، وعَرفوا بعضَ أنباء هؤلاء الكفار.

لكن هناك أقوامٌ من بعد ثمود، لم تأتِهم أنباؤهم ولا أخبارهم، فلم يعلموا بها، لأنَّ اللَّهَ لم يُخبرهم بها، إن الله وحده هو الذي يعلم ما جرى لهؤلاء الأقوام.

لقد حصرت الآيةُ علمَ ما جرى لهؤلاء بالله، ونفتْ علمَ ذلك عن أحدٍ من البشر: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

إن هذه الجملةَ تدلُّ على أن التاريخَ البشري لم يسجل كلَّ أحداثِ السابقين، وإنما فاتَه تسجيلُ كثيرٍ من تلك الأحداث والتفاصيل، وهناك ما يُسمى بالحلقاتِ المفقودة في التاريخ، هذه الحلقاتُ اختصَّ اللَّهُ بعلمها، ونفى عن أحدٍ من البشر إمكانيةَ علمه بها.

وهذا معناه أنَّ كلَّ من ادّعى علْمَه بها فهو مُتقَوِّلٌ مُدَّعٍ كاذب!!.

وقد وعى الصحابةُ رضوانُ الله عليهم هذه الحقيقة القرآنية، فتوقفوا في أحداثِ السابقين عند القرآن والحديث الصحيح، ولم يحاولوا العودةَ إلى المصادر غير اليقينية كالإِسرائيليات وغيرها.

كما أنهم لم يأخذوا ممن يدّعي علمه بذلك.

فعبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، كان إذا نُقلَ له كلامُ السابقين من النّسّابين يقول: كذبَ النّسّابون.

وكان عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه يحتجُّ على تكذيبِ النّسّابين بهذه الآية، ويقول: كذب النّسّابون.

وجاءَ رجلٌ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: أنا أَنْسَبُ الناس!

فقال له علي رضي الله عنه: أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨].

فقال له الرجل: أنا أَنسِبُ ذلك الكثير!

فقال له علي: أرأيت قول الله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾؟

فسكتَ الرجل، ولم يَحِرْ جواباً[1].

٤ ـ النهي عن سؤال أهل الكتاب:

نهى القرآنُ نهياً صريحاً عن سؤالِ أهل الكتاب، أو استفتاءِ أحدٍ منهم، فيما يتعلقُ بأخبارِ وتفصيلاتِ قصص السابقين.

(١) كتابنا: مع قصص السابقين في القرآن ١: ٣٦ ـ ٣٨.

وقد وردَ هذا النهي في قصةِ أصحاب الكهف، أثناءَ ذكرِ الأقوال الخلافية في عددِ أصحابِ الكهف.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢٢].

الشاهدُ في الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، والضميرُ الذي في ﴿فِيهِمْ﴾ يعودُ على أصحابِ الكهف. والضميرُ الذي في ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعود على أهل الكتاب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾:

والخطاب في ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ موجَّهٌ للرسول ﷺ في المقام الأول، لكنه يشملُ كلَّ مسلم من بعده، وبخاصة إذا كان من العلماء أو الباحثين أو المؤرخين.

والاستفتاءُ هو السؤالُ والاستعلام.

ومعنى النهي: لا تسألْ أحداً من أهلِ الكتاب يهوداً أو نصارى، أو غيرهم ممن لا يملكون علماً يقينياً، لا تسأله عن وقائعِ وأحداثِ وعدد أصحاب الكهف، لأنهم لا علم لهم بذلك.

وهذا النهيُ ليس خاصاً بقصةِ أصحاب الكهف، وإنما هو شاملٌ لكلِّ تفصيلات القصص القرآني، بحيث إنه ينهانا عن العودةِ إلى مصادرِ أهل الكتاب من الإسرائيليات وغيرها، لأخْذِ بعضِ المعلومات عن أحداث السابقين.

كلام صحابة وتابعين حول ذلك:

وقد فهمَ الصحابةُ والتابعون والعلماءُ المنصفون هذا النهي، فلم يعودوا إلى أهل الكتاب بشأنِ قصص القرآن، ولم يستفيدوا منهم، ولم يسألوهم.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾: يعني: حَسْبُك ما قصصْتُ عليك، فلا تمار فيهم.

وقال قتادة: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ معناه: حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم.

وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ هم أهلُ الكتاب.

وقال ابنُ زيد: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: لا تستفْتِ في عددِ الفتية من أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب، لأنهم لا يعلمون عدّتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

وقال مجاهد: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: من يهود. أي: لا تسألْ يهودَ عن أمرِ أصحاب الكهف، وحسبُكَ ما أخبرتُكَ من أمرهم»[(١)].

٥ ـ ترك القول فيهم بدون علم:

آيةٌ من كتابِ الله تدلُّنا على المنهجِ العلمي في البحث والمعرفة، وتصلحُ توجيهاً لنا عندَ البحث عن وقائعِ وأحداث وتفصيلات القصص القرآني.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: لا تَتْبَعْ. يقال: قفا، يَقْفو: تَبِع، يتبع.

تنهى الآيةُ المسلمَ عن اتباعِ ما ليس له به علم يقيني، من الأخبار والمعلومات، وتحذرهُ من تصديقِ الإشاعات، أو قبول الأكاذيب من الأقوال والروايات.

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن»: ١/٣٨ ـ ٤٠.

وتخبرهُ أن الله منحه منافذ الإدراك ووسائلَ المعرفة، من السمع والبصر والفؤاد، ليأخذَ ما صح ويدعَ ما لم يصح، وليستخدمَ هذه الوسائلَ والحواس في التحري والتمحيص.

فإذا أغفلَ ذلك، وعطلَ وظيفةَ هذه الوسائل والمنافذ، فإن اللَّهَ يسألهُ عنها، ويحاسبه لتصديقِ الأكاذيب، واتباع الأساطير.

وتشيرُ هذه الآيةُ إلى ما يتعلق بموضوعِنا حول «منهج التعامل مع القصص القرآني وفهمه». فنستفيدُ منها عدمَ اتباع ما ليس لنا به علمٌ يقيني جازم، من أحداثِ ووقائع ذلك القصص، فلا نذهبُ إلى مصادرَ ومواردَ غير علمية ولا موثوقة، نستمدُّ منها ذلك القصص، فإنْ فعلْنا ذلك نكون قد قَفَوْنا واتبعْنا ما ليس لنا به علم، ووقعْنا في ما تنهانا عنه الآية.

٦ ـ التبين من أخبار الفاسقين:

وهذه آيةٌ أخرى من كتاب الله، توجهُنا إلى المنهجِ العلمي في البحث والمعرفة وتشيرُ إلى الطريقةِ الموثوقة في معرفةِ أحداثِ القصص القرآني.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦].

توجهُ الآيةُ المسلمين إلى وجوبِ التوقفِ أمامَ الأنباءِ التي يأتيهم بها الفاسقون، وتدعوهم إلى حُسْنِ التثبت من صحتها، وإلى التبينِ والتمحيص لها، وتحذِّرهم من قبولِها وتصديقها بدون تبيُّنٍ أو توقّف أو تثبّت، لأنهم قد يَبْنون عليها أفعالاً وتصرفاتٍ خاطئة، ونتائجَ خطيرة، وقد يصيبونَ آخرين بجهالة، ثم يندمون على تسرُّعهم بعد ذلك.

ووجوب التبيّن والتثبّت من أخبارِ الفاسقين، لأنهم مجروحون،

وليسوا عدولاً ولا موثوقين، أي: هم متهمون في ما يوردونَه من أَنباءٍ وأخبار، فلا تُعتمدُ أخبارهم إلا بعدَ التثبّت والتبيّن.

وتقدمُ هذه الآيةُ توجيهاً لنا في موضوعنا «منهج التعامل مع القصص القرآني». إنها تنهانا عن قَبول رواياتِ وأخبارِ وأقوال السابقين من أهل الكتاب، حولَ القصص القرآني، بدون تمحيصٍ أو تثبّت، وتطالبنا بأنْ نكونَ يقظين منتبهين إِزاءَ ما يوردونَه من ذلك.

إذا كانت الآيةُ تطالبنا بالتثبّتِ من أنباءِ وأخبارِ الفاسقين من المسلمين، لأنهم متهمون وغيرُ مؤتمنين، فكيفَ بالأنباء والأخبار التي يقدمُها لنا أهلُ الكتاب، وبخاصة اليهود، وهم كافرون مجروحون، وليسوا علميين ولا موضوعيين؟ يجبُ أنْ نكونَ أمامَ أنبائهم أكثرَ حذراً وتثبُّتاً وتمحيصاً.

هذه هي التوجيهاتُ القرآنية الستة، التي ترشُدنا إلى منهجيةِ التعامل مع القصص القرآني، والتي تَقْصر مواردَنا ومصادرَنا التي نستمدُّ منها وقائع ذلك القصص على آياتِ القرآن، وعلى ما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ، ولا تُجيزُ لنا اعتمادَ أيّ مصدرٍ آخر غيرهما!.

الموقف العلمي في الإسرائيليات

معنى الإسرائيليات:

«الإسرائيليات» جمعُ «إسرائيلية» وهي نسبةٌ إلى إسرائيل، والمرادُ به بنو إِسرائيل.

و «الإِسرائيليات» مصطلحٌ إسلامي، أطلقه العلماءُ المسلمون من المؤرخين والمفسرين والمحدثين، على تلك المعلوماتِ والروايات والأخبار والأقوالِ التي أُخذتْ عن السابقين، من غيرِ المصادر الإِسلامية الموثوقة، وبالذات تلك المأخوذة عن أهل الكتاب، وبشكلٍ أخص عن بني إسرائيل أو اليهود!.

وليس كلُّ تلك الأقوالِ والروايات مأخوذةً عن بني إسرائيل، فقد يكون مصدرُها نصرانياً أو رومانياً أو فارسياً، المهم أنها غيرُ موثوقة ولا معتمدة.

وقد أُطلقَ على كلِّ ذلك «الركام الكبير» من الأخبار والأقوال «إسرائيليات».

وسُميتْ بهذا الاسم من بابِ تغليبِ المصادر الإِسرائيلية على غيرِها من المصادر، ولأنَّ الرواياتِ الإِسرائيلية أكثرُ من غيرها من الروايات، ولأنَّ اليهودَ هم أحرصُ أصنافِ الكفار على حرب المسلمين وإغوائهم، وعلى صدهم عن دينهم، وعلى تحريفِ معلوماتهم وتصوراتهم!!.

وكلُّ هذه الإِسرائيليات غيرِ الثابتة تتحدثُ عن أخبارٍ وأحداثٍ ووقائع، جرتْ للسابقين من الأقوام والأمم، وحدثتْ مع السابقين من الأنبياء والمرسلين، وتُضيفُ هذه الإِسرائيلياتُ إضافاتٍ تفصيلية لأحداثِ القصص القرآني، وتفصِّلُ في مشاهدَ سكتَ عنها القرآنُ والحديثُ الصحيح، وتبينُ بعضَ المبهمات المتعلقة بأسماءِ أو أماكنِ القصص القرآني.

وهذه الإِسرائيليات موجودةٌ في العهدِ القديم الذي يؤمنُ به اليهود، وفي العهدِ الجديد الذي يؤمنُ به النصارى، وفي بعضِ الكتبِ التي يتداولُها اليهود والنصارى فيما بينهم، والتي نقلَها عنهم المؤرخون والإِخباريون فيما بعد.

الإسرائيليات بين الأخذ والترك:

وقد اطلعَ بعضُ أهل العلم من المسلمين، بعد عهدِ الصحابة، على تلك «الإِسرائيليات»، وأُعجبوا بما تقدمُه من تفصيلاتٍ ومعلومات، عن وقائع تاريخِ الماضين وقصص السابقين، فسجَّلوها في تفاسيرهم

وتواريخهم ومؤلفاتهم وكتاباتهم، ووضعوها بجانبِ الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، واعتبروا ذلك كلَّه تأريخاً للماضي، وبياناً لقصص الأنبياء.

ودوَّنوا كتبَهم على هذا الأساس، وخلطوا الحقَّ بالباطل، ومزجوا الثابتَ بغيرِ الثابت، وأقبلَ المسلمون على كتابات هؤلاء المؤرخين والمفسرين، وأخذوا كلَّ ما فيها من رواياتٍ وأخبارٍ ومعلومات، تتعلقُ بقصصِ الأنبياء أو غيرهم، ولم يميزوا صحيحَها من سقيمها، وحقَّها من باطلها!.

إننا مع المحقّقين من العلماءِ الذين توقَّفوا في «الإِسرائيليات» ولم يأخذوا بها، واكتفوا في إثباتِ أحداث ووقائع القصص القرآني بما ورد في القرآن الصريح والحديث النبوي الصحيح، ولم يذهبوا إلى أيِّ مصدرٍ آخر!.

نقفُ الآن وقفةً نتحدثُ فيها عن أقسام الإِسرائيليات وعن الموقفِ الصحيح المقبول منها، وعن أدلةِ منعِ روايتها والأخذ بها.

وقد سبقَ أنْ تحدثْنا عن هذا الموضوع في القسمِ الأول من كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن»، أثناءَ حديثنا عن منهج التعامل مع قصص السابقين، ونرى أنَّ كلامَنا هناك يصلحُ أنْ يكونَ في هذا التمهيد المنهجي للتعامل مع وقائع وأحداث القصص القرآني، ولهذا سنلخصُ هنا كلامَنا هناك، مع شيء من الإِضافة والتنقيح[1].

وقد اعتمدنا في كلامنا المشار إلى موضعه أعلاه، على رسالة الدكتور محمد حسين الذهبي «الإِسرائيليات في التفسير والحديث» في تلخيص كلامه عن أقسام الإِسرائيليات.

---

(١) انظر الموضوع في «مع قصص السابقين في القرآن»: ١/٤٦ ـ ٦١.

أقسام الإسرائيليات:

قال الدكتور الذهبي: للإسرائيليات ثلاثةُ تقسيمات بثلاثةِ اعتبارات:

١ ـ أقسامُها باعتبارِ الصحة وعدمها.

٢ ـ أقسامُها باعتبار موافقة ديننا، أو مخالفته.

٣ ـ أقسامُها باعتبار موضوعها.

١ ـ من حيث الصحة وعدمها:

أولاً: الإسرائيليات من حيث الصحة وعدمها قسمان:

القسم الأول: إسرائيلياتٌ صحيحة: وذلك مثلُ ما جاءَ منها مصدِّقاً لآيات القرآن، عن صفاتِ رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وهذه الصفاتُ مذكورةٌ في التوراة، في نصوصها التي لم تُحرَّفْ.

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدَ الله بن عمرو، فقلت: أَخبرْني عن صفةِ رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل. والله إنه لموصوفٌ في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إِنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميّين، أنت عبدي ورسولي، اسمُك المتوكِّل، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولن يقبضَه اللّهُ حتى يقيمَ به الملةَ العوجاء، بأن يقول: لا إله إلا الله، ويفتحَ به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً.

قال عطاء: ثم لقيتُ كعبَ الأحبار، فسألْتُه عن ذلك، فما اختلَفَ حرفاً»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٣٨.

وهذا القسمُ لا يدخلُ ضمن الإِسرائيليات في الحقيقة، لأنَّ دينَنَا جاءَ موافقاً له، لقد أخذَ طابعَ الإِسلام، وأصبحَ عِلْماً إسلامياً صحيحاً، ولم يبقَ من الإِسرائيليات.

القسم الثاني: إسرائيلياتٌ موضوعة: مثلُ خرافةِ جبلِ «قاف»، الذي تزعمُ الإِسرائيلياتُ أنه جبلٌ خرافي كبيرٌ يحيطُ بالأرض، وقد راجتْ هذه الخرافة على بعض المؤرخين المسلمين، فأوردوها في كتاباتهم معتمدين لها!.

٢ ـ من حيث موافقة الإسلام أو مخالفته:

ثانياً: الإِسرائيلياتُ من حيث موافقة ديننا أو مخالفته: تنقسم إلى ثلاثةِ أقسام:

القسم الأول: إسرائيلياتٌ موافقة لديننا. مثالُه ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «تكونُ الأرض يومَ القيامة خُبْزَةً واحدة، يتكفَّؤُها الجبار بيده، كما يَكْفَأُ أحدُكم خبزتَه في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة.

فأتى رجلٌ من اليهود، فقال: باركَ اللَّهُ عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزُلِ أهلِ الجنة يوم القيامة؟

قال: بلى.

قال: تكونُ الأرضُ خُبَزَةً واحدة.. كما قال النبيُّ ﷺ فنظرَ النبيُّ ﷺ إلينا، ثم ضحكَ حتى بدتْ نواجذُه..»[1].

وهذا القسمُ لم يبقَ من الإِسرائيليات في الحقيقة، وإنْ كان وارداً فيها، لكنه يأخذُ طابعَ العلم الإِسلامي اليقيني الصحيح، لوروده في

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٦٥٢٠.

المصادر الإِسلاميةِ الموثوقة، إنه ينتقلُ من الإِسرائيليات إلى «الإِسلاميات»، ونعتمدُه اعتماداً جازماً لهذا الاعتبار.

القسمِ الثاني: إسرائيلياتٌ مخالفة لديننا: وهذه نرفضُها رفضاً باتاً، وقد أَجمعَ المسلمون على رفضها.

ومثالُ هذا القسمِ ما نسبَه اليهودُ إلى هارونَ عليه السلام من أنه هو الذي صنعَ العجلَ من الذهب لبني إسرائيل، وهو الذي دَعاهم إلى عبادتِه.

وهذا كذبٌ مفضوح، يكذبُه صريحُ القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١].

القسم الثالث: إسرائيلياتٌ مسكوتٌ عنها في ديننا، ليس فيه ما يوافقُها، وليس فيه ما يخالفها، وهي الإِسرائيلياتُ التي تتحدثُ عن تفصيلاتِ أحداثِ السابقين المسكوت عنها في القرآن، أو تبينُ بعضَ المبهمات في القرآن.

مثل ما رُويَ في الإِسرائيليات من تفصيلاتِ قصةِ بقرة بني إسرائيل، التي أشارتْ لها آيات سورة البقرة. حيث ذكرت الإِسرائيلياتُ تفاصيلَ حادث القتل، ومطالبةَ القاتل لآخرين بدم عمه، وتفاصيل شراء البقرة، وممن اشتُريت، وثمنها بوزنها ذهباً، وتفاصيلَ ذبحها، والجزءَ الذي ضُربَ به القتيلُ منها.

وكلُّ هذه التفاصيلِ الإِسرائيلية، لم تَرِدْ في القرآن الكريم، ولا في أحاديثِ رسول الله ﷺ.

وهذا القسمُ الثالث كثيرٌ من حيثُ الكمّ والحجم والمقدار، يمكنُ

أنْ يملأَ صفحاتٍ عديدة، وأنْ يُكتبَ فيه كتاب.

وهذا الذي اختلفَ العلماءُ المسلمون فيه، فجمهورُهم على جوازِ ذكْرِه وروايته، لأن القرآنَ والحديثَ سكَتا عنه، ولا ضررَ في ذكره واعتمادِه وقبوله وأخذه والقولِ به.

ومنهم مَن أجازَ روايتَه مع التوقف فيه، وعدمِ تصديقه أو تكذيبه. ومنهم مَن منعَ روايته، وما أجازَ تفسيرَ كلامِ الله به، وإذا كان لا بدَّ مِن ذكْرِه، فمعَ النصِّ على أنه من الإسرائيليات التي لا تُعتمدُ ولا يُقالُ بها.

ونحنُ مع القول الثالث، الذي سبقَ أنْ تحدثْنا عنه عند كلامنا على مواردِ ومصادر القصص القرآني، وسوف نتحدثُ عنه بعد قليل إن شاء الله، لنوردَ أدلةً قرآنية وحديثية على منعِ روايةِ هذا القسم أيضاً!!.

٣ ـ إسرائيليات من حيث الموضوع:

ثالثاً: الإسرائيلياتُ من حيثُ موضوعها: تنقسمُ إلى ثلاثة أقسام أيضاً.

القسم الأول: إسرائيلياتٌ تتعلقُ بالعقائد الدينية.

مثالُه ما رواه البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاءَ حبرٌ من أحبارِ اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّا نجدُ أن اللَّهَ يجعلُ السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجرَ على إصبع، والماءَ والثرى على إصبع، وسائرَ الخلائق على إصبع، فيقول: أنا المَلِك.

فضحكَ رسولُ الله ﷺ حتى بدتْ نواجذُه، تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر: ٦٧][1].

فهذا مثالٌ للإسرائيلياتِ الصحيحةِ لأنها موافقةٌ لديننا، وموضوعُها هو العقائد، لكن لا نُبقي هذه المسألةَ في الإسرائيليات، وإنما نعتبرُها من الإسلاميات، لورودِها في القرآنِ والحديث الصحيح.

القسم الثاني: إسرائيلياتٌ تتعلقُ بالأحكام التشريعية.

مثالُه ما رواه البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهودَ جاؤوا إلى النبي ﷺ برجلٍ منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنا منكم؟.

قالوا: نُحَمِّمُهُما [أي: نُسَوِّدُ وجهيهما بالحَمَمَةِ وهي الفحمة] ونضربهما.

قال: أَلا تجدون في التوراةِ الرجم؟

قالوا: لا نجدُ فيها شيئاً.

قال عبدُ الله بن سلام: كَذَبْتُم فأْتُوا بالتوراة فاتْلوها إن كنتم صادقين.

فوضعَ مِدْراسُها ـ الذي يدرسُها منهم ـ كفَّهُ على آيةِ الرجم، فطفق يقرأُ ما دون يده، وما وراءَها، ولا يقرأُ آيةَ الرجم!.

فنزعَ يده عن آية الرجم. فقال: ما هذه؟

فلما رأَوا ذلك قالوا: هي آيةُ الرجم!

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨١١.

فأَمَرَ بهما فرُجِما، قريباً من موضعِ الجنائز عند المسجد.

قال ابن عمرو: فرأيتُ صاحبَها يجْنأ عليها [ينحني عليها] يَقيها الحجارة»[1].

في هذا الحديثِ دلالاتٌ عديدة في مجالات مختلفة، لَسْنا في موقفِ استخراجها، ونَدعو إلى حُسْنِ تدبرِ الحديث، والالتفاتِ إليها. ومما يتصلُ بموضوعنا فإن الحديثَ يشيرُ إلى إسرائيلية صحيحة، جاءتْ موافقةَ لدينِنا، وتتعلقُ بالأحكامِ الشرعية.

ونشيرُ إلى أنّ هذه لم تبقَ ضمنَ الإِسرائيليات، وإنما تحولَتْ إلى إسلاميات، لأنَّ ديننا اعتمدَها وأقرها.

القسم الثالث: إسرائيلياتٌ تتعلق بالمواعظِ والرقائقِ والقصص والتاريخ.

ومثالُه ما روتْه الإِسرائيلياتُ من تفصيلاتِ صنعِ سفينة نوح عليه السلام، وطولِها وعرضِها، وخشبها وكيفيتها، وما جرى فيها من أحداثِ أثناءَ الطوفان.

وهذا القسمُ الثالث يتصلُ بالقسمِ الثالث الذي أورَدْناه في ما سبق، وهو المتعلقُ بتبيينِ مبهماتِ وتفصيلات، سكتَ عنها دينُنا، فلم يوافقْها ولم ينقضْها ويخالفْها.

وهذان القسمان هما موضوعُ الخلافِ بين علماء المسلمين، قبولاً، أو رفضاً، أو توقفاً، أو تحذيراً.

الراجح عدم أخذ الإسرائيليات:

إنَّ ما وردَ في ديننا مُقِرّاً للإِسرائيليات يجعلُها إسلاميات، ونحن

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٤٥٥٦.

مأمورون أن نأخذَها بهذا الاعتبار الإسلامي العلمي، وإنّ ما وردَ في ديننا مخالفاً للإسرائيليات، مُنكراً لها، يجعلُها من المنكراتِ المرفوضات، ونحن مأمورون بردِّها ورفضِها، وإذا ذكرناها فمن أجلِ أنْ نبينَ زيفَها وكذبَ أصحابها.

أما ما سكتَ عنه ديننا، فيما يتعلقُ بالتاريخ والقصص والمواعظ والرقائق، فهذا ما أجاز الجمهورُ ذكْرَه وروايتَه في كتب التاريخ والتفسير، وما رفضَ فريقٌ من العلماء إيرادَه، وذكره، ومنعوا من روايتِه وتفسيرِ كلامِ الله به.

وإذا كنا مع هذا الفريقِ الثاني، فإننا لا نجيزُ اعتمادَ أو قبولَ هذا النوعِ من الإسرائيليات أيضاً، ونَدعو إلى التوقفِ فيها، فلا نأخذُ بها ونصدِّقُها، لعدم وجودِ أدلةٍ يقينية لاعتمادِها وتصديقِها، كما أننا لا نجزمُ بكذبها وافترائها، لعدمِ وجودِ أدلةٍ على التكذيب، ولهذا نتوقفُ فيها، وفي قبولها أو ردها، ونَكِلُ العلمَ بها إلى الله وحده. وعندما نسمعُ أو نقرأُ عن واحدةٍ من هذه الإسرائيليات، نتوقَّف، ونسكت، ونقول: اللَّهُ أعلم كيفَ كان، وأعلمُ بمدى صحةِ ذلك!.

أمّا أنْ نذهبَ إلى هذه الإسرائيلياتِ المسكوتِ عنها في ديننا، ونأخذَ بها في تفصيلات القصص القرآني، ونفسرَ بها كلامَ الله الثابتَ الصحيحَ الصادق، مع أنها إسرائيليات لا يمكنُ إقامةُ الدليلِ على صدقها، فهذا ما لا نراه، ولا نأخذُ به، خلافاً لجمهورِ العلماء، واتباعاً للفريقِ الآخر منهم، وأخذاً بالأدلةِ المنهجية العلمية، التي سبقَ أنْ أورَدْناها في فهم القصص القرآني.

ونكملُ استدلالَنا على ما ذهبنا إليه، في عدم اعتمادِ أو أخْذِ الإسرائيليات، وعدمِ القول بها في تفسيرِ القصص القرآني، نكملُ ذلك ببعضِ الأدلة الأخرى، نقدمُها لنزدادَ قناعةً بما ذهبنا إليه، ولنُنَزِّهَ تفسيرَ

آياتِ القصص القرآني من هذا التيه والركام الإِسرائيلي الثقيل، فإلى الأدلةِ في مبحثٍ مستقل تالٍ!!.

أدلة عدم اعتماد الإسرائيليات:

نذكُرُ بأنَّ الإِسرائيلياتِ المرادةَ في كلامنا هي التفصيلاتُ الكثيرةُ فيما يتعلقُ بأحداثِ ووقائع القصص القرآني، والتي سكتَ عنها القرآنُ والحديثُ الصحيح، فلم يوافِقْها ويؤيدْها ويصدِّقْها، ولم يردْ فيه نقضٌ أو دحضٌ لها.

أما ما وافقَها وصدَّقَها دينُنا فنحن ملزمون بأخذِها لأنها إسلاميات، وما أنكرها دينُنا وخالفَها فنحن ملزمون برفضِها لظهورِ كذبها.

أدلةُ عدمِ اعتماد وقبول الإِسرائيليات من النوع الأول، هي:

الأدلة على ذلك من القرآن:

١ ـ يخبرُنا القرآنُ أنَّ اليهودَ ـ صانعي الإِسرائيليات ـ محرِّفون للكلمِ عن مواضعه، وهذا يجعلُهم غيرُ أُمناء على التاريخِ وأحداثِه ووقائعه، فكيف نأخذُ رواياتهم حول ذلك التاريخَ؟

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

٢ ـ يخبرُنا القرآنُ أن اليهودَ كاذبون في بعض ما يوردون من كلام، ومفترون في بعضِ ما يذكرون من أخبار، حتى فيما يتكلمون عن رسلهم وأنبيائهم، ويتحدثون عن تاريخهم.

وقد أشارَ القرآنُ إلى أكاذيبهم وافتراءاتِهم على مريم وابنها عيسى

عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وهذا يعني أنَّ إسرائيلياتهم قد تكونُ من بابِ الكذبِ والافتراءِ الذي مهروا فيه، فكيفَ نأخذُ بها وهي بهذه الصفة؟

٣ ـ يخبرُنا القرآنُ أن اليهودَ حاسدون للمسلمين، شديدو العداوةِ لهم، حريصون على فتنتهم عن دينهم، بمختلفِ الأساليب والوسائل، فهم يودون لو يردّون المسلمين من بعدِ إيمانهم كفاراً، ويودّون لو يوقِعون المسلمين في التيه والضلال.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ومن أساليبهم لتحقيقِ هذه الغاية، الإسرائيلياتُ التي يبثونَها بين المسلمين، والتي فسَّر بها بعضُ المسلمين كتابَ الله الكريم!

٤ ـ يخبرُنا القرآنُ أنَّ اليهودَ يكتمون الحق وهم يعلمون، ويحرفونه إلى الباطل وهم يعلمون.

قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وإسرائيلياتُهم مظهرٌ من مظاهر كتمانهم الحق، وتحريفِه إلى

الباطل، ويقدمونها لنا محرفة، فكيف نأخذُها منهم؟.

٥ ـ يخبُرنا القرآنُ أنَّ علمَ اليهود مجردُ أمانيّ وظنونٍ وأوهام، وليس علماً حقيقياً صحيحاً.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].

فإسرائيلياتُهم هي أوهامٌ وظنون وليستْ علماً.

٦ ـ يخبُرنا القرآنُ أن اليهودَ ضالّون عن عمدٍ وقصد، فهم يتركون الحقَّ عامدين، ويتبعون الباطل قاصدين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وهم في إسرائيلياتِهم متبعونَ للباطل، ويتوفرُ فيها ذلك المنكرُ والضلال!.

٧ ـ يخبرُنا القرآنُ أن اليهودَ قومٌ لا يعلمون ولا يفقهون، ويتصرفون تصرُّفَ مَن لا يعلمون، فلو كانوا ممن يعلمون فعْلاً لما نشروا الأباطيلَ والأكاذيب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢ ـ ١٠٣].

فإسرائيلياتُهم صناعةُ صادرة عنهم، مع أنهم لا يعلمون ولا يفقهون، فكيف نعتبرُها علماً.

٨ ـ إنَّ قصصَ السابقين وتفصَيلاتِ وقائعها من غيبِ الماضي، والغيبُ لا يعلمه إلا الله، ويُعْلِمُ به مَن شاءَ مِن رسله وأنبيائه، واليهودُ لم يطَّلعوا على تفاصيلِ قصص مَنْ سبقوهم، وما كانوا معهم، فكيف يوردون تلكَ التفاصيلَ الجزئية الدقيقة؟

إننا نقولُ لهم، ولمن يردّدون إسرائيلياتهم: ما كنتم لديهم وهم يعيشون أحداث حياتهم، فمن أينَ عرفتم تلك التفاصيل؟ هل أخبركم اللَّهُ بها؟ إنْ كان كذلكَ هاتوا دليلكم؟ والعهدُ القديمُ ورواياته ليست موثوقة، لأنكم حرفتم التوراة، وخلطتُم كلامَ الله فيها بكلامِ أحباركم!!.

٩ ـ التاريخُ لم يسجلْ كلَّ تفاصيلِ أحداث السابقين، وهناك «حلقاتٌ مفقودة» في تاريخ السابقين لم يسجلْها المؤرخون، وهذه لا يعلمُها إلا الله، وقد جاءَ هذا في صريحِ القرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

فكيف يدّعي اليهودُ في إسرائيلياتهم العلم بتلك الحلقات، والاطلاعَ على تلك التفصيلات؟ وكيف نأخذُ هذه الإِسرائيلياتِ منهم؟.

١٠ ـ القرآنُ ينهانا نَهياً صريحاً عن العودةِ إلى أهل الكتاب، واستفتائِهم وسؤالهم عن أحداثِ وتفصيلات القصص القرآني، قال تعالى بشأنِ أصحاب الكهف: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وأخْذُنا لإسرائيلياتهم هو استفتاءٌ لهم، وتعلُّمٌ منهم، وهذا مخالفةٌ لهذا التوجيه القرآني.

١١ ـ علَّمَنا القرآنُ كيفيةَ جدال اليهود فيما يقدمون من معلوماتٍ وأخبار، وفيما يثيرون من شبهاتٍ وإشاعات، وذلك بأن نسألَهم هذا السؤال: أأنتم أعلمُ أم الله؟.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٩ ـ ١٤٠].

إنهم في إسرائيلياتهم يَدَّعون العلمَ بتفاصيلِ أحداث السابقين، فنقولُ لهم: أأنتم أعلم أم الله؟.

١٢ ـ نهيُ القرآنِ الصريحِ للمسلمين عن القولِ بدون علم، أو اتباعِ ما ليس لهم به علم، وتقرير مسؤوليتِهم عن كلِّ ما يوردون من أقوالٍ أو أخبار.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

والإسرائيليات هي من القولِ بدون علم، وأخْذُها من باب الاتباع بدون العلم.

١٣ ـ إيجابُ القرآن على المسلمين التثبتَ والتَّبيّن عند سماعِ أخبار الفاسقين، ومطالبتُهم أن لا يأخذوها إلاّ بعدَ عرضها على ميزانهم، وقواعدِهم المتمثلةِ في القرآن والسنة، لأخذِ ما صحَّ منها، وترك ما عداه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

وأخْذُ الإِسرائيليات من الكافرين اليهود بدون تثبت، مخالفةٌ لهذا التوجيهِ القرآني الكريم.

الأدلة على ذلك من السنة:

١٤ ـ لقد نهانا رسولُ الله ﷺ نهياً صريحاً عن أخذِ شيء من رواياتِ وإسرائيلياتِ اليهود.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كانَ أهلُ الكتاب يقرؤونَ التوراةَ بالعبرية، ويفسرونَها بالعربيةِ لأهلِ الإِسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنّا بالله وما أُنزلَ إلينا»(١).

نحن مأمورون بهذا الحديثِ الصحيح أنْ لا نصدِّقَ أهلَ الكتاب، وأَخْذُ إسرائيلياتهم وتفسيرُ آيات القرآن بها تصديقٌ لهم، ومخالفةٌ لهذا التوجيه النبوي الكريم.

وعندما نتوقفُ في الإِسرائيليات والحكم لها أو عليها، وعندما نترفعُ عن إيرادِها وذكرها، ليس هذا تكذيباً منّا لها، فالحديثُ ينهانا عن تكذيبها أيضاً، لعدمِ وجودِ أدلةٍ يقينية نحتكمُ إليها. إنما هذا التوقفُ سكوتٌ عنها، وعدمُ اعتمادِ لها، واتباع للمنهجيةِ القرآنية في البحث والعلم.

١٥ ـ هديُ الرسولِ ﷺ مع الصحابة، حيث كان ينهاهم عن أخذِ ما عندَ أهلِ الكتاب، لعدم الوثوق به.

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٤٤٨٥.

روى أحمد عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما: «أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعضِ أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضبَ عليه الصلاة والسلام. وقال: أَمُتَهَوِّكونَ فيها يا ابنَ الخطاب؟ [والمُتَهَوِّكُ هو: الشّاكّ المتحيّر].

والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية. لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحقٍّ فتكذّبوا به، أو بباطلٍ فتصدقوا به.

والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حياً، ما وَسِعَه إلاّ أن يتبعني»[1].

لقد غضبَ رسولُ الله ﷺ على عمر لأنه كان يقرأُ بكتابٍ فيه بعضُ رواياتِ أهلِ الكتاب، لئلا يكون ذلك الفعلُ ناتجاً عن التَّهَوُّكِ والشكّ والحيرة، وهو يريدُ للصحابة ـ والمسلمين من بعدهم ـ أن يكونوا على يقينٍ كامل أنهم على الحق، وأنَّ مَنْ سواهم على الباطل.

وأخبرَنا أنه عليه الصلاة والسلام قد جاءَنا بالشريعة الإسلامية بيضاءَ نقية صافية، وأنَّ ما في الكتاب والسنة من علمٍ صحيح صادق يكفي المسلمين، فلا يَحتاجون إلى الذهابِ إلى كتبِ أهلِ الكتاب، وأخْذِ ما فيها من إسرائيليات.

ونَهىٰ الرسولُ عليه السلام في هذا الحديث عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم، لما في ذلك من خطورة، لعدمِ وجودِ أدلةٍ على التصديق أو التكذيب.

إننا إذا صدقنا الإسرائيليات فقد تكونُ مكذوبةً في الحقيقة، ونكون قد صدَّقْنا بكذب وباطل، وهذه مسؤولية كبيرة.. وإننا إذا كذَّبنا تلك

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٣٣٤.

الإِسرائيليات فقد تكونُ صادقةً في الحقيقة، ونكونُ قد كذَّبنا ما هو حق وصدق، وهذه مسؤوليةٌ كبيرة.

ولذلك قالَ لنا رسولُ الله ﷺ: «لا تسألوهم عن شيء، فقد يخبرونكم بحقٍّ فتكذبوا به، وقد يخبرونكم بباطل فتصدقوا به..».

والموقفُ هو التوقُّفُ فيما عندهم من إسرائيليات. وهذا ما نطالبُ به.

صحابة يحذرون من الإسرائيليات:

١٦ - وقد استفادَ الصحابةُ هذا التوجيهَ من رسولِ الله ﷺ، والتزموا به، ولذلك كانوا لا يأخذونَ تلك الإِسرائيليات، وكانوا يُنكرونَ على مَن يذهبُ إِليها ويأخذ منها.

روى البخاريُّ عن عبيدِ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «يا معشرَ المسلمين: كيف تسألون أهلَ الكتاب؟ وكتابُكم الذي أنزلَه اللّهُ على نبيّه ﷺ أَحدثُ الأخبارِ بالله، تقرؤونه لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم اللّهُ أن أهلَ الكتاب بدّلوا ما كتبَ الله، وغيّروا بأيديهم الكتاب. فقالوا: هذا من عندِ الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً.

أفلا ينهاكُم ما جاءَكم من العلمِ عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأيْنا رجلاً منهم قطّ يسألكم عن الذي أُنزلَ إليكم..»[1].

وقال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: لا تسأَلوا أهل الكتاب، فإنهم لن يَهدوكم وقد أَضلّوا أنفسهم، فتكذِّبوا بحق، أو تصدِّقوا بباطل»[2].

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٧٣٦٣.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٣٤.

إن كلامَ ابنِ مسعود رضي الله عنه موافقٌ ومؤكدٌ لكلامِ رسول الله ﷺ الذي أوردْناه من قبل، وهو يدعونا إلى التوقفِ في الإسرائيليات.

أما ابنُ عباس رضي الله عنهما فإنه ينكرُ على مَن يذهبُ إلى إسرائيليات أهل الكتاب، لأنَّ عندنا الكلامَ الصادقَ اليقيني، المتمثلَ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ.

ومما أخبرَنا اللَّهُ به في القرآن الكريم أنَّ أهلَ الكتاب قد حَرّفوا وغيَّروا وبدَّلوا، وهذا يجعلُ كلَّ كلامِهم مشكوكاً فيه، وكلَّ علومهم ورواياتهم مُتَّهمَة، ولذلك لا نأخذُ شيئاً مما عندهم.

ويدعو ابنُ عباس إلى اكتفاءِ المسلمين بما عندهم من العلم، والاستغناءِ به غنى يُغنيهم عن سؤالِ أهل الكتاب، والعودةِ إلى الإسرائيليات.

ويعيدُ ابنُ عباس المسألةَ إلى وضْعِها الصحيح، فمَنْ هو الأَوْلى أنْ يَذهبَ ليتعلمَ من الآخر؟ هل يتتلمذُ المسلمون على اليهود، أم يتتلمذُ اليهود على المسلمين؟ وهل يتعلمُ العالمُ من الجاهل؟ الأَوْلى أنْ يتعلمَ الجاهلُ من العالم: «ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أرسل إليكم»!.

الحديث الصحيح في الحديث عن بني إسرائيل:

أهمُّ الأدلةِ التي اعتمدَ عليها الذين أَوردوا الإِسرائيليات، من المؤرّخين والمفسرين المسلمين، حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «بَلِّغوا عني ولو آية، وحَدّثوا عن بني

إسرائيل ولا حرج، ومَن كذبَ عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعدَه من النار»[1].

وجهُ الدلالةِ من الحديث عندهم، أن رسولَ الله ﷺ أباحَ وأجازَ التحدثَ عن بني إسرائيل، ورفعَ الحرجَ عن المسلمين في ذلك، وسمحَ للمسلمين الذهابَ إلى كتبِ ورواياتِ وأقوال بني إسرائيل، وأخذَ ما فيها من إسرائيليات.

ولذلك صارَ هؤلاء المسلمون يَملؤون كتبَهم بما أَخذوه من الإسرائيليات، ويفسِّرون بها آياتِ القرآن التي تتحدثُ عن السابقين.

وقبلَ أنْ نقدمَ فهمنا وترجيحَنا لمعنى قوله: **«حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»** سنتوقفُ لحظةً مع الإمامِ ابن حجر العسقلاني، وهو يشرحُ هذا الحديثَ في فتحِ الباري.

أقوال في معنى الحديث:

أوردَ الإمامُ ابن حجر عدةَ أقوالٍ في معنى: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل»:

١ ـ قال بعضهم: المرادُ ببني إسرائيل هنا، هم أولادُ يعقوب نفسه عليه السلام: أي: حَدِّثوا عن أولادِ يعقوب الاثني عشر، وأَخبروا الناسَ عن قصةِ الأولاد مع أخيهم يوسف عليه السلام.

٢ ـ وقال الإمامُ مالك: المرادُ بالحديث جوازُ التحديثِ عن بني إسرائيل بما كان من أمرٍ حسن. أما ما عُلمَ كَذِبُه منهم فلا يجوزُ التحدثُ به.

---

(١) أخرجه البخاري، برقم: ٣٤٦١.

٣ ـ وقال الإِمامُ الشافعي: من المعلومِ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُجيزُ التحدثَ بالكذب، فمعنى الحديث: حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه.

٤ ـ وقال بعضهم: مرادُ الحديث: جوازُ التحدثِ عن بني إسرائيل بمثلِ ما جاء في القرآن والحديث الصحيح.

٥ ـ وقال بعضهم: معنى الحديث: جوازُ التحدثِ والرواية عن بني إسرائيل، بأيِّ صورةٍ وقعت الرواية، سواء كانَ الإِسنادُ متصلاً أو منقطعاً، وذلكَ لتعذرِ الاتصال في الإِسنادِ بالحديث عنهم.

وهذا بخلافِ العلم في الإِسلام، فإنَّ الأصلَ في الرواياتِ والأحاديثِ المروية عن السابقين من المسلمين أنْ تكونَ مسندةً متصلة.

أما معنى قوله: «ولا حرج»، والحكمةُ من نفي الحرج في الحديث عنهم، فقد أوردَ الإِمامُ ابنُ حجر عدةَ أقوال أيضاً:

١ ـ أنَّ نفيَ الحرج نفيُ الضيق والتحرجِ في ذلك، لأنه سبقَ أنْ نهىٰ الرسولُ ﷺ عن الحديثِ والأخذِ عن أهل الكتاب، وزجَرَ المسلمين عن الأخذِ من كتبهم، ثم أذنَ لهم في التحدث عنهم، ونفىٰ عن المسلمين الحرجَ والضيقَ بسبب ذلك.

٢ ـ الرسولُ ﷺ يدعو المسلمين إلى عدمِ التضايق بما يسمعون عن بني إسرائيل. وكأنه يقول لهم: لا تَضِقْ صدورُكم، ولا تتحرجوا أو تستغربوا، بسببِ ما تسمعون من أعاجيبِ حوادثهم، فإنَّ ذلك حدثَ منهم فعلاً.

٣ ـ نفيُ الحرج عن المسلمين في عدمِ الحديث عنهم. فإن

قوله: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل» أَمْرٌ بالحديث عنهم، لكنَّ الأَمْرَ هنا ليسَ على ظاهره، فلا يدلُّ على وجوب ذلك، بحيث يكونُ آثماً مَن لا يتحدثُ عنهم، ولذلك أتبعَ الأَمْرَ بالحديث الإِشارة إلى رفْع الحرجِ والإِثم على مَن لم يفعلْ ذلك، وهذا ليعلموا أنَّ الأَمْرَ للإِباحة لَا للوجوب.

فمعنى: «لا حرج»: لا إثمَ على مَنْ تركَ التحدث عنهم.

٤ ـ وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنَّ معنى: «ولا حرج»: رفعُ الحرج ونفيُ الإِثم عن مَن تحدّث عنهم، ورَوى ما رَوى من جرائمهم وأخطائهم، لما في بعضِ أخبارهم من الألفاظِ الشنيعة. وذلك قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾. وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾[1].

الراجح في معنى الحديث:

وعندما ننظرُ في الأقوالِ الخمسة التي أوردَها ابنُ حجر في معنى قوله: «حدثوا عن بني إسرائيل» فإننا نرجحُ القولَ الأول منها.

ونرجحُ القولَ الرابع من الأقوال التي أوردها ابن حجر في معنى قوله: «ولا حرج».

وهذا يقودُنا إلى تقديمِ ما نراه من المعنى الراجح لهذا الحديث.

ليس معنى «حَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» رفعَ الحرجِ وإزالةَ التحرج، والإِقبالَ على أقوال وروايات وأخبار بني إسرائيل، وأَخْذَ ما عندهم من إسرائيليات وأساطير، حولَ بعضِ أحداث السابقين، وروايتها واعتمادها، وتفسيرَ آيات القرآن بها، واعتبارَها معلوماتٍ علمية، يُفَصِّلُ

---

(١) انظر هذه الأقوال في فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني: ٦/٤٩٨ ـ ٤٩٩.

بها القصصُ القرآني المجمل في القرآن، كما فعلَ كثيرٌ من المفسرين والمؤرخين المسلمين.

ولو أرادَ الرسولُ ﷺ هذا المعنى، لقال: ارْوُوا عن بني إسرائيل.

فرْقٌ بين قولك: رويْتُ عن فلان، وبين قولك: حَدَّثْتُ عن فلان.

إنَّ معنى قولك: رويْتُ عن فلان: أنك أخذْتَ كلامَه، ونقلْتَه للآخرين. فأنتَ راويةٌ لكلامه.

ولهذا كان رواةُ الحديثِ النبوي ورجالُه يروونه، عن أشياخهم بقولهم: حَدَّثَنا فلانٌ عن فلان.

ولو قالَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام: ارْوُوا عن بني إسرائيل، لكان معناه: اذْهبوا إلى بني إسرائيل، وخُذوا ما عندهم من أقوال أو إسرائيليات، وانقُلوها وارووها وبَلِّغوها للمسلمين.

أما قولك: حدَّثْتُ عن فلان فإنه يحتملُ معنييْن:

المعنى الأول: هو الذي يدلُّ عليه قولك: رويتُ عن فلان أي: حدثْتُ عنه، ورويتُ حديثَه، ونقلْتُه للآخرين.

المعنى الثاني: أخبرتُ عنه، بمعنى أنني رويتُ قصتَه للآخرين، وأخبرتُهم بما جرى له من أُمور، وأطلعْتُهم على ما مرَّ به من وقائع وأحداث.

وعلى هذا المعنى يكون المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل»: اعْرِضوا على المسلمين قصةَ بني إسرائيل، وأَخبِروهم بما قامَ به بنو إسرائيل من أفعال، وما مَرَّ بهم من أحداث.

مقصود الحديث إخبار المسلمين بتاريخ بني إسرائيل:

إذن: المعنى الراجحُ لِهذا الحديث هو: أَخبروا المسلمين بما جرى لبني إسرائيل من وقائع، وأَطْلِعوا المسلمين على ما عندكم من معلومات، عن قصةِ بني إسرائيل، واكشِفوا هؤلاء للمسلمين، واعرِضوا ما قاموا به من أفعال وجرائم، وما ارتكبوا من فظائع.

تكلَّموا عن موقفِ بني إسرائيل من أنبيائهم، وعن كفرِهم بالله، وتحريفِهم لكتبه، وعن صفاتِهم القبيحة وأخلاقِهم المذمومة، وحَذروا المسلمين منهم، بعرضِ مشاهد ولقطات من تاريخهم.

ومما يدلُّ على أنَّ هذا هو المعنى الراجحُ للحديث عن بني إسرائيل، أنَّ الرسولَ ﷺ أَتْبَع ذلك بنفيِ الحرج: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، فأرادَ أنْ يُزيلَ الحرج مِن إخبارِ المسلمين عن ما جرى لبني إسرائيل.

وقد يكونُ مبعثُ هذا الحرجِ أنْ يظنَّ بعضُ المسلمين أنه يتحدثَ عن أهلِ كتاب، بعثَ الله لهم أنبياء، فيخشىٰ أنْ يكونَ مخطئاً أو آثماً في حديثه عنهم، فأزالَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام هذا التحرج.

طبعاً يرتفعُ الحرجُ والإِثم عن من تحدثَ عن بني إسرائيل الكفار، واكتفى بما تحدثَ عنهم القرآنُ والحديث الصحيح، بشرطِ أن لا يُدخلَ معهم أنبياءَهم وصالحيهم ومؤمنيهم في الذمِّ والتنقيص، ولا يُشركَ هؤلاء الأنبياءَ والصالحين مع الأغلبيةِ الكافرة من بني إسرائيل، في الرذائلِ التي ارتكبوها.

أثناءَ تحديثِنا عن جرائم وانحرافات بني إسرائيل، لا بدّ أن نخصصَ ذلك بكافريهم، وأنْ نستثنيَ من ذلك أنبياءَهم، لأنهم أنبياء كرامٌ بعثَهم اللّهُ عزَّ وجلَّ لهم. كما نستثني من ذلك أَتباعَ الأنبياء من

مؤمنِي وصالحي بني إسرائيل في الماضي، وهم قلائلُ جداً أمامَ الأغلبيةِ الكافرة المنحرفة من بني إسرائيل.

هذا ما نفهمهُ من الحديثِ النبوي الصحيح، وهذا ما نرجحه من معناه.

موقفنا هو التوقف في الإسرائيليات:

ولهذا لسنا مع جمهورِ المفسرين والمؤرخين، والذين جعلوا الحديثَ رخصةً مبيحة لهم، لأخذِ ما عند بني إسرائيل من إسرائيليات.

ولهذا لا نجيزُ أنْ نأخذَ هذه الإِسرائيليات، ونفسِّر بها كلامَ الله، ونفصِّل بها أحداثَ ووقائعَ القصص القرآني، ونستمدَّ منها العلمَ التاريخي بما سكتَ عنه القرآن الكريم من مشاهد قصص السابقين.

وموقفُنا من هذه الإسرائيليات هو التوقُّف، فلا نصدِّقُها ولا نكذِّبها، كما علَّمنا رسولُ الله ﷺ، فإنْ صدَّقْناها فقد نكونُ صدقْنا بباطل، وإنْ كذبْناها فقد نكون كذبنا بحق.

وتوقُفُنا في قبول هذه الإِسرائيليات في القصص القرآني، لا يعني إِيرادَها وذكرَها وتسجيلَها، أثناءَ نظرنا في أحداثِه المعروضة في القرآن والحديث الصحيح، كما فعلَ المفسرون والمؤرخون المنصفون، مثل الإِمام ابنِ كثير رحمه الله، حيث كان يوردُ هذه الإِسرائيليات في تفسيرهِ وتاريخه، وينصّ أحياناً على توقفِه فيها لأنها إسرائيليات.

إنَّ توقُّفَنا فيها يدعونا إلى عدمِ ذكْرِها أو تسجيلهَا ـ إلاّ من بابِ النصِّ الصريح على عدم اعتمادها، والتحذيرِ من قبولها وروايتها ـ وعدم تفسيرِ كلام الله بها. توقُفنا فيها يعني أنْ نتجاوزها، وأَنْ نلغيها من حسابنا، وأنْ نفهمَ آياتِ القرآن بمعزلٍ عنها.

منهجُنا في فهمِ القصص القرآني، ومعرفة أحداثه ووقائعه

وتفصيلاته، الاكتفاءُ بالمصدرِ المأمون الموثوق الصحيح، ذلك المصدرُ المتمثلُ في آياتِ القرآن الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة، وفهمِ العلماء السابقين الملتزم بالقرآن والحديث الصحيح!!

منهجنا في القصص: الاكتفاء بالآيات والأحاديث الصحيحة:

منهجُنا عدمُ اعتمادِ أية معلومة أو روايةٍ من الإسرائيليات، مهما قَلَّتْ أو صَغُرَتْ، وَعدمُ إيرادِها وذكرِها.

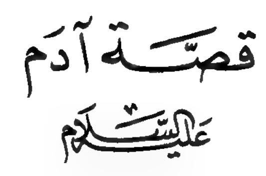
منهجُنا عدمُ أخذِ كلامِ أي عالمٍ من العلماء السابقين، من المفسرين والمؤرخين، كالطبريِ وابن كثير، فيما يتعلقُ بأحداث ووقائع القصص القرآني، إلا إذا استمدّهُ من القرآن والحديث الصحيح.

إننا لم نأخذْ أيَّ كلام لأيِّ عالم مهما كان، إلا إذا أقامَ الدليلَ على كلامِه من الآيات والأحاديث الصحيحة، أو ثبتَ لدينا دليلٌ صحيح على كلامه. فإنْ لم يتوفَّرْ هذا الدليل، تركْنا كلامَ ذلك المفسر أو المؤرخ، مع احترامِنا وإجلالِنا وتقديرِنا له.

إنّ احترامَنا وتقديرَنا لعلمائنا المفسّرين والمؤرّخين لا يعني أنْ نأخَذ كلَّ ما قالوه، فنحن ملزمون بعرضِ رواياتِهم على مصادرِنا اليقينية، فما وافقَ القرآنَ والحديثَ الصحيح قبلْناه وأخذنا به، وما لم يوافقْه تركْناه.

إننا مُطالبَون أنْ نعرفَ الرجالَ بالحق، ولا نعرفَ الحق بالرجال، وكلُّ إنسانٍ يُؤخَذُ من كلامه ويُترك، إلا رسولُ الله المعصومُ عليه الصلاة والسلام!

هذا منهجُنا في التعاملِ مع أحداثِ ووقائع القصص القرآني، ونرجو أن نكونَ ملتزمين به، واللّهُ المستعانُ المعين، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل.


قصة آدم
عليه السلام



[١]

خلق الكون وتهيئته للإنسان

خلق الله السموات والأرض:

اللَّهُ الخالق. خلق السموات والأرض، وخلقَ ما فيهما من مخلوقات حية، كالملائكةِ والجن والإنس.

وقد أخبرَنا اللَّهُ في القرآن أنه خلقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستةِ أيام، وأنَّ عرشَه ـ سبحانه ـ كان على الماء. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقد زعمَ اليهودُ الكافرون في أكاذيبهم، أن الله لما خلقَ السماواتِ والأرض في ستة أيام، تعبَ ـ سبحانه ـ فاستراحَ في اليوم السابع، وهو يومُ السبت! فكَذَّبَهم اللَّهُ في صريح القرآن. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

واللُّغوبُ هو: التعب. فينفي اللَّهُ ـ سبحانه ـ عن نفسه أنه مسَّهُ تعبٌ، لمّا خلقَ السموات والأرض.

وأخبرَنا اللَّهُ أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ملتصقَتَين، ففتَقَهما وفصَلَ بينهما. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠ ـ ٣١].

كانت الأرضُ ملتصقةً بالسماوات، ففصَلَها الله عنها، كما تصرِّحُ الآية: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن» عن الرَّتْق والفَتْق:

«الرَّتْق: الضَّمُّ والالتحام، خِلْقَةً كان أَمْ صَنعة.

قال تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: منضمَّتَين»[1].

«الفتق: الفصْلُ بين المتصليْن، وهو ضدُّ الرَّتق. قال تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾. والفَتْقُ والفتيق: الصبح»[2].

لما فصلَ اللّهُ الأرضَ عن السماء، أنزلَ عليها الماء، وهيَّأَها للحياة، وجعَلَها صالحةً للعيش عليها، تمهيداً لخلْقِ الكائنات الحيةِ عليها. ولهذا ذَكرت الآيةُ الماء، وأنه أصْلُ كلِّ الأحياء، بعد ذِكْرها لفصلِ الأرض عن السماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتدلُّ آياتُ القرآنِ على أنَّ اللّهَ خلقَ السماء أولاً، ثم خلقَ الأرضَ بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣].

هيأ الله الأرض للإنسان:

وهيَّأَ اللّهُ الأرض، وقدَّر فيها خيراتِها، وجعلَ فيها الماءَ الذي هو أساسُ الحياة، وأَرسى فيها الجبال، وأَصلح تربتَها، ورتَّبَ ليلَها ونهارها، وأنبت نباتَها وأشجارَها، كلُّ هذا إعداداً لها لاستقبال أحيائها، ليعيشوا عليها.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق صفوان داوودي: ٣٤١.

(٢) المرجع السابق: ٦٢٣.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

خلَقَ اللّٰهُ السماوات والأرض لحكمةٍ وقصد، ولم يكن لاهياً ولا لاعباً ـ سبحانه ـ وهو يخلُقُهما. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧].

ويبدو أن اللّٰهَ خلقَ مخلوقاتِ الأرضِ الحيةَ، قبلَ خلْقِ الإنسان، فجعلَ في الأرض بحارَها وأنهارها، وأنزلَ عليها أمطارها، وأنبتَ فيها نباتَها وأشجارَها، ثم خلَقَ فيها حيواناتِها وحشراتها، وزواحفها وطيورَها، وبذلك استقرت الحياةُ عليها، تمهيداً لاستقبالِ الإنسان الخليفة.

وتدلُّ آياتُ القرآن على أنَّ الجنةَ ـ دارَ النعيم ـ كانت مخلوقةً وموجودةً قبل خلْقِ الإنسان، لأنَّ أحداثَ قصةِ آدم عليه السلام في القرآن جرَتْ في الجنة، قبلَ إنزالِه على الأرض.

[٢]

آدم عليه السلام في القرآن

«آدم»: اسمٌ سمّى اللّٰهُ به أولَ مخلوق من البشر، فهو أبو البشر جميعاً، على اختلافِ أجناسهم وألوانهم ولغاتهم.

وهو اسمُ علم أعجمي، ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعُجْمة.

لا نبحثُ عن مادةِ اشتقاق «آدم»، لأنَّ المشتقَّ يجبُ أن يكون اسماً عربياً، و «آدم» اسم، سمّى اللّٰهُ به أبا البشر، قبلَ أن يخلقَ اللّٰهُ أولَ عربي، ويتكلمَ لغةً عربية.

وقد وردتْ كلمةُ «آدم» في القرآن خمساً وعشرين مرة.

وفي معظم هذه المراتِ كانتْ خطاباً من الله لآدم نفسه عليه السلام، أو إخباراً عن بعض ما جرى له. وقد وردتْ ست عشرةَ مرة على هذه الصفة.

وفي بعض هذه المراتِ كان الكلامُ عن أبناء آدم وذريته، كأن يقول: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أو ﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾، أو ﴿ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾. وقد وردت تسع مرات على هذه الصفة.

وفيما يلي قائمة بالسور التي وردت فيها كلمة آدم، وعدد مرات ورودها:

السور التي ذكر فيها:

١ ـ سورة البقرة: خمس مرات.

٢ ـ سورة آل عمران: مرتان.

٣ ـ سورة المائدة: مرة واحدة.

٤ ـ سورة الأعراف: سبع مرات.

٥ ـ سورة الإسراء: مرتان.

٦ ـ سورة الكهف: مرة واحدة.

٧ ـ سورة مريم: مرة واحدة.

٨ ـ سورة طه: خمس مرات.

٩ ـ سورة يسٓ: مرة واحدة[1].

أما قصةُ «آدم» فقد وردتْ في سبع سور. وهي سور: البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، صٓ.

---

(١) انظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله: ٢٤.

[٣]

ما عرضته كل سورة من قصته

قصته في سورتي البقرة والأعراف:

نعرضُ فيما يلي عناوينَ الموضوعاتِ التي عرضَتْها آياتُ كل سورة، عن قصة آدم عليه السلام.

١ ـ قصةُ آدم في سورة البقرة: جاءت قصةُ آدم في سورة البقرة في عشرِ آيات: [الآيات: ٣٠ ـ ٣٩].

تحدثت الآياتُ عن الموضوعاتِ التالية:

إِخبارُ اللَّهِ للملائكةِ عن جعِله خليفةً في الأرض، واستعلامُ الملائكةِ عن الحكمةِ من ذلك، وتعليمُ الله آدمَ الأسماءَ كلَّها، وامتحانُه للملائكة، وعجزهم عن الإجابة، ونجاح آدم في الإجابة، وأمر الله للملائكة بالسجود لآدم، وسجودُهم كلِّهم، ورفْضُ إبليس السجود، وإسكانُ آدم وزوجِه حواء الجنة، ونهيُهما عن الأكل من شجرةٍ واحدةٍ فيها، وإباحةُ كلِّ ما عداها، وتحذيرُهما من عداوةِ الشيطان، وإِغواءُ الشيطان لهما، وأكْلُهما من الشجرة المحظورة، ثم إنزالُ الجميع إلى الأرض.

٢ ـ قصةُ آدم في سورة الأعراف: جاءت قصة آدم في سورة الأعراف في خمسَ عشرةَ آية: [الآيات: ١١ ـ ٢٥].

وتحدثت الآياتُ عن الموضوعات التالية:

أمْرُ الله الملائكة بالسجود لآدم، وتنفيذُهم الأمر، وعدمُ سجود إبليس، وتبريرُه لذلك بزعم أفضليتِه على آدم، وطرْدُ اللَّهِ له من الجنة لكفره وتكبُّره، وإِنظارُه وامتدادُ حياته إلى قربِ قيام الساعة، وتعهُّدُهُ بإغواءِ معظم أبناء آدم، وخلودُه مع حزبه الكفارِ في النار، وإسكانُ آدم

وزوجِه الجنة، ونهيُهما عن الأكل من الشجرة، ووسوسةُ الشيطان لهما، وحلفُه اليمين لهما، وأكلُهما من الشجرة، وظهورُ سوءاتِهما بعد ذلك، وحياؤهما، وسترُهما السوءاتِ بورق الجنة، وعتابُ الله لهما، واعترافُهما بالخطأ، وتوبتُهما، وقَبولُ الله لها، وإنزالُهما إلى الأرض، مع عدوِّهما إبليس، وحياتُهما على وجه الأرض.

قصته في سور الحجر والإسراء والكهف:

٣ ـ قصة آدم في سورة الحجر: جاءت قصةُ آدم في تسع عشرة آية من آيات سورة الحجر، وهي [الآيات: ٢٦ ـ ٤٤].

وتحدثت الآيات عن الموضوعات التالية:

خلْقُ آدم من صلصال من حمأ مسنون، وخلْقُ الجانِّ قبلَه من نار السموم، وأمْرُ الله الملائكةَ بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه، ورفْضُ إبليس لذلك، وتبريرُه مخالفتَه بتفضيله على آدم، وطردُ اللَّهِ له من الجنة، وإحلالُ لعنته عليه إلى يوم القيامة، وإنظارُه وإمهالُه إلى قربِ قيام الساعة، وتعهُّده بإغواءِ بني آدم الضالين، ومعرفتُه بعجزه عن إغواءِ عباد الله الصالحين، وعهْدُ الله بحفظ عبادِه المؤمنين، وتقريرُه بتخليدِ الكافرين في جهنم.

٤ ـ قصة آدم في سورة الإِسراء: وردتْ قصةُ آدم في خمس آياتٍ من آيات سورة الإِسراء، وهي [الآيات: ٦٠ ـ ٦٥].

وتتحدث الآياتُ عن سجودِ الملائكة لآدم، ورفضِ إبليس السجود، وتعهدِه بإغواء بني آدم الضالين، وتمكينِ الله له من ذلك امتحاناً للناس، وبعضِ وسائله الشيطانية في هذا الإِغواء، وتقريرِ عدمِ سلطانه على عباد الله الصالحين.

٥ ـ قصة آدم في سورة الكهف: وردت إشارةٌ سريعةٌ إلى لقطةٍ

من لقطات قصة آدم في سورة الكهف، وذلك في آية واحدة من آياتها، وهي [الآية: ٥٠].

وتشير الآيةُ إلى تنفيذِ الملائكة لأمر الله، وسجودِهم لآدم، ورفضِ إبليس، وتصرحُ بأن إبليسَ من الجن، وتحذرُ الناسَ من طاعتِه واتخاذِه ولياً من دون الله.

قصته في سورتي طه وص:

٦ ـ قصة آدم في سورة طه: وردتْ قصةُ آدم في ثلاثَ عشرة آية من آيات سورة طه، [الآيات: ١١٥ ـ ١٢٧].

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى عهدِ الله لآدم بعدم أكله من الشجرة، ونسيانه العهد، وأكله من الشجرة ناسياً غيرَ عامد.

ثم تحدثت الآياتُ عن سجودِ الملائكة له، ورفْضِ إبليس، وتحذيرِ الله لآدم وزوجِهِ من عداوة إبليس، وبيانِ هدفه في إخراجِهما من الجنة، ووسوسةِ الشيطانِ لهما التي أدَّتْ إلى أكلهما من الشجرة، وانكشافِ سوءاتهما، ومعصيةِ آدم لربه، ثم توبته، وإنزالِ الجميع من الجنة إلى الأرض.

٧ ـ قصةُ آدم في سورة ص: وردتْ قصةُ آدم في تسع عشرة آية من آياتِ سورة ص. [الآيات: ٦٧ ـ ٨٥].

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى توظيفِ قصةِ آدم في القرآن دليلاً على أنه كلامُ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وإلاّ فمن أدراه ـ وهو الأمي ـ بتفصيلاتِ قصة آدم في الجنة؟

ثم تشيرُ الآيات إلى إخبارِ الله للملائكة عن خلْقِ آدم، وتكليفِهم بالسجود له عند نفخِ الروح فيه، ورفضِ إبليس السجود، وتبريرِه رفْضَه بأنه خيرٌ من آدم، ولعنةِ الله عليه، وإخراجه من الجنة، وإنظارِه وإمهالِه

إلى قرب قيام الساعة، وتعهُّدِ إبليس بإغواء بني آدم الضالين، وعجْزِه عن فعل ذلك مع عباد الله الصالحين.

[٤]

قصة آدم في القرآن دليل على الوحي

نصَّ القرآنُ على أنَّ من أهدافِ إيرادِ القصص فيه، إثباتَ الوحي، وتقريرَ نبوةِ محمد ﷺ، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله.

ووردَ هذا النصُّ في آياتِ قصةِ آدم عليه السلام، حيث وُظِّفتْ هذه القصةُ في القرآن دليلاً على الوحيِ والنبوة ومصدرِ القرآن.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٧ ـ ٧٠].

توظيف قصة آدم دليلاً على الوحي:

يأمرُ اللَّهُ نبيَّه محمداً ﷺ في هذه الآيات، أنْ يقولَ للكفار، الذين ينكرونَ نبوَّتَه، ويزعمونَ أن القرآنَ كلامُه هو وليس كلامَ الله: هذا القرآنُ نبأٌ عظيم، وأنتم معرضون عنه، كافرون به، وتزعمون أنه كلامي. ولو كان ما تقولونه صحيحاً، فمَنْ أدراني وأعلَمَني باختصامِ الملأ الأعلى في الجنةِ بشأنِ آدم؟

والمرادُ باختصامِ الملأ الأعلى في قوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾. الكلامُ الذي صدرَ عن الملائكة، والسؤالُ الذي طرحوه، عندما أخبرهم اللَّهُ أنه سيجعلُ في الأرض خليفة، ثم ما طلبه اللَّهُ منهم بإخبارِه بالأسماءِ للمسمَّيات، وعجزُهم عن ذلك.

ثم تمرُّدُ إبليس وعصيانُه وكفرُه عندما رفضَ السجودَ لآدم عليه السلام، وكلامُه بعد هذا وتبريرُه لكفره، وتعهُّدُه بالإغواء.

إنَّ الحديثَ عنِ هذه الأمورِ الغيبية في القرآن، دليلٌ على النبوةِ والوحيِ، لأنها أحداثٌ وقعتْ في الجنة، قبل أنْ تبدأ حياةُ البشرِ على وجه الأرض.

فإخبارُ الرسولِ ﷺ بهذه الأحداث في القرآن، ونطْقُه بها، دليلٌ على أنه لم يعرفْها من عنده، ولم يخبرْه بها أحدٌ من البشر، وإنما هي وحيٌ من الله له: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾.

[٥]

مادة خلق الملائكة والجن

أخبرَنا اللّهُ أنَّ المخلوقاتِ الحيةَ العاقلةَ في هذا الوجود ثلاثة: الملائكة، الجن، الإِنس.

أما الملائكةُ والجنُّ فهم من عالَمِ الغيب، غيبِ الحاضر، فنحن لا نراهم بعيوننا، لكنهم أحياءٌ موجودونَ من حولنا.

وطريقُ معرفة عالَمِهم وأحوالِهم هي النصوصُ فقط، وهي محصورةٌ في الآياتِ القرآنية الصريحة، والأحاديثِ النبويةِ الصحيحة.

تخبُرنا هذه النصوص عن وجودِ الملائكةِ والجن قبلَ الإِنسان، وعن المادةِ التي خَلقهم اللّهُ منها.

كان الملائكةُ موجودين قبلَ خلْقِ آدم عليه السلام، كما صَرَّحتْ آياتُ القرآن، حيث أخبرهم اللّهُ عن خلْقِ آدم قبلَ خلقه، وأَمَرهم بالسجودِ له عند نفخِ الروح فيه، وذلك قبلَ نفخِ الروح فيه.

وقد خلقَ اللّهُ الجن قبل الإِنس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

ووجهُ الاستدلالِ أن اللَّهَ قال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾. أي: خلَقَ اللَّهُ الجنَّ قبل خلْقِه للإنسان.

خلق الملائكة من نور:

وخلقَ اللَّهُ الملائكةَ من نور، وخلَقَ الجنَّ من نار. ودليلُ ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلق الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلقَ آدمُ مما وُصفَ لكم»[1].

ولم يُفصِّل الحديثُ كيفيةَ خلْقِ الملائكة من نور، ولم يبيِّنْ لنا ماهيةَ هذا النور، ولذلك لا نتجاوزُ هذا الحديث، ونقول: خلقَ اللَّهُ الملائكةَ من نور.

أما الجنُّ فقد خلَقَهم اللَّهُ من مارجٍ من نار، كما أخبرَ رسولُ الله ﷺ، في الحديثِ السالف الذكر.

ومن الآياتِ التي أَشارتْ إلى مادةِ خلْقِ الجن قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

ومنها قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وقد صرَّحَ إبليس ـ الذي هو من الجن ـ بأنَّ اللَّهَ خلقَه من نار، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٩٦. انظر رسالة: الأحاديث الصحيحة من أخبار قصص الأنبياء، لإبراهيم العلي، رقم: ١.

خلق الجن من مارج من نار السموم:

إذن: خلقَ اللّهُ الجنَّ من مارجٍ من نار السَّموم.

فما هي نارُ السَّموم؟ وما هو المارجُ الذي أُخذَ منها؟

قال الإِمام الراغب عن معنى «السموم» في المفردات: «والسَّموم: الريحُ الحارة، التي تؤثِّرُ تأثيرَ السّمّ»(١).

فنارُ السَّموم: هي نارٌ حارةٌ شديدةُ الحرارة، خلَقَها الله، ثم خَلقَ منها الجن.

وقال الراغب عن «مارج النار»: في المفردات:

«أصْلُ المرج: الخلط. والمرجُ: الاختلاط. ومُرِجَ الأمر: اخْتَلَط. والأَمرُ المريج: المختَلِط. ومارجُ النار: لهيبُ النار المختلط»(٢).

خلقَ اللّهُ الجنَّ من مارجِ نارِ السَّموم. ومارجُ النار هو آخرُ جزءٍ حارٌ من لهيبِ النار، وأولُ جزءٍ من الدخانِ الأسودِ المتصاعدِ من النار، فمن اجتماعِ هذين الجزءين، ومزْجِ ذلك وخلْطِه، خلقَ اللّهُ الجن.

نقول هذا لأن المارجَ من النار، هو لهيبُ النارِ الحارُ المختلطُ مع الدخانِ الأسود الكثيف، الممزوجُ به.

ولهذا كانت طبيعةُ الجن ناريةً خفية.

هي نارية، بسبب ذلك الجزء من لهيبِ النار الحار. وهي خفيَّةٌ مستترة، بسببِ ذلك الجزء من الدخانِ الأسود، ومعلومٌ أن الدخانَ الأسود، يحجبُ ما وراءَه ويستره.

---

(١) مفردات الراغب: ٤٢٤.

(٢) المرجع السابق: ٧٦٤.

ولذلك نحن لا نرى الجنَّ في الدنيا، بينما هم يروننا، بدليلِ قولِ الله عن الشيطانِ وحزبه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

[٦]

مراحل خلق آدم عليه السلام

هذا عن خلْقِ الملائكة، وخلْق الجن.

أما خلْقُ الإِنسان، فهناك تفصيلاتٌ في النصوص القرآنية والحديثية عن مراحِله.

معلومٌ أنَّ أبا البشر هو «آدم» عليه السلام، ، فهو أولُ مخلوق من البشر، وقد أَخبرَنا اللَّهُ عن بعض التفصيلات في خلْقِه.

لقد مرَّ خلْقُ «آدم» عليه السلام قبلَ نفخِ الروح فيه بخمس مراحل، نأخُذُها من الآيات والأحاديث.

خلقه من حفنة من تراب:

المرحلةُ الأولى: خلْقُه من حفنةٍ من ترابِ الأرض:

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩].

والهاءُ في «خَلَقَه» تعودُ على آدمَ عليه السلام. أي: خلَقَ اللَّهُ آدمَ من تراب، ثم قال له كن، فكانَ كما أرادَ الله.

وروى أبو داود والترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أنتم بنو آدم، وآدمُ من تراب»[١].

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٥١١٦، والترمذي برقم: ٣٩٥٠. الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢.

وهناكَ حديثٌ صحيح، فصَّلَ في ذلك الذي خُلقَ منه آدم. فقد روى أبو داود والترمذيُّ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللّهَ تعالى خلقَ آدمَ من قبضة، قبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرض، فجاءَ منهم الأحمرُ، والأبيضُ والأسود، وبين ذلك، والسهلُ والحَزْنُ والخبيثُ والطيب، وبين ذلك»[1].

ويعلِّلُ الحديثُ سِرَّ اختلافِ الناس في ألوانِهم، فهو بسبب اختلافِ ألوانِ تراب الأرض، كما يعلِّلُ سِرَّ اختلاف الناس في نفسياتِهم وطبائِعِهم ومشاعرهم، فهو بسببِ اختلافِ طبيعة ترابِ الأرض.

وهذا يدلُّ على أنَّ القبضةَ الترابية التي خُلِقَ منها آدمُ عليه السلام جَمعتْ ألوانَ التراب المختلفة، وصفاتِه المتعددة.

خلقه من طين لازب:

المرحلةُ الثانية: خلْقُه من الطين:

وذلك بأن مُزجَتْ حفنةُ التراب المأخوذة من الأرض بالماء، فصارت طيناً.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: ٧١].

وقال إبليسُ يتباهى بأصلِه الناريِّ على طينِ آدم: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

المرحلة الثالثة: خلْقُه من طينٍ لازب:

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٩٣. والترمذي برقم: ٢٩٥٥. وانظر الأحاديث الصحيحة للعلي. رقم: ٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وقال الإمام الراغب في معنى ﴿لَّازِبٍ﴾: «اللازب: الثابتُ شديدُ الثُّبوت»(١).

وهذه المرحلةُ ناتجةٌ عن تحويلِ الطينِ الرِّخْوِ بسبب الماء، في المرحلة السابقة، إلى ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ شديدٍ متماسكٍ كثيفٍ غليظ، وذلك تمهيداً لتجميدِه وتيبيسه، ليُصنعَ منه تمثالُ آدم، عليه السلام.

خلقه من صلصال من حمأ مسنون:

المرحلة الرابعة: خلْقُه من صَلْصالٍ من حمأ مسنون: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: ٢٨].

ما هو ﴿صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؟

قال الإمام الراغب في معنى ﴿صَلْصَالٍ﴾: «أصلُ الصَّلْصال: تردُّدُ الصوت من الشيءِ اليابس. قيل: صَلَّ المسمار: إذا أُدخلَ في الشيء اليابس.

وسُمي الطينُ الجافُّ صلصالاً.

وقيل: الصلصال: المنتنُ من الطين، يقال: صَلَّ اللحم: إذا أنتنَ وتغيَّر»(٢).

فهل الصلصالُ هنا هو صوتُ الطينِ الجافِّ اليابس، أو الطينُ المنتنُ المتغير؟

الراجحُ هو القولُ الأول. لأنَّ تغيُّرَ الطين مستفادٌ من قوله بعده

---

(١) المفردات: ٧٣٩

(٢) المفردات: ٤٨٨ ـ ٤٨٩ باختصار.

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. ولو كان معنى ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ هو المنتنُ المتغير، و ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ هو المنتنُ المتغير، لكان في الآية حشوٌ وتكرار، وهذا ينزَّهُ عنه كلامُ الله.

وقال الراغب في معنى: ﴿حَمَإٍ﴾: «والحَمأة والحمأ: طينٌ أسود منتن. والعينُ الحَمِئَة: ذاتُ الحمأ.

وقد قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب، وحفصٌ عن عاصم[1]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦].

فهي عينٌ ذاتُ طينٍ أسود منتن متغير، يَرى الرائي من بعيدٍ أن الشمسَ تغيبُ فيها، ولعلَّها كانت عند مصبٍّ أحد الأنهارِ في البحر.

وقال الراغب في معنى ﴿مَّسْنُونٍ﴾: «والمسْنون: المتغيِّر»[2].

فمعنى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: من طينٍ أسودَ منتنٍ متغيرٍ جافّ.

وهذه المرحلةُ ناتجةٌ عن المرحلة السابقة، فبعدَ أنْ صارَ المائعُ الرخوُ طيناً لازِباً ثابتاً شديداً جامداً، تُرِكَ فترة، فتحوَّلَ إلى أسودَ منتن متغير جاف.

خلقه من صلصال كالفخار:

المرحلة الخامسة: خلْقُه من صلصالٍ كالفخارِ:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

و ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ هنا هو الطينُ اليابس، سُمِّي صلصالاً لأنك إذا نقرْتَ عليه «يَصِلّ». أي: يُخرجُ الصوت.

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٩. وانظر حاشية المحقق صفوان داوودي في قراءات الآية.

(٢) المفردات: ٤٢٩.

وشُبِّه هذا الطينُ اليابس الصلصال بالفَخّار، والفخّار هو الآنيةُ والجرارُ المصنوعة من الطين، والمحروقة بالنار.

وسُميت هذه الجِرارُ فخاراً من «التفاخر».

وللإمام الراغبِ تعليلٌ لطيفٌ لتسميتها «فخّاراً». قال: «والفخّار: الجِرار. وذلك لصوتِه إذا نُقِر، كأنما تُصُوِّرَ بصورةِ مَنْ يكثرُ التفاخر»[1].

وهذه هي المرحلةُ الخامسة ـ والأخيرة ـ التي مرَّ بها خلْقُ آدم عليه السلام، قبلَ أن ينفخَ اللّهُ فيه الروح، ويصيرَ إنساناً حياً.

الجمع والتوفيق بين الآيات التي تحدثت عن المراحل الخمس:

ومن خلالِ ترتيبنا المرحليِّ للآياتِ التي تحدثتْ عن خلْقِ آدم عليه السلام، قبلَ نفْخِ الروح فيه، نرى أنه لا تعارُضَ بينها، كما قد يظنُّ بعضُ ذوي النظرِ القاصر.

إنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات التي أوردناها تتحدثُ عن مرحلةٍ من هذه المراحل، والجمعُ بينها بهذا الاعتبار.

لقد أُخذتْ حفنةٌ من تراب، كما تقولُ الآياتُ عن المرحلةِ الأولى.

فلما جُبلت بالماء صارتْ طيناً، كما تقولُ الآياتُ عن المرحلةِ الثانية.

فلما زادَ خُلطُ الطين ومَزْجه، وضَرْبُه بعضَه ببعض، صار طيناً لازباً جامداً شديداً، كما تقول الآيةُ عن المرحلةِ الثالثة.

فلما تُركَ هذا الطينُ اللازبُ فترة، جَفَّ ويبس، وصار منتناً متغيِّراً أسود، كما تقولُ الآيةُ عن المرحلةِ الرابعة.

---

(١) المرجع السابق: ٦٢٧.

فلما زادتْ يبوسةُ هذا الطين، صار كالفَخّار، يُخرِجُ صوتاً وصلصلةً إذا نُقِرَ عليه، كما تقولُ الآيةُ عن المرحلةِ الخامسة.

[٧]

آدم جسد بدون روح

آدم قبل نفخ الروح فيه:

المراحلُ الخمسةُ السابقة هي لآدم قبل نفخِ الروح فيه: تراب، ثم طين، ثم طين لازب، ثم صلصال من حمأ مسنون، ثم صلصال كالفخار.

وكان آدمُ في هذه المراحل جسداً، مجرَّدَ جسد، بلا روحٍ ولا حياة.

وكان جسَداً مصوَّراً، وتمثالاً مجسَّماً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١].

ونرى أنَّ «التصوير» مرحلة ثانية، بعد الخلق، فبعْدَ أنْ خلَقَه اللّهُ من الطين، صوَّره وسوَّاه، وجعَلَه تمثالاً مجسَّماً، على صورة الإنسان، وهذا قبلَ أنْ ينفخَ فيه الروح.

ولهذا قال الله للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

أي: إذا سَوَّيْتُهُ وصوَّرْتُه، قبلَ نفخِ الروح فيه: ﴿سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

وقد تَركَ اللّهُ آدمَ في الجنة، جَسَداً مصوَّراً، وتمثالاً مجسَّماً، بدون روحٍ ولا حياة، مدةً من الزمن لا يعلمها إلا هو، وبعد ذلك نفخَ فيه الروح.

وأخبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ أولَ ما يُخْلَقُ من الإِنسان هو «عَجْبُ الذَّنَب»، وهو آخرُ فقراتِ العمودِ الفقري، من أَسْفَلِ الظهر، وهو المعروفُ باسم «العُصْعُص».

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ بني آدم يأكُلُه التراب، إلاّ عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلِق، ومنه يُرَكَّب».

وفي لفظٍ آخرَ قال: وليسَ من الإِنسانِ شيءٌ إلا يَبْلى إلاّ عَظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنب، ومنه يُرَكَّب الخلْقُ يومَ القيامة»[1].

فقول الرسول ﷺ عن «عَجْبِ الذَّنب»: «منه خُلِق» دليلٌ على أنَّ أولَ ما رُكِّبَ من جسد آدمٍ وهو تمثال، هو عَجْبُ الذَّنَب.

أي: بدأتْ تسويتُه من أولِ وأَصغرِ فقراتِ العمود الفقري، ثم تتابعَ تصويرُه، إلى أنْ صارَ تمثالاً مجسَّماً مصوَّراً.

إبليس يتعجب ويعرف نقطة ضعف آدم:

ولما كان آدمُ جسداً تمثالاً في الجنة، كان إبليسُ ينظرُ إليه ويتعجَّب.

روى مسلم في صحيحه عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما صوَّرَ اللَّهُ آدم في الجنة، تَرَكَه، ما شاءَ اللَّهُ أن يتركه، فجعلَ إبليسُ يَطيفُ به، ينظرُ إليه، فلما رآه أجوف، عرفَ أنه خَلْقٌ لا يتمالَك»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨١٤. ومسلم برقم: ٢٩٥٥. وانظر رواته الآخرين في الأحاديث الصحيحة للعلي. رقم: ٤.

(٢) أخرجه مسلم، برقم: ٢٦١١. وانظر رواته الآخرين في الأحاديث الصحيحة رقم: ٥.

أي أنَّ إبليسَ كان يدورُ حول جسدِ آدم، المُلقىٰ على أرضِ الجنة، ينظرُ إليه فاحصاً متعجِّباً.

فلما أمعنَ النظرَ فيه وجدَه أجوف، أي: داخِلُه خالٍ. فعرفَ إبليسُ أنه مخلوقٌ لا يتمالَك.

ومعنى «لا يتمالَك»: لا يملكُ نفسَه عند الغضب، أو عند الشهوة، أو: لا يملكُ دفعَ وسوسةِ الشيطان عنه.

إنَّ فراغَ جوفِ الإنسان، وخُلُوَّ داخِلِه، دليلُ ضعفه. وقد عرفَ إبليسُ نقطة الضعف هذه عند آدم أبي البشر، فدخلَ إليه منها، وهو يدخلُ منها إلى أولادِه وذريته.

إنَّ الناسَ ضعفاء لا يتمالَكون، ولا يملكونَ أنفسَهم عند المفاجآتِ والهزات، ولا يملكون دفْعَ عدوِّهم عنهم، إلاّ بصدْقِ اللجوءِ إلى الله والاستعاذة به، والاعتمادِ عليه.

محمد عليه السلام نبي قبل نفخ الروح في آدم:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ، أنَّ اللَّهَ قدَّرَ جَعْلَه نبياً وخاتمَ النبيين، وفْقَ علمِه وإرادتِه سبحانه، وآدمُ تمثالٌ ملقى على أرضِ الجنة، قبلَ نفخِ الروح فيه.

روى أحمد في مسنده عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عندَ الله، في أمِّ الكتاب، لخاتمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لمنْجدِلٌ في طينته»[1].

وروى الترمذيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسولَ الله، متى وجبتْ لك النبوة؟ قال: «وآدمُ بين الروح والجسد»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٧ ـ ١٢٨. وانظر الأحاديث الصحيحة، رقم: ٦.

(٢) أخرجه الترمذي، برقم: ٣٦٠٩. وانظر الأحاديث الصحيحة، رقم: ٧.

ومعنى الحديثَيْن أنَّ اللَّهَ قدَّرَ كونَ محمدٍ ﷺ آخرَ النبيين، وهذا وفْقَ علمه الأزلي، قبلَ خلقِ الإنسان، وقبلَ نفخِ الروحِ في آدم أبي البشر.

ولا يدلُّ الحديثان على أنَّ اللَّهَ خلَقَ محمداً ﷺ من النور، وأَنه أوجَدَه نوراً حيّاً قبلَ خلْقِ آدم ونفخِ الروح فيه، كما قد يفهمُ بعضُهم خطأً.

فمحمدٌ ﷺ وُلد وعاش فيما بَعد، عندما خلَقَه الله فِعْلاً، وخَتَمَ به النبيين، وبعثَه رحمةً للعالَمين.

[٨]

الله يخبر الملائكة باستخلاف آدم

إخبار الله للملائكة باستخلاف آدم:

في هذه المرحلةِ من خلْقِ آدم ـ عليه السلام ـ مرحلةِ تسويتِه جسداً، وتصويرِه تمثالاً مجسَّماً، أخبرَ اللَّهُ الملائكةَ عن إرادته في جعْلِ هذا المخلوق خليفةً في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

أخبرَ اللَّهُ ملائكتَه أنه سيجعلُ خليفةً في الأرض، وهذا القولُ منه لهم من بابِ الإخبارِ والإعلام، لا من بابِ الاستشارةِ والحوار، كما قد يظنُّ بعضُهم.

وهو يخبرُهم عن أمرٍ مستقبلي، لأنَّ آدمَ وقتَها لم تكن قد نُفختْ فيه الروح ـ والله أعلم ـ.

وأخبرَهم عن الأمرِ المستقبليّ باسم الفاعل ﴿جَاعِلٌ﴾، ولم يقل: إني سأجعل، وذلك من بابِ التأكيدِ على وقوعِ الأمر، لأنَّ ما أراده اللَّهُ فهو واقعٌ لا محالة.

ولما أخبرهم اللَّهُ عن استخلافِ آدم وبنيه في الأرض قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وصدَرَ كلامُ الملائكة بصيغةِ الاستفهام ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾؟ وهذا الاستفهامُ منهم ليس للإنكار، لأنَّ الملائكةَ لا ينكرونَ على الله شيئاً أَرادَه، ولا يعترضون على شيءٍ فعَلَه، فهم موقِنون بأن اللَّهَ عليمٌ حكيم، وأنَّ أفعالَه كلَّها صواب.

وقد وصفَهم اللَّهُ بقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧].

واستفهامُهم هذا للاستعلام، فهم يطلبون من الله أن يُعْلِمَهم ويخبِرَهم بحكمتِه من جعل هذا المخلوق خليفةً في الأرض.

وقد أَعلمهم اللَّهُ بحكمتِه فيما بعد، وبعدَ أن نفخَ في آدم الروح، وحيث عجزوا عن معرفةِ أسماءِ المسمَّيات، بينما عرفَها آدم الخليفة.

الملائكة يتوقعون إفساد الخليفة وسفكه للدماء:

قال الملائكةُ لله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ وهذا يعني أن الملائكةُ كانوا يتوقَّعون من الإنسان الإفسادَ في الأرض وسفك الدماء!.

ولعلَّهم عرفوا ذلك، أو توقَّعوه، من باب فراستِهم وفطنتِهم، فهم يرونَ مراحلَ تكوين آدم، ويعَرفونَ أنَّ أساسَ ذلك حفنةٌ من تراب الأرض، جُبلتْ بالماء فصارتْ طيناً.

لقد ربطوا بفراستِهم الإِيمانيةِ النورانية الحية، بين الإِفسادِ وسفكِ الدماء، وبين العنصر الأرضيّ الترابي، وبما أنَّ عنصرَ هذا المخلوقِ الخليفة ترابيٌّ أرضي، فمن المتوقَّع منه الإِفسادُ وسفكُ الدماء.

فَكَلامُهُم من باب التوقّع والفراسةِ والبصيرة ـ والله أعلم ـ وقد صدقَتْ فراستُهم، حيث تحقَّق الإِفسادُ وسفكُ الدماء في التاريخ البشري على وجْهِ الأرض فيما بعد.

ولكنَّ هذا الإِفسادَ وسفكَ الدماء، الذي يقع على أيدي الكفار من الناس، من لوازمِ الخلافة، وسنةِ «التدافع» التي جعَلَها الله بين الناس، أو هو ضريبةٌ حتمية، تدفعها البشريةُ عندما تبتعدُ عن منهج الله.

وإنَّ اللّهَ لم يُخَطِّئ الملائكةَ في توقّعهم الإِفسادَ وسفكَ الدماء، من نسلِ هذا الخليفة، وإنما أَحالَهم على علمه، المحيطِ بكل شيء، وأنَّ علمَهم لا يساوي شيئاً أمامَ علمِه ـ سبحانه ـ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ولقد عَلِمَ الملائكةُ بعدَ ذلك حكمةَ استخلافِ آدم في الأرض، عندما علَّمَه اللّهُ الأسماءَ كلها، وطلبَ منهم أن يُنبئوه بها، فاعترفوا بعجْزِهم، لأنهم لا يعلمون إلاّ ما علَّمهم الله، بينما قامَ آدمُ الخليفةُ بإِنبائهم بالأسماء، فقال الله لهم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

[٩]

نفخ الروح في آدم

لما أرادَ اللّهُ بثَّ الحياة في جسدِ آدم المصوَّر، نفخَ فيه من روحه، فصارَ مخلوقاً حياً.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٢].

لقد نفخَ اللّهُ في جسدِ آدم من روحه، وهي نفخةٌ غيبية، لا نعرفُ كيف تمّت، لأن النصوصَ لم تخبرْنا بذلك، فنقول: هي نفخةٌ غيبيةٌ خاصة، تليقُ بجلالِ الله وعظمته.

﴿مِن رُّوحِي﴾ بيانية وليست تبعيضية:

وحرْفُ ﴿من﴾ في قوله ﴿مِن رُّوحِي﴾ ليسَ للتبعيض، وإنما هو للبيان.

ليس للتبعيض، لأنه لا تبعيضَ في روح الله، إنَّ روحَ الله لا تتبعَّضُ ولا تتجزَّأ ولا تنقسم، ليذهبَ جزءٌ منها إلى آدم - أو إلى عيسى بن مريم - عليهما السلام.

﴿من﴾ في قوله ﴿مِن رُّوحِي﴾ لبيان الجهة. أي: هذه النفخةُ من عند الله، وهذه الروحُ التي جعلها في آدم منه سبحانه، أي: من أمرِهِ وإرادتِه ومشيئته.

وإضافةُ الروح إلى الله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ لتكريمها وتشريفها، كما أُضيفت الناقةُ إلى الله في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

وكما أُضيفَ البيتُ إلى الله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد أخبرنا اللّهُ أن «الروح» التي جعلَها في آدم، وفي ذريته من بعده، سِرٌّ من أسرارِه سبحانه، يستحيلُ على البشر - مهما تقدَّم علمهم - معرفةُ حقيقتها، أو إدراكُ سِرِّها وكنهِها، فهم لا يعرفون إلا مظاهرَها وآثارَها.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولما نفخَ اللَّهُ الروحَ في جسد آدم عطس، فشمَّتَه الله.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلقَ اللَّهُ آدم، ونفخَ فيه الروح، عطس، فقال: الحمدُ لله، فحمدَ الله بإِذْنِه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم»[١].

نفخ الروح في آدم بعد عصر يوم الجمعة:

وقد كان خلْقُ آدم ـ بمعنى نفخ الروح فيه ـ يوم الجمعة.

روى مسلم عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «وخَلَقَ آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخرِ الخَلْق، في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[٢].

وفي روايةٍ أُخرى عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ يوم طلعتْ فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخِلَ الجنة، وفيه أُخرجَ منها»[٣].

وفي لفظ أبي داود عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ يوم طلعَتْ فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم،، وفيه أُهبط، وفيه تيبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقومُ الساعة»[٤].

وتدلّ الأحاديثُ السابقة على أن اللَّهَ خلقَ آدم ونفخَ فيه روحه في آخرِ ساعةٍ من يوم الجمعة، فيما بينَ العصر إلى المغرب.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٣٦٨. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢٠.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٧٨٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٨.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٨٥٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩.
(٤) أخرجه أبو داود برقم: ١٠٤٦. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩.

[١٠]

هيئة آدم التي خلقه الله عليها

أَخبَرنا رسولُ الله ﷺ عن شكْلِ وهيئةِ آدم لما خلقه الله.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «خلَقَ اللَّهُ آدم على صورته، وطولُه ستون ذراعاً. ثم قال: إِذهبْ، فسلِّمْ على أولئك النفر ـ وهم نفرٌ من الملائكة جلوس ـ فاستمِعْ ما يحيّونك، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذريتك.

فذهب فقال: السلام عليكم.

فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله فزادوه: ورحمةُ الله.

فكلُّ منْ يدخلُ الجنةَ على صورة آدم، في طوله، ستون ذراعاً، فَلَمْ تَزل الخلْقُ تنقصُ بعده حتى الآن»[1].

وعندما ننظر في هذا الحديث الصحيح، فإننا نستخرجُ منه هذه الدلالات:

صورة آدم لم تتغير:

١ ـ الهاء في «على صورته» لا تعودُ على الله، كما قد يفهم بعضُهم خطأً، فآدمُ عليه السلام ليس على صورة الله، لأن اللَّهَ سبحانه ليس له صورةٌ مجسَّمة، ولم يَخلقْ على صورته أحداً من الخلق.

تعودُ الهاء على «آدم» نفسه، عليه السلام. ومعنى: «خلق اللَّهُ آدمَ على صورته»: أن اللَّهَ خلقه على صورتِه التي أهبطه اللَّهُ عليها إلى الأرض.

أي: أن اللَّه خلقَ آدم في الجنة، على جسْمِه الذي حملَه على

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٢٦. ومسلم برقم: ٢٨٤١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧.

الأرض، وهيئتِه وصورتِه التي هو عليها، على وجه الأرض، فهو لم يتطورْ في جسمه، ولم تتغيرْ صورتُه ولم تتبدل. فصورتُه التي رآها أولادُه على الأرض، هي نفسُها صورتُه التي خلقه اللّهُ عليها في السماء.

٢ ـ كان طولُ آدم ستين ذراعاً، وهو طولُه في الجنة، وطولُه على الأرض، لم يتغير. والسّتون ذراعاً تساوي اثنين وأربعين متراً.

وهذا طولٌ شاهق، وارتفاعٌ سامق، قد لا يستوعبُهُ بعضُ الناس، وقد يستغربونه. لكنَّ الاستغرابَ والإِنكار يزولان، عندما نتذكَّرُ أن اللّهَ هو الذي خلَقَه على هذا الطول، واللّهُ على كل شيء قدير.

وبما أنَّ الحديثَ الذي أخبر عن ذلك صحيح، فيجب أن نأخذ به، ولا نجيز مخالفته.

الحديث يقرر عكس نظرية دارون:

٣ ـ أنَّ طولَ الناس بعد آدم صار يتناقص، فذريتُه كانوا أَقصرَ منه، ومعدلُ طول الناس في هذا الزمان حوالي مئة وسبعين سنتمتراً، وأينَ هذا من طولِ أبيهم آدم الذي وصل اثنين وأربعين متراً.

وهذا معنى الحديث: «فلم تزل الخلقُ تنقصُ بعده حتى الآن».

إنَّ هذا الحديثَ الصحيح يقرِّرُ عكسَ نظرية «النشوء والارتقاء» الغربية الجاهلية، المعروفة باسم «نظرية دارون».

فيرى «دارون» أنَّ الإِنسانَ تطوَّرَ وارتقى، من الصِّغر إلى الكِبَر، وذلك في الجسم والحجم والهيئة.

والحديثُ الصحيحُ يقررُ أن آدمَ خلقَهَ اللّهُ طويلاً، وأنَّ ذريتَه أقصرُ منه بكثير.

٤ ـ أنَّ المؤمنين يدخلون الجنةَ على طول أبيهم آدم عليه السلام،

فكلٌّ منهم يكون طولُه في الجنة ستين ذراعاً، لئلا يقعَ بينهم غيرةٌ أو تحاسدٌ أو تباغض.

٥ ـ أنَّ السلامَ تحيةُ المسلمين، منذ أبيهم آدم عليه السلام، فهو تحيةٌ عريقةٌ أصيلة، بدأها آدم عليه السلام في الجنة، منذ الساعاتِ الأولى لخلْقِه فيها.

ومن الفضْلِ أن تُرَدَّ التحيةُ بأحسنَ منها. فلما قال آدم للملائكة: السلامُ عليكم، ردّوا عليه بأحسنَ منها فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله.

ولهذا أرشدَنا اللَّهُ إلى حسْنِ التحية، والكرم في الرد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

[١١]

آدم ينبئ بالأسماء للمسميات

الله بين للملائكة حكمة استخلاف آدم:

خَلَقَ اللَّهُ آدم عليه السلام، ونفخَ فيه من روحه، وذهبَ وسلَّمَ على نفرٍ من الملائكة، فردّوا تحيتَه بأحسنَ منها.

وأَرادَ اللَّهُ سبحانه أنْ يبيِّنَ للملائكة حكمةَ جعْلِ هذا الإنسان خليفةً في الأرض، وذلك ليجيبَهم على سؤالهم السابق عن حكمةِ استخلافِ هذا الخليفة.

وهذا هو ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

اللَّهُ العليمُ يَعْلَمُ أن الملائكة لم يخلُقْهم للخلافة في الأرض، ولذلك لم يُزوِّدهم سبحانه بالوسائل لممارسةِ الخلافة، أما آدمُ وذريتُه فقد خلَقَهم ليكونوا خلفاءَ في الأرض، ولذلك زوَّدهم بالوسائلِ لممارسة هذه الخلافة.

وأرادَ اللَّهُ أنْ يُعْلِمَ الملائكةَ بهذه الحكمة، فامتحنَهم وامتحن آدمَ معهم، فنجحَ آدمُ في ذلك الامتحان، وأجابَ عن الذي عجزوا هم عنه.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

علم الله آدم أسماء كل شيء:

علَّمَ اللَّهُ آدمَ الأسماءَ كلَّها، كما تصرِّحُ الآية، وكما صرحَ بذلك حديثٌ صحيح عن رسول الله ﷺ، وهو حديثُ الشفاعة المعروف.

روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يَجمعُ الله المؤمنين يوم القيامة، فيقولون: لو استشفَعْنا إلى ربِّنا، حتى يريحَنا من مكاننا هذا.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أما تَرى الناس؟ خلَقَكَ اللَّهُ بيده، وأسجدَ لك ملائكته، وعلَّمك أسماءَ كل شيء. اشفعْ لنا إلى ربِّك، حتى يُريحَنا من مكانِنا هذا»[١].

ووجْه الدلالةِ من الحديث، أنهم يقولون لآدم: وعلَّمَك أسماءَ كل شيء.

(١) أخرجه البخاري برقم؛ ٤٤٧٦. ومسلم برقم: ١٩٣. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١.

أي: أن اللَّهَ علَّمَ آدمَ أسماءَ الأشياءَ كلَّها.

وتلتقي الآيةُ والحديثُ على تقريرِ هذه الحقيقة.

ولا نملكُ غير هذين النَّصَّين، في تعليم آدم الأسماءَ كلَّها، وهما نصّان مُبْهمان مُجْملان، لا يبيِّنان تفصيلاتِ ذلك التعليم.

لا نعرفُ كيفية تعليمه تلك الأسماء، ولا تفصيلاتِ تلك الأسماء.

فهل حفَّظَه اللَّهُ «قاموس» أسماء الأشياءِ كلِّها؟ أم حفَّظَه أسماءَ الأشياء التي كان يحتاجُها هو؟ أم علَّمه أسماء الأشياء بطريقةٍ أُخرى غير التحفيظ؟ وهل كان تعليمُه باللغة العربية؟ أم بلغةٍ أخرى؟

لا نملكُ نصوصاً للإِجابة على هذه الأسئلة، لذا نعتبرُ هذه الإِجابةَ والتفصيلات من «مبهمات القرآن»، التي لم يَرِدْ عنها بيانٌ في النصوص، فنتجاوزُها، ونَكِلُ العلمَ بها إلى الله وحده.

ولا نقول إلاّ أنّ اللَّهَ علَّمَ آدمَ أسماءَ الأشياء كلِّها، كما صرحتْ بذلك الآية.

عجز الملائكة وعلم آدم:

علَّمَ اللَّهُ آدمَ عليه السلام أسماءَ الأشياءِ كلِّها، ثم عرضَها على الملائكة، ولم يكن للملائكة سابقُ علْم بها، لأن اللَّهَ لم يعلِّمهم إياها.

وطلبَ من الملائكة أن ينبئوه ويخبروه بأسماء تلك الأشياء: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وإنَّ الله يعلمُ أن الملائكةَ لن يعرفوا أسماءَ المسميات، لأنه لم يعلِّمهم إياها، ومع ذلك امتحنَهم، وطلبَ منهم إنباءَه بها، وذلك ليريهم حكمته في جعْلِه آدم خليفة، وليبيِّن شَرفَ آدم عليهم بالعلم الذي وهبه الله إياه.

واعترفَ الملائكةُ بعجزهم عن الإِنباءِ بالأسماء: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢)﴾.

ويدلُّ جوابُ الملائكة على أنَّ علمَهم من الله، وأنهم لا يعلمون عِلْماً ذاتياً مباشراً، ولذلك لا يعلمون الأشياءَ التي لم يعلِّمْهم اللّهُ إياها.

عند ذلك طلبَ اللّهُ من آدم الإِجابةَ على ما عجزَ عنه الملائكة، والإِخبارَ بتلك الأسماء، فقامَ آدمُ بذلك على أحسن وجه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾.

نجحَ آدمُ عليه السلام فيما عجزتْ عنه الملائكة، و «رَمَزَ» بالأسماء للمسمَّيات، وأنبأ الملائكة بتلك الأسماء.

لقد جعلَ اللّهُ في هذا الإِنسانِ الخليفةِ خاصيةَ النطق والكلام، والتعبيرِ والبيان، والرمزِ بالأسماء للمسميات، لأهميةِ ذلك في تحقيق الخلافة.

ولو لم يجعلِ اللّهُ في الإِنسانِ الخليفة خاصيةَ النطق والتعبير والبيان فكيف سيحقِّقُ الخلافة؟ وكيف سيقضي حاجاته؟.

ولهذا امتنَّ اللّهُ على الإِنسان في تعليمِه النطقَ والبيان، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

أما الملائكةُ فلا يحتاجون لهذه النوعيةِ من الكلام، ولا الرمز بالأسماء للمسميات، لعدم حاجتهم لها في «عبادتهم» لله.

[١٢]

سجود الملائكة لآدم

بعدما خلقَ اللّهُ آدم، ونفخَ فيه من روحه، أمرَ الملائكةَ أنْ يسجدوا له. فنفَّذوا الأمرَ، وسجدوا.

وكان الملائكةُ كلُّهم مأمورين بالسجود، ونفَّذوا الأمرَ كلُّهم أجمعون، لأنهم لا يعصونَ الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

ودليلُ شمولِهم جميعاً بالأمر، وتنفيذِهم كلِّهم له، قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧١-٧٣].

وأل التعريف في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للاستغراق، أي أنَّ اللّهَ قال هذا القولَ للملائكة كلِّهم، وأَمَرَهم جميعاً بالسجود.

ولما أخبرَ اللّهُ عن سجودهم، أكَّدَ على قيامِهم جميعاً بالسجود: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وفي الآيةِ لفظتان لتأكيد التوكيد، وهما ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

وتدلُّ اللفظتان على أَمْرِ الملائكة كلِّهم أجمعين بالسجود، كما تدلان على قيامِهم كلِّهم أجمعين بالسجود.

سجدوا حقيقة تكريماً له:

أما كيفيةُ السجود الذي أُمِروا به لآدم، فقد نصَّت الآيةُ عليها: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

إِنَّ هذه الجملة تدلُّ على أَنَّ سجودَهم كان كسجودِنا نحن لله في الصلاة، لأنَّ كلمةَ «السجود» عند الإِطلاق، تنصرفُ إِلى السجود الحقيقي على الأرض، ولا تُصْرَفُ عن هذا المعنى الحقيقي إِلى غيره إلا لقرينة.

ثم إنَّ فعل الأمر «قَعُوا» يدلُّ على ذلك، لأنّ ماضيه هو «وَقَع». وعندما يقال: وقعَ فلانٌ ساجداً، أو: خَرَّ ساجداً، فمعناه أنه سجدَ على الأرض.

وكان سجودُ الملائكة لآدم سجودَ تكريم وتحية، وليس سجودَ عبادة، لأنَّ العبادةَ لا تكونُ إلاّ لله، وسجودُ العبّادة لا يكون إلا لله.

الآمِرُ لهم بالسجود لآدم هو الله، ولما سجدوا له نفَّذوا أمْرَ اللَّه، وهذا عبادةٌ منهم لله، فكانوا مخلِصين في عبادتهم لله، عندما سجدوا لآدم.

أي أنهم كانوا ساجدين لله في الحقيقة، عابِدين له، وكان آدمُ الذي سجدوا أمامَه لله بمثابةِ قبلةٍ لهم في السجود، كما أنَّ الكعبةَ قبلةٌ لنا في عبادتِنا وصلاتِنا وسجودِنا لله.

ولعلَّ سجودَهم التكريميَّ لآدم عليه السلام، لتشريفه عليهم بالعلم، الذي علَّمه اللَّهُ إياه، وفي هذا إشارةٌ إلى فضيلةِ العلم، وفضْلِ العالم.

وينسحبُ فضلُ آدم على الملائكة إلى المؤمنين الصالحين من ذريته، فالمؤمنُ الصالحُ العابدُ لله، أفضلُ عند الله من الملائكة، لأنَّ عبادتَه لله، وإيمانَه به، يتمُّ بعد تكليفِ واختيار، ومجاهدة ومشقة، وليس كذلك إيمانُ الملائكة وعبادتهم لله.

[١٣]

إبليس من الجن ولم يسجد لآدم

سجدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعون لآدم، أما إبليسُ فقد رفضَ السجود. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

وكان إبليسُ مأموراً بالسجود لآدم، كما جاءَ في صريح القرآن. حيث قال الله له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وإبليسُ لم يكن من الملائكة، ولو كانَ منهم لما عصى. وإنما هو من الجن، كما صرَّحَتْ آياتُ القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

هو من الجن بنص القرآن:

ولا أَدري لماذا يختلفُ المفسّرون والإِخباريّون في أصلِ إبليس: هل هو من الملائكة أو من الجن؟ بعد ورودِ هذا التصريح القرآني بأنه كانَ من الجن!!.

ولا يمكنُ أن يكونَ من الملائكة، لأن الملائكةَ خلَقَهم اللَّهُ من نور، وهم مفطورون على الطاعةِ والعبادة، وعلى الالتزام والتنفيذ.

وقد أخبرَ اللَّهُ عنهم أنهم لا يعصونَه، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وإبليسُ عصى واستكبر، وتمرَّدَ وامتنع، فكيف يكون مَلَكاً من الملائكة؟.

وقد شملَه أمْرُ الله بالسجود، مع أنه لم يكن من الملائكة، لأنه كان معهم، فشملَه الأَمْرُ لهم، وانطبقَ عليه ما ينطبقُ عليهم.

ولم تخبرْنا النصوصُ عن السبب الذي جعل إبليسَ مع الملائكة، ولا عن العملِ الذي كان يعمله في الجنة، ولهذا لا نحاولُ تعيينَ ذلك، حتى لا نذهبَ إلى الخرافات والإِسرائيليات.

وبما أنَّ إبليس من الجن، فإنَّ الاستثناءَ في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء منفصل، كما يقولُ علماء النحو، أي أنَّ المستثنى ليس من جنسِ المستثنى منه.

وهذا معناه أنَّ إبليسَ ليس من جنسِ الملائكة.

وإبليسُ برفضِه السجود، وعصيانِه لربه، هو أولُ من كفرَ بالله، ورفَضَ أوامرَه، وتمرَّدَ عليه. قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: ٧٤].

وتخبرُنا الآيتانُ عن السببِ الذي دفعَ إبليس إلى الكفر، إنه الاستكبار.

لقد استكبر، واستكبارُه قادَهُ إلى أن يمتنعَ من تنفيذِ أمر الله، وهذا أوصَلَه إلى الكفر، وهو أولُ الكافرين بالله.

«إبليس» اسمه والشيطان صفته:

و «إبليس» اسمٌ له، قبلَ أن يرفضَ السجود لآدم، وهو اسمُ علمٍ أعجمي، فلا نبحثُ عن مادة اشتقاقِه، في اللغة العربية.

لكنه بعد أن تمرَّدَ على الله، أُطلقَ عليه وصفٌ يتفقُ مع التمرد، حيث وصفَه اللّهُ بأنه «شيطان».

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٣٦].

و «شيطان» صفةٌ مشتَقّة، واشتقاقُه من «شَطَن». ومعنى الشَّطن: الابتعاد.

ووُصفَ إبليسُ بذلك لتشيطُنِه، وابتعادِه بذلك عن رحمة الله وكرامته، واستحقاقِه الاحتراقَ بالنار في جهنم.

إذن: اسمه «إبليس» ووصْفُه «شيطان».

[١٤]

إبليس يبرر عصيانه ويتعهد بالإغواء

عندما قال اللَّهُ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

أجابه إبليس قائلاً: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦)﴾. [ص: ٧٥ ـ ٧٦].

إبليس استكبر واستعلى:

أساسُ مشكلة إبليس وسِرُّ هلاكه، أنه تكبَّرَ واستعلى، ورأى نفسَه خيراً من آدم عليه السلام، واعتَدَّ بالمادة التي خُلق منها. إنه مخلوقٌ من النار، وآدمُ مخلوقٌ من الطين، والنارُ في مقياسِه أشرفُ من الطين، ومَنْ خُلِقَ من النارِ خيرٌ في ـ رأيه ممن خُلِقَ من الطين، فكيف يسجدُ لمن هو دونَه؟ إنه لنْ يفعلَ ذلك، ولو كان الآمرُ بالسّجود هو اللَّهَ ربَّ العالمين!!

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾: هي التي دَفعتْ إبليسَ للقيام بما قام به، وأَوصلَتْه إلى ما وصلَ إليه، إنها تعني التكبُّرَ والاستعلاء، والأنانيةَ والافتخار، والاعتدادَ بالنفس، وهي كلُّها مردياتٌ مهلكات، ومن خلالها يتمكَّنُ إبليس من إغواءِ وإضلالِ حزبه الكافرين، من ذريةِ آدم عليه السلام.

ولما يرى الشيطانُ المؤمنَ الصالح، عابداً ساجداً لله، يندمُ هو على رفضه السجود لآدم، وندمُه هو ندمُ العجز والحسرة، وليس ندمَ التوبة.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسَجَد، اعتزلَ الشيطانُ يبكي. يقول: ياويْلَه، أُمِرَ ابْنُ آدم بالسجود، فسجد، فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود، فعصيتُ، فلي النار»(١).

إبليس يتعهد بإغواء بني آدم:

وقد لجَّ إبليسُ في كفره، واستمرَّ في عصيانه، وواصلَ تمردَه، وتعهَّدَ أنْ يقومَ بإغواءِ بني آدم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وإبليسُ في قوله السابق، يتوقَّحُ على الله سبحانه، فينسبُ له أنه هو الذي أغواه، مع أنه هو الذي غوى وتمرَّد، وعصى وكفر.

وقد تعهدَ إبليسُ في قوله السابق بإغواءِ ذريةِ آدم، وإبعادِهم عن صراط الله المستقيم، وأخْذِهم إلى طريقِ الكفر والعصيان.

واعترفَ بأنه لا سلطانَ له على عبادِ الله المؤمنين، وأوليائه المخلصين، لأنهم يعوذون بالله من شره، فيعيذُهم الله بفضله.

---

(١) أخرجه مسلم، برقم: ٨١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢٢.

[١٥]

إبليس من أطول الأحياء عمراً

أرادَ إبليس أنْ يكونَ مخلَّداً في الدنيا، وأنْ لا يقعَ عليه الموت، فطلبَ من الله طلباً عجيباً.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٩ ـ ٨١].

لماذا طلبَ إبليسُ من الله أنْ يُنْظِره إلى يوم البعث؟

لقد طلبَ من الله أن يبقى حياً إلى يوم البعث. أي: يبقى حياً طيلةَ الحياة الدنيا، بينما الناسُ يولَدون، ثم يموتون.

ومعنى هذا الطلب من إبليس، أنه يريدُ أن لا يموت، ويطلبُ من الله أن لا يوقِعَ عليه الموت، وهذا هو الخُلْدُ الذي منّى نفسَه به.

لكنَّ الله لم يستجبْ له ذلك الطلب، وإنما قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

أخبرَ اللَّهُ إبليسَ أنه أخَّرَه إلى يوم الوقت المعلوم. وهذا الوقتُ المعلوم ليس يومَ البعث، ولكنه الوقتُ المحدد، الذي حدَّدَ اللَّهُ فيه انتهاءَ عمرِ إبليس، وقدومَ أجله، وعند ذلك سيموت.

وهذا الوقتُ المعلوم يكون قبيلَ قيام الساعة، أي أنَّ إبليسَ لا بد أنْ يموتَ قبل قيام الساعة.

ومع ذلك فهو من أطولِ المخلوقاتِ عمراً، لأنه حيٌّ موجودٌ قبل خلْقِ آدم عليه السلام، وسيبقى حياً حتى قبيلَ قيامِ الساعة. فهو سيعيش مئات آلاف السنين، إن لم يكن ملايين السنين!.

[١٦]

عداوة إبليس لآدم وذريته

لما رفضَ إبليسُ السجودَ لآدم، أوقعَ اللَّهُ عليه لعنتَه، واللعنةُ هي الإبعادُ والطردُ من رحمة الله، والإخراجُ من الجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

وأخرجَ اللَّهُ إبليسَ من الجنة لأنه تكبَّر. والمتكبِّرُ لا مكانَ له في الجنة. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

وقد أعلنَ إبليسُ عن عداوتِه لبني آدم، وتعهَّدَ بإغوائِهم وإضلالِهم، وصَدِّهم عن سبيل الله.

بعض أسلحة إبليس في إغواء بني آدم:

وأشارَ القرآنُ إلى بعضِ أسلحةِ إبليسَ في إغواء بني آدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٥].

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: بمعنى: أرأيت. والكافُ فيه حرفُ خطاب، لا محلَّ له من الإعراب.

يقول إبليس لربه: أرأيت آدم، هذا الذي كَرَّمْتَه وفضَّلْتَه عليَّ، ولعنْتَني بسببه، سلِّطْني على ذريته، ومكِّنِّي منهم حتى أُريكَ ماذا سأفعل بهم: لأُغوِيَنَّهم، وأُضلَّنَّهم، وأَحتنكَنَّهم وأُسيطرنَّ عليهم.

ومعنى ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: لأسيطرنَّ عليهم.

والكلمةُ مأخوذة من «الحَنَك». وحَنَكُ الدابة هو الذي يوضَعُ فيه لِجامُها ومقودُها لتُقادَ به.

فكأنَّ إبليسَ يَعتبرُ جنودَه وأَتْباعَه من ذرية آدم، من البهائم والدواب، يضعُ في حَنَكِ كلٍّ منهم خطاماً ورَسَناً، يقودُه به، وذاكَ المسكينُ يسيرُ خلْفه مستسلماً منقاداً ذليلاً، كما تسير الدابةُ خلْفَ صاحبها.

وقد سلَّطَ اللَّهُ إبليس على ذريةِ آدم، ومكَّنه منهم، وجعلَ له مجالاً لإِغوائِهم والوسوسةِ لهم، وذلك ابتلاءً وامتحاناً لهم.

ومن أسلحةِ الشيطان في إغواء بني آدم، التي ذكرَتْها الآيات:

١ ـ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾. إنَّ إبليسَ يؤثِّرُ في جنودِه بصوته، حيث يزعجُهم ويستفزُّهم به.

قال الراغبُ في الاستفزاز بالصوت: «والاستفزازُ هو الإزعاجُ والتأثير. يقال: استفزَّه بصوته. أي: أَزعجَه بالصوت»[1].

وصوتُ الشيطان هو كلُّ الأصوات والعبارات المحرَّمة التي تنتشرُ في حياة الناس، بهدفِ التأثير فيهم، ودعوتِهم إلى التخلّي عن

(١) المفردات للراغب: ٦٣٥.

منهاج الله، وارتكابِ ما نهى اللَّهُ عنه. وما أكثرَ هذه الأصواتِ الشيطانيةِ الصاخبةِ المجلجلة في هذا الزمان.

٢ ـ ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: إبليسُ يُجْلِبُ على أتباعه وجنوده، ويسوقُهم أمامه، ويصيحُ عليهم، كالراعي الذي يُجْلِبُ على غنمه، ويسوقُها أمامَهُ.

قال الراغب: «وأصْل الجَلْب: السَّوْق. يقال: جَلَبْتُ الشيء: سُقْتُه. وأجلَبتُ عليه: صِحْتُ عليه»[١].

ويستعينُ إبليسُ على جنوده من ذرية آدم بمجموعاتٍ من «قواته الخاصة»، التي قالت عنها الآية: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

وخيلُ الشيطان: فرسانُه الذين يركبون الخيول، ويسمّون «الخيّالة».

ورَجِلُ الشيطان: جمعُ راجل، وهم المشاةُ الراجلون، الذين يمشون على أقدامهم.

لإبليس قواتٌ كثيرة، منها ما هي قواتٌ «محمولة»، ومنها ما هي قواتٌ «راجلة مشاة»، يقومون بإغواءِ بني آدم.

٣ ـ ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: إنه يشاركُ حزبه في أموالِهم، وفي أولادِهم.

ومشاركةُ إبليسَ لأتْباعه في أموالهم، بأَنْ يدعوهم إلى جمعِها من الحرام، وإِنْفاقِها في الحرام، وتضييعِها بالتبذير والإِسرافِ.

---

(١) المرجع السابق: ١٩٨.

ومشاركته لهم في الأولاد، بأن لا يراعوا منهجَ الله في الزواج والتناسل، فلا يكون الزوجُ ولا الزوجةُ من الصالحين، ولا يُقيمونَ أُسرتهم على منهاج الله، ومن ثم لا يكونُ أولادهم صالحين، وإنما يكونون فاسدين ضائعين، أَسرى للشيطان.

٤ ـ ﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. إنَّ إبليسَ يعِدُ جنودَه الوعودَ الفارغة، ويُمَنّيهم الأمانيَّ الخيالية.

يَعِدُهم خيراً، فلا ينالون إلاّ شراً.

إنه يَضُرُّهم ويَخْدَعُهم بهذه الوعودِ والأماني، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩ ـ ١٢٠].

لا سلطان له على عباد الله الصالحين:

ورغم كثرةِ أسلحةِ إبليس في إغواءِ جنده من ذريةِ آدم فإنه عاجزٌ عن إغواءِ عبادِ الله الصالحين. ولهذا قال الله له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾.

وإبليسُ يعلمُ عجْزَه عن التأثير في عباد الله الصالحين.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

وقد حذَّرَنا اللّهُ من عداوةِ إبليس، ونهانا عن الاستجابةِ له، أو اتخاذِه وليّاً.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

[١٧]
خلق الله لحواء

خلَقَ اللّهُ «حواء»، وجعَلَها زوجاً لآدم، وأسكَنَها معه في الجنة. وقد عرَفْنا لآدمَ زوجاً سكنَ معها الجنة، من خلالِ آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩].

حواء زوج آدم:

وعرَفْنا أنّ اسْمَها «حواء» من الحديثِ الصحيحِ لرسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزِ اللحم، ولولا حواء لم تَخُنْ أنثى زوْجَها»[١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣١.

ومعنى «خَنَزَ اللحم»: تغيَّرَ وأنْتَنَ وفَسَد.

ويدلُّ الحديثُ على أن بني إسرائيل كانوا أولَ من ادَّخَرَ اللحم، ولعلَّ هذا كان بسبب بخلهم، فالكرماءُ يأكلونَ حاجتهم من اللحم الذي يذبحونه، وما زادَ عن حاجتِهم يُعطونَه لغيرهم.

أما بنو إسرائيل فقد كانوا ـ بسبب بُخلهم ـ يدَّخرون اللحم للأيام القادمة. وبما أنه لم تتوفَّرْ لهم أدواتُ الحفظ والتبريد، المتوفرةُ للناس في هذا العصر، كالثلاجات والمبرِّدات، لذلك كان اللحم الذي يدَّخرونه «يخْنُزُ» ويتلف، ويُنتن ويَفسد.

ومعنى قوله: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها»:

أما قوله: «ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» فليس المرادُ بالخيانة فيه الخيانةَ في العرض، وارتكابَ فاحشة الزنا، فإن «حواء» رضي الله عنها، كانت منزهةً عن الزنا.

إنما المرادُ بالخيانة هنا الخيانةُ في الدين والطاعة، بمعنى ارتكابِ المعصية والذنب.

ويدلُّ الحديثُ على أنَّ معظم الزوجات يكُنَّ عوناً للشيطان على أزواجهن، ولهنَّ دورٌ كبير في تزيين المعصيةِ لهم، وحمْلِهم على المخالفة والمحظور.

ولا يدلُّ الحديثُ على أن «حواء» هي التي أَعانَتْ إبليسَ على زوجها آدم، وهي التي أَغرَتْ آدمَ بالأكل من الشجرة، وزيَّنتْ له ذلك، فاستجابَ لها. لا يدلُّ الحديثُ على هذا. وإنما يدلُّ على أن جنسَ «حواء» ـ في الغالب ـ لهن دورٌ في إغواء الرجال، وتزيينِ المخالفةِ لهم.

فذكْرُ «حواء» في الحديث، يرادُ به المرأة، أيُّ امرأة، ولا يُرادُ به أمُّهنّ «حواء».

والراجحُ أنْ اسم «حواء» أعجمي، وليس عربياً، فهو جامد، وليس مشتقاً، كما قلْنا في أسماءِ آدمَ وإبليس.

أما عن كيفيةِ خلْقِ حواء، فإن النصوصَ ليست صريحةً في ذلك.

آية وحديث في خلق المرأة:

لقد أخبرَ الله أنه بدأ خلْقَ الناس من نفس واحدة، ثم خلَقَ منها زوجَها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

والمرادُ بالنفس الواحدة في الآية هو: آدمُ أبو البشر.

والمرادُ بزوجها في ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، زوجُ آدم، أي أنَّ الله خلقَ حواء من نفس آدم.

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ المرأةَ خلقت من ضلع.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «استوْصوا بالنساء خيراً، فإنَّ المرأةَ خلقت من ضلع، وإن أعوجَ شيء في الضلع أعلاه، فإنْ ذهبْتَ تقيمه كسرْتَه، وإنْ تركْتَه لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

يصرِّحُ الحديثُ أن المرأةَ خُلقت من ضلع، وأنَّ أعوجَ ما في الضلع أعلاه، ولهذا لا يمكنُ تقويمُ هذا الضلع الأعوج، فليستمتِعْ به الزوج على عِوَجه.

فهل تصرحُ الآيةُ ويصرحُ الحديث بأنَّ اللّهَ خلقَ حواء من ضلع آدم، وأنه كان نائماً في الجنة، فلما استيقظ وجدَ حواءَ بجانبه، فتفقَّدَ أضلاعَه، فوجَدَها ناقصةً ضِلعاً؟.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣١. ومسلم برقم: ١٤٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٠.

بعضُ العلماء اعتبرَ هذا تصريحاً في الآية والحديث، ونَصّاً على أنَّ حواء خُلقَتْ من ضلعِ آدم.

ولهذا ذَهبوا إلى أَن حرف «من»في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ للتبعيض، أي أنَّ حواءَ مخلوقةٌ من بعضِ جسم آدم.

وأَخذوا الضلعَ الوارد في الحديث على معناه الظاهري، والمرادُ به ضلعُ آدم، و «من» الواردة في الجملة: «فإن المرأة خلقت من ضلع» للتبعيض، أيْ أنَّ حواءَ مخلوقةٌ من بعضِ ضلع آدم.

وهناك علماءُ آخرون لا يرون هذا الرأي، ولا يقولون به، ونحنُ مع هذا الفريق الثاني.

نرى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: أن اللَّهَ خلقَ المرأة ـ أية امرأة ـ وجَعَلَها زوجاً للرجل، وهذه المرأةُ مخلوقةٌ من نفس الرجل.

وتقرر الآيةُ أن اللَّهَ خلقَ الرجل من ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وخلقَ المرأةَ من هذه النفسِ الواحدة.

وهذا معناه أنَّ الرجلَ نفسٌ إنسانيةٌ سوية، له روحٌ إنسانية حية، ومن هذه «النفسِ الإِنسانية» السوية، خلقَ اللَّهُ المرأة، فالمرأةُ أيضاً نفسٌ إنسانية، لها روحٌ إنسانيةٌ حية أيضاً. وهذا تكريمٌ وتشريفٌ للمرأة.

الآية تكريم للمرأة وليست تفصيلاً عن خلق حواء:

وهذا هو المعنى التكريميُّ للمرأة، الذي تريدُ الآيةُ تقريرَه، وبخاصةٍ أنها الآيةُ الأُولى من سورة «النساء»، التي عرضَتْ بعضَ الأحكامِ المتعلقةِ بالنساء، وتحدثت كثيراً عن النساء.

أما كيفيةُ خلق «حواء» وتفاصيلُ خلْقِها، فهذا ليس مقصودَ الآية، ولذلك سكتَتْ عنه، ولم تفصّلْ فيه، فهي لا تَنفي ولا تُثبت خلْقَ حواءَ من بعضِ جسم آدم، أو مِنْ ضلِعه على وجه الخصوص.

كما نرى أنَّ الحديث الصحيحَ الذي أوردْناه، لا يتكلم عن خلق حواءَ من ضلع آدم، وإنما يتكلمُ عن طبيعة المرأة ـ أية امرأة ـ ولهذا يوصي الرجالَ بالنساءِ خيراً.

يبينُ الحديثُ الاعوجاجَ الفطريَّ في النساء، وهو اعوجاجٌ معنويٌّ نفسي، وليس مادياً محسوساً.

التركيب العاطفي الانفعالي للمرأة:

وهو يشيرُ إلى التركيب «العاطفي الانفعالي» لنفسيةِ المرأة، فقد خلقَ اللّهُ المرأة ـ على الغالب ـ عاطفيةً انفعاليةً مندفعة، وفطرَها على ذلك، لتحقِّق وظيفتَها ورسالتها في الحياة، فلعاطفتِها وانفعالِها واندفاعها، دورٌ أساسيٌّ في تحقيقها.

وهي ـ على الغالب ـ ليست متأنيةً في تفكيرها، مثل الرجل الذي يتصف ـ على الغالب ـ بالموضوعية والتأني، لتحقيق رسالتِه في الحياة.

ويصورُ الحديثُ العاطفةَ والاندفاع والانفعال في نفسيةِ وتفكيرِ المرأة، ويَعرضُ هذا في صورةِ «ضلع».

إن الضلعَ أعوج، وأعوجَ ما فيه أعلاه، ويستحيلُ تقويمُ هذا الضلع، وإزالةُ اعوجاجِه، فمن أرادَ إصلاحَه كسرَه.

والنساءُ في تركيبهن النفسيِّ والعاطفي هكذا، فلا يستطيعُ الرجلُ أنْ يجعلَ المرأة موضوعية، أو أن يقضيَ على انفعالِها السريع، وعاطفتِها القوية، ولذلك عليه أنْ يقبلَ بهذا هكذا، وأنْ يَرضاها بهذه الطبيعةِ النفسيةِ العاطفية.

القرآن والحديث ليسا صريحين في خلق حواء من ضلع آدم:

فالضلعُ الواردُ في الحديث ـ كما نرى ونرجح ـ ليس ضلعَ آدم، وإنما هو لتصويرِ العاطفية والاندفاع في طبيعة المرأة.

وبهذا نرى أنَّ القرآنَ والحديثَ لا يتحدثان بصراحةٍ عن خَلْق حواء من ضلعِ آدم.

ونرى أنَّ موضوعَ خلْقِ حواء، وكيفيةَ خلْقِها، والمادةَ التي خُلقت منها، مسكوتٌ عنه في النصوص، فهو من «مبهمات القرآن» التي لا يجوزُ بيانُها، طالما لم تبيّنْها النصوص.

[١٨]

نهيهما عن الاقتراب من الشجرة

أسكنَ اللّهُ آدم وحواء الجنة، وأباحَ لهما أن يأكلا رغداً من حيث شاءا، ونهاهما عن الاقتراب ـ أو الأكل ـ من شجرةٍ واحدة من أشجار الجنة.

قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

ومعنى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ كُلا أكْلاً واسِعاً هنيئاً من حيثُ شئتُما من ثمارِ الجنة.

نهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة:

وقد نهاهما اللّهُ عن شجرةٍ معينة من أشجارها، واعتبرَ الاقترابَ منها ظلماً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد يتساءَلُ بعضهم: ما هي الشجرةُ التي نهاهما الله عن الاقتراب منها؟

إنَّ نصوصَ القرآن والحديث الصحيح لا تحدِّدُ لنا تلك الشجرة، ولا تعيِّنُها، ولذلك لا نذهب إلى الأساطيرِ والإِسرائيلياتِ في تحديدِها، ونُبقيها على إِبهامها، ولو كان في تحديدِها فائدةٌ لحدَّدَها اللّهُ لنا.

كلُّ ما نقوله بشأنها: هي شجرةٌ من أشجار الجنة، عرفَها آدمُ وحواء بعينها، عندما نهاهُما الله عنها، ولا يضرُّنا نحن الجهلُ بها.

ولعلَّ الحكمةَ من نهيهما عن الاقترابِ والأكلِ منها، هي تقويةُ إرادتِهما، وتنميةُ معاني التكليف والالتزام فيهما، تمهيداً لإِنزالِهما على الأرض، وتكليفهما بالالتزام بأحكام الله.

النهي عن الاقتراب أبلغ:

وقد نهاهُما اللّهُ عن مجردِ الاقتراب من الشجرة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ولم ينههما عن الأكلِ منها.

وهذا أبلغُ من مجرد النهي عن الأكل منها، لأنه نهيٌ عن الطريق الذي يؤدي إلى الأكل، فالقُربُ من الشجرة يؤدي إلى الأكل منها، وهو تمهيدٌ له، فالامتناعُ عن الاقتراب منها امتناعٌ من الأكل، من بابِ أولى.

وهذا هو المسمّى في الإِسلام بقاعدةِ «سدِّ الذرائع»، أي: إِغلاقُ الطرق التي توصِلُ للجريمة.

فالإِسلامُ عندما كان يحرمُ الحرام، كان يُغلقُ الطرقَ التي توصِلُ له، فالزنا محرَّمٌ في الإِسلام، باعتباره فاحشةً كبرى، وكلُّ ما يكون سبيلاً له يكون محرَّماً من باب «سدِّ الذرائع»، كالتبرجِ والاختلاط، والنظرةِ والقبلةِ والمصافحة.

[١٩]

إبليس يوسوس لهما ويأكلان من الشجرة

الله يحذر آدم وحواء من عداوة إبليس:

لما نهى اللَّهُ آدمَ وحواء عن الاقترابِ من الشجرة، حذَّرهما من عداوةِ إبليس لهما.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٦ ـ ١١٩].

قالَ اللَّهُ لآدم: إن إبليسَ عدوٌّ لك ولزوجك حواء، فاحذرا منه، وإياكما أن تستجيبا لوساوسِه، فإنه لا يريدُ الخيرَ لكما، وإنما يريدُ إخراجَكُما من الجنة.

وإنك إنْ خرجْتَ من الجنة شقيت وتعبت، لأنَّ كلَّ حاجاتِك في الجنة مؤمَّنَة ميسَّرة، فأنت فيها لا تجوعِ، ولا تَعرى، ولا تعطش، ولا يؤذيك حرُّ الشمس في الضحى. فإن استجبتَ لوساوس الشيطان، وأُخرجْتَ بسببِ ذلك من الجنة، فإنك ستخسرُ وتشقى، حيث تجوعُ وتَعرى، وتَظمأ وتعطش، وتَضحىٰ من حرِّ الشمس.

وقد قامَ إبليسُ بالوسوسة لآدم وحواء، وكانا منتبهيْن له، متذكرَيْن لعداوته. واستمرَّ بالوسوسة مراتٍ ومرات، وهما حذران منه. ولكنَّهما نسيا في آخر الأمر، ووقَعا في المحذور.

وقد فصَّلتْ آياتُ سورة الأعراف في وسوسة إبليس، التي أَدَّتْ إلى نسيانِهما ومخالفتِهما.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن

سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

كلمةُ «وسوس» تدلُّ على استمرارِ محاولاتِ الشيطان في إغوائِهما، وهذا معناه أنهما لم يستجيبا له منذُ أولِ محاولة.

وهدفُ الشيطان من الوسوسةِ هو إظهارُ وكشفُ سوءاتِهما التي ووريتْ عنهما: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

ورغَّبهما في الأكل من الشجرة قائلاً: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

وقال لآدمَ ـ كما وردَ في آيةٍ أخرى ـ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

لقد خاطبَ فيهما «غريزةً»، جعلها الله أصليةً في النفس الإنسانية، لتحقيق الخلافةِ في الأرض، وهي: التملك، والرغبةُ في الخلود.

كلُّ إنسان مفطورٌ على حبِّ التملك: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

ومفطورٌ على الرغبة في الخلود: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾.

إبليس يكذب ويتهم الله وهما لا يستجيبان له:

وكان الشيطانُ كاذباً في وسوستِه، وتزيينِه الأكلَ من الشجرة، كما أنه كانَ متَّهِماً لله في ذلك، فاللَّهُ نهاهما عن الأكلِ من الشجرة، وإبليسُ يقول لهما: إنَّ اللَّهَ لا يريدُ لكما الخير، عندما نهاكما عن الأكل منها، إنه لا يريدُ أن تكونا مَلَكيْن من الملائكة، ولا يريد أن تكونا من الخالدين، فإن أكلتُما منها كنتما ملكين خالدين.

ومع هذا الإغراءِ منه لهما، بقيا حذرَيْن منه، ولم يصدِّقاه، ولم يستجيبا له.

وهنا لجأَ إبليس إلى حيلة شيطانية خبيثة، وطريقةٍ إبليسية ماكرة، وهي التي قالت عنها الآية: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾.

ومعنى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: أقسمَ لهما. أي: حلفَ لهما اليمين، وأقسمَ لهما بالله: إنه لصادقٌ فيما يقول، وإنه لناصحٌ لهما.

وهذا تعليلُ نسيانهما لعهدِ الله، وبيان سببِ أكلهما من الشجرة.

إنه يمينُ إبليس الذي حلَفَه لهما.

لم يأكلا منها إلا بعد يمين إبليس:

ولعلَّ هذا هو أولُ يمينٍ كَذِب. لأنَّ إبليسَ حلفه لهما في الجنة، ولم يكن لهما أولادٌ ولا نسلٌ هناك.

ولذلك لما سَمِعا يمينَه نسيا العهد، أو أحْسَنا الظن في كلامِه بسبب يمينِه.

فكانا ـ حتى حَلْفه اليمين ـ حذِرَيْن منه، مُنْتَبِهَيْن له، أما بعد ما حلفَ اليمين، فقد نسِيا وأَكَلا من الشجرة.

ويبدو أنهما ما كانا يتوقعان أنْ يصلَ المكرُ والعداوةُ بإبليس، إلى أن يحلفَ لهما كاذباً، وما كانا يتصوران أنْ يُقْدمَ إبليسُ على الحلفِ بالله كاذباً.

أَما وقد حلف، فقد توقَّعا أن يكون صادقاً، هذه المرة.

ولهذا علَّقت الآيةُ على يمين إبليس لهما بقولها: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

ومعناه: أنه دلاّهما، وأنزلَهما عن المنزلة العالية، التي جعلَهما الله فيها في الجنة، إلى منزلةٍ أدنى، حيث أهبطَهما اللّهُ إلى الأرض.

والباء في قوله: ﴿بِغُرُورٍ﴾ هي «باء السببية». أي أنَّ إبليس أغواهما ودلاّهما وأزلّهما بسبب غرورهِ وخداعِه، وذلك عندما أقسمَ لهما، فصدَّقاه، وجرى لهما ما جرى بعد ذلك.

[٢٠]

بدوّ سوءاتهما لهما

وسوسَ إبليسُ لآدمَ وحواء، وأقسمَ لهما أنه صادقٌ ناصح، فنسيا عهدَ الله، وأكَلا من الشجرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه: ١١٥].

أي: عهِدْنا إلى آدم بالأمر، وكلَّفناه بالتكليف، فأمَرْناه أن لا يقتربَ من الشجرة، ولا يأكلَ منها. ولكنه نسيَ هذا العهدَ والأمر والتكليف، فأكلَ من الشجرة ناسياً، ولم نجدْ له عزماً وقصداً وتعمُّداً وتصميماً على المخالفة، والأكلِ من الشجرة، فكان أكْلُه من الشجرة ناسياً، غيرَ عامدٍ ولا عازمٍ ولا ذاكرٍ ولا قاصد.

ولما أكَلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ولا نعرفُ كيفيةِ أكْلِهما من الشجرة، لأنَّ النصوصَ لم تخبرْنا عن ذلك.

ترتيب ظهور السوءات على الأكل من الشجرة:

ولقد قدَّرَ اللّهُ الحكيم، أن تبدوَ لهما سوءاتُهما، بمجرّد أكْلِهما من الشجرة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

وهذه السوءاتُ غيرُ محددة في الآية، كما أنَّ ظهورَها لهما ليس مبيَّناً ولا مفصَّلاً.

فما هي هذه السوءات؟ وكيف بدتْ لهما بمجردِ أكْلِهما من الشجرة؟ وأين كانتْ قبلَ أكلهما؟ وهل كانت مغطاةً بالشَّعَر، فتساقطَ الشَّعَرُ بمجرد الأكل فبدتْ؟ أم كانت مغطاةً بشيء آخر فزالَ الغطاء؟ وهل كانت كامنةً في داخل الجسم فبرزتْ وظهرتْ بعد الأكل؟.

لم تُقدم الآياتُ إجاباتٍ على هذه التساؤلات، بينما هناك تفصيلاتٌ وإجابات، في الأساطير والإسرائيليات، ولكننا لا نذهبُ إليها، ولا نتلقى العلمَ عنها.

إنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ يشير إلى أنَّ هذه السوءات كانت موجودةً عندهما قبل أكْلِهما من الشجرة، ولكنهما لم يلتفِتا لها، ولم يفكِّرا فيها. أي: لم يعرفا أَنها سوءات.

فلما ذاقا الشجرة، بدَتْ لهما هذه السوءات، أي: ظهرَتْ لهما باعتبارها سوءات، فصارا يعرفان أَنها سوءات، وأنَّ كشفَها عيب. ولهذا صارا يسترانِها بورقِ الجنة.

نرجحُ أن السوءاتِ كانت موجودةً قبل أكلِهما من الشجرة، لكنهما لم يَعرفا أنها سوءاتٌ إلا بعدَ الأكْل.

وإذا أردْنا أن نقرِّبَ هذه الإِشارةَ من الآية: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ إلى الأذهان، فإننا نستحضرُ حالةَ الطفلِ الصغير.

لماذا لا يخجل الصغير من كشف أعضائه التناسلية؟:

فالطفلُ الصغير في سنواتِ عمره الأُولى، قد يمشي عارياً، بدون غَضاضة، وقد يكشفُ عن سوأته أمامَ غيره بدون تحرُّج، وهو لا يفعلُ

ذلك وقاحةً أو قلةَ حياء. ولكنه لا يعرفُ أَنها سوأة، وأنَّ لها «وظيفةً جنسية» ترتبطُ بالشهوة واللذة، وأنَّ كشفَها عيب.

إِنها موجودةٌ في جسمه، لكنها لم تَبْدُ له أنها سوأة، ولم تظهَرْ له باعتبارها عورة.

فإذا ما كبرَ هذا الطفل، وصارَ شاباً، صارَ يعرفُ أنها سوأة وعورة، وأنَّ لها وظيفةً جنسية، وصارَ يفكرُ في الشهوة، وعندها يحرصُ على سترها، وعندها يقال: بَدَتْ له سوأته.

لعلَّ هذا ما جرى لآدم وحواء، بعد أكْلِهما من الشجرة، فسوءاتُهما موجودةٌ قبل الأكل، كوجود سوأةِ الطفل الصغير، لكنْ لم يكونا يعرفان أنها سوءات، كما لم يكن يعرف الطفلُ الصغير.

ويبدو أنَّ «استيقاظ» رغباتِهما ونوازعِهما وشهواتِهما، ترتبَ على أكلِهما من الشجرة، فبدتْ لهما سوءاتُهما، بُدُوّاً نفسياً وجنسيّاً، فعرفا أَنها سوءات، وأنَّ كشفَها عيب!.

هذا ما نفهمُه من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

وهو رأيٌ نسجلُه، وفهم نقدِّمُه، والله تعالى أعلم.

المهمُّ في المسألة: ماذا فعلا بعدما بدَتْ لهما سوءاتُهما؟.

إسراعهما في ستر السوءات:

قال الله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

﴿وَطَفِقَا﴾: شرَعا وأَخَذا وصارا، وفَعلا مباشرة.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: يلزقان ويَصِلان ويجعلان ويغطيان.

أي: لما بدتْ لهما سوءاتُهما مباشرة، صارا يقطعانِ من أوراقِ الجنةِ الطويلة العريضة، فيجعلانها على جسميْهما، ويغطيان بها بدنيْهما،

ويستران بها سوءاتِهما، يفعلان ذلك حياءً وخجلاً، ورغبةً في ستر هذه السوءات.

تصرفهما في ستر السوءات دليل على الحياء الفطري الإنساني:

وهذا التصرُّفُ منهما في تغطية السوءات، تصرفٌ فطريٌّ فوريٌّ سريع، وهو دليلٌ على تأصُّل الحياءِ والسترِ في النفس الإنسانية السوية، وأنَّ كشفَ هذه السوءات، وإظهارَ تلك العورات، تصرفٌ جاهليٌّ شاذ، يخالفُ الفطرة.

وقد روى الحاكمُ في مستدركه عن أُبَيِّ بن كعب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ آدم كانَ رجلاً طُوالاً، كأنه نخلةٌ سَموق، كثيرَ شعر الرأس. فلما ركبَ الخطيئة، بدَتْ له عورته، وكان لا يراها قبلَ ذلك. فانطلقَ هارباً في الجنة، فتعلقت به شجرة، فقال لَها: أَرْسلِيني! فقالت: لستُ بمرسلَتِك. وناداه ربه: يا آدم، أمنّي تفِرّ؟ قال: ربِّ إني استحييْتُك!»[1].

[٢١]
توبة الله على آدم وحواء

آدم وحواء مشتركان في المسؤولية:

تشيرُ آياتُ القرآن إِلى أنَّ آدمَ وحواء كانا مشتركيْن في كل شيء، وتحمَّلا مسؤوليةَ ما وقع منهما، وما جرى لهما.

فاللَّهُ أَمرهما معاً بالسكنى في الجنة، وأَباحَ لهما معاً الأكلَ من ثمارها، ونهاهُما معاً عن الاقترابِ والأكلِ من الشجرة، والشيطانُ وسوسَ لهما، وأقسمَ لهما، ودلاّهما بغرور. وهما أَكَلا من الشجرة معاً، وبدَتْ لهما سوءاتُهما معاً، وطفِقا معاً يخصفان عليهما من ورق الجنة.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٥٤٣ ـ ٥٤٤. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٢٥.

وإننا نرى الآياتِ صريحةً في التعبير عنهما بضمير التثنية، الذي يُسندُ كلَّ ما حدثَ إليهما، وليس إلى واحدٍ منهما.

وهذا ردٌّ قرآنيٌّ على مَنْ يزعمُ أنَّ حواء هي التي جنَتْ على آدم، وأَعانَتْ إبليسَ عليه، وردٌّ على مَنْ يتهمُ آدمَ وحده، ويحمّلُه وحده مسؤولية ما حدث.

بعدما أكلا من الشجرة، وصارا يغطيان سوءاتِهما بورق الجنةِ لامَهما الله، وعاتَبهما على ذلك، فشعَرا بالندم، وأعَلنا توبتَهما.

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣].

اعتبرَ القرآنُ مخالفتَهما معصية، استحقّا بها عتابَ الله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وهما سارعا بالتوبة والاستغفار:

لكنهما سرعانَ ما رجَعا إلى الله، وتذكَّرا عهدَ الله، واستيقظ الإيمانُ في قلبيْهِما، وأيقنا بأنَّ ما فعلاه يستدعي الندمَ والتوبة، فأعلنا توبتَهما، واعترفا بظلمهما، وطلبا من الله المغفرةَ والرحمة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وهذه هي التوبةُ التي أَشارَ لها قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

إن هذه الآيةَ من سورة البقرة مجملة، تخبرُ أن آدمَ عليه السلام تلقّى كلماتٍ من الله فقالَها معلناً توبتَه، فتابَ الله عليه.

وآيةُ سورةِ الأعراف تفصِّلُ وتبيِّن هذا الإجمال، وتخبرُ أن الكلماتِ التي تلقاها آدم من الله، هي ما قالَه هو وزوجُه حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾.

فلما قالاها، وأعلَنا توبتهما، تابَ الله عليهما، وغفر لهما.

[٢٢]

هبوط على الأرض

إنزال آدم وحواء وإبليس إلى الأرض:

قدَّرَ اللَّهُ الحكيم أن يترتبَ على أكْلِ آدم وحواءَ من الشجرة، خروجُهما من الجنة، ونزولُهما إلى الأرض.

ولهذا أمرَ اللَّهُ أطرافَ القصة الثلاثة ـ آدم وحواء وإبليس ـ بالهبوطِ إلى الأرض.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٦ ـ ٣٩].

تقررُ هذه الآياتُ أن الشيطانَ هو الذي أزلَّ آدم وحواء، بأكْلهما من الشجرة، وبذلك زلَّتْ أقدامُهما، فأُزيلا من الجنة، وأُخرجا منها.

أَخرجَ اللَّهُ آدم وحواء مما كانا فيه، من نعيم الجنةِ وخيراتها،

وقالَ اللّهُ لهما وهما في الجنة: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾.

وهذا يقررُ العداوةَ المتأصلةَ بين آدمَ وحواءَ من جهة، وبين عدوِّهما الشيطانِ من جهةٍ أخرى، كما يقررُ العداوةَ بين المؤمنين من بني آدم من جهة، وبين الكافرين منهم الذين اتبعوا الشيطانَ من جهةٍ أخرى.

إنَّ الأرضَ هي مسرحُ العداوة بين الشيطان وحزبه الكافرين، وبين الرسلِ وأتباعهم المؤمنين. الأرضُ هي مسرح الصراعِ بين الحق والباطل، الحقِّ الذي يمثله الرسلُ والمؤمنون، والباطلِ الذي يمثلُه الشيطانُ والكافرون.

الصراعُ بينهما على الأرض منذ لحظةِ إنزالِ آدم وحواء وإبليس، واستمرَّ ذلك الصراعُ على مدارِ الأجيال والقرون، وسيبقى حتى قيام الساعة.

ولهذا قالَ اللّهُ لآدم وحواء لحظةَ إنزالِهما إلى الأرض: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾.

بدأت القصة في الجنة وهي دار النعيم:

وظاهرُ الآيات التي تحدَّثَتْ عن قصةِ آدم، يدلُّ على أنَّ القصةَ بدأَتْ في الجنة، والجنةُ هي الجنةُ المعروفة، دارُ النعيم للمتقين.

لقد كان إبليسُ مع الملائكةِ في الجنة، وخلَقَ اللّهُ آدمَ في الجنة، ونفخَ فيه من روحه وهو في الجنة، وأسجدَ له الملائكة في الجنة، وعصى إبليسُ وتمردَ في الجنة، وخلقَ اللّهُ حواءَ لآدم في الجنة، وأباحَ لهما سكنى الجنة، ووسوسَ لهما الشيطانُ في الجنة، وأكَلا من الشجرة في الجنة، ونَدِما وتابا في الجنة، وتابَ اللّهُ عليهما في الجنة... ثم أنزلَ اللّهُ الثلاثةَ ـ آدم وحواء وإبليس ـ وأهبطَهم من الجنة إلى الأرض.

الجنةُ التي جرَتْ فيها أحداثُ القصة هي الجنةُ المعروفة، وليستْ أيةَ جنة أخرى، أو بستانٍ آخر، أو حديقةٍ عالية على قمةِ جبلٍ من جبال الأرض العالية.

هذا هو الراجحُ في المرادِ بالجنة، لأنَّ كلمةَ «الجنة» إذا أُطلقتْ في القرآن، تَنصرفُ إلى الجنةِ نفسِها، دارِ النعيم للمؤمنين. والأصْلُ القولُ بهذا، والأخذُ بظاهر اللفظ القرآني، لعدم وجود نصٍّ من القرآن أو الحديث، يصرفُ اللفظ عن هذا المعنى الظاهري.

ثم إنه لا استحالةَ عقلية من جَرَيانِ أحداثِ القصة في الجنةِ نفسِها، وليس في القول بذلك تصادمٌ مع العقل.

أَهبطَ اللّٰهُ آدمَ وحواء وإبليس من الجنة إلى الأرض: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾.

أما البقعةُ من الأرض التي أُهبطوا إليها، والتي كانت بدايةَ الحياةِ الإنسانية على وجْهِ الأرض، فهي مبهمة، غيرُ محددةٍ ولا معينة في النصوص.

لذا لا نحاولُ تحديدَها أو تعيينَها، ولا نذهبُ من أجلِ ذلك إلى الأساطيرِ والإسرائيليات، بل نبقى مع ما دلَّتْ عليه الآياتُ الصريحة، والأحاديثُ الصحيحة، نقولُ بما قالت به، ونسكتُ عن ما سكتَتْ عليه.

[٢٣]

معصية آدم واحتجاجه على موسى

كان خروجُ آدم من الجنة بسببِ أكله من الشجرة، كما أَخبرت الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٣].

وتُسنِدُ الآيةُ المعصيةَ إلى آدم: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

والمعنى: عصى آدمُ ربَّه عندما أكلَ من الشجرة، فغوى بعد أكْلِه منها. أي: خالفَ النهي، ووقَعَ في المحظور.

ويعترفُ آدمُ بمعصيتِه، ويُعلنُ توبتَه وندمه، ويستغفرُ ربَّه، ويقولُ مع زوجه حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

آدم يبقى خائفاً من معصيته:

ويخبرُنا اللَّهُ أنه قد تابَ على آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ولكنَّ آدمَ يبقى خائفاً من فعلتِه، معترفاً بمعصيته، ولهذا يَرُدُّ الناسَ الذين يأتونه، ليشفعَ لهم عند الله، وذلك يوم القيامة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال في حديثِ الشفاعةِ الطويل «... يجمعُ اللَّهُ يومَ القيامة الأوَّلين والآخِرين في صعيدٍ واحد، فيسمعُهم الداعي، ويَنْفُذُهم البصر، وتَدنو الشمس، فيبلغُ الناسَ من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون.

فيقولُ بعض الناس لبعض: ألا ترونَ ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا ترونَ منْ يشفعُ لكم إلى ربكم؟

فيقولُ بعضُ الناس لبعض: ائتوا آدم.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنتَ أبو البشر، خلقكَ اللَّهُ بيده، ونفخَ فيك من روحه، وأَمَرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفعْ لنا إلى ربِّك، أَلا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلَغَنا؟

فيقول آدم: إنَّ ربي غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثله. وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيْتُه.. نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح»[1].

والشاهدُ في الحديث قوله: إنه نَهاني عن الشجرة، فعصيْتُه.

لقد عصى آدمُ ربَّه بنصِّ القرآن، وباعترافِه هو.

آدم عصى ربه ناسياً غير عازم ولا قاصد:

ولكنَّ هذه المعصية لم تكن عن عَمْد، بل كانت عن سهوٍ وغفلةٍ ونسيان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

عهدَ اللَّهُ له بالتكليف، ونهاه عن الأكْلِ من الشجرة، ولكنه نسيَ عهدَ الله، فأكلَ من الشجرة ناسياً، ولم يأكلْ منها عامِداً قاصِداً، ولم يكن عنده عزمٌ ولا قصدٌ على المخالفة.

إن هذه الآيةَ تبرئُ آدم عليه السلام من تهمةِ تعمُّد المخالفة.

وبما أنه لم يتعمد المخالفة، ولم يعزِمْ على الأكل من الشجرة، لذلك تابَ وأنابَ إلى الله فتابَ اللَّهُ عليه.

وإذا كان اللَّهُ لا يؤاخذُ المسلمَ إذا خالف أمره ناسياً، بل يعفو عنه لنسيانِه، فآدمُ أبو البشر أَوْلى أن لا يؤاخَذَ على ما فعل، لنسيانِه.

وعندما نجدُ للمسلمِ المبررَ والعذر، عندما يخالفُ أمْرَ الله ناسياً، فآدمُ أَولى بالعذرِ والتبرير.

وكان آدمُ عليه السلام نبياً، فهو أَولُ الأنبياء. ودليلُ نبوته ما رواه

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤. ومسلم برقم: ١٩٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٦٤.

أحمد والحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، أنبيٌّ كان آدم؟ قال: «نعم. مُعَلَّمٌ مُكَلَّم»[1].

وقد بعثه اللّهُ نبياً إلى بنيه، حيث بلَّغهم دينَ الله، ودعاهم إلى عبادته، وحذَّرهم من الشيطان.

وأكْلُ آدمَ من الشجرة ناسياً، لا يطعَنُ في نبوته، لأنه أكلَ منها ناسياً، والنبيُّ قد يقعُ في المخالفة ناسياً غيرَ عامد.

حديثان في حجاج آدم وموسى:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن جدالٍ وحجاجٍ بين آدم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - انتهتْ بغلبةِ آدم، حيثُ حجَّ موسى.

روى مالك وأبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: قال موسى: يا رب، أبونا آدم، أخْرَجَنا ونفسَه من الجنة!

فأراهُ اللّهُ آدم. فقال: أنتَ آدم؟. فقال له: نعم.

قال: أنتَ الذي نفخَ الله فيك من روحه، وأسجدَ لك ملائكتَهُ، وعلَّمك الأسماءَ كلَّها؟ قال: نعم.

قال: فما حملَكَ على أن أخرجْتَنا ونفْسَك من الجنة؟

فقال له آدم: مَنْ أنت؟ قال: أنا موسى.

قال أنتَ موسى بني إسرائيل، الذي كلَّمكَ اللّهُ من وراء الحجاب، فلم يجعلْ بينَك وبينه رسولاً من خَلْقِه؟ قال: نعم.

قال: فتلومُني على أمرٍ قد سبقَ من الله القضاءُ قَبْلي؟

---

(١) أخرجه أحمد ٥:٢٦٦، والحاكم ٢: ٢٦٢. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم ٢٩.

قالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى»[1].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام».

فقال له: أنتَ الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبك من الجنة، وأشقيْتَهم؟

قال آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاكَ اللَّهُ برسالاتِه وبكلامِهِ، أَتلومُني على أمرٍ قد كتبهُ اللَّهُ عليَّ، أو قدَّره عليَّ، قبلَ أنْ يخلُقَني؟

قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى»[2].

إن رسول الله ﷺ يخبُرنا عن حجاجٍ وجدالٍ بين النبيَّيْن الكريمَيْن، آدمَ وموسى، عليهما السلام.

يلومُ موسى عليه الصلاة والسلام آدمَ على ما فعلَ في الجنة، حيث ترتَّبَ على أكْلِه من الشجرة إخراجُه من الجنة: «أنت الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبك من الجنة، وأشقيْتَهم».

على ماذا لام موسى آدم؟:

فلوْمُه له على إخراجِه نفسَه وبنيه من الجنة، هذا الإِخراجُ الذي بُنيَ على أكْلِه من الشجرة.

فردَّ عليه آدم: «أتلومُني على أمرٍ، قد كتبه الله عليَّ قبلَ أنْ يخلُقَني؟».

وقد كانت حجّة آدم أوضح، وردُّه على موسى أَقوى. وقد شهدَ له رسول الله ﷺ بالغَلَبة، في قوله: «فحج آدم موسى».

فما هو السببُ الذي جعلَ آدم يحجُّ موسى ـ عليهما السلام ـ؟.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٧٠٢، ومالك في الموطأ ٢: ٨٩٨. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٤.

قالَ بعضُ العلماء: حجَّ آدمُ موسى، لأنَّ موسى لامَه على أكْلِه من الشجرة، وهو الذنبُ الذي تابَ منه.

فاحتجَّ آدم، بأن الله قد كتبَ وقدَّرَ عليه أن يأكلَ من الشجرة، قبلَ أن يخلُقَه. فلماذا يلومه موسى على ارتكابِ ذنب، قدَّرَ اللَّهُ عليه أنْ يرتكبَه؟

ولكنْ للإمامِ ابن كثير رحمه الله، تعليلٌ طيب في ذلك.

قال: «إِنه لامَهُ على إِخراجه نفسَه وذريَّتَه من الجنة.

فقال له آدم: أنا لم أُخرجْكُم، وإنما أخرجَكُم الله، الذي رتَّبَ الإِخراجَ على أَكْلي من الشجرة، وقد رتَّبَ ذلك وكتبه وقدَّره عليَّ، قبل أَن أُخلق، فأنتَ تلومُني على أمر، ليس له نسبةٌ إليَّ، أكثرَ من أَنّي نُهيتُ عن الأكلِ من الشجرة، فأكَلْتُ منها. وكونُ الإِخراجِ من الجنة مترتِّباً على الأكل، ليسَ من فعلي، وإنما هو قَدَرٌ من الله.

فأنا لم أخرجْكُم ولا نفسي من الجنة، لأنَّ هذا الإِخراجَ كان من قَدَرِ الله وصُنْعِه، وله الحكمةُ في ذلك»[1].

[٢٤]

وفاة آدم عليه السلام

عاش آدمُ على الأرض ما شاءَ اللَّهُ له أن يعيش، وأَمضى عمرَه الذي قدَّره وحدَّدَه اللَّهُ له.

ولا تخبُرنا النصوصُ من الآياتِ والأحاديث عن المكانِ الذي

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ـ طبعة دار الخير بدمشق: ٣٦.

أَهبطَ اللَّهُ عليه آدم وحواء، ولا عن البقعةِ من الأرض التي أقامَ عليها مع حواء، والتي أَنجب عليها أولادَه.

كما لا تخبِرُنا النصوصُ عن كيفيةِ حياتِه وطعامِه وشرابِه.

وهذه المسائلُ «مبهماتٌ» في قصة آدم، لا نخوضُ فيها، ولا نذهبُ إِلى الإِسرائيليات، لنأخذَ منها التفاصيلَ والمعلومات.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن اللحظةِ الأخيرةِ لحياةِ آدم على وجْهِ الأرض:

اللحظات الآخيرة في حياة أدم:

روى الحاكم عن أبيٍّ بنِ كعب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ آدمَ لما حضره الموتُ قال لبنيه: أي بَنِيَّ، إِني أَشْتهي من ثمارِ الجنة. فذَهَبوا يطلبون له.

فاستقبلَتْهم الملائكة، ومعهم أكفانُه وحَنوطُه، ومعهم الفؤوسُ والمساحي والمكاتل. فقالوا لهم: يا بَني آدم: ما تُريدون؟ وما تطلبون؟

قالوا: أَبونا مريض، واشتهى من ثمارِ الجنة.

فقالوا لهم: ارْجِعوا، فقد قَضى أبوكم!.

فجاؤوا. فلما رأَتْهم حواءُ عرفَتْهم. فلاذَتْ بآدم. فقال لها: إِليكِ عنّي، فإِنّي إِنَّما أُتِيتُ من قِبَلِك، فخلِّ بيني وبين ملائكةِ ربي عزَّ وجلَّ.

فقبَضوه، وغسَّلوه، وكفَّنوه، وحنَّطوه، وحَفروا له، ولَحَدوه، وصلّوا عليه، ثم أَدخلوه قبْرَه، فوضعوه فيه، ثم حَثَوْا عليه.

ثم قالوا: يا بَني آدم: هذه سُنَّتُكم»[1].

وبهذا انتهتْ حياةُ آدم على وجْهِ الأرض، وتوفّاه اللَّهُ لما جاءَ أجلُه.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٥٤٥. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٦.

ولا تخبرنا النصوصُ عن العمرِ الذي عاشَه آدم، ولا عن المكانِ الذي توفِّي فيه، ولا البقعةِ التي دُفِنَ فيها. فنتوقفُ عن الخوض في ذلك، أو محاولةِ تعيينِه وتحديده.

لقد عاشَ آدمُ عمره على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: عاشَها في الجنة، ولا نعرفُ مقدارَ سنواتِها.

المرحلة الثانية: عاشَها على الأرض، ولا نعرف سنواتِها أيضاً.

[٢٥]

قصة ابنَيْ آدم

مما يتصلُ بقصةِ آدم عليه السلام اتصالاً مباشِراً، قصةُ ابْنَيْه.

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن مجمَلَها، وعرضَتْ منها ما يحقِّقُ العبرةَ والعظة.

قال تعالى: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

ولا توجَدُ أحاديثُ نبويةٌ صحيحة، تضيفُ معلوماتٍ على ما أوردَتْه هذه الآيات، بشأنِ قصة ابنَيْ آدم.

بينما تتحدثُ الأساطيرُ والإِسرائيليات، عن كثيرٍ من التفصيلات، في أَحداثِ القصة. ولكننا نعلمُ أن هذه المصادر ليست مقبولةً ولا موثوقة، ولا تقدِّمُ معلوماتٍ صحيحةً يُعتمدُ عليها.

لا نخوضُ في زمانِ أو مكانِ القصة، ولا نعيِّنُ أَسماءَ أَشخاصِها. ولا نبحثُ عن أسبابِ الخلاف بين ابْنَيْ آدم، ولا نفصِّلُ في كيفيةِ وملابسات القتل، لأنَّ النصوصَ لا تقدم لنا معلوماتٍ عن ذلك.

مجمل قصتهما:

ومجملُ القصة من خلال الآيات، هو[١]:

كان لآدمَ ابنان، من جملةِ أبنائه، وحصَلَ بينهما خلافٌ ما، على أَمْرٍ ما، فقَرَّبا قرباناً إلى الله، حَلاًّ لذلك الخلاف، وذلك القربانُ غيرُ محدَّد ولا معيَّن.

وتقبَّلَ اللّهُ قربانَ أحدِهما، لأنه كان على صواب، ولم يتقبَّلْ قربانَ أَخيه، لأنه كان على خطأ.

وبدلَ أن يرتدعَ الأَخُ المخطئُ ويرعوي، ويرجعَ إِلى الحق، ويُنهي الخلاف، زادَ في باطِله، واشتطَّ في خصومتِه، وحقدَ على أَخيه، وملأَ قلْبَه كراهيةً وبغضاً له.

وحمَلَه حقدُه وبغضه على أنْ يفكرَ في التخلُّصِ من أخيه بالقتل، وتوعَّدَ أخاه، وهدَّدَه قائلاً: لأقتلَنَّك.

لكنَّ أخاه كان مثالَ الإِنسانِ الهادئ المتَّزِن، ولذلك قابلَ تهديدَ أَخيه بهدوء. وقال له: إنما يتقبلُ اللّهُ من المتقين، ولذلك تقبَّلَ اللّهُ

---

(١) وقفنا وقفة تدبر وتحليل واستنتاج مع آيات القصة في كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن» القسم الثالث، فارجع إليه إن شئت.

قرباني، ولم يتقبَّلْ قربانَك، وإذا ما سَوَّلَتْ لك نفسُك قتلي، ومدَدْتَ إليَّ يدكَ لتقتلني، فلن أُعاملَك بالمثل، ولن أمدَّ يدي إليك لقتْلِك، وليس المانعُ عندي خوفي منك، أَو عجْزي عن قتلك، إنما المانعُ خوفي من الله ربِّ العالمين، وإذا ما قتَلْتَني فإنك تبوءُ بإثمي وإِثمك، وبذلك تكونُ من أصحاب النار.

وهذا الكلامُ اللينُ الهادئ، كان كفيلاً بأن يستَلَّ الحقدَ والبغضَ من قلب أخيه، ويُزيلَ منه التفكير في قتله، ولو كانَ في ذلك الأخ بقيةٌ من خير، أو كانَ يستمعُ لصوت الحق، ويستجيبُ للصواب.

لكنَّ ذلكَ الأخَ الحاقد استجابَ للشيطان، واستسلمَ له، وانحازَ للباطل، ولذلك لم يؤثِّرْ فيه منطقُ أخيه الهادئ.

وأخيراً طوَّعَتْ له نفسُه قتْلَ أخيه، تنفيساً لحقده، واستجابةً للشيطان. فقام بِقَتْلِهِ، وبذلك خسرَ خسارةً مطلقة، خسرَ الدنيا والآخرة.

وهذه أولُ جريمةِ قتْلٍ تقعُ على الأرض، وابنُ آدم القتيل هو أولُ ضحيةٍ للحقد والكراهية، وأولُ ثمرةٍ مُرَّةٍ للاستجابة البشرية للشيطان ووساوسِه ونزغاتِه.

وبما أنَّ الأخَ المجرم كان أولَ قاتل، فإنه لم يعرفْ كيفيةَ التصرُّفِ بالجثةِ التي أَمامه، ولذلك وقَفَ أَمامَها عاجزاً خاسِراً.

وأرادَ اللّهُ أنْ يسخَرَ منه لعجزِه وضعفِه، فبعثَ غُراباً من الغربان، ليعلِّمَه كيفيةَ التصرف في جثةِ أخيه.

ووقفَ ذلك الإِنسانُ العاجز، صاحبُ العقل والفكر، تلميذاً أمام الغراب، يتعلَّمُ منه.

وعلَّمه الطيرُ الأعجم، عن طريق الحركة والإِشارة، بأنْ صارَ

يحفرُ في الأرض بمنقاره، ويبحَثُ فيها برجلَيْه، وكأنّه يقولُ لذلك الإنسان العاجز: تعلَّمْ مني، واحْفِرْ حفرة، واجعَلْها قبراً، وضَعْ فيه جثةَ أَخيك!.

وأخذَ ذلك الأخ العاجز من الغراب إشارتَه، وقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾.

وحفرَ الأخُ القاتلُ القبر، ووضعَ جثة أَخيه فيه.

وندمَ المجرمُ على جريمته، لكنَّ ندَمَه لم يكن ندمَ توبةٍ واستغفار، وإنما كانَ ندمَ عجزٍ وخسارةٍ وإحباط.

ندمَ لأنه خسرَ كلَّ شيء بقتْلِه لأخيه، ولأنه لم يعرفْ كيفيةَ التصرف بالجثة، ولأنه وقفَ تلميذاً يتعلمُ من غرابٍ أعجم!.

هما نموذجان مكروران في البشرية:

وطُويَتْ صفحاتُ قصةِ ابْنَيْ آدم من صُلْبه، بتعمُّقِ الخطَّيْنِ الأصيلَيْن في ذريةِ آدم بعدَ ذلك، وحتى قيام الساعة:

خطُّ الخير: الذي يمثلُه ابنُ آدم القتيل، حيث لم يتخلَّ عن الخير والحق، وبقيَ مع الله، وتعامَلَ مع أَخيه بأخوةٍ ومنطق.

وخطُّ الشر: الذي يمثلُه ابنُ آدم القاتل، حيث استسلَم للشيطان، واستجابَ لنزغاته، وصارَ شرّيراً قاتلاً مجرماً.

وبذلك ذهبَ ذلك القتيلُ إلى الله مظلوماً، وباءَ القاتلُ بإثمه، وانتهى خاسِراً معذَّباً، مخلَّداً في نارِ جهنم.

وتتكرَّرُ قصةُ ابْنَيْ آدم بعد ذلك، تتكررُ بمضمونها، وليس بتفاصيلها وأحداثِها.

فمن ذريةِ آدم مَنْ يقتدي بابنِ آدم الطيِّبِ الخَيِّر، فيكونُ متَّبعاً للحق، متَّصلاً بالله، بعيداً عن الظلمِ والعدوان. وهؤلاء موجودون على وجهِ الأرض، في كل وقت وزمان.

ومِنْ ذريةِ آدم مَنْ يقتدي بابن آدم القاتل، فيَبْغي ويَعْتدي، ويظلم ويُؤذي، ويتبعُ الشيطان، وهؤلاء كثيرون موجودون على وجه الأرض، في كلِّ وقت وزمان.

وقد دَعانا رسولُ الله ﷺ إلى أَنْ نقتديَ بابن آدم الطيب. فروى أبو داود والترمذي عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنه قال عندَ فتنة عثمان رضي الله عنه: أَشهدُ أَنّي سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنها ستكونَ فتنة، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي.

قال: أرأَيْتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي، وبسطَ يده ليقتُلَني؟.

قال: كنْ كابنِ آدم»[(١)].

وبيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ، أنَّ ابنَ آدم القاتل يتحمَّلُ جزءاً من دمِ كلِّ إنسانٍ يُقْتَلُ ظلماً، حتى قيامِ الساعة.

فروى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولَ كِفلٌ من دمها، لأنه كانَ أوّلَ مَنْ سَنَّ القتل»[(٢)].



(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٢٥٧. والترمذي برقم: ٢١٩٥. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٥. ومسلم برقم: ١٦٧٧. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٢.

قِصَّةُ نُوحٍ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

[١]
مواضع قصة نوح في القرآن

نوحٌ عليه الصلاة والسلام نبي ورسول. أرسلَه الله إلى قومه.

وقد وردَ اسم «نوح» عليه السلام في القرآن، ثلاثاً وأربعين مرة.

وذِكْر «نوح» في القرآن على حالتين:

الحالة الأولى: ذِكْر اسمِه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه، ضمنَ الحديث عن قصته، وذلك في إِحدى وعشرين مرة.

الحالة الثانية: ذكْر اسمِه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه، ولكن ليس ضمنَ الحديث عن قصته، وإنما في إشارةٍ سريعة إليه، أو إلى رسالته، أو إلى شريعتِه، أو إلى كفرِ قومه وتكذيبهم، وذلك بما يتفق مع موضوع السورة، أو الوحدة التي وردت فيها الإِشارة. وذلك في اثنتين وعشرين مرة.

والسوَرُ التي ورد اسمُ نوح عليه السلام فيها، مجرداً أو مضافاً إلى قومه، لكن ليس ضمن قصته، هي سور: آل عمران، النساء، الأنعام، الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، الأحزاب، صَ، غافر، الشورى، قَ، الذاريات، النجم، الحديد، والتحريم.

والسورُ التي وردتْ فيها مشاهد ولقطات من قصة نوح عليه السلام هي: الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، ونوح.

ويتفاوتُ المقدارُ المعروض من قصته في هذه السور طولاً وقِصراً، وتُعرض المشاهد واللقطات من القصة بالمقدار الذي يتفق مع

موضوعِ السورة وسياقها وشخصيتها، والعبرةِ المقصودة منها.

فسورةُ «نوح» كلُّها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورةُ هود عرضتْ مشاهدَ ولقطاتٍ طويلةً من قصته، وسور يونس والشعراء عَرضتْ لقطات أقصر، بينما وردت الإِشارةُ إلى القصة في سورة العنكبوت في آيتيْن اثنتيْن، تضمنتا معلومة هامة، لم تردْ في السور الأخرى.

واللافتُ للنظر أن السورَ العشرةَ السابقة التي تحدثت عن قصته هي سورٌ مكية، وهذا يتفقُ مع طبيعة القرآن المكي، الذي كان يوظفُ «القصص» لإِثباتِ نبوة محمد ﷺ، وبيانِ أن القرآن كلام الله، وتقديمِ الدروس والعظات للمؤمنين المستضعفين في مكة.

[٢]

ما عرضته كل سورة من قصته

قلنا إنَّ قصةَ نوح عليه السلام وردتْ في عشر سور مكية، هي: الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، نوح.

ونشيرُ فيما يلي إلى الموضوعاتِ واللقطات التي عرضَتْها كلّ سورة من قصته.

ما عرضته سورتا الأعراف ويونس وهود:

١ ـ ما عرضته سورة الأعراف:

وردتْ قصةُ نوح في ست آيات: ٥٩ ـ ٦٤.

تحدثتْ عن إرسالِ نوح إلى قومه، ودعوتِه لهم إلى عبادة الله وحده، واتهامِ الملأ من قومه له بأنه ضال، وردِّه لذلك الاتهام،

وتقديمِه نفسَه ودعوتَه لهم، وإزالةِ عجبهم من جعل رسول من البشر، وتكذيبهم له، وتدميرهم ونجاةِ الذين آمنوا معه.

٢ ـ ما عرضته سورة يونس:

وردَت قصةُ نوح في ثلاث آيات: ٧١ ـ ٧٣.

تحدثتْ عن تحدي نوح عليه السلام لقومه، وعدمِ خوفه منهم لاستعلائه بإيمانه، واعتمادِه على ربه، وتجردِه في دعوته، وعدمِ طلبه الأجرَ منهم، وعن تكذيب قومه له، ونجاةِ المؤمنين معه، وإغراقِ الكافرين بالطوفان.

٣ ـ ما عرضته سورة هود:

وردت قصة نوح في خمسٍ وعشرين آية: ٢٥ ـ ٤٩.

والمشاهدُ واللقَطَات المعروضة من القصة في هذه السورة، من أطولِ المشاهد، وتكادُ تكونُ أطولَ من المشاهد المعروضة في سورة نوح نفسها، التي تخصصتْ بالحديث عن قصته.

تحدثتْ آياتُ سورة هود عن إرسالِ نوح إلى قومه، ودعوتِه لهم إلى عبادةِ الله وحده، وردِّ الملأ الكفار من قومه عليه، وإثارةِ شبهات لهم حولَه وحولَ دعوته، وحول أَتباعه، ونقضِ نوح عليه السلام لتلك الشبهات، ورفضِ العَرض الذي قدمه له كفارُ قومه بطردِ أَتباعه المؤمنين، وطلبِ قومه إيقاعَ العذاب بهم، وردِّه على طلبهم.

كما تحدثت الآياتُ عن إخبارِ الله له بأنه لن يؤمن من قومه إلا مَنْ قد آمن، وأمْرِه له بصنع السفينة، وتَعرضُ الآياتُ بعضَ ما جرى بينه وبين قومه الكفار أثناءَ صنعه للسفينة، وتَعرضُ مشهدَ بدءِ الطوفان، وفورانِ التنور بالماء، وتحميلِ نوح في سفينته زوجيْن من كل حي، والمؤمنين معه، وجريانِ السفينة في أمواج الطوفان باسم الله.

وتصورُ الآياتُ ما جرى بين نوح وبين ابنه الكافر، وهلاكَ ذلك الكافر غرقاً، كما تصورُ انتهاءَ الطوفان، وزوالَ الماء، واستقرارَ السفينة بركابها على جبل «الجودِيّ».

وتسجلُ الآياتُ سؤالَ نوح لربه عن غرق ابنه، وعتابَ الله له، وبيانَه أنه ليس من أهله، لأنه عملٌ غَيرُ صالح، وتأدُّبَ نوح مع ربه، وطلبَه منه العفو والرحمة.

وتختم الآياتُ القصةَ بمنظرِ نزولِ نوح وأَتْباعه المؤمنين من السفينة إلى الأرض، واستئنافِ الحياة من جديد على وجه الأرض. وتوظفُ الآياتُ قصةَ نوح في القرآن دليلاً على نبوة محمد ﷺ.

ما عرضته سبع سور أخرى:

٤ ـ ما عرضته سورة الأنبياء:

وردتْ قصةُ نوح في إشارةٍ سريعة في آيتين: [٧٦ ـ ٧٧].

وعرضت الآيتان لقطةً سريعة لاستنجادِ نوح بربه، واستنصارهِ له على قومه الكفار، واستجابةِ الله له، وإغراقِ أولئك الكفار.

٥ ـ ما عرضته سورة المؤمنون:

وردت قصة نوح في ثماني آيات: [٢٣ ـ ٣٠].

تحدثت الآياتُ عن إرسالِ نوح إلى قومه، ودعوتِه لهم إلى عبادة الله وحده، ورفضِ الملأ الكفار من قومه لدعوته، وإثارتِهم للشبهات ضده، واتهامِهم له بالجنون، واستنصارهِ بالله، وأمرِ الله له بصنع السفينة ونجاتِه مع المؤمنين ركاب السفينة، وإغراقِ الكفار بالطوفان.

٦ ـ ما عرضته سورة الشعراء:

وردت قصة نوح في ثماني عشرة آية: [١٠٥ ـ ١٢٢].

تحدثت الآياتُ عن تكذيبِ قومه له، ودعوتِه لهم إلى الله، وإثارتِهم الشبهات عليه وعلى أتباعه، وطلبِهم منه طردَ المؤمنين المستضعفين، وتهديدِهم له برجمه، واستنصارهِ بالله، ونجاته مع أتباعه، وإغراقِ قومه الكفار.

٧ ـ ما عرضته سورة العنكبوت:

وردت قصة نوح في آيتين: [١٤ ـ ١٥].

ووردت في الآيتيْن معلومةٌ جديدة، لم تُذكَر في غير هذه السورة، وهي أن نوحاً مكثَ يدعو إلى الله في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً.

ومع ذلك كذبوه، فأَغرقهم الله بالطوفان، وأنجى نوحاً وأَتباعه المؤمنين في السفينة.

٨ ـ ما عرضته سورة الصافات:

وردت قصة نوح في ثماني آيات: [٧٥ ـ ٨٢].

تحدثت الآياتُ عن استنجادِ نوح بربه على قومه الكافرين، ونجاتِه مع أتباعه المؤمنين، وغرقِ قومه الكفار، والثناءِ على نوح عليه السلام.

٩ ـ ما عرضته سورة القمر:

وردت قصة نوح في تسع آيات: [٩ ـ ١٧].

تحدثت الآياتُ عن تكذيبِ قومه له، ودعائِه لله واستنجادهِ واستنصارِه به، وتعذيبِ الله لقومه بالطوفان، وإنجائه لنوح وأتباعه في السفينة، وإبقاءِ قصة الطوفان والسفينة آيةً وعبرة لمن يعتبر أو يتذكر.

١٠ ـ ما عرضته سورة نوح:

سورةُ نوح كلُّها في الحديث عن قصته، وآياتُها ثمانٍ وعشرون آية.

تحدثت آياتُ السورة عن إرسالِ نوحٍ إلى قومه، وإنذارِه لهم، وطلبِه منهم عبادةَ الله وحده، ويخبرُ نوحٌ في الآيات عن جهودِه في دعوة قومه، وأساليبِه، في الدعوة، ولا ننسى أنه استمرَّ على هذه الدعوة ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك واجَه قومُه دعوتَه بالإِصرار على الكفر والعناد.

يبينُ لهم نوحٌ آثارَ الإِيمان والاستغفار المباركة في الحياة الدنيا، ويقدمُ لهم في دعوته معلوماتٍ علمية، كخلقِهم أطواراً، وخلقِ سبع سماوات، وكونِ القمر نوراً، وكونِ الشمس سراجاً، وإنباتِهم من الأرض نباتاً، وجعلها لهم بساطاً.

ومع ذلك أصرَّ قومُه على عصيانِه، واتَّبعوا الملأَ الكافرين منهم، وتمسكوا بعبادةِ أصنامهم، وذَكرتْ أسماءَ خمسة منها، وعقابَ الله لهم بالطوفان، وتعذيبهم بالنار.

وتتضمنُ الآياتُ دعاءَ نوح على قومه الكفار بالهلاك والدمار، ودعاءَه واستغفارَه لوالديْه وللمؤمنين والمؤمنات.

[٣]

المدة بين آدم ونوح

بعثَ اللَّهُ نوحاً عليه الصلاة السلام نبياً ورسولاً إلى قومه. وكان نوحٌ بعد آدم عليهما السلام.

آدم أول نبي ونوح نبي ورسول:

فمن المعلوم أن آدمَ أبا البشر هو أولُ نبي، بعثه اللَّهُ إلى أولاده، فعلَّمهم دينَ الله. وجاءتْ أجيالٌ بعده على الإِيمان والتوحيد. ثم طرأَ عليهم الشركُ والكفر بعد ذلك، وتمكنَ الشيطانُ من إغواءِ وإضلال أجيالٍ أخرى، فظهرَ فيهم الشركُ بالله، وعبادةُ الأصنام.

فبعثَ اللَّهُ نوحاً عليه السلام نبياً ورسولاً، ليدعو هؤلاء الكفارَ المشركين إلى الإيمانِ بالله وتوحيدِهِ.

و «نوح» اسمُ علمٍ أجنبي، ليس عربياً ولا مشتقاً، لأنَّ العربَ لم يكونوا قد وُجدوا في عهده عليه السلام، ولم تكن اللغةُ العربية قد ظهرت، فلا نبحثُ في معنى اسم «نوح» في العربية، ولا في مادةِ اشتقاقه.

ولم يثبتْ في الأحاديثِ الصحيحة شيءٌ عن أسماء آباء نوح، ولا عن سلسلةِ النسب بينه وبين أبيه آدم، فلا نخوضُ في ذلك، كما فعلَ الذين ذهبوا إلى الإِسرائيليات.

كذلك لم يثبتْ شيءٌ في تحديدِ المكان الذي كان يقيمُ فيه قومُ نوح، والذي عاشَ فيه نوح، ولا عن عمره الذي قضاهُ قبل أنْ يبعثَه الله نبياً رسولاً.

كذلك لم يثبتْ شيءٌ في تحديدِ أسماءِ أولاده أو عددِهم، أو اسم زوجته، أو اسم والدَيْه.

كلُّ هذه الأمور من «مبهمات القصص القرآني»، التي لم تبيَّنْ في الآيات والأحاديث الصحيحة، ويجبُ أن نبقيَها على إِبْهَامِهَا، وأن لا نذهبَ إلى الإِسرائيليات والأساطيرِ في محاولة تعيينها.

ابن عباس يخبر عن المدة بين آدم ونوح:

أما المدةُ الزمنيةُ بين آدم ونوح عليهما السلام، فهناك روايةٌ موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما، تحددُها بأنها عشرةُ قرون.

فقد روى الحاكمُ في المستدرَك عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون، كلُّهم على شريعةِ الحق،

فاختلفوا فبعثَ اللّهُ النبيين، مبشرين ومنذرين»[1].

وابنُ عباس - رضي الله عنهما - لم يرفع هذا الخبرَ إلى رسول الله ﷺ، ولا ندري دليله على تحديدِ المدة بأنها عشرةُ قرون، ولا المصدرَ الذي اعتمدَ عليه، وأخذَ منه.

وبما أن هذا الخبرَ ليس مرفوعاً للرسول ﷺ، فإننا نتحفظُ في اعتمادِه، والقولِ به يقيناً، مع إجلالِنا وتقديرنا وتوقيرنا لابن عباس رضي الله عنهما.

نتحفظُ في القول بهذا الخبر يقيناً، وفْقَ منهجنا في روايات قصصِ القرآن، حيث لا نعتمدُ منها إلا ما صحَّ منها متصلاً مرفوعاً للرسول ﷺ. لأن قصصَ القرآن من غيب الماضي، وأنباءُ الغيب لا تؤخَذُ إلا من آية صريحة، أو حديثٍ مرفوع صحيح.

ورغمَ تحفُّظنا في اعتمادِ خبرِ ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أننا نستأنسُ به استئناساً، لصحةِ وقفِه عليه.

ما المراد بالعشرة قرون بينهما:

فما المرادُ بالعشرة قرون بين آدم ونوح عليهما السلام؟ مدةُ القرن في بداية تاريخ البشرية، تختلفُ عن مدة القرن فيما بعد، وبالذات في العصرِ الحاضر.

مدةُ القرن في حساباتنا مئةُ سنة. لكن هذا لا يوجبُ أن تكونَ مدةُ القرن زمنَ آدم ونوح عليهما السلام مئةَ سنة.

القرنُ مشتقٌ من الاقترانِ والاجتماع.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢:٥٤٦ - ٥٤٧. وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٤٧.

قال الإمام الراغب في المفردات: «الاقتران: كالازدواج، في كونه اجتماعَ شيئيْن أو أشياءَ، في معنى من المعاني.

والقرن: القومُ المقترنون في زمن واحد، وجمعُه قرون»[1].

وهذا معناه أنَّ القرنَ يطلقُ على أهلِ الجيل الواحد، الذين اقترنوا معاً، وعاشوا في زمنٍ واحد.

ومعلومٌ أنَّ أعمارَ الناس في بدايةِ تاريخ البشرية كانت طويلة، حيث كان أحدُهم يعمرُ مئاتَ السنين.

فها هو نوحٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعيش مع قومه نبياً رسولاً قبلَ الطوفان تسعَمئة وخمسين سنة! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

وهذا يعني أنَّ نوحاً عليه السلام عاش ألف سنة أو أكثر.

وهذا يعني أن متوسطَ الأعمار بين آدم ونوح عليهما السلام ألفُ سنة، بينما أعمارُ الناس في زماننا ما بين الستين والسبعين، وقلَّ مَنْ يتجاوزُ الثمانين من عمره. فمتوسطُ الأعمار في زماننا هو سبعون سنة.

مدةُ القرنِ لأبناءِ الجيل الواحد بين آدم ونوح عليهما السلام هي ألفُ سنة، بينما مدةُ القرن لأبناء جيلِنا هي سبعون سنة.

فالعشرةُ قرونٍ بين آدم ونوح عليهما السلام ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ حوالي عشرةُ آلاف سنة، والله أعلم!

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ٦٦٧.

[٤]

كيف انحرف الناس إلى الكفر؟

كان الناسُ بعد آدم عليه السلام، مؤمنين بالله، موحِّدين له، ومرتْ أجيالٌ منهم على الإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون، كلُّهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعثَ اللّهُ النبيين مبشرين ومنذرين».

تمكنَ الشيطانُ بعد هذه الأجيال المؤمنة من إغواءِ أُناس من الأجيال اللاحقة، فأبعدهم عن الإيمان والتوحيد، وقادَهم إلى الكفرِ والشرك بالله.

وهذا يدلّ على أنَّ الإيمانَ بالله وإخلاصَ العبادة له، هو الأصل، وهو الأساس، وأن الكفرَ والشرك طارئ حادث.

الإسلام هو أول دين على وجه الأرض:

إن أولَ دين على وجْهِ الأرض هو الإيمانُ والإسلام. وإن الناسَ بدأوا حياتَهم على وجه الأرض مؤمنين مسلمين، وإنَّ «الإنسانَ الأول» كان مؤمناً بالله، موحِّداً له. وكان على هذا الدين الصحيح آدمُ عليه السلام، وأولاده وأحفادُه.

ثم جاءَ الكفر والشرك طارئاً بعد ذلك.

وقد قررَ هذه الحقيقة الإيمانية، في البدايةِ التاريخية المؤمنةِ المهتدية للبشرية، نصوصُ الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة: ٢١٣].

تقررُ الآيةُ الكريمةُ أن الناسَ في بدايةِ تاريخ البشر على وجْهِ الأرض، كانوا مؤمنين بالله، موحِّدين له، أمةً واحدة، على دينٍ واحد.

ثم جاءتْ أجيالٌ جديدة، تخلوا عن الدين، وانقادوا للشيطان وكفروا بالله، فوقعَ بينهم الاختلاف والنزاع، فبعثَ اللَّهُ لهم الرسلَ والأنبياء، مبشرين ومنذرين، ليعيدوهم إلى الله، وأنزلَ معهم الكتاب بالحق، والمنهاج الصحيح، ليُزيلَ الخلاف، ويحسمَ النزاع، ويحكمَ بين الناس فيما اختلفوا فيه.

روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه عن عياضِ بنِ حمارِ المُجاشِعي رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال ذاتَ يومٍ في خطبته: «أَلا إنَّ ربي أَمرني أنْ أعلِّمكم ما جهلْتُم مما علَّمني، يومي هذا: كلُّ مال نَحَلْتُه عبداً، حلال.. وإني خلَقْتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنهم أَتتهم الشياطين، فاجتالَتْهم عن دينهم، وحرمَتْ عليهم ما أحللْتُ لهم، وأمرَتْهم أنْ يُشركوا بي ما لم أنزلْ به سلطاناً... وإن اللَّهَ نظرَ إلى أهل الأرض فمقَتَهم، عرَبَهم وعجَمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب..

.. وقال: إنما بعثْتُك لأبتليك، وأَبتليَ بك، وأنزلْتُ عليك كتاباً، لا يغسلُه الماء، تقرؤُه نائماً ويقظان...»[1].

وهذا الحديثُ الصحيحُ نصٌّ في أن الناسَ بدأوا على وجْهِ الأرض حنفاء، مؤمنين موحدين، وهذا ما جرى للقرونِ والأجيال بعد آدمَ عليه السلام.

الشرك طارئ شاذ على البشرية:

ثم جاءَ الشركُ طارئاً بعد ذلك، حيث أتت الشياطينُ الناس،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، برقم: ٢٨٦٥.

فحازَتْهم، واستحوذَتْ عليهم، واجتالَتْهم وصرفَتْهم عن الدين الحق، وحلَّلَتْ لهم ما حرمَ اللّهُ عليهم، وحرمَتْ عليهم ما أحلَّ اللّهُ لهم، وأَمرتْهم أن يكفروا بالله، وأنْ يشركوا معه الأصنام والأوثان.

عند ذلك بعثَ اللّهُ نوحاً عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً.

فلما جاء نوحٌ عليه السلام إلى قومه، وجدهم يعبدون أصناماً وأوثاناً، يعتبرونها آلهة، فنهاهم عن عبادتها، وأَمرهم بتوحيدِ الله، ولكنَّ الملأَ من قومه رفضوا دعوته.

وقد ذكرَ القرآنُ أسماءَ خمسةِ أصنامٍ لهم.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٢ ـ ٢٤].

الآلهةُ الخمسةُ المعبودةُ من دون الله، هي: وَدّ، سُواع، يَغوث، يَعوق، نَسْر.

كيف عبد قوم نوح الأصنام؟

وقد روى البخاريُّ حديثاً موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما في كيفيةِ انحرافِ قوم نوح، وعبادتِهم لتلك الأصنام.

قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «صارت الأوثانُ التي كانتْ في قومِ نوحٍ في العرب بعد:

أما «وَدٌّ» فكانت لكَلْب. بدومةِ الجَنْدل.

وأما «سُواعٌ» فكانت لهُذَيْل.

وأما «يَغوث» فكانت لمُراد، ثم لبني غَطيف بالجُرْف، عند سبأ.

وأما «يَعوقُ» فكانت لهمذان.

وأما «نَسْرٌ» فكانتِ لحِمْيرَ، لآل ذي الكلاع.

وكانت هذه أسماءُ رجالٍ صالحين، من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم، أن انصِبوا إلى مجالسهم ـ التي كانوا يجلسون ـ أَنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلكَ أولئك، ونُسِخَ العلم، عُبدتْ...»[1].

وبما أنَّ الروايةَ موقوفةٌ على ابن عباس رضي الله عنهما، وبما أنه لم يرفع الحديثَ إلى رسول الله ﷺ، فإننا نتحفظُ عليه، ولا نجزمُ به، بل نستأنسُ به استئناساً، كما سبقَ أنْ قلْنا في العشرةِ قرون التي بين آدم ونوح عليهما السلام.

لقد انحرفَ قومُ نوح، واستجابوا لدعوةِ الشياطين إلى الشرك بالله، وعبدوا أصناماً خمسة، هي: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسْر.

[٥]
نوح رسول يدعو إلى عبادة الله

أخبرَنا اللّهُ أنه بعثَ نوحاً نبياً ورسولاً إلى قومه. فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

نوح أول رسول للبشر:

والآيةُ تنصُّ على أنَّ نوحاً عليه الصلاة والسلام رسول.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن نوحاً عليه الصلاة والسلام هو أولُ رسول إلى الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٤٨.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ ـ في حديثِ الشفاعة الطويل ـ أنه قال: «... فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح: أنتَ أولُ الرسل إلى الأرض، وسَمّاك اللَّهُ عبداً شكوراً، اشفَع لنا إلى ربك، ألَا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فيقول لهم: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبُ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله، وإنه قد كانتْ لي دعوة، دعوتُ بها على قومي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ..»[1].

إن آدمَ عليه السلام هو أولُ نبي، بعثه اللَّهُ نبياً إلى أولاده. أما نوح فهو نبي، وهو أولُ رسول، أرسلَه الله إلى قومه.

أرسلَ اللَّهُ نوحاً عليه السلام إلى قومه خاصة، لأنَّ كلَّ رسولٍ كان يُرسل إلى قومه خاصة، إلا محمدٌ ﷺ، حيث أرسلَه الله إلى الناس كافة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾ [نوح: ١].

ونفَّذَ نوحٌ أمرَ الله، وقام بإنذار قومهِ عذابَ الله ودعاهم إلى الإيمانِ بالله، وإخلاصِ العبادة له: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

نوح يطلب منهم عبادة الله وحده:

لقد طلبَ نوحٌ عليه الصلاة والسلام من قومه عبادةَ الله وحده، ونهاهم عن عبادةِ غيره:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ١٩٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٣٦٤.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣].

طلبَ نوحٌ عليه السلام من قومه طلباً واحداً، وهو عبادةُ الله وحده: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وهذه هي خلاصةُ رسالة نوح عليه السلام، وخلاصةُ رسالة كل رسول.

ولذلك كان كلُّ رسول يطلبها من قومه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

خلاصةُ كلِّ دين أنَّ اللّهَ وحدَه هو ربُّ العالمين، وكلُّ ما سواه مخلوقون عبيدٌ خاضعون له.

وأيُّ دين رباني يقوم على: معرفةِ حقيقةِ الألوهية، ومعرفةِ حقيقة العبودية.

الله وحده هو الربُّ والإِلّه: لا إله إلا الله.

وكلُّ ما سواه له عبد، خاضعٌ مستسلم له، يتلقى الأوامرَ

والواجباتِ والأحكامَ منه، وعليه واجبُ الالتزام والتنفيذ، ليحقق عبوديتَه لله رب العالمين.

ولهذا قال نوح لقومه ـ وقاله كلّ نبي لقومه ـ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

ورسالةُ نوح ودعوتُه عليه السلام من حيث العقيدة، هي رسالةُ كل نبي، في الدعوةِ إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة والخضوع والطاعة، وفي تعريفهم على صفاتِ الله وأفعاله، وفي الإيمان بالبعثِ والحساب، والجنة والنار، وفي تعريفهم ما خلقَ اللّهُ من حولهم من الملائكة والجن، والسماوات والأرض، والشمس والقمر.

موضوع رسالة نوح العقيدي:

قال تعالى عن موضوع رسالتِهِ الإيمانية والعقيدية، مخبراً عن مخاطبته لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ٢٠].

والدليلُ على أن موضوعاتِ العقيدة واحدةٌ في كل رسالة، وعند كل رسول، قولُه تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

ومن هذا الباب أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن نوحاً عليه الصلاة والسلام أنذرَ قومَه الدجال.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «قامَ رسولُ الله ﷺ في الناس، فأثنى على الناس بما هو أهلُه. ثم ذكرَ الدجال فقال: إني لأنذرُكموه، وما من نبي إلا أنذره قومَه، لقد أنذرَ نوحٌ قومَه، ولكني أقولُ لكم فيه قولاً لم يقلْه نبيٌّ لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن اللَّهَ ليسَ بأعور..»(١).

إنَّ ظهورَ الدجال في آخر الزمان من مسائل العقيدة، وبما أن العقيدةَ واحدةٌ عند جميع الرسل، فقدْ أنذرَ كل نبي قومه الدجال، وحذرهم منه، وما ذلك إلا لعظم فتنته.

ولذلك أنذرَ نوحٌ عليه السلام قومَه المسيحَ الدجال.

[٦]

أساليب نوح في الدعوة

نوح يستخدم مختلف الأساليب في الدعوة:

قام نوحٌ عليه السلام بواجبه في دعوةِ قومه إلى عبادةِ الله وحده، وبلَّغهم الدعوةَ كما أمره الله.

وقد سلكَ معهم مختلفَ الأساليبِ والوسائلِ في الدعوة، بهدفِ إقناعِهم والتأثير فيهم، ليتخلوا عن الباطل، ويتبعوا الحق.

فمن أسلوبِ الترغيب، إلى أسلوب التحبيب، إلى أسلوب الترهيب، إلى أسلوب البرهان، إلى الدعوة السرية، إلى الدعوة العلنية، إلى الدعوة في الليل، إلى الدعوة في النهار.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٧. ومسلم برقم: ١٩٦.
وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٤٩.

ها هو يتحببُ إليهم في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ هو تقربٌ منه لهم وتحبُّب، ليَقبلوا دعوته.

وهو أخوهم المشفقُ عليهم: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦﴾ [الشعراء: ١٠٦].

وها هو يصارحُهم بإشفاقِه عليهم، وحرصِه على مصلحتهم، وخوفِه من وقوعِ العذابِ بهم إن استمرّوا على كفرهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦].

وهو يرغِّبهم بنيْلِ الخير والبركة إن استجابوا لدعوته: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وهو يبينُ لهم ثمرةَ استجابتهم لدعوته: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [نوح: ٣ ـ ٤].

أما عن توظيفِه لأحسنِ الأوقات في الدعوة، وتخيُّرِه لأوقات التأثير فيهم، فيخبرُ عنها عليه السلام، في تقريرِهِ بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾. [نوح: ٥]

وبقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: ٨ ـ ٩].

إنه داعيةٌ إلى الله، يدعوهم في مختلف الأوقات، يَدْعُوهُم في

ساعات الليل، وساعات النهار ويتخيّر من هذه الساعات والأوقات ما كان أكثرَ تأثيراً في نفوسهم: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

دعوته ألف سنة إلا خمسين عاماً:

ويدعوهم بمختلف الأساليب، يدعوهم الدعوةَ الجهريةَ الجماهيرية العامة على المستوى الاجتماعي، في المؤتمرات واللقاءات: ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

ويدعوهم الدعوةَ العلنية على المستوى الأقلّ والأضيق من الدعوة الجهرية: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾.

ويدعوهم الدعوةَ السرية الخاصة، في اللقاءاتِ الفردية الجانبية السرية الخفية: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

واستغرقت هذه الأساليبُ الثلاثةُ ـ الجهر، والعلن، والسر ـ وقتَه كله، في ليله ونهاره!!.

كم شهراً استمرَّ على الدعوةِ بهذه الأساليب والأوقات؟ وكم سنةً استمر على ذلك؟ هل استمر شهوراً؟ أو سنوات؟ أو عشرات السنين؟.

لقد استمرَّ على هذه الأساليب الدعوية ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

إنه رسولٌ داعية، موقوفٌ على الدعوة والتبليغ، وقد أدى واجبَه طيلةَ مئات السنين، بصبرٍ وثبات، وجهادٍ ونشاط.

وهو «قدوةٌ» للدعاةِ إلى الله، الذين كلَّفهم اللّهُ بواجبِ الدعوة، وتوظيفِ أعمارهم التي لا تتعدى عشراتِ السنين في أداءِ هذا الواجب.

[٧]

نوح يواجه الملأ من قومه

واجَه نوحٌ «الملأ» من قومه، الذين كانوا يقودون أَتباعَهم الكافرين، ويوجِّهونهم لمواجهةِ نوح عليه السلام.

ظاهرة الملأ في مواجهة الرسل:

وقد أخبرتْنا آياتُ القرآن عن ظاهرةٍ عجيبة وخطيرة، في الوقوف أمام نوح عليه السلام ومحاربته، وهي ظاهرةُ «الملأ».

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

ولتسميتهم باسم «الملأ» ملحظٌ ذو دلالة.

قال الإمامُ الراغبُ في معنى «الملأ»: «الملأ: جمَاعةٌ يجتمعونَ على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظراً، والنفوسَ بهاءً وجَلالاً.

... يقال: «فلانٌ مِلءُ العيون. أي: معظَّمٌ عندَ مَنْ رآه. كأنه مَلأَ عينه من رؤيته...»[1].

قومُ نوح الكفار كان لهم «ملأ» ـ وكلُّ كفارٍ لهم ملأ، يقودونهم في مواجهة الحق ـ.

وهؤلاء «الملأُ» كانوا يجتمعون على كفرهم، ويلتقونَ في جلساتِهم على التآمرِ والمكرِ ضدَّ نوح عليه السلام ورسالته، ويتفقون على أساليبِ حربه ومواجهتِه، ويَضعون خطةً إعلامية، ينفذونَها في أَتباعهم وجنودِهم وأعوانِهم.

---

(١) المفردات: ٧٧٦.

وسُمي هؤلاء «مَلأً» لأنهم كانوا يملؤون عيونَ جماهيرهم وأتباعهم مهابةً وخوفاً، ويملؤون نفوسَ جنودهم رهبةً وإجلالاً، أي: كانوا ملءَ عيونِ ونفوسِ وقلوبِ وعقول أتباعهم وجنودهم. ولهذا كانوا يخافون منهم، ويَرهبونهم، ومن ثم كانوا يتبعونَهم وينفِّذون ما يطلبونَه منهم، ويجندون لهم أعواناً في رفضِ الحق، ومواجهةِ نوح عليه السلام.

هذه هي الآثارُ الخطيرةُ لظاهرة «الملأ» التي نلحظُها في قصص الأنبياء في القرآن، والتي كانت تمثلُ القيادةَ الشيطانيةَ الجاهلية لحزبِ الشيطان، في مواجهةِ الحقِّ وجنوده.

وتخبرُنا آياتُ القرآن في قصةِ نوح عليه السلام، أن هؤلاء «الملأَ» هم الذين قادوا قومَهم في مواجهته، وهم الذين أثاروا الشبهاتِ ضدّه، وضدَّ دعوته وأتباعه، وقدَّموا طلباتِهم له، ووجَّهوا تهديداتهم إليه.

وقد واجهَ نوحٌ عليه السلام هؤلاء «الملأ» وفندَ شبهاتِهم، ولم يستجبْ لطلباتِهم، ولم يرضخْ لتهديداتهم، وإنما تحدّاهم، وحارَبهم، واستعلى عليهم بإيمانه، متوكلاً على اللّهِ ربه.

تفنيد شبهات الملأ في سورة الأعراف:

ماذا قال الملأُ له؟ وما هي شبهاتُهم ضدّه؟ وماذا طلبوا منه؟ وبماذا هدّدوه؟ وكيف «تعامل» نوحٌ عليه السلام مع كلِّ هذا؟ وكيف واجَهَهم؟ وكيف «أدارَ» الحربَ ضدهم؟.

نسير مع آيات القرآن في ذلك.

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن

﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾ [الأعراف: ٦٠ ـ ٦٣].

الشبهاتُ التي أثاروها ضدَّه كما سجلَتْها هذه الآيات هي:

أنه في ضلالٍ مبين. فكيف يتخلى عن دينِ آبائه وأجداده؟

وقد أجابَهم بأنه ليس في ضلال، وإنما هو على هدى مبين، فهو رسولٌ لهم، أرسلَه اللَّهُ ربُّهم، ليبلِّغهم الحق، ويدعوهم إلى الخير، ويقدمَ لهم النصيحة.

وأنه رجلٌ منهم، فكيف يجعلُه اللَّهُ رسولاً لهم، وهو واحدٌ منهم، إذا كان الله سيرسل رسولاً، فلا بد أن يكونَ أحدَ الملائكة!

وقد أجابَهم بإزالةِ استغرابهم وتعجُّبهم: لقد شاءَ الله الحكيمُ أن يجعلَ رجلاً منهم نبياً، ودعاهم هذا النبيُّ إلى التَّقوى، وقدمَ لهم الإِنذار، ليؤمنوا وينالوا رحمةَ الله.

فماذا في هذا مِن تعجبٍ واستغراب؟

تفنيد شبهاتهم في سورة هود:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)﴾ [هود: ٢٧ ـ ٢٩].

وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)﴾ [هود: ٣١].

شبهاتُهم التي أَثاروها ضده هي:

هو بشرٌ مثلُهم، وليس رسولاً من عندِ الله.

والذين اتبعوه وآمَنوا به هم أراذلٌ سفهاءُ مستضعَفون.

وهؤلاء الأَراذلُ سذَّجٌ بلهاء، لا يفكرون ولا يُعملون عقولَهم، ويَتَّبعون الرأيَ الذي يبدو ويظهر، بدون تروٍّ ولا نظرٍ ولا تفكير ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾. ولذلك استغْفلَهم، و«ضحكَ عليهم».

لا فضلَ لنوح وأَتْباعه المؤمنين على القوم، وما قدموا لهم خيراً.

نتيجةً لما سبق فإن نوحاً وأَتباعَه كاذبون: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

ردَّ نوحٌ عليه السلام عليهم بقوله: هو رسولٌ من عند الله وهو على يقينٍ كامل، وبينةٍ قاطعة بذلك. اللّٰهُ آتاه رحمةً من عنده، وهي رحمةُ النبوة والرسالة، والهداية واليقين.

هذه الرحمةُ «عُمِّيَتْ» على الملأ من قومه الكافرين، فهم «عُمْيٌ» لا يرونها.

ما هو إلا داعيةٌ ومبلِّغ ونذير، فإذا رفضوا الحق، فلن يُلزمهم إياه.

هو متجردٌ في دعوته، لا يريدُ منهم مقابلَ الدعوة مالاً ولا أجراً، لأنَّ أجْرَه وثوابَه عند الله.

وهو داعيةٌ رسولٌ بشر، وليس جامعَ مال، أو تاجرَ دعوة. فليس عنده خزائنُ المال، ولا يعلمُ الغيب، وليس مَلكاً من الملائكة.

أَتباعُه المؤمنون ذوو منزلة عالية عند الله، ولقد علمَ اللّٰهُ ما في نفوسهم من صفاءٍ ونقاء، فهداهم للحق، ووعدَهم الخيرَ والثواب والنعيم، ولا يَضيرُهم عند الله أنْ تَزدريهم أعينُ الملأ الكفار، أو أنْ يعتبروهم أراذلَ بادي الرأي.

تفنيد شبهاتهم في سورتي المؤمنون والشعراء:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤ ـ ٢٦].

شبهاتُهم التي أثاروها هنا هي:

أنه بشرٌ مثلُهم وليس رسولاً، ولو شاءَ اللّهُ إرسالَ رسول لأنزل ملائكة.

وهو يريدُ استغلالَ الدعوة لتحصيل مكاسبَ شخصية، ونيلِ مراكزَ متقدمة، وليس صادقاً في دعوته: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

هو مبتدعٌ في دعوته، ولهذا فهو مدَّعٍ متقوِّل، فلم يسمعوا بدعوتِه في آبائهم الأولين.

هو مجنونٌ وليس عاقلاً، فكلامُه كلام مجنون، لا يمكنُ أنْ يصدرَ عن عاقل.

على جنودهِم تكذيبُه والكفر به، والتربصُ به حتى حين موتِه وزوالِ دعوته.

فردَّ نوحٌ عليه السلام على كل ذلك بتوجُّهه إلى الله واستنصارِهِ عليهم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣].

في هذه الآياتِ علَّلَ الملأُ من قومه سببَ كفرِهم به، وعدمِ اتباعهم له أنَّ أتباعه هم الأرذلون عندهم، هم ضعفاؤُهم وعبيدُهم،

فكيف يكونون مع الأدنى والأقلِّ والأرذل في دعوةٍ واحدة أو مجلسٍ واحد؟

فردَّ عليهم بأنه لا يعلمُ عن جنوده وأَتْباعِه إلا أنهم أَطهارٌ أَنْقياء، عرفوا الحق، فاتَّبعوه، وحسابُهم على الله، فهو أعلمُ بما في قلوبهم، وأَعلمُ بنفوسِهم ونياتِهم.

ومن خلالِ هذه المواضع الأربعة التي سجلَتْ شبهاتِ الملأ الكفار من قومه، وردَّ نوح عليها ـ في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء ـ نرى أَنها الشبهاتُ نفسُها التي أَثارها كلُّ ملأ من الكفار، ضدَّ نبيهم ودعوتِه.

كما نرى أنَّ الملأَ الكفارَ أَرادوا بهذه الشبهات توجيهَ حربٍ إعلاميةٍ دعائية ضدَّ نوح عليه السلام ودعوتِه، بهدف الوقوف أمامه، لوقف انتشارِ دعوته. وهي شبهاتٌ متهافتةٌ ساقطة، لا تقومُ على منطق، ولا تعتمدُ على حجة، ونرى الردَّ العلميَّ، والنقضَ الموضوعي، والإجابةَ اليقينية، في التي قامَ بها نوحٌ عليه السلام، وهكذا منطقُ الحق والإيمانِ في وضوحه وظهورِه وإقناعه.

رد نوح على طلبات الملأ:

أَما ما طلَبَه الملأُ من قومه منه فهو ما سجلَتْه الآيات:

١ ـ طلبوا منه أنْ يطردَ أَتْباعه المؤمنين، الذين هم في نظرهم أراذلُ سفهاء، وقد رفضَ عليه السلام ذلك الطلب، فمَنْ ينصُرُه من الله إن استجابَ لطلب الملأ، وطردَهم:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١١٤ ـ ١١٥].

٢ ـ اعترفوا بأنه جادلهم، وأكثرَ جدالَهم، وأنه أفحمهم وأقامَ عليهم الحجة، ومع ذلك فلن يستجيبوا له، ولن يتبعوه.

وطلبوا منه أنْ يوقعَ بهم العذابَ الذي يَعدُهم به، ويرهِّبُهم منه.

فردَّ عليهم بأنَّ أمْرَ العذاب بيدِ الله لا بيده هو، ويوقعُه اللّٰهُ بهم متى شاء، وهم لا يُعْجِزونَ الله. أما هو فما هو إلا ناصحٌ لهم، ولكنَّ نصْحَه لن ينفعهم طالما اختاروا صَمَّ آذانِهم وإقفالَ قلوبهم:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٢ ـ ٣٤].

[٨]

عناد قومه وإصرارهم على تكذيبه

أصرَّ قومُ نوح على كفرِهم وعنادِهم، ورفضوا دعوتَه، وكلما زادَ إقبالاً عليهم ودعوةً لهم، وتلطفاً وتحبباً وتقرُّباً إليهم، زادوا كفراً وعناداً، وازدادوا تكذيباً له، وفراراً منه.

نوح يقدم تقريره لربه عن دعوته:

ولهذا قالَ نوحٌ عليه السلام في تقريره الذي قدَّمه عن دعوتِه، وموقفِ قومه منه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

هو عليه السلام دعاهم: ليلاً ونهاراً، ودَعاهم جِهاراً وأعلَنَ لهم، وأسرَّ لهم إسراراً.

هم ماذا كان موقفُهم؟: لم تزدْهُم دعوتُه إلا فِراراً منه، وفِراراً من الحق الذي معه، وفِراراً من الهدى والنور والإيمان، وفِراراً من رحمة الله ومغفرته وفضله ونعيمه!.

«فِراراً» إلى أين؟: إلى الشيطان والعذاب والنار، فرار إلى الظلمات والضياع والمعاصي، فرار إلى غضبِ الله ولعنته!

أَليس هذا هو فعْلَ الكفار في كلِّ زمان ومكان؟ أليس هذا هو موقفَهم من دعوة الحق؟ أليس هذا هو فرارهم الدائم من النور والهدى؟

حركاتهم الانفعالية صادرة عن العقد النفسية:

وعندما كان نوحٌ عليه السلام يدعوهم إلى مغفرةِ الله ورحمته، وعندما كانوا يشاهِدونه بعيونهم، ويسمعونَه بآذانهم، كانوا يتصرفون تصرُّفاتٍ «مُتَشَنِّجة»، صادرةً عن نفسياتٍ معقَّدة: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾.

إنهم يجعلون أصابعَهم ـ وليس أطرافَ أصابعهم ـ في آذانهم، حتى لا يسمعوا صوتَه الواضح، ومنطقَه المقنع، وبرهانَه الساطع.

وعندما يشاهدونه يستَغْشون ثيابَهم. أي: يُغطّون عيونَهم ووجوههم بثيابهم، وذلك حتى لا يشاهدوه ولا يبصروه.

إنها حركاتٌ «مضحكة» وأنت تضحكُ سخريةً بهؤلاء الملأ الذين يضعون أصابعهم في آذانهم، ونوحٌ يخاطبهم، كما أنك تضحكُ سخريةً

بهؤلاء الذين يكونون عاديين هادئين، فإذا ما شاهدوا نوحاً، توتَّروا وانفعلوا، وغطّوا عيونَهم بثيابهم.

لقد أصرّوا على كفرهم وعنادهم، وحملَهم على ذلك استكبارُهم﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

وقد عصى الكفارُ في قوم نوحٍ رسولَهم عليه الصلاة والسلام، وكفروا به، واتبعوا الملأ القادةَ فيهم، وساروا مع الشيطان: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

وقد مكر الملأُ المعاندون من قومه به وبدعوته، يكفيك تصوُّرُ خطورةِ ذلك المكر والكيد قولُ الله عنه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] والكُبّارُ أبلغ من الكبير.

هيجوا أتباعهم ضده:

ولجأ الملأُ الماكرون إلى أتْباعهم، واستثاروا فيهم الحميةَ الدينية، ووظَّفوها وسيلةً لتهييجهم ضدَّ نوح عليه السلام، وهذا مبالغةٌ منهم في كيدِهم ومكرِهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قالوا لجَماهِيرِهم وأتباعهم: إنَّ نوحاً خطيرٌ عليكم وعلى دينكم، فلا تستجيبوا له، وإنَّ آلهتكم في خطرٍ مباشرٍ منه، ومن جنوده ودعوته، فواجِهوهُ وحارِبوه، ولا تَتركوا آلهتكم، لا تَذروها، ولا تتخلّوا عن عِبادتها، إنها الآلهةُ التي عبدَها آباؤكم وأجدادكم، الذين تحبونهم، وتَفخرونَ بالانتساب لهم، والتي أنتم تعبدونَها من بعدهم!

لا تَذروا ولا تتركوا هذه الآلهةَ الخمسة: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسْر.

وهكذا هيَّجَ الملأُ أتباعَهم ضدَّ نوحٍ ودعوتِه، وبلَغوا النهايةَ في العنادِ والإصرار، والكفرِ والتكذيب، والمكر والكيد، والحربِ والمواجهة.

وواجه نوحٌ عليه السلام كلَّ هذا بإيمانٍ وثبات، وصبرٍ واحتساب، ودعوةٍ ومواجهة، وتحدٍّ وجهاد.

ولا ننسى أن هذه المواجهةَ الحادةَ بينه وبينهم، استمرتْ «ألفَ سنة إلا خمسين عاماً»!!!.

[٩]

حصيلة دعوته

استمرَّ نوحٌ علَيه الصلاةُ والسلام يدعو قومه إلى الله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

وكان يدعوهم في كلِّ الأوقات: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾.

وقد أقامَ عليهم الحجة، وأكثرَ من تقديم الأدلة والبراهين لهم، وجادَلهم فأكثرَ جدالَهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾.

ولكنهم لم يستجيبوا له، وعصَوْا أمْره، واتبعوا الشياطين: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

لم يؤمن معه إلا قليل:

لم يؤمنْ بنوح إلا عددٌ قليل من قومه. قال الله عنهم: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

هذا العددُ القليلُ من المؤمنين «مُبْهَم» في القرآن، فلم يحدد القرآنُ عددَهم، ولم يبيّن أسماءَهم.

كذلك لم يحدد الرسولُ ﷺ أعدادَهم ولا أسماءَهم، ولم يسألْ أحدٌ من الصحابة الكرام الرسولَ ﷺ عن ذلك، وأَخذوا النص القرآني على إجماله، وتعاملوا مع العدد على إبهامه، ولم يُشغلوا أنفسهم فيما لا فائدةَ منه، والتفتوا إلى العبرةِ والعظة المستفادةِ من المسألة.

لهذا نقتدي نحنُ بالصحابة عليهم الرضوان في ذلك. ونُبقي العددَ على إبهامه، ولا نخوضُ في هذا العددِ القليلِ من المؤمنين، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات والأساطير، طالبين منها تحديدَ العدد، أو تعيينَ الأسماء، أو بيانَ درجة قرابتهم لنوح عليه السلام.

موقف عائلته من دعوته:

نقفُ مع القرآن في ما عرضَه عن أحوالِ عائلةِ نوح عليه السلام:

نوحٌ عليه السلام نبي رسول، وهو إمام المؤمنين.

والدا نوح عليه السلام مؤمنان صالحان، بدليل دعاءِ نوح لهما بالمغفرة: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨] فلو لم يكونا مؤمنينْ به لما دعا لهما بالمغفرة.

امرأةُ نوح: كافرة. بدليل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

والمرادُ بخيانةِ امرأة نوح له، الخيانةُ في الدين، حيث اختارت الكفر، رغم أنها امرأةُ نبي رسول، وهي معه في بيته.

ولا يُرادُ بالخيانة هنا الخيانةُ في العِرْض، أو ارتكابُ فاحشةِ

الزنا، ففراشُ الأنبياء طاهر، لم تلوِّثه امرأةُ أحدهم بالزنا، ولم يطأ فراشَ النبي أو امرأتَه أحدٌ غيرُه.

قد تكفرُ امرأةُ النبي، أما أنْ تزنيَ فلا!.

أحدُ أبناء نوح كافرٌ بنص القرآن، وهو الذي رفضَ أنْ يركبَ معه السفينة، فأغرَقَه اللّهُ بالموج. ولما سألَ نوحٌ ربَّه عن ابنه، قال الله له: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٍۖ﴾ [هود: ٤٦].

أما أحوال باقي عائلةِ نوح، فهي مبهمةٌ في القرآن، لا نعرفُ هل كانوا مؤمنين أو كافرين.

وبما أنَّ القرآنَ والسنةَ أَبهما أسماءَ والدَيْه وامرأتِه وابنِه، فلا يمكننا تحديدُ هذه الأسماء، ولا نأخذُ ذلك من الإِسرائيليات.

الأكثرية ضالة والأقلية مهتدية:

بقيَ أن نقول: ما دلالةُ هذا القليلِ الذي آمن بنوح عليه السلام؟.

إنه يدلُّ ـ من جملة ما يدلُّ عليه ـ على أن الأكثريةَ من الناس تتبعُ الباطلَ دائماً، وتسيرُ مع الشيطان، وترفضُ الحق. وأنَّ أنصارَ الحق دائماً قليلون من حيث العدد، وأنَّ هذه القلةَ المباركة هي المؤثرةُ في الحياة، المقدمةُ عند الله.

وقد قررتْ آياتُ القرآن هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ونقف لنتساءل: هل قصَّرَ نوحٌ عليه السلام في الدعوة، ولم ينجحْ في تقديمها وعرضها، حتى كانت الحصيلةُ بعد حوالي ألف سنة هذا العددَ القليل؟ هل كان فاشلاً في الدعوة؟

كلاّ، لقد كان داعيةً ناجحاً موفَّقاً، قامَ بالدعوة، وأحسنَ عرْضَها، والدفاعَ عنها، والاحتجاجَ لها، واستمرَّ على هذا حوالي ألف سنة، لكنَّ القومَ أصرّوا على كفرهم، فماذا يمكنُ أنْ يفعلَ لهم؟ هل يمكنُ أن يُكرِهَهم على الإيمان؟

لقد كانَ صريحاً في تقريرِ هذا المعنى لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٨].

و: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٤].

ولقد قررتْ آياتُ القرآن تسليةَ نوح ومواساتَه من ربه، على ما لقيَ من كفرٍ وصدودِ قومِه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦].

[١٠]

نوح يتحدى قومه

واجهَ الملأُ الكفارُ نوحاً عليه السلام، وطلَبوا منه إيقاعَ العذابِ بهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢].

كما طلبوا منه طرْدَ أتباعِه المؤمنين المستضعَفين، فرفضَ طلبهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٤ - ١١٥].

قومه يعاملونه بالعنف والتهديد:

أمامَ تحدّيه لهم، ورفْضِه لطلباتِهم الجائرة، وثباتِه على دعوته، هدّدوه بالرجم، ولجأوا إلى العنف، فلم يخَفْ ولم يتراجعْ، بل ثبتَ

على الحق، واستنصرَ بالله، وطلبَ منه الفتح والنصر. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦ ـ ١١٨].

لئن لم تنتهِ يا نوحُ لتكوننَّ من المرجومين: إذا لم تتوقَّفْ يا نوحُ عن الدعوة، سنرجمُك بالحجارة. عليكَ أن تتخلى عن دعوتك، وأنْ تتركَ ما أنتَ عليه، وأنْ تسكتَ عن ما تقوله لنا، وأنْ تنتهيَ عن اتصالك بالناس، وعن التبشيرِ بدينك، وعن الكلامِ عن ديننا وآلهتنا...

عليكَ أنْ تنتهيَ عن كل ذلك. فإن لم تفعلْ فسنرجمُك ونعذبُك، ونؤذيك ونضطهدُك...

هذا هو المنطقُ الذي يجيدُه الملأُ الكفار من قومه ـ والذي يجيدُه كلُّ ملأ في كل زمان ومكان ـ، وهذه هي اللغةُ التي يُحسنونها، وهذا هو الأسلوب الذي يُتقنونه، والسلاحُ الذي يلجأون إليه.

لقد جادَلَهم نوح فخسروا الجدال، وناقَشَهم فخسروا النقاش، وعرضَ دعوتَه بحجةٍ ومنطق وبرهان، وهم لا يملكون حجةً ولا منطقاً ولا برهاناً، ولهذا خسروا في هذا الميدان، وانهزموا أمامَ نوحٍ عليه السلام.

إِنهم لا يجيدون إلا العنفَ والتعذيب، والتهديدَ والاضطهاد، واللجوءَ إلى القوة والبطش. وهذا دليلُ الهزيمةِ والخسارة.

كيفَ تعاملَ نوحٌ عليه السلام مع تهديدِهم وإنذارِهم؟ إنه لم يضعفْ، ولم يجبن، ولم يستسلمْ، ولم يتنازلْ، ولم ينْتَهِ، ولم يتوقَّفْ.

نوح يواجههم بالتحدي والثبات:

لقد واجهَ تهديدَهم بتحَدٍّ وثَبات، وعزمٍ واستعلاء.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ

وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٢].

قال نوحٌ لقومه: يا قوم، إنْ كانَ عظُمَ عليكم كلامي، وشقَّ عليكم قيامي بالدعوة إلى الله، مما دفعكم إلى تهديدي، فلن أَتخلى عن الحق، ولنْ أنتهيَ عن الدعوة، ولنْ أتوقفَ عن الكلام، ولنْ أسكتَ عن التذكيرِ بآيات الله.

إنني أَتحدّاكم، وأواجهُكم، وأَقفُ أمامكم، أنا واحدٌ أمامكم، وأنتم «مَلأٌ» جميع، واجِهوني وحارِبوني، أَجْمِعوا أمركم، وأَحْضِروا أفكارَكم، وجَمِّعوا أسلحَتِكم ومكائدَكم ومؤامراتكم، ووظِّفوا كيدَكم ومكرَكم ولؤمَكم، واجْمَعوا شركاءَكم، واستَعينوا بأعوانكم، واستعدّوا استعداداً تاماً لمواجهتي وحربي.

وعندما تنتهونَ من جمعِكم وحشدِكم وتجميعِكم، أَعْلِنوا الحربَ عليّ، واقضوا إليّ، واهجموا عليّ، فجأةً وبدون إعلام ولا إخبار، ولا إنـظـارٍ ولا إمـهـال: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

ما هو السرُّ في قوةِ نوح عليه السلام، الذي دفعه إلى هذا التحدي، وهذه الثقة؟

إنه في قوله لهم: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾! لقد توكَّلَ على الله، واعتمدَ عليه، واستعانَ به، واطمأنَّ إليه، واستنصرَه.

هذا هو مصدرُ قوةِ نوح عليه السلام، التي دفعَتْه إلى هذا الموقف، وهذا هو استعلاءُ الإيمان، والتوكلُ على الله.

وهذا درسٌ إيمانيٌ دعوي، لكلِّ داعيةٍ يقتدي بنوحٍ عليه السلام.

[١١]

نوح يصنع السفينة

صنعه السفينة بعد كفر قومه:

عند هذه المرحلةِ من مراحل المواجهةِ بين نوح عليه السلام وبين قومه، أمره اللَّهُ أن يصنعَ السفينة، انتظاراً للفرج والنصرِ من الله.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾ [هود: ٣٦ ـ ٣٩].

لقد انتهت الفرصةُ الممنوحةُ لهم للإيمان، لأنهم لم يستفيدوا منها ولم ينتهزوها، وماذا يريدون فرصةً أطولَ من ألفِ سنة إلا خمسين عاماً؟

وعلمَ اللَّهُ أن هؤلاء العتاةَ الكفارَ لن يؤمنوا، ولهذا قال لنوحٍ عليه السلام: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

لقد انتهى الأمر، وأُغلق الباب، آمَنَ مَنْ آمَن، واستفادَ وفاز، وكفَرَ مَنْ كفر، وخابَ بذلك وخسر.

عند ذلك دعا نوحٌ على قومه الكفار: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

طالما أصرّوا على كفرهم، وطالما أخبره اللَّهُ أنهم لن يؤمنوا،

إذن فليدْعُ عليهم بالهلاك: ربِّ لا تتركْ واحداً منهم حياً، ولا تدَعْ على أهل الأرض منهم ساكناً في بيتٍ أو دار.

والدّيّار ـ هو: الساكنُ الذي يسكن في الدار.

إنهم ضالون في نفسهم، مضلّون لغيرهم، فاسِدون في فطرتهم، فهم حريصون على إِضلالِ الناس: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾.

وهم يتواصون على الكفر والفجور، ويقيمونَ أُسَرَهم عليه، وينَشّئون أولادهم عليه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

دعا نوحٌ عليه السلام ربه عليهم، وانتظرَ أمْرَ الله في الاستجابة لدعوته، وإيقاعِ العذابِ والدمار بهم.

فأمره اللَّهُ أنْ يصنعَ السفينة: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

و ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ هو السفينة، ويُطلقُ على الواحد والجمع.

فمن إطلاقِه على السفينةِ قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. ومن إطلاقِه على الجمع قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤].

وصار نوحٌ عليه السلام يصنعُ السفينةَ بأمر الله ووحْيِه، وبعينه ورعايته وحفظه.

قومه يسخرون منه وهو يسخر منهم:

وصارَ الملأُ من قومه يمرّون عليه، ويشاهدونه وهو يصنعُ السفينة، ويستغربون، لماذا يصنعُ السفينة؟ وهل تخلى عن النبوة ليصبحَ نجاراً صانعاً للسفن؟ وما دخْلُ السفينةِ في الدعوة؟

وأخبرهم أن اللَّهَ سيُغرقهم، وسيُنجيه هو وأتباعُه في السفينة:

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

عندها صاروا يسخَرون منه، ويتهكّمون عليه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾.

وكان نوحٌ عليه السلام يجيبهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

أنتم تَسخرون منا الآن، ولكننا نسخرُ منكم الآن، ونُشفقُ عليكم، ونأسىٰ لحالكم، بسبب كفركم وضلالكم.

وإننا سنسخرُ منكم في المستقبل، عندما يقعُ بكم العذاب، وتَغرقون بالطوفان، ويُنجينا الله في السفينة. عند ذلك تعلمون: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وصنعَ نوحٌ السفينة، كما أمره الله، وبعدما انتهى من صنعها انتظرَ الخطوةَ التالية من المواجهةِ بينه وبين قومه، حسب ما يريدُ الله، وحسبَ ما يوجهه إليها الله.

مبهمات تتعلق بسفينة نوح:

وكلُّ ما يتعلقُ بالسفينة مبهم في الكتاب والسنة، لم تبينْه ولم تفصِّلْه الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات والأساطير في محاولةِ تبيينِها.

ما نوعُ الخشب الذي صَنع منه السفينة؟ ومن أين قَطَعَ ذلك الخشب؟ وأين كان يقيم وهو يصنعُ السفينة؟ وكيف قَطعَ ألواح الخشب وركَّب منها السفينة؟ وما مساحةُ تلك السفينة؟ وكم كان طولُها وعرضُها وارتفاعُها؟ وماذا كان شكلُها؟...

كلُّ هذه الأسئلةِ وغيرِها، عليها إجاباتٌ في الأساطير والإسرائيليات، لكن لا جوابَ عليها عندنا، ولا يضرنا عدمُ العلم بها، فلا تُضيفُ لنا علماً، ولا تُقدمُ لنا عبرةً أو عظة.

لا نجدُ وصْفاً لسفينة نوح عليه السلام إلا في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القمر: ١٣].

والدُّسُر هي المسامير.

قال الإمام الراغب في المفردات: «الدُّسُر: المسامير، والواحد دَسار. وأصْلُ الدَّسْرِ: الدَّفْعُ الشديد بقهر. يقال: دَسَرَهُ بالرمح»[1].

أي أنها سفينة ذاتُ ألواحٍ خشبية، وذاتُ مسامير تُثبتُ تلك الألواحَ بعضها ببعض.

[١٢]

نوح يستنصر ربه

نوح يستنصر ربه بعد بذل جهده:

لجأ نوحٌ عليه السلام إلى ربه، ودعا على قومه، واستنصرَ به، وطلبَ منه أن ينصرَه عليهم، وأنْ يفتحَ بينه وبينهم، وأنْ يدمرهم ويهلكَهم، وأنْ يُنجيه مع أتباعِه المؤمنين.

وكان هذا بعدَ أنْ أدّى كلَّ ما عليه، وبعدما استنفدَ طاقتَه ووُسْعَه، وبعد أنْ مكثَ يدعوهم حوالي ألف سنة.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن لجوءَ نوحٍ إلى ربه، واستنصارَه به.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨].

---

(١) المفردات: ٣١٤.

يطلبُ نوحٌ عليه السلام من ربه أنْ يفتحَ بينه وبين قومه، أي يفصلَ الأمرَ بينه وبينهم، ويُنهي النزاع، ويحسمَ المسألة، بأنْ يدمرَ الكفار، وينصرَ المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٧٦].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٤].

طلبَ نوحٌ من ربه أنْ ينصره بسببِ تكذيبِ قومه له. ونادى نوحٌ ربَّه، ملتجئاً إليه، مستنصراً به، فأجابَه الله ونصره، وهو نعمَ المجيب، ونَجّاه وأهلَه المؤمنين من الكرب العظيم، وهو كيدُ ومكْرُ قومهم الكافرين.

قومه يزدجرونه:

لقد كذَّبَ الملأُ الكفارُ نوحاً عليه السلام، واتَّهموه بالجنون، وهو النبيُّ الكريمُ الصادقُ الأمين، بل لقد زجروه وطردوه ومنعوه.

قال الإمام الراغب في معنى: «ازدُجِر»: «ازدُجِر: أي: طُرِد. واستعمالُ الزجْرِ فيه لصياحِهم بالمطرود، نحو أنْ يقولوا له: اغرُب، وتَنَحَّ»(١).

---

(١) المفردات: ٣٧٨.

أَمامَ هذا التكذيبِ والاتهام والزجر والطرد لجأ نوحٌ إلى ربه، معلناً أنه مغلوبٌ أمامهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

لقد أدى ما عليه، والقومُ قد غلبوه، ومع ذلك لم يتخلَّ عن الحق، ولم يتوقَّفْ عن الدعوة. والباقي على الله، فاللَّهُ هو الذي يتولى الحكمَ والفصلَ والقضاء، وبيده النصر.

﴿فَٱنتَصِرْ﴾: انتصِرْ يا ربِّ لرسولك الذي كذَّبوه، وانْتَصِر لدينك الذي حاربوه، وانتصِرْ لأوليائك الذين اضطهدوهم، وانتصِرْ للحق الذي أنكروه.

انتصِرْ لنا يا ربَّنا من هؤلاء، وأنصفْنا منهم، وانصُرْنا عليهم، واجعَلْهم مغلوبين مهزومين معذَّبين.

[١٣]

فوران التنور والطوفان

استجابَ اللَّهُ دعاءَ ونداءَ نوح عليه السلام، وسمعَ استنصارَه به، فنصَرَه ونجّاه، وأوقعَ بأسَه وعذابه بالكفار، فكان الطوفان.

كان نوحٌ عليه السلام ينتظرُ علامةَ بدءِ الطوفان، كما أمره الله، فقد صنعَ السفينةَ وصار ينتظرُ العلامة، وأَتباعُه المؤمنون جاهِزون منتظرون، والكفارُ غافلون لاهون ساخرون.

بدء الطوفان بفوران التنور:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤٠ ـ ٤١].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦ ـ ٢٨].

وكانت علامةُ بدءِ الطوفان فورانَ الماء من التنور: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

إنَّ أمْرَ الله يجيءُ عند فورانِ التنور، ومجيءُ أمرِ الله هو قضاءُ الله بإغراقِ القوم الكافرين، وأَمْرُه سبحانه ـ الذي هو بين الكاف والنون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ـ للماءِ أنْ يفور من التنور، وللطوفانِ أنْ يبدأَ على القوم.

والتَّنّور هو: الفرنُ الذي يُخْبَزُ فيه، وسمّي «تَنوراً» لأنَّ النارَ تكون موقدةً مشتعلةً فيه.

وحكمةُ الله بالغةٌ في جعْل علامةِ الطوفان فورانَ الماء من التنور. لأن المعروفَ عند الناس أن الماءَ يطفيءُ النار، فعندما تشتعلُ النارُ في شيء يقومون بسَكْبِ الماء عليها لإطفائها. فكيف يفورُ هذا الماءُ من وسطِ التّنور الموقَدِ بالنار؟ وكيف يلتقي الماءُ مع النار وسطَ التنور؟

إنه لا قدرةَ لهؤلاء الكافرين على إطفاءِ نار التنور بالماء، كما أنه لا قدرةَ لهم على إيقافِ تدفقِ الماء وفورانِه من وسط التنور. لقد جاءهم أمْرُ الله، ولا رادّ لأمْرِه سبحانه.

وبعدما فارَ الماءُ من وسط التنور، امتدَّ هذا الفورانُ ليشمل باقي المناطق على وجْهِ الأرض، وفجَّرَ اللّهُ وجهَ الأرض عيوناً فوارةً بالماء الغزير: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾. وتحول وجهَ الأرض إلى عيونٍ تفورُ بالماء، والتقى الماءُ المتفجرُ من تلك العيون بعضُه مع بعض، وامتلأَ وجهُ الأرض بالماء!.

ثم أمرَ اللّهُ السماءَ أن ترسلَ الماءَ منها مدراراً إلى وجه الأرض: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾، وكأنَّ السماءَ تحولَتْ إلى أبوابٍ واسعة عريضة، ينهمرُ منها الماء، ويتوجَّهُ إلى الأرض، ليلتقي مع ذلك الماء المتفجر من العيون!!.

وهكذا بدأَ الطوفان، وجْهُ الأرض كلُّه عيونٌ متفجرةٌ بالماء الغزير، والسماءُ كلُّها أبوابٌ يهطلُ منها الماءُ المنهمر، والتقى على قومِ نوح الكافرين ماءُ السماء وماء الأرض، وارتفعَ الماء عليهم، وصارَ يعلو ويعلو، حتى أَصبحَ أمواجاً كالجبال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

أمرَ اللّهُ نوحاً عليه السلام من قبل، أن يجهزَ ركابَ السفينة، وأنْ يُعدَّهم ويهيئَهم لركوبها، فإذا ما بدأَ الطوفان، وفارَ الماء من التنّور فعليهم أن يدخلوا السفينة فوراً.

حمولة السفينة من المؤمنين فقط:

أما حمولةُ السفينة من المؤمنين وباقي المخلوقاتِ الحية، فقد أشارَ لها قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

الذين كانوا في السفينة هم المؤمنون، ولن يدخلَها إنسانٌ كافر. وهؤلاء المؤمنون قسمان:

الأول: أهلُ نوح المؤمنون. والمرادُ بهم أهلُ بيته الذين آمنوا به واتّبعوه: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

وتدلُّنا هذه الجملة على أن أهلَ نوح عليه السلام، وأفرادَ أسرته كانوا فريقين:

فريقٌ آمنوا به، ولا نعرفُ عددَ هؤلاء، ولا أسماءَهم، ولا درجةَ قرابتهم له، فلا نعرفُ كم ذَكَراً من أهله آمَنَ به، ولا كم أنثى آمنت به.

وفريقٌ آخر كفروا به، ولا نعرفُ عددَ هؤلاء، ولا أسماءَهم. لكننا نجزم بما أخبرَنا عنه القرآنُ، باثنين منهم. وهم: امرأتُه الكافرة، وابنُه الكافر، ولا نعرفُ اسميْهما، لأنه من مبهماتِ القرآن.

الثاني: المؤمنون من غيرِ أقاربِ وأهل نوح، وكانوا من قومه الذين أُرسلَ إليهم.

ولا نعرفُ عددَ هؤلاء المؤمنين من قومه، ولا أسماءهم، كلُّ ما أخبرنا عنه القرآن، أنهم كانوا قليلين في العدد، بالقياس إلى عددِ قومهِ الكفار: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وحمولة السفينة من غير البشر المؤمنين، يشيرُ لها قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

وزوجين اثنين من كل المخلوقات الحية:

والتنوينُ في كلمة ﴿كلٍّ﴾ عِوَضٌ عن مضاف إليه محذوف، ويسميه علماء النحو «تنوينَ العِوَض». والتقدير: من كلِّ مخلوقٍ حي زوجيْن اثنيْن.

وكلمةُ ﴿كلٍّ﴾ تدل على الشمول والعموم.

وتدلُّنا جملةُ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أن نوحاً أخذَ معه في السفينة، زوجيْن اثنيْن من كل المخلوقات الحية، على إطلاقِها، من فصائلِ الحيواناتِ والحشرات والزواحف والطيور.

والمرادُ بالزوجين: الذكرُ والأنثى من كل صنف، كالجملِ والناقة، والبقرةِ والثور، والتيسِ والشاة، والدجاجةِ والديك، وهكذا.

ولعلَّ الحكمةَ من ذلك أن الطوفانَ الذي بدأ، سيقضي على كلِّ المخلوقات الحية على وجْهِ الأرض، وسيزيلُ كلَّ مظاهر الحياة عليها، فأمرَ اللّٰهُ نوحاً عليه السلام أنْ يأخذَ معه هذه الأزواج من كل الأحياء، وذلك لاستئنافِ الحياة على الأرض، بعد انتهاء الطوفان.

[١٤]

بين نوح وبين ابنه الغريق

ركبَ نوحٌ عليه السلام والمؤمنون السفينة، وحملَ فيها معه زوجيْن اثنين من كلِّ الأحياء. وبدأت السفينةُ تجري وسط أمواج الطوفان، بينما كان الكافرون خارجَها يغرقونَ تباعاً في الماء، لا يحميهم من الطوفان بيتٌ ولا مرتَفَعٌ ولا جبل.

ركوب السفينة باسم الله والدعاء:

ولما دخلَ نوحٌ عليه السلام السفينة قال: الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين، ربِّ أنزلْني مُنْزَلاً مباركاً وأنتَ خير المُنْزِلين.

وقد أخبرنا القرآنُ عن هذا الدعاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨ ـ ٢٩].

ولما أركبَ نوحٌ عليه السلام أتباعَه المؤمنين في السفينة قال لهم: ﴿ ۞ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

ركوُبهم السفينةَ بسم الله، وجريانُ السفينة وسطَ أمواجَ الطوفانِ بسم الله، وحِفْظُها وسطَ الأمواجِ من الغرق بسم الله، ورسُوُّ السفينة بعد انتهاء الطوفان بسم الله، ونجاةُ المؤمنين من الغرق بسم الله.

إن الله غفورٌ رحيم، غفر لهؤلاء المؤمنين الصالحين ما صدرَ عنهم من مؤاخذاتٍ ومخالفات، ورحمهم فأنْجاهم من الغرق برحمتِه، بينما أَغرقَ الكافرين الظالمين بعدْلِه وعقابِه!.

وسارت السفينةُ وسطَ الأمواج، ونظرَ نوحٌ عليه السلام، فرأى ابنَه الكافر، من بعيد، فدعاه إلى ركوب السفينة، ولكنه أَبى.

وقد سجلَ القرآنُ هذا المشهدَ بين نوح وبين ابنه. قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: تُصورُ هذه الجملةُ عظمةَ الطوفان، وضخامتَه، هذه الضخامةُ التي كَبَّرت وضاعفت الأمواجَ العاتيةَ المتلاطمة، فأصبحتْ هذه الأمواجُ كالجبال في ارتفاعِها وعلوِّها وامتدادِها، لكنها جبالٌ متحركةٌ عامة طامة.

وسفينةُ نوحٍ تجري بركابها المؤمنين وسطَ هذه الأمواجِ والأهوال، والله هو الذي يُسَيِّرها ويُجريها، ويَحفظها ويَرعاها، فهي تجري بعينِ الله

وحفظه ورعايته: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٤].

دعوة نوح لابنه ورده عليه:

ونظرَ نوحٌ عليه السلام من خلالِ الأمواجِ والأهوال، فرأى ابنَه الكافر، الذي لم يُركبه معه السفينة لكُفره، رآه في معْزِل، فدعاهُ إلى الركوب معهم لينجوَ من الطوفان، ولكنَّ ابنَه أبى، ولم يستجبْ لِهذه الدعوة، وردَّ على أبيه قائلاً: سآوي إلى جبلٍ يعصمُني من الماء. وأَفهمه نوحٌ عليه السلام أنه لن يجدَ جبلاً ولا مكاناً يعصمُه من أمرِ الله، ويدفعُ عنه عذابَه...

وبينما كانا متحاورَيْن، يحاورُ كلٌّ منهما الآخرَ، ويردُ عليه، والسفينةُ تجري، والأمواجُ تتلاطم، والماءُ يعلو ويرتفع، ويصل إلى ذلك «المَعْزِل» الذي وقفَ فيه الابن، وقبلَ أن تنتهيَ المحادثةُ والمحاورة، قطعَ الموجُ الاتصالَ بين الابن وأبيه، وحالَ بينهما، وطوى ذلك الابنَ داخلَه فكان من المغرقين.

ولقد سبقَ أنْ نهى اللّهُ نوحاً عليه السلام أنْ يُركبَ معه في السفينة أحدَ الكافرين. وقال له: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقال له: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠].

أي: لا تُركبْ مَن سبقَ عليه القول من أهلك معك، كامرأتِك وابنِك، لأنهم اختاروا الكفر، وصدرَ عليهم حكمُ الله بالغرق.

أما امرأتُه الكافرة، فقد كانت مع المغرقين عند بدء الطوفان.

توجيه موقف نوح من ابنه:

ولكن موقفَه من ابنه يحتاجُ إلى كلمة.. إذ كيفَ يدعوه إلى ركوبِ

السفينة، وهو كافر؟ وقد خلَّفه وراءَه لما أركب المؤمنين معه، هل أصابه الآنْ حنانُ الأبوة وشفقتُها، وأشفقَ على ابنه الكافر أنْ يموت غريقاً، فنسيَ نَهْيَ الله له عن إركابِ الكافرين من أهله، ودعاه للركوب؟

الجوابُ في تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إنَّ قولَه: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ جملة معترضة: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾.

لقد تركَ نوحٌ عليه السلام ابنَه مع الكافرين، وبدأَ الطوفان، وسارت السفينة، والآن ها هو ابنُه وحيداً في معزِل، تاركاً القومَ الكافرين، معتزلاً لهم، واقفاً وحده بعيداً عنهم!

فما الذي دفعه لأنْ يبتعدَ عنهم ويقف في هذا المعزل؟ هل بدا له أنْ يتخلى عن الكفر ويدخلَ في الإِيمان ولذلك فارق الكافرين واعتزلَهم؟ ربما!.

لهذا ظنَّ نوحٌ عليه السلام أن ابنَه الواقفَ الآن ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ تخلى عن الكفر، ودخلَ في الإِيمان. ولهذا دعاه إلى الركوبِ في السفينة بهذه الصفة، والتحاقِه بركب المؤمنين، وكونِه معهم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، إنَّ دعوتَه لابنه تركِّزُ على المعيَّة، أنْ يكونَ مؤمناً مع المؤمنين الناجين، ولا يكونَ مع الكافرين الغارقين!.

لقد دعا نوحٌ ابنَه للسفينة لأنه ظنه آمَنَ بعدَ مفارقته له، فهو يصعدُ إِليها باعتباره مؤمناً، ولو لم يظنّ نوحٌ هذا الظن، ولو لم يكن ابنُه في معزل لما دعاه لركوب السفينة، ولم يكن للشفقة دورٌ في ذلك، فقد

تركه وراءه لما صعدَ إلى السفينة، ولو دفعَتْه شفقتُه لدعوةِ ابنه، لدعاهُ للركوب عندما صعدَ هو والمؤمنون للسفينة!.

ولما سمعَ الابنُ دعوةَ أبيه ردَّ عليه قائلاً: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾. أي أنه يبحثُ عن مكانٍ آمن، وعاصمٍ حافظ، ينقذُه من الماء، وسيصعدُ إلى قمةِ جبل شاهق!.

وما درى المسكينُ أنه لا يعصمه جبلٌ ولا غيره، فهو الطوفان. ولهذا قال له أبوه عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

إن الابنَ كافر، وإن اعتزالَه لقومه الكفار ليس توجُّهاً منه للإيمان، بل بحثاً عن جبلٍ يعصمه من الماء. ولهذا وقعَ عليه العذاب من الله، وجاءَ الموجُ العاتي، وقطعَ حواره مع أبيه، ولَفَّه وسطه: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ وماتَ غريقاً كافراً.

مَن هو هذا الابن؟ ما اسمُه؟ وما ترتيبُه بين أخوته؟ هذا من مبهماتِ القرآن، التي لا يعنيه بيانها وهو يسردُ قصصه!!.

[١٥]

واستوت على الجودي

أغرق الله الكفار بالطوفان:

أوقعَ اللّهُ عذابَه بقوم نوح الكافرين، وأغرقهم أجمعين، وذلك بسبب كفرهم ومعاصيهم، ولم ينصرهم أَحد، ولم يدفعْ عنهم عذابَ الله.

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧٣].

واستمرَّ الطوفانُ مدةً طويلة، لا يعلمُ مقدارَها إلا الله، وعمَّ الطوفان وجْهَ الأرض كلِّها، وغمرَ كلَّ البقاع، وعلا فوقَ قمم الجبال الشاهقة، واستمرت السماءُ تهطل بالماء، واستمرتْ عيونُ الأرض تتفجرُ بالماء، واستمرتْ أمواجُ الطوفان تتلاطم وهي كالجبال، كلُّ هذا ونوحٌ عليه السلام والمؤمنون ناجون في السفينة، التي تجري بأمرِ الله وعينِه ورعايتِه وحفظِه.

التعبير القرآني عن انتهاء الطوفان:

وحققَ اللَّهُ إرادتَه في إهلاك الكافرين، ونفَّذَ أمره في إغراقهم، وشاءَ أنْ يُنهيَ سبحانه هذا الطوفان، وأنْ يُعيدَ نوحاً ومَن معه إلى اليابسة، وأنْ تُستأنفَ الحياةُ على وجه الأرض من جديد!

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وهكذا انتهى الطوفانُ بأمرِ الله، كما بدأَ بأمر الله، ولله الأمرُ كلُّه.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾: هذا الماءُ الكثير، الذي غمرَ قممَ الجبال الشاهقة، ابلعيه أيتها الأرض، ابتلعيه ابتلاعاً سريعاً، ولا تتشرَّبيه تشرُّباً، ولا تمتصّيه امتصاصاً بطيئاً، فلا بدَّ أنْ يغيبَ هذا الماءُ عن وجهك!.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾: كُفِّي أيتُها السماءُ عن إِدرارِ الماءِ المنهمر من أبوابك الواسعة، وأغلِقي تلك الأبواب، وأَقلِعي عن الإِمطار.

ونفَّذت السماءُ المستسلمةُ لأمر الله ما أَمرها به، فأقلعتْ، وتوقفَ نزولُ الماء منها. ونفذت الأرضُ الخاضعةُ لله ما أمرها به، فابتلعَتْ تلك الأمواجَ العالية.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: أي شَربت الأرضُ الماء ـ أو بلعَتْه ـ وجعلَتْ داخلَها كميةَ الماء الزائدةِ بالطوفان. ونقصَ ذلك الماء، وعادَ إلى منسوبِه السابق، وزالَ طغيانُه وزيادتُه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: ١١].

ومعنى: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾: زاد عن منسوبه المعتاد، وأضيفتْ له أمواجٌ عاتية كالجبال، وهذه الأمواجُ الزائدة، والطوفان الطاغي، لإِغراق الكفار.

أما وقد تحققَ هذا الأمر، فلا بدَّ أنْ تغيبَ وتزولَ هذه الأمواجُ الزائدة، وأنْ تبلَعَها الأرض، وبذلك يغيضُ الماء.

ومعنى ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: نقص، بغيابِ الكمياتِ الزائدة المضافةِ له في جوف الأرض، وبذلك يكونُ قد استقرَّ على نسبتِه الموزونة.

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: حققَ اللّٰهُ أمره، ونفَّذَ إرادتَه، وأوقعَ عذابَه بالكافرين، وأَغرقَهم بالطوفان، ومَنَّ على نوح والمؤمنينِ بالنجاة، وها هي سفينتُهم على وجه الماء، وهم داخلها حامدون شاكرون لربهم، ونوحٌ عليه السلام يدعو ربَّه قائلاً: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [المؤمنون: ٢٩].

استقرار السفينة على جبل الجودي:

﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾: حدَّدتْ هذه الجملةُ من الآية المكانَ الذي استوت واستقرَّتْ عليه سفينةُ نوح عليه السلام. إنه ﴿ٱلۡجُودِيِّۖ﴾.

قال ياقوت الحموي عن ﴿ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ في «معجم البلدان»: «الجودي: ياؤه مشدَّدَة. وهو جبلٌ مطلٌ على جزيرةِ ابن عمر، في الجانبِ الشرقي من دجلة، من أعمالِ الموصل، عليه استوتْ سفينةُ نوح عليه السلام، لما نضبَ الماء»[1].

وجزيرةُ ابن عمر هي الأرضُ الواقعةُ بين نهري دجلة والفرات، في شمالِ العراق.

وجبلُ «الجودِيّ» مطلٌّ على الجزيرة، وهو قريبٌ من مدينة الموصل العراقية المعروفة.

وما زالَ اسمُه حتى الآن جبل «الجوديّ»، وهو جبلٌ معروف هناك.

ولما استقرتْ سفينةُ نوحٍ على جبل الجوديّ، نزل منها نوح عليه السلام، والمؤمنون الذين معه، واستُؤنفت الحياةُ من جديد على وجْهِ الأرض: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨﴾ [هود: ٤٨].

ولا نعرفُ تفاصيلَ استقرارِ سفينة نوح على جبل الجودي، ولا كيفيةَ نزولِ نوح عليه السلام والمؤمنين منها، ولا مكانَ إقامتِهم بعد الخروج من السفينة، واستقرارِهم على اليابسة، ولا حركاتِهم وتنقلاتِهم على وجه الأرض. لا نعرفُ هذا لعدم وجود أدلةٍ عليه من كتاب الله، أو من حديثِ رسولِ الله ﷺ.

---

(١) معجم البلدان ٢: ١٧٩.

وبهذا كان نوحٌ عليه السلام، الأبَ الثاني للبشرية، بعدَ آدم عليه السلام، لأن الحياةَ استُؤنفت به وبأتْباعه بعد الطوفان!.

[١٦]
معاتبة الله لنوح بشأن ابنه

لماذا سأل نوح عن ابنه؟

بعدما شاهدَ نوحٌ عليه السلام غرقَ ابنه أمامَ عينيه، سألَ اللّهَ عن ذلك، فعاتبه الله وبيَّن له حقيقةَ الأمر.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

إن ابنَ نوح من أهله، لأنه ابنُه من صلبه، وقد وعدَه اللّهُ أنْ ينجيَ أهلَه المؤمنين، وأمَره أنْ يُركبهم معه في السفينة، أمّا أهلُه الكافرون فهم مع المُغرقين. وذلك في قوله له: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ﴾ وفهم نوحٌ هذا من الأمر، وعلَم أن ابنَه ليس من أهله الناجين، ولذلك لم يُركبه معه في السفينة.

فلما سألَ نوحٌ ربَّه عن ابنه فيما بعد، وقال له: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟؟.

أنَّ الذي أوقعَ نوحاً عليه السلام في اللبس فيما بعد، هو أنه شاهدَ ابنَه معتزلاً قومَه، واقفاً وحدَه في معزل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

لما شاهدَ نوحٌ عليه السلام ابنَه «في معزل» ظنَّ أنَّ ابنَه بدا له أن يتخلّى عن الكفر، وأنْ يُؤمن، ولذلك اعتزلَ القومَ الكافرين، فدعاه أبوه إلى أنْ يَركبَ معهم في السفينة، علىٰ أَساس توجُّهه للإيمان وتركِه للكفر. ولكنَّ ابنَه أخبره ببحثِه عن جبل، يأوي إليه، ليعصِمَه من الماء، وينقذَه من الطوفان.

فردَّ عليه نوحٌ بأنه لن يعصمه شيء من أمر الله، وأنه لا منقذَ ولا منجيَ إلا الله، فمن يريدُ أنْ يرْحمَه لإيمانه يعصمه وينجيه.

وفجأةً داهمَ الموجُ ابنَه الذي كان في معزل، وأخذه معه، وحالَ بينه وبين أبيه: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

فوجئَ نوحٌ عليه السلام بالموج يأخذُ ابنَه، قبلَ أنْ يعرفَ حقيقةَ موقفِ ابنه، هل هو في المعزِلِ بعيداً عن قومه لأنه آمن، أو سيؤمن؟ أم لسببٍ آخر؟

ولهذا سألَ نوحٌ ربَّه عن إغراق ابنه، أي سأله عن الذي ماتَ عليه ابنُه. هل ماتَ على الإيمان أو نيةِ الإيمان؟ أم مات على الكفر؟ فإنْ كان ماتَ وهو قريبٌ من الإيمان فكيفَ أغرقه الموج؟.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾. إنه ابني، وأنا ظننتُ أنه سيؤمن، لأنه كان في معزل، وأنتَ وعدتَ بإنجاءِ أهلي المؤمنين، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكمُ الحاكمين.

ابنه ليس من أهله:

فسؤالُ نوح عليه السلام لربِّه سؤالَ استيضاح، ليعلمَ ما ماتَ عليه ابنُه. فوضَّحَ اللّهُ له الأمر، وبيَّنَ له حقيقةَ ما مات عليه ابنه، وأنَّ ظنَّه في ابنه ليس صحيحاً، فهو كافر، ولما كان في معزل كان كافراً، وأغرقه اللّهُ لكفره، وهو بهذا الاعتبار ليس من أهله.

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ﴾. نفى اللّهُ أن يكونَ ابنُه من أهله، وعلَّلَ ذلك بأنه عملٌ غيرُ صالح.

ابنُه من أهله من حيث النسب، فهو ابنُه من صلبه، ولدَتْه منه زوجتُه، وكانت عفيفةً في عرضها رغم كفرها، فلم ترتكب فاحشةَ الزنا!.

ومع أنه ابنُه من صلبه، إلا أنه ليس من أهلِه في الحقيقة، لأنه اختارَ الكفر، وهذا الكفرُ أفسدَ عليه كل عمله، فصارَ كلُّ عمله غيرُ صالح، بل تحولَ هو نفسه بالكفر إلى عملٍ غيرِ صالح، وهذا أفقده الانتسابَ الحقيقي لنوح، مع أنه ابنُه من صلبه: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ﴾.

درس في الولاء والبراء:

إن هذه الآيةَ التي تنفي عن الابن الكافر كونَه من أهلِ نوحٍ النبي، بسبب كفره وعمله غيرِ الصالح، مع أنه ابنُه من صلبه، تقررُ مبدأً إيمانياً عظيماً، وهو «الولاءُ والبراءُ والمفاصلة».

فالمؤمنُ ولاؤُه لله، ولأولياءِ الله من المؤمنين، وإنْ كانوا بعيدين في النسب والقرابةِ عنه. والمؤمنُ يتبرأُ من أعداءِ الله، ويفاصلُهم ويبتعدُ عنهم، وإن كانوا أقربَ الناس إليه من حيث النسب والقرابة.

فها هو ابنُ نوح عليه السلام، من أقرب الناس له نسباً وقرابة، ولكنه بعيدٌ عنه، وليس من أهله الحقيقيين، لأنه ليس مؤمناً.

وبعد ما بيّنَ اللّهُ لنوح عليه السلام حقيقةَ ما مات عليه ابنُه، وقدَّمَ لنا نحن ذلك المعلمَ الإيمانيَّ والدعويَّ الهام، عاتب نوحاً على ذلك، فقال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ولم يُخطئ نوحٌ عليه السلام في سؤالِه عن ابنه، ولكنَّ اللّهَ عاتبه هذا العتَاب الرباني المحبب، ليقررَ لنا هذه الحقيقة الإيمانية الدعوية في الولاء والبراء.

وعاذَ نوحٌ عليه السلام بربه، وأعلنَ له إقبالَه عليه ولجوءَه إليه واعتصامَه به: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[١٧]

سفينة نوح آية وعبرة

العبرة في سفينة نوح للمؤمنين والكافرين:

جعلَ اللّهُ سفينةَ نوح آيةً وعبرةً للناس من بعده، حيث أغرقَ اللّهُ بالطوفان العارم كلَّ الكافرين، ولم تنفعْهم قوتُهم، ولم تدفعْ عنهم عذابَ الله.

أما المؤمنونَ فقد أنجاهم اللّهُ برحمته، وأجرى لهم السفينة وسطَ الأمواج بحفظه وعنايته.

ثم أرسى اللّهُ السفينةَ على جبل الجوديّ، وأخرجَ نوحاً والمؤمنين منها بكرمه، وأحلَّ عليهم نعمَه وبركاتِه، وأعادهم للأرض من جديد، واستأنفَ بهم الحياةَ الإنسانية من جديد، وجَعَلَ هذا الفضلَ منه على أتباعِ نوح المؤمنين، مِنَّةً وكَرَماً على الأجيالِ البشرية المتتابعة.

وجعلَ اللَّهُ قصةَ الطوفان والسفينة، والهلاكِ والنجاة، آيةً وعبرة، ودعا الناسَ ليعتبروا ويتعظوا بها، ويتذكَّروا ما هم عليه.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤].

إن هذه الآياتِ من السور المختلفة تقررُ حقيقةً قرآنيةً قاطعة، بشأنِ قصةِ نوح عليه السلام، وهي أنَّ اللَّهَ جعلَ قصةَ السفينة ونجاة المؤمنين فيها، آيةً وعبرةً وعظة.

إنَّ الله جعلَها آيةً وعبرةً للعالمين جميعاً، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين. لأنَّ كلَّ هؤلاء العالمين من ذريةِ أتباعِ نوح المؤمنين، وكلُّ هؤلاء سمعوا عن قصةِ السفينة، واستقرتْ في ذاكرتهم وعقلهم الباطن. فعليهم أنْ يستحضروها من ذاكرتهم، وأنْ يَعتبروا ويتَّعظوا بها، وأنْ يغيِّروا مسارَ حياتهم المخالفِ لمنهج الله!.

أبقاها الله تذكرة للبشرية:

ونصَّ القرآنُ على أن اللَّهَ جعل قصةَ سفينةِ نوح تذكرةً للناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾. [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

يتذكرُها الناس، فيعرفونَ نعمةَ الله عليهم، وتعيها آذانُهم الواعية، وقد أبقى اللَّهُ السفينةَ آيةً للذكر، يتذكرُها الناسُ، على مدار القرون والأجيال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾. [القمر: ٥١].

قال قتادة ـ فيما رواه عنه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ: «أبقى الله سفينة نوح، حتى أدركها أوائل هذه الأمة»[١].

ولا يعني قولُ قتادة هذا أنَّ اللَّهَ أَبقى خشبَ سفينة نوحِ على جبلِ الجوديّ عشراتِ آلاف السنين، وأنَّ هيكل خشبِ السفينة ما زال صالحاً موجوداً على جبل الجوديّ، حتى رآه أوائلُ الصحابة الذين وصَلوا جبلَ الجوديّ في الفتوحاتِ الإِسلامية!.

ويرى الإِمامُ ابنُ كثير أنَّ المرادَ من قولِ قتادةَ أن اللَّهَ أَبقى السُّفُنَ وسيلةً للتنقل والسفر عبر البحار، وهي بهذا الإِبحار وسطَ المياه والأمواجِ آيةٌ وعبرةٌ لأصحابها. قال: «قال قتادة: أبقى اللَّهُ سفينةَ نوح، حتى أدرَكَها أولُ هذه الأمة. والظاهرُ أنَّ المرادَ من ذلك جنسُ السفن. كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٦٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٥٦.

ولهذا قال ههنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: فهل مَنْ يتذكرُ ويتعظ[1].

[١٨]

وصية نوح عند موته

عاشَ نوحٌ عليه السلام عمراً مديداً طويلاً، وقد أخبرَنا اللّهُ عن بعضِ مقدارِ عمره، لا كلِّه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

ومعنى قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أنَّ نوحاً مكثَ بين قومه بعد النبوة تسعَمئة وخمسين سنة، وهذه هي المدةُ ما بين النبوةِ ووقوعِ الطوفان.

عاش نوح أكثر من ألف سنة على ثلاث مراحل:

أما كم كان عمرُ نوحٍ عندما جعلَه الله نبياً؟ فإننا لا نعرفُ ذلك، لأن اللّهَ لم يخبرنا عنه.

وبعد ما استوت السفينةُ على جبل الجوديّ، ونزلَ منها نوحٌ والمؤمنون، واستأنفوا الحياة من جديد، عاشَ نوحٌ مدةً أخرى، ومرحلةً أخرى من عمره، لا نعرفُ مقدارَها، لأن الله لم يخبرنا عنه.

كما أننا لم نعرفْ تفاصيلَ حياة نوح وأتباعِه بعدَ الطوفان، أين أقاموا؟ وأين تحركوا؟ وهل كانَ معهم في شمال العراق أو في مكان آخر؟

لقد كان عمرُ نوحٍ ثلاثَ مراحل:

المرحلة الأولى: ما بين ولادتِه ونبوَّتِه: وهذه لم يخبرنا اللّهُ عنها، فلا نعرفُ شيئاً عن مكان ولادته، ولا عمرِه يوم مبعثه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٢٧٨.

المرحلة الثانية: ما بين نبوته والطوفان. وهي حوالي ألفُ سنة: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

المرحلة الثالثة: ما بين نزولِه من السفينة إلى وفاته، وهذه لم يخبرْنا اللَّهُ عنها، فلا نخوضُ فيها.

أما والداه، فقد آمَنا به بعد نبوته، ودَخَلا في دينه، وتخلَّيا عن الكفرِ بالله بدليل قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

لقد سألَ نوحٌ ربَّه أنْ يغفر له أولاً، ولأمه وأبيه ثانياً، ولمن دخلَ بيتَه مؤمناً ثالثاً، ثم لجميع المؤمنين والمؤمنات على اختلافِ الزمان والمكان، أينما كانوا، وحيثُما وُجدوا.

فلو لم يكن أبواه مؤمنَيْن لما استغفرَ لهما، فهو لم يستغفرْ لامرأتِه وابنه لأنهما كَفَرا به.

وصية نوح لابنه قبيل موته:

وعندما حانتْ وفاةُ نوح عليه السلام، بعدَ هذا العمر الطويل الذي عاشه، أحضرَ ابْنَه المؤمن وأوصاهُ وصيةً إيمانيةً جامعة، أخبرَنا عنها رسولُ الله ﷺ.

روى أحمد والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

(كنا عندَ رسولِ الله ﷺ، فجاءَ رجلٌ من أهلِ البادية، عليه جُبَّةُ سِيجان، مزرورةٌ بالديباج[1]، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا إنَّ صاحبكم

(١) السيجان جمعُ ساج. وهو الثوبُ الطيلَسانُ الأخضر. وكان الأعرابيُّ قد زررَ ثوبَه الأخضر بأزرار من الديباج، وكان لباسُه يشير إلى تكبره، ولذلك كره الرسولُ عليه السلام لبسه، وذكَره بوصيةِ نوح عليه السلام لابنه.

هذا قد وضعَ كلَّ فارسٍ ابنِ فارس، ورفعَ كلَّ راعٍ ابنِ راع»!

فأَخذَ رسولُ الله بمجامعِ جُبَّته، وقال له: أَرى عليك لباسَ مَنْ لا يعقل!!

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إن نبيَّ اللّهِ نوحاً عليه السلام لما حضرَتْه الوفاة، قال لابنه:

إِنيّ قاصٌ عليك الوصية: آمُرُك باثنتيْن، وأَنْهاك عن اثنتيْن: آمُرُك بلا إله إلا الله. فإنَّ السموات السبع والأَرضين السبع، لو وُضعت في كفة، ووُضعتْ لا إله إلا الله في كفة، رجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله. ولو أنَّ السماواتِ السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَة، ضَمَّتْهُنَّ لا إله إلا الله.

وآمُرُك بالتسبيح وبالتكبير، فإنَّ بها صلاةَ كل شيء، وبها يُرزَقُ الخلق.

وأنهاك عن: الشرك، والكبر».

قال: يا رسول الله، هذا الشركُ قد عَرَفناه، فما الكبر؟ هو أنْ يكونَ لأحدنا نَعلان حسنتان لهما شِراكان حسنان؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: هو أنْ يكونَ لأحدِنا حلةٌ يلبسها؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: هو أنْ يكونَ لأحدنا دابةٌ يركبها؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: هو أن يكونَ لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا».

قال: يا رسولَ الله فما الكِبْر؟

قال عليه الصلاة والسلام: «هو سَفَهُ الحق وغَمْطُ الناس!»)[1].

إن المتكبرَ هو الذي يسفهُ الحقَّ ويغمطُ الناس.

ومعنى سَفَه الحق: الاستخفافُ به، ورفضُه، وعدمُ قبوله.

ومعنى غمط الناس: عيبُهم وازدراؤُهم وانتقاصُهم واحتقارُهم.

ويهمنا هنا أن نتعرفَ على وصيةِ نوح عليه السلام لابنه عندما قربتْ وفاتُه. إنه يوصيه بالإيمانِ والعبادة، وينهاه عن الشرك والمعصية.

لقد أَمره بالتوحيد، والإِكثارِ من قول: لا إله إلا الله، لأنها أفضلُ ما قاله أيُّ مخلوق. كما أَمره بالإِكثارِ من التسبيحِ والتكبير والعبادة.

ونهاهُ عن أقبح رذيلتيْن، وهما الشركُ بالله، والتكبرُ على عباد الله.

ثم توفي نوح عليه الصلاة والسلام.

ولم تفصِّل النصوصُ من الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة كيفيةَ احتضارِ نوح ووفاتِهِ عليه السلام، ولا كيفيةَ دفنه، كما أنها لم تحدِّد المكانَ الذي دُفن فيه، ولا البقعةَ التي كان قبره فيها.

وبما أن النصوصَ المعتمدةَ قد سكتتْ عن ذلك، فنحنُ ملزمون أن نسكتَ عنه، وأن لا نحاولَ أَخذه من الإِسرائيليات!

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢:١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥. والبيهقي في الأسماء والصفات: ٧٩. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٥٢.

[١٩]

بين نوح وأمة محمد ﷺ يوم القيامة

أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن أمريْن، يكونان بين نوحٍ عليه الصلاة والسلام، وبين أمةِ محمد ﷺ.

الأمر الأول: هو استشفاعُهم بنوحٍ عليه السلام. فعندما يكونون في أرضِ الموقف، يُعانون أهوالَ الحشر، يأتونَ إلى آدم عليه السلام، يستشفعون به، فيُحيلهم إلى نوحٍ عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، في حديث الشفاعة الطويل، أنه قال:

«.. فيقول لهم آدمُ عليه السلام: اذْهَبوا إلى غيري، اذْهَبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح: أنت أولُ الرسل إلى الأرض، وسمّاكَ اللّهُ عبداً شكوراً. اشفَع لنا إلى ربك! ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلَغَنا؟

فيقولُ لهم: إن ربي قد غضبَ اليوم غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثله، ولن يغضبَ بعدَه مثله، وإنه قد كانت لي دعوة، دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي، اذْهَبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ..»[١].

ويبقونَ يذهبون إلى الأَنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، يستشفعونَ بهم، حتى يَصِلوا إلى محمد ﷺ، فيشفعُ لهم عند الله، لأنه صاحبُ مقام الشفاعة!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ١٩٤. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٤.

شهادة الأمة لنوح بتبليغ قومه:

الأمر الثاني: شهادةُ أمةِ محمد ﷺ، لنوح عليه الصلاة والسلام، أنه بلَّغَ قومَه، وذلك بعد أنْ يكذبَ قومُه، وينكروا تبليغَه لهم.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوحٌ وأمتُه. فيقول اللَّهُ له: هل بلَّغت؟

فيقول نوح: نعم أي رب!

فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟

فيقولون: لا. ما جاءنا مِن نبي!

فيقول لنوح: مَن يشهدُ لك؟

فيقول: محمد ﷺ وأمتُه!

قال عليه الصلاة والسلام: وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل.

قال عليه الصلاة والسلام: فَيُدْعَوْن. فيشهدون له بالبلاغ، ثم أَشهدُ عليكم»[1].

وفي رواية النسائي تفصيلٌ أكثر، مع إِبهامِ اسم النبي الذي تشهدُ له هذه الأمة.

روى النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يجيءُ النبيُّ يومَ القيامة معه الرجل، ويجيءُ النبيُّ معه الرجلان، ويجيءُ النبيُّ معه أكثر من ذلك!

فيقال له: هل بلَّغتَ قومك؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم ٥٥.

فيقول: نعم.

فيُدْعَون: فيقال لهم: هل بلَّغكم؟

فيقولون: لا.

فيقال: مَنْ يشهدُ لك؟

فيقول: أمةُ محمد ﷺ.

فتُدعى أمةُ محمد ﷺ، فيقال لهم: هل بلَّغَ هذا؟

فيقولون: نعم.

فيقال: وما عِلْمُكم بذلك؟

فيقولون: أخبرَنا نبيُّنا ﷺ أن الرسلَ قد بلَّغوا، فصدَّقْناه.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومعنى ﴿وَسَطًا﴾: عَدْلاً[1].

إن أمةَ محمد ﷺ هي الأمةُ الوسطُ العادلة، هي أمةُ العدالة والشهادة، التي تحبُّ الأنبياءَ السابقين جميعاً، ولذلك تشهدُ لهم بالصدق والعدل، بأنهم بلَّغوا أقوامهم، ولكن أقوامهم يُنكرون ويَكذبون.

ومن هذه الشهاداتِ الصادقة العادلة، هذه الشهادةُ التي يقدمونها لصالحِ نوح عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، وقد عَلِموا ذلكَ من كتاب الله، ومن حديثِ رسولِ الله ﷺ، فآمَنوا به وصدَّقوه، وشهدوا به.

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم: ١١٠٠٧. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٥٥.

قصة هود

عليه الصلاة والسلام



[١]

ذكر عاد وهود في القرآن

وردتْ قصةُ هودٍ عليه الصلاة والسلام مع قومه عادٍ في ثماني عشرة سورة في القرآن.

وقد وردتْ في هذه السور على عدة حالات. فأحياناً تُفصَّلُ قصةُ هود مع عاد، وتُعرضُ بلقطاتٍ مُفَصَّلة نوعاً ما، وأحياناً تُعْرَض بلقطات أقصر وأوجز، وأحياناً تُعرضُ بلقطاتٍ سريعة خاطفة، وأحياناً يُكتفىٰ بتسجيل إِشارات، وأحياناً لا يُذكرُ إلا اسم عاد، أو اسم هود عليه الصلاة والسلام.

والسورُ المذكورةُ فيها قصةُ عاد ـ ولو بمجرد ذكر الاسم ـ حسبَ ترتيبِ المصحف، هي: الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الحج، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، صَ، غافر، فصلت، الأحقاف، قَ، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الفجر.

ذُكرتْ كلمةُ «عاد» في هذه السور أربعاً وعشرين مرة، وذلك على النحو التالي:

«عادٌ» مرفوعة: تسعَ مرات، في سور: هود، الحج، الشعراء، صَ، فصلت، قَ، القمر، الحاقة.

«عاداً» منصوبة: أربعَ مرات، في سور: هود، الفرقان، العنكبوت، النجم.

«عادٍ» مجرورة: إحدى عشرة مرة، في سور: الأعراف، التوبة، هود، غافر، فصلت، الأحقاف، الذاريات، الفجر[١].

---

(١) انظر قائمة بالآيات التي ذكرت اسم «عاد» في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي، رحمه الله: ٤٩٣.

أما «هودٌ» عليه الصلاة والسلام، فقد ذُكر اسمُه سبعَ مرات في القرآن في سور: الأعراف، هود، الشعراء.

وردَ في حالة رفع مرتيْن.

وفي حالةِ نصبِ ثلاث مرات.

وفي حالة جر مرتيْن[1].

[٢]

مواضع قصة هود في القرآن

السورُ التي أوردتْ لقطاتٍ من قصة هود عليه السلام مع عاد ـ سواء كانت لقطاتٍ سريعة أو مشاهدَ مطولة ـ إحدى عشرة سورة. وفيما يلي موجزُ ما أوردتْه كلُّ سورة من قصته، حسبَ ترتيبِ المصحف.

قصة هود في سور الأعراف وهود والمؤمنون:

١ ـ ما أوردتْه سورةُ الأعراف:

وردتْ قصتُه في ثماني آيات: الآيات: ٦٥ ـ ٧٢.

أخبرت الآياتُ عن إرسال هود عليه السلام نبياً إلى قوم عاد، حيث دعاهم إلى عبادةِ الله وحده، ولكن الملأَ من قومه كذَّبوه، واتهموه بالسفاهة، وقدْ ردَّ هودٌ على اتهامهم، وأزالَ شبهاتهم تجاهه، وذكَّرهم بنعمِ الله عليهم، وقد طلبَ قومُه منه إيقاعَ العذاب بهم، فأخبرهم بغضبِ الله عليهم، وقد قطعَ اللّهُ دابرهم ودمَّرهم، وأنجى هوداً ومَنْ آمن معه.

---

(١) انظر هذه المرات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٧٣٩.

٢ ـ ما أوردتْه سورةُ هود:

هي السورةُ التي حملتْ اسمَ هود عليه السلام. وقد وردتْ قصتُه في إحدى عشرة آية من آياتها: الآيات: ٥٠ ـ ٦٠.

في هذه الآياتِ الإخبارُ عن إرسالِ هود إلى عاد، ومطالبتِه لهم بإفرادِ الله بالعبادة، وقد أخبرهم بطلبه الأجْرَ من الله وليس منهم، ورَبَطَ لهم بين الإيمانِ والرخاء المادي، ولكنهم ردّوا عليه بإصرارهم على دينهم الباطل، واتهامِه بالسوء والجنون، فواجَهَهم بالمفاصلة والبراءة منهم، وتحدَّاهم جميعاً، وأَخبرهم بتوكُّله على الله، وأنهم دوابٌ نواصيهم بيد الله، وقد أدى واجبَه في تبليغهم. ثم أخبرت الآياتُ عن تدميرِ عاد، ونجاةِ هودٍ ومَنْ معه برحمة الله.

٣ ـ قصة هود في سورة المؤمنون:

وردتْ قصتُه في إحدى عشرة آية. الآيات: ٣١ ـ ٤١.

ولم تَذكر الآياتُ اسمَ هود عليه السلام أو اسمَ عاد بالنص. ولكنَّ سياقَ آياتِ القصة في السورة يدلُّ على أنها قصةُ هودٍ عليه السلام مع عاد.

فقد كانَ الكلامُ من قبلُ عن قصةِ نوح عليه السلام مع قومه، حيث جاءتْ قصةُ نوح في ثماني آيات [٢٣ ـ ٣٠].

وبعدَ قصةِ نوحٍ مباشرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١].

وفي الآياتِ إخبارٌ عن طلب هودٍ منهم عبادةَ الله وحده، ورفْضَ الملأ من قومه لدعوته، والإشارةِ إلى ترفهم في الدنيا، وتسجلُ الآياتُ أهمَّ شبهاتهم ضد هود، فهو بشرٌ مثلهم، يأكلُ ويشربُ مثلَهم، وهو

يَعِدهم البعثَ بعد الموت والبلى، وهو كاذبٌ في ذلك، ولهذا لن يؤمنوا به. وقد دعا هودٌ ربَّه عليهم، فأهلكهم اللَّهُ بالصيحة.

قصة هود في سور الشعراء وفصلت والأحقاف:

٤ ـ قصةُ هود في سورة الشعراء:

وردتْ قصتُه في ثماني عشرة آية. الآيات: ١٢٣ ـ ١٤٠.

سجلت الآياتُ دعوةَ هودٍ عليه السلام لعاد، وتكذيبهم له، وعرضَتْ بعضَ مظاهر التقدم المادي عندهم، كبناء القصور فوقَ الجبال، واتخاذِ المصانع، وذَكَرَتْ بطشَهم وتجبُّرهم، وإنكارَ هود عليهم ذلك، ودعوتَه لهم إلى تقوى الله وطاعته، وشكرِه لإنعامِه عليهم، ولكنهم رفضوا دعوتَه وكذَّبوه، فأهلكهم الله وجعلَهم آيةً للناس.

٥ ـ قصة هود في سورة فصلت:

وردتْ إشارةٌ لقوم عادٍ في آيتيْن: ١٥ ـ ١٦.

وسبقَ الآيتين تهديدُ كفار قريش، بأنهم إنْ أصَرّوا على الكفر، فستصيبهم صاعقةٌ مثل صاعقة عاد وثمود، وجَمعت الآياتُ بين الرسل في دعوتهم لعادٍ وثمود، وخلاصةِ دعوتهم، والمسارعةِ بكفْرِ عاد وثمود بهم.

ثم تتخصصُ الآيتان: ١٥ ـ ١٦، في الحديثِ عن تعذيبِ قوم عاد. وتُخبران أنَّ عاداً اعتدّوا بقوَّتهم، واستكبروا في الأرض، واستعبدوا الآخرين، ونسوا قوةَ الله، وقد عذَّبهم الله بالريحِ الصرصرِ في الأيام النحسات.

٦ ـ قصة هود في سورة الأحقاف:

وردتْ قصتهُ في خمسِ آيات. الآيات: ٢١ ـ ٢٥.

تخبرُ الآياتُ عن مكانِ إقامةِ عاد، وهو الأَحقاف، وإنذارِ هودٍ

لهم عذابَ الله، ودعوتهِ إلى عبادةِ الله، وتكذيب قومه له، وطلبهم عذاب الله، وتشيرُ إلى قدومِ العذاب عليهم في صورةِ عارضٍ ممطر، ولكنه في الحقيقة ريحٌ مدمرةٌ، دمَّرت القومَ الكافرين المجرمين.

إشارات سريعة في أربع سور أخرى:

٧ ـ إشارةُ سورة الذاريات لقصة هود:

وردت الإِشارةُ في آيتيْن: ٤١ ـ ٤٢. والكلامُ في هذه الإِشارة عن الريحِ العقيمِ التي دمرتْ قومَ عاد فجعلتْهم كالرميم.

٨ ـ إشارة سورة القمر لقصة هود:

وردتْ هذه الإِشارةُ في خمس آيات: ١٨ ـ ٢٢. وكان الكلامُ فيها عن تكذيب عاد، وتعذيبِ الله لهم بالريحِ الصرصر، التي تركتْهم هلكى كأعجازِ النخل المنقعر.

٩ ـ إشارة سورة الحاقة لقصة هود:

وردت هذه الإِشارةُ في ثلاث آيات: ٦ ـ ٨. والكلامُ فيها عن إهلاك عادٍ بالريح الصرصر العاتية، التي سخَّرها اللّهُ عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام متتابعات، فلم تُبْقِ منهم باقية.

١٠ ـ إشارة سورة الفجر لقصة هود:

وردتْ هذه الإِشارةُ في ثلاث آيات: ٦ ـ ٨. والكلامُ فيها عن قوةِ عادِ إرم، التي لم تُشَابهها قوةُ آخرين بالبلاد، ومع ذلك دمَّرها الله.

[٣]

عاد بعد قوم نوح

يدل سياقُ قصةِ عاد في القرآن، على أنهم كانوا بعدَ قومِ نوح.

فبعدَ أن نزلَ نوحٌ عليه السلام وأَتْباعُه المؤمنون على جبل الجوديِّ، عاشوا فترةً مؤمنين بالله، موحِّدين له.

ثم تفرّقوا في الأرض، وتوفي نوح عليه السلام، وتشعَّبتْ عنهم الشعوبُ والقبائل.

وكان منهم قبيلةٌ توجَّهتْ نحو الجنوب، فأقامتْ جنوبَ الجزيرة العربية، في منطقةِ الأحقاف.

هذه القبيلةُ هي قبيلةُ «عاد».

وكانت هذه القبيلةُ في أيامها الأولى، على الإِيمانِ بالله وتوحيده، لأنهم ذريةٌ مؤمنةٌ للقوم المؤمنين الذين كانوا مع نوح عليه السلام.

ولا ندري كم استمروا على الإيمان بالله وتوحيدِه، ولا متى استحوذَتْ عليهم الشياطين، واجْتالَتْهم إلى الشرك؛ لأنَّ القرآنَ سكتَ عن هذه المسألة.

كلُّ ما عرفْناه عن «عاد» في القرآن أَنهم كفروا بالله، وأشركوا به، فبعثَ الله لهم أخاهم هوداً عليه السلام.

والدليلُ على أنَّ «عاداً» كانوا بعدَ قومِ نوح من القرآن، هو سياقُ القصة.

ففي سُوَر الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء، كانتْ تَرِدُ قصةُ هود بعدَ قصةِ نوح، وكان الكلامُ عن قوم عادٍ بعد الكلام عن قوم نوح.

وهذا الترتيبُ في الذكْر يوحي بالترتيب في «الوجودِ التاريخي»!

ثم إن هوداً عليه السلام كان صريحاً في تذكيرِهم بنعم الله عليهم، واستخلافِهم بعد قوم نوح. قال تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ

﴿بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.
[الأعراف: ٦٩].

[٤]

العرب العاربة وعاد وهود

قسَّمَ علماءُ التاريخ العرب إلى قسميْن:

عربٌ عاربة، وعرب مستعربة.

العرب العاربة بعد نوح:

فالعربُ العاربة: هم أولُ القبائل العربية وجوداً في التاريخ، وهم أولُ مَن تكلموا بالعربية. وهم الذين كانوا في الجزيرةِ العربية قبل إقامةِ إسماعيل عليه السلام في مكة.

ومن هذه القبائلِ العربية العاربة: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وغيرهم(١).

وإذا كانتْ «عادٌ» بعدَ قوم نوح زمنياً، فإنها تكون أُولى قبائلِ العرب العاربة وجوداً.

وسُمّوا عَرَباً عاربة، لأنهم أولُ مَنْ نطقوا بالعربية! قال ابنُ دُرَيْد في كتابِه القيم «الاشتقاق» عن العرب العاربة:

«يَعْرُبْ: يَفْعُل. مِن قولهم: أَعْرَبَ في كلامه. أي أفصحَ فيه. أو مِن قولهم: أعربَ عن نفسه. أي: أوضحَ عنها..»(٢).

وقال في موضعِ آخر من كتابه: «والعربُ العاربةُ: هم الذين

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الاشتقاق لابن دريد: ٣٦١.

تحولتْ ألسنتُهم إلى العربية، حيثُ تبلبلت الألسن، منهم عاد وثمود وطسم وعملاق وجديس. قبائلُ دَرَجوا. .»[1].

أي أنَّ عاداً ومَنْ بعدهم سُمّوا عربا عارِبةً من الإِعراب، وهو الإِفصاحُ والإِيضاحُ والبيان.

أي أنَّ عاداً كانوا يُفْصِحون في كلامهم عما في نفوسهم، ويُبينون للسامع مُرادَهم، ويوضِّحون له مقصودَهم.

عاد أول العرب والعربية لغة وضعية:

ونفهمُ من كلامِ ابن دُرَيْد السابق أنَّ «عاداً» هم أولُ مَنْ تكلموا بالعربية، ونطقوا بها. وذلك بعدما قَدِموا من العراق ـ موطنِ إقامةِ أَجدادهم الذين آمنوا مع نوح عليه السلام ـ وأَقاموا في «الأحقاف» جنوبِ الجزيرة العربية.

ولعلَّ هذا يوضحُ لنا نشأةَ اللغةِ العربية، وأَنها لغةٌ «وَضْعِيَّة» حادثة، أَلهمَ اللّهُ بعضَ الناس أنْ ينطقوا بها، بعد فترةٍ من بدءِ الحياة على وجه الأرض.

فهناكَ فترةٌ بين آدمَ ونوح عليهما السلام، وهناك فترةٌ أقصر بين نوح عليه السلام وقومِ عاد. ولم يكن الناسُ يتكلمون العربية في هذه الفترة.

ولعلَّ قومَ عاد هم أولُ مَنْ نطقوا باللغةِ العربية، ثم نطقتْ بها قبائلُ عربية تفرعَتْ عنهم فيما بعد، كثمود وجرهم.

إنَّ قضية «نشأة اللغة العربية» خلافية، وهل هي توقيفيةٌ أو وضعية، فيها خلاف. ويصعبُ الجزمُ برأي قاطع في ذلك. مع أننا نميلُ إلى أنَّ اللغةَ العربية وضعيةٌ وليست توقيفية، وأن النطقَ بها

---

(١) المرجع السابق: ٥٢٤.

حادث، بعد قرونٍ من نزولِ آدم إلى الأرض، وأنَّ أولَ مَنْ نطقوا بها هم قومُ عاد.

هذا ما نميلُ إليه ونرجِّحه في هذه المسألة، والله تعالى أعلم.

إن اسمَ «عاد»، وإطلاقَه على هؤلاء القوم الذين قَدِموا من العراقِ إلى الأحقاف، يُشيرُ إلى ما قلناه ورجحناه.

عاد من العود وهود من الهود:

قال الإمامُ ابنُ فارس في «مقاييس اللغة»: «العَوْد: التثنيةُ في الأمر. قال الخليل: هو تثنيةُ الأمر، عَوْداً بعد بدء. تقول: بدأ ثم عاد...»[1].

وسَمّى هؤلاء القومُ العربُ الخلَّصُ أنفسَهم «عاداً»، لأنَّ الحياةَ البشريَّة عادتْ بهم من جديد. حيث كانَ قبلَهم الطوفان، الذي أهلك كلَّ البشر على وجه الأرض، باستثناءِ المؤمنين ركابِ السفينة.

فلما جاءَ فريقٌ من ذرية هؤلاء المؤمنين إلى الأحقاف، استأنفوا الحياةَ من جديد، فعادَتْ بهم الحياةُ البشرية من جديد، وهم «عاد»!!.

وبعثَ اللّهُ إلى عادٍ أخاهم هوداً عليه الصلاة والسلام نبياً، وبما أنَّ «عاداً» اسمٌ عربي صريح، مشتقٌ من العودِ والرجوع والبدء، فكذلك «هودٌ» اسمٌ عربي صريح أيضاً، مشتقٌ من «الهَوْد».

قال ابنُ فارس عن الهَوْد: «يدلُّ على إرْوادٍ وسكون. يقولون: التهويد: المشيُ الرُّوَيْد البطيء.. وهَوَّدَ: إذا نام...»[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤: ١٨١.

(٢) المرجع السابق ٦: ١٧.

أي أنَّ الهَوْدَ عند ابن فارس مشتقٌ من السكون والرويدِ والبطء والتأنّي.

ولهذا قالَ ابن دريد عن اشتقاق الهَوْد: «واشتقاقُه من السكونِ ولينِ الجانب.. والتَّهويد: التسكين. تقول: هَوَّدْتُ الرجلَ من نِفاره: إذا سكَّنْتُه..»[1].

أما الهَوَدُ عند الراغب الأصفهاني فهو: «الرُّجوعُ برفق. ومنه التَّهويد. وهو مشيٌ كالدبيب. وصارَ الهَوْدُ في التعارف: التوبة.

وهُود: جمعُ هائد. أي: تائب. وهو اسمُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام..»[2].

إنَّ اسمَ «هود» عليه السلام يعني: التوبةَ إلى الله، والسكونَ والرفقَ والطمأنينة، والتأني واليسر.. وهذه صفاتٌ تحققتْ في شخصيتِه عليه الصلاة والسلام.

العرب العاربة والمستعربة:

بقيَ أنْ نقولَ في هذا البحث الاشتقاقي التاريخي عن «عاد وهود»: إنَّ عاداً وثمود وغيرَهم من العرب العاربة الفصيحة، أُطلقَ عليهم: العربُ البائدة. لأنهم أبيدوا وانقرضوا، ولم يبقَ لهم ذكْر. حيث حلَّ محلَّهم قبائلُ عربية أُخرى.

والعربُ الجددُ الذين وَرِثوا العربَ العاربة من عاد وثمود، أُطلقَ عليهم اسم «العربُ المُسْتَعْرِبة».

قال الإمام ابنُ كثير في تاريخه: «وأما العربُ المستعربة: فهم مِنْ وَلَدِ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وكان إسماعيل عليه السلام هو أولَ مَنَ تكلمَ بالعربيةِ الفصيحة البليغة. وكان قد أخذَ كلامَ العرب من

(١) الاشتقاق لابن دريد: ٥٤٩.

(٢) المفردات للراغب: ٨٤٦ ـ ٨٤٧.

«جُرْهُمْ»، الذين نزلوا عند أمّه هاجر بالحرم.. وقد أَنطقَه اللّهُ بها في غايةِ الفصاحة والبلاغة. وكذلك كان يتلفظُ بها رسولُ الله ﷺ..»[1].

قومُ عاد هم أولُ مَنْ نطقوا بالعربية الفصيحة، وهم أولُ القبائلِ العربية العاربة ثم البائدة..

[٥]
مسكن عاد في الأحقاف

نصَّ القرآنُ على المكان الذي كان يسكنُه قومُ عاد.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: ٢١].

وقد سُميتْ سورةُ الأحقاف بهذا الاسم، لورودِ هذه اللفظةِ من قصةِ هودٍ مع عادٍ فيها.

فما معنى الأحقاف؟ ولما سميتْ بذلك؟ وما هو موقعُها الآن؟

الأحقاف هي كثبان الرمل:

الأَحقاف جمع «حِقْف».

قال ابن فارس في معنى «حِقف»: هو يدلُّ على ميلِ الشيء وعِوَجِه. يقال: احقَوْقَفَ الشيءُ إذا مال. وحاقِف مائل.

ولهذا قيل للرمْلِ المنحني حِقْف. وجمعُه أَحْقاف»[2].

وقالَ السمينُ الحلبي في كتابه «عمدةُ الحفاظ في تفسير أشرفِ الألفاظ» في معناه: «الأحقافُ جمع حِقْف. وهو الكثيبُ من الرملِ المتحرك.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٩.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٢: ٩٠.

قال امرؤُ القيس في معلقته:

فَلَمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحَيِّ، وَانْتَحىٰ   بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حقافٍ عَقَنْقَلِ[1]

وقال الأزهري: الحِقْف: الرملُ المستطيل. وقال الهروي: هو ما عَظُمَ واستدارَ من الرمال.. واحْقَوْقَف: أي: انحنى ومال. واحقوقَفَ الهلال: أي: اعوَجّ.. وظبيٌ حاقِف: نائمٌ انحنى في نومه»[2].

فالأَحقافُ إذنْ هي: الكثبانُ الرمليةُ الكثيفةُ المتحركة المائلة المعوَجّة.

وقد سُميتْ منطقةُ «الأحقاف» بهذا الاسم: لطبيعتها الجغرافية، فهي منطقةٌ جغرافيةٌ واسعة، وكلُّها كثبانٌ رملية معوَجّة متحركة، تنقلُها العواصفُ الرملية الصحراويةُ الشديدة، من مكان إلى مكان، فترى هذا الكثيبَ الرملي ـ الحِقْف ـ هنا، وبعدَ حين ترى الريحَ قد نقلَتْه إلى مكان آخر.

وهي أرض بين عمان وحضرموت:

ومكانُ الأَحقاف على «الخارطةِ الجغرافية» الآن، هو الأرضُ الواقعةُ بين عُمان وبين حَضْرَموت.

قال ابنُ عباس: الأحقاف: وادٍ بين عُمان وأرضِ المَهَرَة.

وقال ابن إسحاق: أرض فيما بين عمان إلى حضرموت.

وقال قتادة: هي رِمالٌ مشرفةٌ على أرضِ الشِّحْر من أرضِ اليمن[3].

وقال ياقوت في «**معجم البلدان**» عن الأَحقاف وحضرموت: «حضرموت: ناحيةٌ واسعة، في شرقيِّ **عدن**، قرب البحر، وحولَها رمالٌ كثيرة تُعْرَفُ بالأحقاف، وبها قبرُ هودٍ عليه السلام، وبِقُرْبِهَا بئرُ بَرَهوت..»[4].

---

(1) الخبت: الواسع الفسيح. وحقاف: كثبان رملية. وعقنقل: رمل كثيف.
(2) عمدة الحفاظ ١:٥٠٣.
(3) القاموس المحيط للفيروزآبادي. طبعة مؤسسة الرسالة: ص١٠٣٥ حاشية.
(4) معجم البلدان: ٢/ ٢٧٠.

والخلاصةُ من الأقوالِ السابقة أنَّ «الأحقاف» التي كانت تسكنها عاد، هي الآنَ كثبانٌ رمليةٌ عالية متحركة متنقلة، في الأرض الصحراوية الواقعةِ شمالَ حضرموت والمهرة والشِّحر، ما بين حضرموت وعُمَان.

وهي الآنَ تقعُ جنوبَ الربع الخالي، على الحدود بين اليمن وعُمان والمملكة العربية السعودية.

وبينما كانت «الأحقافُ» زمنَ عادٍ أرضاً زراعية خصبة، فإنها الآن صحراء قاحلة، لا يوجَدُ بها إلا كثبانٌ رملية متحركة.

[٦]
مظاهر قوة عاد

منحَ اللّٰهُ قومَ عاد قوةً كبيرة، لم يمنحْهَا لأيٍّ من القبائلِ الأخرى التي كانت حولَهم.

وقد سجلَ القرآنُ هذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨].

إنَّ عادَ إِرَم ذات العماد، قد منحها اللّٰهُ قوة، لم يُخْلَقْ مثلَها في باقي البلاد، أَي أنَّ قوةَ جميعِ القبائل الأخرى كانت أقلَّ من قوة عاد.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

فاللّٰهُ زادَ قوم عاد بسطةً في الخَلْق، أي أنَّ أجسامَهم كانت قوية وضخمة، وزادهم بسطةً ومتانة وقوةً في أجسامهم عن الآخرين.

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

إن اللّٰهَ أعطاهم من القوة ما أَعطاهم، ولكنهم إنْ آمنوا بالله واتبعوا منهجه زادهم قوة، إلى ما هم فيه من قوة.

وقال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

مِن مظاهرِ قوتهم المادية أنهم كانوا يَبنون القصورَ على رؤوس الجبال، ويُنشؤون المصانع، ويتمتَّعون بتقدمٍ مادي كبير.

ولكن هذه القوةَ الماديةَ التي منحهم الله إياها، لم يستخدموها في طاعةِ الله، والإحسانِ إلى عباده، لأنهم ليسوا مؤمنين. ولذلك استخدموها في استعبادِ الآخرين، وإيذائهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

لقد اغترَّ قومُ عاد بقوتهم، وقادَهم هذا إلى الاستكبار في الأرض، واستعبادِ الآخرين، وقالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ ونسوا قوةَ الله.

[٧]

عاد إرم: ذات العماد لا مثيل لقوتها

إرم ذات العماد ليست مدينة أسطورية:

أَخبرتْ آياتُ القرآن عن عادِ إِرَمَ ذاتِ العماد، التي لم يُخلقْ مثلُها في البلاد، كما أخبرتْ عن إهلاكِ الله لعاد الأُولى.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾.

فما هي إِرَم؟ وما معنى ذاتِ العماد؟ وكيف لم يُخْلَقْ مثلُها في البلاد؟

هناك كلامٌ كثيرٌ في الإِسرائيليات والخرافات والأساطير، عن مدينةِ

أسطورية خيالية، سَمّوها مدينةَ «إِرَم»، ومدينةُ «إِرَم ذات العماد» قالوا عنها، إنها مبنيةٌ من قصورٍ وأعمدةٍ، من ذهب ورخام، وإنها متنقلةٌ في البلدان.

وهذا كلُّه أَساطيرٌ وخرافات، فليستْ هناك مدينة اسمُها «إِرَم ذات العماد».

قال الإمام ابن كثير: «ومَنْ زعمَ أن «إِرم» مدينةٌ تدور في الأرض، فتارةً في الشام، وتارةً في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها، فقد أَبْعَدَ النجعة، وقالَ ما لا دليل عليه، ولا بُرهان يعوَّلُ عليه، ولا مسندَ يُرْكَنُ إليه..»[1].

إنَّ كلمةَ ﴿إِرَمَ﴾ في سورة الفجر ليستْ اسمَ مدينة كانت تسكنها عاد، وإنما هي بدلٌ من عاد، أو عطفُ بيانٍ لعاد. وعاد هي: عاد إرم.

و «إِرَم» اسمُ أحدِ أجداد «عاد»، وسُميتْ قبيلةُ عادٍ باسمه، وكان يقال لها: عادُ إِرَم.

و «إرم» في اللغة هي الحجارةُ المرفوعة، قال ابن فارس في «مقاييس اللغة»: «والإِرَم: العَلَم. وهي حجارةٌ مجتمعة، كأنها رَجُلٌ قائم»[2].

معنى «عاد إرم ذات العماد»:

و ﴿إِرَمَ﴾ في الآية بدلٌ من عاد: ﴿بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾، مجرورةٌ بالفتحة بدل الكسرة لأنها ممنوعةٌ من الصرف، للعلمية والتأنيث.

و ﴿ذَاتَ﴾: صفة لعاد ـ أو إرم ـ مجرورة. وهي مضاف و ﴿ٱلْعِمَادِ﴾: مضاف إليه.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٨.

(٢) مقاييس اللغة ١: ٨٥.

و ﴿ٱلَّتِي﴾: اسمُ موصول مبني، في محلِّ جر صفةٍ لعاد. والتقدير: غيرِ المخلوقِ مثلُها في البلاد.

إنَّ الآياتِ تتحدثُ عن عاد، التي هي عادُ إِرَم. وعادُ إِرَم هذه ذاتُ العماد. فكانت تسكنُ في بيوتٍ من الشَّعَر، أعمدتُها مرتفعةٌ وسطها، وتبني قصوراً ضخمةً على قمم الجبال، وبداخِلها أعمدةٌ مرفوعة، فهي بهذا الاعتبار: عادٌ ذاتُ العماد.

وعادٌ هذه أعطاها الله قوة، فلم يَخلقْ مثلَها في البلاد قبيلةً في قوتها وسلطانها.

فالآياتُ لا تتكلمُ عن مدينة ﴿إِرَمَ﴾ ذات العماد، التي لم يُخلقْ ولم يُبْنَ مثلُها في البلاد، ولم تماثِلْها أيةُ مدينة في البلاد.

وإنما تتحدثُ عن عادِ إرم، وعن أعمدتها، وعن قوتها. إن عاداً هي عادُ إرَم، وهي عادٌ ذاتُ العماد، وهي عادٌ التي لم يَخلق اللَّهُ في البلاد مثلَها في القوة والسلطان.

[٨]

هل هما عادان؟ أم عاد واحدة؟

هل عادٌ قبيلةٌ واحدة؟ أم هناك «عادان» قبيلتان، حملتْ كلُّ واحدة اسمَ عاد؟

حجة من قال بعاد الأولى وعاد الثانية:

ذهبَ بعضُ المؤرخين والمفسِّرين إلى وجودِ قبيلتيْن، كلُّ واحدةٍ حملتْ اسمَ عاد، فهناك عادٌ الأولى، وهناك عادٌ الثانية.

وقالوا: عاد الأُولى: هي التي وُجدتْ بعدَ قوم نوح مباشرة، وبعثَ اللَّهُ لها هوداً عليه الصلاة والسلام نبياً، وقصَّ علينا قصتَه في القرآن. وهؤلاء أهلكهم الله بالصيحة.

وعاد الثانية: وهي قبيلةٌ ناشئة عن عاد الأولى، وبينهما عشراتُ السنين، وكانت هذه القبيلةُ بعدَ إبراهيم الخليل عليه السلام، ونبيُّهم رجلٌ آخر غيرُ «هود»، لم يَذكر القرآنُ اسْمَه، فلما كذَّبوه أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، التي سخّرَها عليهم سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسوماً!![1].

واستدلَّ هؤلاء على قولهم بدليليْن من القرآن:

الأول: قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١].

وهي عاد التي كانت تسكنُ في «الأحقاف» والتي نبيُّها هودٌ عليه السلام.

الثاني: إِخبارُ القرآن عن عذابيْن وقَعا لعاد. عذاب بالصيحة، وعذابٌ بالريح الصرصر العاتية.

فعاد الأولى: أهلكَها اللّهُ بالصيحة، ولهذا قال عن هذا الإِهلاك في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤٠ ـ ٤١].

وعاد الثانية: أهلكها اللّهُ بالريح. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

الراجح أنها واحدة «الأولى» في القوة:

ولكننا نرى أنها «عادٌ» واحدة، وهي التي خلقها الله بعد نوح، وكانت تسكن «الأحقاف»، وجعلها أقوى قبيلة في البلاد، وبعثَ لها

(١) الإِمام ابن كثير مع هذا الرأي. انظر قصص الأنبياء: ٩٩ ـ ١٠٢.

هوداً نبياً، فلما كَفرتْ به، أهلَكها اللّهُ بالريح، التي كانت مقدمتها الصيحة.

إنَّ قوله: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ لا يلزمُ منه وجودُ عادٍ الثانية، وكلمةُ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ في الآية لا يراد بها الأوليةُ العدديةُ التاريخيةُ الزمانية، حيث جاءَ بعدها في التاريخ الثانية والثالثة.

إنّ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ في الآية تعني: الأوليةَ في الدرجةِ والمنزلة والمستوى والمرتبة، أوليةٌ بجانبها ما هو أقلُّ منها في المستوى والمرتبة.

نفهم ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ من خلال قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾.

ومن خلال قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟.

أي أنها: الأُولى في القوة والسلطان، في الزمنِ الذي وُجدتْ فيه، فلم توجَدْ قبيلةٌ أُخرى تماثِلُها أو تساويها في القوة.

ثم هي عاد الأولى في الوجود، في المرحلة الثانية من تاريخ البشرية، هذه المرحلةُ التي بدأتْ بعد الطوفان، فهي أولُ قبيلةٍ كافرة بعد الطوفان أَخبرَ عنها القرآن.

وأيضاً هي الأُولى في الإِهلاك، فهي أولُ قبيلةٍ أَهلكها اللّهُ بعد الطوفان.

هذه الأوليةُ لعادٍ بهذا الاعتبار، لا يستلزمُ منها وجودُ عادٍ أخرى ثانيةٍ بعدها. والله أعلم.

أما الهلاك، فنرى أنَّ كلَّ الآيات في قصة عاد وهود، تتحدثُ عن عادٍ التي لا ثانيَ لها، فعادٌ قومُ هود أهلكهم الله بالصيحة، وبالريح الصرصر العاتية.

وكان هلاكُ عادٍ على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: الصيحة التي فوجئوا بها.

والمرحلة الثانية: الريح الصرصر التي سخرها الله عليهم فأبادتهم!.

[٩]

قصور عاد ومصانعهم

كان قومُ عادٍ متقدمين مادياً، وهذا من مظاهرِ قوتهم، وقد أَشارَ القرآنُ إلى بعضِ مظاهرِ التقدم المادي عندهم. قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

قال الإمام الراغب عن الرّيع: «الريعُ: المكانُ المرتفعُ الذي يبدو من بعيد. الواحدةُ ريَعة. ومعنى ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: بكلّ مكانٍ مرتفع..»[١].

وقال عن المصانعِ المذكورةِ في الآية: «وعبَّر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع». قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[٢].

وقالَ السمين الحلبي عن المصانعِ: «قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾. قيل: هي مجاري الماء. وقيل: هي الأصْناع. مفردُها صِنْع. وهو الذي يُحْبَسُ فيه الماء. وقيل: المصانعُ ما شِيدَ من القصور، وزُخرفَ من الدور.

والكلُّ مراد، فإنَّ القومَ فعلوا كل ذلك»[٣].

معنى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾: تبنون بكلِّ جبلٍ مرتفع

---

(١) المفردات: ٣٧٢.

(٢) المرجع السابق ٤٩٣.

(٣) عمدة الحفاظ ٢: ٤١١ ـ ٤١٢.

قصراً، دليلاً على قوتكم، ولا تَبنون هذا للحاجة، بل للعبثِ والترف.

ومعنى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: تُنشؤونَ المصانعَ الكثيرةَ المختلفة، وتُتقنونها وتُجيدونها، لعلكم تَخْلُدون في مساكنكم.

اتخذوها للسرف والبطر:

وقد أنكرَ عليهم هودٌ عليه السلام هذا الترفَ والبطرَ والسرف. كانوا يُكثرون من العمران والبناء، ويَزرعُونَ رؤوسَ الجبال وقِممَ المرتفعات بالقصور والدور، ويعتبرونَها آيةً وعلامةً ودلالةً على قوتهم وترفهم وغناهم.

وكانوا يبنونَ هذه القصورَ والآياتِ لأجلِ السَّرَفِ والبطر والعبث، يَعبثون فيها، ويَرْصدون أموالهم، ويُنفقون طاقاتهم في ذلك العبث!.

كما كانوا يتوسَّعون في «المصانع» ويُكثرون منها، ويَستخدمونها لمختلفِ الأغراض، لعلَّهم يخْلُدون، فالقومُ كانوا متقدمين في المصانع والمزارع والبناء.

وهذا التقدمُ الصناعي، والرقيُّ العمراني عند قوم عاد، قادَهم إلى الترف والسرف، ونتجَ عن هذا الكفرُ بالله وإنكارُ الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

وماذا يُنتجُ العبثُ والسرفُ غيرَ الترف والبطر.

والقومُ العابثون المسرفون المترفون، الذين لا يَرونَ إلاّ الدنيا، ولا يفكِّرون إلا فيها، هل يؤمنون بالله؟ وهل يشكرونه؟ وهل يتذكَّرونَ الآخرة؟ وهل يَعملون لها؟ هذا ما كان عليه قومُ عاد!!

[١٠]

قوة عاد وطغيانهم وفسادهم

نتجَ عن التقدمِ المادي لقوم عاد ـ المتمثلِ في القصور والمصانع

ومظاهر الترف ـ قوةٌ كبيرة، تميَّزوا بها عن مَنْ حولَهم من القبائل والأقوام والأمم.

بسطة أجسامهم وقولهم: من أشد منا قوة؟

لقد ذكَّرهم هودٌ عليه السلام بما منحهم الله من بسطة: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [الأعراف: ٦٩]. والبَسْطَة هي السَّعَة.

أي أنَّ اللّهَ زاد أَجسامهم نَشْراً وسَعَة، فكانوا في أجسامهم أَضخمَ وأكبرَ من غيرهم، وكان لبَسْطةِ أجسامهم أثرٌ مباشر في قوتهم وتقدُّمِهم المادي.

ولا يعنينا «قياسُ» أجسامهم التي زادَها الله بَسْطة، في الطولِ والعرضِ والوزنِ والارتفاع، ولا يهمُّها تحديدُ أَطوالهم، وأوزانهم بالأرطال، وتسجيلُ «العماليق» فيهم. لأنَّ الخوضَ في هذا من الذهابِ للأساطير والإِسرائيليات.

كلُّ ما نقولُه: إنَّ الله زادَهم في الخلق بَسْطة، وكانوا بهذا متقدمين على غيرهم!

وقد اغترَّ قومُ عاد بقوتهم، ورأَوا أنفسهم أَقوى من غيرهم. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ [فصلت: ١٥].

إنَّ القوةَ المادية عند غيرِ المؤمنين تغرُّهم وتُطغيهم، وتَعميهم عن رؤيةِ الحقائق، وتقودُهم إلى الاستكبارِ في الأرض، واستعبادِ الآخرين، وتُنسيهم قوةَ الله، وتجعلُهم يكفرون به، ويجحدون بآياته. وهذا هو «المرضُ» الخطيرُ الذي أصابَ قوم عاد، فانتفشوا وتاهوا وتجبروا، وقالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟.

المتصرفون بنفس منطق عاد في العصر الحديث:

وكمْ من الأمم والأقوام المتجبرين في الماضي، تصرَّفوا بمنطق ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ كالفراعنة واليونان والرومان والفرس. ثم قصمهم الله وأبادهم!

وكم من الدولِ في العصر الحديث، تصرَّفوا مع الآخرين بمنطق ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ فكيف كانتْ نهايتُهم: الإِسبانُ والبرتغاليون والهولنديون والإِنجليز والفرنسيون، وألمانيا النازية الهتلرية، والاتحادُ السوفياتي الشيوعي.

والذين يتصرفونَ في هذا العقد من الزمان بمنطق ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ معروفون. إنهم الأمريكان، الذين يستخدمونَ قوَّتهم في استعبادِ الآخرين. واليهودُ، الذين يستخدمون قوتَهم في استعباد دول المنطقة وشعوبها!!.

ولكن ما الذي ينتظرُ الأمريكان واليهود؟

لقد استكبروا كما استكبرَ قومُ عاد، واستبدوا وطغوا كما استبدَّ وطغى قومُ عاد، وتساءَلوا كما تساءَل قومُ عاد، ولذلك ستكون نهايتُهم كنهايةِ قومِ عاد، وسيقصمهم اللّٰهُ كما قصمَ قومَ عاد!.

هذه هي سنةُ الله، وهذا هو منطقُ الحياة، وهذه هي شهادةُ التاريخ. ولكن كثيراً لا يعلمون!!.

عاد مستكبرون جبارون مفسدون:

قوةُ عادٍ قادَتْهم إلى البطش والتجبر والطغيان. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وقد جمعتْ سورةُ الفجر بين ثلاثِ أقوام، غرَّتْهم قوتُهم وأبطرتْهم، وقادتْهم إلى الطغيان والإِفساد في البلاد، وهم: عاد، وثمود، وفرعون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

لقد سارَ هؤلاء الأقوامُ الثلاثة: قومُ عاد، وقومُ ثمود، وقومُ فرعون، في الطريق المحتوم، خطوةً خطوة، ومرحلةً مرحلة، وشوطاً شوطاً:

إنعامٌ من الله عليهم، تمكينُهم من مظاهر القوة، استخدامُ هذه القوة في الطغيانِ والاستعبادِ لأهل البلاد، الإكثارُ من الفساد في أنفسهم، ثم الإِفسادُ لغيرهم، ونشرُه بين الناس، تعذيبُ الله لهم بسبب طغيانهم وإفسادهم.

وكلُّ دولة أو أمة، تَسيرُ على نفس الطريق المحتوم بهذه المراحلِ والخطوات والمحطات، تصلُ في النهاية إلى الهلاك والدمار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾!!.

[١١]

دعوة هود عليه السلام لعاد

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥].

هودٌ عليه السلام هو أَخو عاد، فهو واحدٌ منهم، لأنَّ سنةَ الله في إِرسالِ الرسل، أنه يختارهم مِن أشرفِ بيتٍ من بيوتِ أَقوامهم، وهذا أَدعى إلى أَنْ يعرفوه ويؤمِنوا به ويتَّبعوه.

ولما بعثه الله لهم رسولاً، قامَ بإبلاغِهم رسالتَه، ودعوتِهم إلى الله.

هود يدعوهم إلى عبادة الله وحده:

وقد بدأ دعوتَه لهم. بمخاطبتهم بغايةِ التقرُّب والتحبُّبِ، حيثُ قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وذلكَ ليرقِّقَ قلوبَهم، ويفتَحوا آذانَهم، فهو أَخوهم أَوّلاً، ثم هو واحدٌ منهم، لأنهم قومُه وأهلُه وعشيرتُه، وهو حريصٌ على تقديمِ الخير لهم، ودفْعِ الضرِّ عنهم.

ثم تحببَ إِليهم بأسلوبِ الترهيب بعد الترغيب، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾ [الشعراء: ١٣٥].

إِنهم عندما يعلمون حرصَه على نصحِهم وإرشادِهم، وشفقَتَه عليهم، وخوفَه من وقوع العذاب بهم، سيهتمون بكلامِه، ويستمعون لدعوتِه، هذا إنْ كانوا يفقهون!.

وبعدَ ما تقربَ هودٌ إلى قومه، قدمَ إليهم خلاصةَ دعوته: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

هذه خلاصةُ دعوةِ هودٍ لقومه، وخلاصةُ دعوةِ كلِّ رسولٍ لقومه، وهي العبارةُ نفسُها التي قالَها كل رسول، وأَوردَها القرآنُ في قصته: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾.

إنَّ الرسالةَ هي تحديدُ «الألوهية.. والعبودية» مَنْ هو الإِلهُ المعبود؟ إنه الله ربُّ العالمين، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه. ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾.

وكلُّ ما سوى الله مخلوق، فهو عبدٌ لله، الأصْلُ أنْ يكون عابداً له، خاضعاً لأَمره: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. فكلُّ إنسانٍ مطالبٌ بإفرادِ الله بالعبادةِ والطاعة.

وقد ذكَّرهم هودٌ بنعم الله عليهم، واستخلافِهم بعد قوم نوح: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأخبرهم أنه لا يريدُ منهم أجراً ولا مالاً ولا منفعة، مقابلَ دعوتِه لهم، وإنما يقومُ بواجبه الذي أوجبه اللّهُ عليه، في تبليغِهم الدعوة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ [الأعراف: ٦٨].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ [هود: ٥١].

ويذكرهم بسنن الله:

وأنكرَ عليهم هودٌ ترفَهم وبطشَهم وتجبُّرَهم. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾ [الشعراء: ١٢٤ ـ ١٣٥].

ورَبَطَ لهم هودٌ عليه السلام بين القيمِ الإيمانية والسننِ الكونية، وبيَّنَ لهم أَثَرَ الإيمان بالله وطاعتِه واستغفارِه، وتركِ معاصيه والتوبة إليه، في الرخاءِ المادي، والوفرِ الاقتصادي، والتمكينِ الحضاري، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢].

وهذه سنةٌ ربانيةٌ من سنن الله، تحكمُ حياةَ البشرية، إنَّ الكونَ وخيراته بيد الله وحده، يُنعمُ بما يشاء منها على مَنْ يشاءُ مِن عباده، وإذا آمنَ الناسُ بالله، وعبدوه وأطاعوه، ووظفوا قُواهم في عمارة الأرض، وابتعدوا عن معاصي الله، وتابوا إلى الله واستغفروه، فإن اللّهُ يُنعمُ عليهم بالمزيد من النعم، ويَزيدُهم خيراً إلى خيرهم، وقوةً إلى قوتهم..

أما إذا رفضوا هذا الطريق، وتولَّوا مجرمين، فإن الله يسلُبُهم هذه النعم، أو يجعلُها سبباً في شقائهم، ويوقعُ بهم العذابَ والهلاكَ!.

[١٢]

شبهات عاد ورد هود عليها

لم يَستجبْ قومُ عاد لدعوةِ أَخيهم هودٍ عليه السلام، وإنما كفروا به وكذَّبوه، وأَصرّوا على إثارةِ شبهاتٍ ضدَّ دعوته، وقد ردَّ هودٌ عليه السلام على شبهاتهم، وفنَّدَ أباطيلَهم.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن تلكَ الشبهات، وردَّ هودٍ عليه السلام عليها.

اعتراضهم على البشرية وطلبهم معجزة:

١ ـ هو بَشَرٌ مثلُهم. وكيف يكون النبيُّ بشراً؟: قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤].

وهو رجلٌ منهم، ولو كان رسولاً ما كان رجلاً منهم.

وقد أزالَ هودٌ عليه السلام استغرابَهم من بشريتِه، وكونِه بشراً مثلهم، ورجلاً منهم، يشابهُهم في البشرية ويشاركهم الطعام والشراب بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩].

لقد اختارَ اللّهُ رجلاً منكم بَشَراً مثلَكم، وأنزلَ عليه الذكر، وبعثَه نبياً لكم لينذركم، وهلْ في هذا ما يدعو إلى العَجَبِ والاستغراب، أو التكذيبِ والإِنكار؟ فلماذا تعجبون أنتم من ذلك؟.

٢ ـ لم يُقدِّمْ لهم معجزةً أو آيةً بينةً على صدق رسالته ونبوته: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود: ٥٣].

ولم تذكرُ آياتُ القرآن معجزةً لهودٍ عليه السلام، كالمعجزات التي جعلَها اللّهُ لأنبياءَ آخرين، مثل: ناقة صالح، وعصا موسى عليهما السلام.

وقد تكونِ مع هودٍ عليه السلام معجزةٌ مادية كبرى، كمعجزاتِ باقي الأنبياء، ولكنَّ الآيات لم تذكُرْها، لأنها لم تفصِّلْ كلَّ جزئياتِ قَصصِ الأنبياء.

وقد لا تكون مع هود عليه السلام معجزةٌ مادية، ولكنه اكتفى بالآية الربانية الكبرى، وهي نجاةُ نوح والمؤمنين معه في السفينة، لما غمرَ الماءُ كلَّ شيء، حيثُ جعلَ اللّهُ سفينةَ نوح آيةً وعبرة وعظة للناس، وقومُ عادٍ هم أولُ قوم وُجدوا بعد نجاةِ نوح ـ كما سبقَ أنْ قُلْنا ـ فكان حادثُ السفينة قريباً من ذاكرتهم، حيّاً ساخناً مؤثّراً في كيانهم، فاكْتُفيَ به آية ومعجزة وبيِّنة. والله أعلم.

رفضهم دعوته واتهامه بالجنون والكذب:

٣ ـ استغربوا منه دعوتَه إلى الإِيمانِ بالله وحده والكفرِ بالآلهةِ المدَّعاة، وعبادةِ الله وحده، وعدم عبادة الآلهة التي ورثوها عن آبائهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

وسجَّلوا هذه الشبهة أيضاً بقولهم له: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

٤ ـ رفضوا دعوةَ هودٍ عليه السلام لهم للإِيمان بالبعث بعدَ الموت، ومجيءِ اليوم الآخر، واعتبروا الدنيا هي كلَّ شيء، وأنَّ مَن ماتَ فقد مضى وانتهى، وهذا هو خُلُقُ الأولين، حيث ماتوا وصاروا تراباً.

قال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا

نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨].

٥ ـ اتَّهموه بالجنون، حيث مسَّته آلهتُهم بسوء، وجعلَته بدونِ عقل، لأن هذه الآلهة تعاقب من كفر بها، وتمسه بسوء: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

٦ ـ اتَّهموه بالسفاهة، لدعوته إلى توحيدِ الله وإفرادِه بالعبادة، وتركِ عبادة الآلهة والأصنام، وأَرادوا بهذا اتهامَه بالخفة والطيش، لتنفيرِ الناس منه.

وقد ردَّ عليهم بأن نفىٰ عن نفسه السفاهةَ والخفةَ والطيش، وأثبتَ لنفسه الرزانة الناتجةَ عن الرسالة والتبليغ.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٦ ـ ٦٨].

اتَّهموه صراحةً بالكذب والافتراء، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٨].

٨ ـ طلبوا منه إيقاعَ العذابَ بهم، فقد سبقَ أنْ أنذرهم عذابَ الله، إنِ استمروا على كفرهم، وأَخبرهم بشفقتِه وخوفه عليهم، وبدلَ أنْ يَقبلوا دعوتَه، ويتجنَّبوا ما خوَّفهم منه، عاملوه بتبجُّح، حيث طلبوا منه الإسراعَ بتعذيبهم، وتقديمِ ما يَعِدُهم به من الهلاك!.

وقد أخبرهم أنَّ إيقاعَ العذاب بهم ليس بيده، إنما هو بيدِ الله وحده، وما عليه إلا أن يبلغهم ما أمره الله بتبليغه.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

[١٣]

هود يتحدى قومه الكافرين

قامَ هودٌ عليه السلام بدعوةِ قومِه إلى الله، وسلَكَ معهم مختلفَ الأساليب، للتأثيرِ فيهم، واستجابَ له عددٌ قليلٌ منهم، لم يذكر القرآنُ عددَهم.

والأكثريةُ منهم أصرّوا على الكفر بالله، وتكذيبِ هود عليه السلام، وقد اتهموه باتهاماتٍ باطلة، وأثاروا على دعوته شبهاتٍ منكرة.

فماذا بقيَ أمامَ هود عليه السلام؟

هود يتحداهم ويتبرأ منهم:

لم يَبْقَ إلا إعلانُ البراءةِ منهم، ومِنْ معبوداتهم الباطلة، والجهرُ بهذه البراءة، وإشهادُهم عليها، ثم تحديهم تحدياً صريحاً واضحاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ ... إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

إنَّ هوداً عليه السلام يقدِّمُ لنا في هذا الموقف العظيم «مَعْلماً أساسياً» من معالمِ الدعوة إلى الله، ومواجهة الكافرين والظالمين.

إنه البراءةُ من الباطل وأصحابه، ومفاصلتُهم وعدمُ الالتقاء معهم، وعدمُ مداهنتِهم أو ملاينتِهم: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾.

وبعد البراءةِ والمفاصلة تأتي الخطوةُ التالية: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، إنها مواجهةُ أصحابِ الباطل، وتحديهم، والجهرُ بالحق أمامهم، والثباتُ عليه، وجهادُهم به.

إنها «استعلاءُ الإِيمان» في نفس المؤمن، وامتلاءُ القلب به، وعدمُ الخوف من أصحاب الباطل، أو الرهبةِ والخشيةِ والقلق والاضطراب أمامهم، واستخفافُ مظاهرِ قوتهم المادية، والاستهانةُ بها، وعدمُ الاحتمال بها، وذلك لضمانِ الثبات على الحق، وعدمِ الهزيمة أمامَ الباطل.

يتحدّاهم هودٌ عليه السلام بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾: امكروا بي، وتآمروا عَلَيّ، واجتَمِعوا جميعاً على الكيد والتآمر، واستَعينوا بمن تَقْدرون عليه، واتَّخذوا لذلك كل ما تملكون مِن وسائلِ القوة والكيد والتآمر، ثم وجِّهوا لي كلَّ كيدِكم وقوتِكم وحقدِكم وأَتباعِكم، وحارِبوني به، واهجموا عليَّ فجأة، ولا تُمهلوني أو تُنظِروني أو تُخْبروني!!.

افْعلوا ذلك بي، فلن أهتمَّ بكم، ولن أضعفَ أمامكم، ولن أتخلّى عن ما أنا عليه من الحق.

ثم يقدمُ هودٌ عليه السلام التعليلَ الصائبَ لموقفه هذا، التعليلَ الإِيمانيَّ الذي دفعه لهذا الاستعلاء والثبات والتحدي والمواجهة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾.

سر ثباته وتحديه:

لقد امتلأ هودٌ عليه السلام إيماناً بالله، وتوكُّلاً واعتماداً عليه، لقد استندَ إلى قوةِ الله، وأيقنَ به، فلماذا يهابُهم؟ ويضعفُ أَمامهم؟ وماذا

تساوي قوتُهم الضعيفةُ أمامَ قوةِ الله القاهرة؟.

إنَّ هوداً عليه السلام نظرَ إلى قوةِ عادٍ بالمنظار الإيماني، ولا ننسى أنه لم تماثِلْ قوتَهم أيةُ قوةٍ بشرية أُخرى، إنها عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾.

قوتُهم العظيمة ليست شيئاً أَمام قوةِ الله وهم دوابٌّ نواصيهم بيدِ الله!.

نعم. هم دوابّ، نواصيهم بيدِ الله. هذا ما قاله لهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

إنَّ الدابةَ الذلول، الخاضعةَ لصاحبها، لا تُخيفُ أحداً، لأنها لا تتحركُ إلا بأَمر صاحبها، ولا تُؤذي إلا بتوجيهِ صاحبها، فهو الذي يقودُها من ناصيتها، ويحرِّكُها ويوجِّهها كما يشاء.

وقومُ عاد الأقوياء، قوتُهم ليستْ ذاتية، إنما هي سببٌ من الله، اللَّهُ هو الذي منحهم القوة، يسلُبُها منهم متى يشاء، واللَّهُ هو الذي يملكُهم، ويأخذُ بنواصيهم، ويوجِّههم ويحرِّكهم حيث يشاء. هذه حقيقةُ قوتِهم من خلال المنظارِ الإيماني، الذي نظرَ به هودٌ عليه السلام، فرآهم على حقيقتهم، بدون انتفاشٍ أو استكبار، وعرفَ قوتَهم الضعيفةَ القاصرةَ على حقيقتها، بدونِ ادعاءٍ أو انتفاخ.

وهذا ما يحتاجه كلُّ داعيةٍ إلى الله، يواجِهُ أصحابَ الباطل، ممن يَزْهون بقوتهم المادية، إذ لا بدَّ أن يتعاملَ معهم بمنطقِ هودٍ عليه السلام: ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

يجبُ على الدعاة إلى الله أنْ ينظُروا إلى قوةِ خصومِهم بالمنظارِ الإيماني، وأن يعرفوا قوتَهم على حقيقتها، وأنْ يضعوها أمامَ قوةِ الله القاهرة، ليتمكَّنوا من الثبات والمواجهة، والجهادِ والتحدي!!.

[١٤]

الريح الصرصر في الأيام النحسات

هود أدى واجبه وانتظر ساعة الفصل معهم:

لما كذبَ قومُ عادٍ أَخاهم هوداً عليه السلام قالَ لهم ما أخبرتْ عنه آياتُ القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هـود: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣].

وبعدما أَصرَّ قومُه على الكفرِ والتكذيب، دعا اللَّهَ عليهم، وطلبَ من ربه أنْ ينصُرَه، وأنْ يهلكَ أعداءَه الكافرين، فأخبرَه اللَّهُ أنَّ العذابَ قادمٌ إليهم، وعن قريبٍ يهلكون ويندمون. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون: ٣٩ ـ ٤٠].

لقد أدى هودٌ عليه السلام واجبَه تجاهَ قومه، وبلَّغهم رسالةَ الله، وآمَنَ به قليلٌ من قومه، وكفرَ به وكذَّبه أغلبيةُ قومه. واختارَ كلٌّ طريقَه ودينَه، وانتهى الأمر، فماذا بقيَ بعدَ ذلك؟.

لم يبقَ إلاّ تَحققُ سنةِ الله في تعذيبِ القوم الكافرين، ونجاةِ المؤمنين الصالحين مع هودٍ عليه السلام، وهذه هي نهايةُ كلِّ قومٍ كافرين، وخاتمةُ كلِّ نبيٍّ من المرسلين!.

عذاب عاد على مرحلتين:

قدرَ اللّهُ أنْ يعذبَ قومَ عادٍ بالريح الصرصر العاتية، التي سخّرَها عليهم في أيامٍ نحسات، وكانت سبعَ ليال، وثمانية أيام متتابعة.

وكانت هذه الريحُ الشديدة، بعد الصيحةِ التي سبقَتْها.

لقد كان عذابُ عادٍ بالريح على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: الصيحة. وهي صيحةٌ أخذَتْهم فجأة، وكانت ممهِّدةً للريح العاتية. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

لما أخذَتْهم الصيحةُ تركَتْهم غثاء، أي أنهم لما أهلكهم اللّهُ بالصيحة ثم بالريح، صاروا غثاءً كغثاءِ السيل ـ وهو ما يحملُه السيلُ معه من النبات اليابس والقذر ـ لا خيرَ فيهم، ولا يُعتدُّ بهم.

المرحلة الثانية: الريحُ الصرصرُ العاتية، التي سخّرها عليهم ثمانيةَ أيام متتابعات.

هذه الريحُ جاءتْ بعدَ الصيحة، حيث جمعَ اللّهُ عليهم الصيحة والريح.

قال الإمام ابن كثير: «ولا يَمنعُ من اجتماع الصيحة والريحِ العاتية عليهم، كما سيأتي في قصةِ مَدْيَنَ أصحابِ الأيكة، فإنه قد اجتمعَ عليهم أنواعٌ من العقوبات..»[1].

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن بعضَ التفاصيلِ في إرسالِ الريح عليهم، وفي تعذيبِهم وهلاكِهم.

سحاب مدمر ظنوه ممطراً:

أشارت الآياتُ إلى أنَّ اللّهَ حبسَ عن قومِ عاد المطر، فأصابهم

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٩٢.

المحلُ والجدبُ والقحط، وكانوا متلهِّفين للمطر والغيث، متشوِّقين للسحاب الحامل للماء.

فأراهم الله السحاب، قادماً إليهم، مستقبِلاً لأوديتهم، مبالغةً منه سبحانه في السخرية منهم، وإيقاعِ الحسرةِ والأسى في نفوسهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤].

والعارضُ المذكورُ في الآية هو السَّحاب، قال السمينُ الحلبي: «والعارضُ البادي عَرْضُه. وتارةً يختصُّ بالسحاب، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: سحابٌ قد عرضَ في الأفق.

وقد استخدمَ الفرزدقُ العارضَ بمعنى السحاب في قوله:

يـا مَـنْ رَأىٰ عـارِضـاً أُكَـفْـكِـفُـهُ   بَـيْـنَ ذِراعَـيْ وَجَـبْـهَـةِ الأَسَـدِ[1]

فرحَ قومُ عادٍ بالسحاب الذي عرضَ وظهرَ لهم في الأفق، واستبشروا به، وظنّوه سحاباً ماطراً، وغيثاً مغيثاً، وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا.

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ هو العذابُ الذي استعجلوا بطلبه من هود عليه السلام، وقالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فها هو قد جاءَهم ما وعدَهم به من العذاب: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الريح العقيم هي الدبور الشرقية:

هذه الريحُ التي ساقت العارضَ إليهم سماها اللَّهُ الريحَ العقيم، قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٣:٦٨.

و «العقم» وصفٌ للمرأةِ العاقرِ التي لا تنجب. يقال: هذه امرأةٌ عقيم: لا تحملُ ولا تَلِد.

وإطلاقُ صفة «العقم» على الريح، للمبالغةِ في بيانِ ما تحملُه من دمارٍ وهلاكٍ لقوم عاد.

إن الأصلَ في الرياحِ أن تكونَ بشرى للناس، تحملُ معها الغيث والمطرَ والنفعَ والرخاء والبشرى والأمل. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٤٩].

أمّا أنْ تسوقَ الريحُ التي وجَّهها الله إلى عادٍ السحاب، وأنْ لا يكونَ مطرٌ ولا غيثٌ في هذا السحاب، فهذا هو العُقْم بعينه.

إنها ريحٌ عقيم، بدون غيثٍ أو مطر، وبدون نفع وبشرى، فهي مدمّرة: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

هذه الريحُ العقيمُ كانت ريحاً شرقية دبوراً نَحِسَة، كما أخبَرَنا عنها رسولُ الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إني نُصِرْتُ بِالصَّبا، وإنَّ عاداً أهلكَتْ بالدَّبور»[1].

والصَّبا هي: ريحُ الصَّبا التي نصرَ اللّهُ بها رسولَه ﷺ على كفار قريش، في معركةِ الأحزاب.

قال الفيروزابادي عن ريح الصَّبا: «والصَّبا ريح، مهَبُّها منْ مطلعِ الثُّريا إلى بناتِ نعش»[2].

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٠٣٥ ومسلم برقم: ٩٠٠. انظر الأحاديث الصحيحة: ٦٢.

(٢) القاموس المحيط: ١٦٧٩.

وهي ريحٌ تحملُ معها الخير والبشرى، وعندما تهبُّ في موسم الأمطار، يكون مطرُها غيثاً مغيثاً نافعاً.

وريحُ الدَّبور عكسُ ريح الصبا، وهي التي يتشاءَمُ بها الناس، وتكونُ جافةً شديدة.

وريحُ الصَّبا الماطرة ريحٌ غربية غالباً، وريحُ الدَّبور الجافةُ ريحٌ شرقية غالباً.

لما هبّتْ ريحُ الدَّبورِ الشرقيةِ الجافة على قوم عاد، وساقَتْ معها السحابَ الأسود، عارِضاً مستقبلَ أوديتهم، ظنّوه غيثاً ماطراً: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

ما كل سحاب ماطراً وخشية الرسول منه:

لقد أخطأت عادٌ الظنَّ والنظر، وخُدعوا بما شاهدوا من العارضِ الأسودِ الذي اعترضَ أفقهم وغطّاه، واعتبروه غيثاً وفَرَجاً ورخاءً، وما دروا أنه يحملُ لهم العذابَ والدمار.

وما كلُّ سحابٍ ماطراً، ولا كلُّ مطر نافعاً، فقد يكونُ السحاب أسود، لكنه جافٌ ماحِلٌ لا ماءَ فيه، وقد تكونُ معه الصواعقُ والعواصفُ المدمرة.

وكان رسولُ الله ﷺ إذا هبت الريحُ خشيَ أنْ يكونَ فيها الدمارُ والهلاك، فيسألُ اللَّهَ خيرها، ويعوذُ بالله من شرها، ويبقى وَجِلاً خائفاً إلى أنْ تنتهي، أو ينزلَ المطر!.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي اَللّه عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا عَصفت الريح، قال: اللهمّ إني أسألك خيْرَهَا، وخيْرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلتْ به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به.

قالت: وكان إذا غُيِّبت السماءُ بالسحاب تغيَّرَ لونُه، وخرجَ ودخل، وأَقبلَ وأدبر، فإذا أَمطرتْ سُرِّيَ عنه.

فعرفَتْ ذلك عائشة، فسأَلته، فقال: لعله يا عائشةُ كما قالَ قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

وفي روايةٍ أُخرى أخرجها البخاريُّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعاً ضاحِكاً قط، حتى أرى منه لَهَواتِه. إنما كانَ يبتسم.

قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً، عُرِفَ ذلك في وجهه. فقالت له: يا رسولَ الله إنَّ الناسَ إذا رأوا الغيمَ فرحوا، رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطر، وأَراكَ إذا رأيْتَه عُرِفَ في وجهك الكراهية؟

قال: يا عائشة ما يُؤمنني أنْ يكونَ فيه عذاب!! قد عُذبَ قومُ نوح بالريح. ورأى قوم العذابَ فقالوا: هذا عارض ممطرنا!![1].

كانت ريح عاد صرصراً عاتية:

هذه الريحُ العقيمُ المدمرةُ التي أرسلَها الله عليهم، استمرت في هبوبها وشدتِها وتعذيبها لهم ثمانيةَ أيام متتابعة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

الأيامُ النَّحِساتُ المذكورة في سورةِ «فُصِّلَتْ» مبهمة من حيث العدد، وقد فَصَّلت سورةُ الحاقة عددَها، وأَزالتْ إِبهامها، فهي ثمانيةُ أيام متتابعة!.

(١) أخرجهما البخاري برقم: ٣٢٠٦، ٤٨٢٨. ومسلم برقم: ٨٩٩. الأحاديث الصحيحة رقم: ٦٠ ورقم ٦١.

وكان هبوبُها الشديدُ المدمرُ في كلِّ يوم من هذه الأيام الثمانية، مستمراً طيلةَ ذلك اليوم، مستغرِقاً ليلَه ونهارَه، وكلَّ ساعةٍ ودقيقة فيه، لم تتوقَّف ولم تضعُفْ ولم تَخفِتْ لحظةً واحدة. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر: ١٨ ـ ١٩].

والريحُ الصرصر: الريحُ الباردةُ شديدةُ البرودة.

وأَساسُ «صَرْصَر» هو «صِرّ». والصِّرُّ هو البردُ الشديد. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

قال السمينُ الحلبي في معنى «صرصر»: «ريحٌ صَرْصَر: شديدةُ البرودة. وهي من الصِرّ. وإنما كُرِّرَ اللفظُ دلالةً على تكرار المعنى، كما قالوا «صَلْصَلْ» من «صِلّ» وأصْلُ الصِّرِّ بمعنى العَقْدِ المُحْكَم، وبمعنى الشَّدّ»[1].

هذه الريحُ كانتْ ريحاً صرصراً باردةً شديدةَ البرودة، وكانت عاتية.

ومعنى «عاتية» هنا: المبالغةُ والشدةُ في هبوبِها وسرعتَها واستمرارِها، فهي قد تجاوزتْ حَدَّها الأول[2]، وسرعَتَها المعتادة، فزادت من سرعتها وشدتِها وبرودتها واستمرارها، حتى وصلت إلى كلِّ بيتٍ لهم، وكلِّ شخصٍ منهم.

وقد أخبرَنا اللَّهُ أن هذه الريحَ قد استمرتْ مسخرةً عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

والحُسوم هيَ المتتابعة، التي أدى استمرارُها وتتابُعها طيلةَ هذه

---

(١) عمدة الحفاظ ٢:٣٨٣.

(٢) المرجع السابق ٣:٣٦.

الأيام الثمانية إلى قطْعِ الخيرِ عن قوم عاد، ثم قطْعِ أعمارِهم وآثارهم وأَخبارهم.

في سبع ليال وثمانية أيام حسوم:

إنَّ أساسَ معنى «الحسم» هو القطعُ وإزالةُ الأثر.

قال الراغب: «الحَسْم: إزالةُ أثرِ الشيء. يقال: قَطَعَه فحَسَمَه، أي: أزالَ مادتَه. وبه سُميَ السيفُ حساماً. وحَسْمُ الداء: إزالةُ أثره بالكيّ.

و ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، حاسمةً لأثرهم، وقيل: حاسمةً لخبرهم، وقيل: قاطعةً لأعمارهم. وهذه الأقوالُ كلُّها داخلةٌ في عموم المعنى»[1].

واعتبرَ ابن فارس سببَ تسميتها بالحسوم، لأنها حسمت الخيرَ وقطعَتْه عن قوم عاد[2].

وكلُّ يوم من هذه الأيام الحسومِ الثمانية نَحْس: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾.

ومجموع هذه الأيام الثمانية أنها أيامٌ نَحِسات: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾.

قال الراغب في معنى النحس: «النَّحْس: ضدُّ السّعد. وقيل في معنى ﴿نَّحِسَاتٍ﴾: مشؤومات. وقيل: شديداتُ البرد.

وأصْلُ النحس: أنْ يَحْمَرَّ الأُفقُ، فيصير كالنحاس. أي: لهبٌ بلا دخان. فصار ذلك مَثَلاً للشؤم»[3].

---

(١) المفردات: ٢٣٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢:٥٧.

(٣) المفردات للراغب: ٧٩٤.

وقد أخبرنا اللَّهُ أنْ الريحَ الصرصرَ العاتية استمرتْ عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

وهذا يعني أنَّ هُبوبَها عليهم كان من صباحِ أَحدِ الأيام، ومنذُ شروقِ شمسِ ذلك اليوم، وطُلوعِ نهاره. واستمرتْ ثمانيةَ أيام شديدةً متتابعة.

والأيامُ الثمانية تضمُّ سبعَ ليال، فلو أَردْنا أنْ نعدَّ ثمانيةَ أيام من السبت، إلى نهايةِ السبت الثاني مثلاً، فإننا نجدُ فيها سبعَ ليال.

قال الإمام الراغب في معنى اليوم: «اليومُ يعبَّرُ به عن وقتِ طلوعِ الشمس إلى غروبها، وقد يعبَّرُ به عن مدةٍ من الزمان. أيُّ مدةٍ كانت»[1].

[١٥]

قوم عاد صرعى كأعجاز نخل خاوية

حكمة الله في تعذيبهم بالريح القوية:

اغترَّ قومُ عاد بقوتهم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ونسوا قوةَ الله الذي خلقهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

وقد شاءَ اللَّهُ أنْ يسخرَ عليهم الريحَ القويةَ الشديدة الباردة المتتابعة، ليقضي بها على قوتهم، ويحسمَ بها أخبارَهم، ويقطعَ بها أعمارَهم، ويُزيلَ بها حياتَهم ووجودَهم.

ولهذا قالَ تعالى عن إهلاكهم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

كلُّ ما مرتْ عليه الريحُ من الناسِ الكفار، جعلَتْه كالرميم.

---

(١) المرجع السابق: ٨٩٤.

والرَّميم من الرِّمَّة. والرِّمَّةُ هي العظامُ البالية.

ومنى ﴿جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ جعلتْ هذه الريحُ كلَّ كافرٍ من قوم عاد كالحطام المدروسِ البالي، والورقِ المفتوت المطحون. فأصبحَ كالترابِ والرماد[1].

وقال تعالى عن إهلاكهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

والغثاءُ هو ما حملهُ السيلُ من التافهِ الذي لا فائدةَ فيه، ولا نفعَ منه، من العشبِ اليابس والورقِ التالفِ وغير ذلك.

وقد شبهَ القرآنُ قومَ عاد بعدَ الهلاك بأعجازِ النخل المنقعر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢٠].

وقالَ عن نفسِ الموضوع في سورةِ الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٧ ـ ٨].

ونتوقفُ لحظةً لنحاولَ التعرفَ على حكمةِ الفرْقِ بين التشبيهَيْن في السورتيْن، والاختلافِ في المشبَّهِ به فيهما.

تحليل تشبيههم بأعجاز النخل المنقعر:

ففي سورة القمرِ شبَّه هلاكَ قومَ عادٍ بأعجازِ النخل المنقعر، وفي سورة الحاقة شبههم بأعجازِ النخل الخاوية.

إنَّ أعجازَ النخلِ هي أوائلُها مما يلي الأرض، التي تكونُ فوقَ جذورها، ومعلومٌ أنَّ النخلةَ طويلةُ القامة، وقومُ عاد كانوا طويلي القامات، ضخامَ الأجسام ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾.

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢:١٢٨.

واستحضارُ صورِ بستانِ نخْلٍ عصفتْ به العواصفُ الهوجاء ثمانيةَ أيام متتابعات، فاجتثتْ ذلك النخلَ من الأرض اجتثاثاً، وقعرتْه قعراً، وقلَعَتْه من قعره وجذوره، وألقَتْه على وجه الأرض، يقربُ للخيال صورةَ إهلاكِ قوم عاد.

في سورةِ القمر قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾.

قال الراغبُ في معنى منقعر: «قَعْرُ الشيء أسفلُه. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: ذاهبٌ في قَعْرِ الأرض، وقال بعضُهم: انقعرت الشجرة: انقلعتْ من قَعرها.

وإنما أرادَ الله تعالى بيانَ أن هؤلاء الكافرين من قوم عاد قد اجْتُثوا، كما اجْتُثَّ النخلُ الذاهبُ في قعْرِ الأرض، فلم يبقَ لهم رسْمٌ ولا أثَر»[1].

المشبَّهُ في الآية: قَلْعُ الريح لقوم عاد، ونزعُهَا لهم، وقَطْعُها لرؤوسهم.

والمشبَّهُ به في الآية: قلْعُ الريح للنخل، واجتثاثُها له، وقطْعُها لرؤوسه.

ووجْهُ الشبه في الآية: القلعُ والقطعُ والانقعار.

أي أنَّ الآيةَ شبهتْ قلْعَ الريح لقوم عاد، وقطْعَها لرؤوسهم، ونزْعَها واجتثاثَها لهم ـ وهذا أمْرٌ غيرُ مألوف ولا معتاد عندَ الناس ـ بقلْع الريح للنخل، وقطْعِها لرؤوسه، وقعْرِها واجتثاثِها له ـ وهذا مألوفٌ معتادٌ للناس!.

فالتشبيهُ في الآية من باب تشبيهِ غير المألوفِ وغير المعتاد، وهو

(١) المفردات: ٦٧٩.

قعْرُ واجتثاثُ قوم عاد، بالمألوفِ والمعتاد، وهو قعْرُ واجتثاثُ الريح للنخل.

أي أنَّ غرضَ التشبيه في سورة القمر هو تقريبُ غيرِ المعلوم بالبديهة، وغيرِ المعتاد، إلى المعلومِ بالبديهة، والمألوفِ المعتاد.

تحليل تشبيههم بأعجاز النخل الخاوية:

أما في سورةِ الحاقةَ فقد اختلفَ المشبَّهُ والمشبَّهُ به ووجْهُ الشبه من حيثُ التفاصيل.

قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

المشبَّهُ هنا: همودُ أجسادِ قومِ عاد، وصرْعُها، وخلُوُّها من الحياة والحركة. وهذا غيرُ معلومٍ بالبديهة، فاحتاجَ إلى مشبَّهٍ به ليُعلَمَ بالبديهة.

والمشبَّه به هنا: خلوُّ النخلةِ الخاوية من النموِّ والحياةِ والحركةِ والنضرة. وهذا معلومٌ بالبديهة.

ووجْهُ الشبه: الخواءُ والخُمود، وذهابُ الحياة والحركة.

والغرضُ من التشبيه في سورةِ الحاقة هو تقريبُ غيرِ المعلوم بالبديهة، وهو خواءُ الجَسَدِ من الحياة والحركة، إلى المعلومِ بالبديهة، وهو خواءُ الشجرة من النضرة والحياة[1].

والمقصودُ هو بيانُ نهايةِ قوم عاد، وتدميرهم وهلاكهم، هؤلاء القومُ الأقوياء، الذين اغترّوا بقوتهم، وقالوا: منْ أشدُّ منا قوة؟ ها هم بعدَ الأيام الحُسوم الثمانية صَرعىٰ هلكى، أمواتٌ خامدون، مُلْقَوْن على وجه الأرض، منزوعون نَزْعاً، مجتَثّون اجتثاثاً.

---

(١) هذه اللفتة استفدناها من كتاب الرماني «النكت في إعجاز القرآن» أثناء كلامه عن أغراض التشبيه في القرآن. انظر «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»: ٨٤.

انظر: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؟ لم يبقَ منهم أحد.

انظر: إنك لن ترى إلا مساكنهم الخاوية منهم: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

تعذيبهم بسبب جرائمهم وتذكير الكفار بهم:

وما أوقعه اللّهُ بعادٍ من الدمار والهلاك هو جزاءُ كفرِهم وبغيهم، واتّباعهم كلَّ جبارٍ عنيد من الملأ منهم. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠].

هذه جريمةُ عاد: جحدوا بآياتِ ربهم، وعصوا رسله، واتّبعوا أمْرَ كلِّ جبارٍ عنيد.

ولذلك أوقعَ اللّهُ بهم عذابَه، وأحَلَّ عليهم لعنتَه في الدنيا، وسيحلُّ عليهم لعنتَه الأشدَّ وعذابَه الأبلغَ يوم القيامة.

وقد غابَ قومُ عادٍ بعد الهلاك عن الوجود، وابتَعدوا عن الحياة: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

وذكَّرَ اللّهُ الكفار من قريش وغيرهم بقوةِ عاد، التي هي أَقوى من قريش، ومع ذلك لم تدفعْ عنهم عذابَ الله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦].

أي: لقد مكنّا قومَ عادٍ تمكيناً كبيراً، لم نمكِّنْكم مثْلَه يا قريش، ومنحناهم من مظاهرِ القوة ما لم نمنَحْكم مثلَه، ومع ذلك لم تنفعْهم قوتُهم أمامَ عذابِ الله، ولم تُغنِ عنهم شيئاً. هذا وهُم أقوى منكم يا قريش، فكيف بكم أنتم أمامَ عذاب الله إذا وقعَ بكم؟ وأنتم الأضعفُ والأقلّ!

إنه لا حلَّ لكم إلا بالتخلّي عن الكفر، وبالدخولِ في الإِسلام!.

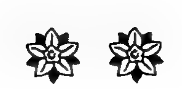
نجاة هود مع المؤمنين به:

أما هودٌ عليه السلام والمؤمنون الذين معه، فقد أَنجاهم الله برحمته من العذاب، وأنقذَهم من الهلاك. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧٢].

هذه هي سنةُ الله في الصراع بين الإِيمان والكفر، فعندما تنتهي جولةٌ من جولات الصراع بين مؤمنين وبين كافرين، تكونُ الخاتمةُ لتلك الجولة بإهلاكِ الله للكافرين، وإنجائِه للمؤمنين.

لقد أنجى اللَّهُ هوداً عليه السلام وأَتْباعَه برحمةٍ منه سبحانه، وانتقلوا إِلى بقعةٍ أُخرى من الأرض، ليعيشوا فيها حياتهم الإِيمانية، على منهاجِ الله وطاعته.

ولا نعرفُ عددَ الذين آمنوا بهود عليه السلام، وأَنجاهم الله معه، ولا نعرفُ المكانَ الذي أقاموا فيه بعد هلاك عاد، ولا نعرفُ كم عاشَ هودٌ بعدها، ولا نعرفُ أينَ مات، ولا نعرفُ أين قبره الآن. كلُّ هذا من «مبهماتِ» قصة هود عليه السلام، التي لم يَرِدْ عنها كلامٌ في القرآنِ والحديثِ الصحيح. فنسكتُ عن ما سكتتْ عنه النصوص، ونكتفي بما فيها من بيان!!!.





قِصَّةُ صَالِحٍ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام



[١]

ذكر صالح وثمود في القرآن

بعث اللَّهُ صالحاً عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً إلى «ثمود» قومه.

وقد ذكرَ اللَّهُ في القرآن قصةَ صالح مع ثمود في عدة سور. وأحياناً كان يذكر اسمَ صالحٍ فقط، وأحياناً يذكر اسم ثمودَ فقط، وأحياناً يذكر بعض اللقطات منَ القصة.

وردتْ كلمةُ صالح في القرآن، عَلَماً على نبي الله المبعوث إلى ثمود، واسماً له تسع مرات:

صالح: مرفوعة: ثلاث مرات.

صالحاً: منصوبة: خمس مرات.

صالح: مجرورة: مرة واحدة.

ووردت كلمة «ثمود» في القرآن، على الحالات الثلاثة: رفعاً ونصباً وجراً، وكان عدةُ مرات ورودها ستاً وعشرين مرة. ولا ننسى أن «ثمودَ» تكونُ مجرورةً بالفتحة، لأنها ممنوعةٌ من الصرف.

ثمود: مرفوعة: تسع مرات.

ثمود: منصوبة: ست مرات.

ثمود: مجرورة بالفتحة: إحدى عشرة مرة.

[٢]
مواضع قصة صالح عليه السلام في القرآن

وردتْ قصةُ صالح عليه السلام مع ثمود في عدة سور، وكان الكلامُ عنها يأخذُ عدةَ صور.

فأحياناً يَعرضُ مشاهدَ مطولة من القصة، وأحياناً يَعرضُ منها لقطات سريعة، وأحياناً يَكتفي بتسجيلِ إشاراتٍ خاطفة، وأحياناً لا يَذكرُ إلا اسم صالح أو اسم ثمود، ضمن ذكر أنبياء آخرين، أو أقوام سابقين.

وفيما يلي بيانُ مواضعَ ذكْرِ القصة في القرآن، وما عرضَتْه كل سورة من لقطاتها، نرتبُها حسب ترتيب المصحف.

١ ـ ما أوردته سورة الأعراف:

وردت قصة صالح عليه السلام في سبع آيات: ٧٣ ـ ٧٩.

أخبرت الآياتُ عن إرسال صالح نبياً إلى ثمود. وطلبهِ منهم عبادةَ الله وحده، وتقديمِه الناقة معجزةً له، وتحذيرِ قومه من إيذائها، وتذكيرِه لهم بنعم الله عليهم، وتكذيبِ الملأ من قومه له، واستهزائهم بالمستضعفين الذين آمنوا به، وإقدامِهم على قتل الناقة، وطلبهم إيقاع العذاب بهم، وتعذيبِ الله لهم بالرجفة، وتعقيب صالح على هلاكهم ودمارهم.

٢ ـ ما أوردته سورة هود:

وردت قصته في ثماني آيات: ٦١ ـ ٦٨.

أخبرت الآياتُ عن إرسال صالح إلى قوم ثمود، وطلبهِ منهم عبادةَ الله وحده، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم، وردِّ قومه عليه ساخرين به، وجواب صالح عليهم، ونهِيه لهم عن إيذاء الناقة، وإقدامِهم على

عقرها، وإحلالِ العذاب بهم بعد ذلك بثلاثة أيام، حيث دمَّرهم الله بالصيحة وغيَّبهم عن الوجود.

٣ ـ ما أوردته سورة الحجر:

وردت قصته في خمس آيات منها: ٨٠ ـ ٨٤.

لم تصرحْ هذه الآياتُ بذكْر اسم صالحٍ أو ثمود، وإنما ذكرت المكانَ الذي أقاموا فيه، وهو «الحِجْر» ـ ومنه أُطلق الاسم على السورة ـ وأَخبرتْ عن تكذيبهم، وعن نعم الله عليهم في مساكنهم، وعن تعذيبهم بالصيحة.

٤ ـ ما أوردته سورة الشعراء:

وردت قصته في تسع عشرة آية منها: ١٤١ ـ ١٥٩.

أخبرت الآياتُ عن دعوة صالح لهم، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم، وعن بعضِ مظاهر الترف والرخاء عندهم، وعن ردِّ الملأ المسرفين عليه، ورفضهم لدعوته، وتقديم الناقة معجزةً لهم، وعقرهم للناقة، وإيقاع العذاب بهم، وإبقاءِ قصتهم آيةً لمن بعدهم.

٥ ـ ما أوردته سورة النمل:

وردت قصته في تسع آيات منها: ٤٥ ـ ٥٣.

أخبرت الآياتُ عن دعوة صالح لقوم ثمود، وانقسامهم فريقين بشأنه، وتطيُّر الكافرين منهم به وبدعوته، وردِّه على اتهاماتهم وشبهاتهم، وتآمُرِ التسعةِ المتآمرين عليه، واتفاقهم على قتله، وإبطال الله لمكرهم، وتدميرِ القوم الكافرين، وإنجاء القوم المؤمنين.

٦ ـ ما أوردته سورة القمر:

وردت قصته في عشر آيات منها: ٢٣ ـ ٣٢.

أخبرت الآياتُ عن تكذيب ثمود لصالح، وأهمِّ شبهاتهم ضده، وإرسالِ الناقة فتنة لهم، وطبيعة تلك الناقة، وإقدامِ أحدهم على عقرها،

ومعاقبة الجميع لرضاهم به، وإهلاكهم بالصيحة.

٧ ـ ما أوردته سورة الشمس:

وردتْ قصتُه في خمس آيات منها: ١١ ـ ١٥.

أخبرت الآيات عن تكذيب ثمود وطغيانها، وأبرزتْ إقدامَهم على عقر الناقة بيد أشقاهم، وتدمير الله لهم بسبب جرائمهم.

أما السورُ التي فيها إشاراتٌ سريعة لقصة صالح عليه السلام مع ثمود فهي:

١ ـ **سورةُ الإسراء**: آية: ٥٩. وفيها إشارةٌ إلى كفر قوم ثمود بالناقة، وتكذيبهم لما دلتْ عليه من نبوة صالح عليه السلام، والحكمة من إرسال الآيات من الله للأقوام الكافرين.

٢ ـ **سورةُ فصلت**: آيتان: ١٧ ـ ١٨. وفيهما إشارة إلى اختيار قوم ثمود للعمى على الهدى، والكفر على الإيمان، وتعذيبهم ونجاة المؤمنين المتقين.

٣ ـ **سورةُ الفجر**: آية: ٩ وما بعدها. ذكرت الآيةُ قَطْعَ ثمود للصخر بالواد، وإقامتَهم فيه، وجمعتْ بين عادٍ وثمود وفرعون، في الطغيان والفساد، وتعذيب الله لهم لأنه بالمرصاد.

٤ ـ **سورةُ الذاريات**: آيات: ٤٣ ـ ٤٥. أشارت الآياتُ إلى تمرد ثمود على أوامر الله، وإهلاكهم بالصاعقة بعد فترة الإنذار، وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم.

٥ ـ **سورةُ النجم**: آية: ٥١. أَشارتْ إلى تدمير الله لقوم ثمود، وذلك أثناء إشارتها إلى تدمير قوم نوح وعاد وثمود ومدين، وهي مجردُ إشارات.

وقد ورد اسم ثمود مجرد ذكر فقط في السور التالية:

سورة التوبة، آية: ٧٠.

سورة إبراهيم، آية: ٩.

سورة الحج، آية: ٤٢.

سورة الفرقان، آية: ٣٨.

سورة العنكبوت، آية: ٣٨.

سورة ص، آية: ١٣.

سورة غافر، آية: ٣١.

سورة ق، آية: ١٢.

سورة الحاقة، الآيتان: ٤ ـ ٥.

سورة البروج، آية: ١٨.

[٣]

ثمود بعد عاد

لما دمَّرَ اللَّهُ قومَ عاد بالريح الصرصر العاتية، وأنجى هوداً عليه السلام والمؤمنين الذين آمنوا معه، عاشَ هودٌ مع أتباعه المؤمنين ما قدَّر الله له أن يعيش.

وأقام هودٌ مع أتباعه المؤمنين في مكانٍ لا ندري عنه شيئاً، لأن النصوصَ لم تخبِرْنا عنه.

وماتَ هودٌ عليه السلام، ولا ندري أين دُفن، وماتَ ذلك الجيلُ من أتباعه المؤمنين، وكانوا مؤمنين صالحين.

ونشأتْ أجيالٌ جديدة، وتَدَسَّسَ الشركُ والكفر إليهم، وتمكَّنَ الشيطانُ من إغوائهم والاستحواذِ عليهم، وأمرهم أن يعبدوا غيرَ الله، فنفَّذوا أمرهُ، وانقادوا له.

ونشأتْ من هذه الأجيال الجديدة قبيلةُ «ثمود».

كان ثمودُ قوماً مشركين بالله، عابدين للآلهة والأصنام، فبعث الله

لهم أخاهم صالحاً نبياً عليه الصلاة والسلام.

ثمود والثمد والعرب البائدة:

و «ثمود» وُجدوا في التاريخ بعد «عاد». وهم مثْلُ عاد من العربِ العاربة الفصيحة، وقد كانوا يتكلمونَ اللغةَ العربية الفصيحة، التي أخذوها من «عاد».

كما أَنهم من العرب البائدة، الذين أَبادهم الله، ولم يُبقِ منهم أحداً، ولم يَترك لهم أثراً!.

و «ثَمود» كلمةٌ عربية فصيحة، مشتقةٌ من «الثَّمْد».

قال ابن فارس في مقاييس اللغة عن الثمد: «الثَّمَد: هو القليلُ من الشيء. والثَّمَدُ هو الماءُ القليل. وثَمَدت فلاناً النساءُ: إذا قطعْنَ ماءه من كثرةِ الجماع.

والإِثْمد: الطِّيبُ المعروف، سُمي بذلك، لأنَّ الذي يستعملُ منه قليلٌ يَسير»[1].

ولعل هذا هو سرُّ تسميتهم بثمود، ولعلهم سكنوا في منطقة، ماؤها ثمدٌ قليل يسير، فسُمّوا بذلك.

وقد وُجد قومُ ثمود بعد قوم عاد.

ثمود بعد عاد:

ومن الأدلةِ على ذلك سياقُ قصتهم في القرآن، فحينما كانت تَرِدُ مجموعةٌ من قصصَ القرآن في سورة من السور، كانت ثمود تُذكر بعد عاد.

جاءتْ قصةُ ثمود بعد قصة عاد في سور: الأعراف، هود، الشعراء، القمر.

---

(١) مقاييس اللغة ١ :٣٨٧ ـ ٣٨٨.

وجاءت ثمودُ أيضاً بعد عاد في الإِشارات السريعة في سورة: فصلت، الذاريات، النجم، الحاقة، الفجر.

وهذا الترتيبُ في الذكْر يوحي بالترتيب التاريخي.

ومن الأدلةِ على وجودِ ثمودَ بعد عادٍ أيضاً، تذكيرُ نبيهم صالحٍ عليه الصلاة والسلام لهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذا نصٌّ صريحٌ على أن الله جعل قومَ ثمودَ خلفاءَ من بعد قوم عاد، وكلمة «خلفاء» توحي بالبَعْدِية المباشرة، لأنَّ الخليفةَ هو الذي يأتي بعد الخليفة السابق مباشرة.

[٤]

مسكن ثمود بالحِجْر

ثمود هم أصحاب الحجر:

أخبرت آياتُ القرآن عن مكانِ إقامةِ قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٩].

والجَوْبُ: القطع.

قال السمين الحلبي: «الجوب: قطْعُ الجَوْب. وهو كالغائط من الأرض.

أي: الأرضُ المنخفضة. ثم استُعمل في قطْعِ كل أرض.

ومعنى ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: قطعوا الصخر، وجعلوه بيوتاً يسكنونها..»[1].

تدلُّنا الآية على أن ثمود كانوا يسكنون في منطقة صخرية، في

---

(١) عمدة الحفاظ ١: ٤١٠.

أحد الأودية، وأنهم قاموا بقطْعِ الصخر في ذلك الوادي، وتجهيزِ بيوت ومساكن لهم فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٢].

كان قومُ ثمودَ يسكنون في منطقة «الحجْر»، فهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ كما سمّتْهم هذه الآيةُ من سورة الحجر، ثم ذَكرت كيف كانوا يقيمون في منطقة الحِجْر الصخرية الجبلية الحجرية. فقد كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين.

وهذا يوحي بأنَّ صخور تلك الجبال والأودية كانت رخوةً، سهلةَ النحتِ والحَتّ، مما مكنهم من نَحْتِ تلك الصخورِ والجبال، وتجهيزِ البيوت والمنازل داخلها.

كما أن هذا يدلُّ على مهارتهم في نَحْتِ الجبال، وتقدمِهم العلمي والفني، وقدرتِهم على تخطيطِ وتنفيذِ الأشكال الفنية والهندسية والمعمارية.

كانوا في نحتهم فارهين فرهين:

وقد ذكَّرَهم صالحٌ عليه السلام بفضل الله عليهم، في تمكينهم من نَحْت الصخور والجبال. قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤٩].

إذن كان قوم ثمود في منطقة الحِجْر ينحتون الجبال بيوتاً، آمنين فارِهين.

و ﴿فَٰرِهِينَ﴾ جمع فاره. وفاره: اسمُ فاعل من فَرِهَ.

والفَرَهُ هو الأَشَرُ والبَطَرُ والحذقُ والمهارة.

قال ابن فارس: «الفَرَهُ: كلمةٌ تدلُّ على أَشَر وحَذق. والفارِهُ الحاذقُ بالشيء. والفَرِه: الأَشِر»[1].

ووصْفُ قوم ثمود بأنهم كانوا فارِهِين في نَحْت بيوتِهم في الجبال، يُراد به أمران:

الأول: وصْفُهم بالحذقِ والمهارةِ والإِتقان في نحت البيوت، ونَحْتُ الصخر يحتاج إلى حذقٍ ومهارة، وما كلُّ إنسان يقدرُ على نحتِ الصخر، وما كلّ ناحتٍ يكون فارِهاً حاذقاً ماهراً في نحته.

وهذا لصالحهم، وفيه إشارةٌ إلى تقدمهم المعماري، وفنِّهم الإِنشائي الهندسي، في نحتِ الأشكال الهندسية الجميلة.

الثاني: ذمُّهم وإدانَتُهم والإِنكارُ عليهم، لأنهم كانوا فرهين في نحتِ الجبال بيوتاً، أي كانوا في ذلك أَشِرين بطرين، مترفين مسرفين متكبرين.

ولا تناقضَ بين الأمرين، لأن قومَ ثمودَ أحسنوا الاستفادةَ من مواهبهم وقدراتهم في نحت البيوت في الجبال، وكانوا بذلك حاذقين ماهرين، وهذا يسجِّلُ لهم.

لكنهم أفسدوا هذه المهارة، وأتلفوا هذا الحذق، عندما استخدموا ذلك في الفَرَهِ والأشر، والتكبرِ والبطر. وهذا هو وجهُ الإِنكارِ عليهم.

ولو استغلوا حذقَهم ومهارتهم في تحسينِ مستواهم العمراني، ولم يستخدموه في البطر والتكبر لأجادوا وأحسنوا واستحقوا الثناء!.

وفي ﴿فَرِهِينَ﴾ قراءتان، من القراءات العشر المعتمدة.

الأولى: قراءةُ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿فَرِهِينَ﴾ بالألف. بمعنى: حاذقين ماهرين متقِنين.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤:٤٩٦.

الثانية: قراءةُ ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، ويعقوب، وأبي جعفر: «فَرِهِين» بدون ألف. بمعنى: أشِرين بَطِرين متكبرين[١].

إن مجموعَ القراءتين الصحيحتين «فارهين.. فرهين» يدلُّ على تحققِ واجتماعِ معنييهما عند قوم ثمود، فقد كانوا في نحت البيوت فارِهين حاذقين ماهرين، ثم كانوا بعد ذلك فرِهين أشِرين بطرين!!!.

ولم تقتصرْ مساكنُ ثمودَ على الإقامة في البيوت المنحوتة في الجبال، وإنما توسَّعوا في تقدمهم العمراني، فأنشأوا القصور الفخمة في السهول.

وقد ذكَّرهم صالحٌ عليه السلام بذلك فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

فالله قد بوَّأهم في الأرض، حيث هيأَها ومهَّدها لهم، ومكَّنهم من تعميرها، كما قال صالح لهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ومن مظاهر تعميرِهم للأرض أنهم بنوا القصورَ في السهول، ونحتوا البيوت في الجبال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾.

موقع منطقة «الحجر»:

ومنطقةُ «الحِجْر» التي أَقامَ فيها قوم ثمود، تقعُ في شمالِ غرب الحجاز، على الطريقِ القديمِ الذي يربطُ بين المدينة المنورة ـ على ساكنها الصلاة والسلام ـ وبين تبوك.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر للبنا ٢: ٣١٩.

وقد مرَّ رسول الله ﷺ على منطقة الحِجْر أثناءَ توجهه من المدينة إلى تبوك.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلَ رسولُ الله ﷺ بالناس على تبوك، نزلَ بهم الحِجْرَ عند بيوت ثمود، فاستقى الناسُ من الآبار التي كانت تشربُ منها ثمود، فعَجنوا منها، ونَصَبوا القُدور، فأمرهم رسول الله ﷺ، فأَهْرَقوا القدور، وعَلَفوا العجين الإِبل. ثم ارتحلَ بهم، حتى نزلَ بهم على البئر التي كانت تشربُ منها الناقة، ونهاهم أن يَدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا، فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أَصابهم، فلا تدخلوا عليهم..»[(١)].

يحددُ عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما في هذا الحديث الصحيح مسكنَ ثمود، وأنه الحِجْرُ المذكور في القرآن، كما يحددُ الحِجْرَ بأنه على الطريق بين المدينة وبين تبوك: «نزل بهم الحِجْر، عند بيوت ثمود».

كما يحددُ البئرَ التي كانت تشربُ منها ناقة صالح عليه السلام، وأنها ما زالت موجودة، وما زال ماؤها موجوداً حتى عهد الرسول ﷺ، حيث أذن للصحابة أن يشربوا منها!.

هي الآن مدائن صالح في العلا:

ومنطقةُ الحِجْر أطلقَ عليها في التاريخ الإِسلامي اسم «العُلا». قال ياقوت في معجم البلدان: «العُلا: بضمِّ أوله والقصر: اسمٌ لموضعٍ من ناحيةِ وادي القرى، بينها وبين الشام، نزلَه رسولُ الله ﷺ في طريقه إلى تبوك»[(٢)].

وما زالت المنطقةُ تحملُ اسم «العُلا» حتى الآن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٨ ومسلم برقم: ٢٩٨١. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٧.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ٤: ١٤٤.

وفي منطقة «العُلا» تقع منطقةٌ أثرية، تسمى الآن «مدائنُ صالح». نسبةً إلى نبي الله صالح عليه السلام.

ولا تزال بها آثارُ قوم ثمود، ولا تزالُ بعض بيوتهم المنحوتة في الصخور والجبال، ولا تزال بعض مظاهرِ المهارة العمرانية لقوم ثمود موجودةً في هذه البيوت.

والذين شاهدوا آثارَ ثمود في «مدائن صالح» من منطقة العُلا، يقولون إنها تفوقُ في إتقانها وجمالها آثارَ الأَنْباط، في منطقة البتراءِ في جنوب الأردن، ذاتِ البيوت المنحوتة في الصخور والجبال.

[٥]
بعض مظاهر تقدم ثمود

أشارت الآياتُ التي تحدثتْ عن قصةِ ثمود إلى بعض مظاهرِ قوتهم وتقدمهم.

نحتوا الجبال وتقدموا في الزراعة:

فهم قد نحتوا البيوتَ في الجبال، وكانوا في ذلك فارِهين حاذِقين ماهرين، كما سبق أنْ بيّنّا.

وهم قد عَمَروا السهول أيضاً: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

وكانوا بذلك آمِنين مطمئنين: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

ووصَلوا إلى مستوى متقدم في الزراعة، وفي استصلاح الأراضي، واستخراجِ العيون، والتنعم بالزروع والثمار. وقد ذكَّرهم نبيهم صالح عليه السلام بذلك، فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

وهذه الآياتُ تشيرُ إلى أن قوم ثمودَ كانوا آمنين في مساكنهم، منعَّمين في أراضيهم ومزروعاتِهم وثمارهم.

كانَ عندهم عيونُ الماء، التي أنشأوا منها الجنات والبساتين، وزرعوها بالزروع، وغرسوها بالنخيل وأشجار الفواكه.

وقد وَصفت الآياتُ طَلْعَ النخل بأنه هضيم: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. وطلْعُها هو ثمرُها الذي تثمره من التمر. و ﴿هَضِيمٌ﴾ بمعنى: مهضوم.

وتقدم لنا الآيةُ معلومةً عن فائدةِ التمر الغذائية، فهو هضيم، أي: هو سريعُ الهضم، فالمعدةُ تهضمه وتمتصُّه بسرعة، ولا تجدُ في ذلك معاناة، والدمُ يحملُ ما فيه من سكر وعناصر غذائية للجسم.

وما أنْ يأكلَ الإنسانُ حباتٍ من التمر، حتى يشعرَ بالحيوية والنشاط. ولهذا من السُّنَّة للصائم أن يفطرَ على حباتٍ من التمر، يُتبعها بشربةِ ماء، ليعودَ لجسمه نشاطُه وحيويتُه. لأن هذا التمر هضيم، كما قرر صالحٌ عليه السلام قبلَ آلاف السنين.

استعمرهم الله في الأرض:

وتمكينُ اللّه لثمود في الأرض، وما أنشأوا عليها من جناتٍ وزروع وثمار، وبيوت في الجبال، وقصور في السهول، هو استعمارٌ منه للأرض على أيديهم.

وقد أشار لهم صالحٌ عليه السلام إلى هذا الاستعمار «الرباني»، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

إن اللّهَ هو الذي أنشأهم في الأرض، وإن اللّهَ هو الذي استعمرهم فيها. أي أن اللّهَ هو الذي مكَّنهم من تعميرِ الأرض

واستصلاحِها، وإنشاء جنات وبساتين فيها، والاستفادة من عيونها، والتنعم بزروعها وثمارها، ونحت البيوت في جبالها.

مظاهرُ العمارة هذه، التي عمروا بها الأرض، نعمةٌ من الله وفضْل، فهو صاحب هذا الاستعمار والإصلاح، وهم سبب مادي مباشر له. إن هذه الجملة ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تقدِّمُ لنا المعنى الصحيحَ للاستعمار.

إن الاستعمارَ الصحيحَ للأرض هو تعميرُها، والاستفادةُ من خيراتها وكنوزها، والارتقاءُ بها إلى أعلى مستوياتها، وتحسينُ مستوى الحياة المادية بها، وهذا من مظاهر الخلافة، التي جعل اللّهُ الإِنسانَ بها خليفةً له في الأرض.

أما «الاستعمارُ» بالمفهوم الغربيِّ الاستعماريِّ المعاصر، فليس هو استعماراً حقيقياً، ولا هو تعميراً صحيحاً للأرض!

إن الغربَ الاستعماريَّ ـ الإِنجليزي والفرنسي والهولندي والبلجيكي والأسباني والبرتغالي والإِيطالي والألماني والأمريكي واليهودي ـ ما كان يعمرُ الأرضَ المستعمرة، ولا يرتقي بمستواها، وإنما كان يمتصُّ خيراتها، وينهب مواردَها، ويدمِّرُها تدميراً، لصالح منافعه ومصالحه.

إنَّ فعْلَ الغربيين بالبلاد المستعمَرة قبل الاستقلال ـ وبعده ـ هو تدميرٌ وليس تعميراً. أو هو: «استدمارٌ» وليس استعماراً.

فِعْلُ الكفارِ استدمارٌ للأرض، وفعْلُ المؤمنين الصالحين استعمارٌ للأرض!! وشتانَ بين استدمارهم واستعمارنا!!!.

[٦]

الناقة آية لثمود

جعلَ اللّهُ مع صالح عليه السلام آيةً بينة، ومعجزةً واضحة، قدمها لقومه، دليلًا علىٰ نبوته.

ناقة صالح آية بينة:

وهذه الآيةُ هي الناقة. وكانت ناقةً خاصة في خَلْقِها وصفاتها، ليست كباقي «النِّياق» التي عندهم.

وقدمتْ لنا بعضُ آيات القرآن بعضَ صفات هذه الناقة.

أما خَلْقُ الناقة، وكيفيةُ خلقها، فلا نعرفُ عنه شيئاً، ولم تخبرْنا الآياتُ عنه، ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحة توضِّحُ ذلك، ونحن لا نذهب للخرافات والإسرائيليات.

قال صالحٌ عليه السلام لثمود عن الناقة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٣٧].

إن هذه الناقةَ بينةٌ لثمود، وآيةٌ لصالح عليه السلام، ودليلٌ بيِّنٌ على أن اللَّهَ بعثه لهم نبياً. والآيةُ الخارقةُ دليلُ صدق النبي، لأن الله يصدِّقُه بها، وكأنه يقول لقومه: صدقَ عبدي فيما يرويه عني، وهذه الآيةُ المعجزةُ تصديقٌ مني له.

وأُضيفت الناقةُ إلى الله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾. وهي إضافةُ تشريفٍ وتكريم للناقة، لأنها خاصةٌ في خلقها ووجودها بينهم.

وليست الإضافةُ لتخصيصِ التمليك، بمعنى أن اللَّهَ يملكُ هذه الناقةَ وحدها، كما يملكُ أحدهم ناقته، ولا يملكُ ناقةَ غيره، لأنَّ كلَّ الكون وما فيه من المالكين والمملوكين ملكٌ لله وحده.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾. هي ناقةُ الله، والأرضُ كلُّها أرض الله، وناقةُ الله تأكل في أرض الله، وهم ليس لهم من الأمر شيء، الأمر كلُّه لله ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

معجزة شربها لماء العين كله:

وقد كان شربُ الناقة للماء شُرباً خاصاً معجزاً، أشارتْ له آياتُ القرآن.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٧ ـ ٢٨].

لقد كان ماءُ عينٍ ثمودَ قسمةً بينهم وبين الناقة، حيث يشربون هم ماءَ العين يوماً، وتشربُ الناقةُ وحدَها ماء العين كلَّه يوماً آخر، وهكذا يكونُ شربُ ماء العين بالتناوب بينهم وبين الناقة. كلٌّ له شِربُ يومٍ معلومٌ محدَّد، وكلٌّ يحضرُ ليشرب العين في يومه، وإذا كانَ يومُ شربَ الناقة، فعليهم أنْ يُخلُّوا بينها وبين شرب العين، ولا يمنَعوها من ذلك، ولا يمسّوها بسوء.

إذن كان قومُ ثمود كلُّهم يشربون ماءَ العين يوماً، والناقةُ وحدَها تشربُ ماءَ العين كله يوماً آخر!!.

أما كيف كانت الناقةُ تشربُ وحدها ماءَ العين؟ وأين كانت تضعُ هذا الماء؟ فهذا لا يعنينا، ولا نستغربُه، لأنَّ هذه الناقة معجزة، ولذلك شُربُها وحدها لماءِ العين كلِّه يوماً بعد يوم معجزةٌ أيضاً، وطالما أن اللَّهَ أخبرنا عن ذلك في القرآن، فنحن نؤمنُ به ونصدقُه ونقولُ به.

ولقد حذرَ صالحُ عليه السلام قومَه عن إيذاء الناقة، أو مسِّها بسوء، حتى لا يصيبهم عذابٌ أليم.

[٧]
بين صالح عليه السلام وبين ثمود

قامَ صالحُ عليه السلام بدعوة ثمود، وبلَّغهم رسالةَ الله، وأقام عليهم الحجة، وردَّ عليه قومُه دعوتَه، وأثاروا ضده الشبهات، ووجَّهوا له الاتهامات، وقامَ هو بإبطالِ شبهاتهم. وسجلت الآياتُ بعضَ ما قاله لهم، وبعضَ ما ردوا عليه به، وبعضَ ما أجابهم عنه.

دعوة صالح لقومه:

بدأ صالحٌ عليه الصلاة والسلام بدعوةِ قومه إلى عبادةِ الله وحده، وعدمِ الإشراك به، وهي «نقطةُ البدءِ» التي بدأ بها كلُّ نبي. ولهذا قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [هود: ٦١].

وقدَّم لهم نفسَه باعتباره رسولاً أميناً لهم، وأَمَرَهم بطاعته، وحثَّهم على تقوى الله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٤].

وأخبرهم بعدمِ انتظاره الأجْر منهم، وإنما يقومُ بواجبه في دعوتهم إلى الله، أما الأجرُ فهو عند الله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء: ١٤٥].

ولفتَ أنظارهم إلى آيتِه البينة، وهي الناقة، ونهاهم عن إيذائها: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وذكَّرهم بنعم الله عليهم، في استخلافِهم بعد عاد، وفي تسخيرِ الأرض لهم، وطالَبهم بمقابلةِ نعم الله بالشكر، وليس بالإفساد والكفر: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال لهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١].

وقال لهم: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٠].

وبينما أَمرهم صالحٌ بتقوى الله وطاعته، وطاعةِ صالحٍ نفسِه

باعتباره رسولاً لهم، فقد نهاهم عن العكس والنقيض، نهاهم عن طاعةِ المسرفين المفسدين الظالمين، من كبرائهم وساداتهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

هذه خلاصةُ دعوةِ صالح عليه السلام لثمود، فماذا كان ردُّهم عليه؟ وماذا قالوا له؟.

اتهامه بأنه من المسحرين:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾ [الشعراء: ١٥٣].

اتهموه بأنه من المسَحَّرين. فما معنى «المسَحّرين»؟.

قال ابن فارس عن معنى السّحر:

«السَّحْرُ يُطلقُ على أصولٍ ثلاثة متباينة:

الأول: السَّحْر: وهو ما لصق بالحلقومِ والمريء من أَعلى البطن.

والثاني: السِّحْر: وهو إخراجُ الباطل في صورةِ الحق، للخداع.

والثالث: السَّحَر: وهو الزمانُ الذي يكون قبيلَ الصبح[1].

ولما اتهم قومُ ثمودَ صالحاً عليه السلام بأنه من المسَحَّرين، لعلَّهم أَرادوا المعنيين الأول والثاني من معاني السحر.

قال الإِمام الراغب في «المفردات» عن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.

قيل: أنت ممن جُعل له «سَحْر». تنبيهاً إلى أنه محتاجٌ إلى الغذاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾؟ [الفرقان: ٧]. ونبّهوا إلى أنه بشرٌ في قولهم له:

---

(١) مقاييس اللغة ٣:١٣٨ باختصار.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وقيل: «معناه: أنت ممن جُعل له، «سِحر»، يتوصَّلُ بلطْفِه ودقته إلى ما يأتي به ويدّعيه...»[1].

وإنْ كانَ الأرجحُ أنهم أرادوا المعنى الأول. لأنَّ الكلمةَ ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ وردتْ في سياقِ إنكارِهم نبوتَه لأنه بشرٌ مثلُهم، وليس في سياقِ اتهامه بالسحر والكذب والخداع: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

أي أنتَ بشر، لك سَحْرٌ ونَحْر، وحُلقوم ومريء، مثلنا، فكيف تكون نبياً؟.

وقادَهم هذا إلى اتهامِه بالكذب قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٦].

وفي معنى: ﴿أَشِرٌ﴾ نقل السمين الحلبي قول القُتَيْبيّ والهَرَوي:

قال القُتَيْبي: الأَشِرُ هو: الفَرِحُ المتكبِّر.

وقال الهروي: الأَشِر هو: اللجوجُ في الكذب[2].

﴿كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾:

ثم أخبرَ قومُ ثمودَ صالحاً عليه السلام بخيبةِ ظنّهم فيه، وانقطاع أملهم ورجائِهم منه! قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

---

(١) المفردات: ٤٠٠.

(٢) عمدة الحفاظ: ١٠٢.

خاب ظنهم فيه مع أنه المنقذ لهم:

لقد شبَّ صالحٌ عليه السلام في قومه، ونشأ بينهم، ورأَوا صفاته الطيبة، وعَرَفوه عن يقين، وكان معقدَ آمالهم، ومحطَّ رجائهم، وكانوا ينتظرونَ منه الكثيرَ لهم، وظنوا أنه سيتابعُهم على كفرهم، ويشاركهم شركهم بالله، ولذلك جعلوه مرجُوّاً فيهم.

ولكنهم فوجئوا بنبوَّتِه، ودعوته إلى توحيدِ الله وإفراده بالعبادة، والتخلي عن ما كان يعبدُ آباؤهم من الأوثان والأصنام، واعتبروها دعوةً غريبةً مستهجنة مرفوضة!!.

وأَخبروه بأنه كان قبل أنْ يدعوهم إلى تلك الدعوة، كان مرجُوّاً فيهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾. أما بعدَ الدعوة فقد خيَّبَ رجاءهم، وضيَّعَ اعتمادهم، وبدَّدَ أملَهم!!!.

وهذه نظرةٌ جاهليةٌ منهم، وإلا فإن صالحاً عليه الصلاة والسلام بعد النبوة هو المنقذُ لهم، والأصْلُ أنْ يكونَ محطَّ رجائهم بعدها، لأنه يخرجُهم بإذن الله من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة!.

ولما أَخبروه بخيبة رجائهم فيه، وصارَحوه بالشك والريبة فيه ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، ردَّ عليهم صالحٌ عليه الصلاة والسلام قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود: ٦٣].

صالح على بينة ويقين وميزانه هو الصحيح:

لقد أوضحَ لهم صالحٌ عليه السلام في هذا الردِّ حقيقةَ الأمر. فهو على بينةٍ من ربه، وعنده اليقينُ الكامل، والقناعةُ التامة أنه على الحق، وأنهم على الباطل، وأن الله أَعطاه الآيةَ البينة على ذلك، ومَنَّ عليه برحمةِ النبوة والوحي. فكيف يخالفُ تلك البينة؟ وكيف يتخلَّى عن

تلك القناعة؟ وكيف يردُ تلك الرحمة؟ ولماذا يفعلُ ذلك؟ هل من أجلِ أنْ يلتقيَ مع قومه ويهادنَهم ويفاوضهم ويصالحهم؟ وهو يوقنُ أنهم على ضلال وباطل! هل يطيعُهم ويعصي الله؟ هل يختارُ باطلهم ويتركُ رحمةَ الله؟ لو فعل ذلك لكان خاسراً غيرَ رابح، ولو استجابَ لهم ورضي بباطلهم لما زادوه غيرَ تخسير!! ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

جوابُ صالحِ عليه السلام لقومه الكافرين أصحابِ الباطل، هو ما يجبُ أن يكونَ جوابَ كلِّ داعية مصلحِ لعُروضِ أصحابِ الباطل، ليثبتَ على الحق، ولا يضعفَ أمامَ الباطل.

وميزانُ صالح عليه السلام الذي وضع فيه عُروض قومه الباطلة، فعرفَ الخسارة فيها، هو ما يجبُ أن يأخذه معه كلُّ داعية مصلح، ليضعَ فيه عروض أصحاب الباطل، فيعرفَ الخسارةَ فيها، فيرفضها ويستعلي عليها.

وما عندَ صالحِ عليه السلام من البينةِ واليقين، والثقةِ والقناعة، من أنه على حقّ وهم على باطلٍ، هو ما يجبُ أنْ يكونَ عند كل داعية مصلح، ليَثبت على الحق، ولا يتنازلَ عنه للالتقاءِ مع الباطل!.

ولم يكتفِ قومُ صالحِ الكافرون بما قالوه له، بل توجَّه الملأُ المستكبرون منهم إلى أتباع صالح عليه السلام من المؤمنين المستضعَفين، بهدفِ تشكيكهِم فيما اختاروه، ولكن أولئك المؤمنين المستضعفين كانوا على بينة وقناعة ووضوح ويقين. قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

وهكذا تكونُ المواجهةُ دائماً بين أصحابِ الحق وأصحاب الباطل، في كلِّ زمان ومكان. وهكذا يتمتعُ أصحابُ الحق بالعلم واليقين

والقناعة بما هم عليه، والرضى به والثبات عليه، فيردُّ عليهم أصحابُ الباطل بالإصرار على رفض الحق والكفر به، عناداً واستكباراً، وينتجُ عن ذلك المفاصلةُ بين الطريقين، والافتراقُ بين الفريقين! بدون تميُّعٍ أو أرجحة أو مداهنة!!.

[٨]

ثمود يعقرون الناقة

حذرَ صالحٌ عليه السلام قومَه من إيذاءِ الناقة أو مَسِّها بسوء، وربطَ لهم بين عقْرِها وبين العذاب، فإذا أقدموا على عقرها فإن العذابَ واقعٌ بهم:

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٣].

معنى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾: كذبت ثمودُ نبيَّها صالحاً عليه السلام بسببِ طغيانِها واستكبارها وتمردها على ربها، ولهذا كفرتْ بالله وأشركت به.

ولقد حذرهم رسولُ الله صالحٌ عليه السلام من إيذاءِ ناقة اللّهِ، أو منْعِها من الشرب، وحَثَّهم على إكرامها وسقياها: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ لكنهم لم يستجيبوا له، فأقدموا على عقرِ الناقة.

عقر الناقة أشقاهم:

والذي عقرَ الناقة واحد. وهو أشقاهم: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ وهم الذين دعوه لعقرها: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

ولكنَّ القرآنَ نسب عقرَ الناقة لهم جميعاً، واعتبرهم اللّهُ جميعاً مشتركين في جريمة عقرها، متحمّلين نتيجةَ ذلك.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

وفي تحميلِهم جميعاً مسؤولية عقر الناقة، مع أن منفذَ الجريمة أشقاهم وحده، دليلٌ على «المسؤولية الجماعية» في الدنيا.

فإذا ما أقدمَ فردٌ على جنايةٍ أو جريمة ـ وبخاصةٍ إذا كان مسؤولاً ـ فإنَّ مَنْ كان راضياً بجريمتِه، متابعاً له، يكون مشتركاً معه في تحمُّلِ المسؤولية، ودفعِ الثمن، وأخذ النتيجة. أما مَنْ أنكرَ عليه جريمته، وأعلَن براءتَه من ذلك، فإنه قد أعذرَ إلى الله، ونجا من الاشتراك في العقوبة. قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وها هي ثمودُ كلُّها تتحملُ مسؤوليةَ عقرِ أشقاها للناقة، ويقعُ بها عذابُ الله بسبب ذلك.

عاقر الناقة وقاتل علي:

وأخبرنا رسولُ الله ﷺ أنَّ ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ كان عَزيزاً مسؤولاً متنفِّذاً في ثمود.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن زَمْعَة رضي الله عنه قال: خطبَ رسولُ الله ﷺ، فذكَرَ الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ

﴿أَشْقَنٰهَا ﴿١٢﴾﴾: انبعثَ لها رجُلٌ عارِمٌ، عَزيز، مَنيعٌ في رهْطه، مثلُ أبي زَمْعَة[1].

وقد جمعَ رسولُ الله ﷺ بين عاقر الناقة، وبين قاتلِ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

روى أحمد والحاكم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أحدثكم بأشقى رجلين؟:

أُحَيْمِرُ ثمود الذي عقرَ الناقة.

والذي يضربكَ يا علي على هذه، حتى يبلَّ منها هذه»[2].

و «أُحَيْمِر» تصغيرُ أحمر: فعاقرُ الناقة كان أحمرَ اللون.

والذي يضربُ علياً على قَرْن رأسه، فينزلُ الدمُ منه ويبلُّ لحيتَه.

وهذا ما حصلَ سنةَ أربعين للهجرة، حيثُ أقدمَ أشقى المسلمين: «عبدُ الرحمن بن عمرو» المعروف بعبدِ الرحمن بن مُلْجِم المرادي على قتْلِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أمير المؤمنين، في الكوفة. وكان ذلك قبلَ صلاة فجر يوم الجمعة، السابع عشر من شهر رمضان، سنة أربعين للهجرة. وتوفيَ عليٌّ رضي الله عنه بعد الضربة بيومين[3].

[٩]

المتآمرون التسعة على صالح

تسعة رهط يقودون ثمود:

كان في ثمود تسعةُ رهْطٍ من كبارِ مجرميهم ومتآمريهم وطغاتهم،

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٧. ومسلم برقم: ٢٨٥٥. انظر الأحاديث الصحيحة: ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤: ٢٦٣. والحاكم ٣: ١٤٠ ـ ١٤١. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٦٥.

(٣) انظر هذا في كتابنا «الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد».

وكانوا يقودون المفسدين الظالمين في مواجهةِ صالح عليه السلام، وصدِّ الناس عن دينه.

وتآمَرَ هؤلاء المتآمرون التسعة على حياة صالح، واتَّفقوا على اغتيالِه وقتْله، ثم إنكار أن يكونَ لهم علمٌ بذلك.

وقد أشارتْ آياتُ سورةِ النمل إلى هذه المؤامرة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥١].

تخبرُ الآياتُ عن انقسام ثمود أمامَ دعوةِ صالح إلى فريقين. فريق المؤمنين به، وفريق الكافرين به، وبينهما اختصامٌ وجدالٌ ونزاع: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وقد أنكرَ صالحٌ عليه السلام على فريق الكافرين من قومه استعجالهم بالسيئة، ودعاهم إلى عبادةِ الله واستغفارِه والتوبة إليه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

فردَّ عليه الملأُ من قومه بأنهم تطيَّروا وتشاءَموا به وبالمؤمنين معه، فوجودُ مؤمنين عند قومهم يسببُ لقومهم المآسي والمشكلات، والضيقَ والأذى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾.

وقد صححَ لهم صالحٌ عليه السلام المسألة، فالبشرُ لا يضرون

ولا ينفعون، ووجودهم لا يجلب ضراً، وغيابهم لا يقدّمُ خيراً، وكلُّ ما يقعُ بالناس إنما هو بأمرِ الله ومشيئته وقدره، والتطيُّرُ والتشاؤمُ لا يُحدثُ ما لا يريده الله، والتفاؤلُ لا يدفع شراً عنهم: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾.

تآمر الرهط التسعة عليه:

أما المتآمرونَ التسعةُ المفسدون فهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

والرَّهْط هم: العصابةُ من الناس، عددهم دون العشرة.

اجتمعَ الرَّهْطُ التسعة، واتفقوا على تبييتِ صالحٍ عليه السلام ليلاً، وقتْلِه هو وأهلِه، دونَ أن يشعرَ بهم أحد.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: تآمروا على قتل صالح، وأقسموا بالله على ذلك، وحَلَفوا الأيمان، وأكَّدوا ما اتفقوا عليه بها.

ومعنى: تقاسَموا بالله: اقْسِموا بالله على التنفيذ.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾: نهجمُ على صالحٍ وأهله بالليل بَياتاً وهم نائمون، ونقتلُهم دونَ أنْ يشعرَ بنا أحد.

قال السمين الحلبي في معنى التبييت: «والتبييت: تدبيرُ الأمرِ ليلاً، وأكثرُ ما يكون ذلك في المكر. قال تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨]. و: بيَّتَ على كذا: عَزَمَ عليه قاصداً له...»[1].

ومن المبالغةِ في مكْرِ ولؤم المتآمرين التسعة أنهم اتفقوا على قتل صالح وأهله ليلاً، وإنكار هذا فيما بعد، والتبرؤِ من دمه أمامَ وليّه: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾.

---

(١) عمدة الألفاظ ١: ٢٧٩.

وكان هؤلاء التسعةُ متنفذين في قوم ثمود، ذوي سطوة ومنزلة، ولهذا عقَّبوا على مؤامرتهم في قتل صالح وأهله بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

ومعنى التعقيبِ على المؤامرة بهذا، أنَّ كلمتهم مسموعةٌ في قومهم، وقومُهم لا يجرؤون على مناقشتهم أو مخالفتهم أو تكذيبهم، وكلُّ ما يقولونه نافذٌ في قومهم، فإذا ما قتلوا صالحاً، ثم أنكروا قتْلَه بلسانهم، فهم صادقون في الإنكار والاستنكار، وقومُهم لا يتهمونهم بدمه، وكيف يتهمونَهم به وهم الملأُ الكبراء المتنفذون؟؟.

هذا ما بيَّته هؤلاء المتآمرون التسعة، وهذا ما مكَروا به، ولكنَّ الله لمكرهم بالمرصاد، حيثُ أبطلَ مكرهم،وقضى عليهم، وأنجى صالحاً عليه السلام ومَنْ معه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

[١٠]

إهلاك ثمود بالصيحة

قامَ صالحٌ عليه السلام بواجبه، وبلَّغَ ثمود الدعوة، وأقامَ الحجةَ عليهم، ولكن ثمودَ أصرّوا على الكفر والعناد والتكذيب.

واتبع صالحاً عليه السلام قليلٌ من قومه.

وأوشكتْ قصةُ صالح عليه السلام مع قومه على نهايتها، وسارتْ في مسارِها، كما هي سنةُ الله في الصراع بين الحق والباطل، وفي مواجهة الحق للباطل، وقطعَ صالحٌ عليه السلام جميعَ محطات وخطوات الطريق، ووصلَ الأمْرُ إلى نهايته، وبقيت الخطوةُ الأخيرة،

والمشهد الختامي، الذي يسجلُ نجاةَ المؤمنين، ودمارَ وهلاكَ الكافرين!.

فبعدَ أن أَقدموا على عقر الناقة، أَخبرهم صالحٌ عليه السلام أنَّ عذابَ الله واقعٌ بهم بعد ثلاثة أيام.

عذابهم بعد عقر الناقة بثلاث:

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥].

وبعد مضيِّ الأيامِ الثلاثة أوقعَ اللَّهُ بهم عذابَه، فأخذَتْهم الصيحةُ عند صباحِ اليوم الرابع.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود ٦٦ ـ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

ومعنى «مصبحين»: وقْتَ الإِصباح. أي عندما طلعَ الصبحُ عليهم أخذهم اللَّهُ بالصيحة فأهلكهم.

وقال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣١].

لم يرسل اللَّه عليهم إلا صيحةً واحدة، أبادهم بها وقضى عليهم، وصاروا ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

و ﴿الْمُحْتَظِرِ﴾ هو صاحبُ الحظيرة، الذي يَبني حظيرةً لما عنده من البقر والغنم، يجعلُها داخلها، ويقدِّمُ لها داخلَ الحظيرة ـ أو المزرعة ـ العلفَ والطعام.

و «الهَشيم» هو النباتُ اليابس، الذي يُقدَّمُ للماشية لتأكله. فمعنى قوله: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أنَّ قومَ ثمود لما أهلكهم اللَّهُ بالصيحة

أبادتْهم وقضتْ عليهم، وصاروا هلكى، كالزرع اليابس الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة، فيدرسه ويطحنُه، ويقدِّمه «تِبْناً» مدروساً لحيواناته داخلَ الحظيرة.

عذبهم الله بالصيحة والرجفة والصاعقة:

وقد أطلقَ القرآنُ على العذاب الذي وقعَ بقوم ثمود عدةَ أسماء. فسمَّاه: صيحة، ورجفة، وصاعقة.

ولا تعارُضَ بين هذه الأسماء، فكلُّ اسمٍ تُلحظُ فيه مرحلةٌ من مراحلِ ذلك العذاب، ودرجةٌ من درجاته.

لقد انشقَّتْ بهم الأرض، فسمعوا لها صيحةً قوية، وصوتاً عالياً، ثم رجفتْ بهم وحركَتْهم، ثم صعقَتْهم وأهلكتهم.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

قال السمين الحلبي: «الصيحة هي: الصوتُ الشديد.. وأصْلُها تشقيقُ الصوت. مأخوذٌ من قولهم: انْصاحَ الخشبُ والثوبُ إذا انشَقّ، فسُمع منه صوت»[1].

لقد انشقت الأرضُ أمامَ ثمود، وزُلزلت، وسمعوا لانشقاقِها صوتاً عالياً، وصيحة مدوية.

وهذه الصيحةُ المدويةُ التي سمعوها نتجَ عنها رجفةٌ قوية.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفةُ من الرَّجف، والرَّجْف هو: الحركةُ والاضطراب الشديد[2].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢: ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٢) عمدة الحفاظ: ١: ٨١.

وهذه الرجفةُ وقعتْ بعد الصيحة، فقومُ ثمودَ سمعوا صيحةً قوية، ثم رجفتْ بهم الأرض بعد ذلك، وتحركتْ حركةً شديدة، وزُلزلتْ زلزالاً كبيراً بعد الصيحة.

ثم صُعقوا بعد الصيحة والرجفة، فسُمِّيَ العذابُ الواقعَ بهم «صاعقة». قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥].

والصاعقةُ هي: «الصوتُ الشديدُ من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت وهي في ذاتها شيءٌ واحد، وهذه الأشياء تأثيراتٌ منها..»[1].

لقد صُعِقَ قومُ ثمود بالصاعقة، وكانوا ينظرون وهم مصعوقون، عاجزون عن الحركة أو الهرب، غيرُ قادرين على الانتصار أو دفع ذلك العذاب عنهم.

وأنجى اللّهُ صالحاً عليه السلام والمؤمنين الذين معه، وفق سنته المطردةِ في الصراع بين الحق والباطل: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٨].

وأخبرَ اللّهُ عن هلاك ثمود بقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

لقد طغتْ ثمود، ولم يلتفتوا لتحذيرِ صالح عليه السلام، وأقدموا

---

(١) المفردات للراغب: ٤٨٥.

على عقر الناقة، فأوقعَ اللّٰهُ بهم العذاب، وأخذهم بالصيحة والرجفة والصاعقة، ودمدمَ عليهم، وسوّى مكانهم بالأرض، أو سوّى الأرض بهم!.

الدمدمة بالعذاب والتسوية بالأرض:

قال السمين في معنى «دَمْدَم»: قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾: أَطبقَ عليهم العذاب. وأَصْلُه «دَمَّمَ» بثلاثِ ميمات. فأبدلَ الميمَ الوسطى دالاً ـ فصارت «دَمْدَم».

تقول: دمَّمْتُ على الشيء: أَطْبَقْتُ عليه. فإذا كَرَّرْتَ الإِطباق قلت: دَمْدَمْتُ عليه.

وقال الفراء: «الدَّمْدَمَة والدَّمدام: الهلاك»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في معنى ﴿فَسَوَّنٰهَا﴾: ومعنى قوله: ﴿فَسَوَّنٰهَا﴾: سوّى بلادَهم بالأرض. وقيل: معناها: سَوّى بلادَهم بهم، وهذا كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢] [2]ـ .

أَهلكَ اللّٰهُ ثمودَ بعَدْلِه، وعاقَبهم جزاءً على كفرهم وطغيانهم، ودمدمَ عليهم، وأَطبقَ عليهم العذاب، حتى عمّهم جميعاً، وسَوّى الأرض بهم، وهو القويُّ الحكيم العادل، فلا يَخافُ متابعاً يتابعه، ولا محاسِباً يحاسبه، ولا نكيراً ينكرُ عليه، فهو الفعّالُ لما يريد، لا رادَّ لأمره، وفعْلُه كلُّه عدْلٌ وحكمةٌ وصواب، ولهذا عقَّبَ على دمارِ ثمود بقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وبهذا انتهى قومُ ثمود، وذَهبوا من الوجود. قال تعالى ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المفردات للراغب: ٤٤٠.

قال السمين في معنى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾: «يقال: غَنِيَ بالمكان، يَغنى به. إذا أَقام به. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾: كأن لم يقيموا فيها.

يقال: غَنِيَ بالمكان: إذا أقامَ إقامةَ مستَغْنٍ به عن غيره، راضٍ به، وبإقامتِه فيه»[1].

بعداً لثمود وتعقيب صالح على مصرعهم:

لقد خلتْ ديارُ ثمود منهم، وأصبحتْ خاوية، كأن لم يكنْ بها ساكنون يتحركون. وذهبَ ثمودُ إلى عذابِ الله، وخلَّفوا وراءَهم بيوتهم وممتلكاتهم، التي أقاموا فيها ما أقاموا، وها هم قد غادروها مُكْرَهين معذَّبين، كأن لم يَغْنوا ولم يقيموا فيها.

أَلا بُعْداً لثمود، وسُحْقاً لهم، وتَبّاً وخسارةً لهم، وخزياً وذلاً لهم، وهذه هي النهايةُ التي يستحقونها بسببِ كفرهم وطغيانهم، وهي نفسُها نهايةُ كل قوم كافرين.

ووقفَ صالحٌ عليه السلام على أَطلالِ قومه المعذَّبين، وشاهدَ جثثهم صرعى كهشيم المحتظِر، فعقَّبَ على هذا قائلاً لهم وهم أموات: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

لقد قامَ صالح عليه السلام بواجبه نحو قوم ثمود، وبلَّغَهم رسالةَ الله، ونصحَ لهم، وأخلصَ في نصحه، وهذا كلُّ ما يملكه تجاههم. أما هم فقد أَغلقوا أمامَ نصحه قلوبَهم، ورفضوا دعوتَه لهم، فوقع بهم العذاب!!.

[١١]

مرور الرسول على ديار ثمود

مَرَّ رسولُ الله ﷺ مع أصحابه على ديار ثمود، الواقعة في منطقة

---

(١) عمدة الحفاظ: ٣: ٢١٢.

«الحِجْر» بين المدينة وتبوك، وذلك أثناءَ توجُّهه إلى غزوةِ تبوك.

وقد سنَّ لنا رسولُ الله ﷺ من ذلك سنةً دائمة، في مرورنا بديارِ الأقوام المعذَّبين، وعلَّمنا كيفيةَ التصرفِ عند ذلك.

نهي الصحابة عن الدخول على ديارهم:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجرَ عند بيوت ثمود، فعَجبوا منها، ونصَبوا القُدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهْرقوا القُدور، وعَلَفوا العجين الإِبل، ثم ارتحلَ بهم، حتى نزلَ على البئر التي كانت تشربُ منها الناقة، ونهاهم أنْ يدخلوا على القوم الذين عذبوا.

وقال: «إني أخشى أنْ يصيبكم مثلُ ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»)[1].

لقد نهى رسولُ الله ﷺ المسلمين عن استعمال الماءِ الذي في ديار ثمود، لأنه ماءُ قومٍ معذَّبين، وأَمَرهم بإهراقِ القُدور التي طبخوا فيها بذلك الماء، وإِطعاَم العجين الذي عجنوه بذلك الماء لدوابهم، وهذا النهي للتنزيهِ لا للتحريم، وهذا التصرفُ منه إرشادٌ لهم إلى ما هو أولى.

والرسولُ ﷺ يريدُ من المسلمين أنْ تبقى قلوبُهم نافرةً من المعاصي، وأنْ لا يرضوا نفسياً بالقوم المعذَّبين، ولذلك نهاهم عن الإقامةِ في ديار القوم المعذَّبين، وعن الدخول عليهم، حتى لا تهتزَّ نظرتُهم للعصاة والمعاصي، وحتى لا يتأثَّروا بما كان يفعله المعذَّبون الهالكون.

وسنَّ الرسولُ ﷺ للمسلمين أن يمروا بديارِ المعذَّبين وهم باكون.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٨. ومسلم برقم: ٢٩٨١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٧.

قال رسول الله ﷺ وهو بالحِجْر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين، إلاّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخُلوا عليهم، لئلا يصيبَكم مثلُ ما أصابهم»[1].

موقف المسلم من آثار الهالكين:

وهذا هو موقفُ المسلمين من كلِّ قومٍ معذَّبين يمرون على آثارهم، فلا يجوزُ أنْ يُعجبوا بآثارهم، ولا أنَّ يَفخروا بهم، ولا أنْ يَقتدوا بهم في معاصيهم وفجورهم، ولا أنْ يَجعلوا آثارَهم مواسمَ للفسق، ولا أنْ يُقيموا عليها المهرجانات، ويمارسوا عليها المنكرات!.

فإذا كانوا سيمرّون على آثارهم لضرورةٍ، فعليهم أن يكونوا متأثرين متَّعظين، وأن يكونوا باكين خائفين وَجِلين، كما علَّمَهم رسولُ الله ﷺ.

وإذا أرادَ بعضُ المسلمين أنْ يتعجَّبوا من آثارِ القوم المعذَّبين، فعليهم أنْ يتعجَّبوا مما هو أهمُّ من هذا. هذا هو ما أرشدَ الرسولُ ﷺ إليه أحدَ الصحابة، عندما أرادَ أن يتعجَّبَ من آثار قوم ثمود.

روى أحمد عن عمرو بن سعد ـ وقيل عامرِ بن سعد ـ رضي الله عنه قال: لمّا كان رسولُ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، تسارعَ الناسُ إلى أهل الحِجْر يدخُلون عليهم.

فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فنادى مناديه في الناس: الصلاة جامعة.

قال عامر بن سعد: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، وهو ممسكٌ بعيرَه، وهو يقول: ما تدخلونَ على قوم غضبَ اللّهُ عليهم؟!!

فقال له رجل: نعجبُ منهم يا رسولَ الله!!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٣٣. ومسلم برقم: ٢٩٨٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٨.

فقال عليه الصلاة والسلام: أفلا أنبئكم بأعجبَ من ذلك؟ رجلٌ من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائنٌ بعدكم. فاستقيموا وسدِّدوا. فإنَّ الله لا يعبأُ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»(١)

إِنَّ الأعجبَ من آثارِ القوم المعذَّبين هو الواجباتُ والتكاليفُ التي أَوجبها الله على المسلمين وكلَّفهم بها، وعليهم أنْ يقوموا بذلك الواجب، فإنْ قصَّروا فيهِ، فإن اللَّهَ سيعذِّبُهم، كما عذَّبَ المتمردين العصاة قبلهم، وسيعجزونَ عن دفعِ العذاب عنهم. كما عجز عن ذلك مَنْ قبلهم!.

هذا هو الدرسُ الذي لا بدَّ أنْ يتعلَّمه المسلمون، عندما يشاهدون آثارَ الأقوام المعذَّبين، أو يمرون بديارهم، وفْقَ ما علَّمهم رسولُ الله ﷺ.



---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤:٢٣١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٦٩.

قصة
إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
عليهم الصلاة والسلام



[١]

ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن

ذكَرَ القرآنُ اسمَ إبراهيم عليه السلام عشراتِ المرات، وذلك أثناءَ الحديثِ عن قصته، أو أثناءَ ذكرِ الرسلِ والأَنبياء.

وفيما يلي أسماءُ السور التي ذُكرَ فيها إبراهيم، ومراتُ ذكْرِه فيها: .

١ ـ سورة البقرة: وقد ذُكر فيها خمسَ عشرة مرة.

٢ ـ سورة آل عمران: وقد ذُكر فيها سبعَ مرات.

٣ ـ سورة النساء: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

٤ ـ سورة الأنعام: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

٥ ـ سورة التوبة: وقد ذُكر فيها ثلاثَ مرات.

٦ ـ سورة هود: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

٧ ـ سورة يوسف: وقد ذُكر فيها مرتين.

٨ ـ سورة إبراهيم: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٩ ـ سورة الحِجْر: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٠ ـ سورة النحل: وقد ذُكر فيها مرتين.

١١ ـ سورة مريم: وقد ذُكر فيها ثلاثَ مرات.

١٢ ـ سورة الأنبياء: وقد ذُكر فيها أربعَ مرات.

١٣ ـ سورة الحج: وقد ذُكر فيها ثلاث مرات.

١٤ ـ سورة الشعراء: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٥ ـ سورة العنكبوت: وقد ذُكر فيها مرتين.

١٦ ـ سورة الأحزاب: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٧ ـ سورة الصافات: وقد ذُكر فيها ثلاثَ مرات.

١٨ ـ سورة صَ: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

١٩ ـ سورة الشورى: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢٠ ـ سورة الزخرف: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢١ ـ سورة الذاريات: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢٢ ـ سورة النجم: وقد ذُكر فيها مرة واحدة.

٢٣ ـ سورة الحديد: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

٢٤ ـ سورة الممتحنة: وقد ذُكر فيها مرتين.

٢٥ ـ سورة الأعلى: وقد ذُكر فيها مرةً واحدة.

ومجموعُ السور التي وردَ اسمُه فيها خمسٌ وعشرون سورة، ومجموعُ مراتِ ذكره هو تسعٌ وستون مرة[١].

[٢]
مواضع ذكر إبراهيم في القرآن

١ ـ ما ذكرتْه سورةُ البقرة من قصة إبراهيم:

ذُكرتْ قصتُه في ثلاثة مواضعَ من سورة البقرة.

الأول: آيات: ١٢٤ ـ ١٤١. وهي ربعُ الحزبِ الأخير من الجزء الأولِ من السورة.

وقد تحدثت الآياتُ عن جعل إبراهيمَ إماماً للناس، هو وذريتُه الصالحون، وعن جعْلِ مقامِ إبراهيم الذي عند الكعبة مصلّى، وعن دعاءِ إبراهيم وإسماعيل، وهما يبنيان بيتَ الله الحرام، وعن دين إبراهيم وهو الإِسلامُ لله، وعن وصيتِه لأولاده بأنْ يكونوا مسلمين، وأن لا يموتوا إلا وهم مسلمون.

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي: ١ ـ ٢.

وناقشت الآياتُ اليهودَ والنصارى في زعْمهم اتباعَ إبراهيم، وبينتْ أن إبراهيمَ كان حنيفاً مسلماً، وسجلت اعترافَ المؤمنين بإيمانهم بإبراهيم وكلِّ مَنْ بعده من رسلِ الله، وأنكرت الآياتُ على اليهود والنصارى جدالَهم وحجاجَهم في إبراهيم، ونفت الآياتُ عن إبراهيم ومَنْ بعده مِن الرسل كونَهم يهوداً أو نصارى، وسجلَت أنهم كانوا مسلمين، وجردت اليهودَ والنصارى من الانتسابِ لإبراهيم عليه السلام.

الثاني: آية (٢٥٨) من السورة. وقد تحدثت الآيةُ عن المواجهة بين إبراهيمَ عليه السلام، وبين الملكِ الظالم، الذي ادَّعى الألوهية، حيث أخبره إبراهيمُ أن الله هو الذي يحيي ويميت، فادّعى الملكُ قدرتَه على الإماتةِ والإحياء، فتحدَّاه إبراهيمُ بتغييرِ مسار الشمس، والإتيانِ بها من المغرب، فبُهت ذلك الملكُ الكافر.

الثالث: آية (٢٦٠) من السورة وقد تحدثت الآيةُ عن ما طلبه إبراهيمُ عليه السلام من ربه، أنْ يريَه كيف يحيي الموتى، وليس هذا شكّاً منه في قدرةِ الله، ولكن ليطمئنَّ قلبُه، وأخْذِه أربعةَ طيور، وجعْلِه جزءاً منهن على كل جبل، ثم دعوتِه إليهن، ومجيئِهن له سعياً.

ذكره في سورتي آل عمران والأنعام:

٢ ـ ما ذكرتْه سورةُ آل عمران عن إبراهيم:

لم تذكر سورةُ آل عمران مشاهدَ أو لقطاتٍ من قصة إبراهيم عليه السلام، وإنما تحدثتْ عن حقيقةِ الانتساب إليه، وحقيقةِ الدين الذي كان عليه.

لقد نزلتْ سورةُ آل عمران في جدالِ اليهود والنصارى والعرب المشركين، وبينتْ أنه لا صلةَ لهم تربطُهم بإبراهيم عليه السلام.

تشيرُ آيات السورة إلى اصطفاءِ الله لآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (آية رقم: ٣٣).

وترفضُ الآياتُ انتسابَ اليهود والنصارى لإبراهيم (آية: ٦٥)،

وتبينُ أنه كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً (آية: ٦٧)، وتقررُ أنّ أَوْلى الناسِ بإبراهيم هم الذين آمنوا به من قومه، ثم محمدٌ ﷺ وأمتُه (آية: ٦٨).

وتأمرُ الآياتُ اليهودَ والنصارى باتباعِ ملة إبراهيم، والدخولِ في الإِسلام، وتشيرُ إلى بناءِ إبراهيم الكعبَة، لتكون أولَ بيت وُضعَ لعبادة الله في الأرض، وتذكر مقام إِبراهيم عند البيت الحرام، وتأمر المسلمين بالحج إلى البيتِ الحرام، وهذا في آيات: ٩٥ ـ ٩٧.

٣ ـ ما ذكرتْه سورةُ الأنعام عن إبراهيم عليه السلام:

تحدثتْ سورةُ الأنعام عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، في آياتها: ٧٤ ـ ٨٦.

وقد عرضت الآياتُ طرفاً من الحوارِ بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه، ينكرُ فيه على أبيه عبادةَ غير الله.

ثم تحدثت الآيةُ عن مشهدِ الحِجاج والجدالِ بين إبراهيم وبين قومه، عندما أبطلَ لهم ـ بالمنطقِ الجدلي البرهاني ـ كونَ الكواكبِ آلهة، وأعلنَ لهم إيمانَه بالله، وبراءتَه مما يعبدون من دون الله، وتقريره لحقيقةِ الأمن والخوف.

ثم أشارت الآياتُ إلى الأنبياءِ من ذريته، مما يُظهِرُ أنه هو أبو الأنبياء فعلاً.

وتشيرُ السورةُ في آياتها الآخيرة إلى حقيقةِ ملةِ إبراهيم، وهي الحنيفية، آية: ١٦١.

ذكره في سور هود وإبراهيم والحجر ومريم:

٤ ـ ما ذكرتْه سورةُ هود من قصته:

تحدثتْ سورةُ هود عن قصة إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٦٩ ـ ٧٦.

أشارت الآياتُ إلى قدومِ الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام في صورةِ بشر، وهو لا يعرفهم، وعدمِ أكْلهم من عجْلِه لأنهم ملائكة، وبشارتِهم لإبراهيم وزوجِه سارة بإسحاق، وردِّهم على تعجُّبِ سارة واستغرابها، ثم إخبارِهم إبراهيم بمهمتهم في تدمير قوم لوط الشاذين، وأخبرتْنا الآياتُ عن مفتاحِ شخصية إبراهيم، الذي ينطبق على كلِّ مشهدٍ أو لقطةٍ من قصته: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

٥ ـ ما ذكرتْه سورةُ إبراهيم من قصته:

تحدثتْ سورةُ إبراهيم ـ التي تحملُ اسمه عليه الصلاة والسلام ـ عن مشهد من قصته، وذلك في آياتها: ٣٥ ـ ٤١.

وأشارت الآياتُ إلى وضعِ إبراهيمَ ابنَه وزوجَه في وادٍ غيرِ ذي زرع في الحجاز، ودعائِه ربَّه أنْ يجمعَ الناس حولهما، وأنْ يرزقَهم من الطيبات، وأن يحفظه هو وبنيه عن عبادةِ الأصنام، وعن شكرِه لله على ما أنعمَ عليه من النعم، ومنها إنجابُه إسماعيلَ وإسحاق.

٦ ـ ما ذكرتْه سورةُ الحِجْر من قصته:

تحدثتْ سورةُ الحِجْرِ عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٥١ ـ ٦٠.

وأشارت الآياتُ إلى قدومِ الملائكة إليه في صورة بشر، وما بشَّروه به من الولد، وما أخبروه به من توجههم إلى تدميرِ قوم لوط.

٧ ـ ما ذكرتْه سورةُ مريم من قصته:

تحدثتْ سورةُ مريم عن قصةِ إبراهيم عليه السلام وذلك في آياتها: ٤١ ـ ٥٠.

وأشارت الآياتُ إلى دعوتِه لأبيه، كي يتخلّى عن الكفر بالله، ويدخلَ في دين الله، ورفْضِ أبيه لهذه الدعوة، واعتزالِ إبراهيم عليه السلام لقومه، وهبةِ الله له إسحاق ثم يعقوب عليهما السلام.

ذكره في سور الأنبياء والحج والشعراء والعنكبوت:

٨ ـ ما ذكرتْه سورةُ الأنبياء من قصته:

تحدثتْ سورةُ الأنبياء عن قصة إِبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٥١ ـ ٧٣.

أشارت الآياتُ إِلى إنكارِ إبراهيم على أبيه وقومِه عبادةَ غير الله، ودعوتِهم إلى الإِيمان بالله، وتحطيمِه أصنامهم، ومحاكمتِه على أعين الناس، ونجاحِ إبراهيمَ في إفحامِهم وإقامةِ الحجة عليهم أثناء المحاكمة، ولجوئهم إلى إحراقِه بالنار بعد هزيمتهم أمامَ حجته، وإنجاءِ الله له من النار، وخروجِه مع لوط إلى الأرض المباركة فلسطين، وهبةِ الله له إسحاقَ ثم يعقوب عليهما السلام.

٩ ـ ما ذكرتْه سورةُ الحج من قصته:

تحدثتْ سورةُ الحج عن قصةِ إبراهيمَ عليه السلام: في الآيات: ٢٦ ـ ٢٩. وعرضتْ هذه الآياتُ لقطةً من قصته، تناسبُ موضوعَ السورة، وهو الحجُّ والمناسك والهدي والبيت الحرام والنحر.

أشارتْ هذه الآياتُ إلى بناءِ إبراهيم لبيتِ الله الحرام، وتجهيزه وتطهيره للعابدين والطائفين. وأذان إبراهيم بالحج، ودعوتِه الناسَ ليحجّوا، ويؤدوا المناسك، ويُعظموا حرماتِ الله.

وفي الآيةِ الأخيرةِ من السورة: رقم ٧٨. تذكيرُ المسلمين بالواجب الذي أوجبهُ الله عليهم، وبيانُ ارتباطهم بأبيهم إبراهيم عليه السلام، وأنه هو الذي أَطلق عليهم اسمَ «المسلمون».

١٠ ـ ما ذكرتْه سورةُ الشعراء من قصته:

تحدثتْ سورةُ الشعراء عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٦٩ ـ ٨٩.

أشارت الآياتُ إلى رفضِ إبراهيم لكفرِ أبيه وقومه، ودعوتِه لهم

إلى التخلي عن الكفر، والدخولِ في دين الله، وبراءتِه مما يعبدون من دون الله، وتوجُّهه إلى الله، ونظرِه لليوم الآخر، ودعائِه ليكون من الناجين الفائزين في ذلك اليوم.

١١ ـ ما ذكرتْه سورةُ العنكبوت من قصته:

تحدثتْ سورةُ العنكبوت عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ١٦ ـ ٢٧.

أشارت الآياتُ إلى دعوةِ إبراهيمَ قومَه لعبادة الله وحده، وإنكارِه عبادتَهم لغيرِ الله، وتعريفِهم على بعض صفاتِ وأفعال الله، وبينتْ ردَّ قومِه على حسنِ دعوته بتهديدهم بقتله أو حرْقِه، ونجاتِه من كيدهم، ثم هجرتِه مع لوط إلى فلسطين، وهبةِ الله إسحاقَ ويعقوب له.

ذكره في سور الصافات والذاريات والممتحنة:

١٢ ـ ما ذكرتْه سورةُ الصافات من قصته:

تحدثتْ سورةُ الصافات عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٨٣ ـ ١١٣.

وأشارت الآياتُ إلى تمتُّع إبراهيمَ عليه السلام بقلبٍ سليم، وإلى إنكارِه على قومه عبادةَ الأصنام، وتحطيمه لأصنامهم، ومحاولتِهم إحراقَه، وإنجاءِ الله له من النار، وولادةِ إسماعيل له، ورؤياه بذبْحِ ابنِه، واستسلامِه مع ابنه لله، وتبشيرِه بابنه الآخر إسحاق نبياً، ومباركةِ الله للمحسنين الصالحين من أبناء إسحاق دون الظالمين منهم.

١٣ ـ ما ذكرتْه سورةُ الذاريات من قصته:

تحدثتْ سوةُ الذاريات عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٢٤ ـ ٣٤.

أشارت الآياتُ إلى قدومِ الملائكة ضيوفاً عنده، وبشارتِه وزوجه بولادةِ إسحاقَ لهما، وردِّ الملائكة على استغرابِ وتعجُّب زوجِهِ،

وإخبارهم لإِبراهيم عن توجههم لتدمير قوم لوط.

١٤ ـ ما ذكرتْه سورةُ الممتحنة من قصته:

تحدثتْ سورةُ الممتحنة عن قصةِ إبراهيم عليه السلام، وذلك في آياتها: ٤ ـ ٦.

أشارت الآياتُ إلى موقفٍ إيمانيٍّ عظيم لإِبراهيم وأَتْباعِه المؤمنين، هو براءتُهم من قومِهم الكفار، وإِعلانِ العداوة والبغضاء لهم، حتى يؤمنوا بالله وحده، ودعت المؤمنينَ إلى الاقتداءِ بإبراهيمَ وأتباعِه في هذا الموقف، وبينتْ حقيقةَ موقفِ إبراهيم عليه السلام من أبيه.

هذه هي السورُ التي عَرضتْ مشاهدَ ولقطاتٍ من قصةِ إبراهيم عليه السلام: سورة البقرة، وآل عمران، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والذاريات، والممتحنة.

إشارات عنه في سور أخرى:

وهناك سورٌ فيها إشارةٌ سريعة للَقطةٍ من قصة إبراهيم عليه السلام. منها:

سورةُ النساء: الآية: ١٢٥. فيها الثناءُ على من اتَّبع ملةَ إبراهيم حنيفاً، والإِشارةُ إلى اتخاذِ الله لإِبراهيم خليلاً.

وسورةُ التوبة. الآية: ١١٤. فيها بيانُ حقيقةِ استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، وبراءةُ إبراهيم من أبيه لمّا تبينَ له أنه عدوٌّ لله.

وسورةُ النحل. الآية: ١٢٠. فيها الإِخبارُ بأن إبراهيمَ كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، وما كان من المشركين.

والآية: ١٢٣، فيها الأَمرُ باتباعِ ملة إبراهيم عليه السلام.

وسورةُ الزخرف: الآية: ٢٦، فيها الإِخبارُ ببراءةِ إبراهيم عليه السلام من قومه الكافرين.

وسورةُ الحديد، الآية: ٢٦. فيها الإِشارةُ إلى نبوةِ نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام، وجعْلِ النبوة والرسالةِ في ذريتهما.

وهناك سورٌ اكتفتْ بذكْرِ إبراهيم عليه السلام مجردَ ذكْر، ضمن ذكْرِ أسماءِ الأنبياء، أو الثناء على بعض مواقفهم، وهي سور: يوسف، والأحزاب، وصّ، والشورى، والنجم، والأعلى.

هذه هي مواضعُ ذكْرِ إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم.

[٣]

تعريف بإبراهيم عليه السلام

هو أبو الأنبياء، إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام، وهو من أُولي العزم من الرسل، بعثَه الله رسولاً إلى قومه في بلاد العراق، وكانوا يعبدون الأصنامَ والكواكبَ من دون الله.

وكان أبوه من عابدي تلكَ الأصنام، واسمُ أبيه آزر، بنصِّ القرآن، كما سنتكلم عنه بعدَ قليل، وقد أصرَّ أبوه آزر على كفْرِه، فتبرأَ إبراهيمُ منه.

وقد التقى رسولُنا محمدٌ ﷺ بالأنبياءِ السابقين في رحلةِ المعراج، حيثُ أَمَّ بهم في بيت المقدس، ثم استقْبَلوه في السماوات.

إبراهيم وهيئته:

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن هيئةِ إبراهيم عليه السلام، فروى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «عُرِضَ علَيَّ الأنبياء، فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال، كأنه من رجالِ شَنوءَة، ورأيتُ عيسى بنَ مريم عليه السلام، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به

شَبَهاً عروة بنُ مسعود، ورأيتُ إبراهيمَ صلوات الله عليه، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شبَهاً صاحبُكم (يعني نفسَه)، ورأيتُ جبريلُ عليه السلام، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شَبَهاً دِحْيَة..»[1].

كما أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن سرعةِ تنفيذِ إبراهيمَ عليه السلام لأمْرِ الله، فلما أمره اللَّهُ بالاختتانِ اخْتَتَن، وهو ابنُ ثمانين سنة.

فروى أَبو هريرة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «اخْتَتَن إبراهيمُ النبي، عليه الصلاة والسلام، وهو ابنُ ثمانين سنة، بالقدوم»[2].

وهناك قولان في المرادِ بالقدوم:

فمنهم مَنْ قال: «القَدُوم» بتخفيف الدال، وهو اسمٌ للآلةِ المعروفةِ المستعملةِ بالقطع. أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام استخدمَ آلَةَ القَدُوم في الاختتان، وقَطع بها غُرْلَتَهُ.

ومنهم مَنْ قال: «القَدّوم» بتشديدِ الدال، وهو اسمٌ لقريةٍ معروفة في فلسطين، واسمُها الآن «كُفْرُ قَدّوم»، وهي إِحدى قرى منطقةِ نابلس، أي أنَّ إبراهيم عليه السلام كان مقيماً في هذه القرية لما اختتن[3].

ولعلَّ الرأيَ الأولَ هو الأوجهُ والأرجح، فالحديثُ يريدُ أنْ يذكُرَ الآلةَ التي استخدمَها إبراهيمُ في الاختتان.

المهمُّ أن نتذكَّرَ مسارعةَ إبراهيمَ عليه السلام لأمر الله، حيثُ نَفَّذَ أَمْرَ الله، واختتنَ وهو ابنُ ثمانين سنة.

إبراهيم بين العراق وفلسطين والحجاز:

وقد بدأَ إبراهيمُ عليه السلام دعوتَه في العراق، مع أَبيه أولاً، ثم

---

(١) أخرجه مسلم، برقم: ١٦٧. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٦، ومسلم برقم: ٢٣٧. انظر الأحاديث الصحيحة: ٨٥.

(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥ : ١٢٣.

مع قومه ثانياً، ثم مع الملكِ الظالم الكافر بعد ذلك ولما لم يستجيبوا له حطمَ أصنامهم، فحَكَموا بإحراقه بالنار، ولكنَّ اللَّهَ أَنجاه منها، وبعد ذلك أمرهُ الله بالخروجِ والهجرة من العراق، فغادرَها إلى الأرضِ المباركة المقدسة، وكانَ معه لوطٌ عليه السلام.

أَقامَ إبراهيمُ عليه السلام في الأرضِ المباركةِ فلسطين، وكان معه زوجُه المؤمنةُ سارة رضي الله عنها، وارتحلَ مع سارةَ إلى مصر، وهناك جرتْ لهما قصةٌ مع ملك مصر، فأهداهما «هاجر»، وقدَّمت سارةُ هاجرَ إلى إبراهيم، وتَسَرّى بها، فَأَنْجَبَتْ له أول أولاده، إسماعيل عليه السلام، وأَمَرَه الله بأَخْذ هاجرَ وإسماعيل إلى بلادِ الحجاز، فنفَّذَ أَمْرَ الله.

وهبهُ اللَّهُ بعد ذلك إسحاق عليه السلام من زوجهِ سارة، بعد أنْ كان شيخاً، وكانتْ زوجهُ عاقراً. ولما شبَّ إسماعيلُ أمرهُ اللَّهُ ببناءِ الكعبة المشرفة مع ابنه إسماعيل، فبنى أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس، وبعد ذلك بنى ثاني بيتٍ لعبادةِ الله، وهو المسجدُ الأقصى في بيت المقدس.

وشبَّ إسحاق في حياةِ إبراهيم، كما شبَّ إسماعيل قبله، وزوَّجَ إبراهيمُ ابْنَيْه النبيَّيْن: إسماعيل وإسحاق، وأنجبَ إسحاقُ ابنَه يعقوب، ورأى إبراهيمُ حفيدَه يعقوبَ النبي، عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وبعد حياةٍ حافلةٍ بالدعوة إلى الله، جاءَ إبراهيمَ عليه السلام أجلُه، فتوفَّاهُ الله إليه.

ولما عُرِجَ برسولِ الله محمد ﷺ في رحلةِ المعراج، رأى إبراهيمَ عليه السلام في السماءِ السابعة.

ففي حديث مالكِ بن صَعْصَعَة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال عن رحلةِ المعراج: «... فأَتَيْنَا السماءَ السابعة. قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جبريل، قيل: مَنْ معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ مرحَباً به، ولنعمَ المجيء جاء.

فأتَيْتُ على إبراهيم فسلَّمْتُ عليه، فقال: مرحباً بكَ من ابنٍ ونبي.

فرُفعَ لي البيتُ المعمور. فسألتُ جبريل، فقال: هذا البيتُ المعمور، يصلّي فيه كلّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه، آخرَ ما عليهم»[1].

[٤]

مراحل حياة إبراهيم عليه السلام

عرضَ القرآنُ حياةِ إبراهيم عليه السلام، بعد أنْ بعَثَه اللّهُ نبياً رسولاً، ولم يتحدثْ عن حياتِه قبلَ النبوة. وليس هناك تفاصيلَ عن حياةِ إبراهيمَ عليه السلام قبل النبوة في الأحاديثِ الصحيحةِ، فلا يعنينا معرفةُ هذه الأخبار والتفاصيل، طالما لم تَرِدْ في المصدرين الموثوقيْن عندنا.

نعلمُ أنَّ التوراةَ تحدثَتْ عن بداياتِ حياةِ إبراهيم، ونعلمُ أنَّ فيها أخباراً عن طفولتِه وشبابه، وبحْثِه عن الله، وظَنِّه أنَّ الكواكبَ قد تكونُ آلهة، وأنه اهتدى أخيراً إلى الله. ونعلمُ أن هناك أخباراً في الأساطير والخرافات، لكننا لا نُجيزُ لأنفسنا ولا لغيرنا اعتمادَها أو الأَخْذَ منها، لأنَّ التوراةَ محرفة، ولأنَّ تلكَ الأخبار غيرُ مؤثوقة ولا مأمونة.

فنبدأُ مع إبراهيم عليه السلام من مشهدِ حياته الذي بدأَ به القرآن، وهو دعوتُه إلى الله بعد النبوة.

تنوع طرق عرض القرآن لقصص الأنبياء:

وعرْضُ قصصِ الأنبياء في القرآن ليس له طريقةٌ واحدة مطردة، فقد سلكَ القرآنُ عدةَ طرقٍ في عرْضِ قصصِ الأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢. انظر الأحاديث الصحيحة: رقم: ١٢٨.

فأحياناً يتكلمُ عن النبي منذُ ولادته، كما حصلَ في قصة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

وأحياناً يتكلمُ عن النبي منذُ شبابه، كما في قصةِ داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

وغالباً يعرضُ قصةَ النبي منذ نبوته، حيث يُرينا إياه وهو يخاطبُ قومَه، ويدْعوهم إلى الله، ويرفضُ كفرَهم بالله. كما في قصةِ نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

وهذا ما نراهُ في قصة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام.

إننا لم نعرف عن إبراهيم شيئاً قبل نبوته، ولا نذهبُ إلى مصادرَ غيرِ موثوقة، لنأخذَ منها كلاماً غيرَ دقيقٍ ولا صحيح عن حياةِ إبراهيمَ قبل النبوة.

لهذا ستتعاملُ معَ إبراهيمَ عليه السلام منذُ أن بعثَه الله نبياً.

حياة إبراهيم على مرحلتين:

وعندما ننظرُ في قصتهِ في القرآن، فيمكننا أن نقسِّمَ حياتَه إلى مرحلتيْن أساسيتيْن:

المرحلة الأولى: دعوتُه إلى الله في موطنِه الأصلي، في بلاد العراق، حيث تَعرضُ لنا آياتُ القرآن مشاهدَ ولقطاتٍ من دعوته لأبيه، ثم دعوتِه لقومه، ثم دعوتِه للملك الظالم، ولما لم يستجيبوا له حطَّمَ أصنامهم التي يعبدونَها من دون الله، فانتقموا منه، وأرادوا إحراقَه بالنار، ولكنَّ الله أنجاهُ من النار.

وبهذا المشهدِ العنيف لم يعُدْ لوجودِ إبراهيم عليه السلام في بلاد العراق فائدة، وعلمَ اللّهُ أنَّ قومَه لن يستجيبوا له، ولهذا وجَّهَه اللّهُ إلى الخروج مِن العراق، والانتقال إلى بلاد أخرى.

المرحلة الثانية: دعوتُه إلى الله في الأرضِ المباركة فلسطين، حيث هاجرَ إليها قادماً من العراق، وصحبَه في هجرته نبيُّ الله لوطٌ عليه السلام، وعاشا في مكانيْن متقاربيْن، فكان إبراهيمُ في منطقة القدس والخليل، وكان لوطٌ إلى الشرق منه.

نتعرفُ في هذه المرحلةِ من حياته على ذهابِه مع زوجه سارة إلى مصر، وعودتِهما منها ومعهما هاجر، كما أخبرَ عن ذلك رسولُ الله ﷺ، كما نتعرفُ منها على استقبالِه لضيوفِه من الملائكة، وتبشيرهم له بولادة إسحاق ثم يعقوب له، وذهابهم لتدمير قوم لوط، كما نتعرفُ منها على بنائهِ للأقصى، واستقبالِه للضيفين، واختتانِه واستعماله لسنن الفطرة.

ونتعرفُ في هذه المرحلة على ذهابِه إلى الحجاز، وبنائِه الكعبة، وهذه مرحلةٌ متداخلة مع المرحلة الأولى.

فبينما كان مقيماً في فلسطين، وبعدَ أنْ وُلد له إسماعيلُ من هاجر، أمرهُ الله أنْ يأخذَ ابنَه الوحيد وزوجَه هاجر، ويذهبَ بهما إلى بلاد الحجاز، ويضعَهما هناك تحتَ شجرة دَوْح، بوادٍ غيرِ ذي زرع.

وضعَهما هناك وعادَ إلى مقرِّ إقامتِه في فلسطين، وبعد سنواتٍ ذهبَ إليهما، وإسماعيل شاب، وأَمرهُ الله في الرؤيا بذبحْ ابنه، وأخبره بذلك، واستسلما لأمْرِ الله، وفدى اللّهُ إسماعيلَ بذبحٍ عظيم.

وبعدَ سنواتٍ عادَ إبراهيمُ إلى إسماعيلَ في مكة، وأخبره بأمْرِ الله له ببناءِ الكعبة المشرفة أولِ بيتٍ وُضِعَ لعبادةِ الله في الأرض، وبعدما بَنَيا البيت، أذَّنَ إبراهيمُ بالحج إلى بيتِ الله الحرام.

وبعد بناءِ البيت الحرام، عادَ إبراهيمُ عليه السلام إلى فلسطين، وبقي فيها إلى أنْ توفّاهُ الله، بعدما شاهدَ حفيدَه يعقوبَ عليه السلام.

[٥]

المرحلة الأولى

مع إبراهيم في بلاد العراق

يمكنُ تقسيمُ هذه المرحلةِ من حياته إلى المشاهدِ التالية:

مشاهدها الخمسة ومواضعها في القرآن:

المشهدُ الأول: دعوةُ إبراهيمَ أباه لعبادةِ الله وحده والتخلّي عن عبادةِ الأصنام.

المشهدُ الثاني: دعوةُ إبراهيمَ قومَه لعبادة الله وحده، وإبطالُه كونَ الكواكب آلهة، وهذه خطوةٌ تاليةٌ للخطوة السابقة، فلما دعا أباه، ولم يستجبْ له، توجَّه إلى دعوةِ قومه، وهذا انتقالٌ مرحليٌّ مفهوم.

المشهدُ الثالث: توجُّهُه إلى الملكِ الظالم، الذي كان يَدّعي الألوهية، حيث دعاهُ إلى الإيمانِ بالله، ولكنه لم يستجبْ له، وهذه خطوةٌ مبنية على الخطوات السابقة.

المشهدُ الرابع: قيامُه بتحطيم الأصنام، باعتبارِ عبادتهم لها سبباً في إعراضِهم عن دعوته، فأرادَ أنْ يُزيلَ هذا السببَ المادي، بعد ما رفضَ قومُه التجاوبَ مع حججِه العقلية في إبطالِ عبادتها.

المشهدُ الخامس: محاكمةُ قومِه له، وحكْمُهم عليه بالحرقِ بالنار، لتحطيمه الأصنام، ولكنَّ الله أنجاه من كيدهم، وجعلَ النارَ برداً وسلاماً عليه.

بهذا المشهدِ تنتهي المرحلةُ الأولى من حياته، ولم تَعُدْ إقامتُه مع قومه في بلاد العراق ممكنة، بعد تصعيدِ المواجهة بينه وبينهم، ووصولِها إلى هذا الطريقِ المسدود.

فوجَّهه الله إلى الأرضِ المقدسة، ودَعاه إلى الهجرةِ إليها، فسارَ إليها مع مَنْ تبعه من المؤمنين.

وكانت اللقطةُ الختاميةُ للمرحلة الأولى في حياته، إعلانَه الهجرةَ والتوجُّهَ إلى فلسطين.

والمشهدُ الأول: عرضَتْه آياتُ سورة مريم، التي تضمنتْ دعوتَه لأبيه، وردَّ أَبيه المتشنجَ عليه.

والمشهدُ الثاني: عرضَتْه آياتُ سورة الأنعام، التي عرضتْ حججَ وبراهينَ إبراهيم عليه السلام، في إِبطالِ عبادةِ الكواكب.

المشهد الثالث: عرضتْه آية واحدةٌ من سورة البقرة.

والمشهدُ الرابع: الذي قامَ فيه بتحطيم الأصنام، عرضَتْه آياتٌ من سورة الأنبياء، وآياتٌ من سورة الصافات.

والمشهدُ الخامس: وهو حرقُه بالنار ونجاتُه منها بأَمْرِ الله، عرضتْه آياتُ من سورة الأنبياء، ومن سورة الصافات.

أما خاتمةُ هذه المشاهد، وتوجُّهُه مهاجراً إلى الأرض المباركة، فقد أشارتْ إليه سورةُ العنكبوت، وسورة الصافات، وسورة الأنبياء.

وفيما يلي كلامٌ عن هذه الآيات والمشاهد بالتفصيل..

[٦]
إبراهيم يدعو أباه إلى الله

بدأ إبراهيم بدعوة أبيه:

بعثَ الله إبراهيمَ عليه السلام نبياً رسولاً، ولا نعرفُ عمره عندَ نبوتِه، وطلبَ منه أن يدعوَ الناس إلى الله.

ومن المنطقيّ أن يبدأَ إبراهيمُ بدعوةِ أَقربِ الناس إليه، ولذلك كانت الخطوةُ الأولى في خطواتِ تبليغِه الرسالة، هي أنْ يدعوَ أَباه إلى الله.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن بعضَ خطاباتِ إبراهيم لأبيه. ومن هذه الآيات آيات سورة مريم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٧].

إننا نرى في هذه الآياتِ أسلوبَيْن ومنطقَيْن:

المنطقُ الإِيمانيُّ الدعوي، وما فيه من أساليبَ طيبةٍ، في الدعوة والخطابِ والحوار، والتحبب والإِشفاق والهدوء. وهو منطقُ إبراهيم عليه السلام.

والمنطقُ العنيف الكافر، الذي لا يُجيدُ إلا لغةَ التهديدِ والعنف والإِيذاء، وهو منطقُ أبيه الكافر.

إبراهيمُ عليه السلام يُنكرُ على أبيه الكفر، ويدعوه إلى الإِيمان، لكنَّ خطابَه له بمنتهى التحببِ والإِشفاق والهدوء والبِرّ، ولهذا قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أربعَ مرات، كما سجلَتْ ذلك الآيات.

ماذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه؟

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾؟

ماذا قال إبراهيم لأبيه؟:

بدأ إبراهيمُ عليه السلام دعوتَه بالإِنكار على أبيه، لعبادتِه غيرَ الله، إنه يعبدُ الأصنام، وهذه الأصنامُ جمادات، لم تَصِلْ إلى المستوى البشريِّ الإِنساني الحي، فكيف ترتقي إلى المستوى الرباني وتكونُ آلهة؟

لماذا يا أَبتِ تعبدُ الجمادات؟ إنها لا تسمعك عندما تدعوها أو تطلبُ منها أو تستغيثُ بها، وإنها لا تراكَ ولا تبصرك، ولا تطلعُ على أحوالك، ولا تعرفُ حاجتك، وهذه الجماداتُ لا تنفعك ولا تساعدك، ولا تُغني عنك.

وبعدَ أنْ بيَّنَ له عدمَ كونِ الأصنام آلهة، ذكرَ له جَهْلَه في عبادتها، إنه لا علمَ عنده ولذلك عبدَ غيرَ الله، وبما أنه جاهلٌ فلا بدَّ أنْ يبحثَ عن صاحبِ العلم ليعلمه، ولهذا قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

أبوه جاهلٌ لأنه لم يعرف الحق، ولذلك عبدَ غيرَ الله، أما هو فإنه على علم، لأنه نبي، وقد علَّمَه الله، وفرَّقَ له بين الحق والباطل، وأَعْلَمه أنه على حق، وأنَّ أَباه على باطل.

وبما أنه على علم، وأنَّ أَباه على جهل، فما على الجاهلِ إلاّ أنْ يتبعَ العالم: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

إنّ أباه على طريقٍ أعوج لأنه يعبدُ غيرَ الله، أما هو فإنه على صراطٍ سويٍّ مستقيم، وما على والدِه إلاّ أنْ يتبعَه ويسيرَ معه، ليعرفَ الطريقَ السويَّ ويلتزمَ به.

ويُحذِّرُ إبراهيمُ أباه من عبادة الشيطان، وعبادةُ الأصنام هي عبادةُ الشيطان: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

يدلّ إبراهيمُ أباه على أنهما طريقان لا ثالثَ لهما:

عبادةُ الرحمن، صاحبُها على علم وهدى، يتبعُ الحق، ويسيرُ على صراطٍ سويٍّ مستقيم، وهو وليٌّ لله، وإبراهيمُ يمثل هذا الطريق.

وعبادةُ الشيطان، صاحبُها على جهلٍ وضلال، يتبعُ الباطل، وطريقُه أعوج، وهو وليٌّ للشيطان، وهو خاسرٌ هالك، ولا ينصره

الشيطان، ولا يدفعُ عنه عذابَ الله، ووالدُه يمثلُ هذا الطريق.

ولذلك يريدُ إبراهيمُ من أبيه أنْ يتخلّى عن طريقِه الأعوج، ويسيرَ في الطريقِ الصحيح.

ونلاحظُ في أسلوبِ إبراهيم ومنطقِه وحوارِهِ، الهدوءَ والحكمةَ والحلم، ونتعرفُ منه على حرصِه وإشفاقِه واهتمامِه بأبيه.

رد إبراهيم على غلظة أبيه:

فماذا كان ردُّ أبيه عليه؟ وبماذا قَابَل منطقَه الهادئ؟

هددَه وتوعدَه، وعاملَه بمنطقِ الغلظةِ والجلافةِ والحدة والتشنج، وهذا هو منطقُ الكفار دائماً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾.

ولكنَّ إبراهيمَ لم يفقدْ هدوءَه وحلمَه وسَعةَ صدره، أمامَ تصرفِ أبيه المتشنج، فخاطبَ أباه قائلاً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

هكذا بثقةِ المؤمن وهدوئه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ووعدَ بأنْ يسألَ الله له الهداية، وأنْ يستغفرَ له إذا آمن: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

والحَفِيُّ هو: البَرُّ اللطيفُ العالم. قالَ الإمامُ الراغب في المفردات: «والحَفِي: البَرُّ اللطيف. يقال: حَفَيْتُ بفلان، وتحفَّيْتُ به: إذا عنيتُ بإكرامه. والحَفيّ: العالمُ بالشي»[1].

وقولُه عن الله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ في مقابلِ قوله لأبيه عن الأصنام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٢٤٦.

فإذا كانت الأصنام لا تعرفُ عن عابديها شيئاً، وإذا كان الشيطانُ يتخلّى عن أوليائه، فإن اللَّهَ لا يتخلّى عن عباده، وهو حفيٌّ بهم، لطيفٌ بهم، عالمٌ بأحوالهم، متكفلٌ بأمورهم وحاجاتهم.

وقد سجلتْ آياتٌ أُخرى إِنكارَ إِبراهيم على أبيه عبادةَ الأصنام، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٧٤﴾ [الأنعام: ٧٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٢].

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد بدأَ بدعوةِ أبيه إلى الله، ولكنَّ أباه لم يستجبْ لدعوته، وأصرَّ على كفره وضلاله، وفي النهايةِ تبرأَ إبراهيمُ منه.

[٧]
آزر الكافر هو والد إبراهيم

من هو آزر؟:

تنصُّ آياتُ القرآن على كفر ﴿ءَازَرَ﴾ والدِ إبراهيم عليه السلام، وتبيِّنُ أنَّ إبراهيمَ كان يطمعُ في إيمانه، وبعد أنْ تبينَ له إصرارُه على الكفرِ تبرَّأ منه.

ولكنَّ بعضَهم رفضَ القولَ بكفر والده، واعتبرَ كفرَه مأْخذاً يؤاخَذُ به إبراهيم عليه السلام، ومطعناً يوجَّهُ إليه، فكيف يكونُ إبراهيمُ نبياً رسولاً ويكونُ والدُه كافراً؟ ثم إنَّ والدَ إبراهيم هو أحدُ أجدادِ رسول الله محمد ﷺ، وكلُّ أجدادِ محمد عليه الصلاة والسلام مؤمنون موحِّدون، فلو كان والدُ إبراهيمَ كافراً لما كان كلُّ أجدادِ محمد عليه الصلاة والسلام موحِّدين.

ولهذا يهربُ هؤلاء من كونِ والدِ إبراهيم كافراً، و ﴿ءَازَرَ﴾ الذي تتكلمُ عنه سورةُ الأنعام وتنصُّ على كفره، ليس أباً لإبراهيم وإنما هو عمُّه، واعتبرتْه الآيةُ أباً له من بابِ المجاز، وليس من باب الحقيقة! أما والدُه فهو مؤمنٌ موحِّد!!

الراجح أنه والده:

ونرى أنَّ كلامَ هؤلاء يتناقضُ مع الآية القرآنية الصريحة، التي تصرحُ بأنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ هو والدُ إبراهيم، وأنه كافر، وأنه ماتَ كافراً، كما يتناقضُ مع ما صحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ حولَ الموضوع.

ولا نرى جوازَ الخلافِ في هذه المسألة، طالما حسمَتْها النصوصُ الصريحةُ الصحيحة، وكلُّ قولٍ يخالفُ الآياتِ أو الأحاديثَ الصحيحة، فلا يجوزُ أنْ يُقال أصلاً، وإذا قيلَ فلا يُلتفتُ إليه، ولا يُعْتَدُّ به! ﴿ءَازَرَ﴾ هو اسمُ أبي إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿ءَازَرَ﴾: اسمُ علمٍ أجنبي، وليس عربياً مشتقّاً، ولهذا جاءَ هنا ممنوعاً من الصرفِ للعلميَّة والعُجمة، وإعرابُه في الجملة: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ بدل من «أبيه»، مجرورٌ بالفتحة، لأنه ممنوعٌ من الصرف.

الآية تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾.

وعندما ننظرُ فيها بدونِ مقرَّراتٍ مسبقة، وعندما نستخرجُ بعضَ دلالاتِها متجردين من أيِّ مؤثراتٍ جانبية، فإننا نرى فيها ما يلي:

اسمه آزر وكان يعبد الأصنام:

١ ـ ﴿ءَازَرَ﴾ هو اسمُ والدِ إبراهيم عليه السلام، وقد نصَّ القرآنُ على اسمه ـ وقليلاً ما يصرحُ القرآن بأسماءِ الأشخاص، لأنه يُبقيها مبهمةً غالباً ـ حتى يُريحَ المسلمين من عَناءِ البحث عن اسمه، وحتى لا يذهبَ أحدُهم إلى التوراةِ المحرفة أو الإسرائيليات، ليأخذَ اسمَه منها.

إنَّ التوراةَ تذكرُ له اسماً آخر، هو «تارخ»، ونتوقَّفُ في هذا

الاسم، لأننا نعلمُ أنَّ اليهودَ قد حرَّفوا التوراة، وقد يكونون حرَّفوا اسم أبي إبراهيم، كما حرفوا غيره.

يجبُ أنْ نعتمدَ الاسمَ الذي أطلقه عليه القرآن ﴿ءَازَرَ﴾، ولا يجوزُ إهمالُ أو تجاوُزُ هذا النصِّ القرآني.

٢ ـ ﴿ءَازَرَ﴾ هو أَبو إبراهيم، كما تنصُّ عليه الآية، ولهذا جاءَ في الإِعرابِ بدلاً من أبيه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

والأبُ يُطلقُ في الحقيقةِ على والدِ الإِنسان، الذي أنجبه وخرجَ من صُلبه. ولا ننكرُ أنَّ «الأبَ» قد يُطلق على العم. لكنَّ استعمالَ الأب في الوالدِ حقيقة، واستعمالَ الأب في العم مجاز، ولا يجوزُ العدولُ عن الحقيقةِ إلى المجاز إلا عند تعذُّرِ حملِ اللفظ على الحقيقة!

وهنا حملُ اللفظ على الحقيقة غير مستحيل ولا متعذِّر، ولا محذورَ فيه. فكونُ أبي إبراهيم كافراً لا يُعيبُه ولا يُنقصُه.

٣ ـ ﴿ءَازَرَ﴾ والدُ إِبراهيم عليه السلام كان كافراً، لأنه لم يتخذ الله ربَّ العالمين إلهاً، وإنما جعلَ الأصنامَ آلهة، وعبدَها من دون الله.

٤ ـ كان دينُ آزر الباطلُ يقومُ على عبادةِ الأصنام: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فكانَ كفرُ آزر وقومُه يقومُ على عبادة الأصنام، كما تنصُّ هذه الآية.

وهذا لا يمنعُ وجودَ معبوداتٍ أُخرى لهم، يعبدونَها مع الأصنام، كالكواكبِ وغيرِها، لأن الإِنسانَ عندما يكفرُ ويسقط ويُؤَلِّهُ غيرَ الله، فلا يَحصرُ عبادتَه في إلهين أو أكثر، وعنده استعداد لعبادةِ آلهةٍ كثيرين مختلفين: سواء كانوا بشراً أو أصناماً أو كواكب!

ومما يقررُ مضمونَ هذه الآيةِ، في كفرِ والدِ إبراهيم وعبادتِه لغير الله، الآياتُ السابقة من سورةِ مريم، وسورةِ الأنبياء، وسورةِ الشعراء، التي أوردْناها أثناءَ كلامِنا عن دعوةِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه.

[٨]

كفر والد إبراهيم لا يعيبه

إبراهيم ينكر على أبيه كفره:

كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام صريحاً في الإِنكارِ على أبيه لكفره بالله، وفي رفضِ ما هو عليه من الباطل، وفي دعوتِه إلى الإِيمان بالله.

وقد وردَ هذا في صريح آيات القرآن: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾. و ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾. و: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

هذا هو الواجبُ على إبراهيمَ عليه السلام، وقد قامَ بهذا الواجب، ودعا أباه وذكَّره ونصَحَه.

لو لم يفعلْ ذلك مع أبيه لكان مؤاخَذاً، وكان ذلك سبباً للطعنِ فيه، أما وقد فعلَ ذلك فإنه قدْ أدّىٰ ما عليه.

ولا يُعيبُ إبراهيمَ بعد ذلك عدمُ استجابةِ أبيه لدعوته، وإصرارهُ على كفرهِ، ولا يُعتبرُ موقفُ أبيه طعناً في نبوته، حتى نتكلفَ في الدفاعِ عن إبراهيم عليه السلام، إنه ليس مُتَّهماً حتى ندافعَ عنه.

هل كانَ إبراهيمُ مأموراً بقذفِ الإِيمانِ في قلب أبيه؟ هل وجبَ عليه إكراهُ أبيه على الإِيمان؟ لا أحدَ يقول بذلك، واجبُه هو الدعوة والنصح، وقد قامَ بواجبه على أحسنِ صورة. أَمَّا استجابةُ أبيه له أو عدمُها فهذا قرارُ أبيه، وهو يتحملُ مسؤوليةَ وعاقبةَ قراره!

وهناك شبهةٌ تتعلَّقُ بصلةِ إبراهيم عليه السلام بأبيه، تحتاجُ إلى توجيهٍ وتوضيح، وهي وعْدُهُ بالاستغفارِ لأبيه.

حقيقة استغفار إبراهيم لأبيه:

لقد وعدَ إبراهيمُ أباه أنْ يستغفرَ له، فكيف وعدَه ذلك مع أنه كافرٌ مُصِرٌّ على كفره؟

جاءَ وعْدُه له في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

وفي قوله تعالى: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد استغفرَ لأبيه فعلاً، وطلبَ من الله أنْ يغفرَ له، وجاءَ هذا الاستغفارُ صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦].

استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأبيه، لكن ما هي المناسبةُ؟ وما هو الظرفُ والجو؟

لقد كانت آياتُ القرآن صريحةً في بيان ذلك: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

تنهى الآيةُ المؤمنين عن الاستغفار للكافرين المشركين، ولو كانوا من أقرب الناسِ إليهم، ولو كان الكافرُ أباً أو ابناً للمسلم، بعدما يقومُ المؤمنُ بدعوةِ قريبِهِ الكافر إلى الله، وبعدما يرفضُ الكافرُ هذه الدعوة، ويختارُ الكفرَ والضلال، عند ذلك يتبينُ للمؤمن أنَّ قريبَه الكافرَ من أصحاب الجحيم.

وحتى لا يستشهدَ أحدُهم بفعلِ إبراهيم عليه السلام، وحتى لا يستغفرَ لقريبه الكافرِ مقتدياً باستغفارِ إبراهيمَ لأبيه، فقد وضحت الآيةُ ملابساتِ فعل إبراهيم عليه السلام.

استغفر له ثم تبرأ منه:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾. إنَّ إبراهيم عليه السلام قد استغفرَ لأبيه فعلاً، لكنه فعلَ ذلك، بسببِ الوعدِ الذي أعطاه لأبيه، فقد وعدَ إبراهيمُ أباه أنْ يستغفرَ له، وذلكَ لما قالَ له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾.

وقد وعدَ أنْ يستغفرَ له لأنه طمعَ في إسلامه وإيمانه، فجعل استغفارَه له سبباً من أسبابِ توجُّهِه إلى الإسلام، وما كانَ له إلا أنْ ينفِّذَ وعْدَه ويستغفرَ له، لأنه ما زال يطمعُ في إسلامه.

ولكن، وبعدما استغفرَ لأبيه، أصرَّ الأبُ على كفره، فعرفَ إبراهيمُ حقيقةَ إصرارِ أبيه، وتبينَ له عنادُه وكفرُه وعداوتُه لله، واتِّباعُه للشيطان.

المهمُّ ما هو موقفُ إبراهيمَ عليه السلام بعدما تبينَ له حقيقةُ كفرِ أبيه؟ هل استغفرَ له بعد ذلك؟ هل ما زالَ موالياً له مدافعاً عنه؟ إنه لو فعلَ ذلك ـ وحاشاه ـ لكان مؤاخذاً مخطِئاً!

بعدما وقفَ على حقيقةِ موقفِ أبيه تبرَّأ منه وفاصَلَه وعاداه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

لقد تبرَّأَ إبراهيمُ من أبيه في النهاية، وأظهرَ عداوتَه له ولقومه، وهذا هو الموقفُ الذي يجبُ أنْ يقتديَ المؤمنون بإبراهيم فيه، موقفُ البراءةِ من كلِّ كافر، حتى لو كانَ أقربَ الناسِ إلى المؤمن، كما فعلَ إبراهيمُ عليه السلام مع أبيه.

إذن: والدُ إبراهيمَ كافر، اختارَ الكفر، وأصَرَّ عليه، ولما تبيَّنَ لإبراهيمَ ذلك الموقفُ من أبيه تبرأ منه.

وعاش آزرُ والدُ إبراهيم حياتَه في الدنيا كافراً، وماتَ على كفرِه، ولذلك يُبعثُ يومَ القيامة كافراً.

بين إبراهيم وأبيه يوم القيامة:

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن المقابلةِ بين إبراهيم وأبيه يوم القيامة: روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «يَلقى إبراهيمُ أَباه آزرَ يومَ القيامة، وعلى وجْهِ آزرَ قَتَرةٌ وغَبَرَة.

فيقولُ له إبراهيم: ألم أقلْ لك لا تعصِني؟

فيقولُ له أبوه: اليومَ لا أَعصيك.

فيقولُ إِبراهيم: يا ربِّ إنكَ وعَدْتَني أنْ لا تُخزِني يومَ يبعثون، وأيُّ خزيٍ أَخزى من أبي الأبعد؟

فيقولُ الله: إني حرَّمْتُ الجنةَ على الكافرين.

فيقال: يا إبراهيم: انظرْ ما بين رجليك. فينظرُ فإذا هو بِذيخٍ مُتلَطِّخٍ، فيؤخَذُ بقوائِمِه، فيُلقىٰ في النار»[1].

ينصُّ الحديثُ على أنَّ إبراهيمَ عليه السلام يَلقى أَباه يومَ القيامة، وتعلو وجهَ آزرَ غبرةٌ وقَتَرة لأنه كافر، ولمّا يُذَكِّرُ إبراهيمُ أباه بتحذيرِه له من هذا الموقف والعذاب، لَمّا كانَ في الدنيا، يُظهِرُ أبوه استعدادَه لطاعتهِ والدخولِ في دينه، لكن متى؟ بعد فواتِ الأوان.

ويتساءلُ إبراهيمُ عليه السلام: كيف ستكونُ نهايةُ أَبيه؟ ويقول لربه: لقد وعَدْتَني أن لا تُخْزِني يوم القيامة، وأيُّ خزيٍ أخزى من أبي؟

وكأنه يقول: كيفَ ستكونُ نهايةُ أبي؟ وكيفَ ستتفقُ هذه النهايةُ مع عدم حصولِ الخزي لي لأنه أَبي؟

وليس هذا القولُ من إبراهيم شفاعةً لأبيه يوم القيامة، وليس طلباً من الله أنْ يُدخلَه الجنة، فقد تبرأَ إبراهيمُ من أبيه في الدنيا، وهو لنْ يشفعَ له بدخول الجنة يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٢٧.

ويُطَمئِنُ الله إبراهيمَ عليه السلام، بأنَّ إبراهيمَ لن يصيبَه الخزيُ بسببِ كفر أبيه، ولذلك لا يَدخلُ أبوه النارَ على صورتِه الآدميةِ البشريةِ المعروفة، حتى لا يُقال: انظروا، ها هو آزرُ والدُ إبراهيمَ، يُؤْخَذُ به ليُلقىٰ في النار.

وإنما يمسخُه الله، ويُحوِّله من صورتِه البشرية إلى صورةٍ حيوانية. «فينظر فإذا هو بِذِيخٍ مُتلطخ»، ويرى الناسُ أمامَهم ذيخاً مُتلطخاً، فيؤخَذُ بقوائمه الأربعة، فيُلقىٰ في النار، على هذه الصورة الحيوانية.

وعندما يستقرُّ في وسط جهنم، مع الكافرين أتْباعِ الشياطين، يبدو أنه تُعادُ لَهُ صورَتُه الآدميةُ البشرية، ليستقرَّ ويخلدَ في العذابِ الأبدي فيها.

والذيخُ الذي يَمسَخُ الله والدَ إبراهيم عليه هو ذَكَرُ الضَّبُع، كثيفُ الشعر، هذا الذيخُ يكون مُتلطخاً برَجيعِه أَو أَوحاله أو قاذوراتِه، وهي صورةٌ منفرة مقزِّزة.

وهذه هي النهايةُ التي ينتهي إليها والدُ إبراهيم عليه السلام، وهو يستحقُّ هذه النهايَة الفاجعة، وهذه الصورةَ المنفرة، لأنه كان في الدنيا في منزلةٍ أحطَّ من الحيوانات، لأنه أَلغى عقلَه فعبدَ الأصنام، وأغلقَ قلبه فلم يستجبْ لدعوةِ الهدى، وهذه هي حقيقةُ كلِّ كافر، في أيِّ زمانٍ أو مكان.

[٩]

إبراهيم يدعو قومه ويقيم الحجة عليهم

المحطة الثانية: دعوته لقومه:

كانت المحطةُ الثانيةُ لإِبراهيمَ عليه السلام بعد دعوته لأبيه، هي انتقاله إلى قومه، ليدعوهم إلى التخلي عن الكفر، وتركِ عبادة الأصنام، والإِيمانِ بالله وحده، وكان أبوه من جملةِ المدعوّين مع قومه.

وقد أشارتْ آياتٌ في بعض السورِ إلى هذه المحطة في دعوته،

منها آياتٌ في سور: الأنعام، والأنبياء، والشعراء، والعنكبوت، والصافات.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [سورة الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩].

هل كان يبحث عن إله؟:

وهناك إشكالٌ في فهم قولِ إبراهيمَ عن الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، فكيف يقولُ ذلك وهو نبي؟؟

ذهبَ بعضُ العلماء والمفسرين إلى أنَّ هذه الآياتِ تخبرُ عن مرحلةٍ متقدمةٍ من حياة إبراهيمَ عليه السلام، وهذه المرحلة كانت في شبابه، وقبلَ أن يأتيه الوحي، ويعرفَ الله عن طريقه ويكونَ نبياً.

وذهبوا إلى أنَّ إبراهيمَ في شبابه، كان يبحثُ عن إلهٍ يصلحُ أنْ يكون إلهاً، وفطرتُه وعقله يرفضان اعتبارَ ما يعبده قومُه آلهة.

قالوا: إن إبراهيمَ كان في مقام بحثٍ ونظر وتحليل، وكان قومُه يعبدون القمرَ والنجمَ والشمس، فأرادَ أن يَعرفَ هل هذه فعلاً آلهة، وهل قومُه على صوابٍ في عبادتها.

قال عن الكوكب ـ أوّلاً ـ ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ على احتمالِ أنْ يكون رباً، فهل هو ربٌّ فعلاً؟ لقد غاب، والربُّ لا يغيب عن الكون، إذن قادتْه فطرتُه إلى رفضِ أن يكونَ هذا الكوكبُ الآفلُ الغائبُ رباً.

فلْيبحثْ عن غيره. ها هو القمرُ بازغاً. فهل يصلحُ أنْ يكون رباً

فلْيجرب، فقال عنه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ليرى صحةَ احتمالِ كونه رباً، ولما غاب رفضتْ فطرتُه أنْ يكون هذا الآفلُ الغائبُ رباً.

والبديلُ الثالثُ الشمس، ها هي مشرقةٌ كبيرة، إذن هي رب، فلْيجرب، لقد غابت، والربُّ لا يغيب، إذن لا تصلحُ أن تكونَ رباً.

بعد ذلك عرفَ الله وحده، واهتدى إِليه، وآمن به، وهذا كلُّه كان قبلَ النبوة.

هذا قولُ بعضِ المفسرين، منهم الطبري من القدماء، وسيد قطب من المعاصرين.

ولكننا لسنا مع هؤلاء الأئمةِ الأعلام، مع إِجلالنا لهم، ولا نرى أنَّ هذا المشهدَ الذي تخبرُ عنه الآياتُ كان قبل نبوته، وأنه كان حائراً يبحثُ عن إله.

كان يدعو قومه ويجادلهم:

إننا مع جمهورِ العلماء والمفسرين من أنَّ هذا المشهدَ كان بعد نبوته، وأنه يسجلُ دعوةَ إبراهيم لقومه، وأنه كان في مقام مناظرةٍ وجدال وحجاج وبرهان، وأنه كان يبطلُ كونَ هذه الكواكب التي يعبدونها ـ الكوكب والشمس والقمر ـ آلهةً، وأنه كان يتوجَّهُ بهم بالتدريج إلى إِثباتِ ألوهيةِ الله وحده.

وقوله عن الكوكب والقمر والشمس ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ليس من باب البحثِ والنظر، فهو قبلَ أن يقولَ ذلك نبي رسول، وهو يعلمُ أن اللَّهَ وحده هو ربُّ العالمين، ولكنه قال ذلك من بابِ جدالهم ونقاشهم.

وكأنه يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، كما تقولون وتَدَّعون، فلأُسلِّمْ معكم جَدلاً أنه رب، وتعالوا ننظر معاً: هل هو رَبٌّ فعلاً، وهل يصلحُ أن يكون رباً. انظروا: لقد غاب، وهل الرَّبُّ يغيبُ عن ملكه؟ وعندما يغيبُ فمن يدبرُ الكونَ بعده؟ فكِّروا: إن الكوكبَ لا يصلحُ أن يكون رباً، لقد غاب والربُّ لا يغيب!.

ماذا تعبدون أيضاً؟ القمر. ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ سلَّمنا جدلاً أنه رب، لكن لقد غاب، والربُّ لا يَغيب.

ثم ماذا تعبدون أيضاً؟ الشمس، وتكَبِّرونها لأنها أكبر. ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ من بابِ التسليم الجدلي. لكن لقد غابت، إذن لا تصلحُ أن تكونَ رباً.

لقد نجحَ إبراهيمُ عليه السلام في نقاشِ وجدالِ قومه، وإقامةِ الحجة عليهم، وكان في مقامِ مناظرةٍ ودعوة وبرهان، واستخدمَ معهم المنطق البرهاني، ووسائلَ الإِيضاح، لقد خاطبَ قلوبهم وعقولَهم: هذه الكواكب غابت، والربُّ لا يغيب عن الكون.

إذن مَن هو الرب؟ إنه الله ربُّ العالمين، إنه ربُّ إبراهيم، ولذلك دعاهم إلى الإيمانِ به صراحةً في آخر آياتِ المشهد: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾.

ثناء الله على منطقه وحجته:

لقد كان إبراهيم مؤمناً بالله، ونبياً رسولاً، قبلَ أن يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى في بدايةِ آياتِ هذا المشهد: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾.

فهو قبلَ أن يقولَ ذلك، أنكرَ على أبيه جعْلَ غيرِ الله إلهاً، وقد أَراه الله ملكوتَ السماوات والأرض، وعرفَ الله بصفاته وأفعاله وملكه، وكان مؤمناً موقناً موحِّداً لله، وبعد ذلك قالَ لقومه ما قال، وقد علَّمه الله أن يقولَ ذلك.

ولهذا مدحَ الله إبراهيمَ لهذا الموقفِ الناجحِ في نقضِ ألوهيةِ

وربوبية الكواكب، وإثباتِ ألوهيةِ وربوبية الله وحده، وأخبرتْنا آياتُ سورة الأنعام أن اللّهَ هو الذي علّمه هذه الحجة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

وما دمنا معَ دعوةِ إبراهيم عليه السلام لقومه، وإقامةِ الحجةِ على بطلان عباداتهم الزائفة، فلْنذكرْ هذه الآيات، في نفس الموضوع:

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦].

قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ دليلٌ آخر، يُضافُ إلى ما أوردْناه من أدلةٍ قبلَ قليل، لإثباتِ أنَّ إبراهيمَ كان في مناظرةٍ لقومه، عندما قال عن الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾.

يخبرنا الله أنه قد آتى إبراهيمَ رشدَه وعلْمَه ومنطقَه وحجتَه، قبل أنْ يتوجَّه إلى قومه، ويدعوهم إلى الله، وكان الله عالماً به وبإيمانه وبقوله وبدعوته، وهو الذي يعلِّمه ماذا يقول لقومه.

إبراهيم يبطل عبادة الأصنام:

وأنكرَ إبراهيمُ على قومه عبادةَ الأصنام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

ولا تناقضَ بين عبادةِ قومه للكواكب، وبين عبادتهم للأصنام والتماثيل، فقد عبدوا هذا وعبدوا هذا، وكثرتْ عندهم الآلهةُ والأربابُ المعبودة من دون الله.

وردَّ عليه قومُه بأنهم «ورثوا» عبادةَ الأصنام عن آبائهم، ولا يجوزُ لهم الشكُّ في دين آبائهم، ولا التخلي عن ما عبدوه، فهم على طريقهم سائرون.

وبما أنهم مُتابعون مقلِّدون لآبائهم، فلا بدَّ أن يهزَّهم إبراهيمُ هزةً قوية، وأنْ يُثيرَهم في خطابه لعلَّهم يستيقظون، ولهذا فاجأهم قائلاً: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وفوجئوا بكلامِهِ واتهامِهِ لآبائهم، ولهذا ظنوه لاعباً هازلاً معهم، فليس من المعقولِ أن يتهمَ آباءهم: قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟.

ظنَّ هؤلاء أن موضوعَ الإيمان والعقيدة، يمكنُ أن يكونَ خاضعاً للعب واللهو، ولهذا اعتبروا إبراهيم لاعباً في كلامه.

فأزالَ إبراهيمُ ظنهم، وقدَّمَ لهم الحقيقةَ واضحة، وعرَّفَهم على طبيعة الإيمان.. الرب لا بدَّ أنْ يكون خالقاً، ولا بدَّ أن يكون مالكاً: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقد فصلتْ آياتُ سورةِ الشعراء قليلاً في هذا الجانبِ من دعوةِ إبراهيمَ لقومه. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢].

في سورةِ الأنبياء يقولُ لهم إبراهيمُ عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

وفي سورة الشعراء يجيبونَه هم على سؤاله قائلين: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

ويريدُ إبراهيمُ عليه السلام بحججه القوية أنْ يبطلَ كونَ هذه الأصنامِ آلهة، ولهذا بيَّنَ لعابديها عجْزَها عن نفعهم، وطرحَ عليهم أسئلة، هم يعلمون جوابَها، ويريدُ منهم الانتباهَ والتيقظ: هل يسمعونكم عندما تدعونهم؟ الجواب البديهي: لا يسمعوننا، فكيف الربُّ لا يسمعُ عبادةَ عابديه؟ وهل ينفعونكم؟ وهل يضرونكم؟ لأنَّ الإِلٰه لا بد أن يكونَ قادراً على جلبِ النفعِ أو دفع الضر. والجواب البدهي: أنهم لا ينفعوننا ولا يضروننا، فكيفَ يكونُ إلٰهاً وهو عاجز عن النفعِ أو الضر؟ إنه منطقٌ واضح، وبرهان مقنع.

إذن: لماذا تعبدونها طالما أنها ليستْ آلهة؟

الجواب: نعبدُها متابعين مقلِّدين لآبائنا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

ويواجه إبراهيم عليه السلام قومه بإعلان عداوته لآلهتهم الباطلة، وبراءته منها: «﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ويعرف قومه على بعض أفعال الله:

إذا كانت معبوداتُهم الباطلة عاجزة عن فعلِ أي شيء، فعليه أن يبينَ لهم بعضَ صفاتِ الله رب العالمين. إن الله هو: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

الله هو الذي يخلق، والذي يهدي، والذي يطعم، والذي يسقي، والذي يبتلي بالمرض، والذي يشفي، والذي يميت، والذي يحيي، والذي يحاسبُ الناسَ يوم القيامة، والذي يغفرُ لمؤمنيهم ويدخلهم الجنة.

فهو وحده الإِلهُ الرب، وغيرُه لا يصلحُ لأن يكون إلٰهاً أو رباً.

أما ما سجلَتْه آياتُ سورة العنكبوت عن دعوته لقومه، فهي في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٨].

يأمرُ إبراهيمُ عليه السلام قومَه بعبادةِ الله وحده. ثم يبينُ لهم عجزَ آلهتهم عن فعلِ أيِّ شيء، ويوجِّههم إلى الله القوي القادر الفاعل المريد، وهو الخالقُ الرازق، الذي يجبُ أنْ يَعبدوه، وأن يشكروه، فإن رفضوا دعوتَه، وأصروا على التكذيب فإنَّ العذابَ قادمٌ إليهم، كما حلَّ بالكفار من قبلهم.

[١٠]

إبراهيم يدعو الملك إلى الله

الخطوة الثالثة: دعوته للملك في سورة البقرة:

الخطوةُ الثالثةُ التي لا بدَّ أنْ يَخطوها إبراهيمُ عليه السلام في دعوته إلى الله، هي دعوةُ الملك. وهي انتقال مرحليٌّ متدرج منظم: لقد بدأَ دعوتَه مع أبيه أقربِ الناسِ إليه، ثم انتقل يدعو قومَه، وهي الدائرةُ الأوسع، ثم الخطوة الثالثة، وهي دعوةُ الملك، رأسِ القوم.

ومن المفهومِ المعروفِ أنه لما ناقشَ وجادلَ وحاجج قومَه، انتشرتْ دعوتُه بين الناس، واشتهرَ أمره، وذاعَ صيتُه، وعرفَ الناسُ من هو هذا الفتى، وما هي دعوته، وماذا يريد.

ومن المفهوم أن تكون دعوتُه قد وصلتْ بلاطَ الملك، وأن يكون

الملكُ قد سمِعَ به، ولذلك توجَّه إبراهيمُ عليه السلام إلى الملك داعياً ومحاججاً ومجادلاً.

وقد سجلتْ آيةٌ من سورة البقرة بعضَ الحوارِ الذي جرى بينه وبين الملك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

مَن هو هذا الملكُ الذي جادلَه إبراهيم؟ وما هي مظاهرُ مُلكه؟ وما هي قصةُ ادعائه الألوهية؟ وما اسمُ مملكته وعاصمته؟ وكيف كانت نهايتُه؟.

هذه أسئلةٌ لا جوابَ عليها في القرآن، ولا في حديثِ رسول الله ﷺ، ونعتبرُها من «مبهمات القرآن» التي يجبُ إبقاؤُها على إبهامها، لأنها لم تبيَّن في النصوصِ الصحيحةِ المعتمدة!

نعلمُ أن هذه الأسئلةَ عليها إجاباتٌ مفصَّلةٌ في الإِسرائيليات، وأن هذه المبهمات مبيَّنة في الأساطير، فالإِخباريون ورواةُ الإِسرائيليات يقولون: الملكُ اسمه «نمرود»، وكان ملكاً على «بابل»، وأن الله أهلكه بالبعوضة، دخلتْ من أنفِه إلى دماغه، وكانت «تطنُّ» في دماغه وتزعجُه، فيطلبُ ضرْبَه بالنعالِ ليذهبَ الألم.. إلى غير ذلك من الإِسرائيليات.

نتوقفُ في هٰذه التفاصيل، ولا نقولُ بها، ونتعاملُ مع الآية كما تعاملَ معها الصحابة، ونفهم قصةَ إبراهيمَ مع الملك كما فهمها الصحابة، ونسكتُ عن ما سكتوا عنه، ويسعُنا ما وسعَهم.

كلُّ ما نقول عن ذلك الملك: إنه كان ملكاً كافراً، ادَّعى الألوهية، وكان الناسُ يعبدونه من دون الله، فتوجَّهَ إبراهيمُ عليه السلام إليه، وحاجَّه وجادَلَه وناقشه، وأقامَ الحجة عليه، ثم أفحمه وغلَبه،

فكان الملكُ أمامَ إبراهيم مغلوباً مهزوماً مبهوتاً!

غرور الملك بملكه:

ونقفُ مع جُمل الآية وقفاتٍ سريعة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: الخطابُ للرسول ﷺ، ولكلِّ متدبرٍ معْتَبِرٍ من أمته، يَدْعوه إلى الاستفادةِ والاعتبار من قصةِ إبراهيم مع الملك.

والآيةُ لا تذكرُ معلوماتٍ شخصيةً مفصلةً عن الملك، وتحرصُ على إبقاءِ هذه التفاصيل مبهمة، لأنها لا داعيَ ولا ضرورة لها في الاعتبار.

هذا الملك ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: أي: رفضَ دعوةَ إبراهيم الموجَّهة له، كيْ يتخلّى عن ادعاءِ الربوبية، ويعلنَ خضوعَه لله رب العالمين، واستسلامَه له، واتخاذَه له رباً.

رفضَ هذا الملكُ دعوةَ إبراهيم لأنه اغترَّ بملكه: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، وهذا المُلْكُ الذي يتمتعُ به، لم ينلْه لقوةٍ ذاتية فيه، ولا لأنه ربٌّ أو إلٰه، أو تَجري فيه دماء خاصة، إن هذا المُلك من الله، فالله هو الذي آتاه المُلك، ولكن اغترارَه بملكه أعماه عن رؤيةِ هذه الحقيقة، فنسيَ الله وفضلَه عليه، واعتبره مُلْكاً شخصياً، وإرْثاً ذاتياً له.

الحياة والموت بين الأسباب والمسببات:

كيفَ دعاه إبراهيمُ إلى الله؟ وكيف بيَّن له عجْزَه البشريَّ الذي لا يجعله إلٰهاً أو رباً؟

تناولَ إبراهيمُ مسألةَ الحياة والموت، وهي مسألةٌ ملحوظة مُعاشة، ففي كلِّ يوم وكلِّ ساعة يولَدُ أشخاصٌ ويحيون، وفي كل يوم وكل ساعة يموتُ أشخاص ويُدفنون.

والموتُ والحياةُ بيد الله، ولهذا قالَ إبراهيمُ لذلك الملك: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

مَن الذي يخلقُ الناس؟ إنه الله. من الذي يجعلُهم يولَدون ويحَيون ويَعيشون؟ إنه الله.

ثم مَن الذي يُميتُ الناس؟ إنه الله، مَن الذي يُنهي آجالَهم ويَقبضُ أرواحهم؟ إنه الله.

الله الذي يحيي ويميت، وهذا أمْرٌ بدهي فطري، يَعلمُه الناسُ جميعاً، مسلموهم وكافروهم على السواء.

لكن ذلك الملكَ المغرورَ لم يسلِّم بهذا، بل ادَّعى أنه هو أيضاً يُحيي ويميت: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

إنه لم يفرقْ بين الأَسباب والمسببات، فاعتبر السبب مسبِّباً. هو مَلك، وهو يحكمُ ويأمر، وبهذه الصفة قد يكون سبباً مباشراً في الموت والحياة، صحيح، فقد يأمرُ بإعدامِ وقتْلِ شخص، فيموتُ ذلك الشخصُ بسبب أمره وحكمه، لكن مَن هو المسبِّبُ والمريدُ والمقدِّرُ في ذلك؟ ومن هو الذي أماتَه في الحقيقة؟ إنه الله ربُّ العالمين.

وإِذا أمرَ الملكُ بقتلِ شخص، ثم أَصدرَ أمره بالعفوِ عنه وإطلاقِ سراحه، فهو سببٌ مباشرٌ في استئنافِ حياته، لكن مَن هو المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريد؟ إنه الله. مَن الذي ألهمه العفو؟ إنه الله. إذن: الذي أحياهُ في الحقيقة هو الله.

إبراهيم يتحدى الملك ويعجزه:

وأمامَ غفلةِ الملك عن التفريقِ بين الأَسباب والمسبِّبات، لم يشأ إبراهيمُ عليه السلام، الاسترسالَ في جداله في هذه المسألة، وتعليمَه الفرقَ بين الموت والحياة، وإنما أرادَ الانتقالَ إلى مثالٍ آخر، أكثرَ وضوحاً على وحدانيةِ الله، وأوضحَ دلالةً على عجز الملك، إنه تغييرُ حركة الشمس: قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

مَنْ هو ذلك الشخصُ العاقلُ الذي يَدَّعي التحكمَ في مسارِ الكون، وتسييرِ أفلاكه كما يشاء، ولو كان مَلِكاً، ولو مهما ملكَ من أسبابِ ومظاهر القوة؟

لقد ساقَ إبراهيمُ عليه السلام هذا المثالَ أمامَ الملك ليُريه عجْزه، وطلبَ منه هذا الطلبَ لأنه يعلمُ أنه غيرُ قادرٍ على تحقيقِه.

إن هذا أبرزُ دليلٍ على وحدانية الله، وأعتى كافرٍ لم يدَّعِ السيطرةَ عليه.

هل يستطيعُ الكافرُ حتى لو كان ملكاً قوياً ـ تغييرَ حركةِ الشمس؟ هل يستطيعُ الإتيانَ بها من المغرب؟ وهل يَقدرُ على منع مغيبها؟ وهل يَقدرُ على إبقاءِ النهار، وعدمِ حلول الظلام؟

لا يَملكُ الملكُ الكافر أمامَ هذا الطلب العجيب من إبراهيم إلاّ أنْ يُبهت، ولا يملكُ أمام هذا التحدي الكبيرِ إلا الاعترافَ بالعجز.

وإذا عجزَ عن التحكم في الكون فليس إلٰهاً ولا رباً، لأن الله لا يعَجزُ عن شيء، ولا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ويهمّنا أنْ نستفيدَ من موقفِ إبراهيم عليه السلام أمامَ الملك، قوةَ حجته، ووضوح برهانه، وعظمةَ منطقه، وهذه هي سماتُ دعوةِ الحق دائماً.

ولقد غلبَ إبراهيمُ عليه السلام بالحقّ الذي معه، الملكَ المغرورَ والباطلَ الذي معه، وأظهرَه ضعيفاً عاجزاً، مغلوباً مبهوتاً.

ولقد تمتعَ إبراهيمُ عليه السلام في خطابه للملك الظالم بالجرأةِ والعزةِ والشجاعة، فلم يرهبْه، ولم يضعفْ أمامَه، ولم يجبنْ عن قول الحق، ولم يتلعثمْ أو يداهنْ أو يتراجع. وهذا درسٌ دعويٌّ للدعاةِ الحريصين على أداءِ واجب الدعوة، وإقامةِ الحجة.

[١١]

إبراهيم يحطم الأصنام

الخطوة التالية: تحطيمه الأصنام وهدفه منه:

تحطيمُ إبراهيمَ عليه السلام للأصنام هو الخطوةُ التاليةُ لخطواته السابقة، متسقةً معها ومبنيةً عليها.

فقد دعا أَباه إِلى الإِيمان، ولكنه رفضَ دعوتَه، لأنه يعبدُ الأَصنام.

وقد دعا قومَه إلى الإِيمان، ولكنهم رفضوا دعوتَه بسببِ الأصنام.

وقد دعا الملكَ إلى الإيمان، ولكنه رفض دعوته بسبب الأصنام.

فالأصنامُ هي الحجابُ الحاجزُ الذي يحولُ بينهم وبين الإِيمان، وهي السببُ في رفضهم دعوتَه.

فكَّرَ إبراهيمُ عليه السلام في هذه المسألة، فلا بدَّ أنْ يزيلَ ذلك السبب، وأنْ يقضيَ على ذلك الحجابِ المانع، لعلَّهم يفكِّرون بدعوته بعد تحطيمِ هذا السد، ولعلَّهم يؤمنون به بعد إزالةِ هذا الحاجز.

فكان تحطيمُه للأصنام بهذه النية، في هذه المرحلةِ المتأخرة من مراحلِ دعوتِه لقومه.

لقد أشارتْ آياتُ بعضِ السورِ إلى هذه الحادثة. آياتٌ من سورة الأنبياء، ومن سورة الصافات.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ

أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٦٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٩٤].

لقد بدأ إبراهيمُ عليه السلام كلامَه مع قومه بالدعوة، واستخدم منطقَ الإقناع العقلي، وخاطبَ قلوبَهم وعقولَهم وفطرهم وأرواحَهم، خطاباً دعوياً عقلياً مقنعاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؟ ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟

ولكنهم رفضوا دعوتَه، وأغلقوا قلوبَهم وعقولَهم عن منطقِ دعوتِه، وأصروا على عبادةِ تلك الأصنام، التي فنَّدَ عبادتَها، وأبطلَ كونَها آلهةً بالمنطقِ والحجة والبرهان.

فلا بدَّ أنْ يتوجَّهَ إلى أصنامِهم ومعبوداتِهم ليحطمَها، لعلهم يؤمنون بعد ذلك.

لقد أخبرهم قبل تحطيمِه لأصنامِهم، وهدَدهم تهديداً صريحاً، وكشفَ لهم عن بعض ما يبيِّتُه لأصنامهم. قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أقسمَ لهم بالله، وحلفَ لهم اليمين ﴿وَتَٱللَّهِ﴾، وذلك ليصدقوه في تهديدِهِ لأصنامهم: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾.

أخبرهم بعزمه على كيد أصنامهم:

أي: إنني أنوي إيقاعَ شيء بأصنامِكم، وأُريدُ فعْلَ شيء ضارٍّ بها،

وهذا الشيءُ ليس أمامكم، وإنما خفيةٌ عنكم، وذلك بعدَ أنْ تُدْبروا عنها، وبعد أنْ تخرجوا من البلد: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

لقد كان إبراهيمُ عليه السلام صريحاً في موقفه من قومه، وكان فعلُه معهم علنيّاً ومكشوفاً، حيث علمَ القومُ أنَّ إبراهيمَ سيفعل بأصنامهم فعلاً، ويوقعُ بها ضرراً، لكن ما الذي سيفعلُه بها؟ ومتى سيفعلُه بها؟ وكيفَ سيفعلُه بها؟ لم يخبرهمْ عن هذه التفاصيل، حتى لا يستعدُّوا له، ولا يرتِّبوا حراسةً مشددةً لأصنامهم.

إنه فقط يريدُ منهم أنْ يتوجَّسوا خيفة، ويريدُ أنْ يبقيَهم في حالةِ ترقُّبٍ وانتباهٍ وانتظار، أما القرارُ في تحديدِ الزمان والمكانِ والكيفية، فهو له، إنه يملكُ زمامَ الموقف.

وهذا من إبراهيمَ عليه السلام حسنُ إدارةٍ للمعركة والمواجهةِ بينه وبين قومه، هو قائدُ المعركة وسيد الموقف، وعلى الدعاةِ أن يقتدوا بإبراهيمَ عليه السلام في هذا الجانب، وأنْ يملكوا هم الخطواتِ المدروسةَ الذكيةَ في مواجهتهم لأعدائهم، وأن لا تكون خطواتُهم مجردَ «ردودِ أفعال» على قراراتِ الأعداء.

نظره في النجوم وقوله إني سقيم:

وحانَ موعدُ تنفيذِ إبراهيم لتهديده، وجاءَ الظرفُ المناسبُ لتحطيم الأصنام.

هذا الظرفُ المناسبُ في قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

لقد نظرَ إبراهيمُ عليه السلام في النجوم، ليعرفَ التوقيتَ والتاريخَ والحساب، فعرفَ من خلال نظرهِ في النجوم، قربَ حلول يوم عيدٍ لهم، يحتفلونَ به على طريقتهم الخاصة، ويمارسونَ فيه الفجورَ والمنكر والكفر والشرك، ويقدِّمون فيه الطعامَ والقرابين لأصنامهم وآلهتهم.

ولما تذكَّر إبراهيمُ ما سيفعلُه قومه من المنكرات والكفر يوم

عيدهم، أُصيبَ بالهمّ والغم، والضيقِ والحزن، وهذا هو السقمُ والمرضُ في قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾.

أخبرَ إبراهيمُ قومَه أنه سقيم، ويبدو أنّ إخباره لهم بذلك جاءَ رداً على دعوتِهم له للخروج معهم إلى البرّ، للاحتفالِ بالعيد، ولذلك تركوه وحده، وخرجوا هم للاحتفال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)﴾.

لقد كان إبراهيمُ عليه السلام صادقاً في الحقيقةِ في قوله لقومه: إنه سقيم.

الحديث عن ثلاث كذبات لإبراهيم:

فلماذا اعتُبر قولُه هذا كذباً، كما في الحديثِ الصحيح؟ روى أَبو هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات. ثنتين منهنَّ في ذاتِ الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وبينما هو ذاتَ يومٍ وسارة، إذْ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيلَ له: إن هاهنا رجلاً، معَه امرأةٌ من أحسنِ الناس. فأرسلَ إليه، فسألَه عنها. فقال: مَن هذه؟ قال: أُختي.

فأتى سارة، فقال: يا سارة: ليس على وجهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرُك، وإنَّ هذا سألَني، فأخبرتُه أنك أُختي، فلا تُكَذّبيني فأرسلَ إليها. فلما دخلتْ عليه ذهبَ يتناولُها بيده، فأُخِذ.

فقال: اِدْعي الله لي، ولا أَضرُّك. فدعَتْ الله، فأُطْلِق.

ثم تناولها ثانية، فأُخِذَ مثلَها أو أشدّ.

فقال: اِدْعي الله لي، ولا أضرُّك، فدعَتْ، فأُطْلِق.

فدعا بعضَ حجبَتِه، فقال: إنكَ لم تأْتِني بإنسان. إنما أتيتَني بشيطان!

فأَخدَمَها هاجر. فأتته وهو قائمٌ يصلّي، فأومأَ بيده: مَهيم؟

قالت: ردَّ الله كيدَ الفاجر في نحره، وأَخْدَمَ هاجرَ.

قال أبو هريرة: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماء السماء!!»[1].

هذا الحديثُ الصحيحُ الذي رواه الشيخان وغيرُهما، يَنسبُ فيه الرسولُ ﷺ إلى إبراهيمَ عليه السلام ثلاثَ كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.. ولما سُئل عن تحطيم الأصنام قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقولُه للملكِ الظالم عن زوجه سارة: إِنها أُخْتُه.

فكيف جازَ أنْ يقولَ إبراهيمُ ذلك، وهو نبي، والأنبياءُ معصومون من الكذب؟ هل كان كاذباً فيما قال؟ وإنْ لم يكن كاذباً فلماذا اعتُبر كلامُه كذباً؟.

قوله: إني سقيم من المعاريض:

نوجِّهُ في هذا المقام قولَه الأول ـ أو الكذبةَ الأول ـ أما القولان الآخران فنوجِّهُهما عندما نصلُ في كلامنا عن قصته إليهما، إن شاء الله.

لم يكن إبراهيمُ كاذباً في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بل كان صادقاً في ذلك، ومعنى ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض.

ومرضه ليس مرضاً عُضوياً جسميّاً ماديّاً، أي: لم يكن مرضُه في جسمه، في يديْه أو رجليْه مثلاً.

إنَّ سقمَه ومرضَه في نفسه، فهو سقمٌ نفسيٌّ معنوي، لأنه قَرُبَ حلولُ عيدِهم، ولأنهم يفجرون ويكفرُون في عيدِهم، فلما حلَّ العيدُ تألَّم إبراهيمُ وحزنَ مما سيفعلونه، وأُصيبتْ نفسُه بالهمّ والغمّ، والضيق والألم، وهذا سقمٌ نفسي، أصابَ نفسه.

فهو إذن صادقٌ في قوله لهم: إني سقيم منكم، حزينٌ متألم مغمومٌ مما ستفعلون.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢١٧. ومسلم برقم: ٢٣٧١، وغيرهما. انظر رسالة الأحاديث الصحيحة: رقم: ٨٦.

فلماذ اعتَبرَ الحديثُ هذا القولَ من إبراهيم كذباً.

لأنه يشبهُ الكذبَ في الظاهر، بينما هو يختلفُ عنه في الحقيقة. فعندما سمعَ القومُ من إبراهيم أنه سقيم، فَهموا منه السقَمَ الجسمي، والمرضَ المادي، وحملوه على المرضِ المعروف، بينما أرادَ هو المرضَ والسقَمَ النفسيَّ المتمثلَ في الهمِّ والحزن.

أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام استخدمَ طريقةَ «المعاريض»، والمعاريضُ مأخوذةٌ من التعريض، وهو أن تتكلمَ أنت بكلام، تريدُ به شيئاً، بينما يَفهمُ المخاطبُ منه شيئاً آخر.

والمعاريضُ تشبهُ الكذبَ، في الظاهر، لكنها ليستْ منه وإنما هي من الحقيقة، و «إنَّ في المعاريضِ لمندوحةً من الكذب»، فهي تُغْني عن الكذب، ومَن اضطرَّ إليها يستخدُمها وهو صادق، ولا يستخدمُ الكذب!

وهذا ما فعلَه إبراهيمُ عليه السلام، فقولُه من باب المعاريضِ وليس من باب الكذب. والله أعلم!

المهمُّ إنَّ إبراهيمَ عليه السلام قال لقومه: إني سقيم. وهو يقصدُ الحزنَ والغمَّ والهم، ففهموا منه سقَمَ الجسمِ والبدن، فتركوه، وذهبوا إلى الاحتفالِ في عيدهم.

حان وقت تنفيذ خطته:

قالَ لهم كما أَخبرتْ سورةُ الأنبياء: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

وحانتْ فرصةُ تنفيذِ خطته، كما قالت سورة الصافات: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

ولاحِظْ معنا اتفاقَ سورتي الأنبياءِ والصافات على التعبيرِ عن الحقيقة: تولِّيهم عن إبراهيم، وإِدبارهم عنه، وكأنَّ سورةَ الأنبياء تقدمُ

الوعدَ بما سيحصل، وسورةَ الصافات ـ التي بعدها في ترتيب المصحف ـ تقدمُ تحقيقَ الوعد وحصولَه فعلاً.

ذهبَ إبراهيمُ عليه السلام إلى أصنامهم، وليس عندها أحدٌ من حراسِها أو عابديها، ويبدو أنهم كانوا قد وضَعوا طعامَهم عندها، وخرجوا للاحتفالِ بعيدِهم، وذلك لتباركَ لهم الطعام، ثم يأكلونَه بعد مباركتها له.

وهنا حانتْ فرصةُ إبراهيمَ المناسبة لتحطيم الأصنام، وتنفيذِ تهديده: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

إن كلمة «راغ» لم تُذكَرْ في القرآن إلا ثلاث مرات فقط، ووردت كلُّها في قصةِ إبراهيم عليه السلام. مرتان في تحطيمهِ الأصنام في سورة الصافات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾.

والمرةُ الثالثةُ في تقديمِه العجلَ السمينَ لضيوفه من الملائكة: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: ٢٦].

و «راغ» فعل ماضٍ، مشتق من الروغ.

قال الإمامُ ابن فارس في معناه: «الرَّوْغُ: يدلُّ على ميلٍ وقلةِ استقرار.

يقال: راغَ الثعلب يروغ. وطريقٌ رائغ: مائل. وراغَ فلان إلى كذا: إذا مالَ سرّاً إليه»[1].

فلما قالت الآيةُ عن ذهابِ إبراهيمَ إلى الأصنام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: أرادتْ تقريرَ ذهابِه إليهم بسريةٍ دونَ أنْ يراه أَحد، وبسرعةٍ ليحقِّقَ ما نواه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢: ٤٦٠.

كلام إبراهيم مع الأصنام:

دخلَ إبراهيمُ إلىٰ الأَصنام ليحطِّمها، فوجدَ طعامَ القوم أمامها، وأراد أنْ يسخرَ منها ومن عابديها، وبدا له أنْ «ينكِّتَ» عليها، وهي جمادات، لا تسمعُ ولا تعي ولا تتكلم، ولا ترى، ولا تدري ما يجري أَمامها. فقال لها: كلوا!!، وهو ما أَرَادَ حقيقة دعوتها إلى الأكل، لأنه يعلم أنها جامدة لا تأكل ولا تشرب، وإنما أراد أن يسخر منها وأن يضحك عليها.

طبعاً لم تلبِّ الأصنامُ دعوتهُ، ولم تأكلْ من الطعام كما أنها لم تردّ عليه. ولم تكلِّمه، ولم تعتذر عن عدم تلبية الدعوة، فقال لها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴿٩٢﴾﴾؟ لماذا لم تردّوا عليّ؟ لماذا لا تكلموني؟

والحوارُ بينه وبين الأصنام هو حوارٌ من طرفٍ واحد، فهو يتكلمُ ويسأل، وهي أصنامٌ جامدة لا تسمعُ ولا تفهم ولا تُجيب، وهو يعلمُ ذلك منها وهو يحاورها، لكنه أرادَ أنْ «يتسلّى» قبلَ أن يحطمَها، أراد أن يسخرَ منها، وأن يضحكَ عليها.

وهذا الكلامُ منه لها قبلَ تحطيمها يدلُّ على تمتُّعِه بهدوءِ الأعصاب، وصفاءِ النفس، وإشراق الروح، فهو ليس متسرعاً ولا قلقاً ولا متشنجاً ولا خائفاً ولا متوتراً!!

عند ذلك أقدمَ على خطوتِه التنفيذية الفعلية: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴿٩٣﴾﴾.

تحطيمه لها باليمين:

أقبلَ إبراهيمُ على الأصنام يحطمُها، ومالَ إليها يضربُها بأداةٍ قوية متينة، كان يحملُها بيده اليمنى. فمضى ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ضربها بيده اليمنى، وحطمها بالأداةِ التي كان يحملُها بيده اليمنى.

ومعلوم أن غالب الناس يستخدم الواحد منهم يده اليمنى في

الحمل والاستعمال، واليدُ اليمنى عند غالب الناس أقوى من اليد اليسرى. ولهذا استعمل إبراهيم عليه السلام يده اليمنى في تحطيم الأصنام!.

وانتهتْ عمليةُ تحطيمِ الأصنام، حيث حطمها كلَّها إلاّ واحداً.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. والجُذاذُ هي المكسرةُ المحطمة.

قال الراغب: «الجَذُّ: كسرُ الشيء وتفتيتُه. يقال لحجارة الذهبِ المكسورةِ ولفتاتِ الذهب: جُذاذ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾»[1].

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يعرفُ ماذا يفعل، ويخططُ لما بعد فعله، وكلُّ تصرفٍ عنده مدروسٌ هادف، ويريدُ منه تحقيقَ شيء آخر.

فتحطيمُه الأصنام ليس بمجردِ تحطيمها والتخلص منها، وإنما ليزيل الحاجزَ المادي، الذي يحولُ بين قومه وبين الإيمان.

وقد أبقى كبيرَ الأصنام بدون تحطيم، وذلك لهدفٍ بيِّن: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

أبقى الصنمَ الكبيرَ لعلهم يرجعون إليه، ويسألونَه عمن فعلَ ذلك! لأنهم عندما يعودون إلى آلهتهم سيجدونها محطمةً مفتّتَةً مكسَّرة، وسيفاجَؤون بذلك، ولا يَعرفون مَنْ حطَّمها.

وعندما يجدون الصنمَ الكبير سليماً فعليهم أنْ يَرجعوا إليه، وأنْ يسألوه! ألم يكن موجوداً؟ ألم يشاهِدْ تحطيمَ الآلهة الصغيرة؟ ألم يَرَ الشخصَ الذي حطمها؟ إذن عنده الخبرُ اليقيني، فلا بدَّ أنْ يسألوه! ألم نقلْ إن خطوات إبراهيم وأفعاله مدروسة؟ وإنه كان يعي ويعرف ماذا يفعل؟

(١) المفردات: ١٩٠.

لذلك ترك الصنم الكبير بدون تحطيم!

[١٢]
محاكمة إبراهيم عليه السلام

مفاجأة القوم أمام الآلهة المحطمة:

عادَ القومُ من احتفالِهم وعيدِهم، وذهبوا إلى أصنامهم، فوجدوها محطمة، إلا الصنمَ الكبير، ففوجئوا واستغربوا ودُهشوا، وسألوا عمن حطمها، فتذكَّروا التهديدَ الذي صدرَ عن إبراهيم عليه السلام، عندما سبق أنْ قالَ لهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾..

إذن إبراهيمُ هو الذي حطَّمها. ولا بد أنْ يُحاكم على فعلتِه أمام الناس، وأن يصدرَ عليه الحكمُ المناسب، وأن ينال جزاءَه وعقابه.

وقد أشارت آياتُ القرآن إلى محاكمة إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٤ ـ ٩٦].

القومُ لا يريدون أنْ ينتبهوا أو يستيقظوا، فهم مصرّون على عمَاهم وضلالهم.

إن الحادثَ الذي أمامهم كفيلٌ بإيقاظ القلوب، وإزالة الحجبِ والأغشية، لمن أرادَ أن يتذكرَ أو يستيقظ.

هل هذه الأخشابُ والأحجارُ المنحوتة آلهة؟ وهل ما زالتْ آلهةً رغم تحطيمها وتكسيرها؟

إذا كانت آلهةً فلماذا لم تدفعْ عن نفسها؟ لماذا لم تنتقم ممن أرادَ تحطيمها؟ لماذا لم تنتقم من فعلتِه؟.

ثم ما دورُ الصنم الكبير الذي بقي بدون تحطيم؟ لماذا لم يدافعْ عن الآلهةِ الصغار؟

اتهامهم لإبراهيم وتنقيصه:

هذه الأسئلةُ لم تدرْ في أذهانهم، لأنها مطموسةٌ قلوبهم! لما شاهدوها محطمةً تساءلوا عمن حطمها: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾.

هل الإنسانُ الضعيفُ العاجز قادرٌ على إيقاع الضر والأذى بالآلهة؟ إن الكفارَ بدون منطقِ عقلي، ولهذا قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾.

ورأساً أصدروا إدانةً له قبل معرفةِ هويته: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ظالمٌ للآلهة لأنه حطمها، وظالم لهم لأنه اعتدى على آلهتهم.

وتذكَّروا تهديدَ إبراهيم السابقَ لهم ولآلهتهم، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

لقد أرادوا تنقيصَ إبراهيم عليه السلام، والحطَّ من شأنه، وكلُّ كلمة في هذه العبارة توحي بذلك.

إن إبراهيمَ عليه السلام معروفٌ عندهم، وهو ملءُ السمع والبصر، وكم سمعوا كلامَه، وعرفوا قصتَه ودعوته حتى وصلتْ للملك.

أما بعدَ ما حطمَ الأصنام فهو ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

﴿فَتًى﴾: كلمةُ تحقيرٍ وتقليل. إنه فتى طائشٌ مندفع متهور، وليس رجلاً كبيراً، ناضجاً واعياً متعقلاً، ففعلتُه لا يُقدمُ عليها إلا فتى مندفع!!.

هذا الفتى المندفعُ المتهورُ كان ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ ويذمُّ عبادتَهم، ولا يعتبرهم آلهة، وقد هددَ بكيدِهم وإيذائهم.

فقد سمعناه وهو يقول لنا من قبل: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

وهذا الفتى المندفع: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾. هكذا: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ﴾ بهذا الإهمالِ والتنقيصِ والازدراءِ والاحتقار. مع أنه علمٌ معروفٌ عندهم، ملءُ السمع والبصر فيهم.

محاكمة إبراهيم أمام الناس:

وأصدرَ الملأُ من القوم الحكمَ بإحضاره، ومحاكمته أمام الناس: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.

أَحْضِروا إبراهيمَ وسوقوه، وأْتُوا به، وأَوقِفوه، واجْمَعوا له الناس، لِيروه بأعينهم، وينظروا إليه، ولِيزدادوا له كرهاً، لأنه هو الذي حطمَ آلهتهم، وليشهدوا محاكمته، وليشاركوا في إصدار الحكم عليه.

إن الملأَ من قومه يريدون أن يُهيِّجوا الناسَ على إبراهيم عليه السلام، وأن يجنِّدوهم ضده، وأن يُشركوهم في إدانته وعقابه.

وكأنهم بقولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يحاكمونه في «محكمة الشعب» ويُصدرون عليه «حكم الشعب»، وينفِّذون فيه «إرادة الشعب»، وكأن الشعبَ كلَّه يَكْرَهه ويحاكمه ويُدينه، وليسوا وحدهم في ذلك، فما هم إلا منفِّذون لحكم الشعب!

وجاؤوا بإبراهيمَ عليه السلام أمام الشعب، وبدؤوا بمحاكمته على أعينِ الناس، وشكّلوا له محكمةً قضائية.

وقبلَ النظر في آياتِ سورة الأنبياء التي سجلت مُحاكَمَتَهُ ننظرُ في آيات سورة الصافات!

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. إنَّ قولَه: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ يصورُ الصورة المهتاجةَ المتشنجة التي عامَلوه بها، وواجَهوه على أساسها.

قال الإمام الراغب في معنى ﴿يَزِفُّونَ﴾:

«يزفون: يُسرعون. و «يُزِفُّون» بضم الياء: يحَملون أصحابهم على الزَّفيف، وهو الإِسراع.

وأصلُ الزفيف في هبوب الريح، وسرعةِ النَّعام التي تخلطُ الطيرانَ بالمشي. وزَفْزَفَ النعام: أسرع.

ومنه استعير: زَفُّ العروس. وهي استعارةُ ما يقتضي السرعة، لا من أجلِ مشيتها، ولكن للذهابِ بها على خفةٍ من السرور»[1].

لقد هجموا عليه مهتاجين صاخبين مسرعين، وهيَّجوا الآخرين معهم، وأسرعَ الجميعُ إِليه يزفون.

إبراهيم يناقشهم بموضوعية:

ولما ناقشهم إبراهيمُ عليه السلام كان نقاشه معهم موضوعياً عقلياً منطقياً مقنعاً، لكن القومَ لا يريدون أن يقتنعوا، ولا ينفعُ معهم المنطق.

قال لهم: كيف تنحتون الأصنامَ نحتاً، وتجعلونها تماثيلَ جميلة، ثم تجعلونَها آلهة، وتعبدونها. إنكم أنتم الذين نحتُّموها وصنعتموها، وأنتم أقوى منها، وهل يصنعُ الإِنسانُ ربَّه؟ ثم يعبدُه بعد ذلك، ويطلبُ

---

(١) المفردات للراغب: ٣٨٠.

منه كشفَ الضر أو جلبَ النفع؟

وقال لهم: إن الله خلقكم، وخلقَ ما تعملون وتنحتون من هذه الأصنام الآلهة، فعليكم أنْ تعبدوه وحده، لأنه وحدَه هو الخالق، فبما أنه لا خالقَ إلا الله، فيجب أن يكون: لا معبودَ إلا الله.

إن قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يُرادُ به الأصنام التي عملوها بأيديهم، فالله خلقهم وخلقَ أصنامَهم التي عملوها.

وليس مقصودُ الآية أنْ تبينَ أن الله يخلقُ الإنسان ويخلقُ عمله، وأن أعمال الإنسان مخلوقة من قبل الله. لا تبحثُ الآية في هذه المسألة وليس هذا موضوعها، ومن أراد البحثَ عن هذه المسألة في القرآن، فليبحثْ عن آياتٍ أخرى!!.

لم يستمع القومُ لمنطقهِ الموضوعي، وأصروا على محاكمته، وأرادوا اعترافَه بارتكابِ الفعل، ليُدينوه باعترافه، ويعاقِبوه على فعله. لكنَّ إبراهيمَ تغلبَ عليهم بمنطقهِ وحجته وبرهانه، وبدلَ أن يحاكموه حاكمهم هو، وبدلَ أنْ يُفحموه أَفحمهم هو، وبدلَ أن يضعفَ هو أمامهم، ضعفوا هم أمامه.

لقد صار هو القاضي، وصاروا متَّهمين أمامه، أدانَهم ووبَّخهم وأقامَ الحجةَ عليهم، وهذا هو منطقُ الحق دائماً، وهذا هو موقف جنديِّ الحق دائماً عندما يواجِه جنودَ الباطل.

فطنته في جوابهم على سؤالهم:

قالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

سألوه إن كانَ هو الذي حطم آلهتهم، وهم ما أرادوا الاستعلام والاستخبار، وما أرادوا حقيقةَ السؤال!.

لأنهم يعلمون ويوقِنون أنه هو الذي فعل ذلك. فقد سبقَ أن أعلنَ لهم قائلاً: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾. وقد

صرحوا بأنه هو الذي فعلها: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ورغم علمِهم الجازمِ بذلك إلا أنهم سألوه، إنْ كانَ هو الذي فعل ذلك، وهدَفُهم من السؤال هو أخذُ اعترافٍ صريح من إبراهيم بأنه هو الذي فعلَها، وإسماعُ الناس المحتشدين اعترافَ إبراهيم، ليجعلوا هذا مادةَ إدانةٍ ضده وعقابٍ له.

وفطنَ إبراهيمُ عليه السلام إلى مقصدهم من سؤالهم، ففوَّتَ عليهم الفرصة، وكان بذلك أكثرَ فطنةً ووعياً منهم.

لذلك ردَّ على سؤالهم قائلاً: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

هل تهربَ إبراهيمُ من مسؤوليةِ ما فعل؟ وهل أنكرَ أنْ يكونَ قد فعل؟ وهل كذبَ فيما قاله لهم؟

إنه لم يَهرب، ولم يُنكر، ولم يَكذب. بل إنه لم يُجبهم على سؤالهم، لأنه يعرفُ أنهم ليسوا جادّين في توجيهِ له، ويعرفُ أنهم يعرفون أنه هو الذي حطمَ الأصنام.

لقد أَضربَ عن الجواب بحرف «بل» في الآية: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. ومعروفٌ أن «بل» في اللغة حرفٌ للإضراب والانتقال. أي: إضرابٌ عن كلام سابق، وانتقالٌ إلى معنى آخر جديد.

لقد أهملَهم إبراهيم، وأهملَ سؤالَهم، ولم يحقق لهم هدفَهم من السؤال، ولم يسجلْ على نفسه إدانةً له، وإنما جرَّهم إليه، وأوقعهم في خطته.

قال لهم: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: حطمَ الأصنامَ هذا الصنمُ الكبيرُ السليم.

﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾: اسألوا الصنمَ الكبيرَ إن كان

ينطق: هل أنتَ حطمتَ الأصنام، واسألوا الأصنامَ المحطمةَ المكسرة إنْ كانتْ تنطق: مَن الذي حطمَكِ؟.

هذا ما كان يريدُ إبراهيم أنْ يصلَ إليه، عندما تركَ الصنمَ الكبير بدون تحطيم: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

والآن: فليرجعوا إلى الصنم الكبير، وليسألوه، وها هو إبراهيمُ عليه السلام يتحداهم أنْ يسألوه.

لماذا لا يسألونَه؟ أليس إلٰهاً يعبدونه؟ والإلٰه يعلم كلَّ شيء.

إنه لم ينكرْ أنه فعلَ ما فعل، ولو أرادَ أن ينكر لقال: إنني لم أفعلْ ذلك، وعندها يكون كاذباً.

أما إضرابُه عن الجواب وانتقالُه إلى موضوع آخر، فليس كذباً ولا تهرباً، ولكنه ذكاءٌ وفطنة، وحسنُ إقامةِ للحجة.

والحديثُ الصحيح ـ الذي سبقَ أنْ أوردناه ـ اعتبر قولَ إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كذباً، ولم يُرِدْ أنه كذبٌ في الحقيقة والواقع، وإنما هو وافقَه في الظاهر، مع أنه خالفَه في الحقيقة. ولموافقتهِ له في الظاهر اعتبِر كذباً. والله أعلم.

إبراهيم يصل إلى قلوبهم ويفحمهم:

لقد لمسَ إبراهيمُ بكلامه قلوبَهم لمسةً سريعة، ونجحَ في إقامةِ الحجة عليهم، وفي إفحامِهم وهزيمتهم. إنه داعيةٌ ناجح، ومجادلٌ موفق، وإن خطواتِه مدروسة ومقصودة وهادفة.

ومِن تأثُّرهم بكلامه القوي أنهم رجعوا إلى أنفسهم فلاموها، واعترفوا بظلمهم وخطئهم: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: رَجعوا إلى أنفسهم لائمين. إذ كيف يحاكمونَ إبراهيم،

ويَعتبرونه مذنباً، وهم المذنبون المخطِئون، لأنهم يعبدون هذه التماثيلَ والأصنام، ويعتبرونها آلهة، وهي لا تصلحُ لذلك، وها هي لا تُجيبهُم ولا تكلمهم.

واعترفوا في داخِلهم أن إبراهيمَ على حق، وأنه ليس ظالماً في تحطيمه للأصنام، بل هم الظالمون في عبادتهم لها. ولهذا همسوا فيما بينَهم قائلين: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وهم في هذا الكلام يُكَذِّبون أنفسَهم في كلامهم السابق عندما قالوا: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

إنها لحظةُ صدقٍ يمرون بها، وإنها ومضةُ نورٍ نجحَ إبراهيمُ في إيصالها إلى قلوبهم، فأشرقَتْ بها لحظة، ثم أظلمتْ من جديد. وفي هذه الإشراقة النورانية الخاطفة، تكلموا بالحق قائلين: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وبعد ذلك شعروا بالخزي. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾: أَحسوا أنهم قد غُلبوا وهُزموا، وذاقوا مرارةَ الانتكاس والإخفاق والذل، وأرادوا محاكمةَ إبراهيم، فتحوَّلوا إلى متَّهمين مغلوبين.

ولهذا خاطبوا إبراهيم خطاباً كلُّه خزي وذل ومرارة، وقالوا له: يا إبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تريدُ منّا أن نسألَهم؟ إنك تعلمُ أنهم لا يتكلمون؟.

إذن لماذا يعبدونَهم، مع أنهم بهذا العجزِ والضعف والهوان؟ وكيف اعتبروهم آلهةً مكان الله.

إبراهيم في قمة الانتصار في المحكمة:

وسجلَ إبراهيمُ عليه السلام قمةَ انتصاره عليهم، وظهر بمظهرِ

القاضي في المحكمة، الذي يُصدرُ حكمه على المجرم، ويذمُّه ويلومُه ويعنفه ويقرعُه.

ولذلك قال لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

كيف تعبدونَ هذه الأصنامَ الضعيفة العاجزة؟ وها هي أمامكم محطمةً مكسرة، فلو كانت آلهةً لدفعت عن نفسها. وإذا كانت عاجزةً عن جلبِ نفعٍ لها، أو دفعِ ضر عنها، فهل تقدرُ على جلبِ نفعٍ لكم، أو دفع ضر عنكم؟.

إنها أصنامٌ لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم، فكيف تعبدونَها من دون الله؟.

إنه لا يُعْبَدُ إلا الله، لأنه وحدَه القويُّ القادرُ القاهر، هو وحده الذي يقدِّمُ لعباده وعابديه النفع، ويدفعُ عنهم الضر.

وناسبَ الموقفُ أن يهزَّ إبراهيمُ عليه السلام قومَه هزةً قوية، وأنْ يخاطبهم خطاباً عالياً، ولذلك قال لهم: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

و ﴿أُفّٖ﴾: كلمةُ إنكارٍ لما هم عليه من ضلال، وإعلانِ الرفض لباطلهم وكفرهم. أُفٌّ لهم، وأُفٌّ لأصنامهم، وأفٌّ لآلهتهم الباطلة، وأفٌّ لكل ما يعبدون من دون الله.

وختَمَ إبراهيمُ عليه السلام بيانَه لقومه، وإفحامَه لهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟ وهذا إنكارٌ آخر عليهم، وذمٌّ آخر لهم، وإقرارُ أنهم لا يعقلون.. لا يَستخدمون عقولَهم، ولا يؤثّر فيهم المنطقُ العقلي، ولا الحجةُ المنطقية، لأنهم عطلوا عقولَهم بكفرهم وضلالهم!.

أرادوا محاكمةَ إبراهيم فحاكَمهم، وأرادوا إدانتَه فأدانَهم، وغلَبهم بمنطقِه الإيماني، وحجتِه العقلية، وانتصرَ بالحق الذي يمثله، والهدى الذي يحملُه، وهذا هو منطق الحق دائماً، وهكذا غلبةُ الحق دائماً!.

[١٣]

الله ينجي إبراهيم من النار

هزيمة القوم أمام حجة إبراهيم وانتقالهم إلى التعذيب

هُزِمَ القومُ الكفارُ أمامَ حجة ومنطق إبراهيم عليه السلام، واعترفوا بهزيمتهم، وأنّى للباطل أن يصمدَ أمامَ الحق، أو يقف أمام حقائقه؟.

وجنودُ الباطل مغلوبون دائماً أمام جنود الحق، لأنهم لا يملكون حجةً ولا برهاناً ولا إقناعاً. وهذا ما حصلَ من القوم أمامَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وبدلَ أنْ يستسلموا للحق، ويتَّبعوا الهدى، ويتخلّوا عن الباطل، فقد لجؤوا في مواجهة إبراهيم عليه السلام إلى أسلوبٍ آخر، هو أسلوبُ العنفِ والتعذيب والإِيذاء.

وهذا هو أسلوبُ الضعيف العاجزِ عن مواجهة الحق بالحجة، المهزومِ أمام المنطق العقلي الموضوعي، حيث يلجأُ إلى استعمال اليد والقوة والبطش، والعصا والسوط.

وهكذا هم أصحابُ الباطل الظالمون المجرمون دائماً، وهذا هو أسلوبُهم في كل زمان ومكان، إنهم لا يقفون أمام صوتِ الحق والعقل والمنطق الذي يقدمه جنودُ الحق، ويعجزون عن تفنيدِ براهينهم وحججهم، وينهزمون أمامهم في المواجهة الإِنسانية العقلية البرهانية، فيلجؤون إلى البطشِ والتعذيب، ويستعملون أيديهم وأرجلهم، وهذا هو منطقُ الحيوانات، التي لا تستخدمُ عقولَها ـ إذ لا عقولَ لها ـ فتلجأ إلى استخدامِ أرجلها وأسنانها وقرونها، لتصفية خلافاتها، وحلِّ نزاعاتها!!.

أصدرَ القومُ الكافرون الظالمون على إبراهيم عليه السلام حكْمَهم الجائرَ بحرقِه بالنار، ولكنَّ الله أنجاه منها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، وجعلَهم أسفلين أخسرين مُخْفِقين مهزومين.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

حشدَ الملأُ من القوم الناسَ ضد إبراهيم، وهيَّجوهم عليه، وقالوا لهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

﴿حَرِّقُوهُ﴾: حرِّقوه بالنار، لأنه حطم الأصنام.

«حرِّقوه أو اقتلوه» إما القتل، وإما الإحراقُ بالنار. وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وضعوا خيارين: إمّا قتلُه وإما إحراقُه بالنار، كما تشير آية سورة العنكبوت. ثم استقروا على إحراقهِ، وألغوا التفكيرِ بقتله، كما تشيرُ آيةُ سورة الأنبياء، وآية سورة الصافات.

أمرَ الملأُ من قومه الناسَ بنصرة آلهتهم التي حطمَها إبراهيم: ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

وهذا كلامٌ سخيف مضحك، فما هي هذه الآلهةُ الضعيفة العاجزة، التي عجزتْ عن الدفاعِ عن نفسها أمام يمينِ إبراهيم القوية؟ ما هي هذه الآلهةُ التي تمكّن إبراهيمُ الإنسانُ المخلوقُ من تحطيمها وتكسيرها؟ ولو كانت آلهةً فعلاً فهل يقدرُ إبراهيمُ عليها؟

وما هي هذه الآلهةُ العاجزةُ التي تحتاج إلى نصرةِ عابديها؟ التي تنتظرُ من عابديها أن يُدافعوا عنها، وأن يَردوا العدوانَ عنها، وأنْ يحرقوا الإنسانَ الذي تغلبَ عليها؟ هل هذه آلهة؟

هل فكّروا بعقولهم لما قالوا: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟ لا، ولو فكروا لما قالوا هذا الكلام السخيف المضحك.

ألقوا إبراهيم في جحيمهم:

وحتى يكونَ إحراقُه بالنار مؤثراً، فلا بدَّ أن يُبنىٰ له بناءٌ خاص، وأن يمتلىءَ ناراً، ثم يُلقى فيه، وهم فوقه على حافةِ البناء، يتفرجون عليه: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

والجحيمُ الذي أعدّوه له هو النارُ المشتعلةُ في ذلك البنيان، وهو مشتقٌّ من «الجَحْم».

قال الإمام الراغب: الجَحْمُ: شدةُ تأجُجِ النار. ومنه الجحيم. وجَحُمَ وجَهُه من شدة الغضب، استعارة من جحْمَة النار، وذلك من ثورانِ حرارةِ القلب»[1].

لكن أين جحيمُهم الذي أعدوه، ليحرقوا به إبراهيمَ عليه السلام خليلَ الله، من الجحيمِ الذي أعدّه الله لهم ليعذبَهم بناره الموقَدَة يوم القيامة؟.

لقد سلبَ الله نارَهم وجحيمهم خاصيةَ الإِحراق، ونارُهم إلى انطفاءٍ وانتهاء وزوال، أما نارُ الله الموقدة، فلا تنطفئ ولا تنتهي ولا تزول!.

ولما اشتعلت النارُ في بنيانهم وجحيمهم، أخذوا إبراهيمَ عليه السلام، وأَلْقوه فيها!

كيف أَلقوه فيها؟ وما هي الأداةُ والوسيلةُ التي استعملوها في ذلك؟ لا ندري لعدمِ وجودِ حديثٍ صحيح عن رسول الله ﷺ.

ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام أحدٌ من البشر، لينصرَه ويساعدَه

---

(١) المفردات: ١٨٧.

ويدفعَ عنه، ولكنَّ الله كان معه، ناصراً ومؤيداً ومعيناً. ولم يستنجدْ إبراهيمُ عليه السلام بأحد من البشر، ولم يتوسَّلْ إلى الظالمين من قومه، ولم يتخلَّ عن الحق الذي معه.

لقد لجأ إلى الله وحده، لأنه يعلمُ أنه القويُّ القادر القاهر، فدعاه واستنجدَ به، وفوَّضَ أمره إليه، وتوكلَ عليه.

كلامه وسط النار وتعاطف الدواب معه:

روى الإمامُ البخاريُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد، حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

قولُ إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ هو قمَّةُ الإيمان واليقين والتوكل والتوحيد، وهذا هو الإيمانُ بالله، الإيمانُ الإيجابي الذي يوجِّهُ حركةَ المؤمن، وهذه هي العقيدة في الله، العقيدةُ التي تؤثرُ في حياة صاحبها.

وهذا الموقفُ الإيمانيُّ العظيم لإبراهيم عليه السلام، مَعْلَم بارز من معالم العقيدة والدعوة، وكلُّ مؤمن داعية يواجهُ قوى الباطل والظلم، ويقعُ عليه ضررهم وأذاهم، مطالبٌ بأن يقتديَ بإبراهيم عليه السلام في ذلك، ويُخلصَ توكلَه على الله، واستسلامَه له، ويقينَه به، وتفويضَ أمره كله إليه، وأن يعيش دائماً معاني وحقائقَ وآثارَ ونتائج قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وكان الله مع إبراهيم، فألقىٰ في قلوب الدواب والحيوانات الشفقةَ على إبراهيم، حين خلتْ قلوبُ البشر الظالمين منها، وحاولتْ هذه الدوابُّ إطفاءَ النار، إلا «الوَزَغ» الذي كان ينفخ عليها ليزيدَها اشتعالاً!!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٦٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٩.

روى البخاري ومسلم عن أُمِّ شريك رضي الله عنها قالت: أمر رسولُ الله ﷺ بقتْل الوَزَغ، وقال: كان ينفخُ على إبراهيمَ عليه السلام»[1].

وروى ابن ماجه وأحمد عن عائشةَ رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ لما أُلقيَ في النار، لم يكن في الأرض دابةٌ إلا أطفأت النارَ عنه، غيرَ الوَزغ فإنها كانتْ تنفخُ عليه»[2].

والوَزَغُ دابةٌ ممسوخة، يسمى باسم «سَامْ أَبْرَص» وهو يعيشُ على الجدران والسقوف والشقوق، وحجمه أصغرُ من «الحَرْذون»، ويُسمى في بلاد الشام «أبو بريص».

الله مع إبراهيم والنار برد وسلام عليه:

وكان الله مع إبراهيم عليه السلام، فأحدثَ معجزةً باهرة، فتلك النارُ المتأججةُ كانت كفيلةً بإحراقِ كل شيء، بل صهرِ الحديد، ولكن الله سلبها خاصيةَ الإِحراق، وجعلها مجردَ نارٍ شكلية خارجية ظاهرية، لكنها لا تحرق.

فلما أُلقيَ إبراهيمُ في النار، أمرها الله قائلاً: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾. ونَفَّذت النارُ المطبقةُ أمْرَ ربها، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وكان إبراهيمُ وسطها منعَّماً سعيداً سالماً راضياً، لم يمسه سوء، ولم يصبْه أذى.

جمعت النارُ أمرينْ طيبيْن متلازمين: البرد والسلامة. ولو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه، لكانت عليه بَرْداً فقط. وعندها يُخشى أنْ يؤذيه بردُها، والله لا يريدُ أن يؤذيَه بردُها، بل يريدُ أن يكون بردُها

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٠٧. ومسلم برقم: ٢٢٣٧. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٨٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم: ٣٢٣١. وأحمد في المسند ٦: ٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٨١.

منعشاً ساراً لطيفاً، وأنْ يحقِّق لإبراهيمَ السلامة.

ولما منَّ الله على إبراهيم بفضله، وفتحَ له من رحمته، حَوَّل الضيقَ والكربَ إلى فرج وسعادة، حَوَّل النارَ الحارقة إلى برد وسلام، وفي ذلك يقول الله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

لقد فتحَ الله على خليله إبراهيم وهو وسطَ النار المشتعلة باباً من رحمته، فوصلَتْه الرحمةُ الربانية، وحَوَّلت النارَ إلى برد وسلام عليه، وهل يستطيعُ الكافرون الظالمون إمساكَ تلك الرحمة وإيقافَها عن إبراهيم؟ مَنْ رحمةُ الله فلا يوقفُ تلك الرحمةَ أحد!

أَرادوا إحراقَه فأخفقوا، وأَرادوا إذلالَه فذُلّوا وغُلبوا، وخرجَ إبراهيمُ من النار سليماً مُعافى، وأَنجاه الله منها، بفضْلِ توكُّله عليه، وتفويضِ أمره إليه.

انتصر إبراهيمُ وربح وفاز، وهُزم الكفارُ وخَسروا: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

كادوا ضدّه، وتآمَروا عليه، ولكنَّ الله معه، ولهذا أخفقوا وخسروا، ولم يكونوا خاسرين فقط، بل كانوا أَخسرين، والأَخسرُ أشدُّ خسارةً من الخاسر.

توجيه آيتي الأنبياء والصافات:

أخبرتْ آيتان عن إخفاقِهم وهزيمتهم وخسارتهم، مع اختلافِ في التعبير.

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

فلماذا هذا الاختلافُ في التعبير؟ لماذا قال: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، في سورة الأنبياء.

وقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في سورة الصافات؟.

إن السياقَ هو الذي يحددُ الكلمةَ التي تتفقُ معه، وهو سرُّ هذا الاختلاف في التعبير.

في سورة الأنبياء قال القوم الكفار: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، فقد أرادوا نصْرَ آلهتِهم بإحراقه، ولكن الله نصر نبيه وخذلَ أعداءه، وأبطل كيدهم.

ما الذي يقابلُ النصر؟ إنه الهزيمةُ والخسارة، لقد أرادوا نصْرَ آلهتهم فهزمهم الله، وأرادوا الفوزَ والربح، فأوقعَ اللَّهُ بهم الخسارة.

كلمةُ ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، تناسبها كلمةُ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾.

«أما في سورة الصافات» فقد قال الكفار: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾، حيث أَلقوه إلقاءً من أعلى إلى أَسفل، وطرحوه في الجحيم وسط البنيان، وكانوا هم على شفا البنيان، يتفرجونَ على إبراهيم، وكان إبراهيمُ أسفل منهم ـ من حيث المكان ـ ففي الاعتبارِ المادي كانوا هم أعلى يتفرجون، وكان إبراهيمُ أسفلَ منهم في الجحيم.

ولهذا ناسب أن تُسجِّلَ النتيجةَ الكلمةُ المقابلةُ للعلو والارتفاع المادي، ولهذا قالت: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، فهم الأسفلون في المنزلة، وإن كانوا الأعلى في المكان، وإبراهيم هو الأعلى مكانة، وإن كان أسفلَ منهم في المكان!!!.

[١٤]

إبراهيم يتبرأ من قومه ويفارقهم

وصلت العلاقةُ بين إبراهيمَ عليه السلام وبين قومه إلى طريقٍ مسدود، ولم يعد هناك مجالٌ لإصلاحها. فإبراهيمُ رسولٌ داعية، قدمَ لهم الحق، ولكنهم رفضوا دعوتَه، وأصروا على كفرهم، وحاكموه بسبب تحطيمه أصنامهم، وحرقوه بالنار لولا أنَّ اللَّهَ أنجاه منها.

إبراهيم يتبرأ من قومه ويعتزلهم:

أمامَ إصرارِ القوم على كفرهم، لم يكن أمامَ إبراهيمَ عليه السلام إلا أنْ يتبرأَ منهم، وأن يفاصلَهم، وأن يُظهرَ لهم عداوتَه وبغضاءَه، مع أنهم أهله وأقاربُه وقومه، وفيهم أبوه أقربُ الناسِ إليه.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هذا الموقف الإيمانيَّ العظيم له، وأثنتْ على ما قام به من البراءة والمفاصلة، ودعت الآياتُ المؤمنين إلى الاقتداءِ والائْتساءِ بإبراهيم عليه السلام.

من هذه الآيات قولُ الله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٩].

أمامَ تهديدِ أبيه له، وإيذاءِ قومه له، أعلنَ إبراهيمُ لهم مفارقته واعتزالَه إياهم، لقد اعتزلَهم بعدما قدم لهم الدعوة، وأقامَ عليهم الحجة، وحرصَ على هدايتِهم وإنقاذهم، ولكنهم لم يستجيبوا له، فماذا يمكنُ أن يفعلَ لهم؟ لم يعد لبقائِه بينهم ووجودِه معهم من فائدة، إذن فلْيعتزلْهم ويتركْهم، ويهاجرْ إلى بلادٍ أخرى، يقوم فيها بواجبِ الدعوة إلى الله!

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

إنها البراءةُ الإِيمانيةُ من الكفر والكفار، يعلنُها إبراهيمُ عليه السلام عالية واضحة، ويخاطبُ أباه وقومَه خطاباً صريحاً محدداً.

يقول لهم: إنني بَراءٌ منكم، وبَراءٌ مما تعبدون من دون الله، براءٌ منكم براءةً فاصلة حاسمة، إنني أفاصلكم، وأتبرأُ منكم، وأقطعُ كلَّ

صلة لي بكم، مع أنكم أقاربي وقومي، لكن لم تعدْ تربطني بكم رابطة، ولم تصِلْني بكم صلة، لأنني على الإيمان، وأنتم على الكفر، واختلافُ الدين يوجد المفاصلةَ والبراءةَ التامة، بحيث لم تعد تنفع معه صلةٌ أو قرابة أو مصلحة.

إبراهيمُ عليه السلام بهذه البراءة والمفاصلة، يريدُ أن يقررَ مَعْلَماً هاماً، من معالمِ العقيدة ومعالم الدعوة ومعالم الطريق، ويريدُ أنْ يرسيَ هذا الأساس، ويقدمَ هذه الحقيقة، ويتركَها كلمةً باقيةً لعَقِبِهِ وذريته الذين يأتون من بعده: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٢٨﴾﴾.

جعلَ إبراهيمُ هذه الحقيقة الإِيمانية الدعوية كلمةً باقية في عَقِبِهِ وذريته، مستمرةً في حياتهم، واضحةً في تصورهم، وعندما يواجهون القومَ الكافرين يَرجعون إلى أَبيهم إبراهيم، يقتدون ويأتسون به في هذه البراءةِ الإِيمانية، ويتعلَّمونها منه.

وتبقى هذه الحقيقةُ الإِيمانيةُ باقيةً في عَقِبِ إبراهيمَ والمؤمنين حتى قيام الساعة، يَرجعون إليها ويستفيدون منها.

دعوة المؤمنين للاقتداء بإبراهيم في هذا الموقف:

ودعانا اللَّهُ إلى الاقتداءِ والاتساءِ بإبراهيم عليه السلام وأَتباعه المؤمنين في براءتهم ومفاصلتهم لقومهم الكافرين.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦].

لقد جاءتْ هذه الآياتُ من سورةِ الممتحنة، تعقيباً على حادثةِ

الصحابي «حاطِبِ بنِ أَبي بَلْتَعة» رضي الله عنه، في كتابه الذي كتبه إلى أقاربه في مكة، يخبرُهم فيه بتوجُّه الرسولِ ﷺ إلى مكة ليفتحها، وذلك لينجوا بأنفسهم. وقد شعر «حاطب» بخطئِه، وتابَ إلى ربه، فعفا عنه رسولُ الله ﷺ.

لقد كان «الولاءُ والبراء» واضحاً في تصوُّرِ حاطبِ بن أبي بلتعة، رضي الله عنه، كما كان واضحاً في تصَوُّر باقي الصحابة. ولم يكن فعلُه موالاةً منه لأقاربه الكفار في مكة، وإنما محاولةً لتقديمِ خدمةٍ لهم، مع براءته منهم لكفرهم.

ومع ذلك لامَهُ الرسولُ ﷺ، وأنزلَ اللَّهُ آياتٍ من سورة الممتحنة، تعقِّبُ تلك الآياتُ على فعل «حاطب»، وترسِّخُ مفهوم «الولاء والبراء» في تصوُّر المسلمين، وتستشهدُ بموقفِ إبراهيم عليه السلام وأَتْباعه المؤمنين، وبراءِتهم من أقاربهم الكافرين، وتدعو المسلمين إلى الاقتداءِ بهم في ذلك.

تقولُ الآياتُ للمسلمين: يجبُ أن تكونَ لكم أسوةٌ حسنة وقدوةٌ طيبة، في موقفِ إبراهيمَ والذين معه من المؤمنين، حيث أعلنوا فيه براءتهم من قومهم الكافرين.

قال إبراهيم وأَتْباعُه لقومهم: إنّا بُرَءاءُ منكم، وبُرَءاءُ مما تعبدون من دون الله. لقد كفْرنا بكم، وكفرْنا بكل ما تعبدون من دون الله لأننا على الحق، وأنتم على الباطل، ولم يعد هناك لقاءٌ أو ارتباط بيننا وبينكم.

ورغم أنكم قومُنا وأقاربُنا من حيث النَّسَب، إلا أننا بعيدون عنكم، وأنتم بعيدون عنا، لاختلاف الدين.

لقد ظهرتْ بسبب ذلك بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء، إننا الآن نُعاديكم لكفركم، وأنتم تعادوننا لإِيماننا، وإننا الآن نبغضكم لكفركم وأنتم تبغضوننا لإِيماننا، فها هي العداوةُ والبغضاءُ واضحةٌ بارزةٌ الآن بيننا وبينكم.

وستبقى البراءةُ قائمة، وتبقى المفاصلةُ مستمرة، وتبقى العداوة والبغضاء، لا تنتهي ولا تتوقفُ ولا تزول، ستبقى هكذا إلى الأبد.

تزولُ العداوة والبغضاء فقط في حالةٍ واحدة، هي أَن تتخلَّوا أنتم عن الباطلِ والكفر وعبادة الأصنام، وتؤمنوا بالله وحدَه، وتعبدوا اللَّهَ وحده، وتُخلصوا لله وحده، وتدخلوا معنا في ديننا.

إنْ فعلتُم ذلك أصبحتم إخوةً لنا، وحلَّت المحبةُ والمودة بيننا وبينكم محلَّ العداوة والبغضاء، وعَمَّقْنا معكم الولاء، بدلَ المفاصلة والبراء.

هذا هو الموقفُ الذي يجبُ أنْ يقفَه المسلمون من أقاربهم الكفار، أما موقفُ إبراهيم من أبيه، ووعْدُه له أن يستغفر له، فلا يقتدوا به فيه، لأن لهِ ملابساتٍ وظروفاً خاصة، وقد نصَّت الآيةُ على ذلك، مستثنية له: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وهذا الإجمالُ هنا مفصَّلٌ نوعاً ما في سورة التوبة. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وقد تكلَّمْنا عن هذه الآياتِ من قبل، عندما بيَّنا موقفَ إبراهيم عليه السلام من أبيه.

وسجلتْ آياتُ سورة الممتحنة دعاءَ إبراهيم والمؤمنين الذين معه، وذلك في قولهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

المفاصلة والبراءة بعد الدعوة والبلاغ:

ونحبّ أنْ نذكُرَ أنَّ إبراهيمَ ومَن معه من المؤمنين قد فاصَلوا

قومَهم الكفارَ وتبرؤوا منهم، بعد أنْ قاموا بواجبهم نحوهم، ودعَوْهم وذكَّروهم ونصحوهم، وخاطَبوهم بالحكمة والتعقل،، وقدموا لهم الحججَ والبراهين، وأقاموا عليهم الحجة. ولكن قومَهم رفضوا ما معهم من الحق، وأصرّوا على كفرهم وضلالهم. فماذا يفعلُ المؤمنون أمام هذا العناد؟ لم يبقَ لهم إلا البراءةُ والمفاصلة.

لقد أقامَ إبراهيمُ عليه السلام الحجةَ على قومه، أكثرَ من مرة، عندما أبطلَ كونَ الكواكب آلهةً لغيابِها وأفولها، وعندما أبطَل كونَ التماثيل آلهة، بعدما حطَّمها وكسَّرها.

إن إبراهيمَ عليه السلام مجادلٌ ومناقشٌ ومحاججٌ من الدرجة الأولى، ولقد وهبه الله أسلوباً ومنطقاً وبرهاناً، ينجحُ فيه في الاستدلال على ما معه من الحق، وتفنيدِ ما عليه خصمُه من الباطل.

على هذا الأساس نفهمُ هذه الآيات من سورة الأنعام، التي جاءت بعد جدالِ إبراهيم لقومه، وإبطالِه كونَ الكواكب آلهة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٨٣].

حاجَجَه قومُه وحاججهم، وجادلَه قومه وجادلَهم، فأفحمهم ودحضَ كلامَهم، وقال لهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾. أي: أنا

على يقين أنني على الحق، وقد هداني ربي للحق، فكيف تحاجّونني في إيماني بالله؟ وكيف تريدون مني أنْ أتركَ هذا الهدى، وأتبعَ ما أنتم عليه من الضلال!

إبراهيم يقرر قاعدة الأمن والخوف:

ولما رأى قومُه ثباتَه على الحق هدّدوه، وخوّفوه من آلهتهم، فإن أصرَّ على مهاجمتها فستؤذيه وتضرُّه، عندها صارحهم بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

وأخبرهم أن الأمرَ أَمْرُ الله، والقَدَرَ قَدَرُه، فإنْ أرادَ اللَّهُ أن يوقعَ به الأذى والضر عن طريقهم، فسيقعُ ذلك به لا محالة، لأنَّ اللَّهَ أراده، وما هم إلا سبب لذلك: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وأمامَ تهديدِهم وتخويفهم له، وضع المسألةَ في إطارها الصحيح، مَنْ هو الأولى بالأمن، هل المسلمُ المؤمِن بالله، أم الكافرُ المتمردُ على الله؟ ومَنْ هو الأَوْلى بالخوف؟ هل هو المؤمنُ الآمِنُ لإِيمانه بالله، أم هو الكافرُ القلقُ الذي حاربه الله؟

ولهذا قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يريدُ لهم أنْ يَخافوا، لأنهم أشركوا بالله وكفروا به، ولا يجوزُ أنْ يشعرَ الكافرُ بالأمن. لأنَّ اللَّهَ سيأتيه بالعذابِ في أية لحظة! فهو دائماً فَزِعٌ قلقٌ مضطرب.

أما إبراهيم ومَنْ معه من المؤمنين، أما المؤمنون في كل زمان ومكان، فقد آمنوا بالله، وأخلصوا له، ولم يَخلطوا هذا الإِيمانَ بشركٍ أو كفر، ولذلك كانوا آمنين مطمئنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وهذه هي حجةُ إبراهيمَ الفائقةُ عليه السلام، التي علّمه اللّهُ إياها، فتغلّبَ بها على قومه الكافرين: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾...

وجّه الله إبراهيم إلى الأرض المقدسة:

بعد كلّ هذه الأحداث بيْنَ إبراهيم وبينَ قومه في بلاد العراق، لم تبقَ فائدةٌ من بقائه بينهم، لقد قام بواجبه، وقدمَ لهم دعوتَه، ولكنهم رفضوا الحق، ووصلت الأمورُ معهم إلى نقطةِ اللاعودة، عند ذلك وجّهه اللّهُ إلى بلادٍ أخرى، ودعاه إلى مفارقةِ قومه، الذين عاش معهم فترةً من حياته، والهجرةِ إلى مواقعَ جديدة.

فنفّذَ إبراهيمُ أمْرَ ربه، وفارقَ قومَه، وغادَر بلاد العراق، وهاجرَ إلى بلاد جديدة، إنها الأرضُ المباركة.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هجرةَ إبراهيم عليه السلام، وانتقالَه إلى فلسطين.

منها قوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ومعنى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾: استسلم له لوط، وانقاد له وتبعه، لأن بين «آمن به» و «آمن له» فرقاً.

تقول: آمنتُ بالله. أي اعتقدتُ به، فهو يدلُّ على الاعتقادِ والتصديق.

وتقول: آمنتُ للنبي: أي: استسلمتُ وخضعت وانقدتُ له. فهو يدل على الانقياد والاتباع.

وهذه الجملة ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ تدلُّ على أن لوطاً عليه السلام قد صحبَ وتبعَ إبراهيمَ عليه السلام من العراق، وهاجرَ معه إلى الأرض المقدسة.

وأعلن إبراهيمُ الهجرةَ إلى الأرض المقدسة، وذلك في قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١].

تدلُّ الآيةُ على أن اللَّهَ هو الذي أمره هو ولوط بالهجرة إلى الأرض المقدسة، التي باركَ اللَّهُ فيها للعالمين، فنفَّذا أمْرَ الله، وهاجرا إليها.

وبهذه الهجرةِ إلى فلسطين انتهت المرحلةُ الأولى من قصة إبراهيم عليه السلام، لتبدأ المرحلةُ الثانيةُ من قصته، على ثرى وبقاعِ الأرض المقدسة، فلْننتقلْ نحن معه إلى هناك!!!...

[١٥]

المرحلة الثانية

مع إبراهيم عليه السلام في الأرض المقدسة

تبدأُ المرحلةُ الثانية من قصةِ إبراهيمَ عليه السلام، عندما غادر بلاد العراق، وهاجرَ منها بأمر الله، وتوجَّه غرباً نحو الأرض المقدسة، التي باركَ اللَّهُ فيها للعالمين، وكان معه لوطٌ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولعلَّ إبراهيمَ عليه السلام كان أولَ مَنْ هاجرَ في سبيل الله، وفارق أهلَه وقومَه من أجل الله، وغادرَ موطنه إلى موطنٍ آخر، للدعوة إلى الله.

لقد كانت هجرةُ إبراهيم عليه السلام إلى الأرض المباركةِ المقدسة، ومن ذلك اليوم نالتْ ما نالتْ من الفضل والبركة والقداسة، وأصبحتْ تسمّى مُهاجَرَ إبراهيمَ عليه السلام.

وهذه الأرضُ هي فلسطين في المقام الأول، ثم تتوسعُ الدائرةُ لتشملَ بلادَ الشام كلَّها.

الرسول يأمرنا بالهجرة إليها:

وقد حثَّ رسولُنا محمدٌ ﷺ المسلمين على الهجرة إلى بلادِ الشام المباركة المقدسة، والبقاءِ فيها بنيةِ الرباط والجهاد.

روى أبو داود وأحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

ستكون هجرةٌ بعدَ هجرة، فخيارُ أهلِ الأرض ألزمُهم مُهاجَرَ إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلِها، تلفظُهم أَرَضوهم، وتقذَرُهم نفسُ الله، وتحشُرهم النارُ مع القردة والخنازير»[1].

إنَّ مُهاجَرَ إبراهيم لها منزلةٌ عظيمة عند الله، منذ أيامِ إبراهيمَ عليه السلام، حيث أَرسى إبراهيمُ فيها أسس الإِيمان، فبقيت أرضَ الإِيمان والإِسلام حتى قيام الساعة.

ولما فتحها المسلمون زمن صحابة رسول الله ﷺ، رسختْ فيها معالمُ الإِيمان، وبقيتْ أرضَ الجهاد والرباط، وأرضَ الحسم والفصل، وأرضَ الإِسلام والحق، وستستمرُّ على هذا حتى قيام الساعة.

أقامَ إبراهيمُ عليه السلام في أرض فلسطين، وكان معه لوطٌ عليه السلام، وقد وجَّه اللَّهُ لوطاً عليه السلام نبياً إلى القوم الذين كانوا يسكنون شرقَ فلسطين، فأقامَ بينهم يدعوهم إلى الله.

أما إبراهيمُ عليه السلام فقد تنقلَ في بقاع فلسطين، وكان حينما حلَّ وأقامَ يدعو إلى الله عز وجل.

ولم يذكر القرآنُ الكريم تفاصيلَ لحياة إبراهيم في الأرض المباركة، ولا الأماكن والبقاع التي تنقلَ فيها، كما أن الرسولَ ﷺ لم يذكر شيئاً من ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٢٤٨٢. وأحمد ٢:١٩٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٨٢.

أما التوراةُ فقد ذكرتْ كثيراً من التفاصيل، وأخبرتْ عن أسماءِ المدن التي انتقلَ إليها وأقام فيها، مثل: شكيم «نابلس» والقدس والخليل «حبرون» وبئر السبع، وغير ذلك.

وقد نقلَ الإِخباريون والمؤرخون كثيراً من هذه التفاصيل، وبما أن التوراةَ قد حُرِّفت وبُدِّلت، فلم تعدْ مصدراً موثوقاً مأموناً، لهذا نتوقفُ في أَخبارها وتفصيلاتها، وبما أن مصادرنا اليقينية الموثوقَة سكتتْ عن تفاصيل قصة إبراهيم عليه السلام في الأرض المباركة المقدسة، فنحن نسكتُ عنها، ولا نخوضُ فيها، ولا نذهبُ إلى التوراة المحرفة وكتبِ التاريخِ والأخبار من أجلها.

وكان مع إبراهيم عليه السلام زوجُه «سارة»، وكانت امرأةً مؤمنة صالحة، كما أنها كانت وضيئةً جميلة، رضي الله عنها.

[١٦]

ذهاب إبراهيم وزوجه إلى مصر

زيارة إبراهيم مصر مع سارة:

أَثناءَ إقامة إبراهيم عليه السلام في الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ قامَ بزيارة إلى مصر، لأسبابٍ لم تبيِّنْها النصوص، فلا نفترضُها، ولا نأخذُها من الإِسرائيليات.

وبما أنه رسولٌ داعية فكلُّ خطواته وحركاته للدعوة، ولتبليغ الرسالة للناس، فلماذا لا تصنَّفُ زيارته لمصر ضمنَ هذا الهدف الدعوي؟

لم يذكر القرآنُ شيئاً عن توجُّهِ إبراهيم عليه السلام إلى مصر، فما جرى له في هذه الزيارة مذكورٌ في حديثٍ صحيح عن رسول الله ﷺ، وقد سبق أنْ أوردْناه عند وقفتنا مع قولِ إبراهيم لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

ونعيده هنا لارتباطه المباشر مع هذه المسألة.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات. ثنتيْن منهنَّ في ذاتِ الله: قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وبينما هو ذاتَ يومٍ وسارة، إذْ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيل له: إنَّ هاهنا رجلًا، معَه امرأةٌ من أحسنِ الناس. فأرسلَ إليه، فسأله عنها، وقال: مَنْ هذه؟ قال: أُختي!

فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجْهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك. وإنَّ هذا سألني، فأخبرْتُه أنك أختي، فلا تُكَذِّبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلتْ عليه، ذهبَ يتناولُها بيده، فأُخِذ!

فقال: ادْعي اللَّهَ لي، ولا أضرُّك. فدعت الله، فأُطْلِق!

ثم تناولَها ثانية، فأُخِذَ مثلَها، أو أشدّ. فقال: ادْعي اللَّهَ لي، ولا أضرُّك، فدعتْ، فأُطْلق.

فدعا بعضَ حجبته، فقال: إنك لم تأتِني بإنسان، إنما أتَيْتَني بشيطان. فأَخْدَمها هاجر!

فأتَتْه وهو قائم يصلّي، فأومأ بيده: مَهْيا؟

قالت: ردَّ اللَّهُ كيدَ الفاجر في نحره، وأَخْدَمَ هاجر.

قال أبو هريرة: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماءِ السماء..»[1].

هذا الحديثُ الذي رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما، يذكر هذه الحادثةَ العجيبة التي جرتْ لإِبراهيمَ عليه السلام وزوجِه، عندما توجَّها إلى مصر، والكرامةَ التي أكرمَ اللَّهُ بها سارة، وعصمها من ذلك الملكِ الجبار الفاجر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢١٧، ومسلم برقم: ٢٣٧١. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٨٦.

الذمة والصهر والرحم لأهل مصر:

والذي يدلُّ على أن هذه الحادثةَ جرتْ لِإبراهيم وهو في مصر، وأن الملك الجبار الفاجر هو ملكُ مصر، حديثٌ آخر ينصُّ على أنَّ «هاجَر» مصرية.

فقد روى مسلمٌ وغيرُه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرضٌ يُسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأَحْسِنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةٍ ورَحِماً ـ أو قال: ذِمَّةً وصِهراً ـ فإذا رأيتَ رجلين يختصمان فيها في موضعِ لَبِنَة، فاخرجَ منها!

قال أبو ذر: فرأيتُ عبدَ الرحمٰن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه رَبيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجْتُ منها..»[1].

فهذا الحديثُ ينصُّ على أنَّ لأهلِ مصر ذمة ورحماً وصهراً للعرب، قال العلماء: القيراط: جزءٌ من أجزاءِ الدينار أو الدرهم، وأهلُ مصر يكثرون من استعماله والتكلم به.

والذمة: الحرمةُ والحق.

والرَّحِم: لكونِ هاجر أمّ إسماعيل منهم، فأَهلُ مصر هم أخوالٌ لأهل مكة والحجاز.

والصِّهر: لأنَّ أهلَ مصر صاهَروا رسولَ الله ﷺ، لأنَّ حاكمَ مصر المقَوْقِس أهداه «مارية» القبطية، أمّ ابنِه إبراهيم الذي ماتَ وهو صغير.

إن ملكَ مصرَ أهدى «هاجرَ» لإبراهيم، فأنجبتْ منه إسماعيل عليه السلام.

وإن حاكم مصر فيما بعد أهدى محمد ﷺ «مارية»، فأنجبت له ابنه إبراهيم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٤٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. حديث رقم: ٩٥.

ولهذا كان الرسولُ ﷺ يوصي الصحابةَ بالمصريين خيراً، ويَدْعوهم إلى مراعاةِ ذمَّتهم ورَحِمهم ومصاهرتهم.

من دلالات الحديث حول الزيارة:

وعندما ننظرُ في الحديث الذي سجلَ قصةَ إبراهيم وسارة مع ملك مصر، فإننا نخرجُ منه ببعض النتائج والفوائد:

ـ اسمُ زوجِ إبراهيم عليه السلام، هو سارة، كما وردَ مصرحاً به في الحديث.

ـ كانت سارةُ رضي الله عنها من أحسنِ النساء وأجملهن.

ـ كان ذلك الملكُ جباراً من الجبابرة، وكان فاجراً شهوانياً، وكان مرتكباً للفاحشة، ملاحِقاً للنساء.

ـ كانت له حاشيةٌ أو عصابة، مهمتُها البحثُ عن النساء الجميلات، وإحضارُهن إليه طوعاً أو كرهاً، ليفجُرَ بهنّ.

وتحويلُ مهمةِ الملك ليكون «زيرَ نساء» وصاحبَ شهوات وفجور، وفجورُه بنساء دولته بدلَ حمايتِه لهن، وتحويلُ رجاله وحاشيته ليكونوا «صائدي نساء»، هذا من سماتِ الأنظمةِ الجاهلية في كل زمان ومكان!

ـ أمرَ اللَّهُ إبراهيم ليقولَ عن سارة إنها أُختي، ليأخذَها الملك، وهناك يقدِّمُ اللَّهُ لذلك الملك آيةً ومعجزة، وليحقَّ قدرُه سبحانه، فيعصمَ سارةَ من فجوره، وتأخذَ هاجرَ معها.

توجيه قول إبراهيم عنها إنها أختي:

ـ كيف قالَ إبراهيمُ عن زوجه سارة إنها أخته؟

لقد أوردَ الحديثُ هذا، وسجله كذبةً على إبراهيم، حيث قال: لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات.

وقد وجَّهنا فيما مضى قولَه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وبيّنا أنه لم يَكذبْ فيهما، وإنما استعملَ «المعاريض»، والمعاريضُ تُشابهُ الكذبَ في الظاهر، وتخالفُه في الحقيقة.

وكلامُه هنا لا يخرجُ عن «المعاريض».

قال عن سارة إنها أُخته، وأرادَ الأُخُوَّة في الدين، فهو مسلم، وهي مسلمة، والإِسلامُ جمعَ بينهما في أخوةٍ إيمانية، وإن كانا زوجين.

ولما سمعَها حاشيةُ الملك الفاجر منه، حملوها على الأخوةِ النَّسبية، وفهموا أنها أخته نَسَباً، وليستْ زوجةً له ولهذا قدَّموها إلى الملك.

ولقد كانَ إبراهيمُ صادقاً، عندما قال: إِنها أُخته، وأرادَ بذلك الأخوةَ الإِيمانية.

وقد وضَّحَ إبراهيمُ عليه السلام هذا لسارة، وذلك في قولِه لها: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك.

ولأنَّ الحاشيَة فهموا من كلامه الأخوةَ في النسب، اعتُبر كلامُه كذباً ظاهرياً، لأنه شابَهَ الكذب في الظاهر، لكنه صدقٌ في الحقيقة!.

كيف رضي إبراهيم بتسليمها للملك؟:

ـ كيف رضيَ إبراهيمُ أنْ يسلِّمَ امرأتَه إلى الملك الفاجر، وهو يعلمُ ما ينتظرها هناك؟ ولماذا لم يقاتلْهم دفاعاً عن عِرْضه؟

إن إبراهيمَ عليه السلام نبي، وإن اللَّهَ هو الذي يوحي إليه ويوجِّهه، فاللَّهُ هو الذي أَمره بإرسالها وتسليمها، وعليه أنْ يطمئنَّ ولا يقلق، فستكونُ عند الملك في رعايةِ الله وحفظه، ولن ينالَ الملكُ منها شيئاً. وكان إبراهيمُ واثقاً بوعد الله، مسلِّماً أَمْرَه إليه.

ـ لقد عصمَ الله سارةَ من فجور الملك، وقدّمَ لها كرامةً بارزة، وقدّمَ لذلك الفاجرِ الجبارِ آيةً على قوه اللَّهِ وقدرته، وعلى عجزِ ذلك

الجبار! فلما مدَّ يده لها أولَ مرة، قبضَها الله وعطَّلَها، فعجز الملكُ عن تحريكها أو التحكم فيها، فتعجَّب واستغربَ لأنها أولُ مرة تحصلُ معه.

طلبَ من سارة أن تدعوَ ربَّها ليطلقَ يدَه، ولن يؤذيها، ولما فعلتْ ذلكَ عاوَد الملكُ الكرةَ مرةً ثانية، ثم مرة ثالثة.

عند ذلك علم الملكُ أنه ممنوعٌ من الوصول إليها، وأيقنَ بعجزهِ عن مَسِّها، وأنَّ هناك قوةً أخرى تحفظُها وتعصمها وتحميها منه، وهذا هو المرادُ من الحادثة، وهذه هي الحكمة.

- أرادَ الملك إكرامَ هذه المرأة المحفوظة العفيفة، فقدَّمَ لها إِحدى النساء لتكونَ خادمةً لها، وجاريةً عندها، وهي هاجر، وأعادها إلى إبراهيمَ معزَّزةً مكرَّمة، عفيفةً مصونة.

- كان إبراهيمُ عليه السلام أثناء غيابِ امرأته عند الملك ملتجئاً إلى الله، يصلِّي له، ويدعوه، ويستنصرُه، ويطلبُ منه حفظَ وعصمة امرأته، وعادتْ إليه سارةُ وهو يصلي.

وهذه هي مهمةُ الصلاة الإِيجابية، وهكذا كان هديُ محمدٍ ﷺ، حيث كان إذا حَزَبَه أمر، أو وقعَ في ضيق، يفزعُ إلى الصلاة!

- إبراهيمُ عليه السلام فرحَ بعودةِ سارة، وهو متلهِّفٌ متسرِّعٌ ليعرفَ ماذا جرى لها، ولهذا لم ينتظرْ حتى يفرغ من الصلاة، بل أومأ بيده أثناءَ الصلاة متسائلاً: مَهْيا؟

ومعنى «مهيا»: ما الخبر؟

ولم يتكلم بلسانِه لأنه كان في الصلاة، وإنما كانتْ إشارةُ يده توحي بهذا الاستفهام.

- يتجلَّى من جواب سارة قوةُ إيمانها بالله، فقد أَسندت الحفظَ والرعايةَ إلى الله، وأعادت الفضلَ إلى مانِحِه سبحانه وتعالى، وذلك في قولها: ردَّ اللَّهُ كيدَ الفاجر في نحره، وأَخدمَ هاجر.

ـ لقد قدمَ أبو هريرة راوي الحديث رضي الله عنه على الحادثةِ تعقيباً ذكياً لطيفاً، وذلك في قوله: فتلك أُمُّكم يا بني ماء السماء.

وهو بهذا يخاطبُ الصحابة، ويقولُ لهم: هاجرُ المصريةُ القبطية هي أمكم، لأنَّ إبراهيمَ جعلَها «سَرِيَّتَه» فيما بعد، وأنجبتْ له إسماعيل، وبما أنكم أبناءُ إسماعيل فهاجَرُ أُمُّكم.

ومعنى قوله «يا بني ماء السماء»: أن العربَ في بلادهم يعتمدون على ماءِ السماء ـ وهو المطر ـ في الزراعة والكلأ والعشب والرعي، ولذلك كأنهم صاروا أبناءَ المطر ماء السماء!.

هذه بعضُ الفرائدِ والدلالاتِ السريعة التي نخرجُ بها من هذا الحديث الصحيح.

[١٧]

إسماعيل ابن إبراهيم البكر

عادَ إبراهيمُ عليه السلام وزوجُه سارة من مصر إلى فلسطين، وأقام فيها، ومع سارة جاريتُها «هاجر».

وكانت سارةُ لا تُنجبُ ولا تَلد، وقد تقدَّمَ العمرُ بإبراهيم عليه السلام، وليس له أولاد.

ولاحظتْ سارةُ هذا، وعزَّ عليها أن لا يكون لزوجها أولاد، وبما أنها عقيم، فلماذا لا تهديه وتهبُه جاريتَها هاجر، لتكونَ جاريةً له، يتسَرّى بها، ويعاشرها، لعلَّها تحملُ منه؟

قدمت سارةُ جاريتَها هاجر هديةً إلى إبراهيم، ووهبتْها له، فأصبحتْ ملكَ يمينه، يتصرفُ فيها كما يشاء، يتسرّى بها ويعاشرها ـ وهكذا كان نظامُ الجواري والإِماء، وهو غيرُ موجودٍ ولا مطبقٍ في هذا الزمان ـ.

عاشرَ إبراهيمُ جاريتَه هاجر، وقدَّرَ اللّهُ أن تحملَ منه، فولدت له

ابنَه البكر، إسماعيل. الذي جعلَه اللّهُ نبياً.

دلالة القرآن على أن إسماعيل هو البكر:

فإسماعيلُ هو المولودُ الأولُ البكر لإبراهيم، وأُمُّه هي هاجر.

وبعد ذلك رزقَ اللّهُ إبراهيم ابنَه الثاني إسحاق عليه السلام.

وقد رزقه اللّهُ بابنيْه بعدما كبر وصار شيخاً. ولهذا توجَّهَ إلى الله حامداً وشاكراً على هذه النعمة الربانية. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومن الأدلةِ القرآنية على أنَّ إسماعيلَ وُلد قبل إسحاق آياتُ سورة الصافات. حيث سجلتْ دعاءَ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠].

فبينتْ أَنَّ اللّهَ وهبه غلاماً حليماً: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]. ثم ذكرتْ قصةَ رؤيا إبراهيم بذبْحِ هذا الغلام الحليم، وكيف فداه الله بعد ذلك بذبح عظيم.

ثم قالت الآيات بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢].

فهذا السياقُ في الآيات يدلُّ على أن الغلامَ الحليم الذي وُلد لإبراهيم أولاً هو إسماعيل، وهو الذبيح، لأن الكلامَ عن إسحاق جاء بعد ذلك. وسنعودُ لهذه المسألة عند كلامنا على الذبيح منهما إن شاء الله.

و «إسماعيل»: اسمُ علم أعجمي غيرُ عربي، فهو ممنوعٌ من الصرف للعلمية والعجمة. ولذلكَ لا نبحثُ له عن اشتقاق في العربية.

ونقفُ فيما يلي وقفةً سريعة مع حديثِ القرآن عن إسماعيل، ومواضعِ ذكره في كتاب الله.

مواضع ذكر إسماعيل في القرآن:

وردتْ كلمةُ إسماعيل في القرآن اثنتي عشرة مرة، في ثمان سور، هي: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، إبراهيم، والأنبياء، وصّ، ومريم.

ومعظمُ المرات التي ذُكر فيها، كان يُذكر فيها اسمُه فقط. ضمن ذكْرِ أسماءِ مجموعة من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، جعلهم الله من ذريةِ إبراهيم عليه السلام: إسحاق ويعقوب، وداود وسليمان، وأيوب ويوسف، وموسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى وإلياس، وإسماعيل واليسع، ويونس ولوطاً، ومن قبلهم نوح، عليهم الصلاة والسلام. والمذكورون في هذه الآيات ثمانية عشر نبياً.

وفي سورة إبراهيم وردَ اسمُه مرةً في آية (٣٩)، التي تثبتُ شكرَ وحمدَ إبراهيم لربه، لأنه وهبه على الكبر إسماعيل وإسحاق، عليهم الصلاة والسلام.

وفي سورة مريم وردَ اسمه مرة، حيث أشادَ اللّهُ به وأثنى عليه، لأنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان مرضياً عند الله.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

وفي سورة الأنبياء، وردَ اسمُه في آية (٨٥) مقروناً مع إدريس وذي الكفل. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وفي سورة صّ وردَ اسمُه مع اليسع وذي الكفل، قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٨].

ومجموعُ الصفات التي وصفَ اللَّهُ بها إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام في القرآن، والمقرونة باسمه المذكور صريحاً في الآيات هي: هو رسولٌ نبي، وهو صادقُ الوعد، وكان يأمرُ أهلَه بالصلاة والزكاة، وهو مرضيٌّ عند الله، وهو من الصابرين الصالحين المرحومين، كما أنه من الأَخيارِ الذين اختارهم الله واصطفاهم، عليهم الصلاة والسلام.

[١٨]

هاجر وإسماعيل في بلاد الحجاز

إبراهيم يذهب بهما بأمر الله ورفض الإسرائيليات:

بعدما أَنجبتْ هاجرُ إسماعيلَ في فلسطين، أمرَ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أنْ يأخذَ ابنَه الرضيع وأمَّه من فلسطين إلى بلاد الحجاز، وأنْ يضعهما هناك في وادٍ غيرِ ذي زرع، لأمرٍ يريدُه الله سبحانه.

وإبراهيمُ منفذٌ لأوامر الله، ملتزمٌ بها، لا يخالفُها ولا يخرجُ عليها، كما أنه مستسلمٌ لله، متوكلٌ عليه، واثقٌ به، مفوضٌ أمره إليه.

لم يذهبْ إبراهيمُ بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز تنفيذاً لأوامرِ زوجه سارة رضي الله عنها، كما يقولُ رواةُ الإِسرائيليات، وإنما فعلَ ذلك تنفيذاً لأمرِ الله سبحانه.

لا نقولُ بما تزعمُه الإِسرائيليات والأساطير من أنَّ سارةَ أصبحتْ تغارُ غيرةً شديدة من هاجر، بعدما أنجبت الأخيرةُ الولدَ لإِبراهيم، وأنَّ هاجر كانت تتيهُ عليها بعد أن كانت جاريتَها، فلم تُطقْ سارةُ رؤيةَ هاجر وابنها في البيت، فأمرتْ إبراهيمَ بإبعادِهما عنها، ووضْعِهما في مكان بعيد بحيث لا تراهما، فنفذَ إبراهيمُ أمر سارة، وذهبَ بهما إلى الحجاز!!.

لا نقولُ بهذا، لأنه لم يَرِدْ في حديثٍ صحيح مرفوع عن رسول الله ﷺ، ولا نقبلُ في تفاصيل القصصِ القرآني أيَّ كلام لأيِّ كان، إذا لم يُقدم الدليلَ على ذلك، إمّا من آيةٍ صريحة، أو حديثٍ متصل صحيح.

ثم إنَّ سارةَ أعظمُ إيماناً مما صوَّرها به رواةُ الإسرائيليات، فهي التي قَدمتْ هاجرَ لإبراهيم، وهي التي رجَتْ أن يكونَ له ولد، أما وقد جاءه الولد تريدُ التخلصَ منه والقضاءَ عليه! إنها لو فعلتْ ذلك لكانت ظالمة، وإبراهيمُ لو ذهبَ بهاجر وإسماعيل إلى الحجاز لهذا السبب لكان ظالماً، وحاشا لإبراهيم عليه السلام أنْ يظلم، وزوجُه المؤمنة سارة بريئةٌ من ذلك الظلم!!.

دعاء إبراهيم واستجابة الله له:

توجَّهَ إبراهيمُ عليه السلام بهاجرَ وإسماعيل، ووضَعَهما في بلاد الحجاز، في وادٍ غير ذي زرع، تنفيذاً لأمر الله، ولما غادرهما توجَّه إلى الله، ودعاه دعاءً خاشعاً منيباً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٨].

الراجحُ أنَّ البيتَ الحرام لم يكن قد بُني، عندما وضعَ إبراهيمُ هاجرَ وإسماعيل في تلك البقعة، وأنَّ البلدَ لم يكن قد وجد ـ كما سنبحث هذا فيما بعد إن شاء الله ـ فكيف عرفَ أنه سيكونُ في تلك البقعة بلدٌ وبيت محرَّم لله؟.

لعلَّ الله هو الذي أخبره بما سيكونُ من أمرِ هذه البقعة في المستقبل، وأنها ستكونُ أفضلَ وأشرفَ مكان على وجه الأرض، وعند ذلك دعا الله بهذا الدعاء.

إبراهيمُ عليه السلام يسألُ ربَّه أنْ يجعلَ البلدَ الذي سينشأ في ذلك المكان آمناً، ولن يكون آمناً إلا إذا توجَّه ساكِنوه إلى الله وحده بالعبادة، ولم يعبدوا الأصنام، أما عبادةُ الأصنام فإنها تذهبُ بأمن البلد، وتجعله مضطرباً مهدَّداً، ولهذا قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾

هذه الأصنام أضلّتْ كثيراً من الناس، حيث عبدوها من دون الله، وجعلوها آلهة مع الله، أو من دون الله، وبذلك وقعوا في الضلال.

ويكل إبراهيمُ أمر العباد إلى الله، ولذلك يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويدعو إبراهيمُ ربَّه الكريم أنْ يحفظَ هاجر وإسماعيل في هذا الوادي القفر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ . . .

لقد كان وادياً قفراً، خالياً من الزرع، وخالياً من الماء، وخالياً من الأشجار المثمرة، وخالياً من الناس، ولم تكنْ به مظاهرُ الحياة.

ويطلبُ إبراهيمُ من ربه أنْ يحوِّلَه إلى وادٍ مثمر، فيه ماء، وفيه زرع، وفيه حياة، ويسكنه، أُناس ويقيمون فيه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

واستجابَ الله دعاءَ إبراهيم عليه السلام، فتم بناءُ بيت الله الحرام في ذلك الوادي، وأُقيمتْ هناك مكةُ المكرمة، وسكنها الناس، وظهر الماءُ ونبتَ الزرع في الوادي، وعمَر بالحياة والأحياء، وصارَ البلد آمناً. ورزقَه الله من الثمرات أفضلها وأجودَها على مدار العام.

أما تفاصيلُ وضعِ هاجرَ وإسماعيلَ في ذلك الوادي، فإننا نأخذها من حديثٍ صحيح عن رسول الله ﷺ:

حديث البخاري المطول عن ذلك:

روى البخاريُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «أولُ ما اتخذَ النساءُ المَنْطِق[1] من قِبَلِ أُمِّ إسماعيل، اتخذتْ مَنْطِقاً لتعفي أَثرها على سارة!.

ثم جاءَ بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل ـ وهي تُرضعه ـ حتى وضعَها عند البيت، عند دَوْحَة[2]، فوقَ زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكةَ يومئذ أحد، وليس بها ماء.

وضع هاجر وإسماعيل هناك والبحث عن مغيث:

فوضَعها هناك، ووضعَ عندهما جراباً فيه تمر، وسِقاءً فيه ماء. ثم قفّىٰ إبراهيمُ منطلقاً. فتبعَتْه أُمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسيٌّ ولا شيء؟.

فقالت له ذلك مراراً، وجعلَ لا يلتفتُ إليها!.

فقالت له: آللَّهُ أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعُنا!!.

ثم رجعَتْ.

فانطلقَ إبراهيم، حتى إذا كان عندَ الثَّنِيَّة، حيث لا يرونَه، استقبلَ بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفعَ يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾.

---

(١) المنطق: الحزام الذي تشد به المرأة ثوبها على وسطها.

(٢) الدوحة: شجرة صحراوية كبيرة.

وجعلتْ أمُّ إسماعيل ترضعُ إسماعيل، وتَشربُ من ذلك الماء. حتى إذا نفدَ ما في السقاء عطشت، وعطشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلوى. فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها، فقامَتْ عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطتْ من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعتْ طرفَ درعها، ثم سعتَ سعيَ الإنسانِ المجهود[1]، حتى جاوزت الوادي. ثم أَتت المَرْوة، فقامَتْ عليها، فنظرت: هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً. ففعلتْ ذلك سبعَ مرات.

قال ابنُ عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعْيُ الناس بينهما».

فلما أشرفتْ على المروة سمعتْ صوتاً، فقالت: صَهْ[2]، تريدُ نفسَها، ثم تسمَّعَتْ أيضاً، فقالت: قد أسمعْتَ إنْ كان عندك غواث!.

الملك ونبع ماء زمزم ومجيء جرهم:

فإذا هي بالمَلَكِ عند موضعِ زمزم، فبحثَ بعَقِبه[3] ـ أو بجناحه ـ حتى ظهرَ الماء، فجعلتْ تحوطُه بيدها هكذا، وجعلت تَغْرفُ من الماء في سقائها، وهو يغورُ بعدما تغرف!

قال ابنُ عباس: قال النبي ﷺ: يَرحم الله أمَّ إسماعيل، لو تركتْ زمزم ـ أو: لو لم تغرف من الماء ـ لكانتْ زمزمُ عيناً مَعيناً![4].

فشربَتْ، وأرضعتْ ولدها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضَّيْعَة[5]، فإن هاهنا بيتُ الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيعُ أهلَه.

---

(١) الإنسان المجهود: الإنسان المتعب، الذي بذل جهداً شاقاً في أمر ما.
(٢) صه: كلمة تنبيه للانتباه والاستماع لمعرفة ماذا يحدث.
(٣) بحث بعقبه أو بجناحه: ضرب الأرض برجله أو بجناحه، فظهر ماء زمزم.
(٤) أي: لو أن هاجر لم تجمع ماء زمزم فيما يشبه الحوض، لكان زمزم عيناً جارية،
(٥) الضيعة: الهلاك والضياع والفناء.

وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذُ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك، حتى مرَّتْ بهم رفقةٌ من جُرْهُم، مُقبلين من طريق «كُداء»[1]، فنزلوا في أسفلَ مكة، فرأوا طائراً عائِفاً[2]، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ ليدورُ على ماء، وعهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء!.

فأرسلوا جَرْياً أو جَرْيَيْن[3]، فإذا هم بالماء، فرجَعوا فأخبروهم بالماء.

فأقبلوا وأُمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأْذَنين لنا أنْ ننزلَ عندك.

قالت: نعم. ولكن لا حَقَّ لكم بالماء.

قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: فألْفىٰ ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تحبُّ الأُنْس[4].

فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى كان بها أهلُ أبيات منهم.

وشبَّ الغلام، وتعلَّمَ العربيةَ منهم، وأَنْفَسَهُم وأَعْجَبَهُم حين شب، فلما أَدرك[5] زوَّجوه امرأةً منهم.

وماتَتْ أُمُّ إسماعيل.

---

(١) كداء: هو ثنية «كدي» التي في أعلى مكة.
(٢) الطير العائف: هو الذي يحوم فوق الماء.
(٣) الجري: هو الرسول الذي يستطلع لأصحابه.
(٤) أي: إن هاجر كانت تحب الاختلاط بالناس، ولا تحب العزلة والوحشة ففرحت بهم عندها.
(٥) لما أدرك: عندما كبر وبلغ مبلغ الرجال.

إبراهيم في زيارتيه لبيت إسماعيل:

فجاءَ إبراهيمُ بعدما تزوجَ إسماعيل يطالعُ تَرِكَتَه، فلم يجدْ إسماعيل، فسألَ امرأتَه عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا[1].

ثم سألها عن عيشِهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة، فشكتْ إليه.

قال: فإذا جاءَ زوجُك فاقْرَئي عليه السلام، وقولي له يُغَيِّرْ عتبةَ بابه!!

فلما جاءَ إسماعيلُ كأنه آنسَ شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم. جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألَنا عنك فأخبرْتُه، وسألَني كيف عيشُنا، فأخبرتُه أنّا في جَهْد[2] ومشقة.

قال: فهل أوصاكِ بشيء؟

قالت: نعم، أَمرني أنْ أقرأَ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عتبةَ بابك.

قال: ذاك أبي، وقد أَمرني أنْ أفارقَك! الحقي بأهلك. فطلَّقَها، وتزوَّجَ منهم أخرى.

فلبثَ عنهم إبراهيمُ ما شاء الله. ثم أَتاهم، فلم يجدْه فدخلَ على امرأتِه، فسألها عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا.

قال: كيفَ أنتم؟ وسأَلَها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعَة، وأثنتْ على الله.

فقال: ما طعامُكم؟

قالت: اللحم.

---

(١) يبتغي لنا: يطلب لنا الرزق.

(٢) الجهد: التعب والضيق والضنك.

قال: فما شرابكم؟

قالت: الماء.

قال: اللهمَّ باركْ لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حَبّ[1]، ولو كان لهم لدعا لهم فيه.

قال: فإذا جاءَ زوجُك فاقْرَئي عليه السلام، ومُريه يُثبتْ عتبةَ بابه!

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم. أتانا شيخٌ حسنُ الهيئة ـ وأثنتْ عليه ـ فسألني عنك، فأخبرتُه، فسألني كيف عيشُنا، فأخبرتُه أنّا بخير.

قال: فهل أوصاكِ بشيء؟

قالت: نعم. هو يقرأُ عليك السلام، ويأمرك أنْ تثبِّتَ عتبةَ بابك.

قال: ذاكَ أبي، وأنتِ العتبة، أَمَرني أنْ أمسكَك. ثم لبثَ عنهم ما شاء الله.

التقاء إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت:

ثم جاءَ بعد ذلك، وإسماعيلُ يَبري نَبلاً له، تحتَ دوحةٍ قريباً من زمزم. فلما رآه قامَ إليه، فصَنَعا كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولدُ بالوالد.

ثم قال: يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنعْ ما أمرك ربُّك.

قال: وتعينُني؟

قال: وأُعينُك.

---

(١) الحب: هو القمح والشعير.

قال: فإن الله أمرني أنْ أبنيَ هاهنا بيتاً ـ وأشارَ إلى أكَمَةٍ[1] مرتفعةٍ على ما حولها ـ.

فعندَ ذلك رفعا القواعدَ من البيت، فجعلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفعَ البناء جاء بهذا الحجر، فوضعَه له، فقامَ عليه وهو يبني، وإسماعيلُ يناولُه الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فجَعَلا يبنيان، حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

هذا حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ للرسول ﷺ، ولو لم يصرحْ ابنُ عباس رضي الله عنهما برفعِه للنبي عليه الصلاة السلام في بداية الحديث، إلا أنه صرحَ في أثناء الحديث بنسبةِ بعضِ الجُمَل والعباراتِ فيه للرسول ﷺ، ونصَّ على أنها من كلامه.

وهذا يدلُّ على أن الحديثَ كلَّه مرفوع، وأنه من كلام رسول الله ﷺ.

وهذا الحديثُ الصحيحُ الطويلَ يتحدث عن مسائلَ ومشاهدَ ولقطاتٍ من قصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل.

إنه يتحدثُ عن ذهابِ إبراهيمَ بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، ووضْعِهما هناك تحت شجرةِ دَوْح مكان الكعبة، وتصريح إبراهيم بأن الله هو الذي أمره بذلك، وقوةِ إيمان هاجر، واستسلامِها لأمر الله، ودعاءِ إبراهيم لهما، وسعي هاجرَ بين الصفا والمروة بحثاً عن مغيث من البشر، ومجيء المَلك، وظهورِ ماء زمزم، وقدومِ وفد من جُرْهُم، وإقامتهم عند هاجر وإسماعيل، وزواج إسماعيل منهم عندما كبر،

---

(١) الأكمة المرتفعة: أرض مرتفعة كالتل.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٦٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. برقم: ٩٠.

وموتِ أمه هاجر، وقدومِ إبراهيم في أول زيارة له إلى بيت ابنه، ولكنه لم يجده، ولما كانت زوجتُه شاكيةً ساخطة، أمرَه أبوه بفراقها، ثم جاءَ بعدما تزوجَ إسماعيلُ ثانية، وقبلَ زوجته الشاكرة الراضية، ومجيء إبراهيم بعد ذلك، ومقابلته ابنه إسماعيل الذي تركَه قبل سنوات عديدة رضيعاً، وهو الآن رجل كبيرٌ عنده زوجة وأولاد وبيت، وقيامهما معاً ببناء بيت الله الحرام.

وهذا الحديثُ المطولُ يمكن أنْ تستخرجَ منه فوائدُ ودلالات عديدة، من مواقف أطرافِ القصة: إبراهيم وإسماعيل وهاجر، وقدرِ الله وحكمته وبناء الكعبة، وغير ذلك، وفي الحديث دروسٌ وعبر عديدة، في العقيدة والسلوك والنبوة والأسرة وغير ذلك.

وأدعو القارئَ الكريم إلى الوقفةِ الفاحصة المتأنيةِ أمام الحديث، والاستمتاعِ بتدبره، والانتفاعِ بدلالاته، والاستفادة من دروسه!!.

[١٩]
إسماعيل هو الذبيح

الآيات في قصة الذبيح:

أشارتْ آياتُ سورة الصافات إلى حادثةٍ عجيبة، ومشهدٍ مؤثر، بين إبراهيم وبين ابنه، حيث أمر الله إبراهيمَ في رؤياه بذبح ابنه، فنفذ الأبُ الأمر، وعَرَضَه على ابنه ليشركه معه أجر الاستسلام، وفي آخر لحظة فدى الله ذلك الابنَ المستسلمَ بذبحٍ عظيم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ

﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٣].

تتحدثُ الآيات عن ابنيْن لإبراهيم عليه السلام، الابن الأول لم تذكرْ اسمَه، وتصفُه بأنه غلامٌ حليم، وهو الذبيح، والابن الثاني الذي وُلد لإبراهيم فيما بعد، وتنصُّ على أنه إسحاق، وهذا يدلُّ على أن الأولَ الذبيح وهو إسماعيل.

إبراهيمُ عليه السلام يطلبُ من الله أن يرزقَه ولداً صالحاً، لأنه أصبح شيخاً كبيراً، فاستجابَ الله دعاءَه، وبشَّره بغلامٍ حليم.

وهذا الغلامُ الحليمُ هو أولُ مولود يولَدُ له، وهو إسماعيلُ عليه السلام. ووصْفُه بالحلم مقصودٌ في هذا المقام، فاستسلامُه لأمر الله، وطاعتُه لأبيه، ورضاه أنْ يذبَحه أبوه تنفيذاً لأمر الله، ما كان ليتحققَ لو لم يكن حليماً.

ونعلمُ أن إبراهيمَ عليه السلام تركَ إسماعيلَ مع أمه هاجر مكان البيت الحرام، بينما كان إسماعيلُ صغيراً رضيعاً، ورجعَ إبراهيمُ إلى مكة بعد سنواتٍ عديدة، وبعدما ماتتْ هاجرُ رضي الله عنها، وفي المرتيْن الأوليَيْن لم يلتقِ مع إسماعيل، والتقى معه في المرة الثالثة، كما ذكرْنا في حديثِ البخاري السابق عن ابن عباس.

الرؤيا وبناء الكعبة في الزيارة الثالثة:

فهَل كانت هذه الرؤيا في زيارةِ إبراهيمَ الثالثة إلى مكة، والتي قابَلَ فيها إسماعيل، والتي بَنَيا فيها الكعبة المشرفة؟ أم كانت هذه الرؤيا ومشهدُ الذبحِ والفداء في زيارةٍ أخرى لاحقة فيما بعد؟

ليس عندنا من النصوصِ الصريحة ما يحددُ ذلك، فلا نستطيعُ التحديدَ والجزم، والله علم.

هناك روايةٌ موقوفةٌ غيرُ مرفوعة، فقدْ أخرجَ الفاكهيُّ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان إبراهيمُ يزورُ هاجرَ كلَّ شهر، على البُراق، يغدو غدوة، فيأتي مكة، ثم يرجع، فيقيلُ في منزله بالشام[1].

وبما أن هذا الحديثَ موقوفٌ على علي رضي الله عنه، ولم يرفعْه إلى رسولِ الله ﷺ، فنتوقفُ فيه وفي القول به، لأننا نشترطُ أن يكونَ الحديثُ الذي يتحدثُ عن قصص السابقين في القرآن متصلاً صحيحاً، مرفوعاً للنبي ﷺ.

ولعلَّ الأمريْن ـ بناء الكعبة ورؤيا ذبح إسماعيل ـ كانا في الزيارةِ نفسِها، التي قابلَ فيها إبراهيمُ ابنَه إسماعيل عليهما السلام، بعد غياب سنوات عديدة، فبَنَيا البيت، وأذَّنَ إبراهيمُ بالحج، وكانت مناسك الحج، ورأى إبراهيمُ رؤيا بذبح إسماعيل، وكان الفداء، وكانت الأضحية، وكان عيد الأضحىٰ، وكانت مناسك الحج! لعلَّ هذا هو الراجح، والله أعلم.

معنى قوله ﴿فلما بلغ معه السعي﴾:

إن إسماعيلَ عليه السلام من الصالحين، وإنه رجلٌ حليم، وقد شاركَ أباه في بناء الكعبة المشرَّفة، ثم أخبره أبوه برؤياه.

وليس معنى قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أنه صارَ فتى نشيطاً، يسعى في مصالح أبيه، ويتحركُ في قضاء حاجاته، ويؤمِّنُ له طلباته، بحيث صار يُؤَمَّلُ ويُرْجى نفعُه، ليس هذا هو المراد من السعي في الجملة، لأن إبراهيمَ في فلسطين، وإسماعيلُ مقيمٌ في الحجاز، فكيف يسعى إسماعيلُ في مصالح أبيه الموجودة في فلسطين؟

لعلَّ المرادَ بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أنهما كانا يمشيان معاً،

---

(١) أخرجه الفاكهي بإسناد حسن كما قال ابن حجر في فتح الباري ٦: ٤٠٤. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩١.

ويسعيان معاً، ويتحدثان معاً، الأبُ الشيخُ إبراهيم، وابنُه الشاب النبي إسماعيل عليهما السلام، فلما بلغَ الابنُ الشابُّ السعيَ مع أبيه الشيخ إلى نقطةٍ معينة أو مكان محدد، أخبرَ الأبُ ابنَه برؤياه.

نقول: لعل هذا هو المراد من الجملة، ولكننا لا نجزمُ به، لعدمِ وجود حديثٍ صحيح مرفوع، يحددُ المرادَ بالسعي وبلوغ السعي، ولو كان هناك نصٌّ معتمَدٌ لقُلْنا به، ولا نذهبُ إلى الروايات والأخبار غيرِ الثابتة، فما قلناه إنما هو فهمٌ واجتهاد، والله أعلم.

لما بلغَ إسماعيلُ السعيَ مع أبيه إبراهيم، قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

رؤيا إبراهيم بذبح ابنه:

لقد رأى إبراهيمُ في المنام أنه يذبحُ ابنَه وحيدَه، ورؤيا الأنبياء حق، لأن الشيطانَ لا يتمثلُ لهم فيها، ولا يُلَبِّسُ عليهم فيها، فرؤياهم عليهم الصلاة والسلام وحيٌ من الله، لكنه وحي عن طريقِ الرؤيا المنامية.

وفهمَ إبراهيمُ عليه السلام حقيقةَ الرؤيا والمقصودَ منها. إن اللَّهَ يأمره أن يذبحَ ابنه! ابنَه الوحيد إسماعيل! الذي وهبه الله له على الكِبَر! والذي سألَ ربَّه أن يجعلَه من الصالحين!

والآن، وبعدما كبرَ ابنُه وصار رجلاً، وحقق آمالَ أبيه الدنيوية، الآن يأمره الله بذبحه!!.

لكن أليس الأمرُ أمْرَ الله؟ أليس الآمر هو الله؟ أليس هو مستسلماً لأمر الله، مفوِّضاً أمره إليه، مسارعاً في تنفيذِ أوامره؟

إذن عليه أن ينفذَ أمْرَ الله، ولله حكمةٌ في ذلك الأمر، ومهما كان الأمر شاقاً صعباً مرهقاً، حيث سيذبحُ بيده ابنَه ورجاءَه، لكن عليه أن يتحملَ ما فيه من مشقة وصعوبة، إنه ابتلاءٌ وامتحان، وإعلانُ كامل العبودية والاستسلام لله وإبراهيمُ سبّاق في ذلك!

توجّهَ إبراهيمُ إلى تنفيذ الأمر، وهو راضٍ عن أمر الله، مستسلمٌ لقضائه، ولكنه أرادَ أن يشركَ معه ابنَه الصالحَ الحليم الصابر، لذةَ الاستسلام لله، والرضا بقضائه، والتحققَ بعبوديته. ولهذا عرض الموضوعَ عليه، وطلب منه رأيه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

إنه يعرفُ جوابَ ابنه، لأنه أنشأه على البِرّ والحلم، والاستسلامِ والعبودية لله. ولم يخيبْ إسماعيلُ ظنَّ أبيه عليهما السلام، وإنما قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ﴾.

إن الابنَ يعلمُ مقدار حبِّ أبيه له، واهتمامِه به، ويعلمُ أن ما رآه إنما هو أمْرٌ من الله، ولهذا ساعدَ أباه على الاستسلام والتنفيذ، وكان عوناً له في ذلك.

وأخبر أباه بصبره على مشقةِ التنفيذ، وصبره على ألم الذبح: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وعلّق الصبر على مشيئة الله، ليستمدَّ العونَ والصبر منه سبحانه.

استسلامهما لله:

واستسلمَ النبيان الصالحان الصابران، الأبُ الشيخ والابنُ الشاب لأمر الله، وبدأ مشهدُ التنفيذ والذبح: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾.

ما أروعَ التعبيرَ القرآني عن حالتهما الإيمانية في هذا المشهد المثير: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾! إنها قمةُ الاستسلام لله، والخضوعِ والعبودية له، وتنفيذِ أمره، هذا هو الإسلامُ في حقيقته وروحه وغايته، هذا هو الإسلامُ لله في بُعْدِه العملي، وأثره الخارجي، وغايتِه التربوية.

ونتجَ عن إسلامِهما أنْ تَلَّ الأبُ ابنَه للجبين، ليتمَّ الذبح.

معنى ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ صَرَعَه، وألقاه على الأرض.

قال الإمام الراغب: «أصلُ التّلّ: المكان المرتفع. والتليل: العنق

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أسقطَه على التل. كقولك: تَرَّبَه: أسقطه على التراب»[1].

ماذا بقيَ بعدَ ذلك؟ لقد استسلمَ المؤمنان النبيان الصابران، ونفَّذا أمرَ الله، فها هو الابنُ على الأرض، وجبينُه نحو الأرض، وهو في غايةِ الخضوع والعبودية والاستسلام لله، والصبرِ لأمره، والرضا بقضائه!.

وها هو الأب الصابر المستسلم لله. واقف فوقه، يحمل سكينه، ويكاد يهوي بها على عنق ابنه، لا يصرفُه عن ذلك شيء، من الترددِ أو الشك أو التأخر!

لم يبقَ إلا لحظةٌ ويتمُّ الذبح، وهل الذبحُ الفعلي مقصودٌ لذاته؟ كلا.

إنَّ المقصودَ قد تحقق، وإن إبراهيمَ وإسماعيل قد حقَّقا الرؤيا وصدَّقاها، وقد أعلنا ـ عملياً ـ الإِسلامَ والاستسلامَ لله.

وفي آخر لحظة، وقبلَ أنْ يُمِرَّ إبراهيمُ السكين على عنق إسماعيل، ناداه الله، طالباً منه عدمَ الذبح، لأن المقصودَ قد تحقق.

الفداء بالذبح العظيم:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾: قد حقَّقْتَها عملياً في الواقع، فكانتْ من قبلُ رؤيا نظرية، رأيْتَها في المنام، ولكنها تحتاج إلى تطبيقٍ وتنفيذ وتعبير، وتعبيرُها هو تحقيقُها في الواقع، وهذا هو تصديقُها، وقد فعلْتَ أنت المطلوب، ولم تبقَ إلا آخرُ لقطة في التنفيذ، وهي غيرُ مقصودة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾: لقد أمر الله إبراهيمَ بذبحِ ابنه من

---

(١) المفرادت: ١٦٧.

باب الابتلاء والامتحان والاختبار، له ولابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد نجحا في الامتحان نجاحاً باهراً، وأعطاهما الله هذه الشهادة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

وبعد ذلك الفداء: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾. فدى الله إسماعيلَ بذبحٍ عظيم، بأنْ قدَّمَ لِإبراهيم كبشاً عظيماً كبيراً، وطلب منه أنه يذبحه فداءً لِإسماعيل.

لكن متى جاء الفداء؟ ومتى قدم الله لِإبراهيم البديل؟ لقد كان ذلك بعد الاستسلامِ والتصديق، بعد التضحية والابتلاء، بعد النجاح في الامتحان.

وهذا الذبحُ العظيم الذي فدى الله به إسماعيلَ لا نعرف عنه شيئاً، سوى أنه ذبحٌ عظيم. فليس عندنا كلامٌ عنه غير هذه الآية، ولا يوجَدُ حديث صحيحٌ يضيف معلوماتٍ إليها، فلا نعرفُ من أينَ جاء، وما حجمه، وما نوعُه، وكيف ذَبَحه إبراهيم، ولا نخوضُ في تعيين هذه المبهمات!.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾: تقررُ هذه الآية الفائدة والعبرة المستفادة من حادثة الذبح. فالله تركَ هذه العبرة، وأبقاها موجودة مؤثرة، تؤثرُ في الآخرين القادمين من الأجيالِ اللاحقة. و ﴿عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم.

أي: أبقَيْنا الثناءَ الحسنَ الجميل على إبراهيم، وجعلناه قدوةً للمؤمنين القادمين من الآخرين.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾: إخبارٌ من الله بأن الله منحَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام سلاماً عظيماً مجزياً. لسلامةِ قلبه وتوجُّهِه إلى ربه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: تقريرٌ من الله بأنَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا من المحسنين، ولذلك جزاهما الله خيرَ الجزاء، وقَبِلَ منهما الاستسلام، وفدى إسماعيلَ بذبحٍ عظيم.

وعندما نقفُ أمامَ الآيات التي عرضتْ لقطاتٍ وحلقاتٍ من قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الصافات، نرى أنه كان موفقاً وناجحاً وصادقاً ومحسناً في هذه اللقطات، وظهرَ منها حسنُ إيمانِه بالله، وخضوعه واستسلامه له، وتصديقه بوعده، وتنفيذه لأمره.

السر في نجاح إبراهيم هو في القلب السليم:

ولكن ما هو السرُّ في هذا النجاح والتوفيق؟

بدايةُ قصةِ إبراهيم في السورة تشيرُ إلى هذا السر، قال تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

إبراهيمُ من شيعةِ نوح، وعلى طريقِه ومنهجه ودينه، وجاءَ إبراهيم ربَّه بقلبٍ سليم، ولهذا قال الله في آخر آيات القصة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٩ ـ ١١٠].

قلبُه سليم من كل ما يناقضُ التوحيدَ والإيمان والإِخلاص، قلبه بريء من كل مظاهرِ أمراضِ القلوب الأخرى، قلبه خالصٌ لربه، وبهذا القلبِ السليم الخالصِ الصافي تحركَ في حياته، ونَشَرَ رسالَته، وواجه أعداءَه، وأقبلَ على ربه، فارتقى من نجاح إلى نجاح، ومن توفيقٍ إلى توفيق!!.

وبعدما أَنهت الآياتُ حديثَها عن مشهد الذبح والفداء والاستسلام، والثناء على إبراهيم وإسماعيل، انتقلتْ للحديثِ عن إسحاق، الابن الثاني لإِبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فقالت: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

وذكْرُ البشارة بإسحاق بعد الكلام على الذبيح، دليلٌ على أن الذبيحَ هو إسماعيل وليس إسحاق. وأن البشارةَ بإسحاق وولادته كانت بعدَ مشهد الذبح والفداء لإِسماعيل.

ترجيح كون إسماعيل الذبيح وليس إسحاق:

وهذا الترتيبُ في الحديث عن ابنَيْ إبراهيم: إسماعيل ثم إسحاق - عليهم الصلاة والسلام - لإظهارِ فضلِ الله على إبراهيم، فالله قد حفظ له ابنَه الوحيد إسماعيل من الذبح، وفداه بذبح عظيم، والله قد بشره بولدٍ آخر يولَدُ له، وهو إسحاق، والله قد بشره بأنه سيمدُّ عمره، ليرى حفيدَه يعقوب ابنَ إسحاق.

إن هذا الترتيبَ في آيات سورة الصافات يدلّ على أن الذبيحَ هو إسماعيل عليه السلام.

ولا نخوضُ في الخلاف الذي جرى بين المؤرخين والمفسرين حول تعيين الذبيح، وهل هو إسماعيلُ أو إسحاق، ولا في مغالطاتِ اليهودِ عندما نصّوا في التوراة المحرفة أنه إسحاق، فنرى أن سياقَ الآيات في سورة الصافات يكادُ ينصُّ نصاً على أنه إسماعيل.

ونكتفي بتسجيلِ هذه الخلاصة من كلام الإمامِ ابن كثير: «وهذا هو الظاهرُ من القرآن، بل كأنه نصّ على أن الذبيحَ هو إسماعيل، لأنه ذكر قصةَ الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢)﴾».

ومَنْ جعلَه حالاً فقد تكلَّف، ومستَنَدُه أنه إسحاق، إنما هو إسرائيليات، وكتابُهم فيه تحريف، ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيدَ عنه، فإنَّ عندهم أنَّ الله أمرَ إبراهيم أن يذبحَ ابنَه ووحيده، وفي نسخةٍ من التوراة المعربة: بكرَه إسحاق، ولفظةُ إسحاق هاهنا مكذوبةٌ مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، وإنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملَهم على هذا حسدُ العرب، فإنَّ إسماعيلَ هو أبو العرب. . .

وقد قال بأنه إسحاق طائفةٌ كثيرةٌ من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعبِ الأحبار، أو من صحفِ أهل الكتاب.

وليس في ذلك حديثٌ صحيح عن المعصوم، حتى نتركَ لأجله

ظاهرَ الكتاب العزيز، ولا يُفهمُ هذا من القرآن، بل المفهومُ، بل المنطوق، بل النص ـ عند التأمل ـ على أنه إسماعيل.

وما أحسنَ ما استدلَّ به محمدُ به كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس إسحاق، من قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: ٧١]. فكيف تقعُ البشارة بإسحاق، وأنه سيولدُ له يعقوب، ثم يؤمرُ بذبحِ إسحاقِ وهو صغير، قبلَ أنْ يولَدَ له؟ هذا لا يكون، لأنه يناقضُ البشارةَ المتقدمة! والله أعلم!.

ولمّا ذكرَ ابنُ كعبِ القرظي هذا الدليلَ للخليفةِ عمرَ بن عبد العزيز، قال له عمر: إن هذا الشيءَ ما كنتُ أنظرُ فيه، وإني لأراه كما قلت!.

ثم أرسلَ عمرُ إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم، وحسنَ إسلامُه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمرُ بن عبد العزيز: أيُّ ابنَيْ إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟.

فقال: إسماعيل، والله يا أميرَ المؤمنين. وإن اليهودَ لتعلمُ بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشرَ العرب على أن يكون أبوكم إسماعيل، فهم يجحدونَ ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأنه أبوهم»[1].

ولا نرى إطالةَ الوقفةِ لتحديدِ مَنْ هو الذبيح، ونرى تجاوُزَ هذا، للاستفادة من الدروس والعبر من هذه الحادثة!!.

[٢٠]

إبراهيم وإسماعيل يبنيان البيت الحرام

أمر الله لهما ببناء الكعبة والآيات عن بنائها:

أَمرَ الله إبراهيمَ عليه السلام أنْ يبنيَ الكعبةَ المشرفة، بيتَ الله

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ـ طبعة دار الخير ١٤٤ ـ ١٤٧ باختصار.

الحرام، فتوجَّه إلى مكة، حيث يقيم ابنُه إسماعيلُ عليه السلام، وقال له: «إن الله أمرني بأمر».

قال: إسماعيل: اصنعْ ما أمرك ربك.

قال: وتعينُني؟

قال إسماعيل: وأعينُك!

قال: إن الله أمرني أن أبنيَ هاهنا بيتاً ـ وأشارَ إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها ـ.

فعند ذلك رفَعا القواعدَ من البيت، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفعَ البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقامَ عليه وهو يبني، وإسماعيلُ يناولُه الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وقد أشارتْ آياتُ القرآن إلى بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيتِ الله الحرام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٩].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٣٣٦٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩٠.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٩].

معنى «مكة» و «بكة» و «الكعبة»:

تخبرُ هذه الآياتُ أن إبراهيمَ ـ وإسماعيل عليهما السلام قد بنيا أشرفَ وأفضلَ وأولَ بيت لعبادة الله تعالى، في مكة المكرمة.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

البيتُ الحرامُ هو أول بيتٍ وُضعَ وبُني للناس، كي يعبدوا اللَّهَ فيه، كما تصرحُ الآية، حيث جعله الله مباركاً وهدى للعالمين.

واللامُ في قوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ لامُ المزحلقة التي انتقلت من اسم إنَّ ﴿أَوَّلَ﴾ إلى خبرها «الذي ببكة»، وتُستخدمُ لامُ المزحلقة للتوكيد. أي: أولُ بيت بُنيَ هو البيتُ الذي في مكة.

و «بكة» اسمٌ آخر لمكة المكرمة، وسُميتْ مكةَ وبكةَ بعد بناء الكعبة، حيث نشأتْ حول الكعبة.

ومكة مشتقةٌ من «المَكّ».

قال ابن فارس: «المَكّ: انتقاءُ العظم وصفاؤُه. يقال: تَمَكَّكتُ العظم: أخرجْتُ مُخّه. وامْتَكَّ الفصيلُ ما في ضرع أمه: شربَ اللبن الذي فيه.

ويُقال: سُميتْ مكة لقلةِ الماء بها، كأنّ ماءَها قد امْتُكَّ، أي: امْتُصّ»[1].

المَكّ في اللغة بمعنى الامتصاص. وسُميت مكةُ بذلك لأنها تَمُكُّ وتمتصُّ ذنوبَ الحجاج، فعندما يحجُّ المسلم حجةً مبرورة، فإن الله يغفرُ له ذنوبه، ويخرجُ من ذنوبه كيومِ ولدته أمه. وكأن «مكة» مكَّتْ ذنوبَه، وقامتْ بشربِها وامتصاصِها وتذويبها والذهاب بها.

والاسمُ الثاني لمكة هو «بَكّة» كما تصرحُ بذلك الآية. و«بكة» مشتقة من «البَكّ».

قال ابن فارس في البَكّ: «البَكّ يجمع: التزاحمَ والمغالبَة. قال الخليل: البَكّ: دقّ العنق. ويقال: سُميت بكة، لأنها كانت تبُكُّ أعناقَ الجبابرة وتدقُّها إذا أَلحدوا فيها بظلم. ويقال أيضاً: بل سُميتْ بذلك لأن الناسَ يَبُكُّ ويدفعُ بعضهم بعضاً عند الطواف..»[2].

إذن هي بكة: لأنها تَبُكُّ وتدقُّ أعناقَ الكافرين والجبابرة، وتقضي عليهم.

ويتوفرُ في مكةَ المعنيان، معنى المك وهو الامتصاص، ومعنى البك وهو الدّك والدّق. فمن أتى مكة عابداً لله، طائفاً بكعبتها، فإنها تمكُّ ذنوبَه وتمتصها وتقضي عليها، أما من أتى مكة ظالماً باغياً معتدياً فإنها تتحولُ بالنسبة له إلى بكة، إذْ تبُكُّ وتدقّ عنقه، وتقضي عليه.

بنى إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام بيتَ الله الحرام بمكة،

---

(١) مقاييس اللغة ٥: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) مقاييس اللغة ١: ١٨٦.

والبناءُ الذي بنياه له اسم آخر، هو الكعبة.

قال تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: ٩٧].

وجاء ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ في الآية بدلاً منصوباً من ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾. أي: أن الكعبةَ هي البيتُ الحرام.

وجعلَ الله المذكورات في الآية ـ الكعبةَ البيتَ الحرام، والشهرَ الحرام، والهديَ، والقلائد ـ قياماً للناس، بها قِيامُ حياتهم، وقِوامُ حياتهم، وقِوامُ إيمانهم، وقوامُ قلوبهم.

والكعبةُ مشتقة من الكَعْب.

قال ابن فارس في معنى الكعب: «الكعبُ يدلُّ على: نُتُوِّ وارتفاعِ في الشيء. كعبُ الرجل: وهو عظمُ طرفي الساق، عند ملتقى القدم والساق.

والكعبة: بيتُ الله تعالى، سميَ بذلك لنتوِّه وتربيعِه.

وكَعِبَت المرأة فهي كاعِب: إذا نَتَأَ ثَدْيُها»[1].

فسميت الكعبةُ بذلك الاسم لأنها بناءٌ مربّع، ومرتفعٌ عما حوله، لأن إبراهيمَ وإسماعيلَ بنياها على أكمةٍ أو تلةٍ صغيرة، مرتفعةٍ عما حولها.

لكن هل بُنيت الكعبةُ قبلَ إبراهيم وإسماعيل؟ أم كانا هما أولَ من بنياها؟.

حجة من قال إنها بنيت قبل إبراهيم:

ذهبَ بعضُ العلماء إلى أن الكعبةَ قد بُنيتْ قبلَ إبراهيم عليه

(١) مقاييس اللغة ٥:١٨٦.

السلام، وكان فعلُ إبراهيم وإسماعيل هو تجديدَ بناء الكعبة، وليس إنشاءَه. لأن الكعبة قد هُدمتْ من قبل، لكن بقيتْ أساساتُها، فرفع إبراهيمُ وإسماعيل القواعدَ على تلك الأساسات.

وذهبَ علماء آخرون إلى أن الكعبةَ لم تُبْنَ قبلَ إبراهيم وإسماعيل، وما كان أحدٌ قبلهما يعلم أن في مكانِها كعبة، وأنها كانت مبنيةً ثم هُدمت. ولو كانت مبنيةً ثم هُدمتْ لَعَلِمَ العربُ ذلك، وتناقَلوه في بلادهم في الحجاز واليمن ونجد، وبما أنهم لم يتناقلوا ذلك، فهو دليلٌ على أن الكعبةَ لم تكن مبنيةً من قبل. وإبراهيم وإسماعيل هما أولُ مَنْ بَنَيا الكعبة.

لا توجَدُ أحاديثُ صحيحة تتحدثُ عن بناء الكعبة قبل إبراهيم، وكلُّ ما يعتمدُ عليه أنصارُ القول الأول إنما هو أخبارٌ وروايات لم تَثْبت ولم تصحَّ حديثياً، ولذلك لا تُعتمد، ولا تدلُّ على ما يُراد بها في موضوعِ النزاعِ.

ومَن أرادَ معرفةَ ملابسات بناء الكعبة فعليه بالوقوفِ أمامَ الآيات القرآنية التي تحدثت عن ذلك.

اعتمدَ أنصارُ القول الأول على ظاهرِ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وعلى ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

فقالوا: إنَّ مكان البيتِ كان موجوداً قبل إبراهيم، ولكنه كان مخفياً مطموراً، لأن البيت كان مهدوماً، وبَوَّأَ الله لِإبراهيم مكان البيت، ودلَّه عليه، وأرشده إليه، وعَرَّفه على أساساته، فقام هو وإسماعيلُ برفع القواعدِ على تلك الأساسات.

الراجح أن إبراهيم وإسماعيل أول من بنياها:

ولا نرى الآيتين تدلاّن على ما يقولون. فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ يدلُّ على أنَّ الله دلَّ إبراهيم على هذه المنطقة، التي سيبنى عليها البيت، وهيَّأها له، وأمره ببناءِ البيت في ذلك المكان الذي حدَّده له سبحانه، والذي يعلمُ منذ الأزل أنه سيكون فيه بيتُه المحرم، والذي جعله أقدس وأشرفَ بقعة.

ولما بوَّأَ الله لإبراهيم مكان البيت، وأَمَرَه ببنائه، نفَّذَ إبراهيمُ أمر ربه، فأرسل مع إسماعيلَ أساساتِ البيت، وبعد ذلك قاما برفْع قواعده، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾. يتحدثُ عن المرحلةِ الثانية من مراحل بناء الكعبة، ويسكتُ عن المرحلة الأولى، ولا يُستنبط منه أن الأساساتِ قد بُنيت قبلَهما.

ونظراً لعدم وجودِ أحاديث صحيحة حول بناءِ البيت قبل إبراهيم، فإننا نَبقى مع ظاهرِ الآيات، ونقول: إبراهيم وإسماعيل هما أولُ مَن بنيا الكعبة، وأن الكعبة لم تُبن قبلهما ـ والله أعلم ـ.

وحول هذا المعنى يقول الإمامُ ابن كثير: «أمرَ الله إبراهيمَ عليه السلام أنْ يبني له بيتاً، يكونُ لأهل الأرض، كتلك المعابدِ لملائكة السماوات. وأرشده الله إلى مكان البيتِ المهيأ له، المعينِ لذلك، منذ خلق السماوات والأرض، كما ثبت في الصحيحين: «إن هذا البلدَ حرَّمه الله، يومَ خلق الله السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمةِ الله إلى يوم القيامة».

ولم يجئ في خبرٍ صحيحٍ عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبلَ الخليل عليه السلام، ومنْ تمسَّك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهضٍ ولا ظاهر، لأن المرادَ مكانَه المقدرَ في علم الله، المقررِ في قَدَره، المعظمِ عند الأنبياء موضعُه، من لدن آدم إلى زمانِ إبراهيم.

وقد ذكرْنا أنَّ آدمَ نَصَبَ عليه قبة، وأن الملائكةَ قالوا له: قد طُفْنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينةَ طافَتْ به أربعين يَوماً، أو نحو ذلك.

ولكن كلَّ هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قرَّرْنا أنها لا تُصَدَّقُ ولا تُكذَّب، فلا يُحتج بها. فأمّا إنْ ردَّها الحقُّ فهي مردودة..»[1].

إبراهيم وإسماعيل يدعوان أثناء البناء:

إذن: قامَ إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام ببناء الكعبة، وكانا أثناءَ البناء يتوجَّهان إلى الله بالدعاء، ويطلبان منه سبحانه أن يتقبل منهما عملهما وعبادتَهما وبناءهما، وأنْ يجعلَهما مسلميْن له، وأن يهبَهما من ذريتهما أمةً مسلمة له، وأن يبعثَ لذريتهما رسولاً منهم يدعوهم إلى الله، ويعلمهم ويزكيهم!

وقد عرضت الآياتُ هذا الموقفَ الإيماني الخاشع المنيب لهما، في مشهدٍ حَيٍّ مؤثِّر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]

وقد استجابَ اللَّهُ دعاءهما، فبعث من بني إسماعيل رسولاً، هو محمدٌ خاتم النبيين ﷺ.

روى أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمُنْجَدلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارة عيسى..»[2].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤: ١٢٧، ١٢٨. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٢.

وروى أحمد عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، ما كان أولُ بدْءِ أمرك؟

قال: «أنا دعوةُ إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأتْ أُمي نوراً أضاءت منه قصورُ الشام»)[1].

ما هو مقام إبراهيم؟:

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن إبراهيمَ هو الذي كان يبني البيت، وإسماعيلَ كان يناولُه الحجارة: «.... فعند ذلك رَفَعا القواعدَ من البيت، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفعَ البناءُ جاءَ بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة...».

والحجرُ الذي وضعه إسماعيلُ لإِبراهيم هو ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. وسمي «مقام إبراهيم» لأن إبراهيمَ كان يقومُ عليه، ويقف عليه، وهو يبني الكعبة.

قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. والآياتُ البيناتُ التي في البيت الحرام من أهمها مقامُ إبراهيم. ولهذا جاء ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في الآية، بدلاً مرفوعاً من ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، وهو بدلُ بعضٍ من كل.

وقد أمرَ اللّهُ المسلمين أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، أي: أنْ يُصلوا فيه: قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقد كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه قد اقترحَ على رسولِ الله ﷺ أن يتخذَ المسلمون من مقام إبراهيم مصلى. فنزلت الآيةُ تأمرهم بذلك، وكانت هذه من «موافقات» عمر رضي الله عنه.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥: ٢٦٢. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٣.

روى البخاري وغيره عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه قال: (قال عمرُ رضي الله عنه: وافقْتُ اللَّهَ في ثلاث ـ أو وافَقَني ربي في ثلاث:

قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى. فأنزلَ الله قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وقلت: يا رسولَ الله، يدخلُ عليك البَرُّ والفاجر، فلو أمرْتَ أمهاتِ المؤمنين بالحجاب. فأنزل اللَّهُ آيةَ الحجاب.

وبلغني معاتبةُ النبي ﷺ بعضَ نسائه. فدخلْتُ عليهن، فقلتُ: إن انتهيتُنَّ، أو ليبدلَنَّ اللَّهُ رسولَه خيراً منكن، حتى أتتْ إحدى نسائه، فقالت: يا عمر، أَما في رسول الله ﷺ ما يعظُ نساءه، حتى تعظهنَّ أنت. فأنزلَ الله الآية: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾[1] [التحريم: ٥].

وقد كان مقامُ إبراهيمَ ـ الحجرُ الذي كان يقف عليه ـ ملتصقاً بجدارِ الكعبة، وبقي هكذا طيلة عهدِ رسول الله ﷺ، وخلافةِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما كانت خلافةُ عمر رضي الله عنه وقعَ الضيقُ على الطائفين عند البيت، لأن الناسَ كانوا يصلون عند مقام إبراهيم الملتصق بالكعبة، فقام عمرُ بتأخير مقام إبراهيم عن البيت قليلاً، ليسهلَ حركةَ الطواف.

وما زال ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ موجوداً قرب الكعبة، ومركبٌ عليه إطارٌ زجاجي، مقابلَ باب الكعبة، وما زال المصلّون من رواد البيتِ الحرام طائفين وعاكفين ومعتمرين يتخذونَه مصلّى.

وما زالتْ آثارُ قدميْ إبراهيم عليه السلام موجودةً على ذلك الحجر. وكأنها محفورة فيه حفراً. وما زالت الآياتُ البينات موجودةً في البيت الحرام، ومن أهمها مقامُ إبراهيم. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٠٩.

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

أذان إبراهيم بالحج بعد بناء البيت:

وبعدما بنى إبراهيمُ وإسماعيلُ البيت، أذَّنَ إبراهيمُ بالحج، ودعا الناسَ إلى الحج إلى بيت الله الحرام. قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٧].

وأذانُ إبراهيمَ في الناس بالحج، هو دعوتُهم للحج وزيارةِ البيت الحرام، أفضلِ وأشرفِ وأقدسِ مكانٍ على وجه الأرض. وقد كلفَ اللَّهُ العربَ بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالحج إلى البيت.

وقام المؤمنون الموحدون منهم بالحج إلى البيت، منهم مَن أتى راجلاً ماشياً، ومنهم مَن أتى راكباً على راحلةٍ ضامرة، وقدِمتْ وفودُ الحجاج من الحجاز واليمن ونجد وغيرها.

وحتى بعدما طرأ الشركُ بالله على الأجيال اللاحقة من أولئك العرب، ظلَّ الحجُّ راسخاً فيهم، واستمروا يأتون إلى الكعبة للحج.

وبعدما بعث اللَّهُ محمداً رسولاً عليه الصلاة والسلام، أمر اللَّهُ المسلمين بالحج، وجعله ركناً من أركان الإسلام.

وهذه الوفودُ القادمةُ للحج منذ إسماعيل عليه السلام، وحتى قيام الساعة، وهي تفسيرٌ عمليٌّ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

إبراهيم يدعو لمكة والرسول يدعو للمدينة:

وبعدما أتمَّ إبراهيمُ بناءَ الكعبة، دعا اللَّهَ لها ولأهلها، وجعلَها حراماً يحرمُ القتال فيها. وحَرَّم صيدَها وشجرَها، وحددَ حدودَ الحرم، وكان هذا بوحي الله إليه.

وقد أخبرنا رسولُ الله ﷺ أن إبراهيمَ حرمَ مكة ودعا لها، وأن رسولَنا عليه الصلاة والسلام قد حرم المدينة ودعا لها.

روى الإمامُ مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خرجْنا مع نبيِّ الله ﷺ، حتى قدِمْنا عَسْفان، فأقامَ بها ليالي.

فقال الناس: واللّهِ ما نحنُ هنا في شيء، وإنَّ عيالنا لَخلُوف، ما نأمنُ عليهم!

فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «ما هذا الذي بلَغَني من حديثكم؟ والذي نفسي بيده، وإنْ شئتم لآمُرَنَّ بناقتي تُرَحَّل، ثم لا أحلُّ لها عقدة، حتى أقدمَ المدينة.

اللهمَّ إن إبراهيمَ حرمَ مكة، فجعلَها حرماً، وإني حرَّمتُ المدينة، ما بين مَأْزَمَيْها، وأنْ لا يُهراقَ فيها دم، ولا يُحملَ فيها سلاح لقتال، ولا يُخْبَطُ فيها شجرٌ إلا لَعَلَف..»)[1].

وروى الإمامُ مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان الناسُ إذا رأوا أولَ الثمرِ جاؤوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسولُ الله ﷺ قال: «اللهمَّ باركْ لنا في ثَمَرنا، وباركْ لنا في مدينتنا، وباركْ لنا في صاعنا، وباركْ لنا في مُدِّنا. اللهمَّ إنْ إبراهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك، وإني عبدُك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أَدعوك للمدينة، بمثل ما دعاك لمكة..»)[2].

لقد امتنَّ اللّهُ على العرب الكافرين بأنه استجابَ دعوةَ إبراهيم للحرم وأهله، فجعلَ مكةَ بلداً آمناً مطمئناً، وعليهم أن يشكروا اللّهَ على هذه النعمة، فيؤمنوا به وحده، ويتبعوا رسولَه محمداً ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٣٧٤. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٤.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٣٧٣. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٥.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧].

إبراهيمُ عليه السلام هو الذي بني الكعبة بنصِّ الآياتِ والأحاديث السابقة. ولما انتهى من البناء، ودعا الناسَ إلى الحج، عاد إلى مكانِ إقامته في فلسطين.

الأقصى بني بعد الكعبة بأربعين سنة على يد إبراهيم:

وبعد بنائِه الكعبةَ بفترة، قام ببناءِ المسجدِ الثاني المبارك المقدس، وهو المسجدُ الأقصى في بيت المقدس، فإبراهيمُ هو باني الكعبة، وإبراهيمُ هو باني الأقصى.

وقد أخبرَنا بذلك رسولُ الله ﷺ، فروى البخاريُّ ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أولاً؟.

قال: «المسجدُ الحرام».

قلت: ثم أيّ؟.

قال: «المسجد الأقصى».

قلت: كم كان بينهما؟

قال: «أربعون سنة»...[1].

إن هذا الحديثَ الصحيحَ يدلُّ على إنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو باني الكعبة والأقصى، ويحددُ المدةَ الزمنية بين بنائهما بأنها أربعون سنة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٣٦٦. ومسلم برقم: ٥٢٠.

وهذا معناه أن الأقصى بُنَي في القدس، قبلَ وجود بني إسرائيل، وقبلَ دخولِهم فلسطين بعد موسى عليه السلام، وقبل مُلْكِ داود وسليمان، وقبل بناءِ سليمان للهيكل كما يزعم اليهود.

فكونُ القدس بلداً إسلامياً هذا أمرٌ قديم، منذ إبراهيمَ عليه السلام على الأقل، وبناءُ الأقصى مسجداً لله تعالى، هذ قديم، قبل أنْ يوجَدَ اليهود، ويَدّعوا أن لهم حقاً في فلسطين بمئات السنين. فحق المسلمين في القدس سابقٌ لأي حقٍّ يهودي أو نصراني ـ إن كان لليهود أو النصارى حق فيها ـ. وهذا الحقُّ ثابتٌ لهم منذ أبيهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

ونعلمُ أن المسجدَ الأقصى الذي بناه إبراهيم عليه السلام قد عَدَتْ عليه العوادي، وأنه قد تهدَّم، ولكن مكانَه بقي معروفاً، وبقي «أقصى»، وبقي مقدساً والرسولُ ﷺ أَمَّ الأنبياءَ في الصلاة، على أطلال بناءِ الأقصى، في ليلةِ الإسراء والمعراج، ثم قام المسلمون ببناءِ الأقصى في عهد الأمويين، أو قاموا بتجديدِ بنائه ـ على الأصح! ـ.

ولما عادَ إبراهيمُ عليه السلام إلى بيت المقدس ـ بعد بنائه الكعبة ـ بقي ابنُه إسماعيلُ عليه السلام مقيماً في مكة حول البيت، مشرفاً على الطائفين والقائمين والعاكفين والحجاج.

إسماعيل نبي للعرب ومهارته في الرمي:

وقد بعث اللّهُ إسماعيلَ عليه السلام نبياً إلى العرب، يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بالصلاة والزكاة. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

ولم يبعث اللّهُ من نسلِ إسماعيل إلا نبياً واحداً هو أفضلُ وأشرفُ وخاتم الأنبياء والمرسلين، محمدٌ ﷺ، بينما بعثَ أنبياءَ كثيرين من نسل إسحاقَ عليه السلام، هم أنبياءُ بني إسرائيل.

روى مسلمٌ عن واثلةَ بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل اصطفى من ولدِ إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم...»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث عن أنَّ اللّهَ عز وجل قد اصطفى محمداً عليه الصلاة والسلام اصطفاءً خاصاً، من سلالةٍ طاهرة. من نسلِ إسماعيل عليه الصلاة والسلام: إسماعيل، ثم كنانة، ثم قريش، ثم هاشم، ثم محمد ﷺ، فهو خِيارٌ من خِيار من خيار.

وأخبرَنا في حديثٍ آخر عن مهارةِ إسماعيلَ عليه السلام في الرمي. فقد روى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: (خرجَ رسولُ الله ﷺ على قوم من أَسْلَم يتناضلون بالسوق.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ارْموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، وأنا معَ بني فلان.

فأَمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لَهم؟».

قالوا: كيفَ نرمي وأنتَ مع بني فلان؟

قال: «ارموا، وأنا معكُم كُلُّكم»)[2]

إن الرسولَ ﷺ رأى فريقين من المسلمين يتباريان ويتسابقان في الرماية، والانتضالِ بالسهام، فشجَّعَهم ووقفَ يرمي معهم.

وأَخبرهم أن أَباهم إسماعيلَ كان ماهراً بالرماية، فقال لهم: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً».

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٧٧٦. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٩٩. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٩٩.

[٢١]

إبراهيم وإسحاق عليهما السلام

إسحاقُ عليه السلام هو الابنُ الثاني لإبراهيم، وقد بشَّره اللَّهُ به ووهبه له على كبر، وكان ابنُه الأول إسماعيلُ نبياً، وكان رجلاً متزوجاً، فبين إسماعيل وإسحاق سنواتٌ عديدة، الله أعلم بمقدارها.

ولما بُشر إبراهيمُ بإسحاق كان إبراهيمُ مقيماً في فلسطين، وكان شيخاً كبيراً، وامرأتُه سارة عجوزٌ عقيم.

وقد أرسلَ اللَّهُ لإبراهيم نفراً من الملائكة، في صورةِ رجال، وكانوا في طريقهم لتدمير قوم لوطٍ الشاذين، فلم يعرفْ إبراهيمُ حقيقتهم، وظنَّهم ضيوفاً، وقدَّم لهم طعاماً، فلم يأكلوا منه، وأخبروه عن مهمتهم، وبشَّروه بإسحاق نبياً من الصالحين.

وقد وردت قصةُ إبراهيم مع ضيوفه الملائكة في القرآن، في أكثر من سورة.

[٢٢]

١ ــ قصته مع الملائكة في سورة هود:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦].

تخبرُ الآياتُ عن قدوم الملائكة لإبراهيم عليه السلام في صورة بشر، ولم يعرفهم، فظنَّهم رجالاً ضيوفاً، وقدمَ لهم طعاماً، فلم يأكلوا منه.

من دلالات قصته مع الملائكة:

وفي هذا عدةُ دلالات، منها:

ـ الملائكةُ تتحوَّلُ إلى صورة البشر، حيث أَقدرهم اللّٰهُ على ذلك، فَهَا هُمُ الملائكةُ عند إبراهيم في صورة رجالٍ بشر، وجبريل عليه السلام لما أرسله اللّٰهُ إلى مريم رضي الله عنها، تمثَّل لها بشراً سوياً. ونعلم أن جبريلَ كان يأتي للرسول ﷺ أحياناً في صورةِ رجلٍ غريب، وأحياناً في صورةِ الصحابي دِحْيَة الكَلْبي رضي الله عنه.

ـ إبراهيمُ عليه السلام لم يعرفْ أن هؤلاء الرجالَ الذين أمامه هم ملائكة، لأن اللّٰهَ لم يخبره، والأنبياءُ لا يعلمون كل شيء، ولا يعلمون من الغيبِ إلا ما أعلمهم الله إياه، ولا يَضيرُهم ولا يَعيبُهم أن لا يعرفوا بعضَ الأشياء، التي لم يُعلِّمهم الله إياها.

ـ سرعةُ تقديم الطعام لهم دليلٌ على كرمِ إبراهيم عليه السلام، وإسراعِهِ في قِرى ضيوفه وتكريمهم، فهو أبو الضِيفان، وقد كان كرمه عليهم غامراً، حيث قدمَ لهم عجلاً مشوياً، مع أن عددهم قليل.

لم يأكل الملائكةُ من العجل المشوي، وفي هذا دلالة أن الملائكةَ لا يأكلون ولا يشربون، ولا يجوعون ولا يعطشون، ولا يبولون ولا يتغوطون، ولا يعتريهم ما يعتري بني آدم، ولا يحتاجون إلى ما يحتاجُه بنو آدم، فهم خَلْقٌ، خلقهم الله من النور.

ونُلقي على آيات سورة هود نظرات سريعة:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: أرسلنا رسلَنا من الملائكة

إلى إبراهيم في صورة بشر، ليبشّروه البشرى التي تسرُّه، وهي ولادةُ ابنه إسحاق له، من زوجه سارة العقيم.

وكلمة ﴿رُسُلُنَآ﴾ مبهمة غيرُ محددة، لم تحدِّدْ لنا عددَ هؤلاء الرسل الملائكة، ويجبُ أن نُبقيَ عددهم على إبهامه، فلا نحاول تحديدَه. وسماهم اللّهُ رسلاً، لأنهم مبعوثون في رسالةٍ ومهمة خاصة، لتحقيقِ قدَرِ الله وقضائه.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾: قابل الملائكةُ إبراهيمَ وهم في صورة بشر، فحيَّوه قائلين: ﴿سَلَٰمًاۖ﴾. أي: نسلمُ عليك سلاماً.

فردَّ على تحيتهم بتحيةٍ أحسن منها، حيث قال: ﴿سَلَٰمٌۖ﴾. أي: سلام عليكم. والعدولُ عن نصْبه ﴿سَلَٰمًاۖ﴾ إلى رفعه ﴿سَلَٰمٌۖ﴾ في ردِّه، ليدلَّ على تمكنٍ ورسوخٍ وتحقيقٍ وثباتٍ أكثرَ للسلام من طرفه هو.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ أكرَمَ إبراهيمُ ضيوفَه مباشرة، ثم سارعَ بذبح عجل سمين، وشواه شيّاً، وما هي إلا فترة قصيرة، حتى رأوا العجل مشوياً أمامهم.

والحنيذ هو: المشويُّ على الحجارة المحْماة بالنار، التي في «الطابون»، وتسمى «الرّضف».

قال ابن فارس: «الحَنْذُ: إنضاجُ الشيء. يقال: شواء حنيذ: منضَج. وذلك بأن تُحمى الحجارة، وتوضَع عليه حتى ينضج..»[1].

وتقديمُ إبراهيم عجلاً مشوياً ناضجاً لهم فورَ دخولهم عليه، دليلٌ على كرمه، ومبالغةٌ في إكرامه لهم. فكان يكفيه أن يقدمَ لهم شيئاً من اللحم، أو يقدمَ لهم خروفاً، أما أن يقدمَ لهم عجلاً، فهذا لا يصدرُ إلا عن رجلٍ كريم!

---

(١) مقاييس اللغة ٢:١٠٩.

الملائكة يخبرونه بمهمتهم وفرح سارة:

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لم يمدّ الضيوفُ أيديهم إلى العجل المشوي، ولم يأكلوا منه. فلما رأى إبراهيمُ ذلك من ضيوفه نَكِرَهم واستغربَ من أمرهم.

لماذ لا يأكلون من طعامِه الشهي؟ وهم مسافرون بحاجةٍ للطعام، وهم ضيوفُه، وقدمَ لهم طعاماً من أجودِ الطعام. إنَّ عدمَ أكلهم منه يدعو إلى الإنكار والاستغرابِ والعجب، وهو يوجِدُ التوجسَ والتخوف، فلعل هؤلاء الضيوف يريدون الشرَّ بإبراهيم، ولذلك لم يتناوَلوا طعامه، ولم «يمالحوه»!

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ لاحظ الضيوفُ تخوُّف إبراهيمَ منهم، فأرادوا طمأنته، وأخبروه عن طبيعتهم ليطمئن، إنهم لم يأكلوا عنده لأنهم ملائكة، والملائكةُ لا يأكلون الطعام، فلا يخفْ منهم.

﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بعدما قدَّموا له أنفسهم باعتبارهم رسلاً من عندِ الله، أَخبروه عن مهمتهم. لقد أرسلَهم اللَّهُ إلى قوم لوط الشاذين الكافرين، لإهلاكهم وتدميرِهم.

وقومُ لوط كانوا يسكنون إلى الشرقِ من فلسطين.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾: كانت امرأةُ إبراهيمَ سارة رضي الله عنها واقفة، قائمةً على خدمةِ ضيوف زوجها والترحيبِ بهم، واطمأنت لما علمتْ أنهم ملائكة، ولما سمعت بمهمتهم في إهلاك قوم لوط ضحكتْ وفرحتْ وسُرَّت بذلك.

إنها تعلمُ مَنْ هم قومُ لوط، وتسمعُ عن كفرهم وضلالهم، وتسمعُ عن انحرافِهم وشذوذهم، وتسمعُ عن إتيانهم الرجال وارتكابهم اللواط، وكم ساءَها ذلك منهم، وكم تمنتْ تدميرَهم وتعذيبهم.

والآن حلَّ بهم أمرُ الله، وها هي الملائكةُ في طريقها إليهم

لإهلاكهم، وبعد قليل سيدمَّرون، لذلك ضحكتْ سارةُ العجوزُ العقيمُ المؤمنة، وفرحت وسرت بذلك.

فضحكُها ضحكٌ حقيقي يقومُ على الفرح والسرور. ولا نوردُ هنا الأقوالَ السخيفةَ التي تحملُ الضحكَ على الحيض، ولا نناقشُ القولَ المتهافت الذي يقول: إنَّ ضحكَ سارة هو حيضُها وهي واقفة، ومجيءُ العادة الشهرية لها بعدما بلغت سنَّ اليأس، فهذا لا يستحقُّ مناقشته، وإظهارَ بطلانه.

حمل العقيم بين السنن البشرية وإرادة الله:

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾: لما رأى الملائكةُ ضحكَ سارة وسرورها، أرادوا المبالغةَ في تبشيرها لتزدادَ فرحاً وسروراً، فأخبروها بما قدَّره الله لها من النعمة، إنها ستلد ولداً، رغم بلوغها سنَ اليأس، وتُسميهِ إسحاق، وستبقى هي وزوجُها إبراهيم موجودَيْن، ليشاهدا حفيدَهما يعقوب!

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾: فوجئتْ سارةُ بهذه البشارة. فكيف ستلد؟ إن الأسبابَ المادية تجعلُ هذا مستحيلاً، إنها عجوزٌ عقيم، لقد بلغتْ سنَّ اليأس، وأصبحتْ عقيماً، وانقطعت دورتُها الشهرية، وتوقفَ المبيضُ عن إنتاج البويضةِ القابلة للإخصاب، فكيف ستلد؟ إن هذا لشيءٌ عجيبٌ غريب مدهش، يدعو إلى الدهشة والاستغراب، لأن المقاييسَ البشرية تأباه. فكيف سيحصلُ ذلك؟.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: لعل سارةَ المؤمنةَ الصالحة، وقعتْ تحتَ تأثير المفاجأة والدهشة، فنسيتْ قدَر الله، وأنَّ اللّهَ فعالٌ لما يريد، فذكَّرتها الملائكةُ بهذا الأصلِ الإيماني، ولهذا ردوا على تعجبها قائلين: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟.

إن المقاييسَ والسنن البشرية في الحمل والإنجاب تحكمُ البشر، فلا يملكون مخالفتها أو الخروجَ عنها، لكنها لا تحكم اللَّهَ، ولا تُلزمه، لأن اللَّهَ هو الذي وضعها وقدَّرها، ويَخرقُها متى شاء، ويكون خرقُه لها معجزة.

أَتعجبينَ من أمرِ الله؟ والله هو الذي شاءَ أن تحملي رغم أنك عجوزٌ عقيم، وشاءَ اللَّهُ أنْ تلِدي إسحاقَ نبياً، وشاءَ اللَّهُ أن تستمر حياتُك أنت وإبراهيم حتى تُدركا حفيدَكما يعقوب! لقد شاءَ اللَّهُ ذلك وقدَّره، وما قدَّره الله فلا بدَّ أن يتحقق، لأن اللَّهَ فعالٌ لما يريد، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فلا تعَجَبي ولا تستغربي ولا تستبعِدي أمْرَ الله!

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: وهذا ثناءٌ من الملائكةِ الضيوفِ على إبراهيم وأهل بيته، لأنه بيتٌ مبارك صالح، وأهلُه مؤمنون صالحون، وقد أنزلَ اللَّهُ عليهم رحمتَه، وأحلَّ عليهم بركاته، واللَّهُ حميدٌ مجيد، مستحقٌ للتحميد والتمجيد والثناء دائماً.

وبذلك أكرمَ اللَّهُ إبراهيمَ وزوجه سارة بابنهما إسحاق عليه السلام. ورزقهما إياه على كبرٍ منهما!

[٢٣]

٢ ـ قصة إبراهيم مع الملائكة في سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٦].

يأمرُ اللَّهُ رسولَه ﷺ أنْ ينبئ ويخبرَ قومَه عن ضيوف إبراهيمَ عليه

السلام، وإنباؤه عن قصتهم مع إبراهيم دليلٌ على أنَّ القرآن كلامُ الله، وليس من تأليفهِ هو، فمن أدراه بقصتهم مع إبراهيم، ومِن أين عرفَها وهو أُميّ؟ إنَّ إِخبارهم بها دليلٌ على أن ما يسمعونه منه هو كلامُ الله.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾: سلَّموا على إبراهيم لما دخلوا عليه، فردَّ عليهم التحيةَ بأحسنَ منها، كما ذكرتْ آياتُ سورة هود.

﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾: لما قدمَ لهم الطعامَ فلم يأكلوا منه، وجِلَ منهم، وأوجسَ منهم خيفة، وصارحهم بقوله: إنا منكم وَجِلون خائفون.

إسحاق غلام عليم والرد على استغراب إبراهيم:

فطمْأنوه بانْ عرَّفوه على طبيعتهم، وقالوا له: لا توجَلْ ولا تخف.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾: بعد أن طمأنوه بما أزالَ وَجَلَه وخوفَه، قدموا له بشارةً سارة، وهي أن الله سيهبُ له غلاماً صالحاً، وهذا الغلامُ سيكون عليماً.

والغلامُ الذي بشروه به هو إسحاق عليه السلام، كما صرحتْ بذلك آيات سورةِ هود وغيرها. وقد وصفَه اللَّهُ بالعلم في أكثر من آية.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾: تسجلُ هذه الآيةُ عجبَ ودهشة إبراهيم عليه السلام لما سمعَ البشارة، وقد سجلت آياتُ سورة هود دهشةَ وعجبَ زوجِه سارة، لما سمعت البشارة.

يقولُ إبراهيمُ لهم: أبشرتموني بالغلام بعدما مسَّني الكبر، وأصبحتُ شيخاً عجوزاً، وامرأتي عقيماً، فما هذه البشارة؟ وكيف سيكونُ ذلك؟

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: ردّوا على إبراهيمَ النبيَّ بما يزيلُ عجبه ودهشَتَه، وأخبروه بأنهم بشروه بالحق. أي أن هذه البشارةَ ليست

اجتهاداً منهم. وإنما هي من الله، واللَّهُ هو الذي أمرهم أن يُبشِّروه بها. فاللَّهُ قدَّرَ وأرادَ أنْ يهبَه الغلامَ العليم، وهو شيخٌ كبير، وزوجُه عجوز عقيم، ولا رادَّ لأمْرِ الله. فهذا هو الحقُّ الذي لا بدَّ أن يقعَ ويحصلَ ويتحقق.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾: ذكَّروه بأن لا يقنطَ من رحمةِ الله، وعليه أنْ يِكلَ الأمرَ إليه!

صحيحٌ أن ولادةَ ولدٍ له بعد هذا العمر الطويل، وبعد أنْ صارتْ امرأتُه عقيماً، غيرُ ممكنٍ عادة، وفوقَ الأسبابِ المادية، وأنَّ مَنْ نظر إلى المسألة من زاويةِ الأسبابِ المادية يقنط، ولا يأملُ أنْ يأتيه الولد.

لكن عندما يُنظرُ إلى المسألة من زاوية القدرة الإلٰهية والإرادة الربانية، فإنه لا يقنطُ ولا ييأس من حصولِ الولد، لأن اللَّهَ فعّال لما يريد.

وعلى إبراهيمَ أن ينظرَ إلى هذه البشارة بالمنظارِ الثاني، فلا يقنطُ ولا ييأس.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾: فهِمَ إبراهيمَ عليه السلام إشارةَ الملائكة وتذكيرَهم، وأزال عجبَه ودهشته، وصرحَ بأنه غيرُ قانط ولا يائسٍ من رحمة الله، لأنه لا يقنطُ من رحمةِ ربه إلا القوم الضالون الكافرون. أما المؤمنون فإنهم يتعاملونَ مع رحمةِ الله وقدره بإيمانٍ ويقين، وينظرون إلى الأقدارِ والأحداث القادمة بأملٍ وانشراح.

وبذلك أيقنَ إبراهيمُ عليه السلام أن اللَّهَ سيهبه غلاماً عليماً.

[٢٤]

٣ ـ قصة إبراهيم مع الملائكة في سورة الذاريات:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ

فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

ضيوفه قوم منكرون وسارع بإكرامهم:

يخبرُ اللّهُ في هذه الآيات رسول الله ﷺ عن قصة إبراهيم مع الملائكة، ويبدأ الخبرُ بصيغة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾. أي: سنخبرك الآنَ بحديثِ ضيف إبراهيم.

ووصفهم اللّهُ بأنهم مكرمون: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾. لأنهم ملائكة، والملائكةُ مكرمون عند الله.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾: تحيةٌ متبادَلة بينه وبينهم، مع أن تحيتَه لهم آكدُ وأبلغ.

ثم قال لهم: أنتم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي: غيرُ معروفين عندي. فمن أنتم؟

لم يَعرفْ أنهم ملائكة، لأنهم رجالٌ بشَر، ولم يعرف من أين أتوا، وأيُّ نوع من الرجال هم، ومِن أي قبيلة هم. إنهم مُنكَرون عنده لأنه لم يحددْ هويتهم!

ومع ذلك فقدْ سارعَ بإكرامهم، لأنه كريم، وحقُّ الضيف الإكرامُ والإطعام، ولو لم يعرفْه صاحبُ البيت: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

وكلمة «راغ» تدلُّ على الذهاب بسرعةٍ وخفية وخفة، وبدون تلكُّؤ أو تأخير، فترَكَ ضيوفَه مسرعاً، وراغَ إلى أهله، وأمرهم بإعدادِ وتجهيزِ عجلٍ سمين، وشَيِّه على الحجارة، ليكون عجلاً حنيذاً.

وجهزَ أهلُه العجلَ المشوي، وقدمه إبراهيمُ لضيوفه: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ودعاهم إلى الأكلِ من الطعام، ولكنهم لم يأكلوا: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ وخشيَ منهم الأذى والكيد، فقد يكون عدمُ أكلهم لأنهم يريدونَ به سوءاً، ويبيِّتون له شراً.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾. أزالوا خوفه، وقضوا على توجُّسِه، عندما كشفوا عن هويتهم، فهم ملائكةٌ رسلٌ من الله.

ثم بشروه بغلام عليم. والتقت آياتُ سورتي الحجر والذاريات على وصفِ إسحاقَ بالعلم.

ولادة العجوز العقيم بأمر الحكيم العليم:

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾ لما سمعت سارةُ البشارةَ فوجئتْ ودُهشتْ واستغربت: كيف سيكون هذا؟ بعلُها شيخٌ طاعن في السن، وهي عجوز عقيم لا تلد! فكيف ستلد غلاماً عليماً؟

وبحركةٍ عفوية غيرِ مقصودة، وبدون وعي أو شعورٍ أو انتباه، ضربتْ وجْهَها بيدها ﴿فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾، وهذه حركةٌ تصدرُ عن الإنسان عندما يكون في غايةِ التأثر أو الدهشة أو الانفعال.

ضربتْ وجهها بيدها، وقالت لهم مستغربة: أنا عجوزٌ عقيم.

والعقيمُ هي التي لا تلد، ولم يسبقْ لها أنْ ولدتْ أو أنجبت، فكيف ستلدُ بعد ذلك؟

وقد جمعتْ في قولها: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ بين مانِعَيْن من موانعِ الولادة، وهما: العجزُ والعُقم. فلو كانت شابةً عقيماً فلن تلد، فكيفَ إذا بلغت سنّ اليأس وصارت عجوزاً؟ إن المرأةَ التي سبقَ أنْ ولدت، لن تلدَ عندما تصبحُ عجوزاً، فكيف التي لم تلدْ في شبابها ستلدُ في عجزها وشيخوختها؟

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾. أحالوها على إرادةِ الله، ليزولَ استغرابُها وتعجبُها، إنها إرادةُ الله، أن تلدَ وهي عجوزٌ عقيم، وإرادةُ الله نافذة، والله حكيمٌ عليم، فعالٌ لما يريد.

[٢٥]

حديث القرآن عن إسحاق عليه السلام

مواضع ذكر اسم إسحاق في القرآن:

ذُكرَ إسحاقُ في القرآن سبعَ عشرة مرة. في سور: البقرة وآل عمران والنساء والأنعام وهود ويوسف وإبراهيم ومريم والأنبياء والعنكبوت والصافات وص.

ففي سورة البقرة ذُكر اسمُه ثلاثَ مرات، ضمن ذكر مجموعةٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والآيات التي ذكر فيها هي: ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠.

وفي سورة آل عمران ذُكر اسمه مرةً واحدة. في سياق ذكر مجموعة من الأنبياء أيضاً، جاء هذا في آية: ٨٤.

وفي سورة النساء أيضاً ذُكر ضمن أسماء الأنبياء في آية: ١٦٣.

وفي سورة الأنعام مرةً واحدة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٨٤].

أي: وهبَ اللّهُ لإبراهيم ابنَه إسحاق، وحفيدَه يعقوب، وهداهما وجعلهما نبيِّين.

وفي سورة هود ذُكر مرتيْن في سياق بشارة سارة بإسحاق ثم يعقوب: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

وفي سورة يوسف ذُكر مرتين:

في المرة الأولى: عند حديثِ يعقوبَ لابنه يوسف الصغير عندما

رأى الرؤيا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ...﴾.

وفي المرة الثانية: أثناءَ بيانِ يوسف عليه السلام دعوتَه وعقيدتَه للسجينيْن اللذيْن كانا معه في السجن، حيث قال لهما: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ...﴾.

وفي سورة إبراهيم وردَ اسمه في دعاء إبراهيم لربه شاكراً له، لأنه وهب له ولديه أثناء كبره وشيخوخته: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي سورة مريم: ذُكر أثناءَ الحديث عن اعتزالِ إبراهيم لقومه الكافرين، فكافأه اللّهُ على ذلك الولاء والبراء، بأنْ وهبَ له إسحاق ويعقوب: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

وفي سورة الأنبياء: أخبرنا اللّهُ أنه وهبَ لإبراهيم إسحاق، ووهبَ له بعده يعقوب. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وتشيرُ هذه الآياتُ إلى أن اللّهَ وهبَ لإبراهيم ابنَه إسحاق بعد هجرته إلى الأرض المقدسة.

وقوله: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾: بشرناه بيعقوبَ زيادةً على تبشيره بإسحاق. وقلْنا له: سيولَدُ لك إسحاق، وستبقى حياً حتى يكبرَ ويتزوج، ثم ينجبَ ابنه يعقوب، وترى أنت حفيدَك يعقوب.

وفي سورة العنكبوت: أخبر اللّهُ أنه وهبَ لإبراهيم إسحاق ويعقوب، وجعلَ النبوة في ذريته: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى

ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وفي سورة الصافات: أخبرنا الله أنه بشرَ إبراهيمَ بإسحاق، بعد قصته مع إسماعيل في الذبح والفداء: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

وفي سورةِ صَ ذُكر في آية [٤٥] ضمن مجموعةٍ من الأنبياء، عليهم السلام.

مبهمات في قصة إسحاق:

ولا نعرفُ من قصة إسحاق عليه السلام إلا ما أخبرَنا اللّٰهُ به في القرآن، ولا نبحثُ عن إضافاتٍ أو تفصيلات في المصادرِ غيرِ المأمونة، كالإسرائيليات وغيرها.

وهناك مبهماتٌ كثيرةٌ في قصة إسحاق عليه السلام، من حيث تفاصيلُ ولادته، وشبابه وأماكنُ إقامته، وصِلتُه بأبيه إبراهيم، وزواجُه وأولاده، ونبوتُه ودعوته، وحياته ووفاته!

وهذه المبهماتُ نُبقيها على إبهامها، ولا نخوضُ في تحديدها وتبيينها، وَنَكِلُ العلمَ بها إلى الله.

[٢٦]

من مواقف إبراهيم عليه السلام

أثنى اللّٰهُ على إبراهيم عليه السلام الثناءَ الجميل، في أكثرَ من موضعٍ في القرآن، وأشادَ بمواقفهِ الإيمانية والدعوية العظيمة، وأشارَ إلى آثارِه ونتائج دعوته في الحياة.

ونَعرضُ فيما يلي بعضَ الآيات وبعضَ الأحاديث الصحيحة التي تشيرُ إلى ذلك، إضافةً إلى ما سبق إيرادُه في المسائلِ والمباحث

السابقة، وما سبق ذكْرُه لا نعيدُه منعاً للتكرار.

١ - إبراهيم حليم أواه منيب:

وردتْ آيةٌ في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة هود، أثناءَ الحديثِ عن جدال إبراهيم في قوم لوط. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

«حليم أواه منيب»: هو مفتاحُ شخصية إبراهيمَ عليه السلام، وقد أكدتْ على هذا المفتاحِ آيةٌ في سورة التوبة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿حليم﴾ من الحلمِ وسَعة الصدرِ والأناة.

و﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثير التأوُهِ والتحزُنِ والتخشُعِ من ذكره الله.

قال الإمام الراغب: «الأوّاه: الذي يكثرُ التأوُه. وهو أن يقول: أُوه، أُوه. وكلُ كلام يدلُ على حزن يقال له التأوّه. ويُعبَّر بالأوّاه عمن يُظهر خشيةَ الله...»[1].

و﴿مُّنِيبٌ﴾ من الإِنابة، وهي الرجوعُ الدائمُ المستمرُّ إلى الله.

قال الإمام الراغب: «النوب: رجوعُ الشيء مرةً بعد أخرى.. والإِنابةُ إلى الله تعالى: الرجوعُ إليه بالتوبة وإخلاص العمل..»[2].

إنها صفاتٌ ثلاثٌ لإبراهيم عليه السلام: الحلمُ والتأوُه والإِنابة. إنه حليمٌ مع الناس، وأوّاه متحزّن متخشّع مع نفسه، ومنيبٌ دائمُ الإنابة والعودة إلى الله.

---

(١) المفردات: ١٠١.

(٢) المفردات: ٨٢٧.

هدوء إبراهيم وحلمه في قصته:

وهذا الظلُّ الكريمُ هو الذي يظلِّلُ كلَّ مشاهدِ ولقطاتِ قصته في القرآن. إنه حليمٌ هادئ متسامح، لا يحتدُّ ولا يغضب، ولا يسبُّ ولا يشتم.

هادئٌ حليم مع أبيه، كما بينتْ آياتُ سورة مريم.

وهادئٌ حليم مع قومه، عندما أبطلَ كونَ الكواكب آلهة، كما بينت آياتُ سورة الأنعام.

وهادئ حليم في جدالِه مع الملك الكافر الظالم، كما ذكرتْ آيةُ سورة البقرة.

وهادئٌ حليم حتى عندما حطمَ الأصنام، فما حطمها عنفاً ولا تطرفاً، ولكن حطمها من بابِ الحلم، لأنه مشفقٌ على قومه، حريصٌ على إزالة الحواجز أمامهم، ليفتح لهم الطريقَ للإيمان.

وهادئٌ حليم، عندما أَلقوه في النار، فلجأ إلى الله، وأنابَ إليه.

وهادئٌ حليم عندما أخذ ابنَه وزوجَه إلى بلاد الحجاز، ودعا اللّهَ دعاءً خاشعاً منيباً، كما عرضَتْ آياتُ سورة إبراهيم.

ويتجلى حلمُه وهدوءُه في هذا الدعاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

إنه نموذجٌ ومثالٌ للحِلم والهدوء والإنابة والتسامح، وهو قدوةٌ في هذا لمن بعده من الصالحين.

٢ ـ ثناء الله عليه لأنه وفى توفية عامة:

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى

وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٥٦].

يُثني اللّهُ على نبيه إبراهيمَ عليه السلام، ويصفه بأنه ﴿وَفَّىٰٓ﴾. و«وَفَّىٰ» من التوفية، وأداءِ المطلوب كاملاً، وعدمِ إنقاص شيء منه.

والكلمة عامة: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾. وذلك لتشملَ كل صورِ وحالاتِ التوفية والوفاء والإتمام.

وقد ذكرَ بعضُ العلماء نماذجَ وأمثلةً لهذه التوفية من إبراهيم عليه السلام، وذِكْرُهم لها من باب التمثيل، وليس من باب الحصرِ والتحديد.

إن إبراهيمَ قد وفّى بكل ما عهدَ اللّهُ إليه، وأوجبه عليه، فقامَ به على أحسنِ وأفضلِ وأتمِّ صورة، سواء في العقيدة أو العبادة أو الدعوة.

كما أنه وفّى بكل ما نهاه اللّهُ عنه، فوقفَ عند حده، لم يتجاوزه، ولم يرتكب شيئاً مما نهاه الله عنه.

وبعدما أثنت الآيةُ على إبراهيم لوفائه وتوفيته، ذَكرتْ بعضَ ما في صحف إبراهيم، وهي مما في صحف موسى أيضاً: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

والأمثلةُ المذكورةُ في صحف إبراهيم وموسى توجيهاتٌ أخلاقية، وحثٌّ على فضائلَ سلوكيةٍ اجتماعية، وحقائقَ إيمانيةٍ اعتقادية، وعرضُ

بعضِ صفات الله وأفعاله سبحانه، وتذكيرٌ بالبعث والنشأة الأخرى، وإشارة إلى مصارع بعض الكفار السابقين، كعاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط.

ويدل قوله: ﴿صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ على أن اللّهَ قد أنزلَ على إبراهيم وموسى صُحُفاً، كلها مواعظُ وعبرٌ وتوجيهات، وتقرير لحقائقَ ومبادئَ اعتقادية وإيمانية.

وقد عَرضتْ آياتٌ من سورة الأعلى لبعض ما في صحف إبراهيم وموسى. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

وقريبٌ من شهادة الله لإبراهيم عليه السلام بأنه وفّى، شهادتُه له بأنه قد نجحَ في الابتلاء الذي ابتلاه الله به، وأتمَّ الكلماتِ موضوعَ الابتلاء. وجاءَ هذا في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

وسنعودُ إلى هذه الآية فيما بعد إن شاء الله.

٣ ـ إبراهيم خليل الله:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥].

تقررُ الآية ـ عن طريقِ الاستفهام التقريري ـ أنه لا يوجَدُ عند الله مَن هو أحسنُ ديناً من ذلك المؤمن الصالح، الذي أسلمَ وجهه لله، وخضعَ لشرع الله، واستسلمَ لحكم الله، وكان محسناً في إيمانه وإسلامه، وفي استسلامِه وعبادته، وقد اتبعَ ملةَ إبراهيم عليه السلام، واقتدى به في دينه وإيمانه. وكان إبراهيمُ عليه السلام حنيفاً مسلماً.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: تقريرٌ صريحٌ في هذه الآية بأن اللّهَ قد اتخذَ إبراهيمَ خليلاً.

معنى الخليل والخلة:

والخليلُ من الخُلَّة.

قال الإمام الراغب: «الخَلل: فرجةٌ بين الشيئين.

والخُلَّة: المودة. إما لأنها تَتَخَلَّلُ النفس، أي: تتوسَّطُها. وإما لأنها تُخلُّ النفس، فتؤثرُ فيها تأثيرَ السهم في الرمية. وإما لفرطِ الحاجةِ إليها.

يقال منه: خالَلْتُه مَخالّة وخَلالاً، فهو خَليل.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

قيل: سماهُ بذلك لافتقارِه إليه سبحانه في كل حال، وهو الافتقارُ المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وعلى هذا الوجه قيل: اللهمَّ اغْنِني بالافتقارِ إليك، ولا تُفقرني بالاستغناءِ عنك.

وقيل: خليلٌ من الخَلَّة، واستعمالُها فيه كاستعمال المحبة فيه.

قال أبو القاسم البلخي[1]: هو من الخَلَّة، لا من الخُلَّة[2]، ومَنْ قاسَه بالحَبيبِ فقد أخطأ، لأن اللّهَ يجوزُ أنْ يُحبَّ عبدَه، فإنَّ المحبةَ منه الثناء، ولا يجوز أن يُخالَّه.

وهذا منه اشتباه. فإن الخُلَّةَ من تَخَلُّلِ الوُدِّ نفْسَه ومخالطتِه. قال الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرّوحِ مني وبِهِ سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا

---

(١) أبو القاسم هو: عبد الله بن أحمد البلخي الكعبي، من رؤوس المعتزلة.

(٢) الخَلّة بالفتح: الحاجة، والخُلّة بالضم: المحبة.

ولهذا يقال: تمازَجَ روحانا.

والمحبة: البلوغُ بالودِّ إلى حَبّةِ القلب. من قولهم: حَبَبْتُه: إذا أصبتُ حبةَ قلبه.

لكن إذا استُعملت المحبةُ في الله، فالمرادُ بها مجردُ الإِحسان. وكذا الخُلّة. فإنْ جازَ في أحد اللفظين جازَ في الآخر.

فأمّا أنْ يُرادَ بالحب حَبَّةُ القلب، والخُلّةِ التخلُّلَ، فحاشا لَه سبحانه أنْ يُرادَ فيه ذلك..»[1].

الخليلُ إذن من الخُلَّة، والخلةُ هي المودةُ والمحبة. وخُلَّةُ اللّهِ للعبد ومحبتُه له هي إحسانُه إليه وإنعامُه عليه.

ونقاشُ الراغبِ للبلخي الكعبي المعتزلي في معنى الخُلة والمحبة طيبٌ وجيدٌ ولطيف، ويدلُّ على تبحُّرِه في فقه اللغة، والتزامِه مذهبَ أهلِ السنة في العقيدة.

وعلى ضوءِ هذا البيان لمعنى الخليل في اللغة، يكون معنى قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أنَّ اللّهَ أنعمَ على إبراهيم عليه السلام إنعاماً خاصاً، وأحسنَ إليه إحساناً غامراً، واصطفاه وجعلَه إماماً، وخصَّه بمزيدٍ من الفضل، وجعلَ في ذريته النبوةَ والكتاب، وجعلَه أبا الأنبياء وإمامَ الصالحين.

إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله:

ولأنَّ اللّهَ اتخذه خليلاً. صارَ يسمّى «خليل الله». ولهذا سُميت مدينةُ «الخليل» بهذا الاسم، لأنه يقال: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام مدفونٌ فيها.

وقد سماه رسولُنا ﷺ «خليلَ الله». جاءَ ذلك في معرض ثنائِه على يوسف عليه الصلاة والسلام.

(١) المفردات: ٢٩٠ ـ ٢٩١ بتحقيق صفوان داوودي.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قيل: يا رسولَ الله: مَن أكرمُ الناس؟ قال: «أكرمُهم أتقاهم».

فقالوا: ليس عن هذا نسألُك.

قال: «فأكرمُ الناس: يوسفُ نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنِ نبيِّ الله، ابنِ خليل الله».

قالوا: نعم.

قال: «فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإِسلام، إذا فَقُهوا..»)[1].

وإذا كان إبراهيمُ عليه السلام قد أكرمه الله بلقب «الخليل»، واتخذه خليلاً، فإنَّ هذا ليس خاصّاً به، فقد شاركَه في هذا الفضل نبيُّنا محمدﷺ، حيث اتخذَه اللّهُ أيضاً خليلاً.

روى البخاريُّ ومسلم عن جندب رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبلَ أن يموتَ بخمس، وهو يقول: «إني أبرأُ إلى اللّهِ أن يكونَ لي منكم خليل، فإنَّ اللّهَ قد اتخذني خليلاً، كما اتخذَ إبراهيمَ خليلاً. ولو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً. وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبورَ أنبيائِهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجد، إني أنهاكُم عن ذلك»[2].

إبراهيمُ خليلُ الله، ومحمد أيضاً خليلُ الله، عليهما الصلاة والسلام.

٤ ـ معنى كون إبراهيم أمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٣. ومسلم برقم: ٢٣٧٨. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٩٠٤. ومسلم برقم: ٥٣٢. وانظر الأحاديث الصحيحة: ١٢٢.

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

يُثني اللّهُ في هذه الآيات على نبيِّه وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، ويصفُه بصفات المدح.

إنه «أُمَّةً»: يعلِّمُ الناسَ الخير، ويؤُمُّهم في الهدى، ويأتمّونَ به في الطاعة، ويقتدونَ به في الدعوةِ والعبادة.

وهو «قانت»: مطيعٌ لله، خاشعٌ منيب، عابدٌ ذاكر.

وهو «حنيف»: مؤمِنٌ موحد، تاركٌ للشرك، ملتزمٌ بالتوحيد.

وهو «شاكرٌ لأنعم الله»: فنِعَمُ الله عليه كثيرة، وعطاياه غامرة، وهو يقابلُ هذه النعمَ الجليلة بشكر المنعم سبحانه.

واللّهُ قد ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: اصطفاهُ اللّهُ وجعلَه نبياً وإماماً، وهداه إلى صراطه المستقيم، ودينِه القويم.

وقد مَنَّ اللّهُ على إبراهيم مقابلَ إخلاصِه وشكره فآتاه في الدنيا حسنة، وهي الحياةُ الطيبة، وأعدَّ له الثوابَ الجزيل والأجرَ الكثيرَ في الآخرة.

وأمرَ اللّهُ نبيه محمداً ﷺ باتباع ملة إبراهيم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

لماذا وصفَ اللّهُ إبراهيمَ بأنه أمة؟ وما هو معنى الأمة؟

قال الإمامُ الراغب في معنى «الأمة»:

يُقالُ لكلِّ ما كان أصلاً لوجودِ شيء، أو تربيتِه، أو إصلاحِه، أو مبدئِه: أَمّ.

وقال الخليل: كلُّ شيء ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسمى أُمّاً.

والأمة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمْرٌ ما. إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: قائماً مقامَ جماعةٍ في عبادةِ الله. وهذا نحو قولهم: فلانٌ في نفسه قبيلة.

وروي أن الرسولَ ﷺ قال: «إنه يُحشرُ زيدُ بن عمرو بن نفيل أمة وحده»[1].

كلام من تفسير الطبري في معنى أمة:

ويَطيبُ لي أن أوردَ بعضَ الروايات المأثورة، التي أوردَها الإِمامُ الطبريُّ في تفسيره، عن معنى «أمة»، وعن كيفيةِ كونِ إبراهيم أمة.

قال الطبري: إنَّ إبراهيمَ خليلَ الله كان معلِّمَ خير، يأتمُّ به أهلُ الهدى، وكان قانتاً مُطيعاً لله، وكان حنيفاً مستقيماً على دين الإِسلام.

وجاءَ أبو العبيدين إلى عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه فقال له: مَن نسألُ إذا لم نسألك؟ فرَقَّ له ابنُ مسعود، وقال: اسأل.

فقال له: أَخبرني عن الأمة.

قال ابن مسعود: هو الذي يعلمُ النّاسَ الخير.

وعن فروةَ بن نوفلٍ الأشجعي قال: «قال ابن مسعود: إنَّ معاذاً كان أمةً قانتاً للّهِ حنيفاً.

فقلتُ في نفسي: غلطَ أبو عبد الرحمٰن: إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

فقال ابنُ مسعود: تدري ما الأمة؟ وما القانت؟

---

(١) المفردات: ٨٦. وقال صفوان داوودي محقق الكتاب عن الحديث: أخرجه الطيالسي وأبو يعلى وإسناده حسن. قال سعيد بن زيد للنبي ﷺ: إن أبي كما رأيت وكما بلغك، فاستغفر له. قال: نعم، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

قلتُ: اللّهُ أعلم.

قال: الأمة: الذي يعلِّمُ الخير. والقانت: المطيعُ لله ورسوله. وكذلك كان معاذُ بن جبل يعلمُ الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: كان على حِدة.

وقال قتادة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: كان إمامَ هدى مطيعاً، تُتَّبَعُ سنته وملته»[1].

إبراهيمُ أمةٌ عليه السلام، هو فرد واحد ولكن فعله كان فعلَ أمة، وكأنه اجتمعتْ في شخصه أمةٌ كاملة، وبقي أثره حياً في الأمة حتى قيامِ الساعة.

٥ ـ إبراهيم إمام عليه السلام:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

هذه الآيةُ ثناءٌ آخرَ من الله على إبراهيمَ عليه السلام، وفيها إخبارٌ بأن إبراهيمَ قد نجحَ في الابتلاء، وأتمَّ الكلماتِ التي أمره الله بها، فأكرمه اللّهُ بأن جعلَه إماماً وقصَرَ الإمامةَ في المؤمنين من ذريته، دون الظالمين منهم.

وهذه الآيةُ تمهيدٌ لآياتٍ تالية تتحدثُ عن المسجد الحرام وكونِه مثابةً وأمناً للناس، والأمرِ باتخاذ مقامِ إبراهيم فيه مصلى، ودعاءِ إبراهيمَ للبيت وأهله، وبناءِ إبراهيم وإسماعيل للبيت، ودعائهما أثناءَ البناء، وعن ملةِ إبراهيم ودينه، وأنه كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً، وعن وصيتِه لبنيه بالإسلام، وإسلامِ الأنبياء الذين جاؤوا بعده.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٤: ١٩٠ ـ ١٩٢.

وهذه الآيات هي: ١٢٥ ـ ١٤١ من سورة البقرة. وقد تحدثْنا عن بعضها فيما سبق من مباحثِ قصة إبراهيم عليه السلام.

والهدفُ من هذه الآيات تكذيبُ اليهود والنصارى والمشركين في زعمهم الانتسابَ لإِبراهيم عليه السلام، وبيانُ حقيقة الدين الذي كان عليه إبراهيم، وأن المسلمين هم أولى الناسِ به.

وفي الآية التي أمامَنا يُذكِّر اللّهُ رسولَه محمداً ﷺ بموقف إبراهيمَ عليه السلام الملتزم بكلمات الله، وما نتج عن ذلك من إمامته: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

«إذ»: ظرفٌ للزمان الماضي، يدلُّ على استحضارِ صورةٍ أو لقطةٍ من الأحداثِ الماضية.

وتقديرُ الجملة: أُذكرْ يا محمد ابتلاءَ الله لإبراهيم بكلمات..

الكلمات التي ابتلاه الله بها مبهمة:

والابتلاءُ من الله لإبراهيم. و﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ في الجملة مفعولٌ به مقدَّم منصوب. و﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل مؤخر مرفوع.

وقد ابتلى اللّهُ إبراهيمَ بالتكاليفِ الشرعية، وما فيها من أوامرَ ونَواهٍ وأحكام. وهذا هو المرادُ بالكلماتِ في الآية.

والكلماتُ التي ابتلى اللّهُ إبراهيمَ بها مبهمةٌ، غيرُ محددةٍ ولا مبينة في الآية. وقد جاءت ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ نكرة، والتنكيرُ مع التنوين يدلُّ هنا على الإِبهام.

فلم تُحدد الآيةُ هذه الكلمات. كما لم يحدِّدْها رسولُ الله ﷺ في حديثٍ صحيحٍ مرفوع.

ومنهجُنا أن نُبقيَ المبهمات في القصصِ القرآني على إبهامها. طالما أنها لم تبيَّن في الآياتِ والأحاديث الصحيحة.

ولسنا مع مَنْ ذهبوا إلى تحديدِ تلك الكلماتِ التشريعية بأمثلةٍ

ونماذج، لأن أقوالَهم اجتهادية ليس عليها دليلٌ نصي.

كلُّ ما نقوله: هذه الكلمات هي التكاليفُ التي كلفَ اللّهُ إبراهيمَ بها، وما تشملُه هذه التكاليف من أوامرَ ونَواهٍ، وأحكامٍ وواجبات، سواء ما يتعلقُ منها بالعقيدةِ أو العبادةِ أو الدعوةِ أو الأخلاقِ أو غير ذلك.

وتنصُّ الآيةُ على أن التكاليفَ الشرعية ابتلاءٌ واختبارٌ وامتحان من الله، يبتلي اللّهُ بها عبادَه، فمنهم مَن يقومُ بها ويؤدّيها على أحسنِ وجه، ويُتِمُّ الالتزام بها، كإبراهيمَ وباقي الأنبياء عليهم السلام، فيفوزُ وينجحُ ويفلح، ومنهم مَنْ يفرط فيها ويقصِّر ويتهاون، فيرسبُ في الاختبار، ويخفقُ في الامتحان، ويسقطُ في الابتلاء، وبهذا يكون خاسراً نادماً، هالكاً معذَّباً.

لقد كان الابتلاءُ ظاهراً في قصةِ إبراهيم عليه السلام، وكان التكليفُ بارزاً فيها أيضاً، وكان فوزُ إبراهيم في الابتلاء وإتمامُه للتكاليف بارزاً ظاهراً ملموساً أيضاً.

نماذج من ابتلاءات إبراهيم وسر نجاحه فيها:

نجحَ إبراهيمُ عليه السلام في ابتلاء الدعوة، عندما دعا أباه وقومَه وحاكمَ قومه، ونجح في ابتلاءِ المواجهة، عندما واجَهَ الكفار وثبتَ على الحق، ونجحَ في ابتلاء الهجرة، عندما هاجرَ للأرض المقدسة، ونجحَ في ابتلاء الفراق، عندما وضع زوجَه وابنه في وادٍ غيرِ ذي زرع، ونجحَ في ابتلاء التضحية، عندما نفَّذ رؤياه بذبحِ ابنه، لولا أنَّ اللّهَ فداه، ونجحَ في ابتلاءِ الكرم والضيافة، ونجحَ في ابتلاءِ بناء البيت، ونجحَ في ابتلاءِ العبادة والذكر والشكر والتوبة وسنن الفطرة والاختتان والدعاء، ونجحَ في ابتلاءِ الولاءِ والبراء والمفاصلة للأعداء، ونجح في ابتلاءِ الإمامة والريادة والقدوة.

وبهذا شهدَ اللّهُ له بأنه أتمَّ الالتزامَ بالكلمات، وأتمَّ أداءَ التكاليفِ

والواجبات: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

ولعلَّ السببَ في نجاح إبراهيم في الابتلاء، والباعثَ له على أداءِ وإتمامِ الكلمات والواجبات، هو قوةُ صلته بالله، وسلامةُ قلبه من الآفاتِ والنقائص، وامتلاؤه بالإيمان والإحسان. حيث أثنى اللّهُ على إبراهيم بقوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

لما نجحَ إبراهيمُ في ابتلاء الله، وأتمَّ الكلمات، أكرمه اللّهُ بأنْ جعله إماماً: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

أئمة هدى وأئمة ضلال:

والإمامُ هو الذي يأتمُّ به الناس، ويقتدونَ به في الخير، ويتأثَّرون به، ويتخلَّقون بأخلاقه، ويهتدون بهديه.

قال الإمام الراغب: «الإمامُ هو: المؤتَمُّ به، إنساناً: كأن يقتدىٰ بفعلهِ أو قوله، أو كتاباً، أو غيرَ ذلك، سواء كان مُحِقّاً أو مبطلاً، وجمعُه أئِمَّة»[1].

والإنسانُ الصالح إمامٌ وقدوة في الخير. قال تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

والمهتدونَ الصالحون أئمةٌ في الخير. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقادةُ الضلال أئمةٌ في الباطل، وقدواتٌ في الشر، يقودونَ الناسَ إلى النار. قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

جعلَ اللّهُ إبراهيمَ عليه السلام إمامَ هدى للناس، كلِّ الناس، على اختلافِ الزمان والمكان. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

---

(١) المفردات: ٨٧.

وبقيَ إبراهيمُ إماماً لمن بعدَه من المؤمنين، كان إماماً لمؤمني بني إسرائيل، وإماماً لمؤمني النصارى، وصار إماماً للمسلمين أتباعِ محمد ﷺ، وما زال إماماً لهذه الأمة، وسيبقى إماماً لها، ما دامت هذه الأمةُ باقية.

إنَّ إبراهيم إمامُ دعوة، ومنارُ هدى، ومعلمُ عقيدة، ونورُ طريق، منذ وجوده، وحتى قيامِ الساعة.

وجعْلُه إماماً بعد نجاحه في الابتلاء، وإتمامه للكلمات، دليلٌ على أنَّ الإمامَة لا تأتي إلا بعد النجاحِ في العمل، وأداءِ الواجبات، فطريقُ الإمامةِ ليس سهلاً، ولكنه شاق، يحتاجُ إلى جهدٍ ومجاهدة، وصبرٍ ومصابرة، وتحمُّلِ المشقةِ والتعب.

إنَّ مَن يعيشُ على هامش الحياة لن يكون إماماً، وإنّ مَن يعيشُ مع توافِهِ الحياة لن يكون إماماً، وإنّ مَنْ يعيشُ كسولاً أنانياً لا مبالياً لن يكونَ إماماً، فللإمامةِ رجالُها الأشداء، وروادُها الأولياء، وصالحوها الأوفياء، وإمامُهم إبراهيم أبو الأنبياء، عليه الصلاة والسلام.

ولما أخبرَ اللّهُ إبراهيمَ عليه السلام بأنّه جعله للناس إماماً، سأل عن الأئمة من ذريته: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟.

الإمامة في ذريته مشروطة بالصالحين:

وسؤالُه عن الأئمةِ من ذريته مظهرٌ من مظاهرِ مفتاحِ شخصيته الحليمةِ المنيبة، ذلكَ المفتاحُ المتمثلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

وقد أجابهُ الله على سؤالِه عن الأئمة من ذريته بتقريرِ سنةٍ ربانيةٍ مُطَّردة: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

عهْدُ اللّهِ لإبراهيمَ بجعله إماماً خليفةً ينالُ ويصيبُ ويصلُ إلى المؤمنين الصالحين من ذريته، لأنهم يقتدون بأبيهم إبراهيم حقاً، ولذلك ينالُهم ويصيبهم عهدُ الله له.

أما الظالمون من ذريته فَهُم محرومون من عهدِ الله له، هؤلاء الظالمون هم الكافرونَ المعتدون، الذين كفروا باللّهِ وكتبه ورسله، سواء كانوا من ذريةِ إبراهيم من اليهود أو النصارى أو العرب المشركين.

هؤلاء لا ينالُهم عهدُ الله لأبيهم إبراهيم، ولا يَصلُهم ولا يُصيبهم، فلا يصلحون ليكونوا أئمةً للناس.

ويمكنُ أن نخرجَ من قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بهذه الدلالات والإِشارات:

- ذريةُ إبراهيمَ عليه السلام نوعان: فمنهم المؤمنون الصالحون المهتدون، وهم الذين ساروا على طريقه، واقتدوا به، وهم المؤمنون المتَّبعون لأنبيائِهم حقاً، وانتهى هؤلاء إلى أمةِ محمدٍ ﷺ.

ومنهم الظالمون الكافرون، وهم الذين كذَّبوا رسلَهم، أو أنكروا نبوةَ رسُلٍ آخرين، وهم اليهودُ والنصارى والمشركون العرب.

- الإِمامةُ لا تكون لمجردِ الانتسابِ لإِبراهيمَ عليه السلام، فلا تُمنحُ لذريتِه لأنهم من نسله، وإنما تُمنحُ على أَساسِ الانتسابِ الإِيماني، فتكون لمن كانَ على منهاجِه وطريقِه ودينِه وإسلامِه.

- وفي هذا إلغاءٌ للنظرةِ اليهودية والنصرانية للوراثة، حيث يَدّعي اليهودُ والنصارى أنهم على حقٍّ لمجردِ كونِهم من ذرية إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا تقريرٌ للنظرةِ الإِسلاميةِ للوراثة وترسيخٌ لها، التي تقومُ على اعتمادِ الوراثة في الإِيمان والدين، وليس في الجنس والنسب.

الظالمون الكافرون لا يصلحون للإِمامة، ولا يجوزُ أن يكونوا أَئمة، لأن الظلمَ والكفرَ مانعٌ يمنعُ من الإِمامة، وحاجبٌ يحجبُ صاحبَه عنها، فالظالمُ لا يكونُ إماماً أبداً، وهذا ما قررَه علماءُ الأمة السابقون.

إنَّ شرطَ الإِمامة هو الإِيمانُ والصلاح والتقوى، لأن هذا ما توفَّرَ وتحققَ في قصةِ إبراهيمَ عليه السلام.

ـ بما أنَّ اليهودَ قد فقدوا الإمامة لظلمِهم وكفرِهم، وفقدوا حقيقةَ الانتسابِ لدين إبراهيم عليه السلام، فقد فقدوا أيَّ حقٍ لهم في فلسطين والأرضِ المقدسة، التي كان يقيمُ فيها إبراهيمُ عليه السلام، فهذه الأرضُ وغيرُها لا تكونُ حكراً على ذريةِ إبراهيمَ لأنهم من نسله، وإنما تكونُ للمؤمنين الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ـ تقررُ هذه الآية ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ عزلَ اليهودِ والنصارى عن الإمامة لظلمهم وكفرهم، رغمَ أنهم من ذريةِ إبراهيم عليه السلام.

وتقررُ اعتمادَ أمةِ محمد ﷺ للإمامةِ والخلافة، فإمامةُ الناس مقصورةٌ على هذه الأمة، والخلافةُ محصورة في هذه الأمة، لأنها هي الأمةُ الوارثةُ لإبراهيمَ عليه السلام، وراثةً إيمانية صادقة.

[٢٧]

طلب إبراهيم رؤية كيفية إحياء الموتى

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

تسجلُ هذه الآيةُ طلبَ إبراهيم من ربه أن يريهُ كيفَ يحيي الموتى، وتقررُ أنَّ الباعثَ له على هذا الطلب هو زيادةُ طمأنينةِ القلب، وليس إزالةَ الشكِّ والريب.

يقولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. أي: يُريدُ أنْ يَرىٰ بعينيه كيفيةَ إحياءِ الله للموتى، وأنْ يشاهدَ على ذلك نموذجاً عملياً، وتجربةً حقيقية، ومثالاً واقعياً.

لماذا أراد رؤية كيفية إحياء الموتى؟

ولم يكنْ إبراهيمُ عليه السلام شاكّاً في قدرةِ الله على إحياءِ الموتى، ولم يكن طلبُه إزالةً للشك، أو إيجاداً وإنشاءً للإيمان.

ولو لم يكن مؤمناً بقدرةِ اللّه على إحياء الموتى، أو لو كان شاكّاً بذلك لما قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولكان قوله: ربِّ هل تقدرُ على إحياء الموتى؟ أو: ربِّ هل تستطيعُ إحياءَ الموتى؟

إن قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ليس سؤالاً عن إمكانيةِ إحياءِ الموتى، أو عن ماهيةِ إحياءِ الموتى. ولكنه سؤالٌ عن كيفيةِ إحياء الموتى.

وقولُه يدلُّ على أنَّ إحياءَ الله للموتى أمْرٌ مسلَّمٌ مفروغٌ منه عند إبراهيم، يؤمنُ به إيماناً جازماً قاطعاً.

وقد أزالتْ بقيةُ الآية الاحتمالَ الذي لا يليقُ بإبراهيم ولا يتفقُ مع إيمانه: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

يسألُه الله: لماذا طلبتَ ذلك؟ هل أنتَ شاكٌّ في القدرةِ على إحياءِ الموتى؟ أوَ لَمْ تؤمنْ بقدرةِ الله على إحياءِ الموتى؟

ويأتي الجوابُ واضحاً صريحاً من إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾. أي: بلى. أنا مؤمنٌ بالقدرةِ على إحياء الموتى، ولستُ شاكاً بذلك.

ويستدركُ ليبينَ هدفَه من السؤال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾. أي مشاهدتُه لتجربةٍ عملية حول إحياءِ الله للموتى، لا توجِدُ ولا تنشئُ الإِيمان في قلبه، ولكنها تزيدُه وتؤكدُه وتقوّيه، وهذه الزيادةُ لإِيمانه زيادةٌ للطمأنينة في قلبه.

أثر التجربة العملية عند صاحبها:

معلومٌ أن مشاهدةَ حادثةٍ عملية بالعين، أو القيامَ بتجربةٍ واقعيةٍ

بالفعل يقودُ إلى زيادةِ الإِيمانِ والتصديقِ واليقين، ويزيدُ في تأكيد الحقيقةِ النظرية وترسيخها وتثبيتها.

ولهذا نرى أصحابَ المناهجِ والنظريات العلمية والتربوية حريصين على قيام الدارسين بتجاربَ ميدانيةٍ عملية، يُطبقون فيها عملياً ما أخذوه نظرياً.

إنَّ الطبيبَ مثلاً لن يكون طبيباً مهما درسَ في الكتبِ عن الطب والتشخيصِ والعلاج، ولن يتعرفَ حقاً على جسمِ الإِنسان مهما قرأ عن علم التشريح، لن يكونَ طبيباً إلا إذا ذهب إلى «المختبر»، وقام بنفسه عملياً بتشريح الجسم أمامه، والتعرفِ على أجهزتِه المختلفة، وملاحظةِ التغيرات المختلفة التي تطرأُ عليه.

إنَّ التدريبَ العمليَّ الميدانيَّ له في المختبرات والمعامل، هو الذي رسَّخَ معلوماتِه النظرية في نفسه، وأكسبَها بُعْداً واقعياً، ناتجاً عن التجاربِ العملية.

وعندما نتذكرُ هذا النموذجَ نحاولُ أن نفهمَ الباعثَ الذي حملَ إبراهيمَ عليه السلام على أن يطلبَ من ربه أنْ يريَه كيفَ يحيي الموتى، وتعليلَه ذلك بأنه ليطمئنَّ قلبُه.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يريدُ أنْ يجمعَ التجربةَ العملية إلى الإِيمانِ النظري، إنه يريدُ أنْ يرى بعينيه كيفيةَ إحياءِ الله للموتى، ليزدادَ يقيناً، ويريدُ أنْ يقومَ بتجربةٍ عملية، تجري على يديه، ليعرفَ كيفية إحياءِ الله للموتى.

وإبراهيمُ عليه السلام يُكْثِرُ من استخدام «وسائل الإِيضاح» لتأكيد الحقائقِ النظرية، ويؤدي التجاربَ العملية لترسيخِ القناعة النظرية. رأيْنا هذا عندما أبطلَ كونَ الكواكب آلهة أمامَ قومه، وعندما طلبَ من الملكِ الكافر تغييرَ حركة ومسارِ الشمس، وعندما حطمَ أصنامَ قومه، وتركَ الصنمَ الكبير ليسأله قومُه ويعجزَ عن الجواب!

إننا نرى الآيةَ صريحةً في نفي الشكِّ عن إبراهيم، فلماذا يقول بعضُهم: إنَّ إبراهيمَ كان شاكاً، ولهذا أرادَ إزالةَ شكه؟ إنهم يقولون عكسَ ما تصرحُ به الآية: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

الرسول ينفي الشك عن إبراهيم:

وقد كانَ الرسولُ ﷺ حريصاً على تبرئةِ إبراهيم عليه السلام من شبهةِ الشك عندما طلبَ ما طلب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم، ويرحمُ اللَّهُ لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي»[1].

إن الرسولَ ﷺ يوضحُ حقيقةَ ثلاثةِ مواقف لثلاثةٍ من الأنبياء.

إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وينفي الرسولُ عنه الشك، فيقولُ: نحن أولى بالشك من إبراهيم.

ولوطٌ عليه السلام يقول لقومه الشاذين عندما أرادوا اقتحامَ بيتِه ومهاجمةَ ضيوفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فيعتذرُ الرسولُ ﷺ عنه قائلاً: يرحمُ الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد. وهو ركنُ الله.

ويوسفُ عليه السلام ردَّ على الداعي الذي أتاه إلى السجنِ يدعوه لزيارةِ الملك، فقال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيُثني عليه الرسولُ عليه السلام، بأنه لو كانَ مكانَه لأجابَ الدعوةَ مباشرة، وبعد ذلك يطالبُ بالتحقيق.

وسنتحدثُ عن كلامِ الرسول عليه السلام عن لوطٍ ويوسف عليهما

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٣٧٢. ومسلم برقم: ١٥١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٤٠.

السلام، عند الكلامِ عن قصةِ كلٍّ منهما إنْ شاءَ الله.

ما معنى قوله عن إبراهيم: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»؟

إن الرسولَ عليه الصلاة والسلام يقدم شهادةً لإبراهيم عليه السلام، ويُثني عليه، ويَشيدُ بقوةِ إيمانه، ويُخبرُ أنه لم يشكّ، ولم يطلبْ ما طلبَ بسببِ الشك.

يقول الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام: لو جازَ الشكُّ على إبراهيمَ لكنتُ أنا أَولى بالشكّ منه!

فهل شكَّ رسولُنا محمدٌ ﷺ؟ الجوابُ بالنفي. إنه لم يشكّ في قدرةِ الله لحظةً واحدة.

وكأنه يقولُ: وبما أَنني لم أشكّ، فإبراهيمُ لم يشكُّ من بابِ أَوْلى.

لماذا إبراهيمُ لم يشكَّ مِن بابِ أَوْلى؟

لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام شاهَدَ بعينيه أمثلةً ونماذجَ عمليةً لقدرةِ الله، أَبرزُها إنجاءُ اللّهِ له من النار، حيثُ أمرَ النار أن تكونَ برداً وسلاماً عليه، ومشاهدتُه لهذه النماذجِ ملأتْ قلْبَه إيماناً ويقيناً، فلم يَبقَ فيه أيُّ احتمالٍ للشك.

ولا يَعني هذا أنَّ إبراهيمَ أعظمُ إيماناً من رسولِ الله، أو أفضلُ منه، فمعلومٌ أنَّ رسولَنا محمداً ﷺ هو أفضل الأنبياء والمرسلين، وهو أعظمُهم إيماناً.

الله يريه كيفية إحياء الموتى بإحياء الطيور الأربعة:

استجابَ اللّهُ لطلبِ إبراهيم عليه السلام، وأَرشدَه إلى طريقةٍ عملية، يرى منها كيفيةَ إحياءِ الموتى. قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

معنى ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أَمِلْهُنَّ. لأنّ الصَّوْرَ هو المَيْل.

قال الإمام الراغب: «﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أي أَمِلْهُنَّ. من: الصَّوْر: أي: الميل. وقيل: قطِّعهنّ صورةً صورةً»[1].

أمرَ اللَّهُ إبراهيمَ أَنْ يأخذَ أربعةً من الطيور، وأنْ يذبَحهن، ويخلطهن، بحيث يتداخَلْن بعضُهن في بعض، ثم يختارُ مجموعةً من الجبال، ويضعُ على كلِّ جبلٍ منهن جزءاً، بحيث يكونُ على كل جبلٍ جزءٌ من لحمِ كلِّ طيرٍ من الطُّيور الأربعة.

ثم يقفُ بين الجبال، ويدعو أجزاءَ الطيور المتفرقة على الجبال، فسوف يرى أن الله قد جمع لحمَ كلِّ طيرٍ من الجبال، ونفخ فيه الروح، فدبَّتْ فيه الحياة، وسوفَ يأتيه كلُّ طيرٍ من الطيور الأربعة سعياً طائراً حياً، وستلتقي تلكَ الطيورُ الأربعة عنده، وكأنها لم تُذبحْ، ولم تُخْلَطْ لحومُها.

وعندما قامَ إبراهيمُ عليه السلام بهذه التجربة العملية المثيرة، ازدادَ الإيمانُ عنده، واطمأنَّ قلبُه، وحققَ هدفَه، وأيقنَ أن اللَّهَ عزيزٌ حكيم، وأنه على كل شيء قدير.

[٢٨]

تنازع الطوائف في إبراهيم عليه السلام

ثلاث طوائف تدّعي الانتساب إليه وجدال القرآن لها:

تنازعت الطوائفُ الدينيةُ في إبراهيمَ عليه السلام، وكلٌّ واحدةٍ ادعتْ انتسابَها إليه، وسيْرَها على طريقه، وما ذلك إلا لمنزلةِ إبراهيم عليه السلام في التاريخ والدين والحياة، فهو أُمّة، وجعلهُ اللَّهُ إماماً، وجعلَ في ذريته النبوة والكتاب.

---

(١) المفردات: ٤٩٨.

وأشهرُ الطوائف التي ادعتْ انتسابَها إليه ثلاث: اليهود، والنصارى، والعرب المشركون، مع أنَّ هذه الطوائف الثلاث بعيدة عن دينِ إبراهيم.

يَدَّعي اليهودُ الانتسابَ لإبراهيم لأنهم أبناءُ إسحاق، ويَدّعي النصارى الانتسابَ إليه لأنهم يزعمون أنهم على دينه. ويَدّعي العربُ الانتسابَ إليه لأنهم أبناءَ إسماعيل، ويحجّونَ البيتَ الذي بناهُ إبراهيمُ عليه السلام.

وقد تحدثتْ آياتُ القرآنِ عن هذا الموضوع، وسجلتْ بعضَ مزاعمِ اليهود والنصارى والمشركين، ثم نقضَتْها وردّتْ عليها، وبينَتْ حقيقةَ دينِ إبراهيم، والذينَ ينتسبون إليه حقاً، ويَسيرون على طريقهِ فعلاً.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٤٠].

تخبرُنا هذه الآياتُ أنه لا يرغبُ عن ملةِ إبراهيم، ولا يتركُ دينَه إلى غيره، إلا السفيه، وبما أنَّ اليهودَ والنصارى والمشركين رغبوا عن دينه، فهم سفهاءُ وليسوا علماء.

كان إبراهيم على الإسلام وأوصى بنيه به:

ولقد اصطفى اللّهُ إبراهيمَ في الدنيا واختاره رسولاً، وجعلَه إماماً للمتقين، وقدوةً للمسلمين، وجعلَ في ذريته النبوةَ والكتاب، وهو في الآخرةِ من الصالحين.

أما الدينُ الذي كان عليه إبراهيمُ عليه السلام فهو الإسلام، حيث قال له ربُّه أسْلِم، فاستجابَ فوراً لأمرِ الله، وقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فهل اليهودُ والنصارى والعرب المشركون ـ الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم ـ مسلمونَ فعلاً لله؟ إنْ كانوا مسلمين فلا بدَّ أنْ يدخلوا في دينِ محمد ﷺ.

ولما حضرتْ إبراهيمَ عليه السلام الوفاة، وصَّى أولادَه بهذه الوصية، وأَمَرَهم بالمحافظةِ على الإسلام، والثباتِ عليه، وقال لهم: يا أبنائي إنَّ اللّهَ اصطفى لكم الدين، واختارَ لكم الإسلام، ورضيَه لكم ديناً، فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون، وإيّاكم أنْ تتخلّوا عنه.

وقد التزم أبناء إبراهيم وأحفاده بوصيته، والتزموا بالإسلام وعاشوا وماتوا عليه.

وها هو حفيدُه يعقوب يسيرُ على خطاه، فلما حضرهُ الموتُ قال لأولاده: ما تعبدونَ من عبدي؟ وأي دينٍ تختارون؟ فقالوا: نعبدُ اللّهَ ربَّ العالمين، وربَّ آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ونبرأُ من عبادةِ

غيره ونختارُ الإِسلاَم ديناً، ونسلمُ ونخضعُ لله ربِّ العالمين.

هذا هو دينُ إبراهيمَ وأبنائه، فقد كانوا جميعاً مسلمين، وليسوا كما ادَّعى اليهودُ والنصارى فيما بعد، أنهم كانوا يهوداً أو كانوا نصارى! لقد كذَبَ اليهودُ عندما قالوا للناس: كونوا يَهوداً تهتدوا، وكذبَ النصارى عندما قالوا للناس، كونوا نصارى تهتدوا!

تكذيب اليهود في انتسابهم له:

وقدْ أمرَ اللَّهُ رسولَه محمداً ﷺ أنْ يُكذِّبَ اليهودَ والنصارى في كلامِهم السابق، وطلبَ منه أن يقولَ لهم: لن تهتدوا إن كنتم يهوداً، ولن تهتدوا إنْ كنتم نصارى، لن تهتدوا إلاّ أن تكونوا على ملةِ إبراهيم ودينه، وهو الإِسلام، لأنه كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

أُطلبْ من اليهودِ والنصارى والمشركين أنْ يتَّبعوا إبراهيمَ والأنبياءَ من ذريته، وأنْ يقولوا: آمنا بالله، وما أنزلَه اللَّهُ إلينا، وما أنزله إلى أنبيائِه السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأنبياءَ أسباط وقبائلِ بني إسرائيل، كموسى وعيسى، وآمنا بكلِّ ما آتاهُ الله لأنبيائه من شرع، وآمنا بكلِّ أنبياءِ الله، لا نفرقُ بين أحدٍ منهم، ونحن نُسْلمُ لكلِّ نبي منهم.

إنْ فعلوا ذلك، وآمَنوا بجميعِ أنبياءِ الله، فسيؤمنون بأن محمداً رسولُ الله ﷺ، وسيدخلون في دينه، وهذا هو المطلوب.

فإنْ أَبوا الاستجابَة لهذه الدعوة، وأَصرّوا على يهوديتِهم أو نصرانيتهم، وأصرّوا على الزعم بأنَّ إبراهيمَ وأبناءَه الأنبياءَ كانوا يهوداً أو نصارى. فلْيَدَع الرسولُ مزاعمَهم، ولْيَقُلْ لهم: أتقولون إن هؤلاء الأنبياءَ كانوا يهوداً أو نصارى؟ أأنتم أعلمُ أم الله؟ ومَنْ أظلمُ ممن كتَم شهادةً عنده من الله؟

إن اللّهَ يقول إنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى. وأنتم تقولون إنهم كانوا يهوداً أو نصارى. فكيف تقولون غيرَ ما يقولُه الله؟ وكيفَ تناقضون وتخالفون كلامَ الله؟ أأنتم أعلم من الله بحقيقةِ الدين الذي كانوا عليه؟.

والخلاصةُ التي نخرجُ بها من هذه الآيات أنَّ الطوائفَ الدينيةَ السابقة تتنازع في إبراهيم عليه السلام، وتَدَّعي كلُّ واحدة أنَّ إبراهيمَ كان منها وعلى دينها. وكلُّهم كاذبون في ذلك.

فإبراهيمُ وأبناؤه الأنبياء لم يكونوا يهوداً، ولم يكونوا نصارى، ولم يكونوا مشركين، وإنما كانوا مسلمين حنفاء، وكلٌّ منهم كان يوصي أولادَه وهو على فراشِ الموتِ بالإسلام، وكلُّ مَنْ لا يكون على دينهم، وكلُّ مَنْ يرغبُ عن ملتِهم فهو سفيه، فاليهودُ والنصارى والمشركون ما هم إلا سفهاء، ولن يزولَ عنهم السفهُ إلا بالدخولِ في دينِ محمدٍ ﷺ.

آيات من سورة آل عمران في جدال اليهود والنصارى:

وقال اللّهُ في سورة آل عمران: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [سورة آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

يخبرُنا اللّهُ أنه اصطفى واختارَ المذكورين هنا على العاليمن.

اصطفى آدَم لأنه أبو البشر، واصطفى نوحاً لأنه أبو البشريةِ الثاني، حيثُ أغرق اللّهُ الكافرين جميعاً بالطوفان، ولم يبقَ على وجهِ الأرض من البشر إلا نوحٌ والذين آمنوا معه، فنوح استأنفَ الحياةَ من جديدٍ بعدَ الطوفان.

واصطفى إبراهيمَ وآلَه، لأنَّ إبراهيمَ أبو الأنبياء، الإمامُ الأُمة، ومعظمُ الأنبياءِ المذكورين في القرآن بعدَه من ذريته. وآلُ إبراهيمَ هم

الأنبياءُ من ذريته الذين انتهوا إلى محمدٍ ﷺ، خاتم الأنبياء، والصالحونَ المؤمنونَ من الناس بعده، الذين انتهوا إلى أمةِ محمدٍ ﷺ، أمةِ الشهادة والخلافةِ حتى قيامِ الساعة.

واصطفى اللَّهُ آلَ عمران. وعمران المذكور هنا والدُ مريم رضي الله عنها وعنه، وليس عمرانَ والدَ موسى عليه الصلاة والسلام.

وآلُ عمران هي ابنتُه مريم التي ذكرت الآياتُ التاليةُ من سورة آل عمران قصة ولادتِها وكفالتِها. هذه البنتُ الصالحةُ مريم البتولُ التي اصطفاها الله، وجعلَها مظهراً لإرادتِه النافذة، في خلقِ إنسانٍ من امرأةٍ بدون رجل، فحملَتْ بعيسى عليه السلام، وهي الفتاةُ العذراءُ البتول!

وجاءت آياتٌ أُخرى في سورة آل عمران، في جدالِ ومحاجةِ اليهود والنصارى، الذين زعموا أنهم على طريقِ إبراهيم عليه السلام ودينِه، وأَبطلت الآياتُ هذا الزعم، وبينتْ مَن هم أَوْلى الناسِ بإبراهيم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨].

تنكرُ هذه الآياتُ على أهلِ الكتاب من اليهود والنصارى جدالهم بشأنِ إبراهيمَ عليه السلام، وتبطلُ انتسابَهم إليه، وتكذِّبُهم في زعمِ أنَّ إبراهيمَ منهم.

دلالة إنزال التوراة والإنجيل من بعده:

التوراةُ أُنزلتْ على موسى عليه السلام، وموسى جاء بعدَ إبراهيم بعشراتِ السنين ـ إن لم تكنْ مئاتِ السنين ـ، فكيفَ يزعمُ اليهودُ أنَّ إبراهيمَ كان يهودياً وإبراهيمُ قبلَهم بمئات السنين؟

والإنجيلُ أنزلَه الله على عيسى عليه السلام، وعيسى جاءَ بعد موسى، وبين عيسى وبين إبراهيم مئاتُ السنين، فكيف يزعمُ النصارى أن إبراهيم كان نصرانياً، مع أنه كان قبلَهم بمئات السنين؟

أفلا يَعقلُ اليهود ويتخلَّوْن عن هذا الزعم الذي يكذِّبه التاريخ؟ وألا يعقلُ النصارى أيضاً ويتخلّوْن عن هذا الزعم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ويقررُ القرآنُ أن اليهودَ والنصارى لا علمَ عندهم، وأنهم يتبعون الجهلَ والهوى، ومن جهلِهم زعْمُهم أنهم على دينِ إبراهيم، أو أنَّ إبراهيمَ منهم، ويدلُّهم على طريقِ إزالةِ الجهل، بأخْذِ العلم عن الرسولِ محمدٍ ﷺ، الذي علَّمه اللّهُ عن طريق الوحي: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وتصرحُ الآياتُ بتكذيبِ اليهودِ والنصارى في مزاعِمِهم، ونفيِ كونِ إبراهيمَ مِن أيٍّ من الطوائفِ الثلاث الكافرة، اليهود والنصارى والعرب المشركين. وتقررُ بصراحة أنه كان حنيفاً مسلماً، وأنَّ دينَه هو الإسلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

من هم أتباعه الحقيقيون:

وبعد أنْ تجردَ الآياتُ الطوائف الثلاث ـ اليهود والنصارى والمشركين ـ من الانتسابِ إلى إبراهيم، وأنهم ليسوا معه ولا على طريقه، ولا متَّبعين لدينه، وأنهم كافرون ضالون. بعد هذا تُبيِّنُ مَن هم أَتباعُه الحقيقيون، المنتسبون إليه فعلاً، الذين على دينه الحنيف، وتحصرهم بأنهم ثلاثةُ أصناف: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

أَوْلى الناسِ بإبراهيمَ عليه السلام هم الذين اتَّبعوه. أي هم المؤمنون الصالحون الذين عاصَروه، وعاشوا معه، واستجابوا لدعوته، ودخلوا في دينه، سواءً كانوا في المرحلةِ الأُولى من دعوتِه في العراق، أو في المرحلةِ الثانيةِ من دعوته في فلسطين.

واللامُ في قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ هي لامُ المزحلقة، التي انتقلَتْ من اسم ﴿إِنَّ﴾ إلى خبرِها: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وأصلُ الجملة هكذا: لأَوْلى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه، فدخلتْ لامُ التوكيد على المبتدأ ﴿أَوْلَى﴾.

لكنْ لما دخلتْ ﴿إِنَّ﴾ على الجملة، دخلتْ على المبتدأ ﴿أَوْلَى﴾، و ﴿إِنَّ﴾ تدلُّ على التوكيد، واجتماعُ حَرفيْن للتوكيد في محلٍّ واحد غير ممكن، فلا بدَّ أَنْ ينتقلَ الحرفُ الأضعفُ إلى مكانٍ آخر، ليحلَّ محلَّه الحرفُ الأقوى، وبهذا تَنتقلُ اللام - أو تُزَحْلَق - من المبتدأ إلى الخبر، وبهذا تسمّى «لام المزحلقة».

وقوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ تركيز على موضوع الاتباعِ الصحيح الصادق للنبي، فلا يكفي مجردَ الانتسابِ الجنسيِّ الوراثي، بل لا بدَّ من حسنِ الاتباع.

والصنفُ الثاني الأَوْلى بإبراهيم هو: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمرادُ به رسولُ الله محمد ﷺ.

واعتبره القرآنُ أَوْلى الناسِ بإبراهيم، رغمَ وجودِ فترةٍ زمنية بينهما، تُقدَّرُ بمئاتِ السنين، لأنه على دينه، ولأنه جاءَ بدينه وهو الإِسلام، ولأنَّ رسالتَه استكمالٌ لرسالة إبراهيم.

والصنفُ الثالثُ الأَوْلى بإبراهيم هم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. والمرادُ بهم المؤمنون الصالحون أَتباعُ محمد ﷺ، إنهم هذه الأمةُ الإِسلامية، أمةُ الشهادةِ والرسالةِ والخلافةِ والدعوة حتى قيام الساعة.

وهم أَوْلى الناسِ بإبراهيم لأنهم على دينه، فهم مسلمون حنفاء، وإبراهيمُ حنيفٌ مسلم، وهم متَّبعون لخاتمِ النبيين محمد ﷺ، الرسولِ الذي بَشَّرَ به إبراهيمُ عليه السلام.

بعد هذا البيانِ القرآني الحاسم لا يجوزُ لليهود أو النصارى الادعاءُ بأنهم على دينِ إبراهيم، أو أنهم متبعون له، فإبراهيمُ بريءٌ منهم، وطريقهم غيرُ طريقه. إنهم كافرون وإبراهيمُ موحِّدٌ حنيفٌ مسلم، وهم مكذِّبون لخاتمِ النبيين محمد ﷺ، الذي بَشَّرَ به إبراهيم، وهم محاربون للمسلمين الذين أحبَّهم إبراهيم، وسمّاهم المسلمين من قبل.

المنتسبون لإبراهيمَ حقاً هم محمد ﷺ وأمتُه وحدهم، لا يشاركُهم في ذلك أحدٌ من الأصنافِ والأمم الأخرى.

بهذا يبطلُ القرآنُ انتسابَ الطوائفِ الثلاث: اليهود والنصارى والمشركين، لإبراهيم عليه السلام، ويفندُ مزاعمُهم بذلك.

ويحصرُ القرآنُ الانتساب لإبراهيم بهذه الأمة المسلمة. وهو الانتسابُ الدينيُّ الإِيماني الإِسلامي، وليس الانتسابَ النسبيَّ الجنسيَّ الوراثي..

[٢٩]

إبراهيم المسلم الحنيف والحنيفية دينه

تقررُ آياتُ القرآن الصريحةُ الكثيرةُ أن إبراهيمَ عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

معنى الحنف والأحنف والحنيف:

والحنيفُ هو المؤمنُ بالله الموحِّدُ له، الذي اختارَ طريقَ الإيمانِ والإِسلام والخضوعِ لله، ومالَ إِليها، وتَرَكَ طريقَ الشركِ والكفرِ، ولم يختَرْها.

قال ابن فارس: «الحَنَفُ هو المَيْل. ويقال للذي يَمشي على ظهورِ قدَمْيه أَحنف. فالرجلُ الأَحنف: مائلُ الرجليْن.

والحنيف: المائلُ إِلى الدينِ المستقيم.. ويقال: هو يتحنَّف: أي: يتحرّى أقومَ طريق»[(١)].

وقال الراغبُ في المفردات: «الحَنَف: هو ميلٌ عن الضلالِ إِلى الاستقامة. والجَنَفَ: ميلٌ عن الاستقامةِ إِلى الضلال. والحنيفُ هو المائلُ إِلى الاستقامة.

وتحنَّفَ فلان: تحرى طريقَ الاستقامة. وسَمّت العربُ كلَّ مَنْ حجَّ أو اختتنَ حنيفاً، تنبيهاً أنه على دينِ إِبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والأحنفُ مَنْ في رجْلِه ميل. وقيل سُميَ بذلك على التفاؤل. وقيل: بل استُعيرَ للميلِ المجرد»[(٢)].

واعتبرَ القرآنُ أنَّ أحسنَ الناس ديناً، هو ذلك الذي أسلمَ وجهه لله، وأحسنَ العبادة لله، واتبعَ ملةَ إِبراهيمَ عليه السلام، وكان حنيفاً مثله. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ورفضَ القرآنُ كونَ الهداية في اتِّباع اليهود أو النصارى، واعتبرَها

---

(١) مقاييس اللغة ٢: ١١٠ ـ ١١١.

(٢) المفردات: ٢٦٠.

في اتباع إبراهيمَ عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥].

الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً:

وقد جاءَ الأمْرُ صريحاً في القرآنِ لليهود والنصارى باتباع مِلةِ إبراهيمَ الحنيف، والدخولِ في دينه: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥].

وأَمَرَ اللَّهُ نبيَّه محمداً ﷺ باتباعِ ملةِ إبراهيمَ الحنيف.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

وأَمرَ اللَّهُ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنْ يعلنَها بصراحة: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

ونرى أنَّ الآياتِ التي وصفتْ إبراهيمَ بالحنيفية، كانت حريصةً على اتْباعِ ذلك بنفي الشرك عنه، حيث ورد ذلك في معظم الآيات: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ومع أن قولَه ﴿حَنِيفًا﴾. يتضمن قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لأن الحنيفَ هو المائلُ عن الشركِ إلى التوحيد، وعن الباطلِ إلى الحق، إلا أنَّ الآياتِ نصَّتْ على ذلك بالذكر: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأهميةِ ذلك، ولبيانِ خطورة الشرك، ووجوبِ الحذرِ منه، حتى ولو كان خفياً، ثم للردِّ على العربِ الكافرين المشركين، الذين كانوا يزعمون أَنهم حنفاء وأَنهم متبعون للحنيفية دينِ إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك كانوا يعبدون مع اللَّهِ الأوثانَ والأصنام.

فتقول لهم: أنتم لستم حنفاء، ولستم على دينِ إبراهيم، لأنكم مشركون، أما إبراهيمُ فقد كان حنيفاً مسلماً، وما كانَ من المشركين.

وفسرت الآياتُ الحنيفيةَ بالإِسلام، ولهذا قالَتْ عن إبراهيم: «ولكن كان حنيفاً مسلماً». وهذا دليلٌ على أن الحنيفيةَ دينَه هي الإِسلام، وليس غيره.

وبما أنَّ إبراهيمَ حنيفٌ مسلم، وبما أن المسلمين من أمة محمدٍ ﷺ مؤمنون حنفاء، فهم أَوْلى الناس به، وأقربُ الناس إليه، وبينَهم مودةٌ ومحبة خاصة.

إبراهيم أبو المسلمين أبوة إيمانية:

فإبراهيم أبوهم، وهو سماهم المسلمين من قبل، قبل أن يوجدهم الله في عالم الواقع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج: ٧٧ ـ ٧٨].

تصرح الآيةُ بأنَّ المسلمين أتباعَ محمد ﷺ هم الذين يَدينون للّهِ على ملةِ إبراهيم ودينِه عليه السلام، وتصرحُ أيضاً بأن إبراهيمَ هو أبوهم.

والمرادُ بالأبوة هنا الأبوةُ المعنوية، وليست الأبوةَ النسليةَ النَّسَبية، صحيحٌ أنَّ بعضَ المسلمين ينتسبُ لإبراهيم حقيقة، حيث ينتهي نَسَبَه إليه، لأنَّ بعضَ العرب من نسلِ إسماعيل عليه السلام، لكن ليس كلُّ المسلمين هكذا، فبعضُ العربِ ليسوا من نسل إسماعيل، كعربِ اليمن ونجد وعمان. وبعضُ المسلمين ليسوا من العرب أصلاً.

لكن كلُّ المسلمين يقتدونَ بإبراهيم عليه السلام ويتبعونه، ويسيرون على طريقه، فأبوَّته لهم أبوَّةٌ معنويةٌ إيمانية، وليستْ نَسْلِية مادية!

ومن محبة إبراهيم عليه السلام للمسلمين، أنه اختارَ لهم اسمهم من قبل: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، إن اسمَهم أصيلٌ عريق، ممتدٌ في التاريخ، ضاربٌ في جذوره، وليس اسماً عارضاً حادثاً. هم مسلمون، والأنبياءُ قبلَهم كلُّهم مسلمون، وأَتباعُ الأنبياءِ الذين قبلَهم مسلمون، وإبراهيم هو الذي سماهم المسلمين من قبل.

إبراهيم يرغّبنا بالجنة ومعنى صلاتنا عليه:

ومن محبةِ إبراهيمَ عليه السلام لأمةِ محمد ﷺ أنه بلَّغهم السلام، ورغَّبهم في الجنة.

روى الترمذيُّ والطبرانيُّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ إبراهيمَ ﷺ ليلةَ أُسريَ بي، فقال: يا محمد، أَقرِئ أمتَك مني السلام، وأخبرهم أن الجنةَ طيبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنها قيعان، وغراسُها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

إن إبراهيمَ عليه السلام يطلبُ من محمدٍ ﷺ أنْ يقرئَ السلامَ منه على أمته، وسلامُه عليهم لمحبتِه لهم، وشوقِه إليهم.

ويُرغِّبهم في الجنة، ويَدعوهم إلى طلبها، ويخبرُهم أن تربتَها طيبة، وأن ماءَها عذب، وهي قيعانٌ وسهولٌ واسعة شاسعة فسيحة. ويرشدُهم إلى غراسِها، ليغرسوها وهم في الدنيا. إنَّ غراسَها بذكر الله، فمن يقول: سبحانَ الله يغرسُ فيها شجرة. ومَن يقول: الحمدُ لله، يغرسُ فيها شجرة. ومَن يقول: لا إله لا الله، يغرسُ فيها شجرة. ومَن يقول: الله أكبر، يغرسُ فيها شجرة.. وهكذا.

ومِن مظاهر الصلةِ والمحبة بين إبراهيم عليه السلام وبين هذه الأمة، أنَّ المسلمَ يصلي على محمد وعلى إبراهيمَ عليهما الصلاة

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٤٦٢. والطبراني في الكبير برقم؛ ١٠٣٦٣. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٣٠.

السلام، في الجلوسِ الأخير، تلك الصلاةَ المعروفةَ باسم الصلاة الإبراهيمية.

روى مسلمٌ وغيرُه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: (أتانا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ في مجلسِ سعدِ بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: يا رسولَ الله، أَمَرَنا اللَّهُ أَنْ نصليَ عليك، فكيف نصلّي عليك؟ فسكتَ رسولُ الله ﷺ، حتى تمنينا أنه لم يسأله.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليتَ على آلِ إبراهيم. وبارِكْ على محمد، وعلى آلِ محمد، كما باركْتَ على آلِ إبراهيم في العالمين، إنك حميدٌ مجيد. والسلامُ كما قد عُلِّمْتُم»)[1].

وفي حديثٍ آخر عند البخاري ومسلم عن ابن أبي ليلى قال: (لَقيني كعبُ ابنُ عَجْرة، رضي الله عنه، فقال: أَلا أُهدي لكَ هدية؟

خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ، فقلْنا: قد عرَفْنا كيف نسلِّمُ عليك، فكيف نصلّي عليك؟

قال: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على آلِ إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد. اللهمَّ باركَ على محمد وعلى آل محمد، كما باركْتَ على آلِ إبراهيم، إنكَ حميد مجيد»)[2].

شهادة من علماء أهل الكتاب بحنيفية إبراهيم وقصة زيد بن عمرو:

إبراهيمُ عليه السلام حنيفٌ مسلم، ودينُه هو الحنيفية. وقد كان الموحِّدون الصادقون من أهلِ الكتاب قبل البعثة يعْلَمون ذلك.

روى البخاري عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن زيدَ بن عمرو بن نفيل خرجَ إلى الشام، يسألُ عن الدينِ ليتبعه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٤٠٥، وانظر الصحيحة. رقم: ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧. ومسلم برقم: ٤٠٦. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١١٧.

فلقي عالماً من اليهود، فسألَه عن دينِهِم، وقال له: إني لعلى أنْ أدينَ دينكم، فأخبِرْني.

فقال له: لا تكونُ على دينِنا حتى تأخذَ بنصيبك من غضب الله!

قال زيد: ما أفِرُّ إلاّ من غضبِ الله، ولا أحملُ من غضبِ الله شيئاً وإني أستطيعه، فهل تدلُّني على غيره؟

قال: ما أعلَمه إلاّ أنْ يكونَ حنيفاً!

قال زيد: وما الحنيف؟

قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولم يعبدْ إلا الله. فخرجَ زيد، فلقيَ عالماً من النصارى، فذكَرَ مثلَه.

فقال له: لن تكونَ على دينِنا حتى تأخذَ بنصيبك من لعنةِ الله!

قال: ما أفِرُّ إلاّ من لعنةِ الله، ولا أحملُ مِن لعنةِ الله ولا من غضبه شيئاً وإني أستطيع، فهل تدلُّني على غيره؟

قال: ما أعلمه إلاّ أنْ يكونَ حنيفاً.

قال: وما الحنيف؟

قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلا الله.

فلما رأى زيدٌ قولَهم في إبراهيم عليه السلام خرج. فلما برزَ رفعَ يديه فقال: اللهمَّ إني أشهدُ أني على دينِ إبراهيم)[1].

إنَّ هذا الحديثَ يخبرُنا أنَّ المحققين الصادقين من علماءِ اليهودِ والنصارى، يعلمون حقيقة دين إبراهيم عليه السلام، وأنه الحنيفية، وليس اليهوديةَ أو النصرانية، ويعلمون أنَّ اليهودَ والنصارى بعيدون جداً عن دينِ إبراهيم الحنيف المسلم، وأنهم على انحرافٍ وضلال، ولذلك يَنالون نصيبهم من غضبِ الله ولعنته. ولذلكَ ينصحون الباحثين عن

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٨٢٧. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٥.

الحقيقةِ بصدق، بعدمِ الدخولِ في دينهم، كما فعلَ اليهوديُّ والنصرانيُّ مع زيد بن عمرو.

وقد استفادَ زيدُ بن عمرو من نصيحةِ اليهوديِّ والنصراني، وأَعلنَ أنه حنيفٌ مسلم، على دين إبراهيم عليه السلام.

ومعلومٌ أن زيدَ بن عمرو كان من الحنفاءِ الموحِّدين في بلاد العرب، الذين صَرَّحوا بأنهم على دين إبراهيم، والذين عاشوا قبلَ بعثةِ محمد عليه الصلاة والسلام. وزيدٌ هذا هو والدُ الصحابيِّ سعيدِ بن زيد رضي الله عنه!.

كان إبراهيمُ عليه السلام حنيفاً مسلماً، ودينُه هو الحنيفيةُ السمحة: الإِسلام، وهذا هو دينُ ابنِه إسماعيل أيضاً عليه السلام.

وقد بعث اللَّهُ إسماعيل نبياً إلى العرب، ودَعاهم إلى الإِسلام، وطلبَ منهم أنْ يكونوا مسلمين حنفاءَ لله.

واستجابَ أهلُ مكة المقيمين حول البيتِ الحرام لدعوةِ إسماعيل، وكانوا على دينِه ودين أبيه إبراهيم، مسلمين حنفاء لله.

واستمرّوا على هذا فترةً من الزمن، إلى ما بعد وفاة إبراهيم، ثم وفاةِ إسماعيل عليهما السلام.

ثم طرأ عليهم الشركُ وعبادةُ الأصنام بعد ذلك. عندما أتتْ قبيلةُ «خُزاعة» وأقامتْ حول البيت الحرام، وسكنتْ في مكة.

عمرو بن لحي أول من أدخل الأصنام إلى الكعبة:

وكان زعيمُ خزاعة «عمرو بن لحي». فخرجَ في زيارةٍ له من مكة إلى «البلقاء» في بلادِ الشام. ورأى في البلقاءِ قوماً يعبدون الأصنام، وشاهدَ تماثيلَ جميلةً جذابةً معبودة، يعتبرها الناسُ آلهة، فأُعجبَ بها، واشترى مجموعةً من هذه «الآلهة» الجميلة، وعادَ بها إلى مكة،

ووضَعَها في الكعبة، وطلبَ من قومه أنْ يعبدوها باعتبارها آلهة، كما يفعلُ أهلُ البلقاء!.

وبذلك كان عمرو بن لُحَيّ الخزاعي هو أولَ من غَيَّرَ وبَدَّلَ دينَ إبراهيم عليه السلام. وهو أوَّلُ مَنْ أدخلَ الأصنام إلى الكعبة.

روى الطبراني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أوَّلُ مَن غَيَّرَ دينَ إبراهيم هو عَمْروُ بن لُحَيّ بن قُمَعَة بن خَنْدَف، أبو خزاعة»[1].

وروى الحاكمُ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لأكثَمَ بنِ الجُون الخُزاعي: «يا أكثم، رأيتُ عمروَ بن لحي بن قمعة بن خندف يجرُ قصْبَه في النار.

فما رأيتُ رجلاً أشبهَ برجل منكَ به ولا به منك!»

فقال أكثم: عسى أنْ يضرَّني شبَهُه يا رسولَ الله؟

«قال: لا. إنكَ مؤمن، وهو كافر.

إنه كانَ أوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دينَ إسماعيل، فنصَّبَ الأوثان، وبَحَّرَ البحيرة، وسيَّبَ السائبة، ووَصلَ الوصيلة، وحَمى الحامي»)[2].

يخبرُ أبو هريرة رضي الله عنه أن الصحابيَّ أكثَمِ بن الجونِ الخزاعي رضي الله عنه قابلَ رسولَ الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ إنه أكثرُ الناس شَبَهاً بأولِ مشركٍ في مكة، وهو عمرو بن لحي الخزاعي، فخشيَ أكثمُ أنْ يكونَ شبهه بعمرو بن لحي ضارّاً به، مؤثّراً عليه، وسبباً في تعذيبه يومَ القيامة. فطمأنه رسولُ الله ﷺ أنَّ ذلك لنْ يضرَّه، لأنَ أكثَمَ الخزاعي مسلم صالح، وعمرو الخزاعي كافرٌ مشرك!

ثم أخبرَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام أكثَمَ بن الجون أنه رأى

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير برقم: ١٠٨٠٨. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٨.

(٢) أخرجه الحاكم ٦٠٥٤ وغيره. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ٧٧.

عمروَ بن لحي يجرُّ أمعاءَه وقَصْبَه في النار، لأنه أولُ مشرك كافر. فقد كان أهلُ مكة حتى عهده كلُّهم مؤمنين مسلمين حنفاء، على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

عمرو بن لحي استورد الأصنام من البلقاء:

فلما جاءَ عمرُو بن لحي، وصارَ زعيماً لأهل مكة، غيَّرَ دينَ إسماعيل، واستوردَ الأصنامَ من بلادِ الشام، واشترى الآلهةَ من البلقاء، ووضعَها في الكعبة.

وجعلَ لهذه الأصنام أنواعاً من الأنعام من الإبل والغنم، بشروطٍ خاصة، وهي البَحِيرَةُ والسائبةُ والوصيلةُ والحامي، والتزمَ أبناؤُه بهذا التشريع من بعده!

وقد كذَّبهم اللّهُ جميعاً في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: ١٠٣].

فهذه الكلماتُ الأربع: البَحيرةُ والسائبة والوصيلةُ والحامي، هي أوصافٌ للنِّياق والغنم، بشروط خاصة. فالناقةُ إذا ولدتْ عدداً خاصاً من الإبل، بشروطٍ خاصة، شُقتْ أذنُها، وأصبحتْ وقفاً على الأصنام، ومُنع شربُ لبنها أو ركوبُ ظهرها أو أكلُ لحمها، وسُمِّيت بَحيرة.

والسائبةُ هو وصفٌ آخر لناقةٍ أخرى، إذا ولدتْ عدداً خاصاً من الإبل، بشروط خاصة، فإنها تُسمّى سائبة، وتُسَيَّبُ وتُتركُ للأصنام.

والوصيلةُ هو وصفٌ لناقةٍ ثالثة، إذا ولدتْ عدداً خاصاً من الإبل بمواصفات خاصة، فتسمّى وصيلة، وتُتركُ للأصنام.

والحامي هو الفحلُ الذي ينتجُ منه عددٌ خاصٌ بشروطٍ خاصةٍ، فيقال حمى نفسه من الذبح، ويُسمى حامي، ويُتركُ للأصنام.

وأولُ مَنْ سنَّ هذا التشريعَ الجاهلي، وعطلَ الاستفادةَ من هذه الإبل، هو عمروُ بن لحي الخزاعي، وتوارثَه المشركون، والتزموا به من بعده.

زعم الكفار استقسام إبراهيم وإسماعيل بالأزلام:

ومن افتراءاتِ وأكاذيبِ المشركين الجاهليين أيضاً، أنهم زعموا أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام كانا يستقسمان بالأزلام، وعلَّقوا صورةً لهما في الكعبة، وهما يستقسمانِ بالأزلام، فأزالَها رسولُ الله ﷺ لما فتحَ مكة.

روى البخاريُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (إنَّ رسولَ الله ﷺ لما قدمَ مكة، أبى أنْ يَدخلَ البيت، وفيه الآلهة، فأَمر بها فأُخرجتْ، فأَخرجوا صورةَ إبراهيم وإسماعيلَ في أيديهما الأزلام.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «قاتَلَهم الله، أما والله لقد علموا أنهم لم يستقسموا بهما قط. فدخلَ البيت، فكبَّرَ في نواصيه، ولم يُصَلِّ فيه..»)[1].

والأزلام: هي القِداحُ التي كان العربُ الجاهليون يتفاءلون أو يتشاءمون بها.

وقد حرمَ اللّهُ على المسلمين الاستقسام بالأزلام، فقال تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [المائدة: ٣].

قال السمينُ الحلبي: «الأزلام: قِداحٌ كانت العرب تتشاءمُ بها وتتفاءل، كانوا يضعونَها عند سدَنةِ الأصنام، فإنْ أرادوا أمراً، أتوا السادن، فأجالَ الخريطة، فإنْ خرجَ السهمُ الذي فيه الأمر، مضى، وإنْ خرجَ ما فيه النهي، أمسك. قال تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي: وحرم عليكم ما قسم لكم بهذه القداح»[2].

لقد بنى العربُ الجاهليون حركتَهم وسعيَهم ونشاطَهم على الحظِّ والنصيب، وتَرَكَ الواحدُ منهم للقداح أنْ تحددَ له حركتَه وسعيه، وأن تؤمِّنَ له مستقبلَه، بالنجاحِ أو الإخفاق، والربحِ أو الخسارة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٦٠١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٠٨.

(٢) عمدة الحفاظ ٢:١٦٦.

كان يطلبُ من خادم الكعبة أنْ يحركَ الكيس الذي بَداخله القداح، وأنْ يُخرجَ واحداً منها بطريقةٍ عشوائية، فيحددَ خطوتَه على الكلام المكتوب على ذلك القدح، فإنْ قالَ له: أُخرج، خَرج. وإن قال له: لا تخرج، توَقَّف. هكذا بسذاجةِ وغباءِ وجهل كبير.

وزعموا أن النبييْن الكريميْن إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام كانا هكذا، ورسما صورةً لهما في الكعبة بذلك، وقد حطمَ الرسولُ ﷺ تلكَ الصورةَ لما فتح مكة، وبرّأ النبييْن الكريميْن من تلك التهمةِ الشنيعة!.

ونرى في الحديث حرصَ رسولِ الله ﷺ على تبرئةِ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من كلِّ سوءٍ وزورٍ وبهتان، وإثباتِ ما يستحقانه من فضلٍ وتكريم.

إبراهيم خير البرية:

ومن الأمثلةِ الأُخرى على ذلك، التي تُضاف إلى ما ذُكرَ. ما رواه مسلم عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: (جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا خيرَ البرية.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ذاكَ إبراهيمُ ﷺ»[1]).

وهذا الحديثُ يدلُّ على تواضعِ رسولِ الله ﷺ، وعلى حرصه على بيانِ فضلِ وكرامةِ إبراهيمَ عليه السلام، فاعتبرَ أَنَّ إبراهيمَ هو خيرُ البرية بعد الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

وليس معنى الحديث أن إبراهيم أفضلُ من محمد ﷺ، أو أنه خير منه، فإننا نعلم أن محمداً ﷺ هو خير الخلقِ أجمعين، فهو أفضل حتى من إبراهيم عليه السلام.

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٦٩. انظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٢١.

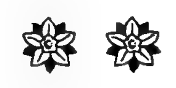
إبراهيم أول من يكسى يوم القيامة:

ومن الأمثلةِ الأخرى على ذلك أيضاً، ما رواه، البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً بموعظة، فقال: «يا أَيها الناس: إنكم تُحشرون إلى اللَّهِ حفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1]. ألا وإِنَّ أولَ الخلائق يُكسى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام..»)[2].

فالحديثُ يخبرُ أن أولَ مَن يُكسىٰ هو إبراهيمُ عليه السلام، ثم يُكسىٰ الخلقُ من بعده.

وهذه منقبةٌ خاصةٌ لإِبراهيم عليه السلام، ولعلَّ اللَّهَ يخصُّه بها يومَ القيامة، لأن الكفارَ ألقوه في النار، فأنجاهُ الله منها، ولعلَّه النبيُّ الوحيد الذي حاولَ أعداؤه إحراقَه بالنار.

هذه بعضُ فضائلِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبها نُنهي كلامَنا عن قصته، التي وَقَفْنا فيها مع آياتِ القرآن، وما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ، ولم نتجاوزْ هذيْن المصدريْن إلى غيرهما.



---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٩. ومسلم برقم: ٢٨٦٠. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٢٥.

قِصَّةُ لُوطٍ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

[١]

ذكر لوط في القرآن

مرات ذكره في كل سورة ورد فيها:

ورد ذِكْرُ لوطٍ عليه السلام سبعاً وعشرين مرة، وفيما يلي قائمةٌ بالسور التي ذُكر فيها، ومراتُ ذكره فيها:

١ ـ سورة الأنعام: مرة واحدة.

٢ ـ سورة الأعراف: مرة واحدة.

٣ ـ سورة هود: خمس مرات.

٤ ـ سورة الحجر: مرتان.

٥ ـ سورة الأنبياء: مرتان.

٦ ـ سورة الحج: مرة واحدة.

٧ ـ سورة الشعراء: ثلاث مرات.

٨ ـ سورة النحل: مرتان.

٩ ـ سورة العنكبوت: أربع مرات.

١٠ ـ سورة الصافات: مرة واحدة.

١١ ـ سورة صَ: مرة واحدة.

١٢ ـ سورة قَ: مرة واحدة.

١٣ ـ سورة القمر: مرتان.

١٤ ـ سورة التحريم: مرة واحدة.

وكان ذِكْرُ قصة لوطٍ في القرآن على ثلاثِ حالات:

الحالة الأولى: ذكْرُ بعضِ التفاصيل لقصته مع قومه، من خلال بيانِ انحرافاتهم وشذوذهم، ودعوةِ لوط لهم للعفة والطهارة، ورفضهم لدعوته، ثم إيقاعِ العقابِ والعذاب بهم.

الحالة الثانية: ذكْرُ بعضِ الإِشاراتِ السريعة عن قصته.

الحالة الثالثة: ذكْرُ اسمِ لوط عليه السلام ضمن أسماءِ بعض الأنبياء.

أما تفاصيلُ هذه الحالات الثلاث، ومواضعُ ذكرِ قصته في كل سورة، فهو كما يلي:

ما ذكرته كل سورة من قصته:

١ ـ ما ذكرتْه سورةُ الأعراف من قصته:

وردتْ قصتُه في خمس آيات من السورة: ٧٩ ـ ٨٤.

وقد تحدثت الآياتُ عن إنكار لوط على قومه إتيانَهم الذكران من دون النساء، وردَّ قومه عليه بأنْ طالَبوا بإخراج آل لوط من بينهم، لأنهم يتطهرون، ثم نجاةُ لوط وآله المؤمنين، وتدميرُ القوم المسرفين.

٢ ـ ما ذكرتْه سورةُ هود من قصته:

تداخلتْ قصةُ لوط في سورة هود مع قصة إبراهيم، والآيات التي ذكرتْ قصتيْهما معاً أربع عشرة آية: ٦٩ ـ ٨٣.

والآياتُ التي تحدثتْ عن قصةِ لوط مع الملائكة ومع قومه سبعُ آيات: ٧٧ ـ ٨٣. .

وتحدثت الآياتُ أولاً عن حلولِ الملائكة ضيوفاً على إبراهيم وهو لا يعرفُهم، وإِخبارهم له أنهم ذاهبون لتدميرِ قومِ لوط، وجدال إبراهيم معهم لتأخيرِ التدمير لعل قوم لوطٍ يؤمنون.

ثم أخبرت الآياتُ عن مجيء الملائكة إلى لوطٍ في صورة رجال حسان، وضيقِه بهم، لما يعلمه من شذوذِ قومه، ومجيء قومه إليه

لأخْذِ ضيوفه، ومواجهةِ لوط لهم ودفاعه عن ضيوفه، وطلبِ الملائكة منه أن يسريَ بأهله المؤمنين ليلاً، لأن العذابَ والدمارَ واقعٌ بهم مع الفجر. وتدميرهم بقلبِ قُراهم ورميهم بحجارةٍ من سجيل.

٣ ـ ما ذكرته سورة الحجر من قصته: اتصلتْ قصةُ لوط في سورة الحجر مع قصة إبراهيم، وجاءتْ قصتُه في إحدى وعشرين آية: ٥٧ ـ ٧٧.

بدأتْ قصتُه في السورة من الحوار بين الملائكة وبين إبراهيم، حيثُ سألهم إبراهيم عن مهمتهم، فأخبروه بأن الله أرسلَهم لتدميرِ قوم لوط المجرمين، ثم تحدثت الآياتُ عن وصولِ الملائكة إلى لوط، وطلبهم منه أن يسريَ بأهله ليلاً لأن الدمار واقع بقومه عند الصباح، وأخبرتْ عن هجومِ قومه ليفجُروا بضيوفه، ودفاعِ لوط عنهم، ثم وقوعِ الصيحة بهم مع الشروق، وتدميرِهم مع بيوتهم، وتركِ مواقعهم وآثارهم آياتٍ وعبراً للمؤمنين والمتوسمين.

٤ ـ ما ذكرتُه سورةُ الشعراء من قصته:

وردتْ قصتُه في ست عشرة آية من آيات السورة: ١٦٠ ـ ١٧٥.

تحدثت الآياتُ عن دعوة لوط لقومه إلى التقوى والطاعة، والتخلي عن الشذوذِ والفاحشة، ورفضِهم لدعوته، وتهديدِهم له، ثم استنصار لوط بالله، وطلبِه منه أن ينجيَه ويدمرهم، واستجابةِ الله له، وتدميرِ القوم الكافرين، وتركِ آيةٍ واضحة لمن بعدهم.

٥ ـ ما ذكرته سورةُ النمل من قصته:

وردتْ قصتُه في خمسِ آيات من السورة: ٥٤ ـ ٥٨.

تحدثت الآياتُ عن إنكارِ لوط على قومه الشذوذ، وإتيانِ الذكران، وردِّ قومه على دعوتِه بطلب إخراجه وآله من القرية، لأنهم يتطهرون، ونجاتِه مع أهله المؤمنين، وتدميرِ القوم الكافرين.

٦ ـ ما ذكرتْه سورةُ العنكبوت من قصته:

تداخلتْ قصةُ لوط في سورة العنكبوت مع قصة إبراهيم، وجاءت قصتُه في ثماني آيات: ٢٨ ـ ٣٥.

تحدثت الآياتُ عن إنكارِ لوط عل قومه فاحشة اللواط، التي اخترعوها ولم يسبقْهم أحدٌ إليها، وإنكارِه بعضَ جرائمهم الأخرى، وردِّهم على ذلك بتكذيبهم له وطلبهم العذاب، واستنصارِ لوطٍ بربه.

ثم تحدثت الآياتُ عن مجيء الملائكة إلى إبراهيم، وإخباره بمهمتهم في إهلاكِ قوم لوط، وطمأنته بنجاةِ لوط مع أهله المؤمنين. وأخبرت الآياتُ عن ضيقِ لوط بضيوفه لما يعلمه من شذوذِ قومه، ونجاتِه مع أَتباعه، وتدميرِ القوم الكافرين، بسبب فسقهم، وإبقاءِ آثارهم آيةً لمن يعقلون ويتعظون من بعدهم.

٧ ـ ما ذكرتْه سورةُ الصافات من قصته:

وردتْ قصتُه في ستِّ آيات من السورة: ١٣٣ ـ ١٣٨.

تحدثت الآياتُ عن إنجاءِ الله للوط وأهله المؤمنين، وتدميرِ قومه الكافرين، ولفتِ نظرِ العرب الذين يمرون على ديارهم أثناء سفرهم للتجارة، ودعوتِهم للاعتبار مما جرى لقوم لوط.

٨ ـ ما ذكرتْه سورةُ القمر من قصته:

وردتْ قصتُه في ثماني آيات من آيات السورة: ٣٣ ـ ٤٠.

تحدثت الآياتُ عن تكذيبِ قوم لوط، وتعذيبِ الله لهم، وإنجائِه لوطاً وأتباعه، وعن مراودةِ قومه له عن ضيوفه، وإيقاعِ العذاب بهم.

هذه السورُ الثمانيةُ التي ذكرتْ قصةَ لوط عليه السلام.

إشارات سريعة لقصته في سور أخرى:

وهناك سورٌ أخرى أوردتْ إشاراتٍ سريعةً إلى قصته، وهي:

١ ـ **سورةُ التوبة**: أشارتْ إلى تدميرِ قرى قوم لوط، في الآية رقم: (٧٠)، حيث أطلقت عليها اسمَ المؤتفكات.

٢ ـ **سورةُ الفرقان**: أشارت الآيةُ رقم: (٤٠) إلى قريتهم، التي أُمطرتْ مطرَ السوء، ولامت العربَ الكفارَ الذين لم يتعظوا مما جرى بها.

٣ ـ **سورةُ الأنبياء**: أشارت الآيةُ رقم: (٧٤) إلى لوط، ونجاته من القرية التي كانت تعمل الخبائث.

٤ ـ **سورةُ الذاريات**: أشارت الآيات: ٣١ ـ ٣٧ إلى لوطٍ وقومه دون أن تسميهم، وتوجُّه الملائكة من عند إبراهيم إليهم لتدميرهم، وجعل مواقعهم آيةً وعبرة.

٥ ـ **سورة النجم**: أشارت الآيتان: ٥٣ ـ ٥٤ إلى المؤتفكةِ التي أهوى الله بها، وأوقع العذاب بها، وهي القريةُ التي كان قوط لوط يسكنون فيها.

٦ ـ **سورة التحريم**: أشار الآية رقم: (١٠) إلى ضرب المثلِ للكفار بامرأةِ نوح وامرأة لوط الكافرتيْن، وتعذيبهما لكونهما كافرتين.

أما السور التي ذكرتْ اسمَ لوط عليه السلام مجردَ ذكر مع بعض الأنبياء، أو ذكرت قومَ لوط، مضافين إليه إضافة، فهي أربع سور:

١ ـ **سورة الأنعام**: في الآية رقم: ٨٦.

٢ ـ **سورة الحج**: ذكر قوم لوط في آية: ٤٣.

٣ ـ **سورة صَ**: ذكر قوم لوط في آية: ١٣.

٤ ـ **سورة قَ**: ذكر قوم لوط في آية: ١٣.

[٢]

التعريف بلوط عليه الصلاة والسلام

صلة لوط بإبراهيم عليهما السلام:

لوطٌ عليه الصلاة والسلام نبيٌ من أنبياءِ الله، ورسولٌ من رسله. وقد أخبرَنا القرآنُ أنه آمن بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، لما كانَ إبراهيمُ يدعو قومَه إلى الله، في بلادِ العراق.

ولا يذكر القرآنُ الصلةَ بين إبراهيم وبين لوط، ولا درجةَ القرابةِ بينهما، ولم يحددْ ذلك أيضاً رسولُ الله ﷺ في حديثٍ صحيح له.

بينما ذكرت الإِسرائيليات أخباراً وكلاماً ورواياتٍ عن هذه الصلة والقرابة بينهما، وعن نسبِ لوطٍ عليه السلام.

ولكننا نبقى مع الآياتِ والأحاديث الصحيحة، ولا نأخذُ شيئاً من أي مصدرٍ آخر غيرهما، ونسكتُ عن ما سكتا عليه.

فلا نعرفُ عن لوطٍ إلا اسمَه هو، ولا نعرفُ شيئاً يقينياً عن صلته بإبراهيم، ولا عن نسبه، ولا عن نشأتِه وطفولته.

كلُّ ما نعرفه أنه استجابَ لدعوة إبراهيم، وسار معه، وآمن له. ولما هاجرَ إبراهيمُ من العراق إلى فلسطين كان لوطٌ معه. وهذا ما ذكره القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولما وصلَ إبراهيمُ ولوطٌ عليهما السلام إلى فلسطين، أرسلَ اللَّهُ لوطاً نبياً رسولاً إلى قومٍ كانوا يسكنون في الجنوب الشرقي منها، في عدةِ قرى مجتمعة.

مبهمات في أصل قوم لوط:

ولا نعرفُ من أين جاءَ هؤلاء القوم، ولا اسمَهم، ولا أصلَهم، ولا أسماءَ القرى التي سكنوها، ولا اسم المنطقة التي كانوا فيها، لعدمِ وجود أحاديث صحيحة تخبرُ عن ذلك.

ولا نذهبُ من أجلِ ذلك إلى الإسرائيليات أو كتب الأَخبارِ والتاريخ والأساطير، لعدم اليقين فيما عندها من روايات.

كلُّ ما نعرفه من خلال حديث القرآن عن هؤلاء القوم، أنهم كانوا يرتكبونَ فواحش كثيرة، من أسوئها وأشنعِها وأقبحها فاحشةُ إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ولم تكن هذه الفاحشة موجودة في من كانوا قبلهم!

هذه الفاحشة التي عُرفتْ فيما بعد باسم «اللّواط». ويُعبَّرُ عنها في هذا العصر باسم «الشذوذ الجنسي».

وقد يَقرنُ بعضُهم بين اسم «لوط» عليه السلام، وبين فاحشة «اللواط»، ويظنُّ أن هذا الاسمَ مشتقٌّ من اسمِ لوط، لأن الفاحشةَ ظهرتْ في قوم لوط.

فرق بين اسم لوط واللواط:

وهذا الربط غير سليم، فنرى أن الكلمتين ليستا من أصل واحد.

إن «لوط» اسمُ علم أجنبي غيرُ عربي، سميَ به ذلك النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، فهو اسمٌ غيرُ مشتق، ولا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقه في العربية، ولا عن جذره الثلاثي.

هو أعجمي مثل: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وغيرهم، عليهما الصلاة والسلام.

فهي أسماءُ أنبياءٍ من غيرِ العرب، بُعثوا إلى أَقوام من غير العرب، كانوا يتكلمونَ بغير العربية. وهي أسماءٌ أعجمية رغْم ورودِها

في القرآن، ولا تتعارضُ عربيةُ لغة القرآن مع وجودِ أسماء أعلامٍ أعجمية فيه، مترجمةٍ إلى العربية، ومكتوبةٍ بالحروف العربية.

«ولوطٌ» مصروف وليس ممنوعاً من الصرف كباقي أسماءِ الأعلام الأجنبية، لأنه ثلاثيٌّ ساكنُ الوسط، مثل: نوح.

أما «اللِّواط» فهو كلمةٌ عربية مشتقة، لها صورةٌ فعليةٌ ومصدرية، تقول: لاطَ، يلوط، لَوْطاً، ولِواطاً.

قال ابنُ فارس في مقاييس اللغة: «اللَّوْط: كلمةٌ تدلُّ على اللصوق، يقال: لاطَ الشيءُ بقلبي. إذا لصق. وفي الحديث: «الولدُ أَلْوَطُ بالقلب» أي: ألصقُ بالقلب. وتقول: لُطتُ الحوضَ لوطاً. إذا طيَّنتَه بالطين»[1].

ويبدو أن العربَ عندما سمّوا الفاحشةَ القبيحة لواطاً، ما أرادوا أخذَ الاسم من لوط عليه السلام، وإنما أخذوه من معنى الكلمة في اللغة.

فإذا كان اللَّوْطُ يدلُّ على اللصوق، فقد سمّوا إتيانَ الرجلِ للرجل لواطاً، لأَنهما يلتصقان معاً عند ارتكابهما تلكَ الفاحشة.

ولستُ مع الإِمام الراغِب في هذا الموضع، وذلك في قوله: «لوط: اسمُ علم. واشتقاقُه من: لاطَ الشيءُ بقلبي يَلوط لَوْطاً.

.. وقولهم: لَوَّطَ فُلان: إذا تعاطى فعلَ قومِ لوط فمن طريق الاشتقاق. فإنه اشتُقَّ من لفظِ لوط، الناهي عن ذلك، لا من لفظِ المتعاطين له..»[2].

لستُ معه في ذهابِه إلى أنَّ اسمَ «لوط» مشتق، لأنَّ الراجحَ أنه اسمُ علم أجنبي أعجمي، ولوطٌ عليه السلام لم يكن عربياً ولم يتكلم العربية.

---

(١) مقاييس اللغة ٥: ٢٢١.

(٢) المفردات: ٧٥ ـ ٧٥١.

ولستُ معه في ذهابِه إلى أن اللواطَ مشتق من اسم لوط، لأن الراجحَ أنه مشتقٌ من الكلمة العربية «لاط» التي تدلُّ على الالتصاق!.

[٣]

دعوة لوط لقومه

أول ما ظهر اللواط في قوم لوط:

أرسلَ اللَّهُ لوطاً عليه السلام نبياً إلى قومه، ولم يكنْ واحداً منهم، كما أنه لم ينشأ بينهم، وإنما وجَّهه الله إليهم من مكانٍ آخر.

ووجدَ لوطٌ قومَه يرتكبون فاحشة إتيانِ الرجال شهوةً من دون النساء، فدعاهم إلى تركِ هذه الفاحشة، وأنكرَ عليهم هذا الشذوذَ إنكاراً شديداً. وقد سجلت آياتُ القرآن هذا الإِنكار.

والذي يلفتُ النظرَ في دعوةِ لوط عليه السلام لقومه الشاذين المنحرفين، أنه بدأ معهم بدايةً خاصة لم يبدأها نبيٌّ مع قومه، وبدأَ على غيرِ ما بدأه الأنبياءِ مع أقوامهم.

تخبرُنا آياتُ القرآن أن كلَّ نبي كان يبدأُ دعوتَه لقومه بدعوتهم إلى عبادةِ الله وحده، وعدم عبادةِ إلٰهٍ آخر معه، كان يقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

لماذا لم يبدأ لوط معهم بالعقيدة:

هكذا كانتْ بدايةُ دعوةِ نوح، ودعوةِ هود، ودعوةِ صالح، ودعوة شعيب، وغيرهم من الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

وهذه البدايةُ الدعويةُ مفهومة، لأن كلَّ نبي كان يبدأُ بنقطةِ البدءِ في كل دعوة، وهي البدءُ بالعقيدة والإِيمان، والتربيةُ على العقيدة والإِيمان، وصياغةُ الأَتباع عليها، وبعد ذلك يكونون رجالاً ربانيين صالحين.

فلماذا لم يبدأ لوطٌ مع قومِه هذه البدايةَ العقيدية؟ لماذا لم يقل لهم أوّلاً: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ثم يقولُ لهم بعد ذلك: أُتركوا فاحشةَ إتيانِ الرجال!!

إنَّ السرَّ في هذه البداية الخاصة في دعوة لوطٍ هو في الانحرافِ الذي حصلَ عند قومه.

الفرق بين الانحراف الفكري والسلوكي:

كان الانحرافُ عند الأقوام الآخرين انحرافاً فكريّاً تصوريّاً عقليّاً، حيث كانوا يعبدونَ مع اللّهِ الأصنامَ والأوثان، ويعتبرونها آلهةً أخرى. فكان كلُّ نبيٍّ يبدأُ بمعالجة هذا الانحراف الفكري العقلي عند قومه، لتصحو عقولهم، وتوحِّدَ الله، وتُفردَه بالعبادة، وبعد ذلك يقدمُ لهم التوجيهاتِ الأخلاقية والأحكامَ التشريعية.

أما الانحراف الذي واجَهه لوطٌ عليه السلام عند قومه، فهو انحرافٌ من نوع آخر، انحرافٌ خاص بهم، لم يكن عند أَقوام آخرين. إنه لم يكن انحرافاً فكرياً عقلياً، يقومُ على الشركِ بالله، ليبّدأَ معهم بنفي الشرك وتقرير التوحيد، صحيحٌ أنهم كانوا مشركين بالله، لكن المشكلةَ الأهمَّ عندهم كانت في الانحراف الآخر.

وَجد لوطٌ عليه السلام عند قومِه انحرافاً سلوكياً، وجدَ عندهم ممارساتٍ شاذة، وإغراقاً في الشهوةِ، في كيفيةٍ تتنافى مع الفطرة الإنسانية، حيث كانوا يأتونَ الرجالَ شهوةً من دون النساء، وما فعلَ قومٌ قبلَهم مثل فعلهم، ولا شذُّوا مثل شذوذهم.

فكيف يبدأُ مع هؤلاء القومِ المنحرفين الشاذين الشهوانيين بالدعوة إلى عبادةِ الله، وتخليصِ أفكارهم وعقولِهم من عِبادة غيره، مع أنهم مشغولون في شذوذِهم وانحرافهم وشهواتهم؟ ولو خاطبهم خطاباً عقلياً هل سيسمعونَه ويَفهمون عليه؟ وهم بهذا الانحرافِ الشاذ؟

لقد أراد لوطٌ عليه السلام تطهيرَ أجسامِهم من هذه اللوثةِ

الشهوانية الشاذة، ليسموَ بهم إلى العِفَّة والطهارة ويُعدَّهم للخطاب العقليِّ التوحيدي.

إنَّ دعوتَه لهم للإقلاعِ عن فاحشةِ الشذوذ، وتركِ إتيانِ الذكران من العالمين، هي تهيئةٌ لهم لعبادةِ الله والتخلي عن الشرك؟ لأن الدعوةَ إلى التوحيد لا تنفعُ مع قومٍ ملوثين شاذّين شهوانيين.

كأنه يقول لهم: طهِّروا أجسامَكم وأبدانَكم أوَّلاً، وعودوا إلى الفطرةِ التي فطر اللَّهُ الناسَ عليها في موضوع الشهوة، وتوجّهوا في قضاءِ الشهوةِ للنساء، ثم تعالوا بعد هذا لنوحِّدَ اللَّهَ في العبادة!

[٤]
بداية فاحشة اللواط فيهم

كيف بدأ اللواط فيهم؟:

أخبرتْنا آياتُ القرآن أنَّ فاحشةَ اللواط أولَ ما ظهرت، كان ظهورُها في قومِ لوط.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١].

ولا تخبرُنا الآياتُ عن كيفيةِ بدء هذه الفاحشةِ فيهم، ولا عن أولِ مَنْ بدأها فيهم، ولا كيفَ خطرَ له خاطرُ التوجُّهِ إلى رجل من جنسه، ولا كيف رضيَ المفعولُ فيه أن يكون هكذا، ولا كيف رضي الفاعلُ أن يكونَ هكذا.

لا نعرفُ كيفية بدايةِ هذه الفاحشةِ الشاذة، ولا نريدُ أنْ نذهبَ في ذلكَ إلى الإسرائيليات، التي تورد تفصيلات في ذلك غيرَ موثوقة ولا صادقة!

المهمُّ أن هذه الفاحشةَ الشاذةَ بدأتْ قليلاً فيهم، ثم انتشرت في

مجتمعاتهم ونواديهم شيئاً فشيئاً. حتى عمتْ تلك المجتمعاتِ والنوادي، وأصبحتْ ظاهرةً عامة، لم يسلَمْ منها إلا القليل.

شذوذهم فواحش متتابعة متلاحقة:

ونتجَ عن إتيانهم هذه الفاحشة الشاذة فواحشُ أُخرى متصلةٌ بها، مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩].

كانوا يأتونَ الرجال، ويقطعونَ السبيل، ويأتونَ في ناديهم المنكر. ونرى أن هذه الجرائمَ الثلاث مرتبطةٌ بالفاحشة الشاذة: فقد كانوا يأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء، وكانوا يقطعون السبيلَ طلَباً لشذوذهم، فيجلسون على الطريق، ومنْ يمرُّ بهم من الرجال يأخذونَه ليفجُروا به، ويُرضوا بذلك نفسياتِهم المنحرفة.

وكانوا يأتونَ في ناديهم المنكر، والمنكرُ هو الممارساتُ والتصرفاتُ الشاذة المرتبطةُ بذلك الشذوذ.

ولذلك قال لهم لوطٌ عليه السلام في موضع آخر: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

كانوا مجاهرين معلنين بالشذوذ:

لقد كان قومُ لوطٍ مُجاهرين بانحرافِهم وشذوذِهم، مُعلنين له، لا يتورَّعون ولا يتحرَّجون ولا يستحون. وهذا دليلٌ على أنَّ انحرافَهم وفسادَهم وشذوذَهم لم يكن فرديّاً، ولاَ جزئياً، وإنما استشرى هذا المرضُ ليصبحَ وباءً عاماً، وأدى هذا الانحرافُ إلى تلويثِ وإفسادِ الأذواقِ والأعراف والعادات والأوضاع، وإلى استقرار هذا الفسادِ والشذوذِ في مجتمعاتهم ليصبحَ هو الأصل، وتكونَ العفةُ والطهارة هي الشذوذ!

إن الإنسانَ قد ينحرف، وقد يصابُ بالشذوذِ الجنسي، ويبحثُ عن ممارساتٍ شاذة، ولكنه يبقى يتحرجُ من ذلك، ويقومُ به في خفاءٍ عن الآخرين، هذا إذا كانتْ فيه بقيةٌ من حياءٍ أو إنسانية.

أمّا أنْ يجاهرَ هذا المنحرفُ بشذوذه، ويعلنَ به، ويتبجحَ في ذلك، فلا يفعلُه إلا مَن فقدَ كلَّ معاني الحياءِ والإِنسانية.

ويهونُ الأمرُ عندما تبقى هذه المجاهرةُ والمعالَنةُ محصورةً في نماذجَ فردية شاذةٍ هنا أو هناك.

ولكنَّ المصيبة الكبيرة هي أن يتحولَ هذا الشذوذُ والانحرافُ إلى ظاهرةٍ عامة، ووباءٍ عريض، يُقره المجتمعُ ويلتقي عليه، ويصدرُ عنه.

كان قومُ لوطٍ يأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء، وهم يُبصرون، ويعلو مجموعةٌ من الرجال رجالاً آخرين، على مرأى ومنظرٍ من الجميع!

وكانوا يأتون في ناديهم المنكر. أي: كانوا يمارسون هذا الشذوذ في نواديهم، والنوادي هي أماكنُ اجتماعاتهم العامة، فإذا ما التقوا واجتمعوا فيها يأتون المنكرَ أثناءَ ذلك، ويأتي بعضُهم بعضاً شهوة من دون النساء!!

[٥]

اللواط شذوذ نفسي وجنسي!

آيات في إنكار لوط على قومه الشذوذ:

قال لوطٌ عليه السلام لقومه المنحرفين: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١].

وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم

مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩].

تُسجلُ هذه الآياتُ إنكارَ لوطٍ عليه السلام على قومِه انحرافَهم وشذوذَهم، وإتيانَهم الرجالَ شهوةً من دون النساء.

انحراف وشذوذ الفاعل والمفعول فيه النفسي والجسمي:

إنَّ إتيانَ الرجلِ لرجل، وممارسةَ الفاحشة معه، شذوذٌ ومخالفةٌ للفطرة الإنسانية، وانحرافٌ في نفسية الفاعلِ والمفعولِ فيه.

المفعولُ فيه منحرفٌ شاذٌ مخالف للفطرة، فقد خلقه اللّهُ رجلاً ذكراً، ليكونَ طالِباً للأنثى طلباً فطرياً مُباحاً، يَقضي شهوتَه عندها، وجهَّزَه اللّهُ تجهيزاً نفسياً وجسمياً لهذه الغاية، وجهَّزَ اللّهُ المرأة تجهيزاً نفسياً وجسمياً لهذه الغاية، لتستقبلَ زوْجَها نفسياً وشعورياً وجسمياً، لتحققَ له رغباتِه النفسيةِ والجسمية، ويحققَ لها رغباتِها النفسية والجسمية.

وقد امتنَّ اللّهُ على الناس بهذه النعمةِ الفطرية لتوجُّهِ الرجالِ للنساء فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ﴾ [الروم: ٢١]

ودعا الأزواجَ إلى طلبِ حاجاتِهم وتلبيةِ رغباتهم عند زوجاتهم، فقال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة: ٢٢٣].

هذا هو السلوكُ السوي، والتوجُّهُ الفطريُّ من الرجال للنساء، الذي حصره الإسلامُ بالزواج الشرعي، وحظرَ أيَّ اتصالٍ للرجال بالنساءِ عن غير هذا الطريق.

فهذا الرجلُ الذي هيأه اللَّهُ نفسياً وجسمياً لطلب المرأة، كيفَ يرضى أنْ يحلَّ محلَّ المرأة، وأنْ يكون مخنَّثاً. وأنْ يكونَ مطلوباً من قبل رجل آخر، بدلَ أن يكونَ هو طالباً للمرأة، كيف يرضى أنْ يأتيهُ رجلٌ آخر في دبره، ليقضيَ شهوتَه عنده؟

لهذا كان الرجلُ المفعولُ فيه شاذاً منحرفاً، مريضاً نفسياً وشعورياً وشهوانياً، مخالِفاً للفطرة، حالاً محلَّ المرأة.

والرجلُ الفاعلُ الذي يقضي شهوتَه عند الرجالِ الآخرين شاذٌ منحرفٌ مريض أيضاً، مخالِفٌ للفطرِ الإنسانية.

لقد غرسَ اللَّهُ في فطرتِه وشعورِه ونفسيتِه الشهوة، وجعلَ فيه التوجُّهَ للمرأة والشوقَ إليها، وهيأَها لاستقباله نفسياً وجسمياً، وعندما يعاشُرها ويجامعُها يلبي بذلك شهوتَه وأشواقَه، وحاجاته النفسية والشعورية والفطرية.

أما عندما يبحثُ عن رجلٍ آخر، ليمارسَ شذوذَه معه ويأتيه في دبره، فهذا هو الانحرافُ النفسي، والشذوذُ الفطري والجسمي، لأن اللَّهَ لم يجعل الدبرَ محلاً لقضاءِ الشهوة، والإنسانُ السويُّ المستقيمُ تأنفُ نفسه وتتقززُ من ذلك.

وينتج عنهما انحرافات اجتماعية شاملة:

هذا هو أساسُ المسألة، وسرُّ الانحراف في إتيانِ الرجال للرجال، ثم يتفرعُ عن ذلك مفاسدُ وأضرارٌ ونتائجُ أخرى خطيرةٌ مدمرة، لها أبعادٌ نفسيةٌ واجتماعيةٌ وإنسانية، وصحيةٌ وخلقية وسلوكية، ودينيةٌ ودنيوية وأخروية.

ماذا يحصلُ لمجتمعٍ يأتي الرجالُ فيه الرجال، ويكتفي فيه الرجالُ بالرجال؟ ماذا سيحصلُ للفاعلين الشاذّين المنحرفين؟ كيف ستكونُ نفوسُهم وأفكارهم؟ وما مدى خطورتِهم على أطفالِ وأولادِ المجتمع، حيث سيحرصون على إغوائِهم وممارسةِ شذوذهم معهم؟ وماذا سيكون مستقبلُ هؤلاءِ الأطفالِ بعد الانحرافِ والإغواء؟.

ماذا سيحصلُ للرجال المفعولِ فيهم؟ كيف سيكون مستقبلُهم ومصيرهم؟ ألا يتحولُ بعضُهم إلى كيانٍ محطم مدمَّر، جسمياً ونفسياً وشعورياً، يكونون مخنّثين يؤدّون وظائفَ النساء؟ وكيف سيكون أداؤُهم الاجتماعيُّ والوظيفي في المجتمع؟

ألا يتحولُ آخَرون منهم إلى وحوش ضارية، وذئابٍ مفترسة، لينتقموا ممن أغواهم واعتدى عليهم، وسيبحثونَ عن أطفالٍ آخَرين يفعلون فيهم نفسَ الدور؟ وبهذا يتحوَّلون إلى مدمِّرين مخرِّبين مفسدين.

وماذا سينتجُ عن هذه الفواحشِ والممارساتِ الشاذة المنحرفة من أضرارٍ وأمراضٍ وأوبئةٍ في طبقات المجتمع؟ ألا يعاقبُ اللّٰهُ طوابيرَ المنحرفين الشاذين بأمراضٍ تكلفُ المجتمعَ كثيراً لعلاجها، وأمراضٍ أُخرى لا علاجَ لها ولا شفاءَ منها، إلا بموتِ أصحابها؟

وما «الإيدز» عن شاذي هذا العصر ببعيد!:

وكلُّنا يعلمُ الوباءَ المعاصر الذي يصيب الشاذّين المنحرفين، والذي ظهرَ في نواديهم وحاناتهم، إنه «الإيدز» حصادُ الشذوذ، الذي يُودي كلَّ عام بحياةِ الآلاف في العالم، والذي لا علاجَ له ولا شفاءَ منه، رغمَ رصْدِ الميزانيات العالمية التي تقدَّرُ بالملايين لتطوير أبحاث العلاج منه. والذي يبدو أنه لا علاج له في المستقبلِ القريب على الأقل!

ولا علاجَ له إلاّ بالعفّةِ والطهارة، وتوجُّهِ الرجالِ للنساء، توجُّهاً شرعياً إسلامياً، عن طريق الزواجِ الشرعي فقط.

[٦]

لوط ينكر على قومه شذوذهم

كيف يأتون الرجال شهوة من دون النساء؟:

أنكرَ لوطٌ على قومِه شذوذَهم فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨١].

سبقوا غيرَهم في فاحشةِ اللواط، فلم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، ويَكفيهم هذا سوءاً وقبحاً وشذوذاً، أنْ يكونوا أولَ مَنْ شذّوا وأتوا الرجالَ في التاريخ، وبذلك كانوا قدوةً سيئةً لمن بعدهم.

وأنكرَ لوطٌ عليهم هذا السبقَ الشاذ، كما أنكرَ عليهم إتيانَ الرجالِ شهوةً من دون النساء، فكيف يكونُ الرجالُ موضعَ شهوة؟ وكيف يكتفونَ بهم عن النساء؟ وكيف يحلُّ المخنَّثون من رجالِهم محلَّ النساء؟

قال الإِمامُ الراغب عن معنى الشهوة: «أصْلُ الشهوة: نزوعُ النفسِ إلى ما تريدُه.

وذلك في الدنيا ضربان: صادقة وكاذبة.

فالصادقة: ما يختلُّ البدنُ من دونه، كشهوةِ الطعام عند الجوع.

والكاذبة: ما لا يختلُّ من دونه.

وقد يُسمّى المشتَهىٰ شهوة. وقد يقالُ للقوة التي تَشتهي الشيءَ شهوة..»[١].

إذا كانت الشهوةُ نزوعَ الإِنسان إلى ما يُريده، فكيف يريدُ هؤلاء الرجالُ الشاذون أمثالَهم من الرجال؟ وكيف تنزعُ نفوسُهم إلى ممارسةِ الشذوذِ مع أولئك؟ وكيف تشتهي نفوسُهم ذلك الفعلَ الشاذَّ معهم؟.

وبعدما أنكرَ عليهم لوط عليه السلام ذلك الشذوذ، حكمَ عليهم

---

(١) المفردات: ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

بالإِسراف، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

كانوا مسرفين عادين جاهلين:

إنهم مسرفون في الاستمتاع بالشهوة، مُبالغونَ فيها، متجاوزونَ الفطرةَ إلى الشذوذ، والمباحَ إلى الحرام.

هناك وسيلتان في ممارسةِ الشهوة:

الوسيلةُ المقتصدة: التي تقومُ على توجُّهِ الرجل إلى المرأة، ليتزوجَها ثم يمارسَ الشهوة معها، وهذا هو التوسطُ والاعتدالُ والاتزان، وتلبيةُ نداءِ الفطرة.

والوسيلةُ المسرفة: التي تقوم على توجُّهِ الرجلِ إلى رجلٍ من جنسه، ليُمَارِسَ الشهوةَ معه، وهذا هو الإِسرافُ وتجاوزُ الحد، والخروجُ عن الاعتدال والتوسط والاتزان، إلى الانحرافِ والشذوذ والعدوان.

وبعدَ أنْ حكمَ عليهم لوطٌ عليه السلام بالإسراف، حكمَ عليهم بالتعدي والتجاوز، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦].

هم عادُون معتدونَ متجاوِزون للفطرة، مختارون للحرام على الحلال. مفضِّلون للشذوذِ على الاستقامة. لأنهم آثروا الرجالَ الذكرانَ على النساء، حيث تركوا ما خلقَ لهم ربّهم من أزواجِهم من النساء، وجعلَ في فِطَرِهم الرغبةَ في أزواجِهم النساء، لكنهم طَمسوا رغبة الفطرة، ونزعوا لِداعي الشذوذِ والانحراف. وهذا هو العدوانُ بنفسه.

وعبرَ عن الرجال في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ وقال: ﴿الذُّكْرَانَ﴾ ولم يقل: الذكور. وذلك للمبالغةِ في ذمهم والإنكارِ عليهم، ولتأكيدِ عدوانهم وتجاوزِهم للفطرة.

إن الألفَ والنونَ في ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ للمبالغة، للإشارة إلى المبالغةِ في الذكورية، فهؤلاء الذين يأتونَهم من دون النساء، ليسوا إناثاً ولا نساءً، وليسوا موضعاً لقضاءِ الشهوة، إنهم «ذُكْران» كامِلوا الذكورية، متمكّنون منها، ممتلئون بها، فكيف يُحَوِّلون هؤلاء الذكرانَ إلى نسوان؟؟

ومعلومٌ أن الألفَ والنون في الكلمة تدلُّ على الامتلاء والمبالغة: فالإِنسانُ هو الممتلئ إنسانية، والشبعانُ هو الممتلئ طعاماً، والغضبانُ هو الممتلئ غضباً، والعطشانُ هو الممتلئ عطشاً وحاجة للماء، والذكرانُ هم الممتلئون رجولةً وذكورية، فكيف يأتونَهم شهوة من دون النساء؟ هذا هو العدوان!

وبعدَ وصفهم بالعدوان، وصَفَهم بوصفٍ ثالث، وذلك في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

إنهم قوم يجهلون. يجهلونَ طريقَ تصريفِ الشهوة، يجهلونَ وسيلةَ الاستمتاع الفطري الإنساني، يَجهلون كيفية الرغبة، والنزوعَ إلى اللذة، يجهلون التصرفَ الإنسانيَّ السويَّ السليمَ المستقيم.

إنَّ الطريقَ الصحيحَ هو التوجُّهُ إلى النساء، لكنهم عَدلوا عنهنّ وتركوهن، وعَدلوا إلى الرجال، ومالوا إلى أمثالِهم من الذكور. وهذا هو الجهلُ الذي انطبقَ عليهم.

والجهلُ الذي وُصفوا به في ممارساتهم الشاذة، قد لا يلزمُ منه الجهلُ بمعنى عدمِ العلم والمعرفة، فهم قد يعرفونَ أن المرأةَ هي طريقُ تصريفِ الشهوة، ويعلمون أن الرجلَ لم يخْلقه اللّهُ ولم يعدّه لهذا. ومع هذا العلم والمعرفة، تركوا النساءَ ومالوا للرجال.

هذا الجهلُ الصادرُ منهم هو جهلُ خِفَّةٍ وطيش. جهلٌ في الممارسةِ والسلوك، وجهلٌ في التصرف يقودُ إلى الشذوذ والانحراف، جهلٌ في سوء الاختيار.

بعضُ الناسِ قد يعرفونَ أن هذا الفعلَ حرام، ومع ذلك يفعلونَه، مع علمهم بحُكْمه، وعند ذلك يوصَفون بالجاهلين، وجهلُهم هنا ليسَ بعدمِ العلم، ولكنه جهلُ خفةٍ وطيش.

ومن هذا البابِ وَصفَ لوطٌ قومَه الشاذين بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

لقد أنكرَ لوطٌ عليه السلام على قومه شذوذَهم بأنْ وصفَهم بصفاتٍ ثلاث مجتمعة: إنهم قومٌ مسرفون، وقوم عادون، وقومٌ يجهلون.

[٧]
بماذا ردوا على لوط عليه السلام؟

كذبوا لوطاً وطلبوا العذاب وهددوه بالإخراج:

بماذا ردَّ القومُ الشاذون على لوط؟ وماذا قالوا له؟

ردّوا عليه أَوَّلاً بتكذيبهِ في دعوته، والإصرارِ على شذوذهم وانحرافهم، وطلبوا إيقاع العذاب بهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩ ـ ٣٠].

أي: إن كنتَ يا لوطُ صادقاً في كلامك، وكنتَ جادّاً في نهْيِنا عن أفعالنا، فإننا لنْ نستجيبَ لك، ولن نُقلعَ عن أفعالنا، وما عليك إلاَّ أنْ تأتينا بعذابِ الله الذي تهددُنا به، وتطلب من ربك أنْ يدمِّرَنا ويقضيَ علينا.

وهم قالوا له ذلك سخريةً واستهزاءً به وبدعوته، واستخفافاً به، ورفضاً لدعوته، ولهذا طلبَ لوطٌ من ربه أنْ ينصرَه عليهم باعتبارِهم قوماً مفسدين.

ثم ردوا عليه بعد ذلك رداً في غايةِ العجب والاستغراب، وذلك فيما وردَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

وما وردَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧].

لقد هددوا لوطاً عليه السلام بإخراجه هو وآلِه وأهلِه الصالحين وأَتباعِه المؤمنين من قريتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾.

أي: إن لم تتوقَّفْ يا لوطُ عن كلامك فسنعاقبُك، وإنْ أصررتَ على الاستمرار في لومِنا وتقريعنا فسنخرجُك من بيننا.

واستمرَّ لوطٌ في دعوته، ومضى في الإِنكارِ عليهم، ولم يأْبَه لتهديدهم ووعيدِهم، فما كان من الملأ من قومِه إلاّ أنْ أَصدروا أَوامرهم لأَتباعهم فقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾.

أَخرِجوا لوطاً وآلَه المؤمنين من قريتكم، فهذه القريةُ قريتُكم أنتم وليستْ قريتَهم هم. إنها قريتُكم تتصرفون فيها كما شئتم، وتُحقِّقون فيها رغباتكم، وتفعلونَ فيها ما يحلو لكم، ومَن هو الذي يشارككُم فيها؟ أَمّا لوطٌ وأتباعُه فلا حقَّ لهم في قريتكم، إنهم غرباءُ عنكم، ولا بدَّ أنْ يَخرجوا من بينكم.

هل الطهارة والعفة جريمة يعاقب صاحبها؟:

حكْمُ الملأ هو إخراجُ لوطِ وآلِه، أما تعليلُهم للحكمِ فهو الغريبُ العجيب: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾!.

لوطٌ عفيفٌ طاهر، يترفعُ عن الشذوذ، ويرفضُ الانحراف، ويأبى أنْ يقومَ بالممارسات الشاذة، ويتطهرُ عن الدنس، وأتباعُه المؤمنون يقتدونَ به في هذه الفضائل، فهم يتطهَّرون مثلَه.

لقد اختاروا لأنفسهم طريقاً غيرَ طريقكم، وسلوكاً غير سلوككم، فبينما تفعلونَ أنتم في قريتكم ما تشاؤون، وتأتونَ الرجالَ شهوةً من دون النساء، فقد اعتَبَروا هم هذا السلوكَ منكم شذوذاً وإسرافاً، وعدواناً وجهلاً.

لقد فضَّلَ لوط وأتباعُه المؤمنون البقاءَ مع الطهارة والعفة، وتطهَّروا عن أفعالِكم وممارساتكم، ولذلك لا يجوزُ أنْ يَبقوا بينكم، حتى لا يؤثِّروا فيكم في طهارتهم، وحتى لا يُعديكُم تطهُّرُهم، وحتى لا يستجيبَ لهم بعضُ أفرادكم، فيتطهَّروا مثلَهم؟ لذلك سارِعوا بإخراجهم من قريتكم، لهذه الجريمة، جريمةِ العفةِ والتطهر، قبلَ أنْ ينشروا طهارتَهم بينكم!!

لقد أصبحَ التطهُّرُ عند هؤلاء القوم الشاذين جريمة، يستحقُّ صاحبُها العقابَ والطردَ والإِخراج، بدلَ التكريم والتشجيع والاستحسان.

وما زال الموقفُ هو هو، عند كلِّ قومٍ مجرمين أو شاذِّين منحرفين، ونرى في المجتمعاتِ الشاذة المعاصِرة، نماذجَ صارخة، يعاقَبُ فيها صالحون، لأنهم أناسٌ يتطهَّرون، فيُعْتَبرون خارجين على الأوضاعِ والأعرافِ والعادات الاجتماعية، وهي شاذةٌ منكرة، لكنَّ الشاذين لا يطيقون وجودَ المتطهِّرين بينهم!!.

[٨]

الملائكة عند إبراهيم ولوط عليهما السلام

المحطة الأخيرة في قصة لوط مع قومه:

وصلتْ قصةُ لوطٍ عليه السلام مع قومِه إلى نهايتِها، حيث طلبوا منه أنْ يأتيهم بعذابِ الله إنْ كان من الصادقين، وأصدروا أمرهم بإخراجِ لوطٍ وأتباعِه من قريتهم، لأنهم أناسٌ يتطهَّرون. فماذا بقي بعد ذلك؟

استنصرَ لوطٌ عليه السلام ربَّه، وطلبَ منه أنْ ينصرَه على القوم

المفسدين: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠﴾.

وصارحَ لوطٌ قومَه بأنه من القالِين لهم ولشذوذِهم: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٩﴾.

و «القالُون» جمعُ مذكر سالم، مفرده: قال، من القِلىٰ، وهو البغضُ والهجر، يقال: قَلى فلانٌ الآخرَ قِلى، فهو له قالٍ، أي: أبغضَه فهو له مُبغض.

وبعد وصولِ قصةِ لوطٍ عليه السلام مع قومِه إلى هذه النهاية، بقيَ أنْ تتحققَ سنةُ الله، في إيقاعِ العذابِ والهلاك بالكافرين، ونجاةِ لوطٍ ومَنْ معه من المؤمنين.

إنزال الملائكة لتدميرهم ومرورهم على إبراهيم:

أمرَ اللَّهُ الملائكةَ أنْ تتوجَّه إلى قرى قومِ لوط لتدمرهم، وعليهم أنْ يمرّوا بإبراهيمَ عليه السلام قبلَ ذهابهم إلى لوط عليه السلام، ليبشِّروه بشارتَين: البشارةَ بابنه إسحاق، والبشارةَ بتدميرِ قوم لوط.

وقد أخبرتْ آياتٌ من القرآن بما حصلَ للملائكة عند إبراهيم، وما حصلَ لهم عند لوطٍ عليهما السلام.

فقد أَتوهما في صورةِ أفرادِ رجالٍ من البشر، ولم يعرفْ إبراهيمُ أنهم ملائكة، وقدمَ لهم العجلَ المشوي، ولما نَكِرهم وخافَ منهم لعدم أكلهم، أخبروه بتوجُّههم لتدميرِ قرى قومِ لوط، وأخبروه هو وزوجُه سارة بما قَدَّرَه اللَّهُ لهما من الولد، وبشَّروهما بإسحاق نبياً من الصالحين، ثم توجَّهوا إلى لوط، والتقوا به في صورة رجالٍ حِسان، وهو لا يعرفُ أنهم ملائكة، فتدافعَ قومُهُ إليه، ليخطفوا منه ضيوفه، ليفجُروا بهم، ووقفَ لوطٌ أمامَهم وحيداً، يدافعُ عن ضيوفه، ويستثيرُ رشدَهم أو عقلَهم، ويوجِّههم إلى المنفذِ الفطري للشهوة، عن طريقِ النساء والزواج، فلم يستجيبوا له، وأمامَ محاولاتهم الدخولَ إليه عنوة، لخطفِ الضيوف، كشفَ الضيوفُ عن هويتهم الحقيقية، وأخبروه أنهم

ملائكة، لن يَصلوا إليهم، وأن العذابَ قادمٌ إليهم عند الصبح. . . .

حديث القرآن عن ذلك:

ونوردُ فيما يلي الآيات التي تحدثتْ عن قدومِ الملائكة إلى إبراهيم ثم إلى لوط، عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٦٩ ـ ٨١].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾

قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٧٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٤].

ولن نتكلمَ عن قصةِ هؤلاء الملائكة مع إبراهيمَ عليه السلامِ، وعن تبشيرِهم له بإسحاق، وعن الحوار الذي جرى بينهم وبينه، وبينَهم وبين زوجِه سارة، لأننا وقفْنا أمامَ ذلك أثناءَ حديثنا عن قصةِ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام.

إنما نتكلمُ عن حوارِ إبراهيمَ معهم بشأنِ لوطٍ وقومه، ثم نتابعُهم في رحلتهم إلى لوطٍ عليه السلام!

لماذا جادل إبراهيم في قوم لوط؟:

لما علم إبراهيمُ عليه السلام أنَّ هؤلاء الملائكةَ متوجهون إلى قوم لوطٍ لإهلاكهم جادَلهم بشأنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

وجدالُه مع الملائكةِ بشأنِ قومِ لوط ليس محبةً منه لأولئك القوم،

ولا دفاعاً عنهم، لأنه يكرهُ ما هم عليه من شذوذٍ وانحراف، وهو نبيٌّ رسولٌ، حبُّه وبغضُه لله.

ولكنه كان يجادلُ فيهم من بابِ حلمه وشفقته ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾. كان يريدُ إعطاءهم فرصةَ أخرى، ووقتاً آخر، لعلَّهم يتخلَّون عن شذوذهم، ويتَّبعون لوطاً عليه السلام.

لكن الملائكةَ أخبروا إبراهيمَ عليه السلام بأنه لا فائدةَ ولا جدوى من طلبِ مهلةٍ أُخرى لهم، وعليه أن يتوقفَ عن ذلك، وأنْ يُعرضَ عنه، فقد جاءهم أمْرُ الله وعذابه، وقد وجَّه اللّهُ الملائكةَ لتدميرِ قراهم وإهلاكهم، وبما أن اللّهَ أمر الملائكةَ ووجَّههم إلى قُراهم، فلا عودةَ عن ذلك، لأنه لا رادَّ لقضاءِ الله، فعذابُ الله آتيهم، لا يردُّه عنهم أحد، ولا توقِفُه شفاعةُ شفيع!

فلما علمَ إبراهيمُ بتحقيقِ وقوع الدمارِ والهلاكِ فيهم، خشيَ على لوط عليه السلام، فذكَّرَ الملائكةَ به: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢].

أَخبروه بأنهم أَعلمُ بمن في تلك القرى، وأنهم أَحسنوا فرْزَ المؤمنين ومعرفتَهم، وإن اللّهَ أخبرَهم بذلك، وأَمرهم أن يُنجوا لوطاً ومَن معه من المؤمنين، ولذلكَ عليه أنْ يطمئنَّ على نجاةِ لوط وأتباعه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٧ ـ ٦٠].

لوط لم يعرف الملائكة مثل إبراهيم:

وتوجَّهَ الملائكةُ من عند إبراهيم، قاصدين لوطاً، وهم على الصورة البشرية الجميلة، التي تَحوَّلوا إليها، مبالغةً في فتنةِ قوم لوط، وإقامةِ الحجةِ عليهم.

وكما أن إبراهيمَ عليه السلام لم يعرفْهم لما قدموا عليه، وظنَّهم

ضيوفاً بَشَراً حقيقيين، فإن لوطاً أيضاً لم يعرفْ أنهم ملائكةٌ في صورة بشر، وظنهم ضيوفاً بشراً عليه.

نظرَ إليهم فرآهم رجالاً حِساناً، على صُوَرٍ جميلة، وتذكَّرَ ما عليه قومُه من انحرافٍ وشذوذ، وخشيَ على ضيوفِهِ من قومه، ولذلك تضايقَ جداً من هذه الضيافة غيرِ المناسبة.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧].

أصابهُ السوءُ والهم ممّا ينتج عن استقباله لهؤلاء الضيوف، وعلم ما ينتظرهم من أَذى علىٰ أيدي قومِه الشاذين، ولذلك ضاقَ بهم ذرعاً، ولم يعرفْ ماذا سيفعلُ لهم، إنه واحد، وقومُه كثيرو العدد، فهل يقدرُ على الدفاعِ عن ضيوفه؟ إنه يومٌ عصيب فعلاً!

ولقد صارحَ لوطٌ عليه السلام ضيوفَه بذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: ٦١ ـ ٦٤].

هم قوم مُنْكَرون عنده لأنهم غرباء، ولا يعرفُ هويتَهم، ولا مهمتَهم، فلذلك نكرهم، واستاءَ من قدومهم، لأن قومَه لهم بالمرصاد.

[٩]
لوط يدافع عن ضيوفه أمام قومه

قومه يطلبون ضيوفه وهو يدفعهم:

حصلَ ما كان يحذرُ منه لوطٌ عليه السلام، فلما عرف قومُه الشاذون بوجودِ رجالٍ حِسانٍ في بيته، تحركتْ في نفوسهم شهواتُهم الشاذة، وتوجهوا إلى لوطٍ عليه السلام، مراوِدينَ له عن ضيوفه، راغبين في أَخْذِهم ولو بالقوة، ليفجُروا بهم.

ووقفَ لوطٌ أمامَ قومِه بقوة، ودافعَ عن ضيوفه دفاعاً مَجيداً، وقامَ بواجبه خيرَ قيام، إلى أنْ كشفَ ضيوفُه عن هويتهم، وأَخبروه أنهم ملائكة، قادمون بعذابِ الله، وأنَّ العذابَ واقعٌ بهم عند الصبح، وما عليه إلا أنْ يرحلَ بأهلِه المؤمنين ليلاً.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هذا المشهدَ المثير.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ٧٨].

وكلمة ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ تُصوِّرُ الرغبةَ الشاذةَ المحمومة، التي حركتْهم ودفعتْهم للمجيء، لما علموا بوجودِ رجالٍ حسان عند لوط.

قال الإمامُ الراغب في الهَرْع: «يقال: هَرَع وأَهْرَع: ساقَه سَوْقاً بعنفٍ وتخويف، والهَرِع: السّريعُ المشيِ والبكاء»[1].

ويلاحَظُ أنْ فعلَ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ في الآية مسندٌ لغيرِ الفاعل ـ أي: مبنيٌّ للمجهول، ولهذا لفتة لطيفة. فالقومُ الشاذّون أتوا إلى بيتِ لوطٍ مسرعين، ولكن كان يحركهم شيءٌ آخر، ويسوقُهم سوقاً بعنف، فما هو هذا الشيء؟

إِنه الانحرافُ والشذوذ، الذي يَعميهم عن رؤيةِ الحقائق، فما أنْ شاهَدوا الرجالَ الحسانَ حتى أُصيبوا بحمّى وهستيريا الشذوذ، وتوجَّهوا إليهم ليمارسوا الشذوذَ معهم!

لقد استبشَروا وسُرّوا وفرحوا بما شاهَدوا: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: ٦٧].

طلبوا من لوطٍ عليه السلام أنْ يُسْلمهم ضيوفَه ليفجُروا بهم، وراودوه على ذلك: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾ [القمر: ٣٦ ـ ٣٧].

والمراوَدة من الإِرادة.

---

(١) المفردات: ٨٤٠.

قال الراغب: «الإِرادةُ في الأصل؛ قوةٌ مركبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأمل. وجُعلَ اسماً لنزوعِ النفس إلى الشيء، مع الحكمِ فيه بأنه ينبغي أنْ يُفعل، أو لا يُفعل..».

«والمراودة: أنْ تنازعَ غيرَك في الإِرادة، فتريدُ غيرَ ما يُريد، أو تَرودُ غير ما يَرود، وراودْتُ فلاناً عن كذا...»[1].

والمراودةُ في القرآن ذُكرتْ في مراودةِ امرأةِ العزيز ونسوةِ المدينة ليوسف عليه السلام، حيث راودْنَه عن نفسه، ونازَعْنَه في إرادته، إذ أنَّ امرأةَ العزيز تريدُ منه ارتكابَ الفاحشةِ معها، وهو يُريدُ أنْ يتعففَ ويتطهرَ ويستعصم، وكانت نتيجةُ هذه المراودة هزيمةَ امرأةِ العزيز ونسوةِ المدينة في مراودتهن له، وتحطيمَ إرادتهن أمامَ إرادته، وانتصارَ يوسف في إرادته.

وذُكرت المراودةُ هنا في موقفِ قومِ لوط، فقد أرادَ لوطٌ عليه السلام الدفاعَ عن ضيوفه، وأرادَ قومُه أخذَ ضيوفه، وتنازعت الإِرادتان، فكانت المراودة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾.

وكانت النتيجةُ هزيمةَ القومِ الشاذين في إرادتهم الشاذة، وانتصار لوطٍ عليه السلام في إرادته العاليةِ الكريمة.

لما طلبَ قومُه منه تسليمَ الرجال الحسان عنده قالَ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر: ٦٧ ـ ٧١].

ونستخرجُ من هذه الآيات ما جرى بين لوطٍ عليه السلام وبين قومِه المجرمين في هذا المشهد.

---

(١) المفردات: ٣٧١.

ليس في قومه رجل رشيد:

طلب قومُه منه أنْ يُسلمهم ضيوفَه، فأبى أنْ يفعلَ ذلك، ودافعَ عن الضيوف، وهذا موقفٌ كريم منه، يُذكِّرُنا بوجوبِ إكرام الضيف، ودفع الأذى عنه، وبذلِ أقصى الجهدِ والطاقة في ذلك، والاقتداءِ في ذلك بنبيِّ الله لوط عليه السلام.

بعد ذلك استجاشَ لوطٌ في قومِه تقوى الله، ولمسَ قلوبهم لمسةً خفيفة، فقال لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾.

إنه يعلمُ أنّ شذوذَ قومه يَعمي قلوبَهم عن الحق، ولكنه أرادَ أنْ يقيمَ عليهم الحجة، فذكَّرهم بتقوى الله، وهو يعلمُ أنهم لن يَستجيبوا له.

والتفت لوطٌ التفاتةً نفسيةً اجتماعية، فذكَّرهم أن هؤلاء الرجالَ الذين يطلبونهم هم ضيوفُه، والمضيفُ يجبُ عليه أن يكرمَ ضيفَه، وأنْ يدافعَ عنه، وجيرانُ وأقاربُ المضيفِ يجبُ أنْ يساعدوه في هذا الواجب، وأنْ يكونوا عوناً له، وأن لا يكونوا هم المنتهكين لهذه الحرمة، المعطِّلين لهذا الواجب.

إنَّ لوطاً عليه السلام يخاطبهم بمنطقِ المروءة إنْ كانت عندهم بقايا مروءة، ويثيرُ فيهم معاني الحياءِ والتجمُّل، إنْ بقيَ عندهم شيءٌ من ذلك: فالمروءةُ تقتضي أن لا يصلَ بهم الأمرُ إلى الاعتداءِ على ضيوفِ أحد سكان القريةِ عنوة، أين المروءةُ والتعقلُ والرشد؟ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

إنهُ يبحثُ من بين قومه الكثيري العدد، عن رجلٍ رشيدٍ واحد، رجلٍ يستخدمُ عقلَه ورشدَه، فيساعدُه في الوقوفِ أمام الجنون الشهواني المسعورِ الذي يقودُ قومَه، ويدعوهم إلى الالتفاتِ إلى السلوكِ الفطريِّ السليم في التوجُّه نحو النساء!

يبحثُ من بينهم عن رجلٍ واحد رشيد، يخاطبهم بمنطقِ المروءة

والحياء والتجمل، والأدبِ الاجتماعي، لينصرفوا عن بابِ منزلِ لوط عليه السلام.

ولكنه لم يجدْ بغيتَه من بينهم، لم يجدْ فيهم رجلاً واحداً عاقلاً رشيداً. لقد قضى شذوذُهم وبحثُهم عن الذكران من العالمين على ما عندَهم من فطرة، ورشد، وعقل، ومنطق، ومروءة، وتجمُّل؛ ولذلك لم يجدْ لوطاً من بينهم رجلاً واحداً رشيداً!!!

ثم سلكَ لوطٌ عليه السلام اتجاهاً آخر، في محاولاتِه كبحَ جماحهم والدفاعَ عن ضيوفه، فقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾.

لوط يرشدهم إلى بنات القرية:

ما معنى قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾؟ ومَنْ هُنَّ البناتُ اللواتي دعاهم إليهن؟ وكيفَ دعاهم إليهن؟

لا نريدُ أنْ نذهبَ إلى الإسرائيلياتِ والأساطيرِ للإجابة على هذه الأسئلة، ولا أنْ نوردَ الأقوالَ الخلافية التي سجلَها بعضُ المؤرخين والمفسرين والإخباريين المسلمين حولَ ذلك.. إنما نقدمُ ما نراه صواباً، ومتفقاً مع فهمِ النصِّ القرآني؛ وشخصيةِ نبيِّ الله لوط عليه السلام.

قال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾. وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

إنه يصفُ البناتِ بأنهنَّ أطهرُ لهم، ويَدعوهم للذهابِ إليهن إنْ كانوا فاعلين وراغبين في ممارسة الشهوة.

ولا داعي لأنْ نفهمَ من الإضافة: ﴿بَنَاتِىٓ﴾ أَنها إضافةٌ حقيقية، وأَنه يريدُ بناته الحقيقيات، اللواتي من صُلبه.

إنَّ قوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ هو القرينةُ الصارفةُ للبنات عن المعنى الحقيقي، إلى معنى آخر.

الراجحُ أنَّ لوطاً عليه السلام أرادَ بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ بنات القرية، باعتبارهن الجنسَ الآخرَ فيها. أي: دعاهم إلى التفكيرِ الفطريِّ السليمِ في تصريفِ الشهوة، بأنْ يتجهَ كلٌّ منهم إلى الجنس الآخر، إلى البنت الأنثى، التي فطرَ اللّهُ الرجلَ السويَّ المستقيمَ على التفكيرِ فيها، والتوجهِ إليها.

لقد دَعاهم إلى الإقلاعِ عن التفكير الشاذ، وطلبِ قضاء الشهوة عند الرجال، باعتبارهم من نفس الجنس، لأنَّ هذا انحرافٌ وشذوذ، طالما نَهاهم عنه وحذَّرهم منه!

واعتبرَ بناتِ القرية ونساءَها بناتٍ له: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ لأنه نبيُّ القرية ورسولُها، وهو شيخُ أهلِها وكبيرُهم وصالحُهم وإمامهم، فكأنه أبوهم أبوةً معنوية، وكأنَّ ذكورَها أولادٌ له بالمعنى المعنوي، وكأنَّ بناتِ القرية ونساءَها بناتٌ له بالمعنى المعنويِّ نفسه.

قد يخاطبُ الشيخُ الطاعنُ في السن طلابه بقوله: يا أبنائي، وقد يقولُ له طلابه من الذكور والإناث: نحنُ أبناؤك وبناتك!!

ولعلَّ هذا ما تصوره لوطٌ عليه السلام بقوله لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

ولو أرادَ بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ المعنى الحقيقي الذي ينصرفُ إلى بناتِه من صلبه، فكم بنتاً له؟ وهل عددُهنَّ القليل يكفي لعددِ رجالِ القرية الكثير؟؟.

وقوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يوحي بأنّه دعاهم إلى التوجُّه الفطريِ النفسيِّ السوي، الذي يحققُ الطهارة، حيث يفكرُ الرجل بزوجِه وامرأتِه، ويقضي شهوتَه عندها، وهذا أطهرُ له من ذلك السلوكِ الشاذ، بممارسةِ الشهوةِ عند رجلٍ من جنسه.

إن الشذوذَ الذي كان يمارسُه القومُ ما هو إلا رجسٌ ودنس، وقذارةٌ ودناءة، تتقززُ منه نفسيةُ الرجلِ السوي، وتتقذرُ منه شخصيةُ

الإِنسانِ المستقيم، فلا تفكرُ فيه، ولا تتجه له.

معاشرة الرجل لامرأته هي الطهارة المطلقة:

أما التوجهُ للمرأة فهو الطهارة، الطهارةُ النفسية، والطهارةُ الشعورية، والطهارةُ الفطرية، والطهارةُ الجسمية، والطهارةُ الصحية، والطهارةُ الأخلاقية، والطهارةُ الإِيمانية، والطهارةُ الاجتماعيةُ الحضارية.

ومعلومٌ أن هذه الطهارةَ العامةَ الشاملة، لا تنطبقُ على أيِّ توجُّهٍ للنساء، ولا على أيِّ اتصالٍ بالنساء، وإنما هي مقصورةٌ على التوجهِ الوحيدِ المباح، والاتصالِ الوحيدِ الحلال، وهو المحصورُ بالزواج الشرعي، الذي أباحه شرعُ الله.

أما الاتصالُ المحرمُ بالنساء، المتحققُ عن طريق الزنا، فلا تتحققُ فيه معاني الطهارة في قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، فهو قريب من القذارةِ والدناءة، المتمثلةِ في التوجهِ الشاذِّ نحو نفسِ الجنس!!

دافعَ لوطٌ عليه السلام عن ضيوفه، ودعا قومَه إلى الكفِّ عن شذوذهم، بتذكيرِهم بتقوى الله أوّلاً، والمروءةِ الاجتماعية ثانياً، والتوجّهِ الفطري السليم نحو النساء ثالثاً، وقصْرِالممارسةِ الشهوانية معهن على طريقِ الزواج الشرعي رابعاً.

فماذا كان جوابُ قومه؟ هل أثَّرتْ فيهم دعوتُه؟ وهل أَوقفت سُعارهم الشاذَّ المحموم؟

فقدوا رغبتهم في النساء لشذوذهم:

كلا.. ما زالَ أُوارُ سُعارِهم مشتعلاً في نفوسهم، وما زالَ شذوذُهم يسوقُهم للفاحشة، ويعميهم عن اليقظةِ والتعقلِ والرشد، لذلك ردّوا عليه قائلين: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. وقالوا أيضاً: ﴿قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الحجر: ٧٠].

لقد ذكَّروه بنهيهم السابقِ له: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. لقد نهيْناكَ من قبلُ عن العالمين، نهيناكَ عن استقبالِ واستضافةِ أناسٍ غرباء عن القرية، وعن الاتصالِ بهم، وترك هذا لنا. فلماذا استضفتَ هؤلاء الرجالَ عندك؟ وخالفتَ نهينا لَك؟ لا بدَّ أن تسلمهم لنا؟

وصارَحوه بشذوذهم بوقاحةٍ مرذولة: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ لقد وجهتَنا أنتَ إلى بناتِ القرية ونسائِها للاتصال الشرعي بهم، وأنتَ تعلمُ أنه ليس لنا فيهن من حقّ، وأننا قد فقدْنا الرغبةَ إليهن، والتفكيرَ في الاتصالِ بهن، فلم يعدْ لنا عندهن أيُّ حقٍّ أو إرْبَةٍ أو حاجة!

وأنتَ تعلمُ رغبتَنا، التي حصَرْناها في طلب أمثالِنا من الرجال، وحِرْصِنا على الاتصالِ الشهواني بهم، وأنت عندك ضيوفٌ رجالٌ حسان، فرغبتُنا فيهم، وحاجتُنا عندهم! فلا بدَّ أن تُسلمهم لنا!

وأصرَّ لوطٌ عليه السلام على الدفاعِ عن ضيوفه، وأصرَّ قومُه على أخذِهم منه.

وأمامَ دفاعِه وثباته، أرادوا اقتحامَ بيته، وإخراجَ ضيوفه بالقوة، فصاحَ فيهم قائلاً: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠].

تمنى لوط لو كان يأوي إلى ركن بشري قوي:

إنَّ لوطاً عليه السلام وحيدٌ بينهم، ليس واحداً منهم، وليسَ له في القرية أقاربٌ أو أهلٌ أو عشيرة أو أنصار، ليس معه أفرادٌ من البشر يَقفون معه، وينَصرونه، ولذلك تمنّى لو كان له بهم قوةٌ من البشر، تواجِهُهم وتحاربُهم، وتمنعُهم وتدفعهم.

وتمنّى لو كانَ يأوي إلى ﴿رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾، وقصْدُه بالركنِ الشديد: القوة المادية البشرية، التي يركنُ إليها ويَستنصرُ بها، يأوي إليها ويحتمي بها.

لقد أرادَ لوطٌ عليه السلام قوةً ماديةً إيمانية، تقفُ أمامَ قوتهم الماديةِ الجاهلية، وأرادَ أن يأويَ إلى ركنٍ ماديٍّ بشري، في مقابلِ ركنِهم الماديِّ البشري.

ولم ينسَ لوطٌ عليه السلام قوةَ الله، ولم ينسَ أنه كان يأوي إلى ركنِ الله القويِّ الشديدِ المتين، فهو نبي ورسول، لا يَغيبُ عنه هذا المعنى.

وعلى هذا الأساسِ نفهمُ ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشك من إبراهيم، ويرحمُ اللَّهُ لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثْتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ لأَجَبْتُ الداعي»[1].

إن الرسولَ ﷺ لا يُدينُ لوطاً عليه السلام في هذا الحديث، وكلامُه لا يدلُّ على أن لوطاً نسي أنه كان يأوي إلى ركنِ الله الشديد.

إنما أرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يخبرَنا أنَّ لوطاً كان يعلمُ أنه يأوي إلى ركن الله، لأن اللَّهَ أرسله، وأنَّ قولَه لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لا يعني نسيانَه إيواءَه إلى ركن الله.

إنَّ يقينَ لوطٍ أنه كان يأوي إلى ركنِ الله، أمرٌ مفروغٌ منه، وكلامُ لوط لقومه بَحْثٌ عن قوةٍ بشرية، ومنعةٍ مادية، وركنٍ واقعي من عالمِ الواقع البشري ـ كما سبق أن قلنا ـ.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أن كلَّ نبي بعدَ لوط كان في منعةٍ من قومه. فروى الترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «رحمَ الله لوطاً، كان يأوي إلى ركنٍ شديد، وما بعثَ اللَّهُ بعدَه نبياً، إلا وهو في ثروة من قومه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٢. ومسلم برقم: ١٥١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٤٠.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٣١١٦. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٣٩.

[١٠]

إن موعدهم الصبح

حدثَ المشهدُ السابقُ بلقطاتِه العديدة، ومناظرِه المثيرة، بين لوطٍ وبين قومه ـ على مرأى ومسمعٍ من ضيوفِه.

كلُّ هذا والضيوفُ ساكتون، مع أن المعركةَ بشأنهم، ولكنهم كانوا آمِنين مطمئنين.

لوطٌ لم يعرف هويتَهم، وقومُه الشاذون لا يعلمون مَن هم.

ولما وصلت المعركةُ بين لوطٍ وبين قومه إلى هذا المشهد، الذي ما بقيَ بعده ما يدعو للسكوتِ أو التفرجِ والانتظار.

عند ذلك كَشفوا للوط الحقيقة، وعَرَّفوه على أنفسهم ومهمتِهم، وطَمأنوه قائلين: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾!

الملائكة يعرفون لوطاً عليهم ويرشدونه إلى الخروج:

أخبروه أَنهم ملائكة، متحوِّلون في صورةِ بشر، أرسلَهم اللَّهُ على هذه الصورةِ لإِقامةِ الحجة على قومِ لوط، والإِشهادِ على جرائمهم، ثم إيقاع العذابِ والدمار بهم.

وطَمأنوه عليهم، فقومُه عاجزون عن الدخولِ إلى بيته، وعن الوصولِ إليه، وعن أَخذِ ضيوفه.

ويبدو أنَّ الحكمةَ في تأخُرِ الملائكة في التعريفِ على أنفسهم، هي إقامةُ الحجة على القومِ الشاذين، والإِشهادُ عَليهم، ليكونَ هؤلاء الملائكة شهوداً عليهم، عندما عَلموا برغبتهم الشاذة، ومحاولاتِهم الآثمة.

كما أنَّ الحكمةَ هي تسجيلُ ذلك الموقف الكريم للوطٍ عليه السلام، في وعْظِه لقومه، ودفاعِه عن ضيوفه، وردِّ الأذى عنهم، ليكون قدوةً للمؤمنين من بعده، في ذلك الموقفِ الإِيمانيِّ الفريد.

وبعدما أطلعَ الملائكةُ لوطاً على هويتهم، أخْبَروه بمهمتهم: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: ٦٣ ـ ٦٤].

جئناك بما طلبوه منك من العذاب، عندما قالوا لك: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فها هو العذاب قادم إليهم.

وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣ ـ ٣٤].

وأَرشدوهُ إلى طريقةِ الخلاصِ والنجاةِ من الدمار والعذاب القادم إليهم، وقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿فَأَسْرِ﴾: فعْلُ أمْرٍ من السُّرى.

قال الراغب: «السُّرى: سيرُ الليل. يقال: سَرى وأَسرى. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١] وقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]»[١].

و«قِطْعُ الليل»: الجزءُ والقطعةُ منه.

فمعنى قولهم له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: انتظرْ حتى يأتيَ الليل، ويحلَّ الظلام، وعند ذلك خذْ أهلك المؤمنين الصالحين، واخْرُجْ بهم من هذه القرية، واستغلّ الليلَ والظلامَ للخروج، لئلا يعلمَ بكم أحد.

(١) المفردات: ٤٠٨.

أُخرجوا من القرية قبلَ أنْ يقعَ بها الدمارُ والعذاب، ولا يلتفتْ أحدٌ من أهلك الناجين إلى ما سيحلُّ بالقرية من الدمار، ولا ينظرْ إليها وهي تُدمَّر: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

وهناك احتمالان في معنى الالتفاتِ المنهيِّ عنه:

عدم التفاتهم واتباع أدبارهم:

الأول: الالتفاتُ الماديُّ الحسي، القائمُ على نظرِ العين، نُهوا عن الالتفاتِ وراءَهم، والنظرِ إلى الدمار الذي سيقع بالقوم، لئلا تُخطفَ أبصارُهم من هولِ ما سيشاهدون.

الثاني: الالتفاتُ المعنوي. حيثُ نُهوا عن التأخُّرِ في القرية، والالتفاتِ إلى الأَغراضِ والأشياء والمتاع، والحرصِ على جمعه والحصولِ عليه وأخذه، لأن ذلك الالتفاتَ يؤدي إلى التأخيرِ في اللبثِ في القرية، والتعوُّقِ في جمع الأشياء، وبهذا يكونون عرضةً للعذاب الذي سيقعُ بالقوم.

فعليهم أنْ يسارِعوا في الخروج، ويباشروا في السُّرى والنجاةِ بقِطْعٍ من الليل، وأنْ لا يلتفتوا إلى أيِّ شيء آخر، وأن لا ينشغلوا به.

ومع احتمالِ الجملة ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ للاحتمالَيْن، فإنني أميلُ إلى ترجيح الاحتمال الثاني، الذي هو أكثرُ اتفاقاً مع الحكمةِ من النهي.

وأمرَ الملائكةُ لوطاً قائلين: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾. والكلامُ عن القوم المؤمنين الناجين، أي: عليهِ أنْ يخرجَ ويَسْرِيَ بهم أثناءَ الليل، في غايةِ السرعة، وأنْ لا يلتفتَ أو يتأخرَ أحدٌ منهم، ثم عليه أنْ يجعلَهم يسيرون أمامه، متوجهين إلى مكانِ النجاة، وهو يسيرُ خلْفَهم، ويتبعُ أدبارَهم.

والحكمةُ من اتِّباعه أدبارَهم: المبالغةُ في الحرص عليهم وتفقدهم، بحيث لا يتأخرُ أو يلتفتُ أحدٌ منهم، والمبالغةُ في حثهم

على الإِسراعِ في السير، وعدمِ الانشغال عن ذلك بأيِّ شاغل.

وفي هذا إشارةٌ إلى وظيفةِ القائد في العنايةِ بالجند، وواجبِ الراعي في المحافظةِ على الرعية، إن لوطاً عليه السلام راعي أهلِه المؤمنين، ولا بدَّ أنْ يتبعَ أدبارهم، وأنْ يسيرَ خلفهم، ليكونوا في مأمن.

ونَهوهُ عن اصطحابِ امرأته العجوزِ الكافرة الهالكة معهم، وطلبوا منه إبقاءَها مع قومها، لتهلكَ بهلاكهم، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

وأَمروهُ بالتوجُّه مع الناجين مسرعين، إلى حيثُ الأمان: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

والمضيُّ هو السيرُ السريع، وذلك ليبتعدوا عن دائرةِ العذاب، ويصلوا إِلى مكانِ الأمان.

المكان الذي ذهبوا إليه مبهم غير مبين:

والجملة ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ مبهمةٌ غيرُ محدَّدة ولا مبيَّنة، وكلُّ ما يُؤْخَذُ منها أن لوطاً وأهلَه المؤمنين خرَجوا من القرية، قبلَ تدميرِها، وتوجَّهوا إلى المكانِ الآمنِ الذي وجههم اللّهُ إليه.

أما تحديدُ موقعِ ذلك المكان الذي مضوا إليه، وتبيينُ اسمه وجهتِه، وهل هو واقعٌ شرقَ القرية التي ستدمَّرُ أم غربُها، أم شمالُها أم جنوبها، فهذا مبهمٌ غيرُ محدد في الآية، ولم يبينْه رسولُ الله ﷺ.

فلا نعرف ذلك المكانَ الذي أنجاهم اللّهُ إليه، ولا يضرُّنا عدمُ العلم به، ونبقى مع إيحاءاتِ الآية، كما فعلَ أصحابُ الرسولِ ﷺ.

وأخبرَ الملائكةُ لوطاً بقربِ وقوعِ العذاب بهم، فلم يبقَ من حياتِهم إلا جزءٌ من ليلة: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾...

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

ودابرُ القوم هو آخرُ القوم، الذي يدبرُهم ويكونُ وراءهم، وهذا إشارةٌ إلى شمولِهم جميعاً بالعذاب. فإذا كان القومُ طابوراً يمرُّون على العذاب، أو يمرُّ بهم العذاب، ووصلَ العذابُ إلى دابرِ الطابور الواقف في آخره، فمعناه أنَّ العذاب وقَع بكلِّ مَنْ في الطابور.

إنهم سيعذَّبون مصبحين، وإنّ الدمارَ واقعٌ بهم عند الصباح، والصبحُ قريب. وأخبروه بقربِ حلولِ الصبح، الذي يحملُ معه الدمارَ والعذاب، من بابِ المبالغة في تبشيرِه وتطمينه، لأنه كان يتشوقُ طويلاً لساعةِ دمارهم!

[١١]

امرأة لوط: عجوز غابرة هالكة

لما أخبرت الملائكةُ لوطاً عليه السلام بنجاتِه هو وأهله المؤمنين، استثنوا امرأتَه الكافرة، لأنها ستكونُ مع القومِ المعذَّبين.

قالوا للوط عليه السلام: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

وقالوا له: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

لقد اختارت امرأةُ لوطٍ النبي ـ عليه السلام ـ الكفرَ بالله عز وجل، ولم تتأثرْ بإيمانِ ونبوةِ زوجها، ولم تدخُلْ في دينه، وآثرتْ أنْ تكونَ على دينِ قومِها الكافرين الشاذين.

مع أنَّ لوطاً عليه السلام دعا امرأتَه عدةَ مراتٍ إلى الله واستخدمَ معها أحسنَ الأساليب والوسائل، لكنها أغلقتْ قلبَها، وأَصَمَّت أُذنيْها، ورفضتْ تلك الدعوةَ الإِيمانية.

امرأة لوط كافرة خائنة هالكة:

وضربَ اللّهُ لنا المثلَ بامرأةِ لوط، وقبلَها امرأةِ نوح، هاتان المرأتان تزوّجتا نبيَّيْن رسولَيْن، ودعا كلٌّ منهما امرأته إلى الإيمانِ بالله، ولكن كلُّ امرأةٍ منهما كفرتْ بزوجها النبي.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

كانت امرأةُ لوطٍ تحتَ عصمةِ زوجها النبيِّ عليه السلام، فخانتْ زوجَها، وخيانتها له المذكورةُ في الآية ليست الخيانةَ في عِرْضِها وشرفِها، أي أنها لم تكنْ زانية، وإنما خيانتُها له خيانةٌ في الدين، لأنها رفضتْ دينَه الحق، واختارت الدينَ الباطل، وهو الكفر.

ورفضُها لدين زوجها اعتُبر خيانةً منها، لأنها تركت الحقَّ إلى الباطل، والإيمانَ إلى الكفر، ولم تتبع زوجَها وهو نبيٌّ كريمٌ عليه السلام.

ولأنها كفرتْ بالله، لم ينفعْها كونُها امرأةَ نبي، ولم يدفعْ ذلك عنها العذاب، فكانتْ مع الغابرين الهالكين، وفي الآخرة لا يشفعُ لها زوجُها، ولا يمنعُها ذلك من دخولِها النارَ مع الداخلين، وخلودِها فيها مع الخالدين.

وقد نصتْ آياتُ قصةِ لوطٍ عليه السلام على هلاكِ امرأتِهِ مع القوم الهالكين الغابرين.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٨ ـ ٦٠].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٥].

في هذه المواضع الستةِ من هذه السورةِ الستِّ يخبرُ الله أن امرأةَ لوطٍ عليه السلام كانت عجوزاً في الغابرين، وقدَّرَ اللَّهُ أن تكونَ في الغابرين، وأنْ تبقى مع الغابرين، وأنْ تهلكَ مع الغابرين..

و «الغابرون» جمعُ غابِر، والمرادُ بهم قومُ لوطٍ المعذَّبون الهالكون، واعتُبروا غابِرين، لأنهم غَبروا وبَقوا منتظرين للعذاب.

قال الراغبُ في معنى غابر: «الغابر: الماكِثُ بعدَ مضيِّ ما هو مَعه، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾: يعني في من طالَ أعمارهم، وقيل: فيمنْ بقي ولم يَسِرْ مع لوط..»[1].

والراجحُ أَنهم غابرون من البَقاء، أي: الذين بَقوا في قريتهم ينتظرون وقوعَ العذاب بهم. وامرأةُ لوطٍ عجوزٌ في الغابرين، لأنها تخلفتْ مع القومِ الهالكين، ولم تسِرْ مع أهلِ لوط المؤمنين الناجين.

لقد قعد بها كفرها، ولم تملكْ إيماناً ينهضُ بها لتسيرَ مع الذين نهضَ بهم إيمانُهم من أهلِ لوط عليه السلام.

---

(١) المفردات: ٦٠١.

كل أهله مؤمنون إلا امرأته العجوز:

ولما غبرتْ تلكَ العجوزُ مع الغابرين، هلكتْ مع الهالكين المعذَّبين.

وتخبر الآياتُ عن نجاةِ أهل لوط أجمعين، إلا عجوزَه الهالكة، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ كلَّ أهلِه كانوا مؤمنين صالحين، إلا تلكَ العجوزَ الكافرة.

وكلمةُ ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ مبهمة في الآيات، ولا نملكُ دليلاً على تعيينها أو تبيينها، فلا نعرفُ عددَ أهله المؤمنين، ولا درجةَ قرابتهم له، ولا تصنيفَ هؤلاء بين ذكورٍ وإناث، بنين وبنات، وإخوان وأخوات.

وكلُّ ما نعرفُه أنَّ أهله لم يكونوا إلاّ بيتاً واحداً من بيوت القريةِ الكثيرة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

كلُّ هؤلاء المؤمنين لم يكونوا إلا أهلَ بيتٍ واحد فقط.

وقد فرقتْ هذه الآياتُ بين المؤمنين والمسلمين حسبَ الظاهر، ولكن الكلامَ في الحقيقة عن نفسِ الصنف، حيث أعطتْهم الآياتُ صفتيْن: فهم أوّلاً مؤمنون، وهم أنفسُهم سكانُ بيتٍ من المسلمين، فأعطتْهم الآياتُ صفة الإيمان، ثم أعطتْهم صفَةَ الإِسلام، فالمؤمنون المذكورون هنا، هم أنفُسهم المذكورون في الآيات، فلا فرقَ في الآياتِ بين المؤمنين والمسلمين!

وهذا يدلُّنا على قلةِ القوم الذين اتبعوا لوطاً عليه السلام، لأنَّ قومَه أَطبقوا وأَجمعوا على الكفرِ والشذوذِ، حتى إنَّ امرأَته نفسَها رفضت الاستجابةَ له، وكلُّ حصيلةِ دعوته أهلُ بيتٍ واحدٍ فقط!!!

[١٢]
المؤتفكات: جعلنا عاليها سافلها

أوقعَ اللَّهُ بقومِ لوطٍ عذاباً خاصاً عجيباً، لم يوقِعْ مثلَه في أقوامِ

كافرين آخرين، وهذا العذابُ يتناسبُ مع جرائمهم التي ارتكبوها، ومع شذوذِهم الذي ارتكسوا فيه.

الآيات في تعذيب قوم لوط:

ونقفُ مع الآيات التي تحدثتْ عن عذابهم ودمارهم:

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٢ ـ ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٢ ـ ٣٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي

وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٣٨].

كان تعذيبهم على مرحلتين:

توحي آياتُ سورةِ القمر أنَّ العذابَ وقعَ بهم على مرحلتيْن:

المرحلة الأولى: إنِ اللَّهَ طمسَ أعينهم فأعماهم، وكان هذا في الليل، عندما راوَدوا لوطاً عن ضيوفه الملائكة، فأمرتْه الملائكةُ أنْ يسيرَ مع أهله المؤمنين وقتَ السحر، وطمسوا أعينَ القومِ الشاذين المتجمهرين على باب منزلِ لوط، فأُصيبوا بالعمى، فعادوا عمياناً لا يرونَ شيئاً، ولا يلوون على شيء!

المرحلةُ الثانية: إيقاعُ الدمارِ بهم، وكان هذا عندَ صباحِ اليوم التالي: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

أخبرت الملائكةُ لوطاً عليه السلام أنَّ العذابَ واقعٌ بالقوم في الصباح، عندما يكونون مُصبحين: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

ولما جاءَ الصباح، وأَشرقتِ الشمس، أخذتْهم الصيحة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

والصيحةُ التي أخذتْهم صيحةٌ خاصة، انشقت بها الأرض، وأحدثَتْ صوتاً عالياً مفزعاً، وكان هذا وقتَ شروقِ الشمس. ومعنى ﴿مُشْرِقِينَ﴾: عندما حلَّ بهم وقتُ الشروق.

هذه الصيحةُ العجيبةُ مبهمة، غيرُ مفصلة ولا محدَّدة ولا مبيَّنة. فلا نقولُ عنها إلا أنها صيحةٌ قوية، نتجَ عنها صوتٌ مفزع، وأعقبها التدميرُ والمطرُ والحجارة وقلبُ عالي القرية سافلها.

وبعد الصيحةِ قلبَ اللَّهُ القريةَ قلباً، فجعلَ عاليها سافلَها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وعالي بيوتِ القرية هو سقوفُها، وسافلُها هو أساساتُها وأرضيتُها،

فلما دمرَ اللّهُ تلك القرية قلبَ بيوتَها قلباً، فصارتْ أرضيتُها وأساساتُها إلى الأعلىٰ، صارتْ سقوفُها إلى الأسفل، وقُضيَ على أهل تلك البيوت.

وأعقبَ اللهُ قلبَ البيوت بأنْ أمطرَ عليها مطراً خاصاً، ليس ماءً عذباً، ولا غَيثاً مغيثاً، ولكنه مطرٌ من حجارة من سجيل.

والمطرُ في القرآن لم يردْ إلا في سياقِ الأذى أو العقابِ والعذاب، بل إنَّ اشتقاقاتِ وتعريفاتِ المطر في القرآن، معظمها في ذلك المطرِ الخاص المكونِ من حجارةِ السجيل، الذي أوقعه اللّهُ بقومِ لوط.

المطر حجارة من سجيل منضود وهي مسومة محددة:

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾.

والسّجّيل: هو الحجرُ المكوَّنُ من طين. قال الإمام الراغب: «السّجّيل: حجرٌ وطينٌ مختلِط»[1].

وقد سمّى اللّهُ هذه الحجارة هنا سجّيلاً، بينما ذكرتْ آيةٌ أخرى أنها حجارةٌ من طين: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وحجارةُ السجّيل هي حجارةُ الطين، لكن اختلافَ التعبيرِ في الآيات عنهما حسبَ الحالة.

فكانت هذه الحجارةُ تمرُّ بحالتين:

الحالة الأولى: صناعتها من طين: وذلك قبلَ يُبْسِها ونُضْجِها، حيث قال عنها: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾.

والحالة الثانية: يبسُ ونضجُ هذه الحجارةِ الطينية، حيث قال عنها: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

---

(١) المفردات: ٣٩٨.

ولذلك وصفَ هذه الحجارةَ من سجيل بقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

و﴿مَّنضُودٍ﴾ اسمُ مفعول، من التَّنضيد، وهو بمعنى الترتيبِ والتنسيق والتراكم. تقول: نضدتُ المتاع: إذا رتبتُه بعضَه على بعض. وتقول: سَحابٌ منضود: متراكمٌ بعضُه فوق بعض[(1)].

وهذه الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي أنها معدةٌ إعداداً خاصاً عند الله لهؤلاء القوم، وهي معلَّمةٌ بعلاماتٍ خاصة لهم، وكأن كلَّ واحدٍ من القوم أعدَّ اللهُ حجراً خاصاً به، وعلَّمه له بعلاماتٍ خاصة، لا يخطئه، ولا يتعدّاه إلى غيره، فهو له خاصة[(2)].

وتَصوَّرْ منظرَ المطرِ الخاصِّ من الحجارة، يعقبُ قلبَ بيوتِ القرية، ويُصيبُ كلَّ واحد من أهلها حجرُه الخاصُّ به، المعَدُّ له وحده، ويكون به هلاكُه والقضاءُ عليه.

وما هي إلا لحظاتٌ حتى دمرَ اللّهُ قريةَ قوم لوط الكبيرة، ودمَّرَ قراهم الأُخرى المحيطة بها، وقضى على هؤلاء القومِ الكافرين الشاذين، الذين ملؤوا المنطقةَ شذوذاً وفساداً، وعُهراً وفُجوراً، ورِجساً وقذارة، فزالوا عن وجهِ الأرض، وذهبوا إلى لعنةِ الله وعذابه.

ورأى لوطٌ وأهلُه المؤمنون ما حلَّ بالقومِ الكافرين الشاذين من هلاك، وما وقعَ بقُراهم من دمار، فحمدوا نعمةَ اللّهِ على الإِيمان والإِسلام، وعلى الطهارةِ والعفاف، وفرحوا بالقضاءِ على أولئك الشاذين المفسدين!!

ولا يهمُّنا تعليلُ ما جرى لقرى قوم لوطٍ من الدمار، وتصنيفُه في خانةِ البراكينِ المدمِّرة، والزلازلِ العنيفَة، فقد يكونُ هذا وقد يكونُ غيره.

---

(1) انظر المفردات: ٨١٠.

(2) المرجع السابق: ٤٣٨.

كلُّ ما يهمُّنا معرفتُه هو أنَّ ما وقعَ بهم ـ مهما كان تعليلُه العلمي ـ فهو بأمْرِ الله وإرادتِه ومشيئتِه، وأنه كان عقاباً لهم على كُفرهم، وعلى شُذوذهم وإتيانِهم الذكرانَ من العالمين، فعذَّبهم اللّهُ بهذا العذاب الخاص، الذي قلبَ فيه بيوتَهم ومساكنَهم وقُراهم.

المؤتفكة والمؤتفكات وسبب قلب بيوتهم:

وسمّى اللّهُ قريتَهم الكبيرةَ المدمَّرة «المؤتفكة»، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤].

وسمّى اللّهُ ما حولَها من القرى «المؤتفكات» فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩].

فما معنى «مؤتفكة»؟ ولماذ سُميت بذلك؟

إنَّ «مُؤْتَفِكَة» مفرد «مؤتفكات»، وهي اسمُ فاعل من الإِفْك.

قال الإمام الراغب في معنى الإِفك: «الإِفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه، الذي يحقُّ أنْ يكونَ عليه».

... ورجلٌ مأفوك: مصروفٌ عن الحقّ إلى الباطل»[1].

وإذا كان الإِفكُ هو صرفَ الشيء عن وجهه الذي يحقُّ أنْ يكونَ عليه، فقد سمّى قرى قومَ لوطٍ بالمؤتفكات، لأنها مصروفاتٌ مقلوبات.

إنَّ الإِفكَ هو قلبُ الحقائق، وتحويلُ الحقِّ إلى باطل، وتحويلُ الصدقِ إلى كذب، والكذب إلى صدق.

ولقد قلبَ اللهُ بيوتَ قوم لوط لما دمَّرها قلْباً، فجعلَ عاليَها سافلَها، فصارت «مؤتفكات» أي: مصروفات مقلوبات.

---

(١) المفردات: ٧٩ ـ ٨٠.

فما الحكمةُ من ذلك؟ ولماذا عَذَّبهم بهذا العذاب الخاص بهم؟

إنه عذابٌ يتناسبُ مع جرائمهم وشذوذهم، والعذابُ والعقابُ والجزاءُ من جنس العمل.

لقد تركَ أولئك الشاذّون النساءَ إلى الرجال، وقضوا شهواتهم عندَ أمثالِهم من نفسِ الجنس، وبذلك قلَبوا الحقائقَ والقيم، وقلبوا الفطرةَ والمنطق، وحَوَّلوا الرجلَ الذكر الذي خلقه الله ليطلبَ النساء، ويكون فاعلاً في امرأته، وجعلوهُ مطلوباً مِن قِبَلِ الرجالِ الشاذين، مفعولاً فيه، مركوباً لهم! وهذا هو الإِفكُ بعينه، وهذا هو قلبُ الحقائق، وهذا هو الصرفُ عن الفطرةِ إلى الشذوذ!

ولذلك ناسبَ أن يقلبَ اللّهُ بيوتَهم بعد أنْ قلبوا فطرتَهم ورجولتَهم، فجعلَ عاليها سافلها، لأنهم كانوا يركبونَ الرجالَ من العالمين، والأصلُ أن يكونَ هؤلاء الرجالُ راكبين، طالبين للنساء!!

[١٣]

قراهم آية: وما هي من الظالمين ببعيد

أبقى الله المؤتفكات آية للاعتبار بها:

بعدَ أنْ دمَّرَ اللّهُ قرى قومِ لوط، وصارتْ مؤتفكات أَبقاها اللّهُ آيةً وعبرةً لمن بعدَهم، لتبقى شاهدةً على تدميرِ وإهلاكِ كلِّ مَنْ فعلَ فعلَهم، وشذَّ شذوذهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

أي: أبقى اللّهُ من مكانِ تلك القرى المدمرة آيةً وعبرةً وعظة، لكلِّ مَن أَرادوا أنْ يَعقلوا ويَعتبروا ويَتَّعظوا.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٧].

وهذا يوحي أنَّ الذين يَعتبرون ويَتَّعظون، ويَستفيدون من هذه الآياتِ الباقيةِ من قُرى قوم لوط، هم القومُ المؤمنون الصالحون، الذين يفكرونَ في الآخرة، وفي الوقوفِ بين يدي الله، ويَخافون أنْ يوقِعَ بهم العذابَ الأليم، سواءً في الدنيا، أو في الآخرة.

وقد ذمَّ الله الكافرين من العرب الذين يمرّون على ديارِ القوم المعذبين، ومع ذلك كانوا لا يعتبرون بما جَرى لأهلها.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٠].

والقريةُ المذكورةُ هنا هي «المؤتفكة» التي كان يقيمُ فيها قومُ لوط، ومطرُ السوء الذي وقعَ بها هو: الحجارةُ من سجيلٍ منضود، التي ألقاها الله على هؤلاء القومِ فأهلكَهم.

وكانَ العربُ يمرّونَ على هذه القرية، ويأتونَ عليها في رحلاتِهم وتجاراتِهم إلى الشام، وكانوا يرونَها، ومع ذلك كانوا لا يَتَّعظون، ولا يَعتبرون، لأنهم كانوا لا يؤمِنونَ بالبعث، ولا يَرجون النشور.

وقال تعالى في الموضوع نفسه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

كانت في طريق العرب التجاري للشام:

يقولُ لكفارِ العرب المتاجِرينَ في الشام: إنكم عندما تسافرون إلى الشام، وعندما تعودون من الشام، تمرّونَ على ديارِ قومِ لوط المعذَّبين، وتشاهدون الدمارَ الذي حلَّ بها.

تَمرون عليهم مصبحين وقتَ الصبح أحياناً، وتَمرون عليهم بالليل أحياناً أُخرى، سواءٌ عند ذهابكم إلى الشام، أو عند عودتكم منه.

وتلومُهم الآية، لأنَّ مشاهدتَهم لهذه القرى المدمَّرة، لا تدعوهم إلى التفكيرِ في سبب ما حلَّ بها وبأهلها، والاعتبارِ والاتعاظِ لذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

إنَّ مشاهدةَ ما حلَّ بهذه القرى عند العاقلِ المتفكِرِ البصير، تَدْعوه إلى الاعتبارِ والتساؤل: ماذا فعلَ أَهْلُها الذين كانوا فيها حتى أهلكَهم الله؟ وذلك ليتجنَّبَ أفعالهم، ويحذرَ فسادَهم، لئلا يصيبَه ما أصابَهم!

وتشيرُ هذه الآياتُ إلى حقيقةٍ أخرى، وهي جغرافيةٌ تجارية، تتعلقُ بخطِّ سير الرحلةِ التجارية لقريش، والطريقِ التي كانوا يسلكونَها في الذهابِ إلى الشام والعودةِ منه. فإذا كانت «المؤتفكة» هي التي حلَّتْ محلَّها البحيرةُ المالحةُ المنتنة، المسماةُ ببحرِ لوط، وهو المعروفُ الآن بالبحرِ الميت، وإذا كان تجارُ قريش يمرّون على ديارِهم في منطقةِ البحر الميت في الصباحِ والمساء، فإن هذا معناه أنَّ طريقَ التجارة كانت تمرُّ من العقبة ووادي عربة والبحر الميت والأغوار، ثم السير شمالاً نحو دمشق الشام.

وتدعو آياتُ القرآن إلى النظرِ والاعتبار بما جرى لأولئك القوم. قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

إننا مأمورون بالنظرِ والاعتبار في هذه الآية، وليس المرادُ بهذا النظر نظرَ العين فقط، بل هو نظرُ العين الذي يوصِلُ إلى العقل والقلب، فيجعلُ العقلَ ينظرُ ويتفكر، ويجعلُ القلبَ ينظرُ ويتدبر، وهذا النظرُ يقودُ إلى الالتزامِ بالطاعةِ والخير، والإقلاع عن الفساد والشر.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: كان قومُ لوطٍ شاذين مجرمين، فكيف كانت عاقبتُهم ونهايتُهم؟ ولماذا كانت هذه هي النهاية لهم؟ وماذا يُستفادُ من ذلك؟

إنها أسئلةٌ يطرحُها عليه كلُّ عاقلٍ بصير، ليرى هذه العاقبةَ المؤلمة، والنهايةَ الفاجعة، لكلِّ مجرمين مسرفين، شاذِّين معتدين.

وقد جاءَ هذا المعنى أيضاً صريحاً منصوصاً عليه، في التعقيبِ على قصةِ قوم لوطٍ في سورة الحجر. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٧].

قرى قوم لوط المدمرةُ موجودةٌ بسبيل مقيم. والسبيلُ هي الطريقُ المسلوك، الذي كان يسلكُه ويسيرُ فيه التجارُ العرب.

ولم يكونوا يَتَّعظون بها، لأنهم لم يكونوا مؤمنين، والآياتُ التي فيها للمؤمنين والمتوسمين، والمعاني التي تطلقُها لا يأخذُها إلا المؤمنون المتوسمون، والعبرُ والدروسُ والدلالاتُ التي فيها، لا يلتفتُ لها إلا المؤمنون المتوسمون.

من هم المتوسمون؟ وما هو التوسم؟:

فمن هم المتوسِّمون المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

المتوسِّمون: جمع «المتوسِّم»، وهو اسمُ فاعل مِن «تَوسَّم».

قال الإمامُ الراغبُ عن التوسم: «الوَسْم: التأثير. والسِّمَة: الأثَر. يقال: وَسَمْتُ الشيءَ وَسْماً: إذا أثرّتُ فيه بِسِمَة، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: للمعْتَبِرين العارفين المتَّعظين. وهذا التوسُّمُ هو الذي سَمّاه قومٌ: الزكانة، وقومٌ الفراسة، وقومٌ الفطنة. قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»...

وتوسَّمْتُ: تعرَّفْتُ بالسِّمة.. وفلانٌ وسيمُ الوجه حَسَنُه»[1].

---

(١) المفردات: ٨٧١ ـ ٨٧٢.

وقالَ السمينُ الحلبي عن التوسُّم والمتوسمين: «المتوسِّمون: المعتبرون، الذين يتوسَّمون الأمور. أي: يتبيَّنونها تَبَيُّنَ مَنْ يتوسَّمُ الشيءَ، أي يتعرَّفُه بوَسْمِه.

وتقول: توسمتُ فيه خيراً: تعرَّفْتُ وَسْمَةً فيه.

والتوسُّم: يقربُ من الفراسة. وهذا التوسُّمُ هو الذي سمّاه قومٌ الزكانة، وقومٌ الفطنة، وقومٌ الفراسة»[1].

المتوسِّمون هم المؤمنون، لأنهم هم الذين يتمتّعون بالذكاء والفطنةِ والفراسة والبصيرة، ويتوسَّمون الأُمورَ التي يشاهدونها، ويتبيَّنونها، ويُمعنون النظرَ فيها، ويتعاملون معها بأَنوارِ بصائِرهم الحية، وقلوبهم المبصرة، فيتعرَّفون على حقائِقها، ويستفيدون من عبرِها ودروسها ودلالاتِها.

والمتوسِّمون لم يُذكروا في القرآن إلا في هذا الموضع، في التعقيبِ على تدميرِ قُرى قومِ لوط، لأنَّ شذوذَ وانحرافَ قومِ لوط، الذي أَدّى إلى هلاكِهم، يَحتاجُ إلى فراسةٍ وفطنة وبصيرة، ويحتاجُ إلى تبيُّنٍ وتوسُّم، لئلا يَجريَ الإِنسانُ وراءَ شهواته، ويكونَ أسيرَ هواه وشذوذه، لأنه إنْ فعلَ ذلك وقعَ به العذابُ والهلاك، كما وقعَ بقوم لوطٍ الشاذين!

إنَّ التوسُّمَ هو صمامُ الأمان الذي يحجزُ المتوسِّمين عن الانحرافِ والشذوذ. والاستجابةِ لنداء الشهوات الفاجرة.

أينَ المتوسِّمون في هذا العصر الذي فقدَ فيه معظمُ الناس توسُّمهم؟ واستسلموا لشهواتِهم الشاذة المحرمة؟ وصارَ الكثيرُ منهم يبحثُ عن شريكِه من الجنس نفسه، يمارسُ معه شذوذَه وانحرافَه؟

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين ٤: ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

فصار معظم الناس الكافرين يعيشون في إباحيةٍ حيوانية، ويتقلَّبون في مواخيرِ العهرِ والشهوات!

قرى قوم لوط قريبة من الكافرين والعقوبة قريبة من الشاذين:

لقد أشارتْ آياتُ القرآن إلى قربِ قرى قومِ لوط، وقربِ عقوبة قومِ لوط، من الظالمين الشاذِّين، الذين يسيرونَ على طريقِ قومِ لوط في الشذوذ والانحراف، وممارسةِ اللواط. فقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

إنها قريبةٌ من الظالمين، وليستْ بعيدةً عنهم:

وضمير ﴿هي﴾ في الآية فيه احتمالان:

الأول: أنه يعودُ على قرى قوم لوطِ المدمَّرة، المذكورة من قبل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إنَّ قُرى قومِ لوط ليستْ بعيدةً من الظالمين الكافرين، من أهلِ مكة وغيرها، فهم يمرّون على هذه القرى مُصْبحين وبالليل، وهي باقيةٌ مقيمةٌ في سبيلِهم وطريقهم، فلماذا لا يَعتبرون بها.

الثاني: أنَّ ﴿هي﴾ يعودُ على العقوبة التي أوقَعها اللّهُ على قوم لوط، حيث جعلَ عالي بيوتِهم سافلَها، وأمطرَ عليهم حجارةً من سجيل منضود، وهذه العقوبةُ ليستْ بعيدةً من الظالمين المجرمين الشاذِّين، الذين يرتكبون ما كان يرتكبُ قومُ لوط من شذوذٍ وانحراف.

وعلى الاحتمال الثاني تَطلبُ الآيةُ قتلَ اللذيْن يمارسان اللواط كما قتلَ اللّهُ قومَ لوط الشاذِّين.

ومما يؤيدُ الاحتمالَ الثاني، عقوبةُ اللواطيِّين في الإِسلام، حيثُ أمرَ رسولُ الله ﷺ بقتلِهم.

روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وجدتُموهُ يعملُ عملَ قومِ لوط، فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ فيه»[1].



(١) أخرجه أبو داود: ٤٤٦٢. والترمذي؛ ١٤٥٦. وابن ماجه: ٢٥٦١. وانظر الأحاديث الصحيحة. رقم: ١٣٩.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من كنوز القرآن

٩

القصص القرآني

عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف

الدكتور صلاح الخالدي

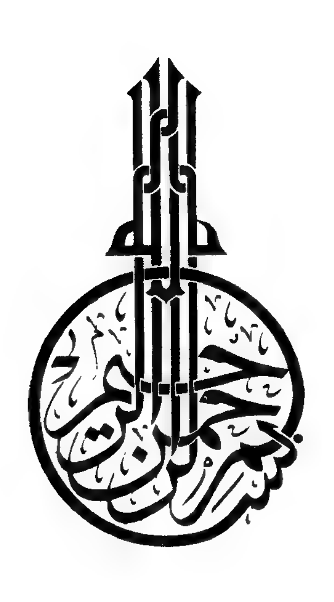
الجزء الثاني

دار القلم

دمشق

الدار الشامية

بيروت

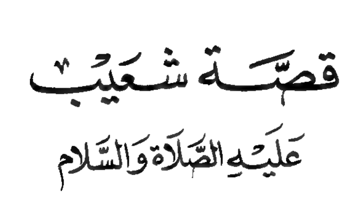



القصص القرآني

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


قصة شعيب
عليه الصلاة والسلام



[١]
مواضع قصة شعيب في القرآن

وردَ اسمُ شعيبٍ في القرآن إحدى عشرةَ مرة. وهذه هي السورُ التي ذُكرَ فيها:

١ ـ سورة الأعراف: ذُكر فيها خمس مرات.

٢ ـ سورة هود: ذُكر فيها أربع مرات.

٣ ـ سورة الشعراء: ذُكر فيها مرة واحدة.

٤ ـ سورة العنكبوت: ذُكر فيها مرة واحدة.

وقد بعثَ اللّهُ شعيباً عليه السلام نبياً ورسولاً إلى قوم مدين.

ووردتْ قصةُ شعيب في القرآن أثناءَ حديثِ القرآن عن شعيب عليه السلام، وأثناءَ حديثِ القرآن عن مدين، وأثناءَ حديثِ القرآن عن أصحابِ الأيكةَ.

وفيما يلي مواضع قصةِ شعيبٍ مع مدين في القرآن:

ما عرضته سور القرآن من قصته:

١ ـ ما أوردتْه سورةُ الأَعراف من قصته:

وردتْ قصتُه في تسعِ آيات في السورة: ٨٥ ـ ٩٣.

وتحدثت الآياتُ عن إرسالِ الله شعيباً نبياً إلى مدين، حيث دعاهم إلى عبادةِ الله وحده، وطالبهم بتوفيةِ المكيال والميزان، ونهاهم عن بخسِ الناسِ أشياءهم، وعن صدِّهم عن سبيل الله، ثم أخبرتْ عن ردِّ قومه عليه، وتهديدهم له، وردِّ شعيب وأتباعه المؤمنين بلجوئهم إلى الله وتوكلِهم عليه، ثم أشارتْ إلى تعذيبِ قومِ مدين بالرجفة، وتعقيبِ نبيهم شعيبٍ على هلاكهم.

٢ ـ ما أوردتهُ سورةُ هود من قصته:

وردتْ قصةُ شعيب في سورة هود، في اثنتي عشرة آية من آياتها: ٨٤ ـ ٩٥.

وَذِكْرُها في هذه السورة من أطولِ المواضع واللقطاتِ ذكراً في سور القرآن. وقد تحدثت الآياتُ عن طلب شعيبٍ من قوم مدين عبادةَ الله وحده، وعدمَ إنقاصِ المكيال والميزان، وعدمَ بخس الناس أشياءهم، وعدمَ الإفسادِ في الأرض. وذكرتْ ردَّ قومه الساخرَ عليه، وتعريضَهم بصلاته، وإنكارَهم عليه الربط بين الصلاة والمال، وسجلتْ ردَّه عليهم بحرصِه على الالتزام بما يدعوهم إليه، وعلى الإصلاح، وتذكيره لهم بما جرى للكافرين من قبلهم من تدميرٍ وهلاك، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

وبينت الآياتُ ردَّ قومه على حسن أسلوبه في دعوتِه بتهديدهم له بالرجم، لولا رهطُه وعشيرتُه، وردَّه على ذلك، وطلبَه منهم انتظارَ وقوع العذاب بهم. ثم أشارتْ إلى نجاةِ شعيب وأتباعه المؤمنين، وإهلاك مدينَ الكافرين بالصيحة.

٣ ـ ما ذكرتْه سورةُ الشعراء من قصته:

وردت الآياتُ عن مدينَ باسمِ أصحاب الأيكة، وأَشارتْ إلى دعوةِ شعيب لهم إلى عبادةِ الله وطاعته ونهيِه لهم عن إنقاصِ المكيال والميزان، وأمرِه لهم بالوزن بالقسطاس المستقيم، وذكرتْ ردَّهم على دعوته بالاتهامات والإشاعات، وطلبهم منه إسقاطَ السماء عليهم وإهلاكهم، وأخيراً كيفَ أصابهم عذابُ يوم الظلة.

هذا هو أساسُ قصةِ شعيب في هذه السور الثلاث: الأعراف، وهود، والشعراء.

إشارات لشعيب ومدين في سور أخرى:

ووردتْ إشاراتٌ سريعة لقصتِه في سورتي: الحِجْر والعنكبوت:

ففي سورةِ الحجر، وردت الإِشارةُ إلى تدمير أصحاب الأيكة الظالمين وبقاءِ آثارهم آية. جاء ذلك في الآيتين: ٧٨ ـ ٧٩.

وفي سورةِ العنكبوت، وردت الإِشارةُ إلى دعوة شعيب لمدين، وإلى تكذيبهم له، وإهلاكِهم بالرجفة. جاء ذلك في الآيتين: ٣٦ ـ ٣٧.

وقد وردَ ذكرُ اسم مدين، أو قوم مدين، مجردَ ذكر، بدون تفصيل، وردَ ذلك في الآية (٧٠) من سورة التوبة. وفي الآية (٤٠) من سورة طه. وفي الآية (٤٤) من سورة الحج. وفي الآيات (٢٢، ٢٣، ٤٥) من سورة القصص.

أما أصحابُ الأيكة فقد وردَ ذكرُهم مجرداً بدون تفصيلٍ في آية (١٣) من سورة صَ. وآية (١٤) من سورة قَ. إضافةً إلى ذكرهم مرةً واحدة في سورة الحجر.

هذه مواضعُ ومراتُ ذكْرِ قصة شعيب عليه السلام في القرآن، سواء تحتَ اسمِ شعيب، أو اسمِ مدين، أو اسم أصحاب الأيكة.

[٢]

مدين وشعيب من حيث الزمان والمكان

معنى شعيب ومدين والأيكة:

«شعيب» اسمُ النبيِّ الرسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، الذي بعثه الله رسولاً إلى قوم مَدْيَن.

ومَدْيَن قومٌ من العرب، وشعيبٌ عربي، مثلُه في ذلك مثلُ هود وصالح عليهما السلام، اللذيْن كانا نبيين عربيّين، مبعوثيْن إلى قبيلتيْن عربيتيْن: عاد وثمود.

و«شعيب» اسمٌ عربي مشتقٌ من «الشَّعب».

قال السمين الحلبي: «الشَّعْب: القبيلةُ المتشعبةُ من حيٍّ واحد.

والشِّعْب من الوادي: ما اجتمَع منه طرَف، وتفرقَ منه طرف. فإذا نظرتَ إليه من الجانب الذي يتفرق، أخذْتَ في وهمِك واحداً، وإذا نظرتَ إليه من جانب الاجتماع أخذتَ في وهمك اثنيْن اجتمعا. فلذلك قيل: شَعَّبْتُ الشيء: جمعتُه. وشَعَّبْتُه: فرقتُه.

وشُعيب: إذا لم يكن اسماً للنبي المعروف عليه الصلاة والسلام فهو تصغيرُ شَعْب»[1].

إذن «شعيب» مشتقٌ من الشَّعب، وهو تصغيرٌ له في الأساس، ثم صارَ اسماً للنبيِّ المعروف عليه السلام، ثم ذاعَ هذا الاسمُ وانتشر فيما بعد، عَلَماً على بعض الأشخاص.

أما «مَدْيَن» فهو اسمُ علم، أُطلقَ على هؤلاء القوم، الذين بَعثَ اللّهُ لهم شعيباً نبياً.

و«مَدْيَن» مشتقٌ من «مَدَن».

تقول: مَدَن بالمكان: إذا أَقامَ فيه. وسُميت المدينةُ بذلك، لأنها يكثرُ سكانُها الذين يقيمونَ فيها. ومعنى الإِقامةِ في المدينة ملحوظٌ واضح[2].

أما الأَيْكَة في قوله: «أصحاب الأيكة» فهي مشتقةٌ من الأَيْك. قال السمين الحلبي: الأَيْك: جمعُ أَيْكَة. وهو الشجرُ الملتفّ، وقوله: «أصحاب الأيكة»: هم أصحابُ غَيْضَةٍ كانوا فيها يسكنونَها، فنُسبوا إليها، أرسلَ اللّهُ لهم شعيباً عليه السلام نبياً فكذَّبوه، فأهلكهم الله»[3].

فالأيكةُ هي الغابةُ من الأشجار الكثيفة، التي كان قومُ مدينَ

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين ٢: ٣١٣.

(٢) المرجع السابق: ٤: ٩٠.

(٣) انظر المرجع السابق ١: ١٦٢ ـ ١٦٣.

يسكنون فيها أو قريباً منها، فدمَّرهم الله، وأزالَ أيكتَهم وغابتَهم وغيضَتهم، لما كذَّبوا شعيباً عليه السلام.

هذا من حيثُ معاني الكلمات الثلاثة: شعيب، ومدين، والأيكة.

قرب مدين من قوم لوط زماناً ومكاناً:

أما من حيثُ المكان، فإنَّ أرضَ مدين كانت قريبةً من قرى قوم لوط، من حيث الموقع الجغرافي. فإذا كان قومُ لوط يقيمون في منطقةِ البحر الميت في الأغوار - كما سبقَ أنْ ذكرْنا - فإن أرضَ مدين كانت قريبةً منهم في الجنوب الشرقي.

ولعلَّ أرضَ مَدْيَن كانت في منطقةِ وادي عربة وما حولَها من جهةِ الغرب، ومن جهةِ الشرق.

ونحنُ مع الإمام ابن كثير في قوله: «كان أهلُ مدينَ قوماً عرباً، يسكنونَ مدينتهم «مَدْيَن»، التي هي قريبةٌ من أرضِ مَعان، من أطرافِ الشام، مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرةِ قومِ لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة»[1].

وبقي اسمُ تلك المنطقة «مَدْيَن» حتى بعد إهلاكِ أهلها الكافرين، بدليل أن موسى عليه السلام لما خرجَ من مصرَ هارباً من فرعون، توجَّه إلى مدين. ومعلومٌ أن موسى كان بعدَ إبراهيم ولوط وشعيب بعشرات السنين.

هذا من حيث التحديد الجغرافي لمكان أرضِ مدين.

أما من حيثُ زمانِ وجودِ قوم مدين ونبيهم شعيب، فقد كان بعدَ إبراهيم ولوط عليهما السلام. فبينَ إبراهيم ولوط وبين شعيب عليهم الصلاة والسلام فترةٌ زمنيةٌ يسيرة.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٨٥ - ١٨٦.

والدليلُ على أنَّ شعيباً كان قريباً زمنياً من إبراهيم ولوط:

أن قصةَ شعيب كانت تَرِدُ بعدَ قصةِ لوط مباشرة، في السورِ التي كانت تَسردُ بعضَ قصصِ الأنبياء متتابعة.

دلالة تسلسل وتتابع قصصهم في القرآن:

فسورةُ الأعراف أوردتْ قصصَ الأنبياء بهذا التتابع: قصة آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

وكان تَتَابعُ قصصِ سورة هود هكذا: قصة نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب.

وكان تَرتيبُ قصصِ سورة الحجر هكذا: قصة إبراهيم، ولوط، وشعيب، ثم أصحاب الحجر الذين هم قوم ثمود.

وكان تَرتيبُ قصصِ سورة الشعراء هكذا: قصة موسى، وإبراهيم، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

فعندما كانت تَذكرُ السورُ قصصَ هؤلاء الأنبياء: نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، شعيب عليهم السلام، كانت تورِدُهم بهذا الترتيب والتتابع. وهذا يدلُّ على أنهم كانوا على هذا الترتيبِ الزماني التاريخي.

ثم إن شعيباً عليه السلام لما ذكرَ تعذيبَ الأقوام الكافرين السابقين، قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

إنَّ قومَ لوط قريبين من قومِ مدين، وليسوا بعيدين عنهم، وقربُهم منهم قربٌ مكاني جغرافي أَوَّلاً، ثم قرب زماني تاريخي بعد ذلك. والله أعلم.

[٣]
جرائم مدين: اقتصادية اجتماعية

كان كلُّ نبيٍّ يجدُ عند قومه جرائمَ خاصة، صدرتْ منهم، وتعمقتْ فيهم، إضافةً إلى الجريمة الأكبر والأشنع، وهي الكفرُ بالله والشركُ به، وعبادةُ الأصنام والأوثان، وجعلها آلهةً مع الله.

فهودٌ عليه السلام وجدَ عند قوم عاد التكبرَ والظلمَ والاستعلاءَ والتجبر على الآخرين.

ولوطٌ عليه السلام وجد عند قومه أسوأَ جريمة وأخبثَ سلوك، وهو شذوذُهم وإتيانُ الرجال شهوةً من دون النساء.

وصالحٌ عليه السلام وجد عند قومِ ثمود الاغترارَ بالنعمة الإلٰهية عليهم في استعمارِهم في الأرض، ونحتِ البيوت في الجبال، وبناءِ القصور في السهول.

وشعيبٌ عليه السلام وجدَ عند قوم مدين جرائمَ اقتصادية، تتعلقُ ببخسِ المكيال والميزان، والإفسادِ الاقتصادي، ولذلك دعاهم شعيبٌ عليه السلام إلى الإقلاع عن هذه الجرائم الاقتصادية والاجتماعية.

وعندما ننظرُ في قصةِ شعيب مع مدين في القرآن، فإننا نجدُ أنَّ الآياتِ سجلتْ لهم الجرائمَ التالية:

عدمُ وفاء الكيل والميزان، وبخسُ الناس أشياءَهم التي معهم، والإفسادُ في الأرض، والقعودُ على الطرق للتعرض للذين يمرون عليها، يتوعَّدونهم، ويهدِّدونهم، ويَسلبونَهم ما معهم من أشياء، ويَصدون الناسَ عن سبيل الله، ويَبغون الحياةَ معوجَّةً بعيدةً عن منهاج الله.

[٤]
دعوة شعيب عليه السلام لهم

دعاهم إلى عبادة الله وحده:

انصبتْ دعوةُ شعيبٍ عليه السلام لقومِ مدين على إنكار ما

يرتكبون من جرائمَ ومفاسدَ وقبائح.

أولُ ما وَجدَ فيهم هو الشركُ بالله، وعبادةُ غيره معه، فبدأَ بدعوتهم إلى عبادةِ الله وحده، والإيمان به وحده، وتركِ عبادةِ غيره معه، والتخلي عن عبادةِ الأصنام والأوثان. وهذه هي نقطةُ البدء التي كان يبدأُ بها كلُّ نبي مع قومه.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

شعيب أخو مدين، وواحد منهم، وليس غريباً عنهم بعثه الله إليهم كلوطٍ عليه السلام.

شعيبٌ يتحببُ إليهم قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فهم قومُه، وهو حريصٌ على مصلحتِهم، ودعوتُه من أجلهم، وهذا أحرى بهم أن يستجيبوا له، لو كانوا يفقهون.

وما طلبهُ منهم واضحٌ مفهوم محدد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: اخضعوا له وحدَه أو أَطيعوه وحدَه، واستسلموا له وحده، ودِينوا له وحده. وهذا هو المعنى الأصليُّ للعبادة.

ويعللُ ذلكَ بأنه لا إله إلا الله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. إنه لا يُعبدُ إلا الله، فبما أنه لا إله إلا الله، فيجبُ أن يكون: لا معبودَ إلا الله، ولا خضوعَ إلا لله.

وهذه هي خلاصةُ دعوةِ كل نبي، وخلاصةُ رسالةِ كلِّ رسول، وخلاصةُ كلِّ دين رباني، وهي خلاصةُ الإسلام والقرآن، وهي نقطةُ البدء التي يجبُ أن يبدأَ بها كلُّ نبي ورسول، وكلُّ داعية ومصلح، يريدُ إعادةَ الناس إلى الله.

وبعدما بدأَ شعيبٌ عليه السلام البدايةَ الإيمانية، وعالجَ أساسَ الداء، وأصلَ الانحراف، التفتَ إلى معالجةِ الجرائم الأخرى، التي صدرتْ عن قومِ مدين.

آيات في إنكار شعيب على قومه جرائمهم:

قال لهم: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦].

وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦].

وقال لهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٧ ـ ١٨٤].

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: المرادُ بالبينة هنا الآيةُ والدليلُ والبرهان، على أن شعيباً عليه السلام هو رسولُ الله إليهم، وأنه يجبُ عليهم اتباعُه.

ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: قدمَ نفسَه لهم باعتباره رسولاً أميناً صادقاً، حَريصاً على مصلحتهم، وأَمَرَهُم بتقوى الله وطاعتِه، وطاعةِ رسولهم الذي بعثه الله إليهم.

وقال لهم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾: إنه داعيةٌ رسول، يقومُ بواجبه في التبليغ والدعوة، وهو لا يريدُ منهم مقابلَ دعوتِه أجراً ولا أجرة، ولا مالاً ولا منفعة، ولا يريدُ أنْ يكلفَهم شيئاً من المال، حتى لا يكونَ هذا صارفاً لهم عن الاستجابة.

ولما نهاهم عن الجرائم المالية والاقتصادية قال لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ﴾. فقد كانوا يَنقصونَ المكيالَ إذا كالوا للناس، وكانوا يَنقصونَ الميزان إذا وَزنوا للناس.

شعيب يأمرهم بتوفية المكيال والميزان:

وأمرهم بتوفيةِ المكيال والميزان، عندما قال لهم: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. وهذا يكون بأن يكيلوا للآخرين وأنْ يَزِنوهم بالتمام.

لقد حثَّهم شعيبٌ عليه السلام على الإِتمام والتوفية بأسلوبيْن: أسلوبِ النهي عن الإِنقاص، ثم أسلوبِ الأمر بالإِتمام والتوفية، وما ذلك إلا لتمكن جريمةِ التطفيف فيهم.

وقد جمعَ الأسلوبيْن: النهيَ والأمر، فيما روتْه آياتُ سورة هود: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أما في سورة الشعراء فقد جاءَ هذا التوجيهُ بأسلوبٍ آخر: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

والقسطاسُ هو الميزان، وهو مبالغةٌ من القسط، والقسطُ هو العدل. فكأن الميزانَ الذي يَزِنون فيه تحوَّلَ إلى قسطٍ مجسَّم كامل.

شعيب ينهاهم عن جرائمهم:

ونهاهم شعيبٌ عن بخسِ الأشياء والحاجيات التي مع الناس: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾. والبخسُ هو الإِنقاص، وهو صورةٌ أُخرى من صور التطفيف، وهو ظلمٌ اقتصادي.

قال الإِمامُ الراغب: «البخس: نقصُ الشيء على سبيل الظلم»(١).

---

(١) المفردات: ١١٠.

أي: عندما تشترونَ الأشياءَ والحاجياتِ من الناس لا تَبخسوهم إياها، ولا تُنقصوها قيمتها، ولا تَشتروها بأقلَّ من قيمتها.

ونهاهم شعيبٌ عن الإِفسادِ في الأرض، عندما قال لهم: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾. وإِفسادُهم في الأرض، المفهومُ من جرائمهم المذكورة في الآيات، إِفسادٌ اقتصادي، يقومُ على التطفيف وإِنقاصِ المكيال والميزان، وإِنقاصِ الناس أثمانَ أشيائهم.

وتوفيةُ المكيال والميزان، وإعطاءُ الناس حقَّهم كاملاً، والوزنُ بالقسطاسِ المستقيم هو الإِصلاحُ في الأرض.

إن الظلمَ الماليَّ والجرائمَ الاقتصادية فسادٌ عريض كبير في الأرض، والتاريخ البشريُّ مصداقُ هذه الحقيقة.

ونَهاهم شعيبٌ عليه السلام عن القعودِ في الطرق، والتعرضِ للناس فيها، وأَخْذِهم لما معهم: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾.

لقد جمَع قومُ مدين بين جريمةِ إِنقاصِ المكيال والميزان، وجريمةِ قطع الطريق على المسافرين، والتعرضِ لهم، وإرهابهم وتهديدهم، والسطوِ على ما معهم، ومحاربةِ المؤمنين بالله، والصدِّ عن سبيل الله، والرغبةِ في حرفِ الطريق إلى الله عن مسارِها الصحيح المستقيم، لتكونَ معوجةً منحرفة.

وذكَّرهم شعيبٌ عليه السلام بفضلِ الله عليهم، وتكثيره لهم، ودَعاهم إلى تذكُّر حالِهم السابق: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

كان قومُ مدينَ قليلاً فكثرهم اللّهُ بالعددِ والنسلِ والمواليد، وكانوا قليلاً من حيث المال، فكثَّر اللّهُ أموالَهم، وكانوا قليلاً من حيث القوة والاقتصاد، فكثَّرهم اللّهُ وزادهم من ذلك، وعليهم أنْ يذكُروا كيف كانوا وكيف أصبحوا بفضْلِ الله وإِنعامِه، إنَّ تذكُّرهم لذلك بقلبٍ مؤمن

شاكر، سيزيدُهم شكراً لله، وإقبالاً على الله، وسيدعوهم إلى تركِ ما هم عليه من مفاسد.

ودَعاهم إلى الاكتفاءِ بالرزق الحلال الذي يكتبه اللّهُ لهم، فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

والمرادُ ببقيةِ الله: ما يُبقيه اللّهُ لهم من رزقٍ ومال حلال، وهو الذي ينتجُ عن وفاءِ المكيال والميزان بالقسط، فهذا خيرٌ وأفضلُ لهم من المال الكثير الحرام، الذي ينتجُ عن إنقاصِ المكيال والميزان.

إن المالَ الكثيرَ الناتجَ عن الحرامِ وأكلِ أموالِ الناس بالباطل، وبخسِ حقوقهم وأثمانِ أشيائهم ليس خَيراً لهم، لأنه يقودُ إلى محقِ المال وتضييعِه، فعاقبتُه شرٌّ لهم.

وإنَّ الربحَ الحلال القليلَ هو خيرٌ لهم، لأن اللّهَ يباركُ لهم فيه، وعاقبتُه الخيرُ والسعادةُ والفوزُ والصلاح.

وأخبرهم شعيبٌ بخوفِه عليهم في المستقبل، إنْ أَصرّوا على جرائمهم المالية والاجتماعية: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

وهذا التخوفُ في محلِّه، إنهم الآنَ في خيرٍ ورخاء وربح ومال، وهذا فضلٌ ونعمةٌ من الله، لكن المستقبلَ الذي ينتظرهم مظلمٌ خطير، لما يرتكبون من جرائم، فإنَّ العذابَ المحيط هو عاقبتُها، وإن الدمارَ هو نهايتُها، وبذلك ينتهونَ إلى الشر!!

[٥]

الدعوة بين شعيب وقومه

قومه ينكرون عليه دعوته ويتهكمون عليه:

بعدَ أنْ دعا شعيبٌ قومَه إلى الله، ونهاهُم عما يرتكبونَه من جرائمَ

ومفاسد، ردَّ القومُ عليه دعوتَه، وسخروا منه.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: ٨٧].

لقد أنكروا عليه دعوتَه إلى توحيدِ الله وعبادتِه، والالتزامِ الأخلاقي الإِيماني في الاقتصادِ والتجارة والأموال، ولم يَقبلوا منه رَبْطَ المال بالإِيمان والأخلاق، فهذا شيء، وذاك شيءٌ آخر!!

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أهذه هي نتائجُ صلاتك التي تصلّيها لله، أنْ ترفضَ الدينَ الذي نحنُ عليه، والذي ورثْناه عن آبائنا؟ لقد وجدْنا آباءَنا يعبدون هذه الآلهة، فعبدْناها، ولا يمكنُ أن يكونَ آباؤنا على ضلال، فكيف تريدُ منا أن نعبدَ اللّهَ وحده، ونتخلى عما ورثْناه عن آبائنا. أهذا ما تأمُرك به صلاتُك؟

أتأمركَ صلاتُك أنْ تلومَنا على تصرُّفنا في أموالِنا كما نشاء؟ لماذا لا تدعنا نتصرفُ في أموالنا كما نشاء! وما دخْلُ صلاتِك ودينِك ودعوتك في أموالنا؟ ولماذا تتدخلُ يا شعيبُ في اقتصادنا وتجارتنا؟ ولماذا تُقحمُ دينَك في حياتنا؟

نحن أحرارٌ في حياتنا نعيشها كما نشاء! ونحن أحرارٌ في أموالنا، ننمّيها ونربحُ فيها ونزيدها كما نشاء! ونحن أحرارٌ في تجاراتنا ومكاييلِنا وموازيننا، نتصرفُ فيها كما نشاء! فكفَّ عنا، ولا تتدخلْ في تجارتِنا واقتصادِنا وأموالنا.

وبالَغوا في السخرية منه قائلين له: ﴿لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾!! أي: ما تقحمُ نفسَك فيه في حياتنا يتنافى مع ما تُظهرُه من حلْمِك ورشدك، إنك تزعمُ أنك حليمٌ رشيد، فإن كنتَ كذلك فدعْ ما تقولُه لنا، وإنْ لم تتوقف عن ذلك فلن تكونَ حليماً ولا رشيداً.

إن هذا الكلامَ الصادرَ عن قومِ مدين في الإِنكار على شعيب، هو نفسُه الكلامُ الذي يصدرُ عن الجاهلِين الجاهليّين دائماً، الذين يستغربونَ تدخُّلَ الإِسلامِ في تجاراتهم وأموالِهم واقتصادهم، بخاصةِ أهلِ هذا العصر منهم!!

إنهم يريدونَ أن يكونوا أَحراراً في اقتصادِهم وتجارتهم وتنميةِ أموالهم، ولا يقبلون إقحامَ الدين أو الأخلاق في أفعالهم، ويرفضون تدخُّلَ الإِسلام في ممارساتهم التجارية، ويستغربونَ من دعاةِ الإِسلام أن يقولوا لهم: هذا حلال، وهذا حرام.

يقولون لدعاةِ الإِسلام: أَصلاتُكم وعبادتُكم تأمركم بالتدخلِ في اقتصادنا؟ أإسلامكُم يحرمُ ما تزعمون من ربا وغش واحتكار وظلم وتطفيف؟ إنَّ إسلامَكم ينظِّمُ العلاقةَ والصلةَ بينكم وبين ربكم، لكن لا دخْلَ له في الحياة والمجتمع، فنحن ننظِّمُ حياتنا الاقتصاديةَ كما نريد.

وكأنهم يقولون كما قالَ قومُ مدين لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

شعيب يرد عليهم ويلتزم بدعوته:

وردَّ شعيبٌ عليه السلام على قومه قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وجوابُه هذا مَعْلَمٌ بارز واضحٌ من معالم الدعوةِ إلى الله، وإقامةِ الحجة على أعداء الله، والتزامِ الداعية بما يدعو إليه، وحرصه على الإِصلاح.

يخبرهم شعيبٌ عليه السلام أنه على بينةٍ واضحةٍ من ربه، وهي النبوةُ والرسالة، فهو على يقينٍ أنه رسولٌ من عند الله، وأنه على حقٍّ

قاطع، وهم على باطل واضح.

واللّهُ رزقَهُ منه رزقاً حسناً، وهو النبوة، أوضحُ نعمةٍ من نعمِ الله عليه، ونعمةُ الإِيمان والهدى والاستقامة هي الرزقُ الحسن، الذي لا يساويه المالُ الكثير الحرام. فما عنده من نعمةِ الهدى والإِيمان لا يساويه ما يجمعونَه من مالٍ حرام.

وأخبرهم شعيبٌ بقاعدةٍ دعوية قاطعة، وهي التزامُه هو أَوَّلاً بما يدعوهم إليه، قبلَ أنْ يطالبهم بالالتزامِ به، إنه لن يَدْعوهم إلى شيء، ثم لا يفعلُه، وإنه لا ينهاهم عن شيء، ثم يرتكبُ ما نهاهم عنه.

وعلى الدعاةِ إلى الله أنْ يَعوا جيداً هذا الموقفَ من شعيبٍ عليه السلام، وأنْ يَقتدوا به في ذلك الالتزام الصادق، وأنْ لا يكونوا أول تاركين لما يَدْعونَ الآخرين إليه، أو أولَ مرتكبين لما ينهونَ الآخرين عنه.

كما أخبرهم بهدفِه من دعوته، وهو الإِصلاحُ بقدرِ ما يستطيع: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

وبعدَ ذلك ذكَّرهم شعيبٌ عليه السلام بما جرى للكافرين من قبلهم من عذاب، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٩ ـ ٩٠].

شعيب يطلب عدم جعل المعركة شخصية ويذكرهم بمن قبلهم:

ومعنى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾: لا يحملكم خِلافي على العناد، ولا يقودُكم هذا إلى رفضِ الحق الذي معي.

أي: لا تعتبروا الأمْرَ خلافاً وشِقاقاً ونزاعاً شخصياً بيني وبينكم، ولا تعتبروا المسألَة معركةً شخصية، إنكم إنْ فعلتُم ذلك فإن هذا سوف يقودكم إلى العناد؛ إذ كيفَ تستسلمونَ لخصْمِكم، وتتنازلون له،

وتنهزمونَ أمامه، ولذلك سوفَ تستمرون على ما أنتم عليه عناداً، ولو ظهر لكم أنَّ الحق معي وليس معكم.

يجبُ عليكم أنْ تنظروا للموضوعِ نظرةً موضوعيةً علمية منهجية، وأنْ تَنسوا البُعْدَ الشخصيَّ فيه، اِبحثوا عن الحق، فإنْ وضحَ لكم أنَّ الحقَّ معي، فلا تَرفضوا اتباعَه لأنه جاءكم عن طريقي، ولكن عليكم اتباعُه!

إنكم إنْ رفضتُم ما معي من الحق عناداً، فسوف تخسرون، وتَبقون على الكفر والضلال، وبهذا تكونون عرضةً لأن يصيبكم العذاب. حيث أَصابَ العذابُ كفاراً معانِدين قبلكم، مثل قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح.

والمرادُ بقربِ قومِ لوطٍ منهم ناحيتان: القربُ المكاني، لأنَّ موقع ديارهم الجغرافيَّ قريبٌ من موقعِ قوم مدين الجغرافي.

والقربُ الزماني، لأنه لم يمضِ على تدميرِ ديار قوم لوط وإهلاكِهم طويلُ عهد، بل دُمِّروا قبلَ فترة قريبة، لأن شعيباً كان قريباً تاريخياً وزمنياً من إبراهيمَ ولوط، عليهم الصلاة والسلام.

ويدعو شعيبٌ قومَه إلى الإقبالِ على الله، ويُحببُهم إلى الله، ويُرغبهم في التوبةِ والاستغفار، ويخبرهم بأن اللّهَ قريبٌ من عباده المؤمنين، وَدودٌ إلى عباده الصالحين التائبين المستغفرين.

ونلاحظُ في خطاب قومِه له الغلظةَ والجفاءَ والجلافة، مع السخريةِ والاستهزاء، وهذه سماتُ خطابِ الكفار للأنبياء دائماً.

بينما نلاحظُ في خطابِ شعيب عليه السلام لهم وردِّه عليهم، الموضوعيةَ والاعتدال، والحكمةَ والاتزان.

ردهم عليه بغلظة وقسوة ولولا رهطه لرجموه:

لكن هذا الأسلوب لم يؤثِّرْ في قومه، فردّوا عليه ردّاً آخر، وقالوا

لـه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود: ٩١].

وهذا الردُّ في غاية الغلظةِ والقسوةِ والجفوة، الصفاتُ التي لا تفارقُ الكفارَ أبداً.

ادَّعوْا أوَّلاً عدمَ فقههم لكثيرٍ مما يقولُه لهم، وليس هذا ناتجاً عن عجمةٍ في التعبير من قِبَلِ شعيب، فهم عربٌ فصحاء، وهو عربيٌّ فصيح، يخاطبهم بمنطقٍ واضح، ولغةٍ عربية فصيحة، ولكنهم لا يُريدونَ أن يَفقهوا دعوتَه، ولا أنْ يُدْخلوها قلوبَهم، لأنهم يرفضونَها أساساً، كونها تتعارضُ مع ما عندهم من أعرافٍ وعادات. لا يُريدونها، ولذلك لا يفقهونها!!

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾: نظروا إلى شعيبٍ بمنظارِ المظاهر الدنيوية الفارغة، فاستضْعَفوه، لأنهم وجَدوه لا يملكُ منها شيئاً يُذكر، ولم ينظروا له بمنظارِ الحقائق والقيم والمبادئ، ولو فَعلوا ذلك لوجدوه غنياً قوياً، لا يقاربه أحدٌ في الغنى والقوة، ويكفيه أنه مع الله، يمنحه اللّهُ القوة، ومَن كان كذلك لا يكونُ ضعيفاً.

هو بمنظارِ قومِه الماديِّ الجاهلي ضعيف. فلماذا لم يؤذوه ويضربوه؟ أَخْبَروه عن سببِ ذلك قائلين: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾.

إنَّ الذي منعَهم مِن رجْمِهِ هو رهطُه وجماعتهُ وعشيرتُه، فهم لا يَحسبون حساباً له، ولا يجعلون وزْناً له، لأنه ليس عزيزاً عليهم، ولا مكرَّماً عندهم. إنما اعتبارُهم لعشيرتِه ورهطه.

لقد قالوا له ذلك مبالغةً في السخرية مِنه والتهكمِ عليه، وإيذائه نفسياً بإِسْماعِه هذا الكلامَ القاسيَ الجافي.

وقولهم له: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ دليلٌ على أنَّ رهط شعيبٍ

عليه السلام كان له قيمةٌ اجتماعية كبيرة، ووزنٌ اجتماعي ثقيل، وأنه كان ينتسبُ إلى عشيرةٍ ذاتِ نسَبٍ شريفٍ عزيز في مدين، وذاتِ قوةٍ وتأثير فيهم.

ونتذكَّرُ غربةَ لوط عليه السلام في قومه، وضعْفَه العشائريَّ بينهم، ونضعُ قولَه لقومه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ بجانب قولِ مدين لشعيب عليه السلام: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾. لنعرفَ معنى قولِ رسول الله ﷺ - الذي سبقَ أنْ أوردْناه - في تعليقِه على قول لوط السابق: «وما بعثَ اللّهُ بعده نبياً إلا وهو في ثروةٍ من قومه».

بين الميزان الجاهلي والميزان الإيماني:

وأمامَ تهجُّم مدينَ على شعيب، وتصريحهم بعدمِ تكريمهم له، وأَنهم إنما يراعونَ رهطه، أعادَ لهم المسألةَ إلى وضْعِها الصحيح، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩٢].

مَنْ هو الأَوْلى بالمراعاةِ والاعتبارِ والإِعزاز: أَرهطي وعشيرتي أم اللّهُ ربُّ العالمين؟

إِنه يرفضُ ميزانَهم وعرفَهم الجاهلي، القائم على اعتبارِ الموازين والقيم الماديةِ الجاهلية، التي تكرم العشيرةَ بحدِّ ذاتها، بدون نَظرٍ إلى ما يتوفرُ فيها من قيم وحقائقَ صحيحةٍ صادقة. ويَدْعوهم إلى الميزانِ الإِيماني الصادق، الذي يَزِنُ الناسَ والأشخاصَ والرهط وَزْناً إيمانياً، ويكرمُهم على أساسِ ما يتوفَّر لهم من إيمانٍ وهدى.

يقول لهم: أَيُّهما الأَوْلى بالإِعزاز: أَرهطي أم اللّهُ ربكم؟ وكيفَ جعلْتم رهطي أعزَّ عليكم من الله؟ وكيف جعلتم اللّهَ ربَّكم وراءَكم ظِهْرياً؟ ونسيتموه، ولم تجعلوا له قيمةً ولا اعتباراً؟

إِنه يدعوهم إلى جَعْلِ الاعتبارِ لله، وإلى تكريمِ مَنْ كَرَّمه الله، وإلى إهانةِ مَن أهانَه الله، إلى رفْعِ مَنْ رفعه الله، ووَضْعِ مَنْ وضَعَه الله.

لكن أنّى لهم الاستجابةُ لدعوتِه، واستعمالُ مقياسِه وميزانه، وهم الكفارُ الجاهلون؟

[٦]

قوم مدين يصعّدون المواجهة مع شعيب

قوم مدين فريقان أمام دعوة شعيب:

وانتقلت المواجهةُ بين شعيبٍ عليه السلام وبين قومه إلى مرحلةٍ أخرى، أكثر حدةً وشدةً وعنفاً، حيثُ صعَّد قومُه من مواجهتهم له ولأَتْباعه الذين آمَنوا به.

لقد قامَ شعيبٌ عليه السلام بواجبه تجاهَ قومِه، وبلَّغَهم ما أمرهُ اللّهُ به، وأقامَ عليهم الحجة، وهذا كلُّ ما يملكُه تجاهَهم، وما يجبُ عليه نحوهم.

ولقد آمنَ به مَنْ آمن منهم، واستجابَ له مَن كان فيه خير، وصار مِنْ أَتْباعِه المؤمنين الصالحين.

أما الأغلبيةُ من قومه، فقد أَغلقوا قلوبَهم أمامَ دعوته، وأصرّوا على الكفرِ والتكذيب.

وعند هذه المرحلةِ من قصةِ شعيبٍ عليه السلام مع قومه، يكون كلٌّ منهم قد اختارَ طريقه، اختارَ الإِيمان أو الكفر، اختارَ تصديقَ شعيبٍ عليه السلام أو تكذيبَه.

وبذلك تمايزت الصفوف، وتمَّ «فَرْزُ» أهل مدين إلى فريقَيْن:

الفريق الأول: شعيبٌ عليه السلام، ومَنْ آمن به واتَّبعه من قومه، وهم قليل، لأن أَتباعَ الإِيمانِ والحق دائماً قليلون.

الفريق الثاني: الملأُ من قوم مَدْيَن الكفار، الذين قادوا قومَهم في الكفر، وجنَّدوهم لمواجهةِ شعيب عليه السلام وأَتْباعه المؤمنين.

وانحازَ كلٌّ إلى فريقِه، وصعَّدَ كلٌّ من مواجهته لخصمِه، وبقيت المرحلةُ التالية، مرحلةُ الحسم والفصل، وإنهاءُ هذه القصة، وفقَ السنةِ الربانية، وهي نجاةُ المؤمنين، وهلاكُ الكافرين. وهذا الحسمُ والفصلُ بيد الله وحده، يأتي اللّهُ به وقتما يشاء.

شعيب يطلب من الكفار انتظار الحسم:

وفي انتظارِ الحسمِ الرباني جرى كلامٌ بين شعيبٍ عليه السلام وبين الملأ من قومه الكافرين، وعرضَ عليهم شعيبٌ عرضاً، وطلبَ منهم طلباً، لكنهم رفضوا عرضَه، وأصرّوا على تصعيدِ المواجهة.

قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ٩٣].

وقال لهم: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧].

طلبَ شعيبٌ عليه السلام من كلِّ فريق أنْ يعملَ على مكانته ومنهجه وطريقه، فالقومُ الكافرون يعملون على مكانتِهم وطريقتهم، وشعيبٌ ومَن معه يعملون على مكانتهم وطريقتهم.

والكلُّ ينتظرُ النهايةَ والعاقبة، وسوف تُحسم المسألةُ في المستقبل.

وطلبَ شعيبٌ منهم أنْ يَصبروا حتى يأتيَ الحسمُ في المستقبل، وأنْ لا يتعجّلوا هم في المواجهةِ والتصعيد والحسْم: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

لكنّ كلامَه لهم يتضمنُ التهديد، لأنه يوقنُ أنه على هدى وأنهم على ضلال، يوقنُ أنه صادقٌ وأنهم كاذبون، ولهذا يوقن أن الله سينجيه

ومَنْ معه من المؤمنين، وسيُهلك اللّهُ الفريقَ الآخر الكافر: ﴿سَوْفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾.

اِعملوا، واصبروا، وانتظروا، وارتقبوا إني معكم رقيب. ولا تَبْدؤونا بالإِيذاءِ والعدوان، واطلبوا من الله أنْ يحكمَ بيننا وبينكم، وأنْ يُنهيَ الأمرَ لصالحِ أهدى الفريقيْن.

إنَّ كلامَ شعيبٍ عليه السلام لقومه في غايةِ الإِنصاف، وإنَّ ما طلبه منهم لهو طلبٌ موضوعي منهجي علمي، وهذا أقصى ما يفعلُه معهم، بعد أن أدّى واجبه تجاهَهُم.

لكن هل يقبلُ الملأُ المستكبرون ذلك منه؟ وهل يوافقون على هذه الموضوعيةِ وهذا الإِنصاف والانتظار؟ وهل يسكتون عليه وعلى أتباعه إلى أنْ يحكمَ اللّهُ بين الفريقين؟ كلا.

تشنج القوم في الرد عليه إما الطرد وإما الردة:

لقد ردَّ الملأُ على شعيب رداً متشنجاً غليظاً قاسياً: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

الملأُ المستكبرون هم الذين كانوا يقودون قومهم في مواجهةِ شعيبٍ عليه السلام، ويُهيّجونهم ضدَّه وضدَّ دعوته، وأشدُّ القوم عداءً لكلِّ نبي هم الملأ المستكبرون، وكلُّ نبي كان يواجه الملأَ في المقام الأول.

لم يقبل الملأُ المستكبرون من قوم مدين الانتظار، والصبرَ على الحكم، والمهادنةَ مع شعيب وأتْباعه، وإنما أرادوا تعجيلَ الحسم وإنهاءَ المسألة، وصعَّدوا المواجهة حيث هدَّدوا بإخراجِ شعيبٍ والذين آمنوا معه من القرية.

لقد وضعوا شعيباً وأتْباعه المؤمنين أمامَ خياريْن جاهليْين عنيفيْن،

صادريْن عن قوم مستكبرين مستبدّين متشنجين: إما أنْ يتخلّوا عن دينهم ويعودوا إلى ملّةِ قومهم، وإنْ كانتْ ملةً باطلة في نظرهم، وإمّا أنْ يَخرجوا من بينِ القوم، ويُغادروا القرية.

والإضافةُ في قولهم: ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ توحي بالتكبرِ والاعتدادِ والعنجهية، وكأنَّ الملأَ الكافرين المستكبرين يقولون لشعيب وأَتْباعه: إنَّ القريةَ قريتُنا، وليست قريتكم، هي قريتُنا وبلدتُنا، ونحن أحرارُ التصرف فيها، نُبقي فيها مَن نشاءُ إبقاءَه، ونُخرج منها مَن نشاء طردَه وإخراجَه. وأنتم فقدتُم حقكم في المواطنةِ والملكية في القرية. لأنكم أتيتُم بدينٍ جديد، وخالفتم دينَ الملأ الحاكمين، فلستم من الأهلِ والأقارب، ولا من المواطنين، ولا بدَّ أنْ تغادروا من بيننا، وأنْ تتركوا قريتنا لنا.

إنَّ منطقَ هؤلاء المستكبرين هو منطقُ الملأ المستكبرين في كلِّ زمان ومكان، عندما يَقفون أمامَ الأنبياء ودعاةِ الحق، ويعاملونهم بهذه الغلظةِ والجلافةِ والقسوة، ويُخيِّرونهم بين أمريْن أحلاهما مُرّ: فإمّا أنْ يتخلّوا عن ما هم عليه، ويعودوا إلى باطل قومهم، نادمين تائبين، وإمّا أنْ يُصَبَّ عليهم العذابُ والنكال والأذى، وقد يوصِلُ ذلك إلى سجنهم، أو نفيهم وإخراجهم، أو قتلهم.

وبهذا يعيدُ هؤلاءُ الملأ المستكبرون قولَة الملأ من قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

وفي هذا الردِّ المتشنج من الملأ على دعوةِ شعيبٍ للانتظار والمراقبة، دليلٌ آخر على أنَّ الملأَ المستكبرين المستبدين، لا تنفع معهم أيةُ وسيلةٍ لتحييدهم، أو تخفيفِ عداوتهم، وأنهم يصرّون دائماً علىٰ إيقاعِ الأذى بأصحاب الحق، ومهما حاولَ أصحابُ الحق إزالةَ العداوةِ والحقدِ عند أولئك، فلن يتمكنوا من ذلك.

ما قاله شعيب لقومه وثباته:

وقد ردَّ شعيبٌ عليه السلام على تهديدِ الملأ من قومه، وعلى

الخيارين اللذين وضعوهما أمامه بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩].

اختارَ شعيبٌ عليه السلام وأَتباعُه خيارَ الثبات على دينِ الله، ورفضوا العرضَ المقدمَ لهم للعودة إلى الباطل، واستعدّوا لتحملِ ما ينتجُ عن ذلك، وهذا هو الموقفُ الثابتُ الذي يقفُه كلُّ رسول، وكلُّ مَن ساروا بصدقٍ على طريقِ الرسول، عليه الصلاة والسلام.

قال شعيبٌ للملأ من قومه: هل تظنّون أننا كارهون لإِخراجكم لنا من قريتكم، إننا لا نكرهُ ذلك الإِخراج، ونستعدُّ له، ونعرفُ الباعثَ الذي يحملكُم عليه، إنه كرهكُم للحقِّ ولجنودِه.

أما عودتُنا لملتكم الباطلةِ ودينكم المحرَّف، فهذه لن تكون، لأننا نوقنُ أنكم كافرون ضالون، وأننا مؤمنون مهتدون. وكم نكون كاذبين على اللّهِ إنْ عُدنا إلى ملتكم بعدَ إذْ نجانا اللّهُ منها!

لقد منَّ الله علينا بنعمةِ الإِيمان، فكيفَ نعودُ إلى ما أنتم عليه من كفر؟ إنَّ هذا لن يكون، إلاّ أنْ يشاءَ اللّهُ ربنا، فنحنُ ننوي الثباتَ على الحق، وعدمَ الارتكاسِ للباطل، أَما إذا شاءَ اللّهُ لنا التراجعَ والانتكاسَ والفتنة، والعودةَ لملتكم، فلا يكونُ إلا ما شاء وأراد.

إننا قد توكلْنا على الله، واعتمدْنا عليه، وسلَّمنا أمْرَنا له، وطلبْنا منه أنْ يُثبتَنا على الحق، وأنْ لا يفتِنَنا بالعودةِ للباطل، وأن يعينَنا على تحمُّلِ ما يترتبُ على ذلك مِن محنٍ وأذى.

ونطلب من الله أن يفتح بيننا وبينكم، وأن يحسمَ المواجهة بيننا وبينكم، وأنْ يمنَّ علينا بالنجاةِ والنصر، وأنْ يكتبَ عليكم الهزيمةَ والهلاك، وأن يطبقَ علينا وعليكم سنته الدائمةَ بنصرِ الحق وإزهاقِ الباطل!

وبهذا حسمَ شعيبٌ عليه السلام وأَتباعُه المسألة، وأَحْسَنوا الاختيار، وثَبَتوا على الحق، مهما كان الثمن.

الملأ يهددون أتباع شعيب:

وأمام ثباتِ شعيب على الحق. حاولَ الملأُ المستكبرون محاولَتَهم الأخيرةَ في مواجهةِ دعوتِه، حيث توجَّهوا إلى أَتباعه المؤمنين، مهددين متوعدين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٠].

أرادَ الملأُ الكافرون مِن مَدْينَ بهذا التوجُّهِ للأَتْباعِ، وتهديدِهم وتوعُّدِهم، أنْ يؤثروا في الأَتْباع، وأَنْ يَجعلوهم يتخلَّون عن الحق، وذلك لينفضّوا عن شعيبٍ ودعوتِه.

قالوا لهم: إنْ أَصررتُم على تصديقِ شعيب وأَتباعه، فإنكم تكونون خاسِرين، خاسِرين لكلِّ شيء: سنجعلكم تَخسرون العملَ والمال، والأَمنَ والهدوء، وحتى البيت والأرض والقرية عندما نخرجكُم منها، وقد نجعلكم تَخسرون الحياةَ والدنيا، عندما نقتلكم ونتخلصُ منكم!

لما أخفقَ الملأُ الكافرون في محاولاتِهم مع الرسولِ شعيب عليه السلام، ولم يَنجحوا في زحزحتِه عن الحق، توجَّهوا إلى جنوده وأَتْباعه المؤمنين، وذلك ليجفِّفوا الروافدَ حول الحق والدعوة، وليبقى شعيبٌ في النهاية وحده، ليسهلَ القضاءُ عليه.

وهذا موقفٌ مكررٌ للأعداءِ الكافرين في حربهم للأَنبياء ودعواتِهم. فحينما كانوا يُخفقونَ مع الأنبياء والقادة كانوا يحاولونَ ذلك مع الجنودِ والأَتْباع، ولكنهم كانوا يُخفقون حتى مع هؤلاء!

الملأ يطلبون عذاب الله:

لم ينجح الملأُ الكافرون في جهودِهم مع الأَتْباع، فاستعملوا

السلاحَ الأخير ضدَّ شعيب ودعوته، حيث طلبوا منه عذابَ الله إنْ كان صادقاً. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٨].

اتَّهموه بالسحر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾. والمسَحَّرون هم المسحورون. تقول: هو مسحور. أي وقعَ عليه السحر، فصارَ يتصرفُ بدون عقلٍ ولا وعي.

وتقول: هو مسَحَّر. وهذا أكثرُ مبالغةً من المسحور.

اعتبروا شعيباً مُسَحَّراً مسحوراً، بدون عقل، وكلامُه لا يُعقلُ أنْ يصدرَ عن عاقلٍ في زعمهم!

واعتبروا بشريتَه مطعناً في نبوته: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فلا يقبلُ عندهم أنْ يجعلَ اللّهُ نبياً بشراً، فإنْ بعثَ اللّهُ نبياً، فلا بدَّ أنْ يكون مَلَكاً من الملائكة.

وبَنوا على ذلك نتيجةً أُخرى، وهي أنه كاذب: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. فهو عندهم كاذبٌ في دعوى النبوة والرسالة، وفي ادِّعاء أَنه على هدى، وفي دعوتِه لهم للدخولِ في دينه، كاذبٌ في كلِّ ما يقولُه لهم!

وبما أنه كاذبٌ في تهديدِه لهم بوقوعِ العذاب بهم، فلن يقعَ بهم ذلك العذاب، ولذلكَ طلبوا منه أنْ يوقعَ بهم العذاب في صورةٍ عجيبة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

والكِسَفُ هي: القِطعَ، ومفردُها كِسْفَة وهي القطعة.

قال الإمام الراغب: «الكِسْفَة: قِطعةٌ من السَّحاب والقُطن، ونحو ذلك من الأجسامِ المتخلخلةِ الحائلة، وجمعُها كِسَف»[1].

---

(١) المفردات: ٧١١.

إنْ كنتَ يا شعيبُ نبياً كما تقول، فقَطِّع السماءَ إلى قِطَع متفرقة، ثم أَسقِطْها علينا كسفاً متتابعة، وقِطَعاً متكاثفة، ليكونَ فيها هلاكُنا ودمارُنا وموتنا.

وقد ردَّ شعيبٌ عليه السلام على هذه السخرية بأنْ أَخبرهم أن هذا بيدِ الله، وهو يعلمُ كلَّ ما يصدرُ عنهم من جرائم: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴿١٨٨﴾﴾.

[٧]

تعذيب مدين بالرجفة والصيحة والظلة

بعدما هددَ الملأُ من قوم مدين بإخراجِ شعيبٍ وأَتْباعه من قريتهم، وبعدما كذَّبوه، وطَلبوا منه أنْ يأتيهم بعذابِ الله، وأنْ يُسقطَ عليهم السماءَ كِسَفاً، وصلتْ قصةُ شعيبٍ عليه السلام مع قومه إلى نهايتها، فقد أقامَ عليهم الحجة، وبلَّغهم الدعوة، وأَصرّوا على كفرهم وعنادِهم، وانتهى كلُّ شيء.

عند ذلك أَتاهم أَمْرُ الله، وحقَّتْ عليهم سنةُ الله، فأَوقعَ اللّهُ بهم العذابَ والدمار. وأنجى شعيباً عليه السلام وأَتْباعَه المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١ ـ ٩٢].

تشيرُ هذه الآياتُ إلى أنَّ اللّهَ عذَّبهم بالرجفة.

أخذهم بالرجفةِ: حركة الساكن أسكنت المتحرك:

قال الراغب عن الرجفة: الرجف: الاضطرابُ الشديد. يقال: رَجفت الأرض، ورجفَ البحر»[١].

---

(١) المفردات: ٣٤٤.

لقد حركَ اللّهُ الأرضَ من تحتهم حركةً قوية، فاضطربتْ اضطراباً شديداً، ووقعت الصيحةُ والزلزال، فقضتْ عليهم وأَبادَتْهم، وأَصبحوا في ديارهم جاثمين، جُثثاً هامدة، بدون حركةٍ أو حياة.

إنَّ الأصلَ في الأرضِ أن تكونَ ساكنةً هادئةً مستقرة، والأصلُ في الناسِ أن يكونوا متحركين نشيطين، أَقوياءَ أحياء.

ولكنَّ اللّهَ لما عذبَ قومَ مدين، حركَ الأرضَ الساكنة، فقضتْ على حركةِ القوم فوقَها وأَسكنَتْهم، أي: تحركَ الساكنُ المستقرُّ فأسكن المتحرك، وجعَلَه جاثماً هامداً.

وعقَّبت الآياتُ على هلاكهم بقولها: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۚ﴾.

قال الإِمام الراغب: «غَنَىٰ في مكانِ كذا: إذا طالَ مقامُه فيه، مستغنياً فيهِ عن غيره بغِنى. قال: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۚ﴾»[1].

لقد كانَ قومُ مدين في بلادِهم أغنياءَ سعداء، أعطاهم اللّهُ فيها ما أَعطاهم من النعمِ والخيرات، فاستغنوا في بلادهم، وأقاموا فيها إقامةً مستقرة، وعاشوا فيها حياةً هانئة.

وكانَ عليهم أنْ يشكروا اللّهَ على نِعَمه، لتبقى تلك النعمُ عليهم، وليستمروا في إِقامتهم أغنياءَ مستغنين.

ولكنهم قابَلوا تلك النعمَ بالجحود والكفران، فزالتْ عنهم، وعَذَّبهم الله، وقضى عليهم، فكأنَّهم لم يغنوا في بلادهم، لم يُقيموا فيها، ولم يَعيشوا عليها، ولم يَستغنوا بها، وغادروها إلى لعنةِ الله وعذابه.

من هم الخاسرون ومن هم الفائزون:

لقد كانَ الملأُ المستكبرون من مدين يقولون للذين آمنوا بشعيب:

---

(١) المفردات: ٦١٦.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

والآن: أنجى اللّهُ المؤمنين الذين اتَّبعوا شعيباً، فكانوا فائزين مُفلحين ناجحين، ولم يكونوا خاسرين. أمّا الذين كَذَّبوا شعيباً وعادوه وحاربوه فها هم هلكى، في ديارهم جاثمين هامدين أموات.

فمن هم الخاسرون؟ هل هم الذين آمَنوا بشعيب فأَنجاهم الله؟ أم هم الذين كَذَّبوه فأهلكهم الله؟ الجوابُ صريح في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

وبينما أَخبرتْ آياتُ سورةِ الأعراف أن اللّهَ أهلكَ قوم مدين بالرجفة، فقد أَخبرتْ آياتُ سورة هود أن اللّهَ أهلكهم بالصيحة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

أخذهم بالصيحة والزلزلة والظلة:

أنجى اللّهُ شعيباً عليه السلام وأَتباعَه المؤمنين بفضله ورحمته، وأخذَ الكافرين بالصيحة فأهلكهم، حيث أَصبحوا في ديارهم جاثمين هامدين، كأن لم يَغنوا ولم يُقيموا ولم يسكنوا ولم يستغنوا في قريتهم.

قال الإِمام الراغب في الصيحة: الصيحةُ رفعُ الصوت. وأَصْلُها: تشقيقُ الصوت. من قولهم: انْصاحَ الخشب أو الثوب. إذا انشقَّ فسُمع منه صوت..»[1].

والصيحةُ التي أَخذهم الله بها هي صوتُ الزلزلة العالي، الناتجُ عن رجف الأرض وانشقاقها، حيثُ رجفت الأرضُ بهم، وحصلَ الزلزالُ المدمر، وبعد ذلك الزلزال والانشقاق جاءت الصيحةُ الشديدة،

---

(١) المفردات: ٤٩٦.

التي كانت سبباً في هلاكهم.

وقد ذكَّرتْنا الآياتُ بإهلاك ثمود. فقالت: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

لقد دمَّرَ اللّهُ ثمود من قبل، فأَبعدهم من المكان والأرض، وأَبعدهم من الوجود والحضور، وأَبعدهم من التاريخ والذكر، والآن دَمَّرَ مدين، فأبعدَها من كل ذلك، كما أبعدَ من قبلها.

لكن لماذا ذِكْرُ ثمود في هذه الآيات؟ وقد دَمَّرَ اللّهُ أقواماً كافرين غيرها، كقومِ عاد، وقوم لوط.

ذِكْرُ ثمود هنا لاشتراكِ مدينَ مع ثمودَ في نوعِ العذاب الواقع بهم:

قال تعالى عن ثمود: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال تعالى عن مدين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

أما سورةُ الشعراء فقد أخبرتْ أن اللّهَ دمَّرَ قومَ مدين بالظلة، وسماهم أَصحابَ الأيكة. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧].

ثم قال عن تعذيبهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

والظلةُ هي السحابة التي تظلّلُ الناس، عندما تكون فوقَهم في السماء، فتجعلُ لهم ظلاً وفَيْئاً.

وهذه الظلةُ التي فوقَ مدين ظلةُ عذاب، وهي ناتجةٌ عن الرجفة والصيحة. حيثُ أعقبَ الصيحةَ والزلزلة، خروجُ دخانٍ بركاني كثيف،

ارتفعَ في الجو، وظلّلهم، وصارَ سحابةً بركانية قاتلة، أبادتْهم وقضتْ عليهم

ولا تناقضَ أو تعارضَ بين ما ذكرتْه السورُ الثلاثة: الأعراف وهود والشعراء. عن تعذيب قوم مدين.

أَخبرتْ سورةُ الأعرافِ أن اللّهَ عَذَّبهم بالرجفة، وأَخبرتْ سورةُ هود أن اللّهَ عَذَّبهم بالصيحة، وأَخبرتْ سورة الشعراء أن الله عذبهم بالظلة.

فما الحكمةُ في تفاوت هذه الأخبار؟

حجة من جعلهم قومين: مدين وأصحاب الأيكة:

لقد دفعَ هذا التفاوتُ بعضَ المؤرخين والمفسرين إلى القول: إن اللّهَ بعثَ شعيباً إلى قومَيْن اثنيْن. فبعثه أَوَّلاً إلى قومِ مدين، وهم قومُه وأهلُه، فلما كذَّبوه عذَّبهم الله بالرجفة والصيحة، كما أخبرتْ سورتا الأعراف وهود.

وبعد ذلك وجَّهه اللّهُ إلى قومِ آخرين كافرين، هم أصحابُ الأيكة، وهم قوم كانوا يَعبدون صنَماً اسمُه الأيكة، فلما كذَّبوه، أَخذهم اللّهُ بالعذاب، وهو عذابُ يوم الظلة، كما أخبرت سورة الشعراء.

واستَشهدوا لرأيهم هذا بأنَّ الآيات أخبرتْ أن شعيباً أَخو مدين، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

بينما لم تُخبرْ أنَّ شعيباً هو أخٌ لأصحاب الأيكة، ولم يقل لهم شعيب: يا قوم، كما قالَ لقومه مدين. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧].

الراجح أن مدين هم أصحاب الأيكة وكلام لابن كثير:

ولسْنا مع هؤلاءِ في رأيهم، ولا في استشهادهم واستنتاجهم، فالراجحُ أنَّ شعيباً عليه السلام بُعثَ إلى قومِه مدين، ومدين هم أنفسُهم أصحابُ الأيكة، وأنَّ اللّهَ دمَّرَ مدين أصحابَ الأيكة بعذابٍ واحد، هو الرجفة والصيحة والظلة.

إننا معَ الإمام ابن كثير في ما قالَه حولَ ذلك: «ذكرَ اللّهُ في سورة الأعراف أنهم أخذتْهم رجفة، أي: رجفتْ بهم أرضُهم، وزُلزلتْ زلزالاً شديداً، أزهقتْ أرواحَهم من أجسادهم، وصيَّرَت حيوانَ أرضهم كجمادها، وأصبحتْ جثثُهم جاثية، لا أرواحَ فيها، ولا حركات بها، ولا حواسَّ لها.

وقد جمعَ اللّهُ عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المَثُلات، وأشكالاً من البليّات، وذلك لما اتصفوا به من قبيحِ الصفات.

سلطَ اللّهُ عليهم رجفةً شديدة، أسكتت الحركات، وصيحةً عظيمة أَخمدت الأصوات، وظلةً أرسلَ عليهم منها شررَ النارِ من سائر أرجائهم والجهات.

ولكنه تعالى أخبرَ عنهم في كل سورة بما يناسبُ سياقها، ويوافقُ طباقَها:

في سياقِ قصة الأعراف أَرجفوا نبيَّ الله وأصحابَه، وتوعَّدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودون في ملَّتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. فقابلَ الإرجافَ بالرجفة، والإخافةَ بالخيفة، وهذا مناسبٌ لهذا السياق، ومتعلقٌ بما تقدمه من السياق.

وأما في سورةِ هود: فذكَرَ أَنهم أخذتْهم الصيحة، فأَصبحوا في ديارهم جاثمين. وذلك لأنهم قالوا لنبيِّ الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقُّص: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

فناسبَ أنْ يَذكر الصيحة، التي هي كالزجرِ عن تعاطي هذا الكلامِ القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسولَ الكريم الأمينَ الفصيح، فجاءتهم صيحةٌ أسكتَتْهم، مع رجفةٍ أسكنتهم.

وأما في سورةِ الشعراء: فذكَرَ أنه أخذهم عذابُ يوم الظلة، وكان ذلكَ إجابةً لما طلبوا، وتقريباً لما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾. قال تعالى وهو السميع العليم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾.

ومن زعمَ من المفسِّرين، كقتادة وغيره: أنَّ أصحابَ الأيكةِ أُمةٌ أُخرى غير أهل مدين، فقولُه ضعيف.

وإنما عمدتُهم شيئان:

أحدُهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ ولم يقل: أخوهم. كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

والثاني: أنه ذكرَ عذابهم بيومِ الظلة، وذكَر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجوابُ عن الأول: أنه لم يذكر الأُخوة، بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ لأنه وصفَهم بعبادةِ الأيكة، فلا يناسبُ ذكْرَ الأخوةِ ههنا. ولما نَسبهم إلى القبيلةِ ساغَ ذكْرُ شعيبٍ بأنه أخوهم.

وهذا الفرقُ من النفائسِ اللطيفة العزيزة الشريفة!

وأما احتجاجُهم بيوم الظلة، فإنْ كان دليلاً بمفردِه على أن هؤلاء أمةٌ أخرى، فليكنْ تعدادُ الانتقام بالرجفةِ والصيحة دليلاً على أنهم أُمَّتان أُخريان. وهذا لا يقولُه أحدٌ يفهَمُ شيئاً من هذا الشأن!

ثم قد ذكرَ اللّهُ عن أهلِ الأيكة من المذمَّةِ ما ذكَره عن أهل

مدين، من التطفيفِ في المكيالِ والميزان. فدلَّ على أَنهم أمةٌ واحدة، أُهلكوا بأنواعٍ من العذاب. وذَكَر في كل موضعٍ ما يناسبه من الخطاب..»[1].

مدين هم أصحاب الأيكة وتعذيبهم على ثلاث مراحل:

إذن: الراجحُ أنَّ قومَ مدين هم أصحابُ الأيكة، وهم الذين أهلكَهم اللّهُ بالرجفة، التي نتَج عنها الصيحة، وهي التي نتجَ عنها الظلة.

وكان عذابُهم على ثلاثِ مراحل متعاقبة متدرجة:

المرحلةُ الأولى: الرجفة: حيثُ رجفت الأرضُ من تحتهم، وتحركتْ بهم حركةً شديدة، وزُلزلتْ بهم زلزلةً قوية.

المرحلةُ الثانية: الصيحة: حيثُ نتجَ عن رجفةِ الأرض وزلزلتِها وتشقُّقها صيحةٌ عاليةٌ، وصوتٌ مرتفعٌ مُدَوٍّ، وانفجارٌ كبير، أفزعهم وأخافَهم وأرعبهم.

المرحلةُ الثالثة: الظلة: وهي السحابةُ البركانية الحارقة، المكونةُ من الدخان الزلزالي، الذي تصاعدَ من زلزالِ الأرض وتشقُّقها، والذي أعقبَ الصيحةَ المدوية والانفجار الكبير.

وبهذا نعرفُ أنه لا تناقضَ أو تعارضَ بين الإِخبار عن تدميرهم بالرجفةِ والصيحة والظلة.

شعيب يخاطب مدين بعد موتهم:

وبعدما دمرَ اللّهُ قومَ مدين بالعذاب، وأَنجى شعيباً عليه السلام ومَن آمن به، وقفَ شعيبٌ عليه السلام على أطلالِ قومه الهالكين، وكلَّمهم وهم موتى هامدون، ساخراً بهم، مُعقباً على دمارهم.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٩٣ ـ ١٩٤.

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

قال يخاطبُ الجثثَ الهامدة: يا قوم، لقد أبلغتُكُم رسالاتِ ربي، وأقمتُ عليكم الحجة، ودعوتُكم إلى الله، وبذلتُ أقصى طاقتي في نصحكم والحرصِ عليكم، ودَلَلْتكُم على طريقِ النجاة، وحذَّرتكم من هذا العذاب الذي وقعَ بكم، وهذا المصير الذي صرتُم إليه.

لكنكم قابلْتُم دعوتي بالإنكار، وتحذيري بالسخرية، وكذَّبتم ما أخبرتكم عنه، وأصررْتُم على العنادِ والتكذيب، والإِعراضِ والكفر. وبذلك جنيتُم على أنفسكم، واستقدمتم العذاب، فكيف آسى عليكم؟ وكيف أحزنُ عليكم؟

إنكم تستحقونَ ما وقعَ بكم، وأنتم السببُ في ما انتهيتم إليه، فبئسَ المصيرَ مصيرُكم، وبئست النهايةُ نهايتكم!!.

ولا غرابةَ أنْ يخاطبَ شعيبٌ عليه السلام قومَه الموتى بعد موتهم بقوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ لأنه يعلمُ أنهم الآن ـ بعد موتهم ـ يَسمعون كلامَه، ولكنهم لا يقدرون على الردِّ عليه، لانتقالِهم إلى مرحلةِ البرزخِ والقبر، حيث يسمعُ الأمواتُ كلامَ الأحياء، لكنهم لا يردّون عليهم.

وهذا ما فعلَه رسولُ الله محمد ﷺ مع قتلى المشركين من قريشٍ في معركةِ بدر، بعدما دَفنهم في القليب.

روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسولَ الله ﷺ تركَ قتلى بدرٍ ثلاثاً، ثم أتاهم، فقامَ عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أميةَ بن خلف، يا عُتبةَ بن ربيعة، يا شيبةَ بن ربيعة: أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقاً؟ فإنّي قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً.

فسمعَ عمرُ قول النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يسمعون، وأنّى يُجيبون وقد جَيّفوا.

قال: والذي نفسي بيده، ما أَنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يَقدرون أنْ يجيبوا...»[1].

فما فعلَه شعيبٌ عليه السلام مع قومه الكفار بعد موتهم، هو ما فعلَه محمدٌ ﷺ مع قومه الكفار بعد موتهم. والله أعلم.

بقاء آثار قوم مدين عبرة:

وبعدما دمَّرَ الله قومَ مدين أصحابَ الأيكة، أَبقى ديارهم آيةً لمن بعدهم، وديارُهم على طريقِ التجارِ العرب المشركين إلى بلادِ الشام، كديارِ قوم لوط.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٧٩].

تسجلُ الآياتُ على قومِ مدين ظلمَهم كقوم لوط، وتخبرُ أن اللّهَ أَبقى آثارهم آيةً وعبرةً لمن بعدهم، كما فعلَ مع آثارِ قوم لوط.

وجمعَ القوميْن معاً، وجمعَ ديارَهما وآثارهما معاً، في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فضميرُ المثنى في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعودُ على ديارِ قوم لوط، وديار قوم مدين. حيثُ كان الكلامُ في الآياتِ السابقة عن تدميرِ قومِ لوط، وذلك في آيات: ٦١ ـ ٧٧. ثم تكلمَ عن تدميرِ أصحابِ الأيكة، ثم قال عنهما: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

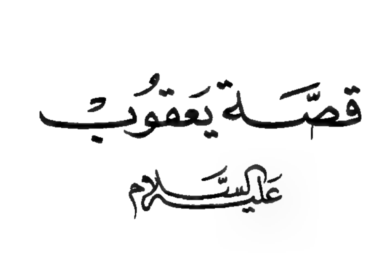
---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٨٧٤. وانظر كتاب صحيح السيرة النبوية للأستاذ إبراهيم العلي. حديث رقم: ٢٧٤.

ومعنى «إمام» هنا: الطريق. لأنَّ ديارَ مدين، وديارَ قوم لوط، على الطريقِ الكاشف، والإمامِ المبين، الذي كان يسلكُه العرب، في تجارتهم إلى الشام.

وأَزالَ اللّهُ قومَ مدين من الوجود، كما أزالَ الكفارَ من قبلهم: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾. والحمدُ لله رب العالمين.




قصة يعقوب
عليه السلام

[١]

يعقوب النافلة عليه الصلاة والسلام

هو يعقوبُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام، ابنُ إسحاق النبي عليه الصلاة والسلام. وجَدُّه هو إبراهيمُ النبي عليه الصلاة والسلام، وعمُّه هو إسماعيلُ النبي عليه الصلاة والسلام، وابنُه هو يوسفُ النبي عليه الصلاة والسلام.

فهؤلاء خمسةُ أنبياء من عائلة واحدة عليهم الصلاة والسلام، وبيتُهم هو بيتُ نبوة ورسالة، بيتُ علم وفضل، بيت نور وهدى.

بشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب:

وقد أسبغَ اللّهُ على أهلِ هذا البيت نِعَمه، ومنحهم فضْلَه. وأَخبرت الملائكةُ «سارةَ» زوجَ إبراهيم بهذا الفضل، وذلك لما بشَّروها بإسحاق، فاستغربت وتعجبت. قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧١ ـ ٧٣].

والشاهدُ في الآيات قولُ الملائكة لسارة رضي الله عنها: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

فاللّهُ قد أحلَّ رحمته على أهلِ بيت إبراهيم عليه السلام، ونشرَ عليهم بركاته ونعمه، وأَهْلُ هذا البيت من أفضلِ الناس عند الله، وهذا البيتُ من أَشرفِ البيوت وأكرمِها عند الله، لأنه بيتُ النبوةِ والدعوة، والعبادة والطاعة.

وهؤلاء الأنبياءُ كِرام، الأبُ والابنُ والحفيدُ وابنُ الحفيد. فالأبُ إبراهيم، والابنُ إسحاق، والحفيدُ يعقوب، وابنُ الحفيد يوسف، عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخبرَنا عن ذلك رسولُ الله ﷺ. فروى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسولَ الله: مَنْ أكرمُ الناسِ؟

قال: «أكرمُ الناس أتقاهم».

فقالوا: ليس عن هذا نسألُك.

قال: فأكرمُ الناس: يوسف نبيُّ الله، ابنُ نبي الله، ابنِ نبي الله، ابنِ خليل الله».

قالوا: نعم.

قال: «فخيارُهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»[1].

وفي حديثٍ آخر رواه البخاريُّ وغيره عن عبدِ الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم: يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم. عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

إنَّ رسولَنا محمداً ﷺ يخبرُنا عن هذه السلسلة المباركة الكريمة، في هذا البيتِ المبارك الكريم.

وبما أنَّ أكرمَ الناس عند الله أَتقاهم، فقد كان هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام هم أَتقى الناسِ لله، وأخشاهم له.

تُقررُ آياتُ القرآن الكريم أن اللّهَ بعثَ الملائكةَ لتخبرَ إبراهيمَ عليه السلام بذهابها لتدميرِ قوم لوط، وتبشِّرَه هو وزوجَه سارة بأن اللّهَ سيهبُه إسحاق، ثم سيهبُ إسحاقَ ابنه يعقوب، عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: ٧١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٣. ومسلم برقم: ٢٣٧٨. انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم: ١١٤ ورقم: ١٦٩.

إبراهيم وزوجه سيدركان حفيدهما:

لقد بشَّرت الملائكةُ سارةَ بأنها ستنجبُ ابنَها إسحاق، وبما أنها عجوزٌ عقيم، فإنها تظنُّ أنها لن تبقى حيةً حتى يكبرَ ابنُها إسحاق، وتظنُّ أنها ستموتُ في طفولته، وأنه سيعيش يتيماً. وقد طمأنَتْها الملائكة، وأخبرَتْها أنها ستلدُ إسحاق، وستبقى حية حتى يكبرَ إسحاق، وستشهدُ زواجَه، ثم ستشهدُ ولادةَ ابنه يعقوب، وستطمئنُّ برؤيةِ حفيدِها.

وهذا تكريمٌ من الله لها، لإيمانِها وتسليمها وجهادِها وصبرها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

وكما بشَّرَ اللّهُ سارةَ بإسحاق ثم بيعقوب حفيدها، كذلك بَشَّرَ إبراهيمَ عليه السلام بذلك.

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٧١ - ٧٢].

وهبَ اللّهُ إسحاق لإبراهيم عليهما السلام على كِبَر، وشكَرَ إبراهيمُ ربَّه على هذه النعمة، وسجلتْ آياتُ القرآن شكرَه لربه. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وبما أنَّ إسحاق سيوهَبُ لإبراهيم على كِبَر، فقد طَمْأَنَ اللّهُ إبراهيمَ بأنه سيبقى حياً حتى يكبرَ إسحاق، وحتى يتزوجَ إسحاق، وحتى يولَدَ ابنُه يعقوب،، وستقرُّ عينُ الجدِّ إبراهيم برؤيةِ حفيده يعقوب، وسيشبُّ الحفيدُ في حياة جده، عليهم الصلاة والسلام.

فمن كمالِ فضْلِ الله على إبراهيم أنه بشَّره بولادةِ ابنه، ثم بولادة حفيدِه، في حياته.

ووصفت الآيةُ يعقوبَ بأنه نافلة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

والراجحُ أنَّ الواوَ في جملة «ويعقوب نافلة» عاطفة، و«يعقوب» معطوفٌ على «إسحاق». أي: وهَبْنا لإبراهيم كُلًّا من إسحاق ويعقوب.

والراجحُ أن كلمةَ «نافلة» حالٌ منصوب من يعقوب. وليست حالاً من إسحاق ويعقوب معاً، لأنَّ إسحاقَ لم يكن نافلةً لإبراهيم، فهو ابنُه من صلبه، والنافلةُ هو يعقوبُ فقط.

معنى كون يعقوب نافلة:

لقد أرادَ إبراهيمُ الولد، فبشَّره اللهُ بابنه إسحاق، وزادَ اللّٰهُ له في الإنعام والبشارة، فوهبَ له حفيدَه يعقوب، وجعَلَه «نافلة».

والنافلةُ مشتقٌّ من «النَّفْل»، والنفلُ هو الزيادة، وكلُّ تصريفاتِ الكلمة تدلُّ على هذا المعنى. مثل: الأنفال والنوافل..

ومعنى كونِ يعقوبَ نافلة: أنَّ البشارةَ به زائدةٌ على البشارةِ بأبيه إسحاق، فالبشارةُ بإسحاق هي المقصودةُ في المقام الأول، ولكنَّ اللهَ زادَ البشارةَ لإبراهيم فبشَّره بحفيدِه يعقوب، وطمأنَه بأنه سيدركُه وسيشهدُ حياته ـ لما سبق أن قلنا ـ.

ووصْفُ القرآنِ يعقوبَ بأنه نافلة، دليلٌ على إطلاقِ النافلةِ على وَلَدِ الولد.

ومما يدلُّ على أنَّ اللّهَ وهبَ إبراهيمَ كُلًّا من إسحاقَ ويعقوبَ تكريماً له، وجزاءً له على نصرته للدين، ودعوتِه إلى رب العالمين، ومواجهته للظالمين، قولُ الله عز وجل عن قصتِه مع أبيه وقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨ ـ ٤٩].

لقد رتبت الآيةُ الهبةُ الربانيةَ لإبراهيم بإسحاق ويعقوب على اعتزالِه لقومه الكافرين، ومفاصلتِهم والبراءةِ منهم، لأنهم عبدوا غيرَ الله.

مبهمات في قصة يعقوب عليه السلام:

لم يُفصل القرآنُ كثيراً في قصةِ يعقوبَ عليه السلام، من حيث ولادتُه ونشأتُه وشبابُه وإقامتُه، وإنما ذكرَ إشاراتٍ موجزة عن صلتِه بابنه يوسف وأبنائه الآخرين، ومعظمُ هذه الإشارات في قصةِ يوسف عليه السلام، وسنقفُ عندها في موضعها إن شاء الله.

هناكَ «مبهمات» في قصةِ يعقوب عليه السلام، لا بيانَ لها في آياتِ القرآن، ولا في أحاديثِ رسول الله ﷺ.

وإننا نعلمُ أنَّ هذه المبهمات مبينةٌ في «سَفْر التكوين» من أَسفارِ العهد القديم، ومُبَيَّنَةٌ في الإسرائيليات وغيرِها من أخبارِ أهل الكتاب، ونعلمُ أن كثيراً من المؤرخين والمفسرين والإخباريين المسلمين قد رجعوا إلى هذه الإسرائيليات، وأَخذوا منها بيانَها لهذه المبهمات.

ولكننا لا نرى الذهابَ إلى تلك الإسرائيليات، ولا اعتمادَ ما فيها من أخبارِ وأساطير، وسنبقى مع المنهج العلمي المأمون، في التعاملِ مع القَصص القرآني، وأَخْذِ أحداثِها من الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة.

من هذه المبهمات التي لا بيانَ لها عندنا:

اسمُ أمه. عمرُ والده إسحاق عند ولادته. تحديدُ مكانِ وزمان ولادته. هل له إخوان أو أخوات. لماذا سمي يعقوب. تفاصيلُ طفولته ونشأته وشبابه. تفاصيلُ حياته وأعماله. تفاصيلُ رحلاته وتنقلاته. اسم زوجته أو زوجاته ونوعُ قرابتها له. توزيعُ أبنائه على زوجاته. تَحْدِيدُ أَسْمَاءِ أبنائه، تفاصيلُ وفاتِهِ، تحديدُ عمره عند وفاته. تحديدُ زمان ومكان وفاته. تحديدُ قبره الذي دُفن فيه. سببُ تسميته إسرائيل. ومعنى هذا الاسم.

[٢]

إسرائيل هو يعقوب والذي حرمه على نفسه

ذكرَ القرآنُ ليعقوب اسمين: يعقوب وإسرائيل.

أما يعقوب فهو اسمُ علمٍ أعجمي، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلمية والعجمة.

وكونُه أعجمياً يدعونا إلى أن لا نبحثَ له عن معنى في العربية، ولا نلتفتُ إلى الإسرائيلياتِ التافهة في تعليلِ تسميته بيعقوب.

مواضع ورود يعقوب في القرآن:

وردَ «يعقوب» ستَّ عشرة مرة في القرآن.

وردَ في السور المكية التالية:

في سورة يوسف ثلاثَ مرات. في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام.

وفي سورة مريم مرتين. مرةً في الإخبار عن إبراهيم عليه السلام، ومرةً في دعاء زكريا عليه السلام طالباً من ربه الولد.

وفي سورة هود مرة. في الإخبارِ عن بشارةِ سارة بإسحاق ثم بيعقوب.

وفي سورة الأنبياء مرة. في الإخبارِ عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم بيعقوب.

وفي سورة العنكبوت مرة. في الإخبارِ عن جعْلِ الله النبوةَ في ذرية إبراهيم وحفيدِه يعقوب.

وفي سورةِ ص مرة. في جمْعِ الكرام الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

أما السور المدنية التي ذكر فيها فهي:

سورةُ البقرة، وذكر فيها أربعَ مرات. وذلك في معرض الحديثِ عن إسلامه، ووصيته لأولادِه وهو على فراش الموت بالإسلام والموتِ عليه، ودعوةِ ذريته إلى الدخول في الإسلام، والإيمانِ بجميع الكتب المنزلة، وبجميع الرسل المبعوثين، ويلزمُ من هذا اتباعُ اليهودِ لرسول الله محمد ﷺ ودخولُهم في دينه.

وسورةُ آل عمران، حيثُ ذكر فيها مرةً واحدة، في معرضِ دعوةِ أهل الكتاب إلى الإيمان بكلِّ الأنبياء وما أنزل عليهم.

وسورةُ النساء، حيث ذكر فيها مرة واحدة، أثناء ذكْرِ أسماء مجموعة مباركة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ذكر اسمه الثاني إسرائيل في القرآن:

والاسمُ الآخر ليعقوب هو «إسرائيل». وقد ذُكر في القرآن مرتين:

الأولى: في سورة آل عمران، عند الحديثِ عن ما حرَّمه على نفسه، وما حرَّمه اللّهُ على بني إسرائيل.

الثانية: في سورة مريم، عند الحديثِ على شجرةِ النبوة، المتفرعةِ عن إبراهيم وعن يعقوب عليهما السلام.

وسنعودُ للحديث عن هاتين الآيتين بعد قليل، إن شاء الله.

و«إسرائيل»: اسمُ علم أعجمي، ولهذا لا نبحثُ له عن معنى في العربية، مثلُه مثلُ يعقوب.

ولا نلتفتُ هنا إلى الروايةِ الإسرائيلية الكافرة، التي دوَّنَها الأحبارُ اليهود الكفار في سَفرِ التكوين من العهد القديم، والتي زَعموا فيها أنَّ يعقوبَ قد صارعَ الربَّ ليلًا، وأنه قد صرعَ الربَّ عدةَ مرات، وأن الربَّ المصروعَ المغلوبَ باركَه وبارك بَنيه، وجعلَ الأرضَ المقدسة لهم إلى قيام الساعة، ومنذ تلك الليلة غيَّرَ اللّهُ اسمَه من يعقوب إلى إسرائيل، ومعناه الذي: جاهدَ الربَّ وصارعَه!!!

لا نلتفتُ إلى هذا السخفِ من الكلام، لأنه كفرٌ بالله، وإن اليهودَ كفار، عندما زَعموا أن أباهم يعقوبَ أقوى من الله!!!.

إن اليهودَ قد بلغوا الغايةَ المرذولة في الكفر، فكيفَ يظنونَ أن الربَّ يتحولُ إلى صورة إنسان، وأنه ينزلُ إلى الأرض على هذه الصورة، وأنه يرضى أنْ يصارعَه إنسان، وأنه يضعفُ أمامَ هذا الإنسان، وأنَّ هذا الإنسانَ يصرعُه ويغلبه، لأنه أبو اليهود!! فما هذه النظرةُ اليهوديةُ لله؟؟

الذي حرمه إسرائيل على نفسه:

قالَ اللّهُ عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣].

أنزلَ اللّهُ هذه الآيةَ في مجادلةِ الرسولِ ﷺ لأهل الكتاب، وبالذاتِ اليهود، بشأن يعقوبَ عليه السلام، وما حرَّمه على نفسه تقرُّباً إلى الله عز وجل.

وتُكذِّبُ هذه الآيةُ وما بعدَها اليهودَ في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب عليه السلام.

وقبلَ أنْ نتكلمَ عن معنى الآية نعيشُ مع مناسبة نزولها، لنستحضرَ الجوَّ الذي نزلَتْ فيه:

مناسبة نزول الآية:

روى الترمذيُّ وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرتْ عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله يوماً. فقالوا: يا أبا القاسم: حَدِّثْنا عن خِلالٍ نسألُك عنهن، لا يعلمهنَّ إلا نبي.

قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمةَ الله، وما أخذَ يعقوبُ على بنيه، لئن حدثْتُكم شيئاً فعرفتمُوه لتتابِعُنّي على الإسلام.

قالوا: فذلك لك.

قال: فسَلوني عما شئتم.

قالوا: أخْبِرْنا عن أَربعِ خلالٍ نسألك عنهن: أَخبِرْنا أي الطعام حرمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أنْ تنزلَ التوراة؟ وأخبرْنا كيف ماءُ الرجل وماءُ المرأة، كيف يكونُ الذكر منه؟ وأخْبِرْنا كيف هذا النبيُّ الأمي في النوم؟ ومَنْ وليُّه من الملائكة؟

قال: فعليكم عهدُ الله وميثاقُه لئن أنا أخبرتكم لتتابِعُنّي!

فأَعطوه ما شاءَ من عهدٍ وميثاق.

قال: فأنشدكم بالذي أَنزلَ التوراةَ على موسى ﷺ: هل تعلمونَ أن إسرائيلَ يعقوبَ عليه السلام مرضَ مرضاً شديداً، وطالَ سقْمه، فنذرَ لله نذراً، لئن شفاهُ الله من سقمه، ليُحرِّمنَّ أحبَّ الشراب إليه، وأحبَّ الطعام إليه. وكان أحبُّ الطعام إليه لَحْمانَ الإبل، وأحبُّ الشرابِ إليه ألبانَها؟

قالوا: اللهمَّ نعم.

قال: اللهم اشْهَدْ عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزلَ التوراة على موسى: هل تعلمون أن ماءَ الرجل أبيضُ غليظ، وأن ماءَ المرأة أصفرُ رقيق، فأيهما عَلا كان له الولدُ والشبهُ بإذن الله، إنْ عَلا ماءُ الرجل على ماءِ المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإنْ عَلا ماءُ المرأة على ماءِ الرجل كان أنثى بإذن الله؟

قالوا: اللهمّ نعم.

قال: اللهمّ اشْهَدْ عليهم. فأنشدكم بالذي أنزلَ التوراة على موسى: هل تعلمون أن هذا النبيَّ الأميَّ تنامُ عيناه ولا ينام قلبه؟

قالوا: اللهم نعم.

ثم قالوا: وأنتَ الآن فحدِّثْنا مَنْ وليُّك من الملائكة؟ فعندَها نجامعك أو نفارقك.

قال: فإنّ وليّي جبريلُ عليه السلام، ولم يَبعث اللّهُ نبياً قط إلاّ وهو وليّه.

قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواه من الملائكة لتابَعْناك وصدَّقْناك!!

قال: فما يمنعكم مِن أنْ تصدُقوه؟

قالوا: إنه عدوُّنا.

قال ابنُ عباس: فعند ذلك قالَ اللّهُ عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ٩٧ ـ ١٠١].

رواية ثانية في مناسبة نزولها:

وقد رُويتْ هذه الحادثةُ بلفظٍ آخر عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: أَقبلت اليهودُ إلى رسولِ الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم: إنا نسألك عن خمسةِ أشياء، فإنْ أنبأْتَنا بهن، عرفْنا أنك نبي، واتَّبعناك.

فأَخذَ عليهم ما أَخذَ إسرائيلُ على بنيه إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ثم قال لهم: هاتوا.

قالوا: أخبِرْنا عن علامةِ النبي؟

قال: تنامُ عيناه ولا ينامُ قلبه.

قالوا: أخبِرْنا كيفَ تُؤنِثُ المرأة وكيف تُذْكِر؟

قال: يلتقي الماءان، فإذا عَلا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنَثَتْ!

قالوا: أخبِرْنا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه؟

قال: كان يشتكي عرقَ النسا، فلم يجدْ شيئاً يلائمُه إلاّ ألبانَ ولحومَ الإبل، فحرَّمَ اللهُ لحومَها.

قالوا: صدقت. فأخبِرْنا ما هذا الرعد؟

قال: مَلَكٌ من ملائكةِ الله عز وجل، موكَّلٌ بالسحاب، في يده مِخراق من نار، يزْجرُ به السحاب، يسوقُه حيث أمرَ الله.

قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمع؟

قال: هو صوتُه.

قالوا: إنما بقيتْ واحدة، وهي التي نبايعُك إن أَخْبرتَنا بها، فإنه ليسَ من نبيٍّ إلا له ملَكٌ يأتيه بالخبر، فأخبِرْنا من صاحبُك؟

قال: جبريلُ عليه السلام.

قالوا: ذلك الذي ينزلُ بالحرب والقتال والعذاب، وهو عدوُّنا. ولو قلتَ ميكائيل، الذي ينزلُ بالرحمة والمطر والنبات لتابَعْناك.

قال ابنُ عباس: فأنزلَ اللّهُ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآيات[1].

من دلالات الحادثة:

هذه الروايةُ عن ابن عباس هي تصريحٌ منه بسببِ نزول الآيات: ٩٧ ـ ١٠٠ من سورة البقرة، لكنها توضِّحُ معنى آيةِ سورة آل عمران

(١) أخرجه الترمذي مختصراً برقم: ٥١٢١. وأحمد: ١:٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨. وانظر الأحاديث الصحيحة حديث رقم: ١٤٧.

التي نحن بصددها، حيث يبينُ الرسولُ ﷺ ما حرَّمَه إسرائيلُ على نفسه، وملابساتِ ذلك التحريم.

وتكشفُ لنا هذه الروايةُ طبيعةَ اليهود الخبيثة، التي تقومُ على التكبرِ والعناد، وعلى الكذبِ والافتراء، وعلى نقضِ العهد والميثاق، وعلى الكفرِ بعد معرفة الحق.

فهؤلاء النفرُ من اليهود جاءوا الرسولَ ﷺ، ليسأَلوه ويمتحنوه، ويوجهوا له أسئلةً لا يعلمُ جوابَها إلا نبي. وإن الرسولَ ﷺ يعلمُ خلُقَ اليهود السيء، ونفسيتَهم المريضة، ويعلمُ أنهم سيكفرون به حتى لو أَجابهم على أسئلتهم! ولهذا أَخذَ عليهم العهدَ والميثاق أن يؤمنوا به ويتَّبعوه، إذا كان جوابُه صحيحاً صائباً.

لقد قدَّمَ لهم الإجاباتِ الصحيحة على أسئلتهم الأربعة: كيف ينام النبي. وكيف ومتى تلدُ المرأةُ الذكر، وتلدُ الأنثى. وملابسات ما حرَّمه يعقوبُ على نفسه. وحقيقة الرعد.

فلما أَجابَهم على تلك الأسئلة الأربعة، وأحرجَهم بصحةِ الإجابات، لم يبقَ عليهم إلا الوفاءُ بالعهد، واتباعُه والدخولُ في الإسلام.

لكن أنَّى لليهود المعوَجِّين أنْ يُسْلموا ويخضعوا للحق؟ لقد هداهم تفكيرُهم الشيطاني إلى طريقةٍ ماكرة للتخلصِ من الوعد، والتحللِ من الشرط، ونقضِ العهد.

من أكاذيب اليهود:

إنهم يريدونَ معرفةَ المَلَك الذي يأتيه بالوحي من عند الله، فأَخبرهم أنه جبريلُ عليه السلام، وأنه هو الذي كان يأتي كلَّ نبيٍّ من الأنبياءِ السابقين بالوحي.

عندها أعلنَ اليهودُ المجرمون التحللَ من الوعد، لأن جبريلَ عدوٌّ لهم، حيث كان يأتيهم بالعذاب والهلاك والدمار!!

وكذَبوا فيما قالوا، فجبريلُ ليس ضدهم ولا ضدُّ البشر، ولكنهم أَرادوا حيلةً يتخلَّصون بها من المعاهدة، ولو أَخبرهم أن الملَكَ الذي يأتيه بالوحي هو ميكائيل، لأَعلنوا الكفرَ به، ولأَوْجَدوا سبباً آخرَ مزعوماً لمعاداتهم له!!!

المهمُّ هو أن يكفروا بالرسولِ ﷺ، والإصرارُ على كفرهم وباطلهم، من بعدما تبينَ لهم الحق.

إنَّ هذا الحديثَ الصحيحَ يقدِّمُ لنا بعضَ المعلومات عن يعقوب عليه السلام، ويبينُ لنا بعضَ المبهمات في كلمات الآية عن ما حرَّمه على نفسه، وتكذبُ اليهودَ في ما زعموه عنه!.

تخبرُ الآيةُ أن اللّهَ قد أباحَ لبني إسرائيل كلَّ أنواع الطعام، وذلك قبلَ إنزالِ التوراة على موسى عليه السلام.

ولم يُحرم اللّهُ عليهم قبل إنزال التوراة إلا الصنفَ من الطعام الذي حرَّمه على نفسه أَبوهم إسرائيلُ عليه السلام، وهو لحومُ الإبل.

فإنِ ادَّعى اليهودُ غيرَ ذلك فهم كاذبون، وعليهم إحضارُ النسخةِ الأصلية من التوراة، التي تشهدُ لهم، ولن يستطيعوا ذلك: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وإنّ أصروا على افترائِهم وكذبهم فهم ظالمون: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

لماذا حرم إسرائيل لحوم الإبل؟:

تنصُّ الآيةُ على الاسم الثاني ليعقوب عليه السلام: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

يعقوبُ هو إسرائيلُ عليه السلام. وأولادُه وذريتُه هم «بنو إسرائيل».

وكان إسرائيلُ قبلَ إنزالِ التوراة، لأن اللّهَ أنزلَ التوراةَ على نبيه موسى عليه السلام، وإسرائيلُ وُجدَ قبلَ موسى عليه السلام بعشراتِ السنين.

وبما أنَّ إسرائيلَ عليه السلام نبي، فإنَّ ما التزمَ به قد أصبحَ شرعاً مُلزماً له، وقد ألزمَ اللّهُ به ذريتَه وأبناءه، وجعلَه تشريعاً لهم.

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الصحيح السابق أن أحبَّ الطعام لإسرائيل عليه السلام كان لحومَ الإبل، فلما مرضَ يوماً مرضاً شديداً بعِرْقِ النسا، واشتدَّ به سقمه، وطالَ مرضه، نذرَ نذراً لله، لئن شفاهُ الله وعافاه، ليتقرَّبَنَّ إلى الله، بتركِ أحبِّ الطعام إليه والامتناعِ عن أكله.

وبما أنَّ أحبَّ الطعام إليه هو لحومُ الإبل، فقد وفَّى بنذْرِه بعدما شفاه الله، وامتنعَ عن لحومِ الإبل.

وهنا وقفةٌ للتساؤل: إنَّ إسرائيلَ عليه السلام نبي، فكيفَ يحرمُ على نفسه ما أباحَه الله له؟ مع أنَّ التحليلَ والتحريمَ حقٌّ لله وحده!

إن تحريمَ إسرائيلَ لحومَ الإبل على نفسه ليس تحريماً شرعياً، أي: ليسَ هذا تشريعاً منه. فالتحريمُ الشرعي حقٌّ لله، لأنَّ التشريع حقٌّ لله وحده، لا يشاركُه في ذلك أحدٌ من البشر.

تحريمه لها امتناع وليس تشريعاً:

ما فعلَه إسرائيلُ عليه السلام إنما هو «امتناعٌ» منه عن أكلِ لحوم الإبل، وهذا امتناعٌ عاديٌّ وليس تحريماً شرعياً. وأيُّ إنسانٍ قد يمتنعُ عن بعضِ أصنافِ الطعام والشراب، ولا يعيبُه أحد، طالما أنه لا يُحرمُ المباح. ولا يَدَّعي أنَّ امتناعَه إنما هو لتحريم ذلك.

ثم إنَّ إسرائيلَ عليه السلام أراد أن يتقرَّب إلى الله بأَحبِّ شيء إليه، وبما أنَّ أحبَّ شيء إليه هو لحومُ الإبل، فلْيمتنعْ عنها ـ امتناعاً عادياً ـ شكراً لله، الذي يعافيه من مرضه.

وهذا تناسقٌ لطيفٌ مع الآية السابقة من سورة آل عمران، التي تَدْعونا إلى إنفاقِ أَحبِّ شيء إلينا لننالَ البرَّ والأجر عند الله!

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٢ ـ ٩٣].

فإذا كان المسلمُ الصالحُ لا ينالُ البرَّ حتى ينفقَ في سبيل الله أحبَّ شيء إليه، تقرُّباً إلى الله، وبما أنَّ أحبَّ شيء إلى نبيِّ الله إسرائيل عليه السلام هو لحومُ الإبل، فقد امتنعَ عنها، وتقرَّبَ بذلك الامتناع إلى الله، وأنفقَه في سبيل الله، لينالَ البرَّ عند الله.

وقد ألزمَ اللّهُ بعد ذلك أبناءَ إسرائيل بما امتنعَ عنه أَبوهم إسرائيل عليه السلام، وصارَ هذا تشريعاً من تشريعاتِهم، وحرمَ بذلك أكلَ لحومِ الإبل!

[٣]

يعقوب هو الفرع الثاني لنبوة إبراهيم

شجرة النبوة الإبراهيمية ذات فرعين:

تبينُ آياتُ القرآن أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو أبو الأنبياء، وأَبو هذه الأمة، وأنَّ «شجرة النبوة» منه، وأنَّ الأنبياءَ المذكورين بعده في القرآن، والمبعوثين بعد زمانه، هم من نسلِه وذريته.

وبهذا السياق وردَ اسمُ إسرائيل ـ يعقوب ـ المرة الثانية في القرآن. وذلك في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

ذكرت الآيةُ أربعةَ أنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل.

وذُكر آدمُ عليه السلام باعتبارِه أبا البشر.

وذُكر نوحٌ عليه السلام باعتباره أبا البشرية الثاني بعد الطوفان.

وذُكرَ إبراهيمُ عليه السلام لأنَّ النبوةَ انتهتْ إليه، وشجرةَ النبوة استقرتْ عنده، فهو أَبو الأنبياء.

وقد تفرعَ من شجرة النبوة فرعان:

الفرعُ الإسماعيلي: المتمثلُ في إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهذا الفرعُ خُتمَ بخاتمِ الأنبياء والمرسلين رسولِ الله محمد ﷺ، سيدِ ولد إسماعيل، بل سيدِ ولدِ آدم، بل أفضلِ المخلوقين جميعاً، وأَحبِّهم إلى الله.

والفرعُ الإسرائيلي: المتمثلُ بإسرائيل ـ يعقوب ـ حفيدِ إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهو أبو بني إسرائيل، وأصْلُ أسباطهم، وكلُّ أنبيائِهم من ابنه يعقوب حتى عيسى ابن مريم ـ عليهم الصلاة والسلام، فهم من ذريةِ إسرائيل ـ وعيسى من ذريةِ يعقوب من جهةِ الأم، فهو إسرائيليٌّ من جهة الأم، لأنه لا أبَ له، عليه الصلاة والسلام.

ولهذا الاعتبارِ ـ والله أعلم ـ وردَ ذكْرُ إسرائيل معطوفاً على إبراهيم عليهما السلام في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقد صرَّحَ القرآنُ بأنَّ اللّهَ جعلَ النبوةَ في ذرية كلٍّ من إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧].

فاللّهُ وهبَ لإبراهيم كلًا من إسحاق ويعقوب، وكان ذلك بعدَ أنْ هاجرَ إلى الله، وغادرَ العراق إلى الأرض المقدسة.

أنبياء الفرع الإسرائيلي:

وقد جعلَ اللّهُ النبوةَ والكتاب في ذريةِ إبراهيم وحفيده يعقوب عليهما الصلاة والسلام. والراجحُ أنَّ ضميرَ التثنية في قوله: «في ذريتهما» يعودُ على إبراهيم ويعقوب. ووجْهُ الترجيحِ في ذلك ما سبقَ أنْ قرَّرْناه من تفرُّعِ فَرْعي النبوة من الشجرة الإبراهيمية: الفرعِ الإسماعيلي، والفرعِ الإسرائيلي.

لقد استمرت النبوةُ في الفرعِ الإسرائيلي عدةَ قرون، حيث بعثَ اللّهُ أنبياءَ عديدين إلى بني إسرائيل. أَوَّلُهم نبيُّ الله إسرائيل نفسه عليه السلام، الذي كان نبياً لأبنائه، ثم ابنُه نبيُّ الله يوسف عليه السلام، ثم الأنبياء الآخرون لبني إسرائيل، مثل موسى وهارون، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى، وآخرُهم هو عيسى ابن مريم، عليهم الصلاة والسلام.

ختم النبوة بالفرع الإسماعيلي:

وقد ختمَ اللّهُ النبوة في الفرعِ الإسرائيلي بعيسى ابن مريم عليه السلام، آخرِ أنبياءِ بني إسرائيل، الذي خَلَقَه اللّهُ خلْقاً معجزاً، بدونِ أب، وأظهرَ على يديه كثيراً من المعجزات.

وشاءَ اللّهُ أَن يختمَ النبوةَ كلَّها بنبيٍّ من الفرعِ الإسماعيلي، وهو أفضلُ الخلق جميعاً، محمدٌ ﷺ.

[٤]

بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب

مزاعم اليهود في الابتداء من إبراهيم:

عرَفْنا أنَّ إسرائيلَ هو يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقد أخبَرَنا اللّهُ في القرآن أنه كان لإسرائيلَ اثنا عشر ولداً ذكراً، وهم المذكورون في سورةِ يوسف، في قصة يوسف عليه السلام.

ومن أبنائِه الاثني عشر جاءَ بنو إِسرائيل، الذين وردَ ذكرهم كثيراً في القرآن، وهم الذين سُمّوا بعد ذلك «اليهود».

وينتسبُ بنو إسرائيل السابقون إلى جدهم إسرائيل عليه السلام وهذا انتسابٌ صحيح، لمن ثبتَ أَصْلُه ونَسَبُه به.

أما يهودُ هذا الزمان فيدَّعون أَنهم من نسلِ إسرائيل، وهم لذلك بنو إسرائيل، وهذا ادّعاءٌ منهم باطل، فمعظمُهم جاءوا من أجناسٍ وأقوامٍ آخرين، تهوَّدوا ودخلوا في اليهودية، ولا صلةَ نَسَبية تربطهم بإسرائيل عليه السلام.

كما يَدَّعي اليهودُ أَنهم أبناءُ نبيِّ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويزعمون أن تاريخَه تاريخٌ لهم، وأَنهم امتدادٌ له، وهم في ذلك كاذبون مفترون.

وقد ناقَشْنا ـ سابقاً ـ أثناءَ حديثنا عن قصة إبراهيمَ عليه السلام هذا الزعمَ اليهودي، وبَيّنّا أنه لا صلةَ إيمانية ـ وهي الصلةُ المعتبرة ـ بينهم وبين إِبراهيم، وأَنَّ أَولى الناس به هم أتباعُه من قومه، ثم رسولُ الله محمد ﷺ، ثم الذين آمنوا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام حتى قيام الساعة، لأنهم هم الورثةُ الحقيقيون له.

ونُفَنّدُ هنا دعوى اليهود صلتَهم التاريخية بإبراهيم، وبَدْءَ تاريخهم من إبراهيمَ عليه السلام.

إنَّ تاريخَهم لم يبدأ منذُ إبراهيم، وإبراهيمُ ليس أَباهم، وقصتُه ليست قصتَهم، ووعْدُ الله له ليس وَعْداً لهم، لأنهم ليسوا «بني إبراهيم»، ولا «بني إسحاق».

هم بنو إسرائيل وليسوا بني إبراهيم:

إِنهم بنو إِسرائيل. أي: بنو يعقوب.

إنَّ تاريخَ بني إسرائيل يبدأُ من يعقوب عليه السلام، وصلَتُهم

بإبراهيم كصلتِهم بإسماعيل عليهما السلام! أليسَ إسماعيلُ عماً ليعقوب؟ أليس هو شقيقُ أبيه إسحاق؟ فلماذا لا يجعلون تاريخَه تاريخاً لهم، مع أنه عمٌ لأبيهم؟

لو كانوا «بني إبراهيم» لبدأ تاريخُهم من تاريخ إبراهيم.

ولو كانوا «بني إسحاق» لبدأ تاريخُهم من تاريخ إسحاق.

ولأَنهم «بنو إسرائيل» - أي: بنو يعقوب - فإنَّ تاريخَهم يبدأُ من تاريخ يعقوب عليه السلام. فلهم أن يتوقَّفوا عند حياته وحياةِ أبنائه الاثنيْ عشر، وأنْ يعتبروا هذا بدايةً لوجودهم وحياتِهم وتاريخِهم!.

هذا من حيثُ الصلةُ التاريخية لهم بإسرائيل عليه السلام، التي لا تأخذُ أَبعاداً أخرى، فما هي إلاّ صلةٌ تاريخية فقط، ولا يربطهم بإسرائيل إلا هذا الخيطُ التاريخيُّ السابق.

وبعد هذا نقررُ أنه لا صلةَ بينهم وبين إسرائيل - غيرَ التاريخ الماضي - ولا رابطَ بينهم وبينه، فهم من حيثُ الدين والإيمان والعهد والرسالة، مبتوتو الصلة به.

إنهم كافرون ظالمون، كاذبون محرفون، ناقضون مجرمون، خرجوا على عهد إسرائيل عليه السلام، وكفروا بدينه، وخالفوا تعاليمَه، ونقضوا عهدَه.

وإسرائيلُ عليه السلام نبيٌّ كريم، ومؤمنٌ عظيم، وَلاؤُه وبراؤُه لله، فهو يوالي كلَّ مؤمن مهما ابتعدَ عنه في النسَب أو الزمان، ويتبرأُ من كلِّ كافر ولو كان مِن صُلْبه ونسله وذريته.

ولهذا نشهدُ أنَّ «إِسرائيلَ» عليه السلام بريءٌ من هؤلاء اليهود، وأَنه يلعَنُهم ويكرهُهم، ولا صلةَ ولا رابطَ بينه وبينهم.

[٥]

خلاصة حياة يعقوب عليه السلام

حياة يعقوب من خلال الآيات والأحاديث:

من خلالِ اعتمادِنا للمصادر اليقينية الصحيحة الثابتة، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ الصحيحة، فإننا نستطيعُ أن نلخصَ منها خلاصةَ حياةِ يعقوب عليه الصلاة والسلام.

لقد وُلِدَ في الأرض المقدسة فلسطين، ونشأَ وشبَّ بها.

وكانت ولادتُه وطفولتُه في حياةِ جدِّه إبراهيم عليه السلام.

وتزوجَ وأنجبَ أبناءَه وهو في الأرض المقدسة.

وأبناؤُه الذكور اثنا عشر ولداً، نعرفُ منهم نبيَّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام. لأنه مذكورٌ في القرآن والسنة، أما أسماءُ الأبناءِ الآخرين الأحد عشر، فلا نجزمُ بها، لعدمِ ورودِها في أحاديث صحيحة، ونتوقفُ في القولِ بها، رغم ورودِها في الإسرائيليات وفي أسفارِ العهد القديم.

وكانَ يعقوبُ عليه السلام مُقيماً مع أبنائه في «البدو»، كما وردَ في صريح القرآن.

إقامته أولاً في «البدو» في فلسطين:

فلما جمعَ اللّهُ بينه وبين ابنِه يوسف عليهما السلام، بعد أحداثٍ عديدةٍ مثيرة، قال له يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فيوسف عليه السلام يقررُ صراحةً أن اللّهَ جاءَ بأبويه وإخوتِه «من البدو».

ولا تقدمُ لنا الأحاديثُ الصحيحةُ تحديداً وبياناً لمنطقةِ البدْوِ التي جاءوا منها، ولهذا لا نملك تحديدها بالضبط.

وكلُّ ما يمكنُنا قولُه: كانوا يسكنون في منطقة «البدو» من الأرض المقدسة فلسطين. وهذه المنطقةُ تقعُ جنوب فلسطين، وهي المنطقةِ المعروفةِ الآن بمنطقة «النَّقَب»، والواقعة جنوب وشرق بئر السبع.

فلعلَّ يعقوب عليه السلام كان يسكنُ في هذه المنطقة مع أبنائه، قبلَ انتقالِهم إلى مصر. ولعلهم كانوا يسكنون في منطقةٍ أُخرى، سكانُها بدو، وهي من مناطقِ البادية في الأرض المقدسة. والله أعلم.

ثم استقراره في مصر:

بقيَ يعقوب عليه السلام مُقيماً مع أبنائه في منطقة «البدو». وأثناءَ إقامته فيها وقعتْ أَحداثُ قصة ابنه يوسف عليه السلام، وسببتْ هذه الأحداثُ للأب يعقوب ما سببتْ من أحزان وآلام ومصائب ومآس، استعانَ عليها بالصبر والتوكل على الله، والرجاءِ بما عند الله، والأملِ بلقاءِ ابنه الأَثير لديه يوسف. وأثَّرَ حزنُه وألمه على عينيه، وابيضتْ عيناه من الحزن فهو كظيم.

وُوجهَ الأبُ المحزونُ الصابرُ بلوْمِ أبنائه وتقريعهم، وسوءِ كلامهم وتعبيرِهم معه، واتهامِهم له بالانحيازِ والظلمِ وعدم الإنصاف والعدل، مما زادَ في أحزانه وآلامه.

وجرتْ عدةُ أحداثٍ بينه وبين أبنائه، وقاموا بعدةِ سفرات إلى مصر، عندما أَصبحَ أَخوهم يوسف عزيزها وحاكمها، وهم لا يعلمون أنه هو. وانتهتْ هذه الأحداثُ بتعرفِهم على أَخيهم «العزيز»، واعتذارهم له.

وطلبَ أَخوهم يوسف منهم أخذَ قميصِه، وإلقاءَه على وجهِ أبيه المكلوم الحزين، ليعودَ له بصرُه، ثم العودة بهم جميعاً إلى يوسف.

وجاءت العائلةُ المؤمنةِ من جنوب فلسطين، واستقرتْ هناك عند

يوسف عليه السلام، ورفعَ يوسفُ أبويه على العرش، وخرَّ أَبواه وإخوته له سُجَّداً، وبذلك تحققت رؤياه التي رآها وهو صغير.

وسنعودُ إن شاء الله إلى هذه الأحداث عند كلامِنا على قصة يوسف عليه السلام.

وبعد ذلك توفيَ يعقوبُ عليه السلام في مصر، ولا نملكُ أدلةً على تحديدِ سنةِ وفاته، أو كيفيتها، أو مكانِ دفنه، فهذه من مبهمات قصته التي لا بيانَ لها.

[٦]
دين يعقوب هو الإسلام

كل نبي جاء بالإسلام:

إنَّ الإسلامَ هو دينُ الأنبياء والمرسلين جميعاً، فكلُّ نبي جاءَ بالإسلام، وطلبَ من قومه الدخولَ في الإسلام، وإحسانَ العبادة لله.

ولقد حرصَ القرآنُ على تأكيد هذه الحقيقة، في حديثِه عن إبراهيم، وعن إسحاق ويعقوب ويوسف، عليهم الصلاة والسلام.

ويبدو أنَّ السببَ في ذلك هو إبطالُ مزاعمِ اليهود والنصارى، الذين يزعمون أنهم على دينِ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومع ذلك بَقوا على يهوديتهم أو نصرانيتهم، وكَفَروا بمحمد ﷺ وزعموا أنَّ إبراهيم ويعقوب كانوا يهوداً!

لقد جاءَتْ آياتُ سورةِ البقرة صريحةً في تبرئةِ هؤلاءِ الأنبياء من تهمةِ اليهودية أو النصرانية، وتقريرِ حقيقةِ دينهم، وأنه الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٦].

وقد تكلَّمْنا عن ما يتعلق بإبراهيمَ عليه السلام في هذه الآيات، عندما عرَضْنا قصتَه من قبل، وسنتكلمُ الآن عن ما يتعلقُ بيعقوب في هذه الآيات.

إنها تقررُ أن الإسلامَ هو دينُ يعقوب عليه السلام، الذي عاشَ عليه، والذي مات عليه.

والإسلامُ دينُ يعقوب ـ ودينُ كل رسول ـ ليس هو الإسلام بالمعنى الخاص، الذي يطلَقُ على رسالةِ ودين محمد ﷺ، والذي نسخَ اللَّهُ به الرسالات والشرائع السابقة.

إنما يُرادُ به الإسلام بالمعنى العام، وهو الخضوعُ والاستسلام لله، وإخضاعُ الآخرين وتعبيدُهم لله.

وكونُ دين يعقوب هو الإسلام، لا يمنعُ أن تكونَ له شريعةٌ خاصة به، طبَّقها على أولاده وقومه، لأن الله يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

نموذجان من شريعة يعقوب:

وقد أشارَ القرآنُ في قصة يوسف عليه السلام إلى نموذجٍ من شريعةِ يعقوب عليه السلام، فعندما أخذَ يوسفُ أخاه الصغير بتهمةِ سرقةِ صواع الملك، فوجئَ إخوتُه بذلك، فسألهم يوسف: ما حكمُ السارق

في شريعتكم؟ فقالوا: حُكْمُه الاسترقاق، أي: يُؤخذُ عبداً، ويسترقُّه صاحبُ المتاع المسروق.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ (٧٤) قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٤ ـ ٧٥].

أي: ما جزاءُ السارق في شريعتكم يا أبناءَ النبي يعقوب؟

قالوا: جزاؤه في شريعتنا أنه يُؤخذُ رقيقاً مقابل ما سرق، ويسترقُّه صاحب المتاع المسروق: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾. هكذا نجزي الظالمين السارقين، وهكذا نعاقبهم.

ومرَّ معنا ذكْرُ نموذج آخرَ لشريعة يعقوب عليه السلام، عندما نذرَ لله أن يمتنعَ عن أحبِّ الطعام إليه، إنْ شفاه الله، فوفّى بنذْرِه، وامتنعَ عن أكل لحوم الإبل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ . .﴾.

فكان الوفاءُ بالنذر واجباً في شريعةِ يعقوب، وألزمَ اللّهُ أبناءَه وذريتَه بما التزمَ هو به، وحرَّمَ عليهم أكلَ لحوم الإبل، وهذا من شريعته أيضاً.

يعقوب يوصي بنيه بالإسلام:

الإسلامُ بالمعنى العام هو دينُ يعقوب عليه السلام إذن، وكان يعقوبُ حريصاً على تنشئةِ أبنائه على الإسلام، وإخبارِهم أن اللّهَ قد اصطفاه ورضيَه ديناً، وكان يوصيهم بالإسلام والثباتِ عليه، والحياةِ به والموت عليه.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: إبراهيمُ وصّى بَنيه وأولادَه وأحفادَه بالكلمة الطيبة، والعقيدة الصحيحة، ووصّى بها يعقوبُ بَنيه أيضاً. وقال كلٌّ منهما لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يعقوب حريصٌ على دين أبنائه، وعلى التزامِهم بالإسلام ديناً، ولهذا يطلبُ منهم أن لا يموتوا إلا وهم مسلمون.

كان التفكيرُ في الإسلام هو الذي يُشغلُ بالَ يعقوب عليه السلام، وكان ثباتُ أبنائه على الإسلام هو الهاجسَ الذي يسيطرُ عليه دائماً، فكما أنه أَوصاهم بذلك، فقد أَرادَ أنْ يطمئن عليهم وعلى إسلامهم، وهو يغادرُ هذه الحياةَ الدنيا.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ها هو يعقوبُ عليه السلام على فراش الموت، وكان وقتها عند يوسف في مصر، ويريدُ أنْ يطمئنَّ على دينِ وإسلام وعبادةِ أبنائه، بعد وفاتِه، ولهذا جَمَعَهم، وطرحَ عليهم السؤالَ الذي يُشغلُ بالَه: يا أَبنائي ما تعبدون من بعدي! وأيَّ دين تلتزمون من بعدي؟

فيأتيه الجوابُ المطَمْئِنُ من أبنائه، وهذا هو الجوابُ المنطقي المتوقَّع، لأنه أَنشأهم على الإسلام، وربّاهم عليه، ووصاهم به، قالوا: سنعبدُ ربَّ العالمين وحدَه، فهو إلهنا، لأنه إلهك، وإلهُ الأنبياء من قبلك: جدُّك إبراهيم، وعمُّك إسماعيل، ووالدُك إسحاق، إنه إلهٌ واحد، لا شريكَ له.

ونحن مسلمونَ لله، مستسلمون لله، خاضعون لله، داخلون في دين الله، ملتزمون لطاعة الله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

لقد جاءتْ هذه الآياتُ في بيان حقيقةِ دين إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، في معرضِ نقاشِ اليهود والنصارى، ونفْيِ صلتهم بإبراهيم ويعقوب.

فالخطابُ في الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾

لهؤلاء اليهودِ والنصارى. يقولُ الله لهم: لماذا تزعمون أنّ يعقوبَ كان يهودياً أو نصرانياً؟ هل كنتم حاضِرين وشاهدين وسامعين آخرَ كلامٍ قالَه يعقوب قبلَ أن يموت؟ إنكم لم تكونوا معه هناك، لأنكم لم تكونوا مولودين يومَها. لقد أَوصى بنيه بالإسلام ديناً، وقد قَبِلَ الأبناءُ وصيةَ الأب، وقالوا له: نعبدُ اللّهَ وحدَه ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

المسلمون هم الورثة الحقيقيون ليعقوب:

فإنْ زعموا أنّ يعقوبَ ومَنْ معه من الأنبياء كانوا يهوداً أو نصارى، فقد كَذَبوا، لأنّ هؤلاء الأنبياءَ كانوا مسلمين لله. قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

والمسلمون هم وحدهم وارثوا يعقوب عليه السلام، لأنهم آمَنوا بما أُنزلَ عليه، وآمَنوا بما أُنزلَ على الرسل الآخرين، وآمَنوا بما أُنزلَ على محمد ﷺ، وقالوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

أما اليهودُ والنصارى فإن يعقوبَ عليه السلام بريءٌ منهم، ومِنْ كُفرهم وعنصريتهم!!!



قصة يوسف

عليه الصلاة والسلام



[١]
ذكر يوسف في القرآن

يوسف بن يعقوب سليل أنبياء كرام:

يوسفُ هو أَحدُ أبناءِ يعقوب عليهما السلام، فقد سبقَ أنْ ذكَرْنا أنَّ اللَّهَ وهبَ ليعقوب اثني عشر ولداً ذكراً. ولم تُخبرنا مصادرُنا الموثوقة ـ القرآن والحديث الصحيح ـ إلاّ عن اسمِ واحدٍ منهم، وهو يوسف.

أما إخوتُه الآخرون، فلا نحاولُ تحديدَ أسمائهم، لعدمِ ورودها في الكتاب والسنة، ولا نَذهبُ إلى الإسرائيليات وأسفارِ العهد القديم لنأخذَ أسماءَهم منها.

و«يوسف» اسمُ علم أعجمي، فهو ليس عربياً ولا مشتقاً، ولهذا لا نبحثُ عن مادةٍ لاشتقاقه، ولا عن معناه في العربية.

ويوسفُ هو النبيُّ من أولاد يعقوب، والراجحُ أنَّ إخوتَه الأحدَ عشرَ ليسوا أنبياء، وسنعودُ لهذه المسألة فيما بعد إن شاء الله.

ويوسفُ عليه السلام كريم، سليلُ أسرةٍ مباركة عريقة في الكرم.

روى البخاريُّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريمُ ابنِ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم: يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[١].

وهذه شهادةٌ عظيمةٌ من رسول الله محمد ﷺ لهذه الأسرةِ العزيزة الكريمة المباركة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٨٢. انظر الأحاديث الصحيحة برقم: ١١٥. وقد سبق إيراد هذا الحديث وتخريجه.

فيوسفُ عليه السلام خِيار، وهو ابنُ الأَخيار، وقد كان الصحابةُ يعرفون هذا له ولآبائه.

وقد وقعتْ حادثةٌ معبرةٌ زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تؤكِّدُ هذه الحقيقة.

قال عليُّ بن رباح: استأذنَ رجلٌ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال: استأذِنوا لابنِ الأَخيار!!

فقال عمر: ائذنوا له.

فلما دخل، قالَ له عمر: مَنْ أَنت؟

قال: أنا فلان، ابن فلان، ابن فلان. وجعلَ يعدُّ رجالاً من أشرافِ الجاهلية.

فقال له عمر: هل أنتَ يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؟

قال: لا.

قال: ذاكَ هو ابنُ الأَخيار! وأنتَ ابنُ الأَشرار!! لأنك تعدُّ عليَّ رجالَ أهل النار!!![1].

إنَّ عمرَ رضي الله عنه ينكر على ذلك الرجلِ زعْمَه أنه ابنُ الأَخيار، واعتزازَه بآبائه وأجداده الجاهليين الكفار، فكيف يكونون أَخياراً وهم كفارٌ ذاهبون إلى النار! إِنهم أَشرار!!

وابنُ الأَخيار هو سليلُ الأنبياء، الكريمُ ابن الكرام، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام.

مواضع ذكر يوسف في القرآن:

وقد وردَ ذكْرُ اسم يوسف في القرآن سبعاً وعشرين مرة. خمسٌ وعشرون منها في سورةِ يوسف، التي تحملُ اسمَه، والتي تفردتْ بذكْرِ قصته من أوَّلها إلى آخرها.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢: ٣٤٧. وقال: صحيح على شرط مسلم. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٩.

وذُكر اسمُه مرةً في سورة الأنعام، ضمن ذكْرِ أسماءِ مجموعةٍ من الأنبياء، الذين جاءوا من ذرية إبراهيم. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

وذُكرَ اسمُه مرةً في سورة غافر، وذلك في قصة «مؤمن آل فرعون» أثناءَ دفاع ذلك الرجل عن موسى عليه السلام، ووقوفِه في وجه فرعون، حيث ذَكَّر قومَه بيوسف عليه السلام، الذي حكمهم فترةً من الزمن، وانتظروا موتَه بفارغ الصبر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤].

[٢]
لماذا قصة يوسف في سورة واحدة؟

قصةُ يوسف عليه السلام في القرآن فريدةٌ خاصةٌ متميزة، فلم تتفرقْ وتتوزَّعْ في عديدٍ من سور القرآن، كما هو الشأن في قصَص الأنبياء الآخرين، كنوح وإبراهيم وموسى وغيرِهم عليهم الصلاة والسلام.

ذُكرتْ قصةُ يوسف كلُّها في سورة يوسف.

وسورةُ يوسف كلُّها مكية، وقد بدأتْ آياتُ السورة بذكْرِ رؤيا رآها يوسف وهو صغير، ثم تسلسلت الأحداثُ له، واستمرت آياتُ السورة في عَرض الأحداث والمشاهد والمناظر، في تسلسلِها وتتابعِها، وخَتمت السورةُ القصةَ بذكر تأويل رؤيا يوسف في عالم الواقع.

جو نزول السورة في مكة:

وقبلَ أنْ نحاولَ تعليلَ حكمةِ ذكْرِ القصة في السورة الخاصة بها، نحاولُ الوقوفَ على جوِّ نزول السورة.

نزلتْ سورةُ يوسف في جوٍّ خاص، عاشَتْه الدعوةُ الإسلامية في مكة، وفترةٍ قاسية مرَّتْ بها الدعوةُ هناك.

وقد أَطلقَ سيد قطب على هذه الفترةِ العصيبة «الفترةَ الحرجة» وهي الفترةُ الواقعةُ ما بين حصارِ المسلمين في شِعْبِ أبي طالب، إلى بيعةِ العقبة الأولى ثم الثانية.

ففي هذه الفترةِ الحرجةِ ازدادَ إيذاءُ قريش للرسول ﷺ والمسلمين، وازدادَ حربُهم للدعوة، وأصبحت حركةُ الدعوة شبهَ متجمدة، ومرتْ مشاعرُ وأعصابُ المسلمين بكربٍ وضغط وضيق وانفعال، وصاروا يتساءلون: هل من مخرجٍ من هذه المحنة؟ وهل من زوالٍ لهذا الكَرْب؟ ومتى يأتي الفَرَج؟

وقد أنزلَ اللّهُ عدةَ سور من القرآن المكي في هذه الفترة، التي استمرتْ عدةَ سنوات، بهدفِ تقويةِ معنويات وعزائم المسلمين، ومؤانسةِ ومواساة الرسول ﷺ، ومواجهةِ أفكارِ وشبهاتِ وإيذاءاتِ الكفار، وكانت هذه السور تقدم للمسلمين الأملَ والزادَ واليقين.

من السور التي نزلتْ في هذه الفترة، وهذا الجوِّ المكروب، سور: الأنعام، ويونس، وهود، وإبراهيم، والحجر.

وكانت سورةُ يوسف نازلةً في هذه الفترة أيضاً[1].

ولعلَّ استحضارَ جوِّ نزولِ السورة في مكة، يساعدُ على بيان حكمةِ ذكْرِ قصة يوسف في سورة يوسف فقط، منْ بَدئها إلى نهايتها.

---

(١) انظر تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٤: ١٩٤٩.

تحليلات رائعة لسيد قطب حول ذلك:

قال سيد قطب في تعريفِه بالسورة وجوِّ نزولها: «والسورةُ كلُّها لحمةٌ واحدة، عليها طابعُ القرآنِ المكي، واضحاً في موضوعها، وفي جوها، وفي ظلالها، وفي إيحاءاتها. بل إِن عليها طابعَ هذه الفترة الحرجة الموحشة، بصفة خاصة.

ففي الوقت الذي كان رسولُ الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع، في جاهليةِ قريش ـ منذ عام الحُزْن ـ وتُعاني معه الجماعةُ المسلمة هذه الشدة، كان الله ـ سبحانه ـ يقصُّ على نبيه الكريم قصةَ أخٍ له كريم ـ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ وهو يُعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات. . . . التي صبرَ عليها يوسف ـ عليه السلام ـ وزاولَ دعوتَه إلى الإسلام من خلالها، وخرجَ منها كلِّها خالصاً متجرداً. . . . آخرُ توجهاتِه وآخرُ اهتماماته. . . أنْ يتوفّاه اللّهُ مسلماً، وأن يُلحقَه بالصالحين. .

. . . فلا عجبَ أن تكون هذه السورة، بما احتوتْه من قصةِ ذلك النبي الكريم، ومن التعقيباتِ عليها بعد ذلك، مما يتنزل على رسول الله ﷺ والجماعةِ المسلمة معه في مكة، في هذه الفترة بالذات، تسليةً وتسرية، وتطميناً كذلك، وتثبيتاً للمطاردين المغتربين الموحشين.

لا بلْ إنَّ الخاطرَ ليذهبُ بي هذه اللحظة إلى الإحساسِ البعيد، بالإخراجِ من مكة، إلى دار أخرى، يكون فيها النصرُ والتمكين، مهما بَدا أن الخروجَ كان إِكراهاً تحت التهديد! كما أُخرجَ يوسفُ من حضن أبويه، ليواجهَ هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولقد كان ذلك وهو يضعُ أقدامَه في مصر، في قصرِ العزيز. . حتى وهو ما يزال فتى، يُباعُ بيعَ الرقيق!

وما يَذهبُ بي الخاطر إليه اللحظة، يجعلني أتذوَّقُ مذاقاً خاصاً - أُشيرُ إليه ولا أملكُ التعبيرَ عنه - ذلك التعقيبُ الذي أعقب القصة:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

إنه الإيحاءُ بمجرى سنة الله، عندما يستيئسُ الرسل - كما استيأسَ يوسف في محنته الطويلة - والتلميحُ بالمخرجِ المكروه، الذي يَليه الفرج المرغوب!... الإيحاءُ والتلميحُ اللذان تدركُهما القلوبُ المؤمنة، وهي في مثلِ هذه الفترة تعيش، وفي جوِّها تتنفس، فتتذوقُ وتستشرف، وتلمحُ الإيحاءَ والتلميحَ من بعيد...

والسورةُ ذاتُ طابعٍ متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة... وهو طابعٌ متفرد في السوَر القرآنية جميعاً.

هذا الطابعُ الخاصُّ يتناسبُ مع طبيعة القصة، ويؤديها أداءً كاملاً. ذلك أَنها تبدأُ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلِها.. بحيث لا يناسبها أن تكونَ حلقةً منها أو جملةَ حلقات في سورة، وتكون بقيتُها في سورةٍ أخرى.

وهذا الطابعُ كفلَ لها الأَداءَ الكامل من جميع الوجوه، فوقَ تحقيقه للهدفِ الأصيل، الذي من أَجْلِه سيقت القصة، والتعقيبات التي تلَتْها...»[1].

(١) في ظلال القرآن ٤: ١٩٥٠ - ١٩٥١ باختصار.

لعلَّه لأجلِ هذه المعاني والحِكَمِ والتعليلات التي أَوردها سيد قطب، ذُكرت قصةُ يوسف كاملة في السورة، ولم تتفرقْ في عدةِ سور، والله أعلم.

[٣]
حلقات القصة ووحدات السورة

تقسيمها إلى وحدات وحلقات:

قلنا إنَّ سورة يوسف تكفلتْ بعرضِ قصة يوسف كاملة، من بَدئِها عندما رأى الرؤيا وهو صغير، إِلى نِهايتها عندما تحققت رؤياه فِعْلاً في عالم الواقع.

ويمكنُ تقسيمُ قصة يوسف إلى حلقاتٍ متسلسلة، ومحطاتٍ متتابعة، بينها ترابطٌ وتناسق وانسجام، هذه الحلقاتُ تحوي كلُّ واحدة منها عدداً من المشاهدِ والمناظر واللقطات.

كما يمكن تقسيمُ سورة يوسف إلى مجموعةٍ من الوحدات، كلُّ وحدة تضمُّ حلقةً من حلقات القصة، وكل وحدة تضمُّ عدداً من الدروس الفرعية.

ولسنا في معرضِ التفسيرِ التَّحْليلي التفصيلي أو الموضوعي لسورة يوسف، فهذا يحتاجُ إلى مجلدٌ خاص، مكانُه غيرَ هذا المكان، إنما سنتحدث عن وحداتِ السورة بإجمالٍ وإيجاز، وبما يتفقُ مع حديثنا عن قصة يوسف عليه السلام.

يمكنُ تقسيمُ السورة إلى مقدمةٍ ومجموعةِ وحدات، تضم كل وحدةٍ حلقةً من حلقات القصة، وخاتمة.

مقدمةُ السورة: الآيات: ١ ـ ٣. وهي تقررُ حقيقةَ آياتِ القرآن الكتاب المبين، الذي جعلَه اللّهُ قرآناً عربيَّ اللسان، وتصفُ قصصَ القرآن الذي قصه الله على رسوله محمد ﷺ بأنه أحسنُ القصص ـ ومنه

قصةُ يوسف المذكورة في هذه السورة ـ وتجعلُ إيرادِ القصة في القرآن دليلاً على نبوةِ محمد ﷺ.

الوحدة الأولى بستة مشاهد:

الوحدة الأولى: الآيات: ٤ ـ ٢٠.

هذه الوحدةُ تضمُّ الحلقةَ الأولى من قصة يوسف: منذُ أنْ أخبرَ والدَه برؤياه، عندما رأى سجودَ أحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر له، إلى أنْ بيعَ عبداً رقيقاً في مصر.

والحلقةُ الأولى من قصته تقسم إلى ستة مشاهد:

المشهد الأول: الآيات: ٤ ـ ٦. يضمُّ إخبارَ يوسف لأبيه عن رؤياه، ونصيحةَ أَبيه يعقوب له أنْ لا يخبرَ إخوتَه برؤياه، لئلا يكيدوا له ويحقدوا عليه، واستشرافَ أبيه مستقبلَه الإيماني المشرق، وتذكيرَه له بنعمة الله على أبويه إبراهيم وإسحاق.

المشهد الثاني: الآيات: ٧ ـ ١٠. يسجلُ المشهدُ تآمرَ إخوةِ يوسف عليه، وزعْمِهم أن أباهم يعقوب يقدِّمُه مع أخيه عليهم، ولهذا لا بدَّ أنْ يتخلصوا منه، فاقترحَ بعضُ إخوته أنْ يقتلوه، وأَشارَ أَحدهم إلى التخلصِ منه بإلقائه في قعرِ بئرٍ على طريق التجار، ليأخذه التجارُ بعيداً إلى بلاد أخرى. وقد أخذوا بهذا الرأي.

المشهد الثالث: الآيات: ١١ ـ ١٤. يسجلُ المشهدُ مراودةَ الأبناء المتآمِرين لأبيهم حتى يأذنَ بذهابِ يوسف معهم، ومخادعتهم له، وادعائهم الحرصَ عليه وتحقيق مصلحته. ويُزيلون مخاوفَ يعقوب في تقصيرهم في يوسف، ويتعهَّدون إعادتَه له سالماً.. فيوافق يعقوب على ذهابه معهم.

المشهد الرابع: آية: ١٥. يسجلُ المشهدُ المعروض في هذه الآية لقطةً مثيرة، وهي التي نفَّذوا فيها المؤامرة، حيث أَلقوه في قعر البئر،

وتركوه فيها وحيداً، فآنسَه الله وواساه، وأوحى له أنه سيأتيه الفرج والتمكين، وسيذكِّرُهم بهذه الجريمة التي اقترفوها معه.

المشهد الخامس: الآيات: ١٦ ـ ١٨. يسجلُ منظرَ الإخوة المتآمرين عندما عادوا إلى أبيهم باكين في وقت العشاء، وتبريرِهم ما جرى ليوسف، وادعائِهم أكل الذئب له، وإدراكِ يعقوب أنهم كاذبون، وأن يوسف في محنة، وتسليمه الأمر إلى الله.

المشهد السادس: الآيات: ١٩ ـ ٢٠. يسجلُ المشهدُ مجيءَ تجارٍ مسافرين، ومفاجأتهم برؤيا يوسف في البئر، وأخذَهم له معهم إلى مصر، وبيعَه هناك في مصر بثمن بخس دراهم معدودة.

وبهذا المشهد تنتهي الوحدةُ الأولى من وحدات السورة، وتنتهي الحلقةُ الأولى من حلقات قصة يوسف عليه السلام، حيث ينقلُه اللّهُ بحكمته من حضْنِ أبويه، ليباع رقيقاً في مصر، تمهيداً للحلقة الثانية في قصته العجيبة المثيرة.

الوحدة الثانية بثلاثة مشاهد:

الوحدة الثانية: الآيات: ٢١ ـ ٣٤.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الثانية من حلقات قصة يوسف عليه السلام. وهي إقامتُه في بيت العزيز، عبداً رقيقاً، وتوجُّهُ امرأة العزيز إليه بالمراودة والإغراء، والدعوةِ الصريحة إلى الفاحشة، واستعانتُها عليه بنسوة الطبقات المتحكمة في المدينة، ومواجهتُه كلَّ ذلك بالعفة والطهر والاستعصام.

ويمكن تقسيمُ هذه الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهد الأول: الآيات: ٢١ ـ ٢٢. يسجلُ هذا المشهدُ وصولَ يوسف عليه السلام إلى مصر، وشراءَ عزيز مصر وكبيرِ مسؤوليها له، وتحوُّلَه إلى غلام رقيق في بيت هذا المسؤول الكبير. حيثُ أوصى العزيزُ امرأتَه بهذا الغلام، واستبشرَ فيه خيراً. وقد شبَّ يوسف في بيته،

وآتاه اللّهُ الحكمَ والعلم، ومكَّنَ له في الأرض، وجعلَ هذا كله خطوةً لتحقيقِ حكمته سبحانه في ما قدَّره ليوسف وبني إسرائيل من أمور. واللّهُ غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المشهد الثاني: الآيات: ٢٣ ـ ٢٩. يسجلُ هذا المشهدُ محنةً خطيرةً قاسيةً مرَّ بها يوسف عليه السلام، في بيتِ امرأة العزيز، وهي مراودةُ تلك المرأة له، ودعوتُها الصريحة لممارسة الفاحشة، حيث غلَّقت الأبواب، وقالت هيتَ لك، وهمت به.. لكنه نجحَ في تجاوزِ هذه المحنة، واستنجدَ بالله، واستعصمَ به، فعصمه الله وحماه، وقد مكرتْ به تلك المرأة، واتهمتْه أمامَ سيدها زوجها، وظهرتْ براءتُه من تهمة المراودة والهم بالفاحشة.

المشهد الثالث: الآيات: ٣٠ ـ ٣٤. يسجلُ هذا المشهدُ خبرَ انتشارِ مراودة امرأة العزيز ليوسف في أوساط الطبقة المتحكمة، ومؤامرةِ المرأة على تلك النساء، حيث فاجأتهن بيوسف، فبهرهن حسنه، وتوقفْنَ عن عذْلِها ولومها، وساعدْنَها على مراودته. عند ذلك صرحت بأنها لن تكفَّ عنه، وإن استمرَّ على إبائِه واستعصامه فستسجنه. فطلبَ يوسفُ السجنَ لينجوَ من هذا الجو الموبوء، فاستجابَ اللّهُ له طلبه..

الوحدة الثالثة بأربعة مشاهد:

الوحدة الثالثة: الآيات: ٣٥ ـ ٥٣.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الثالثة من قصة يوسف، التي تسجلُ المحنةَ الثالثةَ ـ والأخيرة ـ في حياة يوسف، وهي محنةُ سجْنِه ظلماً، حيث سجنوه بعدما ثبتتْ لهم براءتُه.

والتقى في السجن بسجينين آخرين فمارسَ معهما الدعوة، وعبَّرَ لكلٍّ منهما رؤياه، ورأى الملكُ رؤيا عجيبة، وعجزَ الكهنةُ عنده عن تعبيرها، فعبَّرَهَا له يوسف، وظهرتْ مواهبُ يوسف عند الملك، وأعادَ الملك محاكمته، وشهدت النسوةُ لصالحه، واعترفت امرأة العزيز

بمراودتها له، وأعلنت براءته.

وبذلك خرج من السجن بعدما ظهر للجميع براءتُه وعفتُه.

ويمكن تقسيم هذه الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهدُ الأول: الآيات: ٣٥ ـ ٤٢. يسجلُ لقطةَ إدخالِ يوسف السجن مظلوماً، بعدَ ما ثبتتْ لهم براءته. كما يسجلُ الحوارَ بينه وبين سجينين آخرين، وعرضَه عليهما دعوتَه، وتعريفَهما به وبدينه، ثم تعبيرُه رؤيا كلٌ منهما، حيث صُلب أحدهما وقُتل، وخرجَ الآخرُ من السجن، وعاد إلى الملك، وطلبَ يوسف منه أنْ يَذكُرَ للملك قصته.

المشهد الثاني: الآيات: ٤٣ ـ ٤٥. يسجلُ الرؤيا التي رآها الملك، وعجْزَ رجاله وكَهَنِتهِ عن تأويلها وتعبيرها، وتذكُّرَ ذلك الرجل موهبة يوسف في تأويل الرؤيا، وذهابَه إليه.

المشهد الثالث: الآيات: ٤٦ ـ ٤٩. يسجلُ ذهابَ الرجل ليوسف في السجن، وتأويلَ يوسف الصائب لرؤيا الملك.

المشهد الرابع: الآيات: ٥٠ ـ ٥٣. يسجلُ إعجابَ الملك بمواهب يوسف، وطلبَه إليه، لكن يوسفَ طلبَ إعادةَ التحقيق في قضيته، ليخرج بريئاً وليس متهماً، وأعادَ الملك التحقيق، وسألَ أطرافَ القضية، فشهدت النساءُ له، واعترفت امرأةُ العزيز بأنها هي التي راودتْه عن نفسه.

الوحدة الرابعة بأربعة مشاهد:

الوحدة الرابعة: الآيات: ٥٤ ـ ٧٩.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الرابعة من قصة يوسف. وهي الحلقةُ التي تسجل مرحلةً جديدةٍ من قصة يوسف.

فالحلقاتُ الثلاث السابقةُ عرضت محنَ يوسف الثلاث، محنةُ التآمر والرق، ثم محنةُ الكيد والمراودة والإغراء، ثم محنةُ الاتهام والظلم والسجن.

وقد انتهت المرحلةُ الأولى ـ مرحلة المحن ـ بإعادةِ محاكمة يوسف أمام الملك، وشهادةِ النسوة وامرأة العزيز لصالحه.

وبهذا تبدأ المرحلةُ الثانية من حياة يوسف، مرحلةُ الرخاء والتمكين والنعم والخيرات.

تسجلُ الحلقةُ الرابعة من قصة يوسف، إخراجَه من السجن، وإكرامَ الملك له، وتولّيه أمورَ مصر وخزائنَ الأرض في السنوات الخمس عشر القادمة، وجعله «عزيز مصر».

وتسجلُ الحلقةُ قدومَ إخوته إلى «عزيز مصر» طلباً للطعام، ودخولَهم عليه، ومعرفتَه لهم دون أن يعرفوه، وقد طلبَ منهم إحضارَ أخٍ لهم من أبيهم، فأحضروا معهم أخاهم بعد تمنُّعِ أبيهم، وقد رتَّبَ يوسفُ مسألةَ إبقاءِ أخيه عنده، بطريقة عجيبة علمه اللّهُ إياها، حيث أخذه بتهمةِ السرقة في الظاهر.

ويمكن تقسيمُ هذه الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهدُ الأول: الآيات: ٥٤ ـ ٥٧. يسجلُ خروجَ يوسف من السجن، وتكريمَ الملك له، وقولَه: إنك اليوم لدينا مكين أمين. عندها طلب يوسفُ أنْ يجعلَه على خزائن الأرض، لأنه حفيظ عليم. فَعَيَّنَهُ الملكُ في منصب «العزيز».

وبهذا حقَّق اللّهُ ليوسف ما قدَّره له من التمكين في الأرض، تمهيداً لهجرة أبويه وإخوتِه من فلسطين إلى مصر بعد ذلك.

المشهد الثاني: الآيات: ٥٨ ـ ٦٢. يسجلُ هذا المشهدُ منظر قدومَ إخوةِ يوسف من فلسطين إلى مصر، في سنوات الجدب، طلباً للطعام، حيث دَخلوا على عزيز مصر ـ يوسف ـ وهم لا يتوقعون أن يكون يوسف. فأكرمهم ولم يعرفوه، وطلب منهم إحضارَ أخيهم معهم في المرة القادمة، وإلا فلا كيلَ لهم عنده، فوعدوه أن يراودوا أباه.

المشهد الثالث: الآيات: ٦٣ ـ ٦٧. يسجلُ هذا المشهد عودةَ الرجال إلى أبيهم يعقوب، حيث أَخبروه بما جرى بينهم وبين عزيز مصر، وطلبَه منهم إحضارَ أخيهم معهم، فوافقَ أَبوهم على ذهابه معهم بعد تمنُّع، وبشروطٍ خاصة، حيث أعطوه على ذلك الموثق المؤكد. فطلبَ منهم أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة.

المشهد الرابع: الآيات: ٦٨ ـ ٧٩. يسجلُ هذا المشهدُ وصولَ الإخوة ـ ومعهم أخوهم الصغير ـ إلى يوسف. ويعرضُ هذا المشهدُ تدبيرَ يوسف العجيب ليحتفظ بأخيه، حيث جعلَ السقايةَ في رحل أخيه، دون أن يعلمَ أحدٌ بذلك، ثم فتشَ رجالُه واستخرجوها، فأخذَ أخاه حسب شريعة يعقوب بإقرار إخوته، وقد راودوه، وعرضوا عليه أن يأخذَ أحدهم مكانه، لكنه رفض ذلك.

الوحدة الخامسة بخمسة مشاهد:

الوحدة الخامسة: الآيات: ٨٠ ـ ١٠١.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الخامسة ـ الأخيرة ـ من قصة يوسف. وهي عودةُ أهله إليه، واستقرارُهم معه في مصر، وإخبارُه أباه ـ بعد أن سجدوا له ـ بتأويلِ رؤياه.

ويمكن تقسيم الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهد الأول: الآيات: ٨٠ ـ ٨٢. يسجلُ منظرَ اجتماعِ إخوة يوسف بعد أخذِ أخيهم، وتشاورَهم فيما بينهم، وبقاءَ أخيهم الكَبير في مصر، وذهابَهم إلى أبيهم، لإخباره بأخذِ ابنه رقيقاً بتهمة السرقة.

المشهد الثاني: الآيات: ٨٣ ـ ٨٧. يسجلُ إخبارَ الإخوة لأبيهم بقصةِ أخيهم، حيث تأثَّرَ يعقوب بهذا، وواجهه بصبرِه الجميل، وأملِه أن يجمعَ اللّهُ بينه وبين أولاده الغائبين، وقد لامَه أبناؤه وعنَّفوه على استمرار تذكُّرِه ليوسف. ولكنه أمرهم أن يعودوا إلى مصر باحثين عن يوسف وأخيه، يحدوه الأملُ بروحِ الله.

المشهد الثالث: الآيات: ٨٨ ـ ٩٣. يسجلُ المشهدُ عودةَ الإخوةِ الثالثة إلى مصر، حيث وَقفوا أمام العزيز، وأَعلنوا له أنه أصابهم الضر، فأشفقَ يوسفُ عليهم، وقررَ إِنهاءَ مشاهدِ ومناظر إخفاءِ الحقيقة عليهم، فكشفَ لهم عن هويته، وأخبرهم أنه يوسف، وتجاوزَ عن كلِّ ما فعلوه، وأعطاهم قميصه، وطلبَ منهم إلقاءَه على وجه أبيهم ليعودَ له بصره، وكلفهم أن يأتوا جميعاً إلى مصر.

المشهد الرابع: الآيات: ٩٤ ـ ٩٨. يسجلُ عودةَ الأبناء لأبيهم، ومعهم قميصُ أخيهم، ومفاجأتَه بالقميص، حيث أَلقوه على وجهه فرجعَ إليه بصره.

عندها أَعلنوا له خطأهم، فيما فعلوه في حقِّه وحق يوسف، وطلبوا منه أن يستغفرَ لهم، فوعدهم بذلك.

المشهد الخامس: الآيات: ٩٩ ـ ١٠١. يسجلُ عودةَ الأهل جميعاً، ودخولَهم على يوسف، عزيزِ مصر، حيث سجدَ له أبواه وإخوتُه. وقد قصَّ يوسف على أبيه يعقوب قصتَه، وذكَّرَه برؤياه التي رآها وهو صغير. وها هي تتحققُ الآنَ في عالم الواقع.

وختمَ يوسفُ حلقاتِ ومشاهد ومناظر قصته التي انتهت بالتمكين له في الأرض، بأن توجَّه إلى الله، شاكراً له على إِنعامِه وفضله، وقد طلبَ من ربه أنْ يتوفّاه مسلماً، وأنْ يلحقَه بالصالحين.

وبعد هذه الوحداتِ الخمسة لسورة يوسف، تأتي خاتمةُ السورة، التي تضم الآيات: ١٠٢ ـ ١١١.

وتسجلُ آياتُ الخاتمة التعقيباتِ المناسبة، وتوظيفَ قصةِ يوسف المفصلة في السورةِ للدلالة على نبوة محمد ﷺ، وإثباتَ أن القرآن كلامُ الله. واستخراجَ الدروس منها للمسلمين للصبر والثبات، وتقديمَ الأمل لهم بالفرجِ والنصر والتمكين، وتجاوُزِ ما يمرونَ به من ضيقِ

وشدة، كما حصلَ مع يوسف عليه الصلاة والسلام[1].

قصة يوسف على مرحلتين:

والخلاصةُ أنَّ قصةَ يوسف تنقسمُ إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلةُ المحن والابتلاءات.

وتنقسمُ إلى ثلاث حلقات:

الحلقة الأولى: محنتُه وهو يواجهُ كيدَ وتآمرَ إخوته، حيث وضعوه في البئر.

وتنتهي هذه الحلقةُ بأخذِ القافلة له، وبيعِه عبداً لعزيز مصر، وبذلك انتقلَ من حضن والدَيْه إلى قصرِ العزيز، وغادرَ الأرضَ المقدسة إلى عاصمة مصر.

الحلقة الثانية: محنتُه في قصرِ عزيز مصر، حيث كان يعاني شعورَ الرقّ والعبودية، وهو الكريمُ سليلُ الكرماء.

وتصاعدتْ محنتُه في قصر العزيز، عندما واجَه شهوانيةَ امرأةِ العزيز، ومراودتَها له، ودعوتَها الصريحة إلى الفاحشة، ولكنه استعصمَ ولجأ إلى الله.

فاستعانتْ عليه بنسوةِ مسؤولي المدينة، ودعوتِه إلى الفاحشة، وواجَه هذا بالاستعصام، وبذلك انتصرَ على فتنة الشهوة، ونجحَ في تجاوز المحنة.

الحلقة الثالثة: محنتُه في إدخالِه السجن بضعَ سنين. حيث ظهرَ للقوم براءتُه، لكن كيفَ يُبَرِّءونه وهو العبد، ويُدينون امرأةَ العزيز؟ لا بدَّ أن يكون هو الضحية، وأنْ يُسجن، وهكذا دخلَ السجنَ مظلوماً.

---

(١) اعتمدنا تقسيم سيد قطب في الظلال لوحدات السورة وحلقات القصة، ومشاهد كل حلقة وموضوعاتها، ويراجع تقسيمه في تفسيره لسورة يوسف من الظلال.

وقد أَعانَه اللّهُ على تجاوزِ هذه المحنة الثالثة، والتعاملِ معها بالأمل والصبر والاحتساب، واليقينِ بما عند الله.

المرحلة الثانية: مرحلةُ التمكينِ والإنعام.

وتنقسمُ هذه المرحلة إلى حلقتين:

الحلقة الأولى: تولّيه منصبَ «عزيز مصر» ـ أعلى منصب في مصر بعد الملك ـ حيث قدرَ اللّهُ له أنْ يَخرجَ من السجن إلى القيادة والمسؤولية والتمكين في الأرض.

وقد تمكنَ يوسفُ أثناءَ حكمِه من حسنِ إدارة مصر، ووضَعَ خطةً لإطعامِ أهلِها وإطعامِ أهلِ البلاد المجاورة، طيلةَ سنوات الجدب والقحطِ السبع.

وقد تعرَّفَ على إخوتِه، عندما جاءوه طالبين الطعام، وطلبَ منهم إِحضارَ أخيه الصغير معهم.

الحلقة الثانية: فيها تفاصيلُ أحداثِ ومشاهد تعامله مع إخوته، والتي انتهتْ بإتيانِ جميع أفراد أسرته إليه، وهجرتِهم من الأرض المقدسة إلى مصر، وبذلك تحققتْ رؤياه، وأخبرَ أباه بذلك.

وبذلكَ بدأتْ أحداثُ قصة بني إسرائيل في مصر، التي استمروا فيها حتى عادَ بهم موسى بعد ذلك من مصر إلى الأرض المقدسة، بعد عشراتِ السنين!

لقد نجحَ يوسفُ النبي الكريمُ عليه الصلاة والسلام في التعامل مع المرحلةِ الأولى من حياته وقصته، وتجاوزَ ابتلاءاتها ومحنَها الثلاث، كما نجحَ في التعامل مع المرحلةِ الثانية، واستخدَمَها في ذكر الله وشكره.

وسنتعاملُ مع قصته على أساسِ المراحل الخمسِ التي أشرْنا لها.

[٤]

الحلقة الأولى

يوسف يواجه كيد وتآمر إخوته

قلنا إنَّ اللَّهَ وهبَ ليعقوب عليه السلام اثني عشر ابناً ذكراً ـ هم أُصولُ بني إسرائيل ـ.

يعقوب يهتم بيوسف أكثر لنباهته:

وكان من أنبهِهم وأذكاهم وأجملِهم ابنُه يوسف عليه السلام، وكان الوالدُ يعقوب يلاحظُ هذا من ابنه الصغير، فيُظهرُ له مزيداً من العنايةِ والرعاية، لكن ليس على حسابِ أبنائه الآخرين.

لكنَّ الأبناءَ الآخرين لم ينظروا إلى الموضوع بمنظارِ حُسنِ الظنِّ والتعليل، وإنما أساءوا الحكمَ على أبيهم، فاتهموه بالانحياز إلى أخيهم الصغير، وأساءوا النظرَ إلى أخيهم، فعامَلوه بحقدٍ وكيد، بدلَ أنْ يعاملوه بحبٍّ ووُدّ.

وقد قدَّرَ اللّهُ ليوسفَ مستقبلاً عظيماً زاهراً، لا يعلمُ يوسفُ وأبوه عنه شيئاً، لأنه من عالَم الغيب، ولكن هذا المستقبلَ الزاهرَ يَعْبُرُه يوسفُ وسطَ سلسلةٍ من الابتلاءات والمحن، وسيُعين اللّهُ يوسفَ على عبورها وتجاوُزها، ليصلَ إلى ما بعدها.

وأرادَ اللّهُ أنْ يقدِّم ليوسف وهو صغير ومضةً منيرة، وإشارةً دالة، فكانت رؤياه.

يوسف يقص رؤياه على أبيه وأبوه يحذره:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

كان يوسف صغيراً، فرأى أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمر ساجدين له.

وهي رؤيا عجيبة مثيرة، فشيءٌ كبير أنْ يرى طفلٌ صغير الكواكبَ والشمس والقمر ساجدين بين يديه، وهو واقفٌ ينظر!

تأثّرَ يوسف بهذه الرؤيا، ولما أصبحَ قصَّها على أبيه، وانتظر ليسمعَ من أبيه تعبيرها وتأويلها، أو التعليقَ عليها.

ولما سمعَ يعقوبُ عليه السلام من ابنه رؤياه، تأكدتْ له نظرتُه السابقةُ إلى ابنه، وأحسَّ ـ وهو النبيُّ البصير ـ بالمستقبلِ المشرفِ لابنه، واستشرفَ هو هذا المستقبل، وفهمَ هذه الإشارةَ الخفية التي تقدمها الرؤيا، وعلم أن اللّهَ يُعدُّ ابنَه يوسف لأمرٍ عظيم.

ولا يَعرفُ يعقوب شيئاً عن هذا الأمرِ العظيم والمستقبل الباهر، لأن اللّهَ لم يخبرْه عنه، فهو من عالم الغيب، لكنْ تكفيه هذه الإشارة.

وربط يعقوب نظرَ ابنهِ الصبيِّ بهذا المستقبل غير المحدد، الذي تشيرُ له الرؤيا، وذكّرَه بنعم الله على آبائه: إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب عليهم السلام، وهيَّأَه لاستقبالِ نعمِ اللّهِ عليه.

لكن يعقوبَ يعلمُ حقْدَ إخوته عليه، وسوءَ نظرتِهم له، ولو قص رؤياه الدالةَ عليهم، فسيزدادون له كيداً، وعليه حقداً. لذلك طلبَ منه أن لا يقصَّ رؤياه عليهم، بل يُخفيها عنهم، لعل كيدَهم وحقدَهم يخفّ.

هذه المعاني يُشير إليها قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾.

وبهذا ينتهي المشهدُ الأولُ من هذه الحلقة. مشهدُ رؤيا يوسف، ومعرفة أبيه بها، وإدراكه لمغزاها، وربط نظر ابنه بها، وتحذيره من كيد إخوته له بسببها.

[٥]

البداية الحاقدة لبني إسرائيل

الإخوة يتهمون أباهم ويحقدون على أخيهم

المشهد الثاني في هذه الحلقة: «تآمُرُ إخوة يوسف عليه» تعرضُه هذه الآيات: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠].

في قصة يوسف آيات وعبر:

لقد أخبرَنا اللّهُ أن قصةَ يوسف مع إخوته تتضمنُ آيات وعبراً ودروساً عديدة، للذين يسألونَ عن تفاصيلِ أحداثها وحلقاتها، والذين يَقفون أمامَ مشاهدِها ومناظرها.

وهذه دعوةٌ لنا لحسنِ إدراك أحداث قصةِ يوسفَ مع إخوته، واستنباطِ دروسها وعبرها، ومعرفةِ آياتها وإيحاءاتها.

لقد كان إخوةُ يوسف عليه السلام نموذجاً خاصاً بشرياً، في النظر إلى أخٍ صغير، والتعاملِ معه، كما كانوا نموذجاً خاصاً للأبناء الذين يتعاملون مع أَبيهم النبي بجلافةٍ وسوءٍ واتهام.

كانوا نموذجاً بشرياً للكيدِ والحقد، والمكر والتآمر، والحسدِ وسوء الظن، وخطأ النظر وضلال الحكم، والكذبِ والافتراء.

مَنْ هؤلاء؟ إنهم أصولُ وأجدادُ بني إسرائيل، الذين عُرِفوا بعد ذلك باسم اليهود!!

إخوة يوسف والبداية الحاقدة لليهود:

وفي هذا الحديث توجَدُ عدةُ دلالات وآيات، على الطبيعة الخاصة لهؤلاء اليهود، تلك الطبيعةُ التي تقومُ على الكيدِ والحقد والرذائل والنقائص.

إنَّ موقفَ هؤلاء الإخوةِ من أخيهم يمثل «البدايةَ الحاقدة» لهذا النموذجِ البشري الخاص، فإذا كان الأَجدادُ والأصولُ الإسرائيليون على هذه الدَرجةِ من الحقد والكيد على أخيهم، فكيف سيكون حقدُ وكيدُ ولؤمُ الأحفادِ القادمين من اليهود على غيرهم؟

كأنَّ هذا الحقدَ والكيدَ «جينات» وراثية، تنتقلُ إلى الأحفاد لتستقرَّ في نفوسهم وكيانهم، وتتغلغلَ في طبيعتهم.

ولا يُزيلُ هذه الرذائلَ والنقائصَ من نفوسهم إلا الصدقُ في الإيمان بالله، والإحسانُ في عبادة الله، والنجاحُ في التربية الإيمانية، وهذا لم يتحقق إلاَّ في نماذجَ قليلةٍ من بني إسرائيل ـ أو اليهود ـ وهم الأنبياءُ فيهم، وأَتباعُ الأنبياء الصادقون المخلصون، ومَنْ دخلَ منهم في الإسلام بعدَ بعثةِ محمد ﷺ.

إننا نستثني هذه النماذجَ القليلةَ المؤمنة من ذلك الحقدِ والكيد والتآمر، لإيمانهم واستقامتهم. أمّا الجمهورُ الكبيرُ من الإسرائيليين واليهود، فهم أكثرُ من أجدادهم وأصولهم كيداً وحقداً وتآمراً!!

سوء تفسيرهم لاهتمام أبيهم بيوسف:

إخوةُ يوسف الحاقدون يجلسون معاً يتآمرون، إنهم عشرةٌ كبار ـ باستثناءِ يوسف الصبي وأخيه الأصغر الغلام ـ، ولما ناقشوا مسألةَ أخيهم يوسف وأبيهم يعقوب ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

لقد أَساءوا تفسيرَ اهتمامِ أبيهم بأخويْهم الصغيريْن، حيثُ اعتبروا هذا انحيازاً من الأبِ لصغيريه، ومحبةً لهما، وإهمالاً منه لأَبنائه العشرةِ الكبار، وعدمَ محبةٍ منه لهم.

صحيحٌ أن يعقوبَ يُبدي اهتماماً أكثرَ بيوسف وأخيه، لحاجتهما إلى ذلك، فهما صغيران. أما الأبناءُ الكبارُ فقد كبروا وشَبّوا، ولهذا لا يحتاجون إلى مزيدٍ من العناية والرعاية، وإظهارِ المحبة والاهتمام.

وهذه ناحيةٌ إنسانية معروفة، فأيُّ أبٍ ـ ولو لم يكن نبياً ـ يهتمُّ بأولاده الصغار أكثر، ويُظهرُ لهم مزيداً من الحبِّ والرعاية.

ولقد قيلَ لامرأة: أي أولادك أحبُّ إليك؟

قالت: الصغيرُ حتى يكبر. والمريضُ حتى يشفى. والمسافرُ حتى يعود.

ولو بحثَ الإخوةُ المسألةَ على هذا الأساس، لخرجوا بهذه النتيجة، ولما اتهموا أَباهم، ولما حَقدوا على أَخيهم.

لكنهم استسلموا لوسوسةِ الشيطان، وصدَّقوا تعليلَه الشيطاني للموضوع! ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وأصدروا في تلك الجلسةِ حكمهم على أبيهم، فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. والضلالُ الخطأُ والانحراف، وسوءُ التقدير والعمل.

مَنْ الذي وصفوه بالضلال المبين؟ إِنه أَبوهم يعقوب، النبيُّ ابنُ الأنبياء!!!

قتل يوسف أو طرحه في الجب:

ولما بحثوا مسألةَ أَخيهم يوسف طرحوا رأيين:

الأول: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾. ومجردُ ورودِ خاطرِ قتلِ الأخ الصغير عند إخوةٍ له كبار، أمرٌ فظيعٌ خبيث.

لماذا يريدون قتلَ أخٍ صغير؟ لم يرتكبْ جريمةً ولا ذنباً!!

الثاني: ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾.

وهذا الرأيُ الثاني قريبٌ من الرأي الأول. فأخْذُ صبي صغير من حضن والديه وبيته، وإلقاؤه في أرض بعيدةٍ قَفْر، ليس فيها قريبٌ ولا معين، صورةٌ من صور قتلِه.

لكنَّ الحقدَ عندما يسيطرُ على عقل وقلب صاحبه، يغلقُ عليه كلَّ تفكير سليم، وتخطيطٍ مقبول!!

لماذا يقترحون قتلَ أخيهم، أو إلقاءَه في أرضٍ بعيدة؟ عَلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

لقد زينَ لهم شيطانُهم أنَّ يوسفَ يحجبُ عنهم قلبَ أبيهم ووجْهَه، لأن أباهم مشغولٌ عنهم بحب يوسف، فلا يعطيهم فرصةً لحبهم أو النظرِ إليهم. ولذلك لا بد أن يُزيلوا هذا الحجاب، وإزالتُه بقتلِ يوسف، أو طرحِه في أرض بعيدة. إنهم بعد ذلك يتمكّنون من وجه وقلب أبيهم، حيث يخلو لهم الأمر، ويشغرُ لهم الوجهُ والقلب، فيستمتعون به، على حساب يوسف!!

والأَعجبُ منهم هو تبريرُهم لجريمتهم الفظيعة، وتخطيطُهم للتوبة والاستقامة والصلاح بعد ارتكابها: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾!

كأنَّ شيطانَهم يقول لهم: اقتلوا أخاكم الآن، أو اطرحوه أرضاً بعيدة. ولا تخافوا ولا تتحرَّجوا. فأنتم بهذا تريدون مصلحتكم، وتفعلون هذا ليخلوَ لكم وجه أبيكم.

وافرِضوا أَنها جريمة، لا عليكم، إنكم سوفَ تتوبون بعدها، وتستقيمون وتصلحون، وعندها ستكونون قوماً صالحين. وما زالَ أمامكم مستقبلٌ ووقتٌ وزمان طويل، تحققون فيه الاستقامة والصلاح!

وهذه حيلةٌ ماكرة من حيل الشيطان، أوقعَ فيها هؤلاء الإخوةَ الحاقدين، ويوقعُ فيها أُناساً كثيرين آخرين، يزينُ لهم المعصية، ويقنعهم بإيجادِ التوبة بعد ارتكابِ المعصية، وليس هذا دعوةٌ منه للتوبة، لكنه استمرارٌ منه في تزيينِ المعصية!.

وقد سجلتْ آياتُ هذا المشهد تحرُّجَ أحدِ الإخوة العشرة المتآمرين، وعدمَ قبوله للرأييْن الفظيعيْن، بقتل يوسف أو طرحه في أرض بعيدة، ولهذا خاطبهم بقوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

مَنْ هو هذا القائل؟ لقد أبهمتْه الآيةُ بقولها: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذ التنكير ﴿قَائِلٌ﴾ للإِبْهَام. حتى لا نخوضَ في تحديد اسمه، إِنه أحدُ الإخوة العشرة، فقط!.

رفضَ اقتراحَ القتل، وقدَّمَ اقتراحاً آخر: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾.

و﴿غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: قعرُ البئر التي لم تُطْوَ، ولم تُبْنَ بالحجارة. وغيابةُ الشيء: أسفلُه وقعْرُه.

والجُبُّ: البئرُ المحفورة في الأرض، وسُميت «جُبّاً» لأنها مأخوذةٌ من «الجَبّ» وهو القطع. حيث تُحفرُ الأرض، وتُقطعُ قَطْعاً، وتُشقُّ شقاً.

إنَّ غيابةَ الجب التي اتفقوا على إلقاءِ يوسف فيها هي قعْرُ تلك البئرِ المظلمةِ البعيدة.

ونفهمُ من قولِ الأخ المتحفِّظ: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ تشكيكَهم في تصميمِهم على التخلُّص من يوسف، ودعوتَه لهم إلى التراجع عن ذلك، ويبدو أنه كان أعقلَ الإخوة، وأقلَّهم حقداً واندفاعاً، وأنه ما كان مصمماً على التخلصِ من أخيه، ولذلك كان وجودُه بينهم دافعاً لهم إلى اتخاذِ قرارٍ أقلَّ عنفاً وخطراً ـ مع أنه خطأ وباطل ـ.

[٦]

الإخوة يراودون أباهم لأخذ يوسف

المشهدُ الثالث من هذه الحلقة، تكفلتْ بعرضِه أربعُ آيات: هي

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

لقد اتفقَ الإخوةُ في المشهد السابق على التخلصِ من يوسف، وذلك بإلقائِه في قعرِ بئرٍ مظلم، على طريق القوافل.

والآن يريدون مراودةَ أبيهم يعقوب، ليأذنَ لهم بأخذِ يوسف معهم، ليذهبوا به بعيداً، وليتمكنوا من تنفيذِ مؤامرتهم ضده.

اتهموا أباهم بعدم ائتمانه لهم على يوسف:

كيف يُقنعون أَباهم بذلك؟ وكيف يتحايلون عليه ويخادعونه؟ ماذا يقولون له ليقنعوه؟

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾.

بدأوا كلامَهم مع أَبيهم بالهجومِ عليه، واتهامِه، وسوء ظنهم في تصرفاته. لم يكن يعقوب يرسلُ يوسف معهم في الماضي إلى المراعي. لأنه صغيرٌ قد لا يتحملُ مشقةَ الرعي، وصعودَ الجبال، ونزول الوديان، وملاحقةَ الغنم.

لم يُحسنوا ـ وهم الحاقدون ـ تعليلَ هذا الأمر، واعتبروه عدمَ ائتمانٍ منه لهم على أخيهم، بل تخوينَهم وشكاً فيهم. إنه لا يأْمَنُهم على أخيهم، ويخافُ أن يرسله معهم، لأنه يتوقعُ منهم الخطرَ عليه!

وليس الأمرُ على ما ظنّوه، وصورتْه لهم نفوسُهم الحاقدة.

ولقد أَرادوا بهذا الاتهام لأبيهم، أَن يسارعَ هو بنفيه، وأَنْ يُظهرَ لهم عدمَ شكِّه فيهم، وذلك ليزعزعوا تمسكَه بهم، ويوافقَ على إرساله معهم.

إظهارهم النصح والحفظ ليوسف:

وحتى يُزيلوا ما في قلبِ أبيهم من شك، أكّدوا له نصحهم لأخيهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾.

إننا نريدُ مصلحتَه، وإننا ننصحُ له، ونريدُ أنْ يعيشَ معنا، في تنقلاتنا ورحلاتنا، ليتعلمَ ويستفيد.

وقد فسّروا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ببيانِ أبعادِ نُصحهم له، فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

إننا نريدُ أنْ يخرجَ معنا، وأنْ يَنفَتحَ على ما حوله، وأن يستمتعَ بالمناظرِ الجميلة، وبذلك يرتعُ ويلعب، ويلهو ويمرح.

وأكّدوا لأبيهم حرصَهم على أخيهم، ونصحَهم له، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

واجْمَعْ بين الجملتين اللتين أكّدوا بهما حرصهم على يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وأنت تعلمُ أن القومَ كانوا كاذبين في كل منهما، فانظرْ كذبَهم في كلامهم، وكذبَهم في تأكيدهم، وكذبَهم في كلامهم مع أبيهم النبي.

وقد ردَّ أبوهم يعقوب على اتهامهم له ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

ويعقوب يرسله معهم مكرهاً:

كأنّه يقولُ لهم: إن عدمَ إرسالي يوسف معكم ليس تخويناً لكم، ولكنْ لعدمِ صبري على فراقِه، ولأنه صغير، لا يطيقُ مشقاتِ الرعي، وملاحقةَ الماشية: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾.

ثم صوَّرَ لهم خَشْيَتَهُ عليه، وخوفَه أن يأكله الذئب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

إنكم سترعون الماشية، وتلاحقونها، وقد تغفلون عن أخيكم الصغير، ولا تنتبهون له، فيأتيه ذئبٌ مفترسٌ فيأكله.

وقد ذكَرَ لهم هذا ليزيلَ اتهامَهم له أوّلاً، ثم ليُبعدهم عن طلبِ إرسالِ يوسف معهم. ولو كانوا غيرَ متآمرين لأثناهم هذا الكلام، ولتراجعوا عن طلبهم.

لكنَّ القومَ متآمرون، فلا بدَّ أنْ يردّوا على أبيهم، وأن يُبعدوا الخطرَ الذي يتوقعه: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

كيف تخافُ أنْ يأكله الذئبُ وهو معنا؟ وكيف تتوقعُ أنْ نغفلَ عنه؟ إننا عصبةٌ قوية من الرجالِ الأشداءِ الأقوياء الحافظين، وهو أخونا، وسنكون حريصين عليه.

لئن وصلَ الذئبُ إليه من بيننا فسنكونُ خاسرين لكل شيء، فاشلين في كل شيء، لا نصلحُ لأيِّ شيء. ونحن لسنا هكذا، ولهذا أَبْعِدْ عن ذهنِك هذا الخاطر!!

[٧]

الإخوة ينفذون المؤامرة

المشهدُ الرابعُ الذي يبين تنفيذَ الإخوةِ لمؤامرتهم، وهذا في آيةٍ واحدة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥].

لقد استسلمَ أبوهم لهم مُكْرَهاً، ولم تتبدّدْ مخاوفه من ما ينتظر يوسف من أخطار، سيحصلُ ليوسف أمرٌ ما، لا يعرفُه يعقوب عليه السلام.

إلقاء يوسف في غيابة الجب:

وأخذَ الإخوةُ أخاهم الصغير، وذَهبوا به بعيداً، وابتعدوا عن أَبيهم وأهليهم، وساروا في طريقهم، لتَنْفيذِ مؤامرتهم.

وفي الطريق أَجمعوا من جديدٍ على إِلقاء يوسف في غيابة الجب: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

ونفَّذوا مؤامرتَهم، واختاروا بئراً مطوياً على طريقِ القوافل التجارية، المتنقلةِ من الشام إلى مصر، وجعلوا أَخاهم الصغيرَ فيه، وغيّبوه داخلَه: ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

إن القرآنَ لم يحددْ هذا البئرَ الذي أَلقوه فيه، ولم يحدد موقعَه ولا منطقتَه، ولم يحدد القريةَ أو المدينةَ القريبة منه، ولم يحدد المسافةَ بينه وبين منازلِ أهلهم وأبيهم. لأن تحديدَ كلِّ هذا لا يتفقُ مع منهجِ القرآن في عرض قصصه، ولا تتحققُ به العبرة. ونحنُ لا نخوض مع الخائضين في تحديدِ هذه المبهمات!.

ثم إن القرآنَ لم يفصِّلْ في مشهدِ إِلقائه في غيابة الجب، بل مَرَّ عليه مروراً سريعاً، في جملةٍ قصيرة: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

ويبدو أن الحكمةَ في ذلك هو أن هذا المشهدَ ليس من المناسب أن يُفَصَّلَ في القرآن!

إنه مشهدٌ مرفوض مستنكر، ويتضمنُ فعلاً شائناً مرفوضاً من القوم، ويتحدثُ عن لحظاتِ ضعفٍ بشري، خَفَتَ فيه الحقُّ في قلوبهم وضمائرهم، وعلا صوتُ الباطل والشيطان، فلماذا يُفصَّلُ في تصوير هذا المرضِ والضعف والنقص؟ ولماذا تُعرضُ الجريمةُ عرضاً بطيئاً لقطةً لقطة؟

يُخشى أنْ يتأثرَ بهذا التفصيل بعضُ ضعاف الإيمان ومرضى

القلوب، ويقتدوا بهؤلاء القومِ في نقصِهم وضعفهم.

إنه مشهدٌ يستحقُّ أنْ يطوىٰ بسرعة، وأنْ يُمرَّ عليه بسرعة، وأنْ لا تتملّاه النفوس، ولهذا تَكفيه هذه الجملة: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

ويُهمنا هنا أنْ نعيشَ مع الطفلِ الصغير وهو يُلقىٰ في غيابةِ الجب، على أَيدي إخوانِه الناصحين الحافظين له. ما هي مشاعرُه وأفكاره، وهو يَرى هذا الكيدَ واللؤم من إخوانه؟ إنه طفلٌ بريء، لم يكن يتوقع هذا من إخوانه! فما هي الصدمةُ التي أُصيب بها؟ وما هو أَثرها على نفسِه وأعصابه ومشاعره؟.

ما أوحى الله به ليوسف وهو في البئر:

لقد تداركتْه رحمةُ الله وعنايته، ولم يتركْه اللّهُ مصدوماً مع تخيلاته، حتى لا تتحولَ هذه الصدمةُ إلى مرضٍ عصبي، وعقدة نفسية.

فتح اللّهُ له ـ وهو في قعرِ البئر المظلم، وإخوانُه المتآمرون واقفون على حافة البئر ـ بَصيصاً من الأملِ والفرج والنور: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ووحْيُ الله إليه المذكورُ هنا ليس وحيَ نبوة عن طريقِ جبريل عليه السلام، لأنه كان صغيراً، لم يُنبأْ وقتَها.

إنه إلهامٌ من الله له، أَلقاه في خاطره، وذلك كوحيِ الله إلى أمّ موسى، تعليماً لها كيف تتصرفُ لتبعد الخطرَ عن وليدِها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

وحيُ الله إليه وهو في غيابةِ الجبِّ بأن لا يتأثرَ ولا يُصدم، ولا يُحبط ولا ييأس، إنَّ الذي دفعَ إخوتَه إلى هذه الجريمة هو الشيطانُ ووساوسُه، وإنه الحقد والحسد.

إنهم يريدون التخلصَ منك، والوقوفَ في طريقك. وإنهم فاشلون في ذلك، عاجزون عنه، وأنت ستتجاوزُ هذه المحنة، وستَخرجُ من هذا المكان، وسيمكِّنُ اللّهُ لك في الأرض، وستكون أنجحَ منهم، وسيأتون إليك في المستقبل، وأنت أفضلُ وأعزُّ منهم، وستذكِّرُهم بهذه الجريمةِ التي يرتكبونها معك الآن، وستؤنِّبهم عليها، وهم لا يشعرونَ أن العزيزَ المسؤولَ الذي يقفون أمامه، هو أخوهم الصغير، الذي يُلقونه الآن في البئر، ويُريدونَ تحطيمَ مستقبله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أما كيفَ ومتى وأينَ يتحقق ذلك فلا عليك. لا تفكرْ فيه ولا في تفاصيله، فما عليكَ إلاَّ أنْ تسلِّمَ أمْرَك لله، الذي رسم لك مستقبلك، والذي ينقل خطواتِك لتحقيق ما قدر لك! وما عليك إلاّ أنْ تعيشَ على هذا الأمل والرجاء، وأنْ تنظرَ إليه في كل ما سيمرُّ بك من محن.

وهكذا نرى يوسف ـ الطفلَ الصغير ـ يكتوي بنارِ المحنة الأولى، ويتلقّاها وهو ما زال صغيراً، وهي محنةٌ ناتجة عن مؤامرة رسمها إخوتُه، أقربُ الناسِ إليه:

وَظُلْـمُ ذَوِي الـقُـرْبـى أَشَـدُّ مَـضَـاضَـةً   عَلى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

[٨]

المتآمرون يكذبون على أبيهم

بكاء المتآمرين وتلاعبهم في هذه العاطفة:

المشهد الخامس: عودةُ المتآمرين إلى أبيهم وكذبُهم عليه، عَرَضَه قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: ١٦ ـ ١٨].

لقد تأخَّرَ الإخوةُ إلى وقتِ العشاء، وعندها جاءوا أباهم باكين:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لماذا جاءوا عشاءً؟

وقتُ العشاء ينتشرُ فيه الظلام، ويُخفي الظلامُ ملامحَ وقسماتِ المتآمرِ الكاذب، وتنطلي حيلتُه على المستمعِ والمشاهد.

أما النهارُ والضياءُ فإنه كاشف، يكشفُ الملامحَ والقسمات، ويُظهرُ الزيفَ والكذب والافتراء.

ودخلوا على أَبيهم وقتَ العشاء وهم يبكون! يبكون على مَنْ؟ على أَخيهم الصغير الذي عادوا بدونه! وقد قَدَّموا لأبيهم في الصباح الوعودَ والتأكيدات بالمحافظةِ عليه!

إنَّ أَباهم عليه السلام لا يعلمُ ماذا فعلوا بيوسف عندما دخلوا عليه باكين، لأنه لا يعلمُ الغيب. أما نحنُ فقد علِمْنا من السياقِ القرآني ماذا فعلوا به.

ولهذا نتعجبُ مِن بكائهم، ومِن دموعهم الكاذبة، لقد تآمروا عليه، وارتكبوا معه أفظعَ جريمة. وها هم الآن يبكونَ عليه!!!.

إنَّ البكاءَ عاطفةٌ إنسانية، وإن الدموعَ مظهرٌ لهذه العاطفة، والأصلُ أن تكونَ العاطفةُ والدموعُ صادقة.

فلجوءُ الإخوةِ المتآمرين إلى البكاءِ والدموع لإخفاءِ جريمتهم، جريمةٌ جديدة يرتكبونها، تتضمنُ مزيداً من الكذبِ والتحايلِ والتحريف والتزوير، لأنهم يتلاعبونَ بالعواطفِ والمشاعر الإنسانية!

كذبهم في زعم أكل الذئب ليوسف:

وبعد كذبهم في بكائِهم ودموعهم، يَكذبون على أبيهم المفجوع في كلامِهم، حيث فوجئ بعدمِ عودةِ ابنه يوسف معهم، وأمامَ دهشته واستغرابه أَعلموه بوفاةِ ابنه، مما زادَ في صدمته: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

قالوا: يا أبانا، تركْنا الغنمَ والماشيةَ ترعى، وأَرَدنا أن نلعبَ ونمرح ونركض. فجمعْنا متاعَنا وأغراضَنا وأشياءنا، ووضَعْناها، ولأنَّ أَخانا يوسف صغير، لا يقدرُ على الجري والركض، ومتابعتِنا في السباق، فقد تركْناه عند متاعنا، وأجْلَسناه هناك.

ولما ذهبنا نتسابق، وقطَعْنا في السباق شوطاً بعيداً، جاءَ ذئبٌ مفترس، فانفردَ بيوسف وافترسَه وأكله، وفوجئنا نحنُ بذلك، وأَردْنا تخليصَه وإنقاذَه، لكنَّ الذئبَ كان أسبقَ منّا إليه، فلم نجد من يوسفَ إلا قميصَهُ، وعليه آثارُ الدماء، فأتيناك يا أبانا بهذا القميص: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾.

لقد كان تبريرُهم مرفوضاً، وحيلتُهم مكشوفة، وكذبُهم واضحاً، فلم يُحسنوا الكلامَ والتبرير!!

حذَّرهم أبوهم في الصباح من أكلِ الذئب له، فادَّعوا في المساءِ أنَّ الذئب قد أكله! لماذا لم يختلقوا كذبةً أخرى؟ قد تكونُ أدعى للقبول عند أبيهم وأهلهم!.

تسرَّعَ القومُ في ارتكابِ جريمتهم، وتسرَّعوا في كلامهم وادعائهم، وتسرَّعوا في اتهام الذئب، وتسرَّعوا في إحضار قميصه، بعد أنْ تسرعوا في تلطيخه بدماءٍ أخرى، غيرِ دماء يوسف!

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾. وقد وُصفَ الدمُ في الآية بأنه كَذِب، لأنَّ هذا الدمَ على القميص غيرُ حقيقي، فهو ليس دمَ يوسف، وإنما دمُ ذبيحٍ آخر، وهو يكشفُ كذب المتآمرين.

ولعلَّ القميصَ الذي أَحضروه كان سليماً غيرَ ممزق، ولعلَّ تلطيخَه بدماء الذبيحة كان متسَرِّعاً غيرَ متقن، ولعلَّ أباهم لاحظَ كل هذا، فوقفَ على كذبهم في كلامِهم وفي تبريرهم وفي فعلهم.

وقد أدركوا أنَّ حيلتَهم لم تنطَلِ على أبيهم، فاستدركوا قائلين: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

إننا نعلمُ أنك لا تصدقُنا في كلامنا، وأنك لا تطمئنُّ لما نقول، ولا تثقُ به، إنك تُكَذِّبُنا وتتهمنا، لكن هذا ما عندنا!!.

يعقوب وصبره الجميل:

ماذا يفعلُ الأبُ المفجوعُ مع أبنائه المتآمرين الكاذبين؟ ماذا يفعلُ بعد أنْ فُجِعَ في ابنِه الأثيرِ عنده؟ وبعد أنْ فارقَه ليسيرَ في طريق الابتلاءات والمحن!

هل يفيده لومُ أبنائه؟ وهل ينفعُه عقابُه لهم؟ إنَّ ذلك لا يفيدُ الآن!

ما زادَ على أنْ قالَ لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. نفوسُكم مريضة، سيطرَ عليها الشيطان، وملأَها حِقداً على أخيكم يوسف، فزينتْ لكم هذه النفوسُ المريضةُ الحاقدةُ ارتكابَ أمرٍ منكر ضدَّ أخيكم، وحسَّنت لكم هذا المنكر، ويسَّرت لكم ارتكابَ الجريمة، وارتكبتم مع يوسف ما ارتكبتم.

هذا كلُّ ما قاله يعقوبُ لهم مما يتعلقُ بإذهاب يوسف، ثم توجَّه إلى الزاد، الذي يتزودُ به كلُّ مؤمنٍ بالله يُبتلىٰ بمكائدِ ومؤامراتِ أقربِ الناس إليه، إنه الصبر: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

لقد صبرَ يعقوب صبراً جميلاً على أبنائِه المتآمرين الحاقدين الكاذبين. وصبرَ صبراً جميلاً على فقْدِه لابنه الأثيرِ يوسف، وصبرَ صبراً جميلاً على ما سيواجهُه ابنُه حبيبُه من محنٍ وبلايا. وسيصبرُ صبراً جميلاً على أملِ اللقاء بابنه، وإنْ طال الزمان.

صبرُه جميل، بدون جزعٍ ولا إحباط، ولا يأسٍ ولا قنوط، ولا تذمرٍ ولا شكوى. وهذا هو سرُّ جمالِ هذا الصبر.

وسيستعين على كلِّ ذلك بالله، لأنه خيرُ معينٍ لعباده الصابرين المحتسبين: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وبهذا فقدَ يعقوبُ ابنَه الأثيرَ يوسف، فصبرَ وتجمَّلَ واحتمل، وأَمضى السنواتِ القادمة من عمره مع هؤلاء الأبناء المتآمرين، وكلُّه شوقٌ للقاء يوسف، وحزنٌ كبيرٌ على فقْده.

[٩]

يوسف عبد رقيق في مصر

المشهدُ السادس هو الأخيرُ في الحلقة الأولى من قصة يوسف: وهو إِخراجُ طليعة القافلة يوسف من البئر، وبيعُه رقيقاً في مصر، وانتقالُه من الأَرض المقدسة إِلى مصر.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠].

ذهبَ الإِخوةُ المتآمرون إِلى أبيهم يعقوب، وتركوا يوسفَ في غَيابةِ الجب، مع أفكاره وخواطره، وانتهى المشهدُ السابق بكذبهم على أبيهم، وعدمِ تصديق أبيهم لهم، وصبرِه الجميل على ما يحدث، واستعانتهِ بالله.

أما هذه الآياتُ فإنها تَعرض لنا مشهدَ إِنقاذِ يوسف، وإِخراجِه من البئر، وأخذِه رقيقاً إِلى مصر، وبيعِه هناك:

وارد القافلة يجد يوسف:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: والسيارةُ هي القافلة التي يسير رجالُها معاً، وينتقلون من بلدٍ إِلى آخر، إما للتجارة، وإما لهدفٍ آخر.

وكان المسافرون يسافرون ويسيرون معاً، على طريقِ القوافل، ما

بين الشام ومصر. وكان الجُبُّ الذي أُلقيَ فيه يوسف على طريق القوافل، يمرُّ به السيارةُ المسافرون، ويأخذون حاجتَهم من مائه.

فلما كان يوسفُ في غَيابةِ الجُبِّ مرتْ سيارةٌ بالطريق، وكانت لها طليعةٌ متقدمة تَرِدُ الماء، وتهيِّءُ مكانَ النزول.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾: الواردُ هو الشخصُ الذي يسبقُ القافلة، فيرِدُ الماء، ويجهزُه. وقد أرسلوا هذا الواردَ الرائدَ إلى ذلك البئر.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: وصلَ الرائدُ الواردُ البئر، وهو يظنُّ أن به الماءَ فقط، فأَدْلَى دلوَه في البئر، ليملأه بالماء، وهو لا يدري أنَّ هناك غلاماً في الداخل.

ورأى يوسفُ الدلوَ نازلاً، فلما وصله تعلقَ به، وهذه حركةٌ منطقية منه، لأن بها نجاتَه، وهو يريدُ التخلصَ مما هو فيه.

ورفعَ الواردُ دلْوَه، وهو يظنُّه ممتلئاً ماء، وكم كانت دهشتُه ومفاجأتُه عندما رأى الغلامَ متعلِّقاً بالدلو، فنطقَ فمُه بهذه العبارة: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾.

لقد استبشرَ هذا الواردُ بالغلام الخارج مِن البئر، واعتبر هذا بشرى له، وسِرُّ بشراه بذلك أنه اعتبرَه كنزاً سيدرُّ عليه دخلاً ومالاً، وسيستفيدُ منه ربحاً وفيراً.

ويوحي سياقُ الآيات بأنه كان مع الرائد الواردِ مجموعةٌ من الرجال، وكان هؤلاء طليعةً للسيارة القافلة التي تضمُّ عدداً أكبر من التجار المسافرين.

أخذوا يوسف بضاعة مخفية إلى مصر:

كما يوحي سياقُ الآيات بأن رجالَ هذه الطليعة قد دُهشوا بهذا الغلامِ الخارج من البئر، ثم اتفقوا فيما بينهم على أخْذه معهم إلى مصر، لبيعِه هناك، واقتسامِ ثمنه بينهم.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: أَسَرّوه من الإسرار، وهو الإخفاء، أي: أخفوه. عَنْ مَنْ أَخفوه؟ لعلَّهم أخفوه عن إِخوانهم الآخرين المسافرين في القافلة، لأنهم لم يعثُروا عليه معهم، فلا يشاركونهم فيه!

اعتبرت الطليعةُ الاستكشافيةُ الغلامَ عبداً رقيقاً، لأنهم لا يعرفون أصْلَه ولا نسبه، وأخفوه معهم بضاعة، وجعلوه سلعةً مع سلعهم الأُخرى، وبذلك حَوَّلوه من إنسانٍ كريم إلى عبدٍ رقيق، مُعَدٌّ للبيع كما يُباعُ أيُّ رقيق آخر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: إن اللّهَ مطلعٌ على عملِ هؤلاء الطليعة، كما هو مطلعٌ على عمل كل المخلوقين، وعالمٌ بهذا الإنسانِ الكريم الذي أسرّوه بضاعة.

إن اللّهَ يُعِدُّ هذا الغلامَ لأمر عظيم، وقدَّرَ أنْ يمرَّ بهذا الطريق المؤلم، طريقِ الاسترقاق والمحنة والابتلاء، ولله في خلقه شؤون، وهو العليمُ الحكيم!.

تابعت السيارةُ سيرَها، ويوسفُ الغلام بضاعةٌ مخفية مع تلك المجموعة، وقطعت المسافةَ ما بين أرضِ الشام وأرض مصر، ولا يعلمُ باقي أفرادِ القافلة شيئاً عن هذه البضاعة البشرية.

وباعوه رقيقاً في مصر:

ووصلت السيارةُ مصر، وسارعَ أفرادُ المجموعة بأخذ الغلام معهم، وبيعِه في عاصمة مصر عبداً رقيقاً: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

معنى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ باعوه.

وهناك فَرْقٌ بين فعلَيْ: «شرى» و«اشترى» في القرآن.

«شرى»: باع. يقال: فلان شرى كذا. أَي: باع كذا.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ

مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

أي: مِن الناس مَنْ يبيعُ نفسَه لله، طلباً لمرضاة الله.

أما «اشترى» فإنها تستعملُ في المشتري، الذي يأخذ السلعةَ المشتراة، ويتملكُها، ويدفعُ ثَمنها لبائعها.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١].

اشترى اللّهُ مِن الذي شَرى.

وهنا يقولُ الله عن هؤلاء البائعين للغلام: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ﴾، بينما يقولُ عن الطرفِ الآخر في هذه الصفقة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ...﴾.

وتخبرُنا الآيةُ أن التجارَ الذين باعوا يوسف في مصر كانوا متعجِّلين متسرِّعين، راغبين في سرعةِ التخلص منه، وكسبِ ثمنه، ولهذا باعوه في مصر بثمن بخس: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾.

إننا نستصحبُ أصلَ يوسف ونحن نقرأُ كلمات الآية، فهو غلامٌ كريم، سليلُ آباءٍ كرام، وأنبياءٍ عظام، ولكنه الآن في مصرَ يُباعُ بأرخص الأثمان!!

إنَّ كلَّ كلمة في الآية تشيرُ إلى زهدِ بائعيه فيه، وهوانِه عليهم.

لقد باعوه، بثمن، وهذا الثمنُ بخسٌ ناقص تافه، لا اعتبار له عندهم ولا قيمة. وهذا الثمنُ البخس القليل دراهم ـ والكلمة توحي بالهوان والانتقاص ـ وهذه الدراهمُ معدودةٌ عَدّاً، فمِن قلَّتها أنها معدودة، وليست موزونة.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: لا قيمةَ له عندهم وهو الكريم، ولا تقديرَ له عندهم وهو المقدَّرُ المحترم، زهدوا فيه، ورغبوا في

التخلص منه، وأسرعوا في بيعه.

وهكذا بيعَ يوسفُ عليه السلام عبداً رقيقاً في مصر.

وبذلك ينتقلُ يوسفُ من حضن والديه، حيث كان يعيشُ عندهما معزَّزاً مُدلَّلاً محبوباً، ليعيش في مصر عبداً رقيقاً، وفتى غلاماً.

وبذلك ينتقلُ يوسفُ رغماً عنه، من الأرض المقدسة، إلى مصر، كما قدَّرَ اللّهُ له وهو العليم الحكيم، تمهيداً للمستقبل الكبير الذي يُعدُّه الله إليه.

لقد تجاوزَ يوسفُ المحنةَ الأولى، محنةَ حقْدِ إخوته عليه، وتآمُرِهم عليه، وأَنجاهُ الله من هذه المحنة المظلمة، ليدخل في محنةٍ أُخرى، مؤلمة له، وهي محنةُ الاسترقاق، حيث سيعيش رقيقاً في مصر، وهو الكريمُ الشريف.

وبذلك ينتقلُ سياقُ القرآن للحلقة الثانية من قصة يوسف، حيث سنشاهدُ مشاهدَ ومناظرَ هذه الحلقة وهي تجري هناك، ليتمَّ ما قدَّره اللّهُ في النهاية!!.

[١٠]

الحلقة الثانية

يوسف ينتصر على الإغراء والمراودة

انتهت الحلقةُ الأولى من قصةِ يوسف عليه السلام ـ بمشاهدها الستة ـ ونقلَ اللّهُ يوسفَ من الشام إلى مصر.

وما أن انتهتِ المحنةُ الأولى في حياة يوسف، وهي تآمُرُ إخوته عليه، حتى بدأَتْ محنتُه الثانية، لكنها في مصر هذه المرة، وفي بيتِ الذي اشتراه بالذات.

إِنها محنةُ الاسترقاق، وما نتج عنها من فتنٍ متتابعة، تمثلتْ في إِعجابِ امرأة العزيز به، ومراودتِها له، ودعوتِها الصريحة له إلى

الفاحشة، واستعانتِها بنسوة المدينة.

ولكن يوسف واجه كلَّ هذه الفتن بثباتٍ وعفة وطهارة، واستعصم بالله، ورفضَ كلَّ الإغراءات والمراودات، وآثر السجن على أن يعيش في هذه الحياة الموبوءة.

وسنعيشُ مع آيات القرآن التي عَرَضتْ مشاهدَ ولقطاتِ هذه الحلقة.

وآيات هذه الحلقة هي: ٢١ ـ ٣٤.

وتنقسم هذه الحلقة إلى ثلاثة مشاهد.

[١١]

يوسف يستقر في بيت عزيز مصر

المشهدُ الأولُ الذي يصوِّرُ استقرارَ يوسف في بيت عزيز مصر، حيث توسَّمَ فيه العزيز خيراً، فأوصى به امرأته. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٢٢].

يوسف في بيت عزيز مصر:

الذي اشترى يوسف في مصر هو «عزيزُ مصر» كما ستبين الآياتُ اللاحقةُ من القصة.

وقد توسمَ العزيزُ في هذا الفتى الخير، وأُعجبَ به، ولم يعامِلْه باعتباره عبداً أو رقيقاً، كباقي العبيد الذين عنده، إنما نظرَ له نظرةً خاصة، وله فيه فراسةٌ صادقة، وذكاءٌ لَمّاح. ولهذا أوصى امرأتَه به، قائلاً: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

طلبَ منها أنْ تكرمَ مثوى هذا الفتى، مبالغةً في إكرامه. والمثوى

من الثَّوِيّ، وهو مكانُ المبيتِ والإقامة.

لقد طلبَ العزيزُ من امرأته إِكرامَ الفتى إكراماً خاصاً، وكأنَّ هذا الإكرامَ ينتقلُ منه إِلى مثواه ومكانِ إقامته.

ولقد أكرمت المرأةُ الفتى، لكن على طريقتِها الخاصة، القائمةِ على الفتنة والمراودة، ذلك الإكرامُ الذي لم يقصدْه زوجُها، ولم يقبله يوسفُ عليه السلام، وهو في الحقيقة ليس إكراماً!

لماذا طلبَ العزيزُ من امرأته إكرامَ يوسف؟ لقد رجا أَنْ ينفعهما، وأنْ يحصلَ لهما الخيرُ عن طريقه، كما أنه قد يتخذُه ولداً، وقد يتبناه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾.

وقد كانتْ فراسةُ العزيز في يوسف صائبة، ولهذا قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: أَفْرَسُ الناسِ ثلاثة: العزيزُ حين قال لامرأته: أكرمي مثواه، عسى أنْ ينفعنا أو نتخذَه ولداً. والتي قالتْ لأَبيها عن موسى عليه السلام: يا أَبتِ استأجره. إن خير مَن استأجرتَ القويُّ الأمين. وأبو بكر الصديق حين تفرسَ في عمر فولاّه الخلافة، رضي الله عنهما[1].

وباستقرارِ يوسف عليه السلام في بيت العزيز معزَّزاً مكرَّماً يكون قد تجاوزَ أخطارَ الغربة، ووصل إلى مكانٍ آمن!!

ولهذا عقبت الآيةُ على هذا الاستقرارِ فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

مكن الله ليوسف في بيت العزيز:

إن اللّهَ هو الذي مكَّنَ ليوسف في الأرضِ الجديدة مصر، وهيَّأَ له أنْ يعيشَ في بيتِ مسؤولٍ كبيرٍ فيها، وذلك تمهيد لما سيأتي من أحداث وتطورات.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢: ٣٤٥ ـ ٣٤٦. وانظر الأحاديث الصحيحة: ١٨٣.

وسينتجُ عن تمكينِ الله ليوسفَ في بيت العزيز تعليمُ يوسف تأويلَ الأحاديث: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

سيكونُ ليوسف جهدٌ واضحٌ في تأويل الأحاديث، وتعبيرِ الرؤى، وسيكون لعلْمِه بذلك أثرٌ واضح في المكانة التي سيصلُ إليها.

وتشيرُ هذه الجملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إلى أنَّ تقديرَ الله له القدومَ إلى مصر، والاستقرارَ في بيت العزيز، خطوةٌ على طريق تعليمِه تأويل الأحاديث، ولولا ما يخططُ اللّهُ له من علمٍ بتأويلِ الأحاديث لما أتى به إلى مصر.

وعندما نقرأُ هذه الجملةَ التعليليةَ لإقامة يوسف في بيتِ العزيز ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ نتذكرُ ما قالَه يعقوبُ لابنه يوسف ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عندما أخبره برؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].

نتذكرُ هذا لنعلمَ أنَّ إقامتَه في مصر كانت تمهيداً لتعليمه تأويل الأحاديث، كما قدَّر الله.

وهذا هو الموطنُ المناسبُ لتقرير حقيقةٍ إيمانية، بالنسبة إلى نَفاذِ قَدَرِ الله، وتحقيق مشيئته: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ما شاءَ اللّهُ كان، وما أَراده الله فهو واقع، ولا يَقدرُ مخلوقٌ على منعه وإيقافه، ولا يستطيعُ مخلوقٌ مغالبةَ الله، لأنَّ اللّهَ فعالٌ لما يريد، وهو غالبٌ على أمره، منفذٌ لمشيئته.

ففي شأنِ يوسف عليه السلام، أرادَ الله ليوسفَ أمراً، ورتبَ له مستقبلاً، وأعدَّ له مهمة، وقدَّرَ من الأحداث لتحقيق ذلك.

وإخوةُ يوسف لا يعلمون هذا، كلُّ ما عندهم هو حسدُ يوسف والحقدُ عليه، والتآمرُ والكيدُ ضده، للتخلصِ منه، ولهذا فعلوا به ما فعلوا.

وما درى أولئكَ المساكين أنَّ ما فعلوه ليوسف كان خطوةً لسيرِه في الطريقِ الذي قدَّره الله عليه، للوصولِ إلى المنزلة التي أعدَّها اللّهُ له. فما فعلوه في ظاهره ضرٌّ وأذى ومحنة، لكنه في النهايةِ منحةً وخدمةً قدَّموها له، وهم لا يشعرون!! وربَّ ضارةٍ نافعة!!!.

وبعدَ أنْ مكَّنَ الله ليوسف في بيتِ العزيز، حفظهُ ورعاه طيلةَ إقامته في ذلك البيت. وأَمضى يوسفُ سنواتٍ في البيت، لا نعلمُ عدَدَها ولا مقدارها، فهذا من مبهماتِ القصة.

مضت السنواتُ ويوسفُ في بيت العزيز، حتى صار شابّاً جَلْداً قوياً، وحتى بلغَ أشدَّه، ونضجتْ شخصيتُه، واستقامَ كيانُه، كلُّ هذا وهو في حفظ الله ورعايته: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

آتى الله يوسفَ حين بلغ الأشُدّ وهو في بيت العزيز الحكمَ والعلم، فكانَ حكيماً في تصرفاته، صائباً في أفعاله، عالماً في أقواله واختياراته، وبهذا صارَ صاحبَ شخصيةٍ متزنة وَقورة، مما زادَه قبولاً عند الآخرين، حيث زادوا له إعجاباً واحتراماً.

وقد كان مع الله وهو في بيت العزيز، ولهذا كان محسناً شاكراً لله، فكافأه اللّهُ على إحسانِه بالحكم والعلم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

[١٢]

يوسف ينتصر على مراودة امرأة العزيز

يعرضُ المشهدُ الثاني من هذه الحلقة بعضَ ما جرى ليوسف من امرأةِ العزيز، وبعضَ ما قامت به من إغراءٍ ومراودةٍ له، وكيف ردَّ هو على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٩].

حفظ الله يوسف في بيت العزيز:

حتى نُحسنَ فهمَ هذه الآياتِ السبعة لا بدَّ أن نستحضرَ الآيات السابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

إن اللّهَ يحفظُ يوسفَ ويرعاه، وهو في بيتِ امرأةِ العزيز، فاللّهُ هو الذي مكَّنَ له في البيت، وقد آتاهُ اللّهُ الحكمَ والعلمَ عندما نضجَ وبلغَ أشدَّه، وهو محسنٌ فأثابه الله على إحسانه. وقد حفظهُ اللّهُ ورعاه وهو يتعرضُ لهذه الفتنة الطاغية، فتنةِ الشهوة، وإغراءِ ومراودة امرأة العزيز له.

لما نضجَ يوسفُ في بيت العزيز ابتُليَ بمحنةٍ شديدة، يسقطُ فيها كثيرٌ من الناس، وقَلَّ مَنْ يصمدْ أمام فتنةِ الشهوة، وقَلَّ مَنْ ينجحُ أمامَ الإغراء والمراودة، ويثبتُ على العفةِ والطهارة.

ومراودةُ امرأةِ العزيز ليوسف عجيبة، ولكنَّ يوسفَ استقبلها وابتُلي بها، بعدَ أنْ قطعَ شوطاً في طريق الخير، وبعدَ أن اتصفَ بصفاتِ

عظيمة، وملكَ مؤهلات خاصة، تمكَّنَ بها من تجاوزِ فتنةِ الشهوة والمراودة.

لقد أقبلَ يوسفُ على امتحان المراودةِ والشهوة أمامَ امرأة العزيز، بعد أنْ آتاهُ الله الحكمَ والعلم، وبعدَ أنْ كان محسناً واعياً ناضجاً، متزناً مستقيماً.

لا ننسى هذا ونحنُ نتدبرُ الآياتِ التي تعرضُ امتحانَ الفتنة له.

هذا شيء.

مراودات كثيرة من امرأة العزيز له:

وشيءٌ آخر، وهو أنَّ آياتِ هذا المشهد تعرضُ لنا آخرَ لقطاتِ المراودة، وليس أوَّلَها، تعرضُ لقطةَ إغلاقِ المرأة للأبواب، وقيامِها بأقصى ما تستطيعُ من تزيُّنٍ وفتنة وإغراء وإغواء، ودعوةِ يوسف الصريحة الجريئة الجاهرة إليها، وهجومِها عليه بعد تمنُّعه، لتجبرهُ على معاشرتِها!!

إنَّ هذه هي خاتمةُ المراودة وليست بدايتها.

لقد سبقت هذه الحركاتِ الجريئة من امرأة العزيز مراوداتٌ ومراوداتٌ ليوسف!!

إننا نعلمُ أنَّ يوسفَ قد أمضى صِباه وفتوَّتَه عندها في البيت، وها هو الآن شابٌّ قد بلغَ أشُدَّه. وهذا يعني أنه أمضى في البيت سنواتٍ وسنوات، قد تكون عشراً، وقد تكون خمس عشرة!!

وقد تعرَّضَ يوسفُ خلال هذه السنوات العديدة إلى مراودةِ وإغراء امرأة العزيز، ولعلَّها بدأَتْها بالإشارةِ الموحية غير الصريحة، والتصرفاتِ اللافتة للنظر، من تبرجٍ وتزينٍ وحركة، وهذه الحركاتُ والتصرفاتُ كفيلةٌ بلفتِ نظرِ الراغبِ فيها، وإيقاظِ هاجس الشهوة عنده، وتنتهي باستجابته السريعةِ وممارسةِ الفاحشة.

لكن يوسفَ ليس من ذلك النوعِ المستجيب. صحيحٌ أنه كانَ يفهمُ عن تصرفاتِ امرأة العزيز مرادَها وقصدَها، وأنَّ هذه استمرتْ سنواتٍ وسنوات، وهو في كلِّ مرة يعرفُ ماذا تريدُ منه، ولو كان غيرُه مكانَه لاستجابَ لها منذُ البداية، ولمَا أحوجَها إلى كل ذلك.. لكنه يوسف، يوسفُ المتصفُ بالعلم والحكم، يوسفُ المحسن المخلص.

واجَهَ يوسفُ مراوداتِ امرأة العزيز السابقة التي استمرتْ سنواتٍ وسنوات بالترفُّع والعفةِ والاستعصام والإباء، مما زادَ تلك المرأةَ رغبةً فيه، وتهالكاً عليه، ومراودةً وإغراءً له. كلُّ هذا وهو مترفعٌ مستعصم!!

هذا المعنى تقرره هذه الجملة: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

الآيةُ تنسبُ المراودةَ إليها وليس إليه، فهي التي راودَتْه عن نفسه، وليس هو الذي راودَها عن نفسها.

والمراودةُ في الآية من طرفٍ واحد، وليس من طرفين، لأنَّ المراودةَ منازعةُ الآخرِ لثنيه عن إرادتِه.

قال الإمام الراغب: «الرَّوْدُ: الترددُ في طلبِ الشيء برِفْق... والإرادةُ منقولةٌ من رادَ يَرود: إذا سعى في طلبِ شيء...

والمراودة: أنْ تُنازعَ غيرَك في الإرادة، فتريدُ غيرَ ما يريد، أَو ترودُ غيرَ ما يَرود. تقول: راودتُ فلاناً عن كذا..»[1].

وهذا يعني أنَّ المرأةَ لما راودتْ يوسفَ أرادتْ منازعتَه في إرادته، وثنيَه عنها، فإرادتُها غيرُ إرادتِه، لأنها أرادتْ منه الفاحشة والمعاشرة، وهو أَرادَ العفة والترفع، فنازعَتْه لتغييرِ إرادته!!.

دعوة المرأة الجريئة الجاهرة:

إِزاءَ تَرفُّعِ يوسفَ وإبائِه لم تجدْ تلك المرأةُ المندفعةُ الشهوانية أمامَها إلاّ دعوتَه الصريحة، وتجهيزَ الأمر، وتهيئةَ البيت، وإغلاقَ

---

(١) انظر المفردات: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

الأبواب. ولا ننسى أن هذه هي خاتمةُ مسلسلِ المراودة: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾.

إنها جريئةٌ راغبةٌ قاصدة، ولهذا غلَّقت الأبواب، وحركةُ إغلاقِ الأبواب هي الحركةُ الأخيرةُ في اللحظةِ الأخيرة، في هذا المسلسل.

وبعدَ تغليقِ الأبواب الدعوةُ السافرةُ الجاهرةُ للمعاشرة وممارسةِ الشهوة: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾.

ومعنى: هيتَ لك: هلمَّ وأَقبِلْ وتعال، فقد تهيأْتُ لك، وتجهزْتُ لك، فعاشِرْني وجامِعْني.

لقد اضطرت المرأةُ الشهوانيةُ اضطراراً إلى هذا التصرف وهذه الدعوة، ولولا ترفُّعُ يوسف وإباؤه لما اضطرتْ إلى ذلك!

استعاذة يوسف بالله ربه:

وحتى هذا التصرف، وهذه الدعوة الغليظة منها، لم تزحزحْ يوسف، ولم تجعلْه يغيِّرُ موقفَه الطاهرَ العفيف، ولهذا ردَّ على دعوتها بقوله لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

لقد لجأَ يوسفُ إلى ربه، واستعاذَ به، واستعانَ به، فلا يعصمُه من هذا الموقفِ إلا الله، ولا يُنجِيه إلا الله، وقد كانَ اللَّهُ عند حسنِ ظنِّه، فأعانَه وأعاذَه، وحفظَه وعصمه، فلم يلبِّ دعوةَ المرأة!.

وقولُ يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ﴾ إخبارٌ منه عن إحسانِ اللّهِ إليه، وعليه أنْ يقابلَ إحسانَه بالشكر وليس بالمعصية.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾: الله ربي. فيوسفُ يخبرُ عن فعلِ الله ربِّه به. ولا يريدُ بكلمة «ربي» سيدَه عزيزَ مصر، زوجَ تلك المرأة ـ كما قال بعضُ المفسرين ـ فلا يليقُ بيوسفَ أنْ يقولَ عن عزيزِ مصر سيدِه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ولا يليقُ أنْ يجعلَه رباً له، أي سيداً له، مع جوازِ هذا في اللغة، لأنه عبدٌ رقيق في بيتِ سيده، والسيدُ هو ربُّ الأسرة.

لكن لا يليقُ بيوسفَ أنْ يقولَ ذلك. ولهذا نرجحُ أنْ يكونَ المرادُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾: اللّهُ ربي هو الذي هيَّأ لي المكانَ والمنزل، وهو الذي أحسنَ مثوايَ وإقامتي، وهو الذي أنعمَ عليَّ بهذه النعم.

وعليَّ مقابلَ هذا أنْ أقومَ بشكرِ الله على إنعامِه وإحسانه، ولا يجوزُ أنْ أقابلَ هذا بالمعاصي، إنْ فعلتُ ذلك أكون ظالماً، والظالمون لا يفلحون.

وهذا تبريرٌ إيمانيٌّ موضوعي منه لعدم ارتكاب الفاحشة، وهذا إقناعٌ منه لتلك المرأةِ المتهالكة كي ترتدعَ وتَرعوي. فإذا كان هذا تفكيرُه وهو الشابُ العزبُ غيرُ المتزوج، فلماذا لا يكونُ تفكيرُها هي، وهي المرأةُ المتزوجةُ وزوجُها عندها، يقضي لها حاجتَها، ويلبّي لها رغبتَها!!

ولكن لا ينفعُ هذا المنطقُ الموضوعي معها، لأنَّ الشهوةَ العارمةَ قد سيطرتْ على كيانها، وألغَتْ عقلَها وتفكيرَها، وأَعمتْ بصرَها، وملأتْ عليها حياتَها، وهمُّها الوحيد هو قضاءُ وَطَرِها من معشوقِها فتاها.

همت به همّ الفاحشة:

لهذا ردَّتْ على تبريرِ يوسف المقنع، وإبائِه المترفع، بحركةٍ شهوانية عنيفة، أخبرَ عنها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾.

همتْ به همَّ الفاحشة، وأرادتْ إكراهَه على معاشرتها، وأَقبلتْ عليه، وهجمتْ عليه، يحركُها سُعارُ الشهوة المجنون، الذي سيطرَ عليها، فأفقدَها إنسانيتَها وأنوثتَها وتحرجَها وتجملَها وحياءَها، وأصبحتْ كياناً متحركاً حيّاً من الشهوةِ العارمة، تريدُ فتاها الواقفَ أمامَها المتأبّيَ عليها، تريدُه بأيةِ وسيلة، ولو كانت وسيلةَ هجومها عليه هي، لتمارسَ الشهوةَ معه، أو قُلْ: لِتَعْتَدِي هي عليه وتغتصِبهُ!!!

هذا هَمُّهَا هي وهو هَمٌّ شهوانيٌّ عارم مسعورٌ مجنون!

وقبلَ أنْ تكملَ آياتُ المشهد سردَ الحادثة، وقبلَ أنْ تبينَ ردةَ فعلِ الشابِّ المؤمنِ المترفعِ إزاءَ شهوانية المرأة وهَمِّها به، توقفتْ لحظةً لتبينَ المانعَ الذي منعَ يوسفَ من تلبيةِ رغبتها، وفعْلِ ما تريد.

يوسف ما هم بها لبرهان ربه:

لماذا لم يستجبْ يوسفُ لها؟ ولماذا لم يقابِلْ هَمَّها بهمٍّ مثْلِه على الأقل؟

إنَّ كلَّ ما حولَ الموضوع يدعوه إلى ذلك!!

إنه شابٌّ في عنفوان شبابه، وهو غيرُ متزوج، ونداءُ الجنس وأشواقُه وهتافُه كامنٌ في كيانِه وأحاسيسه!

ثم هي التي تراودُ وتُريد وتطلب، فلا معاناةَ من هذه الناحية، ثم هي سيدتُه وربةُ البيت، فلا يُلامُ من قِبَل الناس لو استجابَ لها! ثم هي قد رتبت الأمر، وأَحكمت الخطة، واختارت الوقتَ المناسب، الذي تأمنُ فيه قدومَ زوجِها أَوْ انكشافَ أمرها، وقد زادت الأمْرَ إِحكاماً فغلقت الأَبوابَ كلَّها، باباً وراء باب، فلا يصلُ أَحدٌ إليهما في الداخل. وها هي تدعوه فاتنةً متبرجةً متزينة مغرية، تقول له: هيتَ لك!! وها هي تهمُّ به، وتُقبلُ عليه، وتهجمُ عليه!!

بعد هذا كلِّه لماذا لم يستجبْ لها، ولم يهمَّ بها.

تقدمُ الآيةُ التعليلَ الإيمانيَّ العظيم، الذي منعه من الهمِّ بها، إنه برهانُ ربه، فلولا برهانُ ربِّه لهمَّ بها: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: لولا وجودُ برهانِ ربِّه عندَه لهمَّ بها، فالذي منعه من الهم هو برهانُ ربه.

وبرهانُ ربه هو قوةُ الإيمان في قلبه، وقوةُ مراقبته لربه، ويقينُه أن اللّهَ يراه ويطلعُ عليه أينما كان، فكيفَ يستجيبُ لنداءِ الشهوة فيه مع

برهان ربه في قلبه؟ وكيف يرتكبُ الفاحشةَ وهو يوقنُ أن اللّهَ يراه؟

أيّهما أقوى نداءُ الشهوة أو هتافُ الإيمان والاعتصام؟ لا شكَّ أن الثاني هو الذي كان مسيطراً على كيانِ يوسف في لحظاتِ الامتحان الرهيبةِ الشديدة، فأَخْفَتَ نداءَ الشهوة، وأخرسَ إغراءَ الفاحشة!!.

الراجحُ أن قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جملتان منفصلتان:

الأولى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾. وهي تخبرُ عن همِّ امرأةِ العزيز به همَّ الفاحشة، وهجومِها عليه، لتُكْرِهه على معاشرتها بالإكراه.

الثانية: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾. فالواو فيها حرفُ استئناف، وليسَت حرف عطف. وما بعدَها جملةٌ استئنافية شرطية جديدة.

وجملةُ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابُ الشرط ﴿لَوْلَآ﴾ مقدَّمٌ عليها. ويجوزُ تقديمُ جواب ﴿لَوْلَآ﴾ الشرطية عند فريقٍ من النحويين ـ بينما منعَ فريقٌ آخر من النحويين تقديمَه عليها ـ ونحن مع مَنْ يُجيز ذلك.

و﴿لَوْلَآ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجود. تقررُ امتناعَ وقوعِ جوابها لوجودِ فِعْلِها.

و﴿أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هي فعلُ الشرط.

وتقديرُ الجملةِ هكذا: لولا رؤيةُ يوسفَ برهانَ ربه لهمَّ بالمرأة هَمَّ الفاحشة واستجابَ لها.

إذن: همَّتْ هي به هَمَّ الفاحشة، وهذه إدانةٌ لها.

أما هو فإنه لم يهمَّ بها مطلقاً، ولم يَملْ إليها ولا إلى معاشرتها ولو قليلاً، وبقي مستعيذاً بالله، مستعصماً عفيفاً، والذي عصَمه هو الله، فيما قدَّمَ له من البرهان، وقوَّى في قلبه من الإيمان!!

صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه:

وبعد أنْ نفتِ الآيةُ عن يوسف الهمَّ بامرأة العزيز، وَرَدَ فيها قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

إن اللّهَ صرفَ عن يوسف الهمَّ بامرأة العزيز، وأَخْفَتَ في كيانِه نوازعَ الجنس، وأبعدَ عن ذهنه التفكيرَ بارتكاب الفاحشة، وذلك ليصرفَ عنه السوءَ والفحشاء، ولينزهَهُ عن مقارفة الزنا والفاحشة، وليُبقيه طاهراً عفيفاً، لأنَّ هذا من لوازمِ النبوة، وهو سيبعثه نبياً، فلا بدَّ أنْ يحفظَه عن السوء والفحشاء حتى قبلَ النبوة.

ثم إنَّ الله كافأه بذلك، وصرفَ عنه السوءَ والفحشاء، لأنه من عبادِه المخلصين.

و﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ في الآية اسمُ مفعول، أي أنَّ اللّهَ هو الذي استخلَصَه واصطفاهُ من بينِ سائرِ الناس.

وطالَما أن اللّهَ استخلَصه، وجعَلَه من عباده المخلَصين، فلا بدَّ أنْ يستعصمَ ويستعيذَ بالله، ولا بدَّ أن يُنَزَّهَ عن الهمِّ بالمرأة، مجرّدَ هَمّ، ولا بدَّ أنْ ينتصرَ في هذا الامتحان الرهيب، الذي يرسبُ فيه كثيرٌ من الناس، ولا بدَّ أنْ يستعليَ على هذه الفتنة التي تصرعُ كثيراً من الناس.

ولقد انتهى مشهدُ الفتنةِ والمراودة والإغراء والدعوة الغليظة الجاهرة، بانتصارِ يوسف العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

محاولة يوسف مغادرة المكان:

ماذا بعدَ ذلك؟ ماذا سيفعلُ بعدما تأبّى وامتنع؟ التصرفُ المتوقَّعُ هو أنْ يغادرَ المكان، ويتركَ المرأةَ المتهالكة مع شهوتها وسُعارها.

توجَّهَ نحو الباب ليخرج، ولكنَّ البابَ مغلق، فقد سبقَ أنْ أغلقت هي الأبوابَ حتى لا يهرب معشوقُها، وحتى لا يفاجئها أحد.

ولما رأتْ تلك المرأةُ الهائجةُ إخفاقَها في خطتها، آلَمها تأَبِّي معشوقِها، وعدمُ قضاء وَطَرها، وها هو يوشكُ أنْ يَخرج، وبذلك تفوتُ الفرصة، التي قد لا تعود.

لا بدَّ أنْ تقومَ بآخرِ محاولةٍ هائجة لقضاءِ وطرها، وإِجباره على معاشرتها، إذنْ عليها أنْ تمنَعَه من الخروج.

هو متوجِّهٌ نحو الباب ليفتَحَه وينجو، وهي تسابقُه نحوَ الباب لتحولَ بينه وبين فتحه، وتعيدَه إليها... وبذلك استبقا الباب، كما في قوله: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾.

والمشهدُ بينهما هكذا: يوسفُ متوجِّهٌ نحو الباب ليفتَحه، وامرأةُ العزيز خلْفَه لتمسكَ به وتعيدَه، وهو يوشِكُ أنْ يصلَ البابَ ويفلتَ منها، فلم يبقَ أَمامها إلاَّ أنْ تجذبَه من قميصِه وهو أمامها، لتعيدَه إِليها.

أَهوتْ بيدِها على قميصه من الخلف، وجذَبَتْه بعنفٍ وقوة، وهو سائرٌ أمامها هارب، فأثَّرتْ قبضتُها على قميصه وقَدَّتْه، قَدَّتْه من الخلف، كما قال الله: ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾.

وهكذا وصلا الباب: يوسفُ هارب، وهي خلْفَه تلاحِقُه، ويَدُها في قميصه، تَقُدُّه وتشطُرُه وتمزِّقُه.

المفاجأة بدخول سيدها:

وهنا تقعُ المفاجأةُ التي لم تتوقَّعْها هي. لقد جاءَ زوجُها، في غيرِ وقتِ مجيئهِ المعتاد، وها هو يلجُ المنزل، ويدخلُ الأبواب باباً باباً، وها هو يصلُ للبابِ الأخير، ويفاجَأُ هو بهذا المنظر.

كلٌّ منهما فوجئَ بالآخر، والضحيةُ هو يوسف الفتى العفيف.

الزوجةُ تفاجَأُ بزوجها واقفاً على الباب، يرى ما يحدثُ داخلَ الغرفة، ويضبطُها متلبسةً بهذا الوضع الغريب.

والزوجُ يفاجَأُ بزوجته، وهي تلحقُ بغلامِه يوسف، وتمسكُ بقميصِه من الخلف، وهي على حالةٍ خاصة من التزينِ والتكشفِ والإغراء.

وقد سُجلَ هذا المنظرُ العجيبُ المفاجئ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

ماذا تفعلُ المرأةُ المتآمرةُ بهذه المفاجأةِ المذهلة؟ هل تخرسُها وتشلُّ تفكيرَها؟

الجوابُ عندها جاهز، ويبدو أنها أَعدتْ لكل مفاجأة ما يناسبها، فإذا ما فوجئتْ بزوجها، فسوف تعرفُ ماذا تقول، وهذا مرتَّبٌ من قبل.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هل تدينُ نفْسَها، وتعترفُ بجريمتها، وتقولُ الحقيقة، وتبرئُ الفتى العفيف؟ ما الذي يَدعوها إلى ذلك؟ وهي بدونِ إِيمانٍ أو أخلاق أو حياء!!

الحلُّ في اتهامِ يوسف، وليكنْ بعد ذلك ما يكون!!

اتهامها ليوسف وطلبها عقوبته:

تقولُ لزوجها: غلامُك هذا الذي أوصيْتني به، وأَمرتَني أن أُكرمَ مثواه، لم يُراعِ الإكرامَ والإحسان، وإنما طمعَ فيَّ، وراودني عن نفسي، وأَرادَ بي سوءاً، أَرادَ أنْ يعاشرني ويعتديَ علي، لكنّي أبيتُ وتمنّعت!!

وأنتَ الآن يا زوجي جئتَ بالوقتِ المناسب! وأنا أُدافعُه وهو يهاجمني، فما عليكَ إلاّ أنْ تعاقبَه!

ما العقوبةُ التي تقترحُها له؟ هل هي قتلُه أو موتُه والتخلصُ منه؟

لو كانت صادقةً في اتهامها، ولو كانت عفيفةً معتدى عليها، لطلبتْ من زوجها قتْلَه، دفاعاً عن عرضِها وشرفِها!

لقد طلبتْ له عقوبةً مخففة، لا تَقضي عليه، وإنما تحفظُه إلى حين: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إِنها عاشقةٌ محبةٌ له، لا تريدُ موتَه، ولهذا تقترحُ أنْ يوضعَ في السجن، أوْ أنْ يعذَّبَ عذاباً أليماً، لا يقضي عليه.

ويوسف يقول الحقيقة:

فوجئَ يوسفُ العفيف باتهام المرأة له، الآن هي عفيفةٌ معتدى عليها!! وهو المعتدي الراغبُ في المعاشرة، الطالبُ للممارسة الفاحشة!!.

ما هذا الكيدُ العجيبُ من هذه المرأة الماكرة؟

ما كان ليوسفَ إلاّ أنْ يقولَ الحقيقة. قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِى﴾.

لقد دفعَ يوسفُ الاتهامَ عن نفسه، وأثبتَ المراودةَ لها، وهو صادقٌ فيما قال.

لم يُفصلْ يوسفُ لزوجها تفاصيلَ مراودتها له، التي استمرتْ أياماً وشهوراً وسنوات. كما لم يُفصلْ تفاصيلَ الحدث الجاهر الأخير، واكتفى بتكذيبها، وذكْرِ الحقيقة: هي راودَتْني عن نفسي!

ووقعَ العزيزُ في حيرة، فأمامَه اتهامان متناقضان، كلٌّ يتهمُ الآخرَ بأنه هو المراودُ المعتدي. فمن هو الصادقُ منهما يا تُرى؟ أهو زوجتُه، التي لا تحتاجُ إلى التفكيرِ في فتاها طالما زوجُها يقضي لها وطرها؟ أم هو الفتى النابه، الذي تفرَّسَ فيه، ولاحظَ عليه سيما الخير والصدق؟

ليس أمامَ العزيز إلاّ أنْ يعرضَ الأمر على واحدٍ من أهلها، وأنْ يستشيرَه، وأنْ يطلبَ منه الرأيَ والحكم..

الشاهد من أهلها وحكمه الحصيف:

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

جاءَ هذا الشاهدُ من أهلها، ونظرَ في الموضوع، وناقشَ اتهامَ كلٍّ منهما للآخر. ثم أصدرَ حكمه.

ويبدو ـ من خلال السياق ـ أنَّ الشاهدَ لم يشاهِدْ قميصَ يوسف المقدود، فلو شاهدَ مكانَ شَقِّه وقَدِّه لحكَمَ عليها من أولِ الأمر.

لقد كان هذا الشاهدُ حصيفاً ذكياً فَطِناً، وأَهْلاً للحكمِ والقضاء والشهادة.

قال: انظروا إلى قميصِ يوسف، من أَينَ تَمَّ شَقُّه وقَدُّه.

إنْ كان قميصُه قُدَّ وشُقَّ من الأمام، من جهةِ صدره، يكون هو المهاجمَ المعتدي عليها، وتكون هي المظلومةَ البريئةَ المعتدى عليها، فعندما يهاجمُها من الأمام ستردُّ هجومَه، وتدافعُ عن نفسها، وبذلك تكون قدْ قَدَّتْ قميصَه مِن قُبُل: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وإنْ كانَ الاحتمالُ الآخر، ورأيتم قميصَه قدَّ مِنَ الخلف، تكونُ هي المعتديةَ الطالبةَ له، المراودةَ له عن نفسه، ويكون هارباً منها، فتلحقَ به، وتجذبَ قميصه من الخلف وتشقَّه، عندها يكون صادقاً في براءته، وتكون هي كاذبة في اتهامها له: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أَصدرَ هذا الشاهدُ حكْمَه في القضية، وأَفتى في المسألة، وتركَ لهم هم التحقيقَ والنظر، وانطباقَ الأمرِ على القميص.

ولا نعرفُ عن هذا الشاهدِ الحصيفِ الحكيم إلا ما قاله اللّهُ عنه:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾. فكلُّ ما يقالُ عنه: إنه رجلٌ ذكيٌّ من أهلِ امرأةِ العزيز.

إنَّ كلَّ ما يتعلقُ به فهو من مبهماتِ القصص القرآني، فلا نملكُ تعيينَ اسمه، ولا تحديدَ عمره، ولا مدى قرابتِه للمرأة، ولا عملَه ووظيفتَه، ولا متى وكيف وأينَ أَدْلى بالشهادة، وأصدرَ هذا الحكم، ولا نعرفُ هل كان قادماً مع العزيز إلى البيت، ففوجئ بما فوجئ به العزيز، أو رجعَ العزيزُ إليه، ليكون حَكَماً في المسألة.

كلُّ هذا من المبهماتِ التي لا نرى الخوضَ فيها، طالَما أنه لم يردْ لها بيانٌ في الأحاديثِ الصحيحة عن رسولِ الله عليه الصلاة والسلام، ولا يضرنا الجهل بها!

لقد كانَ الشاهدُ ذكياً لبقاً، يتمتعُ باللباقة والكَياسة، ولهذا بدأَ بافتراضِ صِدْقِها وكَذِبه، وذلك إنْ كانَ قميصُه قُدَّ مِن قُبُل، وهذا بدءٌ يتفقُ مع منزلة المرأة، إنها امرأةُ العزيز، المسؤولُ الأول في مصر، فهلْ من المناسبِ أنْ يقدِّمَ عليها غلامَها؟

امرأة العزيز هي المعتدية الكاذبة:

حققَ العزيزُ في المسألة على ضوءِ ما قررَه ذلك الشاهدُ الحَكَم، ونظرَ في القرينة القميص، وعرفَ أنَّ امرأتَه هي المراودة، وأن غلامَه عفيفٌ بريء: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

رأى العزيزُ قميصَ يوسف قُدَّ من دُبُر، فأيقنَ أن يوسفَ لم يراودْ امرأتَه ولم يهاجمها، بل هي التي راوَدَتْه، وأنه أرادَ إنقاذَ نفسه، فهربَ منها، فلحقتْ به، وقدَّتْ قميصَه من دُبُر.

ماذا سيفعلُ العزيزُ الآن، وقد أيقنَ أنَّ امرأتَه مجرمةٌ تنظرُ لغيره، وتبحثُ عن غيرِه، وتراودُ غيرَه عن نفسه، حتى وصلَ بها شَبَقُها إلى

مراودةِ فتاها عن نفسه؟

لو كان الأمرُ عندَ رجل آخر، وقفَ على هذه الجريمة من امرأته، لثارَ الدمُ في عروقِه، وانتقمَ لشرفه، وقتَلَها وغسلَ عارها!

العزيز ديوث وكلامه لها بارد:

لكن العزيزَ ـ المسؤولَ الأول في مصر، الذي يمثل ما يسمونَه بالطبقةِ الراقية الحاكمة ـ تعامَلَ مع الموضوع بأعصابٍ متجمدة، ودم بارد، فلا قيمةَ عنده للشرفِ والعِرْض، ولهذا لم يزدْ على أنْ قالَ لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

هذه الجملةُ الباردة، الصادرةُ عن إنسانٍ باردٍ دَيّوث، يتأكدُ من وجودِ الفاحشة في زوجته، فيمنحُها ما يشبهُ الوسام، ويقدمُ لها الثناء، ويشهدُ لها بأنها امرأةٌ فاتنة ماكرة، تقدرُ على الإغواءِ والفتنة والكيدِ والتآمر.

وجعلَ هذا الكيدَ والإغراءَ والإغواء عامّاً في كلِّ بنات جنسها، وكأنَّه يقول لها: كُلكنَّ هكذا، يا بناتَ حواء، ذواتِ كيد عظيم، وفتنةٍ طاغية، ولهذا لا غرابةَ أنْ يصدرَ عنكِ هذا الكيدُ والإغواء، والفتنة والإغراء.

إنَّ هذا كلامُ رجلٍ ديّوث، يُثني على فتنةِ امرأته الماكرة، أخبرَنا عنه القرآن، ولم يعتمدْه أو يقرزه، ولهذا الأَوْلى أنْ لا يُعمِّمَ على جميع بناتِ حواء، والأَوْلى أن لا نعتبرَ هذه الجملةَ إدانةً لجميع النساء.

بعضُهم قد يعمِّم، ويقول: القرآنُ يقررُ أنَّ كيدَ النساء عظيم، لأنه يقول؛ ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

إنَّ القرآنَ لم يعتمدْ هذا القولَ الصادرَ من عزيز مصر ولم يقرره، كلُّ ما في الأمرِ أنه وردَ في سياقِ إخبارِ القرآن عن هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام.

فالقرآنُ يخبرُ عن ردةِ فعل العزيز عندما علمَ ما علمَ من امرأته، ويفهمُ القارئ من الآياتِ استنكارَ واستهجانَ موقفِه القبيح.

كلُّ ما يهمُّ العزيزَ هو المظاهر، حتى لا تتأثَّرَ منزلتُه أو وظيفتُه في المجتمع ـ فهو المسؤولُ الأولُ في مصر كما قلْنا ـ ولهذا أخشى ما يخشاه هو أن ينتشرَ الخبر، وأنْ يَذيعَ في أوساطِ الطبقة الراقية الحاكمة، ثم ينتقلَ إلى الناس ليكون حديثَ الشارع.

ولهذا نصحَ يوسفَ قائلاً: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾. أي: إنْسَ يا يوسفُ الأمر، وأعْرِضْ عنه، ولا تُعرهُ اهتماماً، وكأنه لم يحصلْ لك شيء.

أَعرِضْ عن هذا، فلا تُحدِّثْ به، ولا تُخبرْ به أحداً، حتى لا نفتضح، وحتى لا يتكلمَ الناسُ عن بيتنا.

ثم توجَّهَ إلى امرأته قائلاً: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

ما أبردَ هذا الوعظَ منه لامرأته، التي ثبتَ له جريمتُها. لقد أخطأتِ فيما فعلتِ مع يوسف، وارتكبتِ أمراً خاطئاً، كان الأَوْلى أنْ لا تفعليه، ولهذا عليكِ بالاستغفارِ لهذا الذنب الذي صدرَ منك!!

هذا فقطْ ما تقوم به؟ هذا فقطْ ما تقولُه لها؟ هذا فقطْ ما تفعلُه؟.

هذه هي طبيعةُ ما يسمّى بالطبقةِ الحاكمة الراقية في القديم والحديث، وهذا هو موقفُ رجالها من فضائِحها التي تزكمُ روائحُها الأنوف!!!

[١٣]

يوسف ينتصر على إغراء نسوة المدينة

انتهى المشهدُ الأولُ من مشاهدِ امتحانِ وابتلاءِ يوسف بفتنةِ الشهوة، بانتصارِه العظيم على مراودةِ المرأة وإغرائِها، حيث استعصمَ

بالله، واستعاذَ به، فأعاذَه اللّهُ وعصمه، وعرفَ العزيزُ أنَّ امرأتَه هي الباغيةُ المتهالكة، وأنَّ يوسفَ عفيفٌ نظيفٌ طاهر.

ولكن العزيزَ لم يتخذْ إجراءاً رجولياً، وتعاملَ مع امرأته بدياثةٍ وبرودِ دَم، ولم يزدْ على أنْ قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾.

بقي يوسف في بيت العزيز وانتشرت الحكاية:

وبقيَ يوسفُ في بيتِ العزيز، عند امرأة العزيز المتهالكة عليه، العاشقةِ له، الحريصةِ على معاشرته، بقيَ في هذا المكان الموبوء، وهو كارهٌ للمكان وما فيه ومَنْ فيه.

ولم تبقَ حادثةُ المراودةِ الغليظة، ومحاولةُ اعتداءِ امرأة العزيز عليه، ضمنَ جدرانِ قصر العزيز، فقد تناقلَها الرجالُ والنساءُ والخدم، إلى باقي قصورِ الأمراء والمسؤولين، ثم انتقلتْ إلى بيوتِ المدينة وشوارعها، وصارتْ حديثَ الناسِ فيها ـ الكلّ يقول: امرأةُ العزيز تراودُ فتاها عن نفسه.

وصارتْ ألسنةُ نساءِ المدينة تتناقلُ الحكاية، ومعلومٌ أنَّ لأَخبارِ الفضائحِ الجنسية جاذبيةً خاصة عند النساء، يتناقلْنَها ويتداولْنَها..

وعلمت امرأةُ العزيز ما يُقالُ عنها، وعن فتاها يوسف، فلم ترعوِ ولم تتراجَعْ ولم تُنكر، وإنما قامتْ بمكرٍ جديد، ومؤامرةٍ خبيثة، ضحيتُها هو فتاها يوسف نفسه، وشهودُها نسوةُ المدينة أنفسهن.

وهنا يدخلُ يوسف في امتحانٍ جديد، قدَّمه أمامَ نسوةِ المدينة هذه المرة، ويتعلق بفتنةِ الشهوة، ومحنةِ الإغراءِ والمراودة.

وقد عَرضتْ آياتُ القرآن هذا المشهدَ الثالث والأخير من هذه الحلقة المثيرةِ من قصةِ يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا

عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٤].

نسوة المدينة يعذلن امرأة العزيز:

بدأت الآياتُ بذكرِ ما قالته نسوةُ المدينة عن القصة: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

نسوةُ المدينة هنَّ نساءُ الطبقةِ المترفة الحاكمة، اللواتي يجتمعْنَ ويتداولْنَ الحديث، وحديثُهن يدورُ حولَ الجنسِ والفضائحِ والشهوات، والمآكل والمشارب والملابس.

لقد استغربت نسوةُ المدينة قصةَ امرأةِ العزيز ـ زميلتِهن ـ مع فتاها يوسف، واستهجَنَّ تصرُّفَها معه، وقلْنَ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾.

أخبرَنا السياقُ القرآنيُّ الآنَ أن هذه المرأةَ التي تراودُ يوسفَ هي امرأةُ العزيز، والعزيزُ هو المسؤولُ الأوَلُ في مصر ـ بعد الملِك ـ وبهذا عَرَفْنا أن الذي اشتراه واستقرَّ في بيته، هو عزيزُ مصر.

استنكرتْ نسوةُ المدينة مراودةَ امرأةِ العزيز لفتاها خادمِها عن نفسه، واستنكرتْ تدنّي نظرةِ المرأة، بحيث نزلَتْ إلى فتاها خادمها، وأحبَّتْهُ وعشقَتْه، ورغبتْ في معاشرته، وشغَفَها حباً، ولهذا هي في ضلالٍ مبين.

ومعنى قولِهنّ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قد سيطرَ فتاها على قلبها، وملأَ حبُّه قلبَها.

وشِغافُ القلب هو غِشاؤُهُ الرقيق الذي يغلّفُه ويحيطُ به. وعندما يشغفُ يوسفُ امرأةَ العزيز حباً، تكونُ محبته قد اخترقتْ شِغافَ قلْبِها وغشاءَه، ووصلَتْ إلى قلبها من الداخل، فملأتْه وتمكنتْ منه، فتصيرُ هذه المرأة لا تفكرُ إلا في محبةِ فتاها، وتكون حريصةً على مراودتِه وإغوائه ومعاشرته.

لقد اعتبرت النسوةُ امرأةَ العزيز في ضلالٍ مبين، لأَنها أحبتْ فتاها، وطلبتْ معاشرته، وراودتْه عن نفسه، واعتبرتْ هذا نزولاً منها إلى مستوى متدَنٍّ من الحبِّ والعشق، فكيف تعشقُ امرأةٌ كبيرة في مثلِ منزلتها ومكانتِها غلامَها خادمَها؟

ولو أنَّ امرأةَ العزيز فُتنتْ برجلٍ كبير مسؤول في البلاد، وراودَتْه وأغرَتْه، وشغَفَها حباً، لكانتْ على صواب، وحسنِ نظرةٍ واختيار، في عُرفِ نسوةِ الطبقة الراقية المترفة.

وهكذا هي أَعرافُ المترفين والمترفات، وهذه هي أَذواقُهم، فلا تُعاب المرأةُ ولا تُذَمُّ ولا تُنتقد إذا بحثتْ عن عشيقٍ وخليل، تخادِنُه وتعاشره، على شرطِ أنْ يكون هذا العشيقُ أهْلاً لها، وفي مثلِ منزلتها. فإذا عشقَتْ إنساناً أَقلَّ منها وأَوضع، صارتْ مجالاً للذمّ والعَيْب، وقالتْ عنها باقي النسوة المترفات، كما قالتْ نسوةُ المدينة عن امرأة العزيز: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾!!!

امرأة العزيز تمكر بنسوة المدينة:

ولما سمعت امرأةُ العزيز بما قالَتْه نسوةُ المدينة، من عَذْلِها ولَوْمِها وانتقادِها، أرادتْ أنْ تبرّرَ لهن مراودتَها لفتاها، وأنْ تبيّنَ لهن صوابَ حبِّها له، وأنها لم تضلّ ولم تخطئ عندما أحبَّتْه وعشقَتْه وراودَتْه.

وهداها مكْرُها وكيْدُها إلى حيلةٍ عجيبة، ومؤامرةٍ خبيثة: فقد دعتْهنَّ إلى حفلةٍ في بيتها، حفلةٍ صاخبةٍ، فيها ما فيها من اللهوِ والمرح، والمآكلِ والمشارب: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾: هيَّأَتْ لهنَّ الفُرُشَ والمساندَ والبُسُط، ورتبتْ لهنَّ جلسةً مريحة ناعمة.

ولما جلسنْ على الفُرُش، واتكأْنَ على المتكأ، قدمَتْ لهنَّ الصِّحافَ والصحون، التي توضَعُ فيها المآكل والفواكه.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فصارَ بيدِ كلٍّ واحدةٍ من النسوة سكين، لتستخدمه في تقشيرِ وتقطيعِ الفاكهة.

وهكذا استراحت النسوةُ في هذه الجلسةِ الناعمة، واستمتعْنَ بهذه المأدبة الحافلة، وانهمكْنَ في الأكلِ والملذات، وانشغلْنَ باستعمال السكاكين في التقشير والتقطيع.

دهشة النسوة وكلامهن عن يوسف:

وفجأةً أمرت المرأةُ فَتاها يوسفَ بالخروجِ عليهن!!

خرجَ يوسفُ على النسوة المنهمكات في استعمالِ السكاكين، ففوجِئْنَ به، وبهرتهنَّ طلعته، وسحرهنَّ جماله، ودهشْنَ منه وله، ونسينَ أنفسهنَّ وأيديهن وسكاكينهن..: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

معنى ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾: دهشْنَ له وبهتْنَ وفوجئن، ونظرنَ لهُ نظرةَ إكبارٍ وإعجاب وعشق وحب.

ولما بهرهنَّ جمالُه نسينَ أيديهنّ وسكاكينهن، وصارت السكاكينُ تتحركُ في أيديهن حركةً لا إرادية، حيث فقدنَ السيطرةَ على الأيدي والحركة والسكاكين، وانهمكْنَ في تملّي جمالِ يوسف، فعملت

السكاكينُ عملَها في أيديهن، وجرَّحَتْها وقطَّعَتْها.

ونزفت الدماءُ من أيديهنّ وهنَّ لا يشعرنَ بألمِ الجراح أو نزفِ الدماء، لأنهنّ مخدراتُ الأعصابِ والمشاعر، مشغولاتٌ بالجمال الباهر.

وتكلمنَ بعبارةٍ كلُّها دهشةٌ وانبهارٌ وإعجاب: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

بدأنَ بكلمةِ التنزيه لله: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ على اعتبار أنَّ اللَّهَ هو الذي خلقَ هذا الفتى الجميل، وهو قادرٌ على خلقِه بهذا الجمال، حكيمٌ في منحه هذا الجمالَ الساحرَ الباهرَ الفتان.

صحيحٌ أن النسوةَ كافراتٌ غيرُ مؤمنات بالله، لكنهنّ يعلمْنَ أن اللّهَ هو الخالق، فهو الذي خَلَقَ يوسفَ على هذا الجمال، فسبحانَ اللّهِ على جمال صنعه، وإتقانِ خلقه.

ثم أَتبعْنَ ذلك بأنَّ هذا الفتى الواقفَ أمامهنَّ ليس بشراً، فمقاييسُ جمالِه ليستْ على مقاييسِ جمال البشر، لقد فاقَ أكثرَ البشر جمالاً في جَماله وحُسنه، وما هو إلاّ مَلَكٌ كريمٌ كباقي الملائكة في جمالهم.

وقد شبهنَ يوسفَ بالملائكة في الجمال، لأنَّ الملائكةَ هي مضربُ الأَمثال في الجمال. فإذا أُريدَ تشبيهُ إنسانٍ بآخر في جمالِه شَبَّهوه بالملائكة.

يوسف أوتي شطر الحسن والجمال:

وتنزيهُ النسوةِ الكافرات لله في قولهن: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ وتشبيهُهُنَّ يوسفَ بالملائكة في قولهن: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليلٌ على أنهنَّ كنَّ يعرفْنَ الله، ويعرفنَ الملائكة، ويعرفنَ جمال الملائكة، رغم كفرهن، وأنهنَّ عرفْنَ ذلك إمّا بالفطرة، وإما بما وصلَ إليهن من مسائلِ الإيمان، عن طريق المؤمنين المقيمين في مصر، أو المترددين عليها!

ومن المعلومِ أنَّ يوسفَ عليه السلام كان باهرَ الجمال، وأنَّ اللّٰهَ قد خصَّه من الجمال بما لم يهَبْه لأحدٍ من قبل.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «أُعطِيَ يوسُفُ شَطْرَ الحُسْن»[1].

إن رسولَ الله ﷺ يخبرُنا في هذا الحديثِ أن اللّٰهَ قد أعطى يوسفَ عليه السلام نصفَ الحسن والجمال، الذي أَعطاهُ للناس، فنصْفُ الجمال مقسَّمٌ بين الناس، ونصْفُه الثاني ليوسفَ عليه السلام.

بعدما تأثرتْ نسوةُ المدينة بجمالِ يوسف، وكنَّ من قبلُ يعْذِلنَ امرأةَ العزيز فيه، أحسَّت المرأةُ الآنَ بالانتصار.

اعتراف امرأة العزيز لهن بالمراودة واستعصام يوسف:

لقد انتصرتْ عليهن، وبذلكَ أعلمتهنَّ أنهنَّ كنَّ مخطئاتٍ في عذْلِها ولومِها، فهي لم تخطئْ ولم تضلْ في محبتِها وعشقها لفتاها، ولو كانت أيُّ واحدة منهنَّ مكانَها لفعلتْ مثلَ فعلها.

وعبَّرتْ عن زهوِها وانتصارِها بقولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ فلماذا تَلُمْنني في محبتِه وعشقه، وها أنتنَّ قطعْتُنَّ أيديكن دهشاً عندما رأيتُنَّه؟ فكيف أفعلُ وأنا أعيشُ معه سنوات!!.

وهنا لا تجدُ امرأةُ العزيز تحرُّجاً ولا حياءً من الاعترافِ أمام النسوةِ المشدوهات المعْجَبات، فتقول: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

تعترفُ أَنها هي التي راودَتْه عن نفسه، بمختلفِ الوسائل، طيلةَ السنوات الماضية، وأنها اضطرتْ أمام إِبائِه وترفُّعِه المتكرر إلى دعوتِها الجاهرةِ المكشوفة بعدما غلقت الأبواب، ومع ذلك أَصرّ على إِبائِهِ.

---

(1) رواه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٥٥ و١٨٠ و١٨١.

وتُقدمُ امرأةُ العزيز شهادةً ليوسف في قولها: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

لقد أَبى يوسفُ دعوتَها، واستعلى على نوازعِ الشهوةِ المحرمة، وحافظَ على عفَّتِه وطهرِه، واعتصمَ بربه، وعاذَ به ولجأَ إليه، فلم يستجبْ لها، ولم يهمَّ بها.

وتوحي صياغةُ الفعل الماضي: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ بمقدارِ الجهدِ والمعاناة والمجاهدة التي قام بها يوسف، حتى نجا ونجحَ وفاز. إنَّ الحروفَ الثلاثة في الفعل: الهمزة والسين والتاء تدلُّ على استحضارِهِ العصمة، وطلبِهِ لها، وقوةِ برهان ربه في قلبه، الذي عصمَه من الفاحشة!!

وبعد ذلك تصرُّ المرأةُ على رغبتِها في فتاها، وأنَّ ترفُّعَه وإباءَه واستعصامَه لم يقطعْ أملَها فيه، فتعترف أمامَ النسوة بدون تحرُّجٍ ولا حياء قائلة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

وكأنها تقولُ لهن: لقد رفضَ دعوتي فيما مضى، وترفَّعَ واستعصم، وأنا ما زلْتُ راغبةً فيه، مشتاقةً إليه، وأنا مصرةٌ على ذلك، وسوفَ آمره أَمراً بمعاشرتي ومخالطتي، ويجبُ عليه أنْ ينفِّذَ أَمري!

وتُصدرُ تهديدَها ليوسف بأَنَّه إنْ أصرَّ على موقفِه المترفعِ فسوف يعاقَبُ ويُسجنُ ويُذَلُّ: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

أمام يوسف طريقان واختياره السجن:

ليس أمامَ يوسف إلاّ طريقان لا ثالثَ لهما:

إمّا أنْ يتجاوبَ مع رغباتِ امرأةِ العزيز، ويستجيبَ لها، ويَقبلَ إغراءَها وإغواءَها، ويعاشرها ويستمتعَ بها، وعندها تُفتحُ له أَبواب الدنيا ومتعُها وملذاتُها وخيراتُها، فيعيش مرفَّهاً مُنَعَّماً، لأنها امرأةُ المسؤولِ الأول في البلاد، وهي قادرةٌ على تقديمِ كل الخيراتِ له.

وإمّا أنْ يصرَّ على ترفعِه واستعصامِهِ، ويَثبتَ على موقفِه، ويترفَّعَ عن معاشرتها، ويحافظَ على عفَّتِه وطهارته، وعندها سيدفعُ الثمنَ غالياً،

حيث سيفقدُ كلَّ المزايا والمنافع، وسيحلُّ به البلاءُ والعذاب، والذلّ والصَّغار والهوان، حيث ستأمُرُ بسجْنِه، وهي قادرةٌ على ذلك، وعلى تلفيقِ أيةِ تهمةٍ له!!

يبدو هذانِ الخياران في قولِ امرأة العزيزِ للنساءِ على مسمعٍ من يوسف: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

كان يوسفُ حاضراً وسامِعاً ما قالَتْه نسوةُ المدينة عنه، وما قالَتْه امرأةُ العزيز عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ولاحظَ يوسفُ انبهارَ النسوة وإعجابَهن وفتنتَهُن به، ورأى انحيازَهُنَّ إلى جانب امرأة العزيز، وإقرارَها على عشقِها له، وموافقتَها على تَصْميمِها على معاشرته، وإلاّ فالعقابُ والسجن والعذاب.

ووجدَ يوسفُ نفسه أمامَ مؤامرة كبيرة، ليست من امرأةِ العزيز وحدَها هذه المرة، بل من نساءِ المسؤولين الحاكمين في مصر، فكلهنَّ يشارِكْنَ امرأةَ العزيز في العشقِ والافتتانِ والإغراءِ والمراودة، وكلهنَّ يدعونَه إلى المعاشرة وارتكابِ الفاحشة، وكلهنَّ يهددْنَه بالعقاب والسجن إنْ رفضَ دعوتهن.

فماذا يفعلُ يوسف؟ وأيَّ السبيليْن يختار؟ سبيلَ الشهوات والفواحش فالملذاتُ والمُتَع، أو سبيلَ العفةِ والطهارة فالسجنُ والعقاب؟

إنه لن يختارَ إلا السبيلَ الثاني، وهذا هو سِرُّ عظمتِه. ولهذا دعا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

ويلجأ إلى الله ليحميه من إغرائهن:

وقد علمَ يوسفُ أنه أمامَ فتنةٍ طاغية، وكيدٍ كبير، صادرٍ عن مجموعةٍ من النساء المتنفذات، وأنه حتى الآن نجا منهن، لكنه يخشى

عدمَ الصمودِ والنجاة في المستقبل، فالمراودةُ مستمرة، والإغراءُ متتابع، ولهذا يلجأُ إلى الله طالِباً منه صرفَ كيدهن عنه، لأنه يخشى عدمَ الثبات، ويخشى السقوط والمخالفة وارتكابَ الفاحشة: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

يدعو يوسفُ ربَّه قائلاً: يا ربِّ لا يعصمُني من هذه الفتنة إلاّ أنت، ولا يُنجيني من كيدِ هذه النسوة إلا أَنت، وقد عصمْتَني فيما مضى وحفظْتَني عندما راودتْني امرأةُ العزيز، فلك الحمد والشكر.

وأَدعوكَ يا ربِّ أنْ تصرفَ عني كيدَ هؤلاء النسوة، كي تحفَظَني وتعصِمَني، فإنكَ إنْ لم تتداركْني بحفظِك، وإن لم تصرفْ عني كيدَهن وإغراءهن وفتنتَهن، فإني لن أثبت، وسوفَ أصبو إِليهن، وأَميلُ إلى فتنتهن، وأَستجيبُ لدعوتهن، وبذلكَ أقعُ في الفاحشة، ويصيبُني الرجس، وإنْ فعلتُ ذلك سأكونُ من الجاهلين المنحرفين الساقطين!!

يا ربِّ فاحفظْني بحفظِك، واعصِمْني بعصمتك، واصرِفْ عنّي كيدَهن، وأَبْعِدْ عنّي فتنتهن، ولو كان ذلك لا يتحقَّقُ إلا بإدخالي السجن، فأنا أرحبُ بالسجنِ وأقبلُه، رغم مشقتِه وآلامِه، لكنه أهونُ من ميلي إليهن: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد سمعَ اللّهُ دعاءَ يوسف، فأدركَه بحفظِه ورعايته، واستجابَ له دعوتَه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

علمَ اللّهُ صدق يوسفَ في لجوئِه إليه، واستعاذتِه به، وفي ترفُّعِه عن الفواحش، وسمعَ اللّهُ دعاءَ يوسف وتضرُّعَه إليه، وتفضيلَه السجن على الفواحش، لأن الله سميعٌ عليم.

وصرفَ اللّهُ عن وليِّه يوسف كيدَ امرأةِ العزيز، ومَنْ معها من نسوة المدينة، وأنقذَه من هذا الجوِّ الموبوء، الذي تعيشُ فيه النسوةُ الفاتناتُ الشهوانيات، وأخرجَه منه سالماً فائزاً، عَفيفاً نظيفاً طاهراً، ظافراً منتصراً.

والبديلُ هو السجن، فليكُنْ، لقد قالَها يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ..﴾.

وهكذا خرجَ يوسف من هذه المحنة، محنةِ الإغراء والفتنة والمراودةِ والشهوة، خرجَ منها ظافراً منتصراً، بفضْلِ الله وحفْظِه وعصمته.

خرجَ منها ليواجه محنةً أُخرى قاسيةً شديدة، في حلَقاتِ قصته المليئةِ بالمحن والابتلاءات، وسيقَ إلى السجن مُتَّهماً مظلوماً!!

وبهذا تنتهي الحلقةُ الثانيةُ من قصته، بمشاهدِها الثلاثة، تنتهي بانتصارِه على المراودة والإغراء، وثباتِه على العفة والطهارة.

[١٤]

الحلقة الثالثة

يوسف في السجن

انتقلَ يوسفُ عليه السلام في هذه الحلقةِ إلى آخرِ محنةٍ في حياته: محنةِ السجن، حيثُ أُدخلَ السجن مظلوماً.

وقد عشْنا في الحلقتين السابقتين من قصتِه مع المِحَن السابقة التي مَرَّ بها: محنةُ كيدِ إخوته له ووضعِه في البئر، ومحنة الاسترقاقِ في بيت عزيز مصر، ومحنةُ مراودةِ امرأة العزيز له، ومحنةُ مراودةِ نسوة المدينة له، حيث أَعانه اللّهُ على الانتصارِ في تلك المحن والابتلاءات كلها، فتجاوَزَها بأمانٍ ونجاح.

والآن.. وبعدما تأكدَ القومُ من براءةِ يوسف من مراودة امرأة العزيز، وبعدما أَيقنوا أنها هي المراودةُ له المعتديةُ عليه، فلا بدَّ لهم من تقديم ضحيةٍ لهذه الفضيحة!

هل تكونُ الضحية هي امرأةُ العزيز؟ وزوجُها الحاكمُ المتنفذُ في مصر! إنَّ هذا مستحيلٌ في عرفِ الجاهلية، وأحكامِها الجائرة!

لن يكون الضحيةُ إلاّ هذا الفتى الرقيق، فليسجنْ، وليحملْ هو مسؤوليةَ المراودة والاعتداء.. وبهذا أُدخلَ يوسف السجن مظلوماً.

وفي السجنِ كان معه سجينان آخران، أَنِسا به وارتاحا إِليه، ورأى كلٌّ واحدٍ منهما رؤيا، وطلبا من يوسف تعبيرَها، فعبَّرَها يوسف بعدما قَدَّمَ لهما نفسه، وعَرَّفَهما على عقيدته.

وقد صُلبَ أحدُهما، وأُفرجَ عن الآخر، حيث عادَ لخدمة الملك.

ورأى الملكُ رؤيا، أَهَمَّته وأزعجَتْه، فطلبَ ممن حولَه تعبيرَها، لكنهم عجزوا، فذهبَ ذلك الرجلُ إلى يوسف في السجن، حيث عبَّرها له. وأُعجبَ الملكُ بتعبير يوسف، وطلبَ إِحضارَه إليه، فاشترطَ يوسفُ إعادةَ محاكمته من جديد، وأُعيدت المحاكمة، وشَهدت النسوةُ ببراءته، واعترفت امرأةُ العزيز بأنها هي المراودة له، وأَنه كان عفيفاً صادقاً!!.

وتنقسمُ هذه الحلقةُ من قصته إلى أَربعةِ مشاهد: مشهدِ يوسف في السجن يؤولُ رؤيا السجينيْن، ومشهدِ حاشية الملك عاجزين عن تأويلِ رؤياه، ومشهدِ يوسف وهو يعبرُ رؤيا الملك، ومشهدِ إِعادة محاكمة يوسف وشهادة النساء جميعاً ببراءته.

والآن إلى مشاهد هذه الحلقة بالتفصيل..

[١٥]

يوسف السجين يؤول رؤيا سجينين

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ

قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٣٥ ـ ٤٢].

أَسْلَمَنا المشهدُ الأخيرُ في الحلقة السابقة إلى تهديدِ امرأة العزيز ليوسف بالسجن، إنْ لم يستجبْ لها، ولم يفعلْ ما تأمره به من معاشرتها، واختيارِ يوسف للسجن على الفاحشة، وطلبِه من ربه أنْ يصرفَ عنه كيدَ النساء وإغراءَهن، وقد استجابَ اللّهُ له فصرفَ عنه كيدَ النساء، وقدَّرَ له أنْ يدخلَ السجن.

سجنوا يوسف بعد الآيات على براءته:

وتبدأ آياتُ هذا المشهد بتقريرِ حقيقة، وهي أنَّ القومَ الظالمين أَدخلوا يوسفَ السجنَ مظلوماً. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

لقد رأى القومُ الآياتِ والأدلةَ والبراهينَ على إدانةِ امرأة العزيز، وبراءةِ يوسف، فكلُّ ما حولَ الموضوع يشهدُ بذلك: شهادةُ الشاهد من أهلها، ونتيجةُ تحقيقِ زوجها، ومكانُ شقِّ قميص يوسف، واعترافُ المرأة أمام النسوة بصراحة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

ولكنَّ حديثَ امرأة العزيز مع فتاها قد ملأَ المدينة، وتناقلَتْهُ ألسنةُ

رجالِها ونسائها، وانتشرتْ فضيحةُ العزيز مسؤول مصر.

ولا بدَّ من إِنهاءِ الموضوع، ومعالجةِ القضية، لكن على أساسِ حفظِ سمعةِ بيت العزيز وامرأته، فلا بدَّ من تقديمِ ضحية، وتحميلِها المسؤولية، ولو كانت هذه الضحيةُ ليستْ مجرمة!

كانت الضحيةُ فتى المرأة، لأنه عبدٌ رقيق، ليستْ له قوةٌ مادية تَحميه، ولا طائفةٌ تتبناه، وسجنُه لا يؤثِّرُ في أوساط الطبقة الحاكمة!

إنه بريء، وقد ثبتَ للقوم براءته، لكن هذا لا يهم، فمنذُ متى كانتْ قوانينُ وأعرافُ وتشريعاتُ الجاهلية حريصةً على العدل؟ وعلى معاقبةِ المذنب وتبرئةِ البريء؟ المهمُّ عند تشريعاتِ الجاهلية ـ في القديم والحديث ـ حمايةُ «الملأ» المتحكمين!!

المسألةُ في قضية يوسف مع امرأة العزيز هكذا: ثبتَ بالأدلةِ القاطعة أنَّ امرأةَ العزيز هي التي راودَتْه عن نفسه، وقامتْ بإغرائه وفتنته، وهي التي اعتدَتْ عليه، وهمَّتْ به، وهجمَتْ عليه، لإجبارِهِ على معاشرتها، ولما هربَ لحقتْ به، وقدَّتْ قميصَه من دُبُر!!

وثبتَ بالأدلةِ القاطعة أنَّ يوسفَ لم يراود امرأةَ العزيز، ولم يعتَدِ عليها، ولم يهمَّ بها، وإنما أَبى وترفَّع واستعصم، وحافظ على عفته وطهارته.

وكان حكمُ القوم الجاهلين يتناقضُ مع هذه القناعةِ القانونية عندهم: تبرئةُ امرأة العزيز، ومنحُها وسامَ العفة والشرف. وإدانةُ فتاها، وإثباتُ المراودة والاعتداء له هو، ولذلك لا بدَّ أنْ يُسجَنَ لهذه الجريمة!!

وهكذا كان، فقد سيقَ يوسفُ البريءُ من بيتِ العزيز الذي أَمضىٰ فيه سنواتٍ وسنوات، إلى سجنهم المظلم، ليقضيَ فيه بضع سنين: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ٣٥﴾.

يوسف موقوف وليس محكوماً في السجن:

وتوحي جملةُ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ بأنَّ القومَ الظالمين لم يصدروا عليه حكماً بالسجن مدةً محددة، أي: لم يحدِّدوا السنواتِ التي يُسجنُ فيها. وإنما أرادوا وضْعَه في السجن مدةً مفتوحة، تنتهي بانتهاءِ القضية عند الناس، فطالَما أنَّ الألسنةَ تتحدثُ بقضية امرأة العزيز مع فتاها فلا بدَّ أنْ يبقى يوسفُ في السجن، فإذا نسيَ الناسُ القضيةُ فلا مانعَ أنْ يَخرجَ من السجن بعد ذلك.

وهذا معناه أنْ يبقىٰ في السجن سنةً أو سنتين أو خمساً أو عشراً! ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين انتهاءِ الحديثِ في المسألة.

وباللغةِ المعاصرة: كان يوسف «موقوفاً» في السجن لحينِ موتِ القصة، وليس «محكوماً» بسنواتِ محددة.

إنَّ الظالمين الطغاةَ في العصر الحديث الذين يُكثرونَ من «توقيف» المعارضين في السجونِ سنواتٍ طويلة، إنما يَقْتَدون بالظالمين السابقين الذين «أَوْقَفوا» يوسف في السجن... حتى حين!!.

والإيقافُ أقسى وآلمُ وأشدُّ من الحكم، لأن المحكومَ بسنواتٍ محددة يَعرفُ متى يخرج من السجن، أما الموقوف فلا يعرفُ متى يخرج، لأنَّ أَمْرَ إخراجِه محكومٌ بمزاجِ الظالمِ المتقلِّب!!!

وهكذا ينتقلُ يوسفُ إلى محنةٍ جديدة قاسية من قصتِه المثيرة، وهي محنةُ السجن، وما أَقسى السجن للمظلوم البريء!!.

فتيان سجينان يطلبان تأويل الرؤيا:

وعندما أُدخلَ يوسفُ السجن، دخلَ معه فَتَيان آخران سجينان، قادَهما قدَرُهما إلى الانتقالِ من خدمةِ الملك مع حاشيته إلى السجن، ولعلَّه غضبُ الملك عليهما في نزوةٍ من نزواتِ مزاجِه المتقلِّب.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾. وتوحي كلمةُ «فَتَيان» بأنهما خادمان من الخدمِ الذين يعملونَ في حاشيةِ الملك. لأن كلمةَ «فتى» و«فَتَيان»

و«فِتْيان» وردتْ في السورةِ هنا بمعنى الخادمِ العبدِ الرقيق.

وكلٌّ ما يتعلقُ بالفتييْن السجينيْن مُبْهَم، فلا نعرفُ عن أمرهما شيئاً، لا نعرفُ اسمَ كلٌّ منهما، ولا وظيفتَه عند الملك قبلَ سجنه، ولا سببَ سجنه، لأنه لم تُذكَرْ تفاصيلُ ذلك في القرآن.

وتعاملَ يوسفُ مع صاحبيه السجينين بأخلاقِهِ الفطرِية السمحة، فأَحبّاه وأُعجبا به، ونشأَتْ بينه وبينهما صلةٌ وصحبة، وأنِسا به، وصار موضعَ ثقتهما.

وكثيراً ما يجمعُ السجنُ بين السجناء، وكثيراً ما تنشأُ بينهم صِلاتٌ قوية، لأَنهم يعيشون معاً طيلةَ اليوم، منقطعين عن عالَمِ ما وراءِ السجن، ويَقضون في ذلك سنواتٍ وسنوات.

وقدَّرَ اللّهُ أنْ يَرى كلٌّ واحدٍ من السجينين رؤيا، فقامَ بقصِّها على صاحبِه وصديقِه يوسف، طالباً منه تأويلَها: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

رأى أحدُ السجينين نفسَه يعصرُ العنب، ويجعلُ منه الخمر، ثم يقدِّمُ هذا الخمرَ عصيراً مشروباً.

ورأى السجينُ الآخرُ نفسه يحملُ فوقَ رأسِه وعاءً فيه خبز، فتأتي الطيرُ وتأكلُ من هذا الخبز.

وطلبُ كلٌّ منهما مِنْ يوسف تأويلَ رؤياه: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد عَلَّلا طَلَبهما منه تأويلَ الرؤيا بأنه محسن، ذو أَخلاقٍ حسنة، وتَصرفاتٍ حسنة، وسُلوكٍ حسن، ولذلك أَنِسا به لإحسانِه وصلاحه وتقواه.

وهكذا نَرى أنَّ السجنَ لم يؤثِّرْ في يوسفَ تأثيراً سلبياً، فلم

يجعلُه مكتئباً يائساً محبَطاً محطماً، وإنما بقي في سجنه على يقينِه وإيمانه، وحافظَ على إحسانه وصَلاحِه، ولم يفارقْه أملُه وهدوؤُه واستبشاره وتعاملَ مع محنة السجن بصبرٍ وتجلُّد، فأحَبَّه السجناء من حوله، وأُعجبوا بإحسانِه، وعَرضوا مشكلاتِهم عليه.

ولما رأى يوسفُ لهفةَ السجينين على تأويلِ رؤياهما، طمأَنَهما على ذلك، وأَخبرهما أنه سيقومُ بما يريدان، ويؤولُ رؤيا كلٍّ منهما عن قريب، لكنْ بعدَ أنْ يقدِّمَ لهما دعوةً ونصحاً وتذكيراً: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

قال لهما: أَنتما تعلمان أن الطعامَ يقدَّمُ لنا في السجن في مواعيدَ محددة، ونحن الآن في انتظارِ وجبةِ الطعام التالية، التي ستأتينا في وقتٍ محدَّد.

وسوفَ أعبرُ لكلٍّ منكما رؤياه التي قصَّها عليّ، قبلَ مجيء الطعامِ القادم، فيعرفُ ماذا سيجري له.

الضميرُ في قولهما له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ يعودُ على الرؤيا، وعَبّرا بالمذكَّر، لأنهما أَرادا المنام أو الأَمْر، كأنهما قالا له: نبئْنا بتأويلِ ذلك الأمر، أو ذلكَ المنام.

وأجابَهما بنفس الصيغة: «نبأتكما بتأويله»: فالهاءُ هنا تعودُ على ما عادتْ عليه الهاءُ في الكلمة الأُولى. أي: نبأتكما بتأويل ذلك الأمر.

أما فاعل «يأتيكما» فإنه يعودُ على الطعام الذي يقَدَّمُ لهما.

والمعنى: سوفَ أُنبيءُ كُلًّا بتأويلِ رؤياه التي رآها، وأعبِّر له ذلك المنام، قبلَ أنْ يأتيكما الطعامُ في الوجبة التالية.

ولكنْ سأكلمكما بكلمةٍ قبلَ أنْ أعبِّرَ لكما الرؤيا، أعرِّفكما فيها عليَّ. وعلى أصلي وأَجدادي، وعلى ديني وإيماني، وعلى ربي ومعبودي، وأبينُ لكما ما عليه قومُكما من الكفر والضلال، وأَدعوكما إلى الحق..

يوسف قدّم البيان الدعوي لهما:

وقد عرضَ القرآنُ دعوتَه لهما الحصيفةَ اللطيفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾.

هذا هو «البيانُ الدعويُّ الإيماني» الذي قدَّمَه يوسفُ لهما في لُطفِ تعبير، وحُسنِ مدخل، وقُوةِ عرض، وعُمق تأثير، وقد قامَ يوسفُ بواجبه في الدعوة إلى توحيد الله، والتحذيرِ من الكفر به، رغمَ أنه مسجونٌ ظلماً، فكونُه في السجن لا يُعفيه من واجبِ الدعوةِ إلى الله!

وقد عرضَ يوسفُ لهما دعوتَه خَطوة خَطوة، بإتقانٍ وإِحْكام، وسار بهما معَه من فكرةٍ إلى فكرَة، ومن خطوةٍ إلى خطوة، بتسلسُلٍ دعويٍّ موضوعي حكيمٍ مقنع.

عرَّفَهما في بداية بيانِه الدعوي أنَّ علْمَه الواثقَ بتعبيرِ الرؤى، وتأويلِ الأحاديث هو هبةٌ ومنحةٌ من الله ربِّه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾. وأخبرهما أنّ ربَّه هو غيرُ ربِّهما هما. إنهما يعتبران الملكَ الذي يحكمُهما رباً، مع أنه مخلوقٌ مثلُهما، أمّا هو فإنَّ ربَّه هو اللّهُ رب العالمين.

وربُّهُ المنعمُ الكريمُ علّمهُ تأويلُ الرؤى، فلا بدَّ أنْ يؤمِنا بالله ربِّه، الذي علَّمه هذا العلمَ الرباني.

ثم أَخبرهما بما عليه قومُهما من كفرٍ بالله، وإنكارٍ للآخرة: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وكفرُهم بالله

وإنكارهم الآخرة هو الجريمةُ الكبرى التي أَنتجتْ ما بعدَها من جرائم!

وبسببِ وقوفه على حقيقةِ ضلال القوم فقد تركَ ملّتَهم، وتخلّى عن باطِلِهم، وترفَّعَ عن انحرافاتِهم. ولذلك غضبَ الملأُ منه، ولَفَّقوا له هذه التهمة، وأَدخلوه السجنَ مظلوماً.

وبعدَ أنْ أَوقفَهما على كفرِ قومِهما، وعلى براءتِه منهم قدَّمَ لهما ما هو عليه من الحق، وعرَّفَهما على نَسَبِه الإيماني الكريم: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

إنه سليلُ بيتِ نبوة، وإنَّ آباءَه أنبياءُ كرام، عليهم الصلاة والسلام، ولذلكَ اتبعَ ملتَهم الصحيحة، فإبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوب موحِّدون لله، وهو متابعٌ لهم في توحيدِ الله، وما كان لَهُ أَوْ لَهُم أنْ يشركوا بالله، كما يفعلُ هؤلاء القوم.

لقد عرفَ السجينان من يوسف أَنهما مَوْقفان متغايِران: قومُهما كفارٌ مشركون بالله، ولهذا همْ على باطل، ويوسفُ كآبائِه مؤمنٌ موحدٌ لله، ولهذا هو على حق.

الدين القيم في إفراد الله بالوحدانية والحكم والعبادة:

ويخطو يوسف بهما خطوةً جديدة في تفنيدِ الشرك بالله، والاستدلال على وحدانيةِ الله: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

وليس لهذا السؤالِ المنطقيِّ إلاّ جوابٌ واحدٌ موضوعي: إنَّ الإيمانَ باللّهِ الواحدِ القهار وحده، والدينونة له وحده، خيرٌ من الخضوع لأربابٍ متفرقين مختلفين متنازعين، لا يصلحُ أحدُهم أن يكون رباً، لأنَّ الكونَ له ربٌّ واحد، وهو اللّهُ وحده.

وينتقلُ بعد كلِّ هذا التمهيدِ إلى الكلامِ معهما مباشرة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ

مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾.

وهذه الصراحةُ في بيانِ ما هما عليه من شركٍ بالله، ليعرفا حقيقةَ ما هُما عليه، ويميِّزا بين الحقِّ والباطل، ليكونَ هذا دافعاً لهما إلى تركِ الباطل الذي عليه القوم، واتباعِ الحقِّ الذي هو عليه!

ويختتمُ يوسفُ بيانَه الدعويَّ الإيمانيَّ بتأصيلِ قضية الحكم، وربطِها بالعقيدة والعبادة وقصْرِها على اللّهِ وحده: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

إنها سلسلةٌ من الحقائقِ المنطقيةِ المتسلسلةِ المتتابعة بتناسقٍ موضوعيٍّ متدرج:

الحكمُ لا يكونُ إلا لله، ومَنْ جعلَ الحكمَ لغيرِ الله، فقد أشركَ بالله غيرَه.

والعبادةُ لا تكون إلا لله، العبادةُ بمفهومِها الواسع الشامل، التي تعني الخضوعَ المطلق.

وإِفرادُ الله بالحكمِ صورةٌ من صورِ إفرادِه بالعبادة، فاللّهُ وحده المعبود، يعني أن اللّهَ وحدَه هو الحاكم. كما يعني أنَّ الحكمَ عبادة، ومجالٌ من مجالاتها.

وهذا وحدَه هو الدينُ القيم، الدينُ المستقيمُ الصحيحُ المقبول عند الله، الدينُ الذي يقومُ على معادلةٍ ذاتِ طرفين: إفرادُ الله بالعبادةِ يعني إِفرادَه وحده بالحكم، وهذا يعني أنّ من فعلَ ذلك كان على دينٍ قيِّم، ومَنْ لم يفعلْه فليس على دينٍ قيم، فهو جاهلٌ غيرُ عالم.

وبما أنَّ أكثرَ الناس لا يفهمون الدينَ هذا الفهم، فأكثرُ الناسِ جاهلون: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وهكذا قدَّمَ يوسفُ لصاحبيْه السجينيْن الحقَّ والباطل، والإيمانَ

والكفر، والهدى والضلال، والتوحيدَ والشرك، ببيانٍ دعوي مؤثر.

يوسف أوّل لهما الرؤيا:

وبعدما أنهى بيانَه الدعوي، وقبلَ موعدِ حلولِ تقديمِ الطعام لهما، عبَّرَ لكلٍّ منهما رؤياه، كما وَعدهما من قبل.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

الذي رأى نفسَه يعصرُ خمراً، تأويلُ رؤياه أنَّ الملكَ سيعفو عنه، وسيخرجُ من السجن، وسيعودُ إلى خدمة الملك، وسيعملُ في حاشيةِ الملك من جديد، وسيكونُ ساقياً للملك، يقدمُ له الخمرَ ليشربَه: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾.

والمرادُ بالربِّ هنا الملك، لأنَّ القومَ كانوا مشركين بالله، يعتبرونَ ملكَهم رَبّاً، شريكاً لله في ربوبيتِه، ولهذا خاطبَ السجينَ على ما يعتقدُه، فقال عنه: ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾.

والآخرُ الذي رأى نفسَه يحملُ فوق رأسِه خبزاً تأكلُ الطيرُ منه، تأويلُ رؤياهُ أنه سيُحكَمُ عليه بالقتلِ صلباً، حيث سَيُقتل، وتَزهقُ روحه، ويموت، وبعد ذلك سيعلَّقُ مصلوباً، وهو جثةٌ هامدة، وستوضعُ الجثةُ في مكان عام، وستأتي الطيرُ وتأكلُ من رأسه.

وبعدما أوّلَ يوسفُ لكلٍّ منهما رؤياه، قال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾. أي: تمّ تأويلُ الرؤيا، وتنفيذُ ما وعدتُكما به، وبهذا عرفَ كلٌّ منهما ما سيكونُ أمْره في المستقبل.

وبهذا فرحَ السجينُ الذي سيفرجُ عنه، ويئسَ السجينُ الآخرُ الذي سيصلَبُ وستأكلُ الطير من رأسه.

حكمة قول يوسف «اذكرني عند ربك» وتوجيهه:

بعد ذلك التفتَ يوسفُ إلى السجينِ الذي سيُفرجُ عنه، وسيَعودُ

إلى خدمةِ ربِّه الملك، ويعملُ في حاشيته، فطلَبَ منه أنْ يذكُرَه عند الملك. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: قالَ يوسفُ للسجين الذي اعتقدَ أنه سينجو، وسيَعودُ إلى خدمة الملك: اذكُرْني عند ربِّك الذي أنتَ ذاهبٌ لخدمته وملكك الذي ستسقيه خمراً!

وهذه الالتفاتةُ من يوسفَ طبيعيةٌ منطقية، فهو مسجونٌ ظلماً، وقد لفقَ له الملأُ تهمةً كاذبة، وتآمَروا عليه مؤامرةً خبيثة، وأُدخلَ السجنَ بدون محاكمةٍ أو محكمةٍ أو حكم، وها هو الآن في السجن، ولا يَدري كم سيمُرُّ عليه من السنوات وهو موقوفٌ ظلماً، ويَخشى أنْ ينساهُ المتآمرون في السجن، وأَنْ يتركوه فيه سنواتٍ وسنوات!

ولعلَّ الملكَ لم يكن يعلمُ تفاصيلَ قصةِ يوسف، ولعلَّها لم تصلْه على الحقيقة، ولعلَّ الملأَ المتنفذين المتآمرين قدَّموها له على غيرِ حقيقتها، ولعلَّهم مَوَّهوا على الملك، وأَخفوا الحقيقة عنه، فصوَّروا يوسف بأنه هو المعتدي على امرأةِ العزيز، وهي العفيفةُ الشريفةُ المعتدى عليها...

فأرادَ يوسفُ أنْ يوصِلَ الحقيقة إلى الملك، وأنْ يُطلِعَه على تفاصيلِ القضية كما وقعت فعلاً، وأَنْ يبينَ له أنه مظلومٌ، وأنه سُجنَ مظلوماً، وأنَّ المعتديةَ هي امرأةُ العزيز!

ومن هو الذي سيصلُ إلى الملك؟ إنه صاحبُه السجين الذي سيفرَجُ عنه، والذي عرفَ منه تفاصيلَ القضية، كما حصلت. ومعلومٌ أنَّ «ساقي الملك» سيكونُ مِن أَقربِ الناس إليه، لأنه صاحبُ خمرِه وشرابه، يقدِّمُه له متى يشاء. وبهذا يكونُ قادراً على مناجاته، وعلى الكلام معه، وعلى محادثتِه بما يُريد!!

لهذه الأسبابِ والاعتباراتِ طلبَ يوسفُ من صاحبه أنْ يذكُرَه عند

الملك: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

المرادُ بالرب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ هو الملك، لأن هذا السجينَ كان يعتبرُه رباً له، شريكاً في الربوبية مع الله.

وهذه الالتفاتةُ من يوسف لا شيءَ فيها، ولا غُبارَ عليها، لما سبقَ أنْ بيّنّاه في توجيهِها، وهذا لا ينافي إيمانَه بالله، واعتمادَه وتوكُّلَه عليه، وطلبَ الأمورِ منه.

كلُّ ما هناك أنَّ يوسفَ أرادَ أنْ يأخذَ بالأسبابِ المادية، مع توكُّلِه على الله المسبِّبِ والقادر والمريد.

وتحققتْ رؤيا كلِّ سجين كما أَوَّلَها له يوسف.

فأُخِذَ أَحدُهما وقُتل، وعُلِّقَ مصلوباً، وجاءت الطيرُ وأكلتْ من رأسه.

وأَفرجَ الملكُ عن السجين الآخر، ومنَحَه رضاه، وأعادَه إلى الخدمة، وصارَ يسقي ذلك الملكَ خمراً.

نسي الساقي صاحبه يوسف فنسوا يوسف في السجن:

وانغمسَ ذلكَ الرجلُ في حياةِ القصرِ المترفة من جديد، وأَقبلَ على مُتَعها ولذائذِها.. ونسيَ ماضيه ومحنتَه: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾. نسيَ السجنَ وما فيه، نسيَ صاحبَه السجينَ يوسف، الذي أَوَّلَ له رؤياه، والذي طلبَ منه أنْ يشرحَ تفاصيلَ قضيته للملك.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: أي: أَنسى الشيطانُ السجينَ المفرجَ عنه تذكيرَ الملكِ ربَّه بقضية يوسف، فنسيَ يوسفَ وقضيتَه، ولم يقلْ للملكِ عنها شيئاً.

فالكلامُ في هذه الجملة عن السجينِ المفرجِ عنه، وليس عن يوسف ـ كما فَهِمَ بعضُ المفسرين خطأً ـ لأن الشيطانَ لا سلطانَ له على يوسف، وهو لا يُنسي يوسفَ ذكْرَ اللّهِ ربِّه، ولم يكن طلبُ

يوسف من صاحبه تذكيرَ الملك بقضيته نسياناً منه لله، واعتماداً منه على غيرِ الله.

إن الذي يتفقُ مع عصمةِ يوسف ونبوتِه وإيمانِه، ويتفقُ مع مشاهدِ القصة وحلقاتِها، هو جعلُ هذه الجملة: ﴿فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ إخباراً عن ذلك السجين الذي أَنْسَتْهُ حياةُ القصر الجديدة كلَّ ما مضى، فلم يذكُرْ للملكِ قصةَ يوسف، ولم يُذَكِّره بإعادة المحاكمة!.

وماذا نتَجَ عن هذا النسيان؟ لقد نَسوا جميعاً يوسف في السجن، نسيَهُ الملك، ونسيَهُ العزيز، ونسيَهُ صاحبه الذي أُفرج عنه، ونسيَهُ رجالُ الدولة، وبذلك طالتْ مدةُ إيقافِه في السجن، كما قال الله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

إنَّ فاعل «لبث» المستترَ يعودُ على يوسف. أي: قضى يوسفُ في السجن موقوفاً بضعَ سنين.

وكلمة «بضع سنين» مجملةٌ غيرُ محددة. والبِضْعُ في اللغة يُطلقُ على العددِ من ثلاثة إلى تسعة.

ولا نَقْدرُ على تحديدِ عددِ السنوات التي قضاها يوسفُ في السجن، كلُ ما نقولُه هو ما قاله الله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

وإنَّ اللّهَ حكيمٌ فيما قدَّره من نسيانِ ذلك الرجلِ لقضيةِ يوسف، لأنَّه قدَّرَ مشاهدَ وأَحداثاً تالية، مبنيةً على بقاءِ يوسف في السجن، ولأنه لا يريدُ لوليِّه وحبيبِهِ يوسف أنْ يخرجَ من السجن بوساطةِ أحدِ رجال الملك، أو بعفوٍ خاصٍ من الملك، حتى لا يكونَ لأحدِ هؤلاء الكافرين مِنَّةٌ عليه، وحتى لا يُعرفَ عند الناس بأنه مجرمٌ مُعْتَدٍ، عَفا عنه الملك.

وإنما يريدُ اللّهُ له أنْ يخرجَ من السجن بعزتِه وكرامتِه، وعفتِه وطهارته، بعدما تُعادُ محاكمتُه، وبعدما يشهدُ الجميع له، ليخرجَ مرفوعَ الرأس، لا يحملُ مِنَّةً ولا جميلاً إلا لله سبحانه وتعالى.

وأَمضى يوسفُ ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ في سجنه، وهو مظلومٌ بريء، لكنه كان مع الله، صابِراً محتسباً!!

[١٦]

عجز الحاشية عن تأويل رؤيا الملك

بينما كان يوسفُ في السجن ـ وفي أواخرِ أيامِ سجنه ـ أَرى اللّهُ الملكَ رؤيا هامة، أَزعجت الملك، فطلبَ ممن حوله تعبيرَها، فلم يَقْدروا على ذلك.

وقد سجلتْ هذا المشهدَ ثلاثُ آيات من هذه الحلقةِ من قصة يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٥].

الملك يطلب تأويل رؤياه:

ونلاحظُ أَنَّ الذي كان يحكمُ مصر في زمنِ يوسف كانَ يُلقَّبُ بالملك، وكان المسؤولُ التنفيذيُّ يلقبُ بالعزيز.

بينما كان لقبُ حاكمِ مصر زمنَ موسى عليه السلام فرعون.

ولعلَّ هذا يدلُّ على أَنَّ حكامَ مصر زمنَ يوسف لم يكونوا من الفراعنة ـ الأسرة الحاكمة ـ ولم يكونوا من المصريين أهلِ البلاد الأصليين، ولعلَّهم كانوا من القبائلِ الغازية التي غزَتْ مصر قادمةً من جنوب بلاد الشام وشمالِ الجزيرة العربية، وكانوا من عدةِ قبائل عربية متحالفة، سَمّاهم المؤرخونَ الرُّعاة، أو «الهكسوس»، وقد حكموا مِصرَ

حوالي قرنين من الزمان، إلى أنْ طردَهم فرعون «أَحمس» وأَعادَ الحكمَ إلى الفراعنة، فيوسفُ عاش في مصر في عصرِ الهكسوس هؤلاء، وبما أنهم عربٌ فقد أَطلقوا على حكامِهم أَلفاظاً عربية مثل: الملك والعزيز.

لقد رأى ملكُ مصرَ رؤيا هامة، اضطربَ لها وتوقَّعَ الخطرَ يصيبه أَو يصيبُ البلد. لقد رأى سبعَ بقراتٍ سمان، فهجمتْ عليها سبعُ بقراتٍ عجافٍ هزال ضعيفة، فأَكَلَتْها والتهمَتْها، وهذا منظر مزعج. ثمَّ رأى سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ يانعة، ومعها سبعُ سنبلاتٍ يابسات. فما دلالةُ هذه الرؤيا الواقعية؟ وما تعبيرُها وتأويلُها؟

توجَّهَ الملكُ إلى الحاشية بما فيهم الكهنةُ والمنجمون والمسؤولون، وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

والملأُ هم القومُ المتنفذون الحاكمون، وهم رجالُ النظام من الموظفين والإِداريين والسياسيين والإِعلاميين والكهنة والسحرة، وسُمّوا «الملأ» لأنهم يشاركون في القيادة والقرار والحكم، ولأنهم يملأون عيونَ الجماهيرِ مهابةً وإجلالاً بسببِ مراكزهم ووظائفهم العليا.

ونعلمُ أنَّ ظاهرةَ «الملأ» ظاهرةٌ بارزةٌ ملحوظةٌ في القصص القرآني، موجودةٌ عند كلِّ قومٍ من أصحاب الباطل يواجِهون أصحابَ الحق.

قال الملكُ للملأ: أَفتوني أَيُّها الملأُ في رؤياي الخطيرة، وعَبِّروها لي، واذكروا بُعْدَها الواقعي، وتأويلَها العملي، إِن كنتم تَقدرون على تعبير الرؤيا، وتَعْبُرون صورتَها المنامية إلى نهايتِها العمليةِ الواقعية الحسية.

وسَمى تأويلَ الرؤيا عبوراً، لأنَّ المؤولَ عندما يُؤَوِّلُها فإنما يعبُرُ المنامَ إلى الواقع الذي يشيرُ إليه، وبذلك يصلُ ما بين الإشارةِ المنامية

وما بين النهايةِ الواقعية لها، وكأنه ينتقلُ من المنامِ إلى الواقع في المستقبلِ ليحدِّدَه.

الملأ يزعمون أنها أضغاث أحلام:

ردَّ الملأ على طلبه تعبيرَ الرؤيا بقولهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

لم يَقْدر الملأُ ورجالُ الحاشية على تأويلِ رؤيا الملك الخطيرة، أو لم يُريدوا تأويلَها، لأنها مزعجة، وتتحدثُ عن خطرٍ قادم، وسوف يقودُ تأويلُها إلى إزعاجِ الملك، وهم لا يريدون إقلاقَه وإزعاجَه، ولو كان فيه الحق، والحلُّ عندهم أنْ يُخفوا الحقائقَ عنه، ولو كان فيها مصلحةُ البلاد!.

أليستْ هذه طريقةُ البطانةِ والحاشيةِ التي عند الحكام في إخفاءِ الحقائقِ عنهم حتى لا يُزعجوهم؟!!

وَصَفَ الملأُ رؤيا الملك بأَنها أَضغاثُ أحلام، ولا علمَ لهم بتأويلِ الأحلام، ولهذا لا تأويلَ لها عندهم.

والأَضغاثُ جمعُ ضغث. وأَساسُ معنى الضغثِ هو مجموعةٌ من العيدانِ والحطبِ مع بعضِها البعض، كما قالَ اللّهُ لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

أي: خذْ بيدك غصنَ شجر، فيه مجموعةٌ من الأوراقِ والأغصانِ الصغيرة، فاضرب امرأتَك به ضربةً خفيفة، كي تبرَّ بيمينك، ولا تحنثَ فيه!

وأَضغاثُ الأحلام هي الأحلامُ المتداخلةُ المتجمعة، التي تجاورَتْ واختلطَتْ فيها بعضُ الحقائق ببعضِ الأباطيل، ودخلتْ فيها بعضُ الأوهام على بعضِ الرؤى فاختلطَتْ بها، وامتزجَتْ معها، وأَلْغَتْ ما فيها من حقائق.

وسَمّوا رؤيا الملك ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ لأن الأحلامَ تُطْلَقُ على ما يراه النائمُ في منامِه من مناماتٍ وأوهام وأضغاث وكوابيس، مما لا رصيدَ له من عالم الواقع، ولا دلالةَ له على مستقبلٍ ما يحدثُ له.

وهم بهذا يَدْعون الملكَ إلى أَنْ يصرفَ النظرَ عن هذه الأحلام، فلا دلالةَ لها، ولا تعبيرَ أو تأويلَ لها.

الساقي يتذكر يوسف:

هنا فوجئ ذلك الرجلُ «ساقي الملك» بعجْزِ الملأ عن تأويلِ رؤيا الملك، فتذكَّرَ صاحبه السجين «يوسف» بعدَ هذه السنين، وعِلْمَه بتأويلِ الرؤى، لأنه أَوَّلَ له رؤياه، وصحَّ تأويلُه، وها هو الآن يسقي الملك، فطلبَ من الملأ إِرسالَه إلى يوسف، ليعبِّرَ له رؤيا الملك!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥﴾.

قالَ اللّهُ عن هذا السجين الناجي من السجن، الخارجِ بعفو الملك: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

معنى «ادَّكَرَ»: تذكَّرَ بعدَ نسيان، تذكَّرَ يوسفَ في السجن، وعِلْمَه الصادقَ بتأويلِ الرؤى.

ومعنى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد مجموعةٍ من السنين. وسُميت مجموعةُ السنين أمة، لأنها مجتمعةٌ بعضُها مع بعض، يَجمعُ بينَها نِسيانُ ذلك السجين لقضيةِ يوسف، كما تجتمعُ مجموعةٌ من الأفراد على أُمورٍ مشتركة بينها لتكونَ أُمةً موحدة.

فأُمةُ السنوات التي يجمعُها جامعٌ واحد ـ هو النسيانُ هنا ـ كأمةِ الناس التي تجمعُها قواسمُ مشتركةٌ فيما بينها!!

لقد كانَ هذا الرجلُ واثقاً أنَّ تأويلَ رؤيا الملك عند يوسف، وأنَّه وحدَه القادرُ على تأويلها، وذلك لِما جَرَّبَه من قبل، عندما أَوَّلَ له رؤياه، وصَدَقَ تأويلُه.

ولهذا خاطبَ قومَه بلهجةِ الواثقِ المطمئن: أَرسِلوني إِلى يوسف، فسوف آتيكُم بتأويلِه لرؤيا الملك!

وأَرسلوا الرجلَ إلى يوسف في السجن ليحضرَ لهم التأويل...

[١٧]

يوسف يؤول رؤيا الملك

جاءَ السجينُ الناجي - ساقي الملك الآن - إلى يوسف في السجن، وكلُّه أملٌ وثقةٌ أن يؤوِّل يوسفُ رؤيا الملك التي أشغلت الناس. وجرى بينهما ما قصَّته علينا هذه الآيات: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٦ - ٤٩].

يَعرضُ هذا المشهدُ من هذه الحلقة اللقطات ما قبلَ الأخيرة من محنةِ يوسف في السجن، حيثُ جاءه ساقي الملك وقصَّ عليه الرؤيا، وقام يوسف بتأويل رؤيا الملك، مع نصحهم كيفيةَ التصرف مع الشدةِ القادمة.

وسنقف مع آيات هذا المشهد قليلاً:

الساقي يطلب منه تأويل رؤيا الملك:

بدأ ساقي الملك كلامَه مع يوسف بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ووصفَه بصفة «الصِّدّيق»، ومعناها عنده المبالغةَ في الصدق، فقد جرَّبَ الرجلُ يوسفَ في أكثرَ من مرة، فوجده صادقاً كثيرَ الصدق، صادقٌ في كلامه، وفي تأويله وأخباره، وفي سلوكه وتصرفاته، وفي صحبته وصداقته.

وصدّيقيّةُ يوسف كانت صفةً بارزة فيه، يراها ويلحظُها كلُّ مَنْ تعاملَ معه، فيزدادُ محبةً له وإعجاباً به، كما حصلَ مع ساقي الملك.

ونحن ندركُ أبعاداً أوسع لصديقيةِ يوسف مما أدركه ساقي الملكِ الكافر، إنها صدّيقيةٌ في عفتِه وطهارته، وترفُّعهِ عن الفواحش والمنكرات، وفي نجاحِه في الابتلاءات، وتجاوُزِه للمحن، واستعلائه على الفتن، وفي اتصاله بالله، وحُسنِ مراقبته له، وذكْرِه له، ويقينِه بما عنده، وتوكلِه عليه، وفي دعوتِه إلى الله، ونصحِه للآخرين، وفي صبره وتحمُّلِه، وفي إخلاصه وتجرده.

إنه «يوسف الصّدّيق» في كل ما تحملُه الكلمة من مَعانٍ وأبعادٍ وآفاق، عليه الصلاة والسلام.

ولما طلبَ الساقي من يوسف تأويلَ رؤيا الملك، أَعادَها عليه، بنفسِ الألفاظ التي نطقَ بها الملك، مقدِّماً فيها رؤياه، طالباً من الملأ فُتياه بها، ولهذا قال الساقي ليوسف: ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

وإعادةُ الرؤيا بنفس الألفاظِ التي نطقَ بها الملك، ليكون التعبيرُ صحيحاً، وأيُّ تصرُّفٍ في الألفاظ بزيادة أو نقصان، قد يؤثرُ على استيعابِ المعبِّر لها، ومن ثم قد يؤثِّرُ على حسنِ تأويلها وتعبيرها، ولهذا كان الساقي أميناً في النقل، وفي تبليغِ الرسالة.

وقد أخبرَ يوسفَ أنه موفَدٌ إليه من قِبَل الملك والحاشية، وأنهم الآن بانتظاره، لمعرفةِ الجواب والتأويل، ليعلموا ما تشيرُ إليه هذه الرؤيا المثيرة من أحداثٍ قادمة، ليستعدّوا لها: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

يوسف يؤول رؤيا الملك:

ونذكِّرُ بأنَّ رؤيا الملك هكذا: سبعُ بقرات سمانٍ، تهجمُ عليها

سبعُ بقرات عجافٍ هزال فتأكلها. ثم سبعُ سنبلات خضرٍ يانعة، بجانب سبعِ سنبلاتٍ يابسات.

ما دلالةُ أكلِ السبع العجاف للسبع السمان؟ وما دلالةُ السنابل السبع الخضراء مع السبعِ اليابسات؟ وكيف اجتمعْنَ معاً؟

الأمرُ هيِّن عند يوسفَ عليه السلام، فإنَّ اللّهَ هو الذي علَّمه تأويل الأحاديث وتعبيرَ الرؤى.

ألم يقلْ له والدُه من قبلُ عند رؤياه الأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؟.

ألم يقل اللّهُ عنه عندما هيأَ له الإقامةَ في بيت العزيز: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾؟.

ألم يقلْ هو نفسه لصاحبيْه السجينيْن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾؟.

إن اللّهَ هو الذي علَّمه تأويلَ الأحاديث، وتعبيرَ الرؤى، فيجيء تأويله لها صحيحاً صادقاً، وتتحقق في عالم الواقع، كما أوَّل وعبَّر وأخبر، وهذا هو ما خصَّ اللهُ يوسفَ به، وجعله علامةً وآيةً على نبوته.

وهذه هي الرؤيا الثالثةُ والأخيرةُ في قصة يوسف: رؤياه سجودَ الأحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر له، ورؤيا السجينيْن في السجن، والآن رؤيا الملك حول البقرات والسنبلات!

والعجيبُ المفيدُ في تأويل يوسف لرؤيا الملك أنه لا يكتفي بمجرد تأويلِها، وذكْرِ ما تشيرُ له من أَحداثٍ قادمة. بل يقدمُ للملك والنظامِ النصائحَ النافعة، والتوجيهات السديدة، لحسنِ التصرف، ويضعُ لهم الخَطةَ المتكاملة لمواجهة الشدائد القادمة.

إنَّ رؤيا الملك تشيرُ إلى الوضع الزراعي والاقتصادي والمالي

خلالَ الخمسَ عشرة سنة القادمة! بما فيها من رخاء، ثم قحط، ثم غوث!

وإن اللّهَ الحكيم، الذي يفعلُ ما يشاء، قدْ قدَّرَ أن تمرَّ مصرُ بهذه الثلاثة خلال الخمسَ عشرة سنة القادمة: رخاء، ثم قحط، ثم غوث. وأوحى له بذلك في الرؤيا، رغمَ أنه ملكٌ كافر، كان يدَّعي الربوبية!

وهذا معناه أنَّ الرؤيا الصادقةَ ليست مقصورةً على الصالحين، فقد يَرى بعضُ الكفار رؤى صادقة، تَصدقُ على الواقع، وتكون إيحاءً لهم من الله رغم كفرهم، لحكمةٍ يريدُها الله سبحانه!

سبع سنوات غيث وزرع وسبع سنوات قحط ومحل:

عبَّر يوسفُ رؤيا الملك بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

كان بإمكانِ يوسف أنْ يقول: إنَّ أمامَكم سبعُ سنواتِ غيثٍ وأمطار ومزروعات، ورخاء اقتصادي، ثم تأتي بعدها سبعُ سنواتٍ تمرون فيها بضائقة شديدة، حيث تنحبسُ الأمطار، وتصابون بالمحلِ والجدب والقحط، ثم تأتي السنةُ الخامسة عشرة بالغيث والغوث والمطر والرخاء!

كان بإمكانه أنْ يكتفيَ بذلك، فهذه هي دلالةُ الرؤيا، وهذا هو ما سألوه عنه، وهذا هو المطلوبُ منه.

ولكنَّ يوسفَ زادَ على ذلك بتقديم النصائح والإرشادات والتوجيهات للقوم لحسنِ التصرف والتخطيط لمواجهةِ المرحلة القادمة، وذلك ليُظهرَ لهم موهبتَه وخبرتَه وعلمه أوّلاً، ليعرفوا أهليتَه وفضْلَه، وبذلك تنتهي محنتهُ القاسية في السجن، وهذا ما فهمه عنه الملك، فقام باستدعائه، وأدّى ذلك إلى تسلمِه زمامَ الأمور.

ولم يفعلْ ذلك لمنفعته الشخصية، وإنما ليوظفَ خبرتَه وموهبته ومهارتَه في خدمة الناس، والخروجِ بهم من الخطر القادم، ليعرفوا قيمةَ النبوة، ويرغبوا في الإيمانِ بالله، والإقبالِ عليه!.

البقراتُ السبعُ السّمان في رؤيا الملك هي السنواتُ السبعُ الأولى، سنواتُ الأمطار والخصب والرخاء.

والبقراتُ السبعُ العجاف في الرؤيا هي السنواتُ السبعُ الثانية، التي تحملُ معها القحطَ والجدب والمحل.

وأكْلُ البقراتِ العجاف للسمان في الرؤيا هو ذهابُ المدخراتِ والأرصدة والوفرِ الاقتصادي، المجموعُ من سنوات الرخاء، واستهلاكُه في سنوات الجدب.

والسنبلاتُ السبعُ الخضر رَمزُ لسنوات الرخاء السبع الأولى، والسنبلاتُ السبع اليابسات ترمزُ لسنوات الجدب السبع التالية، التي يبقى فيها الحَبُّ في سنابله اليابسات!

يوسف خبير زراعي واقتصادي:

والسنةُ الخامسة عشرة التي تحملُ الغيثَ والغوث لم تردْ في رؤيا الملك، وإنما أَعلمَ اللّهُ بها يوسف، فأخبرهم عن ما سيجري فيها.

وكأنَّ رؤيا الملك تشيرُ إلى «خُطَّة سَبْعِيَّة» اقتصادية زراعية مالية، بجانبيها: الجانب الإيجابي والجانب السلبي!

أما كيفَ يتصرفون فيما هو مقبلٌ عليهم من أحداث، فقد دلَّهم يوسفُ على ذلك، وإذا به خبيرٌ اقتصادي وخبيرٌ زراعي، وخبيرٌ مالي، وخبيرٌ تمويني، وخبيرٌ في التخطيط، إضافةٌ إلى خبرتِه في تأويل الأحاديث وتعبيرِ الرؤى!

كيفَ يفعلُ القومُ في سنواتِ الرخاء السبع؟ وكيف يُحسنون الاستفادةَ منها للسنواتِ السبعِ التالية: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا

حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾.

عليكم أوّلاً أنْ تُحسنوا الاستفادة من سنواتِ الرخاء والخصب، وذلك بأنْ تستغلّوها في الزراعة، وتدأبوا في زراعةِ المحاصيل الزراعية، وتنشطوا في ذلك، وتوظّفوا كلَّ طاقاتكم وقدراتكم.

ومعنى «دَأَباً»: بجدٍّ واجتهادٍ ونشاط واستمرار، أي: تَدأبون دَأَباً، وتستمرّون استمراراً في الزراعة والحصاد، في المواسم الزراعية، طيلةَ هذه السنوات السبع.

وعندما تَجنون ما زرعْتُم، وتَحصدون الحبوبَ ذواتِ السنابل، كالقمح والشعير، فلا تدرسُوها، ولا تُخرجوا الحَبَّ من السنابل، بل أَبقوه فيها: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

إنَّ يوسفَ عليه السلام يقدمُ في هذه الجملة معلومةً علميةً رائعة، ويُرشدُ إلى أحسنِ طريقة لحفظ الحبوب، وهي إِبقاءُ الحبوب في السنابلِ لحين الحاجة إليها، فهذا يحفظُها من التسُّوس، لأن السوسَ لا يكون في الحبِّ الذي في السنابل اليابسة، فكلُّ حبَّةٍ محفوظة في وعائها من السنبلةِ لوحدها، وهذا الوعاءُ في السنبلة يحفظُها من باقي المؤثرات الجويةِ كالرطوبة والحرارة والرياح.

وكأنَّ يوسفَ في هذه النصيحةِ التخزينية، يقدمُ لنا خطةً لما يسمى الآن بصوامعِ الغلال في المستودعاتِ التموينية.

ويَدعو يوسفُ إلى ما يمكنُ أنْ يُسمى «تقنينَ» وترشيدَ الاستهلاك، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

أي: لا تُخرِجوا من السنابل المخزونة في المستودعات إلا مقدارَ حاجتكم للأكل، فتدرسونَ هذه السنابل بالتقسيط على شكل دفعات!

وعندما تنتهي السنواتُ السبعُ الخصبة تعقبُها سنواتٌ سبع شداد، تنحبس فيها الأمطار، وتتلفُ المزروعات، ويكون فيها الجدب والقحط: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومعلومٌ أن سنواتِ الجدب والقحط تأتي على التوفير والرصيد والمخزون المالي والاقتصادي والزراعي والتمويني، ولهذا ستستفيدون مما وفَّرتموه في سنواتِ الخصب والرخاء.

وكأن هذه السنواتِ السبع المجدبة بقراتٌ عجافٌ هزالٌ يأكلْنَ ما سبقهنَّ من سنوات الخصبِ اللّواتي شُبِّهن بالبقرات السمان.

وعليكم أن تُحسنوا التقنينَ في هذه السنوات المجدبة الشداد، وأنْ لا تَستنزفوا المخزونَ الاحتياطي فيها، فعليكم استهلاكَه بتنظيم وتخطيطٍ وتقسيط، وأنْ تُبقوا منه شيئاً للمستقبل، وتُحصنوه من التبذيرِ والإسراف؛ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

وإلى هنا ينتهي تأويلُ رؤيا الملك: سبعٌ بسبع، رخاءٌ يعقبه بلاء، وخصْبٌ يتلوه جَدْب!

وقد أعلمَ اللّهُ يوسفَ بما سيكون بعد ذلك، في السنة الخامسة عشرة، ليخبرَ الناسَ به، ولهذا قال لهم: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

الغوث في العام الخامس عشر:

لم يَرَ الملكُ ما يرمزُ لعامِ الغوث الخامس عشر، وأخبرَ اللّهُ يوسف به ليقدمَ الفرجَ للناس، وليعرفوا خلالَ حياتهم في سنوات الجدبِ والشدة أنها ستنقضي، وتزولُ شدتها، ويذهبُ قحطُها وجدبها، وسيعقبها عامُ رخاءٍ وغوث وغيث وأمطار.

أَخبرهم بذلك كي لا ييأَسوا ويقنطوا، وإنما لينتظروا ذلك الأملَ الآتي، بعد تلك الشدة، وليُحسنوا عُبورَ الشدة وتجاوزَها إلى الرخاء.

في العام الخامس عشر ـ وهو بدايةُ الدورة السبعية الثالثة ـ سيأتي اللّهُ بالأمطار غيثاً للبلاد والعباد، حيث سيغاثُ الناس، ويعودون للزراعةِ الدائبة المستمرة من جديد!

سيزرعونَ المزروعات ويحصدونَها، وستثمرُ أشجارهم الفواكهَ والثمار، وسيعيشون في رفاهيةٍ ورخاء، حيث سيأكلون الطعام، ويَعصرون الشراب ليشربوه، سيعصرونَ العنب خَمراً، والزيتون زيتاً: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

وبهذا التأويلِ الصادقِ عبَّرَ يوسفُ رؤيا الملك، وأَتبعها بالنصائحِ والإرشاداتِ للتصرفِ في السنواتِ القادمة.

[١٨]

إعلان براءة يوسف

عادَ ساقي الملكِ من عند يوسف، وأخبرَ الملكَ ورجال الحاشية بتأويلِ الرؤيا، وما حدَّثه يوسفُ ـ بإعلام الله له ـ من أحداثِ خلال الخمسَ عشرة سنة القادمة، وما قدَّمه يوسف لهم من نصائح..

إعجاب الملك بيوسف وطلب إحضاره:

وأُعجبَ الملكُ بتأويل يوسف، وطلبَ إحضارَه إليه، ولكنَّ يوسفَ رفضَ الخروجَ من السجن بعفوٍ ملكي، وطالبَ الملكَ بإعادة بحث القضية من جديد، فأعادَ الملكُ المحاكمة، وأتى بالشهود، فقدَّمت النسوةُ شهادتَهن ببراءةِ يوسف، واعترفت امرأةُ العزيز بأنها هي التي راودَتْه عن نفسه، وأنه عفيفٌ طاهر.

وهكذا ثبتتْ لهم براءةُ يوسف، وحكموا بأنه بريء، وبهذا تنتهي هذه المحنةُ الأخيرةُ في حياة يوسف، محنةُ السجن.. حيث ستأتي المنحُ والنعمُ والعطايا بعد ذلك...

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٣].

يبدو أنَّ الملكَ لم يكن يعلمُ تفاصيلَ قضية يوسف، ولا الأسبابَ المفصلة لسجنه، فلما أُعجبَ بتأويله للرؤيا، طلبَ إحضارَه إليه، وأَمر بالإفراج عنه، بعفوِ ملكي: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾.

وقامَ رجالُ الحاشية بتنفيذِ إرادة الملك، فأَرسلوا أَحد الرجال المتنفِّذين إليه في سجنه، ليزفَّ إليه البشرى، بشرى عفوِ الملك عنه، وطلبه المثولَ بين يديه، وانتهاءِ فترة السجن التي استمرتْ بضعَ سنين.

وهذا الرسولُ الذي بعثوه إليه مبهمٌ في السياق القرآني، فلا نحاولُ تحديدَ اسمه أو وظيفته، ولا فائدةَ من ذلك، وكلُّ ما نقول: هو رسولٌ من طرف الملك إلى يوسف.

يوسف يطلب بحث القضية من جديد:

المهمُّ هو كيفيةُ استقبالِ يوسفَ للنبأ السارِّ المفرح، وردِّهِ على رسولِ الملك: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾.

قال يوسفُ لرسول الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ارجعْ إلى ملكِك الذي تَدينُ له، وتعتبرُه رباً لك، وتخضعُ له ولقوانينِه وسلطانه، وتجعلُه شريكاً لرب العالمين في الربوبية!

ارجعْ إلى ربِّك ملكك، واطلبْ منه أنْ يُعيدَ بحثَ قضيتي من جديد، وأنْ يُعيدَ المحاكمةَ من جديد، وأنْ يُحضرَ الشهودَ والمتَّهمات، وأنْ يسألَ النسوةَ لماذا قطَّعْنَ أيديهن في بيتِ امرأة العزيز، وأنْ يسألَ امرأةَ العزيز نفسَها. اطلبْ منه ذلك، واسأَله أنْ يفعلَ ذلك ليعرفَ أنني بريء، ويعرفَ كم أنا مظلوم.

أمّا أنا فإنّي أعلمُ كلَّ ذلك، لأنَّ الأحداث عشْتُها بنفسي، وربي عالم بكل شيء: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وإذا كان يوسفُ يقصدُ بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ ملكك، فإنه يقصدُ بقوله: ﴿رَبِّيٓ﴾ الله رب العالمين.

وهنا نقفُ على موقفٍ عجيبٍ عظيم ليوسف عليه السلام: لقد رفضَ الاستجابةَ لدعوةِ الملك بالخروج من السجن، بعفوٍ ملكي، ولم يتعجل الخروج، مع أنه مسجونٌ ظلماً، ومضى على سجنه بضعُ سنين، ومَنْ كان مثله يكون متلهِّفاً للخروج، فما أنْ تبدو أولُ إشارةٍ للخروج حتى يتعجل، هذا إنْ لم يَرْجُ ويتوسَّطْ ويتشفَّعْ!

لماذا وقفَ يوسفُ هذا الموقف؟ ولماذا لم يُسارعْ بالخروج ثم يطلبُ إعادةَ المحاكمة وهو حرٌّ يعيش حريتَه؟.

تعليل موقف يوسف العجيب:

إن يوسفَ عليه السلام حصيفٌ ذكيٌّ أَلمعيٌّ لَمّاح، ولقد فهِمَ من إشارةِ الملك، وأمْرِه بالإفراج عنه، والمجيء به عنده، أن الملكَ معجبٌ به، وأنه سيسندُ إليه بعضَ المراكزِ الإدارية العليا، وأنه ينتظرُه عهدٌ جديدٌ من التمكين!

فهِمَ يوسفُ كلَّ هذا، لكن ما هو كلامُ الناسِ عنه؟ وما هو «ملفُّه» عندهم؟ وما هي سمعتُه بينهم؟

إن الناسَ لا يعرفون حقيقةَ قضيةِ يوسف، وقصتِه مع امرأة العزيز، ومع نسوة المدينة.

لقد شوَّهَ «الإعلامُ الرسميُّ» ـ الذي يشرفُ عليه عزيزُ مصر ـ سمعةَ يوسف، وقَدَّمه للناس بصورةِ الظالم المجرم، الذي لم يحسنْ إلى العزيز الذي أحسنَ إليه، وفتحَ له بيته، فقامَ بمراودةِ امرأته، وأرادَ انتهاكَ عِرْضَها والاعتداءَ عليها، ولو لم تدفعْه هي وتدافعْ عن عرضها لنالَ منها! فعلَ ذلك وهو عبدُها ورقيقها!

وقد عوقبَ لهذه الجريمةِ الأخلاقيةِ البشعة بالسجن، جزاءً على سوء فعله، وها قد مضى عليه في السجن بضعُ سنين.

هذه هي صورةُ يوسفَ وسمعتُه في الخارج، كما صوَّرها الإعلامُ الرسمي الجاهلي، ولعلَّ الملكَ عرفه بهذه الصورة المشوهة، كما قدَّمَها له الملأُ الجاهليون!

فهل يخرجُ للناس بهذه الصورةِ والسمعة؟ وهلْ يرضى أن يمنَّ عليه الملكُ بعفوه، وتجاوُزِه عن جريمته؟ وهل يقبلُ أنْ يُعْرَفَ عند الناس بأنه «طليقُ الملك»، إذ لولا إِفراجُه عنه لأَمضى في السجن سنينَ أُخرى!

وهلْ من المناسب أنْ يليَ المراكزَ الإدارية العليا، وهو بهذا الماضي الأسودِ كما يبدو عندَ الناس؟.

مع أنه في الحقيقةِ عفيفٌ نزيهٌ طاهر شريف، وهو المعتدىٰ عليه، وهو المظلومُ والبريء، وهو الذي سجنوه ظلماً وعدواناً!

إذن لا بدَّ من إعادةِ بحثِ القضية من جديد، والذي يبحثُها ويحقق فيها هو الملكُ نفسُه هذه المرة؛ ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

لا تناقض بين موقفه هذا وقوله: اذكرني عند ربك:

هل في تريُّثِ يوسفَ في الخروج من السجن، وطلبهِ إعادةَ بحث قضيته على يد الملك، تناقضٌ مع قوله قبلَ بضعِ سنين لساقي الملك قبيلَ الإفراج عنه: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؟؟.

إنَّ يوسفَ الذي قالَ للساقي المفرجِ عنه من قبل: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ هو يوسفُ نفسه، الذي يردُّ دعوةَ الملك للخروج بعد بضعِ سنوات فلا يخرج إلاّ بعدَ إِظهارِ براءته!

ولا أَرى تعارضاً بين الموقفين!!

فلما قال قبلَ بضع سنين للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، لم يُردْ أَنْ يخرجَ بعفوِ الملك، ولا أَنْ يَخرجَ وسمعتُه مشوهةٌ عند الناس، إنما أَرادَ أَنْ يعرفَ الملكُ قصته، وأَنْ يَطّلعَ على «ملف» قضيته، وأن يحققَ في الأمر، فإنه إنْ فعلَ ذلك فسوفَ يقفُ على براءة يوسف، وإدانةِ امرأة العزيز.

ولكنَّ الساقي نسي، والملكُ لم يطلعْ على القضية، والقومُ نسوا يوسف موقوفاً في السجن، ومضى عليه بضعُ سنين.

والآنَ جاءتْ فرصةٌ أُخرى لإعادةِ البحث في قضيته من جديد، فكيف يخرجُ يوسفُ دون إِعادةِ التحقيق وإِظهارِ البراءة؟

وَهَبْ أنَّ الساقيَ قبلَ بضعِ سنين تذكَّرَ يوسف، وذَكَرَ قضيتَه للملك، وطلبَ الملكُ إحضارَه، وأمرَ بالإفراج عنه، فهل سيسارعُ يوسفُ بالخروج ممتَنّاً للملكِ بعفوه؟ وهل يَرضى أنْ تبقى سمعتُه مشوهةً عند الناس؟

ما أظنُّ أنه كان سيرضى بذلك، وأعتقدُ أنه كان سيتريّثُ ويتأنّى، وسيطلبُ إعادةَ التحقيق في المسألة.

إنه لا تناقضَ بين الموقفين، ولا تعارضَ بين القولين، لأنَّ يوسف الذي قال: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ هو يوسفُ الذي يقولُ الآن للرسول: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

ثناء الرسول على موقف يوسف:

ومع ذلك فقدْ أثنى رسولُ الله محمدٌ ﷺ على يوسف، لتريثِه في الخروجِ من السجن، واعتبرَ هذا مزيةً من مزاياه، وبيَّنَ أنه لو لبّى الدعوة وخرجَ من السجن، ثم طالبَ بالمحاكمة بعد ذلك، لما كان عليه في ذلك شيء. لكنه اختارَ الأَوْلى والأَفضل والأَسْمى والأَعْلى.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى

﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحمُ اللّهُ لوطاً، لقد كانَ يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثْتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي»[1].

وفي روايةٍ أخرى، فيها مزيدٌ من التوضيح أَخرجَها الطبرانيُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عجبْتُ لصبرِ أخي يوسف وكَرَمِه، واللّهُ يغفر له، حيث أُرسلَ إليه يُستفتىٰ في الرؤيا، ولو كنتُ أنا لم أفعلْ حتى أَخرج، وعجبتُ لصبْرِه وكرمه، والله يغفرُ له، أُتِيَ لِيَخرج، فلم يخرجْ حتى أخبرهم بعذْرِه، ولو كنتُ أنا لبادرْتُ الباب»[2].

وقد تكلمْنا عن معنى كلامِه عن إبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام أَثناءَ حديثِنا عن قصة كلٍّ منهما من قبل.

وبالنسبةِ ليوسف عليه السلام فإن الرسولَ محمداً ﷺ يُثني عليه لصبره، ويخبرُنا أنه لو كان مكانه، وسُجنَ بضعَ سنين ظلماً، وجاءه الداعي يدعوه لمقابلةِ الملك، لأَجابَه وخرج فوراً، وبعد ذلك يطالبُ بإعادةِ التحقيق والمحاكمة.

ولهذا قال في الرواية الثانية: «ولو كنتُ أنا لبادرْتُ الباب». أي: لسارعْتُ بالخروج من باب السجن، عندما أَتتْنِي دعوةُ الملك.

لقد تريثَ يوسفُ عليه السلام لما سبق أَنْ قلنا، ولم يخرجْ إلاّ بعدَ إعلانِ براءته، وبذلك اختارَ الأسمى والأكمل والأفضل.

لما قالَ يوسفُ عليه السلام لرسولِ الملك: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، عادَ الرسولُ إلى الملك، وأخبره أنَّ يوسف يرفضُ أنْ يَخرجَ من السجن بهذه الصورة، لأنه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٢. ومسلم برقم: ١٥١. انظر الأحاديث الصحيحة: ١٨٧.

(٢) أخرجه الطبراني برقم: ١٦٤٠. وانظر الأحاديث الصحيحة: ١٨٨.

مسجونٌ ظلماً، وهو بريءٌ مما اتهموه به، ولذا يريدُ إعادةَ بحثِ القضية من جديد!

الملك يتولى التحقيق في القضية:

ولعلَّ الملكَ فوجئَ بهذا الموقفِ من يوسف، إذ كيفَ يرفضُ سجينٌ عبدٌ رقيقٌ تلبيةَ دعوةِ الملك للقدوم إليه، والمثولِ بين يديه، وهو لم يطلب المقابلة، ولم يرجُ الخروج، إن الملكَ هو الذي يبادرُ بالدعوة، ويُعفيه من عَناءِ الطلبِ والرجاء والشفاعة، فكيف يرفضُ هذا السجينُ ذلك، ويطلبُ من الملكِ نفسه تولّي التحقيقِ في قضيته! مَن هو هذا السجين؟ وأي نوعٍ من الرجال هو؟.

ويبدو أنَّ الملكَ كان يتصفُ بالحكمة، وكان يَعرفُ تقديرَ الرجال، ويتأثرُ بمواقفهم الرجولية، ولهذا ازدادَ إعجاباً بيوسف عليه السلام، بسبب موقفِه الرجوليِّ الإيماني العظيم.

اطَّلَعَ الملكُ على «ملفِّ» قضية يوسف، وسأل عن تفاصيلِ ما جرى، وأعادَ التحقيق في الموضوع، واستدعى الشهود، واستجوبَ مَنْ كان لهم دورٌ في الحادثة.. وتولّى بنفسه هذه المهمة!

وأهمُّ طرفيْن في القضية: نسوةُ المدينة، وامرأةُ العزيز.

وقد طلبَ يوسفُ من الملك سؤالَهن بالذات: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

أَحضرَ الملكُ النسوة، اللواتي حضرنَ مأدبةَ امرأة العزيز فيما مضى، وقلْنَ ما قلْنَ في جمال يوسف، وقطَّعن أيديهن دهشةً وإعجاباً، وسألَ الملكُ النسوةَ قائلاً: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؟.

والخَطْبُ هو: الشأنُ والقصةُ والأَمْرُ الكبير، ويطلقُ على كلِّ حادثةٍ كبيرة، وأمرٍ جَلَل، وتصرُّفٍ مثير.

ما قصتكنَّ مع يوسف؟ وما شأنكنَّ معه؟ ولماذا تصرفتُنَّ معه ذلك

التصرفَ المثير؟ وما الدافعُ لكنَّ إلى ذلك؟

الملك يدين النسوة ويشهدن ببراءة يوسف:

ونلاحظُ أن الملكَ قد أَسندَ للنسوة تهمةَ مراودة يوسف: ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

ويبدو أَنه بعد اطلاعِه على ملفِّ القضية قد خرجَ بنتيجة، وهي براءةُ يوسف من التهمةِ المسندة إليه، وإِثباتُ الجريمة للنسوة ولامرأة العزيز.

ولهذا لم يسأل النسوةَ عن الحادثة، لأنه عرف كلَّ شيء عنها، فلم يقلْ لهنّ: ما الذي فعله يوسفُ معكن؟ أو ما الذي جرى بينكنَّ وبينه؟

إنما وجَّه لهنَّ الاتهامَ الصريح: أنتنَّ راودتنَّ يوسفَ عن نفسه، وقد ثبتَ ذلك لدينا، فلماذا فعلتنَّ ذلك؟

ومن هذا نعلمُ أنَّ نسوةَ المدينة لما حضرنَ مأدبةَ امرأةِ العزيز وأُعجبنَ بيوسف، قمنَ بمراودتِه مراودةً جماعية، إضافةً إلى مراودة امرأة العزيز، ودعوْتَه إلى المعاشرة والفاحشة، ولهذا كان يوسفُ صريحاً عندما دعا اللّهَ قائلاً: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: مما تدعوني امرأةُ العزيز إليه.

ويبدو أنَّ نساءَ الطبقة الحاكمة عرفْنَ أن الملكَ قد وقفَ على الحقيقة، وأنَّ الجريمةَ صادرةٌ منهن، ولذلك وجَّه لهن اتهاماً صريحاً مباشراً، فلا مجالَ للمراوغة أو الإنكار، ولا بدَّ من ذكرِ الحقيقة.

ولهذا جاءَ جوابهنَّ على سؤال الملك صريحاً في إِثباتِ براءة يوسف: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾!

إنَّ يوسفَ بريءٌ من كل التهم الموجَّهةِ له، ولم يراوِدْ أَوْ يهمَّ أو يَعْتَدِ، ونحن نعلمُ أنه عفيفٌ شريف طاهر، وما علمْنا عليه مِن سوء ولا عدوان.

وكرّرْنَ كلمةَ «حاش لله» التي يعلِنَّ فيها تنزيهَ الله.

فقد سبقَ أنْ نطقْنَ بهذه الكلمة متأثراتٍ بجمال يوسف: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

والآن يقلنَ نفسَ الكلمة تمهيداً لشهادتهن ببراءة يوسف: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

امرأة العزيز في اعتراف مثير:

وبعدما شهدت النسوةُ المراوداتُ ببراءة يوسف، تقدمت امرأةُ العزيز ـ الطرف الرئيسي في القضية ـ أمامَ الملك، وأعلنتْ باعترافٍ صريح مثير براءةَ يوسف وإدانةَ نفسها، ومَزجتْ ذلك الاعترافَ المثيرَ بإشاراتٍ وتلميحاتٍ مقصودة.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾!!!

لقد أَثّرت السنوات التي قضاها يوسف في السجن في امرأة العزيز، وفي شخصيتها وفكرها، ويبدو أنها تأثرتْ كثيراً بيوسف عليه السلام، وتعدّى تأثُّرُها بشخصه وجماله إلى تأثُّرها بدينه وإيمانه.

لقد عرفناها فيما مضى امرأةً شهوانيةً شَبِقة، متهالكةً على يوسف، حريصةً على قضاء وَطَرِها منه بأية وسيلة، كما عرفناها امرأةً ماكرة متآمرة، امرأة تجيدُ رسمَ المؤامرات وحبكَ المكائد، واتهامَ الآخرين. .

أما الآن ـ وبعد هذهِ السنوات العديدة ـ فيبدو أنَّ التجربةَ قد صقلَتْها، وأنَّ حادثتَها مع يوسف قد أثَّرتْ جداً فيها.

من خلال سجلِّ اعترافها أمامَ الملك نرى أنَّ لهجتَها قد تغيرت، ومنطقَها قد تأثر، إنها ناضجةٌ واعية، وإنها موضوعية، وإنها ثقيلةٌ

رزينة، وإنها متواضعةٌ معترفة، وإنها مؤمنةٌ بالله، عارفةٌ لصفاته، وإنها حافظةٌ لودِّ يوسف...

قولها: الآن حصحص الحق أنا راودته وهو صادق:

تبدأ امرأةُ العزيز اعترافَها أمامَ الملك بقولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: آنَ الأوانُ أنْ أعترف، وأنْ أُظهرَ الحقَّ في هذه القضية، فطالما حرصْتُ على إخفاءِ الحقيقة عدةَ سنوات، ولكن لم أنجح، ولا بدَّ من أنْ يَظهرَ الحق، وعلى لساني، بعد كلِّ هذه الفترة.

و﴿حَصْحَصَ﴾ مضاعفُ كلمة «حَصَّ» مثل: زلزل، وكفكف.

وأساسُ معنى «حص»: هو القطع.

قال الراغبُ في المفردات: «حَصَّه: قطعَ منه. إمّا بالمباشرة، وإمّا بالحُكم. وقيل: رجلٌ أَحَصّ: انقطعَ بعضُ شعره، والحِصَّة: القطعةُ من الشيء.

وحصحصَ الحق: وضحَ، وذلك بانكشافِ ما يغمرُه..»[1].

لقد كان الحقُّ مغموراً في قضية يوسف مع امرأةِ العزيز، وكمْ حرصتْ مع قومِها على إخفائِه سنوات عديدة، قضاها يوسفُ في السجن مظلوماً، ولكن مرور هذه السنوات لم يُمِت القضية، ولم يُغطِّ الحقيقة، فَهَا هي القضية تُبعثُ من جديد، وها هو الملكُ نفسه يتولّى التحقيقَ فيها، وقد فشلتْ هي وجماعتُها في التمويه والتزوير.

لم يبقَ أمامَها إلا أنْ تعترف، وأنْ تظهرَ الحقيقة، وأنْ تقطعَ الباطل، وأنْ تُنهي المسألة: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

وتتقدمُ المرأةُ إلى الملك بإدانةٍ صريحةٍ لنفسها، وتبرئةٍ صريحة

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني: ٢٣٧.

ليوسف: «أنا راودته عن نفسه. وإنه لمن الصادقين».

إنها ناضجةٌ وموضوعية، ولهذا تصرحُ بالحقيقة، وتتحملُ النتيجة والمسؤولية. أنا راودتُ يوسف عن نفسه. ولقد كان يوسفُ صادقاً عندما قالَ لزوجي لما دخلَ الباب: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

كان صادقاً عندما قالَها، ولقد كذَّبْتُه واتهمتُه، وقد مكرتُ به وتآمرتُ عليه، ولقد سجنْتُه عدةَ سنوات، محاولة إلقاءَ التهمة عليه، وتبرئةِ نفسي. والآن لا بدَّ من ذكْرِ الحقيقة: لقد كنتُ كاذبةً متآمرةً ماكرة، وقد كنت ظالمة، فأنا المراودةُ وهو البريء!!

ماذا يريدُ يوسفُ عليه السلام من إعادةِ بحث القضية أكثرَ من هذا الاعتراف؟ ماذا يريدُ من نسوةِ المدينة أكثر من هذا؟ وماذا يريدُ من امرأة العزيز أكثر من هذا؟

ليس أَقوى من الإقرار والاعتراف، فالاعترافُ سيدُ الأدلة، هذه النسوةُ تقرُّر وتعترف ببراءة يوسف، وها هي امرأةُ العزيز تقرُّ وتعترفُ بإدانة نفسها وبراءة يوسف.

لقد حققَ يوسفُ بصبره وتحمُّلِه وأَناتِه كلَّ ما يريد، وإِنه لحصيفٌ ذكيٌّ ألمعيٌّ حقاً عليه الصلاة والسلام.

وتُتابعُ امرأةُ العزيز اعترافها أمام الملك، فتلتفتُ إلى يوسف عليه السلام، وتقولُ جملةً موجهة له، تبررُ بها اعترافَها الصريح، وإدانةَ نفسها وتبرئته.

لماذا فعلَتْ ذلك؟ لماذا أدانَتْ نفسها وبرأَتْ يوسف؟ تقول: لقد فعلْتُ ذلك من أجل يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وكأنها تقول: أنا الآن أمامَ الملك، ويوسفُ الآن غائبٌ عني، فهو في السجن، وكان بإمكاني أنْ أكذبَ على الملك كما كذبْتُ على

زوجي، وأن أبرئَ نفسي وأتهمه هو. لكني لم أفعلْ ذلك، واعترفتُ بالحقيقة.

وكأنها تقول: قولوا ليوسف هذا، وأَخبِروه بكلامي، وأَعْلِموه أَني أدنتُ نفسي وشهدتُ لصالحه، ولا بدَّ أن يعلمَ يوسفُ أني لم أخنه بالغيب، فلم أشهدْ ضدَّه وهو غائبٌ عني، ولو فعلتُ ذلك لكنتُ خنته بالغيب!.

إيمانها بالله دفعها للاعتراف:

والذي دفعني إلى عدمِ خيانة يوسف بالغيب، والشهادةِ لصالحه مع أنه غائبٌ عني في السجن هو علمي ويقيني بأن الله لا يَهدي كيدَ الخائنين.

وكأنها تقول: لقد خنتُ يوسفُ من قبل بالغيب والشهادة، وقد تآمرتُ عليه، وكِدْتُ ضده، وسجنته، ولكني لم أنجحْ في ذلك، لأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولا أُريدُ أنْ أكررَ الخطأَ مرة ثانية.

إنها تريدُ أنْ يعرفَ يوسفُ هذا منها، ليقودَه هذا إلى احترامِها وتقديرِ موقفها، فلئن كرهَها من قبلُ لإغرائها وشهوانيتها فقد حقَّ له ذلك، لكنها الآنَ تغيَّرَت، ولا بدَّ أنْ يعرفَ أنها تغيرت، وأنها الآن ناضجةٌ متزنةٌ موضوعية منصفة، وذلك ليحترمَها.

ونفهمُ من كلامها هذا أنَّ حبَّها ليوسف بقي، لم يتغيَّرْ ولم يُمْحَ من قلبها، لكن الذي تغيَّرَ هو نوعُ هذا الحب.

لقد كان حبُّها له في الماضي حُبّاً شهوانياً جسدياً، أُعجبتْ بجمالِ جسده، وأرادتْ مخالطتَه ومعاشرتَه.

أما الآن وبعد هذه السنواتِ العديدة، فقد نضجَتْ، ونضجَ حبُّها ليوسف معها، وتحوَّلَ من حبٍّ شهوانيٍّ جسدي إلى حبٍّ موضوعي فكري، أحبتْه الآن لعفَّتِه وطهارتِه، وأحبَّتْه لدينه وإيمانه، وتأثرتْ بمواقفه.

ونلحظُ أنَّ حُبَّها الموضوعي لدينِ يوسف قد أثَّر فيها، فآمنَتْ بالله ربه، ودخلَتْ في دينه، وصارتْ مؤمنةً صالحة، كما يبدو من كلامها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ... إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتختمُ امرأةُ العزيز اعترافَها أمام الملك بالتفاتِها إلى نفسها، وتسجيلِ إدانةٍ جديدة إلى نفسها: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

برأَتْ يوسفَ من التهمة، ولم تبرئْ نفسَها، وهذه موضوعيةٌ كبيرة منها!

وتفسرُ ما جرى منها فيما مضى من أنه «نزوةٌ» من نزواتِ نفسها، حيث تحكمتْ فيها نفسُها، وسيطرتْ عليها، فأمرتْها بالسوء والفحشاء، وإن النفسَ تأمرُ بالسوء، إلا إذا كانت نفساً مؤمنةً صالحة ناضجة، رحمها الله فأنضجها بالتربية!!

وتتوجَّهُ إلى الله بالاستغفارِ عن كلِّ ما جرى منها في قضية يوسف، وتندمُ على كل ما فعلت، من مراوداتٍ وإغراءات: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ونلحظُ المنطقَ الإيمانيَّ لهذه المرأة المؤمنة، التي بدأَتْ أمامَنا شهوانيةً شبقة متآمرة فاتنة، وانتهتْ مؤمنةً منصفةً موضوعية صالحة!!.

وهذا التغييرُ الإيجابيُّ في شخصية هذه المرأة، صورةٌ من صور نجاحِ يوسف عليه السلام في الدعوة، حيث نجحَ في الانتقال بهذه المرأةِ من سفحِ الشهواتِ الهابط، إلى قمةِ الإيمان والصلاح!!

وهكذا انتهى دور العزيز وامرأته:

ونلاحظُ أنَّ دورَ امرأة العزيز ـ ودورَ زوجها أيضاً ـ انتهى عند هذه النهاية في القصة، حسبَ العرضِ القرآني. فلا يحددُ السياقُ القرآني ما جرى لهما بعد ذلك.

كلُّ ما نعرفُه من خلال هذا السياق أن الملكَ قد عَزَلَ زوجَ هذه

المرأة من منصبه، وأَسندَه إلى يوسف، الذي صارَ يلقب بلقب «العزيز».

وهناك مبهماتٌ في شأن العزيز وامرأته، فلا نعرفُ اسمَ كلٍّ منهما، كما أن هناك مبهمات في نهاية هذه المرأة بعدما آمَنتْ، فلا نعرفُ هل تزوجتْ يوسف أم لا؟ وكيف قضتْ باقي عمرها! وعلينا أنْ نَبقى فقط مع العرضِ القرآني!!

[١٩]

الحلقة الرابعة

يوسف عزيز مصر

انتهت المحنُ التي قدَّرها اللَّهُ على يوسف عليه السلام، والتي كانت تمهيداً لمرحلةِ المنحِ والعطايا الربانية، والتي كانت إِعداداً له لهذه المرحلة.

ونحنُ من الآن وإلى آخرِ لقطاتِ قصته مع يوسف عليه السلام وهو يتعاملُ مع المنحِ والنعمِ بنجاح.

وقفنا في المشهدِ الرابعِ الأخير من الحلقة السابقة، عند طلبِ يوسف إعادةَ محاكمته لإظهارِ براءته، حيث تولَّى هذه المهمة الملكُ نفسُه، وسألَ النسوةَ فشهدنَ ببراءته، كما سألَ امرأةَ العزيز فشهدتْ ببراءته، وأقرَّتْ بمراودتِها له.

وبهذا وقفَ الجميع على براءة يوسف عليه السلام، وأنه كان مسجوناً ظلماً طيلةَ السنواتِ السابقة.

والآن سيخرجُ يوسفُ عليه السلام من السجن بهذه البراءة، ليمارسَ حياتَه الجديدة، ويعيشَ مرحلةَ التمكينِ والإنعام التي قدَّرَها اللّهُ له.

الحلقةُ الرابعةُ من قصةِ يوسف عليه السلام هي التي تتحدثُ عنه

بعدما صارَ في منصبِ «عزيز مصر»، حيث حكمَ البلاد، ورتَّبَ أوضاعَها، وأدارَ اقتصادَها في سنوات الغيثِ والخصب، ثم في سنواتِ الجدبِ والقحط. وتخبرُ عن بدايةِ اتصال إخوتِه به، وهم لا يعرفونه، حيث طلبَ منهم إحضارَ أخيهم معهم، وتمكنوا من إقناعِ أبيهم بذلك، وأحضروه معهم، ودبَّرَ يوسفُ له ترتيباً خاصاً، حيث اتُّهِمَ بالسرقة في الظاهر، فأخذَه يوسفُ رقيقاً عنده، وحاولَ الإخوةُ استبدالَه بأحدهم، فرفضَ يوسفُ ذلك.

هذه هي المشاهدُ التي تعرضُها هذه الحلقة، وآياتُها من (٥٤) إلى (٧٩) من هذه السورة. وسنعيشُ مع هذه الآياتِ والمشاهدِ بعون الله.

[٢٠]

الملك يعيّن يوسف في منصب العزيز

المشهدُ الأولُ في هذه الحلقة أربع آيات: ٥٤ ـ ٥٧.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٧].

إعجاب الملك بيوسف لمواقفه وعلمه وإكرامه له:

أُعجبَ ملكُ مصر أولَ مرة بيوسف عليه السلام لما عبَّرَ له رؤياه، فطلبَ إحضارَه لينعم عليه بالعفوِ والإفراج، وقال لحاشيته: ائتوني به.

ولكنَّ يوسفَ أبى الخروجَ على هذه الصورة، ولو كان بعفوٍ ملكي، وإنما أرادَ أنْ يخرجَ بريئاً عفيفاً عزيزاً، ولهذا طلبَ من الملك نفسِه إعادةَ النظر في قضيته. فقامَ الملكُ بذلك، وشهدت النسوةُ ببراءة يوسف، واعترفت امرأةُ العزيز بالمراودة، وشهدنْ ببراءة يوسف عليه

السلام، وبهذا وقفَ الجميعُ على براءته.

ازدادَ إِعجابُ الملك بيوسف عليه السلام لهذا الموقف، وعرفَ أنه «رجلُ المرحلةِ القادمة» المؤهَّلُ لقيادةِ البلاد، في سنوات الخصب ثم في سنواتِ الجدب.

ولذلك أمرَ الملكُ بالإفراج عن يوسف عليه السلام، وإحضارِه إليه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

ونحسُّ في كلام الملك مزيداً من الإعجابِ بيوسف، ومزيداً من التكريم له، تمهيداً لتسليمه مقاليدَ الأمور.

لقد قال الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ مرتين:

المرةُ الأولى: بعدما عبَّرَ له رؤياه، ونحسُّ في كلامه هناك رغبتَه في الإنعامِ عليه بالإفراج والعفوِ فقط!

المرة الثانية: بعد هذا الموقفِ الكبير ليوسف، فهو الآن لا يريده للعفوِ عنه فقط، ولكنه يريدُه ليستخلصَه لنفسه!!.

«لقد تبينتْ للملك براءةُ يوسف، وتبيَّنَ له معها علمُه في تفسيرِ الرؤيا، وحكمتُه في طلبِ تمحيصِ أمرِ النسوة. كذلك تبينتْ له كرامتُه وإباؤه، وهو لا يتهافتُ على الخروج من السجن، ولا يتهافتُ على لقاءِ الملك. وأي ملك؟ ملك مصر!

ولكن يقفُ وقفةَ الرجلِ الكريم، المتهم في سمعته، المسجونِ ظلماً، يطلبُ رفعَ الاتهام عن سمعته، قبلَ أنْ يطلبَ رفعَ السجنِ عن بدنه، ويطلبَ الكرامة لشخصِه ولدينه الذي يمثله، قبل أنْ يطلبَ الحظوةَ عند الملك.

كلُّ أولئكَ أوقعَ في نفس الملك احترامَ هذا الرجل وحبَّه، فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

فهو لا يأتي به من السجن ليطلقَ سراحَه، ولا ليرى هذا الذي

يفسِّرُ الرؤى، ولا ليُسمعَه كلمةَ «الرضاء الملكي السامي!» فيطيرَ بها فرحاً. . .

كلا! إنما يطلبُه ليستخلصَه لنفسه، ويجعلَه بمكانِ المستشارِ والنجيِّ والصديق. .

فيا ليتَ رجالاً يُمرِّغون كرامتَهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء، مطلقو السراح ـ فيضعوا النِّيرَ في أعناقهم بأيديهم، ويتهافَتوا على نظرةِ رضا وكلمةِ ثناء، وعلى حظوةِ الأَتباع، لا مكانة الأصفياء. . .

يا ليت رجالاً مِن هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصةَ يوسف، ليعرفوا أن الكرامةَ والإباء والاعتزاز، تدرُّ من الربح ـ حتى المادي ـ أضعافَ ما يدرهُ التمرغُ والتزلفُ والانحناء!!!»[1].

قالَ الملكُ لرجاله: أَحْضِروا لي يوسف، كيْ أستخلصَه لنفسي. وعرفَ رجالُه أنَّ يوسفَ سيكون معزّزاً مكرَّماً عند الملك.

ذَهبوا إلى يوسف في السجن، فأَخْرَجوه منه معزّزاً مكرماً، بعدَ أنْ مكثَ في سجنِه مظلوماً بضعَ سنين.

وخرجَ يوسفُ من السجن، ثم جاء إلى الملك، وقابلَه بعزةٍ وكرامةٍ وإباء، ونظرَ الملكُ إِليه، فازدادَ إِعجاباً به، ومحبةً له.

يوسف عند الملك مكين أمين:

وكلمَ يوسفُ الملكَ بعزة، ولاحظ الملكُ في كلام يوسف الصدقَ والجدية، فازدادَ إعجابُه به. وتأكدَ الملكُ أنَّ نظرتَه في يوسف في محلها، وأنه أهلٌ للتكريم والتفضيل، تأكَّدَ هذا عندما قابلَه يوسف، وتأكدَ أكثر عندما كلمه يوسف.

عندها أَخبر الملكُ يوسف بالأمان: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٥.

ونلحظُ في كلام الملك ليوسف كلَّ معاني التكريم، والتأكيدَ على التفضيل.

وكأنَّه يقول له: أنتَ بعد اليوم عندي، وأنت معزَّزٌ مكرَّم، فأنتَ منذ اليوم لستَ عبداً رقيقاً في بيت مسؤولٍ كبير، ولكنك أنتَ عندنا في تكريم، وأنت من رجالنا، وأنت من مسؤولي البلاد.

وأنت ﴿مَكِينٌ﴾ متمكِّنٌ من الحرية والمسؤولية، وهذه مكانتُك ومنزلتُك العالية العزيزة.

وأنت ﴿أَمِينٌ﴾، في أمانٍ واطمئنان، لا تخشى بعد اليوم سجناً ولا اتهاماً، ولا ظلماً ولا عدواناً!!

ماذا كان ردُّ يوسفَ عليه السلام على هذا التكريم من ملك مصر؟

«إنه لم يسجدْ شكراً، كما يسجدُ رجالُ الحاشية، المتملِّقون للطواغيت! ولم يقل له: عشتَ يا مولاي، وأنا عبدُك الخاضع، أو خادمُك الأمين، كما يقولُ المتملِّقون للطواغيت! كلا إنما طالبَ بما يعتقدُ أنه قادرٌ على أنْ ينهضَ به من الأعباء، في الأزمةِ القادمة التي أوَّلَ بها رؤيا الملك، خيراً مما ينهضُ بها أحد في البلاد، وبما يعتقدُ أنه سيصونُ به أرواحاً من الموت، وبلاداً من الخراب، ومجتمعاً من الفتنة - فتنةِ الجوع - فكان قوياً في إدراكِه لحاجةِ الموقف إلى خبرتِه وكفايته وأمانته، قوَّتَه في الاحتفاظِ بكرامته وإبائه..»[1].

طلب يوسف إدارة خزائن الأرض ومؤهلاته:

رَدَّ يوسفُ على تكريم الملك له قائلاً: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

طلبَ يوسفُ من الملك أنْ يجعلَه على خزائن الأرض. أي: أنْ

---

(1) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٠٥.

يكونَ مسؤولاً عن الخزائنِ والأموال، والزراعة والتموين، والاقتصاد والتخطيط، في المرحلة القادمة.

وأخبرَ الملكَ عن مؤهَّلَيْن من مؤهَّلاته لهذا المنصب: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إِنه حفيظ: يحفظُ الأمانةَ والعهد، ويحفظُ المسؤولية والمنصب، فيقومُ به خيرَ قيام، ويحفظُ المالَ والدخل فلا يضيعُه، ويحفظُ الزراعة فلا يبددها، ويحفظُ البلادَ فلا يضيعها، ويحفظُ الناسَ فلا يتركهم مع الجوع.

وإِنه عليم: يملكُ من العلمِ والمعرفة والخبرة والكفاية، ما يعينه على أداءِ هذه المهمةِ الخطيرة.

إنَّ المهمةَ التي يُقدمُ عليها يوسف تتطلبُ ممن يليها أنْ يتمتعَ بالحفظِ والأمانة والعفة والنزاهة، وأنْ يتمتعَ بالعلم والخبرة والمعرفة والتخطيط، والأمران متوفران في يوسفَ عليه السلام على أتمِّ وجه.

وعندما نقفُ على طلبِ يوسف تولّي شؤون البلاد، فإننا نراه يقومُ بتضحيةٍ كبيرة، ليخدم الناس: «ولم يكن يوسفُ يطلبُ لشخصه وهو يَرى إِقبالَ الملك عليه، فيطلب أنْ يجعلَه على خزائن الأرض..

إنما كان حصيفاً في اختيارِ اللحظةِ التي يُستجابُ له فيها لينهضَ بالواجبِ المرهق الثقيل، ذي التبعةِ الضخمة، في أشدِّ أَوقاتِ الأزمة، وليكون مسؤولاً عن إِطعامِ شعبٍ كامل، وشعوبٍ كذلك تجاوره، طوالَ سبع سنوات، لا زرعَ فيها ولا ضرع.

لماذا طلب إدارة خزائن الأرض:

فليس هذا غُنماً يطلبه يوسفُ لنفسه. فإِنَّ التكفلَ بإِطعامِ شعبٍ جائع، سبعَ سنوات متوالية، لا يقولُ أحدٌ إنه غنيمة. إنما هي تبعةٌ يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلِّفُهم رؤوسَهم، والجوعُ كافر، وقد

تمزقُ الجماهيرُ الجائعةُ أجسادهم في لحظاتِ الكفر والجنون..»[1].

أَرادَ يوسفُ عليه السلام أن يكون على خزائنِ الأرض، ليقدمَ خدمةً للناس، وليُحسنَ إدارةَ أُمورِ البلاد الاقتصادية والمالية، في سنواتِ المحنة القادمة.

أرادَ يوسفُ أنْ يستفيدَ من سنوات الخصب والغيث، وأنْ يستغلَّها أحسنَ استغلال، وأنْ يزرعَها دَأْباً واجتهاداً ونشاطاً، وأنْ يدخرَ الغلالَ المجموعة منها، لسنواتِ الجدب والقحط.

إِنه حفيظٌ يريد أنْ يحفظَ مواردَ سنواتِ الخصب والغيث لسنوات الجدب. وإِنه عليمٌ يعلمُ كيفيةَ إِنفاقِ الغِلال المدخرة بتقنينِ وتخطيط.

وقد استجابَ الملكُ ليوسف، فجعله على خزائنِ الأرض، طيلةَ السنوات الخمس عشرة التالية. أي أَنه عزلَ الشخص الذي كان في منصب «عزيز مصر» ـ الذي راودت امرأَته يوسف ـ وجعلَ يوسفَ مكانه في منصب «عزيز مصر».

كان يوسف مطلق اليد في الحكم وحكم بشرع الله:

وعندما وليَ يوسفُ منصبَ عزيز مصر لم يكن مجردَ تابع للملك، منفذٍ لشرعه ونظامه، ولكنه كان صاحبَ التصرف والكلمةَ والقرار، يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ في البلاد كما يشاء، وينفذُ من القوانين والتشريعات ما يشاء، بدونِ إِنكار أو اعتراض، أو إِبطال وإِلغاء من قِبَل الملك.

لقد أطلقَ الملكُ يدَ يوسف في الأمر، فكان يوسفُ هو الحاكمَ الفعليَّ في مصر، وبقي الملكُ مجردَ «رمز» في البلاد. ويبدو أن الملكَ كان يملكُ ولا يحكم، وأنَّ الحكمَ الفعلي كان بيدِ عزيز مصر.

---

(١) المرجع السابق ٤: ٢٠٠٥.

ومما يدلُّ على هذا «غيابُ» الملك عن أَحداثِ ومشاهدِ القصة التالية، فلا نسمعُ له صوتاً، ولا نرى له تأثيراً، لقد عيَّنَ يوسفَ في منصبِ «عزيز مصر» ثم تَوارى في الظل، وكان الحكمُ والفعلُ والتصرفُ والقرارُ ليوسف عليه السلام.

والراجحُ أنَّ يوسفَ كان نبياً عندما ولي منصبَ العزيز، وهذا معناه أن يوسفَ كان يحكمُ البلادَ بشرع الله، ويديرُ الأُمورَ على منهاجِ الله، ولم يكن ينفذُ تشريعاتِ الملك وقوانينه، فهو نبي، والنبيُّ عندماَ يلي الأُمورَ لا يحكمُ بغيرِ شرع الله.

لا بدَّ أنْ يعرفَ هذا بعضُ دعاة الإسلام المعاصرين، الذين يُريدونَ أنْ يلوا الأُمورَ في الأنظمةِ والحكوماتِ غير الإسلامية، ويَرضونَ أنْ يكونوا «وزراء» عند حكام لا يحكمون بشرعِ الله، ويحاولون تبريرَ هذا العملِ الخاطئ بما فعلَه يوسف عليه السلام، حيث كان وزيراً عند ملكِ مصر الكافر.

لا بدَّ أنْ يَعرفوا الفرقَ بين فعلهم الخاطئ وبين فعلِ يوسف الصائب، فلو فعلوا ما فعلَ يوسف لجازَ فعلُهم، ولو أَطلقَ الحكامُ يدَهم في الحكم كما أَطلقَ الملك يد يوسف لجازَ فعلُهم، ولو سمحَ الحكامُ لهم تطبيقِ شرع الله والحكم بالإسلام، ولم يُلغُوا أحكامَهم بالإراداتِ والقراراتِ التي يصدرونها، لجازَ فعْلُهم.

وبما أنَّ الأمرَ ليس على هذه الصورة فإنَّ الفرقَ بعيدٌ بين فعْلِهم وبين فعل يوسف عليه السلام، ولا يجوزُ لهم الإقدامُ على ذلك الفعل الباطل، متعذرين بما قامَ به يوسفُ عليه السلام!!!

صارَ يوسفُ عليه السلام عزيزَ مصر، الحاكمَ الفعليَّ للبلاد، الذي سيديرُ شؤونَها في المرحلةِ الخطيرة القادمة.

مكن الله ليوسف تمكينين وحكمته في تسلسل الأحداث:

وقد عقبت الآياتُ على هذا بقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ(٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ(٥٧)﴾.

إن اللّهَ هو الذي مكَّنَ ليوسف عليه السلام في الأرض، بعلمِه وحكمتِه.

وقد سبقَ أنْ ذكرت الآياتُ تمكينَ الله ليوسف في الأرض، عندما استقرَّ في بيت العزيز، حيث قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ويدلُّنا هذا على أن اللّهَ مكَّنَ ليوسف في الأرض تمكينَيْن، الأولُ تمهيدٌ للثاني، ومرحلةٌ موصلةٌ إليه، ولذلك وردت عبارة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مرتين.

التمكينُ الأول: استقرارُ يوسف في بيتِ العزيز، وسينتجُ عنه ما عرفناه من متابعةِ الحلقات السابقة من قصته، من المحنِ والابتلاءات التي مَرَّ بها، وأعانه الله على النجاح فيها، ولهذا قال الله في التمكين الأول: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

التمكينُ الثاني: استقرارُ يوسف في منصب «عزيز مصر»، وهو ثمرةٌ للتمكين الأول، وسينتجُ عنه ما سنعرفه من قصته، حيث سيلتقي بإخوته، وسيجتمعُ بأهله، وستستقرُّ الأسرةُ كلُّها عنده في مصر، وبهذا سيتم تأويلُ رؤياه، ولهذا قال الله في التمكين الثاني: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

صارَ يوسفُ يتبوأُ من الأرض حيث يشاء، ويحكمُ فيها كما يشاء، وهذا بتمكينِ الله وعلمِه وحكمته سبحانه، وبهذا نقفُ على مظهرِ من مظاهر حكمةِ الله في تقديرِ الأحداث وترتيبها، لتصلَ إلى نهايتِها التي قدَّرها الله.

فلو أنَّ يوسفَ عليه السلام بقي عند أبويْه في فلسطين فهلْ كان

سيصلُ إلى حكم مصر؟ ولو أنه خططَ مع أهله وإخوته ـ وهم رعاةٌ في البدو ـ للوصول إلى منصبِ «عزيز مصر» فهل كانوا سينجحون؟.

لقد أرادَ اللّهُ أنْ يصلَ يوسفُ عليهِ السلام إلى هذا المنصب بعلمه وحكمته، وأنْ يمكِّن له في الأرض، لكن وسطَ ذلك الطريق الآلام والمحن والابتلاءات والأحزان. وكان ما أراده الله!!.

منحَ اللّهُ يوسفَ عليه السلام في منصبه الجديد من رحمته ما شاء: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، وكان هذا جزاءً وثواباً دنيوياً من الله ليوسف في الدنيا، لإحسانِه وإيمانِه وعبادته وتقواه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وإذا كان هذا الإنعامُ من الله على يوسف في الدنيا غامراً كبيراً، فكيف سيكون إنعامُه الجزيلُ الجميل عليه في الآخرة؟ لا شكَّ أنَّ أجرَ الآخرة أفضلُ وأعظمُ وأجلُّ من أجر الدنيا، للمؤمنين المتقين الصالحين: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾.

[٢١]

يوسف يلتقي بإخوته

يوسف ينقذ مصر وما حولها من المجاعة:

استلمَ يوسفُ عليه السلام منصبَ عزيزِ مصر، وتوارى الملكُ إلى الظل، وصارَ يوسفُ هو الحاكمَ الفعليَّ للبلاد.

أدارَ يوسفُ الحفيظُ العليم البلادَ في سنوات الخصب والرخاء السبعة، واستفادَ من خصبِ هذه السنوات، وأقبلَ الشعبُ على الزراعة الدؤوبةِ كلَّ سنة، و«قَنَّنَ» يوسفُ الحصيفُ لهم ما يأكلونَه، ولم يستهلكْ إلا القليلَ من الغلال، ومعظمُ الحصادِ من الحبوب أبقاه في سنابله. وطبقَ عملياً ما قالَه في تأويل رؤيا الملك: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧﴾.

وامتلأتْ خزائنُ أرضِ مصر بالحبوب في سنابلها، ونفذَ يوسفُ العزيزُ عليه السلام خطةَ الإنقاذِ التي قدَّمَها من قبل.

ومضتْ سنواتُ الخصب، وأقبلتْ سنواتُ الجدبِ السبعة، ويوسفُ هو «عزيز مصر».

وأثَّرَ القحطُ والجدبُ على المزروعات فأهلكها، وأصابَ الناسَ الجوعُ والفقر، وامتدَّ هذا الأثرُ السلبيُّ من مصر إلى البلادِ المجاورةِ لها.

وطبقَ يوسفُ عليه السلام خطتَه في الإنقاذ، و«قَنَّنَ» الاستهلاكَ في سنواتِ المجاعة، كما قال لَمّا عبرَ رؤيا الملك: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴿٤٨﴾﴾.

وأحسنَ المصريون التعاملَ مع سنوات المحنة، واجتازوا خطرَ الجدبِ والمجاعة، بفضل الله، ولحسنِ إدارةِ يوسف عزيز مصر.

وأنقذتْ مصرُ البلادَ المجاورة من خطرِ المجاعة، وصار الناس يأتونَ من تلك البلادِ إلى مصر، طلباً للحَبِّ والطعام.

ومن البلاد التي تأثرتْ بسنواتِ المجاعة فلسطين ـ كانت تسمى وقتها أرضَ كنعان ـ وكان الناس يأتونَ من فلسطين إلى مصر، يأخذون منها الحبوب.

وفي هذا الجوِّ قدمَ أولادُ يعقوب عليه السلام إلى مصر لهذه الغاية، ووصلوا مصر، ودخلوا على عزيزِ مصر، وطلبوا منه الطعام.

إخوة يوسف العشرة بين يديه ولم يعرفوه:

وقد عرضتْ هذه الآياتُ مشهدَ دخول هؤلاء على عزيزِ مصر!!

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى

﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢].

لما دخلَ إخوةُ يوسف العشرةُ عليه عرفَهم، لأَنهم إخوةٌ كبار، وهو يَعرفُهم لما كان مقيماً معهم في الأسرة.

ومعلومٌ أن ملامحَ الكبار لا تتغير، بينما تتغيرُ ملامحُ الصغار عندما يكبرون. وإنَّ الصغيرَ يعرفُ الكبير، وعندما يكبرُ الصغيرُ يبقى يعرفُ الكبير، أما الكبيرُ فإنه لا يكادُ يعرفُ الصغيرَ عندما يكبر!!

ولهذا عرفَ الكبيرُ الآن إخوتَه، لمعرفتِه لهم عندما كان صغيراً.

أما هم فلمْ يعرفوه، بل أَنكروه: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، كلُّ ما يعرفونَه أَنَّ الشخصَ الذي أمامَهم الآن هو عزيزُ مصر، وهم لا يعرفون اسمه ولا أصلَه ولا هويتَه.

هل من الممكن أن يتوقَّعوا أنَّ عزيزَ مصر الذي أمامهم الآن، هو أَخوهم يوسفُ الصغير، الذي أَلقوه في البئر قبلَ سنواتٍ وسنوات؟

إنَّ هذا الخاطرَ لم يَدُرْ بخلدِهم مطلقاً. وإلاّ فمن غيرِ المعقول في تخطيطِ البشر أنْ ينتقلَ يوسفُ من الجُبِّ إلى حكمِ مصر بعدَ سنوات.

ونقفُ هنا على مظهرٍ من حصافةِ يوسف وكياستِه عليه السلام، حيث لم يكشفْ لإخوتِه عن هويته، ولم يُعَرِّفْهم على نفسه، ولم يُذَكِّرْهم بجريمتِهم ضدَّه، ولم يقل لهم: أنتم الذين تآمرتم عليّ، وفعلْتُم بي كذا وكذا، جاءَ الآن دورُ الانتقام والثأرِ والقَصاص! ولم يأمُرْ بالقبضِ عليهم وسجنهم. ولو فعلَ ذلك بهم لما عاتَبه أو أدانَه أحد، لأنهم فَعلوا به ما فعلوا!!

لقد استعلى يوسفُ على آلامه وأحزانه وجراحه، وتخلصَ من

الحقد والتشفّي والانتقام، وأحسنَ إلى مَنْ أساءوا له.

تعاملَ يوسفُ عليه السلام مع إخوتِه بأخلاق النبوة، والأصْلُ أنْ يكونَ قد استقبلهم وأكرمهم، دونَ أنْ يُعَرِّفَهم على نفسه.

والأصلُ أنه جلسَ معهم، وحدَّثهم، وسألهم عن أنفسِهم وأهلِهم وبلادهم، وأنّهم أنِسوا إليه، وحدَّثوه، وأخبروه عن أوضاعِ أهلهم.

يوسف يكرم إخوته ويطلب أخاه الصغير:

عرفَ منهم أنَّ لهم أخاً صغيراً، وهو أخٌ من أبيهم، غيرُ شقيقٍ لهم، وأنه أثيرٌ عند أبيه، وأنه لا يدعُه يخرجُ معهم، خوفاً عليه.

لما عرفَ هذا منهم أرادَ أنْ يُحضِروا أخاهم الصغير: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

يدلُّنا قولُ يوسف لهم: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ على أنَّ أولادَ يعقوبَ عليه السلام ليسوا جميعاً إخوةً أشقاء، فمنهم أشقاء، ومنهم إخوةٌ لأَب، أي أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان له أكثرُ من امرأة.

ولا يهمُّنا تحديدُ عددِ نسائه، ولا تعيينُ أسمائهنّ، ولا توزيعُ أولادِه عليهنّ، فهذا من مبهماتِ قصةِ يوسف في القرآن.

ولا نعرفُ هل هذا الأخُ لهم من أبيهم هو أخٌ شقيقٌ ليوسف، أم هو أخٌ له من أبيه أيضاً!!

وقد بررَ يوسفُ لهم طلبَه أنْ يَرى أخاهم الصغير بأنه يوفي لهم الكيل، فهم الآن عشرة، وكلٌّ يأخذُ حملَ بعير، فإذا كانوا أَحَدَ عشر أخاً فإنهم يُحَمّلون أحدَ عشر بعيراً حَبّاً، وهذا خيرٌ لهم، وهو يوفي لهم الكيل، ويُعطيهم حملَ أحدَ عشر بعيراً.

وطمأنَهم بأنَّ أخاهم الصغيرَ سيكونُ في أمانٍ في مصر، لأنهم سينزلون في ضيافته، وهو يكرمُهم في نُزُلِهم، لأنه خيرُ المنزلين المضيفين.

وبعدَ أنْ رغَّبهم بإحضارِ أَخيهم، هددَهم بأنَّهم إنْ لم يأتوا به، فلن يَجدوا الطعامَ ولا الكيل: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

لقد استخدمَ يوسفُ معهم أُسلوبَ الترغيبِ والإقناع، وأسلوبَ التهديدِ والترهيب، لتقريرِ حقيقةِ إحضارِ أَخيهم معهم.

لقد فوجئوا بطلبِ عزيزِ مصر، وفوجئوا أكثرَ بتهديدِه لهم، لأنَّهم يعرفونَ صعوبةَ تنفيذه، فأَخوهم الصغيرُ أثيرٌ عند أَبيهم يعقوب عليه السلام، وأَبوهم لا يأتمنُهم عليه، بعد جريمتِهم ضدَّ يوسف. ولهذا أَجابوه قائلين: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

لقد استخدموا في محاولةِ إقناعِ أَبيهم لفظَ «سنراود»، والمراودةُ مذكورةٌ في هذه السورة عدةَ مرات. وقد عَرَضْنا معناها من قبل، عندَ كلامِنا على مراودةِ امرأة العزيز ليوسف.

وقولُهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ يُشيرُ إلى مقدارِ ما سيبذلون من جهدٍ ومعاناةٍ في إِقناع أَبيهم بإرسالِ أَخيهم الصغير معهم، لأنه سيمانعُ في ذلك، ويَخشى أنْ يكونَ مصيرُه كمصيرِ أَخيه يوسف.

لكنهم جادّون في المراودةِ والإِقناع، حَريصون على الإتيان به، وذلك ليزدادوا حِملَ بعير، وقد أَظهروا ليوسفَ حرصَهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

وأَرادَ يوسفُ عليه السلام إغراءَهم بالعودةِ ومعهم أَخوهم، فأعادَ معهم بضاعتَهم، ضمنَ ما حمَّلَهم من الحبوب: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

كان الإخوةُ قد أَحضروا معهم بضاعةً من منتوجات أَراضيهم، ليشتروا بها القمحَ والحَبَّ من مصر، فأَمَرَ يوسفُ غلمانَه بدسِّ البضاعة التي أَحضروها بين الحبوب التي حَمَّلوا بها جمالَهم.

والهدفُ من ذلك هو أنْ يَعرفوا عند تفريغ أَحمالِ الجمال أَنهم لم يدفعوا ثمنَ الحبوب التي أَخذوها من العزيز، فها هو العزيزُ يُعيدُ لهم بضاعتَهم، ويُعطيهم الحبوبَ مجاناً، وهذا يدعوهم إِلى العودة إلى مصر، لأَخْذِ أَحمالٍ أُخرى.

ويبدو أَنَّ يوسفَ عليه السلام دفع ثمنَ الجمالِ العشرة التي حَمَّلَها لهم من حسابه، بعد أنْ أعادَ لهم بضاعتَهم ضمن الحبوب!! وأَرادَ إِكرامَ أهلِه بذلك!!!.

[٢٢]

بين إخوة يوسف وبين أبيهم

عودة الإخوة بالحبوب إلى أبيهم:

رجعَ الإخوةُ العشرةُ إِلى أُسرتهم، ومع كلٍّ منهم حملُ بعيرٍ من الحبوب، وكانوا معجَبين بحسن ضيافةِ عزيزِ مصر لهم، ولكنهم كانوا متأثِّرين لطلبه منهم إِحضارَ أَخيهم معهم، ويخشون أنْ لا يوافقَ أَبوهم على ذلك.

وما كانوا يعلمونَ أنَّ عزيزَ مصر قدَّمَ لهم أَحمالَ جمالِهم من الحبوب مجاناً، وأنه لم يأخذْ أثمانَها، وأنه أمرَ بدسِّ الأثمانِ داخلَ الأحمال والرحال.

وَصلوا إِلى أَبيهم، وكانوا يفكّرون في طريقةِ إِقناعه بالموافقة على إِرسالِ أَخيهم معهم.

وقد عرضَتْ مشهدَ مراودتِهم لأَبيهم، وما جرى بينه وبينهم خمسُ آياتٍ من السورة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا

نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٨].

الأبناء يخبرون أباهم بطلب العزيز:

لما دخلَ الأَبناءُ على أبيهم، سارَعوا بإخباره بالخبرِ المزعج: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

إنهم لم يُخْبِروا أباهم بحسنِ استقبالِ وإكرام العزيز لهم، فهذا لا قيمةَ له في نظرهم. إنما المهمُّ أنْ يضغطوا عليه نفسياً، ليأخذوا منه الموافقةَ على إرسالِ أَخيهم.

يا أَبانا: أنتَ تعلمُ أننا بحاجةٍ إلى الحُبوب والطعام، والآن أَحضرْنا أحمالَ جمالنا منها، لكن هذا لا يكفينا إلا مدةً يسيرة، وسنحتاجُ إلى العودة إلى مصرَ لإحضارِ الطعام، ولنْ يعطونا ما نريد.

لقد قابلْنا عزيزَ مصر، وطلبَ منّا إِحضارَ أَخينا من أبينا معنا في المرةِ القادمة، وهدَّدَنا بأنه لن يعطينا ما نريد إنْ لم نحضِرْه معنا!

وأنت يا أبانا تعلمُ أننا بحاجةٍ إلى الكيلِ والطعام، لذلك نرجو منك أنْ ترسلَ معنا أخانا، وذلك حتى نُحضرَ الكيلَ الذي نريده.

ولا تخَفْ على أخينا الصغير منّا، فنحن حريصونَ عليه هذه المرة، ولنْ يحصلَ له معنا كما حصلَ ليوسف من قبل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وهنا تذكَّرَ يعقوبُ عليه السلام ما قالَه الأَبناءُ من قبل، عندما أرادوا أخذَ يوسف معهم، حيث قالوا له: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ورغم هذه التأكيدات منهم لحفظِ يوسف فإنهم لم يحفظوه، والآن يقولون عن أخيهم الصغير: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

فهل سيُعيدون حادثةَ يوسف مع أخيهم الآخر؟ وهل يريدون أنْ يَفجعوا أَباهم في الأخِ الصغير كما فجعوه في يوسف من قبل؟.

الأبناء يتعهدون بحفظ أخيهم:

نرى أنَّ الإخوةَ صادقون هذه المرة عندما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾. ولم يكونوا متآمِرين على أخيهم الصغير، كما تآمَروا على يوسف. فعندما أكَّدوا لأَبيهم حرصَهم على يوسف، وحفظَهم له، كانوا كاذبين متآمرين. أما الآن فإنهم لم يطلبوا أَخْذَ أخيهم الصغير معهم، وإنما الذي طلبه عزيزُ مصر، وإلاّ فلا كيلَ لهم عنده.

ويبدو أنَّ حادثةَ يوسف قد أَثَّرتْ في نفوسهم، وأنهم قد تأثروا بعد غيابه بما فَعلوا به، وتألَّموا لِما أصابَ أباهم مِن حزنٍ عليه، وأنَّ هذا كلَّه قد ساعدَ على امتصاصِ ما في نفوسهم من حقدٍ وحسدٍ على يوسف وأخيه، كما أنَّ مرورَ هذه السنين والأَعوام، وتقدُّمَهم في العمر قد عملَ على نضوج شخصياتهم، وتمكُّنِ الإيمانِ في نفوسهم.

لقد شعرَ الإخوةُ بالذنب لِما فعلوه مع يوسف، فتابوا إلى الله، واستغفَروه وأَنابوا إليه، واللّهُ غفور رحيم.

لهذا كلِّه لم يحقدوا على أَخيهم الصغير، ولم يتآمَرُوا عليه، وكانوا صادقين مع أَبيهم عندما قالوا عن أخيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا

نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وكانوا جادّين في حفْظِه، حريصين على ذلك.

لكنَّ كلامَهم لأَبيهم أثارَ في نفسه كوامِنَ الحزنِ على يوسف، والألَمَ لفراقه، وتذكَّرَ ما قالوه له سابقاً عندما أَخذوا يوسف، وظنَّ أنهم سيعيدونَ الكَرَّةَ من جديد، فصارَحهم بقوله: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾؟

يقول لهم: لقد أَمنتكم مِن قبلُ على يوسف بناءً على تعهدكم، فلم تحافظوا عليه، فهل آمَنُكم الآنَ على الأخ الثاني؟ لقد جربتُكُم من قبل فكيف أثقُ بكم مرةً ثانية؟

وردَّ على تعهُّدِهم بحفظِ أخيهم بقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. فاللّهُ هو الذي يحفظ، وأَنا أعتمدُ على حفظ الله، ولا أَعتمدُ على حفظكم.

وقد كان هذا الحوارُ بين يعقوب وبين أبنائه فورَ قدومِهم من السفر، وقبلَ أنْ يفكّوا أحمالَهم، ويروا أمتعتَهم، ولم يأخُذوا من أَبيهم موافقةً على إرسالِ أخيهم معهم، وبقيت هذه المسألةُ معلقة.

بعد ذلكَ فتحوا متاعهم، ففوجئوا: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾.

لما فتحوا المتاع، ونَظروا في الحبوب التي أَحضروها، فوجِئوا ببضاعتهم مع الحبوب، ولم يكن عندهم علْمٌ بأنَّ عزيز مصر - يوسف - قد أمرَ غلمانَه بوضعِ بضاعتهم وسطَ الحبوب! ولم يأخذْ منهم الثمن!

وقد فوجئَ أَبوهم أيضاً بردِّ البضاعة.

عندها اعتبروا إعادةَ البضاعة «ورقةً» ضغطٍ أُخرى عليه، ليوافقَ على إرسال أخيهم معهم، فقالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾.

معنى قولهم: ﴿مَا نَبْغِى﴾: لا نظلمُ ولا نَدَّعي ولا نكذب، فقد نَفوا عن أنفسهم البغيَ والظلمَ عندما طلبوا إِرسالَ أخيهم معهم، فليس هذا طلبهم، بل طلبُ عزيز مصر.

وها هو العزيزُ قد أكرمهم، وأَعادَ لهم بضاعتهم، وأعطاهم الحبوبَ على حسابه مجاناً: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾.

وسيستخدمون هذه البضاعةَ في الشراء من جديد، ويَدفعونها ثمناً لأَحمالٍ جديدة، وكأَنَّ هذه البضاعةَ توفيرٌ لهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾.

ومعنى «نَمير»: نُحضرُ الزادَ لأهلنا. والميرةُ هي الزادُ الذي يَشتريه الإنسانُ ويقدِّمُه لأهله.

وسيأخذونَ أَخاهم معهم، وهم حريصونَ على حفظه ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾.

وذَهابُ أخيهم معهم يحققُ لهم كسباً جديداً: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾.

إِنهم عشرةُ إِخوة، ويأخذون حملَ عشرة جمال، وهذا يسيرٌ قليل. أما عندما يأتي أَخوهم معهم، فسيكونون أَحدَ عشر رجلًا، وبهذا سيزدادون كيلَ وحملَ بعيرٍ جديد، وهذا خيرٌ للأسرةِ كلِّها.

ويدلُّنا هذا على أنَّ يوسفَ عليه السلام كان «يُقَنِّنُ» استهلاكَ الحبوب في سنواتِ الجدب، فكان يبيعُ كلَّ قادمٍ إِلى مصر كيلَ بعير، ولا يزيدُ على ذلك.

إِنَّ منطقَ الإِخوة مقنع، وكلامَهم واضح، ولهذا نجحوا في إِقناعِ أَبيهم بالموافقة على إِرسال أخيهم معهم، وليس أَمامه إلاّ الموافقة.

الأب يطلب منهم الموثق لحفظ أخيهم:

لكن موافقتَه كانت مشروطة: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾.

لم يكتفِ بمجردِ تعهُدِهم بحفظ أخيهم، كما في قضيةِ يوسف، وإنما أرادَ «الموثق». وهو اليمينُ المغلَّظ، والقسَمُ المؤكَّد بالله، ليكون هذا عهداً ملزِماً لهم، وموثِقاً يقيدُهم، كما يقيِّدُ القيدُ الماديُّ الإنسان.

قال لهم: لا بدَّ أنْ تُقسموا بالله أَمامي أيماناً مؤكَّدة مغلَّظة، أنْ تُحافظوا على أَخيكم الصغير، وأَنْ تُعيدوه لي سالماً، وأَنْ تأتوني به. إلاَّ أَنْ يُحاطَ بكم، وتفاجَأوا بحدَثٍ مفاجئ، ليسَ بالحسبان، فتعجزوا عن حفْظِه وإعادته، عندها لا تثريبَ عليكم.

فقولُه: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ استثناءٌ في اليمين والموثِق، وهذا الاستثناءُ ليعطيهم حريةَ الاختيار والحماية والحفظ، وهو استدراكٌ من أَبيهم، لأنه يعلمُ أنه قد تَجِدُّ وتحدثُ أمورٌ ليست في الحسبان، فأرادَ أنْ لا يُؤْثمهم بتكليفِهم بما لا يطاق!

وحلفَ الأَبناءُ العشرةُ الأَيْمانَ المغلظة، وآتوا أَباهم الموثق: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

وهكذا أخذَ الأبناءُ موافقةَ الأب على إرسالِ الأخِ معهم، بعدَ أنْ قدَّموا له اليمين مع الاستثناء، وهكذا تحققَ ما أَراده يوسفُ عليه السلام.

وقبلَ أنْ يتوجَّهَ الإخوةُ الأحد عشر إلى مصر، ومعهم بضاعتهم، قدَّمَ لهم أَبوهم نصيحة، تتعلقُ بكيفيةِ دخولهم مصر: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾.

عندما تَصِلون مصر، فلا تَدخلوا من بابٍ واحد، لأنكم أحد عشر أخاً. ولكن توزَّعوا على الأبواب، وادْخُلوا من أبواب متفرقة، بحيث تدخلُ كلُّ مجموعةٍ من باب.

ولا نقدرُ على تحديدِ الأبواب المتفرقة التي أَمرهم بدخولها، هل هي الطرقُ التي يدخلون مصر منها؟ أو هي أبوابُ سورِ المدينة عاصمة مصر؟ أو هي أبوابُ مقرِ حكمِ عزيز مصر؟. كما لا نقدرُ على تحديدِ

عدد هذه الأبواب المتفرقة: هل هي ثلاثةٌ أو أربعة أو أكثر. فكلُ هذا من مبهماتِ التعبير القرآني!!

ولم يبينْ يعقوبُ لأبنائِه الحكمة التي أرادها من هذه الوصية، إنما قدمَ لهم حقيقةً من حقائق الإيمان، فقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾: لما أوصيتُكم بهذه الوصية، وطلبتُ منكم الدخولَ من أبوابٍ متفرقة، فلا يعني هذا أنني أدفعُ عنكم قدرَ الله وأمره. إنما أخذتُ بالأسباب المادية، وقمتُ بالحذرِ المطلوب، لكنْ أخذي بالأسباب لا يوقِفُ قدرَ الله. فإنَّ اللَّهَ إنْ قدَّرَ وقوعَ الأذى والضررَ بكم، فلا بدَّ أنْ يقعَ رغمَ حذرِكم واحتياطِكم ودخولِكم من أبوابٍ متفرقة.

قصر الحكم على الله على لسان يوسف ويعقوب:

وبيَّنَ يعقوب عليه السلام في وصيته الإيمانيةِ لأبنائه أنَّ الحكمَ لله، وما على البشرِ إلاّ إحسانُ التوكلِ على الله، والرضا بحكمه، والتسليمِ لقضائه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

لقد وردتْ عبارة ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ مرتيْن في قصة يوسف، وهي في كل مرةٍ واردةٌ في سياق خاص.

المرةُ الأولى: قالَها يوسف عليه السلام للسجينين معه في السجن، لمّا عَرَّفهما على الإيمان، وقدَّمَ لهما الدعوة: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠].

لقد وردتْ هذه العبارةُ في سياقِ الخضوعِ لحكم الله وأمره وتشريعه، أي أنه لا حاكمَ إلا الله، هو الذي يحكَمُ ويشرِّعُ ويحلِّلُ ويحرِّم، وما على العباد إلا تنفيذُ حكم الله، والالتزامُ بشرعه، ليحققوا العبادة والعبودية لله، ويكونوا على الدين القيم الحق.

المرة الثانية: قالَها يعقوبُ لأبنائه وهو يطالبهم بالحذَرِ والأخذِ بالأسباب: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

وردتْ هذه العبارةُ هنا في سياقِ الرضا بقدر الله، والاستسلامِ لقضائه، والإيمانِ بأن كل ما يصيب الإنسان فهو من الله، سواء كانَ هذا ضراً أو نفعاً. إنَّ ما أراده الله فهو كائن، وما قدَّره فهو واقع، ومهما أخذَ الإنسانُ من أسبابِ الحيطة والحذر فلنْ يدفعَ عنه قدرَ الله، فالأمْرُ أمرُ الله، والقضاءُ قضاؤُه، والحكمُ حكمُه.

وكأنَّ يعقوبَ يقول لأبنائه: أنا مؤمنٌ بقدرِ الله، راضٍ بقضائه، مستسلمٌ لحكمه، متوكلٌ عليه.

الحكمُ التشريعي لله، كما قرَّره يوسفُ عليه السلام.

والحكمُ القدري لله، كما قرَّره أبوه يعقوبُ عليه السلام.

بعد هذه الوصيةِ الحذرةِ من يعقوب لأبنائه، وبعد هذه الحقيقة الإيمانية التي قدَّمَها لهم، سارت القافلةُ من جنوب فلسطين إلى مصر، وكلُّ واحدٍ من الإخوة الأحد عشر معه بعيره، يحملُ بضاعتَه التي سيدفعُها ثمناً للحبوب!

حاجة يعقوب المبهمة في دخولهم من الأبواب المتفرقة:

ووصلت القافلةُ مصر، ودخلوا من الأبوابِ المتفرقة كما أَوصاهم أبوهم: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

إنَّ أخْذَ الأبناءِ بأسبابِ الحَذَر كما أوصاهم أبوهم عليه السلام لن

يدفعَ عنهم قدرَ الله، ولهذا عاد التأكيدُ على هذه الحقيقة: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

لقد أرادَ اللّهُ أنْ يبتليَ الأسرةَ ابتلاءً جديداً، وأنْ يُصابَ الأخُ الصغيرُ الحريصون عليه بمصيبةٍ قدَّرَها اللّهُ عليه، كما سنعرفُ من سياق القصة التالي، وحَذَرُ الإخوة، ودخولهم من أبوابٍ متفرقة ما أَغنى عنهم من الله شيئاً، وما دفعَ عنهم ما قدَّرَه الله عليهم!

أما السببُ الذي دفعَ يعقوب لأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة. فإنَّ القرآنَ يجعلُه من المبهمات، ويَدْعونا إلى عدمِ الخوضِ فيه، وعدمِ محاولةِ تحديده، فلا فائدةَ من الخوض في ذلكَ طالما أن النصوصَ المعتمدةَ عندنا لا تحددُه: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾.

هي حاجةٌ في نفس يعقوب، لم يخبرْ يعقوبُ أحداً بها، بل لم يخبرْ أبناءَه بها، وقد حققَ يعقوبُ ما في نفسه، وقضى حاجتَه، عندما نفَّذوا وصيتَه.

وإذا كان يعقوبُ لم يخبرْ أَحداً بهذه الحاجة فهل يقدرُ أحدٌ على علْمِ ما في نفسه، وتحديدِ حاجته، بعد مئاتِ السنين من وفاته؟ ومَن هو الذي يحترمُ نفسَه وعقلَه، ويحترمُ النصَّ الذي أمامه: ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ ثم يحاولُ تحديدَ تلك الحاجة؟.

«فيم كانت هذه الوصية؟ لِمَ قال لهم أَبوهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبوابٍ متفرقة؟

تَضربُ الرواياتُ والتفاسير في هذا، وتُبدي وتُعيد، بلا ضرورة، بل ضدَّ ما يقتضيه السياقُ القرآنيُّ الحكيم. فلو كان السياقُ يحبُّ أنْ يكشفَ عن السبب لقال. ولكنه فقط قال: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾. فينبغي أنْ يقفَ المفسرون عند ما أرادَه السياق، احتفاظاً بالجوِّ الذي أراده. والجوُّ يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم، ويَرى في

دخولِهم من أبوابٍ متفرقة اتقاءً لهذا الشيء، مع تسليمِه بأنه لا يُغني عنهم من الله من شيء»[(١)].

[٢٣]

يوسف يأخذ أخاه بتهمة السرقة

لما دخلَ الإخوةُ على عزيز مصر، وقعتْ أحداثٌ مثيرة، لم يكونوا يتوقَّعونها، ولم يَحْسِبوا لها حساباً، بل فوجئوا بها مفاجأةً مدهشة.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٦٩ ـ ٧٩].

أكرمَ يوسفُ عليه السلام إخوتَه، وأحسنَ استقبالهم، في زيارتهم الثانية له، لا سيما أنَّ معهم أخوه الصغير الذي طلبَ إحضارَه.

---

(١) في ظلال القرآن ٤ :٢٠١٨.

تبدأُ آياتُ هذا المشهد بقول الله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يوسف يكشف هويته لأخيه:

وظاهرُ الآية أنَّ يوسفَ عليه السلام بدأَ بالمعاملةِ الخاصة مع أَخيه فورَ استقباله له. فما أنْ دخلَ الإخوةُ الأحدَ عشر على يوسف حتى آوى إِليه أَخاه، واختصَّه من بين إخوتِه الآخرين، واجتمعَ به وحدَه في معزلٍ عنهم.

فعلَ ذلك ليصارحَه بالحقيقة، وليقولَ له: إِنني أَنا أخوك، أنا يوسف الذي فعلَ إخوتُك بي ما فعلوا قبلَ سنوات، وها قد مَنَّ اللّهُ عليَّ وأكرمني، وجعلني حاكمَ مصر، وإخوتُك لا يعلمون أنني يوسفُ الذي أَلقوه في غيابة الجُبِّ وهو صغير، ليتخلّصوا منه.

ولا شكَّ أنك علمتَ يا أَخي بقصتهم معي، ووقفْتَ على ما فعلوه بي، وإنني أَدعوك إلى أنْ تصفحَ عنهم كما صفحتُ أنا، فها أنا أكرمهم وأحسنُ استقبالَهم، وعليك أنْ تقتديَ أنتَ بي، فلا تبتئسْ بما كانوا يعملون.

قالَ يوسفُ هذا الكلام لأَخيه عند استقبالِه له مباشرة، بدليلِ صياغة الآية: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ...﴾.

إنَّ «لَمّا» حرفُ شرط. وفعلُ الشرط هو: ﴿دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وجوابُ الشرط هو: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾.

أي أنَّ يوسفَ آوى إليه أَخاه وقالَ له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ عندما دخلوا عليه مباشرة.

عرفَ الأخُ الصغير أنَّ عزيزَ مصر الذي أَمامه هو أخوه المفقودُ يوسف، فكتمَ هذا السرَّ عن باقي إخوته، واحتفظَ به لنفسه.

وأَمَرَ يوسفُ غلمانَه بتجهيزِ إخوتِه الأحدَ عشر، ووضْعِ حِمْلِ حُبوبٍ على بعيرِ كلٍّ منهم.

يوسف يضع السقاية في رحل أخيه واتهامهم بالسرقة:

وذهبَ يوسفُ عليه السلام إلى رَحلِ أَخيه الصغير، ودونَ أنْ يراه أحدٌ من الغلمان أو الإخوة فتحَ الرّحل، ووضَعَ «السقايةَ» فيه، بين الحبوب، وأغلقَ الرحل، وأعادَه كما كان!!.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

و«السِقايةُ» هنا مبهمة مجملة، وهي «صُواعُ الملك» كما في الآيةِ التالية. فلا نعرفُ عنها إلاّ أنها صُواعُ الملك الذي كان يُستعملُ للسقاية، أو أَنها سِقايةٌ استُعملت فيما بعد صُواعاً للملك، لتكون مكيالاً يستعملُ في كيل الحبوب.

وكلمةُ «سقاية» توحي بأَنها إِناء، كان يُستعملُ في السّقاء، ويوضَعُ فيه الشراب، كما أَنها أَصبحتْ صواعاً للكيلِ فيما بعد.

المهمُّ أنَّ اللّهَ ألهمَ يوسفَ أنْ يقومَ بهذه الحركةِ المثيرة، ليترتبَ عليها ما سيكونُ بعد قليل.

لم يلاحِظْ أحدٌ ما جرى، ولم يشاهدِ الغلمانُ يوسفَ عندما فعلَ ما فعل، وأرادَ الغلمانُ أنْ يستخدموا السقايةَ للكيل، فبحثوا عنها فلم يجدوها، وفتّشوا عنها فلم يعْثُروا عليها.

وفي هذا الوقتِ كان الإخوةُ الأحدَ عشر قد حَمّلوا جِمالهم أحمالَها، وتأهّبوا للعودةِ إلى أهلهم.

وفكّرَ غلمانُ العزيز: أين السقاية؟ إنها غيرُ موجودة، وفَتّشوا عنها فلم يعثُروا عليها، لقد سُرقَتْ إذن!.

مَن الذين سرقوها؟ مَن هم آخرُ أُناس أَخذوا أَحمالَهم؟ إنهم الإخوةُ الأحدَ عشر، المتأهّبون للعودة! هم السارقون لصواع الملك!

ولا بدَّ أنْ يلحقوهم قبلَ أنْ يُغادروا!!

فنادى الغلمانُ الموظفون على الركبِ المغادرين، وفاجؤوهم بالاتهام: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادى المنادي، وأعلنَ اتهامَه الصريح، وقال ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

والعيرُ: هم القومُ التجارُ المسافرون معاً، والمرادُ بهم هنا الإخوةُ الأحد عشر!!

الحوار بين الإخوة والفتيات:

وفوجئَ الإِخوةُ الأبرياءُ بهذا الاتهام الصريح، فما كانوا يتوقَّعون أنْ يُتَّهموا بالسرقة، سرقةِ عزيز مصر الذي أكرمهم وأحسنَ إِليهم، وهُمْ مَنْ هم: إِنهم أولادُ نبي، وهم صالحون مؤمنون، فكيفَ يُتَّهمون بالسرقة؟

التفتوا نحوَ غلمانِ العزيز التفاتةً ملْؤُها الدهشةُ والصدمةُ والاستغراب: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

إنَّ الجملةَ المعترضة في الآية: ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ تصوِّرُ لنا تصويراً حياً مؤثِّراً كلَّ علاماتِ ومعاني الانفعال والمفاجأة والاستغراب!

لقد كان الركبُ سائرين للخروجِ من المدينة، فلما سمعوا الاتهام من قِبَل المؤذن، عادوا مسرِعين إِلى الغلمان، وسألوهم: ماذا تفقدون؟ وما الذي تتهموننا بسرقته؟.

أَجابَهم الغلمان قائلين: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ التي كِلْنا لكم بها الحبوب، والتي سرقْتُموها وأخذْتُموها وأخفيْتُموها.

وتسيرُ الأحداثُ المثيرةُ بالتسلسل والتدرج، فيبدأ الغلمانُ الموظفون بالترغيبِ والحثِّ على تسليم المسروق، حيث أَعلنوا عن جائزةٍ ثمينةٍ لمن يُعيدُ صُواعَ الملك: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

إِنهم يهيئونَ الفرصةَ لمن سرقَ صواعَ الملك للتراجع، وتسليمِ المسروق بإرادته، ويُرَغِّبونه بذلك، حيث سيعطونه حِمْلَ بعير من الحبوب. وهذا عَطاءٌ جزيلٌ كثير في مثلِ ذلك الظرفِ الخاص، الذي كان يعيشُه الناس، في سنوات الجدب!

وتكفلَ المؤذنُ زعيمُ الغلمان بأنْ يمنحَ حِملَ البعير لمن يسلِّمُه بقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾. ومعنى «زعيم» هنا: كفيل. أي: أنا الكفيلُ الزعيمُ بتقديم الجائزة، ولن نتراجعَ عنها.

ورغمَ أنَّ الجائزةَ ثمينة، لكنَّ الإِخوةَ لم يقبلوها، لا لشيء إلاّ لأنهم ليسوا سارقين، فهم يوقِنون أنهم أبرياءُ من التهمة!

ولهذا ردّوا على الغلمانِ في الحوارِ المدهش المثير: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

حَلَفوا اليمينَ بالله بأنهم لم يسرقوا، وأَخبروا الغلمانَ الموظفين أنهم يعلمونَ عنهم الخير، فهم ضيوفُ العزيزِ في المرة الأولى، وفي هذه المرة، وقد أكرمهم، لِما رأى فيهم من الخير.

وهم ما جاءوا ليفسدوا في أَرض مصر، ولا ليخرِّبوها، ولهذا لم يَسرقوا صواعَ الملك.

لقد عاملَهم العزيزُ وغلمانُه بالحسنى، وهم يردّون على الإحسانِ بالإحسان، ولا يُعقلُ أنْ يقابلوا إِحسانَ المصريّين إليهم بالإساءة والإفسادِ والسرقة!

ولقد كانَ الإخوةُ الأحدَ عشر صادقين في كلِّ كلمة قالوها: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾. لأنهم لا يعرفون ما الذي يحملُه أَحدهم في متاعِه.

لم ينفعْ أسلوبُ الحثِّ والترغيب مع القوم، ولهذا لجأَ الغلمانُ الفتيان إِلى الأُسلوب الآخر، أسلوبِ التفتيش والمحاكمة والعقوبة والقضاء.

فأوعزَ يوسفُ عليه السلام إلى فتيانه ليسألوا الرجال: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾؟.

اتفاق على عقوبة السارق بشريعة يعقوب:

أي: أنتم أَبناءُ نبي، ولا نعاقب السارقَ إلاّ على حسب شريعة أبيكم النبي، فما هي عقوبةُ السارق عندكم؟ كما علَّمكم أبوكم النبي. وإنْ كنتم كاذبين في دعواكم عدمَ السرقة، وثبتت السرقةُ عند أحدكم، فسوفَ نعاقبُه وفقَ شريعتكم لا وفقَ قوانيننا!

فأجابَ القومَ قائلين: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: عقوبةُ السارق في شريعةِ أبينا يعقوب النبي أنْ يأخذَ صاحبُ المتاع المسروق الشخصَ الذي سرق، ليكونَ عَبداً رقيقاً له مقابلَ ما سرقه.

ونَرضى أنْ تفتشونا، وأنْ تحاكمونا وفقَ شريعةِ أبينا، فمَنْ وجدتم صواعَ الملك في رَحله ومتاعه، فخذوه عبداً رقيقاً للملك، جزاءً له على سرقته.

وقد رضيَ الرجالُ بهذا لأَنهم يوقنون أَنهم بريئون، وأَنَّ أحداً منهم لم يسرقْ صواع الملك، ولهذا دَعَوْهُم إلى تفتيشِ الأمتعة، وكلُّهم ثقة وقناعة أنهم لنْ يَجِدوا الصواع عندهم!!

وما كان الرجالُ يتوقَّعون أنْ يكون صواعُ الملك في رَحل أَخيهم الصغير!

وكان هذا الحوارُ والكلامُ بين الإخوة الأَحَدَ عشر وبين فتيانِ يوسف عليه السلام وموظفيه، ويوسفُ عليه السلام يسمعُ ما يجري بين الفريقيْن، وهو مطمئنٌّ إلى نجاح خطتِه التي رسمها، وما كان يعلمُ أحدٌ من البشرِ غيرُه أنَّ صواعَ الملك عند أخيه الصغير، وأنه سيُكتشف بعد قليل في رَحله، وأنه سيُؤخذ عبداً مقابله، ما كان أحدٌ من البشر يعلمُ

هذه الحقيقةَ العجيبةَ المدهشة.

يوسف يفتش ويستخرج السقاية من رحل أخيه:

وبعدَ أن اتفقَ الفريقان، ورضيا بتحكيمِ شريعة يعقوبَ الربانية بدأ التفتيش، وقامَ يوسفُ نفسُه عليه السلام بعمليةِ التفتيش، فقامَ بحركةٍ ذكية، تدلُّ على حصافتِه وبُعدِ نظرِه، وتُبعدُ عنه أيَّ شبهة أو ريب. قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

قامَ يوسفُ بتفتيشِ أوعيتِهم وأمتعتِم ورحالِهم، إنه يعلمُ أنَّ السقايةَ في رحلِ أَخيه الصغير، لقد وضعَها هناك بيده، دونَ أنْ يشعرَ به أحد، فلماذا لم يهجمْ على رَحلِ أخيه فوراً، ويخرج السقايةَ منه؟

إِنه لو فعلَ ذلك لما كان حصيفاً ولا أَلمعياً، حيث سيثير حولَه الشبهات، وقد يقولُ أحدُ الإخوة: هذه مؤامرةٌ ضدّنا، وأنتم وضعتموها مُسبقاً.

وكلُّ مواقفِ وتصرفاتِ يوسف عليه السلام تدلُّ على تخطيطِه وبُعدِ نظره وحُسنِ تدبيره.

لقد بدأَ بتفتيشِ أوعيةِ الإخوة، واحداً واحداً، بتمهُّل وأَناة، وهو يُظهِرُ للمراقبين والمتابعين الدقةَ والحرص في التفتيش. والإخوةُ ينظرونَ له، وهم مطمئنون مرتاحون، بل هم شامتون لأنه لم يَجد السقايةَ في رِحالهم، فلماذا إِذن يتهمونَهم بالسرقة؟؟

وأخيراً وقعتِ المفاجأةُ المذهلة، التي فاجأت الفتيان أَوّلاً، ولكنها فاجأت الإخوةَ العشرة أكثر، فأذهلَتْهم وصدمَتْهم، وأَزالت صوابهم... فها هو يوسفُ يفتشُ متاعَ الأخ الصغير وها هو يُقلبُ المتاع.. ثم ها هو يُخرجُ السقايةَ من المتاع!!

إِذن السقايةُ في رَحل الأَخِ الصغير، إِذنْ هذا الأَخُ الصغير سارق، فهو الذي سرقَ السقاية.

فوجئَ الإخوةُ بما حصل، وانقلبتْ شماتَتُهم إِلى دهشةٍ وصدمة، فها هو الأخُ الذي تعهَّدوا لأَبيهم بحفظه، وحلَفوا له الأَيمان أن يعيدوه سالماً، ها هو يُضبطُ متلبِّساً بالسرقة.. والآن سينفَّذُ فيه الحكمُ الذي ارتضوا تنفيذَه على السارق، وسيعاقَبُ وفقَ شريعةِ أبيه، أي أَنه سيؤخَذُ الآن عبداً للعزيز، ولن يعود معهم إلى أبيهم!

ما هذه المفاجآتُ المثيرةُ المذهلة، التي لم يكونوا يتوقعونها؟.

الله يثني على فعل يوسف وتوجيهه:

وتتركُ الآياتُ الإخوةَ وسطَ الدهشةِ والصدمة والانفعال لتقدمَ لنا تقريراً وتعقيباً عن حكمةِ الله من تقديرِ هذه الحادثة المثيرة. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

إن اللّهَ هو الذي كادَ ليوسفَ عليه السلام، وأَرشدَه إِلى هذا التدبير الحكيم، ليتمَّ قدرُ الله في النهاية.

إنَّ قولَ الله عن ترتيبِ يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ثناءٌ من الله على يُوسف، ومدحٌ له لفعلته، وإِشارةٌ إِلى أَنه فعلها بإِلهامِ من الله، وهذا دليلُ أَنه فعلَها بعد النبوة، وأَنه كان على صوابٍ في فعلها.

إنَّ يوسفَ عليه السلام لم يتهمْ هو أَخاه بالسرقة، ليقالَ عنه: هو الذي وضعَ السقايةَ في رحْل أخيه، فكيف يتهمُه بالسرقة؟.

هو الذي وضعَ السقايةَ في رحْل أخيه، دون أنْ يعلمَ به أَحد، حتى مِن رجاله وفتيانه، وبعدَ ذلك وقفَ متفرجاً، يرقبُ تتابعَ لقطاتِ المشهدِ المثيرِ المفاجئ، دون أنْ يتدخلَ هو.

فتيانُه هم الذين فقدوا صواعَ الملك، وأحدُ فتيانِه هو الذي أَذَّن ونادى واتهمَ الرجالَ بالسرقة، وأحدُ فتيانه هو الذي وعدَ بجائزةِ حِمل

بعيرٍ لمن يُعيدُ الصواعَ المسروق، وتكفلَ بذلك، وأحدُ فتيانه هو الذي اتفقَ مع الرجال على أنْ يعاقَبَ السارقُ وفقَ شريعة يعقوب عليه السلام!!

كلُّ هذا ويوسفُ ينظرُ ويرقبُ ويتابع، دون أنْ يتدخلَ أو يتهمَ أو يحاكم أو يدين، وفي آخرِ لقطةٍ في المشهد المثير تقدمَ يوسفُ عليه السلام ليفتشَ أمتعةَ القوم، ويستخرجَ السقايةَ من رَحْل أخيه.

لقد كانَ يوسفُ على صوابٍ فيما فعل، ويَكفيه أنَّ اللّهَ أثنى عليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

ونقفُ لحظةً أمامَ تقديرِ الله ليوسف أنْ يأخذَ أخاه رفيقاً وفقَ شريعةِ أبيه، لا وفقَ قانونِ الملك: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

المرادُ بكلمة ﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ هنا هو: نظامُ ملك مصر وشرعُه وقانونُه، الذي يحكمُ الشعبَ المصري على أساسه، فيَخضعُ الشعبُ المصري لهذا القانون، ويَدينون لهذا النظام، ويَلتزمون ذلك الشرع، ولهذا سُمي ﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾.

لأنَّ أَساسَ معنى «الدين» هو الانقيادُ والخضوعُ والدينونة، لنظامٍ أو شرعٍ أو قانون أو حكم.

وهناك «دينان». أي: هناك: نظامان وشرعان وقانونان:

﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: أي نظامُه وشرعُه ومنهاجُه وقانونه الذي يحكمُ به الناس، سواء كان هذا الحاكمُ ملكاً أو رئيساً أو زعيماً، طالما نظامُه وشرعه يُناقضُ حكمَ الله. والخاضعون لهذا النظام يَدينونَ له، يقال عنهم: إنهم في دين الملك.

و«دين الله»: وهو نظامُه وشرعُه ومنهاجُه وحكمه، الذي أَنزله على رسله، وأَمر الناسَ أنْ يَدينوا ويخضعوا له، ويَعبدوا اللّهَ من خلال التزامه. والخاضعون لمنهاجِ الله وشرعه يُقال عنهم: إنهم في دينِ الله.

يوسف كان يحكم بشرع الله:

إنَّ اللّهَ لم يرضَ للنبيِّ يوسف عليه السلام أنْ يعاقبَ أَخاه وفقَ نظام الملك وشرعه ومنهاجِه، أي: وفقَ دينه الذي يَخضعُ الناسُ له به.

ولذلك ألهمَ اللّهُ فتيانَ يوسف أنْ يسألوا الإِخوةَ عن عقوبةِ السارق في شرعِ يعقوب النبي، أي: عقوبةِ السارق في «دين الله» الذي أنزلَه على يعقوب عليه السلام، وذلك ليعاقبَ يوسفُ أَخاه وفقَ دينِ الله وشرعِه.

وهذا يدلُّنا على أنَّ يوسفَ النبيَّ عليه السلام لما كانَ في منصب «عزيز مصر» معَيَّناً من قِبَل الملك، لم يكن مجردَ تابعٍ للملك، ولا منفِّذاً لنظام الملك، ولا حاكماً بشرعِه وقانونِه، وإنَّما كان يحكمُ بشرعِ الله، ويطبقُ على الناس حكمَ الله، وكان صاحبَ الكلمةِ والقرار في البلاد. ولا بد أَنْ يعرفَ هذا الذين يريدونَ أنْ يكونوا «وزراء» في حكوماتٍ لا تحكمُ بالإسلام، في بلاد المسلمين، مستدلِّين بما فعلَه يوسفُ عليه السلام، فأينَ فعلتُهم المردودةُ من حكمِ يوسف الصائبِ عليه السلام؟

وقد أَثنى اللّهُ على حكمِ يوسف وتصرفهِ وعلمه، وأخبرَ أنَّ اللّهَ رفعَه عنده درجاتٍ في العلمِ والفضل والمنزلة: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

ثم ذكرَ حقيقةً إيمانيةً حول علم الله الشامل المحيط بكل شيء، فمهما أُوتيَ يوسفُ من العلم، فعلْمُه محدودٌ قاصرٌ لأنه من البشر، واللّهُ أعلمُ من كلِّ بشر: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وبعدما عرضتِ الآياتُ كيفيةَ تفتيشِ يوسف عليه السلام للأمتعة، انتقلتْ لتسجيلِ وتصويرِ أَثَرِ الدهشةِ على الإِخوة.

الإخوة يتهمون يوسف كذباً بالسرقة وهو صغير:

فبعدما فوجئوا بسرقةِ أَخيهم لصواع الملك لم يعرفوا ماذا يقولونَ لعزيزِ مصر، فاتَّهموا أخاً له آخرَ بالسرقة، وفوجئ يوسفُ بهذا الاتهامَ،

ومع هذا ضبطَ أعصابَه أمامَهم! قال تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾.

اتهموا أخاً بأنه سرقَ من قبل، وهم يَعنون بهذا يوسفَ نفسه، حيث زَعموا أنَّ هذا الأخَ الذي سرقَ الآن ليس هو أولَ سارق، فهناك سارقٌ آخر، هو أخٌ لهذا السارق.

أما هم فإنهم بَريئون من السرقة، لم يَسرقوا من قبل، ولم يَسرقوا الآن، ولهذا كانوا صادقين عندما نفوا عن أنفسهم تهمةَ السرقة.

إنَّ الذي دفعهم لاتهام أَخٍ سابق بالسرقة ـ وهو يوسف ـ هو حرجُهم بعدَ اكتشافِ الصواعَ فيَ رَحْلِ أَخيهم، فماذا يقولون بعد كلِّ تأكيداتِهم السابقة بعدم السرقة، لم يَجدوا أَمامَ الإحراجِ إلاّ اتهامَ أَخٍ آخرَ غائب!

وإنَّ الذي دفعَهم إلى اتهام يوسف هو استيقاظُ حقْدِهم عليه الآن، بسببِ الفضيحة التي حلَّتْ بهم!! وكأنهم يجعلونَ أَخاهم الصغيرَ مشاركاً ليوسف في التسببِ بكلِّ ما حلَّ بهم من مصائب.

اتَّهموا يوسفَ بأنه قد سرِقَ من قبل. أي أنَه سرقَ لما كان عند والديْه، قبلَ أَنْ يَضعوه في غَيابة الجُبّ. وكم كان عمره وقتها؟ ألم يكن غلاماً صغيراً؟ وكيفَ يسرقُ وهو غلام صغير؟ وممَّنْ يسرقُ هذا الغلامُ الصغير؟.

لقد أَخَذَ بعضُ المفسرين والإخباريين كلامَهم على ظاهره، واعتبروهم صادقين عندما قالوا عن يوسف: ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، وراحوا يبحثونَ في طفولةِ يوسف عن أمثلةٍ عملية تُثبتُ عليه السرقة!

ولم يَجدوا ذلك في حديثٍ صحيح صريح، فاعتمدوا الإسرائيلياتِ في ذلك، وهي متَّهمة، وأَخذواً منها أمثلَةً على سرقةِ يوسف وهو صغير.

والأَوْلى أنْ ننزهَ يوسفَ عن السرقة حتى في طفولته، لأنَّ اللّهَ يعدُّه ليكونَ نبياً، واللّهُ يربّي النبيَّ تربيةً خاصة، ويَعصمه عصمةً خاصة!

الأَوْلى تكذيبُ القوم في اتهامهم هذا، تكذيبُهم نعم، فقد افتروا هذه الكذبةَ ليستُروا إِحراجَهم، ويَدفعوا التهمةَ عنهم. لقد كانوا كاذبين فيما قالوه! وليستْ هذه أولَ كِذْبةٍ تصدرُ عنهم!! أَلم يكذبوا على أبيهم النبيِّ يعقوب عليه السلام عدةَ مرات!.

الأَوْلى تكذيبُ القوم فيما زعموه، لا البحثُ في «ملفِّ» يوسف وهو صغير، للعثورِ على دليلِ اتهامٍ له، يصدقُهم فيما قالوه.

ثم إنَّ اللطيفَ في الأمر هو استقبالُ يوسفَ الحصيفِ عليه السلام لهذه التهمة، اتَّهموه بأنه سرق لما كان صغيراً، وهم لا يعلمون أنَّ عزيزَ مصر الجالسَ أمامهم هو يوسفُ نفسه، وأنه قد يُكذِّبهم.

كان بإمكانِ يوسفَ أنْ يردَّ على التهمة، وأنْ يبرئَ نفسه منها، وأنْ يُكذِّبهم فيما قالوا، وعندها سيعرفون أنهم واقفون أَمام يوسف، ولو فعلَ ذلك لفسدَ كلُّ ترتيبه وتدبيره وتخطيطه.

إذنْ عليه أنْ يتحمل، وأنْ يصبرَ على التهمة، وأنْ يضبطَ أعصابه، وأن يتصرفَ مع المسألة بكياسته وحصافته المعهودة، لهذا كظمَ غيظَهُ وأسرَّها في نفسه، ولم يعقب عليها: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾.

وكمْ من مرة استعلى فيها يوسفُ عليه السلام على آلامِه وأحزانه؟ وكم من مرة أُوذيَ واتُّهمَ فصبرَ واحتسب؟!!

لم يزدْ ـ أمامَ اتهامهم ـ على أنْ قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

أنتم إِخوةُ شرّ، ومكانكم هو الشر، وموقفُكم هو الشّر، ولا يعلمُ إلا اللّهُ حقيقةَ ما تزعمون، وتَدَّعون وتقولون!!

بهذا انتهى هذا المشهدُ المثير، وعرفَ الحاضرون أنَّ الأخَ الصغيرَ قد سرقَ صُواع الملك، وعرفَ الحاضرون حكمه، والعقوبةَ التي ستقعُ عليه: سيأخذُه عزيزُ مصر عبداً عنده مقابلَ ذلك المتاع المسروق.

الإخوة يسترحمون العزيز بأخذ أحدهم مكان الصغير:

وبهذا عرفَ الإخوةُ العشرة أَن أَخاهم الصغير سيتحولُ إِلى عبد رقيقٍ عند عزيزِ مصر، عندَها تذكَّروا ما جرى بينهم وبين أَبيهم، والموثقَ الذي أَعطوه على أَنْ يَعودوا به، واستحضروا مقدارَ ما سيصيبُ أباهم من حزنٍ وألم، عندما يعلمُ بما جرى، وبأنه فقد ابنَه الثاني...

تذكَّروا كلَّ هذا فحاولوا محاولةً أخيرة مع عزيزِ مصر: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾.

استرحَموا العزيز، ورجَوه واستعطفوه، وخاطَبوا إِحسانه وحُسنَ إِكرامه لهم، وطلبوا منه أنْ يرحمَ أباه الشيخَ الكبير، الذي سيذوبُ هَمّاً وحزناً على فراقِ ابنه، وإنه قد لا يتحملُ سَماع مثلَ هذا الخبرِ المفجع!

وعَرضوا عليه عَرضاً رحيماً: أنْ يطلقَ سراح هذا الابنِ الأثيرِ عند أَبيه، وأنْ يأخذَ أحدَ الإخوة الكبارِ العشرة مكانه، وأنْ يكونَ عبداً عنده مكانه.

وكانوا صادقين في الاسترحام، جادّين في العرض.

لكنَّ العزيز ـ يوسف ـ رفَضَ هذا العرض قائلاً: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

ذكَرَ لهم العزيزُ العدل، وأَخبرهم بعدمِ ارتكابه للظلم، واستعاذَ بالله من الظلم. فلو أنه رضيَ أَنْ يأخذَ أحدهم عبداً مكانَ الأخِ الصغير لكان ظالماً، فما ذنبُ ذلك الأخِ الكبير ليكون عبداً؟ إنَّ العدالَة تقتضي أنْ يُؤخذَ الذي وُجد المتاعُ عنده.

وإنّ التعبيرَ القرآني دقيق: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾.

لم يصرحْ يوسفُ بأن ذلك الأخَ الصغير سرق، لأنه ليسَ سارقاً في الحقيقة، ولو قال يوسف: لن نأخذَ إلاّ مَنْ سرق، لكان في هذا ظالماً للشاب.

ولهذا اختارَ جملةً تناسبُ الحالة: ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾. لقد وَجدوا صواعَ الملك في رَحل هذا الشاب، واستخرجوه، ثم عاقبوا الشاب. هذا كلُّ ما في الأمر.

وفشلَ الإخوةُ في الاسترحام والرجاء، وأصرَّ يوسفُ على أخذ الأخِ الذي وُجدَ المتاعُ عنده.

وهكذا احتفظَ يوسفُ بأَخيه الصغير، وغادرَ الإخوةُ العشرة المكان، ليفكّروا في الخطواتِ التالية.

وبهذا تنتهي هذه الحلقةُ من قصة يوسف عليه السلام، التي بدأَتْ عندما وليَ منصبَ عزيزِ مصر، وانتهتْ بأخذ أَخيه، وجمعِ شمله به، تمهيداً لجمعِ شملِ الأُسرة كلِّها، كما تعرضُه الحلقةُ التالية!!

[٢٤]

الحلقة الخامسة

جمع شمل أسرة يعقوب في مصر

يصلُ بنا السياقُ إلى الحلقةِ الخامسة ـ والأخيرة ـ في قصة يوسف عليه السلام، حيث سيلتقي يوسفُ بأسرته، وسيأتونَ إليه في مصر، وسيجتمعُ شملُ الأسرة، وبذلك تتحقق رؤياه التي رآها وهو صغير.

لقد عرفْنا من الحلقةِ السابقة قدومَ إخوة يوسفَ إليه أولَ مرة، ثم قدومَهم إليه ثاني مرة، ومعهم أَخوهم الصغير بناءً على طلبه، وعشْنا مسلسلَ الأحداث المثيرة في تلك الحلقة، عندما اختلى يوسفُ بأخيه،

وعرَّفه على نفسه، ثم وضعَ صواعَ الملك في رَحله، ثم فتشَ رحْلَ كلِّ واحد من الإخوة، ثم وجدَ الصواعَ في رحلِ أخيه، فأخذه عبداً رقيقاً، وقد حاولَ الإخوةُ استبدالَ أحدهم بالأخ الصغير، لكن يوسفَ أبى، وأصرَّ على أخْذِ مَنْ وُجد المتاعُ في رحله. وبهذا يئسَ الإخوةُ من استرجاعِ أَخيه الصغير، فذهبوا يفكرون في الخطوات التالية.

هذا ما انتهتْ إليه الحلقةُ السابقة، بمشهدِها الأَخير.

وبهذا عرفْنا أَنَّ مشكلةَ «الغُرْبة» في أسرةِ يعقوب عليه السلام ـ الغربةِ بين الابنِ الغائب المفقود وباقي الأسرة ـ بدأتْ بالحل، وبداياتُ هذا الحل التقاءُ الأخوَيْن، تمهيداً لالتقاءِ باقي أفراد الأسرة.

التقى يوسفُ بأَخيه، وقال له: إِني أنا أخوك. وأَلهمَ اللّهُ يوسفَ طريقةً مثيرة للاحتفاظِ بأَخيه، بتهمةِ السرقة في الظاهر، وعقوبة الاسترقاق.

المهمُّ أنَّ الأخَ بقيَ عند يوسف، والآن ستعرضُ لنا مشاهدُ الحلقة الخامسة تسلسلَ الأحداث بعد ذلك، حتى تنتهيَ إلى قدومِ الأسرة كلِّها من فلسطين إِلى مصر، واستقرارِها عند يوسف، وجمْعِ شملِها هنا من جديد...

[٢٥]

اجتماع الإخوة: تشاور واتفاق

حاولَ الإخوةُ استرحامَ العزيزِ ليأخذَ أحدهم رقيقاً مكانَ أخيهم الصغير، المأخوذِ بتهمة السرقة، ولكنه أصرَّ على عدمِ الاستبدال، فلن يأخذَ إلاّ مَنْ وُجِد صواعُ الملك في رحله.

اجتماع الإخوة السري لتدارس الأمر:

وعندما يئسَ الإخوةُ من استرجاعِ أَخيهم، تركوا العزيز، وغادَروا قصْرَه، وعقدوا لهم اجتماعاً مغلقاً، وتشاوروا ماذا يفعلون، واتفقوا على خطةٍ للعمل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٢].

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾: يئسَ الإخوةُ العشرةُ من تخليصِ أَخيهم من عند العزيز، لأنَّ العزيزَ رفضَ كلَّ مقترحاتهم واسترحامهم، وأصرَّ على أَخذِ أَخيهم الصغير.

وأَساسُ «استيأسوا» هو: يَئِسوا. لكنَّ الهمزةَ والسينَ والتاءَ في الفعلِ للتّوْكيد. ففِعْلُ «استيأسوا» أكثرُ تأكيداً على يأْسهم من تخليصِ أَخيهم، من فعل «يئسوا».

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾: ذَهبوا إِلى لقاءٍ خاص، واجتماعٍ مغلق لهم، انعزلوا فيه عن الآخرين، فكان لقاؤُهم خالصاً لهم، لم يشاركْهم فيه أحدٌ غيرُهم. وَجَلَسُوا يتناجون ويتشاورون ويتحادثون، ويفكّرون في ماذا سيفعلون.

و«نَجِيّاً» حال منصوب. بمعنى: متناجين.

رأي أخيهم الكبير وبقاؤه في مصر:

وطُرحتْ في اللقاء مجموعةٌ من الآراء، وأَبرزت الآياتُ ما قاله الأخُ الكبير.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾: ونشيرُ هنا إِلى أَنَّ القرآنَ أَبهمَ اسمَ الأخِ الكبير، فلم يَذكر اسْمَه. إِنَّ اسمه معروف لهم، ومعلومٌ عند مَنْ كانوا حوله. لكن اللّهَ لم يخبرْنا عن اسمه. والأَوْلى أنْ نبقى مع السياق القرآني، وأن نسكتَ عن ما سكتَ عنه، وأن لا نحاول تبيينَ ما أَبهمه!

قال كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾؟.

ذكَّرهم بالعهدِ والميثاق الذي أَخذه عليهم أبوهم، عندما أَذِن لهم باصطحابِ أخيهم معهم. فكيف يعودون إِلى أَبيهم بدون أخيهم؟ وماذا سيقولون له عندما سيسألهم عنه؟؟

وذكَّرهم بأسبقيتِهم السابقة مع يوسف: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾. وكأنه يقولُ لهم: أنتم متَّهمون عند أبيكم، وهو شاكٌّ فيكم، لقد أخذتم يوسفَ من قبل وفرطتم فيه، والآنَ فقدتُمْ أَخاكم الآخر، رغمَ موثقِكم لأبيكم! فماذا ستفعلونَ مع أبيكم؟.

أَمّا أَنا فلا أقدرُ على مواجهةِ أبي بعد الذي جرى. ولهذا أنا باقٍ هنا؛ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ويبدو أنَّ هذا الأخَ الكبيرَ كان أنضجَ الإخوة، ولم يكن موافقاً لهم في كلِّ ما يعملون، فقد رأَينا له تحفُّظاً على اقتراحِهم بقتْل يوسف، حيث أشارَ عليهم بإلقائِه في غيابة الجب. والآن ـ وقد صارَ أنضجَ فكراً وعقلاً ـ يقررُ أنْ يبقى في أرض مصر، لا يبرحُها ولا يغادرُها، ينتظرُ الإذنَ من أبيه، أَو الحكمَ والفرجَ من الله، بأنْ يفرّجَ هذا الكرب.

وأمرَ الأخُ الكبيرُ إخوتَه التسعةَ بأخْذِ أَحمالهم وجِمالهِم، والعودةِ إلى أبيهم، وإِخبارِه بتفاصيلِ ما جرى: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

هذا ما لقَّنه أَخوهم الكبيرُ لهم، ليقولوه إِلى أَبيهم.

يا أَبانا: لقد أَخذْنا أخانا الصغيرَ بناءً على طلبِ العزيز، وأَعطيناكَ موثِقاً بالمحافظةِ عليه، وإِعادتِه إليك سالماً، وقد حرصْنا على ذلك، لكننا فوجئنا بما ليسَ في الحسبان.

يا أَبانا: إنَّ ابنَك سرق. فقد فَقَدوا صواعَ الملك، وشكَّوا فينا، وفتَّشوا أمتعتَنا، فاستخرجوا الصُّواعَ من متاعه، وعاقبوه وفقَ شريعتك، فأَخذوه عبداً للعزيز.

هذا ما جرى أمامَنا وأَمام الآخرين، ونحنُ ما شهدْنا إلاّ بما علمنا، وما كنّا للغيبِ حافظين.

إِننا لم نكن نعلمُ الغيبَ عندما أَعطيناكَ الموثقَ والعهدَ على أنْ نعيدَه سالماً، ولم نكن نعلمُ أَنه سيؤخَذُ رغماً عنا بجريرةِ السرقة. وهو الآن عندهم سارق، والحقيقةُ لا نجزمُ بها، فهلْ سرقَ فعلاً، أمْ أنَّ في الأمر لُغزاً مثيراً؟ لا ندري، فما كنا للغيب حافظين.

يا أَبانا: إِننا نعلم أنك تشكُّ في كلامنا، ولا تصدِّقُنا، بسببِ قضيةِ يوسف التي حصلتْ من قبل، فإنْ كنتَ مكذِّباً لنا فاسأل القرية التي كنا فيها، فكلُّ أهلِ المدينة ـ عاصمة مصر، مقرِّ العزيز ـ عرفوا بالقصة، ولو سألْتَ أهلَها لأجابوك بأنَّ ابنَك استُرِقَّ لأنه سرق. واسألْ أيضاً العيرَ التي أقبلْنا فيها، القافلة التجارية التي تزودتْ بالحبوب من مصرَ إلى بلاد الشام، فقد شاهدَ أفرادُها مسلسلَ الأحداث المثير هناك، وأُخذَ ابنُك بتهمةِ السرقة.

وإِنّا لصادقون يا أَبانا في كلامِنا في هذه المرة، ولم نكْذِب عليك.

وبهذا انتهى اجتماعُهم، بعد أنِ اتفقوا على هذا القول.

[٢٦]

حزن يعقوب وأمله باللقاء

الأَحداثُ حتى هذا المشهد مثيرة، فقد انقسمَ أَبناءُ يعقوب الاثنا عشر إِلى قسمين:

تسعةٌ عادوا إِلى أَبيهم، ليخبروه بالحقيقةِ المؤلمة المرة.

وثلاثةٌ غائبون:

يوسف: مفقودٌ منذ عدة سنوات، ولا تعرفُ أُسرتُه عنه شيئاً.

والأَخُ الصغير: أُخذَ بتهمةِ السرقة، وهو الآنَ رقيقٌ عند عزيزِ مصر.

والأَخُ الكبير: تألَّمَ لما جرى، واستحيا أنْ يواجِه أَباه، فأصرَّ على الإقامةِ في مصر، لمتابعةِ قضيةِ أَخيه المستَرَقّ، وبانتظارِ الإذن والتوجيهِ من أبيه.

هذه هي الصورةُ حتى الآن.

إخبار يعقوب بالمشكلة وحزنه:

وصلَ ركبُ الإخوةِ التسعةِ إلى المنزل، ولكَ أن تتصورَ مقدارَ الصدمةِ والذهول الذي حلَّ بيعقوبَ عندما شاهدَ المنظر.

وكأنه سألَهم: أنتم تسعة، فأين أَخواكم؟ أَين أَخوكم الصغير الذي تعهدتُم بحفظِه؟ وأَين أخوكم الكبير؟ وماذا جرى له؟

وقد أَجابَ الأَبناءُ أَباهم على أَسئلته، وأَخبروه بما شاهدوهُ وسمعوهُ بالتفصيل. وعرفَ يعقوبُ الفاجعة، وفقْدَ أولادِه الثلاثة.

وقد سجلتْ آياتُ هذا المشهد ردَّ فعله. قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٣ ـ ٨٧].

لما سمعَ يعقوبُ قصةَ ابنِه الصغير، تذكَّرَ ما جرى لابنِه الآخر يوسف، قبلَ سنوات.

فعلقَ على كلامِ أبنائه، بنفسِ ما علّقَ به على كلامِهم السابق حول يوسف.

فلما أخبروه سابقاً ـ كاذبين ـ أنَّ الذئبَ أكلَ يوسف، قال لهم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨].

والآنَ لما أخبروه بما حدثَ لابنِه الصغير، قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وكأنَّ يعقوبَ عليه السلام لم يطمئنّ إلى كلامِ أبنائه حولَ ما حدثَ لأَخيهم الصغير، وكأنَّه ظنّها مكيدةً لهم كمكيدتِهم ضدَّ يوسف من قبل، ولهذا أجابهم بما أجابهم به يوم يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾.

أي: زينتْ لكم فعلَ أمرٍ ما، وحملَتْكُم على فعْلِه، وأَنا لا أَدري ما هو، وسأَصبرُ على ما جرى صبراً جميلاً، حتى يأذنَ اللّهَ بالفرج.

والجديدُ هنا أَنه عقَّبَ على كلامِه بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إنَّ الأملَ الآن يملأُ عليه مشاعرَه وكيانَه، إنَّ مرورَ السنوات الطويلة على فقْدِ يوسف وغيابِه، لم يجعَلْه يفقدُ الأملَ في حياته، وفي الاجتماع به، لأنَّ رؤياه وهو صغير، لا بدَّ أنْ تتحققَ وتتأولَ وهو كبير، إذَنْ هو موجود. لكن كيفَ وأين؟ لا يدري!!

كلُّه أملٌ ورجاءٌ بالله أنْ يجمَعه بأبنائه الثلاثة: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾. الابن الأكبر، ويوسف، والابن الأصغر.

واللّهُ عليم، يعلمُ أماكنَهم وما جرى لهم، ويعلمُ متى يأتيني بهم جميعاً.

وهو حكيم: له حكمةٌ في كلِّ ما جرى لنا مِن محنٍ وابتلاءات ومصائب، فهي لم تحدثْ لنا هكذا مصادفة، وإنما وِفْقَ أمْرِ الله وإرادتِه وقدره، وبمقتضى حكمتِه سبحانه،ونحن نرضى بقدَرِ الله، وننتظرُ إدراكَ حكمته في ما جرى. وننتظرُ منه جمْعَنا مع الغائبين، حتى تزولَ هذه الكروب، وتجتمعَ الأسرةُ من جديد.

أثر كظم يعقوب لآلامه على عينيه:

وأثَّرَ الخبرُ الجديدُ عن غيابِ اثنين من الأبناء على الشيخ الكبير، الصابرِ المحتسب، وزادَ هذا في أحزانه وآلامِه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: قامَ يعقوبُ من عند أبنائه وأسرته، وتولّى عنهم، وتذكَّر يوسفَ وما جرى له، وأيقظتْ مشكلةُ ابنيْه الجديدة كوامنَ حزنِه على يوسف، وأطلقَها زفرةً حرّى، ونفثةً مكبوتة من صدره: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

إنه يتذكَّرُه، ويحزنُ له، ويأسفُ على فراقه، ولا يزيدُه مرورُ السنين على غيابه إلاّ مزيدَ أملٍ في حياتِه ووجودِه، ومزيدَ أملٍ في لقائه، ومزيدَ شوقٍ ولهفةٍ إليه. وكأنه بقوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يريدُ أنْ يعجلَ بقطعِ المراحلِ وطيِّ المسافات الزمانية، ليلتقيَ به!!

ولقد كان يعقوبُ منفرداً بآلامِه وهمومِه وأحزانه، يكظمُها في أَعماقِ نفسه وشعوره وكيانه، فأثَّرَ هذا الكظمُ والتفردُ على أَعصابِ عينيه، وغطى بياضُهما على سوادِهما، وأصبحَ ضعيفَ النظر: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

لم يشعرْ يعقوبُ بمشاركةِ مَنْ حوله له في همومِه وأَحزانه، وإذا بَثَّ أحدَهم هَمَّه، يجدُ عنده اللومَ والتقريع، ولهذا كان منفرداً بهذه الآلام، لا يكلمُ أبناءَه بما يعانيه ويعيشُه ويؤلمه، ولا يجدُ منهم مواسياً ولا مؤانساً ولا مشاركاً ولا متفهِّماً، ولذلك لم يجدْ لأَحزانه متنفَّساً ولا

نَفاذاً، فترتدّ هذه الأحزانُ إلى مشاعرِه وأعصابه ونفسيته، فتزيدَه ألماً وحزناً، وعندما كان يكظمُها ويخزنُها في أعصابه كانت تؤثُرُ على حواسّه وجسمه، فيزداد مرضاً وسقماً.

ولقد أدى كظْمُ آلامِه وعدمُ تنفيسِها إلى أضرارٍ على عينيه، فضعفَ بصرُه، وابيضّتْ عيناه.

ومعلومٌ أنّ كظمَ واختزانَ الآلام النفسية، وعدمَ بثّها إلى أَخٍ مؤاخٍ مشارك، يؤدّي إلى أمراض عضوية، ويؤثُرُ على الحواسّ والبدن.

توقح الأبناء في ردهم على أبيهم:

ودليلُ أنّ أبناءَه كانوا غيرَ متجاوبين معه، ولا مشاركين له في همومِه، بل كانوا عاذلين لائمين، أنهم لما سمعوا قولَه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. ردّوا عليه بتوقُّحٍ وغلظةٍ وفجاجة: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

إنكَ لا تزالُ تذكرُ يوسف! ولا تفترُ ولا تتوقفُ عن ذكْرِ يوسف!! ولا تملّ من تذكُّر يوسف! وأنت موهومٌ حالمٌ متخيل! ما زلتَ تظنُ أنَّ يوسف حيّ! مع أنه ماتَ منذ سنوات، ولن يعود!! إِنْسَ يوسف، ولا تُتعبْ نفسَك باستمرارِ تذكُّره.

إنْ لم تكن واقعياً، وإنْ لم تنْسَ يوسف، وإنْ بقيتَ دائمَ الذكْرِ له، فستكونُ حَرَضاً، وتمرضُ مرضاً ملازماً، سَيَقضي عليك، وستهلك وتبيد!

أَهكذا يخاطبُ الأَبناءُ الكبارُ أَباهم المفجوع؟ أَبهذا القُبحِ المستقبحِ يُخاطبونه؟ أبهذِه الغلظة والجَلافة يعاملونه؟.

لقد حقَّ له إذنْ أَنْ يعتزلَهم، وأنْ لا يُخبرهم بما يعانيه، وأنْ يكظمَ أَحزانَه وآلامَه، ولو أَثّرتْ على أعصابِه وحواسّه!!

قالَ الإمامُ الراغبُ في معنى «كَظم»: «الكَظَم: مخرجُ النَّفَس:

والكُظُوم: انحباسُ النَّفَس. ويُعبَّرُ به عن السكوت. كقولهم: فلانٌ لا يتنفَّس إذا وُصفَ بالمبالغةِ في السكوت.

وكظْمُ الغيظ: حَبْسُه»[1].

فمعنى «كَظيم»: أَنه حبسَ آلامَه وأَحزانَه داخله، ولم يُخرجها، لعدمِ وجود مشاركين مواسين له.

وقالَ الإمامُ الراغب في معنى «حَرَض»: «الحَرَضُ: ما لا يُعْتَدُّ به، ولا خيرَ فيه. ولذلك يُقال لِما أَشرفَ على الهلاك: حَرِض.

قال الشاعر:

إِنـي امْـرُؤٌ نـابَـنـي هَـمٌّ فَـأَحْـرَضَـنـي ... حَتّى بَليتُ وَحَتّى شَفَّني السَّقَمُ»[2]

تَأَلَّمَ الأبُ المحزونُ لما سمعه من لومٍ وتقريعِ أبنائه، حيثُ لم يرحموا شيخوخَتَه، ولم يحترموا آلامَه، وبذلكَ ازدادتْ همومُه وأحزانُه، وازدادَ هو كظْماً وحبْساً واختزاناً لها.

يعقوب يشكو بثه وحزنه إلى الله:

وقد ردَّ الأبُ على عذْلِ ولوم أبنائه قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أَخبرهم أَنه لا يشكو همَّه ومصيبتَه وحزنَه لهم، لأنهم لا يشاركونَه ذلك، ولا يؤلِمُهم ما يؤلمه، ولا يَعْنِيهم ما يعنيه، فالأمرُ العظيمُ الشاقُّ بالنسبة له، هو تافهٌ حقيرٌ بالنسبة لهم، لا يستحقُّ حتى مجردَ التفكيرِ فيه!.

قال الراغب في معنى البَثّ: «أَصْلُ البثّ: التفريقُ وإِثارةُ الشيء، كبثِّ الريحِ التراب.

---

(١) المفردات: ٧١٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٨.

وبَثُّ النفس: ما انطوتْ عليه من الغمِّ والسر. يُقال: بَثَثْتُه، فانبثَّ.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أي: غمّي الذي أَبثُّه عن كتمان»[1].

إنني أكتمُ همّي وغمّي عنكم، لأنكم لا تشاركونني فيه، ولا أَشكو إلاّ إِلى الله، ولا أُخبرُ إِلاّ الله بهمّي وغمّي وبثّي وحزني.

وإِنني أعلمُ من الله ما لا تعلمون، فإِنني يحركُني شيءٌ ما في كياني، وهو من الله ربي، وهذا الشيءُ يملؤني يقيناً بأنَّ يوسفَ موجود...

«إنَّ هذا الواقعَ الظاهرَ الميئسَ من يوسف، وهذا المدى الطويلَ الذي يقطعُ الرجاءَ من حياته، فضلاً على عودته إِلى أبيه، واستنكارَ بَنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمدِ الطويل، في هذا الواقع الثقيل. إنَّ هذا كلَّه لا يؤثِّرُ شيئاً في شعورِ الرجل الصالح بربِّهِ.. فهو يعلمُ مِن حقيقةِ ربه ومِن شأنه، ما لا يعلمُ هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة، بذلكَ الواقعِ الصغيرِ المنظور!

وهذه قيمةُ الإِيمانِ بالله، ومعرفتِه سبحانه هذا اللونَ من المعرفة.. معرفةِ التجلّي والشّهود، ومُلابسةِ قدرتِه وقَدَره، وملامسةِ رحمتِه ورعايتِه، وإِدراكِ شأن الألوهيةِ مع العبيد الصالحين.

إنَّ هذه الكلمات: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تجلو هذه الحقيقةَ بما لا تملكُ كلماتُنا نحن أنْ تجلوها. وتَعرضُ مذاقاً يعرفُه مَنْ ذاقَ مثله، فيدركُ ماذا تعني هذه الكلماتُ في نفسِ العبد الصالح يعقوب...

والقلبُ الذي ذاقَ هذا المذاقَ لا تَبلغُ الشدائدُ منه ـ مهما بلغَتْ ـ

(١) المرجع السابق: ١٠٨.

إلاّ أنْ يتعمقَ اللمسَ والمشاهدةَ والمذاق.

ولا نملكُ أَنْ نَزيد، ولكننا نحمدُ اللّهَ على فضْله في هذا. ونَدَعُ ما بيننا وبينه يعلمُه سبحانَه ويراه..!!!»[1].

يعقوب يأمر بنيه بالتحسس من يوسف وأخيه:

وبعدما أعلنَ يعقوبُ يقينَه بوجودِ يوسف وحياته، وبعدما أَوحى لأبنائِه بذلك، صارَحَهم بالبحثِ عن يوسف، وملأَهم أَمَلاً باللقاء به: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾. وهي جمعُ «ابن»، وخاطَبهم بعاطفةِ الأُبوة الموجَّهة نحو البُنُوة. فرغمَ غلظتِهم معه، وسوءِ تعبيرِهم وخطابِهم له، لكنه يخاطبُهم بالرفقِ والمودة.

وقد أَمرهم بالعودةِ إِلى مصر، والبحثِ فيها عن يوسفَ وأَخيه: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

ومعنى التَّحَسُّس: البحثُ بالحواس.

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي عن التحسسِ والفرقِ بينَه وبين التجسس: «قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تطَلَّبوه بحواسّكم. وتحسَّسَ في الخير، وتجَسَّسَ في الشر.

قال الحربي: معنى الحَسّ والجَسّ واحد، وهو التطلُّبُ بمعرفة»[2].

ويُقال: الجاسوس: صاحبُ سِرِّ الشرّ. والناموس: صاحبُ سِرّ الخير.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٢٦.

(٢) عمدة الحفاظ للسمين ١: ٤٧٠.

وقال ثعلب: التجسّسُ ما طلَبْتَه لغيرك من معرفةِ أُمورِ الناس، والتحسّسُ ما طلبتَه لنفسك.

وقيل: أصلُ التجسُّسِ من الجَسّ، وهو مَسُّ العرق، وتَعَرُّفُ نبضِه ليَحكمَ به على الصحةِ والسقم، فالجسُّ أخصُّ من الحسّ، لأَنه تعرُّفُ ما لا يُدركُ بالحس»[1].

وإنَّ فعْلَ «تحسسوا» يدلُّ على البحثِ بحرصٍ وانتباه، مع تفاعُلِ النفسِ والمشاعر والحواس، والشعورِ بالأمل الكبير بالعثورِ على المطلوب.

وكأنَّ يعقوبَ عليه السلام يطلبُ منهم تشغيلَ كلِّ حواسِّهم في البحثِ عن يوسف وأَخيه في مصر، مع يقينهم بأَنهما موجودان فيها.

ويطلبُ يعقوبُ من أبنائه أنْ لا ييأَسوا من العثورِ على يوسف وأخيه، فإِنّ هذا يأسٌ من رَوْحِ الله ورحمتِه وفرجه، ولا ييأَسُ من رَوْحِ الله وفرجِه إلاّ القومُ الكافرون!.

[٢٧]

بين يوسف وإخوته: تعارف وتسامح

توجَّهَ الإخوةُ التسعةُ من جنوب فلسطينَ إِلى مصر للمرةِ الثالثة، ومعهم بعضُ البضائع ليشتروا بها حبوباً أُخرى.

أمل الإخوة بلقاء يوسف:

ولكنهم ذاهبون هذه المرة بمهمةٍ أكبرَ من التموين وشراء الحبوب، إنها مهمةُ البحث عن يوسفَ وأَخيه، وتنفيذِ ما كلَّفهم به أَبوهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

ذاهبون وكلُّهم أملٌ بلقاءِ يوسف وأَخيه، حيث غرسَ فيهم أَبوهم

---

(١) المرجع السابق ١: ٣٧٦.

هذا الأمل، عندما قال لهم: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فهم الآن مُهَيَّؤُونَ نفسياً وشعورياً للقاءِ يوسف، بل هم راغبون في لقائه، وسيتحسَّسون مصر وما فيها ليجدوه ويجتمعوا به.

ودخلوا مصر، واجتمعوا مع العزيز، الذي اجتمعوا معه مرتيْن من قبل، وكان بينهم ما عرضَته آياتُ هذا المشهد.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِىۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٨٨ ـ ٩٣].

تسجّلُ آياتُ هذا المشهد اللقاءَ المثيرَ بين الإِخوة وبين يوسف!

فقد دَخلوا على العزيز، الذي دخلوا عليه مرتيْن من قبل، ونحن نعلمُ مَن هو العزيز في الحقيقة، إِنه يوسف! أمّا هم فلا يعلمون. إِنهم يدخلون عليه ويكلِّمونه، ولا يفكِّرون أن يكون هو يوسف، ولا يَضعون لهذا أَدنى نسبةِ احتمال.

العزيز يوسف يتأثر ويحزن لما أصابهم:

والآن دخلوا عليه كما دخلوا عليه في المرتيْن السابقتيْن، لكنهم الآن يريدون التحسسَ من يوسف وأَخيه، ولعلهم يتحسَّسون عليهما عند العزيز، ولعلَّهم يسألونه عنهما.

أما العزيزُ فقد لاحظَ عليهم في هذه المرة ما آلَمه وأَحزنه، لقد أَثَّرت فيهم السفراتُ الثلاثة المتتابعة، كما أَثَّر فيهم الجدبُ والفقر، وهَدَّهم فَقْدُ أَخيهم الصغير، وإِبقاؤه عبداً، وتأَخُّرُ أَخيهم الكبير.

بدا كلُّ هذا على ملامحهم وأَشكالهم، وعلى كلماتِهم وتعبيراتهم، ولاحظَ يوسفُ هذا على إِخوته، وهو الحصيفُ البصير، فآلَمه وأَحزنه!

ولما كلَّموه أَحسَّ من كلامهم الانكسارَ والضعف، ولمّا استرحموه لمسَ فيهم مزيداً من المرارةِ والشكوى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾.

علمَ يوسفُ من كلامهم أنَّ الضرّ قد بلغَ منهم ومِن أَهلهم ما بلغ، ضُرٌّ في الأَبدانِ والنفوس والحياة.

ونفدتْ بضائعُهم، وقلَّتْ أَموالُهم، والآن جاءوا «ببضاعة مزجاة» مخلوطةٍ رديئةٍ ليشتروا بها الحبوب، حيث لم تَبْقَ لهم بضاعةٌ جيدة ثمينة.

وهم الآنَ يَسترحمونَ العزيز ويَسْتَعْطِفُونَهُ، ويرجونه أنْ يقبلَ هذه البضاعةَ الرديئة، وأنْ يبيعَهم بها الحبوب، ولو لم تكن مناسبة: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾.

بعدَ أنْ لاحظَ يوسفُ على إِخوتِه كلَّ هذا، ولمسَ منهم كلَّ هذا، ووقفَ على مقدارِ الضرِّ الذي أَصاب أَهله، أَيقنَ أنه آنَ الأوانُ أنْ يكشفَ لهم عن شخصيتِه الحقيقية، وأنْ يتوقفَ عن التخفّي وراءَ شخصيةِ العزيز!!

آنَ الأوانُ أنْ يفاجئَهم بالمفاجأةِ التي لا تخطرُ لهم على بال. إنَّ العزيزَ الذي حدَّثوه ويحدثونه، والذي استرحموه ويسترحمونه، والذي يقفونَ أَمامه الآن بكلِّ انكسارٍ وضعف، هو يوسف، يوسفُ الصغيرُ الذي تآمَروا عليه، وكادوا ضدَّه للتخلص منه. ها هو الآن عزيزُ مصر،

وحاكمُها الأوّل، وها هم الآنَ أمامَه على هذه الصورة!!

إنها مفاجأةٌ مثيرةٌ مذهلة! لكن لا بدَّ أنْ يخبرَهم، لتنتهيَ رحلةُ آلامهم.

يوسف يعرفهم على نفسه:

وإنَّ يوسفَ حصيفٌ عليه السلام، فلمْ يشأْ أنْ يفاجئهم بقوله: أَنا يوسف أخوكم، حتى لا يصدِمَهم، بل ترفقَ بهم، وذهبَ بهم إلى الماضي البعيد... قبلَ سنواتٍ وسنوات. فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟.

تذكَّروا مؤامرَتكم على يوسف وهو صغير، عندما فعلْتُم به ما فعلتم للتخلصِ منه، وكنتم جاهلين لَمّا قمتم بذلك الفعل، هل علمتم ذلك؟

وتذكَّروا في هذه اللحظات ذلك الماضي البعيد، لا سيما أَنهم الآنَ يتحسَّسون من يوسف وأَخباره، وأَنهم الآن على أملٍ كبيرٍ أنَّ يوسف حي، وأَنَّهُ في مصر، ولعلَّه في منصبٍ كبير في مصر، وهم في بحثٍ دائبٍ للتعرف عليه، وشوقٍ كبيرٍ للقاءِ به..

استحضَروا هذا الجو.. ثم سمعوا كلامَ العزيز بأُذُنٍ جديدة: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟ إنها الأُذُنُ المتحسسةُ التي تتسمَّعُ الكلامَ لعلَّها تسمعُ نبرةَ يوسف، ونظروا الآنَ إلى ملامح العزيزِ بعينٍ جديدة، إنها العينُ المتحسسة، التي تدققُ فيما ترى من الناس، لعلها ترى في أَحدهم ملامحَ يوسف!!

إِسمعوا: كأَنَّها نبرةُ يوسف! أُنظروا كأَنها ملامحُ يوسف، تحسَّسوا كأَنَّ هذا الذي أمامكم هو يوسفُ نفسه!!.

عندها سألوا العزيزَ وكلُّهم دهشةٌ ومفاجأةٌ وإثارةٌ وانبهار: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟.

وهو سؤالٌ يحملُ كلَّ معاني المفاجأة والدهشة: أَإِنَّكَ لأنت؟! أنتَ يوسف!! أنتَ عزيزُ مصر يوسف؟!

والآن تدركُ قلوبُهم وجوارحُهم وآذانُهم ظلالَ يوسفَ الصغير في ذلك الرجل الكبير..!.

وأسرعَ يوسفُ بالإجابةِ على سؤالهم ليريحَ أعصابهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾.

وأَشارَ إلى أَخيه الذي أَخذه بتهمةِ السرقة، ليكون عبداً له في الظاهر، مع أنه معزَّزٌ مكرَّمٌ عند أَخيه، والآن يعلمونَ أَنه ليس عبداً للعزيز، ولكنه أَثيرٌ عند الأَخِ العزيز!

ويعلنُ لهم أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عليه وعلى أَخيه: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ وهو يتقلبُ في مِنَنِ الله ونِعَمِه وعطاياه، بحيثُ أَوصلَه ربُّه إلى منصبِ الحاكمِ الأولِ لمصر!

نجاح يوسف بالتقوى والصبر والإحسان:

ويجعلُها يوسفُ الحصيفُ الذكيُّ مناسبةً لتقريرِ حقيقةٍ إيمانية، يعلِّلُ بها لإخوته المشدوهين السببَ في إنعام الله عليه، وفي إيصالِه إلى ما وصل إليه، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

هذه هي القاعدةُ الإيمانيةُ الربانية التي قرَّرها يوسفُ عليه السلام، والتي علَّلَ بها سِرَّ توفيقه ونجاحِه.

لقد تحققتْ فيه صفاتٌ ثلاثة أهَّلَته لنيلِ فضْلِ الله وإنعامِه، وهي: التقوى، والصبر، والإحسان.

ولم تفارقْ هذه الصفاتُ الثلاثة يوسفَ في أيِّ مرحلةٍ من مراحل حياته، فصاحبَتْه هذه الصفات عندما كانَ في بيت العزيز، وعندما راودَتْه امرأةُ العزيز، وعندما راودَتْه نسوةُ المدينة، وعندما أُدخلَ السجن،

وعندما تعاملَ مع المساجين، وعندما دَعاهم إلى الله، وعندما قابلَ الملك، وعندما ولي منصبَ عزيزِ مصر، وعندما استلمَ اقتصادَ البلاد، وعندما تعاملَ مع إخوته، . . . كان في كلِّ هذه المراحل والمواقفِ تقيّاً صابراً محسناً، وقد كافأَه اللّهُ على صبرِه وتقواه وإحسانه أحسنَ الجزاء في الدنيا، فصارَ في هذا المنصبِ الكبير: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

هذا في جانبِ يوسف الذي عرَّفَ إخوتَه على نفسه، وعلى سرِّ نجاحه.

يوسف يصفح عنهم بعد اعترافهم بالخطأ:

أمّا في جانبِ إخوته فإنَّ الموقفَ أَحرجَهم وأَخجلهم، حيث تذكَّروا ما فعلوه به وهو صغير، فشعروا بالندم.

ثم ها هم يقابلونَ يوسفَ عزيز مصر ثلاثَ مرات، وهو يعلمُ أَنهم إِخوتُه، وأَنهم فعلوا به ما فعلوا، ومع ذلك كان يكرمُهم ويُحسنُ إِليهم في كلِّ مرة، ولم يعاقبهم أَو يحاسبْهم أَو يعاتبْهم، لقد قابلَ إساءَتهم بالإحسان، وجهْلَهم بالحلم، فازدادوا خجلاً أَمامه.

عندها خاطَبوه قائلين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

اعترفوا له بأَنَّ اللّهَ آثَره عليهم، وفضَّلَه عليهم، وأَعطاه ومنَحَه أكثرَ مما أَعطاهم ومنحهم، فهو أَفضلُ منهم عندَ الله، لِما يتمتعُ به من تقوى وصبرٍ وإحسانٍ وحلم وصفح.

كما اعترفوا أَمامَه بخطئهم، وأَقرّوا بذنبِهم وجريمتِهم، وأَعلنوا أنهم كانوا خاطئين في كلِّ ما فعلوه به، خاطِئين في كيدهم ومؤامرتهم وكذبهم و. . .

يكفي هذا الاعترافُ منهم ولهم، ولا داعي لتطويلِ المحاسبة

والمعاتبة، ولا داعي لتطويلِ اعترافهم وإقرارهم، ولا داعي لإجراءِ محاكمةٍ منه لهم، وفتحِ ملفاتِ التحقيق معهم، واستجوابهم على كلِّ ما فعلوه به.

إنَّ صفاتِ يوسف تأبىٰ عليه أنْ يفعلَ بإخوته هذا، ولهذا اكتفى منهم بالاعترافِ بخطئهم، ثم سارعَ إلى إنهاءِ الموقفِ المخجلِ المحرج الذي يقفونَه أمامه، فأعلنَ لهم تجاوُزَه عن كلِّ ما فعلوه به، وصفْحَه عنهم، وإغلاقَ ملفِّ الماضي بكلِّ ما فيه من آلامٍ وأحزان!!

قالَ لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: لا لَوْمَ ولا تقريعَ ولا تأنيبَ عليكم اليوم، ولا تذكيرَ لكم بما فعلتموه بي بعدَ اليوم.

إنه في هذا يعلنُ لهم عفْوَه عنهم، ويَدْعوهم إلى فتحِ صفحةٍ جديدة للعلاقةِ به، تَخلو من الحقدِ والحسدِ واللؤم، والمكرِ والكيد والتآمر. وتحكمُها المحبةُ والمودة والأخوة.

إنه موقفٌ كريم، لا يقفُه إلاّ رجلٌ محسنٌ كريم، وإنه عفْوٌ وتسامحٌ وصفْح لا يقدرُ عليه إلاّ رجل حليمٌ متسامح.

ويُضيفُ يوسفُ إلى هذا أنْ يدعوَ اللّهَ لإخوتِه كي يغفرَ لهم، ويعفو عنهم: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

يوسف يطلب منهم إلقاء قميصه على وجه أبيه والقدوم بأهلهم:

وهكذا تمَّ التعارفُ بين يوسف عزيزِ مصر وبين إخوتِه، واجتمعَ شملُ الإخوةِ الاثني عشر في قصْرِ سيدِهم يوسف عزيز مصر.

وهنا تذكَّرَ يوسفُ أباه يعقوب عليهما السلام، وتذكَّر ما يُعانيه ويكابدُه أبوه من الهمِّ والبثِّ والحزن والألم لفقْدِه ابنَه يوسف، وما يعيشُه من حسرةٍ لفقْدِ ابنيْه الآخريْن، فيسارع يوسفُ إلى تكليفِ إخوتِه

بالذهاب إلى الأسرة، وإنهاءِ مسلسلِ الابتلاءات والمصائب.

قال يوسف لإخوته: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

لقد ذهبَ بصرُ يعقوبَ حزناً على يوسف عليهما السلام، وابيضّتْ عيناه لكظْمِه حزْنَه، وإنَّ يوسفَ يعلمُ هذا، لا نقولُ كيف يعلم، فإنَّ يوسفَ نبيٌّ عليه السلام، والنبيُّ يُعْلمه اللّهُ عن طريق الوحي أو الإلهام ما يُريد. لقد أخبرَ اللّهُ يوسفَ بما يعانيه والدُه من آلامِ وأحزان، وما نتجَ عنها من ذهابِ بصره عليه السلام.

أمرَ يوسفُ إخوتَه بأخْذِ قميصه إلى الأُسرة، وهناك يُلقون القميصَ على وجْهِ أَبيه يعقوب، وعندها سيذهبُ عنه ما يجدُه من ألمِ في عينيه، وسيعودُ له بصرُه أقوى مما كان!

وإنَّ اللّهَ أَخبرَ نبيَّه يوسف عليه السلام بأنَّ إلقاءَ قميصِه على وجْهِ أبيه سيعيدُ له بصره، وأمَرَه أن يفعلَ ذلك.

ولقد كانتْ هذه معجزةً ربانية من الله سبحانه وتعالى، وإلاّ فما دخْلُ قميصِ الابن في إعادةِ بصر الأب؟ وما العلاجُ الذي في القميصِ لإعادةِ البصر؟

إنَّ الأمْرَ ليس أَمراً مادياً، ولا يمكنُ أنْ يُعلَّلَ تعليلاً مادياً. لقدْ أرادَ اللّهُ أنْ يُعيدَ بصرَ الأب عن طريقِ قميصِ الابن! ولا بدَّ أنْ ننظرَ للموضوعِ من هذه الزاوية!!

ثم أَمر يوسفُ إخوتَه بأنْ يرتحلوا بأهلِهم من جنوبِ فلسطين إلى مصر: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والمرادُ بالأهل: هم وأَبوهم وأُمهم، وزوجاتُهم وأَبناؤهم، وعبيدهم وخدمهم، ودوابهم ومواشيهم.

أي أنَّ الأسرةَ ستنتقلُ كلُّها من فلسطين إلى مصر، لتكونَ إقامتُها هناك.

ونلاحظُ أنَّ يوسفَ عليه السلام صار هو الآمر الناهي، وما على إخوته ـ وهم أكبرُ منه ـ إلاّ التنفيذ. أي: صارتْ قيادتُهم وإمرتُهم إلى يوسف عليه السلام، يوسفُ الذي نَفَسُوا عليه وهو صغير منزلتَه عند أَبيه، ففعلوا به ما فعلوا، يوسفُ الآن بفضلِ الله هو الأميرُ عليهم القائدُ لهم.

ولماذا لا يَخضعون له، وقد خَضعتْ له مصر وما حولَها، سنواتٍ وسنوات، فقامَ بالقيادةِ والمسؤولية خيرَ قيام، عليه الصلاة والسلام!

[٢٨]

الإخوة مع أبيهم: اعتراف واستغفار

كلَّفَ يوسفُ إخوتَه بالعودة إلى الأُسرة، ومعهم قميصُه لعودةِ بصر أَبيه، ثم القدوم بالجميعِ إلى مصر.

وسارَ موكبُ الإخوة عائداً إلى الأُسرة، ووقعتْ لهم أَحداثٌ ومفاجآت، وسارت الخطةُ كما رسَمها يوسفُ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٤ ـ ٩٨].

يعقوب يجد ريح يوسف:

لما كان ركبُ الإخوةِ الأحدَ عشر قريباً من إقامة الأسرة، في جنوب فلسطين، شَمَّ يعقوبُ رائحةَ يوسف!: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾.

ومعنى ﴿فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾: انفصلت القافلةُ من طريق، ودخلتْ في طريقٍ آخر.

لقد كانَ الإخوةُ يركبون جِمالهم، سائرين في الطريقِ العام من مصرَ إلى فلسطين، وقبلَ أنْ يَقتربوا من مكانِ إقامةِ أهلهم تركوا الطريقَ التجاريَّ العام، وانفصلوا عنه، وفصَلوا إلى الطريق الآخر الموصِل إلى أهلهم.

ولا نَملكُ تحديدَ المكان الذي انفصلتْ عنه العير، وفصلتْ إلى الطريق الآخر.

المهمُّ أَنَّ يعقوبَ عليه السلام شمَّ ريحَ يوسف، قبلَ أنْ يصلَ أَبناؤه ومعهم القميص. ولا نملكُ تحديدَ المكان الذي كانَ فيه الأبناء عندما وجدَ الأبُ ريحَ يوسف، ولا تحديدَ المسافةِ بين هذا المكانِ وبين يعقوب، عليه السلام!

المهمُّ أنَّ يعقوب، وجدَ ريحَ يوسف، وشمَّ رائحةَ قميصه، من ذلك المكان البعيد!

كان يعقوب كلُّه يقينٌ وأمل أنَّ يوسفَ حي، وأَنه في مكانٍ ما من هذه المنطقة، لأنَّ اللّهَ أَراه رؤيا وهو صغير، ولا بدَّ أنْ يتمَّ تأويلُ الرؤيا عندما يكبر، ولم يتمَّ تأويلُها حتى الآن.

إذن يوسفُ موجود. لكن أين مكانُ وجوده؟ وما هو عملُه؟ وما تفاصيلُ ما جرى له؟ إنَّ يعقوبَ لم يعلمْ هذا، لأنه غيبٌ بالنسبة له، وهو لا يعلمُ الغيب!

صحيحٌ أَنه نبي، لكن النبيَّ لا يعلمُ كلَّ شيء! وهو لا يعلمُ من الغيب إلاَّ ما أَعلمه اللّهُ إياه، ولم يُعلمْه اللّهُ عن تفاصيلِ أَمْرِ ابنه يوسف.

وكان يعقوبُ يعيشُ على أَملِ اللقاء بيوسف، وكان هذا الأملُ يملأُ عليه حياتَه ومشاعره، ويَرى أنَ الأيامَ تقربُ هذا الأملَ إلى التحققِ الواقعي.

ولقد أَرسلَ أَولادَه إلى مصر ليتحسَّسوا من يوسف وأَخيه، وهو يوقنُ أَنهم سيجدونه، وهو يتلهفُ على سماع أَخبارِ قدومهم، ومعهم النبأُ السارُّ بلقاء يوسف.

في هذا الجوِّ النفسيِّ الكبير وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسف، ولا نعرفُ كيفَ وجدَ هذه الريح، ولا كيفَ شَمَّها، فهذا هو إِلهامُ الله له.

وقد أَعلنَها يعقوب بصراحةٍ للناس الذين معه في المنزل ـ وهم ليسوا أَبناءَه لأَنَّهم في مصر، وقد يكونون أَحفادَه ـ فقال لهم: إني لأَجدُ ريحَ يوسف.

ولكنَّ يعقوبَ يعلمُ موقفَ هؤلاء منه، واستمرارَ لومِهم وتأنيبهم له، ولذلك استدركَ قائلاً: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

قالَ الإمام الراغب: «التَّفنيد: نِسبةُ الإنسانِ إِلى الفَنَد، وهو ضعفُ الرأي»[1].

أي: لولا أنْ تَنسِبوني إِلى ضعف الرأي، وإِلى الهرم والخَرَف، وتقولوا: لقد أصبحتَ شيخاً هَرِماً خَرِفاً، لا تعرفُ ما تقول، بل تَهذي هذياناً. فأينَ أنتَ من يوسف؟ الذي ماتَ قبلَ سنوات عديدة، وأنتَ ما زلتَ تعيشُ على ذكراه، وتَهذي بشمِّك لريحه!!

لوم يعقوب والمفاجأة بحياة يوسف:

لقد كانَ يعقوبُ بكلامه هذا يعلمُ موقفَ أَهله، وما سيردّون به على كلامه، ولذلكَ سرعان ما ردّوا عليه: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

إِنهم ما زالوا يتوقَّحون على النبيِّ الكبير عليه السلام، ويُسيئونَ له القول، ويكلمونَه بغلظةٍ وشدة وقسوة، ولا يحترمونَ رأْيَه، ولا يُراعون شعورَه.

---

(١) المفردات: ٦٤٦.

قالوا ليعقوب: واللّهِ إنك ما زلتَ تفكرُ في يوسف، وهذا ضلالٌ وخطأٌ منك، إنك لا تريدُ أنْ تصدُّقَ أنه مات منذ ذلك اليوم، وأنَّ الذئبَ قد أكله، وتقول: إنه حي، وإنه موجود. ألا تريدُ أن تتخلى عن هذا الهذيان؟ وتتركَ هذا الخطأَ الكبير؟ والضلالَ القديم!!

وبعدَ قليلٍ تقعُ المفاجأة، ويَثبتُ للقومِ أنَّ يعقوبَ ليس على ضلالِه القديم، بل هو على حقٍّ واضح، فيوسف حي، وها هم الركبُ المسافرون يَصِلون، ومعهم قميصُ يوسف، وها هو البشيرُ يُلقي قميصَ يوسف على وجْهِ يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا...﴾.

وفوجئَ أَهلُ يعقوب عليه السلام بقدومِ البشير يحملُ معه قميصَ يوسف، إذن يوسفُ عليه السلام حيّ، ويعقوبُ عليه السلام على حق، عندما كانَ يعيشُ على أملِ لقاء يوسف، ويخبرُهم دائماً عن حياته.

وسُميَ حاملُ قميصِ يوسف بشيراً: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ لأنه يحملُ معه البشارةَ العظيمةَ السارة ليعقوب، البشارةَ العمليةَ بوجود يوسف وحياته، البشارةَ المتمثلةَ بقميص يوسف.

وفوجئَ أهلُ يعقوب جميعاً بتحقُّقِ المعجزة الربانية، كما أخبرَ يوسفُ إخوتَه عندها، لَمّا قال لهم: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

فما أنْ وَضعَ الأخُ الذي يحملُ القميص، البشارةَ التي معه ـ وهي القميص ـ على وجْهِ أَبيه يعقوب، حتى رجعَ له بصرُه على أفضلِ صورة: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

إنَّ عودةَ البصرِ ليعقوبَ معجزةٌ من الله، والذي أَعادَ له بصرَه هو الله، وقدَّرَ اللّهُ أنْ يكونَ قميصُ يوسف هو الأداةَ والسببَ الماديَّ المباشرَ في ذلك.

وفرحَ الأهلُ جميعاً بفرحتيْن عظيمتيْن:

فرحوا بوجودِ يوسف وحياته، والمكانةِ العظيمة التي وصلَها بأمر الله، إنَّ أخاهم يوسفَ هو الحاكمُ الفعليُّ لمصر!

وفرحوا بعودةِ بصرِ أَبيهم يعقوب، وزوالِ المرض عنه، وانتهاءِ آلامه وأحزانه بالعثورِ على يوسفَ عليه السلام.

يعقوب يذكرهم بما قاله لهم:

وفي هذا الجو من الفرحةِ والسرورِ قالَ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لقد سبقَ أن قالَ لهم هذه العبارة، عندما عَذَلوه ولاموه على استمرارِ تذكُّره ليوسف، وعندما أعلن أَسفه على يوسف لَمّا علمَ بما جرى لابنه الصغير، فقالوا له: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

عندها قال لهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إني أَعلمُ أنَّ يوسف حي، وأنتم لا توافقونَني على ذلك، وتلومونَني على هذا العلمِ والشعور، مع أَني أعلمُ من الله بشأن يوسف ما لا تعلمون.

والآن، وبعدَ أنْ عرفَ الجميعُ أنَّ يوسفَ موجود، وفي أعزِّ مكانةٍ وأَعلى منصب، ما زادَ يعقوبُ على أنْ ذكَّرهم بما قالَه لهم من قبل: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لقد قلْتُ لكم من قبل: إني أَعلم من الله ما لا تعلمون، وأعلمُ أنَّ يوسف موجود، وكنتم لا تصدقونَني، بل كنتم تفنِّدونني وتَعذلونني! فكيفَ بكم الآن؟ ما موقفُكم الآن بعدما عرفْتُم بحياة يوسف؟

الأبناء يعتذرون للأب:

بعد ذلك أَقبلَ الأَبناءُ على أبيهم معتذِرين عن كلِّ ما بدرَ منهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴿٩٧﴾﴾.

تذكَّروا كلَّ أخطائِهم مع أبيهم، وعَلموا أَنهم السببُ في كلِّ ما حلَّ بأبيهم وأَخيهم وأُسرتِهم، منذ أنْ حَقدوا على يوسف.. وتذكَّروا مسلسلَ الأَحداث المحزنة، التي كانوا هم السببَ فيها، حتى هذا المشهد.

تذكَّروا كلَّ هذا، فشعروا بتأنيبِ الضمير، وَعَرفوا أَنهم كانوا في ما فعلوا مذنبين مخطئين.

والآن اعترفوا بخطئِهم وذنبهم ومعصيتهم، فأَقبلوا على أَبيهم معتذِرين مقِرّين، وطلبوا منه أنْ يستغفرَ اللّهَ لهم، وأنْ يطلبَ من ربه أنْ يتجاوزَ عنهم: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

وهذا الموقفُ نفسه وقَفوه مع أَخيهم يوسف، عندما تعرَّفوا عليه في مصر، وهذا الطلبُ نفسُه طلَبوه من أَخيهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴿٩١﴾﴾.

ولقد عَرَفْنا أَنَّ أَخاهم يوسفَ عليه السلام عاملَهم بالصفح والتسامح، وسارعَ بالاستغفارِ لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴿٩٢﴾﴾.

أَمّا أَبوهم يعقوب فلم يستجبْ لهم بسرعة، ولم يسارعْ بالاستغفارِ لهم كما فعلَ يوسف، وإِنما تمهَّلَ وسوَّف، وردَّ عليهم بقوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ويبدو أنَّ السببَ هو عمقُ تأثُّرِه بما فعلوه به وبابنه، حيثُ تركتْ أفعالُهم في نفسه ومشاعرِه جرحاً عميقاً غائراً، كثيراً ما آلَمه وأَحزنه، وسبَّبَ له ما سبَّبَ من الهموم والمصائب.

ولهذا لا يستطيعُ أَنْ ينسى كلَّ هذا بسرعة، ولا أَنْ يصفوَ لهم ـ رَغْمَ أنهم أبناؤه ـ بسرعة!

صحيحٌ أنّه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، وأنَّ أخلاقَه نبويةٌ كريمةٌ عالية، وأنه أَسبقُ من غيره ـ لنبوَّته ـ في الصفحِ والعفو والتجاوز؛ لكنه لا يستطيعُ فعْلَ ذلك بسرعة، لأنه إنسانٌ ذو مشاعرَ وأَحاسيس، وقد عانى من أَبنائِه وأَخطائِهم ما عانى، ومرَّتْ على آلامِه وأحزانِه التي سبَّبوها له سنواتٌ وسنوات! فهل يستطيعُ أَنْ ينسى كلَّ هذا في دقائقَ معدودات؟؟

إِنه سوفَ يغفرُ ويصفح، وسوفَ يعفو ويسامح، وسوفَ يصفو ويسكن، لكن بعد فترة، وعند ذلك سيستغفرُ اللّهَ لهم.

من أَجلِ هذا المعنى «سَوَّفَ» في استغفاره، وأَرادَ منهم أَنْ يُمهلوه قليلاً.

ولقد صفا يعقوب لأَبنائِه بعد ذلك، فصفحَ عنهم وسامحهم، ثم استغفرَ اللّهَ لهم، واستجابَ لطلبهم. وبذلك تجاوزَ عن ماضيهم، وتناسى أَفعالَهم، وتعاملَ معهم على أَساسٍ جديد، لأنهم فتحوا معه صفحةً جديدة، تخلّوا فيها عن نقائِصهم، وتركوا ذنوبَهم وأَخطاءَهم، وسادتْ بينهم وبينَ يوسف روحُ المودةِ والمحبة والأخوة والتعاون.

ولا بدَّ أَنْ نشيرَ هنا إِلى الفرقِ ما بين يوسف وأَبيه يعقوب عليهما السلام، فيوسفُ كان أَسرعَ استجابةً لطلبِ إِخوتِه، وأَسرعَ صفحاً وتسامحاً، رغمَ أَنه عانى من إخوته ما عانى، قد لا تقلُّ عن معاناة أَبيه، فهما شخصيتان: شخصيةُ الأَبِ المكلوم، وشخصيةُ الابن الأسرعِ صفحاً وتسامحاً، عليهما الصلاة والسلام!!

[٢٩]

استقرار الأسرة في مصر

ها قد اقتربتْ أَحداثُ قصةِ يوسف عليه السلام من نهايتها، وها هو تأويلُ رؤيا يوسف العمليُّ قد اقترب.

فلما عادَ بصرُ يعقوب إِليه، تجهزت الأُسرةُ كلُّها للارتحال إلى مصر، تنفيذاً لأمْرِ يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

يعقوب يذهب بأهله إلى مصر:

أَخذَ يعقوبُ عليه السلام أهلَه جميعاً، أبناءَه وعائلاتهم، وخدمَهم وعبيدَهم، ودوابَّهم ومواشيهم، وأَموالَهم وأغراضهم... وسار الموكبُ الإيمانيُّ من جنوب فلسطين إلى مصر، ليستقروا جميعاً عند يوسفَ عزيز مصر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

وصلَ الموكبُ إلى مصر، ودخلوا جميعاً على يوسفَ عليه السلام، عزيزِ مصر وحاكمها الفعلي.

وقدمَ يعقوبُ وامرأتُه على ابنهما يوسف، وتخيَّلْ كيف سيكونُ اللقاءُ بين الابن وأَبيه، بعد غيابٍ قسري استمرَّ سنواتٍ عديدة، وكلُّ واحد منهما عنده من الشوقِ لِصَاحِبِه كما عندَ الآخر!

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

آوى يوسفُ أَباه وأُمَّه أَحسنَ إِيواء، وأَكرمهما أَحسنَ إِكرام، وأَحلَّهما في أَعلى منزلة.

وهيأَ لإِخوتِه وأُسرتِه أفضلَ الأماكنِ للإقامة، وقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وهكذا اجتمعَ شملُ الأسرة، لكن في مصر وليس في بلدِ النشأة فلسطين، وهكذا استقرَّ الأبُ والأمُّ والأبناءُ والعائلاتُ في مصر.. وهكذا ارتحلَ أَبناءُ يعقوب إِلى مصر، وهكذا كان بنو إِسرائيل في مصر، وهذه هي أولُ هجرةٍ لبني إِسرائيل، التي هي الحلقةُ الأُولى في مسلسل الهجرات، الذي صبغَ تاريخَهم كلَّه.

سجود الجميع ليوسف:

وبعدما زالَ عن الوالديْن والإِخوةِ وعثاءُ السفر، واستقروا في مصر حولَ يوسف عزيزِ مصر، آنَ الأوانُ لتأويلِ رؤيا يوسف التي رآها وهو صغير: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

أَكرمَ يوسفُ أَباه وأُمه، فرفعَهما وأَجلسهما على عرشِ الملك، وكُرسيِّ الوزارة، بينما وقفَ إِخوتُه الأحد عشر أَمامه.. وخرَّ الجميعُ ساجدين له: الأَبوان والإِخوة.

سجدوا ليوسفَ عليه السلام، وهو أَمامَهم.

والظاهرُ أَنَّ سجودَهم بين يديْه كان سجوداً حقيقياً، وليس مجردَ انحناءٍ بين يديه، لأَنَّ معنى السجودِ المذكورِ في القرآن هو السجودُ المعروفُ على الأرض.

والدليلُ على هذا صياغةُ الجملة، حيث قالَ الله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾. فإِنَّ معنى فعْلِ «خَرَّ» أنه وقعَ على الأرض، وليس انحنى وهو واقف.

ولم يكن سجودُ الأبوين والإخوةِ ليوسف سجودَ عبادة، لأنَّ سجود العبادة لا يكونُ إلاّ لله، إنما كان تكريماً منهم ليوسف.

ثم هم عندما سَجدوا ليوسفَ كانوا منفِّذين لأمْرِ الله، لأنَّ اللّهَ هو الذي أَمرهم بالسجود، فسجدوا، فهم في الحقيقةِ كانوا ساجدين لله، وما يوسفُ إلا بمثابةِ قبلةٍ لهم في السجودِ لله!.

وسجودُهم التكريميُّ ليوسف دليلُ أنَّ يوسفَ عليه السلام كان أَفضلَ منهم عند الله، وأعلى منزلة وأرفعَ مكانة، ولعلَّ سجودَ يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام دليلٌ على أفضليةِ الابنِ هنا على أَبيه!!!.

يوسف يتذكر شريط حياته أمام أبيه:

ولما انتهى مشهدُ سجودِهم بين يديه، أقبلَ يوسفُ على أَبيه قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

عادت الذاكرةُ بيوسفَ عليه السلام إلى أيام طفولته، فتذكَّرَ الرؤيا التي أَراها اللّهُ له، وتذكَّرَ ما قالَه لِأَبيه، وقاله أبوه له.. تذكَّرَ هذا وهو الآن عزيزُ مصر. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: ٤ ـ ٦].

تذكَّرَ يوسفُ الآن رؤياه، وما قالَه لأبيه، وما قال أبوه له.. ها هي أُمُّه الشمس، وها هو أَبوه القمر، وها هم إخوتُه الكواكبُ الأحد عشر.. ها هم الجميع ساجدون له. أليس هذا هو ما رآه وهو صغير. ولهذا ناسبَ أنْ يعلقَ يوسف على مشهدِ سجودهم له بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

إنَّ تأويلَ الرؤيا هو بيانُ نهايتها العملية، وبُعْدِها الواقعي، لأنَّ

الرؤيا رمْزٌ نظري إلى حادثٍ عملي مستقبلي، ووَعْدٌ بوقوعِ ذلك الحادث في المستقبل.

وتأويلُ الرؤيا هو تحقيقُ هذا الوعدِ النظريِّ في صورةٍ عمليةٍ واقعية.

«هذا تأويل رؤياي» وحل العقدة الفنية:

وقصةُ يوسف عليه السلام بحلقاتِها ومشاهدها ولقطاتِها تقومُ على «عُقْدةٍ فنية» ـ بالتعبيرِ الأَدبي الروائي ـ. هذه العقدةُ الفنية تقومُ على رؤيا رآها طفلٌ صغير، ترمزُ إِلى مركزٍ عظيم سيكون له وهو كبير، ووعْدٌ بتحقيقِ هذا المستقبل له.

فتأتي حلقاتُ القصة ومشاهدُها لتحقيقِ ذلك الوعد، وتكون خطواتٌ مبرمجةٌ مقصودة لتأويلِ تلك الرؤيا. وكلُّ حلقةٍ أو لقطة، توظَّفُ لتكونَ خطوةً أو لبنةً في تأويلِ الرؤيا، وتحقيق الوعد.

وهكذا أوصلَ اللّهُ يوسف إِلى هذا المركز العظيم، وجاءَ أَبوه وإِخوتُه وسَجدوا بين يديه.

وهذا هو تأويلُ رؤياه التي رآها من قبل، قد جعلها اللّهُ حقاً، حيث انطبقتْ على عالمِ الواقع فعلاً، وهذه هي حقيقتُها.

وبذلك انحلت «العقدةُ الفنيةُ» للقصة، وانتهتْ هذه النهايةَ الإِيمانيةَ المبشِّرَةَ السعيدة، حيث وصلَ الجميعُ إِلى هذه النهاية السعيدة على دربِ الأَحزان والآلام والمصائبِ والمحن والابتلاءات!.

حكمة الله في كل ما جرى للأسرة:

وبعدما أَشارَ يوسفُ إلى التأويلِ الفعلي لرؤياه، ذكرَ لأَبيه خلاصةَ قصته وفضْلَ اللّهِ عليه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

يقولُ يوسف: اللّهُ عليم يعلمُ ما سيكون لنا، وهو حكيمٌ يقدرُ الأشياءَ التي تقعُ لنا بحكمته، وهو لطيفٌ في إيقاعِ هذه الأشياءَ بنا، يوقعُها بنا بلطْفِه، ويرحمُنا من خلالها برحمته، ويحسنُ إلينا فيها بإحسانِه!

صحيحٌ أنه وقعتْ لنا أحداثٌ مثيرة، وسِرْنا على طريق الأحزانِ والآلام والمحن، لكنَّ اللّهَ أوقعَها بنا بحكمته وعلمِه ولطفه ورحمتِه وإحسانِه.

لقد بدأَتْ قصتي بوساوسِ الشيطان ونزغاته التي أَلقاها في صدور إخوتي، ففعلوا بي ما فعلوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾.

وقد نتجَ عن مؤامرتِهم ضدّي أنْ كنتُ في مصر، ووقعتْ لي فيها أحداث، قضيتُها بإحسانِ الله بي وإنعامِه عليّ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى﴾!

ومن إحسانِ اللّهِ بي أنْ أَخرجني من السجن إلى كرسيّ الوزارة، ومنصب الولاية، أرفعِ منصبٍ في مصر.

وها أنتم الآن عندي بعد أنْ جاءَ اللّهُ بكم من جنوبِ فلسطين، من منطقة البدو: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

وها نحن نرى الآنَ تحقيقَ ما قدره الله، حققَه اللّهُ بلطفِه ورحمته، وعلمه وحكمه.

ولا ننسى أنَّ بدايةَ قصةِ يوسف أَشارتْ إلى علم الله وحكمته، حيث قالَ له أَبوه يعقوب: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والآن في خاتمةِ القصة يعلنُها يوسفُ صريحة: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فيتناسقُ بدءُ القصةِ مع ختامها، وكأنَّ كلَّ حلقاتِ ومشاهدِ القصة

تجري في ظلالِ لطفِ الله وعلمه وحكمته.

وهكذا انتهتْ مشاهدُ قصةِ يوسف عليه السلام باستقرارِ الأسرة في مصر، وتتوقفُ روايةُ القصة عند هذه النهايةِ السعيدة.

دعاء ختامي ليوسف وهدفه:

وبقيتْ لقطةُ الختام، تخبرُ عن يوسفَ عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

هذا دعاءٌ دعا بِهِ يوسفُ عليه السلام ربَّه، أعلنَ فيه تضرُّعَه وإِنابتَهُ إِلى الله، وأظهرَ فيه هدفَه ورغبتَه في نيلِ ما عندَ الله.

وهذا الدعاءُ هو أفضلُ ختام فنيٍّ وديني لهذه القصة، لأنه يختصرُ أهمَّ الدروس المُسْتَخْلَصَةِ منها، وكأنَّ يوسفَ عليه السلام في دعائه هذا يُعَلِّمُ كلَّ مسلمٍ أنْ يتمثلَ هذا الدعاء، وأنْ يجعلَه هدفاً له، وأن يختمَ به حياتَه على هذه الأرض.

يقولُ يوسف عليه السلام مناجياً ربَّه متضرِّعاً إِليه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: أنعمتَ عليَّ يا ربِّ بنعمةِ الملكِ والمنزلة والجاه والسلطان، وَوَهَبْتَنِي من ذلك ما وهبْتني، وهي أعظمُ نعمِ الحياةِ الدنيا.

﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾: كانت آيتي في تأويلِ الأحاديث، وتعبيرِ الرؤيا، وكانت سببَ وصولي إِلى ما وصلتُ إِليه من المنصب الكبير، وهذا التعليمُ منك، وبفضلك.

ونلاحظُ أنَّ يوسفَ أسندَ العطاءَ إِلى الله، ونسبَ الفضْلَ إِليه، في أهمِّ نعمتين: نعمةِ المنصب والسلطان، ونعمةِ العلم والمعرفة.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أنتَ يا ربِّ قادرٌ على كلِّ شيء، خلقْتَ السموات والأرض..

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ﴾: اعتمادي يا ربّي عليك، وليس

على ما أَنا فيه من المنصب والسلطان، فأنتَ الناصرُ الذي ينصرني، وأنتَ المعين الذي يعينني!

«ربِّ إنـي لا أسألـكَ سلطاناً ولا صحةً ولا مالاً.. ربِّ إني أسألُكَ ما هو أَبقى وأغنى فتوفَّني مسلماً، وأَلحِقْني بالصالحين.

وهكذا يتوارى الجاهُ والسلطان، وتتوارى فرحةُ اللقاء، واجتماعُ الأهل، ولمةُ الإخوان.

ويبدو المشهدُ الأخير، مشهدُ عبدٍ فَرْد، يبتهلُ إِلى ربِّه أنْ يحفظَ له إِسلامَه، حتى يتوفّاه إِليه، وأنْ يُلحقَه بالصالحين بين يديه..

إِنه النجاحُ المطلقُ في الامتحان الأَخير..»[1].

[٣٠]

مباحث ختامية حول قصة يوسف عليه السلام

قصة يوسف دليل على نبوة محمد:

وظَّفَ القرآنُ قصةَ يوسف عليه السلام دليلاً على نبوةِ محمدٍ ﷺ، وعلى أنَّ القرآنَ كلامُ الله. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقد جاءتْ هذه الآيةُ تعقيباً على قصةِ يوسفَ عليه السلام، فاعتبرت الآيةُ أحداثَ القصة من أنباءِ الغيب وأخباره، أخبرَ اللّهُ بها رسولَه محمداً ﷺ.

والملاحَظُ أنَّ بدايةَ السورة أَشارتْ إِلى هذا المعنى، حيثُ قال الله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٣٠.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ١ ـ ٣].

إنَّ اللّهَ هو الذي أنزلَ القرآنَ على رسولِه محمد ﷺ. وهو الذي قصَّ على رسولِهِ في آيات هذا القرآن أحسنَ القصص، وأخبرَ رسولَه عن أحداثِ السابقين، بما كان غافلاً عنه من قبل، لأنه لم يتعلَّمْ ذلك على يدِ معلِّم، ولم يقرأه في كتاب.

أحداث القصة من أنباء الغيب ووجه دلالتها على النبوة:

ومن القصصِ الذي قصَّه اللّهُ على رسوله في القرآن، قصةُ نبيِّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام، فهي نموذجٌ لأحسنِ القصص، وكان الرسولُ محمدٌ ﷺ غافِلاً عنها، غيرَ عالمٍ بتفصيلاتها وأحداثِها. .

وأَحداثُ القصة من أَنْبَاءِ الغيب، وهذا يدعونا إلى أَنْ لا نأخذَ أَنباءَ الغيب التي فيها إلاّ من المصدرِ العلميِّ اليقيني الصحيح، وهذا محصورٌ في آياتِ القرآنِ الصريحة، والأحاديثِ الصحيحةِ لرسول الله ﷺ، وأنْ نكتفيَ بها، فلا نذهبُ إلى أيِّ مصدرٍ آخر.

ومعنى هذا أنْ نقفَ عند ما وقفَ عنه القرآنُ والحديثُ الصحيح، وأنْ لا نحاولَ تبيين ما أَبهم، ولا تفصيلَ ما أَجمل، ولا الحديثَ عن ما سكتَ عنه فيهما.

وتؤكِّدُ الآيات على مصدرِ القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

يقولُ الله لرسوله محمدٍ ﷺ: لولا أَننا أَوحيْنا إليك في هذا القرآن أَنباءَ وأخبارَ وأحداثَ قصة يوسف، لما عرفْتَ أنتَ عنها شيئاً. لأنك ما كنتَ حياً عندما وقعتْ أَحداثُ القصة، وما كنتَ ساكناً عندهم، ولا متحركاً معهم، فكيفَ ستعرفُ تفاصيلَ قصتهم؟

ما كنتَ مع إخوةِ يوسف إِذْ أَجمعوا أَمرهم وهم يمكرون، عندما تآمروا على يوسفَ وهو صغير، ولا عندما اتفقوا على أنْ يَضعوه في غيابةِ الجب، ولا عندنا اتفقوا على الكذبِ على أَبيهم عندما عادوا مساءَ

يبكون. وما كنتَ لَدى أهلِ مصر وهم يمكرونَ بيوسف فتى امرأة العزيز، وما كنتَ لدى النسوةِ وهنَّ يتآمَرْن على يوسف، ولا لدى القوم وقد اتفقوا على سجنه، وما كنتَ لدى يوسف لما كان عزيزَ مصر، ومكرَ ودبَّرَ ليأخذَ أخاه...

ما كنتَ هناك معهم، وما كنتَ حاضراً تلك الأحداث. فكيف تتْلوها على الناسِ في آياتِ القرآن؟ إنَّ هذا دليلُ أَننا أَوحينا إليكَ هذا القرآن، وأَطلعْناك على تفاصيلِ تلك الأنباء!!.

وقد توقَّفَ عرضُ القصةِ في سورة يوسف عندَ جمعِ شمْلِ أسرةِ يعقوبَ في مصر، واستقرارِ أَبناء يعقوبَ جميعاً عند يوسف.

أمّا نبيُّ الله يعقوبُ عليه الصلاة والسلام، فظاهرُ الأَمِر أَنه توفيَ في مصر، في حياةِ ابنه يوسف.

ولا نعرفُ تفاصيلَ وفاته، وكلُّ ما أَخبرنا عنه القرآنُ أنه أَوصى أَبناءَه بالإسلام، والحياةِ به، والموتِ عليه، وأنه لما كان على فراشِ الموتِ سأَلَ أَبناءه عن دينهم، واطمأنَّ على حسن إِسلامهم.

هذا ما أَخبرتْنا عنه آياتُ من سورة البقرة. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣].

وقد تكلَّمْنا عن معاني ودلالاتِ هذه الآيات، عندما تحدَّثْنا عن قصةِ يعقوب عليه السلام.

ورود «الأسباط» في القرآن:

ومن الملاحَظِ أنَّ القرآنَ يتحدثُ عن «الأسباط»، عند ذكْرِهِ لأَسماءِ أَنبياءِ بني إِسرائيل.

وقد حملَ كثيرٌ من المفسرين «الأَسباط» على أَبناءِ يعقوب الاثنيْ عشر، فاعتبروهم كلَّهم أَنبياء.

ذُكرتْ كلمةُ «الأَسباط» في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

وفي قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة: ١٤٠].

كما وردتْ كلمةُ «الأَسباط» في سورةِ آل عمران، في نفسِ السياق. قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: ٨٤].

كما وردت «الأسباطُ» في سورة النساء، في نفسِ السياق أَيضاً. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣].

إِنَّ «الأسباطَ» مذكورون في هذه الآياتِ الأربعة كلِّها، ضمنَ نفس الأَنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

وهذا الذكْرُ جعلَ الكثيرين يعتبرون الأَسباطَ هم أبناءَ يعقوب الاثني عشر.

فهل هذا صحيح؟ وهل إخوةُ يوسف أنبياء؟ وما معنى الأَسباط؟

إِنَّ الذين يعتبرون إخوةَ يوسف أَنبياء يجعلون معنى الأسباط

الأَبناء، فهم أَسباطٌ ليعقوبَ لأَنهم أبناءٌ له من صلبه!

فهل الأسباطُ في اللغةِ هم الأبناء؟ وهل السِّبْطُ هو الابن؟

قال الإمام الراغب في معنى السَّبط: «أصْلُ السَّبْط: انبساطٌ في سهولة... والسِّبْط: وَلَدُ الوَلد، كأنه امتدادُ الفروع. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: قبائل. كل قبيلة من نسل رجل»[١].

وقال السمينُ الحلبي عن الأَسباط: «الأسباطُ جمعُ سبط، وهم في بني إِسرائيل كالقبائل في العرب. وأَحسنُ منه ما قاله الأزهري: الأَسباطُ في ولد إسحاق، والقبائلُ في ولدِ إسماعيل، فعلوا ذلك تفرقةً بين أَولاد الآخرين، أَعني إسحاقَ وإسماعيل.

واشتقاقُ السِّبْط من الامتدادِ والتفريع، لأنَّ السبطَ وَلَدُ الولد، فكأنَّ النسبَ امتدَّ وانبسطَ وتفرَّع.

«... وقيل: اشتقاقُ الأَسباط من السبط، وهو الشجرةُ التي أَصْلُها واحد، وأغصانُها كثيرة.. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ فتَرجَمَ الأَسباطَ بالأمم، فكلُّ سبطٍ أُمة. وفي الحديث: الحسنُ والحسين سَبْطا رسولِ الله ﷺ.

قال المبرد: سألتُ ابنَ الأعرابي عن الأَسباط فقال: هم خاصةُ الولد. أي: هم أَولادُ الولد..»[٢].

السِّبْطُ في اللغة إذن هو الشيءُ المنبسطُ الممتدُّ المتفرعُ عن الأصل، وهو يطلقُ على وَلَدِ الولَد، وليس على الولد نفسه.

ومعلومٌ عندنا أنَّ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما هما سَبْطا رسول الله ﷺ، وهما ابنان لابنتِه فاطمة رضي الله عنها.

---

(١) المفردات: ٣٩٤.

(٢) عمدة الحفاظ للسمين ٢:١٩١.

إِذن «الأسباطُ» المذكورون في القرآن، ليسوا أَبناءَ يعقوب عليه السلام، بل ذريتَه المتفرعةَ من أبنائه.

أسباط بني إسرائيل هم قبائلهم:

والأَسباطُ في بني إسرائيل كالقبائلِ في العرب، فهم بمعنى الأُمم، كما ورد في صريح القرآن.

قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

«أُمماً» في الآية منصوبة، لأَنها بدلٌ من «أسباطاً». أي: قطَّعْنا بني إسرائيل اثنتي عشرةَ أُمة. ولهذا فجَّرَ اللّهُ لهم من الحجر اثنتي عشرة عيناً، على عدد قبائِلهم وأَسباطِهم.

وإِذا كانت «الأسباط» بمعنى قبائل بني إِسرائيل، فإِن الأسباطَ ليسوا أَنبياء، وإِنما ذكرهم الله ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء، على تقديرِ حذف مضاف. والتقدير: وأَنبياءُ أَسباطِ بني إِسرائيل.

أيْ: آمنّا بما أُنزل على الأَنبياء: إِبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأَنَّ اللهَ أخبرنا بأسمائهم أَنهم أنبياء، وآمنّا بالأَنبياء الآخرين الذين بعثهم الله إِلى أَسباط وقبائل بني إِسرائيل، ولم يخبرْنا اللّهُ عن أَسمائهم.

لقد بعثَ اللّهُ إِلى أَسباطِ بني إسرائيل أَنبياءَ كثيرين، لم يخبرْنا إِلاّ عن أَسماءِ قليلٍ منهم. كما قالَ تعالى عن الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

الراجح عدم نبوة إخوة يوسف:

وإذا كان الأسباطُ ليسوا أنبياء، وإنما هم قبائلُ بني إِسرائيل الذين بعثَ اللّهُ لهم الأَنبياء، فلا بدَّ أنْ نبحثَ مسألَةَ نبوة أَبناءِ يعقوب عليه السلام.

الثابتُ في نبوةِ أَبناء يعقوب هو نبوةُ ابنِه يوسف عليهما السلام، فمنْ أنكرَ نبوتَه فقد كفر، لأنَّ القرآنَ والسنةَ نصّا على نبوته.

أَمّا إِخوتُه الأَحدَ عشر فقد اختلفَ علماءُ المسلمين في نبوتهم، فمنهم مَنْ قال إِنهم أَنبياء، ومنهم من قال ليسوا بأنبياء.

بدايةً نقول: ليس في مصادرِنا الإسلامية الموثوقة ـ القرآن والحديث ـ نصٌّ على نبوتهم، ولو وُجدَ ذلك لما اختلفَ المسلمون في نبوتهم!

ونقولُ أيضاً: كتاباتُ اليهود في العهدِ القديم على أنَّ كلَّ أَولادِ يعقوب الاثني عشر أَنبياء، لأَنهم أُصولُ وأَجدادُ بني إِسرائيل، فلا بدَّ أنْ ينصَّ أَحبارُ اليهودِ على نبوةِ أَجدادهم!!

ولعلَّه مِن هنا تسرَّبَ هذا القولُ إلى المسلمين، الذين كانوا يذهبون إِلى الإِسرائيلياتِ ورواياتِ العهد القديم، يأْخذونَ منها العلمَ والثقافة، مع أنَّ الموقفَ الإسلاميَّ الموضوعيَّ من الإسرائيليات يرفض ذلك!

إِننا مع الذين يقولون إِن أَبناءَ يعقوبَ الأحد عشر ليسوا أَنبياء، فلا نثبتُ إلاّ نبوةَ ابنِه يوسف فقط عليه السلام.

والدليلُ على عدمِ نبوةِ إِخوته:

لا نُثبتُ النبوةَ لأحدِ من السابقين إلاّ بآيةٍ صريحة من القرآن، أَو بحديثٍ صحيحٍ مرفوع عن رسول الله ﷺ.

فإذا لم نملكْ هذا الدليلَ اليقينيَّ في إِثباتِ نبوةِ مَن اختُلف في

نبوته من السابقين، وقلْنا إِنه نبي، فنخشى أنْ نقعَ في محظورٍ كبير، فنُثبتُ نبوةَ مَنْ ليس نبياً، فكما أنه لا يجوزُ نفيُ نبوةِ أحدِ الأنبياء، كذلك لا يَجوزُ الإضافةُ على الأَنبياء، وإِدخالُ ما ليس نبياً عليهم! فهل يجوزُ أنْ نؤمنَ بنبوةِ مَنْ ليس بنبي؟؟.

ثمّ إنَّ تصرفاتِ وأفعالَ إخوة يوسف لا يمكنُ أنْ تصدرَ عن أنبياء، ولو قَبْلَ أنْ يكونوا أَنبياء.

ومن الجرائم الخطيرة لهم، التي تكلَّمْنا عنها فيما سبق: سوءُ كلامِهم مع أَبيهم النبيِّ يعقوب عليه السلام. فمرةً يقولون: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ومرةً يقولون له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾. ومرةً يقولون له: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾!!

فهل يقولُ مؤمنٌ صالحٌ هذا الكلام لأَبيه المؤمن؟ فكيفَ يقولُه مَنْ سيكونون أَنبياء لأبيهم؟

ومن جرائمهم: الكذب، فقد كَذَبوا على أَبيهم عندما اتهموا الذئبَ بأَكْل يوسف، وكَذَبوا على يوسف ـ عزيز مصر ـ عندما قالوا له: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

فهل يكذبُ النبيُّ بعدَ النبوة؟ بل هل يكذبُ النبيُّ قبلَ النبوة؟.

ومن جرائمهم: الحقدُ واللؤمُ والكيدُ والتآمر، وهي أَمْرَاضٌ وانحرافاتٌ أخلاقية وعُقَدٌ نفسية، لا تصدرُ عن مَنْ سيكونون أَنبياء.

وتتنافى مع السماحةِ واليُسر والطيبة، الصفاتُ الملازمةُ للأنبياء قبلَ أنْ يكونوا أنبياء.

ومِن أَفظعِ جرائمهم: ما فعلوه بأَخيهم الصغير يوسف، فهلْ يفكرُ مَن سيكونون أَنبياء بقتْلِ أَخيهم الصغير؟ وإذا ما استفظعوا القتلَ فهل يُلقونَه في البئر؟. ولولا رحمةُ الله التي أدركتْ يوسفَ الطفلَ في البئر لكان فيه موتُه وهلاكُه!

لهذه الجرائمِ التي صدرتْ عن إِخوةِ يوسف نقول: لم يكونوا أَنبياء!! ودَعْكَ منَ دعاوى ومزاعمِ أَحبار اليهود التي سجَّلوها في رواياتِ العهد القديم المحرفة!.

كلُّ ما نَقولُه عن إِخوة يوسف عليه السلام: كانوا في أَفعالهم الخاطئة التي سجلَتْها لهم آياتُ سورة يوسف عُصاةً مخطئين، ارتكبوا تلكَ الذنوبَ والآثام.

وبعد ذلكَ شعروا بتأنيبِ الضمير، فتابوا إِلى الله، وأَنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طَلبوا من أَخيهم يوسفَ أنْ يستغفرَ اللّهَ لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم.

وبعدَ ذلك تابوا وأَنابوا، واستقاموا وأَصلحوا، فأَقصى ما وصلوا إِليه أَن يكونوا مؤمنين صالحين، وعابدين محسنين، وبهذا ختموا حياتَهم!!

مبهمات في ما جرى للأسرة بعد ذلك:

ومِن مبهماتِ خاتمةِ قصة يوسف عليه السلام في مصر، أَنَّ السياقَ القرآني وقفَ عند استقرارِ الأسرةِ كلِّها في مصر، عندَ يوسف عزيز مصر.

ولا نعرفُ ماذا جرى لهذه الأسرةِ بعد ذلك، لعدمِ وجودِ أَدلةٍ إسلاميةٍ يقينية نعتمدُ عليها.

ومن الأسئلةِ التي نتوقفُ في الإجابةِ عليها، لأنَّ الإجابةَ عليها تعيينٌ للمبهمات بدون دليل: أينَ استقرت الأُسرةُ في مصر؟ وماذا عملت الأُسرةُ بعد استقرارها؟ وكيفَ ومتى وأينَ توفّي يعقوبُ عليه السلام؟ وكم سنةً عاش يعقوبُ في مصر؟

كما لا نَعْرِفُ كم سنةً بقي يوسف عليه السلام في منصبِ عزيزِ مصر، ولا ماذا كانتْ نهايةُ قصتِهِ مع امرأةِ العزيز، وهل تزوجَها أو لا؟ ومَن هم أولاده؟ وكم عددُهم؟

ولا نعرفُ هل بقيَ يوسفُ في منصبِ عزيز مصر حتى تُوفي؟ أو تركَ المنصبَ قبلَ وفاتِه؟ وإذا كان كذلك فما هي أسبابُ تركه المنصب؟ وماذا جرى له بعدما تركَ المنصب.

وبالنسبةِ لنبوة يوسف عليه السلام ودعوتِه لأهل مصر، فلا نعرفُ تفاصيلَ دعوتِه الإيمانية للمصريين، ولا أثرَ دعوتِه فيهم، ولا مَنْ استجابَ لدعوتِه وآمَن، ولا مَنْ رفضَ الدعوةَ وأصرَّ على كفره.

مبهمات في نهاية يوسف ووفاته:

كما أنَّ كلَّ ما يتعلقُ بوفاةِ يوسف عليه السلام من المبهمات: تحديدُ عمره عندَ الوفاة، بيانُ ملابساتِ الوفاة، تحديدُ زمانِ ومكانِ وكيفيةِ الوفاة، تحديدُ مكانِ القبر الذي دُفن فيه.

فقطْ هناك إشارةٌ قرآنية إلى وفاةِ يوسف عليه السلام، وهي ذاتُ إيحاءٍ خاص.

فلما بَعثَ اللّهُ موسى نبياً عليه السلام، وأرسلَه إلى فرعون، وقامَ موسى بدعوةِ فرعونَ إلى الله تعالى، ورفضَ فرعونُ دعوتَه، وأرادَ قتْلَه، وقفَ رجلٌ مؤمن من آل فرعون، يدافعُ عن موسى عليه السلام، وقد ذَكَّرَهم هذا الرجلُ المؤمنُ بعهدِ يوسفَ عليه السلام، وعَبَّرَ عن وفاتِه بالهلاك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

ومما يمكنُ أنْ نستنتجَه من هذه الآية:

ـ إنَّ اللّهَ بعثَ يوسفَ عليه السلام نبياً رسولاً إلى المصريين.

لماذا التعبير عن وفاة يوسف بالهلاك؟:

ـ إنَّ يوسفَ قامَ بدعوةِ المصريين إلى الله، وإنه وظَّفَ منصبَه

الكبير «عزيز مصر» توظيفاً دعوياً.

- إنَّ يوسفَ قدمَ للمصريين الآياتِ البيناتِ على نبوته، والأدلةَ والبراهينَ على دعوته، ليصدِّقوه ويتابعوه.

- إنَّ المصريين كانوا يَعرفون أنَّ يوسفَ نبيٌّ رسول داعية.

- إنَّ المصريين لم يتجاوبوا معَ دعوته، ولمْ يَستجيبوا لها، إلاّ عددٌ قليل منهم - وهذا مفهومٌ ضمناً -: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

- إن المصريينَ سكتوا عن يوسف لأنه كانَ في منصبٍ تنفيذي كبير «عزيز مصر»، ومعلومٌ أنَّ الناسَ يسكتون عن الرجل الحاكمِ أثناءَ حكمه، وإنْ خالَفوه في رأيه وفكره.

- إنَّ المصريين كانوا ينتظرونَ وفاةَ يوسف بفارغ الصبر، بدليلِ أنهم اعتبروهَا هلاكاً، ولهذا عبَّرَ لهم الرجُل المؤمن بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾. أي: إذا مات، والتعبيرُ عن الموتِ بالهلاك في هذا الموطن يشيرُ إلى هذا الإيحاء.

- إنَّ المصريين أَعلنوا معارضَتهم لدعوةِ يوسفَ عليه السلام بعدَ وفاتِه وهلاكه، فما أَنْ تُوفِّيَ عليه السلام حتى قالوا: لنْ يبعثَ اللّهُ لنا من بعده رسولاً. وكأَنَّهم ارتاحوا، لأنَّهم تخلَّصوا مِنه ومِنْ دعوته!!

يوسف في السماء الثالثة ليلة المعراج:

نختمُ كلامَنا عن وفاةِ يوسف عليه السلام بما قالَه الرسولُ ﷺ عنه ليلةَ المعراج.. حيث روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صعصعة عن رسول الله ﷺ قال في حديث المعراجِ الطويل: «... فأَتَيْنا السماءَ الثالثة، قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرْحباً به، ولَنِعْمَ المجيء جاء..

فأَتيتُ يوسفَ، فسلمتُ عليه. فقال: مَرْحباً بك من أخٍ ونبي..»[1].

لقد وضعَ اللّٰهُ عز وجل يوسفَ عليه السلام في السماء الثالثة، لاستقبالِ محمدٍ ﷺ، في عروجِه إِلى السموات العُلا.

أمّا قبرُ يوسفَ في الأرض فهو مُبْهَمٌ غيرُ محدَّد. وجسْمُه فيه لا يَبلى، لأنَّ الأرضَ لا تأكلُ أَجسادَ الأنبياء.

وبهذا نختمُ كلامَنا التحليليَّ عن قصةِ يوسف: الكريمِ ابنِ الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٢٢.

قصّة
موسى وهارون
عليهما السّلام

مَدخل لقصّة موسى ومراحل حياته

[١]

أحوال بني إسرائيل في مصر

تحدَّثْنا سابقاً عن هجرة بني إِسرائيل إِلى مصر، للإقامة عندَ يوسفَ عليه السلام.

بنو إسرائيل في مصر بعد يوسف:

وقد أَقاموا في مصر فترةً من الزمن، كانوا فيها معزَّزين مكرَّمين من قِبَلِ المصريّين. وقد تُوفيَ في هذه الفترة يعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام، كما تُوفِّيَ باقي إِخوةُ يوسف.

واستمرَّ بنو إِسرائيل في التناسلِ والتكاثر في مصر، وجاءتْ منهم أَجيالٌ جديدة.

وحدثتْ في مصر حوادثُ جديدة، أَدَّتْ إِلى قيام الفراعنةِ باضطهادِ بني إسرائيل وتعذيبهم.

وهذه الفترةُ الزمنيةُ بين يوسف وموسى عليهما السلام، مسكوتٌ عنها في مصادرنا الإسلامية الموثوقة، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ الصحيحة.

وتُمثلُ هذه الفترة «حلقةً تاريخيةً مفقودة»، لا نستطيعُ الخوضَ فيها، ولا البحثَ في تفصيلاتِ أحداثها، لأننا لا نملكُ أَخباراً ومعلومات نعتمدُ عليها في ذلك!

وما جرى في هذه الفترة يعتبرُ عندنا من «مبهمات القرآن» التي لا نعلمُ عنها من مصادرنا الإسلامية شيئاً، ولهذا نتوقفُ في أَحداثها، ولا نرى الذهابَ إلى الإسرائيليات والأخذَ منها.

هذه الفترة من مبهمات القرآن:

لا نملكُ الإجابةَ على أسئلةٍ حول هذه الفترة، مثل: كم كانت المدةُ الزمنيةُ بين يوسف وبين موسى عليهما السلام؟ وفي أيِّ بقعةٍ في مصر كان بنو إِسرائيل يقيمون في هذه الفترة؟ وكم كان عددُ بني إِسرائيل؟ وما هي الأَعمالُ التي كانوا يقومون فيها؟ وكيف كانت نظرةُ المصريين إليهم؟ وما هي أَسبابُ كرهِ المصريين لهم؟ ومتى بدأَتْ تتغيرُ نظرةُ المصريين إليهم؟ وما هي التغيراتُ السياسيةُ التي حدثتْ في مصر في هذه الفترة؟ ومَنْ كان يحكمُ مصرَ في هذه الفترة؟ وكم جيلاً كان بينَ يوسف وموسى عليهما السلام؟.

هذه أسئلةٌ نعتبرُ الإجابةَ عليها من مبهماتِ القرآن، ولهذا نتجاوزُها إلى ما هو أَنفعُ وأَجدى!!.

كلُّ ما يمكننا قولُه عن هذه الفترة: أَقام بنو إسرائيل في مصر، مدةً من الزمن، كانوا في أَمانٍ واطمئنان واحترام من قِبَلِ المصريين. ثم جدَّتْ أُمور، أَدت إلى سوءِ الصلة بينهم وبين المصريين، وتوترِ العلاقات بينهما. وبذلك انتهت فترةُ الأمانِ والاطمئنانِ لبني إسرائيل في مصر، وحلَّ محلَّها الاضطهادُ والتعذيبُ والابتلاء، واستمرَّ هذا إلى ما بعد بعثةِ موسى عليه السلام.

وقد أَشارتْ آياتُ القرآن إلى هذا التغيرِ السلبيِّ الذي أصابَ بني إِسرائيل في مصر، وذَكرتْ بعضَ صورِ العذاب الذي صَبَّه الفراعنةُ عليهم.

تغيير لقب الحاكم من ملك إلى فرعون:

ومما يلفتُ النظرَ أَنَّ آياتِ القرآن أَشارتْ إلى تغييرِ نظام الحكم

في مصر، من خلالِ إخبارِها عن حاكم مصر.

كان حاكمُ مصر زمن يوسف عليه السلام يلقَّبُ بالملك، كما مرَّ معنا في قصةِ يوسف، واستمرَّ يلقبُ بالملك فترةً بعد وفاةِ يوسف عليه السلام، ولا نعرفُ عددَ الملوك الذين حكموا مصرَ في هذه الفترة، كما أننا لا نعرفُ أَسماءَ هؤلاء الملوك.

ولمّا أَخبرتْ آياتُ القرآن عن اضطهادِ بني إسرائيل بعد ذلك أَطلقتْ على حاكم مصرَ لقبَ «فرعون».

فما سِرُّ تغييرِ لقبِ حاكم مصر، من الملك إلى فرعون؟ هل هذا يعني ـ كما قال المؤرخون ـ طرْدَ المصريين للذين استعمروهم من الخارج، والذين عُرِفوا باسم الرعاةِ أو الهكسوس، وهم قبائلُ عربية احتلتْ مصر، وقدمتْ من جنوبِ بلاد الشام، ودامَ حكمها لمصرَ عدةَ أجيال، ثم قام المصريون بثورةٍ وطنية بقيادة «أَحْمَسْ» أحدِ أفراد الأسرة الفرعونية الحاكمة من قبل، فطردوا الهكسوسَ العرب، وأَعادوا الحكمَ إلى الفراعنة؟[1].

هذا ما يقولُه المؤرخون، ونحن نتوقفُ في هذا الكلام، فلا نعتمدُه، ولا نرفضُه ونكذبه، والعلمُ عند الله!.

فإنْ صحَّ كلامُ هؤلاء المؤرخين، يكون بنو إسرائيل قد دخلوا مصر زمنَ حكمِ الهكسوس العرب، ويكون حكامُ مصر وقتَها ملوكاً عرباً، ويكون يوسفُ عليه السلام وزيراً للملك العربي الذي حكمَ مصر.

---

(١) صاغ الروائي، نجيب محفوظ، قصة ثورة الفراعنة على الهكسوس في كتابه «أحمس بطل الاستقلال».

ويكون هذا هو سِرَّ تكريمِ ملوك الهكسوس لبني إِسرائيل، على اعتبارِ أنَّ الفريقيْن جاءا من جنوب بلادِ الشام، وأَنهما ليسا من أهلِ البلاد الأصليين.

وإنْ صحَّ كلامُ هؤلاء المؤرخين، تكونُ ثورةُ الفراعنة بقيادة «أحمس» على الهكسوس، ثورةً على الإسرائيليين أيضاً، حيث اعتبروهم عملاءَ للمستعمرين الهكسوس. ويكون هذا هو سِرَّ اضطهادِ الفراعنة للإسرائيليين بعدَ طردِ الهكسوس!

هذا ما يقولُه المؤرخون، ونحن نتوقَّفُ فيه كما قلنا.

لكننا نقررُ أنَّ «المَلِكَ» كلمةٌ عربيةٌ أصيلة، ولعلَّ إِطلاقَها على حاكم مصر زمنَ يوسف عليه السلام، دليلٌ على أنَّ حكام مصر وقتها كانوا عرباً.

أما «فرعون» فإنها كلمةٌ أَعجمية، ولعلَّ إطلاقَها على حاكم مصر زمنَ اضطهادِ بني إسرائيل، دليلٌ على عودةِ حكْم مصر إلى الفراعنة! نذكُرُ هذا من بابِ الاحتمال، وليس من باب الْجزمِ واليقين. والله أعلم.

[٢]

فرعون والفراعنة والفرعونية

قلنا إِنَّ حاكمَ مصرَ زمنَ يوسفَ عليه السلام كان يلقَّبُ بالملك، بينما كان يلقَّبُ بفرعونَ بعد ذلك.

أيْ أَنَّ بني إِسرائيل كانوا معزَّزين مكرَّمين زمنَ ملوك مصر، لكنهم كانوا معذَّبين مضْطهدين زمنَ الفراعنة.

فرعون: لقب على من حكم مصر ومعناه في اللغة:

و«فرعون» لقبٌ أطلقَتْه آياتُ القرآن على كلِّ مَنْ حكمَ مصرَ في تلك الفترة، ولا يكون اسماً لحاكمٍ معيَّن حكمَ البلاد. والذي يحددُ

اسمَ حاكمِ البلاد معرفةُ الفترةِ التي حكمَ فيها.

مِن حكامِ مصرَ الذين لُقِّبوا بفرعون، كما قالَ المؤرخون: أحمس، ورمسيس، ومنبتاح، وأخناتون.

و«فرعون» كلمةٌ أعجمية، ليستْ مشتقة.

قال الإمامُ الراغب في المفردات: «وفرعون: اسم أعجمي. وقد اعتُبرتْ عرامَتُه، فقيل: تَفرعَنَ فلان: إذا تعاطى فعْلَ فرعون، كما يقال: أبْلَسَ وتَبلَّس. ومنه قيل للطغاة: الفراعنة والأبالسة»[١].

وقال عنه السمينُ الحلبي: «فرعون: اسم أعجمي. يُقال: كلُّ مَنْ ملكَ مصرَ فهو فرعون.. كما أن كلَّ مَنْ ملكَ الرومَ فهو قيصر، ومَنْ ملكَ الفرسَ كسرى، وكلُّ مَنْ ملَكَ اليونان فهو بطليموس، وكلُّ مَنْ ملكَ الحبشَ فهو نجاشي، وكلُّ مَنْ ملكَ حمير فهو تُبَّع.

وقد تصرَّفَتْ فيه العرب، واشتقّوا منه فعلاً، فقالوا: تَفَرْعَنَ فلان: إذا فَعَلَ فعْلَ فرعون. وقالوا: هم الفراعنةُ للعتاة»[٢].

ووردتْ كلمةُ «فرعون» أربعاً وسبعين مرةً في القرآن، أحياناً كانت تأتي كلمةُ «فرعون» لَقَباً على حاكم مصر، وأحياناً كانت تُضافُ لها كلمة «آل» أو «قوم». فتقول: آل فرعون، وقوم فرعون[٣].

ولقد كانَ فرعونُ حاكماً ظالماً، وكان جَبّاراً طاغيةً مفسداً. وبلغَ مِن عُتُوِّه وتمرُّدِه وكفرِه أنه ادّعى الألوهية، وأنّه كان يقولُ لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

فرعون ادعى الألوهية والربوبية وسر خضوع قومه له:

سَجلتْ آياتُ القرآن هذه المظاهرَ لكفرِ فرعون، وادعائِه الألوهيةَ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٢.

(٢) عمدة الحفاظ للسمين ٣: ٢٦١.

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي: ٥١٥ ـ ٥١٦.

والربوبية، عندما أبلغه موسى عليه السلام الدعوة.

أخبرَ القرآنُ عن ادعائِه الألوهية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

وأَخبرَ القرآنُ عن ادعائِه الربوبية في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ١٧ ـ ٢٥].

وأَخبرَ القرآنُ عن خضوعِ المصريين له، وقبولِهم دعواه الألوهيةَ والربوبية، وعبادتِهم له من دون الله. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وأَخبرَ القرآنُ عن تجبرِ فرعون وغطرسته، واستهانتِه بقومه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وعلَّلَ القرآنُ سرَّ استخذاءِ المصريين وذُلِّهم أمامَ فرعون، وطاعتِهم له، ورضاهم أنْ يستخفَّ بهم وبعقولِهم، إنَّ السّرَّ هو فسقُهم، ولو لم يكونوا فاسقين كافرين لما تفرعَنَ فرعونُ عليهم، ولما تكبرَ وتجبر، وطغى وبغى!! قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤].

هذه هي تصرفاتُ فرعون، وهي تصرفاتُ كلِّ الفراعنة الذين

حكموا مصرَ في تلك الفترة.

«الفرعونية» مرض نفسي يصيب القادة وأعراضه:

كان فرعونُ مُصاباً بمرضٍ نفسي، يُصيبُ القادةَ والحكام، عندما يبتعدونَ عن الله، ولا يَدينون بدين الحق، إنه مرضُ «الفرعونية»!! وهو عقدةٌ نفسيةٌ تصيبُ فرعونَ وأمثالَه.

إنّ هؤلاء يرونَ أنفسهم حكاماً مسؤولين، آمِرين ناهين، ويرونَ الآخرين أَذلاّء مستسلمين، فينسون أَنهم بشرٌ كباقي البشر، وأنَّ حكمَهم للآخرين فرصةٌ لخدمتِهم وتقديمِ الخير لهم، وعندما ينسونَ ذلك تُسَوِّلُ لهم نفوسُهم أنهم آلهةٌ وأرباب، فيَدْعون أَتْباعَهم وأقوامَهم إِلى تأليههم وعبادتِهم، ويتعاملون معهم بمنتهى درجاتِ الازدراءِ والاستخفافِ والاحتقار! فيقصمُهم الله، ويأخذُهم أَخْذَ عزيز مقتدر.

هذا ما قالَه اللّهُ عن فرعونَ وأمثالِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

إنَّ «الفرعونيةَ» ظاهرةٌ مرضيةٌ خطيرة، تصيبُ أَصحابَها في كلِّ زمان ومكان. وإنَّ «فرعون» نموذجٌ مكرورٌ في تاريخ البشرية، يتمثلُ في كلِّ حاكمٍ يحكمُ قومه كما حكَمَ فرعونُ المصريين، بمنأى عن دين الله. وما أكثرَ «الفَراعين» في القديمِ والحديث!!

[٣]

اضطهاد فرعون لبني إسرائيل

من أسباب اضطهاد بني إسرائيل:

لما انتقلَ الحكمُ في مصرَ من الهكسوسِ إِلى الفراعنة، قامَ فرعونُ

باضطهادِ بني إسرائيل وتعذيبهم، ولعلَّ الفراعنة اعتبروا الإسرائيليين أعواناً للهكسوس المستعمرين الغزاة، ولهذا صَبّوا غضبَهم عليهم.

ونسيَ الفراعنةُ فضلَ يوسفَ عليه السلام، عندما وَلِيَ أَمْرَهم وحكَمَ مصر في أَزمةٍ اقتصاديةٍ حادة، تمثلتْ بسبعِ سَنواتٍ عجافٍ ماحلة، وخرجَ بالبلاد من هذه الأزمةِ بسلامٍ وأمان.

وكان بنو إِسرائيل في مصرَ مؤمنين بالله، موحِّدين له، بينما كان المصريون كافرين مشركين بالله، يَعبدون الأَوثانَ والأصنام، ويَعتبرون فرعونَ نفسَه إِلهاً، وهذا من أَسبابِ العداوةِ بين الفريقيْن، فريقِ الإسرائيليينَ المؤمنينَ بالله العابدين له، وفريقِ المصريين المشركين بالله، العابدين لفرعون!

مظاهر فساد حكم فرعون:

وقد أَشارتْ آياتُ القرآن إِلى مظاهرِ فسادِ حكم فرعون، وذَكرتْ نماذجَ من اضطهادِه وتعذيبِه لبني إِسرائيل.

قـــال الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

تُلَخِّصُ هذه الآيةُ مظاهرَ فسادِ فرعون في حكمه، وهي:

١ ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ومعنى ﴿عَلَا﴾: تكبَّر وتجبَّر، وانتفشَ وتبختر، وقادَه هذا العلوُّ إِلى الاستكبارِ واستعبادِ الآخرين وإِذلالِهم.

علوُّ فرعونَ في الأرض هو إِصابتُه بأَعراضِ مرضِ «الفرعونية»، فلما رأى نفسه حاكماً نسيَ أنه مخلوقٌ عبدٌ عاجز، ونسيَ أن اللّهَ ابتلاه بالحكمِ ليخدمَ قومَه ويُسعدَهم، فانتفشتْ نفسُه، ورأى نفسَه إِلهاً، فتألَّهَ ودعا قومَه إِلى عبادتِه!

ولا يمكنُ أنْ يكونَ الحاكمُ صالحاً مصلحاً إِذا عَلا في الأرض،

لأنَّ العلوَّ في الأرض هو أساسُ فسادِ وإفسادِ أيِّ حاكم.

وإنَّ العلوَّ في الأرض هو الصفةُ العامةُ لكلِّ قوم كافرين، يُمَكِّنُ اللَّهُ لهم في الأرض، ولكلِّ حاكم يحكمُ قومَه بعيداً عن منهج الله. ولهذا أخبرَ اللَّهُ عن علوِّ بني إسرائيل وإفسادهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ [الإسراء: ٤].

٢ ـ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾:

هذا هو المظهرُ الثاني لفسادِ حكْمِ فرعون، وهو نتيجةٌ لعلوِّه في الأرض.

قسَّمَ فرعونُ أهلَ مصرَ إلى شيعٍ وجماعاتٍ وأحزاب، مختلفةٍ متعارضة، وحرصَ على التفريقِ بينهم، فمنهم المؤيِّدون له، المقرَّبون عنده، كالملأ والوزراءِ والسحرة، ومنهم المعارِضون المخالفون له، الذين أبعدَهم وأقْصاهم وأهملهم، ومنهم المعادون له، الذين اضطهدَهم وعذَّبهم كبني إسرائيل.

جعلَ فرعونُ أهلَ مصر شيعاً ليتحكَّم بهم، وفقَ القاعدةِ الفرعونيةِ التي يطبقُّها كلُّ حاكمٍ مستبدٍ متفرعن: «فَرِّقْ تَسُدْ»!

إنَّ الأصلَ في الحاكم هو أنْ يجمعَ بين المحكومين، وأنْ يؤلِّفَ بين قلوبهم، لا أنْ يفرقَ بينهم، ويجعلَهم شيعاً وأحزاباً متفرقين.

٣ ـ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾:

نتجَ عن تقسيمِ فرعون المحكومين إلى شيع وأحزاب، أنه قرَّبَ المؤيدين والموالين، وأقصى المخالفين المعارضين، واستضعفَ طائفةً منهم وأهانَهم، واحتقرَهم وأذلَّهم.

وإهانةُ الحاكمِ لطائفةٍ من شعبه، واستضعافُه لهم، طريقةٌ فرعونيةٌ في الحكم.

٤ ـ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾:

هذه خطوةٌ تاليةٌ ناتجةٌ عن استضعافِ فرعون لطائفةٍ من شعبه، حيث كان يأمرُ بتذبيحِ وتقتيلِ أبناء هذه الطائفة الذكور، ويقضي عليهم، بينما كان يترك نساءَ هذه الطائفة يعشْنَ حياتهنَّ بذلةٍ ومهانة، لا معيلَ لهنَّ من الرجال.

كيفَ يأمرُ فرعونُ بذبْحِ وقتلِ أبناءِ طائفةٍ من شعبه؟ مع أنه مطالَبٌ بالحرصِ عليهم، وحفظِ دمائهم! وماذا يستفيد فرعون إذا قضى على رجالِ طائفةٍ من شعبه؟ وهل يشرفُه أنْ يحكمَ مجموعةً من النساء المستضعَفات؟ إنه المنطقُ الفرعونيُّ العجيب!

٥ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

هذه هي النتيجةُ الحتميةُ لحكم فرعون، التي توصِلُ لها كلُّ المراحلِ والمظاهرِ السابقة. ما هي الصفةُ المناسبةُ لحكْم حاكم متفرعن، عَلا في الأرض، وجعلَ شعبَه شِيَعاً مختلفة، واستبعدَ المخالفين، واستضعفَ طائفةً منهم، وذبَّحَ أبناءها الذكور، واستحيا بناتها النساء؟ ما هو الوصفُ الملائمُ لهذا الحكم؟ إنه الفسادُ والتخريب!

وماذا يقالُ عن الحاكم الذي يرتكبُ هذه الممارسات؟ إنه لا يكونُ إلاّ حاكماً مفسِداً مُخرِّباً. ولهذا قالَ اللّهُ عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

هذه المظاهرُ الخمسةُ لحكم فرعون، هي نفسُها مظاهرُ حكْمِ أيِّ حاكمٍ متفرعنٍ مستبد، يسيرُ على خُطا فرعون، ويَقْتدي به، ويُصابُ بأعراضِ مرضِ الفرعونية، ويحكمُ شعبَه بعيداً عن منهجِ الله.

والمقصودُ بقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بنو إسرائيل، الذين كان فرعونُ يستعبدُهم ويضطهدُهم، فيقتل أبناءهم الذكور، ويُبقي على حياةِ بناتهم الإناث.

تذكير بني إسرائيل بنعمة نجاتهم من فرعون:

وقد أشارتْ آياتُ القرآن إلى هذهِ الطريقةِ الفرعونية العجيبة في التعذيب، وذلك في سياقِ تذكيرِ بني إسرائيل بنعمِ اللّهِ عليهم في تخليصِهم من فرعون وتعذيبه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٤١].

الآيتان في سورتي البقرةِ والأعراف تتحدثانِ عن نفس الموضوع، وتُخبِرَانِ عن طريقة فرعون في تعذيبِ بني إسرائيل، لكن بينهما فروقٌ في الصياغة، وهذا ردٌّ على مَنْ يزعمُ التكرارَ في القرآن.

نلاحظُ الفرقَ في التعبير عن النجاة، حيث قالتْ سورةُ البقرة ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾، وقالت سورةُ الأعراف ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾.

كما نلاحظُ الفرقَ في التعبير عن ذبحِ الأَبناء، حيث قالت سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وقالت سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾.

وليس هذا موطن بيانِ الحكمةِ من الاختلاف في التعبير، وتوجيهِ هذا المتشابه اللفظي من القرآن!!

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يصبّون عليكم العذاب. و«السَّوْمُ» هو الرعيُ. تقول: هذه إبِلٌ سائمة، لأنها ترعى العشب.

والتعبيرُ عن إيقاعِ العذاب بالسومِ يوحي بشدةِ واستمرارِ هذا العذاب، وكأنَّ العذابَ تحَوَّلَ إلى وجباتِ طعامٍ دائم يأكلونه، كما تأكلُ الماشيةُ العشب!

وقد ذَكَّرَ موسى عليه السلام قومَه بنعمةِ تخليصِهم من عذاب فرعون وآله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦].

[٤]

موسى وهارون وفرعون وبنو إسرائيل

إحصائية قرآنية

قصةُ موسى عليه السلام من أكثرِ القَصص وروداً في القرآن، سواء قصته مع فرعون، أو قصته مع بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، فلا تكادُ تخلو سورةٌ من السورِ الطويلة أو المتوسطة من قصته.

وقبلَ الدخولِ مع تفاصيلِ قصته عليه الصلاة والسلام، نحبُّ أنْ نقومَ بإحصائيةٍ قرآنية لمرّاتِ ومواضعِ ذكْرِ قصته.

المفرداتُ التي تتعلقُ بقصة موسى خمسة، هي: موسى، هارون، فرعون، بنو إسرائيل، اليهود.

وفيما يلي قائمةٌ بعددِ مراتِ إيرادِ كلِّ مفردةٍ منها، والسورِ التي وردَتْ فيها، وعددِ ورودها.

السور التي ذكر فيها موسى وهارون:

١ ـ موسى في القرآن:

ذُكِرَ موسى عليه السلام في القرآن مائةً وستاً وثلاثين مرة، موزعة على السور كما يلي:

١ ـ سورة البقرة: ثلاث عشرة مرة.
٢ ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.
٣ ـ سورة النساء: ثلاث مرات.
٤ ـ سورة المائدة: ثلاث مرات.
٥ ـ سورة الأنعام: ثلاث مرات.
٦ ـ سورة الأعراف: إحدى وعشرين مرة.

٧ ـ سورة يونس: ثماني مرات.
٨ ـ سورة هود: ثلاث مرات.
٩ ـ سورة إبراهيم: ثلاث مرات.
١٠ ـ سورة الإسراء: ثلاث مرات.
١١ ـ سورة الكهف: مرتان.
١٢ ـ سورة مريم: مرة واحدة.
١٣ ـ سورة طه: سبع عشرة مرة.
١٤ ـ سورة الأنبياء: مرة واحدة.
١٥ ـ سورة الحج: مرة واحدة.
١٦ ـ سورة المؤمنون: مرتان.
١٧ ـ سورة الفرقان: مرة واحدة.
١٨ ـ سورة الشعراء: ثماني مرات.
١٩ ـ سورة النمل: ثلاث مرات.
٢٠ ـ سورة القصص: ثماني عشرة مرة.
٢١ ـ سورة العنكبوت: مرة واحدة.
٢٢ ـ سورة السجدة: مرة واحدة.
٢٣ ـ سورة الأحزاب: مرتان.
٢٤ ـ سورة الصافات: مرتان.
٢٥ ـ سورة غافر: خمس مرات.
٢٦ ـ سورة فصلت: مرة واحدة.
٢٧ ـ سورة الشورى: مرة واحدة.
٢٨ ـ سورة الزخرف: مرة واحدة.
٢٩ ـ سورة الأحقاف: مرتان.
٣٠ ـ سورة الذاريات: مرة واحدة.
٣١ ـ سورة النجم: مرة واحدة.
٣٢ ـ سورة الصف: مرة واحدة.
٣٣ ـ سورة النازعات: مرة واحدة.
٣٤ ـ سورة الأعلى: مرة واحدة.

والسورُ التي وردَ ذكْرُ موسى عليه السلام فيها أكثر من غيرها، حسبَ الترتيبِ التالي:

الأولى: سورة الأعراف: إحدى وعشرين مرة.

الثانية: سورة القصص: ثماني عشرة مرة.

الثالثة: سورة طه: سبع عشرة مرة.

الرابعة: سورة البقرة: ثلاث عشرة مرة.

الخامسة: سورة يونس: ثماني مرات.

السادسة: سورة الشعراء: ثماني مرات.

٢ ـ هارون في القرآن:

ذُكِرَ اسمُ هارون عليه السلام في القرآن تسعَ عشرةَ مرة، موزعةً على السور التالية:

١ ـ سورة البقرة: مرة واحدة.
٢ ـ سورة النساء: مرة واحدة.
٣ ـ سورة الأنعام: مرة واحدة.
٤ ـ سورة الأعراف: مرتان.

٥ ـ سورة يونس: مرة واحدة.
٦ ـ سورة مريم: مرتان.
٧ ـ سورة طه: أربع مرات.
٨ ـ سورة الأنبياء: مرة واحدة.
٩ ـ سورة المؤمنون: مرة واحدة.
١٠ ـ سورة الفرقان: مرة واحدة.
١١ ـ سورة الشعراء: مرتان.
١٢ ـ سورة القصص: مرة واحدة.
١٣ ـ سورة الصافات: مرتان.

السور التي ذكر فيها اسم فرعون:

٣ ـ فرعون في القرآن:

وَرَدَ اسمُ فرعون عليه اللعنة في القرآن أربعاً وسبعين مرة، موزعةً كما يلي:

١ ـ سورة البقرة: مرتان.
٢ ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.
٣ ـ سورة الأعراف: تسع مرات.
٤ ـ سورة الأنفال: ثلاث مرات.
٥ ـ سورة يونس: ست مرات.
٦ ـ سورة هود: ثلاث مرات.
٧ ـ سورة إبراهيم: مرة واحدة.
٨ ـ سورة الإسراء: مرتان.
٩ ـ سورة طه: خمس مرات.
١٠ ـ سورة المؤمنون: مرة واحدة.
١١ ـ سورة الشعراء: ست مرات.
١٢ ـ سورة النمل: مرة واحدة.
١٣ ـ سورة القصص: ثماني مرات.
١٤ ـ سورة العنكبوت: مرة واحدة.
١٥ ـ سورة ص: مرة واحدة.
١٦ ـ سورة غافر: تسع مرات.
١٧ ـ سورة الزخرف: مرتان.
١٨ ـ سورة الدخان: مرتان.
١٩ ـ سورة ق: مرة واحدة.
٢٠ ـ سورة الذاريات: مرة واحدة.
٢١ ـ سورة القمر: مرة واحدة.
٢٢ ـ سورة التحريم: مرتان.
٢٣ ـ سورة الحاقة: مرة واحدة.
٢٤ ـ سورة المزمل: مرتان.
٢٥ ـ سورة النازعات: مرة واحدة.
٢٦ ـ سورة البروج: مرة واحدة.
٢٧ ـ سورة الفجر: مرة واحدة.

وأكثرُ السورِ التي ذُكِرَ فرعونُ فيها هي:

الأولى: سورة الأعراف: تسع مرات.

الثانية: سورة غافر: تسع مرات.

الثالثة: سورة القصص: ثماني مرات.

الرابعة: سورة يونس: ست مرات.

الخامسة: سورة الشعراء: ست مرات.

السور التي ذكر فيها بنو إسرائيل واليهود:

٤ ـ بنو إسرائيل واليهود في القرآن:

وَرَدَتْ كلمةُ بني إسرائيل في القرآن إِحدى وأربعين مرة، موزعةً كما يلي:

١ ـ سورة البقرة: ست مرات.
٢ ـ سورة آل عمران: مرتان.
٣ ـ سورة الأعراف: أربع مرات.
٤ ـ سورة يونس: ثلاث مرات.
٥ ـ سورة الإسراء: أربع مرات.
٦ ـ سورة طه: ثلاث مرات.
٧ ـ سورة الشعراء: أربع مرات.
٨ ـ سورة النمل: مرة واحدة.
٩ ـ سورة السجدة: مرة واحدة.
١٠ ـ سورة غافر: مرة واحدة.
١١ ـ سورة الزخرف: مرة واحدة.
١٢ ـ سورة الدخان: مرة واحدة.
١٣ ـ سورة الجاثية: مرة واحدة.
١٤ ـ سورة الأحقاف: مرة واحدة.
١٥ ـ سورة الصف: مرتان.

أما كلمةُ اليهود فقد وردَتْ في القرآن تسعَ مرات فقط، في السور التالية:

١ ـ سورة البقرة: ثلاث مرات.
٢ ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.
٣ ـ سورة المائدة: أربع مرات.
٤ ـ سورة التوبة: مرة واحدة.

وهذه السورُ الأربعةُ كلُّها سورٌ مدنية.

بهذه الإحصائيةِ القرآنيةِ نعرفُ أنَّ أكثرَ السورِ حديثاً عن موسى عليه السلام هي سور: البقرة، والأعراف، ويونس، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والنازعات.

أما السورُ التي عرضَتْ لقطاتٍ سريعةً من قصته فهي سور: النساء، والمائدة، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والأنبياء، والمؤمنون،

والأحزاب، والصافات، والزخرف، والذاريات، والصف.

وباقي السورِ اكتفتْ بذكْرِ اسمِه فقط، وهي سور: آل عمران، والأنعام، والكهف، ومريم، والحج، والفرقان، والعنكبوت، والسجدة، وفصلت، والشورى، والأحقاف، والنجم، والأعلى.

ومجموعُ السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وبهذا نعرفُ أنَّ قصةَ موسى من أكثرِ القَصص وروداً في القرآن.

[٥]

مراحل حياة موسى عليه السلام

بعدَ الاطلاعِ على قصةِ موسى عليه السلام في القرآن، ومحاولةِ ترتيبِ أَحداثِها تَرتَيباً زمنياً، حسبَ حدوثها، فإنهُ يمكنُ أنْ نقسِّمَ حياته إِلى المراحلِ التالية:

المرحلة الأولى: حياةُ موسى عليه السلام من الميلادِ إلى البعثة:

تتحدثُ عن أَجواءِ ولادته، وتُعَرِّفُ بنَسَبه وأُسرته، وتَعرضُ رحلتَه في التابوت من حضْنِ أُمه إِلى قصر فرعون، وتَبَنّي امرأةِ فرعون ثم زوجِها له، وحكمةَ الله في إعادته إِلى أُمّه لترضعَه على حسابِ فرعون، وطفولةِ موسى في قصر فرعون.

ثم تُشيرُ إِلى نشأته على القوةِ والنخوةِ والشجاعة، وتَعرضُ للحادث الذي جرى له عندما قَتَلَ القبطي، وتآمُرِ الملأ من آل فرعون عليه، وخروجه من مصرَ إِلى أرض مدين.

وتُبَينُ لنا حياتَه في مدين حوالي عشر سنوات، حيث رعى الغنمَ عند الرجلِ الصالح هناك، وتزوَّجَ ابنتَه مقابلَ ذلك.

وتَعرضُ لنا قصة موسى عليه السلام وقد عادَ بأهلِهِ من مدين إلى مصر، ومناجاةَ الله له عند جبلِ الطور، وإِخبارَه بأنَّه اصطفاه نبياً،

وتكليفَه بالذهابِ إلى فرعون، وإعطاءَه العصا واليدَ آيتين له.

المرحلة الثانية: موسى وهارون أمامَ فرعون:

تتحدثُ عن تنفيذِ موسى لأَمْرِ الله تعالى، وذهابِه مع أَخيه هارون عليه السلام إِلى فرعون، وإِخبارِه أنهما نبيّان، بعثَهما الله له.

وتُفصِّلُ هذه المرحلةُ المواجهاتِ بين موسى عليه السلام وبين فرعون: حيثُ قابلَه أَوَّلَ مرة، وأَخبرَه بمهمته، وقَدَّمَ له العصا واليد آية، ورَدَّ فرعونُ على ذلك باتهامه بالسحر، واستشارَ فرعونُ الملأَ فيه، فأَشاروا عليه بجمعِ السحرة ليتحدَّوه ويَغلبوه، ولكنَّ الأَمْرَ انقلبَ ضدَّ فرعون، حيثُ استَبانَ الحقُّ للسحرة، فآمَنوا بموسى عليه السلام، فهدَّدَهم فرعونُ بالتعذيب.

وقد أَرادَ فرعونُ قَتْلَ موسى عليه السلام، فتصدّى له رجلٌ مؤمنٌ من آله، هو «مؤمنُ آل فرعون»، وتولّى الدفاعَ عن موسى عليه السلام، وخاطبَ القومَ خطاباً دعوياً إِيمانياً، فَنَّدَ فيه دعاوى فرعون، ودَعاهم إِلى الدخولِ في دين موسى عليه السلام.

وكلَّفَ فرعونُ وزيرَه هامان ببناءِ الصرحِ العالي ليبحثَ عن إِله موسى، ودعا فرعونُ شعبَه إِلى تأْليهه هو، باعتبارِه هو إِلههم وربَّهم.

وامتحنَ اللّهُ آل فرعون بعدةِ امتحانات وابتلاءات، حيثُ أَخذهم بالعذابِ والمَحْلِ ونَقْصِ الثمرات، وأَرسلَ عليهم الطوفانَ والجراد والقُمَّلَ والضفادعَ والدم. ومع ذلك لم يؤمنوا، وأَصَرُّوا على كفرِهم ومتابعتِهم لمعبودهم فرعون.

وبهذا انتهتْ مهمةُ موسى عليه السلام عند فرعون وملئِه، فلا هم آمَنوا، ولا أَرسلوا معه بني إسرائيل، ولا رَفعوا عنهم الاضطهادَ والتعذيب، بل زادَ تعذيبُهم لهم وقتْلُهم لأولادهم.

وبهذا تنتهي المرحلةُ الثانيةُ من حياة موسى عليه السلام.

المرحلة الثالثة: خروجُ موسى ببني إسرائيل وغرقُ فرعون وجنده:

تتحدثُ عن اللقطاتِ الأَخيرة من المواجهةِ بين موسى عليه السلام وبين فرعون وملئِه، حيثُ أَمره اللّهُ أنْ يَخرجَ ببني إسرائيل ليلاً من مصر، ولما خرجوا لَحِقَ بهم فرعونُ وملؤُه، واستنفرَ جيشَه للقضاءِ عليهم، ولما وَصلوا البحرَ أَمَرَ اللّهُ موسى أنْ يضربَ البحرَ بعصاه، فأَوقفَ لهم الماء، وشَقَّ لهم طريقاً يَبَساً آمناً، فساروا فيه ونجوا جميعاً، ولحقَ بهم فرعونُ وجنودُه، ولما صاروا وسطَ الطريقِ أَطبقَ اللّهُ عليهم الماء، فغرقوا جميعاً، وجَرى حوارٌ بين فرعون ومَلَكِ الموت في اللحظاتِ الأخيرة من عمره، وأَلقى اللّهُ جثته على الشاطئ، ليكونَ لمن خلفه آية.

وبهذا تنتهي المرحلةُ الثالثة، بخروجِه مع بني إِسرائيل من مصرَ إلى سيناء.

المرحلة الرابعة: موسى مع بني إسرائيل في سيناء:

تتحدثُ هذه المرحلةُ عن الأَحداثِ التي جرتْ لبني إسرائيل وهم في سيناء، بعدما أَنجاهم اللّهُ من الغَرق ومن فرعون، فتخبرُ عن طلبهم من موسى إِلهاً صنماً ليعبدوه، وعن ذهابِ موسى إِلى جبل الطور ليناجي ربَّه، حيث أَنزلَ عليه أَلواحَ التوراة، وعن فتنةِ السامريِّ لبني إسرائيل أَثناء غيبته، حيث عبدوا العجلَ الجَسَدَ الذي له خُوار. وعن حادثةِ السبعين رجلاً من بني إسرائيل عند جبل الطور، حيثُ رفعَ اللّهُ الجبلَ فوقَ رؤوسهم.

وتخبرُ هذه المرحلةُ عن نِعَمِ اللّهِ التي أَنعمَ بها على بني إسرائيل، مثل الغمامِ والمَنِّ والسَّلوى وتفجيرِ الاثني عشر عيناً، وتسجِّلُ بعضَ مخالفَاتِ بني إسرائيل ومعاصيهم، وإيذائهم لموسى عليه السلام.

وتختمُ هذه المرحلةُ بمشهدِ تيه بني إسرائيل في سيناء، بعدَ أَنْ جَبُنوا عن دخولِ الأرض المقدسة، وقتالِ الآخرين، فعاقَبهم اللّهُ

بالحرمانِ والتيهِ والتشرد في الصحراء.

خاتمة قصة موسى عليه السلام:

نتحدث فيها عن قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، حيث تتحدثُ الآياتُ عن سببِ توجُّهِ موسى إلى الخضر، وعن مفاجآتٍ مثيرة جَرَتْ له في الطريق، ثم تَعرضُ الحوارَ الذي جرى بينه وبين الخضر، عليهما السلام، وتُرينا ثلاثةَ أَفعالٍ وتصرفاتٍ مثيرةً قام بها الخضر، ثم تفسِّرُ لنا تلكَ الأفعالَ الثلاثة.

ثم نتكلم عن وفاتِه ودفْنِه ومكانِ قبره، ثم نتحدثُ عن بني إسرائيل بعده.

ونختمُ كلامَنا عن قصتِه بالحديث عن هيئته وجسمه وشكله، ثم بالحديثِ عن ما جَرى بينه وبين رسولنا محمد ﷺ في عالم الغيب، وعن ما جرى بينه وبين أَبينا آدم عليه السلام، وعن بعضِ فضائله ومزاياه عليه الصلاة والسلام.

وفي المباحثِ التالية تفصيلُ القولِ عن مراحلِ حياته، وتطوراتِ الأَحداثِ المثيرةِ في زمانه، وسنأخذُ المعلوماتِ حولَها من مصادرنا الإسلامية اليقينية، وهي آياتُ القرآن الصريحة، وأَحاديثُ الرسول ﷺ المرفوعةُ الصحيحة.

ونستمد العون في كل ذلك من الله المعين.



المَرحَلة الأولى
موسى من الولادة إلى النُّبُوَّة

[١]
الأجواء التي ولد فيها موسى

تعريف بأسرة موسى عليه السلام:

موسى عليه الصلاة والسلام هو: «موسى بن عمران». والدليلُ على أنَّ اسمَ أَبيه عمرانُ ما رواه مسلمٌ وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ قال: «مررْتُ ليلةَ أُسريَ على موسى بن عمران عليه السلام...»[١].

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن عن بعضِ أَفرادِ أُسرة موسى:

فأَبوه عمران كان رجلاً مؤمناً.

وأُمه كانت امرأةً صالحةً مؤمنة موقنة، تحدثت الآياتُ عنها عندما تكلمتْ عن ولادةِ موسى. ولا تخبرُنا مصادرُنا اليقينية عن اسمِ أُمه.

وأُخته كانت فتاةً صالحة، وكانتْ ذكيةً فطنة، من خلالِ متابعتِها لرحلةِ أَخيها الصغيرِ في التابوت.

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة في قصص الأنبياء رقم: ١٨٢.

وأخوه هارونُ صالحٌ فصيح، أَفصحُ من أَخيه موسى، ولا نَدري أَوُلِدَ قبله أم وُلِدَ بعده، وكلامُ القرآن عنه قليل.

هؤلاء أَفرادُ أسرة موسى الذين ذكرهم اللّه لنا في القرآن.

و«موسى» اسمُ علمٍ أَعجمي، لا يهمُّنا معناه باللغة المصرية القديمة، ولكن يهمُّنا أنْ نقررَ أنه ليس عربياً ولا مشتقاً، وهكذا اسمُ أَخيه هارون عليه السلام، فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقٍ لهذين الاسمين: موسى وهارون.

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن عن الأَجواءِ التي وُلِدَ فيها موسى عليه السلام، وعن أَهمِّ ما جرى له بعد ولادته، حتى تَبنّاه فرعون، وأَعاده اللّهُ إِلى أُمه. وهذا الإِخبارُ في سورةِ طه، وفي سورة القصص.

الآيات حول ولادة موسى:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ...﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا

رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: ١ ـ ١٣].

لقد بدأَتْ آياتُ سورةِ القصص برسْمِ الأَجواءِ الخاصة التي وُلِدَ فيها موسى عليه السلام.

بدأَتْ آياتُ السورةِ بتقريرِ حقيقةٍ يقينيةٍ بالنسبة للقرآن، وهو أَنه كلامُ الله تعالى، بلسانٍ عربيٍ مبين، مكوَّنٍ من حروفٍ عربية، هي: طا. سين. ميم. وأشباهها، ولهذا قال: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾.

قصة موسى دليل على النبوة وعلى المصدر الرباني للقرآن:

ثم وَظَّفت الآياتُ ذِكْرَ قصةِ موسى مع فرعون دليلاً على نبوة محمد ﷺ، فاللّهُ هو الذي يتلو على نبيه قصةَ موسى وفرعون: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ تدلُّ على التبعيض، وهذا معناهُ أَنَّ اللّهَ أَخبرنا في القرآن ببعضِ قصةِ موسى وفرعون، وهي المعلوماتُ والمشاهدُ واللقطاتُ التي يعلمُ اللّهُ أنها تحققُ العبرةَ والعظة.

فالقرآنُ لم يفصِّل القولَ في تفاصيلِ وجزئياتِ قصة موسى عليه السلام، بل إِنَّ ما عرضَه منها قليلٌ بالقياسِ إِلى ما لم يعرضْه، وهو

«بعضٌ» وجزءٌ من جسمِ القصة الكبير!

وشبهُ جملةِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في قوله: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ معناها: الصحةُ والصواب.

البقاء مع القرآن في حديثه عن القصة:

وهي توحي بطبيعةِ القصة القرآنية، فما ذكَرَهُ اللّهُ في القرآن من معلوماتِ قصة موسى عليه السلام هو الحقُّ والصدقُ والصحةُ والصواب، وَقعتْ وحصلتْ وحدثتْ في عالمِ الواقع كما أخبر الله. وعلى المؤمنِ أَنْ يصدِّقَ ويثقَ ويؤمنَ بها كما ورَدَتْ في القرآن، وأن لا يشكَّ في أيِّ خبرٍ أو جزئيةٍ منها.

وقوله: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾ دعوةٌ لكلِّ مؤمن إلى الاكتفاءِ بالمقدار المعروض من القصة في القرآن، والوقوفِ أمامه بتدبُّرٍ وتحليلٍ واعتبار. وعدمِ الذهاب إلى مصادرَ أُخرى غيرِ موثوقة ولا يقينية، كالإسرائيليات والأساطير، بهدفِ استكمالِ المعلومات والأَخبارِ غيرِ المذكورة في القرآن منها، لأَنها ليستْ حقاً ولا صدقاً، فالحقُّ في القصة هو ما وردَ في آيات القرآن، وفيما صحَّ من أَحاديثِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام.

فساد حكم فرعون:

ولَخصت السورةُ مظاهرَ فسادِ حكم فرعون، تمهيداً لرسم الأَجواءِ التي وُلد فيها موسى عليه السلام، فقالت: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾.

فهو مُستَغلٌ متكبِّرٌ في الأرض، وقد فرَّق شعبَه وجعلَهم شيعاً وأحزاباً، فقرَّبَ الموالين، واضطهدَ المخالفين، واستضعفَ الإسرائيليين، لأنهم ليسوا من قومه، ولا على دينه، وهو بهذا مفسدٌ مخربٌ مدمر، وقد فصَّلْنا القولَ في مظاهر فساد حكم فرعون من خلال هذه الآية قبلَ قليل.

يهمُّنا أنْ نُشير إلى أنَّ اضطهادَ فرعون لبني إسرائيل كان بقتْلِ وذبْحِ أبنائهم، واستحياءِ واستعبادِ نسائهم.

إنّ ما فعلَه فرعون ببني إسرائيل كان بلاءً عظيماً، كما قال الله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

ما أراده فرعون ببني إسرائيل وما أراده الله لهم:

أَرادَ فرعونُ استعبادَ بني إسرائيل، وأَرادَ أنْ يُبقيهم عبيداً له ولقومه، يخدمونَهم ويَعملون لهم، وأَرادَ أنْ لا يكون لهم وجودٌ ولا كيان ولا تمكين، ولذلك كان يُذَبِّحُ أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

هذا ما أَراده فرعونُ المستبدُّ بهذا الشعبِ المستضعف، فما الذي أَرادَه اللّهُ له.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

أَرادَ اللّهُ أَنْ يَمُنَّ على بني إسرائيل المستضعفين عند فرعون، ويحوّلَهم من حالةِ الاستضعاف في الأرض على يدِ فرعون وآله، إلى حالةِ التمكينِ في الأرض، ليكونوا أئمةً وقادةً للآخرين، يقودونهم إلى الخير، ويَؤُمّونَهم في الدين، ويكونوا وارثين، يَرِثونَ فرعونَ وآله وقومَه.

أَخبرت الآياتُ عن بني إسرائيل تحتَ اضطهادِ فرعون بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ..﴾.

وأَخبرتْ عن وضعِهم الجديد، بعدما يحقّقُ اللّهُ إرادتَه فيهم، بأنهم سيكونون أئمةً وارثين، وأنَّ اللّهَ سيمكّنُ لهم في الأرض: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ..﴾.

وإذا أرادَ اللّهُ أمراً، وأرادَ فرعونُ أمراً آخر، فلا يكون ولا يتحققُ إلاّ ما أَراده الله، وسيعجزُ فرعونُ عن تحقيقِ إرادته، لأَنها لا تقفُ قوةٌ أَمامَ قوة الله، ولا ينجحُ أَيُّ مخلوقٍ في تحدّي الله!!.

هذه هي الأَجواءُ التي وُلد فيها موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وهي أَجواءُ الاضطهادِ والاستعباد والتعذيب.

وموسى الجنينُ في بطن أمه، تنتظرُه سكاكينُ آلِ فرعون لذبحه، فما أَنْ يولَدَ ويَرى النور حتى يسارعوا إليه، ويأْخذوه من حضنِ أُمه، ويقوموا بذبحه!!.

فلننظرْ كيفَ سيدبرُ اللّهُ الأَحداثَ ويرتبها، وكيفَ سيحقّقُ إرادتَه في حفظِ موسى ورعايته، وكيف سيُنجيهِ من الخطر الفرعوني المحدِقِ به!!.

[٢]
موسى من حضن أمه إلى قصر فرعون

أُمُّ موسى عليه السلام امرأةٌ مؤمنةٌ صالحة. أَنجبتْ قبلَه أختاً له، تكبرُه بأَعوام عديدة، بدليلِ أَنها كانتْ فطنةً ذكية، تراقبُ تابوتَه بحكمة، وتشُير على آلِ فرعون بمرضعٍ لأَخيها.

كيف ستحمي أم موسى وليدها؟:

ولما اقتربتْ ساعةُ ولادةِ موسى سيطرَ القلقُ على أُمِّه، فهي لا تعرفُ جنسَ الجنين الذي في بطنها، فإنْ كان أُنثى فلا مشكلةَ بعد ولادتها، لأنَّ فرعونَ كان يستحيي بنات الإسرائيليات. أَمّا إنْ كان ذكراً فإنها المشكلةُ الكبرى، لأنَّ سكاكين جَزّاري فرعون بانتظاره لتذبحَه، وهي عاجزةٌ عن حمايته أو الدفاعِ عنه، فماذا تفعلُ إسرائيليةٌ ضعيفةٌ أمامَ بطش آل وجنود فرعون؟

وسلَّمت المرأةُ المؤمنةُ أمرها لله، وتوكلتْ عليه، وآمنتْ بقدره وقضائه.

معنى وحي الله إلى أم موسى:

وأَوحى اللّهُ لها بكيفيةِ التصرفِ لإنقاذِ حياة الوليد، فهي قد وَضَعَتْ، والمولودُ ذَكَر، واللّهُ سينجيه.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

ما معنى وحي الله إلى أم موسى؟

لم تكنْ أُمُّ موسى نبيّة، كما لم تكن أُمُّ عيسى نبية، فلم يجعل الله نبيةً من النساء، وإنما قَصرَ النبوةَ على الرجال. وقد وردَ هذا صراحة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ [النحل: ٤٣].

وحيُ الله إلى أنبيائه عن طريقِ جبريل أمين الوحي عليه الصلاة والسلام، أمّا وحْيُ الله إلى أُم موسى فلم يكن عن طريقِ جبريل عليه السلام، وإنما عن طريقِ الإلهام الفطري.

فمعنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾: أَلْهَمْنا أُمَّ موسى إلهاماً فطرياً، بأَنْ قَذَفْنا هذا الأَمْرَ إلى فطرتها ومشاعرها وكيانها وأَحاسيسها، وأَرشدْناها إلى كيفيةِ التصرف لإنقاذِ ابنها الوليد.

وقد وردَ الوحيُ في القرآن بمعنى الإلهامِ الفطريِّ للإنسان، ووردَ بمعنى الإلهامِ الغريزيِّ للحيوان، ووردَ بمعنى الإشارةِ والرمز، ووردَ بمعنى التكليفِ والأمر، ووردَ بمعنى إِرسال جبريل إلى أحد أنبياء الله، وليس هذا موضع تفصيل القول في هذه المسألة.

تلقَّتْ أُمُّ موسى هذه الإشارةَ الربّانية، بفطرتها ومشاعرها وأَحاسيسها، واطمأنت إليها، وعملت بمقتضاها.

أم موسى ترضع وليدها ثم تقذفه في اليم:

كان وحْيُ الله إلى أمِّ موسى ما يلي:

١ ـ أنْ تقومَ بإرضاعِ موسى فورَ ولادته: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾. وأمْرُ الله لها بإرضاعِ الوليد يشيرُ إلى أهميةِ الرضاعة له، وبالذات ما يسمّى بحليبِ «اللِّباء»، وهو الحليبُ المتجمعُ في ثدي الأم أثناء الحمل، والذي يقومُ المولودُ برضعه لحظةَ ولادته، وهو مليءٌ بالعناصرِ الغذائيةِ المتكاملةِ المتجانسة.

والأفضلُ والأكملُ أنْ يرضعَ المولودُ من أمه عامين كاملين، لينموَ نموّاً متكاملاً، جسمياً ونفسياً وشعورياً! ويا ليتَ نساءَ هذا الزمان يعرفْنَ هذا المعنى في إرضاع أولادهن!

٢ ـ أَنْ تجهزَ له تابوتاً خشبياً على مقاسِه، لتضَعه فيه عند الخطر. قال تعالى في سورة طه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾. وقال في سورة القصص: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

إنَّ سورةَ طه تفصِّلُ في هذه الجزئية إجمالَ سورة القصص، ففي سورة القصص ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، وفي سورة طه: ﴿ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

تُبينُ سورةُ القصص أنَّ اللَّهَ أَمَرَ أُمَّ موسى أنْ تقومَ بفعلين:

الأول: قذفُ الوليد في التابوت، بعدَ أنْ تجهزَه وتُعِدَّه له. والتابوتُ صندوقٌ خشبي خاص.

الثاني: قذفُ التابوتِ في اليمِّ ـ وهو البحر أو النهر ـ. التابوت الذي يحوي الوليد.

ولا تهتمُ ولا تفكرُ بابنها بعد ذلك، فإنَّ اللَّهَ سيحفظُه ويرعاه، ويُنجيه من سكاكينِ آل فرعون، بالطريقةِ التي يَختارها سبحانه وتعالى.

ونُلاحظُ أنَّ فعل «اقذفيه» يُلقي ظلَّ الشدة، لأنَّ «جَرْسَ» فِعْل

«قَذَفَ» يُلقي هذا الظل، ويُعطي هذا المعنى. فهي تقذفُ ابنَها الوليد في التابوت قَذْفاً، ولا تضعُه وَضْعاً، ثم تَقذفُ التابوت في اليمِّ قذفاً أيضاً.

ذكر التابوت مرتين في القرآن:

ومن لطائفِ القرآن أنَّ التابوتَ في القرآن لم يَرِدْ إلاّ مرتين فقط. والمرتان في قصةِ بني إسرائيل.

المرة الأولى: هنا أثناءَ الحديثِ عن ولادة موسى عليه السلام، وحفظِ اللّهِ له، عندما سارَ التابوتُ به إلى قصر فرعون.

المرة الثانية: في الحديثِ عن مُلك الملكِ «طالوت» على بني إسرائيل أَثناءَ حُكْم «القُضاة» لهم، ومرورِهم بفترةِ ذلٍّ شديد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ..﴾ [البقرة: ٢٤٨].

فقد اعترضَ بنو إسرائيل على مُلك طالوت، فأخبرَهم نبيُّهم أنَّ اللّهَ هو الذي اختارَ لهم طالوتَ ملكاً، والدليلُ على ذلك أن الملائكةَ ستحملُ التابوت الذي سلَبه منهم أَعداؤُهم، وتأتيهم به، وهذا التابوتُ المقدسُ فيه بقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآلُ هارون.

وإذا كان «التابوت» عندَ الناس يُستعملُ وسيلةً لحمل الجنائز، وأداةً لحفظِ الأموات، فإن اللّهَ الحكيمَ قد اختارَ هذا التابوتَ وسيلةً لحفظِ الوليدِ الصغير موسى عليه السلام.

أَوحى اللّهُ إلى أُمِّ موسى أنْ ترضعَ ابنها، وإذا خافَتْ عليه أنْ تُخرجه من بيتها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ..﴾.

الله ينهى أم موسى عن الخوف والحزن عليه:

إنَّ اللّهَ حكيمٌ في تقديرِه وتدبيره، فمعلومٌ أنَّ الإنسانَ إذا خاف على عزيزٍ لديه فإنه يتمسَّكُ به، ويضمه إليه، ويبالغُ في حمايته

وحفظه، أمّا أمُّ موسى فإنها مأمورةٌ بأن تتخلصَ من ابنها عندما تخافُ عليه! ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

ويَنهى اللّهُ أمَّ موسى عن الخوف على مستقبل ابنها، الذي حملَه اليمُّ وسحبَهُ بعيداً عنها، كما ينهاها عن الحزنِ على فراقه.

عليها أنْ لا تخافَ وأنْ لا تحزنَ لأنَّ اللّهَ هو الذي سيتكفلُ بحفظِ ورعايةِ هذا الوليد.

وأَخبرَها اللّهُ بالمحطةِ الأَخيرة في رحلةِ هذا الوليد في التابوت، فإنَّ اليمَّ سيأخذُه بعيداً، وسيلقيه بالساحل! ساحلِ قصر فرعون! حيث سيتناولُه فرعون، عدوُّه اللدود الذي يبحثُ عنه ليقتله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ . . .﴾.

ولمّا أَوحى اللّهُ إلى أمِّ موسى بهذا الوحي، وأَخبرَها أنه سيوصلُ ابنَها إلى عدوِّه فرعون، طمأنَها اللّهُ عليه، فعدوُّه فرعونُ سيعجز عن قتله، وسيعيدُه الله إليها، وليس هذا فقط، بل إن اللّهَ سيحفظُه إلى أنْ يكبر، حيث سيجعلُه رسولاً بعد ذلك: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

في الآية أمران ونهيان وبشارتان ونادرة الأصمعي:

وهناك لطيفةٌ قرآنيةٌ في وحيِ الله إلى أُمِّ موسى، الذي سجَّلَه قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

فعندَما نمعنُ النظرَ في تركيبِ هذه الآية، فسوف نرى أَنها جمعتْ بين أمريْن ونهييْن وبشارتيْن! جمعتْ بينهما بتناسقٍ بليغ!!

الأمْران: في فعلي الأمر: «أرضعيه»، و: «ألقيه».

والنَّهيان: في «لا» الناهية الداخلةِ على الفعليْن: «لا تخافي»، و«لا تحزني».

والبشارتان: في اسمي الفاعل: «رادّوه» و: «جاعلوه».

أَمرها اللّهُ أن ترضعَ ابنها، ثم أَمرها أنْ تلقيه في اليم.

ونهاها الله عن الخوف والحزن عليه.

وبشَّرها بأنه سيعيدُه إليها، وسيجعلهُ من المرسلين.

إن هذا التركيبَ البيانيَّ البليغ، الذي نَسَّقَ بين الأمرين والنهيين والبشارتين مظهرٌ من مظاهرِ إِعجازِ القرآن.

ومما يتعلقُ بهذا الموضوع طريفةٌ ممتعة، أوردَها الإِخباريُّ الأَديبُ عبدُ الملك بنُ قَريب الأَصمعي، صاحب «الأصمعيات».

قال الأصمعي: بينما كنتُ في إِحدى رحلاتي في الجزيرة العربية، وقفْتُ أَمامَ خيمة، وكان في الخيمةِ فتاةٌ عربيةٌ صغيرةُ السن، فسمعْتُها تُنشدُ هذيْن البيتين من الشعر:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَنْبي كُلِّهِ ... قَبَّلْتُ إِنْساناً بِغَيْرِ حِلِّهِ

مِثْلَ الغَزالِ ناعِماً في دَلِّهِ ... فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فقلتُ لها: قاتلك الله، ما أفصحك!!

فقالت لي: وهل يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

حيثُ جمعَ في آيةٍ واحدة بين أمريْن ونهييْن وبشارتيْن[1]!

ونَفَّذَتْ أُمُّ موسى ما أَمرها الله به، فوضعَتْ وليدَها في التابوت، ثم وَضعت التابوت في اليم، ونَظرتْ إِليه، وهو يحملُه اليمُّ بعيداً عنها، وغابَ التابوتُ عن عينيها، وهي تعلمُ إِلى أينَ يذهبُ به اليم، سيذهبُ به إلى عدوِّه: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٣: ٢٥٢.

أم موسى تكلف أخته بمراقبة سير تابوته:

وحتى تطمئنَّ الأمُّ على مصيرِ ابنها، فقد كلَّفتْ أُختَه أنْ تراقبَه وتتابعَ سيرَه. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١].

و﴿قُصِّيهِ﴾: فعلُ أمرٍ من القَصّ، والقَصُّ بمعنى اقتصاصِ الأثر، فمعنى قولها لابنتها: ﴿قُصِّيهِ﴾: قُصّي أَثَره، وراقِبي سيره، وتابِعي رحلته، وانظري ما الذي يحصلُ له.

ونَفَّذت البنتُ أمْرَ أُمِّها بحكمةٍ وفطنةٍ وذكاء، فقد كانت لبيبةً حكيمة. قال تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنها ستراقبُ سيرَ أَخيها في التابوت، دونَ أَنْ تُلفت لها أنظارَ الراصدين والمراقبين والمتابعين من آلِ فرعون وجنوده.

فلو شاهدَها هؤلاء الراصدون وهي تُراقبُ التابوتَ وترصده، فسوف يشكّون فيها وفيه، وسيمسكون بطرفِ الخيط، وسيتابعون البحثَ والتحري، ليصلوا إلى أمه، وسيعرفون أنَّ هذا مولودٌ إسرائيليٌّ لأُسرةٍ إسرائيلية، وعندها سيقتلونه، وبذلك تفسدُ الخطة كلُّها.

فلا بدَّ أنْ تتصرفَ هذه الفتاةُ بحكمةٍ وفطنة، لقد كانت تراقبُ سيرَ التابوت بطريقةٍ خفية، فالتابوتُ يسيرُ على وجه الماء، وهي تسيرُ على شاطئ اليم، ولا تنظرُ إلى ذلك التابوت، وإنما كانت تنظرُ إلى الجانب الآخر، فلو رآها أَحَدُ الراصدين لما شكَّ فيها، ولما رَبطَ بين سيرها وبين سير التابوت، ولظنَّ أنها فتاةٌ تسير في طريقها إلى أمرٍ ما.

ذكاء الأخت في مراقبته عن جنب:

وكانت الفتاةُ الذكيةُ تنظرُ إلى التابوت بطريقةٍ خفية، دونَ أَنْ يَشعرَ بها المراقبون، هذه الطريقةُ الخفيةُ سجلَها قولُه تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ..﴾.

وكأنها كانتْ تنظرُ إليه بجانبِ عينها، وطرفِ عينها، نظرةً خفيةً بعيدة، وكانت بعيدةً عنه، حتى لا تُثيرَ الشبهة.

فكلمةُ ﴿جُنُبٍ﴾ في الآية تتضمنُ المعنيين: جانبَ وطرفَ العين، وبُعْدَ الأختِ عن تابوت أخيها.

ولهذا قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عن جانب. وقال تلميذه مجاهد رحمه الله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عن بُعْد[1].

ونَرى أن كلاًّ منهما ذَكَرَ جُزءاً من معنى ﴿جُنُبٍ﴾ وكلامه صحيح، لكن لا بدّ من الجمع بينهما، حيث تدل ﴿جُنُبٍ﴾ على معنى جانبِ العين وطرفها، وابتعادِ البنت عن أخيها.

وتابعت الأختُ مراقبةَ تابوتِ أَخيها، وبقيتْ أُم موسى تفكرُ فيه في بيتها.

قلق أم موسى بعد خروج تابوت الوليد:

صحيحٌ أنَّ أمَّ موسى مؤمنةٌ بالله، مصدقةٌ بوعده، وقد طمأَنها اللّهُ على مصيرِ ابنها، ونهاها عن الخوفِ والحزن عليه، وقد أيقنتْ بكلِّ هذا، ولكنها إنسانةٌ بشر، يتدسَّسُ إليها الشيطان أَحياناً بوساوسه ونزغاته، فتصاب بالضعف أحياناً، وتهجم عليها الهواجس والشكوك والأفكار والخواطر، فتدفعها وتجاهد نفسها لتتخلص منها، بعدَ أن تصيبها وتؤثرَ بها لحظات سريعة.

وقد سجَّلَ حالتَها بعد سحبِ اليمِّ لتابوتِ ابنها وخروج أخته لتراقبه، قولُه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

تُشيرُ هذه الآيةُ إلى حالةِ أُمِّ موسى ونفسيتها، بعدما غادرها وليدُها، فكأنَّ الخواطرَ والهواجسَ غَزَتْها، فشكَّتْ في تصرفها وفعلها. وكأنها كانت تقولُ لنفسها: ماذا فعلْتُ بابني؟ وكيفَ ألقيتُه في اليم؟

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٦٨.

وهل هذا كان بوحيٍ من الله حقاً؟ أم كان بوساوسِ الشيطان؟ وهل هناك امرأةٌ عاقلةٌ تُلقي ابنَها في البحر؟ ومَنْ يضمنُ لي أنَّ البحرَ لا يغرقُه؟ إنني أنا الجانية! جنيْتُ على وليدي وعلى نفسي! أنا القاتلة! قتلْتُ ابني!

لقد سيطرتْ عليها هذه الهواجسُ والظنون، حتى كادَتْ أنْ تخرجَ إلى الشارع، لتُبديَ بالأمرِ وتظهرَه، وتقول: ابني!! ابحثوا لي عن ابني! وضعْتُه في التابوت وهو هناك في البحر! أَعيدوا لي ابني! أنا القاتلةُ قتلْتُ ابني!

الله يربط على فؤادها:

لقد كان قلبُها مشغولاً بموسى، وأصبح فؤادها فارغاً. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ..﴾.

كان فؤادُها مشغولاً بموسى، مَلِيئاً بالتفكير في موسى، مَلأَ موسى عليها قلبَها وفؤادَها ومشاعرَها وخواطرَها وأفكارها. وبذلك كان فؤادُها فارغاً من غير موسى، لا مجالَ فيه لغير موسى.

أيْ أَنها من شدةِ اهتمامها وتفكيرها في موسى نسيتْ كلَّ شيء غيرَ موسى، نسيتْ نفسَها ومَنْ حولها، فليس عندها إلاّ موسى.

ومن شدةِ اهتمامها بموسى أَنها ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، وتُظهرُ أمره، وتعلنُ للناس أنه ابنها، وتطلبُ منهم أنْ يُعيدوه إليها.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: كان فؤادُها فارغاً من كلِّ شيء من أُمور الدنيا، إلاّ من موسى. فكادَتْ من شدةِ وَجْدِها وحزنها وأَسَفها أنْ تُظهرَ أنه ذهبَ لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أنَّ الله صبَّرَها وثبَّتَها[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٦٨.

ملأَ اللّهُ قلبَ أُمِّ موسى إيماناً ويقيناً، وهدوءاً وسكينة، ثم ربطَ على قلبها الممتلئ من كلِّ هذه المعاني العظيمة، لئلا يتسرَّبَ منه شيء منها، فاطمأنَّتْ على وليدِها، وعلى راحتِه وحياته، وهدأَتْ وسكنت واستقرت: و﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أما تابوتُ موسى فقد أَمَرَ اللّهُ اليمَّ أنْ يحمَله إلى قصر فرعون! وهكذا سارَ التابوتُ على وجْهِ الماء، وأختُ موسى تقصُّه وتنظرُ إليه ﴿عَن جُنُبٍ﴾. وتوقَّفَ التابوتُ أمام قصر فرعون، ليحملَه أهلُ القصر، ويُدْخِلوه إلى فرعون!!.

وهكذا قدَّرَ اللّهُ الأُمورَ والأحداث، مبالغةً في المكر بفرعون، والسخرية منه!

إنَّ فرعونَ قد وظَّفَ رجالَه للبحثِ عن الوليدِ ليقتلوه، ولو وَجدوه في حضنِ أُمه لقتلوه، وما يستطيعُ أحدٌ في البيت حمايتَه أو الدفاعَ عنه.

الله يمكر بفرعون عندما ساق له الوليد في التابوت:

ويريدُ اللّهُ أنْ يبينَ لفرعونَ المتغطرسِ ضعفَه وعجزه، ولذلك ساقَ له الوليدَ وحيداً، ليس معه حمايةٌ بشرية وكأنَّه يقول لفرعون: أنتَ تبحثُ عن الوليد لقتلِه، لا تُتعبْ نفسَكَ بالبحثِ عنه، فها هو قد جئْنا به إليك، وها هو ابنُ ساعات فقط، لكنك لن تستطيعَ قتله، لأنه بحفظِنا ورعايتنا، فأنتَ تريدُ قتْلَه، ونحنُ نريدُ أن يعيش، وإرادتُك معطلةٌ أمامَ إرادتنا ومشيئتنا.

وقد أَشارَ إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩].

فاليمُّ سَلَّمَ الوليدَ إلى عدوِّه اللدودِ فرعون، بأمر الله، ليُري اللّهُ فرعونَ عجزَه عن قتلِ الوليد.

[٣]

فرعون يتبنى موسى بطلب من امرأته

توقَّفَ تابوتُ موسى أمامَ قصرِ فرعون، وفقَ ترتيبِ الله وحكمتِه، وشاهدَ أُناسٌ من آلِ فرعونَ التابوتَ راسياً على شاطئ اليم، وحملوا التابوتَ إلى داخلِ القصر. قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩].

إدخال موسى إلى امرأة فرعون:

وكانت امرأةُ فرعونَ داخلَ القصر، فلما رأت التابوتَ أمرتْ بفتحه، وفوجئتْ بالوليدِ موسى ـ ابنِ الساعات ـ داخلَ التابوت، وأُعجبتْ به، وقذفَ اللَّهُ حبَّه في قلبها، ليحققَ قَدَرَه وإرادَته سبحانه.

أَحبت امرأةُ فرعون موسى الوليد ـ الذي لم يمضِ من عمره إلا ساعات معدودة ـ واعتبرتْه هديةً لها، ورغبتْ في أنْ تتبناه، وأنْ تتخذَه ولداً لها.

وذهبَ بعضُ الإخباريين إلى تحديدِ اسم امرأة فرعون، وإلى سببِ رغبتها في تبنّيه، وقالوا إنها المرأةُ المؤمنةُ آسيةُ بنتُ مزاحم، التي أثنى عليها اللّهُ في القرآن، وأثنى عليها رسولُ الله ﷺ.

أثنى اللّهُ عليها في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

وامرأةُ فرعون في الآية مبهمة، وقد بيَّنَ رسولُ الله ﷺ اسمها، عندما أشارَ إلى إيمانها وفضلها.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أَبي موسى الأشعري رضي الله

عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كَمُلَ من الرجالِ كثير، ولم يكملْ من النساءِ إلا مريمُ ابنةُ عمران، وآسيةُ امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، وفضْلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام»[1].

آسيةُ ابنةُ مزاحم امرأةٌ مؤمنةٌ صالحة، كملتْ في إيمانِها وعقلِها، وهي من أفضلِ نساءِ العالمين، بشهادةِ رسول الله ﷺ، وهي امرأةُ فرعون، وهذا كلُّه لا شكَّ فيه.

لكن من هو فرعونُ الذي تزوَّجها؟ وكيف تزوَّجها؟ هل هو فرعونُ الذي وُلِدَ موسى في عهده؟ أم هو فرعونٌ آخرَ قبلَه؟ أم فرعونٌ آخرَ بعدَه؟.

أسئلة بشأن امرأة فرعون ليس عليها جواب يقيني:

إننا نعلمُ أنَّ «فرعون» ليس اسماً لملكٍ معينٍ حكَمَ مصر، وإنما هو لقبٌ لكلِّ مَنْ حَكَمَ مصر، في فترةِ حكم الفراعنة، وهذا اللقبُ ينطبقُ على ملوكٍ عديدين من الفراعنة، لكلٍّ منهم اسمٌ خاص، ويجمعُهم لقبُ فرعون.

فامرأةُ أيِّ واحدٍ منهم هي؟ لا نملكُ تحديدَ اسم زوجها.

ثم إنَّ اسمَها عربي «آسية بنت مزاحم»، وأَسماءُ ملوك الفراعنة فرعونية، مثل: رعمسيس، ومنبتاح، وأخناتون... فهل هي قريبةُ زوجِها، أم هي عربية تزوَّجها فرعون؟ لا نملكُ تحديدَ ذلك أيضاً!

وهل آسيةُ بنتُ مزاحم هي التي استقبلتْ موسى الوليد، وأحبته وتبنَّته؟ لا نملكُ تحديدَ ذلك أيضاً!

وهل بقيتْ آسيةُ بنت مزاحم حيةً حتى عاد موسى من مدين نبياً رسولاً، فآمنتْ به واتبعَتْه؟ أم ماتتْ قبلَ عودته؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١١. ومسلم: ٢٤٣١. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٦.

وهل ماتتْ آسيةُ امرأة فرعون موتاً عادياً؟ أم قَتَلَها فرعون؟ وكيف؟ لا نملكُ على هذا جواباً علمياً.

ولماذا تبنَّت امرأةُ فرعون ـ آسيةُ أو غيرها ـ موسى الوليد؟ هل كانت عقيماً لا تُنجب؟ أم كان لها أولاد ولكنها أحبَّتْ أنْ تتبنّاه؟ لا نملكُ على هذا دليلاً يقينياً.

هذه الأسئلةُ وغيرُها بَحَثَ فيها الإِخباريون، وحاولوا تقديمَ إجاباتٍ عليها، واختلفتْ إجاباتُهم، وتعددتْ آراؤهم، ولم يعتمدوا في ذلك على أدلةٍ علميةٍ يقينية، مأخوذة من الآيات الصريحة، أو الأحاديث المرفوعة الصحيحة، وإِنما أَخذوها من رواياتِ المؤرخين وإِسرائيلياتِ بني إِسرائيل.

وبما أَننا لا نعتمدُ إِلاّ على الآياتِ الصريحة والأحاديث المرفوعة الصحيحة، في إِثباتِ أَحداثِ القصص القرآني، فإننا لا نخوض في هذه الأسئلة، ولا نحاولُ الإجابةَ عليها، ونعتبرُها من «مبهمات القصص القرآني».

موسى قرة عين لامرأة فرعون:

كلُّ ما نقول به هو ما أَخبرتْ عنه آياتُ القرآن: رأت امرأةُ فرعون موسى الوليد، وقذفَ اللّهُ حبَّه في قلبها، فأَحبتْه ورغبتْ في تبنّيه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩].

حَملتْ امرأةُ فرعون الوليد، وقدَّمَتْه إلى زوجها، وقالتْ له: يا فرعونُ هذا الوليدُ قرةُ عينٍ لي ولك.

وقُرَّةُ العين: سرورُها وسعادتُها، عندما تشاهد ما تحب، ويَستمتعُ صاحبُها بما يريد.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى قرة العين: «القُرُّ يقتضي السكون.

وقَرَّتْ عينُ فلان: إذا سُرَّتْ. وقيلَ لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عين. قيلَ: أَصْلُه من القُرِّ أي البرد.

قيل: معناه: بَرَدَتْ عَيْنُه فَصَحَّتْ.

وقيل: بل لأنَّ للسرورَ دمعةٌ باردة قارة، وللحزنِ دمعةٌ حارة، ولذلك يُقالُ فيمن يُدعى عليه: أَسْخَنَ اللّهُ عينَه.

وقيل: هو من القَرار. والمعنى: أَعطاهُ اللّهُ ما تسكُنُ به عينه، فلا تطمحُ إلى غيره[1].

والخلاصةُ أَنَّ قُرَّةَ عينِ الإنسان بالشيء سعادتُها وسرورُها، فعندما يحبُّه ويسكنُ إليه ويرغبُ فيه، ويُسَرُّ به، يقال: قَرَّتْ عينُه به.

إنَّ امرأَةَ فرعون تُرَغِّبُ زوجَها في المحافظة على موسى، ولهذا تقول له: هذا الوليدُ الجميلُ البريء قرةُ عينٍ لي ولك، ستقرُّ به عيونُنا.

امرأة فرعون تنهى عن قتل موسى وتزين لزوجها تبنيه:

ويبدو أَنهم شكّوا في أهلِ الوليد ونَسَبه، ويبدو أَنّهم ظنّوه إسرائيلياً، ويبدو أَنهم فكّروا في قتله، أو أَنهم أَرادوا قتلَه، فنهَتْهُم امرأةُ فرعون عن ذلك.

والذي يدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

فلما سمعَ القومُ كلامَ امرأةِ فرعون توقَّفوا عن قتله، لأنهم تابِعون لفرعون منفِّذُون لأوامره، وكلامُ امرأته كلامُه، ورغبتُها رغبتُه، وقرارُها قرارُه. فلما قالت لهم: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فكأَنَّ فرعونَ هو الذي قالَ لهم: لا تقتلوه!!.

واستمرَّتْ امرأةُ فرعون في ترغيبِ زوجِها في الاحتفاظِ بالوليد، فقالت له: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

---

(١) المفردات: ٦٦٣.

إنها تزيِّنُ لفرعونَ تبنّي الوليد، وتطلبُ منه الاحتفاظَ به، فهم يريدون أنْ يتخذوه ولداً، وعندما يشبُّ ويكبرُ في بيتهم ويكون رجلاً، فسوف ينفعُهم.

وليس معنى هذا أنهما لا يُنجبان الأولاد، فأرادَتْ تبنّيه، فقد يكون لهما أولاد، ولكنها أحبَّت الوليد ورغبتْ في تبنّيه. وقد تكون هي عقيماً، لكن لفرعون زوجاتٌ غيرها، أَنجبنَ منه أولاداً!!

ويبدو أنَّ فرعونَ لم يتردَّدْ في تنفيذِ رغبة امرأته، فاتخذَ قرارَه بتبنّي الوليدِ الصغير والاحتفاظِ به وإبقائِه في القصر عند امرأته، ليكونَ قرةَ عينٍ لهما.

وهذا هو تقديرُ الله سبحانه بحكمته، ليحققَ إرادتَه ومشيئَته، فهو الذي قذفَ محبتَه في قلبِ امرأة فرعون، أَمَرَ قلْبَ تلك المرأة أنْ يحبَّ هذا الوليد، وما يملكُ قلبُها إلاّ تنفيذَ أمْرِ الله، لأنه جنديٌّ من جنود الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وجملةُ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ تُلقي ظلاًّ طيّباً رفيعاً، فكأَنَّ محبةَ الله تحوَّلَتْ إلى شيءٍ مادي مجسم، أشبه ما يكونُ بغطاءٍ دافئ، وهذا الغطاءُ يلقىٰ على موسى الوليد الصغير إلقاءً، غطاءٌ مصنوعٌ من مادةٍ رقيقةٍ شفافة اسمها «محبة الله».

هذه المحبةُ الدافئةُ أَلقاها اللّهُ على موسى الوليد إلقاءً، في قصرِ فرعونَ المتألّه الطاغية، فكانت تعويضاً له عن حنانِ حضنِ أُمّه الدافئ، الذي حُرِمَ منه إلى حين، وكانت سبباً في حمايته وحفظه ونجاتِه من خطر فرعون وزبانيته وجزّاريه.

هذه المحبةُ التي أَلقاها اللّهُ عليه هي حنانُ امرأة فرعون وشفقتُها عليه ورأفتُها به!

وهكذا صارَ الوليدُ آمناً في قصر فرعون، بعدما تبنّاه فرعونُ وامرأتُه، وهما لا يعرفان شيئاً عنه، وآلُ فرعون وجنودُه لا يعرفون شيئاً عنه، لا يَعرفون أهلَه، ولا أصلَه.

فرعون وآله يربون موسى فصار لهم عدواً وحزناً:

لم يتوقّعْ فرعونُ ولا آلُه أن يكونَ هذا الوليدُ إسرائيلياً، وأنْ يكونَ من المواليدِ الذين يبحثون عنهم ليقتلوهم!

لا يَدري فرعونُ المتألّه أنْ يكونَ هذا المولودُ الذي تبنّاه هو عدوَّه اللدود، وأَنه سيكون هلاكُه على يديه.

ومن سخريةِ الله ومكرِه بفرعون أنه أَلهمه تبنّي عدوِّه، وأَلهم آلَه تربيةَ عدوهم!

ولهذا علّقت الآياتُ على تبنّي فرعونَ للوليد بقولها: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٨ ـ ٩].

احتفظوا به ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يَشعرونَ بالذي يفعلونَه، ولا يَعرفون مَن الذي يَحتفظون به ويُحافظون عليه، ولو كانوا يَشعرون بذلك ويعلمونَ أصْلَ وأهلَ ذلك الوليد لسارعوا بقتله، ولكنها حكمةُ الله العليم الحكيم!

لقد نتجَ عن تبنّي فرعونَ وهامان وجنودِهما لهذا الوليدِ أَنه صارَ لهم عدوٌّ وحزنٌ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وهذه اللامُ في ﴿لِيَكُونَ﴾ هي التي يسمّيها علماءُ النحو «لامَ العاقبة»، وهي التي يكونُ ما بعدَها عاقبةً ونتيجةً لما قبلَها، و«لام العاقبة» تدخلُ على الفعلِ المضارع، ويكونُ المضارعُ منصوباً بأنْ المضمرةِ بعدها.

ومعنى الآية: إنَّ نتيجةَ وعاقبةَ تربيةِ فرعون وآله لموسى أنه صارَ لهم عدو وحزن، بدلَ أنْ يكونَ قرةَ عينٍ لهم.

وكانوا بذلك خاطئين: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ إنهم خاطئون لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا يَعرفونَ عاقبةَ ما يفعلون، ولا يَعرفون مَن الذي به يَحتفظون! ولكنها حكمةُ اللّهِ العليمِ الحكيم.

[٤]

نشأة موسى في قصر فرعون

استجابَ فرعونُ لرغبةِ امرأته، وأَصدرَ أَمره بتبنّي الوليدِ الصغير موسى، وضَمَّه إِلى أهلِ بيته.

وكانت أختُ موسى الفطنةُ الذكيةُ تراقبُه عن بُعْد، وتتابعُ أَحداثَ أَخيها عن جُنُب.

كيف سيعيد الله موسى إلى أمه؟:

ولقد كانَ من وحيِ الله إِلى أُمّ موسى أَنه سيعيدُ ابنَها موسى إِليها، ولكن كيفَ سيكونُ ذلك؟ إنَّ آلَ فرعون لا يعرفون أهلَ الوليدِ الذي تبنّاه فرعون، بينما هم يَعرفون أَنَّ عمرانَ وزوجَه ـ والدَ موسى وأُمّه ـ إسرائيليان. فكيف سيعيدُ اللّهُ الطفلَ الرضيعَ إِلى ثديِ أمه وحضْنِها دون أنْ يكتشفوا الصلةَ بين الطفل والأم؟

لو أنَّ الأمْرَ تُرِكَ إِلى تخطيطِ البشرِ فسوف يَعجزونَ عن إِعادتِه إِلى أُمّه دونَ أنْ ينكشفَ الأمر، ويعرفَ آلُ فرعون نَسَبَهُ وأَصْلَه الإسرائيلي.

لكنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى قَدَّرَ الأمْرَ بعلمه وحكمته، واختارَ لعودته إِلى أُمّه وسيلةً لا تَخطرُ على بالِ أَحدٍ من البشر.

هذه الوسيلةُ الربانيةُ المعجزةُ مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ...﴾.

فما معنى هذه الجملةِ من الآية؟ وما هي تلكَ الوسيلةُ الربانية؟

المراضعُ هي النساءُ اللواتي يُرضعْنَ الأطفالَ في سنِّ الرِّضاع، وهي جمع، مفردُه «مرضع».

تشيرُ هذه الجملةُ القرآنيةُ إلى معجزةٍ ربانية باهرة! فلمّا تبنّى فرعونُ وامرأتُه الوليدَ موسى، صارَ في عرفِ الناس ابناً لفرعون، وامرأةُ فرعونَ ليستْ مرضعاً ولا مرضعة، فليس في ثديها حليبٌ للوليد، والوليدُ بحاجةٍ إلى غذاء، وغذاؤه في الساعات الأولى من عمره هو الحليب، والمصدرُ الوحيدُ للحليب ـ في ذلك الوقت ـ هو النساءُ المراضع، والوليدُ المحتاجُ إلى الحليب هو ابنُ فرعون ـ بالتبني ـ وشَرَفٌ عظيمٌ لأيّ امرأةٍ مرضعٍ أنْ تُرضِعَ ابنَ فرعون!

امتناع موسى الرضيع عن النساء المراضع:

فما أنْ علمت النساءُ أنَّ ابنَ فرعون بحاجةٍ إلى رَضَاع، حتى سارعت المراضعُ منهنَّ بتقديمِ خدماتهن وحليبهن له، وتطوعْنَ لإرضاعه.

ولكن المفاجأةَ هي أَنَّ الرضيعَ لم يقبلْ مرضعةً منهن، فما أن تأتيَ إحداهن، وتُلقمَه ثَدْيَها، حتى يرفضَ الرضاعةَ منه، فعل هذا بالأولى والثانيةِ والثالثة. . . وهكذا.

لماذا رفضَ المراضعَ جميعاً؟ لأنَّ اللّهَ أَمره بذلك، وما كان من شفتيْه الصغيرتيْن إلاّ تنفيذُ الأمر!!.

هذه المعجزةُ الربانيةُ هي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾.

والمعنى: حَرَّمَ اللّهُ عليه الرضاعَ من أيّ مرضع، فرفضَ الوليد أَثْدَاءَ جميعِ المراضع. وفعلَ اللّهُ ذلك ليعيدَه إلى أُمه في اللحظةِ المناسبة.

وعبرت الآيةُ عن الامتناع بالتحريم.

قال الراغب الأصفهاني: «الحرام: الممنوعُ منه، إمّا بتسخيرٍ إلهي، وإمّا بشري، وإمّا بمنعٍ قهري، وإمّا بمنعٍ من جهةِ العقل أو من جهةِ الشرع، أو من جهةِ من يُرْتَسَمُ أَمْرُه..

والتحريم في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ تحريمٌ بتسخير»[1].

أي أنَّ اللّهَ منعَ شفتيْ موسى من قَبولِ ثَدْيِ أيِّ امرأة مرضع، وعبرت الآيةُ عن هذا المنعِ التسخيريِّ بلفظ: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ لأنَّ التحريمَ هو المنع.

وفوجِئَ آلُ فرعون بهذا الموقف المثير. وليدٌ لم يمضِ على ولادته ساعات، يرفضُ أنْ يرضعَ من أيِّ مرضعة، وكأنه يبحثُ عن مرضعةٍ معينة! وهل يفرقُ وليدٌ ابن ساعات بين مرضعة ومرضعة؟ وهل تفرقُ شفتاه بين ثَدي وثَدي؟

المعهودُ عند الناسِ أنَّ الطفلَ الرضيعَ يرضعُ من أيِّ امرأة مرضع، وتَقبلُ شفتاه أيَّ ثدي، وإذا جاعَ امتصَّ حليبَ الثدي بنهم! فلماذا هذا الوليدُ الرضيعُ لا يفعلُ ذلك؟

إنها إرادةُ الله، وإنه تقديرُ الله الحكيم سبحانه، وإنَّ شفتي الرضيعِ جنديٌّ من جنود الله، جعلَهما اللّهُ وسيلةً ربانيةً لتحقيق إرادته.

وقد مَرَّ مَعَنا فيما مضى جنودٌ آخرون من جنود الله، حقَّقَ اللّهُ بهم حكمتَه:

- التابوتُ جنديٌّ من جنود الله، حفظَ اللّهُ فيه موسى.
- واليمُّ جنديٌّ من جنود الله، حملَ التابوتَ إلى قصر فرعون.
- وقلبُ امرأةِ فرعون جنديٌّ من جنود الله، خفقَ بالحب لموسى.

---

(١) المفردات: ٢٢٩.

- والآن شفتا موسى جنديٌّ من جنودِ الله، ترفضان جميعَ الأثداءِ من النساء المراضع، وتَطلبان ثَدْيَ الأم!

ما الذي حصلَ بعدما رفضتْ شفتاه جميعَ الأَثْداء؟

فرعون وآله حريصون على حياة موسى:

خافَ فرعونُ وآلُه عليه، لأنَّ حياتَه في خطر، وهو مُعَرَّضٌ للموت، وإذا بقي الرضيع «مُضْرِباً» عن الرضاعة فسوفَ يموت! وهم يخشون عليه الموت! ولا يريدونَ له أنْ يَموت!!

يا سبحانَ الله! ما أعظمَ حكمةَ الله!! وما أَروعَ تدبيرَ الله!!!.

فرعونُ الذي كانَ بالأمس حريصاً على قتل موسى، هو نفسُه اليومَ حريصٌ على حياة موسى!

وآلُ فرعون الذين كانوا بالأمسِ حريصين على ذبحِ موسى، هم اليومَ حريصون على إنقاذِ حياة موسى!!.

الكلُّ الآن منهمكٌ مشغولٌ مفكِّر، كيف ينقذُ حياةَ هذا الرضيع المضربِ عن الرضاعة! الكلُّ يهمُّهُ أمْرُ موسى الرضيع! الكلُّ مستعدٌّ لبذلِ كلِّ ما يستطيعُ ليعيشَ هذا الرضيعُ الصغير!

لقد «وَظَّفَ» اللّهُ الحكيمُ فرعونَ وآلَه لخدمة موسى الرضيع، وسخَّرهم لبذلِ جهدِهم لإنقاذِ حياته. وموسى الآن بينهم ينالُ كلَّ رعايةٍ واهتمام!

فلو بقيَ في حضنِ أُمّه الإسرائيلية فهل سينالُ هذا؟ ولو بقيَ في حضنِ أُمّه فهل سيهتمُّ به كلُّ هؤلاء؟

إنه تقديرُ وتدبيرُ اللّهِ الحكيم الخبير، وإنها سخريةُ اللّهِ بفرعونَ المتألّه، ليريه جهلَه وقصرَ نظره، فَها هو الآن حريصٌ كلَّ الحرص على إنقاذِ حياة عدوِّه اللدودِ الرضيع، المضربِ عن الرضاعة!.

تدخل أخت موسى الذكية في اللحظة المناسبة:

وكانت أختُ موسى اللبيبةُ الذكيةُ تراقبُ كلَّ شيء، بفطنةٍ ووعي، وكانتْ مع المتجمعين حولَ أخيها، وشاهدت امتناعَه عن جميعِ المراضع، ولاحظتْ تلهُّفَ فرعونَ وامرأتِه وآلِه على أخيها، واهتمامَهم به، وحرصَهم على إنقاذِ حياته.

هنا تدخلتْ في اللحظةِ المناسبة، وعرضَتْ عليهم خدماتِها، لإنقاذِ حياةِ ابن فرعون ـ بالتبنّي ـ وأخبرتْهم أنها تعرفُ مرضعاً سيقبَلُ الرضيعُ ثديَها.

قال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: ٤٠].

قالتْ لفرعونَ وآلِه: هل أدلكُم على أهلِ بيت، فيه امرأةٌ مرضع، سيقبلُ الرضاعةَ منها، وسيكفلهُ أهلُ البيت كلُّهم، وسيكونون حريصين عليه، ناصحين له؟

ولماذا لا يقبلُ فرعونُ وآلُه هذا العرض من تلك الفتاة؟ أَليسوا حريصين على إنقاذِ حياة الرضيع؟ وعندها هي الحل. وهم لا يشكّون فيها، ولا في أهلِ البيت الذي ستدلُّهم عليه!

إحضار أم موسى لإرضاعه:

قبلَ فرعونُ وآلُه عرضَ الفتاة، ودلَّتْهم على أهلِ بيتٍ يكفلونَ الرضيع وهم له ناصحون. وما درى المساكين أنَّ أهلَ البيت هم أهلُ الرضيع، هم أَبوه وأُمُّه وإِخوتُه! إنهم فعلاً مساكين سذَّجٌ أَمامَ تدبيرِ الله وتقديره وحكمته!

واستدعوا أُمَّ موسى، وهم لا يعرفون أَنها أُمه، ودخلتْ عليهم،

وتصرفتْ هي أيضاً بحكمةٍ وفطنة، فلم تهجمْ عليه بحنانِ الأم وشوقِها ولهفتها، ولم تَقُمْ بتقبيله واحتضانِه والبكاءِ شوقاً إليه، ولم تسمحْ لمشاعرها أنْ تكشفَ حقيقتَها.

تصرفَتْ وكأنّها لا تعرفُ هذا الرضيع، وعاملَتْه باعتبارِه طفلاً كأيِّ طفل، حملَتْه، وألقمَتْه ثديَها. ونظرَ فرعونُ وآلُه إليه، وفوجئوا: هذا الذي أَضربَ عن جميعِ النساء، ورفضَ جميعَ الأثداء، هو نفسُه يَقبلُ ثديَ هذه المرأة، ويرضَعُ منها بسكونٍ وطمأنينة، وها هو يخلدُ إلى النوم بعدما رضعَ الوجبةَ المشبعة!

نام في هذا الحضنِ الدافئ، واطمأنَّ إلى هذا الحنانِ الصادق، وكأنَّه عرفَ أن هذه المرأة هي أمُّه التي أنجبتْه، وهم لا يعرفون أَنها أمُّه، ولذلك سكنَ إليها، ونامَ في حضنها!!

فرحَ فرعونُ وآلُه بهذه النهاية السعيدة، حيث زالَ الخطرُ عن الرضيع، واطمأنوا على حياته.

فرعون يعيّن أم موسى مرضعاً له:

وعَيَّنَ فرعونُ أُمَّ موسى مرضعاً له، وفقَ حكمةِ الله وتقديره وتدبيره، وحملت الأمُّ ابنَها، وذهبتْ به إلى بيتها، وصارت ترضعُه حليبَها وحنانَها، وتأخذُ أُجرتَها على ذلك من فرعون.

وبذلكَ تحققَ وعدُ الله لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾. حيث ردّه اللّهُ إليها بطريقةٍ ربانية لا تخطرُ على بالِ بشر، وهي امتناعُ موسى عن الرضاعةِ من أيِّ مرضع، حتى جاءوا له بأمِّه وهم لا يشعرون.

وبهذا المعنى وردَ قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

ردَّ اللّهُ موسى إلى أُمه، وأَرضعتْه حليبَها وحنانَها، وأَخذَ الطفلُ حاجتَه منها، بقرارٍ من فرعون. وبذلك قرَّتْ عينُها، وحقّقَتْ سرورَها

وسعادتَها، حيث جمعَ اللّهُ بينَها وبين ابنها، وزالتْ عنها مشاعرُ الحزن والأسى، عندما فارقَها لفترةٍ قصيرة.

وبذلك زادَ إيمانُ هذه المرأة المؤمنة بالله، وزادَ يقينُها بتحقيقِ وعْدِ الله، وزادَ تسليمُها لأمر الله، وتعمَّقَ علمُها بقدرة الله وحكمته.

أمّا فرعونُ وآلُه فقد كانوا جاهلين، لا يَعرفون ماذا يفعلون، ولا يُدركونَ حقيقةَ الأحداثِ التي تجري.

ونُشيرُ إلى الجانبِ الإيجابي في ثناءِ الله على أمِّ موسى، ووصْفِها بالعلم في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

وهذا في مقابلِ الجانب السلبي، عندما نفى عن فرعون وآله العلم، في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد امتنَّ اللّهُ على موسى عليه السلام، عندما ذكَّرَه بهذا التدبيرِ والتقدير، وهذه المنةِ والنعمة، وكان ذلك عندما ناجاهُ على جبل الطور، وكلَّفَه بالذهابِ إلى فرعون، حيث قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ [طه: ٣٧].

وقال له: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ..﴾ [طه: ٤٠].

لماذا التأكيد على عودته لأمه بأسلوبين قرآنيين؟:

ونلاحظُ أنَّ القرآنَ أكَّدَ على تحقيقِ وعْدِ الله لأُمِّ موسى بإعادةِ ابنها إليها، واستخدَمَ في ذلك أسلوبيْن:

أُسلوبُ الإخبارِ في سورة القصص: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ...﴾.

وأُسلوبُ الخطابِ المباشر في سورة طه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ..﴾.

ولعلَّ هذا التأكيدَ بسببِ أَهميةِ الموضوع، وللإشارةِ إلى المعجزة الربانية في تدبيرِ وتقدير إِعادتِه إلى أمه، وسخريةِ الله بفرعونَ المتألّه، حيث دفعَه دفعاً إِلى اتخاذ قرارِه بإعادةِ الطفلِ إلى أمه. والتذكير بأنَّ التخطيطَ البشريَّ عاجزٌ عن إعادةِ موسى إِلى أمه بدونِ كشف حقيقته.

«قرة العين» لأم موسى وامرأة فرعون، وحرمان فرعون منها:

ونلاحظُ أيضاً تكرارَ الحديثِ عن «قرةِ العين» في الحديثِ عن هذه المرحلةِ المثيرةِ الخطيرة، من حياة موسى عليه السلام:

- فلما شاهدت امرأةُ فرعون الوليد، خاطبتْ زوجَها قائلة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ﴾.
- وأَخبرَ اللّهُ أنه أَعادَ موسى إِلى أمه: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ . .﴾.
- ولما خاطبَ موسى على جبلِ الطور، ذكَّرَه بذلك، وأَخبره أنه أَرجعَه إلى أمه: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ . .﴾.

وفعلاً قَرَّتْ عينُ أُمِّ موسى بإعادةِ ابنِها إِليها، وزالَ عنها الحزن، وكان موسى قرةَ عينٍ لامرأة فرعون المؤمنة ـ على ما ذهبَ إِليه بعضُ المفسرين والإِخباريين ـ لأَنها آمنتْ به، ونالت السعادةَ والسرور.

ولكنَّ موسى لم يكن قرةَ عينٍ لفرعون، لأنَّ فرعونَ رفضَ الإيمان، فخسرَ السعادةَ والسرور، لقد كان موسى سبباً في موتِ فرعون وهلاكه.

إنَّ قرةَ العين لا تكونُ إلا بالإيمان، ولا تتحققُ إلاّ بالتسليم لله، وكلُّ مَنْ آمنَ بالله، وتوكَّلَ عليه، ووثقَ بوعده، ورضيَ بقضائه، فقد حققَ السرورَ والسعادة، والرضا واليقين، والهدوء والطمأنينة.

والكافرُ محرومٌ من هذه النعم الغامرة لكفره، وبذلك لا تقرُّ عينُه، ولا تهدأُ نفسُه.

لذلك كانَ موسى قرةَ عينٍ لأمه ولامرأةِ فرعون، ولم يكن كذلك لفرعونَ نفسِه!

سكوت عن مصير أبوي موسى وأخته بعد ذلك:

أَنهى موسى رضاعَه عند أُمِّه، ولما كَبُرَ أُعيدَ إلى فرعون، لينشأَ في قصره، ويقضي فتوَّتَه وشبابَه فيه.

وسكتتْ مصادرُنا اليقينية - الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة - عن والدَيْ موسى بعدما عادَ إلى فرعون.

فأبوه «عمران» لم نعلمْ عنه شيئاً أَساساً.

وأُخْتُه اللبيبةُ الذكية، انتهى دورُها عندما اقترحَتْ على فرعونَ وآلِه الإتيانَ بمرضعٍ له، حيث أَتَتْ بأمها، ولا نعرفُ عنها شيئاً بعد ذلك.

وأُمُّه انتهى دورُها بانتهاءِ حضانتِها له، وإرضاعه ثم فطامِه، وإعادته إلى فرعون، ولا نعرفُ عنها شيئاً بعد ذلك.

أَما موسى فقد نشأَ في قصرِ فرعون، وأَمضى السنواتِ الأُولى من عمره فيه، وكان معروفاً عندَ رجالِ القصر وعند آلِ فرعون وعندَ الناس الآخرين بأنه «ابنُ فرعون» - بالتبنّي - وكانوا يعاملونَه على هذا الأساس.

ولا يتحدثُ القرآنُ عن طفولةِ وشبابِ موسى في قصر فرعون، إلا في آيةٍ مبهمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤].

حياة القصر لم تفسد موسى لأن الله اصطفه لنفسه:

واللافتُ للنظرِ أَنَّ حياةَ القصر لم تُفْسِد الشابَّ موسى - ابنَ فرعون بالتبني - كما أَنَّ ظلمَ وطغيانَ فرعون لم يمتدّ إلى متبنّاهُ موسى، ولو كانَ غيرُ موسى يقضي فتوَّتَه وشبابَه في هذه الأجواء لانعكستْ على عقليتِه ونفسيته وسلوكه، وكان فاسداً مفسداً، طاغياً ظالماً، شهوانياً دنيوياً! وكم تُفسدُ حياةُ القصور الناسَ الذين يعيشونها!!!

أما موسى فقد بقيَ في مناعةٍ وحصانة، وذلك بسببِ حفْظِ الله ورعايته له. ومَنْ حفظَهُ اللّهُ ورعاه، فإنه ينجو من الأَخطارِ والانحرافات.

نَشّأَ اللّهُ موسى تنشئةً خاصة، وربّاه في قصرِ فرعون تربيةً خاصة، وعصَمَه في القصر من آفاتِ وأمراضِ وانحرافاتِ القصر، وصَنَعَه على عينه، واصطَنَعَه لنفسه.

وهذا هو صريحُ آياتِ القرآن، فقد قالَ اللّهُ لموسى عليه السلام عندما ناجاه على جبل الطور: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩].

وقال له: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه عَبَّرَ عن رعايةِ اللّهِ لموسى بلفظِ الصناعةِ والاصطناع.

قال الراغبُ الأصفهاني عن الصنع: «الصُّنْعُ إجادَةُ الفعل. فكلُّ صُنْعٍ فعل، وليس كلُّ فعْلٍ صنعاً. ولا يُنْسَبُ الصنعُ إلى الحيوانات والجِمادات.

.. والاصطناع: المبالغةُ في إِصلاحِ الشيء، قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾﴾ وقال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾.

وهذا إشارةٌ إلى نحوِ ما قالَه بعضُ الحكماء: «إنَّ اللّهَ إذا أَحَبَّ عبداً تفقَّده، كما يتفقَّدُ الصديقُ صديقَه..»[1].

صنعَ اللّهُ موسى على عينه، وأَدامَ عليه رعايتَه وعنايتَه، وعصمه في قصرِ فرعون، ونشأَ عند أَعتى كافر نشأةً إيمانية. نشأَ رجلاً ربانياً، واتَّصفَ بالصفاتِ الكريمة، والأخلاق الحميدة.

موسى عندما بلغ أشده واستوى:

وامتدَّ العمرُ بموسى وهو في هذا الاصطناع الرباني، حتى بلَغَ أَشُدَّه واستوى، عند ذلك آتاهُ اللّهُ الحكمَ والعلم: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾..﴾.

---

(١) المفردات: ٤٩٣.

قال الإمام الراغب عن بلوغ الأَشُدِّ: «الشَّدُّ: العَقْدُ القوي. يقال: شددْتُ الشيء: قَوَّيْتُ عَقْدَه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] ففيهِ تنبيهُ أنَّ الإنسانَ إذا بلَغ هذا القدرَ يَتَقَوّى خلُقُه الذي هو عليه، فلا يكادُ يزايلُه بعدَ ذلك. وما أحسنَ ما نَبَّهَ له الشاعرُ حيث يقول:

إذا المَرْءُ وافى الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَهُ دونَ ما يَهوىٰ حَياءٌ ولاَ سِتْرُ

فَدَعْهُ وَلا تَنْفَسْ عَلَيْهِ الذي مَضىٰ ... وَإنْ جَرَّ أَسْبَابَ الحَياةِ لَهُ العُمْرُ[1]

لقد بلَغَ موسى أَشُدَّه في قصر فرعون واستوى. ومعنى «استوى» استقامَتْ حياتُه، واعتدلَتْ شخصيتُه، واستقرَّتْ صفاتُه وأخلاقُه، وتميزَ كيانُه، وعُرِفَ بين الناس بأنه ليس مثلَ فرعون، ولا مثلَ آلِ فرعون ورجالِ القصر. عُرِفَ بين الناس بأخلاقِه وصفاتِه، عُرِفَ بينهم بعزتِه وكرامته، وسماحتِه ونخوته، وعدلِه وبرِّه، وعلمِه وحكمته.

عند ذلك صارَ مؤهَّلاً لتلقّي كرمِ الله عليه، فآتاهُ اللّهُ العلمَ والحكمة، فَحَلَّ العلمُ والحكمةُ على شخصيتِهِ السوية، وكيانِه المستقيم، وتعامَلَ مع الآخرين بمنطقِ العلم والحكمة، وكانَ محبوباً بينهم، وملجأً للضعفاء والمظلومين منهم، يَفزعون إليه، ويحتمون به.

فهو من الجانبِ الرسمي، ربيبُ القصرِ ومُتَبَنّى فرعون، وبذلك حققَ الحمايةَ الرسمية والأمنية. وهو من الجانبِ الإنساني عالمٌ حكيم، ومحسنٌ كريم، وقد استخدمَ الجانبَ الرسميَّ لتحقيقِ الجانبِ الإنساني، وَوَظَّفَ صلتَه بفرعونَ وآلِه لخدمةِ الآخرين، وبالذات الإسرائيليين المظلومين من قبل الفراعنة!

وهذا هو تدبيرُ الله وتقديرُه، إنه هو العليمُ الحكيم.

---

(١) المفردات: ٤٤٧.

[٥]

موسى يقتل القبطي ويذهب إلى مدين

وقفْنا في كلامِنا السابقِ عند نشأةِ موسى عليه السلام في قصر فرعون، حيثُ صنعهُ اللّهُ فيه على عينِه، ونَشَّأه بيديه، فنشَأَ نشأةً إيمانية، وآتاهُ اللّهُ الحكمَ والعلم، وهذا هو ما أشارَ له قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾..﴾.

وقد سكتَ القرآنُ والحديثُ الصحيحُ عن الفترةِ ما بين طفولة موسى وشبابِه في قصر فرعون، حيث وقفَتْ بنا الآياتُ من سورة طهِ وسورة القصص عندَ إعادتِه إلى أمه، وقدَّمَتْه لنا آياتُ سورة القصصِ التاليةُ بعدما بلغَ أشدَّه واستوى، وبعدما منحه اللّهُ الحكمَ والعلم.

موسى يمضي شبابه في قصر فرعون:

فالفترةُ ما بين طفولتِه وشبابه لا نعرفُ عنها شيئاً، وهذه «فجوةٌ» فنيةٌ مقصودة، في عرْضِ القرآنِ لقصته عليه السلام.

وبعدما صارَ موسى شاباً صالحاً ربانياً، كان يساعدُ الآخرين، وينصرُ المظلومين، ويواجه الظالمين، وكان محباً للمؤمنين، مبغضاً للكافرين.

ولقد تعرَّفَ على أصله الإسرائيلي، وعرفَ قصتَه مع فرعون، وكيف تبنّاه فرعون، ثم أعاده إلى أمه.

وعايشَ ظلمَ الفراعنة لقومه بني إسرائيل، وآلَمه هذا الظلم، وزادَ في كراهيته لآلِ فرعون الظالمين، وانحيازِه إلى شيعتِه الإسرائيليين.

حدثَ بعدَ ذلك حادث، لم يقصدْه موسى ولم يُرِدْه، أدّى إلى قتلِه لرجلٍ قبطي، ونتجَ عن ذلك خروجُه من مصرَ إلى مدين.

هذا الحادث لم يَرِدْ إلاّ في سورة القصص.

قال الله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا

رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص: ١٥ ـ ٢٢].

موسى يشهد عراكاً بين إسرائيلي وقبطي:

وخلاصةُ هذا الحادث أنّ موسى عليه الصلاة والسلام دخلَ المدينة ـ التي هي مقرُّ فرعون وعاصمةُ مصر ـ وكان أهلُها في بيوتهم، ولا يكادَ يكونُ أحدٌ في الشوارع، وهذا قد يكونُ وقتَ الظهيرة، عندما يأوي الناسُ إلى بيوتهم، يَقيلون ويَرتاحون فيها، ويهربون من حَرِّ شمسِ الظهيرة، وقد يكونُ هذا في الليل، عندما يذهبُ الناسُ إلى بيوتهم، ليخلدوا إلى النوم، هذه هي الغفلةُ المذكورةِ في الآية: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

وسارَ موسى في شارعٍ من شوارع المدينة العاصمة، ولم يكن فيها أحد، لأنَّ الناسَ في البيوت..

وبعدما سارَ مسافةً رأى فجأةً رجلين: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ ..﴾.

إنَّ موسى إسرائيلي مؤمن، وإنه يعلمُ أنَّ الإسرائيليين كانوا في

مصرَ مظلومين مضطهدين، وكان الفراعنةُ يُذلّونهم ويَظلمونهم. وما كان يرضى عن ذلك، فكثيراً ما كان يتدخلُ لنجدةِ الإسرائيليين المظلومين، والوقوفِ أمامَ الفراعنة الظالمين، وقد عَرَفَ منه الإسرائيليون ذلك، وكثيراً ما كانوا يستنجدون به ويستغيثونه.

ولقد فوجئَ موسى بالرجلين يقتتلان وحْدَهما، في ذلك الشارع المهجور، والناسُ في بيوتهم. ونظرَ فيهما ليتعرَّفَ عليهما. لقد كان أَحَدُهما إسرائيلياً ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾. أي: من قوم موسى وهم بنو إسرائيل. وكان الآخرُ قبطياً فرعونياً ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

وهذا هو المشهدُ المكرورُ في شوارعِ وأحياءِ وبيوت المدينة، فكثيراً ما تقعُ المناوشاتُ بين الإسرائيليّين المظلومين، وبين الفراعنةِ الظالمين.

الإسرائيلي يستغيث بموسى:

واقتربَ موسى من الرجلين المتقاتلين، وشاهدَ الإسرائيليُّ موسى قادماً، وتذكَّرَ أعمالَه السابقة في نصرةِ المظلومين، والوقوفِ أمام الظالمين، والدفاعِ عن الإسرائيليين على وجه الخصوص. ويبدو أنَّ هذا الإسرائيليَّ كان مظلوماً، والقبطيَّ كان ظالماً.

استفادَ الإسرائيليُّ من هذه السجيةِ الكريمةِ عند موسى، فاستغاثَه واستنجدَ به واستنصره، ليساعدَه على القبطي، ويدفعَ عدوانَ القبطي عليه: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ..﴾.

والتعبيرُ بالاستغاثةِ في الآية مقصودٌ ومراد، فهذا الإسرائيليُّ مظلومٌ في موقفٍ ضعيف، ولهذا وجدَ موسى فرجاً وغوثاً، فاستغاثه استغاثة، ليخلِّصَه من ذلك الظلم، كما يستغيثُ الموشكُ على الغرق بمن ينقذُه من الغرق.

سمعَ موسى استغاثةَ الإسرائيلي المظلوم، وتذكَّرَ ما يلاقيه شيعتُه الإسرائيليون من ظلمٍ وإذلالٍ وعدوان على أيدي أعدائه الفراعنة، وهذا

مثالٌ صارخٌ على ذلك، وهو ذو نخوةٍ ونَجدة ومروءة، وما كانَ له أن يتخلَّفَ عن النجدة، أو يتوقفَ عن المساعدة.

موسى يقتل القبطي بوكزة:

توجَّه موسى نحوَ الرجلين، ودونَ أن يكلِّمهما أو يسألَهما أو يحققَ معهما، وجَّهَ يدَه نحو القبطي المعتدي: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾..

قالَ الإمام الراغب: «الوَكْزُ: الطعنُ، والدفعُ، والضربُ بجميع الكف..»[1].

والوكْزُ لم يَرِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

فالوكْزُ هو الضربُ بمجمعِ اليد، وذلك بأنْ يضمَّ الضاربُ أَصابعَه نحو الداخل، ويوجِّهَ قبضتَه إلى خصمه، ويضربَه ضربةً أَشبهُ ما تكونُ بضربات الملاكمة في هذا العصر.

وكانت وكزةُ موسى قاتلةً للقبطي، وكانت ضربتُه قاضيةً قضتْ عليه.

إنَّ الأعمارَ والآجالَ بيد الله، وما أَعمالُ البشر إلا أسبابٌ ماديةٌ ظاهرة، فاللّهُ هو الذي قدَّرَ إنهاءَ حياةِ القبطي في تلك اللحظة، وجعلَ وكزةَ وضربةَ موسى له سبباً مباشراً لموته.

لم يقصدْ موسى قتلَ القبطي، ولم يخطِّطْ ذلك ولم يتعمَّدْه، وهو لم يظلمْه ولم يعتَدِ عليه. كلُّ ما أراده موسى هو أنْ يردعَه عن الإسرائيليِّ المظلوم، ويوقفَ عدوانَه عليه، وما وَكْزُه وضَرْبُه له إلا وسيلةٌ لذلك، والوكزةُ لا تقتلُ رجلاً في الغالب، لكنها إرادةُ الله وحكمتُه، التي أَنهتْ عمرَ القبطيِّ بوكزةِ موسى له، وذلك ليحققَ اللّهُ إرادتَه في ترتيبِ وتدبيرِ الأحداث التالية، كما قدرها الله سبحانه.

---

(١) المفردات: ٨٨٢.

المهمُّ أنَّ موسى قتلَ القبطيَّ الفرعوني، ونصر أَخاه الإسرائيلي!!.

وبعدما قَتَلَه شعرَ بتسرُّعِه في فعلِه، وفِعْلِه ما لا يناسبُ له، ففعَلَ خلافَ ما هو أَوْلى، ولذلك شعرَ بندمه فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وموسى في هذه المرحلةِ لم يكنْ نبياً، لأنَّ نبوَّته وبعثتَه جاءتْ بعد ذلك، ولكنه كان في حفظِ اللّهِ ورعايتِه وعنايته، ومعنى هذا أَنه لم يكن مخطئاً ولا مذنباً ولا جانياً في قتْلِه للقبطي، لأنَّ الراجحَ عندنا أَنَّ الأَنبياءَ معصومون عن الذنبِ والمعصيةِ والخطأ والجناية قبلَ النبوة وبعْدَها.

كلُّ ما في الأمرِ أَنهم قد يقولون قولاً، أَو يعملون عملاً، يكون خلافَ ما هو الأَوْلى، ولا يكون خطأً أو معصية، فيرشدُهم اللّهُ إِلى ما هو أَوْلى، عندما يعاتبُهم على ذلك.

مسوغات ومبررات قتل موسى للقبطي:

ومن هذا البابِ قتْلُ موسى للقبطي، لقد كان قتْلُه له صواباً، ولم يكن في ذلك مذنباً ولا مخطئاً ولا معتدياً.

ومبرراتُ ومسوِّغاتُ صوابِ فعلِه هي:

١ ـ إنَّ القبطيَّ فرعونيٌّ ظالمٌ كافر، وردُّ عدوانِ الظالم المعتدي مطلوب، وصاحبُه يُمْدَحُ على فعله.

٢ ـ إنَّ المعتدىٰ عليه إسرائيليٌّ مظلوم مؤمن، ونصرةُ المظلوم مطلوبة، فكيفَ إِذا كان هذا المظلومُ مؤمناً قريباً للمستغاثِ به؟.

٣ ـ إِنَّ الإسرائيليَّ قد استنجدَ بموسى واستغاثَ به واستصرخَه، وطلَبَ منه إنقاذَه ونجدتَه، وكيف لا ينجدُه موسى ولا يغيثُه؟

٤ ـ دخلَ موسى بينهما ليردعَ المعتدي عن عدوانه، ويفضَّ الاشتباك، ويُنهي الاقتتال. وحتى لما وَكَزَ القبطيَّ كانت وكزتُه لهذا

الهدف، وهو هدفٌ نبيلٌ مطلوب.

٥ ـ لم يقصد موسى قتلَ القبطي، ولم يتعمَّدْه، ولكنَّ اللّهَ جعلَ انتهاءَ أجلِه بوكزةِ موسى له، ولا يُلامُ على موتِ إنسانٍ تسبَّبَ في موته، دونَ أنْ يقصدَ ذلك أو يتعمَّدَه.

لماذا اعتبر موسى الحادث من عمل الشيطان:

فإذا كان الأمرُ كذلك فلماذا ندمَ موسى على قتلِ القبطي؟ ولماذا اعتبرَ قتلَه من عملِ الشيطانِ العدوِّ المضلِّ المبين؟

إنه ندِمَ على تَسرُّعِه، ومهما كانت مبرراتُ فعْلِه، فقد كان خلافَ ما هو أَوْلى، إنه قَتْل! وهذا لا يناسبُ وضْعَ موسى وظرْفَه في ذلك.

وهو بهذا الاعتبارِ من عملِ الشيطانِ العدوِّ المضلِّ المبين، فالشيطانُ هو الذي يَدعو الناسَ إلى أنْ يعتديَ بعضُهم على بعض، وأنْ يقاتلَ بعضُهم بعضاً، ويقتلَ بعضُهم بعضاً، ولولا نزغاتُ الشيطان ووساوسه وأوامره لما قَتَلَ شخصٌ شخصاً آخر.

وليس معنى هذا أنَّ الشيطانَ هو الذي دَعا موسى إلى قَتْلِ القبطي، فموسى أَرادَ أَنْ يقررَ قاعدةً عامةً في القتل، وذلك عندما قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وهذه القاعدةُ لا تنطبقُ على فعْلِ موسى، فلم يكن قتْلُه للقبطيِّ بسبب وساوسِ الشيطان له، لأنَّ اللّهَ اصطَنَعَه وصنَعَه على عينه، وهو يُعدُّه ليكون نبياً، والشيطانُ لا سلطانَ له على الأنبياء، لا قبلَ النبوة، ولا بعدها، فهم محفوظون منه بحفظ الله لهم!

ومن أَسبابِ ندمِ موسى على قتْلِ القبطي أَنه فكَّرَ في عواقبِ ونتائج ذلك، وفي ما سيجرُّه الفعلُ عليه.

فقد انتهى الحدث، وغادرَ موسى أَرضَ الاشتباك، كما غادرَها الإسرائيلي، وخلَّفا وراءَهما جثةَ القبطيِّ القتيل.

ومن المتوقَّع أنْ ينشطَ رجالُ فرعون في البحثِ والتحرّي، لمعرفةِ القاتل، ولكن يبحثونَ مع مَنْ؟ ويسألون مَنْ؟ لقد وقعت الحادثةُ على حينِ غفلةٍ من أهلِ المدينة، حيث كانوا في بيوتهم، ولا يَعرفُ عنها إلاّ رجلان: موسى والإسرائيلي!

توجيه استغفار موسى:

أَمضى موسى ليلَتَه مفكِّراً فيما فَعَل، ومتوقِّعاً العواقبَ السيئةَ الناتجةَ عنه، وحمدَ اللّهَ على عدمِ القبضِ عليه متلبساً بحادثة القتل، وإنعامِه عليه بنجاتِه حتى هذه اللحظة، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ولا بدَّ أنْ نفهمَ قولَه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ من خلالِ مقامِ موسى الخاص، فاللّهُ يُعِدُّه ليكون نبياً، وكلامُه هذا مرتبطٌ بمقامِ النبوة، الذي وضعهُ اللّهُ فيه فيما بعد.

ليسَ اعترافُه بالظلم لنفسه كاعترافِ أحدِنا بظلمِه لنفسه، وليس استغفاره كاستغفار أَحدَنا لذنوبه، وليس مغفرةُ الله له كمغفرةِ اللّهِ لأَحدنا!

لقد قالَ موسى هذه العبارةَ من شعورِه بالندم على ما فعل، ومن إقرارِه بأنه فعَلَ خلافَ ما هو أَولى، وشعورِه بالتقصيرِ في حقِّ الله. فليس ظلمُه لنفسِه ظلماً حقيقياً، قائماً على التجاوز والتعدي، وليس استغفارُه بسببِ ذنبٍ حقيقيٍّ ارتكبه. إنما قال ذلك من باب ذكْرِه لله.

ومن هذا البابِ أيضاً قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

فليسَ هذا اعترافاً منه بأنه كان ظهيراً للمجرمين عندما قتَلَ القبطيَّ ونصرَ الإسرائيلي، لم يكن الإسرائيليُّ مجرماً، ولم يكن موسى مسانداً ومعاوناً للمجرمين. فقد كان على صوابٍ في نجدتِه للإسرائيلي، ودفْعِه لعدوانِ القبطيِّ عليه.

إِنما اعترفَ بنعمةِ الله عليه، في عدم مشاهدةِ أَحدٍ حادثةَ القتل، وهذه النعمةُ تتطلبُ من موسى شكراً خالصاً لله، ومن مظاهر هذا الشكر العملية أنْ لا يكونَ مظاهراً مساعداً للمجرمين، وهذه قاعدةٌ عامة يقررها موسى عليه السلام، ولا يَلزمُ من هذا التقريرِ أَنه خالَفَها هو عندما نصرَ الإسرائيليَّ وقتَلَ القبطي!!.

خوف موسى في الصباح واستنجاد الإسرائيلي به:

أَصبحَ موسى، وذهبَ إِلى وسطِ المدينة وشوارعها، وكان في حالةِ خوفٍ شديد. عبَّرَ عن حالتِهِ قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

كان خوفُ موسى طبيعياً، لا يُلامُ عليه، وليس بسببِ جبنٍ أو ضعفٍ أو خَور، لقد قَتَلَ رجلاً قبطياً، وهذه الفعلةُ خطيرة، قد تُسببُ له القتل، وأَشجعُ الناسِ يخافُ عندما يَقتلُ آخر.

وكان موسى في الصباح «يترقَّب» في المدينة، أي كان حذراً يتلفتُ يمنةً ويسرة، يَخشى أنْ يَعرفَ أحدٌ أَنه هو القاتل، وبذلك يأخذُه جنودُ فرعون ويقتلونه.

وبينما كان موسى يَسيرُ في المدينة على هذهِ الهيئة، من الخوفِ والترقبِ والحذرِ والخشية، إِذا به يُشاهدُ الإسرائيليَّ الذي نصرَه بالأمسِ مشتبكاً في عِراكٍ مع قبطيٍّ جديد. فلما رآه الإسرائيليُّ سُرَّ بذلك، لأنه سيحسمُ له خلافَه مع القبطيِّ الجديدِ بضربتِه القاضية! أَليس هذا ما فعلَهُ بالقبطيِّ بالأمس؟

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: استنجد به، وطلب منه أن يخلصه من غريمه، واستصرخه لينقذه

عَبَّرَ القرآنُ عن استنجادِ الإسرائيليِّ به بأَلفاظٍ ثلاثة: «استغاثه» و«استنصره» و«يستصرخه».

إِنه الاستنصارُ والاستصراخ، وإِنها الاستغاثة.

وجَرْسُ الأفعالِ الثلاثة وحروفُها، تدلُّ على الحالة التي كانَ يمرُّ بها ذلك الإسرائيلي، من ظلمِ وعدوانِ القبطيِّين عليه، مما دَعاهُ إِلى أنْ يستنجدَ بموسى ويستنصرَه ويستصرخَه.

لم يرتحْ موسى لاستنجادِ الإسرائيليِّ به في المرة الثانية، ولم يتفاعَل معه كما فعل في المرة الأولى، ولهذا علَّقَ عليه قائلاً له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

والمعنى: إنك أيها الإسرائيليُّ صاحبُ إشكالات، وإنك حريصٌ على الغواية، فما تخرجُ من مشكلةٍ إلا لتدخلَ في مشكلةٍ أُخرى، فبالأمس خلَّصْتُك من مشكلةٍ مع قبطي، واليومَ ها أنتَ مع مشكلةٍ أُخرى مع قبطيٍّ آخر. فلماذا هذه الغوايةُ منك؟

ومعَ أنَّ موسى لم يرضَ مشكلةَ الإسرائيلي الجديدة، إلا أَنه لم يَجِدْ أَمامَه إلا إنجادَه وإِنقاذَه ونصرَه، فهو إسرائيليٌّ من شيعته، عانى ما عانى من ظلمِ وإذلالِ الفراعنة.

الإسرائيلي يذيع سر قتيل الأمس وعلم آل فرعون بذلك:

وتوجَّهَ موسى لخصْمِه الفرعوني ليبطشَ به: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

سمعَ الإسرائيليُّ كلامَ موسى له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وفهمَ من ذلك ذمَّ موسى له، ثم رأى الإسرائيليُّ موسى قادماً إليه، فلم يظنَّ أَنه قادمٌ للبطشِ بغريمه القبطي، وإنما ظنَّ أنه قادمٌ لقتلِه هو، والبطشِ به هو، لأَنه سبق أن قال له: إنك لغوي مبين.

وهذا الإسرائيليُّ يعرفُ قوةَ موسى من حادثةِ الأمس، فقدْ قتلَ القبطيَّ بوكْزةٍ من مجمعِ يده!! ولذلك خافَ أنْ يقتُلَه.

وبسببِ خوفِ الإسرائيليِّ على نفسه من موسى، قال له: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

لقد أذاعَ هذا الإسرائيليُّ الخائفُ السر، وكَشَفَ لُغزَ حادثةِ الأمس! إذنْ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ بالأمس!

جَعَلَ الإسرائيليُّ بخوفِه وغبائِه المشكلةَ بينه وبين موسى، الذي جاءَ بناءً على استنجادِه به، ونسيَ مشكلتَه مع القبطي، وَوَصَفَ موسى بأنه جبارٌ في الأرض، وليس مصلحاً فيها، فبالأَمسِ قَتَلَ القبطي، واليوم يُريدُ أن يقتلَه هو!!

تركَ الإسرائيليُّ القبطيَّ، ووجَّه كلامَه ولومَه لموسى.

سمعَ القبطيُّ الخبرَ المثير، إذنْ موسى هو قاتلُ القبطيِّ بالأمس. وذهبَ القبطيُّ مسرِعاً إلى آل فرعون، وقَدَّمَ لهم حَلَّ لُغزِ حادثةِ الأمس.

وفوجئَ القومُ بالخبر. إذنْ موسى هو القاتل! موسى ربيبُ فرعون، الذي عاشَ في قصره، وأمضىٰ عنده سنواتِ عمره، لم ينسَ أصْلَه الإسرائيلي، فلما حانتْ أولُ فرصةٍ انحازَ إلى إسرائيليٍّ وقتلَ قبطياً.

وأَخبروا فرعون فوراً، وفوجئَ فرعونُ بما يَسمع، ودعا الملأَ من آله إلى اجتماعٍ عاجل، ليتدارسوا القضية، ويفكِّروا في كيفيةِ قتلِ موسى.

وموسى لا يَعرفُ أنَّ سِرَّ حادثةِ الأمس قد انكشف، ولا يَعرفُ أنَّ فرعونَ سيصدرُ أَمْرَه باعتقالِه وقتله، لكنه كان يسيرُ في المدينة خائفاً يترقب.

إخبار الرجل موسى بالخطر المحدق به:

وبينما كان يسيرُ على هذه الحالةِ جاءه رجلٌ يسعى ليحذِّرَهُ من الخطر القادم: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

هذا الرجلُ مُبْهَم، لا تذكُرُ المصادرُ الصحيحةُ اسمَه ولا مركزه،

ولا تُبينُ كيفَ عرفَ اجتماعَ وائتمارَ الملأ من قوم فرعون بموسى، فهل كانَ واحداً من الملأ المقربين، ولما دُعِيَ إلى الاجتماع آثَرَ أَنْ يسارعَ بتحذيرِ موسى من الخطر؟ أم علمَ من أحدِ المدعوّين بذلك؟

لا تَعنينا معرفةُ اسمِه، ولا تحديدُ مركزِه وصلته بملأ فرعون، لأنه لا بيانَ لذلك في مصادرِنا اليقينية الصحيحة. بل إنَّ القرآنَ يَدعونا إلى عدمِ الخوضِ في ذلك، حيث قال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾.

﴿رَجُلٌ﴾ بهذا التنكير، الدالِّ على الإبهام، ولو أرادَ اللّهُ تبيينَه لبيَّنَه، ولكنَّه يدعونا إلى الاعتبار بموقفه، مع إبهامِ اسمه ومركزه.

والتعبيرُ بالرجولةِ في هذا المقامِ لتكريم الرجل والإشادةِ به والثناءِ عليه، لأَنه وقفَ موقفاً بطولياً إيمانياً، حيثُ غامَرَ واقتحمَ الخطر، وجاءَ ليخبرَ موسى بالمؤامرة عليه، ويَدعوهُ إلى الخروجِ السريع من المدينة.

وحددت الآيةُ المكانَ الذي جاءَ منه الرجل، بأَنه أقصى المدينة، وأَقصى المدينة طرفُها، وهذا يشيرُ إلى المكان الذي اجتمعَ فيه الملأُ ليأتمروا بموسى عليه السلام، حيث كانَ في أَقصى المدينة، ولعلَّ قَصْرَ فرعون ومقَرَّ الإدارة والقيادة كان في أَقصى المدينة.

وجاءَ الرجلُ ﴿يَسْعَىٰ﴾ سعياً حثيثاً سريعاً، وكأنه قريبٌ من الجريِ والركض، لقد كان يسعى بجسمِه ليسارعَ في الوصول إلى موسى، وكأَنه يريدُ أنْ يسبقَ رجالَ فرعون إليه، ليحذِّرَه منهم، قبلَ أنْ يتمكنوا من القضاءِ عليه.

وقد كان الرجلُ في حركتِه وسعيه أسرعَ من رجال فرعون، حيث سبقَهم إلى موسى وأَخبره.

قال الرجلُ لموسى جملةً في غايةِ الاختصار والإيجاز، حتى يتمكَّنَ من الخروجِ والإفلات من جنود فرعون، فالمقامُ لا يسمحُ بالشرحِ والتفصيل، فقد كان جنودُ فرعون خلْفَه، ولا بدَّ أنْ يسرعَ موسى بالخروج. قال له الرجل: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

والملأُ هم القيادةُ حول فرعون الذين يقودون الناس، ويُخضعونَهم لفرعون، ويَملأون عُيونَ وقلوبَ الناسِ مهابةً وخوفاً.

لقد اجتمعَ الملأ، وتآمَروا على موسى، واتخذوا قراراً بقتله. وقبلَ أنْ يُنفذوا قرارَهم، ويُصدروا أَمرهم باعتقالِ موسى وقتله، علمَ هذا الرجلُ بالأمر - ولا نعرفُ كيفَ علم - فجاءَ من أقصى المدينةِ يسعى، وأَخبرَ موسى بذلك، وقال له: اخرج من المدينة.

«اخرج»: فالهدفُ هو الخروج فقط، أَمّا إِلى أينَ يخرج، فهذا ليسَ مهماً، فبعدَ أَنْ يخرجَ وينجوَ من القتل، يفكرُ ويحددُ وجهتَه.

وختمَ الرجلُ كلامَه لموسى بتذكيرِه بنصحه له: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وذلك ليطمئنَّ إِليه، ويأخذَ كلامَه مأخذَ الجد، وينجوَ قبلَ وصول الجنود.

خروج موسى خائفاً يترقب:

نفَّذَ موسى نصيحةَ الرجل فوراً، وخرجَ من المدينة، فلم يتمكنْ من العودةِ إِلى بيتهِ ليتزوَّدَ للسفرِ بالطعام والشراب والثياب والدواب، ويودعَ أَهلَه، ويحددَ وجهتَه.

خرجَ من النقطةِ التي كانَ واقفاً عليها في المدينة، وبالصورةِ التي هو عليها، ومعلومٌ أنه كانَ في المدينة عادياً، يلبسُ الملابسَ العادية، التي يلبسُها الذاهبون إِلى المدينة، ولم تكن الملابسُ تساعدُ على سفرٍ بعيد، لكن ماذا يفعلُ وقد فاجأه هذا الأمر المفاجئ.

وقد صوَّرَ القرآنُ حالةَ موسى عندما خرج من المدينة. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢)﴾.

خرجَ من المدينةِ خائفاً، وكان قد أَصبحَ في المدينة خائفاً. وخرجَ من المدينة يترقب، وكان قد أَصبحَ في المدينة يترقب.

وهناك صلةٌ وثيقةٌ بين ثلاثِ آياتٍ تصوِّرُ وضعَ موسى في المدينة:

«ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها».

و«فأصبح في المدينة خائفاً يترقب».

و«فخرج منها خائفاً يترقب..».

كان في المرةِ الأولى خائفاً أنْ يتعرفَ عليه أحدُهم، لأنه قتَلَ قبطياً بالأمس، وكان يترقَّبُ ويتلفَّتُ وينظرُ يَمنةً ويَسرة.

أما الآن فهو خائفٌ من جنود فرعون، لأنَّ معهم أمراً بالقبضِ عليه وقتله.

وكان يترقَّبُ ويتلفَّت، وينظرُ هنا وهناك، لئلا يواجِهَ جندياً من جنود فرعون، فإذا شاهدَ أحدَهم من بعيد سارعَ بالاختفاء. وكان يسرعُ الخطى، ويسارعُ في السعي، ليخرجَ من المدينة في أقصر وقت.

وخوفُ موسى طبيعي، لا يُلامُ ولا يُعابُ عليه، وليس جُبناً ولا ضعفاً، ألا تريدُ من رجلٍ مطلوب القبضُ عليه وقتلُه أنْ يخافَ من ذلك؟

ولكنَّ خوفَ موسى الطبيعي من الخطرِ الفرعونيِّ المحدقِ به لم يؤثِّرْ على إيمانه بالله وتوكُّلِهِ عليه وثقتِه به، فكلُّ حياتِه كانت هكذا، وكان يرى فضْلَ اللهِ عليه وحفظَه له، في كلِّ ما مَرَّ به من أحداث.

استنجاد موسى بالله وتوجهه إلى مدين:

ولهذا كانَ عندما خرج من المدينة خائفاً يترقب ممتلئاً يقيناً بالله، وتوكُّلاً عليه، فَدَعا اللّهَ قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إنَّ فرعونَ وجنودَه قومٌ ظالمون، وهم الآن قد أعلنوا الحربَ عليه، وهم أقوياء يملكون كلَّ أسبابِ ومظاهرِ القوة، لكنه يوقنُ أنَّ القوةَ إنما هي لله، وأنَّ الله سينجيه منهم، ويخلِّصُه من مكرِهم وكيدهم، ولهذا سألَ اللّهَ أنْ يُنجيه منهم.

إنه يعلِّمُنا أنْ نلجأَ إلى الله عند الخطر، وأنْ لا نخشى الطغاةَ الظالمين مهما مَلَكوا من مظاهر القوة، وأنْ نمتلئَ إيماناً بالله وتوكُّلاً عليه، وأنْ نلحَّ في الدعاءِ والتضرع إليه، لأنه لا يكشفُ الغمَّ إلا هو.

وأَنجى اللّهُ موسى من القوم الظالمين، ولم يُدركوه، فخرجَ من المدينة ناجياً سالماً بفضْلِ رعايةِ الله وحفظه وتوفيقه.

وكان توجُّهه جهةَ «مدين»، ووضعَ قدميه في الطريقِ الممتدة من المدينة إلى مدين، وسارَ إلى مدين، وبما أنه لا يعرفُ الطريقَ إليها، فقد سألَ اللّهَ أنْ يهديَه إليها. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

وحفِظَه ورعاه، وهداهُ سواءَ السبيل، وقطعَ المسافةَ الطويلةَ من مصر إلى مدين، ووصَلَها سالماً بفضلِ الله!!.

[٦]

موسى في مَدْيَن عشر سنوات

توجَّهَ موسى عليه السلام إلى أَرض مدين، وسألَ اللهَ أنْ يهديَهُ سواءَ السبيل.

و«مَدْيَنُ» تقعُ شرقَ مصر. وقد تكلَّمْنا عنها وعن موقعِها الجغرافيِّ أثناءَ حديثِنا عن قصة شعيب عليه السلام، الذي بعثَه اللّهُ نبياً رسولاً إلى مدين.

موقع مدين شمال وشرق خليج العقبة:

ونُضيفُ إلى كلامنا هناك ما أَوردَهُ ياقوتُ الحمويُّ عنها في «معجم البلدان».

قال: «مَدْيَن: قال أبو زيد: مَدْيَنُ على بحرِ القُلْزُم ـ هو البحر الأحمر ـ محاذيةً لتبوك، على نحوِ من ستِّ مراحل، وهي أكبرُ من

تبوك، وبها البئرُ التي استقى منها موسى عليه السلام.

... ومَدين اسمُ القبيلة، وهي مدينةُ قوم شعيب..

.. وقال الحازمي: هي بين وادي القُرى والشام. وقيل: مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام، على ستِّ مراحل، وبها استقى موسى عليه السلام..»[1].

وكانت «مدين» تُطلقُ على الأرضِ الواقعة شمال وشرق خليج العقبة، وهي الممتدةُ من وادي عَرَبَة إلى مَعان متجهةً إلى الشرق والجنوب الشرقي حتى تصلَ إلى القربِ من تبوك.

وهي قريبةٌ من قرى قومِ لوط زمانياً ومكانياً، ولذلك ذَكَّرَ شعيبٌ عليه السلام قومه بمدينَ بتدميرِ قومِ لوط، وأخبرهم أنها ليست بعيدةً منهم، لا في الزمان ولا في المكان. قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

وقد وصلَ موسى عليه السلام إلى أرض مدين، والتقى فيها رجلاً مؤمناً صالحاً، فرعى عنده الغنم، وتزوَّجَ ابنتَه، وأقامَ هناك عشر سنوات.

وتحدثتْ عن إقامتِه في مدين آياتُ سورةِ القصص.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا

(١) معجم البلدان ٥: ٧٧ ـ ٧٨.

جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٨].

قطعَ موسى عليه السلام المسافةَ بين مصر ومدين، وهي مسافةٌ طويلة، ولا نعرفُ مقدارَ المشقةِ والمعاناةِ التي أَصابتْه أثناءَ قطْعِها، ولا الزمنَ الذي استغرقَه في قطعها، فهذا من الفجواتِ الفنية المقصودة في عرض القصة في القرآن.

ما شاهده موسى على عين ماء مدين:

المهمُّ أَنه وصلَ مدين، والمحطةُ الأُولى له كانت عينَ الماء التي يَستقي منها أَهلُ مدين، ويَسقونَ مواشيهم.

وقدَّرَ اللّهُ أنْ يَرِدَ موسى عينَ الماء وقْتَ سقي الرعاة لمواشيهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ ﴾.

وُرودُ الماء هو القُدومُ إِليه للشرب، فموسى عليه السلام قصدَ العينَ ليرِدَها ويشربَ منها.

وعندما وردَ عينَ الماء وجدَ ﴿أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ ﴾. والمرادُ بِالأمة هنا الجماعة، أي أَنّ موسى وجدَ جماعةً من الرعاة يَسقون أَغنامهم ومواشيهم من العين.

ونظرَ موسى حولَه، فرأىٰ منظراً عجيباً مثيراً، عَبَّرَ عنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ ﴾.

فالرعاةُ الرجالِ منهمكون في سقْيِ مواشيهم، ومتجمعون حول

عينِ الماء، وهناك امرأتان بعيدتان عن الماء، معهما ماشيتُهما وأغنامهما، حريصتان على أنْ لا تقتربا من الماء أَثناءَ تجمُّعِ الرجالِ عليه، وحريصتان على إِبعادِ ماشيتِهما عن الماء، فكلما اقتربَتْ بعضُ الأغنام من الماء، كانتا تَذودانِها وتُبعدانها عنه!!

لفتَ هذا المنظرُ نظرَ موسى، وأَعجبهُ حرصُ المرأتين على الابتعادِ عن الرجال وعدمِ الاختلاط بهم، وتحمُّلُهما المشقةَ الكبيرةَ في ذَوْدِ غنمهما عن الماء لحَين انتهاء الرجال من سقي مواشيهم، وشعَرَ نحوهما بالشفقة والرأفة، وأَرادَ أنْ يعرفَ سببَ موقفِهما، والباعثَ لهما على هذه المشقة والمعاناة.

موسى يسأل والمرأتان تجيبان:

توجَّه نحوَهما، وسأَلهما قائلًا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟.

والمعنى: ما شأْنُكما وقصتُكما؟ ولماذا تَقومان برعْي الغنم؟ ولماذا لا تَسقيان الغنمَ مع الرُّعاة؟ ولماذا لا تُزاحمانِ الرجالَ على الماء؟.

قال الراغبُ في معنى الخَطْب: «الخَطْبُ: الأمرُ العظيم، الذي يَكثرُ فيه التخاطب. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥﴾ [طه: ٩٥].

أَجابت المرأتان موسى قائلتين: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

ونلحظُ في سؤالِ موسى وجواب المرأتين القصْدَ والاختصارَ وتقليلَ الكلامِ والتخاطبِ والحوار.

فالدافعُ الذي دفعَ موسى للكلامِ معهما وسؤالِهما هو نخوتُه ومروءتُه وشفقته، وهي صفاتٌ متأَصِّلة في شخصيته وكيانه، فلم يكن كلامُه معهما من أجلِ الكلام، أو تلبيةً للحاجةِ النفسية في الميلِ نحو الجنس الآخر، والانبساطِ في محادثته ومحاورته!!

ولهذا سأَلَهما بمنتهى الإيجازِ والاختصار، ليعرفَ السبب، ويقدمَ

الخدمةَ والمساعدةَ: «ما خطبكما؟».

ولما أَجابت المرأتان موسى على سؤاله، كان جواباً موجَزاً مختصَراً، بدونِ تفصيلٍ أو تطويل، حيثُ ذَكَرَتا سببَ ابتعادِهما عن الماء أَثناءَ سقي الرجال، وسببَ قيامِهما برعي الغنم، وهي مهمةٌ شاقةٌ لا تطيقُها النساء، ولا تتفقُ مع طبيعتِهن.

نقولُ هذا كي لا يسيءَ بعضُ الناس فهمَ التخاطبِ بين موسى وبين الفتاتين، وكي لا يَعتمدوا عليه ويحتجّوا به في اختلاطِهم بالنساء، وجلوسِهم معهن، وانبساطِهم في محادثتهن ومحاورتهن، بحيثُ يجلسُ الرجلُ مع المرأة فتراتٍ وفترات يُحادثُها وتُحادثُه، وكِلاهما يميلُ نحو الآخر، ويَرغبُ في إطالةِ الجلسة والمحادثة!

وإذا ما اعتُرِضَ على أَحدِهم في فعله احتجَّ بالحديثِ بين موسى وبين المرأتين! وشتانَ بين هذا وهذا.

حرص المرأتين على عدم مخالطة ومزاحمة الرجال:

كان جوابُ المرأتين لموسى من قسمين:

القسمُ الأول: سببُ ابتعادِهما عن الماء أَثناءَ سقْي الرجال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

أي: لا نَسقي ماشيَتَنا إِلا بعدما يَسقي الرِّعاءُ مواشيهم، ويَصدرون عن العين، ويُغادرونَ الماء.

ونرى في هذا الجواب حرصَ المرأتين على عدم الاختلاطِ بالرجال، وعدمِ مزاحمتهم، وعدمِ التغلغلِ بينَهم: فهما تنتظران بماشيتهما بمشقةٍ ومجاهدة، وتَسقيان بعد مغادرة الرجال الماء.

وهذا التصرفُ من المرأتين تصرُّفٌ فطريٌّ طبيعي، يتفقُ مع طبيعة المرأة وفطرتِها التي فطرَها اللّهُ عليها، فاللّهُ قد فطرَ المرأةَ السويَّة الحيِيّة

على عدمِ الرغبةِ في مخالطةِ الرجال الأجانب ومزاحمتهم.

وإذا كانتْ بعضُ النساء تَميلُ إلى مخالطةِ ومزاحمةِ الرجال، ومحاورتِهم ومحادثتِهم، فإنَّ هذا خروجٌ عن فطرتهن، ومخالفةٌ لطبيعتهن.

قد تضطرُ بعضُ النساء للعمل، ولكنَّ المرأةَ السويةَ لا تَقبلُ أيَّ عمل، وإنما تختارُه بعيداً عن مزاحمةِ ومخالطةِ الرجال، كما لاحظْنا في عملِ المرأتيْن المؤمنتيْن، حيث كانتا تأخذان أغنامَهما إلى أَماكنَ غيرِ التي يأخذُ إليها الرجالُ أغنامَهم، وإذا ما اشتركنا مع الرجالِ في الورودِ إلى ماءٍ واحد، حرصَتا على عدمِ مزاحمةِ الرجال، وأبعدتا أغنامهما إلى أَنْ يَصدر الرجال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

اضطرار المرأتين إلى العمل بسبب كبر أبيهما:

القسم الثاني: سببُ قيامِهما بالمهمة الشاقة في رعي الغنم: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

وكأنهما بهذا الجواب تَعتذرانِ عن رعْيِهما الغنم، فما قامتا بذلك إلاّ من بابِ الاضطرار، ولو كانَ في بيتِهما رجالٌ لكفوهما هذه المهمة.

إنَّ أباهما المؤمنَ شيخٌ كبير، طاعنٌ في السن، ليستْ عنده قدرةٌ على رعيِ الغنم، ومتابعتِها في الجبال والوديان، ومعلومٌ أَنه لا بدَّ أنْ يكونَ جسمُ راعي الغنم قوياً، ليُحسنَ رعايتَها، وهذا لا يتحققُ في جسمِ أَبيهما الشيخِ الكبير.

ويُفهمُ من جوابهما أَنه ليس لهما إِخوان، وليسَ في البيت خَدَمٌ يقومون بالرعي.

وفي هذا إِشارةٌ إلى أَنَّ الأصلَ في المرأة أنْ تكونَ في بيتها، وأنْ تقومَ على شؤونه، وأنْ لا تعملَ في خارجه، وأنْ لا تنافسَ الرجالَ على أَعمالهم ووظائفهم، فالرجالُ فَطَرَهم اللّهُ على تحمُلِ الشدائدِ

والمشاق، والقيام بالأعمالِ الصعبة المضنية، والنساءُ فطرهنَّ اللّهُ على النعومةِ والرقة، كما قال الشاعر:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ عَلَيْنا ... وعَلى الغانِياتِ جَرُّ الذُيولِ

ولا تقومُ المرأةُ بعملِ الرجلِ إلاّ إذا اضطرت إلى ذلك، ولم تَجِدْ أَحداً من محارِمِها أَو خدمِها ليكفيها ذلك. كما حصلَ مع هاتين المرأتين، فلو لم يكن أبوهما شيخاً كبيراً لما قمنَ برعايةِ الغنم.

موسى يسقي غنمهما ثم يأوي إلى ظل الشجرة:

لما سمعَ موسى كلامَ المرأتين وتبريرَهما الصادق، تحركَتْ نخوتُه وشهامتُه ومروءتُه، وذهبَ إلى الماء، وزاحمَ عليه الرعاء، وأَحضرَ غنمَ المرأتين، وسقاها حتى رويت. قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

أي: سَقى موسى للمرأتيْن غنمَهُما.

وذهبت المرأتان في هذا اليومِ قبلَ الرجالِ الرعاة، وغادرتا الماءَ مبكرتيْن، ويبدو أَنهما وصلَتا أَباهما مبكرتيْن أيضاً، مما أَثارَ دهشتَه واستغرابَه.

أما موسى عليه السلام فإنّه سقى لهما، ثم ذهبَ إلى ظلِّ شجرةٍ قريبة، وسألَ اللّهَ من فضله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

والمعنى أنَّ موسى عليه السلام يطلبُ فضْلَ الله وخيْرَه، ويُعلنُ أنه فقيرٌ ومحتاجٌ إلى فضلِ الله وخيره، وهو في هذا الدعاءِ يُشيرُ إلى مدى حاجته وافتقاره. فهو لا يملكُ شيئاً، ولا يَعرفُ أحداً في هذه الديار الغريبة، التي يدخلُها لأولِ مرة.

وهو لا يُعلنُ حاجتَه إلاّ لله، ولا يطلبُ إلاّ من الله، ولا يتوسَّلُ إلا إلى الله.

وإنَّ اللّهَ سيجازيه ويكافِؤُه على ما فعلَ من خير، حيثُ سقى الغنمَ

للمرأتين بدونِ مقابل، وأَحسنَ إِليهما إحساناً مجرّداً، ومعلومٌ أنَّ اللّهَ سَيجزي بالإحسان إحساناً: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾.

الرجل الكبير يكلف ابنته باستدعاء موسى:

وساقَ اللّهُ له الفضلَ والخيرَ الذي كان يرجوه، فقد تكلمت الفتاتان مع أَبيهما الرجلِ الصالح، وأَخبرتاهُ خبرَ ذلك الرجلِ الشهم الغريب، الذي خدمَهما وسقىٰ لهما بدون مقابل، وبدون أَنْ يعرفَهما أَوْ يعرفَ أهلَهما.

وأَحبَّ الرجلُ العجوزُ أنْ يَجزيَ على الإِحسان إحساناً، وأنْ يكافئَ هذا الرجلَ الغريبَ خيراً، فطلبَ من ابنتِه أنْ تذهبَ إِلى الرجلِ لتدعوَهُ إِلى أَبيها. وطلبَ منها هي لأنهُ لا يَقدرُ هو على الذهابِ لكبرِ سنِّه، ولأنه لا يوجَدُ رجلٌ آخر في البيت ليقومَ بالمهمة، فاضطرَّ لتكليفِ ابنته بذلك!

وابنتُه فتاةٌ مؤمنةٌ صالحة، وهي صاحبةُ خلقٍ وأَدب، وهي مكلَّفة الآنَ بالذهابِ إِلى رجل غريب جالسٍ تحتَ ظلِّ شجرةٍ بقربِ عين الماء، ولا تَعرفُ عنه شيئاً سوى أَنه رجلٌ شهمٌ سقىٰ لهما غنمهما، وليس لها به صلة.

وهي مكلفة الآنَ من طرفِ أَبيها الصالح بالذهابِ إِليه، ودعوتِه إِلى البيت. فكيفَ تفعلُ ذلك؟

إِنها مكلفةٌ بمهمةٍ شاقة، لا تتفقُ مع طبيعتِها وفطرتِها وحيائِها، ولكنها الضرورة.

وقد صوَّرَ القرآنُ حالَتَها عندما أَتَتْ موسى بقوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ..﴾.

الحياء والحياة متلازمان:

ما هو الاستحياءُ الذي كانتْ تَمشي عليه؟

قال الإمامُ الراغب: «الحياء: انقباضُ النفسِ عن القبائحِ وتركُها، ولذلك يقال: حَيِيَ فهو حَيّ. واستحْيا فهو مستَحْيٍ، وقيل: استحىٰ فهو مُسْتَحٍ.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللّهَ حَيِيٌّ كريم، يَستحي إِذا رفعَ الرجلُ يَدَيْه إِليه أَنْ يَرُدَّهما صُفْراً خائبتَيْن..»[1].

وليس المرادُ به انقباضَ النفس عن ذلك، فاللّهُ منزَّهٌ عن الوصفِ بذلك، وإِنما المعنى أَنَّ اللّهَ تاركٌ للقبائح، فاعلٌ للمحاسن»[2].

والاستحياء مصدر. تقول: استَحْيا، يستَحْيي، استحياء. ولم يَرِدْ هذا المصدرُ «استحياء» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

والحَياءُ مشتقٌّ من الحياة، ومرتبطٌ بها ارتباطاً وثيقاً، فكلما اتصفَ الإنسانُ بالحياةِ الطيبة تعمق فيه خلقُ الحياء، وإِذا ضعفَ اتصافُه بالحياة الطيبة، ضعفَ عنده الحياء.

فالحياءُ خلقٌ حميدٌ مطلوب، وهو شعبةٌ أصيلةٌ من شُعَبِ الإيمان، ويُمدحُ الإنسانُ المسلمُ المتصفُ به، وهو يَدعو صاحبَه إلى تركِ الرذائل، والتحلّي بالمكارم والفضائل. وإِذا فقدَ الإنسانُ الحياء، فقدَ التحرجَ والتجمُّل، وصارَ عبداً لهواه وشهوتِه، وصارَ يفعلُ ما يحلو له، بدون حَياءٍ أو تحرج: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»!.

والهمزةُ والسينُ والتاء في الآية: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ للتأكيد، أيْ أنَّ الحياءَ تعمَّقَ في مشاعرِها وأَحاسيسِها وكيانِها ووجدانها، وملأَ عليها وجودَها، وهي في طريقها إلى موسى!

وتُؤكدُ العبارةُ تَمَكُّنَ الحياءِ منها، وتُصَوِّرُ هذا تصويراً حياً: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٤٨٨ وغيره. وقال ابن حجر في فتح الباري: سنده جيد. انظر المفردات: ٢٧٠ حاشية رقم ٤.

(٢) المفردات: ٢٧٠.

وكأنَّ هذا الحياءَ والاستحياءَ ليس حالةً نفسيةً شعورية، وإنما هو طريقٌ ماديٌّ معبَّدٌ ملموس محسوس، طريقٌ تمشي عليه هذه الفتاةُ الحيِيَّةُ مشياً، وتطؤه بقدمَيْها الحيِيَّتَيْن وطئاً.

ولْنتصوَّرْ درجةَ ومستوى حيائها وتحرُّجِها وارتباكِها، وارتفاعَ نبضها، وتسارُعَ دقاتِ قلبها، واضطرابَ مشاعرها، وخُفوتَ صوتِها، وهي قادمةٌ إلى موسى، تمشي له على استحياء.

لماذا؟

حياء المرأة أمام موسى فضيلة تحمد عليها:

ليس هذا الوضعُ والارتباكُ والاستحياءُ مرضاً نفسياً أَصابها، ولا ضَعفاً وهواناً أَلَمَّ بها، ولكنه حالةٌ نفسيةٌ إيجابيةٌ سوية، تتفقُ مع فطرتها وطبيعتها.

إِنها ذاهبةٌ إِلى رجلٍ غريبٍ وحيد، بعيدٍ عن بيتها، ذاهبةٌ إِليه وحْدَها، وتريدُ أَنْ تكلمَه وتخاطبَه، وتَدعوه إِلى الحضورِ لبيتها عند أَبيها، وستقفُ أَمامه وليس معها أَحد، وهو منفردٌ ليس معه أَحد. فهل نريدُ منها أَنْ لا تستحيَ، وأَنْ لا تتحرجَ، وأَنْ لا ترتبكَ، وأَنْ لا تضطرب؟؟

إِنَّ اللّهَ قد فطرَ المرأةَ السويةَ على الحياء، وعلى عدم مخالطةِ الرجالِ ومحادثتهم، إلاّ أَن يكونوا أَزواجاً أَو محارم، وأَيُّ فتاةٍ غيرُ هذه الفتاة، اتصفَتْ بما اتصفَتْ به من إِيمانٍ وعفاف وستر، لو كانت مكانَها، وكُلِّفَتْ بما كُلفَتْ به، لمرَّتْ بما مرَّتْ به من حياءٍ وتحرجٍ واستحياءٍ وارتباك، وبذلك تكونُ ممدوحةً سويةً مستقيمة.

أما النساءُ اللواتي يفقدْنَ هذه الحالةَ النفسية من الاستحياء والتحرج والارتباك، عندما يخالطْنَ الرجالَ ويحادثْنَهم ويضاحكْنَهم وينبسطْنَ معهم، فهنَّ اللواتي خالَفْنَ طبيعتَهُن وفطرتَهُن، وهنَّ اللواتي يستحقِقْنَ اللومَ والتأنيبَ والتقريع.

بين المرأة الحيية والمرأة السلفع:

وقدْ عَلّقَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه على موقفِ هذه المرأةِ وحيائها بقوله: فجاءَتْه إِحداهُما تمشي على استحياء، واضعةً ثوبَها على وجهها، ليستْ بِسَلْفَعٍ من النساء، خَرّاجَةً وَلاّجَة، فقالت: إِنّ أبي يدعوك ليجزيَك أَجْرَ ما سقيت لنا[١].

والمرأةُ السَّلْفَعُ: هي المرأةُ الصَّخّابَةُ البَذيئَةُ سيئَةُ الخُلُق، التي تجالسُ الرجال وتصخبُ عليهم، وترفعُ صوتَها في حديثها[٢].

والخَرّاجة الوَلاّجة: المرأةُ التي تُكثرُ الخروجَ من بيتها والعودةَ إليه، بحيثُ تُرى دائماً خارجةً منه وعائدةً إِليه، فلا تكادُ تستقرُّ فيه.

فهذه المرأةُ المؤمنةُ الحييةُ كانتْ في غايةِ الحياء والتحرج وهي تخاطبُ موسى، وتبلِّغُه دعوةَ أَبيها لإِكرامه.

وقفتْ أَمامَ موسى وقالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾.

كانتْ حذرةً ذكيةً في انتقاءِ كلامِها وهي تبلّغُ رسالَتَها له:

فالذي يَدْعُوهُ إِلى البيتِ هو أَبوها، وليس هي، منعاً للشبهةِ أَو الريبة. فلم تَقُلْ له: تعالَ معي إلى البيت، وإِنما قالت: إِنّ أَبي يدعوك.

ثم بَينتْ له سببَ دعوة أَبيها، ليعرفَ ذلك، وهو أَنَّ أَباها يُريدُ أَنْ يَجزيَه ويكافئَه، مُقابلَ إِحسانِهِ إِليهما لمّا سقى لهما الغنم، ليجزيَه أَجْرَ ما سقي لهما.

ولما بلَّغَتْه الرسالة، وخاطبَتْه بهذه الجملةِ المختصرةِ المفيدة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٤٠٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٥.

(٢) الرجلُ السّلْفَع: الجريءُ قليلُ الحياء. والمرأةُ السّلْفَع: البذيئةُ الفحّاشةُ قليلةُ الحياء، الجريئةُ على الرجال. لسان العرب ٨:١٦١ ـ ١٦٢.

شَعرتْ بالراحة، حيث استراحَتْ من الحملِ الثقيل، وهو مخاطبةُ الرجل الغريب.

والملاحظُ أنه لم يَجْرِ حديثٌ مطوَّلٌ بينها وبينه، ولم يَرُدَّ على كلامِها بكلام، وإنما قامَ وذهبَ معها.

موسى أمام المرأة في طريقهما إلى بيت أبيها:

ولقد أبهمَ القرآنُ المرأةَ التي جاءت موسى، فقال: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾.

لكنَّ الرسولَ ﷺ حدَّدَها بأنَّها الأُخْتُ الصغرى:

عن أَبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إِذا سُئِلْتَ: أيَّ الأَجلين قضى موسى؟ فقل: خيْرَهُما وأَتَمَّهُما وأَبَرَّهُما.

وإذا سُئِلْتَ أيُّ المرأتين تزوَّج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءَتْ وقالت: يا أَبَتِ استأجره، إنَّ خيرَ مَنْ استأجرْتَ القويَّ الأمين.

قال: وما رأَيْتِ من قوَّتِه؟

قالت: أَخَذَ حجراً ثقيلاً فأَلْقاهُ عن البئر.

قال: وما الذي رَأَيْتِ من أَمانته؟

قالت: قال: امْشي خلفي، ولا تَمْشي أَمامي»(١).

كانت الأُخْتَ الصغرى إذن، أَمّا اسْمُها فهو من المبهماتِ التي لم يبيِّنْها رسولُ الله ﷺ، فلا نحاولُ تبيينَه، ونقولُ هي الصغرى فقط.

قامَ موسى معها إلى البيت، ويبدو أَنَّها سارتْ أَمامَه لتدلَّه على الطريقِ إلى البيت. ولكنَّ موسى لم يرتَضِ ذلك. فقال لَها: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي.

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط والخطيب في تاريخه، وقال الهيثمي: إسناده حسن. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٨.

وهذا تصرُّفٌ أخلاقيٌّ حكيمٌ من موسى عليه السلام. فلو سارَتْ أَمامَهُ فقدْ ينكشفُ بعضُ أجزاءِ بدنِها بسببِ الريح أو المشي، وقدْ تتجسَّمُ بعضُ أَجزاءِ جسمها وهي تسير، وقد يَرىٰ موسى ذلك منها، وهو لا يُحبُّ أَنْ يَرى ذلك، لعظمةِ أَخلاقه وصَفاءِ روحه، وطهارةِ نفسِه ومشاعرِه.

ولهذا طلبَ منها أنْ تمشيَ خلْفَه، وسارَ هو أَمامها، وكانتْ ترشدُه إِلى الطريق وتوجِّهُه وهي خلْفَه.

موسى يخبر الرجل بقصته والرجل يطمئنه:

وَصَلا البيت، واستقبلَ الشيخُ الكبيرُ الكريمُ موسى الشهمَ القويَّ الأَمين. وأَنسَ موسى إِليه، وشعرَ بالأَمانِ والاطمئنان، وعَرَّفَه على نفسِه، وعلى قصتِه، فطمأَنه الرجلُ وهنَّأَه بالنجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قصَّ موسى على الرجلِ قصَّتَه منذ ولادته، إِلى نشأَتِه في قصر فرعون، وقتْلِه للقبطي، وأمْرِ فرعونَ بالقبض عليه وقتله، وخروجِه من مصر، وتَوجُّهِهِ إِلى مدين، ووصولِه إِليه.

وأُعجبَ الشيخُ الكبيرُ المؤمنُ بقصةِ موسى المثيرة، ولاحَظَ فيها رعايةَ وحفظَ اللّهِ له، وأَحَبَّ موسى لإيمانِه وأمانتِه وشهامته، ودَعاه إِلى الشعورِ بالأَمان، وإِلى عدمِ الخوف، وقال له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والقومُ الظالمون هم فرعونُ وآلُه وجنودُه، الجادّون في البحثِ عن موسى عليه السلام لقتلِه، وكأَنَّ الرجلَ يريدُ أن يبينَ لموسى أنه لا سلطانَ لفرعونَ عليه، ولا نفوذَ لمصْرَ على مدينَ في تلك الفترة، وكأَنَّ «مدين» كانتْ مستقلَّةً عن مصر وقتها، وغيرَ خاضعةٍ لها.

فموسى أوى إلى مدين، وتحرَّرَ من الخطر الفرعوني، وشعرَ بالأمانِ والاطمئنانِ عند هذا الشيخ المؤمن، وزالَ عنه الخوفُ والغم.

وهذا من تقديرِ الله وتدبيرِه، فهو الذي ساقَ موسى إلى مدين، وهداهُ إليها، وقدَّرَ له الوصولَ إلى بيتِ هذا الشيخِ المؤمن.

الراجح أن هذا الرجل ليس شعيباً عليه السلام:

وقبلَ متابعتِنا لما جَرى بين موسى وبينَ هذا الرجلِ المؤمن، نتوقَّفُ لنحاولَ التعرفَ على هويته. فمن هو هذا الرجل؟

اختلفَ المفسرون والمؤرخون فيه. وقد أوردَ ابنُ كثير في التفسير أَهَمَّ أقوالِهم في ذلك:

١ ـ قال بعضُهم: هو شعيبُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام، الذي بعثَهُ اللَّهُ نبياً إلى أَهل مدين.

وهذا هو المشهورُ عندَ كثيرٍ من العلماء، وهو قولُ الحسنِ البصري وغيره.

٢ ـ وقال آخرون: لم يكنْ شعيباً عليه السلام، وإنما هو ابنُ أخيه. وكان رجلًا مؤمناً صالحاً.

٣ ـ وقال آخرون: كان اسْمُه «يثرون». وهذا هو المذكورُ في أَسفارِ العهد القديم.

٤ ـ وقال آخرون: هو رجلٌ مؤمنٌ من أَهل مدين، لا نعرفُ اسمه.

والراجحُ هو القولُ الرابع ـ والله أعلم ـ فلم يُبين القرآنُ اسمَه، ولم يصحّ حديثٌ واحدٌ مرفوعٌ عن رسولِ الله ﷺ في تعيينه. ولو صحَّ حديثٌ منها لقلْنا به.

والراجحُ أَنه ليسَ شعيباً عليه السلام، لأنَّ شعيباً كان قبلَ موسى بمدةٍ زمنيةٍ طويلة.

فمن خلالِ قصةِ لوطٍ وشعيبٍ عليهما الصلاة والسلام في القرآن، كان قومُ لوط وقومُ مدين متقاربَيْن من حيثُ الزمانُ ومن حيث المكان، وكان دمارُ قومِ لوط قبلَ دمارِ قوم مدين، وذَكَّرَهم شعيبٌ عليه السلام بما حلَّ بقومِ لوطٍ من دمار، منذُ عهدٍ قريب، وأنَّ الحادثةَ ما زالتْ قريبةً إلى أذهانهم، فقال لهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

وبما أنَّ هلاكَ قوم لوط كان في زمنِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام فقد كان هلاكُ قومِ مدين قريباً من عهدِ إبراهيم.

وبينَ إبراهيمَ وموسى فترةٌ زمنيةٌ طويلة، تمتدُّ لعدةِ قرون، فبينهما كلٌّ من إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وبين يوسف وموسى مدة طويلة، وقد قدر بعض المؤرخين المدة بين إبراهيم وموسى بأنها أربعة قرون.

وهذا هو رأي ابن كثير وسيد قطب:

وهذا معناه أنَّ شعيباً ماتَ قبلَ موسى بحوالي أَربعةِ قرون، فكيفَ نقولُ إن هذا الشيخَ الكبيرَ هو شعيب؟

ولو كان هذا الرجلُ هو شعيباً لنصَّ القرآنُ على ذكْرِه[1].

وقد رجَّحَ سيد قطب أنه ليس شعيباً، فقال: «سبقَ أنْ قلْتُ مرةً في الظلال: إن هذا الرجلَ هو شعيب. وقلْتُ مرة: إنه قد يكون شعيباً، أو لا يكون.

وأنا الآن أميلُ إلى ترجيحِ أنه ليس هو، وإنما هو شيخٌ آخر من مدين.

والذي يحملُ على هذا الترجيح أنَّ هذا الرجلَ شيخٌ كبير، وشعيبٌ شهدَ مهلِكَ قومِه والمكذبين له، ولم يَبْقَ معه إلاَّ المؤمنون به، فلو كانَ هو النبيُّ شعيب بين بقيةِ قومِه المؤمنين، ما سَقَوْا قبلَ بنتَيْ

(١) انظر أدلة ابن كثير على أنه ليس شعيباً في تفسيره ٣:٣٧١.

نبيِّهم الشيخِ الكبير.. فليس هذا سلوكَ قومٍ مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيّهم وبناتِه من أولِ جيل!

ويُضافُ إلى هذا أنَّ القرآنَ لم يذكُرْ شيئاً عن تعليمِه لموسى صهرِهِ، ولو كان شعيباً النبيَّ لسمعْنا صوتَ النبوة في شيءٍ من هذا مع موسى، وقد عاشَ معه عشرَ سنوات»[١].

والخلاصَةُ أنَّ الرجلَ الذي أكرمَ موسى عليه السلام، كان رجلاً مؤمناً صالحاً من قومِ مدين، وعاشَ بعد النبيِّ شعيب عليه السلام بعدةِ قرون، وهو مُبْهَمٌ من مبهماتِ القرآن، لا نحاولُ تبيينَ اسْمِه، لعدمِ وجودِ أدلةٍ على ذلك من الأحاديثِ الصحيحة.

أكرمَ الرجلُ الصالحُ موسى عليه السلام وكافأه، وشعرَ موسى عنده بالأمانِ والاطمئنان.

وحصلَ أُنسٌ وارتياحٌ بين الرجلين، ولعلَّ الرجلَ الصالحَ تَفرَّسَ في موسى خيراً، واستشرفَ له مستقبلاً إيجابياً، وعلمَ أنَّ اللّهَ يحفظُه ويَرعاه ويَحميه.

طلب الفتاة من أبيها استئجار موسى لقوّته وأمانته:

تدخلَتْ بعد ذلك ابنةُ الرجل الصغرى، وأُعجبتْ بأخلاقِ موسى وشهامتِه وقوتِه وأَمانته، ورغبتْ في أنْ يعملَ عندهم، ليريحَها هي وأخْتَها من مشقةِ رعْيِ الغنم. فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

طلبتْ من أَبيها أنْ يستأجرَ موسى، ويوظِّفَه أَجيراً ليرعى الغنم، وذلك ليتكفَّلَ برعايةِ الغنم نيابةً عنهما، وفي طلبها إشارةٌ إلى أنَّ الأُخْتَيْن إنَّما رَعَتَا الغنم من بابِ الضرورة، لعدمِ وجودِ مَنْ يقومُ بذلك من الرجال، أما وقد تَيَسَّرَ الآنَ هذا الرجل، فليقمْ هو برعْيِ الغنم بدلَهما، ولهذا سارعت البنتُ بالإشارةِ على أبيها بذلك.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٢٦٨٧.

وبرَّزَتْ طلبَها بقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، فوصفت موسى عليه السلام بأنه قوي أمين.

وقد أوردْنا حديثَ رسولِ الله ﷺ الذي رواه عنه أَبو ذر الغفاري رضي الله عنه، أنَّ الفتاةَ لما قالت لأبيها: يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال لها: ما رأيتِ من قوّته؟

قالت: أَخذَ حجراً ثقيلاً فألْقاه عن البئر.

قال: وما الذي رأيت من أمانته؟

قالت: قال لي: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي.

جمع موسى بين القوة الجسمية والقوة النفسية الأخلاقية:

وقد مَنَّ اللّهُ على موسى بأنْ وفَّقَه للجمْعِ بين الصفتيْن الحميدتيْن: القوة والأمانة.

القوةُ الجسميةُ واضحةٌ في حياته السابقة، عندما ضربَ القبطيَّ بوكْزَةٍ فقضى عليه، وعندما حملَ الحجرَ الكبيرَ الثقيل، فألْقاهُ عن فم البئر.

ورعْيُ الغنم يحتاجُ إِلى القوة الجسمية، لما يترتَّبُ على ذلك من متابعةِ الغنم في الجبال والوديان.

والأَمانةُ قوةٌ معنوية، وهي قوةُ النفسِ والروح، قوةُ الإرادة والعزيمة، قوةُ التحلي بالأخلاق الفاضلة، التي تمثلَتْ في موقفِه من الفتاة، حيث غَضَّ الطَّرَفَ عنها، وطلبَ منها أنْ تمشيَ خلفه، حتى لا ينظرَ إِلى جسمها.

إنه أَمينٌ على العِرْضِ والشرف، وأَمينٌ على المال والغنم، وأَمينٌ على ما يوكَلُ إليه ويُطْلَبُ منه.

والمهمةُ الملقاةُ على عاتقِه تحتاجُ إِلى أَمانة، فإن لم يكن الرجلُ أميناً فلنْ يحافظَ على الغنم، ولا على الفتاتَيْن، ولا على بيتِ الرجل.

وقد جمعَ موسى عليه السلام بين مظهَرَيْن من مظاهر القوة:

- القوةِ الجسميةِ المادية، المتمثلةِ في متانة الجسم.
- والقوةِ النفسيةِ المعنوية الأخلاقية، المتمثلةِ في الأمانة.

ولقد تمتعتْ هذه الفتاةُ الصالحةُ المؤمنةُ بفراسةٍ إيمانية عالية، حيث تفرَّسَتْ في موسى الخير، واستشرفَتْ له المستقبلَ المشرقَ الأمين. وصدَقَتْ فراستُها فيه، فلما عملَ أجيراً عندهم كان قوياً أميناً فعْلاً.

قالَ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: أَفْرَسُ الناس ثلاثة: صاحبُ يوسف حين قال لامرأتِه: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وصاحبةُ موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. وأبو بكر حين استخلفَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهما[1].

وقد جمعتْ آياتُ القرآن مرتيْن بين القوةِ والأمانة، باعتبارهما صفتيْن لازمتيْن لمن سيوكَلُ إليه مهمةٌ خاصة، أو سيقومُ بعملٍ خاص، يَحتاجُ إلى القوة والأمانة.

المرةُ الأولى: في هذا الموضعِ من قصة موسى عليه السلام، حينما وصفتْه الفتاةُ المؤمنةُ بأنه قويٌّ أمين.

والمرةُ الثانية: في قصةِ سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، فعندما طلبَ ممن حولَه إحضارُ عرشها، عرضَ عليه عفريتٌ من الجنِّ أنْ يُحضرَهُ له قبلَ أنْ يقومَ من مقامه، وأَخبره أنه عليه قويٌّ أمين.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٢٧٦.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩].

الرجل الصالح وعرضه على موسى الزواج والعمل:

ولما اطمأنَّ الرجلُ الصالحُ إلى موسى عليه السلام، ولاحظَ رغبةَ ابنتِه في تعيينه أجيراً ليرعى الغنم، ووثقَ بقوَّتِه وأمانته، عرضَ عليه أنْ يعملَ عنده أَجيراً في رَعي الغنم، مقابلَ أنْ يُزوجَه إِحدى ابنتَيْه.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٧ ـ ٢٨].

قالَ الشيخُ الكبيرُ لموسى عليه السلام: أُريدُ أنْ أُزوجَك بنتاً من هاتيْن الابنتيْن، بشرْطِ أنْ تعملَ أَجيراً عندي، تقومُ برعْيِ الغنم، لمدةِ ثماني سنوات، فإنْ زدتَ المدةَ سنتين أُخريَيْن، وبلغتِ المدةُ عشرَ سنوات، فهذا كرمٌ منك. وأنا لا أُريدُ أنْ أشقَّ عليك وأُتعبَك في هذا العمل، فسوفَ ترى فيه اليُسْرَ والراحة، وستجدني إن شاءَ اللّهُ من الصالحين.

وردَّ موسى على عرضِ الشيخِ الكبير بالموافقة على الأمريْن: الموافقةِ على زواجه من إِحدى ابنتيه، والموافقةِ على أنْ يعملَ عنده أجيراً ثماني سنوات.

قالَ له: ذلك بيني وبينك، وأنا موافقٌ على ما قلت، وتمَّ الاتفاقُ بيني وبينك، أمّا المدةُ فأنا ملزمٌ بالثماني سنوات، وإنْ أردتُ أنْ أُكملَها عشراً فهذا زيادةٌ مني، لكنْ لا عدوانَ عليَّ لو عملتُ ثمانيَ سنوات. واللّهُ وكيلٌ على ما نقول.

مظاهر حكمة الرجل في عرضه على موسى:

لقد كانَ الرجلُ الكبيرُ حكيماً عندما استأجَرَ موسى ليعملَ عنده في رعْيِ الغنم، وبذلكَ يريحُ ابنتيْه من هذه المهمة، وفعلَ ذلك استجابةً لطلبِ ابنتِه الصغرى، عندما قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾.

وكان الرجلُ الكبيرُ حكيماً أكثرَ عندما قامَ بمصاهرةِ موسى، وتزويجِه من ابنتِه الصغرى، كما قالَ رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الذي سبقَ لنا إيرادُه.

إنَّ موسى رجلٌ غريب، صحيحٌ أَنه على إِيمان وخلقٍ وحياءٍ وعفة، لكنه يبقى غريباً، والبيتُ فيه امرأتان شابّتان، صحيحٌ أَنهما مؤمنتان صالحتان، تتصفانِ بالحياءِ والخلقِ والعفة، لكنهما ستعيشان مع موسى في هذا البيت، والمدةُ ستكونُ طويلة، ثماني سنوات أو عشراً.

فالأَسلمُ والأَحوطُ أَنْ يتزوجَ هذا الرجلُ الغريبُ إِحدى المرأتين، لتكونَ إقامتُه في البيت طبيعية، ويكونَ وجودُه آمِناً، ولا مكانَ لنزغاتِ الشيطان ووساوسِه، فهو يقيمُ مع امرأته، تلبّي حاجتَه ويلبي حاجتَها.

ومن حكمةِ الشيخِ الكبير أيضاً أنه هو الذي عرضَ على موسى أنْ يزوِّجَه إِحدى ابنتيه، ولم يجدْ مانعاً أَو حَرَجاً من ذلك، ولم ينتظرْ موسى حتى يتقدمَ هو بالطلب، فموسى شابٌّ صالح، يصلحُ للمصاهرة، ولماذا لا يَعرضُ هو عليه المصاهرة؟

ومن حكمةِ الأبِ الحكيم أنْ يبحثَ هو لابنتِه عن الزوجِ المناسب، وإِذا وجدَه سارعَ بعرْضِ الأمرِ عليه، وإِظهارِ رغبته في مصاهرته.

والبنتُ التي تزوجَها موسى هي البنتُ الصغرى، وهذا مظهرٌ آخرَ من مظاهرِ حكمةِ الشيخ الكبير، فلم يجدْ مانعاً عنده من تزويجِ الصغرى قبلَ الكبرى.

وبما أنَّ موسى غريبٌ فقير، لا يملكُ مالاً ليدفَعَه مهراً للمرأة،

فقد وافقَ الرجلُ الحكيم أنْ يكونَ المهرُ هو عملَ موسى في رعي الغنم لمدة ثماني سنوات.

وهذه السنواتُ الثمانيةُ مهرٌ للمرأة، ومقابلَ إِقامتِه في البيت، وتأمين طعامه وشرابه وملبسه.

حكمة موسى في قبول عرض الرجل:

وكما كانَ الرجلُ حكيماً في عرض الزواج على موسى مقابل تلك المدة، كان موسى حكيماً في قَبولِ العرض، والموافقةِ على ما قالَه الرجل.

إنه بذلكَ سيؤَمِّنُ إِقامتَه في هذا البيت من بيوتِ مدين، ويحقِّقُ فيه حاجتَه من الإِقامة والمأوى، ومن الطعام والشراب واللباس، وستكونُ له فيه زوجة أيضاً! وماذا يريدُ أكثر من ذلك؟؟

وقيامُه برعْيِ الغنم سيعطيه دروساً في العملِ والجدّ، والسعي والكدّ، والإرادةِ والعزيمة، والصبرِ والتحمل، لأنَّ الغنمَ تُتعبُ راعيها، وكأنَّ رَعْيَهُ للغنم هذه المدة «دورةٌ مكثفة» هيَّأها اللّهُ له، لتكون تمهيداً ومقدمة لما بعدها.

ثم إنَّ عملَه عند صهرِه الصالحِ عشرَ سنين يحققُ له الأمانَ من جانب آخر، وهو مشكلتُه في مصر، عندما قتل القبطي، فالحدثُ الآن ساخن، والقومُ جادّون في البحثِ عنه لقتله، لكنَّ سخونةَ الحدث ستبردُ وتتلاشى مع مرورِ السنوات، وتَضعفُ متابعته، والعشرُ سنوات كفيلةٌ بتركِ الأمر، فقد يموتُ فرعونُ الذي حدثت القضيةُ في عهده، وإذا عادَ موسى بعدَها إِلى أَهله في مصر، فيكون الأمر هيناً.

لقد هيَّأَ اللّهُ لموسى الإقامةَ في مدينَ بحكمتِه وتدبيره سبحانه وتعالى، لينتقلَ بعد ذلك لمرحلةٍ أُخرى قدرها الله له.

وهكذا تمَّ الاتفاقُ بين موسى وبين الرجل الكبير، وتزوَّجَ موسى

ابنتَه الصغرى، وعملَ عنده المدةَ المتفقَ عليها بينهما.

الإيمان والصدق يظللان الاتفاق بين الرجلين الحكيمين:

وعندما ننظرُ في كلامِ الرجلين ومحاوَرتِهما، نرى الإيمانَ والصدقَ والصفاءَ هو الذي يظلِّلُ اتفاقَهما.

فالرجلُ الكبيرُ يقول لموسى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فهو حريصٌ على عدمِ المشقةِ على أَجيره موسى، ويَعِدُه أنْ يجدَ عنده كلَّ الخير في سنواتِ الإجارة، ويخبرُه أنه سيكونُ صالحاً، ويعتمدُ في ذلك على الله، ويعلقُ الأمْرَ على مشيئته سبحانه.

وموسى يردُّ على صهرِه قائلاً: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

فهو ملتزمٌ بالمطلوبِ منه، وسيتكرمُ بزيادةِ سنتيْن، لتكونَ المدةُ عشرَ سنين، وهو في هذه المدةِ معتمدٌ على الله، متوكِّلٌ عليه.

وهكذا اتفقَ الرجلان المؤمنان الصالحان اتفاقاً ربانياً إيمانياً، وعاشَ موسى عندَ الرجلِ في مدينَ عشْرَ سنين، في ظلالِ طاعةِ الله ورضاه.

والدليلُ على أنَّ موسى عملَ عند صهرِه عشْرَ سنين ما رواهُ البخاريُّ عن سعيدِ بن جبير رضي الله عنه قال: سألَني يهوديٌّ مِن أَهلِ الحيرة: أيَّ الأجلَيْن قضى موسى؟

فقلت: لا أَدري، حتى أَقدمَ على حَبْرِ العرب فأَسأَله.

فقدمْت، فسألتُ ابن عباس، فقال: قضى أكثَرهما وأطيبَهما، إنَّ رسولَ الله إذا قال فَعَل[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٨٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٧.

ولما أَخبرَ ابنُ عباس رضي الله عنهما أنه أَمضى عشرَ سنوات، كان يعتمدُ على حديثِ رسول الله ﷺ.

فقد رَوىٰ عن رسولِ الله ﷺ أَنه قال: «سألْتُ جبريلَ عليه السلام: أيَّ الأجليْن قضى موسى؟

فقال جبريل: أَكملَهُما وأتمَّهُما»[1].

إنَّ طبيعةَ موسى عليه السلام، القائمةُ على الشهامةِ والمروءة والكرمِ والأريحية، لا تقبلُ إلا الكرمَ والفضل، ولهذا لم يَكتفِ بالمطلوبِ منه، وإنما زادَ السنتيْن الأُخريَيْن، فضلاً وكرماً.

حكمة الله في تقديره لموسى الرعي عشر سنوات:

وهكذا أتمَّ اللّهُ لموسى ما قدَّرَه له في المرحلةِ الأُولى من عمره، التي قضاها في ظلالِ رعايةِ الله وحفظِه وتأييدِه وحمايتِه.

وقدْ قَدَّرَ اللّهُ أنْ تُختَمَ هذه المرحلةُ الأولى من حياتِه بعشرِ سنوات، أَمضاها موسى في البرِّ والصحراء، يُتابعُ الأَغنام، ويتعرضُ للحرِّ والريح والعرقِ والنصب، ويبذلُ في ذلك ما يبذلُ من الجهدِ والمشقةِ والصبر والمعاناة، وذلك في مقابلِ السنواتِ الأُولى التي قضاها منعَّماً مرفَّهاً في قصر فرعون، تُقضىٰ فيه كلُّ حاجاته، وتُؤَمَّنُ له جميعُ متطلباته.

وقد فعَلَ اللّهُ الحكيمُ ذلك بموسى، لأَنه يُعِدُّه لمهمةٍ كبيرة، حيثُ سيجعلُه نبياً رسولاً، ويبعثُه إلى فرعون، ويُنقذُ به بني إسرائيل، وهذه المهمةُ لا بُدَّ أنْ تسبقَها فترةُ تهيئةٍ وإِعداد، فكانت السنواتُ العشرُ في مدين!!

---

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند، والحاكم في المستدرك وصححه، والبزار في المسند، وابن جرير في التفسير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان، وهو ثقة. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٦.

المرحلة الثانية
موسى وهارون نبيان يواجهان فرعون

[١]
تكليم الله لموسى في وادي طوى

أَقامَ موسى في أَرضِ مدينَ عشرَ سنين، ولما قَدَّرَ اللّهُ إِنهاءَ إِقامته في مدين أَلهمه أنْ يعودَ إِلى مصر، ليلتحقَ بأهله وأسرته.

أخذَ موسى أهلَه، وهم زوجُه بنتُ الرجل الصالح، وما أَنجبتْ له من أولاد، وما كان معه من خدم، وودَّع صهره، وتوجَّهَ نحو مصر.

وسارَ في طريقِ سيناء التي توصلُه إِلى مصر، ووصلَ إِلى وادٍ مقدَّس فيها، يسمَّى وادي «طُوى»، وهو الوادي المحاذي لجبلٍ معروفٍ فيها، هو جبلُ الطور.

خلاصة ما جرى لموسى في وادي طوى:

وكانتْ ليلةً باردةً من ليالي الصحراء، كما كانت ليلةً مظلمة، وبينما كان يسيرُ مع أهلِه في ذلك الوادي، ضَلَّ الطريق، فلم يَعرفْ أين يسير ولا أَينَ يتوجَّه، واجتمعَ عليه ظلامُ الليلِ البهيم، وبردُ الصحراء القارص، ولم يَدْرِ ماذا يَفعل.

ونظرَ أَمامَه إِلى سفحِ جبلِ الطور، فرأى ناراً مشتعلَة، فاستبشرَ خيراً وأَنسَ بها، وطلبَ من أَهله أَنْ يمكثوا مكانَهم، لأَنه سيذهبُ إِلى النار، فقد يجِدُ عندَها أَحداً يدلُّه على الطريقِ الموصلِ إِلى مصر، وقد يأخذُ منها جمرةً أو قبساً ويُحْضِرُه إِلى أَهله ليصطلوا به!

حملَ موسى عصاه، وسار وسطَ الظلام، وتوجَّهَ نحوَ النار، ولما وصلَ النارَ ناداه الله، وأخبرَه أنه في الوادي المقدس طوى، وطلبَ منه أنْ يخلعَ نعليه، وأمره بإلقاءِ عصاه، ولما جعلَها اللّهُ حيةً تسعى خافَ موسى، فطمأنَه الله، وأعطاهُ آيةً أُخرى، وهي يدُه السمراء، إذا أدخلَها في جيبه تكونُ بيضاءَ من غير سوء.

وبعثَه الله نبياً، وكلَّفه بالذهابِ إلى فرعون. وشَدَّ عَضُدَه بأخيه هارون، وجعلَه نبياً مساعداً له.

هذه هي خلاصةُ ما جرى لموسى في تلكَ الليلةِ المباركة، في تلكَ البقعةِ المباركة، بجانبِ الشجرة المباركة، في ذلك الوادي المقدس.

ذهبَ موسى ليجدَ مرشداً دليلاً يرشدُه ويدلُّه على طريقِ مصر، فوجدَ الهادي الذي يَهديه في حياته كلِّها، حيث هداهُ اللّهُ إلى الحق، وجعلَه نبياً رسولاً. وذهبَ موسى عندَ النار، فوجدَ هناك النور، النورَ الرباني، الذي أَضاءَ له حياتَه، وعَرَّفَه على ما يريدُ اللّهُ منه.

وهذا الموضوعُ وردَ في أكثرَ من سورةٍ من كتاب الله، وبالذات وردَ في سور القصص وطه والنمل والشعراء.

وسوفَ نعيشُ مع الآياتِ التي تحدثَتْ عن ذلك بإيجاز.

موسى آنس من جانب الطور ناراً:

قال تعالى في سورة القصص: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: ٢٩].

أي: لما عملَ موسى عند صهرِه الرجلِ الصالح عشرَ سنين، وأتمَّ المدةَ التي اتفقا عليها، وقضى الأجل، غادرَ مدين، وسارَ بأهلِه ـ زوجِه وأولاده ـ وتوجَّه عائداً إلى مصر.

وبينما كان يَمُرُّ بجانبِ جبلِ الطور في سيناء ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ..﴾.

رأى ناراً بجانبِ الطور، فطلبَ من أَهلِه أنْ يمكثوا مكانَهم، وأنْ لا يُغادروه، وسيذهبُ هو إِلى النارِ التي رآها.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه عَبَّرَ عن رؤيةِ موسى للنار ليلاً بفعل «آنس»، وليس بفعلِ «رأى» أو «أبصر».

فهنا قال: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

وفي سورة طه قال: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠].

وفي سورة النمل قال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ..﴾ [النمل: ٧].

إِنَّ الفعلَ الماضي «آنس» وردَ خمسَ مرات في القرآن، أَربعَ مراتٍ منها في سياقِ رؤيةِ موسى للنارِ بجانبِ جبلِ الطور.

والتعبيرُ بفعلِ «آنس» يُعطي معنى أبلغَ وأعمَّ من معنى فعلِ «رأى».

إِنَّ فعل «رأى» يدلُّ على الرؤيةِ والإبصارِ بالعين. أما فعلُ «آنس» فإنه يُعطي معنى فعلِ «رأى»، ويَزيدُ عليه معنى الأُنسِ والاستئناس بما رأى، والانشراحِ لما رأى، والرضى النفسيِّ والشعوري بما رأى، والتفاعلِ مع ما رأى.

وبما أنَّ موسى كان في حالةِ ضيقٍ وهَمّ، ويُعاني ما يعاني من البرد، وقد أَضَلَّ الطريقَ في الليلِ المظلم، فقد وجدَ أُنسَه وطمأنينَته بتلك النار التي رآها وآنسَها من بعيد، فاستأنسَ بها، واستروحَ إليها، وانشرحَ صدرُه لها، ورجا أنْ يجدَ عندها حلًّا لمشكلتِه، وهكذا كان.

ما الذي رجا أن يجدَه عند النار؟:

قال تعالى في سورة القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

رجا أنْ يجدَ شخصاً عند النار، فيسألَه عن الطريقِ إلى مصر، فيأتيَ أهْلَه بخبرٍ يستدلُّ به على الطريقِ الصحيح.

فإنْ لم يجدْ خبراً فسوفَ يأتيهم من النارِ بجذوة، يَصطلون بها ويتدفَّئون عليها في هذهِ الليلةِ الباردة.

والجذوةُ هي الجمرة.

قال الراغب: «الجذوةُ: الذي يَبقى من الحطبِ بعد الالتهاب..»[1].

ولم تَرِدْ كلمةُ «جذوة» في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

رجا أَنْ يأتيَهم منها بخبرٍ من رجلٍ عندها يخبرُه عن الطريق، أو يأتيهمْ بشهابٍ مشتعل، يقبسُه منها ويشعلُه، ثم يأتيهم به مقتبساً مشتعِلاً ليصطلوا به.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾.

رجا أنْ يجدَ على النارِ هدى، بأنْ يجدَ عندها رجلاً يخبرُه بخبرِ الطريقِ الصحيح، أَو يأتيهم منها بقبسٍ مشتعلٍ من النار.

نظرة في آيات السور الثلاث: القصص وطه والنمل:

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني في التعبيرِ عن هذا المشهدِ من قصة

---

(١) المفردات: ١٩٠.

موسى عليه السلام، أَنه عَبَّرَ عنه بكلماتٍ خصَّها به، ولم تَرِدْ في غيره في القرآن.

منها: ﴿جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩].

ومنها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. حيث ذُكرتْ مرتيْن. في سورة النمل [آية: ٧]. وفي سورة القصص [آية: ٢٩].

ومنها: «قبس». حيث ذكرتْ مرتيْن. في سورة طه: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ . .﴾ [آية: ١٠].

وفي سورة النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ . .﴾ [آية: ٧].

ويُمكنُ أن نرتبَ السورَ الثلاثَ التي ذَكرتْ هذا المشهدَ من قصةِ موسى ترتيباً متدرِّجاً هكذا: سورةُ القصص، ثم سورةُ طه، ثم سورةُ النمل.

فعبَّرَ في سورةِ القصص بالجذوةِ من باب الرجاء: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

وتحولتْ هذه الجذوةُ إلى قبس، رجا أنْ يأخذَهُ رجاءً في سورة طه: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ . .﴾.

بينما تحوَّلَ هذا القبسُ إلى شهابٍ قَبَس في سورة النمل، وجَزَمَ موسى بإحضاره جزماً، وليس من باب الرجاء، حيث قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ . .﴾.

ولا ننسى ملاحظةَ التعبيرِ بالسين الجازمة بدلَ «لعلَّ» الراجية، في فعل «سآتيكم»، بدلَ فعل «لعلي آتيكم . .».

إنَّ جمْعَ المواضعِ الثلاثة التي عبَّرَتْ عن نفس الحادثة بهذا التنويع المقصودِ المعجزِ قادَنا إلى هذه الملاحظة. وسبحان الله منزلِ هذا القرآن!!.

أتى موسى النارَ التي كانت نوراً في الحقيقة، وعندها ناداهُ اللّهُ سبحانه وتعالى. فوجَدَ عندَها الخبرَ اليقين، والهدى المأمول، خبرَ الإيمان، وهدى الحياة.

المكان الذي نادى الله موسى فيه:

وقد حرصتْ آياتُ القرآن على تحديدِ المكانِ الذي كانت فيه النار، والذي سمعَ فيه موسى كلامَ الله.

ففي سورةِ النازعات ذُكِرَ اسمُ الوادي المقدس «طوى»، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٦].

وورَدَ هذا أَيضاً في سورة طه، في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢].

لقد جعلَ اللّهُ وادي «طوى» الواقعَ بجانبِ جبل الطور في سيناء وادياً مقدَّساً. بنصِّ هذه الآيات، والقداسةُ هي الطهارةُ والتنزيهُ عن المفاسدِ والرذائل.

و«طُوى» في هذه الآيات هو اسمٌ للوادي المقدس، وهو «عطفُ بيان» ـ كما يقول النحويون ـ على «الواد المقدس»، وكأنه قاله له: إنك بوادي طوى.

وفي سورةِ القصص وَرَدَ تحديدُ المكان في هذه الآيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ..﴾ [آية: ٢٩].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ..﴾ [آية: ٣٠].

الثالثة: قولُه تعالى خطاباً لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

الرابعة: قولُه تعالى خطاباً لنبيِّه محمد ﷺ أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ

﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ..﴾ [آية: ٤٦].

وفي سورةِ مريمَ وردَ تحديدُ مكانِ نداءِ الله لموسى في آيةٍ قريبةٍ من هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾[مريم: ٥١ ـ ٥٢].

ومعنى هذه الآياتِ أنَّ الواديَ المقدَّس «طوى» كان بجانبِ جبلِ الطورِ المبارك.

وكانت الشجرةُ المباركة في سفحِ جبل الطور، ورأى النارَ فيها عن بُعْد.

وجانبُ جبلِ الطور هو الجانبُ الأيمن، بنصِّ آيةِ سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ..﴾.

والجانبُ الأيمنُ من جبل الطور هو الجانبُ الغربيّ، كما في آيةِ سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: ما كنتَ بالجانبِ الغربيِّ الأيمنِ لجبل الطور، وهو الجانبُ الذي نادينا موسى منه.

وجانبُ الطورِ الأيمنُ الغربيُّ الذي فيه الشجرةُ المباركة هو نفسُه جانبُ الوادي الأيمن، المذكورُ في قوله: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ..﴾.

و﴿شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ هو جانبه.

ويمكنُ تصوُّرُ المكان من خلال هذه الآيات هكذا:

لما وصلَ موسى بأهلِه إلى وادي طوى وجبل الطور، سارَ هو في وادي طوى، ووجَّه وجْهَهُ نحوَ مصر، وجعلَ جبلَ الطور عن يمينه، وبذلك كان جانبُ وادي طوى عن يمينِه أيضاً، وهو شاطئ الوادي الأيمن.

وكانت الشجرةُ المباركةُ على يمين موسى، فهي على شاطئ

وجانبِ الوادي الأيمن، الذي هو في جانبِ جبلِ الطور الأيمن.

وهذه البقعةُ اليمنى كلُّها بقعةٌ مباركة، باركَها الله في تلك الليلة المباركة، وهي المذكورةُ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ..﴾ [القصص: ٣٠].

والمعنى: لما أتى موسى المكان، ناداه اللّهُ من الشجرة، وهذه الشجرةُ في شاطئِ وادي طوى، وهذا الشاطئُ هو جانب الوادي الأيمن، وهذا الوادي هو في جانبِ جبلِ الطور الأيمن، وهذه البقعةُ كلُّها هي البقعةُ المباركة.

ولهذا قالَ تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [آية: ٨].

نظرة في حقائق آيات سورة طه:

لما وصلَ موسى ذلك المكانَ المبارك ناداه الله، وكلَّمه، وبلَّغه أَنه اختاره نبياً.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ٩ ـ ١٦].

أَخبرَ اللّهُ موسى أنه ربُّه: ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾. وأَنَّه لا إله إلا هو. كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وأَنه هو العزيز الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل: ٩].

لقد بدأ اللّهُ كلامَه لموسى بالبدايةِ الضرورية، وهي العقيدةُ والوحدانية، حيث أَخبره أنه لا إله إلا هو، وأَنه ربُّ العالمين، وأنه ربُّه هو، وأنه العزيزُ الحكيم.

ومعلومٌ أن هذه هي نقطةُ البدء في كلِّ دين، البدءِ بتوحيدِ الألوهية، وتقريرِ وحدانيةِ الله في أُلوهيته وربوبيته وفي أسمائه وصفاته.

وهذه البدايةُ ضروريةٌ لموسى عليه السلام، حيث سيبعثُه الله رسولاً إِلى أعتى كافر، وهو فرعونُ الذي ادّعى الألوهيةَ والربوبية، ودعا شعبَه إِلى عبادته. فلا بدَّ أنْ يَعلمَ موسى عليه السلام منذ اللحظةِ الأولى أنَّ اللّهَ العزيزَ الحكيم هو وحده ربُّ العالمين.

لماذا خلع النعلين في الوادي المقدس:

وقالَ اللّهُ لموسى بعد ذلك: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ..﴾.

وهذا إِخبارٌ من الله بقدسيةِ هذا المكان، فاللّهُ قد قدَّسَ وباركَ هذه البقعة: وادي طوى وجبلَ الطور، ولهذا اختارَ أنْ ينادِيَ موسى فيه.

وبما أنَّ طوى وادٍ مقدس فلا بدَّ أنْ يستعدَّ موسى له بطهارةٍ خاصة، ولهذا طلبَ اللّهُ منه أنْ يخلعَ نعليْه. فنفّذَ موسى أمْرَ الله وخلَعَ نعليه مباشرة.

وفي هذا إِشارةٌ إِلى أهميةِ الطهارةِ المادية والمعنوية، والتزكيةِ النفسية والقلبية والسلوكية، كمقدمةٍ وتمهيد لتلقّي أحكامِ الله ودينه. وهذا وفقَ المبدأ المعروف «التخليةِ قبلَ التحلية». أي: التخلية عن الرذائل والتطهرِ منها قبلَ التحلية بالفضائل والاتصاف بها.

إخبار موسى بالنبوة والرسالة:

وبعدما خلعَ موسى نعلَيْه أَخبرَه اللّهُ أنه اصطفاهُ نبياً. قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾.

اختارَ اللّهُ موسى عليه السلام ليكونَ نبياً رسولاً، وسنواتُ عمرِه السابقة كان إعداداً من الله له، دونَ أنْ يَشعرَ هو بذلك، فاللّهُ قد اصطنعه لنفسه، وأَضفىٰ عليه رعايتَه وعنايتَه، وأَوصلَه إلى هذه البقعة المباركة، وناداه في هذه الليلةِ المباركة، وبعثَهُ نبياً رسولاً عليه الصلاة والسلام.

وطلبَ اللّهُ من موسى أنْ يستمعَ لما يوحي به اللّهُ إليه، وأنْ ينتبهَ لذلك، وأنْ يعيَه ويتدبرَه: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

وقد كلَّمَ اللّهُ موسى من وراءِ حجاب، وكان الحجابُ هو الشجرة، المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ..﴾ [القصص: ٣٠].

وهذا هو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

إنَّ كلامَ الله للبشر محصورٌ في هذه الحالاتِ الثلاثة:

الأولى: وحيٌ فطريٌّ مباشرٌ للإنسان، كما حصلَ مع أُمِّ موسى، عندما أَوحى اللّهُ لها بالتصرفِ المناسبِ لنجاةِ موسى.

الثانية: أنْ يكلمَ الإنسانَ من وراءِ حجاب، كما حصلَ في تكليمه سبحانه لموسى، حيث كان كلامُه له من الشجرة، وكانت الشجرةُ هي الحجاب. وكما حصلَ مع رسول الله محمد ﷺ ليلةَ المعراج، حيث كلَّمهُ اللّهُ عند سدرةِ المنتهى، وكان نورُ الله هو الحجاب.

الثالثة: أنْ يكلمَ الإنسانَ عن طريقِ الرسول من الملائكة، وهذا ما حصلَ مع رسلِ الله وأنبيائه، حيث كان يرسلُ لهم الروحَ الأَمين جبريل عليه الصلاة والسلام، فيبلغهم الرسالة.

تكليم الله لموسى مباشرة:

لقد كانَ وحيُ الله إِلى الرّسل عن طريقِ جبريل، حيث كان ينزلُه على الواحد منهم، فيخبرُه أنَّ الله قد بعثَه نبياً.

إلاّ موسى كليمَ الله عليه الصلاة والسلام، حيثُ اختصَّه اللّهُ بهذه الفضيلة، فلم يَبعثْ له جبريل، وإِنما ناداهُ مباشرة، وكلَّمه من وراءِ حجاب تكليماً.

ووردَ هذا صراحةً في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

وذَكَّرَ آدمُ موسى بهذه الخاصيةِ يومَ القيامة. فقد أَخبرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ آدمَ يقولُ لموسى يومَ القيامة: «يا موسى: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه..»[1].

وفي روايةٍ ثانية، يقول له: «أنت موسى بني إسرائيل، الذي كلمك الله من وراء حجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً..»[2].

ويَعرفُ الناسُ هذه المنزلةَ الخاصَّة لموسى، ولهذا يذكِّرونَه بها يوم القيامة، عندما يطلبونَ منه الشفاعةَ إِلى ربه. قالَ رسولُ الله ﷺ ضمنَ حديثِ الشفاعة الطويل: «فيأتون موسى فيقولون: يا موسى: أنتَ رسولُ الله، فضَّلك اللّهُ برسالاته، وبتكليمه، على الناس، اشفعْ لنا إِلى ربِّك..»[3].

وبعدما أَخبره اللّهُ أنه اختارَه ليكون نبياً قال له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤..﴾.

وهذه خلاصةُ رسالةِ موسى عليه السلام، وهي خلاصةُ رسالةِ كلِّ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٤.
(٢) أخرجه أبو داود ومالك وأحمد وأبو يعلى. انظر الأحاديث الصحيحة: ٣٥.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ٣٩٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٤.

نبي، فكلُّ رسالةٍ تقومُ على الوحدانية، وأنه لا إله إلا الله، ثم على العبادةِ الصادقةِ لله، وإفرادِه وحدَه سبحانه بالعبادة، لأنَّه لا يُعبدُ غيرُه، وهي ثمرةٌ ونتيجةٌ لما قبلَها، فعندَ إفرادِ الله بالألوهية، يقومُ المؤمنُ بإفرادِه بالعبادة، لأنَّ من لوزامِ أنه لا إله إلا الله، أنه لا معبودَ بحقٍّ إلاّ الله.

ومن أهمِّ مظاهرِ العبادة الصلاة، والصلاةُ ركنٌ في كلِّ دينٍ من عند الله، أوجبَها اللّهُ على كلِّ مَنْ آمنَ بالله.

وجمعت الآيةُ بين هذه الحقائقِ الثلاثة: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾..

إخبار موسى بحقيقة الآخرة:

ثم أخبرَه عن حقيقةٍ إيمانيةٍ أُخرى، وهي الآخرةُ وقربُ قيام الساعة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾: حقيقةُ انتهاءِ الدنيا وقيامِ الساعة، ومجيء الآخرة.

﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾: حقيقةُ اختصاصِ الله بعلم الساعة، فلا يعلمُ أحدٌ غيرُه متى تقوم، وحقيقةُ قربِ قيامها، فهي توشكُ أنْ تأتيَ فجأة، والله يكادُ يخفيها.

وتدلُّ هذه الجملة ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ على قُربِ قيام الساعة، وكأنَّ بعثةَ موسى عليه السلام من علاماتِ الساعة، لأنَّ فعلَ «أكادُ» من أفعالِ المقاربة، وهو يدلُّ على قربِ وقوعِها.

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾: حقيقةُ الحساب في الآخرة، فاللّهُ

سوف يحاسبُ كلَّ نفس بما عملتْ في الدنيا من خيرٍ أو شر، فيثيبُ الصالحَ ويعاقب الطالح.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ..﴾ حقيقةُ انقسامِ الناس إلى قسمين: مؤمنٍ بالحقائقِ المذكورة في الآيات، ومنها مجيء الساعة. وكافرٍ بها منكر لها.

وإخباره بحقيقة المواجهة بين الحق والباطل:

ويتفرعُ عن هذه الحقيقةِ حقيقة أخرى، وهي حرصُ الفريقِ الكافر على صدِّ الفريقِ المؤمن عن الإيمانِ بتلك الحقائق.

وينتجُ عنهما حقيقةٌ ثالثة وهي المواجهةُ بين فريقِ المؤمنين وفريق الكافرين، والصراعُ بين الحق والباطل، لأنَّ أصحابَ الباطل الذين لا يؤمنون بالحق لا يطيقونَ السكوتَ عن أَصحاب الحق، فيعلنون عليهم الحربَ لصدِّهم عن الهدى، ويَردُّ أَصحابُ الحقِّ على الحرب بمثلها، فيواجهون أَصحابَ الباطل. وهكذا لا تخلو فترةٌ من فتراتِ الزمان من المواجهةِ بين أَصحاب الحق وأَصحاب الباطل.

وتقودُ هذه الحقائقُ إلى حقيقةٍ رابعة وهي وجوبُ ثباتِ أَصحابِ الحقِّ على حقهم، مهما تطلَّبَ ذلك منهم من تضحيات، واللّهُ يوصي بالثبات، وعدم الاستجابةِ لمحاولات أَصحابِ الباطل: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ..﴾.

وتقدمُ الآيةُ حقيقةً خامسة، تُعرفُنا بها على طبيعةِ الكافر بالحق، المنكرِ للساعة، وهي أَنه إنسانٌ متبع للهوى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ولا يجتمعُ الهوى والهدى، ولا يُمكن لمتبعٍ لهواه أَنْ يؤمنَ طالما هو متبعٌ لهواه.

واتباعُ الهوى أَساسُ كلِّ مصيبة، وهو سببٌ لهلاكِ صاحبه وضياعِه وخسارتِه في الدنيا والآخرة، وتردّي حياتِه في الدنيا، وتردّيه في جهنم في الآخرة، ولهذا قالت الآية: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ..﴾. وهذه حقيقةٌ

سادسة تضمنَتْها هذه الآيةُ الموجزة. وسبحانَ اللّهِ مُنَزِّلِ القرآنَ المعجز!!.

هذه هي الحقائقُ والمعلوماتُ التي أخبرَ اللّهُ بها موسى عليه السلام عندما ناداه في تلك البقعةِ المباركة من تلكَ الليلةِ المباركة، والتي أشارتْ لها الآياتُ الستةُ من سورةِ طه.

سأل الله موسى عن عصاه لإيناسه:

بعد ذلك أَرادَ اللّهُ إِيناسَ موسى عليه السلام، فسأَلَه عن عصاه، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨].

كان موسى عليه السلام يحملُ عصاه بيدِه اليمنى، ومعلومٌ أَنَّ اللّهَ سميعٌ بصيرٌ عليم، فاللّهُ رأى موسى وهو يحملُ عصاه، وهو يعلَمُ أنهُ يحملُ عصاه، ومع ذلك سأَلَه سبحانه قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

فلم يكن سؤالُ الله لموسى سؤالَ استعلام، لأَنَّ اللّهَ يعلمُ أنها عصاه، وإِنما سؤالُه سؤالَ إِيناسٍ واسترواح، فاللّهُ يريدُ أَنْ يشعرَ موسى بالأُنس والراحة، يريدُ له أَنْ تهدأَ أَعصابُه، وأَنْ تطمئنَّ نفسُه، وأَنْ ترتاحَ مشاعرُه، لأنها ليلةٌ خاصة، تجري فيها أَحداثٌ خطيرة، وستمرُّ به بعدَ قليل أَحداثٌ مخيفةٌ مفزعة، ولا بد أَنْ يقابلَها موسى بهدوءٍ وأُنس واطمئنان.

ثم إِنَّ اللّهَ يعلمُ أَنها ستكونُ معجزةً باهرة في هذه العصا، وسيحولُها بعد قليل إِلى حيةٍ تسعى، وسيفاجَأُ موسى بذلك، فسأَلَه اللّهُ عن العصا، لينتبهَ موسى لها، ويتذكَّرَ أَنها عصا خشبية، فيسهلُ عليه تصوُّرُها حيةً تسعى.

ومن بابِ التقريب ـ وللّهِ المثلُ الأعلى ـ قد يُعطي أَحدُ الناس آخرَ قطعةَ قماش، ويَدعوه إِلى أَنْ يلمسَها بيديه، فيقول له: ما هذا؟

فيجيبُه: إنها قطعةُ قماش. فيقولُ له: انظر كيفَ سأَحرقُها وأُحوِّلُهَا الآنَ إلى رماد.

فسؤالُ الله لموسى عن عصاه ليُشعره بالأُنسِ والاطمئنان، وليعِدَّهُ للتعاملِ معها عندما يحوِّلُها الله إلى حية.

ولما سمعَ موسى سؤالَ الله تَحَسَّسَ ما في يده، إنها عصاه، فأَجابَ فوراً: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾.

من وظائف عصا موسى:

ثم استرسلَ موسى في الجواب، فأضافَ الحديثَ عن وظائفِ العصا، ولم يسأل اللّهُ عنها.

إنه يستعملُ العصا في «الإِتكاء»، وهو الاعتماد، حيث كانَ يتوكَّأُ ويعتمدُ عليها في سيْرِه وتنقُّلِه.

ويستعملُها في رعْيِ الغنم، حيث يَهُشُّ بها على غنمه.

ولم تَرِدْ كلمةُ «هَشَّ» في القرآن في غير هذا الموضع.

قال الراغب: «الهَشُّ: يقاربُ الهزَّ في التّحريك. ويقعُ على الشيء اللين كهشِّ الورق. يقال: هَشَّ الوَرَقَ. أي: خبطَه بالعصا..»[1].

فمعنى: «أَهُشُّ بها على غنمي»: أَهُزُّ بها الشجرَ ليتساقطَ ورقُه على غنمي فتأكله.

قال الإمامُ مالك: الهَشّ: أنْ يضعَ الرجلُ المحجنَ ـ العصا ـ في الغصن، ثم يحركُه، حتى يسقطَ ورقُه وثمرُه، ولا يكسرَ العود، ولا يخبطه»[2].

---

(١) المفردات: ٨٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ١٤١.

وليس استعمالُه العصا مقصوراً على الحالتيْن السابقتين، بل إنه يستعملُها في أَغراضٍ أُخرى، وتحققُ له مآربَ وأهدافاً أخرى. ولهذا أَضافَ موسى عليه السلام قائلاً: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ولم يُحدِّدْ تلك المآربَ الأخرى، وهي مآربُ وأغراضٌ قد تَعرضُ له في بعضِ الحالات، كأَنْ يدفعَ بها عدوانَ معتدٍ عليه، أو يَصدَّ بها هجومَ حيوانٍ عليه، أَوْ يضربَ بها غنمَه ودوابَّه وهو يرعاها أو يسوقُها، وهذه مآربُ اعتيادية قد تَعرضُ لأيِّ إنسانٍ يملكُ عصا.

ونحبُّ أنْ ندعوَ هنا إلى نبذِ الإسرائيليات التي ذكرها أَصحابُ الإسرائيليات والأَساطيرِ حول تلك العصا، ونقررُ أَنها كانت عصا عادية، قطعَها موسى من شجرةٍ من أَشجارِ الصحراء، وتوكَّأَ عليها وهَشَّ بها على غنمه، وهي كسائرِ العصيِّ التي يستعملُها الرعاة، ولم تلفتْ نظرَ موسى من قبل، ولم تَحدثْ له بها حوادثُ عجيبةٌ مثيرة، فما هي إلا عصا عاديّةٌ خشبيةٌ كسائر العصي.

حوّل الله العصا حية تسعى:

أَمرَ اللّهُ موسى بإِلقاءِ العصا من يده، وحقَّق على يده معجزةً باهرة، فحوَّلَها من عصا خشبيةٍ إِلى أفعى، وراحت الحيةُ تسعى أَمام موسى!!!

ولم يتمالَكْ موسى نفسَه أَمامَ هذا الأمرِ المخيف، وخافَ من تلك الحية التي تهتزُّ كأَنَّها جانّ، فولّى مدبراً، وأَرادَ أَنْ يهربَ من المكان خوفاً من تلك الحية، ولكنَّ اللهَ طمأَنه وأَزالَ عنه خوفَه، ودَعاه إلى عدمِ الهروب والخوف، فإنه سيعيدُها عصا جامدةً كما كانت.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ١٩ ـ ٢١].

والحيةُ هي الأفعى المعروفة، ولم تَرِدْ «حية» في القرآن في غيرِ هذا الموضع، وهي مشتقَّةٌ من الحياة.

وتسمّى أفعى، كما تسمى «ثعباناً».

ولما رأى موسى عصاه قد تحوّلتْ إلى حية حقيقية، فيها روح، وتسعى كما تسعى الحيات، وتَسيرُ وتتحركُ كباقي الحيات، خافَ منها.

وتحويلُ العصا الجامدةِ اليابسةِ إلى حيةٍ حقيقيةٍ زاحفة، معجَزةٌ باهرة، وهي من أَمرِ الله وفعله، ولذلك لا غرابةَ في ذلك.

إنَّ الإنسانَ يعجزُ عن خلقِ الأَحياء، ويعجزُ عن نفخ الحياة في الجوامد، وتحويلِها إلى مخلوقات حية.

أما اللهُ الخالقُ المحيي البارئُ المصور، فهو قادرٌ على ذلك، وكما يخلقُ الحيَّ خلقاً مباشراً، فإنه يحوِّلُ الجامدَ إلى حي، ولهذا نفخَ الحياةَ في العصا، فحوَّلَها إلى حيةٍ تسعى..

ثم أعادها الله عصا:

وأَمَرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يأخذَ الحيةَ بيده، وأن لا يَخافَ منها: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

إنَّ كلَّ ما مَرَّ بموسى عليه السلام في هذه الليلة مثير، وها هي عصاهُ حية، تسيرُ وتسعى، وها هو مأمورٌ أنْ يأخذَها بيده، وأنْ لا يخافَ منها! يأخذَ حيةً مخيفة، ولو كانت حيةً حقيقيةً لخاف أنْ يأخذَها، لأنه يعلمُ أنَّ لدغَتَها سامّة، فكيف وهي حيةٌ غيرُ عادية، وإنما هي متحولةٌ عن عصا؟؟

وحتى يُزيلَ اللّهَ خوفَه طمأَنَه بأنّه سيعيدُها عصا كما كانت: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

والمعنى: سنعيدُها إلى طبيعتها، وهي عصا خشبية.

والسيرةُ لم تَرِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

قال الإمامُ الراغبُ الأصفهاني: «السيرةُ: الحالةُ التي يكون عليها الإنسانُ وغيره، غريزياً كان أو مكتسباً.

يقال: فُلانٌ له سيرةٌ حسنة. وفلانٌ له سيرةٌ قبيحة.

وقوله: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾: سنعيدُها إلى الحالة التي كانتْ عليها، وهي أنها عود»[1].

حياة العصا على مرحلتين تهتز ثم تسير:

ولما حوَّلَ اللّهُ العصا إلى حية، لم تكن مجردَ حية، بل كانت «تهتز» وتتحركُ وتضطرب.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: ١٠ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

انقلبت العصا حيةً بمجردِ أنْ ألقاها موسى، وصارتْ حيةً عظيمةً كبيرةً هائلةً مخيفة، في غايةِ الكبر وسرعةِ الحركة، وكانت تهتزُّ وتضطرب، وتَسعى وتَسير، وتتحركُ حركةً سريعةً مخيفة.

وقد شبَّهتها الآية في ذلك بالجانّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾. والجانُّ في القرآن يطلقُ على «الجنّ» الخلقِ المعروفين الذين خلقهم اللّهُ من النار. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

ولم يُطلق «الجانُّ» في القرآن على غيرِ الجنِّ المعروفين.

وهنا شبَّهَ القرآنُ الحيةَ بعدما كَبرتْ وعَظمت واهتزتْ واضطربتْ بالجانّ ـ وهو الجني ـ في اهتزازِه وحركتِه واضطرابه: ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾.

---

(١) المفردات: ٤٣٣.

وعندما نجمعُ الآياتِ الثلاث التي تتحدثُ عن تحويلِ العصا إلى حية، فسوف نرى أنها تتحدثُ عن مرحلتيْن مرتْ بهما تلك الحية:

المرحلة الأولى: التغييرُ الذي طرأ على العصا، حين جعلَ اللّهُ فيها الحياة، حيث صارتْ تهتزُّ وتضطربُ وتتحرك، كأنها جانّ.

وهذا ما ذكرتْه آيةُ سورة النمل: ﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾. وآية سورةُ القصص أيضاً: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ ..﴾.

المرحلة الثانية: انتهاءُ اهتزازِ واضطرابِ الحية، وانتقالُها إلى مرحلةِ الزحفِ والمشي والسعي.

وهـذا مـا ذكـرَتْـه آيـةُ سـورة طـه: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ ..﴾ فصارتْ حيةً تسعى بعدما اهتزتْ كأنّها جانّ.

كان خوفُ موسى عندما شاهدَ المرحلةَ الأولى، ورآها تهتز كأنّها جانّ، حيث هربَ من الموقع. وهذا ما وردَ في سورتي النمل والقصص: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ ..﴾.

ولّى ظهرَه للحيةِ التي تهتز، وأَدبرَ عنها، وجرى سريعاً بعيداً عنها، وهربَ منها، ولم يُعَقِّبْ، ولم ينظرْ خلفَه، ولم يلتفتْ إليها، وذلك من شدةِ خوفه.

ماذا قالَ اللّهُ له بعدما هربَ من الحية؟

الله ينهى موسى عن الخوف من العصا:

١ ـ نهاهُ اللّهُ عن الخوف، وذلكَ ليعودَ له اطمئنانُه وهدوءُه، ويزولَ عنه الخوف. وهذا ما وردَ في سورة النمل: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

يقولُ اللّهُ له: إنك رسول، والرسلُ لا يَخافون، فلماذا تَخافُ من هذه الحية التي تهتزُّ كأنَّها جانّ؟.

والاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ استثناء

منقطع ـ كما يقول علماء النحو ـ المستثنى من غير جنسِ المستثنى منه، أي: أنتَ رسول، والرسلُ لا يخافون. ثم بدأ كلامٌ جديد، عن الذين يَخافون ويَظلمون ويُخطئون ويَعصون من غيرِ الرسل والأنبياء. فمن خافَ وظلمَ من غيرِ الرسل، ثم تابَ وفعلَ الحُسْنَ بعد السوء، فإن اللّهَ يتوبُ عليه ويغفرُ له، لأنه غفورٌ رحيم..

فما بعدَ الاستثناءِ لا ينطبقُ على موسى عليه السلام في خوفِه من الحية، وخوفُه منها خوفٌ طبيعيٌّ فطري، يَعتري البشرَ حتى لو كانوا أنبياء، أمامَ الأخطار.

ولا يُلامُ موسى على خوفِه من الحيةِ وهروبِه بعيداً عنها، لأنها كانت عصا خشبية، وإذا بها حيةٌ تهتزُّ وتَضطربُ وتتحركُ كأنّها جانّ. فهل نريدُ من موسى أنْ لا يَخافَ من هذا المنظر؟ في تلك الليلةِ المثيرة؟ في ذلك المكانِ البعيد؟ وليسَ معه أحد؟

أيُّ واحدٍ لو كان مكانَ موسى عليه السلام في ذلك الجو، ورأى الحيةَ هكذا، فسوفَ يخافُ ويهرب، لأنه خَطر، وفطرَ اللّهُ البشرَ على الخوفِ من الخطر والابتعادِ عنه!!.

المهمُّ أنْ نعرفَ ماذا فعلَ موسى بعدمَا ناداهُ الله ونهاهُ عن الخوف؟ لو بقي خائفاً هارباً بعد تأمينِ اللّهِ له لكان مُلاماً في ذلك، وكان فعلُه مذموماً، وكان خوفُه جبناً! وحاشاهُ أنْ يفعلَ ذلك.

لقد سمعَ موسى نداءَ الله، وتوقَّفَ عن هروبه وجَريه، وأَزالَ عنه الخوف، وأَحلَّ محلَّه الهدوء والاطمئنان: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾.

الله يأمر موسى بالعودة وأخذ الحية بيده:

٢ ـ بعدما توقَّفَ موسى عن هروبه، وأَزالَ عنه الخوف، أَمَرَهُ اللّهُ بالعودةِ إلى الحية، وأكَّدَ عليه عدمَ الخوف، وأَبلغه بالأمن.

ووردَ هذا في سورةِ القصص: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾: عُدْ إلى مكانِك، حيث الحيةُ التي تهتزُّ كأنّها جانّ. ولا تَخفْ منها، فإنها لنْ تُؤذيك، إنكَ من الآمنين، ستكون آمناً عندَ الحية، فهي ليستْ عدوةً لك، كباقي الحياتِ التي جعلَ الله بينها وبين بني البشر عداوة، إنها حيةٌ خاصة، ستكونُ بينَك وبينها صلةٌ وصحبة خاصة، ستكون آمناً عندها، فعدْ إليها وأقبلْ عليها: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

اطمأنَّ موسى إلى تبشيرِ اللهِ له بالأمن، وأيقنَ أنه سيكونُ آمناً عند الحية، فأقبلَ عليها، ونفَّذَ أَمْرَ الله.

٣ ـ لما وصلَ موسى إلى الحية وَجَدَها قد انتقلتْ إلى المرحلةِ الثانية من حياتها المعجزة، فلم تهتزّ واقفةً كأنّها جانّ، وإنما صارتْ تتحركُ وتزحف: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ..﴾.

نظرَ إليها موسى وهي تسعى، وكان آمِناً من جهتها، لأنَّ اللّهَ أمَّنه.

وهنا أَمَرَهُ اللّهُ أنْ يأخذَها بيده، وأنْ لا يخافَ منها عندما يمدُّ يَدَهُ إليها: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾..﴾.

وأَخبرَه أنَّ حياتَها حياةٌ عرضية وليستْ دائمة، وأنَّ اللّهَ أرادَ أنْ تكونَ حياتُها آيةً ومعجزة. وسوفَ يعيدُها عصا خشبية كما كانت.

اطمأنَّ موسى إلى وعْدِ الله، ومَدَّ يَدَه إلى الحية التي كانتْ تَسعى وتزحف، وحملَها بيده، بدونِ خوفٍ أو فزع أو اضطراب.. ونظرَ إليها فإذا بها تعودُ عصا خشبية! العصا التي كان يحملُها، ويعرفُها حقَّ المعرفة!!.

وهكذا أجرى اللّهُ المعجزةَ على يد موسى عليه السلام، في تلك الليلةِ المباركة في وادي طوى، فجعلَ العصا الخشبيةَ حيةً تهتزُّ ثم تسعى، وأعادَها عصا خشبية لما أَمسكها موسى.. فاللهُ هو الذي قذفَ فيها الحياة، واللّهُ هو الذي سَلَبَ منها الحياة، وكانت حياتُها عَرَضاً

سريعاً، وليس حياةً دائمة. وسبحان الله الخالقِ المحيي المميت..

معجزة تحويل يد موسى السمراء إلى بيضاء من غير سوء:

وبعدما أَعادَ اللّهُ الحيةَ عصا، وشاهدَ موسى المعجزة بعينيه، ولمسَها بيديه، أَرادَ اللّهُ أَنْ يُقدمَ له معجزةً أُخرى، ليست مخيفةً مثلَ الأولى، لكنها مثلَها في الدلالةِ على وحدانيةِ الله، وقدرتهِ على فعل ما يشاء.

قالَ تعالى عن معجزة اليد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

كانتْ يدُ موسى سمراء، لأن موسى كانَ أسمرَ اللون. كما أخبرَنا رسولُ الله ﷺ.

عن ابنِ عباس رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ قال: «أمّا إبراهيمُ فانظروا إلى صاحبكم، وأَما موسى فرجلٌ آدمُ جَعْدُ الشَّعَر»[1].

وعن ابنِ عباس أيضاً عن رسولِ الله ﷺ قال: «مررتُ ليلةَ أُسري بي على موسى بن عمران عليه السلام، رجلٌ آدمُ طُوالٌ جَعْدٌ، كأَنه من رجال شنوءة..»[2].

ومعنى «آدم»: أسمرُ اللون.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٨. ومسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٧١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

ومعنى «طُوال»: طويلُ الجسم.

ومعنى «جَعْد الشعر»: أنَّ شعْرَ رأسِه أَجعدُ قَطَط، وليس سبطاً مسترسلاً منسدلاً.

فالرسولُ ﷺ يخبرُ أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام كان أسمرَ اللون.

أَمَرَ اللّهُ موسى عليه السلام أن يُدخِلَ يدَه السمراءَ داخلَ جيب درعِه أو ثوبه، ويخرجها، فإنها ستخرجُ بيضاءَ ناصعةَ البياض، تلمعُ وتشعُّ وتتلألأ، وبياضُها من غيرِ سوء. فليسَ بياضُها عن بَرَصٍ أو بُهاق أو أيِّ مرضٍ آخر جلدي، وإنما بياضُها معجزةٌ من الله، وسوف تعودُ إلى لونِها الأسمر المعتاد.

كان تحويلُ يدِه السمراء إلى بيضاء، ثم عودتُها إلى لونها الأسمر معجزةً من الله له، كمعجزةِ تحويلِ العصا إلى حية تسعى، ثم عودتِها عصا خشبية بعد ذلك.

ولذلكَ قالَ له عن الآيتين: العصا تتحولُ إلى حية ثم تعودُ عصا، واليدُ السمراء تتحولُ إلى بيضاء، ثم تعودُ سمراء: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ..﴾.

«ذانِك» مثنّى اسم الإشارة «ذا». والإشارةُ إلى العصا واليد، و«برهانان» مثنّى «برهان». وهو الدليلُ الواضح، والحجةُ الساطعة، فجعلَ اللّهُ العصا واليد لموسى برهانان بيِّنان على أنه نبيٌّ رسول، أرسله اللّهُ إلى فرعون وملئه.

ضم اليد إلى الجنب وإدخالها في الجيب:

الضمُّ في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ معناه الإدخال، فعبَّر في سورةِ طه بالضم، لكنه عبَّرَ في سورةِ النمل بالإدخال: «أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء..».

والإدخالُ هو السلوكُ المذكورُ في سورة القصص: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ..﴾.

والسلوكُ هو النفاذُ والاختراق. يقال: سلكَ الطريق: إذا نَفَذَ فيها واخترقَها.

فضمُّ اليدِ إلى الجيب هو إدخالُها فيه، وإدخالُها في الجيب هو نفاذُها فيه واختراقُها له.

ونلاحظُ أنَّ الآياتِ الثلاثة من السور الثلاثة تركزُ على حقيقةٍ واحدة، وهي أنَّ يدَه ستخرجُ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ..﴾.

أما الجناحُ المذكورُ في الآيتين: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ و﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ..﴾ فهو الجانب.

قال الإمام الراغب: «الجَناحُ: جَناحُ الطائر.. وسُميَ جانبا الشيء جناحيْه، فقيل: جناحا السفينة، وجناحا العسكر، وجناحا الوادي.

وقيل: جناحا الإنسان لجانبيه. قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جانبك.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾: المراد بالجناحِ فيه اليد. أي: اضمم إليكَ يدك. لكون الجناحِ كاليد، ولذلكَ قيل لجناحي الطائر يداه...»[1].

فمعنى قولِه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ اضممْ إليكَ يدكَ بسببِ الرهبة والخوف.

إنه قد أدخلَ يدَه في جيبه لتخرجَ بيضاء من غير سوء، ليكونَ ذلك له آية: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ..﴾.

---

(١) المفردات: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

وسيلة مطردة لإزالة الخوف والرعب عن الإنسان:

وقد أَمره اللّٰهُ بشيء آخر، وهو أَنه عندما يشعرُ بالرهبِ والخوفِ والفَزَعِ والرعب، فعليه أنْ يضمَّ إِليه يدَه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾. وذلك ليزولَ عنه الرَّهَبُ والرعب.

وليست هذه الوسيلةُ التي أرشدَ اللّٰهُ لها موسى عليه السلام خاصةً بتلك الليلةِ المباركة، وإنما هي وسيلةٌ عامةٌ مطردةٌ لزوالِ خوفه وفزعه، في أيِّ موقفٍ يمرُّ به.

كما أن هذه الوسيلةَ الربانية لزوال الرعب والخوف ليستْ خاصةً بموسى عليه السلام، بل هي عامة، تصلحُ لكلِّ منْ مَرَّ بحالةٍ من الرهب والفزع، فإذا ضمَّ يده إليه، فإنه سيشعرُ بزوال ذلك.

قال الإمام ابن كثير في التفسير: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾:

قال مجاهد: من الفزع.

وقال قتادة: من الرعب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصلَ لكَ من خوفك من الحية.

والظاهرُ أنَّ المرادَ أعمُّ من هذا، وهو أنه أُمِرَ عليه السلام إذا خافَ من شيء أنْ يضمَّ إِليه جناحه ـ وهو يده ـ من الرهب، فإذا فعلَ ذلك ذهبَ عنه ما يجدُه من الخوف.

وربما إِذا استعملَ أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء، فوضعَ يدَه على فؤاده، فإنه يزولُ عنه ما يجدُه من الخوفِ، إن شاء الله[1]..

ونفَّذَ موسى أمرَ الله، فأدخلَ يده في جيبه، فخرجَتْ بيضاءَ من

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

غير سوء، وبعد فترةٍ عادت سمراء كباقي جسمه. وضمَّ يدَه إليه، ووضعَها على قلبه فزالَ عنه ما كان يجده من الخوفِ والفزع والرعب والرهب، وعاد إليه اطمئنانه وهدوءه.

وأَعطى اللّٰهُ موسى عليه السلام الآيتين، وقالَ له عنهما: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ..﴾.

قالَ ابنُ كثير رحمه الله: «هما إِلقاءُ العصا، وجعلُها حية تسعى، وإِدخالُه يده في جيبه، فتخرجَ بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرةِ الفاعل المختار، وصحةِ نبوةِ مَنْ جرى هذا الخارقُ على يديه...»[1].

[٢]

تكليف موسى وهارون الذهاب إلى فرعون

في تلك الليلةِ المباركة، في وادي طوى بجانبِ جبل الطور، أَخبر اللّٰهُ موسى بأَنه اختارَه نبياً، وأَعطاه آيتيْن برهانيْن على نبوته، وهما اليدُ والعصا.

وأَيقنَ موسى عليه السلام بأَنه نبيٌّ رسول، وأَنَّ اللّٰهَ هو الذي يكلمه، واطمأَنَّ إِلى الآيات التي أَعطاها الله له.

أمر موسى بالذهاب إلى فرعون الطاغية:

بعد ذلك، وفي نفس المكانِ والزمان ـ في الليلة المباركة في الوادي المقدَّس طوى ـ كلفَ اللّٰهُ موسى عليه السلام أَنْ يذهبَ إِلى فرعون، ويبلغَه الدعوة.

ووردَ هذا في صريحِ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

---

(١) المرجع السابق ٣:٣٧٥.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٩].

اذهبْ إلى فرعون!. فرعونُ نفسُه الذي هربَ منه موسى قبلَ عشر سنوات، لما قتل القبطي!! كيفَ يذهبُ إليه الآن؟ أَلا يحاسبُه على ما فعلَه من قبل؟ وبأيِّ صفةٍ يَذهبُ إليه؟ بصفةِ النبوة! إنه نبيٌّ رسول، بعثَه الله، وأَعطاه الآيات، وكلَّفه بدعوةِ فرعون!

وهنا عرفَ موسى عليه السلام حكمةَ الله في تدبيرِ وتقديرِ الأَحداث التي مرَّتْ به في حياته، منذ ولادتِه إلى هذه اللحظة!

إنَّ اللّهَ حكيمٌ خبير، قدَّرَ ودبَّرَ الأَحداث، وجعلها كلَّها تمهيداً لنبوةِ موسى عليه السلام، والآن بعثَ موسى نبياً رسولاً، وكلَّفه الذهابَ إلى فرعون.

طغيان فرعون في ادعاء الألوهية والربوبية:

وأَبرزُ جريمة ارتكبها فرعونُ هي الطغيان ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

والطغيانُ هو تجاوزُ الحدِّ، والظلمُ والعدوان.

قال الإمامُ الراغب: الطغيان: تجاوزُ الحَدِّ في العدوان..»[(١)].

وقد برزَ طغيانُ فرعون وتعدّيه وتجاوزُ حدِّه في أَقبحِ صورة، وذلك عندما ادعى أَنه إِلهٌ وربٌّ لقومه، ودعاهم إلى عبادته.

وتولَّدَ عن هذا الطغيانِ الفرعوني القبيح كلُّ مظاهرِ الطغيان الأخرى، من ظلمه وعدوانِه وبغيه وإِفساده، وتكبُّرِه واستعلائه.

(١) المفردات: ٥٢٠.

إنَّ أَبرزَ عنوانٍ لحكم فرعون هو الطغيان، وأَبرزَ صفةٍ لفرعون أنه طاغية، ولقد أَوجزَ التعبيرُ القرآنيُّ المعجزُ بهذه الجملة: ﴿فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ مظاهرَ وممارساتِ فرعونَ في حكمه، وملامحَ الحكم الفرعوني، مما أَغنى عن كلِّ تفصيلٍ وإِسهاب.

وطغيانُ فرعونَ الطاغية استدعى أَنْ يناديَ اللّهُ موسى في الوادي المقدَّس، وأنْ يكلمه تكليماً مباشراً، بدونِ واسطةِ الملَكِ جبريل، وأنْ يكلفَه بالذهابِ إلى فرعون.

وخلاصةُ دعوةِ موسى إلى فرعون أنْ يؤمنَ بالله، وأنْ يتخلّى عن طغيانِه، وأنْ يطهِّرَ ويزكيَ نفسه، وأنْ يخشى اللّهَ ربَّه، وأنْ يتابعَ موسى الذي يقودُه إلى ربه، ويهديه الطريقَ الصحيحَ إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾.

موسى رسول إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل:

ولم يكن موسى عليه السلام مكلَّفاً بالذهابِ إلى فرعون فقط، فقد أَخبره اللّهُ في تلك الليلةِ المباركة أَنه مبعوثٌ إلى فرعونَ وقومه، وورَدَ هذا صريحاً في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١].

قومُ فرعون ظالمون كافرون عابدون لفرعون، وموسى مكلَّفٌ أنْ يأتيهم ويَدعوهم إلى الله ليتقوه: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾.

ولهذا جمعَ القرآنُ بين فرعون وقومه، باعتبارِ موسى عليه السلام مبعوثاً لهم جميعاً.

قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ

ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ [النمل: ١٢].

وهذه الآياتُ صريحةٌ في أنَّ اللّهَ بعثَ موسى نبياً رسولاً إلى فرعون وملئه وقومه، بالإضافةِ إلى كونه نبياً رسولاً إلى قومه بني إسرائيل.

ولا يتعارضُ هذا مع الحقيقةِ المعروفة من أنَّ اللّهَ كانَ يبعثُ كلَّ رسولٍ إلى قومه خاصة، إلاّ رسولَ الله محمداً ﷺ الذي بعثَهُ اللّهُ إلى الناس كافة، بل إلى الثقلَيْن من الإنس والجن.

لا يتعارضُ هذا معه لأنَّ بني إسرائيل كانوا مضطَّهدين أذلاء مستعبدين عند فرعون وملئِه، ولا بدَّ أنْ يُرفعَ عنهم الظلمُ والعدوان، وذلك لا يتمُّ إلا بالتخلّي عن الكفرِ من قِبَلِ الذين يذلّونهم ويَستعبدونَهم. ولذلك بعثَ اللّهُ موسى رسولاً إلى فرعون وملئه، قبلَ أَنْ يبعثَه رسولاً إلى قومه بني إسرائيل، وبدأَ موسى بدعوةِ فرعون وقومه قبلَ أنْ يدعوَ بني إسرائيل. وبينما رفضَ فرعونُ وملؤُه دعوةَ موسى، فقد قَبِلَ قومُه بنو إسرائيل دعوتَه ودخلوا في دينه.

إذنْ بعثَ اللّهُ موسى نبياً رسولاً إلى فرعونَ وملئه بنصِّ آياتِ القرآن الكريم.

ما الذي طلبه موسى من ربه؟:

ولما علمَ موسى عليه السلام بالمهمةِ الشاقة التي كلّفه اللّهُ بها، طلبَ من اللّهِ أنْ يُعينَه على تلك المهمة، وسألَهُ أشياءَ تحققُ له أداءَ مهمته.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦].

سألَ موسى ربَّه أنْ يُعينَه على أداءِ المهمة أمامَ فرعون. قال الإمامُ ابن كثير في التفسير: «هذا سؤالٌ من موسى عليه السلام لربِّه عز وجل أنْ يشرحَ له صدْرَه فيما بعثَه به، فإنَّه قد أَمَرَهُ بأمرٍ عظيم، وخطْبٍ جسيم، بعثَهُ إلى أعظمِ مَلِكٍ على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرِهم، وأشدِّهم كفراً، وأكثرِهم جنوداً، وأعمرِهم ملكاً، وأطغاهم، وأَبلغِهم تمرداً، بلغَ من أمرِه أن ادّعى أنه لا يعرفُ الله، ولا يعلمُ لرعاياه إلهاً غيره، هذا وقد مكثَ موسى في داره مدة، وليداً عندهم، في حجرِ فرعون وعلى فراشِه، ثم قَتَلَ منهم نفساً، فخافَهم أنْ يقتلوه، فهربَ منهم هذه المدةَ بكمالِها.. ثم بعدَ هذا بعثَه ربُّه عز وجل إليهم نذيراً، يَدعوهم إلى الله عز وجل، أنْ يَعبدوه وحدَه لا شريكَ له، ولهذا سألَ اللّهَ أَنْ يحققَ له ما يعينُه على أداء مهمته...»[1].

لقد توجَّه موسى إلى ربِّه سائلاً متضرعاً طالباً، لأَنه يعلمُ أنه لا يُعينُه ولا ينصرُه إلا الله، ولا يتمكنُ من أداءِ المهمة إلاّ بتوفيقٍ من الله.

ما الذي طلبهُ موسى عليه السلام من ربه؟

لماذا بدأ بطلب شرح الصدر؟:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾:

طلبَ من ربِّه أنْ يشرحَ له صدْرَه، وأنْ ييسرَ له أمره:

«وانشراحُ الصدرِ يُحَوِّلُ مشقةَ التكليف إلى مُتعة، ويُحيلُ عناءَه لذة، ويجعلُه دافعاً للحياة لا عِبْئاً يُثقل خطى الحياة... وتيسيرُ اللّهِ لعباده هو ضمانُ النجاح، وإلاّ فماذا يملكُ الإنسانُ بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك؟ وقُواه محدودةٌ وعلمُه قاصر والطريقُ طويلٌ وشائك ومجهول؟»[2].

يريدُ موسى من ربِّه أنْ يشرحَ له صدْرَه وييسرَ له أمره، لينطلقَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٣.

(٢) في ظلال القرآن ٤:٢٣٣٣.

لسانُه بالبيان، ويبلغَ الرسالةَ لفرعون وملئه، لأَنه يخشى أَنْ يضيقَ صدرُه، ولا ينطلقَ لسانُه، وبذلك يعجزُ عن أَداءِ الرسالة.

إنَّ موسى عليه السلام يربطُ بين ضيقِ الصدر وحبْسِ اللسان وعدم إقامةِ الحجة، ولهذا يريدُ شرحَ الصدر لانطلاقِ اللسان، لتقامَ الحجةُ ويتحققَ البيان!

بهذا الإطارِ يجبُ أنْ نضعَ قولَه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.

عقدة لسان موسى وحكاية الجمرة والتمرة:

لا يَجوزُ أنْ ننظرَ إلى هذه الجملةِ مجردة، ونقطعَها عما قبلَها، ونذهبَ إلى الرواياتِ غيرِ الصحيحة في الكلام على عقدةِ اللسان، كما قالَ بعضُ المفسرين، الذين قبلوا حكايةَ «الجمرة والتمرة»، التي حرقَتْ لسانَ موسى وهو صغير، فأصابَتْه بلثغةٍ دائمة، وهنا طلبَ من الله أَنْ يُزيلَ هذه العقدةَ اللثغة.

وخلاصةُ حكايةِ «الجمرةِ والتمرة» كما رواها هؤلاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنه لما دعت امرأةُ فرعون زوجَها إلى تبنّي موسى وعدمِ قتله، استجابَ لها وتبنّاه، وفي يومٍ من الأيام كانت امرأةُ فرعون جالسَةً مع زوجها، وكان موسى طفلاً صغيراً في حضنها، فأَمسكَ فرعونُ بموسى وَحَمَلَه، ووضعَه في حجره، فتناولَ موسى لحيةَ فرعون، فشدَّها ومَدَّها إلى الأرض!!

فقال الغواةُ أَعداءُ الله لفرعون: أَلا ترى إلى ما وَعَدَ اللَّهُ إبراهيمَ نبيَّه أَنه يربُّك ويعلوك ويصرعُك؟ فأرسلَ فرعونُ إلى الذبّاحين ليذبحوه..

فقالت له امرأتُه: ما بدا لك في هذا الغلامِ الذي وهبْتَه لي؟

قال: لقد شَدَّ لحيتي، وهو يزعمُ أَنه يعلوني ويصرعُني!

فدعَتْه إِلى اختبارِه ليعرفَ أَنه لم يقصدْ ذلك، وأنه لا يَعقل، وأَنه لا يفرقُ بين الجمرة والتمرة.

فوضعَ فرعونُ أمامهُ جمرةً وتمرة، فتناولَ الجمرةَ ووضعَها على لسانه، فأحرقَتْه، فأَصابتْه لثغةٌ دائمةٌ بسببها. فسأَلَ اللّهَ أنْ يحلَّ تلك العقدة بإزالةِ اللثغة[1].

الخلاف في تصحيح الحكاية والراجح عدم قبولها:

وقد قبلَ بعضُ المفسرين والمحدِّثين هذه الرواية، لأَنه صحَّ إِسنادُها إِلى الإمامِ ابنِ عباس رضي الله عنهما، واعتبرَها بعضُهم من باب المرفوعِ إِلى النبي ﷺ، مع أَنَّ ابنَ عباس لم يصرِّحْ برفعها. بينما اعتبرَها بعضُهم موقوفةً على ابنِ عباس رضي الله عنهما، وليستْ مرفوعةً للنبي عليه الصلاة والسلام، لعدمِ تصريحِ ابن عباس بالرفع.

ونحنُ مع الإمامِ ابنِ كثير في تعليقِه على هذه الرواية: «وهكذا رواهُ النسائي في السننِ الكبرى. وأَخرجَه أبو جعفر بن جرير وابنُ أبي حاتم في تفسيريهما، كلُّهم من حديثِ يزيدِ بن هارون به.

وهو موقوفٌ من كلامِ ابن عباس، وليسَ فيه مرفوعٌ إلاّ قليلٌ منه. وكأَنه تلقّاه ابنُ عباس رضي الله عنهما مما أُبيحَ نقلُه من الإسرائيليات عن كعبِ الأحبار أَو غيرِه، والله أعلم. وسمعتُ شيخَنا الحافظَ أَبا الحجاج المزي يقولُ ذلك أَيضاً»[2].

وبما أنَّ الراجحَ أنَّ الروايةَ موقوفةٌ على ابن عباس وليستْ مرفوعةً للنبي ﷺ فإننا لا نعتمدُها ولا نقولُ بها، ونتوقفُ فيها. والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٤٥. وقصص الأنبياء لابن كثير: ٢٨٣. والأحاديث الصحيحة من قصص الأنبياء للشيخ إبراهيم العلي برقم: ١٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٤٩. وانظر استدراكَ أَخينا الشيخ إبراهيم العلي على ابن كثير في كلامه السابق، في كتابه «الأحاديث الصحيحة في قصص الأنبياء» صفحات: ١٢٧ ـ ١٢٩ حاشية. وميلِه إلى اعتبارِ حديث الفتون من المرفوعِ، إلاّ أَننا مع الإمامِ ابن كثير في اعتباره من الموقوف، ولهذا نتوقفُ فيه، ولا نعتمدُه ولا نقولُ به. والله أعلم!!.

إذنْ حكايةُ «الجمرة والتمرة» لم تصحّ عندنا، ولهذا لا نقول: إنَّ العقدةَ التي في لسانه إنما هي لثغةٌ بسببِ حرقِ الجمرة للسانِه وهو طفل! فلْنبحثْ عن تعليلٍ آخرَ لهذه العقدة!!

ترتيب الآيات في ضيق الصدر وعقدة اللسان:

يجبُ أنْ ننظرَ في طلبِ موسى كلّه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨].

وأنْ نضيفَ إليه ـ من بابِ تفسيرِ القرآن بالقرآن ـ آياتٍ أُخرى تتحدثُ عن نفسِ الموضوع. قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

لماذا طلبَ موسى من اللّهِ أنْ يشرحَ له صدْرَه، ويحللَ عقدةً من لسانه ليفقهوا قوله؛ لأنه يَخافُ إن كَذَّبوه أنْ يضيقَ صدْرُه، وإذا ضاقَ صدرُه فإنه ينحبسُ لسانُه ولا ينطلق، وعندها لا يقومُ بالبلاغ والبيان!

إنَّ آياتِ سورة الشعراء: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ توضحُ المرادَ بالعقدةِ في آياتِ سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾.

الفرق بين الهادئ والمنفعل في التعبير:

من خلالِ النظرِ في الآيات السابقة مجتمعة، نقولُ مستعينين بالله: كانت العقدةُ في لسان موسى عليه السلام عقدةً معنويةً نفسيةً شعورية،

وليستْ عقدةً مادية متمثلةً بلثغة، وإنها مرتبطةٌ بضيقِ الصدر، ذلك الضيقُ الذي يترتَّبُ عليه عدمُ انطلاقِ اللسان.

الناسُ يتفاوتون في التعاملِ مع أَحداثٍ ومواقفَ صعبةٍ حرجةٍ يمرون بها، ويتفاوَتون في التفاعلِ مع مشاعرِ الخوف والقلقِ والانفعال، عندما يواجهونَ تلك الأحداث والمواقف.

فالشخصُ هادئُ الأعصاب يستقبلُ المواقفَ الانفعاليةَ بأعصابٍ هادئة، فلا ينفعلُ كثيراً، ولا تتوتَّرُ أَعصابُه، ولا يتسارعُ نبضُه، ولا تحتدُّ مشاعرُه، ويبقى محتفظاً بهدوئِه وأَناته، ويتكلمُ بهدوءٍ وتأَنٍّ، ويضبطُ كلماته، فتخرجُ من لسانه واضحةً فصيحةً مسموعة.

والشخصُ المنفعلُ يستقبلُ المواقفَ الانفعاليةَ بأعصابٍ مشدودة، فتحتدُّ مشاعرُه، ويتسارعُ نبضُه، وتتلاحقُ أَنفاسُه، وينفعلُ انفعالاً عالياً، ويؤدي الانفعالُ النفسيُّ الشعوريُّ إِلى ضَياعِ صوته، وعندما يحاولُ التكلمَّ فإن الهواءَ ينحبسُ في رئتيْه، ولا يَصلُ إِلى جهازِ النطق، ولهذا تضيع منه الكلمات!!

وإذا لم يصلْ إِلى هذه الحالةِ الحادّةِ من انحباسِ الهواء وضياع الصوت، فإنه لا يتمكنُ من توضيحِ كلامه، لأنه يتكلمُ بسرعةٍ فائقة، كلاماً متسارعاً متتابعاً متدفقاً، وتتحكمُ في كلامه مشاعرُه المنفعلة، وأَنفاسُه المتسارعة، ونبضُه المتلاحق، فلا تخرجُ كلماتُه من مخارجها، ويَضيعُ كثيرٌ منها، وتخفى حروفٌ كثيرة منها، وبذلك يكونُ كلامُه غيرَ مفهوم ولا واضح. والسامعُ الذي يسمعُ كلامَه لا يَفهمُ عليه، ولا يَعرفُ ماذا يريدُ أَن يقول.

والذي أَوصلَه إلى هذه الحالة من عدمِ الإفصاح والبيان هو ضيقُ صدره وانفعالُ مشاعره وأعصابه. هذا الشخصُ عنده عقدةٌ في لسانه وهي «الحبسةُ» التي تربطُه عند انفعالِه.

وهذان النموذجان موجودان مكروران في حياة البشر، فالأَوَّلُ

يتصفُ بالإفصاحِ والبيان المبنيِّ على الهدوء وعدم الانفعال، والثاني يتصفُ بعدمِ الإفصاح والبيان، بسبب ضيقِ الصدر وانحباس اللسان!!

هارون أفصح لساناً من موسى لهدوئه:

ويبدو أنَّ هارونَ عليه السلام كان من النوعِ الأول، فكان يتمتعُ بشخصيةٍ هادئة، ويتصفُ بهدوءِ الأَعصاب، وعدمِ الانفعال في المواقف، ولهذا كان يتحكمُ في كلامِه وأنفاسِه ومشاعرِه، فيخرجُ كلامُه واضحاً فصيحاً متأنياً هادئاً مسموعاً.

وإنَّ موسى يعرفُ لأَخيه هارون عليهما الصلاة والسلام هذه الصفة، وأنه أَهدأُ من موسى بكثير، هذا الهدوءُ الذي يجعلُه أفصحَ منه، عندما يواجهُ المواقفَ الانفعالية، ولهذا قالَ موسى لربه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

إنَّ موسى يعترفُ أنَّ أَخاهُ هارون ـ عليهما السلام ـ هو أَفصحُ منه لساناً.

وكلمةُ «أَفْصَح» لم ترِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الفصاحة: «الفَصْحُ: خُلوصُ الشيء مما يَشوبُه. وأَصْلُه في اللبن. يقال: فَصَحَ اللبنُ وأفصح، فهو مُفصحٌ وفصيح: إِذا تعرّى من الرغوة..

ومنه استُعير: فَصَحَ الرجل: جادَتْ لغتُه..»[1].

هارونُ أَفصحُ من موسى عليهما السلام في كلامه ـ باعترافِ موسى نفسه ـ لأَنَّ كلامَه واضحٌ فصيحٌ عند الانفعالات والإحراجات والاحتكاكات، وذلك لهدوئِه في أَعصابه ومشاعرِه.

---

(١) المفردات: ٦٣٧.

أثر انفعال موسى وضيق صدره على عدم انطلاق لسانه:

أَما موسى عليه السلام فيبدو أَنه كانَ من النوعِ الثاني، من النموذجيْن المذكوريْن سابقاً.

كان موسى عليه السلام يعرفُ من نفسِه أنه ينفعلُ عند المواقف الخاصة، وانفعالُ مشاعرِه يؤدّي إِلى توتُّرٍ في أعصابه، وهذا يقودُ إِلى ضيقِ صدره، وتلاحقِ أَنفاسه، وانحباسِ الهواء في صدره ورئتيه، وينتجُ من هذا عدمُ انطلاقِ لسانه عندما يتكلم، وإِذا تكلَّمَ كان كلامُه سريعاً متتابعاً غيرَ واضحٍ ولا فصيح، وبهذا لا يكادُ يُبينُ ويُفصح!

إِنهُ يَعرفُ هذا من نفسه، ويَعترفُ أَنَّ هذه «عقدةٌ نفسيةٌ معنوية» في لسانه، وأَنَّها تحولُ بينَه وبينَ الفصاحة والبلاغة في التبليغ وإِقامةِ الحجة، وبذلك لا يَفقهُ الطرفُ الآخرُ كلامه.

ولهذا سألَ موسى ربَّه أنْ يَحُلَّ هذه العقدةَ النفسيةَ المعنوية من لسانِه، ليفقهَ فرعونُ وقومُه قولَه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾.

حل الله عقدة لسانه النفسية المعنوية:

وحَلُّ عقدةِ لسانه يكونُ بعدم ضيقِ صدره، لئلا ينحبسَ لسانُه، عندما ينفعلُ أَمامَ تكذيبهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ..﴾.

وحتى يزولَ ضيقُ صدره، وهو السببُ في عدم انطلاق لسانه، وفي تَكَوُّنِ العقدةِ عليه، فقد سأَلَ اللّهَ أَنْ يَشرحَ له صدْرَه، ليزولَ سببُ العقدةِ والحبسة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾.

وإِذا شرحَ اللّهُ صدره، زالَ انفعالُه، وهدأَتْ نفسُه، واطمأَنَّتْ أَعصابُه، واستقرَّتْ أَنفاسُه، وبذلك تُحَلُّ عقدةُ لسانه، حيثُ ينطلقُ لسانُه، وتظهرُ كلماتُه بوضوحٍ وفصاحة وبيان.

وقد استجابَ اللّهُ دعاءَ موسى عليه السلام، فأَزالَ ضيقَ صدره،

وحَلَّ عقدةَ لسانه عندما شرحَ صدره، فانطلقَ لسانُه، وصارَ فصيحاً في البيانِ والتبليغ مثلَ أَخيه هارون عليهما السلام.

هذا ما نرجحُه في عقدةِ لسان موسى المعنويةِ النفسية الشعورية، واللّهُ تعالى أَعلم.

ذَكَرَ الإمامُ ابنُ كثير أَنَّ محمدَ بن كعب القرظي كان سريعَ الكلام، بحيث لا يَكادُ السامعُ يفهمُ كلَّ كلامه، فقال له قريبٌ له يوماً: لا بأسَ بك، لولا أنكَ تلحنُ في كلامك، ولستَ تُعْرِبُ في قراءتك!

فقالَ له محمد بن كعب: يا ابن أَخي أَلَسْتُ أُفَهِّمُكَ إِذا حدَّثْتُك؟

قال: نعم.

قال القرظي: فإنَّ موسى عليه السلام إِنما سأَلَ ربَّه أنْ يَحْلُلَ عقدةً من لسانه، ليفقهَ بنو إسرائيل كلامَه.

رأي سيد قطب أن عقدة لسانه نفسية معنوية:

وممن فسَّرَ عقدةَ لسانِ موسى التي حَلَّها اللّهُ له هذا التفسيرَ النفسيَّ سيدُ قطب رحمه الله.

قالَ في تفسير سورة الشعراء: «والظاهرُ من حكايةِ قوله ـ عليه السلام ـ أنَّ خوفَه ليس من مجردِ التكذيب، ولكنَّ خوفَه من حصولِ التكذيب في وقتٍ يَضيقُ فيه صدره، ولا ينطلقُ لسانُه، فلا يملكُ أنْ يُبين، وأنْ يناقشَ هذا التكذيب ويفنِّدَه، إذ كانتْ بلسانه حبسة، هي التي قالَ عنها في سورةِ طه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾، ومِنْ شأنِ هذه الحبسةِ أنْ تُنشىءَ حالةً من ضيقِ الصدر، تنشأُ من عدمِ القدرةِ على تصريفِ الانفعال بالكلام، وتزدادُ كلما زادَ الانفعال، فيزدادُ الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالةٌ معروفة..

فمن هنا خشيَ موسى أنْ تقعَ له هذه الحالةُ وهو في موقفِ المواجهةِ بالرسالة لظالمٍ جبارٍ كفرعون. فشكا إِلى ربِّه ضعْفَه، وما

يخشاه على تبليغ رسالته، وطلبَ إليه أنْ يوحيَ إلى هارون أخيه، ويُشركَه معه في الرسالة، اتقاءً للتقصيرِ في أداءِ التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف.

فهارونُ أَفصحُ لساناً، ومن ثَمَّ هو أهدأ انفعالاً، فإذا أدركتْ موسى حبسةٌ أو ضيق، نهضَ هارونُ بالجدلِ والمحاجة والبيان...»[1].

وبعدما طلبَ موسى عليه السلام من ربِّه أنْ يشرحَ له صدْرَه، وييسرَ له أمره، ويحللَ عقدةً من لسانه ليفقهوا قوله، تَذَكَّرَ ما فعلَه قبلَ عشر سنوات عندما قتلَ القبطي، وأعلنَ أنه يَخافُ أنْ يُحاسبوه ويَقتلوه.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤].

إنهم يعتبرون موسى مذنباً بسببِ قَتْلِ القبطي، وإذا ذهبَ إلى فرعونَ وخاطبَه ودَعاهُ إلى الله، فإنه يَخافُ أنْ يأمرَ بقتْلِه.

مبهمات في حياة هارون وطبيعته الهادئة:

ولأَجلِ ذلك كلِّه، فقد طلبَ موسى من الله أَنْ يُرسلَ معه أَخاهُ هارون نبياً، وأنْ يجعلَه وزيراً مساعداً له، ليقومَ بدعوةِ فرعون معه.

قالَ تعالى مسجِّلاً طلبَ موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

من هذه الآياتِ عَرَفْنا أنَّ هارونَ أَخٌ لموسى عليهما السلام، ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ ـ المتمثلةُ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ الصحيحة ـ شيئاً عن هارونَ عليه السلام، سوى أنه أخٌ لموسى.

---

(١) في ظلال القرآن ٥:٢٥٨٩.

أمّا متى وُلِدَ هارون فلا نعرفُ عنه شيئاً، كما لا نَعرفُ هل هو أَكبرُ أَو أصغرُ من موسى، ولا كيفَ نجا من قتْلِ جنود فرعون، ولا كيفَ وأينَ كانت نشأَتُه.

ويبدو أنَّ هارونَ بَقيَ مقيماً في عاصمةِ مصر مقرِّ فرعون، عندما أَقامَ موسى في مدينَ عشرَ سنوات.

وقد أَشَرْنا من قبلُ إلى طبيعةِ هارون عليه السلام، القائمةِ على الهدوء وعدمِ الانفعال والتحكم في الكلام، ولهذا كانَ أفصحَ لساناً من موسى، باعترافه: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

موسى طلب إعانته بهارون:

ولذلكَ طلبَ موسى من الله أنْ يُرسلَ إلى هارون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٣].

وقد يُخطئُ بعضُهم فهمَ قوله: إني أَخافُ أنْ يُكذبون... فأرسلْ إلى هارون. ويظنُّ أنَّ موسى عليه السلام نكصَ عن المهمة، ورفضَ النبوة، ولم يَقبل الرسالة، وطلبَ من ربِّه أنْ يكلفَ هارون بدلَه، وأنْ يجعلَ هارون نبياً رسولاً مكانَه!

وهذا فهمٌ خاطئٌ مردود. فموسى عليه السلام لم يرفض الرسالة، وما كان لنبيٍّ أنْ يرفضَ النبوة، أو أنْ يتخلّى عنها، لأنَّ اللّهَ هو الذي اختاره، واللّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه.

إنَّ معنى كلامِ موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ أنه يريدُ من اللّهِ أنْ يجعلَ هارونَ نبياً معه، وليسَ نبياً بدله! وذلك ليساعدَه في تبليغِ الدعوة، ومواجهةِ فرعون وملئه.

ووردَ هذا صريحاً في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾.

يريدُه أنْ يكونَ وزيراً له، ليشدَّ به أَزْرَه، ويُشركَه في أمْرِ النبوة والرسالة، وبذلكَ يكونُ رِدْءاً مساعداً له، يصدقُه ويعينُه في القيام بالمهمة: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾.

قال الراغب في معنى الرِّدْء: «الرِّدْءُ: الذي يتبعُ غيْرَه، مُعيناً له. قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾»(١).

فموسى عليه السلام يُريدُ أنْ يكونَ أَخوه هارون رِدْءاً مُعيناً له، يساعدُه ويتبعُه، ويبلغُ الدعوةَ ويواجهُ فرعون معه.

ولم يُذْكَر «الردء» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وقالَ الراغب في معنى الأَزْر: «أَصْلُ الأَزْر: الإِزار، الذي هو اللباس. يقال: إِزارٌ ومئزر.

ومعنى قوله: ﴿اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾: أَتَقَوّى به.

والأَزْرُ: القوةُ الشديدة. وآزَرَه: أَعانَه وقَوّاه. وأَصْلُه من شَدِّ الإِزار».

إنَّ موسى عليه السلام يُريدُ أَنْ يشدَّ أَزْرَه بأَخيه هارون، أيْ أنْ يَستعينَ به ويتقوّى به، وهو يواجِهُ فرعونَ ويبلِّغُه الدعوة: ﴿اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾.

ولم يَرِد: «الأَزْرُ» ـ المصدر ـ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

هارون وزير وموسى رسول:

ولا يَكونُ هارونُ ردءاً لموسى يَشُدُّ به أَزْرَه إلا إذا كان وزيراً معه، ولهذا طلبَ موسى أنْ يجعلَ هارونَ وزيراً: ﴿وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾.

والوزيرُ ليس مشتقّاً من الأَزْر، الذي هو الشدةُ والقوةُ والمؤازرة

---

(١) المفردات: ٣٥٠.

والمساعدة، بل هو مشتقٌّ من الوِزْرِ، وهو الحملُ الثقيل.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الوزر: «الوِزْر: الثِّقَلُ. تشبيهاً بِوَزَرِ الجبل وهو الملجأ.

ويُعَبَّرُ بالوزر عن الإِثم، كما يُعَبَّرُ به عن الثقل.

والوزيرُ هو المتحملُ ثِقَلَ أَميرِه وشغله»[1].

طلبَ موسى من الله أنْ يجعلَ هارون وزيراً له، واستجابَ اللّهُ له، وصرحَ القرآنُ بذلك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٥ ـ ٣٦].

إنَّ موسى هو النبيُّ الرسول، المكلَّفُ بالرسالة أساساً، أما هارونُ فهو نبي، وهو «وزير» لموسى رِدْءٌ ومساعدٌ له.

ولم تُذْكَرْ كلمةُ: «وزير» إلاّ مرتيْن في القرآن، والمرتان في قصةِ موسى وهارون عليهما السلام، والوزيرُ في المرتيْن وصفٌ لهارون عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

وقد استجابَ اللّهُ لطلبِ موسى عليه السلام، فجعلَ هارونَ عليه السلام نبياً ووزيراً ورِدْءاً مساعِداً له. قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

أي: سنقوّي أَمْرَك، ونشدُّ عَضُدَكَ وأَزْرَك، بأَخيك هارون، وسنبعثُه نبياً معك، ونجعلُه وزيراً لك، وسنعطيكَ أنتَ وأخاك الآياتِ

(١) المفردات: ٨٦٧ ـ ٨٦٨ باختصار.

والأدلةِ والبراهين، وسنجعلُ لكما السلطان، وسننصرُكما ونؤيدُكما، بحيث سيعجزُ فرعونُ وقومُه عن الوصول إليكما، ونجعلُكما غالبين لهم.

لقد شاءَ اللّهُ أنْ يكونَ هارونُ نبياً منذُ الأزَل، ولكنه شاءَ ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يبعثَه نبياً فعلاً بعدَ طلب موسى، فيكونُ طلبُ موسى سبباً في نبوةِ هارون، وموسى بذلك كان أَنفعَ أخٍ لأخيه.

عن عائشةَ رضي الله عنها أَنها خرجَتْ لأداءِ العمرة، فنزلَتْ ببعضِ الأعراب. فسمعتْ رجلاً يسألُ آخر: أيُّ أخٍ كان في الدنيا أَنفعَ لأَخيه؟ فقال: لا أدري. فقال السائل: أَنا والله أَدري، إِنَّه موسى حين سألَ النبوةَ لأَخيه هارون.

وعلّقتْ عائشةُ رضي الله عنها قائلة: صدقَ والله[1].

بعدما سأَلَ موسى ربَّه ما سأل، وطلبَ منه ما طلب، أَخبرَه أَنَّهُ قد استجابَ له، وآتاه ما أَراد. قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: ٣٦].

الله يذكر موسى بنعمه عليه لينشط في الدعوة:

وقبلَ أنْ يُغادرَ موسى عليه السلام ذلك المكانَ المبارك في تلك الليلةِ المباركة، ذَكَّرَهُ اللّهُ بنعمه عليه، ورعايتِه له في حياته، منذُ ولادته، حتى مجيئِه إلى هذه البقعة المباركة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٣.

وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤٣].

ذكَّرَ اللّهُ موسى برعايته له، وإنعامِه عليه، لينشطَ موسى في القيامِ بالواجب، ويتحمسَ في الدعوةِ إلى الله.

وأَخبره بأنه قد فَتَنَه فتوناً: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾. أي: ابتلاه بعدةِ ابتلاءات، وامتحنَه بعدةِ امتحانات، وأَوقعه في عدةِ مِحَن، وحفظَهُ ورَعاه حتى تجاوزها.

وأَخبره بأَنه قد اصطنعَهُ لنفسه، واصطفاهُ لرسالته، واختارَه نبياً رسولاً، وجاءَ به على قَدَر، إِلى هذا المكان المبارك، جاءَ به وأَراه النار، ليبعثَه نبياً رسولاً، ويكلفَه بالذهابِ هو وأَخوه إِلى فرعون.

وهكذا انتهتْ تلكَ الدقائقُ المباركة في الوادي المقدس طوى، وغادرَ موسى عليه السلام المكان عائداً إِلى أَهله الذين كانوا بانتظاره، لكنه عادَ لهم نبياً رسولاً، مكلَّفاً مع أَخيه بدعوةِ فرعون وقومه، ومزوَّداً بآياتٍ بينات، منها العصا واليد.

[٣]

موسى وهارون في طريقهما إلى فرعون

غادرَ موسى الوادي الأيمن «طُوى»، وعادَ إِلى أَهله، الذين كانوا ينتظرونه، عادَ إِليهم نبياً رسولاً، معه الهدى والنور، عادَ إِليهم مكلَّفاً بالذهاب إلى فرعون، هو وأَخوه هارون، ليدعواه إِلى الله، ومعه آياتٌ بينات، منها العصا واليد.

ووصلَ موسى عليه السلام بأَهله مصر، ودخلَ مقرَّ فرعون، وذهبَ إِلى أَخيه هارون، وقصَّ عليه ما جرى له، منذُ أَنْ غادرَ مصر إِلى أَنْ عادَ إِليها، وأَعلمَهُ أَنَّ اللّهَ اختاره نبياً، ووزيراً مساعداً رِدْءاً له،

وأَنهما مكلفان بالذهاب إِلى فرعونَ ودعوتِه إِلى الله، ودعوةِ قومه معه أَيضاً.

عند المؤرخين فرعونان: فرعون الاضطهاد وفرعون الخروج:

ولا يهمُّنا تحديدُ اسمِ فرعون الذي ذهبَ إِليه موسى، وهل هو فرعونُ الذي وُلِدَ في عهدِه، ونشأَ في قصره، وهربَ منه لما قَتَلَ القبطي؟ أم هو فرعونٌ آخر، تولّى الحكمَ في غيبةِ موسى عشرَ سنواتٍ في مدين، بعدَ هلاكِ سلفه؟

قد يكونُ هو فرعونُ نفسه، امتدَّ به الحكمُ والعمرُ هذه السنينَ الطويلة، وبقيَ حاكماً على مصر منذُ ولادةِ موسى إِلى أَنْ عادَ إِليه نبياً، وكان هلاكُه غرقاً في البحر لما لحقَ ببني إسرائيل، وقد يكونُ فرعوناً آخر، حكمَ بعد الأَوّل.

لا تتحدثُ آياتُ القرآن عن ذلك، وكلُّ ما تقررُه أَنه فرعون، ونحنُ نعلمُ أَنَّ «فرعونَ» لقبٌ يُطلقُ على مَنْ مَلَكَ مصرَ في تلك الفترة، وليس اسماً لملكٍ معيَّنٍ حَكَمَها. ولهذا لا تحددُ الآياتُ اسمَ فرعون، فهو من «مبهمات القرآن».

أمّا المؤرخون فيذهبون إِلى أَنهما فرعونان، الأبُ والابن.

الأول: يسمّونه «فرعونَ الاضطهاد»، وهو الذي زادَ اضطهادُ بني إِسرائيل في عهده، من حيثُ تقتيلُ وتذبيحُ أبنائهم، واستحياءُ نسائهم، وهو الذي وُلِدَ موسى عليه السلام في عهده، وتربّى في قصره، ولما شبَّ قَتَلَ القبطي، ثم هربَ منه.

قالوا: فرعونُ الاضطهاد هو: «رمسيس» الثاني ـ وهو أشهرُ وأَقوى مَنْ حَكَمَ مصر. وحكمَ مصر سبعاً وستين سنة، من سنة أَلف وثلاثمائة وواحدة (١٣٠١) قبلَ الميلاد، إِلى سنة أَلف ومائتين وخمس وثلاثين (١٢٣٥) قبل الميلاد.

وماتَ رمسيسُ الثاني أَثناءَ إِقامةِ موسى في أرض مدين.

الثاني: يسمّونه «فرعون الخروج»، وهو «منبتاح» ـ أو منفتاح أو مفتاح ـ ابنُ رمسيس الثاني، وقد حكمَ بعدَ وفاةِ والده.

وهو الذي واجَهَه موسى وهارونُ عليهما السلام، وجرى بينهما وبينه ما جرى من أَحداث، وهو الذي لحقَ ببني إسرائيل وخرجَ وراءهم ـ ولهذا سُمي «فرعون الخروج» ـ فأغرقَهُ اللّهُ في البحر.

وحكمَ مصرَ حوالي عشرَ سنوات قبلَ غرقه، ولما أَلقى اللّهُ جثتَه على شاطئ البحر، حَنَّطَ المصريون جثتَه، ودفنوه إلى جانب أبيه.

هذا ما يقولُهُ المؤرخون عن الفرعونين: فرعون الاضطهاد رمسيس الثاني، وفرعون الخروج ابنه منبتاح[1].

ونحنُ نوردُ هذا من بابِ الإِخبار، وليس من بابِ الاعتماد والجزم، ونبقى على منهجِنا في التعامل مع أَحداثِ القصص القرآني، فلا نعتمدُ منها إلاّ ما وردَ صريحاً في آياتِ القرآن، أَو صَحَّ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولهذا نُبقي اسمَ فرعون الذي واجَهَه موسى عليه السلام مبهماً، ولا نقولُ عنه إلاّ أنه: فرعونُ الطاغيةُ المتجبرُ المفسد، الذي ادّعى الألوهيةَ والربوبية، وعَبَّدَ شعْبَه له، فجعلوه إلهاً ورباً.

موسى وهارون ذاكران لله:

وقبلَ أنْ يقومَ موسى وهارونُ بمقابلةِ فرعون ودعوته، طمأَنهما اللّهُ بأَنه معهما، وأَزالَ خوفَهما، ووجَّهَهما إلى حسنِ مخاطبته، وإقامة الحجة عليه.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا

(١) انظر كتابنا «البيان في إعجاز القرآن»: ٢٤١ ـ ٢٤٧.

رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٢ ـ ٤٦].

قالَ اللهُ لموسى: اذهبْ أنتَ وأَخوك هارون بآياتي ومعجزاتي، إلى فرعونَ الطاغيةِ المتألِّهِ المتجبر.

وحتى ينجحا في مهمتِهما أَمامَ فرعون وملئه أَرشدَهما اللّهُ إلى الوسيلةِ التي يُحققان بها النجاح، وهي الاستمرارُ في ذكْرِ الله، والإكثار منه، ولهذا قال لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾.

و«تَنِيا» فعلٌ مضارع مجزومٌ بحرف «لا» الناهية، وعلامةُ جزمِه حذف النون لأنه من الأفعالِ الخمسة، لأنَّ أصلَه «تَنِيان»، على وزن «تَفْعلان».

ولم يَرِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

والماضي منه «وَنىٰ». وهو الفتورُ والتعبُ والضعف، يقال: وَنىٰ، يَني: أي: ضَعُفَ وفتر.

فمعنى قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾: لا تضعُفا عن ذكري، ولا تكسلا وتتوقفا عن ذكري، ولا تتعبا في ذكري..

قال الإمامُ ابنُ كثير في تفسير قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾:

قال ابن عباس: لا تُبْطِئا في ذكري.

وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تَضعُفا عن ذكري.

والمرادُ أَنهما لا يفتُران في ذكر الله. بل يذكران اللهَ في مواجهة فرعون، ليكونَ ذكْرُ اللهِ عوناً لهما عليه، وقوةً وسلطاناً لهما[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٩.

أهمية الإكثار من ذكر الله عند مواجهة الأعداء:

إنَّ الإكثارَ من ذكرِ اللّهِ توجيهٌ من الله لجنودِه وعباده، وبخاصةٍ عندما يواجهون أعداءَهم.

ووردَ هذا التوجيهُ في آياتٍ كثيرة في القرآن. منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وعندما يذكُرُ المؤمنُ ربَّه ذكراً كثيراً عند مواجهته لأعدائه، فإنَّ هذا يمدُّه بالكثيرِ من الإيمان والقوة، والصبرِ والشجاعة، والثبات والعزة، لأنه بذكرِ الله كثيراً يتذكَّرُ قوةَ الله وعظمتَه، فيستهينُ بالأعداءِ وقوتهم، ويتقوّى عليهم، ويعزمُ على مواجهتهم. وهذا كلُّه من أهمِّ عواملِ الثباتِ والانتصار.

وإنَّ موسى وهارون عليهما السلام مُقْدِمان على خطوةٍ خطيرة، حيث سيواجهان أعتى كافر، وفرعونُ يملكُ الكثيرَ من مظاهرِ القوة والبطش والطغيان، ولا يعينُهما في تحدّيه ومواجهتِه إلاّ اللّهُ القويُّ الجبار!!

لذلكَ أرشدَهما اللّهُ إلى الإكثارِ من ذكره، ونهاهما عن الضعفِ والونْيِ والفتور، فقال لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

وهذا درسٌ لكلِّ مؤمنٍ يريدُ أنْ يقومَ بواجبه في عبادةِ الله، والدعوةِ إليه، ومواجهةِ أعدائه، فلا بدَّ أنْ يذكرَ اللّهَ ذكراً كثيراً، ولا يجوزُ أنْ ينيَ ويضعفَ ويفترَ عن ذلك.

أمرهما بالقول اللين لفرعون:

وبعدَ أنْ أرشدَ اللّهُ موسى وهارونَ إلى الإكثار من ذكره، ونهاهما عن الوني فيه، وجَّههما إلى حُسْنِ مخاطبةِ فرعون، ليحاولا الوصولَ إلى قلبه، واستحياءَ كوامنِ الخيرِ فيه، فقال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

قال الإمامُ ابن كثير: هذه الآيةُ فيها عبرةٌ عظيمة، ففرعونُ كان في غايةِ العُتُوِّ والاستكبار، وموسى هو صفوةُ اللّهِ من خلقه في ذلك الوقت. ومع هذا أَمَرَ اللّهُ موسى أنْ لا يخاطبَ فرعونَ إلاّ بالملاطفةِ واللين.

قال يزيدُ الرّقاشي يناجي ربَّه:

يا مَنْ يَتَحَبَّبُ إلى مَنْ يُعاديهِ فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَولاّهُ ويُناديهِ؟

أي أنَّ اللهَ يتحبَّبُ إلى عدوِّه فرعون، ويطالبُ رسولَيْه موسى وهارونَ بمخاطبته بالقولِ اللين، رجاءَ أنْ يتخلّى عن كفره، ويؤمنَ بالله.

فإذا كان اللّهُ يفعلُ هذا بعدوِّه، فكيفَ يكونُ تحبُّبُه إلى أوليائه؟.

أما المرادُ بالقول اللين، فقد أَوردَ فيه ابنُ كثير هذه الأقوال:

قال وَهْبُ بن مُنَبِّه: قُولا له: إِنّي إلى العفوِ والمغفرة أَقربُ مني إلى الغضب والعقوبة.

وقال عكرمة: قولا له: لا إله إلا الله.

وقال الحسن البصري: قولا له: إنَّ لك رباً، ولك معاداً، وإن بينَ يديك جنة وناراً.

وقال علي بن أبي طالب: عندما تخاطبانِه كَنِّياهُ بالكنية، ولا تخاطباهُ باسمه المجرد.

والحاصلُ من تلك الأقوال أنَّ دعوتَهما له تكونُ بكلامٍ رقيقٍ لينٍ سهلٍ رفيق، ليكون أَوقعَ في النفوس وأبلغَ وأنجع. وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال في معنى قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: لعلَّهُ يَرجعُ عما هو فيه من الضَّلال والهلكة، أو يخشى اللّهَ فيطيعه.

فالتذكُّرُ الرجوعُ عن المحذور، والخشيةُ تحصيلُ الطاعة.

وأَوردَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ أَبياتاً شعريةً لطيفةً لزيد بن عمرو بن نفيل أو لأُميةَ بنِ أَبي الصلت، نوردُها لاتصالها بالموضوع:

وَأَنْتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ	بَعَثْتَ إِلى موسَى رَسولاً مُنادِيا
فَقُلْتَ لَهُ فَاذْهَبْ وَهارونَ فَادْعُوَا	إِلى اللّهِ فِرْعَوْنَ الذي كانَ باغِيا
فَقولا لَهُ: هَلْ أَنتَ سَوَّيْتَ هذِهِ	بِلا وَتَدٍ حَتّى اسْتَقَلَّتْ كَما هِيا
وَقُولاَ لَهُ: هَلْ أَنتَ رَفَّعْتَ هذِهِ	بِلاَ عَمَدٍ ارْفُق إِذَنْ بِكَ بَانِيَا
وَقُولا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ وَسْطَها	مُنيراً إِذا ما جَنَّهُ اللَّيْلُ هادِيا
وَقُولا لَهُ: مَنْ يُخرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً	فَيُصْبِحُ ما مَسَّتْ مِنَ الأَرْضِ ضاحِيا
وَقُولا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثرىٰ	فَيُصْبِحُ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رابِيا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ في رُؤوسِهِ	فَفي ذاكَ آياتٌ لِمَنْ كانَ واعِيا[1]

مثال للقول اللين الذي يقوله لفرعون:

طلبَ اللّهُ من موسى وهارون عليهما السلام أَنْ يَقولا لفرعونَ قولاً ليناً، فقدْ يستمعُ فرعونُ لهذا القولِ اللين ويتفاعلُ معه، ويفتحُ له عقْلَه وقلْبَه، وبذلك يتذكَّرُ الحقائقَ والبدهيات، ويَعرفُ الحقَّ من الباطل، فيتخلّى عن ما هو عليه من كفرٍ وطغيان، ويؤمنُ بالله ويطيعُه ويخشاه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩].

وهذا مثالٌ للقولِ اللينِ الذي يجبُ أَنْ يُقالَ لفرعون. ولهذا قالَ لَهُ موسى عليه السلام: يا فرعون: هلْ لكَ إِلى أَنْ تزكّى؟ ما رأْيُك في أن تتزكّى وتتطهّر؟ وأَنْ تتخلّى عَمّا أَنْتَ فيه؟ وما رأيُكَ في أن تستمعَ وتستجيبَ لي، فإنني أريدُ أَنْ أَهديَك إلى ربك، وآخذَ بيدِك إلى الطريقِ التي يرضىٰ ربُّك عنها، فإنَّ لك رباً هو الله، ربُّك وربُّ العالمين، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٩ ـ ١٥٠ باختصار.

يريدُ منك أن تطيعه وتخشاه.

وخلاصةُ هذا القولِ اللين أنَّ موسى يُذَكِّرُ فرعونَ أنه ليس رباً، فاللّهُ ربُّه، ويُذَكِّرهُ أنه ليس متطهِّراً ولا متزكياً، وليسَ على طريقِ الرشادِ والهدى. ولذلك لا بدَّ أنْ يخشى اللهَ ربَّه، وأنْ يزكِّيَ نفسَه، وأنْ يتبعَ موسى ليهديه الطريق المستقيم.

لم يقلْ له هذه العباراتِ الصريحة، لكنه قالَ له عباراتٍ قريبةً تؤدّي معناها: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى..

ليونة القول في الأسلوب وليس المضمون:

وهذا معناه أنَّ القولَ اللينَ هو في أُسلوبِ التعبير، وفي كيفيةِ القول، وفي نبرةِ الصوت، ليكونَ لينُ القول ورقتُه سبباً إلى استماعِ فرعونَ له وتأثُّرِه به.

وليس القولُ اللينُ في ماهيةِ القول، ولا في مضمونِ العبارة، ولا في حقائقِ الفكرِ والتصور. فهذا المضمونُ لا يقبلُ الليونة، لأنَّ الليونة فيه تعني التحريفَ والتغييرَ والتبديل.

الليونةُ في المضمون أنْ يمدحَ موسى فرعون، وأنْ يصفَه بالخيرِ والحكمة والاستقامة، وأنْ يَرضى بما هو عليه من طغيانٍ وتجبُّرٍ وتألُّه، وأنْ يُداهنَه ويُرضيَه، وأنْ يكتمَ الحقَّ أمامه.. وحاشا لموسى أنْ يفعلَ ذلك.

لقد كانت ليونةُ موسى أَمامَ فرعون في القول لا في المضمون، وفي كيفيةِ التعبير لا في ماهيتِه وحقيقته، وقد دعاهُ بالحكمة، كما سيمرُّ معنا في المباحثِ التالية.

ولما صَعَّدَ فرعون في كلامِه لموسى، وهاجَمَه بحدة، لم يسكتْ له موسى، بحجةِ الحكمة والقولِ اللين، بل ردَّ عليه بقوة! وقد سجَّلَ هذا قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ

مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٢].

قال لَه فرعون: أَنت يا موسى مسحور.

فرد عليه موسى قائلاً: أنتَ يا فرعونُ هالكٌ مثبور.

وهذا من الحكمةِ في خطابِ موسى له، وهذا لا يتعارضُ مع القولِ اللين الذي أُمِرَ أنْ يقولَه، فلكلٍّ مقامٍ مقال!!

والخلاصةُ أنَّ القولَ اللينَ هو في الأسلوب لا في المضمون، وفي كيفيةِ القولِ لا في ماهيته.

الله يزيل خوف موسى وهارون من فرعون:

ولما أَمرَ اللّهُ موسى وهارونَ بمواجهةِ فرعون بالقول اللين، أَعلنا خوفَهما من بطشِ فرعون، فطمأنهما الله. قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٤ ـ ١٥].

إنَّ موسى وهارونَ يعرفان بطْشَ فرعونَ وطغيانَه، ولهذا كانا يَخافانِ بغيَه وعدوانَه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

ومعنى: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾: يتقدَّمُ إِلينا بالعقوبة، ويبادِرُنا بها.

قال عبدُ الرحمن بن زيد: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾: يعجلُ بعقابنا.

وقال مجاهد: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾: يبسطُ علينا العقاب[1].

وهذا معناه أنَّ فرعونَ عصبيٌّ نَزِق، وليس حليماً ولا متأنياً، وإذا سمعَ شيئاً لا يعجبُه ولا يتفقُ مع هواه، فإنه يسارعُ بالعقوبة، ويتعجَّلُ بالأمرِ بالقتل. وهذا منه طغيانٌ وعدوان.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٠.

وأزالَ اللّهُ خوفَهما بتقريرِ حقيقةٍ إيمانية: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، و﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

قال الإمامُ ابنُ كثير في تفسيرِ هذه الآية: «لا تخافا منه، فإنني معكما، أسمعُ كلامَكُما وكلامَه، وأَرى مكانكما ومكانَه، لا يخفى عَلَيَّ من أمركم شيء، واعْلَما أنَّ ناصيتَه بيدي، فلا يتكلمُ ولا يتنفسُ ولا يبطشُ إلاّ بإذني، وَبَعْدَ أَمري، وأَنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي»[1].

الله مع جنوده بحفظه ورعايته:

وإنَّ اللّهَ مع جنوده أَينما كانوا، معهم بعلمِه وسمعِه وبصرِه، فيعلمُ ما يفعلون، ويسمعُ ما يقولون، ويراهم وهم يسكنون أو يتحركون.

وعندما يواجه جنودُه الأعداءَ يكونُ اللّهُ معهم بعلمه وسمعه وبصره، كما يكون معهم بعنايتِه ورعايتِه، ومعهم بحفظِه وتأييدِه، ونصرِه وتثبيته، فيحميهم من بطشِ وطغيانِ أولئكِ الأعداء.

وهذه حقيقةٌ إيمانيةٌ عقيدية، تؤثِّرُ في أَولياءِ الله تأثيراً إِيجابياً محركاً، وتُعطيهم مزيداً من القوةِ والشجاعة، والعزةِ والكرامة، والثباتِ والمواجهة، والجهادِ والمجاهدة.

فالمعيةُ التي ذَكَرَها اللّهُ لموسى وهارون عليهما السلام معيةُ علم وسمعٍ وبصر، ومعيةُ حفظٍ وعنايةٍ ورعاية، وليستْ معيةَ ذات، لأنَّ اللّهَ لا يشبَهُ المخلوقين، فمعيتُه لا تشبهُ معيةَ المخلوقين!!.

آيات في بعثة موسى وهارون لكل من فرعون وملئه وقومه:

وقد نصَّتْ آياتُ القرآن على أنَّ موسى وهارونَ عليهما السلام بُعِثا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٠.

إلى فرعون. كما في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣].

كما نصَّت الآياتُ على أنهما بُعِثا إلى فرعون وملئِه وقومِه. كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: ٧٥].

وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦].

ونصَّتْ آياتُ القرآنِ أَيضاً على أنَّ موسى بُعثَ إلى كلٍّ من فرعون وهامان وقارون. قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

ولا تَعارُضَ في الحقيقة بينَ هذه الآيات، فكلُّها تَنتهي إلى تقريرِ حقيقةٍ واحدة، وهي أَنَّ موسى وهارون بُعِثا إلى فرعون، والبعثةُ إلى فرعون تتضمنُ البعثةَ إلى الملأ من قوم فرعون، وقيادةُ الملأ من قومِ فرعون تتمثلُ في هامان وقارون، ومَنْ بُعِثَ إلى فرعون وهامانَ وقارون، وباقي الملأِ من قوم فرعون، فقدْ بُعِثَ إلى قومِ فرعون، لأنَّ قومَ فرعونَ هم الرعيةُ الذين يَخضعون له، والشعبُ الذين تحت سلطانه وحكمه.

فموسى وهارون بُعِثا إلى قوم فرعون، وقيادةُ قوم فِرعون هي الملأ، ولذلك بُعِثا إلى الملأ، وقيادةُ الملأ كانت بيد هامان وقارون، ولذلك بُعِثا إلى هامان وقارون. ورأسُ السلطة في مصر هو فرعون، ولذلك بُعِثا في الدرجةِ الأُولى إلى فرعون.

ثلاثة أعمدة لحكم فرعون: هامان وقارون والسحرة:

ذَكَرَ القرآنُ اسمين من أَسماءِ الملأ الذين كانوا يحكمون قومَ فرعون باسم فرعون، وهما: هامان وقارون. فلماذا ذَكَرَ هذيْن الاسميْن دون غيرهما؟ وما الذي يُمَثِّلانه؟

لقد كانَ نظامُ فرعون وحكمُه يقوم على أَعمدةٍ ثلاثة:

١ ـ القيادةُ السياسيةُ والإدارية، وكان يمثِّلُها وزيرُه هامان.

٢ ـ القيادةُ الماليةُ والاقتصادية، وكان يمثِّلُها قارون.

٣ ـ القيادةُ الإعلاميةُ التأثيرية، وكان يمثِّلُها السحرة.

وهذه هي أعمدةُ كلِّ نظام جاهلي، لأنَّ كلَّ نظامٍ جاهلي في القديمِ والحديث يقومُ على القوةِ السياسية الإدارية، والقوةِ الاقتصاديةِ الماليةَ، والقوةِ الإعلامية التأثيريةِ!!

كان قارونُ من بني إسرائيل، ولكنه كان متحالِفاً مع فرعون، وكان أَغنى رجلٍ في مصر. وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

أَمّا هامانُ فيبدو أَنه كان الرجلَ الثاني في النظامِ المصري، ولهذا ذَكَرَ القرآنُ أَنَّ له جنوداً، هم جنودُ فرعون. قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨].

والشاهدُ فيه قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾. فاعتبرَ جنودَ فرعون جُنوداً لهامان. واعتبرَ هامان من آلِ فرعون.

وكانَ فرعونُ يَطلبُ من هامان تنفيذَ ما يريد، وكان هامانُ يكلفُ مَنْ دونَه بالتنفيذ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

والخلاصةُ أنَّ اللّهَ بعثَ موسى وهارون إلى قوم فرعون، ويقودُ قومَ فرعون الملأُ من آله، وقيادةُ الملأ بيدِ هامان وقارون، وكانا من كبارِ نظام فرعون.

لكنَّ المواجهةَ كانت بين موسى وهارون وبين فرعون، حيثُ وجَّهَهُما اللّهُ إلى فرعون نفسه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

أَمرهما اللّهُ أنْ يُخاطبا فرعون ويَدْعواه إلى الله، وهو رأسُ الهرم وقائدُ الدولة، لأَنه هو المتألِّهُ المتجبر، فإذا آمنَ بالله وتخلّى عن كفره، فإنَّ آلَه وملأَه وجنودَه وقومَه سيتبعونه.

وأَمرهما اللّهُ أنْ يُخبرا فرعون أَنهما نبيانِ رسولان، أَرسلهما اللّهُ إليه وإلى ملئه وقومه.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴾ [طه: ٤٧].

وهي جملةٌ مختصرة، لكنها تحوي خلاصةَ الرسالة والدعوة، ففرعونُ ليسَ ربّاً، ولكنَّ اللّهَ ربُّه وربُّ العالمين، وموسى وهارون رسولان، وعلى فرعونَ أنْ يؤمنَ بهما ويتبعَهما، ويدعوَ قومَه للإيمانِ بهما واتباعِهما أيضاً.

موسى وهارون رسول أو رسولان:

وورد بهذا المعنى أيضاً قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦].

واللافتُ للنظرِ أنَّ نصَّ آيةِ سورةِ طه هو: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. بينما نصُّ آيةِ سورةِ الشعراء هو: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فوردتْ كلمةُ ﴿رَسُولَا ﴾ في سورة طه مُثَنّى على الأصل، بينما وردَتْ كلمةُ ﴿رَسُولُ ﴾ في سورة الشعراء مفردة!

إنّهما شخصان، فهما مُثَنى: «إنّا»، ومعنى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾: نحنُ رسولان من عندِ اللّهِ ربّك.

وهنا توافقَ المبتدأُ والخبرُ في صيغة المثنى - وهما في سورة طه اسمُ إنَّ وخبرُها: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ - وهذا هو الأصل.

أمّا في آيةِ سورة الشعراء فلم يتطابقْ اسمُ «إنّ» وخبرُها، حيث جاءَ اسمُ «إنّ» مثنى «إنّا»، بينما جاءَ خبرُها مفرداً: «رسول» وكان المتوقَّعُ أنْ يقولَ في سورة الشعراء: «إنّا رسولا رب العالمين» كما قال في سورة طه.

ويبدو أنَّ الحكمةَ من التفاوت في التعبير بين الموضعين: أنه في سورةِ طه لاحظَ الشخص، وهما شَخْصان منفصلان، كلٌّ منهما نبي، ولهذا جاءَ الخبرُ مثنى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴾.

بينما في سورةِ الشعراء لاحظَ الرسالة، ورسالةُ النبيَّيْن في حقيقتِها واحدة، فاللّهُ هو الذي أَرسلَهُما، وكلٌّ منهما يدعو إلى دينٍ واحد، ولهذا جاءَ الخبرُ مفرداً ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وملاحظةُ الرسالةِ وليس شخصها وصاحبها يتفقُ مع «شخصية» وموضوعِ سورةِ الشعراء، حيث عرضَتْ لنا دعواتِ ورسالاتِ مجموعةٍ من الرسل، مثل موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، عليهم الصلاة والسلام، وكلُّ رسالاتِ هؤلاء الرسل الكرام في حقيقتها رسالةٌ واحدة.

بينما شخصيةُ وموضوعُ سورةِ طه التركيزُ على حياةِ موسى بالذاتِ عليه السلام، من الولادةِ إلى قُرب الوفاة، فهي تتحدثُ عن حياةِ وشخصِ صاحبِ الرسالة وحاملِها، ولهذا لاحظت الآيةُ شخصَيْ وذاتَيْ الرسولَيْن موسى وهارون، فقالت: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. واللّهُ تعالى أعلم.

وأَمَرَ اللّهُ موسى وهارون عليهما السلام أَنْ يطلبا من فرعونَ رفعَ

الاضطهادِ والعذاب عن بني إِسرائيل، والسماحِ لهم بالخروج مع موسى وهارون من مصر.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٧ ـ ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ١٧].

[٤]

المواجهة بين موسى وبين فرعون

نفَّذَ موسى وهارون عليهما السلام أَمْرَ اللّهِ لهما، وتوجَّها إلى فرعون، ليبلِّغاه الدعوة، ويُقيما عليه الحجة، وزالَ عنهما الخوفُ منه، بعد أنْ طمأَنهما اللّهُ بأَنَّه معهما، يحفظُهما من بطش فرعونَ وآله، فلن يؤذوهما: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ولم تُرهبهما قوةُ فرعون، لأَنَّهما مزوَّدان بقوةِ الإِيمان واليقين، ودخلا على فرعونَ بعزة، وخاطباه بجرأةٍ وشجاعةٍ وكرامة، وبلَّغاه ما أَمرهما اللّهُ بتبليغِه إِياه.

وقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ١٧].

موسى أمام فرعون بعزة وشجاعة:

وجرى حوارٌ مفصَّلٌ بين فرعونَ وبين موسى عليه السلام، حوارٌ حولَ الإِيمان والوحدانية، والأَدلةِ على وحدانية الله، وسجلتْ آياتُ القرآن بعضَ ما جرى بينهما.

بدأَ موسى مواجهتَه لفرعون بتقديمِ نفسه إليه، وتعريفِه بخلاصة

دعوته، وبخلاصةِ ما يريدُه منه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

خاطب موسى فرعونَ بعزةٍ وجرأة: ﴿يَـٰفِرْعَوْنُ ..﴾.

وقدَّمَ له نفسَه بصفةِ الرسالة: ﴿إِنِّى رَسُولٌ ..﴾.

وأَخبره أنَّ اللّهَ ربُّ العالمين هو الذي أرسله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وذكَرَ له حرصَه على قولِ الحق، وعدمَ كذبِه على الله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾.

ومعه البينةُ والحجةُ القاطعةُ من الله على صدقه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾.

وهدفُه هو الخروجُ ببني إسرائيل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ..﴾.

لقد كان كلامُ موسى لفرعون مختصراً مفيداً، جمع فيه خلاصةَ رسالته، وأَعلَمَ فرعونَ أنه ليس إلهاً ولا رباً، فاللّهُ هو الإلهُ وحده، وهو وَحْدَهُ ربُّ العالمين، ومن ثم هو ربُّ فرعون وقومِه وإلهُهم.

إنَّ هذه الكلماتِ ردٌّ على فرعون في ادعاء الألوهيةِ والربوبية، وهي إلغاءٌ لوجودِه القائمِ على الطغيان والإفساد.

وموسى هو رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، فما عليهم إلاّ أنْ يَتَّبعوه ويدخلوا في دينه، والحقُّ هو ما معه وما جاءهم به، لأنَّ الحقَّ هو ما جاءَ من عندِ الله، وقد زوَّدَهُ اللّهُ بالآياتِ البينات الدالةِ على صدقه.

لقد بدأَ موسى عليه السلام مع فرعونَ بالعقيدة، وهي نقطةُ البدء في كلِّ دعوةٍ صادقة، وما بعدها مبنيٌّ عليها.

ومعنى قولِ موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾: حريصٌ على أنْ لا أقولَ على الله إلا الحق. فعندما أَخبرتُكم أَني رسولٌ من الله كنتُ صادقاً، وعندما أَخبرتُكم أن ما معي هو الحق كنتُ كذلك صادقاً.

وبما أَنني رسولٌ من عند الله، فلا يجدُرُ بي إلاّ أنْ أقولَ الحق، ولا يليقُ بي إلاّ قولُ الحق، فأنا راغبٌ في ذلك، حريصٌ عليه.

و﴿حَقِيقٌ﴾ مشتقةٌ من ﴿ٱلْحَقَّ﴾، صيغةُ مبالغةٍ منه، على وزن «فعيل». ولهذا دلَّتْ على مبالغتِه في قولِ الحق.

ولم تَرِدْ ﴿حَقِيقٌ﴾ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

مفاجأة فرعون واستصغاره لموسى:

فوجِئَ فرعونُ بهذا الكلام الذي يسمعُه لأولِ مرة، وأدركَ ما فيه من خطورةٍ عليه، إنه ليسَ رباً ولا إلهاً إِذن، وهذا الرجلُ هو الرسول، فهو القائدُ للرعية، وهو يريدُ أنْ يَخرجَ ببني إسرائيل من مصر، ولهذا الخروجِ آثارٌ خطيرةٌ مدمرةٌ على مصر.

إذن فلْيرفضْ فرعونُ هذه الدعوة، التي تسلُبُه كلَّ مكاسبه المحرمة، وتفتحُ عيونَ رعيته على فساده، وتربطُهم مع الله ربه.

ونظرَ فرعونُ في الذي يحدِّثُه، واستذكَرَ ماضيَ موسى عليه السلام، وخاطبَه ممتَنّاً عليه بتربيتهم له في صغره، وذكَّره بفعلتِه التي قَتَلَ فيها القبطي. وقال له: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ١٩].

لقد نظرَ فرعونُ إِلى موسى عليه السلام نظرةَ احتقارٍ وازدراء، فلم يتعامَلْ معه باعتبارِه رسولاً معه الحق، وإِنما نظرَ إليه باعتباره إِسرائيلياً من بني إِسرائيل، وقومُه أذلاء مهانون، عبيدٌ للمصريين، فمن هو حتى يواجهَ فرعون هذه المواجهة؟ ويخاطبَه بهذه اللغة؟ ويَدْعوه إِلى أنْ يتبعَه

ويسيرَ معه؟ ويقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩].

لم يتعامَلْ فرعونُ مع الموضوع باعتباره فكراً ودعوة، ولم يُفَكِّرْ فيه تفكيراً منطقياً موضوعياً، وإنما حَوَّلَه إلى معركةِ شخصية بينَه وبين موسى، ونظرَ إلى شخصيةِ موسى نظرةً فرعونيةً، قائمةٍ على التكبرِ والاستعلاء، فماذا يُساوي موسى في ميزان فرعون الجاهلي؟

فرعون يذكر موسى بماضيه ويمتن عليه:

ثم تذكَّرَ فرعونُ ماضي موسى، ونشأتَه في قصر فرعون، فهو ربيبُ نعمته، فكيفَ الآن يزعمُ أنه نبي؟. ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وتذكَّرَ بعد ذلك ما فعلَه موسى عندما قتلَ القبطي، وذكَّرَه بها قائلاً: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

إنَّ قَتْلَ موسى للقبطيِّ قبلَ عشر سنوات جريمةٌ عظمى عند فرعون وقومِه، ولهذا وصفَه فرعونُ بالكفر: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

ولا يريدُ فرعونُ بالكفرِ معناه الديني الإيماني، لأنَّه لا يعرفُ هذا المعنى، فلا يعرفُ اللّهَ ليتهمَ موسى بأنه لما قتلَ القبطيَّ كانَ كافراً بالله.

وإنما أَرادَ بالكفرِ الجحودَ ونكرانَ الجميل. أي: كنتَ من الجاحدين الذين جَحدوا نعمتَنا وكفروها، فقد أَحسنّا إليكَ لما ربّيناك في قصرِنا وأنتَ وليدٌ صغير، ثم اهتممنا بك سنواتٍ عديدة، حتى صرتَ شاباً، ولكنك قابلتَ إحسانَنا بالإساءة، وإنعامنا بالكفرانِ والجحود، فعدوْتَ على رجلٍ منا وقتلْتَه! أهكذا تُجازي إِحسانَنا؟ لقد كنتَ كافراً لنعمتِنا، جاحداً لفضلنا، عندما فعلْتَ فعلتَك، وارتكبتَ جريمتَك!!

و«فَعْلَة» في «فَعْلَتَك» بفتح الفاء، اسمُ مَرّة، والمرادُ بها قتلُ

موسى للقبطي. وهذه الحادثةُ لم تقعْ إلاّ مرةً واحدة.

لكنَّ فرعونَ لما قال لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ أرادَ تكبيرَ تلك الفعلةِ، والمبالغةَ في تبشيعِها، وتذكيرَ موسى بعِظَمِ جرمِها، ليشعرَ بالحرج والصَّغار.

معنى ضلال موسى في قتله للقبطي:

ولكنَّ موسى عليه السلام فَوَّتَ على فرعون قَصْدَهُ، وردَّ عليه بحكمة، وأجاب على سؤاله قائلاً: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢٢].

اعترفَ موسى عليه السلام بأنه قَتَل، وبأنه كانَ في ذلك الوقت ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والمرادُ بالضلالِ هنا الحالةُ التي كان عليها قبلَ الوحي، وهي حالةُ جهلٍ لعدمِ وجودِ أَحكام وتشريعات.

ولهذا قَالَ ابنُ عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: وأَنا من الجاهلين.

وقال ابن كثير: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: قبلَ أنْ يوحيَ اللّهُ إليّ، ويُنعمَ عليّ بنعمةِ النبوة والرسالة.

وتابعَ موسى عليه السلام اعترافَه قائلاً: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾. أي: لما قتلْتُ الرجلَ خفتُ أنْ تَقتلوني، ففررتُ منكم قبلَ أنْ تدركوني وتُلقوا القبضَ عليّ، وذهبتُ إلى مدين، وأَقمتُ هناك عشر سنين.

وبعدَ ذلك: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حيث آتانيَ اللّهُ العلمَ والحكمة، ومَنَّ عليَّ بالنبوة والرسالة، وجعلني رسولاً نبياً، وبَعثَني إليكَ يا فرعون، فإنْ أطعْتَني وأسلمْتَ ربحتَ وفزت، وإنْ

رفضتَ وكَفَرْتَ خسرتَ وخبت.

وكأنَّه يقولُ لفرعون: لا تبحثْ في ماضِيّ، ولا يمنعُك التفكيرُ فيه في الاستفادةِ مما معي من خير، ولا يَضيرُني أَنكم ربيتموني وأنا صغير، ولا يُؤثر فيَّ قتلي للقبطي خطأ، فالمهمُّ أنْ تعرفَ رسالتي ودعوتي، وأنْ تفكرَ فيها، وأنْ تقبلَها وتتبعَها.

فرعون عبّد لنفسه بني إسرائيل:

ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟.

أي: لقد عَبَّدْتَ بني إسرائيل لك، وجعلْتَهم مستعْبَدين أذلاء مضطهدين، وسُمْتَهم سوءَ العذاب، وذبَّحْتَ أَبناءهم واستحييتَ نساءهم، وأفسدتَ حياتَهم وظلمتهم، وهذه خسارةٌ كبيرة وقعَتْ بقومي بني إسرائيل، فكيفَ تمنُّ عليَّ بعدَ ذلك بأنكم ربيتموني عندكم؟

قال ابن كثير في معنى هذه الآية: ما أَحسنْتَ إليَّ وربّيتَني مقابلَ ما أَسأْتَ إلى بني إسرائيل، فجعلْتَهم عبيداً وخدماً، تُصرفُهم في أعمالك ومشاقّ رعيتك، أَفَيَفي إِحسانُك إلى رجلٍ واحدٍ منهم بما أَسأْتَ إلى مجموعهم؟ لا يساوي ما فعلته معي ما فعلْتَه بهم![1].

ويدلُّ قولُ موسى لفرعونَ معترِضاً عليه: ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَنه كان يُعَبِّدُ بني إسرائيلَ له، ويجعلُهم خاضعين له، وكأنه جعلَ نفسَه رباً لهم، وجعلَهم عبيداً له.

وهذا دليلٌ على أنَّ فرعونَ كان يَدَّعي الألوهيةَ والربوبية، ويعتبرُ نفسه إِلهاً ورباً لرعيته، ويَدعوهم إلى أنْ يَعبدوه ويُؤلهوه، ويُعَبِّدَهم له.

وفعْلُ «عَبَّدَ» الرباعي لم يَرِدْ في القرآنِ في غير هذا الموضع.

إنَّ موسى يعلمُ أنه لا يجوزُ أن يكونَ الناسُ عبيداً لغيرِ الله، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يُعَبِّدَهم ويُخضعهم له من دون الله، وكلُّ مَنْ عَبَّدَ الناسَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٢١.

له فقد اعتدى على حقِّ الله في الألوهية والربوبية، ولذلك أنكرَ على فرعونَ تعبيدَ واستعبادَ بني إسرائيل له.

وما فعلَهُ فرعونُ من تعبيدِ بني إسرائيل له، هو ما يفعلُه كلُّ طاغيةٍ ظالم، حيث يَعتدي على حقِّ اللّهِ في الألوهيةِ والربوبية والتشريعِ والحاكمية، ويُعَبِّدُ رعيتَه له بدلَ تعبيدِهم للّهِ ربِّ العالمين.

موسى يجيب على أسئلة فرعون ويعرفه على فعل الله:

وبعدما ردَّ موسى على فرعون استصغارَهُ له، وأنكرَ عليه تعبيدَ بني إسرائيل له، وبعدَما سمعَ فرعونُ كلامَ موسى عن أنه رسولٌ من الله رب العالمين، سأله عن ربه.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٥].

ورغم أنَّ موسى وهارون كانا أمامَ فرعون إلاّ أنه وجَّهَ السؤالَ إلى موسى: قال فمن ربكما يا موسى؟

وتولّى موسى جوابَه فقال: ربُنا هو اللّهُ الخالقُ العليم القدير الحكيم، خلقَ كلَّ المخلوقاتِ الحية، وهدى كلَّ مخلوقٍ منها إلى حياته، وأرشدَه إلى حسنِ التصرف فيما حولَه، وألهمه كيفيةَ تلبيةِ حاجاته، سواء كان هذا المخلوقُ إنساناً أو حيواناً أو طيراً أو حشرة أو سمكة..

فكلُّ هذه المخلوقات هداها اللّهُ إلى وظيفتها هدايةً بالفطرة، فهي تعرفُ ما تُريد، وتعرفُ كيفيةَ الحصول على ما تريد، وتعرفُ اللّهَ خالقَها، وتؤمنُ به وتسبحُه.

الأدلة الكونية على وحدانية الله:

وسأَلَ فرعونُ موسى سؤالاً آخرَ عن السابقين: قال: فما بالُ القرونِ الأُولى؟

أي: ماذا فعلَ اللّهُ بالسابقين الذين كانوا قبلَنا؟ فمنهم مَنْ آمنَ باللّهِ ربِّك يا موسى، ومنهم مَنْ كفرَ به.

أجابَهُ موسى عليه السلام قائلاً: علمُ تلك القرونِ عندَ ربي في كتاب، فاللّهُ هو الذي أنهى أعمارهم، وسجَّلَ في كتابٍ عندَه أعمالَهم، وسيجزيهم عليها بحسبها، فيجزي المحسنَ بإحسانه، ويعاقبَ المسيءَ بإساءته.

واللّهُ ربّي عالمٌ بكلِّ شيء، لا يضلُّ عنه شيء من أَعمالِ القرون الأولى، ولا يَخفى عليه شيءٌ منها، ولا ينسى شيئاً من تلك الأَعمالِ أيضاً.

وإذا كان هذا فعلُه وعلمُه بالقرونِ الأُولى، فهذا هو علمُه وفعلُه بكم أنتم أيضاً، فهو مطلعٌ على كلِّ أعمالكم يا فرعون، وهو يسجلُها ويُحصيها، ولا يُضَيِّعُ ولا ينسى شيئاً منها، وسيحاسبُكم عليها، فليس أمامكم إلاّ الإيمانُ به وطاعتُه.

وتابع موسى في التعريفِ على أَفعالِ الله في الوجود، وعرْضِ الأدلةِ الدالةِ على وحدانيته، فقالَ لفرعون: اللّهُ ربي وربكم هو الذي مَهَّدَ لكم الأرضَ وهيَّأَها، وجعلها صالحةً لسكناكم عليها، وهو وحده الذي جعلَ لكم فيها سبلاً وطرقاً تسيرون فيها، وهو وحده الذي ينزلُ المطرَ من السماء، فيحيي به الأرض، ويُخرجُ به مختلفَ أَصنافِ وأزواجِ النبات، الصالح منه لكم تأكلونه، والصالحِ لأنعامكم ترعاه وتأكله.

وأَخبرَ فرعونَ أنَّ في تدبرِ أَفعالِ الله في الوجود، من الماءِ والنباتِ والمخلوقات، آياتٍ وبراهينَ لأُولي النهى وأَصحابِ العقول

السليمة والأفهامِ المستقيمة، تقوّي إيمانَهم بالله، وتُعرفُهم على وحدانيته.

ولا يلتفت لها إلا أولو النهى والتعريض بفرعون وملئه:

وفي هذا القول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ تعريضٌ من موسى بفرعونَ وقومِه، وذمٌّ لهم، وإخبارُهم بأنهم ليسوا من أولي النهى، لأنهم لم يلتفتوا إلى هذه الآياتِ الكونية الدالةِ على الوحدانية، ولم يتدبَّروها، فأين عقولُهم وقلوبُهم عنها؟

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أن «أولي النهى» لم تَرِدْ في القرآن إلاّ في موضعيْن، والموضعان في سورةِ طه، والموضعانِ في الثناء على المؤمنين أولي النهى أصحابِ العقول المستقيمة، الذين يلتفتون إلى آياتِ الله ويَعونَها.

الأول: في الثناءِ على أُولي النهى الذين يلتفتونَ إلى آياتِ الله الكونية: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

والثاني: في الثناءِ على أُولي النهى الذين يَتَّعظون ويَعتبرون من مصارعِ الكفار السابقين: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨].

وجاءَ التعقيبُ على تعريفِ موسى على الوحدانية وإجابتِه الموجزة على أسئلةِ فرعون بقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

والضميرُ يعودُ على الأرض. أي: خلقَ اللّهُ الناسَ من الأرض، وبعدما تَنتهي أَعمارُهم يُعيدُهم في الأرض فَيُدفَنون فيها، وعند قيامِ الساعة يُخرجهم منها ويَبعثُهم ليحاسبَهم على أعمالِهم.

وهذا إشارةٌ إلى انتهاءِ أعمارِ البشر، وإلى موتهم، وإلى بعثهم يوم القيامة.

التوفيق بين سورة طه وسورة الشعراء في الحوار بين موسى وفرعون:

لقد ذكرتْ سورةُ طه موجزاً لأولِ حوارٍ بين موسى وبين فرعون حول الألوهيةِ والأدلةِ على الوحدانية، أما سورةُ الشعراء فقد فصَّلَتْ قليلاً في هذا الحوار، وفي أسئلةِ فرعون وإجاباتِ موسى عليها.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٣٣].

وسننظرُ في هذه الآيات وما تضمنَتْه من حوارٍ نظرةً مجملةً بعون الله.

لدى المقارنةِ بين موضوعِ آياتِ سورة طه السابقة، وموضوع هذه الآياتِ من سورة الشعراء، نرى «تصعيداً» من فرعونَ في حوارِه مع موسى عليه السلام، ونرى ارتفاعاً وحدةً في لهجةِ فرعون وهو يحاورُه.

ففي سورةِ طه طرحَ فرعونُ سؤالين بطريقةٍ هادئة. حيثُ قال: فمن ربُّكما يا موسى؟ وبعدما سمعَ جوابَ موسى أتبعه بسؤالٍ آخر فقال: فما بالُ القرون الأولى؟ فتوسَّعَ موسى قليلاً في جوابه.

أما في سورةِ الشعراء فقد كان فرعونُ محتداً في كلامِه وحوارِه مع موسى عليه السلام.

كما نرى أنَّ الحوارَ الذي سجلَتْه آياتُ سورةِ طه كان في جلسةٍ خاصة حضرَها موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون، وتوحي الآياتُ أنه لم يكن معهم أحَد. ولهذا كان كلامُ فرعون هادئاً في

الظاهر، لأنه كان يريدُ أنْ يتعرفَ على موسى ودعوتِه ورسالته ومهمته، فكان جاداً في البحث، راغباً في المعرفة، لا ليؤمنَ ويهتدي ولكن ليكَوِّنَ صورةً متكاملة عن موسى، ليعرفَ كيف يواجهُه ويحاربُه.

ويبدو أَنه كَوَّنَ صورةً متكاملةً عن موسى عليه السلام، وَتَعَرَّفَ على حقيقةِ دعوته وأَبعادِ رسالته، في ذلك اللقاءِ الخاصِّ الذي أعده له.

آيات سورة الشعراء تتحدث عن اجتماع موسع بين موسى وفرعون:

أَما آياتُ سورةِ الشعراء فإنها توحي بأَنَّ الحوارَ بينَه وبين موسى كان في جلسةٍ موسَّعة، حضرَها الملأُ من قومه، والملأُ هم كبار رجالِ دولته، الذين يتولَّون حكمَ الدولة باسمه.

ويبدو أنَّ فرعونَ حرصَ على أنْ يحاورَ موسى أَمامَ الملأ من قومه، ليُعَرِّفَهم على موسى ودعوته، ويضعَ أَيْديهم على مدى خطورتها عليهم، وذلك ليُهيجَهم عليه، ويُنَشِّطَهم في حربه.

ولذلك «صَعَّدَ» فرعونُ في حوارِه مع موسى، وعلَتْ نبرتُه، وارتفعتْ حدةُ كلامه، وتخلّى عن هدوئِه الظاهريِّ المصطنع الذي ظهرَ في حواره الأول، كما سجلَتْه آياتُ سورة طه، ولجأَ إلى أُسلوبِ البطش والتهديد والوعيد.

والملاحَظُ أنَّ موسى عليه السلام بقي متمتعاً بهدوئِه في ذلك الحوارِ الثاني الموسع، كما بقي محافظاً على الموضوعيةِ الحكيمة في الحوارِ والجواب والكلام، ولم يُخرجْهُ تهديدُ فرعون عن موضوعيته وحكمته، كما أَنه لم يُضعفْه أَمامه، فلم يَخَفْه، ولم يَخْشَ تهديدَه، وبقيَ يواجههُ بعزةٍ وشجاعة وجرأة.

توحي آياتُ سورةِ الشعراء السابقة أنَّ فرعون دعا الملأَ من قومه إلى جلسةٍ خاصة، وكانَ من كبارِ الحضور قارون وهامان، وذلك ليسمعوا ما سيقولُ لموسى وما سيقولُ موسى له.

ولما بدأ الاجتماع، طرحَ فرعونُ على موسى سؤالَه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولا ننسى أنَّ فرعونَ كان ينكرُ وجودَ الله عناداً واستكباراً، وكان يَدَّعي الأُلوهيةَ والربوبية، ويقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكان يُعَبِّدُ قومَه له.

الفرق بين ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ و﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

وفاجأهُ موسى عليه السلام في لقائِه السابقِ به بأنَّ اللّهَ هو ربُّ العالمين، وهو الذي بعثَه رسولاً إليهم، وقد سألَه عن ربِّه في اللقاءِ السابق، فعرَّفَه موسى على بعضِ أفعال الله في الوجود، وبعضِ آياتِه الدالة على وحدانيته.

والآن في هذا اللقاءِ الموسَّعِ يسألُ فرعون: ما ربُّ العالمين؟ وسؤالُه ليس سؤالَ الباحث عن الحقيقة، الراغبِ في المعرفة، ولكنه سؤالُ المستنكرِ المستغرب، الذي يريدُ أنْ يَبنيَ عليه التهديدَ والوعيد، ويثيرَ عليه الآخرين بالتهييج.

ونلاحظُ أنه طرحَ سؤالَه بصيغة «ما» الدالةِ على غيرِ العاقل: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يسألْ بصيغةِ «مَنْ» المستعملة في العاقل.

كما نلاحظُ اختلافَ صيغةِ هذا السؤال، عن صيغةِ السؤالِ السابق في اللقاء الأول.

فهناك كان السؤالُ بلفظ «مَنْ»، وهو الذي وردَ في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟. وجاءَ جوابُ موسى عليه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وهنا كان السؤالُ بلفظِ «ما»: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كان فرعونُ في اللقاءِ الأول يريدُ أنْ يتعرفَ على الله، لا ليؤمنَ به، لكن ليعرفَ فكرَ وعقيدةَ موسى. وكأنَّه يقولُ لموسى: مَنْ ربكما؟

ما فِعْلُه؟ فقال له موسى: ربُّنا الخالق، فهو الذي خلَقَ كلَّ شيء، وهداه إلى حياته.

وهنا يقول له: ما رب العالمين؟ أي: أَيُّ شيء ربُّك؟ وما هذا الكلامُ الذي تقوله؟ وما هذا الذي تدعو إِليه؟ وما هذه الربوبيةُ التي تتحدثُ عنها.

وكأنَّ سؤالَ فرعون عن الفكرةِ والمبدأ، ولهذا جاءَ بلفظ «ما». وهناك سألَ عن الله، ولهذا جاءَ بلفظ «مَنْ».

موسى يوجه كلامه للملأ الحاضرين:

سمعَ الملأُ المجتمعون سؤالَ فرعون، وانتظروا ليَسمعوا جوابَ موسى. فأجاب قائلاً: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

لقد كانَ موسى عليه السلام حكيماً في جوابه، فهو لم يُوجِّهْهُ إِلى فرعون السائل، وإِنما وجَّهه إِلى الملأ الحاضرين، وخاطبهم بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. وذلك ليُشرِكَهم في الحوار، وليلمسَ قلوبَهم، ويفتحَ آذانَهم، ليعلموا أَنهم المقصودون بالكلام والخطاب، فيفكِّرون في ما يَسمعون!

وبهذا نقلَ موسى الحكيمُ الداعيةُ عليه السلام المسألةَ من حوارٍ ثنائيٍّ بينَه وبين فرعون، إِلى ندوةٍ عامة بينَه وبين الملأِ أَجمعين!

وكانَ جوابُه أَنَّ اللَّهَ الواحدَ هو ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما، فالسمواتُ والأرضُ وما بينَهما لِلَّه، ولا يَدَّعي أَحدٌ أنه ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما. حتى فرعونُ نفسُه لا يَدَّعي ذلك، فكلُّ ما ادَّعاهُ فرعونُ أنه ربٌّ لقومه، وقومُه جزءٌ من البشر، والبشرُ جزءٌ من العالمين، والعالمون جزءٌ من السمواتِ والأرض!!.

ولهذا ربطَ موسى في جوابه الحكيم بين الكُلِّيِّ المتمثلِ في السموات والأرض، والجزئيِّ المتمثلِ في رعيةِ فرعون، وقال للملأ:

ربكم أيها القومُ هو الله، وليس فرعون، لأنَّ اللّهَ هو ربُّ العالمين، وربُّ السموات والأرض وما بينهما، فهلْ فرعونُ ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما؟ بالطبع لم يزعمْ فرعونُ ذلك!

ولمس موسى الحكيمُ قلوبَ الملأ لمسةً خفيفة، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. أي أن هذه مسألةٌ بدهية، لا تحتاجُ إلا إلى يقين، فلا يَدَّعي مخلوقٌ أَنه ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما، مهما بلغَ من الكفر والاستكبار، فكيفَ تتناقَضون مع أنفسكم، فتوقنون أنَّ ربَّ السموات والأرض هو الله، وربكم أنتم هو فرعون؟؟

فرعون يدعو الملأ إلى الاستغراب من كلام موسى:

ولاحظَ فرعونُ بدهائه أنَّ جوابَ موسى الموضوعيَّ الحكيمِ يهزُّ عرشَه، ويُلغي ربوبيتَه لقومه، فتركَ موسى، ووجَّهَ كلامَه للملأ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟.

لقد نجحَ موسى الحكيمُ عليه السلام في استدراجِ فِرعون، وفي تحويلِ الموضوعِ من حوارٍ ثنائي إِلى حوارٍ عامٍّ مفتوح، فها هو فرعونُ يوجِّهُ كلامَه للملأ من حوله، وها هم الملأُ يستمعونَ للحوارِ بين فرعون وبين موسى، وهم يعلمونَ أنهم مقصودون بذلك.

وقولُ فرعونَ لمن حولَه: ألا تستمعون؟ من بابِ الاستغرابِ والاستهجان، يَدعوهم إِلى أَن يستهجنوا ما يسمعونَ من موسى عليه السلام، لأنه يتكلمُ عن ربٍّ آخرَ غيرِ فرعون، وهم يؤمنون أنَّ فرعونَ وحده ربُّهم!!

فأهملَ موسى فرعونَ واستغرابَه، ووجَّه كلامَه إلى الملأ، وقدَّمَ لهم تعريفاً آخر على أنَّ اللّهَ وحده هو الرب، فقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فنقلَ موضوعَ الربوبية من بُعْدِها الكونيِّ الواسع إِلى بُعْدِها الإِنساني، وبَنى على كونِ اللّهِ وحده ربُّ السموات والأرض وما

بينهما، كونَ الله وحده ربَّ الناس، على اختلافِ زمانِ ومكانِ وجودهم. فربُّ الكونِ هو ربُّ الناس.

وصارحَ موسى الملأَ حولَ فرعون بأنَّ ربَّهم هو الله، وليس فرعون كما يَدَّعي. وإذا كان فرعونُ لا يَدَّعي أنه ربُّ آبائهم الأولين فكيفَ يَدَّعي أنه ربُّهم هم؟ إنَّ ربَّ آبائهم الأولين هو ربُّهم!!

فرعون ينهزم أمام موسى ويتهمه بالجنون:

وأحسَّ فرعونُ بقوةِ وحكمةِ منطق موسى عليه السلام، ولم يستطعْ أنْ يُجاريَه في نفسِ المنطقِ والأسلوبِ العلمي الموضوعي، لأنه لا يقدرُ على هذا المنطق، ولا يملكُ حجةً يخاطبُ بها قومَه، ولهذا انتقلَ إلى أسلوب السَّبِّ والشتم، فشتمَ موسى بأنه مجنون، ووجَّه كلامَه للملأ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾..

موسى رسولُهم مجنون! هل الكلامُ الذي قالَه كلامُ مجنون؟ وهل الأدلةُ التي عرضَها يمكنُ أنْ يعرضَها مجنون؟ وهل موسى مجنونٌ لأنه رفضَ الاعترافَ بربوبيةِ فرعون لقومه؟ ولأنه خرجَ على ما عليه فرعونُ وقومُه؟

هذا هو منطقُ فرعون المستكبرِ المتجبِّر، إنه ينقلُ القضيةَ من ميدانِها الفكريِّ الواسع، إلى ميدانٍ شخصيٍّ ضيق، لقد تركَ فرعونُ نقضَ أدلةِ موسى، وتحوَّلَ للكلامِ على شخصيةِ وعقليةِ موسى.

وانتقالُ فرعون هذا دليلٌ على هزيمتِه أمامَ موسى، وعدمِ وقوفِ كلامِه أمامَ قوةِ حجةِ موسى، وبما أنه عجزَ عن دفعِ حجةِ موسى الفكرية، فليقمْ بتشويهِ شخصيةِ موسى.

وما أَقدمَ عليه فرعونُ أمامَ موسى هو نفسُ ما يُقدمُ عليه كلُّ حاكمٍ طاغيةٍ مستبدّ، فعندما يعجزُ الطاغيةُ عن نقضِ حججِ أصحابِ الحقّ، ولا يستطيعُ دفعَ الحجةِ بالحجة، فإنه يلجأُ إلى سبٍّ وشتمٍ واتهامِ أصحابِ الحق!

ترفع موسى عن الشتم وخطابه للملأ وتجاهله لفرعون:

ومن حكمةِ موسى في هذه المواجهة مع فرعون أَمامَ الملأ أنه لم ينزلْ إلى مستوى فرعون الهابط، ولم يَرُدَّ على الاتهام باتهامٍ مقابل، ولم يدفعْ عن نفسِه تهمةَ الجنون، فليست المعركةُ شخصيةً بينه وبين فرعون، وليس الموضوعُ عقلَ موسى أو جنونَه، إنما الموضوعُ الربوبية، مَنْ ربُّهم، اللّهُ أم فرعون؟ ومَنْ ربُّ العالمين، اللّهُ أمْ فرعون؟

إنَّ فرعونَ يريدُ أنْ يصرفَ سيرَ المواجهة مع موسى عن هذا الخطِّ الأصيل، إلى موضوعٍ هامشيٍّ تافه، يقومُ على الملاسنةِ والسبابِ والشتم بين شخصيْن، وموسى يدركُ هذه اللعبةَ الفرعونية، فلم يستجبْ له فيها، وأبقى المسألةَ في إطارها الصحيح.

ولهذا وجَّهَ كلامَه للملأ قائلاً: ربُّكم هو ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

يقولُ لهم: أيها القوم ليس ربُّكم هو فرعون، ولكنه ربُّ مشرق الكون ومغربه، وربُّ ما بين المشرق والمغرب.

لقد عرضَ موسى عليه السلام مسألةَ ربوبيةِ اللّهِ ربِّ العالمين في أَبعادٍ ثلاثة، وفرعونُ لا يَدَّعي ربوبيتَهُ لأيِّ بُعْدٍ منها:

الأول: المجالُ الكونيُّ الواسع، المتمثلُ في السموات والأرض وما بينهما: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

الثاني: المجالُ الإنسانيُّ التاريخي، المتمثلُ في الوجودِ الإنساني على الأرض: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

الثالث: المجالُ الأرضيُّ الواسع، المتمثلُ في المشرق والمغرب على وجه الأرض: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

وبهذا ضيَّقَ الأمْرَ على فرعون، ولم يعدْ له حجةٌ أو دليلٌ على أنه ربٌّ لقومه، اللهمَّ إلاّ منطقُ الطغيان والاستكبار.

تعريض موسى بفرعون وملئه في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

ومن حكمةِ موسى أنه خاطبَ الملأَ قائلاً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. حيث لمسَ عقولَهم لمسة، وخاطبهم بهذا الدليل الدال على وحدةِ الربوبية، ودَعاهم إِلى إِعمالِ عقولهم، والتفكيرِ في ما أَمامهم من أَدلةٍ وآيات.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ردٌّ على اتهامِ فرعون له بأنه مجنون، وهو اتهامٌ ضمنيٌّ من موسى لفرعونَ وقومِه في عقولهم.

وكأنَّه يقولُ لهم: مَنِ المجنون؟ أَهو الذي يؤمنُ أنَّ اللّهَ وحده هو ربُّ العالمين، هو ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما، أم ذلك الذي يؤمنُ أنَّ ربَّه مخلوقٌ ضعيفٌ مثله، لا يملكُ السموات والأرض وما بينهما، ولا يملك المشرق والمغرب وما بينهما؟

كأنه يقولُ لَهم: إن كنتم تعتقدون أنَّ فرعونَ ربٌّ لكم فأنتم المجانين، ففكِّروا وأَعْمِلوا عقولَكم لتعرفوا الحقيقة.

لم يصمدْ فرعونُ أمامَ منطقِ موسى الموضوعي، وأَدلتِه المقنعة، ولم يستمرّ فرعونُ في التظاهرِ بالموضوعية والأَناةِ وسَعةِ الصدر، فقد تظاهَرَ بذلك حتى الآن، وقَدَّمَ نفسَه لمن حوله على أنه حليمٌ موضوعيٌّ واسعُ الصدر، يستمع الرأيَ الآخرَ المخالف، ولا يَضيقُ به، أو قل قدَّمَ نفسَه أَمامهم على أَنه «ديمقراطي» ـ بالمفهوم المعاصر ـ.

هزيمة فرعون وتهديده لموسى بالسجن:

لم يستمرّ بذلك لأنه ضاقَ ذرعاً بعلميةِ ومنهجيةِ موسى في أدلته وكلامه، ولهذا ظهرَ فرعونُ على صورته الحقيقية، صورةِ الطاغيةِ المستبد، فهدَّدَ موسى تهديداً واضحاً صريحاً: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾.

فرعونُ هو الربُّ لقومه، وهو الإلهُ لقومه، ولا يسمحُ لأيِّ إِنسانٍ أنْ يخالفَ ذلك أو يتخلّى عنه، مهما ملكَ من أدلةٍ وحجج.

ولذلك دعا فرعونُ موسى إِلى التخلي عن قناعتِه ويقينه، ومخالفةِ أَدلته وبراهينه، وعدمِ الاعتقادِ بأَن اللّهَ هو ربُّه وإِلهُه، والإِيمانِ بأَنَّ إِلهه وربَّه هو فرعون، وهدَّدَه بأنه إنْ لم يفعلْ ذلك فسوف يضعُه في السجن.

وهذا هو الأسلوبُ الذي يتقنُه فرعون الطاغية، أسلوبُ التهديدِ والوعيد، أسلوبُ البطشِ والتعذيب، البطشِ بالمخالف وتعذيبه، ولو كان الحقُّ معه! وهذا هو نفسُه الأسلوبُ الذي يتقنُه الطغاة في كلِّ زمان ومكان، فعندما ينهزمون في المواجهةِ الفكرية، وتتلاشى مزاعمُهم أَمامَ منطقِ الحقِّ الواضح، فإنهم يستخدمون سلاحَ البطشِ والعدوان، والسجن والتعذيب.

ثم هم لا يسمحونَ لمن يخالفونَهم بالحريةِ أو الحركة، فمكانهم ليس الحياة مع الناس، وإنما مكانُهم في أقبيةِ السجون وظلامِ الزنازين. وإلا فلماذا يضعُ فرعونُ موسى في السجن إنْ أصرَّ على مخالفتِه؟ ولماذا لا يَدَعُه يعيشُ بين الناس؟ ولْيَدْعُ إلى دينه إنْ شاء! ولْيسمع الناسُ حجتَه وحجةَ فرعون، ثم يتبعونَ الحجةَ الصحيحة! وإذا كان فرعونُ على حق فلماذا يخشى حجةَ موسى؟

إنَّ هذا أمرٌ لا يقبله فرعونُ الطاغية، ولا يقبلُه أيُّ طاغية، حتى لو زعمَ الموضوعيةَ وسَعةَ الصدر وقَبولَ المخالف و«الديمقراطية» ولذلكَ هددَ موسى بوضعه في السجن!!

ولكنَّ تهديدَ فرعون لم يُثْنِ موسى عن إيمانه ودعوتِه، ولم يقذف الخوفَ في قلبه، فقد كان يوقنُ أَنَّ الله معه، يسمعُ ويرى، معه يحفظُه ويَحميه، ولهذا بقي ثابتاً على الحقِّ رغمَ التهديد والوعيد.

موسى يقدم الآيتين: العصا واليد:

كذلك لم يُخرجْه تهديدُ فرعون عن هدوئِه وحكمته وموضوعيته، ولهذا ردَّ على تهديدِه ونزَقِه وغلظتِه قائلاً: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؟.

يعني: سوفَ تضعُني في السجن لأَني اتخذتُ ربَّ العالمين إلهاً، حتى لو قدمتُ لك برهاناً مبيناً على ذلك؟

وأَرادَ موسى بكلامِه هذا أنْ يُحرجَ فرعون ويُفحمَه، أَمامَ الملأ الذين حولَه، فإمّا أنْ يرفضَ فرعونُ السماحَ لموسى عرضَ البرهان الذي معه ويضَعَه في السجن، وبهذا يفتضحُ أَمامَ قومه، وإمّا أنْ يسمح له بذلك فيطلعَ القومُ على ذلك البرهان ويَعرفون الحق! فهي خطوةٌ ذكيةٌ حكيمةٌ من موسى عليه السلام في مواجهته مع فرعون.

واضطرَّ فرعونَ إلى السماح له، والتظاهرِ بالموضوعية: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾.

عند ذلك اعتمدَ موسى على الله، وقدَّمَ الآيتيْن اللتيْن رآهما في تلك الليلة المباركة في وادي طوى في سيناء: العصا واليد: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾.

وفوجئَ فرعونُ بما يرى، كما فوجئ الملأ حوله بما يرون عصا خشبيةً تتحولُ إلى ثعبانٍ حيٍّ مبين، ويدُ موسى السمراءُ عندما يخرجُها من جيبه تخرجُ بيضاءَ ناصعةَ البياض.

والثعبانُ نوعٌ ضخمٌ من الحيات. قال الإمام الراغب عن معناه: «الثعبان: يجوزُ أنْ يكونَ سميَ بذلك من قولهم: ثَعَبْتُ الماء فانثعب، أي: فجَّرتُه وأَسلْتُه فسال. ومنه: ثَعَبَ المطر. إذا تدفق»[1].

ولم يَرِد الثعبانُ إلاّ مرتين في القرآن، في المواجهة بين موسى وفرعون: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء: ٣٢ ـ ٣٣] و[الأعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وهاتان الآيتان: العصا واليد لإِثباتِ أنَّ الألوهيةَ والربوبية لا تكونُ

---

(١) المفردات: ١٧٣.

إلا لله. فاللّهُ الخالقُ هو الذي جعلَ الحياةَ تدبُّ في العصا الخشبية اليابسة، فتتحول إلى ثعبان، وهو الذي يسلبها الحياةَ بعد ذلك، ويُعيدُها خشبةً يابسة كما كانت.

واللّهُ القادرُ الفعالُ لما يريد، هو الذي يحولُ لونَ يد موسى السمراء إلى لونِ أبيض، تختلفُ عن لونِ جسمه الأسمر، ثم يعيدُها سوداء كما كانت.

وإذا كان فرعونُ رباً كما يزعم فهل يقدرُ على ذلك؟ إنه لا يقدر.

وإنهما آيتان بينتان على نبوةِ موسى عليه السلام أيضاً، فالله هو الذي أَجرى على يديه معجزةَ العصا ومعجزةَ اليد، وهذا تصديقٌ عملي من الله لموسى في دعوى النبوة، وشهادةٌ فعليةٌ من الله له أنه نبيٌّ رسولٌ عليه السلام.

فرعون يتهم موسى بالسحر ويهيّج عليه الملأ:

وحتى يقضيَ فرعونُ على أثرِ الآيتين المعجزتين في نفوس الملأ، وخشيةَ أنْ يتفاعَلوا معهما، سارعَ إلى اتهام موسى بالسحر: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

واتهامُه بالسحر كاتهامِه له بالجنون، وهذا دليلُ تناقضه في اتهاماته، فهل موسى ساحرٌ أو مجنون؟ لا يهمُّ عند فرعون، المهمُّ عنده هو الاتهامُ والشتم والسباب.

ووردَ هذان الاتهامان من فرعون لموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩].

ولم يكتفِ فرعونُ باتهامِ موسى بالسحر، وإنما خطا خطوةً أُخرى في «تهييج» الملأ من حولِه عليه، فالملأُ هم كبارُ رجال الدولة الذين يتولّون إدارةَ شؤون الحكم، وقيادةَ الرعية باسم فرعون، وفي التأثيرِ

على الناس، وتحويلِهم إلى ما يريدون، وهؤلاء الملأُ حريصونَ على البقاء معِ فرعون لتحقيقِ المصالحِ وجنيِ المكاسب، وحريصون على الوقوفِ أمامَ كلِّ مَنْ خالفَ فرعونَ أو خرجَ عليه.

وقد لمسَ فرعونُ بخبثه هذا الجانبَ عند الملأ، فقال لهم: إن موسى بدعوتِه يريدُ أنْ يخرجكم من أرضكم!!.

أي: أنتم المهدَّدون من قِبَلِ موسى ودعوته وسحره، ومراكزكم ومكاسبكم في خطر مباشر، فإنْ سكتُّم على موسى، وتركتموه يتصلُ بالناس ويدعوهم إلى دينه، فسوف يَقضي عليكم، وسوف يُخرجكم من أَرضكم، ويَطردكم من بلادكم. فمِن مصلحتكم أنتم أنْ تقفوا أمامَه.

وبذلك ضمن فرعونُ بخبثِه انحيازَ الملأ المتنفذين له، وعدمَ تفكيرهم بالسير مع موسى ولو ثبتَ لهم أنَّ الحقَّ معه.

فرعون ديمقراطي يتلقى الأوامر من الملأ!!:

وبعد أنْ أَثَّر فَرعونُ على الملأ هذا التأثير، وأوحى لهم بهذا الإيحاء، أرادَ أنْ يتقربَ إليهم، لأنه في خطرٍ من موسى ودعوته، ومتى أحسَّ الطاغيةُ بالخطر يحسُّ أنه بحاجةٍ إلى أَنْ يتقرَّبَ إلى حاشيتِه وأعوانه!

تظاهرَ فرعونُ أنه يشاركُ الملأَ في الحكم والقرار، وفي القيادة والتوجيه، وأعلنَ أنه يحترمُ رأْيَهم، وينفذُ أمرهم، وقال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؟.

ومنذ متى يأمرُ الملأُ ربَّهم فرعون؟ ومنذُ متى يقترحون عليه؟ ومنذ متى يطلبُ منهم أَنْ يأمروه؟ ومنذُ متى ينفذُ فرعونُ أَمْرَهم؟

وما هذه اللعبةُ الفرعونيةُ التي يلعبها أمام ملئه؟ وما هذا النفاقُ منه لهم؟ إنه خبثُ ومكرُ فرعونَ الماكرِ الخبيث في استقطابِ الملأ حوله، لأنه في خطرٍ مباشرٍ من موسى ودعوته!

وصدَّقَ الملأُ فرعونَ في كلامه! وظنّوا أنهم يمكنُ أنْ يأمروا فرعون، وأنه بحاجةٍ إلى أمرهم، وأنه سينفذُ ما يأمرونَه به!! وهل يأمُرُ القومُ إلهَهم وربَّهم؟ هكذا أوهمهم فرعون.

الملأ يقترحون جمع السحرة من المدائن:

فكَّرَ الملأُ المجتمعون مع فرعون، ثم اقترحوا على فرعونَ اقتراحاً. قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

اقترحَ الملأُ على فرعون أنْ يُرجئَ موسى وأخاه هارون، أنْ يؤخِّرَهما ويؤخِّرَ البتَّ في المسألة، وأنْ يستدعيَ السحرةَ من مختلف المدائن في مصر، لتتمَّ المباراةُ بينهم وبين موسى الساحر.

و«أرجه» فعلُ أمر. من الإرجاءِ وهو التأخير، وفعْلُه الماضي: أرجأ. تقول: أَرْجَأَ. يُرْجِئُ. أَرْجِئْ.

وأصْلُ «أَرْجِهْ»: أَرْجِئْهُ. وفاعل «أرجه» ضميرٌ مستتر تقديره «أنت». والهاء: في محلِّ نصبِ مفعول به، وتعودُ على موسى عليه السلام.

والمعنى: أرجئْ يا فرعونُ موسى وأخاه هارون، وأَخِّرْهما عندك، لحين قدوم السحرة.

ومعنى ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: اطلبْ مِنْ رجالك وولاتك في مختلفِ مدنِ مصر أن يأتوك بالسحرة، وأنْ يَجمعوهم ويَحشروهم ويُحضروهم إليك.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ فعلَ «أَرْجِه» لم يَرِدْ في القرآن إلاّ مرتين، والمرتان في قصةِ موسى عليه السلام، وفي سياق طلب إحضار السحرة.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[الأعراف: ١١١. الشعراء: ٣٦].

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ كلمتَيْ «المدائن» و«حاشرين» لم تَرِدْ إلاّ في هذا السياق أيضاً. حيث وردت الكلمتان ثلاثَ مرات: [الأعراف: ١١١. الشعراء: ٣٦ و٥٣].

لماذا إحضار «كل سحار عليم»؟:

وكلمةُ «سَحّار» ـ التي هي صيغةُ مبالغةٍ من «ساحر» ـ لم تَرِدْ في غير هذا الموضع.

ما أرادَ الملأُ إحضارَ كلِّ ساحر عليم، وإنما أرادوا إحضارَ كلِّ «سَحّار». والسّحّار هو المتمكنُ من سحره، الماهرُ فيه.

ما أرادوا السحرةَ فقط، لأنهم مُقْدِمون على مباراةٍ حاسمة وخطيرةٍ مع موسى، وهذه المباراةُ لا ينفعُ فيها إلاّ كلُّ سَحّارٍ عليم.

وهكذا اتفقَ الملأُ من قوم فرعون على تأخيرِ البتِّ في دعوة ومهمةِ موسى عليه السلام، والاستنجادِ بقوةِ السحرة ـ وهي القوةُ القياديةُ المؤثرةُ في النظام ـ للوقوفِ أمام موسى وآياته.

وهكذا اجتمعت القياداتُ الثلاثةُ التي تدعمُ فرعون وتساعدُه في حكم أهل مصر:

- القيادةُ الإدارية: المتمثلةُ في هامان.
- والقيادةُ المالية الاقتصادية: المتمثلةُ في قارون.
- والقيادةُ الإعلامية التأثيرية: المتمثلةُ في السحرة.

اجتمعت القياداتُ الثلاثةُ على مواجهةِ موسى والوقوف في وجهه، والانتصارِ لفرعون!

وانتهى لقاءُ المواجهة بين موسى وبين فرعون بحضورِ الملأ الكبراء، بانحيازِ الملأ إلى فرعون، وتبنّي اتهامِه لموسى، حيث قررَ هؤلاء الملأُ أنّ موسى ساحرٌ عليم، وليس نبياً رسولاً، وأنه خطرٌ مباشرٌ

يهددُ فرعون، ويهددُ الملأ، ويهددُ مصرَ كلَّها، وأنه لا بدَّ أنْ يُحشرَ السحرةُ المتمكنون لمواجهةِ موسى وهزيمتِه.

وخرجَ موسى من لقاءِ المواجهة مع فرعون، وصارَ ينتظرُ قدومَ السحرةِ من المدائن المختلفة، لتتمَّ المباراةُ بينه وبينهم.

موسى يرد على اتهامات الملأ في حوار معهم:

وقد ردَّ موسى عليه السلام على اتهامِ الملأ له بأنه ساحر، وورَدَ هذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٧٨].

وتدلُّ الآياتُ على أنَّ هارون كان مع موسى عليهما السلام في المواجهة مع فرعون، وأنهما كانا نبيَّيْن مبعوثَيْن إلى فرعون وملئه، وأنَّ الملأَ استكبروا عن اتباع الحق، وانحازوا إلى فرعون، وردَّدوا اتهامَه لموسى بأنه ساحر، واعتبروا ما قدَّمه من الآيات والبراهين على أنه سحر مبين.

وتدلُّ الآياتُ على حوارٍ جرى بين موسى وبين الملأ، في فترةِ انتظارِ قدوم السحرة من المدائنِ للمباراة.

قالوا لموسى: أَنت ساحر، وما معكَ سحرٌ مبينٌ ظاهر واضح.

فردَّ موسى على اتهامهم مستنكراً عليهم وقال: لقد قدمْتُ لكم الحق، ورأيتُم ما معي من الآيات، فكيفَ اعتبرتُم هذا الحقَّ سحراً؟ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أهذا الذي رأيتموه منّي سحر؟ فكيف تقولون عنه: هذا سحر؟.

وتابعَ موسى إنكارَه عليهم قائلاً: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾. وهذه

سنةٌ ربانية مطردة: إنَّ الساحرين لا يفلحون ولا ينجحون.

وكأنَّه يقولُ لهم: لو كنتُ ساحراً كما زعمتم لما كنت مفلحاً، لأنه لا يفلحُ الساحرون، وبما أَنني مفلحٌ ناجح، وبما أنَّ اللّهَ قد أيدني بالآيات، فإنني لستُ ساحراً.

اتهامهم لموسى وهارون باستغلال الدين لمصالحهما:

ولم يقبل الملأُ المستكبرون المنحازون إلى فرعون منطقَ موسى، وقـــالـــوا لـــه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وهم بقولهم هذا علَّلوا عدمَ قبولهم دعوةَ موسى بأنه يريدُ أنْ يُبعدَهم عن دينِ آبائهم، ويسلخَهم عن موروثاتهم، ويأتيهم بدينٍ جديد. فكيف يتخلونَ عن دين آبائهم ويدخلون في دينه.

واتهموا موسى وهارون في إخلاصِهما لدعوتهما، فهما يدعوانِ هذه الدعوة، لتحقيقِ مكاسبَ مادية، وجنْيِ مصالح دنيوية، إنهما يريدانِ أنْ تكونَ لهما الكبرياء في الأرض، ويريدانِ القيادةَ والسيادة والزعامة، ويريدانَ المالَ والجاهَ والحكم.

وحتى يُحققا ما يريدان من مصالحَ دنيوية ـ في زعمهم ـ فقد لَجَئَا إلى الدين، ودَعَوا إلى توحيدِ الألوهيةِ والربوبية، ليستجيبَ لهما الناس، ويجعلوهما سادةً وقادة، وبذلكَ تكونُ لهما الكبرياء في الأرض!

وهذا هو نفسُ اتهام الطغاة للدعاة والمصلحين والعلماء، يتهمونَهم بأنهم يستغلّون الدينَ والدعوةَ إليه استغلالاً، لتحقيقِ مصالحهم ومكاسبهم!

وقد أَعلنَ الملأُ من قوم فرعون رأيهم في موسى بصراحة، وجاهَروا بموقفهم منه ومن أخيه، ولهذا قالوا لهما: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد أكدتْ آياتٌ أُخرى من القرآن اتهامات الملأ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧].

فلما شاهدَ الملأُ الآياتِ التي معَ موسى عليه السلام كفروا بها، ورفضوا دعوةَ موسى، وقابَلوها بالاستكبار والعلو، ورأوا أنفسهم أكبرَ وأَعلى وأفضلَ من موسى وهارون، لأنَّهم ملأٌ مُقَدَّمون عند فرعون، أَما موسى وهارون فهما إسرائيليان، من الإسرائيليين المضطهدين المستعبدين: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟.

ويعترفُ الملأُ بأنَّ الإسرائيليين كانوا خاضعين لفرعون وملئه، حيث كانوا يُخضعونَهم خضوعَ عبادة، وهو الإخضاعُ القائمُ على الاستعباد، كانوا يَعتبرونَهم عبيداً لهم، فكيفَ يظهرُ من بين هؤلاء العبيد الخاضعين لهم رجلان يزعمان أَنهما نبيان رسولان، ويَطلبان من فرعون وملئِه اتباعَهما وطاعَتَهما؟ كيف يتحوَّلون من ملأ قادةٍ إِلى أَتباع؟ وأَتباعٌ لمن؟ لرجلَيْن من الإسرائيليين!!

الملأ يرتبون اجتماعاً موسعاً مع وجوه القوم:

وبعدما اتفقَ الملأُ من قوم فرعون على الكفرِ بموسى عليه السلام ورفْضِ دعوته، واتفقوا مع فرعونَ على استدعاءِ السحرة من مختلف المدائن، خَرجوا يردّدون اتهامَ فرعون لموسى بأنه ساحرٌ مبين، وأَنه يريدُ تخريبَ البلاد وإخراجَ أهلها منها.

ويبدو أنَّ الملأَ دَعَوْا إِلى اجتماعٍ آخر موسّع، بعد اجتماعِهم السابق مع فرعون، وحضرَ ذلك الاجتماعَ أناسٌ آخرون من وجوه القوم، وذلك لبحثِ وتدارسِ مسألةِ موسى ودعوته، وأَشارَ إِلى هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ

حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٢].

لقد وقَفْنا سابقاً مع آياتِ سورة الشعراء، التي تتحدثُ عن اجتماعِ فرعون مع الملأ، وما اتفقوا عليه في ذلك الاجتماع، والوقفةُ الآنَ مع آياتِ سورة الأعراف، التي تتحدثُ عن اجتماعِ الملأ من قوم فرعون مع وجوهِ القوم، لينقلوا لهم رأيَ فرعونَ في موسى، ويأخذوا منهم الموافقةَ على ما سيفعلُه فرعون.

حديث سورتي الشعراء والأعراف عن اجتماعين خطيرين:

ودليلُنا على أَنهما اجتماعان، تتحدثُ آياتُ سورة الشعراء عن الاجتماعِ الأول الخاص، وتتحدثُ آياتُ سورة الأعراف عن الاجتماع الثاني الموسع الذي تلاه، دليلُنا سياقُ الآيات، والفرقُ بين آياتِ السورتيْن في التعبيرِ عن الاجتماعيْن.

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٢ ـ ٣٧].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧ ـ ١١٢].

سورة الشعراء تسجل اجتماع فرعون المغلق مع الملأ:

في سورةِ الشعراء قالَ فرعونُ للملأ حوله: إنّ موسى ساحرٌ عليم. يريدُ أنْ يُخرجكم من أرضكم بسحره! فماذا تأمرون؟ وماذا

تريدون منّي أنْ أَفعلَ معه؟

أَجابَ الملأُ الذين حولَه قائلين: أَرْجِهْ وأَخِّرْ موسى وأَخاه، واطلبْ من ولاتك في المدنِ أَنْ يَحْشروا السحرةَ وأنْ يأتوك بهم، ليباروا موسى!

وفي سورة الأَعرافِ قالَ الملأُ من قوم فرعون، ولم يقل فرعون، فالملأُ هم القائلون المتكلمون، بينما كان القائلُ المتكلمُ في سورة الشعراء هو فرعون.

وكررَ الملأُ القائلونَ في سورة الأعراف كلامَ فرعونَ الذي قالَه لهم في سورة الشعراء: إنَّ هذا لساحرٌ عليم، يُريدُ أَنْ يخرجكم من أرضكم، فماذا تأمرون؟

فلمن قالَ الملأُ هذا القول؟ ولمن قالوا: فماذا تأمرون؟ وإذا كان الملأُ هم القائلون السائلون فمن هم المقولُ لهم المسؤولون؟

وسورة الأعراف تسجل اجتماع الملأ الموسع مع وجوه القوم:

يدلُّ هذا على ما قلناه من اجتماعيْن: الاجتماعُ الأولُ كان خاصّاً مغلقاً بين فرعون وبين الملأ فقط. وبعدما اتفقوا على خطةِ مواجهةِ موسى عليه السلام رتَّبَ الملأُ اجتماعاً آخر موسَّعاً، دعوا فيه وجوهَ القوم، وبحثوا معهم قضيةَ موسى، وأَخذوا منهم موافقتهم على خطة فرعون، وبما أنَّ وجوهَ القوم كانوا ممثّلين للشعب كلّه، فقد أيَّدَ الشعبُ خطةَ فرعون في مواجهةِ موسى عليه السلام ودعوته!!

وكما تظاهرَ فرعونُ أمامَ الملأ بالمُشاوِرِ لهم المحترمِ لآرائهم المستعدِّ لتنفيذِ ما يشيرونَ به عليه، وقال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. تظاهرَ الملأُ أمامَ المدعوين من وجوه القوم بذلك، فقالوا لهم: ماذا تأمروننا أنْ نفعلَ لمواجهة موسى؟ إننا مستعدونَ لتنفيذِ ما تشيرون به علينا!

قالوا لهم هذا بعدما أَعطوهم رأيَ فرعون في موسى بأنه ساحرٌ

عليم يريدُ أنْ يُخرجهم من أرضهم بسحره، وكأنَّهم يدعونهم إِلى القولِ بذلك.

فما كانَ من المدعوين إلاّ أنْ أَشاروا بتأخيرِ موسى وأخيه، وحشْرِ السحرة من المدائن، واستدعائِهم لمواجهة موسى ومبارزته!

هذه هي «لعبةُ الديمقراطية» في صورتها البدائية، في النظام الفرعوني الجاهلي!!!

[٥]

المباراة.. والانتصار.. وإيمانُ السحرة

اتفقَ فرعونُ مع الملأ على تكذيبِ موسى ورفْضِ دعوته، واتهامِه بتخريب الوطن، وجمْعِ السحرة لمباراتِه وتحدّيه وهزيمته. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٦ ـ ٥٨].

حشر السحرة واتهامات لموسى:

وبينما ذهبَ حكامُ المدنِ وولاةُ الأقاليم المصرية يجمعونَ السحرةَ لإِيفادهم إِلى فرعون، قامَ الملأُ من قومِ فرعون بتهيئةِ الناسِ للمباراةِ القادمةِ الحاسمةِ الفاصلة، المباراةِ بين السحرة العليمين المتمكّنين وبين موسى الساحرِ العليم. وقاموا بحملةٍ إِعلاميةٍ إِعلانية حاشدةٍ من أجل ذلك.

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٤٠].

وهم في حملتِهم الإعلاميةِ يريدونَ التأثيرَ على الرأي العام، واستقطابَ الناسِ إِلى جانبهم، فموسى إِسرائيليٌّ ساحرٌ عليمٌ متمكّنٌ من سحره، يُحوِّلُ العصا إِلى حية، وهو ليس رسولاً كما يزعم، وهو يريدُ

استغلالَ الدينِ لمصلحته الشخصية، وهو مخربٌ مفسدٌ يريدُ تخريبَ الوطن، وإِخراجَ أَهله منه، والقضاءَ على منجزاتِ فرعون وملئِه الكبيرة. وقد تكفَّلَ فرعونُ والملأُ بمواجهةِ موسى الساحرِ والقضاءِ عليه، وقد حشَدوا وحشَروا له السحرةَ من مختلفِ المدائن، وسوفَ يهزمُه هؤلاء السحرةُ ويقضونَ عليه. وما على الناسِ إلاّ انتظارُ الميقاتِ المعلومِ القادم، ومشاهدةُ هذه المباراةِ الحاسمةِ المثيرة، والفرحُ بانتصارِ السحرة وهزيمةِ موسى، وسوفَ يتخلّصُ الوطنُ بفضْلِ حكمةِ فرعون وملئه من مشكلةِ موسى بعد ذلك!!

هذه هي الحملةُ الإعلاميةُ التي قامَ بها الملأ، وهذه هي الصورةُ التي قدّموا موسى للناسِ من خلالها، وهكذا صوّروا الخلافَ بين موسى وبين فرعون.

المباراة القادمة هي شغل الناس:

وصارتْ قضيةُ موسى مع فرعون هي شغلَ الناسِ الشاغل، وحديثَهم في مجالسهم، ومحلَّ نظراتهم وتحليلاتهم، سواء كانوا من المصريين أو من الإسرائيليين.

وصارَ تحديدُ موعدِ مباراة السحرة مع موسى موضعَ اهتمامِ الناس، ينتظرون تجميعَ السحرة، وقدومَهم إلى العاصمة، ويتلهَّفونَ لموعدِ المباراةِ المثيرة.

وقامَ الولاةُ في المدائنِ والأقاليم بتجميعِ وحشرِ السحرة، وأَوفدَ كلُّ واحد ما في مدينته ومنطقتِه من السحرةِ إلى فرعون، وقَدِمَ السحرةُ إلى العاصمة.

ولم تتحدثْ آياتُ القرآن عن عددِ السحرة القادمين، فعدُدهم من مبهماتِ القرآن التي لا نخوضُ فيها، ولا تترتبُ على العلم بعددهم فائدةٌ علمية، ولا يضرُّ الجهلُ به، كلُّ ما نقولُ به أَنهم جُمعوا من مختلفِ المدائنِ انتظاراً للمباراة الفاصلة: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾﴾.

واقتربَ موعدُ المباراة، وزادَ انتظارُ الناس لها حماساً ولهفة.

وأرادَ فرعونُ أنْ يَزيدَ في حماس السحرة للمباراة، وأنْ يعمِّقَ ولاءَهم له، وأنْ يهيِّجَهم ضدَّ موسى فالتقى بهم لقاءَ خاصاً، واجتمعَ معهم اجتماعاً مغلقاً، وتحدَّث لهم عن قضية موسى، وكرَّرَ على مسامعِهم اتهامَ موسى بأنه ساحر، وأنه يريدُ تخريبَ البلاد، وبيَّنَ لهم أنه استدعاهم لأنهم أعلمُ من موسى، وأكثرُ علماً بالسحر منه، وأنه لا يقضي على موسى إلاّ هم، وسوفَ يُقدِّمون للبلاد خدمةً جليلة في تخليصها من فتنةِ موسى!

السحرة يفاوضون ويساومون فرعون:

وكان السحرةُ ذوي فطنة، وفطنوا إلى لهجةِ فرعون في مخاطبتهم، ولاحَظوا حاجتَه الماسةَ إليهم، ليخلِّصوه من مشكلةِ موسى، وصاروا يُفرقون بين أسلوبِ فرعون السابق، القائم على الاستكبار والاستبداد، وبين أُسلوبه الآن، القائمِ على التودُّدِ والتقرُّب.

وأَرادوا استغلالَ هذه الفرصة، والاستفادةَ منها لتحقيقِ مزيدٍ من المكاسبِ من فرعون وملئه، فلا تتكررُ هذه الفرصةُ مرةً أخرى، إنَّ فرعون الآن بحاجتهم، وها هو يتقربُ ويتوددُ إليهم، ولن يمانعَ في إعطائهم ما يريدون من ثمنٍ وأَجر، حتى لو كان مرتفعاً، لأنه ذو حاجة.

ففاوضوه على الثمن، ووافقهم فرعون على ما يريدون وزيادة. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٢].

طلبوا منه الأَجرَ الكثيرَ مقابل مباراتِهم ومواجهتِهم لموسى، إِذا غلبوه وهزموه.

ووردَ طلبُهم في سورتين: في الأعراف والشعراء. وجاء التعبيرُ في سورة الأعراف بصيغة: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾. بينما التعبير في سورة الشعراء بصيغة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

وهو في سورةِ الشعراء مؤكَّدٌ أكثر، لأنَّ فيه الهمزةَ الداخلة على «إن».

والتنوين في: «أجراً» للتكثير، فلم يُحددوا مقدارَ الأجرِ المطلوب، وتركوا تحديده إلى فرعون.

فرعون يعدهم بالأجر والقربى:

وطلبُهم الأجرَ من فرعون هذه المرة يدلُّ على أنَّ فرعونَ وملأه كانوا يستغلونَهم قبلَ ذلك استغلالاً، ويُشَغِّلونهم سخرة، ولا يعطونَهم على أعمالهم أجراً.

وهذه طبيعةُ المسؤولين الظالمين المستبدين، يسخِّرون الآخرين لهم، ويستنزفون طاقاتهم، ويَسرقون جهودَهم، ويأخذونَ ما عندهم، بدون أجرٍ ولا جزاءٍ ولا ثمن ولا عطاء. وإذا بدا لهم أنْ يُعطوهم شيئاً كان شيئاً تافهاً هزيلاً، لا يساوي شيئاً.

ولما طلبَ السحرةُ الأجر، أَجابهم فرعون بالموافقة، واستعدَّ أَنْ يعطيهم ما هو أكثر، وقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿نعم﴾: أنا موافقٌ على ما تطلبون، وسأُعطيكم الأجرَ الذي تريدون.

﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: ولكم عندي زيادةٌ على الأجر، هو أَنني سأُقرِّبكم مني، وأجعلُكم من المقرَّبين لديّ، وأضمُّكم إلى خاصتي

وحاشيتي، وتكونون من الملأ المتنفذين.

ووعْدُ فرعونَ للسحرةِ أنْ يجعلَهم من المقربين لأنه بحاجةٍ ماسةٍ لهم، وهذا إغراءٌ منه لهم، وترغيبٌ لهم ببذل كلِّ جهدهم لينالوا هذه المنزلة.

يريدُ فرعونُ أنْ يشتريَ ذممَهم، وأنْ يستحوذَ عليهم، ليكونوا إلى جانبه، ويَدعموه في موقفه، ويواجِهوا خصْمَه، ولما وعدهم المالَ والمنصبَ والجاهَ والمركز أرادَ أنْ يُشعرَهم أنهم أصحابُ قضية، لهم مصلحةٌ شخصيةٌ في مواجهة موسى، ليتفاعَلوا أكثرَ في المواجهةِ والمباراة.

وهذه وسيلةٌ مطردةٌ يستخدمُها المستبدون الطغاة، عندما يواجهون الحقَّ وأهلَه، حيث يحرصون على كسبِ الآخرين إلى جانبهم، وإغرائهم بالمالِ والجاهِ والمنزلة، وتحويلِهم إلى جنودٍ مندفعين في محاربةِ خصوم الطغاة!!

أَتمَّ فرعونُ استعدادَه، وعقدَ الاتفاقَ مع السحرة، وتحالفَ معهم للوقوفِ أمامَ موسى وهارون عليهما السلام، ووظَّفَ فرعونُ مرافقَ ومؤسساتِ الدولة لمواجهة موسى: المالَ والرجال، والمراكزَ والمناصب...

ولم يبقَ إلاّ تحديدُ موعد المباراة.

كيد فرعون في طلبه من موسى تحديد الموعد:

ومن كيدِ فرعون ومكرِه أنه طلبَ من موسى تحديدَ ذلك الموعد، قال تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨].

أي: حدِّدْ يا موسى أنتَ الموعدَ الذي يناسبُك، وأيُّ موعدٍ تراه مناسباً فنحنُ موافقون عليه، ولا نتخلفُ عنه. وليكن مكانَ المباراة ﴿مَكَانًا سُوًى﴾.

ومعنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: مكاناً مستوياً ظاهراً بارزاً، يراهُ الجميع، ولا يَخفى أيُّ جزءٍ منه عن أيِّ مشاهد، ولا يكون هكذا إلاّ إذا كان سهلاً واسعاً ممتداً، لا جبلَ ولا تلَّ فيه، ولا أشجَارَ عليه.

قالَ عبدُ الرحمن بن زيد: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: مكاناً مستوياً بين الناس، وكلُّ ما فيه بارزٌ للناس، لا يَغيبُ شيءٌ منه عن أحدٍ من الناس[1].

ولم يَرِدْ «سُوى» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

يريدُ فرعونُ أنْ تكونَ المباراةُ حاشدةً جامعة، ويريدُ أنْ يكونَ في مكانٍ واسع، يسعُ جميعَ الراغبين في الحضور، ويريدُ أنْ يكونَ المكانُ مكاناً «سُوى» ظاهراً بارزاً مستوياً، بحيثُ يَرى كلُّ شخص أَحداثَ المباراة، ليشهدَ انتصارَ السحرةِ وهزيمةَ موسى!

واعتبرْنا طلبَ فرعون من موسى تحديدَ موعدِ المباراة من بابِ كيدِه ومكره لأنه من بابِ «حربه النفسية» ضدَّ موسى عليه السلام. فكأنَّه يقولُ له: الأَمرُ محسومٌ عندنا، وفوزُ السحرة مضمون، وهزيمتُك مؤكَّدة، فقدْ جمعْنا لك السحرة من مختلفِ مدائن مصر، وأحضروا معهم كلَّ خبراتهم ومهاراتهم، وأنت لن تصمدَ أَمامهم.

ولذلكَ حدِّدْ أنتَ مكانَ وزمانَ هزيمتِك، واخْتَرْ أَوسعَ مكان، وأكثرَه ظهوراً وبروزاً، ليشاهدَ الجميعُ هزيمتَك، ويشهدوا بذلك عليك!

موسى يجعله ضحى يوم الزينة:

حدَّدَ موسى الموعد. قال تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ معروفٌ عند فرعون وقومه، لكنه مبهمٌ في القرآن، ليس فيه بيانٌ عنه، ولهذا لا نقولُ عنه إلاّ أنه يومُ الزينة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٢.

ويبدو أنه كان عيداً من أعيادِهم المعروفة المشهورة، يتزيَّنُ فيه الناس، ويَخرجون بزينتهم يحتفلونَ بالعيد.

واختيارُ موسى ليومِ الزينة موعداً للمباراة من حكمتِه ويقينِه بالنصر، وحرْصِه على نشرِ الدعوة، إنه يريدُ أنْ يشاهدَ أكبرُ عددٍ من الناس المباراة، ليعرفوا أنَّ الحَقَّ معه.

ومن حكمتِه أيضاً أنه حددَ وقْتَ المباراة، وهي ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

يريدُ أنْ ﴿يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ من مختلفِ المناطق ليشاهدوا المباراة. وهذا من يقينِه أنَّ الحقَّ معه، وأنَّ الله سينصره، وحرصِه على إيصالِ دعوتِه إلى الناس، وعلى إحضارِهم ليشاهدوا الأحداث.

وحدَّدَ الوقتَ بأنه ضحى اليوم، والضحى هو بدايةُ اليوم، قبلَ أنْ ينصرفَ الناسُ إلى أُمورهم الخاصة، كما أنَّ الضحى يعني الضياءَ والنور، وليس الظلامَ والخفاء، فهو يريدُ أنْ تكون المباراةُ في النور، ليشاهدَها الناس، فيفرقوا بين الحقِّ والباطل، بين ما معَ السحرة من سحرٍ وتخييل، وما مع موسى من الحقِّ المبين.

قال ابن كثير: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: وهو يومُ عيدِهم ونيروزِهم، وتَفرُّغِهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم، ليشاهدَ الناسُ قدرةَ الله على ما يشاء، ومعجزاتِ الأنبياء، وبطلانَ معارضة السحر لخوارقِ العادات النبوية، ولهذا قال موسى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾: أي: ضحوةً من النهار، ليكون أظهرَ وأجلى وأَبينَ وأَوضح، وهكذا شأنُ الأنبياء، كلُّ أمرِهم بيِّنٌ واضح، ليس فيه خَفاءٌ ولا ترويج، ولهذا لم يقل: ليلاً. لكن نهاراً ضحى»[1].

إشارات وإيحاءات من اختيار موسى للموعد:

ويمكنُ أنْ نستخرجَ من قولِ موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٢.

﴿ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ الإشاراتِ والإيحاءات التالية:

١ ـ لم يَرهبْ موسى ولم يَخفْ من الجيشِ الكبيرِ من السحرة الذين حشرهم فرعون، والذين أحضروا معهم سحرَهم. فموسى سيواجهُ هؤلاء ومعه عصاه، لكنه يوقنُ أنَّ اللّهَ معه ينصرُه ويؤيدُه، ولذلك لم تُخِفْهُ كثرةُ السحرة، ولا قوةُ الاستعدادات، وبقي ثابتاً مستعداً لمواجهةِ كلِّ هؤلاء.

٢ ـ موسى حريصٌ على أنْ يَرى أكْبرُ عددٍ ممكن من الناس أَحداثَ المباراة، وتجلَّى حرصهُ في المظاهر التالية:

ـ اختيارُ يوم عيد ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، حيثُ يتفرغُ الناسُ للمباراة.

ـ اختيارُ مكانٍ سُوىً، واسعٍ بارز، ليشاهدَ الجميعُ المباراة.

ـ اختيارُ وقتِ المباراة في ضحى النهار، ليشاهدَ الناسُ المباراةَ بعيونهم، فيُحسنوا الحكمَ على ما يَجري فيها.

٣ ـ إنَّ أصحابَ الحق حريصون على توصيلِ الحقِّ لأكبرِ عددٍ ممكن من الناس، وحَريصون على أنْ يكونَ عملُهم ظاهراً معروفاً، وليس خفياً مجهولاً. وإنَّ النورَ والعلنَ يساعدُ على انتشارِ الحق، فليس عندَ أصحابِ الحق ما يخجلونَ من كشفه، أو يَخافون من إِظهاره، ولهذا يختارون العلنَ والنورَ للعملِ ومخاطبةِ الناس.

أَمّا أَصحابُ الباطل فهم الذين يختارون الاستخفاءَ عن الناس، والعملَ في الظلام، لأَنهم يريدون التمويهَ والخداع، ويساعدُهم الظلام في ذلك، ولو عَملوا في العلنِ والجهر والنور أمامَ أبصارِ الآخرين فإنهم سيفتضحون وينكشفون!

ولهذا اختارَ موسى ضحىً يومِ الزينة ليكونَ عملُه علناً جهراً لا سرّاً وخفاءً، وليكونَ في النورِ لا فِي الظلام، ليفرقَ المشاهدون بين الحقِّ الذي معه والباطل الذي مع السحرة.

٤ ـ إنَّ أصحابَ الحق يردّون على تحدّي أصحابِ الباطل بتَحَدٍّ آخر، فلا يَنهزمون من الميدان، ولا يَخرجون من الساحة، ولا يَخافون عند المواجهة.

فها هو فرعونُ يتحدّى موسى بجمعِ السحرة له، ويَدعوهُ إلى اختيارِ مكانٍ وزمانٍ ووقتِ التحدّي والمباراة، وها هو موسى يردُّ على التحدي بتحدٍّ آخر، ويطالبُ بإحضارِ الناس ليشاهدوا المواجهةَ والحسم.

اهتمام الناس بالموعد القادم:

وتمَّ تحديدُ ضحى يوم الزينة للمباراة، وتمَّ إعلامُ الناس بذلك، واهتمَّ الناسُ بالحدثِ المثير، فلأولِ مرة يقفُ رجلان اثنان ـ موسى وهارون عليهما السلام ـ أمامَ فرعونَ الطاغيةِ المستبد، ويرفضان الخضوعَ له، ويُعلنان أنه ليس إلهاً ولا رباً، وأنَّ اللّهَ هو إلهُ الناس وربُّهم، ويَدْعُوان فرعونَ وقومَه للدخولِ في دين الله، ويواجهان فرعونَ ويتحدَّيانه، يحدُثُ هذا لأولِ مرة أمامَ الفراعنة، فالأمرُ خطيرٌ عجيبٌ مثير، يستحقُّ أنْ يتابعَ الناسُ تطوراتِه المتلاحقة المفاجئة!

ثم إنَّ ما يقدمُه موسى من آياتٍ أمرٌ يدعو للإثارة، فيدُه السمراءُ تتحولُ إلى بيضاء، والأعجبُ من هذا أنه عندما يُلقي عصاه الخشبيةَ تتحولُ إلى ثعبانٍ حي، فما هذه الآيةُ المثيرةُ المدهشة؟

ثم إنَّ فرعونَ حشدَ السحرة وحشرَهم من مختلفِ المدائن، وأحضرَ كلُّ ساحر ما يقدرُ عليه من أدواتٍ سحرية، وسيقفُ موسى وهارون أمامَ هؤلاء جميعاً، يتحدَّيانهم!

أَلا يدعو هذا الأمرُ العجيبُ الخطيرُ المدهشُ إلى الاهتمام والمتابعة؟

لذلك صارتْ «دعوةُ موسى» ومواجهتُه لفرعون وتحدّيه للسحرة، حديثَ الناس في بيوتهم ومجالسهم، وصارَ حلولُ موعدِ المباراة في

ضحى يوم الزينة موعداً للناس ينتظرونه بلهفة وشوق.

وبذلك نجحَ موسى عليه السلام في نقلِ دعوتِه من حوارٍ خاصٍّ مع فرعون بين جدرانٍ ضيقة وخلْفَ أبواب مغلقة، إلى مكانٍ واسع سُوىً، وتحويلِها إلى حَدَثٍ شعبي، يهمُّ الناسَ كلَّهم، ويَحرصون على متابعة مشاهده المتلاحقة.

وهذا من حكمةِ موسى عليه السلام في الدعوة، ومن قَدَرِ اللّهِ الذي وفَّقَه هذا التوفيق، والذي قَدَّرَ وقوعَ الأحداث لتحقيق ما يريد سبحانه.

تصوير موقع المعركة ضحى يوم الزينة:

وحانَ موعدُ التحدي والمباراة، وجاءَ ضحى يومِ الزينة، وذهبَ الناسُ إلى المكان السُّوىٰ المعدِّ لذلك، ليشاهِدوا ما يجري، ويُتابعوا ما سيحدث!

وامتلأَ المكانُ الواسعُ بالناس القادمين، وضاقَ ـ على سَعته ـ بأعدادهم الكثيرة المهتمة بالحدث..

وجيء بالسحرة، ومع كلٍّ منهم أَدواتُه السحرية، وأَخذَ الملأُ من قوم فرعون مقاعدَهم، وهُيِّءَ لفرعونَ مجلسُه العظيمُ المتفقُ مع فرعنته وطغيانه.

وجاءَ موسى وأخوه هارون عليهما السلام، لا يحملُ موسى إلاّ عصاهُ، يتوكأ عليها.

واستغربَ المشاهدون من المنظر، سَحَرةٌ كثيرون ومعهم أَدواتُهم، وملأٌ مستنفرون، وفرعونٌ منتفشٌ متكبر، ورجلان اثنان يتحدّيان الجميعَ بعصا!!.

فرعون يجمع كيده ويأتي:

وقد لخصتْ آيةٌ واحدةٌ قصيرة هذا الحشدَ والحشرَ والتهيئة، قال

تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

وتُصَوِّرُ تلكَ الآيةُ الواحدةُ القصيرةُ ثلاثَ حركاتٍ متواليات: ذهابَ فرعون، وجمْعَ كيده، والإتيانَ به»[1].

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: توجَّهَ نحو البلاد ليواجه موسى، وأَصدرَ أمرَه للملأ ليأمُروا حكامَ المدائن والأقاليم بجمعِ وحشرِ السحرة. فهو تولّي حشد، وليس تولّيَ إدبارٍ وانصراف.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: جمعَ وحشدَ كلَّ ما يقدرُ عليه لمواجهة موسى عليه السلام، وسخَّرَ كلَّ مرافقِ الدولة ومؤسساتها وإمكاناتها، ووظفَ لذلك رجالَها وأموالَها وجنودَها. واعتبرت الآيةُ هذا الأمر «كيداً» لأنَّهُ وظفَه كلَّه للدفاع عنه، ولمحاربةِ الحق، ولمواجهةِ موسى والقضاءِ عليه.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾: أتى فرعونُ ومعه ما جمعه وحشده، وهو «كَمٌّ» كبير. بذلَ رجالُ الدولة كلَّ جهودِهم وطاقاتهم في حشْرِه، ولكنه لن يصمدَ على كثرتِه أَمامَ الحقِّ الواضح.

ولما نظرَ موسى إلى الحشدِ الكبير لم يفقدْ ثباتَه وهدوءَه، واستشعرَ أن اللّهَ معه بحفْظِه وتأييده، يَسمعُ ويرى كلَّ ما يجري، فازدادَ إيماناً ويقيناً، وتصميماً على المواجهة والتحدي.

موسى يبدأ بشن الحرب النفسية على السحرة:

وتصرَّفَ موسى مع هذا الحشدِ الكبير بحكمةٍ وفطنة، وأَرادَ أنْ يشنَّ عليهم حرباً نفسية قبلَ بدءِ المعركة، يزعزعُ فيها نفسياتهم، ويزلزلُ نظراتهم، ويُضعفُ معنوياتهم.

أَقبلَ على السحرةِ المتجمعين قائلاً: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٤١.

كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

﴿وَيْلَكُمْ﴾: كلمةُ ذمٍ وتوبيخٍ من موسى للسحرة، كأنه يقولُ لهم: ويلَكم ويحَكم، لماذا أنتم هنا؟ وماذا تُريدون أنْ تَفعلوا؟ ولماذا استجبتم لدعوةِ فرعون؟ ألا تفكِّرون في ما أنتم مُقْدِمون عليه؟.

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: وهذه إدانةٌ مباشرةٌ لهم، يقولُ لهم: أَنتم هنا مفترون كاذبون على الله، محاربون لدينه، وأنا لكم ناصحٌ أَمين: لا تَفتروا على الله كذباً، ولا تُحاربوا دينَه، ولا تَستجيبوا لعدوِّه فرعون!

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: معنى «يُسْحِتَ»: يُهلك ويُدمر. أي: إنَّ اللَّهَ لكم بالمرصاد، فإنْ أصررتُم على موقفكم، ولم تستمعوا لنصيحَتي، وافتريتُم على الله كذباً، فإنَّ اللّهَ سيصبُّ عليكم عذابَه، فيهلكَكم ويدمرَكم ويقضيَ عليكم، ولا يستطيعُ فرعونُ أنْ ينصرَكم ويدفعَ عنكم عذابَ الله.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾: كلُّ مَن افترى على الله كذباً فإنَّ نهايتَه هي الخيبةُ والخسارة، وهذه سنةٌ ربانية مطردة، تنطبقُ على البشريةِ في كلِّ زمان ومكان، ولا يفلتُ منها كاذبٌ مفتر.

وكأنَّ موسى بهذا يحكمُ على جهودِهم، ويَسْتَبِقُ الأَحداثَ ويَذكُرُ لهم نهايةَ المباراة، فهم مهزومون فيها، لأنهم كاذبون مفترون على الله، وقد خابَ مَن افترى، فلماذا يتحدَّوْن موسى ويحاربونه؟.

السحرة قسمان متنازعان أمام موسى:

لقد هزّتْ كلماتُ موسى عليه السلام السحرةَ هزّاً عنيفاً، وشكّكَتْهُم في جهودهم، وأَضعفَتْ همَمَهم وإِراداتِهم!

وحققتْ كلماتُه مفعولَها فيهم، بدليلِ اختلافِهم وتنازعِهم. قال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٢ ـ ٦٤].

انقسمَ السحرةُ إِلى قسمين:

القسم الأول: لمستْ كلماتُ موسى اليقينيةُ السابقةُ قلوبَهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾. وشكّوا في موقفِهم، وخافوا عذابَ الله، وعزفوا عن الاشتراكِ في المباراة، ورغبوا في عدمِ مواجهة موسى.

القسم الثاني: أَصروا على موقفِهم، ورغبوا في الاستمرارِ في المواجهةِ حتى النهاية.

ويُعتبرُ انقسامُ السحرة إِلى قسمين، وهم مدعومون مِن كلِّ رجالِ ومرافقِ وإِمكانات الدولة نجاحاً لموسى، وشهادةً بحكمته عليه السلام، ولقد واجَهَ الجبهةَ المعاديةَ له وهي بهذا التنازعِ والتشكك والانقسام.

دعوة السحرة للاتفاق صفاً واحداً:

ولما لاحظَ السحرةُ المتشددون تراجُعَ الآخرين وتشكُّكَهم قاموا بتشجيعِهم وتحميسِهم على الاستمرار، وذكَّروهم بخطرِ موسى عليهم وعلى مكاسبهم، ورغَّبوهم في الانتصارِ لينالوا ما وعدهم به فرعون!

قالوا لهم: لماذا ضعفتْ رغبتُكم في مواجهةِ وتحدّي موسى وأَخيه هارون؟ هل خفتُم منهما؟ هل صدَّقْتم موسى في تهديدِكم بوقوع العذاب؟ هل صدَّقْتم أَنهما نبيان من عندِ الله؟

كلاّ. ليسا كذلك. فما هما إِلاّ ساحران، وهما المفتريان الكاذبان على الله، وهما خطرٌ مباشرٌ عليكم وعلى وطنكم، لأَنهما يريدان أَنْ يُخرجاكم من أرضكم، ويُدمِّرا وطنكم! ويَذهبا بطريقتكم المثلى في الحياة، وهي عبادةُ فرعون، والاستفادةُ منه ومن نظامه!

ودَعْوَهُم إلى إزالة التردد، وإنهاءِ التنازع، والإقبالِ على المعركة المباراة بكلّ ما أُوتوا من قدرةٍ وطاقة، وتوحيدِ صفوفهم، ومواجهةِ موسى صفاً واحداً، وذلك ليفلحوا ويفوزوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾﴾.

ونَدعو إلى ملاحظةِ التوافق بين وصْفِ جهدِ فرعون وكيده: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾﴾ وبين طلبِ السحرة المندفعين من زملائهم المتردِّدين: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾﴾.

فاجتمعَ كيدُ فرعون مع كيدِ السحرة، للوقوفِ أمامَ الحق. والتعبيرُ عن الجهودِ بكلمةِ «كيد» - التي تُلقي ظلالَ الذمّ والسوءِ والمكر - له دلالةٌ مقصودة في هذا المقام!

توجيه قراءات ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾:

ونحبُّ أنْ نقدمَ فائدةً تفسيرية في قوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ من حيث القراءات وتوجيهها.

ففي هذه الآيةِ ثلاثُ قراءات صحيحة:

الأُولى: قراءةُ أَبي عمرو بن العلاء البصري - أَحَدُ القراء السبعة -: «قالوا: إنَّ هذَيْنِ لساحران».

وهذه القراءةُ وفقَ القاعدةِ النحوية عند جمهورِ النحويين، في عمل «إنَّ» وأَخواتها.

«هذَيْن»: اسمُ إنَّ منصوب، وعلامةُ نصبه الياء، لأنها اسمُ إشارة مثنى، والمشارُ إليهما: موسى وهارون عليهما السلام.

و«لساحران»: اللام. لامُ المزحلقة، داخلةُ على خبر «إنَّ» للتوكيد، و«ساحران» خبر «إنّ» مرفوع، وعلامةُ رفعه الألف، لأنه مثنى.

الثانية: قراءةُ نافع وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿قالوا إنَّ هذان لساحران﴾: بالألف في «هذان».

وللعلماءِ من القراءِ والمفسرين والنحويين كلامٌ كثير وأَقوالٌ عديدة، في توجيه هذه القراءة الصحيحة.

ومن أَشهرِ ما قالوه فيها أَنها جاءتْ وفقَ لغةٍ من لغات العرب، الذين يَجعلونَ إِعرابَ المثنى بالألف مطلقاً، سواء كان في حالةِ رفعٍ أَو نصبٍ أَو جر. وهي لغةُ «كنانة» القبيلةِ العربية المشهورة. يقولون: هذان رجلان. كان هذان رجلان: إنَّ هذان رجلان.

فعند هؤلاء: «إنّ»: الثقيلة: حرفُ توكيد ونصب. و«هذان»: اسمُ «إنّ» الثقيلة، منصوبٌ بالألف، و«ساحران» خبرها مرفوع بالألف.

ولعلَّ أحسنَ ما يقالُ في توجيهِ هذه القراءة أنَّ اسمَ الإشارة «هذان» مبني، وليسَ معرباً، لأنَّ المفردَ منه «هذا». وبناءُ المثنى الذي مفردُه مبنيّ أَفصحُ من إِعرابه[1]!!.

الثالثة: قراءةُ ابنِ كثير وحفص عن عاصم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بتخفيفِ «إنْ». والألف في «هذان».

ولا إِشكالَ في هذه القراءة، لأَنه عندما تخففُ «إنْ» فالأَوْلى أنْ تُلغى، فلا تعملُ فيما بعدها.

و«هذان» مبتدأٌ مرفوع بالألف، و«ساحران» خبره.

وعلى هذا يقولُ ابنُ مالك في الألفية:

وَخُفِّفَتْ «إنَّ» فَقَلَّ العَمَلُ وَتَلْزَمُ اللاّمُ إذا ما تُهْمَلُ

وهذه اللامُ هي التي في «لساحران»، وتسمى «لامَ الفرق»، وهي

---

(١) انظر هذا التوجيه في حاشية المحقق عمر الكبيسي على ما أورده ابن أبي مريم، حيث نسب هذا القول لابن تيمية نقلاً عن حذاق النحويين ٢: ٨٤٠، حاشية رقم (٢).

التي تفرقُ بين «إنْ» المخففة من الثقيلة الملغاة ولكنّ معناها مراد، وبين «إنْ» التي هي حرفُ نفي، وليستْ حرفَ توكيد[1].

والخلاصةُ أنَّ السحرةَ شَجَّعوا بعضَهم بعضاً على الاستمرارِ في مواجهة موسى وأَخيه، وكَرَّروا اتهاماتِ فرعونَ لهما بأَنهما ساحران مخربان!

وهكذا استعدَّ الفريقان للمباراة، السحرةُ من جانب، وموسى عليه السلام من جانب آخر، ولم يَبْقَ إلاّ البدءُ بها.

مكر السحرة في تخييرهم لموسى لبدء المباراة:

خَيَّرَ السحرةُ موسى في مَنْ يكون هو البادئ. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ..﴾ [الأعراف: ١١٥ ـ ١١٦].

وهذا الموقفُ منهم من بابِ حربهم النفسية ضد موسى، كما فعلَ فرعونُ معه من قبلُ عندما طلبَ منه تحديدُ موعدِ المباراة الذي يناسبُه، فالسحرةُ هنا يريدونَ أنْ يُشعروا موسى عليه السلام بأنهم فائزون غالبون، ولا فرقَ عندهم بين أنْ يُلقوا ما عندهم أولاً، أو يُلقي هو ما عندَه قبلَهم، فهم ضامنون للفوز.

ولكنَّ موسى ردَّ عليهم بكلِّ يقينٍ وثقةٍ وهدوء، ودَعاهم إلى أَنْ يُلقوا هم أَوَّلاً، فهو معتمدٌ على ربِّه، وهو موقنٌ بالفوز بإذنه سبحانه: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ [الأعراف: ١١٦]. أو: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ..﴾ [طه: ٦٦]. أو: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الشعراء: ٤٣] أو: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يونس: ٨٠].

وهذا فيه ما فيه من ازدرائِهم، وكأَنه يقولُ لهم: ابدءُوا أنتم أَوَّلاً،

---

(١) انظر القراءات في الآية وتوجيهها في: الموضح في وجوه القراءات لابن أبي مريم ٢: ٨٣٦ ـ ٨٤٠.

وألقوا ما عندكم، ألقوا ما أنتم ملقونَ من السحر، فأنتم مهزومون.

السحرة يعتزون بعزة فرعون:

وبما أنَّ السحرةَ كانوا كافرين بالله، مؤمنِين بفرعون، معتمدين عليه، راغِبين فيما عنده، فقد توكَّلوا عليه، واستنجدوا بعزتِه!

وقد سجلَ القرآنُ عبارتَهم الغريبة التي نطقوا بها عندما ألقوا سحرهم. قال تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ [الشعراء: ٤٤].

بعزةِ فرعون إنّا لنحنُ الغالبون؟ ومَن هو فرعون وما هي عزتُه؟ وماذا تساوي عزتُه وكبرياؤُه أمامَ عزةِ الله وقوتِه وكبريائه؟ وهل تقفُ عزةُ فرعون العبدِ المخلوقِ الضعيف أمامَ عزةِ اللّهِ الخالقِ القوي؟ وهل ينتصرُ مَن اعتزَّ بعزةِ فرعون الزائلةِ على مَن اعتزَّ بعزةِ الله الثابتة؟ صدقَ مَنْ قال: مَن اعتزَّ بغيرِ الله ذَلّ!!.

واعتزازُ السحرةِ بفرعونَ في قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يدلُّ على أنهم كانوا يَعبدون فرعون، ويَعتبرونه ربّاً وإلهاً، ولهذا اعتزّوا به، واعتمدوا على عزتِه!

حبالهم وعصيهم وسحرهم لأعين الناس:

وكان مع السحرة الكثيرُ من أدواتِ السحر، التي سَمّاها القرآنُ ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ وكانت حبالاً كثيرة وعصياً عديدة!!

وكان الناسُ يَنظرون إلى تلكَ الحبالِ والعصي، فيعجبون ويندهشون ويتأثّرون، بل إنَّ موسى عليه السلام لما نظرَ إليها تعجَّبَ وتأثّر قليلاً.

وقد أخبرَ اللّهُ عن أثرِ حبالِهم وعصيهم بقوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وبقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

تتحدثُ آيةُ سورةِ الأعراف عن تأثُرِ الناسِ بحبالِهم وعصيهم، أما آيةُ سورة طه فتتحدثُ عن ما تخيَّلَه موسى منها.

والكلامُ في الآيتين عن نوعِ ذلك السحر الذي جاءَ به السحرة، وقدَّموه من خلالِ حبالِهم وعصيِّهم التي أَلقوها.

والذي يؤخَذُ من كلامِ الآيتيْن عن سحرِهم أنه سحرٌ متخيَّل، لا حقيقةَ له، ولا رصيدَ له من الواقع، إنما يقومُ على الإيهامِ والتخييلِ والخداع، وسحْرِ العيون، وقذْفِ الرهبةِ في النفوس، بحيث يظنُّ المشاهدون وهم تحتَ تأثيرِ الرهبة أنه سحرٌ حقيقي، مع أَنه تخييلٌ وخداع!

ونَدعو إِلى ملاحظةِ أَبعادِ ودلالاتِ هذه الكلماتِ في آيةِ سورة الأعراف:

كان سحرهم تخييلاً وخداعاً لأنهم استرهبوا الناس:

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: أَي أَنهم أَثَّروا في أَعينِ المشاهدين، عن طريقِ الإيهامِ والتأثيرِ، فخطَفوا أَبصارَهم، وخلخلوا مقاييسَ الرؤية فيها، فصارتْ تتوهَّمُ أَنها ترى أشياء حية، وهي ليستْ حية، وأُصيبتْ أَعينُهم بعمى الألوان! فرأتْ لسحرِهم حقيقةً وواقعاً، أي أَنها رأتْ حبالَهم وعصيَّهم أفاعي وثعابين ضخمة، تتحركُ وتسعى، مع أَنها ليستْ كذلك في الواقع. وما هي إلاّ حبالٌ وعصِيٌّ جامدةٌ ساكنة!

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: مبالغةٌ من الرهبة التي قذفوها في نفوسِ وقلوب المشاهدين، الذين كانوا في حالةِ نفسيةٍ خائفةٍ قلقة متأثرةٍ بالسحر، منفعلةٍ بالسحرة، وكان الناسُ في الماضي ينظرونَ للسحرةِ نظرةً خاصة، تقومُ على الخوفِ والرهبة، ويؤمنون بالسحر إيماناً كبيراً، ويُثبتونَ لأَصحابِه القدرةَ على تغييرِ الحقائق، وفعْلَ كلِّ ما يريدون!

والهمزةُ والسينُ والتاء في «استرهبوهم» تدلُّ على التأكيد، وتُثبتُ «إِرهابَ» السحرةِ للمشاهدين.

إنَّ «استرهابَ» السحرةِ للمشاهدين هو السببُ في تأثرهم النفسي، ثم في تفاعُلِ واستجابةِ أعينهم لسحرهم، ورؤيتِها الأمورَ على غيرِ ما هي عليه، ورؤيتِها الحبالَ والعصيَّ ثعابين وأفاعي تسعى! ولولا الاسترهابُ النفسي لما سُحرتْ عيونُ المشاهدين.

﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾: هذه الجملةُ تعليلٌ للرهبةِ العظيمةِ التي أَصابت الناس، فقد شاهدوا سحراً عظيماً كبيراً ضخماً قدَّمَه السحرةُ أمامهم.

والتنكيرُ في ﴿بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ للتهويل والتضخيم. ويكفينا وصْفُ اللّهِ له بأنه سحرٌ عظيم لنتصوَّرَ مدى عظمتِه وضخامتِه وكثرته. لأَنه نتيجةُ كلِّ ما جمعوه وأَعدّوه وحشدوه ومكروا به، حيث وظفوا كلَّ ما يَقدرون عليه من الأدَواتِ والأساليب، وجَنَّدوا كلَّ ما عندهم من قدرات وكفاءات، ولم يتركوا من ذلك شيئاً، وكانت النتيجةُ سحراً عظيماً!

وهذا السحرُ العظيمُ هو السببُ في استرهابِ الناس وتأثرهم وانفعالهم النفسيِّ بما هو أَمامهم، وهذا الاسترهابُ قادَ إلى سحرِ أَعينهم، واختلالِ الرؤية فيها، ورؤيتِها الجامدَ الساكنَ ثعباناً حياً متحركاً!!

الحالة النفسية المنهارة للخائف المرهوب:

إنَّ الخائفَ المرهوبَ يرَى الأَشياءَ على غيرِ ما هي عليه، وهي حالةٌ نفسيةٌ معروفة. عَبَّرَ عنها الشاعرُ المتنبيُّ في مدْحِه لسيفِ الدولة الحمداني، حيثُ قالَ في تصويرِ مدى الخوف الذي سيطرَ على أعدائِه الروم:

وَضاقَتِ الأَرْضُ حَتّى كانَ هارِبُهُمْ ... إذا رَأىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَـنَّـهُ رَجُـلاَ

لقد كان الروميُّ الهاربُ يعيشُ حالةَ رهبة نفسية عجيبة، فإذا رأى

وهو هاربٌ يجري «غيرَ شيء» أَمامَه!! ظنّه رجلاً مهاجماً له، حاملاً سيفَه ليقتله، مع أنه ليسَ شيئاً أساساً.

فإذا كان هذا وضعُ الخائفِ مع «غير الأشياء»، فكيفَ يرى الخائفُ المرهوبُ سحراً عظيماً أمامه، متمثلاً في حبال وعصي؟؟

قال سيد قطب عن ظلال قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: «وحَسْبُنا أنْ يقررَ القرآنُ أنه سحرٌ عظيم، لندركَ أيَّ سحرٍ كان، وحَسْبُنا أنْ نعلمَ أَنهم سَحروا ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، وأَثاروا الرهبةَ في قلوبهم: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ لنتصوَّرَ أيَّ سحرٍ كان. ولفظُ «استرهبَ» ذاتُه لفظٌ مصوِّر. فهم استجاشوا إِحساسَ الرهبةِ في الناس، وقَسَروهم عليه قسراً. ثم حَسْبُنا أنْ نعلمَ من النصِّ القرآني الآخر في سورةِ طه، أنَّ موسى عليه السلام قد أوجسَ في نفسه خيفة، لنتصورَ حقيقةَ ما كان»[1].

خيل السحر لموسى ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾:

ومما يدلُّ على أنَّ سحْرَ السحرة في تلك المباراةِ كان تخييلاً وخداعاً وليست له حقيقةٌ واقعية هو ما ذكرتْه آيةُ سورة طه، من أنَّ موسى نفسَه عليه السلام تخيَّلَ أنَّ حبالَهم وعصيَّهم أَفاعيَ تسعى!!: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

الضميرُ في ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يَعودُ على موسى عليه السلام. و﴿يُخَيَّلُ﴾ مضارعٌ مُسْنَدٌ لغيرِ الفاعل، وفاعلُه محذوف. وتقديرُ الفاعل: فإذا سحرُهم يُخَيِّلُ لموسى أنَّ حبالَهم وعصيَّهم أفاعي تسعى، وليستْ مجردَ حبالٍ وعصيّ!!

وإذا كان سحرُهم يُخَيِّلُ لموسى عليه السلام أنَّ حبالَهم وعصيهم أفاعي تسعى، وهو الرسولُ المؤيَّدُ بالوحي، فكيفَ بالناسِ المشاهدين

---

(1) في ظلال القرآن ٣:١٣٤٩.

غيرِ المؤمنين الخاضعين لسلطانِ السحرِ والسحرةِ؟ ليس غريباً أنْ «يسترهبَ» السحرةُ هؤلاء الناس، وأنْ يَسحروا عيونَهم.

والخلاصةُ أنَّ السحرَ الذي قَدَّمَه السحرةُ في تلك المباراة من خلال الحبال والعصي كان من بابِ التخييل والخداع، وليسَ له رصيدٌ من الواقع، فكان ما معهم حبالاً وعصياً حقيقية ماديةً جامدة، وبقيتْ هكذا، حتى لما أَلقوها لم تتغيّر، فهي حبالٌ وعصي، لكنَّ المشاهدين تخيَّلوها أَفاعي، حتى موسى عليه السلام تخيَّلَها أَفاعي تسعى للحظات!!

السحر نوعان: تخييلي، وحقيقي ضار بإذن الله:

ونستدركُ قائلين: إنَّ هذا لا يعني أَنَّ كلَّ السحرِ هو تخييلٌ وخداع ولا حقيقة له. فالراجحُ أَنَّ السحرَ نوعان:

الأول: سحرٌ قائمٌ على خفةِ ومهارةِ الساحر، وقدرتِه على خداعِ المشاهدين وسحرِ عيونهم، وتخييلِ الأمْرِ لهم على غيرِ صورتِه المادية، وما يقدِّمُه من سحرٍ ليس له رصيدٌ من عالمِ الواقعِ والحقيقة. وهذا معظمُ ما يقدِّمُه السحرة. ومن هذا النوع سحْرُ السحرةِ أَمامَ موسى عليه السلام.

الثاني: سحْرٌ له حقيقةٌ ورصيدٌ من الواقع، وقد يغيِّرُ الساحرُ بعضَ الأشياء بإذن الله، وهذا السحرُ قد يضرُّ مَنْ وُجِّهَ له ويُؤذيه، لكنْ بإذنِ الله أيضاً.

ومن هذا النوعِ سحْرُ أهلِ بابل الذي تعلَّموه من هاروت وماروت، حيث كانوا يُفرقون به بين المرءِ وزوجه بإذن الله، ويضرّون به الآخرين بإذن الله. قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ

وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الخيفة التي أوجسها موسى في نفسه:

ماذا فعلَ موسى عليه السلام عندما شاهدَ ما شاهد؟

تدسَّسَ الخوفُ إلى نفسه قليلاً. فأدركَه التثبيتُ سريعاً من الله! قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨].

والتوجُّسُ لا يكونُ إلاّ مقترناً بالخوف، وهو يكونُ في النفس، فهو حالةٌ نفسيةٌ شعورية، وإذا تعمقَتْ في النفوس والشعور أدَّتْ إلى الخوفِ الفعلي، الذي يَنتجُ عنه التخلّي والتركُ للفعل.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن التوجس: «الوَجَسُ: الصوتُ الخفيّ، والتوجُّس: التَّسَمُّع. والإيجاس: وجودُ ذلك في النفس. قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. قالوا: فالوجَسُ هو حالةٌ تحصلُ من النفس بعد الهاجس، لأنَّ الهاجسَ مبتدأُ التفكير، ثم يكونُ الواجس ثم الخاطر»[١].

فالتوجُّسُ مبنيٌّ على الهاجس، وهو نداءٌ نفسيٌّ خفي، ووسواسٌ نفسيٌّ داخلي، يكونُ بسببِ مرورِ الإنسانِ بحالة معينة.

لقد أَوجسَ موسى خيفةً في نفسه. ومن دقةِ التعبيرِ القرآني أنه عبَّرَ عن توجُّسِه بكلمةِ «خيفة» وليسَ بكلمةِ «خوف».

وفرْقٌ بين الخوفِ والخيفة.

قال الإمام الراغب: «الخوف: تَوَقُّعُ مكروهٍ عن أَمارةٍ مظنونة أو معلومة..».

«والخيفة: الحالةُ التي عليها الإنسانُ من الخوف، قال تعالى:

---

(١) المفردات: ٨٥٥.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾.

«والتّخوُّف: ظهورُ الخوفِ من الإنسان..»[1].

فالتعبيرُ عن الحالةِ العَرَضيةِ التي مَرَّتْ بموسى عليه السلام بكلمةِ «خيفة» بَدَل «خوف»، وتعيينُ هذه الحالة بأنها كانتْ في نفسِه، يشيرُ إلى أنها كانتْ حالةً نفسيةً عرضية سريعة، سرعانَ ما زالَتْ وتلاشت، وحلَّ محلَّها يقينُه وثقتُه وثباتُه، وهذا التوجُّسُ النفسيُّ لم يؤثِّرْ على موقفِه وتحدّيه، ولم يتحوَّلْ إلى «خوفٍ» وجودي، ينتجُ آثاراً عملية سيئة!!

الله يتدارك موسى ويثبته لأنه الأعلى في كل شيء:

ثم إنَّ هذه الخيفةَ النفسيةَ سرعان ما زالت، عندما تداركَ اللّهُ موسى، وعافاه منها، وقال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وتدارُكُ اللّهِ لموسى في لحظةِ التحدي الكبير والمواجهةِ الخطيرة يؤكِّدُ ما قالَه له من قبل: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦].

قالَ اللّهُ لنبيه عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا تخفْ يا موسى من سحرِهم وحبالِهم وعصيهم، ولا تخفْ من كيدِهم وحشدهم، ولا تخفْ من اعتزازِهم بفرعونَ المتكبرِ المستعلي! إنكَ أنتَ الأَعلى! أَنت الأَعلى من الحاضرين، والأَعلى من السحرة المتآمرين، والأَعلى من الملأ الموجودين، والأَعلى من فرعون نفسِه المستكبرِ المنتفش أمامك، أَنت الأَعلى مِن كلِّ مَنْ أمامك، وما معك هو الأَعلى من كلِّ ما هو معهم!

أَنت الأَعلى بالحقِّ الذي معك، مقابلَ الباطلِ الذي معهم، وأَنتَ الأَعلى بالإيمان الذي معك، مقابلَ الكفرِ الذي معهم، وأنت الأَعلى

---

(١) المرجع السابق: ٣٠٣.

باليقينِ الذي معك، مقابلَ الشكِّ والتنازعِ الذي معهم.

وقبلَ هذا كلِّه أنت الأَعلى لاتصالِك بالله ربِّ العالمين الأَعلى، واعتمادِك عليه، مقابلَ اتصالهم هم بفرعونَ واعتزازِهم، فماذا يُساوي فرعونُهم الأَدنى أَمامَ ربك الأَعلى، الذي معك يسمعُ ويرى؟ لهذا لا تخفْ يا موسى، فإنك أَنتَ الأَعلى!

قال سيد قطب: «لا تخفْ إنك أنتَ الأَعلى، فمعكَ الحق ومعهم الباطل، معك العقيدةُ ومعهم الحرفة، معك الإِيمانُ بصدقِ ما أنتَ عليه، ومعهم الأَجرُ على المباراةِ ومغانم الحياة، أنتَ متصلٌ بالقوة الكبرى، وهم يَخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً، مهما يكن طاغيةً جباراً..»[1].

زالتْ خيفةُ موسى السريعة عليه السلام، وحلَّ محلَّها يقينُه بأنه هو الأَعلى، وعاشَ موسى لحظتَها حالةً متألقةً متوهجةً من «استعلاء الإِيمان»! ونظرَ من «عُلُوٍّ نفسي» متألقٍ إلى مَنْ حوله، مِن فرعون وملئِه وجنودِه وأتباعه وسحرته، فإذا به يراهم أَقزاماً، ويرى نفسَه «الأَعلى» منهم لاتصالِه بالله. ونظرَ أَيضاً من عُلُوٍّ نفسيٍّ إِلىَ ما قدمَه السحرةُ من حبالِهم وعصيهم، فإذا به يراها على حقيقتِها وتفاهتِها، وما هي إِلاَّ «فقاعاتٌ فارغة»، وزبدٌ منتفش، سرعانَ ما يذهبُ هباءً.

موسى يهز نفسيات السحرة ثم يلقي عصاه:

وقبلَ أنْ يلقيَ موسى عصاه، توجَّهَ إِليهم قائلاً: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

إنهُ كلامُ الواثقِ الثابت، يهزُّ الطرفَ الآخرَ هزّاً، رغمَ ما قدّموه من سحرٍ عظيم. يخبرُهم أنَّ ما قدَّموه فهو سحرٌ وخداعٌ وتخييلٌ وتزييف، ليس له وجودٌ ولا حقيقة، ومن ثم ليس له أثرٌ ولا تأثير.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٤٢.

وهو يخبرُهم بأَنه يواجهُهم ويتحدّاهم معتمداً على اللّهِ ربِّ العالمين، وإنّ اللّهَ سيبطلُ سحرَهم العظيم، ويكشفُ ما فيه من تزييفٍ وخداع، وإنّ اللّهَ سينصرُه هو عليهم.

ويقدِّمُ لهم ـ ولَنا من بعدهم ـ سنةً ربانيةً مطردة، تَحكمُ حياةَ الناس أينما كانوا، وهي أنَّ اللّهَ لا يُصلحُ عملَ المفسدين، ولا يؤيِّدُهم ولا يوفقُهم، وإنما يُبطلُ أعمالَهم، ويَجعلُهم يخسرون ويفشلون، ثم يندمون ويتحسرون.

وبما أَنهم سحرةٌ مفسدون، فإنَّ الله لا يصلحُ عملهم، وبما أنَّ فرعونَ الذي يعتزّون به مفسدٌ، فإن اللّهَ لا يُصلحُ عملَه!.

عندَ ذلك أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يلقيَ عصاه التي في يمينِه.. لقد كانت العصا في يمينه، وكان المشاهدون جميعاً ينظرونَ إلى موسى، ليعرفوا ماذا سيفعل أمام السحر العظيم، أمامَ الحبالِ والعصيّ التي رأَوها تسعى.

لقد سمعوا عن عصاهُ الخشبيةِ التي تتحوَّلُ إلى أفعى تسعى، لكنها ماذا ستفعلُ أمامَ الأفاعي الكثيرةِ الضخمةِ التي تَسعى؟

وأَلقى موسى عصاه، وتحوَّلَتْ إلى ثعبان مبين، ووقعت المعجزةُ الباهرة، ولقفتْ كلَّ ما قدَّمه السحرةُ من حبالٍ وعصيّ، وعرفَ السحرةُ الحق، وأَنه مع موسى وليس معهم، وأَشرقَتْ قلوبُهم بالإِيمانِ فخرّوا ساجدين لله، وأَعلنوا إيمانَهم بالله!!!

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٦٩ ـ ٧٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟

صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٥ ـ ٤٨].

كان موسى عليه السلام يمسكُ عصاهُ بيده اليمنى، وكانت الأَنظارُ متوجهةً إليه، تنتظرُ ما سيفعلُه، فأمَرَه اللّهُ بإلقاءِ عصاه من يمينه على ما أَمامه من حبالٍ وعصي: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾.

عصا موسى ثعبان تلقف ما يأفكون:

ونظرَ المشاهدون جميعاً إلى عصاه، فإذا بها تتحولُ إلى ثعبانٍ مبين، وأَفعى حقيقية، وشاهدوا الحيةَ التي صارتْ تسعى، إنها تسعى سعياً حقيقياً، وفيها حياةٌ حقيقية، وليس الأمرُ سحراً ولا تخييلاً كما في الحبال والعصي..

ونظرَ القومُ إلى الحية التي تسعى، فإذا بها تهجمُ على ما أَمامَها من حبالٍ وعصي، فتلقفها واحدةً واحدة، حتى أتتْ عليها كلِّها وابتلعَتْها، ولم تُبقِ منها واحدة.

دهشَ القومُ مما يرون، إنَّ ما أَلقاه موسى عصا، تحولَتْ إلى أفعى، وقضَتْ على كلِّ ما أَمامها، فليس الموضوعُ موضوعَ سحر، إنما هو حقيقة، وموسى ليس ساحراً إذن!!

لقد أخبرَ اللّهُ موسى أنَّ عصاه ستلقفُ ما أَلقاهُ السحرة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وما ذكره اللّهُ لموسى تعليلٌ لسببِ قضاءِ العصا على ما أَلقوه، لأنَّ كلَّ ما قدموه إنما هو سحر، وهو ثمرةٌ لكيدِهم وباطلِهم، وإنَّ الساحرَ لا يفلحُ أبداً، ولهذا لم يُفلحوا.

أَلم يقلْ موسى عليه السلام للسحرة هذه الحقيقة قبلَ قليل؟

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١].

حكمة التعبير عن ابتلاعها باللقف لما يأفكون:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني عن حادثةِ قضاءِ العصا الحية على الحبالِ والعصي، أنه ركَّزَ على «اللقف».

ففي سورة الأعراف قال: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

وفي سورة طه قال: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾.

وفي سورة الشعراء قال: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنَّ «تَلْقَف» لم يَرِدْ في القرآن إلاّ في هذه المواضعِ الثلاثة.

فما هو معنى «اللَّقْف»؟

اللطيفُ في معناه ما ذكَرَه الإمامُ الراغب: «لَقَفْتُ الشيءَ أَلْقَفُه، وتَلَقَّفْتُه: تناوَلْتُه بالحذق، سواءٌ في ذلك تناوله بالفمِ أو اليد..»[1].

فاختيارُ فعل «تَلْقَفُ» للتعبيرِ عن ابتلاعِ العصا الحية للحبال والعصي مرادٌ مقصود. لأَنه يدلُّ على مهارةِ العصا الحية وحذقِها في الْتقافِ والتقام الحبالِ والعصيّ. لقد ابتلعَتْها بحذقٍ وإتقان، وتلذُّذٍ وتفنُّن، وسطَ أنظارِ المشاهدين المشدوهة!

وهذا ليعرفوا أَنها تلقفُ ما أَمامها لَقْفاً حقيقياً، وتتناولُه بحذق، وتبتلعُه بمهارةٍ وإتقان، وتُدخلُه جوفَها، وكأَنَّهم يسمعونَ صوتِ ازدرادِ العصا الحية لما تلقَفُه، وكأنهم يسمعونَ صوت سيرِ ما تلقَفُه في جوفها، فالأمْرُ حقيقةٌ وليس تخييلاً.

---

(١) المفردات: ٧٤٤.

وإذا كان القرآنُ قد عبَّرَ عن ابتلاعِ العصا الحية بفعلِ «تَلْقَفُ» الدالّ على الحذقِ والمهارة، فإنه عبَّرَ عن حبالِهم وعصيهم بلفظ «يأفكون».

ووردَ هذا في سورتين: الأعراف والشعراء: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

والإفكُ هو الكذبُ والافتراء. وما قدمَه السحرةُ لم يكن حقيقةً، وإنما كان إِفكاً وكذباً، ولا بدَّ أنْ يزول!

أَلَمْ ينصحْهُم موسى عليه السلام قبلَ إِلقائهم إفكهم؟ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

والآنَ ها هو قد تحققَ ما حذَّرَهم منه، وها هي العصا الحية تلقفُ ما يأفكون، وتَقضي على ما يَفترون ويكذبون!!

الحية تعود عصا بعدما لقفت ما يأفكون:

والمثيرُ هو أينَ وضعت العصا الحيةُ ما لقفَتْه وابتلعَتْه من الحبالِ والعصيّ؟ لقد كان ما قدَّمَه السحرةُ سحراً عظيماً، وألقوا «كَمّاً» كبيراً من الحبالِ والعصيّ. ولعلَّه كان يَزِنُ «أطناناً»!

وها هي العصا الحيةُ تلقفُ وتبتلعُ كلَّ هذه الأطنان! فأينَ وضعَتْها؟ وما هي معدتُها التي حوَتْها؟

وبينما دهشَ وفوجئَ الحضورُ جميعاً بهذا المنظر، كانت دهشتُهم أكبرَ عندما شاهدوا الحيةَ الكبيرة تتوقفُ بعدما لقفَتْ ما أَمامَها، فيُقبلُ عليها موسى عليه السلام بدونِ خوف، ويمسكُها بيدِه، ويحملها، ويرفعُها أَمامَهم، إِنها أفعى وهي لا تلدغُه.

ثم كانت دهشتُهم مضاعفة، عندما شاهَدوا الحيةَ تتحولُ في يدِ موسى إِلى عصا خشبية، كما كانت.

إنَّ الأمْرَ أمْرُ الله وليس أمْرَ موسى عليه السلام، فاللّهُ هو الذي نفخَ فيها الحياةَ أمامَ الناظرين، واللّهُ هو الذي سلبَها الحياةَ أمام «المندهشين».

وما موسى عليه السلام إلاّ سبب، أَجرى اللّهُ الآيةَ المعجزةَ على يديه.

انتصار الحق وهزيمة فرعون وملئه:

بهذا المشهدِ المثيرِ نَصَرَ اللّهُ الحق، وهزمَ الباطل: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

إنَّ الكلامَ هنا عن فرعون وملئِه وجنوده، فعملُهم هو الذي بطلَ وزال، مِن حشدِهم وحشرِهم للسحرة حتى لَقْفِ العصا الحية لسحرِ السحرة، وبذلك غُلبوا وهُزموا، وانْقَلبوا صاغرين أَذلاء، خاسئين مهانين.

وهكذا هزمَ اللّهُ فرعونَ الطاغيةَ المتجبرَ المستكبر، وظهرتْ هزيمتُه أَمامَ ملئِه وجنوده وقومه..

وهكذا «انقلبَ السحرُ على الساحر» كما يقولون، فقد حشدَ فرعونُ الناسَ ليشهدوا هزيمةَ موسى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾. وإذا بهم يشهدونَ هزيمةَ فرعونَ نفسِه، وهزيمةَ نظامه!

قال سيد قطب: «إِنه الباطلُ، ينتفش، ويسحرُ العيون، ويسترهبُ القلوب، ويخيَّلُ إِلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه مُحيق، وما هو إلاّ أَنْ يواجِهَ الحقَّ الهادئَ الواثقَ حتى ينفثئَ كالفقاعة، وينكمشَ كالقنفذ، وينطفئَ كشعلةِ الهشيم! وإذا الحقُّ راجحُ الوزن، ثابتُ القواعد، عميقُ الجذور.. والتعبيرُ القرآني هنا يُلقي هذه الظلال، وهو يصوِّرُ الحقَّ واقعاً ذا ثِقَل: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾.. وثبت، واستقر.. وذهبَ ما

عداه فلم يَعُدْ له وجود: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وغُلِبَ الباطلُ والمبطلون، وذُلّوا وصُغِروا وانكمشوا بعد الزهوِ الذي كان يبهرُ العيون..»[1].

السحرة يسجدون ويؤمنون برب العالمين:

وأكثرُ المواقفِ دهشةً وانفعالاً، ومفاجأةً وتأثيراً، في هذا المشهدِ العجيبِ المثير - مشهدِ المباراة والتحدي - كان موقفَ السحرة، وردَّ فعلهم على ابتلاعِ عصا موسى لحبالهم وعصيهم.

لقد دخلَ الإيمانُ قلوبَهم فأنارها وشعشعَ فيها، وفكَّروا في لحظةٍ في ما يشاهدون، إذ كيفَ تبتلعُ عصا موسى ما قدَّموه؟

إنهم يعلمونَ أنَّهم سحرة، وأنَّ ما قدَّموه من حبالٍ وعصي كان سحراً، وهم ماهِرون في السحر، مُتقنون له، عالمون به.

ولما شاهَدوا عصا موسى تتحولُ إلى أفعى تَسعى، علموا أنَّ الأمْرَ ليس سحراً، وإنما هو على الحقيقة، فلو كان سحراً وتخييلاً وخداعاً لعرفوه.

ولمّا شاهدوا هذه الأفعى الحقيقيةَ تلقفُ كلَّ ما قَدَّموا حقيقة، علموا أنَّ وراءَ الأمر ما وراءه، وأنَّ الدعوى التي يقدمُها موسى صحيحة.

علموا في لحظةٍ إيمانية أنَّ الذي حَوَّلَ العصا أفعى ليس موسى، بل اللّهُ الخالقُ، الذي نفخ فيها الحياة، وعلموا في لحظةٍ أنَّ اللّهَ القادرَ هو الذي جعلَها تلقفُ كلَّ ما أمامَها من حبالٍ وعصي.

إذن: إنَّ الإلهَ والربَّ ليس فرعونَ المتأله، وإنما اللّهُ ربُّ العالمين، وموسى وهارون صادقان في دعوى النبوة، واللّهُ ربُّ العالمين هو الذي أرسلَهما وبعثَهما، ودليلُ ذلك الآيةُ البينةُ التي أجراها اللّهُ على يد موسى.

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٥٠.

هذا التفكيرُ الإيمانيُّ السريع فكَّرَ فيه السحرةُ في لحظة، ثم أتْبعوه بخطوةٍ عملية، حيثُ قاموا بحركةٍ مثيرة أَمامَ المشاهدين جميعاً، فرعونَ والملأُ والجنودِ والمدعوين، حيث خَرّوا ساجدين، للّهِ رب العالمين، وأَعلنوا إِيمانهم بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون. قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾!!

[٦]

من سحرة إلى شهداء بررة

كانت نتيجةُ التحدي بين موسى والسحرة انتصارَ الحق وهزيمةَ الباطل، وانحيازَ السحرةِ إِلى جانب الحق، بعدما كانوا منحازين إِلى جانبِ الباطل الفرعوني.

كان السحرة مرتزقة عابدين لفرعون:

جاءَ السحرةُ فرعونَ «مرتزقة»، طالبين أَجْره، راغبين في دنياه، قائلين له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؟

ورغَّبهم فرعونُ بقوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

وتواصَوْا بالاجتماعِ والاتفاقِ قُبيل إِلقاءِ سحرهم، وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

وكانوا مؤمنين بفرعون، عابدين له، متوكِّلين عليه، معتزِّين به، ولما أَلقوا حبالَهم وعصيَّهم اعتزّوا واستنجدوا به: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولكنهم فوجئوا بعصا موسى الحيةِ تلقفُ ما يأفكون، وتبتلعُ

حبالَهم وعصيَّهم في لحظة، ثم تعودُ عصا خشبيةً يابسة!

عندها فكروا لحظة: إنَّ ما مع موسى ليس سحراً، وإنما هو من أَمْرِ الله، فاللّه هو الذي جعلَ العصا حية، وهو الذي أَمرها بلقْفِ ما أَلقَوْا من سحر، وهو الذي أَعادَها عصا.

فتحولوا إلى مؤمنين بالله:

وخرجوا بِنَتيجَةٍ يقينية: موسى رسولٌ من عندِ الله، واللّهُ هو ربُّ العالمين، وموسى على الحق. أما فرعونُ فإنه ليس ربّاً ولا إِلهاً، وإنما هو كاذبٌ كافرٌ مفتر، فهو على باطلٍ وضلال.

وخطا السحرةُ خطوةً عمليةً يقينية مثيرة، لأَنهم لا يريدون أنْ تبقى معرفتُهم بالحقِّ ذهنيةً نظرية، وإِنما يُتبعونها العملَ الواقعي.

فاجأَ السحرةُ فرعونَ وملأَه وجنودَه بسجودِهم وإعلانِ إيمانهم: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢].

لقد أَقدمَ السحرةُ على هذه الخطوةِ وهم يعلمون خطورةَ ما هم مُقْدِمون عليه، لكنهم كانوا صادقين في إِيمانهم القوليِّ والفعلي.

يَعرفونَ فرعونَ وطغيانَه، وظلمَ واستبدادَ ملئه، ويَعرفون أَنهم مُقْدمون على التعذيبِ الرهيب، وأَنهم بإيمانِهم خسروا ما عندَ فرعون من مالٍ وجاهٍ ومركز وقربى!!

وإيمانهم العلني فضيحة لفرعون:

لكنهم يَعرفون الثمنَ الكبيرَ الذي ينالونَه من اتِّباعهم لموسى عليه السلام، إِنهم ينالونَ ما عندَ الله، ويكسبون فضلَه ورضاه، وهذا هو الفوزُ الكبير.

إِنه الصدقُ في الإيمان، والصدقُ في اختيارِ الحق، والصدقُ في الالتزامِ به بعد معرفته.

إن اللَّهَ يمكرُ بفرعون، ويقلبُ كيدَه عليه، ويذيقُه مُرَّ الهزيمة، فقد أرادها فرعونُ «مظاهرةً» إعلاميةً إعلانية، ليتشفّى في موسى أمامَ الجماهير التي حشدَها، ولتزدادَ تلك الجماهيرُ إيماناً به وبقوته وقدرته، وحرصاً على عبادتِه وتأليهه.

فجعلَ اللَّهُ الحشدَ والميدانَ دليلاً على «فضيحةِ» فرعون، فها هم رجالُه من السحرة ـ وهو الذي حشرَهم وجمعَهم واختارَهم ـ يشهدون بأنَّ موسى رسولٌ صادق، وأنَّ اللَّهَ ربُّ العالمين، وها هم يعلنونَها صراحةً أمامَ الجميع!

لقد هزتْ نتيجةُ التحدي فرعونَ هَزّاً عنيفاً، وهَزَّت الملأَ والجنود، وهُزِمَ فرعونُ وملؤُه هزيمةً بالغة. وغادرَ الناسُ ميدانَ المعركة وهم شامتون بفرعون، يتندَّرونَ به، ويسخرونَ منه!!

فرعون يلومهم لعدم استئذانهم له:

ما هي خطوةُ فرعون التالية؟

إنّه سيتوجَّهُ إلى السحرة الذين آمنوا بالسِّبابِ والشتم، وباللومِ والتقريع، وبالاتهامِ والتهديدِ والوعيد.

أولُ ما فعلَه أنه أنكرَ عليهم إيمانَهم قبلَ استئذانهم منه!!. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ [الأعراف: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ [طه: ٧١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ [الشعراء: ٤٩].

وإنكارُه عليهم إيمانَهم قبلَ استئذانهم منه من باب طغيانِه واستكباره، وهو أمْرٌ في غايةِ السماجة والوقاحة!!

إنه يعتبرُهم موظَّفين عنده، بل عبيداً له، والعبدُ لا يفعلُ شيئاً إلاّ بأمْرِ سيدِه، ولا يتحركُ إلا بإذنه.

إنه «يسحقُ» شخصياتِهم، ويُلغي وجودَهم، ويَحرمُهم الحقَّ في اختيارِ ما يريدون، وفعْلِ ما يختارون! حتى لو كان الأمْرُ فكراً ومبدءاً!!

قلوبُهم لا تنبضُ إلاّ بإذنه، ولا تتوجَّه إلا إليه، وعقولُهم لا تفكرُ إلاّ بما يُريد، ومشاعرهم لا تكونُ إلاّ على ما يرضى، ومن ثم تكونُ حركاتُهم وأفعالُهم محكومةً برغبتِه وإِذنِه ورضاه.

فكيف الآنَ يخالفون إِرادتَه؟ وكيف يسمحونَ لقلوبهم وعقولهم ومشاعرِهم وأرواحِهم أنْ تتحركَ بدون إذنه؟ وكيف يجرءون على الإيمانِ قبلَ استئذانه؟

وهل يحتاج الإيمان إلى استئذان؟:

إنَّ فرعونَ الطاغيةَ المستبدَّ لا يعرفُ أنَّ النورَ والضياءَ لا يَستأذنُ ليصلَ القلبَ المتوجِّهَ إليه، ولا يعرفُ أنَّ القلبَ لا يحتاجُ إِلى إذنٍ ليتقبَّلَ الإيمانَ والنور، فما هي إلاّ «ومضةٌ» تضيءُ جوانحَ القلب، فتبددُ ما فيه من ظلام، وتجعلُه يختارُ الإيمان. إِنه لا يعرفُ أنه قد يتحكمُ في جوارحِ الناس، وأنَّ له سلطاناً على أَجسامهم، لكنه لا سلطانَ له على قلوبهم ومشاعرهم، وعقولهم وأرواحهم.

ولهذا إِنكارُه على السحرة إيمانَهم قبلَ استئذانه أَمْرٌ في غايةِ السماجةِ والوقاحة.

إنَّ نظرةَ فرعون لهذه المسألة، واشتراطَه استئذانَه للإيمان، هي نفسُها نظرةُ كلِّ طاغيةٍ ظالم مستبدٍّ من الحكام، فهم يريدون من أَتْباعِهم أنْ يكونوا عبيداً لهم، وأنْ يكونوا أصفاراً، أو «دُمىً» متحركةً أمامهم، تكونُ أفكارُهم واختياراتُهم وأقوالهم وأفعالهم وفقَ ما يريدونَ لهم، ويشترطون حصولَهم على الإذنِ المسبقِ منهم، قبلَ أَن يفكِّروا ويختاروا، وقبلَ أنْ يُحبوا ويَكرهوا، وقبلَ أنْ يقولوا ويفعلوا!!

الفرق اللطيف بين «آمنتم به» و«آمنتم له»:

وهناكَ لطيفةٌ قرآنيةٌ في تسجيلِ إنكارِ فرعونَ على السحرة إِيمانهم، فقد اختلفَ تعبيرُ القرآن عن ذلك.

في سورةِ الأعراف قال تعالى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.
وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

فما حكمةُ هذا الاختلافِ في التعبير؟

فرقٌ بينَ أنْ يتعدّى فعْلُ «آمَنَ» لما بعدَه بحرفِ اللّام، وأنْ يتعدّى بحرفِ الباء.

«آمنَ به» معناه: صَدَّقَه، وأيقنَ أنه على حق.

و«آمن له» معناه: وثقَ به واستسلمَ به واتَّبعه، وأسلمَ له قيادَه، وصارَ جندياً مطيعاً له.

وهما مرحلتان متعاقبتان، فالإنسانُ يؤمنُ بالإنسانِ أوَّلاً ويصدقُه ويثقُ به، ثم يؤمنُ له ويتبعُه بعد ذلك، وإذا لم يؤمنْ به فإنه لنْ يؤمنَ له.

ولذلكَ قال في سورة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾. أي: صدَّقْتموه وأَيقنتم أنه نبيٌّ رسول.

ثم قالَ في سورة الشعراء: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾. أي: اتبعتُموه وأعطيتمُوه قِيادَكم وولاءَكم.

وسورةُ الأعراف في ترتيبِ المصحف قبلَ سورةِ الشعراء، ولهذا ذَكرت المرحلةَ الأولى ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، بينما ذَكرتْ سورةُ الشعراء المرحلةَ الثانية ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾.

وهذا من دقائقِ التعبيرِ القرآني، وسبحان منزلِ القرآن!.

اتهام فرعون لهم بالتلمذة على موسى في السحر:

وبعدما أنكرَ فرعونُ على السحرة إيمانَهم بموسى واتباعَهم له، صارَ يتهمُهم عدةَ اتهامات.

اتهمَ موسى بأنه «الساحرُ الكبير»، الذي علَّمهم السحر، وهم سَحرةٌ صغارٌ عنده، تلاميذٌ بين يديه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

كانوا عند دخولِهم المباراةَ سحرةً كباراً في عرف فرعون، وهو لم يحشرْهم من المدائنِ إلاّ لأنهم سحرةٌ كبار، وكلٌّ واحدٍ منهم ساحرٌ سَحّارٌ عليم.

أما الآن، فقد أَصبحوا سحرةً صغاراً، وتلاميذَ جهالاً يتلقون دروسَ السحرِ على يدِ كبيرِهم موسى!!

ما هذا المنطقُ الفرعونيُّ العجيب؟.

ومن لطائفِ التعبيرِ في سورة الشعراء، أَنه وردَ فيها قولُ الملأ لفرعون: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٣٧].

بينما وردَ في سورة الأعراف قولهم: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٢].

ولم يكن العدولُ في سورةِ الشعراء عن ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ إلى ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ مصادفةً، وإنما لقصد.

ولعلَّ من حِكَمِ ذلك أَنَّ آياتِ سورة الشعراء ستسجِّلُ اتهامَ فرعون للسّحارين العليمين بأنهم سذَّجٌ أَغرارٌ جهلاء، جاءوا ليتتلمذوا على يدِ كبيرهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

لم يكونوا في عرفِ فرعونَ ساحرين فقط، بل كانوا «سَحّارين» فكيف صاروا الآن تلاميذَ جهلاء؟.

ثم اتهمهم بالتآمر على الوطن مع موسى:

ثم اتهمهم فرعونُ بعد ذلك اتهاماً آخر أخطر، اتهاماً أمنياً وطنياً.

قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

قالَ لهم: إنَّ هذا الموقفَ الذي وقفتموه، والذي أيَّدتم فيه موسى خيانةٌ وطنية، وأنتم خائنون لوطنكم، متآمرون مع موسى، وهو أجنبيٌ دخيلٌ قادمٌ من مَدْيَن.

لقد اتفقتُم معه على هذه الخيانة، ومكرتُم معه هذا المكر، ومكْرُكم مع موسى موجَّهٌ ضدَّ الوطن، وضدَّ النظام، وضدَّ الدولة، وضدَّ الأمة، فأنتم مفسدون مخرِّبون، تريدونَ تخريبَ البلاد وإِخراجَ أَهْلِها منها، وتحويلَهم إِلى مشرَّدين.

وهي التهمةُ نفسُها التي اتهمَ فرعونُ موسى بها عندما قابلَه أولَ مرة، فقد قالَ للملأ عن موسى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥].

وقال الملأُ لوجوهِ القوم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠].

فموسى يريدُ أنْ يُخرجَ أهلَ مصر من أَرضهم بسحرِه، وموسى تمكَّنَ من كسبِ السحرةِ إِلى جانبه، وحَوَّلَهم إِلى عملاء له، فاتفقوا معه على إِخراجِ الناسِ من أرضهم.

وبما أنَّ موسى أَجنبيٌّ دخيل، فإِنَّ السحرةَ عملاءُ للأجنبي، متصلون بالعدوِّ الخارجي، خائنون لوطنهم وأمتهم. ولا بدّ أنْ يُقضىٰ عليهم بتهمة «الخيانة العظمى»!!

وهي تهمة كل طاغية ضد الدعاة:

وهذه التهمةُ الفظيعةُ التي وجَّهها فرعونُ للسحرةِ المؤمنين هي

نفسُها التهمةُ الفظيعة التي يوجّهُها كلُّ حاكمٍ طاغيةٍ مستبدٌ ظالمٍ للدعاة المصلحين في بلاده.

إنه يطعنُ في «وطنيتهم»، ويَعتبرُهم أعداءَ للوطن، مُتآمرين على منجزاته، عُمَلاءَ للأعداء، مُتصلين بالأجانب، من أَجلِ تخريبِ الوطن وإِرهابِ أهله!!

هي تهمةُ كلِّ طاغية مستبدٌ ضدَّ الدعاة المؤمنين الصالحين، بدأَها فرعونُ الظالم، ويرددُها كلُّ ظالمٍ من بعده.

وبما أنَّ السحرةَ عملاءُ للعدوِّ الخارجي موسى، خائنون لوطنهم فلا بدَّ أنْ يقضيَ فرعونُ عليهم. ولهذا هدَّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وهدَّدَهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

وبقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

فرعون يهدد بتعذيب السحرة:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: خطورةَ ما أَقدمتُم عليه، وستدفعونَ ثمن ذلك عالياً غالياً باهظاً، ستدفعونَ حياتَكم مقابلَ ذلك، فكيف تجرَّأْتُم على مخالفةِ رغبتي؟ وكيف قمتم بمواجهتي؟ وكيف آمنتم بربِّ موسى وهارون وكفرتم بي؟

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾: بَيَّنَ لهم وسيلةَ تعذيبهم المخيفة، وأَكّدَ على ذلك تأكيداً خاصاً، كما توحي بذلك كلمة «لَأُقَطِّعَنَّ» وكلمة «لَأُصَلِّبَنَّكُمْ»، في حروفِهما ومعناهما، وفي جرسهما وإيقاعهما.

سيقَطِّعُ أَيديَهم وأرجلَهم من خلاف. وهم يشاهدون ذلك بعيونهم، ولْنتصَوَّرْ مدى بشاعةِ هذا التعذيب، فكيف تُقَطَّعُ يدا ورجلا إنسانٍ وهو ينظر؟

ومعنى «من خلاف»: أنْ تُقْطعَ اليدُ اليمنى ثم الرجلُ اليسرى، وبعد ذلك تُقطعُ اليدُ اليسرى ثم الرجلُ اليمنى، أو بالعكس!!

وبعد تقطيعِ أَيديهم وأَرجلِهم سيعذِّبُهم عذاباً آخر، حيث يُصَلِّبُهم على جذوع النخلَ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

لا للتناوب ولا للتضمين في حروف الجر و«في جذوع النخل»:

والتعبيرُ بحرفِ الجر «في» بدلَ حرفِ الجر «على» في الآية: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ مقصود.

ولَسْنا ممن يقولُ بالتناوبِ بين حروفِ الجرّ في التعبير القرآني، فهذا قولٌ مرجوحٌ عندنا، ولا ممن يقولُ بالتضمين كذلك.

والتناوبُ هو أنْ «يَنوبَ» حرفٌ عن حرف. وهنا قالوا: حرف «في» ناب عن حرف «على». والمعنى: لأُصلِّبنكم على جذوع النخل.

والتضمينُ أنْ يتضمَّنَ الحرفُ المذكور معنى الحرفِ غيرِ المذكور، فهما حرفان في حرفٍ واحد. وهنا قالوا: حرفُ «في» ضُمِّنَ معنى حرف «على». والمعنى: لأصلبنكم على جذوع النخل، ومن مبالَغتي في ذلك فكأنني أُدخلُكم جذوعَ النخل وأصلبُكم فيها.

والأَوْلى نسيانُ حرف «على» هنا، وفهمُ الآيةِ على معنى حرف «في»، الدالِّ على الاستغراق.

إِنه يريدُ أنْ يؤكِّدَ تصليبَه لهم، ومبالغتَه في ذلك التصليب، ويتفاعلَ مع ذلك تفاعلاً كبيراً، ويصبَّ عليهم أَثناءَ التصليب كلَّ حقدِه، فكأَنَّه من شدةِ حقدِه الأسودِ عليهم شقَّ جذوعَ النخل شقاً، وأَدخلَهم فيها إِدخالاً، وهم مقطوعو الأَيْدي والأرجل، وكأنّه يتمنّى لو ذابوا داخلَ جذوعِ النخل ذوباناً!!.

هذه الإيحاءاتُ والظلالُ يلقيها حرفُ «في»، وليس حرفَ «على»، ولهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾: سوفَ تعلمون مَن المعذَّبُ عذاباً شديداً ودائماً وباقياً، نحن أم أنتم.

وكلامُ فرعون سخريةٌ بموسى وبالسحرة الذين آمنوا به، فقد كان موسى عليه السلام يهددُ فرعونَ وقومَه بالعذابِ الأبديِّ الدائم، وكانَ يَعدُهم بالنعيمِ إنْ آمَنوا به.

إفلاس وهزيمة فرعون دفعاه إلى تعذيب المؤمنين:

ويَسخرُ فرعونُ هنا بالسحرة، لأنهم آمَنوا بموسى خوفاً من عذابِ اللّهِ الشديد الباقي، فيقولُ لهم: سأعذبُكم هذا العذابَ، وهو عذابٌ شديدٌ باق، وعندها تعلمون مَن المعذَّبون عذاباً شديداً باقياً؟ نحن أم أنتم!!

إنَّ لجوءَ فرعون إلى تعذيبِ السحرة المؤمنين دليلٌ على هزيمتِه أَمامَ المنطقِ الإيماني، وإفلاسِهِ من الحجة المقنعة. فلماذا يعذِّبُ السحرةَ المؤمنين؟ إذا كانوا مخطئين في إيمانِهم فلماذا لا يبينُ لهم فرعونُ خطأَهم؟ ولماذا لم يخاطبْ عقولَهم بخطابٍ عقليٍّ موضوعي؟ وإذا كان هو على صواب فلماذا لا يقدِّمُ حجتَه ويحاولُ إِقناعهم؟

إنَّ فرعون مفلسٌ من كلِّ ذلك، وقد انهزمَ في هذا الميدان، ولهذا لجأَ إلى العنفِ والإرهاب، والاضطهاد والتعذيب، والتهديد، والوعيد، وهذا هو الذي يلجأُ إليه كلُّ مهزومٍ مغلوب.

وهذه الوسيلةُ الفرعونيةُ هي نفسُها الوسيلةُ التي يسلكُها كلُّ طاغيةٍ مستبدٍّ ظالم، يسيرُ على طريقِ فرعون، فعندما ينهزمُ في ميدان الحجة والإقناع، ويفلسُ من كلِّ رصيدٍ موضوعي علمي، يلجأُ إلى أُسلوبِ المهزومين، فيبطشُ بالمخالفين، ويصبُّ عليهم عذابَه واضطهادَه!!

كيف واجهَ السحرةُ اتهاماتِ فرعون؟ وكيفَ استقبلوا تهديدَه؟

السحرة يبينون السبب الحقيقي لعداوة فرعون لهم:

اتهمهم فرعونُ بأنَّهم متآمرون مع موسى الأجنبي ضدَّ البلادِ وأهلها، وسيقضي عليهم لأجْلِ ذلك، فردّوا على هذه التهمة قائلين: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٦].

كلامُهم هذا تعليلٌ حكيمٌ لسببِ اضطهادِ وتعذيبِ فرعون لهم، فليسوا تلاميذَ يتعلَّمون السحرَ من كبيرهم موسى كما زعم فرعون، وليسوا عملاءَ لموسى متآمرين معه ضدَّ البلاد كما ادعى فرعون، وإنما هم مؤمنون، سارَعوا بالإيمان بآياتِ الله، لما عرفوا الحق مع موسى عليه السلام.

إنَّ فرعونَ ينقمُ منهم إيمانَهم بالحق، ولا يريدُ منهم التخلّي عن ما كانوا عليه من باطلٍ واتباعٍ له. أيْ أنَّ عداءَ فرعونَ لهم عداءٌ فكريٌّ عقيدي، وليس عداءً شخصياً أو سياسياً أو وطنياً!! إنه عَدَاءٌ قائمٌ على الحقِّ والباطل، فهم آمَنوا بالحقِّ لما عرفوه واتَّبعوه، وهو يكرَهُ الحقَّ وأهْلَه لأنَه على الباطل. فلماذا «يُمَوِّهُ» فرعون ويزيِّفُ أَسبابَ العداء؟ ولماذا يخادعُ الآخرين باختراعِ تهمٍ غيرِ صحيحة؟

إنها عداوة تقوم على الانتقام الأسود:

وتعبيرُ السحرةِ عن عداءِ وحربِ فرعون لهم بلفظ «تَنْقِمُ» له دلالةٌ خاصة في هذا المقام. فالانتقامُ قائمٌ على مرضٍ نفسيٍّ عميقٍ في نفسية فرعون، إنه يكرهُ أَصحابَ الإيمان كرهاً شديداً، ويحقدُ عليهم حقداً أسود، وهذا الكرهُ والحقدُ هو الوقودُ الذي يَدْعوهُ إلى المبالغةِ والاستمرارِ في عدائهم وحربهم، وكلما أوشكَ العداءُ أَنْ يخفَّ أعطاهُ الحقدُ جريمةً ودفعةً جديدة!

وهذا الحقدُ هو الذي يدعو صاحبَه الحاقدَ إلى «الانتقام» من المخالف، والانتقامُ معناه أنْ يحاربَ الحاقدُ خَصْمَه بكلِّ وسيلة، ولا يُراعي في ذلك عهداً ولا قرابة، ولا قانوناً ولا عرفاً، فهو يُلغي كلَّ الأَعرافِ والمبادئ والقوانين والتشريعات، كي يُبيدَ المخالفَ إبادة!

وإذا كان السحرةُ الأذكياءُ قد وَصَفوا حربَ فرعون لهم بأنها حربٌ انتقامية: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، فإنَّ القرآنَ قد وصفَ حربَ أصحابِ الباطل لأصحاب الحق بهذه الصفة. فقالَ عن انتقامِ الظالمين لأَصحابِ الأخدود بسبب إيمانهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٤ ـ ٨].

إنَّ حقْدَ الطغاةِ على أَصحابِ الأخدود المؤمنين وانتقامَهم منهم، دعاهم إلى حرقِهم في الأَخاديدِ المشتعلةِ ناراً! وإنَّ حقْدَ فرعونَ على السحرة المؤمنين وانتقامَه منهم دعاهُ إلى تقطيعِ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبِهم في جذوعِ النخل!!

ألم نقلْ إنها حربٌ انتقامية قائمةٌ على الحقدِ الأسود؟ وهذه هي طبيعةُ عداءِ وحربِ أَصحابِ الباطل لأَصحابِ الحقِّ في كلِّ زمانٍ ومكان، وهي أَوضحُ ما تكونُ في هذا «القرن العشرين»، قرن التقدم والمدنية والإنسانية ـ كما يقولون ـ فعندما كان الكفارُ والظالمون يحاربون المسلمين والدعاة، كانوا يحاربونَهم لإيمانِهم، وينقمون عليهم إيمانَهم، ويصبّون عليهم حقدَهم الأسود!!

السحرة لجأوا إلى الله والفرق بين الضرر والضير:

وبعدما وضَّحَ السحرةُ المؤمنون سببَ انتقامِ فرعون منهم واجَهوا تهديدَه وتعذيبَه وانتقامَه بالإيمانِ والصبرِ والثبات، والإقبالِ على الله والتوكلِ عليه، والرغبةِ فيما عنده.

ولْننظرْ في ما قالوه لفرعون جواباً على تهديده.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٥٠ ـ ٥١].

الضَّيْرُ هو الضررُ الشديد، ولم تَرِدْ كلمةُ «ضَيْر» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

ومعنى قولهم «لا ضير»: إنَّ تهديدَك لنا بالتقتيلِ والتصليب لا يَضيرُنا. إنه قد يضرُّنا، لكنه لا يَضيرُنا!!

وفرْقٌ بين «الضرر» وبين «الضير».

الضررُ هو ما يصيبُ الإنسانَ من سوء. قال الإمام الراغب: «الضّرُّ: سوءُ الحال. إمّا في نفسه، لقلةِ العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه، لذهابِ جارحة، وإما في حالةٍ ظاهرة، من قلة مال وجاه..»[1].

إنَّ فرعونَ قد يوقعُ بهم الضر ـ بإذن الله ـ وقد يقطِّعُ أطرافَهم، ويَقضي على أَبدانِهم، وهذا ضرٌّ واضح، لكنه ضرٌّ ماديٌّ خارجي، يُصيبُ الجوارحَ والأطرافَ والأبدان، ولا يصلُ إلى القلوبِ والأرواح والمشاعر.

تبقى قلوبُهم وأَرواحُهم في مناعة، ولهذا يَبقونَ ثابتين على الحقِّ والإيمان، يواجهون كلَّ ما يُصيبهم من ضرٌّ ظاهري بصبرٍ وتحمُّلٍ وثبات.

أمّا الضيرُ فهو تأثُّرُ قلوبهم وأَرواحِهم بالضررِ المادي الخارجي المصبوبِ على أَبدانهم، وهذا التأثرُ يَدْعوها إلى التراجعِ والانتكاس والارتداد، وتركِ الحق، والرجوعِ إلى الباطل. فإنْ حصلَ هذا فهو ضير، ولهذا قالوا لفرعون: «لا ضير».

أي: بإمكانِك أنْ تعذِّبَنا كما تشاء، وأنْ توقعَ بأبداننا الضرَّ الشديدَ كما تشاء، لكن هذا لن يكونَ ضَيْراً، ولن تصلَ إلى أَرواحِنا وقلوبنا، ولن تفتَّ في هممِنا وعزائِمنا.

استعلاء وعزة السحرة أمام فرعون:

لماذا سيصبرُ المؤمنون على اضطهادِ فرعون؟ لأَنهم ينظرونَ نحو

---

(١) المفردات: ٥٠٣.

الآخرة، ويتطلَّعون إلى ما فيها من نعيم. فهم منقلبونَ إلى اللّهِ ربِّهم، ليُثيبَهم على ثباتِهم وصبرهم: ﴿لِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

وبما أَنهم راغبونَ في نعيم الآخرة، حريصون على نيلِ رضوانِ الله، فلن يتخلَّوا عن الحق، ولن يُؤْثِروا فرعونَ ودنياه الزائلة على ذلك الحق: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه: ٧٢].

لقد كانوا صريحين في رَدِّهم على فرعون، من أَنهم تركوه وتخلَّوا عنه، بعد أنْ كانوا قبلَ قليلٍ متحالفين معه، حريصين على مالِه وقرباه. الآنَ عرفوا الله، وعَرفوا الحق الذي جاءهم منه، فلن يَختاروه بدلَ الله، ولن يُؤْثِروه على الله، ولن يَطلبوا ما عنده ويتركوا ما جاءَهم من البيناتِ من عند الله: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

وبما أنهم عرفوا طريقَ الحق، فقد صغرتْ في نفوسِهم طريقُ الباطل، وهانَ عليهم أَصحابُ الباطل، وازدَروا ما هم عليه، ولهذا لم يَعُدْ يخيفُهم فرعونُ ولا سلطانُه ولا جنوده، ولم تُرهبهم قراراتُه وتهديداته، فصارحوه قائلين: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾.

أي: أَصْدِرْ ضدَّنا ما شئتَ من أحكام، واتخِذْ ضدَّنا ما شئتَ من أقضية، اقضِ فينا ما تشاء، وعَذِّبْنا كما تشاء، فما عُدْنا نحسبُ لذلك حساباً!!

لماذا لم يعودوا يَأبهون لأَقضيتِه وأَحكامه؟ لأَنهم أَحسنوا النظرَ إليها ووزْنَها، نظروا لها باعتبارِها تحدثُ في هذه الدنيا الفانية، ووضعوها مقابلَ نعيمِ الآخرة الباقية فلم تُساوِ عندهم شيئاً: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

طلبهم الباقي وحرصهم على السبق:

وعللَ السحرةُ المؤمنون لفرعونَ وقومِه سِرَّ مسارعتِهم إلى الإيمان بالحق: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٣].

﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء: ٥١].

إِنهم يشعرونَ الآنَ بالذنب، لأنَّهم واجَهوا موسى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام، ويُريدونَ التكفيرَ عن ذنبهم وخطيئتهم، وفرعونُ هو الذي أَكرهَهم على السحرِ إكراهاً، وقد استجابوا وخَضعوا له، عندما كانوا كافرين، أمّا الآنَ وبعدَما آمنوا فلا!

قالوا له: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، وماذا يُساوي فرعونُ أمامَ الله؟ وما عندَ الله من الجنةِ والنعيم خيرٌ وأبقى مما عند فرعون! وماذا يساوي ما عند فرعون من متاعٍ دنيوي زائل، أمامَ ما عندَ الله من نعيمٍ مقيمٍ دائم؟

وقد ردَّ السحرةُ الحكماءُ في قولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ على كلامِ فرعونَ السابق لهم: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.

فليس عذابُ فرعونَ هو الأبقى، ولكنَّ خيْرَ الله ونعيمَه هو الأبقى، ولذلك اختاروا ذلك الخيرَ الأَبقى!

ورَغبوا أنْ يكونوا الأوائلَ السابقين في مؤمنِي عصرهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

لقد فتحَ اللّهُ عليهم، وأَراهم الحق، وأَلهمهم المسارعةَ إِليه، وأَخَذَ بقلوبهم إِليه، ووجَّهَ أَنظارهم إلى الجنة، ورَغَّبهم في التسابقِ إليها.

يُريدونَ أنْ يكونوا أولَ المؤمنين في تسابقِهم إلى الإيمان، وسبْقِهم إليه، وكانوا أولَ مؤمني عصرهم فعلاً، حيث لم يسبقْهم أحدٌ إِلى الإيمانِ بموسى عليه السلام.

إِنهم يَدْعونَ السابقين المتسابقين من هذه الأمة إِلى أَنْ يَحرصوا على التفردِ والريادة، والفوزِ بالمنزلةِ الأولية، في الإيمان والعلم والدعوة والجهاد.

لأوائلِ المؤمنين من الفضلِ والمنزلة عندَ الله ما ليس للآخرين، والسابقون السابقون مقرَّبون عند الله في الجنة أكثرَ من أَصحابِ اليمين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

ولكنَّ السابقين السابقين الروادَ الأوائل، يَدفعون ثمنَ سَبْقِهم وريادَتِهم وأَوليتِهم غالياً في هذه الدنيا، حيث تُصَبُّ عليهم أحقادُ وعداوةُ الأعداء، ويَزيدون في تعذيبِهم واضطهادِهم والانتقامِ منهم، ويبذلُ السابقون الأوائلُ ذلك برضا واحتساب، لأنهم يعلمون الجزاءَ الجزيلَ الجميلَ الذي ينتظرُهم عند الله!!

فلأنَّ السحرةَ الصادقين كانوا أولَ المؤمنين، فقد واجهوا كيدَ وحقدَ ونقمةَ وعداوةَ فرعون، وتحملوا عذابَه واضطهادَه، وهكذا كلُّ أوائلَ سابقين في حمْلِ هذا الدين، ومواجهةِ أَعدائه الحاقدين!!

تحول السحرة إلى دعاة للحق وأقبلوا على الله:

وتحوَّلَ السحرةُ المؤمنون الحكماءُ إلى دعاةٍ بمجردِ إيمانهم، فَدعوا فرعونَ إلى الإيمان، وذكَّروه بالدنيا والآخرة والقدومِ على الله، وجاءَ في بيانِهم الدعوي له: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

لقد أحسنَ السحرةُ وزنَ الدنيا عندما وَضعوها بجانبِ الآخرة، فإذا بها لا تُساوي أَمامَها شيئاً، وفرَّقوا بين حالةِ مَنْ يأتي ربَّه يومَ القيامة كافراً مجرماً ظالماً باغياً ـ مثل فرعون ـ حيث ينتظرُه فيها العذابُ الدائمُ الباقي، فلا يموتُ فيها ولا يَحيا، وحالةِ مَنْ يأتي ربَّه مؤمناً قد عملَ الأعمالَ الصالحة، حيث تنتظرهُ الدرجاتُ العالية في جناتِ عدن، جزاءً من الله له.

ولأجلِ هذا رغبوا في الآخرة، وطلبوا الدرجاتِ العُلى في جناتِ عدن، وحَرصوا على أنْ يأتوا اللّهَ مؤمنين صالحين، ودعاةً مجاهدين!

وأَقبلَ السحرةُ على الله، يستمدّون منه الصبرَ والثبات، ويَطلبون منه حسنَ الختام والوفاةَ على الإيمان، لأَنهم يعلمون خطورةَ ما هم مُقْدمون عليه، من تعذيبٍ واضطهاد، وتقطيع وتصليب، فَدَعوا اللّهَ من أعماقِ قلوبهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

طلبوا من الله أَنْ يُفرِغَ عليهم الصبرَ إِفراغاً، وأنْ يصبَّهُ عليهم صَبّاً، وذلك ليَثبتوا على الحق، ولا يَتراجعوا أَمامَ بطش فرعون وأذاه، وأَمامَ قتْلِه لهم وتصليبهِ لأجسامهم: فلا يثبتُهم إلاّ الله، ولا يصبِّرُهم إلا الله.

أَرادوا أن يكونوا مسلمين، وحَرصوا على أنْ يموتوا مسلمين، وهدفُهم هو أنْ يتوفّاهم اللّهُ مسلمين، فإذا حققوا هذا فقدْ ضمنوا القدومَ على اللّهِ مؤمنين صالحين، وعندها يكونون هم المفلحين الفائزين.

سيد قطب في تعليق رائع على موقف السحرة:

قال سيد قطب معلقاً على موقف السحرة العظيم: «ويقفُ الطغيانُ عاجزاً أمامَ الإيمان، وأَمامَ الوعي، وأَمامَ الاطمئنان.. يقفُ الطغيانُ عاجزاً أَمامَ القلوب التي خُيِّلَ إِليه أنهُ يملكُ الولايةَ عليها كما يملكُ الولاية على الرقاب! ويملكُ التصرفَ فيها كما يملكُ التصرفَ في الأجسام. فإذا هي مستعصيةٌ عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله، وماذا يملك الطغيان إِذا رغبت القلوبُ في جوارِ الله؟ وماذا يملكُ الجبروتُ إِذا اعتصمت القلوبُ بالله؟ وماذا يملكُ السلطان إذا رغبت القلوبُ عما يملكُ السلطان!

إِنه موقفٌ من المواقفِ الحاسمةِ في تاريخ البشرية. هذا الذي كانَ بينَ فرعون وملئِه، والمؤمنين من السحرة السابقين.

إِنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية. بانتصارِ العقيدةِ على الحياة، وانتصارِ العزيمةِ على الألم، وانتصارِ «الإنسان» على «الشيطان»!

إِنه ميلادٌ حاسمٌ في تاريخِ البشرية. بإعلانِ ميلادِ الحرية الحقيقية، فما الحريةُ إلا الاستعلاءُ بالعقيدة على جبروتِ المتجبرين وطغيانِ الطغاة، والاستهانةُ بالقوةِ المادية التي تملكُ أنْ تتسلطَ على الأجسام والرقاب، وتعجزُ عن استذلالِ القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوةُ الماديةُ عن استذلالِ القلوب فقد وُلدت القوةُ الحقيقيةُ في هذه القلوب.

إِنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخِ البشرية بإعلانِ إِفلاسِ المادية! فهذه القلةُ التي كانتْ منذ لحظة تَسأَلُ فرعونَ الأجرَ على الفوز، وتُمْنىٰ بالقربِ من السلطان.. هي ذاتُها التي تستعلي على فرعون، وتستهينُ بالتهديد والوعيد، وتُقبلُ صابرةً محتسبةً على التنكيلِ والتصليب.. وما تغيَّرَ في حياتِها شيء، ولا تغيَّرَ من حولِها شيء ـ في عالم المادة ـ إِنما وقعت اللمسةُ الخفية التي تُسلكُ الكوكبَ المفردَ في الدورةِ الكبرى. وتَجمعُ الذرةَ التائهةَ إِلى المحور الثابت، وتَصلُ الفردَ الفانيَ بقوةِ الأزل والأبد.. وقعت اللمسةُ التي تحولُ الإبرة، فيلتقطُ القلبُ إيقاعاتِ القدرة، ويتسمَّعُ الضميرُ أَصداءَ الهداية، وتتلقى البصيرةُ إشراقاتِ النور.. وقعت اللمسةُ التي لا تنتظرُ أيَّ تغييرٍ في الواقعِ المادي، ولكنها هي تغيِّرُ الواقعَ المادي، وترفعُ «الإنسان» في عالمِ الواقع إلى الآفاقِ التي لم يكن يَطمحُ إليها الخيال..

ويَذهبُ التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويَمضي الإيمانُ في طريقه، لا يلتفتُ، ولا يترددُ، ولا يَحيد[1]!!

من سحرة إلى شهداء بررة:

انتهى التحدي بإيمانِ السحرة، واختيارِهم لما عندَ الله، واستعلائهم على ما وجَّهَهُ لهم فرعونُ من تهديدٍ ووعيد، وثباتِهم على

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٥١ ـ ١٣٥٢.

الحق الذي اختاروه، وصبرِهم على التعذيبِ الذي صَبَّه عليهم فرعون!

فها هم أُولاء الذين جنَّدَهم فرعونُ ليشهدوا له يشهدون ضدَّه ويكونون عليه، وهذا من مكْرِ اللّهِ بفرعون. فبعضُ مَنْ حولَه ليسوا معه، وإنما هم مع الله.

ولا يتحدثُ القرآنُ عن ما فعلَه فرعونُ بهم بعد التهديد، ولا يُبينُ كيفَ قَطَّعَ أَيديهم وأرجلهم من خلاف، ولا كيفَ صَلَّبَهُم في جذوع النخل، ولا كيفَ قتَلَهم!

هذه مبهماتٌ في العرضِ القرآني لقصةِ السحرة المؤمنين، وما جرى لهم بعدَ إِعلانهم الإيمان، وحوارهم السابق مع فرعون «فجوةٌ فنيةٌ» مقصودةٌ في العرض القرآني.

ونهايةُ السحرة المؤمنين مفهومة، فهم قد أَعلنوا إِيمانَهم صراحة، وخالَفوا فرعون علانية، وفرعونُ هو الظالمُ المتجبرُ المستبدُّ المتأله، الذي لا يسمحُ لأَحدٍ أنْ يقفَ أَمامه، ولا أنْ يقولَ له: لا.

وبما أنَّ السحرةَ وَقفوا من فرعونَ هذا الموقف، فإنَّ الأرجحَ أنَّ فرعونَ قد نَفَّذَ فيهم تهديدَه ووعيدَه، فقطَّعَ أَيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلَّبَهم في جذوع النخل، وقتل الجماعةَ في سبيل الله، ولقوا وجْهَ الله شهداءَ بررة.

قالَ ابن عباس رضي الله عنهما: أَصبحوا سَحَرة، وأَمْسوا شهداءَ بررة[1].

وهكذا انتصرَ الإيمانُ في التحدي الكبير بين فرعون وموسى عليه السلام، وانتصرَ السحرةُ عندما لقوا وجْهَ الله شهداء، ثابتين على الحق!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٥.

[٧]

مؤمن آل فرعون ينتصر لموسى عليه السلام

قَتَلَ فرعونُ السحرةَ المؤمنين، ولقوا وجهَ اللّهِ شهداءَ بررة، واشتدَّ تعذيبُ فرعونَ لأَتْباعِ موسى عليه السلام، وخطا خطوةً خطيرةً في حربِ موسى عليه السلامَ وأَتْباعه، حيثُ أَرادَ قتْلَ موسى نفسِه، فوقف له رجلٌ مؤمنٌ من آله، وتصدّى له، وانتصرَ لموسى عليه السلام ودافعَ عنه، ودعا الناسَ إلى الإيمان.

قصته في سورة غافر ومنهجنا في بحثها:

وقد وردَتْ قصةُ مؤمنِ آلِ فرعون في سورةِ غافر، وللسورةِ اسمٌ توقيفيٌّ آخر، هو سورةُ «المؤمن»، لأَنه وردَ فيها قصةُ ذلك الرجلِ المؤمن، وهذا من عظمةِ موقفه رضي الله عنه.

وقد اختلفَ المؤرخون والمفسرون في تحديدِ ذلك الرجلِ المؤمن، وفي بيانِ قصته وصلتِه بفرعون، وأَوردوا في ذلك أقوالاً عديدة، وتفصيلاتٍ مطوَّلَة. وأَخذوا ذلك من الإسرائيليات وغيرها.

ولم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلاميةِ اليقينية تفصيلاتٌ عن قصةِ ذلك الرجل المؤمن، إلاّ ما وردَ عنه في سورةِ غافر، فلا نملكُ إِضافةً نضيفُها على ما أَوردتْه السورةُ عنه، وما سكتتْ عنه آياتُ السورة نسكتُ عنه، ونعتبرُه من «مبهمات القرآن»، التي نتوقفُ عندها ولا نحاولُ بيانَها.

وبَدَلَ أَنْ نخوضَ في الإسرائيليات لنأخذَ منها تفصيلاتِ قصته، علينا أَنْ نقفَ أمامَ الآيات التي عرضتْ قصتَه متدبِّرين، لنأخذَ منها بعضَ ما فيها من دروسٍ ودلالات، في العقيدةِ والدعوةِ والمواجهة، ولنقتدي بذلك الرجلِ المؤمن في انحيازِنا للحق، وفي مواجهةِ الباطل!

وقبلَ الدخولِ في تفصيلِ قصةِ ذلك الرجل المؤمن نُشيرُ إلى أنَّ الصحابةَ كانوا يقارنونَ بين موقفِ ذلك الرجل المؤمن في دفاعه عن

موسى، وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه في دفاعِه عن رسولِ الله ﷺ، ويُبينون أنَّ أبا بكر كان أفضلَ من ذلك الرجلِ المؤمن.

مقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق:

وقد لاحظَ الإمامُ البخاريُّ ذلك، ففي كتابِ التفسيرِ من صحيحه، في بابِ تفسير سورة المؤمن، أوردَ حديثاً يبينُ موقفَ أبي بكرٍ في الدفاعِ عن رسول الله ﷺ.

فروى بسنده عن عروةَ بنِ الزبير قال: قلتُ لعبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرْني بأشدِّ ما صنعَ المشركون برسول الله ﷺ؟

قال: بينما رسولُ الله ﷺ يصلّي بفناءِ الكعبة، إذ أقبلَ عقبةُ بن أبي معيط، فأخذَ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبَه في عنقه، فخنَقَه خنقاً شديداً.

فأقبلَ أبو بكر، فأخذَ بمنكبه، ودفعَ عن رسولِ الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ..﴾[1].

جهرَ أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه بدفاعِه عن رسول الله ﷺ، واستشهدَ بالآيةِ القرآنية التي سجلَتْ قولَ مؤمنِ آلِ فرعون في الدفاعِ عن موسى عليه السلام، حيث نهى آلَ فرعون عن قتله، وقالَ لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟

وهذا يدلُّ على أنَّ سورةَ غافر كانت قد أُنزلتْ قبلَ تلك الحادثة، ولذلك استشهد أبو بكر رضي الله عنه بتلك الآيةِ من آياتها.

علي بن أبي طالب يفضل أبا بكر على مؤمن آل فرعون:

وقد فَضّلَ عليُّ بن أبي طالب أبا بكر على مؤمن آل فرعون رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨١٥ في كتاب التفسير.

أوردَ ابنُ كثير في تاريخه عن محمدِ بن عقيل أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خطبَ الناسَ يوماً، فقال: مَنْ أشجعُ الناس؟

قالوا: أنتَ يا أميرَ المؤمنين!

قال: أما أني ما بارزني أَحدٌ إلاّ انتصفتُ منه!

ولكنَّ أشجعَ الناس هو أَبو بكر. إنا جعلْنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: مَنْ يكونُ مع رسول الله ﷺ؟ فوالله ما دَنا منّا أحدٌ إلاّ أبو بكر، شاهراً بالسيفِ على رأسِ رسولِ الله ﷺ، لا يَهوي إِليه أَحد إِلا أَهوى إِليه.

ثم قال: ولقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ، وقد أخذَتْهُ قريش، فهذا يُحاذُه، وهذا يتلتلُه. ويقولون: أنتَ جعلتَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟

فواللّهِ ما دنا منّا أحدٌ إلاّ أبو بكر. يضربُ هذا، ويجاهدُ هذا، ويتلتلُ هذا، وهو يقول: ويلكُم. أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربي الله؟

ثم رَدَّ عليٌّ بُردةً كانت عليه، فبكى. حتى اخضلَّتْ لحيتُه.

ثم قال: أَنشدكمُ اللّهَ. أمؤمنُ آلِ فرعون خيرٌ أم هو؟ فسكتَ القوم.

فقال عليّ: فواللّهِ لساعةٌ مع أَبي بكر خيرٌ مِن ملء الأرضِ من مؤمنِ آلِ فرعون! ذاك رجلٌ يكتم إِيمانَه، وهذا رجلٌ أعلنَ إيمانَه[1]!!

ونحنُ مع عليِّ بن أَبي طالب في تفضيلِه أَبا بكر على مؤمنِ آلِ فرعون، لأنَّه على الرغم من عظمةِ موقفِ مؤمنِ آلِ فرعون إلا أنَّ موقفَ أَبي بكر كان أعظم. ولأنَّ السابقين الأولين من أَصحابِ رسول الله ﷺ أَفضلُ من جميعِ أَتباعِ الأنبياء والرسل السابقين.

ونعودُ إِلى مؤمنِ آل فرعون!

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

القلعة الفرعونية مخترقة إيمانياً:

لقد كانَ هذا الرجلُ من آل فرعون المقرَّبين، كما صرحَ بذلك القرآن، فهو ليسَ إسرائيلياً من بني إسرائيل. ونحنُ لا نخوضُ في تعيين اسمه، ولا في درجةِ قرابته لفرعون، ولا في عمله عند فرعون، لما سبقَ أنْ بيّنّا.

إنه من آلِ فرعون المقرَّبين عنده، ومع ذلك شرحَ اللّهُ صدره للإيمان، فصدَّقَ موسى عليه السلام وآمنَ بالله، وكفَرَ بفرعون، ورفضَ أنْ يتخذه إلهاً ورباً له.

وهذا هو اختراقٌ إيمانيٌ آخرَ لقلعةِ فرعون الكفرية!

إنَّ قلعةَ فرعون مخترَقةٌ إيمانياً من قبل، فامرأةُ فرعون خرجَتْ عليه، وكفرتْ به، وآمنتْ بالله. فعلَتْ ذلك وهي أقربُ الناسِ إليه. وهذا من مكرِ اللّهِ به.

والاختراقُ الإيمانيُّ الثاني تمثلَ في ذلك الرجلِ المؤمن الذي حضرَ اجتماعَ الملأ وائتمارِهم بموسى لقتله، بعدما قتلَ موسى القبطي، فجاءَ من أقصى المدينةِ يسعى، وأخبرَ موسى بذلك، ونصحهُ بالخروج.

وهذا هو الاختراقُ الإيمانيُّ الثالث، فها هو رجلٌ من آلِ فرعون، كفرَ به وآمنَ بموسى عليه السلام، وكان يكتمُ إيمانَه، ولما صار موسى في خطرٍ مباشر اضطرَّ هذا الرجلُ إلى إظهارِ إيمانه.

إنَّ هذا من مكرِ اللّهِ بفرعون وسخريتِه به، فكيفَ يزعمُ أنه ربٌّ إله، وبعضُ المقربين إليه لا يوافقونه؟ لقد غزا الإيمانُ قلعةَ فرعون، ودخلَ قلوبَ هؤلاء الثلاثة، فثبتوا على الحق. وهذه إشارةٌ إلى ضعفِ وتصدُّعِ الكفر، حتى لو كان يمثلُه أعتى الكافرين، وهو فرعون!!

ونقفُ الآنَ مع حديثِ القرآنِ عن مؤمن آل فرعون.

فرعون يتهم موسى ويعذب أتباعه:

مَهَّدَ القرآنُ للحديثِ عن قصةِ مؤمنِ آل فرعون بالحديثِ عن إرسالِ موسى عليه السلام رسولاً إلى فرعونَ وهامان وقارون، وتكذيبِهم له، وتَواصي الملأِ من قوم فرعون على تقتيل أبناء المؤمنين بموسى واستحياء نسائهم، ورغبةِ فرعونَ في قتلِ موسى عليه السلام.

قالَ الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

أَعطى اللّهُ موسى معجزتي العصا واليد، ووجَّهَه إلى فرعونَ وهامان وقارون.

وسبقَ أنْ ذكرْنا أنَّ فرعون كان يعتمدُ على قوةِ هامان الإدارية، وعلى قوةِ قارون المالية. ولهذا نصَّ على إرسالِ موسى لِهؤلاء الثلاثة، الذين كانوا يمثلونَ أَعمدةَ نظام الحكم في مصر.

ولما خاطبهم موسى وقدَّمَ لهم الآياتِ اتهموه بالسحرِ وبالكذب، اتهموه بأنه ساحر كذاب.

ولم يكتفوا بتكذيبه واتهامِه، بل تواصوا على إيذاءِ أَتباعه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ..﴾.

طلبَ الملأُ من الآخرين اعتمادَ سياسةٍ باغيةٍ ظالمة، حيثُ طلبوا منهم محاربةَ المؤمنين في أَبنائهم وأُسرهم، وذلك بقتْلِ أَبنائهم الذكور، وترْكِ بناتهم الإناث بدون قتل، واستحيائِهن واستعبادهن.

وهذا يؤكدُ قولَ السحرة السابق لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ..﴾ [الأعراف: ١٢٦].

فقد حاربَهم حرباً انتقامية سوداء حاقدة، وهذا دليلٌ آخر على

ذلك، إنهم يحاربون المؤمنين، فما ذنبُ أبنائهم وبناتهم؟ وهم لم يفعلوا شيئاً يستحقّون به هذا الانتقام! هذه هي العقليةُ الجاهليةُ الباغيةُ في حربِ الحق وأهله توجّهُ أصحابَها في كلّ زمان ومكان!

فرعون ديمقراطي يستأذن لقتل موسى:

وبعدما تواصى الملأُ على حربِ المؤمنين في أبنائهم وبناتهم انتقلَ فرعونُ إلى خطوةٍ أخطر، وهي قتلُ موسى عليه السلام.

ويبدو أنَّ الذي دفَعه إلى هذا استمرارُ دعوةِ موسى في انتشارِها وتقدمِها، فلم يوقفْها قتلُ السحرةِ واستشهادُهم، ولم يوقفْها تقتيلُ أبناءِ المؤمنين واستحياءُ نسائِهم، ولذلك أرادَ أن يوجِّهَ ضربتَه إلى إمامِ الدعوة عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

قالَ فرعون لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي: دَعوني أقتلْ موسى، ولا تَمنعوني من ذلك.

والسؤالُ الذي يُثار: لماذا طلبَ فرعونُ من قومِه هذا الطلبَ العجيب؟ وما معنى طلبه؟

هل يستأْذنُهم في قتل موسى؟ ولماذا يستأذنُهم؟ ومنذُ متى يستأذنُهم في قراراته وأفعاله؟

لقد كان يحكمُ فيهم بما يشاء، ويأمرهمْ بما يشاء! فلماذا يستأذنُهم في قتل موسى؟

إنها لعبةٌ من ألاعيبِ فرعونَ ومكائدِه، إنه يريدُ أنْ «يُشركهم» معه في تحمُّلِ هذا الفعلِ الخطير، يُشركُهم في سفكِ دمِ موسى، وذلك ليَشعروا أنَّ مصلحتَهم تكمنُ في الانحيازِ الكاملِ إلى جانب فرعون، وكي لا يتبرءوا من دمِ موسى في المستقبل، فهم الذي أَذِنوا لفرعونَ في

قتله، وهم شركاءُ لفرعون في التخلصِ منه.

ومن أَهدافِ فرعون في ذلكَ أيضاً التقربُ إِلى قومِه، والحرصُ على الظهورِ بمظهرِ المستشيرِ والمستأذنِ لهم، أو الديمقراطيِّ في التعاملِ معهم ـ حسب المفهومِ المعاصر ـ!

وقاحة فرعون على الله وعدم توقيره له:

ولما طلبَ منهم الإِذنَ بقتْلِ موسى قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾. وهذه العبارةُ من توقُّحِ فرعون وتجبرِه، حيثُ أطلقها سخريةً بموسى عليه السلام ودعواته.

يقولُ لهم: إنْ كان لموسى ربٌّ فلْيَدْعُهُ ليحفظَه! إِنه لن ينصره أحدٌ مني، ولن يقفَ أحدٌ أَمامي، ولن يمنعني أحدٌ من قتله! فإنْ كانَ له ربٌّ غيري فلْيمنَعْني ربُّه من قتلِه!!.

وهذه العبارةُ الفرعونيةُ الوقحةُ تدلُّ على السببِ الذي يدعو الطغاةَ إِلى التجبرِ والطغيان، وسفكِ دماءِ الأبرياء، والوقاحةِ في الكلام عن اللّهِ ربِّ العالمين! إنَّ السببَ هو في عدمِ إيمانِهم بالله، وعدمِ تقديرِهم وتوقيرِهم لله، وعدم خوفهم من الله.

ففرعونُ الطاغيةُ كافرٌ بالله، ولهذا لا يَحسبُ للهِ حساباً، ولا تُخيفُه دعوةُ موسى لربه كي يحفظه منه.

وهكذا الطغاةُ في كلِّ زمانٍ ومكان، وهذا ما قالَه طاغيةٌ معاصر، عَذَّبَ الدعاةَ في السجنِ تعذيباً رهيباً، ووضعَ كلَّ واحدٍ منهم في زنزانة. فمرَّ بأحدِ الدعاة في الزنزانة يدعو اللّهَ ويستنصرُه، فلما سمع الطاغيةُ ذلك قالَ جملةً فرعونيةً كافرة: لو جاءَ ربُّك لوضعْتُهُ معك في الزنزانة!!

فرعون مصلح وموسى مخرب مفسد:

لماذا يريدُ فرعونُ أنْ يقتلَ موسى عليه السلام؟

عللَ ذلك لقومِه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

إنَّ فرعونَ حريصٌ على دينِ قومه، ويَخافُ من موسى على دينهم، ويعتبرُه خطراً على دينهم، يُريدُ أنْ يُبدلَه ويُغيرَه، وهذا هو الفسادُ بعينه، فموسى مفسدٌ مخربٌ مدمر، خَطرٌ على الدين والإصلاح والخير، ولذلك لا بدَّ أنْ يُقتلَ للحفاظ على الصلاح والمحافظةِ على الدين! أي: يَجبُ قتلُه باسمِ الدين للمحافظةِ على الدين!!.

ومعنى هذا أنَّ فرعون هو حامي الدين، وموسى هو المحاربُ للدين!!.

ودينُهم الذي يخشى عليه فرعونُ التبديلَ هو القائمُ على عبادةِ فرعون وتأليهه، وتعبيدِ الناسِ له، والإيمانِ بكونه إلهاً ورباً. وهذا هو الحقُّ والصلاحُ والخير!!

أمّا ما ينادي به موسى فإنَّه خطرٌ على الدين، والذي ينادي به هو توحيدُ الله، الإيمانُ به وحده، وعبادتُه وحده، وتعبيدُ الناس له وحده، والاعتقادُ بأنّه وحده هو ربُّ العالمين!

هذا هو الخطرُ والدمارُ الذي يحملُه موسى، وهو بهذه الدعوةِ يريدُ أنْ يبدِّلَ دينَ الناس الصحيح، ويُظهرَ في الأرض الفساد!!

وفي هذا المنظارِ الفرعوني يبدو موسى عليه السلام مُفسداً مُخرباً، وضالاً مضلاً. أما فرعونُ فإنه هو المصلحُ الخيِّرُ النافعُ المهتدي.

وهذا المنطقُ الفرعونيُّ المقلوبُ هو نفسُه المنطقُ الذي يلجأُ له كلُّ طاغيةٍ متجبر، يريدُ أنْ يحاربَ الحقَّ وأهلَه، فهو يقدِّمُ نفسَه لقومِه على أنه هو الصالحُ المصلح، المؤمنُ المهتدي. أما حَمَلَةُ الدعوة وأَصحاب الحق فيقدِّمُهم للناس على أنهم ضالّون مضلّون، مُفسدون مُخربون، ظلاميّون إرهابيّون، أُصوليّون مُنغلقون!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢].

وكم استخدمَ طغاةُ القرنِ العشرين المنطقَ الفرعونيَّ المقلوبَ في حربهم للدعاةِ إلى الله!!

ولما سمعَ موسى عليه السلام تهديدَ فرعون بقتله لجأ إلى اللّهِ سبحانه، واستعاذَ به من كيدِ فرعون وبطشِه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧].

إنَّ تهديدَ فرعونَ لموسى بالقتل لم يُؤَثِّرْ فيه، ولم يُضعفْ إيمانَه، ولم يوقفْه عن دعوتِه، فهو يتوجَّهُ إلى اللَّهِ ربِّه، طالباً حمايتَه ونصرتَه، ولهذا يعلنُ التجاءَه إليه، واعتمادَه عليه.

وهذا درسٌ للمؤمنين الذين يواجهون طغيانَ واستبدادَ وتهديدَ الظالمين، إذْ عليهم أن يَستعيذوا بالله من شرورهم، وأنْ يَستعينوا بالله عليهم.

مفتاح الشخصية الفرعونية: الكبر والكفر:

وقد قدَّمَ موسى عليه السلام تحليلاً موجَزاً صادقاً لشخصيةِ فرعون، حيث قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

وهذا هو مفتاحُ الشخصية الفرعونية، إنه متكبرٌ في نفسه، وما زالَتْ نفسُه تكبرُ حتى رأى نفسَه أكبرَ مِن كلِّ مَنْ حولَه من الناس، وما زالَتْ نفسه تكبرُ حتى رأى نفسَه إلهاً رباً، فحَلَّ مَحلَّ الإلهِ الرب، ودعا قومَه لعبادته.

والعقدةُ الثانيةُ في الشخصيةِ الفرعونية هي عدمُ إيمانه بيوم

الحساب. فلو آمنَ بيومِ الحساب والجزاءِ لحسبَ له حساباً، ولما تكبَّرَ على الآخرين.

ولا يتكبرُ إلاّ الكافرُ بيوم الحساب، وبذلكَ يجمعُ بين المرضَيْن الخبيثين اللذين كانا سببَ خرابِ نفسيةِ فرعون وانحرافِ شخصيته.

وهما نفسُهما مفتاحُ شخصيةِ كلِّ طاغيةٍ ظالمٍ جبار، إنه ﴿مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

الموقف الإيماني الرجولي للرجل المؤمن:

ولما سمعَ الرجلُ المؤمنُ كلامَ فرعون عن توجُّهِه لقتْلِ موسى وقفَ الموقفَ الإيماني العظيم، وانتصرَ لموسى وتصدّى لفرعون، وسوفَ نَسيرُ مع الآياتِ التي تحدثتْ عن بيانِه الدعوي، وعن ردودِه على فرعون، ونَعرضُ لقطاتِ قصتِه لقطةً لقطة إن شاء الله!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨].

أَخبرَ القرآنُ عن مؤمنِ آلِ فرعون بأنه: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

والوصفُ بالرجولةِ هنا وصفُ تكريمٍ وتشريف، ويُرادُ بالرجولةِ المعنى المادي والمعنى النفسي.

المعنى المادي: وهو كونُه رجلاً ذكراً، فهو رَجلٌ ذكر، ليقابلَ الوصفَ المقابلَ في الجنسِ الآخر. يقال: هذا رجلٌ ذكر، وهذه امرأةٌ أنثى.

والمعنى النفسي: وهو كونُه يقفُ مواقفَ الرجال، القائمةَ على

قوةِ الإرادةِ والعزيمة والهمة، والجرأةِ والشجاعة والإقدام.

فهذه المعاني تَحتاجُ إلى رجولة، ولا يَقدرُ عليها كلُّ الذكور، إنما يَقدرُ عليها الرجالُ من الذكور.

وكلُّ رجلٍ ذَكَر، لكنه ليسَ كلُّ ذَكَر رجلاً، فهناك ذكورٌ لا يَعرفونَ معاني الرجولة، ولا يقفونَ مواقفَ الرجال!

إنه ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾: والتنوينُ هنا مقصود. إنه تنوينٌ للتكريم، كما أَنه تنوينٌ للإبهام. وهذا الإبهامُ دعوةٌ لنا كيْ لا نحاولَ تحديدَ وتعيينَ اسمِه. وتحديدُ اسمِه لا يقدِّمُ فائدةً جديدة، ولا يضرُّ الجهلُ به.

ووَصَفَهُ القرآنُ بأنه ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: وهذا تحديدٌ قرآنيٌّ لنَسَبِه، وهو ردٌّ على مَنْ زعمَ أَنه «إسرائيلي».

وكونُه من آلِ فرعون يَعني أنه كانَ من قادةِ النظام الفرعوني، ومن المقرَّبين عند فرعون، والمتنفذين في قومه.

وإِيمانُ هذا القائدِ بموسى عليه السلام شهادةٌ لموسى في نجاحِه الدعوي، حيث تمكَّنَ من إِيصالِ الدعوة إِلى هذا الزعيمِ الفرعوني، وإِقناعِه بالدخولِ في دينِ الله!

كما أَنَّ إِيمانَه شهادةٌ له، فرغمَ أنهُ مقرَّبٌ عندَ فرعون إلاّ أَنَّهُ فتحَ قلبه للإيمانِ وأَنوارِه، فاختارَ ما عندَ الله. إن البيئةَ الفرعونيةَ الكافرةَ لم تفسدْه، ولم تطمسْ على فطرتِه.

ثم إِنه آمنَ بالله وكفرَ بفرعون، وهذا دليلٌ على جرأَتِه وشجاعته فهو يعلمُ مَنْ هو فرعون، وما هو بطشُه وطغيانُه، ومع ذلك آمنَ بالله، واستعدَّ لدفعِ ثمنِ هذا الموقف!

السرية والعلنية في دعوة موسى:

وقد أَخبرَ القرآنُ أَنَّ هذا الرجلَ كان «يكتمُ إِيمانه». ويشيرُ هذا إِلى أَنَّ

دعوةَ موسى في بعضِ مراحلِها كانت سرية، وأنَّ بعضَ المؤمنين به كانوا «سريّين» يكتمونَ إيمانَهم.

لقد كانتْ دعوةُ موسى عليه السلام تأخذُ جانبيْن:

الأول: الجانبُ العلني: وهو المتمثلُ في إمامِ الدعوة موسى عليه السلام، حيث كانَ يتحركُ تحركاً علنياً، ويدعو ويحاورُ ويناقش، فقد قابلَ فرعون، وكانت المباراةُ في يوم الزينة بينه وبين السحرة، وتحدَّثَ مع الملأ من قوم فرعون.

الثاني: الجانبُ السري: حيث كان بعضُهم يؤمنون به ويكتُمونَ إيمانَهم، وقد عرفْنا ثلاثةً من هؤلاء، كانوا مقرَّبين عند فرعون: امرأةَ فرعون، والذي أخبرَ موسى عن ائتمارِ الملأ به لقتله، ومؤمنَ آلِ فرعون.

إنَّ كتْمَ هؤلاء وغيرِهم لإيمانِهم دليلٌ على جوازِ كتمانِ إيمانِ بعض المؤمنين في بعضِ الحالات الخاصة، وعلى جوازِ سريةِ الدعوة في بعضِ الظروف والأجواء.

فإذا ما أَسَرَّ بعضُ الدعاةِ دعوتَهم، وإذا ما كتَمَ بعضُهم انتماءهم فلا بدَّ أنْ يعلنَ آخرون إيمانَهم، وأنْ يُظهروا دعوتَهم، ليعرفَ الناسُ الدعوةَ من خلال بعض «رموزها» وقادتِها، فيقتدوا بهم، ويستعدُّ هؤلاء المجاهدون لدفعِ الثمنِ الباهظ المترتبِ على ذلك!

ففي قصةِ مؤمن آلِ فرعون كان موسى عليه السلام يجهرُ بإعلانِ دعوتِه وإظهارِ إيمانه، بينما كان مؤمنُ آلِ فرعون يكتمُ إيمانَه!

لماذا أظهر الرجل إيمانه:

ومعَ أنَّ هذا الرجلَ المؤمنَ كان يكتمُ إيمانَه إلاّ أنه اضطرَّ الآن إلى إظهارِ إيمانه!

إنَّ حياةَ موسى عليه السلام في خطر، وإنَّ فرعونَ يريدُ أنْ يقتلَه،

ويمكنُ لهذا الرجلِ القائدِ الفرعونيِّ أنْ يحولَ دونَ ذلك، وأنْ يمنعَ قتْلَ موسى! لكنه لن يفعلَ ذلك إلا بإظهارِ إيمانِه، وإذا أظهرَ إيمانَه سيكشفُ أوراقَه أمامَ فرعون.

فماذا يفعل؟

هل يبقى كاتماً لإيمانه، حريصاً على مركزِه ومنصبه، ولو قُتِلَ موسى فعليه رحمةُ الله؟ أم يقومُ بواجبه وينتصرُ لموسى عليه السلام، ويدافعُ عنه، ويُظهرُ إيمانَه، وليكن بعد ذلك ما يكون؟

أخذَ بالخيارِ الثاني المتفقِ مع إيمانِه ورجولته وشجاعته، وقدمَ مصلحةَ الدعوة على مصلحتِه هو. بل إنَّ مصلحتَه هو لا تكونُ إلاّ مع مصلحةِ الدعوة.

وهذا درسٌ بليغٌ للدعاة، في وجوبِ تقديمِ مصلحة الدعوة على مصالحِهم الشخصية المادية، وفي وجوبِ التضحيةِ بالمنافع الشخصية من أجل دعوتهم ودينهم!

المنهجية الدعوية في خطوات الرجل المؤمن:

وعندما اضطرَّ مؤمنُ آلِ فرعون للدفاعِ عن موسى عليه السلام والوقوفِ أمامَ فرعون، خطا خطواتٍ منهجية، في غايةِ الحكمةِ والترتيب والتخطيط، وقدَّمَ «بياناً» دعوياً حكيماً، وتمكّنَ من إحراجِ فرعون وهزيمته، وأقامَ الحجةَ عليه وعلى قومه، وكان في ذلك كلّه ناجحاً نجاحاً كبيراً!!

أَنكرَ الرجلُ على قومِه قتْلَ موسى، وبيَّنَ أنه لا ذنبَ له إلا إيمانَه بالله، وهذا ليس ذنباً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟

وأَشارَ إلى الآياتِ التي قَدَّمها لهم، والتي آمنَ السحرةُ لما شاهدوها: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

ودعا قومَه إلى التفكيرِ في مسألةِ موسى بموضوعية، فموسى قد

يكون صادقاً في دعوته، وقد يكون كاذباً: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

إنَّ الرجلَ المؤمنَ حكيمٌ في خطابه، موضوعيٌّ في طرحه، ودليلُ ذلك أنه بدأ باحتمالِ كون موسى عليه السلام كاذباً، مع أنه يوقنُ جازماً أنه رسولُ الله. ولكنه بدأ بهذا الاحتمالِ ليؤثِّرَ في قلوبِ وعقولِ قومه، وليبنيَ عليه خطواتِه التالية.

يقولُ لقومه: لماذا تقتلونَ موسى؟ ألأنَّه يقولُ ربي الله؟ فكِّروا في دعوتِه، إنه قد يكون كاذباً في دعواه! فإنْ كان كاذباً فلا يَستدعي ذلك أنْ تقتلوه، لأنه هو الذي يتحملُ عاقبةَ كذبه، وأنتم لا تتأثرون بذلك!

وألا يمكنُ أنْ يكونَ صادقاً في دعواه؟ فكِّروا في ما يصيبُكم إن كان كذلك! بَدَلَ أنْ تَقوموا بقتْلِه! إنه يعدُكم بالعذابِ والهلاك، فإنْ كان صادقاً وقتلْتُموه فإنَّ العذابَ والهلاكَ سيصيبُكم ويقعُ بكم! ففكِّروا في إنصافٍ وموضوعية!

وبعدَ أنْ طرحَ أمامهم الاحتماليْن: صدْقَه وكذبَه، رجَّحَ بطريقٍ حكيمٍ غيرِ مباشر صدْقَه، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وكأنَّه يقولُ لهم: موسى صادق، لأنَّ اللّهَ أيَّده بالآياتِ والمعجزات، ولو كان كاذباً لما أيَّدَه بذلك، لأنَّ اللّهَ لا يَهدي مَنْ هو مسرفٌ كذاب!

المؤمن يخوف قومه زوال نعم الله عليهم:

وبعدَ أنْ خاطَبَ عقولَهم بموضوعية، استثارَ مصالحَهم الدنيوية، ولمسَهم لمسةً مادية، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

ذَكَّرَهم بمُلْكهم وسلطانِهم، ورفاهيتِم في حياتهم، وحَذَّرهم من

الإقدامِ على قتْلِ موسى بطريقٍ غيرِ مباشر، وكأنه يقولُ لهم: اليومَ لكمُ الملكَ، وأنتم ظاهرون في الأرض، منعَّمون فيها، فإذا قتلْتُم موسى وكان صادقاً في أنه نبي رسول، فماذا سيفعلُ اللّهُ بكم؟ إنه سينتصرُ لنبيه ويوقعُ بكم بأسَه وعذابَه، فهل تَقْدرون على دفعِ العذابِ عنكم؟ إنه لا يوجَدُ أحدٌ ينصُرُنا من بأسِ الله!!.

ونلاحظُ في كلماتِ هذا الداعية الحكيم أنه لم يوجِّهْ كلامَه لفرعون، وإنما وجَّهَ كلامَه للقوم، ولعلَّ من أهدافِه في ذلك أنْ لا يبدأ «بيانَه» في احتكاكٍ مباشرٍ مع فرعون، حتى لا يُثيرَه، والأهمُّ من هذا أنه يريدُ أنْ يؤثِّرَ في القومِ، وأنْ يَكسبهم إلى جانبه، فهم المقصودونَ في كلامه.

وكان قاصداً «تجاهُلَ» فرعون وعدمَ مخاطبته، لأنه لا يطمعُ في تغييرِ موقفِه، وكسبهِ إلى جانبه!

ومن حرصِه على التقربِ إلى قومِه، أشركَ نفسَه معهم، في دفعِ ثمنِ قتْلِ موسى، واستقبالِ عذابِ الله، والعجزِ عن دفعه، وذلك في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾؟.

يقولُ لهم: أنا واحدٌ منكم، ومصيرُنا جميعاً واحد، فلنفكِّر معاً كيفَ نبتعدُ عن بأسِ الله وعذابه.

الخطاب الفرعوني الاستعلائي لهم ما أريكم إلا ما أرى:

وكان فرعونُ حاضراً المشهد، واستمعَ إلى كلماتِ الرجل المؤمن، وأَدركَ فرعونُ أَثرها على القوم، وخشيَ أنْ ينجحَ المؤمنُ في التأثيرِ فيهم، وكسبِهم إليه. فاضطرَّ فرعونُ إلى التدخل، والتصريح بأنَّ الحقَّ لا يكون إلاّ معه، ولهذا خاطبهم بمنتهى الاستعلاءِ والتكبير: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

لقد أظهرَ الرجلُ المؤمنُ فرعونَ على حقيقتهِ، مستعلياً متكبراً

جباراً، فَتَخَلّى عن «تمثيلِه» السابق، في إظهارِه التقربَ إلى قومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ ...﴾، وأعلنَ لهم أنَّ الرأيَ رأيُه، والكلامَ كلامُه، والهدْيَ هديُه، وأنهم مُلْزَمون بأخْذِ رأيه، ولا يجوزُ لأحدٍ مخالفتَه في رأيه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ...﴾.

إنَّ فرعونَ يَضيقُ بالرأيِ المخالف، ولا يتحملُ الحوارَ والمناقشة، ولا يَرضىٰ أنْ ينظرَ في ما يوردُه الطرفُ الآخر من حججٍ وآيات، إنه مصِرٌ على رأيِه وموقفِه، ولا يستعدُّ أنْ يتراجعَ عنه!

وليست هذه العقليةُ عقليةَ فرعون فقط، ولكنها عقليةُ كلِّ حاكمٍ طاغيةٍ ظالم، يريدُ من قومِه أَنْ يَكونوا «نسخاً مكرورة» عنه، مردِّدينَ لآرائه، متابعين له، ولا يَسمحُ لأحدٍ منهم أنْ يخالفَه أو يناقشَه أو يحاوره، أو يدعو إلى غيرِ رأيه.

كلُّ حاكمٍ طاغيةٍ ظالم يتعاملُ مع قومه بهذه اللغةِ الفرعونية، ولسانُ حاله يقول لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ..﴾.

يقولُ لهم هذا، حتى لو كانَ رأيُه خطأً باطلاً، وحتى لو جَرَّ البلادَ والعبادَ إلى الكوارثِ والخراب، ومَن يجرؤُ على مناقشته في ما يَعرضُه، أو مخالفته في رأيه؟ مَنْ يجرؤُ على أنْ يقولَ له: هذا رأيٌ خطأ، وهذا كلامٌ مردود، وهذا اختيارٌ غيرُ مناسب، وهذا قرارٌ يحتاجُ إلى إعادةِ نظر!!

ماذا كان رَدُّ فعلِ المؤمنِ الداعيةِ على التكبر الفرعوني، وعلى تهديده لكلِّ مَنْ يرى خلافَ رأيه؟ أي: تهديدِه للرجلِ المؤمن الذي قالَ ما قال؟

لم يتأثرْ بتهديدِ فرعونَ غيرِ المباشر، لأنَّه وَطَّنَ نفْسَه على مواجهتِه وتصدّيه، واستعدَّ للسير في ذلك حتى آخرِ الطريق، مهما كان الثمن!

الرجل المؤمن يخوف قومه عذاب الله:

لم يلتفت الرجلُ المؤمنُ لفرعون، بل استمرَّ في تجاهله له، واستمرَّ في توجيهِ كلامِه للقوم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١].

تحببَ المؤمنُ الداعيةُ إلى القوم في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾. وذلك ليؤثرَ فيهم، فهم قومُه، وهو الحريصُ عليهم بصدق، الخائفُ عليهم من العذاب: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ..﴾.

ونَدعو إلى المقابلةِ والمقارنة بين كلامِ الرجلِ المؤمن لقومه، وبين مخاطبةِ فرعونَ لقومه.

ففرعونُ يخاطبُ قومَه بتكبرٍ واستعلاء: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

بينما يتحبَّبُ الرجلُ المؤمنُ إلى قومه بلطفٍ ومودة: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ...﴾.

ولمسَ الرجلُ المؤمنُ قلوبَ قومِه لمسةً تاريخية، حيث ذكَّرهم بمن كان قبلَهم من الأحزابِ والأقوامِ الكافرة، ودَعاهم إلى التفكُّرِ بما جرى لهم، فلعلَّ ذلك يدعوهم إلى تغييرِ موقفهم.

إنه يصارحُهم بخوفِه عليهم من أن يُعَذِّبَهم الله، كما عذَّبَ قومَ نوح وعاد والذينَ مِن بعدِهم. وما عليهم إلاّ أنْ يُؤمنوا بالله، لئلا يصيبَهم ما أصابَهم.

وبعد أنْ لفتَ أنظارَهم إلى الماضي، انتقلَ بهم إلى المستقبل، إلى الآخرة التي هم مُقْدِمون عليها، وصوَّرَ لهم بعضَ ما ينتظرُهم هناك من عذاب. قال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣].

يومُ القيامة هو يوم التنادي. والتنادي من المناداة، حيث يُنادي فيه الناسُ بعضُهم بعضاً، يطلبونَ المساعدةَ والنجدةَ من بعضهم لبعض، أو يسخرُ بعضُهم من بعض، أو يلومُ بعضُهم بعضاً، أو يعترفُ بعضُهم على بعض!

إنه يخوِّفُهم من مشاهدِ وأهوالِ ذلك اليومِ القادم، ويدعوهم إلى العملِ على النجاةِ منها، وذلك عن طريقِ الإيمان. ويقدمُ تخوُّفَه عليهم بلهجةِ الإشفاقِ والحرصِ المعهودة منه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ...﴾.

ويذكرهم بموقفهم من يوسف عليه السلام:

ثم استخدمَ المؤمنُ الداعيةُ مؤثِّراً جديداً، لمسَ به قلوبَهم وعقولَهم، وأضافَه إلى المؤثراتِ السابقة، وظَّفَ فيه معلومةً عقيدية تاريخية، تتعلقُ بالنبوة والرسالة. قال لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٤ ـ ٣٥].

إنهم يَعرفونَ يوسفَ بن يعقوب عليهما السلام، ويتذكَّرونَ قصتَه وحكمَه لأجدادِهم، ويعلمون أنه جاءَ بالنبوة، وقدَّمَ عليها الآياتِ البينات، وحكمَ مصر فترةً من الزمن، خرجَ بالبلادِ من ضائقتها الاقتصادية، إلى الرخاءِ والخصب. ومع ذلك لم يؤمنْ به المصريون، وتمنَّوا سرعةَ الخلاص منه، وما أنْ ماتَ حتى فرحوا لخلاصِهم منه، وقالوا: لن يبعثَ اللّهُ لنا رسولاً من بعده!!

وقد عبَّرَ الرجلُ المؤمنُ عن وفاةِ يوسفَ عليه السلام بقوله: ﴿إِذَا هَلَكَ﴾ مع أنه مؤمنٌ بالله وبنبوةِ يوسف وموسى عليهما السلام، وكلُّه أدبٌ مع الأنبياء الكرام!

ويبدو أنه عبَّرَ عن موتِه من وجهةِ نظرهم هم، فلأنهم كافرون فقد كرهوا نبوتَه وحكْمَه، رغم ما جلَبَه لهم من خير، وتمنَّوا موتَه، واعتبروا موتَه هلاكاً وفَرَجاً لهم. ولهذا قال لهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾.

إنه يربطُ ربطاً حكيماً لطيفاً بين يوسف وموسى عليهما السلام، من حيثُ النسب، ومن حيثُ الرسالة.

إِنهما إسرائيليان من حيث النسب، وهذا متفَقٌ عليه عندهم.

ومن حيثُ الرسالة متفقان، فبما أنَّ يوسفَ نبي، وهذا أمْرٌ لا يناقشون فيه، وبما أنَّ موسى يَدّعي النبوة، فالأصلُ أن تثبتَ له النبوةُ أيضاً، لأنه إذا ثبتتْ نبوةُ يوسف ثبتتْ نبوةُ موسى!

وللرجلِ المؤمنِ هدفٌ آخر من تذكيرِهم بيوسف عليه السلام، فقد واجَهوه بالتكذيب: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾، ولذلك ينصحُهم أن لا يكون موقفُهم من موسى كذلك، وبذلك يَخسرون، فإذا كان موسى نبياً مثلَ يوسف فعليهم أنْ يؤمِنوا به، وأن لا يكونوا متكبرين عليه، مكذِّبين له.

إنَّ كلامَ الرجلِ المؤمن موضوعيٌّ مؤثر، يخاطبُ عقولَهم بمنطقٍ حكيم، وقد لاحظَ فرعونُ أثرَ كلامِه فيهم، وخشيَ أنْ يستميلَهم إِليه، وأَرادَ أنْ يكسبَهم هو، فاضطرَّ إِلى التراجعِ عن طلبه السابق بقتل موسى، وأظهرَ لهم عدولَه عن ذلك.

فرعون يطلب من هامان بناء الصرح:

وقامَ فرعونُ بحركةٍ مسرحية فرعونية خبيثة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

توجَّهَ فرعونُ إِلى وزيرِه هامان، وطلبَ منه بناءَ صرحٍ له، ليبحثَ عن إِله موسى في السماء.

وقد أَشارتْ سورةُ القصص إلى هذا الصرحِ الفرعوني. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الصرح: «الصرحُ بيتٌ عالٍ مُزَوَّق، سميَ بذلك بكونِه صَرْحاً خالِصاً عن الشَّوْب»[١].

أي أنَّ أساسَ معنى «الصرح» في اللغة هو الخالصُ الصافي، الخالي من الشوائب والأشياءِ الغريبة.

وسميَ البناءُ العالي صَرْحاً لأنه قويٌّ متماسكٌ متين، وهذا دليلٌ على خلوصِه من الشوائب، فلو كان مخلوطاً بها لما كان ثابتاً.

وقد فصَّلَتْ آيةُ سورةِ القصص مادةَ بناءِ الصرح: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾.

لقد كانَ الصرحُ مصنوعاً من «اللَّبِن» أو الطوب، وهو المصنوعُ من الطين، وبعدما يجفُّ الطينُ وييبسُ يُحْرَقُ بالنار ليزدادَ متانة وتماسكاً.

الباعث له على بناء الصرح وهدفه الظاهري والحقيقي منه:

أرادَ فرعونُ من بناءِ الصرح العالي أنْ يبلغَ أَسبابَ السموات.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى الأسباب: «السبب: الحبلُ الذي يُصْعَدُ به النخل، وجمعُه أسباب.. وسُمي كلُّ ما يُتَوَصَّلُ به إلى شيء سبباً. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ..﴾: أي: لعلّي أعرفُ الذرائعَ والأسبابَ الحادثةَ في السماء، فأتوصلُ بها إلى معرفةِ ما يَدَّعيه موسى...»[٢].

---

(١) المفردات: ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٩١.

لماذا تظاهرَ فرعونُ بالموضوعية والبحث؟ لأَنه هُزِمَ أمامَ منطقِ الرجلِ المؤمن الحكيم.

ما هو هدفُ فرعونَ من بناءِ الصَّرْح؟

هدفُه الظاهريُّ هو البحثُ عن إِله موسى في السماء، والوقوفُ على الأدلةِ السماوية التي تثبتُ وجودَه ووحدانيتَه. وذلك ليكسبَ القومَ إلى جانبه!

لكنَّ هدفَه الحقيقيَّ من ذلك خبيث، فهو يريدُ إِلهاءَ وإِشغالَ الناسِ عن القضية الأساسية التي يطرحُها الرجلُ المؤمن، ويريدُ أن يصرفَهم عن منطقِهِ الدعويّ، وذلك بأَنْ يُتابعوا بناءَ الصرح، والمراحلَ البطيئةَ التي سيمرُّ بها، وعندها تفقدُ دعوةُ الرجل المؤمن حيويتَها وتوهُّجَها و«سخونتَها»، وتتحولُ إلى قضيةٍ هامشيةٍ ثانوية باردة، ثم يتناسونها بعد ذلك.

ومن كيدِ فرعونَ ومكْرِه الخبيث أنه سيعودُ من جولتِه العلمية البحثيةِ المزعومة بأنَّ موسى كاذب، وأنه ذهبَ إِلى السماءِ ليبحثَ عن إله موسى، ولكنه لم يجدْه، ولو وجدَه لآمنَ به.

إنَّ هذه النتيجةَ عنده قرارٌ مسبق، لكنه أَرادَ أنْ يُلْبسها ثوبَ العلم والبحث، أَي أَنه يوظفُ البحثَ والعلم توظيفاً شيطانياً خبيثاً، لمحاربةِ موسى ودعوته، وللشهادةِ له ولفرعنته!

بين فرعون و«غاغارين» الروسي الملحد:

وتذكِّرُنا مسرحيةُ فرعونَ بما فعلَه رائدُ الفضاء الروسي السابق «غاغارين» حيث زيَّفَ وحرَّفَ وكذبَ وافترى على البحث والعلم.

فهو ماركسيٌّ ملحد ينكرُ وجودَ الله، ولكنه لما صعدَ إلى السماء في سفينةِ الفضاء، أُعجبَ بجمالِ الكون وتناسقِه، فاستيقظتْ فطرتُه لحظة، ونطقَ عبارةً إيمانيةً لا إرادية، وهو مبهورٌ بإبداعِ الكون، قال: لا بدَّ أنْ يكونَ لهذا الكون إله!!.

وهذه العبارةُ إلغاءٌ للماركسيةِ من الجذور، ولهذا ما أَنْ هبط «غاغارين» إلى الأرض، حتى اتصلَ به سادتُه مهدِّدين متوعِّدين، وطلبوا منه تعديلَ تصريحِه السابق. فرضخَ لهم، وأخبرَ الصحفيين قائلاً: لقد صعدتُ إلى السماء، وذهبتُ أبحثُ عن الله، لكني لم أجده!!!

وكان فرعونُ يريدُ أنْ يخرجَ بهذه النتيجة، يريدُ أنْ يقولَ للناس: لقد بنيتُ الصرح، وصعدتُ إلى السماء، وبحثتُ فيها عن أدلةٍ تشهدُ لموسى، وتُثبتُ وجودَ الله، وتمنيتُ أن أجدها، لكني ما وجدتُ منها شيئاً، وما وجدْتُ اللّهَ في السماء، ولذلك ليسَ لكم إلهٌ غيري، وموسى كاذبٌ في دعوته!!

إذن لم يكن فرعونُ جاداً في البحث، ولا في بناءِ الصرحِ، ولكنه هازلٌ عابثٌ ساخر. وكم سينفقُ وزيرُه هامان من أموالٍ على بناء الصرح، وكم سيرصدُ له من ميزانيةِ الأمة، وكم سيوظِّفُ له من طاقاتِ وقدراتِ الأمة، وهذا هو هدفُ فرعونَ المسرحيُّ منه!!.

وإنَّ الطغاةَ الظالمين يقتدونَ بفرعون في هذه الملهاة المسرحية، حيث يقررونَ إنشاءَ مشاريعَ عديدة، ويرصدون لها الأموالَ الكثيرة، وينفقونَ فيها الطاقات والأوقاتِ والجهود، وهدفُهم هو إلهاءُ وإشغالُ الناس، وصَرْفُهم عن الأمورِ الجدية النافعة!!.

مظاهر تراجع فرعون أمام حجة الرجل المؤمن:

وتدلُّ لهجةُ فرعون على تراجعِه أمامَ منطقِ الرجل المؤمن، وبدا تراجُعُه في المظاهرِ التالية:

١ ـ قال في السابق: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ والآن يتراجعُ عن هذا الطلب، ويأمرُ ببناءِ الصرح بحجةِ البحثِ عن إله موسى.

٢ ـ في السابقِ طلبَ من قومِه الإذنَ له بقتل موسى، والآن يطلبُ من قومه الانتظارَ بحيادية، ليطلعَهم على نتيجةِ بحثِه في السماء.

٣ ـ في السابق جزمَ بأنَّ موسى عليه السلام ساحرٌ كذاب، والآن تراجعَ عن الجزم، وعَبَّرَ بالظن فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا . .﴾!!

ويُسَجَّلُ تراجُعُ فرعون لصالحِ الرجل المؤمن، ويدلُّ على نجاحِه في عرضِ حجته، وخطابِ قومه بحكمة وموضوعية.

الرجل المؤمن يدعوهم صراحة إلى اتباعه:

والآنَ رأى الرجلُ المؤمنُ أنَّ الوقتَ قد حانَ للجهر بإيمانه، ودعوةِ قومه إلى اتباعِه، بصراحةٍ مجردة وليس بتلميح إشاري. فقد أَوصلَ قومَه الذين يخاطبُهم منذُ مدةٍ إلى هذه النتيجة، وقد دفعَ فرعونَ إلى التراجعِ العَلَنِيِّ عن ما أَرادَه.

ثم هو يخشى أنْ ينشغلَ القومُ ببناءِ الصرح، وينسوا دعوتَه وحجته وبيانَه، ولهذا يريدُ أنْ يسارعَ بتقديمِ الخلاصة لهم.

بدأَ المصارحةَ بدعوتِهم إلى اتباعه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر: ٣٨].

وهذه الجملةُ تَحَدٍّ صريحٍ لفرعون ودعوتِه.

فقد سبقَ فرعونُ أنْ قالَ لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وهنا يقولُ الرجلُ المؤمنُ للقومِ أنفسِهم: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وهذه المواجهةُ الصريحةُ منه لفرعون دليلٌ على جرأتِه وشجاعته، وحرصِه على دعوته، وتوكُّلِه على ربه، لأنه لا يقفُ أمامَ فرعون هذا الموقفَ ولا يتحدّاه هذا التحدي، إلا رجلٌ عظيمُ الإيمان، كاملُ الاعتمادِ على الله.

وعندما دعى القومَ لاتِّباعِه عرضَ الدعوةَ بلهجتِه المعهودة، القائمةِ على الإشفاقِ والتحبب: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾.

وفرقٌ كبيرٌ بين قولِ فرعون لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وبين قول الرجل المؤمن لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ ..﴾.

والرجلُ صادقٌ في قوله لقومه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، بينما كانَ فرعونُ كاذباً في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ويقدم لهم خلاصة دينه:

واعتبرَ الرجلُ المؤمنُ دعوةَ قومِه للدخول في دينه واتباعِه فرصةً مناسبةً لتعريفِهم على دينه، فما هي خلاصةُ دينه الذي يَدعوهم إليه؟

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠].

وركَّزَ في تعريفِه على العقيدة، فقد حَدَّثَهم سابقاً عن الأُلوهية، والآنَ يحدثُهم عن الآخرة وما فيها من جزاءٍ وحساب، فالدنيا التي يَعيشونها متاعٌ زائل، والآخرةُ باقيةٌ دائمةٌ، والكفارُ معذَّبون فيها مخلَّدون في النار، والمؤمنون منَعمون مخلَّدون في الجنة، والعاقلُ هو الذي يختارُ الآخرةَ الباقيةَ على الدنيا الفانية، ويختارُ نعيمَها على عذابها، والسبيلُ الوحيدُ لذلك هو الإيمانُ ومتابعةُ الرجلِ المؤمن على الحق.

ويقارن لهم بين دعوته ودعوة فرعون:

ماذا بقيَ بعد ذلك ليضمِّنَه هذا المؤمنُ الحكيمُ بيانَه الدعوي؟ بقيَ أنْ يقارنَ لهم بين دعوتَيْن موجَّهتَيْن لهم:

دعوةِ فرعون الذي قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ودعوته هو الذي قالَ لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

قال تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٣].

يقارنُ بين الدعوتَين بنفسِ اللهجةِ المحببة: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

ويبينُ لهم أَنهما دَعوتان اثنتان، لا ثالثَ لهما، فإمّا دعوةٌ إلى الإيمانِ والخير، وهي دعوتُه الموجَّهة لهم، وإمّا دعوةٌ إلى الكفر والشر، وهي دعوةُ فرعونَ الموجهةُ لهم.

وأَخبرَهم أنَّ دعوتَه لهم للإيمان هي دعوةٌ إلى نجاتِهم، فلا نجاةَ في الحقيقةِ إلا بالإيمان: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾، وهذا ترغيبٌ آخرَ منه لهم، وتعريفٌ آخرَ بدينه، ومن ذا الذي يرفضُ الدعوةَ إلى النجاة؟ إلاّ أنْ يكونَ في عقلِه شيء!!

وبينما رغَّبهم في اختيارِ دعوته باعتبارِها دعوةً إلى النجاة، فقد حَذَّرهم من الاستجابةِ لدعوة فرعون، لأنَّ عاقبتَها هي الدخولُ في النار! ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وحكمة جمعهم مع فرعون في الدعوة إلى النار:

ومن فقهِ الرجلِ وحكمتِه أنه قال لهم: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مع أَنهم لم يوجِّهوا له دعوةً إلى النار!

إنَّ الدعوةَ هي دعوةُ فرعون، عندما قال لهم: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. وقد اعتبرهم مشاركين لفرعون في توجيه الدعوة ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وهو اعتبارٌ صحيح، فهم إذا وافقوا فرعونَ على دعوتِه واستجابوا له فيها، كانوا بذلك مشارِكين له فيها، وكأنَّ الرجلَ المؤمنَ يدعوهم إلى رفضِ دعوةِ فرعون، وإعلانِ رفضِهم لها، و«فَكِّ ارتباطهم» بفرعون، فإنْ لم يفعلوا ذلك كانوا مشاركين له فيها.

ومن هذا الباب جمعُه لهم مع فرعونَ في قوله لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟، مع أنَّ الذي أرادَ قتلَ موسى هو فرعونُ وحدَه عندما قال لهم: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾. فهم إنْ وافقوا فرعونَ على قتل موسى، كانوا مشاركين له في القتل.

إنَّ الرجلَ المؤمنَ يريدُ منهم الجهرَ بمخالفة فرعون، وإعلانَ رفضِ دعوته، وممارسةَ ذلك بجرأةٍ وشجاعة وإقدام، والاقتداءَ به هو في الجهرِ بالحق والانتصارِ له!!

وأَجرى المؤمنُ مقارنةً أُخرى بين الدعوتين، فخلاصةُ دعوةِ فرعون هي الشركُ بالله والكفرُ به، لأنَّ فرعونَ ادعى أنه إلهٌ رب، ولهذا قال المؤمن: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أَما خلاصةُ الدعوةِ الإيمانية التي يوجِّهها هذا الداعيةُ الحكيمُ فهي دعوةٌ إلى اللهِ العزيزِ الغفار: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

واختيارُ هذين الاسمينِ من أسماءِ الله هنا مقصود.

إنَّ اللّهَ هو العزيزُ القويُّ الجبارُ القهار، ويَمنحُ مَنْ يؤمنُ به ويجاهدُ أَعداءَه العزةَ والقوة، ويَحميه من أَذى الأعداء. وماذا يساوي فرعونُ وقوتُه أمامَ عزةِ وقوةِ الله العزيز القوي؟؟

واللّهُ هو الغفار، يغفرُ لمن تابَ وأَنابَ وأقبلَ عليه، وتخلّى عن كفره وفجوره ومعاصيه.

وكأنَّ هذا المؤمنَ يرغِّبُهم في الإيمانِ بالله، لأنَه عزيزٌ غفار، يقبلُ

توبتَهم إليه، وإقبالَهم عليه.

الرجل المؤمن يجرد فرعون من الضر والنفع:

وبعدَما قارنَ المؤمن بين دعوتِه ودعوةِ فرعون، خطا خطوةً أُخرى في التصدي لفرعون، ودعوةِ القوم إلى عدم الخوف منه، فقال لهم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ..﴾.

ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً وصدقاً.

قال السديُّ وابن جريج: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً.

وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: بلى. إنَّ الذي تَدعونني إليه من الأصنام والأوثان لا يُجيبُ داعيهِ في الدنيا ولا في الآخرة[1]..

ما الذي يَعنيه بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ..﴾؟

إنه يعني فرعونَ نفسَه! لأَنهم كانوا يؤلِّهونَه ويعبدونَه من دون الله، وكأنَّهم يدعونَ ذلك الرجلَ المؤمنَ إلى تأليهِه وعبادته ودعائِه والتضرعِ إليه.

يقولُ لهم: لا شَكَّ أنَّ فرعونَ الذي تعبدونه وتدعونني لعبادته عاجزٌ عن دفعِ الضرِّ عن نفسه، أو جلبِ الخير له، فإذا كان عاجزاً في حقِّ نفسه فهو في حقِّ غيره أكثرُ عجزاً! لأنه مخلوقٌ ضعيف، حتى لو كان ملكاً فرعوناً! والضرُّ والنفعُ إنما هما بيدِ الله وحده، الخالقِ القويِّ القادرِ الضارِّ النافع.

هذا هو فرعونُ في نظرِ الرجل المؤمن، إنَّه لم يُخْدَع بما أَحاطَ

---

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن كثير ٤: ٨٢.

به فرعونُ نفسَه، من مظاهرِ القوة وهالاتِ العظمة، ولقد نظرَ إليه بمنظارِ الإيمانِ بالله، واليقينِ بقوةِ الله، فرآهُ على حقيقته، ووزَنَه بميزانِ الإيمان، فعرفَ وزْنَه البشريَّ الحقيقي، مجرداً من الحوْلِ والطَّوْل والضرّ والنفع. ولهذا وقفَ أَمامَه، وتحدّاه، وأظهرَ إيمانه، وانتصرَ لموسى عليه السلام.

وكأنَّ الرجلَ المؤمنَ يدعو المؤمنين إلى الاقتداءِ به في هذا الموقف، وأنْ ينظروا للطغاةِ بمنظارِ الإيمان، ويَزِنوهم بميزانِ الإيمان، ليعرفوا حجْمَهم الحقيقي، بدون انتفاشٍ أو تهويل، فلا يَرهبوهم، ولا يتركوا الحقَّ بسببِ تهديدِهم.

وبهذا يكونُ قد انتهى من بيانِه الدعويِّ الحكيم، وبهذا أَثَّرَ في المستمعين لموضوعيتِه ومنهجيته، وتحدَّى فرعون وتصدّى له بجرأةٍ وشجاعة.

الرجل المؤمن يقيم الحجة على قومه:

ولم يبقَ له إلاّ أنْ يختمَ «البيانَ الدعويَّ» بالخاتمةِ المناسبة، قبلَ أنْ يغادرَ المكان.

قالَ لقومه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

لقد قدَّمَ لهم دعوتَه، ودَعاهم إلى اتِّباعه، وهذا هو الواجبُ عليه، وقد أدّى هذا الواجبَ على أتمِّ وجْه.

والخطوةُ التاليةُ عليهم، فالحقُّ أصبحَ واضحاً لهم، فماذا يفعلون؟ وأيَّ الطريقيْن سيسلكون؟ وأيَّ الدعوتين سيلبون؟ دعوتَه إلى النجاة والجنة؟ أم دعوةَ فرعونَ إلى الهلاك والنار؟

هذا الاختيارُ لهم، فإن استجابوا له فازوا وسعدوا، وإن استجابوا لفرعونَ خسروا وشقوا.

وهو لا يقدرُ على إلزامِهم اختيارَ الحق، لأَنه لا سلطانَ له على قلوبهم. وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

ولهذا من المناسبِ أنْ يقولَ لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾..

وهذا التذكُّرُ يكونُ في المستقبل، في الدنيا وفي الآخرة.

فإنِ استجابوا له وآمَنوا، حقَّقوا ثمرةَ الإيمان في الدنيا وفي الآخرة، وعندها يتذكَّرون ما قالَه لهم، فيشكروه على دعوتِه. وإنْ رَفضوا دعوتَه وأَصرّوا على الكفر، فسيدفعون ثمنَ ذلك غالياً في الدنيا والآخرة، وعندها يتحسّرون ويَندمون لرفضهم دعوتَه.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ليس تهديداً لهم، وإنما هو نصيحةٌ وتذكير. وهو وسيلةٌ أُخرى من وسائلِ التأثير عليهم، وكأَنه يقولُ لهم: إذا اخترتم طريقَ الكفر، ووقعت بكم عاقبةُ ذلك، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم!!

ويعلن تفويض أمره إلى الله ودلالة ذلك:

ثم أَعلنَ اعتمادَه على الله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

لماذا أَعلنَ هذه الحقيقة؟

إِنه في موقفٍ خطيرٍ غايةٍ في الخطورة، ولا يحفظُه فيه إلاّ الله. لقد واجَهَ فرعون، المتألِّهَ المتجبرَ الطاغية، وتصدّى له وتحدّاه، وردَّ عليه دعوتَه، وأَعلنَ إيمانَه بالله، واتبعَ خصْمَه موسى، ودعا القومَ إلى اتباعه..

وهذا يعرضُه إِلى أَذى فرعون وبطشِه، واضطهادِه وتعذيبه، وليست معه قوةٌ بشريةٌ قوية، تَحميه وتَنصره، وتدفعُ عنه أَذى فرعون.

فمن الذي يَنصره ويَحميه؟ إنه الله! ولذلكَ أعلنَ هذا المؤمنُ الحكيمُ تفويضَ أمره إلى الله.

إنَّ موقفَ الرجل المؤمن، وإعلانَه تفويضَ أَمرِه إلى الله، يقدمُ لنا معلماً دعوياً إيمانياً، من معالم الإيمان والدعوة والمواجهة، فالمؤمنُ الداعيةُ يدخلُ المعركة مع الباطلِ، ويواجهُ أصحابَ الباطل، وهو مدركٌ لحقيقةِ المعركة وقواها وأطرافها، يدخلُ المعركةَ وكلُّه إيمانٌ بالله، وتوكُّلٌ عليه، واستنصارٌ واستغاثةٌ به، وتفويضٌ مطلقٌ إليه. ويعرفُ أصحابَ الباطل على حقيقتهم، وأَنهم أعداءٌ لله، وأنَّ اللّهَ سيقصمهم.

وهذه الحالةُ الإيمانيةُ العاليةُ التي يعيشُها تُعطيهِ المزيدَ من الجرأةِ والشجاعة، والصبرِ والثبات، والفوزِ والظفر.

حياةُ المؤمن كلُّها تقومُ على تفويضِ الأمرِ كلِّه لله، وهذا هو الإيمانُ بالله وقدرِه، يفوضُ أمْرَه إلى الله وهو يوقنُ أنَّ اللّهَ معه يحفظُه ويحميه، وينصرُه ويؤيدُه.

الله وقاه سيئات ما مكروا وإبهام نهايته:

ولقد كانَ اللّهُ مع الرجل المؤمن، فلما أعلنَ لجوءَه له وتفويضَ أَمرِهِ إليه، وقاهُ اللّهُ مكْرَ فرعون وملئِه، وأَوقعَ بهم عقابَه. قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

وقى اللّهُ الرجلَ المؤمنَ مكْرَ وكيدَ فرعون وآله، وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ الذين استمعوا إلى بيانِه الدعويِّ الحكيم لم يستجيبوا له، ولم يَقبلوا دعوتَه، وبقوا إلى جانبِ فرعون، خائفين من بطشه وأذاه، ملتزمين عبادتَه وتأليهَه، مستجيبين لدعوته.

ولكنَّ الرجلَ المؤمنَ قام بواجبه، وبذلَ جهدَه في دعوتِهم ونصحهم، وأَقامَ عليهم الحجة، وهم الذين خسروا برفضِهم دعوتَه.

ونجحَ الرجلُ المؤمنُ في حملِ فرعون على التراجع عن طلبه السابق لقتْلِ موسى عليه السلام، ويبدو أنه «شُغِلَ» بقضيةِ الرجل المؤمن عن قضيةِ قتل موسى، وأنَّ الأحداثَ تطورتْ وتلاحقَتْ، فصرفَهُ تتابعُها عن ذلك.

ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينية ـ المتمثلةُ في الآياتِ الصريحةِ والأحاديث الصحيحة ـ عن ما جرى لمؤمن آل فرعون بعد ذلك، ولا كيفَ وقاهُ اللّهُ سيئاتِ ما مكرَ فرعون وآلُه. فهذه النهايةُ من «مبهمات القرآن» التي لا نعرفُها، ولا نخوضُ في بيانها.

لقد ختمَ القرآنُ قصةَ مؤمنِ آل فرعون خاتمةً إيمانيةً دعوية مقصودة، لتقدِّمَ ظلالَها ودروسَها وعبرَها للمؤمنين، فآخرُ لقطةٍ فيها تفويضُه كلَّ أمره إلى الله، ووقايةُ الله له سيئاتِ ومكر وكيد فرعون وآله، والانتقامُ منهم وتعذيبُهم.

أمّا كَمْ عاشَ مؤمنُ آلِ فرعون بعد ذلك، وكيفَ مات، وماذا كان ردُّ فرعونَ عليه، فهذا سكتَ عنه القرآن، ونحن نسكتُ عن ما سكتَ عنه، ونَكِلُ العلمَ به إلى الله تعالى.

ونشيرُ إشارةً سريعةً إلى دلالةِ الآيةِ التي أَمامنا على عذابِ القبر، فالله يقول: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

سوءُ العذاب الذي حلَّ بآلِ فرعون بعد وفاتِهم غرقاً هو النار، يُعَذَّبون فيها يومياً، ويُعْرَضون عليها كلَّ يوم مرتين: مرةً في الصباح ومرة في المساء.

وهذا العرضُ قبلَ قيامِ الساعة، أي وهم في قبورهم في مرحلةِ البرزخ بانتظارِ يوم البعث. وعندما يُبعثون يومَ القيامة يُعذَّبون العذابَ الأبديَّ في جهنم، حيث يقول الله لملائكته: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

أربع علاجهن في أربع:

ونختمُ كلامَنا عن مؤمنِ آل فرعون بالوصفةِ القرآنية العجيبة، التي قدَّمَها الإمامُ جعفرُ بن محمد الصادق رضي الله عنه.

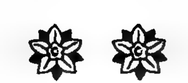
قال: عجبتُ لمن ابتليَ بأربعٍ كيف يغفلُ عن أربع:

١ ـ عجبتُ لمن خاف، كيف لا يَفزعُ إلى قولِه سبحانه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فإني سمعتُ اللّهَ يقول بعقبِها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

٢ ـ وعجبتُ لمن اغتم، كيف لا يَفزعُ إلى قوله سبحانه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإني سمعتُ اللّهَ يقولُ بعقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

٣ ـ وعجبتُ لمن مُكِرَ به، كيفَ لا يفزعُ إلى قوله سبحانه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإني سمعتُ اللّهَ يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

٤ ـ وعجبتُ لمن أرادَ الدنيا وزينتها، كيفَ لا يفزعُ إلى قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ..﴾ [الكهف: ٣٩ ـ ٤٠].





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

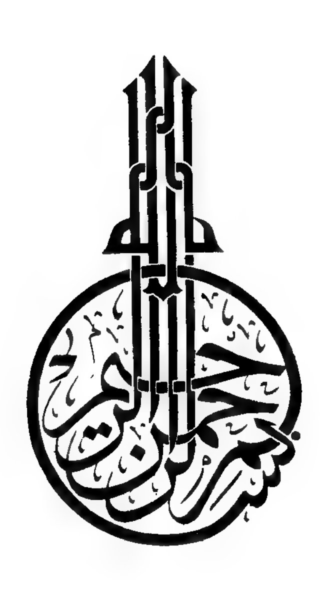
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الثالث

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت




القصص القرآني

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المرحلة الثالثة
خروج موسى ببني إسرائيل
وغرق فرعون وجنوده

[١]
أحداث ما قبل الخروج

ملأ فرعون يهيجونه على موسى:

كان الملأُ من قومِ فرعون طغاةً ظالمين مفسدين، مثلَ فرعون، وكانوا معادين لموسى عليه السلام وأتباعِه المؤمنين، وكانوا منفذين لأوامر وتعليمات فرعون في تعذيب المؤمنين.

ولما رأوا دعوةَ موسى تنتشر، وأمْرَه يشتدُّ ويقوىٰ، قاموا بتهييج فرعونَ ضدَّ موسى وأتباعِه، وكأنَّ فرعونَ يحتاجُ إلى مَنْ يهيِّجُه ويحثُّه على تعذيبهم!!.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].

قالوا له: لا تتركْ موسى حُرّاً في نشر الدعوة، ولا تتركْ قومَه يؤمنون به أحراراً، فإنْ فعلْتَ ذلك فسوف يُفسدون في بلادك، وسوف يُقبلُ عليهم الناس، ويدخلون في دينهم، وبذلك يَنفضّون ويتخلّون عنك، ويتركون عبادتَك، فمَنْ يعبدُك بعدَ ذلك؟ فإذا كنتَ تريدُ المحافظةَ على خضوعِ الناس وعبادتِهم لك، فعليك أنْ تعذبَ موسى وقومَه المؤمنين وتضيقَ عليهم.

وردّ فرعونُ على تهييجِ الملأ بأنه مدركٌ لخطورةِ موسى وقومِه المؤمنين، وأنه مهتمٌّ بهم، وسوف يحرصُ على حربهم ومواجهتهم، وذلك بأن يُقتّلَ أَبناءهم، ويتركَ نساءَهم للاستعبادِ والاستذلال والخدمة.

وطمأَنَهم بأن الأمْرَ تحت يده، فهو قويٌّ قاهر، قادرٌ على حربِ هؤلاء والقضاء عليهم، وأَنهم لن يَغلبوه.

متى قال الملأُ هذا القول؟

قالوه بعدما رأوا الآياتِ البينات، القاطعةِ بأنّ موسى رسولٌ من عند الله، وبعدما انتصرَ الإيمانُ وآمنَ السحرة، وآمنَ الرجلُ المؤمن، وبعدما ظهرَ للجميع كذبُ فرعون وافتراؤه، وبعدما هُزمَ فرعونُ أمامَ الحق!!

الملأ يرددون اتهامات فرعون لموسى:

مع كلِّ هذه الآيات أصرَّ الملأُ على كفرهم، وقاموا بتحريضِ فرعون على المؤمنين، لأنه طُمسَ على قلوبهم، فلا تتأثرُ بالآيات ولا تُقبلُ على الإيمان.

وما كان الملأُ إلاّ مُرَدِّدين لكلامِ طاغيتهم فرعون. فلما قالَ عن موسى إِنه ساحرٌ كذاب، قالوا عن موسى إنه ساحرٌ كذاب.

ولما طلبَ فرعونُ قتلَ موسى لأنه يخشى إفسادَه في الأرض: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، قالوا عن موسى وأتباعِه إنهم سيفسدون في الأرض: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ..﴾.

في تصوُّرِهم المقلوب: تأليهُ فرعون وعبادتُه هو الصلاحُ والإصلاح، أما الدعوةُ إلى تأليهِ الله، وإفرادِه بالألوهية والربوبية والعبادة والحاكمية، فهي الإفسادُ والفساد، ومَنْ دعا إلى ذلك فهو مفسدٌ في الأرض، ولذلك يجبُ القضاءُ على المؤمنين بتهمة الإفساد!!.

معنى قولهم لفرعون: «ويذرك وآلهتك»:

ونقفُ لحظةً أمامَ قول الملأ لفرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾:

معناه: إنّ موسى وقومَه المؤمنين يعبدون الله، ولا يعبدونك ولا يعبدون آلهتَك، فإنْ سكَتَّ عنهم، فإنهم سيتركونك، وإنَّ موسى سيقضي على عبادتك وعلى عبادة آلهتك، لأن الناسَ عندها سيعبدونَ اللّهَ ربَّ العالمين.

ويعترفُ الملأُ بأنَّ لفرعونَ آلهةً يؤلِّهُها ويعبدُها، «آلهةً» بالجمع، وليس إلٰهاً واحداً. وهي ما كان يؤمنُ به فرعونُ من الأصنام والأوثانِ والكواكب، ويعتبرها أرباباً آلهة.

وهذا اعترافٌ منهم بأن فرعونَ كان يعبدُ آلهة! ولا تَعارضَ بين كونه يَعبدُ آلهة، وبين تصريحِه بأنه إلهٌ لقومه.

دعا فرعونُ قومَه إلى تأليهه، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ..﴾ [القصص: ٣٨].

وأَخبرهم أنه ربُّهم الأَعلى. قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ..﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٤].

اعتبرَ فرعونُ نفسه إلهاً ورباً لقومه، ودَعاهم إلى عبادته، وكان له آلهةٌ يعبدُها ويؤمنُ بها.

أي: كانَ فرعون يَعْبُدُ ويُعْبَدُ!! ولا معارضةَ في ذلك!!

قال سيد قطب في الظلال: «إنَّ فرعونَ لم يكن يَدّعي الألوهيةَ بمعنى أَنه هو خالقُ هذا الكون ومدبرُه، أو أن له سلطاناً في عالمِ الأسبابِ الكونية. إنما كان يَدّعي الألوهيةَ على شعبه المستَذَلّ! بمعنى أنه هو حاكمُ هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته وأَمره تمضي الأمور...

كذلك لم يكن الناسُ في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديمِ الشعائرِ التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، وكان لفرعون آلهتُه التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهرٌ من قول الملأ له: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، وكما يُثبتُ المعروفُ من تاريخ مصر الفرعونية، إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريدُه بهم، لا يعصون له أمراً، ولا ينقضون له شرعاً. وهذا هو المعنى اللغويُّ والواقعيُّ والاصطلاحيُّ للعبادة...

... ولقد كان فرعون إنما يستمدُّ هيبتَه وسلطانَه من الديانة التي تُعْبَدُ فيها هذه الآلهة.. بزعْمِ أنه الابنُ الحبيبُ لهذه الآلهة! وهي بنوّةٌ ليست حسية! فقد كان الناسُ يعرفون جيداً أنّ الفرعون مولودٌ من أبٍ وأمٍّ بشريّيْن. إنما كانت بنوّةً رمزية، يستمدُّ منها سلطانَه وحاكميتَه، فإذا عَبَدَ موسى وقومُه ربَّ العالمين، وتركوا هذه الآلهةَ التي يعبدُها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيمُ الأساسِ الذي يَستمدُّ منه فرعونُ سلطانَه الروحيَّ على شعبه المستَخَفِّ...»[1].

تجاوبَ فرعونُ مع تحريضِ الملأ، وأعلنَ خطتَه في مواجهةِ موسى وأتباعه، إنها تقتيلُ أبناء المؤمنين، واستحياءُ نسائهم، وهذه الخطةُ عودةٌ منه للخطةِ السابقة التي اعتمدها فرعونُ في مواجهةِ بني إسرائيل قبل ولادة موسى عليه السلام.

تقتيل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم مرتين:

وهذا معناه أنّ تقتيلَ وتذبيحَ فرعون أبناء بني إسرائيل واستحياءَ نسائهم كان قد وقع مرتين:

المرة الأولى: قبلَ ولادةِ موسى عليه السلام، وذلك ليحولَ بين بني إسرائيل وبين العزة، وليُبقيهم مستعبَدين له. وأشارتْ إلى هذا عدةُ آياتٍ قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٥٣ ـ ١٣٥٤ باختصار.

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

المرة الثانية: بعدما آمنَ الناسُ بموسى، وذلك ليصدَّهم فرعونُ عن الإيمان به ومتابعته.

ودليلُ هذا التقتيلِ والاستحياءِ الثاني قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ٢٥].

ودليلُه أيضاً هذه الآية: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

ومعنى قول فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾: نحن قادرون عليهم، نتحكمُ فيهم ونقهرُهم ونُذلُّهم ونُخضعُهم، إنهم لا يقهروننا ولا يغلبوننا، فالأمنُ مستتب، والوضعُ مسيطرٌ عليه، ولا يشكّلون خطراً علينا..

ونفذَ فرعونُ خطتَه وتهديدَه، وصبَّ على بني إسرائيل ظلمَه وإفسادَه وطغيانَه، وكان يقتّلُ أبناءهم ويستحيي نساءهم، لا لذنبٍ ارتكبوه إلاّ لأنهم آمنوا باللّهِ العزيزِ الحميد.

آمن بموسى شبان بني إسرائيل وليس كبارهم:

وأدّى البطشُ الفرعونيُ إلى تردُّدِ رجالِ بني إسرائيل في الإيمان، بل وتراجعهِم عنه، طلباً للنجاة بأنفسهم، وكان الذين آمنوا بموسى في هذه المرحلة هم فتيانَ وشبابَ بني إسرائيل!!

قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣].

الراجحُ أنَّ الكلامَ في الآية على الذين آمنوا بموسى من بني

إسرائيل، وليس من المصريين. والراجحُ أن الهاءَ في «قومه» تعودُ على موسى عليه السلام. أي: ما آمنَ لموسى واتبعه إلا الذريةُ الفتيانُ الشبانُ من بني إِسرائيل.

أما الرجالُ الكبارُ من بني إسرائيل فلم يؤمنوا بموسى في البداية، لأنهم كانوا يخافون من فرعون وملئه، يخافون أنْ يَفتنوهم ويُعذبوهم ويقتلوهم، ولهذا تركوا الإيمانَ في أول الأمرِ خوف الفتنة والقتل: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

وكان رجالُ بني إسرائيل الكبار يخافون الفتنةَ والقتلَ من فرعون، لأَنهم يعرفونَه، عالياً مستكبراً في الأرض، وظالماً جباراً باغياً على الناس، ومفسداً مسرفاً في سفك الدماء: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

إنَّ الرجالَ الخائفين يفكرون كثيراً قبلَ أنْ يختاروا الإيمان، لأَنهم يَخافون البطشَ والأذى، فيُؤْثِرون السلامةَ على الإيمان. أما الشبان الصادقون فإنَّ اللّهَ قد غرسَ فيهم الهمةَ والإرادة، والاندفاعَ والحماسة، فيُقبلون على الإيمان، مهما انتظرهم من خطرٍ وتهديد!

هذه هي طبيعةُ الشباب والكبار غالباً، ولهذا نرى الدعواتِ الصادقةَ تقومُ على أكتافِ الشباب في البداية، ولا يأتيها الكبارُ إلاّ بعدما تستقرُّ ويصلبُ عودُها وتنتصرُ على أعدائها.

وإذا كان هذا هو موقفُ الشباب والكبار من الدعوات غالباً، في مرحلة التأسيس، فلا عجبَ أنْ نرى تراجعَ رجالِ بني إسرائيل عن الإيمان في بداية الأمر، نظراً للثمنِ الباهظ المترتب عليه، بينما اندفعَ الفتيةُ المتحمسون الصادقون نحو الإيمان، وتحملوا ما تحملوا من طغيان فرعون!!

موسى يوصي المؤمنين بالصبر والثبات:

توجَّهَ موسى إلى هؤلاء الشباب الرجال، المختارين للإيمان رغم

ارتفاع الثمن ومشقة الطريق، توجَّه إليهم مثبِّتاً مصبِّراً، يدلُّهم على الزادِ الذي يتزوَّدون به، والمددِ الذي يستمدون منه. قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الزادُ هو الاستعانةُ بالله، والصبرُ على مشقةِ الطريق.

الاستعانةُ بالله ليستمدوا منه المدد، وليعتمدوا على قوتِه وحفظِه ورعايته، وليستهينوا بفرعون وبطشِه وجبروته.

والصبرُ هو ثباتُهم على الحق، وعدمُ تراجعهم عنه، مهما وُجِّهَ لهم من تهديدٍ ووعيد، ومهما صُبَّ عليهم من تعذيبٍ وترهيب.

وقد قرنَ القرآنُ بين الاستعانةِ بالله والصبر على اختيار طريق الله، فهما زادٌ ضروريٌّ لكل صادقٍ في السيرِ إلى الله.

إنه ليس لهؤلاء الرجالِ الشبان إلا الله، فهو الذي يستعينون به ليحميهم مِنْ فرعونَ وملئه، وهم يطلبونَ منه أنْ يُفرغَ عليهم صبراً، كما طلب السحرة ذلك من قبل، عندما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

حقيقة إيمانية: الأرض لله والعاقبة للمتقين:

وبعدما وضعَ موسى أيديهم على الزادِ قدَّمَ لهم حقيقةً إيمانية قاطعة، أَتبَعَها بسنةٍ ربانية مطردة. قال لهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ مالكِ السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، ومُلْكُ مصرَ في الحقيقةِ لله، واللّهُ هو الذي منحَ ملكَها لفرعون امتحاناً واختباراً، وإذا لم يؤمنْ بالله، فسوف يسلبُه ملكَه، ويمنحه لغيره.

وبما أنَّ الأرضَ لله، فإنه هو الذي يورثُها مَنْ يشاءُ من عباده، ويمنحُها له، ثم ينزعُها منه ويورثُها غيرَه، يفعلُ هذا بحكمته ومشيئته

سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

إنَّ موسى عليه السلام يقدمُ من خلال هذه الحقيقةِ الإيمانية بشرى وأملاً لأتباعه المؤمنين، بأنَّ اللّهَ سيورثُهم ملكَ الأرض، وهذا معناه أنَّ مرحلةَ الاضطهاد والتعذيب ستنتهي، وستعقبها مرحلةُ الإنعامِ والرخاءِ من الله، حيث سيملكُهم الأرضَ ويورثُها لهم.

والسنةُ الربانيةُ المطردة هي: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. فالصراعُ مستمرٌّ بين المتقين والكافرين، وهذا الصراعُ له جولاتٌ وجولات، قد يتغلبُ الكافرون على المؤمنين في بعضها، ولكنَّ العبرةَ بالنتائج والخواتيم، فالغلبةُ في النهايةِ للمؤمنين، والعاقبةُ للمتقين.

فإذا ما واجه الشبانُ المؤمنون أذى واضطهادَ فرعون في هذه المرحلة، فلْيَصبروا ويستعينوا بالله، لأن العاقبةَ لهم.

كبار الإسرائيليين يتبرمون بموسى وهو يرد عليهم:

وبينما كانَ الشبانُ الرجال يدفعون ثمنَ إيمانهم، ويتلقَّوْن أذى وتعذيبَ فرعون وملئه، كان الكبارُ من بني إسرائيل يلومون ابنَهم موسى عليه السلام، ويتبرَّمون منه ومن رسالته، ويعتبرون وجودَه سبباً في زيادةِ تعذيبِ فرعون لهم. قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قالوا له: كان فرعونُ وملؤه يعذبونَنا ويؤذوننا مِنْ قبلِ أنْ تأتينا، وها هم ما زالوا يعذبوننا ويؤذوننا بعدما جئتنا، وبعدما بعثَك اللّهُ نبياً، وأعطاك الآياتِ والمعجزات، فما الذي تغيَّرَ بقدومك؟ لم يتغيرْ شيءٌ نحو الأحسن؟ فما زال العذابُ والتقتيلُ مصبوباً علينا! فماذا استفدْنا منك ومن نبوتك؟؟

وهذا التبرمُ منهم يكشفُ عن طبيعتهم العجيبة، فهم لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية، ولا يَدفعوا ثمنَ النصر والتمكين، وإنما يريدونَه نصراً سهلاً وتمكيناً ميسوراً، بدون جهدٍ ولا مواجهة، ولا ثباتٍ ولا تضحية.

وقد ردَّ موسى على شكوى ولومِ هؤلاء بأنْ فتحَ لهم بابَ الأملِ والرجاء، ودعاهم لاستشرافِ المستقبلَ المشرق، وتحمُّلِ مسؤوليتِهم وأَداء واجبهم، ليصلوا إليه مؤمنين مجاهدين ثابتين: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ويَحملُ كلامُ موسى عليه السلام دلالةً هامة، يلاحظُها مَنْ يتابعُ تاريخَ بني إسرائيل فيما بعد، بعدَ دخولهم الأرضَ المقدسة.

فهو يقولُ للشبانِ المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ..﴾.

وهذا ردٌّ على ادعاءاتِ الإسرائيليين ـ واليهود من بعدهم ـ بأنَّ اللّهَ أعطاهم الأرضَ المقدسة لأنهم من نسلِ إبراهيمَ ويعقوبَ عليهما السلام، وأَنها ستبقى لهم حتى قيامِ الساعة، وأنه لا ينزعُها منهم مهما فعلوا، فموسى يقولُ لهم قبلَ وصولهم الأرضَ المقدسة، إنَّ الأرضَ المقدسة ـ كباقي بقاع الأرض ـ لله، وليستْ لهم، وإنَّ اللّهَ يمنحُها لمن يشاءُ من عباده، إذا كانوا متقين صالحين، وهذا معناه أَنهم إنْ لم يكونوا متقين فسيسلبُهم اللّهُ الأرضَ المقدسة.

وموسى عليه السلام يقولُ للرجال الإسرائيليين: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وهذا تأكيدٌ لما قالَه للشبان، فإنَّ اللّهَ سيستخلفُ الإسرائيليين في الأرض المقدسة، ويمكنهم فيها، من باب الامتحانِ والاختبار، لينظرَ أعمالَهم بعد الاستخلافِ والتمكين. فإنْ وَفوا بالشروطِ المطلوبة للاستخلاف، وشكروا اللّهَ عليه، أَبقاهم فيها، وإنْ نقضوا العهدَ وخالَفوا الشروط، وعملوا المنكرَ والباطل، فإن اللّهَ سيحرمُهم منها. وهذا ما حصلَ منهم وحصلَ لهم فيما بعد!

موسى يعرض الموادعة وفرعون يرفضها:

ومضتْ فترةٌ على هذا الوضع، موسى عليه السلام ينشطُ في دعوتِه، والشبانُ الصادقونَ من بني إسرائيل يستجيبون له، والرجالُ الكبارُ يتبرَّمون منه ويلومونه، وتعذيبُ فرعونَ وملئِه يزدادُ ضدَّ المؤمنين الإسرائيليين، وموسى يُصبِّرهم ويثبِّتهم!

وأرادَ موسى عليه السلام أنْ يكونَ نوعٌ من المهادنةِ والموادعةِ بينه وبين فرعون، لتخفَّ حدةُ المواجهة، ويتمكنَ من تربيةِ وتقويةِ أتباعه المؤمنين.

طلبَ موسى عليه السلام من فرعونَ وملئِه أنْ يعتزلوه، وأنْ يَدعوه مع أتباعه. قال الله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١].

لقد طلبَ موسى عليه السلام من فرعون وملئه أنْ يُرسلوا معه بني إسرائيل، وأنْ يُسلموهم له، ولهذا قال: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧].

وطلبَ منهم أنْ لا يَعلوا ولا يتكبَّروا على الله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

ولكنهم لم يَستجيبوا لطلبه، فلم يُرسلوا معه بني إسرائيل، واستعلوا على الله ولم يَخضعوا له، وهَددوا موسى بالتعذيبِ والرجم، فلجأَ موسى إلى الله، ناصرِه وحاميه، واستعاذَ به من شرهم: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

وهذا درسٌ إيمانيٌّ ضروريٌّ لكل مؤمنٍ يواجهُ الباطل، فعندما يستكبرُ أصحابُ الباطل على الله، ويؤذون المؤمنَ الصالح، فعليه أنْ

يعوذَ بالله ويلجأَ إليه، ويرجوه حفظَه وعنايتَه ورعايتَه، فهو الذي يحميه منهم، ويُعيذُه من شرهم.

وطلبَ موسى عليه السلام من فرعون وملئه أنْ يعتزلوه وقومَه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول لهم: بما أنكم لم تؤمنوا لي، وأصررتم على الكفر والتكذيب، فَدَعوني مع مَنْ آمنَ بي، واعتزلونا واتركونا، وارفعوا عنا تعذيبَكم واضطهادَكم، وكفّوا شرَّكم عنا، وانتظروا ما سيكونُ في المستقبل.

وهذه دعوةٌ من موسى إلى مهادنتِهم وموادعتِهم، ليوقفَ شَرَّهم وبطشَهم، وليُقبلَ على أتباعِه بالتربية والتثبيت والإعداد.

ولكنَّ القومَ الجبارين الظالمين لم يَقبلوا هذه الموادعةَ والمهادنة من موسى عليه السلام، ولم يَتركوه مع قومه، ولم يعتزلوه، وإنما استمروا في تطبيقِ خطتهم الخبيثة في حرب المؤمنين.

وهذه هي طبيعةُ الطغاةِ الظالمين، حيث لا يَقبلون مهادنةَ ولا موادعةَ ولا مسالمةَ دعوةِ الحق، واعتزالَ أصحابِها، إلا لتحقيقِ مكاسبَ ومصالح لهم في ذلك، فإنْ لم تكن لهم مصلحةٌ من المسالمةِ والموادعة، استمروا في المواجهةِ العنيفة، بهدفِ طمس نورِ الحق وسحقِ رجاله.

موسى يطلب من أتباعه التوكل على الله:

أَقبلَ موسى عليه السلام على أَتباعه المؤمنين يُربّيهم، ويُعمقُ فيهم معاني الإيمان والثبات، ويطلبُ منهم التوكلَ على الله، والصبرَ على ما يواجهونه في سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦].

يأمُرُ موسى عليه السلام أتباعَه أنْ يُحسنوا التوكلَ على الله، وتفويضَ أمورِهم إلى الله، لأنهم يواجهون كفاراً عتاةً جبابرة، ولا يُثبِّتُهم أَمامهم إلاّ الله، ولا ينجيهم منهم إلاّ الله.

والتوكلُ على الله من معالمِ الإيمان الأساسية، ولا يَجوزُ أنْ يتركه المؤمنُ لحظةً من حياته، وبخاصةٍ إذا كان يواجهُ الباطل الحاقدَ المتنفش.

ومَنْ توكلَ على الله بصدقٍ فإن الله سيحفظُه ويَحميه، ويرعاه ويكفيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وكما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧].

وقد تجاوبَ المؤمنون مع دعوةِ موسى عليه السلام، وأَعلنوا توكُّلَهم على الله، وتضرُّعَهم إليه: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

متى يكون المؤمنون فتنة للكفار؟:

طلبوا من الله أنْ ينجيهم من فرعون وملئِه، ووصفوهم بالظلم والكفر، وسأَلوه أنْ لا يَجعلهم فتنةً لهؤلاء الكافرين الظالمين.

قال مجاهد: معنى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: لا تُعذِّبْنا بأيدي آلِ فرعون، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولُ قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عُذِّبوا ولا سُلِّطْنا عليهم، فيُفتتنوا بنا.

وعلقَ الإمامُ ابنُ كثير على كلام مجاهد فقال: المعنى: لا تُظْفِرْهم بنا، ولا تسلِّطْهم علينا، فيظنوا أَنهم إنما سُلِّطوا علينا لأنهم على الحقِّ ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك[1].

(١) تفسير ابن كثير ٢: ٤١٠.

وهذا الدعاءُ من المؤمنين يدلُّ على فطنتِهم وحكمتهم، فالأصلُ في المؤمنين أن يكونوا دعاةً للآخرين، وأنْ يُقدموا لهم الدعوةَ بالكلامِ والمواقفِ والسلوك والممارسات، وأنْ يَعيشوا دينَهم بعزةٍ وكرامة، وصدق والتزام، حتى لو كانوا مضطهدين!

فإذا ما نظرَ إليهم المراقبون أُعجبوا بمواقفِهم الصادقةِ الثابتة، وعَلموا أنَّ دينَهم هو الحق، لأَنه دفعهم إلى هذه المواقف، وبذلك يكون المؤمنونُ دعاةً بمواقفهم، وقدواتٍ بسلوكهم، يُقدِّمون شهادةً عمليةً لدينهم.

فإذا لم يكن المؤمنون كذلك كانوا فتنةً للذين كفروا. إذا لم يثبتوا على الحق، وضعفوا أمامَ أصحاب الباطل، وتراجعوا عن دينهم، ورَضوا أنْ يستذلَّهم ويستعبدَهم الكفار، كانوا فتنةً لهم، وقدموا شهادةً سيئةً لدينهم، حيث سيقولُ الكفار: ما هذا الدين الذي أَفرزَ هؤلاء؟ لو كان صحيحاً لانعكسَ على حياةِ المؤمنين به، ولارتقى بهم نحو القمة، إنَّ واقعهم السيء دليلٌ على أنهم على باطل، ودينَهم باطل.

وبذلك يكونون قد صَرَفوا الآخرين عن دينهم، بسببِ واقعِهم السيء، وبذلك يكونون فتنةً للكافرين الظالمين.

وطلبُ المؤمنين بموسى عليه السلام أن لا يكونوا فتنةً لأعدائهم الظالمين الكافرين، كطلبِ المؤمنين بإبراهيم عليه السلام من قبلهم، الذي ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥].

استمرَّ اضطهادُ فرعون وملئِه للمؤمنين، وتعذيبُهم وقتلُهم، وواجَهَ المؤمنون هذا بصبرٍ وثبات، واعتصامٍ باللّه، وتوكلٍ على الله.

التربية السرية وصلاة الإسرائيليين في بيوتهم:

وأَوحى اللّهُ إِلى موسى وهارون عليهما السّلام أنْ يُربيا أتباعَهما في بيوتهم بصورةٍ سرية، لا تُلفتُ أَنظارَ آل فرعون. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧].

وهذه الخطوةُ السريةُ من أجلِ المحافظة على هؤلاء المؤمنين، فاتخذَ موسى وهارونُ عليهما السلام لهم بيوتاً خاصةً في مصر، بيوتاً بعيدةً عن عيون المراقبين الراصدين، بيوتاً سريةً يقيمونَ فيها، ويتربّون فيها، ويعبدونَ اللّهَ فيها.

وقد أَذنَ اللّهُ للمؤمنين في هذه الفترةِ الحرجةِ الشديدة من الاضطهادِ والتعذيب أنْ يُؤَدوا عباداتِهم في هذه البيوتِ السرية، ويَجعلوها قبلة، ويُقيموا الصلاةَ فيها: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . .﴾.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: أُمِروا أنْ يتخذوا بيوتَهم مساجد.

وقال مجاهد وغيره: كانوا خائفين، فأُمِروا أن يُصلّوا في بيوتهم..

وفي روايةٍ أُخرى عن ابن عباس قال: قالتْ بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لا نستطيعُ أنْ نُظهرَ صلاتَنا أمامَ الفراعنة. فأذنَ اللّهُ لهم أنْ يصلّوا في بيوتهم، وأُمِروا أن يجعلوا بيوتَهم جهةَ القبلة.

وفي روايةٍ أُخرى عن مجاهد قال: لما خافَ بنو إِسرائيل من فرعون أنْ يُقتلوا في الكنائس الجامعة أُمِروا أنْ يجعلوا بيوتَهم مساجد مستقبلةً للقبلة، يصلّون فيها سراً[1].

وعلق سيد قطب على معنى الآيَة وفهمِ السابقين لها بقوله:

---

(١) تفسير ابن كثير ٢: ٤١٠.

«وتلك هي التعبئةُ الروحيةُ إلى جوارِ التعبئة النظامية، وهما معاً ضروريان للأفرادِ والجماعات، وبخاصة قَبيلَ المعارك والمشقات. . .

وهذه التجربةُ التي يعرضُها اللّهُ على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصةً ببني إسرائيل، فهي تجربةٌ إيمانيةٌ خالصة.

وقد يجدُ المؤمنون أنفسَهم ذاتَ يوم مطارَدين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبَّرَ الطاغوت، وفسدَ الناس، وأنتنت البيئة ـ وكذلك كان الحالُ على عهدِ فرعون في هذه الفترة ـ وهنا يرشدُهم اللّهُ إلى اعتزالِ الجاهليةِ بنتنِها وفسادِها وشرِّها ـ ما أمكنَ في ذلك ـ وتجمُّعِ العصبةِ المؤمنة الخيرةِ النظيفةِ على نفسها، لتطهِّرَها وتزكّيها، وتدرِّبَها وتنظمها، حتى يأتيَ وعدُ اللّهِ لها. .»[1].

أخذ آل فرعون بالسنين ونقص الثمرات:

وأمامَ ازديادِ بطشِ وتعذيبِ فرعون وملئه للمؤمنين بموسى عليه السلام قدَّمَ اللّهُ لهم آياتٍ جديدة، تدلُّ على الحقِّ وأنه مع موسى ومَنْ معه، ليقيمَ عليهم الحجة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١].

أَخَذَ آلَ فرعون بالسنين ونقصِ الثمرات، لعلهم يتذكرون.

و«السّنين» جمعُ سَنَة. والمرادُ بها سنواتُ المحلِ والقحط والجدب، حيث ينحبسُ المطر، وتنقصُ المياه، ويتأذى الناسُ كثيراً بذلك.

و«نقص الثمرات» هو ما ينتجُ عن المحلِ والقحط، حيث تصابُ

---

(١) في ظلال القرآن ٣:١٨١٦.

الزّروعُ بالآفات، ولا تحملُ الأشجار ما كانت تحملُه من الثمرات، فتكونُ ثمراتُها قليلةً ناقصة.

وكان ما أَوقعه اللّهُ بآل فرعون من السنين ونقص الثمرات آيةً بينةً لهم، لو أَنهم فتحوا عقولَهم وقلوبَهم لها، لأنَّ مصرَ أرضٌ زراعيةٌ خصبة، غزيرةُ المياه التي تأتيها من نهرِ النيل، كثيرةُ الزروع والثمرات، وسنواتُ الخصبِ والرخاء تأتيهم متوالية. فإذا ما أَصابتْهم السنينُ ونقصُ الثمرات فعليهم أنْ يفكِّروا، وأنْ يحاولوا تعليلَ ذلك وبيانَ أَسبابه، بتذكُّرِ ما يفعلونَه من كفرٍ بالله، وتعذيبِ لأوليائه المؤمنين، وعليهم أنْ يَعرفوا الآثارَ الخطيرةَ المترتبةَ عليهم في حياتهم واقتصادهم وبلادهم.

إنهم إنْ فعلوا ذلك فسوفَ يتذكَّرون ويعتبرون، وبذلك يتخلَّون عن ما هم فيه من كفرٍ وظلم وعدوان.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، أي: لم يَعتبروا بهذه الآيات، ولم يَعرفوا حقيقةَ وهدفَ الامتحان والبلاء الذي أَوقعه الله بهم، لأن قلوبَهم مغلقة، وعيونَهم مطموسٌ عليها، وعقولَهم مغيبة، فلا يستفيدون مما أَوقعه اللّهُ بهم.

وهكذا أَصحابُ القلوبِ المغلقة من الكافرين والظالمين والغافلين في أيِّ زمانٍ ومكان، لا يَعتبرون مما يوقعُه اللّهُ بهم، ولا يتذكَّرون مما يقدِّمُه اللّهُ لهم، كما قال اللّهُ عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]. وقالَ عنهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: ١٢٦].

قوم فرعون يتطيرون بموسى ومن معه:

تعاملَ آلُ فرعون مع آياتِ الله وابتلائه لهم بقلوبٍ مطموسة مغلقة، فإنِ ابتلاهم اللّهُ بالحسنة، وقدَّمَ لهم الرخاءَ والنعمة، اعتبروها

من سعيهم وكدِّهم، وثمرةً لحسنِ تخطيطهم، ونتاج عقولهم، واغتروا بها فرحين: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ . . .﴾.

وإنِ ابتلاهم اللّهُ بالسيئة، وأحلَّ بهم المحلَ والقحط، نسبوا هذا إلى موسى عليه السلام ومَنْ معه: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

و«التطيُّر» هو: التشاؤم، وذلك بأنْ يتشاءَمَ الإنسان، ويعتقدَ أنَّ الشرَّ الذي أَصابَه إنما كان بسببِ فلان، وليس بتقديرِ وإرادةِ من الله.

لقد اعتبرَ فرعونُ وملؤُه موسى وأتباعَه المؤمنين سببَ ما حلَّ بهم من نكباتٍ ومصائب، وأساسَ ما وقع بهم من بلاءٍ وسوء. فهم في نظرِهم نذيرُ شؤم، ورسلُ خراب، ولهذا كانوا يتشاءَمون ويتطيرون بهم، ويَزيدون من اضطهادِهم وتعذيبهم.

وردّت الآيةُ تشاؤُمَهم وتطيرَهم بأنَّ ما أَصابهم فهو من الله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾. فاللّهُ هو الذي يُقدِّرُ ما يشاء، ويوقعُ بهم ما يشاء، ويعاقبُهم بما يشاء.

وإنما أَصابَهم بالسيئة جزاءً لهم، بسببِ ما ارتكبوه في حق المؤمنين من شرورٍ ومصائب، فهم السببُ في ما أَصابهم، وليس موسى ومَنْ معه.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: مصائبهم عندَ الله، تصيبُهم من قِبَلِ الله..[1].

وتطيُّرُ الكافرين بأصحابِ الحق وتشاؤُمُهم منهم خُلُقٌ جاهليٌّ مطردٌ فيهم، على اختلاف الزمان والمكان، حيث يعتبرونَ أصحابَ الحق هم السببَ في ما أصابهم من المصائب والنكبات.

فقد تطيَّرَ قومُ ثمود بصالح عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢: ٢٣٠.

فردَّ عليهم بأن طائرَهم عند الله. قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

وهنا تطيَّرَ آلُ فرعون بموسى عليه السلام ومن معه، فردَّ اللّهُ عليهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وهذا ما ردَّ به الرسلُ الثلاثةُ على تطيُّرِ أهلِ القرية الكافرين بهم. قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨ ـ ١٩].

ملأ فرعون يضحكون من آيات الله المتتابعة:

لم يتفاعل الملأُ من قومِ فرعون بالآيات والابتلاءات من الله، وكانوا يضحكونَ منها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٤٨].

وانظرْ إلى غفلةِ وضلالِ القوم، إن اللّهَ يُعطيهم الآيات ويوقعُ بهم العقوبات، لعلَّهم يَستيقظون ويَعتبرون ويَتعظون، ويتخلَّون عن الكفر، ويَرفعون العذابَ عن المؤمنين. ولكنهم يضحكونَ من آياتِ الله، ويتندَّرون عليها، وكأنَّها أمرٌ مُسَلٍّ يدعو إلى التسليةِ والضحك والسخرية!!

وأكثرَ اللّهُ عليهم الآيات، وكلُّ آيةٍ أكبرُ مما قبلَها، وموقفُهم منها هو هو، لم يتغير: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وما نَفعُ الآياتِ والتنبيهاتِ مع مَنْ يستقبلونها بقلوبٍ مغلقة،

وعيونٍ مطموسة؟ وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقولُه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ مجمل، يُشيرُ إلى الآياتِ الكثيرة، التي أَعطاها اللّهُ لهم، لكنه لم يذكُرْها.

آتى الله موسى تسع آيات:

وهذه الآياتُ المجملةُ هنا مبينةٌ في مواضع أخرى من القرآن، إنها تسعُ آيات.

قال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ..﴾ [الإسراء: ١٠١].

آتى اللّهُ موسى عليه السلام تسعَ آياتٍ بينات، موجَّهةٍ إلى فرعون وقومه، تدلُّ على أنه رسولٌ من عند الله.

من هذه الآياتِ آيتان معجزتان بيِّنتان، قدَّمهما موسى لفرعون لما قابلَه أولَ مرة، وهما العصا واليد، وقد تكلّمنا عنهما في المباحثِ السابقة.

ويُشيرُ إلى هاتين الآيتيْن قولُ الله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: ٩ ـ ١٢].

ويدلُّ قولُه: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ على أنَّ العصا واليدَ آيتان ضمنَ تسعِ آياتٍ إلى فرعون وقومه.

العصا واليد معجزتان للتحدي:

وهاتان الآيتان قدمهما موسى عليه السلام، واعتبرهما دليلاً له على نبوتِه، لأنهما خارقتانِ للعادة.

ونَعرفُ أنَّ تعريفَ المعجزة هو: هي الأمرُ الخارقُ للعادة، يُجريه اللّهُ على يدِ النبي تصديقاً له في دعوى النبوة.

وعندما تكونُ هذه المعجزة ـ الآية ـ موجهةً إلى الكفار فإنها تكون مقرونةً بالتحدي، حيث يتحداهم النبيُّ أنْ يأتوا بمثلها أو ينقضوها، وعند ذلك يَعجزون، لأنَها من فعلِ الله الذي لا يُنْقَض، فتثبتُ الدعوى بهذه المعجزة، وهي أنَّ مَنْ جرتْ على يديه المعجزةُ رسولٌ من عند الله!!

وهذا ما حصلَ مع موسى عليه السلام، فلما تحدّاه فرعونُ بحشدِ السحرة على اعتبارِ أَنه ساحر، وألقى السحرةُ حبالَهم وعصيَّهم، ألقَى موسى عصاه، فلقفتْ حبالَهم وعصيَّهم.

فالعصا واليدُ أوضحُ آيتين من التسعِ آيات، لأنهما معجزتان مقرونتان بالتحدي، والهدفُ منهما إِثباتُ نبوةِ موسى عليه السلام.

وبعدما ثبتَ لفرعون وقومِه نبوةَ موسى عليه السلام من خلال آيتي العصا واليد، كان الأصلُ أنْ يتجاوَبوا معهما، وأنْ يؤمنوا بموسى عليه السلام، لأن الحجةَ قامَتْ عليهم. ولكنهم كفروا عناداً وليس جهلاً، وحاربوا موسى عليه السلام وأَتباعَه.

السبع آيات الأخرى ليس فيها تحدّ:

فلما ازدادَ بطشُ فرعون وملئِه بالمؤمنين وتعذيبُهم لهم، قدَّمَ اللّهُ لهم سبعَ آياتٍ أُخرى، وهي الباقيةُ من الآيات التسع. فما هي الآياتُ السبع؟

هي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٥].

ما هي الآياتُ المذكورةُ هنا؟.

هي: السنين، ونقصُ الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والرجز..

الحقيقةُ أنَّ الآياتِ سبعةٌ وليست ثمانية، والرِّجْزُ ليس آيةً مستقلةً تُضافُ لما قبلها، ولكنه بيانٌ لتلك الآيات، لأنَّ الرجزَ هو العذاب، والعذابُ هو ما أوقعه اللّهُ بفرعون وقومِه، وهو الآياتُ السبع: السنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وكان قبلَ هذه الآيات السبع آيتان معجزتان، وهما العصا واليد. فيكونُ المجموعُ «تسعَ آيات».

الآياتُ السبعُ المذكورةُ في سورة الأعراف لم تكن معجزاتٍ يُرادُ بها التحدي، كالعصا واليد، وإنما هي «ابتلاءاتٌ» من الله لفرعون وقومِه، وعذابٌ أوقعه بهم وصَبَّه عليهم، بسببِ بطشِهم ببني إسرائيل وتعذيبِهم لهم. فعذَّبهم اللّهُ بهذه الآياتِ والابتلاءات السبع، لتستيقظَ قلوبُهم، ويَعرفوا ربَّهم، ويُدركوا أنه عقابٌ منه لهم، وأنه لا نجاةَ لهم إلاّ بالإيمانِ بالله، ورفعِ العذاب عن المؤمنين.

وهذه الآياتُ السبعُ يبدو أَنها متتابعةٌ في وقوعها، حسبَ ذكْرِها في آياتِ سورة الأعراف، ولْننظرْ فيها واحدةً واحدة.

السنين ونقص الثمرات:

الأولى: السّنين. وهي جمعُ «سَنَة»، والمرادُ بها سنةُ الجدبِ والقحطِ والشدة والمحل، حيث تنحبسُ الأمطار، وتقلُّ المياه في الأنهار.

لقد ابتلى اللّهُ آلَ فرعون بسنواتِ المحلِ والجدبِ، عقاباً لهم على تعذيبهم لبني إسرائيل، ولكنهم لم يرتدعوا.

الثانية: نقصُ الثمرات: وهي نتيجةٌ للآية الأولى، فعندما تنحبسُ الأمطارُ وتقلُّ المياه، تجفُّ وتيبسُ المزروعات، وتنقصُ ثمراتُ الأشجار.

فأُصيبَ قومُ فرعون بنقصٍ في ثمراتهم، أدى إِلى ضعفٍ في حياتهم المالية والاقتصادية والغذائية.

وهاتان الآيتان الربانيتان هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ . .﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وبدلَ أنْ يعتبرَ آلُ فرعون بهاتين الآيتين ازدادوا كفراً وعناداً وتكذيباً، واعتبروا موسى عليه السلام ساحراً يُريدُ أنْ يَسحرهم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢].

الطوفان والجراد:

وبما أَنهم لم يعتبروا بالآيتيْن: سنين المحل ونقصِ الثمرات، ولا بالمعجزتيْن قبلَهما العصا واليد، فقد أَرسلَ اللّهُ عليهم آياتِ أُخرى من بابِ إِقامة الحجة عليهم.

الثالثة: الطوفان: حيثُ أَجرى اللّهُ عليهم الماءَ طوفاناً، بعدَ سنواتٍ من الجدبِ ونقص الثمرات.

قال الإمامُ الراغبُ عن الطوفان: «الطوفان هو كلُّ حادثةٍ تحيطُ بالإنسان. . وصارَ متعارَفاً في الماء، المتناهي في الكثرة، لأجْلِ أَنَّ

الحادثةَ التي نالَتْ قومَ نوح كانت ماء...»[١].

لقد جعلَ اللّهُ الطوفان آيةً وابتلاءً وتعذيباً لهم، ففي السابق ابتلاهم وعَذَّبهم بنقصِ المياه، والآنَ عَذَّبهم بكثرةِ المياه، وهو سبحانه حكيمٌ فيما يبتليهم به، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو.

الرابعة: الجراد: والجرادُ معروف، وهو آفةٌ ماحقةٌ تُبيدُ المزروعات والثمار.

قالَ الإمامُ الراغب في معناه واشتقاقِه: «ويَجوزُ أَنْ يُجْعَلَ الجرادُ أصلاً، فيشتَقّ من فعله جَرْدُ الأرض. ويصحُّ أنْ يقال: إنما سميَ بذلك لأنه يَجردُ الأرضَ من النبات.

يقال: أَرضٌ مجرودة: أي: أكلَ الجرادُ ما عليها حتى تجردت...»[٢].

أي أنَّ الجرادَ سميَ بذلك لأَنه يجردُ الأرض، ويُزيلُ ما عليها من نبات.

فبعدما أرسلَ اللّهُ الطوفانَ على آل فرعون، وزالَ الفيضان، كانَ الموسمُ الزراعيُّ جيداً، فاستغلّوا ذلك بالزراعة، ولا سيما أَنه مرتْ بهم سنواتٌ سابقة من المحْلِ ونقصِ الثمرات.

ولما زرعوا أَراضيهم ونبتَ زرعُهم فرحوا واستبشروا، فأرسلَ اللّهُ عليهم هذه الآيةَ الرابعة، حيث سلطَ عليهم أَسرابَ الجراد، فأكلتْ مزروعاتهم، وقضتْ بذلك على آمالِهم.

القمل والضفادع والدم:

الخامسة: القُمَّل: بضمِّ القاف وتشديدِ الميم. ولم تَرِد «القُمَّل» في غير هذا الموضع من القرآن.

---

(١) المفردات: ٥٣٢.

(٢) المرجع السابق: ١٩١.

قال الإمام الراغب: «القُمَّل: صغارُ الذباب. والقَمْلُ ـ بإسكان الميم ـ معروف»[1].

والمرادُ بالقُمَّلِ في هذا الموضع «السوس» الذي يصيبُ السنابلَ والحبوب ويقضي عليها.

قال ابن عباس: القُمَّلُ هو: السوسُ الذي يَخرجُ من الحنطة، وقال بهذا القول مجاهد وعكرمة وقتادة[2].

وهذه الآيةُ ابتلاءٌ آخرُ من الله لهم، فقد أَرسلَ الجرادَ عليهم، فأكلَ مزروعاتهم، والزرعُ الذي نجا من الجراد، وحَمَلَ الحَبَّ في سنابله، استبشرَ به أَصحابُه خيراً، واعتبروه مكسباً مضموناً لهم. ولكنَّ اللّهَ لهم بالمرصاد، فما أَنْ حصدوا الزرع، وما أَنْ احتفظوا بالحبِّ فرحين مستبشرين، حتى فاجأهم اللّهُ بآيةٍ جديدة، لم يحسبوا لها حساباً، فأرسلَ على حبوبهم «القُمَّل» ـ السوس ـ فنخرَ الحبوبَ وقضى عليها.

السادسة: الضفادع: وهذه آيةٌ جديدةٌ أَرسلَها اللّهُ عليهم، تضافُ للآياتِ السابقة، وهي ابتلاءٌ من الله أَوقعه بهم، ومصيبةٌ ساقَها إِليهم.

وكيفيةُ إِرسالِ الضفادع عليهم مبهمة، لم تَرِدْ تفاصيلُ لها، فلا نعرفُ كيفَ أَرسلَها اللّهُ عليهم، ولا مهمتَها فيهم.

ولم تَرِدْ كلمةُ ضفادع في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

السابعة: الدّم: وهو الآيةُ السابعة، ولم يبين القرآنُ تفاصيلَ هذه الآية، فكلُّ ما نعرفُه أنَّ اللّهَ ابتلاهم بالدم ليعتبروا، وجعله آيةً ليتعظوا.

والآياتُ الخمسُ الأخيرةُ مجموعةٌ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

---

(١) المرجع السابق: ٦٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٢: ٢٣١.

﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ولا تخبِرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ الوثيقة ـ المحصورةُ في الآياتِ الصريحة والأَحاديثِ النبوية الصحيحة ـ عن تفاصيلِ هذه الآيات، بينما فصَّلَتْ ذلك الإسرائيلياتُ وروايات العهدِ القديم الذي يؤمنُ به اليهود.

ولا نغادرُ البيانَ القرآنيَّ عن هذه الآيات، ولا نطلبُ تبيينَها في الإسرائيلياتِ وغيرها.

موقف سيد قطب من الإسرائيليات حول تلك الآيات:

ونقتدي بسيد قطب في موقفِه منها، ونحبُ أنْ ننقلَ فقرتَه في ذلك لما فيها من دلالة، واستئناسَه بكلامِ التابعيِّ سعيدِ بن جبير رحمه الله.

قال سيد قطب: «فأمّا كيفَ وقعتْ هذه الآيات، فليس لنا وراءَ النصِّ القرآنيِّ شيء، ولم نجدْ في الأحاديثِ المرفوعة إلى رسولِ الله ﷺ عنها شيئاً.

ونحنُ على طريقتِنا في هذه «الظلال» نقفُ عندَ حدودِ النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيلَ لنا إلى شيء منها إلا مِنْ طريقِ الكتاب أو السنةِ الصحيحة.

وذلك تحرزاً من الإسرائيلياتِ والأقوال والروايات التي لا أَصلَ لها، والتي تسربَتْ ـ مع الأسف ـ إلى التفاسيرِ القديمة كلِّها، حتى ما ينجو منها تفسيرٌ واحدٌ من هذه التفاسير. وحتى إنَّ تفسيرَ الإمامِ ابن جرير الطبري ـ على نفاسة قيمته ـ وتفسيرَ ابنِ كثير ـ على عظيمِ قدره ـ لم ينجُوَا من هذه الظاهرةِ الخطيرة..

وقد وردتْ رواياتٌ شتى في شأنِ هذه الآياتِ عن ابن عباس، وعن سعيدِ بن جبير، وعن قتادة، وعن ابن إسحاق.. رواها أبو جعفر بن جرير الطبري، في تاريخه وفي تفسيره.

وهذه واحدةٌ منها: لما أَتى موسى فرعونَ قالَ له: أَرسلْ معي بني إسرائيل، فأبىٰ عليه.

فأرسلَ اللّهُ عليهم الطوفان، وهو المطر، فصَبَّ عليهم منه شيئاً، فخافوا أنْ يكونَ عذاباً. فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربَّكَ أنْ يكشفَ عنا المطر، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل! فدعا ربَّه! فلم يؤمنوا، ولم يُرسلوا معه بني إسرائيل!!

فأنبتَ اللّهُ لهم في تلك السنة شيئاً، لم يُنبتْه قبلَ ذلك، من الزرعِ والثمرِ والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنّى! فأرسلَ اللّهُ عليهم الجراد، فسلَّطه على الكلأ.

فلما رأَوا أَثَره في الكلأ عرفوا أَنه لا يُبقي الزرع. فقالوا: يا موسى: ادعُ لنا ربَّك ليكشفَ عنا الجراد، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يُرسلوا معه بني إسرائيل!

فدرسوا وأَحرزوا الحبَّ في البيوت، فأَمِنوا وقالوا: قد أَحرزْنا الحب. فأرسلَ الله عليهم القُمَّل ـ وهو السوسُ الذي يخرجُ منه ـ فكان الرجلُ يُخرجُ أَربعةَ أجربةٍ إِلى الرحى، فلا يردُّ منها ثلاثةُ أَقفزة[1].

فقالوا: يا موسى: ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنا القُمَّل، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه فكشفَ عنهم، فأبوا أنْ يرسلوا معه بني إسرائيل!

فبينما هو جالسٌ عند فرعون، إذ سمعَ نقيقَ ضفدع. فقال لفرعون: ما تلقى أنتَ وقومُك من هذا؟

---

(١) الجريب والقفيز: مكيالان للحبوب، والجريب أربعة أقفزة، أي أنه عندما كان يطحن حبه، ما كان يخرج بنتيجة لأن السوس قد أكله!!

فقال: وما عسى أنْ يكونَ كيدُ هذا؟

فما أَمسوا حتى كان الرجلُ يجلسُ إِلى ذقنه في الضفادع، ويهمُّ أنْ يتكلمَ فتثبُ الضفادعُ في فيه.

فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنا هذه الضفادع، فنؤمنَ لك ونرسلَ معك بني إسرائيل! فكشفَ عنهم فلم يؤمنوا.

فأرسلَ اللّهُ عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الماءِ من الأنهارِ والآبار، أو ما كان في أَوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً!

فشكوا إِلى فرعون، فقالوا: إِنا قد ابتُلينا بالدم، وليس لنا شراب!

فقال: إنه قد سحرَكم!

فقالوا: من أينَ سَحَرَنا، ونحنُ لا نجدُ في أَوعيتِنا شيئاً من الماء إلاّ وجدناه دماً عبيطاً؟

فأَتوه فقالوا: يا موسى: ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنا هذا الدم، فنؤمنَ لك ونرسلَ معك بني إسرائيل! فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم! فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل!

واللّهُ أعلمُ أي ذلك كان... والصورةُ التي جاءتْ بها هذه الآيات، لا يؤثرُ اختلافُها في طبيعةِ هذه الآيات. فاللّهُ سبحانه أرسلَها بقَدَره، في وقتٍ معين، ابتلاءً لقوم معينين، وفقَ سنتهِ في أَخْذِ المكذبين بالضراء، لعلهم يتضرعون...»[1].

كانت الآيات السبع رجزاً وعذاباً من الله:

هذه الآياتُ السبعُ كانت ابتلاءً وعذاباً من الله لفرعون وملئه، بسببِ بطشِهم ببني إسرائيل المؤمنين.

ولذلك سماها القرآن «رِجْزاً»، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٥٨ ـ ١٣٥٩.

عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

قالَ الإمامُ الراغب عن معنى الرجز: «أصْلُ الرجز: الاضطراب. ومنه قيل: رَجَزَ البعير رجزاً. وناقةٌ رجزاء: إذا تقارب خَطْوُها واضطرب، لضعفِ فيها. وشُبِّهَ الرجزُ به لتقاربِ أجزائه..»[1].

فسُميتْ هذه الآياتُ السبعُ رجزاً لأنها ابتلاءٌ وعذابٌ متتابع صبَّه اللّهُ عليهم، وأدتْ هذه الآياتُ إلى «اضطراب» أحوالهم وفسادها.

لكن هل اعتبروا من ذلك العذابِ المتتابع المتلاحق؟

قوم فرعون يعدون الإيمان ثم ينكثون:

عند وقوعِ الرجزِ عليهم كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام، ويطلبونَ منه دعاءَ ربه ليرفعَه عنهم، ويتعهَّدون له بالإيمانِ ورفعِ التعذيب عن بني إسرائيل، وكان موسى يدعو الله، فيستجيب الله له ويرفعُ عنهم العذاب، واللّهُ يعلم أَنهم لن يؤمنوا كما وعدوا، لأَنَّ قلوبَهم مختومٌ عليها، ولذلك كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه من التكذيبِ والتعذيبِ، فيوقعُ اللّهُ بهم عذاباً وابتلاءً جديداً، فيفزعونَ إلى موسى، طالبين الدعاءَ واعِدين الإيمان، وعندما يرفعُ العذابُ يخلفون الوعد، وهكذا.

وسَجلتْ هذا الموقفَ منهم آياتُ القرآن. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

---

(١) المفردات: ٣٤١.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٧ ـ ٥٠].

بتلك الآيات التسع أقامَ اللّهُ الحجةَ عليهم، ولكنهم لم يحسنوا التعاملَ معها، وأصرّوا على موقفهم من العنادِ والتكذيب والتعذيب، وساروا مع فرعون، وتابَعوه على كفره وباطله، وبذلك خسروا خيري الدنيا والآخرة.

فرعون يستخف قومه ضد موسى:

واستخفَّ فرعونُ قومَه، واستهزأ بموسى عليه السلام، ودعا قومَه إلى المقارنة بينه وبين موسى.

ووردَ هذا في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤].

أَرادَ فرعونُ أن يُبقي قومَه متابعين له، وخشيَ أنْ يتخلّوا عنه ويؤمنوا بموسى عليه السلام، فنادى فيهم مذكّراً بسلطانه وملكه، وقدراتِه وصلاحياتِه.

قال لهم: أَنا الملك، وملكُ مصر لي، أَتصرّفُ فيها كما أشاء، تجري أنهارُها من تحتي، وأَمنحكُم ما أَشاء، فأنا ربكم الأعلى، أَملككُم وأَرزقكُم وأُعطيكم وأَضركم وأَنفعكم!!

وأنتم ملكي وأَتباعٌ لي، لا وجودَ لكم بدوني، ولا خيرَ لكم إلاّ عندي.

فمن أَفضلُ لكم؟ أنا ومعي هذا الملك والسلطان، أم موسى الذي لا يملكُ شيئاً؟

موسى لا ينفعكُم بشيء، فكيفَ تتبعونه؟ بل إنّ موسى لا يملكُ شيئاً لنفسه، إِنه مهينٌ ذليل، وهو لا يكادُ يبين ويفصحُ عن ما في نفسه، وكلامُه ليس قوياً ولا فصيحاً.

وقد زعم موسى أنه نبي، وهو كاذب، فإذا كان صادقاً فلماذا لا يملكُ المال؟ لماذا ليس عنده أَسورةٌ من ذهب؟

لو كان نبياً صادقاً لكان غنياً يملكُ المالَ والذهب والمتاع، ولجاءتْ معه الملائكة، تمشي معه وتؤيِّدُه، وتطلبُ منكم اتِّباعَه، فبما أَنه لا يملك الذهب، وليس معه ملائكة، فهو كاذب!!

سمع قومُه كلامَه، وأيَّدوه في كلِّ ما قاله، وأَطاعوه واتبعوه، ورضوا أَن يكونوا ذليلين أَمامه.

تعليق سيد قطب على استخفاف فرعون بقومه:

قال سيد قطب: «إِنّ مُلْكَ مصر، وهذه الأَنهارُ التي تجري من تحت فرعون، أَمْرٌ قريبٌ مشهور للجماهير، يبهرها، وتستخفُّها الإِشارةُ إليه..

والجماهيرُ المستعبدةُ المستغفلةُ يُغريها البريقُ الخادعُ القريبُ من عيونها، ولا تسمو قلوبُها ولا عقولُها إِلى تدبرِ ذلك الملكِ الكوني العريض البعيد..

ومن ثم عرفَ فرعونُ كيفَ يلعبُ بأَوتارِ هذه القلوب، ويستغفلُها بالبريق القريب.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾؟.

وهو يعني بالمهانةِ أَنَّ موسى ليس ملكاً ولا أَميراً ولا صاحب سطوة ومالٍ مشهود. أم لعلَّه يشيرُ بهذا إِلى أَنه من ذلك الشعبِ المستعبدِ المهين، شعب إسرائيل.

أما قولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فهو استغلالٌ لما كان معروفاً عن موسى قبلَ خروجِه من مصر من حبسةِ اللسان، وإلا فقد استجابَ اللّهُ سؤالَه حين دعاه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.. وحُلّتْ عقدةُ لسانه فعلاً، وعادَ يُبين!!

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟

هكذا. ذلك العرَضُ التافهُ الرخيصُ! أَسورةٌ من ذهب تصدقُ رسالةَ رسول! أسورةٌ من ذهب تساوي أكثرَ من الآياتِ المعجزة التي أيدَ اللّهُ بها رسولَه الكريم!

... ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

واستخفافُ الطغاةِ للجماهير أمرٌ لا غرابةَ فيه، فهم يعزلونَ الجماهير أوّلاً عن كلِّ سبل المعرفة، ويحجبونَ عنهم الحقائقَ حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويُلقونَ في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبعَ نفوسُهم بهذه المؤشراتِ المصطنعة. ومن ثم يسهلُ استخفافُهم بعد ذلك، ويلينُ قيادُهم، فيذهبون بهم ذاتَ اليمينِ وذات الشمال مطمئنين.

ولا يملكُ الطاغيةُ أنْ يفعلَ بالجماهيرِ هذه الفعلةَ إلا وهم فاسقون، لا يستقيمونَ على طريق، ولا يمسكونَ بحبلِ الله، ولا يزنون بميزان الإيمان.

فأما المؤمنون فيصعبُ خداعُهم واستخفافُهم واللعبُ بهم، كالريشة في مهبِّ الريح...»[(١)].

فسق قوم فرعون أدى لاستخفاف فرعون بهم:

تخبرُ الآياتُ السابقة عن استكبارِ فرعون وغطرستِه وصَلفِه وتجبُّرِه وهذا أدى إلى استخفافِه بقومه، استخفَّ بهم وبعقولهم وأفكارهم وشخصياتهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣١٩٣ ـ ٣١٩٤ باختصار.

استخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

واستخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

واستخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

واستخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

واستجابَ قومُه له في كلِّ ما قالَه لهم، ووافقوه على كلِّ ما قدمه، وساروا معه في كل ما دعاهم إِليه.

لماذا فعلوا ذلك، لأَنهم فاسقون، ففسقُهم قادهم إِلى سخافةِ عقولهم، وتفاهةِ تصوراتهم، وضآلةِ شخصياتهم، وحقارةِ اهتماماتهم ولذلك داروا في فلك فرعون، وكانوا «أصفاراً» ضائعةً أمامه!

ولا تُعتبرُ الآيةُ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ تعليلاً وتفسيراً لسرِّ استخفافِ فرعون بقومه، وسرِّ طاعتِهم ومتابعتِهم له. وإِنما تسجلُ تعليلاً قرآنياً مطرداً لكلِّ ظاهرةِ استبداد واستخفافٍ على اختلاف الزمان والمكان.

إِنه لا يستخفُّ بأَتباعه إلاّ حاكمٌ طاغية مستبد، متجبرٌ متألِّه، يقتدي بفرعون، ولو كان مؤمناً صالحاً مستقيماً متواضعاً لما استخفَّ بقومه.

وإِنَّ القومَ ـ أيَّ قوم ـ لا يتابعون طاغيتَهم رغم استخفافِه بهم واحتقارِه لهم إِلا إذا كانوا فاسقين خارجين عن طاعةِ الله، فاقدين لوجودهم وشخصياتهم.

الفاسقون يقبلونَ الاستخفاف، ويستجيبون للاستعباد، والرجالُ المؤمنون يرفضون الاستخذاءَ والتبعيةَ للطغاة.

موسى في موقف عظيم أمام فرعون:

ودليلُ هذا موقفُ موسى عليه السلام أَمامَ فرعون، حيث واجهه برجولةٍ وقوة وعزة.

ففي جولةٍ من جولات المواجهة بين موسى وبين فرعون جَرَتْ هذه اللقطةُ التي سجلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٣].

فلما خاطبَ موسى عليه السلام فرعونَ وأَقامَ عليه الحجة وقدَّمَ له الآيات أغلظَ فرعونُ له القول، وقال له: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

اتهمه سابقاً بأنه ساحرٌ مبين، واتهمَه الآن بأنه مسحور، يتخيلُ أنه نبيٌّ بسبب السحرِ الذي سيطرَ عليه.

ماذا كان ردُّ فعلِ موسى عليه السلام على اتهامِ فرعون وغلظته له في الكلام؟

هل سكتَ له واستخذى أمامَه؟ هل «بَلَعَ» الاتهام؟

ما كانَ له أن يفعل ذلك، لأَنه رسولٌ كريم، ومؤمن عزيز.

ردَّ على فرعون ردّيْن:

موسى يبين لفرعون كذبه ومغالطاته:

الأول: كشفَ له حقيقةَ نفسِه من الداخل، وهو أَنه يعلمُ ويوقنُ أنَّ غيرَ الله ليس إلهاً، وأنه لا إله إلا الله، وأنه وحده هو الذي ينزلُ الحقَّ والخير والبصائر، ولكنه يغالطُ ويخالفُ هذا العلم اليقينيَّ الداخليَّ الفطري، فيدَّعي الألوهيةَ والربوبية، ويتخذ غيرَ الله رباً، وذلك من باب

العناد والاستكبار: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ . . .﴾.

وهذا التحليلُ العجيبُ الصريحُ من موسى عليه السلام لنفسيةِ فرعون ومواجهتُه به، يتفقُ مع تحليلِ نفسيات آلِه وملئه، الذي وردَ في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٢ ـ ١٤].

فالقومُ كانوا يوقنون أنَّ موسى عليه السلام رسول، ولكنهم اتهموه بأنه ساحرٌ مبين، وجحدوا رسالتَه، من بابِ الظلم والعلوِّ والعناد والاستكبار، وليس من بابِ الجهلِ ونقصِ الأدلة: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا ـ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ـ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ولا ننسى أنَّ قولَه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ جملةٌ معترضةٌ في الآية لبيانِ حقيقةِ يقينهم بأنَّ الآياتِ حق، وأنَّ موسى رسول، وأُدخلتْ ضمنَ الحديث عن علوهم وتكذيبهم ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا. . ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. فالآيةُ حللتْ نفوسَهم من الداخلِ قبلَ أنْ تكملَ الحديثَ عن استكبارهم، فجاءَ التعبيرُ مع الجملة المعترضة التحليلية هكذا: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا ـ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ـ ظُلْمًا وَعُلُوًّا. .﴾.

ففرعونُ كان يعلمُ الحقَّ، ومع هذا يُكذبُ عناداً واستكباراً. وقومه كانوا يوقنون بالحقِّ، ومع هذا يجحدونَ به ظلماً وعلواً!!.

فرعون مثبور هالك:

الثاني: بعدما حللَ لفرعونَ نفسيتَه من الداخل، بيَّن له خسارتَه وهلاكَه، فقال له: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

و«مَثْبور» اسمُ مفعول، بمعنى هالك مقهور خاسر.

قال ابن عباس: «مثبور»: ملعون.

وقال مجاهد وقتادة: «مثبور»: هالك.

وقال الضحاك: «مثبور»: مغلوب[1].

وهذه الأقوالُ متقاربةٌ ومرادة. فمعنى مثبور: هالك ملعون خاسر مغلوب.

أي: يا فرعونُ لا تغترَّ بملكِك، ولا تنخدعْ بسلطانِك، فإنَّ هذا كلَّه لن ينفعك، ولن يدفعَ عنك عذابَ الله، وعندما يقعُ بك عذابُ الله فسوف تخسرُ كلَّ شيء، ستكون مثبوراً مغلوباً هالكاً مسحوراً. فانظرْ للمستقبل ولا تغترَّ بالحاضر، لأن العبرةَ بالخواتيم!

إنَّ هذا الردَّ الصريحَ القويَّ من موسى عليه السلام يناسبُ اتهامَ فرعون الغليظَ الشنيع:

فرعونُ يقول: يا موسى أَنتَ مسحور.

وموسى يقولُ له راداً عليه: يا فرعون أنت هالكٌ مثبور!!

وفرعونُ كاذبٌ فيما قال، وموسى صادقٌ في ما قرر. وواحدةٌ بواحدة والبادئ أظلم، ولكلِّ مقامٍ مقال!!.

ولا يتعارضُ هذا الردُّ الصريحُ مع وصيةِ الله لموسى وأخيه هارون عليهما السلام، عندما وجَّههما إلى فرعون، حيث أَوصاهما أنْ يقولا له قولاً ليناً. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤].

لا يتعارضُ معه، لأنه سبقَ أنْ قالَ موسى لفرعون قولاً ليناً، وهو من الحكمةِ المطلوبة، ولما ردَّ فرعونُ الحقَّ وأغلظَ لموسى القول، ناسبَ أنْ يردَّ عليه موسى بوضوحٍ وصراحة، وهذا من الحكمة المطلوبةِ أيضاً، ونعلمُ أنه لكلِّ مقامٍ مقال!!.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٦٦.

لقد أبلغَ موسى فرعونَ الدعوة، وأقامَ عليه وعلى ملئِه الحجة، وعلموا وأيقنوا أنه رسولُ الله، لكنهم أَصروا على كفرهم عناداً.

موسى يدعو على فرعون وملئه:

وأَعلمَ اللّهَ موسى أنَّ فرعونَ وملأَه لن يؤمنوا، وأنه قد خَتَمَ على قلوبهم، لأَنهم اختاروا الكفر وأَصروا عليه.

عند ذلك دعا موسى عليهم، بأنْ يطمسَ اللّهُ على أموالهم ويشددَ على قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

أَشارَ موسى عليه السلام في دعائِه إلى أنَّ فرعونَ قد استخدمَ وسيلتَيْن ماديتيْن ضمن وسائلَ أُخرى، ليصدَّ الناسَ عن سبيل الله. وهما: الزينة والأموال.

الزينةُ هي الدنيا وزخارفُها ومصالحُها ومنافعُها، حيث كان يأمرُ ملأَه أنْ يُعطوا مَنْ يطيعونَهم من زينةِ الدنيا، إِغراءً وترغيباً لهم، ويَحرموا المؤمنين بموسى من هذه الزينة.

وكان يأمُرُ ملأَه أنْ يَمنحوا الموافقين لهم من الأموال الكثير، ليشتروهم ويَكسبوا ولاءهم، ويَحرمونَ المؤمنين بموسى من هذه الأَموال.

واللّهُ هو الذي آتى فرعونَ وملأَهُ الزينةَ والأموال، ولو كانوا مؤمنين لاستخدموها في طاعة الله وشكره.

والطغاةُ الظالمون يستخدمون الزينةَ والأَموالَ التي يؤتيهم اللّهُ إِياها

وسائلَ مؤثرةً في الترغيبِ والترهيب، ويستعملونها في الصدِّ عن سبيل الله! فيتأثرُ بهم ضِعافُ الإيمان، فيُقبلون عليهم راغبين في ما عندهم، ويتخلَّوْن عن كل ما يزعجهم أو يغضبهم، خائفين أنْ يُحرموا من عطاياهم.

الله يستجيب دعاءه ويوصيه:

دعا موسى ربَّهُ أنْ يطمسَ على أموال فرعون وملئه ويهلكَها ويقضيَ عليها ويبيدَها، حتى لا يستخدموها في الصدِّ عن سبيله. كما دعا ربَّه أنْ يشددَ على قلوبهم، ويطبعَ عليها، فلا تقبلُ الحقَّ ولا تهتدي به، لأنهم هم الذين اختاروا الكفر والصدَّ عن سبيل الله!

وكان موسى عليه السلام محِقاً مصيباً في هذه الدعوة، لأَنهم أَصروا على كفرهم وعنادهم، ورفضوا ما قَدَّمَ لهم من آياتٍ بينات، فماذا بقي بعد ذلك؟ لم يبقَ إلاّ أنْ يدعوَ اللّهَ عليهم بهلاكِ أموالهم والطبع على قلوبهم.

وقد استجابَ اللّهُ دعوتَه، ويبدو أَن أَخاه هارون كان يدعو اللّهَ معه، ولهذا قال له: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

وهكذا طمسَ اللّهُ على أموالِ فرعون وملئه، وطبعَ على قلوبهم، وأوصى موسى وهارون عليهما السلام أنْ يَستقيما على طريقه، ويثبتا على دينه، ولا يتبعا سبيلَ فرعون وملئه: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا انقسمَ الناسُ في مصر إلى معسكريْن متميزيْن:

معسكرِ الكفرِ الذي يمثلُه فرعونُ وملؤه وقومه.

ومعسكرِ الإيمان الذي يمثلُه موسى وأخوه هارون عليهما السلام، ومَن اتبعهما وآمن بهما!!

[٢]
خسف الله بقارون وكنوزه

كان قارونُ إسرائيلياً من قوم موسى، لكنه خرجَ على قومه بني إسرائيل، وانحازَ إلى فرعون وملئه، ونصرَهم على قومه. وقد ابتلاه اللّٰهُ بالأموالِ الكثيرة، فاستغلَّها في الإفساد والطغيان، ونصحه المؤمنون من قومه فلم يستجبْ لهم، وصار فتنةً للآخرين، وقضى اللّٰهُ على فتنته، بأنْ خسفَ به وبدارِه وكنوزِه الأرض.

وقد وردتْ خلاصةُ قصته في آخرِ سورةِ القصص، التي اختصتْ بالحديثِ عن قصة موسى عليه السلام، من ولادتِه، إلى خروجه ببني إسرائيل من مصر، وغرقِ فرعون.

مواضع ذكر قارون في القرآن:

ووردَ اسمُ قارون أربعَ مرات في القرآن.

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠].

الثالثة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ ..﴾ [القصص: ٧٦].

الرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩].

وسوفَ نقفُ مع آياتِ القرآن، نتعرفُ منها على مظاهرِ «الفتنة القارونية»، وانتهائِها، ولن نأخذَ في ذلك شيئاً من الإسرائيليات وغيرها، على منهجِنا المعروفِ في التعاملِ مع أحداث القصص القرآني.

قارون من قوم موسى وهو أحد الطغاة الثلاثة:

تخبرُنا آياتُ القرآن أنَّ قارونَ إسرائيلي وليس قبطيّاً: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾.

ولا نعرف نسب قارونَ الإسرائيلي، ولا مدى قرابتِه لموسى عليه السلام. كما لا نعرفُ كيف كانتْ بدايةُ قارون، ولا كيف تطورت أمورُه.

كلُّ ما نأخذه من آياتِ القرآن أنَّ قارونَ الإسرائيلي كان من كبارِ الأغنياءِ زمن فرعون، وأنه اغترَّ بأموالِه وكنوزه، ولذلك انحازَ إلى جانب فرعون، ضدَّ قومه بني إسرائيل، وأنَّ فرعون اعتمدَ عليه وعلى قوتِه المالية في دعمِ نِظامه.

وأخبرَنا القرآنُ أنه لما بَعَثَ موسى عليه السلام نبياً رسولاً إلى فرعون وملئه، كان «الثالوثُ الباغي» يحكم مصر، وهو المتمثلُ في فرعون وهامان وقارون. ولذلك نصتْ آيةُ سورةِ غافر على أنَّ اللّه أرسلَ موسى عليه السلام إلى هذا الثالوث: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلۡطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ . . .﴾.

وهذا يعني أنَّ قارون كان في قمةِ قوته وفتنتِه وقتَ بعثةِ موسى عليه السلام، وأنه كان جزءاً أَساسياً من النظامِ الحاكم في مصر، ومساعداً رئيسياً لفرعون.

وأَشرْنا في ما سبق ـ عند حديثنا عن مؤمن آل فرعون ـ أنَّ النظامَ الفرعوني كان يقوم على قوى أربعة:

الأولى: القوةُ الماليةُ الاقتصادية، التي يمثلُها قارون.

الثانية: القوةُ الإداريةُ التنفيذية، التي يمثلها هامان والملأ.

الثالثة: القوةُ الإعلامية التأثيرية، التي يمثلُها السحرةُ المسترْهَبون.

الرابعة: القوةُ الفرعونية، حيث كان فرعونُ يستخدمُ القوى الثلاث ويسيطر عليها، ويوظفُها في إِخضاع شعبه له.

ولذلك قرنت الآياتُ بين الطغاة الثلاثة: فرعون وهامان وقارون! والجامعُ الذي يجمعُ بينهم هو الكفرُ والطغيان والفساد.

طغيانُ فرعون بسببِ ملكه وسلطانه، ولهذا دعا قومه إلى عبادته.

وطغيانُ هامان بسبب وظيفته ومركزه.

وطغيانُ قارون بسبب ماله وكنوزه.

واتفقَ موقفُ الطغاةِ الثلاثة، حيث استقبلوا موسى عليه السلام بالتكذيب، واتهموه بأنه ساحر كذاب.

وتَرْكُ قارونَ لقومه بني إسرائيل، وانفصالُه عن موسى الإسرائيلي مثلِه، وانحيازُه لفرعونَ القبطي ضدَّ قومه، دليلٌ على التقاءِ الكفار على الكفر والطغيان، مهما اختلفتْ أُصولُ وأجناسُ الكفار، فالكفرُ ملةٌ واحدة.

وقد أشارَ القرآنُ إلى موقف قارون بقوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ ..﴾ [القصص: ٧٦].

ومعنى «بغى عليهم..»: اعتدى عليهم وظلمهم، وتعاملَ معهم ببغيٍ وظلم واعتداءٍ وطغيان، وخرجَ عليهم وانفصلَ عنهم، وانحازَ إلى فرعون وهامان، واشتركَ معهما في اضطهاد قومه بني إسرائيل!!

رفض الإسرائيليات حول قصة قارون:

أَنعمَ اللّهُ على قارون بالمالِ الكثير، وجعَلَه فتنةً له وللآخرين، وقد أخبرَ اللّهُ عن كثرةِ كنوزه بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ..﴾ [القصص: ٧٦].

وقد خاضَ رواةُ الإسرائيليات كثيراً في الحديث عن مفاتيحِ خزائنِ كنوز قارون، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذه المفاتيحَ كانت تُحملُ على سبعين بغلاً، ولا يزيدُ حجمُ الواحد منها عن إصبع!

وكفانا الإمامُ ابنُ كثير الردَّ على مَنْ زعموا أنّ قارون كان يعرفُ اسمَ الله الأعظم، وأنه كان يتقنُ «الكيمياء» التي تُحَوِّلُ المعادنَ إلى ذهب، فقال: «وأمّا مَنْ زعمَ أنّ المرادَ من ذلك أنه كان يعرفُ صنعةَ الكيمياء، أو أنه كان يحفظُ الاسمَ الأعظم فاستعملَه في جمع الأموال، فليس بصحيح. لأنَّ الكيمياءَ تخييلٌ وصنعة، ولا تُحيلُ الحقائقَ ولا تغيِّرُها، ولا تُشابهُ صنعةَ الخالق. والاسمُ الأعظمُ لا يصعدُ الدعاءُ به من كافر...»[1].

ونبقى مع ظاهرِ التعبيرِ القرآني، ونقررُ أن اللّهَ آتاه كنوزاً كثيرة.

مفاتح ومفاتيح كنوز قارون:

ولم تَرِد الكنوزُ في القرآن إلا مرتين، في قصةِ موسى عليه السلام، والمرتان في سياق الذم.

المرة الأولى: في الحديثِ عن كنوز قارون، التي خسفَ اللّهُ بها الأرض بعد ذلك، وزالت الكنوزُ بزوالِ قارون مالكها.

والمرة الثانية: في التعقيب على هلاكِ وغرق فرعون وجنوده. قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

والتعبيرُ عن أَموالِ قارون بالكنوز يوحي بأنَّه حصَّلَها بأدنى جهدٍ مبذول، وأنه كان يعدُّها ويحفظُها ويجعلُها بعضها فوق بعض، ولا يُخرجُ منها شيئاً للمحتاجين.

---

(١) قصص الأنبياء: ٣٧٣.

كما يوحي هذا التعبير بأنه كان يكنزُها ويكثرُها وينمّيها، ويحرصُ على أنْ يزيدَها، وما كان يكتفي أو يقنعُ أو يشبعُ منها!

وأخبرَنا اللّهُ أن مفاتحَ هذه الكنوز لتنوءُ بالعصبةِ أولي القوة من الرجال: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

ما المرادُ بالمفاتح هنا؟

ذهبَ بعضُهم إلى أَنها المفاتيحُ التي تُفتحُ بها خزائنُ كنوزه، وهذه المفاتيح تعجزُ عصبةُ الرجال الأقوياءِ عن حملها!

ونحنُ لا نرى ذلك، لأنه لا ترادفَ بين المفاتح والمفاتيح، ولو أُريد مفاتيحُ خزائن الأموال لقال الله: مفاتيحه.

المفاتح جمعُ «مَفْتَح». أما المفاتيح فإنها جمع «مِفتاح».

قال أَبو البقاء في الكليات: «المفتاح: آلَةُ الفتح. والمَفْتَحُ: الخزانةُ والكنزُ والمخزن.

والمفاتحُ جمع مَفْتَح وهو المكان. وليست جمعَ مِفتاح، فلو كان كذلك ينبغي أنْ تُقلبَ ألفُه ياءً فيقال: مفاتيح..»[1].

فالمفاتحُ إذن هي الخزائنُ التي توضعُ فيها كنوزُ قارون.

هذه الخزائن كانت «تنوءُ» بالعصبة أُولي القوة. أي: عندما يحملُها عصبةُ الرجال الأقوياء فإنها تُثقلهم وتُتعبهم، ولا يكادون يَحملونها ولا ينهضون بها.

المفاتح تنوء بالعصبة أولي القوة:

يقال: ناءَ الرجلُ بحمله. إذا نهضَ وقامَ به مثقلاً.

و: ناءَ الرجل: إذا أَثقله الحمل، فسقط، ولم ينهض به.

(١) الكليات: ٨٦٧.

و: ناءَ الحملُ بالرجل: إذا أثقلَ الحملُ الرجلَ وأماله[1].

والعصبة هي: الجماعةُ من الناس المتعصبةُ المتعاضدةُ المجتمعة[2].

وكونُ خزائن قارون تَنوءُ وتثقلُ بالمجموعةِ الكبيرة من الرجال الأقوياء دليلٌ على كثرتها.

وهذا دليلٌ آخر عن أنَّ المرادَ بالمفاتح في الآية هو الخزائن، وليس المفاتيح التي تُفتحُ بها الخزائن، فالمفاتيحُ لا تَنوءُ بالعصبة أُولي القوة، بل لا تنوءُ بالرجلِ الواحد، إذ يستطيعُ الرجلُ الواحد حملَ مئاتِ المفاتيح بسهولة ويسر!

قوم قارون المؤمنون ينصحونه:

لقد كانَ قارونُ فتنةً طاغية، بسببِ ما آتاه اللّهُ من الكنوز والأموال، وبسببِ استخدامِه لها في الصدِّ عن سبيلِ الله.

وقد أخبرَنا اللّهُ أنَّ بني إسرائيل قد انقسموا إلى قسمين بشأنِ الفتنة القارونية:

١ ـ قومٌ مؤمنون صالحون، وصَفَهم اللّهُ بأنهم ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، كانوا يريدون الدارَ الآخرة. فهؤلاء لم يُفتنوا بِقارون وكنوزه، وإنما وَعظوا قارون ونصحوه، ونَصحوا الذين فُتنوا به.

٢ ـ وقوم مفتونون، ضِعافُ الإيمان، وقِصارُ النظر، كانوا يريدونَ الحياةَ الدنيا وزينتَها، فهؤلاء أُعجبوا بكنوز قارون، وتمنّوا أنْ يكونوا مثلَه، فلما خسفَ اللّهُ به، حمدوا الله على أنْ لم يكونوا مثله!

لقد قامَ المؤمنون بنصحِ قارون، وأَرشدوه إلى الطريقةِ الإيمانيةِ في حفظِ الأموال وشكرها. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) انظر: المعجم الوسيط ٢: ٩٦٠.

(٢) المفردات للراغب: ٥٦٨.

يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٧].

ولْننظرْ نظرةً سريعة في هذه النصائح والتوجيهات:

النهي عن الفرح الموصل للبطر:

١ ـ نَهَوْهُ عن الفرح، وأَخبروه أن اللّهَ لا يحبُّ الفرحين. فما هو الفرحُ الذي نَهوهُ عنه؟

عندما ننظرُ في آيات القرآن فسنرى أَنها تقسمُ الفرحَ إلى قسمين: فرح مباح، وفرح محرم.

أَما الفرحُ المباحُ فهو انشراحُ صدرِ المؤمن وسعادتُه وسرورُه بالطاعة والعبادة والاتصال بالله، وتلذذُه بنعم الله، وشكرُ الله عليها واستخدامُها في طاعة الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

تأمرُ الآيةُ المؤمنين بالفرحِ بفضلِ الله ورحمتِه وإنعامِه عليهم، وتخبرُهم أن فضلَ الله ورحمتَه خيرٌ مما يجمعونَ من متاع الدنيا الزائل.

وأما الفرحُ المحرمُ فهو فرحُ الكفار بما بين أَيديهم، وغرورُهم به، واستخدامُه في ما يغضبُ وجه الله، من الفسقِ والفجور والفساد، ثم قيامُهم بالتكبرِ والبطر والاستعلاء والطغيان.

وفَرَحُ الكفارِ القائمُ على البطر والتكبر سببٌ في تعذيبهم في جهنم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: ٧٥ ـ ٧٦].

هؤلاء الكفارُ الفرحون المتكبرون نالوا بفرحهم غضبَ الله، لأن اللّهَ لا يحبُّ الفرحين البطرين المتكبرين.

فلما نهى المؤمنون قارون عن الفرح نَهَوه عن الفرحِ القائمِ على الغرورِ والفساد، والذي ينتجُ عنه التكبر والبطر.

التوازن بين الدنيا والآخرة في تصور المسلم:

٢ ـ ودَعوه إِلى أنْ يبتغي فيما آتاهُ اللّهُ الدارَ الآخرة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ . . .﴾.

وفي هذا توجيهٌ له إلى التواضع، والاعترافِ بأنَّ ما معه إنما هو فضلٌ ومنحةٌ من الله، حيث أَرشدوه إلى أنْ يُوَجِّهَ كلَّ ما آتاه الله إلى الآخرة، وأن يبتغيَ ويطلبَ به الدارَ الآخرة.

«وما» في: «في ما آتاك الله» اسم موصول، وهو يدلُّ على العموم والشمول. وهو يوحي بأنَّ على المؤمن أنْ يوجِّهَ كلَّ ما آتاهُ اللّهُ من النعم والمنح للدارِ الآخرة، كلُّه وليس قسماً أو بعضاً منه.

وهو يفعلُ ذلك لأنه يوقنُ أنَّ لذةَ الدنيا زائلة، فإنْ وَجَّهَ قسماً من النعمِ للدنيا خسر، أما نعيمُ الآخرةِ فإنه دائمٌ موصول، ولذلك يوجِّهُ كلَّ نعمِ الله للدار الآخرة، طلباً لدوامِها واستمرارِها.

٣ ـ دَعوهُ إِلى أنْ لا ينسى نصيبَه من الدنيا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهذا التوجيهُ يوضحُ كيفيةَ تطبيقِ القاعدة السابقة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

ولا بدَّ للمؤمنِ أنْ ينسقَ بين القاعدتين بتوازن، بحيث لا يطغى في واحدة على الأخرى.

الماديون والشهوانيون ينسونَ الدارَ الآخرة، ويُقبلون على الحياةِ الدنيا، ويُوظفون كلَّ ما آتاهم الله من نعم للدنيا، وهذا ما فعلَه قارون، ومَنْ سارَ على دربه مِن «القوارين»!

وقد ردَّ على غلوِّ هؤلاء الماديين الدنيويين مغالون في الجانبِ الآخر، وهم الرهبانُ ومَنْ سارَ على طريقهم، حيث نسوا نصيبَهم مِن الدنيا، وحَرَّموا على أنفسهم المباحات، مثلَ الزواج والتملك، بحجةِ أَنهم يطلبون الدارَ الآخرة. وقد خالفوا بذلك نداءَ الفطرة، ووقعوا في محاذيرَ كثيرة.

إنَّ الإسلامَ يدعو المؤمنَ إلى أنْ ينسقَ بين الدنيا والآخرة، ويوظفَ ما في الدنيا للآخرة، ويفعلَ ذلك وهو يستمتعُ بطيبات الدنيا ومباحاتها.

ووردَ بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذه الآية تنكرُ على الذين يُحرمون على أنفسهم الاستمتاعَ بطيبات الحياة الدنيا، بزعمِ أنهم يبتغون بها الدارَ الآخرة، وتُبينُ أنَّ هذه الطيبات للمؤمنين، يستمتعون بها في الحياة الدنيا، ويشاركهم الكفارُ الاستمتاعَ بها في الدنيا، لكنها خالصةٌ لهم وحدهم في الآخرة.

الدنيا والآخرةُ في تصورِ المؤمن ليستا ضديْن أو نقيضين، بل هما مرحلتان متكاملتان متوازنتان. فالمؤمنُ يعيشُ دنياه وهو ينظرُ لآخرته، ويبتغي في كلِّ ما آتاهُ الله من نعم الدارَ الآخرة، ولكنه يستمتعُ بها في دنياه الاستمتاعَ الطيب الحلال، فلا يَحرمُ نفسَه منها في الدنيا، رغم أنه يوظفُها للدار الآخرة.

مقابلة إحسان الله بإحسان:

٤ ـ طلبوا منه مقابلةَ الإحسانِ بالإحسان: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾:

لقد أحسنَ اللّهُ إلى عباده، بما منحهم مِن نعم وعطايا ومِنَن، وطالَبَهم أنْ يُحسنوا في هذه النعم، وأَخبرهم أنهم إنْ شكروه فيها زادهم منها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وإنَّ مَنْ قابلَ إحسان الله إليه بإحسان فهو خَيِّرٌ مُحسنٌ كريم، وهذا هو الأصل. قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾ [الرحمن: ٦٠ ـ ٦١].

اللّهُ هو المحسنُ في البداية، بما أَنعمَ على المؤمن من نِعَم، وطلبَ منه أن يقابلَ إحسانَ اللّهِ له بإحسان، وذلك باستخدام هذه النعم في طاعته، ونفع عباده، فإنْ فعلَ ذلك فإنَّ اللّهَ يُحسنُ إليه في الآخرة، بأنْ يُدخلَه الجَنة، ولا جزاءَ للإحسانِ إلا الإحسان، وكلُّ مَنْ نالَ إحسانَ اللّهِ إليه، عليه أنْ يُحسنَ في استخدامِ هذا الإحسان الإلهي.

ولهذا طلبَ المؤمنون من قارون أنْ يُقابلَ إحسانَ الله إليه بإحسان، وذلك باستخدامِ تلك الكنوز في نفع الآخرين: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ترك الفساد في الأرض لأن الله لا يحب المفسدين:

٥ ـ نَهْوُهُ عن الفساد والإفساد: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وهذه هي الحالةُ المقابلة للإحسان، وهي التي تَصدرُ عن الكافرين والظالمين والمفسدين، فعندما ينعمُ اللّهُ على أحدهم النعمَ الكثيرة ـ كما فعل مع قارون ـ فإنه يستخدمُها في الفساد والإفساد، ويَصرفُ الأَموالَ على شهواتِه وملذاته، ويدمرُ الأَخلاقَ والأَعراض والفضائل، وينشرُ الفواحشَ والمنكرات والمفاسدِ.

وبذلك يكون المالُ بين يديه وسيلة إفساد، وسبباً في هلاكه وخسارته، وحجةً عليه عند ربه.

وهناك تقابلٌ لطيفٌ بين توجيه المؤمنين لقارون، عندما قالوا له:

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ وبين نهيهم له عن الفسادِ في قولهم: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

«ابتغِ» فعلُ أمر. ماضيه «ابتغى»: بمعنى: طَلَب.

و«تَبْغِ» فعلٌ مضارع. ماضيه «بغىٰ»: بمعنى: تجاوزَ وتعدى.

تقول: ابتغى الرجلُ الخيرَ ابتغاءً. إذا طلبه وأَراده.

وتقول: بغى الرجلُ الشرَّ بغياً. إذا تعدى إليه.

٦ ـ وأَخبروه في نهايةِ نصحهم له عن حقيقةٍ قاطعة، وهي أنَّ اللّهَ لا يحبُّ المفسدين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

لا يحبُّ اللّهُ المفسدين، لأنهم فاسدون في أَنفسهم أولاً، ولأنهم مفسدون في الأرض، يَستخدمون نعمَ اللّهِ في الظلم والبغي والشر، وبذلك ينشرونَ المفاسدَ والرذائل والخبائث.

إنهم في فسادِهم وإِفسادِهم خسروا محبةَ الله، وماذا يملكُ الإِنسانُ إذا خسرَ محبةَ الله؟ وهل هناك شيء يصلحُ أنْ يكونَ عوضاً وبديلاً عن محبة الله؟

لقد أخبرَ المؤمنون قارون في بدايةِ النصيحةِ أنَّ اللّهَ لا يحبُّ الفرحين: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ وأخبروه في آخرها أن اللّهَ لا يحبُّ المفسدين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وفي أثناءِ نصحهم له طالَبوه بالإحسان والإصلاح، لأن اللّهَ يحبُّ المحسنين المصلحين.

إِنهما طريقان: طريقُ محبةِ الله، بأنْ يتصفَ سالكوها بالصفاتِ التي يحبها الله، ويعملوا الأَعمالَ التي يحبُّها الله.

وطريقُ غضب الله، بأنْ يتصفَ أصحابُها بالصفاتِ التي لا يحبُّها الله، ويَعملوا الأعمال التي تغضب الله.

إنها ستُّ قواعد جوهرية، تتضمنُ كلُّ واحدة حقيقةً إيمانيةً قاطعة، قدمها المؤمنون نصيحةً لقارون:

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قارون يرفض النصائح ونظرته إلى ماله:

ماذا كان موقفُ قارونَ من نصيحةِ المؤمنين؟ ومن الحقائقِ الإيمانيةِ التي قدَّموها له؟

لقد أصمَّ أُذنيه عنها، وأَغلقَ قلبه أَمامها، ولذلك رفضَها، وردَّ عليهم ردّاً كلُّه تكبُّرٌ واستعلاء. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. فهذا المال ليس مالَ الله، وهذه الكنوزُ ليست من الله، هذا المالُ مالي، وهذه الكنوزُ أنا الذي جمعْتُها ونميتُها واستثمرتُها، فهذا المالُ ثمرةُ علمي وتخطيطي، وموهبتي وذكائي، ونشاطي وحركتي، ولولا ذلك لما ملكتُ هذه الكنوز. فكيف تقولون هذا مالُ الله، وهو نعمةٌ من الله عليَّ؟ وكيف تطلبونَ منّي أنْ أتقيّدَ في إنفاقِه بتوجيهاتِ غيري؟ فبما أنَّ المالَ مالي فلماذا أَخضعُ فيه لغيري؟.

هذا الفهمُ القارونيُّ للمالِ والكسبِ هو فهمُ مَنْ ينسى اللَّهَ ويَكفره ويَجحده، وهذا المنطقُ القارونيُّ هو منطقُ كلِّ كافرٍ جاحد.

فالكافرُ الجاحدُ لا يعترفُ أنَّ ما معه مِن مالٍ فهو إِنعامٌ وإحسان مِن الله، وإِنما هو مالُه، جمعَه بذكائه، وحصَّلَه على علمٍ عنده.

هذا الكافرُ لا يَرى أنَّ هذا المالَ ابتلاء من الله له، وأنه إنْ لم يُحسنْ لله في استثمارِهِ وإنفاقه، فإنه سيخسرُ هذا المال، بل يخسرُ سعادتَه وحياتَه في الدنيا والآخرة.

هذا الكافرُ المتكبرُ المقتدي بقارونَ في منطقِهِ وفهمه لا يسمحُ لأحدٍ بالتدخلِ في ماله، ويرفضُ وضعَ القيودِ والضوابط الأخلاقية على جمعِ المال وتحصيله، أو على استثمارِه وتنميته، أو على إِنفاقِه واستهلاكه.

المنطق القاروني الاقتصادي:

المنطقُ القاروني: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ هو منطقُ كلِّ متكبرٍ بَطِر، مغرورٍ بمالِه وكنوزه، هو نفسُه منطقُ الجاهليةِ الرأسمالية المعاصرة، التي تقومُ على شعارٍ جاهلي هو: «دَعْهُ يَعْمَلْ، دَعْهُ يَمُرّ».

أي: دع المالَ يعمل، ودع المالَ يمرُّ ويكسب، ودعِ المالَ يسير في طريقه، ولَا تعترضْه، ولا تقيِّدْه بالأخلاقيات والقيم..!!

ولا تخرجُ الجاهليةُ الرأسماليةُ المعاصرة عن كلام قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾!

ولما اعتدَّ قارونُ بعلمه وجهده في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ بيَّنَ اللّهُ جهلَه وغفلتَه، وعدمَ اتعاظه بما حصلَ للذين كانوا أقوى منه من قبله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

لقد أَهلكَ اللّهُ كفاراً أغنياءَ أَقوياء قبل قارون، كانوا أشدَّ منه قوة، وأكثرَ منه أَموالاً، ولم تدفعْ عنهم قوتُهم وأَحوالُهم عذابَ الله، ولكن قارونَ في عنفوانه وطغيانه غفلَ عن معرفةِ هؤلاء، والاعتبارِ بما حصلَ لهم.

وهكذا «القارونيون» السائرون على طريقِ قارون في كلِّ زمانٍ ومكان، يعميهم بطرُهم وتكبرُهم عن الاعتبارِ بما جرى لأمثالهم الذين كانوا قبلَهم، فيأتيهم عذابُ الله وهم غافلون!

قارون يخرج على قومه في زينته:

وبعدما رفضَ قارونُ نصيحةَ المؤمنين من قومه، خطا خطوةً أُخرى أشدَّ طغياناً وإفساداً. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ...﴾.

أَرادَ قارونُ أنْ يتيهَ ويختالَ على قومه، وأن ينشرَ فيهم فتنتَه وفسادَه، فتزيَّنَ بزينته، وانتفشَ بماله، ثم خرجَ على قومه، مختالاً مغروراً، ليفتنَهم ويفسدَهم.

ونبقى مع النصّ القرآنيّ المجمل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ولا نحاولُ تفصيلَه بالذهاب إلى الإسرائيليات، لتسجيلِ بعضِ ألوانِ وأَنواع الزينة التي خرجَ بها على قومه، وبيانِ كيفيةِ خروجه على قومه فيها.

إنَّ إيرادَ تلك الروايات الإسرائيلية يحرمُ خيالَ القارئ من متعةِ تخيُّلِ وتصوُّرِ قارون وهو خارجٌ على قومه في زينته، ورسْم صورةٍ منتفشةٍ متعاظمة لها، فلْندَع الخيالَ يتخيلْ ما شاءَ من ألوانِ ومظاهرِ تلك الزينة.

خرجَ عليهم في زينته ليفتنَهم ويُفسدَهم ويَطغى عليهم، ليريهم أَنه هو الأَغنى والأَقوى، ومن ثَمَّ فهو الأَفضلُ والأكرم، فهو الذي يَعيشُ حياتَه، بما جمعَ من كنوز، أَما هم فهم محرومون من لذة العيش!!

مريدو الحياة الدنيا يفتنون به:

وشاهدَ قومُ قارون الزينةَ الطاغيةَ التي تزيَّنَ بها. وانقسموا في نظرتِهم له إلى قسمين:

قسمٌ فُتنوا به وأُعجبوا بزينته، وتمنّوا أنْ يكونوا مثلَه. قال الله عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

وقد وصفَ اللّهُ هؤلاء المفتونين المخدوعين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾. فهم ناسون للآخرة، غيرُ طالبين لها، ولا راغبين فيها، ولا منتظرين لنعيمِها، وكلُّ هَمِّهم وفكرِهم هو الدنيا، وما فيها من زينةٍ ومال ومتاع وانتفاع.

وبما أَنهم يريدون الحياةَ الدنيا وزينتَها فقد قاسوا أنفسهم بقارون، فشعروا بالفرقِ الواسعِ بينهم وبينه، ومن ثَمَّ شَعروا بالحسرةِ والفقرِ والذل والحاجة، إِنهم لا يملكونَ شيئاً من الدنيا وزينتها، وقارونُ يملكُ منها كلَّ شيء. إذنْ قارونُ ـ في منظارهم وميزانهم ـ أَفضلُ وأكرمُ منهم، وهو أَغنى وأسعدُ منهم، ولهذا تمنّوا أنْ يكونوا مثلَه، وأنْ يُؤْتَوْا مثلَ ما أُوتي، وصدرتْ جملةٌ على ألسنتِهم تترجمُ عما في قلوبهم، وقالوا: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾.

تمنّوا أنْ يُؤْتَوْا من المالِ والكنوزِ مثلَ ما أُوتي قارون، ليتزيَّنوا به كما يتزين، وينتفعوا به كما ينتفع.

وأَتْبَعوا تمنّيهم بتسجيلِ تقويمِهم له، حيث قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

قارونُ في نظرهم ذو حظٍّ عظيم، لأنَّ الحظَّ العظيمَ عندهم هو الزينةُ والمالُ والمتاع، والترف والإسراف، وصاحبُ الحظِّ العظيمِ هو الذي أُوتي ذلك، فقارونُ صاحب حظٍّ عظيم، أما هم فإنهم محرومون من ذلك الحظِّ العظيم.

إنّ نظرتَهم إلى قارون خاطئة، وإنّ تقويمَهم له غيرُ صحيح، فليس هو ذا حظٍّ عظيم، ولو أُوتوا مثلَه لما كانوا ذوي حظ عظيم.

سرُّ انخداعِهم بزينةِ قارون وفتنته، واغترارِهم بما معه هو أَنهم ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

فلو لم يكونوا يريدونَ الحياةَ الدنيا لما خُدعوا وفتنوا، وكأَنَّ القرآنَ يَدعونا إِلى معرفةِ أَساسِ خطئهم لئلا نقعَ فيه، فأساسُ الخطايا

هو ابتغاءُ الحياةِ الدنيا وطلبُها وإرادتُها والرغبةُ فيها، ونسيانُ الآخرة وتركُها وعدمُ الرغبة فيها.

من هو ذو الحظ العظيم؟:

إنَّ مَنْ أرادَ الآخرةَ يعرفُ قيمةَ الدنيا بالنسبة لها، ولهذا يطلبُ الآخرةَ ونعيمَها. قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٠ ـ ٢١].

لم يكن قارونُ ذا حظٍّ عظيم، لأنه لم يكن مؤمناً، ولهذا ليس له في الآخرةِ إلاّ النار، ولن تدفعَ عنه أموالُه وكنوزُه النار، فهل هو ذو حظٍّ عظيم وهو ذاهبٌ إلى النار؟

والقارونيون المغترّون بأموالهم الذاهبون إلى النار ليسوا ذوي حظٍّ عظيم، لأَنهم ليس لهم حظٌّ في الجنة، فكيف ينخدعُ بهم المؤمنون بالآخرة؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦].

صاحبُ الحظِّ العظيم في الدنيا هو مَنْ آتاهُ اللّهُ الإيمانَ والصلاح، ومَنَّ عليه بالسماحةِ والرفقِ وحسنِ الخلق، وجعلَهُ يتذوقُ طعمَ الرضى والطمأنينةِ والسعادة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

العالمون الصابرون لم يفتنوا به:

القسمُ الثاني: وهم الذين لم يُفتنوا بالفتنةِ القارونية، وهم الذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠].

وإذا كان القرآنُ قد ذكرَ سِرَّ افتتانِ الفريقِ الأول بزينة قارون، وهو أَنهم يريدون الحياةِ الدنيا، فقد ذكرَ هنا سِرَّ نجاةِ الفريقِ الثاني من الفتنة، وهو أَنهم أوتوا العلم.

إنَّ هؤلاء المبصرون مؤمنون عالمون، ولقد نظروا في وضع قارونَ وزينتِه بمنظارِ العلم، وَوَزنوهُ بميزانِ العلم، فإذا به ليس شيئاً، رغمَ كثرةِ أمواله، إنه في النهاية هالكٌ خاسر، ومن ثم فهو بائسٌ تعيس، معذَّبٌ شقيّ!

فكيف ينخدعونَ به وهذه نهايتُه؟ وكيف يتمنّون أنْ يُعْطَوْا مثلَ ما أُعطي، مع هذا المصيرِ البائس الذي انتهى إليه!

العلمُ يعطي صاحبَه البصيرةَ النافذةَ التي تُريه الأُمورَ على حقيقتها، وليس على صورتِها الظاهرية، ولذلك لا ينخدعُ صاحبُ العلم بما يراه، وإنما يتعمقُ دلالتَه، ويخترقُ ظاهرَه إلى باطنه، فيعرفَه حقَّ المعرفة.

قال الذين أوتوا العلم المبصرون للمخدوعين: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

لقد دَعوا المخدوعين إلى معرفةِ حقائق الأمور، والنظرِ إلى الدائمِ الباقي، وأَخبروهم أنَّ ثوابَ الله لعباده خيرٌ من كلِّ ما على هذه الدنيا، لأَنه باقٍ دائمٌ مستمرٌ لا ينتهي ولا يتوقفُ ولا ينقطع.

ثواب الله خير للمؤمن الصالح:

ثوابُ الله خيرٌ من مالِ قارون وكنوزِه وزينته، خيرٌ من كلِّ ما يملكه المالكونَ في الدنيا، ولذلك هو الذي يستحقُّ أنْ يطلبَهُ الطالبون، وتستشرفُه نفوسُهم، وتَهفو إليه قلوبُهم.

وفي الحقيقة لا يَرجو ثوابَ الله كلُّ أحد، فغيرُ المؤمن لا يَعرفُ ثوابَ الله ولا يطلبُه، أما المؤمنُ فإنه يعرفُه ويطلبُه ويَرجوه. ولذلك ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً، لأَنه لا ينالُ ثوابَ الله إلا مَنْ آمنَ وعملَ صالحاً، فالإيمانُ والعملُ الصالح هما طريقُ نيلِ ثوابِ الله.

ومما يؤكدُ هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وهناك أُناسٌ لا يطلبونَ الذي هو خير، ولذلك يطلبونَ ثوابَ الدنيا وزينتَها، وإنَّ الله يُعطيهم ما يطلبون من هذا الثواب السريع الزائل، أَما ثوابُ الآخرة الدائمُ الباقي فإنَّ الله لا يُعطيه إلاّ للمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ثوابُ الله الدائمُ الباقي خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً، خيرٌ من كلِّ الدنيا وما فيها، لكنَّ هذه الحقيقةَ الإيمانيةَ القاطعةَ لا يدركُها ولا يَثبتُ عليها إلاّ الصابرون. ولهذا قال العلماءُ للمخدوعين بفتنة قارون: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

إنّ المؤمنين المبصرين صابرون، على الابتلاءِ والامتحان، وعلى الفتنةِ والمحنة، وعلى الزينةِ والزخرف.

ولهذا صبرَ المؤمنون على فتنةِ وزينةِ قارون، فلم يفقدوا ثوابتَهم تجاهَها، بينما انخدعَ بها الآخرون، لأنهم ليسوا صابرين!!

وهكذا انقسمَ بنو إسرائيلَ إلى فريقيْن: المؤمنون العالمون لم يُفتنوا بقارون وكنوزِه، لأنهم كانوا يريدون الدارَ الآخرة. والمخدوعون المفتونون فُتنوا به، وتمنّوا أنْ يُعطَوْا مثلَ ما أُوتي قارون، لأنهم كانوا يريدون الحياةَ الدنيا وزينتَها.

انتهى إمهال الله لقارون وتحقق الامتحان به:

وكان قارون فتنةً لقومه، وابتلاءً وامتحاناً لهم، ابتلاهم اللّهُ وامتحنهم به، فمنهم مَنْ نجح ومنهم مَنْ رسب.

وآنَ لقارونَ أَن ينتهي، بعدما تحققَ الامتحانُ به، وبعدما تحققَ الامتحانُ له. امتحنَه اللّهُ بالمالِ والكنوز فرسبَ في الامتحان، وطغى وبغى وتجبّر وأفسد، وامتحنَ اللّهُ به قومَه فخُدِعَ به المخدوعون، واغترَّ به المغترون، والآنَ لا بدَّ لقارونَ أنْ يذهبَ خاسراً، وأنْ تذهبَ معه كنوزُه، ليكون ذهابُه عبرة!

وقام قارونُ بالحركةِ الأَخيرة، التي عجلتْ بالقضاءِ عليه، حيث خرجَ على قومه في زينتِه، فازدادَ المخدوعون انخداعاً به، واعتبروه ذا حظٍّ عظيم، وتمنّوا أنْ يُعطوا مثلَ ما أُعطي: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

انتهى إِمهالُ اللّهِ لقارون. لقد أَمهله لعلَّه يتذكرُ فلم يتذكر، ونصحه المؤمنون فلم ينتصح، ووعظوه فلم يتعظ.

والآنَ جاءَ وقتُ إِهلاكه والقضاءِ عليه، فخسفَ به وبمالِه وبدارِه الأرض. قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض:

متى خسفَ اللّهُ به وبداره الأرض؟

بعدما خرجَ على قومِه في زينته. ونلاحظُ أَنَّ القرآنَ ربطَ بين الجملتين بحرفِ الفاء:

الأولى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

الثانية: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتعقيب. أي أَنَّ اللّهَ خسفَ به وبمالِه

بعدما خرجَ على قومه في زينته. وكان خروجُه على قومه في زينته هو السببَ المباشرَ في خسْفِ اللّهِ به.

لقد أخذَ اللّهُ قارونَ وهو في أوجِ انتفاشِه وغرورِه وتكبره وفرحه وبطره، وقصَمَهُ قصماً وهو في سكرته بماله وزينته.

خسفَ اللّهُ به وبدارِه الأرض، انشقت الأرضُ وابتلعَتْه، وابتلعَتْ أموالَه وكنوزَه، وابتلعتْ خزائنَه ومفاتحه، وابتلعت دارَه وملكه.

ولم تنفعْه أَموالُه وكنوزُه، لأنها لم تدفعْ عنه عذابَ الله، ولم ينصرهُ المتجمعون حولَه، المنتفعون بأمواله، ولم يدفعوا عنه عذابَ الله.

وفرعونُ الذي يدعي الأُلوهية ويزعمُ القوةَ المطلقة، والذي تحالفَ معه قارون، لم ينصره، وعجزَ عن دفعِ عذاب الله عنه.

وهكذا واجه قارونُ عذابَ الله وحيداً، بدون ناصرٍ ولا معين: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

ذَهبتْ قوتُه عنه فصار أَمامَ عذاب الله ضعيفاً، وذهبَ حلفاؤه عنه فتلقّى عذابَ اللّهِ وحيداً، وذهبتْ عنه كنوزُه فاستقبلَ عذابَ الله فقيراً!!

وصدق الله القائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [هود: ١٠٢ ـ ١٠٣].

ونلاحظُ أنَّ القرآنَ أجملَ الحديثَ عن الخسفِ بقارون وداره: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فلم يُفَصِّلْ هذا المشهدَ العنيف المؤثر، ولم يذكرْ كيفيةَ ذلك.

وقفة مع حديث صحيح في الخسف بأحد السابقين:

ونعلمُ أنَّ الإسرائيليات قد أوردتْ تفاصيلَ كثيرة لخسْفِ اللّهِ به وبداره، ولكنها لم تَثبتْ ولم تَصح، ولهذا نبقى مع إجمالِ القرآن للحادث، ولا ندخلُ في تفاصيله.

وهناك حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، يتحدثُ عن رجلٍ من السابقين خسفَ اللّهُ به الأرض.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يَمشي، قد أَعجبتْه جُمَّتَه وبُرْداه، إذْ خُسِفَ به في الأرض، فهو يتجلجلُ في الأرض حتى تقوم الساعة»[1].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما، أَن رسولَ الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجرُّ إزارَه، إذْ خُسفَ به، فهو يتجلجلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامة»[2].

ذكرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ أحدَ السابقين كان بطراً متكبراً مختالاً، وخرجَ يمشي أمامَ الآخرين بِتيهٍ واختيال، وسَرَّحَ شعْرَه ـ والجُمَّةُ هي شعر الرأس ـ وأُعجبَ بشعره وبُرْدَيْه ـ وهما ثوباه ـ وجَرَّ إزارَه خيلاء وعجباً وتكبراً، فعجَّلَ اللّهُ عقوبته، وخسفَ به الأرض، وما زالَ يتجلجلُ فيها، ويضطربُ وينزلُ فيها إلى يوم القيامة. أَي أَنه ينزلُ كلَّ يوم في الأرض مسافةً قصيرة، ويستمرُّ في تَوالي نزوله في باطن الأَرض، ولا يصلُ قعْرَها إلا يومَ القيامة.

والحديثُ لم يصرحْ بأنَّ هذا الرجلَ الذي خُسِفَ به هو قارون، لكن ذهبَ بعضُ شرّاح الحديث إلى تحديدِ أَنه قارون.

قالَ الإمامُ ابنُ حجر في شرح الحديث: «وذكرَ السهيليُّ في

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٨٩. ومسلم برقم: ٢٠٨٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٩٠.

«مبهمات القرآن» في سورةِ الصافات عن الطبري أن اسمَ الرجلِ المذكور «الهيزن»، وأنه من أعرابِ فارس. قلتُ: وهذا أَخرجه الطبريُّ في التاريخ، من طريقِ ابن جريج عن شعيب الجياني.

وجزمَ الكلاباذي في «معاني الأخبار» بأنه قارون. وكذا ذكَرَ الجوهري في «الصحاح».

وكأنَّ المستند في ذلك ما أَخرجه الحارثُ بنُ أَبي أسامة، من حديثِ أَبي هريرة وابن عباس، بسندٍ ضعيفٍ جداً، قالا: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ، فذكَرَ الحديثَ الطويل، وفيه قوله: «ومَنْ لبسَ ثوباً فاختالَ فيه، خُسِفَ به من شفيرِ جهنم، فيتجلجل فيها، لأنَّ قارونَ لبسَ حلة فاختالَ فيها، فخسفَ به الأرض، فهو يتجلجلُ فيها إِلى يوم القيامة».

وروى الطبريُّ في التاريخ عن قتادة قال: «وذُكِرَ لنا أَنه يخسفُ بقارون كلَّ يوم قامة، وأَنه يتجلجل فيها، لا يبلغُ قعْرَها إِلى يوم القيامة..»[1].

لقدْ ضعَّفَ ابنُ حجر الرواية التي تحددُ اسمَ المخسوفِ به بأنه قارون. واعتبرَ السندَ الذي أَورده ابنُ أَبي أسامة عن أَبي هريرة وابنِ عباس ضعيفاً جداً.

وبما أنَّ السندَ ضعيفٌ جداً فلا نعتمدُ الروايةَ المروية به، ولهذا لا نجدُ حديثاً مرفوعاً صحيحاً يصرحُ باسمِ قارون. ومن ثَمَّ ما قالَه قتادةُ والكلاباذيُّ والجوهريُّ وغيرُهما من بعده، لا يَعتمدُ على حديثٍ مرفوع صحيح.

فنتوقفُ في تعيينِ الرجل المخسوف به في الحديثِ الواردِ في

---

(١) فتح الباري ١٠: ٢٦٠.

الصحيحين، وخلاصةُ ما يفهمُ من الحديث أنَّ اللّهَ قد خسفَ برجلٍ متكبر، خرجَ يجرُّ إِزاره خيلاء، وأنه ما زالَ يتجلجلُ في الأرض حتى قيام الساعة.

أما تحديدُ اسم هذا الرجل، وأنه قارون، فلا نصَّ في الحديثِ - ولا في غيره من الأحاديث المرفوعة الصحيحة - يدلُّ عليه. ولذلك نتوقفُ في تحديدِ اسم الرجل، فقد يكون قارون، وقد يكونُ رجلاً آخر، والله تعالى أعلم!.

أَما قارون، فنجزمُ أنَّ اللّهَ خسفَ به وبداره الأرض، لأنَّ هذا وردَ بصريحِ القرآن: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ..﴾.

مشهد متخيل للخسف بقارون وداره:

وتَخَيُّلُ منظر الخسفِ بقارونَ ودارِه وكنوزه يَزيدُ في العبرةِ والعظة، فها هو قارونُ يمشي أمامَ قومه، وأمام القبط في زينته، مختالاً متكبّراً منتفشاً مزهُواً بَطِراً، وها هم ينظرونَ إِليه معجبين مبهورين متأثِّرين، إلاّ المؤمنون الصابرون من بني إسرائيل. وها هي الجماهيرُ المخدوعةُ المغترَّةُ به تتحسر، عندما تقارنُ نفسَها به، وها هم الرجال يقولون: يا ليتَ لنا مثلَ ما أُوتي قارونُ إنه لذو حظٍّ عظيم!!

وفجأة، وبينما هو يسيرُ على الأرض أمامَ المشاهدين، تنشقُّ الأرض، ويَراها الناس، وتبتلعُ قارونَ داخلَها، وتنشقُّ الأرض انشقاقاً آخرَ في مكانٍ آخر، حيث دارُ قارون الفخمة، وتبتلعُها!

ويرى المشاهدون دارَ قارون وكنوزَه تغوصُ في أَعْمَاق الأرض، ويرى المشاهدون قارونَ وهو يختفي أَمامهم بالتدريج، ثم يرونَه وهو يغوصُ في أَعماقها، وهم متأثِّرون مندهشون متعجبون.

وهكذا خسفَ اللّهُ بقارونَ وبيتِه وكنوزِه الأرض، وهكذا ذهبت الكنوزُ التي جمعَها كأنها لم تُجمع، وهكذا انتهت الفتنةُ القارونية، أَلا بُعْداً لقارون، الذاهبِ إِلى النار!!

ولما رأى الفريقانِ هذه النهايةَ السوداءَ لقارون، حمدَ المؤمنون منهم ربَّ العالمين، الذي أَراحَهم منه، وأزالَ فتنته. وازدادوا إِيماناً ويقيناً بما عندهم من حقائقَ وأُسسٍ وقواعدَ وثوابت.

الموقف الجديد لمن فتنوا به:

أما الفريقُ الثاني المخدوعون به، الذين تمنّوْا أنْ يكونوا مثلَه، فقد استيقظتْ قلوبُهم، وحمدوا اللّهَ لأَنهم لم يكونوا مثله، فلو كانوا مثلَه لهلكوا كما هلك.

وقد سجَّلَ القرآنُ موقفَهم الجديد بتهكم وسخرية. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢].

وقفَ هؤلاء موقفيْن متعارضيْن متناقضيْن:

إِنهم بالأمسِ خُدِعوا بقارون، وفُتنوا بزينته، واعتبروه ذا حظٍّ عظيم، وتمنّوْا مكانَه، وقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

أما اليوم ـ وبعدما خُسفَ بقارون وكنوزِه ـ فقد عرفوا أَنهم هم ذَوُو حظٍّ عظيم، لأنهم لم يملكوا ما ملكَ قارون، وعرفوا أنَّ قارون ليس ذا حظٍّ عظيم، وقالوا: الحمدُ لله أننا لم نكنْ مثلَ قارون، ولم نملكْ ما ملكَ قارون، فلو كنّا مثلَه، لخسفَ اللّهُ بنا كما خسفَ به. لقد مَنَّ الله علينا بالفقر، لأنَّنا نجوْنا به من الخسف!!.

قالَ اللّهُ عن موقفِهم الجديد: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أقوال في معنى «ويكأن» وتوجيهها والراجح منها:

وَرَدَتْ في الآية كلمةُ «وَيْكأن»، ولم تَرِدْ في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

وقد أَوردَ الإمامُ ابنُ كثير أقوالَ بعضِ السابقين في معناها:

١ ـ فقالَ بعضهم: معنى «ويكأن»: وَيْلَكَ اعلم أَنّ. أي: ويلكَ اعلمْ أنَّ اللّهَ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ويلكَ اعلمْ أنه لا يفلحُ الكافرون.

٢ ـ وقال آخرون: معناها: أَلم تر أن الله يبسط الرزق...

٣ ـ وقال آخرون: «ويكأن» مكوَّنةٌ من كلمتيْن:

«وَيْ»: للتعجب. و«كَأَنَّ»: بمعنى: أظنّ.

ورجحَ الطبريُّ القولَ الثاني، وهو منسوبٌ إلى قتادة، حيث اعتبرَها كلمةً واحدة للتقرير، والمعنى: أَلم ترَ أنَّ اللّهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويقدر. ألم تر أنه لا يفلح الكافرون[1].

وعندما نمعنُ النظرَ في الكلمة «ويكأن» فسنرى أَنها مكوَّنَةٌ من كلمتين، كما يقولُ علماء النحو.

وقد أوردَ السّمينُ الحلبيُّ في «الدُّرِّ المَصون» عدةَ أقوالٍ في إعراب الكلمتين ومعناهما.

والراجحُ من تلك الأقوال هو:

«وَيْ»: اسمُ فعلٍ مضارع، بمعنى: أَعْجَبُ، أو: نَعْجَبُ.

«كأنَّ»: حرفُ تشبيه. والتشبيهُ هنا ليس مقصوداً ولا مراداً، وإنما هي للتقريرِ واليقين.

واستَشهدوا على مجيء «كَأَنَّ» للتقريرِ وليس للتشبيه، بقولِ عمرَ بن أبي ربيعة:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣: ٣٨٧.

كَـأَنَّـني حيـنَ أُمـسـي لا تُـكَـلِّـمُـنـي مُـتَـيَّـمٌ يَـشْـتَـهـي مـا لـيـسَ مـوجـودا

أي: إِنني أَشتهي ما ليس موجوداً[١].

والراجحُ هو القولُ الأخير، فلما رأى القومُ المخدوعون نهايةَ قارون تعجَّبوا، وأَيقنوا بصحةِ ما قالَه المؤمنون لهم.

قالوا: «وَيْ»: أي: إِننا نتعجبُ مما حصلَ لقارون.

ثم قالوا: كَأَنَّ ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ويقدر: أي: إِنَّ اللّٰهَ يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقدر.

ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: إِننا نتعجبُ مما حصل لقارون من خسارة، لأَنه لا يفلحُ الكافرون.

واعتَبروا أنَّ اللّٰهَ قد مَنَّ عليهم لأنه لم يُعطهم المالَ الكثير، فلو أَعطاهم المالَ الكثير لخسفَ بهم كما خسفَ بقارون.

بين معرفة العالمين المسبقة ومعرفة المخدوعين المتأخرة:

فَرقٌ كبيرٌ بين موقف المؤمنين الصابرين العالمين وموقفِ هؤلاء من فتنةِ قارون.

فبينما عرفَ المؤمنون الصابرون العالمون الحقائقَ اليقينيةَ من قبل، عَرَفوها في عنفوانِ الفتنةِ القارونية الطاغية، لم يَعرفها المخدوعون إلاَّ متأخرين، بعدما زالَ قارون وزالَتْ كنوزه!

الآنَ بعدما شاهدوا ما حلَّ بقارون تأثَّروا! الآنَ صدَّقوا المؤمنين الناصحين في نصحهم لهم. الآنَ عرفوا أن اللّٰهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويقدر. الآنَ عرفوا أنَّ قارون لم يكن ذا حظٍّ عظيم. الآن عرفوا أن ماله هو السبب في هلاكه وأنه كان نقمة عليه. الآنَ عرفوا أَنهم هم أَصحابُ الحظِّ العظيم. الآنَ عرفوا أن اللّٰهَ أَرادَ بهم الخير إذْ لم يبسط

---

(١) انظر الدر المصون للسمين الحلبي ٨: ٦٩٧ ـ ٦٩٩.

عليهم الرزق. الآنَ عرفوا أنَّ قلةَ المالِ مِنَّةٌ مِنَ الله ونعمة. الآنَ عرفوا أنه لا يفلحُ الكافرون!!...

الآنَ اعترفوا بصراحةٍ قائلين: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

عَرفوا الحقائقَ واعترفوا بها، لكن متأخرين!!

وشتّان شتّان بين المعرفتين:

معرفةِ المؤمنين الصابرين العالمين، التي حَقَّقوها من قبل، والتي عصمَتْهم ـ بفضلِ الله ـ من الافتتانِ بالفتنة في عنفوانها، فأَحسنوا وَزْنَها والنظرَ إليها والتعاملَ معها، وثبتوا على إيمانهم ويقينهم وقناعتهم.

ومعرفةِ المخدوعين المغرورين المفتونين التي جاءت متأخرة، بعدما زالت الفتنة، ففي عنفوانِها افْتَتَنوا بها، وطلبوها وتمنوها، ولما زالَتْ كرِهوها ورفضوها وأنكروها!!

وهذا من أَسبابِ تفضيل المؤمنين العالمين على الآخرين، الذين يُصَدِّقونهم متأخرين!!.

تعقيب القرآن على هلاك قارون:

وبعدَ انتهاءِ الفتنةِ القارونية الطاغية، وتسجيلِ موقف الفريقين منها: مؤمني بني إسرائيل ومخدوعيهم، يأتي تعقيبُ القرآنِ عليها، ليقدِّمَ درساً إيمانياً دائماً.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٣ ـ ٨٤].

إنَّ هذا التعقيبَ القرآنيَّ يوجِّهُ أَنظارَ وقلوبَ المؤمنين إلى الدارِ

الآخرة، ذاتِ النعيم الدائم، ليسعوا إليها، ويبتغوها في كلِّ ما آتاهم اللّهُ من الدنيا، وليتجافوا عن الدنيا، ولا يجعلوها أكبرَ هَمِّهم ومبلغَ علمهم.

ويذكرُ لهم القرآنُ أَهَمَّ صفاتِ الذين يريدون الدار الآخرة: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ..﴾.

مريدو الدارِ الآخرة مستقيمون متواضعون محسنون في الدنيا، وهم غيرُ مستعلين ولا متكبِّرين فيها، وهم مصلحون صالحون في الدنيا، وليسوا فاسدين ولا مفسدين فيها.

أَما مريدو الدنيا المستكبرون المفسدون، فهم محرومون من نعيمِ الآخرة، ذاهبون إلى النار، مثلُ قارون المفسدِ المستكبرِ بسبب كنوزه، وفرعون المفسدِ المستكبرِ بسببِ سلطانه.

وهذه دعوةٌ للمؤمنين ليكونوا صالحين مصلحين متواضعين، ولا يكونوا مستعلين مستكبرين مفسدين.

ثم يقدمُ القرآنُ قاعدةً ثابتة، تتضمنُ سنةً ربانيةً مطردة، وهي أنَّ العاقبةَ لا تكون إلا للمتقين: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أَصحابُ الدنيا من المستكبرين المفسدين كقارون قد يعطيهم اللّهُ بعضَ المتاع والرزق والنفع، ويُمَكِّنُ لهم في الأرض، لكن هذا كلُّه إلى حين، حيث يسلبهم ذلك كلَّه، ويوقعُ بهم عذابَه، كما فعلَ بقارون، فكانت عاقبةُ قارون سيئةً خاسرة.

أما المؤمنون الصابرون العالمون، فإن اللّهَ قد يبتليهم بأنْ يُضَيقَ عليهم في الرزق والمال والمتاع، لكنهم هم الفائزون الرابحون المفلحون في النهاية، فالعاقبةُ الحسنةُ لا تكون إلا لهم.

وإنَّ اللّهَ عادلٌ في محاسبته للكفار، حيث يجازيهم بسببِ سيئاتهم: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وهو سبحانَه رحيمٌ في حسنِ جزائه للمحسنين المتقين: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ..﴾.

كان هلاك قارون في مصر قبل الخروج:

وفي ختام حديثِنا عن الخسفِ بقارون وكنوزه نذكُرُ أننا أَوردْنا قصتهُ في هذا الموضعِ من قصةِ موسى عليه السلام، وقبلَ استعراضِ مشهدِ خروج موسى ببني إسرائيل وغرق فرعون.

وفعلْنا ذلك خلافاً لما فعلَهُ مَنْ كتبوا في القصص القرآني، حيثُ كانوا يتحدثون عن قصةِ قارون أثناءَ حديثهم عن إقامةِ بني إسرائيل في سيناء. لأنهم ذَهبوا إلى أنَّ قارون آمنَ بموسى عليه السلام، وخرجَ معه ضمنَ بني إسرائيل، وأنَّ أحداثَ إفسادِه كانت في سيناء، وأنَّ موسى عليه السلام دعا اللّهَ عليه، فخسف الله به في سيناء.

واعتمدوا في ذلك على الرواياتِ الإسرائيلية، التي تفصِّلُ كذبَه على موسى، وقذْفَه له بارتكابِه الفاحشة، وتحقيقَ موسى مع المرأة التي اتهمَتْه، وظهورَ مكْرِ وكيدِ قارون، وأنَّ هذا دعا موسى إلى أنْ يدعوَ اللّهَ عليه، فخسفَ اللّهُ به.

ونحنُ لا نرى ذلك، لأنَّ منهجَنا عدمَ الأخذِ من الإسرائيليات، وما لم يثبتْ من الرواياتِ بالأحاديثِ المرفوعة الصحيحة.

والراجحُ عندنا أنَّ قصةَ قارون كانت في مصر، وقبلَ غرقِ فرعون، وأنَّ اللّهَ خسفَ به وبداره الأرض لما تعاظمتْ فتنتُه، وقبلَ خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وقبل غرق فرعون.

ومما يدلُّ على هذا أنَّ القرآنَ نصَّ على إرسالِ موسى رسولاً إلى الثلاثي الظالم: فرعون وهامان وقارون. وأنَّ الثلاثةَ الطغاةَ اتفقوا على اتهامِ موسى بأنه ساحرٌ كذاب. وهذا معناه أنَّ قارونَ كان متحالفاً مع فرعون وهامان ضدَّ موسى، مكذباً له معهما.

ولما خسفَ اللّهُ به قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فنصت الآيةُ على أنَّ اللّهَ لما خسفَ بقارون خسفَ بداره الأرض، وهذا معناه أنه كانتْ له دارٌ قبلَ أنْ يُخسفَ به، وهذه الدارُ كانت ضخمةً فخمة، تتفقُ مع كنوزِه وزينته. ولما خسفَ اللّهُ به خسفَ بداره أيضاً.

فهل بنى قارون داراً ضخمةً في صحراء سيناء؟ ومن أيِّ الموادِّ بنى قارون دارَه في سيناء؟ وهل في سيناء موادُّ بناء؟ وهل بنى بنو إسرائيل في سيناء بيوتاً ودوراً لهم؟

إنَّ ذكْرَ دارِ قارون، والنصَّ على أنَّ اللّهَ خسفَ به وبدارِه في وقتٍ واحد دليلٌ على أن الخسفَ به وبدارِه وكنوزه كان في مصر، قبل خروجِ بني إسرائيل منها.

وقد ذكرَ ابن كثير في «قصص الأنبياء» احتمالَ الخسف بقارون في مصر، وفي سيناء. قال: «وقصةُ قارون هذه قد تكونُ قبلَ خروجهم من مصر، لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. فإنَّ الدارَ ظاهرةٌ في البنيان. وقد تكونُ بعدَ ذلك في التيه، وتكون الدارُ عبارةً عن المحلةِ التي تُضربُ فيها الخيام...»[1].

وإذا كان ابنُ كثير قد أَوردَ الاحتمالين، ولم يرجحْ أَحداً منهما، إلاّ أَننا نرجحُ الاحتمالَ الأول، ونذهبُ إلى أنَّ قارون لم يؤمنْ بموسى عليه السلام، وأنَّ الخسفَ به وبداره كان في مصر، فهلكَ قبلَ هلاك فرعون.

نرجحُ هذا لِما سبق أنْ بَيّنّا، ونقررُ أَنه اجتهادٌ وترجيح، وليس جزماً ويقيناً. والله تعالى أعلم.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٧٥.

[٣]

ترائي الجمعين على شاطئ البحر

قامَ موسى عليه السلام بواجبه في الدعوة، حيث بلَّغَ دعوتَه إلى فرعون وملئه وقومه، وأقامَ عليهم الحجة، وأراهم الآياتِ التي آتاهم الله إياها، ولكنهم لم يتخلّوا عن كفرهم وعنادهم.

وآمنَ به قومُه بنو إسرائيل، كما آمن به بعضُ المصريين الأقباط، كامرأةِ فرعون ومؤمنِ آل فرعون.

انتهاء إقامة بني إسرائيل في مصر:

وقدَّرَ اللّهُ أنْ يُنْهيَ المواجهةَ بين موسى وبين فرعون، وأنْ يوقفَ بطشَ وتعذيبَ فرعون وملئه لبني إسرائيل. كما قدَّرَ اللّهُ أنْ تنتهيَ فترةُ إقامةِ بني إسرائيل في مصر، لينتقلوا إلى مرحلةٍ جديدةٍ في تاريخهم الطويل!

وآنَ الأوانُ ليخرجوا من مصر، بقيادةِ موسى عليه السلام، ليتحققَ عملياً قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

لا نعرفُ مقدارَ إقامةِ بني إسرائيل في مصر، فهم قد قَدِموا مصرَ في عهدِ يوسف عليه السلام كما عَرفْنا، ودُفنَ يعقوبُ عليه السلام في مصر، كما دُفن كلُّ أبنائه في مصر.

وبين يعقوب وموسى عليهما السلام عدةُ أجيال، لا نحددُها.

فالفترةُ ما بين دخول بني إسرائيل إلى مصر بقيادةِ أَبيهم يعقوب عليه السلام، وما بين خروجهم من مصر بقيادةِ موسى عليه السلام، فترة طويلة امتدتْ عدةَ أَجيال، لا تُحددها مصادرنا الإسلاميةُ اليقينية، المتمثلةُ بالآياتِ والأحاديث الصحيحة.

أما رواياتُ التوراةِ والعهدِ القديم فتحددُ هذه الفترةَ ما بين الدخول والخروج بأَنها حوالي أربعةُ قرون.

ويحاولُ المؤرخون وعلماءُ الآثار تحديدَ هذه الفترةِ بالسنوات، فيذهبون إِلى أنَّ يوسف عليه السلام دخلَ مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد تقريباً، وذلك في عهد الأسرة السادسة عشرة، ويذهبون إِلى أنَّ موسى عليه السلام خرجَ من مصر في القرن الثاني عشر قبلَ الميلاد تقريباً، وذلك في عهد الأسرةِ التاسعة عشرة ولا نجزمُ بما قالوه، والله تعالى أعلم[1].

كلُّ ما نقولُه إِنَّ فترةَ إِقامةِ بني إسرائيل في مصر كانت طويلة، لعلَّها امتدتْ عدةَ قرون، ومضى عليهم فيها عدةُ أجيال.

أَوحى اللّهُ إِلى موسى عليه السلام أنْ يستعدَّ للخروجِ بقومه بني إسرائيل من مصر، وأنْ لا يُشعرَ بذلك المصريين، حتى لا يقومَ فرعونُ وملؤه بمنعهم.

أخذ الحلي والزينة من المصريين وتوجيه ذلك:

وطلب موسى من قومه الاستعدادَ للخروج، فقد حانَ وقتُ الفرج وانتهاءِ مرحلة التعذيب والاضطهاد.

وقد طلبَ موسى من النساءِ الإسرائيليات أنْ يأخذنَ حلياً وزينةً وأساورَ من النساء المصريات.

وأشارَ القرآنُ إشارةً غيرَ صريحة إلى هذه المسألة، ووردتْ هذه الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: ٨٧].

وكان ذلك بعدما عبدوا العجلَ في غيبةِ موسى عليه السلام، حيث ذهبَ إلى مناجاةِ الله عند جبل الطور، فجاءهم السامري، وأخذَ منهم ما

---

(١) انظر «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار: ٢٠١ ـ ٢٠٣.

معهم من حليٍّ وزينة، وصنعَ لهم عجلاً جسداً، وزعم أنه ربُّهم، ودعاهم إلى عبادته. فلما جاءَ موسى عليه السلام وغضبَ من فعلتهم، وسألَهم عن سبب ذلك، ذكروا له قصةَ «زينةِ القوم».

والشاهدُ في الآية قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾.

وهذه جملةٌ قرآنية مجملة، وظاهرُها أنَّ الإسرائيليين تحملوا أوزاراً بسببِ زينةٍ أَخذوها من القوم، وأنهم يشعرونَ بحرجٍ من تلك الأوزارِ والآثام التي حملوها، فلما رأوا فرصةً مناسبةً للتخلّصِ منها قذفوها وتخلصوا منها.

فما هي الزينة؟ ومن هم القوم؟ ولماذا اعتبرها الإسرائيليون أوزاراً تحملوها، وقذفوها ليتخلّصوا منها؟

هذه أسئلةٌ لم تُجبْ عليها الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة، وإن كان عليها جوابٌ مفصلٌ في روايات التوراة.

إنَّ ظاهرَ هذه الجملةِ القرآنية أنَّ الإسرائيليين حَمَلوا أوزاراً وآثاماً، بسببِ الزينة التي أخذوها من القوم، فالقومُ هم المصريون لأَنهم خرجوا من عندهم قبلَ فترةٍ قريبة من عبادتهم العجل، والزينةُ هي الحلي والجواهر التي يتزينُ بها الناس، ولعلّها هي الذهب والأساور والخواتم وغيرها.

ولعل هذه الجملةَ القرآنيةَ تشيرُ إلى أن الإسرائيليين أَخذوا زينةً وحلياً من المصريين قبلَ خروجهم، فشعروا بالتحرجِ بعد ذلك، فأخذها السامريُّ منهم، وصنعَ لهم عجلاً.

وإذا كان هذا هو معنى الجملة القرآنية المجملة، يكون الإسرائيليون قد أَخذوا زينةَ المصريين بإذنٍ من موسى عليه السلام. والله أعلم.

وإذا كان ذلك كذلك، يكون إذنُ موسى لهم بذلك صواباً،

ويكون فعلُ الإسرائيليين مشروعاً، لأنه أَخْذٌ لبعضِ حقوقهم، ولا يكون سرقةً أو غصباً، كما قد يفهمُ بعضُ الناس.

لقد كانَ المصريونَ يضطهدون الإسرائيليين، ويُسخرونهم لخدمتِهم بدون مقابل، ويأكلونَ حقوقَهم وأموالهم، فللإسرائيليين حقوقٌ عند المصريين، كانوا عاجزين عن أَخذها منهم.

والآنَ حانتْ وسيلةٌ يأخذون بها بعضَ حقوقهم، وهي أَخْذُ بعضِ حليِّهم وزينتهم، وهم في الحقيقةِ أَخذوا بعضَ أموالهم التي عند المصريين. ولهذا لا ضيْرَ لهم في ذلك، ولا يلامون عليه!

تجهزَ الإسرائيليون للخروجِ مع موسى عليه السلام، وانتظروا إِشارتَه لهم بذلك.

موسى يسري بأتباعه ليلاً:

وأَخيراً جاءَ الإذنُ من الله لموسى بالخروج بقومه، حيث أوحى إليه أن يخرج بهم ليلاً، بدون علم المصريين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

إِن اللّهَ هو الذي يحفظُ ويرعى موسى وأَتباعَه المؤمنين، ويقودُهم من مكانٍ إلى مكان، ويأخذُ بأيديهم من موقعٍ إلى موقع. فلما حانَ وقتُ خروجهم من مصر، أَوحى إلى رسولِه موسى عليه السلام ليخرجَ بهم.

طلبَ منه أنْ يسريَ بعباده المؤمنين ليلاً.

و«أَسْرِ»: فعلُ أمر. ماضيه: أَسرى. فهو رباعي.

تقول: أَسْرى. يَسْري. أَسْرِ.

وفرْقٌ بين: سَرى وأَسرى.

فالفعلان يستعملان في المشيِ بالليل. أما: سارَ فهو يستعملُ في المشي بالنهار.

يقال: سارَ الرجل: إذا مشى في النهار.

ويقال: سَرى الرجل: إذا مشى في الليل.

ويقال: أَسرى الرجلُ بالآخر: إذا اصطحبه وسارَ به في الليل.

قال الراغب: «السُّرى: سيرُ الليل. يقال: سَرى وأَسرى..»[1].

سار وسرى وأسرى: وقفة لغوية:

ولأَبي البقاء الكفويِّ كلامٌ لطيف عن السُّرَى والإسراء والسير. قال:

«السُّرى»: سيرُ عامةِ الليل.

والهمزة في «أَسرى» ليستْ للتعدية، ولهذا يتعدّى الفعلُ بالباء، فيقال: «أسرى به».

وسَرى وأَسرى بمعنى: السيرِ معظم الليل.

وقيل: سَرى: في السيرِ أولِ الليل. و: أَسرى: في السيرِ آخر الليل.

و: سارَ: السيرُ بالنهار.

و: التأويب: السيرُ طيلةَ النهار.

و: الإِسْآد: السيرُ طيلةَ الليل والنهار.

ولم يتعدَّ «سار» إلى المفعول به مباشرة، وإِنما يتعدى إِليه بحرفِ الجر «في». يقال: سارَ في الأرض.

وقد يتعدّى «سَرى» بالباء. فيقال: سَرى به. ومعناه أنه صحبَه معه في السير ليلاً.

(١) المفردات: ٤٠٨.

وقد يتعدى «أَسرى» بالباء، فيقال: أَسرى به. ويدلُّ على المصاحبة. أي أَنه صحبَه معه في السير ليلاً[1].

الإسراء في القرآن:

و«أَسرى» في القرآن لم يَرِدْ إِلا متعدّياً لما بعده بالباء.

فاللّهُ هو الذي أَسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وأَمَر اللّهُ لوطاً عليه السلام أَنْ «يَسري» بأهله ليلاً قبلَ وقوع العذاب بقومه الشاذين. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥].

وأَمَرَ اللّهُ موسى عليه السلام أَنْ «يَسري» بعباده ليلاً. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾ [الدخان: ٢٣].

و«الإِسراء» في القرآن مقرونٌ في السير بالليل، من خلالِ الآيات التي أوردناها.

وقولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾ ينصُّ على سببِ تكريمِ الله لبني إسرائيل وإنقاذهم، إِنه عبوديتُهم لله: «أسر بعبادي». فهم مؤمنون بالله، عابدون له، ولذلك أَنجاهم اللّهُ من أعدائهم.

والإِسراءُ بهم ليلاً لئلا يفطنَ لهم المصريون، لأَنَّ المصريين كانوا يراقبونهم ويَرصدونَ حركاتهم، فإذا علموا بخروجهم تَبعوهم ولحقوا بهم: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

وقد اختارَ اللّهُ لبني إسرائيل الخروجَ من مصر ليلاً، وهذا لفضْلِ السُّرى في الليل، الذي جعلَه اللّهُ وسيلةً لإِنقاذ أوليائه.

---

(١) الكليات لأبي البقاء: ٥٠٥ بتصرف واختصار.

فلوطٌ عليه السلام أَسرى بأهله ليلاً، وموسى عليه السلام أَسرى بقومه ليلاً، ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام أَسرى بالصّدّيقِ رضي الله عنه ليلاً، ليلةَ الهجرة من مكة إلى المدينة.

ووردَ في المَثَلِ العربي الصحيح قولهم: عندَ الصباح يَحمدُ القومُ السُّرىٰ.

أي: عندما تشرقُ الشمسُ في الصباح، ويتجاوزُ القومُ الخطر، يَعرفونَ فضلَ سُراهم بالليل، واحتمالِهم مشقةَ السير فيه.

فرعون يعلن التعبئة العامة للحاق بهم:

خرجَ موسى عليه السلام ببني إسرائيل ليلاً، وافتقدَ الملأُ من قوم فرعون بني إسرائيل، وعَلموا بخروجهم مع موسى عليه السلام، وأَخبروا فرعونَ بذلك، فاستشاط غضباً على موسى وعلى بني إسرائيل، وأرادَ أَنْ يُعيدَهم، لا محبةً بهم، ولكن ليعاقبَهم، وليُبقيهم خدماً عبيداً للمصريين.

إنَّ خروجَ بني إسرائيل من مصر خسارةٌ للمصريين، حيثُ كانوا يستخدمونَهم في أَعمالهم ومشاريعهم، سخرةً واستعباداً، وبخروجهم سيحتاجون إلى مَنْ يقومون بأَعمالهم التي كانوا يعملونَها، ولهذا أَرادوا إِعادتَهم.

كما أَنَّ خروجَ بني إسرائيل خسارةٌ لفرعون نفسِه، لأنه يعني هزيمتَه في معركته مع موسى عليه السلام، وهزيمةَ آلِه وملئه في مواجهة المؤمنين. وكيفَ يسلِّمُ فرعونُ وملؤه بالهزيمة؟

اتفقَ فرعونُ مع ملئِه على اللحاق ببني إسرائيل وإعادتهم، وأَمَرَ فرعونُ بحشرِ جنوده من مختلف المناطق ليلحقوا بهم. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى

ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٥٦].

أمرَ فرعونُ بالتعبئة العامة، وأرسلَ في المدائن حاشرين.

لقد أرسلَ فرعونُ في المدائن حاشرين مرتين:

المرةُ الأولى: عندما أَمر بحشرِ السحرةِ من مختلف المدائن، وإحضارهم إلى العاصمة، ليواجهوا موسى عليه السلام. ووردَ هذا الحشرُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٣٧].

فكانَ الحشرُ في المرة الأولى حشرَ سَحَرة فقط.

المرة الثانية: عندما أمرَ بحشرِ الجنود من مختلفِ المدائن، وتجميعِهم في العاصمة، ليلحقوا ببني إسرائيل الخارجين، ويُلقوا القبضَ عليهم.

معنى قوله عنهم: هؤلاء شرذمة قليلون:

ولما أمرَ فرعونُ بالتعبئة العامة علَّلَ أمرَه بأنَّ السببَ هو موسى ومَنْ معه مِنْ بني إسرائيل. وأخبرَ فرعونُ جنودَه في المدائن بأن بني إسرائيل «شرذمة قليلون».

ومعنى: «شرذمة»: طائفة قليلة.

قال الراغب: «الشرذمة: الجماعةُ المنقطعة. وهي مأخوذةٌ من قولهم: ثوبٌ شراذم. أي: متقطع»[1].

في كلام فرعونَ لجنوده عن بني إسرائيل: «إن هؤلاء لشرذمة قليلون» تقليلٌ وتحقيرٌ وتهوينٌ لبني إسرائيل، وهذا التهوينُ وردَ في اللفظين: «شرذمة» و«قليلون».

(١) المفردات: ٤٥٠.

ومن خلالِ معنى «شرذمة» كما أوردناهُ عن الإمامِ الراغب الأصفهاني، نعرفُ أنَّ «شرذمة» في الآية لا يُرادُ بها قلةُ بني إسرائيل، لأنَّ القلةَ لها لفظٌ خاص هو «قليلون».

إنما أرادَ بكلمةِ «شرذمة» أن بني إسرائيل جماعةٌ متقطعةٌ متشرذمةٌ متفرقة، أي أنهم شراذم متقطعة، لا أصلَ لها ولا وطن، ولا جامعَ يجمعُها، وأنَّ أفرادَها متفرقون فيما بينهم، وأنهم تجمعوا على موسى.

وهؤلاء الشراذمُ ليسوا كثيرين، ولا يشكِّلون أغلبية، إنهم قليلون، والناسُ ليسوا معهم ولا يؤيدونهم، ولو كانوا على حقٍّ وصواب لما كانوا شرذمةً قليلين.

كيف يغتاظ المصريون ويحاذرون من شرذمة قليلين؟:

وقد وقعَ فرعونُ في تناقضٍ ظاهر، وهو لا يدري، فبينما وصفَ بني إسرائيل بأنهم شرذمةٌ قليلون، وصَفَهم بأنهم غائظونَ له ولملئه ولقومه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥)﴾.

والمعنى أنهم أغاظوهم جميعاً، ومَلَئوا قلوبَهم غيظاً عليهم، بسبب مخالفتهم لهم في دينهم، وخروجِهم على نظامهم وحكمهم، وتحرُّرِهم من سيطرتهم واستعبادهم.

وهذا اعترافٌ من فرعون بأنَّ بني إسرائيل خطيرون مزعجون له ولنظامه ودولته، يشكِّلون عليهم خطراً مباشراً.

فإذا كانوا شرذمةً قليلين، لا وزنَ لهم ولا قيمة، فكيف يكونون غائظين لدولة كبيرة؟ وكيف يكونون خطرين على دولة كبيرة؟

وزادَ فرعونُ في هجومه على بني إسرائيل، وفي تحذيرِ قومه منهم، فقال في «مرسومِ التعبئة العامة» عنهم: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾.

والمعنى: نحنُ جميعاً حذرون منهم، حاذرون لهم، منتبهون لمشكلتهم، مدركون لخطرهم، حريصون على التخلصِ منهم.

و«حاذرون» جمع، مفردُه «حاذر» وهو اسمُ فاعل للفعلِ الرباعي «حاذَرَ». وهو يدلُّ على المبالغة في الحذر.

وقولُ فرعون ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ دليلٌ آخر على تناقضِه في الحديث عن بني إسرائيل، فكيف يكونون شرذمةً قليلين، وجميعُ الناس في الدولة مشغولين بهم، حاذرين منهم؟

واتهامُ فرعون لبني إسرائيل بأنهم شرذمةٌ قليلون، وتهوينُ شأنهم وتحقيرهم، هو نفسُ منطق كلِّ طاغيةٍ متجبر، حيث يتهمُ الذين يخالفونه بأنهم شرذمةٌ قليلون، وأنهم «أقلية» لا وزْنَ لها ولا قيمة، وأنَّ «الأغلبية» معه، وأنه على الأقَليةِ أن تنحازَ إلى رأي الأغلبية، وأنْ تتخلىٰ عن ما هي عليه!!

ومن لطائفِ التعبير القرآني أنَّ كلمةَ «المدائن» وكلمة «حاشرين» وردتْ في القرآن ثلاثَ مرات، كلُّها في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، مرة في سورة الأعراف، ومرتين في سورة الشعراء.

أما الكلماتُ الأربعةُ التالية: «شرذمة» «قليلون» «غائظون» «حاذرون». فلم تردْ كلُّ واحدة منها إلا مرةً واحدة في القرآن، في هذا الموضعِ من قصة موسى عليه السلام، وفي اتهام فرعون لبني إسرائيل.

خرجَ فرعونُ بجنودِه الذين حشرَهم من مختلف المدائن، ولحقَ بموسى عليه السلام وأَتْباعه المؤمنين.

ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينية عن عددِ المؤمنين الذين خرجَ بهم موسى عليه السلام من مصر، ولا عن عدد الجنود الذين تمكَّنَ فرعونُ من حشدِهم وتعبئتهم والخروج بهم. بينما تَذكُرُ الإسرائيلياتُ أرقاماً بعشراتِ الألوف من المؤمنين، ومئاتِ الألوف من جنود فرعون، ولا يَعنينا الوقوفُ عند هذه الإسرائيليات.

خروج جنود فرعون من النعيم إلى الهلاك:

وكان خروجُ فرعونَ بجنوده الخروجَ الأخير، لأنَّ اللّهَ سينتقم

منهم ويغرقُهم بعد ذلك. ولذلك علَّقتْ آياتُ القرآن على خروجِهم. قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

لقد أَعطى اللّهُ فرعونَ وجنودَه الكثيرَ من الآيات فلم يعتبروا بها، وحَذَّرهم من حربِ الحقِّ وأهلِه فلم يرتدعوا، وأَملى لهم وأمهلَهم فلم يستفيدوا من ذلك الإملاءِ والإمهال، وأصروا على ما هم فيه من كفرٍ وضلالٍ وعدوان.

وحانَ وقْتُ الخلاصِ منهم والقضاءِ عليهم، وهم الآن يعيشون الساعاتِ الأخيرةَ من حياتهم، فها هم قد خَرجوا للقضاءِ على موسى وأتباعه المؤمنين، واللّهُ هو الذي أَخرجَهم، لأَنهم هم الذين اختاروا طريقَهم الأسودَ الذي يقودُ إِلى الهلاك، واللّهُ يوقعُ بالإنسانِ نتيجةَ ما اختاره، من خيرٍ أو شر.

لقد كانوا آمِنين في مصر، يتنعَّمون في الجناتِ والبساتين، والعيونِ والثمراتِ، والكنوزِ والأموال، والمقامِ والسلطان، والخيرِ والرفاه، وكانوا يتلذَّذون ويستمتعون بهذا النعيمِ الكبير. ولكنهم لم يَحفظوا ذلك، ولم يُحافظوا عليه، ولم يَشكروا الله به، واختاروا طريقَ الكفرِ والباطل والعدوان، فنتج عنه حرمانُهم من كلِّ ذلك النعيم.

أَخرجَهم اللّهُ من الجناتِ والعيون، والكنوزِ والمقامِ الكريم، وتركوا البساتينَ والأنهارَ والأموالَ والأرزاق والمنازل والقصور، وخرجوا من النعيمِ إلى الجحيم!!. وهم الذين جَنوا على أنفسهم!

لحاق المصريين بالإسرائيليين عند شروق الشمس:

سارَ موسى عليه السلام بأَتباعِه ليلاً، متوجِّهاً نحو البحر، للخروج مِن مصرَ إِلى الأرض المقدسة، ولحقَ بهم فرعونُ وجنودُه الكثيرة.

ولما أَشرقتْ شمسُ الصباح اقتربَ فرعونُ وجنودُه من المؤمنين قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: ٦٠].

أي: وَصَلوا إِليهم عند شروق الشمس، بينما كانوا متوجِّهين نحو الشرق، لأنَّ البحرَ الأحمر واقعٌ شرقَ مصر. فكلمةُ «مشرقين» تتضمنُ معنيين: جهةَ الشرق، وشروقَ الشمس.

ولما أَشرقت الشمسُ كان بنو إسرائيلَ على شاطئ البحر، فوقفوا على الشاطئ، لأنهم لا يملكونَ سفناً أو قواربَ تنقلُهم للجانب الثاني في سيناء!!

ونظرَ بنو إِسرائيل خلفهم، فرأَوا منظراً في غايةِ الهول والخوف! رأوا فرعونَ وجنودَه الكثيرين مقبلين عليهم، ليأخذوهم ويهلكوهم، وماذا يفعلُ بنو إِسرائيل القلائل، العزَّلُ من السلاح، بهذا الجيشِ الكثيفِ المدججِ بالسلاح؟

واستيقظَ الخوفُ في قلوبهم، وسيطرَ الفزعُ عليهم، فها هم أَعداؤُهم الألداءُ يقتربون منهم ليقضوا عليهم، فأَطلقوا صيحةً ملؤُها الهلعُ والخوف، وقالوا: لقد أَدركونا، والآن سيأخذوننا ويقضون علينا. ولكنَّ موسى عليه السلام كان في غايةِ الطمأنينةِ والهدوء، لأنه موقنٌ أنَّ اللَّهَ معه، سينقذُه من أعدائه، ويَهديه إِلى التصرفِ المناسب.

وقد سجلتْ آياتٌ من القرآن ما قالوه لموسى عليه السلام وما رَدَّ به عليهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

معنى «تراءى الجمعان»:

معنى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾: لما رأى كلُّ فريقٍ منهما الفريقَ الآخر. حيثُ رأى قومُ موسى جندَ فرعون، فخافوا وفزعوا، ورأى جندُ فرعونَ قومَ موسى محصورين بينهم وبين البحر، ففرحوا واستبشروا، لأَنهم أيقنوا بالقبضِ عليهم والخلاصِ منهم.

و«تراءى»: فعلٌ ماض، مشتقٌّ من «رأى»، لكنه يدلُّ على الرؤيةِ المشتركةِ بين الطرفيْن الرائيَيْن.

إنها أَفعالٌ ثلاثة:

الأول: الماضي الثلاثي: رأى. وهو النظرُ والإبصارُ بالعين. تقول: رأى الرجلُ أَخاه. أي: أبصرَه.

الثاني: الماضي الثلاثي: أَرى. وهو أنْ يجعلَ غيره يرى الشيء. تقول: أَرى الرجلُ أَخاه الحقَّ. أي: جعلَه يرى الحقَّ ويعرفُه.

الثالث: الماضي الخماسي: تَراءى. وهو يدلُّ على الرؤيةِ المشتركة، والأَلفُ فيه ألفُ المفاعلة والمشاركة، ولا يُستعملُ الفعلُ إلا إذا كان طرفان، يرى كلٌّ منهما الآخر. تقول: تراءى الرجلان. أَي: رأى كلٌّ منهما الآخر.

ولم يَرِدْ «تراءى» إلاّ في موضعيْن في القرآن، والموضعان في سياقِ المواجهةِ بين المؤمنين والكافرين.

المرة الأولى: في تَراءي قوم موسى لقوم فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

المرة الثانية: في معركةِ بدر، حيث تَراءى الفريقان، فريقُ المؤمنين وفريقُ الكافرين. قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

أي أنَّ الشيطانَ زينَ لقريش أعمالَهم، ووَعَدَهم النصر، واستعدَّ أنْ يمدَّهم بالمدد، فلما تراءت الفئتان، واصطفَّ جيشُ المسلمين لقتالِ جيش قريش هربَ الشيطان ونكصَ على عقبيه.

بين يقين موسى وخوف أصحابه:

وقولُ أصحابِ موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: معناه أنَّ جنودَ فرعون قد أَدركونا وظفروا بنا.

و﴿مدركون﴾: اسمُ مفعول من الفعلِ الماضي: أَدرك.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يسجلُ خوفَهم الفطريَّ من الخطرِ الداهم، الذي ينتظرُهم على يد فرعون وجنودِه، ولا يلامون عليه، ففي الحساب البشريِّ الماديِّ ليس أَمامَهم فرصةُ نجاة، فكيفَ ينجون من جندِ فرعون، والبحرُ على بُعْدِ أمتارٍ منهم، وليس معهم سفنٌ ليعبروه، وجندُ فرعون خلفهم مباشرة، وليس هناك فرصةٌ للإفلات منهم، ولو قاتلوهم فلن ينتصروا عليهم، لأنَّ جندَ فرعونَ أكثرُ منهم عدداً وعدة!

كلُّ الحساباتِ البشرية المادية تقررُ أنهم مُدْرَكون، وأنه قد انتهى أَمرُهم وقُضيَ عليهم، وليس أَمامهم فرصةُ نجاة.

لكن للإيمانِ والتوكل على الله حسابٌ آخر، يعرفُه نبيُّهم موسى عليه السلام. ولهذا طمأَنهم وأَزالَ خوفهم، وهدَّأَ من روعهم، وقال لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

و﴿كَلَّآ﴾: كلمةُ ردع، يردَعُهم فيها، ويطلبُ منهم أنْ لا يفكروا هذا التفكير، ويُريدُ منهم أنْ يُزيلوا الخوفَ من نفوسهم، وأنْ يحلّوا محلَّه الهدوءَ واليقين.

ثم قدمَ لهم حقيقةً قاطعة، عَلَّلَ بها سببَ طمأنينتِه ويقينِه. إنَّ اللّهَ معه، وإِنه سيهديه إِلى التصرفِ المناسب، وسيخلِّصُه من أعدائه، فلن يُدركوه مع أَتْباعه، ولنْ يَقبضوا عليهم، ولن يُهلكوهم.

وكأَنّه يقولُ لأَتْباعه الخائفين: إِنَّ اللّهَ هو الذي أَمرني أَنْ أَخرجَ بكم، وأَنْ أَتوجَّهَ بكم نحوَ البحر، ووعدني أَنْ يحفظَني ويحفظكم، وهو لا يخلفُ الميعاد.

فإذا كانَ اللّهُ قدْ أَخرجَ فرعونَ وجنودَه، وجعلَهم يلحقون بنا، فإنَّ له حكمةً في هذا، لأنه حكيمٌ عليم، وأَنا أُوقنُ أَنه سيهديني ويُخلصُنا منهم، ولا أَدري كيف يكون ذلك، فأنا ملتزمٌ بتنفيذِ ما يأمرني به سبحانه.

«إن معي ربي»:

والمعيةُ في قوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ معيةُ حفظٍ ورعايةٍ وتوفيقٍ وعناية، فربّي معي بعلْمِه وبصره، وبحفظِه وعنايتِه ورعايته. بدليلِ قولهِ بعدها: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فلأنَّه يحفظُني ويرعاني، فسوفَ يهديني ويُنقذني.

وليستْ هذه أَولَ مرة يوقِنُ فيها موسى بأنَّ اللَّهَ معه، فقد سبقَ أنْ عاشَ مظاهرَ معيةِ الله بتأييدِه ورعايته، في مواطنَ سابقةٍ من مواجهتِه لفرعون.

عاشَ مظاهرَ وآثارَ معيةِ الله لما دخلَ على فرعون، وبلَّغه الدعوة، وأَراهُ العصا واليد، فحفظَهُ اللّهُ ورعاه، وعصَمَه من بطش فرعون.

وعاشَ مظاهرَ وآثارَ معيةِ الله لما دخلَ في مباراةٍ مع السحرة، حيثُ نصره اللّهُ عليهم، وأظهرَ الحقَّ وأزهقَ الباطل.

بل عاشَ مظاهرَ حفْظِ الله ورعايتِه ومعيته قبلَ هذا، حيثُ تولاّه اللّهُ وهو رضيع، ومَكَّنَ له في قصر فرعون، وتولاّه وهو شابٌّ متوجّهٌ إِلى أرض مدين، حيث هيَّأَ له العملَ عند رجلٍ مدين الصالح.

إنّ حياةَ موسى عليه السلام كلُّها ترجمةٌ عمليةٌ لمعيةِ الله وحفظِه وعنايته ورعايته، لقد كانَ اللّهُ معه في كلِّ خطواته وساعاتِه، أدامَ عليه عنايتَه وتوفيقَه وتأييده.

والآن وهو واقفٌ بقومهِ على شاطئ البحر، وجيشُ فرعون خلفهم، يزدادُ موسى يقيناً بأنَّ اللّهَ معه، وسينقذُه من هذا المأزق.

لم يَخَفْ موسى ولم يَفْزَعْ لما شاهدَ فرعونَ وجيشَه، ولم يسيطرْ عليه القلقُ والاضطراب، ولم يفقدْ هدوءَه وطمأنينتَه. فواجهَ المشكلةَ بقوةِ الإيمان بالله، وحسنِ الظنِّ بالله، وعظمةِ التوكل على الله، وفاعليةِ اليقينِ بمعية الله.

وهذا ما يجبُ أنْ يوقنَ به ويعيشَه ويستحضرَه كلُّ داعية يواجهُ قوى الباطلِ والشر والطغيان، حتى لا يضعفَ أوْ يستكين، ولا يرهبَهم أَو يتخلى عن الحق خوفاً منهم.

إنها العقيدةُ الحيةُ الفاعلة المؤثرة، مَنْ كانَ معَ الله فإنَّ اللّهَ معه، ومَنْ نصرَ دِينَ الله فإن اللّهَ سينصره، ومَنْ تحدّى أعداءَ الله فإنَّ الله سيحميه. وهذا ما أَيقنَ به موسى عليه السلام!!

[٤]

آيات الله في الإنجاء والإهلاك

وقفَ بنو إِسرائيل على شاطئ البحر، لا يملكون وسيلةً مادية للنجاةِ من فرعون وجيشه، ولحقَ بهم الجيشُ الكثيف، ولما صاروا قريبين منهم صاحَ الإسرائيليون قائلين لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾. فردَّ عليهم موسى بلسانِ الهادئ الموقنِ الواثق: كلّا، إنّ معي ربي سيهدين.

وهنا أظهرَ اللّهُ آياتٍ عجيبةً له، نتجَ عنها نجاةُ المؤمنين وهلاكُ الكافرين، آياتٌ ربانيةٌ تدلُّ على أن اللّهَ مع أوليائه، يحفظُهم ويرعاهم، وأَنه ضد أَعدائه، يأخذُهم أَخْذَ عزيزٍ مقتدر.

أمرَ اللّهُ نبيَّه موسى عليه السلام أنْ يضربَ بعصاهُ البحر، لينفلقَ البحر، وتتكوَّن طريقٌ يابسةٌ ممهدة، يسلكُها بنو إسرائيل، ويعبرونَها إلى الأرضِ المقدسة.

وقبلَ عرضِ الآية الربانية الباهرة، نقررُ أنَّ مصادرَنا الإسلاميةَ لا تحددُ المكانَ الذي وقفَ عليه بنو إسرائيل، ولا نقطةَ «العبور» التي عبروا البحرَ منها.

العبور من مكان في خليج السويس:

ويبدو أنَّ العبورَ كان من «خليج السويس»، عَبَروا ضفتَه الغربية إلى ضفتِه الشرقية في سيناء.

وقد حاولَ بعضُ علماء الآثار المصريين تحديدَ الموضع بأنَّه بينَ رأسِ خليجِ السويس وبينَ البحيراتِ المُرَّة، ويُقررون أنَّ خليجَ السويس كانَ متصلاً اتصالاً مباشراً بالبحيراتِ المُرَّة في ذلك الزمان.

نقلَ عبدُ الوهابِ النجار في «قصص الأنبياء» عن كتاب «فرعون موسى: قصة الولادة والرسالة والخروج» لأحمد يوسف أحمد، المصوِّر بدارِ الآثار المصرية: «أما موضعُ العبور فلم يُعلمْ بالضبط. والتوراةُ توردُ أسماءَ أمكنةٍ مَرَّ بها بنو إسرائيل حتى أَتوا إلى مكان العبور، وهذه الأمكنةُ ليست مسمياتُها معروفةً اليوم.

والبحارةُ في البحرِ الأحمر يسمّون مكاناً خاصاً في خليج السويس «بركة فرعون»، ويقولون: إن العبورَ كان بها، وهي بعيدةٌ عن السويس كثيراً، تمرُّ بها السفنُ البخارية بعدَ نصفِ الليل إذا قامت من السويس في المساء، وإنّي لأَستبعدُ ذلك.

وأَعتقدُ أنَّ خليجَ السويس كانَ يمتدُّ في تلك الأزمان إلى البحيرةِ المُرَّة أو ما يقربُ منها. وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورُهم.

وبعبارةٍ أُخرى: عبروا شماليَّ المكانِ المعروف الآن «عيون موسى»، في البَرِّ الآسيوي، وهي لا تبعدُ عن السويس كثيراً.

وبين يدي أطلسٌ تاريخي للأستاذ محمد رفعت، وقد رسَمَ فيه طريقَ عبورِ بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة، ورسَمَ خطيْن يدلاّن على أنَّ خَليج السويسَ كان متصلاً بالبحيرة المرة..»[1].

نسجلُ هذا الكلامَ لعلماءِ الآثارِ المصريين، ونوردُهُ من بابِ الاستئناس، وليس من بابِ الجزمِ واليقين، فلا نملكُ الأدلةَ على تحديدِ نقطة العبور، ولا يضرُّنا الجهلُ بها، واللّهُ أعلم.

---

(١) قصص الأنبياء للنجار: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

معجزة انفلاق البحر:

أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يضربَ البحرَ بعصاه، عصاهُ المعروفةُ التي جعلَها اللّهُ آيةً من قبل، جعلَها حيةً تسعى. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

أَجرى اللّهُ آيتَه معجزتَه على يدِ موسى عليه السلام، وأَمَرَهُ أنْ يأخذَ بالأسباب، وأنْ يقومَ بحركةٍ بسيطةٍ منه، وهي أنْ يضربَ البحرَ بعصاه!

ونفَّذَ موسى أمْرَ الله، وضربَ بعصاهُ البحر، وكان الوقتُ صباحاً عند شروق الشمس، لأنَّ اللّهَ قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾. ونظرَ بنو إسرائيل إلى البحر أَمامهم، فإذا به يتأثرُ بضربةِ العصا، ويأمُرُهُ اللّهُ أنْ ينفلقَ فلقتين، واحدةً عن اليمينِ والأخرى عن الشمال، فينفذُ البحرُ أمْرَ الله، وينفلق. وينظرُ بنو إسرائيل إلى ماءِ البحر فإذا به صامدٌ صلبٌ جامد، غيرُ مائعٍ ولا منساب ولا متداخل ولا مستطرق. يقفُ الماءُ عن اليمين كالجبلِ العالي، ويقف عن الشمالِ كالجبل العالي أيضاً. وينظرونَ إلى الماء، ما الذي يحجزُهُ ويوقفُه؟ لماذا لا يستطرق ويتداخل؟ لا يوجد سَدٌّ ولا جدار!! إنه واقف هكذا، دونَ أنْ يحجزَه حاجز!! إنّ اللّهَ هو الذي يمسكُه بقدرته، ويحجزُه بأمره، ويمنعُه أنْ ينساب ويستطرق، لقد أمرَهُ اللّهُ بذلك، فنفذَ البحرُ أمْرَ الله، لأنه مستسلمٌ له، جنديٌّ من جنوده، وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هو.

إنَّ اللّهَ رتَّبَ سنناً كونية، تَحكمُ الكونَ وما فيه بأمرِ الله وإرادته، ولا يخرجُ عنها أيُّ شيء من مخلوقات هذا الكون، فالنارُ تحرق، والماءُ يُغرق، والسكينُ تَذبح، وإنَّ اللّهَ يوقِفُ أَحياناً بعضَ سننه الكونية، لتحقيقِ أمرِه وإرادته.

الفلق والفرق والموج كالطود العظيم:

جعلَ اللّهُ مياهَ البحارِ والأنهار متداخلةً منسابةً مستطرقة، لا

يحجزُها إلاّ سَدٌّ أو حاجز، وأَوقفَ اللّهُ هذا في ذلك اليوم المشرق، وأَمَرَ البحرَ أَنْ يتجاوبَ لضربة موسى، فوقفَ ماؤه على جانبي الطريق بدون سَدٍّ أَو حاجز.

وتعبيرُ القرآن عن انشقاقِ البحر بالفلق «فانفلق» مقصود، لأَنَّ الفلقَ هو فصلُ شيئين عن بعضِهما.

قالَ الإمامُ الراغب: «الفلق: شقُّ الشيء، وإِبَانةُ بعضِه عن بعض..»[1].

فالمرادُ بيانُ انفصالِ جزءَيِ البحرِ عن بعضهما انفصالاً حقيقياً مادياً مشاهداً، وابتعادِ أَحدهما عن الآخر، وكأَنَّ الجزءَيْن فلقتان حقيقيتان، كما تَفلقُ الحبةُ إِلى فلقتين، وتقسمُها إلى قسمين منفصلين!

وشبَّهَ القرآنُ كلَّ فلقةٍ من فلقتي البحر بالجبل: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

قال الإمامُ الراغب عن الفِرْق: «الفِرقُ يقاربُ الفلق. لكنَّ الفَلْقَ يُقال اعتباراً بالانشقاق، والفِرْقَ يُقال اعتباراً بالانفصال. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾. والفِرْق: القطعةُ المنفصلة، والفِرقة: الجماعةُ المتفردة من الناس..»[2].

فالفِرْقُ: القطعةُ المنفصلةُ عن غيرها. وجعلَ اللّهُ البحرَ فِرْقين، كلُّ فرق منفصلٌ عن الآخر.

وشبَّهَ القرآنُ كلَّ فرقٍ بالطودِ العظيم ولم يَرد الطودُ في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

والطَّوْدُ مشتقٌ من: «طاد». ومعنى طاد: استقرَّ وثبت.

---

(١) المفردات: ٦٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٦٣٢.

و«الطَّوْدُ» هو: الجبلُ العظيم، الذاهبُ صُعُداً في الجو. ويُشَبَّهُ به غيرُه، من كلِّ مرتفعٍ أو عظيم أو راسخ[1].

وتشبيهُ كلّ فرقٍ بالطودِ العظيم لوحظَ فيه استقرارُ ماء البحر وثباتُه وانفصالُه، وعدمُ تداخله وانسيابه، كما لوحظَ فيه ارتفاعُ ذلك الفِرقِ ارتفاعاً عالياً، يقدَّرُ بمئات الأقدام!

أمسكَ اللّهُ ماءَ البحر بقدرتِه وإرادته، وفَلَقَ البحرَ بأمره، وفَرَقَهُ فِرْقين عظيمين بمشيئته، وجعلَ بين الفِرقين طريقاً آمناً يَبَساً بحكمته، وذلكَ ليسلكَهُ أتباعُ موسى المؤمنون.

معجزة الطريق اليبس في قعر البحر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

لقد شقَّ اللّهُ طريقاً في قعرِ البحر، وجعلَه في لحظاتٍ آمناً ممهَّداً، يَبَساً جافاً، صالحاً للسير.

ولم تَرِد «يَبَساً» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وفَرَّقَ الإمامُ الراغبُ بين اليَبْس واليَبَس فقال: «اليَبْس: يابسُ النبات، وهو ما كان فيه رطوبةٌ فذهبت.

واليَبَس: المكانُ يكون فيه ماءٌ فيذهب. قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾[2].

وورَدَ في المعجم الوسيط: «اليَبَس: اليابس. يقال: أرضٌ يَبَس: صلبةٌ شديدة، ومكان يَبَس: كان فيه ماءٌ فذهب»[3].

---

(١) المعجم الوسيط ٢:٥٦٩.

(٢) المفردات: ٨٨٩.

(٣) المعجم الوسيط ٢:١٠٦٢.

وتجفيفُ قاعِ البحر من الماءِ والطين، وتحويلُه إِلى أَرضٍ «يَبَس» جافة، آيةٌ أُخرى مِن آيات الله، لأنَّ اللّهَ هو الذي أمرَ تربةَ قاعِ البحر أنْ تشربَ الماء، وأمَرَ الطينَ أنْ يجفَّ في لحظة، فتحولَ قاعُ البحر إِلى طريقٍ يَبَس!

وطمأنَ اللّهُ موسى على الطريقِ الجديد، فقال له: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

الدَّرَك ـ بالفتح ـ الغرق في الدَّرْك ـ بالسكون ـ:

والدَّرَكُ من الفعلِ الثلاثي «دَرَكَ»، وليس من الرباعي «أَدْرَك». فمعنى: أَدْرَكَ: لحقَ وبلغ. تقول: أَدركَ الرجلُ الآخر. إِذا لَحقه وبلَغَه ونالَه وأحاطَ به وقبضَ عليه، وهذا ما خشيه بنو إسرائيل لما شاهدوا جنودَ فرعون، حيث قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

مُدْرَكون: اسمُ مفعول من الرباعي «أدرك».

فطمأَنَهم موسى بأنهم لن يُدْركوا، ولن يحيطَ بهم فرعونُ وجنودُه، ولن يأخذوهم ويقبضوا عليهم.

أما «الدَّرَكُ» هنا: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ فهو اسمُ مصدر. ويُطلقُ على أسفلِ كلِّ شيء ذي عمق، كالبئر ونحوها.

ووردَ في القرآن كلمتان: الدَّرْك بالإسكان، والدَّرَك بالفتح.

أَما الأُولى فوردَتْ في سياقِ الإِخبار عن ما أَعَدَّ اللّهُ من عذابٍ للمنافقين في النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ومعنى الآية أنَّ المنافقين في قعْرِ جهنم الأسفل.

فالدَّرْكُ ـ بإسكان الراء ـ هو القعر.

أما الدَّرَك ـ بفتح الراء ـ فهو الوصولُ إلى الدَّرْك. تقول: دَرَكَ الرجلُ دَرَكاً: إذا وصل إلى الدَّرْك. ويُستعملُ هنا في الغرق[1].

فمعنى قول الله لموسى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ لا تخافُ غرقاً، فاسلكْ هذا الطريقَ اليبس، الممتدَّ في دَرْكِ البحر وقاعِه، وسطَ أمواجِ البحرِ الواقفةِ على جانبيك، ولا تخافُ انطباقَ الأمواج عليك، ولا تخافُ دَرَكَك تحتَ الماء، وغَرَقَك في قاعه، فسوفَ يحميكَ اللّهُ ويحفظُك، ويجعلك تجتازُ بقومك الطريق، ولن يطبقَ عليك فِرْقي البحر.

والخلاصةُ أنَّ الدَّرْكَ بإسكان الراء هو القعر، والدَّرَكَ بفتح الراء هو الغرقُ والوصولُ إلى القعر.

الله ينجي موسى وأتباعه:

أَمَرَ اللّهُ موسى أنْ يَعْبُرَ بأَتْباعِه المؤمنين الطريقَ الجديدَ في قاع البحر، فدخَلَه، ودخلَ بنو إسرائيل خلفه، وعَبروا الطريقَ الآمنَ اليَبَس. وأمسكَ اللّهُ لهم ماءَ البحر عن يمينِهم وشمالهم كالطودِ العظيم. وتأمُّلُ وتخيُّلُ هذا المشهدِ المصوَّرِ المعجزِ يزيدُ إيماناً بالله، وبقوَّتِه وإرادتِه وحكمته. فالقومُ يسيرونَ في طريقٍ يَبَسٍ آمن، في قاعِ البحر العَميق، والماءُ واقفٌ عن يمينهم وشمالهم، واقفٌ كالجبل العالي، لا يمسكُه سدٌّ ولا جدار ولا حاجز!! إنَّ هذا من فعلِ الله سبحانه.

سارَ موسى بالمؤمنين في الطريقِ اليَبَس، آمنين مطمئنين شاكرين لله، وكان فرعونُ وجنودُه ينظرونَ إليهم، في هذا المشهد العجيب المثير. وعجبَ القومُ ودُهشوا، واعتبروا الأَمْرَ سحراً من موسى عليه السلام، فهل بلغَ من سحْرِه أنْ يشقَّ طريقاً يَبَساً في قاعِ البحر؟ وهلْ بلغَ من سحره أنْ يوقفَ أمواجَ البحر كالجبال؟ وما دَرى المغفلون أنَّ الأَمْرَ أمرُ الله، وأنها آيةٌ عظيمةٌ من آيات الله!

---

(١) المعجم الوسيط ١: ٢٨١.

ويقرب فرعون وجنوده من الشاطئ:

وأَرادَ اللّهُ أنْ يدخلَ فرعونُ وجنودُه البحرَ ليغرقَهم. قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٤].

والمرادُ بالآخرين هنا فرعونُ وجنودُه، الذين وقفوا بعيدين قليلاً عن شاطئِ البحر، يَرقبون المنظر.

ومعنى «أزلفنا»: قَرَّبْنا وقَدَّمنا[1].

و«ثَمَّ» بفتح الثاء: اسمُ إِشارة بمعنى: هناك.

وقد فرَّقَ التعبيرُ القرآنيُّ بين «ثُمَّ» بضم الثاء، و«ثَمَّ» بفتح الثاء.

«ثُمَّ» بضم الثاء: حرفُ عطف، يدلُّ على الترتيب مع التراخي.

أما «ثَمَّ» بفتح الثاء: فهو اسمُ إِشارة بمعنى: هناك.

فمعنى قوله: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: قَرَّبْنا وأَدْنَينا فرعونَ وجنودَه من البحر، وأَوْقَفْناهم هناك، قريباً من البحر، تمهيداً للخطوةِ التالية.

عَبَرَ موسى وأَصحابُه جميعاً البحر، ومَشوا في الطريقِ اليَبَس، ووصلوا جميعاً إِلى البرِّ الشرقي في سيناء: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الشعراء: ٦٥].

أَنجى اللّهُ موسى ومَن معه، مِن فرعون وجنوده، أَنجاهم من القتلِ والتعذيب على أَيديهم. كما أَنجاهم من الغرقِ في مياه البحر، وأَنجاهم من انقلابِ الماءِ عليهم وهم يسيرونَ في الطريقِ اليَبَس، وأَنجاهم مِن أن يكونوا طعاماً للسمك.

ولَمّا وَجدوا أَنفسهم على الشاطئِ الآخر ناجين حمدوا الله وشكروه على هذه النعمةِ الغامرة.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١:٣٩٧.

ويأمر موسى أن يترك البحر رهواً:

ونظرَ موسى عليه السلام خلْفَه، فرأى الطريقَ اليبس ما زالَ مفتوحاً، ورأى الماءَ على الجانبين ما زال واقفاً، ورأى فرعونَ وجنودَه واقفين على الشاطئ الغربي، ينظرونَ إلى الطريق، ويهمّون بالدخولِ فيه للحاقِ ببني إسرائيل.

وخشيَ موسى عليه السلام أنْ يدخلَ فرعونُ وجنودُه البحر، وأنْ يَلحقوا بهم، وأرادَ إغلاقَ الطريق أمامَهم، وذلك بأنْ يضربَ البحرَ بعصاه، ليعودَ كما كان!!

ولكنَّ اللّهَ نهاهُ عن ذلك، وأمره أنْ يتركَ البحرَ كما هو، وأنْ يتركَ الطريقَ مفتوحاً، فللّهِ حكمةٌ من ذلك، إنَّ اللّهَ يريدُ أنْ يدخلَ فرعونُ وجنودُه البحر، ويُغريهم بسلوكِ الطريق، ليغرقَهم ويهلكَهم!

قال تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

ولم تَرِدْ كلمةُ «رَهْواً» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

قال الإمامُ الراغب: «رَهْواً: ساكناً. وقيل: سَعَةٌ من الطريق، وهو الصحيح. ويُطلَقُ الرَّهاءُ على الصحراءِ المستوية. ويُقالُ لكلِّ حفرةٍ مستوية يجتمعُ فيها الماءُ رَهْو..»[١].

ووردَ في المعجم الوسيط عن «الرَّهْو»، أَنه يستعملُ في السكون، يقال: رَها البحر رَهْواً. إذا سكن.

والرَّهْو: الساكن. يقال: مَطَرٌ رَهْو، وبَحْر رَهْو.

والرَّهو: هو المكانُ المنخفضُ يجتمعُ فيه الماء[٢].

وقالَ الإمامُ ابنُ كثير في تفسيرِ الآية: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾: وذلك أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوزَ هو وبنو

(١) المفردات: ٣٦٨.

(٢) انظر المعجم الوسيط ١: ٣٧٩.

إسرائيل البحرَ أَرادَ موسى أنْ يضربَه بعصاه، حتى يعودَ كما كان، ليصيرَ حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصلُ إِليهم، فأَمره اللّهُ أنْ يتركَه على حالِه ساكناً، وبشَّره بأنهم جندٌ مغرقون، وأنه لا يخافُ دَرَكاً ولا يخشى.

قال ابنُ عباس: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾: اترك البحرَ على هيئته.

وقال مجاهد: ﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يَبَساً كهيئته، لا تأمره يرجع كما كان، اتركه حتى يدخلَ آخرهم.

وهذا هو قولُ عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب[١].

والخلاصةُ أنّ موسى عليه السلام أرادَ إِغلاقَ البحر بضربه بعصاه فنهاه الله عن ذلك، وأَمره أنْ يتركَ البحرَ كما هو، وأن يُبقي الطريقَ مفتوحةً وسطه، وأنْ يُبقي الماءَ ساكناً ثابتاً كالجبل. وذلك ليتشجعَ فرعونُ وجنودُه، ويَدخلوا ذلك الطريق، حيث سيغرقُهم الله.

وهذا يدلُّ على أنَّ الله هو الذي يُقَدِّرُ الأحداثَ ويُرتبها، ويختارُ لبني إسرائيل المؤمنين الأصلحَ لهم، وأنَّ الخيرةَ فيما يختارُه لهم، وأنَّ ما يختارُه لهم خيرٌ مما يختارونه هم لأنفسهم.

فموسى عليه السلام خشيَ أنْ يلحقَ بهم فرعونُ وجنودُه، فأَرادَ إِغلاقَ البحر، ولكنَّ اللّهَ أَرادَ أنْ يهلكَ فرعونَ وجنودَه، فأبقى البحرَ مفتوحاً، ليغريهم بالدخول.

وإنَّ اللّهَ عليمٌ حكيم خبير في كلِّ ما يقدرُه ويريدُه سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ١٤٣.

الله يطبق على فرعون وجنوده البحر:

ومكرَ اللّهُ بفرعون وجنوده، وتمَّ ما أراده لهم، فلما شاهدوا الطريق يبساً سالكاً مأموناً، ولما شاهدوا بني إسرائيل قد عبروه آمنين، أيقنوا أنهم سيعبرونه أيضاً.

ولهذا أصدرَ فرعونُ أمره لجنوده بالدخول للّحاقِ ببني إسرائيل، فنفَّذوا أمْرَه ودخلوا الطريق، ودخلَ فرعونُ معهم..

ولما كانوا وسطَ الطريق، يسيرونَ في قاع البحر، والماءُ عن يمينِهم وشمالهم واقفاً كالطودِ العظيم، أَمَرَ اللّهُ الماءَ أنْ ينطبقَ عليهم، وأنْ يتحدَ جزءاه على جانبي الطريق، فنفَّذَ الماءُ أمْرَ الله.. وما هي إلا لحظةٌ حتى كان فرعونُ وجنودُه جميعاً تحت الماء غرقى، كانوا على عمقِ عشراتِ الأقدام تحت الماء، فهلكوا جميعاً.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن مشهدَ غرقهم العجيبِ المثير، بينما كانَ بنو إسرائيل يَنظرون مُعجبين مَبهورين، شاكرين لله.

قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٤٠].

تخبرُ هذه الآياتُ أنَّ فرعونَ كَذَّبَ موسى، واتَّهمه بالسحر والجنون، واعتزَّ بركنِه وأصحابِه وجنودِه وأعوانه، واعتمدَ على سلطانه، فحقَّتْ عليه وعلى جنودِه كلمةُ الله، حيثُ أوقعَ بهم عذابَه، وألقاهم في البحر، وأغرقَهم في مياهه، وكان كلٌّ منهم مُليماً مَلوماً كافراً جاحداً معانداً، يستحقُّ هذه العقوبةَ التي أوقعها اللّهُ عليه.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: ٣٩ ـ ٤٠].

تسجلُ الآياتُ على فرعونَ وجنودِه استكبارَهم في الأرض، وكفرَهم بالله، وإنكارَهم البعث، وتُرتبُ على هذه الجرائم عقوبتَهم الشديدة، وهي إلقاؤهم في اليم.

وتَدعو كلَّ مؤمنٍ ذي بصيرة إلى أَنْ يعتبرَ ويَتعظ، ويَنظرَ كيف كان عاقبةُ الظالمين، ليتخلّى عن الظلم، وليرى مصارعَ الظالمين على اختلافِ الزمان والمكان.

وقال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٨ ـ ٧٩].

أَتبعَ فرعونُ بني إِسرائيلَ بجنوده بغياً وعدواناً، فأَغرقه اللّهُ مع جنوده في البحر، وغشيهم من اليمِّ ما غشيهم.

و«ما» في جملةِ ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ للتهويلِ والتضخيم. وتُشيرُ إِلى مشهدِ مياه البحر وأَمواجِه العالية وهي تغشى فرعونَ وجنودَه، وتلفُّهم داخلَها.

وتشيرُ الآياتُ إِلى عاقبةِ قيادةِ فرعون لجنوده، وأَنه أَضلَّهم وأَهلكهم، ودمَّرهم وما هداهم!!

أغرقهم الله بعد ما آسفوه وأغضبوه:

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

يُخبرُ اللّهُ في هذه الآياتِ أَنه أَغرقَ فرعونَ وجنودَه بعدَ أَنْ آسَفوه سبحانه.

قال ابنُ عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أَسْخطونا.

وقالَ ابنُ عباس في روايةٍ أُخرى له ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا[1].

وللإمامِ الراغب كلامٌ طيبٌ في معنى الأَسَف بشكلٍ عام، وفي معناهُ بشكلٍ خاص في هذه الآية. قال: «الأَسَف: الحزنُ والغضبُ معاً. وقد يُطلَقُ على كلٍ واحدٍ منهما على انفراد.

وحقيقةُ الأَسَف: ثورانُ دَمِ القلبِ شهوةَ الانتقام. فمتى كانَ ذلك على مَنْ دونَه، انتشرَ فصارَ غضَباً. ومتى كان على مَنْ فوقَه، انقبضَ فصارَ حزناً.

ولذلك سئلَ ابنُ عباس عن الحُزن والغضب، فقال: مَخرجُهما واحد واللفظُ مختلف. فمن نازعَ مَنْ يقوى عليه، أظهرَه غيظاً وغَضَباً، ومَنْ نازعَ مَنْ لا يقوى عليه، أظهره حزناً وجزعاً.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أغضبونا.

قالَ أبو عبدِ الله علي الرضا بن موسى الكاظم: إنَّ اللّهَ لا يأسَفُ كأسفنا، ولكنْ له أَولياء، يأْسَفون ويرضون، فجعَلَ رضاهم رِضاه، وغضَبَهم غضبه..»[2].

لقد أَغضبَ فرعونُ وجنودُه ربَّ العالمين بكفرهم وضلالهم، كما أَغضبوا موسى عليه السلام والمؤمنين، وهم أَولياءُ اللّهِ وأحبابه، واستحقوا بذلك العقاب، حيثُ أوقعَ بهم اللّهُ عذابَه وانتقامَه، وأَغرقهم في البحر، وجعلَهم عبرةً لمن يعتبر.

ومعنى ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾: جعلناهم عبرةً متقدمةً لمن يأتون بعدهم من المتأَخرين، حيث يعرفُ الآخَرون اللاحقون ما أَوقعَ اللّهُ بهؤلاء السلف السيئين من العقاب، فيعتبرون ويتعظون.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ١٣٢.

(٢) المفردات: ٧٥.

آيات في غرق فرعون وجنوده:

وأَشارت الآياتُ التي تحدثَتْ عن غرقِ فرعون وجنوده إلى ذهابهم من الوجودِ غيرَ مأسوفٍ عليهم، وإلى نعمةِ الله على بني إسرائيل في ذلك، ليشكروا اللّهَ على هذه النعمة.

قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦ ـ ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وبينما مَرَّت الآياتُ العديدةُ في السورِ المختلفة مروراً سريعاً على مشهدِ غرقِ جنود فرعون، فقد توقفَتْ قليلاً في حديثها عن غرقِ وموتِ فرعون نفسه.

فعرضَتْ لنا ثلاث آيات من سورة يونس مشهدَ غرقِ فرعون، وصورتْ لنا اللحظاتِ الأخيرة من حياته، وسجلتْ لنا من آياتِ الله العجيبة في ذلك.

قال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

تخبرُ هذه الآياتُ أنَّ اللّهَ هو الذي جاوزَ ببني إسرائيل البحر: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾.

يُقال: جازَ فلان الطريق: إذا قطعَه وسارَ فيه.

ويقال: جاوزَ فلانٌ بآخر الطريق: إذا قادَه حتى يقطعَ الطريق[١].

والجَوازُ ـ قطْعُ البحر ـ في الآية مُسندٌ إلى الله، وهو إسنادٌ له دلالتُه، فالله هو الذي شقَّ لبني إسرائيل البحر بقدرتِه وقوته، واللّهُ هو الذي جعلَ لهم الطريقَ اليَبَس فيه، ودَعاهم للسيرِ فيه، ولهذا هو سبحانه الذي قادَهم حتى قطعوه، وجاوزَ بهم حتى اجتازوه.

وقد أَتبعَ فرعونُ وجنودُه بني إسرائيل ولحقوا بهم، وكانَ إتْباعهم لهم بغياً وظلماً وعدواناً، أي أنهم كانوا باغين معتدين ظالمين في لحاقِهم بهم، يريدونَ إهلاكَهم وقتْلَهم، ولذلك أَغرقهم الله!

أَطبقَ اللّهُ على فرعونَ وجنودِه البحر، فهلكَ جنودُه وماتوا غرقاً، وذهبوا إلى عذابِ الله.

فرعون يعلن إيمانه لما أدركه الغرق:

أما فرعونُ فإنه كانَ تحتَ الماء، وقبلَ أنْ يموتَ أَعلنَ إيمانه،

(١) انظر المعجم الوسيط ١:١٤٦.

وهو إيمانُ «المضطر» الذي لا يُقبلُ مِنْ صاحبه. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

ومعنى «أدركه الغرق»: لحقَه الغرقُ ونالَه وبلَغَه وأحاطَ به.

أي: غمره موجُ البحر، وأَحاطَ به الغَرَق، وأَيقنَ فرعونُ أنه لا نجاةَ له من هذا الغرق، وأَنه لا محالةَ ميت.

في هذه اللحظةِ السريعةِ القصيرة عرفَ فرعونُ أَنه زال عنه كلُّ مظاهرِ القوة والجاه والسلطان، والادعاءِ والانتفاشِ والغطرسة، وها هو الآن يواجِهُ مصيرَه ونهايتَه، وحيداً عاجزاً ضعيفاً!!

ولعلَّه مَرَّ به شريطٌ سريع لما كان يتنعمُ ويتقلَّبُ فيه من قبل، ولعلَّه تذكَّرَ ما كان يقولُه لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

فأينَ ادعاؤه الأُلوهيةَ والربوبية؟ وأَينَ عبادةُ قومِه له؟ وأينَ قولُه لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؟

أينَ ملكُه لمصر الآن؟ وما نفْعُ ملكهِ السابق لمصر في هذه اللحظة التي يصارعُ فيها الموت؟ لقد كانت الأنهارُ تَجري مِن تحته، وهو مزهُوٌّ منتفش، والآن ها هي المياهُ تجري من فوقه ومن جانبيه ومن تحته!!.

لعلَّ هذه المعاني والمناظر مَرَّتْ بخاطِر وخيالِ فرعون للحظات، وهو يصارعُ الموت، فزالت الغشاوةُ عن عينيه، تلك الغشاوةُ التي نتجتْ عن «فرعنتِه» وحُكمِه وسلطانِه، فلما زالَ ذلك عنه عرفَ نفسه على ضعْفِها وعجزِها، واستيقظتْ فطرتُه لحظة، لكن كان زوالُ الغشاوة متأخراً، وكان استيقاظُ فطرتِه متأخراً.

الآنَ عرفَ أنه لا إله إلا الله، وأيقنَ أنه ليس إلهاً، ولهذا أعلنَ إيمانه بالله، وإسلامَه له: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

لقد شاهدَ الآيةَ الربانية التي قدَّمَها اللّهُ لبني إسرائيلِ، تكريماً لهم، وعرفَ قوةَ الله البالغة، الدالةَ على تفردِه سبحانه بالألوهية والربوبية، وعرفَ فضلَ بني إسرائيل في إيمانهم بالله، الذي أوصلَهم إلى النجاة والفوز.

ولذلكَ أعلنَ إيمانَه بالله، طمعاً في أنْ يَكتبَ له النجاةَ من الغرق كما أَنجى أَولياءَه المؤمنين!

وقولُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إعلانٌ آخر عن تخلّيه عن فرعنتِه وتكبُّرِه واستعلائِه، وعودتِه إلى التواضع، وقَبولِه أنْ يكونَ واحداً من المسلمين، المستسلمين لله، الخاضعين له! لكن متى جاءَ تخلّيه عن استكبارِه وقَبولُه التواضع؟ جاءَ في وقتِ الاحتضارِ حيث لا يُقبلُ منه ذلك!!

سخرية الملَك بقوله له: آلآن !:

لما أَعلنَ فرعونُ من تحت الماءِ إيمانَه وإسلامَه، ردَّ عليه المَلَك قائلاً: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وهذه الجملةُ سخريةٌ بفرعون، وتأنيبٌ له، وإخبارُه أنَّ إسلامَه وإيمانَه جاءَ متأخراً، فأينَ كان قبلَ ذلك؟ ولماذا لَمْ يؤمنْ من قبل، في وقتِ الاختيارِ والقناعة والتفكير.

كلمةُ «آلآن» من همزةِ الاستفهام و«الآن»، أَصْلُها: «أَألآن»، وهذا الاستفهامُ إنكاري، ينكرُ عليه المَلَكُ تأخُّرَه في الإسلام والإيمان.

والمدُّ في الكلمة يُسميه علماءُ الترتيل «مَدّاً لازماً كَلِمِيّاً مُخَفَّفاً»، بمعنى أَنه يجبُ أنْ يُمَدَّ ستَ حركات وجوباً. وهذا المَدُّ المطوَّلُ يوحي بمزيدٍ من الإنكارِ والسخرية والتأنيب.

وقد كَذَّبَ المَلَكُ فرعونَ في إعلانِ إسلامِه وإيمانه، وسَجَّلَ عليه إفسادَه وعصيانَه، وبغيَه وكفره. أي: لقد أمضيتَ عمرك في العصيانِ والفساد والإفسادِ والظلم والبغي، ورأيتَ كثيراً من الآياتِ والأدلةِ على الحق والإيمان فلم تقبلْها، ودعاكَ الداعون، ونصحكَ الناصحون، فلم تستجبْ ولم تنتصح، وغَرَّكَ ملكُك وسلطانُك، وخدَعَك مَنْ ألّهوك وعَبَدوك وتابعوك على كل شيء.

والآن، وبعد عشراتِ السنين التي قضيتَها على هذه الحالة، وعندما حانَ أجلُك، وصِرْتَ تصارعُ الموت، ولم يَبْقَ من عمرك إلاّ لحظة، الآن جئتَ تعلنُ إسلامَك وإيمانَك! فأين كنتَ من قبل؟!

جثة فرعون على الشاطئ آية ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾:

وقُبيلَ خروج روحه قالَ له: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ومعناها: أنك ستموتُ الآن، تموتُ كافراً عاصياً مفسداً، وبعدما تموتُ لن تستقرَّ في قعر البحر، ولن تكون طعاماً للأسماك، وإنما سننجيك ببدنك، ونأمُرُ أَمواجَ البحر أنْ تلقيكَ على شاطئ البحر، جثةً هامدة، لتكونَ لمن خلْفَك آية، حيثُ سيراك قومُك ميتاً غرقاً على هذه الصورةِ القبيحة الشنيعة، فتكون آيةً وعبرةً وعظةً لهم.

وهكذا انتهتْ حياةُ فرعونَ المستبدِّ الطاغيةَ المتألّه، غريقاً في البحر، وخرجَتْ روحُه من جسده وهو تحتَ الماء، وقبضَ اللّهُ أرواحَ آلِه وجنودِه الغرقى مِن حوله، ولم ينفعْه علوُّه في الأرض، ولم ينصُرْه قومُه وملؤُه، ولم يَدفعْ عنه أحدٌ عذابَ الله.

وكان موتُه غريقاً دلالةَ على ضعفِه وعجزه، وكذِبه في ادعائِه الألوهيةَ والربوبية.

وبعدَ خروجِ روحِه من بدنه، وتحويلِه إلى جثةٍ هامدة، أَنجاهُ اللّهُ

ببدنه، وألقاهُ على شاطئ البحر، وجعلَه للناس آية، يشاهدونَها ويتذكَّرونها.

وكانَ إنجاءُ بدنِ فرعون بعد موته آيةً من آيات الله، فاللّهُ أمرَ ماءَ البحر أنْ لا يسحبَ فرعونَ إلى قعرِ البحر، فنفذَ الماءُ الأمر. واللّهُ أَمَرَ الأسماكَ أنْ لا تأكلَ جثته، فنفذت الأسماكُ الأمر. واللّهُ أَمَرَ الموجَ أنْ يُلقي الجثةَ على الشاطئ، فنفذَ الموجُ الأمر.

وكانَ الماءُ والسمكُ والموجُ جنوداً من جنود الله، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو.

ولْنتصورْ منظرَ جثةِ فرعون ملقاةً على الشاطئ، يمرُّ بها قومُه معجبين مندهشين.

لقد كان قبلَ ساعاتٍ في ذروةِ فرعنتِه واستعلائه وتألُّهه، وكان القومُ مؤلِّهين عابدين له، يعتبرونه ربَّهم وإلههم.

والآن ها هو ميتٌ غريق، وها هم ينظرونَ إليه.

ونعلمُ أنَّ الإنسانَ عندما يموتُ غرقاً تتغيرُ ملامحُ جسمِه ومعالمُ وجهه، حيثُ ينتفخُ بطْنُه ووجْهُه، ويزرقُّ جلدُه، ويكون منظره عجباً.

يمرُّ القومُ بفرعون وهو على هذه الصورةِ البشعةِ القبيحة، فيقول قائلهم: هل هذا إله؟ وهو بهذه الصورة؟ هل هكذا تكونُ نهايةُ الإله؟ إنها لا تليقُ بالإنسان؟!

ولذلك جعلَ اللّهُ نجاةَ بدنه آيةً لمن خلْفَه من قومِه وأَتْباعِه الذين عاصروه.

جعلَ اللّهُ جثتَه آيةً لقومه، وهذه الآيةُ لهم في عدةِ جوانب:

الأول: آيةٌ على أنه ليس رباً ولا إلهاً، كما ادّعى وزعم، فلو كان إلهاً لما مات، وعلى هذه الصورةِ البشعة.

الثاني: آيةٌ على أنه لا إِله إلا الله، فاللّهُ وحده هو الإلهُ الواحد، وكلُّ مَن ادّعى الألوهية فهو كاذبٌ مفتر.

الثالث: آيةٌ على قوةِ الله وقدرته، وأخْذِه وبطْشِه وانتقامِه سبحانه، حيث أوقعَ عذابَه بفرعون. وهو آيةٌ على عجزِ فرعون وضعفِه وذلّه وهوانِه.

الرابع: آيةٌ على صدقِ نبوةِ موسى عليه السلام، وعلى فضْلِ بني إِسرائيل المؤمنين، حيث أَنجاهم الله، وأَيّدهم بالآيات، وأَهلكَ أَعداءَهم، وقضى على فرعون.

تحنيط جثة فرعون ودفنها:

ماذا حصلَ لفرعون بعد غرقِه وإِلقاءِ جثته على الشاطئ؟

أَخَذَ قومُه جثَّتَه، وحَنّطوها، ووضعوها في مدافنِ الأسرةِ الفرعونية، بجانبِ جثثِ الملوك الفراعنة الذين ماتوا قبلَه.

وكان المصريون في العهدِ الفرعوني يُتقنون فَنَّ التحنيط.

والتحنيطُ «عندَ قدماء المصريين هو: حفظُ هيكلِ جسمِ الميت، بتخليصِه من الموادِّ الرخوةِ من جلدٍ وغشاء، وتطهيرِ جوفِه بمواد خاصة»[1].

وهو مهارةٌ متقدمة تسجَّلُ للمصريين زمن الفراعنة، في ذلك الزمنِ السحيق، حيث كان يجهلُ التحنيطَ الأقوامُ الذي عاصروهم والذين جاءوا بعْدَهم.

وقد حفظوا جثثَ ملوكِهم وفراعنتِهم المحنَّطةِ في الأهرامات المعروفة، وفي المقابر الملكية، وبقيتْ تلك الجثثُ موجودةً حتى عثرَ عليها علماءُ الآثار، في نهايةِ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

---

(١) المعجم الوسيط ١:٢٠٢.

وكان من تلكَ الجثثِ التي عَثروا عليها جثةَ هذا الفرعون، الذي قالَ اللّهُ له قبلَ أنْ يموت غرقاً: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

وكان من أَبعادِ هذه الجملةِ القرآنيةِ المعجزة أنَّ اللّهَ لم يُنْجِ جثتَه لمعاصريه فقط، ولم تكن جثتُه آيةً لمعاصريه فقط، وإنما أَنجى اللّهُ جثتَه من الفَناء، وبقيت محفوظةً في مدافنِ الملوك عشَرات القرون، حتى رآها الناسُ في عصرنا، وصارَ حفظُ جثتِه هذه المدةَ الطويلة آيةً للناس في عصرنا.

مع موريس بوكاي في اكتشاف جثة فرعون:

ونقدمُ هذه القصةَ المعاصرةَ لاكتشافِ جثةِ فرعون، كما يَرويها الدكتورُ المهتدي موريس بوكاي، في كتابه: «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة». ونوردُها من باب «الاستئناس»، وليس من بابِ الجزمِ والقطع.

ينقلُ موريس بوكاي عن المؤرخين وعلماءِ الآثار أنَّ موسى عليه السلام عاصر فرعونيْن:

الأول: أَطلقوا عليه لقبْ «فرعون الاضطهاد»، وهو الذي قامَ باضطهادِ بني إسرائيل، وهو الذي وُلِدَ موسى عليه السلام في عهده. وهذا الفرعونُ هو «رمسيس الثاني»، وهو أَشهرُ فراعنةِ الأسرةِ الفرعونية التاسعة عشرة، وبنى مدينتيْن فرعونيتيْن مصريتيْن كبيرتيْن، هما: «فيثوم» الواقعةُ في منطقة «تل المسخوطة» في محافظة الشرقية. و«رمسيس» الواقعة في حدود بلدة «قنطير» الآن. وبنى رمسيسُ المدينةَ الثانية التي سماها باسمه، وجعلَها عاصمةً له. واستخدمَ بني إِسرائيل في بناء المدينتين، سخرةً وذلاً واستعباداً[1].

---

(١) انظر «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار: ٢٠٢.

وذهبَ المؤرخون إلى أنَّ «رمسيس الثاني» حكمَ لمدةِ سبعٍ وستين سنة، من ١٣٠١ إلى ١٢٣٥ قبلَ الميلاد. ولما ماتَ رمسيسُ موتاً طبيعياً أثناءَ إقامةِ موسى عليه السلام في مدين، حنَّطَ الفراعنةُ جثَّتَه، ودَفنوها في المقابرِ الملكية.

الثاني: أطلقوا عليه لقبَ «فرعون الخروج»، وهو الذي خرجَ موسى عليه السلام ببني إسرائيل في عهده، وهو الذي لحقَ بهم بجنودِه، فأغرَقَه الله وألقى جثتَه على الشاطئ.

وهذا الفرعونُ هو «منبتاح» ابن رمسيس الثاني، وقد دامَ حكمُه عشرَ سنوات. من ١٢٣٥ إلى ١٢٢٥ قبل الميلاد: «ولا يَعرفُ علماءُ الآثارِ المصرية شيئاً محدَّداً عن نهايةِ حكم منبتاح، وكلُّ ما يُعرفُ هو أنَّ مصرَ قد مَرَّتْ بعده بأزمةٍ داخليةٍ شديدةِ الخطورة، دامتْ ما يقربُ من ربع قرن»[1].

وبعدَ أنْ أوردَ المهتدي موريس بوكاي آياتِ سورةِ يونس التي أَوردناها، والتي تتحدثُ عن نجاةِ جثة فرعون، قال: «إنَّ النصَّ القرآنيَّ يقولُ ببساطةٍ وبشكلٍ واضح تماماً: إنَّ جسدَ فرعون قد أُنقذ.

وفي العصرِ الذي وصلَ فيه القرآنُ للناس عن طريقِ محمد ﷺ، كانتْ جثثُ كلِّ الفراعنة ـ الذين شكَّ الناسُ في العصرِ الحديث صواباً أو خطأً أنَّ لهم علاقةً بالخروج ـ كانت مدفونةً بمقابرِ وادي الملوك بطيبة، على الضفةِ الأُخرى للنيل، أَمام مدينةِ الأقصرِ الحالية.

في عصرِ محمد ﷺ كان كلُّ شيء مجهولاً عن هذا الأمر، ولم تُكتشفْ هذه الجثثُ إلا في نهايةِ القرنِ التاسع عشر. وكما يقولُ القرآن فقد أُنقذَ بدنُ هذا الفرعون.

---

(١) انظر: دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، لموريس بوكاي: ٢٦١ ـ ٢٦٤.

اكتشاف جثة فرعون سنة ١٨٩٨م:

في سنة ١٨٩٨م بوادي الملوكِ بطيبة اكتشفَ «الوريت» مومياءَ منبتاح بن رمسيس الثاني. وكلُّ شيء يسمحُ بالاعتقادِ بأنه فرعونُ الخروجِ. ومِن هناك نُقلت المومياءُ إلى القاهرة، ورفعَ «إليوت سميث» عنها أربطتَها في ٨ يوليو ١٩٠٧م.

... ومنذُ ذلك التاريخ والمومياءُ معروضةٌ للزوار بمتحفِ القاهرة، مكشوفةَ الرأس والرقبة، أما بقيةُ الجسم فهو مغطى بقطعةٍ من القماش.

... وفي يونيو ١٩٧٥م سَمحتْ لي السلطاتُ المصرية العليا بدراسةِ أجزاءِ جسم فرعون، التي كانتْ مغطاةً حتى ذلك الوقت، كما سمحتْ لي بأخْذِ بعضِ الصور.

وعندما أقمت المقارنةُ بين حالةِ المومياء الحالية، وما كانتْ عليه منذُ أكثرَ من ستين عاماً اتضحَ جليّاً أنَّ حالةَ المومياء قد تدهورت، وأنَّ هناكَ أجزاءً منها قد اختفت. فقد عانت الأنسجةُ المحنطةُ الكثيرَ على أيدي البشر بالنسبةِ لبعض الأجزاء، وبسببِ آفةِ الزمن بالنسبة لأجزاء أخرى..

... وفي أثناءِ فحص المومياء في يونيو ١٩٧٥م بدأتْ ـ بمبادرتي ـ دراساتٌ خاصة. فقد قامَ الطبيبان المليجي ورمسيس بدراسةٍ طبيةٍ بالأشعةِ السينية، على حين قامَ الدكتور مصطفى المنيلاوي ـ بفضلِ ثغرةٍ في جدار القفص الصدري ـ بدراسةِ جوفِ القفص الصدري والبطن، وقد حققَ بذلك أولَ دراسةٍ بالمنظارِ الداخلي على مومياء. وقد سمحَ هذا برؤيةٍ وتصويرِ بعضِ التفاصيل الهامة جداً داخلَ الجسم نفسه.

... إنَّ ربطَ كلِّ هذه الآفات بالتدهورات التي تحدثنا عن أسبابها، تجعلُ عسيراً الاحتفاظَ جيداً في المستقبل بهذا الجسمِ

المحنَّط، ما لم تُتخذْ إجراءاتُ الإنقاذِ اللازمةِ في مستقبلٍ قريبٍ جداً، وسيكون من شأن هذه الإجراءات أنها ستجنبنا فقدانَ الشاهدِ الماديِّ الوحيد الباقي حتى يومنا هذا... الشاهدِ على موتِ فرعون الخروج، وعلى النجاة التي أرادَها اللّهُ لجسده..

.. إنها شهادةٌ ماديةٌ في جَسَدٍ محنَّط على مَنْ عرفَ موسى وعارضَ طلباته، وطاردَه في خروجه، وماتَ في أثناءِ هذه المطاردة.. وأنقذَ اللّهُ جثتَه من الهلاك التام، ليصبحَ آيةً للناس، كما هو مكتوبٌ في القرآن...»[1].

هذا ما سجَّلَه الدكتورُ موريس بوكاي عن مشاهدته لجثة «مومياء» فرعون، نوردُه من باب الاستئناس، ونقول: لعلَّ هذه الجثة التي اكتشفتْ هي جثةُ فرعون، الذي قالَ اللّهُ له قبل خروج روحه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

توسيع مفهوم إنجاء بدن فرعون:

وبهذا نعممُ مفهومَ الإنجاءِ ببدنه، ومفهومَ الآية، ومفهومَ الذين خلفه.

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: فلم نتركْهُ يغوص في قعر البحر، ولم نتركْه طعاماً للأسماك، وإنما أَلقيناهُ على الشاطئ.

و﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيثُ أَلهمنا قومَك تحنيطَه وإزالةَ ما يسرعُ إليه الفناءُ منه، ودفْنَه في مقابرَ خاصة محفوظة.

و﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيثُ أبقيناه محفوظاً آلافَ السنين، لم تصلْه عواملُ الفناء والذوبان والتلاشي، ولم تمتدّ إليه يدُ اللصوص.

و﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيثُ أَلهمنا علماءَ الآثار اكتشافَ بدنك

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٩ ـ ٢٧١ باختصار.

المحنَّط في نهاية القرن التاسع عشر، ووضْعَه في متحفِ الآثار ليراه الناس.

وبهذا المفهومِ الواسعِ للإنجاءِ يكون قوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ عاماً أيضاً:

﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: قومُك معاصروك الذين كانوا يؤلِّهونك، عندما يشاهدونَ بدنَك.

و﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: بنو إسرائيل معاصروك، الذين شاهدوا مصْرَعَك، فزادوا شكراً لله.

و﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: الناسُ القادمون بعدَ آلاف السنين من مصرعك الذين سيشاهدون جثتَك المحنطة المحفوظة.

وهذا يقودُنا إلى ملاحظةِ المجالِ العريض الواسع للآية الناتجة عن ذلك: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾:

إنَّ جثتَه آيةٌ لعابديه من قومه على أنه ليس إلهاً.

وهي آيةٌ لبني إسرائيل على قدرةِ وقوةِ اللّهِ ربِّ العالمين، ونصْرِه للمؤمنين، وانتقامِه من الكافرين.

وهي آيةٌ للناسِ عندما تكتشفُ في القرنِ العشرين بعدَ آلافِ السنين من موته.

جوانب كون ذلك آية:

ونعتقدُ أنَّ اكتشافَ جثةِ فرعون عام ١٨٩٨م، وبقاءَها معروضةً في متحف القاهرة، يشاهدُها الزائرون المتفرجون، آيةٌ بينةٌ واضحةٌ على ما يلي:

١ ـ آيةٌ على قوةِ الله وقدرتِه وعظمتِه، الذي أَهلكَ فرعون، ثم أَبقى جثتَه محفوظةً هذه المدة الطويلة.

٢ ـ آيةٌ على معيةِ اللّهِ للمؤمنين ونصرِه وإنقاذِه لهم، وقضائِه على أعدائهم الكافرين.

٣ ـ آيةٌ على انتقامِ الله من الطغاة المستبدين وإهلاكهم، ليتعظَ ويعتبرَ بها الناس، وبالذات الطغاة والمستبدون، فيتخلَّوا عن ما هم فيه من طغيانٍ واستبداد، لئلا يلاقوا نفسَ المصير. ولكن هؤلاء لا يعتبرون: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

٤ ـ آيةٌ على صدقِ نبوةِ محمد ﷺ، فاللهُ هو الذي أَخبره بتفاصيلِ غرقِ فرعون، وإنجاءِ جثته، ولو لم يكن رسولاً لما علمَ بذلك، لأنه أميٌّ لم يتعلَّم من أحد، ولم يتلقَّ هذه المعلومات من أحد. لا سيما أنَّ كتبَ المؤرخين وأهلَ الكتاب لا تتحدثُ عن هذه الجزئية المفصلة لغرقِ فرعون.

٥ ـ آيةٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليس كلامَ أيِّ بشر، وعلى صحةِ وصدقِ الأَخبارِ التاريخية التي أَوردَها وذكرها.

فقد ذكرَ القرآنُ أنَّ اللّهَ قد أَنجى جثةَ فرعون، وأَبقاها آيةً لمن خلْفَه، واكتُشفتْ هذه الجثةُ بعد ثلاثةَ عشرَ قرناً من نزول القرآن، وجاءَ هذا الاكتشافُ شاهداً على صدقِ وصحةِ ما أَخبرتْ عنه الآيات.

إنَّ العلمَ والتاريخَ ليقدمان شهاداتٍ مستمرةً على صدقِ وصحةِ ما وردَ في القرآن من أخبار تاريخية أو معلومات علمية، وهذه الشهاداتُ آيات جديدة على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصدقٌ وصواب، وأنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، أَوحى اللّهُ له بهذا القرآن.

أهلكَ اللّهُ فرعونَ وجنودَه، وجعلَ ذلك آيةً لمن بعدهم، وهكذا انتهتْ هذه الفتنةُ الفرعونيةُ الطاغية.

تعقيب القرآن على هلاك فرعون وجنوده:

وقد عقبتْ آياتُ القرآنِ على هلاكِ فرعونَ وجنوده، ونجاةِ موسى عليه السلام وأَتباعِه، وسجلتْ بعضَ العبرِ والدروسِ من ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء: ٦٥ ـ ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص: ٣٩ ـ ٤٢].

إنَّ فرعونَ وجنودَه أئمةٌ يَؤُمّونَ الناس، وقادةٌ يقودونهم، ودعاةٌ يدعونَهم. لكن إلى أين؟

إنهم دعاةٌ إلى النار، يَدْعونَ الناسَ إليها، ويقودونهم في الطريقِ إليها، ويَؤُمّونهم نحوها، وهم ملعونون مقبوحون في هذه الإمامةِ والقيادةِ والزعامة.

وفرعونُهم هو إمامُ الأئمة، وقائدُ القادة، يَسيرُ أَمامَ الجميع، أَمامَ قومِه وجنودِه وملئه، يقودُهم ويَقْدُمُهم إلى جهنم، وهم أَتْباعٌ له، يسيرونَ خلفه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩].

تُخبرُ هذه الآياتُ أنَّ قومَ فرعونَ رَفضوا الاستجابةَ لموسى عليه السلام، رغم ما قدَّمَ لهم من الآياتِ والبراهين. وانحازوا إلى فرعون، وتابَعوه واتبعوا أمره، وكَفروا وطغوا وبغوا.

وتقررُ الآيات أنَّ فرعونَ ليس راشداً، وأنَّ أَمره ليس رشيداً، والدليلُ على ذلك أنَّ قيادةَ وإمامة فرعون لقومه كانت شؤماً عليهم، فهو في الدنيا كان يَقْدُمُهم فأَوردهم البحر، فماتوا فيه غرقاً، وهو في الآخرة يَقْدُمُهم ويتقدمُهم، فيوردُهم نارَ جهنم، يَدخلُ قبلَهم فيها، ويَدخلون هم خلفه، وبئست النارُ ورداً لأهلها، ومدخلاً يدخلونها.

وقد لعنَ اللّهُ فرعونَ وقومَه في الدنيا، ولعنَهم في الآخرة، وجعلَ لعنتَه لهم رِفداً يَرفدهم به بعدَ دخولهم النار، وبئست اللعنةُ رِفْداً يَرفدهم به، وعطاءً يعطيهم إياه.

نتيجة متابعة فرعون:

هذه هي نتيجةُ متابعةِ فرعون وطاعتِه والاستجابةِ لدعوته.

لقد قالَ لهم فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ووقفَ أمامه الرجلُ المؤمنُ من آله، ودعا الناسَ إلى عدم متابعة فرعون، ومتابعتِه هو لأنه يَهديهم سبيلَ الرشاد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر: ٣٨].

واعتبرَ دعوةَ فرعون دعوةً إلى النار. فقالَ لهم: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: ٤١].

فأَصَرّوا على متابعةِ فرعون وطاعته، وهذه هي النهاية: الهلاكُ والموتُ واللعنةُ لفرعون ولقومه في الدنيا، واللعنةُ والعذابُ لفرعون ولقومه في نار جهنم.

وقد عَرضَتْ لنا آياتُ سورةِ غافر، بعضَ ما سيكونُ بين فرعونَ الإمامِ الرائدِ وملئِه من جهة، وبين أَتباعهم المستضعفين من جهةٍ أخرى، من لومٍ وعتابٍ وندمٍ واتهام، في نار جهنم.

بين فرعون وقومه في جهنم:

قال تعالى: ﴿فَوَقَٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٥٠].

هذه هي عاقبةُ فرعون وقيادتِه وإمامتِه في الدنيا وفي الآخرة، عاقبةُ سوءٍ له ولقومه الذين تابعوه.

وهي نفسُها عاقبةُ كلِّ طاغيةٍ مستبدٍّ ظالم في أيِّ زمانٍ ومكان، عاقبةُ سوءٍ له في الدنيا والآخرة، وعاقبةُ سوءٍ لقومه وأتْباعه الذين يُتابعونَه في الدنيا والآخرة.

جعلَ اللّهُ ذلك آيةً وعبرة، ولكنَّ كثيراً من الناس عن آيات الله غافلون: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.





المرحلة الرابعة
موسى عليه السلام
مع بني إسرائيل في سيناء

[١]
طلب غريب لبني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله

أَنجى اللّهُ بني إسرائيل من فرعون، ومن الغرقِ في البحر، وأَوصلَهم إِلى البرِّ الشرقيِّ من البحر الأحمر، وأَهلك فرعونَ وجنودَه أَجمعين.

نجاة بني إسرائيل يوم عاشوراء:

وكان هذا اليومُ العظيم يومَ عاشوراء، وهو اليومُ العاشرُ من محرم، بالتوقيتِ الهجريِّ القمريّ.

ودليلُ ذلك ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهما عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، قال:

لما قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، رأى اليهودَ يصومون عاشوراء.

فقالَ لهم: ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟

قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يومُ نجّى اللّهُ بني إسرائيل من عدوهم، فصامَه موسى.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَنا أَحقُّ بموسى منكم»!

فصامَه رسولُ الله ﷺ، وأَمَرَ المسلمين بصيامه[1].

يدلُّ هذا الحديثُ الصحيحُ على أنَّ نجاةَ بني إِسرائيل كانت في يوم عاشوراء، وأنَّ موسى عليه السلام صامَ ذلك اليومَ شكراً لله، وأنَّ بني إسرائيل الصالحين كانوا يصومونه شكراً لله أيضاً، وأنَّ أَحفادَهم اليهودَ في القرون اللاحقة استمروا في صيام يوم عاشوراء.

فلما وصلَ رسولُ الله ﷺ المدينة، وجدَ اليهودَ فيها يصومون يومَ عاشوراء لهذا المعنى، ولما عرفَ سببَ صيامهم قررَ أنَّ المسلمين أَوْلى بموسى عليه السلام من اليهود. ولذلك صامَه عليه الصلاة والسلام وأمرَ المسلمين بصيامه، وصارَ صيامُ يومِ عاشوراء سُنَّةً دائمةً للمسلمين حتى قيام الساعة.

إن رسولَ الله ﷺ يقررُ حقيقةً إِيمانية قاطعة، وذلك في قوله: «أنا أحق بموسى منكم».

إنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وإنَّ موسى هو رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، فهما نبيان رسولان كريمان، ولهذا هو أحقُّ بموسى من اليهود، الذين يَدَّعون أَنهم على دينه، وأنهم متبعون له، وهم كاذبون في دعواهم.

وأمةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام أَوْلى بموسى عليه السلام من أُمة اليهود، لأنَّ المسلمين يؤمنون بجميعِ الأَنبياء والرسل، ولا ينكرونَ نبوةَ أحدٍ منهم، أما اليهودُ فإنهم مزاجيونَ في الإيمان بالرسل، حيث يفرقون بينهم، فيؤمنون ببعضهم، ويكفرون بالآخرين.

ثم إنَّ أمرَ رسولِ الله ﷺ المسلمين بصيام عاشوراء، ليس متابعةً منه لليهود الذين كانوا يصومونه في المدينة، فالرسولُ عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٠٤. ومسلم برقم: ١١٣٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٤.

والسلام كان حريصاً على مخالفة اليهود، ويأمرُ المسلمين في كلّ مناسبة بمخالفتهم.

إنَّ صيامَه ليوم عاشوراء، وأمْرَه المسلمين بصيامه، شكراً منه لله، الذي نجّى فيه موسى وأَتباعَه المؤمنين، ومتابعةً منه لموسى عليه السلام، فهو صيامٌ ببُعْدٍ إسلامي، وليس تقليداً لليهود.

موقف بني إسرائيل من عابدي الأصنام:

سارَ موسى عليه السلام بمن معه من بني إسرائيل، وتنقلوا في «سيناء»، تمهيداً لتوجُّههم إلى الأرض المقدسة..

وبينما كانوا يتنقلون مع موسى عليه السلام، أَتوا على قوم من المشركين بالله، ووجدوهم عاكفين على أَصنامٍ لهم، يجعلونَها آلهة، ويعبدونها من دون الله..

فتأثَّروا بهم، وأُعجبوا بأصنامهم، وطلبوا من نبيِّهم موسى عليه السلام طلباً غريباً.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١].

ولا تبينُ هذه الآياتُ مكانَ وقوعِ هذه الحادثة الغريبة، ولا تحددُ اسمَ القوم الذين يعبدون الأصنام، ولا تعيِّنُ نوعَ أصنامهم، فهذا كلُّه لا داعي له في البيان القرآني.

إنَّ المهمَّ هو تسجيلُ موقف بني إسرائيل المؤمنين بموسى عليه السلام، الموحِّدين لله، من هؤلاء المشركين بالله العابدين للأصنام،

وذلك ليتعرَّفَ المسلمون على هذه الطبيعةِ المنحرفةِ المعوجَّةِ لبني إسرائيل.

ولا ننسى أَنهم عاشوا مع موسى عليه السلام في مصرَ عدةَ سنواتٍ، يربّيهم على الإِيمان والتوحيد، وعبادةِ الله وحده.. ولا ننسى أَنهم شاهَدوا قبلَ قليل آيةً عظيمة من آيات الله الباهرة، تدلُّ على قوتهِ ووحدانيته سبحانه. فقد شقَّ اللّهُ لهم البحر، وأَنجاهم بعنايته، وأَهلكَ فرعونَ وجنودَه بقوته.. وما زالَ القومُ متأثرين بهذه المعجزةِ الربانية العجيبة.

وها هم الآن يُشاهدون قوماً كافرين مشركين بالله، يعكفون على أصنام، ويعتبرونَها آلهة، ويعبدونَها بطقوسٍ وثنيةٍ شركية.

الأصلُ أنْ ينفعلَ بنو إِسرائيل من هذا المنظرِ الشركيِّ الوثني، والأصلُ أنْ يَغاروا على الإيمانِ والوحدانية، والأصْلُ أنْ يُحدثَ هذا المنظرُ في نفوسهم رفضاً لهذا الشرك، ورغبةً في إنكار المنكر.

الأصلُ أنْ يَندفعوا نحو القوم، وأنْ يَطلبوا من موسى عليه السلام أنْ يأذنَ لهم بتحطيمِ تلك الأصنام، ومحاربةِ المشركين الذين يعبدونها. أَو أنْ يُعلنوا رفضَهمَ لذلك الشرك، وأنْ يُنكروه بألسنتهم وكلامِهم على الأقل.

طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً آلهة:

أَمّا أنْ يُعجبوا بتلكَ الأصنام، ويتأثّروا بالذين يَعبدونها، ويَطلبوا طلباً غَريباً وقحاً من موسى عليه السلام، بأنْ يجعلَ لهم أصناماً آلهة مثل تلك الأصنامِ الآلهة، ليعبدوها كما يعبدُها هؤلاء القوم، فهذا لا يصدرُ إلاّ عن قومٍ تعمَّقَ الانحرافُ في نفوسهم، وتمكَّنَ التقليدُ والتبعيةُ من كيانهم.

«إِنها العدوى تصيبُ الأرواحَ كما تصيبُ الأجسام! ولكنها لا تصيبُها حتى يكونَ لديها الاستعدادُ والتهيؤُ والقابلية..

وطبيعةُ بني إسرائيل ـ كما عرضَها القرآنُ الكريم عرضاً صادقاً أميناً في شتى المناسبات ـ طبيعةٌ مخلخلةُ العزيمة، ضعيفةُ الروح، ما تكادُ تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكادُ تمضي في الطريقِ المستقيم حتى ترتكسَ وتنتكس.. ذلك إلى غلظٍ في الكبر، وتصلُّبٍ عن الحق، وقساوةٍ في الحسِّ والشعور..

وها هم أُولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاءِ ما يكادون يمرون بقومٍ يعكفون على أَصنامٍ لهم حتى ينسوا تعليمَ أكثرَ من عشرين عاماً، منذُ أنْ جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد، بل حتى ينسوا معجزةَ اللحظة، التي أنقذتْهم من فرعونَ وملئِه، وأهلكتْهم أَجمعين... ينسون هذا كلَّه ليطلبوا إلى نبيهم: رسولِ ربِّ العالمين، أنْ يتخذَ لهم بنفسِه.. آلهة! ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهةً لكان الأمرُ أقلَّ غرابةً من أنْ يطلبوا إلى رسولِ رب العالمين أنْ يتخذَ لهم آلهة!! ولكنما هي إسرائيل...»[1].

الذين طلبوا مِن موسى عليه السلام أنْ يجعلَ لهم أصناماً آلهة هم فريقٌ من بني إسرائيل، وليسوا جميعَهم، فهناك فريقٌ كانوا صادقين في الإيمانِ به، ملتزمين طاعتَه، كتلميذِه يوشع بن نون.

إنَّ الذين طلبوا صنماً إلهاً هم ضعافُ الإيمان من قومه، الذين سيطرَ الذلُّ والاستعبادُ على نفوسهم، منذ أيامِ فرعون، فتأثّروا بعابدي الأصنام، وطلبوا ذلك الطلبَ العجيب، ولو كان إيمانُهم قوياً لما طلبوا ذلك.

قصة «ذات أنواط» مع رسول الله ﷺ:

وقد حصلَ هذا الأمرُ مع رسولِ الله محمد ﷺ.

فقد روى الترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن أبي واقد الليثي رضي الله

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٦٦ باختصار.

عنه قال: خرجْنا مع رسولِ الله ﷺ قِبَلَ حُنين، فمررْنا بسِدْرَة، فقلنا: يا رسول الله: اجعل لنا هذه ذاتَ أَنواط، كما للكفارِ ذاتُ أنواط. وكان الكفارُ يَنوطون سلاحَهم بسدرةٍ ويعكفون حولها.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «الله أكبر. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، إنكم تركبون سننَ الذين من قبلكم..»(١).

وقعتْ هذه الحادثةُ بعدما فتحَ رسولُ الله ﷺ مكة، وبعدما آمنَ أهلُها، وقد توجَّه رسولُ الله ﷺ إلى الطائفِ لحرب ثقيف، وسارَ معه المؤمنون الصادقون من المهاجرين والأنصار، كما سارَ معه أَعداد من «الطُلَقاء» الذين أَسلموا بعدَ فتح مكة قبلَ فترةٍ وجيزة، ولم يتعمق الإيمانُ قلوبَهم، وكانوا قريبي عهد بالكفر.

فمروا بشجرةٍ كبيرة في الطريق، تسمى «ذاتَ أَنواط»، وكان المشركون يقدسون هذه الشجرة، وعندما يمرّون بها يعلّقون سيوفَهم بها ـ ولهذا سموها ذاتَ أنواط، لأنَّ النَّوْطَ هو التعليق ـ وكانوا يعكفون حولَها.

وأُعجبَ مسلمةُ الفتح بالشجرة، فطلبوا من رسول الله ﷺ أنْ يجعلَ لهم شجرةَ ذاتَ أنواطَ، ينوطون ويعلّقون سيوفَهم بها ويعكفون حولَها، لأنَّ الكفارَ لهم ذاتُ أنواط!!

وتعجبَ رسولُ الله ﷺ من طلب هؤلاء الطلقاء الغريب، وتذكَّرَ طلبَ ذلك الفريق الإسرائيلي من موسى عليه السلام، ولهذا أنكرَ عليهم طلبَهم قائلاً: سبحان الله. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾!

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢١٨٠. والنسائي في الكبرى برقم: ١١١٨٥. وأحمد في المسند ٥:٢١٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٥.

فالذين طَلبوا من رسول الله ﷺ ذاتَ أَنواط هم الذين أَسلموا قبل فترة وجيزة، والذين لم يتعمق الإيمانُ في قلوبهم، وبعد ذلك قويَ إيمانُهم.

بنو إسرائيل قوم يجهلون:

لما سمعَ موسى عليه السلام طلبَ قومِه الغريب، تعجَّبَ منهم ومن جهلهم، وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وَصفهم بالجهلِ الشامل العام، لأنه لم يُقيِّدْ فعلَ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بقيد، ولهذا يشملُ جميعَ مظاهرِ الجهل وجوانبه.

إنهم يجهلون حقيقةَ الألوهية، ولهذا طلبوا أصناماً آلهة، ويجهلون حقيقةَ الإيمان، ولهذا طلبوا ما يتعارضُ مع الإيمان، ويجهلونَ أنَّ عابدي الأصنام هالكون خاسرون، ولهذا تأثَّروا بهم، ويجهلون أَنهم على حق، ولهذا اقتدوا بالذين على باطل. وجَهْلُهم بهذه الحقائق أَوقعهم في الخفة والطيش والسفاهة، فرغبوا في عبادةِ الأصنام، وأَوقعهم في الوقاحة، فطلبوا من نبيهم أنْ يصنعَ لهم أصناماً بنفسه، وأن يَدعوهم إِلى عبادتها!!

وبعدما بيَّنَ لهم موسى عليه السلام جهلَهم، أَزالَ لهم جهلَهم بما آتاهُ الله من علم، فأخبرهم أنَّ عابدي الأصنام هالكون، وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿مُتَبَّرٌ﴾: اسمُ مفعول. من التَّبار. والتَّبارُ هو الدمارُ والهلاك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] أي: لا تزد الظالمين إلا دماراً وهلاكاً.

إنَّ موسى عليه السلام يدعو قومَه إِلى عدمِ الإعجابِ والاقتداء والتأثرِ بعابدي الأصنام، لأنهم هالكون بسبب كفرهِم، وحياتُهم خاسرة، وأَعمالُهم باطلة، ومَن كانوا هكذا فكيف يُقتدىٰ بهم؟

وذمَّهم موسى عليه السلام لأَنهم يريدونَ معبوداً غيرَ الله: ﴿قَالَ

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

أي: أَأطلبُ لكم معبوداً غيرَ الله؟ وهل يصلحُ غيرُ الله أن يكونَ إِلهاً معبوداً؟ إِنه لا إِلهَ إِلا الله، وهذا معناه أنه لا معبودٌ إِلا الله. فكيف تطلبونَ مني أنْ أجعلَ لكم الأصنامَ آلهة لتعبدوها.

ثم إِنَّ اللّهَ فضلكم على العالمين، وبَعثني فيكم رسولاً، وهداكم إِلى الإِيمانِ به، فكيفَ تبحثون عن إِلهِ صنم؟

موسى يذكرهم بتفضيل الله لهم وأسبابه:

إِنَّ موسى عليه السلام يُذكرهم بنعم اللّهِ عليهم، ومن أهمِّ هذه النعمِ تفضيلُه لهم على العالمين: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمرادُ بالعالمين الأقوامُ الذين حولَهم في عهد موسى عليه السلام، كالفراعنةِ والكنعانيين والأعراب. وتفضيلُهم على أولئك العالمين، لأَنهم مؤمنون بالله، متبعون لموسى عليه السلام ـ رغمَ ما عندهم من مخالفاتٍ وتجاوزات ـ أمّا الأقوامُ الآخَرون فقد كانوا كافرين مشركين بالله.

فهو تفضيلٌ إِيمانيٌ وليس نَسَبياً، كما أنه تفضيلٌ مشروطٌ وليس مفتوحاً مطلقاً، وتفضيلٌ موقوتٌ وليس دائماً مطرداً. إِنّ اللّهَ فضَّلهم على عالمي زمانِهم لإِيمانهم. فإِذا ما انحرفوا عن الإِيمانِ والاستقامة فإِنَّ اللّهَ يرفعُ عنهم نعمةَ التفضيل، ويوقعُ بهم لعنته وغضبه. وهذا ما حصلَ فيما بعد.

ودلَّ على هذا التفضيلِ المشروط قولُه تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ

يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١١ ـ ١٢].

وذكَّرَهم موسى عليه السلام بنعمةِ إنجائهم من فرعون وعذابه واستبدادِه، فقال لهم: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٤١].

وهذا التذكيرُ منه بنعمةِ الله عليهم في إنجائهم من آلِ فرعون ضمنَ إنكارِه عليهم طلبَهم أصناماً آلهة، فكيفَ يريدون عبادةَ غيرِ الله، واللّهُ هو الذي أنجاهم من آل فرعون؟

وقد كان موسى عليه السلام يُكثرُ من تذكيرِهم بنعمةِ إنجائهم، ويَدعوهم إلى تذكُّرِ حياتهم السابقة، أذلاءَ مستعبدين عند فرعون، والمقارنة بين تلك الحالة وحالتهم الجديدة، منعَّمين بالحريةِ والإيمان، وذلك ليشكروا اللّهَ على هذه النعمةِ الغامرة.

موسى يخرجهم من الظلمات إلى النور:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٥ ـ ٨].

أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يُخرجَ بني إسرائيل من الظلمات إلى النور: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وفي آياتِ سورة إبراهيم توافقٌ كاملٌ بين مهمة موسى ومهمة محمد عليهما الصلاة والسلام.

ففي الآيةِ الأولى من السورة يقولُ الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

وفي الآيةِ الخامسة من السورة يأمرُ اللّهُ نبيَّه موسى عليه الصلاة والسلام بإخراج قومِه من الظلمات إلى النور: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

إنهما نبيّان كريمان، ورسولان عظيمان، عليهما الصلاة والسلام، ولا غرابةَ أنْ تكونَ مهمتُهما واحدة، وهي إخراجُ الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والهدى.

والفرقُ بين النبييْن الكريميْن عليهما الصلاة والسلام هو في حدودِ بعثةِ كلٍّ منهما.

إنَّ موسى عليه السلام مأمورٌ بإخراجِ قومِه بني إسرائيل من الظلماتِ إلى النور: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾.

أما محمد ﷺ فإنه مأمورٌ بإخراجِ الناس: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

والسّرُّ في العدولِ عن كلمة «قومك» إلى كلمة «الناس» في خطابِ محمَّدٍ ﷺ هو عمومُ بعثته، لأن اللّهَ بعثَه إلى الناسِ كافة، بينما موسى كان مبعوثاً إلى قومِه خاصة!!.

موسى يذكرهم بأيام الله بنوعيها:

وبعدَ أنْ أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام بإخراج قومِه من الظلماتِ إلى النور، أمرَه أنْ يُذكرهم بأيامِ الله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

و«أيام الله» أفعالُه العظيمةُ التي فعلَها بهم وبأعدائهم وبالمؤمنين والكافرين من الأمم الخالية من قبلهم.

و«اليومُ» قد يُستعملُ في النعمة العظيمة، وقد يُستعملُ في العذاب الشديد. فيقال: هذا يومُ نعمة، ويقال: هذا يومُ نقمة.

إنَّ أيامَ اللّهِ نوعان:

الأول: أيامُ إنعامِه على عباده المؤمنين، المتمثلة في إكرامه لهم ونعمائِه عليهم، حيث كان ينعمُ عليهم بالإيمانِ والهدى، وبالرزقِ والعطاء، وبالنصرِ والتمكين، وبالنجاةِ والفوز.

ومن هؤلاء المؤمنين مَن كانوا سابقين على بني إسرائيل، الذين أَنعم الله عليهم بأيام نعمائِه وعطائه، كأَتْباعِ نوحٍ وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام.

ومِن هؤلاء المؤمنين بنو إسرائيل أنفسُهم حيث عاشوا منعَّمين بأيام الله، يتقلَّبون في منحه وعطاياه.

ومن أَيامِ الله العظيمة عليهم أَنه أَنجاهم من آل فرعون، وخلَّصهم من الذلِّ والتعذيبِ والاستعباد، ومَنَّ عليهم بالحرية والهدى، وشقَّ لهم البحر، وأَنجاهم من الغرق فيه.

الثاني: أَيامُ انتقامِه من أعدائه، وإهلاكِه لهم، سواء كانوا من الأمم الخالية، كقوم نوح وهود وصالح، وقوم لوط وشعيب، الذين كَذَّبوا رسلَ الله، وحاربوا أولياءه، فأوقعَ اللّهُ بهم عذابَه وانتقامه، فأهلكهم ودمرهم، أم كانوا مِن الأعداءِ المباشرين لبني إسرائيل المؤمنين، وهم فرعون وملؤه، حيث أَغرقهم وقضى عليهم.

وينطبقُ على انتقام الله من هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وتذكُّرُ بني إسرائيل لأيام اللّهِ بنوعيْها - أيامِ الإنعام وأيامِ الانتقام - يَزيدُهم إيماناً بالله، وذكْراً وشكْراً له.

لا يتذكر أيام الله إلا الصبار الشكور:

واعتبرت الآيةُ تذكُّرَ أيام الله آياتٍ لكلّ صبارٍ شكور: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الصّبّارُ مبالغةٌ من الصبر، والشكورُ مبالغةٌ من الشكر.

إنَّ أيامَ الضرِّ التي يبتلي اللّهُ بها عبادَه بالضرِّ والحرمانِ والتضييق تحتاجُ إلى المؤمنِ الصّبّار، الذي يصبرُ على هذه الأيام، ويرضى بقدرِ اللّهِ فيها، ويعلمُ أنَّ فيها الخيرَ له، وأن الله حكيمٌ فيما ابتلاه به فيها، وأنها فترةٌ قصيرةٌ سرعان ما تنتهي. ولهذا يعيشُ أيامَ الضرِّ بالصبر، فيستفيدُ منها، ويُقبلُ على اللّهِ فيها.

وأيامُ الإنعامِ والإعطاءِ التي يبتلي اللّهُ بها عبادَه بالنعماءِ والسراءِ والعطاءِ تحتاجُ إلى المؤمن الشكور، الذي يحسنُ النظرَ إليها والعيشَ فيها، واستعمالَ نعم الله وعطاياه في مرضاته سبحانه. إنه لا يطغى بتلك النعم ولا يبطر، وإنما يشكرُ اللّهَ عليها باعتبارِه هو المنعم، ويشكرُه عليها باستخدامِها في الخيرِ والنفع.

وإنَّ الإنسانَ في هذه الحياةِ بين يوميْن: إما يومُ ابتلاءٍ بالضراء، فلا بدَّ أنْ يعيشَه بالصبر، وإما يومُ ابتلاءٍ بالسراء، فلا بدَّ أنْ يعيشَه بالشكر.

ولهذا كان تذكُّرُ أيامِ الله في عطائه وحرمانه آياتٌ لكلِّ صبار شكور.

وقد نفَّذَ موسى عليه السلام أمرَ الله، فذكَّرَ بني إسرائيل ببعض أيام الله عليهم، فقال لهم: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

حقائق إيمانية حول الشكر والكفر:

وأثناءَ تذكيرِ موسى لقومه بأيام الله، وطلبه منهم أنْ يتعاملوا معها بالصبر والشكر، قدَّمَ لهم حقائقَ قاطعةً بشأن الشكر والكفر، والعطاءِ والمنع، فقال لهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: أعلمكم ربُّكم إعلاماً بيِّناً، وأخبركم إخباراً قاطعاً، عن طريقِ ما أوحىٰ إليَّ من الوحي، فصرتُم على علمٍ بذلك.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: يخبركُم اللّهُ المعطي الكريم أنكم إنْ شكرتموه على عطاياه ونعمه، فسوف يزيدُكم منها ومن غيرها، مما يعطيكم ويمنحكم.

وشكرُ هذه النعم بالاعترافِ بأنها من الله، وشكرِه والثناءِ عليه بسببها، واستخدامِها في طاعتِه ونفعِ عباده.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: ويخبركُم اللّهُ أَنكم إنْ رفضتُم شكره، وقابلتموها بالكفر والجحود، فسوفَ يعذبكم، ويَحرمكم من هذه النعم، ويسلبكم إياها، كما فعلَ بآل فرعون، عندما استخدموا نعمَ اللّهِ في الطغيانِ والفساد، فسلبهم الله إياها.

وهذه حقائقُ إيمانيةٌ قاطعة مطردة، فكلُّ مَنْ قابلَ نعمَ اللّهِ بشكرِه عليها، فإن الله سنزيدُه منها، وكلُّ مَنْ قابلَ هذه النعم بالكفر فإن اللّهَ سيسلبه إياها.

انطبقَ هذا على بني إسرائيل زمنَ موسى عليه السلام، وعلى الذين كانوا قبلَهم، والذين جاءوا بعدهم، وينطبقُ على الناس في زماننا، وينطبقُ على الأجيالِ القادمة حتى قيام الساعة: «بالشكر تدوم النعم».

والله سبحانه لا يحتاجُ إلى شكرِ الشاكرين، ولا يضرُّه جحودُ الجاحدين، ولا كفرُ الكافرين، فهو غنيٌّ حميد، ولو كفرَ الناسُ جميعاً ما نقصَ ذلك مِن ملكه، فسبحان الذي لا تنفعه طاعةٌ ولا تضرُّه معصية!!.

لطيفة قرآنية في تذبيح أبناء بني إسرائيل:

وقد امتنَّ اللّهُ على بني إسرائيل في إنجائهم من آلِ فرعون، فقال لهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٩ ـ ٥٠].

وهناكَ لطيفةٌ قرآنيةٌ في تذكير بني إسرائيل بإنجاءِ اللّهِ لهم من ظلمِ واضطهادِ آل فرعون، حيث تفاوتَ التعبيرُ القرآنيُّ في الإخبارِ عن ذلك.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ . .﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ . .﴾.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ . .﴾.

فما حكمةُ التفاوتِ في الإخبار عن نفسِ الحادثةِ في السور الثلاث؟

في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وفي سورة إبراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

إن تقتيل الأبناء أشد عنفاً من تذبيحهم.

أخبرتْ آياتُ سورةِ البقرة عن تذبيحِ أبنائهم، لأنَّ الآياتِ السابقة من السورة لا تتحدثُ عن تعذيبِ آل فرعون لبني إسرائيل، وإنما كان الكلامُ فيها على إنعام الله على بني إسرائيل، وتوجيههم إلى الأُمورِ النافعة، ولهذا عبرت الآيةُ التي نتحدثُ عنها عن تذبيحِ أبنائهم وليس تقتيلهم، فقالت: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أما في سورةِ الأعراف فإنَّ السياقَ يناسبه الحديثُ عن تقتيلِ أبنائهم وليس تذبيحهم، لأنَّ التقتيلَ أشدُّ وأكثرُ عنفاً من التذبيح.

إنَّ السياقَ في سورةِ الأعراف يتحدثُ عن قصةِ موسى وبني إسرائيل مع فرعون، وعن تعذيبِ آل فرعون لبني إسرائيل، وتفصلُ الآياتُ السابقةُ في المواجهة بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وفي إيذاءِ وتعذيبِ آل فرعون لبني إسرائيل، وفي صبرِ بني إسرائيل المؤمنين على ذلك.

ووردَ في الآياتِ السابقة تهييجُ الملأ فرعونَ على بني إسرائيل، وردُّ فرعونَ على التهييج بأنه سيقتل أبناءَهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولذلكَ ناسبَ أنْ يَردَ التعبيرُ بتقتيل الأبناء وليس تذبيحهم في هذا السياق: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾. ليتوافقَ مع المواجهة والتحدي، والتصعيدِ في التعذيب، وليتناسقَ مع قول فرعون السابق: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

أما سورةُ إبراهيم فإنها استخدمت التذبيحَ وليس التقتيل، لكنها لا تكررُ الكلمةَ الواردةَ في سورة البقرة، وإنما تضيفُ عليها إضافةً مقصودة، حيث استخدمت «واوَ» العطف، وعطفَتْها على ما قبلها: ﴿إِذْ

﴿أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ . . ﴾.

عَطفت الآيةُ جملةَ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ على جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، بينما لم تعطفْها عليها في سورة البقرة، حيث جعَلَتْهَا هناك «بدلاً» مما قبلها ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ . . ﴾.

فما حكمةُ العطف في سورة إبراهيم؟

إنَّ السياقَ في سورة إبراهيم سياقُ تذكيرٍ بنعم الله، وتعدادٍ لهذه النعم، حيثُ أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام قبلَها أنْ يُذكِّرهم بأيام الله، فنفَذَ موسى أمر الله وذكَّرهم بنعمِه الغامرة عليهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ . . ﴾.

إنها ثلاثُ نعمٍ معطوفٌ بعضُها على بعض بواو العطف، وكأنَّ كلَّ واحدةٍ منها نعمةٌ مستقلة.

النعمة الأولى: إنجاؤُهم من سومِ آلِ فرعون لهم سوءَ العذاب.

النعمة الثانية: إنجاءُ أبنائهم من تذبيح آلِ فرعون لهم.

النعمة الثالثة: إنجاءُ نسائهم من استحياء آل فرعون لهن!

ولأجلِ هذا التعديدِ للنعم عُطفت النعمةُ الثانية على النعمةِ الأولى بالواو، لتكونَ مستقلةً عنها، ولم تأت «بدلاً» منها كما في سورة البقرة. وسبحانَ اللّهِ منزِّلِ هذا القرآن المعجز.

لقد امتنَّ اللّهُ على بني إسرائيل بما أَنعمَ عليهم، وطالبهم باستخدامِها في ذكره وشكره، وعدم استخدامها في عصيانه ومخالفته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال عز وجل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠ ـ ٨٢].

[٢]

موسى يتلقى التوراة على جبل الطور

بعدما أَقامَ بنو إسرائيل في سيناء مع موسى عليه السلام، أَرادَ اللّهُ إنزالَ كتابِه على نبيه عليه السلام، فواعدَه جبلَ الطور ليكلمه وينزلَ عليه كتابَه.

موسى عند جبل الطور مرة ثانية:

وكان موسى قد ذهبَ إلى جبلِ الطورِ من قبل، وكلَّمه اللّهُ سبحانه وتعالى، وكلَّفه الذهابَ إلى فرعون، وكان ذلك أثناءَ عودتِه من مدينَ إلى مصر، عندما آنَسَ من جانبِ الطور ناراً، فلما ذهبَ إلى النارِ كلمه الله، وأعطاهُ العصا واليدَ آيتيْن بينتيْن إلى فرعونَ وقومه، وقد تحدثْنا عن ذلك من قبل.

والآن، ها هو يذهبُ إلى جبلِ الطور مرةً ثانية، ليأخذَ كتابَ الله، ويتلقى أحكامَه، ليبلغَها إلى بني إسرائيل.

وكان أَخوه هارون معه ـ عليهما السلام ـ وبما أَنَّ موسى سيغيبُ عن قومِه مدة، فلا بدَّ أنْ يجعلَ خليفةً له فيهم، وهارونُ وزيرٌ له، لذلك كلفه موسى أنْ يخلفَه في قومه إلى حين عودته.

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن بعضَ ما جرى على جبلِ الطور. قال الله عز وجل: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ

رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٧].

طلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يأتيَ إلى جبلِ الطور، وأخبرَ القرآنُ عن ذلك بقوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾.

والألفُ في «واعدنا» ألفُ مفاعلة.

وفرْقٌ بين «وَعَدَ» الثلاثي، و«واعد» الرباعي.

«وَعَدَ» يدلُّ على أنَّ الوعدَ من طرفٍ واحد، أي: أنْ يَعِدَ شخصٌ آخر وعداً، وأنْ يحددَ موعداً له.

أمّا «واعَدَ» فيدلُّ على أنَّ الوعْدَ متبادلٌ من الطرفين، بحيث يَعِدُ كلٌّ منهما الآخر.

وفي «واعَدْنا» قراءتان صحيحتان:

الأولى: قراءةُ أَبي عمرو بن العلاء: «وَعَدْنا» بدون ألف، وحجتُه في ذلك أن اللّهَ هو المنفردُ بالوعدِ والوعيد.

الثانية: قراءةُ الستةِ الباقين ـ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ـ «واعَدْنا» بالألف.

وحجتُهم أنَّ المواعدةَ كانت من الله ومن موسى عليه السلام. فاللّهُ واعَدَ موسى لقاءه على جبل الطور، ليكلمَهُ ويكرمَهُ ويناجيه. وموسى واعَدَ اللّهَ المجيءَ إلى جبل الطور، وتنفيذَ ما أَمره به من ذلك[1].

هارون خليفة موسى في بني إسرائيل:

واعَدَ اللّهُ موسى المجيءَ إلى جبل الطور لمّا كان في قومه، وأخبره أَنه سيغيبُ عنهم ثلاثين ليلة، وطلبَ منه أنْ يجعلَ هارونَ خليفةً له فيهم.

وأخبرَ موسى قومَه أنه سيغيبُ عنهم ثلاثينَ ليلة، وسيُحضرُ لهم التوراة، وأنَّ أخاه هارون هو خليفتُه فيهم.

وأَوصى موسى أَخاه هارون عليهما السلام بما يفعلُه مع قومه أثناء غيابه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾: وهذا نصٌّ على أنَّ هارونَ خليفةٌ لموسى في بني إسرائيل أثناءَ غيابه. وهذا دليلٌ على أهميةِ الإمارةِ والخلافةِ والقيادة، واهتمامِ كلِّ دينٍ بها، فقد كان موسى عليه السلام قائداً لبني إسرائيل، يسوسُهم بأحكامِ الله، ولما اضطرَّ إلى أنْ يغيبَ عنهم لم يتركْهم بدون أميرٍ قائد، وإنما عَيَّنَ هارون قائداً لهم، وخليفةً له فيهم.

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة: ٩٦.

وإذا كان بنو إسرائيل يحتاجون إلى أَميرٍ إِمام، وهم قبيلةٌ متنقلةٌ في صحراءَ سيناء، فالذين يُكَوِّنونَ مجتمعاً ودولةً لهم أكثرُ حاجةً إلى ذلك. وصدقَ الشاعرُ القائل:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فوضى لا سَراةَ لَهُمْ وَلا سَـراةَ إِذا جُـهّـالُـهُـمْ سـادوا

وهارونُ نبيٌّ كريم عليه السلام، ولن يسوسَ قومَه إلا بالحقِّ والإصلاح، وسيقفُ أمامَ أهلِ الفساد والإفساد. ومع ذلك أَوصاهُ أَخوه أنْ يُصلح، وأنْ يَخْلُفَه في قومِه بالخير، وأنْ يسوسَهم بالحق، وأنْ لا يتبعَ سبيلَ المفسدين، وأنْ لا يسكتَ على أصحابِ الباطل.

وكأنَّ موسى عليه السلام كان يتوقعُ أنْ يقعَ قومُه في مخالفةٍ كبيرةٍ أثناءَ غيابه، ولهذا أكدَ على هارون بما أَوصاه به!!

وتولّى هارونُ قيادةَ بني إسرائيل وتدبيرَ شؤونهم، وذهبَ موسى عليه السلام إلى جبل الطور، لتنفِيذ ما يأمره به الله.

موسى ينتظر عند جبل الطور أربعين ليلة:

وسارت الأيامُ الثلاثون التي واعَدَها اللّهُ موسى عليه السلام عندَ جبلِ الطور تمضي، وقُبيلَ انقضائها مَدَّدَها اللّهُ عشراً، فصارتْ أربعين يوماً: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ونلاحظُ أنَّ آيةَ سورةِ الأعراف قد ذكرت الأيامَ الأصليةَ الثلاثين والأيامَ العشرةَ المضافةَ إليها. أما آيةُ سورة البقرة فقد ذكرتْ مجموعَ الأيام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ [البقرة: ٥١].

إنَّ سورةَ الأعرافِ فَصَّلَتْ هذه المشاهدَ من قصةِ موسى عليه السلام، ولذلك فصَّلت الأيامَ التي غابَ فيها عن قومه، بينما أَجملتْ سورةُ البقرة الحديثَ عن هذه المشاهد، ولذلك أَجملت الكلامَ عن هذه الأيام، ولا ننسى أنَّ آياتِ سورةِ البقرة نزلتْ بعدَ آياتِ سورة الأعراف المكية.

ولا تُخبرنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ عن سببِ تحديدِ هذه الأيام، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات لنأخذَ منها تلك الروايات.

موسى يسمع كلام الله ويطلب رؤيته سبحانه:

وبعدما انتهت الأيامُ الأربعون كلَّمَ اللّهُ سبحانه وتعالى نبيَّه موسى عليه السلام تكليماً، كلَّمه بدون واسطةِ المَلَكِ جبريل عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

ولا نخوضُ في كيفيةِ كلامِ اللّهِ لموسى عليه السلام، ولا في كيفيةِ سماعِ موسى لكلام الله، لأنَّنا لا «نُكَيِّفُ» صفاتِ الله سبحانه، ولا نعرفُ «كيفيةَ» اتصافِه بها سبحانه. فنحن نُثبتُ «الكلام» صفةً من صفاتِ الله سبحانه، ونؤمنُ أنَّ اللّهَ متكلم، وأنه لا نهايةَ لكلامه، وأنه يكلمُ مَنْ شاءَ مِنْ خلقه، كلاماً يليق بعظمتِه وجلالِه سبحانه وتعالى.

كلَّمَ اللّهُ موسى عند جبل الطور بدون واسطة، فموسى كليمُ الله. كما كلَّمَ محمداً ﷺ ليلةَ المعراج في السمواتِ العلى بدون واسطة، فمحمدٌ كليمُ الله أيضاً ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وسمعَ موسى عليه السلام كلامَ الله عند جبل الطور ووعاه، وأَدركَ ما خصَّهُ اللّهُ به من الكرامةِ والفضل، وتاقَتْ نفسُه إلى مزيدٍ من فضْلِ اللّهِ وكرمه، واستشرفَتْ نفسُه إلى أنْ يرى اللّهَ سبحانه بعينيه، ليجمعَ الفضلَ من طرفيه، طرفِ السمعِ وطرف البصر، فبما أَنه سعدَ بسماعِ كلامِ اللّهِ بأُذنيه، فلْيَسْعَدْ برؤيةِ الله بعينيه! ولهذا طلبَ من الله وهو على جبلِ الطور أنْ ينظرَ إليه ويَراه بعينيه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

إنَّ الآيةَ تَبني طلبَه رؤيةَ اللّهِ على تكليمِ اللّهِ له وسماعِه هو لكلامه.

وما كان موسى عليه السلام يعلمُ أنَّ اللّهَ لا يُمكنُ أنْ يُرى في الدنيا، وأنَّ أيَّ إنسانٍ مهما ارتقى في مقامِ القربِ من الله، ومهما نالَ من تكريمِ الله، فإنه لا يمكنُ أنْ يَرى اللّهَ فَي الدنيا بعينيه..

وعدمُ علمِ موسى عليه السلام بذلك لا يَضيرُه ولا يَطعنُ في علمه، ولا يَقدحُ في نبوته، فليس المطلوبُ من النبيِّ أنْ يكونَ عالماً بكلِّ شيء قبلَ أنْ يُعلمهُ اللّهُ إياه. إنَّ اللّهَ هو الذي يُعَلِّمُ أَنبياءه، وهم يتلقون العلمَ من الله ويعونَه ويستوعبونه، وقد يَجهلون أشياء فيُعلِّمُهم اللّهُ إياها، ومن ذلك طلبُ موسى عليه السلام أنْ يَرى الله.

ولذلك علَّمَهُ اللّهُ أَنه لا يُمكنُ أنْ يَراه في الدنيا: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي..﴾.

وذكَرَ اللّهُ له دليلاً مادياً على أَنه لا يُمكنُ أَنْ يَراه، فقال له: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ..﴾.

الله لا يرى في الدنيا:

قالَ الإمامُ محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ..﴾:

«إنك لنْ تراني الآن، ولا فيما يُستقبلُ من الزمان. ثم استدركَ تباركَ وتعالى على ذلك بما يدلُّ على تعليلِ النفي، ويُخففُ عن موسى شدةَ وطأةِ الرَّدّ، بإعلامِه على ما لم يكنْ يعلمُ منْ سنته، وهو أَنه لا يقوى شيءٌ في هذا الكونِ على رؤيته..

قالَ له: ولكن انظر إلى الجبل، فإنني سأتجلّى له، فإنْ ثبتَ لدى التجلّي وبقيَ مستقراً مكانَه فسوف تراني. وذلك لمشاركتك له في مادةِ هذا العالمِ الفاني.

وإذا كان الجبلُ في قوتِه ورسوخِه لا يثبتُ ولا يستقرُّ لهذا التجلّي لعدمِ استعدادِ مادَّتِه لقوةِ تجلّي خالقِه وخالق كل شيء، فاعلمْ أنك لن

تراني أيضاً، وأنتَ مشاركٌ له في كونك مخلوقاً من هذه المادة، وخاضعاً للسننِ الربانية في قوتِها وضعفِ استعدادها، وقبولِها للفناء...»[1].

ويدلُّ قولُ اللّهِ لموسى عليه السلام ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ على أنَّ اللّهَ لا يُمكنُ أنْ يُرى في الدنيا، فهذا النفيُ بحرفِ «لن» مصروفٌ إلى الدنيا، فلا موسى رأى ربَّه في الدنيا، ولا محمدٌ ﷺ رأى ربَّه في الدنيا، على الراجحِ عند علماءِ السلف من الصحابة والتابعين وتابعِيهم.

أما في الآخرة، فإن الرؤيةَ فيها غيرُ منفيةٍ عند أهلِ السنة، فنؤمنُ أنَّ المؤمنين يرونَ اللّهَ سبحانه وتعالى في الجنة، رؤيا تليقُ بعظمتِه وجلالِه، وذلك لورودِ آياتٍ قرآنية وأحاديثَ نبوية صحيحة، تُثبتُ تلك الرؤية، ونحنُ ملزمونَ بالقولِ بما قرَّرتْه الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة.

النصوص على أن المؤمنين يرون الله في الجنة:

وليس هذا موطنَ الحديثِ المفصَّلِ عن أَقوالِ الفرقِ عن رؤيةِ اللّهِ في الدنيا، ورؤيتِه في الآخرة، ولا عن الأدلةِ المفصلةِ من الآياتِ والأحاديث التي تُثبتُ الرؤيةَ في الجنة[2].

ونكتفي بإيرادِ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] الذي نعتبره مِن أصرحِ الآياتِ في إثباتِ الرؤية.

وبقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد فسَّرَ رسولُ الله ﷺ الزيادةَ هنا بأنها النظرُ إلى الله في الجنة.

فقد روى الإمامُ مسلمٌ عن صهيب الرومي رضي الله عنه عن

(١) تفسير المنار ٩:١٢٣.

(٢) انظر تفسير المنار لرشيد رضا ٩:١٢٣ ـ ١٩٢. وانظر كتاب الرؤية للدارقطني بتحقيق إبراهيم العلي وأحمد الرفاعي.

رسول الله ﷺ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النار، نودوا: أنْ يا أهلَ الجنة، إنَّ لكم عندَ الله موعداً لم تروه. قالوا: وما هو؟ ألم يُثَقِّلْ موازينَنا، ويُبَيِّضْ وُجوهَنا، ويُدخلْنا الجنة، ويُنجينا من النار؟

فيُكشفُ الحجاب، فينظرونَ إليه تبارك وتعالى، فوالله ما أَعطاهم اللّهُ عز وجل شيئاً هو أحبُّ إليهم من النظرِ إليه».

ثم تلا قولَه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١].

أما الأحاديثُ الصحيحةُ الكثيرةُ المثبتةُ للرؤيةِ يوم القيامة، فنكتفي بما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ أُناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسولَ الله: هلْ نرى ربَّنا عز وجل يومَ القيامة؟

فقالَ عليه الصلاة والسلام: «نعم».

«هل تُضارُّونَ في رؤيةِ الشمسِ بالظهيرةِ ليس فيها سحاب؟ وهل تُضارُّونَ في رؤيةِ القمر ليلةَ البدر صحواً ليس فيها سحاب؟».

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «ما تُضارُّونَ في رؤيةِ الله عز وجل يومَ القيامة إلا كما تُضارُّونَ في رؤيةِ أحدهما...»[٢].

والخلاصةُ أنَّ المؤمنين يرونَ ربَّهم في الجنةِ يومَ القيامة، أما البشرُ فإنهم لا يرونَ اللّهَ بعيونهم في الدنيا، ولهذا ردَّ اللّهُ على طلبِ الرؤيةِ من موسى عليه السلام بأنَّه لن يَراه في الدنيا، وعلَّلَ ذلك بأنه لا يُطيقُ ولا يتحملُ رؤيتَه، وقدَّمَ له على ذلك دليلاً عملياً، وهو جبلُ الطورِ الراسخِ الكبير، فإنه لن يتحملَ تجلّي اللّهِ سبحانه له.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨١) وانظر كتاب الرؤية للدارقطني حديث رقم: ١٥٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٨١. ومسلم برقم: ١٨٣. وانظر الرؤية للدارقطني رقم: ١.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ..﴾.

تجلي الله للجبل وعدم معرفة كيفيته:

ونظرَ موسى إلى جبلِ الطورِ الراسخِ الكبير، وما هي إلا لحظة، حتى تجلّى اللّهُ سبحانه للجبل، فإذا بالجبلِ الراسخ يُدَكُّ دكاً، وإذا بموسى عليه السلام يخرُّ صَعِقاً مغشياً عليه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ..﴾.

﴿تَجَلَّىٰ﴾ فعلٌ ماضٍ خُماسي. الثلاثيُّ منه «جَلا».

والمادةُ بمعنى الكشفِ والظهور. قال الإمامُ الراغبُ في المفردات: «أصْلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظاهر.

.. والتجلّي قد يكونُ بالذات، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ٢].

وقد يكونُ بالأمْرِ والفعلِ، كقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ..﴾»(١).

والتعبيرُ بالتجلّي يدلُّ على التدريجِ في الانكشافِ والظهور. قالَ الإمامُ رشيد رضا: «يُقال: جَلا الشيءُ، وانْجلى وتجلّى بنفسه أو بغيره، إذا انكشفَ وظهرَ ووضح، بعد خفاءٍ في نفسه، أو خفاءٍ على مجتليه وطالبه.

ويكونُ ذلك التجلّي والظهورُ بالذاتِ وبغيرِ الذات، من صفةٍ أو فعل، يَزولُ به اللبسُ والخفاء.

وفي صيغةِ التجلّي ما ليس في صيغةِ الجلاءِ والانجلاء من معنى التدريجِ والكثرةِ النوعيةِ أو الشخصية. قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾

---

(١) المفردات: ٢٠٠.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾. فالليلُ يَغشى النهارَ ويستره، ثم يتجلّى النهارُ ويَظهرُ بالتدريج»[1].

هذا عن معنى التجلّي بصورةٍ عامة، الذي هو في المخلوقات، أمّا تجلّي الربِّ الخالقِ سبحانه وتعالى للجبل، فهو فعْلٌ من أفعالِ الله، فَعَلَه سبحانه بما يتفقُ مع جلاله وعظمته. فلا نعرفُ كيفَ تجلّى سبحانه للجبل، فلا نقولُ فيه إلا أنه سبحانه تجلّى للجبل، كما أَخبرَ سبحانه عن فعله.

ونُرددُ مع سيد قطب قولَه: «فكيف كان هذا التجلّي؟ نحن لا نملكُ أنْ نصفَه، ولا نملكُ أنْ ندركَه، ولا نَملكُ أنْ نستشرفَه إلاّ بتلك اللطيفةِ التي تصلُنا بالله، حين تشفُّ أرواحُنا وتصفو، وتتجهُ بكلّيتها إلى مصدرِها. فأمّا الألفاظُ المجردة فلا تملكُ أنْ تَنقلَ شيئاً. لذلكَ لا نحاولُ بالألفاظ أنْ نصوِّرَ هذا التجلي. ونحنُ أَمْيَلُ إلى اطراحِ كلِّ الرواياتِ التي وَردتْ في تفسيره، وليسَ منها روايةٌ عن المعصومِ ﷺ...»[2].

دك الجبل وصعق موسى:

تجلّى اللّهُ سبحانَه لجبلِ الطور تجلّياً يليقُ بجلالِه وعظمته، ولا نعرفُ نحنُ كيفيتَه، ولم يتحمل الجبلُ الراسخُ تجلّي اللّهِ سبحانه، فَدُكَّ وانْساحَ وهُدم.

والدَّكُّ هو الهدمُ «يقال: دَكَّ البناءَ: إذا هَدَمه حتى سوّاه بالأرض»[3].

ولم يتحملْ موسى منظرَ دَكِّ جبل الطور، فأصابَتْه غشيةٌ شديدة، وخَرَّ مصعوقاً من هول ما رأى وعُنفِ ما سمع.

---

(١) تفسير المنار ٩:١٢٤.

(٢) الظلال ٣:١٣٦٩.

(٣) المعجم الوسيط ١:٢٩١.

فإذا كان موسى لم يتحمَّلْ تجلّي اللّهِ لجبلِ الطور وخَرَّ مصعوقاً مغشياً عليه، فكيف لو تجلّى اللّهُ له هو، استجابةً لطلبه رؤيَتَه؟

قال رشيد رضا: «لما تجلّى ربُّه للجبل أَقَلَّ التجلي وأَدْناه انهدَّ وهبطَ من شدتِهِ وعظمتِه، وصارَ كالأرضِ المدكوكة أو الناقةِ الدكاء. وسقطَ موسى على وجْهه مغشياً عليه، كمن أخذَتْه الصاعقة. والتجلّي إنما كانَ للجبل، فكيف لو كان له؟»[1].

وكان صعقُ موسى من بابِ الغشية، حيث خَرَّ مغشيّاً عليه، وسقطَ مغمى عليه، فاقداً للحسِّ والحركة، وبقي فترةً في غشيتِه وصعقتِه وإغمائِه، لا نعرفُ مقدارَها ولا مدتَها.

موسى أول المؤمنين بأن الله لا يرى في الدنيا:

وبعدَ ذلك أفاقَ منها. وأولُ ما نطقَ به بعدَ الإفاقةِ مناجاتُه لله قائلاً: ﴿سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

نَزَّهَ اللّهَ ومجَّدَه بقوله له: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، وتسبيحُ الله إبعادُ كلِّ ما لا يليقُ به عنه، ووصْفُه بكلِّ جلالٍ وعظمة. وكأنه يقولُ: يا رب سبحانَك فأنت لا تُرى في الدنيا. وكأنَّ إمكانيةَ رؤيتِه سبحانه في الدنيا نقْصٌ لا يليقُ به، ولذلك سارعَ بتسبيحِه وتنزيهه وإبعادِ النقصِ عنه.

بعدَ ذلك أَعلنَ توبتَه إلى ربه: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ والتوبةُ هي الرجوعُ والأَوبةُ إلى الله.

وليستْ توبةُ موسى عليه السلام إلى ربِّه بسببِ ذنبٍ اقترفَه، فهو نبيّ كريم، والأنبياءُ معصومون، وإنما هي قربٌ منه إلى الله، وذكْرٌ له، وتجديدٌ وتوثيقٌ لصلته به سبحانه.

وصرَّحَ موسى عليه السلام بأَنه ﴿أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير المنار ٩:١٢٥.

والراجحُ أنه ليس المرادُ أولَ المؤمنين في التاريخ، فقد سبقَ موسى عليه السلام مؤمنون كثيرون، منذُ آدم عليه السلام وهم الأنبياءُ وأَتْباعهم.

لكنَّ المرادَ أنه أولُ المؤمنين باللّهِ من بني إسرائيل، أي: أولُ مؤمني قومِه، لأَنه رسولُ الله إِليهم، والرسولُ هو أولُ مؤمني قومه، وهو أَعظمُهم إيماناً بالله.

ولابنِ عباس رضي الله عنهما قولٌ آخر لطيفٌ في المراد بالأولية هنا.

قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنه لا يراكَ أَحد.

وقال أبو العالية: قد كان قبلَ موسى عليه السلام مؤمنون، ولكن يقول: أنا أولُ مَنْ آمَنَ بك أنه لا يَراكَ أحدٌ مِن خلقك إِلى يومِ القيامة.

وعلقَ الإمامُ ابنُ كثير على ذلك بقوله: وهذا قولٌ حَسَنٌ له اتجاه»[1].

وقولُ ابنِ عباس وأبي العالية يتفقُ مع الحادثة، فموسى عليه السلام لم يكنْ يعلمُ أنَّ اللّهَ لا يُمكنُ أَن يُرى في الدنيا، ولهذا طلبَ أنْ يَراه، فقدَّمَ اللّهُ له الدليلَ العمليَّ على أنه لا يُرى في الدنيا، ولما رأى الدليلَ العمليَّ تحققَ عنده الإيمانُ الجازمُ باستحالةِ رؤيةِ الله في الدنيا، لأَنه جمعَ في هذا الإيمانِ بين التصديقِ النظريِّ وبين التجربةِ العمليةِ الميدانية.

وأَعلى درجاتِ الإيمان أنْ يَجمعَ المؤمنُ بين التصديقِ النظريِّ والممارسة العملية، كما حصلَ مع إبراهيمَ عليه السلام، عندما أَجرى اللّهُ على يديه تجربةً عمليةً على البعث، وهي الطيورُ الأربعةُ التي بعثَها اللّهُ على يديه بعدَ ذبحِها. وهي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢: ٢٣٥.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

خلاصة الحادثة من تفسير المنار:

وقد سجَّلَ الإمامُ محمد رشيد رضا خلاصةَ معنى الآية التي نحنُ بصددها، فقال: «خلاصةُ معنى الآيةِ أنَّ موسى عليه السلام لما نالَ فضيلةَ تكليمِ اللّهِ له بدون واسطة، فسمعَ ما لم يكنْ يسمعُ قبلَ ذلك، وهو من الغَيب، الذي لا شِبْهَ له ولا نظيرَ في هذا العالم، طلبَ من الربِّ تبارك وتعالى أنْ يمنَحَهُ شرفَ رؤيتِه، وهو يعلمُ أنه تعالى ليسَ كمثلِه شيء، في ذاتِه ولا في صفاته، التي منها كلامُه عز وجل، فكما أنه سمعَ كلاماً ليس كمثله كلام، استشرفَ لرؤيةِ ذاتٍ ليس كمثلِها شيءٌ من الذوات، كما فُهِمَ من ترتيبِ السؤال على التكليم، فلم يكنْ عقلُ موسى - وهو في الذروةِ العليا من العقول البشرية بدليلي العقل والنقل - مانِعاً له من هذا الطلب، ولم يكن دينُه وعلمُه بالله تعالى وهما في الذروةِ العليا أيضاً مانعين له منه.

ولكنَّ اللّهَ تعالى قالَ له: ﴿لَن تَرَانِي﴾، ولكيْ يخففَ عليه ألَمَ الرَّدِّ وهو كليمُه الذي قالَ له في أولِ العهدِ بالوحي إليه ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ أَراهُ بعينيه ومجموعِ إدراكه مِنْ تجلّيه للجبلِ بما لا يعلمهُ سواه، أَنَّ المانعَ من جهتِه هو، لا من جانبِ الجودِ الرباني، فنزَّهَ الله وسبَّحَه وتابَ إليه من هذا الطلب، فبشَّرَه اللّهُ تعالى بأنه اصطفاهُ على الناس برسالاته وبكلامه، دونَ رؤيته، وأَمَرَهُ بأنْ يأخذَ ما أَعطاه، ويكونَ من الشاكرين له..»[١].

---

(١) تفسير المنار ٩: ١٢٦ ـ ١٢٧.

الله اصطفى موسى برسالاته وكلامه وما ترتب عليه:

ولما قالَ موسى بعد إفاقتِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الله له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أَخبره بأَنه اصطفاهُ على الناسِ بأنْ جعلَه نبياً رسولاً، والاصطفاءُ هو الاختيارُ الخاصّ. فاللّهُ اختارَه من بينِ سائرِ الناس، وأَنزلَ عليه وحْيَه، وكلُّ الأنبياءِ مصطَفَوْن، اصطفاهم اللّهُ من بينِ الناس وفضَّلَهم عليهم. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

وعَدّىٰ الاصطفاءَ في الآية بحرف «على» فقال: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ليدلَّ على معنى تفضيلِه على الناس، فكأَنه قال له: إني اصطفيتُك من بين الناس، وفَضَّلْتُك على سائرِ الناس.

وعَبَّرَ عن الرسالاتِ بالجمع: «برسالاتي» مع أَنه بعثَهُ برسالةٍ واحدة، وأَنزلَ عليه التوراة، وذلك إِشارةٌ إِلى تعددِ موضوعات رسالته، حيث تضمنَت رسالتُه العقائدَ والعبادات والتشريعات والأحكام والتوجيهات، فجمعها لهذا الاعتبار[1].

وخصَّ اللّهُ موسى عليه السلام بكلامه، حيث كلَّمَه تكليماً بدون واسطة. ولم يُكلمْ من رسله بدون واسطة إلاّ موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام.

ورتبَ اللّهُ على اصطفاءِ موسى برسالاته وكلامه أَمرين: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) انظر تفسير المنار ٩: ١٢٧.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾: خُذْ ما أُنزلَ عليك من «التوراة»، والتزمْ بما فيها من أحكامٍ وتشريعات.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: اشكُرْني شكراً عاماً شاملاً، مقابلَ اصطفائي لك، ومقابلَ إنزالِ التوراةِ عليك.

إنه اصطفاءٌ وتفضيل، ينتجُ عنه رسالةٌ وتكليف، ويترتبُ عليه شكرُ المنعِمِ المتفضِّلِ سبحانه وتعالى.

كتبت التوراة على الألواح في السماء:

وفي ذلك المكانِ المباركِ عندَ جبلِ الطور أنزلَ اللّهُ التوراةَ على موسى عليه السلام.

وأَشارتْ آياتُ سورةِ الأعراف إلى إنزالِ أَلواحِ التوراة عليه، وإلى بعضِ ما كلَّفه اللّهُ به. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥ ـ ١٤٧].

الأَلواحُ المذكورةُ هنا هي أَلواحُ التوراة، التي أَنزلَها اللّهُ عليه، والأَلواحُ جمع «لوح» هو ما يُكتبُ عليه، من خشب ونحوه.

وأَسندَ اللّهُ كتابةَ ما في الألواح إليه سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾. وهذا يدلُّ على أَنَّ اللّهَ أنزلَ على موسى عليه السلام الأَلواحَ من السماء، وكانت التوراةُ مكتوبةً على الألواح في السماء، ويكونُ هذا معجزةً من الله سبحانه.

نقولُ هذا لأَنه لم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلاميةِ أَنَّ موسى عليه

السلام كان قارئاً كاتباً، كما لم يَرِدْ فيها أنَّ موسى أَخَذَ معه ألواحاً خشبيةً إلى جبل الطور، وأنه كان يكتبُ على تلك الألواح ما يوحىٰ إليه من كلامِ الله، ولم يَرِدْ فيها أنه كانَ معه آخرون يكتبون له!!

وبما أَنه لم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلامية كلامٌ عن هذه الأمور، فعلَينا أنْ نأخذَ هذه الجملةَ القرآنية على ظاهرها: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أَنزلَ اللّهُ على موسى وهو على جبل الطور ألواحاً من السماء، وكان مكتوباً على تلك الألواح كلامُ الله، كُتِبَ ذلك في السماء من قبلِ الملائكة، بأمْرٍ من الله سبحانه.

ولعلَّ التوراةَ المكتوبةَ على تلك الألواح كانت بدايةَ الوحي، ولم تكن التوراةَ كلَّها، ولعلَّ تفاصيلَ الأحكامِ التشريعية جاءَ بعد ذلك، في المراحلِ اللاحقةِ من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.

الألواح مبهمة لا نخوض فيها:

و«الأَلواحُ» المذكورةُ هنا مبهمة، ولا تُفصلُ مصادرُنا الإسلاميةُ عنها شيئاً، فلا نَعرفُ عددَها ولا حجْمَها ولا مادتَها ولا وصْفَها، ولا نذهبُ إلى الإسرائيلياتِ لنأخذَ منها تلك التفصيلات.

قال سيد قطب: «وتختلفُ الرواياتُ والمفسرون في شأنِ هذه الألواح، ويصفُها بعضُهم أَوصافاً مفصَّلَة ـ نحسبُ أَنها منقولةٌ عن الإسرائيليات التي تسربتْ إلى التفسير ـ ولا نجدُ في هذا كلِّه شيئاً عن رسولِ الله ﷺ، فنكتفي بالوقوفِ عند النصِّ القرآنيِّ الصادقِ لا نتعداه. وما تزيدُ تلك الأوصافُ شيئاً أو تُنقصُ من حقيقةِ هذه الألواح. أَما ما هي وكيفَ كُتبتْ فلا يَعنينا هذا في شيء، بما أنه لم يَرِدْ عنها من النصوصِ الصحيحة شيء. والمهمُّ هو ما في هذه الألواح...»[1].

---

(١) الظلال ٣: ١٣٧٠.

التوراة مفصلة وأخذ أحسنها بقوة:

وقد أَخبرنا اللّهُ عن بعضِ ما كتبه في الألواحِ من التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ . . .﴾.

وهذه إشارةٌ إلى بعضِ موضوعات التوراة، فاللّهُ كتبَ فيها كلَّ نوعٍ من أَنواعِ الهداية لبني إسرائيل، وجَعَلَها موعظةً لهم، تعظُهم وترققُ قلوبَهم وتؤثّرَ فيهم بالترغيب والترهيب.

كما جعلَ اللّهُ التوراة تفصيلاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، فصَّلَ فيها العقائدَ والأحكامَ والأخبارَ والآداب، وعرفَ بنو إسرائيل منها ما يريده اللّهُ منهم.

وأمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يأخذَ ما في الألواحِ بقوة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ . .﴾: والمرادُ بالقوةِ هنا قوةُ العزيمة والإرادة، وقوةُ الفهم والعلم، وقوةُ الالتزام والتنفيذ.

إنَّ التوراةَ كلامُ الله، وإنَّ ما فيها فهو شرعُ الله، ولا بد للمؤمنين بها أنْ يَنظروا لها بجديةٍ وحزم، وأنْ يتعاملوا معها بقوةٍ وهمةٍ وفهمٍ والتزام. وهذه صفاتٌ ضروريةٌ لكلِّ مَنْ يؤمنُ بالرسالات وما فيها من تشريعات.

وطلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يأمرَ قومَه بأخْذِ أحسنِ ما في تلك الألواح: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا . .﴾.

و«أحسن» في الجملة أفعلُ تفضيل، وظاهرُه أَنَّ ما في التوراة نوعان، منه ما هو حَسَن، ومنه ما هو أحسن.

وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنَّ أفعلَ التفضيل «أحسن» هنا ليسَ على بابه، فالتفضيلُ ليس مراداً، والمرادُ به وصفُ كلِّ ما في التوراة بأنه ذو حُسْنٍ تامٍّ كامل.

وذلك لأنَّ التوراةَ كلامُ الله، وما فيها أحكامُ الله وتشريعاتُه، وهذه كلُّها موصوفةٌ بالحسنِ التام، وليس فيها حَسَنٌ وأحسن.

والمعنى عند هؤلاء العلماء: أْمُرْ قومَك بالاستمساكِ بكلِّ ما في التوراة فإنها كاملةُ الحسن.

وذهبَ آخَرون من العلماءِ إلى أنَّ أفعلَ التفضيل «أحسن» على ظاهرِه، فما في التوراة منه ما هو حَسَن، ومنه ما هو أحسن.

قالوا: العقائدُ أحسنُ من الأحكام، والأحكامُ أحسنُ من المواعظ، والمواعظُ أحسنُ من الأخبار[1].

والقولُ الأولُ أرجح، لأنه الأكثرُ اتفاقاً مع طبيعة كلام الله وأَحكامِه، ومع موقفِ المؤمن منها. وهو أنْ يأخذَها كلَّها لأنها موصوفةٌ بالحسن التام.

تهديد بني إسرائيل بالعقاب إن فسقوا:

وقالَ اللّهُ لبني إسرائيل مخاطباً لهم عن طريقِ الوحيِ إلى موسى عليه السلام: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

والفاسقون هم الخارجونَ على شرعِ الله ودينِه، الذين كفروا بالله، وكَذَّبوا رسلَه، وعَبدوا غيره، وحاربوا الحق، واتبعوا الباطل، فحقتْ عليهم كلمةُ الله، وأَوقعَ بهم بأسَه وعذابَه وانتقامه، فقضى عليهم ودمرهم تدميراً.

والراجحُ أنَّ المرادَ بالفاسقين هنا الكافرون الظالمون من السابقين، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، وقومِ لوط ومدين، وآخرُ نموذجٍ لهؤلاء هم فرعونَ وملَئِه، الذين أَغرقهم اللّهُ أمامَ أعينِ بني إسرائيل.

ويكونُ معنى الجملة ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: سأبينُ لكم عاقبةَ الفاسقين، وأُريكم ما أُوقعُ بهم من عقابٍ بسبب فسقهم.

---

(١) انظر تفسير المنار ٩: ١٩٢ ـ ١٩٣.

ويكونُ المرادُ بهذه الجملة تهديدُ بني إسرائيل، فكأنَّه يقولُ لهم: إنْ أَخذتُم ما في التوراة بقوة، والتزمْتم كلَّ ما فيها وهو كاملُ الحسن، أفلحتم، وإنْ خالفتُم وعصيتم، كنتم من الفاسقين، وعند ذلك يقعُ بكم ما وقعَ بالفاسقين من قبلكم من عقابٍ وعذاب.

فالجملةُ تهديدٌ لبني إسرائيل، لئلا يفسقوا ويخالفوا أَحكامَ الله.

ست صفات للمصروفين عن آيات الله:

وذَكَرَ اللّهُ لنا بعضَ ما قرره في التوراةِ لبني إسرائيل، فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦ ـ ١٤٧].

وقد بَينتْ هذه الآياتُ بعضَ صفاتِ الذين يُصرفون عن آياتِ الله، وصفاتُهم المذكورةُ هنا هي:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: إنهم متكبرون في الأرض، يتكبَّرون على الآخرين، ويتكبَّرون على الحق فيرفضون أنْ يَتَّبعوه، ويعتبرونَ أَنفسهم أَعلى منه وأرفع!

٢ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾: تكبُّرهم قادَهم إلى الكفرِ عناداً، فمهما يروا آياتِ فيما حولَهم يكفروا بها، ويرفضوا قبولَها والإيمانَ بها.

إِنهم يكفرون بآياتِ الله عناداً واستكباراً، وليس عن جهلٍ بها، فليست لهم حجةٌ في ذلك الكفر.

٣ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: لأَنهم متكبرون وكافرون بالحق، فهم يرفضونَ اتباعَ سبيلِ الرشد، وسلوكَ طريقِ الهدى، رغم وضوحِه أَمَامهم، ورغمَ رؤيتِهم وتبيُّنِهم له.

٤ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾: صفاتُهم السابقةُ السيئةُ قادَتْهم إلى سوء الاختيار، فبينما رفضوا سلوكَ سبيلِ الرشد، فقد وقعوا في جريمةٍ أعظمَ وأشنع، وهي اتخاذُ سبيلِ الغيِّ والضلال سبيلاً.

وكلُّ مَنْ رفضَ اتباعَ سبيل الرشد، فإنه سيتبعُ سبيلَ الغي، لا محالة، لأنهما سبيلان اثنان لا ثالثَ لهما، إمّا سبيلُ الرشدِ والهدى والنور، وإمّا سبيلُ الغيِّ والضلال والظلام.

وإذا كان المؤمنون المتواضعون يتخذونَ سبيلَ الرشدِ سبيلاً، فإنَّ الكافرين المتكبرين يتخذون سبيلَ الغيِّ سبيلاً.

٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾: كان هؤلاء المصروفون عن آياتِ اللّهِ مكذبين بآياتِ الله، كما كانوا غافلين عنها.

وتكذيبُهم بآياتِ الله وغفلَتُهم عنها سِرُّ ما أَوقعَ اللّهُ بهم من عقوبةٍ شديدة، وهي صرْفُهم عن آياتِ الله. ولذلك عَبَّرَ عن ذلك باسمِ الإشارة وباء السببية. أي: فعَلْنا بهم ذلك الصرفَ عن آياتِنا بسببِ أنهم كذبوا بها وغفلوا عنها.

٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ﴾: وهذه نتيجةٌ لصفاتِهم السابقةِ السيئة، فقد أحبطَ اللّهُ لهم أعمالهم، وأَبطلَها وألغاها، فلم تَعُدْ نافعةً لهم، بسببِ كلِّ ما اتصفوا به من قبائح ورذائل.

بعدَ ذلك ذكرَ أنه سبحانه عادلٌ بهم في ما أَوقعَ بهم من عقاب، لأَنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بذلك، وسنةُ اللّهِ أنه يُجازي كلَّ إنسانٍ بعمله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فما وقعَ بهم من إحباطٍ لأعمالهم، وصرفِهم عن آياتِ الله، وتعذيبٍ وعقاب، إنما هو بسببِ صفاتِهم السيئةِ التي اتصفوا بها، وأعمالِهم القبيحةِ التي عملوها.

وإِخبارُ الله لبني إسرائيل عن صفاتِ المصروفين عن آياتِه في أَولِ

ما أنزلَ على نبيه موسى عليه السلام من التوراة، من بابِ تحذيرِه لهم، لئلا يَتَّصفوا بتلك الصفات، حتى لا يَنالوا تلك العقوبات!.

كانتْ بدايةُ إنزالِ التوراة على موسى عليه السلام عندَ جبلِ الطور، في ذلك اليومِ المبارك، ويبدو أنَّ اللّهَ أَوحى إِلى موسى أحكاماً أُخرى بعد ذلك.

التوراة كتاب وفرقان وضياء وذكر قبل التحريف:

وقد وردتْ بعضُ أوصافِ التوراة في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣].

التوراةُ كتابٌ لأنها كتابُ اللّهِ وكلامُه، أَمَرَ بكتابتِه على الألواح: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ..﴾. ويجبُ الإيمانُ بأنها كتابٌ من كتبِ اللّهِ التي أنزلَها على رسله. ومَنْ أنكرَ كونَ التوراةِ كتاباً من كتبِ الله فقد كفرَ بالله، لأنَّ الإيمانَ بالكتبِ ركنٌ من أركان الإيمان.

والتوراةُ فرقان، فَرَّقَ اللّهُ به بين الحقِّ والباطل، فكلُّ ما فيها حق، وكلُّ ما ناقضَها باطل، كما أَنها فُرقانٌ فَرَّقَ اللّهُ بها بين الحلال والحرام.

والتوراةُ الموصوفةُ بأنها كتابٌ وفرقان، هي التوراةُ التي أنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام، وذلك قبلَ أنْ تمتدَّ إِليها أَيدي الأحبارِ بالتحريفِ والتغييرِ والتبديلِ.

أما بعدَ تحريفها وتبديلها فلم تَعُدْ كتاباً لله، ولا فرقاناً بين الحقِّ والباطل، وإنما صارت كتاباً ممزوجاً بالأَباطيلِ والأكاذيب!

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

جعلَ اللّهُ التوراةَ نوراً تنيرُ حياة بني إسرائيل، وهدى يهتدونَ بها، فاهتدوا بها في حياةِ موسى عليه السلام وأنارتْ حياتَهم. وهذا قبلَ تحريفهم لها، أما بعدَما حرَّفوها فقد طمسوا نورَها، وبددوا هداها، فنسخَها الله.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

التوراةُ فرقانٌ بالمعنى الذي قررناه، وهي ضياءٌ يضيءُ لبني إسرائيل حياتَهم، وقد سبقَ وصْفُها بالنور، فهي ضياءٌ ونور، وهي ذكرٌ للمتقين المؤمنين بها، تدلُّهم على كيفيةِ ذكرِهم لله وعبادته، وحُسنِ التقرب إليه.

وهذا قبلَ تحريفِ الأَحبارِ لها، أما بعدَ تحريفها فلم تَعُدْ فرقاناً ولا ضياءً ولا ذكراً للمتقين!!

والتوراة بصائر وهدى ورحمة قبل التحريف:

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣].

جعلَ اللّهُ التوراةَ بصائرَ للناس، يُبصرونَ بها الحق، ويتعرفون عليه ويُميزونَه عن الباطل، كما جعلَها هدى يَهتدون بها إلى طريقِ الحق، ويَصِلون بها إلى مرضاةِ الله، ورحمةً لهم يرحمُهم بها، ويفيضُ عليهم رحمتَه عندما يلتزمون بها.

أما بعدَ تحريفِ الأَحبارِ لها فلم تَعُدْ رحمةً ولا هدى ولا بصائر.

هذه بعضُ صفاتِ التوراة الواردةِ في آيات القرآن: كتابٌ وفرقان، نورٌ وهدى، ضياءٌ وذكر، بصائر ورحمة.

وهذه هي صفاتُ كلِّ كتابٍ من كتبِ الله، أنزله على أحدٍ من رسله، فهي صفاتٌ تنطبقُ على الإنجيل، كما تنطبقُ على القرآن.

وهذه الصفاتُ تحققتْ في التوراةِ التي أنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام، وبقيتْ موجودةً فيها حتى عدا عليها أَحبارُ اليهود، وأَمعنوا فيها تحريفاً وتزويراً وتغييراً وتبديلاً، وأضافوا لها أكاذيبَهم ومزاعمَهم وكلامَهم.

وبذلك زالتْ عنها هذه الصفاتُ الإيجابية، فنسخَها اللّهُ وأَبطلها، وأنزلَ القرآنَ الكريم، وأَبقاهُ محفوظاً حتى قيام الساعة!!.

[٣]

عبادة بني إسرائيل العجل

بينما كان موسى عليه السلام يسعدُ بمناجاةِ اللّهِ وتكليمه وتلقّي كتابه على جبل الطور، وقعتْ مشكلةٌ عظيمةٌ في قومه، حيث زيَّنَ لهم السامريُّ عبادةَ العجل، وقد أخبرَ اللّهُ موسى عن هذه المشكلة وهو على الطور.

قصة عبادتهم العجل في سورتي طه والأعراف:

وفصَّلَتْ آياتُ سورة طه قليلاً في حديثها عن هذه المشكلة.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ

مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٨٣ ـ ٩٨].

وأشارتْ إلى هذه المشكلةِ آياتٌ من سورةِ الأعراف. قال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٤].

ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ تضيفُ جديداً على هذه الآيات، وتفصِّلُ شيئاً في عبادةِ بني إسرائيل للعجل، ولهذا سننظرُ في آياتِ القرآن، ونقدمُ بعضَ دلالاتها وإشاراتها عن هذه الحادثةِ العجيبة، ولن نذهبَ إلى الإسرائيلياتِ لأخْذِ ما فيها من روايات.

الله يعاتب موسى لعجلته وجواب موسى:

أَخبرَ اللّهُ موسى وهو على جبل الطور بما حدثَ في قومه من عبادة العجل، وسأله اللّهُ قائلاً: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟.

ومعنى السؤال: أيُّ شيء حملك على العجلةِ والسرعة؟ ولماذا تعجلْتَ القدوم؟ ولماذا عجلْتَ عنهم وسبقْتَهم؟

يقال: عَجِلَ إليه: أَسرعَ في القدومِ إليه.

وعاجَلَه: تعجَّلَ معه. وعَجَلَه: سَبَقَه. وتعجَّلَه: حثَّه على الإسراع. واستعجله: استحثَّه[1].

وهذا الاستفهامُ فيه معنى العتاب، يعاتبُ اللّهُ موسى لتعجلِه وسبقِه لقومه، ولا يَعني هذا أن موسى عليه السلام مخطئٌ في تعجلِه، لأنه جاءَ جبلَ الطور بأمرِ الله، وتنفيذاً للمواعدةِ التي واعده اللّهُ إياها، وقد تركَ أخاه هارون خليفةً فيهم.

قال الراغب عن العجلة: «العَجَلَة: طلبُ الشيء وتحرّيه قبلَ أوانه. وهو من مقتضى الشهوة. فلذلك صارتْ مذمومةً في عامةِ القرآن، حتى قيل: «العَجَلَة من الشيطان»[2].

أجابَ موسى على السؤال قائلاً: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ . . .﴾.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٢: ٥٨٦.

(٢) المفردات: ٥٤٨.

الأَثَر: هو ما يتركُه الماشي على الأرضِ من علاماتِ قدمٍ أو خُفٍّ أو غيرِه. فهو بمعنى العلامة.

يقال: جاءَ فلان على أَثَرِه. أي: جاءَ يتبعُه.

معنى: هم أُولاء على أَثَري: إنَّ قومي سائرون على أَثَري، متابعون لمواقعِ قدمي.

ومرادُه أنَّ قومي قادمون ينزلون قريباً من جبل الطور.

ويدلُّ السؤالُ والجواب: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ على أنَّ بني إسرائيل كانوا مع هارون عليه السلام قريبين من موسى عليه السلام.

كما يدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام قد سبقَ قومَه القدومَ إلى جبلِ الطور حسبَ الموعدِ الذي واعدَهُ اللّهُ إياه، وطلبَ منهم أنْ يلحقوا به بإمرةِ هارون، وأنْ يكونوا قريبين منه، وأنْ ينزلوا خلالَ مدةِ الثلاثين يوماً قريباً من جبل الطور.

لذلكَ لما سألَهُ اللّهُ عن سببِ سبْقِه لقومه وعجلتِه عنهم أجابه بأَنهم على أَثَره، قريبون منه.

ثم أجابَ عن سببِ عجلته بقوله: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

أي: تعجلتُ في القدومِ إليك، حسبَ الموعدِ الذي واعَدْتَني إياه، وكلّي شوقٌ لحلولِ الموعد، وذلك لتزدادَ عني رضا.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن هذه العجلة: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾. فذكَرَ أنَّ عجلَتَه ـ وإنْ كانتْ مذمومة ـ فالذي دعا إليها محمود، وهو طلبُ رضا اللّهِ تعالى..»[1].

وعلقَ سيد قطب على ذلك بقوله: «لقد غلبَ الشوقُ على موسى

---

(١) المفردات: ٥٤٨.

إلى مناجاةِ الله، والوقوفِ بين يديه، وقد ذاقَ حلاوتَها من قبل، فهو إليها مشتاقٌ عجول.. ووقفَ في حضرة مولاه، وهو لا يعلمُ ما وراءه، ولا ما أَحدثَ القومُ بعده، حين تركَهم في أسفلِ الجبل، وهنا ينبئُه اللّهُ بما كان خلفه...»[1].

الله يفتن بني إسرائيل بالسامري:

أخبرَ اللّهُ موسى بما حدثَ في قومه في غيبته: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

لقد امتحنَ اللّهُ بني إسرائيل بالسامري، وابتلاهم وفتَنَهم به، وجعلَه فتنةً لهم، ليَعلمَ مَنْ يثبتُ منهم على الإيمان والتوحيد، ومَنْ يتخلّى عن ذلك ويَسيرُ مع السامري في ضلالِه وكفره.

وأُسندت الفتنةُ إلى الله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾، على اعتبارِ أنه القادرُ المريدُ سبحانه، وأنَّ كلَّ ما يقعُ فهو بمشيئته وإرادته سبحانه، لقد أَرادَ امتحانَ بني إسرائيل بالسامري، فتحققَ ما أَراده سبحانه، وقامَ السامريُّ بما قامَ به.

- وبينما أُسندت الفتنةُ إلى اللّهِ في الجملة السابقة، فقد أُسندَ الإضلالُ إلى السامري: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

وهذا الإسنادُ حقيقي، لأنَّ السامريَّ هو السببُ المباشرُ في إضلالهم، المتسببُ في فتنتهم.

ولم يُذكر السامريُّ في غيرِ سورةِ طه. وهو اسمُ علمٍ أعجمي جامدٌ غيرُ مشتق. فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقه في اللغة العربية، ولا عن معنى اسمه فيها.

وموقفُنا منه كموقفِنا من باقي الأَسماءِ الأعجميةِ المذكورةِ في القرآن، مثل هامان وقارون وفرعون.

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٣٤٦.

و«السامريُّ» مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لم يَرِدْ أيُّ بيانٍ حولَه في مصادرِنا الإسلامية اليقينية، فلا توجَدُ أحاديثٌ صحيحةٌ تتحدث عنه، بينما تخوضُ فيه الإسرائيليات كثيراً.

السامري والسامريون والسامرة:

ذُكرَ السامريُّ في هذا الموضع من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ولم يُذكرْ له دورٌ إلا في صناعةِ العجل من الحلي، وبعدما جاءَ موسى عليه السلام عاقبه بأنْ قالَ له: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾.

لم يذكرْ لنا القرآنُ كيف كانتْ بدايةُ السامري، ولا ما جَرى له بعد عقابِ موسى له، ولا كيفَ كانتْ نهايتُه. فلا نعرفُ شيئاً عن ذلك.

لكن وجودَ السامريِّ مع بني إسرائيل في سيناء، يدلُّ على أَنه واحدٌ منهم، فهو إسرائيلي، خرجَ مع موسى من مصر. نقولُ ذلك لأنَّ ظاهرَ القرآن أنَّ موسى عليه السلام خرجَ ببني إسرائيل من مصر إلى سيناء، وأَنه لم يصحبهم أحدٌ من غيرهم في الخروج، فوجودُ السامريِّ معهم في سيناء دليلٌ على أنه واحدٌ منهم.

وفي المراحلِ اللاحقةِ من تاريخ بني إسرائيل انقسموا إلى عدةِ فرق، كان منها فرقة «السامِرِيّين».

والسامريّونَ طائفةٌ يهوديةٌ خاصة، لهم أفكارٌ ونظراتٌ خاصة، تختلفُ عن باقي طوائفِ اليهود وفرقهم، وتكفِّرُ باقي الطوائف.

ويبدو أَنهم يتفقونَ مع السامريِّ في الاسم فقط، فهو سامريّ وهم سامريّون، ولعله لا توجَدُ صلةٌ نَسَبِيَّةٌ بينهم وبينه، فلم يَذكر التاريخُ شيئاً عن السامريِّ بعد عقَابه، ولا عن أولاده ونسله وذريتِه.

كما أَنه لا صلةَ بين «السامريّ» وبين مدينةِ «سامرة» التي بناها بعضُ ملوكِ اليهود بالقربِ من مدينة «نابلس» في فلسطين، لأنَّ بناءَ

السامرة كان في فترةٍ متأخرةٍ من تاريخ اليهود، بعدَ هلاكِ السامري بعدة قرون.

عودة موسى إلى قومه غضبان أسفاً:

بعدما أخبرَ اللّهُ موسى بإضلالِ السامريِّ لقومه، حزنَ موسى وتألم، وحملَ ألواحَه معه، وغادرَ جبلَ الطور وعادَ إلى قومه. قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

وصفت الآيةُ موسى عند عودتِه لقومه بوصفين: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

«غضبان» وصْفٌ يدلُّ على شدةِ غضبه على قومه لضلالهم وفسادِ أَحوالهم وعبادتهم للعجل.

و«أَسِفاً» وصفٌ يدلُّ على شدةِ حزنِه على قومه أيضاً بسبب ما فعلوه.

قال محمد الطاهر بن عاشور في الغضبِ والأَسَفِ المذكورَيْن هنا:

«الغضب: انفعالُ النفسِ وهيجانٌ ينشأ عن إدراك ما يسوءُها ويسخطها دون خوف، والوصفُ منه غضبان.

والأَسِف: انفعالٌ للنفس، ينشأُ من إِدراكِ ما يحزنُها وما تكرهه، مع انكسارِ الخاطر. والوصْفُ منه أَسَف.

وقد اجتمعَ الانفعالان في نفسِ موسى، لأَنه يسوءهُ وقوعُ ذلك في أمته. فانفعالُه المتعلقُ بحالهم غَضَب. وهو أَيضاً يحزنُه وقوعُ ذلك وهو في مناجاةِ الله تعالى، التي كان يأملُ أنْ تكونَ سببَ رضى اللّهِ عن قومه، فإذا بهم أَتوا بما لا يُرضي الله، ولذلك انكسرَ خاطره...»[1].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٧: ٢٨١ ـ ٢٨٢.

إذنْ غضبَ موسى من جريمةِ قومه وعصيانِهم، وأَسِفَ وحزنَ من أجلهم، وتألمَ من أفعالهم القبيحة.

وليستْ هذه أولَ مرة يغضبُ فيها منهم ويأسفُ حزناً عليهم، فقد مَرَّ بذلك الغضبِ والأسف لما كانوا في مصر معذَّبين، وقالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومَرَّ بذلك الغضبِ والأسف لما مَرّوا على قوم يعبدون أصناماً فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ ...﴾ فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ...﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩].

إنَّ موسى عليه السلام يواجهُ هذه الطبيعةَ العجيبةَ لقومه، وكلما حاولَ أنْ يرتقيَ بهم في عالمِ الإيمانِ والفضائل، ارتكسوا وهبطوا إلى عالمِ المخالفاتِ والرذائل. وهذه طبيعةٌ تدعو إلى غضبِه عليهم وحزنِه من أجلهم.

موسى يلقي الألواح وليس الخبر كالمعاينة:

وصلَ موسى عليه السلام إلى قومه، وهو يحملُ الألواح، فوجَدَهم عاكفين على العجلِ الذهبيّ عابدين له، فزادَ انفعالُه وغضبُه وحزنُه وأسفُه، وألقى الألواح من يديه، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

قالَ ابنُ عاشور: «وإلقاءُ الألواح رميُها من يده إلى الأرض، وذلك يُؤْذِنُ بأنه لما نزلَ من المناجاة كانت الألواحُ في يده..

ثم إنَّ إلقاءَه إياها إنما كان إظهاراً للغضب، أو أثراً من آثارِ فورانِ الغضب لما شاهدهم على تلك الحالة..»[١].

---

(١) المرجع السابق ٩:١١٣.

فلم يكن إلقاؤه للألواح إهانةً ولا تحقيراً لها، وإنما كان إلقاءً لا إرادياً، ناتجاً عن شدةِ غضبه وانفعالِه.

غضبَ موسى وحزنَ وأسِفَ لما علمَ بعبادةِ قومه العجل وهو على الجبل، لكنَّ غضَبَه وأسفَه زادَ وتفاعلَ لما رآهم يعبدونَ العجل، وأدّى ذلك إلى إلقائه الألواح.

روى أحمدُ وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ليسَ الخبرُ كالمعاينة. إنَّ اللّهَ تعالى أخبر موسى بما صنعَ قومُه في العجل، فلم يُلْقِ الألواح، فلما عاينَ ما صنعوا، ألقى الألواحَ فانكسرت»[1].

يشيرُ الحديثُ إلى الفرقِ بين تأثُرِ مَنْ أُخبرَ عن شيء، وتأثُر مَنْ عايشَ ذلك الشيء ورآه: «ليسَ الخبرُ كالمعاينة»، فتأثُرُ وانفعالُ المشاهِدِ للشيء أضعافُ تأثُرِ مَنْ أُخبرَ به، وهذه حالةٌ نفسيةٌ معروفة.

وذكرَ الحديثُ حالةَ موسى عليه السلام أوضحَ مثالٍ على هذا، حيث اختلفَ انفعالُه عندما شاهدَ قومَه يعبدون العجل عن انفعالِه عندما أُخبرَ عن ذلك.

لقد أدّاه انفعالُه عندما شاهدَهُم إلى إلقاءِ الألواح، ونتجَ عن إلقائها انكسارُها، كما أَخبرَ رسولُ الله ﷺ.

موسى يعنف ويوبخ قومه:

وأقبلَ موسى عليه السلام على قومه لائماً معنِّفاً موبِّخاً: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ...﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ

(١) أخرجه أحمد في المسند ١:٢١٥، ٢٧١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٠٧.

يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٨٦].

لامَهم على مخالفتِهم في غيابه، وذمَّهم على سوءِ خلافتِهم له: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾.

والاستفهامُ في «أَعجلتم» إنكاري، ومعنى «عجلتم»: تعجلْتُم وسارعْتُم. ومعنى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: غضبَه وعقابَه.

ومعنى قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟: لماذا سارعتم بفعلِ ما يسببُ غضبَ ربِّكم عليكم؟ وهو عبادتُكم العجل. أما علمتم أنَّ اللّهَ يَغضبُ من ذلك ويعاقِبُ مَنْ فعلَه؟ فكيف فعلتموه؟ أَتريدون أنْ تتعجلوا عقابَ الله؟.

والاستفهامُ في: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾؟ إنكاري. فلما عبدوا العجلَ استحقوا غضبَ الله، وكأَنَّهم بذلك يُنكرون وعدَ الله الحسنِ الذي وعَدَهم إيّاه. فَنَزَّلَهم موسى عليه السلام بهذا الاستفهام الإنكاريِّ منزلةَ مَنْ زعمَ أنَّ الله لم يَعْدِهُم وعداً حسناً، لأنَّ عبادتَهم العجل تتناقضُ مع الوعدِ الحسن.

والمرادُ بالوعدِ الحسن هنا وعدُ الله لموسى ثلاثين ليلةً لإنزال التوراة عليه بعدها، فوَعْدُه لموسى وعْدٌ حسنٌ منه سبحانه لهم، لأنَّ في التوراة إِحسانٌ لحياتهم وإِصلاحٌ لحالهم.

وكانَ الأجدرُ بهم أنْ ينتظروا وعْدَ اللهِ بالحسنى والعبادة، وأنْ يَرقبوا عودةَ موسى إليهم ومعه التوراة، فكيف راقبوا وانتظروا عودة موسى بالتوراة وهم عابدون لغير الله؟

والاستفهامُ في: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؟ إنكاري أيضاً.

والمرادُ بالعهد هنا المدة التي غابَها عنهم. فقد أَخبرهم أنه سيعودُ لهم بعد ثلاثين يوماً، وأَبقى فيهم أَخاهُ هارونَ النبي، ومَدَّدَ اللّهُ المدةَ عشرةَ أيام، وفي هذه الأَيامِ عبدوا العجل.

إنه ينكرُ عليهم ما فعلوه في هذه المدة، ألأنَّهُ غابَ عنهم عشرةَ أيام أُخرى ظنوا به الظنون؟ وخالَفوا دينَه وعبدوا العجل؟ أكانت الأربعون يوماً عهداً طويلاً وفترةً مديدة، طالَ عليهم العهدُ فيها، ودفعَتْهم إلى عبادةِ العجل؟ ومعهم خليفتُه النبيُّ هارون!!.

إنَّ الأربعين يوماً مدةٌ قصيرة، لا تدعوكم إلى مخالفةِ شرعِ الله وعبادةِ غيره، ولا شبهةَ ولا عذرَ لكم فيما فعلتموه فيها..

و«أَمْ» في قوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ حرفُ إضرابٍ بمعنى «بل».

والمعنى: كلاّ إنه ما طالَ عليكم العهدُ في غيابي، بل أَنتم أردتم أنْ يحلَّ عليكم غضبُ ربكم، فأخلفتُم موعدي وعبدتم العجل!.

تعليل بني إسرائيل لعبادتهم العجل:

ردَّ بنو إسرائيل على تعنيفِ ولومِ موسى قائلين: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾.

في قوله «بملكنا» ثلاث قراءات:

الأولى: قراءةُ نافع وعاصم: «بِمَلْكِنا» بفتح الميم. و«المَلْكُ» بفتح الميم مصدر. تقول: مَلَك، يملِك، مَلْكاً. كما تقول: ضرَب، يضرِب، ضَرْباً. وهو بمعنى الإرادة. أي: ما أَخلفنا موعدك بإرادتنا.

الثانية: قراءةُ ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر: «بِمِلْكِنا»، بكسر الميم. وهي لغةٌ ثانيةٌ في المصدر، بمعنى اللغة الأولى.

الثالثة: قراءةُ حمزة والكسائي: «بِمُلْكِنا» بضمِّ الميم. وهي لغةٌ أُخرى في المصدر.

فالمصدرُ مُثَلَّث. تقول: مَلَك، يَمْلِك، مُلْكاً، ومَلْكاً، ومِلْكاً[1].

---

(١) انظر «حجة القراءات» لابن زنجلة: ٤٦١. والمعجم الوسيط ٢: ٨٨٦.

ومعنى كلامهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾: أننا لم نتعمدْ إخلافَ موعدك، ولا عبادةَ العجل، وما فعلْنا ذلك بإرادتِنا واختيارِنا ورغبتنا، فكنّا نريدُ أنْ نبقى محافظين على العهدِ والوعد.

ولكن حصلَ أمْرٌ ليسَ في حسابنا، أدّى ذلك إلى إضلالِنا وإخلافِنا الموعد.

وبيَّنوا الذي حملَهم على إخلافِ الموعد وعبادتِهم العجل بقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

وفي قوله: ﴿حُمِّلْنَآ﴾ قراءتان:

الأُولى: قراءةُ أبي عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: «حَمَلْنا» بتخفيفِ الفعل وفتحِ الحاء على أنَّ «نا» فاعل. أي: حَمَلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها.

الثانية: قراءةُ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم: «حُمِّلْنا» بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميم. و«نا»: نائب فاعل.

والمعنى: حَمَّلَنا السامريُّ أوزاراً من زينةِ القوم، وأَشْعَرَنا أننا مذنبون بتملُّكِها، وأَمَرَنا بطرحها، فقذفناها لنتخلصَ منها[1].

و«حُمِّلَ» في القرآن تردُ دائماً بمعنى التكليفِ والأمرِ بالحمل والأداء، ومشقةِ الحمل وثقلِه. كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ﴾ [النور: ٥٤].

والقراءتان متكاملتان، فالقومُ أَخبروا موسى عليه السلام أنهم

---

(١) انظر حجة القراءات: ٤٦٢.

شعروا بأَنهم يحملون أوزاراً وأثقالاً من زينة القوم، وأَنها آثامٌ عليهم طالما هي بين أَيديهم، فأرادوا قذْفَها والتخلصَ منها، فجاءَ السامريُّ وأَشعرهم بأَنهم يحملونَ الأوزارَ والآثام، وقوّى شعورهم بالتخلصِ منها، وطلبَ منهم إلقاءها وقذفَها، وبينَ لهم أنَّ هذا هو الطريقُ الوحيدُ للتخلص منها.

تحرج بني إسرائيل من الاحتفاظ بزينة المصريين:

وتدلُّ جملةُ: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ على ما فعلوه في مصر بإذنٍ من موسى عليه السلام.

فقد قاموا باستعارةِ حليٍّ وزينةٍ من المصريين ليلةَ الخروج، وحَمَلوا تلكَ الزينةَ والحليَ معهم أثناءَ خروجهم.

وسبقَ أنْ أشرْنا إِلى أَنهم لا يلامون على ذلك، فقد كانوا يعملونَ عند المصريين عشراتِ السنين سُخْرَةً بدون مقابل، وكثيراً ما أكلَ المصريون حقوقَهم وأموالَهم، فلهم حقوقٌ وأموال كثيرة في ذمةِ المصريين.

وأَخْذُهم حليَّ وزينةَ المصريين ليلةَ خروجهم هو في الحقيقةِ أَخْذٌ لبعضِ حقوقهم المالية التي عند المصريين، ولم يكن ذلك سرقة.

والتعبيرُ بكلمة «حُمِّلنا أَوزاراً» يوحي بأَنهم صاروا يتحرَّجونَ من الزينة التي أَخذوها من المصريين. لأَنَّ «حُمِّلَ» توحي بثقلِ الحمل ومشقته. و«الأوزار» هي الأثقالُ المعنوية وليست الحسية، التي تنتجُ عنها الآثام.

لقد اعتبروا ما معهم من حليٍّ وزينةِ المصريين أوزاراً وأثقالاً يحملونها، وآثاماً يَقعون فيها، ولا بدَّ من التخلصِ منها لتزولَ عنهم تلك الآثام.

ورسَّخَ السامريُّ هذا المعنى في شعورهم، وقوّى هذا التحرُّجَ والتأثُّمَ في نفوسهم، ليحققَ مرادَه فيهم، وكأنه كان يقول لهم: هذه

الحليُّ والزينةُ التي معكم أوزارٌ وأثقالٌ تحملونها، وتُسببُ لكم الإثمَ والعذاب، فأنتم سرقتموها من المصريين، ولا بدَّ أنْ تتخلَّصوا من هذه «المسروقات» حتى يزولَ عنكم التحرجُ والتأنيبُ والشعورُ بالإثمِ والذنب.

ثم دعاهم إلى قذفِها وطرحِها وإلقائِها، ففعلوا. ولما قذفوها أخذَها السامريُّ وصنعَ منها العجل: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

وكلامُهم هذا تبريرٌ منهم لجريمتِهم، واعتذارٌ باردٌ عنها، كما قالَ الإمامُ ابن كثير في تفسيره: «ثم شرعوا يعتذرونَ بالعذرِ البارد، يُخبرونَه عن تورُّعِهم عما كان بأيديهم من حليِّ القبط، الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر. . .

. . وحاصلُ ما اعتذرَ به هؤلاء الجهلةُ أنهم تورَّعوا عن زينةِ القبط فألقَوها عنهم وعبدوا العجل، فتورَّعوا عن الحقير، وفعلوا الأمْرَ الكبير. كما جاءَ في الحديثِ الصحيحِ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سأَله رجلٌ من أهلِ العراق عن دَمِ البعوضِ إذا أصابَ الثوب، هل يصلّي فيه أم لا؟

فقال ابنُ عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهلِ العراق، قتلوا ابنَ بنتِ رسول الله ﷺ - يعني الحسينَ بن علي رضي الله عنهما - وهم يسألونَ عن دمِ البعوضة!»[1].

السامري يذكر لموسى قصته في صناعة العجل:

وقد بيّنَ السامريُّ لموسى عليه السلام كيفيةَ صناعتِه العجل. فموسى عليه السلام سأله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾؟.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٨.

والخَطْبُ هو الأمْرُ والشأن. قال الإمام الراغب: «والخَطْب: الأمرُ العظيمُ الذي يكثرُ فيه التخاطب»[1].

والمعنى: ما شأنُك يا سامري؟ وما حَمَلَك على فعْلِ ما فعلْتَه؟ ولماذا صنعْتَ لهم العجل وأَضللتهم؟ وكيف فعلْتَ ذلك؟

أجابَ السامريُّ بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

وهذا كلامٌ مجملٌ مبهم، لم يبيَّنْ في مصادرِنا الإسلامية، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ النبويةِ الصحيحة، ولذلك اختلفَ المفسِّرون اختلافاً كثيراً في تفسيره، وذهبَ بعضُهم إلى الإسرائيليات يبيِّنون منها ما فيه من إجمال.

وسنذكرُ الراجحَ في معنى الآيةِ دونَ الدخولِ في الأقوال الخلافية:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾: أَبصرتُ ما لم يُبصروه، ونظرتُ ما لم ينظروه، وشاهدتُ ما لم يُشاهدوه، ورأيتُ ما لم يروه.

وفرْقٌ بين الفعلَيْن: «بَصُر» و«أَبْصر».

«أَبْصر» بمعنى «رأى» بعينيه. تقول: أبصرَ فلان الشيء. إذا رآه بعينيه.

و«بَصُر» بمعنى عَلِمَ وفطن. تقول: بَصُرَ فلانٌ بالشيء. إذا علمَ به، وصارَ به بصيراً عالماً.

والبصيرُ بالشيء هو العالمُ به.

قال ابنُ عاشور: «معنى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾: أَبصرتُ ما لم يُبصروه، ونظرتُ ما لم يَنظروه.

---

(١) المفردات: ٢٨٦.

و«بَصُرَ» و«أَبْصَرَ» كلاهما من أفعالِ النظرِ بالعين. إلا أنَّ «بَصُرَ بالشيء» صارَ بصيراً به، أو بصيراً بسببه. فهو شديدُ الإبصار. فهو أقوى من «أبصرت»، لأنه صيغَ من «فَعُلَ» ـ بضمِّ العين ـ الذي تُشْتَقُّ منه الصفاتُ المشبهة الدالةُ على كونِ الوصف سجية.

.. وحكى في لسانِ العرب عن اللحياني: إِنه لبصيرٌ بالأشياء. أي: عالمٌ بها، وبَصُرْتُ بالشيء: علمتُه. وجعلَ منه قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾.

فالمعنى: علمتُ ما لم يعلموه، وفطنتُ لما لم يفطنوا له...»[1].

«ما» في قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ اسمُ موصولٍ بمعنى «الذي»، وفاعل «يبصروا» يعودُ على بني إسرائيل.

والمعنى: رأيت بعينيّ الذي لم يَروه، وهذه الرؤيةُ أَوحتْ لي بشيء لم يلتفتوا له، ففطنتُ لما لم يفطنوا له، وعلمتُ ما لم يعلموه.

والصيغةُ تَجمعُ بين الإبصارِ العيني والإدراكِ العلمي.

السامري يأخذ قبضة من أثر قدم جبريل:

فما الذي أَبصره وبَصُرَ به مما لم يبصروه هم ولم يلتفتوا له؟

تُوضحُ ذلك الجملةُ التالية: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ...﴾.

القبض: أَخْذُ الشيء بقبضةِ اليد.

والقبضةُ من الشيء: ما قبضتَ عليه مِن مِلْءِ كَفِّك. يقال: أَعطاه قبضةً من تمر. أي: ملءَ كفٍّ منه[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١٦: ٢٩٦.

(٢) المعجم الوسيط ٢: ٧١١.

والقبضةُ هنا مصدر، لكنها بمعنى الشيء المقبوض. أي: قبضتُ شيئاً مقبوضاً من أثرِ الرسول.

والأثر: هو ما يتركُه الماشي من صورةِ قدمِه على الأرض أو الرمل.

والرسول: الراجحُ أنَّ المرادَ به هنا «جبريل» عليه السلام.

والمعنى: أخذْتُ ملْءَ كفّي من أثرِ الرسول جبريل. أي: من الترابِ الذي مشى عليه.

وجبريلُ عليه السلام رسولٌ من الله إلى أنبيائِه ورسلِه من البشر، يرسلُه اللّهُ إليهم بالوحي، ويبلِّغُهم شرعَ اللّهِ وكلامَه.

وأُطلقَ عليه وصف «رسول» في أكثرَ من آيةٍ من القرآن. منها قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ..﴾ [الشورى: ٥١].

وبما أنَّ القرآنَ أطلقَ على جبريل عليه السلام وصفَ «رسول»، فالراجحُ أنَّ المرادَ بالرسول في قول السامري: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ هو جبريل.

ومعنى قوله: «فنبذْتُها»: ألقيتُها وطرحتُها. أي: ألقيتُ تلك القبضة من التراب.

ومعنى «سَوَّلَت»: زيَّنَتْ ورغَّبتْ.

قال الإمام الراغب: «والتسويل: تزيينُ النفس لما تحرصُ عليه، وتصويرُ القبيحِ منه في صورة الحسن. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا

عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٥][1].

فمعنى قول السامري: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾: نفسي هي التي زينتْ لي صنعَ العجلِ، ودعوةَ القومِ إلى عبادته، وهي التي رغَّبَتْني في ذلك وحثَّتْني عليه، وأنا استجبتُ لها وفعلْتُ ما دعَتْني إليه.

الشيطان يستغل مهارة السامري في صناعة التماثيل:

وهذا اعترافٌ منه بأنه هو الذي صنعَ العجل، وبضلالِه وإضلالِه لغيره، وإخبارٌ منه عن كيفية صناعة العجل.

وخلاصةُ صناعته للعجل: أنه كانَ يمشي أثناءَ ذهابِ موسى عليه السلام إلى جبل الطور، فرأى الرسولَ جبريلَ عليه السلام، ولم يرهُ أحدٌ غيرُه من بني إسرائيل، فأُلقيَ في روعِه وهاجسِه وخاطره أنْ يأخذَ قبضةً من التراب من أَثَرِ قدمِ جبريل، فأخذَها لأنه سيكون لها شأن فيما بعد.

ويبدو أنَّ السامريَّ كان ماهراً في صناعةِ التماثيل، لَمّا كان في مصر، وهذا هو سرُّ تفوُّقِه على بني إسرائيل في هذه الصناعة. فوظَّفَ مهارتَه السابقةَ في صنعِ تمثالٍ لهم.

وقد استخدمَ الشيطانُ السامريَّ في إضلال بني إسرائيل، واستفادَ من مهارتِه في صنعِ التماثيل لتحقيقِ هدفه الشيطاني.

أوحى الشيطانُ للسامريِّ أنْ يجمعَ الحليَّ والزينةَ من بني إسرائيل، وأنْ يصهرَها بالنار، ثم يطرحَ عليها تلك القبضةَ الترابية التي أَخذها من أثرِ قدمِ جبريل، ثم يصبَّ من ذلك عجلاً، ويدعوَ بني إسرائيل لعبادته، على اعتباره إلهاً لهم.

وصارَ السامريُّ جندياً من جنودِ الشيطان، فنفَّذَ ما أَوحى إليه به.

---

(١) المفردات: ٤٣٧.

وكان السامريُّ ماكراً شيطاناً، فتحايَلَ على بني إسرائيل ليصهرَ ما معهم من الزينة، واستغلَّ تحرُّجَهم منها لتحقيقِ هدفه، وركَّزَ على هذا الجانب.

قالَ لهم: أنتم مؤمنون، ومعكم زينةٌ وحليٌّ سرقتموها من المصريين، وهذا لا يتفقُ مع إيمانكم، فكيفَ تحتفظون بهذه الزينة المسروقة؟ إنها أوزارٌ وأثقالٌ وآثام في أعناقكم، وهي سببٌ لغضب الرب عليكم، ولا بدَّ أنْ تتخلَّصوا من هذه الزينة، التي تبقى تذكِّرُكم بذلك الذنب.

وصدَّقَ بنو إسرائيل السامريَّ، واعتقدوا أَنه ناصحٌ لهم، حريصٌ على تخليصِهم مما معهم، فجمعوا الزينةَ المأخوذةَ من المصريين، ثم طَرَحوها وقذفوها وتخلَّصوا منها، وبذلك ارتاحَتْ ضمائرُهم، وشعروا بأَنهم قد تخلصوا من الحرام، وتخفَّفوا من الوزرِ والإثم.

واعترفوا لموسى عليه السلام بذلك لَمّا لامَهم وعنَّفَهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾.

السامري يخلط القبضة مع الزينة المصهورة:

أمّا السامريُّ فقد أخذَ الحليَّ والزينةَ التي قذفوها وتخلَّصوا منها، ثم صَهَرَها وأَذابها، وأَلقى عليها قبضةَ التراب التي أَخذها من تحتِ قدمِ جبريل عليه السلام، فتفاعَلَت القبضةُ الترابيةُ مع الحليِّ المصهورة، وصنعَ منها العجل.

وهذا معنى كلامِه لموسى عليه السلام: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

وهذا هو فهمُ بعضِ التابعين للآية.

قال مجاهد: ألقى السامريُّ ما كان في يدهِ على حليةِ بني إسرائيل، فانسبكَ عجلاً جسداً له خوار.

وقال عكرمة: رأى السامريُّ الرسول، فأُلقيَ في روعِه أنك إنْ أخذْتَ من أثرِ هذا الفرس قبضةً فألقيْتَها في شيء فقلْتَ له كُنْ، فكان. فقبضَ قبضةً من أثرِ الرسول، فيبستْ أصابِعُه على القبضة. فلما ذهبَ موسى للميقات وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليَّ آلِ فرعون، فقالَ لهم السامري: إنما أصابكم من أجلِ هذا الحلي، فاجْمَعوه. فَجَمَعوه، وأوقدوا عليه فَذاب، فرآهُ السامري، فأُلقيَ في روعه أنكَ لو قذفْتَ هذه القبضة في هذه فقلتَ كُنْ فكان، فقذفَ القبضة وقال: كُنْ عِجْلاً، فكانَ عجلاً جسداً له خوار[1].

ويصنع منها عجلاً جسداً له خوار:

ووُصفَ هذا العجلُ بأنه جَسَدٌ له خوار:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨ ـ ٨٩].

والعجلُ هو ولدُ البقرة قبلَ أنْ يكبرَ ويَصيرَ ثوراً.

ولم يكن العجلُ الذي صنعهُ السامريُّ عجلاً حياً حقيقياً، له روحٌ وحياة، ومُكَوَّنٌ من لحم ودم، لأنه لو كانَ كذلك لكان السامريُّ خالقاً حقيقة، وهذا مستحيل، لأن اللّهَ وحده هو الخالقُ المحيي المميت.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٥٩.

السامريُّ صانعُ تماثيل، ماهرٌ في تشكيلها وتصويرِها وإخراجها، لكنها تبقى تماثيل جامدةٌ لا حياةَ ولا روحَ فيها.

ولهذا وُصفَ العجلُ الذي صنعه بأنه جَسَدٌ له خوار.

الفرق بين الجسم والجسد في القرآن:

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: «والجَسَد: الجسمُ الذي لا روحَ فيه. فهو خاصٌ بجسمِ الحيوان إذا كانَ بلا روح. والمرادُ أنه كجسمِ العجل في الصورة والمقدار إلاَّ أنه ليس بحي.

وما وقعَ في القصص: أنه كان لحماً ودماً ويأكلُ ويشرب، فهو من وضْعِ القصاصين. وكيفَ والقرآنُ يقول: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾، ويقول: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾، فلو كان لحماً ودماً لكانَ ذِكْرُه أَدخلَ في التعجيب منه»[1].

لقد فرَّقَ القرآنُ بين الجسدِ والجسم، فالجَسَدُ ـ كما قال ابنُ عاشور ـ هو الجسمُ بلا روح أو التمثالُ الجامد.

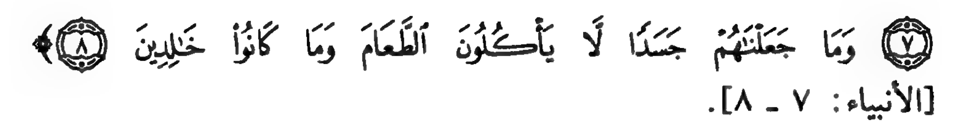
والمراتُ الأربعةُ التي وردتْ فيها كلمةُ «الجسد» في القرآن تؤكِّدُ ذلك، فمنها مرتان في وصْفِ عجل السامري بأنه جَسَدٌ له خوار.

والمرةُ الثالثة: في وصْفِ الجسدِ الذي أُلقيَ على كرسيِّ سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ [ص: ٣٤]. وسنتحدثُ عن ذلك عند عرضِنا لقصةِ سليمانَ إن شاء الله.

والمرةُ الرابعة: في الحديثِ عن الأنبياء السابقين، حيث وصَفَهم بأنهم رجالٌ أحياء، وليسوا أجساداً جامدة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩: ١١٠.


[الأنبياء: ٧ ـ ٨].

أما «الجسمُ» في القرآن فهو الجسمُ الحي، الذي فيه روحٌ وحياة، ووردَ في القرآن مرتيْن بهذ المعنى.

وردَ في الحديثِ عن المَلِكِ «طالوت» الذي جعلَهُ اللّهُ ملكاً على بني إسرائيل: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ووردَ في الحديثِ عن أَجسامِ المنافقين. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ..﴾ [المنافقون: ٤].

والخُوارُ هو صوتُ العجلِ الحقيقيِّ الحي. ولم يَرِدْ في القرآنِ إلا في موضعين ـ في سورتي الأعراف وطه ـ وصفاً للعجل الذهبي الذي صنعه السامري.

وبما أنَّ عجلَ السامريِّ كان جسداً بدونِ حياة، فكيفَ كانَ له خوار؟

لم يكن خوارُه خواراً حقيقياً، لأنه لم يكنْ حياً، وإنما كانَ من مهارةِ السامريِّ في صنعه، حيث صنَعَه بطريقةٍ خاصة، بحيثُ إِذا دخلَهُ الريحُ خرجَ منه صوتٌ يشبهُ خوارَ العجل الحي.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: كان عجلاً أَجوفَ ليس فيه روح، وله خُوار. ولا واللّهِ ما كان له صوتٌ قط، إنما كانت الريحُ تَدخلُ في دبره، وتَخرجُ مِن فيه، وكان الصوتُ من ذلك..[1].

بين عجل السامري وعجل المصريين «أبيس»:

أُعجبَ السامريُّ بالعجلِ الذهبيِّ الجسدِ الذي صنعه، وزادَ إِعجابَه

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٤٧ ـ ١٤٨.

عندما كان يسمعُ خُوارَهُ عند دخولِ الهواءِ فيه وخروجه منه، وافتخرَ بمهارتِه وموهبته الصناعية.

ودعا السامريُّ بني إسرائيلَ إلى النظرِ إلى العجل وسماع خُوارِه، فأُعجبوا به وبخواره.

وكانوا يَعرفونَ «العجلَ الصنم» الذي كان يعبدُه المصريون: «فالقومُ عاشوا في مصر، وألِفوا أنْ يَروا عبادةَ المصريين للعجل «أَبيس» وكانَ للمصريين عنايةٌ فائقةٌ بعبادةِ هذا العجل. وكانت العجولُ المؤلَّهةُ إذا ماتت حَنَّطوها ـ كما يُحَنَّطُ الآدمي ـ بما يحفظُ جسمها من التلف، ودفنوها في مقبرةٍ خاصة في جهة سَقارة..»[1].

ويبدو أنَّ بني إسرائيل تأثَّروا بعبادةِ المصريين للعجل: «أَبيس»، وبقي هذا التأثرُ والإعجابُ كامناً في نفوسهم، فلما جاءتْ أولُ فرصةٍ لإظهارِ هذا التأثرِ الكامن، برزَ على حياتهم، وعَبَدوا العجل الذي صنعه لهم السامري.

ومن المعلومِ بداهةً أنه لم يعبدْ كلُّ بني إسرائيل عجلَ السامريِّ، حيث انقسموا إلى قسمين:

قسمٌ أُعجبوا بالعجلِ وعَبَدوه.

وقسمٌ بقوا مع هارون عليه السلام، وثَبتوا على الإيمانِ بالله وتوحيده.

السامري يدعو المفتونين لعبادة العجل:

ونقفُ لحظةً مع الفريقِ الذين عبدوا العجل، فلما دَعاهم السامريُّ إلى عبادتِه استجابوا له وقال بعضُهم لبعض: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾.

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار: ٢١٨.

أي: هذا العجلُ هو إِلهُكم وإِلهُ موسى نبيِّكم. ولكنَّ موسى نسيَ أنَّ إِلهه هنا مَعَنا، فذهبَ يبحثُ عنه عندَ جبلِ الطور!

قال السديُّ في معنى قوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾: قالَ الضالّون الذينَ افْتُتنوا بالعجل وعبدوه: هذا إلهكم وإلهُ موسى، فنسيَه موسى هنا، وذهبَ يبحثُ عنه ويتطلبه هناك.

فاعلُ «نَسِيَ» على هذا القول يعودُ على «موسى»، والمفعولُ به مقدَّر. أي: نسيَ موسى إلهَه هنا، وذهبَ يبحثُ عنه هناك.

ولابنِ عباسٍ قولٌ آخر في المفعول به، قال: قالوا: هذا إلهكم وإلهُ موسى، فنسيَ موسى أنْ يَذْكُرَ أنَّ هذا إلهكم..

وذهبَ آخرون إِلى أنَّ فاعل «نسي» يعودُ على السامري، أيْ أنَّ السامريَّ دعاهم إِلى عبادةِ العجل، وقالَ لهم: هذا إِلهُكم وإِله موسى، وبذلك نسيَ السامريُّ الهدى والإيمانَ الذي أخذَه من موسى، وتركَه وأَضاعَه، واختارَ الكفر بالله[1].

والراجحُ هو القولُ الأول، حسبَ ما جريْنا عليه في فهمِ سياقِ الحادثة، ومتابعةً منّا لجمهور المفسرين.

وعقبَ القرآنُ على جهالتِهم وضلالِهم في عبادة العجل: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

والاستفهامُ للإنكارِ عليهم والتعجيبِ من حالهم، فكيف جعلوا العجلَ إِلهاً مع أَنهم يرونَه ويشاهدونه؟ إِنه تمثالٌ جامد، لو كلَّموه ما كلَّمهم، ولو طلبوا منه الهدايةَ ما هداهم، فكيف يكونُ إِلهاً؟

وإذا كان هذا هو حالُ العجل التمثال، فإنَّ مَن اتخذَه إلهاً يكون ظالماً، ولهذا كانوا ظالمين كافرين: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٥٨.

التعجيب من عبادتهم العجل الصنم:

وأعادَ فعلَ «اتخذوه» في الآيةِ مع أنه مذكورٌ في أوّلها: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾.

وإعادةُ فعْلِ «اتخذوه» مبالغةٌ في التعجيبِ من حالهم، والتقبيحِ لفعلهم، وليبْني عليه ما بعدَه: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

وعقبَ في سورةِ طه على جريمتهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ [طه: ٨٩].

وهو استفهامٌ للإنكارِ عليهم والتعجيبِ من جهالتهم وضلالهم، فهم يشاهدونَه ويرونَه لا يكلمهم، وإذا كلَّموه لا يردُّ عليهم، وإذا سألوه لا يجيبُهم.

ومعنى ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾: لا يَرُدُّ إليهم قولاً، ولا يقدِّمُ لهم جواباً، فهم يَدْعونَه ويُثْنونَ عليه ويمجِّدونه، وهو ساكت، لا يشكرُهم ولا يَعِدُهم خيراً.

وبما أنه تمثالٌ جامدٌ فإنه لا يقدِّمُ لهم دفعَ ضُرٍّ ولا جلبَ نفع.

فما هذا الإلهُ المعبود، الذي لا يكلِّمُ عابديه، ولا يهديهم السبيل، وإذا أَثنوا عليه لا يردُّ عليهم ولا يشكرهم، وإذا احتاجوا إليه لجلْبِ نفعٍ عجزَ عن تقديمِه لهم، وإذا طلبوا منه دفعَ ضرٍّ عجزَ عن دفعه؟ أهكذا يفعلُ الإله مع عابديه؟

أين هذا العجلُ التمثالُ الذي عبدَه هؤلاء السفهاءُ من اللّهِ ربِّ العالمين؟ الذي أنعمَ عليهم وهداهم، والذي أنقذهم وأنجاهم؟

اتهام الأحبار هارون بصناعة العجل:

ماذا كانَ موقفُ النبيِّ هارون عليه السلام من عبادةِ قومِه العجل؟

التوراةُ المحرفةُ التي كتبها أَحبارُ اليهود الكذبةُ اتَّهموا هارونَ عليه

السلام بأنه هو الذي صنعَ لهم العجل، وقدَّمَه لهم إلهاً، ودعاهم إلى عبادتِه. لنسمعَ هذا النصَّ الكاذبَ من سَفرِ الخروج: «ولما رأى الشعبُ أنَّ موسى قد طالَتْ إقامتُه على الجبل، اجتمعوا حولَ هارون، وقالوا له: هيّا، اصنعْ لنا إلهاً، يتقدَّمُنا في مسيرِنا، لأَننا لا ندري ماذا أَصابَ هذا الرجلَ موسى، الذي أَخْرَجَنا من ديارِ مصر.

فأَجابهم هارون: انزعوا أَقراطَ الذهبِ التي في آذانِ نسائكم وبناتكم وبنيكم، وأَعطوني إيّاها. فنزعوها مِن آذانِهم، وجاءوا بها إليه.

فأَخذها منهم وصهرَها، وصاغَ عجلاً.

عندئذ قالوا: هذه آلهتُك يا إسرائيل التي أخرجَتْك من ديارِ مصر.

وعندما شاهدَ هارونُ ذلك، شَيَّدَ مذبحاً أمامَ العجل، وأعلنَ: غداً هو عيدٌ للرب.

فبكَّرَ الشعبُ في اليوم الثاني، وأَصعدوا مُحْرَقات، وقَدَّموا قرابينَ سلام، ثمَّ احتفلوا، فأَكَلوا وشربوا، ومن ثَمَّ قاموا للهو والمجون..»[1]!!!

هذا كفرٌ يهوديٌّ خبيثٌ يتهمُ هارونَ النبيَّ عليه السلام بأنه هو صانعُ العجل، وأنه خانَ الأمانة، ودعا القومَ إلى عبادةِ غير الله!!

وهل يُعقلُ أنْ يفعلَ نبيٌّ كريمٌ كهارونَ عليه السلام هذا الفعلَ القبيح، وأنْ يدعوَ قومَه إلى عبادةِ غيرِ الله بدلَ أنْ يدعوهم إلى عبادةِ الله؟

إنَّ هارونَ عليه السلام بريءٌ من هذا الاتهامِ اليهوديِّ الكافر، وإنَّ الأحبارَ هم الذينَ كتبوا هذا الكلامَ بأيديهم، ثم زعموا أنه كلامُ الله، وهذا دليلٌ واضحٌ على تحريفِ التوراة.

---

(١) الكتاب المقدس، سفر الخروج، إصحاح: ٣٢، فقرات: ١ ـ ٦، صفحة: ١١٥، طبعة مصر عام ١٩٨٨م.

دلالة تبرئة القرآن لهارون على مصدره:

أمّا القرآنُ الكريمُ فقد نصَّ على موقفِ هارون الواضحِ الصريح، حيثُ أنكرَ عليهم كفرَهم، ودَعاهم إلى عبادةِ اللّهِ وحده. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠].

وهذا هو الموقفُ المتفقُ مع نبوةِ وغيرةِ هارونَ عليه السلام.

قال لهم: يا قوم لقد فُتنتم بالعجلِ الذهبي، وفُتنتم بفتنةِ السامري، وإنَّ السامريَّ شيطان، وهذا عجلٌ تمثالٌ وليس إلهاً. وإنَّ ربَّكم هو اللّهُ الواحدُ الخالق، الرحمنُ المنعم، فاعبدوه وحده، ولا تعبدوا هذا العجل.

ياقوم: اتَّبعوني لأنّي نبيٌّ من عندِ الله، ولأنّي خليفةُ موسى رسولكم، ولأني أهديكم إلى الخيرِ والهدى، ولا تتبعوا السامريَّ لأنه ضالٌ مضل.

يا قوم أَطيعوا أَمري فإنّي لا آمركم إلا بطاعةِ الله، ولا تطيعوا أمْرَ السامري فإنه يأمُركم بالكفرِ باللّهِ وعبادةِ غيره.

ولكنَّ القومَ لم يستمعوا لهارون ولم يُطيعوه، وردّوا عليه قائلين: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩١].

سنبقى عابِدين للعجل، عاكفين على عبادته، مُلازمين له، حتى يرجعَ موسى إلينا.

إنَّ نصَّ القرآنِ على رفضِ هارون عبادةَ قومِه العجل، ونهيِهِ لهم عن ذلك، تصحيحٌ لروايةِ التوراةِ المكذوبة التي أَوردْناها، وهذا دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله وليس تأليفَ محمد ﷺ، وهذا يُثبتُ أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، أَنزلَ اللّهُ عليه القرآن، وجعله رسولاً للعالمين.

فلو تلقّى محمدٌ عليه الصلاة والسلام القرآنَ عن أهلِ الكتاب ـ كما يقولُ بعض السفهاءِ الجهلاء ـ لَنَقَلَ كلَّ ما في كتبهم وأَسفارِهم في

كتابهم المقدس، ولقالَ بما قالوا به منْ أنَّ هارونَ هو الذي صنعَ العجل لقومه، ودعاهم إلى عبادته، ولَمَا ذَكَرَ أَنَّ هارونَ عليه السلام أنكرَ عليهم ذلك ونهاهم عنه[1].

ولما وصلَ موسى إلى قومه ووجَدهم يعبدونَ العجلَ أنكرَ عليهم ذلك، ولامَهم وعنَّفهم. وَوَرَد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ ..﴾ [الأعراف: ١٥٠].

موسى يلوم ويعنف هارون لأنه لم يلحق به:

ومن شدةِ غضبِ موسى على قومِه المخالفين ظَنَّ أنَّ خليفتَه هارونَ قد قَصَّرَ في نهيِهم والإنكارِ عليهم، فقامَ بحركةٍ ماديةٍ عنيفةٍ نحوَ أَخيه، حيثُ سَحَبَهُ من شعرِ رأسِه ولحيته، وراحَ يَجرُّهُ إليه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ وهذا مبالغة منه في لوم أخيه.

وخاطبَ موسى أخاه عليهما السلام لائماً له قائلاً: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣].

إنَّ موسى يوقنُ أنَّ أخاهُ هارون لم يعبد العجلَ معَ مَنْ عبدوه، لأنهُ نبيٌّ معصومٌ لا يَصدُر منه هذا الفعل، ويَعلمُ أنه أنكرَ عليهم عبادةَ العجل، لأنَّ هذا مما يتفقُ مع نبوته، لكنه كان يريدُ أنْ يكونَ إنكارُه أَشَدَّ وأَقوى وأَقسى، يريدُ منه أنْ يحطمَ هذا العجل أمامَهم مثلاً، فإنْ عجزَ عن ذلك، فلا أقلَّ مِن أنْ يغادرَ قومَه ويلحقَ به على جبل الطور، ليخبرَهُ بما فعلَ قومُه.

---

(١) انظر في هذه المسألة تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٩:٢٠٩ ـ ٢١١.

ولهذا قالَ له: يا هارون: عندما رأيتَهم ضلّوا فلماذا لم تتَّبِعَنِ ولم تلحقْ بي؟ ولماذا لم تأتِ إلَيَّ؟ ما الذي منعكَ من المجيء إليَّ؟ إنه ليسَ هناك ما يمنعك! فهلْ عصيتَ أمري ورضيتَ أنْ تبقى مع القومِ عندما عبدوا العجل؟

والاستفهامان في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ . . .أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾؟ وقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؟ للإنكار. يُنكرُ موسى على هارونَ عدمَ اتباعِه له ولحاقِه به، كما ينكرُ عليه موقفَه الذي يُفهمُ منه عصيانُه لأَمْرِه.

علماً أنَّ هارون كانَ متابعاً لموسى عليهما السلام، منفِّذاً لأوامرِه، مُطيعاً له، لأنه نبيٌّ معه ووزيرٌ له. ولكنَّ موسى كان تحتَ تأثيرِ الغضبِ والأسفِ والحزنِ والأَسىٰ مِنْ ما فعلَه قومُه.

هارون يستعطف موسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾:

ولاحظَ هارونُ انفعالَ وغضبَ أَخيه ـ عليهما السلام ـ فأرادَ أنْ يستعطفَه ويرقِّقَ قلْبَه ويخففَ غضبَه، فقال له: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقالَ له: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤].

وفي قوله: «ابنَ أُمَّ» قراءتان صحيحتان:

الأولى: قراءةُ ابنِ عامر وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: «ابنَ أُمِّ» بكسرِ الميم، أصلُها «أُمّي» بياءِ المتكلم، ولما حُذفت الياءُ بقيت الميمُ مكسورة.

الثانيةُ: قراءةُ نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي وحفص عن عاصم: «ابنَ أُمَّ» بفتحِ الميم.

أصلُها: «أُمّي» فَحُذفتْ ياءُ المتكلم للتخفيف، وعُوِّضَ عنها أَلفٌ، فصارَتْ «أُمّا». ثم حُذفت الألفُ للتخفيف فصارت «أُمَّ».

وحرفُ النداء «يا» مذكورٌ في آيةِ سورة طه، من بابِ التأكيدِ على الاستعطاف، والمبالغةِ في الاسترحام، لأنَّ الكلماتِ في الآية تدلُّ على ذلك، بينما الحرفُ محذوفٌ من آية سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ..﴾ لأنَّها أقلُّ استعطافاً واسترحاماً.

ولا يدلُّ قولُ هارونَ لموسى عليهما السلام: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ على أنه أَخوه لأُمِّه، لأنه لم يُنقَلْ ذلك بخبرٍ صحيح. والظاهرُ أنه أخٌ شقيقٌ له من أَبيه وأُمه.

ولكنه قالَ له: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ولم يقل: يا أَخي، مبالغةً منه في استرحامِه واستعطافِه، وترقيقِ قلبه وإِذهابِ غضبه، حيثُ ذكَّره بأَنهما ابنانِ لأمٍّ واحدة، اشتركا في رحمٍ واحدة.

قالَ الإمامُ ابن كثير: قال ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾: تَرَقَّقَ له بذكْرِ الأم، مع أَنه شقيقُه لأبويه. لأنَّ ذكْرَ الأُمِّ ههنا أَرقُّ وأَبلغُ في الحنوِ والعطف..»[1].

واستعطفَ هارونُ أَخاهُ موسى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾.

أي: لا تَشُدَّني من شعْرِ لحيتي، ولا من شعْرِ رأسي، فإنَّ هذا يؤلِمُني ويوجعُني.

ثم بَيَّنَ له أنه لم يسكتْ على عبادتهم العجل، وإنما أَنكرَ عليهم ونَهاهم وذكَّرهم وأَرشدهم، لكنهم لم يَستجيبوا له، واستضعفوه في هياجِهم في عبادة العجل، وكادُوا يقتلونَه ويزهقونَ روحَه: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾.

قالَ ابنُ عاشور: «والسينُ والتاءُ في «استضعفوني» للحسبان، أي:

---

(1) تفسير ابن كثير ٣:١٥٩.

حَسِبوني ضعيفاً لا ناصِرَ لي، لأَنهم تمالَئوا عَلى عبادةِ العجل، ولم يُخالِفْهم هارونُ إلاّ في شرذمةٍ قليلة.

وقوله: ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ يدلُّ على أَنه عارضَهم معارضةً شديدة، ثم سكتَ وسَلَّمَ خشيةَ القتل..»[1].

هارون يبرر بقاءه فيهم بعد نهيهم:

أمّا عن لومِ موسى له لعدمِ مفارقته لهم وعدمِ لحاقه به في قوله: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾؟ فقد بَرَّرَ هارونُ بقاءَه بينهم رغمَ عصيانِهم بقوله: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ..﴾.

وكأنَّ هارونَ عليه السلام يقول: كانَ بإمكاني أَنْ آتيكَ لوحدي لأُخبرك، فتحصلُ الفوضى فيهم بعدي، وأَخشى عندها أَنْ تلومَني وتقول: لقد فَرَّقْتَ بينَ بني إسرائيل وأَوقعْتَ فيهم الفوضى، بذهابِك عنهم.

وكانَ بإمكاني أنْ آخذَ معي الفريقَ الثابتَ على الإيمان، الذين لم يَعبدوا العجل، وهم قلائلُ بالقياسِ إلى الفريق الآخر، وأَنْ أنفصلَ بهم عن الأغلبيةِ عابِدي العجل، ولكنّي خشيتُ أَنْ تقعَ الفرقةُ الشديدةُ بين الفريقين، وقد يقعُ الاقتتالُ بينهما، وعندها ستقولُ أَنتَ لي لائماً معاتباً: فَرَّقْتَ بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي، ولم تحافظ على وصيتي وعهدي، عندما قلتُ لك: اخلُفْني في قومي وأَصلح، ولا تتبعْ سبيلَ المفسدين.

فجملةُ: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها، وهي تابعةٌ لما كانَ هارون يخشاهُ ويتخوَّفُه من موسى. أي: إنْ غادرتُ القومَ خشيتُ

---

(١) التحرير والتنوير ٩: ١١٧.

أنْ تقولَ لي: لماذا يا هارونُ فرقْتَ بينَ بني إسرائيل؟ ولماذا يا هارونُ لم ترقُبْ قولي ولم تُنفِّذْ عهدي لك؟

واجتهدَ هارونُ عليه السلام بالبقاءِ مع قومِه عابدي العجل، واعتبرَ بقاءَه معهم بعدَ إنكارِه عليهم تطبيقاً لقولِ موسى له قبلَ أنْ يغادر: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قالَ سيد قطب معلّقاً على كلام هارون لموسى عليهما السلام: «وهكذا نجدُ هارونَ أهدأَ أعصاباً، وأملكَ لانفعالِه من موسى، فهو يلمسُ في مشاعرِه نقطةً حساسة. ويجيءُ له من ناحيةِ الرحم، وهي أشدُّ حساسية، ويَعرضُ له وجهةَ نظرِه في صورةِ الطاعةِ لأمْرِه حسبَ تقديره. وأَنه خشيَ إنْ هو عالجَ الأمْرَ بالعنفِ أنْ يتفرَّقَ بنو إسرائيل شيعاً، بعضُها مع العجل، وبعضُها مع نصيحة هارون، وقد أَمره أنْ يحافظَ على بني إسرائيل، ولا يُحدثَ فيهم أَمراً، فهي كذلك طاعةُ الأمرِ من ناحيةٍ أُخرى..»[1].

كان اجتهاد هارون خلاف الأولى:

لقد اجتهدَ هارونُ عليه السلام في سياسةِ قومه عندَ تعارُضِ مصلحتين، مصلحةِ حفظِ العقيدة، ومصلحةِ حفظ الجماعةِ والأنفسِ والأموال والأخوة، فرجَّحَ حفظَ الجماعةِ على حفظ العقيدة اجتهاداً منه، على اعتبارِ أنَّ موسى عليه السلام عندما يعودُ سيصححُ عقيدتَهم.

وكان اجتهادُه عليه السلام مرجوحاً، لأنَّ حفظَ العقيدةِ هو الأصل، ومصلحةُ حفظ العقيدةِ مقدَّمةٌ على ما سواها من المصالح[2].

وكانَ عليه أنْ لا يكتفي بالإنكارِ عليهم والنصحِ لهم، بل أنْ يُتْبِعَ ذلك بإزالةِ المنكرِ بيده، وأنْ يفعَلَ كما فعلَ موسى عليه السلام عندما

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٣٤٨.

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ١٦:٢٩٣.

عادَ إليهم، كانَ عليه أنْ يحرقَ العجلَ الصنم، ويَدعو عابديه إلى التوبة.

ولم يكن هارونُ عليه السلام مخطئاً في ترجيحِه واجتهادِه، فموقفُه صواب، لكنَّهُ تركَ ما هو أولى، والله تعالى أعلم.

ولما عرفَ موسى حقيقةَ موقفِ هارون، وأنه لم يسكتْ عليهم، تركَ لومَه وتعنيفَه وسَحْبَه من شعرِه، ودعا اللّهَ له. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

دعا اللّهَ أنْ يغفرَ له تأدُّباً مع الله، فيما ظهرَ عليه من الغضبِ والانفعال. ثم دعا اللّهَ أنْ يغفرَ لأخيه هارون فيما يكونُ وقعَ فيه من تساهُل.

وطلبَ من اللّهِ أنْ يُدخلَهما في رحمته، وأَثنى على اللّهِ بأنّه أرحمُ الراحمين.

موسى يعاقب السامري بالطرد والعزل:

وبعدَما عرف موسى حقيقةَ موقفِ هارون ودَعا له، توجَّهَ إلى السامريِّ وسأَله عن القصة: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾.

فأجابَه السامريُّ قائلًا: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

وقد عَرَفْنا معنى هذه الآية من قبل، أثناءَ حديثِنا عن كيفيةِ صناعةِ السامري للعجل، فلا نعيدُه هنا.

وبعدما عرفَ موسى عليه السلام حقيقةَ ما حدث، أصدرَ أَمْرَهُ على السامريِّ وعجله. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: ٩٧].

كانت عقوبةُ السامريِّ أنْ يُخْلَعَ من بني إسرائيل، وأنْ يُعْزَلَ عنهم، واللّهُ هو الذي أمرَ موسى أنْ يعاقبَه هذه العقوبة، لأنه يعلمُ أنه لا خيرَ فيه، ولا صلاحَ يُرجىٰ منه، لأنه قد استحوذَ عليه الشيطان.

قالَ موسى عليه السلام للسّامري: ﴿فَٱذْهَبْ﴾. أي: اخرجْ من بينِ هذه الأمة، فما عدْتَ واحداً منها، واذهبْ بعيداً عنها.

ومعنى قوله له: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾: أنْ لا تمسَّ أحداً، ولا يمسَّكَ أحد.

«لا» هي لا النافيةُ للجنس. و«مساسَ»: اسمُ لا مبنيٌّ على الفتح، في محلِّ نصب.

والمساسُ هو المماسَّةُ والمسُّ واللمس، وهو مصدر، فعله «ماسَّ».

ولم يَرِدْ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

قال ابنُ كثير في معنى عقوبة السامري: «كما أنكَ أخذْتَ ومسسْتَ ما لم يكنْ لك أخذُه ومسُّه من أثرِ الرسول، فعقوبتُك في الدنيا أنْ تقولَ لا مساس. أي: لا تماسّ الناس ولا يمسّونك..»[1].

وقالَ سيد قطب في عقوبته: «اذهبْ مطروداً، لا يمسُّكَ أحدٌ بسوءٍ ولا بخير، ولا تمسُّ أحداً ـ وكانتْ هذه إحدى العقوبات في ديانةِ موسى عليه السلام، عقوبةَ العزل، وإعلانَ دَنَسِ المدنَّسَ، فلا يقربُه أَحد، ولا يقربُ أحداً»[2].

وقال محمدُ الطاهر بن عاشور: «جعلَ موسى حظَّ السامريِّ في حياته أنْ يقولَ: لا مساس.

أي: سلَبَهُ اللّهُ الأنسَ الذي في طبعِ الإنسان، فعوَّضَه به هوساً

---

(١) تفسير ابن كثير ٤:١٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ٤:٢٣٤٩.

ووسواساً وتوحُشاً. وأَصبحَ متباعداً عن مخالطةِ الناس، عائشاً وحدَه، لا يتركُ أَحداً يقتربُ منه، فإذا لقيهُ إِنسانٌ قال له: لا مساس. أي: لا تمسّني ولا أمسّك. أو: لا تقتربْ مني. فإن المسَّ يطلقُ على الاقتراب، وهذا أنسبُ بصيغةِ المفاعلة: «لا مساس». أي: لا مقاربةَ بيننا. فكانَ يقولُ ذلك، وهذه حالةٌ فظيعة، أصبحَ بها سخرية»[1].

وهكذا انتهى السامري، هذا الرجلُ الشيطاني، الذي استغلَّهُ الشيطانُ في إِحداثِ أعظمِ فتنةٍ في بني إسرائيل، أَخرجَ معظمَهُم فيها من الإيمانِ إلى الكفر، ومن عبادةِ الله إلى عبادةِ صنم عجل. ولم تنفعْهُ خبرتُه ولا مهارتُه ولا موهبتُه في صناعة التماثيل، ولَم تدفَعْ عنه العقوبةَ في الدنيا، ولا العذابَ في الآخرة.

ومضى السامريُّ في الصحراء، مطروداً منبوذاً معزولاً، يَصيحُ في كلِّ مَنْ يقابلُه قائلاً له: لا مِساسَ ولا لمسَ ولا اقتراب، وسيطرَ عليه الهوسُ والتوحشُ والانعزال.

وغادرَ هذه الحياةَ الدنيا ملعوناً مطروداً، وحقَّ عليه عذابُ الله في الآخــرة: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ . . .﴾.

موسى يحرق العجل وينسفه في اليم نسفاً:

أما عجلُ السامريِّ المصنوعُ من حليِّ بني إسرائيل وزينةِ المصريين فإنَّ موسى عليه السلام أمرَ بإحراقِه وتذريتِه في البحر: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

قال للسامريِّ عن العجل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ سخريةً وتهكُّماً به، فقد سبقَ أنْ قالَ السامريُّ لبني إسرائيل:

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٦:٢٩٨.

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾. والآنَ يقولُ له موسى عليه السلام: انظرْ إلى إلهك.

و«ظَلْتَ» أصلُها «ظَلَلْتَ» بلامَيْن، وهي من أَخواتِ «كان»، ترفعُ الاسمَ وتنصبُ الخبر. وحُذفتْ منها اللامُ الأولى تخفيفاً.

و«عاكفاً» خبرُ «ظل» منصوبٍ، ومعناه العكوفُ والملازمة. أي: إلهك الذي ما دُمْتَ ملازماً على عبادته.

ومعنى «لنحرّقَنّه»: تحريقُه تحريقاً شديداً. ومعنى حرقِه هنا صَهْرُه وتذويبُه وبَرْدُه بالمبرد.

يقال: حَرَقَ الحديدَ حرقاً: إذا بَرَدَهُ بالمبرد[1].

قالَ الإمامُ الراغب: حَرْقُ الشيء: إِيقاعُ حرارةٍ في الشيءِ من غيرِ لهيب، كخرقِ الثوبِ بالدَّقّ. وحَرَقَ الرجلُ الشيءَ: إذا بَرَدَهُ بالمبرد»[2].

ومعنى «لننسفَنّه»: لنذرِّيَنَّه في البحر تذرية.

يقال: نسفَ الشيءَ: إذا فَرَّقَهُ وذَرّاه[3].

وورَدَ الفعلان «لنحرقنه ثم لننسفنه» بصيغةِ المبالغة، عن طريقِ لامِ القسم ونونِ التوكيد الثقيلة. للتأكيدِ على إزالتِه.

وأَمَرَ موسى عليه السلام ببرْدِ العجلِ بالمبارد، وهذا هو تحريقُه، ثم أَمَرَ بتذريتِه في البحر.

قالَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «عمدَ موسى إِلى العجل، فوضَعَ عليه المبارد، فبَرَدَهُ بها، وهو على شفا نَهر، فما شربَ أحدٌ من

---

(١) المعجم الوسيط ١:١٦٨.

(٢) المفردات: ٢٢٩.

(٣) المعجم الوسيط ٢:٩١٨.

ذلك الماءِ ممن كانَ يعبدُ ذلك العجل، إلاّ اصفرَّ وجهُه مثلَ الذهب..»[1].

وبذلك أنهى موسى عليه السلام العجلَ الذهبيَّ وأزالَه، وأعادَ بني إسرائيل إلى عبادةِ اللّهِ وحده، وقالَ لهم: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قال لهم: إلهُكم هو اللّهُ ربُّ العالمين، الذي لا تصحُ الألوهيةُ إلا له، ولا تكونُ العبادةُ إلاّ له، فلا إله إلاّ هو. وهو الذي وسعَ كلَّ شيء علماً، وأحاطَ بكلِّ شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء عدداً.

فلا تعبدوا غيرَه، ولا تؤلّهوا غيرَه، ولا تُشركوا به أحداً.

الغضب والذلة على من عبدوا العجل:

وقد عقبَ القرآنُ على عبادةِ بني إسرائيل العجل بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢ ـ ١٥٣].

تبينُ الآيتان غضبَ اللّهِ على الذين اتخذوا العجل إلهاً، وإيقاعَه الذلةَ بهم في الحياةِ الدنيا، لأنّهم مفترون كاذبون، حيثُ زعموا أنَّ العجلَ إلهٌ معبود، وهذا كذبٌ وافتراءٌ على الله، واللّهُ يجزي المفترين الكاذبين عقاباً وذلة.

ويفتحُ اللّهُ لهؤلاء الكافرين المذنبين بابَ التوبةِ والعودةِ إلى الإيمانِ بالله وتوحيدِه، فإنْ تابوا عن كفرِهم وعبادتِهم العجل، وآمنوا باللّهِ وعبدوه وحدَه، فإنَّ اللّهَ يقبلُ توبتَهم، ويغفرُ لهم ذنبَهم، لأنه غفورٌ رحيم..

---

(١) أخرجه الحاكم ٢: ٣٧٩ ـ ٣٨٠ وصححه. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٦.

وبعدما قضىٰ موسى عليه السلام على مشكلةِ العجلِ بصهْرِه وبَرْدِه وتذريتهِ في البحر، وطَرَدَ السامري، عادَ إلى ألواحِه التي ألقاها وكسرها، فبلَّغها إلى قومه، وطالَبهم بالالتزام بها. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

أي: لمّا زالَ عن موسى غضبُه على قومه بعد أنْ قضى على العجلِ وصانعِه أخذَ الألواح، وبلَّغَ ما فيها لقومه.

وما في الألواح هدى ورحمةٌ للمؤمنين الصالحين الذين هم راهبونَ لربهم، يخافونَه ويخشونَه، ويتقرَّبون إليهِ بالعبادة.

جمال تصويري في ﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾:

ونقفُ وقفةً فنيةً أمامَ إسنادِ السكوتِ إلى الغضب: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ..﴾.

قالَ الزمخشريُّ عن جمالِ هذا الإسناد: «هذا مَثَلٌ كأنَّ الغضبَ كان يُغريهِ على ما فَعَل، ويقولُ له: قُلْ لقومِك كذا، وألْقِ الألواح، وجُرَّ برأسِ أخيك إليك. فتَرَكَ النطقَ بذلك، وقَطَعَ الإغراء. ولم يَستحسنْ هذه الكلمة، ولم يَستفصحْها كلُّ ذي طبعٍ سليم وذوقٍ صحيح إلاّ لذلك. ولأنه من قبيلِ شُعَبِ البلاغة..»[1].

وقالَ سيد قطب عن ذلك وما فيه من جمالِ التصويرِ والتشخيص والتخييل: «والتعبيرُ القرآنيُّ يشخصُ الغضب، فكأنما هو حيّ، وكأنما هو مسلَّطٌ على موسى، يدفعُه ويحركُه.. حتى إذا «سكتَ» عنه، وتركَه لشأنه! عادَ موسى إلى نفسه، فأخذَ الألواحَ التي كان قد ألقاها بسببِ دفْعِ الغضبِ له وسيطرتِه عليه...»[2].

---

(١) تفسير الكشاف ٢:١٦٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣:١٣٧٦.

ظلم عابدي العجل وكفرهم:

ولما أرادَ عابدو العجلِ التوبةَ إلى الله، والتكفيرَ عن ذنبهم الكبير الذي ارتكبوه، شَدَّدَ اللّهُ عليهم الكفارة، وقررَ أنها لا تتمُّ إلاّ بأنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً.

وردَ هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٤].

أَخبرهم موسى عليه السلام أَنهم ظلموا أنفسَهم باتخاذِهم العجلَ إلهاً: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ . . .﴾.

وقد أكدتْ آياتُ القرآن على وصْفِ عابدي العجل بالظلم: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

و﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤].

و﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وهارون يقول لموسى عليهما السلام: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: ٩٢].

إِنها خمسُ آياتٍ تصفُهم بالظلم، والظلمُ هنا بمعنى الكفر، لأنَّ اتخاذَ العجل إلهاً كفرٌ بالله عز وجل.

وظُلْمُهم هذا ينعكسُ على أنفسهم، ويرتدُّ إليها، ولهذا قالَ لهم موسى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل.

ندمهم وطلبهم للتوبة:

ولما عرفوا شناعةَ جريمتِهم وعِظَمَ ظلمِهم، أَرادوا العودةَ إلى اللّهِ. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ومعنى ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: لما نَدِموا على ما فعلوا، وتبيَّنَ لهم خطؤُهم وسوءُ فعلِهم بعبادتِهم العجل.

و﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ جملةٌ تفرَّدَ بها القرآن، فلم تَرِدْ في استعمالِ العربِ قبلَ نزولِ القرآن.

قال الزّجّاجُ عن هذه الجملة: «وهو نَظْمٌ لم يُسْمَعْ قبلَ القرآن».

وعلقَ ابنُ عاشور على ذلك: «قلتُ: وهو القولُ الفصل، فإنّي لم أَرَهُ في شيءٍ من كلامهم قبل القرآن..»[1].

ولم تَرِدْ هذه الجملةُ في غيرِ هذا الموضع من القرآن، إخباراً عن ندمِ بني إسرائيل بعدَ عبادتهم العجل..

وقد شعرَ بنو إسرائيل بالندمِ بعدما عادَ موسى عليه السلام وحَرَقَ العجلَ وعاقبَ السامري.

عندَ ذلك رغبوا في التوبة قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وطَلبوا من موسى عليه السلام أنْ يَدُلَّهم على طريقةِ التوبة والتكفير عن الذنب الذي ارتكبوه.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩:١١٢.

طريق التوبة: قتل الصالحين للمذنبين:

فبلَّغهم موسى عليه السلام أمْرَ الله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

لقد جعَلَ اللّهُ لهم الطريقَ الوحيدَ للتوبة هو أنْ يَقتلوا أنفسهم، أيْ أنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً.

ولقد سبقَ أنْ عَرَفْنا أنَّ بني إسرائيل قد انقسموا إلى قسمين في موقفِهم من عبادةِ العجل: الأغلبيةُ استجابوا للسامري وعبدوا العجل، والأقليةُ بقوا مؤمنين مطيعينَ لهارون عليه السلام.

والآنَ يُريد الذين عبدوا العجلَ أنْ يُكفِّروا عن ذنبهم، وأنْ يتوبوا إلى الله.

كلَّفهم موسى أنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. وقامَ الفريق الثابتون على الإيمان بالاستعدادِ لقتْلِ الفريقِ الآخر، واستسلمَ عابِدو العجل للقتلِ على أيدي إخوانهم... وهكذا حدثتْ «مقتلةٌ» في بني إسرائيل أمامَ موسى عليه السلام، بأمْرٍ من اللّهِ سبحانه، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ فيها، وبعدَ ذلك عفا اللّهُ عنهم، وقَبِلَ توبتَهم، وأَمَرَ بإنهاءِ المقتلة!!.

والحديثُ عن هذهِ المقتلة «مُبْهَمٌ» في القرآن، لم يَرِدْ عنه بيانٌ ولا تفصيل، فليسَ أَمامَنا إلاّ قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ..﴾.

ولم يَرِدْ شيٌ عنها في حديثِ رسول الله ﷺ. أمّا الإسرائيلياتُ فإنها تتحدثُ عنها كثيراً، ولكننا لا نذهبُ إليها.

ولهذا نفهمُ النصَّ القرآني على إبهامِه وإجمالِه، ولا نُضيفُ عليه شيئاً.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: أَمَرَ موسى قومَه عن أَمْرِ ربِّه عز وجل أنْ يَقتلوا أنفسهم، وأُخْبِرَ الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقامَ الذين لم يعكفوا على العجل، فأَخَذوا الخناجرَ بأيديهم... فجعلَ يقتلُ بعضُهم بعضاً... كلُّ مَنْ قُتِلَ منهم كانتْ له توبة، وكلُّ مَنْ بقيَ كانَتْ له توبة..

وقالَ قتادة: أُمِرَ القومُ بشديدٍ من الأمر، فقاموا يتناحَرون بالشّفار، يقتلُ بعضُهم بعضاً، حتى بلغَ اللّهُ فيهم نقمتَه، فسَقطت الشّفارُ من أيديهم، فأمسكَ عنهم القتل، فجعَل لحيِّهم توبة، وللمقتولِ شهادة..[1].

ولا يَعنينا تحديدُ رقمِ القتلى الناتجِ عن هذه المذبحة، ولسْنا معَ مَنْ حدَّدَه من السابقينَ بأنه سبعونَ ألفاً، ولعلَّهم أَخذوه من الإسرائيليات، علماً بأنهُ رقمٌ كبير، بالنسبةِ إلى عددِ بني إسرائيل في ذلك الوقت.

اقتلوا أنفسكم: اقتلوا إخوانكم:

والمرادُ بكلمةِ «أنفسكم» في قوله: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ إخوانُكم.

لقد تكررتْ كلمةُ «أنفسكم» مرتين في الآية.

الأُولى: في قولِ موسى لبنِي إسرائيل: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ..﴾ وهو خطابٌ للفريقِ الذين عَبدوا العجل، والمرادُ بكلمة «أنفسكم»: أشخاصُكم وذواتُكم. أي: كنتم ظالمين لأشخاصِكم لَمّا عبدتُّم العجل.

الثانية: في قوله: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. وهو خطابٌ للفريقِ الذين لم يَعبدوا العجل. والمرادُ بكلمةِ «أنفسكم»: إخوانُكم. أي: قوموا بقتْلِ إخوانكم الذين عَبدوا العجل، الراغبينَ الآنَ في التوبة.

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٨٨ ـ ٨٩ باختصار.

ووردتْ كلمةُ «أنفسكم» بمعنى إخوانكم، في آياتٍ عديدة:

منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥].

فكلمةُ «أنفسكم» مذكورةٌ مرتين في الآيتين، بمعنى: إِخوانكم.

ومنها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ . .﴾ [الحجرات: ١١].

أي: لا تلمزوا إِخوانكم، ولا تَعيبوهم ولا تَطعنوا فيهم.

وعقوبةُ الله لهم بقتْلِ بعضِهم بعضاً، وجعْلُها الطريقَ الوحيدَ للتوبة، نموذجٌ من التشريعاتِ والعقوباتِ المشدَّدة التي شَدَّدَها الله على بني إسرائيل.

وبهذا انتهتْ قصةُ عبادةِ بني إسرائيل العجل، وأُسدلَ الستارُ على وقائعِها، لكنها بقيتْ «نقطةً» سوداء، من النقاطِ السوداءِ الكثيرة، التي ملأَتْ تاريخَهم، القائمَ على المخالفاتِ والانحرافاتِ والتجاوزات!!

[٤]

رفع الطور فوقهم وأخذهم بالصاعقة

أَنعمَ اللّهُ على بني إسرائيل نعماً عديدة، وطالبهم أَن يقابلوها بالشكر، ليديمَها عليهم ويزيدَهم منها.

اليهود يقابلون نعم الله بالكفران:

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن عن ما قالَه لهم موسى عليه السلام بهذا

الخصوص. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٦ ـ ٨].

لئن شكرتُم لأزيدَنَّكم، ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد.

لننظرْ هل قابلَ بنو إسرائيلَ نعمَ الله عليهم بالشكر، أم قابلوها بالجحودِ والكفران؟

عرفْنا مما سبق كيف قابلوا نعمةَ إنجائهم من آل فرعون ومن البحر بطلبِ إلهٍ صنم يعبدونَه، وكيف حقَّقوا هذا عملياً، عندما غادرهم موسى عليه السلام، بعبادتهم العجل.

وعرفْنا كيف قابلوا نعمةَ إنزالِ تشريعاتِ وأحكامِ التوراة على موسى لهم بالكفر بالله، حيث عبدوا عجلَ السامريِّ الذهبي.

ولما وقعوا في جريمة عبادةِ العجل أمَرَ الله بعقابهم بأنْ يَقتلَ بعضُهم بعضاً، ثم أنعمَ عليهم بقبولِ توبتهم بعد المقتلة، ورفْعِ القتل عنهم. وكعادتِهم في الجحود والعصيان، لم يقابلوا هذه النعمة بالشكر لله، وإحسانِ الخضوع له، وصدْقِ تنفيذ أحكامه وطاعةِ نبيه عليه السلام.

فلْننظرْ ونتابعْ ما ذكره القرآن من لقطاتٍ ومشاهدَ تاليةٍ من حياتهم في سيناء، ولْنتعرفْ منها طريقتَهم في التعامل مع نعم الله.

موسى يختار سبعين رجلاً من قومه:

قالَ الله عز وجل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٧].

تتحدثُ الآيةُ الأولى من هذه المجموعة عن ما جرى لبني إسرائيل، بعدما أمرَ اللّهُ برفعِ القتل عنهم وقبولِ توبتهم من عبادة العجل.

فقد طلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يَنتخبَ ويَصطفي سبعين رجلًا من خيارِ صالحي قومه، وأنْ يأتيَ بهم إلى جبل الطور، لينوبوا عن باقي قومهم في صدقِ التوبة إلى الله، والندمِ على عبادة العجل، والمعاهدةِ على أنْ لا يعودوا للمخالفة والعصيان.

وسارَ موسى عليه السلام بالسبعين رجلًا إلى جبلِ الطور، وهناك طَلَبَ منهم القيامَ بما حضروا لأجله، والتوبةَ والندمَ وإعطاءَ العهد لله، لكنهم أبوا ورفضوا!!!

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ ...﴾:

الاختيارُ صيغةُ تكلُّفٍ ومبالغة من الخير. تقول: خار، واختار: بمعنى انتقى وانتخب واصطفى.

وهو مثل الانتقاءِ من النقْيِ. والاصطفاءِ من الصفو. والانتخابِ

من النخب. تقول: اختارَ وانتقى واصطفى وانتخب. وهي متقاربةٌ في المعنى.

والاختيار هو: تمييزُ المرغوب من بينِ المختلط بغيره، وهو على وزن «الافتعال»، مشتقٌ من الخير[1].

وأصْلُ «اختار موسى قومه»: اختار موسى من قومه سبعين رجلاً. والتقدير: اختارَ موسى سبعينِ رجلاً من قومه لميقاتنا.

و«اختار» ينصب مفعولين. ويجوزُ أن ينصبَ المفعولَ الثاني مباشرة، ويجوزُ أنْ يتعدّى إلى المفعولِ الثاني بحرف الجر «من».

تقول: اختارَ الرجلُ صديقَه من الناس. وإنْ شئتَ حذفْتَ حرفَ الجر، فتقول: اختارَ الرجلُ صديقَه الناسَ.

واستدلّوا على جوازِ نصبِ الفعلِ للمفعول الثاني مباشرة بشواهدَ شعرية، منها قولُ الراعي:

اخْتَرْتُكَ النـاسَ إذْ رَثَّتْ خَلائِقُهُـمْ   وَاعْتَلَّ مَنْ كانَ يُرْجىٰ عِنْدَه السُّؤْلُ

والشاهدُ فيه قوله: اخترتكَ الناسَ. وأصلها: اخترتك من الناس[2].

وذكرَ الإمامُ محمد رشيد رضا حكمةَ حذفِ حرف الجر في الآية بقوله: «الاختيارُ يكون من فاعلٍ مُختار، وشيء مختارٍ منه، فيتعدّى للثاني بحرف «مِنْ». وكأنَّ نكتةَ حَذْفِ «مِن» الإشارةِ إلى كونِ أولئك السبعين خيارَ قومِه كلِّهم، لا طائفةٍ منهم»[3].

والمعنى: أنَّ موسى عليه السلام نظرَ في قومه جميعاً، وبحثَ عن

---

(١) تفسير ابن عاشور ٩: ١٢١.

(٢) انظر تفسير الدر المصون للسمين ٥: ٤٧٣.

(٣) تفسير المنار ٩: ٢١٥.

أفضلِهم وأصلحِهم، فانتخبَ واصطفى وانتقى واختارَ أفضلَ وأصلحَ سبعين رجلاً منهم.

سارَ بهم إلى جبلِ الطور: «لميقاتنا». ملتزماً الوقتَ الذي وَقَّته وحَدَّده الله له.

مهمة السبعين رجلاً عند جبل الطور:

وهذه عودةٌ منه إلى جبلِ الطور، حيث ذهبَ بمفرده هناك لتلَقّي ألواحِ التوراة.

قالَ اللّهُ عن المرة الأولى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ . .﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقالَ عن هذه المرة: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ . .﴾.

ونلاحظُ تكرارَ كلمةِ «لميقاتنا» في المرتين.

وكانت مهمةُ هؤلاء السبعين الاعتذارَ عما فعلَه قومُهم من عبادة العجل، ومعاهدةِ الله على الاستقامة.

قال عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: كان هؤلاء السبعون علماءَ بني إسرائيل. . ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل، في عبادةِ مَنْ عبد منهم العجل. . .

وقالَ محمد بن إسحاق: اختارَ موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخَيِّرَ فالخَيِّر. وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتُم، وسَلوه التوبةَ على مَنْ تركتم وراءكم مِن قومكم، صوموا، وتطهَّروا وطهِّروا ثيابكم. . فخرجَ بهم إلى طور سيناء، لميقاتٍ وقَّته له ربُّه. وكان لا يأتيه إلا بإذْنٍ منه وعلم. .[1].

ماذا فعلَ هؤلاء السبعون عند وصولهم جبلَ الطور؟

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٤٢.

طلبَ منهم موسى عليه السلام التوبةَ والاعتذارَ وإعطاء العهد، وتنفيذَ ما قدموا لأجله، لكنهم رفضوا ذلك! وأثاروا إشكالاتٍ واعتراضات!! ولم يَذكر القرآنُ شيئاً منها، بينما فَصَّلت الإسرائيلياتُ في الحديث عنها، ولهذا نتوقف في تبيينها وتحديدها.

نكوصهم عن إعطاء العهد وأخذ الرجفة لهم:

فالذي يَعنينا أنَّ السبعينَ نكصوا وتخلَّفوا، ورفضوا القيامَ بما طُلبَ منهم، ولا ننسى أنَّ هؤلاء السبعين كانوا أفضلَ وأصلحَ وأعلمَ قومِهم، وأنَّ موسى اختارهم واصطفاهم من سائرِ القوم! فإذا كانَ أصلحُ بني إسرائيل على هذه المخالفة والتمرد والعصيان، ورفضِ طاعةِ موسى عليه السلام، فكيفَ بباقي بني إسرائيل، وهم دونهم في الصلاح والتقوى؟

إنَّ هذا الموقفَ القبيحَ من السبعين يكشفُ عن الطبيعةِ الخاصة لبني إسرائيل التي تقومُ على التمردِ والمخالفة والعصيان!!

إنه لا ينفعُ مع هؤلاء إلاّ القوةُ والتهديد، وإنَّ اللّهَ يعلمُ طبيعةَ ونفسيةَ هؤلاء. ولذلك أجرى أمامَهم آيةً عظيمةً من آياته.

رفعَ اللّهُ فوقَهم جبلَ الطور، ونظروا إليه خائفين مندهشين مرعوبين! وظنوا أنه سيقعُ بهم ويطحنُهم ويدمِّرُهم!! وقالَ لهم موسى عليه السلام: إمّا أنْ تُبايعوا وإما أنْ يُسقطَ اللّهُ الجبلَ عليكم!!

عند ذلك بايَعوا وعاهَدوا!!!

وأحدثَ رفعُ الجبل رجفةً وزلزلة، نتجَ عنها صاعقةٌ وصوتٌ شديد قاصف، ولم يتمالك السبعون أنفسهم من هول ما يشاهدون وشدةِ ما يَسمعون، فسقطوا مغشياً عليهم!!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ ..﴾.

والرجفةُ هي الزلزلة. تقول: رجفت الأَرض رجْفاً. إذا تحركتْ واضطربت وتزلزلت.

دعاء موسى وتضرعه من أجلهم:

ولما تزلزلت الأرضُ ورجفتْ، نظرَ موسى عليه السلام خلفه فرأى السبعين رجلاً صرعى، فظنَّهم أمواتاً، وخشي اتهامَ قومِه له بقتلهم، ورقَّ قلبُه لهم فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾.

ومعنى كلامه: يا ربِّ إِنني أَتمنّى لو كانتْ سبقتْ مشيئتُك أنْ تُهلكهم من قبلِ خروجهم معي إلى هذا المكان، فأهلكْتَهم وأهلكْتَني معهم، حتى لا أقعَ في حرجٍ شديدٍ مع بني إسرائيل، فيقولوا: قد ذهبْتَ بخيارنا لإهلاكهم. فإذا لم تفعلْ ذلك من قبل، فأسألكَ برحمتِك أنْ لا تفعلَ ذلك الآن، وأنْ لا تُهلكهم الآن[1].

وكلامُ موسى دعاءٌ وتضرعٌ إِلى الله أنْ لا يُهلك الرجالَ السبعين، وأنْ يمنَّ عليهم بالإفاقةِ والصحو.

ثم قال موسى لربه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ ليس الاستفهامُ هنا للإنكار، لأنَّ موسى نبيٌّ كريم عليه السلام، لا ينكرُ على اللّهِ فعلاً من أفعالِه، وإنما هو استفهامٌ للتفجعِ والخشيةِ.

والمعنى: أَخشى يا ربَّنا أنْ تُهلكنا بما فعلَ السفهاءُ منا، وأَرجو أَنْ لا تهلكَنا بسببهم، وأنْ لا تؤاخِذَنا بسببهم.

والسفهاءُ المذكورون هنا هم الذين عبدوا العجل، لأنه لا يَعْبُدُ غيرَ الله، ولا يُؤَلِّهُ غيرَ الله إلا سفيهٌ.

وهذا دليلٌ على أنَّ علماءَ بني إسرائيل بقوا ثابتين مع هارون عليه السلام، وأنَّ الذين عبدوا العجلَ هم الغالبيةُ السفيهةُ من بني إسرائيل.

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا ٩:٢١٥.

ثم قالَ موسى عليه السلام لربه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ...﴾.

والكلامُ هنا عن عبادةِ قومه للعجل. يقولُ موسى لله: إنَّ عبادةَ بني إسرائيل للعجل فتنةٌ منك، فَتَنْتَهم وامتحنْتَهم واختبرْتَهم بها، وفقَ حكمتِك في ذلك، فأنتَ حكيمٌ خبير، ومنهم مَنْ سَلِمَ من الفتنة، ونجحَ في الاختبار، فاهتدى فيها إلى طريق الرشاد، ومنهم مَن افتتنَ بها، ورسبَ في الاختبار، فغويَ وضلَّ بها، وأنتَ الهادي تهدي مَنْ تشاء، وأنتَ تُضِلُّ مَنْ تشاء.

واستمرَّ موسى في دعائه يُثني على الله ويمجِّدُه، فقال له: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ...﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦].

يقررُ موسى أنَّ اللّهَ هو الوليُّ له ولقومه، ويطلبُ منه أنْ يغفرَ له ولقومه وأنْ يرحمهم، ويُثني عليه بأنَّه خيرُ الغافرين الذين يغفرون، وأرحمُ الراحمين الذين يرحمون.

الفرق بين الهود العربية واليهود الأعجمية:

ويطلبُ موسى من ربِّه أنْ يُؤتيه مع قومِه المؤمنين في الدنيا حسنة، وأنْ يُؤتيهم أيضاً في الآخرة، ليجمعوا بين خَيري الدنيا والآخرة.

ثم أعلنَ موسى أَنه مع قومه المؤمنين هادوا إلى الله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ...﴾.

هُدْنا: فعلٌ ماض. مشتقٌّ من «الهَوْدِ» بمعنى: العودةِ والرجوع إلى الحق.

نقول: هادَ، يَهودُ، هَوْداً، فهو هائِدٌ. والقوم هُودٌ. أي: رجعَ، يرجعُ، رجوعاً، فهو راجع، والقومُ راجعون.

فمعنى قولِ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: إنا تُبْنا ورجَعْنا إليك، وندمنا على ما سبقَ أنْ فعلْناه.

ونحبُّ أن نفرقَ هنا بين معنى «الهَوْدِ» وهو العودةُ والرجوعُ إلى الله، وبين كلمة «اليهود» التي تُطلقُ على هذا الجنس البشري المعروف. فكلمة «يهود» اسمُ علمٍ أعجمي، وسُمّوا بذلك نسبةً إلى «يهوذا» ـ بالذال ـ وهو اسمُ ابنِ يعقوب عليه السلام، كما يزعمُ بنو إسرائيل.

واليهودُ الذين بَعْدَ موسى عليه السلام لم يَهودوا ولم يَرجعوا إلى الله، وإنما هم أَبعدُ الناس عن الله.

وذكَرَتْ آياتُ القرآن أنَّ اللّهَ أخبرَ موسى عليه السلام بأنه سيبعثُ محمداً نبياً عليه الصلاة والسلام، وذكَرَ بعضَ صفاته، وبعضَ مميزاتِ رسالته وأَحكامِ شريعته، وطالَبَه أنْ يُبشرَ قومَه ببعثةِ محمد القادمة عليه الصلاة والسلام.

ولهذا قالَ اللّهُ جواباً على دعاء موسى السابق عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وليس هذا موضعَ الحديثِ عن البشاراتِ بالنبي ﷺ ورسالته وشريعته، فهذا له مكانُه الخاص، وسنتابعُ حديثَنا عن الأحداثِ المثيرةِ المعجزة التي حدثَتْ عند جبل الطور في ذلك اليوم.

الله يرفع جبل الطور فوقهم:

استجابَ اللّهُ دعوةَ موسى عليه السلام فأزالَ عن السبعين رجلاً أثرَ الرجفةِ والزلزلة، وأفاقوا من غشيتهم.

ولما فتحوا عيونَهم شاهدوا آيةً ربانيةً عظيمة، ومشهداً مخيفاً مُرعباً! شاهَدوا جبلَ الطور مرفوعاً فوقَهم، وهو على وشكِ السقوطِ عليهم.

لقد أمرَ اللّهُ الأرضَ فرجفتْ واضطربتْ وزلزلتْ، ثم أَمَرَ بجبلِ الطور فَحُرِّكَ ورُفعَ من مكانه! نعم، رفعَ اللّهُ الجبلَ العظيمَ الراسخَ الضاربَ في أعماق الأرض، رفعَهُ من مكانِه وعلَّقَه في الفضاء، وصارَ كأنه سحابةٌ تظللُ السبعين رجلاً تظليلَ خوفٍ ورعب، وليس تظليلَ إنعامٍ وتكريم.

وليس هذا الفعلُ غريباً على اللّهِ سبحانه، فاللّهُ فَعّالٌ لما يريد، وأَمْرُهُ بين الكاف والنون، لأنه إذا أرادَ شيئاً فإنما يقولُ له كن، فيكونُ كما أَرادَ سبحانه.

إنَّ الله هو الذي أَلقى جبلَ الطورِ في الأرض، وجعلَه راسخاً مستقراً في مكانه، واللّهُ هو الذي أَرادَ أَنْ يجعلَ منه آية، فرفعَهُ فوقَ القوم، وأَمسكَه في الفضاء، ولمّا حققَ إرادتَه من ذلك أَعادَه ثابتاً مستقراً مكانه، وسيبقى في مكانِه إلى أَنْ يشاءَ الله!!

وبما أنَّ الفعلَ فعلُ اللّهِ فما الغرابةُ في ذلك؟

لقد وردَ رفْعُ الجبلِ فوقَ الرجال السبعين في أكثر من آيةٍ في القرآن. من هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤].

يخاطبُ اللّهُ في هذه الآياتِ اليهودَ، ويُخبرهم بما فعلَ مع أسلافِهم السابقين، حيث رفعَ فوقَهم جبلَ الطور، وطالَبهم بإعطاءِ العهد والميثاق، فأعطوه.

أمرهم الله بأمرين:

وأَمرهم اللّهُ بأمريْن:

الأول: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: تمسَّكوا بكتابنا الذي آتيناكم ـ وهو التوراة ـ والتزموا بما فيه من تشريعاتٍ وتوجيهات وأحكام، واعْملوا بما فيه بقوةٍ وجدية ونشاط، ولا تضعفوا في ذلك.

الثاني: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: تعلَّموا ما في كتابنا، واذْكُروه واعلموه، لتعرفوا المطلوبَ منكم فتنفِّذوه وتُؤَدّوه.

وتنفيذُ الأمريْن يُحققُ التقوى، وهي الحالةُ الإيمانيةُ التي لا بدَّ أنْ يعيشَها دائماً كلُّ مؤمنٍ بالله، منفذٍ لأحكامه، عالمٍ بكتابه.

قالَ سيد قطب في تعليقه على هذيْن الأمرين: «المهمُّ هنا هو استحضارُ المشهد، والتناسقُ النفسيُّ والتعبيريُّ بين قوةِ رفعِ الصخرة فوق رؤوسهم وقوةِ أَخْذِ العهد، وأَمْرهم أنْ يأخذوا بما فيه بقوة، وأنْ يعزموا فيه عزيمة. فأَمْرُ العقيدة لا رخاوةَ فيه ولا تميع، ولا يقبلُ أنصافَ الحلول ولا الهزلَ ولا الرخاوة.. إنه عهدُ الله مع المؤمنين.. وهو جدٌّ وحق، فلا سبيلَ فيه لغيرِ الجدّ والحق.. وله تكاليفُ شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعتُه. إنه أَمرٌ عظيم. أعظمُ من كل ما في الوجود، فلا بدَّ أنْ تُقبلَ عليه النفسُ إقبالَ الجادِّ القاصدِ العارفِ بتكاليفه، المتجمعِ الهمِّ والعزيمة، المصممِ على هذه التكاليف، ولا بدَّ أنْ يُدركَ صاحبُ هذا الأمر أنه إنما يَودعُ حياةَ الدعةِ والرخاء والرخاوة...

ولا بُدَّ مع أخذِ العهد بقوةٍ وجدٍّ واستجماعِ نفس وتصميم.. لا بدَّ مع هذا من تذكُّرِ ما فيه، واستشعارِ حقيقتِه، والتكيفِ بهذه

الحقيقة، كي لا يكونَ الأمْرُ كلُّه مجردَ حماسةٍ وحميةٍ وقوة. فعهْدُ الله منهجُ حياة، منهجٌ يستقرُّ في القلب تصوراً وشعوراً، ويستقرُّ في الحياة وضعاً ونظاماً، ويستقرُّ في السلوك أدباً وخلقاً، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية الضمير..»[1].

لكن ماذا فعلَ بنو إسرائيلَ بالعهد الذي أَعطوه؟ تعامَلوا معه وفقَ طبيعتِهم الخاصة، القائمةِ على المخالفةِ والتمرد والنكث، فنقضوه وخالَفوه، وتولَّوا عن شرعِ الله، وسجل عليهم القرآن هذه الجريمة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

معنى نتق الطور فوقهم وتشبيهه بالظلة:

ومن الآياتِ التي تكلمتْ عن رفعِ الطور فوقهم قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

نَتَقَ اللّهُ الجبلَ فوقهم. ونَتَقَ بمعنى «رفع» المذكورةُ في الآية السابقة.

تقول: نتقَ الرجلُ الشيء: رَفَعه من مكانه، ليرميَ به. أو: هَزَّهُ ونفضه[2].

قال الإمام الراغب: «نتقَ الشيء: جذبَه ونزعَه حتى يسترخي، كنتْقِ عُرى الحِمل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾. ومنه استعير امرأة ناتِق: إذا كثرَ ولَدُها»[3].

لما نتقَ اللّهُ جبلَ الطور ورفَعه فوقَ رؤوسهم، صارَ كأنه ظلةٌ تظللُهم بظلِّها.

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٦.
(٢) المعجم الوسيط ٢: ٩٠٠.
(٣) المفردات: ٧٩٠.

والظلةُ هي ما يظللُ الإنسانَ ويَغْشاه ويحجبُ عنه الشمس، من شجرةٍ أَو بيتٍ أَو جبل أَو غيره.

قال الراغب: «الظلة: سحابةٌ تظلل. وأكثرُ ما تستعملُ فيما يُسْتَوْخَمُ ويُكره»[1].

ولم تَرد الظلةُ في القرآن إلاّ مرتين: مرة في العذاب، ومرة في التهديد بالعذاب.

قالَ اللّهُ عن تعذيبِ قوم مدينَ لما كذبوا شعيباً عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ الشعراء: ١٨٩].

وهنا هددَ اللّهُ السبعين رجلاً بالعذاب، حيث جعلَ الطورَ فوقَهم كأنه سحابةٌ تريدُ أنْ تَسقطَ عليهم: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ..﴾.

ومع أنَّ اللّهَ لما نتقَ واقتلعَ الجبل، وجعلَه فوقَهم، صار ظلةً تظللُهم، ومع ذلك قالت الآية: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، ولم تَقل: صارَ ظلةً.

والحكمةُ من قوله: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، أَنه لم يجعلْه ظلةً تظللهم إِنعاماً عليهم، ولا حَجْباً لحرِّ الشمس عنهم، فليستْ وظيفتُه إظلالاً حقيقياً، وإنما كان إظلالاً تهديدياً وتخويفياً، ولهذا كان ظلةَ تهديد، وليس ظلةَ تكريم!![2].

ولهذا أَتبعَ التشبيهَ بذكْرِ أثرِ المشهد على نفوس القوم: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، فامتلأَ القومُ خوفاً وهلعاً ورعباً، لأنَّ الجبلَ المعلَّقَ فوقَهم في الفضاء، إنْ بقي هكذا سيقعُ بهم ويسقطُ عليهم.

---

(١) المرجع السابق: ٥٣٦.

(٢) تفسير المنار لرشيد رضا ٩:٣٨٦.

عند ذلك أَمرهم اللّهُ أنْ يأخذوا شرعَه لهم بقوة، وأنْ يذكُروا ويتعلَّموا ما فيه، وأنْ يُعطوا العهدَ والميثاق، وإلاَّ أوقعَ اللّهُ عليهم الجبلَ وسحقَهم تحته. فأَعطوا العهدَ والميثاق في هذا الجوِّ التهديدي. وهذا هو الذي ينفعُ مع اليهود.

ومن الآياتِ التي تحدثَتْ عن رفْعِ الطور فوقَهم قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وهكذا أَعطى السبعونَ رجلاً إسرائيلياً عهدَهم وميثاقَهم، عندَ جبل الطور، وأَعلنوا ندمَهم وتوبتَهم، نيابةً عن قومهم الذين عبدوا العجل، لكن أَعطوا عهدَهم وميثاقَهم بعد التخويفِ والتهديد، لأَنَّ هذا هو المتفقُ مع طبيعتهم المتخاذلة الرخوة.

وعادَ السبعونَ رجلاً مع موسى عليه السلام إِلى قومهم الذين كانوا ينتظرونهم، وعاشوا معهم، وانتقلوا إِلى مشهدٍ جديد من المشاهدِ العجيبة المتتابعة للقوم.

بنو إسرائيل يطلبون رؤية الله جهرة:

انتقلَ بنو إِسرائيلَ من المخالفاتِ السابقة إِلى مخالفةٍ جديدة، فقد كانتْ حياتُهم مع موسى عليه السلام تقومُ على المخالفاتِ المتتابعة، فما كانوا يَخرجونَ من مخالفةٍ إِلا ليَقعوا في مخالفةٍ أُخرى، وهذه هي طبيعتُهم في التعامل مع شرع الله.

حَسَدوا موسى عليه السلام على تكريم اللّهِ له، ونفسوا عليه تكليمَ اللّهِ له، وقالوا له: لماذا أنتَ تكلمُ اللّهَ ويكلمُك ونحنُ لا نكلمُه ولا نَسمعه ولا نَراه؟ لا بدَّ أنْ نرى اللّهَ جهرةً بعيوننا. وقد ذكَرَ القرآنُ طلبَهم العجيب وما ترتبَ عليه من عقابٍ من اللّهِ لهم. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

والراجحُ أنَّ الذينَ قالوا له: لن نؤمنَ لك حتى نرى اللّهَ جهرة، غيرُ السبعين رجلاً الذين رفعَ اللّهُ الطورَ فوقَهم، والراجحُ أنَّ الصاعقةَ التي صعقتْ هؤلاء هي غيرُ الرجفة التي رجفتْ بالقومِ عند جبل الطور، وأنها كانت بعد الرجفة.

قالَ رشيد رضا: «قالَ الأستاذُ الإمام: سؤالُ بني إِسرائيل رؤيةَ الله تعالى واقعةٌ مستقلةٌ لا تتصلُ بمسألةِ عبادةِ العجل، وهي معروفةٌ عند بني إسرائيل، ومنصوصةٌ في كتابهم...»[1].

قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

عَلَّقوا إِيمانَهم لموسى واستسلامَهم له وإِحسانَ طاعتِه برؤيتهم لله جهرةً عَياناً.

ومعنى «جهرة»: ظُهوراً واضحاً وعَياناً بارزاً. وهي مصدرٌ فعْلُه «جَهَرَ». تقول: جَهَرَ الشيءُ جَهْراً وجَهْرَةً وجِهاراً: إِذا ظهرَ عَياناً.

قال الإمام الراغب: «جَهَرَ: يُقالُ لظهورِ الشيء بإِفراطِ حاسةِ البصر أَو حاسةِ السمع.

ومن ظهورِه بحاسةِ البصر قولُك: رأيتُه جَهْرة وجِهاراً. قال تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ...﴾»[2].

دلالة طلبهم على عدم تقديرهم لله:

ويدلُّ طلبُهم العجيبُ الغريبُ على جلافتِهم وغلظِ قلوبهم، وعلى

---

(١) تفسير المنار ١: ٣٢١. وانظر المنار ٩: ٢١٨.

(٢) المفردات: ٢٠٨.

وقاحتِهم وسوءِ أدبهم مع موسى نبيهم عليه الصلاة والسلام، كما يدلُّ جهلهم بحقيقةِ الأُلوهية، وسوءِ نظرتِهم إلى الله، وعدم تقديرهم له حقَّ قدرِه، حيث أَرادوا تجسيمَ اللّه وتحديدَه، ووصْفَه بصفاتِ المخلوقين.

إنهم يريدونَ من اللّهِ أنْ يتحركَ كالمخلوقين، وأنْ ينزلَ كالمخلوقين، وأنْ يتجسمَ ويتحدَّدَ كالمخلوقين، وأنْ يقفَ أَمامَهم كالمخلوقين، وأنْ تراهُ عيونُهم كما ترى إنساناً واقفاً أمامَها، وأنْ تحصرَهُ وتحيطَ به، كما تحصرُ أيَّ إنسانٍ آخر تنظرُ إليه!!

إنَّ نظرتَهم إلى الله عجيبة، فهم ما قدروا اللّهَ حقَّ قدره، فلما مَرّوا على قومٍ يعبدونَ أصناماً طلبوا أصناماً آلهة، ولما صنعَ لهم السامريُّ عجلاً وقال لهم: هذا إلهُكم صدَّقوه وعَبدوه، والآن يريدونَ أنْ يروا اللّهَ جهرةً عياناً بعيونهم، كما يرون أيَّ شخصٍ واقفٍ أمامهم.

ولم يكونوا كافرين عندما طلبوا هذا الطلب، فهم مؤمنون بالله، ومؤمنون لموسى، لكنهم قالوه عجرفةً وعناداً.

قال الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور: «ليس في الآية ما يدلُّ على أَنهم كفروا حين قالوا قولَهم هذا، ولكنها دالةٌ على عجرفتهم، وقلةِ اكتراثهم بما أُوتوا من النعم، وما شاهَدوا من المعجزات، حتى راموا أنْ يَروا اللّهَ جهرة، وإنْ لم يروْهُ دخلَهم الشكُّ في صدْقِ موسى. وهذا كقولِ القائل: إنْ كان كذا فأنا كافر.

وليسَ في القرآن ولا في غيره ما يدلُّ على أَنهم قالوا ذلك عن كفر.

وإنما عُدِّيَ «نؤمنَ» باللام: «لن نؤمنَ لك» لتضمينِه معنى الإقرارِ بالله. أي: لنْ نُقِرَّ لكَ بالصدق..»[1].

---

(١) التحرير والتنوير ١:٥٠٦.

أي: لن نستسلمَ ولن ننقادَ لك حقاً إلاّ بعدَ أنْ نرى اللّهَ جهرةً بعيوننا، ونُجسِّمه ونحدِّدَه بأبصارنا!!

أخذهم بالصاعقة وهم ينظرون:

وقد عاقبهم اللّهُ فوراً على طلبهم العجيب: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . .﴾.

والصاعقة: نارٌ كهربائية تسقطُ من السماء أو من السحاب، تَصعقُ مَن تصيبُه فتحرقُه وتهلكه.

تقول: صَعَقَ، يَصْعَقُ، صَعْقاً، فهو صَعِق، وذلك إذا أصابَتْه الصاعقة[١].

قال الراغب: «الصاعقةُ والصاقعة يتقاربان، وهما الهدَّةُ الكبيرةُ في الأجسام، إلاّ أنَّ الصقعَ يقال في الأجسامِ الأرضية، والصعقَ في الأجسام العلوية.

قال بعضُ أهل اللغة: الصاعقةُ على ثلاثةِ أوجه:

١ ـ الموتُ، كقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

٢ ـ العذاب، كقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . .﴾ [فصلت: ١٣].

٣ ـ النار، كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ . .﴾ [الرعد: ١٣].

وما ذَكَره فهو أشياءُ حَاصلةٌ من الصاعقة، فإنَّ الصاعقةَ هي الصوتُ الشديدُ من الجو، ثم يكونُ منها نارٌ فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيءٌ واحد، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها. . .»[٢].

---

(١) المعجم الوسيط ١: ٥١٥.

(٢) المفردات: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ جملةٌ حالية. أي: صعقَتْكُم الصاعقة وأخذتكم، وأنتم تنظرونَ إليها.

وهذا دليلُ أنَّ الصاعقةَ لم تكن مجردَ صوتٍ شديدٍ سمعوه فصعقوا، بل كانت شيئاً مادياً منظوراً مشاهَداً، ولعلَّها كانت ناراً رأَوها نازلةً عليهم من السماءِ أو السحاب.

ومفعولُ «تنظرون» مقدَّر. والتقدير: وأنتم تنظرونَ الجبلَ أو السحابَ أو النارَ أخذتكم الصاعقةُ فصعقَتْكم.

ولما صُعِقَ القومُ ماتوا. وبعد ذلك بعثَهم اللّهُ من موتهم، وأعادَ الحياةَ لهم، ونصَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقبلَ الحديثِ عن حقيقةِ ومعنى موتِهم وبَعْثِهم نشيرُ إلى أنَّ القرآنَ ذَكَّرَ اليهودَ الأَحفادَ في المدينة بما فعلَه أجدادُهم زمنَ موسى عليه السلام، وذلك في سياق تعنتِ الأَحفادِ وعنادِهم وتكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

قررَ في هاتينِ الآيتين أنَّ بني إسرائيل سأَلوا موسى عليه السلام سؤالاً كبيراً، في غايةِ القبح والسوء، حيث طلَبوا أنْ يروا اللّهَ جهرةً عَياناً بعيونهم، فعاقَبهم اللّهُ بأَنْ أماتَهم بالصاعقة.

سنة الله في عدم بعث الميت إلا يوم القيامة:

وظاهرُ القرآنِ أنَّ اللّهَ بَعَثَهم بعدما أَماتهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ

مَّوۡتِكُمۡ﴾، فكيفَ بعثَهم اللّهُ مِن بعدِ موتهم؟ وهل ماتوا فعلاً موتاً حقيقياً؟ ومَنْ مات حقاً فهل يُبعثُ قبلَ قيامِ الساعة؟.

قد يظنُّ بعضُ الناس أَنهم ماتوا موتاً حقيقياً، وأَنَّ أرواحَهم خرجَتْ من أَجسادِهم حقاً، واستمرّوا جثثاً هامدةً فترةً من الزمن، ثم أَعادَ اللّهُ أرواحَهم إِلى أجسامهم.

ويقولون: كان بعثُهم بعد موتِهم معجزةً من أمر الله، واللّهُ على كل شيء قدير.

ونحنُ لا نشكُّ في قدرةِ الله المطلقة، ونؤمنُ أنه فعّالٌ لما يُريد.

لكن سنةَ الله أنَّ مَنْ ماتَ موتاً حقيقيّاً فإن روحَه لا تردُّ إِلى جسمه إلاّ يومَ القيامة. ولم يَثبتْ أَنَّ إنساناً ماتَ موتاً حقيقياً ثم أَعادَ اللّهُ له الحياةَ في الدنيا. وكلُّ الأمثلةِ المذكورةِ في القرآن كان الموتُ فيها موتاً خاصاً ظاهرياً، وليس موتاً حقيقياً، وهو انتهاءُ الأجلِ وخروجُ الروحِ من الجسم، مثلُ أصحاب الكهف، والذي مَرَّ على قرية، والذين قالَ الله لهم موتوا ثم أحياهم، والقتيل الذي ضرب بجزء من البقرة.

والدليلُ على أنَّ هذه هي سنةُ اللّهِ المطردةُ ما رواه مسلمٌ وغيره عن مسروق قال: إِنّا سَأَلْنا عبدَ الله عن هذهِ الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]. فقال: إنّا قد سأَلْنا عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خضرٍ لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش، تسرحُ مِن الجنة حيثُ شاءت، ثم تَأْوي إلى تلك القناديل، فاطلعَ عليهم ربُّهم اطلاعة. فقال: هل تشتهونَ شيئاً؟ فقالوا: أيّ شيءٍ نشتهي، ونحنُ نسرحُ من الجنة حيثُ شئنا؟ ففعلَ ذلك بهم ثلاثَ مرات.

فلما رأَوا أَنهم لَنْ يُتركوا من أنْ يَسألوا قالوا: يا ربّ نُريدُ أنْ تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادِنا، حتى نُقتلَ في سبيلك مرةً أخرى!!

فلما أن رأى ليس لهم حاجةً تُركوا..»[1].

فلو شاءَ اللّهُ إعادةَ روحِ ميتٍ إلى جسده في الدنيا للَبّى رغبةَ الشهداء، وأَعادَ أرواحَهم إلى أجسامهم، ولكنْ سنةَ اللّهِ أنْ لا يكونَ ذلك في الدنيا ولهذا تركَهم يَسرحون في الجنة بانتظارِ قيامِ الساعة.

والدليلُ على أنَّ هذه هي السنةُ أَيضاً ما رواه الترمذي وغيرُه عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «أفلا أُبَشِّرُكَ بما لقيَ اللّهُ به أباك؟».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «ما كلَّمَ اللّهُ أحداً قطّ إلاّ مِن وراء حجاب، وأَحيا أباك فكلَّمه كِفاحاً.

فقال: يا عبدي: تمنَّ عليَّ أُعْطِك.

قال: يا ربِّ تُحيِيني، فأُقْتَلَ فيك ثانية.

قالَ الرب عز وجل: إِنه قد سبقَ القولُ مني: أنهم إليها لا يرجعون»[2].

والشاهدُ في الحديث صريحُ قوله: إِنه قد سبق القولُ مني أَنّهم إِليها لا يُرجعون.

أي: هذه سنةُ الله أنَّ الذين ماتوا وغادروا الدنيا لا يُرجعون إِليها مرة ثانية.

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٨٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٣٠١٠.

كان موتهم موتاً خاصاً وليس موتاً حقيقياً:

إذن لم يكن موتُ القومِ من بني إسرائيل موتاً حقيقياً، ولو كان كذلك لما أعادَ اللّهُ أرواحَهم إلى أجسادهم، وإنما كان موتُهم موتاً خاصّاً ظاهرياً.

أي: أنهم تأثّروا بالصاعقةِ التي صعقَتْهم، وسقطوا مغشياً عليهم، ولكنَّ آجالَهم لم تنته، ولم تُغادرْ أرواحُهم أجسامَهم نهائياً، وبعدَ مضيِّ فترةٍ عليهم، أزالَ اللّهُ عنهم آثارَ الصاعقة، وأفاقَهم من بعدِ الغشية، وأيقظَهم من صعقتهم، فاستيقظوا وتحرَّكوا، وبما أنَّ ما أصابهم كان يشبهُ الموت، عَبرتِ الآيةُ عن يقظتِهم بالبعث بعد الموت: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

والمفسِّرُ الذي وجدْتُ له كلاماً طيباً في تعليلِ بعثِهم بعدَ موتِهم الخاص، هو الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور. حيثُ قالَ في «التحرير والتنوير» عن ذلك: «فإنْ قلت: إنَّ الموتَ يقتضي انحلالَ التركيبِ المزاجي، فكيف يكونُ البعثُ بعده في غيرِ يومِ إعادةِ الخلق؟

قلت: الموتُ هو وقوفُ حركةِ القلب، وتعطيلُ وظائفِ الدورةِ الدموية. فإنْ حصلَ عن فسادٍ فيها لم تَعقبْهُ حياةٌ إلاّ في يوم إعادةِ الخلق، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

وإذا حصلَ عن حادثٍ قاهرٍ مانع، منعَ وظائفَ القلب من عملها، كان للجسدِ حكمُ الموت في تلك الحالة، لكنه يَقبلُ الرجوعَ إنْ عادتْ إليه أسبابُ الحياة بزوالِ الموانعِ العارضة.

وقد صارَ الأطباءُ اليومَ يعتبرونَ بعضَ الأحوالِ التي تعطلُ عملَ القلب اعتبارَ الموت، ويُعالجون القلبَ بأعمالٍ جراحيةٍ تُعيدُ إليه حركته.

والموتُ بالصاعقة إذا كان عن اختناق، أو قوةِ ضغطِ الصوت

على القلب، قد تعقبُه الحياةُ بوصولِ هواءٍ صافٍ جديد، وقد يطولُ زمنُ هذا الموتِ في العادةِ ساعاتٍ قليلة...»[1].

والخلاصةُ أنَّ موتَهم بالصاعقة لم يكن موتاً حقيقياً، ولم تنتهِ فيهِ أَعمارُهم، وإنما كانَ موتاً خاصاً، توقفت الحياةُ الظاهريةُ في أجسامِهم فترةً زمنيةً محددة، ثم أَعادَ اللّهُ تلك الحياةِ إليهم، ليُكملوا أَعمارَهم التي حدَّدَها اللّهُ لهم. والله أعلم.

[٥]

الغمام والطعام وتفجير العيون

أَشرْنا فيما مضى إِلى بعضِ ما أنعمَ اللّهُ على بني إسرائيل في سيناء، ومقابلتِهم هذه النعمَ بالجحودِ والكفران. وكان حديثُنا عن نعمةِ إنزالِ التوراة، ونعمةِ العفوِ عن عبادتهم العجل، ونعمةِ إِفاقتهم من غشية الرجفة، ونعمةِ بعثِهم بعد صعقِهم بالصاعقة، وموقفِهم الجاحدِ من هذه النعم، فما كانوا يخرجون من مخالفةٍ إِلاّ ليقعوا في مخالفةٍ جديدة..

ونتابعُ حديثَنا عن نعمِ الله عليهم في سيناء، ونقدِّمُ نعماً جديدة أخبرنا الله عنها في القرآن.

الله يظللهم بالغمام في الصحراء:

من هذه النعم: نعمةُ تظليلِهم بالغمام.

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ..﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿..وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ..﴾ [الأعراف: ١٦٠].

لقد كانوا يتنقلون مع موسى عليه السلام في سيناء، وهي صحراءُ

(١) التحرير والتنوير ١:٥٠٨.

حارةٌ محرقة، ليس فيها أشجارٌ كثيفةٌ كبيرة، تَقيهم حرَّ الشمس، فتأذَّوا من حرِّ الصحراء وأشعةِ الشمس الحارقة، وأرادَ اللّهُ الإنعامَ عليهم بنعمةٍ جديدة، فظلَّلَ عليهم الغمام، وكان هذا الغمامُ آيةً من آيات الله.

والغمامُ هو السحاب، ساقهُ الله إِليهم، فظلَّلَهم به، وجعله فوقَهم، ليقيهم حرَّ الشمس.

قال الإمامُ الراغب: «الغَمُّ: سترُ الشيء. والغَمامُ لكونه ساتراً لأشعةِ الشمس..»[1].

وسُميَ السحابُ غَماماً لأنَّه يُغطي السماءَ فوقَ الإنسان، ولا يُبقي فيها فرجة. ومُفردُ الغَمام: غمامة، وهي السحابة.

ومعنى «ظَلَّلْنا»: غطَّينا.

تقول: ظَلَّ الإنسانُ يفعل كذا: دامَ على فعله.

وظَلَّ الشيءُ: دامَ واستمر ظلُّه.

وأَظَلَّ الشيءُ: صارَ ذا ظلّ، وامتدَّ ظِلُّه.

وأَظَلَّ الشيءُ فلاناً: إذا غشيه.

وظَلَّلَ فلاناً: ظَلَّلَه بالظل، ليحجبَ عنه أشعةَ الشمس[2].

كان سحاباً كثيفاً وقاهم من شمس الصحراء:

وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ الغمامَ الذي ظلَّلهم الله به كان أبيضَ رقيقاً.

وهذا ليس دقيقاً، ولا يتفقُ مع الإنعامِ عليهم به، لأَنه إِذا كان رقيقاً فإنه لا يُحققُ الحكمةَ من سوقه عليهم.

والراجحُ أنه كان كثيفاً يحجبُ عنهم أشعةَ الشمس.

---

(١) المفردات: ٦١٣.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٢:٥٧٦.

ولا يُسمّى السحابُ غَماماً إلا إذا «غَمَّ» السماءَ وغطاها وسَترها، ولم يُبقِ فرجةً تُرى من خلالها.

قال محمد رشيد رضا نقلاً عن شيخِه محمد عبده: «إنَّ التظليلَ استمرَّ إلى دخولهم أرضَ الميعاد. ولولا أنْ ساقَ اللّهُ إليهم الغمامَ يُظلّلُهم في التيه لسفَعَتْهم الشمسُ ولفحتْ وجوهَهم، ولا معنى لوصْفِ الغمامِ بالرقيقِ، كما قالَ المفسِّرُ الجلالُ وغيره. بل السياقُ يقتضي كثافتَه، إذ لا يحصلُ الظلُّ الظليلُ الذي يُفيده حرفُ التظليل، إلاّ بسحابٍ كثيف، يمنعُ حرَّ الشمس ووهجَها، وكذلك لا تتمُّ النعمةُ التي بها المنة إلاّ بالكثيف..»[1].

ولْنتصورْ عظمةَ وفضْلَ هذه النعمةِ عليهم. ولْنتخيلْ منظرَ القومِ وهم يتحركونَ في شعابِ صحراء سيناء، وفوقَهم الغمامُ يُظللُهم بظلِّهِ الظليل، يُسيّرُهُ اللّهُ فوق رؤوسهم أينما تحركوا وحيثما أقاموا.

وكان لهذا الغمامِ أثرُه الكبيرُ في تلطيفِ وترطيبِ الجوِّ الصحراوي الجافِّ الكريه، وتحويلِه إلى جوٍّ ربيعيٍّ لطيفٍ منعش، فضلاً وكرماً من الله سبحانه وتعالى.

وبذلك جعلَ اللّهُ الصحراءَ عليهم نعمة، ويسَّرَ لهم الإقامةَ فيها، وطالَبَهم بذكْرِ هذه النعمة، وشكْرِه عليها.

وسخّر لهم المنّ والسلوى:

وبعدما هيأَ اللّهُ لهم سبيلَ الحياة في الصحراء وسهَّلَها عليهم، تكفَّلَ لهم بالطعام، ويسَّرَ لهم تناولَه بدون كدٍّ ولا سعيٍ ولا مشقة: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

والمنُّ والسلوى صنفان متكاملان من أصنافِ الطعام الذي أنعمَ اللّهُ عليهم به.

---

(١) تفسير المنار ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

قالَ ابن عباس: كان المنُّ ينزلُ عليهم على الأَشجار، فيغْدون إِليه فيأكلون منه ما شاءوا.

وقال مجاهد: المنّ: صَمْغٌ حلو.

وقالَ الربيعُ بن أنس: المنّ: شرابٌ كان ينزلُ عليهم مثل العسل، فيمزجونَه بالماء ثم يشربونه.

وعلَّقَ الإمامُ ابنُ كثير على هذه الأقوال وغيرِها في تعريف المن، وجمعَ بينها بقولٍ جامعٍ لطيف. قال: «والغرضُ أنَّ أقوالَ المفسرين متقاربةٌ في شرحِ المن. فمنهم مَنْ فسَّره بالطعام، ومنهم مَنْ فسَّره بالشراب. والظاهر ـ واللّهُ أعلم ـ أنه كلُّ ما امتنَّ اللّهُ به عليهم من طعامٍ وشراب وغير ذلك، مما ليسَ لهم فيه عملٌ ولا كدّ.

فالمشهورُ أنَّ المنَّ إنْ أُكِلَ وحده كان طعاماً، وإِنْ مُزِجَ مع الماء صار شراباً طيباً، وإنْ رُكِّبَ مع غيره صارَ نوعاً آخر.

ولكنْ ليس هو المرادُ من الآية وحده. والدليلُ على ذلك ما رواه البخاريُّ عن سعيدِ بن زيد رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «الكَمْأَةُ من المَنّ، وماؤها شفاءٌ للعين»[1]. والكَمْأَةُ هي الفطرُ المعروف.

أما السّلوى فقد قال فيه ابن عباس: السلوى طائرٌ يشبهُ السّمانىٰ، كانوا يأكلون منه[2].

«وهو اسمُ جنسٍ للمفردِ والجمع، وهو طائرٌ بريٌّ لذيذُ اللحم، سهلُ الصيد، كانت تسوقُه لهم ريحُ الجنوب كلَّ مساء، فيمسكونَه

---

(١) (٢) انظر تفسير ابن كثير ١: ٩١. والحديث المذكور أخرجه البخاري برقم: ٥٧٠٨. ومسلم برقم: ٢٠٤٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٧.

قبضاً، ويسمّى هذا الطائرُ أيضاً السُّمانىٰ - على وزن حُبارىٰ -»[1].

وقالَ الإمامُ الراغب في تفسير المنّ والسلوى: «قيل: المنّ: شيءٌ كالطّلّ - وهو الندّى - فيه حلاوة، يسقطُ على الشجر. والسلوى: طائر.

وقيل: المنُّ والسّلوى: كلاهما إشارةٌ إلى ما أنعمَ اللّهُ به عليهم. وهما بالذات شيءٌ واحد. لكن سمّاه مَنّاً بحيثُ أنه امتنَّ به عليهم، وسمّاه سلوى من حيثُ إنه كان لهم به التسلي..»[2].

والراجحُ أنَّ المنّ والسلوى صنفان من أَصنافِ الطعام، ساقَهما الله لبني إسرائيل في الصحراء.

والراجحُ أنّ المنّ: صمغٌ نباتيٌّ حلو، يكونُ على الأَشجار الصحراوية، والسّلوى طائر يشبهُ السُّمانىٰ.

وبين الصنفيْن «تكامُلٌ» غذائيٌّ ملحوظٌ مقصود، فالمنُّ يمثلُ جانبَ النشوياتِ والسكريات الضروريةِ لجسم الإنسان. والسَّلوىٰ يمثلُ جانبَ البروتيناتِ الضروريةِ للإنسانِ أيضاً.

وقد عبَّرَ القرآنُ عن الإنعامِ عليهم بهذيْن الصنفيْن بلفظِ الإنزال: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

ولا يُرادُ بالإنزال هنا الإنزالُ الحسي، فهذان الصنفان لم يَنزلا من السماء كالمطر. وإنما المرادُ بالإنزالِ هنا التسخيرُ والتذليل، والإنعامُ عليهم بذلك التسخير.

كأنه قال: أَوجدْنا لكم المنَّ على الأشجار، وسُقْنا لكم طيورَ السلوى، وسخرْنا لكم كلَّ ذلك تسخيراً، إنعاماً عليكم. فصرتُم تأكلون ذلك بدون كدٍّ ولا جهدٍ ولا مشقة.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥١٠.

(٢) المفردات للراغب: ٧٧٨.

وفي قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ جملةٌ مقدرة، والتقدير: وقلْنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم.

ووَصفت الآيةُ المنَّ والسلوى بأَنهما من الطيبات، ولا أَطيبَ منهما، لأَنهما إنعامٌ خاصٌ من الله.

وهما رزقٌ واضحٌ من الله، ولهذا أُسند الفعلُ: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ إلى الله، وهو إسنادٌ حقيقي، لأنه ليس لهم يدٌ ولا جهدٌ ولا خيارٌ بذلك الرزق، وإنما كان يأتيهم عطاءً مجرداً من الله.

ولكنهم عصوا وبغوا وظلموا أنفسهم:

ماذا فعلَ بنو إسرائيل بهذه النعمِ الربانية الظاهرة الغامرة؟ هل شكروا اللّهَ عليها؟

سارعت الآيةُ بذكْرِ سوءِ فعلهم وقبيحِ جحودهم، فقالت: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

وهذه الجملةُ داخلةٌ على جملةٍ مقدرة أيضاً. والتقدير: فقابَلوا إِنعامَنا بالجحود، وإِحسانَنا بالإساءة، وما ظلمونا بذلك، لكنهم كانوا أَنفسهم يظلمون.

وهذا يعرِّفُنا على الطبيعةِ الخاصة لبني إسرائيل، القائمةِ على الكفران والجحود، والمخالفة والعصيان.

فاللّهُ أنعمَ عليهم في الصحراء بالغمام يظلِّلُهم ويَقيهم حرَّ الشمس، وبالمنِّ والسلوى غذاءً متكاملاً لهم، وطالبهم بشكرِه على هذه النعم، واستخدامِها في طاعته، ولكنهم عصوْا أمْرَه، وقابَلوا إحسانَه بالإساءة، وذلكَ وفقَ طبيعتِهم الجحودة، وبذلك جَنوْا على أنفسهم، وأَساءوا لها وظلموها، لأنَّ هذا الموقفَ منهم نذيرُ دمارٍ وهلاك، وسلبٍ وإزالةٍ لتلك النعم: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧﴾.

حاجة أسباطهم إلى الماء في الصحراء:

وبعدما تكلمت الآيةُ عما أَنعمَ اللّهُ به عليهم من الغمامِ والطعام، أَخبرتْ آياتٌ أُخرى عن نعمةِ الماء الذي فجَّرَ اللّهُ لهم عيونَه في الصحراء.

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

قسَّمَ اللّهُ بني إِسرائيل إِلى اثنتيْ عشر سَبطاً: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

ومعنى «قطّعناهم»: قَسَّمناهم وفرَّقْناهم.

وكان تقسيمُهم إِلى اثنتيْ عشرةَ سَبطاً، وذلك على عدد أَجدادهم أَولادِ يعقوب عليه السلام، فقد أَنجبَ يعقوبٌ عليه السلام اثنيْ عشر ولداً، منهم النبيُّ يوسفُ عليه السلام. وكان هؤلاء الأَبناءُ هم أجدادَ وأصولَ بني إسرائيل. ونسْلُ كلِّ ولدٍ كانوا سَبطاً أو قبيلة أو أمة.

ولم تَرِد «الأسباط» في القرآنِ إلاّ في الحديث عن قبائل بني إسرائيل.

والأَسْباط جمعُ «سَبط». تقول: سَبِط. سَبْطاً.

قال الإِمام الراغب عن السَّبْط: «أصلُ السَّبْط: انبساطٌ في سهولة.

يقال: شَعْرٌ سَبْطٌ.. وامرأةٌ سَبْطَةُ الخِلْقَة. ورجلٌ سَبْطُ الكفَّيْن: ممتدُّهما، ويُعَبَّرُ به عن الجود.

والسَّبْطُ: وَلَدُ الوَلَدِ، كأنه امتدادُ الفروع. والأَسباط: القبائل، كلُّ قبيلةٍ من نسلِ رجل. قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[1].

إنَّ مادة «السَّبط» تقومُ على الانتشارِ والامتداد، وانطبقَ هذا على قبائلِ بني إسرائيل الاثنتي عشرة، حيثُ امتدَّ كلُّ واحدٍ من أَبناءِ يعقوب الاثني عشر عن طريقِ نسْلِه وذريتِه.

تحفظ على بيان سفر العدد لأسباطهم:

وإذا كانَ الأصلُ أنْ يكونَ الأَسباطُ الاثنا عشر هم أَحفادَ وذريةَ أبناءِ يعقوب الاثني عشر، فإنَّ رواياتِ العهدِ القديم تحذفُ سَبط «لاوي» أحدَ أبناءِ يعقوب، لأنَّ سلالةَ لاوي ونسلَه اختصوا بخدمةِ الدين وإقامةِ الشريعة، وتجعلُ مكانَ سَبط لاوي سلالةَ ابنَيْ يوسف عليه السلام.

وردَ هذا في الإصحاحِ الأولِ الإحصائيِّ من سفْرِ العدد، وهو السفرُ الرابعُ من أَسفارِ العهد القديم.

وردَ في الإصحاحِ الأول من سفرِ العدد أنَّ الربَّ أمرَ موسى وهارون عليهما السلام بإحصاءِ أَبناءِ وذرية الأسباط.

وأَسماءُ الأسباط هي: سبط رأوبين. وسبط شمعون. وسبط يهوذا. وسبط يساكر. وسبط زبولون. وسبط بنيامين. وسبط دان. وسبط أشير. وسبط جاد. وسبط نفتالي. وسبط أفرايم بن يوسف. وسبط منسى بن يوسف.

وأما سَبطُ لاوي فقد نهى الربُّ موسى عن إحصائه ضمن الأسباط، لتفرّده بالزعامةِ الدينية في بني إسرائيل[2].

---

(١) المفردات: ٣٩٤.

(٢) انظر الكتاب المقدس: كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، سفر العدد، الإصحاح الأول: ١ ـ ٥٤.

ونحنُ نوردُ هذا الكلام من العهدِ القديم ذكراً فقط، وليسَ اعتماداً منّا له، فمنهجُنا عدمُ اعتمادِ ما في العهد القديم، وإنما التوقفُ فيه.

وإذا كانَ أولادُ يعقوب اثنيْ عشر رجلاً، وإذا كانَ أسباطُ بني إسرائيل اثنيْ عشرَ سبطاً، فالأصْلُ أنْ يكون كلُّ سبط هم ذريةَ واحدٍ من أولئك الأبناء، فلماذا لا يكون سَبطُ لاوي من بين الاثني عشر؟ ولماذا لأَولادِ يوسف سبطان؟

ثم إننا نتحفظُ على أَسماءِ أبناء يعقوب الاثني عشر، وهم أصولُ وأجدادُ الأسباط، فلا نَجزمُ إلاّ باسمِ يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

تقسيمهم اثني عشر سبطاً لتنظيم حياتهم:

وتقسيمُ بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة أَسباطاً أُمماً ليسَ عقاباً لهم، وإنما هو منةٌ ونعمةٌ من الله عليهم، لتنظيمِ حياتِهم الاجتماعية.

يقول محمد الطاهر بن عاشور حول هذا: «والتقطيعُ هو التفريق، والمرادُ به التقسيم. وليس المرادُ بهذا الخبرِ الذم، ولا بالتقطيعِ العقاب، لأنَّ ذلكَ التقطيع منَّةٌ من الله، وهو من محاسنِ سياسةِ الشريعةِ الموسوية، ومن مقدماتِ نظامِ الجماعة، وهو نظيرُ ما فعلَ عمرُ بن الخطاب من تدوينِ الديوان.

وهم كانوا منتسبين إلى أَسباطِ إسحاق، ولكنهم لم يكونوا مقسَّمين عشائر لما كانوا في مصر، وكان التقسيمُ بعد اجتيازهم البحر، وقبلَ انفجارِ العيون...»[1].

تمَّ تنظيمُ شؤون بني إسرائيل في سيناء، وقسَّمهم موسى عليه السلام إلى أسباط وقبائلَ وعشائر، حسبَ انتسابهم إلى أَجدادهم أَولادِ يعقوب عليه السلام، ذريةُ كلِّ واحدٍ سَبطٌ وقبيلة، وصاروا يتحركون ويتنقلون على أَساسِ هذا التقسيمِ والتنظيم.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩:١٤٢ ـ ١٤٣.

الحديث عن الاستسقاء والماء في الأعراف والبقرة:

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن أنَّ بني إسرائيل استسقوا موسى لما أَصابهم العطشُ وهم يتحركونَ أَسباطاً في صحراء سيناء، وطَلبوا منه أنْ يستسقيَ اللّهَ لهم، وأنْ يتضرعَ إِليه ليسقيَهم، فاستسقى موسى ربَّ العالمين، لينقذَ بني إسرائيل من العطش. فأَمَرَه اللّهُ عز وجل أنْ يضربَ الحجرَ بعصاه، ففعلَ منفِّذاً أَمره. فأَجرى اللّهُ على يديه معجزةً باهرة، حيثُ تشققَ الحجرُ من الضربة، فَنَزَّتْ منه اثنتا عشرة عيناً، ثم فارتْ تلك العيونُ فانفجرت انفجاراً، وسالَ من الحجرِ الكبير اثنتا عشرة عيناً، على عددِ أَسباط بني إسرائيل، لكلِّ سبطٍ عينٌ خاصةٌ بهم.

وقد تحدثتْ عن هذه المعجزة الربانية آيتان: آيةٌ من سورة الأعراف المكية، وآيةٌ من سورة البقرة المدنية. وعرضَتْ كلُّ آيةٍ مرحلةً من مراحلِ خروجِ العيونِ من الحجر، وسننظرُ في الآيتيْن مراعين هذه المرحلية:

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ ..﴾ [الأعراف: ١٦٠].

الاستسقاءُ طلبُ السقيا. والهمزةُ والسين والتاء في قوله: ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ للطلب.

فلما احتاجَ بنو إسرائيل إلى الماء، وشَعروا بالعطش، وهم يتجولون في الصحراء، فزعوا إِلى موسى عليه السلام، وأَقْبلوا إِليه طالبين منه الماءَ والسقيا، وهذا معنى استسقائِهم له، وكأَنهم قالوا له: إِننا نوشِكُ أنْ نموتَ عطشاً، ونريدُ الماء، فأَحضِرْ أنتَ لنا الماء، إِننا نستسقيكَ ونطلبُ هذا منك، وأنت بإمكانك أنْ تستسقيَ ربَّك.

عندَ ذلك استسقى موسى عليه السلام ربَّه لقومه، وطلبَ منه أنْ يُغيثَهم بالماء. وهذا ما أَخبرتْ عنه آيةُ سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ

مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ ..﴾ [البقرة: ٦٠].

استسقوا موسى فاستسقى موسى ربه:

والجمعُ بين الآيتين في الاستسقاء: أنَّ بني إِسرائيل استسقوا موسى: ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، فاستجابَ موسى لاستسقائهم، واستسقى اللّهَ لهم: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾.

لقد استسقى القومُ نبيَّهم موسى عليه السلام، ولم يستسقوا اللّهَ مباشرة، فتوجَّهَ موسى بالدعاءِ إِلى الله، واستسقاه لقومه، وهذا يدلُّ على اهتمامِهِ بقومه بني إسرائيل، وتلبيتِهِ لحاجاتهم، وحلِّه لمشكلاتهم، رغم مخالفاتِهم وتجاوزاتِهم. إِنه نبيُّهم ومنقذهُم، وهو قائدُهم وراعيهم، استرعاهُ اللّهُ قومَه، ولا بدَّ أنْ يقومَ بواجبه نحوهم.

ولذلك ما أَن استسقاهُ قومُه حتى سارعَ باستسقاءِ اللّهِ لهم، والطلبِ منه سقياهم وإِغاثتَهم.

وقد استجابَ اللّهُ استسقاءَ موسى عليه السلام، فطلبَ منه أنْ يضربَ بعصاه الحجر: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ﴾.

والعصا معروفةٌ لموسى، وقد جَرَتْ بها معجزاتٌ سابقةٌ بأمر الله، فهي التي أَلقاها فصارتْ حيةً تسعى، وهي التي أَلقاها أمامَ فرعون فصارت ثعباناً مبيناً، وهي نفسُها التي أَلقاها أمامَ السحرة في المباراة، فصارتْ أَفعى وابتلعتْ كلَّ ما أَمامها، وهي نفسُها التي كان يحملها معه على شاطئ البحر ليلةَ خروجهم، فأَمره اللّهُ أنْ يضربَ البحرَ بها، فشقَّ اللّهُ لقومِهِ طريقاً يبساً في البحر، والآن ها هي العصا بين يديه، واللّهُ يأمره أنْ يضربَ الحجرَ بها لتتفجرَ منه العيون.

أما الحجرُ الذي أَمره اللّهُ أنْ يضربَه بعصاه فقد كانَ في سيناء، وهو معروفٌ له ولقومه، فأَل التعريف فيه: «الحجر» للعهدِ الذهني.

ولا بدَّ أنْ يكونَ هذا الحجرُ كبيراً، ليحتملَ انفجارَ اثنتي عشرة عيناً منه، ليشربَ منها كلُّ أسباط بني إسرائيل.

وقد نفذَ موسى أمْرَ الله، على مرأى من بني إِسرائيل، فوقفَ أَمامَ ذلك الحجر الكبير ـ الصخرة ـ وبنو إِسرائيل ينظرون إليه، وتناوَلَ عصاه العجيبة، وضربَ بها ذلك الحجر.

ونظرَ موسى وقومُه إلى الحجر بعدَ الضربة، فإذا به يتشققُ شقوقاً، تَنِزُّ منها عيونُ الماء، ثم انفجرتْ منه تلك العيون الاثنتا عشرة.

لقد تضمنَ هذا المشهدُ ثلاثَ نعمٍ ربانية غامرة، أنعمَ اللّهُ بها على بني إسرائيل. هي: «نعمةُ الريِّ منَ العطش، وهي نعمةٌ كبرى، أَشدُّ من نعمةِ إِعطاءِ الطعام، ولذلك شاعَ التمثيلُ بريِّ الظمآنِ في حصول المطلوب.

وكونُ السقيِ في مظنةِ عدمِ تحصيله، وتلكَ معجزةٌ لموسى، وكرامةٌ لأمته.

وكونُ العيون اثنتي عشرة، ليستقلَّ كلُّ سَبط بمشرب، فلا يتدافعوا. . .»[1].

انبجاس العيون في الأعراف ثم انفجارها في البقرة:

والذي يلفتُ النظرَ تفاوتُ التعبيرِ عن انفجارِ العيون من الحجرِ في كلٍّ من سورةِ الأعراف وسورة البقرة.

ففي الأعراف وردَ قولُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾.

وفي البقرة ورد قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾.

فما هو الانبجاس؟ وما الفرقُ بينه وبين الانفجار؟ ولماذا عبَّرَ في الأعرافِ بالانبجاس وفي البقرةِ بالانفجار؟

(١) تفسير التحرير والتنوير ١: ٥١٧.

لم تَرِدْ كلمةُ «انبجسَ» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

قالَ الإمامُ الراغبُ في المفردات: «يقال: بَجَسَ الماءُ وانبجس: انفجر.

لكنَّ الانبجاسَ أكثرُ ما يُقالُ فيما يخرجُ من شيءٍ ضيق. والانفجارُ يُستعملُ فيه، وفيما يخرجُ من شيءٍ واسع.

ولذلكَ قالَ اللّهُ عز وجل: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ﴾ في الأعراف، وقالَ في البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ﴾ فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان»[١].

الانبجاسُ بدايةُ الانفجار، ويبدو أنَّ خروجَ العيونِ من الحجر كانَ على مرحلتين.

الأولى: مرحلةُ الانبجاس: فلما ضربَ موسى عليه السلام الحجرَ بعصاه، تشققَ الحجرُ اثني عشر شقاً، وبدأَ الماءُ «يَنِزُّ» ويَخرجُ بصعوبةٍ من بين تلك الشقوق. وهذا هو الانبجاس. وقد أَخبرتْ سورةُ الأعراف المكية عن هذه المرحلة: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ﴾.

ولا ننسى أنَّ آيةَ الأعرافِ تُخبرُ أنَّ موسى استسقى ربَّه بعدَ أن استسقاه قومُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ ...﴾.

كما لا ننسى أنَّ سورةَ الأعراف مكية، أي أنَّ نزولَها كان قبلَ نزولِ آيةِ سورة البقرة المدنية، ولهذا تحدثَتْ عن المرحلةِ الأولى.

الثانية: مرحلةُ الانفجار: وقد حدثَتْ نتيجةَ انحباسِ الماء داخلَ الحجر ـ الصخرة ـ وعدمِ قدرةِ الشقوقِ فيه على تصريفه، فتفاعلَ الماءُ

(١) المفردات: ١٠٨.

في الداخل، وأدى إلى انفجارِ الشقوقِ وتوسيعها، فانفجرت العيونُ منها انفجاراً.

ولا ننسى أنَّ آيةَ سورةِ البقرة تخبرُ عن استسقاءِ موسى لربه، فنتجَ عن استسقائِه تفجيرُ العيون تفجيراً: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ..﴾.

ولا ننسى أنَّ سورةَ البقرة مدنية، ولهذا تحدثَتْ عن انفجارِ العيون، وهو المرحلةُ الثانيةُ التاليةُ لمرحلة انبجاسها.

فأولُ ما نزلَ الآيةُ التي تتحدثُ عن انبجاسِ العيون في سورة الأعراف، ثم نزلت الآيةُ التي تتحدثُ عن مرحلةِ انفجار العيون في سورة البقرة. وسبحان الله منزلِ هذا القرآنَ المعجز.

ويطيبُ لي أنْ أسجلَ كلامَ الإمامِ أبي جعفر ابن الزبير الغرناطي في كتابه الفريد: «ملاك التأويل» عن التوفيقِ بين الانبجاس والانفجار:

«إنَّ الفعليْن وإن اجتمعا في المعنى، فليسا على حَد سواء. بل الانبجاسُ ابتداءُ الانفجار. والانفجارُ بعده غايةٌ له.

قال الغزنوي: الانجباسُ أولُ الانفجار.

وقال ابن عطية: انبجست: انفجرت. لكنه أخفُّ من الانفجار.

وإذا تقررَ هذا فأقول: إنَّ الواقعَ في الأعراف طلبُ بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾. والواردَ في البقرة طلبُ موسى عليه السلام من ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ..﴾.

فطلَبُهم ابتداء، فأشبهَ الابتداء. وطلبُ موسى عليه السلام غايةٌ لطلبهم، لأنه واقعٌ بعده ومرتبٌ عليه.

فأشبهَ الابتداءُ الابتداء، والغايةُ الغاية، فقيلَ جواباً لطلبهم «فانبجست»، وقيلَ إجابةً لطلبه «فانفجرت» وتناسب ذلك..»[1].

مطالبتهم بشكر الله على هذه النعم:

أَنعمَ اللّهُ على بني إِسرائيل بالماءِ الغزير، وفجَّرَ لهم العيونَ الاثنتي عشرة من الحجر، على عَددِ أَسباطهم، لكلِّ سَبط عينٌ خاصةٌ بهم: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ..﴾.

وتقسيمُ العيون إِلى اثنتي عشرةَ عيناً نعمةٌ خاصةٌ من الله عليهم، تُضافُ إِلى نعمةِ تفجيرِ الماءِ من الحجر. فلو أَخرجَ اللّهُ لهم عيناً واحدة من الحجر لكانَ مُنعماً متفضلاً عليهم، فكيفَ وقد أَخرجَ لهم اثنتي عشرةَ عيناً على عددِ أَسباطهم!! ليشربَ كلُّ سَبطٍ من عين خاصة بهم!! وذلكَ لمنعِ الازدحامِ على العين الواحدة!

وهكذا تقلَّبَ بنو إِسرائيل في صحراء سيناء بنعم اللّهِ الغامرة: نعمةِ الغمام يظلِّلُهم، ونعمةِ المنِّ والسلوى يأكلون منهما، والآن نعمةُ عيون الماء الاثنتي عشرة.

وطالَبهم اللّهُ مقابلةَ هذه النعم بشكْرِ المنعم المتفضل سبحانه، واستخدامِها في طاعته، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وهذه الجملةُ من الآية داخلةٌ على محذوف، والتقدير: أَنعمنا عليهم بذلك وقلْنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله...

ومن لطائفِ التعبير القرآني أنه لما أَخبرَ عن الإِنعامِ عليهم بالمنِّ والسلوى طعاماً لهم قال معقباً على ذلك: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ..﴾ لأنَّ المنَّ والسلوى طعامٌ مأكول، ولهذا ناسبَ أنْ يأمرَ بالأكل وحدَه، ولا يناسبُ الكلامُ عن الشرب في تلك الآية.

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ١ : ٦٧ ـ ٦٨.

ولما أخبرَ عن الإنعامِ عليهم بالعيون، قال معقباً على ذلك: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾. لأنَّ الطعامَ سبقَ الحديثُ عنه، والماءُ أخبرت الآيةُ عن عيونه، ولهذا جمعَ في الأمْرِ بين الأكل والشرب.

أي: كُلوا من ذلك الطعام المكوَّنِ من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماءِ المتفجرِ من العيون. فذلك الطعامُ من رزقِ الله، وهذا الماءُ من رزقِ الله.

ونهيهم عن عثوهم في الأرض مفسدين:

ولما أرشدَهم اللّهُ إلى الأكلِ والشرب مما رزقهم، نهاهم عن استخدامِ تلك النعم في الإفساد: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

ومعنى «عَثَا»: أفسدَ فساداً كبيراً. تقول: عَثا، يَعْثو، عَثْواً: بمعنى: أَفسدَ، يُفسد، إِفساداً.

ولم تردْ مادةُ «عَثا» إلا في صيغةِ الفعلِ المضارع المسبوقِ بحرف «لا» الناهية، واقترنَ دائماً بالإفساد. وقد وردتْ هذه المادةُ خمسَ مرات في القرآن، والمراتُ كلها وردتْ بهذه الجملة: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠. وسورة الأعراف: ٧٤. وسورة هود: ٨٥. وسورة الشعراء: ١٨٣. وسورة العنكبوت: ٣٦].

وفرْقٌ بين فعلِ «عَتَا» بالتاء، وفعْلِ «عَثَا» بالثاء.

فعلُ «عَتَا» بمعنى: عصا وتمرَّدَ وتخلى عن الطاعة. وقد وردَ عدةَ مرات في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

قال الراغبُ عن العَتْوِ: «العَتْوُ: النُّبُوُّ عن الطاعة، يقال: عَتا يَعتو، عُتُوّاً وعِتِيّاً».

وقال عن العَثْو: «العَثْوُ: الفساد، الذي يُدْرَكُ حكماً. يقال: عَثا، يَعْثو، عثواً. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾»[1].

وكأنهما خطوتان متدرجتان:

الأولى: العَتْوُ: وهو التكبرُ والانتفاشُ الذي يقودُ إلى المعصيةِ والمخالفة والخروج على الطاعة.

والثانية: هي: العَثْوُ: وهو المبالغةُ في العتو، والاستمرارُ فيه، وهو السيرُ في المعصية، ونشرُها بين الناس، وتعميمُ الفساد بينهم وإفسادهم.

ونهى اللّهُ بني إِسرائيل عن عَثْوِهم في الأرض مفسدين بعدما أَنعمَ عليهم بنعم الطعام والشراب، لأنَّ الشبعَ والرفاهَ عند غيرِ الصالح يقودان إلى نشر الفَساد في الأرض.

ومع أنَّ بني إِسرائيل قد تقلَّبوا في نعم الله، طعاماً وشراباً، شَبَعاً وريّاً وظلاًّ، إلاَّ أَنهم لم يراعوا توجيهَ الله لَهم في نهيهم عن عثوِهم مفسدين في الأرض، بل بَطروا وفَجروا في المراحلِ التالية من تاريخهم، حيث عتَوْا وتمرَّدوا، ثم عثوا في الأرض مفسدين.

ونتابعُ السيرَ مع بيانِ القرآن لموقفِ بني إسرائيل من نعم الله عليهم، لنرى: هل رَضوا بها؟ وهل شكروا اللّهَ عليها؟ أمْ مَلُّوها وكَرهوها وطلبوا تغييرَها؟.

كراهيتهم المن والسلوى وطلب تغييرهما:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

(١) المفردات: ٥٤٦.

سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ [البقرة: ٦١].

لم يَقبلْ بنو إسرائيل الاستمرارَ بأكلِ المنِّ والسلوى، وطالَبوا موسى عليه السلام بتغييرِ ذلك الطعام، والإتيانِ بأصنافِ الطعامِ المختلفة التي أَلِفوها وتعوَّدوا عليها في مصر!

وقد علقَ سيد قطب على طلبهم تغييرَ الطعام بقوله: «لقد كانوا بينَ الصحراءِ بجدْبِها وصخورِها، والسماءِ بشَواظِها ورجومِها. فأمّا الحجرُ فقد أنبعَ اللّهُ لهم منه الماء، وأما السماءُ فأنزلَ لهم منها المنّ والسلوى: عسلاً وطيراً..

ولكنَّ البنيةَ النفسيةَ المفككة، والجبلَّةَ الهابطةَ المتداعية، أَبتْ على القومِ أنْ يَرتفعوا إلى مستوى الغايةِ التي مِن أَجلها أُخرجوا من مصر، ومِن أَجلها ضربوا في الصحراء..

لقد أَخرجهم اللّهُ ـ على يديْ نبيِّهم موسى عليه السلام ـ من الذلّ والهوان، ليورثَهم الأرضَ المقدسة، وليرفَعهم من المهانةِ والضَّعَة.. وللحريةِ ثمن، وللعزةِ تكاليف، وللأمانةِ الكُبرى التي ناطَهم اللّهُ بها فدية. ولكنهم لا يُريدون أنْ يُؤَدوا الثمن، ولا يُريدون أنْ يَنهضوا بالتكاليف، ولا يُريدون أنْ يدفعوا الفدية.. حتى بأنْ يتركوا مألوفَ حياتهم الرتيبة الهينة، حتى بأنْ يغيروا مألوفَ طعامِهم وشرابهم، وأنْ يُكَيِّفوا أَنفسَهم بظروفِ حياتهم الجديدة، في طريقِهم إلى العزةِ والكرامةِ والحرية. إنهم يُريدون الأطعمةَ المنوعةَ التي أَلِفوها في مصر.. يريدون العدسَ والبصلَ والثومَ والقثاء.. وما إليها...»[١].

كان بنو إسرائيل دائمي التمردِ على موسى عليه السلام ومخالفتِه

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٤.

وإيذائه، وإعلانِ عصيانه، وقد مَرَّ بنا سابقاً قولُهم له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

والآن نحنُ أمامَ قولهم له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾.

ونلاحظُ التعبيرَ بحرفِ «لَنْ»، الذي يدلُّ على النفيِ المؤبَّد، واستغراقِه لجميع الأوقات.

وقولهم له: لن نصبرَ على طعامٍ واحد، يدلُّ على كراهيتهم للمنِّ والسلوى، وضجرِهم منه، وإعلانٌ صريحٌ لرفضهم له.

وَعَبَّروا عن المنِّ والسَّلوى بالطعامِ الواحد، مع أَنهما صنفانِ من أصنافِ الطعام، لأَنهم رأوهما طعاماً واحداً، يقدَّمُ لهم كلَّ يوم بصورة مكررة.

«ووصفوا الطعامَ بالواحدِ مع أنه نوعان ـ المن والسلوى ـ لأَنهما طعامُ كلِّ يوم. والعربُ تقول لمن يأكلُ كلَّ يومٍ عدةَ أَلوانٍ لا تتغير: إِنه يأكلُ من طعامٍ واحد»[1].

وهذا الطعامُ الذي ملّوه وكَرهوه وطالَبوا بتغييره هو ما أكرمهم اللّهُ به، فكان نعمةً وفضلاً من الله، وهو يحققُ الحاجتين الضروريتيْن للجسم الإنساني: السكرياتُ المتمثلةُ بالمنّ، والبروتيناتُ المتمثلةُ بلحم السلوى.

وهل هناك مؤمنٌ ذو ذوقٍ سليم يرفضُ الحلوى واللحم، ولا سيما إِذا كان عطاءً مباشراً من الله؟ ولكنها الطبيعةُ الخاصةُ عند بني إسرائيل، القائمةُ على المخالفةِ والتمرد، والنزقِ والاعتراض، والاستعبادِ للإِلْفِ والعادة.

أرادوا البقول والخضروات:

ما هو البديلُ الذي يطلبونه؟ إنه الذي سجلَه قولُهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا

(١) تفسير المنار ١: ٣٣٠.

رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

يريدون أصنافاً من المزروعات، التي تُزرعُ في الأراضي غير الصحراوية، يريدونها في الأَراضي الصحراوية في سيناء، والصحراءُ لا تُنبت بَقْلاً ولا قثاءً، لكنهم يريدونَها من الله، وهم يعلمون أنَّ اللّهَ يفعلُ ما يريد، فهو الذي أَعطاهم المنَّ والسَّلوى، وهو الذي أَنبعَ لهم عيونَ الماء من الصخر، وهو القادرُ على إِنباتِ الخضروات في الصحراء.

ومن سوءِ خطابهم لموسى قولُهم له: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾. حيثُ أَضافوا الربَّ إِليه «ربك»، ولم يقولوا: «رَبَّنا»، وهذا فيه من الوقاحةِ وسوءِ الأدب ما فيه، وقد سجَّلَ القرآنُ قولَهم لموسى «ربك» أكثرَ من مرة، في أكثرَ من موضع اعترضوا فيه على موسى عليه السلام.

وفعلُ «يُخرِجْ لنا» مجزوم، لأنه جوابُ الطلب في «فادع» وكأَنهم يأمرون أمراً بإخراجِ خضرواتِ الأرض.

و«مِنْ» في قولهم: «مِنْ ما تنبت الأرض» للتبعيض، فهم يريدونَ بعضَ الخضروات التي تُنبتها الأرض.

ومن الأَصنافِ التي طلبوها: البقل، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل.

والبَقْلُ: «نَباتٌ عشبي، يَغْتذي به الإنسانُ أو بجزءٍ منه»[1].

والمرادُ به الخضرواتُ التي يأكلُها الناس، كالبقدونس والنعناع والجرجير والكراث والكرفس وغير ذلك، وهي تؤكلُ نِيئة، وتفتحُ الشهية، وتُعينُ على الهضم.

---

(١) المعجم الوسيط ١:٦٦.

والقِثّاء: «نوعٌ من البطيخ، نباتي، قريبٌ من الخيار، لكنه أطولُ. واحدتُه قِثّاءَة»[1].

والقثاء هو الفقوس، وهو معروفٌ في بلاد الشام.

والفوم: اختلفَ فيه المفسرون. فقال بعضُهم هو الحنطة، وقال آخرون هو الثوم.

والراجحُ أنه الثوم. بدليلِ ذكْرِه مع العدس والبصل، فالثومُ قرينٌ للبصل، يُذكران معاً.

وإبدالُ الثاءِ فاءً شائعٌ في لغة العرب، فيقولون: جَدَث وجَدَفَ، وثَلغ وفَلغ، وثوم وفوم[2].

لقد كانَ ذوقُ القومِ هابطاً متدنياً، حيث رَفضوا المنَّ والسلوى، واللحمَ والحلوى، وطَلبوا الثومَ والبصلَ والعدس والبقل.

لومهم لاستبدالهم الأدنى بالخير:

ولذلك أَنكرَ عليهم موسى هذا التّدني والهبوطَ في طلب الطعام، فقالَ لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟.

والمعنى: «أَتطلبونَ هذه الأنواعَ الخسيسة بدلَ ما هو خير منها، وهو المنُّ والسَّلوى؟ والمنُّ فيه الحلاوةُ التي تألَفُها أغلبُ الطباع البشرية، والسَّلوى من أطيبِ لحومِ الطير، وفي مجموعها غذاءٌ تقومُ به البنية، وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية...»[3].

والاستنكارُ في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ للإنكار، ينكر عليهم موسى عليه السلام تدنّي ذوقِهم.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٧١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥٢٢. والمعجم الوسيط ٢: ٧٠٧.

(٣) تفسير المنار ١: ٣٣١.

والهمزةُ والسينُ والتاء في «تستبدلون» للتأكيدِ وليسَ للطلب، فهو يؤكدُ على استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والاستبدال: جعلُ شيءٍ مكانَ شيء، أَو تعويضُ شيء بشيء آخر.

والأَدنى هو الأقرب، ويُطلقُ على الأخسِّ والأَدْون.

وتَدخلُ الباءُ دائماً على الشيءِ المبدلِ منه المتروك، ويكونُ المأخوذُ المبدلُ منصوباً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟.

فالذي أَخذوه واختاروه في عمليةِ التبديل هو ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو في محلِّ نصبِ مفعولٍ به، وهو ما تُنبت الأرض، من البقل والقثاء..

والذي تَركوه وبَذلوه وتخلَّوا عنه هو الذي ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾، وهو الذي دخلَتْ عليه «الباء»، وهو المنُّ والسلوى.

فالقومُ استبدلوا البقلَ والقثاءَ والفومَ والعدس والبصل بالمنِّ والسّلوى، وهذا يدلُّ على سوءِ اختيارهم، ولذلك أَنكر عليهم موسى عليه السلام ذلكَ الاستبدال.

ومن الأمثلةِ على دخول الباءِ على المتروك ونصْبِ المأخوذِ في عمليةِ الاستبدالِ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢] أي: لا تأخذوا الخبيثَ وتتركوا الطيب.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ..﴾ [البقرة: ١٠٨].

أي: مَن يختارُ الكفرَ ويتركُ الإيمان فقد ضل.

«اهبطوا مصراً تجدوا ما سألتم»:

وبعدما ذمَّهم موسى عليه السلام على سوء اختيارهم، وأنكرَ عليهم استبدالَ الخبيث بالطيب، قالَ لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..﴾.

وهذا من بابِ الإنكارِ عليهم ولومِهم وتوبيخِهم، على ما طلبوه من أَصنافِ الطعام المختلفة.

وكأَنه يقولُ لهم: إنَّ ما تطلبونَه من الطعامِ المنوَّعِ لا يوجَدُ هنا، فسيناءُ لا تُنبتُ هذه الأصناف، وتربتُها الصحراوية لا تصلحُ لذلك، إنَّ ما تريدونَه موجودٌ في الأَراضي الزراعية الخصبة، ومتوفرٌ في الأمصارِ والقرى التي يقطنها الناس.

والمرادُ بالمصر في ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾: أيُّ قطرٍ من الأَقطار، وأيُّ مصرٍ من الأمصار. وليس المرادُ بها «مصر» المعروفة، التي كانوا يقيمونَ فيها، والتي كان يحكمها فرعون.

الفرق بين «مصر» و«مصراً» في القرآن:

لقد فرَّقَ القرآنُ بين «مصرَ» البلدِ المعروف الذي يحكمه الفراعنة، وبين «مصْراً» المنونة.

«مصرُ» المعروفة، وردَتْ في القرآنِ أربعَ مرات، في هذه الآيات:

١ ـ قالَ اللّهُ عن بيعِ يوسفَ عليه السلام وهو غلامٌ في مصر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ . . .﴾ [يوسف: ٢١].

٢ ـ وقال اللّهُ عن اجتماعِ شملِ أسرةِ يعقوب عليه السلام كلِّها عند يوسفَ في مصر: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: ٩٩].

٣ ـ وقالَ تعالى عن تكبُّرِ فرعون واغترارِه بحكم مصر: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

٤ ـ وقالَ تعالى عن تربيةِ بني إسرائيل على الإيمانِ أثناءَ فترة الاضطهادِ في مصر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . .﴾ [يونس: ٨٧].

و«مصْرُ» في هذه المواضع الأربعة ممنوعةٌ من الصرف، للعَلَميةِ والتأنيث، لأنها اسمٌ لتلك البقعة الجغرافية، وهي مؤنثةٌ تأنيثاً مجازياً.

أما «مِصْراً» بالتنوين فإنها لم تَرِدْ إلاّ في هذا الموضع من قصةِ موسى عليه السلام: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ..﴾.

والمرادُ بها: أيُّ مِصْرٍ من الأمصار، وقطْرٍ من الأقطار، وبقعةٍ من البقاع.

وهي مصروفة، لأنَّها لا يُرادُ بها بلدٌ معين، حيثُ تنطبقُ على أيِّ مصرٍ وبلد.

وهي مشتقة من «المصر»، وهو الحدُّ الحاجزُ بين شيئين.

وردَ في المعجم الوسيط: «المصرُ: الحاجزُ بين الشيئين أو بين الأرضين. والجمعُ: مُصور. يقال: اشترى الدارَ بمصورِها.

وهي الكورةُ الكبيرة، تُقامُ فيها الدورُ والأسواقُ والمدارس، وغيرها من المرافق العامة»[1].

ملازمة الذلة والمسكنة والغضب لبني إسرائيل:

قال محمد رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾:

«اهبطوا» أيَّ مصرٍ من الأَمصار، فإنكم إِنْ هبطتُموه ونزلتموه وجدْتُم فيه ما سألتم. أما هذه الأرضُ التي قضى اللّهُ أنْ تُقيموا فيها إلى أجلٍ محدود فليسَ من شأنها أنْ تُنبتَ هذه البقول.

وإنَّ اللّهَ عز وجل لم يَقْضِ عليكم بالتيهِ في هذه البرية إلاّ لجبنِكم وضعْفِ عزائِمكم عن مغالبةِ مَنْ دونكم من أهل الأمصار..»[2].

---

(١) المعجم الوسيط ٢:٨٧٣.

(٢) تفسير المنار ١:٣٣١.

وبعدَ أنْ سجلت الآيةُ لومَ موسى عليه السلام لبني إسرائيل على جحودِهم نعمَ الله عليهم في الطعام والشراب، عجّلتْ بذكْرِ ما أصابهم في المراحلِ التاليةِ من تاريخهم من ذلةٍ ومسكنة، بسببِ ما ارتكبوه من جرائم. قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وهكذا عَرَّفَنا القرآنُ على مظاهرِ إنعامِ اللّهِ على بني إسرائيل في صحراء سيناء، حيثُ ظلَّلَهم بالغمام ليَقيهم حَرَّ الشمس، وسخَّرَ لهم المنَّ والسلوى طعاماً يأكلونه، وفجَّرَ لهم اثنتي عشرة عيناً من الحجر.

وعَرَّفَنا القرآنُ على موقفهم من هذه النعم، وهو موقفُ الجاحدِ المتمرد، حيث جَحدوها ولم يشكروا اللّهَ عليها، وطالَبوا بتغييرها وتبديلِها، واستبدلوا في طلباتِهم الذي هو أَدنى بالذي هو خير، فاستحقوا اللومَ والتوبيخَ من موسى عليه السلام.

[٦]

قصة بقرة بني إسرائيل كاشفة عن طبيعتهم

مما حدثَ لبني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام وهم في سيناء حادثةُ ذبحِ البقرة، وهي حادثةٌ كبيرة وقصةٌ عجيبة، تحوي دلالاتٍ عديدة.

أخذها من الكتاب والسنة فقط:

وقد أَشارتْ إلى هذه الحادثة آياتٌ من سورةِ البقرة. وسورةُ البقرة مدنية، وسُميتْ سورةَ البقرة لورودِ آياتٍ فيها تتحدثُ عن قصةِ البقرة، ولم تتحدثْ عن هذه القصةِ إلاّ آياتُ سورةِ البقرة.

ولم تَرِدْ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ تُضيفُ جديداً إلى عرضِ القرآن لأحداثِ القصة. بينما وردَتْ تفصيلاتٌ لها في الإسرائيليات، وقد أخذَ المفسرونَ والإخباريون تلك الرواياتِ الإسرائيلية، وفسَّروا بها آياتِ القرآن وأوردوها في تفاسيرهم.

ونحنُ على منهاجنا في التعاملِ مع «القصص القرآني» لا نأخذُ شيئاً من تلك الإسرائيليات، وبما أنَه لا توجَدُ أَحاديثُ صحيحةٌ حول القصة، فسنبقى مع آياتِ القرآن، نحلِّلُ من خلالها أَحداثَ القصة.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

خلاصة القصة:

ما نفهمُهُ من هذه الآياتِ الكريمة أنه قد وقعتْ حادثةُ قتْلٍ في بني إسرائيل، ولم يُعرف القاتل، فجاءَ أهلُ القتيل إلى موسى عليه السلام لمعرفة القاتل.

فبلّغهم موسى عليه السلام أمْرَ الله، وقالَ لهم: إن اللّهَ يأمركم أَن تذبحوا بقرة، أيةَ بقرةٍ من بين البقر.

فاستغربوا من كلامه، إذْ ما هي الصلةُ بين حادثةِ القتل وبين ذبح البقرة؟ وظنّوا أنّ موسى عليه السلام يسخرُ منهم ويهزأُ بهم، وقالوا له: أَتتخذُنا هزواً؟.

واعتبرَ موسى الهزءَ والسخريةَ بالآخرين جهلاً، ونَزَّهَ نفسَه عن ذلك، وقال: أعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين.

بعدَ ذلك صارَ بنو إسرائيل يتلكؤون في تنفيذِ الأَمر ويماطلون ويفاوضون، ويَطرحون على موسى أسئلةً حول البقرة، تدلُّ على مماطلتِهم وتلكؤهم.

سأَلوه عن صفاتِ البقرة. فأَخبرهم أَنها بقرةٌ وسطٌ في العمر، فلا هي عجوزٌ مسنّةٌ هَرِمة، ولا هي بكرٌ صغيرة.

وسأَلوه عن لونها. فأخبرهم أنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها.

وسأَلوه عن وظيفتِها وعملِها عند أَهلها. فأخبرهم أَنها ليستْ ذَلولاً تُستخدمُ في الحراثةِ والسقي، وإنما هي معززةٌ عند أهلها، وهي سالمةٌ من العيوبِ والنقائص، ليس فيها علامةٌ ولا أثرٌ لعيب.

وبذلك ضَيَّقوا على أنفسهم. فبَحثوا عن بقرةٍ بتلك المواصفات، وأخيراً وجدوها، وذبحوها، ونفَّذوا الأمرَ بعد المماطلةِ والمفاوضة.

ولما ذبحوها أَمرهم موسى عليه السلام أنْ يَقطعوا «بعضاً» منها، وجزءاً من أجزائها، وأنْ يَضربوا به الرجلَ القتيلَ المسجّى جثةً هامدة.

وأَجرى اللّهُ بحكمته معجزتَه الباهرة، فلما ضُرِبَ القتيلُ ببعضِ البقرة، أحياهُ الله، فنطقَ وتكلم، ثم ماتَ الموتَ الحقيقي.

ولم يتأثَّرْ بنو إسرائيل أَمامَ هذا الحدثِ المعجز المثير، الكفيلِ

بتليينِ وترقيقِ القلوب، وإنما زادتْ قلوبُهم قسوةً وصلادة، فكانت أَقسى من الحجارة الصماء!!.

هذا هو موجزُ القصة كما أَوردَتْها آياتُ القرآن، وقدْ أَوردَها القرآنُ للاعتبارِ والاتعاظ.

دلالتها على طبيعة بني إسرائيل:

قالَ الإمامُ محمد رشيد رضا عن الحكمةِ من قَصِّها علينا في القرآن: «هذه القصةُ مما أَرادَ اللّهُ تعالى أنْ يقصَّهُ علينا من أَخبارِ بني إسرائيل، في قسوتِهم وفسوقِهم، للاعتبارِ بها، ومِن وجوه الاعتبار أنَّ التنطعَ في الدين والإِحفاءَ في السؤال، مما يقتضي التشديدَ في الأحكام، فمَنْ شَدَّدَ شَدَّدَ اللّهُ عليه..»[1].

وقالَ الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور عن ذلك: «تعرضتْ هذه الآيةُ لقصةٍ من قَصصِ بني إسرائيل، ظهرَ فيها من قلةِ التوقيرِ لنبيهم، ومن الإِعناتِ في المسألة والإلحاحِ فيها، إمّا للتّفلُّت من الامتثال، وإمّا لبُعْدِ أَفهامِهم عن مقصدِ الشارع، ورَوْمِهم التوقيفَ على ما لا قَصْدَ إليه...»[2].

أما سيد قطب فقد قالَ عن ذلك: «وفي نهايةِ هذا الدرس تجيءُ قصةُ «البقرة».. تجيءُ مفصَّلة، وفي صورةِ حكاية، لا مجردَ إِشارة، ذلك أَنها لم تَرِدْ من قبلُ في السورِ المكية، كما أنها لم تَرِدْ في موضعٍ آخر. وهي ترسمُ سمةَ اللجاجةِ والتعنتِ والتلكؤ في الاستجابةِ وتمحُّلِ المعاذير، التي تتسمُ بها إسرائيل.

وفي هذه القصةِ القصيرة ـ كما يَعرضُها السياقُ القرآني ـ مجالٌ للنظرِ في جوانبَ شتى: جانبِ دلالتها على طبيعةِ بني إسرائيل وجبلَّتِهم الموروثة، وجانبِ دلالتها على قدرةِ الخالق، وحقيقةِ البعث، وطبيعةِ

---

(١) تفسير المنار ١:٣٤٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١:٥٤٦.

الموتِ والحياة، ثم جانبِ الأَداءِ الفني في عرضِ القصة بدءاً ونهايةً واتساقاً مع السياق...»[1].

وبعدَ هذا العرضِ الموجزِ للقصة، ولبعضِ عبرِها ودلالالتها، ننظرُ نظرةً إجماليةً في الآياتِ التي عرضَتْها.

الله الذي أمرهم بذبح بقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾:

لما أَخبرَ بنو إِسرائيلَ موسى عليه السلام عن حادثةِ القتل، طلبَ منهم أنْ يَذبحوا بقرة، وأَخبرهم أن اللّهَ هو الذي يأمرهم بذلك، وما دورُ موسى إلاّ في تبليغِهم وإِخبارِهم أمرَ الله.

وكأنَّ موسى عليه السلام يعلمُ تباطؤَ وتلكؤَ قومه، ولهذا أَخبرهم أنَّ هذا هو أمْرُ الله لهم، وذلك ليوجدَ عندهم الاستعدادَ الإيمانيَّ لتنفيذ أمر الله، وأيُّ مؤمنٍ صادق يُبلَّغ بأمرِ واجبٍ عليه من الله، فإنه يسارعُ إِلى تنفيذِ الأمر أداءً للواجب إلاّ عند بني إِسرائيل.

وكلمةُ «بقرة»: في الجملة نكرة، وهذا التنكيرُ مقصود، ويُشيرُ إِلى أنَّ الأمرَ واضحٌ مفهوم، ويُنفَّذُ الأمْرُ بذبحِ أيةِ بقرة، فلو تناولوا بقرةً من بين البقر وذَبحوها لقاموا بالواجب!

موسى يبرأ من اتهامه بالهزء:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟.

تَعجبوا من هذا الأمرِ الصادرِ لهم من الله، إذْ لم يجدوا وجْهَ اتصالٍ بينه وبين حادثةِ القَتل، فماذا ينفعُ ذبحُ البقرة في التعرفِ على القاتل؟

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٧.

وذهبَ بهم سوءُ ظنِّهم وتوقيرِهم لموسى عليه السلام إلى الظنِّ بأنه يهزأُ ويسخرُ ويستهزئُ بهم، عندما يطلبُ منهم ذبْحَ البقرة، فخاطبوه بوقاحةٍ وجلافةٍ وسوءِ أدب، وقالوا له: أتتخذُنا هزواً؟

أي: أَتسخرُ منّا وتستهزئُ بنا عندما تطلبُ منا هذا الطلب؟

و«هُزُواً» مصدر. تقول: هَزَأَ، يَهْزَأُ، هَزْءاً وهُزُواً. بمعنى السخريةِ والاستخفافِ بالآخرين والاحتقار لهم.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ..﴾:

نفى موسى عليه السلام عن نفسه تهمةَ السخريةِ والاستهزاء بهم، واستعاذَ بالله أنْ يفعلَ ذلك، واعتبرَ هذا جهلاً وخفةً وسفهاً، وتبرأ أنْ يكونَ من الجاهلين.

ودلَّ هذا على أنَّ الاستهزاءَ والاستخفافَ بالآخرين جهلٌ وسَفَه، والمسلمُ الجادُّ المتواضعُ لا يفعله، ويعوذُ بالله طالباً منه العصمةَ منه، إنه جادٌّ ملتزم، قد يمزحُ لكنه لا يقولُ إلاّ حقاً، وقد يضحكُ ولكن بأَدبٍ ووقار. أمّا أنْ يُحولَ حياتَه إلى سُخريةٍ وهزء، ولعبٍ ولهو، فهذا ما يتعارضُ مع رسالتِه وهدفِه في الحياة، وهو يربأُ بنفسه أنْ يفعلَ ذلك وأنْ يكونَ من الجاهلين.

وعندما سَمعوا جوابَ موسى عليه السلام ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ علموا أنَّ الأَمْرَ جدّ، وأَنه من الله، وأَنهم ملزمونَ بذبْحِ البقرة، وأنَّ لها صلةً بحادثةِ القتل. لكن طبيعتَهم القائمةَ على التحايلِ والتباطؤ والتلكؤ تأبى عليهم المسارعةَ بتنفيذِ أمْرِ الله، ولهذا دَخلوا في «مفاوضات» وحوارٍ مع موسى عليه السلام، زعموا فيها أَنهم لا يعرفونَ المطلوبَ منهم بدقةٍ ووضوح، فما هي البقرةُ التي أُمروا بذبْحِها؟ ما هي صفتُها؟ وما لونُها؟ وما هي وظيفتُها عند أهلها؟!!

موسى يجيبهم عن عمر البقرة:

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؟:

وقولُهم له: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقاحةٌ أُخرى من وقاحاتهم العديدة، في كلامِم مع موسى عليه السلام، وسوءِ أَدبهم في خطابهم له. إنهم أَضافوا الربَّ له هو: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ..﴾! وكأَنَّ اللّهَ ربَّه هو وحده، وليس رباً لهم أيضاً! فرْقٌ بين قولهم: ادعُ لنا ربَّك، وبين قولهم: ادعُ لنا ربنا..

وقد مَرَّ بنا هذا التعبيرُ من قبل، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ..﴾ [البقرة: ٦١].

وهنا ذكَروها ثلاثَ مرات: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾، و﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، و﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا ...﴾.

أَوهموا موسى عليه السلام بأَنهم وَقعوا في الإِبهامِ والحيرة من جهةِ عمر البقرة، فهم لم يَعرفوا هل هي صغيرةٌ أو كبيرةٌ في العمر، ولو عرفوا ذلك لذبحوها.

وطلبوا منه أنْ يسألَ اللّهَ ربَّه ويدعوه، ليبينَ لهم ما هي من جهة العمر.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

وبما أنَّ موسى عليه السلام يعلمُ تلكؤَ وتباطؤَ القوم، مهَّدَ للجوابِ بإِخبارهم أنَّ هذا القول والجوابَ من الله. والهاء في «إِنه» ضميرٌ يعودُ على الله. أي: قالَ موسى لهم: إن اللّهَ يقول: إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكر.

حدَّدَ اللّهُ لهم عمرَ البقرة بأنها وسَطٌ بين الصغرِ والكبر، فلا هي فارضٌ هرمة، ولا هي بكرٌ صغيرة، ولكنها عوانٌ وسطٌ بين العمريْن.

و«فارض» اسمُ فاعل. فعله الماضي: فَرُضَ، بمعنى: كَبُرَ وأَسَنَّ. يقال: فَرُضَ، يَفْرُضُ، فهو فارض. بمعنى: كَبُر وشاخ[١].

و«بكر»: من باب: بَكَرَ، يَبْكُرُ، من التبكير، وهو أولُ مولودٍ للوالدين. والمرادُ به هنا أن هذه البقرةَ ليست بكراً صغيرة.

و«عَوان»: من باب: عان، يَعون، عَوْناً، والعَوانُ هي المتوسطةُ في العمر، بين الصغرِ والكبر.

والبقرةُ العونُ أنفسُ وأَفضلُ من البقرةِ الفارضِ المسنة، ومن البقرةِ البكرِ الصغيرة، ولحمها أَجودُ وأطيب.

ونفيُ الصفتيْن الفارضِ والبكرِ بحرف لا، ودخولُ «لا» على كلٍّ منهما لتأكيد النفي ولإثباتِ الصفةِ الثالثة لها وهي أنها عوانٌ متوسطةُ العمر: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

بعدَ ما بَيَّنَ لهم موسى عليه السلام عمرَ البقرةِ المطلوبة، طلبَ منهم أن يُسارعوا بالتنفيذ، والقيام بالواجب، فاللّهُ يأمرُهم ويكلفُهم، وما عليهم إلاّ الفعلُ والأداء ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

وهذا إِنكارٌ منه لتباطئِهم، ولومٌ وذمٌّ لهم، واعتراضٌ على أسئلتهم التي لا داعي لها ولا فائدةَ منها.

موسى يجيبهم عن لون البقرة:

ولا يَعرفُ بنو إِسرائيل منطقَ المسارعةِ بالتنفيذ، ولذلك أَوهموا موسى عليه السلام أَنهم وقعوا في إِبهامٍ جديد. صحيحٌ أَنهم عرفوا أَنَّ

---

(١) المعجم الوسيط ٢:٦٨٢.

البقرةَ المطلوبةَ عَوانٌ وسطٌ بين الكبر والصغر، لكنهم لم يعرفوا ما لونُها؟!

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟.

نفسُ الوقاحةِ السابقة في قولهم: ادعُ لنا ربَّك.

ونفسُ التباطؤ واللجاجةِ في سؤالهم عن اللون. وما دخْلُ اللونِ في البقرة المطلوبة؟ وما تأثيرُ لونِها على ذبحها؟ إنه لا فرقَ بين كونِ البقرة صفراءَ أَو سوداءَ أَو بيضاء! لكنها العقليةُ الإِسرائيليةُ المتفلتة!

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

أَخبرهم أنَّ هذا البيانَ من الله. والمعنى: إن اللَّهَ يقولُ لكم: إنَّ البقرةَ المطلوبةَ صفراءُ فاقعٌ لونها.

واحتيج إِلى تأكيدِ الصُّفرةِ بالفُقوع، وهو شدةُ الصفرة، لأنَّ صفرةَ البقر تقربُ من الحمرة غالباً، فأكَّده بالفقوع.

تقول: أصفرُ فاقع. و: أحمرُ قانٍ. و: أسودُ حالك. و: أبيضُ يَقَق. و: أخضرُ مُدْهامّ[1].

لا بدَّ أنْ يكونَ لونُ البقرة المطلوبة أصفرَ فاقعاً، وأنْ يكونَ صفارُها ناصعاً، غيرَ مخلوطٍ بأيِّ لون آخر. فليس فيها شعرةٌ غيرُ صفراءَ فاقعة.

ثم هي تسرُّ الناظرين لصفارِ لونها، لأنَّ الأصفرَ الفاقعَ جميلٌ ونادر، وبالذاتِ بين البقر.

لقد ضيَّقَ اللّهُ على بني إسرائيل عندما سأَلوا أسئلةً متكلِّفةً

---

(١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور ١:٥٥٣.

متَمَحّلَة، وهم الآن لا بدَّ أنْ يَبحثوا عن بقرةٍ صفراءَ فاقعةِ اللون، تسر الناظرين فأين سيجدونَها؟

سؤالهم عن عمل البقرة وتشابه البقر عليهم:

ومع ذلك قادتْهم اللجاجةُ إلى سؤالٍ آخر عن منزلتِها عندَ أَصحابها، وأَوهموه أَنهم وقعوا في إِبهامٍ من هذه الناحية: إنَّ التمحُّلَ والتكلفَ يقودُهم من إِبهام إلى إبهام، ومِن حيرةٍ إِلى حيرة.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وكأَنهم قالوا لموسى عليه السلام: أَخبرْتَنا أنَّ هذه البقرةَ عوانٌ متوسطةُ السن من حيث العمر، وأَنها صفراءُ فاقعةُ اللون، ولكن هذا البيان زادَ البقرةَ إِبهاماً وغموضاً، فلم نعرفْ ما هي البقرةُ المطلوبة.

إنَّ البقرَ تَشابَهَ واختلطَ علينا، فلم نَعُدْ نعرفُ البقرةَ المطلوبة من بين البقراتِ الصُّفْرِ العَوان. فادعُ لنا ربَّك يبينْ ما هي عند أهلها، وما منزلتُها عندهم. هل هي بقرةٌ ذلولٌ عاملة، أم هي بقرةٌ معزَّزةٌ مكرَّمة؟

إِنهم السببُ في تشابهِ البقر عليهم، فلولا أسئلتُهم المتكلفةُ لما وقَعوا في هذا الإشكال، وكان بإمكانِهم أنْ يذبحوا أيةَ بقرةٍ، وينتهي الأمر.

وإنَّ الاشتباهَ والالتباسَ والحيرة ضريبةٌ يدفعُها كلُّ مَنْ يتركُ التشريعَ الربانيَّ الميسر، ويذهبُ إلى التعقيدِ والتشديد والبحثِ عما لا فائدةَ منه.

ويحملُ قولُهم لموسى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ معنى الاعتذار له، وكأَنهم شعروا بتأخرهم وتلكؤهم ولجاجتهِم، وأَحَسّوا بتكلُّفهِم وتنطُّعِهم، فبرَّروا ذلك بأَنَّ البقرَ تشابهَ واختلطَ عليهم.

ووعدوا أنْ يمتثلوا الأمر ويقوموا بالواجب، بعدَ أنْ يَعرفوا منزلةَ البقرة عند أهلها.

هي معززة مكرمة عند أهلها:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ..﴾.

اخبرهم أنَّ اللّهَ يبينُ أنَّ هذه البقرة ليستْ مذلَّلةً في حراثةِ الأرض، وليستْ مذللةً في سقيِ الحرث.

و«ذَلول» بمعنى الذليلةِ المهانةِ الضعيفة. من باب: ذَلَّ، يَذِلُّ، ذُلاً. إِذا ضعفَ وأُهين.

تقول: ذَلَّتِ البقرةُ فهي ذلول: بمعنى انقادَتْ واستسلمتْ لصاحبها[1].

ومعنى «تُثير الأرض»: تَحرثُها بالمحراث، وتَقلبُ تربتَها ظَهراً لبطنٍ عندَ الحراثة.

يقال: أَثارَ الأرض. إِذا حرثَها للزراعة.

والحَرث»: هو الزرع. يقال: حَرَث، يَحْرُث، حَرْثاً: بمعنى: أَثارَ الأرض، وأَلقى فيها البذر، وخرجَ منها الزرع.

قال الإِمام الراغب: «الحَرْثُ: إِلقاءُ البذرِ في الأرض، وتهيؤُها للزرع، ويُسمى المحروث حرثاً»[2].

ومعنى: «ولا تسقي الحرث»: أنَّ هذه البقرةَ ليست ذَلولاً مستخدمةً في سَقيِ الزرع، وجلبِ الماء له، ليقومَ صاحبُه بعد ذلك بصبِّ الماء عليه وسقيه له.

---

(١) المعجم الوسيط ١: ٣١٤.

(٢) المفردات: ٢٢٦.

والمعنى أَنها بقرةٌ عزيزةٌ نفيسةٌ عند أَصحابها، فلا يُذلونها، ولا يَستخدمونها في حراثةِ الأرض، ولا في سقايةِ الزرع.

و«ذلول»: مرفوعةٌ على أنها صفةٌ لما قبلها «بقرة».

و«تثير الأرض»: في محلّ نصب حال. و«لا تسقي الحرث» في محلّ نصبِ صفة أُخرى لها، وهي حالٌ آخر.

والتقدير: إِنها بقرةٌ عزيزة، غيرُ ذليلة مثيرةً للأرض، وغيرُ ذليلة ساقيةً للزرع.

ثم زادَها بياناً بقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ..﴾:

و«مُسَلَّمَة»: اسمُ مفعول، فعل الماضي: «سَلَّمَ» بالتشديد. تقول: سُلِّم. يُسَلِّم، فهو مُسَلَّم. بمعنى أنه سَلِمَ من كلِّ نقص.

أي أنَّ هذه البقرة العزيزة سليمةٌ من جميعِ العيوب والنقائص التي قد تُصيبُ غيرَها من البقر. وهذا ما زادَها فضلاً في عيون أصحابها.

و«لاشية فيها»: مكونةٌ من: «لا» النافيةِ للجنس.

و«شِيَةَ»: اسمُ لا مبني على الفتح في محلِّ نصب. وهو من بابِ «وَشىٰ». تقول: وَشىٰ. يَشي، وَشْياً.

والشِّيَةُ هي: العلامةُ النشازُ الشاذةُ المخالفةُ لباقي لون البقرة[1].

فهذه البقرةُ صفراءُ فاقعٌ لَونها، وليس فيها «شِيَةٌ» أُخرى، ولا لونٌ آخر غيرُ الأصفر.

قال الراغب: «وَشَيْتَ الشيءَ وشياً: جعلتَ فيه أَثَراً يُخالفُ معظمَ لونه. واستُعملَ الوشيُ في الكلام تشبيهاً له بالمنسوج...»[2].

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٢: ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦.

(٢) المفردات: ٨٧٢.

وهكذا اكتملت الحلقاتُ ضيقاً عليهم، وندرَ وجودُ بقرة بهذه الصفات، من حيثُ العمر واللون والعمل. فأين سيجدونها؟ ومتى سيجدونَها؟ وكم سيدفعون ثمنها عندما يجدونَها؟.

لكنهم هم الذين جَنَوْا وضيَّقوا على أنفسهم بهذه الأسئلةِ المتكلفة التي طرحوها، وكان بإمكانِهم أنْ يَذبحوا أيةَ بقرةٍ من أول مرة.

ونتعرَّفُ من هذه العبارةِ على أَخلاقِهم المرذولة، ووقاحتِهم البذيئة، وسوءِ أدبهم في كلامهم.

قالوا لموسى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾!!

ومَن هو موسى الذي يُخاطبونَه هكذا؟

إِنه نبيُّهم الذي يَزعمونَ الإيمانَ به، والذي أَنقذَهم من الذلِّ عند الفراعنة، والذي يبذلُ جهدَه في تربيتِهم والارتقاءِ بمستواهم.

الآنَ جئتَ بالحق! الآن فقط!! وكأنَّه قبلَ الآن لم يجئ بالحق ولم يتكلمْ بالحق، وإنما جاءَ بالباطل وتكلمَ بالباطل، وكأَنَّ الحوارَ السابقَ بينَه وبينهم كانَ بالباطل!!

إِنها طبيعتُهم التي لا تفارقُهم، وإِنه أُسلوبهم في الخطابِ الذي يقومُ على الوقاحة وسوء الأدب.

ذبحوا البقرة وما كادوا يذبحونها:

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

بعدَ هذه اللجاجة، وهذا التباطؤ والتلكؤ، بحثَ بنو إِسرائيل عن البقرةِ المطلوبة، بالمواصفاتِ التي حدَّدَها لهم موسى عليه السلام، والتي أَخبرَتْنا عنها الآيات.

وأخيراً نَفَّذوا الأمر، وذَبحوا تلكَ البقرة.

إنهم ذبحوها، وكأنّهم ما ذَبحوها: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ما معنى قوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؟.

هم ذبحوها، لكن كادوا ما يذبحونها، وقارَبوا أنْ لا يَذبحوها، فكأنّهم لم يذبحوها!!

إنهم لو ذبحوها منذُ أنْ أَمرهم موسى عليه السلام بذلك أولَ مرة، لسارعوا في تنفيذِ الأمر، وبهذا يحققون الأجرَ والثوابَ عليه.

أما الآن، فإنَّ ذبْحهم لها قد جاءَ متأخراً، وبذلك فقدوا عنصرَ المسارعةِ في التنفيذ، وصفةَ الجنديةِ لله، والرغبةِ في الالتزامِ بأوامره، بهمةٍ وصدقٍ وجدية.

فجملة: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: تدلُّ على حصولِ الفعل بعدَ عسرٍ ومشقة. كما تدلُّ على بطئهم في التنفيذ، ومراوغتِهم فيه، بحيث لم يُنفذوه إلاّ مُضطرين مُكرهين.

إنَّ الذي ينفذُ الأمرَ مكرهاً كأنه لم ينفذه، لأنَّ اللّهَ يريدُ من المكلفِ أنْ ينفذَ الأمرَ بتفاعلٍ وهمةٍ وحيوية، وبرغبةٍ ومحبةٍ ورضى، وأنْ يشاركَ كيانُه كلُّه لذةَ المسارعةِ في التنفيذ، والجديةِ في الالتزامِ والجندية.

أمّا إذا نفذَ المكلَّفُ الأمرَ متأخراً، وبعدَ محاولاتٍ عديدةٍ من التكاسلِ والتحايلِ والتفلت والتهرب، فإنه يكون قد نفَّذَ مكرهاً مرغماً، ويكونُ في هذه الحالة كأنه لم ينفذ.

إنَّ التي نفذتْ هي أَعضاؤه وحواسُّه، ولم تنفِّذْ نفسُه ولا روحُه، ، ولم يتفاعَلْ كيانُه، ولم يستفدْ من التنفيذ قلبُه، وبذلك لم يحققْ حكمةَ التكليفِ التربوية. ولهذا يكون تنفيذُه كعدمِ تنفيذه، وفعْلُه كعدمِ فعلِه، فكأنه نَفَّذَ وما نَفَّذ!!.

وهذا المعنى يشيرُ له قولُه تعالى الذي يحددُ الحكمةَ من ذبح الأضــاحــي: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧].

وبما أنَّ اليهودَ لم يسارعوا في ذبح البقرة، فلم يحققوا حكمةَ الأمرِ والتكليفِ بذبحها، ولم تَزدهم جنديةً والتزاماً وعبوديةً وصدقاً، ولهذا كان ذبْحُهم لها مجردَ ذبحٍ ماديٍّ آلي، بدون فائدةٍ ولا ثمرةٍ في نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم.

ولهذا قال: ذبحوها وما كادوا يفعلون. أي: ذَبحوها وكادوا ما يذبحونها، وأوشكوا أنْ لا يَذبحوها، وقارَبوا مِن أنْ لا يذبحوها.

«كاد»: إثباتها نفي ونفيها إثبات:

وفعل «كاد» عجيب في دلالته، فإنه إذا كان مُثْبَتاً دلَّ على عدمِ وقوع الفعل، وإذا كانَ منفياً دلَّ على وقوعِ الفعل!!!.

قال الإمام الراغب: «ووُضِعَ «كادَ» لمقاربة الفعل. يقال: كادَ يفعل: إذا لم يكنْ قد فَعَل. وإذا كانَ معهُ حرفُ نفيٍ يكونُ لما قد وقع، ويكونُ قريباً مِنْ أنْ لا يكون»[1].

أي أنَّ «كاد»: إِثباتَها نفي، ونفيَها إِثبات.

فإذا قال: كادَ فلانٌ يفعل. معناه أنه أَوشكَ أنْ يفعل، ولكنه لم يفعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]. فهو لم يركنْ إِليهم.

---

(١) المفردات: ٧٢٩.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] فالبرقُ لم يخطف أَبصارَهم.

وإذا قال: ما كادَ فلانٌ يفعل، معناه: أَنه فعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. فهم يَفقهونَ الحديثَ لكن لم يلتزموا به.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] فهو قد رأى يَدَه وسطَ الظلمات.

قال محمد الطاهر بن عاشور: «وذهبَ قومٌ إلى أَنَّ إثباتَ «كاد» يستلزمُ نفيَ الخبر.. وأنَّ نفْيَها يَصيرُ إِثباتاً، على خلاف القياس.

وقد اشتهرَ هذا بين أَهل الأَعراب، حتى أَلْغَزَ فيه أَبو العلاء المعري بقوله:

أَنَحْوِيَّ هَذا العَصْرِ ما هِيَ لَفْظَةٌ ... أَتَتْ في لِسانَيْ جُرْهُمٍ وَثَمودِ
إِذا اسْتُعْمِلَتْ في صورَةِ الجَحْدِ أَثْبَتَتْ ... وَإِنْ أُثْبِتَتْ قامَتْ مَقامَ جحُودِ

وقد احتجّوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا من غرائب الاستعمال، الجاري على خلافِ الوضعِ اللغوي..»[1].

ذبح البقرة لكشف القاتل:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

تُبينُ هذه الآيةُ سببَ أَمرِهم بذبحِ البقرة، وهو قتلُ النفس بينهم، التي لم يُعرفْ قاتلُها.

وقد أَخَّرت الآياتُ الإِخبارَ عن السبب، ولعلَّ السببَ في ذلك هو

---

(١) التحرير والتنوير ١:٥٥٨.

أنْ نقفَ على صورةٍ من رذائِلِهم وسوءِ أَخلاقهم، وقُبحِ مواقفِهم من أَوامرِ ربهم وتوجيهاتِ أنبيائهم.

قررت الآيةُ أَنهم قَتلوا نَفْساً فادّارَءوا فيها، وتَدافعوا في التهمة، فكلٌّ يَدرأُ التهمةَ ويَدفعُها عن نفسه، ويتهمُ غيرَه.

وأَرادَ اللّهُ إِخراجَ ما كانوا يكتمون من القتل، وإِظهارَ القاتلِ الحقيقي، عن طريقِ اعترافِ القتيل على قاتله، وذلك بإحيائِه بعدَ قتْلِه ونطقِه وتصريحِه باسمِ قاتله.

و«ادّارَأْتُم» فعلٌ ماض، أَصله: تَدارَأْتُم. فأُدغمت التاءُ في الدال وجيءَ بالهمزةِ للتسهيل، فصار: ادّارَأْتُم.

وهو من باب «دَرَأ». بمعنى: دَفَع. تقول: دَرَأَ، يَدْرَأُ، دَرْءاً، بمعنى: دفعَ الشيءَ.

تقول: دَرَأَ: دفع. ودارَأَ: دافَعَ. وتدارأ: تدافَع[1].

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

بهذه الطريقةِ الربانية المعجزةِ سيُخرجُ الله ما كانوا يكتمونه، وسيجعلُهم يتعرفون على القاتل. وسيقدّمُ لهم سبحانَه وتعالى آيةً من آياتِه الباهرة.

ضربوا القتيل ببعض من البقرة:

فلما ذبحوا البقرة، أَمرهم اللّهُ أنْ يَأْخذوا «بَعْضاً» منها، وجزءاً من جسمها، ويَفْصِلوه عنها، ثم يَضربوا به القتيلَ الميتَ أَمامهم، المسجّى على الأرض جثةً هامدة، ولْينظروا بعد ذلك الآيَةَ الربانية؟!

قَطعوا بَعضاً ميتاً، من البقرةِ المذبوحة الميتة، وضَربوا به بدنَ

(١) انظر المعجم الوسيط ١:٢٧٦.

القتيلِ الميت!! قطعةَ لحمٍ ميت، يُضربُ بها جسمُ إنسانٍ ميت!!

وما هي إلاّ لحظة، حتى فوجئوا بالرجلِ القتيلِ تَدبُّ فيه الحياة، وتَسري فيه الروح، فتحرَّكَ، وفتحَ عينيه، وفتحَ فمَه، أمامَ مفاجأة القوم ودهشتهم، ثم تكلمَ وقال: قتلني فلان!! ثم ماتَ الموتةَ الحقيقية!!

وبهذا عَرفوا القاتل، حيث أَخذوه وأَقاموا عليه الحد.

وبهذا عَرفوا الحكمةَ من أَمرِ الله لهم بذبحِ البقرة، كما عَرَفْنا نحنُ الحكمةَ من ذلك.

إنَّ اللّهَ أَرادَ كشفَ هويةِ القاتل بهذه الطريقة، عن طريقِ إِحياءِ القاتل واعترافِه هو بلسانه وصوته.

وقد اختلفَ المفسِّرونَ في تحديدِ البعضِ الذي ضَربوا به القتيل، هل هو لسانُها أو ذيلُها أو فخذُها. وهذا اختلافٌ لا داعيَ ولا ضرورةَ له، ولا فائدةَ ولا ثمرةَ منه.

ونحنُ مع الإمام الطبري في قوله: «والصوابُ عندنا من القول في تأويل قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أنْ يُقال: أَمرهم اللّهُ جل ثناؤه أنْ يَضربوا القتيلَ ببعضِ البقرة، ليَحيا المضروب. ولا دلالةَ في الآية، ولا في خبرٍ تقومُ به حجة، على أيِّ أَبعاضِها التي أُمِرَ القومُ أنْ يَضربوا القتيلَ به.. وجائزٌ أنْ يكونَ الذي أُمِروا أنْ يَضربوه به هو الفخذ، وجائزٌ أن يكونَ ذلك هو الذَّنب، أو غضروفَ الكتف، أو غيرَ ذلك من أَبعاضِها، ولا يضرُّ الجهلُ بأيِّ ذلكَ ضربوا القتيل، ولا ينفعُ العلمُ به، مع الإِقرارِ بأنَّ القومَ قد ضربوا القتيل ببعضِ البقرة بعد ذَبحها، فأَحياهُ الله...»[1].

ويدلُّنا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ على أنَّ ذبحَ البقرة لا يُرادُ لذاتِه، وإِنما جعلَهُ اللّهُ وسيلةً لهدف إيماني عظيم، وهو تقديمُ دليلِ

---

(١) تفسير الطبري، بعناية محمود شاكر ٢:٢٣١.

عمليٌّ على بعثِ الناس يومَ القيامة، وإحياءِ الموتى وإخراجهم من قبورهم.

والمعنى: كما أَحيا اللّهُ القتيلَ بعد ضربه بجزءٍ من البقرةِ المذبوحة فتكلمَ واعترفَ على قاتله، كذلك يحيي اللّهُ الأَمواتَ يومَ القيامة، ويُخرجُهم من قبورهم، ويَسوقُهم إلى الحساب والجزاء.

لماذا إحياء القتيل بعد ضربه ببعضها:

وعندما نتدبرُ الحادثة فسوف نرى أنَّ من أَهدافِ الأمرِ بذبحِ البقرة وضربِ القتيل ببعضها ما يلي:

١ ـ الكشفُ عن القاتلِ الحقيقي، عن طريقِ اعترافِ القتيل نفسه، وتعريفُ بني إسرائيل عليه.

٢ ـ إقامةُ الدليلِ العمليِّ على قدرةِ الله على إحياءِ الموتى.

٣ ـ تقديمُ آيةٍ من آيات الله ومعجزةٍ من معجزاته، ليزدادوا إيماناً بالله، وإقبالاً عليه.

٤ ـ تعريفُنا على طبيعةِ بني إسرائيل، ونظرتِهم لأوامرِ الله، وحرصِهم على التحايلِ عليها، والتفلتِ منها، فإنْ عجزوا عن ذلك فَرَّغوها من روحِها بالتلكؤ والتباطؤ والمماطلة.

٥ ـ تحذيرُنا من التخلقِ بأَخلاقِهم المرذولة، والاقتداءِ بهم في طبيعتهم القبيحة.

لم يَمت القتيلُ موتاً حقيقياً قبلَ ضربه ببعضِ البقرة، فلو ماتَ موتاً حقيقياً، وخَرجتْ روحُه من جسدِه حقاً، وانتهى عمرُه نهايةً حقيقية، لما أَحياهُ الله، لأنَّ سنةَ اللهِ المطردة أنه لا يُحيي مَنْ ماتَ حقاً إلاّ عند قيامِ الساعة.

إنما كان موتُه موتاً خاصاً ظاهرياً، شابَهَ الموتَ الحقيقيَّ من حيثُ الظاهر، لكنَّه خالَفَه في الحقيقة، فما زالَ في عمرِه بقيةٌ حسبَ ما

قدَّرَ الله، ولهذا أَعادَ اللّهُ روحَه إِلى جسمه بعدَ ضربه ببعضِ البقرة، وأَحياهُ لفترة، يستكملُ فيها تلكَ البقية، ثم مات موتاً حقيقياً بعد ذلك.

ومَرَّ مَعَنا من قبلُ مثالٌ لهذا الموتِ والإِحياءِ الخاصّ في السبعين إسرائيلياً الذين أَخذتْهم الرجفةُ عند جبل الطور، وفي القوم الذين قالوا لموسى: لن نؤمنَ لك حتى نرى اللّهَ جهرة، فأَماتَهم اللّهُ بالصاعقةِ ثم أَحياهم.

قلوبهم بعد المعجزة أشد قسوة من الحجارة:

ماذا حصلَ لبني إِسرائيل بعدما شاهَدوا إِحياءَ القتيل وسمعوا كلامَه؟ ماذا كان أَثَرُ ذلك على قلوبهم؟

الجوابُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ..﴾!!

أَخبرَنا اللّهُ في هذه الآية أنَّ قلوبَ بني إِسرائيل قستْ بعد تلك الحادثةِ المثيرةِ العجيبة، فصارَتْ قاسيةً جامدةً صلدة، تشبهُ الحجارةَ في قسوتها، بل هي أشدُّ منها قسوة.

حقاً إنَّ اليهودَ يهود، وإِنهم يملكون قلوباً يهوديةً عجيبة، وإِنَّ الإِنسانَ ليتعجبُ منهم ومن قلوبهم.

لو كانت المعجزةُ الباهرةُ جرتْ أَمامَ غيرهم، لأَثَّرت في قلوبهم تأثيراً إِيجابياً، حيث ترقُّ قلوبُهم وتلين، وتشفُّ وتَحيا وتُنير!

أما قلوبُ اليهود فقد تأَثَّرَتْ بالمعجزةِ الباهرة تأثراً سلبياً، حيث صارتْ قاسيةً جامدة صلدة صماء.

وإذا كانت هذه المعجزة لم تؤدِّ إِلى تليينِ قلوبهم وترقيقها، فما الذي يلينُها ويرققُها إذن؟ وماذا يُرجىٰ من هذه القلوب التي هي أشدُّ قسوةً من الحجارة القاسية؟

وهناكَ فرقٌ بينَ مَنْ يساوي القلوبَ الجامدةَ بالحجارة في قسوتها، وبينَ مَنْ يجعلُ هذه القلوبَ أقسى من الحجارة!

ولقد جعلت الآيةُ قلوبَهم أقسى من الحجارة: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . .﴾.

و«أو» في قوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ للتخييرِ في الإِخبارِ عن قسوةِ قلوبهم، وما بعدَها معطوفٌ على ما قبلَها.

والمعنى: قلوبُكم مثلُ الحجارة في قسوتها، أَو هي أَقوى منها في القسوة.

ومعنى التخيير بحرفِ «أَو» في الإِخبارِ هنا. تقريرُ حقيقةِ أَنَّ المخبِرَ عن قلوبهم بالقسوة غيرُ متحامَلٍ عليهم، فقد تَثَبَّتَ وتحرّى من قسوةِ قلوبهم، فلا يُثْبتُ لهم إلاّ ما تبيَّنَ له من قسوةِ قلوبهم. .

لقد تقصّى في بحثِه واستقرائه فثبتَ له أنَّ قلوبَهم كالحجارة في قسوتها، ثم زادَ في تقصّيه واستقرائِه، فثبتَ أنَّ قلوبَهم أشدُّ قسوةً من الحجارة.

وكأنَّ المعنى: ثم قستْ قلوبُ بني إسرائيل بعد ذبحِ البقرة وإحياءِ القتيل بها، فإنْ شئتُم فَسَوُّا قلوبَهم بالحجارةِ في القسوة، وإنْ شئتم فاجعلوها أَشَدَّ منها قسوة. وهي في الحقيقةِ أشدُّ قسوةً من الحجارة[١].

ثلاثة نماذج لحجارة ألين من قلوبهم:

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

يُقدِّمُ اللّهُ في الآية الدليلَ على أنَّ الحجارةَ الجامدةَ الصماءَ أَلينُ

---

(١) اقتبسنا هذه الفكرة من تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١ : ٥٦٤. وأعدنا صياغتها للتسهيل.

من قلوب بني إسرائيل، حتى لا يتشكك أحدٌ في أنَّ قلوبَهم أشدُّ قسوةً من الحجارة.

وأوردَ ثلاثةَ نماذج واقعيةً من حياةِ بني إسرائيل أنفسِهم، شاهَدوها بعيونهم، وشاهدَها موسى عليه السلام معهم، تدلُّ هذه النماذجُ على أنَّ الحجارةَ ألينُ من قلوبهم. وهذه النماذجُ هي:

١ - ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: لقد شاهَدوا هذا بعيونِهم لما كانوا في مصر، شاهَدوا نهرَ النيلِ يجري وسْطَ مصر، ويعلمونَ أنه ينبعُ من الجبالِ العالية وسط أفريقيا، فالحجارةُ في جبالِ كينيا وأثيوبيا، تفجَّرَ منها نهرُ النيل وروافده.

٢ - ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾: وشاهَدوا هذا في سيناء، عندما استسقوا موسى عليه السلام، فاستسقى اللّهَ لهم، فأمَرَه اللّهُ أنْ يضربَ بعصاه الحجر، فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً، على عددِ أسباطهم، فهذا الحجرُ تشقق بأمرِ الله، وخرجَ منه الماء.

٣ - ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: وشاهَدوا هذا أيضاً بعيونهم، عندما رجفَ جبلُ الطور بأمرِ الله، ورفعَه اللّهُ فوقَ رؤوسِهم. وقد أخبرهم موسى عن دكِّ جبلِ الطور وهبوطِه من خشيةِ الله، لما تجلّى اللّهُ له.

وقد تحدَّثْنا عن ذلك بالتفصيل من قبل.

ولهذا كانت الحجارةُ ألينَ من قلوب بني إسرائيل، وكانت قلوبُهم أشدَّ قسوةً من الحجارة.

طبيعة بني إسرائيل من خلال قصة البقرة:

وبهذا تكشفَتْ لنا طبيعةُ بني إسرائيل العجيبة من خلالِ قصة ذبح البقرة، وما صاحبَ ذلك من أحداثٍ ومفاجآت. ويمكنُ أنْ نستخرجَ منها ما يلي:

١ ـ محاولةُ بني إِسرائيل إخفاءَ الحقائق، حيث تَدارءوا وتَدافعوا في تهمةِ القتل، وحاوَل كلٌّ واحد اتهامَ غيرِه بها.

٢ ـ سوءُ أَدبهم مع موسى عليه السلام، وعدمُ توقيرِهم له، حيثُ سألوه عن البقرةِ أسئلةً لا داعي لها، وحيث قالوا له: أتتخذُنا هزواً. وقالوا له: الآنَ جئتَ بالحق.

٣ ـ عدمُ احترامِهم لأوامرِ الله وأحكامِه وتعاليمه، ومحاولةُ التهربِ منها والتحايلِ عليها.

٤ ـ تباطؤُهم وتلكؤُهم في تنفيذِ أوامرِ الله، حيث لم يَذبحوا البقرةَ إلاّ متأخرين، وهم مضطرون كارهون.

٥ ـ لجاجتُهم وكثرةُ أسئلتهم فيما لا داعيَ له ولا فائدةَ منه.

٦ ـ انشغالُهم فيما لا ينفع، وبحثُهم عما لا يُجدي..

٧ ـ اهتمامُهم بالكليات والفرعيات، والتفاتُهم إلى الهامشياتِ والثانويات، وتركُهم الضرورياتِ والأساسيات!

٨ ـ بهذه الطبيعةِ الرخوة، والنفسيةِ المائعة، استحقّوا أنْ يشددَ اللّهُ عليهم، من خلالِ صفاتِ البقرةِ المطلوب ذبْحُها.

٩ ـ وهم بذلك أَيضاً استحقوا أنْ يُعاقبهم الله عقوبةً شديدة، وهي قسوةُ قلوبهم، وهي أشدُّ من غيرها.

١٠ ـ الحجارةُ الجامدةُ صارتْ أكثرَ ليونةً ورقةً من قلوبهم، وبذلك فقدوا الحيويةَ والرقةَ من تلك القلوب.

طبيعة اليهود التفاوضية العجيبة:

ثم إنَّ قصةَ بني إسرائيل مع البقرة تعرِّفُنا على طبيعةِ اليهود الخاصة بالنسبة للمفاوضات!!

فقد سجّلت الآياتُ مفاوضاتِهم مع نبيِّهم وقائدِهم موسى عليه السلام، تلك المفاوضاتُ التي تقومُ على النَّفَسِ الطويل، وعلى التطويلِ

المقصود، والتلكؤ والتباطؤ، وإثارةِ مسائل وموضوعاتٍ تافهة ولا داعي لها.

إِنهم لا يملّون ولا يسأَمون ولا يضجرون من المفاوضات، وهم يُتقنون التملصَ والتهربَ والتحايلَ فيها، وهم يتمتعونَ أثناءَها بنَفَسٍ طويلٍ وأَعصابٍ باردة، وهم على استعدادٍ لأن يُضيعوا فيها الكثيرَ من الجهودِ والأوقات، وأنْ يَعودوا من حيثُ بدأوا مراتٍ ومرات!!

وإِذا كانَ هذا ما فعلوه مع نبيِّهم موسى عليه السلام، فكيفَ سيفعلونَ في مفاوضاتِهم مع خصومهم؟؟.

إنَّ مفاوضاتِ اليهودِ المعاصرين مع العرب، وما جَرى فيها من تطويلٍ يهوديٍّ مقصود، دليلٌ على الطبيعةِ اليهودية العجيبة في التفاوض.

جرى هذا في مفاوضاتِهم مع مصر في «كامب ديفيد»، وجرى هذا في مفاوضاتِهم مع مصر بعدَ ذلك من أجلِ ملعب «طابا»، وجرى هذا في مفاوضاتِهم مع «السلطة» الفلسطينية في «أوسلو: ١» و«أوسلو: ٢»، وجرى هذا في مفاوضاتِهم مع الأردنيين والفلسطينيين في «واشنطن» وفي «وادي عربة» وفي «عمان»، وفي «العقبة» وفي غيرِ ذلك من الأماكن!

وكلَّما قرأْنا عن مفاوضاتِهم مع الأطرافِ العربية المعاصرة، وما جَرى فيها من تطويلٍ وتمطيطٍ وتضييعٍ وتفاهات، نتذكَّرُ آياتِ سورة البقرة، التي بينتْ طريقتَهم في التفاوضِ مع موسى نبيِّهم عليه السلام. ونقول: اليهودُ هم اليهود، لا يتخلَّونَ عن طبيعتِهم اليهودية.

وليس اللومُ لهم، فهذه طبيعتهم، ولكن اللومَ يوجَّهُ للعربِ المفاوِضين لهم، الذين لا يَعرفونَ هذه الطبيعةَ فيهم، والذين يَبنون عليها آمالاً عِراضاً، ومشروعاتٍ كباراً، وما هي إلاّ أحلامٌ وأوهام، فلم

يأْخُذوا من اليهودِ شيئاً يُذكر، ولنْ يأخذوا منهم شيئاً ذا قيمة في المستقبل!! وما المفاوضاتُ مع اليهودِ إلا مضيعةٌ للوقت والجهد، ودورانٌ في حلقاتٍ فارغة، ودخولٌ في النفق المظلم الذي لا نهايةَ له، ولا مخرجَ منه!!!.

[٧]

تيه بني إسرائيل في سيناء لنكوصهم عن الجهاد

لعلَّ هذه الحادثةَ من آخرِ ما جرى بين موسى عليه السلام وبين بني إِسرائيل في سيناء.

الخطوة التالية دخولهم الأرض المقدسة:

ذلك الجيلُ من بني إِسرائيل الذين عاشوا أَذلاءَ مضطهدين في مصر، والذين بُعِثَ فيهم موسى عليه السلام، والذين خرجوا مع موسى من مصر بعد أَحداثٍ كثيرة وقعتْ مع فرعون وآله وجنوده، والذين عاشوا مع موسى عليه السلام فترةً في سيناء، وشاهَدوا فيها من آياتِ الله ومعجزاته ما شاهدوا، وتذوَّقوا من نعمِ اللّهِ عليهم ما تذوَّقوا، والذين قابَلوا نعمَ الله بالجحود والكفران والإفساد، وارتكبوا ما ارتكبوا من مخالفات، وعصوا موسى عليه السلام وخرجوا عليه.. وقد وقفْنا على نماذجَ من كلِّ ذلك في المباحث السابقة.

وبعدما أَقاموا فترةً من الزمن في صحراء سيناء، وموسى يبذل جهدَه في تربيتِهِمْ وتهذيبهم وتقويمهم، آنَ الأوانُ لينتقلوا إِلى الخطوة التالية، وهي الجهادُ لتحريرِ الأرض المقدسة من الكافرين، وتمكينهم فيها لإيمانهم بالله.

وبعدَ إِعدادٍ وتهيئةٍ طَلبَ موسى عليه السلام منهم الجهادَ لدخول الأرض المقدسة، ولكنهم جَبُنوا وخافوا ونكصوا عن الجهاد، وتمردوا على موسى عليه السلام، فتبرأَ موسى منهم، ودعا اللّهَ عليهم..

فعاقبهم اللّهُ بالتيهِ في سيناء أربعين سنة، وحرمهم من شرفِ الجهادِ والنصر والتمكين. . .

وأَوردتْ هذه الحلقةَ الأخيرةَ من حياتهم في سيناء آياتٌ من سورة المائدة.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

ولم تَرِدْ أَحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ، تُضيفُ جديداً على هذهِ الحادثة، بينما أَوردَت الإسرائيلياتُ ورواياتُ العهدِ القديم تفصيلاتٍ كثيرة لها، منها ما هو من الأساطير والخرافات، ومنها ما هو مختلَقٌ مكذوب.

ونحن سنبقى مع هذه الآياتِ نتدبَّرُها، ونفهمُ عنها بعضَ حقائِقها ودروسِها ودلالاتها.

خلاصة قصة التيه في سيناء:

وخلاصةُ هذه الحادثة: أَنَّ موسى عليه السلام قررَ أَنْ يَدخلَ ببني إِسرائيلَ الأرضَ المقدسة «فلسطين»، بعد إِقامتهم فترةً من الزمن في

سيناء، فكلَّفهم بهذه المهمة الجهادية، وطلبَ منهم دخولَ الأرضِ المقدسة التي كتبها اللّهُ لهم، ونهاهم عن النكوصِ أو التراجع، وذكَّرهم بنعمِ اللّهِ عليهم في الهداية والتمكين.

لكنهم رفضوا أَمره عليه السلام، وأَخبروه أنَّ أهلَ الأرض المقدسة قومٌ جبارون أَقوياء شجعان، وأَنهم لا يَقدرون على قتالهم، ولذلكَ لَنْ يَدخلوا الأرض المقدسة إلاّ بعد أن يَخرجَ منها أَهلُها خروجاً اختيارياً، ويُسلِّموها لبني إسرائيل، ويَدعوهم إلى الدخولِ فيها!!.

وكان رجلان مؤمنان من بين بني إِسرائيل الخائفين الجبناء الناكصين، أَنعمَ اللّهُ عليهما بالإيمانِ والشجاعة وعدمِ الخوف والجبن، فرغَّبا قومَهما في الجهاد، وأَخبرَاهم أنَّ الأمرَ سهلٌ هين، وأنهم ما عليهم إلاّ الاستعدادُ والحشد، والتوكلُ على الله، وطلبُ النصر منه، ثم الزحفُ على الأرض المقدسة، ودخولُ أَبوابها على أَصحابها، فإنْ فعلوا ذلك فإنَّ اللّهَ سينصرُهم ويهزمُ أعداءَهم.

وشعرَ بنو إِسرائيل بأنهم أُحرجوا أَمامَ منطقِ وحجةِ الرجليْن المؤمنيْن، وأَرادوا إِيقافَ الحوارِ في هذا الموضوع، فأَعْلَنوها صراحةً أَمامَ موسى عليه السلام، ليقطعَ الأملَ فيهم، وليتوقفَ هو ومَنْ معه عن ترغيبهم وإِحراجهم: يا موسى: إِنا لنْ ندخلَ الأرضَ المقدسةَ أبداً، ما دامَ أصحابُها فيها.

ثم توقَّحوا على موسى عليه السلام وقاحةً كبيرة، فقالوا له: بما أَنك تقولُ إنَّ اللّهَ كتبَها لنا، فاذهبْ أنتَ وربُّك إلى الأرضِ المقدسة، وقاتِلا أهلَها واهزماهم، وحَرِّراها لنا منهم، ونحن ها هنا قاعدون، ننتظرُ منك أنت وربُّك تحريرَها، وعند ذلك ندخلُها.

وشعر موسى عليه السلام بأنَّ هذا الجيلَ الجبانَ مِن قومه لا خيرَ فيه، ولم تنفعْ معه كلُّ أساليبِ التربية والإعدادِ، فتبرأَ منهم، ودعا اللّهَ أنْ يفرقَ بينَه وبينهم، وأَخبرَ أنه لا يملكُ إلا نفسَه وأَخاه وبعضَ

الصالحين القلائل من قومه، أمّا الأغلبيةُ من قومه فهم فاسقون جبناءُ عصاةٌ أذلاء، لا يصلحون لشيء.

فأَخبرَه اللّهُ أنه كتبَ على هذا الجيل الجبان من بني إِسرائيلَ التيهَ في أَرضِ صحراء سيناء أربعين سنة، وحرمَهم من شرفِ الجهادِ والقتال، وتحريرِ الأرض المقدسة، والتمكينِ فيها، والتمتعِ بخيراتها، وذلك بسبب جبنِهم وذلِّهم ونكوصهم وعصيانهم..

وهكذا عاش ذلك الجيلُ الجبانُ الذليلُ من بني إِسرائيلَ في صحراء سيناء أَربعين سنة، يتنقلون بين شعابها ووديانها وتلالها، ويسيرون فوق رمالها وكثبانها..

وبعدَ انقضاءِ سنواتِ التيه الأربعين، وبعد وفاةِ وانقراضِ أولئك الجبناء، وبعد نشوءِ جيلٍ جديدٍ من أبنائهم، ربّاهم موسى عليه السلام في سيناء، توجَّه بهم نحو الأرض المقدسة، وخرجَ بهم من صحراءِ سيناء..

ونقفُ وقفاتٍ موجزةً مع معاني الآيات التي عرضتْ لنا قصةَ هذا التيه.

تلخيص لمسلسل المخالفات الإسرائيلية:

مهَّدَ موسى عليه السلام لتكليفِ بني إِسرائيل بالجهاد بتذكيرِهم بنعمِ الله التي أَنعمَ بها عليهم، وهذا التذكيرُ ليشكروا اللّهَ على تلك النعم، ويحافظوا عليها بتنفيذِ أحكامِ الله، فإِنْ عصوا وتمردوا فقد يُزيلُ اللّهُ عنهم تلك النعم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ويحملُ هذا التذكيرُ إِشفاقَ موسى عليه السلام من قومه، وخوفَه أنْ لا يُنفذوا أمرَ الله بالجهاد، وتوقُّعَه أنْ يتمردوا عليه ويخالفوه ويعصوه، إِنه يتوقعُ ذلك منهم، لأنَّ لهم حوادثَ سابقة معه، تمردوا

وعصوا وخالفوا فيها. ولهذا توقعَ ذلك منهم الآن، فذكَّرَهم بهذه النعم الغامرة من الله.

قال سيد قطب عن هذا الموضوع ملخِّصاً مسلسلَ المخالفاتِ الإسرائيلية لموسى عليه السلام.

«وإننا لنلمحُ في كلماتِ موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقَه من تَرددِ القوم ونكوصِهم على الأعقاب.. فلقد جَرَّبهم من قبل في «مواطنَ كثيرة»، في خطِّ سيرِ الرحلة الطويل..

جَرَّبَهم وقد أَخرجَهم من أَرضِ مصر، وحررَهم من الذلِّ والهوان، باسمِ الله وبسلطان الله الذي فرَقَ لهم البحر، وأغرقَ لهم فرعونَ وجنده، فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم، فيقولون: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

وما يكادُ يغيبُ عنهم في ميقاتِه مع ربه حتى يتخذَ السامريُّ من الحليِّ التي سرقوها معهم من نساءِ المصريين عجلاً ذهباً له خوار، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إلهُ موسى الذي ذهبَ لميقاته!

وجَرَّبَهم وقد فجَّرَ لهم من الصخر ينابيعَ في جوف الصحراء، وأنزلَ عليهم المنَّ والسلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمةِ مصر ـ أرضِ الذلِّ بالنسبة لهم ـ فيطلبونَ بقلَها وقثاءَها وفومَها وعدسَها وبصلَها. ولا يَصبرون عما أَلِفوا من طعامٍ وحياةٍ في سبيل العزة والخلاص، والهدفِ الأسمى الذي يسوقُهم موسى إليه وهم يتسكعون..

وجَرَّبَهم في قصةِ البقرة التي أُمروا بذبحها، فتلكؤوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ.. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وجَرَّبَهم وقد عادَ من ميقاتِ ربِّه ومعه الألواح، وفيها ميثاقُ اللّهِ عليهم وعهدُه، فأَبوا أنْ يُعطوا الميثاقَ وأنْ يُمضوا العهدَ مع ربهم ـ بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ـ ولم يُعطوا الميثاقَ حتى

وجدوا الجبلَ منتوقاً فوق رؤوسهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ . . .﴾.

لقد جرَّبَهم في مواطنَ كثيرةٍ طوالَ الطريق الطويل.. ثم ها هو على أبوابِ الأرض المقدسة، أرضِ الميعاد التي من أجلها خرجوا. الأرضِ التي وعدهم اللّهُ أنْ يكونوا فيها ملوكاً، وأنْ يبعثَ من بينهم الأنبياء فيها، ليظلّوا في رعايةِ الله وقدرته..

لقد جرَّبَهم، فحقَّ له أنْ يُشفق، وهو يدعوهم دعوتَه الأخيرة، فيحشدَ فيها ألمعَ الذكريات، وأكبرَ البُشريات، وأضخمَ المشجعات، وأشدَّ التحذيرات..»[1].

موسى يذكرهم بثلاث نعم عليهم:

ذكَّرَ موسى عليه السلام قومَه بثلاثِ نعم أَنعمَ اللّهُ بها عليهم: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

النعمةُ الأولى: ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾: أي بعثَ اللّهُ فيكم أَنبياءَ ورسلاً، يَهدونكم إلى الحق، ويُبلغونكم شرعَ الله، ويقودونكم إلى الله.

ووجودُ الأنبياءِ في أمةٍ نعمةٌ ورحمةٌ وفضلٌ من الله، لأنها تسعدُ بقيادتهم لها، وشتانَ بين أمةٍ فيها نبيٌّ يقودُها إلى الله، وأمةٍ أُخرى ليس فيها نبي، تتخبطُ على غير هدى.

النعمة الثانية: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾: أي: أَنقذكم اللّهُ من الذلِّ والاضطهادِ والاستعباد الفرعوني، وأهلكَ أعداءَكم من جنودِ فرعون وآله، ومنحكم الحريةَ والاستقلالَ بعد عهدِ الرقّ والعبودية، فصرتُم تملكونَ أَمركم وقرارَكم وإرادتكم، وهذا تمهيدٌ لتمكينِكم في الأرض، وإِنشائِكم الملك فيها، وسوف تُنظمون أُمورَكم، ويكونُ فيكم الملوكُ الذين يحكمونكم ويقودونكم.

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٦٩.

قال الإمام الراغب: «والمِلْكُ ضربان:

مِلْكٌ هو التملكُ والتولّي. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا . .﴾ [النمل: ٣٤].

ومِلْكٌ هو القوةُ على ذلك، تولّىٰ أو لم يتولَّ. ومن هذا النوعِ قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

فجعلَ النبوةَ مخصوصةً والمِلك عاماً. فإنَّ معنى المِلكَ ههنا هو القوةُ التي بها يترشحُ للسياسة. لا أنه جعلَهم كلَّهم متولّين للأمر، فذلك مُنافٍ للحكمة. كما قيل: لا خيرَ في كثرةِ الرؤساء. .»[1].

إذن معنى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: جعلكُم مُهَيَّئين للملك، وأعدَّكم ليكون فيكم ملوكٌ منكم، في المراحلِ التالية من تاريخكم. وهذا ما حصل عندما دَخلوا الأرضَ المقدسة، وأقاموا فيها مملكتهم، حيث كان فيهم ملوكٌ كداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

وليس معناها أنَّ كلَّ إنسانٍ منهم صار مَلِكاً بنفسه! فهذا مستحيل.

النعمةُ الثالثة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

أَعطى اللّهُ بني إِسرائيل في عهدِ موسى عليه السلام ما لم يُعطِ أحداً من عالمي زمانهم، حيث أَعطاهم الهدايةَ على يدِ موسى عليه السلام، ومَنَّ عليهم بالإيمان، وأنزلَ عليه التشريعات والأحكام، كما أَنجاهم من اضطهادِ فرعون وجنوده، ونصرَهم على أعدائهم.

فكلمةُ «العالمين» خاصةٌ بعالَمي زمانهم في عهد موسى عليه السلام، وليست عامةً مطلقةً شاملةً لجميعِ العالمين حتى قيام الساعة،

---

(١) المفردات: ٧٧٤ ـ ٧٧٥.

كما يزعمُ اليهود، ويَدَّعونَ أن اللّهَ فضَّلهم لجنسهم الإسرائيلي على جميع الناس، وهذا مستمرٌّ حتى قيام الساعة.

قال الإمامُ ابن كثير في التفسير: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يعني عالَمي زمانكم. فإنهم كانوا أشرفَ الناسِ في زمانهم، من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

والمقصودُ أَنهم كانوا أفضلَ زمانهم. وإلاّ فهذه الأمةُ أشرفُ منهم وأفضلُ عند الله، وأكرمُ شريعة، وأَقومُ منهاجاً، وأَكرمُ نبياً، وأَعظمُ ملكاً، وأغزرُ أرزاقاً، وأكثرُ أموالاً وأولاداً، وأوسعُ مملكة، وأدومُ عزاً. قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][١].

وهذه النعمُ الثلاثُ مترابطةٌ متكاملة، مبنيٌّ بعضُها على بعض، فجعْلُ الأنبياءِ فيهم وإنزالُ الشريعةِ عليهم، هدايةٌ لهم وتمكينٌ واستقرار، وهذا يقودُ إلى إنشاءِ المجتمع وإيجادِ الأمة، وينتجُ عن ذلك الدولة والنظام، حيثُ الملوكُ الذين يحكمونهم ويسوسونهم، وهذا فضلٌ عظيمٌ من الله، لا يماثله فضلٌ في هذه الدنيا.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢:٣٦.

أمرهم بدخول الأرض المقدسة وحدودها:

وموسى عليه السلام ذكَّرهم بهذهِ النعم الثلاث من جملةِ نعم اللّهِ عليهم تمهيداً لتكليفِهم بالجهاد ودخولِ الأرضِ المقدسة، وليوقظَ الإحساسَ بفضلِ الله عليهم في نفوسهم، ومقابلة ذلك بتنفيذِ أوامره.

ولذلك أَتبعَ ذلك بأمره الصريح لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أَمرهم بدخولِ الأرض المقدسة دخولاً جهادياً قتالياً، لأنه كانت فيها أَقوامٌ أُخرى، من الكنعانيين والفلسطينيين، وغيرهم من الكافرين، ولا بد أنْ يقاتلوهم ليحلّوا محلَّهم.

وضمنَ لهم النصرَ على أعدائهم الكافرين، حيث أَخبرهم أنَّ الله كتبها لهم، وما عليهم إلاّ الأخذُ بالأسباب، والقيامُ بالجهاد، والنصرُ بعد ذلك حاصلٌ بإذن الله.

ونهاهم عن النكوصِ عن الجهاد، والارتدادِ على الأعقاب، والجبنِ عن القتال، فإنْ فعلوا ذلك كانوا من الخاسرين، وحرمَهم اللّهُ من شرفِ دخولِ الأرض المقدسة: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. وهذا ما حصلَ منهم ولهم بعد ذلك.

والأرضُ المقدسةُ هي الأرضُ المباركةُ المطهرة، التي قدسَها اللّهُ وطهرها، وباركَ فيها، وجعلَ فيها البركات والخيرات، وبعثَ فيها الرسلَ والأنبياء.

هذه الأرضُ التي أَتى اللّهُ بإبراهيم عليه السلام إليها. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وهي الأرضُ الواقعةُ بين النهريْن الإسلاميين: النيلِ والفرات، وهي بلادُ الشام بمفهومها الواسع، والتي تشملُ الآن أَربعةَ أقطار سياسية: سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن.

قالَ معاذ بن جبل رضي الله عنه: الأرضُ المقدسة هي ما بين العريش والفرات.

وقال قتادة: هي بلادُ الشام[1].

معنى وسبب كتابة الأرض المقدسة لهم:

وما قلناه عن قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، نقولُه عن قول: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ..﴾.

فقد كتبَ اللّهُ الأرضَ المقدسة المباركةَ الواقعةَ بين النيل والفرات ـ بلاد الشام ـ لذلك الجيلِ من بني إِسرائيل، الجيلِ المؤمنِ بموسى عليه السلام، وذلك تكريمٌ لهم لإيمانِهم بالله، فقد كانوا مؤمنين ـ على ما في إِيمانهم من خلخلةٍ وضعف ـ وسطَ أقوامٍ من الكافرين، كالفراعنة والكنعانيين وغيرهم.

وبسببِ هذه الخصوصيةِ الإيمانية فيهم كتبَ اللّهُ لهم الأرضَ المقدسة، فإِنْ فقدوا هذه الخصوصيةَ الإيمانية، وكفروا وبغوا، فَقدوا حقَّهم في الأرض المقدسة، وهذا ما حصلَ فيما بعد.

الكتابةُ كتابةٌ إيمانية، بشرطِ تحققِ الإيمان والصلاح.

وهذا ما وردَ صريحاً في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

ولما كفرَ بنو إِسرائيل فيما بعد، وطَغوا وبغوا وقَتلوا الرسل، انتزعَ اللّهُ الأرضَ المقدسة منهم، وأحلَّ عليهم لعنتَه ونقمته، كما وردَ

(١) انظر تفسير المنار ٦: ٣٢٥.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٦٨].

وهذا تكذيبٌ لمزاعمِ اليهود وادعاءاتِهم من أنَّ اللّهَ كتبَ لهم الأرضَ المقدسة كتابةً أبديَة، مستمرةً حتى قيام الساعة، كتبها لهم باعتبارِ جنسِهم الإسرائيلي، وملَّكَهم إياها إلى يومِ القيامة، فهم أصحابُها الشرعيون، ولا بدَّ أنْ يَحرموا الآخرين منها!!

هذه مزاعمُ يهودية وأكاذيبُ صهيونية، تنقضُها تلك الآياتُ القرآنية.

إنَّ اللّهَ كتبَ لهم الأرضَ المقدسة كتابةً إيمانية، لفترةٍ زمنية محددة، وما حصلَ بعد ذلك أَنهم كفروا ففقدوا حقَّهم في الأرضِ المقدسة، وأخرجَ اللّهُ أمةَ محمد ﷺ، أمةَ الخلافةِ والرسالةِ والشهادة حتى قيامِ الساعة، فصارتْ هي الوارثةَ للأرض المقدسة، تحقيقاً لقولِ الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

بنو إسرائيل يجبنون عن دخولها لأن أصحابها جبارون:

ماذا كان موقفُ بني إسرائيلَ من دعوةِ موسى عليه السلام، ومن تذكيرِهم بنعمِ الله، وتكليفِهم بالجهاد، وضمان النصر؟

كان موقفُهم ناتجاً عن طبيعتِهم الخاصة، القائمةِ على الجبن والتمردِ والعصيان. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

موسى عليه السلام يقولُ لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. وهم يردّون عليه قائلين: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾!!.

هذا هو منطقُهم العجيب، وهذه هي نظرتُهم للأوامرِ والتكاليف، وهذه هي طاعتُهم لرسولهم عليه السلام!!.

وَوَصفوا سكانَ الأرض المقدسة بأنهم قومٌ جبارون، أي قومٌ أقوياء ذوو جبروت، ولهذا لا قدرةَ لهم على قتالهم.

وقد أوردتْ أَسفارُ العهدِ القديم وأَساطيرُ الإسرائيليات رواياتٍ خرافيةً أُسطوريةً عن أحجامِ أولئك الجبارين العمالقة، وعن ضخامةِ أَجسامهم، وكِبَر أَشكالهم.

وتأثرَ بتلك الأساطير بعضُ المؤرخين والمفسرين، وأَوردوها في كتبهم وتفاسيرهم!!

إنَّ جملةَ: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يلزمُ منها التجبُّرُ والجبروتُ عن طريقِ ضخامة الجسم وعظمة الصورة والشكل. فقد تجدُ جباراً متحكماً طاغياً باغياً، وهو مع ذلك ضئيلُ الجسم، صغيرُ الحجم، نحيفُ البدن، قصيرُ القامة. وقد تجدُ شخصاً ضخماً طويلاً عريضاً سميناً، وهو مع ذلك ضعيفٌ عاجز.

والذي نراه أَنَّ أجسامَ الناس في ذلك الزمن كانت متقاربة من حيثُ الشكل والحجم، سواء كانوا فراعنةً أم إسرائيليين أم كنعانيين في الأرض المقدسة، لا يكادُ يختلفُ الشخصُ عن الآخر إلا في بضعةِ سنتمترات طولاً، وبضعةِ كيلوغرامات وزناً!!

ثم إِنهم قومٌ جبارون وفقَ نظرةِ بني إسرائيل إِليهم وتقويمِهم لقوتهم، فهل بنو إِسرائيل صادقون في ذلك التقويم؟ وصائبون في تلك النظرة؟

أَلا يمكنُ أنْ يكونوا مبالِغين في التقويم؟ مضخِّمين لصورةِ الخصم؟ ليبدوا مَعذورين في عدمِ قتالهم؟. ألا يمكنُ أنْ يكونَ الدافعُ لقولهم هو جبنُهم وخوفُهم ورعبُهم؟ ألا يمكنُ أنْ يكونَ الخوفُ والجبنُ هو الذي ضخَّمَ صورةَ أعدائهم وكبَّرها، بحيث بدَتْ ـ نفسياً ـ أكبرَ مما هي عليه في الواقع؟!.

إنَّ خيالَ الجبانِ الضعيفِ يكبِّرُ له الأشياء، حتى يزدادَ منها خوفاً ورعباً، وصدقَ المتنبيّ في تصويرِ جبنِ الخائفِ الهارب:

وَضاقَتِ الأَرْضُ حَتّى كانَ هارِبُهُمْ   إِذا رأىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

دخولهم بعد خروج أصحابها منها:

بما أنَّ سكانَ الأرض المقدسة قومٌ جبارون، فإنَّ بني إسرائيل الجبناءَ لَنْ يَدخلوها إلاّ بعدَ خروج أولئك الجبارين منها: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

جُبْنُ بني إسرائيل هو الذي ضخَّمَ لهم صورةَ أعدائهم. وجبنُهم هو الذي حالَ بينهم وبين قتالهم. وجبنُهم هو الذي منعَهم من دخولِ الأرض المقدسة. وجبنُهم هو الذي جعلَهم يتصورون أنَّ الجبارين يمكنُ أنْ يَخرجوا من الأرض المقدسة بدون قتال، فجلسوا ينتظرون خروجَهم من تلقاء أنفسهم، ليدخلَ بنو إسرائيل بعد ذلك.

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا ..﴾: بهذا النفيِ التأبيديِّ الذي يوحي به حرفُ «لن» الدالّ على التأبيد. لن ندخلَها دخولاً ذاتياً، ولن نقاتلَ القومَ الجبارين!

لن نَدخلَها حتى يَخرجوا منها، وسنبقى منتظرين خُروجَهم، فإذا خَرجوا منها دخَلْناها!!

وقد كرروا فعْلَ «يخرجوا» مرتين: ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. والفعلُ مبنيٌّ للمعلوم. وهذا له دلالة، إنَّ بني إسرائيل يريدونَ أنْ يَخرجَ القومُ الجبارون سكانَ الأرضِ المقدسة خُروجاً ذاتياً إرادياً اختيارياً، بدونِ أنْ يُكرهَهم أحدٌ على الخروج، أو يقومَ بإخراجهم!

هذه نظرةُ اليهودِ الجبناء للنصرِ والتمكين. إنَّ اللّهَ وعدهم الأرضَ المقدسة وكتبها لهم، ولكنهم يُريدونها بدونِ قتال، وينتظرون خروجَ أَصحابها منها، ليحلّوا محلَّهم فيها!!

وهذه نظرةُ كلِّ كسولٍ جبانٍ ذليل! على اختلافِ الزمان والمكان! وما هكذا تُحارَبُ الأقوام، ولا هكذا تُحرَّرُ البلدان! فما عهِدْنا قوماً منتصرين يتخلَّون عن انتصارهم طائعين، ويتركونَ أَرضهم مختارين، ويخرجون منها منسحبين، ليسلِّموها لكسالى جبناء ذليلين!!.

والملاحَظُ أنَّ نظرةَ ذلك الجيل الجبان من بني إِسرائيل لدخول الأرض المقدسة في ذلك الزمان، هي نفسُها نظرةُ الجبناء الكسالى المهزومين من العربِ والمسلمين المعاصرين، لتحرير فلسطين التي احتلَّها اليهودُ وأَقاموا عليها دولتَهم.

ولسانُ حالِ هؤلاء العرب والمسلمين الضعفاءِ والجبناءِ في موقفهم من تحرير فلسطين يقول: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾!!.

وبينما جبُنَ بنو إِسرائيل عن دخولِ الأرضِ المقدسة عن طريقِ الجهاد، وأَعلنوا عصيانَهم لموسى عليه السلام، فقد كان هناك أَقليةٌ قليلةٌ فيهم، عندها شجاعةٌ وجرأةٌ ورغبةٌ في القتال.

رجلان شجاعان وسط المجموع الجبان:

ووقفَ رجلان من هذه الأقليةِ ينصحان القومَ بالتخلّي عن الجبن، ويحثّانِهم على القتال، ويُبيِّنان لهم طريقَ الانتصار. قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: وصفَهم القرآنُ بالرجولة، وهو وصْفٌ ذو دلالة في هذا المقام، إِنهما رجلان يتمتعانِ بالشجاعة والجرأة، وقد بَرَزا من بين المجموعِ الخائفِ الجبان، ولهذا وُصفا بالرجولة، التي تَعني صفاتٍ جسميةً ونفسيَةً ومعنوية.

وفرْقٌ بين الرجولةِ والذكورة، فالذكورةُ صفةٌ «بيولوجيةٌ» جسمية، عكسُ الأنوثة، وهي تقومُ على مظاهرَ ماديةٍ محسوسة عند الإنسانِ الذَّكَر.

أما الرجولةُ فإنها تعني الذكورةَ الجسميةَ السابقة، وتعني صفاتٍ نفسيةً معنوية، كالقوةِ والشجاعة، والعزةِ والجرأة. فكلُّ رجلٍ ذَكَر، وليس كلُّ ذَكَر رجلًا!!

وفي مواطنِ الجهادِ والصدق يوصَفُ المؤمنون بالرجولة، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ...﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إِنهما رجلان، وكأنَّ الجبناءَ الضعفاءَ الذكورَ ليسوا رجالاً!!.

ثم إنَّ القرآنَ أَبهمهما، فلم يذكر اسمَ واحدٍ منهما، كذلك هما مبهمان في السُّنَّة، حيث لم يردْ اسمُ أحدٍ منهما في الأحاديثِ الصحيحة.

وقد ذكرت الإسرائيلياتُ اسمَ كلٍّ منهما، ونقلَ ذلك عنها المفسرون والمؤرخون. ولسْنا معهم في ذلك، فمعرفةُ اسميْهما لا تزيدُنا فائدةً ولا علماً، والعبرةُ والعظةُ تتحققانِ بالوقوف أمامَ الحادثة وتدبُّرِ قولِهما لقومهما.

أَخبرَ اللّهُ عن الرجلين بقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ...﴾.

إِنهما رجلانِ شجاعان لا يخافان، من بينِ الناس الآخرين ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ويَجبنون عن القتال، ويرفضونَ دخول الأرض المقدسة مجاهدين.

وهذان الرجلان ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بعدمِ الخوف والجبن، وبعدمِ المخالفة والتمرد، وعدم النكوص والعصيان، وهي الأمراضُ التي أَصابَتْ قومَهما: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بقوةِ الإيمان، وبالعزةِ والشجاعة، وبطاعةِ موسى واتباعه، وبالرغبةِ في القتال والجهاد، بينما حُرمَ قومُهم من هذه النعمِ الربانية لجبنهم وتمردهم.

إِنها نعمٌ غامرةٌ من الله على هذيْن الرجليْن، لصدقِهما مع الله،

واتباعِهما لموسى عليه السلام، وهذه يمنُّ اللّهُ بها على مَن يشاءُ من عباده! فأنْ تكونَ شجاعاً وسطَ قومِ جبناء نعمةٌ من الله عليك! وأنْ تكونَ مستيقظاً بين نيام، واعياً بين مُغفَّلين، مُطيعاً بين مخالفين فضْلٌ عظيمٌ من الله عليك.

ولا يَعرفُ هذا الفضلَ إلاّ مَنْ عاشَه! ولا هذه النعمةَ إلاّ مَنْ ذاقَها!!.

وكم حُرِمَ منها مِن مسلمي هذا الزمان، والحمدُ لله رب العالمين الذي أَنعمَ علينا، وعافانا مما ابتلى به كثيراً من الآخرين!!

دخول الباب والحرب الهجومية والضربة الأولى:

ماذا قالَ الرجلان الشجاعان لقومهما؟

قالا لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ادخُلوا على القومِ الجبارين سكانِ الأرضِ المقدسة بابَ أرضهم، وقاتِلوهم وجاهِدوهم، وشُنّوا عليهم حَرْباً هجومية، وفاجِئوهم بها، وإذا دخلتم الأرضَ فسوفَ تهزمونَهم وتَغلبونهم، وبذلك تنفِّذون أمر الله، وتسيطرون على الأرضِ المقدسة!.

افْعلوا ذلك، وتوكَّلوا على الله وحده، وخُذوا بالأسباب، ونَفِّذوا أوامرَ الله، ثم اطلُبوا منه النصرَ والفتح بعد ذلك وسوفَ يعطيكم ما تطلبون، بعد أنْ تُنفذوا ما طَلَبَ منكم!

إنَّ قولَهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ يشيرُ إلى نظريةِ جهاديةِ هامة، هي نظريةُ «الحربِ الهجومية» التي قررَ الخبراءُ العسكريون أنها طريقُ النصر، وأنَّ مَنْ أرادَ الانتصارَ على خصمه فعليهِ أنْ يبدأَ هو بالهجوم، ويوجِّهَ لخصمه «الضربةَ الأولى» القوية، التي تشلُّ خصْمَه وتحطمُ قوتَه.

وهذا هو هديُ رسولِنا محمد ﷺ في حربه للأَعداء، فكان هو الذي «يَدخلُ عليهم الباب»، ويبدأُ بالهجوم، ويفاجئُهم بغزوِ بلادهم.

هذا ما فعلَه ﷺ عندما غزا يهودَ بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وعندما فاجأَ يهودَ خيبر، وفاجأَ المشركين يومَ فتحِ مكة.

وهذا ما وعاهُ الصحابةُ رضوان الله عليهم، حيث كانوا في جهادِهم الكافرين يبدءونَ بالضربةِ الأولى، ويَدخلون عليهم الباب، فكانَ الكفارُ يفاجَئون وينهزمون.

وقد أَرسى عليُّ بنُ أَبي طالب رضي الله عنه هذه النظرية القرآنية في جملتِه الرائعة الصادقة: «ما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلاّ ذُلُّوا...».

وقد خالفَ العربُ والمسلمون المعاصرون هذه النظرية القرآنية، التي صدَّقَها فعلُ رسول الله ﷺ وحركةُ أصحابه المجاهدين، ولم يَبدءوا في حروبِهم المعاصرة مع اليهود بالهجوم، ولم يَدخلوا عليهم الباب، ولم يُفاجئوهم بالضربةِ الأولى. وإنما سمحوا لليهود أَن يبدءوا هم بذلك، ورضوا هم أنْ يتلقَّوا الضربةَ الأُولى القاصمةَ القاضية، وما يتبعُها من ضرباتٍ متلاحقة. ولهذا كانت نتائجُ معاركهم المعاصرةِ مع اليهود ما نعرفُه ويعرفُه الآخرون!

الجبناء لن يدخلوا الأرض المقدسة ويعصون موسى:

ماذا كان موقفُ المجموعِ الإسرائيليِّ الجبانِ من نصائحِ الرجلَيْن المجاهديْن؟ زادوا في تمردِهم واستمروا في عصيانِهم، وقالوا لموسى عليه السلام جملةً فاجرة!

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أَخبروا موسى عليه السلام أَنهم لن يَدخلوا الأرضَ المقدسةَ أَبداً، ما دامَ سكانُها الجبارون فيها، فعليه أنْ يقطعَ الأملَ فيهم، وأنْ يتوقفَ عن ترغيبِهم وحثِّهم وإحراجِهم، وأنْ لا يُتعبَ نفسَه في ذلك فمهما حاولَ معهم فلن يستجيبوا له.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ عدةُ مؤكِّداتٍ لعدمِ دخولهم:

«إنَّ»: حرفُ التوكيد.

«لن»: حرفُ النفيِ الدالُّ على التأبيد.

«أبداً»: الظرفُ الدالُّ على التأبيد المؤكد له.

«إنا لن ندخلها»: الجملةُ الاسميةُ الدالة على الثبات: نحنُ غيرُ داخلين فيها.

وقيَّدوا هذا النفيَ المؤبدَ بإقامةِ أصحابِها فيها: ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾.

وهم بهذا النفيِّ المؤبَّدِ قرروا وانتهوا، لقد دفعهم جبنُهم وخوفُهم إلى رفضِ القتال والجهاد، واختيارِ القعود والنكوص والتخلفِ والتمرد.

ولما شعروا أَنهم مُحْرَجُون في الحثِّ على الجهاد والقتالِ توقَّحوا على موسى قائلين: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

هكذا إذن! وهذه هي النهاية!! وهذه نتيجةُ سيرِهم الطويلِ مع موسى عليه السلام! وهذه هي طاعتُهم له: لا تطلبْ منا القتال، فنحن قرَّرْنا وانتهينا، فلنْ ندخلَها أبداً ما داموا فيها، وإذا كنتَ أنت يا موسى مصمِّماً على دخولِنا الأرض المقدسة، فاذهبْ أنت وربُّك، فقاتِلا سكانَها الجبارين، واهزماهم، وحَرِّراها لنا، ووجِّها لنا الدعوةَ بعد ذلك لدخولها!! إنا هاهنا! قاعدون بانتظارِ تحريرِكما لَها، لندخلَها بعدَ ذلك.

قال سيد قطب تعليقاً على قولهم: «... وهكذا يُحْرَجُ الجبناءُ فيتوقَّحون، ويفزعونَ من الخطرِ أَمامهم، فيرفسونَ بأرجلِهم كالحُمُر، ولا يُقْدِمون! والجبنُ والتوقحُ ليسا متناقضيْن ولا متباعديْن، بل إنهما لصنوانِ في كثيرٍ من الأحيان. يُدفعُ الجبانُ إلى الواجبِ فيجبن، فيُحرجُ بأنه ناكلٌ عن الواجب، فيسبُّ هذا الواجبَ، ويتوقَّحُ على دعوتِه التي تكلِّفُه ما لا يريد!!

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

هكذا في وقاحةِ العاجز، الذي لا تكلِّفُه وقاحةُ اللسان إلاّ مدَّ اللسان! أما النهوضُ بالواجب فيكلِّفُه وخْز السنان!

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾!..

فليسَ بربِّهم إذا كانت ربوبيتُه ستكلِّفُهم القتال!

﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

لا نريد مُلكاً، ولا نريدُ عزاً، ولا نريدُ أرضَ الميعاد... ودونَها لقاءُ الجبارين!

هذه هي نهايةُ المطافِ بموسى عليه السلام. نهايةُ الجهدِ الجهيد والسفرِ الطويل. واحتمالِ الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل...»[1].

وقد اقتدى الضعفاءُ الجبناءُ من المسلمين المعاصرين بهذا الموقفِ الإسرائيليِّ الجبان، فعندما يُرَغِّبهم العلماءُ والدعاةُ والمجاهدون في الجهادِ والقتالِ لتحرير البلاد، يَرفضون ويجبنون، ويَختارون القعودَ والنكوص والذلةَ والهوان، ولسانُ حالهم يرددُ قولَ بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾!!

يقولون: إنْ كنتم صادِقين في أنَّ اليهودَ سيخرجون من فلسطين، وأَنه سيتمُّ تحريرُها، فاذهبوا أَنتم وربُّكم، وقاتِلوا اليهود وحَرِّروا فلسطين، أما نحنُ فإنا هاهنا قاعدون، ننتظرُ تحريرَها لندخلَها!!.

بين موقفهم الجبان وموقف الصحابة العظيم:

وبينما خذلَ بنو إسرائيل موسى عليه السلام وتخلَّوا عنه، ورفضوا دعوتَه لهم للقتال، فإنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قد وقفوا معه موقفاً

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧٠ ـ ٨٧١.

رائعاً جهادياً ورجولياً، فعندما استشارَهم في قتالِ المشركين قبيلَ غزوةِ بدر، تحمّسوا واندفعَوا لقتالهم، وتذكَّروا خذلانَ بني إِسرائيل لموسى عليه السلام، وأَعلنوا أَنهم لن يكونوا مثلَهم..

روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شَهدتُ من المقدادِ بن الأسود مشهداً، لأنْ أكونَ صاحبَه أحبُّ إِليَّ مما عدل به. أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقالَ له: لا نقولُ كما قالَ قومُ موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ...﴾ ولكنّا نقاتلُ عن يمينِك، وعن شمالِك، وبينَ يديك وخلْفَك. فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرقَ وجْهُه وسُرَّ...»[1].

وقد وضَّحَ كلامَ المقداد ابنُ عباس رضي الله عنهما، حيث بَيَّنَ أَنه قال ذلك لما شاورَ رسولَ الله ﷺ أَصحابه...

روى ابنُ إِسحاق عن ابنِ عباس قوله: «... وأَتاهُ الخبرُ عن قريش بمسيرِهم ليمنَعوا عيرَهم. فاستشارَ الناس، وأخبرهم عن قريش. فقامَ أَبو بكر الصديق، فقالَ وأحسن. ثم قامَ عمر بن الخطاب، فقالَ وأحسن.

ثم قامَ المقدادُ بن عمرو فقال: يا رسولَ الله: امضِ لما أَراكَ الله، فنحنُ معك، واللّهِ لا نقول كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن: اذهب أنت وربُّك فقاتِلا، إِنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثكَ بالحقِّ لو سِرت بِنا إِلى بَرْكِ الغِماد ـ أبعد مكان في اليمن ـ لجالَدْنا معك مِن دونك حتى تبلُغَه!!...

فقالَ له رسولُ الله ﷺ خيراً، ودعا له به...»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٥٢. وانظر صحيح السيرة النبوية برقم: ٢٣٤.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة بسند صحيح. انظر صحيح السيرة النبوية برقم: ٢٣٣.

موسى يطلب الفرق والفصل بينه وبينهم وتوجيه ذلك:

وبعدما فُجِعَ موسى عليه السلام في قومِه الجبناء توجَّه إلى ربه، يشكو إليه قومَه، ويعلن تبرُّؤه منهم ويدعو عليهم، ويسألُ اللَّهَ أنْ يفرقَ بينَه وبينَهم. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أَعلنها موسى عليه السلام صراحةً أنه لا يملكُ إلا نفسَه وأخاه هارون النبي عليه السلام.

وهذا يدلُّ على أنَّ أخاه هارونَ عليه السلام كان معه حتى هذه المرحلةِ من إقامةِ بني إسرائيل في سيناء، يساعدُه في إدارةِ أُمورِ بني إسرائيل.

متى نفضَ موسى عليه السلام يديْه من قومه؟ بعد سنواتٍ طويلة قضاها معهم، في مصر وفي سيناء، وبعدَ جهودٍ مضنيةٍ بذلَها في تربيتهم وتقويمهم، وبعد خبرةٍ طويلةٍ بهم. وقد واجهوا جهودَه بمخالفةٍ وتمردٍ ووقاحة وعصيان.

فتبرأَ منهم، وأَعلنَ أنه لا يملكُهم، ولا يثقُ بهم، ولا يضمنُهم، ولا يَقدرُ على أنْ يُكلفَهم ويطلبَ منهم الالتزامَ والتنفيذ، ولا يستطيعُ أن يَحملَهم على الطاعةِ والتطبيق، فما عادوا يطيعونه ولا يسمعون له.

﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾: ربِّ إني لا أَملكُ أَمْرَ أَحدٍ أَحملُه على طاعتك إلاّ أمرَ نفسي، وأَمْرَ أخي هارون، ولا أَثقُ بغيرِنا أنْ يُطيعَك في اليسرِ والعسر والمنشط والمكره..[1].

وبما أَنهم أعلنوا عصيانَه جهاراً، وتمردوا عليه علانية، فما عاد هناك اتصالٌ ولا صلةٌ بينه وبينهم، لذلك دعا ربَّه أنْ يفرقَ ويفصلَ بينه وبينهم: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) تفسير المنار ٦: ٣٣٥.

والفرقُ هو الفصل.

كانوا مجتمعين متصلين مع بعضِهم البعض، وحاولَ موسى في هذا الاتصالِ والاجتماعِ أنْ يُربيهم ويرتقيَ بهم، لكنهم خذلوه ولم يتجاوبوا معه، فلم يبقَ إلاّ الافتراقُ والانفصالُ بينه وبينهم.

إنه نبيٌّ رسولٌ عليه السلام، وأَخوه نبيٌّ عليه السلام، ومَن معهما مِن الصالحين قلائلُ مطيعون لهم، مخلصون لله. لكنَّ القطاعَ الأكبرَ من بني إسرائيل والأكثريةَ فيهم فاسقون، خارجون على الطاعة، متمردون على الحق، اختاروا طريقَ الباطل والضلال، فما الذي يربطُهم بموسى وأَخيه؟ وما الداعي لأنْ يَستمروا يَعيشون معاً بعد اختلافِ الطريقين؟

لا لقاءَ بينَهم بعد ذلك، فلم يبقَ إلاّ الفرقُ والفصلُ، والبراءةُ والمفاصلة، ولهذا قالَ موسى عليه السلام: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

قال سيد قطب: «وإِنه ليعلمُ أنَّ ربَّه يعلمُ أنه لا يملكُ إلا نفسَه وأَخاه.. ولكنَّ موسى في ضعفِ الإنسان المخذول، وفي إيمانِ النبيِّ الكليم، وفي عزمِ المؤمنِ المستقيم، لا يجدُ متوجَّهاً إلاّ لله، يشكو بثَّه ونجواه، ويطلبُ إليه الفرقةَ الفاصلةَ بينه وبين القوم الفاسقين..

فما يربطُه بهم شيءٌ بعد النكولِ عن ميثاق الله الوثيق. ما يربطُه بهم نسب، وما يربطُه بهم تاريخ، وما يربطُه بهم جهدٌ سابق، إنما تربطُه بهم هذه الدعوةُ إلى الله، وهذا الميثاقُ مع الله، وقد فَصَلوه.. فانبتَّ ما بينَه وبينهم إلى الأَعماق، وما عادَ يربطُه بهم رباط.. إنه مستقيمٌ على عهدِ الله وهم فاسقون، إنه مستمسكٌ بميثاق الله وهم ناكصون..

هذا هو أَدبُ النبي، وهذه هي خطةُ المؤمن، وهذه هي الآصرةُ التي يَجتمعُ عليها أو يتفرقُ المؤمنون.. لا جنسَ، لا نسبَ، لا قومَ، لا لغةَ، لا تاريخ. لا وشيجةَ من كلِّ وشائج الأرض، إذا انقطعتْ

وشيجةُ العقيدة، وإذا اختلفَ المنهجُ والطريق..»[1].

استجابَ اللّهُ دعاءَ نبيِّه موسى عليه السلام، ففرَّقَ بينه وبين جموعِ بني إسرائيل الفاسقين، وعاقَبهم لتخلفِهم ونكوصِهم، وجبنهم وخوفهم، فحرمَ عليهم دخولَ الأرضِ المقدسة أربعين سنة، يتيهون فيها في الأرض!

عقابهم بالتيه في الصحراء أربعين سنة وحكمته ودلالته:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

حرمَ اللّهُ أولئكَ الجبناء من شرفِ الجهادِ والتمكين وتحريرِ الأرض المقدسة والتمتعِ بخيراتها، لأنهم نكصوا عن الجهاد. وكتبَ عليهم التيهَ في صحراء سيناء مدةَ أربعين سنة.

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾: الأرضُ المقدسةُ محرمةٌ عليهم، ممنوعون من دخولها. والتحريمُ هنا هو التحريمُ الفعليُّ العام، الذي يعني الامتناعَ عنها، وليس هو التحريمَ الشرعيَّ التكليفي الخاص.

و﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾: يَسيرونَ في أرض سيناء لمدةِ أربعين سنة، تائهين في شِعابها ووديانها وتلالها وكثبانها، مُحتارين لا يَعرفون أين يسيرون، ولا إلى أينَ ينتهي سيرُهم.

يقال: تاهَ، يَتيه، تِيهاً: إذا ضلَّ وتحيَّر.

والتيه: الصحراءُ التي ليسَ فيها علامةٌ يُهتدىٰ بها، فيتيهُ ويضلُّ ويَحتارُ سالكُها[2].

وكتبَ عليهم التيهَ في مجاهلِ صحراء سيناء لمدةِ أربعين سنة، ليموتَ ذلك الجيلُ الجبانُ من بني إسرائيل، فأربعونَ سنة كافيةٌ لموتِ

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧١.

(٢) المعجم الوسيط ١: ٩٢.

ذلك الجيل الذي لم تنفعْ معه كلُّ وسائلِ موسى عليه السلام، للارتقاء بهم.

وينشأُ خلال هذه المدة جيلٌ جديدٌ من أبنائهم، يعيشون حياةَ العزةِ والكرامة والحرية، ويَذوقون شظفَ العيش وشدتَه وخشونتَه، وهم يتحركون في الصحراء، فيصلبَ عودُهم وتقوى نفوسُهم، فيسارعوا بالجهادِ والقتال!!

إن اللّهَ يعلمُ أنَّ الجهادَ لا يقومُ به إلاّ رجالٌ أشداءُ أقوياء، ولذلك اختارَ صحراءَ سيناء ببيئتِها القاسية وظروفِها الصعبة وحياتها الشاقة، لتكون «مَحْضَناً» ينشأُ فيه الجيلُ الجديد، ويُعَدُّ فيه إِعداداً جهادياً خاصاً.

ومعنى هذا أنه لا بدَّ من التخلّي عن مظاهرِ الترفِ والبذخ والإسراف، والخروجِ من حياةِ اللهو والعبث، وتركِ التنعُّمِ الفاجر والرفاهِ القاتل، وعدمِ العبودية للأهواء والكماليات، حتى يعرفَ الجيلُ المعَدُّ للجهادِ وظيفتَه، وحتى ينشأَ على الرجولةِ والعزة والجهاد.

ولا بدَّ من تركِ الجيل الجبان، لأنه يُتعبُ المربّين ولا يتجاوبُ معهم، ويجبُ أنْ توجَّهَ الجهودُ والطاقاتُ لجيلٍ جديد، لتثمرَ وتؤتيَ أُكُلَها.

ولماذا يبقى بعضُ الدعاةِ في زماننا يُتعبون أَنفسَهم ويُضيعونَ جهودَهم في مخاطبةِ أُناس جبناء، ومطالبتِهم بالجهادِ والتحرير؟ مع أنَّ المخاطَبين لا يَفهمون هذه اللغة، ولا يسمعون هذا الصوت، ولا يَستجيبون لهذا النداء!

عليهم أنْ يُوفروا جهودَهم وأَوقاتَهم، وأنْ يُوَجِّهوها لإِعدادِ جيلٍ جديدٍ إعداداً جهادياً، كما فعلَ موسى عليه الصلاة والسلام!!.

لا تأس على القوم الفاسقين:

ولما أخبرَ اللّهُ موسى عليه السلام بحكمهِ على بني إسرائيل بالتيهِ

أَربعين سنة واساه وسَرّى عنه، وقالَ له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

ومعنى «لا تأْسَ»: لا تحزن. يقال: أَسِيَ، يَأْسَى، أَسىً: بمعنى: حزِنَ، يحزَن، حُزناً.

يَنهى اللّهُ موسى عليه السلام عن الأَسى والحزنِ على قومه، لأنهم فاسقون خارجون على أَحكامِ الله، عاصون له، متمردون على نبيه.

وقد ذُكرتْ كلمةُ «الفاسقين» مرتيْن في هذه القصة:

المرة الأولى: عندما تمرَّدوا على موسى عليه السلام، فتبرأَ منهم، وطلبَ من الله أنْ يفصلَ بينه وبينهم: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾. حيث حكمَ عليهم بأَنهم فاسقون، وشهدَ لهم بأنهم فاسقون.

والمرةُ الثانية: عندما استجابَ اللّهُ لدعوتِه، ففصلَ بينه وبينهم، وحكمَ عليهم بالتيه، ونهاهُ عن الأسىٰ عليهم، لأنهم فاسقون.

فالأُولى: بيانٌ لسببِ تمرّدِهم وعصيانِهم ونكوصهم، فهم فعلوا ذلك لأَنهم فاسقون. والثانية: بيانُ سببِ ما أَوقعَ اللّهُ بهم من عقوبة، فما فعلَ ذلك بهم إلاّ لأَنّهم فاسقون.

هم فاسقونِ ولذلك تبرأَ موسى منهم، وهم فاسقون ولذلك كتبَ اللّهُ عليهم التيه، وهم فاسقون ولذلكَ لا يتأَسَّفُ موسى ولا يأسىٰ ولا يحزنُ عليهم.

إنَّ موسى عليه السلام لم يُقَصِّرْ في تربيتِهم، ولكنهم أَبوا أنْ يَستجيبوا له، لأَنهم فاسقون، فلماذا يأسىٰ على القومِ الفاسقين؟ هلْ يستحقّون أنْ يَحزنَ عليهم؟؟.

تعليق ابن كثير ورشيد رضا على قصة التيه:

وقد علقَ الإمامُ ابنُ كثير على هذه القصة بقوله: «وهذه القصةُ تضمنتْ تقريعَ اليهود، وبيانَ فضائِحهم، ومخالفتِهم لله ولرسوله، ونكولِهم عن طاعتهما فيما أَمراهم به من الجهاد، فضعفتْ أنفسُهم عن مصابرةِ الأَعداء ومجالدتِهم ومقاتلتِهم، مع أنَّ بينَ أَظهُرِهم رسولُ الله ﷺ وكليمُه وصفيُّه من خلقِه في ذلك الزمان، وهو يَعِدُهُم بالنصرِ والظفرِ بأَعدائهم.. هذا مع ما شاهَدوه من فعلِ اللّهِ بعدوّهم فرعون من العذاب والنكال والغرقِ له ولجنوده...»[1].

أما محمد رشيد رضا فقد علقَ على هذه القصةِ بقوله: «إنَّ الشعوبَ التي تنشأُ في مهدِ الاستبداد، وتُساسُ بالظلم والاضطهاد، تفسدُ أَخلاقُها، وتذلُّ نفوسُها، ويذهبُ بأسُها، وتُضربُ عليها الذلةُ والمسكنة، وتألفُ الخضوع، وتأنسُ بالمهانة والخنوع، وإذا طالَ عليها أمدُ الظلم تصير هذه الأخلاقُ موروثةً ومكتسبة، حتى تكونَ كالغرائزِ الفطرية، والطبائعِ الخَلْقِية، إذا أَخرجْتَ صاحبَها من بيئتها، ورفعْتَ عن رقبته نيرَها، أَلْفَيْتَهُ ينزعُ بطبعِه إليها، ويتفلتُ منك ليتقحمَ فيها...»[2].

وهكذا انفصلَ موسى عليه السلام وأَخوه هارون عليه السلام بمن أَطاعَهما واتبعَهما من بني إسرائيل، انفصلا وافترقا عن الأغلبيةِ الضالةِ الفاسقة من بني إسرائيل.

وتاهَ بنو إسرائيل الفاسقون في صحراء سيناء، وصاروا يتخبطون بين شِعابِها ووديانها، في حيرةٍ وتيهٍ وضلال وضياع، لا يَعرفون ماذا يفعلون، ولا أينَ يسيرون، وهذا ما جَنَوْه على أنفسِهم، وما ظلمهم اللّهُ ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون..

---

(١) تفسير ابن كثير ٢:٣٩.

(٢) تفسير المنار ٦:٣٣٧.

وبدأَ أفرادُ ذلك الجيل يموتون تباعاً، ويَخرجون من هذه الدنيا مجلَّلين بالذلِّ والضعفِ والهوان.

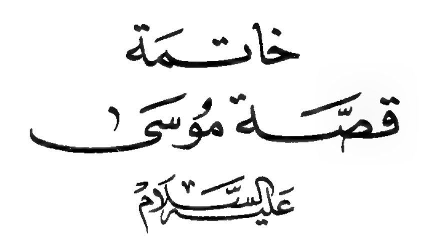
وهكذا تنتهي حياةُ موسى عليه السلام مع هذا الجيلِ من بني إِسرائيل، بعد محاولاتِه المستمرة للارتقاءِ بهم، ولكنهم لم يتجاوبوا معه، تنتهي حياتُه معهم بيأسِه منهم، وتوجُّهِه لتربيةِ أبنائهم على الخشونةِ والشدة والجهاد.

أَما هم فقد غادروا هذه الدنيا تائِهين حيارى ضائعين.

«... ويتركُهم السياقُ القرآنيُّ هنا في التيه، لا يزيدُ على ذلك... وهو موقفٌ تجتمعُ فيه العبرةُ النفسيةُ إِلى الجمالِ الفني، على طريقة القرآن في التعبير...»[1].



(١) في ظلال القرآن ٢ : ٨٧١.


خاتمة
قصة موسى
عليه السلام

[١]

موسى مع الخضر عليهما السلام

حدثتْ قصةُ موسى مع الخضر عليهما السلام أَثناءَ إِقامةِ بني إِسرائيل في سيناء، ويبدو أَنها كانت في مَرْحَلَةٍ متأخرةٍ من إِقامتهم، ولعلها كانتْ بعدما فرقَ اللّهُ وفصلَ بينه وبين القومِ الفاسقين الجبناء من بني إسرائيل.

فبعدما فارقَ موسى بمن تجاوبَ معه من قومه الأغلبيةَ الناكصةَ المتمردةَ منهم، وقعتْ أَحداثُ قصتهِ مع الخضر.

آيات القصة في سورة الكهف:

وأَوردتْ بعضَ أَحداثِ القصة آياتٌ من سورة الكهف، وأَضافتْ أَحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ إِضافاتٍ إلى الآيات.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٨٢].

وقبلَ الدخولِ في أحداثِ القصة نوردُ خلاصةَ الأحاديثِ الصحيحة التي عرضتُها، وهي التي رواها البخاريُّ ومسلم.

موجز القصة في حديث الصحيحين:

روى البخاريُّ ومسلم عن عبيدِ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبدِ الله بن عباس: أنه تمارى هو والحُرُّ بنُ قيسِ بن حصن الفزاري في صاحبِ موسى عليه السلام. فقال ابنُ عباس: هو الخضر.

فمرَّ بهما أُبَيُّ بْنُ كعبٍ رضي الله عنه، فدَعاه ابنُ عباس فقال: يا أَبا الطُّفَيْل هلمَّ إلينا، فإني قد تماريتُ أنا وصاحبي هذا، في صاحبِ موسى الذي سأل السبيلَ إلى لقيِه، فهلْ سمعتَ رسولَ الله ﷺ يذكرُ شأنَه؟

فقال أُبَيُّ بن كعب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بينما موسى

في ملأ من بني إِسرائيل، إذْ جاءَه رجل، فقال له: هل تعلمُ أحداً أعلمَ منك؟

قال موسى: لا!!

فأَوحى اللّهُ إلى موسى: بل عبدُنا الخضر!

فسألَ موسى السبيلَ إِلى لقيه، فجعلَ اللّهُ له الحوتَ آية، وقيلَ له: إِذا افتقدتَ الحوتَ فارجع، فإِنكَ ستلقاه..

فسارَ موسى ما شاءَ اللّهُ أنْ يسير، ثم قالَ لفتاه: آتنا غداءنا!

فقال فتى موسى حين سأَله الغداء: أرأَيتَ إِذْ أَوينا إِلى الصخرة، فإِني نسيتُ الحوت، وما أَنسانيهُ إلاّ الشيطانُ أنْ أذكره.

فقال موسى لفتاه: ذلك ما كنّا نبغي.

فارتدّا على آثارِهما قصصاً. فوجَدا خضراً، فكان من شأنهما ما قصَّهُ اللّهُ في كتابه...»[1].

حديث في الصحيحين مفصل لأحداث القصة:

وإذا عرضَ هذا الحديثُ موجزَ القصة، فهناك حديثٌ آخرُ في الصحيحين فصَّلَ في أَحداثها.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سعيدِ بن جبير قال: إِنّا لعندَ ابنِ عباس في بيتِه، إذْ قال: سلوني.

قلت: أيْ أَبا عباس جعلَني اللّهُ فداءك: في الكوفةِ رجلٌ قاصٌّ يُقال له: «نَوْفُ البِكاليّ» يزعمُ أنَّ موسى عليه السلام صاحبَ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحبَ الخضرِ عليه السلام!

فقالَ ابنُ عباس: كذبَ عدوُّ الله!

سمعتُ أُبَيَّ بْنَ كعب يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بينما

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء برقم: ٣٤٠٠. ومسلم في كتاب الفضائل برقم: ٢٣٨٠.

موسى في قومه يُذَكِّرُهم بأيامِ الله ـ وأيامُه نعماؤه وبلاؤه ـ فسُئل: أيُّ الناسِ أعلم؟

فقال: أنا أعلم!

فعتبَ اللّهُ عليه، إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه.

فأوحى اللّهُ إليه: إنَّ عبداً من عبادي بمجمعِ البحرين، هو أَعلمُ منك!

قال موسى: أيْ ربِّ، كيف لي به؟ دلّني عليه!

فقيل له: احملْ حوتاً مالحاً في مِكْتَل، فحيثُ تفقدُ الحوت فهو ثَمَّ!

فانطلقَ، وانطلقَ معه فتاه، وهو «يوشعُ بن نون»، فحملَ موسى عليه السلام حوتاً في مكتل، وانطلقَ هو وفتاه يمشيان، حتى أَتيا الصخرة. فرقدَ موسى عليه السلام وفتاه...

فاضطربَ الحوتُ في المكتل، حتى خرجَ من المكتل، فسقطَ في البحر. وأَمسكَ اللّهُ عنه جريةَ الماء، حتى كانَ مثلَ الطاق، فكان للحوتِ سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً!

فانطلقا بقيةَ يومِهما وليلتِهما، ونسيَ صاحبُ موسى أنْ يُخبرَه.

فلما أصبحَ موسى عليه السلام قال لفتاه: آتِنا غداءَنا، لقد لَقينا مِن سفرنا هذا نصباً. ولم يَجِدْ موسى مَسّاً من النَّصَب حتى جاوزَ المكانَ الذي أُمِرَ به!!

فتذكَّرَ وقال: أَرأيتَ إذْ أَوينا إلى الصخرة، فإني نسيتُ الحوت، وما أَنسانيهُ إلاّ الشيطانُ أَنْ أَذكره، واتخذَ سبيلَه في البحر عجباً!

قال موسى: ذلك ما كنّا نَبغي، فارتدّا على آثارِهما قَصصاً، يَقصانِ آثارَهما، حتى أَتيا الصخرة، مكانَ الحوت!

قالَ: هاهنا وُصِفَ لي، فذهبَ يَلتمس، فإذا هو بالخضر، مُسَجّى ثوباً، مستلقياً على القفا.

فسلَّمَ عليه موسى! فكشفَ الخضرُ الثوبَ عن وجهه، وقال: عليك السلام. أنّى بأرضِك السلام؟

قال: أَنا موسى!

قال: موسى بني إِسرائيل؟

قال: نعم.

قال: إِنك على علم من الله، علَّمَكَهُ الله، لا أَعلمه. وأَنا على علمٍ من علمِ الله عَلَّمَنيه، لَا تعلمه!!

قالَ لَه موسى: هل أَتبعك على أنْ تُعلمني مما عُلِّمْتَ رُشداً؟

قال: إنك لن تستطيعَ معي صبراً، وكيفَ تصبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبراً؟ شيءٌ أُمرتُ به أَنْ أَفعله، إذا رأيتَه لم تَصبر!!

قال: ستجدني إنْ شاءَ اللّهُ صابراً، ولا أَعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألْني عن شيء حتى أُحدثَ لكَ منه ذكراً.

قال: نعم.

فانطلقَ الخضرُ وموسى يمشيان على ساحلِ البحر، ليس لهما سفينة، فمرَّتْ بهما سفينة، فكلَّماهم أنْ يَحملوهما. فعرفوا الخضر، فحملوهما بغيرِ نَوْل.

فجاءَ عصفور، فوقعَ على حرفِ السفينة، فنقرَ نقرةً أَو نقرتين في البحر.

فقالَ الخضرُ لموسى عليهما السلام: يا موسى: ما نقصَ علمي وعلمُكَ من علمِ الله إلاّ كنقرةِ هذا العصفور في البحر!

فعمدَ الخضرُ إِلى لوحٍ من أَلواح السفينة فنزعَه!

فقالَ له موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ عمدْتَ إِلى سفينتهم فخرقْتَها، لتغرقَ أهلَها، لقد جئتَ شيئاً إِمْراً!!

قال: أَلَمْ أَقلْ إِنك لن تستطيعَ معي صبراً؟

قال: لا تؤاخذْني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً.

ثم خَرجا من السفينة، فبينما هما يمشيانِ على الساحل إذا غلامٌ يلعبُ مع الغلمان، فأخذَ الخضرُ برأسه فاقتلعَه بيده، فقتَلَه!

فذُعِرَ موسى ذعرةً منكرة، وقال: أقتلتَ نفساً زكيةً بغيرِ نفس؟ لقد جئتَ شيئاً نكراً.

قال: ألم أقلْ لكَ إنكَ لن تستطيعَ معي صبراً؟ وهذه أشدُّ من الأُولى!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أَنه عَجِّلَ لرأى العجب، ولكنه أخذتْه مِنْ صاحبه ذِمامة!

قال موسى: إنْ سألتُكَ عن شيء بعدَها فلا تصاحبني، قد بلغْتَ مِن لدنّي عذراً.

فانطلقا. حتى إذا أَتيا أهلَ قرية لِئاماً، فطافا في المجالس، فاستطعما أهلَها، فأَبَوا أنْ يُضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريدُ أنْ ينقضَّ فأقامَه!

قال له موسى: قومٌ أَتيناهم، فلم يُضيفونا ولم يُطعمونا، لو شئتَ لاتخذتَ عليه أجراً!!

قال: هذا فراقُ بيني وبينك. وأخذَ بثوبه وقال: سأنبئكَ بتأويلِ ما لم تستطعْ عليه صبراً.

أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملونَ في البحر، فأردتُ أنْ أَعيبها، وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينة غصباً، فإذا جاءَ الذي يسخرُها وجدها منخرقةً فتجاوزها، فأَصلَحوها بخشبة.

وأما الغلامُ فطُبِعَ يومَ طُبِعَ كافراً، وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أَنه أدركَ أَدركهما طغياناً وكفراً، فأردْنا أَن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأَقربَ رُحماً.

وأما الجدارُ فكان لغلاميْن يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما وكان أَبوهما صالحاً، فأَرادَ ربُّك أنْ يَبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما...»[1].

معاني الكلمات الغريبة في الآيات والأحاديث:

ومن معاني الكلماتِ الغريبةِ في آياتِ سورة الكهف التي عرضَت القصةَ ما يلي:

مجمعُ البحرين: مكانُ التقاءِ بحريْن، وهما مُبهمان لم يُبَيَّنا ولم يُذْكَرا في الآيات والأحاديث، فلا نعرفُ موقعَ مجمعِ البحرين.

أَمضي حُقُباً: أَستمرُّ في سيري سنينَ طويلة. والحُقُب جمع، مفردُه «حِقْبَة» وهي المدةُ من الزمان التي لا تحديدَ لها.

سَرَباً: السَّرَبُ هو الطريقُ النافذ. أي أنَّ الحوتَ لما خرجَ من المكتل شقَّ طريقاً سرباً نافذاً على وجْهِ الماء.

لما جاوَزا: لما تجاوزا المكانَ المحددَ الذي سيجدُ موسى الخضرَ فيه.

نَصَباً: تعباً ومشقة.

الصخرة: هي المكانُ الذي أَخبرَ اللّهُ موسى أنه سيجدُ الخضرَ عنده، وهي في مجمع البحرين!

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم وكتاب الأنبياء وكتاب التفسير بالأرقام التالية: ٧٨، ١٢٢، ٣٤٠٠، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٦، ٤٧٢٧. وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل برقم: ٢٣٨٠.

فارتدّا على آثارهما قصصاً: رجعَ موسى وفتاه في الطريق، وتوجَّها نحو الصخرة، وكانا يقصّان آثارَ أقدامِهما.

لم تُحِط به خُبراً: ليس لكَ به علمٌ ولا معرفة.

خرقَ السفينة: خلعَ الخضرُ لوحاً من ألواح السفينة.

جئتَ شيئاً إمراً: جئتَ شيئاً فظيعاً، وهو خرقُ السفينة.

لا ترهقني من أمري عسراً: لا تُحَمِّلني مشقةً ولا عُسراً.

جئتَ شيئاً نكراً: فعلتَ شيئاً منكراً مرفوضاً، وهو قتلُ الغلام.

وراءَهم ملك: كان أمامَ أصحاب السفينة ملك.

يُرهقَهما طغياناً وكفراً: يُتْعِبَهما بظلمِه وطغيانِه وكفره عندما يكبر.

وأقربَ رُحماً: أكثرُ رحمةً بوالديه، عن طريق بِرِّه بهما وطاعتهما.

يَبلغا أَشُدَّهما: يكبَرا ويميِّزا ويكتملَ عقلُهما.

رحمةً من ربك: بناءُ الجدار لهما رحمةٌ من الله بهما لحفظ كنزهما.

ما فعلتُه عن أمري: لم أفعلْ أنا الأفعالَ الثلاثة باجتهادي، بل بأَمْرٍ من الله لي.

أمّا الحديثان اللذان أوردْناهما فنبيِّنُ معاني بعضِ كلماتهما الغريبة:

تماري: تناقشَ وتجادلَ ابنُ عباس والحُرُّ بنُ قيس في صاحبِ موسى، واختلفا، فاحتكَما إلى أُبَيِّ بن كعب.

أبو الطفيل: هي كنيةُ أُبَيِّ بْنِ كعب رضي الله عنه.

الحوت: هو السمكة، وكانَ مشوياً مُعَدّاً للأكل فأَحياهُ الله.

أَبو عباس: كنيةُ عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما.

نَوْفُ البِكالي: كانَ في عصر التابعين، وهو من «بَكيل» القبيلةِ اليمنية المعروفة، وقد استوطنَ الكوفة، وصارَ يقصُّ ويحدِّثُ في مساجدها، وكان يتأثَّرُ بالإسرائيليات، ويوردُها في كلامه، وقد أخذَها من زوجِ أُمِّه «كعبِ الأحبار» وهو الحَبْرُ اليهوديُّ اليمنيُّ الذي أسلمَ وأدخلَ الإسرائيليات على المسلمين.

كذبَ عدوُّ الله: هذا إِنكارٌ من ابن عباس على نَوْفِ البكالي كلامَه، الذي خالفَ به ظاهرَ القرآن وصريحِ الحديث. ولا يُرادُ ظاهرُ الكلام، فلم يتهم ابنُ عباس نوفاً البكالي بالكَذبِ المتعمد، ولم يُرِدْ أنه عدوٌّ لله حقاً، وإِنما هدفَ إِلى تخطئتِه في كلامه، والمبالغةِ في الإِنكارِ عليه.

حوتاً مالحاً في مكتل: خُذْ معكَ سمكةً مملَّحة مشويةً في «سلة».

يوشع بن نون: صَرَّحَ الحديثُ بأنه هو فتى موسى الواردُ في القرآن.

كان مثل الطاق: لما سارَ الحوتُ على وجْهِ الماء، بقيَ أثره موجوداً على وجْهِ الماء، بحيثُ لم يجتمع الماءُ كما كان، وإِنما بقيَ أَثره وكأنهُ شارعٌ معبَّدٌ على وجه الأرض، وهذه معجزةٌ من الله.

مسجاً ثوباً: كان الخضرُ عليه السلام مستلقياً على ظهره، مغطِّياً نفسَه بثوبه.

أنّى بأرضك السلام؟: كيف يتحققُ السلامُ على أرضك؟ ومتى؟ وكأنَّ الخضرَ يبينُ أنَّ السلامَ لن يتحققَ على الأرض.

حَملوهما بغير نَوْل: حملوهما في السفينة مجاناً، بدون أَنْ يَدفعا أُجرة.

نَقَرَ نقرةً أو نقرتين: أخذَ العصفورُ قطرةً أو قطرتين من ماء البحر بمنقاره.

ذعر موسى: خافَ موسى من قتلِ الخضر للغلام، وغضبَ منه وأنكر عليه.

أخذتْه من صاحبه ذِمامة: الذِّمامةُ الحَياء. أي: استحيا موسى من كثرةِ ما أنكرَ على الخضر.

استطعَما أهلها: طلَبا من أَهلِها الطعام، لكنهم رفضوا وأَبَوْا بسببِ بخلهم ولؤمهم.

وسنعرضُ أحداثَ قصةِ موسى مع الخضر عليهما السلام مستوحاةً من آياتِ سورة الكهفِ وأحاديثِ الصحيحين التي أوردْناها:

موسى وسط قومه في سيناء يذكرهم بأيام الله وسبب الحادثة:

وقفَ موسى عليه السلام في قومِه بني إِسرائيل يوماً، وذلكَ لما كانوا في سيناء، وكان هذا بعدَ افتراقِ الأقليةِ الصالحةِ عن الأكثريةِ الضالة، كما رجَّحْنا من قبل.

وكان موسى عليه السلام يعملُ على تربيةِ وإِعدادِ هذه الأقليةِ الصالحة، لتنطلق للجهاد وتحرير الأرض المقدسة.

ومن وسائلِه في تربيتِه لهم أَنه كان يُذَكِّرُهم بأيامِ الله، ويحدثُهم بنماذجَ لانتقامِ اللّهِ من الكافرين والظالمين، كما فعلَ بفرعونَ وهامان وقارون، ويحدثُهم بنماذجَ من إنعامِ الله على الصالحين المؤمنين، كما فعلَ مع مؤمني بني إسرائيل. وكانَ موسى في هذا التذكيرِ المتواصلِ بأيام الله ينفذُ أَمْرَ اللّهِ له، الذي أَخبرَنا عنه في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ...﴾ [إبراهيم: ٥].

وسمعَ أَصحابُه منه تذكيرَه بأيامِ الله، وأُعجبوا به وبعلمه، فسألَه أَحدُهم سؤالاً: أيُّ الناس أعلم؟

فأجابَ موسى عليه السلام: أَنا.

وكان موسى على صوابٍ في جوابه، فهو النبيُّ الرسول، وهارونُ نبيٌّ وليس رسولاً، والرسولُ أعلمُ من النبي.

وبما أنَه رسول، وليس هناكَ رسولٌ نبيٌّ غيره حسبَ علمه، فهو أَعلمُ الناس!!

إذنْ هو على صوابٍ في جوابه حسبَ ظنّه واجتهاده.

ولكنَّ اللّهَ عتبَ عليه، لأنه نسيَ أنْ ينسبَ العلمَ إليه. وكانَ عليه أنْ يقول: اللّهُ أعلم.

ووردَ السؤالُ بصيغةٍ أخرى: هل تعلمُ أحداً أعلمُ منك؟

فقالَ عليه السلام: لا.

لا يَعلمُ أحداً من البشر أعلمَ منه، لأنه نبيٌّ رسول، وليس هناك رسولٌ غيرُه حسب علمه واجتهاده.

ومعَ ذلك عتبَ اللّهُ عليه.

وبيَّنَ اللّهُ له قصورَ علْمِه ونقْصَ معرفته، فأخبرَه أنَّ هناك مَن هو أعلمُ منه، وقال له: عبدُنا الخضرُ هو أعلمُ منك.

حديث في سبب تسمية الخضر بذلك الاسم:

وكانَ الخضرُ مقيماً في مكانٍ آخر، لا يَعلمُ موسى عنه شيئاً، فلمْ يسبقْ له أَنْ شاهدَه أو قابلَه.

وسببُ تسميتِه «الخضر» أنَّ الفروةَ البيضاء صارَتْ خضراءَ لما جلسَ عليها.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: إنما سميَ الخضرُ خضراً، لأنَه جلسَ على فروةٍ بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحتَه خضراء..»[1].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٠.

وهذه معجزةٌ من الله سبحان على يدِ الخضر عليه السلام، فكانَ تحتَه فروة بيضاء، ولما جلسَ عليها اهتزَّتْ وتحركَت، وتحوَّلَ لونُها من الأبيض إلى الأخضر، ولذلك سُميَ «الخضر»، لأنهُ السببُ في تغييرِ لونِ الفروة!

والراجحُ أنَّ الخضرَ عليه السلام نبي، مع أنَّ الآياتِ لم تصرِّحْ بنبوته، كما لم تصرحْ بذلك الأحاديثُ الصحيحة. ولكنَّ سياقَ قصتِه في القرآن وحقيقةَ الأفعالِ التي قامَ بها يرجحُ نبوتَه، والله أعلم.

لكنَّ نبوتَه بالاجتهادِ لا بالنص، ولذلك لا يَكْفُرُ منكرُ نبوته، لعدمِ وجودِ نصٍّ صريحٍ بذلك.

كما أنَّ الراجحَ أنَّ الخضرَ قد ماتَ في عهدٍ سحيق، كما يموتُ باقي البشر، وكانت وفاتُه قبلَ رسولِ الله ﷺ بوقْتٍ طويل. والذين قالوا إنه ما زال حياً حتى الآن لا يَملكون دليلاً نقلياً ولا نصاً صريحاً على ذلك، وكلامُهم عاطفيٌّ غيرُ علمي ولا موضوعي، فهو مرجوحٌ مردودٌ والله أعلم[1].

ولا تقدمُ لنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ أيةَ معلوماتٍ إضافية عن الخضر عليه السلام، إضافةً على ما وردَ في آياتِ سورةِ الكهف والأحاديثِ الصحيحة التي أوردْناها!!

ونعودُ إلى موسى عليه السلام.

موسى يتوجه نحو مجمع البحرين:

فلما أخبرَه اللّهُ أنَّ الخضرَ أعلمُ منه، شعرَ بتسرُّعِه في الجواب، وندمَ على كلامِه، ورغبَ في أنْ يذهبَ إلى الخضر ليتعلمَ منه، وذلك من بابِ حرصه على طلبِ العلم.

---

(١) انظر خلاصة موجزة لهذا الموضوع في الأحاديث الصحيحة للشيخ إبراهيم العلي: ١٦٨ ـ ١٧٣.

فطلبَ موسى من الله أنْ يدلَّه على مكانِ وجوده. فأَخبرَه اللّهُ أنَّ الخضرَ بمجمعِ البحرين.

«مجمع البحرين»: هذا ما وردَ في القرآنِ والحديث بإبهام، بدونِ بيانٍ ولا تفصيل.

هناك بَحران اثنان، قريبان جدّاً من بعضِهما في نقطةٍ معينة، تفصلُ بينَهما قطعةٌ من اليابسة، هذه القطعةُ هي مجمعُ البحرين.

أما تحديدُ مجمعِ البحرين على الخارطةِ الجغرافية فلا نقدرُ عليه لعدمِ وجودِ دليلٍ نعتمدُ عليه، كما لا نقدرُ على تحديدِ اسمي البحرين، لنفسِ السبب، ولا يضرُّنا الجهلُ باسم البحرين ولا مجمع بينهما، ولا تزيدُنا معرفةُ ذلك علماً، ولو كانَ في تحديدِ ذلك خيرٌ لحدَّدَهُ اللّهُ سبحانه.

لكنَّ موسى عليه السلام لما سمعَ «مجمع البحرين» عرفَ البحريْن، وعرفَ مجمعَ بينهما.

ولم يعرفْ موسى عليه السلام كيفَ يصلُ إلى مجمع البحرين، ولا كيفَ يلتقي مع الخضرِ هناك، فطلبَ من اللّهِ أنْ يدلَّه على الطريقةِ والوسيلة!

يوشع بن نون فتى موسى والراجح عدم نبوته:

كان مع موسى فتاهُ العبدُ الصالح «يوشعُ بن نون» أحدُ العابدين الصالحين الصادقين من بني إسرائيل. ولم يَرِدْ اسمُ يوشع بن نون في غير هذه الأحاديث.

واختلفَ العلماءُ في نبوَّتِه، فذهبَ فريقٌ من العلماءِ إلى أَنه نبي، واعتمدوا على حديثٍ صحيحٍ غيرِ صريحٍ لرسول الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «غزا نبيٌّ من الأَنبياء. فقالَ لقومه: لا يَتبعْني منكم

رجلٌ ملكَ بضْعَ امرأة، وهو يريدُ أنْ يبنيَ بها، ولَمّا يَبْنِ بها، ولا أَحَدٌ بنى بيوتاً ولم يرفعْ سُقوفَها، ولا أحد اشترى غنماً أو خَلِفات وهو ينظرُ وِلادَها...

فغزا، فدنا من القريةِ صلاةَ العصر، أو قريباً من ذلك، فقالَ للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور! اللهمَّ احبسْها علينا!!

فحُبستْ، حتى فتحَ اللّهُ عليه...

فجمعَ الغنائم، فجاءت النارُ لتأكلَها، فلم تطعَمْها!!

فقال: إنَّ فيكم غَلولاً. فليبايعْني من كلِّ قبيلةٍ رجل!

فلزمتْ يدُ رجلٍ بيده! فقال: فيكم الغَلول! فلْتبايعْني قبيلتُك!!

فلزقَتْ يدُ رجليْن أو ثلاثة بيدِهِ، فقال: فيكم الغَلول! فجاءوا برأسٍ مثلِ رأسِ بقرةٍ من الذهب، فوضَعوها، فجاءت النارُ فأكلَتْها...»[1].

فاعتمدوا هذا الحديثَ نصاً في نبوةِ يوشع بن نون.

ولكنَّ الراجحَ أنَّ الحديثَ لا ينصُّ على ذلك، ولا يشيرُ إليه، فالراجحُ أنَّ يوشعَ بن نون ليس نبياً. والله أعلم.

وكلُّ ما يُقال: هو رجلٌ مؤمن صالح، كان متابعاً لموسى عليه السلام، ومساعداً له في قيادة بني إسرائيل ولَمَّا توفي موسى عليه السلام تولّى يوشعُ بن نون قيادة بني إسرائيل، ودخلَ بهم الأرضَ المقدسة، وافتتحَ بعضَ مدنها وقراها.

والسِّفْرُ السادسُ من أسفارِ العهدِ القديم هو «سِفْرُ يَشوع»، وهو سِفْرٌ دمويٌّ إرهابي، كتبه اليهود، وزَعموا أنَّ يَشوع ـ وهو يوشَع عندنا ـ ارتكبَ ما فيه من مجازر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥١٥٧. ومسلم برقم: ١٧٤٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٦.

ويوشَعُ ـ أَو يشوع ـ بريءٌ من هذا السِّفرِ الدمويِّ الإرهابي، فما كانَ إِلا رجلاً صالحاً، وفاتِحاً مجاهداً، وحاكماً عادلاً، رضي الله عنه!!

كان يوشعُ بنُ نون ملازِماً لموسى عليه السلام، ولهذا اعتبره القرآنُ فتى له.

موسى وفتاه ومعهما الحوت المملح:

طلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يَختارَ حوتاً من السمك، وأنْ يُملحَه بالملح، وأنْ يَضعه في «مكتل» ـ سَلَّةً من السِّلال ـ وأَنْ يصحبَ معه فتاهُ يوشعَ بن نون، وأنْ ينطلقا معاً نحو مجمعِ البحرين، للالتقاءِ بالخضر. وجعلَ له علامةً تدلُّ على أنه في المكانِ الذي فيه الخضر. فإذا وصلَ مجمعَ البحرين، وجدَ صخرةً هناك، وعندها سيعيدُ اللّهُ الحياةَ إِلى الحوت المملح، وسيخرجُ من المكتل، ويعودُ حوتاً حياً في البحر. فإذا حصلَ ذلك فسيقابلُ الخضرَ في ذلك المكان!!

نَفَّذَ موسى عليه السلام ما طلبه اللّهُ منه، وسارَ مع فتاه يوشعَ متوجِّهين نحوَ مجمع البحرين، وفتاهُ يحملُ معه الحوتَ في المكتل.

وبينما كانا يسيران أَخبرَ موسى فتاه بتصميمهِ على الوصولِ إِلى مجمع البحرين، مهما وجدَ من المشقةِ والصعوبةِ في الطريق: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾...﴾.

أي: لا أَبرحُ سائراً، ولن أَتوقَّفَ عن الرحلة، حتى أَصِلَ مجمعَ البحرين، ولو استمرَّ السيرُ حُقُباً عديدةً وسنواتٍ طويلة!!

ووصَلا مجمعَ البحرين بعدَ رحلةٍ شاقة، وانتهيا إِلى الصخرةِ التي حدَّدَها اللّهُ له، وكانا مُتْعَبين مُرْهَقين من السفر، فجلَسا عند الصخرة ليستريحا.

الحوت في البحر أثناء نومهما:

وطلبَ موسى من يوشعَ أنْ ينتبهَ للحوتِ المملَّحِ في المكتل، وأنْ يُديمَ مراقبتَه والنظرَ إِليه، فإذا دبَّتْ فيه الحياة، وتحرَّكَ في المكتل فلْيخبره، لأَنه سيجدُ الخضرَ في المكان!

ووضعَ يوشَعُ المكتلَ بجانبه، وأَسندَ ظهْرَه إِلى الصخرة... ونامَ موسى عليه السلام، وبعدَ قليلٍ نامَ فتاه يوشَعُ أيضاً..

وبينما كانا نائمين أعادَ اللّهُ الحياةَ إلى الحوتِ الميتِ المملَّح، وهو آيةٌ من آياتِه سبحانه وتعالى. فتحركَ الحوتُ في المكتل، ثم خرجَ منه وسقطَ في البحر..

وقدمَ اللّهُ آيةً أُخرى، حيث أَبقى أثرَ سيرِ الحوتِ على وجه الماء: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

فلما كانَ الحوتُ يسيرُ على وجه الماء، كان الماءُ لا يعودُ خَلْفَه كما كان، وإنما أَمسكَ اللّهُ الماء، وكأنه مَسْرَبٌ واضح، وطريقٌ بَيِّنٌ على وجه الماء، كالطريقِ البين على وجْهِ الأرض.

وهذا يذكِّرُنا بآيةِ فلقِ البحر لما ضَرَبه موسى عليه السلام بعصاه، حيث صارَ فيه طريقٌ يَبَسٌ آمِن، وكان الماءُ على جانبي الطريق، كلُّ فِرْقٍ كالجبل، بدون سَدٍّ أو مانع.

فاللّهُ الذي أَمسكَ الماءَ هناك على الجانبين حتى اجتازَ جميعُ بني إسرائيل، واللّهُ هو الذي أمسكَ الماءَ هنا خلفَ الحوت، فكانَ خلْفَه كالطريقِ الواضح لمن أرادَ تتبُّعَ أثرِ الحوت على وجه الماء!!.

خرجَ الحوتُ من المكتل وهما نائمان، وسقطَ في البحر وهما نائمان، وهذا معناه أنَّ الخضرَ في المكان، قريباً من الصخرة التي ينامان بجانبها!!

واستيقَظا من نومِهما، وأَمَرَ موسى فتاهُ بمتابعةِ السير، وتناولَ يوشعُ المكتل، وقاما يمشيان.

ونسيَ يوشَعُ أنْ يَنظرَ في المكتل، وأنْ يَتفقدَ الحوت، فلو فعلَ وتفقدَ الحوت، فسيجدُ أَنه حيٌّ في البحر، وسيخبرُ موسى بذلك، وسيقابلُ موسى الخضرَ عليهما السلام مباشرة.

لكنَّ يوشَعَ نسيَ تفقُّدَ الحوتَ فطالتْ بهما الرحلة..

عودتهما إلى الصخرة:

سارا بقيةَ ذلك اليوم، وجاءَ الليل، وسارا طيلةَ الليل، ولما جاءَ اليومُ التالي استمرّا في سيرهما، وكانا يسيرانِ على شاطئ البحر، وسارا جزءاً من اليومِ التالي.. وقطعا مسافةً طويلةً في ذلك السير، وأَحَسّا بالتعبِ والنصبِ والجوع..

وجلسا يَستريحان، وطلبَ موسى من يوشَعَ أنْ يقدمَ الطعام: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

ولم يَشْعُرا بالتعبِ والنَّصَب إلاّ بعدَما غادرا مكانَ لقاءِ الخضر، فقد قَطَعَا قبلَ ذلك مسافةً طويلة، وسارا فيها أياماً عديدة، لم يَجدا فيها نَصَباً، أما بعدَ مغادرتِهما المكان فقد شَعَرا بالنَّصَب، وذلك ليعيدَهما اللَّهُ إِليه.

وقامَ يوشعُ بإعدادِ الطعام، ونظرَ في المكتل ليتفقدَ الحوت، ولكنه لم يجدْه فيه! وفوجئَ بذلك، وصارَ يتذكَّرُ أينَ فَقَدَ الحوت! لقد فقدَهُ عندَ الصخرة!!

وأَخبرَ موسى عليه السلام بذلك: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

قال له: كانَ الحوتُ معنا في المكتل، وكنت أُراقبه ولما نمنا عند الصخرة خرج الحوت من المكتل، ولكني لما استيقظتُ من النوم تناولتُ المكتل، ونسيتُ أنْ أنظرَ فيه لأتفقدَ الحوت، على اعتبار أنه

فيه، وفي الحقيقةِ فإنَّ الشيطانَ هو الذي أنساني ذكْرَ الحوتِ وتفقُّدَه! فما رأيُك أنْ نعودَ إلى الصخرة لنبحثَ عنه؟

ولما علمَ موسى أنَّ الحوتَ ليس في المكتل، قال لفتاه: ذلك ما كنا نبغي، فكلُّ هدفِنا ومرادِنا هو أنْ نلتقيَ مع الخضر، ولا بدَّ أنْ يكونَ موجوداً في المكانِ الذي فقدْنا فيه الحوت، فتعالَ لنعودَ إليه!

عادا إلى المكانِ الذي ناما فيه عند الصخرة، وكانا يَقُصّان آثارَهما على شاطئ البحر: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ..﴾.

ونظرَ موسى إلى ماءِ البحر، فوجَدَ على وجهه آثارَ سيرِ الحوت، لم يَعْفُ عليها الماء، وكأنه طريقٌ على وجه الماء، فعجبَ مع فتاهُ من ذلك: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ...﴾.

واستعانا بآثارِ سيرِ الحوت على وجه الماء، وآثارِ سيرِهما على وجهِ الأرض في العودةِ إلى الصخرة..

ولما وَصَلا الصخرةَ قال موسى لفتاه: هذا هو المكانُ الذي وُصِفَ لي، ولا بدَّ أنْ يكونَ الخضرُ هنا.

موسى يلاقي الخضر عند الصخرة:

وقامَ موسى عليه السلام بتفتيشِ المكان باحثاً عن الخضر!!.

ورآهُ نائماً على شاطئ البحر، مستلقياً على قفاه، مغطياً جسمَه ووجْهَه ورأسَه بثوبه. ففرحَ عليه السلام، فهذا هو الخضرُ الذي أَخبرَهُ اللّهُ أنه أعلمُ منه، وقد تحمَّلَ مشاقَّ السفرِ وقطعَ الرحلةَ ليتعلمَ منـــه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وصفَ اللّهُ الخضرَ بقوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾، ومقامُ العبوديةِ لله هو أرفعُ وأكرمُ مقامٍ يَصِلُه المؤمنون، والأنبياءُ هم أئمةُ المؤمنين في هذا المقام.

وقد آتى اللّهُ الخضرَ رحمةً من عنده، رحمةَ النبوة، ورحمةَ العبودية، ورحمةَ العلم الخاصِّ الذي علَّمه إياه، فكانَ أعلمَ من غيره، حتى لو كان نبياً رسولاً كموسى عليه السلام.

وقد عطفت الآيةُ العلمَ على الرحمة: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. فرحمهُ اللّهُ بالعلم، ورحمَ به الآخرين أيضاً، وإذا كان العلمُ مقترناً برحمةِ الله، كان عِلْماً نافعاً بَنّاءً إيجابياً، وإذا خلا العلمُ من الرحمةِ كان علماً مدمِّراً مخرباً، وسبباً في هلاكِ صاحبه وهلاكِ مَنْ حوله. وهذه هي الطبيعةُ السيئةُ للعلمِ الماديِّ المعاصر الذي يتفاخَرُ به الكفارُ في هذا الزمان!

لما رأى موسى الخضرَ نائماً سُرَّ سروراً كبيراً، لأنه حَقَّقَ هدفَه من الرحلة، ووجدَ مَنْ كان يبحثُ عنه.

وأَقبلَ عليه، وسلَّمَ عليه قائلاً: السلام عليكم.

فكشفَ الخضرُ الثوبَ عن وجهه، وردَّ عليه السلامَ قائلاً: وعليكَ السلام.

ثم فاجأ موسى بقوله: وأنّى بأرضِك السلام؟

وهذا استفهامٌ من الخضر، يستبعدُ فيه تحقُّقَ السلامِ على الأرض، فيقولُ لموسى: متى يتحققُ السلامُ على أرضك؟ وكيفَ يتحقق؟

وكأنَّ الخضرَ بهذا الاستبعادِ يُشيرُ إلى طبيعةِ حياةِ البشر على هذه الأرض، تلكَ الحياةُ القائمةُ على التدافعِ والتخاصم، والتناقضِ والتنازع، وينتجُ عن ذلك الخلافُ والاقتتال، فتقعُ الحروبُ، وتنشبُ المعاركُ بين الأمم، وتحلُّ العداوةُ والبغضاء والكراهيةُ بين الأفراد.

إنَّ السلامَ الحقيقيَّ الشاملَ لن يتحققَ في هذه الدنيا، مهما حاولَ الراغبون فيه تحقيقَه، لأنَّ الآخَرين سينقضونه، ولن يتحققَ ذلك السلامُ

للمؤمنين إلاّ في الآخرة، عندَ دخولهم الجنةَ دارَ السلام. كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

ولهذا تُحيّيهم الملائكةُ بالسلام وتبشرُهم بالخلودِ في النعيم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٣ ـ ٧٤].

وبعدما تمَّ تبادلُ التحيةِ بين موسى والخضر، قَدَّمَ موسى نفسَه للخضر. قال: أنا موسى!

فاستوضحَ الخضرُ منه: موسى بني إِسرائيل؟

قال موسى: نعم!

موسى والخضر في ما يعلمانه وما لا يعلمانه:

كان الخضرُ يعلمُ ـ بإعلامِ الله له ـ أنَّ بني إِسرائيل في سيناء، ويعلمُ أنَّ موسى نبيٌّ رسولٌ فيهم، ويعلمُ أنه آتٍ إِليه ليتعلَّمَ منه، وما جاءَ الخضرُ إِلى هذا المكان إلاّ لذلك الموعد، فاللّهُ هو الذي أَتى به.

وبعدما تعارفَ النبيّانِ عليهما السلام قالَ الخضرُ لموسى:

أنتَ يا موسى علَّمَكَ اللّهُ علماً لم يُعَلِّمْني إياه، فأنا لا أَعلمه، وأنتَ أعلمُ مني فيه. وأَنا عَلَّمني اللّهُ علماً غيره، لم يُعَلِّمك إياه، فأنتَ لا تعلمه، وأَنا أعلم منك فيه!

فكلٌّ منّا يعلمُ شيئاً لا يعلَمُه الآخر، أنتَ تجهلُ شيئاً أنا أَعلمه، وأنا أجهلُ شيئاً آخرَ أنتَ تعلَمُه!

وهذا معناهُ أنَّ الخضرَ أعلمُ من موسى في بعضِ أنواعِ العلم، وموسى أعلمُ من الخضر في بعضِ أنواعِ العلم. فلم يكن الخَضرُ أعلمَ مِن موسى بإطلاق، كما أنَّ موسى لم يَكن أعلمَ من الخضر بإطلاق..

وسبحانَ اللّهِ الذي يُعطي عبادَه من العلم بحكمةٍ ومقدار، وهو العليمُ الحكيم!!.

وقذفَ اللّهُ في نفسِ موسى الرغبةَ في تعلُّم ما يجهلُه، والحرصَ على الزيادة في العلم، وما جاءَ إلى الخضر إلاّ ليتعلمَ منه، ولهذا عرضَ عليه أنْ يَتبعَه ويَصحبَه ليتعلَّمَ منه، فقالَ له: أتأذنُ لي أنْ أتبعَك وأَسيرَ معك على أنْ أَتعلَّمَ منك ما لا أَعْلَمُه؟ إني أُريدُ منكَ أنْ تُعلّمني مما علَّمك الله، تُعلِّمني رُشداً، فأنا أريدُ من التعلم أنْ أزدادَ علماً وأزدادَ رُشداً.

والرشدُ هو الآثارُ العمليةُ للعلمِ على شخصيةِ صاحبه، بحيث يكون راشداً متَّزناً نافعاً خَيِّراً..

ونأخذُ من عرضِ موسى على الخضرِ الأدبَ في طلب العلم، وفي مخاطبةِ المتعلمِ لشيخه المعلِّم: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟﴾.

جواب الخضر لموسى عندما طلب التعلم منه وتعليله:

أجابَ الخضرُ موسى بقوله: إنكَ لن تستطيعَ معي صبراً. فإن اتبعتَني وسرْتَ معي، فسوفَ تراني أَفعلُ أشياء، أنا مأمورٌ بأن أفعلَها، لكنكَ أنتَ لا تَعرفُ حكمتَها، وهي في ظاهرِها أمورٌ غريبة، تَدعو إلى الاستغرابِ والإنكار، فسوفَ تستغربُ صدورَها منّي، وتُنكرُ علَيَّ فعْلَها، ولذلك لن تصبرَ على السيرِ معي: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

وكان جوابُ الخضرِ أكثرَ إثارةً لموسى، وولَّدَ عنده مزيداً من الحرصِ على اتباعِه ومرافقته!

فاجأه بقوله: إنك لن تستطيعَ معي صبراً. بهذا النفيِ المؤكَّد، الدالّ على أنَّ الخضرَ يعلمُ أنَّ موسى لن يستطيعَ الصبرَ معه، مهما حاول ذلك ومهما جاهدَ نفسه ليصبر.

ولم يتركْهُ في حيرتِه واستغرابه، وإنما عللَ له ذلك تعليلاً نفسياً، فسوفَ يراه يفعلُ أشياء، أمره اللّهُ أنْ يفعلَها، وكشف له عن حقيقتِها، فعرفَ حكمتَها. ولكنَّ موسى لم يعرفْ حقيقتَها ولا حكمتها، ولم يُطلعْهُ اللّهُ على بواطنها، وسيتعاملُ معها بظواهرِها الخارجية، وسيكونُ فعلُ الخضرِ مستغرَباً حسبَ تلك الظواهر، ولهذا لن يصبرَ موسى ولن يسكت، وسيعترضُ ويُنكر.

و«خُبْراً» في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟ مضمومة. وهي ليست بمعنى «الخَبَر» بفتح الخاء.

الخَبَرُ ـ بالفتح ـ هو العلمُ بالأشياءِ الظاهرةِ المعلومةِ من جهةِ الخَبَر.

والخُبْرُ ـ بالضم ـ هو المعرفةُ ببواطنِ الأُمور!![1].

فموسى عليه السلام لم يُحِطْ خُبراً ببواطنِ الأفعال التي سيفعلُها الخضر، وسيبقى واقفاً عندَ ظواهرِها وأخبارِها الخارجية، أما الخضرُ فقد أَحاطَ «خُبْراً» بتلكَ الأفعالِ والأشياء، حيثُ أَطلعه اللّهُ على بواطنِها وحقائقِها وخفاياها.

الاتفاق والمعاهدة بين موسى والخضر قبل البدء بالرحلة العلمية:

إنّ موسى عليه السلام يريدُ أنْ يتعلم، وما جاءَ إلى الخضر إلاّ ليتعلم منه، ولهذا سيجاهدُ نفْسَه، ويضبطُ أعصابَه، ويكبحُ اندفاعَه، وسيصبرُ على ما يَراه، ولهذا قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

وَعَدَ الخضرَ أنْ يصبرَ على السيرِ معه، وعلَّقَ الأمْرَ على مشيئةِ الله، كما وعدَه أنْ يطيعَه فلا يَعصي له أَمراً.

---

(١) انظر المفردات للراغب: ٢٧٣.

وفي هذا الكلامِ من موسى إِشارةٌ إِلى الأدبِ في الصحبةِ والرحلة والسفر، فلا بدَّ فيها من الصبر، ولا بدَّ من طاعةِ المسافرين لأميرهم، حتى لا تتحولَ الرحلةُ إِلى نزاعٍ وخصامٍ وعذاب!

وعندما أَعلن موسى عليه السلام استعدادَه للصبر والطاعة، اشترط عليه الخضرُ أنْ يسيرَ معه متعلِّماً، وأنْ لا يسأَلَه عن شيء، وأنْ لا يعترضَ على شيء، وأنْ لا يُنكرَ عليه ما يراه منه، وأنْ ينتظرَ ليعلِّلَ له الخضرُ أَفعالَه، ويبينَ له حكمةَ ذلك: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾.

وفي كلام الخضرِ إِشارةٌ إِلى أَدبٍ من آدابِ طلبِ العلم، فلا بدَّ للمتعلمِ أنْ يُطيعَ المعلمَ ويوقرَه، وأنْ يتأدبَ بين يديه، فلا يعترضُ عليه، ولا يُكثرُ عليه الأمثلة، ولا يُتعبُه ويشقُّ عليه، وينتظرُ أنْ يبينَ هو له بنفسِه المسائل، ويوضحَ له الحقائق.

على طالبِ العلم أنْ يتمتعَ بالأَناةِ وسعةِ الصدر، وهدوءِ الأعصاب والنَّفَسِ الطويل، وأنْ يُديمَ الاستعدادَ للتلقي، والانتباه لما يَجري أَمامَه بهدوءٍ ورويةٍ وتَأَنٍّ وموضوعية!!

اشترطَ الخضرُ على موسى ذلك الشرط، ووافقَ موسى عليه، واستحضرَ نيةَ الصبرِ والطاعةِ وعدمِ الاعتراض أو الإِنكار أو السؤال، واتفقا على الانطلاقِ في الرحلة.

أينَ ذهبَ فتى موسى يوشعَ بن نون؟ هل سارَ معهما في الرحلة؟ ولكنَّ الآياتِ والأحاديثِ سكتتْ عن وجوده؟ أم جلسَ ينتظرُ عودتَهما عند الصخرة؟ أم غادرَ المكانَ وعادَ إِلى بني إِسرائيل؟

لا تقدمُ لنا الآياتُ والأحاديثُ جواباً على ذلك، فلا نعرفُ دوْرَه في الرحلة، ولا يضرُّنا الجهلُ به، ونكِلُ العلمَ بذلكَ إِلى الله!

سارَ موسى والخضرُ عليهما السلام على شاطئِ البحر..

موسى والخضر يركبان السفينة وحادثة العصفور فيها:

ومرَّتْ أَمامَهما سفينة، فاستوقفَها الخضر، ولما نظرَ أَصحابُ السفينة إِلى الخضر عرفوه، فوافقوا على صعودِهما في السفينة، لتنقلَهما إِلى المحطة التالية من الرحلة، ولم يَقْبلوا أنْ يأخذوا منهما أَجراً، لمعرفتِهما الخضر!!

وهذا يدلُّ على أنَّ السفينةَ كانت «سفينةَ أُجرة»، تعملُ على نقلِ الركاب بالأجرةِ من منطقةٍ إِلى منطقة أخرى، وكان رزقُ أَصحابها من هذه الأُجرة.

كما يدلُّ على أنَّ المنطقةَ التي تقابلَ فيها الخضرُ وموسى عند مجمع البحرين كانت مأهولةً بالناس، ففيها مدنٌ وقرى على شاطئ البحر، وفيها قرى على الجانبِ الآخر من البحر، والمسافةُ بين الجانبين كانت قصيرة، أي أنَّ البحرَ كان ضيقاً في هذا المكان.

ومعرفةُ أصحابِ السفينة للخضر يدلُّ على أنَّ الخضرَ كان نبياً يعيشُ في تلك المنطقة، وكان سكانُها يعرفونَه بنبوته، ويحترمونَه ويوقِّرونَه، فها هم أصحابُ السفينة يحملونَهما مجاناً!

وهذا ردٌّ على من كانوا يزعمون أنَّ الخضرَ كان ولياً من أولياءِ الله، وأَنه كان منعزلاً عن الناس، لا يعيشُ معهم، ولا يسكنُ بينهم، وإِنما يعيشُ في المغاور والكهوف، ويتنقلُ وحدَه بين الجبالِ والوديان!!

صعدَ الخضرُ وموسى السفينة، وسارتْ إِلى محطتها التالية، وجلسَ موسى والخضرُ على طرفِ السفينة ينظران ويتفكران ويستمتعان.

وبينما هما كذلك إذ جاءَ عصفور، فوقفَ على حرفِ السفينة، ثم مدَّ منقارَه إِلى الماء، وأخذَ منه قطرةً أو قطرتين!!

واستخدمَ الخضرُ حادثةَ العصفورِ وسيلةً لتعليمِ موسى، وتقريب المسألةِ إِليه، فقال له: كم أخذَ العصفورُ من ماء البحرِ؟

فقالَ له موسى: لم يأخذْ شيئاً يُذكَر! وماذا يأخذُ العصفورُ من ماءِ البحر نقرةٍ أو نقرتين؟ وماذا يُنقصُ ذلك من البحر؟

فقالَ له الخضر: ما نقصَ علمي وعلمُك من علمِ الله إلا كنقرةِ هذا العصفور في البحر!

لقد أَعطاني اللّهُ علماً، وأَعطاكَ اللّهُ علماً، وأَعطى الآخرين علماً، وهذا لم يُنقصْ علمَ الله ولم يؤثِّرْ فيه، فعلْمُ الناس جميعاً بالقياسِ إلى علمِ الله لا يساوي نقرةَ العصفور بالقياسِ إلى ماء البحر!!

واستوعبَ موسى عليه السلام الدرسَ بهذه الوسيلة الإيضاحية.

الخضر يخرق السفينة وموسى يلومه ثم يعتذر:

وبينما كانا راكبيْن في السفينة، وهي تشقُّ طريقَها وسطَ الماء، نظرَ موسى إلى الخضر، فوجده يُقْدِمُ على فعلٍ عجيب!!. لقد أَخذَ بيديه لوحاً من أَلواح السفينة الخشبية، التي تمنعُ دخولَ الماء إليها، أَخذه فانتزعه واقتلعه!!

فاستغربَ موسى فعلةَ الخضر، وسارعَ بالإِنكارِ عليه، وقال له: ماذا فعلت؟ فقد أَكْرَمَنا أصحابُ السفينة، وأَركبونا بدون أجرة، أهكذا تقابلُ أنت إِكرامهم؟ تقلعُ لوحَ السفينة وتخرقها؟! إنَّ هذا يؤدي إِلى غرقِ السفينة وأهلها وركابها.

وفعْلُك هذا «إِمْرٌ» فظيع وعجيب!!

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾.

إنَّ فعلةَ الخضر بقلعِ لوح السفينة عجيبةٌ مرفوضةٌ من حيث ظاهرها، فالقومُ أَكرموهم وحملوهم مجاناً، ويجبُ أَنْ يقابَلَ إِكرامُهم بالإحسان، وليس بخرقِ السفينة!

فموسى نظرَ للحادثة من حيثُ الظاهر، ولذلك سارعَ بالاعتراض والإنكار، ولم يَعرفْ حقيقةَ الحادثة، ولم يقفْ على خُبْرِها وباطنها!

وهنا ذكَّرَه الخضرُ بعهدِه السابق، وبما سبقَ أنْ قالَه له من أنه لنْ يصبر على ما سيشاهده منه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

وتذكَّرَ موسى، واعتذرَ عن تسرعِه بالإنكارِ عليه، واعترفَ بأَنه نسي ما اتفقا عليه لمفاجأتِه بالحادثة، وطلبَ من الخضر أنْ لا يؤاخذَه هذه المرة: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

الخضر يقتل الغلام وموسى يعترض ثم يطلب مهلة أخرى:

وقطعت السفينةُ المسافة، ووصلتْ إلى محطةٍ تالية، ونزلَ موسى والخضر منها، وسارا على ساحلِ البحر، ويبدو أَنهما كانا يسيران في قريةٍ أو قريباً منها، حيث شاهَدا أثناءَ السير غلماناً يلعبونَ على الساحل.

نظرَ الخضرُ إلى الغلمان اللاعبين، ثم توقفَ عند أَحدهم، ودقَّقَ فيه النظر، ثم أَقبلَ عليه، وأخذَ برأسه، فاقتلعَه بيده.. وقتلَه..

فوجِئَ موسى بما رأى، واستغربَ استغراباً كبيراً، وذُعِرَ ذُعراً شديداً: إذ كيفَ يُقدمُ الخضرُ على قتلِ غلامٍ صغير؟

ونسيَ موسى ما كان من عهدِه للخضر، وأَقبلَ عليه معترضاً منكراً، وقال له: كيفَ تقتلُ نفساً زكيةً بريئة؟ إنَّ هذا الغلامَ لم يقتل آخر، ولم يرتكبْ جريمةً يستحقُّ بها القتل؟ فلماذا قتلْتَه؟ لقد فعلتْ فعلاً كبيراً، وجئتَ شيئاً نُكراً، يستحقُّ الإنكارَ والرفض.. ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

فذكَّره الخضرُ مرةً ثانية بما سبقَ أنْ قاله له: لقد قلتُ لكَ من قبلُ إنك لنْ تستطيعَ معي صبراً! وهذا هو الدليلُ الثاني على صحةِ ما قلتُ لك، وها أَنتَ تنكرُ عليَّ للمرة الثانية: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

وهنا شعرَ موسى بالحرجِ والخجل، فها هو قد اعترض وأنكرَ على الخضر مرتيْن، رغم أنه اتفقَ معه على أنْ لا يعترض ولا ينكر، فطلبَ منه أن يُعطيه الفرصةَ الثالثة الأخيرة. قال له: هذه آخرُ مرة تسمحُ لي أن أسألَك وأعترضَ عليك، فإنْ سألتُك عن شيء بعد ذلك أو أنكرتُ عليك، فلا تصاحبني ولا تَسِرْ معي!!

وكأنَّ موسى يأذنُ له بإنهاءِ الرحلة العلمية إن اعترضَ عليه بعدَ ذلك: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

وكأنَّ موسى تعجَّلَ بهذا القول بسببِ حرجه وحيائه، فقد وافقَ على إنهاء الرحلة إن اعترضَ مرةً ثالثة، وقد حَرَمَ نفسَه وحَرَمَنا معه من عجائب وغرائب. ولهذا قالَ رسولُنا ﷺ: رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّلَ لرأى العجب. ولكنه أخذَتْه من صاحبه ذِمامة. أي: حياءً وحرجاً.

الخضر يبني الجدار وموسى يعترض:

وتابعَا سيرهما على ساحل البحر، فأتيا قرية ودَخَلاها، ولم يعرِفا أحداً فيها، وكانا بحاجةٍ إلى طعام، فاضطرا إلى أنْ يستطعما أهلَها، ويَطلبا منهم الطعامَ والقِرى، ولكنهم كانوا بخلاء، فأَبوا أنْ يُضيفوهما ويُطعموهما، وهذا لؤمٌ وخسةٌ وبخلٌ منهم!!

وشتانَ بين موقفِ أصحاب السفينةِ المساكين الفقراء الذين أَكرموا موسى والخضرَ وحملوهما في السفينة بغير أُجرة، وبين موقفِ أهل القريةِ البخلاء، الذين أَبوا أنْ يقدموا الطعامَ لهما رغم حاجتهما وجوعهما.

استغربا من موقفِ أهلِ القرية، وسارا في طرقاتِها وممراتها، وشاهدا جداراً على وشكِ السقوط. فأقبلَ الخضرُ على الجدار، وقامَ على إصلاحه وتسويتِه وإعادةِ بنائه، وموسى ينظرُ إليه مستغرباً.

ولما أصلحَ الخضرُ الجدارَ وأقامه، أقبلَ عليه موسى لائماً منكراً، وقال له: إنَّ أصحابَ القرية لا يستحقون منكَ التكريم والفضل، إنهم لئامٌ بخلاء، أتيناهم ضيوفاً فلم يُضيفونا، وطلبنا منهم الطعامَ فلم يُطعمونا، وها أنتَ تتبرعُ لتصلحَ هذا الجدار لهم. كان الأوْلى بكَ أنْ تأخذَ أجرتَك منهم مقابل ذلك، لأنه لا ينفعُ معهم المعروف!

وهذا الاعتراضُ والإنكارُ من موسى، لأنه قارنَ بين موقفهم منهما وخدمةِ الخضر لهم، فوجدَ هذه الخدمةَ في غيرِ محلِّها، وعند أُناس لا يستحقونها: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴿٧٧﴾﴾.

لقد نسيَ موسى باعتراضِه الثالث أنه أنهى رحلتَه العلمية مع الخضر، لأنه هو الذي رَضيَ بهذا، وسبقَ أنْ قالَ للخضر: إنْ سألتكَ عن شيء بعدها فلا تصاحبني. وها هو يسألُه عن عمله في الجدار، وهو يحكمُ على نفسه بنفسه بعدمِ مصاحبةِ الخضر!

ولذلكَ أخبره الخضرُ بقطعِ الرحلة، والافتراقِ بينهما: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ . . .﴾.

الخضر يعد موسى بتأويل أفعاله الثلاثة قبل مفارقته:

وقبلَ أنْ يفترقا أرادَ الخضرُ أنْ يفسِّرَ لموسى حقيقةَ أفعالِه الثلاثة: خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وبناءِ الجدار. وذلك ليبينَ له صوابَ فعله، ويُزيلَ عن موسى استغرابَه وإنكاره: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا . . .﴾.

وكأنه يقولُ له: أنتَ يا موسى أنكرتَ عليَّ الأفعالَ الثلاثة، وظننتَ أني مخطئ فيها، لأنكَ لا علمَ لك بحقائقِها ولا بواطنها، وإنما علْمُك بظواهرها، ووقوفُك عند ظواهرها دفعَك للإنكار عليّ، مع أنني على صوابٍ فيما فعلته، لأنَّ اللّهَ أَعلمني ببواطنها وخُبْرِها وحقائقها،

وعندما تعرفُ ذلك وتعلمُ تأويلَه ستدركُ أنني على صوابٍ فيه، وأنني أَعلمُ منك في هذا الجانب!

الخضر يبين حكمة خرقه السفينة:

كان تأويلُه لخرقِ السفينة أَنها مملوكةٌ لأناسٍ مساكين. كانت مهنتُهم ومصدرُ كسبهم ورزقُهم العملَ في البحر، وحملَ الركابِ في السفينة، ونقلَهم من جانبٍ إلى جانب.

وكانَ ملكُ المدينة رجلاً ظالماً باغياً غاصباً، يستولي على أَموالِ وممتلكاتِ الناس، وكانت السفينةُ متوجهةً إلى المدينة، وكان الملكُ في رجاله، وكلما مرتْ به سفينةٌ صالحة يأخذُها غصباً وعدواناً، ولو مرَّتْ به سفينةُ هؤلاء المساكين لصادرَها وغصبَهم إياها.

ولذلك خرقَ الخضرُ السفينة وخلعَ منها لوحَها، وهذا لا يؤدي إلى غرقها، وستمرُّ السفينةُ على الملك ورجاله، وعندما يشاهدونها مخروقةً مَعيبةً فسيتركونها تمرُّ ولا يصادرونها، وبعدما تتجاوزُهم سيعيدُ أَصحابُها إِصلاحَها، وبذلك تنجو من المصادرة!

وهذا هو التأويلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ . .﴾.

إنَّ موسى لم يكن يعلمُ بوجودِ عصابةِ الملك أَمامَهم، ولهذا لم يَعرفْ حكمةَ خرقِ السفينة فأنكرَ واعترض، ولهذا كان علمُه قاصراً محدوداً.

أما الخضرُ فقد أَعلمه اللّهُ بذلك، وأَمره بخرقِ السفينة لتنجو بذلك من المصادرة، فنفذَ أَمرَ الله، وكان في هذا الجانب أكثرَ علماً من موسى، بتعليمِ الله له.

وظاهرُ العملِ الذي قامَ به مرفوض، لكنَّه في باطنِه وحقيقتِه

صوابٌ وسليم، يُمدحُ به ولا يُلامُ عليه، ممن عرفَ الحكمةَ ووقفَ على الحقيقة.

ويبين حكمة قتله الغلام:

وكان تأويلُ الخضر لحادثةِ قتل الغلام أنَّ اللّهَ أخبره أنَّ هذا الغلامَ سيختارُ الكفرَ عندما يكبر، لأنَّ اللّهَ علمَ ذلك منه منذُ الأزل، حيثُ ستوجَّهُ له الدعوةُ إلى الإِيمان، وتُقامُ عليه الحجة، ويُبينُ له الحقُّ من الباطل، ولكنه سيرفضُ دعوةَ الحق، ويختارُ الكفرَ والضلال.

وأخبرَ اللّهُ الخضرَ أنَّ أَبويه كانا مؤمنيْن صالحيْن مستقيميْن، ومع ذلكَ ابتلاهما اللّهُ بهذا الغلام الذي سيكفر، وسيكونُ أيضاً طاغياً باغياً ظالماً عندما يكبر.

وبذلك سيُتعبُ ويرهقُ أَبويْه المؤمنيْن لكفرِه وطغيانِه وفسقِه واستبدادِه، وسيكون عاقاً بهما، معتدياً عليهما..

أَطلعَ اللّهُ الخضرَ على هذا المستقبلِ الأسودِ لهذا الغلام الصغير، وأَمره أَن يقتلَه، ليس لأنه مذنبٌ فهو صغير، ولكن لأنه سيكونُ على ذلك الحالِ الأسود عندما يكبر، يقتلَه ليخلصَ أبويْه من كفرِه وطغيانه وإِفسادِه وعقوقه.

ولا يخسرُ أَبواه بقتله، بل سيستريحان منه، وسيُعوِّضُهما اللّهُ عنه، ويُبدلَهما غلاماً آخر، أفضلَ من الأول، خيراً منه في زكاتِه وأَخلاقِه وإِيمانه وطهارته، وأَقربَ منه في بره بوالديْه ورحمتِه بهما وعطفه عليهما.

وهذا هو التأويلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

إِنَّ اللّهَ لم يُطلعْ موسى عليه السلام على مستقبلِ الغلام، ولهذا

نظرَ لحادثةِ قتله نظرةً ظاهرية، فاعتبرَها خطأً يَدعو إِلى الإنكار، فسارعَ بالإنكارِ على الخضر.

أما الخضرُ فقد أطلعَهُ اللّهُ على مستقبله، وأوقفه على باطنِ الموضوع وسرِّه وحقيقتِه، وأمره بقتله. ولذلك كان قتلُه صواباً صحيحاً.

ويبين حكمة بنائه الجدار:

وكان تأويلُ الخضر لحادثةِ بناءِ الجدار أن اللّهَ أَعلمه أنَّ الجدارَ مِلْكٌ لغلاميْن يتيميْن في المدينة، صغيريْن قاصريْن لا يُحسنان التصرف، ولا يَقْدران على إدارةِ أمورهما.

وكان أَبوهما رجلاً صالحاً مؤمناً تقياً، ويَعرفُ لؤمَ وبخلَ وخبثَ أهلِ المدينة، ويَخشاهم على ولديْه، وقبلَ أنْ يموتَ تركَ لولديْه كنزاً من المال، ولأنه يخافُ على ذلك الكنزِ السرقةِ والمصادرةَ من أهل المدينة، فقد دَفنه في الأرض، وبنى عليه الجدار، مبالغةً في الإخفاء والحفظ!

ولما مرَّ الخضرُ وموسى عليهما السلام بالجدار، كان على وشكِ السقوط، ولو سقطَ الجدارُ فسيظهرُ الكنزُ الذي تحتَه، وعندما يشاهدُه أهلُ المدينة البخلاء سيصادرونَه وينتهبونه، وبذلك تضيعُ ثروةُ الغلاميْن اليتيميْن المكنوزة.

وبما أنَّ أَباهما كان صالحاً فإنَّ الله حفظَهما وحفظَ كنزَهما، لصلاحِه وتقواه، ولذلك أمرَ الخضرَ أنْ يتطوَّعَ ويتبرعَ بإصلاحِ وإِقامةِ الجدار، ليبقى الجدارُ قائماً إِلى أَن يكبر الغلامان، ويبلُغا أَشدَّهما، ويُحسنا التصرف في أموالهما، عند ذلك سينقضانِ الجدارَ ويستخرجان الكنز!

وهذا هو التأويلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا . . .﴾.

لقد نظرَ موسى لحادثةِ بناءِ الجدار نظرةً ظاهريةً قريبة، فأَنكر على الخضر فعلَه، لأنَّ الجدارَ ملكٌ لأهلِ المدينة، وهم بخلاءُ لئام، لا يستحقون خيراً ولا معروفاً، ولذلك كان الأَوْلى أخذُ الأجرةِ على بناء الجدار.

أما الخضرُ فقد أَطلعهُ اللّهُ على الباطنِ الخفي، فلم يَبْنِ الجدارَ لمجردِ البناء، بل فعلَ ذلك لمصلحةِ الغلامَيْن صاحبي الكنز، حيث سيحفظُه من السرقة والنهب!

ومن تأويلِ الخضر لموسى عليهما السلام أَفعالَه الثلاثة: خرقَ السفينة وقتلَ الغلام وبناءَ الجدار، علمَ موسى أَنه ليس أعلمَ الناس، وأنَّ الخضرَ أعلمُ منه في هذا الجانب، وأنَّ اللّهَ هو الذي أَطلعَ الخضر على بواطنِ وحقائقِ وخفايا هذه الأفعال، وأَمره بفعل ما فعله!!

كانت أفعاله الثلاثة رحمة من الله وبأمره:

وبذلك كانتْ أفعالُ الخضر الثلاثة في حقيقتِها رحمةً من الله بأَصحابها، وليست ضرراً كما يوحي بذلك ظاهرُها.

ولهذا عقَّبَ على تأويلِ الأفعال بقولهِ لموسى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾. أي: فعلتُ هذه الأفعالَ الثلاثة رحمةً من ربك بأصحابها:

كان خرقي للسفينة رحمةً من ربك بأَصحابها، حيث سيحافظون عليها بذلك، ويُصلحونَها بعد تجاوزِهم عصابةَ الملك الغاصب!

وكان قتلي للغلام رحمةً من ربك بوالديْه، وسيرزقُهما اللّهُ غلاماً آخر، هو خيرٌ منه.

وكان بنائي للجدارِ رحمةً من ربك بصاحبيْه الغلاميْن، حيث سيأخذان الكنزَ الذي تحته عندما يكبران ويبلغان أشدَّهما.

وبعدما أَوَّلَ الخضرُ لموسى عليهما السلام حقيقةَ أفعالِه الثلاثة، أَخبرَه أنه لم يجتهدْ في فعلِها باجتهاده، وإنما بأَمْرِ من الله، فاللّهُ هو

الذي أَطلعهُ على بواطنها وحقائقها وخفاياها، وهو الذي أمره بفعلِ ما فعل، ولهذا قال لموسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ..﴾.

أي: لم أفعلْها بأمري، وإنما بأمْرِ اللّهِ سبحانه.

وسياقُ الأفعالِ الثلاثة، وإطلاعُ الله الخضرَ على حقائقها، وأَمْرُه بفعلِ ما فعل، دليلٌ على نبوةِ الخضر عليه السلام.

فلو لم يكن نبياً لما علمَ غيبَ المستقبل في الأفعال، ولما علِمَ بواطنَ وحقائقَ تلك الأفعال، ولما أَمَرَهُ اللّهُ بفعلها!!

وبعدما أَوَّلَ الخضرُ لموسى حقيقةَ أفعالِه قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ..﴾.

سمى بيانَه لحقيقةِ تلك الأفعال تأويلاً. ومعنى التأويل هنا هو: بيانُ الحقيقةِ والعاقبة والمآل الذي تؤولُ له الحادثة، وتفسَّرُ به، وهو هنا تجاوز الظاهرَ القريبَ غيرَ المراد، إلى الباطنِ الدقيقِ الخفي، وحمل الظاهرَ القريبَ على الباطنِ الدقيق!

لطيفة قرآنية في «تستطع» و«تسطع»:

والملاحظُ أن الخضرَ لما وعدَ موسى عليهما السلام تأويلَ أفعالِه قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ..﴾.

ولما أوّل تلك الأفعال حذف التاء الثانية من فعل «تستطع» فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وإثباتُها في الفعلِ الأول «لم تستطع» يُثَقِّلُ الفعلَ، وهذا التثقيلُ للفعل يتناسَبُ مع «الثِّقَلِ النفسي» الذي كانَ يعيشُه موسى عليه السلام، حيث شاهدَ ثلاثةَ أفعالٍ عجيبة من الخضر، وكان يُتعبُ نفسَه في محاولةِ فهمِها وتفسيرها، ولهذا كان يشعرُ بهَمٍّ وثِقَلٍ ومعاناة، فجاءَ الفعلُ ثقيلاً بالتاء الثانية: «لم تستطع».

أما حذفُها من الفعل الثاني: «لم تسطع» فقد أدّى إلى «تخفيفِ» الفعل. وهذا التخفيفُ في الفعل يتناسبُ مع التخفيف على نفسيةِ موسى عليه السلام ومشاعرِه وأعصابه.

فلما أَوّلَ له الخضرُ أفعالَه الثلاثة، عرفَ حكمتَها وحقائقَها، وعلمَ أن الخضرَ على صوابٍ في ما فعله، وأنْ فعْلَه لا يدعو إلى الإنكار والاعتراض واللوم.

وبذلك زالَ «الثِّقَلُ» على نفسيةِ موسى ومشاعرِه وأعصابه، وزالَ عنه عناءُ التفكيرِ والتوجيهِ والتحليلِ والاستنتاجِ، فاستراحَتْ نفسُه وأعصابُه.

وشاركَ الفعلُ الثاني «تسطع» حالةَ موسى الجديدة، فتخفَّفَ من أَحدِ حروفه، ليتوافقَ مع التخفيفِ على مشاعر موسى عليه السلام!!

وهكذا وعى موسى دروسَه من رحلتِه مع الخضر عليهما السلام، وعادَ إلى بني إسرائيل الذين كانوا ينتظرونَه، وقد ازدادَ علماً ومعرفة.

أما الخضر، فقد ذهبَ إلى مكانٍ آخر، لم تُحدِّدْهُ النصوص، فكما أنه ظهرَ في القصة فجأة، كذلك غادرَ القصةَ واختفى فجأة. فلا نعرفُ من أَينَ جاء، ولا نعرفُ إلى أينَ ذهب، ولا ماذا كانت نهايتُه، عليه السلام!!

من دلالات القصة ودروسها عند ابن حجر والنووي:

ونحبُّ أنْ نختتمَ كلامَنا على قصةِ موسى مع الخضر عليهما السلام بذكْرِ أهمِّ الدلالاتِ منها، كما سجلَها الإمامُ ابن حجر في «فتح الباري» والإمامُ النووي في «شرح صحيح مسلم»، عندما شرحا أحاديثَ القصةِ في صحيحي البخاري ومسلم:

١ ـ استحبابُ الرحلةِ في طلب العلم، ولو بَعُدَت المسافة.

٢ ـ استحبابُ الاستكثارِ من العلم، فإنه مهما حَصَّلَ منه فيبقى يجهلُ الكثير من مسائله.

٣ ـ استحبابُ تعلمِ العالم ممن هو أَعلمُ منه، وسعيِهِ إليه.

٤ ـ فضيلةُ طلب العلم.

٥ ـ جوازُ التزودِ بوسائل الزاد وألوانِ الطعام عند السفر.

٦ ـ الأدبُ مع العالم وحرمةُ المشايخ وتركُ الاعتراض عليهم.

٧ ـ تأويلُ ما لا يُفهمُ ظاهرُه من الأقوالِ والحركات والأفعال.

٨ ـ الوفاءُ بالعهود، والاعتذارُ عند مخالفةِ العهد.

٩ ـ جوازُ إجارةِ السفينة.

١٠ ـ جوازُ ركوبِ السفينة والدابةِ وسُكنى الدار ولبس الثوب، بغيرِ أجرة، برضى صاحبه.

١١ ـ الحكمُ بالظاهر، حتى يتبينَ خلافُ الظاهر.

١٢ ـ استحبابُ أنْ يبدأَ الإنسانُ بنفسه في الدعاء وغيره، من أُمور الآخرة. أما حظوظُ الدنيا وأمورُها فالأَوْلى الإيثارُ وتقديمُ الغيرِ على النفس.

١٣ ـ جوازُ خدمةِ العالم والفاضل، وقضاءُ حاجاته، بدون عوض.

١٤ ـ الحثُّ على التواضعِ في العلم وغيره.

١٥ ـ إذا سئلَ العالم: أَيُّ الناسِ أعلم؟ فليقل: اللّهُ أعلم.

١٦ ـ وجوبُ التسليمِ لكلِّ ما جاءَ به الشرع، وإنْ لم تظهرْ بعضُ حكمتِه للعقول.

١٧ ـ جوازُ التجادلِ في العلم إذا كان بغيرِ تعنُّت.

١٨ ـ وجوبُ الرجوعِ إلى أهلِ العلم عند التنازع.

١٩ ـ العملُ بخبرِ الواحد.

٢٠ ـ الراجحُ أنَّ الخضرَ عليه السلام نبي.

٢١ ـ إن اللّهَ يفعلُ في ملكه ما شاء، ويفعلُ في خلقه بما يشاء.

٢٢ ـ الراجحُ أنَّ الخضرَ مات قبلَ بعثةِ محمد ﷺ.

٢٣ ـ جوازُ قولِ العالمِ للناس: سَلوني. إذا أَمِنَ العُجْب، ودعَتْ لذلك ضرورة.

٢٤ ـ كان الحوتُ مَيْتاً مُمَلَّحاً، فأحياهُ الله، وهذا دليلٌ على البعث.

٢٥ ـ إنّ فتى موسى عليه السلام وخليفتَه في قومه هو «يوشع بن نون» رضي الله عنه.

٢٦ ـ جوازُ إطلاقِ الفتى على التابع.

٢٧ ـ جوازُ استخدامِ الحُرِّ في عملٍ من الأعمال.

٢٨ ـ وجوبُ طاعةِ الخادمِ لمخدومه.

٢٩ ـ عذرُ الناسي لأنه لا حيلةَ له في النسيان.

٣٠ ـ قبولُ الهبةِ من غيرِ المسلم.

٣١ ـ جوازُ إخبارِ المسلم عما فيه من تعبٍ أَو مرضٍ أو فقر.

٣٢ ـ المتوجِّهُ إِلى ربّه يعينُه الله على رحلته، فلا يسرعُ إِليه التعبُ والجوع، بخلاف المتوجِّه إلى غيره.

٣٣ ـ جوازُ طلبِ الضيافة، وطلبِ القوتِ والطعام.

٣٤ ـ قيامُ العذرِ بالمرة الأولى، وقيامُ الحجةِ بالمرة الثانية.

٣٥ ـ حسنُ الأدبِ معَ الله، وأنْ لا يُضافَ إليه ما يُستهجَنُ لفظُه[١].

---

(١) انظر هذه الأدلة في: فتح الباري ١:١٦٩ و٨:٤٠٩ ـ ٤٢٢. وشرح النووي على مسلم ١٥:١٣٧ و١٥:١٤٦ ـ ١٤٧.

[٢]

وفاة موسى عليه السلام

أَقامَ موسى عليه السلام في قومه الصالحين في سيناء، يربيهم تربيةً جهادية، ويُعدُّهم لدخولِ الأرض المقدسة، واستمرَّ على هذا مدةَ التيه الذي كتبه اللهُ على قومه الجبناءِ الناكصين عن الجهاد، وهي أَربعون سنة.

وفاة هارون أثناء فترة التيه:

وخلالَ هذه الفترة توفيَ نبيُّ الله هارونُ عليه السلام.

ولم تُخبرْنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ بتفصيلات عن وفاةِ هارون عليه السلام.

فلا توجَدُ أَحاديث صحيحةٌ مرفوعةٌ لرسول الله ﷺ تتحدثُ عن وفاةِ هارون.

والآيات القرآنيةُ لا تتحدثُ عن هارون بعد موقفه من عبادةِ قومه للعجل، وإِنكارِه عليهم ذلك.

وعرفْنا من خلال الآيات أنَّ هارونَ بقي حياً حتى فترةِ تيه بني إسرائيل في سيناء، وهي آخرُ لقطاتِ حياتهم المذكورة في القرآن.

فلما نكصَ معظمُ بني إِسرائيل عن الجهاد، تبرأَ موسى عليه السلام منهم، وطلبَ من ربه أنْ يفرُقَ ويفصلَ بينه وبينهم. وأعلنَ أنه لا يملكُ إلاّ نفسه وأخاه هارون. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [المائدة: ٢٥ ـ ٢٦].

وهذا معناه أنَّ هارونَ عليه السلام كان حياً عند بدايةِ التيه.

ولم يَرِدْ له ذكرٌ في القرآن ولا في الحديث الصحيح بعدَ ذلك.

فلا نعرفُ متى ماتَ هارون عليه السلام، ولا أينَ مات، ولا كيفَ مات، ولا كيف دُفن!! ونتوقفُ في الحديث عن هذه «المبهمات».

ونعترفُ أنَّ الإسرائيلياتِ قد تحدثَتْ كثيراً عن وفاةِ هارون عليه السلام، حيث فصَّلَتْ ذلك، وذكرت اتهامَ بني إسرائيل لموسى في قتلِ أَخيه هارون، ودفاعَ موسى عن نفسه، وحددت المكانَ الذي دُفن فيه هارون.

لكننا لا نذهبُ إلى تلك الإسرائيليات، ونبقى مع الآياتِ والأَحاديثِ الصحيحة.

كلُّ ما نقولُه أنَّ هارونَ توفيَ في حياةِ موسى عليهما السلام، ولعلَّ ذلك كانَ خلال فترةِ التيه التي استمرتْ أَربعين سنة، وهذا معناه أنَّ وفاةَ هارون كانت في سيناء، وأنه دُفن في مكانٍ ما في سيناء، لأنَّ النبيَّ يُدفنُ حيث مات.

وبعدَ وفاةِ هارون استمرَّ موسى عليه السلام يربّي الجيلَ الجديدَ من بني إسرائيل، ويساعدُه في ذلك فتاهُ الصالحُ يوشعُ بن نون.

وأَخيراً حانَ أجلُ موسى عليه السلام، وقدَّرَ اللّهُ أن يُنهيَ حياتَه التي عاشَها في الابتلاءات والمحن، وواجَهها بالصبر والثبات والاحتمال، وبذلَ جهدَه في تربيةِ بني إسرائيل والارتقاءِ بهممهم وعزائمهم...

جاءه الأجلُ وهو يربي الجيلَ الجديدَ من قومه، ويُعِدُّهم لدخولِ الأرض المقدسة.. جاءه الأجلُ بعدما أقامَ مع قومه أكثرَ من أربعين سنة في صحراء سيناء.. جاءه الأجلُ قبلَ أنْ يكملَ مهمتَه في تربيةِ قومه، وقبلَ أنْ ينتقلَ بهم إلى المرحلة التالية، وقبلَ أن يدخلَ بهم الأرضَ المقدسة.. جاءه الأجلُ قبلَ أنْ يرى الأرضَ المقدسة، ويستمتعَ بالعيشِ فيها..

موسى وملك الموت:

وعندما جاءَه الأجل، خَيَّرَه الله، وبعثَ له ملكَ الموت..

خيَّره اللّهُ تخييراً، لأنَّ من سنةِ اللّهِ مع الأنبياء أنه لا يقبضُ نبياً إلاّ بعدَ أنْ يُخيره بين الدنيا والآخرة، بين الموت والحياة، بينَ أنْ يبقى مع أَصحابه أو ينتقلَ للرفيقِ الأعلى!!

ودليلُ تخييرِ الأنبياء عند الموت ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: كنتُ أَسمعُ أنه لن يموتَ نبيٌّ حتى يُخَيَّرَ بين الدنيا والآخرة.. فسمعتُ النبيَّ ﷺ في مرضه الذي ماتَ فيه، وقد أخذَتْه بَحَّةٌ يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فظننتُه خُيِّرَ حينئذ..»[1].

فاللّهُ خَيَّرَ محمداً ﷺ عند الموت، كما تروي عائشةُ رضي الله عنها، فاختارَ الآخرة، اختارَ أنْ يكونَ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولما جاءَ موسى عليه السلام الأجل، وأَرادَ اللّهُ تخييره، بعثَ له ملكَ الموت في صورةٍ بشرية، وجَرَتْ بينه وبين مَلَكِ الموت حادثةٌ مثيرة، أَخبرَنا عنها رسولُ الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أُرسلَ مَلَكُ الموت إِلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صَكَّه، ففقأَ عينَه!! فرجعَ إلى ربِّه، فقال: أَرسلْتَني إلى عبدٍ لا يُريدُ أنْ يموت!! فردَّ اللّهُ إليه عينَه!

وقال له: ارجعْ إليه، وقل له: يضع يدَه على مَتْنِ ثَوْر، فله بما غطَّتْ يدُه بكلِّ شعرةٍ سنة!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٣٥. ومسلم برقم: ٢٤٤٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٥٧.

قال: أَيْ رب؛ ثُمّ ماذا؟

قال: ثم الموت!

قال: فالآن!!

فسألَ اللّهَ أنْ يُدنيَهُ من الأرضِ المقدسةِ رميةً بحجر!!

قالَ رسولُ الله ﷺ: فلو كنتُ ثَمَّ، لأَريتكم قبرَه إِلى جانبِ الطريق تحتَ الكثيبِ الأحمر...»[1].

موسى لم يعرف ملك الموت المتحول إلى بشر:

وخلاصةُ هذا الحادثةِ المثيرة من مجموعِ رواياتِ الأحاديث الصحيحة عند البخاري ومسلم وغيرهما:

لما أرادَ اللّهُ تخييرَ موسى عليه السلام عند دنوِّ أجلِه، أرسلَ له مَلَكَ الموت، واختارَ أنْ يرسلَه على صورةِ رجلٍ بشر، وهذا وفقَ حكمتِه سبحانه وتعالى.

ومعلومٌ أنَّ الملائكةَ قد يتشكّلون في صورةِ بشر، كما فعلوا مع إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السلام، وكما فعلَ جبريلُ عليه السلام مع مريمَ رضي الله عنهما، وكما فعلَ جبريل مراراً مع رسول الله ﷺ.

جاءَ ملكُ الموتِ ـ المتحوِّلِ إِلى رجلٍ غريب ـ إلى موسى عليه السلام، فلم يَعرفْ موسى أنه ملكُ الموت، وظنَّه رجلاً غريباً، وهذا لا يُضيرُ موسى عليه السلام، فإنه لا يعلمُ الغيب، إلاّ إِذا أَعلمه اللّهُ إيّاه، ولم يخبرهُ اللّهُ أنَّ القادمَ هو ملكُ الموت.

وعرفْنا مما سبق أنَّ إبراهيم عليه السلام قدمَ الطعامَ للملائكة لما جاءوه في صورةِ رجالٍ غرباء، ولم يعلمْ أنهم ملائكة، كذلك لم يعرفْهم لوطٌ عليه السلام عندما أَتوه في صورةِ رجال. وهنا لم يعرفْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٣٩. ومسلم برقم: ٢٣٧٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٧.

موسى أنَّ الرجلَ الغريبَ القادمَ إليه هو ملكُ الموت متحوِّلاً إلى بشر!!

توجيه ضرب موسى له على عينه:

ولما جاءَه الرجلُ الغريبُ طلبَ منه طلباً غريباً مثيراً، قالَ له: أَجِبْ رَبَّك، وأَعْطِني روحَك!!

إنه يريدُ أنْ يأخذَ روحَه، ويَدّعي أَنه مطلوبٌ منه إجابةُ ربه، وهو لا يعرفُه، فهل يستجيبُ له؟ وهل يُعطيه روحَه؟ بالطبعِ لا. فما عهِدْنا رجلًا يستجيبُ لرجلٍ غريب، يصارحُه بأنه يريدُ أنْ يأخذَ روحَه.

ولو قَدِمَ له ملكُ الموت بصورتهِ الملائكية لاستجابَ له، ولو أَخبرَه أنه ملكُ الموت لاستجابَ له، فموسى عليه السلام ليس ممن يتمردُ على أوامرِ الله!

التصرفُ المنطقيُّ من موسى عليه السلام أنْ يدافعَ عن نفسه أَمامَ الرجلِ الغريب الذي يريدُ القضاءَ عليه، فقد يكونُ هذا الرجلُ فاتكاً باطشاً جاءه بهذه الحجة: أَجِبْ ربَّك، والإنسانُ لا يستسلم للفاتك الباطش!

وَجَّهَ موسى عليه السلام للرجلِ الغريب لطمةً من يدهِ القوية، وأصابت اللطمةُ عينَه ففقأَتْها!

وكان موسى عليه السلام قوياً في جسمِه وقبضتِه، فقد قَتَلَ وهو شابٌّ القبطيَّ بوكزةٍ من يده، والآن ها هو يقلعُ عينَ ملكِ الموت ـ الرجل الغريب ـ بصكَّةٍ من يده!

عادَ ملكُ الموتِ إلى الله، شاكياً موسى عليه السلام، وقال لربّه: يا رب: أرسلْتَني إلى عبدٍ لا يريدُ أنْ يموت، إنَّ عبدَك موسى قد فقأَ عيني، ولولا كرامتُه عليك لقضيتُ عليه!

فردَّ اللّهُ عليه عينه.

لما ضربَ موسى ملكَ الموت على عينه وفقأها، إنما كانت عينُه التي تَحَوَّلَ إِليها عندما تحوَّلَ إلى رجل بشر، وهي عينٌ «تمثيلية» وليست عيناً حقيقية، فعينُه الحقيقيةُ باعتبارِه مَلَكاً من الملائكة لم تتأثر.

ولا غرابةَ فيها، ففي العصرِ الحديثِ تَقَدَّمَ الناسُ في «التمثيل»، وصناعةِ «الحيل السينمائية»، فقد نرى الممثلَ في «الفيلم» وقد قُطعَ رأسُه، وخرجَ الدم من رقبتِه كالنافورة، مع أنه في الحقيقة لم يُصَبْ بأذى، وإنما هذا من الحيلِ السينمائية.. وهذا يقربُ لنا تصوُّرَ الضربةِ التي فقأَتْ عينَ ملَكِ الموت التمثيلية وليست الحقيقية!!

أجل موسى وشعر جلد الثور:

أَعادَ اللّهُ ملكَ الموتِ إِلى موسى مرةً ثانية.. ولما جاءه عرفَ أَنه ملكُ الموت، وأَنَّ اللّهَ هو الذي أرسلَه له، فلما عرفَ موسى ذلك استسلمَ لأمْرِ الله، وتجاوَبَ مع ملك الموت، وقدَّرَه حقَّ تقديره، وعاملَه بما يليقُ به باعتبارِه ملك الموت.

قال ملكُ الموت لموسى: يقولُ لكَ ربُّك: يا موسى: هل تريدُ الحياة؟ إنْ كنتَ تريدُ الحياة فضَعْ يدكَ على ظهرِ جلدِ الثور، فإنَّ لكَ بكلِّ شعرةٍ تحتَ يدك سنةً تعيشُها!!

إنَّ اللّهَ يريدُ أنْ يقدمَ حقيقةً لموسى عليه السلام أَنه غيرُ مخلَّد، وأَنه لا بدَّ أنْ يموت، فمهما عاشَ من مئاتِ السنين أو أُلوفِها فلا بدَّ أنْ يأتيه الأجلُ ويموت!

وقرَّبَ اللّهُ له هذه الحقيقةَ بصورةٍ تمثيلية، وذلك بأنْ يضعَ يدَه على ظهرِ ثور، ثم ينظرُ المساحةَ التي غطتْها يدُه، ولْيحاولْ إحصاءَ وعدَّ الشعرِ الذي تحتَ يده! فكم شعرةً تحتَ يده؟ سيكون تَحتَ يدهِ آلافُ الشعرات!!

عند ذلك يحسبُ كم بقيَ له من عمره، ويجعلُ لكلِّ شعرةٍ سنة، أي أَنه سيعيش آلافَ السنوات.

وماذا بعدَ ذلك؟ إِنه الموتُ بعد انقضاءِ آلاف السنوات!![1].

طبعاً موسى لم يفعلْ ذلك عليه السلام، وإنما سأَلَ ملكَ الموت: ثم ماذا بعدَ ذلك؟

أي: ماذا بعدَ انقضاءِ السنواتِ التي بعددِ الشعرات؟

أَجابه ملكُ الموت: ثم الموت!!

لقد كتبَ اللّهُ الموتَ على كلِّ مخلوق، سواء كان إِنساً أَو جناً أَو ملكاً من الملائكة، ولم يجعل الخلدَ لأيِّ مخلوق، وورِدَ هذا المعنى صريحاً في خطابِ الله لمحمدٍ ﷺ، الذي وردَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥].

عند ذلك وعى موسى عليه السلام الدرس، وعرفَ الحقيقة، وبهذا تمّ تخييرُه، لأنَّ اللّهَ لا يقبضُ روحَ نبيٍّ إلاّ بعدَ تخييره، وعندما يخيِّرُه يختارُ المسارعةَ إِلى لقائه، كما سبقَ أَنْ قررنا.

فاختارَ موسى لقاءَ الله، وقالَ لملكِ الموت: فالآن!!

أي: اقبض روحي الآن!!

موسى يطلب تقريبه من الأرض المقدسة:

وكانَ له طلبٌ أخيرٌ من اللّهِ قبلَ قبضِ روحه! وهو أَنْ يُقربَه ويُدنيَه من الأرضِ المقدسة مقدارَ رميةِ حجر، ثم يأمرَ ملكَ الموتِ بقبضِ روحه.

وهذا يدلُّ على أَنَّ وفاةَ موسى كانت قبلَ دخولِه ببني إِسرائيل الأرضَ المقدسة.

---

(١) انظر شرح الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ١٥:١٢٦ ـ ١٣٠. وفتح الباري لابن حجر ٣:٢٠٧ و٦:٤٤٠ ـ ٤٤٤.

وإنما طلبَ موسى عليه السلام هذا الطلبَ لأَنه كان كلُّه شوقٌ لرؤيةِ الأرض المقدسة ودخولِها، راغباً في ذلك، ولكنَّ اللّهَ حكيم، فقدَّرَ عدمَ دخولِه إليها في حياته، وإذا لم يُقدِّرْ له دخولَها، فلا أقلَّ من أنْ يموتَ قريباً منها.

طلبَ أن تكونَ المسافةُ بين المكانِ الذي يموتُ فيه والأرضِ المقدسة مقدارَ رميةِ حجر، ورميةُ الحجر لا تتجاوزُ مئات الأمتار!!

وهذا يدلُّ على أنَّ الحادثةَ كانت قريبةً من الأرض المقدسة، وأنَّ بني إسرائيل كانوا على «مشارف» الأرضِ المقدسة.

لكن كانوا في أيِّ جهة؟ هل كانوا جنوبَها في سيناء؟ أم كانوا شرقَها في الأردن؟ ليس عندنا جوابٌ يقينيٌّ على ذلك، وإنْ كان اليهودُ يزعمون أنهم كانوا شرقَ الأرضِ المقدسة في الأردن!!

سألَ موسى ربَّه أنْ يقربَه من الأرض المقدسة لأَنه يعلمُ أن النبيَّ إذا ماتَ فيجبُ دفنُه في المكانِ الذي مات فيه، ولا يجوزُ نقْلُه إلى مكانٍ آخر بعدَ وفاته، وموسى عليه السلام يريدُ أنْ يكونَ قريباً من الأرضِ المقدسة، ولهذا طلبَ تقريبَه إليها في حياته، وقبلَ خروجِ روحه.

وطلبُ موسى عليه السلام أنْ يقربَه اللّهُ من الأرضِ المقدسة دليلٌ على فضْلِ الأرضِ المقدسة، وعلى فضْلِ الدفنِ فيها، فهي مهبطُ الوحي وأرضُ الأنبياء.

وقد فهمَ الإمامُ البخاريُّ من الحديثِ هذا المعنى، ولذلك جعلَ عنوانَ الباب الذي أوردَ فيه الحديث: «باب مَنْ أحبَّ الدفنَ في الأرضِ المقدسة، أو نحوها»[1].

---

(١) هو الباب رقم: ٦٨ من كتاب الجنائز رقم: ٢٣. والحديث فيه برقم: ١٣٣٩.

دفنه عند الكثيب الأحمر:

واستجابَ اللّهُ دعوةَ موسى عليه السلام، وقرَّبَه من الأرضِ، حتى كان بمقدارِ رميةِ حجر، لا تتجاوزُ مئات الأمتار..

وفي ذلك المكانِ قَبَضَ ملكُ الموت روحَ موسى عليه السلام، وغادرتْ روحُه الطاهرةُ جسدَه الشريف، وغادرَ هذه الحياةَ الدنيا، وذهبَ إلى ربِّه راضياً مرضياً عليه الصلاة والسلام!!

وأخبرَ رسولُنا محمَّدٌ ﷺ الصحابةَ الكرام في المدينة أنه لو كانَ معهم في الأرض المقدسة لأَراهم قبره: «فلو كنتُ ثَمَّ، لأريتُكُم قبره».

و«ثَمَّ» ـ بفتح الثاء ـ اسمُ إشارة بمعنى: هناك.

أي: لو كنتُ هناك في الأرض المقدسة لأريتكم قبرَه.

وحدَّدَ موضعَ قبره بأنه عندَ الكثيبِ الأحمر إلى جانبِ الطريق: «لأريتُكُم قبرَه إلى جانبِ الطريق عند الكثيب الأحمر..».

والكثيب: هو الرملُ المتجمعُ المستطيلُ في الصحراء. والرملُ الذي دُفنَ موسى عليه السلام بجانبه لونُه أحمر.

ولم يُبين رسولُنا ﷺ الطريقَ التي دُفن موسى بجانبها، كما لم يحدِّدْ لنا مكانَ الكثيبِ الأحمر بجانب الطريق.

هل هذه الطريقُ في سيناء؟ وفي سيناء كثبانٌ رمليةٌ عديدة! أم هذه الطريقُ في الأردن شرقِ الأرض المقدسة؟ أم في منطقةِ وادي عربة وكثبانُها الرمليةُ كثيرة؟ أم في منطقة «مدين» ـ معان وما حولها ـ في جنوبِ الأردن وكثبانُها الرمليةُ كثيرة؟ لم يُحَدِّدْ لنا تلكَ الطريق، ولا كثيبَ الرمل الأحمر!!

وقد أَعادَ رسولُ الله ﷺ الحديثَ عن الكثيب الأحمر، عندما أَخبرَ عن ما رآه في رحلةِ الإسراء.

الرسول رآه يصلي في قبره ليلة الإسراء:

فقد روى مسلمٌ وغيره عن أَنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ في حديثِ الإسراء والمعراج قولَه: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على موسى قائماً يُصلي في قبره، عند الكثيبِ الأحمر..»[1].

أي أنَّ رسولَ الله ﷺ شاهَدَ موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره، وقبرُه عند الكثيبِ الأحمر.

ومعلومٌ أنَّ الإسراءَ كان من المسجدِ الحرام في مكة إِلى المسجدِ الأقصى في بيت المقدس. أي أنَّ طريقَ الإسراء كانت هي الطريقَ ما بين الحجاز وبلاد الشام، فلعلَّ الكثيبَ الأحمرَ المذكورَ في الحديث في منطقةِ معان جنوب الأردن، أو منطقةِ وادي عربة، أو منطقةِ أُخرى شرقَ نهرِ الأردن!!.

ويدلُّ الحديثُ على أنَّ موسى عليه السلام حيٌّ في قبره، وحياتُه خاصةٌ ليست بمقاييسِ حياتنا الدنيا، لأنه غادرَ هذه الحياة، إِنما حياتُه حياةٌ برزخيةٌ تَليقُ به، ومعلومٌ أنَّ الأنبياءَ أحياءٌ ـ حياة خاصة ـ في قبورهم، وأنَّ الأرض لا تأكلُ أَجسامَهم.

وكان موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلّي لله سبحانه، وهي صلاةٌ خاصة، ذِكْرٌ لله وثناءٌ عليه، وليست تكليفاً لأنه لا تكليفَ بعد الموت!!

والخلاصةُ أَنه لا يمكننا تحديدُ المكان الذي دُفن فيه موسى عليه السلام، فكلُّ ما ذكرَه الحديثُ أنَّ قبرَه بجانبِ الطريقِ عند الكثيبِ الأحمر، وهذا «إِبهامٌ» مقصودٌ لقبره.

لكننا نقولَ إِن هذا القبرَ والكثيبَ الأحمر ليس في الأرضِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٧٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٩.

المقدسة، وإنما هو على مشارفها، على بعد رمية حجرٍ منها، لأنَّ موسى عليه السلام تُوفيَ قبيلَ دخولِ قومِه الأرضَ المقدسة، وهم دخلوها بعدَ دفنه، وكانوا بقيادةِ خليفته يوشعَ بن نون، ولم يأخذوه معهم، ولم يَدفنوه في الأرضِ المقدسة، لأنَّ كلَّ نبي يُدفنُ في المكانِ الذي توفيَ فيه.

موسى لم يدفن في فلسطين:

وهذا يدعونا إلى رفضِ ما يزعمُ الإسرائيليون - ويصدقُهم فيه بعضُ المسلمين - من أنَّ بني إسرائيل لما دخلوا الأرضَ المقدسة بقيادةِ يوشع بن نون، أَخذوا معهم جثمانَ موسى عليه السلام، ثم دفنوه في الأرضِ المقدسة ما بينَ أَريحا وبيت المقدس!

وقد ذهبَ بعضُ المسلمين إلى أَنَّ موسى عليه السلام في منطقةِ بين أَريحا والقدس تسمى منطقة «الخان الأحمر».

إننا لا نقبلُ كلامَهم لأنَّ موسى عليه السلام ماتَ ودفنَ في مكانٍ قريب من الأرض المقدسة، وليس فيها، وأنَّ النبيَّ يُدفنُ في المكانِ الذي يموتُ فيه..!!

ودليلُ ذلك ما رواه أحمدُ والترمذيُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ لم يَدروا أينَ يقبرونَ رسولَ الله ﷺ، حتى قالَ أبو بكر رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لن يُقْبَرَ نبيٌّ إلا حيثُ يموت..»[1].

ورواه ابنُ ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ما قُبضَ نبيٌّ إلاّ دُفنَ حيثُ يُقبض..»[2].

---

(1) مسند أحمد، حديث رقم: ٢٧. قال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، حديث قوي بطرقه، وبعدما أورد مجموعة طرق له قال: فهذه الطرق يشد بعضها بعضاً فيتقوى الحديث. مسند أحمد ١:٢٠٧.

(2) أخرجه ابن ماجه برقم: ١٦٢٨.

وهذا معناهُ أنَّ موسى عليه السلام دُفِنَ في المكانِ الذي قُبِضَ فيه، ولم يُدفنْ في الأرضِ المقدسة، ولم يُنقلْ إليها.. والله أعلم..

وهكذا انتهتْ حياةُ موسى عليه السلام التي عاشَها لله ومع الله، والتي واجَه فيها كيدَ فرعونَ وملئه، وإيذاءَ بني إسرائيل أتْباعِه، وعاشَها نبياً رسولاً كريماً، صابراً محتسباً، ثابتاً صادقاً.

ولا تحددُ مصادرُنا الإسلاميةُ عمرَه يومَ وفاته، فلا نخوضُ فيه، ونُفَوِّضُ العلمَ فيه إلى الله عز وجل..

[٣]

رسولنا يخبرنا عن موسى عليهما الصلاة والسلام

نختمُ كلامَنا عن قصةِ موسى عليه السلام بذكْرِ أحاديثَ صحيحة عن رسولنا ﷺ، أخبرَنا فيها عن بعضِ ما يتصلُ بموسى عليه السلام.

وسنختارُ الأحاديثَ الصحيحة التي لم نوردْها في المباحثِ السابقة منعاً للتكرار.

هيئة موسى وشكله وجسمه:

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن هيئةِ موسى وشكلِه عليه السلام.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «... وأَما موسى، فرجُلٌ آدم، جَعْد، على جملٍ أحمر، مخطومٌ بخِلْبَة، كأَني أنظرُ إِليه، إذا انحدر في الوادي يلبّي..»[١].

ومعنى «آدَمٌ»: أسمرُ اللون.

ومعنى «جَعْدٌ»: مكتنزُ الجسم بشكلٍ جميلٍ متناسق.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٥. ومسلم برقم: ١٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٧٢.

ومعنى «مخطومٌ بخِلْبَة»: الخلبةُ هي الليف، أي كانَ الجملُ الذي يركبهُ موسى أحمرَ اللون، مربوطاً بحبلٍ من ليف، يقودُه به.

وروى الإمامُ مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ حين أُسري به فقال: «موسى آدَمٌ طِوال، كأنه من رجالِ شَنوءَة..»[1].

ومعنى «طِوال»: طويلُ الجسم.

و«شنوءَة»: قبيلةٌ معروفةٌ من «الأزد» من اليمن.

أي أنَّ موسى عليه السلام كان أسمرَ طويلاً، يكادُ يشبهُ في طولِه وهيئتهِ رجالَ أزدِ شنوءة، القبيلةِ اليمنية المعروفة.

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «عُرِضَ عليَّ الأنبياءُ، فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال، كأنه من رجالِ شنوءة....»[2].

وروى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سِرْنا مع رسول الله ﷺ بين مكةَ والمدينة، فمرَرْنا بواد، فقال: أَيُّ وادٍ هذا؟

فقالوا: وادي الأزرق.

قال: كأني أَنظرُ إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثَّنِيَّة، واضعاً أُصبعيهِ في أُذنيه، له جُؤارٌ إلى الله بالتلبية، ماراً بهذا الوادي...»[3].

وروى البخاري ومسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ليلةَ أُسريَ بي رأيتُ موسى، فإذا هو رجلٌ ضَرْبٌ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٧١.

(٣) أخرجه مسلم برقم: ١٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٨.

رَجِلُ الشعَر، كأنه من رجالِ شنوءة...»[1].

ومعنى «رَجُلٌ ضَرْب»: رجلٌ متوسطٌ في جسمه، فلا هو سمينٌ كثيرُ اللحم، ولا هو نحيفٌ قليلٌ اللحم.

ومعنى «رَجِلُ الشعر»: صاحبُ شعرٍ طويلٍ مرجَّل متناسق.

لقد رأى رسولُنا محمدٌ نبيَّ الله موسى عليهما الصلاة والسلام رؤيا غيبية، وذلك عندما أُسريَ به ليلةَ الإسراء، فقدَّمَ لنا صفتَه وهيئته في هذه الأَحاديثِ الصحيحة.

الرسول يرى موسى مع الأنبياء ليلة الإسراء:

والدليلُ على أنه رآه مَع مجموعةٍ من الأنبياءِ ليلةَ الإسراء في طريقه إلى بيت المقدس، ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: لقد رأيتُني في الحِجْرِ - حجْرِ إسماعيل عند الكعبة - وقريشٌ تسألُني عن مسراي، فسألَتْني عن أشياءَ من بيتِ المقدس لم أُثبِتْها - لم أحفظها -. فكربْتُ كُربةً ما كربْتُ مثلَه قطّ. فرفعَه اللّهُ لي، أَنظرُ إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأْتُهم به...

وقد رأيتُني في جماعةٍ من الأنبياء:

فإذا موسى قائمٌ يصلّي، فإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْد، كأَنه من رجالِ شنوءة..

وإِذا عيسى بن مريم عليه السلام قائمٌ يُصلي، أَقربُ الناسِ به شَبَهاً عروةُ بنُ مسعود الثقفي.

وإِذا إِبراهيمُ عليه السلام قائمٌ يصلي، أَشبهُ الناس به صاحبُكم. يعني نفسَه ﷺ.

فحانت الصلاةُ، فأَمَمْتُهم...»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٩٤. ومسلم برقم: ١٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٧٢.

أي أنه صلّى بالأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام ليلةَ الإسراء في المسجد الأقصى.

وخلاصةُ وصْفِ موسى عليه السلام من هذه الأحاديث: أنه كان أسمرَ اللون، متوسطَ الطول، معتدلَ الجسم، لا بالسمينِ ولا بالنحيف، ولا بالطويلِ ولا بالقصير، يشبهُ في تناسقِ جسمِه رجالَ الأزدِ اليمنيين!!

صبر موسى على إيذاء قومه له ومعجزة الحجر والثوب:

وقد أَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن صبْرِ موسى عليه السلام على إِيذاءِ قومه له.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: إنّ موسى عليه السلام كان رجلاً حَيِيّاً سِتّيراً، لا يُرى من جلده شيء، استحياءً منه.

فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما استترَ هذا التَّسَتُّرَ إلاّ من عيبٍ في جلده، إمّا بَرَصٌ، وإمّا أُدْرَة، وإمّا آفة!

وإنَّ اللّهَ عز وجل أَرادَ أنْ يبرئَه مما قالوا. فخلاَ يوماً وحدَه، فوضعَ ثوبَه على الحجر، ثم اغتسل..

فلما فرغَ أَقبلَ إلى ثيابه ليأخذَها. وإنَّ الحجرَ عدا بثوبه.. فأخذَ موسى عصاه، وطلبَ الحجر، فجعلَ يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر!!

حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأَوْهُ عرياناً، أحسنَ ما خلقَ الله.. وبرَّأَهُ اللّهُ مما يقولون.. وقامَ الحجرُ فأخذَ ثوبَه فلبسه، وطفقَ بالحجر ضَرْباً بعصاه.. وإنَّ بالحجر لَنُدَباً من أَثرِ ضربه، ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً.

فذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾..﴾ [الأحزاب: ٦٩][1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٤. ومسلم برقم: ٣٣٩. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٢٠١.

يُثني رسولُنا ﷺ في هذا الحديثِ على موسى عليه السلام، ويصفه بأنه كان حَيياً ستّيراً، وأنه كانَ لا يكشفُ شيئاً من جسمه حياءً ورغبةً في الستر.

ولكنَّ قوماً من بني إِسرائيل أَساءوا تفسيرَ هذا الموقف منه، ولم يَحملوه على التفسيرِ الصحيح المتفقِ مع فضْلِ موسى وكمالِه، وإِنما حملوه على الاتهامِ وسوءِ الظن والتحليل، وفقَ طبيعتهم السيئة الاتهامية.

قالوا: إِنّه لم يسترْ جسْمَه عنّا إلاّ لأنَّ في جسمه عيباً أو مرضاً، فقد يكونُ في جسمهِ برصٌ أو آفة، وقد تكونُ هذه الآفةُ في «خصيتيه» وهذا معنى «الأُدْرة».

فالأُدْرَةُ هي: انتفاخُ الخصيتين.

وإِنَّ اللّهَ قد أَرادَ أَنْ يُبرئَ موسى عليه السلام من هذه التهمة، فهو أكملُ الناس جسماً وأجملهم خَلْقاً عليه السلام، ولذلك أَجرى معجزةً من معجزاته..

فقد ذهبَ موسى عليه السلام يوماً ليغتسل، فابتعدَ عن قومه إِلى ماء، ووضعَ ثوبَه على حجرٍ بجانب الماء، ونزلَ ليغتسل.. ولما أَنهى اغتسالَه خرجَ ليلبسَ ثوبه... فأمرَ اللّهُ الحجرَ أنْ يَهربَ بثوبه، حيثُ يجلسُ ملأٌ من بني إسرائيل!! والحجرُ الأصمُّ من جنودِ الله سبحانه، وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو، فنفَّذَ أَمْرَ الله!!

نظرَ موسى وهو عريانٌ إِلى الحجر فإذا به يَعدو ويذهبُ بعيداً، وهو حامل الثوب، فلحقَ به وصارَ يُناديه: يا حجر ثوبي!! يا حجر رُدَّ عليَّ ثوبي!! يا حجر! اتركْ ثوبي!!. والحجرُ يعدو أَمامه بالثوب ولا يستجيبُ له!!

واستمرا على هذا المنظر العجيب، إِلى أنْ وصَل الحجرُ إِلى حيثُ يجلسُ بنو إسرائيل، فتوقَّفَ أَمامَهم.

ونظرَ القومُ إلى موسى عليه السلام، وهو عريانٌ لا يسترُ جسْمَه شيء، فإذا به من أحسنِ الناس جسماً، ليسَ به آفةٌ ولا أُدْرَةٌ ولا مرضٌ ولا بَرص!!.

فتناولَ موسى عليه السلام ثوبَه فلبسَه، وغضبَ من الحجر لفعلته، فضربَ الحجرَ بعصاه، فتركت العصا آثاراً في الحجر مكانَ الضرب، وكان الأثرُ نُدوباً في الحجر، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً.

وبهذه المعجزةِ الباهرة برأَ اللّهُ موسى عليه السلام من إيذاءِ واتهامِ قومِه له!!

وقد نهانا اللّهُ عن إيذاءِ رسولنا محمد ﷺ، كما آذى بنو إسرائيل موسى عليه السلام، وأشارتْ آيةُ سورةِ الأحزاب (٦٩) إلى ما آذوه به، وإلى قصته مع الحجر والثوب، بشكلٍ مجمل: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ..﴾.

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ أنَّ موسى عليه السلام صبرَ على إيذاءِ قومه، وهو ما يليقُ به باعتبارِه نبياً من أُولي العزم.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَسَمَ رسولُ الله ﷺ قِسْماً. فقالَ رجل: إنَّ هذه قسمة ما أُريدَ بها وجْهُ الله.

فأَتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخبرتُه. فغضبَ، حتى رأيتُ الغضبَ في وجهه، فقال: «رحمَ اللّهُ أَخي موسى، قد أُوذيَ بأكثرَ من هذا فصبر»[1].

فلما أَساءَ أحدُ الأجلافِ إلى رسول الله ﷺ وآذاه، تذكَّرَ عليه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣١٥٠. ومسلم برقم: ١٠٦٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٠٠.

الصلاة والسلام نبيَّ الله موسى، وصبْرَه على إيذاءِ قومه، فترحَّمَ عليه وأشادَ بصبره على إيذائهم، وأعلنَ اقتداءَه به في الصبر والتحمل.

موسى يحج إلى بيت الله الحرام:

وأَخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ موسى عليه السلام قد حجَّ بيتَ الله الحرام.

فقد روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسولَ الله ﷺ أَتى على وادي الأزرق، فقال: كأني أَنظرُ إلى موسى منهبطاً، وله جُؤارٌ إلى ربّه بالتلبية.

ومرَّ على ثنية، فقال: ما هذه؟ قالوا: ثنيةُ كذا وكذا. قال: كأني أنظرُ إلى موسى يَرمي الجمرةَ على ناقةٍ حمراء، خِطامُها من ليف، وعليه جبة من صوف..»[1].

فموسى عليه السلام أَتى إلى الحج، وركبَ ناقةً حمراء، ولبسَ جبةً من صوف، ومَرَّ بوادي الأزرق الواقعِ بين مكة والمدينة، وكان يرفعُ صوتَه بالتلبية، ويقول: لبيكَ اللهمَّ لبيك.

وأَتى مكة، فطافَ بالكعبة، ثم ذهبَ إلى منى، ورمى فيها الجمرة!!

المحاجة والجدال بين آدم وموسى:

وأَخبرنا رسولُنا ﷺ عن الحِجاجِ والجدالِ الذي كانَ بين آدمَ وموسى عليهما السلام.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام.

فقالَ له: أنتَ الذي أَخرجْتَ الناس بذنبك من الجنةِ وأَشقيتهم!

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٦٦.

فقال آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاكَ اللّهُ برسالاته وبكلامه. أَتلومُني على أمرٍ قد كتبهُ اللّهُ عليّ، أو قدَّرَهُ عليّ، قبلَ أنْ يَخلقني.

قالَ رسولُ الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى!»[1].

وقد تكلَّمْنا عن هذا الحديثِ أثناءَ كلامِنا عن قصةِ آدم عليه السلام، وذكَرْنا الراجحَ في معناه، كما قالَه الإمام ابن كثير رحمه الله.

وهو أنَّ موسى يلومُ آدمَ عليهما السلام على إخراجِه نفسَهُ وذريتَه من الجنة، فأخبرَه آدمُ أنه لم يخرجْهم من الجنة، وإنما أَخرجَهم الله، لأنه رتَّبَ إِخراجَهم على أَكْلِه من الشجرة، وقدَّرَ هذا الإخراجَ قبلَ خلقِ آدم، وقبلَ أَكْلِه من الشجرة.

وشهدَ رسولُ الله ﷺ أنَّ آدمَ حجَّ موسى عليهما السلام وأَفحمه، وكانت حجتُه أَقوى من حُجَّةِ موسى.

موسى يسأل عن أدنى وأعلى منازل الجنة:

وأخبرَنا رسولُنا ﷺ عن سؤالِ موسى لربه عن منازلِ المؤمنين الصالحين في الجنة، مَنْ هو أَدناهم منزلة، ومَن هو أَعلاهم منزلة:

فقد روى مسلمٌ عن المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

«إنَّ موسى عليه السلام سألَ ربَّه عز وجل: أيُّ أهلِ الجنة أَدنى منزلة؟

فقال: رجُلٌ يَجيءُ بعدما يدخلُ أهلُ الجنة الجنة. فيُقالُ له: ادخل الجنة. فيقول: كيفَ أَدخلُ الجنة، وقد نزلَ الناسُ منازلَهم وأَخذوا أَخذاتهم؟

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٣٤.

فيقالُ له: أَترضى أنْ يكونَ لك من الجنة مثلُ ما كانَ لملكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: نَعم يا رب!

فيقال له: لكَ هذا ومثْلُه معه.

فيقول: أي ربّ: رَضيتُ!

فيقال له: لكَ مع هذا ما اشتهتْ نفسُك ولذَّتْ عينُك!

وسألَ موسى ربَّه: أيُّ أهْلِ الجنة أَرفعُ منزلة؟

قال: سأحدثكَ عنهم: غرسْتُ كرامَتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر!!».

وفي روايةٍ أُخرى: يُقالُ لأدناهم منزلة: أَترضى أنْ يكونَ لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: رضيتُ يا رب.

فيقال له: لكَ ذلك، ومثلُه، ومثلُه، ومثلُه، ومثلُه!!!

فيقول في الخامسة: رضيتُ يا رب.

فيقال: هذا لكَ، وعشرةُ أمثاله!!! ولكَ ما اشتهتْ نفسُك، ولذَّتْ عينُك..

فيقول: رضيتُ يا رب.

قال موسى: ربِّ فأَعلاهم منزلة؟

قال: أولئك أَردت. غرسْتُ كرامَتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تَرَ عَيْن، ولم تَسمعْ أُذُن، ولم يخطرْ على قلبِ بشر..»[1].

---

(1) أخرجه مسلم برقم: ١٨٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٣.

حادثة الأنصاري مع اليهودي وعلاج الرسول لها:

وأَخبرنا رسولُنا ﷺ عن فضْلِ موسى ومنزلتِه عند ربّه، وذكرَ فضيلةً له عند البعثِ يومَ القيامة، وجاءَ كلامُه في مناسبةٍ عجيبةٍ مثيرة، ضربَ فيها أَنصاريٌّ أحدَ اليهود لأنه أَشارَ إِلى فضْلِ موسى على العالمين!!

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسولُ الله ﷺ جالس، جاءَه يهودي، فقال: يا أبا القاسم: ضَرَبَ وجهي رجلٌ من أصحابِك.

فقال: مَنْ؟

قال: رجلٌ من الأَنصار!

فَدَعاه، فقال: أَضَرَبْتَه؟

قال: سمعتُه بالسوق يحلف ويقول: والذي اصطفى موسى على البشر!

قلت: يا خبيث. على محمدٍ ﷺ؟

فأخذَتْني غضبة، فضربْتُ وجْهَه!

فقالَ عليه الصلاة والسلام: «لا تخيِّروا بينَ الأنبياء. فإِنَّ الناسَ يُصعقونَ يوم القيامة، فأكونُ أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، فإذا أَنا بموسى آخِذٌ بقائمةٍ من قوائمِ العرش. فلا أَدري أكانَ فيمن صُعِقَ، أَم حوسبَ بصعقتِه الأُولى؟»[1].

ولهذه الحادثةِ روايةٌ أُخرى عند البخاريِّ ومسلم عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قال:

استبَّ رجلان، رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود. فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. فقالَ اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤١٢. ومسلم برقم: ٢٣٧٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٢١.

فرفعَ المسلمُ يَدَه، فلطمَ وجْهَ اليهودي!

فذهبَ اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ، فأَخبرَه بما كانَ من أَمْرِه وأمْرِ المسلم.

فدعاهُ النبيُّ ﷺ، فسأَلَه عن ذلك، فأَخبره.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «لا تُخَيِّروني على موسى، فإنَّ الناسَ يُصعقونَ يومَ القيامة، فأُصعقُ معهم، فأكونُ أولَ مَنْ يفيق، فإذا موسى باطشٌ جنبَ العرش، فلا أَدري أكانَ فيمن صُعِقَ فأفاقَ قبلي، أو كانَ ممن استثنى الله..».

الرسول ينهى عن التفضيل على موسى وتوجيهه:

إنَّ الأنصاريَّ يعلمُ أنَّ اللّهَ اصطفى محمداً ﷺ على العالمين، وأَنه أفضلُ البشر. فسمعَ اليهوديَّ يحلفُ بالله، الذي اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام، ويُقررُ أنَّ موسى هو أفضلُ العالمين.

فغضبَ الأنصاريُّ منه، وقالَ له: يا خبيث أَتزعمُ أنَّ موسى أفضلُ العالمين؟ وأَنه بهذا أَفضلُ مِن نبيِّنا محمدٍ ﷺ؟. ولطمَ اليهوديَّ على وجهه، فجاءَ اليهوديُّ يشكوهُ إلى رسول الله ﷺ، فلما استدعاه النبيُّ ﷺ اعترفَ بما فعله، وأَنه فعلَ ذلك باليهوديِّ تأديباً له.

وفهمَ رسولُ الله ﷺ من الحادثة كأنَّ الأنصاريَّ يُنقصُ من قدرِ نبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام، فأَعطاه وأعطَى الصحابة والمسلمين درساً، وهو أنْ لا يُخيِّروا بينَ الأنبياء عموماً، وأنْ لا يُخيِّروه على موسى عليه السلام خصوصاً.

وهذا النهيُ عن التخييرِ هو القائمُ على إنقاصِ مقامِ بعضِ الأنبياء، أَو إِنقاصِ مقامِ موسى على حسابِ محمدٍ عليهما الصلاة والسلام. إنَّ هذا حرامٌ لأنَّ المؤمنَ يؤمنُ بجميعِ الرسل، ولا يُفرقُ بين أَحدٍ منهم، وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ

وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أَما إذا أُمِنَ هذا الجانب، وآمَنَ المؤمنُ بجميعِ الرسل، ولم يُنقِص قدْرَ أحدٍ منهم، فعليه أنْ يؤمنَ بأنَّ محمداً ﷺ هو أفضلُ الأنبياء والمرسلين، بل أفضلُ خلْقِ الله أجمعين، وأنَّ اللّهَ اصطفاه وفضَّله، وخصَّه بما خصَّه به.

وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

فضيلة لموسى يوم القيامة وإمساكه بقائمة العرش:

وبعدَ أنْ نهى رسولُ الله ﷺ عن تخييرِه على موسى عليه السلام تخييراً يقومُ على إنقاصِ قدْرِ موسى، قَدَّمَ لنا صورةً لفضْلِه عندَ الله يومَ القيامة.

فعندما يُبعثُ الناسُ من قبورهم يومَ القيامة، يكونُ رسولُ الله ﷺ أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، وعندما يَرفعُ رأْسَه ﷺ ينظرُ فإذا نبيُّ الله موسى عليه السلام قائمٌ ممسكٌ بقائمةٍ من قوائمِ عرشِ الله!

فيتعجبُ رسولُنا ﷺ من ذلك، ولا يَدري هل أفاقَ موسى قبلَه، وأمسكَ بقائمةِ العرش، أم كان ممن استثناهم اللّهُ من الصعق، واكتفى بصعقتِه الأُولى؟

ويشيرُ رسولنا ﷺ في قوله: «أم حوسب بصعقته الأولى» إلى الصعقةِ التي أَصابتْ موسى عليه السلام عندَ جبلِ الطور، لما طلبَ أنْ يرى الله، فلما تجلّى اللّهُ للجبل دكَّه، وصُعقَ موسى عليه السلام.

وهذه الحادثةُ هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

موسى ومقام الشفاعة لمحمد يوم القيامة:

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن مقامِ الشفاعة الذي اختصَّهُ اللّهُ به، وأنَّ الأنبياءَ يَعرفونَ هذا الفضلَ له، فعندما يأتيهم الناسُ يومَ القيامة ليشفعوا لهم عندَ الله، يَدفعونهم حتى يَصِلوا إِلى محمدٍ ﷺ، فيطلبوا ذلك منه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما من حديثِ الشفاعة الطويل الذي رواه أَبو هريرة عن رسول الله ﷺ، والذي جاءَ فيه عن موسى عليه السلام قوله: «... فيقولُ لهم إِبراهيمُ عليه السلام: إِنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضبْ قبلَه مثلَه، ولا يغضبُ بعده مثلَه... نفسي، نفسي، اذهبوا إِلى غيري، اذهبوا إِلى موسى...

فيأْتونَ موسى ﷺ فيقولون: يا موسى! أنتَ رسولُ الله، فضَّلَكَ اللّهُ برسالاته، وبتكليمه، اشفعْ لنا إِلى ربك، أَلا ترى ما نحنُ فيه؟ أَلا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فيقولُ لهم موسى ﷺ: إِنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنّي قتلْتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلِها، نفسي، نفسي.. اذهبوا إِلى عيسى....»[(١)].

فموسى عليه السلام يعلمُ أَنه ليس صاحبَ مقامِ الشفاعة يومَ القيامة، وأنَّ اللّهَ خَصَّ بها محمداً ﷺ أفضلَ الخلق..

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ١٩٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٤.

أمة موسى وأمة محمد يوم القيامة:

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن أنَّ أُمتَه يومَ القيامة أكثرُ بكثيرٍ من أمةِ موسى عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحد. إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنهم أُمَّتي. فقيلَ لي: هذا موسى ﷺ وقومُه.. ولكن انظرْ إلى الأُفُق، فنظرْتُ فإذا سوادٌ عظيم. فقيل لي: انظرْ إلى الأفقِ الآخر. فإذا سوادٌ عظيم.. فقيلَ لي: هذه أمتُك...»[1].

والسَّوادُ هم المجموعةُ من الناس، فإذا كانتْ أمةُ موسى عليه السلام قد شكَّلَتْ سَواداً عظيماً، ومجموعةً كبيرة من الناس، فإنَّ أمةَ محمد ﷺ ـ أمةَ الخلافةِ والرسالةِ والشهادة حتى قيام الساعة ـ قد ملأت الأفقَ عن اليمين والشمال.

فمحمدٌ ﷺ هو أكثرُ الناس أَتْباعاً يوم القيامة!.

وأَخبرَنا رسولُنا محمدٌ ﷺ أَنه التقى مع موسى عليه السلام في السماءِ ليلةَ المعراج.

وهذا هو المعنى الذي قرَّرَهُ اللّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾..﴾ [السجدة: ٢٣].

أي: لا تكنْ يا محمد في ريبةٍ أَو شَكٍّ من لقائكَ لنبيِّ الله موسى عليه السلام، وهذا ما تحققَ ليلةَ الإسراء والمعراج، فقد التقى بموسى وغيرِه من الأنبياء، عندما صلّى بهم إماماً في بيتِ المقدس، ثم التقى بهم عندما عُرِجَ به إلى السموات، حيث كانوا فيها ينتظرونَه..

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٠. ومسلم برقم: ٢٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٢٠.

الرسول يقابل موسى في السماء السادسة ليلة المعراج:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ في رحلةِ الإسراء والمعراج... ـ وسنوردُ منه القطعةَ المتعلقةَ بموسى عليه السلام ـ... «... فأَتَيْنا على السماءِ السادسة. قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جبريل. قيل: مَنْ معك؟ قيلَ: محمد ﷺ. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ مرحباً به، نعْمَ المجيء جاء..

فأتيتُ على موسى، فسلمتُ عليه. فقال: مَرْحَباً بك من أخ ونبي..

فلما جاوزْتُ بكى! فقيل: ما أَبكاك؟ قال: يارب: هذا الغلامُ الذي بُعِثَ بَعْدي، يدخلُ الجنةَ من أمته أفضلُ مما يدخلُ من أُمتي...».

... «... ثم فُرضتْ عليَّ خمسون صلاة.

فأَقبلْتُ حتى جئتُ موسى. فقال: ما صنعْتَ؟ قلتُ: فُرِضَتْ عليَّ خمسون صلاة! قال: أَنا أَعلمُ بالناس منك. عالجْتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وإنَّ أُمتَك لا تطيق، فارجعْ إلى ربك، فسَلْه.

فرجعْتُ فسأَلْتُه، فجعلَها أربعين، ثم مثله، ثم ثلاثين، ثم مثله، فجعل عشرين، ثم مثله، فجعل عشراً.

فأتيتُ موسى، فقال مثله، فجعلَها خمساً. فأتيتُ موسى، فقال: ما صنعْتَ؟ قلتُ: جعلَها خمساً! فقالَ مثله. فقلت: سلَّمْتُ!

فنودي: إني قد أَمضيتُ فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادي، وأَجزي الحسنةَ عشراً...»[1].

إنَّ هارونَ في السماء الخامسة، وإنَّ موسى في السماءِ السادسة، وقد مَرَّ بهما رسولُنا ﷺ في رحلةِ المعراج.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٣٦٢.

ولما كلَّمَ اللّهُ سبحانه محمداً ﷺ تكليماً، أَوجبَ اللّهُ على المسلمين خمسينَ صلاةً في اليوم والليلة.

فمرَّ على موسى في السماءِ السادسة عليه السلام، وأَخبرَه بما كلفَ أُمَّتَه، فأشفقَ موسى عليه السلام على أُمةِ محمدٍ ﷺ، وخشيَ أنْ تُقَصِّرَ في أَداءِ الخمسين صلاة، وطلبَ منه أنْ يطلبَ من ربِّه التخفيف، فما زالَ اللّهُ يُنقصُها في العدد، حتى أَوصلَها خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة.

ومن كرمِ اللّهِ وفضْلِه على هذه الأمة، أَنه أَنقصَ الصلواتِ من حيثُ العدد، ولكنَّه أَبقاها من حيثُ الأجر والثواب: إِنها خمسُ صلوات، لكنها خمسونَ في الأجر.

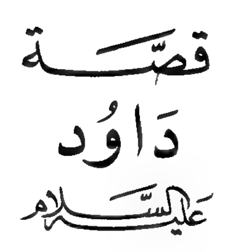
واعترفَ موسى عليه السلام بما لقيَه من بني إِسرائيل، من تفلُّتٍ ومخالفة، فكم بذلَ جهدَه في تربيتهم، وكم حرصَ على أنْ يرتقيَ بهم، وكم عالَجهم، أشدَّ المعالجة، ولكنهم لم يتجاوَبوا معه، ولم يرتفعوا إِلى المستوى الذي يريدُه لهم: «أَنا أعلمُ بالناسِ منك، عالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة..».

هذا بعضُ ما أَخبرَنا به رسولُ الله ﷺ عن نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام.

وبهذا ننهي كلامَنا ـ الذي طال ـ عن قصةِ موسى وأَخيه هارون عليهما الصلاة والسلام.

والحمدُ لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.




قصة
داود
عليه السلام



[١]

بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام

عرفْنا من خلالِ حديثِنا عن قصة موسى عليه السلام، أنه كان يُعدُّ جيلاً جديداً من بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة، بعدما جَبنتْ أغلبيةُ بني إسرائيل عن الجهاد، فعاقبهم اللّهُ بالتيهِ في سيناء أربعين سنة.

يوشع بن نون بعد موسى:

وكان يوشعُ بن نون يساعدُ موسى في تربيةِ وإعدادِ بني إسرائيل، لأن هارونَ مات قبل موسى عليهما السلام.

وعرفْنا كيف أنَّ أجلَ موسى عليه السلام قد حانَ قبلَ دخوله بقومه الأرضَ المقدسة، وأن اللّهَ بعثَ له مَلَكَ الموت، وخيَّرَه قبلَ قبض روحه فاختار لقاءه، وطلبَ أنْ يُقَرَّبَ من الأرض المقدسة بمقدار رميةِ حجر، وأنه دُفن قبل الأرض المقدسة، وأن محمداً ﷺ مرَّ على قبره في رحلة المعراج، فرآه في قبره قائماً يصلي، وأخبرَ أن قبرَه بجانب الطريق عند الكثيب الأحمر.

إذن تُوفي موسى عليه السلام قبلَ أن يدخلَ بنو إسرائيل الأرضَ المقدسة، وتوالتْ عليهم الأحداثُ بعد ذلك.

وسنوجزُ فيما يلي القولَ في ما جرى لهم بين موسى وداود عليهما السلام، معتمدين على الآياتِ والأحاديث الصحيحة، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات نأخذُ منها أخبارَهم.

بعد وفاةِ موسى عليه السلام تولّى قيادةَ بني إسرائيل يوشعُ بنُ نون، وكان من صالحيهم.

وقد اختلفَ العلماءُ في نبوة يوشعِ بن نون، فذهب بعضُهم إلى

أنه نبي، وتوقَّفَ آخرون في القول بنبوته، لعدم وجودِ حديثٍ صريحٍ بذلك.

أما عندَ أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم يعتقدون أنه نبي، واسمُه عندهم «يشوع» وله سَفْرٌ خاص، وهو السِّفْرُ السادس من أسفار العهد القديم، الذي يُسمّونه «سفر يشوع».

حجة من قالوا بنبوة يوشع:

والذين قالوا بنبوته اعتمدوا على حديثٍ في الصحيحين:

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يَتْبعْني منكم رجلٌ مَلَكَ بُضْعَ امرأة، وهو يريدُ أنْ يبنيَ بها، ولمّا يَبْنِ بها ولا أحدٌ بنى بيوتاً ولم يرفعْ سُقُفَها، ولا أحد اشترى غنماً أو خَلِفاتٍ وهو ينظرُ وِلادَها.

فغزا، فدنا من القرية صلاةَ العصر، أو قريباً من ذلك.

فقال للشمس: أنتِ مأمورة، وأنا مأمور، اللهمّ احبسها علينا! فحُبستْ حتى فتحَ الله عليه!

فجمع الغنائم. فجاءت النارُ لتأكلَها، فلم تَطْعَمْها!

فقال: إنَّ فيكم غُلولاً، فلْيبايعْني من كل قبيلة رجل! فلزقتْ يدُ رجل بيده، فقال: فيكم الغُلول، فلتبايعْني قبيلتك، فلزقتْ يدُ رجلين أو ثلاثةٍ بيده!!

فقال: فيكم الغلول. فجاءوا برأسٍ مثلِ رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها...»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث أن أحدَ الأنبياءَ السابقين

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥١٥٧. ومسلم برقم: ١٧٤٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٦.

خرجَ بقومه للجهاد في سبيل الله، ومن حكمةِ وفطنة هذا النبي أنه أرادَ أن يكون الجنودُ الخارجون للجهاد متفرغين للجهاد تفرُّغاً كاملاً، حتى في خواطرهم ومشاعرهم، لئلا يُشغلُهم عن الجهاد شاغل.

ولذلك دعا كلَّ مَن كان مشغولاً بشيءٍ من أُمور الدنيا أن لا يخرجَ معهم للجهاد، لأنَّ انشغالَه بذلك الأمر قد يعيقُه عن الاستبسالِ في الجهاد، وقد يدعوه إلى الانهزام والفرار.

الرجلُ الخاطبُ الذي خطبَ امرأة، ومَلَكَ بُضْعَها، ولم يتزوجها، يكون دائمَ التفكير فيها، فلا يخرجْ معه للجهاد.

الذي بنى بيتاً، ولم يُكمل بناءَه، ولم يَسقفْه، يكون دائمَ التفكير فيه، فلا يخرجْ معه للجهاد.

الذي عنده غنمٌ حوامل ينتظرُ ولادتَها، أو عنده نياقٌ حوامل ينتظرُ ولادتها يكون دائمَ التفكير فيها، فلا يخرجْ معه للجهاد.

وبذلك اختارَ النبيُّ جنودَه اختياراً، من المتفرغين للجهاد.

غزا النبيُّ بجنوده قريةَ الكفار، وكان الوقتُ قريباً من صلاة العصر، والوقت ما بين العصر والمغرب قصير، ويخشى النبيُّ أن تغيبَ الشمسُ قبلَ إكمالِ فتح القرية.

ولذلك أرادَ إكمالَ فتح القرية قبلَ مغيب الشمس، فخاطبَ الشمسَ قائلاً: أنتِ مأمورةٌ بالسير والجري، وأنا مأمورٌ بقتال الكفار، وأريدُ أن تتوقفي عن السير والجري، وأن لا تغيبي إلاّ بعدَ فتح القرية.

وتوجَّه النبيُّ إلى الله، وطلبَ منه أنْ يوقفَ سيرَ الشمس، وأنْ يحبسَها عليهم، بحيث لا تغيبُ إلا بعدَ الانتهاءِ من الفتح.

واستجابَ الله دعاءه، وأَجرى على يديه آيتَه، وحبسَ الشمس وأوقفَ سيرها، فلم تغب إلا بعدَ فتح القرية.

وجمعَ المجاهدون الغنائم المأخوذةَ من الكفار، وكانت الغنائم لا

تحِلُّ للمجاهدين، وإنما يَجمعونها ويَحرقونها بالنار، ولم يُحِلَّ اللّهُ الغنائم إلا لأمةِ محمد ﷺ، إكراماً له ولأمته.

ولما أَشعلوا فيها النار، أمرَ اللّهُ النارَ أنْ لا تشتعلَ فيها ولا تحرقَها، وأبطلَ قدرتَها على الإحراق، لأنَّ الغنائم ليست كاملةً مستوفاة، وإنما فيها غُلولٌ وسرقة، والنارُ لا تحرقُ الغنائم إلا إذا كانتْ مجتمعة.

وعرفَ النبيُّ ذلك، فقال لهم: لقد قامَ بعضُكم بسرقةٍ من الغنائم، ولا بدَّ أن نكتشفَ السارقين، وأن نُعيدَ الغنائمَ المسروقة.

وكانت طريقتُه في ذلك عجيبة، وهي معجزةٌ من الله له، حيث طلبَ من كلِّ شيخِ قبيلة أنْ يصافحَه، ولما صافحوه لزقتْ يدُ أحدهم بيده، فعرفَ أن السرقةَ في قبيلته، فطلب من رجال قبيلته أنْ يُصافحوه جميعاً، فلزقت يدُ رجلين أو ثلاثة بيده، فعرف أن السرقةَ عندهم!!

ولما اكتشفَ أن السرقةَ عندهم طلب منهم إحضارَ المسروق. فأَحضروا رأسَ بقرةٍ من ذهب، كانوا قد غلّوه من الغنائم لينتفعوا به. ولما وضعوه على الغنائم أشعلوا فيها النار، فأحرقَتْها.

هذا هو المعنى الموجز لهذا الحديث.

الراجح عدم نبوة يوشع:

ونلاحظُ أن الحديثَ أبهمَ اسمَ النبي واسم القرية واسم القوم. فذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى أن هذا النبيَّ هو يوشعُ بن نون، وأن القومَ هم بنو إسرائيل، وذهب بعضهم إلى أنَّ المرادَ بالقرية بيت المقدس.

وأبقى علماءُ آخرون الإبهامَ في الحديث على ما هو عليه، فلم يُعينوا اسمَ النبي ولا اسمَ القرية، لأنه لم يُعَيَّنْ في الحديث، ولا توجدُ أحاديث صحيحة غيرُ هذا الحديث تُعين ذلك، وتُزيل الإبهام.

ونحنُ مع الفريقِ الثاني، فلا بدَّ أن يعتمدَ الذين قالوا بنبوة يوشع من خلال هذا الحديث على حديثٍ آخر صريحٍ صحيح.

إننا لا نملكُ حديثاً صحيحاً صريحاً مرفوعاً للنبي ﷺ، يصرحُ أنَّ النبيَّ المذكور هنا هو يوشعُ بن نون، أو يصرح أن يوشع نبي، ولو وجدْنا ذلك لقلْنا به.

الراجحُ إذن أن يوشعَ بن نون ليس نبياً، لعدم وجود حديثٍ صريحٍ صحيحٍ مرفوعٍ بذلك، فهو رجلٌ صالح كان متابعاً لموسى عليه السلامَ، ومِن أصلحِ وأفضلِ بني إسرائيل.

ولما توفيَ موسى عليه السلام تولّى يوشعُ بن نون قيادةَ بني إسرائيل، وحكمَ فيهم على أساس التوراة، وطبَّق فيهم شرعَ الله.

تولّى يوشعُ قيادةَ بني إسرائيل قبل دخولهم الأرض المقدسة، وقام بإعدادهم للجهاد، ليدخلوا الأرض المقدسة مجاهدين.

ودخلَ يوشعُ ببني إسرائيل الأرضَ المقدسة، وقاتلوا الكافرين الذين فيها، ونصرهم اللّهُ على أولئك الكافرين، ومَكَّنَ لهم في الأرض المقدسة، وصار يوشع يفتتحُ المدن والقرى فيها.

ولا تُحددُ لنا مصادرُنا الإسلاميةُ المكان الذي دخلَ فيه بنو إسرائيل الأرض المقدسة، ولا أولَ معركةٍ خاضوها، ولا أولَ قريةٍ أو مدينة افتتحوها ودخلوها. بينما حددت الإسرائيلياتُ ذلك، واعتمدَ عليها المؤرخون والإخباريون، وأخذَ كلامَهم بعضُ المفسرين.

لكننا لا نأخذُ ذلك، ولا نخرجُ على الكتاب والسنة، ونبقى مع منهجنا في بحثِ القصص القرآني.

يوشع المجاهد الصالح غير يشوع اليهودي الإرهابي:

دخلَ يوشعُ بن نون ببني إسرائيل الأرض المقدسة، وكانوا مؤمنين صالحين معه، وكان هو رجلاً مؤمناً صالحاً، ومجاهداً شجاعاً.

إن يوشعَ بن نون الرجلَ الصالح مثالٌ للقائدِ الشجاع، والمؤمن المجاهد، والقوي العادل، وكان جهادُه للكفار في الأرض المقدسة جهاداً إيمانياً، قائماً على العدل ونصر الحق.

نقولُ هذا الكلام لنُبطلَ أكاذيبَ اليهود عن يوشع ـ أو يشوع ـ حيث صوَّروا يشوعَ بصورةِ سفاك الدماء، الذي كان يُبيدُ كلَّ ما يجدُه أمامَه من مدن وقرى الأرض المقدسة إبادة، يُبيد كلَّ الرجال والنساء والأطفال، ويُبيد المواشي والحيوانات.

و«سَفْرُ يشوع» هو السفر السادس من أسفار العهد القديم، ويستحقُّ أن يُسمى «سفرَ المذابح والمجازر»، وقد وضعه وكتبه أحبارُ اليهود الكاذبون الإرهابيون، ونسبوا إلى يوشع تلك المجازر والمذابح..

و«سَفْرُ يشوع» من المواد الأساسية في التربية اليهودية، يُربي اليهودُ أبناءَهم عليه، ويُلقنونهم إياه، ويَدعونهم للاقتداءِ بيشوع في التعامل مع خصومهم، وما مذابحُ اليهودِ المعاصرة ضدَّ أهلِ فلسطين والعرب إلاّ نتاجُ التربية اليهودية على سفرِ يشوعِ الإرهابي!!

أما يوشعُ بن نون فإنه بريءٌ من كلِّ ما أَلصقه به أحبارُ اليهود من مذابح ومجازر، فما كان إلا مؤمناً صالحاً، ومجاهداً شجاعاً، وكانت فتوحاتُه في الأرض المقدسة نشراً للحق، ومحاربةً للباطل، وكان يتعاملُ مع الآخرين وفقَ أحكامِ شريعة الله!!

ولم يفتتح يوشعُ كلَّ مدنِ وقرى الأرض المقدسة، وإنما افتتحَ بعضَها، ورتبَ إقامةَ بني إسرائيل فيها.

مخالفات بني إسرائيل بعد يوشع:

وتوفيَ يوشعُ بن نون بعد ذلك، وتولّى قيادةَ بني إسرائيل آخرون، واستقروا في المناطقِ المفتوحة من الأرض المقدسة. ولا يعنينا هنا الحديثُ عنهم في هذه المرحلة.

كلُّ ما نقولُه أنهم لم يكونوا جادين في الالتزام بشرع الله، ولا ثابتين على الحق، وإنما كانت تغلبُ عليهم طبيعتُهم القائمة على التفلت والتمرد والمخالفة والعصيان.

وقد أوردَ القرآنُ مثالاً لتمردِهم ومخالفتهم، بعدما استقروا في الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

وخلاصةُ معنى هذه الآيات: يخبرُنا اللّهُ عن بعض مخالفات بني إسرائيل، فلمّا مَنَّ اللّهُ عليهم بالنصر على أعدائهم، أَمرهم بشكرِه على تلك النعمة، وذلكَ بأن يَدخلوا بابَ القرية ساجدين شاكرين له، وأنْ يطلبوا منه وضعَ ذنوبهم وحطَّها ومغفرتَها، فإنْ فعلوا ذلك فإن الله سيستجيبُ لهم، ويغفرُ لهم ذنوبهم ويحطُّ عنهم سيئاتهم.

ولكن طبيعتَهم المتفلتةَ المتمردة تأبى عليهم الالتزام بأوامر الله، فلما نصرهم اللّهُ على أعدائهم، لم يدخلوا بابَ القرية ساجدين، وإنما دخلوا يزحفون على مؤخَّراتِهم وأَستاهِهم، كما يفعلُ الأطفالُ الصغار، وبدلَ أنْ يقولوا حطة قالوا: حبة في شعرة.

وبهذا بدَّلوا قولاً غيرَ الذي قيل لهم، وتمردوا على الأمرِ الرباني، وحَرَّفوه وغيّروه، وبذلك استحقوا العذابَ من الله.

ونرى أن الآياتِ أبهمت اسمَ القرية، فهي قريةٌ في الأرض المقدسة، ولعلَّ ذلك كان بعد فترةٍ من وفاةِ يوشع بن نون، في مرحلةِ

لاحقة من مراحل إقامتهم في الأرض المقدسة، بدليل أنَّ اللَّهَ عاجلَهم بالرِّجز والعذاب عقاباً لهم، ولم يكن ذلك العذابُ في عهدِ يوشع بن نون، والله أعلم.

تبديلهم أوامر الله قولاً وفعلاً والحديث في ذلك:

وقد وضَّحَ الرسولُ ﷺ مخالفتَهم لأمر الله التي أشارتْ لها الآيات.

روى البخاري ومسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»[1].

إن المخالفةَ عندهم هدفٌ بحدِّ ذاته، وإلا فما معنى «حبة في شعرة»؟ لا معنى لهذا الكلام، المهمُّ هو أنْ لايدخلوا بابَ القرية ساجدين، وأنْ لا يقولوا حطة!!

قال الإمامُ ابن حجر في شرح هذا الحديث:

«قال الحسن: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾: أي احطُطْ عنّا خطايانا.

وقيل: مسألَتُنا حطة.

فبدلَ الذين ظلموا بالذي قيلَ لهم قولاً غيرَ الذي قيل لهم، وقالوا: حبةٌ في شعرة.

وأكثر الرواة على رواية: «حبةٌ في شعرة».

وفي رواية الكشمهيني: «حبةٌ في شعيرة». من الشعير.

والحاصلُ أَنهم خالفوا ما أُمِروا به من القول والفعل: فإنهم أُمِروا بالسجود عند انتهائهم من الفتح، شكراً لله، وأُمروا بأنْ يقولوا حطة.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٤١. ومسلم برقم: ٣٠١٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٢.

فبدَّلوا السجودَ بالزحف، وقالوا: حنطة بدل حطة، أو قالوا حطة، وزادوا فيها حبة في شعيرة..»[1].

الله يعاقبهم بالرجز والطاعون:

لما بدَّلَ بنو إسرائيل أمرَ اللّهُ قولاً وفعلاً أوقعَ اللّهُ بهم العذاب، فأنزلَ عليهم الرجز: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وكان عقابُ اللّهِ لهم فورياً سريعاً، بدلالةِ الفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾، التي تدلُّ على الترتيبِ مع التعقيب الفوري، أي أنَّ إنزالَ الرجزِ عليهم كان بعد تبديلهم فوراً.

والرجزُ هو العذاب.

قال الإمام الراغب: «أصلُ الرجز: الاضطراب. ومنه قيل: رَجَزَ البعير رَجْزاً. وناقةٌ رجزاء: إذا تقاربَ خطْوُها واضطرب، لضعفٍ فيها»[2].

وسُميَ العذابُ رِجزاً، لأنه يقودُ إلى اضطرابِ وزلزلةِ وحركةِ القوم المعذبين.

والرجزُ في الآية مبهم، وقد بيَّنَه رسولُ الله ﷺ بأنه الطاعون.

روى البخاري ومسلم عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: الطاعونُ رجس، أرسلَ على طائفةٍ من بني إسرائيل ـ أو: على مَن كان قبلكم ـ فإذا سمعتُم به بأرض فلا تَقْدموا عليه، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تَخرجوا فراراً منه..»[3].

ولم يُفَصِّل الحديثُ في تعذيبهم بالطاعون، وإنما أَبقاه مجملاً،

---

(١) فتح الباري ٨: ٣٠٤ باختصار.

(٢) المفردات: ٣٤١.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٧٣. ومسلم برقم: ٢٢١٨.

فلا نعرفُ تفصيلاته، ولا نخوضُ في ذلك.

وهكذا كانت إقامةُ بني إسرائيل في الأرضِ المقدسة تقومُ على المخالفة والمعصية، وكان اللّهُ يعاقبهم بأنواعِ العقاب والعذاب، بسببِ فسقِهم وظلمهم، ويوقِعُ بهم غضبَه، ويُحِلُّ عليهم لعنتَه!!.

[٢]

قصة طالوت

أَقامَ بنو إِسرائيل في الأرضِ المقدسة «فلسطين» فترةً من الزمن، ولم يُقيموا في فلسطين كلِّها، وإِنما كانت إقامتُهم في جزءٍ منها، وكان أعداؤهم يقيمون في أَجزاءَ أُخرى منها.

وكان بينَهم وبين أَعدائهم حروبٌ ومعاركُ عديدة، مرةً ينتصرون، ومرةً ينتصرُ عليهم أعداؤهم.

هزيمة بني إسرائيل على أيدي أعدائهم:

وابتعدَ بنو إسرائيل عن شرعِ الله، وعصوا أنبياءَه، ووقعوا في المعاصي والمخالفاتِ والمنكرات، فأَوقعَ اللّهُ بهم عذابَه ونقمته.

وهذه المرحلةُ من تاريخهم مسكوتٌ عنها في مصادرنا الإسلامية الموثوقة، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديث الصحيحة.

وقد أَرَّخَ لها أحبارُ اليهود في أسفارِ العهد القديم، وبالذات في «سَفْر القُضاة» المكون من واحدٍ وعشرين إِصحاحاً، وذكروا في هذا السِّفر تفاصيلَ لأوضاعِهم وأحوالهم ومخالفاتهم وعقوباتهم، وحروبهم مع أعدائهم المجاورين لهم. ونقَلَ الإخباريون والمؤرخون عن أسفارِ العهد القديم أخبارَ هذه الفترةِ من تاريخهم.

ولا يعنينا الوقوفُ عند هذه الروايات، ونتوقفُ فيما توردُه لنا من أخبار.

وفي آخر هذه الفترةِ من تاريخ بني إسرائيل، وقعتْ حربٌ شديدةٌ بينهم وبين جيرانهم المقيمين في الأرض المقدسة، وكانت النتيجةُ لصالحِ هؤلاء، حيث غَلَبوا بني إسرائيل وهزموهم وأذلّوهم، وأَخذوا منهم «التابوت» المقدَّس الذي كانوا يحتفظون به.

وشعرَ بنو إسرائيل بالخطر، وأَرادوا التغيير، وبحثوا عن مخرج، وطلبوا من نبيِّهم الحل، فأخبرَهم أن الحلَّ في توحيدِهم تحتَ حكمِ مَلِك، وأنَّ الملكَ الذي رضيه اللّهُ لهم هو «طالوت» وتملَّكَ عليهم طالوت، وقادَهم إلى الظفر والنصر، وكان حكمه مقدمةً وتمهيداً لِمُلْكِ داود عليه السلام.

آيات قصة طالوت:

وقد ذُكرتْ قصةُ طالوت في آياتٍ من سورة البقرة.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟

مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢].

وقد فصَّلَ أحبارُ اليهودِ الكلامَ عن قصة طالوت وجالوت وداود، في سَفْري «صموئيل الأول والثاني» من أسفارِ العهد القديم، ولا يَعنينا ذلك التفصيل، لأنه من الإسرائيليات، التي نتوقفُ فيها ولا نقولُ بها.

وقد أَخبرنا اللّهُ في القرآن عن قصةِ طالوت، لنأخذَ منها العِبَر والعظات، ولهذا بدأتْ آياتُ القصة بدعوتِنا إلى النظرِ والتدبر والاعتبار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى . . .﴾.

والخطابُ موجَّهٌ في الظاهرِ لرسول الله ﷺ، لكنه ليس خاصاً به، بل يشملُ أمتَه من بعده، فكلُّ مسلم مدعوٌّ إلى تدبُّرِ قصةِ طالوت، والوقوفِ على دروسها ودلالاتها.

ووقعتْ هذه القصةُ بعد موسى عليه الصلاة والسلام، كما تصرحُ الآيات، أي أنَّ أحداثَها كانت في الأرضِ المقدسة.

وسنقدم تحليلاً للقصة، كما ذكرتْها لنا الآياتُ الكريمة:

رغبة بني إسرائيل في حرب الأعداء وطلبهم الملك من نبيهم:

تخبرنا الآياتُ أن بني إسرائيل قد هُزموا أَمام أعدائِهم قومِ جالوت، وتمكَّنَ أعداؤُهم من أخذِ بعضِ ما في أيديهم من الديار،

وسلبوهم التابوتَ المقدَّس الذي كانوا يحتفظونَ به، وهو أقدسُ ما يملكون.

وهذا التابوتُ ورثوه عن موسى وهارون عليهما السلام، وكان فيه بقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآل هارون، وفيه سكينةٌ من ربهم.

وبعدَ الهزيمة شعرَ بنو إسرائيل بمرارةِ الذلّ والهوان، ونظروا في أحوالهم التي أدتْ إلى هزيمتِهم، وأرادوا تغييرَها.

واتفقَ أفرادُهم مع قادتهم من الملأ، على ضرورةِ تغييرِ واقعهم السيء، وقتالِ أعدائهم، واستردادِ ديارهم وتابوتهم المقدس.

وخطا قادتُهم من الملأ خطوةً عمليةً نحو الإصلاح، فتوجَّهوا إلى نبيهم طالبين منه الحل.

وكان الحلُّ أن يتوحَّدوا تحت قيادةِ ملكٍ منهم، يجمعُهم ويحشدُهم، ويقاتلُ بهم أعداءَهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾.

وقد أَبهمت الآياتُ اسمَ ذلك النبي الذي لجأوا إليه، ولا نذهبُ إلى روايات العهد القديم لتبيين اسمِه.

وذهابُ الملأ القادة إلى نبيهم لحلّ مشكلتهم يعني رغبتَهم الصادقةَ في الحلّ، لأنَّ الحلَّ عند النبي فيما يوحي به اللّهُ له.

أَرادوا منه اختيارَ ملكٍ ليحكمهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وطلبُهم الملكَ دليلٌ أَنهم حتى هذه اللحظة كانوا متفرقين مشتتين، لا يخضعون لقيادةٍ واحدة، وكأنَّ كلَّ قبيلةٍ استقلتْ في بقعةٍ من الأرض.

وقد علمَ الملأُ أنه لا يمكنُهم مواجهةَ الخطر واستردادَ الديار وهم

متفرقون، فلا بدَّ أن تكون لهم قيادةٌ واحدة، تقودُهم للجهادِ في سبيل الله، ولهذا طلبوا من النبيِّ أنْ يختارَ لهم الملك.

والنبيُّ لا يختارُ الملكَ برغبته، وهم يعلمون ذلك، وإنما اللّهُ هو الذي يختارُ لهم الملك، ويبلِّغُ النبيَّ به، الذي يقومُ بإخبارهم، فاللّهُ هو الذي يبعثُ لهم الملكَ في الحقيقة.

نبيهم يحذرهم من النكوص عن الجهاد:

لما سمعَ النبي كلامَ الملأ وشاهدَ حماسهم واندفاعهم قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟. . .﴾.

وكأنَّ نبيَّهم لا يثقُ بحماسهم واندفاعهم، ولهذا يشكُّ في تنفيذهم والتزامهم، فهو يعرفُ طبيعتَهم، وعلى خبرةٍ بأحوالهم ومخالفاتهم.

ولهذا أَرادَ أنْ يُحذرهم من المخالفة في المستقبل عند تكليفِهم بالقتال، وجاءَ تحذيرُه بصيغةِ الاستفهام: «هل». وهو استفهامٌ للتحذير والتقرير. والمعنى: هل تقاتلون فعلاً عندما يُكتبُ عليكم القتال؟ إنني أَخشى أنْ لا تفوا بوعدكم عند فرضِ القتال عليكم، فإنكم أهلُ نكثٍ ونقضِ عهد!!

وجملةُ «ألا تقاتلوا» جوابُ الاستفهام، وهي جوابُ الشرط: «إن كتب عليكم القتال»، وهي خبر فعل «عسى».

قالَ الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور: «... وهذا من أَبدعِ الإيجاز. فقد حكى جُمَلاً كثيرة وقعتْ في كلام بينهم. وذلك أَنه قررهم على إِضمارِهم نيةَ عدم القتال، اختباراً وسَبْراً لمقدارِ عزمهم عليه. ولذلك جاءَ في الاستفهام بالنفي، فقال ما يؤدّي معنى «هل لا تقاتلون». ولم يقل: هل تقاتلون؟ لأنَّ المستفْهَمَ عنه وهو عدمُ قتالهم هو الطرف الراجح عنده..

ولذلك توقَّعَ منهم نبيُّهم عدمَ القتال، وحذَّرهم من ذلك عند فرضِ القتالِ عليهم.

وهدفُ نبيِّهم من كلامه تحريضُهم على القتال عند فرضِه عليهم، لأنَّ ذا الهمةِ يأنفُ من نسبتِه إلى التقصير، فإذا سُجِّلَ ذلك عليه قبلَ وجودِ دواعيه كان على حذرٍ من وقوعِه في المستقبل.

كما يقولُ مَنْ يوصي غيرَه: افعلْ كذا وكذا. وما أظنُّك تفعل[1]!!

فوجيءَ الملأُ بتوقُّعِ نبيِّهم نكوصَهم عن القتال عند تكليفهم به، فأرادوا طمأنتَه إلى أنهم سيقاتلون: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا؟...﴾.

أي: لماذا لا نقاتلُ في سبيل الله؟ وما الذي يمنعُنا منه؟ إنَّ كلَّ ما حولَنا يدعونا إليه، فقد توفرتْ لنا بواعثُه ودواعيه وأسبابه.

إنَّ أعداءَنا قد هزمونا، وأَخرجونا من ديارنا واحتلوها، وأَبعدونا عن أبنائنا.

ولما قال الملأ: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ لا يَعنون أَنفسهم، فهم مُقيمون في ديارهم، وهم بين أَبنائهم، وإنما يَعنون إِخوانَهم الذين أَسرهم أعداؤُهم، فلما تمَّ أَسْرُهم أُخرجوا من ديارهم وأُبعدوا عن أبنائهم.

وهدفُ الملأ من هذا الكلام إزالةُ خشيةِ نبيِّهم من عدمِ قتالهم، وإقناعُه برغبتهم الصادقةِ في القتال، لوجودِ أسبابه وبواعثه.

وقبلَ أنْ تستكملَ الآياتُ عرضَ مشاهد القصة عجَّلَتْ بذكرِ النتيجة، فقالت: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وتعجيلُها بذكرِ تولِّيهم ونكوصِهم للتعجيبِ منهم، ولتسجيلِ قبحِ وشناعةِ موقفهم، فهؤلاء المتحمسون المندفعون للقتال، قبل تكليفهم

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ بتصرف واختصار.

به، تولَّوا ونَكصوا عنه بعدما كُتبَ عليهم، وكانوا بذلك التولّي والنكوصِ ظالمين كاذبين ناقضين لعهدهم.

ولم يَفِ بعهدِه لنبيِّهم إلاّ قليلٌ منهم، ثَبتوا على موقفهم، وقاتلوا أَعداءَهم مع ملكهم طالوت.

بعدما طلبَ الملأُ المتحمسون المندفعون من نبيِّهم اختيارَ الملك، خرجوا من عنده، بانتظارِ اختيارِ الملك، وكانوا يطمعونَ أن يكونَ الملكُ واحداً منهم، وبخاصةٍ أَنه أولُ ملكٍ يتملكُ على بني إسرائيل، ويجمعُ كلَّ أسباطِهم وقبائلِهم تحت ملكه.

الله اختار لهم طالوت ملكاً:

وأَوحى اللّهُ إِلى نبيهم بأنه اختارَ لهم طالوتَ ملكاً!.

وطالوتُ هذا رجلٌ من عامتهم، وليس من الملأ، ولا من الأُسَرِ المتنفذة، ولا من أَصحابِ الجاه والزعامة. ومؤهلاتُه للملك هي ما ميَّزَه اللّهُ به من البسطةِ في العلم والجسم.

ولم تخبرْنا مصادرُنا الإسلاميةُ عن بيئةِ طالوت، ولا عن أُسرته، ولا عن بدايةِ أمره، فلا نعرفُ عن ذلك، ولا نذهبُ إِلى الإسرائيليات لنعرفَ منها ذلك.

فكلُّ ما نعرفُه أنه رجلٌ صالح، رجلٌ من عامة بني إسرائيل، اصطفاه اللّهُ عليهم، وفضَّلَه على زعمائهم وملئهم، وآتاهُ بسطةً في العلم والجسم وجعَلَه أولَ ملكٍ فيهم.

عادَ الملأُ إلى نبيهم فأَخبرهم أنَّ اللّهَ اختارَ لهم طالوتَ ملكاً! ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا..﴾.

وكأن نبيَّهم كان يتوقَّعُ اعتراضَهم على طالوت، فأكَّدَ لهم أنه لم يختره هو لهم، وإِنما اختارَه الله، وهو يبلِّغُهم أمرَ الله ووحْيَه.

ونلاحظُ أنَّ أنبياءَ بني إسرائيل يَعرفون طبيعةَ قومهم المتفلتة،

وسوءَ نظرتهم لأوامر الله، والتعامل معها بمزاجية، ولهذا يؤكِّدون لهم المصدرَ الربانيَّ الإلهيَّ لها، فهي أَوامرُ من الله، وليستْ من عند هؤلاء الأنبياء.

موسى عليه السلام كان يركِّزُ على هذا المعنى، كما في قولِه لهم - في قصةِ البقرة -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

والآن نبيُّهم يقولُ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

ومع يقينِهم أنَّ الأمرَ أمْرُ الله، إلاّ أَنهم كانوا يرفضونَه ويتحايلون عليه!.

اعتراضهم على ملك طالوت ومؤهلات الملك عندهم:

فلما علمَ الملأُ أنَّ اللّهَ اختارَ لهم طالوتَ ملكاً، اعترضوا على ذلك، ولم يرضوا بمن رضيَه اللّهُ لهم، ولم يَقبلوا من اختارَه اللّهُ لهم.

وكأنَّ اعتراضَهم على تملُّكِ طالوت اعتراضٌ على الله سبحانه، ورفْضٌ لاختياره سبحانه، إِنهم يريدون غيرَ ما أَراده الله، ويختارون غيرَ ما اختاره الله!!

ولهذا وجَّهوا كلامَهم لنبيهم منكرين عليه: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ؟﴾.

و«أَنى»: اسمُ استفهام بمعنى «كيف». والاستفهامُ للتعجبِ والإنكار. أي: كيفَ يكونُ له الملكُ علينا؟ وهو ليسَ من بيتِ الملك، وليس من زعمائنا وقادتنا؟

إِنَّ طالوتَ رجلٌ من عامةِ الناس، وهو رجلٌ فقير، لم يؤتَ سَعَةً من المال. فكيف يكونُ هو الملكَ علينا؟

نحنُ أحقُّ بالملك منه! فنحنُ ملأٌ وقادةٌ وزعماء، وقد أُوتينا أموالاً كثيرة!!

ونلاحظُ أنَّ ميزانَهم في وزنِ الزعيم ميزانٌ جاهلي، ومؤهلاتُ

الملكِ عندهم مؤهلاتٌ جاهليةٌ مادية، فالملكُ هو مَنْ كان مِنْ بيتِ الملك، ومِنْ أفرادِ الأسرة المالكة، وهو مَنْ مَلَكَ أموالاً كثيرة.

وهذان المؤهلان: بيتُ الملك وسَعَةُ المال أمران خارجيان عن شخصيةِ الإنسان، فأينَ مؤهلاتُه النفسيةُ الداخلية؟ وأينَ مواهبُه الفرديةُ المعنوية؟ أين علمُه وفطنتُه وذكاؤه وصحتُه؟ أين شخصيتُه وكيانه؟

لا قيمةَ لهذا عندهم، المهمُ أسرتُه وممتلكاتُه ورصيدُه المالي!!

واعتراضُهم على نبيهم لتملُّكِ طالوتَ عليهم هو بدايةُ «مسلسلِ التراجعِ والتفلتِ والنكوص، الذي تتابعَتْ حلقاتُه فيما بعد.

ردَّ نبيُّهم على اعتراضِهم قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾.

إنَّ نبيَّهم يقدمُ الميزانَ الإيمانيَّ الذي يوزَنُ به القادةُ والملوك، ويبينُ المؤهلاتِ الذاتيةِ الداخلية المعنوية التي يتمتعُ بها مَنْ يكون ملكاً قائداً.

وحتى يُزيلَ النبيُّ اعتراضَهم ونكوصَهم أكَّدَ على أنَّ اللّهَ هو الذي اصطفاه عليهم واختارَه لهم.

سبقَ أنْ قالَ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾. والآن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ..﴾.

فالأمْرُ أمْرُ الله، واللّهُ هو الذي اختاره واصطفاه ورضيه، فلماذا يرفضون تملُّكَه؟ ولا يَقبلون بمن اختارَه اللّهُ واصطفاه؟.

مؤهلات طالوت الإيمانية وبسطته في العلم والجسم:

ومؤهلاتُ طالوتَ للملك هي البسطةُ في العلم والجسم التي آتاهُ اللّهُ إياها: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾.

والبَسْطَةُ هي السَّعَةُ والزيادة. تقول: بَسَطَ، يَبْسُطُ، بَسْطاً وبَسْطة.

قال الإمام الراغب: «بَسْطُ الشيءِ»: نَشْرُه وتوسيعُه...

واستعارَ قومٌ البسطَ لكل شيء، لا يُتَصَوَّرُ وفيه تركيبٌ وتأليفٌ ونظم.

وقوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾: سَعَة.

وقال بعضُهم: بسطَتُه في العلم هو أن انتفعَ هو به، ونفعَ غيرَه، فصارَ له به بَسْطة، أي: جوداً»[1].

والبسطةُ لم تَرِدْ في القرآن إلاّ في موضعيْن، هذا هو الموضعُ الأول، والموضعُ الثاني في قصةِ هود عليه السلام مع قومه عاد، فعندما ذَكَّرَهم هودٌ عليه السلام نعمةَ اللّهِ عليهم، ذَكَرَ البسطةَ في أجسامهم. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ونلاحظُ أنَّ الله زادَ قومَ عادٍ بسطةً في خَلْقِهم وأجسامِهم فقط، فكانوا ضخامَ الأجسام، ولم يزدهم بسطةً في العلم، لأنهم ليسوا مؤمنين.

أما طالوتُ فقد زاده اللّهُ بسطةً في العلم والجسم، وجمعَ له بين الحُسنيين، لأنه مؤمنٌ صالح، يُعِدُّهُ الله ليكونَ ملكاً.

وتدلُّنا هذه الجملةُ ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ على المؤهلاتِ المطلوبة، والصفاتِ الضرورية، التي لا بدَّ أنْ تتوفَّرَ وتتحققَ في كلِّ مَنْ وليَ أُمورَ الناس، وكان إماماً قائداً حاكماً.

إِنها تقومُ على جانبين.

الجانبِ المعنويِّ النفسي، وهو «البسطةُ في العلم»، بمعنى أَن يتمتعَ بموهبةٍ وفطنةٍ وذكاء وبصيرة، وأنْ تكونَ له عقليةٌ علميةٌ واعية، ليحسنَ فهمَ الأُمور وتحليلَها والتعاملَ معها.

(١) المفردات: ١٢٢ ـ ١٢٣.

والجانبِ المادي، وهو «البسطة في الجسم»، بمعنى أنْ يتمتعَ بجسمٍ متينٍ قوي، صحيحٍ سليم، ليتمكَّنَ من القيامِ بواجبه، وقتالِ أعدائه، والقاعدة تقول: العقل السليم في الجسم السليم.

ووقفَ الإخباريون أمامَ بسطةِ جسمِ طالوت التي ذكرتْها الآية، ونظروا لها نظرةً أسطورية، فتخيَّلوه عملاقاً ضخمَ الجسم، طولُه عشراتِ الأمتار، ووزنُه مئاتِ الكيلوغرامات.

وهذه نظرةٌ خرافيةٌ أسطوريةٌ مرفوضة، فجسمُ طالوت كان عادياً، وبسطةُ جسمهِ تتمثلُ في قوتهِ ومتانتِه وتماسكِه وانسجامه، كما تتمثلُ في صحته وعافيته، وسلامةِ أعضائه، وقيامِ حواسِّه وأجهزتِه بعملها على أحسن ما يكون!.

إن اللّهَ هو الذي زادَ طالوتَ بسطةً في العلم والجسم، واللّهُ هو الذي اصطفاهُ لأجلِ ذلك، وفضَّلَه على الملأ من قومه، واللّهُ نزعَ الملكَ منهم، وآتاه طالوت.

واللّهُ هو مالكُ الملك، يُؤتي الملكَ مَنْ يشاء، ويَنزعُ الملكَ ممن يشاء، ولهذا قال لهم نبيهم: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

واختيارُ اللّهِ طالوتَ ملكاً، وهو من غيرِ بيتِ الملك، دليلٌ على أنَّ المُلْكَ ليس ميراثاً يورَثُ عن الأجدادِ والآباء، وعلى رفضِ الملكِ الوراثي، فالأصْلُ في الملكِ أو الحاكم أنْ يتمتعَ بصفاتٍ ومؤهلاتٍ معنوية تؤهلُه للملك، وأنْ يرضىٰ به الناسُ ويختاروه ليكون ملكاً عليهم!!

آية طالوت هي مجيء التابوت:

وبعدما وضَّحَ لهم نبيُّهم مؤهلاتِ طالوت ليكون ملكاً، أَرادَ إزالةَ ما بقيَ في نفوسهم من اعتراضٍ عليه، فقدَّمَ لهم آيةً ومعجزةً تدلُّ على أنَّ اللّهَ رضيه لهم ملكاً.

قـال تـعـالـى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

وكأنَّ الملأَ طلبوا منه الدليلَ على أن اللّهَ اختاره ملكاً، فذكَرَ لهم هذه المعجزة.

إنَّ الدليلَ على ذلك أن يأتيهم «التابوت».

وهذا التابوتُ معروفٌ لهم، بدليلِ إدخالِ «أَلْ» التعريفِ عليه. وهذا التابوتُ توارثوه منذُ أيام موسى وهارون عليهما السلام، وكان مقدساً عندهم، وكان فيه سكينةٌ لهم، وكانوا يَضعون فيه ما توارثوه منذُ عهدِ موسى وهارون عليهما السلام.

ويبدو أنَّ أعداءَهم لما هزموهم في آخرِ معركةٍ أَخذوا ذلك التابوت وما فيه من رموزٍ مقدسة عندهم، فشقَّ ذلك عليهم، ودفعَهم للرغبةِ في القتال.

وأَرادَ اللّهُ أنْ يُقدِّمَ آيةً لملكِ طالوت، بأنْ يأتيهم ذلك التابوت، الذي هو عند أَعدائِهم، وذلك ليخضعوا لطالوت، ويكونوا جنوداً عنده.

ما هو التابوت؟ وما الذي فيه؟ وكيف عاد إليهم؟:

و«التابوت»: اسمُ علمٍ أعجمي، غيرُ مشتق، فلا نبحثُ له عن معنى اشتقاقي في اللغة العربية. وهو اسمٌ لصندوقٍ خاص توضَعُ فيه الأشياءُ الثمينةُ النفيسة.

وأَخبرتْنا الآيةُ عن بعضِ ما في ذلك التابوت فقالت: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

والسكينةُ على وزنِ «فعيلة» من السكون، وهي بمعنى الطمأنينةِ والهدوء.

والراجحُ أن هذه السكينةَ أمرٌ معنوي، وليست شيئاً مادياً محسوساً، كما قالَ رواةُ الإسرائيلياتِ والأساطير.

فوجودُ التابوتِ بينهم يحققُ لهم السكينة والطمأنينة، لما يرمزُ إليه من معنى ديني مقدس، فعندما يشاهدونَه عندهم يطمئنون ويرتاحون، ويتفاءلون بحسنِ العاقبة، فيندفعون للقتالِ ضدَّ الأعداء.

يقال: سكنَ فلانٌ إلى كذا. إذا اطمأنَّ إليه، وسكنتْ نفسُه عنده.

والدليلُ على أنَّ السكينةَ نفسيةٌ معنوية تتمثلُ بوجودِ التابوتِ عندهم، أنها لم تَرِدْ في القرآنِ إلاّ بهذا المعنى النفسي.

وقَد أنزلَ اللّهُ السكينةَ على الصحابةِ رضوان الله عليهم، عندما بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، تحتَ الشجرة، في صلحِ الحديبية.

قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وبينما كانتْ قريشٌ في الحديبية تتصرفُ انطلاقاً من حميةِ الجاهلية، فيبدو تصرُّفُهَا حاداً متوتراً انفعالياً عصبياً، كان الصحابةُ يتصرفون انطلاقاً من تلك السكينة، فيبدو تصرفُهم هادئاً موضوعياً. قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

فهذه السكينةُ التي أنزلَها اللّهُ على الصحابة معنويةٌ نفسية، وهذا يدلُّ على أنَّ السكينةَ كانت تحصلُ لبني إسرائيل عندما يشاهدون التابوت عندهم، فيهدءون ويطمئنون.

وفي ذلك التابوتِ أشياءُ ماديةٌ ثمينة مقدسة، كان بنو إسرائيل

يحتفظون بها ويحرصون عليها: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾.

والبقيةُ هي: الشيءُ الباقي، الذي يتبقّى من الشيء بعد انقضاءِ وزوالِ معظمه.

وهذه البقيةُ هي ما تبقّى مما تركَهُ آلُ موسى وآل هارون، لكن هذه البقيةَ مبهمةٌ غيرُ مبينة في الآية.

ولم يَرِدْ حديثٌ صحيح في تحديدِها وبيانها، ولذلك نتوقفُ في ذلك، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات من أجلِ بيانِها وتحديدِها.

إنَّ كلمةَ «بقية» في الآية نكرةٌ منوَّنة، وهذا التنوينُ والتنكيرُ للإبهام، وكأنَّه يدعونا إلى عدمِ الخوض في التحديدِ والتبيين.

ونصت الآيةُ على أنَّ الملائكةَ هي التي حملتْ ذلك التابوت، وأتتْ به من عندِ أعدائهم، ووضعَتْه عندهم: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾.

وجملة ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ حالية، في محلِّ نصبِ حال، تبينُ حالةَ وكيفيةَ مجيء التابوتِ إليهم: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾.

وما بينَ هاتين الجملتين في الآية جملةٌ معترضة: ـ ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ ـ. وهذه الجملةُ المعترضةُ لبيانِ بعضِ ما في التابوت، وبيانِ أثره في بني إسرائيل وأهميته لهم.

وتَحققت الآيةُ المعجزة، وحملت الملائكةُ التابوت، وأتتْ به إلى بني إسرائيل، وبذلك عادَ تابوتُهم لهم.

ولم تُبين الآيةُ كيفيةَ حملِ الملائكة للتابوت، ولا كيفيةَ وصولِ التابوت إلى بني إسرائيل، فهذه تفصيلاتٌ ليست مهمة، ولهذا سكتَ عنها القرآن.

ولسنا معَ الذين ذهبوا إلى الإسرائيليات ورواياتِ العهد القديم، وأَخذوا منها كيفيةَ عودةِ التابوت إِلى بني إسرائيل.

ولما شاهدَ بنو إسرائيل التابوتَ عادَتْ لهم السكينةُ والطمأنينة، وعلموا أن اللَّهَ هو الذي رضيَ لهم طالوتَ ملكاً، بدليلِ ما قدَّمَ من آيةٍ دالةٍ على ذلك، فرضوا به على مضض!!

وهكذا تملَّكَ طالوتُ المؤمنُ الصالح الفقيرُ على بني إسرائيل، وصارَ بذلك أولَ ملكٍ فيهم، فهو «مؤسسُ» المملكةِ الإسرائيلية.

طالوت يعد قومه للجهاد ويخرج بهم للمعركة:

وعملَ طالوتُ على توحيدِ قبائلِ وأسباط بني إسرائيل، وإنشاءِ مملكته في الديارِ التي تحتَ أيديهم، وحكمَ فيهم بشرعِ الله.

وقامَ طالوتُ بإعدادهم للجهادِ في سبيل الله، والاستعدادِ للمعركة الفاصلةِ بينهم وبين أعدائهم، وبذلَ في ذلك جهداً كثيراً شاقاً، لأنه يتعاملُ مع قوم لا يتجاوبون مع مَنْ يربيهم ويُعِدُّهم ويرتقي بهم نحو الأعلى.

ولما انتهى الملكُ طالوتُ من تعبئةِ وإعداد قومه، توجَّهَ بهم للمعركةِ الفاصلةِ مع أعدائهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾.

ومعنى «فصلَ طالوت بالجنود»: خرجَ بالجنودِ من بين الناس، وابتعدَ عن أماكنِ إقامتهم، وقطعَ بهم مسافةً بعيدة، متوجِّهاً بهم إلى أرض المعركة.

وأَصْلُ «الفصل» هو: القطع. يقال: فصَلَ الرجلُ مكان كذا، إذا قطعَ ذلك المكانَ وتجاوَزَه إِلى غيره.

وفِصالُ الصبيِّ فِطامُه، لأنه يُقطعُ عن اللبنِ والرضاع.

والقولُ الفصل هو: الذي يَقطعُ ويفصلُ بين الحق والباطل.

طالوت يمتحنهم بماء النهر:

وكانَ في طريقِ طالوت إلى أرض المعركة نهر، وأرادَ طالوتُ أنْ يُربيَ جنودَه تربيةً جهادية، ويُقوِّي إرادتَهم، فطلبَ منهم أنْ لا يشربوا من النهرِ شرباً كثيراً للارتواء، وأجازَ للواحدِ منهم أنْ يغترفَ بيده غرفةً واحدة من ماء النهر، ويرفعَها إلى فمه ليشربَها: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾.

وهذا النهرُ مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لم تردْ تسميتُه في آياتِ القرآن، ولا في حديثٍ صحيح، فلا نخوضُ في تبيينه وتحديدِه، وغايةُ ما نقولُ فيه: هو نهرٌ من أنهارِ الأرضِ المقدسة، كان يَجري في ذلك الزمان، وقد يكون هذا النهرُ نهرَ الأردن، وقد يكونُ غيرَه.

وطالوتُ أَخبرهم أن اللّهَ هو الذي يبتليهم بعدمِ الشربِ من النهر، ويمتحنُهم ويختبرُهم بذلك، ليُظهِرَ للمؤمنين المطيع، ويَكشفَ العاصي المخالف.

وإسنادُ طالوتَ الابتلاء إلى الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ ليوجِدَ عند الجنود الاستعدادَ للالتزام، على اعتبارِ ذلك الأمرَ من عند الله، بهدفِ ابتلائهم وامتحانهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ اللّهَ هو الذي أمرَ طالوتَ بتكليفهم بعدمِ الشرب من النهر، ولا نعرفُ كيف، فلم يَرِدْ نصٌّ صحيحٌ في نبوةِ طالوت، حتى يأتيه الوحي بذلك من عند الله، ولعلَّ هذا يدلُّ على أنَّ النبيَّ الذي أَخبرَ بمُلكه كان خارجاً مع الجنود، وهو الذي بلَّغَ طالوتَ أمرَ الله!.

كان كلامُ طالوتَ في عدمِ شربهم من النهر واضحاً: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾.

أي: مَنْ شربَ من النهر شرباً، وعَبَّ منه عَبّاً، فهذا ليسَ مني. أي: ليس من أهلِ ولايتي ولا طاعتي، ولا من المقرَّبين عندي.

والظاهرُ من كلامِ طالوت أَنه أرادَ أَنْ «يُفْرِزَ» جيشَه على أساسِ امتحانِهم بالشرب من النهر. فنهاهم عن الشربِ والعَبِّ من الماء إلى حدِّ الارتواء، وأجازَ لكلِّ جنديٍّ أَنْ يغترفَ غرفةً واحدةً بيده.

وعلى أساسِ الالتزامِ بهذا الأمر يكونُ فرزُ الجنود.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾: فالذي يشربُ ويعبُّ ويرتوي من الماء يفقدُ حقَّه في الجندية، ولا يكونُ جندياً في جيشي المؤمنِ المجاهد، ولا يكونُ منّي ولا من أهلِ طاعتي، لأَنه في شُربه من النهر يكونُ قد عصى الله وخالَفَ أمره، ورسبَ في الابتلاء والامتحان، ونحن مُقْدِمون على معركةٍ مع الأعداء، لا ننتصرُ فيها إلا بطاعةِ الله، وإذا كان في جنودِنا مَنْ عصى الله، فقد يكونُ السببَ في الهزيمة، ولذلك مَنْ شربَ من النهر فلينفصلْ عنا وليتركْنا!!

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾: الذي التزمَ بأمْرِ الله، ولم يشربْ من النهر ولم يَطْعَمه ويَذُقْه، فهذا جنديٌّ ثابتٌ ملتزم، منفذٌ لأمرِ الله، وبهذا يصلحُ لأن يكونَ جندياً من جنودي المجاهدين، وهو ناجحٌ في الابتلاء والامتحان، وعندما يقاتِلُ الأعداءَ ينصرُه الله لالتزامِه وانضباطه.

ومن حكمةِ طالوت وموهبتِه القيادية أَنه أَجازَ لكلِّ جنديٍّ أَنْ يغترفَ بيده غرفةً واحدة فقط: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾.

هذه الغرفةُ بيدِه يبلُّ بها ريقَه، ويأخذُ بها بعضَ حاجتِه إلى الماء، وهي استثناءٌ من النهيِ العامِّ عن الشرب، ليتركَ للجنديِّ مجالاً للحركة،

ولا يُغلقَ عليه الأمرَ من جميعِ الجهات. وقديماً قيل: إِذا أَردتَ أَنْ تُطاعَ فاطلبْ ما يستطاعُ!!.

حكمة التعبير عن الشرب بالطعم:

ونلاحظُ أَنَّ الآيةَ جمعتْ بينَ الطَّعْم والشُّرب: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ...﴾.

وكان المتوقَّعُ أَنْ يُستعملَ الشربُ في جانبِ النفي أيضاً: فمن شربَ منه فليس مني، ومن لم يشربْ منه فإنه مني.

فلماذا استعملَ الطَّعْمَ في جانب النفي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾؟ مع أَنَّ الطَّعْمَ يُستعملُ في الإِطعام والأكل، وليس في الشرب!!

قالَ الإمامُ الراغب: «الطَّعْمُ تَناولُ الغذاء، ويُسمّى ما يُتناولُ منه طَعْمٌ وطَعام..

وقد يُستعملُ «طَعِمْتُ» في الشراب، كقولِه: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ..﴾.

وقالَ بعضُهم: إنما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾، تنبيهاً على أَنه محظورٌ عليه أَنْ يتناولَ الماءَ إلاّ غرفةً باليد مع طعام، كما أَنه محظورٌ عليه أَنْ يشربه، إلاّ غرفة باليد.

فإِنَّ الماءَ قد يُطْعَمُ إذا كانَ مع شيء يُمْضَع. ولو قال: ومَنْ لم يشربه، لكانَ يقتضي أَنْ يجوزَ تناولُ الماءِ الكثير إذا كانَ في طعام!

فلما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ بَيَّنَ أَنه لا يجوزُ تناوُلُه لا شُرباً وحده، ولا مع الطعام، إلاّ إذا كان غرفة باليد...»[1].

وخلاصةُ كلام الراغب أَنَّ طالوتَ نهى عن شربِ الماء لوحده في قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، ونهى عن شربِ الماء ممزوجاً مع

---

(١) المفردات: ٥١٩ بتصرف للتوضيح.

الطعام في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾. واستثنى غرفةً باليدِ في حالةِ الشرب المجرد، أو في حالةِ المزجِ مع الطعام.

وهناك توجيهٌ آخرُ للتعبيرِ عن عدم الشرب بعدمِ الطُّعم: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾. وهو أنَّ الطَّعْمَ قد يردُ بمعنى الذوق، ولَيس بمعنى الأكلِ والطعام. تقول: طَعِمت الأكل. أي: ذقْتُه. وطَعِمت الماء. أي: ذقْتُه أيضاً.

فهنا أَرادَ طالوتَ أنْ لا يذوقوا الماءَ إلاّ غرفةً يغرفُها أَحدهم بيده.

علماً أن الماءَ قد يكون مطعوماً، وقد يُغني صاحبَه عن الطعام - إلى حين - إذا لم يَجدْ إلا هذا الماء، فيسدُّ الماءُ مسدَّ الطعامِ والشرابِ في هذه الحالة.

شرب الأكثرية وتركهم للجيش:

ولذلك لما شربَ أكثريةُ الجنود من النهر، اعتبروه شراباً واعتبروه طعاماً، وسدَّ مسدَّ الطعامِ والشراب عندهم، وتفاعَلوا معه كأنَّهم أكلوه أكلاً كما شربوه شرباً.

ومن حكمةِ نهيِ طالوتَ للجنودِ عن الشرب من النهر، أنَّ السيرَ إلى الحرب يؤدي إلى عطشِ الجنود، فإذا شربوا الماءَ الكثيرَ قبل خوض المعركة، ضَعُفوا وتكاسلوا وقُضيَ على نشاطهم، وأَثقلَهم الماءُ وأقعدَهم، فكيف يحاربون وهم على هذه الصورة؟

فأرادَ طالوتُ أنْ يُبقيهم على نشاطِهم وحماسهم وقوتهم، ولما أباحَ للواحدِ منهم شربَ غرفةٍ واحدة بيده، أرادَ له أنْ يأخذَ حاجتَه الضروريةَ من الماء، بدون أنْ تقضيَ على نشاطِه وقوته.

كان تكليفُ طالوتَ للجنودِ واضحاً مفهوماً: لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يشربَ من ماءِ النهر شُرباً وعباً، ويجوزُ للجنديِّ أن يأخذَ غَرفةً واحدة بيده، وكلُّ مَنْ خالفَ هذا التكليفَ وشربَ من النهر، فلْيعدْ إلى الديار، ولْيترك الجيش ولا يَسِرْ إلى المعركة.

ماذا كان موقفُ الجنود من هذا التكليف؟ الجنودِ الذين كانوا متحمسين للجهاد، والذين أَعدهم طالوتُ للجهاد! إِنهم يعلمون أَنهم يَفقدون جنديتَهم في الجيشِ المجاهد عندما يَشربون من النهر، فهل استعلوا على هوى نفوسهم؟ وهل التزموا بالتكليف؟

كلاّ، لقد تصرفوا مع التكليفِ وفقَ طبيعتهم المعوجَّة، القائمةِ على التفلت والمخالفة، ولو أدى ذلك إِلى تركِ الجيش! ولم يلتزمْ بالتكليفِ إلا أُناسٌ قلائل منهم. قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ..﴾.

طالوت يسير بالأقلية للمعركة:

وعددُ الأكثريةِ المخالفةِ التاركةِ للجيشِ مبهم، وعددُ الأقليةِ الملتزمة المنضبطةِ مبهم أَيضاً، لم يَرِدْ تحديدُ عددِ كلٍّ منهما في حديث صحيح، ولذلك لا نبحثُ فيه.

المهمُّ هو تصرُّفُ الجنودِ العجيب، فأكثريتُهم خالَفوا وعصوا، وبذلك تَركوا الجيش، وعادوا إِلى قومهم. والأَقليةُ القليلةُ هي التي التزمتْ وانضبطت.

وبذلكَ فقدَ طالوتُ معظمَ الجنود، ولم يَبْقَ معه إِلا القليل.

ماذا فعلَ طالوت؟ هل تخلّى عن المعركة عند فقْدِ معظمِ الجيش؟ إِنه مؤمنٌ متوكلٌ على الله، وهو حكيمٌ ذو بسطةٍ في العلم، وهو ملكٌ قويٌّ وقائد حازِم، لا تؤثرُ فيه المفاجآت، ولا تَقضي على همته الحوادث.

ولذلك استمرَّ في السيرِ نحو المعركة معتمداً على الله، وأَخَذَ معه الأقليةَ الصالحة، وجاوزَ بهم النهر.

جبن معظم الأقلية لما شاهدوا جنود جالوت:

ساروا باتجاهِ المعركة، ولما وصلوها شاهَدوا الأعداءَ بقيادةِ

جالوت الكافرِ كثيرين، ونظروا إلى أنفسهم فإذا بهم قلائل، وهنا حدثَتْ مفاجأةٌ أُخرى خطيرةٌ مذهلة. أخبرَ اللّهُ عنها بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ...﴾!!

قبلَ خوضِ المعركة الفاصلة تنقسمُ هذه الأقليةُ إلى قسمين، ويحدثُ في الجيشِ القليل «فَرْزٌ» جديد!

فأين ذهبتْ اندفاعةُ الجماهيرِ الإسرائيلية للجهاد؟ وأين ذهبَ حَماسهم للجهاد؟ هذه هي النتيجة!!

لقد كانَ نبيُّهم حكيماً صاحبَ فراسة، عندما أَخبرهم أنه يتوقعُ منهم النكوصَ عن الجهاد: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾؟ والآن ها قد حصلَ ما توقَّعه من قبل، فحصلَتْ تصفيتان للجيشِ المعَدِّ للجهاد، عندَ النهر عادَ معظمُ الجيش الشاربين من الماء، والآن ها هي التصفيةُ الثانية!!.

التصفية الثانية في جيش طالوت وتركهم المعركة:

المؤمنون القلائلُ الذين عبروا النهرَ مع طالوت ينقسمونَ إلى قسمين:

قسمٌ نكصوا عن القتال، ورفضوا خوضَ المعركة، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

وقسمٌ ثبتوا على القتال، وصَمَّموا على دخولِ المعركة مهما قَلَّ عددهم، وهم الذين يظنون أَنهم ملاقوا الله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

لم يُحسن الناكصون عن القتال النظرَ إلى حقيقةِ القوى في

المعركة، فرغمَ أنهم تجاوزوا الامتحانَ الأولَ بنجاح، ولم يشربوا من النهر، إلاّ أَنهم أخفقوا في الامتحان الثاني، وسيطرَ عليهم الجبنُ والفزعُ والهلعُ لما شاهدوا جنودَ طالوت الكثيرين، ونظروا إلى المعركةِ وأطرافها نظرةً ماديةً عددية حسابية. إنَّ عددَهم قليل، وإنَّ عددَ جيش جالوت كثير، وبالمنطقِ الحسابي الماديِّ الكثيرُ أَقوى من القليل، ولهذا النتيجةُ محسومةٌ لصالحِ جالوت، فلماذا يُتعبون أنفسهم بالقتال؟

لذلك قرروا عدمَ القتال، وأَعلنوها صراحة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، ولذلك لن نقاتلَهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ جيشَ جالوت الكافرَ كان أكثرَ عدداً من جيش طالوت المؤمن.

عدد الثابتين مع طالوت بعدد الصحابة في بدر:

وبعدَ هذه التصفيةِ الثانية، لم يَبْقَ مع طالوت إلا فئةٌ قليلةٌ مؤمنةٌ مجاهدة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

كم عددُ هذه الفئة القليلة المؤمنة؟

روى البخاريُّ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: كنّا أَصحابَ محمدٍ ﷺ نتحدثُ: أنَّ عدةَ أصحابِ بدر على عدةِ أَصحاب طالوت، الذين جاوَزوا معه النهر، ولم يجاوِزْ معه إلا مؤمن، بضعةَ عشرَ وثلاثَ مئة[1].

إنَّ البراءَ بن عازب رضي الله عنه يخبرُ أنَّ عددَ الصحابة في معركة بدر، كعددِ جيش طالوت. أي أنَّ عددَ جيشِ طالوت الذين حاربوا جالوت معه كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٥٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٨.

وهذا من كلامِ البراء رضي الله عنه، فهو موقوفٌ عليه، وليس مرفوعاً للرسول ﷺ، لأنَّ البراءَ لم يصرحْ برفعه.

مقياس الثابتين الإيماني في الجهاد:

وقد وصفت الآيةُ الثابتين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ فما المرادُ بلقاءِ الله؟ ولماذا عَبَّرَ عنه بالظن؟

ليس المرادُ بلقاءِ الله لقاءَه يوم القيامة، فهذا يقينٌ جازمٌ عند كلِّ مؤمن، لا ظنَّ فيه. فكلُّ مؤمنٍ يوقنُ ويجزمُ أنه لا بد من البعثِ يوم القيامة، وأنه سيبعثُ حياً من قبره، وسيلاقي اللّهَ ليحاسبَه على عمله.

المرادُ بلقاءِ الله هنا الموتُ في المعركة، بأنْ يُقْتَلَ المجاهدون في الميدان، ويَنالوا الشهادةَ في سبيله، ويلقوا وجْهَه شهداء.

وهذا الأمرُ ظنٌّ واحتمال، وليس جزماً قاطعاً أكيداً، فمنْ دخلَ المعركةَ فقد يُقتلُ فيها ويلقى وجهَ الله شهيداً، وقد يخرجُ منها حياً.

وهؤلاء المجاهدون كانوا يَرجون أنْ ينالوا الشهادة، ويَطمعون أنْ يلقوا اللّهَ شهداء، ولهذا يَحرصون على القتالِ لينالوا هذا الشرف، ولكنهم لا يَجزمون بذلك، لأَنهم يعلمون أنَّ الأعمارَ بيد الله.

إذن معنى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾: قال الذين كانوا يَرجون أنْ يُلاقوا اللّهَ شهداء، ويطمعون في أنْ يموتوا في المعركة لينالوا الشهادة.

ماذا قالَ هؤلاء الطامعون في الشهادة؟ قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

و«كَمْ» هنا هي للتكثير. وتسمّى عند النحويين: «كم» الخبرية. أي: هناك نماذجُ كثيرةٌ في التاريخ، انتصرتْ فيها الفئةُ القليلةُ المؤمنة على الفئةِ الكثيرة الكافرة، انتصرتْ بإذنِ الله، لأنها توكلتْ على الله، وصبرتْ على القتال، فنصرها الله، لأنَه مع الصابرين.

إنَّ مقياسَ هذه الفئة المؤمنة غيرُ مقياسِ الناكصين المادي، إنه الإيمانُ بالله، والتوكلُ على الله، والصبرُ على مواجهة أعداء الله، وطلبُ النصر من الله.

هذه هي حقيقةُ القوة في المعركة، وهذا شرطُ الانتصارِ فيها، أما العددُ الحسابي، فلا قيمةَ له في ذلك، ولذلكَ كثيراً ما تنتصرُ الفئةُ القليلةُ المؤمنة على الكثرةِ الكثيرة الكافرة.

وهذه النظرةُ الإيمانيةُ البصيرة هي سرُّ ثباتِ هؤلاء المجاهدين القلائل، وعلوِّ هممهم، وعظمةِ عزائمهم، فلم تُرهبهم كثرةُ جنودِ جالوت، ولم يُضعفْهم تراجعُ قومِهم الإسرائيليين في التصفيتين السابقتين، ولذلك صمموا على قتالِ الكفار رغمَ قلةِ عددهم، مستعينين بالله.

وهكذا دخلَ طالوتُ المعركةَ الفاصلة ضدَّ جالوت بهذه الأقلية المؤمنة.

توجههم إلى الله بالدعاء وترتيب دعواتهم الثلاثة:

وقبيلَ نشوبِ القتال توجَّهَ المؤمنونَ إلى الله بالدعاء. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

ومعنى ﴿بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ﴾: دخلوا أرضَ المعركةِ البارزةِ الواضحة المستويةِ المكشوفة، استعداداً لملاقاة الجيشِ الكافر وقتالِه.

لقد اعتمدوا على الله، لأنه هو القوي، فاستمدّوا منه القوة، ووصلوا حَبْلهم به، وهذا من فطنتِهم وبصيرتِهم وقوةِ إيمانهم.

وهناك لفتةٌ في ترتيبِ جُمَلِ الدعاء الثلاثة: الصبر، وتثبيت الأقدام، والنصر على الكافرين.

إن هذه الجملَ الثلاثةَ مرتبةٌ ترتيباً مرحلياً، وكلُّ واحدة مبنيةٌ على ما قبلها.

أولُ ما يحتاجه المجاهدون هو الصبر، ولهذا قال هؤلاء المجاهدون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾. الصبرُ بمفهومِه الشامل، ومنه الصبرُ على مواجهةِ الأعداء وقتالهم.

والصبرُ في المعركة مقدَّمٌ على ثباتِ الأقدام فيها، وهو سلاحٌ معنويٌّ نفسي ضروريٌّ للمجاهدين، والسلاحُ الإيمانيُّ المعنوي مقدَّمٌ على السلاح المادي.

ونلاحظُ أن هؤلاء المجاهدين استعلوا على متاعِ الدنيا، وطلبوا ما عندَ الله. فعندما رأوا النهر، واحتاجوا إلى الماء، اكتفى كلٌّ منهم بأنْ يغترفَ غرفةً واحدة بيده، يبلُّ بها ريقه، بينما الصبرُ يريدون منه الكثير، ولذلك يطلبونَ من الله أنْ يُفرغَه عليهم إفراغاً، ويصبَّه عليهم صباً، ليشملَ كيانَهم، ويستغرقَ ويستوعبَ محيطَهم.

وإفراغُ الصبر عليهم يقودُ إلى ثبات أَقدامِهم في الميدان، واستبسالهم في الجهاد، وعدمِ الهرب من الحرب: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾.

فلن تثبتَ إلاّ أَقدامُ الصابرين، أما الجبناءُ الخائفون الجزعون فلن تثبت أَقدامُهم في الميدان، ولهذا يولّون الأدبار.

وإذا ما صبرَ المجاهدون، وثبتتْ أَقدامُهم في الميدان، فإنهم يكسبونَ المعركة، وينتصرون على الأعداء، ولهذا طلبوا من الله النصرَ في آخرِ الأمر: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

إنَّ النصرَ في المعركة نتيجةٌ لما قبله، ولن يتحققَ إلا إذا تحققَ ما قبلَه، فلن ينتصرَ إلا الصابرون على المواجهة، الثابتونَ في المعركة.

وقد طلبَ المجاهدون من الله أنْ ينعمَ عليهم بالأمورِ الثلاثة: إفراغِ الصبر، وتثبيتِ الأقدام، والانتصارِ على الكافرين. ولهذا أُسندت الأفعالُ الثلاثة إلى الله: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وطلبُهم هذه الخطواتِ الضرورية الثلاثة من الله، دليلٌ على قوةِ إيمانهم بالله، وقوةِ اعتمادهم وتوكلهم عليه.

وهم في هذا الموقفِ الإيماني الجهادي العظيم مقتدون بإخوانِهم المجاهدين، الذين قالَ الله عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤٧) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

قتل داود لجالوت ينهي المعركة لصالح المؤمنين:

وخاضَ طالوتُ وأتباعُه القلائلُ المعركة، وحاربوا جالوتَ وجنودَه، معتمدين على الله، مستنصرين به.

وأثناءَ المعركة برزَ جنديٌّ مجاهدٌ من بينهم، وتوجَّه نحو قائدِ الكفار جالوت، وهو داود. وقاتلَ داودُ جالوتَ فقتلَه.

وبذلكَ حُسمت المعركةُ لصالحِ القلة المؤمنة، وهُزمت الكثرةُ الكافرةُ بعد مقتلِ قائدِها جالوت، ونصرَ اللّهُ طالوتَ والذين معه.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ..﴾.

إنَّ الآياتِ حريصةٌ على إسنادِ الأمور إلى الله، فاللّهُ هو الفاعلُ المقدرُ المريدُ سبحانه، هو الذي ينصرُ أولياءَه، وهو الذي يهزمُ أعداءَه.

لقد هَزَمَ طالوتُ وأتباعُه جيشَ جالوت بإذنِ الله، وانتصروا عليهم بأمرِ الله، وما النصرُ إلا من عند الله.

ولم تُفصل الآياتُ في الحديث عن قتلِ داودَ لجالوت، وإنما ذَكرتْ ذلك في جملة موجزة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

ثم ذَكرتْ ما أنعمَ اللّهُ على داودَ بعدَ ذلك: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾.

وهذا أولُ ذكْرٍ لداود، وأولُ ظهورٍ تاريخيٍّ له.

وهذا يدلُّ على أنَّ داودَ كان جندياً في جيشِ طالوت، وكان من القلةِ المؤمنةِ المجاهدة، ولعلَّ هذا كان قبلَ نبوته عليه الصلاة والسلام.

ولم تذكرْ لنا الآياتُ كيفيةَ انضمام داود إلى جيش طالوت، ولم تذكرْ لنا عملَه قبلَ ذلك، كما أنها لَم تُفصِّلْ لنا كيفيةَ قتلِ داودَ لجالوت.

كذلك لم يَرِدْ ذكْرٌ لهذا في الأحاديثِ النبوية الصحيحة، فنعتبرُ هذا من مبهماتِ القرآن، التي لا نذهبُ إلى الإسرائيليات من أجلِ بيانِها وتوضيحها.

لقد فَصلت الإسرائيلياتُ ورواياتُ العهدِ القديم كثيراً في بدايةِ أمر داودَ عليه السلام، وفي مهنتِه وعمله، والتحاقِه بجيش طالوت، وسلاحِه البدائي الذي كان معه، كما فَصلتْ أكثر في كيفيةِ خروجه لجالوت، وهجومِه عليه وقتلِه له. وقد أَغرتْ هذه التفاصيلُ الإسرائيليةُ بعضَ المؤرخين والمفسرين، فأوردوها في تفاسيرِهم ومؤلفاتهم.

ونحن ندعو إلى عدمِ ذكرِ وإيرادِ ذلك، والتوقفِ فيه، والاكتفاءِ بما وردَ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ الصحيحة.

وبهذا انتهت المعركةُ الفاصلةُ بين طالوت وأَتباعِه المؤمنين وجالوت وجنودِه الكافرين، انتهتْ بنصرِ الله للمؤمنين، وهزيمتِه للكافرين.

سنة الله في التدافع بين المؤمنين والكافرين:

وقد عقبت الآياتُ على المعركةِ ونتيجتها بذكْرِ سنةٍ من سننِ الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إنها سنةُ المدافعة بين الناس، التي ينتجُ عنها ذهابُ الضعيف، وبقاءُ القويِّ الصالح.

ومعنى هذه الجملةِ القرآنية المعجزة ـ كما ذكرَ الإمامُ محمد رشيد رضا ـ: «لولا أن اللّهَ تعالى يدفعُ أهلَ الباطل بأهل الحق، وأهلَ الفسادِ في الأرض بأهل الإصلاح، لغلبَ أهلُ الباطلِ والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين، وأوقعوا بهم، حتى يكونَ لهم السلطانُ وحدَهم، فتفسدَ الأرضُ بفسادهم.

فكان من فضلِ الله على العالمين، وإحسانِه إلى الناس أجمعين، أنْ أذنَ لأهلِ دينهِ الحق، المصلحين في الأرض بقتالِ المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين.

فأهل الحقِّ حربٌ لأهلِ الباطل في كلِّ زمان، واللّهُ ناصرهم، ما نصروا الحقَ وأرادوا الإصلاحَ في الأرض.

وقد سُمي هذا دفعاً ـ على قراءة الجمهور ـ باعتبارِ أَنه منه سبحانه، إذ كانَ من سننه في الاجتماع البشري. وسُمي دفاعاً ـ في قراءة نافع ـ باعتبارِ أنَّ كلًّا من أهلِ الحق المصلحين وأهلِ الباطل المفسدين يقاومُ الآخر ويقاتلُه...»[1].

قصة طالوت دليل على النبوة والرسالة:

وبعدما ذَكرت الآياتُ قصةَ طالوت اعتبرتْها دليلاً على نبوةِ محمد ﷺ، واعتبرتْ ذكرَها في القرآن دليلاً على أن القرآنَ كلامُ الله. قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

أي: أخبرَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ بقصةِ طالوتِ وجالوت، وأوردَها في آياتِ القرآن، وهذا يدلُّ على أن القرآنَ كلامُ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

---

(١) تفسير المنار ٢: ٤٩١.

ووجْهُ دلالتِها على ذلك أنَّ محمداً رجلٌ عربيٌّ أمي، لم يطَّلِعْ على أخبارِ السابقين، ولم يتعلمْ عند أهلِ الكتاب، وإنَّ تفاصيلَ قصةِ طالوت لا يعلمها إلا أهلُ الكتاب، وليس عندَ العرب علمٌ بها. فلو لم يكن محمدٌ ﷺ نبياً لما علمَ بها.

فإيرادُها في القرآن دليلٌ على أنَّ اللّهَ هو الذي أَوحى له بها، لأنه رسولٌ أرسلَه اللّهُ سبحانه وتعالى.

وبانتهاءِ المعركةِ الفاصلة، وانتصارِ طالوت وأَتباعِه، وقتلِ داودَ لجالوت، تنتهي قصةُ طالوت، أولِ ملكٍ ملَّكه اللّهُ على بني إسرائيل.

وقد سكتتْ آياتُ القرآن عن قصته بعد ذلك، فلم تذكرْ أحداث القصة التالية، ولم تتحدثْ عن الصلةِ بين داود وطالوت، ولم تبينْ كيفيةَ انتهاءِ طالوت وموته. كما سكتتْ عن ذلك أحاديثُ رسول الله ﷺ.

أما الإسرائيلياتُ وروإياتُ العهدِ القديم فقد فصلتْ أحداثَ قصةِ طالوت بعد المعركة، والصلةَ بين طالوت وداود، وكيف انتهتْ بالعداوةِ الشديدة والحرب الطاحنة بينهما، إلى أنْ تغلَّبَ داودُ على طالوت وقتَلَه.

ولكننا لا نرى العودةَ إلى الإسرائيليات، وذكْرَ شيء منها في تفسيرِ كلام الله، فنكتفي بما أَخبرتْ عنه آياتُ القرآن من قصة طالوت، نقولُ بما قالتْ به، ونسكتُ عن ما سكتتْ عنه!!.

مع سيد قطب في أهم عبر وحقائق القصة:

وقد عرضَ القرآنُ قصةَ طالوتَ للعبرة والعظة، ودعا المؤمنين إلى تدبرها، والوقوفِ على دروسها ودلالاتها.

ومن أفضلِ مَنْ تحدثَ عن عبرِ ودروسِ القصة سيد قطب، وكم يطيبُ لي أنْ أدعَه يتحدثُ عن هذه الدروس في الظلال، وأكتفي بتقديمِ كلامِه للقراء.

«ومن خلال هذه التجربةِ كما يعرضُها السياقُ القرآني الموحي، تبرزُ جملةُ حقائق، تحملُ إيحاءات قويةً للجماعة المسلمة في كلِّ جيل، فضلاً على ما كانتْ تحمله للجماعةِ المسلمة في ذلك الحين.

أثر انتفاضة العقيدة في التغيير الإيجابي:

والعبرةُ الكليةُ التي تبرزُ من القصة كلِّها هي: أنَّ هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كلِّ ما اعتورها أمامَ التجربةِ الواقعة من نقصٍ وضعف، ومن تخلي القومِ عنها فوجاً بعد فوج في مراحلِ الطريق ـ على الرغم من هذا كله، فإنَّ ثباتَ حفنةٍ قليلة من المؤمنين عليها قد حققَ لبني إسرائيل نتائجَ ضخمة جداً، فقد كان فيها النصرُ والعزُّ والتمكين، بعدَ الهزيمةِ المنكرة، والمهانةِ الفاضحة، والتشريدِ الطويل، والذلِّ تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءتْ لهم بملكِ داود، ثم ملكِ سليمان، وهذه أعلى قمةٍ وصلت إليها دولةُ بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدُهم الذهبي الذي يتحدثون عنه، والذي لم يبلغوه من قبلُ في عهدِ النبوة الكبرى. . وكان هذا النصرُ كلُّه ثمرةً مباشرةً لانتفاضة العقيدة من تحتِ الركام، وثباتِ حفنةٍ قليلة عليها أمامَ جحافل جالوت.

وفي خلالِ التجربة تبرزُ بضعُ عظاتٍ أُخرى جزئية، كلُّها ذات قيمةٍ للجماعة المسلمة في كل حين:

عدم اغترار القادة بحماسة الجماهير:

من ذلك: أنَّ الحماسةَ الجماعية قد تخدعُ القادةَ لو أَخذوا بمظهرها. فيجبُ أن يَضعوها على محكِّ التجربةِ قبلَ أنْ يخوضوا بها المعركةَ الحاسمة. .

فقد تقدمَ الملأُ من بني إسرائيل ـ من ذوي الرأيِ والمكانة فيهم ـ إلى نبيِّهم في ذلك الزمان يطلبونَ إليه أن يختارَ لهم ملكاً يقودُهم إلى المعركة مع أعداءِ دينهم، الذين سلبوهم ملكَهم وأموالَهم، ومعها مخلفاتُ أنبيائِهم من آلِ موسى وآل هارون. فلما أرادَ نبيُّهم أنْ يستوثقَ من صحةِ عزيمتهم على القتال وقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ

﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾! استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستُهم إلى الذروة، وهم يقولون له: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾؟.

ولكن هذه الحماسةَ البالغةَ ما لبثتْ أن انطفأتْ شعلتُها، وتهاوتْ على مراحل الطريق، كما تذكُر القصة...

ومع أنَّ لبني إسرائيل طابعاً خاصاً في النكولِ عن العهد، والنكوصِ عن الوعد، والتفرقِ في منتصف الطريق.. إلا أنَّ هذه الظاهرةَ هي ظاهرةٌ بشريةٌ على كل حال، في الجماعاتِ التي لم تبلغْ تربيتُها الإيمانيةُ مبلغاً عالياً من التدريب.. وهي خليقةٌ بأن تصادفَ قيادةَ الجماعة المسلمة في أي جيل.. فيحسنُ الانتفاعُ فيها بتجربة بني إسرائيل..

اختبار المتحمسين لمعرفة من يثبت في الميدان:

ومن ذلك: أنَّ اختبارَ الحماسةِ الظاهرة والاندفاعِ الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقفَ عند الابتلاء الأول..

فإنَّ كثرةَ بني إسرائيل هؤلاء قد تولُّوا بمجردِ أنْ كُتبَ عليهم القتالُ استجابةً لطلبهم، ولم تبقَ إلا قلةٌ مستمسكةٌ بعهدها مع نبيها، وهم الجنودُ الذين خرجوا مع طالوت بعدَ الحِجاجِ والجدالِ حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوعِ علامةِ الله باختياره لهم...

ومع هذا فقدْ سقطتْ كثرةُ هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى، وضعفوا أمامَ الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدُهم.. حيث شربوا من النهر.

ولم يلتزمْ إلا قليلٌ منهم، وهذا القليلُ لم يثبتْ كذلك إلى النهاية.

فأمامَ الهولِ الحي، أمامَ كثرةِ الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائمُ وزلزلت القلوب: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

وأمامَ هذا التخاذلِ ثبتت الفئةُ القليلةُ المختارة، اعتصمتْ بالله ووثقتْ وقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وهذه هي التي رجَّحت الكفة، وتلقَّت النصر، واستحقت العزَّ والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربةِ تكمنُ عبرةُ القيادةِ الصالحة الحازمة المؤمنة.. وكلُّها واضحةٌ في قيادةِ طالوت:

تبرزُ منها خبرتُه بالنفوس، وعدمُ اغترارِه بالحماسة الظاهرة، وعدمُ اكتفائه بالتجربةِ الأولى، ومحاولتُه اختبارَ الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبلَ المعركة، وفصلُه للذين ضعفوا وتركُهم وراءه.. ثم ـ وهذا هو المهم ـ عدمُ تخاذله وقد تضاءلَ جنودُه تجربةً بعد تجربة، ولم يثبتْ معه في النهاية إلا تلك الفئةُ المختارة. فخاضَ بها المعركة ثقةً منه بقوةِ الإيمان الخالص، ووعدِ اللّهِ الصادقِ للمؤمنين..

مقياس المؤمن الإيماني ومنظاره لما حوله:

والعبرةُ الأخيرةُ التي تكمن في مصير المعركة.. أنَّ القلبَ الذي يتصلُ بالله تتغيرُ موازينُه وتصوراتُه، لأنه يرى الواقعَ الصغيرَ المحدودَ بعينٍ تمتدُّ وراءه إلى الواقعِ الكبير الممتدِّ الواصل، وإلى أصلِ الأمور كلها وراء الواقعِ الصغيرِ المحدود.

فهذه الفئةُ المؤمنةُ الصغيرة التي ثبتتْ وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتِها وكثرةِ عدوها ما يراه الآخرون، الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾. ولكنها لم تحكُمْ حكمَهم على الموقف، إنما حكمتْ حكماً آخر، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ثم اتجهتْ إلى ربها تدعوه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهي تحسُّ أنَّ ميزانَ القوى ليس في أَيدي الكافرين، إنما هو

بيدِ الله وحده. فطلبتْ منه النصر، ونالتْه من اليد التي تَملكه وتُعطيه.

وهكذا تتغيرُ التصوراتُ والموازينُ للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحققُ في القلب الإيمانُ الصحيح..

وهكذا يثبتُ أن التعاملَ مع وعدِ الله الواقع، الظاهرِ للقلوب، أصدقُ من التعاملِ مع الواقعِ الصغير الظاهر للعيون!!.

ولا نستوعبُ الإيحاءات التي تتضمنُها القصة، فالنصوصُ القرآنية ـ كما علمتْنا التجربة ـ تُفصحُ عن إيحاءاتِها لكلِّ قلب بحسبِ ما هو فيه من الشأن، وبقدرِ حاجتِه الظاهرة فيه، ويبقى لها رصيدُها المذخورُ، تتفتحُ به على القلوب، في شتى المواقف، على قدرٍ مقسوم...»[1].

[٣]

داود في القرآن

وردَ اسمُ «داود» عليه السلام في القرآن ستَّ عشرةَ مرة.

وذكْرُه في القرآن على صور:

ذكره في القرآن على صور:

فأحياناً يردُ اسمُه فقط، بدون إشارةٍ إلى قصته. كما في سورة الأنعام، حيث ذُكرَ ضمن مجموعةٍ من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ...﴾ [الأنعام: ٨٤].

وأحياناً يُذكَرُ مقروناً مع تفضيلِ الله له بإنزالِ الزبورِ عليه.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

وأحياناً يُذكَرُ اسمُه في سياقِ بدءِ أمره، بعدما قَتَلَ قائدَ أعدائه جالوت، كما مرَّ معنا في المبحث السابق. قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ..﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأحياناً يذكَرُ اسمُه في سياقِ لعنِ الكفار من بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

في السورِ السابقة: البقرة والنساء والمائدة والأنعام والإسراء، كان يُذكَرُ داودُ عليه السلام مرةً في كل سورة.

وفي سورةِ الأنبياء ذُكرَ مرتين:

مرةً في الإشارةِ إلى حكمه وقضائه في الغنم التي أتلفت الزرع، واستدراك ابنه سليمان عليه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ...﴾ [الأنبياء: ٧٨].

ومرةً في الإشارةِ إلى تسبيح الجبال والطير معه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ...﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وفي سورة النمل ذُكرَ مرتين:

مرةً في الإشارةِ إلى ما منحه اللّهُ مع ابنه سليمان من العلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ...﴾ [النمل: ١٥].

ومرةً في الإشارةِ إلى وراثةِ ابنه سليمان له: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ..﴾ [النمل: ١٦].

وفي سورة سبأ ذُكرَ مرتين:

مرةً في الإشارة إلى فضْلِ الله عليه في تسبيح الجبال والطير معه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ..﴾ [سبأ: ١٠].

ومرةً في تكليفِ آل داود بشكر الله على نعمه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وأكثرُ المرات لذكرِ اسم داود كان في سورة ص، حيث ذُكرَ اسمُ داود فيها خمسَ مرات:

مرةً في دعوةِ محمد ﷺ للاقتداءِ بداود، والثناء عليه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧].

وثلاثَ مراتٍ في قصةِ داود مع الملكين الخصمين: في الآيات: ٢٣، ٢٤، ٢٦.

ومرةً في الإشارة إلى سليمان الذي وهبه الله لداود: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٢٦].

هذه مواضعُ ذكرِ داود في سور القرآن.

ما ذكرته كل سورة من قصته:

وما ذكرَتْه السورُ من قصة داود عليه السلام كما يلي:

إِشارةٌ سريعة في كل من سور: البقرة، والنساء، والمائدة، والأنعام، والإسراء.

وفي سورة الأنبياء كلامٌ عن تسبيحِ الجبال والطير مع داود عليه السلام، وعن الدروعِ التي كان يصنعها، وعن حكمهِ في الغنم التي أَفسدت الزرع، واستدراكِ ابنه سليمان عليه السلام عليه. وهذا في الآيات: ٧٨ ـ ٨٠.

وفي سورة النمل إشارةٌ إلى ما آتى اللّهُ داودَ وسليمان عليهما

السلام من العلم والفضل، وشكْرُهما الله على هذه النعم، وهذا في آية: ١٥.

وجَعلت السورةُ هذه الإشارةَ تمهيداً لقصةِ سليمان عليه السلام المطولة مع النملة والهدهد وملكة سبأ.

وفي سورةِ سبأ كلامٌ عن ما آتى اللّهُ داودَ عليه السلام من فضل، وتسبيحِ الجبال والطير معه، وإلانةِ الحديد له، والدروعِ الدقيقة المتينة التي كان يعملها. وهذا في الآيتين: ١٠ ـ ١١.

وفي سورة صّ أطولُ مشهدٍ من مشاهدِ قصة داود في القرآن.

فقد بدأت الآياتُ بدعوةِ رسولِنا محمد ﷺ للاقتداءِ بداود عليه السلام في الصبر، ووصفت داودَ بأنه ذو الأيد وأواب. وأن اللّهَ سخَّرَ معه الجبالَ والطير يسبحن في الصباح والمساء، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب. وهذا في الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

ثم عرضت الآياتُ قصةَ داود مع الخصميْن المتنازعيْن اللذيْن تسورا عليه المحراب، وحكمَه لهما، وفتنتَه في ذلك، وسجودَه واستغفاره، وأمرَه بالحكم بين الناس بالعدل. وهذا في الآيات: ٢١ ـ ٢٦.

وبعدَ هذا البيان الموجز لذكر داود عليه السلام في القرآن ننتقلُ للوقوفِ مع حديث القرآن عنه، وعرضِ لقطاتٍ من قصته.

[٤]
داود الخليفة ينشئ أول خلافة

بداية داود بقتل جالوت:

كانتْ بدايةُ أمْرِ داودَ عليه السلام، عندما كان جندياً في جيشِ طالوتَ المجاهد، حيث اشتركَ داودُ مع الجنود المجاهدين في قتالِ جيش جالوتَ الكافر. وقامَ هو بعمله الجهاديِّ الكبير عندما أقدمَ على

قتلِ جالوت قائدِ الكفار. قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولم تُخبرْنا الآياتُ والأحاديثُ عن حياةِ داود قبلَ قتله جالوت، ولا عن عمره عندما قَتَلَ جالوت، ولا عن تفاصيلِ قتلِ جالوت، ولا عن ما جرى له بعدَ ذلك مع الملكِ طالوت، كما أشرْنا إلى ذلك من قبل.

كلُّ ما أَخبرَنا عنه القرآن أنَّ اللّهَ آتى داودَ الملكَ والحكمة بعدما قـتـلَ جـالـوت: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فالضميرُ الهاء في «آتاه» و«علَّمه» تعودُ على داود.

أي: بعدما قتلَ داودُ جالوتَ آتاه اللّهُ الملكَ والحكمةَ والعلم، فكان داودُ ملكاً حكيماً عالماً.

ظهوره من ميدان الجهاد ودلالة ذلك:

وهذا يدلُّ على أنَّ داودَ صارَ ملكاً بعد طالوت، بحيث يمكنُ أنْ نقول: داودُ هو الملكُ الثاني لبني إسرائيل.

ويبدو أنَّ نبوةَ داودَ عليه السلام كانتْ في هذا الوقت، بعدما صارَ ملكاً، أي أنَّ النبوةَ والملكَ كانا بعد قتله جالوت.

ومن مناقبِ وفضائلِ داودَ عليه السلام أنَّ ظهورَه كان في ميدانِ القتال وساحةِ الجهاد، وزعامتُه وقيادتُه انطلقتْ من المعركة، فقبلَ قتلِه لقائدِ الكفار لم يكن له ذكْر، ولا بيدِه زعامة.

ولما استبسلَ في الجهاد وقَتَلَ قائدَ الكفار ظهرَ فضلُه، وأحبَّه قومُه، وقدَّموه وملَّكوه عليهم.

أي أنَّ قيادتَه كانت قيادةً جهادية، وزعامتَه بدأتْ من ميدانِ المواجهةِ والقتال، ولهذا نجحَ في حكمِ قومِه، وإنشاءِ المملكة الإسرائيلية القوية.

وفرقٌ بين القادةِ الذين يظهرون من وسطِ الجنود في الميدان، بعدَ مواهبهم الجهادية القيادية، والقادةِ الذين يعيَّنون تعييناً أو يرثون القيادةَ وراثة، وهم لا رصيدَ لهم من التجاربِ العمليةِ الجهادية!!

وقد جمعَ اللّهُ لداودَ عليه السلام بين النبوةِ والملك، كما قال: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

ولعلَّه أولُ مَنْ جمعَ بين القيادتيْن الدينية والدنيوية في بني إسرائيل. ولم تَذكرْ لنا مصادرُنا الإسلاميةُ مَنْ جمعَ بين النبوة والملك عند بني إسرائيل إلاّ داودَ وابنَه سليمان، عليهما السلام.

داود خليفة في الأرض:

وقد جعلَ اللّهُ داودَ خليفةً في الأرض. قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الآيةُ في ختامِ عرضِ قصةِ داود عليه السلام مع الخصمين.

وجعْلُ داودَ عليه السلام خليفةً في الأرض دليلٌ على أنَّ حكْمَه كان حكماً ربانياً، ومُلْكَه كان مُلْكاً إسلامياً، وأنه أنشأَ نظام الخلافة في بني إسرائيل!

وبذلك كان مَلِكاً خليفة، ونبياً رسولاً عليه الصلاة والسلام.

ومن لطائفِ القرآن أن كلمةَ «خليفة» لم تَرِدْ في القرآن إلا مرتين:

الأُولى: في قصة آدم عليه السلام، في سورة البقرة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

والثانية: في وصْفِ داود عليه السلام بأنه خليفة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وفي هذا دلالةٌ لطيفة.

فآدمُ عليه السلام هو أبو البشر، وهو أولُ خليفةٍ في الأرض، بالمعنى العامِّ للخلافة، وهو الاستخلافُ في الأرض وتعميرُها وإصلاحُها، على منهج الله وشرعه.

وقد جعلَ اللّهُ الإنسانَ ـ باعتباره إنساناً ـ سيدَ الأرض، وذلَّلَ له الأرض، وسخَّرَ له كلَّ ما فيها، وطالبَه أنْ يَعْمرَها ويُصلحها ويكونَ خليفةً فيها، ولهذا كان أولُ شخصٍ من البشر هو أولَ خليفةٍ بالمعنى العام، وهو آدمُ عليه السلام، كما نصتْ آيةُ سورةِ البقرة.

والخليفةُ الثاني في القرآن هو داودُ عليه السلام! فما معنى ذلك؟

إن داودَ خليفةٌ بالمعنى الخاصِّ للخلافة، وليس بالمعنى العام الذي تحققَ في خلافةِ آدم!

إنه خليفةٌ بالمعنى الشرعي، المتمثلِ في إيجادِ نظامِ حكم على شرع الله، والحكم بين الناس بشرعِ الله، وهذا ما صرحتْ به الآية: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ...﴾.

وهذا المعنى لم يُذْكَرْ في الآية التي أَخبرتْ عن استخلافِ آدم.

وبما أنَّ داودَ خليفةٌ بالمعنى الشرعيِّ الخاص، فقد زوَّده اللّهُ بالوسائلِ والأدواتِ التي تساعدُه على القيامِ بالخلافة.

فآتاهُ الملكَ والحكمة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ...﴾.

وآتاهُ العلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا . . .﴾.

وآتاه الفضل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا . . .﴾.

وآتاه الحكمةَ وفصل الخطاب: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ . . .﴾.

وآتاه الزبور: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا . . .﴾.

ونلحظُ حرصَ الآيات على التعبيرِ عن الإنعامِ على داود بهذه الأدواتِ والوسائل بالإيتاء، حيث تكررَ فعلُ «آتيناه» خمسَ مراتٍ في الآيات الخمسة.

داود مؤسس الخلافة الإيمانية:

لماذا داودُ أولَ نبيٍّ خليفةً بالمعنى الشرعي؟

لأنه أولُ نبيٍّ رسولٍ يجمعُ بين النبوة والملك.

فالأنبياءُ الذين قبلَه لم يكن أحدٌ منهم ملكاً، ولم يَحكم أحدٌ منهم قومَه بالمعنى الخاصِّ للحكم، ولم يُنشئ أحدٌ منهم دولةً مدنية، ينطبقُ هذا على نوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل، بل ينطبقُ على موسى وهارون، عليهم الصلاة والسلام.

حتى يوسفَ عليه السلام الذي وصلَ إلى مركزِ «عزيز مصر» فإنه لم يكنْ ملكاً لمصر، ولذلك لم يكنْ خليفة.

إن داودَ عليه السلام هو مؤسسُ «المملكةِ الإسرائيلية الإيمانية»، لأنَّ مُلْكَ طالوتَ كان تمهيداً لملكِ داود.

ولهذا المعنى ناسبَ أن يَنصَّ القرآنُ على جعلِ داودَ عليه السلام خليفة في الأرض، ولعلَّه أولُ خليفةٍ في التاريخ بالمعنى الشرعيِّ الخاص، أي: أولُ خليفةٍ بنى دولة، وأنشأ مملكة، وأوجدَ نظامَ خلافةٍ على أَساس شرعِ الله.

إذن كانَ داودُ عليه السلام أولَ نبيٍّ وملك، وأولَ مَنْ كانَ خليفة، وأولَ مَنْ أنشأَ خلافةً إيمانية.

وقد ورثَه ابنُه سليمان عليهما السلام في كلِّ ذلك، فكانَ سليمانُ نبياً رسولاً، وكانَ ملكاً خليفة، وجمعَ بين النبوةِ والملكِ والرسالةِ والخلافة.

زوال الخلافة عن بني إسرائيل بعد داود وسليمان:

والعجيبُ أنَّ «الخلافةَ» لم تَدُمْ طويلاً في بني إسرائيل، فسرعانَ ما تهاوَت الخلافةُ بعد سليمان عليه السلام، وزالَتْ عنهم، وأعقبَها زوالُ النظامِ السياسي والدولي لليهود، وانتهى الأمرُ بتشتيتهِم في الأرض، وهذا بسببِ جرائمهم ومعاصيهم ومخالفاتهم.

إن الخلافةَ الإيمانيةَ لم تستمرّ في بني إسرائيل، في صورةِ دولةٍ ومملكةٍ ونظام، حيث بقيتْ أقلَّ من قرن، وهي فترةُ حكمِ داودَ وسليمان عليهما السلام.

وإذا كانت الخلافةُ قصيرةً جداً في حياةِ بني إسرائيل، فإنها طويلةٌ مستمرةٌ في هذه الأمة، أمةِ محمد ﷺ، أمةِ الخلافةِ والرسالة والشهادة.

وإذا كان اللّهُ قد نزعَ الخلافةَ من بني إسرائيل، فإنه جعلَها مستمرةً في هذه الأمة حتى قيامِ الساعة.

هذه الأمةُ التي قالَ الله لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال لها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾ [البقرة: ١٤٣].

[٥]

«وآتينا داود زبوراً»

بما أنَّ داودَ عليه السلام نبيٌّ رسولٌ خليفةٌ ملك، فقد أنزلَ اللّهُ عليه أحدَ كتبه، وهو «الزبور».

ونعلمُ أنَّ الإيمانَ بالكتب من أركانِ الإيمان، فيؤمنُ كلُّ فردٍ من هذه الأمةِ أن اللّهَ أنزلَ كتباً على بعضِ رسله.

ويؤمنُ بالكتبِ الأربعةِ المذكورة في القرآن: التوراةِ التي أنزلَها اللّهُ على موسى، والزبورِ الذي أنزله اللّهُ على داود، والإنجيلِ الذي أنزله الله على عيسى، والقرآنِ الذي أنزلَه اللّهُ على محمد، عليهم الصلاة والسلام.

الزبور مذكور ثلاث مرات في القرآن:

وقد ذُكِرَ «الزبور» ثلاثَ مرات في القرآن:

الأولى: عندما ذكرَ اسمُ داود ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياءِ والرسل، وخصَّصَه بإنزالِ الزبور عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

وهذه الآيةُ نصٌّ في أن اللّهَ فضَّلَ بعضَ النبيين على بعض، فهناك أنبياءُ ورسل أفضلُ عندَ الله من أنبياءَ ورسلٍ آخرين.

وهي كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ..﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومعلومٌ أن سيدَنا محمداً ﷺ هو أفضلُ الأنبياءِ والمرسلين عند الله.

ومن الأنبياءِ الذين فضَّلَهم اللّهُ داودُ عليه السلام، ويكمنُ تفضيلُه في أنه أولُ نبيٍّ رسولٍ جمعَ بين النبوةِ والملك، والرسالةِ والخلافة، كما قلْنا قبلَ قليل.

كما يكمنُ تفضيلُه في إنزالِ الزبور عليه، وتخصيصِه بذلك.

ذكر وراثة الأرض في الزبور:

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

يخبرنا اللّهُ في هذه الآية عن بعضِ موضوعاتِ الزبور، وهذا الموضوعُ يتعلقُ في «وراثة الأرض» وحُكمها والاستخلافِ فيها.

مَن الذين يرثونَ الأرض؟ ومَن الذين تنتهي إليهم الأرض؟

إِنهم عبادُ الله الصالحون العابدون المتقون!!

إن اللّهَ يمنحُ الأرضَ لقومٍ باعتبارهم مؤمنين صالحين عابدين. فإذا تخلّوا عن الإيمانِ والصلاحِ والعبادة فإن اللّهَ ينزعُ منهم الأرض، ويمنحُها لغيرهم من العابدين الصالحين.

هذه سنةٌ ربانيةٌ تاريخيةٌ مطردة، حول تملُّكِ الأرض ووراثتِها والاستخلافِ فيها.

لكن لماذا ذَكَرَ هذه السنةَ الربانية والحقيقةَ التاريخية في الزَّبور؟ ولماذا إِخبارُ بني إسرائيلَ بها؟

قبلَ الإجابةِ على هذا السؤال، نتذكرُ ما قالَه موسى عليه السلام لبني إسرائيل عندما كانوا مضطهدين من قِبَلِ فرعونَ وجنوده، وشكوا له اضطهادَهم، حيث قررَ لهم هذه السنةَ حول وراثةِ الأرض.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

إنَّ موسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى الصبر والاستعانة بالله، لتجاوزِ مرحلةِ الاضطهاد، والانتقالِ إلى التمكين في الأرض، والأرضُ كلُّها لله، واللّهُ يورثُها مَنْ يشاءُ من عباده الصالحين، والعاقبةُ الحسنةُ تكون للمتقين.

حكمة ذكرها في الزبور وتفنيد مزاعم اليهود:

فلماذا الكلامُ عن وراثةِ الأرض من قِبَلِ الصالحين العابدين موجَّهٌ لبني إسرائيل؟ ولماذا أُخبروا بهذه الحقيقةِ على لسان مُنقذهم موسى عليه السلام قبلَ دخولِهم الأرضَ المقدسة؟ وأُخبروا بها مرةً ثانية بعد قرونٍ على لسان داود عليه السلام عندما أنشأَ لهم أولَ مملكةٍ وخلافةٍ إيمانية على الأرض المقدسة؟

يبدو أن الحكمةَ في ذلك هي نقضُ مزاعمِ وادعاءات اليهود حول الأرضِ المقدسة!!

إنَّ اليهودَ الكاذبين يزعمونَ أن اللّهَ كتبَ لهم الأرضَ المقدسة، وقطعَ بذلك وعْداً و«تعهُّداً» لإبراهيم ثم ليعقوب عليهما السلام، وجعلَ الأرضَ المقدسة لهم حتى قيامِ الساعة، وذلك باعتبارهم من نسلِ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام.

أي أَنهم يزعمون أنَّ اللّهَ أَورثهم الأرضَ على أساسٍ نَسْليٍّ جنسيٍّ عنصري قومي، وليس على أساسٍ ديني إيماني إسلامي. فمهما فعلوا تبقى الأرضُ المقدسةُ لهم، سواء آمنوا أم كفروا، استقاموا أم انحرفوا.

وعلى أساسِ هذا التضليلِ والافتراءِ تداعوا للعودةِ إلى الأرض المقدسة في هذا العصر، وأَقاموا كيانَهم اليهودي على أرضِ فلسطين!!

وقد أخبرَنا اللّهُ في القرآن عن بعضِ ما أَخبرهم به أنبياؤهم حولَ وراثةِ الأرض المقدسة.

فموسى يقولُ لهم عليه السلام: إنَّ الأرضَ لله، يورثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، والعاقبةُ للمتقين.

أي أنَّ اللّهَ أورثكم الأرضَ المقدسة باعتباركم إسرائيليين مؤمنين ومتقين عابدين، فإذا فقدتُم الإيمانَ والعبادة فَقَدْتُم وراثةَ الأرض!!

وداودُ عليه السلام يدعوهم إلى عدم الاغترارِ بالمملكة والخلافة، ويؤكدُ لهم أن اللّهَ أَوْرَثَهُم الأرضَ المقدسة باعتبارِهم إسرائيليين عابدين مؤمنين، فإذا فَقدوا شرطَ الإيمان والعبادة والصلاح فَقدوا وراثةَ الأرضِ المقدسة!!.

الله حرمهم من الأرض لكفرهم:

وقد انطبقتْ هذه السُّنةُ الربانيةُ على اليهود، فلما كانوا إسرائيليين مؤمنين أَورثَهم اللّهُ الأرضَ المقدسة، وأقاموا فيها حكماً ربانياً، وخلافةً إيمانية، على يدِ داودَ ثم سليمان عليهما الصلاة والسلام.

ولما تخلّوا عن الإيمانِ بعد ذلك، وكفروا وطغوا، وظلموا وبغوا، وقتلوا الأنبياءَ وكذَّبوا بالحق، انتزعَ اللّهُ الأرضَ المقدسة منهم، وفَقدوا وراثتَهم الإيمانيةَ لها، لفقدانهم شرطَ الوراثة، وأخرجَهم اللّهُ من الأرضِ المقدسة، وقَطَّعَهم وشتتَهم في مختلفِ بقاعِ الأرض، وأوقعَ بهم لعنته وغضبه.

وأخبرَنا اللّهُ عن هذا العقاب في القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٦٨].

الزبور ومادة «زبر» في العربية:

و«الزَّبورُ» الراجحُ أنها كلمةٌ غيرُ عربية، مثلُ التوراةِ والإنجيل، سمى اللّهُ بها كتابَه الذي أنزلَه على داودَ عليه السلام.

وهو ليس مشتقاً من المادة العربية «زَبْر» الواردة في القرآن.

قال الإمام الراغب عن مادة «زَبْر» في المفردات: «الزُّبْرَةُ: قطعةٌ عظيمةٌ من الحديد. جمعه «زُبَر». قال تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

وقد يقال: الزُّبْرَةُ من الشَّعَر. جمعه: زُبُر. واستعير «زُبُر» للمَجزَّأ المقطَّع. قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي: صاروا فيه أحزاباً.

و: زَبَرْتُ الكتاب: كتبتُه كتابةً غليظة.

وكلُّ كتابٍ غليظِ الكتابة يقال له: زَبور.

وخُصَّ الزَّبورُ بالكتابِ المنزلِ على داود عليه السلام.

وقيل: الزبور: كلُّ كتاب يصعبُ الوقوفُ عليه من الكتب الإلهية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقال بعضُهم: الزَّبور اسمٌ للكتاب المقصورِ على الحِكَم العقلية دونَ الأحكامِ الشرعية. والكتابُ اسمٌ لما يتضمنُ الأحكامَ والحِكَم.

ويدلُّ على ذلك أنَّ زبورَ داود عليه السلام لا يتضمنُ شيئاً من الأحكام..»[١].

حكمة إطلاق كلمة «قرآن» على الزبور:

وقد كانَ داودُ عليه السلام يكثرُ من قراءةِ الزَّبور وتلاوته، تقرباً إلى الله، باعتبارِه كلامَ الله.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ اللَّهَ خفَّفَ على داود قراءةَ الزَّبور، فكان يقرؤُه بسرعة.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خُفِّفَ على داود القرآن، فكان يأمرُ بدوابِّه فتُسرج، فيَقرأُ القرآنَ

(١) المفردات: ٣٧٧.

من قبلِ أنْ تُسرجَ دوابّه، ولا يأكلُ إلاّ من عمل يده..»[1].

ومعنى الحديث أنَّ داودَ عليه السلام كان يأمرُ بإعدادِ وتجهيزِ دوابه، ووضْعِ السُّرُجِ عليها. وعندما كان موظفوه ينفذون أَمره، كان يتناولُ الزبور ويقرأُ فيه، فكان يُنهي ويكملُ قراءتَه قبل انتهاءِ موظفيه من سَرْج دوابه، لأن اللّهَ خَفَّفَ عليه القراءة.

واللافتُ للنظرِ أنَّ الرسولَ ﷺ أطلقَ على الزَّبور كلمةَ القرآن! ونحن نعلمُ أن القرآنَ خاصٌّ بالكتاب الذي أنزله اللّهُ على رسوله محمد ﷺ، لا يُسمى به غيرُه من كتب الله عز وجل!

وقد حاولَ الإمامُ ابنُ حجر توجيهَ ذلك.

فأخبرَ أنَّ في رواية «الكَشْمَهيني» لأحاديثِ البخاري كلمةَ «القراءة» بدل «القرآن»[2].

أي: في رواية الكشمهيني عن البخاري هكذا: خُفِّفَ على داودَ القراءة، فكان يأمرُ بدوابه فتُسرج، فيقرأُ القراءةَ من قبل أنْ تُسرج دوابه.

وعلى رواية الكشمهيني لا إشكالَ في الحديث، لأنَّ التعبيرَ فيها بالقراءة، يرادُ بها قراءةُ داود للزبور.

أمّا على الروايةِ المشهورة «القرآن»، فقد قالَ ابنُ حجر في شرح الحديث:

«قيل: المرادُ بالقرآنِ في الحديث القراءة، لأنَّ الأصلَ في معنى كلمة القرآن الجمع. وكلُّ شيء جمعْتَه فقد قرأْتَه.

وقيل: المرادُ بالقرآن: الزبور.

وقيل: المرادُ به التوراة.

وقراءةُ كلِّ نبي تطلقُ على كتابه الذي أَوحى اللّهُ به إليه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٣.

(٢) فتح الباري ٦: ٤٥٤.

وإنما سُمي الزَّبور في الحديث قرآناً للإشارةِ إلى المعجزةِ به كوقوعِ المعجزة بالقرآن.

والأولُ أَقرب..

وفي الحديث: أنَّ البركةَ قد تقعُ في الزمنِ اليسير، حتى يقعَ فيه العملُ الكثير..»[1].

والراجحُ أنَّ الحديثَ أطلقَ على القراءة قرآناً، والمرادُ به قراءةُ داودَ عليه السلام للزبور.

بدليلِ الروايةِ الأُخرى الصحيحة ـ رواية الكشمهيني ـ التي وَضعتْ كلمةَ «القراءة» مكان كلمة «القرآن».

وإنما سَمّى الحديثُ القراءةَ قرآناً، لأنَّ الكلمتيْن تقومان على معنى الجمعِ والضم، فالإنسانُ عندما يقرأُ أيَّ كلام إنما يضمُّ حروفَه ومفرداته ويجمعُها معاً، ثم ينطقُ بها.

وقد أَطلقتْ آياتُ القرآن على القراءةِ قرآناً. قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

والمعنى: إنَّ علينا جمعَ القرآن وقراءتَه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قراءتَنا له.

فكلمة «قرآنه» المذكورة مرتيْن هنا بمعنى: قراءته.

ومن هذا الباب أَطلقَ الحديثُ على قراءةِ داود للزبور كلمة «قرآن» والله أعلم.

---

(١) المرجع السابق ٦:٤٥٥.

[٦]

داود عليه السلام أعبد الناس

كان داودُ عليه الصلاة والسلام من أعبدِ الناس، كيفَ لا وهو نبيٌّ ملك، وخليفة رسول، وقد أنعمَ اللّهُ عليه بالنعمِ الغامرة، وهو يعلمُ أن عليه أنْ يقابلَ نِعَمَ الله بالشكر.

ومِن شكْرِه لله أنْ يكونَ أكثرَ الناس عبادةً وذكراً لله.

صيام داود وقيامه وقراءته القرآن:

ومرَّ مَعنا قبلَ قليل حرصُه على قراءةِ الزبور، وتخفيفُ قراءته عليه، حيث أَخبرنا رسولُ الله ﷺ أنه كان يقرأُ الزبورَ قبلَ أنْ يفرغَ موظفوه من تجهيزِ دوابِّه للركوب.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن صلاةِ داود وصيامه عليه السلام، وأنه كانَ أفضلَ العابدين صياماً وصلاة.

روى البخاري ومسلم عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «أَحَبُّ الصيامِ إلى الله صيام داود، كان يصومُ يوماً ويفطر يوماً، وأَحَبُّ الصلاةِ إلى الله صلاة داود، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسَه..»[1].

إن النبيَّ ﷺ يُثني على داودَ في عبادته عليه السلام، ويشهدُ له بأن صيامَه كان أحبَّ الصيام إلى الله، وأنه أكثرُ الناس صياماً، حيث يصومُ يوماً ويفطر يوماً، على مدار عمره كله.

كما أنه كانَ أكثرَ الناس صلاةً في الليل، حيث كان يبدأُ ليله بالنوم، فينامُ نصفَ الليل الأول، ثم يقومُ يصلي ثلثَه، ثم يعودُ لينامَ سدسَه، وذلك قبلَ طلوع الفجر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢٠. ومسلم برقم: ١١٥٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٢.

قالَ الإمام ابن حجر في شرح الحديث: «قال المهلب: كان داودُ يُجِمُّ نفسَه ويريحُها بنوم أولِ الليل، ثم يقومُ في الوقت الذي يُنادي اللّهُ فيه: هل من سائلٍ فأعطيَه سؤلَه، ثم يستدركُ بالنوم ما يستريحُ به من نَصَبِ القيام في بقيةِ الليل. وهذا هو النومُ عند السحر.

وإنما صارت هذه الطريقةُ أحبَّ إلى الله، من أجلِ الأخذِ بالرفقِ للنفس التي يُخشى منها السآمة...

وإنما كانَ ذلك أرفقَ لأن النومَ بعد القيام يُريحُ البدن، ويُذهبُ ضررَ السهر وذبولَ الجسم، بخلافِ السهرِ إلى الصباح.. وفيه من المصلحةِ استقبالُ صلاةِ الصبح وأذكارُ النهار بنشاطٍ وإقبال، وأنه أقربُ إلى عدم الرياء، لأنَّ من نامَ السدسَ الأخيرَ أصبحَ ظاهرَ اللون، سليمَ القوى، فهو أقربُ إلى أن يُخفي عملَه الماضي على مَن يراه...»[١].

وهذا كان قيامُ رسولِ الله ﷺ، حيث كان ينامُ أولَ الليل، ويقومُ وسطَه، وينامُ آخرَه وهو وقت السحر.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «ما أَلْفاهُ السَّحَرُ عندي إلا نائماً. تعني النبيَّ ﷺ»[٢].

أي ما كان يدخلُ وقتَ السَّحَرِ إلا والنبيُّ نائمٌ عليه الصلاة والسلام، والسَّحَرُ ما كانَ قبيلَ طلوع الفجر.

مع عبد الله بن عمرو في الاقتداء بداود:

وللحديثِ السابق الذي رواهُ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مناسبة، وضَّحَها عبدُ الله بن عمرو نفسُه في حديثٍ آخر، نقدمُها للقراء ليعرفوا دعوةَ النبي ﷺ ابنَ عمرو للاقتداءِ بداود عليه السلام في صيامه وقيامه.

---

(١) فتح الباري ٣:١٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١١٣٣. ومسلم برقم: ٧٤٢.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

كنتُ أَصومُ الدهر، وأَقرأُ القرآنَ كلَّ ليلة. فإمّا ذُكِرْتُ للنبي ﷺ، وإمّا أَرْسَلَ إليّ.

فأتيتُه. فقال لي: أَلم أُخْبَرْ أنكَ تصومُ الدهر، وتقرأُ القرآنَ كلَّ ليلة؟

قلت: بلى، يا رسولَ الله، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير!.

قال: فإنَّ بحسْبِك أنْ تصومَ من كلِّ شهر ثلاثةَ أيام.

قلت: يا نبيَّ الله: إني أُطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فإنَّ لزوجك عليك حقاً، ولِزَوْرِك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

قال: فصُم صومَ داودَ نبي الله ﷺ، فإنه كانَ أعبدَ الناس.

قلت: يا نبيَّ الله: وما صومُ داود؟

قال: كان يصومُ يوماً ويفطر يوماً!

ثم قال: واقرأ القرآنَ في كلِّ شهر!

قلت: يا نبيَّ الله: إني أطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فاقرأه في كلِّ عشرين.

قال: يا نبيَّ الله: إني أُطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فاقرأه في كلِّ عشر.

قلت: يا نبيَّ الله: إني أُطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فاقرأه في كلِّ سبْع. ولا تَزِدْ على ذلك. فإنَّ لزوجِك عليك حقاً، ولزَوْرِك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

قال: فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عليّ.

وقالَ لي رسولُ الله ﷺ: إنك لا تدري، لعلكَ يطولُ بك عُمُر.

قال: فصرتُ إلى الذي قالَ لي رسولُ الله ﷺ. فلما كبرتُ، ووددْتُ أنّي كنتُ قبلتُ رخصةَ نبيِّ اللّهِ ﷺ..»[1].

وفي هذا الحوارِ التربوي بيْن رسولِ الله ﷺ وعبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما، يصرحُ رسولُ الله ﷺ بأنَّ داودَ عليه السلام كان أعبدَ الناس.

تكامل شخصية داود في عبادته وشجاعته:

وقد حرصَ رسولُ الله ﷺ أنْ يبينَ «التكاملَ» في شخصيةِ داودَ عليه السلام، فرغمَ أنه كان أفضلَ الناس في عبادته، وأكثرَهم صلاةً وصياماً، إلا أنه كان أشجعَهم أيضاً في الميدان!!.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «أَحَبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داود، وأَحَبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثَه، وينامُ سدسَه، وكان يصومُ يوماً، ويفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى...»[2].

والجديدُ في الموضوع جملة: «ولا يفرُّ إذا لاقى».

أي أَنه كان شجاعاً في الجهاد، ثابتاً في الميدان، فكانَ إذا حاربَ الكفارَ يهاجمُهم ويقاتلُهم، ولا يفرُّ من المعركة!

أي أن داودَ عليه السلام جمعَ بين إحسانِ الصلاة والصيام بحيث

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦١٩. ومسلم برقم: ١١٥٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٩. ومسلم برقم: ١١٥٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٢.

كان فيهما أعبدَ الناس، وبين الشجاعةِ في الجهاد وعدمِ الفرارِ يوم القتال، بحيث كان في الميدان أشجعَ الناس.

والدليلُ على شجاعتِه قيامُه بقتْلِ ملكِ الكفار جالوت، كما صرَّحَ بذلك القرآن.

وهذا هو التكاملُ الرائعُ في شخصيةِ داود عليه السلام، والرسولُ ﷺ يدعو المسلمين إلى الاقتداء بداودَ في هذا التكامل، بحيث يكونُ الواحدُ منهم متفوقاً في العباداتِ والشعائر، ومتفوقاً كذلك في الجهادِ والقتال.

[٧]

تسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام

مَرَّ معنا شهادةُ الرسول ﷺ بأنه كان أعبدَ الناس، وأشجعَ الناس، وكان قويَّ الصلةِ بالله، حَسَنَ الذكرِ له، جميلَ الدعاءِ له.

دعاء داود وإيثاره محبة الله على كل شيء:

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن دعاءٍ جميلٍ كان داودُ عليه السلام يدعو به ربَّه.

روى الترمذيُّ عن أَبي الدرداء رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ: كان من دعاءِ داودَ عليه السلام يقول: اللهمَّ إني أسألك حُبَّك، وحُبَّ مَنْ يحبُّك، والعملَ الذي يُبلِّغني حُبَّك، اللهم اجعلْ حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماءِ البارد!

وكان رسولُ الله ﷺ إذا ذَكَرَ داودَ يقول عنه: كان أعبدَ الناس..»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٤٩٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٠.

ويُظهرُ لنا هذا الدعاءُ الجميلُ حرصَ داودَ عليه السلام على محبةِ الله، التي هي أغلى وأنفسُ شيء في الدنيا. إنه يسألُ اللّهَ أنْ يرزقَه حبَّه، وحبَّ كلِّ شخصٍ يحبُّه، وحبَّ كلِّ عمل يقربُه إلى الله، ويبلغُه حبَّ الله. ويسألُ اللّهَ أن يجعلَ حبَّه أحبَّ إليه من كل شيء في الحياة، بل أحبَّ إليه من أقربِ وأحبِّ الناس إليه، وهم أهلُه، بل أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأنْ يكونَ أحبَّ إليه من كل ملذاتِ الدنيا، وكان من أحبها إلى نفسه الماءُ البارد!!

ولذلك كان داودُ عليه السلام يكثرُ من الذكرِ والعبادة، كالصلاةِ والصيام وقراءة الزبور، لينالَ بذلك محبةَ الله.

جمال صوت داود وصوت أبي موسى الأشعري:

وقد وهبَ اللّهُ داودَ عليه السلام صوتاً جميلاً، فكان يتألقُ ويزدادُ جمالاً عندما يتلو الزبور.

وكان من أجملِ الصحابة صوتاً بالقرآن أَبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وكان رسولُ الله ﷺ يحبُّ سماعَ القرآن منه، ويُشَبِّهُ صوتَه الجميل بصوتِ داود عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال له: «لقد أُوتيتَ مزماراً من مزاميرِ آل داود»[١].

ووردت في الحديث كلمةُ «آل داود»، ولا يرادُ آلُ داود أنفسهم، وإنما يرادُ داودُ نفسُه عليه السلام.

قال الإمامُ ابنُ حجر في شرح الحديث: «قال الخطابي: قوله «آل داود» يريدُ داودَ نفسَه. لأنّه لم يُنقَلْ أن أحداً من أولادِ داود ولا من أقاربه كان أُعطيَ من الصوت ما أُعطي...»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٠٤٨. ومسلم برقم: ٧٩٣.

(٢) فتح الباري ٩: ٩٣.

وروى مسلمٌ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ عبدَ الله بن قيس ـ أو الأشعري ـ أُعطيَ مزماراً من مزاميرِ آل داود».

وفي روايةٍ أُخرى عنه أَن رسولَ الله ﷺ قال له: «لو رأيتَني وأنا أستمعُ لقراءتك البارحة، لقد أُوتيتَ مزماراً من مزاميرِ آل داود»[1].

وإذا كانت الأحاديثُ السابقةُ تذكرُ «آلَ داود» والمرادُ بها داودُ نفسُه عليه السلام، كما قالَ الخطابيُّ وابنُ حجر، فهناك روايةٌ مرفوعةٌ فيها التصريح بداود، وليسِ آل داود.

روى النسائيُّ وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ الله ﷺ قال: «لقد أُعطيَ أبو موسى من مزاميرِ داود»[2].

مزمار داود ومزاميره في العهد القديم:

ولا يُرادُ بالمزمارِ في الحديث آلَةَ العزفِ الموسيقية، وإنما يرادُ به الصوتَ الحسنَ الجميلَ عند القراءة، فعندما يَقرأُ كان يُحَسِّنُ ويُجَمِّلُ صوتَه، ويجوِّدُ الكلمات الخارجة من فمه، فكأنه يعزفُ على المزمار الموسيقي.

إذن كان داودُ عليه السلام يقرأُ ويتلو كلامَ الزبور، ويجوِّدُ صوتَه بذلك، فكأنه يعزفُ على المزمار.

ونسارعُ إلى القول: إنَّ المزاميرَ المنسوبةَ إلى داود عليه السلام، والمذكورةُ في العهد القديم، ليستْ هي الزبورَ الذي أنزلَه اللّهُ على داودَ عليه السلام، ولا هي مما كان داودُ يناجي به ربَّه.

السِّفْرُ التاسع عشر من أَسفارِ العهدِ القديم اسمه «المزامير». وقد سجَّلَ أحبارُ اليهود فيه مائةً وخمسين مزماراً، ومعظمُ هذه المزاميرِ منسوبٌ إلى داود، وبعضُها منسوبٌ إلى غيره.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٧٩٣.

(٢) أخرجه النسائي برقم: ١٠٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٢.

ولكننا نقول: هذه المزاميرُ ليست الزبور، وما كان داودُ يتلوها، وكلماتُها لا تتفقُ مع أدبِ داودَ عليه السلام مع الله، وهي من وضْعِ أَحبارِ اليهود فيما بعد، ونحن نعلمُ أن اليهودَ حَرَّفوا التوراةَ وأسفارَ العهد القديم.

الجبال والطير يسبحن مع داود وتوجيه ذلك:

ومن روعةِ جمالِ صوتِ داود عليه السلام أنه لما كان يذكُرُ اللّهَ ويُسبحه، كان يتأثرُ ما حولَه من الجبال والطيور، فكانت تسبِّحُ معه!

الجبالُ الصمُّ والطيورُ البكمُ تسمعُ تسبيحَه، وتتأثرُ به، وترددُه من بعده!!

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذا الكلامَ فقد جاءَ في صريح آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

سخَّرَ اللّهُ الجبالَ والطير، وأَمَرَها أنْ تسبحَ مع داودَ عندما يسبحُ الله، وأنْ تشاركَه هذه العبادة.

والجبالُ خاضعةٌ لأمرِ الله خضوعاً تسخيرياً، تنفذُ أمْرَه ولا تتمردُ عليه، ولهذا قامت بالتسبيحِ مع داودَ عليه السلام.

والطيرُ عابدةٌ لله تعالى بلغةٍ خاصة، وصوتٍ معين، تنفذُ أمْرَ الله ولا تتمردُ عليه، وقد تلقَّتْ أمرَ الله بالقبول، وكانت تشاركُ داودَ عبادتَه وتسبيحَه.

وللجبالِ لغةٌ خاصةٌ تسبحُ بها اللّهَ رغمَ أَنها جمادات، نحن لا نفقهها، وللطيورِ أصواتٌ خاصة تسبحُ بها الله، نحن نسمعُها ولكن لا نفقهُهَا.

قال اللّهُ عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

فالآية في أنَّ كلَّ مَنْ في السموات السبع والأرض يسبحُ لله، سواء كانَ مخلوقاتٍ عاقلة، أو مخلوقاتٍ غيرَ عاقلة، أو جمادات، فما من شيء في الوجود إلا يسبحُ بحمد الله.

وحتى لا نسارعَ بالإنكار بحجةِ عدم سماعنا لصوتها وهي تسبح، أخبرت الآيةُ أننا لا نفقهُ تسبيحَ كلِّ هذه المخلوقات: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ...﴾.

نسمعُ صوتَها لكن لا نفقهُ لغتَها، أو لا نسمعُ صوتَ الجمادات ولا نفقهُ لغتَها، لأننا لا نفقهُ إلا لغتَنا نحن البشر.

وعدمُ فقهِنا لأصواتِ هذه المخلوقات وهي تسبحُ لا يعني أنها لا تسبح، فكم من ظواهرَ ماديةٍ طبيعيةٍ موجودةٍ من حولنا، نحسُّ بها ونجزمُ بوجودها، ولكن لا نقدرُ على تفسيرِها وتحليلها وتعليلها، ومع ذلك لم نقمْ بإنكارِها بحجة عجزِنا عن تعليلها، لأنها بدهيةٌ مسلمة.

فلماذا لا نجعلُ تسبيحَ المخلوقات الحية وغيرَ الحية من حولنا من هذا الباب؟ ولماذا ننكرُ تسبيحَها بحجةِ عدمِ فقهنا له؟

بما أنها وردت في آيةٍ صريحة في القرآن فيجبُ أنْ نؤمنَ بها ونسلِّمَ بمدلولها، ونقولَ بما قالتْ به. لقد أمرَ اللّهُ الجبالَ والطير أنْ تسبحَ مع داود عليه السلام، فنفذتْ أمرَ الله وسبحتْ معه: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

وإذا كانتْ آيةُ سورةِ الأنبياء قد أخبرتْ أنَّ الجبالَ والطير كانت تسبحُ مع داود، فإنَّ آيةَ سورة سبأ قد أخبرتْ أنها كانت تُؤَوِّبُ معه. قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠].

أمرَ اللّهُ الجبالَ والطير أنْ تُؤَوِّبَ مع داود عندما يسبح.

و«أَوِّبي» فعلُ أمر. الماضي منه «أَوَّبَ». ومعناه: رَجَّعَ ورَدَّدَ الصوت، وأعادَه كما سمعه.

قال الإمامُ ابنُ كثير في تفسير هذه الآية من سورة سبأ: «يخبرُ اللّهُ عما أنعمَ به على عبدِه ورسوله داودَ عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضلِ المبين، وجمعَ له بين النبوةِ والملكِ المتمكن، والجنودِ ذوي العَدَدِ والعُدَد، وما أعطاهُ ومنحه من الصوتِ العظيم الذي كان إذا سبَّحَ تسبحُ معه الجبالُ الراسيات، الصمُّ الشامخات، وتقفُ له الطيورُ السارحات، والغادياتُ والرائحات، وتُجاوبه بأنواعِ اللغات.

ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: سَبِّحي معه.

قالَه ابنُ عباس ومجاهد، وغيرُ واحد.

وفي هذا نظر، فإن التأويبَ في اللغة هو الترجيع. فأُمرت الجبالُ والطيرُ أنْ ترجِّعَ معه بأصواتها.

والصوابُ أن معنى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾: رجِّعي معه مسبحة...»[1].

وهذا معناه أن الجبالَ والطيرَ كانت تنتظرُ داودَ أنْ يبدأَ بالتسبيح، فإذا سمعتْه يسبحُ أَوَّبَتْ ورجَّعَتْ وردَّدَتْ معه.

الإخبار عن تسبيح الجبال والطير معه في ثلاث سور:

واللطيفُ في إخبارِ القرآن عن تسبيحِ الجبال والطير مع داود عليه السلام، أنَّ هذا الإخبارَ جاءَ في ثلاثِ سور: الأنبياء وسبأ وص.

ففي سورةِ الأنبياء أَخبرَ عن تسبيحِها معه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ..﴾.

وفي سورة سبأ أخبرَ عن تأويبِها معه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ...﴾.

(١) تفسير ابن كثير ٣:٥٠٥ باختصار.

أي أنَّ تسبيحَها كان تأويباً وترجيعاً وترديداً، بعدَ تسبيحه هو.

أما في سورةِ ص فقد جاءت زيادةٌ وإضافةٌ مفيدة. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩].

أخبرَ اللّهُ أنَّ داودَ ذو الأيْد. ومعنى «ذو الأيد»: ذو القوة. ونتكلمُ عن هذا المعنى في المبحثِ القادم إن شاء الله.

وأخبرَ أنه أوّاب: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قال ابنُ كثير: الأوّاب: «هو الرّجّاعُ إلى اللّهِ عز وجل في جميعِ أُموره وشؤونه»[1].

وهذا ثناءٌ من الله على داودَ عليه السلام، بأنه أوّابٌ إلى ربه، حريصٌ على مرضاتِه، يرجعُ في كلِّ أُموره إليه، ويرجعُ في كلِّ أوقاتِه إليه.

قالَ الإمام الراغب عن الأَوْب: «الأَوْب: ضربٌ من الرجوع.

وذلكَ أنَّ الأَوْبَ لا يقالُ إلا في الحيوانِ الذي له إرادة.

... والأوّاب كالتّوّاب، وهو الراجعُ إلى الله بتركِ المعاصي وفعلِ الطاعات...»[2].

وفصَّلت الآيةُ في تسبيحِ الجبال والطير مع داود، فبينتْ أنها تسبحُ مرتيْن في اليوم: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ..﴾.

والعشي: وقتُ المساء، عند غروب الشمس.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٣١.

(٢) المفردات: ٩٧ باختصار.

والإشراق: وقتُ الصباح عند شروق الشمس.

لقد سخرَ اللّهُ له الجبال، وجعلَها مسبحةً في الصباح وفي المساء، وحشرَ له الطير، وجعلَها تسبحُ وهي محشورةٌ في الصباح والمساء أيضاً.

وجملة ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ في محلِّ نصبِ حال، وصاحبُ الحال هو الجبال. أي: إنّا سخرنا الجبالَ معه مسبحةً بالعشي والإشراق.

و«محشورةً» حالٌ منصوب، وصاحبُ الحال هو «الطير». و«الطيرَ» مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ مفهوم من السياق. والتقدير: وسخرنا الطيرَ محشورة، مسبحةً بالعشي والإشراق.

وكأنَّ الجبالَ والطيرَ مخلوقاتٌ عاقلة، تختارُ أَصفى وقتين للتسبيح: عند شروق الشمس وعند غروبها.

وتخيُّلُ منظرِها وهي تسبحُ عند الصباح والمساء جميلٌ لطيفٌ مؤثر، تتفاعلُ معه النفوس.

الجبال والطير أوابة لداود الأواب:

داودُ عليه السلام يقفُ ويسبحُ اللّهَ بصوته الجميل، فتجاوبُهُ الجبالُ مسبحة، ويسمعُها وهي تقول: سبحان الله. وتأتيه أَسرابٌ من الطيور، من مختلفِ أجناسها، وتُحشرُ له، وتجاوبُه مسبحة، ويسمعُها وهِي تقول: سبحان الله!!

إنه مشهدٌ عِباديٌّ تسبيحيٌّ عظيمٌ مؤثر، وإنَّ تصوُّرَه وتخيُّلَه يملأُ شعورَ المؤمن أُنساً واستمتاعاً وجمالاً.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه أَخبر عن الجبال والطير بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

والضميرُ يعودُ على داود عليه السلام، أي: أن اللّهَ سخر له

الجبالَ والطير، وجعلَها أوّابةً له، أي جعلَها رجّاعَةً له، تؤوبُ إلى داود وترجعُ إليه، وتستسلمُ له، وتسبح معه.

والجميلُ في التعبيرِ القرآني أن كلمةَ «أوّاب» وردت مرتين في الحديثِ عن داود في سورة ص:

المرة الأولى: ثناءٌ من الله على داود: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

المرة الثانية: وصفُ الجبال والطير: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

فداودُ أوّابٌ لربه، رجّاعٌ إليه، والجبالُ والطير، كلٌّ منها أوّابٌ لداود، رَجّاعٌ إليه.

وتَجمعُ معها كلمةَ «أوِّبي» المشتقةَ من نفسِ المادة «الأَوْب»، الواردةَ في سورة سبأ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

فيكونُ المعنى: الجبالُ والطيرُ الأوّابَةُ لداود تُؤَوِّبُ معه عندما يسبح، وتُرَجِّعُ معه تسبيحَه، وهي أَوّابَةٌ له لأنه هو أَوّابٌ لربه!!.

[٨]

داود يصنع الدروع الحربية

بما أنَّ داودَ عليه السلام نبيٌّ ملك، جمعَ اللّهُ له بين النبوة والملك، فقد زوَّدَه بالوسائلِ التي تُقوي سلطانَه، وتشدُّ ملكَه.

وأخبرنا اللّهُ بأنه شدَّ له ملكه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

قال ابن كثير: «﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: أي: جعلْنا له ملكاً كاملاً، من جميع ما يحتاجُ إليه الملوك.

قال مجاهد: كان داودُ أشدَّ أهلِ الدنيا سلطاناً..»[١].

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٣١.

هيأ اللّهُ له الملكَ والسلطان، وأنشأ له الخلافة، وأوجدَ له الدولة، فأسسَ أولَ خلافةٍ إيمانية.

معنى وصف داود بأنه «ذو الأيد»:

وبما أن اللّهَ شدَّدَ له ملكه، وقوّى له سلطانَه، فقد وصفَه بأنه ذو الأَيْد. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

إنه أَوّابٌ إلى الله، دائمُ الأوبةِ والرجوع إليه سبحانه، ولذلك منحه اللّهُ الأَيْدَ والقوة.

قال ابن كثير: «والأَيْد: القوةُ في العلم والعمل.

قال ابن عباس: الأَيد: القوة.

وقال مجاهد: الأيد: القوةُ في الطاعة.

وقال قتادة: أُعطيَ داودُ عليه السلام قوةً في العبادة، وفقهاً في الإسلام..».

والأَيْدُ بمعنى القوةِ الشديدة، مشتقةٌ من فعل: «أَيَّدَ» بمعنى: قَوَّى. والله يؤيِّدُ مَن يشاء: أي يقوّي مَن يشاء، ويمنحهُ تأييداً وقوة.

ويجبُ أنْ نفرقَ بين الأيدي والأَيْد. والكلمتان واردتان في القرآن.

فالأَيْدي جمع يد، وهي اليدُ المعروفةُ في الإنسان.

وهي مشتقةٌ من فعل «يَدىٰ». تقول: يَدىٰ، يَدي. بمعنى أَصابَ يَدَه.

وأَيدي الناس: جوارحُهم المعروفة. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا...﴾ [الروم: ٤١].

أما الأَيْدُ فهو القوة. وهو مشتقٌ من فعل «آدَ». تقول: آدَ، أَيْداً،

بمعنى: قَوِيَ واشتد. فهو أَيِّدٌ، وذو أَيْد. وأَيَّده: قَوَّاه..[1].

ولم ترد «الأَيْد» إلا مرتين في القرآن:

الأولى: في الإخبارِ عن خلقِ الله للسماء بقوته سبحانه. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧].

قال ابنُ كثير في تفسير الآية: السماءَ جعلناها سَقْفاً محفوظاً رفيعاً بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري، وغير واحد[2].

أي أنَّ اللّهَ خلقَ السماء وأوجدَها وبناها بأَيْدِه وقوته سبحانه.

الثانية: في وصفِ داودَ عليه السلام بأنه ذو أَيْد. أي: ذو قوة في العلم والعمل.

ذو الأيد وأولو الأيدي في سورة ص:

واللطيفُ أن الكلمتين مذكورتان في سورة ص: الأَيْد والأَيدي.

أما الأَيْدُ فكما مَرَّ معنا: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

وأَما الأيدي، فهي مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥].

وصفت الآيةُ الأنبياءَ الثلاثةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأنهم أُولوا الأيدي والأبصار. ولا يُرادُ بذلك الجوارح من الأيدي والعيون، فكلُّ الناس لهم أَيْدٍ وعيون ـ إلاّ من ابتلاهم الله بفقدانها ـ.

وإنما المرادُ الثناءُ على هؤلاء الأنبياء بالقوة في العلم والعمل، والبصر والفطنة والفهم.

قال ابن كثير: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: يعني بذلك العملَ

---

(١) المعجم الوسيط: ٣٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

الصالح، والعلمَ النافع، والقوةَ في العبادة، والبصيرةَ النافذة.

قالَ ابن عباس: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾: أُولي القوةِ والفقه في الدين.

وقـال مـجـاهـد: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾: الأيـدي: الـقـوةُ فـي طاعةِ الله، والأَبصار: البصرُ في الحق.

وقالَ قتادة والسدي: أُعطوا قوةً في العبادة وبَصَراً في الدين.

إذن كـان داودُ عـليـه الـسـلام ذا أَيـد، وصـاحـبَ قـوةٍ فـي الـعـلـم والعمل. وقد استخدَمَ أَيْدَهُ وقُوَّتَه في توطيدِ سلطان دولته، وتقويةِ خلافته، والحكمِ في بني إسرائيل بالحق.

داود لا يأكل إلا من عمل يده ودلالة ذلك:

وبـما أَنَّ داود كـان ذا أَيْـد وقـوة، فـقـد حـرصَ عـلـى أن يـكـون لـه عملٌ يعملُه بيده، ليأكلَ منه.

روى الـبـخـاريُّ عـن أبـي هـريـرة رضـي الله عـنـه عـن رسـول الله ﷺ قال: «إنَّ داودَ عليه السلام كان لا يأكلُ إلاّ من عملِ يده..»[1].

إنَّ داودَ كان لا يأكلُ إلا من عمل يده، وهذا من مروءتِه وشهامتِه وقوته عليه السلام، بحيثُ يرفضُ أنْ يكونَ عالةً على غيره، يعتمدُ على غيره في كسبه ورزقه وأكله.

وقد دعا رسولُنا ﷺ إلى الاقتداءِ بداودَ عليه السلام في ذلك. فروى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قط، خيراً مِنْ أن يأكلَ من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داودَ عليه السلام كان يأكلُ من عمل يده..»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٧٣. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٧٢.

وقد استجابَ أصحابُ رسول الله ﷺ لهذا التوجيه النبوي، فكانوا يَحرصون على أن يكتسبوا ويعملوا.

روى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ عُمّالَ أنفسهم..»[1].

ومن عظمةِ شخصيةِ داود عليه السلام أنه كان يحرصُ على أنْ يعملَ ويكدَّ ويكسب، ليأكلَ من عملِ يده، مع أنه ملكٌ خليفة، أنشأَ أولَ مملكةٍ إسرائيلية، وأسسَ أولَ خلافةٍ إيمانية، ومع هذا لم يمنعْهُ هذا الفضلُ من العملِ والكسب، ليأكلَ من عملِ يده.

ألان الله لداود الحديد:

ماذا كانت مهنةُ داودَ عليه السلام؟ التي يأكلُ من كسبها؟

لم تكن مهنةً فردية بقصْدِ العملِ والكسب، وجنْيِ المالِ والمتاع، إنما كانت مهنتُه تخدمُ أمتَه، وتُقَوي دولتَه، لقد اختارَ داودُ عليه السلام العملَ الذي يقدِّمُ خيراً لأمته.

وهذا يتفقُ مع قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

لقد ألانَ اللّهُ الحديدَ لداود عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾..﴾ [سبأ: ١٠].

اللّهُ هو الذي ألانَ الحديدَ بين يديه، فكان يتصرفُ فيه كما يشاء، بدون جهدٍ ولا مشقة.

لقد كان الحديدُ معروفاً قبلَ داودَ عليه السلام، لكن كان استعمالُ الإنسانِ له قليلًا محدوداً.

أمّا داودُ عليه السلام، فقد هداه اللّهُ إلى اكتشافِ مناجمِ الحديد

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٧١.

في مملكته، وألانَ الحديدَ له، وجعله طوعَ يديه، فكان يصنعُ منه ما يشاء.

إن قولَه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ يدلُّ على أنَّ اللّهَ ألهمَ بني إسرائيل في عهدِ داودَ عليه السلام اكتشافَ الحديد، واستخراجَه من مناجمه في الأرض المقدسة، واستخدامَه في الصناعاتِ المختلفة الضرورية للدولة، وكان هذا من مظاهرِ تقدمِ الدولة في عهده عليه الصلاة والسلام.

أما داودُ عليه الصلاة والسلام فقد خصَّهُ اللّهُ بأنْ ألانَ له الحديد، وسهَّلَه بين يديه، ليصنعَ منه مختلفَ الصناعات الضرورية لقومه.

وعلمه صنع الدروع الحربية:

كان داودُ عليه السلام يصنعُ من الحديدِ اللين بين يديه الدروعَ الحربية، واللّهُ هو الذي علَّمه كيفيةَ صنع هذه الدروع.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠].

والمعنى: أن اللّهَ عَلَّمَ داودَ عليه السلام أنْ يصنعَ من الحديدِ الدروعَ التي يلبسها المقاتلون، وذلك لتحميهم من سلاحِ الكفار الأعداء في المعارك.

﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾: صنعَ الدروع، التي تَلبسونها في الحرب.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: لتحميكم هذه الدورعُ عندَ القتال.

وكان داودُ عليه السلام هو أولَ مَنْ صنعَ الدروعَ الحربية، التي يلبسها الجنود، ولم تكن الدروعُ الحديديةُ تلبس على هذه الصورة قبله.

حديث القرآن عن كيفية صنعه للدروع:

أما كيفيةُ صنعِه لهذه الدروع، فقد أشارتْ إلى ذلك آيةُ سورةِ سبأ، وهي قول الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١].

لما ألانَ اللّهُ لداودَ عليه السلام الحديد، عملَ منه الدروعَ السابغات، وقَدَّرَ في السَّرْد، ما معنى ذلك، وكيف كان؟

«أنْ» في قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسيرية، فجملةُ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسيرٌ لما قبلها. أي: لما ألنّا لداودَ الحديد، قلنا له: اعمل سابغات.

ومعنى «سابغات» واسعات طوالاً.

وهي صفةٌ لموصوفٍ محذوف. والتقدير: اعمل دروعاً سابغات واسعات طوالاً كوامل.

قال الإمام الراغب: «دِرْعٌ سابغ: تامٌّ واسع. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾. وعنه استعير إسباغُ الوضوء، وإسباغُ النعم، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]»[١].

والسَّرْدُ في قوله: «قدر في السرد» الثُّقْب.

يقال: سَرَدَ الشيء: ثَقَبه. وسَرَدَ الجلد: خَرَزَه. وسَرَدَ الدرع: نسجَها، فَشَكَّ طرفي كلِّ حلقتين وسَمَّرهما بالمسامير[٢].

وقال الإمام الراغب: «السَّرْدُ»: خَرزُ ما يَخْشُنُ ويغلظ، كنسج الدرع، وخرزِ الجلد، واستعير لنظم الحديد، قال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[٣].

---

(١) المفردات: ٣٩٥.

(٢) المعجم الوسيط: ٤٢٦.

(٣) المفردات: ٤٠٦.

ومعنى «قدر في السرد»: أَحسنْ تقديرَ المساميرِ في حِلَقِ الدرع، وأَحسنْ ثَقْبَ حلقِ الدرع، بحيث تجيءُ فتحةُ الحلقة على قدرِ المسمار، فلا هي أوسعُ من المسمار فيتخلخلُ ويتحركُ فيها، ولا هي أضيقُ من المسمار فلا يدخلها ويتكسر!!

قَدِّرْ ثقبَ الحلقة أحسنَ تقدير، واجعلْها على قدرِ الحاجة.

قال ابن عباس: «السَّرْدُ» هو ثقبُ الدروع من الحديد.

وقال مجاهد: «وقَدِّرْ في السرد»: لا تُصَغِّر المسمارَ وتكبِّر الحلقة، فيسلسُ المسمار ويتقلقلُ فيها، ولا تُعَظِّم المسمار وتصغِّر الحلقة فيتكسر، ولكن اجعل ذلك بقدر.

والدروعُ المسرودةُ هي الدروعُ الحديدية، التي وُضعت المساميرُ في حلقاتها، فصارَتْ محكمة متينة.

والشاهدُ على ذلك قول الشاعر:

وَعَلَيْهِما مَسْرودَتان قَضاهُما ... داودُ أَوْ صَنَعَ السَّوابِغَ تُبَّعُ

والمعنى: جاءَ الرجلان، وعليهما درعان سابغتان، محكمتا الصنع، مسرودَتان بالمسامير، كأنهما من صنعِ داود عليه السلام، أو من صنعِ تُبَّع ملك اليمن.

فالآية: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ تخبرُنا أنَّ اللّهَ علَّمَ داودَ عليه السلامُ صنعَ الدروع المحكمة من الحديد الذي ألانَه له، فكان داودُ يحسنُ تقديرَ ثقبِ الحديد، فتكون الحلقةُ مناسبةً للمسمار تماماً، لا أصغرَ منه ولا أكبر منه.

وبهذا كان جنودُه يلبسون الدروعَ الحديديةَ المحكمة التي يصنعها، فكانت تحميهم من الأعداءِ في القتال، وتردُّ عنهم أسلحةَ أولئك الأعداء.

هو أول من صنع الدروع الحربية وشكره لله:

ولم تكن الدروعُ الحديديةُ مسرودةً بالحلق والمسامير قبلَ داود عليه السلام.

قال قتادة: داودُ أولُ مَنْ عملَ الدروعَ من الحلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح..[1].

وأمرَ اللّهُ آلَ داود عليه السلام وقومَه بعمل الصالحات، شكراً لله على هذه النعمةِ التي علَّمها لملكهم داود عليه السلام: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ونِعَمُ اللّهِ يجبُ أن تقابَلَ بشكرِه سبحانه، ومن شكره عليها استخدامُها فيما يرضي الله، والإكثارُ من العمل الصالح.

وهذا ما أَدركه داودُ وابنُه سليمان عليهما الصلاة والسلام، حيث اعترفا لله بالفضل والمنة، وحمداه على ما أنعم عليهما به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

آتاهما الله علماً، وخصَّهما به، ومنه النبوة التي مَنَّ بها عليهما، وفضَّلهما بالعلم والنبوة على عباده المؤمنين، وأَدركا ذلك عليهما السلام فحمدا اللّهَ وشكراه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

عمر بن عبد العزيز واقتداؤه بداود في شكر المنعم سبحانه:

وقد سجَّلَ الإمامُ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية رسالةَ الخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيز رضي الله عنه التي كتبها من فهمه لهذه الآية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣: ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

قال: «كتبَ عمرُ بن عبد العزيز: إن اللّهَ لم ينعمْ على عبدِه نعمة، فيحمدُه عليها، إلا كان حمدُه لله أفضلَ من تلك النعمة. وإنْ كنتَ لا تعرف ذلك فإنَّ اللّهَ ذكرَه في كتابه المنزل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾. فأيُّ نعمةٍ أفضلُ مما أُوتي داودُ وسليمانُ عليهما السلام..»(١).

إذن كان داودُ عليه السلام يصنعُ الدروعَ الحديدية، وكان دخلُه ورزقُه من ريعها، وليس من خزينةِ المملكة التي أسَّسَها.

وانتشارُ الدروعِ الحديدية المحكمة المتينة في الدولةِ الإسرائيلية المؤمنة في عهد داود عليه السلام، سببٌ من أسبابِ قوةِ تلك الدولة، وتقدُّمِها وتفوُّقِها، وانتصارِها على أعدائها، الذين كانوا لا يعرفون هذه الصناعةَ الحربية!

[٩]
مع داود في حكمه وقضائه

آتى اللّهُ نبيَّه داودَ عليه السلام من نِعَمِه الكثير، وأخبرَنا عن بعضِ ما آتاهُ في القرآن.

آتاهُ فضلاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ [سبأ: ١٠].

وآتاهُ الملكَ والحكمةَ والعلم. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ..﴾ [البقرة: ٢٥١].

وآتاه الحكمةَ وفصلَ الخطاب. قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

وقد أحسنَ داودُ عليه السلام الاستفادةَ من هذه المنحِ الربانية،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٤٦.

واستخدامَها في تقديمِ الخير لقومه، وإسعادِهم بتطبيق شرع الله فيهم.

شدَّ اللّهُ ملكَ داود وقوّاه وثبَّته، ومنحه كلَّ ما يحتاجُه ملْكُه من وسائلِ القوة والتثبيت، من المالِ والرجال والعتاد والسلاح والدروع والتشريع، كما قالَ الإمامُ ابن كثير: «شَدَدْنا ملكه»: جعَلْنا له ملكاً كاملاً، من جميعِ ما يحتاجُ إِليه الملوك..»[1].

ما هي الحكمة التي آتاها الله داود؟:

ومن مظاهر شَدِّ اللّهِ لملكه ما آتاهُ من الحكمةِ وفصلِ الخطاب.

فما هي الحكمةُ التي آتاه اللّهُ إياها؟

أوردَ ابنُ كثير أقوالَ بعضِ السلف في ذلك:

قال مجاهد: الحكمة هي: الفهمُ والعقل. والعدلُ والصواب.

وقال قتادة: الحكمة هي: كتابُ الله، واتباعُ ما فيه.

وقال السدي: الحكمة هي: النبوة.

وهذه الأقوالُ الثلاثةُ متقاربة، وهي من الحكمة.

فالنبوةُ من الحكمة، وكتابُ الله من الحكمة، واتباعُ وتطبيقُ ما فيه من الحكمة، وأُوتي داودُ عليه السلام الزَّبور، ومَنَّ اللّهُ عليه بالشريعة.

ونتجَ عن النبوة والشريعة وكتاب الله فهمُ داودَ عليه السلام وفطنتُه، وحكمُه بالعدل، وقولُه بالحق والصواب.

فهذه بعضُ مظاهرِ الحكمة التي آتاه اللّهُ إياها، فاستفادَ هو منها، وقدَّمَ النفعَ والخيرَ للآخرين.

قال الإمامُ الراغبُ عن الحكمة: «حَكَمَ: أصلُه: مَنَعَ منعاً لإصلاح.. والحكمُ بالشيء: أنْ تقضيَ بأنه كذا، أو ليس بكذا.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٣١.

والحكمة: إصابةُ الحقِّ بالعلم والعقل.

فالحكمةُ من الله: معرفةُ الأشياء، وإيجادُها على غاية الإِحكام.

والحكمةُ من الإنسان: معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات...»[1].

وبما أن اللّهَ آتى داودَ عليه السلام الحكمة، فقد كان حكيماً في نفسه يتمتعُ بالفطنةِ والفهمِ والذكاء والفقه والعلم، وكان حكيماً مع قومه يقضي بينهم بالحكمة، ويحكمُ فيهم بالحق والصواب، وكان حكمه وقضاؤه يمنع الفساد، ويحققُ الخيرَ والصلاح.

وما هو فصل الخطاب المبني على الحكمة؟:

وأشارت الآيةُ إلى ما نتجَ عن حكمةِ داود مع قومه، وهو فصْلُ الخطاب: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

والفصلُ هو القطع والجزم. تقول: فصَلَ كذا. إذا منَعَه.

والخطاب هو: الكلامُ والجدالُ والخصامُ بين الطرفين المتخاصمين.

فعندما يختلفُ رجلان في مسألة، يتخاطبان ويتناقشان ويتنازعان ويتخاصمان، وكلٌّ يَدّعي أنه على صواب، وأنَّ معه البينات والشهود، ويذهبان إلى القاضي ليحكمَ بينهما.

وينظر القاضي في المسألة، ثم يُصدرُ حكْمَه، وإذا كان حكمُه عادلاً صائباً يُنهي المشكلة، ويقطعُ النزاع، ويحلُّ الخلاف.

عندها يقال: فصلَ القاضي الخطابَ بينهما، بالحكم الذي أصدره.

قال الإمام الراغب: «الفصل: إبانةُ أحدِ الشيئين من الآخر، حتى يكونَ بينهما فرجة.. تقول: فصَلْتُ الشاة: قطعتُ مفاصلها.

---

(1) المفردات: ٢٤٨ ـ ٢٤٩ باختصار.

... وفصلُ الخطاب: ما فيه قطعُ الحكم. وحكْمٌ فيصل...»[1].

أخبرَنا اللّهُ أنه آتى داودَ عليه السلام فصلَ الخطاب، وكان هذا ثمرةً للحكمة التي مَنَّ عليه بها: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

وهذه شهادةٌ من الله لنبيه داودَ عليه السلام بموهبته في الحكم والقضاء، حيث كان يحكُم بين الناس بشرع الله، ويَقضي بين المتخاصمين والمتنازعين، بالحكمة التي آتاه الله إياها.

وكانت أحكامُ داود وأقضيتُه عليه السلام صائبةً صحيحة، كيف لا وهو النبيُّ المؤيَّدُ من الله، المعصومُ بعصمة الله له، وكانت أحكامُه وأقضيتُه تؤدي إلى فصلِ الخطاب وقطع الخلاف، وإنهاء النزاع.

قال مجاهد والسدي: فصل الخطاب هو: إصابةُ القضاء، وفهمُ ذلك[2].

وكان يساعدُه في أقضيتِه وأحكامه ابنُه سليمان عليه السلام، الذي آتاه اللّهُ الحكمةَ والعلمَ أيضاً، فأضافَ حكمتَه إلى حكمة أبيه، وعلمَه إلى علمِه، وإذا دعت الحاجةُ إلى الاستدراك على أبيه في حكمه كان يفعل، وكان أبوه يتقبلُ ذلك برضى، ويُمضي حكمَ ابنه وقضاءَه.

قضية الحرث والغنم في سورة الأنبياء:

وقد ذكرتْ لنا مصادرُنا الإسلامية نموذجيْن لحكمِ داود وقضائه، واستدراكِ ابنه سليمان عليه.

النموذج الأول وردتْ له إشارةٌ مبهمةٌ موجزة في القرآن، والنموذج الثاني أخبرَنا عنه رسولُ الله ﷺ.

---

(1) المفردات: ٦٣٨ باختصار.

(2) تفسير ابن كثير ٤: ٣٢.

الإشارةُ إلى النموذج الأول وردتْ في سورة الأنبياء. قال الله عز وجل: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقبلَ الحديث عن ذلك الحكم نبينُ معنى الآيتين بإيجاز:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ منصوبان بفعْلٍ مقدَّر. تقديره: اذكُرْ داودَ وسليمان.

والخطابُ موجَّهٌ لرسولِ الله ﷺ، ولكلِّ مؤمنٍ من بعده، يَدعوه اللّهُ إلى أنْ يذكُرَ ويتذكَّرَ هذه الحادثة التي حكمَ وقضى فيها داودُ وسليمانُ عليهما السلام.

و﴿إِذْ﴾: ظرفُ زمانٍ للماضي، وهو متعلقٌ بالفعل المقدَّر. أي: اذكُرْ داودَ وسليمان وقتَ حكمِهما في الحرث.

و﴿يَحْكُمَانِ﴾: يقضيان بين الخصمَيْن، عندما رُفعتْ لهما هذه القضية.

و﴿فِي ٱلْحَرْثِ﴾: في زرْعِ أحدهما. أي: في مزرعته التي زرعها. وقد تكون هذه المزرعةُ مزروعةً زرعاً كالقمح أو الشعير، وقد تكون مغروسةً أشجاراً مثمرة كالعنب.

و﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾: دخلتْ غنمٌ لآخرين تلك المزرعةَ فرعَتْها وأفسدَتْها، وكان دخولُها فيها ليلاً.

تشيرُ الآيةُ إلى حادثةٍ وقعتْ في عهدِ داود عليه السلام. فقد كان

لأحدهم حرثاً أو مزرعةً أو بستاناً، وفي ليلةٍ من الليالي دخلتْ غنمٌ لآخرين ذلك الحرثَ ونفشَتْ فيه، فرعَتْه وأكلَتْه وأفسدَتْه.

وفي الصباحِ ذهبَ ذلك الرجلُ إلى حرثِه، فإذا به قد أَصابه التلفُ والفساد. ويبدو أَنه عرفَ أصحابَ الغنم التي رعَتْه ليلاً.

فاشتكى إِلى داودَ عليه السلام، وطالبَ إِنصافَه من صاحب الغنم.

قال الإمامُ الراغب عن معنى الحرث: «الحرثُ إلقاءُ البذر في الأرض، وتهيُّؤها للزرع. ويُسمى المحروثُ حرثاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: ٢٢]»[١].

وقال عن النَّفْش: «النَّفْشُ: نشرُ الصوف. قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥] أي: كالصوف المنشور.

ونَفْشُ الغنم: انتشارُها. والنَّفَشُ ـ بفتح الفاء ـ الغنمُ المنتشرة. قال تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾.

والإبلُ النوافش: المترددةُ ليلاً في المرعى بلا راع..»[٢].

وقد فرَّقَ العلماءُ بين رعْيِ الماشية بدون راعٍ في الليل، ورعيها في النهار:

فإنْ رعَتْ في الليل بدون راع قيل: نَفَشَتْ.

وإنْ رعَتْ في النهار بدون راع قيل: هَمَلَتْ.

قال قتادة: النَّفَشُ لا يكون إلا بالليل، والهَمَلُ بالنهار.

وورد في المعجم الوسيط: «نَفشت الماشية في الزرع: انتشرت

(١) المفردات: ٢٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٨١٩.

فيه ورعَته ليلاً، قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾.

وأَنفشَ الراعي الماشية: أَرسلَها ترعى بالليل ونامَ عنها»[1].

وورِدَ في المعجم الوسيط عن الهَمْل: «هَمَلَت الإبلُ هَمْلاً: سرحتْ بغير راعٍ. فالبعيرُ هامل، والناقة هاملة.

وأهملَ إبلَه: تركَها بلا راع. ولا يكونُ ذلك في الغنم..»[2].

الله فهم سليمان الدعوى واستدراكه على حكم داود:

أخبرَ اللّهُ أنَّ المتخاصمَيْن جاءا إلى داود عليه السلام ليحكمَ بينهما، في مسألةِ رعي غنمِ أحدِهما زرعَ الآخر ليلاً. وكان ابنُه سليمان عليه السلام حاضراً الدعوى.

ويبدو أنَّ داودَ عليه السلام حكمَ في هذه الدعوى، ولما علم ابنُه سليمان بحكمه استدرك عليه، وحكم بحكم آخر.

وقد أَثنى الله على سليمان في حكمه بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

والهاء في «فهمناها» تعودُ على القضية والدعوى المعروضة. أي: فَهَّمْنا سليمانَ القضية، وأرشدناه إلى أنْ يحكمَ فيها الحكمَ الأصوب والأكمل.

كما أَثنى الله على داود وسليمان كليهما عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي أنَّ داودَ عنده حكمٌ وعلمٌ من الله، وسليمانَ عنده حكمٌ وعلمٌ من الله. فحكَمَ داودُ في القضية بما آتاه اللّهُ من حكم وعلم، ثم حكمَ

(١) المعجم الوسيط: ٩٤٠.

(٢) المرجع السابق: ٩٩٥.

فيها سليمان بما آتاه اللّهُ من حكم وعلم، فجاء حكمُ داودَ فيها صواباً، لكن كان حكمُ سليمانَ أكثرَ صواباً..

فالآيةُ لم تُخَطِّئ داودَ في حكمه، وإنما أثنتْ عليه لِما عنده من حكم وعلم، وهذا معناه أنَّ حكمه كان صحيحاً وليس خطأً.

ولم تَرِدْ مادةُ «فَهِم» في القرآن إلا في هذا الموضع.

قال الراغب عن الفهم: «الفهم: هيئةٌ للإنسان، بها يتحققُ معاني ما يُحسن. يقال: فهمتُ كذا.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾: وذلك بأنَّ اللّهَ إمّا جعلَ له من فضْلِ قوةِ الفهم ما أدركَ به ذلك، وإمّا بأنْ ألقى ذلك في روعِه، أو بأنْ أوحى إليه وخصَّه به.

وأفهمتُه: إذا قلتُ له حتى تصوَّرَه...»[1].

فَهَّمَ اللّهُ سليمانَ الدعوى، وأفهمه الحكمَ الأصوبَ والأَوْلى فيها، فاستدركَ على أَبيه عليهما السلام.

رواية لابن عباس عن حكم داود وسليمان في القضية:

أمّا ما هو حكمُ داودَ في الدعوى؟ وما هو حكمُ سليمان فيها؟ فإنَّ القرآنَ لم يحدِّدْه، ولم يحدِّدْهُ لنا رسولُ الله ﷺ في حديثٍ مرفوعٍ متصلٍ صحيح.

ويمكنُ أنْ «نستأنسَ» للحُكمين بكلامٍ موقوفٍ على ابن عباس رضي الله عنهما، أوردَه المفسرون في تفسيرهم لهذه الآية.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: دخلَ رجلان على داود، أحدُهما صاحبُ حرث، والآخر صاحبُ غنم.

---

(١) المفردات: ٦٤٦.

فقالَ صاحبُ الحرث: إنَّ هذا أرسلَ غنمه في حرثي، فلم يُبْقِ من حرثي شيئاً!

فقال له داود: اذهب فإنَّ الغنمَ كلَّها لك!

فمرَّ صاحبُ الغنم بسليمان، وأخبرَه بالذي قضى به داود.

فدخلَ سليمانُ على داودَ عليهما السلام. فقال: يا نبيَّ الله: إن القضاءَ سِوى الذي قضيتَ!

فقال داود: كيف؟

قال سليمان: إنَّ الحرثَ لا يخفى على صاحبه ما يَخْرُجُ منه في كلِّ عام، فلهُ أنْ يبيعَ من أولادِها وأصوافِها وأشعارها حتى يستوفيَ ثمنَ الحرث!!

فقالَ له داود: أَصبْتَ. القضاءُ ما قضيتَ[1]

وفي روايةٍ أخرى لابن عباس أنه قال: قضى داودُ بالغنمِ لأصحابِ الحرث. فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه.

فقال لهم: لو وُلّيتُ أمرَكم لقضيتُ بغير هذا!!

فأُخبرَ داودُ بكلام سليمان، فقال له: كيفَ تقضي بينهم؟

قال سليمان: أَدفعُ الغنمَ إلى صاحب الحرث، فيكونُ له أولادُها وألبانُها ومنافعُها. ويبذرُ أصحابُ الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم.. فإذا بلغَ الحرثُ الذي كان عليه، أخذَ أصحابُ الحرث حرثَهم، وردّوا الغنمَ إلى أصحابها[2]..

فهذا التفصيلُ في حكمِ داودَ واستدراكِ سليمان عليه موقوفٌ على ابن عباس، ولا ندري مِن أينَ أَخذه؟! لأنه لم يرفعْهُ إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٨١.

ونحنُ نوردُ كلامَه من بابِ الاستئناس، مع التحفظ والاحتياط، لأنه يتفقُ مع سياق الآية، لكن لا نجزمُ به لأنه ليس مرفوعاً لرسول الله ﷺ!

بقيَ أن نقولَ في تفسير الآية: لم يُخطئ داودُ في حكمه في القضية عليه السلام، لأنه معصوم من الله، وكان حكمُه وقضاؤه صواباً وصحيحاً.

ولكنَّ حكمَه كان خلافَ الأَوْلى، فَفَهَّمَ اللّهُ سليمان القضية، وأرشده إلى الحكمِ الأَوْلى والأفضلِ والأصوب.

ولهذا أثنى اللّهُ على كلٍّ من داودَ وسليمان بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ..﴾.

ووجودُ سليمانَ مع داود في حكمه وقضائه، يعينُه ويؤيدُه، ويستدركُ عليه عند الضرورة، مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ توفيقِ الله لداود وتيسيرِ أمره، وتشديد ملكه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

فقد جمعَ اللّهُ علمَ وحكمةَ وفَهمَ سليمان إلى علمِ وحكمةِ داود عليهما السلام، وتعاوَنا على الحكمِ بالعدلِ والصواب.

هذا عن النموذجِ الأول الذي أَشارَ له القرآن.

استدراك سليمان على حكم أبيه في قضية المرأتين:

أمّا النموذجُ الثاني فقد أَخبرَنا عنه رسولُ الله ﷺ، وفيه يستدركُ سليمانُ أيضاً على أَبيه عليهما الصلاة والسلام.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ:

كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئبُ فذهبَ بابنِ إحداهما.

فقالتْ صاحبتُها: إنما ذهبَ بابنك!

وقالت الأخرى: إنما ذهبَ بابنك.

فتحاكَمتا إِلى داودَ عليه السلام. فقضى به للكبرى.

فخرَجتا على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرتاه بذلك.

فقال: ائتوني بالسكّين أشقُّه بينهما!

فقالت الصغرى: لا تفعلْ يرحمكَ الله! هو ابنُها!!.

فقضى به للصغرى.

قالَ أبو هريرة: واللّهِ ما سمعْتُ بالسكّين إلاّ يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدية»[1].

وما قلنا في حكمِ داود عليه السلام لصاحب الزرع بمصادرةِ الغنم، نقول هنا في حكمِه بالولدِ للكبرى، فقد حكمَ به للكبرى لوجودِ قرائنَ عنده، كأنْ تكونَ المرأةُ الكبرى أمضى لساناً وأفصحَ بياناً، فقدَّمَتْ حجتَها بطريقةٍ مقنعة، وكأنَّ الصغرى ضعيفةٌ في تقديم الحجة.

ولا يَضيرُ داودَ عليه السلام إذا حكَمَ بالظاهر، وفقَ ما أَدّاه إليه اجتهاده.

ولقد أشارَ رسولُ الله ﷺ إلى هذا. فقد روى مسلمٌ عن أمّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنكم تختصمون إِليّ، ولعلَّ بعضَكم أنْ يكونَ ألحنَ بحجته من بعض، فأقضيَ له على نحوِ مما أسمعُ منه، فَمَنْ قَطعْتُ له من حقِّ أَخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطعُ له به قطعةً من النار.

وفي روايةٍ ثانية للإمامِ مسلم أنَّ أمّ سلمة رضي الله عنها قالت:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢٧. ومسلم برقم: ١٧٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٨.

سمعَ رسولُ الله ﷺ جلبةَ خصم ببابِ حجرته، فخرجَ إليهم، فقال: إنما أنَا بشر. وإنه يأتيني الخصم، فلعلَّ بعضَهم أنْ يكونَ أبلغَ من بعض، فأحسبُ أنه صادق، فأقضيَ له. فمن قضيتُ له بحقِّ مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار، فليحملْها أو يذرْها..»[1].

يشيرُ رسولُ الله ﷺ إلى أَنه بشر، لا يعلمُ الغيب، إلا إذا علَّمه اللّهُ ذلك. فإذا ما تحاكمَ إليه خصمان، فقد يكونُ أحدُهما أبلغَ وأفصحَ حجةً من الآخر، ويكونُ كلامُه مقنعاً للقاضي، فيحسبُ الرسولُ ﷺ أنه صادقٌ في دعواه، فيحكم له وفقَ ما سمعه منه.

وقد يكونُ هذا البليغُ كاذباً، ويكون الحقُّ لصاحبه، فلا يعتمدْ على حكمِ رسول الله ﷺ، فإنَّ حكْمَه له على أساسِ الظاهر، وهذا الحكمُ لا يغيرُ الحقيقة، فالحقُّ أنَّ الحكم لصاحبه، فإنْ أخذَه هو فقد اعتدى عليه وظلمه، وبذلك يكون عرضةً للعذاب في النار.

ولا يَضيرُ الرسولَ ﷺ حكمُه بالظاهر، ولا يُلامُ عليه، ولا يُخطىءُ في ذلك الحكم.

ومن هذا الباب حكمُ داودَ عليه السلام بالولد للكبرى، مع أَنه في الحقيقةِ للصغرى، لا يُعتبر مخطئاً في حكمه، لأنه حكَمَ بما أَدّاه إليه اجتهادُه.

كيف عرف سليمان أنه ابن الصغرى؟:

أما سليمانُ عليه السلام فقد زادَه اللّهُ فطنةً وحكمةً وفهماً وإدراكاً، ولذلك لم يحكُمْ بالظاهر، ولم يُؤْخَذْ ببلاغةِ وفصاحة الكبرى، وإنما أرادَ امتحان المرأتين، فسلكَ وسيلةً مثيرةً عجيبة.

طلبَ سكيناً ـ أو مُديةً كما قال أبو هريرة رضي الله عنه ـ وصرَّحَ على مسمعِ من المرأتين أنه يريدُ أن يشقَّ الطفلَ بينهما، أيْ أنْ يذبحَه

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧١٣.

ويعطي كلَّ واحدةٍ شَطراً منه. وهو ليس قاصداً تنفيذَ ذلك، إنما قصدَ الامتحان ليكتشفَ الأمَّ عن المدعية.

فوافقت الكبرى على شقِّ الطفل بينهما، لأنه ليس ابنَها، وتريدُ أنْ تشاركَها الصغرى حسرةَ الحرمان من الطفل.

لكنَّ الصغرى رفضتْ ذلك، وتنازلَتْ عنه، وقالت بلهفةِ الأم: لا تفعلْ يا نبيَّ الله، هو ابنُ الكبرى.

فهي تريدُ أنْ يعيشَ ابنُها، ولو لم يكنْ عندها، ولو كان عند الكبرى، المهمُّ أنْ لا يُذبح، وأن يبقى حياً.

عند ذلكَ عرفَ سليمانُ الأمَّ الحقيقية، فحكَمَ به للصغرى، واستدركَ في ذلك على حكم وقضاء أبيه. عليهما السلام.

وينطبقُ على هذا الحديث قولُ الله ثناءً على سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾. حيث زادَه فهماً وحكمة وعلماً وفقهاً. عليه السلام.

[١٠]

داود والخصمان والمائة نعجة والتوبة

عَرَفْنا أنَّ داودَ عليه السلام تميَّزَ بالحكمِ والقضاء، وآتاهُ اللّهُ الحكمةَ وفصْلَ الخطاب.

وقد أشارَ القرآنُ إلى حكميْن صدرا عنه.

الحكمُ الأول: الذي أشارتْ له آياتُ سورة الأنبياء، بخصوص الغنم التي نفشَتْ في الزرع، والذي استدركَ فيه سليمان عليه، وقد تحدَّثْنا عنه في المبحث السابق.

قصة الخصمين في سورة ص:

الحكم الثاني: تحدثَتْ عنه آياتُ سورة ص. وقد أَشارتْ إلى قصةٍ عجيبةٍ مثيرة مشكلة، والبحثُ فيها خطير.

وسننظرُ فيها، ونحاولُ تحليلَها وفهمها، مستعينين بالله.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٦].

في عرْضِ القرآنِ لقصةِ داود عليه السلام مع الخصمين مبهماتٌ كثيرة، لم يبيِّنها.. ولم تَرِدْ أحاديثُ صحيحة مرفوعة للرسول ﷺ، تُضيفُ جديداً على عرضِ القرآن للقصة، أو تُبينُ بعضَ مبهماتها.

رفض الإسرائيليات حول القصة:

وقد ذَكرت الإسرائيلياتُ المكذوبةُ ورواياتُ العهدِ القديم الباطلة قصةً زائفةً عن سببِ قدوم الخصميْن لداود عليه السلام، وفيها اتهاماتٌ لداودَ بالنساءِ والنظرِ إليهن والافتتانِ بهن، وتزوُّجِ إحداهن بعدما أُعجبَ بجمالها وهي تغتسلُ عارية، وعملَ على قَتلِ زوجها في إحدى المعارك، فنزلَ ملكان في صورةِ خصميْن يعاتبانه بشأنها، فعرفَ جريمته، فسجدَ باكياً نادماً، وبقي ساجداً عشرات السنين!!..

وقد أُعجبَ بعضُ المفسرين بهذه التفاصيل الإسرائيلية المكذوبة، فسجَّلوها في تفاسيرهم، وفسَّروا بها آيات القصة، ونسوا أنهم يتحدثون عن نبيٍّ رسولٍ كريم، عصمهُ اللّهُ وحفظه، فكانَ أَتقى وأفضلَ الناس!

ولا يتحدثون عن رجلٍ شهواني «زير نساء»، يرتكبُ المحرمات ويقتلُ الآخرين ليحققَ مصلحته، ويُشبعَ شهوتَه!! وداودُ عليه السلام منزَّهٌ عن هذه الأكاذيب.

أما المفسِّرون والمؤرخون المنهجيون، فقد رفضوا تلك الإسرائيليات، ثم تهيَّبوا الخوضَ في أحداثِ القصة، واكتفوا بذكْرِ المعنى الإجمالي لآياتها.

من هؤلاء الإمامُ ابنُ كثير. حيث قال في «قصص الأنبياء» ـ الذي هو جزءٌ من تاريخه البداية والنهاية ـ: «وقد ذكرَ كثيرٌ من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قَصصاً وأخباراً، أَكثرُها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالة. تركْنا إيرادَها في كتابنا قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجردِ تلاوة القصة من القرآن الكريم. واللّهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراط مستقيم..»[1].

وقال ابنُ كثير في التفسير: «قد ذكرَ المفسرون ههنا قصةً أكثرُها مأخوذٌ من الإسرائيليات. ولم يَثبتْ فيها عن المعصوم حديثٌ يجبُ اتباعُه.... فالأَوْلى أنْ يُقتصرَ على مجردِ تلاوةِ هذه القصة، وأنْ يَرُدَّ علْمَها إلى الله عز وجل، فإنَّ القرآنَ حق، وما تضمنَ فهو حق أيضاً..»[2].

وقال سيد قطب في «الظلال» عن القصة: «وخاضَتْ بعضُ التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً، تتنزَّهُ عنه طبيعةُ النبوة. ولا يتفقُ إطلاقاً مع حقيقتها.. حتى الرواياتِ التي حاولتْ تخفيفَ تلك الأساطيرَ سارَتْ معها شوطاً، وهي لا تصلحُ للنظر من الأساس، ولا تتفقُ مع قول الله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾»[3].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٤٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤:٣٢.

(٣) في ظلال القرآن ٥:٣٠١٨.

الخصمان يتسوران محراب داود:

ونبيِّنُ فيما يلي معنى الآيات التي عرضت القصة:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾: الخطابُ من اللّهِ لرسوله محمد ﷺ، و«هل» هنا ليستْ للاستفهام بل للتحقيق، بمعنى: قدْ أتاك. فاللّهُ أخبره بقصةِ الخصميْن مع داود عليه السلام، وبذلك أتاه خبرُهما.

وهذا الخطابُ ليس خاصاً بالنبي ﷺ، بل يشملُ كلَّ مؤمنٍ من بعده، وهو دعوةٌ له ليتدبرَ القصة، ويقفَ على بعضِ دروسها وعبرها.

﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾: خبرُ الرجليْن المختصميْن، والمرادُ به الملكان اللذان أتيا داودَ عليه السلام في صورةِ رجليْن متخاصميْن مختلفيْن.

وعبَّرت الآيةُ عن الرجليْن الخصميْن بالمفرد: ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾، لأنَّ الخصمَ مصدر، والمصدرُ لا يُثَنَّى ولا يُجمع، ويُخبرُ به عن المفردِ والمثنى والجمع.

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾: كانت بدايةَ حادثةِ الخصمين مع داود أنهما تسوّرا عليه المحراب.

و﴿إِذْ﴾: ظرفٌ للزمان الماضي، في محلِّ نصبِ مفعولٍ فيه، وهو متعلقٌ بكلمة ﴿نَبَؤُاْ﴾ والتقدير: قد أتاكَ نبأُ الخصم وقْتَ تَسَوُّرِهم المحراب.

ومعنى ﴿تَسَوَّرُواْ﴾: تعلّقوا بالسور، وظهروا عليه، ثم نزلوا عنه.

يقال: تسوَّرَ الرجلُ السور: إذا علاه وتسلَّقَه.

و﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: مكان العبادة. وهو أفضلُ جزءٍ من البيت، لتخصيصِه بذكْرِ الله وعبادته والصلاة له.

وللإمام الراغبِ توجيهٌ لطيفٌ لتسمية مكان الصلاة محراباً، لأنه مشتقٌ من «الحرب»، وقد ربَطَ الراغبُ بين الحرب والمحراب فقال:

«ومحرابُ المسجد. قيل: سُمي بذلك لأنه موضعُ محاربةِ الشيطان والهوى.

وقيل: سُمي بذلك لكونِ حقِّ الإنسان فيه أنْ يكون حَرِيباً متخلِّصاً من أَشغالِ الدنيا، ومن توزُّعِ الخواطر..

وقيل: الأصلُ فيه أن محرابَ البيت صدرُ المجلس. ثم اتُّخذت المساجدُ فسُمي صدرُ المسجد به.

وقيل: بل المحرابُ أصلُه في المسجد. وهو اسمٌ خصَّ به صدرُ المجلس، فسُميَّ صدرُ البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد.

وكأنَّ هذا أصح..»[1].

ومعنى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ﴾: عندما تسلقَ الخصمان الملكان سورَ المحراب، وظهرا عليه، ونزلا عنه. فدخلا من السور، ولم يدخلا من الباب.

داود يفزع منهما وهما يطمئنانه ويتحاكمان عنده:

وكان داودُ عليه السلام في هذه اللحظة في محرابه، وهو مكانُ عبادته وصلاتِه وذكْرِه المخصص، مشغولاً بمناجاةِ الله وذكره.

وفاعل ﴿تَسَوَّرُوا﴾ واوُ الجماعة، وقد تكررتْ واوُ الجماعة في الأفعال التالية: «دخلوا». «قالوا».

وهما اثنان بدليلِ قولِهما بعد ذلك: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾.

وعبَّرَ عن الاثنين بضميرِ الجمع: «تسوروا» و«دخلوا» و«قالوا» لأنَّ أقلَّ الجمع اثنان، ولهذا قال: «تسوّروا» ولم يقل: تسوّرا.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: «إذ» ظرفُ زمانٍ للماضي في مَحَلِّ نصبِ

---

(١) المفردات: ٢٢٥.

مفعولِ فيه، وهو متعلقٌ بفعل «تسوّروا». والتقدير: تسوروا المحراب وقتَ دخولِهم على داود.

وكان داودُ عليه السلام في محرابه عابداً لله، مستغرقاً في مناجاته، والأبوابُ مغلَقَة، والحرسُ على الأبواب، ولا يَسمحونَ لأحدٍ بالوصول إلى داودَ في الداخل.

فكان داودُ في عبادته، مطمئناً إلى أنَّ أَحداً لن يدخلَ عليه.. وفجأةً ينظرُ أَمامه، فيرى رجليْن داخلين عليه، نازلين من سور المحراب!!

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾: لما رأى داودُ الرجلين وقد دخلا عليه بهذه الصورة، خافَ وفزع منهم. وحقٌّ له أنْ يفزعَ ويخاف.

لكنهما طمأناه: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾.

ثم عرضا المسألة والقضيةَ عليه. فقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وفي السياق كلمةٌ مقدرة، والتقدير: نحنُ خصمان.

أي: نحنُ رجلان بيننا خصومةٌ وخلافٌ ونزاع، فبغى أحدُنا على الآخر، وتعدّى عليه بدون حق، وظلَمه وأرادَ أكْلَ حقه.

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾: أَتيناك لنتحاكمَ إليك، فاسمعْ قضيتَنا واحكمْ بيننا بالحق والعدل، وأَعْطِ كلَّ واحدٍ حقَّه.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾: لا تَظلمْ ولا تَجُرْ ولا تُسرفْ في حكمك، ولا تَمِلْ مع أحدنا ضدَّ صاحبه.

و﴿تُشْطِطْ﴾ مضارعٌ من الفعلِ الماضي الرباعي «أَشَطَّ»، بمعنى جارَ وظلمَ في حكمه، وابتعدَ عن الحق.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾: أَرشدْنا إلى الطريقِ الصحيح المستقيم، ودُلَّنا على العدلِ والخير لنُنهيَ المشكلةَ بيننا.

داود يسمع القضية من المشتكي ويحكم على الآخر:

وبعدما عرضَ الرجلان الخصمان موجزَ الأمرِ على داودَ عليه السلام، ذكرا له المشكلة.

فقالَ أحدُهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾.

أشارَ المتكلمُ إلى خصمه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾. واعتبرَه أخاً له، رغمَ خلافه معه.

﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾. ذكرَ عددَ النعاج التي عنده، والنعجةُ معروفة، وهي الغنم البيضاء: الضأن.

فَذَكَرُ الضأن يُسمى خروفاً، وأُنثى الضأن تُسمى نعجة.

أخي يملكُ تسعاً وتسعين نعجة، وأنا لا أملكُ إلا نعجةً واحدة. ولم يكتفِ بنعاجِه الكثيرة، وإنما تطلَّعَتْ نفسُه إلى نعجتي، وطمعَ فيها، وأرادَ أخْذَها وضمَّها إلى نعاجه.

﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾: قال لي: ضمّ نعجتَك إلى نعاجي، لأكونَ كافلاً لها. و«أَكْفِلْ» فعلُ أمرٍ من الكفالة. والضميرُ الهاء يعودُ على النعجة. أي: أكفلْني نعجتَك، واجعلْها عندي.

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾: غَلَبني في الكلام والجدال، وقَهَرني وظلمني.

قال الإمام الراغب: «وعَزَّه: غلَبه.. ومعنى قوله ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾: غلبني.

وقيل: معناه: صارَ أعزَّ مني في المخاطبة والمخاصمة..»[1].

---

(١) المفردات: ٥٦٤.

وهذا اعترافٌ من المتكلم بأنَّ خصمَه أقوى منه، ولذلكَ يقهرُه ويظلمه، وهو أَقوى منه في الكلام أيضاً، ولذلك يغلبُه في حجته.

سمعَ داودُ عليه السلام كلامَ المشتكي صاحبِ النعجةِ الواحدة، فإذا به مظلومٌ معتدى عليه، وإذا بخصمِه ظالمٌ مُتَعَدٍّ، فكيفَ يريدُ أخذَ نعجته الوحيدة، ولماذا لا يكتفي بالنعاج التي عنده؟

لم يَطلبْ داودُ عليه السلام من المشتكىٰ عليه حجة، ولم يتركْ له فرصةً للكلام، وظنَّ داودُ أنَّ الأمر قد انتهى، وأنه لا يحتاجُ إلى سماعِ كلامِ الظالم المعتدي.

ولذلكَ سارعَ داودُ عليه السلام بإصدارِ حكْمِه قائلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ..﴾.

أي: ظلمكَ خصمُك، عندما طلبَ منك ضمَّ نعجتِك إلى نعاجه، وهو إنسانٌ ظالمٌ لهذا السبب.

و«سُؤال» بمعنى: طَلَب. والمعنى: عندما سأَلَكَ وطلبَ منك أنْ تضمَّ نعجتَك إلى نعاجه كان ظالماً لك.

وتابعَ داودُ عليه السلام قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ..﴾:

و«الخلطاء» هم: الشركاء.

وكأنَّ داودَ عليه السلام يقررُ قاعدةً عامة في موضوع الشراكة، ويُواسي المشتكيَ المظلوم، ولذلك قال له: ليس صاحبُك هو أولَ مَنْ بغى وظلم، فكثيرٌ من الخلطاءِ والشركاء، يَبغي بعضُهم على بعض، ويظلمُ بعضُهم بعضاً، ويأكلُ بعضُهم مالَ بعض.

ولا يُستثنى من ذلك إلاّ الشركاءُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات،

فهؤلاء شركاءُ صادقون، تقومُ شراكتهم على العدل والأمانة والإحسان، ويردَعُهم إيمانُهم عن البغي والعدوان.

لكن هؤلاءِ الشركاءِ المؤمنين قلائل، بالقياسِ إلى الأكثرية الظالمة.

والراجحُ أنَّ «ما» في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ اسمُ موصول بمعنى «الذين» والتقدير: وقليلٌ الذين هم.

أي: وقليلٌ الذين هم آمنوا وعملوا الصالحات.

قال ابنُ عباس: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ أي: قليلٌ الذين هم.

ومعنى كلام ابن عباس: وقليلٌ الذين هم كذلك، لا يَبغي بعضهم على بعض..[1].

وكلامُ داودَ عليه السلام عن ظلم الشركاء بعضهم لبعض حقٌّ وصواب، يصدقُه التاريخ والواقع، فمعظَمُ الشركاء يَظلمُ بعضُهم بعضاً، ويأكلُ بعضُهم مالَ بعض، ويبغي بعضُهم على بعض.

ولا يوجَدُ شركاءُ أمناءُ عدولٌ إلاّ إذا كانوا مؤمنين صالحين.

داود يعرف مقصود القصة وسجوده واستغفاره:

وبعدما أَنهى داودُ عليه السلام كلامَه فكَّر، فعرفَ حكمةَ هذه الحادثة، وأَنه هو المقصودُ بها: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ..﴾.

ومعنى ﴿ظَنَّ﴾ هنا: أَيقنَ وأَدركَ وعَلم.

ومعنى ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ ابتلَيْناه وامتحنّاه واختبرناه.

أيقنَ داوُد عليه السلام أن اللّهَ فتنَه وامتحنَه بهذيْن الرجليْن الواقفيْن أمامه، وأنهما ليسا رجليْن حقيقييْن، بل مَلَكَانِ متحوّلان إلى رجلين، وأنه ليس بينهما شراكةٌ حقيقية، وإنما ذَكرا له قصةً رمزيةً

---

(١) انظر كتابنا: تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٦:٣٩٨.

تمثيلية، كما علمَ أنه تعجَّلَ في حكمه على المشتكىٰ عليه قبلَ أنْ يسمعَ كلامَه.

وبعدما عرفَ داودُ عليه السلام هدفَ الحادثة كلِّها، وأنه هو المقصودُ بها، لجأَ إلى الله مباشرة، واستغفرَ الله، وسجدَ لله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾: طلبَ من ربه أنْ يغفرَ له.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: سجدَ لله. فلا يُرادُ هنا الركوعُ المعروفُ في صلاتنا، بدليل كلمة «خَرَّ»، لأنها لا تستعملُ إلا في السجود.

قالَ الإمامُ الراغب: «معنى خَرَّ: سقطَ سُقوطاً يُسمعُ منه خَرير. والخَريرُ يقال لصوتِ الماء والريح، وغيرِ ذلك مما يَسقطُ من علو.

وقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥] استعملَ «الخَرّ».

وهذا تنبيهٌ على اجتماع أمريْن: السقوطِ، وحصولِ الصوتِ منهم بالتسبيح. وهذا تنبيهٌ أنَّ ذلكَ الخريرَ كان تسبيحاً بحمدِ الله، لا بشيء آخر..»[1].

وبما أنَّ «خَرَّ» لا تستعملُ إلاّ في السجود، فإن معنى «خَرّ راكعاً» خَرّ ساجداً.

﴿وَأَنَابَ﴾: استسلمَ داودُ إلى ربه، ورجعَ إليه.

قالَ الإمامُ الراغب: «النَّوْب: رجوعُ الشيء مرةً بعد أُخرى.

.. والإنابةُ إلى الله: الرجوعُ إليه بالتوبة وإِخلاصُ العمل. قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾»[2].

---

(١) المفردات: ٢٧٧.

(٢) المرجع السابق: ٨٢٧.

وهذه الحركةُ العمليةُ التي قامَ بها داودُ مباشرة: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ دليلٌ على حرصه على رجوعِه إلى الله، وإحسانِ ذكرِه وشكرِه وعبادته، وهي تطبيقٌ عملي لشهادةِ الله له بأنه أوّابٌ رجّاعُ إلى ربه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ولما سجدَ داودُ واستغفرَ ربه قال الله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

غفرَ اللّهُ له، وعفا عنه، وزادَه قربى منه.

و«الزُّلفى» هي القربُ من الله.

قال الإمامُ الراغب: «الزُّلْفَةُ: المنزلةُ والحَظْوة، والزُّلفى: الحظوة. وأَزلفْتُهُ: جعلْتُ له زلفى»[1].

جعلَ اللّهُ لداودَ عليه السلام زُلفى وحظوةً عنده، وأَعلى منزلتَه عنده، كما جعلَ له حسنَ مآبٍ ومرجعٍ ومصيرٍ ومنقلب.

وهذا ثناءٌ من الله على داودَ عليه السلام، وهذا دليلٌ على أَنه لم يكن مذنباً في الحقيقة، واستغفارُه لم يكن عن ذنبٍ وقَعَ به، وإنما هو ذكْرٌ منه لربه. ونعودُ إلى هذه المسألة بعد قليل، إنْ شاء الله.

ويبدو أنَّ الرجليْن الخصميْن غادرا المحراب، كما دَخلاه، بعدما عرفَ داودُ عليه السلام، وبعدَما سجدَ واستغفر ربه، وتابَ وأنابَ إليه.

تعقيب القرآن على الحادثة حول الحكم بالعدل والحق:

وكانَ التعقيبُ من الله على الحادثة أنْ ذَكَّرَ داودَ عليه السلام بحقائق أساسية، هي دروسٌ مستفادةٌ من الحادثة.

ذكّرَهُ اللّهُ بأنه جعلَه خليفةً في الأرض: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٢.

فِي ٱلْأَرْضِ..﴾. ومَنَّ عليه بالنبوةِ والملك والرسالة والخلافة، وأسسَ داودُ بذلك أولَ خلافةٍ إيمانية.

ثم ذكَّرَه بما ينتجُ عن الخلافة من الحكمِ والسلطان، وحلِّ مشكلاتِ الناس على أساسِ شرع الله، والحكمِ بينهم بالحق: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ..﴾.

فالخليفةُ لا بدَّ أنْ يحكمَ بين الناس، وأنْ يعتنيَ بهم، ويحلَّ مشكلاتهم، ويعالجَ قضاياهم، ويكونَ في معظم وقته معهم، وهذا عبادةٌ منه لربه.

وعندما يحكمُ بين الناس لا بدَّ أنْ يحكمَ بينهم بالحقِّ والعدل، فيكون حكمُه وقضاؤُه صحيحاً صائباً.

ثم حذَّره من اتباعِ الهوى في حكمه وقضائه، لأنه يضلُّه عن سبيل الله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وأخبره بعاقبةِ مُتَّبعي الهوى الضالين عن سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

والتعقيبُ على قصةِ الخصميْن بذكْرِ هذه الحقائق الإيمانية حولَ الخلافةِ والحكمِ بالحق وتركِ الهوى، لا يَعني أن داودَ عليه السلام قد خالفَها في حكمِه وقضائِه، ولا يدلُّ على أنه كان لا يحكمُ بين الناس بالحق، وإنما يحكمُ بينهم بالهوى!! لا يدلُّ على ذلك، لأنَّ داودَ عليه السلام نبيٌّ رسول، عصمَه اللّهُ بعصمته، ووفَّقَه في حكمه وخلافته.

وإنما يعني التعقيبُ بذكْرِها تذكيرَ المؤمنين بها حتى لا يَنسوها، فهي مرتبطةٌ مع السياق، متفقةٌ مع قصةِ الخصمين، فكانَ إنهاءُ عرضِ القصة مناسبةً للتذكيرِ بهذه الحقائق.

هذا هو معنى الآياتِ التي عرضَتْ قصةَ الخصمين.

وإذا كنّا لا نجدُ أحاديثَ صحيحةً تُضيف جديداً إلى هذه الآيات،

فإننا لا نُجيزُ الذهابَ إلى الإسرائيليات وأساطيرِ العهد القديم، نأخذُ منها تفصيلاتِ القصة، ونرددُ معها اتهاماتٍ باطلةً لداود عليه السلام، هو منزَّهٌ عنها قطعاً.

تعليق النسفي على القصة ومجلس ابن عبد العزيز:

وقد علَّقَ الإمامُ النسفيُّ على الإسرائيلياتِ في هذه القصة بقوله: «وما يُحكى مِن أنَّ داودَ بَعَثَ مرةً بعدَ مرة أُوريا إلى غزوةِ البلقاء، وأحبَّ أنْ يُقتل، ليتزوجَ امرأتَه، فهذا لا يليقُ من المتَّسمين بالصلاحِ من أَفنانِ المسلمين فضلاً عن بعضِ أَعلام الأنبياء.

وقال عليُّ بنُ أَبي طالب رضي الله عنه: مَنْ حَدَّثكم بحديثِ داودَ عليه السلام عل ما يَرويه القُصّاصُ جلدْتُه مائةً وستين جلدة، وهو حَدُّ الفريةِ على الأنبياء..

ورُوي أنه حُدِّثَ بذلك عمرُ بن عبد العزيز، وعنده رجلٌ من أهل الحق، فكَذَّبَ المحدِّثَ به، وقالَ: إنْ كانت القصةُ على ما في كتاب الله، فما يَنبغي أنْ يُلْتَمَسَ خلافُها، وأَعْظِمْ بأنْ يُقال غيرُ ذلك.. وإنْ كانتْ على ما ذكرت، وكفَّ اللّهُ عنها ستراً على نبيِّه، فما ينبغي إِظهارُها عليه!!

فقال عمرُ بن عبد العزيز: لسَماعي هذا الكلام أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمس..»[1].

سيد قطب يوجه الحادثة بما يتفق مع منزلة داود:

أَمّا توجيهُ قصةِ الخصمين بما يتفقُ مع نبوةِ ومنزلةِ داودَ عليه السلام، فأحسنُ ما قرأتُ فيه كلامُ سيد قطب رحمه الله.

قال: «وبيانُ هذه الفتنة أنَّ داودَ النبيَّ الملك، كان يخصصُ بعضَ وقتِه للتصرف في شؤون الملك، والقضاءِ بين الناس. ويخصصُ البعضَ

(١) تفسير النسفي، بتحقيق الشيخ مروان الشعار ٤:٥٨ ـ ٥٩.

الآخرَ للخلوةِ والعبادة، وترتيلِ أناشيده، تسبيحاً لله في المحراب. وكان إذا دخلَ المحرابَ للعبادة والخلوة لم يَدخُلْ إليه أحدٌ، حتى يَخرجَ هو إلى الناس..

وفي ذاتِ يوم فوجئَ بشخصيْن يتسوَّران المحرابَ المغلقَ عليه. ففزِعَ منهم.. فما يَتَسوَّرَ المحرابُ هكذا مؤمنٌ ولا أمين!

فبادرا باطمئنانه: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وجئنا للتقاضي أمامَك: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

وبدأ أحدُهما فعرضَ خصومتَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجعلْها لي وفي مملكتي وكَفالتي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: شَدَّدَ عليَّ في القول، وأغلظ.

والقضيةُ ـ كما عرضَها أحدُ الخصمين ـ تحملُ ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتملُ التأويل.

ومن ثَمَّ اندفعَ داودُ يقضي على إِثرِ سماعه لهذه المظلمةِ الصارخة، ولم يُوجِّهْ إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلبْ إِليه بياناً، ولم يَسمعْ له حجة.. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي: الأقوياءِ المخالِطين بعضهم لبعض ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ..﴾.

ويبدو أنه عندَ هذه المرحلة اختفى الرجلان: فقد كانا مَلَكيْن جاءا للامتحان! امتحانِ النبيِّ الملك الذي ولاّه اللّهُ أمْرَ الناس، ليقضيَ بينهم بالحقِّ والعدل، وليتبيَّنَ الحقَّ قبلَ إِصدار الحكم.

وقد اختارا أنْ يَعرضا عليه القضيةَ في صورةٍ صارخةٍ مثيرة.. ولكنَّ القاضي عليه ألاّ يُستثار، وعليه ألاّ يَتعجل، وعليه ألاّ يَأخذَ بظاهرِ قولٍ واحد، قبلَ أن يمنحَ الآخرَ فرصةً للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغيرُ

وجهُ المسألة كلُه أو بعضُه، وينكشفُ أنَّ ذلك الظاهرَ كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبَّهَ داودُ إلى أنه ابتلاء: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

وهنا أدركَتْه طبيعَتُه.. إنه أوّاب.. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[1].

داود لم يخطئ في تخصيص الليل للعبادة:

بقيَ أن نقول: هل أخطأ داودُ فيما فعل؟

هل أخطأ في احتجابِه عن الناس في الليل، وذهابِه إلى المحرابِ ليناجي ربَّه؟

الجوابُ بالنفي. لقد جعلَ النهارَ للحكمِ والقضاءِ بين الناس، وجعلَ الليلَ لعبادةِ الله ومناجاته، ولذلك منعَ دخولَ أحدٍ من الناسِ عليه.

وهذا الفعلُ منه صوابٌ ولا خطأ فيه.

ولكن كانَ الأَوْلى والأفضلَ والأكمل أنْ لا يغلقَ بابَه أمامَ أحد، في أيِّ ساعةٍ من ساعاتِ الليل والنهار، وعليه أنْ يَسمعَ شكوى أيِّ مُشْتَكٍ أو متظلِّم، حتى لو كانَ عابداً في محرابه...

وأرسلَ له اللّهُ المَلَكيْن في صورة رجليْن، وتسوَّرا عليه المحراب، وعرضا عليه قضيةً مثيرة، وذلك لإرشادِه إلى أنه تركَ الأَوْلى والأفضل والأكمل، ودعوتِه إلى عدمِ الاحتجاب عن أحد.

إذن فعلُه صوابٌ وصحيح، ولا خطأ فيه، ولكن اللّهَ أَرشدَه إلى ما هو أَولى وأفضل، وقد وعىٰ هذا التوجيهَ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣٠١٨.

ولم يخطئ في خوفه من الرجلين المتخاصمين:

والثانية: هل أَخطأَ داودُ عليه السلام في خوفِه وفزعِه من الخصمين الرجلَيْن عندما تسوَّرا المحراب؟

الجوابُ بالنفي. فالجوُّ والطريقةُ والكيفيةُ التي دَخلا بها عليه تدعو إلى الخوفِ والفزع.

لقد أَمَرَ بإغلاقِ أبوابِ القصر، وأَمَرَ الحراسَ بمنعِ الناس من الدخول، وهو في محرابه مستغرقٌ بمناجاة الله.. وفجأةً يرفعُ رأسَه فيرى رجلين نازلين عليه من سورِ المحراب وقادِمَيْن إليه.

أليسَ في هذا ما يدعو إلى الفزع؟ لذلك فزعَ منهما، فطمأَناه وقالا له: لا تخف!

وخوفُه في هذه الحالة طبيعيٌّ نفسيٌّ فطري، لأنه توقَّعَ الخطرَ وخافَ حصولَ مكروه، ومَنْ كان مكانَه فسيخافُ كما خاف.

فهو على صوابٍ في خوفه، ولم يرتكب خطأً بذلك.

ولكن كان الأَوْلى والأفضلَ والأكملَ له أنْ لا يخاف، حتى لو كانَ الخوفُ فطرياً نفسياً، لأنه في محرابِ العبادة، مستغرقٌ في مناجاةِ الله وذكرِه وتسبيحه، فالأَوْلى أن لا يخافَ وهو في هذه الحالةِ الإيمانيةِ العالية.

إذنْ خوفُه صحيحٌ وصواب، ولا خطأَ فيه، لكنَّ الله أَرشده إلى ما هو أَولى وأفضل، وقد وعىٰ هذا التوجيهَ عليه الصلاة والسلام.

ولم يخطئ في الحكم قبل سماع حجة الخصم:

والثالثة: ساقَ له الرجلان الخصمان ـ وهما مَلَكان في الحقيقة ـ قضيةً رمزيةً تمثيلية، وليستْ حادثةً واقعية ومشكلةً حقيقية، ساقا له القضية الرمزية ليرشداه إِلى أنَّ الأَوْلى والأفضلَ أنْ لا يغلقَ قصره في

الليل، فقد يأتيه متخاصمان في مسألةٍ ملحة، تحتاجُ إلى حكمٍ سريع، ولا تحتملُ التأجيل!

وسمعَ القضيةَ من المشتكي، وإذا به مظلوم، وإذا بخصمِه قد ظلمَه وبغى عليه، وتأثَّرَ داودُ بما سمع، وظنَّ أن الأمْرَ لا يتطلبُ سماعَ الطرفِ الآخر، وأنه لا داعي لذلك، فقد وضحت الصورة.

هل أَخطأ في ذلك؟

الجوابُ بالنفي. لقد عرفَ من المشتكي الدعوى، وبانَ له الحقُّ فيها، ولذلك أصدرَ حكمه، وهو في حالةِ تأثُّرٍ وانفعال: إنَّ خصْمَك ظالم، وقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه.

إنَّ حكمَه صوابٌ، وقولَه صحيحٌ، فطالما رأى أنه عرفَ المسألةَ فعليه أن يقضيَ ويحكمَ فيها. ولا خطأَ عليه في ذلك.

ولكن كان الأَوْلى والأفضلَ والأكملَ له أن لا يحكمَ حتى يسمعَ حجةَ الطرف الآخر، فحتى لو وقفَ على الحقيقة، وعرفَ القضية، فلا بدَّ أنْ يسمعَ كلامَ الشخص الثاني، وأنْ يعطيه حقَّه في الكلام والدفاع، وإن كانَ كلامُه ودفاعُه لا يغيرُ في الحكم شيئاً، لأنه عرفَ الحقيقة قبلَ أنْ يقولَ الآخرُ ما عنده.

إذن: حكمُه بمجردِ سماعِ الطرفِ الأول صواب، وموقفُه صحيحٌ ولا خطأَ فيه، لأنه لم يحكمْ إلاّ بعدَ إدراكِه لحقيقةِ القضية. ولكنَّ اللّهَ أرشدَه إلى ما هو أَوْلى وأفضل وأكمل. وقد وعىٰ هذا التوجيهَ عليه الصلاة والسلام.

هذا توجيهُ موقفِ داودَ عليه السلام في المسائل الثلاثة، توجيهاً يتفقُ مع نبوَّتِه وعصمته: حول احتجابِه عن الناس في الليل لمناجاة الله، وحولَ خوفِه من الرجليْن الخصمين، وحولَ حكمِه في القضية قبلَ سماعِ الطرف الآخر.

وبهذا عرفْنا أنه لم يُخطئ في هذه المسائل، وأنه كانَ على صواب، لكنَّ اللّهَ أَرشده إلى ما هو أولىٰ وأفضل وأكمل.

سجد واستغفر لأنه فعل خلاف الأولى:

فإذا كان ذلك كذلك ففيمَ كان سجودُه واستغفارُه وإنابتُه وتوبته؟ وما الذي غفرَ اللّهُ له؟

إنَّ داودَ عليه السلام لم يُخطئ في الامتحانِ والابتلاء، ولم يرتكبْ في سيرِ القصة ذنباً في الحقيقة، لأنه معصومٌ من الله سبحانه.

ولكنه لما وعىٰ الدروسَ فيما بعد عرفَ أنه فعلَ في تلك المسائل الثلاثة خلافَ الأَوْلى والأفضل، فرغمَ أَنه فعلَ الصواب، لكنه تركَ الأَوْلى..

وبما أنه نبيٌّ مقربٌ عند الله فلا بدَّ أن يفعلَ الأصحَّ وليس الصحيح، والأجوزَ وليس الجائز، والأصوبَ وليس الصواب.

فلما تركَ الأجوزَ والأصحَّ والأصوبَ شعرَ بالتقصيرِ والتحرج، فسارعَ إلى الاستغفارِ والسجود والتوبة: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

إذنْ استغفرَ وتابَ وأناب لأنه فعلَ خلافَ الأَوْلى، والأفضلُ له أن يفعلَ الأَوْلى دائماً.

وزادَ باستغفارِه وتوبتِه زلفى وقربى عند الله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

بهذا نفهمُ قصةَ داودَ عليه السلام مع الخصمين والمائةِ نعجة والتوبة، وهكذا نوجِّهُها توجيهاً يتفقُ مع عصمته ومنزلته وكرامته وجلالةِ قدره، بعد استبعادِ الإسرائيليات والأكاذيب حولها. والله تعالى أعلم.

حكم سجدة التلاوة في سورة ص:

هذا وإنّنا مدعُوّون للاقتداءِ بداود عليه السلام في سجوده. وإنَّ

في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ سجدةٌ من سجدات القرآن.

روى البخاريُّ عن العوام قال: سألْتُ مجاهداً عن سجدةِ سورةِ «ص». فقالَ: «سألْتُ ابنَ عباس: من أينَ سَجَدْتَ؟ أي: ما دليلُكَ على السجودِ فيها؟

قال ابنُ عباس: أوَ ما تقرأُ قولَ الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ...﴾ [الأنعام: ٨٤] وقولَ الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]؟.

فكان داودُ ممن أُمِرَ نبيُّكم ﷺ أنْ يقتديَ به.. فسجدَها داودُ عليه السلام، فسجدَها رسولُ الله ﷺ..»(١).

وهذه السجدةُ سنةٌ وليست واجباً، كباقي سجداتِ التلاوة الأربع عشرة في القرآنِ. فمَنْ سجدَها نالَ الأجر والثواب، ومَنْ لم يسجُدْها فلا شيءَ عليه.

ودليلُ ذلك ما رواه أبو داود عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأَ رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر سورةَ «ص»، فلما بلغَ السجدةَ نزلَ فسجد، وسجدَ معه الناس، فلما كان يومٌ آخر قرأَها، فلما بلَغَها تَشَزَّنَ الناسُ للسجود.

فقالَ عليه الصلاة والسلام: «إنما هي توبةُ نبي، ولكن رأيتُكم تَشَزَّنْتم.

فنزلَ وسجدَ..»(٢).

ومعنى «تَشَزَّنَ الناسُ للسجود»: تهيأوا واستعدوا للسجود.

فالرسولُ ﷺ يخبرُهم أنَّ سجودَ التلاوة سنة، وأنَّ مَنْ لم يسجد

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٤.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ١٤١٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٦.

فلا شيءَ عليه. وأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يريدُ أنْ يسجد، وأنه لم يسجدْ إلاّ بعدما رآهم «مُتَشَزِّنين» مستعدِّين للسجود.

[١١]

وفاة داود عليه السلام

لم يَخبرْنا القرآنُ عن وفاةِ داود عليه السلام، ولا عن كيفيةِ وفاته، ولا عن عمره عندَ وفاته.

حديث صحيح في كيفية وفاة داود:

ولكنَّ الرسولَ ﷺ أخبَرَنا عن ذلك.

روى أحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كان داودُ عليه السلام فيه غيرةٌ شديدة، فكان إذا خرجَ أُغلقت الأبواب، فلم يَدخلْ على أهله أحدٌ حتى يرجع.

فخرجَ ذات يوم، وغُلِّقت الدار، فأقبلت امرأتُه تَطَّلِعُ إلى الدار، فإذا رجلٌ قائمٌ وسط الدار!

فقالت لمن في البيت: من أينَ دخلَ هذا الرجل، والدارُ مغلقة؟ واللّهِ لَتُفْضَحَنَّ بداود!

فجاءَ داود، فإذا الرجلُ قائمٌ في وسط الدار.

فقال له داود: مَنْ أنت؟

فقال: أنا الذي لا أَهابُ الملوك، ولا أُمْنَعُ من الحُجّاب!

فقال داود: أنتَ واللّهِ إذن مَلَكُ الموت، مرحباً بأمر الله!

ثم مكث، حتى قُبضتْ روحُه.

فلما غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِغَ من شأنه طلعتْ عليه الشمس.

فقال سليمانُ للطير: أَظِلّي على داود. فأظلَّته الطير، حتى أظلمتْ عليه الأرض.

فقال سليمانُ للطير: اقبضي جناحاً.

قالَ أبو هريرة: فطفقَ رسولُ الله ﷺ يرينا كيفَ فعلت الطير، وقبضَ رسولُ الله ﷺ. . وغلبت عليه يومئذ المَضْرِحِيَّة. . »[1].

والمَضْرِحِيَّة هي: الصقورُ طويلةُ الأجنحة.

يؤكدُ هذا الحديثُ حقيقةَ تخييرِ الأنبياء عندَ قبضِهم، وعندما يخيَّرون يختارونَ لقاءَ الله، فيقبضُ اللّهُ أرواحَهم.

ومَرَّ مَعَنا من قبل تخييرُ موسى عليه السلام عند موته، والآن ها هو داودُ عليه السلام يخيَّرُ عند موته.

ويقدمُ لنا رسولُ الله ﷺ قصةَ تخييره.

ملك الموت في صورة رجل يخيره ثم يقبض روحه:

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ أنَّ داودَ عليه السلام كان يغارُ على أهلِ بيته، وغيرتَهُ ناتجةٌ عن قوةِ إيمانه ومروءته، ولهذا كان لا يسمح للغريبِ أنْ يختلطَ بأهله، وكان لا يُدخلُ أَحداً من الغرباء على أَهله.

ولما خرجَ من بيته ذاتَ يوم نظرت امرأتُه فإذا رجلٌ غريبٌ قائم وسط البيت، فخافت، وخشيتْ داودَ عليه السلام لغيرته.

وجاءَ داودُ عليه السلام، فرأى الرجلَ واقفاً وسطَ الدار، فغضب، وأخذتْه الغيرة.

وأقبلَ عليه يسأله: مَنْ أنت؟

وهذا سؤالٌ للإنكارِ عليه، فكيف تجرَّأَ ودخلَ الدار، والأبوابُ مغلقة، والحراسُ عليها؟

وفوجئ داودُ عليه السلام بجواب الرجل: أن الذي لا أَهابُ الملوك، ولا أُمْنَعُ من الحُجّاب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢:٤١٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٦.

إنه الذي لا يخافُ الملوك، ولا يقفُ أمامَ الأبواب المغلقة، ولا يمنَعُه الحراسُ والحجّابُ من دخولها، ولا يحتاجُ إلى إذنٍ لدخولها!!

إنه ليس رجلاً عادياً من البشر، ولكنه مَلَكُ الموت متشكلاً في صورة البشر.

وليست هذه أولَ مرة لم يَعرفْ فيها داودُ المَلَكَ المتحوِّلَ إلى رجل، فقد سبقَ أنْ دخلَ عليه مَلَكان في صورةِ رجليْن متخاصمين، ولم يَعرفْ أنهما مَلَكان إلا فيما بعد. والآن لم يَعرفْ أنَّ الرجلَ الذي أمامه هو ملكُ الموت إلا بعدَما عَرَّفَ على نفسه.

ولا يَضيرُه ذلك، فموسى عليه السلام قبلَه لم يَعرفْ مَلَكَ الموت المتحولَ إلى بشر إلا بعدما عَرَّفَ على نفسه.

ومجيءُ مَلَكِ الموت إليه في صورةِ رجلٍ غريب صورةٌ من صورِ تخييرِ داود عليه السلام. ولذلك اختارَ لقاءَ الله، وقال: مرحباً بأَمْرِ الله.

وقبضَ مَلَكُ الموت روحَ داود عليه السلام، وانتقلَ عليه السلام إلى الرفيق الأعلى.

واستلَمَ الأمْرَ من بعده ابنُه سليمان عليه السلام، وقامَ أهلُه بتجهيزِه وتغسيلِه وتكفينه.

والطيور تظلل جثته قبل دفنه:

وأشرقتْ شمسُ الصباح، وكان ذلك اليومُ حاراً، وأرادَ سليمانُ عليه السلام تكريمَ أبيه ميتاً، وأحبَّ أنْ يقيَه حَرَّ الشمس، فأَمَرَ الطيرَ أنْ تظللَ على داود وهو ميت، وأنْ تحجبَ عنه أشعةَ الشمس الحارة، وكان سليمانُ يحكمُ الطير.

فنفذت الطيورُ أمْرَ سليمان عليه السلام، وجاءتْ أسرابُها، وبسطتْ أجنحَتَها فوقَ جثةِ داود عليه السلام، حتى أظلمت الأرض، لأنَّ أجنحتَها غَطَّت الشمس، فأَمَرَ سليمانُ الطيورَ أنْ تقبضَ بعضَ

أجنحتها، ليأتي الضياء، وتصلَ بعضُ أشعةِ الشمس إلى الأرض، ففعلت!

والطيورُ التي نَفَّذَتْ أَمْرَ سليمان عليه السلام، وظَلَّلَتْ جثةَ داودَ عليه السلام هي الصقورُ والنسورُ طويلةُ الأجنحة، وهي الطيورُ المصرحية.

يقال: هذا صَقْرٌ مَصْرِحِيّ، لأنه صقرٌ طويلُ الجناح.

وهكذا انتهتْ حياةُ داودَ عليه السلام النبيِّ الملك، والرسولِ الخليفة، الذي أسسَ أولَ خلافةٍ إيمانية، وأَنشأَ أولَ مملكةٍ إسرائيلية في الأرض المقدسة.

ووليَ الأمْرَ بعدَه ابنُه سليمانُ عليه السلام.





قصة

سليمان

عليه السلام



[١]
ذكر سليمان عليه السلام في القرآن

ذُكِرَ سليمانُ عليه السلام في القرآن سبعَ عشرةَ مرة.

في سورة البقرة مرتان.

وفي سورة النساء مرة.

وفي سورة الأنعام مرة.

وفي سورة الأنبياء ثلاث مرات.

وفي سورة النمل سبع مرات.

وفي سورة سبأ مرة.

وفي سورة ص مرتان.

أَشارتْ سورةُ البقرة إِلى افتراءاتِ اليهود على سليمان عليه السلام بعدَ وفاته، ومزاعِمِهم حولَ السحر والسحرة والشياطين، وذكرتْ قصةَ الملَكَيْن هاروتَ وماروت في بابل.

أما سورةُ النساء فقد ذَكرت اسمَ سليمان عليه السلام ضمن مجموعةٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وكذلك سورةُ الأنعام. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

وفي سورة الأنبياءِ وردتْ إشارةٌ إلى سليمانَ في تفهيم اللّهِ له الحكمَ واستدراكِه على حكم أبيه داود عليهما السلام في الآيتين: ٧٨ ـ ٧٩.

وإشارةٌ إلى بعضٍ ما أنعمَ اللّهُ به على سليمان من تسخيرِ الريحِ والشياطين له، وذلك في الآيتين: ٨١ ـ ٨٢.

ووردتْ أطولُ مشاهدِ قصةِ سليمان في سورة النمل، في الآيات: ١٥ ـ ٤٤.

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى وراثةِ سليمان لداود، وتعليمِ سليمان منطقَ الطير، ثم تحدثتْ عن مرورِ سليمان بجيشِه على وادي النمل، وما خاطبت النملةُ به جنسَها، وتعليق سليمان على ذلك.

ثم تحدثتْ عن قصةِ الهدهد الذي غابَ عن جيش سليمان، ولما عادَ أخبرَ سليمانَ عن اكتشافه لمملكةِ سبأ في اليمن، وكفرِ القوم بالله، وعرشِ ملكتهم العظيم. وتابعت الآياتُ حديثَها عن حملِ الهدهد رسالةَ سليمان إلى قوم سبأ، وموقفِ الملكة من الرسالة، وميلِها إلى عدم الحرب، وتقديمِها هديةً إلى سليمان، وتهديدِ سليمان للوفد حامل الهدية، وتوجُهِ الملكة إلى سليمان، وإحضارِ الذي عنده علم من الكتاب لعرشها قبل وصولها، ومفاجأتِها برؤية عرشها عند سليمان، وانتهاءِ مشاهد ولقطات القصة بإسلامِ ملكةِ سبأ مع سليمان لله رب العالمين.

وتحدثتْ سورةُ سبأ عن سليمان بعد حديثها عن أَبيه داود عليهما السلام، حيث أَشارتْ إلى الريح التي سخرها اللّهُ له، وإلى النُّحاس الذي أَسالَهُ اللّهُ له، وإلى عملِ الجنّ بين يديه، وإلى بعضِ المصنوعات النحاسية العظيمة التي يصنعُها الجنُّ له، ثم أشارت الآياتُ إلى وفاةِ سليمان عليه السلام، بطريقةٍ عجيبة جعلَها اللّهُ عبرةً للجن. والحديث جاء في ثلاث آيات هي: ١٢ ـ ١٤.

ثم انتقلت السورة بعد ذلك مباشرةً للحديثِ عن قصةِ سبأ، وكيف دمَّرها اللّهُ على أهلها لما كفروا بالله. وهذا في الآيات: ١٥ ـ ٢١.

أما سورةُ ص فقد تحدثتْ عن سليمان بعدَ داود عليهما السلام،

وأشارتْ إلى حادثةِ سليمان مع الخيلِ الصافنات الجياد، ثم إلى فتنتِه بالجسد الذي ألقاه اللّهُ على كرسيه، ثم ذكرتْ بعضَ مظاهرِ الملك الذي وهبه الله له، حيث سخرَ له الجنَّ والشياطين والريح والطير. وهذا في الآيات: ٣٠ ـ ٤٠.

[٢]

ورثُ سليمان داود

سليمانُ هو ابنُ داود عليهما السلام. وكان مساعداً لأبيه في الملكِ والقضاء. وأثنى اللّهُ عليه بما آتاه من علم وحكمة وفطنة وموهبة.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠].

حقَّقَ عبوديتَه الصادقةَ لله، لذلك وصفَهُ اللّهُ بأنه نعمَ العبد، ومقامُ العبودية مقامٌ عظيم، وُصفَ به أنبياءُ اللّهِ عليهم الصلاة والسلام.

وسليمان «أوّاب»: رجّاعٌ إلى الله، عابدٌ له، متصلٌ به، كثيرُ العبادةِ والذكرِ والأوبةِ والتوبةِ لربه.

وصفَ اللّهُ داودَ عليه السلام بأنه أَوّاب: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ووصفَ سليمانَ عليه السلام بأنه أَوّاب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقرنَ بين العبوديةِ والأوبةِ والرجوعِ إلى الله في الكلامِ عليهما، فداودُ «عبدنا»، وسليمان «نعمَ العبد».

مساعدة سليمان لأبيه في الحكم والقضاء:

وأشارَ القرآنُ إلى مساعدةِ سليمانَ لأبيه في الحكم والقضاء، لَمّا استدركَ عليه في الحكم في قضيةِ الغنم والحرث. وذلك في قوله

تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقد تحدَّثنا عن هذه القضية بالتفصيلِ أثناء عَرْضِنا لقصة داود عليه السلام.

ويهمُّنا أن نشيرَ هنا إلى ثناءِ اللّهِ على سليمان وداود، لما آتاهما من حكم وعلم: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وإلى تخصيصِه سليمانَ بمزيدٍ من الثناء، عندما ذَكَرَ أنه فهَّمَه القضيةَ والحكم فيها: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وتجلّى هذا التفهيمُ الخاصُّ لسليمان في استدراكِه على حكمِ أبيه في قضيةِ تنازعِ المرأتين للطفل، واكتشافِه أنَّ أمَّه هي الصغرى، وقد ذكرنا هذه القضِيةَ أيضاً أثناءَ حديثِنا عن داودَ عليه السلام.

لقد منحَ اللّهُ سليمان عليه السلام مزيداً من الفهمِ والعلمِ والحكمة والفطنة، وهذا من تفضيلِ الله له وإنعامِه عليه.

وبقي سليمانُ مساعداً لأَبيه عليهما السلام طيلةَ حياته ولما توفي داودُ أمرَ سليمانُ الطيرَ أنْ تظلِّلَ عليه لتقيه حرَّ الشمس.

وراثة سليمان لداود في النبوة والملك:

وبعد وفاةِ داودَ ورِثَه ابنُه سليمان، واستلمَ الأمرَ من بعده، كما قال الله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

بماذا ورث سليمان داود؟

ورِثَهُ في النبوةِ والرسالة، فهو نبيٌّ رسولٌ مثلُه، عليهما الصلاة والسلام.

وورِثَهُ في الملكِ والخلافة، حيث وليَ أمْرَ بني إسرائيل من بعده.

ولم يرثْهُ في الأموالِ والممتلكاتِ، لأنَّ من سنةِ الله في حقِّ الأنبياء أَنهم لا يورَثون عليهم الصلاة والسلام، فلا يأخذُ أولادُهم وورثتُهم شيئاً مما خلَّفوه وراءَهم. فإنْ تركوا أَموالاً أو ممتلكات فهي صدقة، ينفقُها ورثتُهم أَو أولو الأمر من بعدِهم في سبيل الله.

دليلُ ذلك ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ حين توفيَ رسولُ الله ﷺ أردْنَ أنْ يبعثْنَ عثمانَ إِلى أبي بكر يسأَلْنَه ميراثَهن. فقالتْ لهنَّ عائشة: أَليسَ قالَ رسولُ الله ﷺ: لا نورَثُ، ما تركْنا صدقة..»[1].

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ فاطمةَ والعباسَ رضي الله عنهما أَتيا أبا بكر، يلتمسان ميراثَهما من رسولِ الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أَرضهما من فَدَك، وسهْمَهُما من خيبر.

فقال لهما أبو بكر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: لا نورَثُ، ما تركْنا صدقة..[2].

قالَ الإمامُ ابن كثير عن وراثة سليمان لداود عليهما السلام، وعن هذه السُّنَّةِ في شأن الأنبياء: «قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورثَه في النبوةِ والملك.

وليس المرادُ أَنه ورثه في المال، لأنه قد كانَ له بنون غيره، فما كان لِيُخَصَّ بالمال دونهم. ولأنه قد ثبتَ في الصحاح من غيرِ وجه، عن جماعةٍ من الصحابة أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا نورَثُ، ما تركْنا صدقة». وفي لفظ: «نحنُ معاشرَ الأنبياء لا نورَثُ..».

فأخبرَ الصادقُ المصدوق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ الأنبياءَ لا

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٣٠. ومسلم برقم: ١٧٥٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٢٥ و٦٧٢٦.

تورَثُ أموالُهم عنهم، كما يورَثُ غيرُهم، بل تكون أموالُهم صدقةً من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يَخُصّون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهونَ عليهم وأحقرَ عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلَهم واصطفاهم وفضلهم...»[1].

لقد ورثَ سليمانُ عن داودِ عليهما السلام خلافةً إيمانية، ودولةً قوية، ومملكةً متقدمةً متكاملة. فحافظَ عليها، وقوّاها، ووَسَّعَ رقعتَها، وضمَّ لها بقاعاً أخرى، وطبَّقَ فيها شرعَ الله، وأسعدَ الناسَ وسارَ بهم في طريقِ مرضاة الله.

وبلغت المملكةُ الإسرائيليةُ في عهد داود ثم سليمان عليهما السلام الذروةَ والأوجَ والقمة، وبعد وفاةِ سليمان بدأت المملكةُ تضعفُ وتنزل، وابتعدَ الناسُ عن مرضاة الله، وساروا في طريقِ معصيته، وانتهى الأمرُ بإزالةِ هذه الدولة بسبب كفرِ اليهود بالله.

[٣]

سليمان عليه السلام وموقفه من الصافنات الجياد

أشارتْ آياتُ القرآنِ إلى حادثتين حدَثَتا لسليمان وهو نبيٌّ ملك، عليه الصلاة والسلام، حادثةُ الخيل، وحادثةُ فتنته بالجسد الملقى على كرسيه، وسننظرُ في الحادثتين، ونفسّرُهما على هدي القرآنِ والحديثِ الصحيح إن شاء الله.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٠ ـ ٣٣].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٤٤٠.

تخبرُ الآياتُ أن اللّهَ وهبَ لداودَ سليمان، وتُثني عليه بالعبوديةِ والإنابة، وتصفهُ بأنه نعمَ العبد، وأنه أوّاب رجّاع إلى ربه.

سليمان والخيل الصافنات الجياد:

ثم تخبرُ الآيات عن قصةِ سليمان مع الخيل، وهي الصافنات الجياد.

وعندما نريدُ أنْ نفهمَ هذه القصة فلا بدَّ أن نبقى مع الآياتِ التي عرضتْها، وأنْ نفسِّرَها ونفهمَ معناها، وأنْ لا نخرجَ عنها، ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحة تضيفُ لنا جديداً عن القصة.

هذا وقد أوردت الإسرائيلياتُ تفصيلاتٍ إسرائيلية عن فتنته بالخيل، وتقصيرِه في العبادات والواجبات لاشتغالِه بالخيلِ وسباقها، وأنه لما ندمَ على ذلك قام بقتلِ تلك الخيل وإتلافها!!

وقد أُعجبَ رواةُ الإسرائيليات من المؤرخين والمفسرين بتلك التفصيلات، وأوردوها في مؤلفاتهم، وفسَّروا بها كلامَ الله.

ويجبُ أنْ ننزهَ نبيَّ الله سليمان عليه السلام عن هذه الاتهامات الإسرائيلية، ولا يجوزُ أنْ نلصقَ به تلك الأكاذيبَ والمزاعم.

ما معنى كلمات الآيات؟

«إذْ»: ظرفٌ للزمان الماضي، في محلِّ نصبِ مفعولٍ فيه لفعلٍ محذوف، تقديرُه: اذكر.

والخطابُ موجَّهٌ لرسولِ الله ﷺ، وهو يشملُ كلَّ مسلم من بعده. والتقدير: اذكُرْ وقتَ عرضِ الصافناتِ الجيادِ على سليمان بالعَشي.

و«العَشِيّ»: وقتُ العشي، وهو ما كان قبلَ مغيب الشمس.

و«الصافنات الجياد»: الخيلُ الجيدة. ولم تَرِدْ هذه الكلمةُ «الصافنات الجياد» في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

والصافناتُ جمعُ صافِن. والجيادُ جمع: جَواد.

قال الإمامُ الراغبُ في معناها: «الصَّفْنُ: الجمعُ بين الشيئين، ضامّاً بعضهما إلى بعض. يقال: صَفَنَ الفرسُ قوائمه. قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ..﴾»[1].

ووردَ في المعجم الوسيط: «صَفَنَ الفرس، يَصْفُن، صُفوناً: قامَ على ثلاثِ قوائم، وطرفِ حافرِ الرابعة. وصَفَنَ الرجل: صَفَّ قدميه»[2].

أما الجيادُ فهي مشتقةٌ من الجود. قال الراغب: «الجودُ بذلُ المقتنيات، مالاً كان أو علماً. يقال: رجلٌ جواد.

ويقال: فرسٌ جواد، يجودُ بمدَّخَرِ عَدْوِه، والجمعُ جياد، قال تعالى: ﴿بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾»[3].

ووردَ في المعجم الوسيط: «يقال: جادَ الفرس: صارَ جواداً. ويقال: جادَ الفرسُ في عَدْوِه: إذا أَسرع.

... والجوادُ: النجيبُ من الخيل. والجمعُ: جياد. قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾»[4].

لماذا وصف الخيل بالصافنات الجياد؟:

لقد وصفت الآيةُ خيلَ سليمان عليه السلام بصفتيْن: الصافنات، والجياد.

والصَّفْنُ حركةٌ لطيفةٌ للفرس عند وقوفها، حيث تَقِفُ على ثلاثِ من قوائمها الأربع، أما الرابعةُ من قوائمها فإنها تَرفعُها وتَثنيها، وتجعلُ طرفَ حافرِها على الأرض. وهي بهذا تجمعُ بين رفعِها وبين الوقوفِ عليها، فلا هي رفعَتْها عن الأرض، ولا هي وقفَتْ عليها.

---

(١) المفردات: ٤٨٧.

(٢) المعجم الوسيط: ٥١٧.

(٣) المفردات: ٢١١.

(٤) المعجم الوسيط: ١٤٥ ـ ١٤٦ باختصار.

وهذه حركةٌ لطيفةٌ جميلة، يدركُ جمالَها من استمتعَ بمنظرِ الفرس وهي صافنة.

والخيلُ الجياد: هي الخيلُ النجيبةُ التي تجودُ في سيرِها وعَدْوِها، فهي تبذلُ جهدَها وطاقتَها في عَدْوِها، وتجودُ بذلك، ولا تَضِنُّ منه بشيء، فيأتي عَدْوُها سريعاً.

ومنظرُ الخيلِ الجياد تجودُ بطاقتها في عدْوِها جميلٌ لطيفٌ مؤثر.

فالوصفان يدلاّن على حركتيْن لطيفتين.

الصافناتُ تصويرٌ للخيلِ عند وقوفها وسكونها، حيث تقفُ على ثلاثِ قوائم وربعِ الرابعةِ من قوائمها.. والجيادُ تصويرٌ للخيل عند عدْوِها وإِسراعِها في ركضها، حيث تجودُ بكلِّ طاقتِها وجهدها.

إنها جميلةٌ في صَفْنِها عند وقوفها، وجميلةٌ في جودِها عند عدْوِها.

ولهذا هي خيرٌ جزيلٌ جميل، وكان سليمانُ عليه السلام يدركُ ما فيها من خير، عندما قال: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى..﴾.

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن هذا الخيرِ الجميلِ الملازمِ لها. فروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة..»[1].

سليمان يشرف على تمرين وتدريب الخيل:

ولما عُرضت الصافناتُ الجيادُ على سليمان عليه السلام وقتَ العشي، حمدَ اللّهَ على ما أَنعمَ به عليه منها، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى..﴾.

---

(1) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٥٠. ومسلم برقم: ١٨٧١.

والمعنى: أَحببتُ الخيلَ حباً كثيراً، لما فيها من خير، وحبّي لها عن ذكرِ ربي، وبسببِ ذكر ربي.

فكأنَّه ذاكرٌ لربه عندما يحبُّ الخيل، فحبُّه لها ذِكْرٌ منه لله، إذ يحمدُ اللّهَ ويشكرُه على إِنعامِه عليه بها، فكلَّما يراها يشكرُ ربَّه ويذكرُه، كما أنَّ إِعدادَه لها وإِشرافَه عليها صورةٌ من صور عبادتِه وذكْرِه لربه.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾: الكلامُ عن الخيلِ التي أحبَّها، ومعنى «توارت»: اختفت. والحجاب: هو شيءٌ كان يحجبُها عن سليمان، كأَنْ يكونَ جبلاً أو تلاًّ..

وتدلُّ الجملةُ على أنَّ سليمان عليه السلام كان يراقبُ خيلاً ويشرفُ عليها، ويمرِّنُها على الجريِ والعَدْوِ، لتكون دائماً جاهزةً للجهاد.

ويبدو أنه أمرَ بركْضِ الخيلِ وعَدْوِها، فلما رآها تجري وتسبحُ في الميدان حمدَ الله على ذلك، واعتبرَ حُبَّه للخيل صورةً من صورِ ذكره وشكره لله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾.

وبقيَ ينظرُ إلى الخيلِ السابحة في الميدان مُعْجَباً، حتى توارتْ واختفتْ وراءَ الجبل الذي حجبَها.

ولما توارتْ وغابتْ عن ناظريه قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾.

ومعنى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: أعيدوها إليّ.

فأَعادوها له، ولما رآها أمامَه صارَ يمسحُ عليها: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾.

والسّوقُ جمعُ ساق. والمرادُ بها سيقانُ الخيل. والأعناق: جمعُ عنق.

والمعنى أنَّ سليمانَ صارَ يمسحُ على سيقانِ وأعناقِ الخيل، ويمرِّرُ

أَصابعَه عليها برِقَّة. ملاعبةً منه للخيل، وتكريماً لها، وإِظهاراً لاهتمامِه بها، ومحبتِه لها.

ومعلومٌ أنَّ الخيلَ تحبُّ هذه الحركةَ اللطيفةَ من صاحبها، وتأنسُ به عندما يمسحُ على سوقِها وأعناقِها وأَعرافِها وجسمها، فتزدادُ وفاءً له وتعلُّقاً به، كما تزدادُ إِقداماً في الجهاد.

هذه حادثةُ سليمانَ عليه السلام مع الخيلِ الصافناتِ الجياد، وهذا فهمُ الحادثةِ كما عرضَتْها آياتُ القرآن، عندما نستبعدُ الإسرائيلياتِ التي سَجّلت الاتهامَ لسليمان عليه السلام، بانشغالِه بالخيل عن ذكر الله، ثم ندمِه بعد ذلك، وقتلِه لتلك الخيل.

إِننا نعلمُ أنَّ سليمانَ عليه السلام كان رجلَ جهاد، وأَنه خاضَ معاركَ إيمانيةً ضد الكفار، وكانت الخيلُ من أسلحةِ الحرب المعروفة، ولذلك كان سليمانُ محباً للخيل، لهذا الهدفِ الجهاديِّ العظيم، الذي يحققُ له الخير.. وكان يَعتبرُ حبَّه للخيل وإعدادَها للجهاد صورةً من صورِ ذكره لربه.

وكان يُعِدُّ الخيلَ للجهاد دائماً، ويَحرصُ على «لياقتِها» البدنيةِ الجهادية، ويُبقيها في المضمارِ والميدانِ تعدو وتسبح.

وفي أحدِ مراتِ تمارينِها الرياضية الجهادية، نظرَ لها وهي تَعدو في الميدان، فأُعجبَ بها، وحمدَ اللّهَ قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾.

وبقيَ ينظرُ لها بإعجابٍ حتى توارتْ بالحجاب، واختفتْ خلفَ جبل. وبذلك انتهى شوطٌ من أشواطِ تمرينِها وتدريبها.

وبعدما اختفتْ عن ناظريْه قال: رُدّوها عليّ، وأَعيدوها لي.

فأَعادوها، ووقفتْ أمامه، فقامَ يلاعبُها ويدلِّلها ويربتُ عليها، وصارَ يمسحُ بيديه على سيقانِها وأعناقها، وعلى أعرافها وأجسامها، تكريماً لها.

[٤]

فتنة سليمان بالجسد الملقى على كرسيه

أخبرَنا اللّهُ أنه فَتَنَ سليمان عليه السلام كما فَتَنَ أباه داود من قبله.

أما فتنةُ داود فقد كانتْ بالملكيْن الرجليْن المتخاصميْن، وقد فصَّلْنا فيها القولَ فيما مضى ولله الحمد.

الله يفتن ويبتلي أنبياءه:

وأما فتنةُ سليمان فكانتْ بإلقاءِ جَسَدٍ على كرسيه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٤ ـ ٣٥].

المرادُ بالفتنةِ الامتحان والابتلاء، ومعلومٌ أن اللّهَ يبتلي ويمتحنُ مَنْ شاءَ مِن خلقِه بما شاء، ومنهم مَن يعرفُ حكمةَ الابتلاء، ويُحسنُ فهمَه والتعاملَ معه فينجحُ في الامتحان، ومنهم مَنْ يَعمىٰ قلبُه عن ذلك فيخفق فيه.

وأَشَدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ لكونهم أقربَ الناسِ إلى الله، وأَعرفَهم بالله، وكلُّهم يدركُ حكمةَ الابتلاء، ويُحسنُ التعاملَ مع الفتنة، ويواجهها بصبرٍ واحتساب، وبإنابةٍ وعودةٍ إلى الله، فتصقلُه الفتنة وتَزيدُه قرباً من الله.

لما فتنَ اللّهُ داودَ عليه السلام، وعرفَ حقيقةَ قصةِ الملكين، أقبلَ على الله فوراً، فاستغفرَه وسجدَ له وتابَ إليه وأنابَ بين يديه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ولما فتنَ اللّهُ سليمانَ عليه السلام أقبلَ عليه وأنابَ إليه، ودعاه وتضرعَ بين يديه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى...﴾.

ونلاحظُ حرصَ الآياتِ على وصْفِ النبيَّيْن الكريميْن بالإنابةِ إلى الله. فداودُ عليه السلام: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾. وسليمانُ عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾.

ووصفُهما بالإنابة كوصفِهما بالأَوْبة. فداود عليه السلام: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. وسليمانُ عليه السلام: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

كلاهما أوّاب، وكلاهما منيب، بنصِّ آياتِ القرآن، عليهما الصلاة والسلام.

رفض الإسرائيليات في فتنة سليمان:

كيف كانت فتنةُ سليمان؟ وما هو الجسدُ الذي ألقاهُ اللّهُ على كرسيه؟.

ننبِّهُ ونحذِّرُ أَوّلاً من الإسرائيلياتِ المكذوبة الباطلة، التي تحدثَتْ طويلاً عن فتنةِ سليمان، وعن الجسدِ الملقى على كرسيه، فهي تتهمُ النبيَّ سليمان عليه السلام تهماً باطلة فاجرة.

وخلاصتُها أنَّ سليمانَ وافقَ امرأتَه الكافرة على الكفر بالله، وصنعَ لها صنماً في قصرِه لتعبدَهُ من دون الله، فعاقبة اللّهُ على ذلك، وكان يحكمُ الجنَّ والشياطين بخاتمِه السحري، فأذنَ اللّهُ للشيطانِ المارد أنْ يَتَزَيّا بزيِّه، فأخذَ الخاتم منه، واستلمَ الحكم من بعده، وكأنه عملَ «انقلاباً عسكرياً» عليه!! وبقيَ على هذا عدةَ أسابيع مفتوناً منزوعاً حكمُه، ثم عادَ له حكمُه بعد ذلك، بعد أن استخرجَ الخاتم من بطنِ سمكة، ثم وضعَ الماردَ في صندوقٍ وألقاه في قعرِ البحر!!

هذه إسرائيلياتٌ مكذوبةٌ باطلة، واردةٌ في أسفارِ العهد القديم المحرفة، وقد استهوتْ هذه الإسرائيلياتُ بعضَ المفسرين والمؤرخين من المسلمين، فأوردوها في كتبهم، وفسَّروا بها كلامَ الله!

ونحنُ لا نجيزُ تفسيرَ كتابِ الله بهذه الأكاذيبِ والافتراءات، ونقررُ وجوبَ تبرئةِ سليمان عليه السلام منها!

روايات البخاري للحديث عن فتنة سليمان:

وأمامَنا حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، يبينُ فتنةَ سليمان عليه السلام، والجسدَ المُلقىٰ على كرسيه.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قالَ سليمانُ بن داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأة، كلُّهن تأتي بفارس، يجاهدُ في سبيل الله!

فقال له صاحبُه: قل إنْ شاءَ الله! فلم يَقُلْ إن شاء الله!

ولم تحملْ شيئاً إلاّ واحداً، ساقِطاً إِحدى شِقَّيْه.

فقالَ النبيُّ ﷺ: لو قالَها لجاهدوا في سبيل الله»[1].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال سليمانُ بن داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ على مائةِ امرأة، كلّهن يأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله.

فقالَ له صاحبه: إنْ شاء الله. فلم يقل: إنْ شاءَ الله.

فلم يحملْ منهنّ إلا امرأةٌ واحدة، جاءتْ بشقِّ رجل.

والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو قال: إن شاءَ الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون..»[2].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري أنَّ المَلَكَ هو الذي طلبَ منه أنْ يقول: إن شاء الله، فنسيَ أنْ يقولَها: «قالَ سليمانُ بنُ داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ بمائةِ امرأة، تلدُ كلُّ امرأةٍ غلاماً يقاتل في سبيل الله.

فقال له الملك: قلْ إن شاء الله. فلم يَقُلْ، ونسي.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢٤. ومسلم برقم: ١٦٥٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٨١٩.

فأطافَ بهن، ولم تلدْ منهن إلاّ امرأة، نصفَ إنسان.

قالَ النبيُّ ﷺ: لو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان أَرجى لحاجته»[1].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري أنه قال: «لأطوفَنَّ الليلةَ على تسعين امرأة، كلهنَّ تأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله....»[2].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري، أنه قال في الحديث: «... فلم تأتِ امرأةٌ منهن إلاّ بولد، إلا بواحدة، بشقِّ غلام...

ولو قال: إنْ شاءَ الله لم يحنث، وكان دَرَكاً في حاجته...»[3].

وفي روايةٍ سادسة للبخاري: «أن نبيَّ الله سليمان عليه السلام كان له ستونَ امرأة. فقال: لأطوفَنَّ الليلةَ على نسائي، فلَتَحْمِلَنْ كلُّ امرأة، ولَتَلِدَنْ فارساً يقاتلُ في سبيل الله، فطافَ على نسائه، فما ولدتْ منهنَّ إلا امرأة، ولدتْ شِقَّ غلام.

فقال نبيُّ الله ﷺ: لو كان سليمانُ استثنى لحملَتْ كلُّ امرأة منهن فولدتْ فارساً يقاتلُ في سبيل الله...»[4].

لقد أَوردَ الإمامُ البخاري ستَّ روايات متفاوتةً قليلاً لهذا الحديث، وأورده في مجموعةِ كتبٍ من صحيحه:

في كتابِ الجهاد والسير: رقم: ٥٦. باب: من طلب الولد للجهاد: رقم: ٢٣.

وفي كتابِ أحاديث الأنبياء: رقم: ٦٠. باب: قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾: رقم: ٤٠.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٢٤٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٦٣٩.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٢٠.

(٤) أخرجه البخاري برقم: ٧٤٦٩.

وفي كتابِ النكاح: رقم: ٦٧. باب: قول الرجل: لأطوفن الليلة على نسائي: رقم: ١١٩.

وفي كتابِ الأَيمان والنذور: رقم: ٨٣. باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ: رقم: ٣.

وفي كتابِ كفاراتِ الأَيمان: رقم: ٨٤. باب: الاستثناء في الأَيمان.

وفي كتاب التوحيد: رقم: ٩٧. باب: قول الله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: رقم: ٣١.

لقد أَحببْنا أنْ نضعَ أمامَ القراء الكرام رواياتِ البخاري الست لهذه الحادثة، ليدركوا أهميةَ جمْعِ الرواياتِ الصحيحة المختلفةِ للحادثة الواحدة، والنظرِ فيها مجتمعة، وملاحظةِ ما أوردتْه كلُّ واحدةٍ من إضافات على أخواتها، وإزالةِ التعارض بين الروايات، والجمعِ بينها، واستخلاصِ الحادثة من مجموع الروايات، وعدمِ الاكتفاء برواية واحدة!

توجيه طوافه على مائة امرأة في ليلة:

ولْنحاولْ تصوُّرَ الحادثةِ وتسجيلَها من الرواياتِ الست السابقة.

كانَ سليمانُ عليه السلام رجلَ جهاد، يطلبُه ويحرصُ عليه، لينشرَ دينَ الله، ويحاربَ أعداءَ الله، ورأينا كيفَ يشرفُ على إعدادِ وتهيئةِ الخيل الصافنات الجيادِ للجهاد.

وكانَ لسليمانَ عليه السلام مائةَ امرأة، ما بين حُرَّةٍ وأَمَة جارية. ولا يستغربَنْ أحدٌ من الرقم، ولا يقيسُه على شرعنا، الذي يحرمُ على الرجل الزواجَ بأكثرَ من أربعِ نساءٍ حرائر في وقتٍ واحد، فالراجحُ أنَّ شرعَ مَنْ قبلَنا ليس شرعاً لنا، ولا شكَّ أنه كان في شريعةِ سليمان عليه السلام الاحتفاظُ بمائةِ امرأة ما بين حرة وأمة.

ولم يكن احتفاظُ سليمانَ عليه السلام بمائة امرأةٍ بقصدِ الشهوة

واللذة، وإنما بهدفِ النسلِ والإنجاب، لتكونَ له الذريةُ الصالحة.

وبما أنَّ سليمانَ عليه السلام كان رجلَ جهاد، فقد أرادَ أنْ يطوفَ على نسائهِ في ليلة واحدة، لينجبْنَ رجالاً مجاهدين.

قال يوماً: لأطوفَنَّ الليلةَ على ستين امرأة ـ أو سبعين، أو تسعين، أو مائة، كما وردَ في روايات الحديث ـ لتحملَ كلُّ واحدةٍ منهن، وتنجبَ ولداً، ليكونَ بعد ذلك مجاهداً في سبيلِ الله.

إذن يريدُ الأولادَ ليكونوا مجاهدين في سبيل الله، فالذي يُشغلُ بالَه ويسيطرُ على تفكيرِه هو الجهادُ في سبيل الله.

أما كيف يطوفُ على مائةِ امرأةٍ في ليلةٍ واحدة، أَو تسعين أَو سبعين أَو حتى ستين، فقد يشكِّكُ بعضُهم في ذلك. إذْ كيفَ يعاشرُ الرجلُ مائةَ امرأةٍ معاشرةً جنسيةً في ليلة واحدة؟ وللرجل طاقةٌ جنسيةٌ محدودة!

نعلمُ أنه يستحيلُ على الرجل العادي أن يعاشرَ مائةَ امرأة أو تسعين أو ستين معاشرةً جنسيةً في ليلة واحدة، فقد يفعلُ ذلك مع أربعِ نساء أَو حتى مع عشرٍ أو ما زادَ على ذلك قليلاً، أمّا أنْ يفعلَ ذلك مع ستين أو تسعين أو مائة، فذلك غيرُ وارد، ولا يتفقُ مع طاقتِه وقدرتِه.

أمّا سليمانُ عليه السلام، فقد فعلَ ذلك، وجامعَ مائةَ امرأة من نسائِه في ليلةٍ واحدة، وهذا الأمرُ كان «معجزة» من الله، أَجراها اللّهُ على يديه، وهو الذي أَقدره على ذلك، ومكّنه منه، ومنحه طاقةً جنسيةً تكفي ليعاشرَ مائة امرأةٍ من نسائه ما بين حرةٍ وأَمَة.

وبما أنَّ الأمْرَ من الله، وكان معجزةً من المعجزات، فلا غرابةَ فيه، ونسلِّمُ به لأنه وردَ في الحديث الصحيح.

وتوجيه نسيانه أن يقول: إن شاء الله:

لما قالَ سليمانُ عليه السلام: لأطوفنَّ اليوم على مائةِ امرأة، كلُّ

واحدة تلدُ غلاماً يجاهدُ في سبيل الله، قالَ له المَلَك: قل إن شاء الله.

وهذا يدلُّ على أنه لما قال كلامَه السابقَ كان معه مَلَك من الملائكة، والأنبياءُ يلتقون مع الملائكة باستمرار.

فالمَلَكُ دعا سليمانَ عليه السلام إلى أنْ يقول: إن شاء الله. ومعنى هذا أنْ يربطَ الأمْرَ ويعلِّقَه بمشيئةِ الله، فإذا شاءَ اللّهُ ذلك الأمرَ وأَرادَه، تَحَقَّقَ ووُجِدَ في عالم الواقع، وما سليمانُ عليه السلام إلاّ سببٌ فقط. وإذا لم يشأ اللّهُ الأمرَ ولم يُرده لم يتحقق، ولو أرادَ سليمان ذلك، وبذلَ جهده فيه، فما شاءَ اللّهُ كان، وما لم يشأ لم يكن!

والمَلَكُ لما طلبَ من سليمان أن يستثنيَ وأنْ يقول: إن شاءَ الله، إنما يذكِّرُه بهذه الحقيقةِ الإيمانيةِ الاعتقادية.

ولكنَّ سليمانَ عليه السلام نسيَ أنْ يقول: إن شاء الله، رغم تذكيرِ المَلَكِ له بذلك.

ونسيانُه أنْ يقولَ إنْ شاءَ الله، لا يطعنُ في نبوته عليه السلام، فلا ضيرَ عليه في ذلك، بل هذا مظهرٌ من مظاهرِ بشريَّتِه، الذي يؤكِّدُ نبوته، فما هو إلاّ بشرٌ رسول، يَعتريه ما يَعتري البشرَ من أَعراض، مما لا يتعارضُ مع النبوة، فقد يحزنُ ويفرح، وقد يمرضُ ويتعب، وقد ينسى ويسهو.

النسيانُ قد يصيبُ الرسلَ في غيرِ الرسالة والتبليغ، وهذا ما حصلَ مع رسولِنا محمدٍ ﷺ، عندما سأله مشركو قريش أسئلةً حولَ أصحابِ الكهف وذي القرنين والروح، فقال لهم: أُجيبكم غداً. ونسيَ أنْ يقول: إن شاء الله. فتوقَّفَ عنه جبريل عليه السلام أسبوعين، تنبيهاً من الله له لأنَه نسيَ أنْ يقول: إن شاء الله.

وبعدَ أُسبوعين أنزلَ اللّهُ عليه سورةَ الكهف، وفيها الجوابُ على قصةِ أصحاب الكهف، وقصةِ ذي القرنين، وفيها تسجيلُ عتابِ الله له

لأنه نسيَ أن يستثني ـ أي أنْ يقول: إن شاء الله ـ وتوجيهُه إلى أنْ يعلقَ وعودَه بالاستثناء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ..﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

على هذا الأساسِ نفهمُ نسيانَ سليمان عليه السلام أنْ يقولَ: إن شاء الله. وأنه ليس مخطئاً في ذلك، لأنه لا خطأَ في النسيان.

فتنته بالمولود المشوه الميت على كرسيه:

ومع ذلك أرادَ اللّهُ أن يريَهُ آية، وأنْ يعطيَه درساً، فلما طافَ على مائةِ امرأةٍ وعاشرهن كلَّهن في ليلة، كان ينتظرُ أنْ يكونَ له مائةَ ولد بعد شهور، ليعدَّهم للجهاد في سبيل الله.

فلم تحملْ من المائةِ إلاّ امرأةٌ واحدة، ويا ليتَها حملتْ جنيناً متكاملاً، لقد قَدَّرَ اللّهُ أنْ يكونَ جنينُها ناقصاً مشوهاً! فلما وضعَتْه، نزلَ منها ميتاً، وكان نصفَ إنسان، ولم يكن إنساناً كاملاً.

وعلَّقَ رسولُنا ﷺ على ذلك بأنَّ سليمانَ عليه السلام لو قال: إن شاء الله، لحملت النساءُ المائة، ولكانَ له مائةُ ولد، وسيكونون جميعاً فرساناً مجاهدين في سبيل الله.

هذه هي فتنةُ سليمانَ عليه السلام المذكورةُ في الآيات، كما وضَّحَها الحديثُ الصحيحُ عن رسول الله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: امتحنّا سليمان وابتليناه، بأنْ جعلناه ينسى أنْ يقولَ إن شاء الله، وابتليناه بعدم تحقُّقِ رغبته بأنْ يكونَ له مائةُ ولد مجاهدين في سبيل الله، وابتليناه بابنِه المشوَّهِ الناقصِ في رحم امرأته.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: المرادُ بالجسدِ هو شِقُّ الإنسان، المولودِ المشوَّهِ الناقص، الذي نزلَ من بطنِ امرأته ميتاً.

ويبدو أنه لما وضعَتْه امرأتُه ميتاً، حَمَلوه ووضعوه على كرسيِّ

سليمان عليه السلام، جسداً ميتاً، وجثةً بدون حياة، ليرى ما وضعت امرأته.

ونظرَ سليمانُ عليه السلام إلى الجسدِ المشوَّهِ الملقى على كرسيه، وعرفَ أنه امتحانٌ وابتلاءٌ من الله، فأنابَ إلى الله، ورضيَ بقَدَرِه، واستسلمَ لقضائه، وذكرَ الله واستغفره، ودعاه وتضرعَ إليه، وبذلك نجح في الامتحان، واستفادَ من الابتلاء!.

[٥]

تسخير الريح والجن لسليمان عليه السلام

بعدما فتنَ اللّهُ سليمانَ عليه السلام بالمولودِ المشوَّهِ الناقصِ الميت، وإنابتِه وتضرُّعِه لربِّه، طلبَ من اللّهِ مُلْكاً واسعاً عريضاً. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥].

لماذا طلب سليمان الملك الخاص:

طلبَ من ربِّه أنْ يغفرَ له، وليس هذا عن ذنب، فإنَّ الأنبياءَ لا يُذنبون، وإنما هو ذكرٌ منه لربِّه، وتقرُّبٌ إليه بالاستغفار.

ثم طلبَ من اللّهِ الوهابِ أنْ يهبَهُ مُلْكاً خاصّاً به، لا يُعطيه لأحدٍ من بعده، فاستجابَ اللّهُ له.

ولا ننسى أنَّ طلبَهُ الملكَ الخاصَّ كان بعدَ أَن ابتلاه اللّهُ بعدمِ حمْلِ نسائه، إلا تلكَ التي ولدَتْ ابناً مشوَّهاً.

وقد لا يحسنُ بعضُهم فهمَ طلبِ سليمانَ عليه السلام وتوجيهَه، وقد يَعتبرُ بعضُهم هذا أَنانيةً من سليمان عليه السلام، وحرْصاً منه على الزعامة، وتهالُكاً على الملك، ومباهاةً وتفاخراً على الآخرين.

إنَّ نبيَّ الله سليمان عليه السلام منزَّهٌ عن هذه الأمراضِ والآفاتِ التي تُصيبُ الملوكَ والزعماء، وهو راغبٌ في اللّهِ والدارِ الآخرة،

وحياتُهُ في الدنيا وقْفٌ على دينِ الله والتمكينِ له، ويريدُ الملكَ الخاصَّ العريضَ لهذه الغاية.

إنه يريدُ الملكَ الخاصَّ الذي لا ينبغي لأَحدٍ من بعدِه لنشْرِ دينِ الله، والدعوةِ إليه، وإسعادِ الناسِ بالحياة في ظلاله. وهو يريدُ الملكَ الخاصَّ ليكون مظهراً من مظاهرِ الإنعامِ الرباني عليه، وليتخذَه وسيلةً لذكْرِ اللّهِ وشكْرِه وحسْنِ عبادته.

فالملكُ الخاصُّ الذي يريدُه ليس غايةً مقصودة، ولكنه وسيلةٌ لتحقيقِ تلك الغاياتِ الإيمانيةِ العظيمة.

ولذلك استجابَ اللّهُ له، ومنحَهُ ما طلب، وخصَّهُ بملْكٍ لم يهبْهُ لغيره.

سليمان أوسع الحكام ملكاً حتى قيام الساعة:

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٩].

سخَّرَ اللّهُ له الريح، فكانتْ تَجري بأمره. وسخَّرَ له الجنَّ والشياطين، فكانوا طوعَ أَمره، وسخَّرَ له الطيرَ فكانتْ من جنودِه.

وبذلك وهبهُ اللّهُ مُلكاً خاصّاً به، لم يهَبْهُ لأحدٍ من بعده، فكان حاكماً لمجموعاتٍ من: الإنس والجن، والطير، والريح.

وهل هناك حاكمٌ قبلَ سليمان عليه السلام أو بعدَه حكمَ الإنسَ والجنَّ والطيرَ والريح؟ ولهذا كان سليمانُ أَقوى ملكٍ في التاريخ، وأوسعَ الملوك والزعماء مُلْكاً. ليسَ بسببِ سَعَةِ مملكته، ولا بسببِ كثرةِ عددِ الناس الذين حَكَمهم، فهناك ملوكٌ مَلكوا بلاداً أكبرَ من مملكته، وحكموا ملايينَ أكثرَ منه.

إنَّ سليمانَ أوسعُ الملوك ملكاً، لأنه حكمَ طوائفَ ومجموعاتٍ من الإنسِ والجنِّ والطيرِ والريح.

كيفَ سخَّرَ اللّهُ له الريح؟

سخر الله لسليمان الريح رخاء:

اللّهُ هو الذي يسيِّرُ الريحَ بأمره، ويُرسلُها على ما يشاءُ من أَرضه، ومَن يشاءُ مِن عباده، فتحملُ الغيثَ والخصبَ والخير.

واللّهُ سخَّرَ الريحَ لسليمان عليه السلام، فجعلَها طوْعَ أمره، تتحركُ أَينما شاءَ هو، وتسيرُ إلى أيِّ مكانٍ أَراد، وتُقدِّمُ الخيرَ والغيثَ للناس.

كان تسخيرُ اللّهِ الريحَ لسليمان معجزةً من معجزاته عليه السلام، وطالَما أنَّ اللّهَ هو الذي سخَّرها له، وحكَّمه فيها، فلا غرابةَ في ذلك.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾: كانت الريحُ تَجري وتسير وتتحركُ بأمرِ سليمانَ عليه السلام، وتَحملُ معها الرخاءَ والغيث، ويَنتجُ عنها سعةُ عيشِ الناس وحسْنُ أَحوالهم.

و«رُخاء» مشتقةٌ من «رَخا». بمعنى: حَسُنَ واتَّسع. تقول: رخا فلانٌ: أي حَسُنَ حالُه. و: رَخا عيشُه: اتَّسع عيشُه. والرَّخاء ـ بفتح الراء ـ هو العيشُ الواسعُ الرغيد.

وفرقٌ بين «رُخاء» بالضم، و«رَخاء» بالفتح.

فالرُّخاءُ ـ بالضمّ ـ هي الريح اللينةُ الطيبة النافعة.

والرَّخاء ـ بالفتح ـ هو سعةُ العيش ويُسرُه وليونتُه ورفاهيتُه.

والثاني نتيجةٌ للأول وثمرةٌ له، فالرَّخاءُ والرغدُ والخصبُ واليسرُ نتيجةٌ للريح الرُّخاء، التي تأتي بالغيث، فينتجُ عنه الزرعُ والثمر والخصب، وبذلك يعيشُ الناس في رَخاء.

هذه الريحُ الرُّخاء كانت تجري بأمْرِ سليمان عليه السلام إلى

الأرضِ المقدسة. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

الأرضُ التي باركَ اللّهُ فيها هي الأرضُ المقدسة، فلسطينُ وما حولَها، التي كان فيها حكمُ سليمانَ عليه السلام.

كانت الريح تقطع مسيرة شهرين في اليوم:

وأَخبرنا اللّهُ أنَّ هذه الريحَ الرُّخاءَ العاصفةَ كان غدوُّها شهراً، وكان رواحُها شهراً. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

والغدوُّ هو أولُ النهار. تقول: غَدا، يَغْدو، غُدُوّاً: بَكَّرَ وخرجَ في أَول النهارِ.

والرَّواحُ هو السيرُ في آخرِ النهار، قُبيلَ الغروب.

والغُدُوُّ والرّواحُ أمران متقابلان، الأولُ في أولِ النهار، والثاني في آخرِ النهار.

ومعنى قوله عن الريح: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أن اللّهَ جعلَ الريحَ سريعةً عاصفةً بما معها من غيثٍ ورَخاء، حيث كانت تقطعُ مسيرةَ شهرٍ في غُدُوِّها وقدومِها ومجيئها وقْتَ الصباح، وتقطعُ مسيرةَ شهرٍ آخر في رَواحها وذهابها وقتَ العَشِيِّ في آخرِ النهار.

أي أنَّ الريحَ كانت تقطعُ مسيرةَ شهريْنِ في اليومِ الواحد.

وهذا مظهرٌ من مظاهرِ الرَّخاءِ والخصب الذي كانت تأتي به هذه الريح، وتتحركُ بأمْرِ سليمانَ عليه السلام.

ونلاحظُ أنَّ ثلاثَ سورٍ أَثارتْ إلى تسخيرِ الريحِ لسليمانَ عليه السلام: الأنبياء، وسبأ، وص.

ويُجمعُ بين هذه السور: بأنَّ اللّهَ سخَّرَ الريحَ لسليمانَ رخيةً لينة، وهذا ما ذكرَتْه سورةُ ص: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً...﴾.

وهذه الريحُ الرُّخاءُ كانت تهبُّ عاصفةً إلى الأرضِ المباركة، وهذا ما ذكرَتْه سورةُ الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا..﴾.

وهذه الريحُ الرُّخاءُ العاصفةُ القادمةُ إلى الأرض المقدسة، كانت سريعةً في هبوبها، بحيث كانت تقطعُ مسيرةَ شهرينِ في اليوم الواحد. وهذا ما ذكرَتْه سورةُ سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ..﴾.

وهذا معناهُ أنَّ فترةَ حكمِ سليمان عليه السلام لبني إسرائيل كانتْ فترةَ رخاءٍ ورفاهية، تنعَّمَ فيها بنو إسرائيل بعيشهم، وجنوا خصْبَ زروعهم وثمارِهم، وأكلوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجلهم. وانطبقَ عليهم قولُ اللّهِ سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾ [المائدة: ٦٦].

وهذا الخيرُ والرخاءُ والخصْبُ ثمرةٌ للحكمِ الإيمانيِّ الربانيِّ على يدِ سليمان عليه السلام، فلمّا حكَمَهم بشرعِ الله، أفاضَ اللّهُ عليهم من هذه الخيرات.

وبعد وفاةِ سليمانَ عليه السلام تخلّى بنو إسرائيلَ عن شرعِ الله، فسلبهم اللّهُ هذا الرخاء، وأوقعَ بهم عذابَه وانتقامه.

وعند حديثِنا عن الريحِ التي سخَّرها اللّهُ لسليمان عليه السلام، يجبُ أنْ نستبعدَ الإسرائيلياتِ الخرافيةَ التي كانت تتحدثُ عن «بساطِ الريح» السحريِّ، الذي كان يركبُ عليه سليمان، ويتجوَّلُ في بلاد العالم، وقد استهوَتْ هذه الأساطيرُ بعضَ المفسرين المسلمين، ففسَّروا بها آياتِ القرآن!!

تسخير الجن والشياطين لسليمان:

وسخَّرَ اللّهُ لسليمان عليه السلام الجنَّ والشياطين. ووردَ الحديثُ

عن تسخيرِ الجنّ في السور الثلاث: الأنبياء، وسبأ، وص.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧﴾ [ص: ٣٧].

تحدثت الآياتُ عن تسخيرِ الجنّ والشياطينِ لسليمان عليه السلام، والكلمتانِ ليستا مترادفتيْن بمعنى واحد، فهناكَ فرقٌ بين الجنّ والشياطين.

الجن: هم الخلْقُ الخاصُّ المقابلُ للإنس، خلَقَهم اللّهُ من النار، مقابلَ خلْقِ الإنسِ من الطين، وهم عالَمٌ قائمٌ بذاته.

والجنُّ نوعان: جنٌّ مؤمنون مصلحون مسلمون، وجنٌّ كافرون ظالمون مجرمون.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ۝١١﴾ [الجن: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ۝١٥﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

أمّا الشياطينُ فهم الكافرون المتمردون على الله، مهما كان جنسُهم، وهؤلاء الشياطينُ منهم مَنْ كان مِن الجن، ومنهم مَن كان مِن الإنس. فكلُّ كافرٍ شيطانٌ سواءً كان إنسياً أم جنياً.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

الجنُّ المؤمنون ليسوا شياطين، وهم كالإنسِ المؤمنين في الإيمانِ والإسلامِ والطاعة. أمّا الجنُّ الكافرون فهم شياطين، كالإنسِ الكافرين.

وقد أخبرَنا اللّهُ أنه سخَّرَ لسليمانَ عليه السلام الجنَّ والشياطين، أيْ أنه سَخَّرَ له الجنُّ بنوعيهم: المؤمنين الصالحين، والكافرين الشياطين.

وعلمْنا من القرآن أنَّ أحدَ الجن المؤمنين تعَهَّدَ بإحضارِ عرشِ ملكة سبأ لسليمان قبلَ أنْ يقومَ من مقامِه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ...﴾ [النمل: ٣٩].

حزم سليمان في حكم الجن والشياطين:

وكانَ سليمانُ عليه السلام حازِماً في حكمِ الجنِّ والشياطين، وأيَّدهُ اللّهُ بتسخيرِهم وخضوعِهم له، فخضعوا له بإذن الله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وكانَ يستخدمُ الشياطينَ من الجنِّ في «الغوْصِ» في أعماقِ البحار، لاستخراج كنوزِها وخيراتِها، وتقديمِها إلى سليمان عليه السلام، لينفعَ أُمته بها: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ...﴾.

كما كان يستخدمُ الشياطين في «البناء»، حيثُ كانوا يُشيدون له القصورَ والبيوت: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾...﴾.

ولم يكن سليمانُ عليه السلام يتساهلُ مع هؤلاءِ الشياطين البنّائين والغوّاصين، فمَنْ يُقصِّرون أو يتمردون أو يخالفون منهم كان يقيدُهم بالقيود، ويُصفِّدُهم بالأَصْفاد: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾..﴾ [ص: ٣٨].

ولم يخبرْنا القرآنُ عن الطريقةِ التي حكمَ سليمانُ بها الجنَّ والشياطين، ولا عن كيفيةِ وتفاصيلِ حكمه لهم، ولا نلتفتُ إلى خرافاتِ الإسرائيلياتِ من أنه كان يحكُمُهم بالسحر، أو باسمِ اللّهِ الأعظم، أَو بخاتمِهِ السحريِّ العجيب.

كلُّ ما نعرفُه أَنه حكَمهم بإذْن الله، فاللّهُ هو الذي سخَّرهم له، وأَخضعَهم لحكمه، فالأمرُ أمرُ الله في الحقيقة، نعمةً منهُ على نبيِّه سليمان عليه السلام.

تفجير عين النحاس لسليمان:

ومن مظاهرِ تأييدِ اللّهِ لسليمان عليه السلام وتقويتِه لملكه وسلطانِه، إمدادُه بالمعادن، وبالذاتِ النحاس. ووردَ هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ..﴾ [سبأ: ١٢].

والقِطْرُ ـ بكسر القاف ـ هو النحاسُ المذاب.

ومعنى «أَسَلْنا له عين القطر»: أَجريْنا له عَيْناً من نحاسٍ مُذابٍ.

لقد فجَّرَ اللّهُ لسليمانَ عليه السلام منجماً من مناجمِ النحاس المذابِ المصهور، وأَخرجَ له عيناً جاريةً من هذا النحاس المَصهور، فكانت تَسيلُ وتَجري على وجهِ الأرض. وتَصَوُّرُ النحاسِ المذابِ يَجري كالسيلِ يدلُّ على عظمةِ هذه النعمة من الله على سليمان عليه السلام.

ولا نملكُ دليلاً على تحديدِ الموقعِ الجغرافيِّ لعينِ النحاسِ المذابِ التي فجَّرها اللّهُ لسليمانَ عليه السلام، فلا نخوضُ في ذلك، ولا يضرُّنا الجهلُ بموقعِ تلك العين.

وقد استفادَ سليمانُ عليه السلام من عينِ النحاس، وكثرةِ النحاس المتدفقِ منها، فاستخدمَ الجنَّ والشياطينَ ذوي الطاقاتِ والقدراتِ الهائلة في إِنتاجِ مختلفِ أَنواعِ الصناعاتِ المعدنية، من نحاسيةٍ وحديدية. ولهذا أَثرهُ الكبيرُ في تقدُّمِ الدولةِ الإيمانية التي يحكمُها سليمانُ عليه السلام، تقدُّمِها صناعياً وعمرانياً ومادياً.

وأَشارَ القرآنُ إلى بعضِ مصنوعاتِ الجن والشياطين. قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

صناعات نحاسية ضخمة: محاريب وتماثيل وجفان وقدور:

المحاريب جمعُ محراب. وهو مكانُ العبادة. وقد تحدَّثْنا عن اشتقاقِه عندَ كلامِنا عن الخصمين عندما تسوَّروا المحرابَ على داود عليه السلام.

والتماثيلُ جمعُ تمثال. وهو شيءٌ مصنوعٌ من النحاس أَو غيره، يماثِلُ ويشابِهُ ويُحاكي شيئاً في الطبيعة، كالإنسانِ أو الحيوانِ أو النبات أو غير ذلك[1].

والجِفان جَمْعُ جَفْنة. وهي القَصْعَةُ أَو الإناءُ أو الوعاء، الذي يوضَعُ فيه الطعام[2].

والجواب، أَصْلُها: الجوابي، حُذفتْ منها الياءُ للتسهيل، مثل: الجواري، صارتْ «جَوارِ» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: ٢٤].

والجَوابي جمعُ جابية. والجابيةُ هي الحوضُ الكبيرُ الذي يوضَعُ فيه الماء. مشتقةٌ من «الجَوْب» وهو القطع[3].

ومعنى قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أنَّ الجِفانَ النحاسيةَ التي كان الجنُّ يصنعونَها لسليمانَ عليه السلام، لتكون آنيةً للطعام، كانتْ كبيرة، وكأنَّ الجفنةَ الواحدةَ جابيةٌ من الجوابي، وحَوْضاً من الأحواضِ التي يوضَعُ فيها الماء.

والقُدور جمع قِدر. وهو الإِناءُ المعروفُ الذي يُطبخُ فيه.

ووُصفت القدورُ النحاسيةُ بأنها «راسيات». والراسيات هي: الثابتاتُ التي لا تتغير.

---

(١) المعجم الوسيط: ٨٥٤.

(٢) المرجع السابق: ١٢٧.

(٣) المرجع السابق: ١٤٤.

ومَعنى ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾: قدورٍ ضخمة، ثابتةٌ مكانها، لا تُغَيَّرُ عنه، ولا يَكادُ أحدٌ يُطيقَ حَمْلَها لعظَمِها وضخامتِها[1].

وبعدما عَرَفْنا معاني كلماتِ قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ نقفُ على ما قالَه بعضُ السلف في معانيها:

قالَ الإمامُ ابنُ كثير في تفسيره: «أمّا المحاريبُ فهي: البناءُ الحسن، وهو أشرفُ شيء في المسكن.

قال مجاهد: المحاريب: بُنيانٌ دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي القصورُ والمساجد. وقال ابنُ زيد: هي المساكن.

وأمّا التماثيل: فهي الصُّوَرُ. وهذا قولُ عطية العوفي والضحاك والسدي.

وقال مجاهد: كانتْ هذه التماثيلُ من نحاس.

والجَوابِ: جمعُ جابية. وهي الحوضُ الذي يُجبى فيه الماء.

قال ابنُ عباس: «كالجواب»: كالجوبةِ من الأرض. وهي الحِياض.

وقال مجاهدٌ والحسنُ وقتادة والضحاك وغيرهم: كالجوابِ: كالحِياض.

وقال مجاهد والضحاك: والقُدورُ الراسيات هي الثابتاتُ في أَماكنها، لا تتحوَّلُ عنها لعِظَمِها..»[2].

ويُشيرُ لنا قولُه تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ

---

(١) المعجم الوسيط: ٣٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:٥٠٧ باختصار.

وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍۚ﴾ إلى عظمةِ هذه الصناعاتِ المعدنيةِ النحاسيةِ التي كان الجنُّ والشياطينُ يَصنعونَها لسليمانَ عليه السلام، والتي كانَ يستخدمُها بنو إسرائيل في حياتِهم المدنية والاجتماعية.

كما تشيرُ الآيةُ إلى أنَّ المملكةَ الإيمانيةَ زمنَ سليمان عليه السلام بلغتْ مستوى متقدماً من الرقيِّ الماديِّ والعمراني والصناعي، كيف لا، واللّهُ قد أنعمَ على سليمانَ عليه السلامُ بالاستفادةِ من طاقاتِ وقدراتِ ومواهب الجن والشياطين.

لقد التقى الجنُّ والإنسُ على تقديم خبراتِهم وطاقاتِهم لدعمِ المملكةِ الإيمانية، وخدمةِ سليمانَ عليه السلام، وأدّى اجتماعُ هذه الخبراتِ والطاقات إلى التقدمِ والرقيِّ الماديِّ والصناعيِّ لهذه المملكة.

وهذا بفضْلِ اللّهِ أوَّلاً لإنعامِه على سليمانَ بذلك، وتسخيرِ هذه الطاقاتِ له، ثم بفضْلِ سليمانَ عليه السلام، الذي أحسنَ استخدامَ وتوظيفَ هذه الطاقات!!

اعملوا آل داود شكراً:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنه ختمَ الآيةَ التي تحدثَتْ عن الصناعاتِ النحاسيةِ زمنَ سليمان عليه السلام بالدعوةِ إلى شكرِ اللّهِ على هذه النعم. قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الخطابُ في الآيةِ لآلِ داود، وآلُ داودَ هم أهلُه المؤمنون وأتباعُه وجنودُه الصالحون، بقيادةِ ابنِه سليمانَ عليه السلام.

أَمرهم اللّهُ أنْ يَعملوا العملَ الصالح، وأنْ يَشكرُوه على ما أنعمَ به عليهم ووفَّقهم إليه.

و«شكراً» في الآيةِ منصوب، وعاملُه فعْلٌ مقدَّر. والتقدير: اعملوا آلَ داودَ صالحاً، واشكروا اللّهَ شكراً على ذلك.

وقد سخَّرَ اللّهُ لكلٍّ مِن داودَ وسليمانَ عليهما السلام المعادن، وكان لذلك أثرُه في التقدمِ الصناعيِّ والعمرانيِّ للدولةِ المؤمنة التي أَسَّساها.

داودُ عليه السلام أَلانَ اللّهُ له الحديد، وعلَّمَه كيفيةَ صنعِ الدروعِ الحديدية الحربية.

وسليمانُ عليه السلام أسالَ اللّهُ له عينَ النحاس، وسخَّرَ له الجنَّ يصنعون منها الأدواتِ النحاسيةَ الضخمة.

والتقت الصناعاتُ الحديديةُ والصناعاتُ النحاسيةُ على تقديمِ الخيرِ والنفعِ لبني إسرائيل في عهدِ سليمان عليه السلام، وفي الارتقاءِ بمستوى الدولةَ المادي والمعنوي.

لقد أَدى تسخيرُ الجنِّ والشياطينِ لسليمان عليه السلام إلى التقدُّمِ الماديِّ الصناعيِّ والعمراني للدولةِ في عهده، حيث ازدهرت الصناعاتُ الحديديةُ والنحاسية، كما لاحَظْنا من الآيات، وحيث تمَّ تشييدُ القصورِ والبيوت، وعملَ سليمانُ على الإكثارِ من بيوتِ الله لعبادته سبحانه.

سليمان جدد بناء المسجد الأقصى:

استفادَ سليمانُ عليه السلام من تسخيرِ الجنِّ والشياطين له، فعملَ على تجديدِ بناءِ «المسجد الأَقصى» في بيت المقدس!

لقد بَنى المسجدَ الأَقصى أَولَ مرةٍ إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام، كما ذكَرْنا ذلك في حديثنا عن قصته فيما مضى.

واستمرَّ المسجدُ الأَقصى قائماً فترةً من الزمن، يرتادُه المؤمنون لعبادةِ الله، ثم عَدَتْ عليه عوادي الزمن، من كوارثَ وحروب، فتهدَّمَ وسقطتْ جدرانُه.

وفي عهدِ سليمان عليه السلام، قامَ بتجديدِ بناءِ المسجد الأقصى، وبناهُ مسجداً لله، ليصلِّيَ فيه المؤمنون، ويَعبدوا اللّهَ سبحانه وتعالى.

والدليلُ على أنَّ سليمانَ عليه السلام جَدَّدَ بناءَ المسجدِ الأقصى في بيتِ المقدس ما أخرجَه النَّسائيُّ وابنُ ماجة وغيرُهما عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ سليمانَ بنَ داود عليهما السلام لَمّا بنى بيتَ المقدس، سألَ اللّهُ عز وجل خِلالاً ثلاثة: سألَ اللّهَ عز وجل حكماً يصادفُ حكْمَه، فأُوتيَه. وسألَ اللّهَ عز وجل مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأُوتيه. وسألَ اللّهَ عز وجل حين فرغَ من بناءِ المسجدِ أنْ لا يأتيه أحدٌ لا يَنْهَزُهُ إلاّ الصلاةُ فيه، أنْ يُخرجَه من خَطيئَتِهِ كيومَ ولدَتْه أُمُّه..»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديثِ الصحيح أنَّ سليمانَ عليه السلام هو الذي جَدَّدَ بناءَ بيتِ المقدس، وجَدَّدَ بناءَ المسجدِ الأقصى فيه.

وهذا رَدٌّ على مزاعم اليهودِ المفترين، الذين زعموا أنَّ سليمانَ عليه السلام بنى هيكَله، المعروفَ باسم «هيكل سليمان»، وجَعَلَهُ بناءً يهودياً للرب، لينزلَ فيه ويُقيمَ فيه!! تعالى اللّهُ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

إنَّ سليمانَ عليه السلام كان نبياً رسولاً، وملكاً خليفة، فكانَ حكْمُه حكماً إسلامياً!! صحيحٌ أنه كانَ إسرائيلياً من حيث النسب، لكنَّ حكمَه لا «يُجَيَّرُ» لليهود، وإنما هو للإسلامِ والمسلمين.

والمسجدُ الأقصى الذي جَدَّدَ بناءَه، لم يجعلْه هيكلاً مقدَّساً، ولا «كَنيساً» يهودياً، وإنما جعلَه مسجداً للصلاةِ والعبادةِ والذكر.

طلبات ثلاثة لسليمان لما بنى الأقصى:

طلبَ سليمان عليه السلام من ربِّه ثلاثةَ أُمور، وبما أَنه نبيٌّ مقربٌ مُجابُ الدعوة، فإنَّ اللّهَ قد استجابَ له وأَعطاهُ ما طلب.

سألَ اللّهَ حكْماً صائباً، وقضاءً صحيحاً، يوافقُ حكْمَ الله وقضاءَه،

---

(١) أخرجه النسائي ٢: ٣٤. وابن ماجه: ١٤٠٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٨.

فآتاهُ الله ذلك، وكانتْ أحكامُه صائبةً صحيحة، وكان يستدركُ على قضاءِ أَبيه داودَ عليهما السلام، كما عَرَفْنا من قصةِ الحرثِ والغنم، وقصةِ المرأتيْن والطفل.

وسألَ اللّهَ ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، ليكونَ هذا مظهراً لذكْرِ اللّهِ وشكرِه، وليستخدمَهُ في طاعةِ الله ونفعِ عبادِ الله، فآتاهُ الله ذلك، وسخَّرَ له الإنسَ والجنَّ والطير، وعلَّمَه منطقَ الطير، وكان جيشُه يضمُّ أصنافاً من هؤلاء.

وسألَ اللّهَ أنْ يَغفرَ لكلِّ مؤمنٍ صالح، يأتي إِلى المسجدِ الأقصى للصلاة فيه، مهما كان مكانُ إِقامتِه، بشرْطِ أنْ يكونَ هدفُه وجْهَ الله، وأنْ يأتيَهُ مخلصاً لله، وأنْ لا يَنْهَزَهُ ولا يحركَه إلاّ الصلاة، فآتاهُ اللّهُ ذلك، وأخبرَه أنَّ كلَّ مَنْ كان كذلك، فإنه سيغفرُ له، ويخرجُه من ذنوبه، كيوم ولدَتْه أمُّه!

وبقي هذا الحكمُ قائماً حتى قيامِ الساعة، وينطبقُ على كلِّ مسلم صالح، يأتي المسجدَ الأقصى بهذا الهَدفِ وهذه الصفة، وكم سينطبقُ هذا الحكمُ الربانيُّ على ملايين المسلمين من أمةِ محمدٍ ﷺ، بفضْلِ دعاءِ سليمان عليه السلام لهم. وهذا يؤكِّدُ حقيقةَ وراثةِ الأمةِ المسلمة للأنبياءِ السابقين جميعاً، ومنهم داودُ وسليمانُ، عليهم الصلاة والسلام!

رسول الله يطلق سراح الشيطان مراعاة لسليمان:

وقد عرفَ رسولُنا محمدٌ ﷺ لسليمانَ عليه السلام ما خصَّهُ اللّهُ به من الملك، الذي لم يهَبْهُ لأحدٍ من بعدِه، وهو تسخيرُ الجنِّ والشياطين له.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ عفريتاً من الجنّ تفلَّتَ عليَّ البارحة، ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأَمكَنَني اللّهُ منه، فأَردْتُ أنْ أربطه إِلى ساريةٍ من سواري المسجد، حتى تنظروا إِليه كُلُّكم، فتذكَّرْتُ دعوةَ أخي سليمان: ﴿قَالَ

﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ فرددْتُه خاسئاً»[1].

يخبرُ رسولُ الله ﷺ أَنه لما قامَ يصلي في الليل، أتاهُ عفريتٌ من الجن، وصارَ يوسوسُ له، ليَقطعَ عليه صلاتَه ويُفسدَها، ورسولُ الله ﷺ يراه، فسلَّطَهُ اللّهُ على ذلك العفريت وأَمكنه منه، فألقىٰ القبضَ عليه وأَمسكَه بيديه.

وأَرادَ ﷺ أنْ يربطَ ذلك العفريتَ إِلى أحدِ سواري المسجد وأَعمدتِه، لينظرَ إليه المسلمون في الصباح، ويتفرَّجوا عليه.

والذي صَرَفَه عن ذلك هو تذكُّرُه لدعوةِ سليمان عليه السلام، حيثُ طلبَ من ربِّه أنْ يهبَه ملكاً خاصاً به، فحكَّمه اللّهُ في الجنِّ والشياطين، ولو قيَّدَ الرسولُ ﷺ ذلكَ العفريتَ إلى الصباح لدلَّ ذلك على أنَّ الله حكَّمه في الجنِّ والشياطين، وهذا معناهُ أنَّ اللّهَ أَعطاه ملكاً كما أَعطى سليمان!

فأَطلقَ سراحَ ذلك العفريت وردَّه خاسئاً، ليَبقى التحكمُ في الجنِّ خاصاً بسليمانَ عليه السلام.

وهناكَ توضيحٌ آخرَ لهذه الحادثة، قدَّمَهُ أَبو الدرداء رضي الله عنه، فقد روى مسلمٌ والنَّسائيُّ عنه قال: «قامَ رسولُ اللّهِ ﷺ يُصلي، فسمعْناهُ يقول: أَعوذُ باللّهِ منك، أَلعنُكَ بلعنةِ الله. أَعوذُ باللّهِ منك، أَلعنُكَ بلعنةِ الله. أَعوذُ باللّهِ منك، أَلعَنُكَ بلعنةِ الله. وبَسَطَ يَده، كأَنَّه يتناولُ شيئاً.

فلما فرغَ من الصلاة، قلْنا: يا رسولَ الله: قد سمعْناك في الصلاةِ تقولُ شيئاً، لم نسمعْكَ تقولُه قبلَ ذلك، ورأَيْناك بسطْتَ يَدَك؟

قال: إنَّ عدوَّ اللّهِ إبليس جاءَ بشهابٍ من نار، ليجعَلَه في

---

(1) أخرجه البخاري برقم: ٤٦١. ومسلم برقم: ٥٤١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦١.

وجهي. فقلت: أَعوذُ بالله منك، ثلاثَ مرات. ثم قلت: أَلعنُكَ بلعنةِ اللّهِ التامة، ثلاثَ مرات، فلم يستَأْخِر.

ثم أَردتُ أَخْذَه، واللّهِ لولا دعوةُ أَخي سليمانَ لأصبحَ موثَقاً، يلعبُ به وِلدانُ أهلِ المدينة»[1].

في هذا الحديثِ تحديدُ أنَّ الشيطانَ الذي أَتى الرسولَ ﷺ هو إبليسُ عليه اللعنة، وأنه كانَ يحملُ شِهاباً من نار، ليضعَه في وجهِ الرسول ﷺ، ويُفسدَ عليه صلاتَه.

فلَعَنه رسولُ الله ﷺ ثلاثَ مرات، واستعاذَ بالله منه ثلاثَ مرات، فأعاذَه اللّهُ منه، ووقاهُ شَرَّه.

ثم مدَّ رسولُ الله ﷺ يَدَه إلى إبليسَ ليقبضَ عليه، وأَرادَ أَنْ يربطَه في أحدِ أَعمدةِ المسجد، ليتفرجَ عليه المسلمون، ويلعبَ به أَولادُهم.

ولكنه تذكَّرَ دعوةَ سليمان عليه السلام، فعدلَ عن ذلك، وأَطلقَ إبليس، فذهبَ الملعونُ خاسئاً.

وتمكينُ اللّهِ للرسولِ ﷺ، وإلقاؤُه القبضَ على إبليسَ نفسِه، يشيرُ إلى فضلِ الرسول ﷺ، وعلوِّ منزلتِه عند الله، فالله سخَّرَ له الجنَّ والشياطين وحكَّمه فيهم. ولو أرادَ ﷺ تسخيرَهم لفعل، والذي دعاهُ إلى العدولِ عن ذلك هو تقديرُه لأَخيه نبيِّ الله سليمانَ عليه السلام، ومراعاتُه لما اختَصَّه اللّهُ به.

[٦]

سليمان وجيشه في وادي النمل

قصةُ سليمانَ عليه السلام مع النملةِ والهدهد وملكةِ سبأ من أطولِ مشاهدِ قصتِه في القرآن، واستغرقَتْ آياتٍ عديدةٍ من سورة النمل، وهي من الآيةِ الخامسةِ عشرة إلى الآيةِ الرابعةِ والأربعين.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٤٢. والنسائي برقم: ١٢١٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٢.

ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ تُضيفُ جديداً إلى ما أخبرَتْنا عنه الآيات، ولذلكَ نحنُ ملزمونَ أنْ نبقىٰ مع سياقِ الآيات، متدبِّرين لها، لنستخرجَ منها أحداثَ القصة ومشاهدَها ولقطاتِها ومفاجآتِها، ولا نذهبُ إلى الإسرائيلياتِ والأساطيرِ والروايات غيرِ الثابتة، لأخْذِ معلوماتٍ منها، كما فعلَ كثيرٌ من المفسِّرين والمؤرخين. ونعترفُ بوجودِ تفصيلاتٍ كثيرة في تلك الإسرائيلياتِ والروايات.

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى فضْلِ اللّهِ الذي آتاهُ لكلٍّ من سليمانَ وداودَ عليهما السلام، وكيفَ قابَلا هذا الفضلَ والتفضيلَ بحمدِ الله وشكْرِه، والاعترافِ بأنَّ ما هما فهو من الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

وهذه الإشارةُ تمهيدٌ للحديثِ عن قصةِ سليمان المفصَّلَةِ مع النملة والهدهد وملكة سبأ.

فقد انتقلَ السياقُ مباشرةً إلى الحديثِ عن فترةِ حكم سليمان، حيث ورثَ أباهُ داودَ عليهما السلام في النبوة والملك: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ...﴾ [النمل: ١٦].

علمه الله منطق الطير:

أَعلنَ سليمانُ عليه السلام أنَّ اللّهَ خصَّهُ بتفهيمِه منطقَ الطير، وآتاهُ في حكمهِ من كلِّ شيء، واعترفَ بأنَّ هذا فضْلٌ مبينٌ من اللّهِ المنعم المتفضِّل: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

ويدلُّ قولُه تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ على أنَّ اللّهَ علَّمهُ لغةَ الطيور والحيوانات، حيث كان يسمعُها، ويفهمُ ما تقول، ويكلمُها، وتَفهمُ هي عليه أيضاً.

وقدَّمت الآياتُ دليلاً على ذلك، عندما سمعَ كلامَ النملة، وعندما جرى حوارٌ بينَه وبين الهدهد.

لقد كانَ سليمانُ عليه السلام عالماً بلغاتِ الحيواناتِ والطيورِ والجنّ والشياطين، وهذا مما خصَّه اللّهُ به، ومن مظاهرِ الملكِ الذي لم يهبْه لأحدٍ غيره.

والمنطقُ مصدرُ الفعل «نَطَقَ». تقول: نطقَ، ينطقُ، نُطقاً ومَنْطِقاً: إذا تكلم. أَو إِذا أَخرجَ صوتاً من فمه، ففهِمَهُ الآخرون.

قال الإمام الراغب: «النطقُ في التعارف: الأصواتُ المقطَّعةُ التي يُظهرُها اللسان، وتَعيها الأذان. ولا يكادُ يقالُ إلا للإنسان، ولا يُقالُ لغيرِه إلاّ على سبيلِ التّبَع.

وقولُهم: الناطقُ والصامت. يُرادُ بالناطقِ ما لَه صوت، وبالصامتِ ما ليسَ له صوت.

وقد يُقال: الناطقُ لما يدلُّ على شيء. وعلى هذا قيلَ لحكيم: ما الناطقُ الصامت؟ فقال: الدلائلُ المخبرةُ والعبرُ الواعظة. وقولُه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] إشارةٌ إلى أنهم ليسوا من جنسِ الناطقين ذوي العقول. وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] قيل: أَرادَ الاعتبار، فمعلومٌ أنّ الأشياءَ كلَّها لا تَنطقُ إلاّ من حيثُ العبرة.

وقولُه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فإنَّه سمّى أَصوات الطير نُطقاً، اعتباراً بسليمانَ الذي كان يَفهمُه، فمَنْ فهمَ من شيء معنى، فذلك الشيءُ بالإضافةِ إليه ناطق، وإنْ كانَ صامِتاً، وبالإضافةِ إلى مَنْ لا يَفهمُ عنه صامت، وإنْ كان ناطقاً»[1].

---

(١) المفردات: ٨١١ ـ ٨١٢ باختصار.

للمخلوقات الحية لغة خاصة يعلمها لبعض البشر:

لقد أخبرَنا اللّهُ أنَّ المخلوقاتِ كلَّها تُسبحُ الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذا معناه أنَّ المخلوقاتِ الحيةَ الأُخرى تنطق، ونَسمعُ نحنُ أَصواتَها، لكننا لا نَفهمُ عليها، ولا نَفقَهُ نطقَها.

وعدمُ فهمِنا لأَصواتِها لا يَنفي نطقَها، ولا يُلغي أَنَّ لها «لغةً» خاصةً بها، فهذه الأَصواتُ المجرَّدَةُ التي نسمعُها من الطيورِ والحيوانات ما هي إلاّ لغاتٌ معبرةٌ عن حاجات!.

وإذا كانَ اللّهُ قد حجبَ عنا فهمَ لغةِ الحيوانات والطيور، فإنه قدْ يمنحُ هذا العلمَ لبعضِ عبادِه، كما فعلَ مع سليمان عليه السلام.

لقد كانَ تعليمُ اللّهِ منطقَ الطيرِ لسليمان عليه السلامِ معجزةً خصَّهُ بها، ولم يكن بجهدِ سليمانَ وكسْبِه وتحصيلِه ودراستِه. وبما أنه معجزةٌ من الله، ومِن فعْلِ الله، فلا غرابةَ ولا استحالةَ في ذلك، لأنَّ اللّهَ يفعلُ ما شاء، ولا يعجزُه شيءٌ في السموات والأرض. وما المعجزةُ إلاّ أمْرٌ خارقٌ للعادة، لا تقعُ إلاّ على يد النبي، ويَعجزُ الآخرون عن معارضتها.

إنَّ العادةَ البشرية هي عدمُ علمِ البشرِ بمنطقِ الطيرِ والحيوانات، وعدمُ فهمِهم للغتها، ومنطقُ ولغةُ الحَيواناتِ والطيور بالنسبةِ إلى البشرِ ما هي إلاّ أَصواتٌ مجردةٌ سابحة في الهواء، لا يَفقهونَ عنها ولا يفهمونها.

هذه العادةُ البشريةُ خرقَها اللّهُ لسليمان عليه السلام، عندما أَجرى له المعجزة، وعَلَّمه منطقَ الطيرِ والحيوان، وكان تعليمُه له تعليماً ربانياً خاصّاً، وعلَّمَه بذلك علماً لدنياً مباشراً.

هكذا نفهمُ تعليمَ اللّهِ لسليمانَ منطقَ الطيرِ والحيوان، عندما تكونُ عقولُنا قرآنية، وأفهامُنا إيمانية.

وَتَخَيُّلُ مشهدِ علم سليمان بمنطقِ غيرِ البشر لطيفٌ ممتع. فإذا تكلمَ الجنيُّ فهمَ سليمانُ قولَه، وإذا تكلمَ سليمانُ فهمَ الجنيُّ قولَه، وإذا تكلمَ الحيوانُ فهمَ سليمانُ قولَه، وإذا تلكمَ سليمانُ فهمَ الحيوانُ قولَه، وإذا تكلمَ الطيرُ فهمَ سليمانُ قولَه، وإذا تكلمَ سليمانُ فهمَ الطيرُ قولَه.. وهكذا سمعَ سليمانُ كلامَ النملةِ وفهمَ كلامَها، وخاطبَ الهدهد وحاوَرَه، وفهمَ كلٌّ منهما كلامَ الآخر، وقامَ الهدهدُ بمهمةٍ عظيمة في الدعوةِ إلى الله: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ...﴾.

قالَ الإمامَ ابنُ كثير: «أَخبرَ سليمانُ بنعم اللّهِ عليه، فيما وهَبَه له من الملكِ التام، والتمكينِ العظيم، حتى إنَه سخَّر له الإنسَ والجنَّ والطير، وكان يَعرفُ لغةَ الطيرِ والحيوانِ أيضاً. وهذا شيءٌ لم يُعْطَهُ أحدٌ من البشر، فيما عَلِمناه، مما أخبرَ اللّهُ ورسولُه به»[1].

جنود سليمان من الجن والإنس والطير منظمون:

بعدما أَخبرَنا اللّهُ عن تعليمِه سليمانَ منطقَ الطير، عَرَضَتْ لنا الآياتُ مشهداً مصوَّراً لموكِبٍ عسكريٍّ مهيب. سارَ مع سليمان عليه السلام: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧].

سارَ سليمانُ عليه السلام يوماً مع جيشِه العسكريِّ الكثيف، وكان جيشُه مكوَّناً من فرقٍ متناسقة، وأخبرَنا اللّهُ عن ثلاثٍ من هذه الفرق: فرقةِ الإنس، وفرقةِ الجن، وفرقةِ الطير: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ..﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٤٦.

ولا يَعني هذا أنَّ سليمانَ عليه السلام حكَمَ كلَّ الإِنس، وكلَّ الجن، وكلَّ الطير، إِنما حكمَ طوائفَ من الإِنس تمثِّلُ عالَمَ الإنس، وطوائفَ من الجن تمثلُ عالَمَ الجن، وأَصنافاً من الطير تمثلُ عالَمَ الطير. وكانتْ هذه الطوائفُ جنوداً في جيشِ سليمانَ عليه السلام.

و«مِن» في قوله: ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ للتبعيض. حيث أَشارتْ إِلى الفرقِ الثلاثةِ التي تُكَوِّنُ جيشَه عليه السلام.

ورغمَ اختلافِ أَجناسِ الجيش، وتنوُّعِ أُصولِ الجنود، إلاّ أَنه كانَ جيشاً منظَّماً مرتَّباً متناسقاً، وكان الجنودُ من هذهِ الفرق يَسيرونَ بنظامٍ دقيقٍ محكَم. وأَشارَ إِلى هذا التنظيمِ قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «المعنى: وجَمعَ لسليمانَ جنودَه من الجنِّ والإنسِ والطير، فركبَ فيهم في أُبهةٍ كبيرة، في الإِنسِ وكانوا هم الذين يلونه، والجنِّ وهم بعدَهم في المنزلة، والطيرِ ومنزلتُها فوق رأسه...

ومعنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُكَفُّ أَوَّلُهم على آخِرِهم، لئلا يتقدَّمَ أحدٌ عن منزلته، التي هي مرتَّبةٌ له.

قال مجاهد: جَعَلَ على كلِّ صنفٍ وَزَعَة، يَرُدّون أُولاها على أُخراها، لئلا يتقدَّموا في المسير، كما يفعلُ الملوك اليوم..»[1].

و«يوزَعون» ماضيه رباعي «أَوْزَعَ». والثلاثي هو «وَزَعَ».

قال الإمامُ الراغبُ: «وَزَعْتُهُ عن كذا: كَفَفْتُه عنه. قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وهـذا إِشارةٌ إِلى أَنهم مع كثرتِهم وتفاوتِهم لم يكونوا مُهمَلين ومُبعدين، كما يكونُ الجيشُ الكثير.. بل كانوا مَسوسين ومقموعين.

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٧.

وقيل: حُبسَ أَوَّلُهم على آخرِهم»[١].

وورد في المعجم الوسيط عن معنى الوَزَع ما يلي: «وَزَعَ الإنسانَ، يَزَعُه، وَزْعاً: كَفَّه ومنعَه وحبسَه.

ووَزَعَ الجيش: رتَّبَ فِرَقَه وسَوّاهم وصَفَّهم للحرب.

وأَوْزَعَ بينهم: فرَّقَ بينهم وأصلَحَ. وأَوْزَعَ الشيءَ: قَسَّمَه وفَرَّقَه»[٢].

ويدلُّنا قولُه تعالى عن جيش سليمان: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ على حُسْنِ تنظيمِ ذلك الجيش، فهو جيشٌ كبير، أعدادُ جنودِه كثيرة، وهم من أَجناسٍ شتى، من الجنِّ والإنس والطير. واجتماعُ هذه الجنودِ المتفاوتةِ مظنَّةٌ للفوضى، إذْ ضبطُهم أَثناءَ سيرِ الجيش صعب.

ولكنَّ جيشَ سليمان عليه السلام لم يكن مكاناً للفوضى، وجنودُه لم يكونوا مُهْمَلين ولا مَنسيين، كان جيشُه مرتَّباً منظَّماً منسَّقاً منضبطاً، وكان قادةُ فرقِ جيشه من الجنِّ والإنسِ والطير يوزِعون الجنودَ ويُرَتِّبونهم ويُنَظِّمونهم، ويكفّونهم عن الخروج، ويمنعونَهم عن الفوضى.

وكانوا يفعلونَ ذلك بالجنود، عن طريقِ حبسِ أَوَّلِهم على آخرهم، فيسيرُ آخرُ جنديٍّ بسيرِ أولِ جندي، ويُراعي الأولُ حركةَ الأَخير، وبذلك تتناسقُ الحركات، وتُنظَّمُ الخطوات، ويَسيرُ جميعُ الجنودِ خطواتٍ مرتَّبة منسقة، وكأنَّهم كلُّهم رجلٌ واحد.

وهذا الوزعُ والتنظيمُ والضبطُ لجيشِ سليمان مظهرٌ آخرَ من مظاهرِ حزمِه وقوةِ إدارته، وطاعةِ القادةِ والجنودِ له.

وما أجملَ تصوُّرَ منظرِ هذا الموكبِ المنظَّم المرتَّب، يسيرُ جنودُه

---

(١) المفردات: ٨٦٨.

(٢) المعجم الوسيط: ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩.

بضبطٍ وتنظيم، ويلتفّون حولَ سليمان عليه السلام وقادةِ دولته، وهؤلاء الجنودُ ليسوا بَشَراً فقط، بل منهم إِنس، ومنهم جنّ، ومنهم طير، وعلى كل جنسٍ قادةٌ ضباط، يَضبطون جنودَهم ويَزَعونهم.

مرور جيش سليمان على وادي النمل ونصيحة النملة لقومها:

سارَ الجيشُ على هذا الضبطِ والتنظيم، ومَرّوا على وادي النمل. وأَخبرنا اللّهُ عن ما جرى فيه. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٨ ـ ١٩].

ووادي النملِ مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لم يَرِدْ في تبيينِه حديثٌ صحيح، ولا يضرُّنا الجهلُ بموقعِه الجغرافي.

ولعلَّ هذا الوادي كان مشهوراً بكثرةِ بيوتِ النمل فيه، ولذلك سُمِّيَ «وادي النمل».

ودخلَ جيشُ سليمانَ الكبيرُ من الجنّ والإِنس والطير وادي النمل، ويبدو أَنهم كانوا يريدون أَنْ يَجتازوه إِلى مكانٍ آخر...

وبينما كانَ الجنودُ المنظَّمون يَسيرون في الوادي، شاهدتْهم نملةٌ من النِّمال، وخشيتْ على أُمتها من النملِ الهلاك، فنصحَتْ أمتَها قائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وهذه النملةُ حكيمةٌ في نصحِها لأمتها، وفي اعتذارِها عن سليمان وجنوده.

بدأَتْ كلامَها مع النمل بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾، وهذه صيغةٌ كلُّها تحبُّبٌ للنمل، وتقرُّبٌ إِليه، ليسمعَ قولَها، ويستجيبَ لنصحها.

وطلبتْ من النملِ أنْ يَدخلوا مساكنهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾. وهي بيوتُ النمل التي يُقيمونَ فيها في باطنِ الأرض، وتَحميهم من الأَخطار.

دلالات من نصيحة النملة لقومها:

وعَلَّلت النملةُ الحكيمةُ طلبها، بأنها فعلتْ ذلك لتحميَ النملَ من الهلاكِ تحتَ أَقدامِ جنودِ سليمان عليه السلام: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

أي: إذا بقيتُم أيُّها النمالُ تتحركون على وجهِ الأرض فسوفَ يحطمُكم سليمانُ وجنودُه، فادخلوا بيوتَكم أماكنَ سكنكم لئلا تحطَّموا وتدمَّروا.

وحتى لا تُسيءَ أمتُها من النمالِ الظنَّ بسليمانَ النبيِّ عليه السلام وجنودِه المؤمنين، استدركت النملةُ الحكيمةُ قائلة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وهذه الجملةُ الاستدراكيةُ منها للاعتذار، تعتذرُ لقومِها عن أَيِّ أَذى يصيبُهم من سليمانَ وجنوده، وتُبينُ أَنَّ سليمانَ وجنودَه ما كانوا يريدون إِيذاءَ النمال ولا تحطيمَها، فإنْ داسوها بأقدامِهم فلأَنهم لم يشعروا بها.

وهذا يدلُّ على حرصِ النملةِ الحكيمة على الاعتذارِ عن ما قد يصدرُ عن سليمان وجنوده، وحرصِها على تبرئةِ سليمان النبيِّ عليه السلام من أَيِّ تهمةٍ قد توجِّهُها النمالُ له.

كما يدلُّ كلامُ النملةِ على حرصِها على أُمتها من النمل، وإِشفاقِها عليهم، واهتمامِها بهم، وتفكيرِها في تخليصِهم من الخطر، وإِيصالِهم إِلى بَرِّ الأمان.

فإذا كانتْ نملةٌ صغيرةٌ بهذا الاهتمامِ بالنمال، وهي حشرةٌ زاحفةٌ صغيرةٌ لا تكاد تُرى، فلماذا لا يكونُ البشرُ ذوو العقلِ والأَفهام ـ وبخاصةِ الزعماء والقادة ـ مهتمِّين بالناس، حريصينَ على نصحِهم وإِبعادِ الخطرِ عنهم؟

وعندما كلمت النملةُ أمتَها بهذه النصيحة، استمعَ النملُ لها، واستجابَ لها، وسارعت النمالُ إِلى دخولِ مساكنها، والاحتماءِ من الخطرِ في بيوتها.

سليمان تبسم ضاحكاً من قول النملة:

ولم يَسمعْ جنودُ سليمانَ كلامَ النملة لأمتها، لكن سليمانَ عليه السلام سمعَ كلامَها، وفهمَ مرادَها، وتأثَّرَ بنطقِها، لأنَّ اللَّهَ علَّمه منطقَ الطيورِ والحيوانات والحشرات.

ولما سمعَ ذلك: «تبسم ضاحكاً من قولها».

قالَ السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ» عن التبسُّمِ والضحك: «البَسْمُ هو ابتداءُ الضحك، والبدءُ فيه. وقيل: هو الضَحكُ من غيرِ قهقهة»[١].

ووردَ في المعجمِ الوسيطِ عن التبسم: «بَسَمَ: انفرجَتْ شفتاهُ عن ثناياه، ضاحِكاً بدونِ صوت. وهو أَخَفُّ الضحكِ وأحسنُه...»[٢].

ووردَ فيه عن الضحكِ قولُه: «ضحك: انفرجَتْ شفتاه، وبدتْ أَسنانُه..»[٣].

وقال السمين عن الضحاك: «الضحكُ أصْلُه: انبساطُ الوجه، وتكشُّرُ الأسنان، لسرورِ النفسِ وانشراحِها...»[٤].

ونسبَ القرآنُ إِلى سليمان عليه السلام كُلًّا من التبسم والضحك من قول النملة، إِعجاباً منه بما قالت: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

لقد كان تأثُّره بكلامِها على مرحلتين:

---

(١) عمدة الحفاظ ١:٢١٨.

(٢) المعجم الوسيط: ٥٧.

(٣) المرجع السابق: ٥٣٤.

(٤) عمدة الحفاظ ٢:٤٢٨.

الأولى: مرحلةُ التبسُّم: حيثُ انفرجتْ شَفتاه متأثِّراً مستحسناً، وكان هذا بدونِ صوت.

الثانية: مرحلةُ الضحك: حيث زادَ فرحُه وسرورُه وانبساطُه وانشراحُه، فانتقلَ من مرحلةِ التبسم إلى مرحلةِ الضحك.

وكان ضحكُه مع هيبتِه ووقارِه عليه السلام، فلم يصلْ ضحكُه حدَّ القهقهة، ولم يُخرجْه عن وَقاره.

قال السمين: «وكانَ ضحكُ سليمان عليه السلام فَرَحاً بفضلِ الله، لِما ترتَّبَ على إنعامِ الله عليه من منافعِ الدنيا والآخرة، لأنها معجزةٌ يؤمنُ بها كلُّ مَنْ عرفَها، ولم يكنْ ضحكُه أشراً وبَطراً وسَفهاً كضحكِ بعضِ اللاهين..»[1].

وقالَ الإمامُ الزمخشري في «الكشاف» عن معنى الآية: «تبسَّمَ شارعاً في الضحك، وآخذاً فيه. يعني أنه قد تجاوَزَ حدَّ التبسُّم إلى حدِّ الضحك.

والذي حملَه على الضحكِ من قولِها أمران:

إعجابُه بقولها، لأنه دلَّ على ظهورِ رحمتِه وشفقتِه هو وجنودُه، وذلك لما قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، تعني أنهم لو شَعروا بالنملِ لما حطَّموها.

ثم سرورُه بما آتاهُ اللّٰهُ من نعمةِ فهمِ منطقِ الطير، حيث سمعَ كلامَها وفهمَ مرادَها[2].

ولما تبسَّمَ ضاحكاً من قولِ النملة معجَباً مستحسِناً له توجَّهَ إلى اللّٰهِ بالحمدِ والشكرِ والتضرع والدعاء، وقال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ

---

(١) المرجع السابق ١:٢١٨.

(٢) الكشاف للزمخشري ٣:٣٥٦ ـ ٣٥٧ بتصرف.

نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

معنى قول سليمان «ربي أوزعني» والتناسق مع وزع الجيش:

طلبَ سليمانُ عليه السلام من اللّهِ أنْ «يوزِعَه» ليشكرَه على نعمِه التي أَنعمَ بها عليه وعلى والديه.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ..﴾:

«الوزوع: الولوعُ بالشيء. يقالُ: أَوْزَعَ اللّهُ فلاناً: إذا أَلْهمهُ الشكر. وقيل: هو من أُوزِعَ بالشيء: إذا أُولعَ به.

وقيل: معنى ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾: أَلْهِمني.

وتحقيقُه: أَوْلِعْني بذلك. واجعلني بحيثُ أَزَعُ نفسي عن الكفران...».

والخلاصةُ أنَّ معنى ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾: أَلهِمْني شكرَ نعمتِك، واجمعْني على شكرِ نعمتك، وأَوْلِعْني بشكرِ نعمتك، واصرفْني إِلى شكرِ نعمتك، واحبسْني على شكرِ نعمتك، وامنعْني عن كلِّ ما يؤخرُني عن شكرِ نعمتك، وكُفَّني عن الاشتغالِ بأيِّ شيء يُلهيني عن شكرِ نعمتِك، ووجِّهْني إِلى طريقٍ واحدٍ وهو شكرُ نعمتك!!!.

إنَّ سليمانَ عليه السلام يطلبُ من اللّهِ أنْ يجعلَه محبوساً على طاعته، مجموعاً في كلِّ نواحي كيانه عليها، مولَعاً في كلِّ أوقاته بها، فيكونَ مع الله ذاكراً حامداً شاكراً، في كلِّ لحظاته، وبكلِّ إمكاناته وطاقاته.

وهناك ترابطٌ واتصالٌ بين وَزع وتنظيم جيش سليمان: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾. وبينَ طلبِه أنْ يوزِعَهُ اللّهُ ليشكره: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ..﴾.

فأفرادُ الجيش المؤمن المجاهد «يُوزَعون» بتنظيمٍ وضبطٍ وترتيب، موجَّهون لهدفٍ واحد، وهو الجهادُ في سبيل الله.

وجميعُ جوانبِ الكيانِ في شخصيةِ سليمان عليه السلام، موزَعَةٌ منظمةٌ منضبطة، موجَّهةٌ لهدفٍ واحد، وهو شكرُ الله على نعمه.

فالجيشُ موزَعٌ للجهاد، وقائدُ الجيش وإمامُه سليمان عليه السلام موزَعٌ لشكرِ الله!!

وبهذا تناسقَ الجنودُ مع القائد، وتكاملَتْ جهودُ الجميع، واتجهتْ لهدفٍ واحد، وهو حمدُ الله وشكرُه وطاعتُه!!

نظرة في دعاء سليمان عليه السلام:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ..﴾ جملةُ «أنْ أشكر» في محلِّ نصبِ مفعولٍ به ثانٍ لفعل «أوزعني». لأنَّ المفعولَ الأول هو ياءُ المتكلم في «أوزعني». والتقدير: أَلهِمْني شكْرَ نعمتِك.

ومن مظاهرِ حمدِ سليمان وشكرِه لله اعترافُه بنعمِ اللّهِ عليه وعلى والديه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ..﴾.

والنعمةُ مطلقةٌ غيرُ مقيدة، وهي منصرفةٌ إلى أعظمِ نعمةٍ عليه وعلى أَبيه وأمه، وهي نعمةُ الإيمانِ والطاعةِ والذكر والشكر.

وبعدما طلبَ من اللّهِ أنْ يجمعَه على شكره، طلبَ منه أنْ يجمعَه على عملِ الصالحِ المرضيِّ المقبولِ عند الله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

فجملة: «أن أعمل صالحاً» معطوفةٌ على جملةِ «أن أشكر نعمتك».

وجملة: «ترضاه» في محلِّ نصبِ صفةٍ لكلمة «صالحاً». أي: صالحاً مرضياً.

والتقدير: ربِّ أَوزِعْني شكرَ نعمتك، وأوزِعْني عملَ الصالحِ المرضيِّ عندك.

وعطفَ العملَ الصالحَ على الشكر، من بابِ عطفِ العملِ على القول، فشكْرُه لله يكونُ بلسانه، وعملُه الصالحُ المرضيُّ عند الله، يكونُ بجوارحِه، وبهذا تجتمعُ الناحيتان القولية والعملية فيه على هدفٍ واحد، وهو التوجُّهُ إلى الله، ويوزَعُ ويولَعُ ويُحبَسُ على تحقيقِهما وإيجادِهما: الشكرِ اللساني والعملِ المادي.

ودعوتُه الثالثة هي: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: ادمجْني في عبادِك الصالحين، واثبتْ اسمي مع أسمائِهم، وأَدخلني في جملتهم.

ومرادُه بعبادِ اللّهِ الصالحين الأحياءُ الذين يَعيشون معه، ويتحرَّكون حولَه، والأَمواتُ الذين عاشوا قبلَه، كآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وداود، عليهم الصلاة والسلام.

إِنه يريدُ أنْ يمنَّ اللّهُ عليه بأنْ يعيشَ مع عباده الصالحين الأحياء، ليحافَظَ على صلاحِه وذكرِه وشكرِه لله، وإذا ماتَ أنْ يُثبتَ اسمَه مع عبادِه الأموات، ليُذكَرَ معهم، ويكونَ تاريخُه تاريخَهم.

وفي الآخرةِ يريدُ أنْ يُدخلَه اللّهُ الجنةَ مع عباده الصالحين، ليكون فيهم وبينهم ومعهم، منعَّماً بالنعيم.

وبذلك يجمعُ خيري الدنيا والآخرة، ويكونُ دائماً مع الصالحين.

ويُعطينا هذا الدعاءُ الخاشعُ المنيبُ من سليمان عليه السلام درساً عظيماً، وعبرةً بالغة.

فاللّهُ آتاه ما لم يُؤتِ أَحداً من العالمين، وجمعَ له في جيشه فِرَقاً من الإنسِ والجنِّ والطير، وسخَّرَ له الريح، وعلَّمه منطقَ الطير، وأَسالَ

له عينَ النحاس، وهيَّأ له مختلفَ الصناعات الحديدية والنحاسية، ولا يوجَدُ ملكٌ أو حاكمٌ في الدنيا أُوتي كما أُوتي.

ومع ذلك لم يُغرِه هذا الملكُ والسلطان، ولم يَقُدْه إلى التكبرِ والبطر، ولا إلى الفجورِ والاستعلاء، ولا إلى الظلمِ والاستبداد، كما يفعلُ بعضُ الحكام الذين يمنحهم اللّهُ بعضَ مظاهرِ الملك والسلطان والتمكين.

لقد ازدادَ سليمانُ عليه السلام تواضُعاً لله، وذكْراً وشكْراً وحمداً لله، ورحمةً بعبادِ الله، وإقبالاً على الله، وإيثاراً لما عندَ الله، وطلباً لجنةِ الله. وجعلَ هدفَه هو: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

[٧]

قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ

بعدما سمعَ سليمانُ عليه السلام كلامَ النملة، وتبسَّمَ ضاحكاً من قولِها، ودعا اللّهَ وذكرَه وشكرَه، تابعَ الجيشُ سيرَه في وادي النمل، بفرقِهِ الكبيرةِ من الجنِّ والإنسِ والطير.

وكان سليمانُ عليه السلام مشرِفاً على هذا الجيش الكثيفِ إشرافاً مباشراً، يتفقدُ الجنود، ويراقبُ أداءَهم، وهذا من مظاهرِ قوتِه وحزمِه وحسنِ إدارتِه، وهي من لوازمِ كونه خليفةً ملكاً عليه الصلاة والسلام.

حزم سليمان وعدله في تهديده للهدهد:

قامَ سليمانُ عليه السلام بتفقُّدِ الجنودِ من الجن والإنس والطير، ولما جاء دورُ الطيرِ اكتشفَ غيابَ الهدهد!

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢١].

والهدهدُ طيرٌ من الطيورِ معروف. ويبدو أَنه كان له مهمةٌ وشأنٌ في جيشِ سليمان عليه السلام، لا نحدِّدُها لعدمِ وجودِ نصوصٍ نعتمدُ عليها في ذلك.

ولما لم يَرَ سليمانُ عليه السلام الهدهدَ في صفِّ الطير قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾: لماذا لا أَرى الهدهدَ في موقعِه؟

﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾؟ حرفُ «أمْ» هنا بمعنى «بل»، وتسمّى «أم المنقطعة»، وتدلُّ على إِلغاءِ الكلامِ السابق، والانتقالِ إِلى كلامٍ جديد. والتقدير: بل كانَ من الغائبين.

والمعنى: عندما لم يجد الهدهدَ في مكانِه قال: لماذا لا أَرى الهدهد؟ ثم عرفَ أَنه غابَ بدونِ إذنٍ منه، فألغى سؤالَه، وقررَ أَنه غائب، فقال: إِنه من الغائبين.

لقد غابَ الهدهدُ عن الجيش بدونِ إذنٍ ولا إِجازةٍ من سليمان عليه السلام. وهذا معناه أنه ما كان جنديٌّ من الجنودِ يغادرُ موقعَه ويَغيبُ إلاّ بعدَ أنْ يحصلَ على إذنٍ من سليمان عليه السلام، سواء كان هذا الجنديُّ من الجنِّ أم من الإنسِ أم من الطير!

وهذا دليلٌ آخرَ على حزمِ سليمان عليه السلام، وقوةِ إِدارتِه في حكمه، بحيث كان يضبطُ الأُمورَ ضبطاً دقيقاً، ولا يسمحُ بفوضى أَو تَسيُّبٍ في جنوده.

وتجلّى حزمُ سليمانَ وشدتُه في قولِه: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ..﴾ إنه لا يتساهلُ حتى مع الهدهد، فكيف سيتساهلُ مع الإنس؟

إِمّا أنْ يعذبَه عذاباً شديداً، مع بقائِه حياً، وإِمّا أنْ يَذبحَه ويقتلَه.

وسليمانُ عليه السلام عادلٌ وليس ظالماً للهدهد، سواءٌ عَذَّبه أمْ

ذبحَه، لأنَّ الحزمَ والضبطَ في الإدارةِ والحكمِ يستدعي الشدةَ في الحكم.

ورغمَ أنَّ تهديدَ سليمانَ عليه السلام كان شديداً، إلاّ أنه لم يغلق البابَ أمامَ عذرٍ مقبولٍ مقنع يقدمُه الهدهدُ عند عودته، فقد يكون لغيابه سببٌ مشروع، ولهذا قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

والمرادُ بالسلطانِ المبين العذرُ البينُ الواضحُ المقبول.

واستدراكُ سليمانَ عليه السلام يدلُّ على أنَّ من لوازمِ الحزمِ والضبطِ العدل، وإعطاءَ الفرصة للمتهم ليبينَ حجتَه، والدفاعَ عن نفسه، وعدمَ معاجلته بالعقوبة، فلا يعاقَبُ المتهمُ إلاّ بعد ثبوتِ إدانته، أمّا إذا قدَّمَ حجةً وعذراً فلا بدَّ أنْ يُقبلَ منه.

ولا نسَ ظهورَ الحزمِ والضبطِ والشدةِ في تعبيرِ القرآن عن الحادثة، حيث جاءتْ صياغةُ الأفعالِ الثلاثة هكذا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ حيث وردتْ لامُ القسم ونونُ التوكيدِ الثقيلة في كلِّ فعلٍ منها.

الهدهد يقدم خبر سبأ بعزة:

وبعد فترةِ غيابٍ عادَ الهدهدُ إلى الجيش، ودخلَ على سليمان عليه السلام مباشرة، ليقدِّمَ له السلطانَ المبين، والعذرَ المقبول عن غيابه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢].

معنى قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: مكث غائباً زماناً قصيراً، لأنه ذهبَ إلى مكانٍ غير بعيد.

ولما دخلَ على سليمانَ عليه السلام خاطبه بجرأةٍ ووضوح، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

تأمَّلْ شجاعةَ وجرأةَ هذا الهدهدِ العجيب: لقد غابَ عن الجيش

بدونِ إذن، وهو يعلمُ حزمَ وشدةَ سليمان عليه السلام، ولعلَّه سمعَ بتهديدِ سليمان الشديدِ له، ومع هذا دخلَ عليه بعزة، وخاطبه بجرأة، ولم يضعفْ أو يذلّ أو يجبن.

فعلَ ذلك لأنه يعلمُ عدلَ سليمان وحكمتَه، وأنه لا يُظلَمُ عنده، كما أنه يعلمُ أنَّ غيابَه كان بمهمةٍ علميةٍ دعوية، تمنحهُ عذراً مقبولاً.

قال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾: علمتُ أنا ما لم تعلَمْه أنت، ووقفْتُ على ما لم تقفْ أنتَ عليه، وقدَّمْتُ لك معلوماتٍ مهمةً عن سبأ.

وشاءتْ حكمةُ اللّهِ الحكيم سبحانه أنْ يقدِّمَ الهدهدُ خبرَ سبأ لسليمان عليه السلام، مع أن سليمانَ نبيٌّ رسول، يُعَلِّمه اللّهُ ما يشاء، ومع أنه وهبهُ ملكاً خاصاً، وسخَّر له الإنسَ والجن والطير، ومع ذلك فهناك أشياء لم يعرفْها، وأماكنَ لم يُحِطْ علماً بها.

شاءَ اللّهُ الحكيمُ ذلك، ليخبرَنا أنه مهما تقدَّمَ علمُ الإنسان، فسيبقى جاهلاً بالكثير، وأنه حتى أنبياءُ الله ورسلُه عليهم الصلاة والسلام لم يعلموا كلَّ شيء، وهذا مظهرٌ من مظاهرِ بشريتهم، القائمةِ على الضعف والعجز.

وشاءَ اللّهُ الحكيمُ أن يأتيَ علمُ سليمان عليه السلام بسبأ على يدِ طير، وليس على يدِ إنسانٍ عاقلٍ عالمٍ باحث!

وحتى يقدِّمَ الهدهدُ الدليلَ على غيابه وإحضارِه أخباراً جديدة، قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

أي: عندي نبأٌ يقين، وخبرٌ جازم، وعلمٌ قاطع، يتعلق بسبأ، أرضاً وشعباً وملكةً وعرشاً.

وقد فصَّلَ الهدهدُ نبأَهُ اليقينيُّ المتعلقَ بسبأ بعدَ ذلك. ودلَّ هذا على حرصِ الهدهد على صحةِ أنبائه، والتوثقِ والتأكدِ من أخباره، فقد

ذهبَ وبحثَ واستكشف، وجمعَ المعلومات الصادقة، وتأكّدَ منها، ثم قدّمَها لسليمان عليه السلام.

و«سبأ» اسمُ مكانٍ جنوبَ غربِ الجزيرة العربية، وهو اليمنُ حالياً، سُميَ باسم «سَبَأ بنِ يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان»[1]، وهو الذي تفرَّعَتْ عنه قبيلةُ سبأ، التي كانت تقيم في تلك المنطقة.

لقد وصلَ الهدهدُ إلى سبأ، وجاءَ منها بنبأ يقين!

رحلة الهدهد المعجزة من فلسطين إلى اليمن:

من أين جاءَ الهدهدُ إلى سبأ؟ جاءَ من مقرّ سليمانَ عليه السلام، وكان مقرُّ سليمانَ في الأرض المقدسة، وكانت عاصمتُه بيتَ المقدس.

ما معنى هذا؟

سافرَ الهدهدُ من بلادِ الشامِ إلى بلاد اليمن! وانتقلَ من بيت المقدس عاصمةِ سليمان عليه السلام، إلى «مأرب» عاصمةِ سبأ في اليمن!

إنَّ المسافةَ بين فلسطين واليمن تقاربُ الألفَيْ كيلومتر! وهي مسافةٌ بعيدة! وتفصلُ بينهما بقاعٌ كثيرة: نجران وعسير والحجاز ومدين! ومع ذلك سافرَ الهدهدُ وحيداً من فلسطين إلى اليمن!

واللطيفُ في التعبير القرآني أنه قالَ عن غيبةِ الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وهذه العبارةُ القرآنيةُ تشيرُ إلى تقصيرِ فترةِ غيابِ الهدهد عن جيش سليمان زمنياً، وتقصيرِ المسافةِ بين فلسطين واليمن.

كيف قال: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مع أنَّ المسافةَ تقاربُ الألفي كيلومتر؟ وكيف يقللُ زمانَ غيابِه مع أنه في الوضعِ العادي يحتاجُ إلى شهور لقطعها؟

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣:٣٥٩.

إن هذه الجملةَ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تدلُّ على معجزةٍ ربانية في قطعِ الهدهدِ للمسافة بين فلسطين واليمن. فلم يقطعْها بالطيرانِ العادي والرحلة العادية، لأن هذا يحتاجُ منه إلى شهور.

إن اللّهَ هو الذي جعلَهُ يقطعُها، وهو الذي طوى له المكانَ والطريق، وجعله يجتازها في فترةٍ زمنية قصيرة، ويعودُ في فترةٍ زمنية يسيرة، ولهذا صارت اليمنُ ـ بهذه المعجزةِ الربانية ـ قريبةً من فلسطين، وليستْ بعيدة، بينما هي بعيدةٌ في الحسابِ البشري للمسافر العادي.

ولا ننسىٰ أنَّ اللّهَ سخَّرَ الريحَ لسليمانَ عليه السلام، غدوُّها شهر، ورواحُها شهر، أي أنها كانتْ تقطعُ مسيرةَ شهريْن في يوم واحد، وقد يكونُ لهذه الريحِ العاصفةِ السريعة دورٌ في حملِ الهدهدِ إلى اليمن، ثم إعادتِه إلى فلسطين!!

وإذا كانَ ذلك كذلك، فلعلَّ غيبةَ الهدهد لم تستمر أكثرَ من يومين، يوم للذهاب، ويوم للإياب، ويكون في هذيْن اليومين قد قطعَ مسافةً طويلةً، يقطعها غيره في أربعة أشهر!!

المهمُّ أنَّ الأمرَ معجزةٌ خارقةٌ من فعلِ اللّهِ سبحانه وتعالى.

تقرير الهدهد عن مملكة سبأ:

وبعدما أَخبرَ الهدهدُ سليمانَ عليه السلام عن سبب غيابه، قدَّمَ له تقريراً عن «سبأ» أرضاً وشعباً وملكةً وعرشاً وديانة.

وقد أخبرَنا اللّهُ عن تقريرِ الهدهدِ بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦].

وتقريرُ الهدهد منظَّمٌ منسَّقٌ متكامل، عرضَ فيه خلاصةَ واقعِ سبأ، ثم عقَّبَ عليه تعقيباً، يرفضُ فيه ما هم عليه من ضلال.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾: كان نظامُ دولةِ سبأ ملكياً، وفي ذلك الوقت كانتْ ملكتُهم امرأة، وشاهدَ الهدهدُ تلك الملكةَ المرأة.

وكلمة «امرأة» في الآية نكرة، وهذا التنكيرُ للإبهام، حيث لم يَذكر القرآنُ اسمَ هذه الملكة، كما لم يَرِدْ اسمُها في حديثٍ صحيحٍ عن رسول الله ﷺ.

وقد ذهبَ المؤرخون والإِخباريّون إِلى تحديدِ اسم الملكة، وتحديدِ نَسَبها، لكننا نتوقف في اعتمادِ كلِّ ذلك، ونُؤْثِرُ أنْ نُبقيَ ما أَبهمه القرآنُ على ما هو عليه.

وكانت ملكةُ سبأ حكيمةً عاقلة، حصيفةً هادئة، كما سنرى من أحداث القصة.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ..﴾: أَمعنَ الهدهدُ الباحثُ نظره في أَحوالِ الملكة، وفي مظاهرِ ملكها، فوجدَ عندَها الكثير، ولهذا قال: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: أُوتيتْ من كلِّ شيءٍ من متاع الدنيا، مما يحتاجُ إِليه الملك في ملكه، ويؤدي إِلى تقوية الملك ومتانته.

إِنَّ قولَه: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يدلُّ على أنَّ مملكةَ سبأ كانت قويةً غنيةً مزدهرة في ذلك الوقت، تمتعُ بالكثيرِ من مظاهرِ الخير والرفاه، فها هي ملكتُهم أُوتيتْ من كل شيء، من أنواعِ المتاع الدنيوي.

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾: من مظاهرِ اهتمامِ الهدهد بالبحث، ودقةِ نظره، ملاحظتُه عرشَ ملكة سبأ، ووقوفُه على عظمتِه وضخامته.

وقد أَخبرَ سليمانَ عن العرش بقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. ويكفي تصوُّرُ مدى عظمةِ العرش من خلالِ التنوينِ في الكلمتين: ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. ولسنا بحاجةٍ إلى افتراضِ مظاهرَ مادية موضوعةٍ لعظمةِ هذا العرش، والكلامِ عن مقاساته طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وعن المادةِ المصنوع منها، وعنِ الذهبِ والجواهر واللآلئ التي زُينَ بها، لسنا بحاجةٍ إلى هذه التفصيلات المفترضة، فنبقى مع قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

وبعدما لخَّص الهدهدُ واقعَ المملكةِ بحكمة ـ مملكة، تحكمها امرأة، والمملكةُ قويةٌ غنية، وملكتُها لها عرشٌ عظيم ـ انتقلَ للحديثِ عن دينِ سكانها، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

والضميرُ يعودُ على الملكة، أي: وجدتُ ملكةَ سبأ وقومَها يسجدون للشمس من دون الله، فالقومُ كانوا كفاراً مشركين بالله، يتخذون الشمسَ إلهاً، يؤلِّهونها ويعبدونها ويَسجدون لها، ولا يؤلِّهون اللّهَ ولا يسجدون له.

والتفاتُ الطائرِ الهدهدِ إلى معرفةِ دين القوم، دليلٌ آخرُ على حكمتِه ولباقته، وعلى اهتمامِه بالدين الحق وبغضِه للباطل.

تعقيب الهدهد العقيدي على كفر سبأ:

ولم يكن الهدهدُ مجردَ جامعِ معلوماتٍ دقيقة، ومقدِّمِ تقاريرَ صحيحة ـ رغمَ أهميةِ ذلك ـ إلاّ أنه كان صاحبَ فكرٍ ورأي، وموقفٍ وقرار، ودعوةٍ وقضية، مع أَنه هدهدٌ طائر!!

ولذلكَ شفعَ تقريرَه بتعليقِه وتعقيبه على الحادثة، وسجَّلَ تفاعُلَه وتأثُّرَه بما رأى، وغيرتَه على الحقِّ الذي تركوه، وإنكارَه للباطل الذي اتبعوه، فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

إنَّ الشيطانَ هو الذي زيَّنَ لقومِ سبأ الكفارِ أعمالَهم السيئة،

وأَراهم إياها حسنة، فتفاعلوا بها، وصَدَّهم بذلك عن سبيلِ الحق، وساروا في طريقِ الباطل، والنتيجةُ أَنهم لا يهتدون، لأنهم لا يُريدون أنْ يهتدوا، لاختيارِهم الكفرَ والضلال، وسنةُ الله أنَّ مَن اختارَ الضلال فإنَّ اللّهَ لا يهديه.

وتابعَ الهدهدُ تعقيبَه العقيديَّ على الحادثة فبيَّنَ أنَّ الأصلَ لقومِ سبأ أنْ يسجدوا لله، لا للشمس: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

اللّهُ وحده المعبود، ويَنْبَغي أن يكون له وحده السجود، لأنه الخالقُ الرازقُ العالم العظيم، وغيرُه ليس كذلك، فكيفَ يكونُ إلهاً معبوداً؟

اللّهُ هو ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والخَبْءُ هو: المخبوءُ في السموات وفي الأرض.

قالَ ابنُ عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يَعلمُ كلَّ خبيئةٍ في السموات والأرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد: خَبْءُ السموات والأرض: ما جعلَ فيهما من أرزاق؛ المطرُ من السماء، والنباتُ من الأرض[١].

وتقديمه الأدلة على وحدانية الله:

ومن التناسقِ في التعبير القرآني أنه في معرضِ الاستدلالِ على وحدانية الله في هذه الآية، ذكرَ من كلامِ الهدهد ما يتفقُ مع اهتمامِه وفهمه وحياتِه.

فالهدهدُ عرفَ اللّهَ من خلالِ معرفتِه علمَ الله بالخبءِ في السموات والأرض، وإخراجِ اللّهِ للمخبوءِ في السموات والأرض. وهذا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:٣٤٩.

يتفقُ مع عملِ الهدهدِ وسعيه في الرزق، فالهدهدُ يقومُ بالبحث عن المخبوء في الأرض من الحبوب وغيرها، ويفتشُ بمنقاره عن ذلك المخبوء المدفون، ثم يخرجُه ويأكلُه.

وبعدما أَبرزَ التعبيرُ القرآني اهتمامَ الهدهد بمخبوء الأرض، انتقلَ للحديثِ عن دليلِ الوحدانية في حياةِ البشر: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. فاللّهُ وحده يعلمُ ما يُخفيه الناس وما يُعلنونه، والمعبودون من دونه لا يعلمون ذلك، فكيفَ يكونون آلهة؟

واجتماعُ الدليلين: إخراجُ اللّهِ الخبء، وعلمُه بما يخفيه الناسُ ويعلنونه، يدلُّ على أنه وحدَه الإلهُ المعبود: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾.

ولما ذكرَ الهدهدُ عرشَ ملكة سبأ العظيم، ناسبَ أنْ يذكُرَ عرشَ اللّهِ العظيم: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فأينَ عرشُ ملكةِ سبأ الذي تَحويه غرفة صغيرة، من عرشِ الله الذي لا يعلمُ صفاتِه ومقاساتِه إلاّ الله؟ وأينَ عظمةُ عرشها وهو صغيرٌ من عظمةِ عرشِ الله؟.

ملكةُ سبأ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هو منحةٌ من الله لها، وهو صغيرٌ محدودٌ محصور، وستُسلبُ هي هذا العرش عندما يزولُ ملكُها عنها، وسوفَ يبيدُ هذا العرش وينتهي ويتلاشى!

أمّا عرشُ الله العظيم، فهو عظيمٌ فعلاً، يملكُه اللّهُ مالك الملك، وهو قائم مستمر في الدنيا والآخرة.

ونرى في تعقيبِ الهدهدِ على الحادثة حكمتَه وعلمَه، فعنده علمٌ إيمانيٌّ راسخ، إنه يعلمُ الحقَّ والباطل، وسبيلَ الهدى والضلال، ومَن يعبدُ الله ويسجدُ له، ومَنْ يعبدُ غيرَه ويسجدُ له، والإيمانَ والكفر، وإبليسَ ونجاحَه في صدٍّ وإغواء أَتْباعِه، ويُحسنُ عرضَ الأدلةِ الربانية لإثبات الوحدانية، ونفي الشرك.

حكمة سليمان في التأكد من معلومات الهدهد:

سمعَ سليمانُ عليه السلام من الهدهد أَخباراً عجيبة عن بلادٍ جديدة لم يكنْ له علمٌ بها، وعن نظامِ الحكم فيها، وعن دينِ أهلها.

وتعاملَ سليمانُ عليه السلام مع أخبار الهدهد بحكمتِه المعروفة، فلم يسارعْ إلى تصديقِه وقَبول أَخبارِه، ولا إلى تكذيبه ورفضِ أَخباره. قال تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: ٢٧].

أي: سنختبرُ كلامَك لنرى أَصِدْقٌ هو أَمْ كذب، وسنتأكَّدُ من ذلك.

ويدلُّ هذا الموقفُ من سليمان عليه السلام على الموضوعيةِ والمنهجية، التي يجبُ أنْ ينظرَ بها الإنسانُ إلى الأَخبار الجديدة التي يَسمعها، فالمسارعةُ بقبولها سذاجة، والمسارعةُ بتكذيبها جهلٌ وعناد. فلا بدَّ للإنسانِ أَنْ يتمهَّل، وأنْ يتثبَّتَ ويتبينَ من تلك الأخبار، وأنْ يفحصَها ويتأكَّدَ منها، وبعد ذلك يأخُذُها إنْ ظهرَ له صدقُها، أو يرفضُها إنْ ظهرَ له كذبها، ولا يُلامُ على موقفه.

تثبَّتَ سليمانُ عليه السلام من كلامِ الهدهد فظهرَ له صدقُه.

وبعدَ ذلك كانت الخطوةُ التالية، وهي الخطوةُ التي تتفقُ مع إيمانِ سليمان عليه السلام ودعوتِه إلى الله.

إنَّ سليمانَ عليه السلام يكتشفُ بلاداً جديدة، بينَه وبينها حوالي ألفيْ كيلومتر، بلادٌ غنيةٌ قوية، لكنَّ أهلَها كفار، يعبدونَ الشمسَ من دون الله.

مهمة الهدهد الدعوية في سبأ:

فما موقفُ النبيِّ الرسولِ الداعيةِ عليه الصلاة والسلام من ذلك؟

موقفُه هو تبليغُهم الدعوة، بحيثُ يدعوهم إلى الإسلام، وينكرُ عليهم الكفر، ولا بدَّ أنْ يكونَ للهدهد دورٌ في ذلك.

كتبَ سليمانُ عليه السلام كتاباً إلى قوم سبأ، ضمنَه دعوتَهم للدخولِ في الإسلام، وطلبَ من الهدهد أنْ يحملَه إليهم. قال تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٨].

وتكليفُ سليمانَ عليه السلام للهدهد واضح، والخطواتُ المطلوبةُ منه بيِّنة. فقد أمرَه بأربعةِ أوامر.

الأول: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾: أَمره بحملِ كتابِه الموجَّهِ إلى سبأ، والتوجُّهِ من فلسطين إلى اليمن.

وحمَلَ الهدهدُ الكتاب، وسارَ إلى اليمن، وقطعَ المسافةَ الطويلة بوقتٍ قصير، وكان هذا بأمرٍ من الله، آيةً من آياته، ومعجزةً من معجزاته.

الثاني: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: عندما يصلُ إلى عاصمة سبأ، عليه أنْ يتوجَّهَ إلى قصر الملكة، وأنْ يلقيَ الكتابَ إليها.

الفاءُ في «فَأَلْقِهْ» حرفُ عطف، عطفتْ هذا الفعلَ على الفعلِ السابق «اذهب».

و«أَلْقِ» فعلُ أمر، مبنيٌّ على حذفِ حرف العلة، لأنه معتلٌّ بالألف «ألقى».

والفاعلُ: ضمير مستتر تقديره أنت.

والهاء الساكنة: تعودُ على الكتاب، ضميرٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به.

الثالث: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أَمَرَه بعدَ أنْ يلقيَ الكتاب، أنْ يبتعدَ عنهم قليلاً، بحيث يرى أثرَ الكتابِ على الملكة ومستشاريها.

و«تَوَلَّ» فعلُ أمر مبنيٌّ على حذفِ حرف العلة، ماضيه «تولّى».

الرابع: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أَمره أنْ يُحسنَ مراقبةَ الأمر،

وتسلسلَ الأحداث، وأنْ يعرفَ أثرَ الكتابِ فيهم، وأنْ يقفَ على جوابهم وردِّهم عليه.

وهذه الأوامرُ الأربعةُ للهدهد توحي بالمهمةِ الدعويةِ الموكلة إليه، إنَّ الهدهدَ مأمورٌ بالتصرف في هذه المهمة بمنتهى الموضوعية، وكأنَّه إنسانٌ عاقلٌ واعٍ حكيم، وليس طائراً من الطيور.

وهذا يشيرُ إلى أنَّ الأمرَ معجزةٌ من الله سبحانه، وأَداءُ الهدهدِ لهذه المهمة، وتنفيذُه لهذه الأوامرِ الأربعة معجزةٌ من الله سبحانه.

نظرة في نص كتاب سليمان إلى ملكة سبأ:

حملَ الهدهدُ كتابَ سليمانَ عليه السلام، ووصلَ قصرَ ملكةِ سبأ، وأَلقى الكتابَ إليها، وصارَ يراقبُ التطورات.

رأت الملكةُ الكتاب، وفتحتْه، وقرأتْه، إنه موجَّهٌ من سليمان عليه السلام إليها وإلى قومِها، يدعوهم فيه إلى التخلي عن الكفر، والدخولِ في الإسلام.

ونصُّ الكتاب هو:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا الكتابُ مختصرٌ اختصاراً مفيداً، وهو أَشبهُ ما يكون ببرقيةٍ موجزة، حملَها الهدهدُ إلى قومِ سبأ.

وقد بدأَ سليمانُ كتابَه بالبسملة، وهذا يدلُّ على أنَّ البسملةَ كانت معروفةً في عهدِ سليمان النبيِّ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وهي معروفةٌ عندهم بلغتهم، وكتبَها سليمانُ عليه السلام بلغته.

ولا غرابةَ في هذا، فإنَّ «بسم الله الرحمن الرحيم» خلاصةُ الإيمانُ، والإيمان عند جميعِ الأَنبياء والمرسلين واحد، لا اختلافَ

بينهم فيه، ولهذا كانت خلاصةُ كلِّ رسالةٍ في البسملة. وليس هذا موضعَ تفصيلِ القول في هذا الموضوع.

ومن أجلِ هذا بدأ سليمانُ عليه السلام كتابَه بالبسملة.

و«أنْ» في «أن لا تعلو عليّ» هي «أن» التفسيرية، وما بعدَها تفسيرٌ للمطلوب، وبيانٌ لهدفِ سليمانَ من كتابه.

و«لا» حرفُ نهيٍ وجزم.

و«تَعْلوا» مضارعٌ مجزوم بحرف النهي، وعلامةُ جزمه حذفُ النون، لأنه من الأفعالِ الخمسة.

و«تعلوا» بمعنى: تتكَبَّروا. تقول: عَلا، يعلو: بمعنى: ارتفع وهو واردٌ في القرآن بمعنى التكبر، وهو «عُلُوٌّ» نفسي في نفسِ المتكبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤].

وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

يَنهىٰ سليمانُ عليه السلام قومَ سبأ عن التكبرِ عليه أو رفضِ دعوته.

ثم يأمرهم بالدخولِ في دينه، وهو الإسلام، وهذه الدعوةُ صريحةٌ في قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

واللطيفُ في دعوةِ سليمان عليه السلام لهم أَنه يَدعوهم إلى الإسلام.

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذه الدعوة، فقد يُشكلُ الأمرُ ويلتبسُ على بعضهم، لأنَّ سليمانَ عليه السلام إسرائيلي، يحكمُ بني إسرائيل بالتوراة والزبور، وقد عاشَ وماتَ قبلَ الإسلام الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، فكيفَ تصرحُ الآيةُ بأنه يدعوهم إلى الإسلام؟

إنَّ الإسلامَ هو دينُ كلِّ نبيٍّ من الأنبياء، وخلاصةُ دعوةِ كلِّ رسول، فكلُّ نبي جاءَ بالإسلام، الإسلام بمعناه العام.

ثلاثة معان للإسلام في القرآن:

إنَّ الإسلام له ثلاثةُ معانٍ في القرآن:

الأول: الإسلامُ بالمعنى العام، وهو دينُ كلِّ المخلوقاتِ الحية وغيرِ الحية، فكلُّ ما في الوجود «مسلم»، أي: مستسلمٌ خاضعٌ منقادٌ إلى الله.

وعلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

ومعنى ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: كلُّ مخلوقٍ في السموات والأرض أسلمَ واستسلمَ وخضعَ وانقادَ إلى الله.

الثاني: الإسلامُ بالمعنى التاريخي: وهو دينُ كلِّ نبيٍّ ورسول، فكلُّ نبي مسلم، وجاءَ بالإسلام، ودعا الناسَ إلى الإسلام، وأَتباعُه يسمون «مسلمين».

هو عنوانُ كلِّ دينٍ ورسالة لأنَّ هدفَ كلِّ رسول خضوعُ الناس لله، وخلاصةَ كلِّ دين هي استسلامُ الناس لله، وهذا هو روحُ الإسلام.

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

الثالث: الإسلامُ بمعناه الخاص: وهو دينُ الإسلامِ وشريعتُه،

الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، خاتمُ الأنبياء والمرسلين، والذي انتهت إليه رسالاتُ كلِّ الرسل، والذي نسخَ اللّهُ به الأديانَ السابقة، وطالبَ الناسَ جميعاً أن يعتنقوه، وأخبرَ أنه هو الدينُ الوحيدُ المقبولُ عند الله، وأنَّ مَنْ لم يعتنقْه فهو كافر.

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

بعدَ هذا التلخيصِ الموجز لمعنى «الإسلام» في السياقِ القرآني، نعرفُ أنَّ سليمانَ عليه السلام جاءَ بالإسلام ـ بمعناه التاريخي العام ـ وأنَّ دينَه هو الإسلام، وأنَّ دعوتَه هي دعوةٌ إلى الإسلام، وأنَّ هدفَه هو استسلامُ الناس وخضوعُهم وانقيادُهم لله.

ولهذا طلبَ في كتابِه الموجزِ إلى قومِ سبأ منهم الدخولَ في الإسلام، وقالَ لهم: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

واللطيفُ أنَّ سليمانَ عليه السلام جمعَ في كتابه بين النهيِ والأمر، حيثُ نَهاهم عن الاستكبار والاستعلاءِ والعناد: «لا تعلوا عليَّ». ثم أَمرهم بالدخولِ في الإسلام: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

ملكة سبأ تستشير الملأ من قومها:

قرأتْ ملكةُ سبأ كتابَ سليمانَ عليه السلام، وفهمتْ قصدَه منه. وهي تسمعُ باسم سليمان، وتعرفُ مَنْ هو، وتدركُ مظاهرَ قوته، المتمثلةِ في تسخيرِ الجنِّ والإنسِ والطيرِ له، وتقفُ على مظاهرِ تقدُّمِ دولتِه المادي.

وبهذا عرفَتْ أنها مُقْدِمَةٌ هي وقومُها على أَحداثٍ خطيرة لها ما بعدها، حيثُ قصدَها حاكمُ أَقوى دولةٍ في عهدها، فكيفَ تتصرف؟ وبماذا تجيبُ على دعوةِ سليمان؟ وبماذا تردُّ على كتابه؟

إنَّ الأمرَ أكبرُ وأخطرُ من أنْ تقضيَ فيه بنفسها، أو تحسمَه بمفردِها، ولا بدَّ من مشاركةِ وجوهِ القوم فيه، واستشارتِهم في الردِّ والجواب، والاتفاقِ معهم على التصرفِ المناسب.

لذلك دعتْ هؤلاء الملأَ المستشارين، وعرضت الأمرَ عليهم. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٢].

وصفت الملكةُ الكتابَ بأنه كريم، لأنه كتابٌ من ملكٍ معروف، موجَّهٌ إلى ملكةٍ معروفة، وهذا من لباقتِها وكياستِها.

ثم فصَّلَتْ قصةَ الكتاب، بأنه من سليمانَ النبيِّ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وأنه يدعوها وقومَها للدخولِ في الإسلام، وتلَتْ عليهم نص الكتاب.

وبعدَ ذلك طلبتْ منهم الرأيَ والمشورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾. أيْ: أَشيروا عليّ، وقَدِّموا لي التصرفَ المناسب في هذا الأمرِ المفاجئ، فماذا نتصرف؟ وماذا نفعل؟ وكيف يكونُ ردُّنا على كتابِ سليمان؟

وتابعتْ طلبَ الفتوى والمشورة بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾. أي: لا أَقومُ بتصرف، ولا أُصدرُ حكماً، ولا أَقطعُ أَمراً، ولا أَخطو خطوة، إلاّ بعدَ وضعِكم في الصورة، وإِطلاعِكم على القضية، وسماعِ آرائكم وفتاواكم، والاستفادةِ مما عندكم من تحليلاتٍ وخبرات.

فأَشيروا عليَّ المشورةَ المناسبةَ في هذه الحادثة.

إنَّ هذا الموقفَ من الملكة، وإِخبارَها ملأَ قومِها بتفاصيلِ حادثةِ

الكتاب، وطلبَها الرأيَ والمشورة منهم، وإعلانَ حرصِها على ذلك، يدلُّ على طبيعةِ نظامِ الحكم في سبأ، الذي كانت تمارسُه تلك الملكة.

لقد كان حكماً متكاملاً، يقومُ على مشاركةِ وجوهِ القوم وزعمائِهم للملكة في إدارةِ أمورِ البلاد، وكانت تحيطُ نفسَها بهؤلاء الملأ المتنفذين المستشارين، وتَعرضُ عليهم القضايا، وتَسْتَشِيرُهُم في المشكلات، وتحرصُ على سماعِ آرائهم، والاستفادةِ منها، واعتمادِ المناسبِ منها.

وهو أشبهُ ما يسمّى بنظامِ الحكم «الديمقراطي» في هذا العصر!!

وهذه مزيةٌ تسجَّلُ لنظامِ الحكمِ في سبأ في ذلك الزمان البعيد، باعتبارِ سبأ مملكةً عربيةً أُقيمتَ في بلَاد اليمن، ونشأ نظامُ حكمِها على مشاركة الملأ والوجوهِ للملكة في الحكم والقيادة.

مزيةٌ تسجَّلُ لهم رغمَ كفرهم بالله، ولهم سبق زمنيٌّ في هذا النوعِ من الحكم.

ملكة سبأ تعلن ميلها إلى المسالمة:

بعدما استشارت الملأَ ردُّوا الأمْرَ إليها. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٣].

لم يُشيروا عليها بشيء، وفوَّضوها باتخاذِ القرارِ المناسب، وافتخروا أَمامَها بقوتهم القتالية، وببأسِهم الشديدِ العسكري.

أيْ طمأنوها إلى قوتِهم وبأسهِم، فإذا ما أَرادتْ قتالَ سليمان فبإمكانِها أنْ تعتمدَ عليهم.

أما قرارُ الحرب أَو عدمُها فتركُوه لها، وفوَّضوها فيه: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. وما هم إلا منفذون لأمرها، مؤيدون لقرارها.

عندَ ذلك قالت ملكةُ سبأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

وقولُها هذا صادرٌ عن عدمِ رغبتها في الحربِ والقتال، وفتحِ

جبهةٍ مع سليمان عليه السلام، ويكشفُ عن ميلِها إلى المسالمةِ والمصالحة، وإنهاءِ المشكلة بالاتفاقِ والتفاوض.

وهي بقولها تريدُ تعميقَ قناعةِ الملأ بقرارِها، وهم مقتنعون به أَصلاً، سامعونَ مطيعون لَها، وقد أَوكلوا وفَوَّضوا الأمرَ إِليها، ولكنها تريدُ تعميقَ قناعتهم بما ستُقْدِمُ عليه.

إِنها تريدُ تجنيبَ بلادِها ويلاتِ الحرب، وتجنُّبَ المواجهةِ العسكرية مع سليمان عليه السلام، لماذا؟

ذكَّرَت الملأَ بطبيعةِ الحرب، فإذا حاربَتْ دولة، وهُزمتْ أَمامَ أعدائها، فإنَّ أولئك الأعداء سيحتلّون تلك الدولة، وعند ذلك يُفسدونَها ويخربونها، ويجعلونَ أعزةَ أهلِها أذلة.

ومعنى كلامِها هذا أَنها لا تريدُ أَنْ تحاربَ جيشَ سليمان عليه السلام، رغمَ أنَّ قومَها أولو قوة وأُولو بأسٍ شديد. لأَنها تخشى أَنْ تُهزمَ أمامَ سليمان، وإذا هُزمتْ فسوف تكونُ الكارثة، حيث سيدخلُ جيشُ سليمانَ بلادَها، وسيُفسدون ويُخربون ويُدمرون، وسَيَتحكمون في قوم سبأ، ويُحولونهم من أَعزةٍ إلى أذلة.

تقولُ هذا وهي تعرفُ مَنْ هو سليمان، وما هي قوتُه، وما هي فِرَقُ جيشِه، جيشِه الكبير المكوَّنِ من الجنِّ والإنس والطير. وكأَنها تريدُ أنْ تقولَ للملأ: لا طاقةَ لها بسليمان وجنوده، ولا قدرةَ لها على قتالهم، ولهذا ستختارُ خيارَ المسالمة والمصالحة والمفاوضة، لإِنهاءِ المشكلة.

وردَ في تفسيرِ الإمام ابن كثير عن الحوارِ بينها وبين الملأ ما يلي: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ واعتزّوا أَمامَها بعددِهم وقوتهم، ثم فَوَّضوا إِليها الأَمرَ بعد ذلك، فقالوا لها: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحنُ ليس لنا عاقة، ولا بِنا بأس، إِنْ شئتِ أَنْ

تَقْصديه وتُحاربيه فما لنا عاقةٌ عنه. وبعدَ هذا فالأمْرُ إليك، مُري فينا رأيَك، نمتثلُه ونطيعُه.

قال الحسنُ البصري رحمه الله: فَوَّضوا أَمرهم إلى علجة، تضطربُ ثَدْياها!!

فلما قالوا لها ما قالوا، كانتْ هي أَحزمَ رأياً منهم، وأعلمَ بسليمان، وأنه لا قِبَلَ لها بجنودِه وجيوشِه، وما سُخِّرَ له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدَتْ من قضيةِ الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً.

فقالت لهم: إني أخشى أَنْ نُحاربَه ونمتنعَ عليه، فيقصدَنا بجنوده، ويهلكَنا بمن معه، ويخلصَ إليّ وإليكم الهلاكُ والدمار: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قالَ ابنُ عباس: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾: أي: إذا دخلوا بلداً عنوةً أَفسدوه وخرَّبوه ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾. أي: وقصدوا مَنْ فيها من الولاةِ والجنود، فأهانوهم غايةَ الهوان، إما بالقتل أو بالأسر..

وقالَ ابنُ عباس: قالت ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فقالَ اللّهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1].

كلام ملكة سبأ عن الملوك وطرفة عن ملك وشاعر شيخ:

ورغمَ أنَّ ملكةَ سبأ أَرادَتْ بكلامها هذا عن الملوك سليمانَ النبيَّ الملكَ عليه الصلاة والسلام، وأَرادتْ بذلك أنْ تبررَ عدمَ قتالِها له، إلاّ أنَّ بعضَ المسلمين يريدُ أنْ يعممَ كلامَ ملكة سبأ على كلِّ الملوك في الماضي والحاضر، ويستشهدَ به على الفسادِ والإفسادِ الملازمِ لنظام حكم الملوك.

وتُروىٰ في هذا المقام طُرفةٌ معاصرة، قالوا: إنَّ أحدَ الملوكِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٥٠.

المعاصرين، كان مَلِكاً على مملكة، وزارَ هذا الملكُ أحدَ الشيوخِ الشعراء، وكان بين الملك والشيخِ الشاعرِ تنافر، وكانَ كلٌّ منهما ذكياً حصيفاً.

فلما جلسَ الملكُ في مجلسِ الشيخِ الشاعر، وسطَ جمهورِ الجالسين، خاطبَ الملكُ الشيخَ بحرفٍ واحد، وهو حرفُ الواو! قال له: وَ. . . !!

وفهِمَ الشيخُ مقصودَ الملك، فردَّ عليه بحرفٍ: «إِنَّ». قال له: إِنَّ.

وسكتَ الملكُ والشيخُ الشاعرُ وسطَ دهشة الحاضرين.

ولما غادرَ الملكُ المجلسَ، طلبَ الحاضرون من الشيخ تفسيرَ اللغز. فقال لهم: شتمني بآيةٍ من القرآن ذكَرَ أولَ حرفٍ منها، فشتمتُه بآيةٍ أخرى، ذكرتُ له أولَ حرفٍ منها.

لما قالَ لي: «و»، يعني أنني شاعر، وأنَّ اللّهَ ذمَّ الشعراءَ بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

فرددتُ عليه بحرف «إِنَّ»، وأَعني أنه ملك، وأنَّ اللّهَ ذمَّ الملوكَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا. . .﴾.

فعجبَ الحاضرون من ذكاءِ وفطنةِ كلٍّ من الملكِ والشيخِ الشاعر.

ولسْنا من أَنصارِ تعميم كلامِ ملكة سبأ على كلِّ الملوك، ليس تبرئةً لهم، ولكن لأنها تقصِدُ بكلامِها نبياً رسولاً، وملكاً مصلحاً، وحاكماً عادلاً، هو سليمانُ عليه السلام.

أمّا الملوكُ فهم نوعان:

نوعٌ ينطبقُ عليهم كلامُ ملكة سبأ، وهم الذين لا يُطيعونَ الله، ولا يَحكمونَ الناسَ بشرع، فالإِفسادُ ملازمٌ لهم.

ونوعٌ لا ينطبقُ عليهم كلامُ ملكة سبأ، وهم الملوكُ الصالحون، المطيعون لله، الذين يحكمونَ الناسَ بشرعِ الله، وقليلٌ ما هم!!.

ملكة سبأ ترشي سليمان بهدية ورفضه لها:

قررتْ ملكةُ سبأ عدمَ محاربةِ سليمان، واختارت المسالمةَ والمهادنة، وأبلغت الملأَ بذلك.

ثم أَخبرتْهم أَنها تريدُ امتحانَ سليمان عليه السلام، لتعرفَ هل هو ملكٌ داعيةٌ جادٌّ في دعوتِه لها، أم هو رجلُ مصلحة، امتحنتْه بهديةٍ أَرسلَتْها له. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥].

قالَ ابنُ عباس: قالت لقومها: إنْ قبلَ الهديةَ فهو ملك، فقاتِلوه، وإنْ لم يقبلْها فهو نبيٌّ فاتَّبِعوه.

وقال قتادة: ما كانَ أعقلَها في شركِها وإِسلامها، علمتْ أنَّ الهديةَ تقعُ موقعاً من الناس[1].

جهزتْ ملكةُ سبأ هديةً ثمينةً لسليمان عليه السلام، ولا تَعنينا معرفةُ أَصنافِ الهدية ومحتوياتِها، لعدمِ وجودِ نصوصٍ صحيحة تخبرُنا بذلك، ولا يضرُّنا الجهلُ به، كلُّ ما نَقولُه: كانت هديةً ثمينة، هديةَ ملكةٍ غنية، لملكٍ كريم، تَستعطفُه وتَسترضيه، وتَدعوه إِلى المسالمةِ والمهادنة.

وحملَ وفدٌ من قومِها الهدية، وغادروا اليمن متوجِّهين إِلى سليمان عليه السلام بفلسطين. وكانت الملكةُ تنتظرُ نتيجةَ زيارةِ الوفد، وردَّ سليمانَ على تلك الهدية.

أمّا الهدهدُ فلم تخبرْنا الآياتُ عنه شيئاً بعدَ توصيلِه الكتاب، ومن خلالِ أَوامرِ سليمانَ له عليه السلام: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فيبدو أَنه بقيَ عند قصرِ الملكة، وأَنه شاهَدَ اجتماعَ الملكة مع الملأ، وسمعَ الحوارَ بينهم وبينها، ووقفَ على قرارِها بإرسالِ هديةٍ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٥٠.

لسليمان، ولما توجَّهَ الوفدُ بالهدية إلى سليمان عليه السلام، سبقَهم الهدهدُ بالقدومِ إلى سليمان، ليقدِّمَ له تقريرَه، ويخبرَه بما جرى. والله أعلم!!.

سليمان يهدد الوفد بغزو سبأ:

وصلَ الوفدُ إلى بيت المقدس، ودَخلوا على سليمان عليه السلام، وقدموا الهدية له. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

فاعل «جاءَ» يعودُ على الوفد. أي: لما جاءَ الوفدُ سليمان، وقدَّموا له الهدية، وَوَضعوها أَمامه، رفضَ قبولَها، واستعلى عليها، وأَنكرَ عليهم تقديمَها، واعتبر هذا رشوةً من ملكةِ سبأ له، ولهذا لم يأخذْها.

قالَ لهم: أتمدونَنِ بمال؟ أترشونني بهذا المال؟ اعلموا أَنني لستُ بحاجةٍ إلى مالِكم وهديتِكم ورشوتكم، فما آتانيَ اللّهُ خيرٌ مما آتاكم.

اعترفَ أَمامهم بأَنَّ فضلَ اللّهِ عليه كبير، أنعمَ اللّهُ عليه بالنعمِ الكثيرة، والخيرِ الجزيل الجميل، النحاس والريح والجن والإنس والطير.

وكأَنه يقول لهم: أنا لستُ ممن تقدَّمُ له الرشوةُ باسم الهدية، لأَنَّ اللّهَ أَغناني عنها بما آتاني ومنحني. أَنتم الذين تأخذون الرشاوى والهدايا ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ثم هَدَّدهم بغزوِ بلادهم، وأَخبرهم بتصحيحِه على موقفه، فإمّا أنْ يُسْلموا معه ويدخلوا في دينه، وإمّا أنْ يُخرجهم من بلادِهم ويُذلهم.

قال تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا الخطابُ منه للوفدِ حاملِ الهدية، أو لزعيم الوفد، يقولُ له: ارجع إِلى قومك سبأ، وخذْ هديتَك معك، وانتظَروا هجومي على بلادكم، وحَربي لكم، لآتينَّ قومَك بجنودٍ لا طاقَة لهم بحربها، ولا قدرةَ لهم على قتالها، وسوفَ نهزمُهم ونحتلُّ بلادَهم، ونُخرجُهم أذلةً صاغرين مُهانين.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «والظاهرُ أنَّ سليمانَ عليه السلام لم يَنظرْ إِلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرضَ عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟. أي: أتُصانعونَني بمال، لأتركَكُم على شِركِكم ومُلككم؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾. أي: الذي أَعطاني اللّهُ من الملكِ والمال والجنود، خيرٌ مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾. أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبلُ إلاّ الإسلامَ أو السيف»[1].

وعادَ الوفدُ إلى سبأ، يحملُ معه هديةَ الملكة، بعد أنْ رفضَها سليمانُ عليه السلام، وأخبرَ الوفدُ الملكةَ والملأَ بما شاهدَ في مقرِّ سليمان من مظاهرِ القوةِ والخيرِ والتمكين، كما أخبروهم بعزةِ سليمان عليه السلام وعفَّتِه، وترفُّعِه عن هديتهم، وتصميمِه على قتالِهم واحتلالِ بلادهم إنْ لم يدخلوا في دينه.

توجه الملكة لزيارة سليمان:

عند ذلك عرفت الملكةُ حقيقةَ ما عليه سليمان عليه السلام، وأيَّ نوعٍ من الملوك هو، وأيقنتْ هي وملؤُها أنَّ سليمانَ رجلُ دعوةٍ وليس جامِعَ مال، وأنه قادمٌ لحربهم لا محالة، وأنه لا قُدرةَ لهم على قتاله.

واقتنعت الملكةُ بأنَّ سليمانَ على حق، وأنَّ دينَه هو الحق، وأنَّ اللّهَ معه بالتأييدِ والتمكين، وأنَّ الشمسَ التي تعبدُها هي وقومُها لا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٥١.

تضرُّ ولا تنفع، ولا تدفعُ عنهم الشرَّ والأذى، ولا تقدمُ لهم الخيرَ والنصر، واقتنعَ الملأُ من قومِها بما اقتنعتْ هي به، وأصبحوا قريبين جداً من الإسلام.

وكان الخيارُ الذي أَمامَها أنْ تأتيَ هي بنفسها، ومعها كبارُ قومِها، وأنْ تزورَ معهم سليمان عليه السلام، وأنْ يلتقوا به في بيتِ المقدس، وأنْ يَدخلوا في دينه.

وتجهَّزَ الوفدُ بقيادةِ الملكة، ليقوموا برحلتِهم الإيمانية، ثم ساروا من عاصمةِ سبأ في اليمن، إِلى بيتِ المقدس في فلسطين!!.

هدف سليمان من إحضار عرش ملكة سبأ:

وعلمَ سليمانُ عليه السلام بتوجُّهِ ملكةِ سبأ مع الوفد، للإسلامِ بين يديه، وأَرادَ أنْ يريها آيةً ربانيةً باهرة، تدلُّ على أنَّ اللّهَ معه، يمنحه من القوةِ والتمكين والتأييد الكثير. إنَّ الآيةَ هي إِحضارُ عرشِ الملكة. قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: ٣٨].

تنصُّ الآيةُ أَنه كانَ لسليمان عليه السلام ملأ، وهم فريقٌ من المستشارين حولَه، يُشيرون عليهِ بالخير، ويساعدونَه في شؤون الحكم.

وَعَرَضَ سليمانُ عليه السلام على أُولئك الملأ، أنْ يتكفَّلَ أَحدُهم بإِحضارِ عرش ملكة سبأ، قبلَ أنْ تصلَ مع الوفدِ إليه.

لقد تركتْ ملكةُ سبأ عرشَها العظيمَ خلْفَها في قصرها، تحتَ الحراسةِ الأمنيةِ الشديدةِ اليقظةِ من الحراس، وسليمانُ يريدُ من أحدِ رجالِ الملأ إِحضارَ ذلك العرش قبلَ وصولِ الملكة.

وهدفُ سليمانَ عليه السلام من ذلك أَنْ يُريَ الملكة ووفدَها مزيداً من مظاهرِ قوته، وعظمةِ نفوذه، وضخامةِ سلطانه وإِمكاناته، وذلك ليقضيَ على أَيِّ وساوس في نفوسِ الوفد بالمواجهةِ أو المقاومة،

وليزيلَ أيَّ شكوكٍ في نفوسهم عن الإيمانِ والإسلام، وليزدادوا قناعةً بعدمِ نفع معبوداتهم لهم، ويَزدادوا يقيناً بأنه لا إله إلا الله، وذلكَ ليؤمنوا بسليمانَ عليه السلام نبياً رسولاً، ويَدخلوا في دينه.

إنه يوقنُ أَنهم قادمون إليه، وأَنهم سيُسلمون بينَ يديه، وحركةُ إِحضارِ العرش تساعدُ على تقريبهم من الإسلام، وتُعجلُ دخولَهم فيه.

وقد أَوشكُ تحقيقُ طلبِ سليمان لهم في رسالته السابقة، حيثُ قالَ لهم: «لا تعلوا علي، وأتوني مسلمين». فها هم في طريقِهم إِليه ليُسلموا: «قبل أن يأتوني مسلمين».

على مَنْ يتكفلُ بإِحضارِ العرش أنْ يكونَ أسرعَ من الملكة ووفدِها، فقد غادروا عاصمةَ سبأ من فترة، وهم قريبونَ من عاصمةِ سليمان عليه السلام، وعلى ذلك الشخصِ أنْ يذهبَ إِلى عاصمةِ سبأ، ويُحضرَ العرشَ، ويَدخلَ به على سليمان، كلُّ هذا في وقتٍ قصير، قبلَ وصول الوفد!!

وقُدِّمَ لسليمانَ عرضان لإحضارِ العرش: الأولُ من عفريتٍ من الجن، والثاني من شخصٍ عنده علمٌ من الكتاب.

عرض الجني العفريت إحضار العرش خلال ساعات:

عَرْضُ العفريتِ من الجن، أخبرَنا اللّهُ عنه بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩].

تكفلَ ذلك العفريتُ بإِحضارِ العرش قبلَ أنْ يقومَ سليمان عليه السلام من مقامه!

وهذا خارقٌ من الخوارق، يُجريه اللّهُ على يدي العفريتِ الجني، كرامةً له، لأنَّ المسافةَ بعيدةٌ جداً بين اليمن وفلسطين، تحتاجُ إِلى شهورٍ ذهاباً، وشهورٍ إياباً، فكيفَ سيذهبُ ذلك العفريتُ إِلى اليمن،

ويعودُ بعرشِ الملكة، خلالَ ساعات؟ وقبلَ أنْ يقومَ سليمانُ من مقامه؟!

إنَّ هذا الخارقَ كرامةٌ من الكرامات، أَكرمَ اللّهُ بها ذلك العفريتَ المؤمن، فأَجراها على يديه، وهي من فعْلِ اللّهِ في الحقيقة.

وأعلنَ العفريتُ عن قدرتِه في المحافظةِ على العرش، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

وصفَ نفسَه بصفتيْن: القوة والأمانة، وهما صفتان ضروريتان لإحضارِ العرش، ويجب توفُّرهما في مَنْ يُكلفُ بإحضاره.

لا بدَّ لمن يحضره أنْ يكونَ قوياً في بدنه، ليتمتعَ بالقدرةِ على حملِ العرش الكبير، والسيرِ به مسافاتٍ طويلة، والعرشُ ثقيلُ الوزن، لا يقدرُ على حمله إلاّ القويُّ القادر.

ولا بدَّ أنْ يكونَ أميناً أيضاً، والأمانةُ قوةٌ أَخلاقية، تُضافُ إِلى القوةِ الخَلْقِية، وهذه الأمانةُ تعصمهُ من أنْ يمدَّ يدَه إِلى زينةِ العرش، من الذهبِ والجواهر واللآلئ، ومَنْ لم يكن أَميناً فسيختلسُ تلك الزينة.

إنَّ ذلك العفريتَ قويٌّ أمينٌ، لأَنه مؤمن، جنديٌّ في جيش سليمان، ومِن الملأ المقرَّبين عنده، وهو ثمرةٌ من ثمارِ تربيةِ سليمان عليه السلام الإيمانية لأَتْباعه.

وهذا العِفريتُ الجنيُّ مبهمٌ من مبهمات القرآن، فلا نَعرفُ اسمَه، ولا نعرفُ وظيفتَه عند سليمان، ولا نعرفُ مركزَه في الجن.

معنى العفريت والفرق بينه وبين الشيطان:

لكن ما معنى «عفريت»؟

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي في «عمدة الحفاظ» عن معنى العِفْريت: «العِفريت هو: المتمرِّدُ من الجن، الخبيثُ منها. وقيل: هو من الجنِّ النافذُ القويُّ مع خُبث. ويُستعارُ ذلك للآدميين استعارةَ الشيطانِ لهم. قالَ ابنُ قتيبة: هو من قولهم: رجلٌ عِفريت، وهو الموثقُ الخَلْق.

وأَصله من «العَفَرِ»: وهو التراب. يقال: عافَرَه. إِذا صارَعَه فألقاه في العَفَر.

وعلى هذا فنسبةُ هذه الصفةِ إلى الإنس أَولى من الجن، لأنَّ الإنسَ خُلقوا من التراب، والجنَّ من النار.

ويقال: رجلٌ عِفرٌ نِفرٌ. وعِفريت نِفريت..»[1].

العِفريت هو الجنيُّ القويُّ المتين المسيطر، كثيرُ الحركة، واشتقاقُه من العَفَر وهو التراب، فكأنّه بحركتِه الكثيرة المستمرة يُثيرُ الترابَ والغبار.

ولم تَرِدْ كلمةُ «عِفريت» إلاّ في هذا الموضع من القرآن.

وقَيَّدت الآيةُ كونَ العفريتِ من الجن، ولا يُطلقُ على الإنسانِ إلاّ من بابِ الاستعارة.

وهناكَ فرقٌ بين العفريتِ الجني والشيطانِ الجني، لأنَّ الكلمتين وردَتا في القرآن، ونعلمُ أنه لا ترادفَ في القرآن.

الشيطانُ الجنيُّ هو الجنيُّ الكافرُ المتمرد، المتشيطنُ البعيدُ عن رحمةِ الله.

والعفريتُ هو الجنيُّ المؤمنُ التقيُّ القوي، كثيرُ الحركة والنشاط. بدليلِ أنَّ العفريتَ الجنيَّ كان مقرَّباً عند سليمان عليه السلام، ولا يُقَرِّبُه سليمانُ إلا إذا كان مؤمناً، وهو قويٌّ أمين، كما عَرَّفَ على نفسه، ولا يكونُ كذلك إلاّ إذا كان مؤمناً أيضاً!.

عرض صاحب العلم بالكتاب إحضار العرش في لحظات:

وإِذا كانَ عرضُ العفريتِ الجنيِّ أنْ يُحضرَ عرشَ ملكة سبأ قبلَ أنْ يقومَ سليمانُ عليه السلام من مقامه، فقد قَدَّمَ الذي عنده علمٌ من الكتاب عَرْضاً آخرَ أسرع.

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين ٣:١١٦.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

قالَ لسليمانَ عليه السلام: أَستطيعُ أنْ آتيكَ بعرشِها قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طَرْفُك.

والطَّرْفُ هو تحريكُ جَفْنِ العين.

وردَ في المعجمِ الوسيط: «طَرَفَ البصر، يَطْرِفُ، طَرْفاً، إذا تحرَّكَ جَفْناه. ويقال: ما بقيتْ منهم عينٌ تَطْرِف. أي: ما بقيَ لهم جفنٌ يتحرك. ويقال: طرفَ بعينَيْه: حَرَّكَ جفنيه.

والطَّرْف: تحريكُ الجفنِ. والعينِ. والنظرِ.

والطَّرَف: النهايةُ. والطَّرَفُ من كلِّ شيء: منتهاه»[1].

فمعنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: امدُدْ بصرَك، وانظرْ إلى شيءٍ بعيد، يصلُه نظرُك، ومُدَّ طَرْفَك إليه، فإنه لا يرتدُّ إليك طرفُك، إلا وعرشُه حاضرٌ عندك، موجودٌ بين يديك!!

فإذا كان العِفريتُ يقدرُ على إحضارِ العرش خلالَ ساعات، فإنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب يَقدرُ على إحضارِه خلال ثواني معدودات!!. لأنَّ مدَّ البصرِ إلى شيء بعيد، وإرسالَ الطرف إليه، ثم إعادتَه لا يستغرقُ إلاّ ثواني قليلة.

فهذا الذي عنده علمٌ من الكتاب سَيطوي المسافةَ الطويلةَ من اليمن إلى بيت المقدس، وسيقطعُها في لحظات!!.

إنه لن يفعلَ ذلك بنفسه، وإنما سيفعلُه بأمرِ الله، فالله هو الذي سيأتي بالعرشِ في الحقيقة، ولكنه سيُجريه على يدِ الذي عنده علمٌ من

---

(١) المعجم الوسيط: ٥٥٥.

الكتاب، وستكونُ هذه الخارقة كرامةً من الله لهذا الرجل الصالحِ العالِم.

وبما أَنه من فعلِ الله في الحقيقة، فلا غرابةَ في هذا ولا استحالة، فاللّهُ سبحانه فعّالٌ لما يريد، ولا يُعجزهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

إبهام الذي عنده علم من الكتاب وإبهام كيفية إحضاره العرش:

وقد أَبهمَ القرآنُ هذا الشخصَ الذي سيُحضرُ العرش في لحظات، ولم يصفْه إلاّ بأنه ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. ولا يوجَدُ حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ للنبي ﷺ يتحدثُ عنه، ويضيفُ جديداً إلى ما في القرآن.

ولا نقولُ فيه إِلاّ أَنه رجلٌ عنده علمٌ من الكتاب، فلا نعرفُ اسْمَه، ولا نسبَه، ولا جنسَه أَهو من الجنّ أم من الإنس، ولا وظيفتَه وعملَه عند سليمان عليه السلام!!

و«الكتاب» هو كتابُ الله الذي يحكمُ به سليمانُ عليه السلام، ونعلمُ أَنَّ أنبياءَ وحكامَ بني إسرائيل كانوا يُطبقون على قومِهم أحكامَ التوراة، كما نعلمُ أَنَّ اللّهَ أنزلَ الزبورَ على داود عليه السلام، وجعلَه مكمِّلاً للتوراة.

وهذا معناهُ أَنَّ سليمان عليه السلام كان عنده كتابان، وهما: التوراة، والزبور. وتنطبقُ عليهما كلمةُ «الكتاب».

فهذا الرجلُ كان ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: علمٌ أَخذه من التوراةِ والزبور، عَلَّمَهُ اللّهُ إِياه، وكان بهذا العلمِ المستمدِّ من الكتاب قادراً - بإذنِ اللّهِ - على إِحضارِ العرشِ في لحظاتَ.

ولم يتحدث القرآنُ عن العلم الذي أَخذه هذ الرجلُ من كتابِ الله، وعبَّرَ عنه بكلمة «علم»، وهي نكرة، والتنكيرُ هنا مقصود، فهو دعوةٌ لنا كي لا نخوضَ في تحديدِ هذا العلم، لأنَّ الآياتِ والأحاديث الصحيحة لا تحدِّدُه، وتحديدُه أمرٌ غيرُ علميٍّ ولا منهجي.

كان عند الرجلِ علمٌ خاص، خصَّه اللّهُ به، واستمدَّه من التوراة والزبور، وبهذا العلمِ اللَّدُنِّيِّ الربانيِّ استعدَّ لإحضارِ العرش في لحظات!!

وطلبَ سليمانُ عليه السلام من هذا العالِمِ إحضارَ العرش، لأنه قدمَ أسرعَ العروض، وأقلَّها زماناً!!

وأَرسلَ سليمانُ عليه السلام طَرْفَه، وهو جالسٌ مكانه، ونظرَ إلى بعيد، وقامَ الذي عنده علمٌ من الكتابِ بإحضارِ العرش، ومرَّتْ لحظاتٌ قصيرة، وما أنْ أعادَ سليمانُ عليه السلام طَرْفَه حتى رأى العرشَ مستقرّاً عنده!!

كيفَ أَحضرهُ في لحظات؟

الأَمْرُ ليس خاضِعاً لمقاييسِ البشر، ولا لطاقاتِهم وقدراتِهم وإمكاناتِهم، وهو بالحسابِ البشريِّ مستحيل!

لكنَّ الأَمْرَ أَمْرُ الله سبحانه، واللّهُ فَعّالٌ لما يُريد، وليس عليه شيء مستحيل، وإذا أَراد شيئاً يأْمُرُهُ أنْ يكون، فيكون كما أرادَ سبحانه.

اللّهُ هو الذي أحضرَ عرشَ ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في لحظة، وما دورُ الذي عندَه علمٌ من الكتاب إلاّ ظاهريٌّ خارجيٌّ سببي، فاللّهُ أَجرى هذه الخارقة على يديه، تكريماً له.

فلا مجالَ للاستغرابِ أَو الدهشة أو الإِنكار إذن، وبما أنَّ اللّهَ أَخبرنا في القرآن أَنه حصل، فلا بدَّ أنْ نؤمنَ أَنه حصل، وأنْ نصدِّقَ إخبارَ اللّهِ عنه في القرآن! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ لا أحد.

دعاء سليمان لما رأى العرش أمامه:

لما رأى سليمانُ عليه السلام عرشَ ملكة سبأ أَمامَه ماذا قال؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ

ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

أَقبلَ سليمان على اللّهِ حامداً شاكراً، واعتبرَ إِحضارَ العرش فضلاً من الله عليه، يُضافُ إلى أَفضالِه الكثيرة، ونعمةً من الله عليه تُضافُ إلى نعمه الغامرة.

وعرفَ أنَّ إِنعامَ اللّهِ عليه بهذا إنما هو ابتلاءٌ وامتحان له، يريدُ اللّهُ أنْ يبلوَه ويختبرَه، والنتيجةُ هي أَنه إِمّا أنْ يشكرَ اللّهَ على هذا، وإِمّا أنْ يكفرَه ويجحدَه وينكرَ فضلَه.

وما سليمانُ عليه السلام إلاّ عبدٌ شاكرٌ ذاكرٌ لله، منيبٌ أَوّاهٌ أَوّابٌ إليه، لكنه هنا يقررُ اختلافَ موقفِ الناس من نعم الله، فمنهم مَنْ يشكرُ اللّهَ عليها، ومنهم مَنْ يكفرُها ويجحدُها.

سبحان من لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية:

وذكَّرَ سليمانُ عليه السلام في هذه المناسبة بغِنى اللّهِ عن عبادِه، فالشاكرُ لا ينفعُ اللّهَ بشكْرِه، والجاحدُ لا يضرُّ اللّهَ بجحوده، فأَثَرُ الشكرِ الطيبِ يعودُ على صاحبه، وهو بذلك يشكرُ لنفسه، وأثرُ الجحودِ السيء يعودُ على صاحبِه، وهو الذي يخسر.

أمّا الله، فإنّه غنيٌّ كريم، غنيٌّ عن شكرِ الشاكرين، كريم لا يضرُّه كفرُ الكافرين.

وهذه حقيقةٌ إيمانيةٌ اعتقادية جاءَ جميعُ الأنبياءِ والرسلِ بها، وقرروها بوضوحٍ تام.

وبَيَّنها لنا رسولُ الله ﷺ بأَلْفاظه، فيما يرويه عن ربِّه. فقد روى مسلمٌ والترمذيُّ وغيرُهما عن أَبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، فيما يَرويه عن ربه، أنه قال: «يا عبادي: إِنّي حرَّمْتُ الظلمَ على نفسي، وجعَلْتُه بينكم محرَّماً، فلا تظالَموا.

يا عبادي: كلُّكم ضالٌّ إلاّ مَنْ هديتُه، فاستهدوني أَهْدِكم.

يا عبادي: كلُّكم جائعٌ إلاّ مَنْ أطعمتُه، فاستطعموني أُطْعِمْكم.

يا عبادي: كلُّكم عارٍ إلا مَنْ كسوتُه، فاستكسوني أَكْسُكُم.

يا عبادي: إنكم تخطئونَ بالليلِ والنهار، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفرْ لكم.

يا عبادي: إنكم لن تبلُغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي: لو أنَّ أولَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زادَ ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أنَّ أولَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقصَ ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أن أوّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألَتَه، ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كَمَا ينقصُ المِخْيَطُ إذا أُدخلَ البحر.

يا عبادي: إنما هي أعمالُكم، أُحصيها لكم، ثم أُوفيكم إيّاها، فمن وجدَ خيراً فليحمدِ الله. ومَنْ وجدَ غيرَ ذلك، فلا يلومَنّ إلاّ نفسه»[1].

وشكْرُ سليمانَ لربِّه لما رأى العرشَ مستقراً أمامَه، يذكِّرُ بذكْرِه وشكْرِه لله لما سمعَ كلامَ النملة في وادي النمل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٧٧. والترمذي برقم: ٢٤٩٥. وانظر شرح هذا الحديث الجامع في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي، بتحقيق الشيخ إبراهيم باجس ٢: ٣٢ ـ ٥٥.

إنه أَوّاهٌ منيبٌ لله، وكلَّما أنعمَ اللّهُ عليه بنعمة، عرفَ أنها منه سبحانه، فازدادَ إيماناً وذكْراً وشكْراً لله.

وهو في هذا أُسوةٌ حسنةٌ لمن بعده، وبخاصةٍ الذين يمنُّ اللّهُ عليهم بالتمكينِ والحكمِ والسلطان والجاه والزعامة، فهو لم تفتنْهُ النعمة، ولم تَغُرَّه القوة، ولم يتحوَّلْ بمظاهرِ السلطان والحكم إلى جبارٍ متكبرٍ متسلطٍ باطش، ولم يطغَ ويبطرْ ويستبدّ، وحاشاه من ذلك.

وهكذا يجبُ أنْ يكونَ أصحابُ الجاهِ والسلطان والزعامة والقوة، فلا تقودُهم هذه الأمورُ إلى أمراضِ الزعامة وآفاتِ القيادة ونقائصِ القوةِ الاستبدادية، وإنما يعتبرونَ أنَّ هذه الأمورَ نِعَمٌ من الله، فيزدادون بها ذكراً وحمداً وشكراً لله، ويستخدمونها في نفعِ عبادِ الله، ودفعِ الضرِّ عنهم، ويستفيدونَ بها مزيداً من التواضعِ والإخباتِ والإنابةِ إلى الله. ويقتَدون في ذلك بسليمان عليه الصلاة والسلام.

سليمان يمتحن الملكة بتنكير عرشها:

وبعد أنْ رأى سليمانُ عليه السلام عرشَ ملكةِ سبأ عنده، قبلَ وصولِ الوفد إليه، أرادَ أنْ يمتحنَ ملكةَ سبأ، ليعرفَ مدى ذكائِها وفطنتها، فهي ستكونُ عندَه بعدَ قليل، وسترى العرشَ عنده، عرشَها هي، فهل ستعرفُه أم لا؟

قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النمل: ٤١].

طلبَ سليمانُ عليه السلام من رجاله أنْ «يُنَكِّروا» لملكةِ سبأ عرشَها، وتنكيرُ عرشِها بإجراءِ بعض التغييراتِ عليه، تغييراتٍ شكليةٍ ظاهريةٍ جزئية، لا تمسُّ حقيقةَ العرش، ولا تغيِّرُ صورتَه الحقيقية.

وصرحَ سليمانُ عليه السلام بأنَّ هدفَه من هذا التنكيرِ والتغييرِ الجزئي، هو امتحانُ ذكاءِ ملكةِ سبأ، واختبارُ فطنتِها وقوةِ ملاحظتها،

فعندما تنظرُ إلى العرش هل ستعرفُه أنه عرشُها رغم ذلك التغيير، أمْ ستعجزُ عن معرفتهِ: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قامَ رجالُ سليمانَ بتنكيرِ عرشِ ملكة سبأ، وإجراءِ بعض التغييراتِ الشكليةِ عليه، ووضعوه في القصر، بانتظارِ قدومِها.

ووصلتْ ملكةُ سبأ مع وفدها بيتَ المقدس، ودَخلوا على سليمان، وأكرمَ وفادتَهم وأحسنَ إليهم.

تحليل السؤال: أهكذا عرشك؟:

وجاءَ دورُ امتحانِ فطنةِ وذكاء ملكة سبأ. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٢ ـ ٤٣].

أوْقفوا ملكةَ سبأ أمامَ العرشِ المنَكَّرِ، وسألوها قائلين: أَهكذا عرشك؟

وكان السؤالُ في قمةِ النباهةِ والفطنة، فلم يقولوا: أَهذا عرشُك!

لو كان السؤالُ: أَهذا عرشُك؟ لكان فيه نوعٌ من التلقينِ والإيحاءِ بالجواب، وإشارةٌ خفيةٌ إلى أَنهم أَحضروا عرشها في غيبتها. وسوفَ يكون جوابُها: نعم. هو عرشي.

و«أَهكذا» مكوَّنةٌ من ثلاثةِ أَحرف داخلةٍ على اسم الإشارة.

الأول: همزةُ الاستفهام.

الثاني: هاءُ التنبيه.

الثالث: كافُ التشبيه، التي هي حرفُ جرّ.

واسمُ الإشارة «ذا».

وشبهُ الجملة «أهكذا» في محلِّ رفعِ خبرٍ مقدَّم، و«عرشُك» مبتدأُ مؤخَّر.

وقُدِّمَتْ هاءُ التنبيه على كافِ التشبيه: «أهكذا»، مع أنَّ الأصلَ تقديمُ الكاف.. لأنَّ أصلَ الكلمة: هذا. وعند إِدخالِ حرفِ الجرِّ عليها، تصير: كهذا. ومعَ دخولِ همزة الاستفهام عليها تصير: أَكَهذا.

والكافُ بمعنى: مثل. والتقدير: أَمِثْلُ هذا العرشِ عرشُك؟

والسؤالُ في غايةِ الفطنة، وكأنَّ معناه دعوتُها إلى إمعان النظرِ في العرشِ الموجودِ أمامها، وملاحظةِ أوجُهِ الشبَهِ بينه وبين عرشها، الذي تركَتْهُ وراءَها في قصرها: أَعرشُك مثلُ عرشنا؟ انظري أينَ يتشابَهُ عرشُنا مع عرشك!!

ذكاء الملكة في جوابها: كأنه هو:

نظرتْ ملكةُ سبأ بإمعانٍ إلى العرش. إِنه عرشها! وإِنَّ مظاهرَ التنكيرِ والتغييرِ عليه لم توقعْها في اللبس، إِنها تعرفُه عن يقين.

ووقعت الملكةُ في الحيرةِ والتساؤل: هل من الممكن أنْ يكونَ عرشُها؟ لقد خلَّفَتْهُ وراءَها، وعليه الحراسُ والحفّاظُ الأُمناء! فهلْ من الممكنِ أنْ يكونَ هنا؟ ومَن الذي أَتى به؟ وكيفَ أَتى به؟

ولْنفترضْ أَنه ليسَ عرشَها، وأَنه عرشُ سليمان عليه السلام، فهل من الممكنِ أنْ يتشابَهَ العرشان ويتماثَلا إلى هذه الدرجة؟

لو قالَتْ هكذا عرشي لأَخطأَتْ! ولو قالَتْ: هذا عرشي لأَخطَأَتْ حسبَ الظاهر. فبماذا تجيبُ على السؤال.

أَمامَها ثلاثُ إجابات:

الأُولى: هذا عرشي. ولو أَجابتْ بهذه الإجابةِ لكانت ساذجة، لأَنها ستتهمُ رجالَ سليمان بأخذِ العرش من قصرِها ونهبِهِ وإِحضارِهِ إلى هنا، وهذا الاتهامُ لا يتفقُ مع «الكياسةِ» الرسميةِ بين ملكةٍ قادمةٍ لزيارةِ ملك. فكيفَ تبدأُ زيارتَها باتهامِ رجالِ الملكِ بسرقة عرشها؟

الثانية: ليس هو: ولو أجابتْ بها لما كانت فطنة، إذْ يشبهُ هذا العرشُ عرشَها في معظم الأمور، فكيف تقول: ليس هو؟

لا يمكنها أنْ تقولَ: هو هو، ولا أنْ تقول: ليس هو.

فما هو المخرج؟ وما هو الجوابُ المناسبُ الذي يقودُ إلى حسن التخلص؟

الثالثة: كأَنه هو، وهذه هي الإجابةُ المتفقةُ مع الحكمةِ والفطنة.

إنَّ حرفَ التشبيه «كأنَّ» يدلُّ على الشبهِ الكبير بين العرشين، حتى كأَنه لا فرقَ بينهما.

إنَّ قولَها «كأنه هو» معناه: كأنَّ عرشي هو هذا العرش!!

و«كأَنه هو» قريبةٌ جداً من: هو هو. لكنها تخلو من ذلكَ المحذور الذي يؤدّي إلى الاتهام وادعاءِ الملكية لعرشِ ملكٍ قادمةٍ لزيارته.

ولم تُجبْ بعبارةِ «هكذا هو» المطابقةِ للسؤال، لأنها تدلُّ على وضوحِ التغايرِ بين العرشين، وهي لا تكادُ تجدُ ذلك التغايرَ واضحاً.

لقد كان جوابُها «كأنه هو» في غايةِ الحصافةِ والفطنةِ والكياسة، فلا هي اعترفَتْ أَنه هو، ولا هي نفَتْ أنه هو، وإنما حفظتْ خَطَّ الرجعة، وأَبقت البابَ مفتوحاً لكلِّ الاحتمالات القادمة.

قالَ الإمامُ الزمخشريُّ عن جوابِ الملكة: «﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾: لم تَقُلْ: هو هو. ولا: ليسَ هو. وذلكَ من رجاحةِ عقْلِها، حيثُ لم تقعْ في المحتمل».

أمّا ابنُ المنَيِّرِ الإسكندري فيبينُ في حاشيتِه على الكشاف حكمةَ جوابها «كأنه هو» بقوله: إنَّ جملةَ «كأنه هو» عبارةُ مَنْ قَرُبَ عندَه الشَّبَه، حتى شَكَّكَ نفسَه في التغايرِ بين الأَمرين، فكادَ يقول: هو هو. وتلك حالُ ملكة سبأ. وأمّا جملةُ «هكذا هو» فعبارةُ جازمٍ بتغايُرِ

الأمرين، حاكم بوقوع الشَّبَهِ بينهما لا غير. ولهذا عَدَلَتْ ملكةُ سبأ إلى العبارةِ المذكورة في القرآن، لمطابقتها لحالِها...»[1].

تعليق سليمان على جواب الملكة الحائر:

وعلَّقَ سليمانُ عليه السلام على دهشةِ ملكةِ سبأ وحيرتِها بقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النمل: ٤٢ ـ ٤٣].

يبينُ سليمانُ عليه السلام في هذا التعقيبِ الفرقَ الجوهريَّ بين الحالتين: بينَ حالتِه هو، وحالةِ ملكة سبأ، ويوضحُ سرَّ تفوُّقِه عليها.

هو مسلمٌ خاضعٌ لله، وآتاه اللّهُ العلمَ نعمةً ومِنَّةً منه، فأحسنَ الاستفادةَ مِن هذا العلم الذي آتاهُ اللّهُ إيّاه. وهذا العلمُ يشملُ العلمَ المعنويَّ القائمَ على المعرفة والتحصيل، وإِعمالِ العقلِ والذهن، وإِدراكِ الأمورِ والحقائق، كما يشملُ العلمَ الماديَّ المبنيَّ عليه، الذي هو الاختراعاتُ والصناعات.

أما ملكةُ سبأ فلم تُؤتَ العلمَ ولا الإسلام، فقد صَدَّها عن الإسلامِ والإيمان الآلهةُ الباطلةُ التي كانت تعبدُها من دون الله، كالشمسِ، وعبادتُها للشمس جعَلَتْها كافرةً من قوم كافرين.

وكُفْرُها حرمَها الإسلامَ، وسلبَها العلمَ، وجعلَها تنهزمُ أمامَ سليمان عليه السلام العالمِ المسلم، رغمَ أَنَّها أُوتيتْ من كل شيء، لكن ما أُوتيَتْه كان قليلاً ضئيلاً أَمامَ ما أُوتيه سليمانُ عليه السلام.

سليمان يفاجئ ملكة سبأ بالصرح الممرد من قوارير:

وبينما كانتْ ملكةُ سبأ تحتَ تأثيرِ الدهشةِ والحيرةِ من العرش

---

(١) تفسير الكشاف ٣٦٩:٣، مع حاشية الصفحة رقم (١).

الذي شاهدَتْه وسئلَتْ عنه، وهي في طريقِها إلى قصرِ سليمان عليه السلام للالتقاءِ به، وعندما وقفتْ على بابِ القصر تهمُّ بدخولِه، وجدتْ سليمانَ عليه السلام قد أعدَّ لها مفاجأةً أُخرى مذهلة.

وقد أخبرَنا اللّهُ عنها في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

لم يكن القصرُ من حجارةٍ وطين، وإنما كان قَصْراً من بلّورٍ زجاجي، وقد جُهِّزَ مدخلُه بطريقةٍ عجيبةٍ مثيرة، حيث كان مدخلُه من زجاجٍ متينٍ سميك، وهذا الزجاجُ بنيَ على عينِ ماءٍ أو بركة ماء، فإذا نَظَرَ له القادمُ لم يَرَ الزجاج، وظنَّ أنه مقبلٌ على خوضِ الماء ليصلَ إلى القصر، فيستعدّ لخوضِ الماء برفعِ ثيابه والكشفِ عن ساقيه.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾: كان سليمانُ عليه السلام واقفاً على بابِ القصر لاستقبالِها، فدَعَوْها إلى المسيرِ إليه، ودخولِ الصَّرْحِ عليه.

والصَّرْحُ هو القصرُ العالي.

تقول: صَرُحَ الشيء، يَصْرُحُ، صَراحة: إذا صَفا وخَلَصَ مما يشوبُه[1].

وبيَّنَ الإمامُ الراغبُ حكمةَ تسميةِ القصْرِ صَرْحاً، فقال: «الصَّرْحُ: بيتٌ عالٍ مُزَوَّق، سميَ بذلك اعتباراً بكونه صَرْحاً عن الشَّوْب. أي: خالِصاً»[2].

ظنت الملكة الزجاج لجة بحر فكشفت عن ساقيها:

لما دُعيتْ ملكةُ سبأ لدخولِ الصرح رأت الماءَ بينها وبين مدخله، وتحيَّرَتْ: كيفَ ستصلُ إلى سليمانَ الواقفِ على باب الصرح؟ إذن

---

(١) المعجم الوسيط: ٥١١.

(٢) المفردات: ٤٨٢.

لا بدَّ أنْ تخوضَ الماء، فاستعدَّتْ لذلك، وكشفَتْ عن ساقيها، ورفعتْ ثوبَها: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا . .﴾.

واللُّجَّةُ هو موجُ البحر.

قال الإمامُ الراغب: «اللّجاج: التّمادي والعنادُ في تعاطي الفعلِ المزجورِ عنه. . ومنه: لَجَّةُ الصوت: تَرَدُّدُه.

ولُجةُ البحر: تردُّدُ أَمواجه. ولُجَّةُ الليل: تردُّدُ ظلامه.

والبحرُ اللُّجيُّ منسوبٌ إلى لُجة البحر. .»[1].

ولْنتصوَّرْ سخريةَ الواقفين مع سليمان، العارفين بحقيقةِ هذا الماء، من الملكة، وهي ترفعُ ثوبَها وتكشفُ عن ساقيها، لتقطعَ ما حسبتْه لُجة.

هذه الملكةُ القويةُ الغنيةُ الذكية، التي تملكُ دولةً غنية، حيث أُوتيتْ من كلِّ شيء، ولها عرشٌ عظيم. وتتمتعُ بفطنةٍ وحصافة، لكنها الآن صارَتْ مجالاً للسخرية، وأَصبحتْ حركتُها شبهَ ساذجة، لأنها لا تعرفُ حقيقةَ الماءِ الذي أَمامَها.

وقبلَ أنْ تخطوَ قدماها خطوتَهما الساذجة خاطَبها سليمانُ عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾!!. وهذه الإجابةُ زادتْ من استغرابِ ودهشةِ ومفاجأةِ هذه الملكة، التي مرتْ بسلسلةٍ من المفاجآت المثيرة.

ومعنى «مُمَرّد» أملس.

يقال: مَرَدَ الشيءَ: ليَّنَهُ وصَقَلَه ومَلَّسَه.

قال السمين الحلبي: «صرحٌ ممرد: أَملس، ومنه: الأمردُ: لملاسَةِ وجهه من الشعر، وشجرٌ أَمرد: لا ورقَ به»[2].

---

(١) المرجع السابق: ٧٣٦.

(٢) عمدة الحفاظ ٤: ٩٢.

والقوارير: الزجاج. مفردُها: قارورة. وهي: وعاءٌ من الزجاج تُحفظُ فيه السوائل وغيرها[1].

والراجحُ أنَّ القارورةَ مشتقةٌ من «قَوَرَ». والتقويرُ معروف، وهو خَرْقُ الشيء من وسطِه. تقول: قَوَّرَ الشيءَ: جعلَ في وسطه خَرْقاً مستديراً[2].

وسُميت القارورة بهذا الاسم لأنها مخروقةٌ من وسطها، فهي مقورة.

والصرحُ الممردُ من قوارير: هو القصرُ المبنيُّ من الزجاج المقوَّرِ في وسطه.

إذن معنى قولِ سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: إنه قصرٌ أملسُ مبنيٌّ من زجاج.

وقد أَزالَ سليمانُ عليه السلام الظنَّ عند الملكة، عندما بيَّن لها أنّ ما أَمامَها ليس لجةَ ماء، ومن ثَمَّ لا داعيَ لكشفِها عن ساقيها. إنَّ الذي أَمامها مَمَرٌّ من الزجاج بُنِيَ على بركةِ ماء، فعليها أنْ تعبرَه بأمان.

ملكة سبأ تفتح قلبها للإيمان وتدخل في الإسلام:

فكَّرَتْ ملكةُ سبأ في المفاجآتِ المثيرةِ المدهشةِ التي فاجأَها بها سليمانُ عليه السلام، وآخرُها هذه المفاجأة: قصرٌ عالٍ مرتفع، مبنيٌّ من الزجاج الصافي الأملس، ليسَ فيه طين أو حجر، وأَمامَ القصرِ بركةٌ من الماء، مغطاةٌ بطبقةٍ من الزجاجِ السميك الآمِن، يسيرُ فوقَها الإنسان بأمانٍ والماءُ تحته.

إذنْ تمتعَ سليمانُ بقوةٍ كبيرة، وتوفرتْ له الكثيرُ من أسبابِ ومظاهرِ وألوانِ هذه القوة، وقوتُها هي لا تساوي شيئاً أمامَ قوتِه هو!!

---

(1) المعجم الوسيط: ٧٢٥.

(2) المرجع السابق: ٧٦٥.

ودخلتْ ملكةُ سبأ القصرَ الزجاجيَّ المنيف، والتقتْ بسليمانَ عليه السلام، وحدَّثَها وحدثَته، وعرضَ عليها سليمانُ عليه السلام الدخولَ في الإسلام، وأثبتَ لها وحدانيةَ الله، ونفيَ أُلوهيةِ غيره، وقدَّمَ لها الدعوة، وأقامَ عليها الحجة.

وفتحتْ ملكةُ سبأ عقلَها وقلبَها لكلامِه، واستعرضَتْ مسلسلَ الأحداثِ مع سليمانَ عليه السلام منذُ البداية: تذكرتْ كتابَ سليمانَ لها، الذي حمله الهدهدُ بطريقةٍ مثيرة، وتذكَّرَتْ إحضارَ عرشِها إلى سليمان بطريقةٍ معجزة مدهشة، وتذكَّرَتْ الصرحَ الممردَ من قوارير، وكيفَ أُحرجتْ عندما حسبته لجةً من الماء، وتذكرتْ جيشَ سليمان المكوَّنَ من الجن والإنس والطير، والصناعاتِ الحديديةَ والنحاسية والزجاجية، التي يصنعها له الجن...

وخرجَتْ بنتيجةٍ قاطعة: هذه القوةُ ليست بجهدِ سليمان الشخصي، ولا بقدرتِه الذاتية. إنها تدلُّ على أنَّ اللّهَ معه، سخرَ له هذه الطاقات والإمكانات، وَوَهَبَهُ هذه القوى والقدرات.

ثم فكَّرَتْ في كلامِ سليمان في بيانِ الحق والإيمانِ والوحدانية، ونفيِ الشرك وأُلوهية غير الله. وعرفَتْ أنَّ كلامَه صواب، وأنه على حق، وأنَّ دينَه هو الحق، أما ما كانت عليه هي وقومُها فهو باطل.

وشرحَ اللّهُ صدرَها للإيمان. فأعلَنَتْها صريحةً واضحة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: ظلمتُ نفسي بالكفر، والسجودِ للشمس، وعبادةِ غير الله، وآنَ الأوانُ للتخلي عن الكفر، والخروجِ من هذا الظلم.

والطريقُ الوحيدُ هو الإسلام. ولهذا قررْتُ أنْ أُسلمَ مع سليمان لله رب العالمين.

وهكذا دخل قوم سبأ في الإسلام:

وتحولَتْ ملكةُ سبأ من كافرةٍ معاديةٍ لسليمان عليه السلام، إلى امرأةٍ مؤمنة بالله، مسلمةٍ معه لله، تشاركُه العبوديةَ والطاعة والاستسلامَ لله، رب العالمين!

ولما أسلمت، أسلمَ الوفدُ القادمُ معها، وصاروا عابدين خاضعين لله رب العالمين.

وخرجَ الجميعُ من قصرِ سليمان مسلمين، وعادوا إلى «سبأ» دعاةً إلى الإسلام، ودخلَ أهلُ سبأ في دين الله، وصاروا مسلمين.

وتوقَّف عَرْضُ القرآنِ لقصةِ سليمان مع ملكة سبأ عند هذه اللقطةِ الختامية، وسكتَ عما تلا ذلك من مشاهدَ وأحداث، كما سكتَتْ عن ذلك السنة، فلا يوجَدُ حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ يتحدثُ عن ذلك.

فلا نَدري: هل تزوجَ سليمانُ ملكةَ سبأ أم لا؟ ولا ندري كيفَ كانتْ نهايتُها. وعلينا أنْ نقفَ عند ما وقفَ عندَه القرآنُ، وأن نسكتَ عنْ ما سكتَ عنه القرآن!!

[٨]

وفاة سليمان عليه السلام

جعل الله موت سليمان عبرة ودرساً:

في القرآن إشارةٌ مبهمةٌ إلى موت سليمان عليه السلام، وهي في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

ولا يوجَدُ حديثٌ صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ، يُزيلُ ما في الآيةِ

من إبهام، أَو يقدّمُ إضافاتٍ تفصّلُ في كيفيةِ موتِ سليمان عليه السلام. ولذلك سنبقى مع الآيةِ نحللُ كلماتِها، ونبيِّنُ معناها، ونأخذُ دلالتَها، ولا نلتفتُ للرواياتِ الواردةِ في كتب التفسير والتاريخ، لأَنها لا تستندُ إِلى حديثٍ صحيح.

لقد جعلَ اللّهُ الحكيمُ موتَ سليمان عليه السلام عبرةً للإنس والجن، ودليلاً عقيدياً إيمانياً لهؤلاءِ الذين كانوا في زمنه، وللذين يأتون من بعدهم.

إِننا نعلمُ أنَّ سليمانَ عليه السلام قد حكمَ الجنَّ والإنس، سخرَهم اللّهُ له، وجعلَهم طوعَ أَمره، وكانوا ينهمكون في الأعمالِ والصناعات التي يكلفُهم بها. وكان سليمانُ حازماً شديداً معهم، وكلُّ مَنْ يخالفُ يقيِّدُه بالأَصْفاد، سواءٌ كان من الإنسِ أم من الجن، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨].

وكان صالحو الجنِّ والإنس الذين معه مؤمنين مسلمين، لكن كانَ شياطينُ الجنِّ والإنسِ كفاراً، وكانوا يثيرون الشبهاتِ حولَ سليمان عليه السلام، ويُطلقون الإشاعاتِ حول الجن والإنس.

ومن الإشاعاتِ التي كان يطلقُها هؤلاء الشياطينُ والمتأثِّرون بهم، أنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، لأنَّ اللّهَ وهبهم طاقاتٍ وقدراتٍ خارقة، يتحرَّكون أَينما شاءوا، ويذهبون إِلى أيِّ مكانٍ أَرادوا، فلا يقفُ أَمامهم شيء، ولا يَعجزون عن أي شيء. ولهذا كانوا يعلمونَ الغيب.

وبما أنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، فإنَّ سليمانَ عليه السلام قد استفادَ منهم ومن علمِهم بالغيب في حكمِه وسلطانه، حيث كانوا يقدِّمون له أَخبارَ الغيب التي يعلمونها، فيستفيدُ منها في إِخضاعِ الآخرين والتحكم فيهم.

وكانت هذه الإشاعاتُ الشيطانيةُ تصدرُ عن الشياطين وسليمانُ حيٌّ

عليه الصلاة والسلام. وكان سليمانُ يفنِّدُها ويُبطلُها، لكنها كانت موجودة، وكان ضعافُ الإيمان من الجنِّ والإنس يصدِّقونها ويردِّدونها.

وأَرادَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يجعلَ موتَ سليمان عليه السلام إبطالاً عملياً لهذه الإشاعات، وتقريراً لحقيقةٍ إيمانيةٍ جازمة، وهي أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب، وأنَّ اللّهَ وحده هو الذي اختصَّ بعلمه.

هذا ما تخبرُنا عنه آيةُ سورةِ سبأ، التي تحدثَتْ عن موته. ولا ننسى أنَّ تلكَ الآية خاتمةُ آياتٍ تتحدثُ عن سليمان عليه السلام، حيث كان الكلامُ قبلَها عن الجن الذين يعملون بين يدي سليمان بإذنِ ربه، وعن حزمِه في حكمهم، وعن بعضِ الصناعاتِ الحديدية والنحاسية التي يَصنعونها، كالمحاريبِ والتماثيلِ والجفانِ والقدور الراسيات.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٤].

وبما أنَّ اللّهَ يخيِّرُ الأنبياءَ عند موتهم تكريماً لهم، فيختارونَ لقاءَه، فيقبضُ أَرواحَهم ويتوفاهم، كما مَرَّ مَعَنا من قبل، فقد خيَّرَ اللّهُ سليمانَ عليه السلام لـمّا جاءَه الأجل، فاختارَ لقاءَ الله، ولا توجَدُ أَحاديثُ صحيحةٌ تبيِّنُ كيفيةَ تخييرِ اللّهِ له، كما حصلَ مع موسى وداود عليهما السلام.

وبعدما اختارَ سليمانُ لقاءَ الله، قضى اللّهُ عليه الموت: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾.

ومعنى ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾: أَوْقَعْنا عليه الموت، وكلَّفْنا مَلَكَ الموتِ بالذهابِ إِليه لقبضِ روحه.

مات سليمان وهو متوكئ على عصاه أمام الجن:

وتشيرُ الآيةُ إلى أنَّ الجنَّ كانوا يقومون بأعمالِهم التي كلَّفهم سليمانُ بها، وهي أعمالٌ شاقةٌ متعبة، ويبدو أنَّ سليمانَ عليه السلام كان واقفاً أمامَهم، مراقِباً لهم، متكئاً على عصاه.

وبما أنَّ سليمانَ كان حازِماً شديداً معهم، فقد كانوا يَهابونَه ويَخافونَ منه، ولعلَّهم كانوا أثناءَ عملهم لا يرفعون رؤوسَهم، ولا يَنظرونَ إليه، هيبةً له وخوفاً منه.

في هذا الجوِّ الحازم شاءَ اللّٰهُ الحكيمُ أنْ يَقبضَ روحَ سليمانَ عليه السلام، ليبيِّنَ للجنِّ الخائفين المنهمكين في العمل، ولمن بعدهم، أنهم لا يعلمونَ الغيب.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

كان سليمانُ عليه السلام واقِفاً متكئاً على عصاه، وكان الجنُّ مُقبلين على أَعمالهم، منهمكين فيها، وأَرسلَ اللّٰهُ مَلَكَ الموتِ لقبضِ روحِ سليمان عليه السلام، ففاضَتْ روحُه وهو متكئٌ على عصاه، وبقيَ الجنُّ مُقبلين على العمل، على اعتبارِ أنَّ سليمانَ متكئٌ على عصاه مراقبٌ لهم، وهم لا يَرفعون رؤوسَهم خوفاً منه، ولا يَنظرون إليه هيبةً له.

وأَرسلَ اللّٰهُ ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ إلى عصا سليمان عليه السلام، وهي «الأَرَضَةُ» المعروفةُ بأكلِ الأخشاب، وصارتْ هذه الدابةُ تأكلُ العصا من الداخلِ وتنخرُها، فلما نُخِرت العصا لم تَحملْ جسمَ سليمان الميت عليه السلام، فانكسرتْ وخَرَّ جَسَدُ سليمان عليه السلام على الأرض!

ونظرَ الجنُّ إليه، وفوجئوا بما حصل، إذنْ سليمانُ عليه السلام ماتَ منذُ فترة، وكان جسدُه على العصا، وهم لا يعلمون أنه جسدٌ بدون روح، ولو كانوا يَعلمون الغيب، لاكتشفوا موتَه، إنهم لا يعلمونَ الحاضرَ البارزَ الظاهرَ أمامهم، فكيف يعلمون الغيب؟

إنَّ سليمانَ أَمامَهم ميت، وهم لا يعلمون أنه ميت، وجسدُه على العصا بدون روح، وهم يظنُّونَ أَنَّ روحَه فيه! فكيف يزعمونَ العلمَ بالغيب، وهم لا يعلمونَ الحاضر؟ ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

معنى «دابة الأرض» ومعنى «منسأته»:

و﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي: الأَرَضَةُ. وهي: «دودَةٌ أَوْ دُوَيْبَةٌ تأكلُ الخَشَبَ ونحوه. يقال: خَشَبَةٌ مَأْروضَة: أكلَتْها الأَرَضَة»[1].

وهذه الأَرَضَةُ السّوسَةُ معروفةٌ في أكل الخشب، حيث تنخرُه من الداخل، وتأكلُ لُبَّه، وتَبقى الخشبةُ من الخارج كأنها سليمة، مع أَنها في الداخل منخوبةٌ «مُسَوَّسَة»، وتَنكسرُ عند أولِ حادثة.

و﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: عَصاهُ التي كان يتوكأُ عليها. وهي لم ترِدْ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وهي اسمُ آلَة، على وزن «مِفْعَلَة». مثل: المِكْنَسَة: آلَةُ الكَنْس. والمِكْسَحَة: آلَةُ الكَسْح. والمِبْشَرَة: آلة البَشْر.

والمِنْسَأَةُ مشتقةٌ من «النَّسْء»، وهو التأخير.

وسميت العصا مِنْسَأَةً لأنَّ حاملَها يستعملُها في الزجر، فإذا استعملَها الراعي مع الغنم، وزجرها بها، فإنه يؤَخِّرُها بذلك ويوقفُها على ما يريد، ويوجِّهُها إلى ما يريد.

وفي «منسأَتَه» في الآية ثلاثُ قراءات:

الأُولى: قراءةُ ابن عامر: «مِنْسَأْتَه». بإسكان الهمزة. وهي لغةٌ فيها.

---

(١) المعجم الوسيط: ١٤.

الثانية: قراءةُ نافع وأبي عمرو وأبي جعفر: «مِنْساتَه» بتسهيلِ الهمزة، وتحويلِها إلى ألف.

ومن الشواهدِ على إبدالِ الهمزة أَلِفاً قولُ الشاعر:

إِذا دَبَبْتَ عَلى المِنْساةِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَباعَدَ عَنْكَ اللَّهْوُ وَالغَزَلُ

أي: إذا دببتَ على العصا.

والشاهد فيه كلمة «المِنْساة» بدونِ همزة، بل بالألف.

الثالثة: قراءةُ الباقين: «مِنْسَأَتَه» بالهمزةِ المفتوحة، على الأصلِ في تصريفِ الكلمة، لأنَّ الهمزةَ فيها أصلية. تقول: نَسَأَ، يَنْسَأُ، نَسْأً، ونَسيئَةً، ومِنْسَأَةً.

ومن الشواهدِ على ذلك قولُ الشاعر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ لا أَباكَ ضَرَبْتَهُ بِمِنْسَأَةٍ قَدْ جَرَّ حَبْلُكَ أَحْبُلا[1]

وإِضافةُ المنسأةِ إلى سليمانَ عليه السلام: «منسأتَه» تدلُّ على أَنَّ سليمانَ عليه السلام كان يستخدمُ العصا، ويستعملُها في أَعمالِه وحركاتِه ونشاطاتِه، يحملُها أَثناءَ سيره، ويتوكأُ عليها أَحياناً، ويزجرُ بها جنودَه وموظفيه أَحياناً.

وهو في استعمالِه للعصا يُذَكِّرُنا بموسى عليه السلام، عندما كانَ يستخدمُ العصا في التوكؤ عليها، والهشِّ بها على غنمه، وفي تحقيقِ مآربه الأُخرى. قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨].

لم يعلم الجن بموت سليمان إلا بعد ما خر على الأرض:

لقد اتكأَ سليمانُ عليه السلام على منسأته، بينما كانَ الجنُّ

---

(١) انظر تفسير الدر المصون للسمين الحلبي ٩: ١٦٣ ـ ١٦٦.

منهمكين في أَعمالِهم وصناعاتِهم، وقبضَ اللّهُ روحَه وهو على هذه الحالة، وبقيَ جسمُه مستنداً معتمداً على المنسأة، وهو بدونِ روح، وكلما نظرَ له جنيٌّ من الجنِّ العاملين بطرفِ عينه رآهُ معتمداً على عصاه، فأقبلَ على عمله بنشاطٍ وتفاعل.. واستمرَّ الجنُّ في عملهم فترةً من الزمن، وهم لا يَعلمون أنَّ سليمانَ عليه السلام قد مات، وأنَّ الذي أَمامهم هو جسمُ سليمانَ الميت.

لقد حكمَ سليمانُ الجنَّ مَيْتاً كما حكمَهم حياً! ولقد حكمهم جسَدُه الهامد، كما حكمَهُم جسمُه الحيُّ المتحرك!! وكانوا يهابونَه ويخافونَه وهو ميت، كما كانوا يهابونَه ويخافونَه وهو حي، لأنهم لم يعلموا أنه ميت.

وأرسلَ اللّهُ دابةَ الأرض «الأَرَضَة» إِلى منسأةِ سليمان، وبدأتْ تنخرُ فيها وتأكلُها من الداخل، فأكلَتْ لُبَّها وفرَّغَتْها، وحوَّلَتْها إِلى هيكلٍ خارجي مفرَّغٍ من الداخل.

ولم تَستطع المِنْسَأَةُ المفرَّغَةُ حمْلَ جسدِ سليمان عليه السلام، فانكسرت، وبذلك هوى جسدُه إلى الأرض، وخَرَّ عليها!

وسمعَ الجنُّ صوتَ جسدِه وهو يخرُّ على الأرض، وشاهَدوه وهو يهوي إِليها، ونظروا إِليه فإذا به ميْت، ونَظروا إِلى عصاه فإذا بها «مُسَوَّسَة» مَنخورة، وهذا معناه أَنه قد مضتْ فترةٌ من الزمن على وفاته.

كانت الفترة بين موته وسقوط منسأته قصيرة:

كم كانت الفترةُ بين وفاتِه وهو متوكئٌ على عَصاه، وبين خرورِه بعدما انكسرت العصا؟

ذهبَ بعضُهم إِلى تقديرِها بسنوات، أَو عشراتِ السنين! لأنَّ تَسَوُّسَ العصا. وَنَخْرَها بالسوس، وأَكْلَ لبِّها، يحتاجُ إِلى سنوات!

فهل يعقلُ هذا؟ هل يبقى سليمانُ عليه السلام مَيْتاً متكئاً على العصا سنواتٍ عديدة؟ أَلم يكتشفْ أَحدٌ غيابَه هذه المدة؟ أَلَم يبحثوا

عنه؟ وهو ليسَ رجلاً عادياً، بل مَلِكٌ يحكمُ مَمْلَكةً قوية كبيرة! وهل يُعقلُ أنْ يغيبَ الملكُ عن مملكته سنواتٍ عديدة دونَ أنْ يبحثَ عنه رجالُه؟

وهل يُعقلُ أنْ يبقى الجنُّ منهمكين في الصناعةِ والعمل طيلةَ هذه السنين، لا يَرفعون رؤوسهم، ولا يذهبونَ إلى الطعامِ والشرابِ والراحةِ والنوم؟ ألم يَجوعوا ويَعطشوا وينعسوا خلالَ هذه السنوات؟.

الذي نَراهُ أنَّ دابةَ الأرض لم تأكلْ منسأةَ سليمان عليه السلام لما ماتَ أكلاً طبيعياً، ولم يستغرقْ ذلك مدةً زمنيةً طويلةً امتدت سنوات.

الذي نراه أنَّ أكلَ دابةِ الأرض للمنسأة كان خارقةً من الخوارق، ومعجزةً من المعجزات، ولم يستغرقْ ذلك أكثرَ من عدةِ أيام، وهي المدةُ المعقولةُ ما بين موتِ سليمانَ عليه السلام وهو متوكئ على العصا، وما بين انكسارِها بعدَ أكلِ الأَرَضَة للُبِّها.

أمرَ اللّهُ دابةَ الأرض بأكْلِ لبِّ العصا في فترةٍ قصيرة ففعَلَتْ، وكان هذا معجزةً منه سبحانه، ليقدِّمَ دليلاً للجنِّ على أنهم لا يَعلمون الغيب.

وقد وقعَتْ في حياةِ سليمان عليه السلام معجزاتٌ عديدة عرفْنا منها:

الجنُّ الذين سخرهم اللّهُ له. والريحُ التي كانت تقطعُ مسافةَ الشهرين في يوم واحد. والمائةُ امرأة اللواتي جامعهنَّ سليمانُ في ليلةٍ واحدة، وسماعُه وفهمُه لمنطقِ الطير، ومحاورتُه للنملةِ والهدهد. وإسالةُ عينِ النحاسِ له. وذهابُ الهدهدِ من فلسطينَ إلى اليمنِ في فترةٍ قصيرة. وإِحضارُ عرشِ ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في لحظات!!

فلماذا لا يكونُ أكلُ دابةِ الأرض لمِنْسَأَةِ سليمانَ عليه السلام من هذا الباب؟ ولماذا لا نعتبرهُ معجزةً من المعجزات، تمَّ في فترةٍ زمنية قصيرة؟

هذا ما نرجحُه ونميلُ إليه. والله أعلم.

نقض علم الجن بالغيب لأنه خاص بالله:

والمهمُّ هو ما جَرى بعدما خرَّ على الأرض: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

تعجَّبَ الجنُّ لما سمعوا صوتَ خرورِه وسقوطِه على الأرض، وعَرَفوا أَنه قد مضى على وفاتِه ساعاتٌ أو أيام، بينما لم يَعلموا هم بذلك.

ولو عرفوا بموتِه ساعةَ موتِه ما لبثوا هذه الساعاتِ والأيامِ في العذابِ المُهينِ الشاقِّ المتعب، ولَتركوا ذلك العمل، وذَهبوا إلى الراحة.

إذن: هؤلاء الجنُّ لا يَعلمون الغيب، ولا يعلمونَ بعض الحاضرِ المشاهد!!

هذا ما أرادَ اللّهُ الحكيمُ إِقرارَه وتوضيحَه وترسيخَه من اختيارِه موتَ سليمانَ عليه السلام على هذه الطريقة. والجنُّ والشياطينُ كاذبون عندما يُشيعونَ أَنهم يعلمون الغيب، وهذا هو الدليلُ على كذبهم.

إنَّ اللّهَ سبحانَه هو الذي يعلمُ الغيبَ وحدَه، ولا يعلمَ أحدٌ من خلقِه من الغيب إلا ما عَلَّمَه اللّهُ إياه وأَظهرُه عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٥ ـ ٢٧].

وبعدَما تبيَّنَ لرجالِ الدولة وفاةُ سليمان عليه السلام دَفَنوه مكانَ وفاته، لأنَّ كلَّ نبيٍّ يُدْفَنُ حيث مات.

ولا نَعرفُ عمرَ سليمان عليه السلام عندما مات، كما لا نعرفُ مقدارَ سنواتِ حكمه، ملكاً وخليفةً على بني إسرائيل.

انهيار دولة اليهود بعد سليمان:

وبوفاةِ سليمانَ عليه السلام انتهى العصرُ الذهبيُّ المشرقُ لبني إسرائيل، المتمثلُ في دولتِهم القوية وخلافتهم الإيمانية.

بدأت الدولةُ على يدِ ملكهم المؤمن «طالوت»، ثم قويتْ وتمكَّنَتْ على عهدِ النبيِّ الملكِ والخليفةِ الرسول داودَ عليه السلام، ثم توسَّعَت الدولةُ وامتدتْ وترسختْ واستقرتْ على يدِ النبيِّ الملك والخليفة الرسول سليمانَ عليه السلام.

وكانت الدولةُ دولةً إسلامية، وخلافةً إيمانية، روحُها المسجدُ الأقصى الذي بناه ـ أو جدَّدَ بناءَه ـ سليمانُ في مقرِّ خِلاَفَتِهِ بيت المقدس. ووصلت الدولةُ الإيمانيةُ في عهدِ سليمان إلى اليمن، حيث أسلمَ قومُ سبأ، وانضمّوا مع ملكتهم مسلمين، وصاروا جزءاً من هذه الدولة.

وكان من رعايا دولةِ سليمان الإسلامية: الجنّ والشياطين والطير.

ولهذا وصلتْ هذه الدولة أَوْجَها وذروَتَها في عهدِ سليمانَ عليه السلام.

ولم تخبرْنا مصادرُنا الإسلامية، عن من استلمَ الحكمَ بعد سليمان عليه السلام، ولا عن ما حَلَّ بالدولةِ من بعده.

كلُّ ما نعرفُه من التاريخ أنَّ أَمْرَ قوةِ ورفعةِ الدولة لم يستمرَّ طويلًا، إذ سرعانَ ما دبت فيها الفرقةُ والاختلاف، فانفصلتْ سبأ عن الدولة، ثم زادَ الاختلافُ حتى انقسمت الدولةُ في الأرضِ المقدسة إلى أَقسام، وحكَمَها ملوكٌ ضعفاء، ووقعَ اليهودُ في المخالفات والمعاصي، وكفروا بالله، وكذَّبوا رسلَه، وقَتَلوا أنبياءَه، واتَّبعوا الباطل.

وكان نتيجةُ ذلك أنْ أوقعَ اللّهُ بهؤلاء اليهود غضبَه وعذابَه، فأزالَ دولتَهم، ودمَّرَ كيانَهم، ومكَّنَ أعداءَهم منهم، فأخرجَهم من الأرضِ المقدسة، وشَتَّتَهُم في مختلفِ بقاعِ الأرض..

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

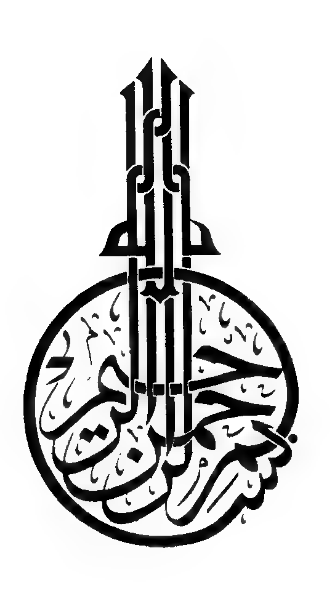
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الرابع

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

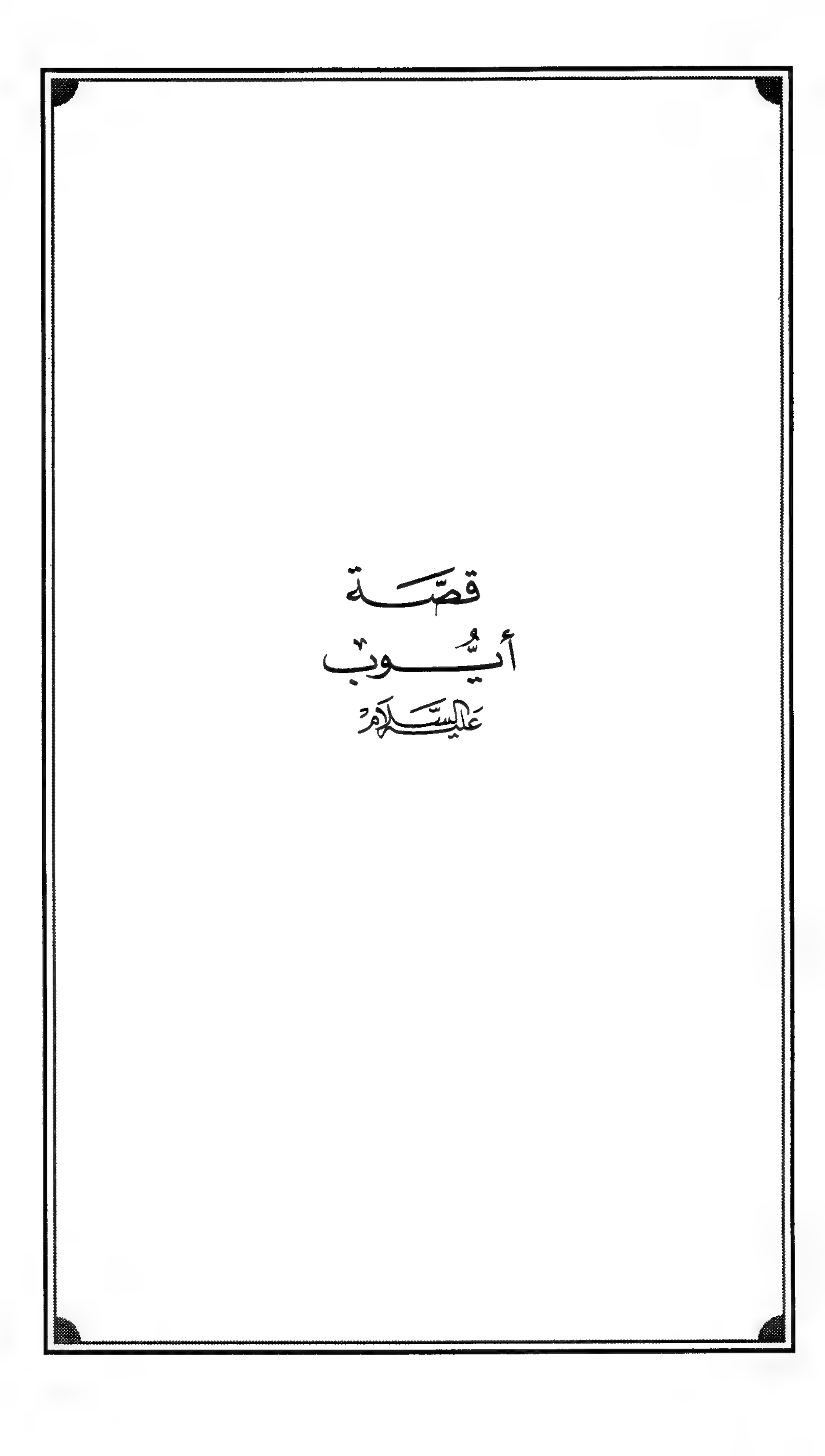

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



قصة
أيوب
عليه السلام



[١]

ذكر أيوب عليه السلام في القرآن

وردَ اسمُ أَيوبَ عليه السلام أربعَ مرات في القرآن: في سور النساء، والأنعام، والأنبياء، وص.

حديث سورتي النساء والأنعام عن أيوب:

في سورةِ النساء وردَ اسمُه ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

ونصَّت الآيةُ بأنَّ اللّهَ أَوحى إِلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الوحي، ومعلومٌ أنَّ جبريلَ عليه السلام هو أمينُ الوحي، وأنَّ اللّهَ كان يرسلُه إِلى مَنْ يتخذه نبياً، ليبلِّغَه النبوة.

فأيوب عليه السلام نبيٌّ من أنبياءِ الله، أَوحى اللّهُ إِليه، بنصِّ هذه الآية.

وفي سورةِ الأنعام وردَ اسمُ أيوب أيضاً ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء عليهم السلام، وذلك في ختامِ الحديثِ عن مشهدٍ من مشاهدِ قصةِ إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

الكلامُ في الآيةِ عن إبراهيمَ عليه السلام، لأنَّ الآياتِ السابقةَ تتحدثُ عنه، فالضميرُ في «له» يعودُ على إبراهيم عليه السلام. أي: أنَّ اللّهَ وهبَ لإبراهيم إسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام.

والراجحُ أنَّ الهاءَ في «ذريته» تعودُ على إبراهيم أيضاً عليه السلام، فالأنبياءُ المذكورون بعدَها هم من ذريةِ إبراهيم، وهم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وإسماعيل واليسع ويونس ولوط، عليهم السلام.

وهذا يدلُّ على أنَّ أيوبَ عليه السلام كان من ذريةِ إبراهيم أَبي الأنبياءِ عليه الصلاة والسلام.

وحديث سورتي الأنبياء وص عن أيوب:

وتحدثتْ سورةُ الأنبياءِ عن أيوبَ عليه السلام في آيتين من آياتها [٨٣ ـ ٨٤]، وموضوعُ الآيتين هو الإشارةُ السريعةُ إِلى ابتلاءِ أيوب عليه السلام، حيث تضرعَ إِلى ربه، طالباً منه كشفَ الضر، فاستجابَ اللّهُ له ورحمَه، فكشفَ ضُرَّه وعَوَّضَه من أهله مثلهم معهم.

وجاءتْ هذه الإشارةُ عن أيوب، بعد الإشارةِ إِلى لقطاتٍ من قصةِ داود وسليمان عليهم السلام.

وتحدثَتْ سورةُ ص عن أيوبَ عليه السلام في ثلاثٍ من آياتها: [٤١ ـ ٤٤]، وموضوعُ الآيات هو نفسُ موضوعِ آياتِ سورةِ الأنبياء، ابتلاءُ أيوبَ بالضر، لكن فيها بعضَ التفصيل والإضافة، وإنْ جاءَ هذا التفصيلُ المجملُ بصورةِ إشارةٍ سريعة أَيضاً.

تتحدثُ الآياتُ عن تضرعِ أَيوبَ إِلى ربه، طالباً منه رفعَ الضرِّ عنه، وتشيرُ الآياتُ إِلى أنَّ اللّهَ عافاه من المرضِ والضر، بأنْ دعاهُ إلى ماءٍ بارد، ليغتسلَ فيه ويشربَ منه. كما تشيرُ الآياتُ إِلى تكفيرِهِ عن يمينٍ أَقسمه بأنْ يأخذَ غُضْناً من شجرة، فيضربَ به مَنْ حلفَ أنْ يضربَه.

ويَشهدُ اللّهُ لنبيِّه أيوب عليه السلام بأنَّه وجَده صابراً، وأَنه كان نعمَ العبد للّهِ، الأوابِ إِلى الله.

وجاءَ الحديثُ عن أيوب بعدَ الحديثِ عن داود وسليمان، عليهم الصلاة والسلام.

وحديثُ القرآن عن أيوبَ بعد الحديث عن داود وسليمان عليهم

السلام في سورتي الأنبياء وص، يوحي بأنَّ أيوبَ عاشَ بعد داودَ وسليمان، وبعثَه الله نبياً إلى قومٍ بعدهما، وهذه إشارةٌ بالإيحاءِ والاستئناس، نذكُرُها من باب الاحتمالِ، والله تعالى أعلم.

هذه هي مواضعُ الحديثِ عن أيوب عليه السلام في القرآن، وحديثُ القرآن عنه هو إشاراتٌ سريعةٌ عن نبوتِه وابتلائِه وتضرعِه إلى الله، ثم استجابةِ الله له ورفع الضرِّ والعذاب عنه، وشهادةِ له بالصبر والإنابة إلى الله.

مبهمات في قصة أيوب:

ونلاحظُ أنَّ الحديثَ القرآنيَّ القصيرَ الموجزَ عن قصة أيوب عليه السلام، كان بهدفِ العبرةِ والعظة، ليقتديَ أصحابُ الابتلاء بأيوب عليه السلام في ابتلائه، ليصبروا كما صبر، ويتحمَّلوا كما تحمل، ويرضوا بقدرِ الله كما رضي هو، ويُقبلوا على الله كما أقبل هو، ويتضرَّعوا إلى الله كما تضرع هو، وينتظروا الفرجَ من الله كما انتظر هو.

ونلاحظ أنَّ هناكَ مبهماتٍ كثيرةً في حديثِ القرآن عن أيوب عليه السلام، وهذه المبهماتُ لم يرِدْ لها بيانٌ في الأحاديثِ الصحيحة.

من هذه المبهماتِ التي لن نُتعبَ أنفسنَا في بيانِها، لعدمِ وجودِ دليل عليها في الأحاديث والآيات: نَسَبُ أيوبَ عليه السلام، وتحديدُ الزمان الذي بُعث فيه، هل هو بعدَ إبراهيم أم بعدَ سليمان عليهم السلام، وتحديدُ القوم الذين بعثَهُ اللّهُ إليهم، وتحديدُ المدينةِ أو المنطقةِ التي عاشَ فيها، وتحديدُ عمرِه عند النبوة، وعمرِه الذي مات عنه، وعددِ أهله منِ الأولاد والبنات، وأسماءِ زوجِه وأولادِه وبناته، وعددِ أمواله من الأنعام والماشية، وتحديدُ سببِ ابتلائه، وأنواعِ الأمراضِ التي أصابتْه، وتفاصيلُ هلاك أمواله وأهله، وتفاصيلُ الحوارِ بينه وبين أصدقائه، ومظاهرُ مرضه وتطوراته عليه، وتفاصيلُ الخلاف بينه وبين امرأته، ثم تفاصيلُ شفائِه من الأمراض، وتفاصيلُ عودةِ أهله وأمواله.

كلُّ هذه الموضوعات والمسائل من «مبهمات القرآن» التي لم يَرِدْ

بيانٌ لها في الآيات والأحاديث الصحيحة المرفوعة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فلا نحاولُ بيانَها، ولا نَخوضُ في الحديثِ عنها.

التحذير من سفر أيوب في العهد القديم:

هذا وقد وردَ الحديثُ عن أيوبَ عليه السلام في العهدِ القديم، وخَصَّصَ مؤلفو العهدِ القديم له سَفْراً خاصاً، هو السِّفْرُ الثامن عشر من أَسفارِ العهد القديم، وتحدَّثوا عنه في اثنين وأربعين إصحاحاً، وفصَّلوا الكلامَ عن سيرتِه وأمراضِه، وتسليطِ الشيطان عليه، وإهلاكِه لأمواله وأولاده، ثم إصابتهِ بالأمراض العديدة المنفرة، كما فصَّلوا الكلامَ في الحواراتِ بينه وبين أصدقائه الذين كانوا يزورونه، ويؤنِّبونَهُ على كلامه.

وقد صوَّرَ مؤلفو «سَفْرِ أيوب» في العهد القديم أيوبَ عليه السلام بصورةِ الإنسانِ المحبطِ الجزعِ اليائس، مما أصابه من الابتلاء والأمراض، الإنسانِ الكارهِ للحياة، الذي يتمنّى الموت، الإنسانِ الساخطِ على الله، المحتجِّ عليه، المعترضِ على قدره، الذي يكلِّمُه بعباراتٍ كلُّها وقاحة وشكوى واعتراض ولومٌ وتأنيب، عبارات نجزمُ جَزْماً أَنها لم تصدرْ عن نبيِّ الله أيوب عليه السلام.

وقد استهوَتْ هذه التفصيلاتُ عن أيوبَ عليه السلامِ في التراث الإسرائيلي بعضَ المؤرخين والمفسرين من المسلمين، فأوردوها في تواريخهم وتفاسيرهم، وفسَّروا بها كلامَ الله سبحانه.

ونحنُ على منهجِنا في بحثِ القصص القرآني سنتجاوزُ هذه التفصيلات، ولا نلتفتُ إِليها، وسنبقى مع حديثِ القرآن عن ابتلاء أيوب عليه السلام.

[٢]

حديث سورة الأنبياء عن ابتلاء أيوب

كان الحديثُ عن ابتلاءِ أيوبَ عليه السلام في سورةِ الأنبياء مجْمَلاً موجَزاً، على شكلٍ إِشارةٍ سريعة.

نداء أيوب لربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾:

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

«أيوبَ» في الآية منصوب، على أنه مفعولٌ به لفعلٍ مقدَّر، تقديرُه: اذكُرْ أيوبَ.

هذا هو الراجحُ في إعرابه، لأن الفعلَ الذي قَدَّرْناه هنا مذكورٌ صراحةً في سورة ص. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ . . .﴾ [ص: ٤١].

والخطابُ في الآيةِ لرسولِنا محمدٍ ﷺ، ولكلِّ مسلم متذكِّرٍ من بعده، يَدعوه اللّهُ إلى أنْ يتذكَّرَ قصةَ أيوب عليه السلام وابتلائه، ليأخذَ منها العبرةَ والعظة والفائدة.

و«إذْ» ظرفُ زمان بمعنى «وَقْت». والجملةُ بعده ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ في محلِّ جرٍّ مضافٍ إليه. أي: وقْتَ ندائِه لربه.

فالقرآنُ يدعونا إلى تذكُّرِ هذه اللقطةِ الإيمانيةِ العباديةِ من قصة أيوب عليه السلام: واذكُرْ أيوبَ وقْتَ ندائِه لربِّه.

متى نادى أيوبُ ربَّه؟ ومتى تضرَّعَ إليه واستغاثَ به؟

بعد أَن ابتلاهُ اللّهُ بالضرِّ الذي أَصابَه، والذي سيطرَ عليه، وبعدَ أنْ واجَهَ هذا الضرَّ والابتلاء بالصبرِ والاحتساب، وبعد أنْ رضيَ بقضاءِ الله وقَدَرِه، وطلبَ بذلك الأجرَ والثواب منه.

ونداءُ أيوبَ لربِّه ليكشفَ عنه ضرَّه، وكان نداؤُه قولَه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أَطْلَعَ أيوبُ في ندائِه ربَّه على حالِه وابتلائه ومرضِه، وهو يعلمُ

أنَّ ربَّه مطّلعٌ عليه، عالمٌ بحاله، لكنه يريدُ أنْ يسألَه ويتضرَّعَ إليه ويدعوه لكشفِ هذا الضر.

ومعنى «مسني»: أصابني وَوَقَعَ عليّ.

و«الضرّ» هو الأذى والمرضُ الذي أوقعه اللّهُ على جسمه، والذي مسَّ وأصابَ بدنَه.

الفرق بين الضُّر بالضم والضَّر بالفتح:

والضُّرّ مشتقٌ من «ضَرَرَ». يقال: ضَرَّه ضُرّاً وضَرَراً. إذا ألحقَ به مكروهاً أو أذى.

والضُّرُّ هو: ما كان من سوءِ حالٍ أو فقرٍ أو شدةٍ في البدن[1].

وقد جعلَ الإمامُ الراغبُ الضُّرَّ على ثلاثةِ أوجه. قال: «الضُّرّ: سوءُ الحال. إمّا في نفسه: لقلةِ العلمِ والفضلِ والعفة. وإمّا في بدنِه: لعدم جارحة ونقص، وإمّا في حالةٍ ظاهرة: من قلةِ مالٍ وجاه.

وقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ محتملٌ لهذه الثلاثة..»[2].

وقد وَرَدَ في القرآن مصدران: الضَّرُّ بالفتح. والضُّرُّ بالضمّ. وليسا بمعنى واحد، لأنه لا ترادفَ في القرآن.

الضَّرُّ - بفتحِ الضاد - وَرَدَ عشرَ مرات، وهو في هذه المراتِ كلّها مذكورٌ في مقابلةِ النفع. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا..﴾ [المائدة: ٧٦]. وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ..﴾ [الحج: ١٣].

أمّا الضُّرُّ - بضم الضاد - فقد وَرَدَ تسعَ عشرةَ مرة. وهو في هذه

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ٥٣٧ - ٥٣٨.

(٢) المفردات: ٥٠٣.

المرات كلّها مطلق، لم يُذكَرْ مقابلهُ النفع. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. وكما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

وبما أَنه بالفتحِ مقرونٌ بالنفع، وبالضمِّ مطلق، فيبدو أَنَّ «الضُّرَّ» أعمُّ، لأنه لم يُذكر ما يقابلُه في القرآن. أمّا «الضَّرُّ» بالفتح فهو أَخَص.

ويدلُّ قولُ أيوبَ عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ على أنَّ اللَّهَ ابتلاه ابتلاءً عاماً، فأَوْقَعَ به ضُرّاً مطلقاً، شاملاً لعدةِ أَنواعٍ من المكروه والأذى.

مَسَّهُ الضرُّ في نفسِه وبدنِه، حيث أَصابه المرضُ والضعف. ومَسَّهُ الضُّرُّ في أهلِه وأولاده، ولا نعرفُ كيف، ومَسَّهُ الضُّرُّ في أمواله وممتلكاته، ولا نعرفُ كيف.

وعدمُ تقييدِ المجال الذي أَصابه الضرُّ في الآية: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ يدلُّ على العمومِ والشمولِ واستغراقِ كل المجالات والجوانب.

أدب أيوب مع الله في دعائه له:

وبعدما ذكرَ أَيوبُ عليه السلام حالَتَه بهذه الجملة الموجزة: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، ذكَرَ رحمةَ الله الغامرة، فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وهذه الجملةُ الاسمية ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ في محلِّ نصبِ حال. لأنَّ «الواو» فيها هي واوُ الحال. أي: أنا مسني الضر، والحالُ أنك أرحمُ الراحمين.

ومعنى هذه الجملة أنَّ أيوبَ عليه السلام يتوسَّلُ إلى الله برحمتِه أنْ يكشفَ عنه ضرَّه، فاللّهُ رحمنٌ رحيم، وهو أرحمُ الراحمين، ومن مظاهرِ رحمته أنْ يكشفَ الضرَّ عن عباده، وبخاصةٍ إذا كانوا عباداً صالحين كأيوب عليه السلام.

وعندما ننظرُ في دعاءِ أيوب عليه السلام لربِّه، فسوف نرى أَنه كان في غايةِ الأَدبِ مع الله، والرضا بقدر الله، والرغبة في كشف ابتلاء الله.

إِنه لم يفصِّلْ في الضرّ الذي مسَّه، ولم يسترسلْ في الكلامِ عنه، فقطْ أشارَ إلى أنَّ هذا الضرّ مسَّه. ليس في دعائِه شكوى أو سخط، ولا تبرُّمٌ أو اعتراض. فلم يعترضْ على ابتلاءِ الله له، ولم يسخطْ على قدرِ الله.

أين هذا الخطابُ العفيفُ والدعاءُ الأديب والمناجاةُ الراضية، مما نسبَهُ له اليهودُ المجرمون مؤلّفو العهدِ القديم، من عباراتٍ كلُّها توقُّحٌ على الله، ولومٌ وتأنيبٌ له، وذمٌّ لقَدَرِه؟ إنَّ أيوبَ الأديبَ مع الله منزَّهٌ عن افتراءاتِ مؤلفي سَفْرِ أيوب في العهدِ القديم.

ودعاءُ أيوبَ عليه السلام لربِّه، وتوسُّلُه برحمتِه ليكشفَ عنه الضر، دليلٌ على أنَّ الأصلَ في المبتلى بالضّرّ أنْ يطلبَ من اللّهِ كشفَ ضره، وأنْ يتضرعَ إِليه ويدعوه راغباً في ذلك، على شرطِ أنْ يكونَ دعاؤه وتضرعُه بأدبٍ مع الله، وعدمِ الاعتراض عليه، أو السخطِ على قدره.

وهذا الدعاءُ والتضرعُ من لوازم الإيمانِ بالله، ولا يُنافي تسليمَ الأمرِ لله، والرضا بقدره، وإنّ اللّهَ يريدُ من عباده دعاءَه وطلبَ حاجاتِهم منه.

استجاب الله لدعاء أيوب وكشف ضره:

وبعدما دعا أَيوبُ عليه السلام ربَّه استجابَ اللّهُ له، فكشفَ عنه ضرَّه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ..﴾.

وجملةُ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وعُطِفَتْ عليها بحرفِ العطفِ «الفاء»، وهذا الحرفُ يدلُّ على الترتيبِ والتعقيب الفوري، أي أنَّ الاستجابةَ كانت فورية، وبعد الدعاءِ مباشرة،

وهذه الاستجابةُ رحمةٌ من الله به، وقَدَّرَ اللّهُ أنْ يجعلَها مترتِّبةً على الدعاء، فالدعاءُ سببٌ في الاستجابة، لكنَّ المسبَّبَ والمقدَّرَ والمريدَ هو الله سبحانه.

وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وجملةُ ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾ معطوفة على جملةِ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ بحرفِ العطفِ الفاء، الدالِّ على الفورية، أي أنَّ كشْفَ الضرِّ عنه كان مباشراً للاستجابة، وكان ثمرةً فورية لها.

وكشْفُ الضرِّ الذي مسَّه، وإزالتُه عنه، دليلٌ على رحمةِ الله به، بعدما نجحَ في الابتلاء، وصبرَ على البلاء.

وإنَّ اللّهَ هو الذي يكشفُ الضرَّ عن عباده، ولا يزيلُه أحدٌ غيرُه سبحانه وتعالى. قال عز وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

ولا تبينُ الآيةُ كيفيةَ كشفِ الضرِّ عن أيوب عليه السلام، وإنْ كانَ هناك إشارةٌ خاطفةٌ في آيةِ سورة ص، سنتوقفُ عندها قليلاً عندما نصلُها إنْ شاء الله.

الله رحم أيوب وجعل قصته ذكرى للعابدين:

كشفَ اللّهُ عن أيوبَ الضرَّ الذي مسَّه في بدنه، وعافاه من أمراضه، كما أزالَ الضرَّ الذي أصابه في أهله، وضاعَفَهم له: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ..﴾.

وهذه الجملةُ مبهمةٌ غيرُ مبينة، وكلُّ ما نأخذُه منها أنَّ اللّهَ آتى أيوبَ عليه السلام أهله، وآتاه مثلَهم معهم أيضاً.

أما تحديدُ هؤلاء الأهل فلا دليلَ عليه. فلا نعرفُ درجةَ قرابةِ

الأهلِ له، وهل هم أولادُه أم بناته، ولا نعرفُ عَدَدهم، ولا نعرفُ كيفَ آتاهُ الله إياهم، ولا نعرفُ كيف آتاهُ مثلَهم معهم، وهل كان بمضاعفةِ عددِ أولاده أم بوسيلةٍ أخرى.

لا نخوضُ في هذه التفصيلات لعدمِ وجودِ أَحاديثَ صحيحة نعتمدُ عليها، ونَبقى عند بيان القرآن.

وأَخبرَنا اللّهُ أنهُ كشفَ عن أيوب الضرَّ وآتاهُ أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً منه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾. أي: فعلَ ذلك به رحمةً منه له.

فأيوبُ عليه السلام طامعٌ في رحمة الله، حيث قال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، واللّهُ عند حسنِ ظنِّه، حيث استجابَ له برحمته: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

وجعلَ اللّهُ قصةَ أيوبَ عليه السلام ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

والعابدون هم المؤمنون بالله، المستسلمون له، الراضون بقضائه، الصابرون على ابتلائه، المتضرعون إليه.

إِذا ابتلاهم اللّهُ بالضرِّ يتذكَّرون ابتلاء أيوب عليه السلام، فيقتدون به في فعلِه، فيصبرون ويحتسبون، ويطلبونَ من اللّهِ كشفَ الضرِّ عنهم برحمته، بدونِ جزعٍ ولا سخط.

[٣]

أيوب المبتلى الصابر الأواب في سورة ص

قلنا إِنّ ابتلاءَ أيوبَ عليه السلام في سورة الأنبياء، جاءَ على صورةِ إِشارةٍ سريعةٍ خاطفة.

ما أضافته سورة ص على سورة الأنبياء من قصته:

أما سورةُ ص ففيها بعضُ توضيحٍ لذلك، وذلك التوضيحُ لا يخرجُ عن كونه إِشارةً سريعة أيضاً.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ - ٤٤].

وما أضافَتْه آياتُ سورةِ ص على آيات سورة الأنبياء، أنَّ أيوبَ عليه السلام نسَبَ ما به من نَصَبٍ وعذاب إلى الشيطان، وأنَّ اللّهَ لما أرادَ كشفَ ضرِّه أمره أنْ يركضَ برجله، وأنْ يغتسلَ ويشربَ من الماءِ البارد، وحَلَّلَه من يمينه بأن يضرب الآخر بضغث.

بدأت الآياتُ بأمرِ رسولِ الله ﷺ بذكْرِ وتذكُّرِ قصةِ أيوبَ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾. وهذا الخطابُ ليس خاصاً برسول الله ﷺ، وإنما هو عامٌّ يشملُ كلَّ مسلمٍ من بعده.

والهدفُ من ذكْرِ وتذكُّرِ قصةِ أَيوب عليه السلام هو الاقتداءُ به في موقفِه من الابتلاء بالضراء، والاستفادةُ من ذلك في مزيدِ من الإقبالِ على الله.

لماذا وصف أيوب بالعبد؟:

وقد أَثنى اللّهُ على أيوبَ عليه السلام حيثُ وصفَه بالعبودية، وجاءَ ذلك في بدايةِ الآيات: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ وفي آخر الآيات: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

كان أيوبُ عليه السلام صادقَ العبوديةِ لله، وكان ما يأتيه من اللّهِ من ابتلاءٍ يزيدُه عبوديةً لله، ورضا بقدره، وخضوعاً واستسلاماً له، كيف لا يكونُ كذلك وهو نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، والأنبياءُ أكثرُ الناسِ عبوديةً وطاعةً وخشيةً لله.

ووصْفُه بالعبوديةِ لله في سياقِ الحديثِ عن الابتلاء يدلُّ على أنَّ مِن حكمةِ ابتلاءِ الله لعبادِه بالبأساء والضراء تعميقَ عبوديتِهم له،

فالمؤمنُ المبتلى بالضر، يزدادُ عبوديةً وخضوعاً لله، عندما يصبرُ ويحتسب، ويُقبلُ على الله داعياً منيباً متضرعاً خاشعاً، وإنَّ اللّهَ يحبُّ العبدَ اللحوحَ في الدعاء.

ولما ابتلى اللّهُ أيوبَ نادى ربَّه وتضرعَ إليه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

النصب والعذاب الذي أصابه:

وفي قوله: «بِنُصْبٍ» ثلاثُ قراءات:

الأولى: قراءةُ أَبي جعفر المَدني: «بِنُصُب». بضمِّ النون والصاد.

الثانية: قراءةُ يعقوب: «بِنَصَب». بفتحِ النونِ والصاد.

الثالثة: قراءةُ الثمانية الباقين: «بِنُصْب». بضمِّ النون وسكونِ الصاد.

قال الإمامُ الراغب: «النُّصْبُ، والنَّصَبُ: التَّعب. مثل: بُخْل وبَخَل»[1].

وقال السمين: «النُّصْبُ والنَّصَبُ: التعب. قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]، وكذلك هو البُخل والرُّشد. تقول: بُخْلٌ وبَخَلٌ، ورُشْدٌ ورَشَدٌ، وَعُدْمٌ وعَدَمٌ، وحُزْنٌ وحَزَنٌ، وعُرْبٌ وعَرَبٌ. بالضمِّ والفتحِ فيها كلها»[2].

وفرَّقَ الإمامُ الطبريُّ بين الكلماتِ الثلاثة: النُّصْبُ والنَّصَبُ والنُّصُبُ:

«النُّصْبُ ـ بضمِّ النون والسكون ـ العلةُ التي أصابتْه في جسده.

والنَّصَبُ ـ بفتحِ النون والصاد ـ الإِعياء.

---

(١) المفردات: ٨٠٧ ـ ٨٠٨.

(٢) عمدة الحفاظ ٤: ٢٠٨.

والنُّصُبُ ـ بضمّ النون والصاد ـ العذاب.

والنَّصْبُ ـ بفتحِ النون وسكون الصاد ـ البلاءُ والشر.

قال قتادة: النُّصْبُ: الضرُّ الذي أَصابَه في جسده. والعذابُ: ذهابُ المال والأهل..»[1].

ونحنُ مع قتادة رحمه الله في التفريقِ بين النُّصْبِ والعذاب، في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. حيثُ حملَ النُّصْبَ على الضرِّ الذي أَصابَه في جسده، والذي سببَ له التعبَ والمشقة والإِعياءَ والمرضَ والأذى والألم، أمّا العذاب، فهو الابتلاءُ الذي صَبَّه اللّهُ على مالِه وأهله، حيثُ أهلَكَ اللّهُ مالَه.

ونسبَ أَيوبُ عليه السلام ما مسَّه من نُصْبٍ وعذابٍ إلى الشيطان: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: وهذا من أَدَبِهِ مع الله. وإلاّ فإنَّ اللّهَ هو الذي قَدَّرَ أنْ يبتليَه، ويوقعَ به الضر، ويُصيبَه النَّصَبُ والعذاب، لأنَّ اللّهَ هو الذي يفعلُ ما يشاء، ويوقعُ بعباده ما يشاء، وكلُّ ما يصيبُهم من ضرٍّ أو نفع، وخيرٍ أو شر، فهو من الله في الحقيقة، لأنَّ الأُمورَ كلَّها بيده، الخلْقُ خلقُه، والأمْرُ أمْرُه، والفعْلُ فعْلُه سبحانه.

المصائب بين كسب الإنسان وإرادة الله:

لكن ما يصيبُ الناسَ من ضرٍّ أو مصيبةٍ فبسببِ أَفعالِهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.. [الشورى: ٣٠].

إنَّ أفعالَهم سببٌ ماديٌّ ظاهريٌّ لما يصيبهم، أمّا المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريدُ فهو اللّهُ سبحانه. فما يصيبُ العبادَ منسوبٌ إليهم كسباً وسعياً، ومنسوبٌ إلى الله خلقاً وإرادة!!

وقد جمعَ القرآنُ بين هاتيْن النِّسبتين: نسبةِ الضرِّ والسيئةِ إلى الله،

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٦: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

ونسبتهما إلى الناس، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩].

ومع تأكيدِ هذه الحقيقةِ الإيمانية عند المؤمنين إلاّ أنهم لا ينسبونَ الضرَّ والشرَّ إلى الله، أَدَباً مع الله.

قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٠]. فَنَسَبَ الهدايةَ والإطعامَ والسقايةَ والشفاءَ إلى الله، ونسبَ المرضَ إليه، أَدَباً مع الله، مع أنه في الحقيقةِ من الله.

وقالَ يوشعُ فتى موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ..﴾ [الكهف: ٦٣]. فصرح بأن الشيطان هو الذي أنساه الحوت.

لا سلطان للشيطان على أيوب:

على هذا الأَساس ينبغي أنْ نفهمَ نسبةَ أيوبَ عليه السلام إيقاعَ الضرِّ به إلى الشيطان: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ حيثُ فعلَ هذا أَدَباً مع الله، وإلاّ فإنَّ الضرَّ والنَّصَبَ قد أصابَه بأمْرِ الله وقَدَرِه سبحانه، ابتلاءً واختباراً له عليه السلام.

وفي الحقيقةِ فإنَّه لا سلطانَ للشيطانِ على أيوبَ عليه السلام، لأَنه نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، وعَصَمَ اللّهُ أَنبياءَه من الشيطان، فلم يجعلْ له سلطاناً عليهم.

ونُحذرُ في هذا المقام من أَكاذيبِ «سَفرِ أيوب» في العهد القديم، التي سَجَّلَها أَحبارُ اليهود الكفار، مؤلِّفو أَسفارِ العهدِ القديم، والتي زعموا فيها أَنَّ الشيطانَ طلبَ من الله أَنْ يسلِّطَه على أيوب، فسلَّطَه

عليه، فأهلكَ أهلَه، وأبادَ أموالَه، وقضى بالمرض على جسده، فشكا وضْعَه إِلى الله..

وقد رَدَّدَ معظمُ المفسرين هذه الأكاذيبَ في تفاسيرهم، وفسَّروا بها قولَه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. ولا يَجوزُ أنْ يُفَسَّرَ كلامُ الله بهذه الإسرائيليات المكذوبة المفتراة.

القاضي ابن العربي يرفض الإسرائيليات في ابتلاء أيوب:

ونقلَ الإمامُ القرطبيُّ في تفسيرِه كلاماً جيداً للقاضي أبي بكر بن العربي، في الردِّ على تلك الإسرائيليات، ولوْمِ الذين ردَّدوها من المسلمين.

قال: «والذي جَرَّأَهم على ذلك، وتَذَرَّعوا به إِلى ذكر هذا، قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. فلما رأَوه قد شَكا مسَّ الشيطان، أَضافوا إِليه من رأْيهم ما سبقَ من التفسير في هذه الأقوال.

وليسَ الأمرُ كما زعموا.

والأَفعالُ كلُّها، خيرُها وشرُّها، في إِيمانِها وكفرها، وطاعتها ومعصيتها، خالِقُها هو الله، لا شريكَ له في خلْقِه، ولا في خلْقِ شيءٍ غيرِها.

ولكنَّ الشرَّ لا يُنسبُ إِليه ذكْراً، وإِنْ كان موجوداً منه خَلْقاً، أَدَباً أَدَّبَنا به، وتَحميداً عَلَّمَناهُ. وكانَ من ذكْرِ محمد ﷺ لربِّه به قولُه من جملته: «والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إِليك..»، على هذا المعنى.

ومنه قولُ إِبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.
وقال الفتى للكليمِ عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ..﴾.

ولم يصحّ عن أَيوبَ عليه السلام في أَمْرِه إِلاّ ما أَخبرَنا اللهُ عنه في كتابه، في آيتين: الأُولى قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ

نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾. والثانيةُ في سورة ص: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وأمّا النبيُّ ﷺ فلم يصحّ عنه أنه ذكَرَه بحرفٍ واحد، إلاّ قوله: «بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه...» الحديث.

وإذْ لم يصحّ فيه قرآنٌ ولا سنة إلاّ ما ذكرناه، فمَنِ الذي يوصِلُ السامعَ إلى أيوبَ خبرَه؟ أمْ على أيِّ لسانٍ سمعَه؟.

والإسرائيلياتُ مرفوضةٌ عند العلماءِ على البتات، فأَعْرِضْ عن سطورِها بَصَرَك، واصْممْ عن سماعِها أُذنَيْك، فإنّها لا تُعطي فكرَك إلا خيالاً، ولا تَزيدُ فؤادَك إلاّ خبالا...[1].

والخلاصةُ أنه لا سلطان للشيطان على أيوبَ عليه السلام في الحقيقة، وأنَّ اللّهَ هو الذي ابتلاهُ بالنَّصَبِ في بدنه، والعذابِ في ماله، ولكنه ما نسبَ ذلك إلى الله أدباً في مخاطبته، وفي نسبةِ الأُمورِ إليه.

كيفية شفاء أيوب من الضر:

ولما شكا أَيوبُ عليه السلام أَمْرَه وضرَّه إلى الله، بمنتهى الأدبِ والذوقِ واللطفِ أرشدَه اللّهُ إلى العلاج، فقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

قال الراغب: «الركْضُ: الضَّرْبُ بالرِّجْل. فمتى نُسِبَ إلى الراكبِ فهو إغداءُ مَرْكوب، نحو: رَكَضْتُ الفَرَس. ومتى نُسِبَ إلى الماشي فهو وطءُ الأرض..»[2].

يقال: رَكَضَ ركْضاً: إذا عَدا مسرعاً. ويقال: رَكَضَ منه: إذا هربَ منه. ويقال: ركضَ برجله: إذا ضربَ الأرض برجله[3].

---

(١) تفسير القرطبي ١٥: ٢١٠.

(٢) المفردات: ٣٦٤.

(٣) القاموس المحيط: ٣٦٩.

ومعنى قولِ الله لأيوب عليه السلام: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾: اضرب الأرضَ برجلك.

ويبدو أنه كان واقِفاً على الأرض، وليس أَمامَه عينُ ماء، فلمّا أَمَرَهُ اللّهُ أنْ يضربَ الأرضَ برجله، أرادَ أنْ يحققَ معجزةً من معجزاتِه على يدِ أيوبَ عليه السلام.

فلما ضربَ الأرضَ برجله، أَنبعَ اللّهُ عيناً من الماءِ البارد، وَضَرْبُهُ الأرضَ برجله سببٌ لنبْعِ عينِ الماء، لكنَّ المسبِّبَ والمقدِّرَ هو الله. وهذه معجزةٌ من معجزاتِ الله، تذكِّرُنا بمعجزةِ تفجيرِ العيون من الحجر، لما ضربَه موسى عليه السلام بعصاه، وتذكِّرُنا بمعجزةِ نبْعِ ماءِ زمزم أمامَ الرضيعِ إسماعيل لما ضربَ جبريلُ الأرضَ بجناحه.

وبعدما أَنبعَ اللّهُ لأيوبَ الماءَ البارد، جعلَ هذا الماءَ الباردَ سبباً لشفائِه من الأمراض، وإزالةِ الضر عنه، فأَمَرَهُ بالاغتسالِ بهذا الماء ثم الشربِ منه: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

و«مُغْتَسَلٌ»: اسمُ مفعول، وهو الماءُ الذي يُغْتَسَلُ به، لأنَّه وَصَفَهُ بأنه بارد، وهو وصفٌ للماء. والمعنى: هذا ماءٌ بارد، قمْ فاغتسِلْ به ليزولَ الضُّرُّ عن بدنك من الخارج، ثم اشرَبْ منه ليزولَ عنك الضرُّ من الداخل.

ونَفَّذَ أَيوبُ عليه السلام أمْرَ الله، فاغتسلَ من عينِ الماء البارد، فذهبَ عنه المرضُ الخارجيُّ الذي أَصابَ بدنَه. ثم شربَ من ذلك الماء البارد فأَذهبَ عنه المرضَ الباطنيَّ الذي أَصابَه.

وكما كان نبعُ الماءِ من تحتِ رجْلِ أيوبَ عليه السلام معجزةً من الله، كذلك كان ذهابُ مرضِه الظاهريِّ لما اغتسلَ منه، وذهابُ مرضِه الباطنيِّ لما شربَ منه، معجزةً من الله أيضاً.

وهكذا شاءَ اللّهُ أنْ يُزيلَ عن أيوبَ عليه السلام النَّصَبَ والعذاب،

وأنْ يكشفَ عنه الضر. فاللّهُ هو الذي ابتلاه، واللّهُ هو الذي عافاه، الفعْلُ فعْلُه في الحالين.

وبعدَما عافى اللّهُ أيوبَ من ضُرِّه ونَصَبه الذي أصابَه في جسمه، عَوَّضَه أهْلَه الذين تضرروا أَيضاً، ومالَه الذي تأثر أيضاً، فوهَبَه أهلَه ومثْلَهم معهم، كما قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

نظرة في التعقيب على الحادثة في سورتي الأنبياء وص:

ونلاحظُ أنَّ التعقيبَ في هذه الآية يكادُ يكونُ نفسَ التعقيبِ في آيةِ سورة الأنبياء.

فقالَ الله في سورة الأنبياء: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

وقالَ الله هنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

يَلتقي التعقيبان في السورتين على تقريرِ حقيقةِ أنَّ اللّهَ هو الذي فَرَّجَ عن أيوبَ عليه السلام، وأزالَ عنه الضرر، ووهبَه أهْلَه، وآتاهُ إياهم، وعَوَّضَه بأنْ وهَبَه مثلَهم معهم ـ ولا ندري كيف ـ وأنه فعلَ ذلك رحمةً منه له، لأنه توسَّلَ إلى الله برحمته. وهذه حقيقةٌ إيمانيةٌ ينبغي أنْ لا تُنسى.

كما يلتقي التعقيبان على ما يمكنُ أنْ يستفيدَه المؤمنون من قصةِ أَيوب عليه السلام، وعلى الحكمةِ من إيرادِ مجملها في القرآن، حيثُ جَعَلَها اللّهُ ذكرى للعابدين.

وبينما ذكرتْ آيةُ سورةِ الأنبياء أنَّ اللّهَ جعلَها ذكرى للعابدين، فقد ذكرتْ آيةُ سورةِ ص أنَّ اللّهَ جعلَها ذكرى لأُولي الألباب.

وأُولو الألباب هم أَصحابُ العقول الكبيرة الواعية الحكيمة، هم أَصحابُ الفطنةِ والذكاء، هم الذين يَستفيدون من الابتلاءِ بالسراء

والضراء، فلا يَبطرونَ عند الرخاء، ولا يَجزعون عندَ البلاء، فيشكرونَ الله في الأُولى، ويَصبرونَ على امتحانه في الثانية.

وكان أيوبُ عليه السلام إِماماً لأُولي الألباب العابدين، في صبْرِه على البلاء، وتضرُّعِه إِلى الله، وهم به مقتدون، وعلى طريقه سائرون. فيعلمونَ أنَّ ما أصابَهم من ابتلاءٍ فهو من الله، فيَصبرون ويَحتسبون، ويَتضرعون إِلى الله، ويُوقنون أنَّ اللّهَ سيفرجُ عنهم كما فرَّجَ عن أيوب عليه السلام.

الذهب الذي أفاضه الله على أيوب وهو يغتسل:

وساقَ اللّهُ لأيوبَ عليه السلام معجزةً أخرى، إِنعاماً منه عليه حيثُ أَفاضَ عليه المالَ إفاضة.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «بينا أَيوبُ يغتسلُ عرياناً، خَرَّ عليه جَرادٌ من ذَهَب، فجعلَ أَيوب يَحثي في ثوبه، فناداه ربُّه تبارَك وتعالى: «يا أيوب: أَلم أَكنْ أغنيتُك عما ترى؟

قال: بَلى. ولكن لا غِنىً لي عن بركتك..»[1].

وروى أحمدُ والحاكم والطيالسي هذا الحديثَ بلفظٍ آخر، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «لما عافى اللّهُ أيوبَ عليه السلام أَمطرَ عليه جَراداً من ذَهَب، فجعل يأخذُ منه بيده، ويجعلُ في ثوبه.

فقيل له: يا أَيوب: أَمَا تشبَعُ؟

قال: يا ربِّ: ومَنْ يشبعُ من رحمتك..»[2].

---

(1) أخرجه البخاري برقم: ٢٧٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٠.

(2) أخرجه أحمد في المسند ٢:٣٠٤. والحاكم ٢:٥٨٢. والطيالسي ٢:٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧١.

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ اللّهَ عَوَّضَ أيوبَ عليه السلام مالَه الذي هلكَ أثناءَ ابتلائه، ويبدو أنَّ هذا كانَ فورَ اغتساله بالماءِ البارد

فلما اغتسلَ بالماءِ البارد ثم شربَ منه عافاه الله، وبينما كان يغتسلُ عرياناً، ليس عندَه أحدٌ، أمطرَ اللّهُ عليه جَراداً من ذهب.

معنى الحديث وبعض دلالاته:

وكان هذا الجرادُ من الذهب كثيراً، سَمّاه الرسولُ ﷺ في روايةٍ أُخرى عند البخاري: رِجْلَ جَراد. فقال عليه الصلاة والسلام: «بينما أَيوبُ يغتسلُ عرياناً، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ من ذهب...»[1].

وشاءَ اللّهُ الحكيم أنْ يرزقَه الذهبَ على صورةِ جراد، وصَبَّ عليه الجرادَ من الذهب صباً أَثناءَ اغتساله، وأَمطرَه عليه، فكأنَّ هذا الذهبَ كان مَطَراً غزيراً نازلاً عليه، وكان هذا معجزةً من الله سبحانه.

فلما رأى أيوبُ هذا الذهبَ مصبوباً عليه تناولَ ثوبَه الذي وضعَه بجانبه أَثناءَ الاغتسال، وصارَ يجمعُ الذهبَ بكلتيْ يديه، ويَحثوه، ويضعُه في ثوبه!!

فعجبَ اللّهُ من صنيعه، وناداه: يا أيوب: ألم أكنْ أغنيتُك عما ترى؟

أي أنَّ اللّهَ أَغناه بما وهبَه من رزق، فلِمَ يجمعُ الذهبَ بثوبه؟

فقال أَيوبُ عليه السلام: بلى. لقد أغنيتَني، ولكن لا غنى لي عن بركتك؟

أي أنَّ هذا الذهبَ بركةٌ منك يا رب، وبركةُ الله لا غِنىٰ عنها، فهي تُبارِكُ مالَ مَنْ كانت عنده. فأيوبُ عليه السلام ليس بحاجةٍ إلى الذهب، وهو زاهدٌ في متاعِ الدنيا، لأنَّ الأنبياءَ هم أئمةُ الزاهدين، وجمْعُه للذهب بثوبِه طلباً للبركة، وليسَ سداداً لحاجة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم: ٧٤٩٣.

وفي الرواية الثانية أنَّ اللّهَ لما عجبَ من فعله قال له: يا أيوب: أَما تشبع؟

فقالَ أيوب عليه السلام: يا رَبِّ ومَنْ يشبعُ من رحمتك؟

لقد اعتبرَ هذا الذهبَ من مظاهرِ رحمةِ الله، ورحمةُ الله لا يَشبعُ منها مؤمن، فجمْعُه للذهبِ بثوبه ليس بسببِ نهمه، بل للتقلبِ برحمةِ الله.

وهذا التصرفُ من أيوبَ عليه السلام دليلٌ على أنه يجوزُ للمؤمن أنْ يجمعَ المال، وأنْ يستكثرَ منه، وأنْ يحتفظَ به، بشرطِ أنْ يأتيَه من مصدرِ حلال، وأنْ لا تستشرفَهُ نفسُه، ولا يملأَ عليه تفكيره، وأنْ يُخرجَ حقَّ الله فيه.

ويُعتبرُ هذا المالُ بركةً من الله، ولا يَستغني أحدٌ عن بركةِ الله، ورحمةً من الله، ولا يَشبعُ أحدٌ من رحمةِ الله. ويَقتدي في ذلك بأيوبَ عليه السلام.

وهكذا كشفَ اللّهُ عن أيوبَ عليه السلام الضر، وآتاهُ أهْلَه ومثلَهم معهم، وعوَّضَه مالَه الذي هلك، وآتاهُ خيراً منه، وأمطرَ عليه ذهباً على شكْلِ جراد.

وبذلك زالَتْ عن أيوبَ عليه السلام محنتُه، ورَحِمَهُ اللّهُ بالرخاء والسراء، وكما صبرَ في الضراء، فقد شكرَ في السراء.

يمين أيوب والضرب بالضغث:

بقيتْ مسألةٌ في قصةِ أيوبَ عليه السلام، وهي خلافُهُ مع أهله، وحَلْفُه اليمينَ بالله ليعاقبهم. وقد أشارَ إلى هذه الحادثة قولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ..﴾.

وكان هذا بعدما عافاه اللّهُ في بدنه، وآتاه أهْلَه، وعَوَّضَه مالَه، حيث قال الله له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾.

والضِّغْثُ مشتقٌ من: «ضَغَثَ».

وردَ في المعجم الوسيط عنه: «ضَغَثَ الحشيشَ، ضَغْثاً: جَمَعَه وجَعَلَه ضِغْثاً. وضَغَثَ الأشياء: خَلَطَ بعضَها ببعض.

والضِّغث: المضغوث، وكلُّ ما جُمِعَ وقُبِضَ عليه بجَمْعِ الكف»[١].

وقال السمينُ الحلبي في تفسيره «الدر المصون» عن الضِّغث: «هو الحُزْمَةُ الصغيرةُ من الحشيشِ والقُضبان. وقيل: الحزمةُ الكبيرة من القضبان وفي المثل: «ضِغْثٌ على إِبّالَة». والإِبّالَةُ هي: الحزمةُ من الحطب.

وأَصْلُ المادة يدلُّ على جمْعِ المختلطات..»[٢].

الضِّغْثُ إِذنْ هو الغُصْنُ من الشجرةِ فيه عدةُ فروعٍ صغيرة.

أمرَ اللّهُ أيوبَ عليه السلام أنْ يأخذَ هذا الغصنَ الذي عليه مجموعةٌ من الفروعِ والأوراق، وأنْ يضربَ به الشخصَ الذي حلَفَ أنْ يضربَه، وذلك لئلا يحنثَ في يمينه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

مبهمات في قصة اليمين والضرب بالضغث:

وهذا يدلُّ على أنَّ أيوبَ عليه السلام كان قد حلفَ أثناءَ مرضه وابتلائه أن يضربَ أحدَ الأشخاصِ بشيء، لسببٍ ما. فلما عافاهُ اللّهُ دعاهُ إلى أنْ يبرَّ بيمينه، وأنْ يضربَ الشخصَ المحلوفَ عليه بذلك الضِّغْث من الشجر.

ولم تُبين الآيةُ الشخصَ الذي حلفَ عليه، هل هو امرأتُه أمْ غيرُها، كما لم تبين درجةَ قرابةِ هذا الشخص له، ولم تذكُر السببَ

(١) المعجم الوسيط: ٥٤٠.

(٢) الدر المصون ٩: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

الذي دعا أَيوبَ إِلى أنْ يحلفَ أنْ يضربَه، ولا ماذا كان نصُّ يمينه، ولما حلَّلَهُ اللّهُ مِن يَمِينِه لم تبين الآيَةُ كيفَ ضربَ بذلك الضغث.

ولم تَرِدْ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ، تبين هذه المبهماتِ المتعلقةَ باليمين.

وقد ذكَرَ المفسرون أَقوالاً في ذلك، وحاوَلوا أنْ يُقدِّموا فيها إجاباتٍ على الأسئلة السابقة.

وبما أنَّ الأحاديثَ الصحيحة سكتَتْ عن ذلك، فنحنُ نسكتُ عنه، ولا نبحثُ في تفاصيلِ ذلك اليمين، ولا نحاولُ بيانَ تلك المبهمات، وذلكَ على منهجِنا الذي التزمْناهُ في بحثِ قصصِ القرآن.

وخلاصةُ الحادثة كما نفهمُها من قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ..﴾: أَنه حصلَ شيءٌ ما بينَ أيوبَ عليه السلام وبينَ أَحَدِ الأشخاص، أثناءَ مرضه، فحلفَ أنْ يضربَ ذلك الشخص، ولما عافاهُ اللّهُ من مرضه، أَرشدَه اللّهُ إلى التحلُّلِ من يمينه، فأَمَرَه أنْ يأخذَ ضغثاً غصناً من الشجرِ عليه عدةُ فروع، وأنْ يضربَ الشخصَ به، وبذلك لا يَحنثُ في يمينه. ففعلَ أيوبُ عليه السلام ما أَمَرَهُ به الله!

وأَثنى اللّهُ على أيوبَ عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وهذه ثمرةُ قصةِ ابتلاء أَيوبَ عليه السلام، حيثُ نالَ فيها هذه الشهادةَ العظيمةَ من الله سبحانه.

أيوب إمام الصابرين على البلاء:

شهدَ اللّهُ له بأَنه صابر، وصَبْرُه مطلَق، يشملُ الصبرَ على كلِّ ما ابتلاه الله به، صَبَرَ على المحنةِ حتى مضَتْ وانقضَتْ، وأَعقبها الفرجُ والرخاء.

وشهدَ اللّهُ بأَنه نعْمَ العبد، حيثُ حققَ عبوديتَه لله، وزادَه الابتلاءُ

خضوعاً واستسلاماً لله، ورضًى بقدرِ الله، واحتساباً للأجرِ عندَ الله، وإِقبالاً على الله.

وشهدَ اللّهُ له بأَنه أوّاب، رَجّاعٌ إِلى الله، حريصٌ على رِضاه، كثيرُ الذكرِ له، تضرَّعَ إِليه بأدب، وسأَله كشفَ الضرِّ بلطف، لم يُبعدهُ ابتلاءُ اللّهِ له بالضراءِ عن الله، بل زادَهُ إِقبالاً عليه واتصالاً به، ولم يُبْعِدْه ابتلاءُ اللّهِ بعد ذلك بالسراء عَنِ الله، بل زادَه إِقبالاً عليه وصلةً به.

صبرَ في حالةِ الضراء، لأَنَّه أَوّاب. وشكرَ في السّرّاء لأَنه أَوّاب.

وتبقى قصةُ أيوبَ عليه السلام كما أَشارَتْ لها آياتُ القرآنِ في سورتي الأنبياء وص، مَعْلَماً واضحاً من معالمِ الابتلاءِ بالضراءِ ثم إِتْباعُه بالسراء.

ويَبقى أَيوبُ عليه السلام قدوةً لأَصحابِ الابتلاء، لأنه صارَ مَضْرَبَ المَثَل في الصبرِ والاحتساب، ثم في التضرعِ والدعاء، ثم في الفرجِ والرخاء.

وكُلّما ابتُلِيَ أَحَدُ المؤمنين بابتلاء تذكَّرَ موقفَ أيوبَ عليه السلام، فاقتدى به، وعاشَ على أملِ الفرجِ، وخرجَ من ابتلائِه ومحنته وقد ازدادَ إِيماناً وعبودية ورضا ويقيناً وأجراً وثواباً.



قصّة يونس عليه السلام



[١]

ذكر يونس في القرآن

ذُكِرَ يونسُ عليه الصلاة والسلام باسمِه الصريح أربعَ مراتٍ في القرآن، وإحدى سورِ القرآن تحملُ اسمَه «سورة يونس» المكية، ووردتْ إشارةٌ إلى قصتِه دونَ التصريحِ باسمِه في سورتين. فيكون ذكْرُه قد وردَ في ستِّ سور.

في سورةِ النساء وردَ اسمُه ضِمْنَ أسماءِ مجموعةٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

لقد صَرَّحت الآيةُ بأنَّ اللَّهَ أوحى إلى يونس عليه السلام، وجعلَه نبياً، كما أوحى إلى إخوانِه الأنبياء.

وفي سورة الأنعام وردَ اسمُه أيضاً ضمن أسماءِ أنبياء آخرين، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

والراجحُ أنَّ الهاءَ في «ومن ذريته» تعودُ على إبراهيمَ عليه السلام. وهذا معناه أنَّ الأنبياءَ المذكورين بعدها هم من ذرية إبراهيم عليه السلام، ولهذا كان هو أبا الأنبياء.

وفي سورة يونس وردتْ إشارةٌ سريعةٌ إلى إيمانِ قوم يونس. ورفْع العذابِ عنهم بسببِ إيمانهم، وذلك ضمنَ الكلامِ على سنةِ الله في الإيمان والكفر والهدى والضلال، في آيات: [٩٦ ـ ١٠٠].

وفي سورة الأنبياء وردَتْ إشارةٌ سريعة إلى محنةِ يونس عليه السلام وهو في بطْنِ الحوت، واستغاثتِه بالله واستجابةِ الله له. ولم يَرِدْ اسمُ يونس فيها صريحاً، وإنَّما أُطلقَ عليه لقبُ «ذي النون». وكانت الإشارةُ في الآيتين: [٨٧ ـ ٨٨].

وفي سورةِ الصافات وردتْ إشارةٌ سريعة إلى محنةِ يونس عليه السلام، عندما غادرَ قومه، وأُلقيَ من السفينة، والتقمه الحوت، وسبحَ لله في بطن الحوت، وطرحَهُ الحوتُ على الشاطئ، وأَنبتَ اللَّهُ عليه شجرةَ يقطين، وأعاده إلى قومه فوجَدَهم مؤمنين. وهذه الإشارةُ في الآيات: [١٣٩ ـ ١٤٨].

وفي سورةِ القلم وردَتْ إشارةٌ سريعة إلى محنةِ يونس عليه السلام وذلك في سياقِ توجيهِ رسول الله ﷺ إلى الصبر، ونهيِه عن التصرف كما تصرفَ يونسُ عليه السلام. وهذه الإشارةُ في الآيات: [٤٨ ـ ٥٠].

وبهذا نرى أنَّ ما عرضه القرآنُ من قصةِ يونس عليه السلام هو خلافُه مع قومه الكفار، ومغادرتُه لهم، ثم امتحانُه بالبلاء، وتسبيحُه لله، وإنجاءُ الله له، وإعادتُه إلى قومه، الذين آمنوا أثناء غيابه.

[٢]

دعوة يونس قومه ثم مغادرته لهم

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ أَبا يونس هو «مَتَّى» فيونسُ عليه السلام هو: يونسُ بنُ مَتَّى.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «لا يَنبغي لعبدٍ أنْ يقول: أنا خيرٌ من يونسَ بنِ مَتّى. ونسَبَه إلى أبيه»[١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٩٥. ومسلم برقم: ٢٣٧٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٤.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ «مَتّى» اسمُ أُمِّه، وأَنه منسوبٌ إلى أمه مثلُ عيسى ابن مريم عليه السلام. لكن هذا كلامٌ مرجوح. فالراجحُ أنَّ «مَتّى» اسمُ أَبيه، بدليلِ تصريحِ ابنِ عباس رضي الله عنهما بذلك.

وقد ذُكِرَتْ قصةُ يونسَ عليه السلام في سورةِ الأنبياء بعد قصةِ أيوب، حيثُ سبقَها ذكْرُ قصص إبراهيم ولوط وإسحاق وداود وسليمان وأيوب، وذُكِرَ بعد يونس قصةُ يحيى وزكريا وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

ولعلَّ هذا يدلُّ على أنَّ يونسُ كان بعد داود وسليمان وأيوب، وقبلَ يحيى وزكريا وعيسى. عليهم الصلاة والسلام.

نقولُ هذا من بابِ الاحتمال والاستئناس، وليسَ من بابِ الجزمِ واليقين، لأنَّ ذكْرَ الأنبياءِ في سورةِ الأنبياء على أَساسِ التسلسل التاريخي لأزمانِ وجودهم، كما يوحي سياقُ السورة، والله أعلم.

تكذيب أحبار اليهود في كلامهم عن يونس:

وقد خَصَّصَ مؤلِّفوا أَسفارِ العهد القديم سَفراً خاصاً ليونس، الذي سَمّوه «يونان». وهو السِّفْرُ الثاني والثلاثون، وجعلوه في أَربعِ إصحاحات.

وإنَّ الأحبارَ الذين كتبوا «سَفْرَ يونان» يهودٌ عنصريون، ومجرمون كفار كاذبون حيث زَعموا أنَّ يونسَ كان إسرائيلياً عبرانياً، وأنَّ اللَّهَ بعثَه نبياً إلى نينوى عاصمةِ الأشوريين.

وقد انتصرَ يونسُ للإسرائيليين، وتعصَّبَ لهم، ولذلك غضبَ على الربِّ لأنه بعثَه نبياً إلى أَعدائهم الأشوريين، غضبَ على الربِّ لأَنه أَرادَ إنقاذَ وهدايةَ الأشوريين، ولذلك تمردَ يونسُ على ربه، ورفضَ الذهابَ إلى أعدائِه الأشوريين، وهربَ من ربه، لكنَّ الربَّ عاقبه بأنْ طرحَه في البحر، وجعلَه في بطنِ الحوت، ولما عُوفي أمرهُ الربُّ بالذهابِ إلى عاصمةِ الأشوريين، فذهبَ إليها مُرغماً مُكرهاً حانقاً غاضباً.

ونَبرأُ إلى الله من هذا الكفر والكذبِ اليهوديِّ الذي سجلَهُ أحبارُ اليهود الكفار، ونجزمُ ببراءةِ يونسَ عليه السلام من هذه المزاعم اليهودية العنصرية. فما هو إلا نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، حريصٌ على دعوةِ الناسِ إلى الله، وإِخراجهم من الظلمات إلى النور، ولم يكن يهودياً عنصرياً متعصباً، ولا غاضباً متمرداً على الله، رافضاً تبليغَ دعوته!!

الدليل على بعثة يونس إلى أهل نينوى:

بَعثَ اللَّهُ يونسَ بنَ مَتّى عليه السلام نبياً إِلى أَهلِ نينوى.

ونينوى مدينةٌ قديمةٌ تقعُ قريباً من الموصلِ شمالَ العراق، كانت عاصمةَ الأشوريين.

والدليلُ على أنَّ اللَّهَ بعثَهُ إِلى أَهل نينوى ما أَخبرَنا عنه رسولُنا ﷺ.

أَخرجَ ابنُ هشام في السيرة عن محمدِ بنِ كعب القُرَظِيِّ رحمه الله، عن رحلةِ رسولِ الله ﷺ إلى الطائف، وسوءِ استقبالِ أهلِها له، وسوءِ ردِّهم عليه، أَنهم ردّدوا دعوَتَه، وأَغْرَوْا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبّونَه ويشْتمونَه ويصيحون به.

فخرجَ عليه الصلاة والسلام من الطائف وهو مَهْمُومٌ مغمومٌ حزين، وعادَ إِلى مكة، ومَرَّ على بستانٍ لعتبةَ وشيبةَ ابْنَيْ ربيعة القرشيين.

ووجدَ رسولُ الله ﷺ شجرةً من عنب، فجلسَ رسولُ الله ﷺ في ظلِّ تلك الشجرة، وكان عتبةُ وشيبةُ في البستان ينظران إِليه.

فلما اطمأنَّ رسولُ الله ﷺ في جلستِه دعا الله قائلاً: اللهمَّ إِليكَ أَشكو ضعْفَ قُوَّتي، وقلةَ حيلتي، وهَواني على الناس. يا أَرحمَ الراحمين: أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربي، إِلى مَنْ تَكِلُني؟ إِلى بعيدٍ يتجهَّمُني؟ أَم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمرِي؟ إِنْ لم يكنْ بك غضبٌ عليَّ

فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتَك أَوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهك الذي أَشرقَتْ له الظلمات، وصلَح عليه أَمْرُ الدنيا والآخرة، مِنْ أنْ تُنْزِلَ عليَّ غضبَك، أَو يحلَّ عليَّ سَخَطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله!!.

فلمّا رآه عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة رَقّا له، وَدَعَوَا غلاماً لهما نصرانياً يقال له «عَدّاس»، وقالا له: خذْ قُطفاً من هذا العنب، فضعْهُ في هذا الطبق، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجل.

أخذَ عَدّاس العنب، ووَضَعَهُ بين يديْ رسولِ الله ﷺ، وقالَ له: كُلْ.

وضعَ رسولُ الله ﷺ يدَه في الطبق، وقال: بسمِ الله، ثم أَكَل!

فنظرَ عَدّاسُ في وجهه ثم قال: واللَّهِ إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد!!

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: مِنْ أهلِ أَيِّ البلادِ أنتَ يا عَدّاس؟ وما دينُك؟

قال عدّاس: أَنا نصراني، وأنا رجلٌ من أهلِ نينوى.

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: من بلدِ الرجلِ الصالحِ يونسَ بنِ مَتّى!!

فقالَ له عداس: وما يُدريك ما يونسُ بنُ متّى؟

قالَ ﷺ: ذاكَ أخي، كان نبياً، وأَنا نبي!!.

فأكبَّ عَدّاس على رسول الله ﷺ، يُقبلُ رأسَه ويديْه ورجليْه!

فقال ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه: أمّا غلامُك فقد أفسدَه عليك!

ولما عادَ عَدّاس إليهما، قالا له: ويلكَ يا عداس، مالك تُقبلُ رأسَ هذا الرجلِ ويديْه وقدميه؟

قال عداس: يا سيدي: ما في الأرضِ شيءٌ خيرٌ من هذا. لقد أَخبرني بأمرٍ ما يعلمُه إلا نبي!

قالا له: ويحكَ يا عداس، لا يصرِفَنَّك عن دينك، فَإِنَّ دينَك خيرٌ من دينه..[1].

كان عداس الغلامُ النصرانيُّ من أهل نينوى، وبما أَنه نصرانيٌّ فإن عنده علماً بطرفٍ من قصةِ يونس بن متّى عليه السلام، ولذلك فوجىءَ بمعرفةِ رسولِ الله ﷺ قصةَ يُونس. وعلمَ أنه نبيٌّ مثلُه، فأسلم.

وقول رسول الله ﷺ عن نينوى إِنها «بلدُ النبيِّ الصالحِ يونس بن متى» يدلُّ على أنَّ يونس عليه السلام كان من أهلِ نينوى أَساساً. وُلدَ وعاشَ فيها، وبعثَه اللّهُ نبياً إلى أهلها.

وهل كان أهلُ نينوى زمنَ يونس عليه السلام آشوريّين أم كانوا إسرائيليّين؟ أم كانوا خَليطاً من الآشوريّين والإسرائيليّين؟ فهذا ما لا دليلَ عليه!

قامَ يونسُ عليه السلام بدعوةِ قومِه أَهلِ نينوى إلى الله، ولا ندري المدةَ التي قامَ فيها يَدعوهم، ولكنهم رفضوا دعوتَه، وأَصَرّوا على الكفر. فغضبَ منهم وغادرَهم، بعد أَنْ أَنذرهم عذابَ الله.

كلام ابن مسعود عما جرى بين يونس وبين قومه:

وأَمامنا حديثٌ موقوفٌ على عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه نستأنسُ به في ما جرى بين يونسَ وبين قومه.

قالَ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: إنَّ يونس عليه السلام كان وعدَ قومَه العذاب، وأَخبرهم أَنه يأتيهم إلى ثلاثةِ أَيام.

ففرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدها، ثم خَرجوا، فجأروا إِلى اللّهِ واستَغْفَروه، فكفَّ اللّهُ عنهم العذاب.

وغدا يونسُ عليه السلام ينتظرُ العذاب، فلم يَرَ شيئاً، وكان مَنْ كَذَبَ ولم يكنْ له بينةٌ قُتِل.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٠ ـ ٦٣.

فانطلقَ مغاضباً، حتى أتى قوماً في سفينة، فَحَمَلوه وعَرَفوه...»[1].

إنَّ يونسَ نبيٌّ كريم عليه السلام، وهو بشيرٌ ونذير، يبشرُ مَن استجابَ له بالجنة. وينذرُ مَنْ كَذَّبه بالعذاب، ولا يتصرفُ في هذا مِن تلقاءِ نفسه، ولكنه يبلغُهم وحيَ الله.

وهذا يَعني أنَّ اللّهَ هو الذي طلبَ منه أنْ يُنذرهم العذاب. فبما أَنهم لم يستجيبوا له، ورَفضوا دعوتَه، وأَصروا على الكفر، فلم يَبْقَ إلاّ وقوعُ العذابِ بهم.

أمرَ اللّهُ يونسَ عليه السلام أنْ يخبرَ قومَه أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعدَ ثلاثة أيام، فأخبرَهم بذلك، وطلبَ منهم أنْ ينتظروا ذلك العذاب.

وعَجبوا من هذا الإنذارِ العنيف، وغَضبوا من يونس، ويبدو أَنهم كَلَّموه كلاماً شديداً، فغضبَ يونسُ عليه السلام منهم، وردَّ عليهم كلامَهم بكلامٍ آخر، وأَغضبهم، وبذلك انتهت الصِّلاتُ بينه وبينهم.

عند ذلك غادرَ يونس عليه السلام قومه، لأنه ظنَّ انتهاءَ مهمتِه عندهم.

[٣]

حل إشكال مغادرة يونس لقومه

أَشارَ القرآنُ إِلى مغادرةِ يونسَ عليه السلام لقومه، والمغاضبةِ التي وقعتْ بينَه وبينهم. فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ...﴾ [الأنبياء: ٨٧].

و«ذا» مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، منصوبٍ بالألف لأنَه من الأسماءِ الخمسة. والتقدير: اذكُرْ ذا النون.

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير وابن أبي شيبة. وصحح ابن حجر في فتح الباري إسناد ابن أبي حاتم. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٧.

لماذا يونس ذو النون؟:

والخطابُ لرسول الله ﷺ، ولكلِّ مسلم متذكِّرٍ من بعدِه، يدعوه اللَّهُ إلى أنْ يتذكَّرَ قصةَ ذي النون عليه السلام، ليستخرجَ منها الدروسَ والدلالاتِ في الإيمانِ والدعوة والصبر واللجوء إلى الله.

و«النّونُ» هنا يُرادُ به الحوتُ الذي التقمَ يونسَ عليه السلام.

قال السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ»: «النّون: الحوت. كما صَرَّحَ به في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

والمرادُ به نبيُّ الله يونسَ بن مَتّى عليه السلام. وإنما أُضيفَ يونسَ إلى النّون لابتلاعِه إياه.

ويُجمعُ النُّون على: نِينان، مثل: حوت وحيتان»[1].

وسُميَ يونسُ عليه السلام «ذا النون»، كما سُمي «صاحبَ الحوت»، لأنه عاشَ في بطنِ الحوت فترة، وبقيَ فيه حياً بإذن الله.

واللطيفُ أنَّ القرآنَ اعتبرها صحبة، وأنعمْ بها من صحبةٍ بين بشرٍ نبي وبين حوتٍ في البحر، كأنَّ الحوتَ كان صاحباً ليونس، مساعِداً له، حريصاً مشفقاً عليه، يَخافُ أنْ تأكلَه باقي الحيتان والأسماك، ولذلك جاءَ إليه منقذاً، وابتلعَه بهدفِ حمايته، لا بهدفِ أكله! وكان هذا بأمرِ اللَّهِ سبحانه وتعالى.

وصارَ «ذو النون» اسماً خاصاً، يُطلقُ على بعضِ الناس، يقال: ذو النون ابن فلان!

يونس غادر قومه مغاضباً لهم:

أَخبرَ اللَّهُ أنَّ «ذا النون» عليه السلام قد ذهبَ مغاضباً: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾.

---

(١) عمدة الحفاظ ٤: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

و«مغاضباً» اسمُ فاعل، فِعْلُه الماضي «غاضَبَ»، والألفُ في الفعل ألفُ مفاعلة، تدلُّ على المشاركة.

أي أنَّ الغضبَ كان مشتركاً، فإذا كان يونسُ عليه السلام هو الطرفَ الأولَ في المغاضبة فمن هو الطرفُ الثاني المقابل؟

ذهبَ ناقلو ورواةُ الإسرائيليات إلى أنه اللَّهُ سبحانه. أي أنَّ يونسَ عليه السلام غادرَ قومَه وذهبَ عنهم مغاضِباً لربّه، حيث غضبَ هو من اللَّهِ سبحانه، لأن اللَّهَ لم يوقع العذابَ على قومه خلالَ ثلاثةِ أيام، مما جعلَه يبدو أَمامَهم كاذباً، وغضبَ اللَّهُ منه لأَنه غادرهم بدونِ إذنٍ منه!

وهذا كلامٌ لا يجوزُ أنْ يصدرَ عن مسلم صالح، فكيف يصدرُ عن نبيٍّ كريم عليه السلام؟ المسلمُ الصالحُ لَا يغضبُ من الله، فهل يغضبُ يونسُ من الله؟ إننا نبرىءُ يونسَ عليه السلام من هذا الضلال!

لقد كانت المغاضبةُ بينَ يونسَ وبين قومِه الكافرين، وهذا أمرٌ مفهومٌ لا شبهة فيه.

غَضِبَ يونسُ من قومه لأنهم رفضوا دعوتَه، وأصرّوا على الكفر، وهذا غضبٌ معقول.

وغضِبَ قومُه الكافرون منه، لأَنه أَنذرهم العذاب، وأَخبرَهم أنه واقعٌ بهم بعد ثلاثةِ أيام، فغضبوا منه.

إذن معنى قوله: «إذ ذهب مغاضباً»: غادرَ قومه مغاضباً، غضبَ من قومِه لكفرهم، وغضبَ قومُه منه لتهديدِهم بالعذاب القادم.

لماذا غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه؟ هل كان نَزِقاً ضيقَ الصدر، غيرَ صابرٍ عليهم ولا محتمل لهم؟

كلا. إنهُ نبيٌّ كريم. واللَّهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَه، وما

بعثَ اللّهُ نبياً إلا وهو حليمٌ واسعُ الصدر، صابرٌ على تكاليف الدعوة، محتملٌ لما يلاقيه من قومِه الكافرين المنكرين. ويونسُ واحدٌ من هؤلاء الأنبياء.

غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه لأنّه ظنَّ أنَّ مهمَّته فيهم قد انتهت، وأنَّ الدعوةَ عندهم قد توقفت.

لقد أخبرَه اللّهُ أنَّ العذابَ واقعٌ بهم بعد ثلاثةِ أيام، وهذا معناه في ظنّه أنَّ الأمرَ قد انتهى. وأنهم لن يؤمنوا! إذنْ لماذا يبقى عندهم؟ عليه أنْ يذهبَ عنهم، وأنْ يبحثَ عن أُناسٍ آخرين يبلِّغُهم الدعوة!

هذا فهمُ مغادرتِهم مغاضباً لهم.

ما معنى: «فظن أن لن نقدر عليه»:

ويؤكِّدُ هذا الفهمَ قولُه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

وقد وقعَ بعضُهم في لبسٍ آخر هنا، حيثُ فهمَ أنَّ الكلامَ في هذه الجملة عن قدرةِ اللّه. وقال: ظنَّ يونسُ أنَّ اللّهَ سيعجزُ عنه، ولن يقدرَ عليه!!

وهذا ظنٌّ لا يجوزُ أنْ يصدرَ عن مسلم صالح، فكيفَ يصدرُ عن يونسَ عليه السلام؟ هل يظنُّ يونسُ أن اللّهَ ليس على كل شيء قدير؟ وأن اللّهَ قد يريدُ أشياء لكنه لا يقدرُ عليها ويعجزُ عنها؟

إنَّ هذا الظنَّ لا يصدرُ إلا عن كُفّار، وحاشا أنْ يظنَّ يونسُ هذا الظن. إنه يؤمنُ بأن اللّهَ على كل شيء قدير، وأن قدرتَه نافذة، وإرادتَه فاعلة، ولا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأنه يقدرُ على إيجادِ وفعلِ كلِّ شيء شاءَه وأرادَه.

إذن ما معنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

الفعل: قَدَرَ، يَقْدِرُ.

تقول: قَدَرَ، يَقْدِرُ، قَدْراً، ويأتي بمعنى: ضَيَّق.

تقول: قَدَرَ عليه رزقَه. بمعنى: ضيَّقَ عليه رزقه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٦]. أي: ضُيِّقَ عليه رزقُه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: ٧]. أي: مَنْ ضُيِّقَ عليه رزقُه فلينفقْ مما آتاهُ الله.

إذن فعل «نَقْدِر عليه» من القَدْر بمعنى التضييق، وليس من القدرةِ بمعنى الاستطاعة والتمكُّن.

معنى: «فظن أن لن نقدر عليه»: ظنَّ يونسُ أنَّ اللَّه لن يُضيقَ عليه، بإبقائه عند هؤلاء الكفار، المنتظِرين للعذاب، وإنما سيوجِّهُه إلى قومٍ آخرين يدعوهم إلى الله.

قال السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ»: «معنى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: ظنَّ أن لن نُضيقَ عليه.

والتقدير: التضييق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ [سبأ: ١١] أي: ضَيِّقْ في الدرع، لتكون الفتحةُ على قدرِ المسمار.

عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: أَرسلَ لي معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقالَ لي: لقد ضَرَبَتْني أَمواجُ القرآن!

قلت: بماذا؟

قال: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: أيظنُّ عبدٌ من عَبيدِ الله أن اللَّهَ لا يَقْدِرُ عليه، فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء؟

قلتُ له: ليسَ ذلك من القدرة، إنما هو من التقدير بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ...﴾ [الفجر: ١٦].

وقال الهروي: يقال: قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى: ضَيَّق، وهو ليسَ من القدرة..»[1].

---

(١) عمدة الحفاظ ٣: ٣٢٧.

ما معنى وصف مغادرة يونس بالإباق؟:

فإذا كانَ هذا هو معنى قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وهو تصرُّفٌ منه سليم، فلماذا قالَ اللّهُ عنه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾؟ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠] ولماذا عَبَّرَ عن مغادرتِه بالإِباق؟

قال السمين الحلبي: «الإِباقُ: هربُ العبدِ من سيده. ولما كان الخلقُ كلُّهم عَبيدَ الله قالَ اللّهُ في حقِّ عبده يونس عليه السلام: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾. ولِلّهِ أنْ يقولَ ما يشاء، أما نحنُ فلا يجوزُ لنا أن نقول: أَبَقَ نبي.

يقال: أَبَقَ العبدُ، يَأْبِق، فهو آبِقٌ.

وقال المبرد: أَبَقَ: تباعَدَ. وقيل: خرجَ سرّاً من الناس»[1].

إذن أساسُ معنى «أَبَقَ» هرب، ويُستعملُ في هروبِ العبدِ من خدمةِ سيده.

لكنه قد يستعملُ في الخروجِ سرّاً من الناس، والتباعدِ عنهم، ولو لم يكنْ ذلك الخروجُ هروباً.

ومادة «أَبَق» لم يردْ منها في القرآن إلاّ الفعلُ الماضي «أَبَق»، ولم يردْ إلاّ في هذا الموضعِ من القرآن.

إذن معنى قولِه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ لا يُرادُ به حقيقةُ الهروب، كهروبِ العبد من سيده، لأنَّ هذا تصرفٌ ينزَّهُ عنه يونسُ عليه السلام.

إنه نبيٌّ رسول، أَمَرَه اللّهُ بدعوةِ قومه، وهو لا يهربُ من الدعوة، ولا يتخلّى عنها.

---

(١) عمدة الحفاظ ١: ٥٠.

إنما شَبَّهَ فعلَه بفعلِ هروبِ العبد من سيده، وأَطلقَ عليه أنه إِباق، لأَنه الْتقىٰ مع إِباقِ العبد، في الخروج سِراً، والابتعادِ عن الناس.

ووجَّهْنا خروجَه بأَنه كان بعدَ أنْ أنذرَ قومَه وقوعَ العذاب بعد ثلاثةِ أيام، فلا داعي لأنْ يبقىٰ عندهم، ولْيبحثْ عن قومٍ آخرين يَدعوهم إلى الله.

لقد ظنَّ أن اللّهَ لَنْ يضيقَ عليه بإبقائِه عند هؤلاء، بعد أن انتهتْ مهمتُه فيهم، وسيوجِّهُه إلى أُناس آخرين، ولذلك غادَرَهم سراً، وخرجَ من بينهم وهم لا يشعرون به، وتباعَدَ عنهم.

وُصِفَ هذا الفعلُ منه بالإِباق، لأنه يشابِهُ إِباقَ العبد في الظاهر، لكنه يخالفُه في الحقيقة، فذاك هروبٌ من الخدمة، وهذا انتقالٌ إلى آخَرين بدعَوتِهم..

[٤]

يونس عليه السلام يلقى من السفينة

غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه بعدَ أنْ أَنذرَهم العذاب، باحثاً عن قوم آخرين يبلِّغُهم الدعوة. ولكنه لم يغادرهم بإذنٍ من الله سبحانه. وهذا هو سرُّ محنتِه عليه الصلاة والسلام، وسببُ لومِ اللّهِ له.

يونس في خروجه فعل خلاف الأولى:

لم ينتظرْ يونسُ عليه السلام الإذنَ من الله وهو في قومه، لأنه ظنَّ أنَّ اللّهَ لنْ «يَقْدِرَ عليه»: لن يُضيقَ عليه بإبقائِه فيهم، وإنما سيوجِّهه إلى آخرين.

وفي ظنِّه واجتهادِه أنه لم تبقَ فائدةٌ من بقائِه في قومه، إنهم لم يؤمنوا به، وإنَّ العذابَ آتيهم بعدَ ثلاثةِ أيام، لقد انتهى كلُّ شيء بالنسبة لهم! فهل يبقى جالساً بينهم بدونِ دعوة؟

خرجَ من بينهم سِرّاً، دونَ أنْ يَعلموا به، وتوجَّه نحو شاطئ

البحر، وكلُّه أملٌ ورجاءٌ أنْ يأتيه التوجيهُ من الله في الطريق، أو فيما بعد، يأمرُه فيه بالخطوةِ التالية.

وهو في هذا الاجتهادِ لم يكن مخطئاً عليه السلام، وإنما كان مجتهداً متأوِّلاً، وكان حريصاً على الدعوة، راغباً في نصحِ الآخرين، وبما أنَّ قومَه رفضوا دعوتَه، وبما أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعد ثلاثة أيام، فلماذا يبقى بينهم قاعداً عن الدعوة؟ فلْيبحثْ عن آخرين يدعوهم.

والإِذنُ من الله، وتوجيهُه إِلى الخطوةِ التالية، يأتيه فيما بعد.

هذا اجتهادٌ مقبولٌ منه، وتصرُّفٌ صواب.

ولكنَّه تَرَكَ ما هو أَولى.

كان عليه أنْ لا يتحركَ إلاّ بتوجيهٍ من الله، وأنْ يبقى في قومِه حتى يأتيه الإذنُ من الله، وأنْ لا يتعجلَ الخروجَ على أنْ يوجِّهه اللَّهُ بعده!

كانَ عليه أنْ يفعلَ ذلك لأنه نبيٌّ رسول، واللَّه هو الذي يوجههُ حيثُ يشاء، ولذلك فعلَ بخروجِه قبلَ التوجيه من الله خلافَ الأَوْلى، مع أنَّ فعْلَه صحيح، ولكن فرقٌ بين الصحيحِ والأصح، وبين الجائزِ والأَوْلى، وبين الصوابِ والأصوب!!

ولأنَّه تركَ ما هو أَوْلى، ولأنَّه غادرَ قومَه بدون توجيهٍ من الله، فقد عاتبهُ اللَّهُ ولامَه، ووصَفَه بأنه أَبَق، وبأنه مُليم، وأوقعَ به محنةً مريرة.

يونس يركب الفلك المشحون:

فلما غادرَ قومَه توجَّهَ إِلى شاطئ البحر، وهناك وجَدَ سفينةً راسيةً تحملُ ركاباً، فصعد في السفينة، وتوجَّهتْ بركابها إِلى عرضِ البحر، ووسْطَ البحر لم تتمكَّن السفينةُ من متابعةِ السير، بسببِ الحمولةِ الزائدة، ولا بدَّ أنْ يُلقىٰ براكبٍ من ركابها في الماء لينجوَ الآخرون.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

تنصُّ الآياتُ على أنَّ يونسَ عليه السلام كان من المرسلين. وتُخبرُ أنّه أَبَقَ إلى الفلك المشحون.

و«إِذْ» في الآية ظرفُ زمان بمعنى «حين». وذِكْرُ الظرفِ هنا له دلالةٌ لطيفة، فهو متعلقٌ بما قبله، وما بعدَه في محلٍ جرٌ مضافٍ إليه. والتقدير: إن يونسَ لمن المرسلين، حتى حين إِباقِه إلى الفُلْك المشحون.

وهذا معناه أنَّ مغادرتَه قومَه بدونِ إذنٍ من الله، لم يؤثِّرْ في نبوتِه ورسالته، ولم يُلْغِ كونَه من المرسلين.

وفعْلُ «أَبَقَ» تعدّى إلى ما بعدَه بحرف «إلى»، وفَرْقٌ بين قولك: أَبَقَ العبدُ من سيده. وقولك: أَبَقَ الرجلُ إلى أهله.

أَبَقَ من سيده معناه: هربَ من سيده. أما: أَبَقَ إلى أَهله فمعناه: غادرَ وذهبَ إلى أهله.

و«الفُلْك المشحون» هو: السفينةُ المملوءةُ بالركاب.

ومعنى «أَبَقَ إلى الفلك المشحون»: غادرَ قومَه، وذهبَ إلى السفينة المملوءة بالركاب.

قال الإمام الراغب: «الفُلْك: السفينة. ويُطلقُ على المفردِ والجمعِ. والفَلَكُ: مجرى الكواكبِ في السماء. وفَلْكَةُ المغزل: القطعةُ المستديرةُ منه.

وفَلَكَ ثديُ الفتاة: إذا استدار»[1].

---

(١) المفردات: ٦٤٥. وانظر المعجم الوسيط: ٧٠١.

وسُميت السفينةُ فُلْكاً لأنَّها مستديرة، ويُشَبَّهُ بها كلُّ شيء مستدير كفَلْكَةِ المغزل وثديِ الفتاة.

والمشحونُ المملوء. وهو اسمُ مفعول. ولم تَرِد «المشحون» في القرآن إلاّ وَصْفاً للسفينةِ المملوءةِ بالركاب. كما في هذه الآية: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾.

خروج قرعة يونس وإلقاؤه من السفينة:

لما صعدَ يونسُ عليه السلام إلى السفينةِ كانت مشحونةً مملوءةً بالركاب، وكانتْ حمولتُها زائدة، وتوجَّهتْ نحوَ وسط البحر، وهناك واجَهَتْ مشكلات، وعَجَزَتْ عن متابعةِ السير، وكادَتْ تغرق.

ودعت الحاجةُ إلى التخفيفِ من حمولةِ السفينة، بإلقاءِ أحدِ ركابها في البحر، فلا مانعَ أنْ يهلكَ واحدٌ لينجوَ الآخرون.

ولكن مَن الذي يَرضىٰ أنْ يضحيَ بنفسه؟ وأنْ يلقيَ نفسَه بإرادته واختياره.

لا حَلَّ إلاَّ بالقُرعة! أنْ يقترعَ ركابُ السفينة، فمن خرجَت القرعةُ عليه فلا بدَّ أنْ يُلقى في البحر!

واستَهَمَ الركابُ على مَنْ يُلقى من السفينة، واقترعوا فيما بينهم، وقَدَّرَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يخرجَ سهمُ أفضلِ الركاب، يونس عليه السلام. قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قال الإمام الراغب: «السهم: ما يُرمىٰ به. وما يضربُ به من القِداح ونحوه، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾. واستهموا: اقترعوا»[1].

وفاعلُ «ساهَمَ» يعودُ على يونس عليه السلام. أي: ساهمَ يونسُ

---

(١) المرجع السابق: ٤٣١.

مع ركابِ السفينة، واقترعوا على مَنْ يُلقى في البحر، فخرجَ سهمُ يونس.

ولم تَردْ كلمةُ «ساهم» ولا مشتقات «سَهْم» إلاّ في هذا الموضع من القرآن.

ولعلَّ ركابَ السفينة فوجئوا حين خرجَ سهمُ يونس، ولعلَّهم يعرفون يونسَ، ويعلمونَ أنه أفضلُهم، ولعلَّهم أَعادُوا القرعةَ والمساهمةَ مرة ثانية، فخرجَ سهمُ يونس، عند ذلك لم يَجدوا بُدّاً من إِلقاءِ يونس من السفينة: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

و«مُدْحَض» اسم مفعول. بمعنى: الملقى من السفينة.

يقال: دحض، يدحض، فهو داحض، أو مدحض.

وهكذا بدأت محنة يونس عليه السلام، بتقدير من الله الحكيم سبحانه. وألقي من السفينة إلى البحر...

[٥]

ماذا فعل يونس في بطن الحوت؟

إنَّ اللّهَ رحيمٌ بيونس عليه السلام، حتى في ابتلائِه، وهو يريدُ أنْ يبتليَه لا أَنْ يقضيَ عليه، ولهذا يَسَّرَ له أَسبابَ النجاة بحكمتِه عندما أُلقي من السفينة، فما أَنْ وصلَ الماءَ حتى كان الحوتُ ينتظره، بأمْرٍ من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢].

مهمة الحوت بشأن يونس:

ونلاحظُ في التعبيرِ القرآنيِّ عن الحادثة سرعةَ وتتابُع لقطاتِها: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

فالأفعالُ معطوفةٌ بحرفِ الفاء: «فساهم.. فكان.. فالتقمه..». والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ مع التعقيبِ الفوري، فاللقطاتُ كانت متتابعةً سريعة، بمجردِ أنْ ركبَ السفينة كانت القرعةُ والمساهمة، وبمجردِ أنْ خرجَ سهمُه أُلقيَ من السفينة، وبمجردِ أن أُلقيَ من السفينة التقمه الحوت.

وهذا من حكمةِ الله ولطفِ تدبيره، فقد أَمَرَ الحوتَ أنْ يتوجَّه نحو السفينة، وأنْ يفتحَ فمَه، وبمجردِ أنْ يُلقى يونس منها، وفورَ وصولِه للماء عليه أن يلتقمه، لئلا يسبقَ إليه حوتٌ آخر، لا يَعرفُ مَنْ هو، فيجعله وجبةً غذائية له!!

والحوتُ جنديٌّ من جنود الله، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو، فسارعَ بتنفيذِ أمر الله!

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أَنه عَبَّرَ عن ابتلاعِ الحوت له بفعل «التقم». وهو فعلٌ مقصود. ولم يَرِدْ في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

يقال: لَقِمَ الشيء، يَلْقَمُه: إذا أكلَه بسرعة.

و: الْتَقَمَ الشيء، يلتقمُه: إذا ابتلَعَه[1].

أَمَرَ اللّهُ الحوتَ أنْ يلتقمَ يونسَ التقاماً، وأنْ يبتلعَه ابتلاعاً، فنفَّذَ أمْرَ الله، ولذلك لم يُطبقْ عليه فكَّيْه، ولم يُغرزْ فيه أَنيابِه، ولم يمضَغْه بفمه! ولم يكن فمُه إلاّ طريقاً يمرُّ به يونسُ ليستقرَّ في بطن الحوت!

هذا هو المعنى المصوَّرُ الذي يوحيه فعل: «فالتقمه الحوت».

توجيه عدم مضغ وهضم الحوت ليونس:

ولما استقرَّ يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت، أَجرى اللّهُ له معجزةً أُخرى، حيثُ أمرَ الجهازَ الهضميَّ للحوتِ أنْ لا يهضمَ يونس،

---

(١) المعجم الوسيط: ٨٣٥.

وأنْ لا يُفرزَ العصاراتِ الهاضمةِ عليه. فهذا الوافدُ إلى المعدة ليسَ وجبةً غذائية، وهو لا يصلحُ للهضم، وما هو إلاّ مقيمٌ في المعدة إقامةً يسيرة ليغادرها بعدَ ذلك، وهذه المعدةُ أشبهُ ما تكون بقاربِ إنقاذٍ لإنقاذه، ولا يجوزُ لها أنْ تَهضمَه.

وتلقَّت معدةُ الحوتِ أمْرَ الله راضية، ونفَّذَته، فلم تُفرزْ على يونس عصاراتِها الهاضمة، وبقيَ يونسُ حياً فيها!

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذا الأمر، فلو كان الأمْرُ أَمْرَنا نحن البشر لكان مستحيلاً، فلا أحَدَ من البشرِ يستطيعُ أنْ يتحكَّمَ في الحوت، ولا أنْ يأمرَهُ بعدمِ مضغِ فريسته في فمه، وعدم هضمها في معدته، ولو أمَره أحَدُنا بذلك، فلن يستجيبَ له، لأنه لنْ يفهمَ عليه، ولن يخضعَ له.

ثم إنه لا يمكن لأحدٍ أنْ يبقى حياً في معدةِ حيوان أو حوتٍ بالحسابِ البشري، لأنه حتى لو لم يمضغْهُ الحوتُ ولم يهضمْه فلن يَبقى في بطنِه حياً، لأنه سيموتُ بانقطاعِ الأوكسيجين عنه!!

هذا بالمنطقِ البشري والحسابِ البشري.

أمّا بالنسبةِ لإرادةِ الله وقدرتِه فالأمْرُ هينٌ مفهوم، إنَّ اللّهِ فَعّالٌ لما يُريد، وهو على كل شيء قدير... إنَّ اللّهَ هو الذي أَمَرَ الحوتَ أنْ يتوجَّهَ نحو السفينة ففعل، وأمَرَهُ أنْ يفتحَ فَمَه استقبالاً ليونس ففعل، وأمَرَ فمَه أنْ لا يمضغَ يونسَ ففعل، وأمَرَ معدتَه أنْ لا تهضمَ يونسَ ففعلتْ. واللّهُ هو الذي قَدَّرَ ليونسَ أنْ يعيشَ حياً في بطن الحوت.

إنَّ الأمْرَ كلَّه معجزاتٍ وخوارق، يعجزُ عنها البشر، لكنها مفهومةٌ لأنها من فعلِ الله.

بماذا كان يونس مليماً؟:

وأشارت الآيةُ إلى سببِ هذه المحنةِ التي قَدَّرَ اللّهُ أنْ يمرَّ بها يونسُ عليه السلام: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

«مُليم»: اسمُ مفعول، فعلُه الماضي: أَلام. تقول: أَلام، يُليم، فهو مُليم. أي: ارتكبَ ما يستحقُّ عليه اللوم.

قال الإمام الراغب: «اللَّوْمُ: عَذْلُ الإنسان، بنسبتِه إلى ما فيه لَوم. يقال: لُمْتُه، فهو مَلوم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦].

و: أَلام: استحقَّ اللومَ. قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠][(١)].

وجملةُ: «وهو مليم» جملةٌ حالية، في محلِّ نصبِ حال.

أي: أَمَرَ اللَّهُ الحوتَ أنْ يلتقمَ يونسَ عليه السلام، ويجعلَه في بطنه، لأنه مُليم، فعلَ ما يستحقُّ أنْ يُلامَ عليه، ومن لومِ اللَّه له أنْ أوقعَ به هذا البلاء.

ما الذي فعلَه يونسُ عليه السلام، واستحقَّ أنْ يُلامَ عليه؟

إنه مغادرتُه لقومِه دونَ إذنٍ من الله، وانتقالُه إلى موقعٍ آخر دونَ توجيهٍ من الله، فرغمَ أنَّ فعلَه صحيحٌ وصواب، لكنه كان خلافَ الأَوْلى والأصح والأصوب، ولذلك لامَه الله، ورتَّبَ له هذه المحنة.

وكونُه مُليماً مستحقّاً للَّوْم، ليس معناهُ أنه مخطىءٌ أومذنبٌ فيما فعل، فما فعلَه صوابٌ صحيحٌ كما قلْنا، ولامَه اللَّهُ لأنه تركَ ما هو أَوْلى، والأصلُ في النبيِّ أنْ يفعلَ دائماً ما هو أَوْلى، فإنْ فعلَ خلافَ الأَوْلى باجتهادِه، فإنَّ اللَّهَ يعاتبُه وينصحُه ويرشدُه، وقد يلومُه كما فعلَ مع يونس عليه السلام.

استقرَّ يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت، وصارَ الحوتُ يتحركُ

---

(١) المفردات: ٧٥١.

تحتَ الماء، وينتقلُ من مكانٍ إلى آخر، وكأنه «غوّاصة» تحملُ يونسَ بأمان، وتَقيه الأَخطارَ والأهوال!

لجوء يونس إلى الله ودلالته:

وتفقَّدَ يونسُ عليه السلام نفسَه، فوجد نفسَه في بطنِ الحوت، والحوتُ يَغوصُ تحتَ الماء، وهو حوتٌ من آلافِ الحيتانِ التي تسبحُ في أَعماقِ البحر.

فماذا يفعلُ يونس؟ هل يمكنُ أنْ يستنجدَ بأَحدٍ من البشر؟ وكيف يفعل؟ هل يملكُ وسيلَة استنجادٍ واستغاثة يرسُلها من بطن الحوت إلى البشر؟ ولو رفعَ صوتَه وصرخَ مستغيثاً فهل يسمعُ بَشَرٌ صَوْتَهُ؟ ولو أَنَّ قوةً من البشر تريدُ أن تُغيثَه وتنجدَه، فهل تعرفُ الحوتَ الذي يَحويه؟ وهل يمكنُ أنْ تميزَه من بينِ آلافِ الحيتانِ المشابهة؟

المخلوقون جميعاً يعجزون عن إِغاثةِ ونجدةِ يونس عليه السلام لو أَرادوا، وإِذا وَصلوا إِليه بعد حين، فسيعجزون عن إِنقاذِه حياً!!.

إنَّ يونسَ عليه السلام نبيٌّ كريم، يدركُ هذه الحقيقة، ويوقنُ أَنه لن ينقذَه إلاّ الله، ولن يُفرجَ كربَه إلاّ الله، ولذلك أَقبلَ على الله واتصلَ به، فذكره وسبحه، وناداه واستغاثَ به وتضرَّعَ إِليه.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هذا اللجوءَ الإيمانيَّ إِلى الله، وجعلَتْه مَعْلَماً هادياً وأسوةً حسنةً، للمؤمنين بعد يونس عليه السلام، يقتدون به عندما يمرون بِضَيْقٍ أو محنةٍ أو غمٍّ أو كرب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

أي: لولا أنَّ يونسَ كان مسبِّحاً لله، لبقيَ في بطنِ الحوت إِلى يوم القيامة، أي سيأمُرُ الله معدةَ الحوتِ أنْ تفرزَ على يونس عصاراتِها الهاضمة، وأنْ تحوِّلَه إِلى وجبةٍ غذائية.

إنَّ تسبيحَه لله سبب، قَدَّرَ اللَّهُ أنْ يُنجيه من أجله، ولو لم يتحقَّق هذا السببُ لما كُتب ليونس النجاة.

تسبيح يونس السابق سبب لنجاته برحمة الله:

متى كان يونسُ مسبِّحاً لله؟ هل في بطنِ الحوت فقط؟ أم كان مسبِّحاً قبلَ ذلك؟

إنّ «مسبِّحاً» اسمُ فاعلٍ من التسبيح، واسمُ الفاعلِ يدلُّ على الثباتِ والاستقرار، أي أنَّ الحالةَ التي عَبَّر عنها اسمُ الفاعل حالةٌ دائمةٌ لصاحبها.

إن التسبيحَ كان صفةً دائمة، ملازمةً ليونسَ عليه السلام، وهذا معناه أنه كان مسبِّحاً لله عندما كان وسط قومِه، يَدعوهم إلى الله، وكان مسبِّحاً لله لما استقرَّ في بطنِ الحوت.

لقد كان له رصيدٌ كبيرٌ من ذكْرِ الله وتسبيحِه، وهذا الرصيدُ سببٌ نافعٌ إيجابي، قَدَّرَ اللَّهُ أنْ يرحمَ به يونس، وأنْ ينقذَه من هذهِ المحنة.

عرفَ اللَّهَ في الرخاء، فعرفَهُ اللَّهُ في الشدة، وذَكَرَ اللَّهَ في الرخاء، فنفعَهُ هذا عندَ الشدة، وفرَّجَها اللَّهُ عنه بسبب ذلك.

ويَقْتدي المؤمنُ الصالحُ بيونسَ عليه السلام في هذا الجانب، فيحرصُ على الإكثارِ من ذكرِ الله وعبادتِه في حالةِ الرخاء، ليكونَ له رصيدٌ كبيرٌ عند الله، وليرحمهُ اللَّهُ عند الشدةِ والمحنة.

وبعدما سبَّحَ يونسُ عليه السلام ربَّه وهو في بطنِ الحوت، تضرَّعَ إليه ودعاه واستغاثَ به. قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

الفاء في «فنادى» حرفُ عطف، وجملةُ «نادى في الظلمات» معطوفةٌ على جملة ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، باعتبارها تتحدثُ عن

لقطةٍ أخرى من مشاهدِ قصة يونس، وقعتْ بعدَ اللقطةِ السابقة، التي أشارَ لها قولُه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

يونس نادى ربه في الظلمات:

نادى يونسُ عليه السلام ربَّه وهو «في الظلمات» ودعاهُ وتضرَّعَ إليه.

و«الظلمات» جمع، ينطبقُ على عدةِ نماذج حسيةٍ ونفسية. فهو في ظلمةِ بطنِ الحوت، وهو في ظلمةِ ماءِ البحر، وهو في ظلمةِ الليل.

وكان عليه السلام يُعاني ظلمةً نفسيةً شعورية، ظلمةَ الغمِّ والهمِّ والكربِ والضيق، ظلمةَ المحنةِ والشدةِ والبلاء.

عندما مَرَّ يونسُ عليه السلام بالظلماتِ نادى ربَّه، وعندما اعترتْه ظلماتٌ نفسيةٌ شعورية نادى اللّهَ واستغاثَ به.

وهذا هو الإيمانُ بالله، وهكذا يفعلُ المؤمن بالله، إنه لا يلجأُ إلاَّ إلى الله، ليكشفَ عنه الضرَّ والبلاء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

كان نداءُ ودعاءُ يونسَ عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهو دعاءٌ موجزٌ مجملٌ رقيقٌ لطيف، كله أدبٌ ورقةٌ وتقديرٌ لله، وهو يذكِّرُنا بتضرُّعِ أيوبَ عليه السلام الذي تكلمنا عن قصته من قبل، والذي أشارتْ إليه آياتٌ سابقةٌ من سورة الأنبياء.

قال اللّهُ عن أيوب عليه السلام: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

وقالَ الله عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ

أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾..

كِلا النبيين الكريمين عليهما السلام ابتلاه اللَّهُ بالضر، وكلاهما نادى ربَّه ودعاه واستغاثَ به، وكلاهما خاطبَ اللَّهَ بِأَدَبٍ ولطف ورقة، وكِلاَهُمَا كان نداؤه وتضرُّعه مجملاً بدون تفصيل، وكِلاَهُمَا استجابَ اللَّهُ له فورَ ندائِه ودعائه، فكشفَ عنه الضر، ونجّاه من الغمّ. وكلاهما قدوةٌ للمؤمنين، يَقتدون بهما في اللجوءِ إلى الله ودعائه، والأدبِ واللطفِ في طلبِ الفرجِ منه!.

ثناؤه على الله واعترافه بظلمه لنفسه واستجابة الله له:

نطقَ يونسُ عليه السلام في دعائِه بالكلمةِ الطيبة: «لا إله إلا أنت». وأعلنَ توحيدَ الألوهيةِ وأكّدَ عليه.

إنه في غمٍّ وضيق، وإنه بعيدٌ عن جميع المؤيِّدين والناصرين من المخلوقين، وإنه يُوقنُ أَنَّ أيةَ قوةٍ بشرية عاجزةٌ عن الوصولِ له، وأنه لا يمكنُ أنْ يقدِّمَ له مخلوقٌ مساعدةً أو نفعاً.

إنه يعيشُ حقيقةَ أنه لا إله إلا الله، ويستشعرُ حالةَ أَنَّهُ لا إله إلا الله، ويدركُ فعلاً أنه لا نافعَ ولا ناصرَ ولا مؤيِّدَ إلاّ الله. ولهذا نطقَ بها بلسانِه، وهو يستحضرُها في قلبه ويعيشُها بكيانه.

ونستفيدُ نحن من هذا الدعاءِ النبويِّ الكريم أنْ نبدأَ دعاءَنا وتضرُّعَنا بالثناءِ على الله، وإعلانِ أَنه لا إله إلا الله، ثم نقومُ بتقديمِ طلباتِنا وحاجاتِنا بعد ذلك.

وبعدما أثنى يونسُ على الله، اعترفَ بتقصيرِه قائلاً: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَدركَ يونسُ وهو في بطنِ الحوت الذاهبِ في عرضِ البحر، أَنه تسرَّعَ بالخروجِ من قومه، قبلَ توجيهِ اللَّهِ له، وأن اللَّهَ عتبَ عليه ولامَه من أجل ذلكَ، وقدَّرَ أنْ يوقعَ به هذا البلاء، ويمتحنَه بهذه المحنة.

ولما أدركَ ذلك انطلقَ لسانُه بالاعترافِ بأنه كان ظالماً في فعلِه وتصرفِه وخروجِه، وطلبَ من اللّهِ أنْ يتجاوزَ عن ظلمه، فيسامحَه ويفرجَ كربه.

ولا يُرادُ بوصفِ يونسَ بالظلمِ هنا حقيقةُ الظلم، لأنه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، والأنبياءُ معصومون، يَعصمهم اللّهُ من الوقوعِ في الظلمِ والفسقِ والذنب والعصيان.

وَصَفَ يونسُ نفسَه بالظلمِ لشعورِه بالتقصيرِ في حقِّ الله، وحيائِه من الله، وطلبِه تفريجَ الغمِّ والكرب والضيق.

ولما نادى يونسُ عليه السلام ربَّه ودَعاه وتضرعَ إليه، سمعَ اللّهُ دعاءَه واستجابَ له ونجّاه من الغم ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

اللّهُ سميعٌ وعى سمْعُه الأصواتَ كلَّها، ولهذا سمعَ نداءَ يونسَ وهو في بطنِ الحوت. واللّهُ بصيرٌ أحاطَ بصرُه بالمَرئياتِ كلِّها، ولهذا رأى يونسَ وهو في بطنِ الحوت واللّهُ عالمٌ بكلِّ شيء، فعلمَ أحوالَ يونس وهو في بطنِ الحوت. إنه لا يوجد ما هو بعيدٌ عن الله، فكلُّ شيء عندَ الله قريب، فَمَنْ كان عندَ الله في السماءِ السابعة من الملائكة فهو قريبٌ منه، ومَنْ كان على وجهِ الأرض من البشر فهو قريبٌ من الله، ومَنْ كانَ في أَعماقِ البحر فهو قريبٌ من الله. وسعَ اللّهُ الجميعَ بعلمه وسمعه وبصره..

[٦]

«وكذلك نُنجي المؤمنين»

كان يونس مغموماً مكظوماً فنجاه الله:

أَخبرَنا اللّهُ أنه استجابَ ليونسَ عليه السلام لما ناداه، ونجاهُ من الغم: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ..﴾.

وإنَّ اللهَ مع عباده، يستجيبُ لهم عندما يدعونَه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ [غافر: ٦٠].

نجّى اللّهُ يونسَ من الغمّ الذي كانَ به، وهو المحنةُ التي أصابتْه، والكربُ الذي تغشّاه، وهو في بطنِ الحوت، وكان مهموماً مغموماً مكظوماً.

قال السمينُ الحلبي عن الغَمّ: «الغَمُّ: الحزنُ الذي يَضُمُّ القلب. أي يستره ويُغَشّيه.

والغَمُّ في الأصلِ سَتْرُ كلِّ شيء. ومنه الغَمامُ لأنه يسترُ الضوء والشمس»(١).

ولا شكَّ أنَّ يونسَ كان مكظوماً حزيناً في غايةِ الكرب. وأَخبرَنا اللّهُ أنه نادى ربَّه وهو مكظوم. قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٤٩].

الخطابُ في هذه الآياتِ لرسولِ الله محمدٍ ﷺ، يطلبُ اللّهُ منه أنْ يصبرَ لحكْمِ ربه، فيصبرَ على تكاليفِ الدعوة، ويصبرَ على ما يواجهه من أذى قومِه، ويَنهاهُ أنْ يفعلَ كما فعلَ يونسُ عليه السلام صاحبُ الحوت، حيث غادرَ قومَه بدونِ إذنٍ وتوجيهٍ منه سبحانه.

وليسَ معنى هذا نفيَ الصبرِ عن يونسَ عليه السلام، فهو نبيٌّ رسولٌ صابر، لكنَّ اللّهَ يريدُ من رسولِه محمدٍ ﷺ أنْ يكونَ أكثرَ صبراً من يونسَ الصابر.

يونسُ صاحبُ الحوت نادى ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ فاستجابَ اللّهُ له.

و﴿مَكْظُومٌ﴾ اسمُ مفعولٍ من الكَظْم.

قالَ السمينُ الحلبي عن الكَظْم: قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أي: الحابِسين غيظَهم، الماسِكين له، مأخوذٌ من قولِك: كَظَمْتُ القِرْبَةَ: إذا شددْتَ فاها.

---

(١) عمدة الحفاظ ٣: ٢١٠.

قال ابنُ عرفة: الكاظِم: الممسِكُ على ما في قلبه.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوءٌ كرباً..»[1].

وكذلك ينجي الله المؤمنين:

كان يونسُ عليه السلام في بطن الحوت مَغموماً يغشاهُ الغمُّ والحزن، وكان مكظوماً مملوءاً كَرْباً وهَمّاً وغَمّاً، فاستجابَ اللّهُ له، وتداركَه برحمتِه، وأوقعَ عليه نعمتَه، فزال عنه الغمُّ والكرب، ونجّاه من المحنة.

والمهمُّ في تعقيبِ القرآنِ على إنجاءِ اللّهِ له في سورةِ الأنبياء، تعميمُ هذا الإنجاءِ ليشملَ المؤمنين: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾. الواوُ في «وكذلك» استئنافية، وما بعدَها جملةٌ جديدة فيها تقريرُ حقيقةٍ إيمانيةٍ مطردة.

و«كذلك» متعلقةٌ بما قبلَها، وهو إنجاءُ اللّهِ يونسَ عليه السلام. والتقدير: كما أنجيْنا يونسَ من الغَمّ، وأنقذْناه من الخطر، وأخرجْناه سالماً معافى، كذلك نفعلُ بكلِّ مؤمنٍ صالح، فإذا وقعَ مؤمنٌ في غمٍّ وكرب، ثم دَعانا وتضرَّعَ إلينا، فإننا نستجيبُ له كما استجبْنا ليونس، ونُنْجيه كما أَنْجينا يونس.

لقد جعلَ اللّهُ الحديثَ عن إنجائِه ليونس فرصةً مناسبة لتقريرِ حقيقةِ إنجائِه للمؤمنين المكروبين. وهذا فَتْحُ بابِ الأملِ والرجاءِ لهؤلاء، ليستشرفوا الفرجَ وينتظروه، وهم في أَشَدِّ حالات الغمِّ والكرب، وما عليهم إلاّ أنْ يَفعلوا كما فعلَ يونسُ عليه السلام، فيُقبلوا على اللّهِ بتضرُّعٍ وإنابةٍ واستغاثة، ولْيوقِنوا أنَّ اللّهَ سيُنجيهم ويفرجُ عنهم، كما فعلَ مع يونسَ عليه السلام. هذا وَعْدُه لهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، واللّهُ لا يخلفُ الميعاد!!

---

(١) عمدة الحفاظ ٣:٤٦٩.

الرسول ﷺ يخبر عن شمول الدعاء والنجاة للمؤمنين:

وقد أَخبرَنا عن هذه الحقيقةِ رسولُ الله ﷺ.

روى الترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «أَلا أُخبرُكم بشيء إِذا نزلَ برجلٍ منكم كَرْبٌ أَو بلاءٌ من أَمْرِ الدنيا، دَعا به، فَفُرِّجَ عنه؟

دعاءُ ذي النون: لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين.

وهناكَ روايةٌ أُخرى لهذا الحديث، فيها تصويرٌ للمستوى الإيمانيِّ الأَخلاقيِّ الرفيع الذي كان يعيشُه الصحابةُ الكرام رضوان الله عليهم.

قالَ سعْدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه: مررْتُ بعثمانَ بن عفان في المسجد، فملأَ عينَيْه منّي، ثم لم يَرُدَّ عَلَيَّ السلام!!

فأتيتُ أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب، فقلت: يا أميرَ المؤمنين: هل حدثَ في الإسلام شيء؟

قال عمر: لا. وما ذاك؟

قلت: لا. إلاّ أنّني مررْتُ بعثمانَ آنفاً في المسجد، فسلمتُ عليه، فملأَ عينيه منّي، ثم لم يُرَدَّ عَلَيَّ السلام!

فأرسلَ عمرُ إلى عثمان، فدعاه، فقال له: ما منَعَك أَنْ لا تكون رددْتَ على أَخيك السلام؟

قال عثمان: ما فعلْتُ.

قلتُ: بلى.

حَتّى حلفَ، وحلفْتُ.

ثم إنَّ عثمان ذكَر، فقال: بلى، وأَستغفرُ الله، وأَتوبُ إِليه! إنك

مررْتَ بي آنفاً، وأنا أحدِّثُ نفسي بكلمةٍ سمعْتُها من رسولِ الله ﷺ، لا واللّهِ ما ذكَرْتُها قط إلاّ تغشّى بصري وقلبي غشاوة!!

قلت: أنا أنبئُك بها. إن رسولَ الله ﷺ ذَكَرَ لنا أولَ دعوة، ثم جاءَ أَعرابيٌّ فشَغَله، حتى قامَ رسولُ الله ﷺ، فاتبعْتُه. فلما أَشفقْتُ أنْ يسبقَني إِلى منزله، ضربْتُ بقدمي الأرض، فالتفتَ إليَّ رسولُ الله ﷺ.

فقال: مَن هذا؟ أَبو إسحاق؟

قلت: نعمْ يا رسول الله.

قال: فَمَهْ؟

قلت: لا والله، إلاّ أنكَ ذكرْتَ لنا أولَ دعوة، ثم جاءَ هذا الأعرابيُّ فشغلك.

قال: نعم. دعوةُ ذي النون، إذ هو في بطنِ الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيء قط إلاّ استجابَ له..»[1].

والشاهدُ في الحديثِ الجملةُ الأخيرة، حيث يصرحُ رسولُ الله ﷺ بتعميمِ استجابةِ الله لدعاء يونس على كلِّ مسلم. فأيُّ مسلمٍ يدعو اللّهَ بدعوةِ يونس فإنَّ اللّهَ يستجيبُ له دعوتَه.

ويتضمنُ دعاءُ يونسُ عليه السلام اسمَ الله، الذي إِذا دُعيَ به أَجاب، وإذا سُئلَ به أَعطى.

روى سعدُ بن أَبي وقاص رضيَ الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: اسمُ اللّهِ الذي إِذا دُعيَ به أَجاب، وإذا سُئلَ به أَعطى، دعوةُ يونسَ بن متّى.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٥٠٠. والنسائي في الكبرى برقم: ١٠٤٩١. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٦.

فقلت: يا رسولَ الله: هي ليونسَ بنِ متّى خاصة أمْ للمسلمين عامة؟

قال: هي للمسلمين عامة، ألم تسمعْ قولَ الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[١].

وروى ابن كثير في تفسيرِه ـ بعدَ أنْ أوردَ الحديثَ السابق عن كثيرِ بن معبد قال: سألتُ الحسنَ البصري، فقلت: يا أبا سعيد: اسمُ الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى ما هو؟.

قال الحسن: يا ابن أخي: أما تقرأُ القرآن؟ إنَّه في قول الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يا ابن أخي: هذا اسمُ اللّهِ الأعظم، الذي إذا دُعيَ به أجاب، وإذا سُئل به أعطى...»[٢].

فعلى المسلمين أنْ يُكثروا من الدعاءِ بدعوةِ يونس عليه السلام، ليستجيبَ اللّهُ لهم، كما وردَ في صريح القرآن وصحيح الحديث.

[٧]

يونس عليه السلام وشجرة اليقطين

الحوت يلقي يونس على الشاطئ:

لما دَعا يونسُ عليه السلام ربَّه استجابَ له، وتداركَه بنعمتِه، ورحِمَه برحمته، وفرَّجَ عنه كربَه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ

---

(١) هو بنفس معنى الحديث السابق الصحيح.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٨٨.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٥٠].

نادى يونسُ ربَّه وهو في بطن الحوت، وكان مكظوماً مهموماً مغموماً مكروباً، ولولا أنْ تداركَهُ اللّهُ برحمتِه ونعمتِه لكان مذموماً مطروداً.

﴿لَّوْلَآ﴾: حرفُ شرط. وجملةُ: ﴿أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فعلُ الشرط. وجملةُ ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جوابُ الشرط.

والمعنى: لولا نعمةُ اللّهِ عليه بقَبولِ دعائِه وتوبتِه لأَبعده اللّهُ عن رحمته، ولطرحَه في الأرضِ العراءِ وهو مذمومٌ مطرود.

ولكنَّ اللّهَ رحمه برحمته، وأنعمَ عليه بنعمتِه، وخلَّصه من محنته، فأمرَ الحوتَ أنْ يتوجَّهَ به نحوَ شاطئِ البحر، ففعل، ثم أَمره أنْ يخرجَه من بطنِه، ويلقيَه على الشاطئ، ففعل. فما هو إلاّ جنديٌّ منفِّذٌ لأَوامرِ الله.

وقد أَشارَ القرآنُ إلى ما جرى له على شاطئِ البحر، وإلى إنعامِ اللّهِ عليه وإكرامِه له. قال تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٦].

النَّبْذُ: الطرحُ والإلقاء. يقال: نبذَ الشيء: إذا طرحَه وأَلقاه.

والعَراء: الأرضُ الفضاء، التي لا شجرَ ولا نباتَ ولا بناءَ عليها.

وهي صفةٌ لشاطئِ البحر، الذي يكونُ غالباً رملياً، لا ينبتُ عليه نباتٌ ولا شجر.

وقفَ الحوتُ على شاطئِ البحر بأمْرِ الله، وأَخرجَ يونسَ من بطنه بأمْرِ الله، وأَلْقاه على الشاطئِ بأمْرِ الله، وعادَ إلى مياهِ البحر بأمْرِ الله.

وبهذا انتهتْ محنةُ يونسَ في البحر وفي بطن الحوت، بأمْرِ الله، وخرجَ منها بأمانٍ، برعايةِ وتدبيرِ الله.

يونس على الشاطئ سقيماً:

لكنه وقعَ في محنةٍ جديدة، سيرعاهُ اللّهُ فيها، ويدبِّرُ له تجاوزَها والخروجَ منها بأمان.

ألقاهُ الحوتُ على شاطئ البحر وهو مريض: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾..﴾.

والسقيمُ هو المريض. وتخيَّلْ مَعَنا منظَرَ إنسان عاشَ في بطنِ الحوت ساعاتٍ أَو أياماً ـ وجوُّ بطْنِ الحوت معروفٌ بحرارتِه ـ كيف سيكونُ بدنُه ووضعُه عند خروجه.

لا شكَّ أنه سيكونُ سَقيماً مريضاً في جسمه، وسَقيماً في جلدِه، الذي سيكونُ أشبهَ بالمسلوقِ المسلوخ.

قال ابنُ مسعود: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: كهيئةِ الفَرْخ، ليس عليه ريش.

وقال ابنُ عباس وابنُ زيد والسدي: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: كهيئةِ الصبيِّ حين يولَد، منفوسٌ لحمُه نيء[1].

وإذا كان اللّهُ قد أنقذَه من أَخطارِ البحر، عندما سخَّر له الحوتَ فإنَّه سينقذُه من أخطارِ البر!

إنَّ شاطئَ البحر موبوءٌ بالميكروبات والجراثيم، وإنَّ يونسَ سقيمٌ مريض ضعيفُ البدن، مسلوخُ الجلد، فهو عرضةٌ للإصابةِ بالأمراض والآفات، الشمسُ الحارةُ على الشاطئ ستؤذي جسمَه المسلوخ، والذبابُ والبعوضُ سيتكاثرُ على لحمِه المقروح!

واللّهُ حكيمٌ لطيفٌ رحيم، سيرحمُ عبدَه يونسَ على الشاطئ، وييسرُ له وسيلةً خارقةً معجزة، يتجاوزُ بها تلك الأخطار.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤: ٢٣.

معجزة إنبات اليقطين على يونس:

كانت الوسيلةُ المعجزةُ في إِنباتِ شجرةِ اليقطين عليه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾.

واليَقطينُ هو القرعُ المعروف. فهو يُسمّى يقطيناً، ويُسمّى قَرْعاً، ويُسمّى دُبّاء.

إنها ثلاثةُ أسماءِ لنباتٍ واحد، خصائصُه النباتيةُ واحدة، ولكن هناك اختلافٌ في ثمرِه. فالدُّبّاءُ والقرعُ واحد. وثمرُه معروفٌ يكادُ يشبه الشمامَ والبطيخَ الصغير. أمّا اليقطينُ فثمرُه قريبٌ من الكوسا.

والراجحُ أنَّ «يقطين» كلمةٌ أعجميةٌ غيرُ عربية، جعلت اسماً لهذه النبتةِ الزراعية.

واعتبرت الآيةُ اليقطين شجرة: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾، مع أنه نباتٌ على وجْهِ الأرضِ لا ساقَ له.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ كلَّ نباتٍ على وجه الأرض يسمّى يَقطيناً، كالشمام والبطيخ، ولكن هذا مرجوح. فالراجحُ هو أنَّ اليقطينَ هو النباتُ المعروف فقط.

كان إِنباتُ شجرةِ اليقطين على يونسَ عليه السلام معجزةً من معجزات الله، ليحميه من حَرِّ الشمس وميكْروباتِ البعوض والذباب، وليمنحَه الظلَّ الوارف.

لم يكن إِنباتُ اليقطين عليه بطريقةٍ عادية، ولم تمرّ بمراحلِ «دورتِها الزراعية» المعروفة، فلو كان الأمرُ كذلك لضاعت الفائدةُ منها. فبذرةُ «اليقطين» تحتاجُ إلى أيام تحت الأرض لتنبت، ثم تحتاجُ إلى أَسابيعَ لتمتد، وإلى أسابيعَ أُخرى لتكبر، وستفتكُ الأمراضُ بيونسَ الملقى على الشاطئِ مسلوخ الجلد سقيمَ البدن!

كان إِنباتُ شجرةِ اليقطين على يونسَ في لحظاتٍ أَو ساعات، معجزةً من معجزاتِ اللهِ الباهرات!

أمرَ اللّهُ بذرةَ اليقطين في باطنِ الأرض فنبتَتْ، وأَمَرَها فظهرتْ على وجه الأرض، وأَمَرَها أَنْ تمدَّ ساقَها على وجْهِ الأرض ففعلَتْ، وأَمَرَها أَنْ تُخرجَ أَوراقَها الكبيرةَ العريضةَ ففعَلَتْ، وأَمَرَها أَنْ ترتفعَ على ساقها عن وجه الأرضِ وكأَنها معروشةٌ ففعلَتْ، وأَمَرَها أَنْ تتوجَّهَ إِلى يونسَ السقيم، وأَنْ تظلِّلَ عليه بأوراقِها الكبيرة، وأَنْ تُحيطَ به بحنانٍ ورعايةٍ ففعلَتْ. وسبحانَ اللّهِ القادرِ على كل شيء، الفعّالِ لما يُريد.

وكما كان الحوتُ في البحرِ جُندياً من جنودِ الله، ساقَهُ اللّهُ لحمايةِ يونس في بطنه، كذلكَ شجرةُ اليقطينِ جنديٌّ من جنودِ الله، سخَّرها اللّهُ لحمايةِ يونس على شاطئ البحر، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو.

لماذا شجرة اليقطين بالذات؟:

لكن لماذا اليقطينُ بالذات؟

قالَ الإمامُ ابنُ كثير عن ذلك: «وذَكَرَ بعضُهم في القرعِ فوائد، منها: سرعةُ نباتِه، وتظليلُ ورقِه لكبره، ونعومتِه، وأَنه لاَ يقربُها الذُّباب، وجودةُ تغذيةِ ثمره، وأَنه يؤكَلُ نيئاً ومطبوخاً، وقشرُه أَيضاً.

وقد ثبتَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يحبُّ الدُّبَّاء، ويتتبعُه من نواحي الصحفة»[1].

أرادَ اللّهُ الحكيمُ شجرةَ اليقطين دونَ غيرِه لحِكَم ثلاث:

الأُولى: أوراقُ اليقطينِ عريضةٌ متشابكة، تظلِّلُ بدنَ يونسَ عليه السلام بشكلٍ كامل، وتَقيه حَرَّ أشعةِ الشمس، وبذلكَ تُحفظ قروحُ بدنِه من التضررِ بأشعةِ الشمس المؤذية.

(١) تفسير ابن كثير ٤ : ٢٣.

الثانية: أوراقُ اليقطينِ ناعمةُ الملمس، وبدنُ يونسَ المقروحُ بحاجةٍ إلى غطاءٍ ناعمٍ لئلا يُؤذىٰ.

الثالثة: لا يَقربُ أوراقَ اليقطينِ الحشراتُ ناقلةُ الأمراض، وبالذاتِ الذبابِ والبعوض. وهذه ملاحظةٌ يدركُها المزارعون الفلاحون، فيرون الذبابَ لا يقتربُ من نباتِ اليقطين، وكأنَّ بينَهما عداوةٌ متأصلةٌ من آلافِ السنين!!

وكأنَّ أوراقَ اليقطين جعلَها اللّهُ تعقيماً لبدنِ يونسَ المقروح، لئلا تقربَهُ الحشرات، وتنشرَ فيه الجراثيمَ والميكروبات! وسبحان الله الحكيم!!.

و«اليقطين» نبات، فلماذا سَمّاه اللّهُ في الآية شجرة؟

قالَ السمينُ الحلبي عن معنى «الشجر»: «وأصْلُ الشجرِ ما نبتَ على ساق، وكانَ له أَغصانٌ وظلّ، وإلاّ فهو نجم. قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٦]. أي: جميعُ النبات. لأنَّ النباتَ لا يخلو منْ أحدِ هذين الوصفيْن.

وسُميت الشجرةُ شجرةً لاختلافِ أَغصانِها وتشعُّبِ أَفنانها..»[١].

إنَّ إطلاقَ وصفِ «شجرة» على نبتةِ اليقطين لحكمةٍ لطيفة، وهي تصويرُ نبتةِ اليقطين التي نبتَتْ ونمتْ وامتدتْ وكبرتْ وظللتْ بطريقةٍ سريعةٍ معجزة، تصويرُها على أنها شجرةٌ وليستْ نبتةً.

كأنها شجرةٌ ملتفةُ الأغصان، متشابكةُ الأفنان، متشعبةُ الأوراق، شجرةٌ كبيرة أماطتْ بيونسَ عليه السلام، وجعلَته يأنسُ تحتَ ظلِّها الظليل. وهذا التصويرُ والتكبيرُ مقصودٌ مرادٌ في التعبيرِ القرآني، لزيادةِ الشعورِ بإنعامِ الله على يونسَ عليه السلام، ورحمتِه له.

---

(١) عمدة الحفاظ ٢: ٢٩٠.

وبقيَ يونسُ عليه السلام تحتَ شجرةِ اليقطين، مستروحاً ظلُّها الظليل، متلذِّذاً بأوراقِها الناعمة، مستمتِعاً بالحمايةِ التي توفرُها أوراقُها له، بقي هكذا حتى زالَ سقمُه، وعوفيَ من مرضِه.

وهكذا انتهت المحنةُ التي امتحنَ اللّهُ يونسَ عليه السلام بها، وخرجَ منها آمناً سليماً معافى، كما خرجَ من محنةِ البحر، وزادَ يونسُ إقبالاً على الله، وحمداً له، واعترافاً بفضْلِه عليه ورعايتِه له.

[٨]

فرح يونس عليه السلام بإيمان قومه

عدد أهل نينوى مبهم يزيد على المائة ألف:

لما عافى اللّهُ يونسَ عليه السلام تحتَ شجرةِ اليقطينِ أعادهُ إلى قومِه، الذين غادرهم، لأنهم آمنوا به أثناءَ غيابه عنهم، فأعادَه إليهم ليبلِّغَهم الشريعةَ والأحكام.

قال الله عنهم في سورة الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨].

الكلامُ في الآيةِ عن قومِ يونسَ، الذين هم أهلُ نينوى، يخبرُنا اللّهُ أنهم كانوا مائةَ ألف أوَ يزيدون.

وللمفسِّرين عدةُ أقوال في معنى «أوْ» هنا:

فقالَ بعضُهم: هي حرفٌ للإضراب بمعنى «بل». والمعنى: كانوا مائةَ ألفِ شخص، بل يَزيدون على ذلك.

وهذا القولُ منسوبٌ لابنِ عباس رضي الله عنهما، وعليه جمهورُ المفسرين.

وقال آخَرون: هي بمعنى الواو، فتدلُّ على العطف. والمعنى: كانوا مائةَ ألف، ويَزيدون على ذلك. وهذا قريبٌ من القول الأول.

وقال آخرون: هي للتخيير. أي: إذا رآهم الرائي وأَرادَ أنْ يعدَّهم تخيَّرَ بين أنْ يقول: هم مائةُ ألف، أو أكثرُ من ذلك.

وقال آخرون: هي للشك. والشكُّ ليس من الله فإنه عالمٌ بهم، ولكنه من جهةِ الرائي الذي ينظرُ إليهم، فلا يَدري هل هم مائةُ ألفٍ أو يزيدون.

وقال آخرون: هي للإبهام. أي أنَّ اللّهَ أبهم عددَهم علينا، فهم أكثرُ من مائةِ ألف، ولكن لا داعي للبحثِ في عددهم، فهو مبهمٌ لا يمكنُ أنْ نبيِّنَه أو نحدِّدَه[1].

ورغمَ أنَّ معظمَ المفسرين على القولِ الأول، وأَنها بمعنى «بل» إلاّ أَننا نَميلُ إلى القولِ الأَخير، ونرجحُ أنها للإبهام.

إنَّ «الإبهامَ» لبعضِ الأَسماء والأَعداد والأَماكن مقصودٌ في القصص القرآني، يبهِمُ اللّهُ علينا هذه الأشياء، لئلا نبحثَ فيها، لعدمِ وجودِ دليلٍ نعتمدُ عليه، ولعدمِ ترتُّبِ فائدةٍ علميةٍ منه.

إنَّ تحديدَ عددِ سكانِ أهلِ نينوى لا فائدةَ منه، ولو قلْنا إنَّ «أَوْ» بمعنى «بل» فسنختلفُ في تحديدِ الزيادة، كم كانوا يزيدون على المائةِ ألف، وكلُّ ما سنقولُه في تحديدِها لا دليلَ عليه، وهذا ما حصلَ للمفسرين.

ولهذا نرجحُ أَنهم كانوا أكثرَ من مائةِ ألفٍ نسمة، ولكنَّ هذه الزيادةَ أَبهمَها اللّهُ علينا، ودَعانا إلى أنْ نُبقيَها على إبهامِها، وأنْ لا نحاولَ تحديدَها.

وكونُ أهلِ نينوى في ذلك الزمنِ الماضي أكثرَ من مائةِ ألفِ شخص، له دلالةٌ حضارية، حيث يشيرُ إلى أنَّ منطقةَ نينوى كانت مأهولةً بالسكان، وكونُهم آمَنوا بالله واتبعوا يونسَ عليه السلام دليلٌ على

---

(١) انظر خلاصة هذه الأقوال في «الجدول في إعراب القرآن» لمحمود صافي ١٢: ٨٨.

كثرةِ عددِ المؤمنين السابقين، فاجتماعُ أكثرَ من مائةِ ألفِ مؤمنٍ في زمانٍ ومكانٍ واحد في الماضي شيءٌ جيدٌ طيبٌ، يسرُّ المؤمنين.

آمنوا في غيبة يونس عنهم:

وأَخبرَنا اللّهُ أنَّ قومَ يونسَ قد آمنوا: فآمنوا ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

لما آمنَ قومُ يونسَ رفعَ اللّهُ عنهم العذاب، الذي كان على وشكِ الوقوعِ بهم، ومَتَّعَهم بحياةٍ طيبةٍ سعيدة، إلى حينِ مجيء آجالِهم، وانتهاءِ أعمارهم.

وكان إيمانُ قومِ يونسَ أثناءَ غيبتِه عنهم ومغادرتِه لهم. قال الإمامُ ابنُ كثير: «إنَّ يونسَ بنَ مَتّى عليه السلام بعثَه اللّهُ إلى أهلِ قريةِ نينوى، وهي قريةٌ من أرضِ الموصل. فدعاهم إلى الله تعالى، فأَبَوا عليه، وتمادوا على كفرهم. فخرجَ من بينِ أَظْهُرِهم، مغاضِباً لهم، ووعدهم بالعذابِ بعدَ ثلاث.. فلما تحققوا منه ذلك، وعَلموا أن النبيَّ لا يكذب، خَرجوا إلى الصحراء، بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرَّقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرَّعوا إلى اللّهِ عز وجل، وجأروا إليه، ورغتِ الإبلُ وفصلانُها، وخارت البقرُ وأولادُها، وثَغت الغنمُ وسخالُها، فرفعَ اللّهُ عنهم العذاب..»[1].

لماذا آمنَ قومُ يونسَ أثناءَ غيابِه عنهم؟

لما كانَ بينَهم يَدعوهم إلى اللّهِ كَذَّبوه وكَفروا به، فطلبَ اللّهُ منه أنْ يُخبرَهم أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعدَ ثلاثةِ أيام، فأَخبرَهم وغادرهم، على اعتبارِ أنه لا فائدةَ من بقائه بينهم.

فلما غادرَهم، وخلالَ الأيامِ الثلاثة، اجتمعَ الملأُ منهم وفكَّروا في الموضوع: إنَّ يونسَ قد أَنذرَهم العذاب، وهو صادقٌ في إنذاره، فما عَهِدوا عليه كَذِباً، وهو الآن ليسَ معهم حتى يناقشوه ويفاوضوه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٨٦ ـ ١٨٧.

وهذا معناهُ أنَّ العذابَ قادمٌ إليهم لا محالة، فما أَنْ تنتهيَ الأيامُ الثلاثة حتى يقعَ بهم العذاب! ولا وسيلةَ لدفعِ العذابِ إلاَّ إيمانُهم بالله، وتخلّيهم عن الكفرِ به!!

وشرحَ اللّهُ صدورَهم للإيمان، واتَّخذوا قرارَهم بالإيمان، وطَلبوا من قومِهم الإيمان، وحَرصوا على الإيمانِ قبلَ انقضاءِ المدة. ووافَقَهم قومُهم، وخَرَجوا إلى العراء متضرِّعين إلى اللّهِ بالدعاء، طالبين منه قَبولَ إيمانهم، ومغفرةَ ذنوبهم، ورفْعَ العذابِ عنهم.

وعلمَ اللّهُ صدقَهم، فعاملَهم بلطفِه ورحمتِه، وقَبِلَ إيمانَهم، ورَفَعَ العذابَ عنهم، ومَتَّعهم إلى حين: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

آمنَ جميعُ سكان نينوى، البالغِ عددُهم أكثرَ من مائةِ ألف، آمَنوا أَثناءَ غيبةِ يونس عليه السلام عنهم. فبينما كان يونسُ يُعاني من المحنةِ والابتلاءِ في عرض البحر وفي بطنِ الحوت وتحتَ شجرةِ اليقطين، كان قومُه يتخلَّون عن الكفر، ويُقبلون على الإيمان!!

قبل الله إيمانهم ورفع العذاب عنهم:

وقد أَخبرَنا اللّهُ عن إِيمان قوم يونس، وانتفاعِهم بهذا الإيمان، ورفْعِ العذاب عنهم. قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

وللمفسِّرين أقوالٌ عديدةٌ في تفسيرِ هذه الآية، وتحليلِ كلماتِها، وإعرابِ مفرداتها، وسنذكُرُ الراجح في معناها، دونَ استعراضِ الأقوالِ الواردةِ في ذلك.

«لولا»: حرفُ حثٍّ وحضٍّ بمعنى: «هَلّا». يَدعو أَهْلَ القُرى إلى الإيمان.

«كانت»: فعلٌ ماضٍ تامٌّ، بمعنى وُجِدَتْ.

«قرية»: فاعل «كانتْ» الماضي التام.

«آمنت»: جملةٌ فعلية، في محلِّ رفعٍ صفةٍ لكلمةِ «قرية».

«فنفعَها إيمانُها»: جملةٌ فعليةٌ أُخرى، معطوفةٌ على «آمنتْ»، التي قبلَها.

والتقدير: هَلاّ وُجدتْ قريةٌ مؤمنة، منتفعةٌ بإيمانها.

والحثُّ والحضُّ هنا بمعنى التوبيخ، يوبخُ اللّهُ أَصحابَ القرى السابقين لكفرِهم الذي كان سبباً في عذابِهم وهلاكهم، فلو آمَنوا لنفعَهم إيمانُهم، ورفعَ اللّهُ العذابَ عنهم.

و«هَلاّ» بمعنى النفي. والمعنى: لم يؤمنْ أهلُ القرى السابقون جميعاً، ولذلك لم يُرفعْ عنهم العذاب.

و«إلاّ»: حرفُ استثناء.

«قومَ يونس»: مستثنى منصوب.

والاستثناءُ هنا منقطع. فالمستثنى «قومَ يونس» ليسَ من جنسِ المستثنى منه «كانت قريةٌ آمنت». لأنَّ قومَ يونس آمَنوا، فنفعَهم إيمانُهم، ورُفعَ العذابُ عنهم، أمّا الذين قبلهم فلم يؤمنوا، ولم يُرفع العذابُ عنهم.

«لمّا» ظرفُ زمانٍ بمعنى «حين»: يتضمنُ معنى الشرط.

«آمنوا»: فعلُ الشرط.

«كشفنا عنهم عذاب الخزي»: جوابُ الشرط.

والتقدير: كشفْنا عن قومِ يونس عذابَ الخزيِ لما آمنوا ـ حينَ إيمانِهم[1] ـ.

---

(١) انظر «الجدول في إعراب القرآن» لمحمود صافي ٦:١٩٦ ـ ١٩٩.

والمعنى العام للآية: يَذُمُّ اللّهُ الكفارَ السابقين لعدم إيمانهم، ويبينُ أَنّهم لو آمنوا لرفعَ العذاب عنهم، لأنَّ الإيمانَ ينفعُ أصحابَه برفْعِ العذاب.

ويقررُ اللّهُ حقيقةً تاريخية: لم يؤمنْ أهلُ قرية بكاملِهم من قرى الكافرين السابقين، ولو آمَنوا بكاملهم لنفعهم، ورُفِعَ العذابُ عنهم. ولا يُستثنى من هؤلاء إلاّ قومُ يونس، فقد كانوا كفاراً، وهددَهم اللّهُ بالعذاب، ولكنهم آمَنوا بكاملِهم جميعاً قبلَ انتهاءِ المهلة، وقبلَ وقوع العذاب، وبذلكَ نفعَهُم إيمانُهم، فرفَعَ اللّهُ العذابَ عنهم في الدنيا والآخرة، وجعلَهم يعيشون حياتهم في سعادة، إلى حين انتهاءِ أعمارهم ومجيءِ آجالهم!

هذا هو الراجحُ في معنى الآية، وهذا ما ذكَرَه المحقِّقون من المفسرين.

فهم الطبري وابن كثير للآية:

من هؤلاء الإمامُ الطبري. وقد أَوردْنا في تهذيبنا لتفسيرِه خلاصةَ ما قاله في تفسير الآية: «ومعنى الآية: ليستْ هناك قريةٌ آمنتْ عند معاينتِها العذاب، ونزولِ سَخَطِ اللّهِ بها، فنفعَها إيمانُها، ورُفِعَ العذابُ عنها، بل يَقَعُ العذابُ بها، ولا يُقبلُ إيمانُها، كما لم ينفعْ فرعونَ إيمانُه عندما أدركَه الغرق.

إلاّ قومَ يونس، فهم مستثنونَ من ذلك، حيث آمَنوا عند نزولِ العذابِ بهم، فنفعَهم إيمانُهم، ورفعَ اللّهُ العذابَ عنهم في الحياةِ الدنيا، ومتَّعهم إلى حين.

قالَ ابنُ عباس: لم تكن قريةٌ آمنتْ، فنفعَها الإيمانُ إذا نزلَ بها بأس الله، إلاّ قريةَ يونس، لما آمنتْ نفعَها إيمانها.

وقالَ سعيدُ بن جبير: لما أرسلَ اللّهُ يونسَ إلى قومه، يَدعوهم إلى الإسلام، وترْكِ ما هم عليه، دعاهم فأَبَوا. فقيل له: أَخْبِرْهم أنَّ العذابَ مصبِّحُهم.

فقالوا: إنّا لم نُجَرِّبْ عليه كذباً، فانظروا، فإنْ باتَ يونسُ فيكم، فليس بشيء، وإنْ لم يَبِتْ فيكم، فاعلموا أنَّ العذابَ مصبِّحُكم. . .

فلما أَصبحوا تغشّاهم العذاب، ففرّقوا بين الإنسانِ وولدِهِ، وبين البهيمةِ وولدها، ثم عَجّوا إلى اللّهِ، فقالوا: آمَنّا وصدَّقْنا بما جاءَ به يونس، فكشفَ اللّهُ عنهم العذاب»[1].

وقد تابعَ ابنُ كثير الإمامَ الطبريَّ على هذا الفهم للآية، فقال: «والغرضُ أنه لم توجد قريةٌ آمنتْ بكمالِها ممن سلفَ من القرى، إلاّ قومَ يونس، وهم أهلُ نينوى، وما كان إِيمانُهم إلاّ خوفاً من وصولِ العذاب إليهم، الذي أَنذرهم به رسولُهم، بعدما عايَنوا أسبابَه، وخرجَ رسولهم من بين أظهرهم.

عندها جَأَروا إلى الله، واستغاثوا به، وتضرَّعوا إليه، واستكانوا، وأَحضروا أَطفالَهم ودوابَّهم ومواشيهم، وسألوا اللّهَ أنْ يرفعَ عنهم العذابَ الذي أنذرهم به نبيُّهم، فعندها رحمهم الله، وكشفَ عنهم العذاب. . .»[2].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنَّ الإِخبارَ عن إِيمانِ قومِ يونسَ جميعاً قبلَ وقوعِ العذابِ بهم، جاءَ في سياقِ تقريرِ سنةِ الله في الإيمان والكفر، والهدى والضلال، ومتى يُقبَلُ الإيمانُ وينفعُ صاحبَه، ومتى لا يُقبلُ ولا يَنفعُ صاحبَه.

سنة الله في الإيمان:

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٤:٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٢:٤١٤.

ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ١٠٠].

إنَّ الذينَ اختاروا الكفرَ عناداً، قد حقتْ عليهم سنةُ الله، وهؤلاء لا يؤمنونَ مهما جاءهم من آياتٍ ومعجزات، لأنهم اختاروا الكفر، ولو آمَنَ هؤلاء عند وقوعِ العذابِ الأليمِ بهم، فلن ينفعَهم ذلك الإيمان، ولن يَدفعَ عنهم العذاب.

ولم يَحصلْ أنْ آمنَ أهلُ قرية جميعاً قبلَ قوم يونس، ولذلك كان يأتيهم العذابُ والهلاك، أمّا قومُ يونس فقد آمَنوا جميعاً قبيلَ وقوعِ العذاب، ولذلكَ قبلَ اللّهُ إيمانهم.

ولو شاءَ اللّهُ إيمانَ كلِّ مَنْ في الأرض لَفَعل، لأنه فَعَّالٌ لما يريد، ولخلَقَهم مؤمنين بالفطرة، بدون تكليفٍ أو اختيار، كما خلقَ الملائكة. ولكنَّه خلقَهم بإرادةٍ واختيار، فيختارون هم الإيمان إنْ أَرادوا. أمّا إذا عانَدوا واختاروا الكفرَ فهم خاسرون، وأنت لا تستطيعُ إكراهَهم على الإيمان.

وهم عندما يؤمنون يكونُ إيمانُهم بإذنِ الله وعلمِه ومشيئتِه، والكفارُ عندما يكفرون أيضاً يكفرونَ بإذنِ الله وعلمه ومشيئته.

هذه خلاصةُ سنةِ اللّهِ في الإيمانِ والكفر، كما تقررُها هذه الآيات.

سيد قطب يوضح هذه السنة وانطباقها على قوم يونس:

وقد علّقَ سيدُ قطب على ما تقررُه هذه الآياتُ بقوله:

«.. إنَّ كلمةَ الله وسنتَه قد اقتضتْ أنَّ مَنْ لا يأخذُ بأسبابِ الهدى لا يَهتدي، ومَنْ لا يفتحُ عينيْه على النورِ لا يراه، ومَنْ يعطلُ

مداركَه لا ينتفعُ بوظيفتها، فتكون نهايتُه إلى الضلال، مهما تكن الآياتُ والبينات. . .

وإذا آمَنوا عند وقوعِ العذابِ الأليم فلا ينفعُهم الإيمان، لأنَّه لم يجئ عن اختيار، ولم تَعُدْ هناك فرصةٌ لتحقيقِ مدلولِه في الحياة. وهكذا كانَ مشهدُ فرعون، حيثُ قال عندما أدركَه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وعند هذا الموقفِ الذي تظهرُ فيه حتميةُ سننِ اللّهِ العامة، وانتهاؤُها إلى نهايتِها المرسومة، متى تعرَّضَ لها الإنسانُ باختيارِه، تفتحُ نافذةً مضيئةً بآخرِ شعاعٍ من أشعةِ الأملِ في النجاة، وهو أنْ يعودَ المكذبون عن تكذيبهم قبيلَ وقوعِ العذاب.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾.

وهو تحضيضٌ يَنسحبُ على الماضي، فيفيدُ أنَّ مدلولَه لم يقعْ. . ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ مِن هذه القرى التي مَرَّ ذكرُها، ولكنَّ القرى لم تؤمن، إنما آمنتْ منها قلة، فكانت الصفةُ الغالبةُ هي صفةُ عدمِ الإيمان.

ذلك فيما عدا قرية واحدة، قرية قوم يونس. . ولا يفصِّلُ السياقُ هنا قصةَ يونس وقومِه، وإنما يشيرُ إلى خاتمتها هذه الإشارة، لأنَّ الخاتمةَ وحدَها هي المقصودة هنا، فلا نزيدُها نحن تفصيلاً، وحسْبُنا أنْ ندركَ أنَّ قومَ يونس كان عذابُ مخزٍ يتهددُهم، فلما آمنوا في اللحظةِ الأخيرة قبلَ وقوعه، كُشفَ عنهم العذاب، وتُركوا يتمتعونَ بالحياةِ إلى أَجل، ولو لم يؤمنوا لحلَّ العذابُ بهم، وِفاقاً لسنةِ الله، المترتبةِ آثارُها على تصرفاتِ خلقه.

حسْبُنا هذا لندركَ أمريْن هاميْن:

أولهما: الإِهابةُ بالمكذِّبين أنْ يتعلَّقوا بخيوطِ النجاةِ الأخيرة، فلعلَّهم ينجون كما نجا قومُ يونسَ من عذابِ الخزي في الحياة الدنيا.. وهو الغرضُ المباشرُ من سياقةِ القصة هذا المساق.

وثانيهما: أنَّ سنةَ الله لم تَتعطلْ ولم تقف، بكشفِ هذا العذاب، وتَرْكِ قومِ يونس يتمتعونَ فترة أخرى.. بل مضتْ ونفذتْ..

لأنَّ مقتضى سنةِ الله كان أن يحلَّ العذابُ بهم لو أَصروا على تكذيبهم حتى يجيءَ العذاب.. فلما عَدلوا قبلَ مجيئهِ جرت السنةُ بإنجائهم، نتيجةَ هذا العدول، فلا جَبريةَ إذن في تصرُّفاتِ الناس، ولكنَّ الجبريةَ في ترتيبِ آثارِها عليها...»[1].

وهكذا آمنَ قومُ يونسَ عليه السلام جميعاً في غيابه عنهم، وقَبِلَ اللّهُ إِيمانَهم، وأَعادَ يونسَ إِليهم، ليبلِّغَهم الأَحكامَ والتشريعات، ويربّيهم على منهج الله.

وعادَ يونسُ عليه السلام إِلى قومه، فوجَدَهم مؤمنين، ففرحَ كثيراً بإِيمانهم، وسعدَ كثيراً لنجاتِهم، كما فَرِحوا هم كثيراً بعودةِ نبيِّهم إِليهم.

وأَقامَ يونسُ عليه السلام في قومه، يُعلمُهم ويُربّيهم، حتى وافاهُ الأجل.

[٩]

رسولنا يدافع عن يونس عليهما السلام

رسولنا يخبر عن مجيء يونس حاجاً البيت الحرام:

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أَنَّ يونسَ عليه السلام جاءَ إِلى البيتِ الحرام مؤدّياً لمناسكِ الحج.

فقد روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بوادي الأزرق، فقال: «أيُّ وادٍ هذا؟

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٨٢٠ ـ ١٨٢١.

قالوا: هذا وادي الأزرق.

قال: كأَنّي أَنظرُ إِلى موسى عليه السلام هابطاً من الثَّنِيَّة، وله جُؤارٌ إِلى اللّهِ بالتلبية.

ثم أَتى على ثنية «هَرْشىٰ» فقال: أيّ ثنيةٍ هذه؟

قالوا: ثنيةُ هَرْشىٰ.

قال: كأَني أَنظرُ إِلى يونسَ بنِ متى عليه السلام على ناقةٍ حمراء، جَعْدَة، عليه جُبَّةٌ من صوف، خُطامُ ناقتِه خُلْبَة، وهو يُلبي..»[1].

و«ثنيةُ هَرْشىٰ»: جبلٌ قربَ الجحفة، بين مكةَ والمدينة.

و«ناقة حمراء جعدة»: ناقةٌ لونُها أحمر، وهي سمينةٌ مكتنزةُ اللحم.

و«خطام ناقته خلبة»: الحبلُ الذي تُقادُ منه الناقة من ليف[2].

لما توجّه رسولُ الله ﷺ للحج، أَخبرَ الصحابةَ بأنَّ موسى عليه السلام قد أتى البيتَ الحرامَ حاجّاً ملبياً، وأنَّ يونسَ بنَ متّى عليه السلام قد أَتى البيتَ الحرامَ أيضاً حاجاً ملبياً.

ووصفَ لنا ناقةَ يونس، فهي حمراءُ اللون، سمينةٌ مكتنزةُ اللحم، وأنَّ الحبلَ الذي تُقادُ به من ليف.

كما وصفَ لنا يونسَ عليه السلام بأنه كان راكباً الناقة، لابساً جبةً من صوف، وهو يُلبي قائلاً: لبيك اللهم لبيك.

ولا غرابةَ في قدومِ يونسَ عليه السلام إلى بيتِ الله الحرام حاجاً ملبياً، فقد كان بعدَ إِبراهيم عليه السلام.

ومعلومٌ أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا البيتَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٦. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٨.

(٢) انظر هامش محمد فؤاد عبد الباقي على الحديث، في صحيح مسلم ١:١٥٢.

الحرام، وأنَّ إبراهيمَ لمّا أتمَّ البناءَ أذَّنَ في الناس بالحج، ودَعاهم إلى المجيء حاجين البيت الحرام. وأشارَ القرآنُ إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

وإبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام هما أولُ مَنْ أدّى مناسكَ الحج. وبما أنَّ موسى ويونس نبيّان كريمان عليهما السلام فلا غرابةَ أنْ يأتيَ كلٌّ منهما للحج، موسى عليه السلام يأتي من الأرضِ المقدسة، وبعدَه بقرون يأتي يونسُ عليه السلام من نينوى في شمالِ العراق!.

الرسول ينهى عن تفضيل أحد على يونس:

وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن تفضيلِ أحدٍ على يونسَ بنِ متّى عليه السلام.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما يهوديٌّ يَعرضُ سلعتَه، أُعطيَ بها شيئاً كرهَهُ. فقال: لا. والذي اصطفى موسى على البشر.

فسمعَهُ رجلٌ من الأنصار، فقامَ فلطمَ وجْهَه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا؟

فذهبَ إليه، فقال: أبا القاسم: إنّ لي ذمةً وَعَهداً، فما بالُ فلانٍ لطمَ وجهي؟

فقال: لِمَ لطمْتَ وجْهَه؟

فذكَرَه.

فغضبَ النبيُّ ﷺ، حتى رُؤيَ في وجهه. ثم قال: لا تفضِّلوا بين أولياءِ الله، فإنه يُنفخُ في الصور، فيُصعقُ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلاّ مَنْ شاءَ الله، ثم يُنفخُ فيه أخرى، فأكونُ أولَ مَنْ بُعث، فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدري: أَحوسبَ بصعقتِه يومَ الطور، أم بُعثَ قبلي!

ولا أقولُ إنّ أَحداً أفضلُ مِن يونسَ بنِ متّى»[1].

والشاهدُ في الحديث الجملةُ الأخيرةُ منه حيث أَخبرَ أنه لا يقول إنَّ أحداً أفضلُ من يونسَ بنِ متى عليه السلام.

قال ذلك لأنَّ سياقَ الحادثةِ يوحي بالتفضيلِ بين رسلِ الله، تفضيلاً قائماً على انتقاصِ رسلٍ آخرين، فاليهوديُّ يرى أنَّ موسى عليه السلام أفضلُ العالمين، أي: أفضلُ من رسول الله محمدٍ ﷺ. وهذا باطل.

فردَّ عليه الأنصاريُّ رداً يفهمُ منه بعضُ انتقاصٍ لموسى عليه السلام، ولذلك غضبَ رسولُ الله ﷺ، وقال: لا تُفضلوا بين أولياءِ الله، وهم الرسلُ الكرامُ عليهم السلام.

وبعد أنْ بيَّنَ فضْلَ موسى عليه السلام، ردَّ التهمةَ عن يونسَ عليه السلام التي قد تثورُ عند بعضهم، فنهى عن تفضيلِ أحدٍ عليه، باعتباره نبياً كريماً.

ونهى رسولُ اللّهِ ﷺ عن انتقاصِ يونسَ عليه السلام نهياً صريحاً، ورفضَ أنْ يَعتبرَ أحدٌ نفسَه أَفضلَ من يونس.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: «لا ينبغي لعبدٍ أنْ يقول: أَنا خيرٌ من يونسَ بنِ متى»[2].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يقولَنَّ أحدٌ إِني خيرٌ من يونس بن متى»[3].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بنِ عباس رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما يَنبغي لأحدٍ أنْ يقول: إِني خيرٌ من يونسَ بنِ متّى.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٤. ومسلم برقم: ٢٣٧٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٦. ومسلم برقم: ٢٣٧٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٢.

ونسبه إِلى أَبيه»[1].

وروى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال: أَنا أفضلُ مِن يونسَ بنِ متّى فقد كَذَب..»[2].

في هذه الأحاديث يدافعُ رسولُ الله ﷺ عن يونسَ بنِ متّى عليه السلام، في مغادرتِه لقومِه باجتهاده، وينهى أيَّ شخصٍ أنْ يعتبرَ نفسَه أفضلَ من يونس، وأَنه أَوسعُ منه صدراً، وأكثرُ منه صبراً.

ومعلومٌ أنَّ الأنبياءَ أفضلُ من جميعِ الخلق، وأنَّ أصلحَ صالحٍ من المؤمنين لا يكونُ أفضلَ عند الله من أيِّ نبي.

وهذا معناه أنَّ نبيَّ الله يونسَ عليه السلام لم يكن مخطِئاً في فعله، وأنَّ ما قامَ منه باجتهاده كان جائزاً، لكنه كان خلافَ الأَوْلى، كما قررنا من قبل.

يونسُ نبيٌّ كريم، ورسولٌ مبلغ، وهو حليمٌ منيب، صبورٌ داعية، عليه الصلاة والسلام.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٠٥.



أربعة أنبياء كرام

إدريس وذو الكفل وإلياس واليسع

عليهم السلام

[١]

إدريس عليه السلام

إِدريسُ نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام.

وقد وردَ اسمُه مرتيْن في القرآن.

ذكر إدريس في سورة الأنبياء:

الأولى: في سورة الأنبياء، مقروناً بإسماعيلَ وذي الكفل. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وقد أَشارت الآياتُ السابقةُ إِلى قصةِ داود وسليمان وأيوب، وأَشارت الآياتُ اللاحقةُ إِلى قصة يونسَ وزكريا ويحيى، عليهم السلام.

و﴿إسماعيل﴾ في الآيةِ منصوب، و«إدريسَ وذا الكفل» منصوبان معطوفان عليه. وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، تقديرُه: اذكُرْ إِسماعيلَ وإِدريسَ وذا الكفل.

والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، ولكلِّ مسلم متذكِّرٍ من بعده، بأَنْ يؤمنَ بأَنَّ هؤلاء من الأنبياء، وأَنْ يقتديَ بهم باعْتبارهم أَنبياء.

ووصفَ اللّهُ الأنبياءَ الثلاثة بأَنهم صابرون: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. كما أَخبرَ أَنه أدخلهم في رحمته، فرحمَهم كما رحمَ الأنبياءَ الذين قبلَهم والذين جاءوا بعدهم: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾.

ووصَفَهم بأنهم صالحون، ومعلومٌ أَنَّ الأنبياءَ أَصلحُ الناس: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ويمكنُ أَنْ نستخرجَ من هاتيْن الآيتين ما فيهما من ثناءٍ على إدريسَ عليه السلام لحسنِ صفاته، فنقول: كانَ إِدريسُ عليه السلام صابراً، وصالحاً، ومرحوماً أَدخله الله في رحمته.

ذكر إدريس في سورة مريم:

الثانية: في سورة مريم، بعدَ قصةِ عيسى وإبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل عليهم السلام. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦ - ٥٧].

والأمرُ هنا صريحٌ لرسولِ الله ﷺ أنْ يذكُرَ إدريسَ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾. وهذا الأَمْرُ يَنسحبُ على كلِّ مسلمٍ ذاكرٍ متذكرٍ من بعده، كما قلنا.

والمرادُ بالكتاب في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، كتابُ الله الذي أَنزله على رسولِه محمدٍ ﷺ، والذي أَخبرَه فيه عن قصصِ أنبياء سابقين.

وقد سبقَ هذه الآيات قولُه تعالى في التذكيرِ بإبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

وقولُه تعالى في التذكير بموسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم: ٥١].

وقولُه تعالى في التذكير بإسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

أي أنَّ اللّهَ أَمَرَ نبيَّه محمداً ﷺ أنْ يذكرَ في القرآن كُلاًّ من إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

وكان الكلامُ قبل ذلك عن قصةِ ولادةِ ونبوةِ عيسى ابن مريم عليه السلام.

وذِكْرُ هؤلاء الأنبياءِ الخمسةِ في سورة مريم لتقريرِ حقيقةِ نبوةِ محمدٍ ﷺ، ولإقامةِ الحجة على الطوائفِ الموجودة زمنَ النبي عليه الصلاة والسلام. وهم اليهود والنصارى والعرب المشركون.

إبراهيمُ عليه السلام أَبو الأنبياء، وكلُّ الطوائفِ الثلاثةِ تَدّعي

الانتسابَ إِليه والإيمانَ به، وموسى عليه السلام نبيُّ اليهود، وعيسى عليه السلام نبيُّ النصارى.

وتذكيرُ الطوائفِ الثلاثة بهؤلاءِ الأَنبياء، وذكْرُ طرفٍ من أَخبارِهم في القرآن دليلٌ على نبوةِ محمد ﷺ، وعلى أنَّ القرآنَ كلامُ الله.

إدريس صديق نبي:

وقد وَصفت الآيةُ إِدريسَ عليه السلام بوصفين: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ وهما الوصفان اللذان وُصفَ بهما إبراهيمُ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

فإبراهيمُ صِدّيق نبي، وإدريسُ صِدّيق نبي، عليهما الصلاة والسلام.

ومقامُ «الصِّدّيقية» مقامٌ عظيمٌ للمقرَّبين عندَ الله.

وَصَفَ الله به نبيَّيْه الكريميْن إبراهيمَ وإدريسَ عليهما السلام.

ووصفَ به يوسفَ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا . . .﴾ [يوسف: ٤٦].

وهذا مقامٌ قد يصلُ إِليه السابقون من المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

و«الصِّدّيق»: مبالغةٌ من الصدقِ والتصديق.

فالصِّدّيق: صادقٌ أَولاً في قولِه وفعله، ثم هو صَديقٌ لكلِّ صادق، بينهما صداقة ومودة، ثم هو صِدّيقٌ، دائمُ الصدقِ والصداقةِ والتصديق.

وكلُّ نبيٍّ صِدّيق، لأَنه صادقٌ وصَديق وصِدّيق.

ومعلومٌ عندنا أنَّ «الصِّدّيقَ» لقبٌ شريفٌ مبارك، أجمعَ المسلمون على إِطلاقهِ على أفضلِ الناس بعد الأنبياء، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

رفع إدريس إلى السماء الرابعة:

وبعدما أثنى اللّهُ على إدريسَ بأنه صِدّيقٌ نبي، أَخبرَنا بأنه رفعَهُ عنده إلى مكانٍ عَلِيّ: ﴿وَرَفَعْنَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

والمكانُ العَلِيُّ هو عالي القدرِ والمنزلة، وكلُّ الأنبياء مكرَّمون عندَ الله، وكلُّهم رفعهم اللّهُ إلى مقامٍ ومكانٍ عليٍّ عنده سبحانه. ومقامُ النبوة هو أَعلى مقامٍ ومنزلة عنده.

وقد رفعَ اللّهُ إدريسَ عليه السلام إلى السماء، بدليلِ إخبارِ رسولِ الله ﷺ عن رؤيتِه له في السماءِ الرابعة، ليلةَ المعراج.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ حَدَّث، أَنه لما عُرِجَ به إلى السماء قال: «أتيتُ على إدريسَ في السماءِ الرابعة»[1].

وهذه روايةٌ مجملة، نصَّ فيها على أَنه قابلَ إدريسَ عليه السلام في السماء الرابعة.

وهناكَ روايةٌ تذكُرُ بعضَ ما جرى في السماءِ الرابعة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بنِ صعصعة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال في حديثِ المعراج الطويل: «... ثم صَعَدَ بي حتى أَتى السماءَ الرابعة، فاسْتَفْتَحَ.

فقيل: مَنْ هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومَنْ معك؟

قال: محمد ﷺ.

قيل: أَوَ قَدْ أُرسلَ إليه؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢.

قال: نعم.

قيل: مرحباً به، فنِعْمَ المجيء جاء!!

ففتح. فلما خلصْتُ فإذا إدريس.

قال: هذا إدريس، فسلِّمْ عليه.

فسلَّمْتُ عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح...»[1].

هذا، ولم يبين القرآنُ كيفيةَ رفْعِ إدريس إلى المكان العليّ، وإنزالِه في السماءِ الرابعة، فلا نعرفُ تفصيلَ وكيفيةَ ذلك الرفع، ولا نخوضُ فيه.

علماً أنَّ الإسرائيلياتِ قد أوردَتْ تفاصيلَ غريبةً منكرةً باطلة عن ذلك، ونقلَها عنها بعضُ المفسرين، سامحهم الله.

فلا ندري هل رفعَهُ الله بجسمِه وروحِه إلى السماء، كما رفعَ عيسى عليه السلام، أمْ ماتَ إدريسُ موتاً طبيعياً على الأرض، ودُفِنَ فيها كما دُفِنَ باقي الأنبياء، ورَفَعَ اللّهُ روحَه مكاناً علياً؟

الراجح أن رفع إدريس ليس كرفع عيسى عليهما السلام:

وعندما ننظرُ في آياتِ القرآن، فسوف نرى أنها أخبرتْ عن رفْعِ نبيَّيْن كريميْنْ هما إدريس وعيسى عليهما السلام.

قالَ اللّهُ عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

وخاطبَ اللّهُ عيسى عليه السلام بقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [آل عمران: ٥٥].

وجمهورُ المسلمين على أنَّ اللّهَ رفعَ عيسى عليه السلام إلى

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٤٤.

السماء، بروحِه وجسمه، وذلك لما أرادَ اليهودُ والرومانُ صلْبَه، فحماهُ اللّهُ منهم، ورفعَه إِلى السماءِ الثانية، وهو هناك حيٌّ بروحِه وجسمِه، وسينزلُ قُبَيل قيامِ الساعة.

فهل كانَ رفْعُ إدريس عليه السلام إِلى السماء الرابعة هكذا؟

قالَ بهذا القول بعضُ المفسِّرين من التابعين كمجاهد والحسن البصري والضحاك بن مزاحم. بل قالَ بهذا ابنُ عباس، رضي الله عنهما.

أوردَ ابنُ كثير في التفسير: قالَ مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾: رفَعَهُ اللّهُ إِلى السماءِ الرابعة، فإدريسُ رُفِعَ ولم يمتْ، كما رُفِعَ عيسى، عليهما السلام[1].

اللّهُ أعلمُ كيف كانَ رفْعُ إِدريسَ عليه السلام، وما المرادُ بالمكانِ العليّ الذي رفعَهُ اللّهُ إِليه.

وإنْ كنّا نرى فَرْقاً في التعبيرِ القرآنيِّ عن رفْعِ عيسى ورفْعِ إدريس عليهما السلام.

فلما أَخبرَ عن رفْعِ عيسى عليه السلام عَدّى الرفْعَ بحرفِ الجر «إِلى»، وذلك في قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾. وفي قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

بينما لم يذكُرْ حرفَ الجرِّ «إِلى» في رفْعِ إدريس عليه السلام، وإنما ذَكَرَ ظرْفَ المكانِ «مكاناً» ـ وهو مفعولٌ فيه منصوب: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

ولعلَّ هذا الفرقَ في الإِخبارِ يوحي بأنَّ رَفْعَ إدريس غيرُ رفْعِ عيسى عليهما السلام!!

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٢٤.

فعيسى رُفِعَ رفعاً حقيقياً مادياً، بروحِه وجسمِه، إلى السماء الثانية ـ على قولِ جمهورِ المسلمين ـ ولهذا عَدّى الفعلَ بحرفِ «إلى»، الذي يدلُّ على مزيدٍ من التخصيصِ والتكريم، ويوحي بالرفعِ المادي الحقيقي.

وإِسقاطُ «إلى» من الإِخبارِ عن رفْعِ إِدريس عليه السلام يوحي بأَنَّ رفْعَه ليس كرفْعِ عيسى المادي، وإنما هو رفعٌ معنوي، يقومُ على رفعِ المنزلة والمقام.

ولعلَّ هذا يرجحُ أَنَّ إِدريسَ عليه السلام ماتَ على الأرض موتاً طبيعياً، كباقي الأنبياء، وهذا ما نرجِّحُه، والله تعالى أعلم.

و«إِدريسُ» اسمُ علم أجنبي، وليس عربياً مشتقاً، وهو ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعجمةِ.

وقد ناقشَ الإمامُ الزمخشريُّ في الكشاف الذين قالوا بأَنه عربيٌّ مشتق، قال: «قيل: سُمي «إِدريس»: لكثرةِ دراستِه كتابَ الله عز وجل. وكان اسمُه «أَخنوخ».

وهذا غيرُ صحيح. لأنه لو كان «إِفْعيلاً» ـ يعني على وزن «إِفْعيل» ـ من الدَّرْس، لم يكنْ فيه إلاّ سببٌ واحد، وهو العلمية، فكان مُنصرفاً. فامتناعُه من الصرفِ دليلُ العجمة.

وكذلك «إبليس» أَعجمي. وليسَ مشتقّاً من الإِبلاس، كما يزعمون. ولا يعقوبُ من العَقِب. ولا إِسرائيلُ بإسرال، كما زعَمَ ابنُ السِّكِّيت.

ومَن لم يُحَقِّق، ولم يتدربْ بالصناعة كثرتْ منه أمثالُ هذه الهنات..

ويجوزُ أنْ يكونَ معنى «إِدريس» في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسِبَه الرائي مشتقّاً من الدرس»[1].

---

(١) تفسير الكشاف ٣:٢٣ ـ ٢٤.

خلاف في زمن نبوة إدريس عليه السلام:

وقد اختلف المفسرون والإِخباريّون في زمانِ بعثةِ إِدريسَ عليه السلام.

فذهبَ جمهورُ العلماء إِلى أنه كانَ بعدَ آدم، وقبلَ نوح. فهو عندهم النبيُّ الثاني من حيثُ الوجودُ التاريخي، وعندما يَعُدّون الأنبياءَ يَعُدّونهم هكذا: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح... وهكذا.

ولا يملكُ هؤلاء دليلاً على أَنه كان بعدَ آدم وقبلَ نوح، لا دليلاً من القرآن صريحاً، ولا حديثاً مرفوعاً صحيحاً، ولو وُجِدَ ذلك الدليلُ لما وقع الخلاف.

وذهبَ آخرون من العلماءِ المحقِّقين إِلى أَنَّ إدريسَ عليه السلام متأخرٌ في اِلزمان، وأَنه من أنبياءِ بني إسرائيل، وقد يكون بعد داودَ وسليمان عليهما السلام.

وهذا ما نَميلُ إِليه ونرجِّحه واللّهُ أعلم. وهذا ما جَرْينا عليه في حديثنا عن قصصِ الأنبياء، فلم نتحدثْ عن قصةِ إِدريس بعد حديثنا عن قصة آدم، وقبلَ قصة نوح، كما فعلَ كلُّ الذين بَحثوا في قصص الأنبياء في القرآن، وإِنما تحدَّثْنا عنه في هذا الموضع من كتابنا، لأننا نرى أَنه من الأنبياء المتأخرين لبني إِسرائيل، ولعلَّه بعد داودَ وسليمان، وقبلَ زكريا ويحيى، عليهم الصلاة والسلام.

الأدلة على أن بعثة إدريس كانت متأخرة في بني إسرائيل:

ومن الأَدلةِ على هذا الترجيح أَنَّ القرآنَ أَشارَ إِلى قصته في سورة مريم بعدَ إِبراهيم وموسى وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

كذلك كانَ الحديثُ عنه في سورةِ الأنبياء متأخِّراً، بعد الحديثِ عن إبراهيم ولوط وداود وسليمان وأيوب، وبعده كان الحديثُ عن يونسَ وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

والآيةُ التي تحدثَتْ عنه قرنَتْه مع إسماعيلَ وذي الكفل، مما يوحي بأنَّهُ كان بعدَ إسماعيل وقبلَ ذي الكفل. والله أعلم.

ومما يدلُّ على أنه كان متأخراً في التاريخ، وأَنه بُعِثَ إِلى أجيالٍ متأخرةٍ من بني إسرائيل، حديثُ المعراج، الذي سجَّلَ تحيةَ إِدريسَ لرسول الله ﷺ.

فمما جاءَ في الحديثِ الذي رواه البخاري ومسلم عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه: أَنه لما مَرَّ رسولُ الله ﷺ على آدمَ في السماء الأولى وسلَّمَ عليه، رَدَّ آدمُ عليه السلام، وقال له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح.

ولما حيّا عيسى عليه السلام في السماءِ الثانية، رَدَّ عليه التحية، وقال له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح.

ولما حَيّا يوسفَ عليه السلام في السماء الثالثة، ردَّ عليه التحية، وقال له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح.

ولما حَيّا إِدريسَ عليه السلام في السماءِ الرابعة، رَدَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ولما حيّا هارونَ عليه السلام في السماءِ الخامسة، ردَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ولما حيّا موسى عليه السلام في السماءِ السادسة، ردَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ولما حيّا إبراهيمَ عليه السلام في السماءِ السابعة، رَدَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح[١].

---

(١) انظر حديث المعراج في البخاري رقم: ١٦٣٦. ومسلم برقم: ١٦٣.

والشاهدُ في الحديثِ أنَّ آدمَ وإبراهيمَ عليهما السلام خاطباً محمداً ﷺ بالبُنُوَّة، وقالا له: مرحباً بالابنِ الصالح.

وذلك لأنَّ آدمَ هو أَبو البشر، وإبراهيمَ هو أبو الأنبياء.

بينما الأنبياءُ الخمسة: عيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى عليهم السلام خاطبوا محمداً ﷺ بالأُخوة، وقالا له: مرحباً بالأخ الصالح.

وهذا يوحي بأنَّ إدريسَ متأخِّرٌ في الزمان، فلو كانَ بعدَ آدم وقبلَ إبراهيم لقالَ له كما قالا له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح.

وممنْ قالَ بأنَّ بعثةَ إدريس عليه السلام كانت متأخرة، وليستْ متقدمةً قبلَ نوحٍ عليه السلام القاضي أبو بكر ابن العربي.

نقلَ الإمامُ القرطبيُّ في تفسيرِه عن القاضي ابنِ العربي قولَه: «ومَنْ قال إنَّ إدريسَ كان قبلَ نوح، من المؤرخين، فقد وَهِم.

والدليلُ على صحةِ وهْمِه الحديثُ الصحيحُ في الإسراء، حين لقيَ النبيُّ ﷺ آدمَ وإدريس. فقالَ له آدم: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح، وقالَ له إدريس: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح.

فلو كانَ إدريسُ أباً لنوح لقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح، فلما قال له: والأخ الصالح، دلَّ على أنه يُجمتعُ معه في نوح، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولا كلامَ لمنصفٍ بعدَ هذا»[1].

هذا ما يمكنُ أنْ يُقالَ في قصةِ إدريسَ عليه السلام، اعتماداً على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧: ٢٣٢.

الآياتِ والأحاديث، وعندَ تركِ الإسرائيليات وعدمِ أخْذِ أوِ اعتمادِ شيءٍ منها.

وما سوى ذلك، مما فصَّلَتْ فيه الإسرائيليات، فهو عندنا من مبهماتِ القرآن، التي يجبُ أنْ نُبقيَها على إبهامها.

فمن المبهماتِ في قصةِ إدريسَ عليه السلام: نَسَبُه، وتحديدُ الزمنِ الذي بُعِثَ فيه، والقومِ الذين بُعثَ إليهم، وعمرِه عندما بُعث، والكتابِ الذي أَنزله عليه. وتفاصيلِ ما جرى بينه وبين قومه، وكيفَ كانت نهايتُه، وأينَ وكيفَ كانت وفاتُه، وتحديدُ الذين آمنوا به مِن قومه، وتحديدُ نهايةِ الذين كفروا من قومه.

كلُّ هذه المبهمات لا نَخوضُ فيها، لأنه لم يَرِدْ عليها دليلٌ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ المرفوعة الصحيحة.

علينا أنْ نَبقى مع القرآنِ والحديثِ الصحيح، نَقولُ بما قالا به، ونسكتُ عما سكتا عنه، ويَسَعُنا في ذلك ما وسع الصحابةَ الكرام، رضوان الله عليهم.

[٢]

ذو الكفل عليه السلام

ذو الكفل نبيٌّ كريم، عليه الصلاة والسلام، وردَ اسمُه ضمنَ أَنبياءَ آخرين في القرآن، وكان ذكْرُه مرتيْن فقط.

الأولى: في سورة الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وقد تكلَّمْنا عن هذه الآيةِ عندَ حديثِنا عن إدريسَ عليه السلام في المبحثِ السابق، وأشَرْنا إلى ثناءِ اللّهِ على هؤلاء الأنبياء.

«إسماعيل»: مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، تقديره: اذكُرْ إسماعيل.
و«إدريس وذا الكفل» معطوفان عليه منصوبان.

والتقدير: اذكُرْ إسماعيل، واذكُرْ إدريس، واذكُرْ ذا الكفل.

وأثنى اللّهُ عليهم بأنهم صابرون، مرحومون، صالحون.

وهذا ثناءٌ على ذي الكفل، وشهادةٌ من الله له بأَنه صابر، مرحوم، صالح. كباقي إِخوانه الأَنبياء.

الثانية: في سورة ص. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

قَرنت الآياتُ ذا الكفل مع إسماعيل واليسع، وقدَّمَتْهما عليه، وذكَرَتْ قبلَهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، عليهم السلام.

وتقديمُ إسماعيلَ واليسع على ذي الكفل، قد يدلُّ على أنه كان بعدهما في الزمان. والله أعلم.

هذا ما أوردَه القرآنُ عن ذي الكفل عليه السلام، حيث لم يذكُرْ عن قصتِه أيَّ شيء، واكتفى بإيرادِ اسمِه ضمنَ أسماء أنبياء آخرين.

وإذا ما انتقلْنا إلى مصدرنا الإسلاميِّ اليقيني الثاني، وهو الحديثُ النبويُّ الصحيح، فإننا لا نجدُ حديثاً صحيحاً مرفوعاً، يتحدثُ فيه رسولُ الله ﷺ عن ذي الكفل.

بينما أوردت الإسرائيلياتُ بعضَ الأَخبار والتفصيلات عن ذي الكفل، وعن سببِ تسميتِه بذلك، ونَقَلَ هذه الإسرائيلياتِ بعضُ المفسرين والمؤرخين المسلمين، مع أنها إسرائيلياتٌ باطلةٌ كاذبة، تَنسبُ إلى ذي الكفل ذنوباً كبائر، لا تَصدرُ عن مسلمٍ صالح، فضْلاً عن نبيٍّ كريم!

ونحنُ لا نَرى إيرادَ هذه الإسرائيليات، ولا نسبةَ أَشياء للأَنبياء من خلالها، ولذلك أَضربْنا عنها.

إنَّ كلَّ قصةِ ذي الكفل عليه السلام مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، فلا نعرفُ من قصتِهِ إلاّ اسمَه ـ أو لقبه ـ.

لا نعرفُ زمانَ بعثته، ولا تفاصيلَ حياته، ولا القومَ الذين بعثهُ اللّهُ إليهم، ولا المكانَ الذي كان يقيمُ فيه، ولا تفاصيلَ قصتِهِ معهم، وأحداثَ ما جرى بينه وبينهم، ولا كيفَ كانت نهايةُ قصتِهِ معهم.

هذه التفاصيلُ من «مبهمات القرآن» التي نُبقيها على إِبهامها، ونَكِلُ العلمَ بها إِلى اللّهِ سبحانه. والله أعلم.

[٣]

إلياس عليه السلام

وردَ اسمُ إِلياسَ عليه السلام في موضعَيْن في القرآن.

الأول: في سورةِ الأنعام: وذلك ضمنَ مجموعةٍ من الأَنبياء، كانوا من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦].

اكتفت الآياتُ بذكْرِ اسمِ إِلياسَ عليه السلام، ضمنَ الثمانية عشر نبياً المذكورين فيها.

الثاني: في سورةِ الصافات بعدَ الحديثِ عن نوحٍ وإبراهيم

وإسماعيل وإسحاق وموسى وهارون، وبعده جاءَ الحديثُ عن لوط ويونس، عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٣٢].

يخبرُنا اللّهُ في هذه الآياتِ أنَّ إِلياسَ كان نبياً رسولاً: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)﴾.

و«إلياس»: اسمُ علمٍ أعجمي، ممنوعٌ من الصرفِ للعلميةِ والعجمة.

والراجحُ أنه من أَنبياءِ بني إسرائيل، مثل: ذي الكفل واليسع وإدريس ويونس وأيوب، عليهم الصلاة والسلام.

وسَجلت الآياتُ بعضَ ما جرى بينَه وبينَ قومه الكافرين.

«بعل» معبود قومه الكفار:

فقد دَعاهم إلى توحيدِ الله وعبادتِه وتقواه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)﴾. وهي دعوة كل نبي رسول، يدعو قومه إلى عبادة الله وحده.

ثم أنكرَ عليهم عبادةَ غيرِ الله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)﴾

ومعنى «أتدعون بعلاً» أتعبدونَ رَبّاً صنماً، وتجعلونَه معبوداً مألوهاً، وتَدْعونه وتتضرعون إليه وتطلبون منه؟ مع أنه بعْلٌ صنم، وليس إلهاً قادراً على الضرِّ والنفع.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن «البعل» وإطلاقِه على المعبودِ من دون الله:

«البعل: هو الذكَرُ من الزوجين.

وسُمي بَعْلاً لما فيه من معنى الاستعلاءِ على المرأة، فجُعلَ كأنه سائسٌ لها وقائمٌ عليها.

وسُمي باسمه «بَعْل» كلُّ مستعلٍ على غيره، فسَمّى العربُ معبودَهم الذي يتقرّبون به إلى الله «بعلاً» لاعتقادِهم ذلك فيه، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

ويقال: أتانا بَعْلُ هذه الدابة. أي: المستعلي عليها»[1].

ومعنى كلام الراغبِ أنَّ مادةَ «بَعْل» في اللغةِ تقومُ على الاستعلاء. فالزوجُ بَعْلٌ لامرأتِه، لأنه مستعْلٍ عليها، متحكِّمٌ فيها، قائدٌ لها.

ويبدو أنَّ القومَ الذين بَعَثَ اللّهُ لهم إلياس نبياً عليه السلام كانوا يَعبدون صنماً، ويعتبرونه رَبّاً معبوداً، وسَمّوه «بَعْلاً» لأنهم يعتقدونَ فيه الأُلوهية، ويعبدونه ويَدْعونه ويَطلبون منه، ويتضرَّعون إليه.

لعلهم كانوا يقيمون في مدينة «بعلبك»:

ويمكنُ أنْ «نستأنسَ» بتحديدِ مكانِ القوم هؤلاء، بمدينةِ «بَعْلَبَكّ» الأثرية، الموجودةِ في لبنان. فلعلَّ القوم كانوا يقيمون فيها، ولعلَّ معبودَهم «بَعْلاً» كان تمثالُه فيها، بل لعلَّ المدينة بعلبك منسوبةٌ إليه.

وردَ في معجم البلدان لياقوت عن بعلبك: «بَعْلَبَكّ: بالفتح ثم السكون، وفتحِ اللامِ والباء، والكافِ المشدَّدة: مدينةٌ قديمة، فيها أبنيةٌ عجيبة، وآثارٌ عظيمة، وقصورٌ على أساطين الرخام، لا نظيرَ لها في الدنيا، بينها وبين دمشق ثلاثةَ أيام...

---

(١) المفردات: ١٣٥.

واسمُها مركَّب من «بَعْل»: اسمُ صنم. و«بَكّ»: أصْلُه من: بَكَّ عنقَه، أي: دَقَّها. و: تَباكَّ القومُ أي: ازدحموا.

فإمّا أنْ يكونَ نُسِبَ الصنمُ إلى «بَكّ»، وهو اسمُ رجل، أَو جَعَلوه يَبُكُّ الأصنام، أي يَدُقها.

هذا إنْ كان عربياً، وإنْ كانَ أعجمياً فلا اشتقاق...»[1].

والراجحُ أن «بَعْلَبَكّ» اسمٌ أعجمي، وليس مشتقاً.

المهمُّ أنَّ قومَ إلياس عليه السلام كانوا يعبدون صنماً يُسمونه «بَعْلاً». وأنكرَ عليهم ذلك بقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

اللّهُ هو الخالق، وصنمهم «بَعْل» ليس خالقاً، فكيف يعبدونَ الصنمَ المخلوق، ويتركونَ عبادةَ الله الخالق؟

واللّهُ الخالقُ هو ربُّهم، وهو ربُّ آبائهم الأولين، الربُّ المتكفِّلُ بهم، الذي خلقهم ورزقهم ورعاهم فهو المعبودُ وحده.

إهلاك قومه الكافرين ونجاة المؤمنين:

رفضَ القومُ دعوةَ إلياس، وأَصرّوا على كفرِهم، وعكفوا على عبادةِ معبودِهم «بَعْل». وبذلك انتهتْ مهمةُ إلياسَ بينهم، وأَهلكهم اللّهُ بعذابه، وأَنجى إلياسَ ومَنْ معه من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

كذَّبه معظمُ قومِه، فحقَّ عليهم العذابُ في الدنيا، وفي الآخرة سيعذَّبون في جهنم.

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١:٤٥٣.

«محضرون»: اسمُ مفعول، يقررُ حقيقةَ بعثِهم بعد الموت، وإِحضارِهم للحساب، ثم عذابِهم في النار.

ثم استثنى مَنْ آمنَ بإلياس عليه السلام مِن قومه، ووصَفَهم بأنهم عبادُ الله المخلصون: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

والمستثنى منه هم القومُ المكذِّبون، الذين هم فاعلُ فعْلِ «كذبوه». والمعنى: كذَّبه قومُه الكفار، إلاّ عبادَ الله المخلصين منهم، الذين آمنوا به واتبعوه.

فالذين آمَنوا به عبدوا اللّهَ وحده، واتقوه وحده، وأَخلصوا الدينَ له وحده، وبذلك استخلَصَهم اللّهُ مِن بين عباده، فكانوا عبادَه المخلِصين المخلَصين، وكانت عبادتُهم خالصةً لله سبحانه.

انتهتْ قصةُ إِلياسَ عليه السلام مع قومِه بانقسامِهم إلى قسمين: أغلبيةٍ كافرة، عذَّبهم اللّهُ وأَهلكهم. وأقليةٍ مؤمنةٍ آمنتْ به، أَنجاهم اللّهُ معه.

ولا نعرفُ كيفَ كان تعذيبُ الكافرين، ولا كيفَ كانت نجاةُ المؤمنين، ولا كيف كانتْ نهايةُ إِلياسَ عليه السلام، فهذا من مبهمات القرآن.

ثناء الله على إلياس:

وقد أَثنى اللّهُ على إِلياس بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.
ومعنى «تركنا»: أَبقينا. و«الآخِرين»: الأجيال القادمة.

أي: أَبقينا على إِلياسَ الذكْرَ الحسنَ والثناءَ الطيبَ في الآخِرين القادِمين فيما بعد.

و«الآخِرين» تشملُ المؤمنين الصالحين بعدَ إِلياس وقبل محمد عليهما الصلاة والسلام، كما تشملُ الأمةَ المسلمةَ بكلِّ أَجيالها، أمةَ الخلافة والشهادة حتى قيامِ الساعة.

وقد وردَتْ هذه الجملة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ في قصصِ بعضِ الأنبياءِ، المذكورينِ في سورة الصافات.

قالَ اللّهُ عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ٧٨].

وقالَ عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الصافات: ١٠٨].

وقال عن موسى وهارونَ عليهما السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الصافات: ١١٩].

وقالَ عن إلياسَ عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الصافات: ١٢٩].

كلُّ الأنبياءِ جعلَهم اللّهُ قدواتٍ لمن بعدهم، وأَمَرَ الآخِرين القادمين بالاقتداءِ بهم. كما وردَ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ..﴾ [الأنعام: ٩٠].

قراءات ومعنى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾:

وبعدما أَخبرَنا اللّهُ أنه أَبقى لإلياسَ الذكْرَ الحسنَ والثناءَ الطيبَ في المؤمنين الآخِرين القادمين بعده، أثنى عليه بالسلام عليه وعلى آله ووصَفَه بالإحسان، فقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ نافع وابن عامر: «سلامٌ على آلِ ياسين». بإضافةِ «آلِ» إلى «ياسين».

وذَهبوا إلى أنَّ «ياسين» هو إلياس. وأَضافوا الآلَ إليه، فقالوا: «آلِ ياسين»، وآلُ ياسين هم أَتباعُه المؤمنون، الذين استجابوا له ودخلوا في دينه.

والسلامُ على «آلِ ياسين» ـ الذين هم آلُ إلياس ـ سلامٌ عليه هو، لأنه كان السببَ في هدايتهم.

الثانية: قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: «سَلامٌ على إِلْياسين» بكسْرِ الألفِ وسكون اللام.

وفي توجيهِ هذه القراءة قولان:

الأول: أَنَّ «إِلْياسين» جمعُ «إِلْياس». والمرادُ بالجمعِ أَتْباعه المؤمنون، فَنُسِبوا إِليه، ثم جُمعوا جمعَ مذكرٍ سالم.

والأصلُ هكذا: إِلياس، ثم تَنسبُ المؤمنَ إِليه فتقول: هذا إِلْياسِيٌّ، ثم تَحذفُ ياءَ النسبةِ عند الجمعِ للتسهيل فتقول: إِلْياسون.

وذلك كقولك: مهلّب، مُهَلَّبِيٌّ، مُهَلَّبون. و: محمد، مُحَمَّدِيٌّ، مُحَمَّدون. وهنا تقول: إِلْياس، إِلْياسيٌّ، إِلْياسون.

وهذا التوجيهُ عليه كلامٌ واعتراض، ليس هذا موضعَ بسْطِه.

الثاني: «إِلْياسين» هو: إِلياس، وهو لغةٌ ثانيةٌ فيه. تقول: إِلْياسٌ وإِلْياسينُ.

وهذا كقولك: جبريل، وجبرائيل أو جبرائين، وميكال، وميكائيل أو ميكائين، وإسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين.

قالَ الشاعرُ في ضَبٍّ صادَه:

يَقولُ أَهلُ السُّوقِ لَمّا جِينا   هَذا وَرَبِّ البَيْتِ إِسْرائينا

والشاهدُ فيه قوله: إِسرائينا. حيث قلبَ اللامَ نوناً، والأصل: إسرائيل[1].

وهذا التوجيهُ أَولىٰ، فالسلامُ في الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ١٣٠﴾ من الله على إِلياسَ نفسه، وليس على أَتباعِه وآلِه المؤمنين.

---

(١) انظر كتابنا «تفسير الطبري تقريب وتهذيب» ٦: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

وهذا يتفقُ مع سلام اللّهِ على أَنبياءَ آخرين في نفس السورة. وذلك في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٩].

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩].

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات: ١٢٠].

وصرَّحَ بالسلامِ على المرسلين وليس على أَتْباعهم في آخرِ آيات السورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١].

ولعلَّ الحكمةَ في العدولِ عن إِلْياسَ» إِلى «إِلْياسين» في الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ هي مراعاةُ الفاصلةِ ورؤوسِ آياتِ السورة. حيثُ معظمُ آياتِها جاءتْ مختومةً بالواو والنون أو الياء والنون.

فلو قالَ: «سلام على إِلْياس» لما انسجمَ هذ مع إِيقاعِ باقي الآيات، ولما توافقَ مع فواصلِها، ويَحدثُ فيها ما يُشبِهُ «الكسرَ» في الإِيقاع، يُشبهُ كسرَ الوزنِ في الشعرِ العربي العمودي، فأُضيفت الياءُ والنون، لتوفَّرَ هذا التوافقَ والانسجام.

مع أنَّ «إِلْياسين» لغةٌ ثانيةٌ في «إِلْياس»، كما قرَرْنا قبلَ قليل: إِلْياس إِلياسين، وإِسماعيل إِسماعين، وإِسرائيل إِسرائين.

فاختير الاسمُ الثاني لإِلياسَ الذي يحققُ الانسجامَ في الإِيقاع، والتوافقَ مع رؤوسِ الآيات!!

جزى اللّهُ إِلياس عليه السلام الجزاءَ الحسن، لأَنه أَكرمَهُ بتطبيقِ سنَّتِه المطردةِ عليه. فكلُّ محسنٍ يَجزيهِ اللّهُ بالإحسان، فكما جزاهُ اللّهُ بالإحسان، كذلك يَجزي المحسنين من عباده، وهو من عبادِ الله المؤمنين، بل كانَ إِمامَ عبادِ اللّهِ المؤمنين من قومه، لأنه نبيٌّ رسُولٌ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

هذا ما نقولُه عن قصةِ إِلياس عليه السلام، كما وردتْ في آياتِ سورة الصافات.

وما سكتَتْ عنه الآياتُ نسكتُ عنه ولا نخوضُ فيه.

[٤]

اليسع عليه السلام

وردَ اسمُ «ٱلْيَسَعَ» مرتيْن في القرآن.

المرةُ الأولى: في سورةِ الأنعام، وأثناءَ ذكْرِ أسماءَ ثمانيةَ عشرَ نبياً. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦].

المرةُ الثانية: في سورة ص: أثناءَ إِيرادِ أسماءَ مجموعةٍ من الأَنبياء، وذلك بعدَ عرضِ لقطاتٍ من قَصصِ داودَ وسليمانَ وأيوب عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

وفي «ٱلْيَسَعَ» في السورتين قراءتان:

الأُولى: قراءةُ حمزة والكسائي: «وَاللَّيْسَعَ» بأَلْ ولامٍ مشددة بعدها. وحُجَّتُهما أنه اسمٌ أَعجمي مبدوءٌ بأَلِف.

وقالَ بعضُهم: أصْلُ «اللَّيْسَع»: لَيْسَعْ. مثلُ: ضَيْغَمْ، فعندما

تُدخِلُ عليها «أَلْ» تقول: اللَّيْسَع، كما تقول: الضَّيْغَم.

الثانية: قراءةُ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم: «وَالْيَسَعَ»: بلامٍ مخففة.

وحُجَّتُهم في ذلك أَنه اسم أعجمي، وردَ اسمه هكذا[1].

قالَ القرطبي نقلاً عن النحاس: «والحقُّ في هذا أَنَّهُ اسمٌ أَعجمي. والعجمةُ لا تُؤْخَذُ بالقياس، إِنما تؤخَذُ سماعاً. والعربُ تغيرُها كثيراً، فلا يُنْكَرُ أنْ يأتيَ الاسمُ الأعجميُّ بلغتين...»[2].

ولم يتحدث القرآنُ عن قصةِ «الْيَسَع» شيئاً. فكلُّ ما أَوردَه هو ذكْرُ اسمه ضمنَ أسماءِ أنبياءٍ في الموضعين السابقين. ولم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ يتحدث عن قصة «الْيَسَع»عليه السلام. ولهذا لا نَعرفُ عن «الْيَسَعَ» عليه السلام إلا اسمُه، وأنَّ اللّهَ جعلَه أحدَ الأنبياء. وكلُّ ما سوى هذا فإنه من مبهماتِ القرآن، التي نتوقفُ عندها، ولا نخوضُ فيها...

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧:٣٣.

قصة
زكريا ويحيى
عليهم السلام



[١]

زكريا ويحيى في القرآن

زكريا ويحيى عليهما السلام من آخرِ أنبياءِ بني إسرائيل، ولم يأتِ بعدَهما نبيٌّ لبني إسرائيل إلاّ عيسى عليه السلام.

وتَتداخلُ قصةُ زكريا ويحيى في القرآن، بحيث لا يمكنُ الفصلُ بينهما، كما تشتركُ قصتُهما مع قصةِ مريم وابنِها عيسى عليه السلام، لِما بين الجميع من القرابةِ العائلية، والاشتراكِ في وقوعِ الأحداث.

وسنتكلمُ هنا عن زكريا ويحيى إنْ شاء الله، وعندما يمرُّ بنا حديثٌ عن مريم وعيسى عليه السلام سنؤخرُه إلى قصة عيسى عليه السلام.

وردَ اسمُ زكريا عليه السلام سبعَ مرات في القرآن.

وردَ في سورة الأنعام ضمنَ أسماءِ مجموعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

وأشارتْ سورةُ الأنبياء إلى دعاءِ زكريا أنْ يرزقَه اللّهُ ولداً، واستجابةِ الله له، حيث أصلحَ له زوجَه، ورزقه يحيى، في الآيتين: [٨٩ ـ ٩٠].

وذُكرَ في سورة مريم مرتينِ في بداية السورة، حيث أشارتْ إلى دعائه لربِّه أنْ يرزقَه الولد، وقد بشرتْه الملائكةُ بيحيى، وذَكرتْ له الآيةَ الدالة على ذلك. في الآيات: [١ ـ ١١].

وذُكرَ في سورةِ آل عمران المدنية ثلاثَ مرات، وذلك أثناءَ الحديثِ عن حملِ أُمِّ مريم بها، ثم ولادتها، وكفالةِ زكريا لها، ولما رأى زكريا كراماتِ الفتاة مريمَ رضي الله عنها طلبَ من الله أنْ يكرمَه بالولد، واستجابَ الله له، وبشرتْه الملائكةُ بيحيى وهو قائمٌ يصلي في المحراب، وأزالت استغرابَه، وقدمتْ له الآيةَ على ذلك. وهذا في الآيات: [٣٧ ـ ٤١].

وورِدَ اسمُ يحيى عليه السلام خمسَ مرات في القرآن، في نفسِ السورِ الأربعة التي وردَ فيها اسمُ أَبيه زكريا: الأنعام، والأنبياء، ومريم، وآل عمران.

في سورةِ الأنعام وردَ اسمُه مقروناً باسمِ أبيه في آية (٨٥).

وفي سورةِ الأنبياء وردَ اسمُه مرةً واحدة، في أثناءِ الإشارةِ إلى استجابةِ اللّهِ لدعوة أبيه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ..﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي سورةِ آل عمران وردَ اسمُه مرةً واحدة، في تبشيرِ الملائكة لأبيه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ..﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي سورةِ مريم وردَ اسمُه مرتين: مرةً في تبشيرِ الملائكة لأبيه: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ..﴾ [مريم: ٧].

ومرةً أخرى في مخاطبةِ اللّهِ له مباشرة: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾..﴾ [مريم: ١٢].

إنَّ ما عرضَه القرآنُ من قصةِ زكريا ويحيى عليهما السلام، هو تأثُّرُ زكريا لما رأى الكراماتِ عند مريمَ البتول، حيث دعا ربَّه، وذكَرَ له شيخوختَه وحاجتَه للولد، واستجابَ اللّهُ له، وأَرسلَ الملائكةَ تبشرُه بيحيى، وهو يصلي في المحراب، وأزالت استغرابَه بالإشارةِ إلى قدرةِ الله المطلقة على فعلِ ما يريد، وقدمتْ له آيةً معجزةً يقدمُها لقومه.

ولما وُلِدَ يحيى وصارَ شاباً أَمَرَهُ اللّهُ أنْ يأخذَ الكتابَ بقوة.

هذا ما عرضَه القرآنُ من قصتهما، عليهما الصلاة والسلام.

[٢]

زكريا يدعو ربه طالباً منه الولد

زكريا: اسمُ علم أعجمي، لا نبحثُ عن معناه في العربية، وليستْ له مادةُ اشتقاقٍ فيها.

وهو من آخرِ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولعلّه كانَ مقيماً في بيتِ المقدس وما حولَها، بدليلِ حديثِ القرآنِ عن ولادة مريم وكفالةِ زكريا لها.

نَسَبُ زكريا عليه السلام من مبهماتِ القرآن، التي لا نخوضُ فيها.

ودعوةُ زكريا لبني إسرائيل، وتفصيلُ ما جرى بينه وبينهم، من مبهماتِ القرآن أيضاً.

كلُّ ما نعرفُه أَنه كان نبياً في بني إسرائيل، وأنه كانَ حولَه مجموعةٌ من صالحيهم، وأَنه كان مكرَّماً عند هؤلاء الصالحين.

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن مهنةِ زكريا عليه السلام، لأنَّ كلَّ نبيٍّ كان يأكلُ من عملِ يده.

روى مسلمٌ وغيرُه عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً»[1].

وهذا من فضائلِه عليه السلام، فلم يقبَلْ أنْ يكونَ عالةً على قومه المؤمنين، يتكفَّلون بطعامِه وشرابه، وإنما اتخذَ النجارةَ مهنةً له، يأكلُ من عملِ يده فيها..

وكان زكريا متزوجاً من أختِ مريم الكبرى، كما توحي بذلك آياتُ سورة آل عمران، فكانَ لمريم ابنةِ عمران أُختٌ أكبرُ منها، وكان لها أَخٌ شقيقٌ اسمه هارون، وسنتكلمُ عن هذه المسألة فيما بعد، إن شاء الله.

كانت امرأةُ زكريا عاقراً، لم تَحمل ولم تُنجب.

زكريا يكفل مريم ويرى إكرام الله لها:

وتقدَّمَ بزكريا عليه السلام العمر، ونفسُه تتطلعُ ليكون له ولد.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٧٩. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٥.

ولما ولدت امرأةُ عمران ـ أمُّ امرأة زكريا ـ ابنتَها مريم، ووهبَتْها للمعبد، اختلفَ الكهنةُ والصالحون في من يكفلُ هذه الطفلةَ الصغيرة، فاقترعوا فيما بينهم، وخرجت القرعةُ على زكريا زوجِ أختِها.

وعاشت الطفلةُ في كفالةِ زكريا، وتحت إشرافٍ مباشرٍ من أختها الكبرى، ولما شَبَّتْ وصارتْ فتاة، وكانت في غايةِ الصلاح والتقوى، أكرمَها اللّهُ كرامةً من عنده، حيث كان ينزلُ عليها من رزقه طعاماً لها.

وكان زكريا الشيخُ الهرمُ عليه السلام يَدخلُ على مريم البتول، فيجدُ عندها الرزق، فيستغرب ويسألُها: يا مريم: أنّى لك هذا؟ من أينَ لك هذا الطعام ونحنُ لم نقدمْه لك؟

فتجيبُه بإيمانٍ ورضى: هو من عندِ الله، إن اللّهَ يرزقُ مَن يشاءُ بغير حساب.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧].

وعندما رأى زكريا إكرامَ اللّهِ للفتاةِ الصغيرة تحركَتْ نفسُه لطلبِ الولدِ الوارثِ له، وطمعَ في فضلِ اللّهِ وكرمِه، فاللّهُ الذي أكرمَ هذه الفتاة، قادرٌ على إكرامِ الشيخِ الهرمِ ومنحِه الولد، فدعا ربَّه طالباً منه ذلك.

الجو الذي طلب زكريا فيه الولد:

قال سيد قطب عن هذا الجوِّ الذي دعا فيه زكريا ربَّه: «عندئذٍ تحركَتْ في نفسِ زكريا، الشيخِ الذي لم يوهَبْ ذرية. تحركَتْ تلك الرغبةُ الفطريةُ القوية في النفس البشرية. الرغبةُ في الذرية، في الامتداد، في الخلف.. الرغبةُ التي لا تموتُ في نفوس العباد الزهاد...»[1].

(١) في ظلال القرآن ١:٣٩٣.

سألَ زكريا ربَّه الذريةَ الطيبة. قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

و﴿هُنَالِكَ﴾: ظرفُ مكان. «هنا»: هي الظرف، واللامُ للبعد، والكافُ للبعد أيضاً[١].

ومعنى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: في ذلك المكانِ الذي رأى فيه ما رأى من كراماتِ مريم، دعا زكريا ربَّه.

وخلاصةُ معنى هذه الآية كما في تقريبنا لتفسير الطبري:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: عند رؤيةِ زكريا ما رأى عندَ مريم من رزقِ اللّهِ الذي رزقَها، وفضْلِه الذي آتاها، من غيرِ تسبُّبِ أحدٍ من الآدميين في ذلك.

لقد طمعَ في ذلك الظرفِ بالولدِ مع كبرِ سنه، من المرأةِ العاقر، فرجا أنْ يرزقَهُ اللّهُ منها الولد، مع أنه عجوزٌ وامرأته عاقر.

لقد رزقَ اللّهُ مريم رزقاً خاصّاً من لدنه، لم يكن مثْلُه مما جرت بوجوده في مثل ذلك الحينِ عادات، وكذلك ولادةُ العاقر خلافُ الأمرِ الذي تَجري به العاداتُ عند الناس.

لذلك رغبَ زكريا إلى اللّهِ في الولد، وسألَه ذريةً طيبة.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لما رأى ذلك زكريا عندَ مريم قال: إنَّ الذي يأتي مريم بهذا الرزق، قادرٌ أنْ يَرزقني ولداً: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ..﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: من عندك. ﴿ذُرِّيَّةً﴾: نسلاً. ﴿طَيِّبَةً﴾: مباركة.

و«الذرية»: تُطلقُ على الواحدِ والجمع. وهي هنا بمعنى الواحد،

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبي ٣:١٤٧.

فزكريا طلبَ من اللّهِ ولداً واحداً فقط. لأن اللّهَ قال عن طلبه في آيةٍ أخرى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل أولياء..[١].

دعاء زكريا في سورة مريم:

كان دعاءُ زكريا عليه السلام ربَّه في سورةِ آل عمران مجملاً، لكنه مفصَّلٌ نوعاً ما في مطلعِ سورةِ مريم. قال تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ١ ـ ٦].

افْتُتحت سورةُ مريمَ بخمسةٍ من الحروف المقطعة، التي افتتحَ اللّهُ بها بعضَ السور. ثم جاءَ الحديثُ بعدَ ذلك مباشرةً عن دعاءِ زكريا عليه السلام.

خاطبَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ، بأنه سيذكُرُ له رحمتَه بزكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾.

و«ذِكْرُ» خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ذِكْرُ رحمةِ ربك عبده..

و«عَبْدَه»: مفعولٌ به منصوب، للمصدر «رحمة».

و«زكريا»: بدلٌ منصوب من «عبدَه».

وفي «زكريا» قراءتان:

الأولى: قراءةُ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «زكريّا» بالقصر.

---

(١) انظر «تفسير الطبري تقريب وتهذيب» ٢: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

الثانية: قراءةُ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو: «زكريّاء» بالمد والهمزة.

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي: «والمدُّ والقصْرُ في هذا الاسم لغتان فاشيتان عن أهلِ الحجاز. وهو اسمٌ أعجمي، فكانَ من حقِّه أنْ يقولوا فيه: مُنعَ من الصرفِ للعلمية والعجمة..»[1].

ووصفَ اللّهُ زكريا بالعبوديةِ لله: ﴿عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، وهذا وصفٌ للتكريم والتشريف، لأنَّ مقامَ العبوديةِ لله هو أعلى المقامات وأشرفُها، وهو مقَامُ الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

رحمَ اللّهُ عبدَه زكريا عليه السلام، وقْتَ ندائِه له، وذلك عندما دعاه وسألَه وطلبَ منه الولد: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾.

و«خفياً» بمعنى: خافِتاً مخفوضاً.

نداء زكريا الخافت وإخباره عن ضعفه وهرمه:

وَصفت الآيةُ نداءَ زكريا عليه السلام بأنه كان خفياً خافتاً، وهذا من أَدبِه في نداءِ ربِّه ودعائه. وإنَّ اللّهَ يحبُّ الدعاءَ الخفيَّ الخافت.

قال الإمام ابن كثير: «قال بعضُ المفسرين: إِنما أَخفى دعاءَه لئلا يُنسبَ في طلبِ الولدِ إِلى الرعونة لكبره.

وقال آخرون: إِنما أَخفاهُ لأنهُ أَحَبُّ إلى الله.

وقال قتادة في تفسير الآية: إن اللّهَ يعلمُ القلبَ التقي، ويَسمعُ الصوتَ الخفي...»[2].

ونتعلمُ من زكريا عليه السلام الأدبَ في دعاءِ الله والتضرعِ إليه،

(١) الدر المصون ٣:١٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٠٨.

حيثُ يكون صوتُنا أثناءَ النداءِ والدعاء خفياً خافتاً خفيفاً، كلُه أدبٌ وتضرع، وإنابةٌ إلى الله سبحانه..

ولما نادى زكريا ربَّه نداءً خفياً، ذكَرَ حالتَه وهرمَه وشيخوختَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: ٤].

وَهَنَ عظمُ زكريا لما صارَ عجوزاً شيخاً هرماً، وضعفَتْ قواه، وغزا الشيبُ شعرَ رأسِه فصارَ أبيض.

قالَ سيد قطب عن دعاءِ زكريا والتصويرِ الفنيِّ في تعبيرِ القرآن عنه «وزكريا يشكو إلى ربِّه وَهْنَ العظم، وحين يَهِنُ العظمُ يكون الجسمُ كلُّه قد وَهَن، فالعظمُ هو أصلبُ ما فيه، وهو قوامُه الذي يقومُ به ويتجمعُ عليه. ويشكو اشتعالَ الرأس شيباً.

والتعبيرُ المصوِّر يجعلُ الشيبَ كأنه نارٌ تشتعل، ويجعلُ الرأسَ كلَّه كأنما تشملُه هذه النارُ المشتعلة، فلا يبقى في الرأسِ المشتعلِ سوادٌ.

ووَهَنُ العظمِ واشتعالُ الرأسِ شيباً، كلاهما كنايةٌ عن الشيخوخةِ وضعفها، الذي يعانيه زكريا، ويشكوهُ إلى ربه، وهو يعرضُ عليه حالَه ورجاءَه.

ثم يعقبُ عليه بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ معترفاً بأن اللّهَ قد عوَّده، أنْ يستجيبَ إليه إذا دعاه، فلم يَشْقَ مع دعائِه لربِّه، وهو في فتوَّته وقوَّته. فما أحوجَه الآنَ في هرمِه وكبرِه أنْ يستجيبَ اللّهُ له، ويتمَّ نعمته عليه»[1].

مضى شبابُ زكريا وامرأتِه بدون أنْ يدعوَ ربَّه طالباً منه الولد، ولعلَّه كان يأملُ ذلك في المستقبل، ولما صارَ هرماً ووهنَ عظمُه

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٢.

واشتعلَ شيبُ رأسه، فَقَدَ أملَه في أنْ يرزقَه اللّهُ الولدَ عن الطريقِ الطبيعيِّ العادي المألوف، فامرأته عاقر، لا قدرةَ لها على إفرازِ «البويضات»، وهو شيخٌ هرم.

ولكنه لما رأى إكرامَ الله للفتاةِ البتول مريمَ رضي الله عنها، استيقظت الرغبةُ في نفس زكريا من جديد، هو يريدُ الولدَ الآن عن طريقِ المعجزة، وليس عن الطريقِ العاديِّ المألوف. يريدُه بواسطةِ خارقةٍ من خوارق العادات، وكلُّه أملٌ في استجابةِ الله لدعائه، لأَنه يوقنُ أنَّ اللّهَ قادرٌ على فعْلِ ما يريد، وإذا أرادَ اللّهُ أنْ يرزقَه الولد، رغم شيخوختِه هو وامرأته، فإنه سيفعلُ ذلك سبحانه.

لماذا يريد زكريا الولد؟:

أما السببُ الذي دفعه إلى طلب الولد، فهو خوفُه المواليَ من بعده، ولذلك يريدُ الولد، ليرثه ويرث آل يعقوب من قبله.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ..﴾.

﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ جمعُ المولى. وهم العَصَبَةُ الأقارب.

قال السمينُ الحلبي: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: قيل: أَرادَ بني عمِّه وعَصَبَتِه، وهمُ الذين يلونَه في النَّسَب..»[1].

ومعنى: ﴿مِن وَرَآءِى﴾: من بعدي.

والمعنى.أَنه خافَ مواليه وأَقاربَه وعَصَبَتَه، وخشيَ أنْ يتصرفوا في الناس شراً بعدَ وفاته.

وهو لا وارثَ له من صلبه، لأنَّ امرأتَه عاقر، ورجاؤُه في الله أنْ يهبَهُ ولياً، وأنْ يمنَحَه ولداً، ليكون وارثاً له ولآل يعقوب.

---

(١) عمدة الحفاظ ٤: ٣٩٣.

لماذا خافَ زكريا مواليَه وأقاربَه بعد وفاته؟ وفي ماذا يرثُه ابنُه الولي؟

للإمام ابنِ كثير في التفسير توجيهاتٌ لطيفة في ذلك:

الأول: خشيَ أنْ يتصرَّفَ مواليه من بعده في الناس تصرُّفاً مسيئاً، فسألَ اللّهَ ولداً، يكونُ نبياً من بعده، ليسوسَهم بنبوته، فاستجابَ اللّهُ له.

ولم يخشَ من وراثةِ مواليه له مالَه، فإنَّ النبيَ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدراً من أنْ يشفقَ على مالِه إلى هذه الدرجة، ومن أنْ يأنفَ من وراثةِ عصباتِه له، فيسألَ ربَّه أنْ يكونَ له ولدٌ ليحوزَ ميراثَه دونهم..

الثاني: لم يَذكر أنَّ زكريا كان صاحبَ مال، بل كان نجاراً يأكلُ من عملِ يدِه، ومثلُ هذا لا يَجمعُ مالاً، وكان الأنبياءُ أزهدَ شيء في الدنيا.

الثالث: لم يتركْ زكريا عليه السلام مالاً، لأنَّ الأنبياءَ لا يورَثون في أموالِهم، فإنْ تَركوا أموالاً فإنَّ أموالَهم تكونُ صدقة.

ودليلُ ذلك ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «لا نورَث، ما تركْنا صدقة»[١].

ولذلك أرادَ زكريا عليه السلام بالوراثةِ الوراثةَ في النبوة.

إنَّ قولَ زكريا عليه السلام عن الوليِّ الوارث: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، هو كقولِ اللّهِ عن وراثةِ سليمانَ لابنه داود عليهما السلام: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

وقد بَيَّنّا في قصةِ سليمان عليه السلام أنَّ وراثتَه لأبيه كانت وراثةً في النبوةِ والملك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٣٠. ومسلم برقم: ١٧٥٨.

وهنا يريدُ زكريا عليه السلام ولياً ابناً، وارثاً له في النبوة، وليسَ في المال.

قال مجاهد: قولُه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: كانتْ وراثتُه علماً، وكان زكريّا من ذرية يعقوب.

وقال الحسنُ البصري: أَرادَ أنْ يرثَه في نبوتِه وعلْمِه.

وقال السّدي: أرادَ أنْ يرثَ نبوتَه ونبوةَ آل يعقوب[1].

إذن: أرادَ زكريا عليه السلام أنْ يهبَهُ اللّهُ ابناً ليكونَ ولياً له، وليرثَه في النبوةِ والعلم، ويرثَ أَنبياءَ بني إسرائيل، وهم آلُ يعقوب، في النبوة والعلم.

«واجعله ربي رضياً»:

ولما طلبَ زكريا عليه السلام من رَبِّه الولد، التفتَ التفاتةَ إيمانيةً أخلاقية سلوكية، فقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أي: ربِّ اجعل ابني وارثي رضياً.

و«رَضِيّ» بمعنى اسم المفعول: مَرْضِي.

قالَ ابن كثير: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: أي: مرضِيّاً عندك، وعند خلْقِك، تحبُّه أنت، وتحببُه إِلى خلقك..[1].

وعلقَ سيد قطب على دعاء زكريا: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ بقوله: «ولا ينسى زكريا، النبيُّ الصالح، أنْ يصوِّرَ أملَه في ذلك الوريثِ الذي يرجوه في كبره: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ لا جَبّاراً ولا غليظاً، ولا متبطراً ولا طموعاً.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٠٩.

ولفظةُ «رضي» تُلقي هذه الظلال، فالرَّضِيُّ هو الذي يَرضىٰ ويُرضي.. ويَنشرُ ظلالَ الرضى فيما حولَه ومَنْ حولَه»[1].

إنَّ زكريا عليه السلام يريدُ أنْ يكونَ ابنُه الوارثُ راضياً مرضياً رضياً، وأنْ تُبنى شخصيتُه على الرِّضى، وأنْ تقومَ حياتُه على الرضى.

وعندما يكونُ رضيّاً سيكون فَرِحاً سعيداً مسروراً، وستكونُ علاقتُه بالآخرين قائمةً على السعادة واليسرِ والرضى، سيحبُّهم ويحبّونه، ويرضىٰ عنهم، ويرضونَ عنه، ويَألَفُ ويُؤلف.

الرَّضِيُّ ليس حادّاً ولا عصبياً ولا شاكياً، ليس معقَّداً ولا مكتئباً ولا حزيناً، الرَّضيُّ سهلُ المعاملة، واسعُ الصدر، حليمُ النفس، حسنُ الخُلُق.

وهذه نعمةٌ من الله على عبدِه، أنْ يجعلَه راضياً مرضياً رضياً، وزكريا عليه السلام رجا اللّهَ أنْ يجعلَ ابنَه وارثَه رضياً ليسعدَ بهذه النعمة، ويُسْعِدَ والدَيْه بهذه النعمة، ويُسعدَ كلَّ مَنْ حولَه بهذه النعمة..

[٣]

حليلة زكريا: من امرأة عاقر إلى زوج حامل

دَعا زكريّا عليه السلام ربَّه، طالباً منه الولد، وهو يحسنُ الظنَّ به، وكان اللّهُ عند حسنِ ظنه، فاستجابَ له، وكتبَ له الولَدَ برحمته، وأجرى له معجزةً خارقة.

امرأتُه عاقر، لا يمكنُ أنْ تنجبَ في المنطقِ البشريِّ القائم على الأسباب والعادات، لكنها ستحملُ وتضعُ بأمرِ الله، إنْ أرادَ اللّهُ ذلك، وهو فعّالٌ لما يريد.

---

(١) في ظلال القرآن ٤ : ٢٣٠٢.

وأشارتْ إلى هذهِ الحقيقة آياتُ سورة الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

و«زكريا» في الآية منصوب، لأنه معطوفٌ على ما قبلَه من الأنبياء: «وداود وسليمان..» و«وأيوب...» و«إسماعيل وإدريس وذا الكفل...» و«ذا النون...».

ونصْبُ هذه الأسماءِ المباركة بفعْلٍ مقدَّر. والتقدير: اذكُرْ داودَ وسليمان، واذكُرْ أيوب، واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل، واذكر ذا النون، واذكر زكريا.

والخطابُ للنبيِّ ﷺ، ولكلِّ مسلمٍ متذكِّر من بعده.

سياق دعاء زكريا في سورة الأنبياء:

ولهذا ختمَ الحديثَ عن هؤلاءِ الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام بالثناءِ عليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهناكَ أمرٌ جامعٌ بين هؤلاء الأنبياء، المذكورين في سورة الأنبياء، وهو وقوعُ الواحدِ منهم في ضيق، ثم نداؤُه ربه، ثم استجابةُ اللّهِ له، وكشفُه ذلك الضيق.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

نادى زكريا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: لا تذرني وحيداً لا ولدَ لي ولا وراث، يرثني في النبوة والعلم.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: هذه جملةٌ حاليةٌ تناسبُ الدعاء. فهو يريدُ ابناً وارثاً يرثُه ويرثُ من آل يعقوب: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، والوراثةُ المقصودةُ هنا هي الوراثةُ في النبوة والعلم.

فأرادَ بقوله لربه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أنت خيرُ مَنْ يبقى، بعد كلِّ مَنْ يموت. وأنا أعلمُ أَنك لا تضيعُ دينَك، ولكنني أريدُ أن لا تقطعَ فضيلةَ القيامِ بأمرِ الدين عن عقبي من بعدي، فارزقني وارثاً يقومُ بذلك[١].

استجابَ اللّهُ دعاءَ زكريا عليه السلام، وكانت الاستجابةُ سريعة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ..﴾ وعبَّرَ عن الاستجابةِ بحرفِ الفاء، الدالِّ على الترتيبِ مع التعقيب الفوري.

وهبَ اللّهُ له يحيى بعدما أصلحَ له زوجَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ..﴾.

أصلحَ له زوجَهُ بعدَ أنْ جعلَها قادرةً على الإنجاب «بيولوجياً»، وكانتْ هذه معجزةً خارقة، لأنها كانت عاقراً من قبل، والآن سوفَ تحملُ وتُنجب، بأمْرِ الله وإرادتِه سبحانه.

«وامرأتي عاقر»:

وتعبيرُ القرآنِ عن امرأةِ زكريا قبلَ الحمل وبعدَه عجيبٌ لطيفٌ معجز.

فقبلَ الحملِ أخبر أنها امرأةٌ عاقر: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا..﴾.

وبعدَ الحملِ أخبرَ أنَّها زوج له: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١١: ٣٣٦.

فما معنى «عاقر»؟ ولماذا استخدمَ مع «عاقر» كلمةَ «امرأة»؟ ولماذا عدلَ عن «امرأة» إلى «زوج» بعدما أَصلحَها وحملتْ بيحيى؟

كلمةُ «عاقر» وردتْ ثلاثَ مرات في القرآن، مرةً في سورة آل عمران، ومرتيْن في سورة مريم. وهي في المراتِ الثلاث مقرونةٌ مع «امرأتي»، وإِخبارٌ عن امرأةِ زكريا عليه السلام.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا..﴾ [مريم: ٥].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: ٨].

واللطيفُ أنَّ جملةَ «وامرأتي عاقر» في المواضع الثلاثة في محلِّ نصبِ حال. ومجيئُها «حالاً» فيها كلِّها مقصود، وليس مصادفة.

فحالُها أنها كانت عاقراً لا تُنجب، ولكنَّ اللّهَ أزالَ هذه الحال، ونقَلَها إِلى حالٍ جديد، حيثُ أَصلحها، وجعلها قادرةً على الإنجاب!

قالَ الإمامُ الراغب: «عُقْرُ الحوضِ والدار: أصلُها.. وعَقَرْتُه: أصبتُ عُقْرَه: أي: أصلَه. و: عَقرتُ النخل: قطعتُه من أصلِه.

وامرأةٌ عاقر: لا تلَد. كأنها تَعقِر ماءَ زوجها. أي تقطَعُه»[1].

فالمرأةُ العاقرُ هي التي في رحمِها مرضٌ أو داء، يحولُ بينها وبين الحملِ والإِنجاب، وعندما يعاشرُها زوجُها، فإِنها تعقرُ ماءَه، وتَقطعه، وتَقضي على حيواناتِه المنوية، ولا تُفرزُ بويضةً للإخصاب، وبذلك يَذهبُ ماءُ زوجها سُدى بسببِ هذا المرض.

وإِنَّ زكريا عليه السلام يعلمُ أنَّ امرأتَه عاقر، عندها داءٌ أو آفةٌ في

(١) المفردات: ٥٧٧.

رحِمِها، وعاشَ معها سنواتٍ عديدة، لم تَحملْ مِنه ولم تُنجبْ له.

ولما استجابَ اللّهُ دعاءَ زكريا عليه السلام أَزالَ عُقْمَ وعُقْرَ امرأتِه، وقضى على الآفةِ والداءِ الذي فيها، والذي كان يقضي على ماءِ زوجِها، ويَحولُ بينها وبين إِفرازِ «البويضة».

إزالة عقم امرأة زكريا معجزة من الله:

أَزالَ اللّهُ ذلك الداءَ بقدرتِه، وبدونِ سببٍ ماديٍّ مباشر، فلم تأخذْ تلكَ المرأةُ دواء، ولم تتناوَلْ علاجاً. فاللّهُ الذي وضعَ فيها ذلك الداءَ ابتلاءً لها ولزكريا عليه السلام، هو الذي رفعَ ذلك الداء، رحمةً منه لها ولزكريا.

ولما زالَ المانعُ أصبحتْ قادرةً على الإنجاب، فأَفرزت «البويضة» واستقرتْ تلكَ البويضةُ في الرحم تنتظرُ «الحُوَيْنَ المنوي» من الزوج، ولما تمت المعاشرةُ بين الزوجين، تمَّ الإِخصابُ بأمر الله، فحملت المرأةُ بجنينها.

وكان هذا كلُّه معجزةً من معجزات الله، خرقَ اللّهُ بها العادةَ البشرية، وهذه المعجزةُ الربانيةُ لها جانبان:

الجانبُ الأول: أن اللّهَ أزالَ عُقْمَ المرأة، والمرأةُ قد تكون عاقراً عقيماً وهي في سنِّ «الحيض»، تحيض لكنها لا تحمل، لداءٍ في رحمها، وهذه قد يعالجُها الطبُّ البشري، ويُزيلُ ذلك المانعَ من رحمها، وعندما تفرزُ بويضةً بعد ذلك، يتمُّ الإِخصاب والحمل، فهي تحيضُ في كلِّ دورةٍ شهريةٍ لها.

وقد يعجزُ الطبُّ البشريُّ عن علاجها، فتبقى عاقراً مع أَنها تحيض.

الجانب الثاني: أن اللّهَ أزالَ عُقْمَ امرأةِ زكريا عليه السلام بعدما بلغَتْ سنَّ اليأس!! وهذه هي المعجزةُ الربانيةُ الباهرة.

وبلوغُ المرأةِ سنَّ اليأس ـ وهو غالباً بعد بلوغِها الخمسينَ من عمرها ـ معناه انقطاعُ حيضِها، وتوقُّفُها عن إفرازِ البويضة التي يلقِّحُها «الحوين المنوي».

سنُّ اليأسِ عند المرأة هو توقُّفُ المرأةِ عن «إنتاجِ» البويضات نهائياً، ويستحيلُ عليها في المنطقِ البشري إنتاجُ بويضةٍ وحملُ جَنينٍ في رحمها، وكلُّ أطباءِ العالم عاجزون عن جعْلِ امرأة تحمل، بعدما تبلغُ سنَّ اليأس!!

وقد أرادَ اللّهُ لامرأةِ زكريا أنْ تحملَ بعد بلوغِها سنَّ اليأس، فأوقعَ عليها معجزةً باهرة، وأمْكَنَها من إفرازِ بويضة، ثم أَقدرَها على الإِخصابِ والحمل والولادة.

هذا كلُّه معجزةٌ خارقة، لا تُقاسُ بالأَسبابِ المادية، والقدراتِ البشرية!!..

ولما حملت تحولت من امرأة إلى زوج!!:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه عدلَ عن كلمةِ «امرأة» إلى كلمةِ «زوج».

فلما كانت عاقراً أطلقَ عليها «امرأة»: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا﴾. ولكنها لما حملَتْ أَطلقَ عليها «زوج»: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾.

لما كانت عاجزةً عن الحملِ كانت امرأة، ولما أصبحتْ قادرةً على الحملِ صارت «زوجاً» لزكريا عليه السلام.

وهذا يدلُّنا على عدمِ الترادفِ في المصطلحات القرآنية، فالزوجُ والمرأةُ ليسا بمعنى واحد، وهو حليلةُ الرجل مطلقاً.

القرآنُ أطلقَ على حليلةِ الرجل امرأةً له: إذا كان هناكَ عدمُ انسجامِ بينهما لسببٍ ماديٍّ أو معنوي نفسي. فإذا كانت لا تُنجبُ فهي

امرأةٌ للرجل، لوجودِ خللٍ ماديٍّ بيولوجي. وإذا كان أَحدهما مؤمناً والآخر كافراً فهي امرأةٌ له، كما قال القرآن: امرأةُ نوح، وامرأةُ لوط، وامرأة فرعون.

أمّا إذا كانَ بينها وبينَه انسجامٌ ماديٌّ ومعنوي فهي زوجٌ له وهو زوجٌ لها، لأن المزاوجةَ تقومُ على الاقتران والانسجام.

فلما أصلحَ اللّهُ حليلةَ زكريا عليه السلام، وصارتْ قادرةً على الحمل، لم تَعُدْ مجردَ امرأةٍ له، هناك عائقٌ في جسمِها يحولُ بينها وبين تحقيقِ كاملِ الاقترانِ والانسجامِ بينهما.

لم تَعُدْ مجردَ امرأةٍ له، وإنما أَصبحتْ «زوجاً»، تُؤدّي وظيفتَها الزوجيةَ «بيولوجياً» وتُحَقِّقُ رسالتَها الزوجيةَ عملياً، وتحملُ لزوجِها في رحمِها ابنَه، وبذلك تَحَقَّقَ الاقترانُ والتزاوجُ بينهما على أحسنِ وأفضلِ صورة. وسبحان اللّهِ مُنَزِّلِ هذا القرآن المعجز!!

[٤]

بشارة زكريا وإزالة تعجبه

أَزالَ اللّهُ عُقْمَ امرأةِ زكريا، وجَعَلَها قادرةً على الحمل، بمعجزةٍ خارقةٍ منه، وحَوَّلَها من امرأةٍ عاقرٍ إلى زوجٍ حامل.

وبقيَ السببُ المادي، وهو معاشرةُ زكريا عليه السلام لزوجه، ليتمّ إخصابُ البويضةِ في رحمها، وليتكوّنَ الجنينُ هناك.

دور المحراب في حياة وعبادة زكريا:

وأَرسل اللّهُ الملائكةَ لتبشّرَ زكريا بأنَّ اللّهَ قد استجابَ دعاءَه، وسيهبُ له يحيى. وجاءته الملائكةُ وهو قائمٌ يصلي، فبشرَته البشرى، فاستغربَ وتعجَّبَ من ذلك، فأزالت الملائكةُ استغرابَه وتعجُّبَه.

قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ

﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٩ ـ ٤٠].

المحراب: مكانُ العبادة، وهو أفضلُ جزءٍ من البيت، لتخصيصِه بالعبادةِ والصلاة والذكر.

وقد تحدَّثْنا ـ أثناءَ حديثِنا عن قصةِ الخصميْن لما تسوَّروا على داودَ المحراب ـ عن اشتقاق المحرابِ من الحرب، وعن حكمةِ هذا الاشتقاق. وذكَرْنا كلامَ الإمام الراغب: «ومحرابُ المسجد قيل: سمي بذلك لأنه موضعُ محاربةِ الشيطان والهوى..»[1].

و«المحرابُ» وردَ في القرآن أربعَ مرات. مرةً في محرابِ داود عليه السلام، لما تسوَّرَ عليه الخصمان محرابَه.

وثلاثَ مرات في قصةِ زكريا عليه السلام:

الأولى: محرابُ الفتاةِ الطاهرة مريم، الذي كان يرزقُها اللّهُ فيه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..﴾ [آل عمران: ٣٧].

الثانية: محرابُ زكريا الذي كان قائماً يصلي فيه عندما نادَتْه الملائكةُ بالبشرى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

الثالثة: المحرابُ الذي خرجَ منه زكريا إلى قومِه بعد تبشيره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ..﴾ [مريم: ١١].

وبما أنَّ زكريا عليه السلام نبيٌّ كريم، فقد كان دائمَ الصلاةِ والذكرِ لله، ولذلك كان يُكثرُ من الذهابِ إلى المحراب للصلاة والذكر، والاتصالِ بالله ومناجاته.

---

(١) المفردات: ٢٢٥.

نادى زكريا ربَّه من المحراب نداءً خفياً، طالباً منه الولَدَ الوارث، فاستجابَ اللّهُ له، وأرسلَ الملائكةَ لتبشِّرَه، وسمعَ البشرى وهو قائمٌ يصلي في المحراب فكان للمحرابِ دورٌ كبير في رحمةِ الله زكريا عليه السلام، وفي حلِّ مشكلته.

الملائكة بشرته بالبشرى من الله:

نادَتْه الملائكةُ وهو يصلّي في المحرابِ وقالت له: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

وهمزةُ «أَنَّ» في الآية مفتوحة، على أَنها مصدرية، وما بعدَها مصدرٌ مجرورٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّر. أي: بأنَّ اللّهَ يبشرك بيحيى. والتقدير: بتبشيرِ اللّهِ لك بيحيى.

وذَكرت الملائكةُ له من صفات يحيى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ونتحدثُ عن هذه الصفاتِ بعد قليل إن شاء الله.

وبينما أَسندتْ آياتُ سورةِ آل عمران البشارةَ إِلى الملائكة: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، فقد أَسندتْ آياتُ سورةِ مريم البشارةَ إِلى الله. قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

ولا تَعارضَ بين الآيتين، فاللّهُ هو الذي بَشَّرَ زكريا بيحيى عليهما السلام، لأَنه هو الذي استجابَ دعاءه، وأَصلحَ له زوجَه. وقدَّرَ أَنْ يرزقَه بابنه يحيى. وهذا ما قررتْه آيةُ سورة مريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ...﴾.

لكن كيفَ وصلتْ زكريا البشارةُ من الله؟ اختارَ اللّهُ أَنْ يرسلَ الملائكةَ لتنقلَ له البشرى فجاءَتْه وبشرتْه بها.

فاللّهُ الذي بشَّره في الحقيقة، ولهذا أُسندت البشارةُ له في سورة

مريم، والملائكةُ هي التي أَوصلته البشارةَ من الله، ولهذا أُسندت البشارةُ لها في سورة آل عمران.

معنى اسم «يحيى»:

ولما بشَّرَ اللّهُ زكريا بالغلام أَخبره باسمه، قبلَ حَمْلِ أُمّه به وولادتِها له، وأَخبره أنه أَولُ إنسانٍ يسمّى بهذا الاسم: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

وقد ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أَنَّ «يحيى» مشتقٌّ من الحياة، وأَنه على وزن الفعل المضارع: تقول: حَيا، يحيا. كما تقول: عاش، يعيش، و: مات، يموت.

وممن قالَ باشتقاقِه الإمامُ الراغب، حيث قالَ في حكمةِ تسميتِه بهذا الاسم: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فقد نبَّهَ أَنه سمّاهُ بذلك من حيثُ إنه لم تُمِتْهُ الذنوب، كما أَماتَتْ كثيراً من ولدِ آدم، لا أنه كان يُعرفُ بذلك الاسم فقط، فإن هذا قليلُ الفائدة...»[1].

المرادُ بالحياة هنا عند الراغب الحياةُ الإيمانيةُ المعنوية، فالحيُّ هو الذي حيٌّ في قلبِه وروحه وإيمانه، إِذْ لم تُمِتْ المعاصي والذنوبُ قلْبَه.

وقالَ قتادة: سُمي يحيى لأَنَّ اللّهَ أَحياهُ بالإيمان والنبوة.

وقال مقاتل: اشتُقَّ اسمُ يحيى من اسمِ الله «حي».

وقال بعضُهم: سُمي بذلك لأَنَّ اللّهَ أَحيا به الناسَ بالهدى.

وقال آخرون: سُمي بذلك لأن اللّهَ أَحيا به رحمَ أُمّه[2].

---

(١) المفردات: ٢٧٠.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٤: ٧٦.

وتدورُ هذه الأقوالُ كلُّها على أنه مشتقٌّ من الحياة، سواء كانت حياةً حسية أو حياة معنوية.

والراجحُ أنَّ اسمَ «يحيى» ليس مشتقّاً، لأنه اسمُ علمٍ أعجمي، وهو ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعجمة.

إنَّ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهما السلام أشخاصٌ إسرائيليون وليسوا عرباً، وعاشوا بين اليهودِ في الأرضِ المقدسة، ولغةُ اليهودِ لغةٌ عبرية وليستْ عربية، وَأسماءُ أشخاصِهم أسماءٌ عبرية أعجمية، وليستْ عربية. فهذه الأسماءُ أعجمية وليستْ مشتقة، ولا نبحثُ لها عن معنى اشتقاقي في العربية.

ويحيى ابنُ زكريا عليهما السلام، ذكرتْ له الأناجيلُ في العهد الجديد قصةً جرتْ بينه وبين عيسى عليه السلام، لكنَّ مؤلِّفي الأناجيل لم يُسمّوه يحيى، وإنما سمّوه «يوحَنّا المعمدان»[1].

وبما أَننا لا نأخذُ شيئاً من العهدِ القديم ولا العهد الجديد، فلا نُسميهِ يوحَنا المعمدان، وإنما نُسميه الاسمَ الذي سَمّاه اللّهُ به في القرآن.

معنى «لم نجعل له من قبل سمياً»:

وأَخبرَ اللّهُ زكريا أنَّ ابنَه يحيى هو أولُ إنسانٍ حملَ هذا الاسم، فلم يُسَمَّ به أحدٌ من قبل: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

و«سَمِيّاً» بمعنى «مُسَمّى»، فهو اسمُ مفعول. أي: لم نجعلْ شخصاً قبل يحيى مُسَمّىً بهذا الاسم.

و«سَمِيّاً» لم ترد إلا في سورة مريم. وذُكرت فيها مرتيْن:

الأولى: عن يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

---

(١) انظر إنجيل متى. الإصحاح الثالث: يوحنا المعمدان.

الثانية: عن الله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

قالَ الإمامُ الراغب: «وقولُه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: أي: نظيراً له يستحقُّ اسمَه، وموصوفاً يستحقُّ صفتَه على التحقيق.

وليس المعنى: هل تجدُ مَنْ يتسمّى باسمه، إذ كان كثيرٌ من أسمائِه قد يُطلقُ على غيره، ولكن ليس معناه إِذا استُعملَ فيه كما كان معناه إِذا استُعملَ في غيره..»[1].

إِذنْ معنى قوله عن الله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: لن تجدَ نظيراً ولا مثيلاً لله، يستحقُّ أنْ يسمّى باسمه، لأنه لا يَفعلُ أحدٌ فعلَه، ولا يتصفُ أحدٌ بصفاته، فاللّهُ هو الإلهُ الربُّ الخالق، وكلُّ ما سواه لا إلهاً ولا رباً ولا خالقاً، فلا سَمِيَّ ولا نظيرَ ولا مثيلَ له سبحانه.

وقد اختلفَ المفسرون في معنى قوله عن يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾:

١ ـ فقالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: لم تَلدِ النساءُ العواقرُ ولداً مثلَه.

٢ ـ وقال مجاهد: لم نجعَل له من قبله مِثْلاً أو شبيهاً.

٣ ـ وقال قتادة: لم يُسَمَّ باسْمِه أَحَدٌ قبلهُ[2].

والأقوالُ الثلاثة متقاربةٌ في الحقيقة، ولا تعارضَ بينها، فلم يُسَمَّ أحدٌ باسمه من قبله، وهو لا مثيلَ ولا شبيهَ له، حيث لم تَلدِ النساءُ العواقرُ ولداً مثله.

وقد وَقفَ الإمامُ ابن كثير وقفةً لطيفةً فَرّقَ فيها بين ولادة يحيى لزكريا، وولادةِ إسحاق لإبراهيم، عليه السلام.

---

(١) المفردات: ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢١٨.

بَيّنَ أنَّ امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام كانت عقيماً، بينما امرأةُ زكريا عليه السلام كانت عاقراً، وإبراهيمُ عليه السلام وُلِدَ له إسماعيلُ قبل بشارتِه بإسحاق عليهم السلام، بينما لم يُولَدْ لزكريا أيُّ ولدٍ قبلَ يحيى عليهما السلام.

وبيَّنَ أنَّ تعجُّبَ إبراهيم وسارة من البشارة بإسحاق كان لكبرِهما لا لعقْرِهما، فقالت سارة: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤].

بينما كان تعجُّبُ زكريا عليه السلام من البشارة بيحيى لعُقْرِ امرأته: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ..﴾[1].

معنى سؤال زكريا وتعجبه:

زكريّا عليه السلام هو الذي طلبَ الولدَ الوارث، وكلُّه أملٌ في استجابةِ اللّهِ لطلبه، ومع ذلك فوجئَ بالبشارة، وتعجَّبَ منها، ولما سمعَها من الملائكة صارحَهم بمفاجأتِه وتعجُّبه، فردّوا عليه وأزالوا تعجبَه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٨ ـ ٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٤٠].

«أنى» اسمُ استفهامٍ للتعجب، بمعنى «كيف». أي: كيفَ يكونُ لي غلام؟

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣: ١١٠.

وسؤالُه عن الجهةِ التي يأتيهِ منها الغلام، أي: من أينَ يكونُ لي غلام؟ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟ هل نبقى على حالِنا الذي نحنُ عليه أم يغيَّرُ هذا الحال؟

لقد وهنَ العظمُ منه، واشتعلَ رأسُه شيباً، وبلغَ من الكبر عتياً، وامرأتُه عاقر، فمن أين يأتيه الغلام؟

ومعنى قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: بلغتُ النهايةَ والغايةَ في الكبر والشيخوخة والهرم.

قال الإمام الراغب: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: وصلْتُ إلى حالةٍ من الكبرِ لا سبيلَ إلى إصلاحها ومداواتها»[1].

لم يكن سؤالُ زكريا واستفهامُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ من بابِ الاستبعادِ أو الإنكارِ أو الشك، فقد سألَ هو ربَّه من قبلِ أنْ يرزقَه الولد، وكان موقِناً بأن اللّهَ سيستجيبُ له: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

إنما سؤالُه كان عن الكيفيةِ التي سيأتيه بها الغلام، والجهةِ التي سيأتيه منها، والوسيلةِ التي سيأتيه بها، فهو يوقنُ أنَّ الغلامَ سيأتيه، لكن كيف؟ ومن أين؟ إنهُ شيخٌ هَرِم قد بلغَ من الكبر عتياً، وإنَّ امرأتَه عاقر، وهي عجوزٌ أيضاً، فكيف يأتيه الغلام؟

قال الإمام الطبري: «وكلامُ زكريا هذا سؤالٌ عن الوجهِ الذي يأتيه منه الولد، وليس إنكاراً في حصولِ ذلك الولد له، أو شكّاً في حقيقةِ وعْدِ اللّهِ له. فزكريا يعلمُ أن اللّهَ على كل شيء قدير، وأنَّ وعدَه نافذ، ولذلك لا بدَّ أن يأتيه الولد.

ثم هو الذي طلبَ الولدَ من ربِّه في دعائه، فلا يشكُّ في قدرةِ اللّهِ على أنْ يرزقَه به.

---

(١) المفردات: ٥٤٦.

فمعنى قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: ليس استبعاداً لحصولِه، لكنه بمعنى: مِن أينَ يكونُ لي ولد..»[1].

ولا يخرجُ كلامُ ابنِ كثير كثيراً عن هذا. قال: «هذا تعجُّبٌ من زكريا عليه السلام، حين أُجيبَ إلى ما سأل، وبُشِّرَ بالولد، ففرحَ فرحاً شديداً، وسألَ عن كيفيةِ ما يولَد له، والوجهِ الذي يأتيه منه الولد، مع أنَّ امرأتَه كانت عاقراً، لم تلدْ من أولِ عمرها، ومع أنه قد كبرَ وعتا، وعَسى عظْمُه ونحل، ولم يبقَ فيه لقاحٌ ولا جماع..»[2].

هو على الله هين لأنه يفعل ما يشاء:

سألَ زكريا عليه السلام عن الكيفيةِ التي يأتيه بها الولد، فأتاهُ الجوابُ بأنَّ هذا فعلُ الله، واللّهُ يفعلُ ما يشاء: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

اللّهُ قَدَّرَ أنْ يرزقَ زكريا الولد، وقَدَرُهُ واقعٌ نافذ، وأَرادَ إِكرامَ زكريا بالولد، وإِرادَتُه فاعلةٌ طليقة، لا يُقيدها شيء، ولا يمنَعُها مانع.

صحيحٌ أنه قد بلغَ من الكبرِ عتياً، ولا قدرةَ ذاتيةَ له على الإِخصاب، وصحيحٌ أنَّ امرأتَه عاقر، ولا قدرةَ ذاتيةَ لها على إِنتاج البويضة وعلى الحمل، صحيحٌ أَنهما عاجزان عن ذلك وفقَ الأسبابِ والقوانينِ والسننِ البشرية، ويستحيلُ عليهما ذلك في الحساب البشري.

لكنَّ النظرَ إِلى الولدِ ليس من هذه الزاويةِ البشرية. إِنما من زاويةِ إرادةِ الله ومشيئتهِ وقدرته، إنَّ الأمرَ أمْرُه، والفعلَ فعلُه، ولا استحالةَ للموضوع ولا استبعادَ له، عندما يُنظرُ له من هذه الزاوية: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ..﴾.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٤:٢١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١١٠.

وذكّرَ اللّهُ زكريا عليه السلام بنشأتِه هو: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾.

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: إيجادُ الولدِ منك ومن زوجِك العاقر، رغم ما أنتما عليه أَمْرٌ هيّنٌ سهلٌ ميسور على الله، لأنه لا يعجزُه شيء، ولا يَصعبُ عليه فعلُ أيِّ شيء.

وأنتَ يا زكريا خلَقَك اللّهُ من العدم، فلم تكن شيئاً، ومع ذلك خلقك الله، وجعَلك حياً، ثم جعَلَك نبياً. فتذكَّرْ بدايتَك من العدم، لتعلمَ أنَّ أَمْرَ رزقِك بولدٍ هينٌ سهلٌ علَى الله.

تعليق سيد قطب على السؤال والجواب:

وما أَروعَ تعليقَ سيد قطب على تساؤلِ زكريا عليه السلام وعلى الجوابِ الذي قُدِّمَ له: «لقد استجيبت الدعوةُ المنطلقةُ من القلبِ الطاهر، ولم يَحُلْ دونَها مألوفُ البشر الذي يَحسبونه قانوناً، ثم يحسبون أنَّ مشيئةَ الله سبحانه مقيدةٌ بهذا القانون! وكلُّ ما يراهُ الإنسانُ ويحسبه قانوناً لا يخرجُ عن أنْ يكونَ أمراً نسبياً - لا مطلقاً ولا نهائياً - فما يملكُ الإنسانُ وهو محدودُ العمرِ والمعرفة، وما يملكُ العقلُ وهو محكومٌ بطبيعةِ الإنسانِ هذه، أنْ يصلَ إلى قانونٍ نهائي، ولا أنْ يدركَ حقيقةً مطلقة.. فما أجدرَ الإنسانَ أنْ يتأدبَ في جناب الله. وما أجدره أنْ يلتزمَ حدودَ طبيعتِه وحدودَ مجاله، فلا يخبطُ في التيهِ بلا دليل، وهو يتحدثُ عن الممكنِ والمستحيل، وهو يضعُ لمشيئةِ الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو، ومن مقرراتِه هو، ومن علمِه القليل!

ولقد كانت الاستجابةُ مفاجأةً لزكريا نفسِه - وهل زكريّا إلاّ إنسانٌ على كلِّ حال - وَاشتاقَ أنْ يعرفَ من ربه كيفَ تقعُ هذه الخارقةُ بالقياسِ إلى مألوفِ البشر؟

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

وجاءَهُ الجواب.. جاءَهُ في بساطةٍ ويُسر.. يردُّ الأمْرَ إِلى نصابِه، ويردُّهُ إِلى حقيقتِه التي لا عسْرَ في فهمها، ولا غرابةَ في كونها..

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

كذلك! فالأمْرُ مألوفٌ مكرورٌ حين يُرَدُّ إِلى مشيئةِ الله وفعله، الذي يتمُّ دائماً على هذا النحو. ولكنَّ الناسَ لا يتفكرون في الطريقة، ولا يتدبَّرون الصنعة، ولا يَستحضرون الحقيقة!

كذلك بهذا اليسر.. وبهذه الطلاقة، يفعلُ اللّهُ ما يشاء.. فماذا في أنْ يهبَ لزكريا غلاماً وقد بلَغَهُ الكبر وامرأتُه عاقر؟ إنما هذه مألوفاتُ البشر التي يقررونَ قواعدَهم عليها، ويَتخذون منها قانوناً!

فأمّا بالقياسِ إلى الله، فلا مألوفَ ولا غريب.. كلُّ شيء مردُّه إِلى توجُّهِ المشيئة، والمشيئةُ مطلقةٌ من كل القيود..»[1].

[٥]

آية زكريا في صمته ثلاثة أيام

أَيقنَ زكريا عليه السلام أن اللّه سيهبَه يحيى، وسيكونُ هذا آيةً من آياتِ الله، لأنه عجوزٌ وامرأتُه عاقر.

وقد طلبَ زكريا من الله أنْ يجعلَ له آية، وأنْ يمهدَ لمعجزةِ ولادة يحيى له بمعجزةٍ أُخرى، يُريها لقومِه المؤمنين، فإذا شاهَدوها استعدوا لقَبولِ المعجزةِ الكبرى، وهي ولادةُ ابنه له.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١٠ ـ ١١].

لم يكنْ زكريا عليه السلام يريدُ الآيةَ له، لتكونَ دليلاً على تحقيقِ وعْدِ اللّهِ له، فهو نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، يثقُ بوعْدِ الله، ولا يحتاجُ إلى دليلٍ عمليٍّ لتحقيقه.

إنما كان يريدُ الآيةَ لقومِه وأَتباعه المؤمنين، فولادةُ الولدِ له على وضْعِه ووضْعِ امرأته المعروفِ عجيبٌ مثير، إنه عجوزٌ هرم، وإنَّ امرأَته عجوز عاقر، ومع ذلك سيُنجبانِ ولداً بأمرِ الله وإرادتِه.

أَرادَ زكريا عليه السلام الآيةَ لقومِه لتكون تمهيداً للآيةِ الكبرى عندما يولَدُ له يحيى.

آية زكريا في انحباس لسانه عندما يواجه الناس:

وقد استجابَ اللّهُ لطلبِ زكريا، وأَعطاه الآيةَ المعجزة: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

«سويّاً» حالٌ من زكريا. أي: لا تكلم الناسَ ثلاثَ ليال، وأنتَ سوي، صحيحٌ معافى. ليس فيك آفةٌ أو مرضٌ أو خَرَس.

ويوضِّحُ هذا قولُه تعالى في آية سورة آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

كانت الآيةُ العجيبةُ والمعجزةُ الباهرة في لسانِ زكريا عليه السلام!

إنَّ قومَه يعرفون أَنه متكلمٌ بفصاحة وطلاقة، ويعلمونَ أنه لا عيبَ في لسانه. ولكن بعدَما بُشِّرَ بالولد، فوجئوا به لا يكلمُهم إلاّ بالرمْزِ والإِيحاءِ والإِشارة! واستمرَّ الأَمْرُ على هذا ثلاثةَ أيامٍ بلياليها!

كان زكريّا عليه السلام في هذه الأيامِ الثلاثةِ على حالتيْن:

الحالة الأولى: عندما يخلو بنفسه، ويكونُ وحيداً، ليسَ معه أَحَد، ولا يَسمعه أَحد، عند ذلك ينطلقُ لسانُه بذكْرِ الله وتسبيحه، ويَسمعُ نفسَه وهو يُسبح اللّهَ ويَذكرُه.

الحالة الثانية: عندما يخرجُ على قومه، ويريدُ أنْ يكلمَهم ويخاطبَهم، فإنه يعجزُ عن ذلك، حيث يُحبسُ لسانُه عن الكلام، بطريقةٍ لا إرادية، عند ذلك يخاطبُهم عن طريقِ الرمزِ والإيحاءِ والإشارة.

وعندما يرَى قومُه ذلك كانوا يتعجَّبون، فما الذي حبسَ لسانَ زكريا عن الكلام؟ وما الذي جرى له؟

فإذا تَرَكَ قومَه، وعادَ إلى خلوتِه وعبادتِه ومحرابِه، انطلقَ لسانُه بالكلام، وسمعَ نفسَه وهو يذكرُ اللّهَ ويسبحُه!

واستمرَّ الوضعُ على هذه الصورةِ ثلاثةَ أيامٍ بلياليها.

ولم يكن إمساكُ لسانِه عن الكلام عندما يواجهُ الناسَ بسببِ مرضٍ أو خرس، وإنما بمعجزةٍ من الله، فهو سويٌّ صحيحٌ فصيحٌ متكلم، ولكنَّ اللّهَ كان يمسكُ لسانَه عن الكلامِ بطريقةٍ لا إرادية، لا دخْلَ لزكريا في ذلك.

وليس هذا غريباً على الله، فاللّهُ هو الذي خَلَقَه متكلِّماً، واللّهُ هو الذي يُمَكِّنُ لسانَه من الكلام، فلا يتكلمُ كلمةً إلاّ بقَدَرٍ من الله. واللّهُ هو الذي حَبَسَ لسانَه عن الكلام عندما يواجهُ الناس، وأَطلَقَه بالكلام عندما يخلو إلى نفسه.

هذه هي الآيةُ التي جعلَها اللّهُ لزكريا عليه السلام.

قالَ ابن عباس: «أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً»: اعْتُقِلَ لسانُه من غيرِ مَرَض ولا خَرَس.

وقال ابن زيد: «أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً»: وأنتَ صحيح. حُبسَ لسانُه، فكان لا يستطيعُ أنْ يكلمَ أحداً، وهو في ذلك

يُسبح، ويَقرأ التوراة والإنجيل، فإذا أرادَ كلامَ الناس لم يَستطعْ أنْ يكلمهم..»[1].

معنى: «ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً»:

ويؤكِّدُ هذا الفهمَ للآية قولُه تعالى في آيةِ سورة آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

والرمزُ لم يَرِدْ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

قال الإمامُ الراغب عنه: «الرَّمْزُ: إشارةٌ بالشفة، والصوتُ الخفيُّ، والغمزُ بالحاجب، وعَبَّرَ عن كلِّ كلامٍ كإشارةٍ بالرمز»[2].

وقالَ السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًاۗ﴾: إلاّ إشارة: إمّا بالشفتين، وإمّا بالحاجبين، وإمّا باليدين. ولهذا سُمِّيَ كلاماً. قال الشاعر:

إذا كَلَّمَتْني بالعُيونِ الفَواتِرِ ... رَدَدْتُ عَلَيْها بِالعُيونِ البَوادِرِ

وأصْلُه الحركة. وقيل للبحر: راموز. لكثرةِ أمواجه..»[3].

وحصرَ الإمامُ الطبريُّ الرمْزَ في اللغةِ بثلاثِ حالات:

الأولى: الإيماءُ بالشفتين.

الثانية: الإيماءُ بالحاجبيْن والعينيْن.

الثالثة: الخفيُّ من الكلام، الذي هو مثْلُ الهمسِ بخفضِ الصوت.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) المفردات: ٣٦٦.

(٣) عمدة الحفاظ ٢: ١٢٦.

وإذا كانتْ هذه حالاتُ الرمزِ في اللغة، فإنَّ رمْزَ زكريا عليه السلام في تكليمِه لقومِه كان بالإشارة.

فمعنى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾: أنْ لا تكلمَ الناس في الأيامِ الثلاثةِ بلسانك، وإنما عن طريقِ الإيماءِ والإشارةِ بيدك.

قال الحسن البصري: أمسكَ لسانُه، فجعلَ يومئُ بيدِه إلى قومه، أنْ سبِّحوا بكرةً وعشية[1].

والاستثناءُ في «إلاّ رمزاً» استثناءٌ متصل، ومعناه أنَّ «رمزاً» من جنسِ المستثنى منه «أن لا تكلم الناس».

وهذا يدلُّ على أنَّ الرمزَ والإيماءَ بالعينِ أو اليدِ صورةٌ من صورِ الكلام، ونوعٌ من أنواع التعبير. فالذي لا ينطلقُ لسانه، وإنما يستخدمُ حركاتِ رأسه أو عينيه أو شفتيه أو يديه، فإنه يعبِّرُ بهذه الحركاتِ الرمزية عما في نفسه، ويَفهمُ السامعُ منه كما يَفهمُ منه إذا نطقَ بلسانه!.

وقد جمعتْ آيةُ آلِ عمران بين حالتَيْ زكريا عليه السلام وهو يعيشُ المعجزةَ الربانية خلالَ الأيام الثلاثة: صمتُه عند مواجهةِ الناس، ونطقُه عندما يخلو إلى نفسه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

أَمَرَهُ اللّهُ بالإكثارِ من ذكْره في هذه الأيام الثلاثة، وأَخبرَه أنه لا يُحبسُ لسانُه عن تسبيحِ الله، ولا يُمنَعُ من ذكْره.

وذكرت الآيةُ طرفيِ النهار، فإذا سبَّحَ اللّهَ في طرفيِ النهار بالعشي والإبكار، فقد ذَكَرَه وسبَّحَه طيلةَ النهار.

العَشِيّ: من وقتِ زوالِ الشمس بعد الظهر، إلى أَنْ تَغيب.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

والإبكار: من وقتِ طلُوعِ الفجر، إلى وقتِ الضحى.

قال محمدُ بن كعب القرظي: «لَو رَخَّصَ اللّهُ لأحدٍ في تركِ الذكر لرخَّصَ ذلك لزكريا، حيث قال له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾[1].

زكريا يفاجئ قومه بصمته ويوحي لهم بالتسبيح:

عرَفَ زكريا عليه السلام الآيَةَ التي جعَلَها اللّهُ له، وخرجَ على قومِه مفاجئاً لهم بصمتِه، واستخدامِه الإيحاءَ والرمزَ والإشارةَ بدلَ النطقِ والعبارة. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

خرجَ زكريا على قومِه من المحراب، المحرابِ الذي كان يذكُرُ اللّهَ ويسبحُه فيه، وللمحرابِ دورٌ كبيرٌ في حياةِ زكريا عليه السلام، ففيه سمعَ البشرى من الله بالولد، وفيه كانَ يذكرُ اللّهَ ويسبحه، ومنه خرجَ إلى قومِه، مقدِّماً لهم الآيَةَ المعجزة.

فاجأَ زكريا عليه السلام قومَه وأَتباعَه المؤمنين بدونِ كلام، ولعلَّها أولُ مرةٍ يشاهدونَه فيها صامتاً، فلا سلامَ ولا كلام، ولا تحيةَ ولا مخاطبة!

وتعجَّبَ القومُ منه، فلماذا لم يطرحْ عليهم التحية؟ وما الذي جَرى له؟ ولعلَّهم كلَّموه وخاطَبوه، واستفسروا عن سرِّ صمتِه، فلم يَسمعوا منه كلاماً ولا جواباً، فازدادَ تعجُّبهم واستغرابُهم، واستمرَّ هو في صمته.

واستخدمَ الإشارةَ والرمزَ والإيماء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٢٦٣.

ومعنى «أوحى إليهم»: أشارَ إليهم بيدِه إشارةً خفيفةً سريعة، طالباً منهم تسبيحَ الله.

و«أَنْ» في قوله: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تفسيرية. وما بعدَها تفسيرٌ لما قبلَها.

أي: وَضَّحَ لهم عن طريقِ الوحي والرمزِ أنْ يقوموا بتسبيحِ اللّهِ في الصباحِ والمساء.

قال مجاهد وقتادة: كان وحيُه إشارةً باليد.

وطلبَ منهم تسبيحَ اللّهِ بكرةً وعشياً، في بدايةِ النهار وفي نهايته، وهذا يتوافقُ مع أمرِ الله له، وينسجمُ معه.

فاللّهُ قد أمرَ زكريا أنْ يسبِّحَه بالعشيِّ والإِبكار: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

ولما نَفَّذَ زكريا أمْرَ الله، خَرَجَ على قومه، وأَمَرَهم أنْ يُسبِّحوا اللّهَ بكرةً وعشياً، عن طريقِ الوحي والرمز: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

واعتبرت الآيةُ إشارةَ زكريا إلى قومِه بالتسبيحِ وحياً.

قال الإمامُ الراغب: «أصْلُ الوحي: الإشارةُ السريعة. ولتضمُّنِ السرعة قيل: أَمْرٌ وحي.

وذلكَ يكونُ بالكلام، على سبيلِ الرمزِ والتعريض، وقد يكونُ بصوتٍ مجردٍ عن التركيب، وبإشارةٍ ببعضِ الجوارح، وبالكتابة.

وقد حُمِلَ على ذلكَ قولُه تعالى عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾. قيل: رَمَزَ. وقيل: أَشارَ. وقيل: كَتَبَ»[1].

(١) المفردات: ٨٥٨.

فهمَ القومُ المؤمنون إشارةَ زكريا، وقاموا بتسبيحِ الله، وسطَ استغرابهم من صمتِ زكريا عن الكلام، ذلك الصمتُ الذي استمرَّ ثلاثةَ أيام!

[٦]

يحيى النبي الزكي التقي

قَدَّمَ زكريا عليه السلام لقومِه الآيةَ الأُولى، وبعدَ انقضاءِ الثلاثةِ أيام، أَخبرهم أنَّ اللَّهَ هو الذي حبسَ لسانَه عن الكلامِ أَمامَهم، وأَنه كان يُطْلِقُ لسانَه بذكْرِه وتسبيحِه عندما يَغيبُ عنهم، وأَنَه جعلَ هذا آيةً له، تَمهيداً لآيةٍ أُخرى أكبر، وهي الولدُ الذي سيمنحُه له.

وسمعَ أَتباعُه المؤمنون منه أَخبارَ المعجزةِ القادمة، فازدادَ إِيمانُهم بالله، وقدرتِه على خرقِ العادات والمألوفات.

وحققَ اللّهُ لزكريا معجزتَه، وحملتْ منه امرأتُه العاقر، وانقضتْ شهورُ الحملِ التسعة، وأَنجبتْ مولودها، وسمّاه أَبوه «يحيى» منفِّذاً أَمْرَ اللهِ بتسميته.

يحيى مصدق بكلمة من الله:

وقد أخبرَ اللّهُ عن بعضِ صفاتِ يحيى عليه السلام بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

صفاتُ يحيى عليه السلام المذكورةُ هنا أربعة: مصدقٌ بكلمةِ من الله، وسيدٌ، وحصورٌ، ونبيٌّ من الصالحين.

الأُولى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: يحيى مصدّقٌ بكلمةِ من الله.

وفي المرادِ بكلمةِ الله التي يصدقها يحيى قولان للمفسرين:

الأول: كلمةٌ تأتيهِ هو من الله، لأَنه نبي، واللّهُ يُعطي أَنبياءَه ما

يشاءُ من كلماتِه وكتبه، فلعلَّ هذه الكلمةَ كتابٌ من الله أنزَله إليه فآمنَ وصدَّقَ به، ولعلَّها أحكامٌ من اللّهِ أَمره بها، فآمَنَ وصَدَّقَ بها والتزمَها.

الثاني: كلمةُ اللّهِ هي عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد صرحَ القرآنُ بأنَّ عيسى عليه السلام كلمةٌ من الله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وكان عيسى معاصِراً ليحيى، وكِلاهما كان نبياً عليهما الصلاة والسلام. ولما بعثَ اللّهُ عيسى نبياً، كان يحيى هو أولَ مَنْ آمنَ بعيسى وصدَّقَه وصدَّقَ به، وشهدَ أنه عبدُ الله ورسولُه، وأنَّ اللّهَ بعَثه نبياً رسولاً[1].

ولا تَعارضَ في الحقيقةِ بين القولين، بل هما يتكاملان، فيحيى نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، وآتاهُ اللّهُ كلماتٍ منه، وكان هو أولَ مَنْ صَدَّقَها وصدَّقَ بها واتبعَها، ولما بَعَثَ اللّهُ عيسى نبياً كان يحيى النبيُّ أولَ مَنْ صدقَه وصدَّقَ به.

الثانية: «سيداً»: جعلَهُ اللّهُ سيداً شريفاً في قومِه، سادَهم بالنبوةِ والعلمِ والعبادةِ والحلم.

وفسَّرها الصحابةُ والتابعون بهذا المعنى:

قال ابنُ عباس والثوري والضحاك: السيدُ هو الحليمُ التقي.

وقال قتادة: كان يحيى عليه السلام سيداً في العلم والعبادة.

وقال مجاهد: السيدُ هو الكريمُ على الله.

وقال عكرمة: السيدُ هو الذي لا يغلبُه الغضب.

وقال سعيد بن المسيب: السيد هو الفقيهُ العالم.

(١) انظر القولين في تهذيبنا لتفسير الطبري ٢: ٢٦٠.

وقال ابن زيد: السيد هو الشريف[1].

وهذه الأقوالُ ليستْ متعارضة، فكلُّها مرادة، وينطبقُ عليها كلُّها معنى السيد، وكلُّها تحققتْ في يحيى عليه السلام.

لقد جعلَ اللّهُ يحيى عليه السلام سيداً شريفاً، سيداً في الحلمِ والتقوى، وسيداً في العلمِ والعبادة، وسيداً في الفقهِ والكرم.

يحيى حصور لا يأتي النساء:

الثالثة: «حصوراً». والحَصورُ اسمُ مفعول من الحَصْر وهو المنع.

ولم ترَدْ كلمةُ «حَصوراً» في غير هذا الموضعِ من القرآن.

قال الإمام الراغب: «الحَصورُ الذي لا يأتي النساء، إمّا من العُنَّة، وإمّا من العِفَّةِ والاجتهادِ في إزالةِ الشهوة.

والثاني هو المرادُ في الآية، لأنه بذلك تستحقُّ المحمدة»[2].

قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير: الحصور هو الذي لا يأتي النساء.

يحيى عليه السلام منعَ نفْسَه عن النساءِ برغبتِه وإرادته، وجاهَدَ نفسَه في عدمِ الرغبةِ فيهن، ولم يكن فيه عُنَّةٌ تمنَعُه من معاشرةِ النساء، فإنَّ هذا نقصٌ ينزَّهُ عنه الأنبياء.

وقد نقلَ الإمامُ ابنُ كثير عن القاضي عياض كلاماً طيباً في معنى كونِ يحيى عليه السلام حصوراً.

قال القاضي عياض: «اعلمْ أنَّ ثَناءَ الله تعالى على يحيى أنه كان «حصوراً» ليس كما قالَه بعضُهم، إنه كان هَيّاباً يَخافُ معاشرةَ النساء، أَو أنه لا ذَكَرَ له.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٤١.

(٢) المفردات: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

بل قد أنكرَ هذا حُذّاقُ المفسرين ونُقّادُ العلماء، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيب، لا يَليقُ بالأنبياء، عليهم السلام.

وإنما معنى «حصوراً» أنه معصومٌ من الذنوب، لا يأتيها، كأنه حَصورٌ عنها.

وقيل: معناه: مانِعاً نفسَه من الشهوات.

وقيل: معناه: ليستْ له شهوةٌ في النساء.

وقد بانَ لك من هذا أنَّ عدمَ القدرةِ على النكاح نَقْص. وإنما الفضْلُ في كَوْنِها موجودةً ثم يمنَعُها، إمّا بمجاهدةٍ كعيسى، أو بكفايةٍ من الله عز وجل كيحيى عليه السلام.

ثم هي في حقِّ مَنْ قَدَرَ عليها وقامَ بالواجب فيها، ولم تُشغلْه عن ربه، درجةٌ عليا، وهي درجةُ نبيِّنا محمد ﷺ، الذي لم تُشغلْه كثرتُهن عن عبادةِ ربه، بل زادَه ذلك عبادة، بتحصينِهن وقيامِه عليهن..

وعلَّقَ ابنُ كثير على كلامِ القاضي عياض بقوله: والمقصودُ أنَّ مَدْحَ يحيى بأنه حصور، ليس معناه أنه لا يأتي النساء، بل معناهُ أنه حصورٌ من الفواحش والقاذورات، ولا يَمنعُ ذلك من تزويجِه بالنساءِ الحلال وغشيانهن...[1].

كان يحيى عليه السلام حَصوراً، تسامى بغريزتِه وشهوتِه، فلم يفكِّرْ في النساء، ولم يتزوج النساء، مع قدرتِه على ذلك لو أراد، ومنَعَ نفسَه عن الشهوات والقاذورات.

يحيى نبي صالح:

الرابعة: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: وهذه نصٌّ على نبوةِ يَحيى عليه السلام، حيث سيجعلُه الله نبيّاً، ويَجْعَلُه من الصالحين، بل هو إمامُ الصالحين في عصره.

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٤٢.

وهذه بشارةٌ ثانيةٌ لزكريا عليه السلام، فقد بَشَّرَهُ اللّهُ قبلَها بأنه سيرزقُه بيحيى، وبشَّرَه فيها بأَنه سيجعلُه نبياً من الصالحين، وهي أعظمُ من البشارةِ الأُولى.

ولما كانت امرأةُ زكريا حاملاً بابنِها يحيى، كان زكريا يوقنُ أنَّ ما في بطنها ولد، وأنه سيكونُ نبياً من الصالحين، بناءً على هذه البشارة.

هذه صفاتُ يحيى الأربعةُ الواردةُ في سورة آل عمران.

أمّا سورةُ مريم فقد أخبرتْنا عن يحيى عليه السلام بعدما صارَ شاباً كبيراً، وبعدما بعَثهُ الله نبياً. قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥].

قال الإمام ابن كثير: «وهذا أيضاً تضمَّنَ محذوفاً، تقديرُه: أَنه وُجدَ هذا الغلامُ المبشَّرُ به، وهو يَحيى عليه السلام، وأنَّ اللّهَ علَّمه الكتاب، وهو التوراة.. وكان سِنُّهُ إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوَّهَ بذكره، وبما أَنعمَ به عليه وعلى والدَيْه..»[١].

«خذ الكتاب بقوة»:

خاطبَ اللّهُ يَحيى عليه السلام بعدما صارَ صبياً، وأَمَره أنْ يأخذَ الكتابَ بقوة: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

والمرادُ بالكتابِ هنا التوراة التي أَنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام، فقد أَبقاها اللّهُ كتاباً لأنبياءِ بني إسرائيل من بعده، إِضافةً للكتب الأُخرى التي أَنزلَها على بعضِ أنبيائهم، كالزبور الذي أنزله على داود عليه السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١١١.

أمر اللّهُ يحيى أنْ يأخذَ كتابَ الله الذي معه بقوة، وأنْ يتدبَّرَه بقوة، وأنْ يطبقَ وينفذَ ما فيه بقوة، وأنْ يدعوَ إليه بقوة.

وليس المرادُ بالقوة هنا القوةَ الجسمية البدنية، وإنما المرادُ بها القوةُ المعنوية، قوةُ الفهم والعلم، وقوةُ الالتزام والانضباط، وقوةُ الأداء والعمل، وقوةُ الدعوة والبيان.

وأَمْرُ اللّهِ ليحيى عليه السلام أنْ يأخذَ كتابَ الله - التوراة - بقوة، يذكِّرُنا بأمْرِ اللّهِ لبني إسرائيل، زمنَ موسى عليه السلام، حيثُ أَمرهم أنْ يأخُذوا التوراةَ بقوة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣].

وبينما قَصَّرَ بنو إسرائيل في أَمْرِ الله، وضيَّعوا كتابَ الله، لأن هذه هي طبيعتُهم، فإنَّ يَحيى قد نَفَّذَ أَمْرَ الله، لأنه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام.

وأَخبرَنا اللّهُ أنه قد مَنَّ على يَحيى عليه السلام، بأنْ آتاهُ الحكمَ صبياً: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وليس المرادُ بالحكمِ هنا القيادة والزعامة والرئاسة، فلم يُنقلْ لنا أَنَّ يَحيى عليه السلام كان حاكماً على بني إسرائيل. إنما المرادُ بالحكم هنا الفهمُ والعلم، والجَدُّ والعزم.

قالَ الإمامُ ابن كثير في التفسير: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾: تعلَّم الكتابَ بقوة، أي: بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: أي: آتيناهُ الفهمَ والعلم، والجدَّ والعزم، والإِقبالَ على الخير، والإِكبابَ عليه، والاجتهادَ فيه، وهو صغيرٌ حَدَث...

والصبيُّ هو ما كان قبلَ البلوغ.

يحيى ذو حنان وزكاة:

ومَنَّ اللّهُ على يَحيى عليه السلام بأنه آتاهُ الحَنان من عنده، وهذه

استجابةً منه لدعوةِ زكريا عليه السلام، فلما طلب زكريا عليه السلام الغلام، سألَ ربّه أنْ يجعلَه رضياً: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

فاستجابَ اللّهُ دعوتَه، ومنحَ يحيى الحَنان: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

و«حَناناً» منصوبةٌ لأنها معطوفةٌ على «الحكم». والتقدير: آتينا يحيى الحكمَ وهو صبي، وآتيناهُ الحنان من لدنا، وكان باراً بوالديه...

ولم تَرِدْ كلمةُ «حنان» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وأَصْلُ الحنانِ الإشفاق. قال الإمام ابن فارس في «مقاييس اللغة»:

«الحَنانُ هو: الإِشفاقُ والرقة، وقد يكونُ ذلك مع صوتٍ وتوجُّع.

والحَنان: الرحمةُ. قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

تقول: حَنانَكَ: رحمتَك. وحنانَيْك: حناناً بعدَ حنان، ورحمةً بعد رحمة.

قال طَرَفَةُ بنُ العَبْد:

أَبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنا　　　حَنانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ[1]

الحَنانُ إِذن هو رِقّةُ القلب، ورحمتُه بالآخرين، وإِشفاقُه عليهم.

وهذه نعمةٌ عظيمةٌ أَنعمَ اللّهُ بها على يحيى عليه السلام، فجعلَه حنوناً صاحبَ حنان، يحبُّ الآخرين ويرفقُ بهم، ويرحمُهم ويشفقُ عليهم.

قالَ ابنُ عباس: «وحناناً من لدنا»: ورحمةً مِن عندنا.

---

(١) مقاييس اللغة: ٢٤٨.

وقال مجاهد: «وحناناً من لدنا»: وتعطُّفاً مِن ربِّه عليه.

وقال عكرمة: «وحناناً من لدنا»: ومحبةً من ربه.

وبعد أنْ أوردَ الإمامُ الطبريُّ الأقوالَ السابقةَ في معنى «الحنان» في الآية بيَّن اشتقاقَه: «وأصْلُ الحنانِ من قولِهم: حَنَّ فلانٌ إلى كذا: وذلك إذا ارتاحَ واشتاقَ إليه.

ويقال: تحنَّنَ فلانٌ على فلان: إذا تعطَّفَ عليه ورحمَه ورقَّ له.

قال الحطيئة:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَداكَ المَليكُ فَإنَّ لِكُلِّ مَقامٍ مَقالا[1]

أي: تعطَّفْ عليَّ وارحمني.

وقوله «وزكاة» منصوب، لأنه معطوفٌ على «حناناً من لدنا». أي: آتينا يحيى وهو صبيٌّ ثلاثةَ أشياء: الحكمَ والفهمَ والعلم، والحنانَ والرحمة والإشفاق، والزكاةَ والطهارة والطاعة.

فالزكاةُ هنا هي الطهارةُ من الذنوب والمعاصي، وتطهيرُ النفس وتزكيتُها ومجاهدتها، والإقبالُ على الطاعة والعبادة.

فالزكاةُ هنا بمعنى التزكية، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

يحيى بار تقي، وليس جباراً عصياً:

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: كان يحيى عليه السلام تقيّاً عابِداً لله، خائِفاً منه، مؤدِّياً لفرائضه، مجتنباً محارمَه، مسارعاً في طاعتِه.

وقولُه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ نتيجةٌ للصفاتِ السابقة التي وَصفَ اللّهُ بها يحيى عليه السلام، وثمرةٌ لما آتاهُ الله. فمنذُ أنْ كانَ صبياً، آتاهُ اللّهُ الحكمَ والفهمَ والعلم، وآتاه الحنانَ والرحمةَ والإشفاق، وآتاهُ الزكاةَ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٢.

والتزكية والطهارة، ونتيجةً لكلٍّ ذلك صارَ يحيى عليه السلام تقياً عابداً خاشعاً.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ معطوفةٌ على ﴿تَقِيًّا﴾. وصْفٌ آخرَ ليحيى عليه السلام.

والمعنى: كان يحيى تقياً، وكان بَرّاً بوالديْه.

وذكْرُ برِّه بوالديْه مقصودٌ هنا، لأنَّ والديْه كبيران عجوزان، وهما بحاجةٍ إلى برِّ ابنِهما بهما، لتقدُّمهما في العمر، وحاجتِهما إلى المساعدة وحسنِ المعاملة، لا سيما أَنهما رُزقا بابنهما على كبر.

ونعمةٌ عظمى ينعمُ اللّهُ بها على الوالديْن الكبيريْن، عندما يوفِّقُ أَبناءَهما إلى البرِّ بهما، لأَنهما في عمرِهما المتقدم يَحتاجان إلى ذلك البرِّ والإحسان.

وبعدما وصفَ اللّهُ يحيى عليه السلام بوصفيْن إيجابييْن، نفى عنه وصفيْن سلبييْن، ونزَّهه عن نقيصتيْن، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

و«جَبَّار» صيغةُ مبالغة، من التجبرِ وهو التكبُّرُ والاستعلاء.

قال الإمام الراغب: «والجبارُ في الإنسان: صفة، يقالُ لمن يجبُرُ نقيصَتَه بادِّعاءِ منزلةٍ من التعالي لا يستحقُّها، وهذا لا يُقالُ إلاّ على طريقِ الذم»[1].

والإنسانُ لا يكون جباراً متجبراً في الأرض إلاّ ليسدَّ نقْصَه وضعفَه، فيتكبَّر ويتجبَّر، ويتعالى وينتفش، ويظلمُ الآخرين ويحتقرُهم ويضطهدُهم.

و﴿عَصِيًّا﴾ صفةٌ مشبهة، بمعنى صاحب المعصية، والعصيُّ هو الجبار، فكلُّ إنسانٍ جبارٍ متجبر، فهو عصيٌّ عاصٍ، لأنَّ المعصيةَ مبنيةٌ على التكبرِ والاستعلاء.

(١) المفردات: ١٨٤.

وعندما ننظر في هذه الآياتِ الكريمةِ التي أخبرتْ عن يحيى عليه السلام، فسوفَ نرى التناسبَ والتناسقَ والتقابلَ في الصفاتِ المذكورة لـــــه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

آتى اللّهُ يَحيى أمريْن، وأَنعمَ عليه بنعمتيْن، وهما: الحَنانُ والزكاة.

ووَصَفَهُ بوصفيْن إيجابيَّيْن، هما ثمرةٌ للحنان والزكاة، وهما: كان تقياً لله، وكان بَراً بوالديه.

ونفى عنه أَمريْن قبيحيْن، يتناقضانِ مع ما سبق، فلم يكن جَبّاراً ولا عصياً.

وهذه كلُها ثمرةٌ للحكمِ الذي آتاهُ اللّهُ إياه وهو صبي: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وهذا كلُه تطبيقٌ وتنفيذٌ لأمْرِ الله له: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ..﴾.

سلام على يحيى يوم ولادته وموته وبعثه:

وبعدما قَدَّمَتْ لنا الآياتُ مجموعةً طيبةً من صفاتِ يحيى العظيمة، عليه الصلاة والسلام، خَتمتْ ذلك بتقريرِ حقيقةِ السلام الرباني الذي غَمر يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥].

وهذا خبرٌ من الله سبحانه عن السلام الذي أَضْفاه على يحيى.

و﴿وَسَلَٰمٌ﴾ نكرة، والتنكيرُ للتكثيرِ والتفخيمِ والتعظيم، أي أنَّ اللّهَ جعلَه مغموراً بالسلامِ المبارك في حياتِه كلِّها.

وأَبرزت الآيةُ السلامَ الذي تغشّاه في مواطنَ ثلاثة، هي بحاجةٍ إلى السلام من الله، أكثرَ من غيرِها من المواطن.

﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾: أضفى اللّهُ عليه السلامَ يومَ ولادته، ولذلك لم يمسّه الشيطانُ بسوء.

﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾: أضفى اللّهُ عليه السلامَ والأمانَ يومَ موته، فجعله منَعَّماً في قبره، وعصَمَهُ من فتنةِ القبر، وأجاره من عذابِ القبر.

﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾: أَضفى اللّهُ عليه السلامَ والأمانَ يوم القيامة، فأَمَّنه من الفزعِ في ذلك اليوم، الذي يَفزعُ فيه الآخرون، وأَجارَه من عذابه.

قال ابنُ عطية: أوحشَ ما يكونُ الخلقُ في ثلاثةِ مواطن: يومَ وُلد، فيرى نفسَه خارجاً مما كان فيه. ويومَ يَموت، فيرى قوماً لم يكن عايَنَهم. ويوم يُبعث، فيرى نفسَه في محشرٍ عظيم. فأكرمَ اللّهُ يحيى عليه السلام، وخصَّه بالسلام عليه في هذه المواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾[1].

[٧]

وفاة زكريا ويحيى عليهما السلام

لم يُخبِرْنا القرآنُ عن زكريا عليه السلام إلاّ أَنه كانَ نبياً رسولاً، وأَنه دعا اللّهَ طالِباً منه الولدَ الوارث، وأَنه كان إِماماً في قومه، وحوله مجموعةٌ من أَتْباعِه المؤمنين، وأَنه كان داعيةً يدعوهم إِلى الله تعالى.

ولم يَزِد الحديثُ الصحيحُ على ما ذكره القرآن إلاّ أَنه كان «نجاراً» يعملُ في النجارة، ويأكلُ من عمل يده.

وما سوى ذلك، مما يتعلقُ بحياةِ زكريا عليه السلام وقصته، مبهمٌ من «مبهمات القرآن»، لا نعرفُ عنه شيئاً.

لا نعرفُ ماذا جرى لزكريا عليه السلام بعدما وُلد ابنُه يحيى،

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٣.

وبعدما صارَ شاباً قوياً، وحكيماً نبياً. ولا نعرفُ كم عاشَ زكريا وزوجُه بعد حياةِ ابنِهما، ولا مكانَ إقامتهما، ولا تفاصيلَ ما جرى بين زكريا وبين بني إسرائيل.

لا نعرف كيف مات زكريا عليه السلام:

ووفاةُ زكريا عليه السلام من مبهماتِ القرآن، فلم يتحدث القرآنُ عن وفاتِه، ولم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ عن رسول الله ﷺ يبينُ كيفيةَ وفاته، فلا نعرفُ عن وفاته شيئاً.

وقد تحدثت الإسرائيلياتُ عن كيفيةِ وفاةِ زكريا عليه السلام، وعن لحاقِ اليهودِ الكافرين به ليقتلوه، وعن اختفائِه منهم في داخلِ شجرة، وبقاءِ طرفِ ثوبِه خارجاً بارزاً، وعن إرشادِ الشيطان اليهودَ إليه، ثم نشرِهم الشجرةَ بالمنشار، وقطعِ جسمِ زكريا قطعتين.

ولا نقولُ بهذه الإسرائيليات، ولا نرضى ذكْرَ معظمِ المفسرين والمؤرخين المسلمين لها، ولا نقبلُ أنْ نفسّرَ بها كلامَ الله، ولا نعتمدُها في الحديثِ عن وفاةِ نبي الله زكريا عليه السلام ولا نقولُ شيئاً في وفاةِ زكريا عليه السلام، فنقولُ بما قالَ به القرآن، ونسكتُ عما سكتَ عنه القرآن.

أي: لا نقول: قتلَ اليهودُ الكفارُ زكريا عليه السلام، فلا ندري هل ماتَ زكريّا مقتولاً على أيدي اليهود، أو ماتَ موتاً عادياً.

وليس معنى هذا أنْ ندافعَ عن اليهودِ المجرمين، أو أنْ نقومَ بتبرئتهم من قتلِ الأنبياء، فهم كفارٌ مجرمون سفاكون، وقد أَخبرَنا اللّهُ أَنهم قتلوا بعضَ الأنبياء، وهذا يقينٌ وصدق.

قالَ اللّهُ عن اليهود: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ..﴾ [البقرة: ٦١].

وخاطبَ اللّهُ اليهودَ قائلاً لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

اليهودُ قتلةُ الأنبياء، وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ صادقة، ويكفيهم هذا جريمةً وشناعة، ويكفينا هذا لنكرهَهم ونُبغضَهم ونُقاتلَهم.

أمّا تعيينُ الأنبياءِ الذين قتلوهم، وتحديدُ أسمائِهم وأعدادِهم وكيفياتِ قتلهم، فهذا الذي لم يذكُرْه القرآن، ولم يبيِّنْه حديثُ رسولِ الله ﷺ.

والخلاصةُ أننا نتوقفُ في حديثِ الإسرائيليات عن تفاصيلِ مقتل زكريا عليه السلام، ولا نقولُ شيئاً في وفاتِه عليه السلام، لسكوتِ القرآن والحديث الصحيح عن ذلك.

هذا عن زكريا ونهايتِه عليه السلام.

يحيى يأمر بني إسرائيل بخمس كلمات، وعيسى يشهد على ذلك:

أمّا يحيى عليه السلام فقد كانَ معاصِراً لعيسى عليه السلام، أدركَه وعاشَ معه.

وأَخبرَنا القرآنُ أنَّ يحيى صَدَّقَ عيسى عليه السلام: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ..﴾.

واشتركَ يحيى وعيسى عليهما السلام في الدعوةِ إلى الله، وفي نصحِ وإِرشادِ وتذكيرِ بني إسرائيل.

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن موقفٍ من مواقفِ النبيَّيْن الكريميْن اشتركا فيه في الدعوةِ إلى الله.

روى الترمذيُّ وغيرُه عن الحارثِ الأشعري، رضي الله عنه، أنَ رسولَ الله ﷺ قال: «إن اللّهَ أمَرَ يحيى بنَ زكريا بخمسِ كلمات، يعملُ بهن، ويأمرُ بني إسرائيل يعملونَ بهن.

وإِنَّ عيسى ابنَ مريم قال له: إنَّ اللّهَ أمَرَك بخمسِ كلمات، تعملُ بهن، وتأمرُ بَني إسرائيل يعملون بهنّ، فإمّا أنْ تأمرهم، وإمّا أنْ آمرهم!

قال: إنكَ إنْ تسبقْني بهنّ خشيتُ أنْ أُعذَّب، أوْ يُخسفَ بي!

فجمعَ يحيى الناسَ في بيتِ المقدس، حتى امتلأ، وقعدَ الناسُ على الشرفات.

فوعظَهم قائلاً: إنَّ اللّهَ أمرني بخمسِ كلمات أَعملُ بهن، وآمُرُكم أَنْ تعملوا بهنّ.

أُولاهن: أنْ تَعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً. وإنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بالله، كَمَثَلِ رجل، اشْترى عبداً من خالصِ ماله، بذَهَب أَوْ وَرِق [فضة]، وقال: هذه داري، وهذا مالي، فاعملْ وأَدِّ إليَّ. فجعلَ يعمل، ويؤدّي إلى غيرِ سيده. فأيُّكم يسرُّه أنْ يكونَ عبدُه كذلك؟. وإنَّ اللّهَ خلقَكم ورزقَكم، فلا تُشركوا به شيئاً.

وآمُرُكم بالصلاة. فإذا صَليتُم فلا تلتفتوا.

وآمُرُكم بالصيام. وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ معه صُرَّةٌ فيها مِسْك، ومعه عصابة، كلُّهم يعجبُه أنْ يجدَ ريحَها. وإنَّ الصيامَ أطيبُ عند الله من ريحِ المسك.

وآمُرُكم بالصدقة. وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ أَسَرَهُ العدوّ، وقاموا إليه، فأَوثقوا يَدَه إلى عنقه، فقال: هل لكم أنْ أَفديَ نفسي منكم؟ فجعلَ يُعطي نفسَه القليلَ والكثيرَ ليفكَّ نفْسَه منهم.

وآمُرُكم بذكْرِ اللّهِ كثيراً. وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ طلبه العدوّ، سراعاً في إثره، حتى أَتى على حصنٍ حصين، فأحرزَ نفْسَه فيه. كذلك العبد، لا يُحرزُ نفسَه من الشيطانِ إلاّ بذكْر الله.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: وأَنا آمُرُكم بخمسٍ أَمَرَني اللّهُ بهنّ: الجماعةِ، والسمعِ، والطاعةِ، والهجرةِ، والجهادِ في سبيلِ الله.

فمَنْ فارقَ الجماعةَ قيدَ شبر، خلعَ الإسلامَ من رأسه إلاّ أنْ يَرجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهليةِ فإنّه من جِثِيِّ جهنم.

قيل: وإنْ صامَ وصلى؟

قال: وإنْ صامَ وصلّى، فادْعوا بدعوى الله، الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين عبادَ الله..»[1].

قدّمَ لنا رسولُنا محمدٌ ﷺ من خلالِ هذا الحديثِ يحيى عليه السلام داعياً إلى الله، آمِراً بني إسرائيل بالمعروف، حيثُ أمرهم بعبادةِ الله وحده، وبالصلاة، والصدقة، والصيام، وذكر الله. واستخدمَ ضربَ الأمثالِ ليوضّحَ ما يأمرهم به، وهذا من فصاحتِه وعلمِه ونجاحِه في الدعوةِ إلى الله.

وكان عيسى عليه السلام شاهِداً على يحيى وهو يُبَلّغُ قومَه هذه الأوامر، بل لعلّه كانَ معه عندما دَعاهم إلى ذلك الاجتماعِ الكبيرِ الحاشدِ في بيتِ المقدس، حيث أَمرهم بما أَمرهُ اللّهُ به.

واللطيفُ أنّ رسولَنا محمداً ﷺ أضافَ على الأوامرِ الخمسةِ الصادرةِ عن يحيى عليه السلام خمسةً أُخرى، وأَمَرَنا نحنُ بها كلّها، أيْ صِرْنا مأمورين بالأوامرِ العشرة، باعتبارِها توجيهات وأوامرَ إسلامية: عبادة الله، والصلاة، والصدقة، والصيام، وذكر الله، والجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله.

وفاة يحيى من مبهمات القرآن التي لا نعرفها:

عاشَ يحيى عليه السلام حياتَه نبياً داعياً إلى الله سبحانه وتعالى، إلى أَنْ وافاهُ الأَجَل، وغادَرَ هذه الدنيا إلى الله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

ولم يَرِدْ في القرآنِ ولا في الحديثِ الصحيحِ كلامٌ عن كيفيةِ وفاةِ يحيى عليه السلام، فوفاتُه من «مبهمات القرآن»، التي لا نتعرضُ لها بتفصيلٍ أو بيان.

وقد فصّلت الإسرائيلياتُ كثيراً في وفاةِ يحيى عليه السلام،

(١) أخرجه الترمذي: ٢٨٦٣ و: ٢٨٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٧.

وأخبرتْ تلك الإسرائيلياتُ أنَّ يحيى عليه السلام ماتَ مقتولاً، وتحدثَتْ عن أَسبابِ مقتلِه، وعن قصةِ الملكِ اليهودي الذي أَرادَ الزواجَ من ابنةِ أَخيه، المحرمَ في شريعتِهم، وقيامِ يحيى بالإنكارِ عليه وعلى ابنةِ أخيه، وغَضَبِ الملكِ اليهودي والفتاةِ على يحيى، وطلبِ تلك الفتاةِ قتلَ يحيى، وتنفيذِ الملكِ لطلبها، وأمْرِ جنودِه أنْ يُقَدِّموا لها رأسَ يحيى على طبقٍ من ذهب، وغضبِ اللّهِ عليهم، وإِيقاعِ المذبحةِ بهم!!

فصَّلت الإسرائيلياتُ كثيراً في مقتلِ يحيى عليه السلام على أَيدي الملكِ اليهودي، واستهوتْ هذه التفصيلاتُ المفسرين والمؤرخين، فأَوردوها في كتبهم.

ونحنُ نتوقفُ فيها، ولا نقولُ بها، لأنها لم تَرِدْ في القرآنِ الصريح، ولا في الحديثِ الصحيح، ونعتبرُ وفاتَه من مبهماتِ القرآن، كما فعَلنا مع الحديثِ عن وفاةِ أَبيه زكريا عليه السلام.

وليسَ هذا دفاعاً عن اليهود، أَو تبرئةً لهم، فهم كفارٌ مجرمون، قتلةُ أَنبياء، بدون تحديدٍ لأَسماءِ وأَعدادِ وكيفياتِ الأَنبياء الذين قتلوهم.

ثم أَلا يتعارضُ القولُ بقتْلِ ملكِ اليهودِ ليحيى عليه السلام مع قولِ اللّهِ عنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾؟!!

قد قررَ اللّهُ أَنه منحَ يحيى السلامَ في حياتِه، وركَّزَ على تحقيقِ السلام في ثلاثةِ مواطن: عندَ ميلادِه، وعند وفاتِه، وعند بعثِه حياً يومَ القيامة.

وهذا معناهُ أَنه نالَ السلامَ والأمنَ والأمانَ من الله في هذهِ المواطن، وأنَّ اللّهَ عصمَه فيها من الأَخطارِ والآفات.

فإذا كان اليهودُ الكافرون يريدونَ قتْلَه، فإنَّ اللّهَ سيحميهِ منهم، وسيمنحهُ السلامَ والأمنَ والأمان!!

وهذا ما حصلَ مع عيسى عليه السلام، فاللّهُ قد منحه السلامَ

والأمنَ والأمانَ في نفسِ المواطنِ الثلاثة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣].

قررَ اللّٰهُ أنْ يمنحَ عيسى عليه السلامَ الأمنَ والأمانَ يومَ ولادتِه وموتِه وبعثِه، ولما أرادَ اليهودُ صلْبَه وقتْلَه، عصمَهُ الله، ومنحهُ الأمنَ والأمان، وحالَ بينهم وبينَ تحقيقِ مُرادِهم، ورَفَعَهُ إليه.

فإذا كان اللّٰهُ قد فعلَ هذا مع عيسى عليه السلام، فلماذا لا يكونُ فعلَه أيضاً معَ يحيى عليه السلام؟ بمعنى أنَّ اللّٰهَ حققَ له السلامَ والأمنَ والأمان يومَ يموت.

إننا نفهمُ مِن قولِ اللّٰهِ عن يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ أنه ماتَ موتاً عادياً، وأنه ماتَ بسلامٍ وأمنٍ وأَمان، وأنَّ اللّٰهَ لم يُمَكِّنْ أَعداءَه من قتلِه وإيذائه، لأن هذا يتعارَضُ مع السلامِ والأمانِ الذي منحهُ اللّٰهُ إِياه يومَ موته.

إنَّ الآيةَ المذكورةَ تشيرُ لنا أَنَّ يحيى عليه السلام ماتَ موتاً عادياً، ماتَ بسلامٍ وأمان، وليس قتلاً على يدِ ملك اليهود، كما تذكُرُ الإسرائيلياتُ والرواياتُ!!

هذا ما نفهمُه من الآية، ونردُّ به تلكَ الإسرائيليات. ونقررُ بعدَ هذا أنَّ وفاته من مبهماتِ القرآن التي لا سبيلَ إلى بيانِها. والله أعلم!!.

يحيى وعيسى سيدا شباب أهل الجنة واستقبالهما الرسول في السماء الثانية:

وقد أَشارَ رسولُ الله ﷺ إلى فضْلِ ومنزلةِ يحيى وزكريا ابْنَي الخالة، عليهما السلام. فروى الترمذيُّ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «الحسنُ والحسينُ سَيِّدا شبابِ أَهلِ الجنة، إلاّ ابْنَي الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، وفاطمةُ سيدةُ نساءِ أهل الجنة، إلاّ ما كانَ من مريمَ بنت عمران..»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٧٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٨.

اعتبرَ رسولُ الله ﷺ يحيى وعيسى عليهما السلام سَيِّدَيْ شبابِ أَهل الجنة، وإِذا كان عيسى عليه السلام قد رُفِعَ إِلى السماء في سنِّ الشباب، كما سيمرُّ مَعَنا، فيبدو أَنَّ يَحيى عليه السلام قد توفيَ وهو في سنِّ الشباب أيضاً، مما جعلَهما سَيِّدَيْ شبابِ أهلِ الجنة.

وقدْ أَخبرَنا رسولُنا ﷺ أَنه لما عُرِجَ به إِلى السماء ليلةَ المعراج شاهدَ ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام في استقبالِه في السماءِ الثانية.

روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه في حديثِ الإسراءِ والمعراج الطويل: «... ثم عَرَجَ بِنا إِلى السماءِ الثانية. فاستفْتَحَ جبريلُ عليه السلام.

فقيل: مَنْ أَنتَ؟

قال: جبريل.

قيل: ومَنْ معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بُعِثَ إِليه؟

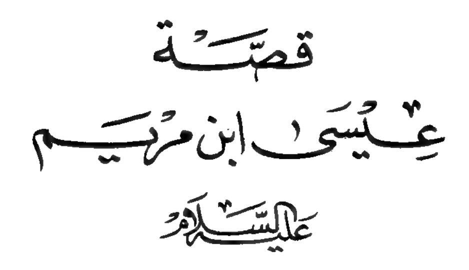
قال: قد بُعِثَ إِليه.

فَفُتح لنا، فإذا أَنا بابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، صلواتُ الله عليهما، فرحَّبا، ودَعَوَا لي بخير!»[1].

وهكذا كانَ زكريا ويحيى عليهما السلام من آخرِ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولم يأْتِ نبيٌّ بعدَهما لبني إسرائيل إلاّ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وهو ما سنتحدثُ عن قصته في الفصلِ التالي إن شاء الله.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٢.


قصة
عيسى ابن مريم
عليه السلام

[١]

«مواضع ذكر عيسى عليه السلام وأمه في القرآن»:

وردَ اسمُ عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرةً في القرآن.

ووردَ اسمُ أُمِّه مريمَ رضي الله عنها أربعاً وثلاثين مرةً في القرآن. ثلاثاً وعشرين مرةً منها مقرونةً باسم عيسى: «عيسى ابن مريم»، وإِحدى عشرةَ مرة مجردةً عن عيسى.

مواضع ذكر مريم في القرآن:

وردَ اسمُ مريمَ مجرداً عن عيسى عليه السلام في سورةِ آل عمران ستَّ مرات، أثناءَ الحديثِ عن ولادتِها وكفالةِ زكريا عليه السلام لها، ومخاطبةِ الملائكة لها، وتبشيرِها بعيسى عليه السلام.

ووردَ اسمُه مجرداً في سورةِ النساء مرتيْن، في سياقِ ذمِّ اليهود لكفرِهم واتهامِهم لمريم، وفي تقريرِ حقيقةِ كونِ عيسى كلمةَ الله، ألقاها إِلى مريم.

وسورةُ مريم التي حملتْ اسمَها تحدثَتْ بالتفصيل عن قصةِ بشارتِها وحملِها لعيسى عليه السلام، وردَ اسمُها مجرداً مرتين فيها، في بدايةِ عرضِ قصتها، وعندما أَتَتْ قومَها تحملُ ابنَها، فاستغربوا ذلك منها، وأنكروه عليها.

ووردَ اسمُها في سورةِ التحريم مرةً واحدة، منسوبةً إِلى أَبيها: «مريم ابنة عمران»، في مقامِ الثناءِ عليها لإِيمانِها وتصديقِها وقُنوتِهَا.

تحدثتْ سورةُ آل عمران عن بدايةِ قصةِ مريم رضي الله عنها، منذُ أنْ حملَتْ أُمُّها بها، ونذرَتْ أنْ يكونَ ما في بطنِها لله، وتَقَبَّلَها اللّهُ ورعاها، وقد اختلفَ الصالحون في من يكفلُها، وهي الطفلةُ الصغيرة، فألقوا أَقلامَهم مقترعين، فكانت من نصيبِ زكريا عليه السلام زوج أختها، وتكفَّلَ زكريا بها، ونشأتْ فتاةً مؤمنةً صالحة في كفالته،

وكانَ اللّهُ يكرمُها برزقٍ مستمرٍّ عندها، وسأَلَها زكريا عن مصدره، وسط استغرابه، فأجابتْ بأَنَّه من عندِ الله، فدعا ربه أَنْ يرزقَه غلاماً.

وردَ هذا في آيات: [٣٥ ـ ٣٨] من السورة.

ثم تحدثتْ آياتُ السورةِ عن تبشيرِ الملائكة مريمَ رضي الله عنها، بأنَّ اللّهَ قد اصطفاها على نساءِ العالمين، وعليها أنْ تقنتَ وتركعَ وتسجدَ لله. وبشرتْها الملائكةُ أيضاً بأن اللّهَ سيهبُها ابنَها عيسى عليه السلام وسيجعلُه نبياً رسولاً، ولما استغربتْ مريمُ من ذلك، أَخبرتْها الملائكةُ بأنَّ هذا من أمرِ الله، واللّهُ يخلقُ ما يشاء.

ورد هذا في آيات: [٤٢ ـ ٤٨] من السورة.

وتحدثتْ سورةُ مريمَ عن حملِ مريمَ بعيسى عليه السلام، بدأت الآياتُ بلقطةِ ابتعادِ مريم عن أَهلها نحو الشرق، فلما كانتْ بعيدةً عنهم وحيدة، أرسلَ اللّهُ لها جبريلَ عليه السلام، فتمثلَ أَمامَها رجلاً بشراً سوياً، وصارحها بأنه رسولٌ من الله ليهبَها غلاماً زكياً، فاستغربتْ وسألتْ عن كيفيةِ إنجابِها الولدَ وهي الفتاةُ العذراءُ العفيفة، فأخبرَهَا أَنَّ هذا أمر الله.

ونفخَ جبريلُ فيها، فحملتْ بعيسى، ووضعَتْه تحتَ نخلة، وَوَجَّهَها إلى أكلِ الرطبِ وشربِ الماء والصيامِ عن الكلام، وحملتْ ابنَها وذهبتْ إلى قومها، ففوجئوا بابنها، ولما سألوها عنه أَشارتْ إليه فالجوابُ عنده، فازدادَ استغرابُهم، وبلغَتْ دهشتُهم ذروتَها عندما سمعوهُ يتكلمُ ويقدمُ نفسَه إليهم، ويخبرُهم أنه عبدُ الله، وأنه سيكون رسولاً.

ورد هذا في آيات: [١٦ ـ ٣٤] من السورة.

وحديثُ القرآن عن مريم رضي الله عنها في السور الأخرى إشارةٌ سريعة، فصلبُ قصةِ مريم كان في سورتي آل عمران ومريم.

مواضع ذكر عيسى في القرآن:

أما عيسى ابنُ مريم عليه السلام فقد كانَ الحديثُ عن قصته في سور: مريم وآل عمران والمائدة والنساء والصف والحديد والزخرف.

في سورةِ مريم تداخلَ الحديثُ عنه مع الحديث عن أُمِّه رضي الله عنها، وكَأَنَّ القصتين قصةٌ واحدة: الآيات: [١٦ ـ ٣٤]. وعقبت الآياتُ على ذلك بتقريرِ وحدانيةِ الله، وأنه ليس له صاحبةٌ ولا ولد. الآيات: [٣٤ ـ ٤٠].

وفي سورةِ آل عمران وردَ اسمُ عيسى عليه السلام خمسَ مرات، وتداخلتْ قصتُه مع قصةِ أُمه أيضاً، حيث بشَّرت الملائكةُ مريمَ بعيسى، وذكرتْ بعضَ صفاتِ عيسى، ورسالتَه إلى بني إسرائيل، وبعضَ آياتِه ومعجزاته لهم، ولما كَذَّبَه بنو إسرائيل آمَنَ به أَتباعُه الحواريون، ولما كان عيسى في خطرٍ مباشر، عصمهُ اللّهُ منه، ورفعه إليه. الآيات: [٤٨ ـ ٥٧].

وانتقلتْ آياتُ السورةِ بعد ذلك إلى جدال النصارى، وإقامةِ الحجة عليهم، وتعليمِ الرسولِ ﷺ ما يقولُه لهم في محاجَّتِه لهم، لإفحامِهم وإبطال كفرهم. الآيات: [٥٨ ـ ٧٤].

وتحدثتْ آياتُ سورةِ النساء عن سوءِ موقفِ اليهود من عيسى عليه السلام، حيث افتروا على أُمه مريم، وأرادوا قَتْلَ عيسى عليه السلام، وصرحت الآياتُ بأن اللّهَ عصمه منهم، وأنهم ما قتلوه ولا صلبوه، وإنما شُبه لهم، وقد رَفعه اللّهُ إليه، وسيؤمنُ أهلُ الكتاب به قبلَ موته، وأثنت الآياتُ على الراسخين في العلم من مؤمني أهل الكتاب، المتبعين لمحمدٍ ﷺ. وردَ هذا في الآيات: [١٥٦ ـ ١٦٢]. وقد وردَ اسمُ عيسى في السورة ثلاثَ مرات.

أما آياتُ سورةِ المائدة فقد تكفلتْ بنقاشِ النصارى بشأن عيسى عليه السلام في مواضعَ عديدةٍ من السورة.

وفي حديثِها عن قصة عيسى عليه السلام عرضَتْ مشهدَ المائدةِ التي أَنزلَها اللّهُ عليه وعلى الحواريين. في الآيات: [١١٢ ـ ١١٥].

وعرضتْ آياتُ السورةِ مشهداً من مشاهدِ يوم القيامة، يُذَكِّرُ اللّهُ فيه عيسى عليه السلام بفضْلِه عليه، ويتبرأُ فيه عيسى من عبادةِ النصارى له. في الآيات: [١٠٩ ـ ١١١. و١١٦ ـ ١٢٠].

وقد وردَ اسمُ عيسى في السورة ستَّ مرات.

وأَشارتْ آياتُ سورةِ الصفِ إِلى عيسى عليه السلام مرتين. مرة في تبليغِه الدعوةَ لبني إسرائيل وتكذيبهم له، في الآية (٦). ومرةً في انحيازِ الحواريين له ونصرتِهم لدينه، في الآية الأخيرة (١٤). وقد وردَ اسمُ عيسى فيها مرتين.

وأَشارتْ سورةُ الحديد إِلى رسالةِ عيسى عليه السلام، وإِلى ابتداعِ الرهبان الرهبانيةَ من بعده. في آية (٢٧).

وأشارتْ سورةُ الزخرف إِلى نبوةِ وعبوديةِ عيسى عليه السلام، وردَّتْ على النصارى في عبادتهم له. في الآيات: [٥٧ ـ ٦٥].

وما سوى هذا كان حديثُ بعضِ السور مجردَ ذكْرِ اسمِ عيسى عليه السلام ضمن الأنبياء، أو ذكر شريعته ورسالته.

وردَ اسمهُ في سورة البقرة ثلاثَ مرات، وفي سورةِ الأنعام مرة، وفي سورة الأحزاب مرة، وفي سورة الشورى مرة.

من خلالِ هذا العرضِ الموجزِ نرى أَنَّ القرآنَ لم يتحدثْ عن عيسى عليه السلام إِلاّ من خلالِ حملِ أمه به وولادتِها له، وهذا في سورتيْ آل عمران ومريم.

ومن خلالِ دعوتِه لبني إسرائيل وسوءِ استقبالِهم له، حيثُ لم يتبعه إلا الحواريون، وهذا في سورِ آل عمران، والمائدة والصف.

ومن خلال تخطيطِ اليهودِ لقتلِه، لكنَّ اللّهَ حماهُ منهم، وهذا في سورة النساء.

ومن خلالِ عرضِ مشهدِ لساحةِ العرضِ في الآخرة يتبرأ فيه عيسى من عابديه النصارى، وهذا في سورة المائدة.

وما سوى هذا هو نقاشٌ للنصارى، وإِبطالٌ لكفرِهم بالله،

وتأليهِهم لعيسى عليه السلام، وإثباتُ أنه عبدُ الله ورسوله، وكان النقاشُ والجدالُ في سورتي آل عمران والمائدة على وجه الخصوص.

هذا وقد أوردَ القرآنُ وصفَ عيسى عليه السلام أحياناً، وهو «المسيح». وأحياناً يوردُ «المسيحَ» مجرداً، وأحياناً يوردُه مقروناً باسمِ أمه مريم: «المسيح ابن مريم».

ووردتْ كلمة «المسيح» إحدى عشرة مرة في القرآن: في آل عمران مرة، وفي النساء ثلاثَ مرات، وفي المائدة خمسَ مرات، وفي التوبة مرتين.

هذه هي مواضعُ ذكْرِ عيسى عليه السلام وأمّه في القرآن.

[٢]

من هم آل عمران؟ ولماذا ذكروا في الآية؟

مريمُ هي ابنةُ عمران، بنصِّ آياتِ القرآن: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا..﴾ [مريم: ١٢].

ووردَ اسمُ «عمران» ثلاثَ مراتٍ في القرآن:

الأولى: «آلُ عمران» في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

الثانية: امرأةُ عمران والدِ مريم، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا..﴾ [آل عمران: ٣٥].

الثالثة: ابنةُ عمران، في قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

فمن هم «آل عمران»، الذين وردَ ذكرُهم في السورة الثالثة ـ حسب ترتيبِ المصحف ـ التي حملت اسمَهم «سورة آل عمران»؟

من هو عمران الأول؟ ومن هو عمران الثاني؟:

هناك شخصان من بني إسرائيل، كلٌّ منهما اسمه «عمران»، وبينهما فترةٌ زمنيةٌ طويلة تمتدُّ عدةَ قرون.

عمران الأول: هو عمرانُ والدُ نبيِّ الله موسى ونبيِّ الله هارون عليهما السلام.

والدليلُ على أنَّ والدَ موسى اسمُه عمران ما أَخرجَه الحاكم عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «موسى بنُ عمران صَفِيُّ الله..»(١).

وما أَخرجَه مسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على موسى بنِ عمران عليه السلام...»(٢).

فَنَسَبَ رسولُنا ﷺ موسى عليه السلام إلى أَبيه عمران.

أَشارَ القرآنُ إلى أُسرةِ عمرانَ الأول: امرأتُه وتصرفُها عندما أَنجبت ابنَها موسى، وابنتُه التي أَمرتْها بمراقبةِ تابوت أَخيها موسى، وهارونُ شقيق موسى. فهؤلاء الخمسةُ الصالحون هم أَعضاءُ أسرةِ عمران. ولا ندري هل كان لعمران أَولادٌ غيرُ المذكورين في القرآن أم لا؟

عمران الثاني: هو والدُ مريم رضي الله عنها.

وأَشارَ القرآنُ إلى حملِ امرأتِه بمريم، ونَذْرِها لله، كما أَشارَ إلى شقيقٍ لمريم اسمه «هارون»، وهو غيرُ هارون النبي شقيقِ موسى عليه السلام، وسنتحدثُ عنه فيما بعد إنْ شاءَ الله.

وذَكَرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ عيسى ويحيى عليهما السلام هما أَبناءُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٥٧٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٢٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

الخالة، كما تحدثنا في الفصل السابق، وهذا معناه أنَّ زكريا عليه السلام كان متزوجاً أُختَ مريم.

وهذا معناه أنَّ أسرةَ عمران الثاني المذكورةَ في القرآنِ والحديثِ كانت مكونةً من خمسةِ أشخاص أيضاً. عَرَفْنا أسماءَ ثلاثةٍ منهم، وهم عمرانُ الأب، وهارونُ الابن، ومريمُ الابنة، أما اسمُ امرأةِ عمران وابنتِه الأخرى فهذا من مبهمات القرآن.

وإذا كان عمرانُ الأول قد عاشَ في مصر زمنَ الفراعنة، في بدايةِ تاريخِ بني إسرائيل، فإنَّ عمرانَ الثاني قد عاشَ في بيتِ المقدس في آخرِ تاريخِ بني إسرائيل، وبينهما عدةُ قرون.

آل عمران هم أسرة عمران الثاني والد مريم:

من هم آلُ عمران الذين اصطفاهم اللّهُ على العالمين؟ هل هم آلُ عمران الأولِ والدِ موسى أم هم آلُ عمران الثاني والدِ مريم؟

ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ «آل عمران» هم ذريةُ موسى وهارون ابنيْ عمران الأول عليهما السلام، اللذين ظهرَ منهما معظمُ أنبياءِ بني إسرائيل.

وذهبَ آخرونَ إلى أَنَّ «آلَ عمران» هم مريمُ وابنها عليه السلام، وأمُّها وأَخوها رضي الله عنهم.

وقد أَخبرَنا اللّهُ أَنه اصطفى آدم ونوحاً وآلَ إبراهيم وآلَ عمران. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

قالَ الإمامُ ابن كثير في التفسير: «يُخبرُ اللّهُ أَنه اختارَ هذه البيوتَ على سائرِ أهلِ الأرض:

فاصطفى آدمَ عليه السلام، خلَقَه بيده، ونفخَ فيه من روحه،

وأَسجدَ له ملائكتَه، وعلَّمَه أَسماءَ كلِّ شيء، وأَسكنه الجنة، ثم أَهبطَه منها لِما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً عليه السلام، وجعلَه أولَ رسولٍ بعثَه إِلى أهلِ الأرض...

واصطفى آلَ إِبراهيم، ومنهم سيدُ البشرِ خاتمُ الأنبياءِ على الإِطلاق، محمدٌ ﷺ.

واصطفى آلَ عمران، والمرادُ بعمران هذا هو والدُ مريم ابنة عمران، أمُّ عيسى عليه السلام[1].

والراجحُ أنَّ آلَ عمران المذكورين هنا هم آلُ عمران والدِ مريم رضي الله عنها.

ولو كانوا هم آلَ عمران والدِ موسى عليه السلام لكانَ في الآيةِ تكرار، لأنَّ أَنبياءَ بني إِسرائيل الذين هم من ذريةِ موسى وهارون داخلون في قوله: «آل إبراهيم» لأنَّ إِبراهيمَ هو أَبو الأنبياء عليه السلام.

وأَخبرَ اللّهُ أنَّ هؤلاء المفضَّلين على العالمين ذريةٌ بعضُها من بعض، أي أنَّ السلسلةَ متصلةٌ في هؤلاء، والموكبَ الكريمَ مستمرٌّ فيهم، فكانوا ذريةً طيبةً مؤمنة صالحة، بعضُهم يتناسلُ من بعض.

وآلُ عمران هم أُسرةُ عمران. وقد علمْنا قبلَ قليل أنَّ عمران أَنجبَ ابناً وابنتين، الابنُ هو «هارون»، ولم نعرفْ عنه شيئاً، والابنتان هما: مريم وأُختُها امرأةُ زكريا عليه السلام.

حكمة ذكر تفضيل الأربعة في الآية:

والسؤال الآن: ما حكمةُ ذكْرِ المذكورين في هذه الآية: ﴿ءَادَمَ

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٣٣٩.

﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾؟ ولماذا ذُكِرَ آدمُ ونوحٌ باسميهما، بينما ذُكِرَ إبراهيمُ وعمرانُ بآلهما؟

ذُكِرَ آدمُ عليه السلام لأنه أبو البشر، الذي خلَقَه اللّهُ بيده، بدون أَبٍ ولا أم، وناسبَ أنْ تبدأَ الآيةُ به لأنَه أولُ مخلوقٍ من البشر.

وذُكِرَ نوحٌ عليه السلام لأنه أولُ رسول، أرسلَه اللّهُ إلى البشر، بنصِّ حديثِ الشفاعة، الذي أوردْناه عدةَ مرات، ولأنه أبو البشريةِ الثاني أيضاً، حيث كان الطوفانُ عاماً في عهده، وأغرقَ اللّهُ جميعَ الكفار، ولم يُبقِ حياً إلاّ نوحاً وأتباعَه المؤمنين. ولهذا ذكَره اللّهُ ثانياً في الآية.

ولما جاءَ إلى إبراهيمَ عليه السلام ذَكَرَ تفضيلَ آلِ إبراهيم، لأَنه أَبو الأنبياء عليهم السلام، ومعظمُ الأنبياءِ المذكورين في القرآن هم من ذريته، فهم آله.

وأَساسُ آلِ إبراهيم هو إبراهيمُ نفسُه عليه السلام، وتفضيلُهم يعني تفضيلَ أَبيهم إبراهيم.

وأَشرفُ آلِ إبراهيم هو نبيُّنا محمد ﷺ، الذي هو أَفضلُ وأَكرمُ وأَشرفُ البشر.

وذِكْرُ «آلِ إبراهيم» في الآية معناه ذِكْرُ الأنبياءِ والمرسلين، فهم يمثلونَ الأنبياءَ بشكل عام، سواء كانوا من آل إبراهيم أم لم يكونوا.

انتهاء آل عمران بحفيديه يحيى وعيسى:

وإذا عَرَفْنا حكمةَ ذكرِ تفضيلِ آلِ إبراهيم باعتبارهم أنبياء، فما حكمةُ ذكر «آل عمران» في الآية؟

عرفْنا أنَّ لعمرانَ حفيديْن اثنين فقط، من جهةِ البنت.

حفيدُه الأول: يحيى عليه السلام، وهو ابنُ بنتِه الأُولى، التي لا نعرف اسمها.

وحفيدُه الثاني: عيسى عليه السلام، وهو ابنُ بنتِه الثانية مريم رضي الله عنها.

أما ابنُه هارونُ، خالُ يحيى وعيسى عليهما السلام، فلا نَعرفُ عنه شيئاً، ولعلَّه لم يتزوج ولم يُنجبْ ذرية! نقولُ هذا من بابِ الظن والتخمين.

ومعلومٌ أنَّ ابنتَه الأُولى لم تُنجبْ إلاّ يحيى عليه السلام، ومعلومٌ أن يحيى عليه السلام كان «حَصوراً» لم يتزوج!

وابنتُه الثانية أَنجبتْ عيسى عليه السلام بأمرِ الله، بدونِ زواج، وعيسى عليه السلام لم يتزوَّجْ أيضاً.

ومعنى هذا أنَّ آل عمران توقَّفوا عند حفيدَيْن يحيى وعيسى عليهما السلام، لأنهما لم يتزوجا ليكونَ لهما نسلٌ وذرية.

ثم إنَّ كُلًّا من الحفيدين الكريمين عليهما السلام ولدَ بطريقةٍ معجزة خارقة.

فيحيى عليه السلام كانتْ ولادتُه معجزةً كما مَرَّ مَعنا، ورزقَ اللّهُ أَبويْه به بعدما يئسا من الإنجاب، وبَلَغا من الكبر عتيًا.

وعيسى عليه السلام كانت ولادتُه خارقةً باهرة، أَنجبتْه أُمُّه بدونِ زواج، وهي العفيفةُ البتول، لأنه كان بأمْرٍ مباشرٍ من الله!

هؤلاء هم «آلُ عمران»، وهذه هي أَجواءُ ولادةِ كلٍّ واحدٍ من حفيديْه عليهما السلام، وهي ولادةٌ خاصةٌ بطريقِ المعجزة.

ولأجلِ هذا كلِّه ذُكِرَ «آلُ عمران»، وقُرنوا مع آلِ إبراهيم، ومع آدم ونوح، عليهم السلام. والله أعلم.

[٣]

ولادة مريم وكفالة زكريا لها

امرأة عمران تنذر ما في بطنها لله:

أَشارَتْ آياتُ سورةِ آل عمران إلى نَذْرِ امرأةِ عمران ما في

بطنِها لله، وإلى أنَّ حَمْلَهَا كان أُنثى، وأنها لما وضعَتْها سَمَّتْها مريم، واستلَمها وكفلَها زكريا:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

«إذْ»: ظرفٌ للزمانِ الماضي في محلّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ مقدَّر. التقدير: اذكُرْ وقْتَ قولِ امرأةِ عمران.

والخطابُ المقدَّرُ للرسولِ ﷺ، وجاءَ الخطابُ له صريحاً في سورةِ مريم، يأمُره اللّهُ بذكْرِ وتذكُّرِ مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ..﴾ [مريم: ١٦].

لما كانت امرأةُ عمران ـ اسمُها من مبهماتِ القرآن ـ حاملاً، نذرَتْ أنْ يكونَ ما في بطنها محرَّراً خالِصاً لله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾.

و«محرَّراً» اسمُ مفعولٍ من التحرير، وهو حالٌ منصوب، وصاحبُ الحالِ هو «ما» الاسم الموصول: «ما في بطني»، الذي يعودُ على الجنينِ الذي تَحْمِلُه في بطنها.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الحرية: «والحُرّ: خلافُ العبد.. والحريةُ ضربان:

الأول: مَنْ لم يَجْرِ عليه حكمُ الشيء. نحوُ قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ..﴾ [البقرة: ١٧٨].

والثاني: مَنْ لم تتملكْه الصفاتُ الذميمة، من الحرصِ والشَّرَهِ على المقتنيات الدنيوية. وإلى العبوديةِ التي تُضادُّ ذلك أَشارَ النبيُّ ﷺ بقوله: «تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبدُ الدرهم...».

وقال الشاعر:

وَرِقُّ ذَوي الأَطْـــمـــاعِ رِقٌّ مُـــخَـــلَّـــدُ

وقيل: عبدُ الشهوةِ أذلُّ مِن عبدِ الرق.

والتحرير: جعلُ الإنسانِ حراً.

ومن الحريةِ التي تضادُّ الرقَّ قولُه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ..﴾ [النساء: ٩٢].

ومن الحريةِ الثانية قولُه تعالى: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

قالَ الشعبي: «مُحَرَّراً»: مُخْلَصاً للعبادة.

وقالَ مجاهد: «محرراً»: خادِماً للبيعة [وهي: الكنيسة].

وقالَ جعفر الصادق: «محرراً»: مُعْتَقاً من أَمْرِ الدنيا..

وكلُّها أقوالٌ متقاربة[١].

أَرادت امرأةُ عمران أنْ يكونَ ما في بطنها مَنذوراً لله، موقوفاً على عبادةِ الله، خالِصاً لدينِ الله، محرَّراً من كلِّ قيدٍ يقيدُه في هذه الحياة.

إنَّ الناسَ أَحرارٌ من حيثُ الرق، ليسوا أرقّاء ولا عبيداً، ولكن ليس هذا كلَّ شيء.

إنَّ الحريةَ الحقيقيةَ للإنسان هي تحرُّرُهُ من قيودِ الذلّ والاستعباد

---

(١) المفردات: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

المعنوي، هي أنْ لا تُقيدَهُ أَهواؤه وشهواتُه وملذاتُه، وأنْ لا تستعبدَهُ الدنيا وما فيها، وأنْ لا ينشغلَ بما فيها عمّا أوجبَهُ اللّهُ عليه وكلّفه به، وأنْ يستعليَ على كلِّ القيودِ التي تُقيدُه، وتُعيقُ عبادتَه.

إنْ كان المؤمنُ هكذا فهو الحُرُّ المحَرَّرُ الخالصُ لله، وإنْ لم يكنْ كذلك فهو عبدُ الدنيا والشهوة، وأسيرُ الهوى والضرورة!

وطلبتْ من اللّهِ أنْ يتقبَّلَ منها نَذْرَها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ونَدعو إلى ملاحظةِ التناسقِ بين الآيتيْن: ٣٤ و٣٥، في خاتمتيهما:

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿.. فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

حيثُ خُتمتْ كلُّ آيةٍ بنفسِ الاسميْن من أَسماءِ الله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

كان حملها أنثى:

ولعلَّ امرأةَ عمران كانتْ تأمَلُ أنْ يكونَ ما في بطنها ذَكَراً، ليَصلحَ أنْ يكونَ منذوراً لله.

وسياقُ القصةِ يُشيرُ إلى أنها أَنجبتْ أُنثى من قبل، وهي التي تزوَّجها زكريا عليه السلام لما كبرت. وأَنجبتْ ذَكَراً، وهو هارون.

ولكن لم يكن الأَمْرُ كما توقعت امرأةُ عمران، فلما وضعَتْ حمْلَها، كانت أُنثى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ..﴾.

وفي الآيةِ جملتانِ معترضتان، أُدخلتا ضمنَ كلام امرأةِ عمران: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ..﴾.

الجملةُ الأولى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: والهدفُ من هذه الجملةِ التأكيدُ على علمِ اللّهِ بما وضعَتْ، وعلمِ اللّهِ بما في بطنِها

عندما نذرَتْ نذرها، وعلمِ اللّهِ بما ستحملُ وتضعُ قبلَ أنْ تحملَ وتضع.

إنَّ اللّهَ هو الذي قَدَّرَ أنْ يرزقَها أُنثى، لحكمةٍ يريدُها، وهو العالِمُ بذلك، وعِلْمُ اللّهِ شاملٌ لكلِّ شيء، محيطٌ بكلِّ شيء، يَعلمُ الأشياءَ قبلَ وقوعها، ويوجدُها وفقَ علمه بها.

فمعنى جملة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: اللّهُ أعلمُ بالمولودِ الذي وضعَتْه، وأنه أُنثى، وأنه جاءَ على غيرِ ما توقعَتْه وأرادَتْه.

ليس الذكر كالأنثى في الشدة، ودلالة معناهما اللغوي على ذلك:

والجملةُ الثانية: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وهي أيضاً ليستْ من كلامِ امرأةِ عمران، وإنما هي تقريرٌ لحقيقةٍ قاطعة، أرادَ اللهُ بيانَها في هذا الموطن.

والراجحُ أنَّ هذه الجملةَ خاصةٌ بالسياق الذي وردَتْ فيه، وهو نَذْرُ ما بطنِ في امرأةِ عمران للعبادةِ والخدمةِ والوقف.

والمعنى: ليس الذكرُ كالأنثى في هذا المجال، لأنَّ خدمةَ بيتِ الله، والتفرغَ لعبادةِ الله في بيتِ الله، لا يتساوى فيه الذَّكَرُ والأنثى، فهو يحتاجُ إلى مزيدٍ من الجهد، والقوةِ والجَلَد، والتحملِ والصبر، يبذلُ فيه صاحبُه كثيراً من الطاقةِ البدنية.

وليس الذكَرُ كَالأنثى في هذا المجال، فالأُنثى قد لا تَقْدِرُ على أداءِ ذلك بصورةٍ جيدة، فالذكَرُ أكثرُ قوةً وطاقةً وجلداً من الأنثى.

ولا نَرى أنْ تُعممَ هذه الجملة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ لتشملَ جميعَ مجالاتِ الحياة بين الرجال والنساء، ولا نَرى استنطاقَ هذه الجملةِ لتدلَّ على التفضيلِ المطلقِ للرجالِ على النساء في كلِّ شيء.

ولا يوجَدُ نصٌّ صريحٌ في تفضيلِ الذكورِ على الإناثِ تفضيلاً ذكورياً، الذكَرُ أَفضلُ باعتباره ذكراً من الأنثى باعتبارها أنثى، لا يوجَدُ

نصٌ على ذلك، بل القرآنُ صريحٌ في اعتمادِ التقوى أساسَ التفضيلِ والتفاضلِ والتكريم: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ..﴾ [الحجرات: ١٣].

أَكرمكُم عند اللهِ أَتقاكم، سواء كان ذكراً أم أنثى!

واللطيفُ في المعنى اللغويّ لكلٍّ من الذكرِ والأنثى أنه قائمٌ على أساسِ التفريقِ المعنوي بينهما.

إنَّ معنى «الذَّكَر» قائمٌ على الشدةِ والقوةِ واليبوسة.

وردَ في المعجم الوسيط: «الذَّكَرُ خلافُ الأنثى. وعضوُ التناسلِ منه.

والذَّكَرُ من الحديد: أَيْبَسُهُ وأَشَدُّهُ وأَجْوَدُه.

ويقال: رجلٌ ذَكَر: قويٌّ شجاعٌ أَبيّ. و: مطرٌ ذكَر: وابلٌ شديد. و: قولٌ ذَكَر: صلبٌ متين»[1].

أَما معنى «الأنثى» فهو قائمٌ على اللُّيونةِ والنعومة.

وردَ في المعجمِ الوسيطِ أيضاً: «أَنُثَ أُنوثَة: لانَ.. و: أَنَّثَ في الأمر: لانَ ولم يتشدَّد.

والأُنثى: خلافُ الذكَرِ من كل شيء.

يقال: حديدٌ أَينث: غيرُ صَلب. و: سيفٌ أَنيثٌ: لَيِّن. و: مكانٌ أَنيث: سهلٌ مِنبات. و: رَجُلٌ أَنيث: لَيِّنُ الكلام، متكسِّرُ الأَعضاء..»[2].

إن اللّهَ حكيمٌ في خلقِ كلٍّ من الذكرِ والأُنثى، فلم يجعلْهما

---

(١) المعجم الوسيط: ٣١٣.

(٢) المرجع السابق.

مُتماثلانِ في كلِّ شيء. وفي موضوعِ الشدةِ والصلابةِ جَعَلَ الذكَرَ أقوى من الأُنثى.

الذَّكَرُ هو الأشدُّ والأمتنُ والأَقوى والأصلبُ، ليؤدّي رسالتَه في الحياة.

والأُنثى هي الأكثرُ ليونةً وسهولة، هي المتكسِّرَةُ الرقيقةُ اللطيفة، لتؤدي وظيفتَها، وتكونَ مطلوبةً مرغوباً فيها.

وصدَقَ اللّهُ القائل: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

حكمة التصريح باسم مريم في القرآن:

ولما وضعت امرأةُ عمران ابنتَها سَمَّتْها «مريم»: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

والراجحُ أنَّ «مريم» اسمُ علمٍ أعجمي، فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقٍ له في اللغةِ العربية.

و«مريمُ» اسمُ الأُنثى الوحيدُ المذكورُ في القرآن. أمّا النساءُ الأخرياتُ فإنهنَّ يُذْكَرْنَ بألقابهنَّ وكُناهُنَّ، فيقال: «أم موسى» و«أخت موسى» و«امرأة فرعون» و«امرأة نوح»، وهكذا.

قالَ الإمامُ الراغب: «مريم: اسمٌ أَعجمي، اسمُ أُمِّ عيسى عليه السلام».

وأَوردَ محققُ كتابِ «مفردات ألفاظ القرآن» الأستاذُ صفوانُ داوودي، فائدةً عن حكمةِ ذكْرِ «مريم» باسمِها الصريح في القرآن: «قال التلمساني: لم يَذكر اللّهُ امرأةً في القرآنِ باسمِها إلاّ مريم، ذكَرَها في نحوِ ثلاثينَ موضعاً.

والحكمةُ فيه أنَّ الملوكَ والأشرافَ لا يَذكرونَ حرائرَ زوجاتِهم بأسمائهن. بل يُكَنُّونَ عنهم بالأهلِ والعيالِ ونحوه، فإذا ذَكَروا الإِماءَ لم يُكَنّوا، ولم يحتشِموا عن التصريح. فلذا صَرَّحَ باسمها، إشارةً إلى أنها

أَمَةٌ من إِماءِ الله وابنِها عبدٌ من عبيدِ الله، رَدّاً على اليهودِ الذين قالوا في عيسى عليه السلام وأُمّه ما قالوا...»[1].

الله أعاذ مريم وابنها من الشيطان:

وأَعاذت امرأةُ عمران ابنتَها مريمَ وذريتَها من الشيطان: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

لجأت هذه المرأةُ المؤمنةُ إِلى الله، ليحميَ ويُعيذَ ابنتَها من شرِّ الشيطانِ الرجيم. وهذا من قوةِ إِيمانِها بالله، واعتمادِها عليه.

وعندما ننظرُ في الآياتِ التي سجلَتْ دعاءَ امرأةِ عمران، فإننا ندركُ منها صفاءَ روحها، وعظمةَ إِيمانها، وحرارةَ اتصالِها بالله، يظهرُ ذلك من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. ومن قولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

ولْنتأمَّلْ جمالَ ذكْرِ حرفِ «إِنّ» الذي هو حرفُ توكيدٍ ونصبٍ خمسَ مرات في الآيات، وفي كلِّ مرة يزدادُ المعنى توكيداً، ويزدادُ السياقُ جمالاً: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ...﴾ و﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ و﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ و﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ و﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

و«ذريتها» محصورةٌ في ابنها عيسى عليه السلام، لأنَّ ظاهرَ السياقِ القرآني على أنَّ مريمَ لم تتزوج، وأَنها أنجبتْ عيسى بأمرٍ من الله، وعيسى عليه السلام رُفعَ إِلى السماءِ ولم يتزوج، فليس له ذريةٌ ولا نسل.

وقد استجابَ اللّهُ دعاءَ امرأةِ عمران فأعاذَ مريمَ من الشيطانِ الرجيم، وأَعاذَ ذريتَها ـ ابنَها عيسى ـ من الشيطانِ الرجيم أيضاً.

---

(١) المفردات: ٧٦٦ حاشية.

لم يكن للشيطانِ سبيلٌ لمريم وابنِها عيسى، ولم يكن له سلطانٌ عليهما، فحفظهما اللّهُ من وساوسه ونزغاته.

بل إنه لم يمسّ مريمَ حين ولادتها، ولم يمسّ عيسى أيضاً حين ولادته. وصرَّحَ بهذه الحقيقةِ رسولُنا ﷺ.

بكاء المولود حين ولادته بسبب طعن الشيطان له:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «ما مِنْ بَني آدمَ مولودٌ إلاّ يمسُّه الشيطانُ حين يولَد، فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطان، غيرَ مريمَ وابنِها».

ثم قرأَ أبو هريرة قول الله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1].

يُفسِّرُ لنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث سرَّ بكاءِ المولودِ عندما يخرجُ من بطنِ أمه، ويُبينُ أَنه بسببِ مَسِّ الشيطانِ له، وطعْنِه في بدنه! ولا بدَّ أنْ نأخذَ كلامَه بالتصديق، وليسَ بالشكِّ والريب، فإننا نعلمُ أَنَّ العداوةَ بين الإنسان والشيطان متأصلة، وأَنَّ الشيطانَ حريصٌ على إِيذاءِ الإنسان وإبعادِه عن الله، وإِغوائِه وإِضلالِه، وأَنَّ اللّهَ جعلَ له بعضَ القدرةِ على ذلك، امتحاناً من الله للإنسان.

ولا يَتعارضُ هذا الحديثُ الصحيح مع أيِّ تعليلٍ ولا تفسيرٍ علميٍّ يقيني، لسِرِّ بكاءِ الطفل عند خروجه من بطنِ أُمه، باعتباره سَبباً آخر يُضافُ إِلى مَسِّ الشيطانِ له وطعْنِه في بدنه.

أَمّا مريمُ وابنُها عيسى عليه السلام فإن اللّهُ قد حَماهُما من هذهِ الطعنةِ الشيطانية، بفضْلِ دعاءِ أُمِّها الصالحة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣١. ومسلم برقم: ٢٣٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧١.

ولما وُلِدَ عيسى عليه السلام، وأَرادَ الشيطانُ أنْ يمسَّه ويطعَنَه، حَماهُ اللّهُ منه، فلم تُصبْهُ طعنةُ الشيطان.

روى أَحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كلُّ بني آدمَ يَطعنُ الشيطانُ في جنبيه بإصبعِه حينَ يولَد، غيرَ عيسى ابنِ مريم، ذهبَ يَطعن، فطعنَ في الحجاب»[1].

ولعلَّ المرادَ بالحجابِ هنا ملابسُ عيسى عليه السلام التي حَجبَتْ عنه طعنةَ الشيطان، أو ساترٌ ماديٌّ منعَ وصولَ طعنةِ الشيطانِ إليه..

إخبار الله عن تنازع العابدين في كفالة مريم دليل على النبوة:

وبعدَما وضعت امرأةُ عمران ابنتَها مريم، قامتْ بالوفاءِ بنذرها، وأرسلَتْها إلى مكانِ العبادة.

ولما شاهدَ العابدونَ الطفلةَ تَنازعوها واختلفوا فيها، فكلُّ واحدٍ منهم يريدُ أنْ ينالَ شرفَ كفالَتِها والإشرافِ عليها، واختصَموا في ذلك، ولم يجدوا حَلًّا إلاّ بالقرعة.

وقد أَخبرَ اللّهُ محمداً ﷺ في القرآنِ بهذه المعلومة، واعتبرَها دليلاً على النبوة والوحي، وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ الله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

«ذلك»: إشارةٌ إلى مجموعِ الأَخبارِ الواردةِ في الآياتِ السابقة، مِن نَذْرِ امرأةِ عمران لما في بطنها لِلّه، إلى كفالةِ زكريا لمريم، إلى بشارتِه بيحيى، إلى كلامِ الملائكة لمريم.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: هذه الأَخبار مِنْ أَنباءِ الغيب، واعتبرَتْها الآيةُ غيباً لأَنها وقعَتْ في الماضي، وحدثَتْ قبلَ قرونٍ من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢:٥٢٣. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٨١.

حياةِ الرسول ﷺ، وبما أنه لم يكنْ موجوداً عند حدوثها فهي غيبٌ بالنسبةِ له. واللّهُ هو الذي أوحى بهذه الأنباءِ لرسولِه ﷺ، وأخبرَه بها، وهذا يُثبتُ نبوةَ محمدٍ ﷺ.

ووجْهُ دلالتِها على النبوةِ والوحي أنَّ أهلَ الكتاب من اليهودِ والنصارى يعلمونَ أنَّ محمداً ﷺ أُمّيّ، لا يكتبُ ولا يَقرأ، وهذا معناه أنه لم يعلمْ بهذه الأخبارِ من الكتب، ولم يصاحِبْ أحبارَ ورهبانَ أهلِ الكتاب، فكيفَ علمَ بهذه الأخبارِ الخفية التي لا يَعلمُها إلاّ عددٌ قليلٌ من الأَحبارِ والرهبان؟

إنَّ اللّهَ هو الذي أوحى إليه بها، فهو رسولُ الله ﷺ.

وقالَ اللّهُ لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وتشيرُ هذه الآيةُ إشارةً موجزةً مبهمةً إلى اختصامِ واختلافِ وتنازعِ العابدين في المعبدِ في كفالةِ الطفلةِ الصغيرة مريم، فلم يتفقوا على واحدٍ منهم، لذلك كان لا بدَّ من القرعة.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾: ما كنتَ يا محمدُ عند هؤلاء العابدين الصالحين وفيهم نبيُّ اللّهِ زكريا عليه السلام، لتعلمَ تنازُعهم واقتراَعهم على كفالةِ مريم، ولكنك علمتَ ذلك بإعلامِ وإخبارِ اللّهِ لك.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾: «إذْ» ظرفُ زمانٍ للماضي بمعنى «حين». و«أقلامهم»: سِهامُهم التي اقترعوا بها على كفالةِ مريم.

اقترع العابدون بسهامهم لكفالة مريم:

قال مجاهد: «يُلقون أَقلامهم»: هم زكريا عليه السلام وأَصحابُه، اسْتَهَمُوا بأَقلامِهم على مريم، حين دخلتْ عليهم.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: اقْترعوا وأَلقوا سهامَهم وأَقلامَهم ليَنظروا

ويَعرفوا، فمَنْ خرجَ سهمُه فهو الذي كفَّلَه اللّهُ مريم، وهو الأحقُّ والأَولى بها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: لم تكنْ يا محمدُ عندهم وهم يختصمون أَثناءَ التنازعِ والاختلافِ على كفالتها، وهذه الجملةُ تأكيدٌ لما قبلها، لإِثباتِ الوحيِ والنبوة.

كما أنَّ هذه الجملةَ تُشيرُ إلى أنَّ اختلافَهم في الكفالة كان شديداً، حيثُ أَدّى إلى اختصامِهم ونقاشِهم وجدالِهم فيما بينهم، وارتفاعِ أصواتِهم في عرضِ حجةِ ودليلِ كلِّ واحدٍ منهم.

وكان هذا الاختصامُ والاختلافُ قبلَ الاتفاقِ على القرعة، أمّا بعدَ اقتراعِهم، وخروجِ سهمِ زكريا عليه السلام فقد زالَ الاختلافُ والتنازعُ بينهم.

ولم يُفَصِّل القرآنُ في كيفيةِ إلقائِهم أقلامَهم، بل جعلَها مبهمة، ولا نُحاولُ الوقوفَ على تفاصيلِ ذلك، لعدمِ وجودِ دليلٍ عليه، وعدمِ تحققِ فائدةٍ منه.

وليس المرادُ بالأَقلام هنا الأَقلامُ التي يُكتبُ بها، وإِنما السهامُ التي تُستخدمُ في القرعة.

قالَ الإمامُ الراغب: «أَصْلُ القَلْمِ: القَصُّ من الشيءِ الصلب، كالظُّفْر، وكعْبِ الرمح والقَصَب...

وخُصَّ القَلَمُ بما يكتبُ به، وبالقَدَحِ الذي يُضربُ به، وجمعه أَقْلام. ومعنى «يلقون أقلامهم»: يُلقون قِداحَهم»[1].

إنَّ هذه الآيةَ توبخُ أهلَ الكتابِ أيضاً، حيث كَذَّبوا رسولَ الله ﷺ، فكيفَ يكذِّبونه، وهو يقدِّمُ لهم هذه الأَنباء، التي لم يشهدْها، ولم يكنْ مع زكريا وأَصحابِه عندما اختصموا واستَهَمُوا وأَلقوا

---

(١) المفردات: ٦٨٣.

أَقلامَهم، ولم يَقرأْ هذه الأَنباءَ في كتب، لأَنَّه أُمِّيٌّ لا يَقرأ، ولأَنَّ هذه المعلومةَ لم تَرِدْ في كتبِ أَهلِ الكتاب؟...[1].

الله كفل مريم زكريا:

قدَّرَ اللّهُ أنْ يتكفَّلَ زكريا مريم، فأَخرجَ سَهْمَهُ في القرعة، ورضيَ العابدون الآخَرون بهذا، لأَنَّهم مؤمنون صالحون، يَعلمونَ أَنَّ اللّهَ هو الذي قدَّرَ هذا وأَرادَه.

وهكذا كانت الطفلةُ في كفالةِ زكريا عليه السلام.

ومن حكمةِ اللّهِ الحكيم في هذا أَنَّ زكريا هو الأَحقُّ والأَوْلى بكفالتها، لأَنه أَقربُ الناسِ إِليها، فهو زوجُ أُختها، أي أَنَّ مريمَ ستكونُ عندَ أُختها الأَكبرِ منها، وأُخْتُها حريصةٌ عليها، فكأَنَّها عندَ أُمِّها!.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ..﴾.

والمعنى أَنَّ اللّهَ استجابَ دعاءَ أُمِّها الصالحة، فتقبَّلَ الطفلةَ مريم بقَبولٍ حسن، وأَنبتها نباتاً حسناً.

وردَ في تهذيبِنا لتفسيرِ الإمامِ الطبري عن القَبول والنباتِ ما يلي:

«قَبول»: هو مصدرُ الفعل الثلاثي «قَبِلَ». بينما مصدرُ الفعلِ المضعَّفِ «تَقَبَّلَ» هو: «تَقَبُّلٌ».

كذلك: «نَباتاً» مصدر الفعل الثلاثي «نَبَتَ». بينما مصدرُ الفعلِ الرباعي «أَنْبَتَ» هو «إِنْبات».

وقد ذَكرت الآيةُ «قَبول» و«نَبات» مصدريْن للفعليْن «تَقَبُّل» و«أَنبت».

مع أَنَّ مصدريْهما هما «تَقَبُّلٌ» و«إِنْبات».

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٨.

والعربُ يأتونَ أَحياناً بالمصادرِ على أُصولِ الأَفعالِ الثلاثية، فيقولون: تكلمَ فلانٌ كلاماً، والأَصْلُ أَنْ يقولوا: تكلَّمَ تكلُّماً.

وللاتيان بمصدرِ الثلاثي «قَبول» و«نَبات» للفعلِ غيرِ الثلاثي: «تَقَبَّلَ» و«أَنْبَتَ» توجيهٌ آخر، ليسَ هذا موضعَ تقريره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قراءتان:

الأُولى: قراءةُ عاصم وحمزة والكسائي: «كَفَّلَها زكريا» بتشديدِ الفاء، وإِسنادِ الفعلِ إلى الله. فاللّهُ هو الذي جعلَ زكريا كافلاً لها.

وفاعلُ «كَفَّلَها» يعودُ على الله. والهاءُ في الفعل في محلِّ نصبِ مفعولٍ به أَول. و«زكريا» مفعولٌ به ثان منصوب. والمعنى: كَفَّلَ اللّهُ مريمَ زكريا.

الثانية: قراءةُ نافع وابنِ كثير وابنِ عامر وأبي عمرو: «وَكَفَلَها زكريا». بتخفيفِ الفاء، وإِسنادِ الفعلِ إلى زكريا.

وفاعلُ «كَفَلَها» هو «زكريا» المؤخَّر. والهاءُ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم. والمعنى: كَفَلَ زكريا مريم[1].

جعلَ اللّهُ زكريا كافلاً لمريم، وهو النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، لأَنَّ اللّهَ يُعِدُّها لأَمْرٍ عظيم، ولهذا عاشَتْ مريمُ طفولَتَها وشبابَها عند زكريا عليه السلام، واقتبسَتْ منه العلمَ والمعرفة، واقتدَتْ به في العبادةِ والذكر، واستفادَتْ منه الخُلُقَ والسلوك، فنشأَتْ نشأَةً إِيمانيةً صالحة، وكانت عابدةً ذاكرةً زاهدة، مقبلةً على الله، متصلةً به سبحانه.

ومضت السنواتُ ومريمُ في كفالةِ زكريا، حتى صارتْ فتاةً بالغةً واعيةً ناضجة، وهي مقبلةٌ على عبادتِها واتصالِها بالله وذكْرِها له.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

كرامة لمريم برزق الله لها وهي في المحراب:

وقد أكرمَها اللّهُ إكراماً، حيثُ كان يرزقُها رزقاً خاصّاً، وهي عابدةٌ معتكفةٌ في المحراب، ورأى زكريا عليه السلام ذلك: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وكلمةُ «كلما» تدلُّ على التكرار، أي أنَّ الرزقَ كان يأتي مريم وهي في المحرابِ باستمرار، بدونِ كَدٍّ ولا سعيٍ ولا كسبٍ منها، فهي في المحراب، متفرغةٌ فيه للعبادةِ والذكرِ والصلاة والمناجاة، واللّهُ يكرمُها بتقديمِ الرزقِ لها بخارقةٍ ليست مألوفةً ولا معروفة.

وكلّما دخلَ عليها زكريا المحرابَ يجدُ عندها ذلك الرزق، وهو يعلمُ أَنه لم يقدِّمْه هو لَها، وهو المتكفلُ بتقديم الطعام لها، فيتعجبُ من ذلك ويسألُها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾؟: أي مِنْ أيِّ مصدرٍ ووجْهٍ جاءك هذا الرزق؟

إنه يعلمُ أن هذا الرزقَ لم يأْتِها من عندِ الناس، وسيكونُ من عندِ الله، وسؤالُه ليسمعَ الجوابَ منها، وهو عالمٌ به.

فتجيبه بصراحةٍ قائلة: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. أي: اللّهُ هو الذي ساقَ لها الرزق، وأوصلَه إِليها وهي في المحراب، بدون سعيٍ ولا تحصيلٍ منها.

قالَ الحسنُ البصري: كان زكريّا إِذا دخلَ على مريمَ المحراب، وجدَ عندها رزقاً مِن السماء، مِن الله، ليسَ من عندِ الناس، ولو أنَّ زكريا كانَ يعلمُ أنَّ ذلك الرزقَ من عنده لما سألَها عنه![1].

وعقَّبَ القرآنُ على جوابِ مريم بالتذكيرِ بحقيقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٥٥.

فهذه الجملةُ ليست من تمامِ جوابِ مريم، بل هي خبرٌ من الله، يخبرنا فيه أَنه يسوقُ الرزقَ إِلى مَنْ يشاءُ مِن خلقه، بغيرِ حسابٍ ولا إِحصاءٍ ولا عَدٍّ يَحسبُه عليه.

إِنَّ اللّهَ لا يُحصي ولا يحاسبُ عبْدَه على ما يرزقُه إِياه، لأَنَّ إِخراجَ ذلك الرزقَ لا يُنقصُ خزائنَه سبحانه. فالذي يحسبُ ويحاسبُ ويعدُّ ويُحصي هو الذي يخشى النقصانَ من رزقه![1].

كرامات الأولياء غير معجزات الأنبياء:

وتقديمُ الرزقِ إِلى مريمَ وهي في المحراب إِثباتٌ للكرامة التي ساقها اللّهُ لها، لأَنه كانَ بطريقةٍ خارقةٍ غيرِ مألوفة. ومريمُ ليستْ نبيةً لنعتبرَ هذه الخارقةَ معجزة، فالمعجزاتُ مختصةٌ بالأَنبياء، وإِذا وقعت الخوارقُ من اللّهِ لغيرِ الأنبياء تُسمى كرامات.

وهذا دليلٌ قرآنيٌّ على إِمكانيةِ الكرامةِ للأولياء، بل على وقوعِها وحدوثِها، وهناكَ أدلةٌ قرآنيةٌ أُخرى على إِثباتِ الكرامة للأَولياءِ الصالحين، كما حصلَ لأَصحابِ الكهف الصالحين.

ونحنُ نُثبتُ الكراماتِ للأولياء، كما نُثبتُ المعجزاتِ للأنبياء، ونُؤمنُ بحصولِها لهم، وأَنَّها مِن فعْلِ اللّهِ تكريماً لهم، وشَرْطُنا في قَبولها ذِكْرُها في آيةٍ صريحة، أَو في حديثٍ صحيح مرفوع. ولا نلتفتُ إِلى كلامِ الذين يُنكرونَ الكراماتِ للأولياء، لأَنه يتعارضُ مع كلامِ اللّهِ وكلامِ رسوله ﷺ!

آتى الله مريم كل ما تحتاجه من الرزق:

وكلمةُ «رزقاً» في قوله: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ نكرةٌ مُنَوَّنَة، وهذا التنكيرُ والتنوينُ يدلُّ على التعميم والشمول، وهو مقصود. فالرزقُ الذي كان يأتيها به اللّهُ يشملُ جميعَ ما تحتاجُه من الطعام والمأكولات.

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٦.

كما أنَّ هذا التنكيرَ يدلُّ على الإبهام، حيثُ لم يذكُرْ شيئاً من أَصنافِ الرزقِ المقدَّمِ لها، وهو يَدْعونا إلى عدم الخوضِ في تحديدِ أَصنافِ ذلك الرزق، من اللحومِ والخضارِ والفواكهِ والمأكولات والمشروبات، لأنَّ هذا لا دليلَ عليه، ولا فائدةَ منه، فَلْنُبْقِ الكلمةَ «رزقاً» على إبهامِها اللطيفِ الجميل!.

وعندما رأى زكريا عليه السلام إكرامَ اللّهِ لمريمَ بهذه الكرامةِ الخارقة، رغبَ هو في تكريمِ اللّهِ له بمعجزةٍ خارقة، فطلبَ من اللّهِ أنْ يرزقَهُ بغلامٍ وارث، فاستجابَ اللّهُ له.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٨ ـ ٤٠].

وقد تكلمنا عن هذه الآيات عند حديثنا عن قصة زكريا ويحيى عليهما السلام.

[٤]

اصطفاء مريم على النساء وما ترتب عليه

الملائكة تخبر مريم باصطفاء الله لها:

أَخبرت الملائكةُ مريمَ رضي الله عنها بأنَّ اللّهَ اصطفاها وفضَّلَها على نساءِ العالمين، وطالَبَتْها بالصلاةِ والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

«إذْ» ظرفٌ للزمانِ الماضي، في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ محذوف، تقديره: اذكُرْ إذْ قالت الملائكة. أي: اذكُرْ وقتَ قولِ الملائكة لمريم.

وهذا التذكيرُ لرسول الله ﷺ، ولكلِّ مسلم من بعده، ليتذكَّرَ قصةَ مريم واصطفائِها وتطهيرها، وقيامِها بعبادة الله وشُكره.

أَرسلَ اللّهُ ملائكةً لتخبرَ مريمَ باصطفائها، كما أرسلَ ملائكةً من قبلُ لزكريا لتبشِّرَه بيحيى عليهما السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ..﴾ [آل عمران: ٣٩].

ولا غرابةَ في خطابِ الملائكةِ لمريم، مع أنها ليستْ نبية، لأنَّ هذا كانَ بأمْرِ الله، إنَّ اللّهَ يرسلُ الملائكةَ لتخاطبَ الأنبياء، وهذا معروف، وقد يرسلُ ملائكةً لتخاطبَ صالحين وصالحات، كما خاطبت امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام، وأَزالت استغرابَها من حملِها بإسحاق وهي عجوزٌ عقيم.

المهمُّ أَنَّ مريمَ رضي الله عنها رأتْ أَمامَها ملائكة، ولعلَّها رأَتْهم بعدما تَحَوَّلوا من صورتِهم الملائكيةِ إلى صورةٍ بشرية.

ولم تُبين الآيةُ عددَ الملائكةِ الذين خاطبوها، ولم تَذْكُرْ أسماءَهم، فهذا من مبهماتِ القرآن الذي لا نخوضُ فيه.

أخبرت الملائكةُ مريمَ باصطفاءِ الله لها وتطهيرِها واصطفائها على نساء العالمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

معنى «اصطفاك»: اختارَك واجْتباك لطاعته، وخصَّك لكرامته.

ومعنى «طهرك»: طَهَّرَ بدنك من الرِّيَبِ والأَدناس والأَرجاس التي قد تكونُ في أَبدانِ بعضِ النساء.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: فضَّلَك على نساءِ العالَمين في زمانك.

وإِخبارُها باصطفاءِ الله لها وتطهيرِها وتفضيلِها على نساء العالمين تمهيدٌ للأمر بعبادتِها وقنوتِها وطاعتها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقيامُها بالعبادةِ والركوع والسجود والصلاة والقنوت شكرٌ منها لله الذي اصطفاها واختارها، فهي تُقابلُ فضْلَ اللّهِ عليها بطاعته وعبادته.

كما أنَّ قيامَها بذلك تهيئةٌ وإِعدادٌ لتلقّي أَمْرِ الله، حيثُ سيحقّقُ فيها إرادتَه، ويجعلُها تنجبُ ولداً مباشرة.

توجيه الاصطفاءين من الله لمريم:

واصطفاءُ اللّهِ لمريم ناتجٌ عن اصطفائِه لآل عمران:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ..﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

وبَيَّنّا سابقاً أنَّ «آل عمران» هم: أَبوها وأمها وأخوها وأختها، وهي معهم. فهم خمسة أشخاص.

أي أنَّ اللّهَ اصطفى مريم مرتيْن:

مرةً باعتبارها ابنةَ عمران، فهي واحدةٌ من آلِ عمران، وهذا من الاصطفاءِ العامّ لآلِ عمران، باعتبارِها واحدةً من آل عمران.

ومرةً باعتبارِها مريم التي يُعدُّها اللّهُ لولادةِ ابنٍ بدونِ أَب.

والاصطفاءُ الثاني هو المرادُ بقول الملائكة لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ...﴾.

وقد ذُكِرَ الاصطفاءُ الثاني الخاصُّ بها مرتيْن في الآية: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الاصطفاءُ الأول: بمعنى الاجتباءِ والانتقاء. فاللّهُ اجتبى مريمَ وانتقاها من بينِ النساء، وأَخَذَها من بينهم، وجعلَها محلاً لتحقيقِ أَمره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ..﴾.

والاصطفاءُ الثاني: بمعنى التفضيل، فاللّهُ فَضَّلَ مريمَ على نساء العالمين.

والاصطفاءُ الثاني ثمرةٌ للاصطفاء الأول، ونتيجةٌ له، فعندما اجتبى اللّهُ مريمَ واختارَها من بين نساءِ العالمين، فقد فضَّلَها على باقي نساءِ العالمين.

فلا تكرارَ في الحقيقةِ في الآية، لأنَّ الاصطفاءَ في المرة الثانية ليس بمعنى الاصطفاءِ في المرة الأولى، بل هو ثمرةٌ له.

ولذلك لم تَرِد في المرةِ الأولى النساء، ولم يُذْكرْ حرفُ «على»، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ فقط.

بينما ذُكِرَ حرفُ «على» والنساءُ المفضَّلُ عليهن في المرة الثانية: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

والاصطفاءُ مشتقٌ من الصَّفاء. قال الإمام الراغب: «أَصْلُ الصفاء: خلوصُ الشيءِ من الشَّوْب. ومنه: الصَّفا، للحجارةِ الصافية.

والاصطفاءُ: تناولُ صفْوِ الشيء. كما أَنَّ الاختيارَ تناولُ خَيْرِه..

واصطفاءُ الله بعضَ عبادِه، قد يكونُ بإيجادِه إيّاه صافياً عن الشَّوْبِ الموجودِ في غيره. وقد يكونُ باختيارِه وبحكمِه، وإنْ لم يَتَعَرَّ ذلك من الأول.

واصطفيتُ كذا على كذا أي: اخترتُه عليه..»[1].

اصطفى اللّهُ مريمَ وانتقاها من بينِ النساء، ونَشَّأها نشأةً حسنة، وأَنبتها نباتاً حسناً، وأسبغَ عليها نِعَمَهُ وتوفيقَه ورعايتَه، وأَلهمَ أُمَّها أنْ تنذرَها له وهي في بطنها، ليجعلَها خالصةً محررةً له، وهيأَ لها الحياةَ

(١) المفردات: ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

والعيشَ تحت كنفِ ورعايةِ نبيٍّ كريم هو زكريا عليه السلام، وقدَّمَ لها الرزقَ المنوَّعَ الشاملَ وهي في المحراب تكريماً لها.

ولم تتوفَّرْ هذه الأمورُ لأيِّ امرأةٍ غيرِها، مهما بلغَتْ من الصلاحِ والتقوى، وهذا هو الاصطفاءُ الأول لها، القائمُ على الانتقاءِ والاجتباء.

وبما أنَّ اللّهَ اصطفاها وانتقاها، فقد صفّاها وخَلَّصَها من الشوائب، وطهَّرَها من الأدناس والأرجاس: «وطهرك».

واصطفاها اللّهُ على نساءِ العالمين وفضَّلَها عليهن جميعاً في إنجابها الولدَ بدون أب، حيث خصَّها وحدَها بهذه الآيةِ الباهرة، والمعجزةِ الخارقة.

شهادة القرآن بطهارة مريم وتعليق سيد قطب:

وورودُ هذه الشهادةِ لمريم في القرآن، مع أنَّ الرسولَ ﷺ كان يخوضُ معركةً فكريةً شديدةً مع النصارى، دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، ومظهرٌ من مظاهرِ الإنصافِ والعدل في الإسلام.

قالَ سيد قطب: «والإشارةُ إلى الطهرِ هنا إشارةٌ ذاتُ مغزى. وذلك لِما لابسَ مولدَ عيسى عليه السلام من شبهات، لم يَتورع اليهودُ أنْ يُلصقوها بمريمَ الطاهرة، معتمدين على أنَّ هذا المولدَ لا مِثالَ له في عالم الناس، فيزعموا أنَّ وراءَه سرّاً لا يُشرِّفُ.. قبَّحهم اللّهُ!!.

وهنا تظهرُ عظمةُ هذا الدين، ويَتبينُ مصدرُه عن يقين.

فها هو ذا محمدٌ ﷺ، رسولُ الإسلامِ الذي يَلقى من أهلِ الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما يلقى من التكذيبِ والعنتِ والجدلِ والشبهات..

ها هو ذا يُحَدِّثُ عن ربِّه بحقيقةِ مريم العظيمة، وتفضيلِها على «نساء العالمين»، بهذا الإطلاقِ الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم، ويتخذونَ من تعظيمِها مبرراً لعدمِ إيمانهم بمحمدٍ وبالدين الجديد!

أيُّ صدق؟ وأيةُ عظمة؟ وأيةُ دلالةٍ على مصدر هذا الدين، وصدقِ صاحبه الأمين!

إنه يتلقى «الحقّ» من ربِّه، عن مريم وعن عيسى عليه السلام، فيعلنُ هذا الحق، في هذا المجال، ولو لم يكنْ رسولاً من اللّهِ الحقِّ ما أَظهرَ هذا القولَ في هذا المجالِ بحال!»[1].

أحاديث في تفضيل مريم ورجاحة عقلها:

وبما أنَّ اللّهَ اصطفى مريم على نساءِ العالمين، فقد فضَّلَها عليهن، وجعلَها من خيرهن، وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن فضلِها وخيريتها، وأَنها ليستْ وحدَها في ذلك، وإِنما معها نساءٌ فاضلاتٌ مؤمنات.

روى البخاريُّ ومسلم عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «خَيْرُ نسائِها مريمُ ابنةُ عمران، وخيرُ نسائِها خديجةُ بنتُ خويلد..»[2].

والضميرُ في «نسائِها» يعودُ على الجنة، أي: خيرُ نساءِ الجنة مريمُ وخديجةُ رضي الله عنهما.

وذِكْرُهما من بابِ التمثيل وليس من باب الحصر، فهناكَ حديثٌ آخر ذَكَرَ أربعَ نساء، هنَّ من خيرِ نساءِ الجنة.

فقد روى أحمدُ والحاكم وغيرهما عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: «خَطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرضِ أَربعةَ خطوط، فقال: أَتدرون ما هذا؟

قالوا: اللّهُ ورسولُه أَعلم.

فقالَ عليه الصلاة والسلام: أَفضلُ نساءِ أهل الجنة: خديجةُ بنت

(١) في ظلال القرآن ١:٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٢. ومسلم برقم: ٢٤٣٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٤.

خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، ومريمُ بنت عمران، وآسيةُ بنت مزاحم، امرأة فرعون»[1].

وقد شهدَ رسولُ الله ﷺ لمريمَ بكمالِها ورجاحةِ عقلها. فروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «كَمُلَ من الرجال كثير. ولم يكملْ من النساءِ إلاّ آسيةُ امرأةُ فرعون، ومريمُ ابنة عمران، وإنَّ فضْلَ عائشةَ على النساءِ كفضْلِ الثريدِ على سائر الطعام..»[2].

كملَ عقلُ مريم لأنّ اللّهَ أَجرى لها خارقةً في ولادتها عيسى.

وكملَ عقلُ آسيةَ بنتِ مزاحم امرأةِ فرعون، لأنها اختارت الإيمانَ بالله، رغمَ أنها امرأةٌ لأظلم حاكم، وأعتى كافر، الذي ادعى الألوهية والربوبية.

ولعائشةَ فضْلٌ على باقي النساء كفضْلِ الثريد على باقي الطعام، والثريدُ هو الخبزُ يُقَطَّعُ ويُفَتَّت، ثم يُسكبُ عليه اللحمُ بالمرق.

إذنْ فَضَّلَ اللّهُ مريمَ على نساءِ العالمين، وجعَلَها من خيرِ وأفضلِ نساءِ العالمين، وهي خامسةُ أَربعِ نساءٍ ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ فَضْلَهُنَّ على باقي النساءِ المؤمنات: آسيةُ بنتَ مزاحم، ومريمُ ابنة عمران، وخديجةُ بنت خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، وعائشةُ بنت أبي بكر، رضي الله عنهن جميعاً.

قنوت مريم وسجودها وركوعها مع الراكعين:

ماذا ترتَّبَ على اصطفاءِ مريم واختيارها؟

عليها أنْ تقابلَ هذا بالشكر، وشكرُها يكونُ بالإكثارِ من القنوت والعبادة. ولهذا قالَتْ لها الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١:٢٩٣. والحاكم ٢:٥٩٤ ـ ٥٩٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١١. ومسلم برقم: ٢٤٣١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٦.

والقنوتُ هو الطاعةُ مع الخشوع، والاستمرارُ على ذلك، والإخلاصُ في طاعةِ الله والخضوع له.

والسجودُ والركوعُ معروفان، باعتبارِهما ركنَيْن من أركانِ الصلاة.

وقُدِّمَ السجودُ على الركوع في الآية: ﴿ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

وحكمةُ تقديمِه على الركوع أنه هو الأنسبُ مع القنوت.

فالقُنوت: «هو لزومُ الطاعةِ مع الخضوع» ـ كما قالَ الإمامُ الراغب[1] ـ وهذا يناسبُه ذِكْرُ السجودِ بعده، لأنَّ السجودَ حركةٌ عملية تمثلُ غايةَ القنوت، وذروةَ الخضوعِ والخشوع.

فالإنسانُ عندما يَسجد، ويضعُ جبهتَه على الأرض، ويُناجي ربَّه بخشوع، يكونُ قانتاً خاضعاً خاشعاً.

والملاحَظُ أنَّ التعبيرَ جاءَ بصيغةِ ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾. فعبَّرَ بجمعِ المذكَّرِ السالم، ولم يُعبر بجمعِ المؤنث، فلم يقل «مع الراكعات»، مع أنَّ مريمَ أُنثى رضي الله عنها.

وهذا مثلُ قولِه تعالى في الثناء على مريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]. ولم يقل «من القانتات».

ولعلَّ ذِكْرَ القانتين والراكعين بصيغةِ المذكَّرِ من باب التغليب، حيث غَلَّبَ القانتين والراكعين على القانتات والراكعات.

ولعلَّ هذا يتفقُ مع الحياةِ التي عاشَتْها مريم، رضي الله عنها، عندما كانَتْ في كفالةِ زكريا عليه السلام، ومع العابدين القانتين الراكعين من الصالحين.

---

(١) المفردات: ٦٨٤.

ولعلَّ هذا يتناسبُ مع حياتِها الخاصة رضي الله عنها، عندما أَنجبتْ ابنَها عيسى عليه السلام من غيرِ أب، وحيثُ لم تقترن برجل، ولم تُمارسْ حياتَها باعتبارِها امرأةً وزوجاً لرجل.

[٥]

جبريل يبشر مريم بعيسى

كانَ إِخبارُ الملائكةِ مريمَ باصطفاءِ اللّهِ لها وتفضيلِها على نساءِ العالمين تمهيداً لإِخبارِها أنها ستنجبُ ولداً بأمر الله.

ولذلك بعثَ اللّهُ الملائكةَ إلى مريمَ مرةً ثانية، لتبشرَها بذلك الولدِ المعجزة، وكان هذا بعدَ فترةٍ من الإِخبارِ الأول، اللّهُ أعلمُ بمدتها.

المراد بالملائكة جبريل وحده:

قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨].

«إِذْ»: ظرفٌ لما مضى من الزمان، وهو في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ مقدَّر، وما بعدَه في محلِّ جرٍّ مضافٍ إِليه، والتقدير: اذكُرْ حينَ قالت الملائكة. أي: اذكُرْ قولَ الملائكة لمريم.

والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، ولكلِّ مؤمنٍ ذاكرٍ متذكِّرٍ من بعده.

واختلفَ المفسرون في الملائكةِ التي قالتْ لمريم هذا القول، وقدمتْ لها هذه البشرى، هل هي مجموعةٌ من الملائكة أم جبريل وحده؟

ذهبَ بعضُهم إِلى أَنهم مجموعةٌ من الملائكة، أرسلَهم اللّهُ إلى مريم لتبشيرِها بالبشرى، قبلَ أنْ يأتيها جبريل وينفخَ فيها كما ذكرتْ آياتُ سورةُ مريم.

وبذلك أخذَ الآيةَ على ظاهرها، كما جاءت الملائكةُ إِلى مريم من قبل، وأخبرتْها بأنَّ اللّهَ اصطفاها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وممن قال بذلك الإمامان ابنُ جرير وابنُ كثير[١]..

وقالَ آخرون: الذي قال لمريمَ هذا القول هو جبريلُ فقط عليه السلام، أَرسلَه اللّهُ إلى مريم ليبشرَها بهذه البشرى.

وممن قالَ بذلك الإمامُ الرازي. واعتبرَ هذه الآية التي أطلقت العامَّ «الملائكة» وأرادت الخاصَّ «جبريل»، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ..﴾ [النحل: ٢].

فالمرادُ بالملائكة هنا جبريل وحده عليه السلام، لأَنه هو أَمينُ الوحي، الذي يَنزلُ على الأنبياء.

ودلتْ آياتُ سورةِ مريم على أنَّ الذي جاءَ إِلى مريم وكلَّمها هو جبريل وحده..[٢].

وإذا كنّا ذهبْنا في الآياتِ السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ .. وَطَهَّرَكِ﴾ إِلى أَنَّ المتكلمين مع مريمَ مجموعةٌ من الملائكة، لا نعرفُ عددهم، فإننا نذهبُ إلى أَنَّ المتكلمَ مع مريم هنا هو جبريلُ وحده عليه السلام.

والذي دَعانا إِلى ترجيح هذا هنا هو سياقُ الآيات، فلما بشرَها

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٦٨ ـ ٢٦٩. وتفسير ابن كثير ١:٣٤٤.

(٢) انظر تفسير الرازي ٨:٤٢ ـ ٤٣.

جبريلُ بأن اللّهَ سيهبُها ولداً من غيرِ بعْل، استغربتْ وفوجئتْ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟.

فأَجابها بأنَّ هذا من أمرِ الله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ..﴾.

والشاهدُ أنه أَسندَ القولَ إِلى مفرد: «قال...». أي: قال لها جبريل: كذلك الله يخلق ما يشاء.

ولو كان القادمون إِليها مجموعةً من الملائكة، لكان التعبيرُ بالجمع: «قالوا كذلك الله...».

وقد يُعَبَّرُ عن جبريل وحده بلفظٍ عام «الملائكة»، كما في الآية السابقة: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ...﴾، وهذا من بابِ إطلاقِ العام، وإرادةِ الخاص، وهو جبريلُ عليه السلام.

وإذا كان المرادُ بالملائكةِ في هذه الآيات هو جبريل وحده: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ..﴾ فإِنَّ هذا معناه أَنَّ اللّهَ أرسلَ جبريلَ إِلى مريم مرتيْن:

المرة الأولى: التي أخبرتْنا عنها هذه الآيات، والتي بشرَها بأنَّ اللّهَ سيهبُها ولداً من غير بعْل.

المرة الثانية: جاءَها بعد ذلك بفترة، اللّهُ أَعلم بمدتها، بعدما ابتعدتْ عن أهلها، وتمثَّلَ لها بشراً سوياً، جاءها لينفِّذَ البشارةَ السابقة بأمْرِ الله، حيث نفخَ فيها وحملتْ بعيسى عليه السلام، وتحدثَتْ عن مجيئهِ الثاني آياتُ سورة مريم.

وقد سبقَ مجيءَ جبريل إلى مريم في المرتين مجيءُ الملائكةِ لها لتخبرَها باصطفاءِ الله لها وتطهيرِها، ومطالبتها بالعبادةِ والقنوت والركوع والسجود.

ولعلَّ الحكمةَ من هذه الزياراتِ المتكررة من الملائكة لمريم

رضي الله عنها، تهيئتُها وإعدادُها للمعجزة القادمة، لتستعدَّ لها نفسياً، فلا تكونُ مفاجأتُها بها قاضيةً عليها عندما تقع.

إنَّ اللّهَ يمهدُ للحدثِ العظيم القادم، فقدمَ لمريم كراماتٍ متتابعة: فها هو رزقُها يأتيها من عندِ الله بدون كسبٍ ولا سعي، وها هي الملائكةُ تبشرُها بأنَّ اللّهَ فضَّلَها على نساء العالمين، وها هو جبريلُ يبشرُها بأنها ستلدُ ولداً من غير أب.

ورؤيةُ غيرِ النبي للملائكة كرامةٌ له، ومخاطبةُ الملائكةِ للولي كرامةٌ أُخرى له.

جبريل يبشر مريم بعيسى:

بماذا بشرَ جبريلُ مريم؟

بشرَها بعيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

هذه البشارةُ من الله لمريم، ولهذا أُسندتْ في الآيةِ إلى الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ..﴾ ودورُ جبريلَ هو نقلُ البشرى وتوصيلُها لها.

والتبشيرُ هو إخبارُ المرءِ بالخيرِ الذي يسرُّه.

قال الإمامُ الراغب: «وأَبْشَرْتُ الرجل، وبَشَّرْتُه، وبَشَرْتُه: أَخبرتُهُ بخبرٍ سارّ، بَسَطَ بشرةَ وجهه، وذلك أَنَّ النفسَ إذا سُرَّت انتشرَ الدمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشجر...»[1].

اللّهُ يبشرُ مريم، ويقدِّمُ لها الخبرَ السار، بأَنها ستنجبُ ولداً من غير أَب، ورغم أنَّ الحدثَ عظيمٌ مدهش، يهزُّ صاحبَه هزاً، إلاّ أَنه سارٌّ مؤثِّر، لأنه يرفعُ مريمَ رضي الله عنها عند الله، ويُعلي منزلَتها عنده.. ويَكْفِيهَا فخراً ونعمة وذكْراً أَنَّ اللّهَ اصطفاها من بينِ جميعِ

(١) المفردات: ١٢٥.

النساء، وجعلَها المرأةَ الوحيدةَ في الدنيا التي تحملُ من غيرِ زواج، وهي بكرٌ عذراء، وتُنجبُ بدونِ زواج، ويكون ابنُها نبياً رسولاً عليه السلام.

إنها بشرى عظيمة، تحملُ نعمةً من الله غامرة، رغمَ عظمِ دهشةِ ومفاجأة الحدث، ولهذا أرسلَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريم رضي الله عنها، ليزفَّ لها البشارة.

قال الله لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ . . ﴾.

والمرادُ بالكلمةِ هنا عيسى عليه السلام.

و«مِنْه»: شبهُ الجملةِ في محلِّ جرٍّ صفةٍ لـ«كلمة». والتقدير: يبشرك بكلمةٍ كائنةٍ منه.

والضميرُ الهاءُ في «منه» يعودُ على الله.

والضميرُ الهاءُ في «اسمه» يعودُ على «كلمة». و«اسمُه» مبتدأ مرفوع، خبره «المسيحُ».

وجاءَ الضميرُ مذكَّراً «اسمُه»، مع أَنه يعودُ على مؤنَّث «كلمة»، فلم يقل: بكلمة منه اسمُها المسيح، لأنَّ المرادَ بالكلمةِ مذكَّر، وهو عيسى عليه السلام، فذكَّرَ الضميرَ مراعاةً للمعنى.

و«عيسى»: بدلٌ مرفوعٌ من «المسيح».

و«ابنُ»: بدلٌ مرفوعٌ من عيسى.

إن الكلمةَ من الله المذكورةَ في الآية مفسَّرة بأنها: المسيحُ عيسى ابن مريم.

كيف يكون عيسى كلمة الله؟:

وسمى اللّهُ عيسى عليه السلام بأنه كلمتُه في هذه الآية: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. لأنَّ عيسى خُلق ووُجد بكلمةِ الله

«كُنْ» حيث أرادَ أنْ يخلقَه خلْقاً خاصّاً مباشراً، فقالَ له «كن»، وهذه هي الكلمةُ الإلهية، فكان ووُجِدَ كما أَمَرَ الله.

وهي الكلمةُ الواردةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

خلقَ اللّهُ عيسى عليه السلام بكلمةِ «كُنْ» وعَبَّرَ عنه بأنه كلمةٌ منه، كما خلقَ آدمَ بكلمة «كن»[1].

وأحالَ القرآنُ المستغربين من خلقِ عيسى على خلقِ آدم، الذي خلَقَه اللّهُ بكلمةِ «كن» بدون أبٍ أو أم. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

قالَ السمينُ الحلبي في الدّرّ المصون: «منه» في محلِّ جرٍّ صفةٍ لكلمة، والمرادُ بالكلمة هنا عيسى عليه السلام، سُمي «كلمة» لوجودِه بها، وهو قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فهو من بابِ إطلاقِ السَّبب على المسَبَّب».

وسنعودُ إلى توجيهِ كونِ عيسى عليه السلام كلمةً وروحاً من الله في المباحثِ القادمة، إن شاء الله.

و«من» في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ حرفُ جر. وهي ليستْ للتبعيض، بل هي لابتداءِ الغاية. أي أنَّ هذه الكلمةَ من عندِ الله، ابتدأتْ من الله، وهي كلمةُ «كن».

قالَ الإمامُ الرازي: «قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: لفظة «مِنْ» ليستْ للتبعيض. إذ لو كان كذلك لكان اللّهُ تعالى متجزّئاً متبعّضاً، متحمّلاً للاجتماعِ والافتراق، وكلُّ مَنْ كانَ كذلك فهو مُحْدَث، تعالى الله عن ذلك.

(١) الدر المصون ٢: ١٧٣.

بل المرادُ من كلمة «مِن» ههنا ابتداءُ الغاية. وذلك لأنَّ في حق عيسى عليه السلام لما لم تكنْ واسطةُ الأب موجودة، صارَ تأثيرُ كلمةِ الله تعالى في تكوينهِ وتخليقِه أكملَ وأظهر. فكان كونُه كلمةَ الله مبدأً لظهورِه ولحدوثه... هذا معنى «مِن» ومعنى كونه «كلمة»، لا ما يتوهَّمُه النصارى والحلولية..»[1].

كلمةُ الله التي أَلقاها إلى مريم هي عيسى ابنُ مريم: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ..﴾.

لماذا وُصف عيسى بأنه مسيح؟:

أمامَنا ثلاثُ كلمات: المسيح، وعيسى، وابن مريم.

المسيحُ لقب. وعيسى هو الاسم، وابنُ مريم هو الوصف.

إِنّ الاسمَ الصريحَ هو عيسى، وهو النبيُّ الرسولُ المذكورُ اسمُه ضمنَ أسماءِ الأنبياءِ المذكورين في القرآن. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ...﴾ [النساء: ١٦٣].

و«عيسى» اسمُ علمٍ أعجمي، ممنوعٌ من الصرف للعلميةِ والعجمة، وهو ليس مشتقاً.

ويُسميه النصارى «يَسوع». ومعناه عندهم: المخلِّص[2].

ونحن نستخدمُ الاسمَ الذي سَمّاه الله به في القرآن، فهو نبيُّ اللّهِ ورسولُه عيسى عليه السلام، ولا يَعنينا اسم النصارى «يسوع» في قليلٍ ولا كثير!

ولَقبُ عيسى هو «المسيح». وورَدَ هذا اللقبُ إِحدى عشرة مرة في القرآن.

---

(١) تفسير الرازي ٨:٤٩.

(٢) انظر قاموس الكتاب المقدس لبطرس عبد الملك ومن معه: ١٠٦٤.

و«مَسيح» على وزن «فعيل»، مشتقٌّ من المسح.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ «مسيح» بمعنى اسم الفاعل «ماسح».

بينما ذهبَ آخَرون إلى أنه بمعنى اسمِ المفعول «ممسوح».

قال الإمامُ الراغب في المفردات: «المَسْحُ: إمرارُ اليدِ على الشيء، وإزالةُ الأثرِ عنه.

وقيل: سُمي عيسى عليه السلام مسيحاً لكونه ماسِحاً في الأرض، أيْ ذاهباً فيها.

وقيل: سُمي مسيحاً لأنه كان يَمسح ذا العاهةِ فيبرأ.

وقالَ بعضُهم: المسيحُ هو الذي مُسحت إحدى عينيه. فالمسيحُ الدجال كان ممسوحَ العين اليمنى. وقال بعضُهم: معنى ذلك أنه مُسحتْ عنه القوةُ المحمودةُ من العلمِ والعقل والحلم والأخلاق الجميلة. أَما المسيحُ عيسى ابنُ مريم فقد مُسحتْ عنه القوةُ الذميمةُ من الجهلِ والشَّرَهِ والحرص وسائرِ الأخلاق الذميمة»[١].

وإذا كان «مَسيح» بمعنى اسم الفاعل «ماسح»، فإنه لُقِّبَ بذلك لأنه كان يمسحُ الأرض بالسياحة فيها، أَو لأنه كان يمسحُ بيده على المريض فيبرأ. فهو ماسحٌ للأرض بالسياحة، وهو ماسحٌ للمريض معالجٌ له.

وإذا كان «مسيح» بمعنى اسمِ المفعول «ممسوح»، فإنه لُقب بذلك لأنَّ اللّهَ مسحه بالبركة، فكان ممسوحاً مباركاً[٢].

ونرى أنَّ لقبه «مسيح» جَمَعَ بين اسمِ الفاعل واسمِ المفعول، فمجموعُ الماسح والممسوح يكون «مسيحاً» صيغةُ مبالغةٍ من المسح.

فعيسى عليه السلام كان ماسِحاً يمسحُ بيده على المريض فيبرأ

---

(١) المفردات: ٧٦٧ ـ ٧٦٨ باختصار.

(٢) انظر الدر المصون للسمين ٣: ١٧٤.

ويشفى، وكان ممسوحاً مسحه اللّهُ بالبركةِ وباركه، وكونُه ماسحاً وممسوحاً جعلَه مسيحاً عليه الصلاة والسلام.

أَما معنى المسيح عند النصارى فهو المكرَّسُ للخدمةِ والفداء: «سمي المسيحَ لأَنه مُعَزَّزٌ وَمُكَرَّسٌ للخدمةِ والفداء، وُعِدَ بمجيئه حالاً بعدَ السقوط..»[1].

ولماذا نسب عيسى إلى أمه:

و«ابنُ مريم» لقبٌ لعيسى عليه السلام.

ونُسبَ إِلى أمه لأَنّه لا أَبَ له عليه السلام.

ووردتْ جملةُ «ابنُ مريم» ثلاثاً وعشرين مرة في القرآن، يُنسب عيسى فيها كلِّها إِلى أُمّه مريم.

قالَ الإِمام الزمخشري في الكشاف: «نُسِبَ عيسى إِلى أُمه، للإِشارةِ إِلى أَنه يولَدُ من غير أب، ولهذا نُسب إلى أمه، وبذلك فُضلتْ أُمه واصْطُفيتْ على نساء العالمين».

وقد بيَّنَ الإِمامُ الزمخشريُّ الحكمةَ من الجمعِ بين الأسماءِ الثلاثة في الآية: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

فعيسى هو الاسم، والمسيح لَقب، وابنُ مريم صِفة.

لقد ذَكَرَ هذه الأسماءَ الثلاثةَ للإِشارةِ إِلى أَنَّ عيسى عليه السلام لا يُعرفُ ولا يَتميزُ ممن سواه إلاّ بمجموعِ هذه الثلاثة. فلا بدَّ أَنْ يُجْمَعَ بين الاسم واللقب والصفة[2].

إِنَّ القرآنَ حريصٌ على تمييزِ عيسى عليه السلام بالكلماتِ الثلاثة، لِما رافقَ خلْقَه وولادتَه وحياتَه من معجزات، ليؤكِّدَ على بشريته، ويَنقضَ مزاعمَ النصارى حولَ أُلوهيته.

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٨٦٠.

(٢) انظر الكشاف للزمخشري ١:٣٦٣.

اسمُه عيسى، ولقبُه ابنُ مريم، ونسبتُه إلى أمه مقصودةٌ ومرادة، ليكذِّبَ النصارى في زعمِهم أنه ابنُ الله، فهم يقولون: عيسى ابنُ الله ـ تعالى الله عن كفرهم علواً كبيراً ـ.

والقرآنُ يقول لهم: إنه ابنُ مريم، وأُمه معروفة، أنتم تعرفونها عن يقين، فكيف صار ابناً لله مع أنه ابنُ مريم؟

وهو مسيحٌ في أَعماله، ممسوحٌ مسحه اللّهُ بالبركة، وماسحٌ يَمسحُ على المرضى ويعالجهُم ويشفون بإذنِ الله.

خمس صفات لعيسى ابن مريم:

بَشَّرَ جبريلُ عليه السلام مريمَ رضي الله عنها بعيسى، ذاكراً اسْمَه ووصفَه ولقبَه: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وذكَرَ بعد ذلك أحوالَه فقال: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

ومن صفاتِ عيسى عليه السلام المذكورة في هذه الآيات.

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: إنه ذو وجْهٍ ومنزلةٍ عالية، وذو شرف وكرامةٍ عند الله، في الدنيا حيث حفظَهُ وحَماه من أعدائه، وفي الآخرة، حيثُ جعله في أَعلى منازلِ الجنة مع سائر المرسلين.

يقال: هذا وجيه: إذا كان شريفاً يُقدره الآخرون.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: عيسى عليه السلام من عبادِ اللّهِ المقرَّبين، الذين قَرَّبهم الله منه، وأَعلى منازلهم عنده.

والمقرَّبون هم السابقون، الذين يَسبقون أصحاب اليمين إلى الجنة، ومنازلُهم في الجنة أَعلى من منازلِ أصحاب اليمين، والمرسلون هم أئمةُ المقربين السابقين.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلًا﴾: عيسى عليه السلام سيكلمُ

الناسَ في المهد، فورَ ولادته، وذلك عندما يفاجأون بمريم تحملُه، وتَذهبُ بهم الظنونُ كلَّ مذهب، فيُنطقُه اللّهُ وهو ابنُ ساعات، ويكلمُ الناس، ويقدِّمُ نفسَه إليهم، ويبرئُ أُمَّه من كل تهمة.

كما أَنه سيكلمهم في حالِ كهولته وشيخوخته: «وكهلاً». ولعلَّ هذه إشارةٌ إلى نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان، عند نزولِه من السماء إلى الأرض.

وقَدمت الآيتانِ خمسةَ أحوالٍ لعيسى عليه السلام:

﴿وَجِيهًا﴾: حالٌ منصوب.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: شبهُ الجملةِ في محلِّ نصب حال. والتقدير: ومُقرَّباً.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾: الجملةُ الفعليةُ في محلِّ نصب حال. والتقدير: و: مكلماً الناسَ صبياً في المهد.

﴿وَكَهْلًا﴾: حالٌ منصوب. معطوفٌ على «صبياً في المهد»: ومكلماً الناسَ كهلاً.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: شبهُ الجملةِ في محلِّ نصب حال. والتقدير: وصالحاً.

ويكون الإِخبارُ عن صفاتِ وأحوالِ عيسى عليه السلام هكذا: إن اللّهَ يبشركِ بعيسى المسيح: وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومقرَّباً عند الله في الدنيا والآخرة، ومكلِّماً الناس طفلاً في المهد، ومكلِّماً الناس كهلاً شيخاً، وصالحاً من الصالحين!

وعَرفتْ مريمُ رضي الله عنها صفاتِ ابنِها عيسى عليه السلام بهذه البشارة قبل ولادتها له.

وذِكْرُ هذه الأحوالِ والصفاتِ والتقلباتِ والتغيراتِ على عيسى عليه السلام يؤكدُ على بشريته.

وقد التفتَ الإمامُ الطبريُّ إلى هذه الالتفاتة: «فهو عليه السلام، منذُ أنْ خلَقَه اللّهُ مولوداً طفلاً صغيراً، إلى كهولته، يتقلَّبُ في الأحداث، ويتأثرُ بها، ويتغيرُ بمرورِ الأزمنة والأيام عليه، ويتحوَّلُ من صِغَرٍ إلى كِبَر، ومن حالٍ إلى حال.

ولو كانَ إلهاً أو ابناً لله، كما زعمَ النصارى الكافرون، لما حصلَ له ذلك!

... قالَ محمدُ بن جعفر بن الزبير: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾: يُخبرهم بحالاتِه التي يتقلَّبُ بها في عمره، كتقلُّبِ بني آدم في أَعمارهم، صغاراً وكباراً. إلاَّ أنَّ الله خصَّهُ بالكلام في مهدِه آيةً لنبوته، وتعريفاً من الله للعبادِ بمواقعِ قدرته...»[1].

دهشة مريم من البشارة واستغرابها:

لما سمعتْ مريمُ البشارةَ من جبريل عليه السلام بأَنها ستنجبُ عيسى، فوجئتْ ودُهشتْ واستغربتْ. إِنها فتاةٌ عذراء، ولم تتزوج، فمن أين يأتيها ذلك الولد؟

ولقد صارحتْ جبريلَ باستغرابِها. قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾؟.

تركتْ جبريلَ، وتوجَّهتْ إِلى الله، وناجَتْه ونادَتْه ودعَتْه: «رب». أي: يا ربي يا الله.

﴿أَنَّىٰ﴾: اسمُ استفهام بمعنى «كيف»، ويدلُّ على المفاجأةِ والدهشة.

﴿يَكُونُ﴾: فعلٌ مضارعٌ تام. و﴿وَلَدٌ﴾ فاعلُ فعلِ «يكون» التام.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾: الجملةُ في محلِّ نصبِ حال.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧١.

والمرادُ بالمس هنا: المعاشرةُ الزوجية بالجماعِ والاتصالِ الجنسي.

والمرادُ بالبشرِ أيُّ رجلٍ ذَكَر.

و«البشر» في الأصل مصدر مثل «الخَلْق». يَستوي فيه المذكَّرُ والمؤنث، والمفردُ والمثنى والجمع: تقول: هذا بَشَر، وهذه بَشَر، وهذان بشر، وهؤلاء بشر.

واشتقاقُ البشرِ من البَشَرة، وهي الجلد، لأنَّ الإنسانَ يتفاعلُ ويتأثرُ بالفرحِ أو الحزن، فيظهرُ وينعكسُ ذلك على بَشَرَتِه![1].

ومعنى دهشةِ واستغرابِ مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: مِن أيِّ وجهٍ يكونُ لي ولد؟ أَمِنْ قِبَلِ زوجٍ أتزوَّجُه؟ أمْ يخلقُهُ اللّه فِيَّ من غيرِ بَعْل ومن غيرِ أنْ يَمْسَسْني بشر؟

إزالة استغرابها بالإحالة على قدرة الله المطلقة:

وجاءَها الجوابُ فوراً، لِيُزيلَ استغرابَها ودهشَتَها، حيثُ أمَرَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام الواقفَ أمامَها أنْ يقولَ لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

أي: كما قَدَّرَ اللّهُ أنْ يرزقَكِ ولداً بدون بشرٍ ولا زوجٍ ولا بَعْل، كذلك يخلُقُ ما يشاء، ويوجِدُ ما يشاء.

لا يقفُ شيءٌ أمامَ إرادةِ الله، ولا يمنعُه أيُّ شيء من فعْلِ ما يشاء، فإذا قضى أمراً، وإذا أراد إيجادَ شيء، فإنه يوجِدُه ويخلُقُه مباشرة، ويقولُ له مباشرة: كن واحْدُث، فيلبّي الأمْرَ ويكونُ ويَحدثُ ويحصلُ في الواقع، كما قضى الله وأراد.

وردَ في تهذيبِ تفسير الطبري: «هكذا يخلقُ اللّهُ منكِ ولداً، دون

---

(١) انظر تفسير الدر المصون للسمين ٣: ١٨١ ـ ١٨٢.

أنْ يمسَّكِ بشر، فيجعلُه آيةً وعبرة. وإن اللّهَ يخلقُ ما شاء، ويفعلُ ما يريد، فيعطي مَن شاءَ الولدَ من زواجٍ ومن غيرِ زواج، ويَحرمُ مَنْ شاء من النساء الولد، وإنْ كانتْ ذاتَ زوج.

إنَّ اللّهَ لا يتعذَّرُ عليه فعْلُ شيءٍ أَراده، فإذا أَرادَ خلْقَ شيء، فإنما يقولُ له: كن. فيكون...[1].

وقد علَّقَ سيد قطب على البشارةِ والاستغرابِ والجواب بقوله:

«فأمّا مريم، الفتاةُ الطاهرةُ العذراء، المقيدةُ بمألوفِ البشر في الحياة، فقد تلقَّت البشارةَ كما يمكنُ أنْ تتلقاها فتاة، واتجهتْ إلى ربِّها تُناجيه، وتتطلعُ إلى كشفِ هذا اللغز الذي يحيِّرُ عقْلَ الإنسان:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

وجاءَها الجواب، يردُّها إلى الحقيقةِ البسيطة، التي يغفلُ عنها البشرُ لطولِ أُلفتِهم للأسبابِ والمسبَّبات، لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وحينَ يُرَدُّ الأمْرُ إلى هذه الحقيقة الأولية يَذهب العجب، وتَزولُ الحيرة، ويطمئنُّ القلب، ويعودُ الإنسانُ على نفسه، يسألُها في عجب: كيفَ عجبتِ من هذا الأمرِ الفطريِّ الواضحِ القريب؟!

وهكذا كان القرآنُ ينشئُ التصورَ الإسلاميَّ لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسرِ الفطريِّ القريب. وهكذا كان يجلو الشبهاتِ التي تعقِّدها الفلسفاتُ المعقدة، ويُقرُّ الأَمْرَ في القلوب وفي العقول سواء...»[2].

وجوابُ جبريلَ على تساؤلِ مريم لإزالة استغرابها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٣٩٨.

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ يذكرُنا بجوابِ الملائكة على تساؤلِ زكريا عليه السلام، لإزالة استغرابه عندما بُشِّرَ بيحيى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٩ ـ ٤٠].

وكانت الإحالةُ في الجوابيْن على قدرةِ الله المطلقة، وإرادتِه النافذة، ومشيئته الطليقة، التي لا يقيِّدُها مألوفٌ ولا عرف.

الفروق بين الجواب لزكريا والجواب لمريم:

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني وجودُ فروقٍ في التساؤلِ والجوابِ لكلٍّ من زكريا ومريم، وهذه الفوارقُ ثلاثة:

فزكريّا عليه السلام يقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾؟ بينما مريم رضي الله عنها تقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾.

وعُدولُ العبارةِ في سؤالِ مريم عن الغلام إلى الولد مقصود، وذلك للتأكيدِ على أنَّ عيسى عليه السلام وُلِدَ ولادة، صحيحٌ أنه ليس له أب، لكنه وُلدَ ولادةً طبيعية، فهو وَلَدٌ كباقي الأولاد، وُلِدَ كما يولَدُ باقي الأولاد، وهذا ردٌّ على النصارى في تأليهِهِم لعيسى عليه السلام، فهو وَلَد، وكيف يكون إلهاً مع ولادته؟

وعندما جاءَ الجوابُ إلى زكريا عليه السلام قالتْ له الملائكة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. لكن لما جاءَ الجوابُ إلى مريم قال لها جبريل: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ..﴾.

فعدلَ التعبيرُ عن فعْلِ «يفعل» إلى فعلِ «يخلق»، وهذا العدولُ مقصودٌ مراد.

قالَ السمينُ الحلبيُّ في حكمة هذا العدول: «قيل: لأنَّ قصَّتَها أغربُ من قصته، وذلك أنه لم يُعْهَدْ ولدٌ من عذراء، لم يمسَّها بَشَر

البتة، بخلافِ الولدِ بين الشيخ والعجوز فإنه مستبعد.. وقد يُعْهَدُ مثلُه وإنْ كان قليلاً، فلذلك أتى بفعلِ «يخلق» المقتضي، الإيجادَ والاختراعَ من غيرِ إحالةٍ على سببٍ ظاهر، وإنْ كانت الأشياءُ كلُّها بخلقه وإيجاده...»[1].

أي التعبيرُ عن إيجادِ عيسى عليه السلام بفعلِ «يَخْلُق» أهم، لِمَا رَافَقَ ولادةَ عيسى من المفاجآت والمعجزات والخوارق، وما نتجَ عن ذلك من تأليهِ النصارى له، فنصَّت الآيةُ على خلقِ عيسى خلقاً، فاللّهُ خلقه، أي: أوجَدَه من العدم، وإذا كان مخلوقاً مِن لا شيء، وموجوداً من العدم فكيف يكونُ إلهاً؟

وأُضيفُ على جواب جبريل لمريم قولُه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وهذه الجملةُ لم تَرِدْ في جوابِ الملائكة لزكريا عليه السلام.

وذلك للتأكيدِ على قدرةِ الله المطلقة في خلْقِ عيسى عليه السلام، وفي جعْلِ أمِّه الفتاةِ العذراء تنجبُه بدون بعل. وبما أنَّ هذا الأمْرَ مستحيلٌ في مألوفِ حياة البشر في التوالدِ والتناسل، أكَّدَ عليه في معرضِ الحديثِ عن قدرةِ الله المطلقة سبحانه وتعالى.

هذه حكمةُ العدول - في شأن البشارة بعيسى عليه السلام - عن «غلام» إلى «ولد»، وعن «يفعل» إلى «يخلق»، وإضافة جملة: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. والله أعلم.

وهكذا أَخذتْ مريمُ رضي الله عنها البشارةَ من جبريل عليه السلام، وصارَتْ على يقين بأنَّ اللّهَ سيهبُها ولداً.

وما بقي إلاّ تنفيذُ هذه البشارة، وتحقيقُ ما وَعَدَها اللّهُ به!

---

(١) الدر المصون ٣:١٨١.

[٦]

الحوار بين جبريل ومريم قبل النفخ

إرسال جبريل لها لتنفيذ البشارة السابقة:

وعدَ اللّهُ مريمَ أنْ يهبَها ولداً من غيرِ بعل، وجاءَ هذا الوعدُ على لسانِ جبريلَ عليه السلام، عندما بشَّرَها بذلك.

وما بقيَ إلاّ تحقيقُ ذلك الوعد، وتنفيذُ تلك البشارةِ عملياً.

وكان ذلك عندما أَرسلَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريمَ رضي الله عنها، ووقفَ أَمامَها في صورةِ بشر، وحاوَرَها ثم نفخَ فيها من روحِ الله، فحملتْ بعيسى عليه السلام.

وهذا المشهدُ المؤثِّرُ لم يَرِدْ إلاّ في آياتِ سورة مريم. وقد سبقَ الحديث عن حملِ مريم بعيسى ووضعِها له الحديثُ عن ولادةِ يحيى عليه السلام.

الحديثُ عن البشارةِ بيحيى وولادتِه ونبوتِه في الآيات: [١ ـ ١٥] من السورة.

والحديثَ عن ولادةِ مريم لعيسى في الآيات: [١٦ ـ ٣٣].

وقُدِّمَتْ قصةُ يحيى على قصة عيسى لأنَّ يحيى وُجد قبلَ عيسى عليهما السلام، فلهذا بدأت الآيات بالأسبق وجوداً.

وقُدمتْ قصةُ يحيى على قصةِ عيسى ـ وهذا هو الأهم ـ لتكونَ تمهيداً للحديثِ عن عيسى عليه السلام، فولادةُ يحيى كانت معجزة، لكنَّ ولادةَ عيسى كانت معجزةً أكبر.

«وقد تدرَّجَ السياقُ من القصةِ الأولى، ووجْهُ العجبِ فيها هو ولادةُ العاقرِ من بعلِها الشيخ، إلى الثانية ووجْهُ العجبِ فيها هو ولادةُ العذراء من غيرِ بعل! وهي أَعجبُ وأَغربُ!!»[١].

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٤.

قالَ الله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢١].

ذكر قصة مريم في القرآن لإثبات النبوة والوحي:

يقولُ اللّهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾:

والمرادُ بالكتابِ هنا القرآن الذي أنزله اللّهُ عليه. أي: اذكرْ يا محمدُ للمشركين وأهلِ الكتاب في آياتِ القرآن التي أنزلْتُها عليك، قصةَ مريم وحملِها بعيسى ووضعِها له، واتْلُ عليهم هذه الآيات، وأَسْمِعْهم إياها.

وذِكْرك لهذه الآيات دليلٌ على أنكَ رسولُ الله، وأنَّ اللّهَ هو الذي أنزلَها عليك، فلولا إنزالُها عليك من الله لما علمْتَ بها، لأنكَ أُمي لم تتعلَّمْها من أحد، ولم تَرِدْ في كتبِ النصارى على ما وردَتْ في القرآن!

وقد وردَ هذا الأَمْرُ من اللّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، في أكثرَ من آيةٍ من سورة مريم، وذلك عندَ الإشارةِ إلى بعضِ الأنبياءِ السابقين:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ...﴾ [مريم: ٤١].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ...﴾ [مريم: ٥١].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ...﴾ [مريم: ٥٤].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ ...﴾ [مريم: ٥٦].

وهذه المواضعُ تدلُّ على أنَّ من أَهدافِ ذكْرِ القصصِ في القرآن إثباتَ نبوةِ محمد ﷺ، وتقريرَ حقيقةِ أنَّ القرآنَ كلامُ الله.

وعندَ سماعِ النصارى الصادقين هذه الآيات: [١٦ ـ ٤٠] من سورة مريم، التي تتحدثُ عن ملابساتِ ولادةِ عيسى عليه السلام يبكونَ ويعرفونَ الحق، ويؤمنون أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، ويَدخلون في دينِه!

موقف النجاشي ومن معه عند سماع الآيات:

وهذا ما حصلَ من النجاشيِّ ملكِ الحبشة، لمّا سمعَ هذه الآياتِ من جعفرَ بن أبي طالب رضي الله عنه

روى الإمامُ أحمدُ عن أمّ سلمةَ رضي الله عنها قصةَ الهجرةِ إلى الحبشة، ومما جاءَ في القصة.... «... لما انتهى جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه من بيانِه قالَ له النجاشي: هل معكَ شيءٌ مما أُنزلَ على نبيكم؟

قالَ جعفر: نعم.

قال النجاشي: إقرأ.

فقرأ جعفرُ مطلعَ سورةِ مريم.

فبكى النجاشيُّ حتى أَخضلَ لحيته، وبلَّلَها بدموعه، وبكى البطارقةُ والأساقفة، حتى بلَّلوا مصاحفهم بدموعهم، متأثِّرين بما سمعوا من آياتِ القرآن.

بعدَ ذلك قالَ النجاشي: هذا القرآنُ الذي سمعْناه، والذي جاءَ به موسى يَخرجان من مشكاةٍ واحدة.

ثم خاطبَ النجاشيُّ عمرو بن العاص وعبدَ الله بن أبي ربيعة قائلاً: انطلِقا مِن هنا، فوالله لا أُسْلِمهم إِليكما أَبداً...

ولما خرجَ الموفَدان القرشيان من مجلسِ النجاشي قالَ عمروُ بن العاص لابنِ أَبي ربيعة: واللّهِ لآتينَّ النجاشيَّ غداً، أُعيبُ المسلمين عنده، وأُهيِّجُه عليهم، واستأصلُهم من عنده!

فقالَ له ابنُ أَبي ربيعة ـ وكان أهدأ الرجلين ـ: لا تفعلْ ذلك، فإنَّ للمسلمين أَرحاماً فينا، وإنْ كانوا خالَفونا في ديننا.

فقالَ ابنُ العاص: لا بدَّ أنْ أَفعل، وسأَقولُ للنجاشي: يزعمُ المسلمون أنَّ عيسى ابنَ مريم عبد!

وفي اليومِ التالي غدا عمروُ بن العاص على النجاشي، فقالَ له: أيها الملك: هؤلاء المسلمون يقولون في عيسى ابنِ مريم قولاً عظيماً، فأَرْسِلْ أَيّها الملكُ إِليهم، واسْأَلْهم عما يقولون فيه!

أَرسَلَ النجاشيُّ إِلى المسلمين، ودَعاهم إِلى الاجتماعِ به مرةً ثانية، ليسمعَ منهم ما يقولون في عيسى ابن مريم عليه السلام.

ولما علمَ المسلمونَ بذلك خافوا، ونَزَلَ بهم من الغمِّ ما اللّهُ به عليم، وقالَ بعضُهم لبعض: ما تقولون للنجاشيِّ بشأنِ عيسى ابن مريم؟

فقالَ جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه: والله لا نَقولُ فيه إلاّ ما جاءنا من رسولِ الله ﷺ، هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه، وكلمتُه أَلقاها إِلى مريمَ العذراءَ البتول!.

وفي الغدِ قابلَ المسلمون النجاشي، فقالَ لهم: ماذا تقولونَ في عيسى ابن مريم؟

فقالَ جعفرُ رضي الله عنه: نقولُ فيه ما عَلَّمَنا رسولُ الله ﷺ: إِنهُ عبدُ الله ورسولُه وروحُه، وكلمتُه أَلقاها إِلى مريمَ العذراءَ البتول.

ولما سمعَ النجاشيُّ كلامَ جعفر، تناوَلَ بيدِه عوداً من الأرض، ثم قالَ لمن حوله: واللّهِ ما تجاوزَ عيسى ابنُ مريم شيئاً مما يقولُه المسلمون، إلاّ بمقدارِ هذا العود!

فنخرَ البطارقةُ وغضبوا من كلامِ النجاشي، ولكنهم لم يَجْرءوا على معارضتِه.

فقالَ لهم: انْخَروا ما شئتم فهذا هو الحق![1].

وأنزلَ اللّهُ في النجاشيِّ وأمثالِه قولَه تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

إنَّ موقفَ النجاشيِّ الرائعَ من سماعِه آياتِ سورة مريم وما نزلَ فيه من الآيات دليلٌ على أنَّ النصارى الصادقين يتأثَّرُون عندما يسمعونَ الآيات، ويُؤمنون بها، ويعتبرونَها دليلاً على إثباتِ نبوةِ محمد ﷺ.

ولهذا أَمَرَ اللّهُ محمداً ﷺ أنْ يذكرَ هذه الآياتِ للآخرين: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ...﴾.

مريم تبتعد عن أهلها إلى مكان شرقي للخلوة والعبادة:

وقد فارقَتْ مريمُ رضي الله عنها أهْلَها يوماً ما: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

«إذْ» ظرفُ زمانٍ بمعنى «حين»، وما بعدَه في محلِّ جرٍّ مضافٍ إليه، والتقدير: اذكُرْ في الكتاب قصةَ مريم حين انتباذِها.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن النبذِ والانتباذ: «النَّبْذُ: إلقاءُ الشيء وطرحُه، لقلةِ الاعتدادِ به..

وانتبذَ فلان: اعتزلَ اعتزالَ مَنْ لا يُقلُّ مبالاتِه بنفسِه فيما بينَ

(١) انظر كتابنا «الرسول المبلغ»: ... والحديث مروي بالمعنى.

الناس. قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾[1].

خرجَتْ مريمُ من عنْدِ أَهلها، وابتعدَتْ عنهم، وانفردَتْ من دونهم.

قالَ قتادة: «انتبذتْ من أهلها»: انفردَتْ من أهلِها[2].

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: انفردَتْ عن أَهلها، وذهبتْ إِلى مكانٍ جهةَ الشرق.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا..﴾: لما ذهبتْ إِلى ذلك المكانِ الشرقي، اتخذتْ حجاباً ساتراً، يسترُها عن أَهلها وعن الناسِ الآخرين.

ولم تُحَدِّد الآياتُ السببَ الذي دفعَ مريم إِلى الانتباذِ من أهلها، وهذا من مبهماتِ القرآن، التي لا نخوضُ في بيانها، ولسْنا مع المفسرين الذين قالوا: إِنها ابتعدَتْ عن أَهلِها لما جاءَها الحيض[3]، فهذا مما لا دليلَ عليه.

كذلك لم تُحدد الآياتُ المكانَ الذي كان يُقيمُ فيه أَهلُها، ولا المكانَ الذي انتبذَتْ منهم إِليه، ولا المسافةَ بينَ المكانيْن، وهذا أَيضاً من مبهمات القرآن، فقد يكونُ المكانان في بيتِ المقدس، وقد يكونان في غيرها، وقد يكونُ ذهابُها إِلى المسجدِ الأقصى، وقد يكونُ ذهابُها إِلى مكانٍ قريبٍ منه، أَو إِلى مكانٍ آخر. فهذا ما لا نخوضُ فيه، ولا إِمكانيةَ لمعرفتِه الجازمة، ولا فائدةَ من ذلك!

إِنَّ قولَه تعالى: ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾ يدلُّ على أَنَّ مريمَ رضي الله عنها كانت تحبُّ أَنْ تخلوَ إِلى نفسها، وأَنْ تنفردَ عن أَهلِها والناسِ الآخرين، وأَنْ تُقبلَ على عبادةِ الله

---

(١) المفردات: ٧٨٨.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣: ١١٢.

وذكرِهِ ومناجاتِه، وهذا هو دأبُ العابدين الزاهدين، المنقطعين لعبادةِ الله.

وكان لمريمَ حجابٌ ساترٌ يحجبُها عن أَهْلِهَا، لئلا تنشغَل بهم عن ذكْرِها، ولتتفرغَ لعبادةِ الله وذكره. ولعلها كانتْ في «صومعة» أو ما شابهها. ولعلَّها كانت تمكثُ في ذلك «المكان الشرقي» فتراتٍ متباعدة في العبادةِ والذكر، ولعلَّ أهلَها كانوا يَعرفون ذلك منها، ويَعرفونَ أَنه مِن عادتِها، ولهذا ما كان انتباذُها منهم، وابتعادُها عنهم، وانفرادُها في ذلك المكان دونهم، ما كان يثيرُ انتباهَهم، أو خوفَهم عليها!

أرسل الله لها جبريل لتنفيذ البشرى:

وبينما كانتْ في ذلك المكانِ الشرقي وحيدة، تَخلو إِلى نفسِها، وتنشغلُ في أَورادِها وأذكارِها ومناجاتِها، شاءَ اللّهُ أنْ يحققَ البشارةَ السابقةَ التي بشَّرها بها جبريل عليه السلام، وأنْ ينفذَ لها وعْدَه بإِنجابِها الولد.

أَرسلَ اللّهُ لها وهي في ذلك المكانِ جبريلَ عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

والفاءُ في «فأرسلنا» حرفُ عطف، وما بعدَها معطوفٌ على ما قبلها، أي: أَرسلْنا إِليها روحَنا بعدما اتخذَتْ حجاباً في ذلك المكان الشرقي.

و«روحَنا» هنا هو جبريلُ عليه السلام.

وأَطلقَ القرآنُ على جبريلَ عليه السلام «روحاً» في أكثرَ من آية.

منها قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

ومنها قولُه تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٣ ـ ٤].

عطفَ في الآية «الروحَ» على الملائكة، مع أنَّ جبريلَ أحدُ الملائكة من بابِ عطفِ الخاصِّ على العام، لإبرازِ أهميةِ هذا الخاص.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٢].

الكلامُ في الآيةِ عن إنزالِ القرآنِ على رسول الله ﷺ، وأطلقت الآيةُ على جبريل عليه السلام أنه «روحُ القدس».

أي: الروحُ الأمينُ المقدَّسُ المطهر، الذي هو مُنَزَّهٌ عن كلِّ مخالفةٍ أو ذنبٍ أو معصية.

وإضافةُ جبريلَ إلى الله في قوله: ﴿رُوحَنَا﴾ من بابِ تكريمِه وتعظيمه، وذلك كإضافةِ الرسولِ إلى الله في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ...﴾ [المائدة: ١٩].

والمرادُ بقولِه: «رسولُنا» هنا محمدٌ ﷺ.

وَوُصفَ جبريلُ عليه السلام بأنه روح، لأنه يَنزلُ بالوحيِ على أنبياءِ الله ورسلِه، وهذا الوحيُ المتضمِّنُ كتبَ الله وأحكامَه فيه حياةُ قلوبِ وأرواحِ المؤمنين. فكلامُ الله روحٌ يُحيي به اللّهُ القلوبَ والأرواح، وحامِلُ هذه الروحَ هو جبريلُ روحُ الله عليه السلام!

جبريل أمامها في صورة رجل بشر:

ولما أرسلَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريم مكَّنَه مِن أَنْ يتحولَ من صورتِه الملائكيةِ الحقيقيةِ الضخمة التي خلَقَه عليها، إلى صورةٍ آدميةٍ بشرية: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا..﴾.

و«بشراً» حالٌ من جبريل منصوب. و«سوياً» نعتٌ للحال منصوب.

ومعنى «سوياً» مستوياً، سويَّ الخلق، كاملَ الآدمية. وهذا

الوصفُ للتأكيدِ على بشريةِ جبريلَ عليه السلام عندما واجهَ مريم في خلوتِها.

ومَرَّ مَعَنا «سوياً» في الآياتِ السابقة من سورة مريم، في خطاب الملائكةِ لزكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: ١٠].

وتحوُّلُ الملَكِ جبريلَ عليه السلام إلى بشرٍ سويّ، دليلٌ على قدرةِ الملائكة على التحولِ من صورتِهم الملائكيةِ إلى صورةٍ بشرية، وأنهم يفعلونَ ذلك بإذنِ الله ومشيئته سبحانه، وأنهم عندما تنتهي مهمتُهم التي كلَّفَهم اللّهُ بها، يَعودون إلى صورتهم الملائكيةِ الحقيقية.

وعندما يتحوَّلون إلى الصورةِ البشرية فإنهم يتمثَّلون في صورةِ رجال، وليس في صورةِ نساء، كما جاءت الملائكةُ إبراهيمَ ولوطاً عليهما الصلاة والسلام.

وعدَمُ تمثلِهم في صورةِ نساء ليؤكِّدوا على تكذيبِ الكفارِ الذين زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، تعالى اللّهُ عن قولِهم عُلُوّاً كبيراً.

مريم تعوذ بالله منه وتناشد تقواه:

وفوجئتْ مريمُ العذراءُ البتولُ برجلٍ غريب واقفٍ أمامَها، وهي وحيدةٌ بعيدةٌ عن أهلها، وأصابتها «هَزةٌ» شديدة، وخوفٌ كبير.

ماذا تفعل؟ هل تصرخُ وتستنجدُ بالناس؟ إنهم بعيدون عنها! هل تقاومُ هذا الرجل؟ إنها فتاةٌ ضعيفةٌ لا تَقدرُ على دفعِه ومقاومته، لأنه أَقوى منها!

ليس أَمامَها إلاّ أنْ تلجأَ إلى اللّهِ ربِّها، وأنْ تعوذَ وتحتميَ به، وهي توقنُ أنَّ اللّهَ سيحميها ويُعيذُها، ولذلك خاطبتْ هذا الرجلَ بأَنها تعوذُ باللّهِ الرحمنِ منه، واستحيت التقوى في قلبه!

قالَ تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم: ١٨].

قالتْ للرجلِ الغريب: إِني أعوذُ بربي الرحمنِ منك، وأَطلبُ من ربي أن يَحميني منك.

و﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جملةٌ شرطية ﴿كُنتَ تَقِيًّا﴾ فعلُ الشرط، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ مفهومٌ من السياق. والتقدير: إنْ كنتَ تقياً تخافُ الله، فلا تقتربْ مني، ولا تمسّني بأذى.

وردَ في تهذيبِ تفسيرِ الطبري: «خافَتْ مريمُ جبريلَ لما تمثَّلَ لها بشراً سوياً، وظنَّته رجلاً يريدُها عن نفسِها، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

أَي: أَستجيرُ بالرحمنِ منك، أَن تنالَ مني ما حرَّمَهُ اللّهُ عليك، إنْ كنتَ ذا تقوى، تتقي محارمَ الله، وتتجنبُ معاصيه، لأنَّ مَنْ كانَ تقياً للّهِ يتجنبُ ذلك.

قالَ ابنُ زيد: «قد علمتْ مريمُ أَنَّ التقيَّ ذو نَهْيَة، يَنتهي عن الحرام..»[1].

ومن سخافاتِ الإسرائيلياتِ أَنَّ «تقياً» الواردَ هنا اسمُ رجلٍ فاسقٍ فاتكٍ مجرم، معروفٍ في ذلك العهد.

وقد كَفانا الإمامُ ابنُ كثير عندما علَّقَ على ذلك القولِ السخيفِ قائلاً: «وهذا يَرُدُّ قولَ مَنْ زعمَ أَنه كانَ في بني إسرائيل رجلٌ فاسق، مشهورٌ بالفسق، اسْمُه «تقي»، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ بلا دليل، وهو من أَسخفِ الأَقوال!»[2].

وبينما كانت مريمُ عائذةً بالله، تناشدُ التقوى في قلبِ هذا الرجل، وهي تحتَ تأثيرِ الهزةِ المفاجئة، هَزَّ الرجلُ مسامعَها هزةً ثانيةً أَعنف،

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٢٥.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٥٠١.

وذلك عندما صارَحها بهدفِه منها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩].

أَخبرَها أَنه رسولٌ من الله، أَرسله اللّهُ إِليها، وهو مكلَّفٌ بمهمةٍ محددة، إنه يُريدُ أَنْ يهبَها غلاماً!!

مفاجأة مريم من هدف جبريل ومهمته:

فوجئتْ بهذه المصارحة، هي وحْدَها، وهو رجلٌ أَمامَها، ويُريدُ أَنْ يهبَ لها غلاماً، وأَنْ تحملَ هي بغلام!

لقد سبقَ أَنْ جاءَها جبريلُ متمثلاً في صورةِ رجل، وأَخبرَها ببشرى سارة، وهي أَنَّ اللّهَ سيجعلُها تحملُ بولدٍ من غيرِ بعل، وقد عَرَضنا هذا في المبحث السابق، عند كلامِنا عن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

فهي قد سبقَ علْمُها بذلك، ولكن لعلَّها مع الهزةِ المفاجئة، والخوفِ الشديد، والخجلِ البالغِ من رؤيةِ الرجلِ الغريب أَمامَها نسيتْ ذلك، وسيطرَ عليها الفزعُ والتوترُ والقلقُ والخجل.

إنه يخبرُها أنه رسولٌ من ربها، فهل تثقُ به وتطمئنُّ إِليه؟

وبما أَنه صارحَها بأنه سيهبُ لها غلاماً زكياً ـ والزكيُّ هو الطاهرُ من الذنوب، والمطهَّرُ من الخبائثِ والمعاصي والنقائص ـ فلا بدَّ أَنْ تستعليَ على خجلِها وهي العذارءُ البتولُ العفيفة، ولا بدَّ أَنْ تصارحَه، فهذا الموقفُ لا ينفعُ فيه إلاّ المصارحة.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم: ٢٠].

إنها تعلمُ حسبَ معلوماتِها البشرية أنَّ المرأةَ لن تحملَ بالجنين إلاّ إذا تمت المعاشرةُ بينها وبين رجل، وذلك بالإخصابِ عن طريق تلقيح «الحُوَيْنِ المَنَوِيّ» من الرجلِ للبويضة من المرأة، فإذا لم تتمّ المعاشرةُ بين الذكرِ والأنثى، فإنه يستحيلُ ـ حسبَ مألوفِ البشر ـ حملُ تلك المرأة.

هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ للحملِ والإنجاب، التي يعرفُها الناس، ويتعاملون معها، ويتصرّفون على أساسِها!

وهذا الرجلُ الغريبُ يخبرُها أنه سيهبُها غلاماً زكياً، فكيف؟ ومِن أَينَ يهبُها ذلك؟

أنى يكون لها غلام وهي هي؟ وجواب جبريل:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: مِنْ أيِّ وجْهٍ يكونُ لي غلام؟ أمِنْ قِبَلِ زوجٍ وزواج؟ أمْ من طريقٍ آخر؟

المرأةُ قد تحملُ من زوجِها إذا كانتْ عفيفةً طاهرة. وقد تحملُ من زناها برجلٍ آخر إذا كانت بغياً زانية! وليس هناك طريقٌ ثالث حسبَ مألوف الناس!!

وهي ليستْ متزوجةً بزوج، فلم يمسَّها ويعاشِرْها زوجٌ اقترنت به في نكاحٍ حلال: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

وهي عفيفةٌ طاهرة لم تفكرْ في رجلٍ آخر، وليستْ بغياً كالبغايا: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾!

وجاءَها الجوابُ المطمئنُ من الرجلِ الواقفِ أمامها، يُزيلُ مفاجأتَها، ويَقضي على هزتِها ودهشتِها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١].

ولعلّها لما سمعتْ هذا الجوابَ الإيمانيَّ تذكرتْ ما سبقَ أنْ بَشَّرَها به جبريل، وما سبقَ أنْ أجابَ به على تساؤلِها ومفاجأتها، ويكادُ

يكونُ سؤالُها وجوابُه في الحالتيْن واحداً، ولعلَّها عرفتْ أنه جبريل، وأَنه رسولُ ربِّها فعلاً، وأنه ليسَ مجردَ رجلٍ غريبٍ يريدُ أنْ يمسَّها بسوء!

عند ذلك اطمأنَّتْ ووثقَتْ، وعلمتْ أنَّ هذا أمْرُ الله، فاستسلمتْ لأمْرِ الله، ورضيتْ بحكمه.

وقولُه: «كذلك» الإشارةُ فيه إلى العادةِ المطردةِ في التناسل البشري، القائمةِ على التزواجِ والمعاشرةِ الزوجية. والتقدير: كما أنَّ اللّهَ قدَّرَ التكاثرَ البشريَّ عن طريقِ الزواج، بحيثُ أصبحَ هذا هو الطريقَ المألوفَ عندهم، كذلك أرادَ لكِ أنتِ أنْ تحمِلي وتلِدي بغيرِ هذا الطريق، وبدون معاشرةِ رجلٍ لك، ليقدِّمَ اللّهُ للناس آيَته الدالةَ على قدرتِه المطلقة.

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: أي: أرادَ ربُّكِ خلقَ عيسى فيكِ مباشرة، وأمرَ بتحقيقِ ما أَراد، وكلَّفَني بأنْ أنفخَ فيك، وقالَ لي ذلك، وأنا مكلَّفٌ بتنفيذِ قولِه وأمره.

كما قالَ ربكِ أيضاً: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: أي: خلْقُ عيسى فيك من غيرِ معاشرتك لرجل، هو هيِّنٌ على الله، ليسَ مستحيلاً ولا صعباً ولا شاقاً، لأنَّ كلَّ الأمورِ هينةٌ على الله، يخلقُها ويوجدُها بقوله: «كن».

جواب جبريل لها وجوابه لزكريا قبلها:

ونلاحظُ أنَّ هذا الجوابَ الذي قدَّمه جبريلُ لمريمَ هو نفسُ الجوابِ الذي قدَّمه لزكريا، لإزالةِ استغرابه!

قالَ تعالى في قصة زكريا: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٧ ـ ٩].

وقالَ تعالى في قصة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٩ ـ ٢١].

ونَدعو إِلى الوقوفِ على مظاهرِ الاتفاقِ والاختلافِ في التعبيرِ عن الحالتيْن!

وبعدما أَخبرها جبريلُ أَنَّ خلْقَ عيسى بهذه الطريقةِ المعجزةِ هينٌ سهلٌ ميسورٌ على الله، ذكَرَ لها حكمةَ اللّهِ من خلقه، وأَخبرَها بقولِ الله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا..﴾.

اللامُ في «لنجعله» لامُ التعليل. والهاءُ فيها ضميرٌ يعودُ على عيسى عليه السلام. أي: خلَقْنا عيسى بهذهِ الكيفيةِ لنجعلَه آيةً للناس، على قدرتنا المطلقة، وإِرادتِنا النافذة، ليَعرفوا من هذه الآية أَنَّ ما أَلِفوه واعتادوه، في حصْرِ التناسلِ عن طريقِ التزاوجِ بين الذكَرِ والأُنثى، إِنما يقيِّدُهم هم، ولكنه لا يقيِّدُنا نحن، فنحنُ نفعلُ ما نشاء!!.

وخلَقْناهُ هكذا لنجعلَه رحمةً منّا للناس، فسوفَ نبعثُه نبياً رسولاً، والرسولُ رحمةٌ منا للعالمين.

«وكان أمراً مقضياً»:

وهكذا أَبلغَ جبريلُ عليه السلام ـ المتمثلُ في صورةِ بشرٍ سويّ ـ مريمَ بالأمر، وأَزالَ استغرابَها بالإِحالةِ على قدرةِ اللّهِ النافذةِ المطلقة، وانتهى كلُّ شيء، وعَلقت الآيةُ على ذلك بقولها: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

واسم «كان» مقدَّر، تقديرُه «الخَلْق». أي: وكانَ خلْقُ عيسى أمراً مقضياً مفروغاً منه!!

والراجحُ أَنَّ جملةَ ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ليستْ معطوفةً على ما

قبلَها، أي أَنها ليستْ من كلامِ جبريل، ولا يُخبرُها فيه أنَّ اللّهَ قدْ قدَّرَ خلْقَ عيسى فيها بهذه الكيفية، ولا تراجُعَ عن هذا الأمرِ المقضيّ.

الراجحُ أنها جملةٌ مستأنفة، الواوُ فيها «وكان...» حرفُ استئناف، وليستْ حرفَ عطف. وهذه الجملةُ إِخبارٌ من اللّهِ بأَنه قد تمَّ الأمْرُ وقُضيَ وفُرغَ منه، وانتهى كلُّ شيء، حيثُ نَفَخَ جبريلُ في مريم، منفِّذاً أمْرَ الله، فحملَتْ مريم بعيسى، وتتابعَتْ مشاهدُ القصة بعد ذلك!

قالَ سيد قطب: «بذلك انتهى الحوارُ بينَ الروحِ الأمين ومريمَ العذراء.. ولا يذكُرُ السياق ماذا كانَ بعد الحوار، فهنا فجوةٌ من فجواتِ العرضِ الفنيِّ للقصة...»[1].

إنَّ الآياتِ لم تفصِّلْ لنا كيفيةَ نفخ جبريلَ في مريم، لأنَّ هذه كيفيةٌ غيبية، غيرُ قابلةٍ للقياس بالمقاييسِ العقلية، التي تَقيسُ بها عقولُنا الأحداثَ وتُحللُها، فهي فوقَ مستوى عقولِنا ومداركِنا وتصوراتِنا!!

وكأَنَّ هذه الجملة: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ تَدعونا إِلى تجاوزِ الخوضِ في نفخِ جبريلَ في مريم، وعدم الوقوف عنده، بل الانتقالُ منه إلى مشاهدِ القصةِ اللاحقة، فالأمْرُ قد قُضي، وجبريلُ نَفَخَ في مريم، وحملَتْ بعيسى، وانتهى كلُّ شيء!!.

هذا وقد ذكرتْ لنا آياتٌ أُخرى أَنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في مريم، فحملت بعيسى، لكن هذا النفخَ مجملٌ غيرُ مفصل! وهذا في المبحث التالي إن شاء الله!!.

[٧]
«فنفخنا فيها من روحنا»...

أَخبرَنا اللّهُ أَنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في مريم من روحِ الله، فحملَتْ بعيسى عليه السلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٦.

وورد ذلك في معرض الثناء على مريم رضي الله عنها، والإشادة بعفتها وإحصانها.

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

الإحصان في القرآن للرجال والنساء:

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

لقد سبق الحديث عن النفخ في مريم الحديث عن إحصانها وعفتها: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا...﴾.

والتعبير عن العفة والطهارة وعدم ارتكاب الفواحش بالإحصان ورد في أكثر من آية في القرآن.

منها قوله تعالى في إحصان النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

ومنها قوله تعالى في إحصان الرجال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ...﴾ [النساء: ٢٤].

وقد جمعت آية بين إحصان النساء وإحصان الرجال، وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ...﴾ [المائدة: ٥].

ويلاحظ أن القرآن عبّر عن إحصان الرجال باسم الفاعل: «محصِنين»، بينما عبّر عن إحصان النساء باسم المفعول: «محصَنات».

وهذا للإشارةِ إلى أنَّ الرجلَ هو الذي يَقومُ بإحصانِ المرأة، ويُشرفُ عليه ويتابعُه، فله القوامةُ عليها.

واللطيفُ إطلاقُ كلمةِ «إحصان» على العفةِ وعدمِ ارتكاب الزنا.

قالَ الإمامُ ابنُ فارس: «الحاءُ والصادُ والنون: أصْلٌ واحدٌ مُنْقاس، وهو: الحفظُ والحياطةُ والحرز.

فالحِصْنُ مَعْروف، وجمعُه حُصون.

والحَصان: المرأةُ المتعفِّفَةُ الحاصِنةُ فرجِها.

قالَ أحمدُ بنُ يحيى ـ ثعلب ـ كلُّ امرأةٍ عفيفةٍ فهي محصِنة ومحصَنة، وكلُّ امرأةٍ متزوجة فهي محصَنة لا غير ـ باسم المفعول[1] ـ.

وقالَ الإمامُ الراغب: «الحَصان: المحصَنة، إمّا بعفَّتِها، أو تزوُّجِها، أو بمانعٍ من شرفِها وحريتِها.

ويقال: امرأةٌ مُحصِن ومحصَن. فالمُحْصِن: إذا تُصُوِّرَ حصْنُها من نفسها. والمِحْصَن: إذا تُصُوِّرَ حصْنُها من غيرها.

ولهذا قيل «المحصَنات»: المزوجات. تصوُّراً أنَّ زوجَها هو الذي أَحصنها...»[2].

المرأةُ المزوَّجة «مُحْصَنة» ـ باسم المفعول ـ لأنَّ زوْجَها هو الذي أَحصنها، وحفظَها ومنعَها من ارتكابِ الفاحشة، فهو يلبّي حاجتَها، ويُشبعُ غريزتَها، فلا تتطلعُ إلى غيرِه من الرجال.

والمرأةُ غيرُ المتزوجةِ العفيفةُ «مُحْصِنة» ـ باسم الفاعل ـ فليسَ لها زوجٌ يُحصنُها ويلبّي حاجتَها الجنسية، ولكنها هي التي تُحْصِنُ نفسها، وتحافظُ على عرضِها، وتحققُ عفَّتَها وطهارتَها. إنها تملكُ الغريزةَ

(١) مقاييس اللغة: ٢٦٧.

(٢) المفردات: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

والشهوة، ولكنها تَستعلي على شهوتِها، ولا تتطلعُ إلى الرجالِ بالحرام، وتجاهدُ نفسَها وشهوتَها لتحافظَ على عفتِها وطهارتِها.

مريم أحصنت فرجها بعفتها وطهارتها:

وإحصانُ مريمَ رضي الله عنها من بابِ اسم الفاعل، فهي «مُحْصِنَة» لنفسِها ولفرجِها، لعدمِ وجودِ زوجٍ يحصنُها، وإنما إحصانُها لنفسِها بتساميها واستعلائِها على الضعفِ والشهوة، وارتفاعِها إلى منازلِ المقرَّبين عند الله، وانشغالِها بالعبادةِ والذكر، وسعادتِها بمناجاةِ الله والاتصالِ به.

ولهذا قال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ فأَسندَ الإِحصانَ إليها، تقول: أَحْصَن، فهو مُحْصِن.

ولو أَرادَ القرآنُ اسمَ المفعول لقال: «أُحصنت» فبنى الفعل للمجهول. تقول: أُحْصِن، فهو مُحْصَن.

أَحصنَتْ مريمُ فرجَها رضي الله عنها، فكانت عفيفةً طاهرة.

وفرجُ المرأةِ معروف. قالَ الإمامُ الراغب: «الفَرْجُ: الشَّقُّ بين الشيئين. والفرْجُ: ما بينَ الرجليْن.

وكُنّي بالفرجِ عن السوأة، وكَثُر، حتى صارَ كالصريحِ فيه»[1].

وسُميَ فرجُ المرأةِ فَرْجاً لما فيه من معنى الشّق.

والثناءُ على مريم بأَنها أَحصنَتْ فرجَها، والشهادةُ لها بعفَّتِها وطهارتِها، لتكذيبِ اليهودِ الكفارِ الملعونين، الذين اتَّهموها في عرضِها، وقالوا فيها قولاً عظيماً.

وهذه الشهادةُ لها في القرآن دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

(١) المفردات: ٦٢٨.

التوفيق بين «نفخنا فيها» و«نفخنا فيه»:

ولما أَرادَ اللَّهُ تحقيقَ وتنفيذَ وعْدِه، أرسلَ الروحَ الأمينَ جبريلَ عليه السلام فنفخَ فيها، فحملَتْ بعيسى عليه السلام.

في سورةِ الأنبياء قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، فعبَّرَ بالضميرِ المؤنث الهاء في «فيها».

وهذه الهاءُ تعودُ على مريم التي أَحصنتْ فرجَها، لأنَّ صياغةَ الآيةِ هكذا: و﴿وَالَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا..﴾.

وفي سورة التحريم قال: ﴿الَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: فعبَّرَ بالضميرِ المذكَّر: «فيه». والهاءُ تعودُ على الفرج: «فرجها»، وهو مذكَّرٌ في اللفظ.

والمعنى: أَحصنَتْ مريمُ ابنةُ عمران فرجَها، فنفخنا في فرجها من روحنا..

وذهبَ بعضُهم إِلى أَنَّ المرادَ بالفرجِ فتحةُ ثوبِ مريم، وليس فرجَها هي، وقالوا إِنَّ معنى «أحصنت فرجها» أَنها صانَتْ ثوبَها، فلم يمسَّه أَحد، ولم يمسَّ فتحتَه التي عندَ عنقِها أَحد، واعتبروا هذا مبالغةً في الثناءِ عليها، والشهادةِ بعفتها وطهارتها. فإذا كانتْ قد أَحصنَتْ فرجَ ثوبها، ولم يَقتربْ أحدٌ من فتحته، فإِحصانُها لفرجها الحقيقي من بابِ أولى.

وقالَ هؤلاء إِنَّ جبريلَ قد نفخَ في «فرج ثوبها»، أي أمسَكَ بفتحةِ الثوبِ ونفخَ فيه، وذَهبت النفخةُ إِلى جسم مريم، ودخلَتْ رحمها، فحملَتْ بعيسى.

ولا داعي لهذا القولِ لأنَّ القرآنَ قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾، والأَصْلُ حملُ النفخِ على ظاهره.

فالراجحُ أنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في فرجها، فذهبت النفخةُ إِلى رحمها، وحملَتْ بعيسى.

نقولُ بهذا، ولا نخوضُ في كيفيةِ النفخ، فهذه كيفيةٌ غيبية، لا نخوضُ فيها، لأنَّ النصوص لم تذكرها، ولم تبينها.

ولا تناقضَ بين قولِه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ و﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾.

إنَّ قولَه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ واردٌ في سورةِ الأنبياء، وهي سورةٌ مكية، وهو يخبرُ أنَّ النفخةَ كانتْ في مريم، أيْ في بدنِها، وهذا تعبيرٌ عام.

أما قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ فهو واردٌ في سورة التحريم، وهي سورةٌ مدنية، وهي نازلةٌ بعد سورةِ الأنبياء، والإِخبارُ فيها أنَّ النفخةَ كانت في فرجها، وهذا تعبيرٌ خاص.

إِذنْ «نفخنا فيها» ذكْرٌ للعامِّ أولاً، و«نفخنا فيه» ذكْرٌ للخاصِّ بعد ذلك، فلا تعارضَ بين الآيتين. فجبريلُ عليه السلام نفخَ في بدنِ مريم، وكانت نفختُه في فرجِها على التخصيص.

التوفيق بين «نفخت فيه» لآدم، و«نفخنا فيه» لعيسى:

وإذا كانَ اللّٰهُ قد خلقَ آدمَ عليه السلام بأنْ نفخَ فيه من روحِه، فإنه خلقَ عيسى بأنْ أَمَرَ جبريلَ أنْ ينفخَ في مريمَ من روحِه.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أَنَّهُ فَرَّقَ بين النفخةِ في خلْقِ آدم والنفخةِ في خلْقِ عيسى.

فعبَّرَ عن النفخةِ في خلقِ آدمَ بالمفرد، وورَدَ هذا في موضعيْن في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢].

بينما عَبَّرَ عن النفخةِ في خلق عيسى بالجَمْع: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا..﴾ [الأنبياء: ٩١].

و﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا..﴾ [التحريم: ١٢].

فما حكمةُ التعبيرِ بالمفردِ في نفخِ الروحِ في آدم، والتعبيرِ بالجمعِ في نفخِ الروحِ في عيسى عليهما السلام؟

بالنسبةِ لآدمَ عليه السلام فإنَّ اللّهَ هو الذي نفخَ في جسدِه الممدَّد، وكانتْ نفخةً مباشرةً من الله، فدبَّتْ في آدمَ الروح، وقامَ إنساناً حياً، وكانت النفخةُ بكيفيةٍ غيبيةٍ، نحنُ لا نعرفُها ولا ندركها.

ولهذا قالَ: «فنفخت فيه»، وأَسندَ النفخَ إلى ذاتِه العليةِ سبحانه وتعالى.

أمّا بالنسبةِ لعيسى عليه السلام، فإنَّ اللّهَ بعثَ جبريلَ عليه السلام لينفخَ في مريمَ رضي الله عنها من روحِه، فقامَ جبريلُ بالمهمةِ وتمت النفخة.

ولهذا عَبَّر بالجمع: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾: لاجتماعِ كلٍّ من المسَبِّبِ والسبب، فاللّهُ هو المسَبِّبُ في النفخ، لأنه هو الذي أَمَرَ بالنفخ، وقَدَّرَ ذلك وأَرادَه، فأَساسُ النفخ منه سبحانه وتعالى.

وجبريلُ هو السببُ الماديُّ الذي قامَ بالنفخ، ونَفَّذَ أَمْرَ الله، وحَقَّقَ إرادةَ اللّهِ في عالم الواقع. فلما اجتمعَ المسَبِّبُ والسببُ عَبَّرَ بالجمع وقال: «فنفخنا». علماً أنَّ اللّهَ هو الذي نفخَ في مريمَ في الحقيقة، لأَنه المسبِّبُ والآمِرُ والمريد.

فضميرُ «نا» في «نفخنا» هو ضميرُ العظمة، لعودتِه في الحقيقةِ على الله.

و«روحِنا» في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ مُضافةٌ إلى الله، وهي الروحُ التي اختصَّ بها، والتي لا يَعلمُ سِرَّها ولا حقيقَتَها أحدٌ من خلقه.

«روحنا»: جبريل. وروح الله الغيبية:

ولقد استعملَ القرآنُ كلمةَ «روحنا» في قصةِ عيسى عليه السلام بمعنيين:

الأول: جبريلُ. وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾.

الثاني: روحُ اللّهِ الخفيةُ الغيبية، التي يجعلُها في الناسِ الأحياء، وذلك في قولِه: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا..﴾.

قال سيد قطب: «هل كلمةُ «روحِنا» التي في سورةِ مريم هي نفسُها التي في سورة التحريم؟ وهل مدلولُها واحد؟...

نَحنُ نَميلُ إلى أَنها ذاتُ مدلولَيْن: فهي في سورةِ مريم تَعني جبريلَ الروحَ الأمين، وهو رسولُ الله إلى مريم.

أَما في سورةِ التحريم فتعني الروحَ الذي نفخَ اللّهُ منه في آدم، فإذا هو إنسان، ونفخَ منه في فرج مريم، فإذا البويضةُ حيةً مستعدةً للنمو..

فهي النفخةُ الإلهية التي تمنحُ الحياةَ، وتمنحُ معها الخصائصَ المرافقةَ لنوع الحياة...

... وإننا لا ندركُ شيئاً، لا عن ماهيةِ الروح بمعنى جبريل، ولا عن ماهيةِ الروح بالمعنى الآخر.. فكلُّه غيب...»[١].

معنى كون عيسى «كلمة الله وروح منه»:

وبما أَنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في مريمَ من روحِ الله، وتَكَوَّنَ من تلك النفخة عيسى عليه السلام، فقد اعْتُبر عيسى كلمةَ الله التي أَلقاها إلى مريم، كما اعْتُبر روحاً من الله سبحانه

---

(١) الظلال ٤: ٢٣٠٦ حاشية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ...﴾ [النساء: ١٧١].

و«من» في قوله: «نفخنا فيه مِن روحنا» وقوله: «روح مِنه» ليستْ للتبعيض، لأنَّ روحَ الله لا تتبعض، ولا تتجزأ، ولا تنقسمُ إِلى أَبعاضٍ وجزئياتٍ وأَقسام.

إنَّ «مِن» هنا لابتداءِ الغاية، فهي من عندِ الله سبحانه وتعالى.

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي في الدّرِّ المصون: «و«روحٌ» عطف على «كلمةٌ».

و«مِنه»: صفةٌ لـ«روح».

و«مِن»: لابتداءِ الغاية مَجازاً. وليستْ تبعيضية.

ومِن غريبِ ما يُحكى أَنَّ بعضَ النصارى ناظَرَ عليَّ بنَ الحسينِ بن واقد المروزي، وقالَ له: في كتابِ الله «القرآن» ما يَشهدُ أَنَّ عيسى جزءٌ من الله! وتلا هذه الآية: «وروح منه».

فعارَضَه ابنُ واقد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ..﴾ [الجاثية: ١٣].

وقالَ له: لو صَحَّ كلامُك للزمَ أَنْ تكونَ جميعُ هذه الأشياءِ في السموات والأرض جزءاً من الله. وهذا مستحيل.

فسكتَ النصرانيُّ وانقطعَ، ثم أَسلم..»[1].

---

(١) انظر الدر المصون ٤:١٦٦.

أما معنى «الكلمة» في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ فهي كلمةُ اللّهِ التي يخلقُ اللّهُ بها المخلوقات، وهي «كن».

قال سيد قطب: «وأقربُ تفسيرٍ لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلقَ عيسى بالأمرِ الكونيِّ المباشر، الذي يقولُ عنه في مواضعَ شتى من القرآن: إنه «كن.. فيكون». فلقد ألقى هذه الكلمةَ إلى مريم، فخلقَ عيسى في بطنها، من غيرِ نطفةِ أَب ـ كما هو المألوفُ في حياةِ البشر غير آدم ـ والكلمةُ التي تَخلقُ كلَّ شيءٍ من العدم، لا عجبَ في أنْ تخلقَ عيسى عليه السلام في بطنِ مريم من النفخة التي يعبِّرُ عنها بقوله: «وروح منه»[1].

وهكذا تحققَتْ إرادةُ الله، ونَفَخَ جبريلُ في مريم من روحِ الله، وكانَتْ هذه الروحُ التي نفخَها فيها من عندِ الله، كما كانت بأمْرِ من الله، وهي أَمْرٌ غيبيٌّ لا نعرفُ حقيقتَه ولا سِرَّه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [٨٥].

النفخ في مريم غيبي لا يخضع لتكييف العقل:

ونَفَخَ جبريلُ في مريمَ بطريقةٍ غيبية، لا نعرفُ كيفيتَها، وعقولُنا لا تدركُها.. وانتقلَتْ هذه «الروحُ» النفخةُ من فرجِ مريمَ إلى رحمِها، وهناك صارتْ هذه النفخةُ الروحُ جنيناً حياً، ولا نعرفُ كيفَ انتقلت، ولا كيفَ صارتْ جنيناً حياً، ولا ما الذي جَرى في رحم مريم من تطوراتٍ وتفاعلاتٍ لتتحولَ هذه النفخةُ الروحُ إلى جَنينٍ حي.

لا نعرفُ ذلك لأَنه من عالَم الغيب، وعقولُنا البشريةُ لم تجهَّزْ بوسائلَ للخوضِ في عالم الغيب، لأنَّ اللّهَ زوَّدَها بالوسائلِ التي تعينُها على تحقيقِ خلافةِ الإنسانِ في الأرض.

أما عالمُ الغيب فطريقُ العقلِ المسلمِ إلى معرفتِه هو النص،

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨١٧.

المتمثلُ في الكتابِ والسنة، حيثُ يؤمنُ بما وردَ في النص، ويكونُ دورُه هو تدبُّرُ النصِّ وحسنُ فهمِه وفقهِه وتأويلِه.

وهكذا حملَتْ مريمُ رضي الله عنها وهي البِكْرُ العذراءُ البتولُ الطاهرة بابنها عيسى، بعدما نفخَ جبريلُ فيها من روحِ الله.

حكمة خلق عيسى من غير أب:

ولعلَّ الحكمةَ في خلقِ اللّهِ عيسى بنفخةٍ في مريم مباشرة هي ما ذَكَرَها سيد قطب في قوله: «وإذا نحنُ تجاوَزْنا حادثَ خلقِ الإنسانِ أَصلاً وإِنشائِه على هذه الصورة، فإنَّ حادثَ ولادةِ عيسى ابنِ مريم يكونُ أَعجبَ ما شهدَتْهُ البشريةُ في تاريخها كلِّه، ويكونُ حادثاً فَذّاً لا نظيرَ له من قبلِه ولا من بعده...

والبشريةُ لم تشهدْ خلْقَ نفسِها، وهو الحادثُ العجيبُ الضخمُ في حياتها! لم تشهدْ خلْقَ الإنسانِ الأولِ من غيرِ أبٍ ولا أم، وقد مضتِ القرونُ بعدَ ذلك الحادث.

فشاءت الحكمةُ الإلهيةُ أنْ تُبرزَ العجيبةَ الثانية في مولدِ عيسى من غيرِ أب، على غيرِ السّنّةِ التي جرتْ منذُ وُجدَ الإنسانُ على هذه الأرض، ليشهدَها البشر، ثم تظلّ في سجلِّ البشرية بارزةً فذة، تتلفتُ إِليها الأجيال، إنْ عَزَّ عليها أنْ تتلفتَ إِلى العجيبةِ الأُولى التي لم يشهدْها إنسان!

لقد جرتْ سنةُ اللّهِ التي وضعَها لامتدادِ الحياة بالتناسلِ من ذكرٍ وأنثى، في جميعِ الفصائلِ والأنواعِ بلا استثناء. حتى المخلوقاتِ التي لا يوجَدُ فيها ذَكَرٌ وأُنثى متميزان، تتجمعُ في الفردِ الواحد منها خلايا التذكيرِ والتأنيث..

جرتْ هذه السّنّةُ أَحقاباً طويلة، حتى استقرَّ في تصورِ البشر أنَّ هذه هي الطريقةُ الوحيدة.. ونسوا الحادثَ الأول. حادثَ وجودِ الإنسان، لأنَّه خارجٌ عن القياس.

فأرادَ اللّهُ أنْ يضربَ لهم مَثَلَ عيسى ابن مريم عليه السلام، ليذكِّرَهم بحريةِ القدرةِ وطلاقةِ الإرادة، وأنها لا تحتبسُ داخلَ النواميس التي تختارها..

ولم يتكرَّرْ حادثُ عيسى لأنَّ الأصلَ هو أنْ تجريَ السنةُ التي وضعَها الله، وأن يُنَفَّذَ الناموسُ الذي اختاره.

وهذه الواحدةُ تكفي، لتبقى أمامَ أنظارِ البشرية مَعْلَماً بارزاً على حريةِ المشيئة، وعدمِ احتباسها داخلَ حدودِ النواميس ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

ونظراً لغرابةِ الحادثِ وضخامتِه، فقد عَزَّ على فِرَقٍ من الناس أنْ تتصوَّرَه على طبيعته، وأنْ تدركَ الحكمةَ في إبرازِه، فجعلَتْ تُضفي على عيسى ابن مريم عليه السلام صفاتِ أُلوهية، وتَصوغُ حولَ مولده الخرافاتِ والأساطير، وتعكسُ الحكمةَ من خلْقِه على هذا النحوِ العجيب ـ وهي إثباتُ القدرةِ الإلهية التي لا تتقيد ـ تعكسُها فتشوِّهُ عقيدةَ التوحيد...»[1].

وقد أَوْرَدْنا كلامَ سيد قطب على طوله، معتمدين له، فهذه الحكمةُ التي تبدو لنا من هذه الحادثةِ المعجزة، والله تعالى أعلم.

[٨]

مريم تلد عيسى عليه السلام

قابلَ جبريلُ عليه السلام مريم، وهي منفردةٌ عن أَهلها، منتبذةٌ منهم مكاناً شرقياً، ونفخَ فيها نفخةً بأمْرِ الله، وكان في النفخةِ كلمةُ اللّهِ الأزليةُ «كن»، وفيها روحٌ من عندِ الله، وشاءَ اللّهُ أنْ يتخلقَ الجنينُ في رحمِها بتلك النفخة، فحملَتْ بعيسى عليه السلام.

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٤ ـ ٢٣٠٥.

حديث القرآن عن ولادة مريم لعيسى:

وقد أَشارَتْ آياتُ القرآنِ بإِيجازٍ إلى مشهدِ ولادةِ مريم الفتاة العذراء لابنِها عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٢ - ٢٦].

وعرضت الآياتُ لقطاتِ هذا المشهدِ المؤثر متتابعةً متعاقبة، معطوفٌ بعضُها على بعض بحرفِ «الفاء» الذي يدلُّ على الترتيبِ والتعقيب الفوري.

وجملة «فحملَتْه» معطوفةٌ على ما قبلها: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

والمرادُ بقوله: «كان أمراً مقضياً». أنَّ جبريلَ نفخَ في مريمَ نفخةً فيها الكلمةُ من الله والروحُ من الله، فتمَّ خلْقُ الجنين في رحمها.

والتقدير: نفخَ جبريلُ في مريم، فخلَقَ اللّهُ عيسى في رحمها، فصارَ جَنيناً حياً، فحملَتْ مريمُ جنينَها، فانتبذَتْ به مكاناً قصياً.

وبَيَّنا عند كلامِنا على قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أنَّ الانتباذَ هو الابتعادُ والانفرادُ عن الآخرين واعتزالُهم.

وأَخبرَنا اللّهُ أنَّ مريمَ لما أحسَّتْ بالجنينِ في رحمها انتبذَتْ من أَهْلِها، وذهبتْ إلى مكانٍ قصيٍّ بَعيد.

لقد ذكرت الآياتُ انتباذَيْن لمريم، يَقومان على المرحليةِ والتدرج.

الأول: انتباذٌ عام، وهو المذكورُ في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا..﴾.

وهذا انتباذُ اعتادَتْه، واعتادَهُ منها أهلُها، حيث كانت تقومُ به، وتبتعدُ عن أَهلها إِلى مكانٍ يقعُ شرقيَّ أماكنهم، وكان لها فيه حجابٌ أَو بناءٌ أَو صومعة، وكانت تعبدُ اللّهَ وتُناجيه في ذلك المكانِ الشرقي.

انتباذ مريم الثاني القصي:

الثاني: انتباذٌ خاص، وهو المذكورُ في قوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا كان بعدما حملَتْ بعيسى، وحملَتْ به عندما كانتْ في حجابها في المكانِ الشرقي، الذي ذَكَرَهُ الانتباذُ الأول.

أي أنَّ الانتباذَ الثانيَّ بُنيَ على الانتباذِ الأول، وكان نتيجةً له، حيث غادرَتْ ذلك المكانَ الشرقي، وذهبتْ إِلى المكانِ القصي، وبذلك ابتعدَتْ عن أهلِها مسافةً أَبعد.

و«قصياً»: صفةٌ مُشَبَّهَة على وزن «فَعيل» بمعنى: بعيد.

ونلاحظُ أَنَّ فعلَ «انتبذت» الأول تعدّى إِلى ما بعدَه بحرف «مِن»: «فانتبذت من أهلها». فدلَّ على معنى المفارقةِ والانفرادِ عن أَهلها.

أمّا فعلُ «انتبذت» الثاني، فقد تعدّى إِلى ما بعدَه بحرفِ الجر الباء: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾. فدلَّ على معنى المصاحبة. والهاء في «به» تعودُ على عيسى الجنينِ في رحمها.

وذهبتْ إِلى ذلكَ المكانِ القصي، رغبةً منها في المبالغةِ في الابتعادِ عن أَهلها، لأنها خَشيت الفضيحة، وخافَتْ من كلامِهم ونظراتِهم واتهامِهم، وتوقعَت استغرابَهم ودهشتَهم.

وهذا الاستغرابُ أمرٌ طبيعي، فهي فتاةٌ عذراءُ بتولٌ طاهرةٌ صالحة، يَعرفُ أهلُها صلاحَها وطهارتَها، وها هي تحملُ في بطنها جنينَها، فمن أينَ جاءَها؟ هل يصدقون روايتَها بأنه نفخَةٌ من الله، وأَنه لم يمسَّها رجل؟

فلعلَّها أحبَّتْ أنْ تبتعدَ عن قومِها، وأنْ تنتبذَ بجنينها إِلى ذلك المكان القصي، لتسلمَ من اتهاماتِ أَهلها، وتنجوَ من نظراتهم!

المكان القصي هو بيت لحم والدليل من الحديث:

ولم يُحَدِّدْ ذلكَ المكانُ القصيُّ في القرآن، وهو معروفٌ عند النصارى والمؤرخين بأنه «بيتُ لحم». حيث أَقامتْ فيه مريم وأَنجبتْ فيه عيسى عليه السلام، ثم عادَتْ إِلى أهلها وهي تحملُه.

وردَ في «قاموسِ الكتاب المقدس» عن بيت لحم ما يلي: «بيتُ لحم: اسمٌ عبري، معناه «بيتُ الخبز». وهي قريةٌ صغيرة، مبنيةٌ على أَكمة، تبعدُ ستةَ أميالٍ إِلى الجنوب من أُورشليم - بيت المقدس - وهي محاطةٌ بتلالٍ تكسوها الأَشجارُ والنباتاتُ الجميلة. وفيها مياهٌ عذبةٌ تنفجرُ من أَراضيها الخصبة.

وكانَ داودُ عليه السلام يشربُ الماءَ من البئرِ الذي فيها.

وكانت مدفنَ راحيل، ومسقطَ رأسِ داود، ومسكنَ نعمى وبوعز وراعوث.

وأعظمُ من ذلك جميعِه أَنه وُلِدَ فيها المخلِّص.

ولبيت لحم أَكثرُ من أربعةِ آلاف سنة منذُ أُسست، ولم تزلْ صغيرةً حتى إِلى ما بعدَ أيام المسيح.

وبَنَت الأمبراطورةُ «هيلانة» كنيسةً فوقَ المغارةِ التي يُظَنُّ أَنَّ مخلِّصَنا وُلدَ فيها، وهي أَقدمُ كنيسةٍ مسيحيةٍ في العالم، وهي كنيسة المهد...»[١].

ومَرَّ رسولُ الله ﷺ ليلةَ الإسراء ببيت لحم، وأَمَرَهُ جبريلُ عليه السلام أنْ ينزلَ فيصليَّ فيها، وأَخبرَه أَنها مكانُ ميلادِ عيسى عليه السلام.

---

(١) قاموس الكتاب المقدس لبطرس عبد الملك ورفقاه: ٢٠٥ - ٢٠٦.

روى النسائيُّ عن أَنسِ بنِ مالك رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «أُتيتُ بدابَّةٍ فوقَ الحمار ودونَ البَغْل، خَطْوُها عند منتهى طَرْفِها، فركبْتُ، ومعي جبريلُ عليه السلام.

فسِرْتُ. فقالَ: انزلْ فَصَلِّ. فنزلْتُ فصليتُ.

فقال: أَتدري أينَ صليتَ؟ صليتَ بطَيْبَة، وإِليها المُهاجَر!

ثم قال: انزلْ فَصَلِّ، فنزلْتُ فصلَّيْتُ.

فقال: أَتدري أينَ صلَّيْتَ؟ صليتَ بطورِ سيناء، حيثُ كلَّمَ اللّهُ عز وجل موسى عليه السلام.

ثم قال: انزلْ فَصَلِّ. فنزلْتُ فصلَّيْتُ.

فقال: أَتَدري أينَ صليت؟ صليتَ ببيت لحم، حيث وُلدَ عيسى عليه السلام.

ثم دَخَلْتُ بيتَ المقدس، فجُمِعَ لي الأنبياءُ عليهم السلام، فقدَّمَني جبريل حتى أَمَمْتُهم...»[1].

والشاهدُ في الحديثِ أنَّ جبريلَ عليه السلام أَمَرَ محمداً ﷺ أنْ ينزلَ فيصليَ في «بيت لحم»، وأَخبرَه أَنها مكانُ ولادةِ عيسى عليه السلام.

وقد علَّقَ الإمامُ ابنُ كثير على هذا الحديثِ بقوله: «وفي روايةِ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه: كان ذلك على ثمانيةِ أَميالٍ من بيت المقدس، في قريةٍ هناك يقال لها بيت لحم.

وقد تقدَّمَ في أَحاديثِ الإسراءِ من روايةِ النسائي عن أَنسٍ رضي الله عنه، والبيهقي عن شَدّادِ بن أَوْس رضي الله عنه، أَنَّ ذلك ببيت لحم، فاللّهُ أَعلم.

(١) أخرجه النسائي برقم: ٤٥٠. ورواه البيهقي بألفاظ أخرى عن شداد بن أوس.

وهذا هو المشهور، الذي تلَقّاه الناسُ بعضُهم عن بعض، ولا يَشُكُّ فيه النصارى أَنه ببيت لحم، وقد تلقّاه الناس، وقد وردَ به الحديثُ إنْ صَحّ..»[1].

ويلاحَظُ أنَّ الإمامَ ابنَ كثير قد توقَّفَ في الحكم على الحديثِ وتصحيحه، بينما حكمَ الإمامُ البيهقيُّ له بالصحة. فقالَ بعدَ ذكْرِه له: «هذا إسنادٌ صحيح..»[2].

ونحنُ نتابعُ الإمامَ البيهقيَّ في تصحيحِ الحديث، فهو حافِظٌ محدث، ونعتمدُ الحديث، ونذهبُ إلى أنَّ عيسى عليه السلام وُلِدَ في «بيت لحم».

والخلاصة: الراجحُ أنَّ «المكانَ القصيَّ» المذكورَ في قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ هو المكانُ الذي وَلدتْ فيه ابنَها عيسى عليه السلام، وهذا المكانُ هو بيت لحم، كما وردَ في حديث الإسراء.

و«بيتُ لحم» مكانٌ قصيٌّ بالنسبةِ إلى القدس، لأَنها تبعدُ عن القدس حوالي تسعةَ أميال.

حملها وولادتها في ساعات والدليل على ذلك:

ولما ذهبتْ مريمُ إلى المكانِ القصيِّ في بيت لحم، منتبذةً بابنِها من أهلِها، أَحستْ هناك بآلام المخاضِ والطلقِ والوضع. قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ..﴾.

الفاءُ في الفعل: «فَأَجاءَها» حرفُ عطف، يدلُّ على الترتيبِ والتعقيبِ الفوري، وما بعدَها معطوفٌ على ما قبلَها، والتقدير: فحملَتْه، فانتبذَتْ به، فأَجاءَها المخاص..!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١١٤.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٧.

والتعبيرُ عن مراحلِ حمْلِها بعيسى وولادتِه بالفاء، الدالةِ أَصلاً على الترتيبِ مع التعقيب الفوري، جعلَ العلماءَ يختلفون في مدةِ حملها بعيسى: هل حملَتْه حَمْلاً طبيعياً، استمرَّ مدةَ تسعةِ أشهر، كما تَحملُ النساء، أم كان حملاً خاصاً لم يستمرَّ أكثرَ من ساعات.

ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أَنَّ حَمْلَها استمرَّ تسعة أشهر. وممن قال بذلك الإمامُ ابن كثير. وحملَ «الفاءَ» الدالةَ على التعقيب، على ترتيبِ وتعقيبِ مراحلِ الحمل التي يمرُّ بها الجنين، على التفاوتِ الزمنيِّ بينها.

قال: «فالفاءُ ـ وإنْ كانت للتعقيب ـ لكن تعقيبٌ على كلِّ شيءٍ بحسبه، وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا...﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

... فالمشهورُ الظاهرُ ـ والله على كلِّ شيء قدير ـ أَنها حملت به كما تحملُ النساءُ بأولادهن...»[١].

وذهبَ آخَرون إلى أَنَّ مدةَ حمْلها كانت سريعة. وهذا قولٌ منسوبٌ لابنِ عباس رضي الله عنهما.

روى الطبريُّ وابنُ كثير أَنَّ ابنَ عباس رضي الله عنهما قال: ما هو إلاّ أنْ حملَتْ وولدَتْ، فليسَ بين حملها وولادتها زمن[٢].

وبعدَ أنِ اطَّلَعَ سيد قطب على القولين، مالَ إلى التوقفِ في الخوضِ في مدةِ الحمل، وعدمِ ترجيحِ أَحدهما على الآخر: «إنَّ السياقَ لا يذكُرُ كيفَ حملَتْه، ولاَ كم حملَتْه.. هل كانَ حَمْلاً عادياً، كما تَحملُ النساء، وتكونُ النفخةُ قد بَعثتِ الحياةَ والنشاطَ في البويضة، فإذا هي علقةٌ فمضغةٌ فعظام، ثم تُكسى العظامُ باللحم، ويَستكملُ الجنينُ أيامَه المعهودة؟ إنَّ هذا جائز.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١١٤.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٧. وتفسير ابن كثير ٣: ١١٤.

فبويضةُ المرأةِ تبدأُ بعد التلقيحِ في النشاطِ والنموِّ حتى تستكملَ تسعةَ أشهرٍ قمرية.

والنفخةُ تكونُ قد أَدَّتْ دورَ التلقيح فسارت البويضةُ سيرتَها الطبيعية.

كما أنه من الجائزِ في مثلِ هذه الحالة الخاصة أنْ لا تسيرَ البويضةُ بعد النفخةِ سيرةً عادية، فتختصرُ المراحلَ اختصاراً، ويعقبُها تَكَوُّنُ الجنينِ ونموُّه واكتمالُه في فترةٍ وجيزة.

ليس في النصِّ ما يدلُّ على إِحدى الحالتين، فلا نَجري طويلاً وراءَ تحقيقِ القضيةِ التي لا سند لَها...»[1].

وإِننا نميلُ إِلى ما قالَهُ ابنُ عباس رضي الله عنهما، مِن أَنَّ حَمْلَها بعيسى لم يستمرّ أكثرَ من ساعات، وأَنها ما أنْ حملَتْ به وهي في «المكان الشرقي»، حتى انتبذَتْ به إِلى «المكانِ القصي» ـ بيت لحم ـ وهناك «أَجاءَها المخاضُ إِلى جذع النخلة..».

وممّا يُقوّي ميلَنا إِلى هذا الرأي التعبيرُ بالفاء، الدالةِ على الترتيبِ والتعقيب الفوري، والتي تُرتبُ المراحلَ ترتيباً سريعاً فورياً: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ...﴾.

وقفة مع فعل «فأجاءها»:

في المكانِ القصي ـ بيت لحم ـ الذي ذهبَتْ إِليه نخلة، ولما أَحَسَّتْ بآلامِ المخاض اضطرتْ أنْ تلجأَ إِلى تلك النخلة، وما كان هناك أحدٌ عندها.

وعَبَّرَ القرآنُ عن هذه الحالةِ المثيرةِ العجيبة بقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧.

ونقفُ مع معنى فعل «أجاءَ».

إنه من تصريفاتِ فعل «جاء».

وردَ في المعجمِ الوسيط عن الفعلَيْن ما يلي: «جاءَ مَجيئاً: أتى. يقال: جاءَه، وجاءَ إليه، وجاءَ به.

و: أجاءَ فلاناً: جاءَ به. وأَجاءَ فلاناً إلى كذا: أَلْجأه إليه.

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

وفي المثل: شَرٌّ ما أجاءَكَ إلى مُخِّه عرقوب. يُضربُ للمضطر جداً»[1].

وقالَ الإمامُ الراغب: «يُقال: جاءَه بكذا، وأَجاءَه. قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ..﴾. قيل: أَلْجأَها.

وإنما هو مُعَدّى عن «جاء»[2].

ورأى الإمامُ الطبريُّ أَنَّ «أَجاءَها المخاض» بمعنى «أَلجأها» رغمَ أَنه من فعلِ «جاء».

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِه ما يلي: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: جاءَ بها المخاضُ إلى جذع النخلة، وأَلجأَها، واضطَّرها إليها..

إذن: أَصْلُ «أجاءها»: جاءَ بها، ثم لما حُذفت الباءُ صارت: أَجاءَها.

تقول: جاءَ هو. وأَجَأْتُه أَنا. أي: جِئْتُ أَنا به.

قالَ زهيرُ بن أبي سلمى:

وَجارٍ سارَ مُعْتَمِداً إِلَيْكُمْ ... أَجاءَتْهُ المَخافَةُ وَالرَّجاءُ

(١) المعجم الوسيط: ١٤٩.

(٢) المفردات: ٢١٢.

قالَ ابنُ عباس ومجاهد وقتادة والسدي: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ..﴾: أَلجأها المخاضُ إلى جذعِ النخلة[1].

إنَّ الطبريَّ يرى أنَّ أصل: «أجاءها»: جاءَ بها، فلما حُذفت الباء، ونَصَبَ الفعلُ المفعولَ به، عُوِّضَ عن الباء همزة في أوله، فصارت: «أجاءها».

أما الزمخشريُّ فإنه يرى أنَّ «أجاء» مأخوذٌ من الماضي الثلاثي «جاء». قال: «أجاءَ: منقولٌ من «جاء». إلاّ أنَّ استعمالَه بعدَ النقلِ تغيَّرَ إلى معنى الإلجاء.

أَلا تراكَ تقول: جئتُ المكانَ، وأَجاءَنيه زيد. كما تقول: بَلَغْتُه، وأَبلغنيه. ونظيرُه «آتى» حيث لم يُستعملْ إلاّ في الإعطاء»[2].

والراجحُ أنَّ الهمزةَ في «أجاء» للنقلِ والتعدية.

تقول: جاءَ الرجلُ المكان. بمعنى: أتاه.

وعندما تقول: أَجاءَ الرجلُ الشخصَ المكان. بمعنى: أَتى به وحملَه على المجيء إليه، وأَلجأَه إلى ذلك وأكرهه عليه.

وهذا الاستعمالُ موجودٌ في اللغة.

تقول: ذهبَ الرجلُ بالمال. و: أَذهبَ الرجلُ المالَ.

وتقول: جلسَ الرجلُ في المقعدِ. و: أَجلسَ الرجلُ أخاه.

وتقول: أَتى الرجلُ المكان. و: آتى الرجلُ العطيةَ.

ومن هذا الباب: جاءَ. و: أَجاء.

تقول: جاءَ الرجلُ البيت.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) الكشاف ٣:١١.

وتقول: أَجاءَ الفقرُ الرجلَ. أي: أَلجأَ الفقرُ الرجلَ على المجيء.

فرغم أنَّ «أَجاءَ» منقولٌ عن «جاء» إلاّ أَنه ينصرفُ إِلى معنى الاضطرارِ والإكراهِ والمجيء.

معنى قوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾:

إِذن معنى «أَجاءها المخاض إِلى جذع النخلة»: جاءَ المخاضُ بمريمَ إِلى جذعِ النخلة، واضطرَّها إِلى القدومِ إِليها، وأكرهها على ذلك.

و«المخاض» مصدر. فعلُه الثلاثي: مَخِضَ، بكسر الخاء.

تقول: مَخِضَت الحاملُ، تَمْخَضُ، مَخاضاً: إِذا أَخَذَها الطلق ودنَتْ ولادتُها.

قالَ الإمامُ ابنُ فارس في معنى هذه المادة: «مَخِض: أصلٌ صحيح يدلُّ على اضطرابِ شيءٍ في وعائِه المائع..

والماخِض: الحامل. إِذا ضربَها الطلق. وهذا على معنى التشبيه، كأَنَّ الذي في جوفها شيءٌ مائعٌ يتمخَّضُ ويتحرَّكُ ويضطرب...»[١].

وكأنَّ الجنينَ في رحم الأم يضطربُ ويتحرَّك، قبلَ نزوله، وكأنه يسبحُ في ما حولَه من السائلَ الذي تضمُّه المشيمة.

ولم تَرِدْ كلمةُ «أَجاءها» وكلمةُ «المَخاض» في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

و«المخاض في الآية: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فاعلٌ مؤخَّر.

والهاء: في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم، يعودُ على مريم.

والتقدير: أَجاءَ المخاضُ مريمَ إِلى جذع النخلة.

---

(١) مقاييس اللغة: ٩٧٧.

وإِسنادُه «الإِجاءةِ» والإِلجاءِ إِلى المخاض إِسنادٌ بديع، يقومُ على «التصويرِ القرآني» المعجزِ الرفيع.

فكأنَّ هذا المخاض ـ وهو آلامُ الطلق وتحركُ الجنين في الرحم ـ إِنسانٌ قويٌّ شديد، يُخضعُ مريمَ له إِخضاعاً، ويَدفعها دَفعاً، ويُكرهُها ويَضطرها، ويَجعلُها تسيرُ أَمامه مُكرهةً مضطرة، حتى يجعلَها عند جذعِ النخلة، تستندُ إِليها، وتعتمدُ عليها، وتستعلي على آلامِ الوضعِ والطلق!!

التجأَتْ مريمُ إِلى جذعِ النخلة، في ذلك المكانِ القصي، بيت لحم.

و«جذعُ النخلة»: ساقُها الذي تقومُ عليه. وجمعُه: جذوع.

وإِضافةُ الجذع إِلى النخلة يُشيرُ إِلى أنها نخلةٌ حيةٌ خضراءُ نامية، وليسَ الجذعُ ساقَ نخلةٍ يابساً مقطوعاً مُلقىً على الأرض!

نخلة بيت لحم عند ولادة عيسى:

وإِذا كنا رجَّحْنا أَنَّ المكانَ القصيَّ الذي شهدَ ولادتَها لعيسى عليه السلام هو بيتُ لحم، فإِنَّ هذه الآيَةَ تشيرُ إِلى أنه كانَ في «بيت لحم» نخلةٌ حيةٌ ناميةٌ في ذلك الوقت.

ولا يستغربَنَّ ذلك أحد، ولا يَقيسُه على الواقعِ الآن، فالمعلومُ عند الناس في هذه الأيام أَنه لا يوجد في بيت لحم نخلة، ولكن لا يُقاسُ الماضي البعيدُ على الواقعِ القائم، فتلك النخلةُ في بيت لحم التي شهدَتْ ميلادَ عيسى عليه السلام قد تكونُ عَدَتْ عليها عوادي الزمن فأَيبسَتْها وأَماتَتْها.

وقد مَرَّ عبدُ الوهاب النجار مؤلفُ كتاب «قصص الأنبياء» في مطلعِ القرن العشرين بكنيسةِ «المهد» في بيت لحم، التي يزعمُ النصارى أنهم أَقاموها على مكان ميلادِ عيسى عليه السلام.

قال: «وأَقولُ أَيضاً: إِنَّ وجودَ النخل ببيتِ لحم، وهي البلدةُ التي كانت بها مريمُ يومَ ولادةِ المسيح نادر. وقد رأيتُ بكنيسةِ بيت لحم المبنيةِ على موضعِ ولادةِ المسيح مكاناً قد «قُوِّرَ» البلاطُ فيه. ويقولونَ إنَّ في موضعِ هذا التقوير كانت النخلةُ التي وَلَدَتْ عندها مريم..»[1].

آلام مريم عند الوضع وتمنيها الموت:

وهناكَ عند جذعِ النخلة أَخذها الطلق، واشتدَّتْ بها آلامُ المخاض، وأَطلقَتْ زفرَةً شديدةً موجعةً، قائلة: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

تمنَّتْ مريمُ رضي الله عنها لو كانَتْ ماتت «قبل هذا» الحالِ المكروبِ الشديدِ الذي هي فيه، وكانت نسياً منسياً.

والنَّسْيُ هو: اسمٌ للشيء الذي يَنساه أَصحابُه ويتركونه، ويَذهبون عنه لحقارته عندهم.

و«مَنسِياً»: اسم مفعول، صفةٌ لهذا «النَّسْيِ» المتروك. مبالغةً في إهمالِه وتركه.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الطبري عن «النسي المنسي» ما يلي:

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: قالت هذا في حالِ الطلق، استحياءً من الناس.

أي: يا ليتَني مِتُّ قبلَ هذا الكربِ الذي أَنا فيه، وكنتُ ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: شيئاً نُسِيَ فَترِكَ طلبه، كخرقةِ الحيض التي إذا أُلقيتْ وطُرحتْ، لم تُطلبْ ولم تُذكَرْ.

وكلُّ شيءٍ نُسِيَ وتُرِكَ ولم يُطْلَبْ فهو «نَسْي».

قال ابنُ عباس: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: لم أُخلق، ولم أَكُ شيئاً.

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار: ٣٨١.

وقال قتادة: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: لا يُعْرَفُ ولا يُذْكَرُ. أي: لا أُعْرَفُ ولا يُدرىٰ مَنْ أنا[1].

لماذا تمنت مريمُ عند جذعِ النخلة لو ماتَتْ وكانَتْ نسياً منسياً؟

سيد قطب يحاولُ الإجابةَ على هذا التساؤل، وتصويرَ مشاعرِها في هذه اللحظات الحرجة: «فلْنشهدْ مريمَ تنتبذُ مكاناً قصيا عن أَهْلِها، في موقفٍ أشدُّ هولاً من موقفِها السابق لما حملَتْ بعيسى..

فلئن كانتْ في الموقفِ الأولِ تواجِهُ الحصانةَ والتربيةَ والأخلاق، بينَها وبين نفسها، فهي هنا وشيكةُ أنْ تواجهَ المجتمعَ بالفضيحة (!!)..

ثم هي تواجِهُ الآلامَ الجسديةَ بجانب الآلامِ النفسية، تواجهُ المخاضَ الذي «أَجاءَها» إجاءَةً إلى جذعِ النخلة، واضطرها اضطراراً إلى الاستنادِ عليها، وهي وحيدةٌ فريدة، تُعاني حيرةَ العذراءِ في أولِ مخاض، ولا علْمَ لها بشيء، ولا مُعينَ لها في شيء...

فإذا هي قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فإننا لنكادُ نرى ملامحَها، ونحسُّ اضطرابَ خواطرِها، ونلمسُ مواقعَ الألمِ فيها، وهي تتمنّى لو كانتْ نسياً منسياً..»[2].

وما هي إلا فترةٌ قصيرةٌ عانَتْ فيها مريمُ ما عانَتْ من آلامِ المخاض، وهي وحيدةٌ فريدة، وهي مستندةٌ إلى جذعِ النخلة.. ما هي إلا فترةٌ قصيرةٌ حتى وضعَتْ مولودَها عيسى عليه السلام..

ومرَّتْ فترةٌ قصيرة وهي تستعيدُ عافيتَها، وتعودُ تدريجياً إلى حالتِها الطبيعية، وكانت ما زالَتْ على نفس جلستِها بجانبِ جذعِ النخلة، وما زالَتْ أسيرةَ هواجسِها وأفكارها، وما زالتْ قلقةً منفعلة، حزينةً مكروبة، وفجأةً سمعَتْ مَنْ يُناديها مِنْ تحتها...

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥: ٢٣٠٧.

الراجح أن ابنها هو الذي ناداها من تحتها:

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي..﴾.

في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ أَبي عمرو وابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم: «فناداها مَنْ تَحْتَها» بفتحِ الميم. على أنَّ «مَنْ» اسمُ موصولٍ بمعنى «الذي». و«تَحْتَها» صلة الموصول.

والمعنى: ناداها الشخصُ الذي تحتَها..

الثانية: قراءةُ الباقين: «مِنْ تَحْتِها» بكسر الميم. على أنَّ «مِنْ» حرفُ جر. و«تَحْتِها» مجرورٌ بحرف الجر.

والمعنى: ناداها المنادي مِنْ تحتِها.

ولكن مَنْ هو الذي ناداها؟ هلْ هو جبريل أم وليدُها عيسى؟

ذهبَ بعضُ العلماء إلى أنَّ الذي ناداها مِن تحتها هو جبريل. فقد كانَ جبريلُ قريباً منها، ولما وضعت مولودَها جاءَها ووقفَ بين يديها. وكان في مكانٍ أسفلَ منها، ولهذا اعتُبرتْ مناداتُه لها مِن تحتها، لأنه كانَ أسفلَ منها.

وهذا قولُ ابنِ عباس وعلقمة والضحاك وقتادة والسدي.

وذهبَ علماءُ آخرون إلى أنَّ الذي ناداها مِن تحتِها هو عيسى عليه السلامُ، الذي لم يولَدْ إلاّ قبلَ لحظات!

وهذا قولُ أُبَيّ بن كعب ومجاهد والحسن البصري وابن زيد وسعيد بن جبير.

قالَ أُبَيُّ بْنُ كعب: الذي ناداها هو الذي حَمَلَتْه في جوفِها، ودَخَلَ من فمِها.

والراجحُ هو القولُ الثاني، فالذي ناداها هو وليدُها، الذي كان ما

زالَ تحتَها، لحظةَ ولادتِها له.

والدليلُ على ترجيحِ هذا القول هو أنَّ الكلامَ فيما سبقَ كلُّه عن عيسى وليس عن جبريل، والضمائرُ السابقةُ تعودُ عليه «فحملته.. فانتبذت به.. فناداها من تحتها...».

ودليلُ ترجيحِ هذا القول أَيضاً أَنها لما ذهبتْ إِلى أَهْلِها وهي تحملُه، واستغربوا أَمرها، أَشارتْ إِليه. وهي لم تُشِرْ إِليه إِلاّ ليتكلمَ نيابةً عنها، وهي لم تفعلْ ذلك إلاّ لأَنه ناطق، وأَنه قد تكلمَ معها من قبل، وقد جَرَّبَتْ ذلك منه..[1].

ثم إنَّ كونَ المتكلمِ معها ابنَها الذي ولدَتْه قبلَ لحظة أبلغُ وأظهرُ في المعجزة، لأَنَّ كلامَه مع أمه ثم مع أَهلها بعد ذلك ليسَ مألوفاً ولا معتاداً، وإنما هو بأمْرٍ من الله!

ولْنتصوَّرْ مدى مفاجأةِ مريم الكبرى وهي تسمعُ ابنَها ـ ابنَ لحظة ـ يُناديها ويُكلمها ويشدُّ أَعصابَها ويَرفعُ معنوياتِها!!.

توجيه الوليد لأمه لحظة ولادته:

ماذا قال لَها ابنُها؟

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦].

إنَّ اللّهَ هو الذي أَلهمَ عيسى أنْ يقولَ لأمِّه هذا القول، وأَنطقَه بهذا الكلام، وإلاّ فما أدراه بهذه الخطةِ العلميةِ الحكيمة، ولم تَمضِ على ولادتِه إلاّ لحظات.

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٢٨ ـ ٢٢٩.

«أنْ» في قوله: ﴿أن لا تَحْزَنِي﴾: حرفُ تفسير، وما بعدَها جملةٌ تفسيرية تُفسِّرُ لنا نداءَه، وتخبرُنا بما قالَه لها.

﴿لا تَحْزَنِي﴾: نَهاها عن الحزن، ودَعاها إلى إزالة ما اعتراها من هَمٍّ وكَرب، ودَعاها إلى الهدوءِ والطمأنينة، وعدمِ التوترِ والقلقِ والانفعال.

لا تَحزني مما حصلَ، فإنَّ اللّهَ معكِ، يحفظكِ ويرعاك، فها هو الطعامُ والشرابُ عندك، قَدَّمَهُ اللّهُ لك بمعجزةٍ من معجزاته.

ولا تَحزني في التفكيرِ بمواجهةِ أَهلك، فإنَّ اللّهَ سيقدِّمُ لهم معجزةً أيضاً، يَعلمونَ منها براءتك، ويوقِنون أنَّ الأَمْرَ من الله.

أنبع الله لها جدول ماء آية وكرامة:

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ هذا من كلامِ عيسى لأُمِّه، يرشدُها إلى «السَّرِيِّ» الذي جعلَهُ اللّهُ تحتها.

وقد اختلفَ العلماءُ في المرادِ بالسَّرِيِّ الذي جعلَهُ اللّهُ تحتها:

فقالَ بعضُهم: السَّرِيُّ هو عيسى عليه السلام.

وهذا قولُ الحسن البصري والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قالَ ابنُ زيد: السَّرِيُّ عيسى، وأيُّ شيء أَسرى منه؟ ولو كان السَّرِيُّ النهرَ لما قالَ «تحتك»، لأنَّ النهرَ إلى جنبها وليس تحتَها.

وعلى هذا القول تكونُ الكلمةُ «سَرِيّ» من الفعلِ الثلاثي «سَرَوَ». تقول: سَرَوَ، يَسْرو، فهو سَرِيٌّ. مثل: شَرَفَ، يَشْرُفُ، فهو شَريف.

ومعنى «سَرَوَ»: شَرَفَ وعَظُمَ وارتفعَ قدْرُه.

والسَّرِيُّ هو: الرجلُ العظيم، مرتفعُ القدر، عالي المنزلة.

وعلى هذا القول يكونُ معنى الآية: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾:

لا تحزني، فإنَّ مولودَك الذي تحتك الآن، سيكون سَرِيًّا عندما يكبر، ويجعلُه اللّهُ رجلًا عاليَ المنزلة، رفيعَ القدر.

وقال آخَرون: هو جدولُ الماء.

وهذا قولُ جمهورِ الصحابة والتابعين، منهم البراءُ بن عازب وابنُ عباس ومجاهدُ وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة ومعمر والسدي.

وعلى هذا القول تكون «سَرِيّ» من الفعل الثلاثي «سَرَىٰ». تقول: سَرىٰ، يَسْري، فهو سَرِيّ.

وسُميَ الجدولُ «سَرِيًّا» لأنَّ الماءَ يَسري ويَجري فيه.

والراجحُ هو القولُ الثاني، لتناسُبِه مع ما بعدَه من الأمرِ بالأكلِ والشرب[1].

وعلى هذا القولِ الراجح يكونُ معنى الآية: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: أَجرى اللّهُ لكِ جدولَ ماء، وها هو يَسري ويَسيلُ ويَجري، ويَمرُّ في سريانِه من تحتك، فلا تَحزني.

ويُشيرُ هذا إِلى أَنه لم يكنْ في المكانِ سَرِيٌّ ـ جدولُ ماء ـ من قبل، وإِنما فجَّرَ اللّهُ لها الماء، وأَنبعه عندما لجأَتْ إِلى جذعِ النخلة، وجعَلَه يمرُّ من تحتِها، ويتابع سريانِه وجريانِه.

وكان هذا خارقةً من المعجزاتِ والخوارقِ المتتابعة التي أَجراها الله، وصاحبَتْ خلقَ عيسى والحملَ به وولادته.

وأثمر لها النخلة في غير الموسم آية وكرامة:

وبعدما أَشارَ عيسى إِلى سريِّ الماءِ الجاري تحتَها، أَرشدَها إِلى النخلةِ التي تستندُ إِليها، فقالَ لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٩ ـ ٢٣٠. والدر المصون ٧: ٥٨٤.

والهَزُّ هو تَحريكُ الشيءِ تحريكاً شديداً.

والمعنى: حَرِّكي جذعَ النخلة، وقَرِّبيه منكِ، وأَميليهِ إِليكِ.

واختلفَ العلماءُ في النخلة، التي أُمرتْ أَنْ تهزَّ بجذعِها إِليها:

فقالَ بعضُهم: كان جِذْعاً يابساً، فلما هَزَّتْه بعثَ اللّهُ فيه الحياة، فصارَ نخلةً حيةً مثمرة.

وهذا قولُ ابن عباس والسدي.

وقالَ آخرون: كان جذعاً حياً لنخلةٍ خضراءَ حية.

وهذا قولُ مجاهد وعمرو بن ميمون..

والراجحُ هو القولُ الثاني، فالنخلةُ التي أُلجئتْ إِليها، والتي وَلَدَتْ تحتَها، والتي أُمرتْ أَنْ تهزَّ بجذعِها إِليها، كانت نخلةً ناميةً خضراءَ حية.

لكن هل كانت النخلةُ مثمرةً ثمراً طبيعياً؟ وهل كان ذلك الوقتُ وقتَ نضوج الثمر؟

معلومٌ أَنَّ وقتَ نضوجِ التمرِ يكونُ في الصيف، وهو موسمُ جنيِ التمر. فهلْ وَلَدَتْ عيسى في الصيف؟

يَذهبُ النصارى إِلى أَنَّ ولادَته كانت في الشتاء، في الخامسِ والعشرين من كانون أول[1]. ولا تكونُ النخلةُ مثمرةً في هذا الوقت، ولا يكونُ البلحُ رُطَباً جنياً!!

الراجحُ أَنَّ إِثمارَ النخلةِ لم يكن إِثماراً عادياً طبيعياً، ولو كان كذلك لكانَ ميلادُ عيسى عليه السلام في الصيف.

إِن إِثمارَها كان إِثماراً خاصاً، معجزةً من اللّهِ سبحانه، حيثُ أَمرَ النخلةَ أن تُثمرَ البلح، وأنْ ينضجَ البلحُ ليصبحَ تمراً، وأنْ يتحوَّلَ إِلى

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٨٦٤.

رُطَبٍ جَنِيّ، وجَرى هذا كلُّه في لحظات، وطالما الأَمْرُ أمْرُ الله، فلا غرابةَ في ذلك، لأنه فعّالٌ لما يريد، ويقولُ للشيء كن، فيكون كما أراده.

وإنَّ كلَّ ما أَحاطَ بعيسى عليه السلام كان معجزاتٍ خارقة، وليس من الأمورِ المألوفةِ المعروفة.

وإذا كنا قد رجَّحْنا أنَّ إنْباعَ السَّرِيِّ كان معجزةً من الله، وأنه لم يكن الماءُ جارياً من قبل، فإن هذا يؤَكّدُ أنَّ إثمارَ النخلة كان معجزةً أيضاً، ليتكاملَ الطعامُ مع الشراب، فتأكلَ من الرطب الجني، وتشربَ من ماءِ السَّرِيّ!

لماذا تهز جذع النخلة الكبير؟:

أمرَ عيسى أمَّه أنْ تهزَّ جذعَ النخلة، وأنْ تُميلَها إليها، ليتساقطَ عليها الرطبُ الجنيُّ منها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

فلماذا أَمرها بذلك؟ ولماذا لم يُسقط اللّهُ عليها الرطبَ الجنيَّ بدون هز النخلة؟

لقد أَوجدَ اللّهُ لمريمَ عدةَ معجزاتٍ خوارق، بدونِ جهدٍ منها، منذُ أنْ كانتْ متبتلةً في المحراب، حيثُ آتاها الرزقَ المنوَّعَ، إلى أنْ أَنبعَ لها سَرِيَّ الماء، وأَثمرَ لها النخلةَ بالرطب.

فلماذا تهزُّ هي جذعَ النخلة ليتساقطَ عليها الرطبُ الجنيُّ؟

ولا نَنسى أنها كانتْ ضعيفةَ البدن، واهيةَ القوى، لأَنها نَفاسٌ وضعتْ ابنَها قبل لحظات، وجسمُ النفاسِ يكون ضعيفاً، فهي لا تكادُ تتحركُ حركةً لضعفها، فكيفَ تُؤْمَرُ بهزِّ جذعِ النخلة وهي على هذه الحالة؟

وجذعُ النخلة عريضٌ سميك، لا تَقدرُ مجموعةُ الرجالِ الأقوياءِ على هزِّه وتحريكه، ومريمُ النفاسُ الضعيفةُ عاجزةٌ عن تحريكِ غصنِ شجرةٍ رفيع، فكيف تهزُّ جذعَ نخلةٍ كبيراً سَميكاً؟

لقد كانَ اللّهُ قادراً على إنزالِ الرطبِ عليها بدون جهدٍ ولا حركة منها، ولكنه أرادَ أنْ تتحركَ هي بحركةٍ ماديةٍ خفيفة، وأنْ تلمسَ جذع النخلة بيديْها، والباقي ليس عليها، بل على الله.

لم تهزَّ هي جذعَ النخلة في الحقيقة، لأنَها ضعيفة، وإنما اللّهُ هو الذي هزَّها وحرَّكها في الحقيقة. هي كانتْ سبباً مباشراً في تحريك النخلة، عندما وضعَتْ يديْها عليها، واللّهُ هو المسبِّبُ والمقدِّرُ، أوجدَ في النخلةِ التحريك، وأَمَرَها أنْ تُسقطَ الرطبَ الجنيّ، فتحركَتْ، وأسقطت!!

أَمَرَها اللّهُ بهزِّ جذعِ النخلة، لتأخذَ بالأسباب، حيث رتَّبَ تساقطَ الرطبِ عليها على هزِّها جذعَ النخلة.

وهذا درسٌ إيمانيٌّ عقيديٌّ لها، لتربطَ بين التوكلِ على الله، وبين الأخذِ بالأسباب، والأهمُّ من هذا أنه درسٌ إيمانيٌّ عقيدي لنا، لنربطَ بين الأسبابِ والمسبِّبات، وننسِّقَ بين الأخذِ بالأسباب والتوكلِ على الله.

فكلُّ مؤمنٍ يعتقدُ جازماً أنَّ اللّهَ هو الضارُّ والنافع، وأَنه لا مانعَ لما أَعطى الله، ولا مُعطيَ لما منعَ الله، ومن ثم يتوكلُ على الله، ويفوضُ أَمْرَه إليه، ويوقنُ أنَّ ما أَصابه لم يكن ليخطئَه، وأنَّ ما أَخطأَه لم يكن ليصيبَه.

وهذا التّوكّل والتفويضُ يوجبُ عليه أنْ يأخذَ بالأسباب، ويبذلَ الجهود، ليأتيه ما قدَّرَهُ اللّهُ به.

وحركةُ مريمَ رضي الله عنها دليلٌ على وجوبِ الأخذِ بالأسباب، لتأتيَ المقاديرُ والأرزاق.

تساقط الرطب الجني بعد هز الجذع:

«هُزّي»: فعلُ أمر. وجملةُ: «هزي إليك بجذع النخلة»: جملةٌ طَلَبية.

و«تُساقِطْ»: فعلٌ مضارعٌ مجزوم، لأنه جوابُ الطلب.

وفي «تُساقط» ثلاثُ قراءات:

الأولى: قراءةُ حفص: «تُساقِطْ» بضمِّ التاءِ وكسرِ القاف، على أنَّ الماضي منه «ساقَطَ». تقول: ساقَطَ، يُساقِطُ، والنخلة تُساقِطُ.

وهذه القراءةُ تشيرُ إلى أنَّ تَساقُطَ الرطبِ عن النخلة كانَ بالتدريجِ أولاً بأول، وليس دفعةً واحدة.

الثانية: قراءة حمزة: «تَساقَطْ». بفتحِ التاءِ والقاف. على أن الفعلَ الماضي منه خماسي: «تَساقَطَ». تقول: تَساقَطَ، يَتَساقَطُ، والنخلة تَتَساقَطُ. وحُذفت إحدى التاءيْن للتخفيف فصارت: تَساقَطْ.

الثالثة: قراءةُ الباقين: «تَسّاقَطْ»، بفتحِ التاءِ وتشديدِ السين. الماضي منه خماسي «تَسَاقَطَ» والمضارع: يَتَساقَطُ، وَتَتَساقَطُ.

وأصلُ الكلمة «تَتَساقَطُ» فأُدغمت التاءُ في السين، فصارت: تَسّاقَطْ.

والمعنى في القراءاتِ الثلاثِ متقارب. حيثُ تشيرُ إلى التساقطِ المتدرجِ للرُّطَبِ الجني.

واللطيفُ أنَّ التساقُطَ أُسندَ إلى النخلة، فما أنْ تلمسَها مريمُ بيديْها الواهيتيْن، حتى تتجاوَبَ معها فتهتزُّ وتتحركُ بأَمْرِ الله، ثم تُساقِطُ على مريمَ الرُّطَبَ الجني، إكراماً وإسعافاً لها.

والرُّطَبُ هو الناضجُ من البلح، قبلَ أنْ يصيرَ تمراً.

إنَّ ثَمَرَ النخيلِ يمرُّ بعدةِ مراحل، وله في كلِّ مرحلةٍ اسمٌ خاص، وأَسماؤه في هذه المراحل هي:

١ ـ البَلَح: وهو ثَمَرُ النخل إذا كانَ أخضر[١].

٢ ـ البُسْرُ: وهو ثَمَرُ النخلِ عند بدايةِ نُضْجه، بعد أنْ يتحوَّلَ من الأخضرِ إلى الأصفرِ أو الأحمر[٢].

٣ ـ الرُّطَب: وهو ثمرُ النخلِ بعدما يتمُّ نضجُه، ويصيرُ ليناً طرياً حلواً، ويتحوَّلُ من البُسْرِ الذي بدا نضجه[٣].

٤ ـ التمر: وهو ثَمَرُ النخل عندما يبالغُ في نضْجِه، وتَذهبُ ليونتُه، ويتحوَّلُ إلى جافٍّ يابس من كثرةِ النضج[٤].

٥ ـ العجوة: وهي التمرُ الناضجُ عندما يُخْلَطُ بعضُه ببعض، ويُرْكَمُ بعضُه فوقَ بعض[٥].

فالرُّطَبُ هو المرحلةُ الثالثة التي يمرُّ بها ثَمَرُ النخل، بعدَ أنْ يكونَ بُسْراً، وقبلَ أنْ يكونَ تَمْراً.

وَوُصِفَ الرطبُ في الآية بأنه جني ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

و«جَنِيّ» صفةٌ مشبهة، على وزن «فعيل».

والجَنِيُّ هو ما جُنِيَ من أنواعِ الثَمرِ مباشرة، ولا يُجنى إلاّ إذا كان ناضجاً صالحاً للاجتناء[٦].

ولم يُذكر «الرُّطب» و«الجني» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

و«الرطب الجني» هو: المجتنى المأخوذُ طرياً.

وأَمَرَ اللّهُ النخلةَ أنْ تُساقِطَ على مريمَ رُطَباً جنياً، وذلك لأهميةِ الرطبِ والتمرِ للمرأة النفساء.

---

(١) المعجم الوسيط: ٦٨.
(٢) المرجع السابق: ٥٦.
(٣) المرجع السابق: ٣٥١.
(٤) الرجع السابق: ٨٨.
(٥) المرجع السابق: ٥٨٧.
(٦) المرجع السابق: ١٤١.

لماذا قال: «وقري عيناً» وليس: تقرّ عينك؟:

وبَعدما أَمَرَ عيسى عليه السلام أُمَّهُ أنْ تهزَّ جذعَ النخلة أَمَرَها أنْ تأكل وتشرب: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

كُلي من الرُّطبِ الجني الناضج الطيبِ الذي تُساقطُه عليك النخلة، واشربي ماءً من الجدولِ السَّرِيِّ الذي أَجراهُ الله تحتك، ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً.

و«قَرّي» فعلُ أمر. مِن: قَرَّ: بمعنى سُرَّ ورضي.

يقال: قَرَّتْ عينُه: سُرَّ ورَضيَ بالشيء، فصارَ قريرَ العين[1].

وقد سبقَ أنْ تحدَّثْنا عن قرةِ العين ومعناها، وأَوردْنا كلامَ الراغبِ الأصفهاني حولَها في حديثِنا عن قصةِ موسى عليه السلام، عندما وقَفْنا عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ..﴾ [القصص: ٩].

ولكنَّ الجديدَ في قوله هنا: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أنَّ الفاعلَ هو ياءُ المخاطَبة الموجَّهةُ إِلى مريم، و﴿عَيْنًا﴾ تمييز منصوب.

فأُسندَ القَرارُ إِليها لا إِلى عينها، بينما في الأَفعالِ الأُخرى المذكورة في القرآن كان القَرارُ يسندُ إِلى العين. كما في قوله تعالى عن أم موسى عليه السلام: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [طه: ٤٠] وفي قوله تعالى عن قول امرأة فرعون: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ..﴾ [القصص: ٩].

وردَ في تهذيبِنا لتفسير الطبري: «وَقَرِّي عيناً»: طِيبي نفساً، وافرحي ولا تحزني بولادتك لي.

و«عَيْناً» تمييزٌ منصوب.

---

(١) المرجع السابق: ٧٢٤.

والمعنى: لِتَقْرَرْ عينُك بولدك. ثم حُوِّلَ الفعلُ من العينِ إلى صاحبتِها، فَنُصبتْ على التميز.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]. والمعنى: إنْ طابَتْ أنفسهن لكم.

وكقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧]. والمعنى: ضاقَ ذرْعُه بهم[1].

وفرقٌ بعيدٌ في التعبيرِ بين قوله تعالى: «ولتقرّ عينُك» فَيُسنَدُ القرارُ والرّضى والسّرُور إلى العين، وبين قوله تعالى: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فيُسندُ القرارُ والرضى والسعادةُ إليها، ثم يُجْعَلُ «عيناً» تمييزاً، لكونِ العينِ أَبرزَ عضوٍ في الإنسان، تنعكسُ عليه علاماتُ وآثارُ الرضى والسعادة، ولهذا يقال: هو قَريرُ العين. أي: هو هادئٌ ساكنٌ سعيدٌ مطمئن.

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ يدلُّ على الحالةِ النفسيةِ العالية التي نقلَ اللّهُ مريمَ رضي الله عنها إليها.

فقد كانتْ قبلَ الولادة في غايةِ التوترِ والانفعالِ والقلق، وتجلّى هذا في قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

أما بعدَ الولادة، وخروجِها منها بسلامة، وسماعِها مخاطبةَ وليدِها لها، فقد رأَتْ علاماتِ عنايةِ اللّهِ بها، وحفْظِه لها، وهي تعيشُ في ظلالِ معجزاته التي قدَّمَها لها، فها هي تأكلُ الرطب، وتشربُ الماء من السري، وتأنسُ برؤيةِ وليدها، وتسعدُ بمخاطبته لها.

ولذلك عاشَتْ حالةَ نفسيةَ عاليةَ متألقة من قَرارة النفس، ومن الرضى والسرورِ والسعادةِ والطمأنينة، وانعكسَ هذا كلُّه على كيانها، لكنه كان أبرزَ ما يكونُ انعكاساً على عينها، ولهذا تَحولَت العينُ من فاعلٍ إلى تمييز!!

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٣٢.

وهكذا أرشدَ المولودُ عيسى عليه السلام أُمَّه إلى التصرفِ السليم السريع، وهي ما تزالُ تحتَ النخلة: أن لا تحزن، وتقرّ عيناً، وتهزّ إليها جذعَ النخلة، وتأكلَ من الرطبِ الجنيّ، وتشربَ من ماءِ السّريّ.

ونفذَّتْ مريمُ ما سمعتْه من وليدِها، وأَخذتْ حاجتَها من الطعامِ والشراب، وزالَ حزنُها وقلقُها، وكانتْ قريرةَ العين، مسرورةَ النفس.

تحليل: «فإما ترين»:

وتابعَ وليدُها عيسى إرشادَها إلى التصرفِ المناسب عندما تواجهُ أهلَها، فقال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

الفاءُ في قوله: «فإمّا ترين»: حرفُ استئناف. والجملةُ مستأنفة، لأَنه يذكُرُ لها كيف تتصرفُ عند مواجهتِها لأهلها.

و«إنْ» حرفُ شرطٍ جازم.

و«ما»: حرفُ توكيد، أُدغمتْ مع حرفِ الشرط، فصارت: «إمّا».

و«تَرَيِنَّ» خطابٌ لمريم، من الرؤيةِ وهي المشاهدة، وهي من الأفعالِ الخمسة، على وزن «تفعلين»، وهي مجزومَة لأنها فعلُ الشرط، وعلامةُ جزمها حذفُ نونِ الأَفعالِ الخمسة، والياءُ فيها ضميرٌ متصل في محلِّ رفعِ فاعل، والنونُ المشددةُ هي نونُ التوكيد الثقيلة.

الفعلُ الماضي الثلاثي: رأى. والمضارع: يَرى. والمضارعُ المسندُ إلى المخاطب: ترى.

وعندما تخاطِبُ أُنثى تقولُ لها: أنتِ تَرَيْنَ.

وأَصلها: تَرْأَيين. على وزن: تفعلين.

ومعلومٌ أنَّ الأفعالَ الخمسةَ تُجزمُ بحذف النون. فلما جاءت «ترين» فعلَ شرط، جُزمتْ بحذفِ النون، فصارت: إنْ تَرَيْ. كما تقول: إنْ تفعلي. وياءُ المخاطبة هي الفاعل.

ولما دخلَتْ على «تَرَيْ» نونُ التوكيد الثقيلة، حُركت الياءُ الساكنة، وكُسرتْ لالتقاءِ الساكنين، فصارت: «تَرِنَّ»[1].

«إني نذرت للرحمن صوماً»:

قالَ عيسى عليه السلام لأمِّه: اذهبي إلى أهلك، وأنت تحملينَني، فإنْ شاهدتِ أحداً من البشر، سواء كان من أهلك أو من غيرهم، واستغربَ منكِ لأنك تحملين على حضنك ولداً، وسألَكِ عن سرِّ الأمر، فلا تُجاوبيه ولا تكلميه، وأَعطيه إشارةً يَفهَمُ منها أَنك صائمةٌ عن الكلام، وناذرةٌ أنْ لا تكلِّمي أيَّ إنسان! وأَحيلي عليَّ، وأَنا سأتولّى الكلامَ والشرح!!

هذا هو المعنى المفهومُ من هذه الجملةِ الشرطيةِ القرآنية: ﴿فَإِن تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

فمعنى «فقولي»: أَشيري لمنْ يكلمكِ ويسألكِ إشاراتٍ باليدِ أَو غيرها، يَفهمُ منها أَنكِ صائمةٌ عن الكلام، ممتنعةٌ عن مخاطبةِ الناس.

واعتبرت الآيةُ هذه الإشارات قولاً، لأنها تَسُدُّ مَسَدَّ القول، وتُفهمُ الشخصَ المقابل المراد، فكأنَّها قولٌ خارجٌ من الفم.

وبعضُ الإشاراتِ باليدين والعينين واللسان وغيرها، قد تعبِّرُ عن ما في النفس، وتُفهمُ الشخصَ المقابل، مثلَ الكلامِ الخارج من الفم، أَو أكثر.

ولغةُ الصمِّ والبكمِ تقومُ على الإشاراتِ باليدين، ولتلك الإشاراتِ قاموسٌ خاص، وكلُّ إشارةٍ رمزٌ لألفاظٍ أَو جُمَلٍ معدودة!!

تُشيرُ لمن يَسألونَها وتُفهمهم أَنها نذرتْ للرحمن صوماً.

---

(١) انظر حاشية الدكتور أحمد الخراط على تفسير الدر المصون للسمين ٧: ٥٩٠. وهي الحاشية رقم (٤).

والنَّذرُ هو قربةٌ وعبادة، يتقربُ بها الناذرُ إلى الله بأداءِ المنذور، وذِكْرُ النذرِ في قصة مريم رضي الله عنها دليلٌ على أنه كان عبادةً يعرفُها المؤمنون السابقون، ويَتقربون بها إلى الله.

واعتبرت الآيةُ الصمتَ والامتناعَ عن الكلام صوماً: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

فكيفَ صارَ الصمتُ وعدمُ الكلام صوماً؟

لأنَّ معنى الصومِ هو الإمساك.

قال الإمام الراغب: «الصومُ في الأصل: الإمساكُ عن الفعل، مَطْعَماً كان، أو كلاماً أو مَشياً. ولذلك قيلَ للفرسِ الممسِكِ عن السيرِ أو العَلَف: هو صائم.

... وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: عنى به الإمساكَ عن الكلام، بدلالةِ قوله بعده: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾»[1].

والمعنى أنَّ كلَّ مَنْ أمسكَ عن شيء، وامتنعَ عن فعله، فهو صائم عنه، فهناك مَنْ صامَ عن الطعام، وهناك مَنْ صامَ عن الكلام، وهكذا.

الفرق بين الصوم والصيام في القرآن:

و«الصومُ» و«الصيام» مصدران للفعل «صام»، وهذان المصدرانِ واردانِ في آيات القرآن.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني المعجز أنَّ المصدريْن «الصوم» و«الصيام» ليسا مترادفين في القرآن، وإنما كلُّ واحدٍ منهما استُعمل في نوعٍ من أنواعِ الإمساك.

فالصومُ لم يَرِدْ في القرآن إلاَّ مرةً واحدة، في الآية التي نتحدث

---

(١) المفردات: ٥٠٠.

عنها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فهو في القرآن بمعنى: الإمساك عن الكلام.

أمّا الصيامُ فقد وردَ في القرآن تسع مرات ـ منها خمسُ مرات في سورةِ البقرة التي تكفلَتْ بالحديثِ عن أحكامِ صيامِ شهرِ رمضان ـ، وهو في هذه المراتِ التسعِ كلّها بمعنى الإمساكِ عن الطعام، وهو الصيامُ الشرعي المعروف عند المسلمين.

إذن: الصومُ في الاستعمالِ القرآني هو الإمساكُ عن الكلام، كما فعلتْ مريمُ رضي الله عنها!

والصيامُ في الاستعمالِ القرآني هو الإمساكُ عن الطعامِ وسائرِ المفَطِّرات، وهو المعروفُ عند المسلمين!

ولا ترادفَ في مصطلحاتِ القرآن.

على مريمَ أنْ تُشيرَ لكلِّ مَنْ يسألُها أنها صائمةٌ عن الكلام، ولذلك لا تكلمُ أحداً من البشرِ الإنس: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

و«الإنسيُّ» هو الشخصُ المنسوبُ إلى الإنس، عكس الجني، المنسوبِ إلى الجن[1].

بين صوم مريم الإرادي وصمت زكريا اللاإرادي:

لقد جعلَ اللّهُ صومَ مريم وصمْتَها عن الكلامِ آيةً لها، ودليلاً على براءتِها وطهارتِها، فبينما صامتْ هي عن الكلام، وهي القادرةُ عليه، فقد أنطقَ اللّهُ وليدَها عيسى عليه السلام، الذي لم تَمضِ على ولادتِه إلاّ فترةٌ يسيرة، ويستحيلُ على المواليدِ مثلِه أنْ ينطقوا ويتكلموا، في مألوفِ البشر.

---

(١) المعجم الوسيط: ٣٠.

وهذا يذكِّرُنا بالآيةِ المعجزة التي جعلَها اللّهُ لقريبها وزوجِ أُختها زكريا عليه السلام، عندما بشَّرَه بابنه يحيى عليه السلام، حيث كانت آيتُه الصومَ عن الكلام إذا واجَهَ الناس، بحيث يستخدمُ الإشارة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: ١٠].

والفرقُ بين صوم مريم وصمتِ زكريا، أنَّ صمتَ زكريا كان لا إرادياً، حيث كان اللّهُ يمسكُ لسانَه عن الكلام إذا واجَهَ الناس، وعندما كان يحاولُ الكلامَ كان لسانُه لا يطاوعُه، ولا تخرجُ الكلماتُ منه.

أما صومُ مريم عن الكلام فقد كانَ صوماً إرادياً واختيارياً، فهي صامتة، لأَنها نذرتْ بإرادتِها لربِّها صوماً.

وكلاهما صمتٌ وامتناعٌ عن الكلام، وكلاهما كان آيةً لصاحبه، زكريا عليه السلام، ومريم رضي الله عنها. وسبحان الله الحكيم!!.

بقيَ في صوم مريمَ عن الكلام أنْ نقول: اللّهُ هو الذي أَمَرَها بذلك، وجعَلَه آيةً لَها، وهي ليستْ قدوةً لنا في ذلك الصوم. وقد أنكرَ بعضُ الصحابةِ والتابعين على مَن اقتدى بها وأَعلنَ الصومَ عن الكلام.

روى الطبريُّ أَنه دخلَ على عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه رجلان، فسلَّمَ أحدُهما ولم يسلِّم الآخر.

فقالَ له ابنُ مسعود: ما شأْنُك؟

فقال أَصحابُه: حلفَ أنْ لا يكلمَ الناسَ اليوم.

فقالَ له ابنُ مسعود: كَلِّم الناسَ، وسَلِّمْ عليهم. فإنَّ تلكَ المرأةَ علمتْ أنَّ أَحداً لا يصدِّقُها أَنها حملتْ من غيرِ زوج..[1].

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٣٢.

[٩]

عيسى يكلم الناس في المهد

أَخذَتْ مريمُ رضي الله عنها بإرشاداتِ وليدِها عيسى عليه السلام، فأكلَتْ من الرُّطَب، وشربتْ من الماء، وبعدما رجعتْ لها قوتُها، حملتْ ابنَها معها، وتوجَّهت إِلى أَهلها.

«فأتت به قومها تحمله»:

وهناك كانت الدهشةُ والمفاجأةُ لهم. وقد صَوَّرَت الآياتُ بعضَ ما جرى. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٣].

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾: أَتتْ مريمُ رضي الله عنها قومَها وأهلَها المقربين، وكانت تحملُ ابنَها عيسى عليه السلام.

وكانتْ في غايةِ القوةِ والشجاعةِ والثقة والطمأنينة، لأَنها توقنُ أنَّ اللّهَ معها، وتعلمُ أَنها لم ترتكبْ خطأً، واللّهُ هو الذي خلقَ في رحمِها عيسى، فلماذا تخشى مواجهتَهم؟

خرجتْ من عندهم وهي وحيدة، وعادتْ إِليهم الآنَ وهي تحملُ ابنَها على حضنها، والمدةُ بين مغادرتِها لهم وعودتِها إِليهم مدةٌ قصيرة، لكن لا يعلمُ مقدارَها إلاّ الله.

وصلَتْ مريمُ أَهلَها، ونَظروا إليها وقد سيطرت الدهشةُ عليهم! إنَّ ابنتَهم طاهرةٌ عذراءُ عفيفة، وهم يَعلمون هذا عن يقين، فما الذي يرونه منها؟

لقد أنطقَتْهم الدهشةُ والمفاجأةُ بعبارةٍ ساخرةٍ مُتَّهِمَة. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

«قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً»:

وعبارتُهم فيها اتهامٌ غيرُ صريحٍ لمريم، والذي دَفَعهم إلى عدمِ اتهامِها بصراحة ـ فلم يقولوا لها: لقد ارتكبتْ فاحشةَ الزنا ـ هو إيمانُهم بالله، وتَقواهم لله، وتَحرجُهم من قذفِ الصّالحةِ بالفاحشة. ثم ما عُرِفَتْ به مريمُ من صلاحٍ وعبادةٍ وعفافٍ وطهارة، مما يجعلُها بعيدةً عن الفاحشة.

لكنهم رَأوا وَليداً على حضنِها، وهو أمرٌ غريبٌ مريب، يَدعو إلى الريبة، فكيف يُوَفّقون بين ما يعرفونَه عنها من عفةٍ وطهارة، وبين ما يشاهدونَه بين يديها؟

اكتفوا بقولِهم لها بأَنها جاءَتْ بأمرٍ عظيمٍ فظيع، لا يتفقُ مع ماضيها الذي عَهدوه منها، ولا معَ أُسرتها التي نشأَتْ فيها، بين والدَيْن صالحيْن وأخٍ صالح!!

«وفَرِيّاً» صفةٌ مشبَّهة. مشتقةٌ من «فَرىٰ».

تقول: فَرىٰ، يَفْري، فَرْياً، فهو فَرِيّ.

قالَ الإمامُ الراغب: «الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للخَرْزِ والإصلاح. والإِفراءُ للإِفساد. والافتراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثر، وكذلك استُعملَ في القرآن في الكذبِ والشركِ والظلم..»[١].

وورَدَ في المعجم الوسيط: «الفَرْيُ من الأمور: المختَلَق. والأمرُ العجيبُ. وفي التنزيل: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾».

---

(١) المفردات: ٦٣٤.

ويُقال: فلانٌ يَفري الفرى: إذا أجادَ عمله، وأتى فيه بالعجيب..»[1].

ومعنى قولهم لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: لقد جئتِ بشيءٍ عظيم، وأحدثْتِ حدثاً عجيباً، وهو الوليدُ الذي تحملينه، فمن أينَ لكِ به؟

استقامة أسرتها وهارون شقيق لها:

ثم أشاروا إلى طهارةِ منبتها، وعفةِ أفرادِ أسرتها، واستقامةِ أخيها ووالديها، فقالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

أبوها رجلٌ صالحٌ عفيف: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾: ما كان سيئاً يأتي الفواحش.

وأُمُّها امرأةٌ صالحةٌ عفيفة: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾: ما كانت بَغِياً زانية.

وتوافقتْ شهادةُ قومِها لأُمُّها بطهارتها وعفتها، عندما نفوا عنها البغاء، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ مع شهادتِها هي لنفسِها عندما جاءَ جبريلُ عليه السلام لينفخ فيها بعيسى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

فأُمُّها ما كانت بَغِياً زانية، وهي ما كانتْ بغياً زانية.

و«بَغِياً» صفةٌ مشبَّهة، على وزنِ «فعيل». تقول: بَغَتْ، تَبغي. فهي بَغِيٌّ. وذلك إذا زنت.

ولم تَلحقْ «بَغِي» تاءُ التأنيث، فلم يُقَلْ «بغية» لأَنها من الصفاتِ التي لا تلحقُ إلا النساء، مثل: حائض وحامل ومرضع وطالق. فلا يوصَفُ بهذه الصفات الرجال، فلا داعي لتاءِ التأنيثِ فيها.

---

(١) المعجم الوسيط: ٦٨٧.

وقد اختلفَ العلماءُ في قولهم لمريم؛ ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾:

فذهبَ بعضُهم إلى أنه لا يُرادُ بها الأخوةُ الحقيقية، وإنما «الأخوةُ التشبيهية»، فأرادوا تشبيهَها بهارونَ النبيِّ شقيقِ موسى عليهما السلام، تشبيهَها به في العبادةِ والعفةِ والصلاح.

والمعنى: يا شبيهةَ هارونَ النبيِّ في العبادة مِن أينَ هذا الوليد؟

وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ الأُخوةَ هنا أخوةٌ حقيقية، وأنها شقيقةٌ لهارون. وهارونُ المذكور هنا ليس النبيَّ الكريمَ شقيقَ موسى عليهما السلام، فبينَهما عدةُ قرون. وإنما هو هارونٌ آخر.

والراجحُ هو قولُ الجمهور، لأنه وردَ فيه حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ.

روى مسلمٌ والترمذي عن المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه قال: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ إلى نجران.

فقالوا: أَلستُم تقرأون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾؟.

قلتُ: بلى.

قالوا: وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا؟

فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ، فأخبرْتُه.

فقال: أَلا أَخبرْتَهُم أَنهم كانوا يسمّون بالأنبياءِ والصالحين قبلهم..[1].

فهذا الحديثُ الصحيحُ صريحٌ في أنَّ هارون أَخٌ شقيقٌ لمريم، سماه أَبواها باسم هارون النبي عليه السلام.

استغراب قومها من إشارتها إلى وليدها ودهشتهم من سماعه:

ولما سمعتْ مريمُ كلامَ قومِها، عَزَّ عليها اتهامُهم الضمنيُّ لها،

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢١٣٥. والترمذي: ٣١٥٥. والأحاديث الصحيحة: ٢٧٥.

ولو تكلمتْ فقد لا يَسمعونَ لها، ثم هي ناذرةٌ للرحمنِ صوماً عن الكلام.

وبما أَنها سمعتْ كلامَ وليدِها لها، فورَ ولادتِه، فإنها أَحالت الجوابَ عليه!

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . . .﴾: أَشارتْ إِلى عيسى، وكأنها تَقولُ لهم: لا تسألوني أنا، بل اسأَلوه وكَلِّموه.

ولم تَرِدِ الإِشارةُ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

والإِشارةُ قد تكون باليدِ أَو العين أَو الرأس أو غيرِها، لتدلَّ على معنى من المعاني.

وفهمَ القومُ إِشارتَها. . إِنها تَدعوهم لسؤالِه هو، فزادَ استغرابُهم وتعجُّبُهم وغيظُهم، إِنهم يسألونَها مستنكرين، وهي تسخرُ منهم، وتُقابلُ سؤالَهم بالصمت، وتُشيرُ إِلى وليدٍ لم تمضِ على ولادتِه إِلا ساعات، ليتولّى هو الكلامَ معهم!!.

ولهذا سأَلوها مستنكرين: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟.

كيفَ نسأَلُ طفلاً؟ وهل يفهمُ سؤالَنا؟ وإِذا فهمَ سؤالَنا هل يَقدرُ أَنْ يُجيبَنا؟ وما عُهِدَ عن طفلٍ في المهد وُلدَ قبلَ ساعاتٍ أَو أيام الكلامُ الواضحُ المفهم!!.

و«كان» هنا تامة بمعنى «وُجِد»، وفاعلُها ضميرٌ مستترٌ يعودُ على ابنها. و«صبياً» حال.

والمعنى: كيفَ نكلمُ مَنْ وُجدَ في المهدِ صبياً؟

والمرادُ بالمهدِ هنا حِجْرُ أُمه، لأَنهم يشاهدونَها وهي تحملُه.

قالَ الإمامُ الراغب: «المهدُ: ما يُهَيَّئُ للصبي: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن

كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. والمهدُ والمِهاد: المكانُ المُمَهَّدُ المُوَطَّأ»[1].

و«المهد» وردَ في القرآنِ ثلاثَ مرات، في سياقِ الحديثِ عن عيسى عليه السلام.

كان عيسى عليه السلام وهو في حضنِ أُمِّه لم تمضِ على ولادته إلاّ عدةُ ساعات، يَعي ما يَجري حولَه وعياً معجزياً، ويَسمعُ كلامَ القوم إلى أُمِّه سمعاً معجزياً، وكان هذا الوعيُ والفهمُ والسماعُ معجزةً من الله، لأنه لم يُعهدْ أنْ يصدرْ عن طفلٍ مثلِه في حياةِ البشر.

ولما سمعَ سؤالَهم لأمه: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟ كان يعلمُ أنَّ أمه لن تجيبَ على السؤال، لأَنه هو الذي أَمرها أنْ لا تُجيبَ على أيِّ سؤال.

فتطوَّعَ هو للإجابة، وقدَّمَ نفسَه إِلى القوم، وعَرَّفَ على نفسه، وعلى ما سيكونُ منه في المستقبل!

وفتحَ القومُ عيونَهم مبهورين مما يشاهدون، وأَصْغَوا سمعَهم مَشدوهين مما يسمعون، وسيطرت المفاجأةُ على كيانهم كلِّه! أهذه حقيقةٌ أَم خيال؟ أَحقاً يُشاهدون طفلاً يتكلم؟ أَحقاً هذا صوتُ طفلٍ عمرُه ساعات يَدخلُ آذانَهم ومسامعَهم؟ أم هم متخيلون واهمون؟

إِنها حقيقةٌ قاطعة، وإِن كلامَ هذا الطفل معجزة، يسمعُه هؤلاء القومُ المؤمنون، فيزدادُ إِيمانهُم بالله.

البداية الإيمانية في بيان الوليد عيسى:

ماذا قالَ عيسى عليه السلام في تقديم نفسِه إِليهم؟

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا

(١) المفردات: ٧٨٠.

بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

بدأ عيسى عليه السلام كلامَه بتقريرِ حقيقةٍ عقيديةٍ إيمانية: الألوهيةُ لله، والعبوديةُ لغيره: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

اللّهُ وحدَه هو الإلهُ الرب، لا يشاركُه أحدٌ في أُلوهيته وربوبيته.

وأَنا عبدٌ لله، عبدٌ مخلوق، خلَقني اللّهُ خلقاً خاصاً بمعجزةٍ خارقة، بدون أب، ومعَ أنَّ خَلْقي معجزة، ومعَ أنَّ كلامي معكم معجزة، فإنني عبدُ الله، لستُ شريكاً ولا ابناً له.

قالَ الإمامُ ابن كثير: «أولُ شيء تكلَّمَ به أنْ نَزَّهَ جنابَ ربه تعالى، وبَرَّأه عن الولد، وأثبتَ لنفسِه العبوديةَ لربه..»[1].

إنَّ الدين ـ أيَّ دين ـ يقومُ على الفصلِ الدقيقِ بين الألوهيةِ والعبودية، فاللّهُ وحده هو الربُّ الإله، وكلُّ ما سواه له عبد.

وأيُّ خلْطٍ بين الإله والعبد يُعتبرُ كفراً بالله وشركاً به، فإذا ما رفعَ قومٌ عبداً من عبيدِ الله، وجعَلَوه نداً لله، صاروا كفاراً مشركين بالله.

وهذه البدايةُ الإيمانيةُ لعيسى عليه السلام، التي بدأَ بها وهو طفلٌ في المهد، يقررُ فيها أَنه عبدُ الله، وأنَّ اللّهَ وحده هو الرب، تكذيبٌ مبكرٌ لما سيقومُ به النصارى فيما بعد، عندما يَدَّعون أَنه ابنُ الله.

وبعدما نصَّ على عبوديتِه لله، تحدَّثَ عما سيعطيهِ اللّهُ في المستقبل، فقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

وهذا على تقديرِ المستقبل: سيؤتيني الكتاب، وسيجعلني نبياً.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١١٧.

والمرادُ بالكتابِ هنا الإنجيل، الذي سيؤتيه اللّهُ إيّاه، ويجعلُه مصدِّقاً للتوراةِ قبله.

لم يتكلمْ عيسى الوليدُ بهذا الكلام من نفسه، وإنما كانَ بإلهامٍ من الله، ألهمه أنْ يقولَ هذا القول، وأخبره أنه سينزلُ عليه الإنجيل، وسيجعلُه نبياً رسولاً.

وإذا كان قولُه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ تكذيباً مبكراً لما سيزعمُه النصارى من بُنُوَّتِه لله، فإنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تكذيبٌ مبكرٌ لما سيزعمُه اليهودُ الملعونون، حيث سيكفرون به، ويُنكرون نبوَّته، ويحاولونَ قتله.

وقولُ عيسى بعد ولادتِه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، هو تطبيقٌ عمليٌّ للوعدِ الذي بَشَّرَ به جبريلُ عليه السلام مريم، قبل فترةٍ من حملِها بعيسى ووضعِها له، وهو الذي ذكره قولُه تعالى: ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦] وقولُه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ . . إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

معنى كون عيسى مباركاً:

وتابعَ عيسى عليه السلام تقديمَ نفسِه بكلامِه الواضحِ المبين: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: اللّهُ باركني، وأفاضَ بركتَه عليّ، فصِرْتُ مباركاً أينما كنتُ ووُجدْتُ.

و«كنتُ» هنا: فعلٌ ماضٍ تام، بمعنى «وُجدت». والتاء: ضميرٌ متصلٌ في محلِّ رفعِ فاعل.

و«كنت» فعلُ الشرط. وجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله. والتقدير: أينما كنتُ ووجدتُ فقد جعلَني اللّهُ مباركاً.

و«مباركاً»: اسمُ مفعولٍ لأنه حلَّتْ عليه البركةُ من الله.

ومع أَنها عامةٌ في معناها، شاملةٌ لجميعِ صورِ البركة، إلاَّ أنَّ بعضَ السلف ذكَرَ بعض مظاهر هذه البركة.

قالَ مجاهد: «مباركاً»: جَعَلني نَفّاعاً.

وقال سفيان الثوري: «جَعَلني مباركاً أينما كنت»: جعلَني معلِّماً للخيرِ حيثما كنت.

وقالَ وُهَيْبُ بنُ الورد: لقيَ عالمٌ عالماً فوقَه في العلم، فقالَ له: يرحمُك الله، ما الذي أُعلنُ من علمي؟

قال: الأمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، فإنه دينُ الله الذي بَعَثَ به أَنبياءَه إِلى عباده، وقد اجتمعَ الفقهاءُ على قولِ الله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ على أن بركته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان!..[1].

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وهذا على ما سيكونُ في المستقبل. أي: سيوصيني بالصلاةِ والزكاة طيلةَ حياتي.

والصلاةُ معروفة.

أمّا الزكاةُ فقد ذهبَ بعضُ العلماء إِلى أنَّ المرادَ بها إِخراجُ زكاةِ المال. أي: أنَّ اللّهَ أَمره بإخراجِ زكاةِ مالهِ طيلةَ حياته.

أمّا الطبري فله رأيٌ طريف، فهو يَرى أنَّ المرادَ بها: «تطهيرُ الجسدِ من دنس الذنوب. أي؛ وأَوصاني بتركِ الذنوب واجتنابِ المعاصي.

لأَنه قال: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. أي: أَوصاني بالصلاةِ والزكاةِ طيلة

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٦ ـ ٢٣٧.

حياتي ووجودي في حياتي الدنيا. وما كانَ عيسى عليه السلام يدخرُ شيئاً من المال لغد، لتجبَ عليه زكاةُ المال»[1].

عيسى بار بأمه والبار عكس الجبار الشقي:

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي..﴾: وجعلني اللّهُ بَرّاً بوالدتي مريم.

الواو: حرفُ عطف.

و«بَرّاً» معطوفٌ على «مباركاً».

والمعنى: جَعلني اللّهُ نبياً، وجعلَني مبارَكاً، وجعلَني بَرّاً بوالدتي.

تقول: بَرَّ، يَبَرُّ، بِرّاً، فهو بارٌّ وبَرٌّ، وهم بَرَرَةٌ وأَبْرار.

ومعنى ذلك: التوسُّعُ في الإحسانِ إلى الوالدين ووصْلِهما[2].

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. جعلني بَرّاً بوالدتي، ولم يجعلني جَباراً شقياً.

أي: لم يجعلْني مستكبراً على اللّهِ فيما أَمرني به ونَهاني عنه، ولكنه جعلَني متواضعاً له، متذلّلاً في طاعته.

وتُشيرُ الآيةُ إلى جانبين: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

الجانبُ الإيجابيُّ في شخصيةِ عيسى السوية عليه السلام، وهو بَرُّه بوالدته.

والجانبُ السلبيُّ الذي نَزَّهَ اللّهُ شخصيتَه السويةَ عنه، فلم يجعلْه جباراً شقياً.

ومَنْ كان عاقّاً لوالدَيْه كان جباراً شقياً عصياً، لأَنه إِذا لم يكن بارّاً بوالديه، فكيفَ يكونُ رحيماً بالآخرين؟ ومَنْ لا خيرَ فيه لوالدَيْه لا خيرَ فيه للآخرين!

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٨.

(٢) المعجم الوسيط: ٤٨.

قالَ عبدُ الله بن واقد: قالَ بعضُ أهلِ العلم: لا تَجِدُ عاقّاً لوالديْه إلاّ وجدْتَه جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾. ولا تجد سيء الملكة والمعاملة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦][1].

وإذا وردَتْ كلمةُ «جبار» في القرآن وصْفاً للإنسان فإنها لا تكونُ إلاّ للذَم، لأَنه لا يكونُ جباراً إلاّ مَنْ كانَ مختالاً متكبراً، وشقياً عاصياً.

المؤمنُ الصالحُ لا يتجبَّر، لأَنه يعلمُ أنَّ العظمةَ والجبروتَ لله، فيتواضعُ بينَ يدي الله، ويرحمُ الآخرين من عباد الله.

ولأنَّ وصْفَ الإنسان بأنه جبارٌ ذمٌّ له، فقد نَزَّهَ اللّهُ نبيَّه عيسى عليه السلام عنه: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

ونَزَّهَ أَيضاً معاصِرَه يحيى عليه السلام عنه، حيث أَخبرَ عنه بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

يحيى عليه السلام ليسَ جباراً عصياً، وعيسى عليه السلام ليسَ جباراً شقياً.

السلام على عيسى دليل على بشريته:

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

أَخبرَ عيسى قومَ مريم أَنَّ اللّهَ أَصفى عليه السلامَ والأمانَ في المواضعِ الثلاثةِ الحرجةِ الخطيرة من حياته: يومَ ولادتِه، ويومَ موته، ويومَ بعثه حياً يوم القيامة.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الإمامِ الطبري:

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٨.

«الأَمَنَةُ من اللهِ عليَّ من الشيطانِ وجندِه يومَ وُلدتُ، فلا يَنالون مني ما يَنالون من المواليدِ عندَ ولادتهم.

وأَمَنَةٌ من الله عليَّ يومَ أموت، من هولِ المطلع.

وأَمَنَةٌ من الله عليَّ يومَ أُبعثُ حياً يوم القيامة، فلا يَنالُني الفزعُ الذي يَنالُ الناس عندما يُعاينونَ أهوالَ القيامة..»[1].

إنَّ قولَ عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ٣٣﴾ دليلٌ على عبوديته لله.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «هذا إثباتٌ منه لعبوديتِهِ لله، وأَنه مخلوقٌ من خلْقِ الله، يَحيى ويَموت ويُبعث، كسائرِ الخلائق، ولكنْ له السلامةُ في هذه الأحوال الثلاثة التي هي أشقُّ ما يكون على العباد..»[2].

لماذا سلام يحيى نكرة وسلام عيسى معرفة؟:

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنه أَخبر عن السلامِ على النبيَّيْن الكريميْن: يحيى وعيسى عليهما السلام، لكن في الخبريْن تفاوتٌ في التعبير.

في الإِخبارِ عن يحيى وردَ السلامُ نكرة، وبأُسلوبِ الإِخبارِ عن الغائب؛ ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ١٥﴾ [مريم: ١٥].

وفي الإِخبارِ عن عيسى وردَ السلامُ معرفة، وبأسلوبِ التكلمُ: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣].

وفي هذا إِشارةٌ إِلى أَنَّ السلامَ الذي أَضْفاهُ اللّهُ على عيسى عليه السلام كان أَخصَّ من السلامِ الذي أَضْفاه على يحيى عليه السلام، ولذلك خَصَّصه ومَيَّزه بالتعريف.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١١٧ ـ ١١٨.

وحكمةُ تعريفِ السلامِ وتمييزِه وتخصيصه أنَّ اللّهَ يعلمُ أنَّ اليهودَ سيكذبون عيسى عليه السلام ويَكفرون به، ولن يكتفوا بذلك، بل سيحرصون على قتلِه وصلبه، وهذا ما فَعلوه به فيما بعد!

ولقد حماهُ اللّهُ منهم، ولم يجعلْ لهم سلطاناً عليه، ولذلكَ رفَعَه إليه.

ولهذه الحوادث التي وقعَتْ له، خصَّه اللّهُ بالسلامِ الخاص، فسلَّمه من اليهودِ ومكائدِهم ومؤامراتهم.

كما أنَّ تعريفَ هذا السلام تعريضٌ بخصومِه اليهود الكافرين، بأنَّ لهم ضدَّ هذا السلام، قالَ الإمامُ الزمخشري: «والصحيحُ أن يكونَ هذا التعريفُ تعريضاً باللعنةِ على متهِمي مريمَ عليها السلام وأعدائِها من اليهود. وتحقيقُه أنَّ اللامَ في «السلام» للجنس. فإذا قالَ عيسى بأنَّ جنسَ السلام عليّ، فقد عَرَّضَ بأنَّ ضدَّه وهو اللعنةُ على اليهود.

ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] فإنه يعني أنَّ العذابَ على مَنْ كذب وتولى...»[١].

وهكذا أنهى عيسى عليه السلام بيانَه، وقدَّمَ نفسَه إلى قومِ أُمه، وذكرَ عبوديتَه للّهِ الواحد، وذكَرَ ما سيؤتيه اللّهُ من النبوةِ والكتاب، ومن السماتِ والمزايا الإيجابيةِ القائمةِ على برِّه بأمه، وتواضعِه، وعدمِ تجبرِه أو تكبره، وما سيضفيهِ عليه من السلامِ والأمانِ في حياته.

وتوقَّفَ عرضُ القرآن لقصةِ ميلادِ عيسى عليه السلام عند هذا الحد، ولم يتحدثْ عن ردةِ فعلِ القومِ لما سمعوا بيانَه وكلامَه، ولا عن ما جرى لمريمَ رضي اللّهُ عنها بعد ذلك.

تعقيب القرآن على عرض مشهد ولادة عيسى:

وقد عقبتْ آياتُ سورةِ مريم على ذلك بتقريرِ الحقيقةِ الإيمانية

---

(١) الكشاف ٣: ١٦.

بشأنِ عيسى عليه السلام، وتقريرِ وحدانيةِ الله، وتكذيبِ النصارى في مزاعمِهم حولَه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٤٠].

إنَّ هذا التعقيبَ هو الهدفُ من ذكْرِ الحملِ بعيسى وولادتِهِ وكلامِه في المهد، لأنَّ موضوعَ هذا التعقيب ثمرةٌ لما قبله.

والملاحَظُ أنَّ أسلوبَ وإيقاعَ ولهجةَ وفاصلةَ هذا التعقيب يختلفُ عن السردِ والعرضِ فيما قبله.

لقد كانَ الكلامُ من مطلعِ السورة إلى هذا الموضعِ عرضَ لقطاتٍ ومشاهد من قصةِ زكريا ويحيى عليهما السلام، ثم عَرَضَ مشاهدَ ولقطاتٍ من بداياتِ قصة عيسى مع أمه عليه السلام.

فقد كانَ الأسلوبُ واللهجةُ والإيقاعُ يتناسَبُ مع العرضِ والسردِ والإخبار والرواية. وكانت فواصلُ الآيات متناسقةً مع الأُسلوب والجو، حيث كانت بالياءِ المشددة التي بعدَها ألِف، مثل: زكريا. خفياً. شقياً. ولياً. رضياً. سمياً.

وكانت الفواصلُ السابقة في عَرْضِ قصةِ عيسى على نفس الصورة: شرقياً. سوياً. تقياً. زكياً. بغياً. مقضياً. قصياً. منسياً. سرياً. جنياً. . . وهكذا.

أما في آيات هذا التعقيب السبعة فقد اختلفَ الأسلوبُ والإيقاع،

فصارَ هادئاً بطيئاً مديداً، واختلفَتْ فواصلُ الآيات، فتحوَّلَتْ إِلى واوٍ أو ياء بعدَها نون أو ميم، مثل: يمترون. فيكون. مستقيم. عظيم. مبين. يؤمنون....

قالَ سيد قطب في كتاب «التصوير الفني في القرآن» معلِّلاً ذلك: «وهكذا يتغيَّرُ في هذا التعقيب نظامُ الفاصلةِ فتطول، ويتغيَّرُ نظامُ القافيةِ فتصبح بحرفِ النون أو الميم وقبلهما مَدٌّ طويل.

وكأنما هو في هذه الآياتِ الأخيرة يُصدِرُ حكماً بعدَ نهايةِ القصة، مستَمَداً منها. ولهجةُ الحكم تَقتضي أُسلوباً موسيقياً غيرَ أُسلوب الاستعراض. وتقتضي إِيقاعاً قوياً رصيناً، بدلَ إِيقاعِ القصةِ الرَّضِيِّ المسترسِل، وكأنما لهذا السببِ كان التغيير.

ونحنُ نستأنسُ في هذا الاستنباط بملاحظةٍ أُخرى، ذلك أَنه بمجرد الانتهاءِ من إِصدارِ هذا الحكم، وإِلقاءِ ذلك التقرير، عادَ إِلى النظامِ الأول في القافيةِ والفاصلة، لأَنه عادَ إِلى قَصَصٍ جديد...»[1].

الله قال القول الحق بشأن عيسى:

أَخْبَرَنا اللّهُ في هذا التقريرِ والتعقيب، أنّ هذا هو الحقُّ في قصةِ عيسى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

و﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه قراءتان:

الأولى: قراءةُ عاصم وابنِ عامر: «قَوْلَ الحق» بالنصب. على أَنه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوف، مؤكِّدٍ لما قبلَه. والتقدير: ذلك عيسى ابنُ مريم، أَقولُ فيه قولَ الحق. والقائلُ هو الله سبحانه.

الثانيةُ: قراءةُ الباقين: «قولُ الحق» بالرفع. على أَنه خبرٌ لمبتدأ محذوف. تقديره: هو قولُ الحق.

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٩٠.

الحقّ في عيسى عليه السلام هو ما قالَه الله، أما أَهلُ الكتاب فقد كانوا يمترون ويختصمون ويختلفون فيه.

قال قتادة: امْتَرَتْ فيه اليهودُ والنصارى. فأما اليهودُ فزعموا أَنه ساحرٌ كذاب، وأمّا النصارى فزعموا أنه ابنُ الله، وأَنه إِله، وأنه ثالث ثلاثة: وكذبوا كلُّهم، لأنه عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه وروحُه..

وقالَ ابنُ جريج: اختلفَ فيه النصارى. فقالت فرقة: هو عبدُ الله ورسولُه، وقالت فرقةٌ هو الله. وقالت فرقة: هو ابنُ الله[1].

وقد كَذَّبَ اللّهُ النصارى بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

كيف يكون عيسى ابناً لله؟ وما ينبغي ولا يصلحُ لله أنْ يتخذَ ولداً، وهو لا يَحتاجُ إلى الولد، سبحانه وتعالى عما يقول النصارى علواً كبيراً.

ولا غرابةَ في خلْقِه عيسى عليه السلام من غيرِ أب، لأنه أَراد خلْقَه هكذا فخَلَقَه، وإذا أَرادَ اللّهُ إيجادَ شيء فإنه يوجِدُه بكلمة «كن»، فيكونُ ذلك الشيءَ ويوجَدُ كما أرادَ الله.

وبما أن السياقَ في تكذيبِ مزاعمِ وادعاءات النصارى حولَ تأليه عيسى عليه السلام، فقد أَخبرَ عن بعضِ ما قالَه عيسى لهم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

قال عيسى للنصارى عندما كان بينَهم قبلَ أنْ يرفعه اللّهُ إليه: اللّهُ هو ربي ربكم، لا شريكَ له، ولم يتخذْ صاحبةً ولا ولداً، وأَنا عبدُه ورسولُه، ولستُ ابناً له، وأَنا مأمورٌ بعبادتِه، فاعبدوه كما أَعبدُه أَنا، وهذا هو الصراطُ المستقيم.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٩.

ولكنَّ النصارى لم يأخذوا بقوله، وإنما انقسموا إلى أَحزابٍ مختلفة فيه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذه الأَحزابُ النصرانية، كافرةٌ بالله، لأَنها أَلَّهتْ عيسى عليه السلام، فمنهم مَنْ قال: هو إله، ومنهم مَنْ قال: هو ابنُ الله، ومنهم مَنْ قال: هو أَحَدُ الأقانيم الثلاثة: الآب والابن والروح القدس، فهو ثالثُ ثلاثة.

ولهؤلاءِ الكافرين عذابٌ شديدٌ يومَ القيامة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قوة سمع وبصر الكفار يوم القيامة وحسرتهم:

ومِن أَحوالهم هناك في الآخرة قوةُ أَسماعِهم وأَبصارِهم: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

وردَ في تقريبنا لتفسيرِ الطبري ما يلي: «هذا إِخبارٌ عن أَحوالِ الكفار، يومَ ورودِهم على الله في الآخرة. فقد كانوا في الدنيا عُمياً عن إِبصارِ الحق، والنظرِ في آياتِ الله الدالةِ على وحدانيته، صُمّاً عن سماعِ آياتِ كتابه، وعن الاستجابةِ لدعوة الرسل.

فما أَسمعَهم يومَ قدومِهم على ربِّهم في الآخرة، وما أَبصرَهم في ذلك اليوم، ولكن حين لا ينفعهم السمعُ والإبصار.

قال قتادة: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: ذاك والله يومَ القيامة. سَمعوا حينَ لا ينفعُهم السمع، وأَبصروا حين لا ينفعَهم البصر، فكانوا أَسمعَ قوم وأَبصرَهم.

وقال ابن زيد: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾: هذا يومَ القيامة، فأَما الدنيا فلا، حيث كانتْ على أَبصارِهم غشاوة، وفي آذانهم وقر،

فلما كان يومُ القيامة أَبصروا وسَمِعوا، لكن لم يَنتفعوا...»[1].

وإذا كان هؤلاء النصارى المؤلِّهون لعيسى عليه السلام، على هذه الصورةِ من السمعِ والبصرِ يوم القيامة، حين لا ينفعهم ذلك، فلا بدَّ أنْ يُوَجَّهَ لهم الإنذار، ليستفيدوا من الفرصةِ المتاحة لهم في الدنيا:

ولذلك أَمَرَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ أنْ ينذرهم عذابَ الآخرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أَنذرهم عذابَ يومِ القيامة، حيث سيحاسَبون فيه، ثم يحكمُ اللّهُ فيهم بالعذاب الأبدي في جهنم، فيتحسَّرون حسرةً شديدة.

أَنذرْهم وهم في الدنيا حتى تزولَ الغفلةُ التي يَعيشونها، وحتى يصحوا ويستيقظوا، فيتخلَّوا عن كفرهم، ويؤمنوا بالله.

وختمَ اللّهُ التعقيبَ على قصةِ ميلادِ عيسى عليه السلام بتقريرِ حقيقةٍ إِيمانية قاطعة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وهذا تأكيدٌ لوحدانيتِه، وأنه لا شريكَ له، فهو الخالق، وكلُّ ما سواه مخلوق، وعيسى مخلوقٌ من المخلوقين.

واللّهُ وحدَه هو المالكُ للسمواتِ والأرضِ والدنيا والآخرة، وهو الذي يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها من البشر، وهو الذي يُفني هذه الدنيا، ويأتي بالآخرة، وهو الذي يَبعثُ الناسَ يومَ القيامة، ويحاسبهم ويثيبهم أو يعاقبهم.

ما بين طفولة عيسى وبعثته مسكوت عنه:

وعيسى عليه السلام يكونُ من المبعوثين يوم القيامة.

وبهذا التعقيبِ الإيمانيِّ والتقريرِ القرآني، تنتهي لقطاتُ ومشاهدُ قصةِ ميلادِ عيسى عليه السلام.

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٤١.

وقد سكتَ القرآنُ عن ما جرى لمريمَ رضي الله عنها بعد قدومِها إلى قومها، ولا نعرفُ كيفَ كانتْ حياتُها بعد ذلك، ولا كيفَ ومتى وأينَ كانتْ وفاتُها.

كما سكتَ القرآنُ عن تفاصيلِ طفولة عيسى عليه السلام، ومحطاتِ إقامتِه، وما جَرى له في صباه. فهذا ليسَ من مقاصدِ العرض القرآني.

ونحن نسكتُ عن ما سكتَ عنه القرآن، ولا نأخذُهُ من مصادرِ غيرِ الكتاب والسنة!!

[١٠]

عيسى رسول إلى بني إسرائيل

شبَّ عيسى عليه السلام، وعاشَ صِباه وشبابَه طاهراً تقياً، يحفظُه اللّهُ ويَحميه ويَرعاه، ويُبعدُ عنه الشيطانَ ووساوسَه، حتى أَنزلَ عليه الوحي، وجعلَه نبياً رسولاً، وبعثَه إلى بني إسرائيل، وأَنزلَ عليه كتابَه الإنجيل.

ولا يحددُ لنا القرآنُ عمرَه عندما بعثَه اللّهُ وأَنزلَ عليه كتابه، فلا نخوضُ في ذلك، ونَبقى مع ما وردَ في صريحِ القرآن وصحيحِ الحديث.

وكانت بعثةُ عيسى عليه السلام وإنزالُ الإنجيلِ تحقيقاً للبشرى التي قَدَّمَها اللّهُ إلى أُمّه قبلَ حملِها به: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾ [آل عمران: ٤٧ ـ ٤٨].

وهي تحقيقٌ لما أَخبرَ هو عن نفسِه، عندما كلَّمَ قومَه وهو في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١].

وجوب الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله:

إنَّ عيسى عبدُ الله، ونبيُّه ورسولُه عليه الصلاة والسلام، ويجبُ

الإيمانُ بنبوتِه ورسالتِه إلى بني إسرائيل، ومَنْ أنكرَ كونَه نبياً رسولاً فقد كفر، ولهذا كان مِن أسبابِ كفرِ اليهود إنكارُهم نبوةَ ورسالةَ عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وأَخبرَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ أنه أخذ الميثاقَ منه كما أَخَذَهُ من أُولي العزم من قبله، ومنهم عيسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وهذا ما قررَهُ رسولُنا ﷺ حيث روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شهدَ أنْ لا إلهَ إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخلهُ اللّهُ الجنةَ على ما كان من العمل..»(١).

والإيمانُ بنبوةِ عيسى عليه السلام يجبُ أنْ يكون إيماناً بالأُمورِ التي ذكَرَها رسولُ الله ﷺ، من أنه: عبدُ الله، ورسولُ الله، وكلمةُ الله ألقاها إلى مريم، وروحٌ من الله خلَقَها في رحم مريم.

وقد بَيّنّا معنى كونِه كلمةً وروحاً من الله في ما مضى، ولله الحمد.

عيسى مقفى وخاتم لأنبياء بني إسرائيل:

وصرحَ القرآنُ في أكثرَ من موضعٍ بأنَّ عيسى عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٥. ومسلم برقم: ٢٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٧.

«مُقَفّى»، قَفّى اللّهُ به على آثارِ الأنبياء السابقين، وبعثَه بعدهم. وهو آخر أَنبياءِ بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ...﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ...﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ﴾ [الحديد: ٢٦ ـ ٢٧].

والمُقَفّى اسمُ مفعول من الفعلِ الرباعي «قَفّى»، بمعنى: أَتبع.

يقال: قَفّى على آثاره: ذهبَ بها. وقَفّى به فلاناً: أَتبعه بفلان[1].

معنى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾: أَتْبَعْنا على آثارِ الرسل السابقين كنوح وإبراهيم برسلٍ لاحقين جاءوا بعدهم كموسى وهارون.

ومعنى: «وقفينا بعيسى ابن مريم»: أَتبَعْنا الرسلَ اللاحقين كموسى وهارون برسولِنا عيسى ابن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلناه آخرَ أنبياءِ بني إسرائيل.

وهكذا جعلَ اللّهُ عيسى عليه السلام خاتمَ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولم يَبعثْ بعدَه رسولاً إلاّ خاتمَ الأنبياءِ والمرسلين، والرحمةَ لجميعِ العالمين، محمداً ﷺ.

لماذا ذكر همزة «ابن» في: عيسى ابن مريم؟:

وكانَ القرآنُ حريصاً على تأكيدِ نسبةِ عيسى عليه السلام إلى أُمه، فيقول «عيسى ابن مريم»، ويقول: «المسيح عيسى ابن مريم».

---

(١) المعجم الوسيط: ٧٥٢.

وهو منسوبٌ إلى أُمّه لأنه ليسَ له أبٌ لينسبَ إليه.

ومن لطائفِ رسم المصحفِ العثماني أنَّ همزةَ «ابن» مذكورةٌ موجودةٌ في كلِّ موضعٍ ذُكِرَ فيه «عيسى ابن مريم».

مع أنَّ همزةَ «ابن» تُحذفُ لفظاً وخطاً، إذا وردَ اسمُ شخص، وبعدَه «ابن» صفةٌ له، مُضافاً لاسمِ شخصٍ آخر هو أبٌ له. تقول: محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبد المطلبِ ﷺ ـ. إلاّ إذا وقعَ «ابنُ» في أولِ السطر فتَثبتُ الهمزةُ في أوله.

وخرجَ عن هذه القاعدة إذا أُضيفَ «ابن» إلى أُمِّ الشخص، فإن همزةَ ابن تَثبتُ في الخطِّ والكتابة. تقول: الحسنُ ابنُ فاطمة رضي الله عنهما، بينما تقول: الحسنُ بنُ علي رضي الله عنهما.

ولذلكَ كانتْ همزةُ «ابن» في «عيسى ابن مريم» عليه السلام مثبتةً في المصحف أينما وردَت، لأنَّ عيسى نُسبَ إلى أُمه لكونه لا أبَ له، فكلمةُ «ابن» أُضيفَتْ إلى الأمِّ وليس إلى الأَب![1].

عيسى رسول إلى بني إسرائيل فقط:

بعثَ اللّهُ عيسى ابنَ مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط.

ووردَ هذا في صريحِ آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ...﴾ [الصف: ٦].

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي ٨: ٢٩٧.

خاطبَ عيسى عليه السلام بَني إسرائيل، وصارحَهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم..﴾.

وأَخبرَهم أَنه مصدِّقٌ لما سبقَه من التوراة، وأَنه يبشرُهم بالنبيِّ الخاتم الذي سيبعثُه اللّهُ من بعدِه: محمدِ بن عبد الله ﷺ.

وبعثةُ عيسى عليه السلام إِلى بني إسرائيل فقط، لأَنَّ كلَّ نبي كانَ يُبعثُ إِلى قومِه خاصة، إلاّ رسولَنا محمداً ﷺ الذي بعثَه اللّهُ إِلى الناسِ كافة.

كلُّ نبي كانَ يقولُ لقومه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾. أما رسولُنا ﷺ فقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ...﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهذا ما وردَ في صريحِ حديثِ رسولِ الله ﷺ، حيث روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إِلى قومه خاصة، وبُعثتُ إِلى كلِّ أحمر وأسود. وأُحلّتْ لي الغنائم، ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي. وجُعلَتْ لي الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيّما رجلٌ أدركَتْه الصلاةُ صلى حيثُ كان. ونُصرتُ بالرعبِ بين يديْ مسيرةِ شهر. وأُعطيتُ الشفاعة..»[1].

والشاهدُ فيه قولُه: كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إِلى قومه خاصة، وبُعثتُ إِلى كلِّ أحمر وأسود.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ عيسى بلَّغَ رسالتَه إِلى بني إِسرائيل بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ ولم يقل: يا قوم.

بينما أَخبرَ القرآنُ في الآيةِ السابقة من سورة الصف أنَّ موسى عليه

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٢١.

السلام قالَ لهم: يا قوم! قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ...﴾ [الصف: ٥].

موسى يقولُ لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ﴾. وعيسى يقول لهم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم..﴾ ولم يقل: يا قوم.

والحكمةُ في هذا أنَّ الرجلَ يُنسبُ إلى قومِ أبيه، فيُقال: هو من بني فلان، ويخاطِبُهم هو قائلاً: يا قوم.

وهذا متحققٌ في موسى عليه السلام، لأنه ابنُ عمران، وأبوه عمران من بني إسرائيل. أما عيسى فليسوا قومَه، بل لا قومَ له من البشر، لأنه ليسَ له أب!

عالمية النصرانية خلاف طبيعتها:

وإذا كان عيسى ابنُ مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، بنصِّ القرآنِ الصريح والحديثِ الصحيح، فإنَّ هذا معناه أنَّ «النصرانيةَ» ديانةٌ إسرائيليةٌ خاصة، وأنَّ الأقوامَ الآخرين من غيرِ بني إسرائيل ليسوا مدعوّين من قِبَلِ عيسى، وليسوا مطالَبين بالإيمانِ به والدخولِ في دينه!!

ولكنَّ الواقعَ التاريخيَّ لا يتفقُ مع هذه الحقيقة، حيثُ دخلَ أفرادٌ من غيرِ بني إسرائيل بعدَ رفْعِ عيسى عليه السلام في النصرانية، واتَّبعوا عيسى عليه السلام، وانتشرت الديانةُ النصرانيةُ في بلاد الشام ومصر، ثم امتدَّتْ إلى الحبشةِ في الجنوب، واليونان وتركيا في الشمال، ووصلَتْ إلى روما في الغرب، بعدَ رفعِ عيسى عليه السلام بفترة وجيزة.

والحقيقةُ أنَّ هذا الانتشارَ العالميَّ للنصرانية، ودخولَ أقوام من غيرِ بني إسرائيل فيها، كان خلافَ أصْلِها وطبيعتِها، وكان أمراً خارجياً خارجاً عنها، وله أسبابٌ كثيرة، ليس هذا موطنَ بيانِها.

جعلَ اللّهُ عيسى عليه السلام رسولاً، وبعثَه إلى بني إسرائيل، وأنزلَ عليه الإنجيل، وجعلَه مكملاً للتوراة ومصدِّقاً لها.

معنى الإنجيل وصفاته المذكورة في القرآن:

فالإنجيلُ كتابٌ من كتبِ الله التي أنزلَها اللّهُ على رسله، فيجبُ الإيمانُ بأنَّ الإنجيلَ كتابُ الله، أنزلَهُ اللّهُ على عيسى عليه السلام.

و«الإنجيل» كلمةٌ أعجميةٌ غيرُ عربية، ولا نبحثُ عن معنى اشتقاقِها في العربية.

وَرَدَ في «قاموس الكتاب المقدس» أنَّ «الإنجيلَ» مشتقٌ من اللفظِ اليوناني «أُونْجِلْيُون»، ومعناه بالعربية: الخبرُ الطيب، أو البشارةُ. على أنه بشارةٌ من الله، تولّى عيسى عليه السلام التبشيرَ بها للآخرين[1].

وقد وردتْ كلمةُ «الإنجيل» اثنتي عشرة مرةً في القرآن.

أَخبرَ اللّهُ أنه أنزلَ القرآنَ كما أنزلَ التوراةَ والإنجيلَ من قبل: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

وجعلَ اللّهُ الإنجيلَ مصدِّقاً للتوراة، ومكملاً لأحكامِها. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

وجعلَ اللّهُ عيسى عليه السلام مصدِّقاً لما بينَ يديه من التوراة، وذلك أنَّ موسى عليه السلام بَشَّرَ بعيسى عليه السلام، والبشارةُ به وردَتْ في التوراة التي أَنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام.

فلما بعثَ اللّهُ عيسى نبياً رسولاً، كانت بعثتُه تصديقاً لتلك البشارةِ

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ١٢٠ ـ ١٢١.

المذكورة في التوراة، حيثُ تحققتْ تلكَ البشارةُ النظريةُ في صورةٍ عمليةٍ واقعية، ونُفِّذَ الوعدُ الإلهيُّ الذي فيها في عالم الواقع، ومعلومٌ أنَّ اللّهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وأَخبرَ اللّهُ أَنه جعلَ الإنجيلَ فيه هدى ونور، وهو هدى يَهدي اللّهُ به الناسَ إلى التي هي أقوم، وهو نورٌ ينيرُ للناسِ حياتَهم وطريقَهم.

إنه هدى ونورٌ لأَنه كتابُ الله، وكلُّ كتبِ الله التي أنزلَها على رُسُلِه هدى يَهتدي الناسُ بها، ونورٌ تنيرُ للناسِ حياتَهم.

الإنجيل الصحيح مصدق للتوراة الصحيحة:

ومن المعلومِ أنَّ الإنجيلَ أَنزلَه اللّهُ على عيسى عليه السلام هدى ونوراً، وأنَّ عيسى عليه السلام بلَّغَه إلى المؤمنين به، وأَنهم اهتدوا به واستنارَتْ حياتُهم بأَنواره، ولكنَّ النصارى حَرَّفوا الإنجيلَ بعد رفعِ عيسى عليه السلام، وبذلك طَمَسوا ما فيه من نور، وقَضوا على ما فيه من هدى!

وجعلَ اللّهُ الإنجيلَ الأصيلَ الصحيحَ مصدِّقاً للتوراةِ التي قبلَه، وتصديقُ الإنجيل للتوراة هو اعتمادُه لها بأَمْرِ الله ـ والتوراةُ هي التي أنزلَها اللّهُ وليست التوراةَ المحرفةَ التي كتبها أَحبارُ اليهود ـ!

الإِنجيلُ مصدقٌ للتوراة، لأن كلَّ كتبِ اللّهِ يصدِّقُ بعضُها بعضاً، إنه يصدِّقُها في العقيدةِ ومسائلِ الإيمان، وإثباتِ الوحدانية ونفيِ الشرك وتعبيدِ الناسِ لله، ويصدقُها في الأَخبارِ والأَخلاقِ والتوجيهات، بحيث يتناسقان ويتوافقان في هذه الموضوعات.

أَما في الأَحكام والتشريعات فإنَّ الإِنجيلَ يُقرُّ ويصدقُ ويوافقُ معظمَ أحكامِ التوراة الإلهية، لأَنها أحكامٌ وتشريعاتٌ من الله.

وفي بعضِ الأحكامِ والتشريعات أَرادَ اللّهُ أنْ ينسخَ ما في التوراة بما في الإنجيلِ منها، حيث كانَ بعضُها يحرمُ أَشياءَ على اليهود، فنسخَ اللّهُ ذلك، وأَباحها لهم في الإنجيل.

ووردَ هذا صراحةً في قولِه تعالى عن بعضِ ما قالَه عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾ [آل عمران: ٥٠].

وأَخبرَنا اللّهُ عن بعضِ ما أَوردَه في الإنجيل، وأَخبرَ به عيسى بني إسرائيل، ـ وهو الذي أَوردَهُ في التوراةِ والقرآن أيضاً ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

إنَّ الذي قررَه اللّهُ في كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن هو أنَّ المؤمنين باعوا أنفسَهم وأموالَهم لله، فاشتراها اللّهُ منهم، وجعلَ ثمنَ ذلك الجنة، وطريقةُ التسليم هي الجهادُ والقتالُ في سبيل الله، وعندما يجاهدُ هؤلاء المؤمنون فسيَقْتُلون بعضَ الأعداء، ومقابلَ ذلك سيُقْتَلُ أُناسٌ منهم شهداء، ووعدَ اللّهُ الفريقين من المؤمنين المجاهدين ـ الشهداء والمنتصرين السعداء ـ الجنة، وهذا وعْدٌ قاطعٌ منه، وردَ في التوراةِ والإنجيل والقرآن، وإِنه منجزٌ لهم ما وَعَد، لأَنه سبحانه لا يُخلفُ الميعاد.

وذكْرُ هذه الحقيقةِ الجهاديةِ في الإنجيل دليلٌ على أنَّ الإنجيلَ الربانيَّ الأصيلَ فيه أَبعادٌ وتوجيهاتٌ جهادية!

صفات رسول الله والذين معه في الإنجيل الصحيح:

ومما ذكرَه اللّهُ في الإنجيل صفاتُ الرسولِ الخاتم محمدِ بنِ عبد الله ﷺ، وأَخْبرَنا في القرآن أنَّ النصارى يَجدون صفاتِه مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ..﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما ذكَرَ اللّهُ في الإنجيلِ بعضَ صفاتِ المؤمنين أتباعِ رسولِ الله محمدٍ ﷺ، وأخْبَرَنا عن ذلك في القرآن. قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد ضربَ اللّهُ لأمةِ محمدٍ ﷺ مَثَلَيْن: مَثَلاً عِبادياً في التوراة، ومثلاً زراعياً في الإنجيل..

ويهمُّنا أنْ نُشيرَ في هذا المقام إلى مثلِهم الزراعيِّ في الإنجيل.

مَثَلُهم فيه كَمَثَلِ زرعٍ أخرجَ «شَطْأَه»: وهو نباتُه الصغيرُ الذي يَنبتُ بجانبِ النبتة الأساسية الأمِّ.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: فقوّاه وساعدَه، وقَوِيَ الزرعُ بشطئِه وفراخِه الصغيرة.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾: فصارَ الزرعُ غليظاً قوياً.

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: نَضَجَ هذا الزرعُ على سوقِه التي تحملُ سنابِلَه.

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: هذا الزرعُ الذي استغلظَ فاستوى على سوقِه، صارَ يعجبُ الزّرّاعَ والفلاحين، في تمامِه وحسنِ نباتِه وجمالِ سنابله.

وهكذا أصحابُ محمد ﷺ، حيثُ بعثَه اللّهُ رسولاً، وبدأَ وحيداً، ثم آمنَ به أُناسٌ قليلون، ثم ازدادوا وكثُروا، ونصرهم اللّهُ وأَغاظَ بهم الكفار.

وهكذا بلَّغَ عيسى عليه السلام بني إسرائيل الدعوة، وقدَّمَ لهم الإنجيل!!.

[١١]

معجزات عيسى عليه السلام

الآيات الربانية رافقت عيسى منذ ميلاده إلى وفاته:

شاءَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يجعلَ عيسى عليه السلام آية، ولذلكَ جعلَ معجزاتٍ عديدةً في حياته.

جعلَ اللّهُ حمْلَ أُمِّه به من غيرِ بَعْلٍ آية، وأَجرى لها سَرِيَّ الماءِ آية، وأَثمرَ لها الرُّطَبَ الجنيَّ على النخلةِ آية، وأنزلَ عيسى عليه السلام من بطنِ أُمِّه متكلِّماً آية، وأَنطقَ عيسى أمامَ أهلها، فقدَّمَ نفسَه إليهم آية.

هذه آياتٌ ومعجزاتٌ رافقَتْ خَلْقَه وميلادَه وطفولتَه.

ولما صارَ شاباً وبعثَه اللّهُ نبياً رسولاً، قَدَّمَ اللّهُ له عدداً من الآياتِ والمعجزات لبني إسرائيل، أَقامَ عليهم فيها الحجة.

ولما صممَ اليهودُ على صلبِه وقتلِه، حماهُ اللّهُ منهم، ورفَعَه إلى السماء، وجعلَ هذا آية.

وهو الآنَ حيٌّ في السماء بروحِه وبدنه، حياةً غيبيةً لا نعرفُ كيفيتَها، وجعلَ اللّهُ هذا آية.

وسينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان إلى الأرض، وسيكونُ إنزالُه آية.

وهكذا صاحبت الآياتُ والمعجزاتُ عيسى عليه السلام منذُ خَلْقِه إلى موتِه قبيلَ قيامِ الساعة.

ولهذا قالَ اللّهُ عنه وعن أُمِّه: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

فنصَّ على أنه جَعَلَهما آيةً للعالمين، والعالَمون هنا هم الناسُ أجمعون، جعلَهما اللّهُ آيةً من آياته، الدالةِ على وحدانيتِه وقدرتِه وحكمته.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنه عبَّرَ عن الاثنين عيسى وأُمِّه بالمفرد، وذلك في قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾، ولم يقل: «آيتين».

وحكمةُ الإفرادِ «آية» أنهما متلازمان لا ينفصلان، فلا يُذْكَرُ عيسى عليه السلام إلاّ تُذكر أُمُّه معه، ولا تُذْكَرُ مريم رضيَ اللّهُ عنها إلاّ يُذْكَرُ ابنُها معها، فهما «آية» معاً.

ثم إنَّ الآياتِ التي جعلَها اللّهُ في مريم هي تمهيدٌ لآياتِ عيسى، فقصةُ مريمَ هي قصةُ عيسى باعتبارِها أُمَّه، فالمقصودُ من الآياتِ هو عيسى، ولذلك عبَّرَ بالمفردِ «آية»، فعيسى هو الآية، وأُمُّه جزءٌ منه، وآيتُها هي آيتُه.

ويهمُّنا في هذا الموضع الحديثُ عن آياتِ عيسى عليه السلام التي قَدَّمَها لبني إسرائيل، فهو رسولٌ بعثَهُ اللّهُ إليهم، وجعلَ اللّهُ معه آياتِ معجزاتٍ دالةً على صدْقِه ونبوتِه.

آيات الأنبياء الموقوتة وآية نبينا المستمرة:

ومعلومٌ أنَّ اللّهَ أعطى كلَّ نبيٍّ أو رسولٍ آياتٍ دالةً على نبوته ورسالته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ..﴾ [الحديد: ٢٥].

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي اللّهُ عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «ما من الأنبياءِ من نبيٍّ إلاّ قد أُعطِيَ من الآياتِ ما مثلُه آمَنَ عليه البشر. وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحْياً أَوحى اللّهُ إليّ، وإني لأَرْجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة..»[1].

فقد صرحَ رسولُ الله ﷺ بأنَّ اللّهَ أعطى كلَّ نبيٍّ آياتٍ دالةً على

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٥٢.

نبوتِه، وهذه الآياتُ تتفقُ مع خصوصيةِ رسالتِه في الزمانِ والمكانِ والأشخاص، وهي سببٌ في إيمانِ مَنْ يؤمنُ به من قومِه.

وجعلَ اللّهُ الحكيمُ آيةَ رسولِنا ﷺ مستمرةً حتى قيامِ الساعة، موجودةً في القرآنِ الكريم الذي أوحى اللّهُ به إليه، لأنَّ رسالتَه ﷺ عامةٌ شاملةٌ مستمرةٌ حتى قيامِ الساعة، ولهذا هو أكثرُ الناسِ أتباعاً يومَ القيامة.

من هذا الباب جعلَ اللّهُ مع عيسى عليه السلام مجموعةً من الآيات، وبعثَهُ نبياً رسولاً إلى بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾ [آل عمران: ٤٩].

أيد الله عيسى بجبريل روح القدس ومعناه:

وأيدَ اللّهُ عيسى عليه السلام بالروحِ القُدُس، وهو جبريلُ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ..﴾ [البقرة: ٨٧] و[البقرة: ٢٥٣].

والملاحَظُ أنَّ هذه الجملةَ وردَتْ بعينِها في الآيتيْن السابقتيْن من سورةِ البقرة، وليس فيهما تكرار، لأنها في كلِّ آيةٍ واردةٌ في سياقٍ خاص، ولتقريرِ حقيقةٍ خاصة وهدفٍ معين.

وامتنَّ اللّهُ على عيسى عليه السلام بتأييدِه بروحِ القُدُس. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا..﴾ [المائدة: ١١٠].

وأُطلقَ على جبريل روحٌ، لأنَّ أَساسَ معنى الروحِ هو ما به حياةُ الإنسان، سواء كانت حقيقيةً أو معنوية.

فالروحُ الحقيقيةُ هي التي يجعلُها اللّهُ في الإنسان، وهي سِرٌّ من

أَسرارِه سبحانه، لا يعلمُ حقيقتَها أَحدٌ من خلْقِه، وهي أَساسُ حياةِ الإنسان، فإذا خرجت الروحُ منه مات.

والروحُ المعنويةُ هي التي بها حياةُ القلوبِ والنفوسِ والأرواح، وبهذا الاعتبار أُطلقَ على جبريلِ كما أُطلقَ على القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ..﴾ [الشورى: ٥٢].

وأُضيفَ الروحُ إلى القدسِ في قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾.

والقُدُسُ مصدرُ الفعل الثلاثي: قَدُسَ. بمعنى: طَهُر.

تقول: قَدُسَ، يَقْدُسُ، قُدْساً، و: قُدُساً. ويجوزُ في الدالِ السكونُ والضم.

وإِضافةُ الروح إلى القُدُس «روحُ القُدُس» حَوَّلَت الكلمةَ من المصدرِ إلى الصفة، فكأَنَّه قال: جبريل هو: الروحُ المقدَّس. أي هو الطاهرُ المطهَّرُ المبارَك[1].

وبَيَّنَ السمينُ الحلبيُّ في «عمدة الحفاظ» حكمةَ وصْفِه بالقداسَة، فقال:

«روحُ القدس هو جبريل. والقُدُسُ هو الطهارة، ويُضَمُّ دالُه ويُسَكَّن.

وذلكَ لأَنه خُلِقَ من طهارةٍ محضَة، فهو مَلَكٌ خلقهُ اللّهُ من النور. وقيل: سميَ بذلك من حيثُ إنه ينزلُ من اللّهِ بالقُدُس، أي: بما يطهِّرُ به نفوسَ عبادِه من القرآنِ والحكمةِ والفيضِ الإلهي..»[2].

جبريل روح القدس لكل الرسل:

و«روحُ القُدُس» ـ جبريلُ عليه السلام ـ ليس خاصّاً بعيسى ابنِ

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي ١:١٩٢.

(٢) عمدة الحفاظ ٣:٣٣٢.

مريم عليه السلام، فقد وردَ في القرآنِ في سياقِ إنزالِ كتابِ اللّهِ على عبدِه ورسوله محمدٍ ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ..﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٢].

والشاهدُ في الآية الثانية: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾. أي: الذي نَزَّلَ عليك القرآنَ من ربِّك هو روحُ القدس، جبريل عليه السلام.

والخلاصةُ أنَّ اللّهَ آتى عيسى عليه السلام الآياتِ المعجزاتِ البينات، وأَيَّده بجبريلَ تأييداً: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

وهذا معناهُ أنَّ اللّهَ كان يُنزلُ عليه روحَ القُدُس جبريل، وهو يقومُ بالدعوة، ويواجه بني إِسرائيل، وكان جبريلُ عليه السلام يؤيِّده ويقوِّيه ويشجعُه.

وليس هذا خاصّاً بعيسى عليه السلام، فكلُّ أَنبياءِ الله ورسلِه أَيَّدَهم اللّهُ وقَوّاهم ونصرَهم بروحِ القُدُس جبريل عليه السلام. وكانَ لرسولِنا ﷺ نصيبٌ كبيرٌ من تأييدِه به، حيث كانَ يَنزلُ عليه في الفترةِ المكية والمدنية، مُواسياً مُؤانساً مُشجعاً، كما كانَ يَنزلُ عليه معلِّماً موجِّهاً، وفي المعارك مع الكفار كان يَنزلُ يَقودُ الملائكة مَدَداً مساعِداً مُعيناً، بأمرِ الله، كما حصلَ في بدرٍ وأُحد والأَحزاب، وغيرها.

من معجزات عيسى في القرآن:

آتى اللّهُ عيسى عليه السلام آياتٍ بيناتٍ ومعجزاتٍ واضحات، موجَّهةً لبني إسرائيل، دَليلاً له على صدقِ نبوته.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٩ ـ ٥١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ...﴾ [المائدة: ١١٠].

قَدَّمَ عيسى عليه السلام نفسَه رسولاً إلى بني إسرائيل، وقَدَّمَ لهم الآياتِ والمعجزاتِ التي آتاهُ اللّهُ إياها.

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾: المصدرُ من هذه الجملةِ في محلِّ نصبِ صفةٍ لكلمة «رسولاً» قبلَها. والتقدير: ورسولاً قائلاً لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾.

و﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾: المصدرُ المؤولُ من هذه الجملةِ في محلِّ رفعِ خبرٍ لمبتدأ محذوف، تقديرُه: هي خلقي لكم من الطين.

و﴿لكم﴾: خطابٌ لبني إسرائيل، ووَجَّهَ الخطابَ إليهم، كما وَجَّهَ الآياتِ إليهم، لأنَّ اللّهَ بعثَه رسولاً إليهم، كما سبقَ أنْ قَرَّرْنا.

وقد سَجلتْ هذه الآيةُ بعضَ المعجزاتِ التي قدَّمَها عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، وهذه المعجزاتُ هي: إيجادُه الطيرَ الحيَّ من التمثالِ الجامد، وإبراؤُه الأكمهَ والأبرص، وإحياؤُه الموتى، وإخبارُهم بما يأكلون ويَدَّخرون في بيوتهم..

عيسى يخلق الطير من الطين بأمر الله:

الآية الأولى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ..﴾:

كانَ يصنعُ من الطينِ تمثالاً على شكلِ طائر، وبعدما يجفُّ التمثالُ وييبس، كان يَنفخُ فيه، فيتحوَّلُ هذا التمثالُ إلى طائرٍ حيٍّ حقيقي، وكان هذا بإذنِ الله وإرادتِه.

وهذه المعجزةُ عَبَّرَتْ عنها سورةُ المائدة بلفظٍ آخر. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ..﴾.

ونَسبت الآيتان «الخَلْقَ» إلى عيسى عليه السلام! فكيفَ عيسى يخلقُ من الطينِ طيراً؟ معَ أنَّ الخالقَ هو اللّهُ وحده؟

قالَ الإمامُ الراغب: «الخَلْق: أَصلُه التقديرُ المستقيم.

ويُستعملُ في إبداعٍ من غيرِ أَصْلٍ ولا احتذاء. قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

ودليلُ خلْقِ السمواتِ والأرض بمعنى إبداعِهما من غيرِ أَصْلٍ هو قولُه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ..﴾ [الأنعام: ١٠١].

وهذا الخلقُ الذي هو الإبداعُ من لا شيءَ خاصٌّ بالله، ولهذا جعلَهُ اللّهُ فَصْلاً بينَه وبين غيرِه سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: ١٧].

ويُستعملُ الخلقُ في إيجادِ الشيء من الشيء. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾ [النحل: ٤].

وقالَ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وهذا الخلقُ الذي هو بمعنى التحويلِ قد جعلَهُ اللّهُ لغيرِه في

بعضِ الأحوال. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى..﴾[1].

كان خلق عيسى للطير خلق تحويل لا خلق إبداع:

من النوعِ الثاني إذنْ كان خلْقُ عيسى عليه السلام، حيثُ أَقْدره اللّهُ عليه، وأَذِنَ له فيه، فكان يصنعُ من التراب طيناً، ثم يحوّلُ هذا الطينَ التمثالَ إلى طائر، بإذْنِ اللّهِ سبحانه.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾: أي: تُصوِّرُه وتشكِّلُه على هيئةِ الطائر بإِذْني لك في ذلك: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾: فتنفخُ في تلك الصورة التي شكَّلْتَها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روحٍ تَطيرُ بإذنِ الله وخلْقِه..»[2].

ما الذي خلَقَه عيسى عليه السلام؟

أَخَذَ تراباً، فجعَلَه طيناً، ثم أَخَذَ هذا الطين، فجعَلَ منه تمثالاً على شكْلِ وهيئةِ الطير، ثم نفخَ فيه فصارَ طيراً حياً..

ليس هذا إِيجاداً من العَدَم، ولا إِبداعاً من لا شيء، وإِنما هو تحويلُ أشياءَ خلَقَها اللّهُ من العدم، وأَوْجَدَها في الأرض، فأَخَذَها عيسى عليه السلام فحوَّلَها من حالةٍ إِلى حالة: ترابٌ خلَقَه الله، وماءٌ خلقه الله، فأخذَ عيسى هذيْن العنصريْن فمزجَهما معاً، فصارا طيناً، ثم جعلَهما تمثالاً، فهل أوجدَ عيسى شيئاً من العدم؟

ثم هذا الخلقُ المنسوبُ إِلى عيسى ـ الذي هو بمعنى التحويل ـ فعلَه عيسى بإذنِ الله، فاللّهُ هو المقدِّرُ والمسبِّبُ والخالقُ في الحقيقة، وعيسى عليه السلام هو السببُ الخارجيُ، والوسيلةُ العملية، حققَ اللّهُ على يده إرادتَه!

---

(١) المفردات: ٢٩٦. بتصرف واختصار. وانظر عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ١:٦٠٦ ـ ٦٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٠٩.

ولقد جاءَ التعبيرُ القرآنيُّ عن خلْقِ عيسى للطير من الطينِ دقيقاً، حيث قال: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ..﴾ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ..﴾ حيث ذكَرَ المادةَ التي يخلقُ الطيرَ منها وهي «الطين»، فهو لم يَخلق الطين، وإنما يخلقُ لهم من الطين.

أمّا خلْقُ اللّهِ للكون وما فيه، فإنَّ الآياتِ التي تخبر عنه لا تَذْكُرُ المادةَ التي خلقَ السمواتِ والأرضَ منها، ولم يَذْكُرْ حرفَ الجرِّ «من»، وإنما ذكَرَ المفعولَ به مباشَرة. كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفرْقٌ كبيرٌ بين قولِ الله عن إبداعِه الكون ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وبينَ ذكْرِ المادة التي خلقَ عيسَى منها الطير، وحَوَّلَها إليه: ﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

ولأجلِ هذا المعنى حرصَ القرآنُ على أنَّ الخلقَ كان بإذنِ الله، فاللّهُ هو الذي أذنَ له بذلك، وهو سببٌ مباشرٌ مادي، وهذا التأكيدُ على إذنِ الله، لتقريرِ الوحدانية، وتفردِ اللّهِ بالخلقِ الذي هو الإيجادُ والإبداع.

و«الهيئة» مصدر بمعنى اسمِ المفعول.

تقول: هاءَ فلان، يَهاءُ، هَيْئَة: بمعنى صارَ حسنَ الهيئةِ والصورة.

والهيئة هي: الحالُ التي يكونُ عليها الشيء، محسوسَةً كانت أو معقولة[1].

ومعنى «هيئة الطير»: على شكلِ صورةِ الطير.

كان عيسى يصنع التمثال ثم ينفخ فيه والله يجعله طيراً حياً:

والتقدير: أُوجِدُ وأَصنعُ لكم من الطين تمثالاً، وهذا التمثالُ يكون مصوَّراً على شكل الطائر.

(١) المعجم الوسيط: ١٠٠٢.

و«هيئة» لم تَرِدْ في القرآنِ إلاّ في الآيتيْن السابقتين: آيةِ سورة آل عمران، وآيةِ سورة المائدة.

وقولُ عيسى: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يدلُّ على أنه كان ماهراً في صنعِ هذه التماثيلِ المصوَّرَة المجسَّمة، يتقنُ تشكيلَها، ويُحسنُ إيجادَها.

وبعدما يحسنُ صُنْعَ التمثال، كان ينفخُ فيه فيتحوَّلُ عن تمثالٍ جامدٍ إلى طيرٍ حي، بإذْنِ الله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ. . .﴾. ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾.

وكما وَجَّهْنا إِسنادَ الخلقِ إلى عيسى عليه السلام نوجِّهُ النفخَ في التمثالِ أيضاً، فاللّهُ هو الذي أَذِنَ له في النفخ في تمثال الطير، واللّهُ هو الذي شاءَ أنْ يوجِدَ الحياةَ في التمثال، واللّهُ هو الذي جعلَه طيراً حياً، وليس لعيسى عليه السلام دورٌ في ذلك إلاّ النفخَ فقط.

إنَّ نفخةَ عيسى في تمثالِ الطير هي سببٌ مباشرٌ مادي، جعلَ اللّهُ الحياةَ فيه مترتبةً على النفخة، فالمسبِّبُ والمقدِّرُ والمريدُ هو الله.

ما كان عيسى عليه السلام خالِقاً للطير، فما هو إلاّ صانع، والخالقُ هو الله، وما كان عيسى عليه السلام واهِباً للحياةِ في الطير، فما هو إلاّ نافخ، وواهبُ الحياة هو اللّهُ المحيي سبحانه.

وقد حرصَ القرآنُ على تأكيدِ هذه الحقيقة، حيثُ صرَّحَ بأنَّ قيامَ تمثالِ الطيرِ طيراً حياً كان بإذنِ الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى. .﴾.

فكررَ «إذن الله» مرتيْن، مرةً في صنعِ تمثالِ الطير، ومرةً في تحوُّلِ التمثالِ إلى طيرٍ حيٍّ بعد النفخة.

ونلاحظُ أنه قالَ في آل عمران: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾، فعبَّرَ بالمذكَّر، بينما قالَ في المائدة: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾ حيثُ عَبَّرَ بالمؤنث.

والهاءُ في «فيه» تعودُ على «التمثال» المقدَّر. والتقدير: أخلقُ لكم تمثالاً على هيئةِ الطير، فأنفخُ في التمثال، فيكونُ التمثالُ طيراً بإذن الله.

والضميرُ المؤنَّثُ في «فيها» يعودُ على «هيئة» قبلَه، وهي مؤنثة. والتقدير: أَخلقُ لكم تمثالاً على هيئةِ الطير، فأنفخُ في تلك الهيئة، فتكونُ الهيئةُ طيراً بإذن الله[١].

وإنَّ هذه المعجزةَ آيةٌ بينةٌ لعيسى عليه السلام، تدلُّ على أَنه رسولُ الله، لأَنها خارقةٌ للعادةِ لا يَستطيعُ أحدٌ القيامَ بها، إلاّ أَنْ يكونَ نبياً رسولاً، وإلاّ فمن الذي يقدرُ على جعلِ الروحِ في تمثالٍ مجسَّم جامد، ويحوّلُه إلى طيرٍ حيٍّ يطيرُ ويتحركُ بمجردِ النفخِ فيه؟ لا يفعلُ ذلك إلاّ نبي، أَجرى اللّهُ آيتَه على يديْه.

عيسى يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله:

آيةُ عيسى الثانية: إبراؤه، الأكمَه والأَبرص.

قال تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

و«أُبرئُ» فعلٌ مضارع، بمعنى أُشفي. من البُرْءِ وهو الشِّفاء.

و«الأَكْمَهُ» صفةٌ مشبَّهة. تقول: كَمِهَ، يَكْمَهُ، كَمَهاً، فهو أَكْمَهٌ.

والأَكمهُ الذي ولدَتْه أُمُّه أعمى[٢].

وكان عيسى عليه السلام يمسحُ بيدِه على الأكمه، وهو الذي لم يرَ النورَ منذ ولادتِه، فيعيدُ اللّهُ له بصرَه، ويَزولُ عنه عَماه، ويكونُ مبصراً قويَّ البصر.

ولم يتوصَّل الطبُّ في القديمِ ولا في الحديث إلى علاجِ الأَكمه،

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٤.

(٢) المعجم الوسيط: ٧٩٩.

وإعادةِ بصره إليه، فكان علاجُ عيسى عليه السلام له، وهو ليسَ طبيباً دليلاً على أنه رسولُ الله، وأنَّ هذا العلاجَ كان معجزةً من الله.

و«الأَبرص» على وزن «الأكمه»، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ أَيضاً. تقول: بَرِص، يَبْرَص، بَرَصاً، فهو أَبْرَص.

والبَرَصُ هو: بياضٌ يكون في جسمِ الإنسان، في مواضعَ متفرقةٍ منه، بسببِ علةٍ أصابَتْه. والأبرصُ هو الذي في جسمه هذه البقعُ البيضاء[1].

والبرصُ مرضٌ منفِّر، حيث ينفرُ الناسُ من الأبرص ويتجنبونَه.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الطبري ما يلي: «وإبراءُ عيسى عليه السلام للأكمهِ والأبرصِ بإذنِ الله، دليلٌ على نبوتِه، لأنَّ الكمَهَ والبرصَ لا علاجَ لهما من قِبَلِ الأطباء، لأنه لا يَقدرُ طبيبٌ على علاجهما. فكان علاجُ عيسى لهذين المرضين، وإبراءُ المريضيْن بدون علاج، وهو غيرُ طبيب، دليلاً على أنه رسولُ الله، وأنَّ اللّهَ أَيَّده بهذه الآيةِ والمعجزة، وأنَّ اللّهَ هو الذي أبرأ وشفى على يديْ عيسى عليه السلام»[2].

معجزات الأنبياء تتناسب مع ما مهر فيه أقوامهم:

أما الإمامُ ابنُ كثير فقد بَيَّنَ حكمةَ جعلِ إبراءِ عيسى عليه السلام للأكمهِ والأبرصِ آيةً له، وهي توافقُ «الطّبّ» في الظاهر، وجَعَلَ هذا الموضعَ مناسبةً للحديثِ عن تناسبِ معجزاتِ الأنبياء لما ذاعَ وانتشرَ بين أقوامِهم.

قال: «قالَ كثيرٌ من العلماء: بعثَ اللّهُ كلَّ نبيٍّ من الأنبياءِ بما يناسبُ أهلَ زمانِه.

فكان الغالبُ على زمانِ موسى عليه السلام السحرَ وتعظيمَ

(١) المرجع السابق: ٤٨.
(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٤.

السحرة، فبعثَهُ الله بمعجزاتٍ بَهرت الأبصار، وحَيَّرت كلَّ سَحّار، فلما استيقَنوا أَنها من عند العظيمِ الجبار، انقادوا للإِسلام، وصاروا من عبادِ الله الأَبرار.

وأَما عيسى عليه السلام فبُعثَ في زمنِ الأطباء وأَصحابِ علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيلَ لأحدٍ إِليه إلاّ أَنْ يكونَ مؤيَّداً من الذي شرعَ الشريعة، فمن أينَ للطبيبِ قدرةٌ على إحياءِ الجماد، أو مداواةِ الأكمه والأبرص، وبَعْثِ مَنْ هو في قبره رهينٌ إلى يوم التناد؟

وكذلك محمدٌ ﷺ، بُعِثَ في زمنِ الفصحاءِ والبلغاءِ وتجاريدِ الشعراء، فأتاهم بكتابٍ من عندِ الله عز وجل، فلو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أَنْ يأتوا بمثله، أو بعشرِ سورٍ من مثله، أو بسورةٍ من مثله، لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً..»[1].

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أَنَّ «الأكمهَ والأبرص» قُرِنا معاً في القرآن، ولم يُذْكَرا إلاّ مرتين، في سياقِ الحديث عن آياتِ عيسى عليه السلام، في إبراءِ الأكمه والأبرص.

عيسى يحيِي الموتى بإذن الله:

آية عيسى الثالثة: إحياؤه الموتى:

قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ..﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى..﴾.

وظاهرُ هذه الآيةِ الباهرة أَنَّ عيسى عليه السلام كان يمرُّ بالموتى، فيدعو اللّهَ أَنْ يُحييهم، فيستجيبُ اللّهُ دعاءَه ويُحييهم، فيخرجون من قبورهم أَحياء.

إنَّ إِحياءَ عيسى عليه السلام للموتى مظهرٌ عمليٌّ لإرادةِ الله، فاللّهُ

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٤٥.

سبحانه هو الذي أَحياهم في الحقيقة، هو المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريد، لأَنه هو الذي يُحيي ويميت.

وما يفعلُه عيسى عليه السلام لإِحيائهم هو سببٌ ظاهري، اللّهُ هو الذي مكَّنَهُ من ذلك وأَقْدره عليه، وجعلَ الحياة تدبُّ في ذلك الميتِ على يديه، فلا نقفُ عند السبب وننسى إِرادةَ المسبِّبِ سبحانه وتعالى.

وإِحياءُ الموتى آيةٌ بينةٌ دالةٌ على نبوةِ عيسى عليه السلام، لأنَّ البشرَ جميعاً لا يستطيعونَ إِحياءَ ميت.

فخروجُ الميتِ من قبرِه حياً بدعاءِ عيسى عليه السلام دَلِيلٌ على أنَّ اللهَ هو الذي أَحياه، وجعلَ حياتَه على يدِ عيسى عليه السلام، ليكونَ ذلك آيةً بينةً على أَنه رسولٌ من عند الله.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني عن آيةِ إِحياءِ عيسى للموتى أَنه فيه نوعٌ من التعاقبِ والمرحلية!

ففي سورةِ آل عمران قال لبني إسرائيل: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وفي سورةِ المائدة قال الله ممتناً عليه: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

فهو أَوَّلاً أحياهم بإذنِ الله، فدبَّتْ فيهم الحياةُ وصاروا أحياء، وهذا ما تكفلتْ بالإشارةِ له آيةُ سورة آل عمران.

وهو ثانياً أَخرجهم من قبورهم أَحياء، فبعدما دبَّتْ فيهم الحياة، دَعاهم إِلى الخروجِ من قبورهم، فخرجوا منها بإذنِ الله، وهذا ما تكفَّلَتْ بالإشارةِ له آيَةُ سورةِ المائدة.

فلا تكرارَ في إخبارِ القرآن عن الحالةِ الواحدة أكثرَ من مرة، وإِنما هو التنويعُ في العرض، وإِفادةُ جديدٍ في كلِّ مرة جديدة. وسبحانَ مَنْ أنزلَ القرآن!

إِنَّ ما أَخبرَ عنه القرآن من معجزةِ إِحياءِ عيسى للموتى كان مبهماً، ولم يَرِدْ في غيرِ هاتين الآيتين، ولم يَذكر اللّهُ لنا موتى معيَّنين

أَحياهم عيسى عليه السلام. وكذلكَ كان إِخبارُ القرآنِ عن الأكمهِ والأَبرص مبهماً.

وبما أنَّ السنةَ الصحيحةَ لم تُبين لنا أشخاصاً معينين، كان أَحدهم أكمَه أو أَبرص، فعالجه عيسى، أو كان ميتاً فأحياه، فإننا لا نخوضُ في تعيين وتحديدِ مَنْ عالَجهم أَو أحياهم، ولا نَذهبُ إِلى الأناجيل لنأخذَ منها أمثلةً على ذلك، لأنَّ النصارى حرفوا الإنجيل.

عيسى يخبرهم بما غاب عنه من أصناف الطعام:

آيةُ عيسى الرابعة: إِخبارُهم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم:

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ..﴾.

المعنى: أُخبرُكم بما تأكلون، مما لم أُشاهدْه ولم أُعاينْه، ولم أكنْ معكم وقتَ أكلِكم. وأُنبئكم أيضاً بما ترفعونَه وتخبئونه وتدَّخرونه في بيوتكم من أَصنافِ الطعام.

فإذا ما اجتمعَ مجموعةٌ على أَصنافِ طعام، وكان عيسى عليه السلام في مكانٍ آخرَ لم يشاهدهم، فإنه يخبرُ مَنْ معه بأَصنافِ الطعام التي على مائدةِ المجموعة، وكأنه جالسٌ معهم يرى ما أَمامهم!

وإِذا جاءه مجموعة، فإنه يُخبرُ كلَّ واحد منهم بما في بيته من أَصنافِ الطعام، بالتفصيل، كأَنْ يقولَ له: عندك من كذا وكذا كميةَ وعددَ كذا وكذا..

وإِخبارُه بهذيْن النوعيْن معجزةٌ من الله له، دالةٌ على نبوته، تُضافُ إِلى معجزاته الأخرى.

لأنَّ العلمَ بما يأكلون وما يَدَّخرون من بابِ العلم بالغيب، وهذه الأشياءُ من غيبِ الحاضر، الذي هو غائبٌ عن عينِ الشخص، مع أَنه موجودٌ في مكانٍ آخر.

وعلمُ عيسى بأصنافِ الطعام المأكولة والمدخرة مما لم يشاهده

دليلٌ على أنَّ اللّهَ هو الذي أَخبره بذلك وأعلمه به. فمن المعلومِ عندَنا أنَّ اللّهَ اختصَّ بعلم الغيب، وأنه يُعْلِمُ منه ما شاءَ من عبادِه.

وقد فَرَّقَ الإمامُ الطبريُّ بين إخبارِ عيسى عليه السلام الصادق بذلك، وكونِه معجزةً له، وبين إخبارِ المنجمين والكهان بذلك، وهو من بابِ التخمين.

«والفرقُ بين إخبارِ عيسى وإخبارِ المنجمين بذلك هو أنَّ الكهانَ والمنجمين يُخبرونَ بذلك بعدَ الأخذِ بالأسباب، والتعلم والإتقانِ والمهارةِ والممارسة.. أما عيسى عليه السلام فكان يخبرُ بذلك بدون أخذِ بالأسباب، وبدونِ مهارةٍ وجهد وتعلم، وإنما بإعلامِ اللّهِ له مباشرة.

وهذا هو الفرقُ بين علمِ الأنبياء بالغيوب بتعليمِ اللّهِ لهم مباشرة، وإخبارهم أقوامَهم بها مباشرة، وبين زعْمِ الكهانِ والمنجمين معرفةَ الغيوب، واستعانتِهم بشياطينهم من الجن، وأَخْذِهم بالأسباب، وقيامِهم بالتحايل، وادِّعائِهم على الله كذباً وزوراً وبهتاناً»[1].

هذه الآياتُ الأربعُ وَجَّهها عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وجعَلَها دليلاً له على نبوته. ولذلك قالَ لهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

حكمة تكرار «آية» في معجزات عيسى:

ونلاحظُ أنَّ القرآنَ حرصَ على بيانِ أنَّ ما قَدَّمه عيسى عليه السلام من الآياتِ لهم هو آيةٌ من الله سبحانه، ولذلك تكررتْ كلمةُ «آية» في النصِّ القرآني الذي أَخبرَ عن تلك الآيات. قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٦.

ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٩ ـ ٥١].

تكررتْ كلمةُ «آية» ثلاثَ مرات: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في البداية. و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في الوسط. و﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في النهاية..

وهذا التركيزُ القرآنيُّ على آياتِ عيسى عليه السلام، دليلٌ على أهميةِ الآياتِ للأنبياء، ودليلٌ على أنَّ عيسى عليه السلام عبدُ الله ورسولُه، كان يتلقّى الآياتِ من الله، ويقدِّمُها لبني إسرائيل..

وبعدما قدَّمَ عيسى عليه السلام آياتِه لبني إسرائيل أَخبرهم أنَّ رسالتَه استمرارٌ لرسالةِ سلفهِ موسى عليه السلام في أَساسِها وروحِها، ولهذا هو مصدقٌ للتوراة: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..﴾.

وقد تكلمنا عن هذا المعنى في المبحثِ السابق، فلا نُعيدُه.

وكانَ عيسى عليه السلام حَريصاً على التأكيدِ على الفصْلِ بين الألوهيةِ والعبودية، وعلى أنه عبدُ اللّهِ ورسوله، وأنَّ اللّهَ ربُّه وربُّ العالمين. وكان يخبرُ بني إسرائيل المدعوّين بذلك. ولهذا ختمَ بيانَه الدعويَّ إلى بني إسرائيل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الطبري: «وهذا إِبطالٌ لما ادَّعَته النصارى من تأليهِ عيسى عليه السلام، حيثُ أَخبرهم أنَّ اللّهَ هو ربُّه وربُّهم، وأنَّ اللهَ أرسله برسالتِه، وأَنهم مطالَبون بعبادةِ الله وطاعته، وأنَّ هذا هو الطريقُ المستقيم..

قالَ محمدُ بن جعفر بن الزبير: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ تبرّياً من الذي يقولُه النصارى، واحتجاجاً من اللّهِ عليهم: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾..»[1].

[١٢]
عيسى والحواريون والمائدة

تحدَّثْنا فيما مضى عن بعثةِ عيسى عليه السلام نبياً رسولاً إِلى بني إسرائيل، ثم تحدَّثْنا عن المعجزاتِ الأَربعِ التي آتاهُ اللّهُ إِياها، وجعَلَها دليلاً له على نبوته: خلقِ الطيرِ من الطِّين، وإبراءِ الأكمهِ والأبرص، وإحياءِ الموتى، وإِخبارِهم بما غابَ عنه من أَصنافَ طعامِهم ومدَّخراتهم...

ماذا كان موقفُ بني إِسرائيل من دعوةِ ورسالةِ عيسى عليه السلام؟

كَفروا به وكَذَّبوه، واتهموه بأنه ساحرٌ كذاب، وأنَّ ما معه سحرٌ مبين.

ولم يؤمنْ به إلاّ عددٌ من الصالحين منهم، أطلقَ القرآنُ عليهم وصفَ «الحواريّين..».

معنى الحواريين وسبب تسميتهم بذلك:

«الحواريّون» وردَتْ في القرآنِ خمسَ مرات، وكلُّها وصفٌ لأَتْباع عيسى عليه السلام المؤمنين، وكلُّها واردةٌ بصيغةِ الجمع.

ومُفرد «حواريّين» حَوارِيّ، وهو مشتقٌّ من الفعل: «حَوَر».

وردَ في المعجمِ الوسيط عن هذا الفعل: «حارَ، يَحور، حَوْراً: رَجَع.

وحارت العين، تَحار، حَوَراً: اشتدَّ بياضُها واشتدَّ سوادُها. واستدارَتْ حدقَتُها، ورقَّتْ جفونُها، وابيضَّ ما حولَها.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٨.

و: حَوَّرَ الدقيقَ أو الثوب: بيَّضه. و: حَوَّرَ الجلد: صبَغَه.

و: الحَوارِيّ: مبيِّضُ الثياب. و: الذي أَخلصَ واخْتير ونُقِّيَ من كلِّ عيب. و: الصاحب. و: الناصر.

وجمعه: حواريّون. وهم أَنصارُ عيسى عليه السلام..[1].

وذكرَ الإمامُ الراغبُ بعضَ الأقوال في سببِ تسمية أَنصارِ عيسى عليه السلام بالحواريين: «والحواريّون أَنصارُ عيسى عليه السلام. قيل: كانوا قصّارين. وقيل: كانوا صَيّادين.

وقالَ بَعْضُ أَهْلِ العلم: إنما سُمّوا حواريّين لأنهم كانوا يُطَهِّرون نفوسَ الناس، بإفادتِهم الدينَ والعلم، المشارَ إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال أَيضاً: وإِنما قيل: كانوا قصّارين، على التمثيلِ والتشبيه...

وقال: إِنما كانوا صيادين، لاصطيادِهم نفوسَ الناس من الحيرة، وقَوْدِهم إلى الحق..»[2].

ونلاحظُ أنَّ الإمامَ الراغبَ قد فسَّرَ معنى الحواريين تفسيراً إشارياً ذوقياً، يقومُ على التأويلِ الإشاري.

وأَوردَ الإمامُ الطبريُّ ثلاثةَ أقوالٍ في سببِ تسميتهم بالحواريين، ورجَّحَ الأولَ منها: «اختلفَ أهلُ التأويل في سببِ تسميتهم «الحواريين»:

١ ـ فقالَ بعضهم: سُمّوا بذلك لبياضِ ثيابهم.

٢ ـ وقالَ آخرون: كانوا قصّارين يبيِّضون الثياب.

---

(١) المعجم الوسيط: ٢٠٥ باختصار.

(٢) المفردات: ٢٦٣.

٣ ـ وقالَ آخرون: هم خاصةُ أَتباعِ الأنبياء وصفوتُهم.

والراجحُ هو القول الأول[(١)].

أمّا الإمامُ ابنُ كثير فقد رجَّحَ أَنهم سُمّوا حواريين لأنهم آمَنوا بعيسى عليه السلام وأيَّدوه ونَصرون.

قال: «الحواريّون: قيل: كانوا قصّارين، وقيل: سُمّوا بذلك لبياضِ ثيابهم، وقيل: صيادين.

والصحيحُ أنَّ الحواريَّ هو الناصر»[(٢)].

الراجح أن الحواريين هم الأصحاب والأنصار:

وما رجَّحهُ الإمامُ ابن كثير هو الراجح. لأنَّ «الحواريّين» مشتقةٌ من «حَوَر» وهذه المادةُ عربيةٌ أصيلة.

والحَوارِيّ هو: الصاحبُ والناصر، الذي ينصرُ النبيَّ ويؤيدُه ويَتبعُه. . .

ودليلُ ذلك ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: ندبَ النبيُّ ﷺ الناسَ يومَ الخندق، فانتدَبَ الزبيرُ، ثم ندب، فانتدَبَ الزبير، ثم ندبَ الناسَ، فانتدَبَ الزبير.

فقالَ ﷺ: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوارِيّاً، وإنَّ حوارِيِّيَ الزبيرُ بنُ العوام. .»[(٣)].

أرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يقومَ واحدٌ من أَصحابه لينظرَ ما يفعلُ المشركون يومَ الأحزاب، فندَبَهم وخيَّرهم، وكان الزبيرُ بنُ العوام هو الذي يقومُ في المرات الثلاث.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١:٣٤٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٤٧. ومسلم برقم: ٢٤١٥.

وهذه الحادثةُ مع الزبيرِ غيرُ الحادثةِ الأُخرى التي بعثَ فيها رسولُ الله ﷺ حذيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنهما ليدخلَ معسكرَ الأحزاب، فهما حادثتان منفصلتان.

وعلّقَ رسولُ الله ﷺ على قيامِ الزبير في المراتِ الثلاثة بأنَّ اللّهَ جعلَ لكلِّ نبيٍّ حوارياً يؤيِّدُه وينصرُه، وإنّ حوارِيَّه هو الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه.

أي أنَّ الزبيرَ هو ناصرُ رسول الله ﷺ من البشر، ومؤيِّده ومُتابِعُه.

وليسَ معنى هذا قصرَ النصرةِ على الزبيرِ وحْدَه، ونفيَها عمن سواه مِن المهاجرين والأنصار. وإنما معناه أنه كانَ أبرزَ حوارِيٍّ وناصرٍ لرسولِ الله ﷺ في تلك الحادثة.

وإلاّ فإنَّ الصحابةَ كانوا جميعاً حواريّين لرسول الله ﷺ، نَصروه واتَّبعوه وأَيّدوه. وكانوا أفضلَ من الحواريّين أتباعِ عيسى عليه السلام.

إنَّ هذا الحديثَ الصحيحَ يدل على أنَّ «الحواريّين» ليسوا خاصين بعيسى عليه السلام، وأنَّ لقبَ «الحواريّين» ليسَ مقصوراً عليهم.

إنَّ «الحواريين» هم أَتباعُ كلِّ نبي، وإنَّ هذا اللقبَ يُطلقُ على كلِّ مَنْ أيّدوا نبياً ونَصروه، فأَتباعُ موسى عليه السلام حواريّون، وأَتباعُ عيسى عليه السلام حواريّون، وأَتباعُ محمدٍ ﷺ حواريّون! وهكذا.

والحديثُ صريحٌ في هذا المعنى، وذلك في قوله: «إن لكل نبي حوارياً..».

وإذا كان أَتباعُ وأَنصارُ كلِّ نبيٍّ حواريّين له، فإنَّ هذا يدلُّنا على أنَّ سببَ تسميةِ أنصارِ عيسى عليه السلام حواريّون، ليسَ لأنهم كانوا قصّارين أو صيّادين، أو ذوي ملابسَ بيضاء، وإنما لأَنهم آمَنوا بعيسى عليه السلام وأيّدون ونَصروه.

عيسى يحس الكفر من بني إسرائيل فينتدب الحواريين لنصرته:

وقد دَعا عيسى عليه السلام أَتْباعَه الحواريّين إِلى نصرتِه لما رأى كُفْرَ معظمَ بني إِسرائيل به.

قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

«لما أحسَّ عيسى منهم الكفر»: لما وجَدَ عيسى من بني إسرائيل الكفر. فقد سَمِعوا دعوتَه، وشاهَدوا آياته، ومع ذلك أصرّوا على الكفرِ به وتكذيبه.

وفرْقٌ بين الفعليْن الماضييْن: الثلاثي: حَسَّ. والرباعي: أَحَسّ.

تقول: حَسَّ، يَحُسُّ: بمعنى: قَتَلَ. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ...﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي: تَقتلونهم وتستأصلونهم وتَقضون عليهم.

وتقول: أَحَسَّ، يُحِسُّ. بمعنى أدركَ الشيءَ بحاسَّته. قال تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ..﴾ [مريم: ٩٨] بمعنى: هل تجد منهم من أحد[١].

قالَ السمينُ الحلبي عن معنى «أَحَسّ»:

«وأَمّا أَحْسَسْتُه فحقيقته: أدركْتُه بحاسَّتي.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ..﴾ فتنبيهُ أَنه قد ظهرَ منهم الكفرُ ظهوراً بانَ للحِسّ، فضلاً عن الفهم..

وقالَ الهروي: «فلما أَحَسّ»: أي: علِمَ. وأصلُه في اللغة:

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٨ ـ ٢٧٩.

أبصر، ثم وُضعَ موضعَ العلمِ والوجود..»[1].

كان كفرُ بني إسرائيلَ بعيسى عليه السلام بارزاً واضحاً ظاهراً، ولذلك أَحسَّه عيسى عليه السلام بحاسَّته.

عند ذلكَ طلبَ الأنصارَ الذين ينصرونَه، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والأنصارُ جمعُ نصير، والنصيرُ هو الناصرُ والمعينُ والمساعد.

والمعنى: مَن أَنصاري وأَعواني، الذين يُعينونَني على هؤلاء الكفار، ويُساعدونَني في الدعوةِ إِلى الله، ويَسيرونَ معي في الطريقِ إلى الله؟.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إِلى أنَّ «إِلى» في قوله: ﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى «مَعَ الله». وممن ذهبَ إِلى ذلك الإمامُ الطبري[2].

ولَسْنا معهم في هذا الفهم، فنحنُ مِن أَنصارِ إِعمالِ كلِّ حرفٍ من حروفِ المعاني في القرآن، ولا نَرى تناوُبَ حرفٍ عن حرف.

و«إِلى» في الآيةِ مُرادة، وهي على ظاهِرِها، لأنَّ عيسى عليه السلام أرادَ أَنصاراً مُعاونين يساعدونَه في الدعوة «إلى الله»، ويَسيرونَ معه في الطريقِ «إلى الله». ولهذا قال متسائلاً: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الحواريون يلبون دعوته وينصرونه:

وقد لَبّى أَتباعُه الحواريون دعوتَه، وأَجابوه قائلين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

ويلاحَظُ أنَّ الحواريين الصالحين لم يقولوا: نحنُ أَنصارك إِلى الله، وإنما أَضافوا أَنفسهم إِلى الله مباشرة، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) عمدة الحفاظ ١: ٤٧١.

(٢) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٩.

وهذه الإضافةُ للتكريم والتشريف، فقد نالوا الشرفَ والكرامةَ والمنزلةَ العاليةَ بإضافتهم إلى الله.

ومعنى كونهم أنصاراً لله أنهم أنصارٌ لرسوله عيسى عليه السلام، وأنصارٌ لدينه الذي أنزلَه عليه، وأنصارٌ لدعوته التي حملوها وبلَّغوها.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ..﴾ [الصف: ١٤].

إنَّ اللّهَ يدعو المؤمنين من أمةِ محمدٍ ﷺ إلى الاقتداءِ بالحواريين في موقفِهم الإيمانيِّ العظيم، ويطالبهم أنْ يكونوا أنصاراً له، ينصرونَ دينَه، ويعاونونَ رسولَه، وأنْ يَفعلوا كما فعلَ الحواريّون مع عيسى عليه السلام.

وأعادَتْ آيةُ سورةِ الصف السؤالَ والجوابَ الواردَ في سورة آل عمران: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ..﴾.

وتابعَ الحواريون تصريحَهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ حيثُ جَهروا بإيمانِهم بالله، وطلَبوا من نبيِّهم عيسى عليه السلام أنْ يشهدَ لهم أمامَ الله بأنهم مؤمنون مسلمون أنصارٌ لله.

وطَلبوا منه أنْ يشهدَ لأنهم يعلمونَ أنَّ شهادتَه لهم عظيمةٌ عند الله، ثقيلةٌ في ميزان الله، لأنه رسولُ الله، الشاهدُ الشهيدُ عليهم.

دلالة تصريحهم بأنهم مسلمون:

وتصريحُهم بأنهم مسلمون: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لأنهم آمَنوا بعيسى عليه السلام، ودَخلوا في دينه، وبذلك يكونون قد استسلموا وأسلموا وخَضعوا لله سبحانه، لأنَّ الإسلامَ ـ في معناه العام ـ هو الخضوعُ المطلقُ لله.

واعتبارُهم مسلمين دليلٌ على أنَّ كلَّ نبيٍّ جاءَ بالإسلام، وأنَّ دينَ كلِّ نبيٍّ هو الإسلام، وأنَّ أتباعَ كلِّ نبيٍّ مسلمون، الإسلامُ بمعناه التاريخي العام، وليس بمعناه الخاصِّ المحدد، الذي هو دينُ محمدٍ ﷺ!

وهذه الآيةُ صريحةٌ بأنَّ عيسى عليه السلام جاءَ بالإسلام، وأنَّ دينَه هو الإسلام، وأنَّ أتباعه هم المسلمون، فها هم الحواريون يصرِّحون قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

وقد وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الإمامِ الطبري: «وقولُهم: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ «الإسلامَ» هو دينُ الله، الذي بَعَثَ به عيسى والأنبياءَ من قبله، وأنَّ دينَ عيسى هو الإسلام وليس اليهوديةَ أو النصرانية. وهذه تبرئةٌ لعيسى عليه السلام من النصرانية، كما بُرِّئَ إبراهيمُ عليه السلام قبلَه من اليهودية وأيِّ دينٍ غيرِ الإسلام..»[1].

دلالة شهادة الحق من الحواريين الشاهدين:

وبعدما أَعلنَ الحواريون الصالحونَ أنهم أَنصارُ اللّهِ مع عيسى عليه السلام، وطَلبوا منه أنْ يشهدَ لهم عند الله، توجَّهوا إلى الله، يَدْعونه ويتضرَّعون إليه، ويُعلنونَ البيعةَ الإيمانية معه. قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾.

لقد سبقَ أنْ أعلنوا إيمانَهم بالله واتِّباعَهم عيسى عليه السلام عندما أَجابوه قائلين: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، فلما عادوا يقولون مخاطِبين لله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾.

لسيد قطب تعقيبٌ لطيفٌ على ذلك: «وفي هذا التوجُّهِ لعقْدِ البيعةِ مع الله مباشرة لفتةٌ ذاتُ قيمة...

إنَّ عَهْدَ المؤمن هو ابتداءً مع ربه، ومتى قامَ الرسولُ بإبلاغه فقد انتهتْ مهمةُ الرسول من ناحيةِ الاعتقاد، وانعقدت البيعةُ مع الله، فهي

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٨٠.

باقيةٌ في عنقِ المؤمن بعدَ الرسول... وفيه كذلك تعهُّدٌ لله باتباعِ الرسول، فليس الأَمْرُ أَمْرَ عقيدةٍ في الضمير، ولكنه اتِّباعٌ لمنهج، والاقتداءُ به في الرسول...

ثم عبارةٌ أُخرى تُلفتُ النظرَ في قول الحواريون: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فأيُّ شهادة؟ وأيُّ شاهدين؟

إنَّ المسلمَ المؤمنَ بدينِ الله مطلوبٌ منه أَنْ يؤديَ شهادةً لهذا الدين بشهادةٍ تؤيِّدُ حقَّ هذا الدين في البقاء، وتؤيِّدُ الخيرَ الذي يحملُه هذا الدينُ للبشر.. وهو لا يؤدي هذه الشهادةَ حتى يجعلَ من نفسِه ومن خُلُقِه ومن سلوكه ومن حياته صورةً حيةً لهذا الدين. صورةً يراها الناسُ فيرون فيها مثلاً رفيعاً، يشهدُ لهذا الدين بالأحقيةِ في الوجود، وبالخيريةِ والأفضليةِ على سائرِ ما في الأرض من أنظمةٍ وأوضاع وتشكيلات...

... فهؤلاء الحواريون يَدْعون اللّهَ أنْ يكتبَهم مع الشاهدين لدينه. أيْ أنْ يوفِّقَهم ويُعينَهم في أنْ يَجعلوا من أنفسِهم صورةً حيةً لهذا الدين، وأنْ يبعثَهم للجهادِ في سبيلِ تحقيقِ منهجه في الحياة، وإِقامةِ مجتمع يتمثلُ فيه هذا المنهج، ولو أدوا ثمنَ ذلك حياتَهم، ليكونوا من «الشهداء» على حقِّ هذا الدين..

وهو دُعاءٌ جديرٌ بأنْ يتأمَّلَه كلُّ مَنْ يَدَّعي لنفسه الإسلام.. فهذا هو الإسلامُ، كما فهمه الحواريون، وكما هو في ضميرِ المسلمين الحقيقيين..»[1].

وقد امتنَّ اللّهُ على عيسى عليه السلام لأَنه أَلهم الحواريين أنْ يَنحازوا إِليه، وأنْ يَنصروه ويساعدوه، وأنْ يواجِهوا قومَهم اليهودَ الكافرين.

---

(١) في ظلال القرآن ١:٤٠٢.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

ومعنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: أَلهمْتُهم وأَلقيتُ إِليهم الإيمان، وقذَفْتُه في قلوبهم، ووجَّهْتُهم إِليه..

ولما طلبَ اللّهُ إِليهم الإيمانَ به وبرسولِه عيسى عليه السلام استجابوا لذلك، وأَعلنوه وجَهروا به، وقالوا: آمنّا بالله وبرسوله. وطلبوا من عيسى عليه السلام أَنْ يشهدَ بإسلامهم.

وتتكاملُ الآيتان، في سورةِ آل عمران وسورة المائدة على تقريرِ هذه الحقيقة.

أخبرتْ آيةُ سورةِ آل عمران عنها بقولها: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وأخبرتْ آيةُ سورةِ المائدة عنها بقولها: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

الحواريون يطلبون من عيسى المائدة:

وقد أخبرَ القرآنُ عن حادثةٍ طريفةٍ عجيبةٍ حدثتْ من الحواريين، وهي المائدةُ التي طَلَبوها من عيسى عليه السلام، ورَغِبوا إِليه في أن يسألَ ربَّه إِنزالَها!..

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

تتحدثُ هذه الآياتُ عن معجزةِ إِنزالِ المائدة من السماءِ على

الحواريين، وهذه القصةُ لم تَرِدْ في غيرِ هذه السورة، ومنها أَخَذت السورةُ اسْمَها «سورةَ المائدة»، ومعلومٌ أنَّ اسمَ السورةِ توقيفيٌّ بأمْرِ الله، وأنه يؤخذ من شيء مذكورٍ فيها.

ومعجزةُ إنزالِ المائدةِ من السماء لم تَرِدْ عندَ النصارى، وإنما تَفَرَّدَ القرآنُ بذكْرِ إنزالها.

قال الإمامُ ابن كثير في التفسير: «هذه قصةُ المائدة، وإليها تنسَبُ السورة، فيقالُ سورةُ المائدة، وهي مما امتنَّ اللّهُ به على عبدِه ورسولِه عيسى، لما أجابَ دعاءَه بنزولها، فأنزلَها اللّهَ آيةً باهرة، وحجةً قاطعة.

وقد ذكَرَ بعضُ الأئمة أنَّ قصَّتَها ليست مذكورةً في الإنجيل، ولا يعرفُها النصارى إلاّ من المسلمين. والله أعلم...»[1].

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾. يُذَكِّرُ اللّهُ رسولَه محمداً ﷺ بقولِ الحواريين لعيسى طالبين منه المائدة.

و«إذ»: في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ محذوف، تقديره: اذكُرْ قولَ الحواريين.

وهذا التذكيرُ للرسولِ ﷺ وللمسلمين من بعده، ليتذكَّروا هذه المعجزةَ الربانية، ويُفرقوا بين موقفِ الحواريين من عيسى بشأنها، وموقفِ الصحابةِ من رسولِ الله ﷺ بشأن المعجزات.

قالَ الحواريون: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: نادَوا عيسى عليه السلام باسمه، وليسَ بصفتِه. فلم يقولوا: يا رسولَ الله.

وهذا غيرُ لائق، فالأَوْلى أَنْ ينادوه بصفةِ النبوة، وشتَّانَ بين ندائِهم لعيسى ونداءِ الصحابة لرسولِ الله ﷺ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢:١٠٩ ـ ١١٠.

كانَ الصحابةُ ينادونَ رسولَ الله ﷺ بصفتِه، فيقولون: يا رسولَ الله، ولم يُعْهَدْ عنهم أنهم قالوا: يا محمدَ بن عبد الله ﷺ.

وقد أدَّبهم اللّهُ بهذا الأدبِ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

أي: لا تَدْعوه وتُنادوه كما يدعو بعضُكم بعضاً. فلا تقولوا: يا محمد. ولكن قولوا: يا رسولَ الله.

فرغمَ أنَّ الحواريين كانوا مؤمنين، إلاّ أنَّ نداءَهم لعيسى بقولهم: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ لا يتفقُ مع الذوقِ والأدبِ واللطفِ في خطابهم لهم.

هذه واحدة.

قول الحواريين «هل يستطيع ربك أن ينزل مائدة»؟:

أمّا الثانيةُ فهي أفظع، وهي في قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وفي ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ الكسائي: «هل تَستطيعُ رَبَّكَ» بالتاءِ في الفعل، ونصْبِ «ربَّك» على أنها مفعولٌ به.

والمعنى: هل تستطيعُ أنتَ أنْ تسألَ ربَّك وأنْ تطلبَ منه إنزالَ المائدة؟

وعلى هذه القراءة لم يكن الحواريون شاكّين في قدرةِ الله على إنزالها.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: كان الحواريّون لا يشكّون أنَّ اللّهَ قادرٌ على أنْ يُنزلَ عليهم المائدة. وإنما قالوا: يا عيسى هل تستطيعُ سؤالَ ربِّك إنزالَها.

الثانية: قراءةُ الستة الباقين: «هل يَستطيعُ ربُّك..». بالياءِ في الفعل، ورفعِ «ربُّك» على أنه فاعل.

والمرادُ بالاستطاعةِ على هذه القراءة الاستجابةَ. بمعنى: هل يستجيبُ ربُّكَ لك إنْ سألْتَه، وينزلُ علينا المائدة.

وهذا كقولِ القائل: هل تستطيعُ أنْ تنهضَ معنا؟ وهو يعلمُ أَنه يستطيع، لكنه بمعنى: هل تستجيبُ لنا وتنهضُ معنا؟

طلبَ الحواريون من عيسى عليه السلام أنْ ينزلَ اللّهُ عليهم «مائدةً» من السماء.

والمائدةُ على وزنِ «فاعلة»، فعلها: مادَ.

تقول: مادَ، يَميدُ، مَيْداً: إِذا تحرَّك. و: مادَت الأرض: تحركَتْ واضطربت.

فالمائدةُ هي: الخِوانُ ـ الطاولة ـ الذي عليه الطعام والشراب[1] فإن لم يكن على الخِوانِ طعامٌ وشراب لا تُسمّى مائدة.

وهذا مثلُ: الكأس، لا تُسمّى كأساً إلاّ إذا كان فيها خمر. وإِلاّ فهي قَدَح.

وكذلك الذَّنوبُ هو الدَّلْوُ الذي فيه ماء. وإلاّ فهو دلو.

والجِرابُ هو الجلدُ المدبوغ، فإنْ لم يكن مدبوغاً فهو إِهاب.

والقَلَمُ هو المبريُّ الجاهزُ للكتابة، وإلاّ فهو أُنبوب[2].

هل كانوا شاكين في قدرة الله على إنزالها؟:

وقد اختلفَ العلماءُ في الحواريّين: هل كانوا شاكّين في قدرةِ اللّهِ على إنزالِ المائدة، عندما قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا . .﴾ أم كانوا مؤمنين بقدرتِه على ذلك.

فذهبَ بعضُهم إلى أَنّهم كانوا مؤمنين وليسوا شاكّين، وحَملوا

(١) المعجم الوسيط: ٨٩٣.

(٢) الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي ٤:٦١ حاشية.

كلامَهم السابقَ على معنى: هل تستطيعُ أنتَ سؤالَ ربِّك. أو معنى: هل يستجيبُ ربُّك إنْ سألْتَه.

وذهبَ آخَرونَ إلى أنهم كانوا شاكّين. وممن ذهبَ إلى ذلك الإمامُ الطبري، حيث رأى أنهم خالَطَ قلوبَهم مرضٌ وشك، فسألوا عيسى ذلك اختباراً.

ودليلُه على ذلك الآيةُ السابقة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا...﴾.

فقد سألوا هم عيسى عليه السلام ذلك السؤالَ أوّلاً، وكَرِهَ اللّهُ سؤالَهم واستعظَمه، وأمَرَهم بالتوبةِ وتجديدِ الإيمان، بسببِ سؤالهم السابق، وطالَبهم بالإقرارِ بقدرتِه المطلقة على كلِّ شيء، وتصديقِ عيسى في كلِّ ما أخبرهم به.

كما استعظَمَ عيسى نفسَه عليه السلام سؤالَهم، وذلك عندما ردَّ عليهم قائلاً: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وهذا هو الراجح، وسياقُ الآياتِ يدلُّ عليه. فقد كانوا مؤمنين بالله، ومصدِّقين لعيسى عليه السلام، لكنَّ إيمانَهم بالله لم يكن تاماً، وإنما فيه بعضُ الضعف، رغمَ ما شاهَدوا من معجزاتِ وآياتِ عيسى عليه السلام، الدالةِ على قدرةِ اللّهِ المطلقة.

شاهَدوا سابقاً إبراءَ عيسى للأكمهِ والأبرص، وشاهَدوا نفخَهُ في تمثالِ الطيرِ وتحوُّلَه إلى طيرٍ حي، وشاهَدوا إحياءَ عيسى للموتى، وكانوا يوقنون أنه يتمُّ بإذنِ الله وقدرته، ويؤمنون بقدرةِ الله.

ولما شاهَدوا تلك الآياتِ تطلعَتْ نفوسُهم إلى ما هو أعلى، فأرادوا آيةً يَستفيدونَ هم منها، فائدةً إيمانيةً ودنيوية، أرادوا مائدةً يأكلون منها.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٣٥٧ ـ ٣٥٨.

فكأنّهم قالوا لعيسى عليه السلام: عَرَفْنا من الآياتِ السابقة التي شاهَدْناها على يديْك أنَّ اللّهَ قد استطاعَ إِجراءَها، وقدرَ على إِيجادِها، وأيقنّا أنّه قادرٌ على ذلك، فهلْ يستطيعُ ربُّك ـ الذي استطاعَ إِنزالَ الآياتِ عليك ـ أنْ ينزلَ علينا مائدةً من السماء؟

كانوا شاكين في «تمام قدرة الله» فكره عيسى سؤالهم:

إنَّ سؤالَهم لا يَعني أنهم شاكون في قدرةِ اللّهِ أساساً، فهم يؤمنون بذلك من خلالِ الآياتِ السابقة، ولكنهم كانوا شاكّين في «تمامِ» قدرةِ الله، وفي تحقيقِ ما يَطلبون هم منه سبحانه.

كأنّهم قالوا: آمنّا أن اللّهَ قادرٌ على إِحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرص، فهل هو قادرٌ على إِنزالِ المائدةِ علينا، وهل يستطيعُ فعلَ ذلك؟

ومع ذلك دلَّ سؤالُهم على ضعفِ إِيمانهم بقدرةِ الله المطلقة، وكَرِهَ عيسى عليه السلام سؤالَهم، فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ومعنى كلامه: راقِبوا اللّهَ وخافوه، واحْذروا أنْ يُنزلَ بكم عقوبةً على قولِكم هذا، فإن اللّهَ لا يُعجزه فعلُ شيءٍ أَراده. وشكُّكُم في قدرةِ الله على إنزالِ المائدة من السماءِ كفرٌ بالله، فتخلّوا عن ذلك، واتقوا اللّهَ إن كنتم مؤمنين به، ومصدّقين لي[1].

ولما رأى الحواريونَ كراهيةَ عيسى عليه السلام سؤالَهم وتهديدَه لهم، عَلّلوا له طلبَهم الغريب، وذكَروا له هدفَهم منه. قال تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٣٥٩.

هدف الحواريين من طلب إنزال المائدة:

إنَّ هدفَهم من إنزالِ المائدة يتمثلُ في أَربعِ نقاط:

الأولى: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾. وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ كانوا جائعين، وليس عندهم طعام، وشاهَدوا آياتِ الله السابقة، فأَرادوا أنْ يُكرمَهم ربُّهم بإنزالِ مائدة ليأكلوا..

الثانية: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا..﴾: نريدُ أنْ تطمئنَّ قلوبُنا بعد أَنْ نأكلَ من المائدة، ونزدادَ يقيناً وطمأنينةً بأنَّ اللّهَ معنا، يكرمُنا وينعمُ علينا.

ومعلومٌ أنَّ المؤمنَ بالله، تزدادُ طمأنينةُ قلبِه عندما يرى آيةً مادية من الله، ويشاهدُ معجزةً باهرة منه أمامه.

ويذكِّرُنا هذا بجوابِ إبراهيمَ الخليل عليه السلام، يعللُ فيه هدفَه من طلبه أنْ يريه اللّهُ كيفيةَ إِحياء الموتى، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثالثة: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا..﴾: نزدادُ علماً بأنكَ قد صدَقْتنا في نبوتكِ وآياتِك ومعجزاتك. فمعجزاتُك السابقة موجهةٌ للآخرين، ونحنُ لم ننتفعْ منها منفعةً دنيوية، ونريدُ منك آيةً خاصةً لنا، تصدُّقُنا وتكرمُنا بها.

الرابعة: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: نريدُ أنْ نشهدَ على إِنزال المائدة، ونقدمُ شهادةً بذلك على أنَّ اللّهَ أيدكَ بهذه الآية، وجعلَها برهاناً ودليلاً على نبوتك، ونخبرُ الآخرين بذلك.

أَرادوا أنْ يكونوا شاهدين بإنزالِ المائدة آية، على نبوةِ عيسى عليه السلام، وعلى قدرةِ الله المطلقة على فعلِ ما يريد.

ومع ذكْرِهم أهدافَهم الأربعةَ من طلبِهم إنزالَ المائدة، إلاّ أنَّ الطلبَ يدلُّ على شكِّهم في قدرةِ الله المطلقة، مما دعا عيسى عليه السلام إِلى الإِنكارِ عليهم، وهذا مأخذ يؤخذ عليهم.

مقارنة بين موقف الحواريين وموقف الصحابة:

وشتّان بين موقفِهم هذا، وموقفِ الصحابةِ الكرام مع رسولِ الله ﷺ. وقد قارنَ سيد قطب بينهم وبين الصحابة، وخرجَ بفضْلِ الصحابة الكبير، وتفضيلِهم على جميعِ الأنبياء السابقين:

«وَيكشفُ لنا هذا الحوارُ عن طبيعةِ قوم عيسى.. المستخْلَصين منهم وهم الحواريون.. فإذا بينَهم وبينَ أصحابِ رسولنا ﷺ فرقٌ بعيد.

إنهم الحواريون الذين أَلهمهم اللّهُ الإيمانَ به وبرسولِه عيسى. فآمَنوا، وأَشْهَدوا عيسى على إسلامِهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزاتِ عيسى ما رأوا، يطلبون خارقةً جديدة، تطمئنُ بها نفوسُهم، ويعلمونَ منها أنه صدقَهم، ويَشهدون بها له لمن وراءَهم.

فأمّا أَصحابُ محمدٍ ﷺ، فلم يطلبوا منه خارقةً واحدةً بعد إسلامِهم.. لقد آمنتْ قلوبُهم واطمأنتْ منذُ أن خالطَتْها بشاشةُ الإيمان. ولقد صَدَّقوا رسولَهم، فلم يعودوا يطلبون على صدقِه بعد ذلك البرهان، ولقد شهدوا له بلا معجزةٍ إلاّ هذا القرآن.

هذا هو الفارقُ الكبيرُ بين حواريي عيسى عليه السلام وحواريي محمد ﷺ، ذلك مستوى، وهذا مستوى... وهؤلاء مسلمون، وهؤلاء مسلمون، وهؤلاء مقبولون عند الله، وهؤلاء مقبولون.. ولكن تبقى المستوياتُ متباعدةً كما أَرادَها الله...»[1].

عيسى يطلب من الله المائدة:

وبعدما عرفَ عيسى عليه السلام أَنهم مؤمنون، وعرفَ أَهدافَهم من طلبِ المائدة، اطمأنَّ إلى إيمانهم، واستجابَ لطلبهم، فدعا اللّهَ ربَّه أنْ ينزلَ عليهم المائدةَ من السماء.

---

(١) في ظلال القرآن ٢:٩٩٨.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

حَدَّدَ عيسى عليه السلام دعاءَه، فقد طلبَ من اللهِ أنْ ينزلَ عليهم مائدةً من السماء. وجمعَ في دعائِه بين الألوهية والربوبية، من بابِ التضرعِ في الدعاء: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾.

أرادَ عيسى عليه السلام أنْ يكونَ نزولُ المائدة عيداً: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا..﴾.

والمعنى: نريدُ أنْ نجعلَ من يومِ نزولِ المائدة عيداً، نعبدُ اللّهَ فيه، كما يعبدُ الناسُ ربَّهم في أعيادهم، وهذا العيدُ يكون عيداً للأحياء منّا وقتَ نزولها، ولمن يجيءُ بعدنا.

قال السدي: معناه: نتخذُ اليومَ الذي نزلَتْ فيه عيداً، نعظِّمُه نحنُ ومَنْ بعدنا..

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾: معطوفةٌ على خبر «تكون» وهو: «عيداً».

والمعنى: نريدُ أنْ يكونَ إنزالُ المائدة آيةً منك، ودليلاً على إكرامِك لعبادك، وبرهاناً على تصديقِك لنبيك.

﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: أَعطِنا يا ربَّنا مِن عطائك، فإنك خيرُ مَنْ يُعطي ويمنحُ ويرزق، لأنه لا يدخلُ عطاءَك مَنٌّ ولا نكد![(١)].

الله يعد بإنزالها ويهدد من يكفر:

وردَّ الله على طلب الحواريين بقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ومعنى الآية: إني سأنزلُ المائدةَ عليكم، بناءً على طلبكم، وسأُطعمكم إياها، وعليكم أنْ تُقابلوا هذا بذكْري وشكْري والثناءِ علي،

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣: ٣٦٠.

وزيادةِ إيمانِكم بي. فإذا لم تفعلوا هذا، وقابلْتُم ذلك بالكفر، فإني سأعذبُ الكافرَ منكم عذاباً شديداً مؤلماً، لا أعذبُه أحداً من عالمي زمانه.

وهذا تهديدٌ شديدٌ من الله لمن سيكفرُ من الحواريين ومشاهِدي المائدة بعد إنزالِها عليهم، وهو تهديدٌ يتناسَبُ مع جلال الموقفِ وعظمةِ المعجزة، فشيءٌ عظيمٌ أنْ يَرى أُناسٌ جالسون ومائدةَ طعام نازلةً عليهم من السماء، وأنْ يتابعوا نزولَها التدريجيَّ إليهم حتى تكونَ بين أيديهم، وبعدَ ذلك يمدّون أيديهم إليها ويأكلونَ منها طعاماً لذيذاً شهياً!!

إنَّ هذا شيءٌ عظيم، يجبُ أنْ يُقابَلَ بالإيمانِ والشكرِ والثناءِ على الله.

أمّا أنْ يكفرَ أشخاصٌ بعد هذا كلِّه بالله، ويَكْذِبوا رسولِه عيسى عليه السلام، فإنَّ هذا مفارقةٌ بعيدة، تدلُّ على أنَّ طلبَ هذه المعجزةِ الخارقةِ كان لهواً وتسليةً وهزلاً. ولا يجوزُ أنْ يُنظَرَ إلى المعجزاتِ هذه النظرةَ الباطلة، ولذلك سيعذِّبُ اللّهُ مَنْ يكفرُ بعدما يعاينُ هذِه المعجزةَ عذاباً شديداً، لا يعذبُه أحداً من العالمين، وذلك بسببِ عِظَمِ وقبحِ جريمته وكفره!.

الراجح أن الله أنزل المائدة على الحواريين:

وقد اختلفَ العلماءُ في نزولِ المائدةِ على الحواريين:

فذهبَ جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ اللّهَ أَنزلَها عليهم، بعدما دعا عيسى عليه السلام، فأكلوا منها، وحَقَّقوا مرادهم منها، وبعدَ ذلك رفعها الله.

وممن قالَ بأنها نَزلتْ: عمارُ بن ياسر، وعبدُ الله بن عباس وعكرمةُ وسعيدُ بن جبير وعطيةُ العوفي وأبو عبد الرحمن السلمي. وآخرون.

وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنها لم تَنزل.

قالَ مجاهد: هذا مَثَلٌ ضربَهُ الله، ولم يَنزلْ شيئاً من المائدة.

وقال الحسنُ البصري: لما قال الله لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خافوا وقالوا: لا حاجةَ لنا فيها. فلم يُنزلْها الله..

والراجحُ هو قولُ الجمهور، وهذا ما دلَّ عليه ظاهرُ القرآن، فقد طلبَ الحواريون إنزالَ المائدة، ودَعا عيسى عليه السلام ربَّه أنْ ينزلَ المائدة، واستجابَ اللّهُ له قائلاً: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

«ومنزل»: اسمُ فاعل، بمعنى المستقبل. أي: إني سأنزلُ المائدةَ عليكم.

وهذا وعْدٌ من اللّهِ بإنزالها، والوعْدُ من الله متحققُ الوقوع، واللّهُ لا يخلفُ الميعاد، ولا يَجوزُ أنْ يقولَ الله: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم يقولُ بعضهم: إن اللّهَ لم ينزلها!

وهذا كقولِه تعالى عن استخلاف آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ [البقرة: ٣٠].

فقد عبَّرَ عن ذلك باسم الفاعل «جاعل»، وهذا وعْدٌ منه سبحانه، وقد نَفَّذَ وعْدَه وجعلَ آدمَ خليفة.

واسمُ الفاعل «مُنَزِّلُها» كاسمِ الفاعل «جاعل»، وَعْدٌ نافِذٌ من الله، ولا خلفَ في وعدِ الله.

وقد رجَّحَ نزولَها أئمةُ المفسرين كابن جرير الطبري وابن كثير.

قالَ الإمامُ ابن كثير بعد استعراضِ أقوالِ الجمهور في نزول المائدة: «وكلُّ هذه الآثار دالةٌ على أنَّ المائدةَ نزلَتْ على بني إسرائيل أيامَ عيسى ابن مريم إجابةً من الله لدعوتِه، كما دلَّ على ذلك ظاهرُ هذا السياق من القرآنِ العظيم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ..﴾.

وبعدما ذكَرَ أَقوالَ التابعيَّيْن الجليلَيْن مجاهدٍ والحسنِ البصري في عدم نزولِها علَّقَ على ذلك بقوله: «وهذه أَسانيدُ صحيحةٌ إِلى مجاهد والحسن. وقد يتقوّى ذلك بأَنَّ خبرَ المائدة لا يعرفُه النصارى، وليسَ هو في كتابهم، ولو كانتْ قد نزلَتْ لكان ذلك مما تتوفَّرُ الدواعي على نقلِه، وكان موجوداً في كتابهم. . .

ولكنَّ الذي عليه الجمهور أَنها نزلَت، وهو الذي اختارَهُ ابنُ جرير. . . وهذا القولُ ـ والله أعلم ـ هو الصواب، كما دلَّتْ عليه الأَخبارُ والآثار. . .»[1].

وهكذا أَجرى اللّهُ هذه الآيةَ الباهرةَ والمعجزةَ الخارقة، فبينما كان الحواريّون جالسين مع عيسى عليه السلام، وبعدما دَعا عيسى ربَّه، أنزلَ اللّهُ عليهم المائدةَ من السماء، فرفعَ القومُ رؤوسَهم وإِذا بهذه المائدةُ تنزلُ من السماء، وعليها مختلفُ أَصنافِ الطعامِ الشهي، واستمرتْ في نزولِها المتدرج حتى استقرت أَمامَهم على الأرض، فمدّوا أَيديهم وأَكَلوا منها، وحَمدوا الله وشكَروه على هذه النعمةِ الغامرة.

تفصيلات إنزال المائدة وأصناف طعامها من المبهمات:

وكان إِنزالُ المائدة عليهم تصديقاً من اللّهِ لعيسى عليه السلام، وتكريماً من اللّهِ له وللحواريّين المؤمنين. وحَقّقوا مرادَهم منها، فأَكَلوا، واطمأَنّتْ قلوبُهم، وعلموا أن اللّهَ يُكرمُهم، وأنَّ عيسى قد صدَقَهم، وكانوا عليها من الشاهدين.

هذا هو حديثُ القرآنِ عن إِنزالِ المائدةِ على الحواريين، ولم يَرِدْ إلاّ في سورةِ المائدة في هذه الآياتِ الأربع.

وتكررَتْ كلمةُ «مائدة» فيها مرتان، فمن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ كلمةَ «مائدة» لم تُذكَرْ في القرآنِ إلاّ في سورة المائدة!!

---

(١) انظر كلام ابن كثير حول المائدة في تفسيره ٢: ١٠٩ ـ ١١٣.

وكلمة «مائدة» في الآياتِ نكرةٌ منوَّنة: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ..﴾.

وهذا التنكيرُ والتنوينُ يدلُّ على الإبهام، فهي مبهمةٌ في القرآن، وليس هناك أَحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ، تُضيفُ جديداً إِلى آياتِ القرآن.

ونحنُ نبقى مع القرآنِ في حديثِه المبهمِ المقصودِ عن المائدة، ولا نَذهبُ إِلى إِسرائيلياتِ ورواياتِ السابقين في تفصيلِ الحديثِ عنها، فإنها كلُّها مشكوكٌ فيها عندنا، وموقفُنا منها هو «التوقفُ» فيها!

وكم كانَ الإمامُ الطبري موفَّقاً عندما علَّقَ على أصنافِ المائدة بعدم الخوضِ فيها، وعدمِ محاولةِ تعيينِها.

وردَ في تهذيبنا لتفسير الطبري: «والراجحُ في هذا الأمرِ القولُ: كان على تلك المائدة مأكولٌ. وجائزٌ أَنْ يكونَ سمكاً وخبزاً، وجائزٌ أَنْ يكونَ ثمراً من ثمارِ الجنة. ولا ينفعُ العلمُ به، ولا يضرُّ الجهلُ به. المهمُ الإِقرارُ بأَنَّ اللّهَ أَنزلَ عليهم مائدة، اعتماداً على ظاهرِ التنزيل..»[1].

[١٣]

عيسى يبشر برسول الله عليهما السلام

الأنبياء يطلبون من أتباعهم الإيمان بمحمد ﷺ:

محمدٌ رسولُ الله ﷺ هو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين. وأخبرَ اللّهُ الأَنبياءَ والرسلَ بهذه الحقيقة، وأَخَذَ عليهم الميثاقَ والعهدَ أنْ يؤمنوا به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٣٦١.

﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

قالَ عليُّ بنُ أَبي طالب وعبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهم في معنى هذه الآية: ما بعثَ اللّهُ نبياً من الأنبياء إلاّ أخذَ عليه الميثاق: لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهو حيٌّ ليؤمِنَنَّ به ولينصُرَنَّه، وأَمَرَه أنْ يأخذَ الميثاقَ على أمتِه، لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهم أَحياء، ليؤمِنُنَّ به ولينصُرَنَّه. . .»[1].

وقد أكَّدَ رسولُ الله ﷺ الحقيقةَ التي قررَتْها هذه الآية، فبيَّنَ أنه لو كان أَحدُ الأنبياء السابقين حياً، وأدركَ بعثَته لوجبَ عليه أنْ يَتبعَه.

فروى أحمدُ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أَصابَه من بعضِ أهل الكتاب، فقرأَهُ النبيُّ ﷺ.

فغضبَ عليه الصلاةُ والسلام وقال: «أَمُتَهوِّكونَ فيها يا ابنَ الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكُم بها نقية. لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به، أو بباطلٍ فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حياً ما وَسِعَه إلاّ أنْ يَتْبَعَني. . .»[2].

والشاهدُ في الحديث قوله: لو أنَّ موسى عليه السلام حياً ما وَسِعَه إلاّ أنْ يَتْبَعَني.

وانطلاقاً من هذه الحقيقةِ فقد بَشَّرَ الأنبياءُ السابقون بمحمدٍ ﷺ، وكانت البشارةُ بشكلٍ أخصَّ على لسانِ موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، كما ذَكَرَ اللّهُ بعضَ صفاتِ النبيِّ الخاتم ﷺ في التوراة وفي الإنجيل.

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٥٧.

(٢) الحديث حسن. وذكر الشيخ الألباني شواهد أخرى للحديث يتقوى بها، ويكون حسناً. انظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» ٦: ٣٤ ـ ٣٨.

وهذا معناه أنَّ اليهودَ والنصارى كانوا يَعرفون مِن هذه البشارات أنَّ اللّهَ سيبعثُ النبيَّ الخاتم عليه الصلاة والسلام، ولكن لما بَعَثَ اللّهُ محمداً رسولاً ﷺ كَفَروا به وكذبوه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

الأنبياء أبناءُ عَلّات وليس بين عيسى ومحمد نبي:

لقد بَشَّرَ عيسى بالنبيِّ محمدٍ عليهما الصلاة والسلام، لأنَّ عيسى عليه السلام هو آخرُ أنبياءِ بني إسرائيل، ولم يكنْ هناك نبيٌّ بينَ عيسى وبين محمد عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا كان رسولُنا ﷺ هو أَوْلى الناسِ بعيسى ابنِ مريم عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَنا أَوْلى الناسِ بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة، والأَنبياءُ إِخوة، أَبْناءُ عَلّات، أُمهاتُهم شتّى ودينُهم واحد. وليس بيني وبين عيسى نبي...»(١).

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديثِ عن حقيقةِ وحدةِ الرسل، واتفاقِهم في أُصولِ الرسالات، وهي العقيدةُ والتوحيدُ والإيمانُ والعبودية لله، فكلهم جاءوا بهذا، والاختلافُ بينهم في الشرائعِ والأحكام.

وشبَّهَهُم في ذلك بأبناءِ العَلّات، وهم الإخوةُ لأب، بينما أُمهاتُهم شتى. فبما أنَّ الإخوةَ لأب اجتمعوا على الأب رغمَ اختلافِ أمهاتهم، فكذلك الأنبياءُ اجتمعوا على العقيدةِ والإيمانِ رغم اختلافِ أَحكامِهم وتشريعاتِهم..

---

(١) انظر البخاري برقم ٣٤٤٢ و٣٤٤٣. ومسلم برقم: ٢٣٦٥.

ويخبرُنا ﷺ في هذا الحديث أَيضاً أنه ليسَ بينه وبين عيسى عليه السلام نبي، وهذه معلومةٌ تاريخيةٌ مهمة، فبينهما قرابةُ ستةِ قرون لم يَبعث اللّهُ فيها نبياً، ولهذا كانت بعثةُ محمدٍ ﷺ على فَترةٍ من الرسل.. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة: ١٩].

وبما أنه ليس بينهما نبي، فهو أَولى الناسِ بعيسى ابنِ مريم، لأنَّ كُلاّ منهما نبيٌّ رسولٌ، عليهما الصلاة والسلام.

إنَّ الرسولَ ﷺ يخبرُنا أنه أَوْلى بالأَنبياءِ السابقين، ممن يزعمونَ أَنهم أَتباعهم، فهو أَوْلى بإبراهيم عليه السلام ممن يَزعمون أَنهم أَتباعُه من اليهودِ والنصارى والعرب المشركين، وهو أَوْلى بموسى عليه السلام من اليهود، وهو أَوْلى بعيسى عليه السلام من النصارى..

صفات محمد في التوراة والإنجيل:

بَشَّرَ موسى عليه السلام قومَه بمحمدٍ ﷺ، وبَشَّرَ عيسى عليه السلام قومَه بمحمد ﷺ، ولهذا جاءتْ صفاتُ رسولِنا ﷺ مكتوبةً في التوراة والإنجيل.

وردَ هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨].

يخبرُنا اللّهُ في هذه الآية أنَّ رسولَنا ﷺ هو النبيُّ الأمي، وأنَّ اللّهَ أخبرَ به اليهودَ والنصارى في التوراةِ والإنجيل، وأنهم قد قرءوا صفاتِه المكتوبةَ في التوراةِ والإنجيل، وهذه حقيقةٌ قاطعة، أنطقَ اللّهُ بها بعضَ اليهود والنصارى.

روى البخاريُّ عن عطاءِ بن يسار قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص، رضي اللّهُ عنهما، فقلت: أخبرْني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ في التوراة، فقال: «أجل. واللّهِ إنه لموصوفٌ في التوراةِ بصفتِه في القرآن: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناكَ شاهِداً ومبشِّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُك المتوكِّل، ليسَ بفَظٍّ، ولا غَليظ، ولا سَخّابٍ في الأسواق، ولا يَدفعُ السيئةَ بالسيئة، ولكن يعفو ويَصفح، ولن يَقبضَهُ اللّهُ حتى يُقيمَ به الملةَ العوجاء، بأنْ يَقولوا: لا إله إلا الله. ويَفتحَ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً.

قال: ثم سألتُ كعبَ الأحبار عن ما قالَ ابنُ عمرو فما زادَ عليه حرفاً..»[1].

يدلُّ هذا الحديثُ على أنَّ صفاتِ الرسولِ ﷺ الموجودةِ في القرآن هي نفسُ صفاتِه الموجودةِ في التوراة والإنجيل.

عيسى يبشر بمحمد عليهما الصلاة والسلام:

وصرحَ القرآنُ بأن عيسى عليه السلام قد بَشَّرَ بالنبيِّ الخاتم ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: ٦ ـ ٧].

يعلنُ عيسى عليه السلام لبني إسرائيل أنَّ اللّهَ بعثَه لهم رسولاً،

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢١٢٥.

وجعلَه مصدِّقاً لما سبَقه من التوراة، وأَمَرَهُ أنْ يبشِّرَ برسولِ الله محمد ﷺ، الذي سيبعثُه من بعده، وأنْ يأخذَ على النصارى العهد، أنْ يُؤمنوا به ويتَّبعوه.

ومع ذلك، فإنَّ النصارى الذين أَدركوا محمداً ﷺ قد نَقَضوا عهدَهم مع عيسى، وكَذَّبوا محمداً عليه الصلاة والسلام. ولما شاهَدوا ما معه من البينات قالوا إنها سحر: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

وبما أنَّ عيسى عليه السلام بَشَّرَ به، فقد أَخبرَ محمدٌ ﷺ أنه «بُشرى عيسى» عليه السلام.

روى أحمدُ وغيرُه عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عندَ الله في أُمِّ الكتابِ لخاتمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لمنجدلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويلِ ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى قومَه، ورؤيا أُمي التي رأتْ أنه خرجَ منها نورٌ أضاءَتْ له قصورُ الشام...»[1].

التوفيق بين اسميه «أحمد» و«محمد» عليه السلام:

والذي يُلفتُ النظرَ في التعبيرِ القرآنيِّ عن بشارةِ عيسى بمحمدٍ عليهما الصلاة والسلام أنه جاءَ فيه اسمُ «أحمد» مع أنَّ اسمَه هو «محمد» ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ..﴾.

ولا فرقَ بين الاسميْن «أحمد» و«محمد»، لاشتقاقِهما من مادةِ «الحمد». والاسمانِ معروفان للنبيِّ الخاتمِ ﷺ.

«أحمد»: أفعلُ تفضيلٍ من «حَمد». تقول: حَمِدَ، يَحْمَدُ، فهو حامِد. وهو أحمد: أكثرُ حَمْداً من غيره.

و«مُحَمَّد» على وزن «مُفَعَّل»: اسمُ مفعولٍ من الرباعي «حَمَّد» تقول: حَمَّدَ، يُحَمِّد، والمفعول منه: مُحَمَّد.

---

(١) أخرجه أحمد ٤: ١٢٧ ـ ١٢٨. وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي رقم: ١٢.

قالَ الإمامُ الراغب: «يقال: فُلانٌ محمود: إِذا حُمِد. و: مُحَمَّد: إِذا كثرتْ خصالُه المحمودة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: فأحمدُ إِشارةٌ إِلى النبيِّ ﷺ باسمِه وفعلِه، تنبيهاً أَنه كما وُجِدَ اسمُه أَحمد، يوجَدُ وهو محمودٌ في أَخلاقِه وأَفعالِه.

وخُصَّ لفظةُ أحمد فيما بَشَّرَ به عيسى ﷺ، تنبيهاً أَنه أحمدُ منه ومن الذين قبلَه، أي أكثرُ حَمْداً منهم لله.

وقولُه تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾: فمحمد هنا ـ وإِنْ كانَ مِنْ وَجْهِ اسماً له عَلَماً ـ ففيه إِشارةٌ إِلى وصْفِه بذلك، وتخصيصِه بمعناه...»[1].

إنَّ «أحمد» و«محمد» مشتقّان من «الحمد»، فهما من مادةٍ اشتقاقيةٍ واحدة، فلا تناقضَ بين الاسمَيْن الكريمَيْن.

ولعلَّ من حكمةِ التعبيرِ بأفعلِ التفضيل «أحمد» في بشارةِ عيسى عليه السلام، اعترافَ عيسى ابنِ مريم عليه الصلاة والسلام بفضْلِ محمدِ بن عبد الله ﷺ عليه وعلى كلِّ مَنْ سَبَقَه.

وكأنَّ عيسى عليه السلام يقول: النبيُّ الخاتمُ الذي يأتي من بعدي هو أكثرُ حمداً منّي لله، وأكثرُ حمداً مِن كلِّ مَنْ سبقني لله، فهو «أحمدُنا» لله، وأكثَرُنا له ذكْراً وشكْراً، وثناءً ومدحاً.

وفي هذا تواضعٌ من عيسى عليه السلام أَمامَ محمد ﷺ.

معاني أسماء النبي محمد ﷺ:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أَنَّ له أسماءَ عديدة:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جبيرِ بن مُطْعِم رضي اللّهُ عنه، أن

---

(١) المفردات: ٢٥٦.

رسولَ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو اللّهُ بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقب، الذي ليسَ بعدَه نبي..»[1].

وروى مسلمٌ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُسمي لنا نفسَه أسماء، قال: أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبيُّ التوبة ونبيُّ المرحمة»[2].

فسَّرَ رسولُ الله ﷺ أسماءَه الثلاثة، المضافة إلى محمد وأحمد.

فهو الماحي، الذي محا اللّهُ به الكفر، لأنَّ اللّهَ أبقى الإيمانَ والإسلامَ برسالتِه قوياً حتى قيامِ الباطل، وجعلَ الباطلَ والكفرَ زاهقاً ذليلاً.

وهو الحاشر، الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمِه يومَ القيامة، فاللّهُ يُشَفِّعُهُ فيهم، ولا يَبدأُ حسابُهم إلاّ بشفاعتِه، ولا يَدخلُ المؤمنون الجنةَ إلاّ بعده، فهو الذي يَطرقُ لهم بابَ الجنة، ويتقدمُهم في دخولِه.

وهو العاقب، الذي جاءَ عقبَ الأنبياءِ جميعاً، وبعثَه اللّهُ نبياً بعدَهم جميعاً، وختمَ اللّهُ به الأَنبياءَ فلا نبيَّ بعده.

والمقَفِّي بمعنى العاقب، فهو الذي قَفَّى اللّهُ به الأنبياء، وختمهم به.

وهو نبيُّ الرحمةِ والتوبة أي أَنه جاءَ بالتوبةِ والرحمة، وحثَّ الناسَ على التوبةِ والاستغفار، ودَعاهم إلى التراحمِ فيما بينهم.

إنَّ هذه الأسماءَ الخمسةَ للنبي ﷺ تدلُّ بصراحةٍ على أنَّ «أحمد» المذكورَ في الآية اسمٌ من أسمائه، فلا تعارضَ بين أحمد ومحمد ﷺ.

وبشارةُ عيسى بمحمد ﷺ لأَنه خاتمُ النبيين، الذي ختمَ اللهُ به هذا الموكبَ النبويَّ الكريم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٢. ومسلم برقم: ٢٣٥٤.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٥٥.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مَثلي ومَثَلَ الأنبياءِ من قبلي، كَمَثَلِ رجلٍ بنى بيتاً، فأَحسنَه وأَجملَه، إلاّ موضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فجعلَ الناسُ يطوفون به، ويَعجبونَ له، ويقولون: هَلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟

قال: فأنا اللَّبِنَة، وأَنا خاتمُ النبيين»[1].

بقيَ في موضوعِ بشارةِ عيسى بمحمدٍ عليهما الصلاة والسلام مسألة: وهي: هل هٰذه البشارةُ موجودةٌ في الأناجيل التي يتداولُها النصارى الآن؟ وهل المرادُ بها النبيُّ الخاتمُ أحمدُ ﷺ كما وردَ في صريحِ القرآن؟

«محمد في الكتاب المقدس» لعبد الأحد داود:

أُسجلُ هنا خلاصةً موجزةً جداً من الكتابِ الطيب «محمد في الكتاب المقدس» الذي أَلَّفه البرفسور «عبد الأحد داود». وكان «داود» قِسّيساً كبيراً للكلدانيين التابعين للرومِ الكاثوليك، وكان اسمه «دافيد بنجامين كلداني».

وقد درسَ الكتابَ المقدسَ بقسميه «العهدِ القديم» و«العهد الجديد» دراسَةً متأنية، واستخرجَ منها بشاراتِ أَنبياءِ بني إسرائيل بالنبيِّ الخاتم محمد ﷺ، وبشارةَ عيسى عليه السلام الصريحةَ به في الإنجيل. ووقفَ على تحريفِ النصارى لهذه البشارات.

ودَفَعَه ذلك البحثُ إلى الاقتناع بأنَّ محمداً ﷺ هو رسولُ الله وخاتمُ النبيين، فتخلّى عن النصرانية، ودخلَ في الإِسلام، وأَلَّفَ نتيجةَ بحثه في كتابٍ بالإنجليزية.

وقد تَرجَمَ الكتابَ إلى العربية فهمي شما، وطبَعَتْه رئاسةُ المحاكم الشرعية في قطر عام ١٩٨٥ ـ ١٤٠٥.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٥. ومسلم برقم: ٢٢٨٦.

قالَ البروفسور عبدُ الأحد داود: وردَتْ بشارةُ عيسى بأحمدَ عليهما السلام في إنجيل يوحنا في الإصحاحات الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر.

وسَجَّلَ تحريفاتِ رهبانِ النصارى لتلك البشارات.

ويهمُّنا هنا أنْ نقفَ مع جملةٍ واحدة، وردَتْ في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا، تتوافَقُ تلك الجملةُ الأصليةُ غيرُ المحرفة مع الآيةِ القرآنية تماماً: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.

العبارةُ الأصليةُ الصحيحةُ في إِنجيلِ يوحَنّا، كما وقفَ عليها البروفسور عبدُ الأحد داود هي: «وسوفَ أَذهبُ إِلى الآب. وسيرسِلُ لكم رسولاً، سيكون اسمُه «البرقليطوس» لكيْ يبقى معكم إلى الأَبد..».

و«البرقليطوس» هو أَحمد.

ولكنَّ النصارى حَرَّفوا هذه العبارةَ إِلى العبارة التالية: «وسوفَ أسألُ الآب، وسوفَ يعطيكُم برقليطوس آخر، يَبقى معكم إِلى الأَبد..».

وفرْقٌ بعيد ـ كما يقولُ داود ـ بين العبارةِ الأصلية «البرقليطوس» بالتعريفِ والتحديد، وبين «برقليطوس آخر» في العبارةِ المحرفة، الذي يدلُّ على أنَّ عيسى عليه السلام عنده مجموعةٌ من «البرقليطيسيين».

وكلمةُ «برقليطوس آخر» دلَّتْ على أنَّ المرادَ بها عند النصارى «المُعَزّي» أو «الوَسيط» أو «المُعين»، وليسَ الرسولَ الخاتم[1].

البرقليطوس هو أحمد:

إنّ «البرقليطوس» كلمةٌ يونانيةٌ إِغريقية. معناها بالعربية ـ بالضبط ـ

---

(١) انظر مبحث «البرقليطوس يعني أحمد» في كتاب «محمد في الكتاب المقدس»: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

«الأَمْجَد والأَشْهر» المشتقّ من التمجيدِ والثناء. وهو «أحمدُ» المذكور في القرآن.

والصيغةُ الآرامية ـ التي كان يتكلّمُ بها عيسى عليه السلام ـ الواردةُ في بشارةِ عيسى عليه السلام هي: «مَحَامْدَا» أو «حَمِدا»، وهي متناسقةٌ مع الصيغة العربية «محمد» أو «أحمد» تماماً[1].

وقد خرجَ البروفسورُ المهتدي عبدُ الأحد داود رحمهُ الله من بحثه بنتيجةٍ إيمانيةٍ قاطعة. قالَ فيها: «إنَّ التنزيلَ القرآنيَّ القائلَ بأنَّ عيسى ابنَ مريم أعلنَ لبني إسرائيل أَنه كان: ﴿ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ واحدٌ من أقوى البراهين على أن محمداً ﷺ كان حقيقةً نبياً، وأنَّ القرآنَ تنزيلٌ إلهي فعلاً.

إذْ لم يكن في وسْعِه أَبداً أَنَّ يعرفَ أَنَّ كلمةَ «البرقليطوس» كانت تعني «أحمد» إلاّ من خلالِ الوحي والتنزيل الإلهي.

وحجةُ القرآن قاطعةٌ ونهائية، لأنَّ الدلالةَ الحرفيةَ للاسمِ اليوناني تعادلُ بالدقة ودونَ شكٍّ كلمتي «أحمد، ومحمد».

ومن المدهشِ أنَّ هذا الاسمَ الفريد، الذي لم يُعْطَ لأحدٍ من قبل، كان «محجوزاً» بصورةٍ معجزةٍ لأشهرُ رسلِ الله، وأَجدرِهم بالثناء. ونحن لا نجدُ أَبداً أيَّ يوناني كان يحملُ اسمَ «برقليطوس»، ولا أيَّ عربي كان يحملُ اسمَ أحمد»[2].

تحريف «البرقليطوس» في الأناجيل إلى «برقليطوس آخر»:

وإذا كانَ «عبدُ الأحد داود» قد وَقَفَ على تحريفِ الأَناجيلِ لمعنى كلمة «البرقليطوس» إلى كلمةِ «برقليطوس آخر» ـ وفرقٌ بعيدٌ بين الكلمتين، فإنَّ ترجماتِ إنجيل يوحنا إلى العربية جعلت الكلمةَ بمعنى «المُعَزّي» وبمعنى المعين.

---

(١) المرجع السابق: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٣.

أَمامي ترجمتانِ للكتابِ المقدس، ولإنجيل يوحنا:

الأولى: ترجمةُ «دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط» والمطبوعةُ في القدس عام ١٩٨٤. وقد تَرجمتْ كلمةَ «برقليطوس» إلى «مُعَزّي».

والعبارةُ السابقةُ التي أَوردَها عبدُ الأحد داود من الإصحاح الرابع عشر من إنجيلِ يوحنا، نَصُّها في هذه الترجمة هكذا: «إِن كنتم تحبّوني فاحفظوا وصاياي، وأَنا أَطلبُ من الآب، فيعطيكُم مُعَزِّياً آخر، ليمكثَ معكم إِلى الأَبد..».

الثانية: الكتاب المقدس: كتاب الحياة: ترجمة تفسيرية. وقد طبع في مصر عام ١٩٨٨.

والعبارةُ السابقةُ في هذه الترجمةِ التفسيرية هكذا: «إِنْ كنتم تحبّوني فاعملوا بوصاياي، وسوفَ أطلبُ من الآبِ أنْ يُعطيكم مُعيناً آخر، يبقى معكم إلى الأبد..».

وهذا مثالٌ واضحٌ على التحريف المتعمد:

فبشارةُ عيسى عليه السلام بالنبيِّ الخاتم كانتْ باللغةِ الآرامية «مَحَامْدَا» أو «حَمِدا». وهي نفسُ كلمة «محمد» أو «أَحمد» بالعربية.

ولما كتبَ يوحنا إنجيلَه، كتبه باللغةِ اليونانية، فترجمَ كلمةَ «مَحَامْدَا» الآرامية إلى كلمة «البرقليطوس»، ومعناها: الأَشهر والأَمجد والأَكثر حمداً وثناءً. وهذا لا غبارَ عليه.

لكنَّ الرهبانَ الذين كتبوا إنجيلَ يوحنا بعد ذلك، حَرَّفوا كلمةَ «البرقليطوس» التي تَعني التحديدَ إِلى «برقليطوس آخر»، التي تعني التعدُّدَ والتعويم!

ولما تَرجموا هذه الكلمةَ إِلى العربية، حَوَّلوها من معناها الصحيح: الأَمجد والأَشهر والأَحمد إلى «المعزّي» و«المعاون».

وإنَّ العودةَ إلى الأصلِ الآرامي لإنجيل يوحنا، بل والترجمةِ اليونانية الأصلية لبشارةِ عيسى عليه السلام فيه، تُعطينا توافُقاً وتناسقاً وانسجاماً بين الكلمات الثلاث:

«مَحَامْدَا» الآرامية. و«البرقليطوس» اليونانية. و«أحمد» العربية القرآنية!

اعتراف علماء لاهوت بأن «البرقليطوس» هو أحمد:

بقيَ أنْ نقول: إنَّ المنصفين من علماءِ اللاهوتِ النصارى، يَعترفون بأن الكلمةَ اليونانيةَ الأصليةَ من إنجيل يوحنا، هي بمعنى الكلمةِ العربيةِ القرآنية «أحمد».

وقد روى الشيخُ عبد الوهاب النجار مؤلفُ كتاب قَصصِ الأنبياء حادثةً طريفةً جَرَتْ بينَه وبين المستشرقِ الطلياني الدكتور «كارلو نلينو» تؤكِّدُ هذه الحقيقة.

كان الشيخُ النجارُ طالباً في كلية دار العلوم عام ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م، وكان يدرسُ معهم المستشرقُ الدكتور كارلو نلينو، وكان هذا المستشرقُ الإيطالي حاصِلاً على الدكتوراه في «آدابِ اللغةِ اليونانية القديمة» التي كُتبتْ بها الأناجيل. وجاءَ إلى القاهرة ليتعلمَ اللغةَ العربية.

وقد انعقدتْ صداقةٌ بين عبد الوهاب النجار وكارلو نلينو.

وذاتَ يوم سألَ النجارُ المستشرقَ قائلاً: ما معنى «بيريكلتوس؟ ـ وهي «برقليطوس» التي مَرَّتْ مَعَنا من قبل ـ.

فأَجابَني بقوله: إنَّ القسسَ يقولون: إنَّ هذه الكلمةَ معناها «المُعَزّي»!

فقلت: إنّي أسألُ الدكتورَ «كارلو نلينو» الحاصلَ على الدكتوراه في آدابِ اللغة اليونانية القديمة، ولستُ أسألُ قسيساً!

فقال: إنّ معناها «الذي له حَمدٌ كثير»!!

فقلت: هل ذلك يوافقُ أَفعلَ التفضيل «أحمد»؟

قال: نعم.

قلت: إنَّ رسولَنا ﷺ من أسمائِه «أحمد»!

قال: يا أَخي أنتَ تحفظُ كثيراً...[1].

وهكذا توافقت الأَناجيلُ الأصليةُ على النصِّ على بشارةِ عيسى عليه السلام بمحمدٍ ﷺ، واعترفَ المنصفون من النصارى بهذه الحقيقة، رغمَ تحريفِ مترجمي ومؤلِّفي الأناجيل المتأخّرين لها.

[١٤]

«إني متوفيك ورافعك إليّ»

دعا عيسى عليه السلام اليهودَ إِلى الله، ولكنهم رفضوا دعوتَه وكفروا به. ولما ظهرَ كفرهم واضحاً دَعا الحواريين إِلى الانحياز إِليه، فلبّوا الدعوة. قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع من قبل.

الله يحمي عيسى من مكر اليهود:

ولم يكتفِ اليهودُ بالكفر به وتكذيبه واتهامِ أُمِّه بالباطل، بل ارتقوا إِلى مستوى أشنع وأفظع، حيث تآمَروا عليه ومكروا به وأرادوا قتْلَه، فحماه اللّهُ منهم.

وقد امتنَّ اللّهُ على عيسى عليه السلام في ذلك. قال تعالى:

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار: ٣٩٨ حاشية.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

تتحدثُ الآيةُ عن حمايةِ الله له بإجمال، فلما أرادَ اليهودُ إيذاءَه وقتْلَه، كفَّ اللّهُ أيديهم عنه.

وهذا الإجمالُ في سورة المائدة عليه إضافةٌ يسيرةٌ في سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥].

﴿وَمَكَرُوا۟﴾: اليهودُ الكافرون المجرمون مكَروا بعيسى عليه السلام مكراً خبيثاً، وتآمَروا عليه، وأرادوا قتْلَه.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: أَبطلَ اللّهُ مكرَ اليهود وخبثَهم، وأَفشلَ كيدهم، وحمى عيسى عليه السلام منهم.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: اللّهُ خيرُ مَنْ ينصرُ أولياءَه ضدَّ أَعدائه، وخيرُ مَنْ يُبطلُ كيدَ أَعدائِه، ويُحبطُ مؤامراتِهم.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى المكر: «المكر: صرفُ الغيرِ عما يقصدُه بحيلة.

وذلك ضربان:

مكرٌ محمود: وذلكَ أَنْ يتحرى بذلك فعلَ جميل. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومكرٌ مذموم: وهو أَنْ يتحرى به فعلَ قبيح. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقالَ في الأَمْرَيْن: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا...﴾ [النمل: ٥٠].

وقالَ بعضُهم: من مكْرِ اللّهِ إمهالُ العبد، وتمكينُه من أَعراضِ الدنيا..»[1].

المشاكلة في «ومكروا ومكر الله»:

أَسندت الآيةُ إِلى اليهود مكراً خبيثاً مذموماً ضدَّ عيسى عليه السلام، وهو تآمرهم عليه لقتله. وأَسندتْ إِلى الله مكراً طيباً محموداً، وهو إِبطالُ مكرهم السيء، وإِنجاءُ عيسى عليه السلام منهم. ووصفت اللّهَ بأنه خيرُ الماكرين.

وهذا الأسلوبُ يُسمى في البلاغة «مشاكلة».

والمشاكلة هي: ذكْرُ الشيء بلفظِ غيرِه، لوقوعِه في صحبته.

مكْرُ اليهود مكرٌ حقيقي قائمٌ على إيقاعِ الضرِّ بعيسى عليه السلام، ومكْرُ اللّهِ «مشاكلةٌ» لمكر اليهود، وافَقَهُ في اللفظ، لأنه وقعَ بجانبهِ في التعبير، لكنْ خالَفَه في الحقيقة، لأن اللّهَ أبطلَ مكرَهم بعيسى عليه السلام.

إذن: أَرادَ اليهودُ قتلَ عيسى عليه السلام، ورسموا لذلك خطةً دقيقة، ومَكَروا به مكراً شيطانياً خبيثاً.

وأرادَ اللّهُ حمايةَ عيسى منهم، ونجاتَه من كيدِهم، وإبطالَ مكرهم، فأنقذَه من بين أَيديهم بأنْ أَلقى شَبَهَهُ على غيره، فأَخذوا شَبَهَهُ وقتلوه، ظانّين أنهم قتلوا عيسى. وبهذا مَكَرَ اللّهُ بهم، وسَخَرَ منهم.

أخرجَ اللّهُ عيسى من وسطهم حياً، وحفِظَه بحفظه، وحماهُ بحمايته.

كيفَ أبطلَ اللّهُ مكرَ اليهودِ ضدَّ عيسى عليه السلام؟

أَبطلَ ذلك عندما توفّاه ورَفعه إِليه وطهَّرَه منهم. وتفصيلُ ذلك في

(١) المفردات: ٧٧٢.

الآية التالية: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

و«إِذْ» ظرفٌ لما مضى من الزمان. متعلقةٌ بالآية السابقة: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

والتقدير: ومكرَ اللّهُ باليهود حينَ قال لعيسى: إِني متوفّيك ورافعُك إِليّ..

فتكونُ الآية (٥٥) التي أمامنا، تفسيراً لمكْرِ اللّهِ باليهود المذكور في الآية (٥٤): ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

أي: أبطلَ اللّهُ مكرَ اليهود عندما توفّى عيسى ورفَعَه إليه، وأَنجى اللّهُ عيسى منهم بعدما توفّاه ورفَعَه إليه.

وهذه الآيةُ من متشابهات القرآن، وفي معناها إِشكالاتٌ كثيرة عند الناس: فما معنى قوله «متوفّيك»؟ وهل توفّى اللّهُ عيسى وأَماتَه على الأرض؟ أَم رفَعَه بروحه وجسمه إِلى السماء؟ وإذا كانَ الأولُ فكيف سينزلُ في آخر الزمان؟ وإذا كان الثاني فكيف قال: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾؟.

سنحاولُ السيرَ في هذا الموضوع بتأَنٍّ وحَذَر، وننظرُ أَثناءَه في تعبيرِ القرآن عن الحادثة، ونصوصِه الأخرى المشابهة، ونحملُ المتشابهَ على المحكم في هذا الأمر، مستعينين باللّهِ سبحانه!.

أربعة أقوال في معنى «إني متوفيك ورافعك إلي»:

اختلفَ المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾:

١ ـ فقالَ بعضُهم: في الآية تقديمٌ وتأخير. والتقدير: إِني رافعُك إِليّ، ومطهركَ من الذين كفروا، ومتوفّيك، وذلكَ بعد إِنزالي إِليك في آخرِ الزمان.

وعلى هذا يكون معنى «متوفِّيك» مميتُك، وإماتتُه له عند نزولِه قبيل قيام الساعة. فالوفاةُ على هذا القول بمعنى الموت.

قال ابن عباس: «متوفِّيك»: مميتُك.

وقال قتادة: هذا من المقدَّم والمؤخَّر. أي: إني رافعُك إليّ ومتوفِّيك بعد ذلك.

٢ ـ وقال آخرون: الوفاةُ هنا بمعنى القبض. والتقدير: إنّي قابضُك ورافعُك إليّ.

فاللّهُ قبضَ عيسى عليه السلام من الأرضِ حياً، ورفعه إليه، وطهَّره من الذين كفروا.

قالَ ابنُ زيد: «إني متوفيك»: قابضُك. ولم يمتْ عيسى بعد، حتى يقاتلَ الدجال، وسيموتُ بعد ذلك. لأنَّ اللّهَ يقول: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فرفَعه اللّهُ قبلَ أنْ يكلمَ الناسَ كهلاً، وسينزلُ كهلاً.

ورجَّحَ هذا القولَ الإمامُ ابنُ جرير الطبري.

٣ ـ وقال آخرون: الوفاةُ هنا وفاةُ موتٍ حقيقي. فالآية على ظاهرها.

فاللّهُ أنقذَ عيسى عليه السلام من اليهود عندما أَرادوا قتلَه، ثم توفّاه بعد ذلك، وقبضَ روحَه وأَماتَه، ثم رفَعَه بعدَ موته.

قالَ وهبُ بن مُنَبِّه: توفّاهُ الله ثلاثَ ساعات، ثم رفَعه إليه.

وقال وهبٌ في رواية أخرى: أَماته الله ثلاثةَ أيام، ثم بعثَه، ثم رفَعَه.

الراجح أن الوفاة هنا هي النوم:

٤ ـ وقال آخَرون: الوفاةُ هنا بمعنى النوم.

فاللّهُ أَلقى النومَ على عيسى عليه السلام، ولما نامَ رفَعَه إِليه. ومعنى الآيةِ: إِنّي مُنيمُك، ورافعُك إِليَّ في نومك.

قال الحسنُ البصري: كانت الوفاةُ وفاةَ منام، رفَعَهُ الله في منامه.

ورجحَ هذا القولَ الإمامُ ابنُ كثير، وجعله قولَ معظمِ المفسرين. واستشهدَ على ترجيحِه بآياتٍ أُخرى من القرآن[1].

ونحنُ مع الإمامِ ابنِ كثير في ترجيحه أنَّ المرادَ بالوفاة هنا النوم، وأنَّ اللّهَ أَلقى على عيسى عليه السلام النوم، ثم رفَعَه إِليه وهو نائم.

ولْننظرْ في إِسنادِ التوفّي إِلى اللّهِ في القرآن.

«متوفيك»: اسمُ فاعل. فعلُه الماضي: «تَوَفّى».

تقول: تَوَفّىٰ، يَتوفّىٰ، فهو مُتَوَفّي.

والفعلُ الثلاثي «وَفىٰ».

والصيغُ التي أَوردَها القرآن من مادة «وَفىٰ» هي: الرباعي «وَفّىٰ» بالتشديد وتصريفاتُها. والرباعي «أَوْفىٰ» بالهمزة وتصريفاتُها. والخماسي «تَوَفّىٰ» وتصريفاتُها. والسداسي «اسْتَوْفىٰ» وتصريفاتُها.

ويهمّنا أنْ ننظرَ في الخماسي «تَوَفّى».

جولة سريعة مع التوفي في القرآن:

التوفّي في القرآن يُسندُ أَحياناً إِلى الملائكة، ويكونُ بمعنى الموت. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ [النساء: ٩٧].

أي: تَقبضُ الملائكةُ أَرواحَهم، فيموتون.

وأَحياناً يُسندُ التوفّي إِلى مَلَكِ الموت نفسِه ـ وهو من الملائكة ـ

(١) انظر: تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٨٢ ـ ٢٨٣. وتفسير ابن كثير ١:٣٤٦ ـ ٣٤٧.

ويكونُ بمعنى الموت. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١].

وأَحياناً يُسندُ التوفّي إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

الخطابُ في الآيةِ لرسول الله ﷺ، ومعنى «نَتَوَفَّيَنَّكَ»: نقبض روحك.

وأَحياناً يُسندُ التوفّي إلى الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ١٥].

والتوفّي في هذه الآياتِ كلِّها معناه الموتُ وخروجُ الروحِ من الجسد.

والتوفّي موت، لأنَّ أساسَ معنى «وَفَىٰ»: تَمّ.

قالَ ابنُ فارس في مقاييسه: «وَفَىٰ: كلمة تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. منه الوفاء: إتمامُ العهد. و: أَوفيتُك الشيء: قضيتُه لك وافياً. و: توفَّيْتُ الشيء واستوفيتُه: إذا أخذتَه كلَّه حتى لم تَتركْ منه شيئاً. ومنه يقال للميت: توفّاه الله...»[1].

فاللّهُ يتوفّى الميت: يقبضُ روحَه بعد أنْ يستوفيَ الميتُ أجلَه، ويعيشَ عمرَه الذي حدده اللّهُ له كاملاً تاماً، ولا يَبقى له من عمره لحظةٌ واحدة.

معنيان للتوفي في القرآن: الموت، والنوم:

وإِسنادُ التوفّي إلى الله في القرآن أَحياناً يرادُ به الموتُ وقبضُ الروح، وهذا في موضعيْن في القرآن.

(١) مقاييس اللغة: ١٠٩٩.

الأول: قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى . . . يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

أي: أَعبدُ اللّهَ الذي يميتُكم ويقبضُ أرواحكم.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠].

أي: اللّهُ هو الذي خلقكم وجعلكم أحياءَ تعيشونَ حياتكم على الدنيا، ثم يتوفاكم عند انتهاءِ أعماركم، ويَقبضُ أَرواحكم ويميتكم.

وأَحياناً يرادُ به النوم، حيث وردتْ آياتٌ في القرآن تعتبرُ النومَ توفِّياً، وتسندُه إِلى الله. وهذا في موضعيْن في القرآن أيضاً.

الأول: قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى . .﴾ [الأنعام: ٦٠].

والمعنى: اللّهُ الذي يجعلُكم تنامونَ في الليل، ويتوفّى أَرواحَكم أَثناءَ نومكم، ثم يُعيدُ أَرواحَكم إِلى أَجسادكم في النهار: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ. . .﴾ والضميرُ الهاءُ في «فيه» يعودُ على النهار.

الثاني: قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

اعتبرت الآيةُ النومَ موتاً، وقَسَّمت الناسَ بعدَ النومِ إِلى قسمين:

فهناكَ أُناسٌ يَنامون ويموتون أَثناءَ النوم، ويكون اللّهُ قد قدَّرَ انتهاءَ آجالِهم عند تلك «النومة» فيتوفاهم ويقبضُ أرواحَهم أَثناءَ النوم، ويمسكُ أَرواحَهم عنده، ولا يعيدُها إِلى أَجسادهم، ويُصبحون أَمواتاً جثثاً هامدة، وهؤلاء هم الذين قالَ عنهم: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ. .﴾.

وهناك أُناسٌ ينامون، ويتوفّى اللّهُ أَرواحَهم أَثناءَ النوم، لكن تكون قد بقيتْ من أَعمارِهم بقية، فيعيدُ اللّهُ أرواحَهم إِلى أَبدانهم عند

الاستيقاظ من النوم، ويُصبحونَ أحياء يتحركون. وهؤلاء هم الذين قال عنهم: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰٓ...﴾.

وهذان الصنفانِ من الناسِ يتوفّى اللّهُ أَرواحَهم عند نومِهم. فالنومُ موت ووفاة، لكن يعقبهُ استيقاظٌ وبعثٌ في الصباح.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: اللّهُ يقبضُ أَرواحَ الأنفسِ حين نومها.

﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾: واللّهُ يتوفى الأنفسَ التي لم تمتْ في منامها، فيُخرجُ أَرواحَها من أجسادِها عند نومها، ويُعيدُها إِلى الأَجسادِ عند استيقاظها.

النوم موت والاستيقاظ بعث في القرآن والحديث:

هاتان الآيتان ـ [الأنعام: ٦٠. والزمر: ٤٢] ـ صريحتان في أنَّ النومَ وفاةٌ صغرى، وأنَّ اللّهَ يتوفّى أَرواحَ النائمين، ويخرجُها من أجسادِهم أَثناءَ نومهم، ثم يعيدُها لمن كتبَ لهم الحياةَ عند استيقاظهم!!

وقد أَكَّدَ هذا المعنى ـ النومُ وفاةٌ والاستيقاظُ بعثٌ ـ رسولُ الله ﷺ، في أدعيةِ النومِ والاستيقاظ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا أَوى أَحدُكم إِلى فراشه، فلينفضْ فراشَه بداخِلَةِ إِزارِه، فإنه لا يدري ما خَلَفَهُ عليه، ثم يقول: باسمك ربّي وضعْتُ جنبي، وبكَ أَرفعُه، إنْ أَمسكْتَ نفسي فارحَمْها، وإنْ أرسلْتَها فاحفَظْها بما تحفظُ به عبادَكَ الصالحين»[1].

وروى البخاريُّ عن حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه، ومسلمٌ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أَوى إِلى فراشه قال: «باسمك أحيا، وباسمك أَموت. وإذا استيقظ قال: الحمدُ لله

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣٢٠. ومسلم برقم: ٢٧١٤.

الذي أَحيانا بعدما أَماتَنا، وإليه النشور..»[1].

والشاهدُ في هذه الأذكارِ الصحيحة، أَنه توافقَ كلامُ رسول الله ﷺ مع الآيةِ الكريمة، في اعتبارِ النوم وفاةً وموتاً، والاستيقاظِ بعثاً وحياة.

فها هو عليه الصلاة والسلام يقولُ عند النوم: «إنْ أَمْسَكْتَ نفسي فارحَمْها». أي: إنْ قبضتَ روحي وأمسكْتَها ولم تُرجعها إلى بدني فارحمها. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ..﴾.

وها هو يقول: «وإنْ أرسلْتَها فاحفظها..» أي: إنْ أعدتَ روحي إلى جسدي عند الاستيقاظ فاحفَظْها. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

ودعاءُ رسول الله ﷺ عند الاستيقاظِ صريحٌ في اعتبارِ النوم موتاً والاستيقاظ بعثاً: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا..».

النصوصُ السابقة ـ الآيتان والحديثان ـ تُصرحُ بأنَّ النومَ موتٌ ووفاة، وأنَّ الاستيقاظَ بعثٌ وحياة.

وهذا معناهُ أنَّ التوفّيَ والوفاةَ في القرآن قد تَرِدُ بمعنى الموتِ الحقيقي وخروجِ الروحِ من الجسد، وقد تَعني النوم، وخروجَ الروح من الجسد أَثناءَ النوم، لتعودَ عليه عند الاستيقاظ.

ولهذا قالَ الإمامُ الراغب الأصفهاني: «وقد عُبِّرَ عن الموتِ والنوم بالتوفي»[2].

توفى الله عيسى مرتين: وفاة نوم ثم وفاة موت:

بعد هذا الاستعراضِ الموجزِ لإسنادِ «التوفّي» إلى الله في القرآن،

---

(1) أخرجه البخاري برقم: ٦٣١٢. ومسلم برقم: ٢٧١١.

(2) المفردات: ٨٧٨.

ننظرُ في حديثِ القرآنِ عن توفّي اللّهِ لعيسى عليه السلام.

وردَ هذا مرتيْن في القرآن:

الأولى: قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [آل عمران: ٥٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أَنه تحدَّثَ عن توفّي اللّهِ لعيسى مرتيْن، لأَنَّ التوفّي في القرآن وردَ بمعنيين، وهما النومُ والموتُ عند انتهاء الأجل. وذلك ليشيرَ إِلى أَنَّ النوعيْن تحقَّقا في توفّي اللّهِ لعيسى عليه السلام!.

إنَّ توفّي اللّهِ لعيسى المذكورَ في سورةِ آل عمران هو بالمعنى الأول من معاني التوفي في القرآن، وهو النوم. والتوفّي الثاني المذكورُ في سورةِ المائدة هو بالمعنى الثاني وهو الموت!!

توفّى الله عيسى عليه السلام مرتين:

المرة الأولى: عندما أَرادَ اليهودُ صلْبَه وقتْلَه، ومكروا به، فأَنْجاه اللّهُ منهم، وذلك بأنْ توفّاه ورفَعَه إليه، وقالَ له قبل توفّيه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾. وهو توفّي نوم. وذلكَ بأنْ أَلقى اللّهُ النومَ على عيسى عليه السلام، ولما نامَ رفعَه إليه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾.

المرة الثانية: عندما سينزلُه اللّهُ قبيلَ قيامِ الساعة، ليستكملَ باقي عمره الذي حدَّدَهُ اللّهُ له، حيث سيتوفّاه الوفاةَ الحقيقية، بقبضِ روحه وخروجها من جسدِه وموتِه، كما يموتُ الناس. وذلك التوفّي هو توفّي موت: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ..﴾ أي: لما أَمتَّني وقبضْتَ روحي.

ولا يمكنُ أنْ يكونَ التوفي في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ توفّيَ موت، فلا يمكنُ أنْ يكونَ عيسى عليه السلام مات، ثم رفعَهُ اللّهُ إليه بعدَ موته لورودِ نصوصٍ صحيحةٍ صريحة في نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان ـ وسنذكرها في مبحثٍ قادم إنْ شاءَ الله ـ فلو كانَ أماتَه من قبل، فلن يُنزلَه في آخرِ الزمان، لأنَّ اللّهَ لن يجمعَ عليه موتتيْن في الدنيا[1]! وإنَّ سنةَ الله أنَّ مَنْ مات وخرجَتْ روحُه من جسده، وانتهى عمره حقاً، فلن يُحييهِ اللّهُ إلا عندَ البعثِ يوم القيامة.

ألقى الله النوم على عيسى ثم رفعه:

والخلاصةُ في معنى آيةِ سورةِ آل عمران: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا..﴾.

يا عيسى: إنّني سأتوفّاك، بأَنْ أُلقي عليكَ النومَ، عندما يأتي اليهودُ لقتلك، وسأرفعكَ إليَّ في السماءِ عند نومك، وبذلك سأطهِّرُك من اليهود الذين كفروا، فلن تمتدَّ أيديهم المجرمةَ إليك، ولنْ يؤذوك.

أَخبرَ اللّهُ عيسى عليه السلام بهذا قبلَ أنْ يأتيَ إليه اليهود لقتْلِه، وَوَعَدَهُ بإنجائِه منهم، وذلك ليطمئِنَه ويبشِّرَه ويسلّيه، ويكونَ على يقينٍ بأنَّ اللّهَ معه.

وجاءَ الوعدُ بالنجاةِ في الآية بصيغةِ اسم الفاعل: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ..﴾، ففي الآية أربعُ كلمات كلُّها اسمُ فاعل: متوفيك، ورافعك، مطهرك، جاعل.

والتعبيرُ باسم الفاعلِ لتأكيدِ الوقوع وتحقيقِ الوعد.

ولهذا دخلَ عيسى عليه السلام المواجهةَ الأخيرةَ مع اليهود، وواجَهَ كيدَهم ومكرهم، وهو على يقينٍ أنَّ اللّهَ سينجيه منهم، بأن يتوفّاه ويُنيمَه ثم يرفعَه إليه أثناءَ نومه.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٨٣.

ولما هجمَ عليه اليهودُ مع الجنود: أَنامَهُ الله، ثم رفَعَهُ إِلى السماء، رفعَ روحَه وجسده، وهو حيّ، بطريقةٍ معجزة!!

لقد علمْنا من الكتابِ والسنة أنَّ اللّهَ قد رفعَ رسولَيْن كريميْن إلى السماء، وهما حَيّان غيرَ ميتيْن، عيسى عليه السلام، ومحمدٌ ﷺ ليلةَ المعراج. فبينما لم يَدُم العروجُ بمحمدٍ ﷺ إلى السماءِ أكثرَ من ساعات، حيثُ أعاده اللّهُ إلى مكة قبلَ بزوغِ فجرِ تلك الليلة، فإنَّ اللّهَ الحكيمَ شاءَ أنْ يُبقي عيسى عليه السلام في السماء حتى قبيلَ قيام الساعة.

وشاءَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يرفعَ كُلاً منهما إلى السماءِ أثناءَ نومه، وليس أثناءَ يقظتِه!!

لقد تمَّ الإسراءُ والمعراجُ برسول الله ﷺ تلك الليلة وهو نائم، أو بين النائم واليقظان!

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بَيْنَا أنا عندَ البيتِ بين النائم واليقظان، إذْ سمعتُ قائلاً يقول: أَحَدُ الثلاثة بين الرجليْن.. فأُتيتُ، فَانْطُلِقَ بي...»[1].

والشاهدُ في الحديث قوله: «بين النائم واليقظان..». فقد كانَ عليه الصلاة والسلام عند الكعبة بيتِ اللّهِ الحرام ليلةَ الإسراء، وكان بين النائم واليقظان، أَخذَتْه سِنَةٌ من النوم، فأخذَتْه الملائكة، وبدأَتْ رحلةُ الإسراء والمعراج.

فإذا كانتْ قد بدأَتْ أحداثُ الإسراءِ والمعراج الغيبية والرسولُ ﷺ نائم، فإنَّ هذا يقربُ لنا رفْعَ عيسى عليه السلام إلى السماء، حيثُ رفعه اللّهُ وهو نائم.

وهذا كلُّه ليؤكدَ لنا أنَّ معنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾ إني مُميتك، سأرفعكَ إليَّ وأنت نائم.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤.

أمة محمد هم أتباع عيسى الحقيقيون:

بقيتْ في الآية مسألة، وهي وعْدُ اللّهِ أنْ يجعلَ الذين اتَّبعوا عيسى عليه السلام فوقَ الذين كفروا إلى يوم القيامة: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ . .﴾.

وهذا وعْدٌ نافذٌ ناجزٌ من اللّهِ سبحانه، لأن اللّهَ لا يخلفُ الميعاد، فمن هم الذين اتَّبعوا عيسى عليه السلام المقصودون في الآية؟ هل هم النصارى الذين زَعموا دخولَهم في دينه ثم ألَّهوه؟

النصارى أَلَّهوا عيسى عليه السلام، وبهذا لا يكونون مُتَّبعين له!!

إنَّ الذين اتبعوه هم أمةُ محمد ﷺ، حيث آمَنوا أنه عبدُ الله ورسوله، ثم آمَنوا بمحمد ﷺ لأنَّ عيسى بَشَّرَ به.

وردَ في تهذيبنا لتفسير الطبري: «الذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين اتَّبَعوه على منهاجِه وملَّتِه، وهو الإسلام، فكانوا مسلمين مؤمنين. هؤلاء المسلمونَ المؤمنون أَتباعُ عيسى عليه السلام حقيقة، وهم فوقَ الذين كفروا به من جميعِ الملل، من اليهودِ والنصارى وغيرِهم، إلى يوم القيامة. . .»[1].

[١٥]

«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»

ثلاثة إشارات قرآنية عن محاولات اليهود قتل عيسى:

قُلنا إِنَّ القرآنَ تحدثَ عن محاولةِ اليهودِ قتلَ عيسى عليه السلام في ثلاثةِ مواضعَ بثلاثِ صور:

ـ إشارةٌ سريعة إلى كفِّ بني إسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات، وذلك في سورةِ المائدة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ . . .﴾ [المائدة: ١١٠].

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٨٣.

ـ وحديثٌ مجملٌ في حمايةِ عيسى عليه السلام منهم، بأنْ ألقى عليه النومَ ثم رَفعه إليه، وذلك في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟..﴾ [آل عمران: ٥٥].

ـ وحديثٌ أكثرَ تفصيلاً ـ لكنه ما زالَ مجملاً ـ عن نفيِ قتلِ اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام، لأنَّ اللّهَ رفعَه إليه، وقيامِهم بقتلِ وصلبِ شبيهٍ له. وذلك في آيات سورة النساء، وهي التي سنتحدث عنها هنا بعون الله.

ونرى التدرجَ المتسلسلَ في حديثِ القرآن عن هذا الموضوع الشائك، الذي اختلفَ فيه اليهودُ والنصارى ـ ومعظم المسلمين ـ اختلافاً بيّناً. وعندما ننظرُ في حديثِ القرآن عنه وفقَ هذا الترتيب، فإننا نفهمُ هذا الحدثَ الخطيرَ فهماً صائباً بعون الله: آية المائدة (١١٠) أولاً، ثم آية آل عمران (٥٥) ثانياً، ثم آيات سورة النساء (١٥٥ ـ ١٥٩) بعد ذلك!

قال الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٩].

من مسلسل جرائم اليهود ونقضهم العهود:

تتحدثُ أولُ آيتيْن من هذه الآياتِ الثمانية عن بعضِ جرائمِ اليهود مع رسول الله ﷺ، وبعضِ مخالفاتِهم لنبيِّهم موسى عليه السلام.

يَذكُرُ اللّهُ لرسوله محمدٍ ﷺ سوءَ تعاملِ اليهود مع الأنبياء، فقد سألوه أنْ يُنزل عليهم كتاباً من السماء: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

ويُواسيه على ما يواجِهُ من قبائحِ هؤلاء اليهود، فقد سألَ أسلافُهم من بني إسرائيل موسى عليه السلام سؤالاً أكبرَ وأفظع، فقد طلبوا منه أنْ يروا اللّهَ جهرةً عياناً، وأنْ يقفَ أمامهم مجسَّماً، ويقول لهم: أنا الله ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ..﴾.

وعاقبهم اللّهُ على ذلك السؤالِ القبيح، فأخذَتْهم الصاعقةُ بسببِ ذلك الظلم الفاجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ..﴾.

ومن جرائمِهم مع موسى عليه السلام أيضاً أَنهم اتخذوا العجل إلهاً لما غابَ عنهم وذهبَ إلى جبلِ الطور لمناجاةِ الله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

وقد أخذَ اللّهُ عليهم الميثاقَ الغليظ، لما رفعَ فوقَهم جبلَ الطور في حياة موسى عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ..﴾.

وأخذَ عليهم الميثاقَ الغليظَ بعد وفاة موسى عليه السلام، عندما أَمرهم أَن يدخلوا بابَ الأرضِ المقدسة ساجدين شاكرين لله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا..﴾.

وأخذَ عليهم الميثاقَ الغليظَ بعد ذلك عندما نهاهم عن الاعتداءِ

على حرمةِ يومِ السبت، ونهاهم عن صيد السمك فيه: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ..﴾.

فماذا فعلوا بذلك الميثاقِ الغليظ؟ لقد نَقضوه، وتركوا مَا أَوجَبَهُ اللّهُ عليهم فيه، وارتكبوا ما نهاهم عنه.

لم يلتزموا بالميثاقِ الغليظ الذي أُخِذ عليهم عند جبل الطور. ولم يدخلوا بابَ الأرضِ المقدسة ساجدين، وإنما دخلوا مُحرفين يَزحفون على أَستاههم، ولم يلتزموا بحرمةِ يوم السبت فاصطادوا السمكَ فيه، فمسخهم اللّهُ قردةً خاسئين!!

هذا هو موقفُهم من ميثاقِهم الغليظ، وهو نقضهِ وتركه.

فماذا فعلَ اللّهُ بهم؟ لقد أوقعَ بهم لعنتَه وسخطَه وغضبه، فكانوا ملعونين أذلاء مهانين.

سجلت الآياتُ التاليةُ (١٥٥ ـ ١٥٩) جرائمَ اليهودِ التي استحقوا بها لعنةَ الله وسخطَه، ومن أفظع هذه الجرائم تصميمُهم على قتْلِ وصلبِ عيسى عليه السلام، ولولا أن اللّهَ رفعه إليه لقتلوه وصلبوه!!

بدأت الآياتُ بذكْرِ نقضِهم الميثاق الغليظ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾. لأنه يتناسبُ مع آخرِ الآيةِ السابقة. والتقدير: وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، فنقضوه، فلعنّاهم بسببِ نقضِهم له.

الفاءُ في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ عاطفة، تعطفُ هذه الجملة على ما قبلَها، كما ذكرنا.

والباءُ باءُ السببية، التي تسجلُ سببَ لعنتهم، وهو نقضُهم الميثاق.

و«ما» في الجملة «فبما» لتأكيدِ حقيقةِ نقضِهم الميثاق.

وشبهُ الجملة «بما نقضهم ميثاقهم» متعلقةٌ بفعلٍ مقدَّر، مفهومٍ من السياق، وهو فعلُ «لعناهم» والتقدير: لعناهم بسبب نقضهم ميثاقهم.

وهذه الجملة المقدرة «لعناهم» مذكورةٌ في سورة المائدة. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً..﴾ [المائدة: ١٣].

من أسباب لعنة الله لليهود:

لماذا لعنَ اللّهُ اليهود وجعلَ قلوبَهم قاسية؟ ما هي أسبابُ تلك اللعنة؟

تكفلت الآياتُ التي أمامَنا بتسجيلِ تلك الأسباب.

١ ـ «بما نقضهم ميثاقهم»: ونقضُ الميثاقِ الغليظِ يقودُ إلى لعنةِ الله.

٢ ـ ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: اليهودُ كفار، كفروا بالحقِّ لما جاءهم، وهذا الكفرُ أوقعَ بهم اللعنة.

٣ ـ ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: اليهودُ قتلةُ الأنبياء، وفعلوا ذلك بغياً وعدواناً بدون حق، ولا يمكنُ أنْ يُقتلَ نبيٌّ بحق! وهذا سببٌ في لعنتهم.

٤ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: رفضوا قبولَ الحقِّ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ، وزعموا أنَّ قلوبهم عليها أغطيةٌ سميكة، فلا تفقهُ ولا تعقلُ ما يقولُه عليه الصلاة والسلام.

وقد كذَّبهم اللّهُ في قولِهم هذا، فأخبرَ أنه هو سبحانه الذي طبعَ وختمَ عليها، بسببِ كفرهم، ولذلك لا تهتدي مهما جاءَها من الهدى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

وبما أنَّ اللّهَ طبعَ على قلوبهم بسببِ كفرهم، فإنهم لم يؤمنوا الإيمانَ الصحيحَ الكاملَ الذي أوجبهُ اللّهُ عليهم، وإنما آمنوا إيماناً «قليلاً»، وهو إيمانٌ مزاجيٌّ «تجزيئي»! وهذا لا يُقبلُ في الإيمان: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإيمانهمُ التجزيئيُّ القليلُ تمثلَ في إيمانهم ببعضِ كتبِ الله كالتوراة، لكنهم كفروا ببعضِ كتبِ الله كالإنجيل والقرآن.

كما تمثلَ ذلك الإيمانُ القليلُ المرفوضُ في إيمانهم ببعضِ رسل الله، كموسى وهارون وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام، لكنهم كفروا ببعضِ رسلِ الله كعيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام.

ومعلومٌ أنَّ مَنْ كفرَ ببعضِ كتبِ الله فهو كافرٌ بها كلِّها، ومَنْ كفرَ ببعضِ رسلِ الله فقد كفرَ بها كلِّها، ولا ينفع في ذلك الإيمانُ التجزيئيُّ القليل.

وهذا معناه أنَّ اليهودَ كفار كفروا بكلِّ الكتب ومنها التوراة، وكفروا بكلِّ الرسل ومنهم موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام!!

اليهود كفار ملعونون بسبب موقفهم من عيسى وأمه:

٥ ـ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾: لعنَ اللّهُ اليهودَ بسبب كفرهم.

وليس السببُ الخامس هذا: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ تكراراً للسبب الثاني ﴿وَكُفْرِهِم بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. لأنه لا تكرارَ في العرضِ القرآني.

السببُ الثاني ذَكَرَ كفرهم مقيَّداً، وهو كفرُهم بآيات الله، ومعلومٌ أنَّ الكفرَ بآياتِ الله أو بعضِها، كفرٌ بالله، مُخرجٌ من دين الله.

أما هذا السببُ الخامس فقد أَطلقَ كفرهم ولم يقيده: «وبكفرهم»، لكن عندما نربطُه معَ ما بعده من مكرِهم بعيسى عليه السلام، فإنه يدلُّ على أنَّ المرادَ به كفرُهم برسل الله، لأنهم أَرادوا قتْلَ أحدِ رسله.

كفرُ اليهودِ بآياتِ الله سببٌ للعنتهم. وكفرُهم برسلِ الله سببٌ آخرَ خاصٌ للعنتهم.

٦ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾: موقفُ اليهودِ المجرمين من مريمَ العفيفةِ البتول رضي الله عنها، سببٌ مستقلٌ من أسبابِ لعنتهم، يُضافُ للأسبابِ الأخرى.

والبهتانُ العظيمُ الذي قالوه عليها هو: فريتُهم عليها، واتهامُها

بالزنا وهي الطاهرةُ العفيفة، وتصريحُهم بأنَّ ابنَها عيسى عليه السلام ابنُ زنا، عليهم لعائنُ الله المتابعةُ حتى قيام الساعة.

تبجح اليهود بادعاء قتل عيسى:

٧ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ..﴾: هــذا القولُ الكبيرُ الفاجرُ الذي قالوه، يسجلُ جريمتَهم الشنيعةَ التي أقدموا عليها، وهي تصميمُهم على قتْلِ عيسى عليه السلام، بل قتْلُهم شخصاً يظنونَه المسيحَ عيسى ابن مريم! وقد لعنَهم اللّهُ بسببِ هذا القول الفظيع.

وقد جَمعوا في هذا القول بين التفاخرِ فيما صَمَّمُوا عليه من قتلِ عيسى عليه السلام والتباهي به، وبين السخريةِ بعيسى عليه السلام والتهكمِ عليه.

والسخريةُ في الصفاتِ التي أَطلقوها على عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ..﴾.

لقد عَرَّفوه بالكلماتِ الأربع التي أطلقوها عليه، ومع أَنها حقيقيةٌ في إطلاقها عليه، فهو المسيح، وهو عيسى، وهو ابنُ مريم، وهو رسولُ الله، لكنهم لم يُطلقوها عليه من بابِ الإيمانِ بها، فلو كانوا مؤمنين بها لما صَمَّموا على قتْله، إنما أَطلقوها عليه ساخرين متهكمين.

قال الإمام ابن كثير: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: أي: هذا الذي يَدَّعي لنفسِه هذا المنصبَ قتلْناه، وهذا منهم من بابِ التهكم والاستهزاء. وهذا كقولِ المشركين لرسولِ الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦][1].

اليهود ما قتلوا عيسى ولا صلبوه:

وبعدما سجلَ عليهم اللّهُ جرائمهم الفظيعةَ السبعةَ التي استحقوا بها

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٥٤٣.

لعنتَه وغضبه وسخطه كَذِبهم في زعمهم قتْلَ عيسى عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ حرفُ استئناف، وما بعدَها كلامٌ مستأنف ليسَ معطوفاً على ما سبق، وإنما هو كلامٌ جديد لتكذيبهم في ما زعموه، ولبيانِ ما جرى في مسرحيةِ القتلِ والصلب.

و«ما»: حرف نفي. والهاء في «قتلوه» تعودُ على عيسى عليه السلام. والمعنى: اليهودُ لم يقتلوا عيسى.

والواوُ في ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ حرفُ عطف، وجملة «ما صلبوه» المنفيةُ معطوفةٌ على جملة «ما قتلوه» المنفية.

أي: اليهودُ لم يقتلوا عيسى، ولم يَصلبوه.

والواوُ في «ولكن» حرفُ عطف. وجملة ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها.

أي: لم يَقتل اليهودُ عيسى، ولم يَصلبوه، ولكن قَتلوا وصَلبوا شَبَهَه.

القتلُ معناه معروف.

أمّا الصلبُ فهو تعليقُ الإنسان للقتل.

يقال: صَلَبَ جسْمَه: إذا شدَّ أطرافَه على الخشبة، وعلَّقَه عليها ليقتله.

قال الإمامُ الراغب في الصلب: «الصَّلْبُ هو تعليقُ الإنسانِ للقتل. وقيل: هو شَدُّ صُلْبِه على الخشب.

والصليب: أصْله الخشبُ الذي يُصْلَبُ عليه. والصليب: الذي يتقربُ به النصارى، وسُمي بذلك لكونِه على هيئةِ الخشبِ الذي زعموا أنه صُلبَ عليه عيسى عليه السلام»[1].

اليهود قتلوا وصلبوا الشخص الذي شبه لهم:

وإذا كان اليهودُ لم يَقتلوا عيسى ولم يصلبوه، فلماذا أكّدوا على قتلِه وافتخروا بذلك في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؟.

الجوابُ في الجملةِ الاستدراكية: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

إنّ «لكن» حرفُ استدراك، والجملةُ بعدها تقدمُ لنا معلومةً هامة بشأنِ ما جرى.

و«شُبِّهَ»: فعلٌ ماضٍ مبنيٌ للمجهول. ونائبُ الفاعل ضميرٌ مستتر، تقديره «هو» يعودُ على الشخصِ الذي قَتَلوه. و«هم» في «لهم» يعودُ على اليهودِ والرومانِ الجنودِ الذين جاءوا لقتْلِ عيسى وصلبه.

والمعنى: شُبِّهَ الشخصُ لهم بعيسى، فقَتَلوا الشَّبيهَ وصَلبوه، ظانِّين أنه عيسى.

ومادةُ التشبيهِ تقومُ على التمثيل. والتّشابُهُ هو التماثل.

يُقال: أَشبهُ الشيءُ الشيءَ. أي: ماثَلَه.

ويُقال: شَبَّهَ عليه الأمرَ. أي: أَبهمه عليه حتّى اشتبَهَ بغيرِه.

ويُقال: شَبَّهَ الشيءَ بالشيء. أي: مَثَّلَه به، وأَقامَه مقامَه لصفةٍ مشتركةٍ بينهما.

ويُقال: شُبِّهَ عليه: لُبِّسَ عليه. وشُبِّهَ له: لُبِّسَ له.

ويقال: اشتبهَ عليه الأمر: اختلطَ عليه.

(١) المفردات: ٤٨٩.

ويقال: تشابَهَ الشيئان: أَشبهَ كلٌّ منهما الآخرَ حتى التبسا[1].

وإذا كان «شُبِّهَ» في الجملةِ مبنياً للمجهول والفاعلُ محذوفاً، فإنَّ الذي شَبَّهَ الأمرَ لهم هو الله، من بابِ مكرِه بهم، وإبطالِه لمكائدهم.

والمعنى: شَبَّهَ اللّهُ الأَمْرَ لليهود.

والسؤال الآن: من هو الذي شُبِّهَ لهم؟ وعلى مَنْ يعودُ نائبُ الفاعل المستتر؟

لا يمكنُ أنْ يعودَ على عيسى عليه السلام ـ كما يَظُنُّ الكثيرون خطأً ـ لأنَّ عيسى عليه السلام مُشَبَّهاً به وليس مُشَبَّهاً. والتقديرُ شَبَّهَ اللّهُ الشخصَ الآخرَ بعيسى لهم.

وقفَ الإمامُ الزمخشريُّ أمامَ نائبِ فاعل «شُبِّه» وهو المشَبَّهُ في هذه الحادثة: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

قال في «الكشاف» متسائلاً: «فعْلُ «شُبِّهَ» مسندٌ إلى ماذا؟

إنْ جعلْتَه إلى المسيحِ عليه السلام، فالمسيحُ مُشَبَّهٌ به وليس مُشَبَّهاً. وإنْ أَسندْتَه إلى المقتولِ فالمقتولُ لم يَجْرِ له ذكْرٌ!

قلت: هو مسندٌ إلى الجارِّ والمجرور «لهم». وهو كقولك: خُيِّلَ إليه. كأنه قال: وَقَعَ لهم التشبيه.

ويجوزُ أنْ يُسندَ الفعلُ إلى ضميرِ المقتول، لأنَّ قولَهم السابق: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يدل عليه. كأنه قال: ولكن شبه لهم من قتلوه..»[2].

ومعنى كلامِ الإمامِ الزمخشري أنَّ عيسى لا يمكنُ أنْ يكونَ المشَبَّهَ لهم، فليس معنى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ ولكن شُبِّهَ عيسى لهم.

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ٤٧١.

(٢) تفسير الكشاف ١:٥٨٧.

الذي شُبِّهَ لهم إمّا عمليةُ القتل. أي: وَقَعَ له التشبيه، فاختلطَ الأمْرُ عليهم. فظنّوا أنهم قتلوا عيسى، مع أنَّ المقتولَ غيرُه، وهذا الظنُّ بسببِ التشبيهِ الذي أَصابهم.

وإمّا الذي شُبِّهَ لهم هو الشخصُ المقتول. حيث أَلقى اللّهُ شَبَهَ عيسى عليه السلام على الشخصِ الآخر، فبدا أَمامَهم عيسى نفسه، فأَخذوه وقتلوه وهم يوقنون أَنه عيسى، مع أَنه لم يكن عيسى في الحقيقة.

والراجحُ هو القولُ الثاني الذي أَورده الزمخشري، فنائبُ الفاعل يعودُ على الشخصِ المقتول، هو المشَبَّهُ، وعيسى عليه السلام هو المشَبَّهُ به. والتقدير: شُبِّهَ المقتولُ لهم، حيثُ شَبَّهَهُ اللّهُ بعيسى، فظنّوه عيسى!!

ما الذي جرى ليلة القبض على الشبيه؟:

ما الذي جرى في تلكَ الليلةِ من أحداثٍ خطيرة؟ وكيف شُبِّهَ لهم الشخصُ الذي قتلوه؟

«إنَّ قضيةَ قتلِ عيسى عليه السلام وصلبِه، قضيةٌ يخبطُ فيها اليهودُ ـ كما يخبطُ فيها النصارى بالظنون ـ.

فاليهودُ يقولون: إِنهم قتلوه، ويَسخرون من قوله: إِنه رسولُ الله، فيقررون له هذه الصفةَ على سبيل السخرية!

والنصارى يقولون: إِنه صُلب ودُفن، ولكنه قامَ بعد ثلاثةِ أيام!

و«التاريخ» يسكتُ عن مولدِ عيسى ونهايته، كأنْ لم تكنْ له في حساب!!

وما من أحدٍ من هؤلاء أَو هؤلاء يقولُ ما يقولُ عن يقين.. فلقد تتابعت الأَحداثُ سراعاً، وتضاربت الروايات، وتداخلتْ في تلك الفترة، بحيث يصعبُ الاهتداءُ فيها إِلى يقين.. إلاّ ما يقصُّه ربُّ العالمين!

والأَناجيلُ الأربعةُ التي تَروي قصةَ القبضِ على المسيح وصلبه وموتِه ودفنِه وقيامته.. كلُّها كُتِبَتْ بعد فترةٍ من عهدِ المسيح، كانت كلُّها اضطهاداً لديانتِه ولتلاميذِه، يتعذَّرُ معه تحقيقُ الأحداث في جوِّ السريةِ والخوف والتشريد...»[1].

ونحاولُ ذكْرَ خلاصةِ ما جرى في تلك الليلة، التي جاءَ اليهودُ فيها ومعهم الجنود الرومان ليلقوا القبضَ على عيسى عليه السلام..

الإمام ابن كثير يلخص أحداث تلك الليلة:

وخيْرُ مَنْ لخصَ تلك الأحداثَ الإمامُ ابن كثير، ونسجلُ قولَه فيما يلي معتمدين له.

«وكان من خبرِ اليهود ـ عليهم لعائنُ الله وسخطُه وغضبُه وعقابُه ـ أَنه لما بعثَ اللّهُ عيسى ابنَ مريم بالبيناتِ والهدى حَسَدوه على ما آتاهُ الله من النبوة، والمعجزاتِ الباهرات التي كان يُبرئُ بها الأكمهَ والأبرصَ ويحيي الموتى بإذن الله... إلى غير ذلك من المعجزات التي أَكرمه اللّهُ بها، وأَجراها على يديه..

ومع هذا خالَفوه وكَذَّبوه، وسَعوا في أَذاه بكلِّ ما أمكنهم! حتى جعلَ نبيُّ الله عيسى عليه السلام لا يساكنُهم في بلدة، بل يكثِرُ السياحةَ هو وأمه...

ثم لم يُقنعهم ذلك حتى سَعوا إِلى ملكِ دمشق في ذلك الزمان ـ وكان رجلًا مشركاً من عبدةِ الكواكب، وكان يقالُ لأهل ملته اليونان ـ وأَنهوا إِليه أنَّ في بيتِ المقدس رجلًا يفتِنُ الناسَ ويُضلُّهم، ويُفسدُ على الملك رعاياه..

فغضبَ الملكُ من هذا، وكتبَ إِلى نائبه بالقدس، أنْ يحتاطَ على هذا المذكور، وأنْ يَصلبه، ويضعَ الشوكَ على رأسه، ويكفَّ أذاه عن الناس..

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٠١ ـ ٨٠٢.

فلما وصلَ الكتابُ امتثل والي بيتِ المقدس ذلك..

وذهبَ هو وطائفةٌ من اليهود إلى البيتِ الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعةٍ من أصحابه، اثني عشر أو ثلاثة عشر، وقيل سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يومَ الجمعة، بعدَ العصر، ليلةَ السبت.. فحصروه هنالك..

فلما أحسَّ بهم، وأنه لا محالةَ من دخولِهم عليه، أو خروجِه إليهم، قال لأصحابه: أيُّكم يُلقىٰ عليه شَبَهي، وهو رفيقي في الجنة؟

فانتدبَ لذلك شابٌ منهم، فكأنه استصغَرَهُ عن ذلك! فأعادَها ثانيةً وثالثة، وكلُّ ذلك لا يَنتدبُ إلاّ ذلك الشاب!

فقال له: أنتَ هو!

وألقىٰ اللّهُ عليه شَبَهَ عيسى، حتى كأنّه هو!!

وفُتحتْ «روزَنَةٌ» من سقفِ البيت، وأخذتْ عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم، فرُفعَ إلى السماء وهو كذلك، كما قالَ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ..﴾.

فلما رُفعَ عيسى من سقفِ البيت، خرجَ أولئك النفرُ من البيت..

فلما رأى اليهودُ والجنودُ ذلك الشابَّ ظنّوا أنه عيسى، فأخذوهُ في الليل، وصَلبوه، ووضعوا الشوكَ على رأسه..

وأظهرَ اليهودُ أنهم سَعوا في صلبِه، وتَبَجَّحوا بذلك..

وسَلَّمَ لهم طوائفُ من النصارى ذلك، لجهلِهم وقلةِ عقلهم، ما عدا مَنْ كانَ في البيتِ مع المسيح، فإنهم شاهَدوا رفْعَه.. وأمّا الباقون فإنهم ظنوا كما ظنَّ اليهودُ أنَّ المصلوبَ هو المسيحُ ابن مريم.. حتى ذكروا أنَّ مريمَ جلست تحتَ ذلك المصلوب، وبكَتْ....

وهذا كلُّه من امتحان اللّهِ عبادَه، لما له في ذلك من الحكمةِ البالغة..

وقد أَوضحَ اللّهُ الأمرَ وجَلّاه وبَيَّنَهُ وأظهرَه في القرآنِ العظيم، الذي أنزلَه على رسولِه الكريم ﷺ. حيث بَيّنَ أَنهم ما قتلوا عيسى عليه السلام وما صَلبوه، ولكن شُبِّه لهم، حيثُ أَلقى اللّهُ شَبَهه على ذلك الشاب، فبدا لهم عيسى، فقتلوا الشابَّ وصلبوه ظانّين أنه عيسى!

وأخبرَ اللّهُ أنَّ الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من اليهود الذين ادعوا قتْلَه، والنصارى الجهالِ الذين سَلَّموا لهم بذلك، كلهم في شكٍّ وحيرةٍ وضلالٍ من ذلك.

وأخبرَ اللّهُ أَنهم ما قَتلوه متيقِّنين أَنه هو، وإِنما كانوا شاكّين متوهِّمين. أمّا عيسى عليه السلام فقد رفَعَهُ اللّهُ إليه، واللّهُ هو العزيز الحكيم..

رواية ابن عباس عن تلك الليلة:

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: «لما أرادَ اللّهُ أنْ يرفعَ عيسى إلى السماء، خرجَ على أَصحابِه، وفي البيتِ اثنا عشر رجلاً من الحواريين، خرجَ عليهم من عينٍ في البيت، ورأسُهُ يقطُرُ ماء! فقال: إنَّ منكم مَنْ يكفرُ بي اثنتي عشرة مرة بعد أنْ آمَنَ بي..

ثم قال: أيُّكم يُلقىٰ عليه شبهي، فيُقْتَلُ مكاني، ويكونُ معي في درجتي؟

فقامَ شابٌّ من أَحدثهم سناً. فقال له: اجلس! ثم أَعادَ عليهم، فقامَ ذلك الشاب، فقال له: اجلس!! ثم أَعادَ عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: أنا!!

فقالَ عيسى عليه السلام: هو أَنت!

فأُلقيَ عليه شَبَهُ عيسى.. ورُفِعَ عيسى من روزنةٍ في البيتِ إِلى السماء!!...

وجاءَ الطلبُ من اليهود، فأَخذوا الشَّبَهَ، فقتلوه، ثم صَلَبوه..

فكفرَ بعيسى بعضُهم اثنتي عشرةَ مرة، كما قالَ لهم!!

وافترقَ النصارى في عيسى ثلاثَ فرق:

فقالَتْ فرقةٌ منهم: كان اللّهُ فينا ما شاء، ثم صعَدَ إِلى السماء! وهؤلاء هم اليعقوبية.

وقالت فرقةٌ أُخرى: كان ابنُ اللّهِ فينا ما شاء، ثم رفعهُ اللّهُ إِليه! وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقةٌ أُخرى: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله، ثم رفعه اللّهُ إليه! وهؤلاءِ هم المسلمون.

فتظاهرت الفرقتانِ الكافرتان على الفرقةِ المسلمة فقتلوها.. فلم يزل الإِسلامُ طامِساً، حتى بعثَ اللّهُ محمداً ﷺ..

وهذا إِسنادٌ صحيحٌ إِلى ابنِ عباس...»[1].

ومع تحفُّظِنا على بعضِ التفصيلاتِ الجزئيةِ اليسيرةِ في كلامِ ابن كثير، وتوقُّفِنا في القولِ بها، إلاَّ أَننا نقبلُ كلامَه عن أحداثِ تلك الليلةِ المعجزة، ونعتمده، وبالذاتِ الكلامُ الذي أَسنده لابنِ عباس رضي الله عنهما، وحكَمَ عليه بأنهُ صحيحُ الإِسناد!.

ترتيب أحداث مسلسل تلك الليلة:

ومن خلالِ النظر في ما سبق، لِنحاولُ تَصَوُّرَ ما جرى في تلكَ الليلة، وترتيبَ أَحداثها بإِيجاز:

١ ـ نجحَ اليهودُ في إِقناعِ الحاكم الروماني في إِلقاءِ القبضِ على عيسى وقتْلِه، حيث أَمَرَ الحاكمُ بتنفيذ ذلك.

٢ ـ توجهتْ مجموعةٌ من الجنودِ الرومان واليهود إِلى المكانِ الذي يوجَدُ فيه عيسى عليه السلام لتنفيذِ أمر الحاكم.

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٥٤٣ ـ ٥٤٤ بتصرف يسير للتوضيح.

٣ ـ المكانُ الذي كان يقيمُ فيه عيسى كان في بيتِ المقدس، حسب سياقِ أحداثِ القتلِ والصلبِ ودرب الآلام بعد ذلك.

٤ ـ كان عيسى عليه السلام في أَحَدِ بيوت القدسِ في تلك الليلة، مع اثني عشر رجلاً من الحواريين ـ كما قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما ـ.

٥ ـ علمَ عيسى عليه السلام بقدوم الجنودِ واليهودِ لاعتقالِه وقتلِه وصلبِه، فلم يَخَفْ ولم يَحْزن ولَم يَقْلق، لأنه يوقنُ أَنَّ اللّهَ معه، يحفظُه ويحميه.

٦ ـ أَخبرَ اللّهُ عيسى عليه السلام أَنهم لنْ يَصلوا إِليه ولَن يؤذوه، وأنه سيُلقي شَبَهه على أحدِ تلاميذِه الحواريين، وأَنه سيرفعُه إِليه، وطلبَ منه أنْ ينتدبَهم ليتبرعَ أحدُهم ليكونَ المصلوبَ الشهيد.

٧ ـ أَخبرَ عيسى عليه السلام الحواريين أنَّ اللّهَ سيحميه من الجنودِ واليهود، وأَنه سيرفعُه إِليه، وذلك ليطمئنَهم عليه.

٨ ـ عرضَ عيسى عليه السلام على الحواريين الاثني عشر أَن يتبرعَ أحدهم ليفديَه بنفسه، بأنْ يُلقىٰ شبهُه عليه، فيؤخَذ ويُقتل ويُصلب ويموت شهيداً، وضَمن لذلك الفدائيِّ الشهيدِ أنْ يكونَ معه في الجنة.

٩ ـ استجابَ لعرضِ عيسى عليه السلام شاب، لعلَّه كان من أَصغرِ الموجودين سناً، فاستصْغَره عيسى عليه السلام، وأرادَ مَنْ هو أكبرُ منه، ولكنْ لم يستجبْ له في المراتِ الثلاث التي انتدبَهم فيها إلاّ هو، فقالَ له عيسى عليه السلام: هو أنت!

١٠ ـ لم يُذكر اسمُ ذلك الشابِّ المتطوعِ العظيم، الذي بَذَلَ نفسَه وحياتَه وعمرَه للّهِ، فهو من مبهماتِ أَحداثِ القصة.

١١ ـ أَجرى اللّهُ على ذلك الشابِّ أَمرَه، وأَوقَعَ عليه آيتَه الخارقة، حيث حَوَّلَه اللّهُ من ملامحِه الشخصية التي خلَقَه عليها، إلى ملامحِ

عيسى عليه السلام. فما هي إلاّ لحظاتٌ حتى تَحَوَّلَ ذلك الشخصُ إلى عيسى، وكلُّ مَنْ رآه لا يشكُّ أنه عيسى، ولا نعرفُ كيفَ فعلَ اللّهُ ذلك، لأننا لا نعرفُ كيفياتِ أفعالِ الله!!

١٢ ـ نظرَ الحواريون الذين في البيتِ إلى ذلك الشخص فإذا هو عيسى، لأنه أشبهه شَبَهاً كاملاً وهم يعلمونَ أنَّ اللّهَ ألقى شَبَهَ عيسى عليه.

١٣ ـ لما وصلَ اليهودُ والجنودُ إلى ذلك البيت كانَ فيه شخصان، كلٌّ منهما عيسى! عيسى الحقيقي النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، وعيسى الآخرُ المتقمِّصُ لشخصيته، الذي ألقى اللّهُ شَبَهَ عيسى عليه، والحواريون يروْنَ الشخصيْن.

١٤ ـ لما أرادَ اليهودُ والجنودُ دخولَ البيت، أجرى الله آيةً أُخرى باهرة، حيث فَتَحَ سقفَ البيت فتحةً معجزة، بأمرِه سبحانه وتعالى.

١٥ ـ أَلقى اللّهُ على عيسى عليه السلام سِنَةً من النوم، وهو بينَ تلاميذه وحوارييه، تمهيداً لرفعِه إلى السماء.

١٦ ـ رفعَ اللّهُ عيسى النبيَّ عليه السلام إلى السماء من الفتحةِ التي في سقْفِ البيت، والحواريون الذين في المنزلِ ينظرون إليه، ويُلاحظون هذه الآيةَ الباهرةَ من آياتِ الله. وقد اطمأنّوا على نجاةِ نبيهم وحبيبهم عيسى عليه السلام.

١٧ ـ دخلَ اليهودُ والجنودُ البيت، ورأَوا أَمامهم «عيسى»، وهو في الحقيقةِ عيسى الثاني، عيسى المتحوِّلُ شبيهُ عيسى النبيِّ الذي رُفِعَ إلى السماء، ونظروا إليه وهم لا يشكّون لحظةً أنه عيسى.

١٨ ـ أخذَ الجنودُ عيسى الشَّبَهَ المتحوِّلَ لقتْلِه وصلْبِه. ويبدو أنه لم يكلِّمْهم كلمةً واحدة، ولم ينفِ أنه عيسى، ولم يُخبرهم أنَّ عيسى الحقيقيَّ النبيَّ في السماء، وأنهم فَشلوا في القبضِ عليه وقتله، فإنه استعدَّ للقتل والاستشهاد!

١٩ ـ لا نعرفُ ماذا جرى للحواريين الأحدَ عشر الآخرين الذين كانوا في المنزل، هل اعْتُقلوا أَمْ هربوا أم قُتِلَ بعضُهم وأَفرجَ عن الآخرين!! فهذا من مبهماتِ القصة.

٢٠ ـ أَخَذَ الجنودُ واليهودُ عيسى الثاني الشَّبَهَ، وصَلَبوه على الخشبة، وقتلوه على الصليب، وخرجَتْ روحُ هذا الفدائيِّ المؤمنِ وهو على الصليب، ولقيَ اللّهَ شهيداً، بينما كان عيسى النبيُّ في السماء عليه الصلاة والسلام.

٢١ ـ كان الناسُ يأتونَ إلى الشابِّ المصلوبِ الشهيد، ينظرونَ إليه، فإذا به عيسى، ولا يشكُّون لحظةً أنه عيسى، لأن اللّهَ ألقى شَبَهَ عيسى عليه، وهم لا يَعرفون المعجزةَ التي أجراها الله، وكانوا بين فَرِحٍ شامِتٍ وبين حزينٍ متألم. وبعدَ حين أنزلوا الشهيدَ المصلوبَ، ودَفنوا جثته.

٢٢ ـ كان اليهودُ فَرِحين شامِتين لأنهم قَتَلوا عيسى وصَلَبوه ـ وهو في الحقيقةِ عيسى الشَّبَهَ ـ وأذاعوا في الناس، وقالوا ساخِرين: إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسول الله.

٢٣ ـ لم يَعلم النصارى ماذا جرى من معجزاتٍ ربانية في تلك الليلة، فأَيْقَنوا أنَّ الذي شاهَدوه ميتاً على الصليب هو نبيُّهم عيسى ابنُ مريم، فصدَّقوا اليهودَ في تبجحِهم بقتْلِه، وقالوا: قتلوا وصلبوا نبيَّنا عيسى!

٢٤ ـ صبَّ اليهودُ والرومانُ العذابَ على الحواريين، وعلى كلِّ مَنْ آمَنَ بعيسى عليه السلام، وقَتَلوا منهم وصَلَبوا وسجنوا وشَرَّدوا. ولم يلتقط النصارى أنفاسَهم ليفكِّروا بتأَنٍّ وتمهُّلٍ فيما جرى في تلك الليلة.

ووقعَ اختلافٌ شديدٌ بين النصارى في أحداثِ الليلة المذكورة، فصدَّقوا اليهودَ في ادعائِهم أَنهم قتلوا عيسى عليه السلام، ودخلَ

الشركُ على النصرانية، فاختلفوا في عيسى عليه السلام، فمنهم مَنْ آمَنَ أنه عبدُ الله ورسوله، ومنهم مَنْ اعتبره إلهاً، ومنهم مَنْ اعتبره ابناً لله.

٢٥ ـ بقيتْ أَحداثُ تلك الليلةِ الحقيقيةُ خافيةً على اليهودِ والنصارى، وكلُّ ظنِّهم أن المقتولَ المصلوبَ هو عيسى ابنُ مريم رسولَ الله، حتى بعثَ اللّهُ محمداً رسولاً ﷺ، وأنزلَ عليه القرآن، وذكرَ في آياتِه حقيقةَ ما جرى.

نظرة في الآية التي تحدثت عن قتل الشبيه:

بعدَ تلخيصِ تلك الأحداثِ في النقاطِ السابقة المتسلسلة، نفهمُ معنى قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾: لم يقتل اليهودُ عيسى عليه السلام، ولم يصلُبوه على الصليب.

﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾: أَلقى اللّهُ شَبَهَ عيسى ابنِ مريم على تلميذِه الفدائي، فصارَ ذلك التلميذُ المشبَّهُ أمامَ الناس عيسى المشَبَّهَ به تماماً.

وأخذَ اليهودُ والجنودُ عيسى الثاني الشَّبَه، وقَتَلوه وصلبوه، لكن عيسى ابنَ مريم الحقيقي رسول الله لم يقتلوه ولم يصلبوه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾:

الهاء في «فيه» ضميرٌ يعودُ على القتلِ والصلب. والهاءُ في «منه» ضميرٌ يعودُ على القتلِ والصلب أيضاً.

فهناكَ شخصٌ مقتولٌ مصلوب، يشبهُ عيسى تماماً، لكن مَنْ هو؟ أَهو عيسى الحقيقي أم عيسى الشبه؟

اختلَفوا في ذلك القتلِ والصلب على مَنْ وقع!!

و﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ ينطبقُ على الطائفتين: اليهودِ الذين قالوا: إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسول الله. والنصارى الذين قالوا: رسولُنا عيسى قتلَه وصلَبه اليهود.

كانت الطائفتان في شكٍّ من هويةِ المقتولِ المصلوب.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾: ليس عندَ اليهودِ والنصارى علمٌ جازمٌ يقينيٌّ في المقتولِ المصلوب، هل هو عيسى أم غيره.

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾: بعدما نفى عن اليهودِ والنصارى العلمَ بهويةِ المقتول، أَثبتَ لهم الظنَّ فيه، وأَنكرَ عليه اتباعَ ذلك الظن، الذي لا يقودُ إلى يقين.

و«اتباعَ» منصوبٌ على الاستثناء. والراجحُ عند الجمهور أنَّ هذا الاستثناءَ منقطع. ومعلومٌ أنَّ الاستثناءَ في الاستثناءِ المنقطع لا يكونُ من جنس المستثنى منه.

وهذا معناهُ أنَّ الجملةَ السابقة ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ نَفَتْ عنهم العلمَ بهويةِ المقتول، والمستثنى «إلاّ اتباعَ الظن» سَجَّلَ عليهم اتباعَ الظنِّ والوهم، وهذا الظنُّ يقودُ إلى الحيرة والشك.

وكأنَّ جملةَ «إلاّ اتباع الظن» تعليلٌ لسببِ الشكِّ الذي حلَّ بهم في الجملةِ السابقة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾.

والمعنى: شاهدَ اليهودُ والنصارى شخصاً مقتولاً مصلوباً يُشبهُ عيسى شَبَهاً تامّاً كاملاً، فاختلَفوا في تحديدِ هويته، أَهو عيسى أمْ غيرُه، ولم يُحققوا في ذلك علماً، وصاروا في شكٍّ وحيرة، لأَنهم اتبعوا الظن، واتباعُ الظنِّ يقودُ للشك، ولا يوصِلُ صاحبه إلى علم.

معنى قوله: «وما قتلوه يقيناً»:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾: بعدما نفى عنهم العلمَ بهويةِ المقتول، نفى عن اليهودِ القتلَ اليقينيَّ لعيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

وجمهورُ المفسرين على أنَّ الضميرَ الهاءَ في «ما قتلوه» يعودُ على عيسى عليه السلام. أي: ما قتلوا عيسى متيقِّنين أنه عيسى، بل كانوا في ذلك شاكّين متوهِّمين.

وذهبَ بعضُ علماءِ التفسير إلى أنَّ الضميرَ الهاءَ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ يعودُ على الظن، المذكورِ في الجملة السابقة: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾!!

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾: لم يقتلوا ظَنَّهم يقيناً.

وقال السّدّي: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾: وما قتلوا أَمْرَه، يقيناً أنَّ الرجلَ المقتول هو عيسى عليه السلام.

والتقديرُ على قولِ ابن عباس والسدي: ما قتلَ اليهودُ ظنهم في المقتولِ يقيناً!

أي أنَّ اليهودَ ما قتلوا ظنهم في المقتولِ يقيناً، فلم يتيقَّنوا أنَّ هذا المقتول عيسى، كما لم يتيقَّنوا أَنه غيرُ عيسى، وظلَّ الظنُّ والشكُّ مسيطراً عليهم، لأن المقتولَ يشبهُ عيسى، مع أَنه في الحقيقة شخصٌ آخر غيرُ عيسى![1].

ولا نَرى تعارضاً ولا تناقضاً بين قولِ الجمهور في عودةِ الهاء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ على عيسى عليه السلام، وبين قولِ ابنِ عباس والسُّدِّيِّ ومَنْ معهما في عودتِه على الظن، فالقولُ الأول يوصلُ إِلى القولِ الثاني وينتهي إِليه!

فاليهودُ قَتلوا شخصاً يُشبه عيسى في الظاهر، ولكن ما قَتلوا عيسى ابنَ مريم رسولَ الله يقيناً، وما كانوا عالِمين بذلك متيقِّنين منه، فأَحياناً كانوا يقولون: إِنه عيسى، وأَحياناً كانوا يقولون: إِنه شخص آخرَ يُشبهه، وبقوا ظانّين في ذلك المقتول، شاكّين في هويته.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٨٢.

وحاولوا أنْ يُزيلوا الظن، ويَخرجوا منه إلى علمٍ ويقين، فلم يستطيعوا، وبقوا ظانّين شاكّين، وبذلك لم يقتلوا ظنَّهم يقيناً.

تقول: قتلْتُ هذا الأمْرَ علماً ويَقيناً. أي: تحققْتُ منه.

فلما قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ كأنه قال: ما صحَّ ظنُّهم عندَهم أنَّ المقتولَ عيسى، وما تحقَّقوا ظنَّهم يقيناً، وما قطعوا الظَّنَّ باليقين..[1].

نفى اللّهُ عن اليهودِ اليقينَ في قتلِ عيسى عليه السلام، لأنَّ اليقينَ هو نقيضُ الشكِّ والظن، وبما أنهم شاكّون ظانّون في الأمر فأنّى يأتيهم اليقين؟

قالَ الإمامُ الراغبُ عن اليقين: «اليقينُ: من صفةِ العلم، فوقَ المعرفةِ والدراية وأَخَواتها.

يقال: علمُ يقين، ولا يُقال: معرفةُ يقين.

واليقين هو: سكونُ الفهمِ مع ثَباتِ الحكم.

وقولُه عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: ما قَتلوه قَتْلاً تَيقَّنوه، بل إنما حَكَموا حكماً تخميناً ووهماً..»[2].

لقد قَتَلوا شخصاً ظَنّوه عيسى، لكنهم ما قَتَلوا عيسى يقيناً.

ما قتلوا عيسى لأن الله رفعه إليه:

وإذا كانوا ما قتلوا عيسى ابنَ مريم رسولَ الله فأينَ عيسى إذن؟ وماذا كانتْ نهايتُه؟ وماذا جرى له في تلكَ الليلة؟

الجوابُ في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾.

و«بل» حرفُ إِضرابٍ وإِبطال.

---

(١) الدر المصون ٤:١٤٨.

(٢) المفردات: ٨٩٢ ـ ٨٩٣.

تَمَّ فيها الإِضرابُ عن الكلامِ السابق وإِبطالُه وإِلغاؤه، وهو مزاعمُ اليهودِ بقتل عيسى.

إنَّ قولَه: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ إبطالٌ وإِلغاءٌ لقول اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

وهو صريحٌ في أنَّ اللّهَ رفعَه بروحِه وبدنِه حياً، من سقْفِ البيتِ إلى السماء.

لقد وعدَ اللّهُ عيسى قبلَ تلك الحادثة أنْ يتوفّاه ويرفَعَه إليه، وذلك في قوله له: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إنّي سأُلقي عليك النوم، ثم أَرفعُك إليّ، وبذلك أُطهِّرُك من الذين كفروا!

ولما صارَ عيسى في الخطر، وجاءَ اليهودُ والجنودُ لقتْلِه وصلْبِه، حقَّقَ اللّهُ له وعدَه، وتوفّاه وأَلقى عليه النوم، ثم جعلَ فتحةً في سقف البيت، ورفَعَه إليه في السماء، وكان رفعُه بروحِه وبدنِه، رفْعاً ربانياً خاصاً، هو آيةٌ بينة، ومعجزةٌ باهرة.

وعَقبت الآيةُ على رفع عيسى إلى السماءِ بالإشارة إلى عزة الله وحكمته: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. وهذا تعقيبٌ يتناسبُ مع ما قبله.

فاللّهُ عزيزٌ قويٌّ قادرٌ قاهر، ينصرُ أولياءَه بعزَّته، ويحفظُهم ويفرجُ عنهم بعزته، ويَحميهم من أَعدائِهم بعزته، ولذلك رفعَ عيسى عليه السلام إليه وأَنجاه من مكرِ اليهود بعزته.

واللّهُ حكيمٌ في تدبيرِه وتقديرِه وقضائِه وتصريفِ أُمورِ خلقه، ومن حكمته إنجاءُ رسوله عليه السلام بتلكَ الطريقةِ الباهرة، وإِيقاعُ أَعدائِه في الحيرةِ والظَّنّ والشّكّ والوهم.

تأكيد القرآن على تكذيب اليهود بشأن قتل عيسى:

وعندما ننظرُ في حديثِ القرآنِ عن أحداثِ تلك الليلة فإننا نرى تأكيدَ اليهودِ على قتل عيسى، ذلك التأكيدُ الذي ظهرَ في قولهم: ﴿إِنَّا

﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ حيثُ جمعوا بين اسمِه ووصفِه ولقبِه، للتأكيدِ على جزمهم بقتلِه.

ونرى أيضاً تأكيدَ القرآنِ على تكذيبِهم في تأكيدِهم، باستخدامِ ثلاثِ جملٍ منفية: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

نفىٰ قتْلَهم له، ثم أَكَّدَ ذلك بنفيِ صلْبِهم له، والنفيانِ متلازمان، فبما أَنهم لم يَقْتُلوه، فإنهم لم يَصْلُبوه.

والنفيُ الثالث: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يشيرُ إلى المقتولِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، حيثُ عرفْنا أَنهما شخصان، كلٌّ منهما يحملُ شكلَ عيسى الخارجي، عيسى الأولُ الحقيقيُّ رسولُ الله، الذي أرادَ اليهودُ قتْلَه، وعيسى الثاني المتحوِّلُ الذي فدى عيسى الرسولَ بنفسه.

اليهودُ قَتَلوا عيسى الثانيَ المتحوِّلَ وصَلَبوه، جازمين أنه عيسى الحقيقيُّ الرسول، وتبجَّحوا بقولهم: إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسولَ الله، إنهم ما قتلوا عيسى رسول الله يقيناً، لأَنَّهم في الحقيقة قتلوا عيسى الثانيَ المتحوِّلَ.

لماذا وقعوا في هذا الاضطراب؟

لأنَّ اللّهَ رفعَ عيسى الأَوَّلَ رسولَه إليه، ولم يُشاهد اليهودُ رفْعَه، وأَلقى شبهَه على الفدائيِّ الشهيد، الذي قتلوه وصلبوه.. وبذلك كانوا في شكٍّ ووهم وظنٍّ في الحقيقة بهويةِ القتيل، وليس عندهم علمٌ ولا يقين ولا جزم!

وبما أنَّ اليهودَ لم يقتلوا عيسى رسول الله، وإنما رفعَهُ اللّهُ إليه، فهو حيٌّ عندَه في السماء، لم يَمُتْ، وسينزلُ في آخرِ الزمان بأمرِ الله، ويعيشُ باقي عمرِه الذي قدَّرَهُ اللّهُ له، وسيؤمنُ به أهلُ الكتاب الذين يكونون أحياءَ عند نزولِه على أنه عبدُ الله ورسولُه. وقد أَشارَ إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

وبما أنَّ هذه الآيةَ تتعلقُ بالمبحثِ القادم، لهذا نرجئُ الحديثَ عنها إلى أن نتكلمَ عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان، بعون الله.

اضطراب الأناجيل في أحداث تلك الليلة، وأقربها إنجيل برنابا:

وقبلَ أنْ نغادرَ هذا المبحثَ عن رفعِ عيسى إلى السماء، وإلقاءِ شبهه على أحدِ تلاميذه، وقتْلِ اليهود وصلبِهم له لأنه شُبِّهَ لهم، وعدم قتلِ المسيح عيسى عليه السلام لأنَّ اللّهَ رفعَهُ إليه، نشيرُ إلى أنَّ الأناجيلَ الأربعة: متى، لوقا، مرقس، يوحنا، وهي المعتمدةُ عند النصارى اضطربَتْ في حديثها عن أحداث الليلةِ الأخيرة من حياةِ عيسى عليه السلام على الأرض اضطراباً كبيراً، واختلفَتْ اختلافاً بيناً، وتناقضَتْ تناقُضاً واضحاً، صَيَّرَ النصارى المؤمنين بهذه الأناجيل، وجَعَلَهم في شكٍّ واضطراب، لا يَعرفونَ ماذا جرى في تلك الليلة.

وأَقربُ ما سُجِّلَ في تلكَ الأناجيل من الحقيقةِ القرآنية التي عَرَضْناها، هو ما وردَ في إنجيل «برنابا»، وهو الإنجيلُ الذي لا يؤمنُ به النصارى، ولا يعتمدونَه.

يرى «برنابا» ـ وهو أحدُ حوارِيّي عيسى عليه السلام ـ أنَّ أحدَ الحوارِيّين وهو «يهوذا الإسخريوطي» هو الذي وشى بعيسى وتآمَرَ عليه وخانَه، واتفقَ مع اليهودِ للمجيء إليه واعتقالِه، ولما جاءَ بهم أَلقى اللّهُ شَبَهَ عيسى عليه، فأَخَذوا «يهوذا» وصَلبوه على أنه عيسى.

ويختلفُ برنابا في هذه النقطةِ مع ما سبقَ ذكْرُه من قولِ ابن عباس وجمهورِ العلماء، من أنَّ المشَبَّهَ الفدائيَّ هو أحدُ الحواريين الصالحين، تبرعَ وتطوَّعَ ليُقتلَ ويَنجوَ عيسى عليه السلام، واللّهُ أعلم بالذي حصل.

وردَ في الفصلِ الحادي عشر بعد المئتين من إنجيل برنابا أنَّ عيسى عليه السلام أَخبرهم قبلَ أَيامٍ من الحادثة، أنه حانَ وقْتُ مغادرتِه

لهذا العالم: «ولما كانَ يسوعُ في بيتِ «نيقوديموس» وراءَ جدول «قَدْرون» عَزّى تلاميذَه قائلاً: لقد دنت الساعةُ التي أَنطلقُ فيها من هذا العالم، (!!) تَعَزَّوْا، ولا تحزنوا، لأنني حيثُ أَمضي لا أَشْعُرُ بمحنة..»[1].

ووردَ في الفصلِ الثالث عشر بعدَ المئتين من إِنجيل برنابا حوارٌ بينَ عيسى عليه السلام وبين الحواريّين ومنهم يهوذا الإسخريوطي:
«وقال يسوع أيضاً: الحقُّ أَقولُ لكم: إنَّ واحداً منكم سيسلِّمُني، فأُباعُ كخروف، ولكن ويلٌ له، لأنه سيتمُّ كلُّ ما قالَ داودُ أَبونا عنه أنه «سيسقطُ في الهوةِ التي أَعَدَّها للآخرين».
فنظرَ من ثَمَّ التلاميذُ بعضُهم إِلى بعضٍ قائلين بحزن: مَنْ سيكونُ الخائن؟

فقال حينئذ يهوذا: أَأَنا هو يا معلم؟

أَجابَ يسوع: لقد قلتَ أَنتَ لي من الذي سيسلمني..»[2].

رواية برنابا للأحداث:

وخصَّصَ الفصلَ الخامس عشر والسادس عشر بعد المئتين في الإنجيلِ للحديثِ عن ليلةِ رفعِ عيسى والقبضِ على الخائن.

قال: «ولما دَنت الجنودُ معَ يهوذا من المحلِّ الذي كان فيه يسوع، سمعَ يسوعُ دنوَّ جمعٍ غفير، فلذلك انسحبَ إِلى البيتِ خائفاً (!!) وكان الأحدَ عشر نياماً.

فلما رأى اللّهُ الخطرَ على عبدِه أَمَرَ جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءَهُ أَنْ يأخذوا يسوعَ من العالم، فجاءَ الملائكةُ الأطهار، وأَخذوا يسوعَ من النافذةِ المشرفةِ على الجنوب، فحملوه، ووَضَعوه في السماءِ الثالثة، في صحبةِ الملائكةِ التي تسبِّحُ اللّهَ إِلى الأبَد.

---

(1) إنجيل برنابا. تحقيق سيف الله فاضل: ٢٨٤.

(2) المرجع السابق: ٢٨٧.

ودخلَ يهوذا بعنفٍ إلى الغرفةِ التي أُصعدَ منها يسوع، وكان التلاميذُ كلُّهم نياماً.

فأتى اللّهُ العجيبُ بأمرٍ عجيب، فتغيَّرَ يهوذا في النطقِ وفي الوجه، فصارَ شَبَهاً بيسوع، حتى اعتقَدْنا أنه يسوع!!

أَما هو فبعدَ أنْ أيقَظَنا أخذَ يفتش، لينظرَ أين كان المعلِّم، لذلك تعجَّبْنا وأَجَبْنا: أنتَ يا سيّد هو معلِّمُنا، أنسيتَنا الآن؟

أَمّا هو فقد قالَ مبتسماً: هل أَنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الإسخريوطي.

وبينما كان يقولُ هذا، دخلت الجنود، وأَلقوا أَيديهم على يهوذا، لأنه كانَ شبيهاً بيسوعَ من كلِّ وجه.

أما نحنُ فلما سمعْنا قولَ يهوذا ورأَيْنا جمهورَ الجنود هَرَبْنا كالمجانين، ويوحَنّا الذي كان ملْتَفّاً بملحفةٍ من الكِتّان استيقظ وهرب، ولما أَمسكه جندي بملحفةِ الكتّان تركَ ملحفةَ الكتّان وهربَ عرياناً.. لأنَّ اللّهَ سمعَ دعاءَ يسوع، وخلص الأحدَ عشرَ من الشر!!..

فأخذَ الجنودُ يهوذا، وأَوثقوه، ساخِرين منه، لأنه أَنكرَ وهو صادق أَنه يسوع.

فقالَ الجنودُ مستهزئين به: يا سيدي: لا تخفْ لأَنّنا قد أَتينا لنجعلَكَ مَلِكاً على إسرائيل، وإنما أَوْثَقْناك لأننا نعلمُ أَنك ترفضُ المملكة!

أَجابَ يهوذا: لعلكم جُننتم: إنكم أَتيتُم بسلاحٍ ومصابيح لتأخذوا يسوعَ الناصريَّ كأنه لصّ، أفتوثقونني، أَنا الذيَ أرشدْتُكم؟.... إلخ»[1].

(١) إنجيل برنابا. المرجع السابق: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

ويكملُ برنابا سردَ القصةِ إِلى أَنْ صُلبَ يهوذا الإسخريوطي ودُفن، على أَنه عيسى لأنَّ اللّهَ أَلقى شبهَ عيسى عليه[1].

وهذا العرضُ من برنابا وهو شاهدُ عيان يتوافقُ مع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾.

[١٦]

القرآن يقيم الحجة على النصارى

عيسى عبد الله ورسوله ودعوته إلى توحيد الله:

عيسى ابنُ مريم عبدُ الله ورسولُه، عليه الصلاة والسلام، بعثَهُ اللّهُ نبياً رسولاً إِلى بني إسرائيل.

وتقومُ رسالتُه على توحيدِ الله، وإِفرادِه بالألوهية والربوبية، ودعوةِ بني إِسرائيل إِلى عبادةِ الله وحده، ومطالبتِهم بالإِيمانِ بأنه عبدُ الله ورسولُه، وأنه ابنُ مريم، فهو رسولٌ بشرٌ عليه الصلاة والسلام.

هذه هي خلاصةُ دعوةِ عيسى عليه السلام ورسالتِه، وهذه هي «النصرانية» الموحِّدَة، التي دعا إِليها عيسى عليه السلام، وعلى هذا الأساسِ آمنَ به الحواريون واتَّبعه النصارى الموحِّدون.

فها هو عيسى عليه السلام، يصرحُ بأنَّه عبدُ الله، عندما أَنطقه اللّهُ وهو على حضنِ أُمه. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١].

ولما أنزلَ اللّهُ على عيسى عليه السلام الوحيَ، وكلَّفه دعوةَ بني إسرائيل كان جوهرُ دعوتِه توحيدَ الله، ومطالبتَهم بعبادةِ اللّهِ وحده، ربِّه وربِّهم، ووردَ هذا صريحاً في القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ

---

(١) انظر إنجيل برنابا. الفصل السابع عشر والثامن عشر بعد المئتين: ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

إنَّ عيسى يصرحُ بأنه عبدٌ لله، ويطالب بني إسرائيل بعبادةِ الله وحده، ويقررُ حقيقةً إيمانيةً قاطعة، وهي أنَّ اللّهَ ربُّه هو، وربُّ بني إسرائيل، وربُّ العالمين أجمعين، ويُبينُ أنَّ كلَّ مَنْ أشركَ بالله فهو كافرٌ به، وهو مخلدٌ في نارِ جهنم.

هذا ما كانَ يبينُه عيسى عليه السلام بوضوح وتحديد، ألوهيةُ اللّهِ وحده، وعبوديةُ كلِّ مَنْ سواه له. وما ادّعى عليه السلام يوماً أنه إِله، أَو أنه ابنٌ لله، أو أنَّ اللّهَ أبٌ له، وما دعا يوماً إِلى تأليهِه وعبادته.

وعندما يسألُه اللّهُ يومَ القيامة عن تأليهِ كفار النصارى له، يتبرأُ منهم، ويصرحُ أَنهم كَذَبوا عليه، ونسبوا له ما لم يقلْه، وأَنه ما دَعاهم إلاّ إِلى عبادةِ الله وحده، ربّه وربهم. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

ما قالَه لهم هو ما أَمره اللّهُ به، وما دعاهم إِليه هو ما كلَّفه اللّهُ به، هذه هي النصرانيةُ الصحيحة: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ..﴾.

وقررَ اللّهُ عبوديةَ عيسى عليه السلام له. قال تعالى: ﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩].

عيسى ابنُ مريم عليه السلام هو عبدٌ من عبادِ الله الصالحين، عبدُ الله ورسولُه، جعلَ اللّهُ خلقَه بدون أب آيةً ومَثَلاً لبني إسرائيل، وأَحاطَ مولده بعددٍ من الآياتِ والمعجزات، ولما بعثَه نبياً رسولاً أَجرى على يديه عدداً من الآياتِ والمعجزات، وكان عيسى عليه السلام يصرحُ بعبوديتِه لله، ويطلبُ من المدعوّين عبادةَ الله وحده. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤].

النصرانية من التوحيد إلى التثليث:

وكان أَتْباعُه على هذه العقيدة، موحِّدين لله، مؤمنين أنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وأن اللّهَ ليس له صاحبةٌ ولا ولدٌ، وما جالَ بخاطرِهم لحظةً أنْ يكون عيسى إِلهاً أو ابناً لله!

وبقيت النصرانيةُ موحِّدة، على صفاءِ التوحيد ونقائِه، بعد فترةٍ من رفعِ عيسى إلى السماء، إلى أنْ دخلتْ عواملُ خارجيةٌ طارئة عليها، فتسربَ الشركُ إليها، وبدأ هذا على يدِ اليهوديِّ «شاول» الذي ادَّعى النصرانية، وتسمّى باسم «القديس بولس»، وصارَ يدعو إِلى تأليهِ عيسى، ويقدمُ أَفكاراً غريبةً على النصرانيةِ الصحيحةِ الصافية!

وبدأَ الشركُ يَغزو النصرانية، وصارَ النصارى يعتنقون أَفكارَ اليهودي «شاول» ـ أو القدّيس بولس فيما بعد ـ وانتشرَ القولُ «بالتثليث» فيما بينهم، وحوربَ النصارى الموحِّدون لله، المؤمنون ببشريةِ عيسى عليه السلام، واعْتُمِدَ مذهبُ بولس وأَتْباعُه، المؤلِّهين لعيسى[1].

ولقد مَرَّ معنا قولُ ابن عباس عن اختلافِ النصارى بشأنِ عيسى عليه السلام: «وافترقوا ثلاثَ فرق:

---

(١) انظر كتاب «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» للدكتور محمد الحاج.

فقالتْ فرقة: كان اللّهُ فينا ما شاء، ثم صعدَ إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية.

وقالتْ فرقة: كان فينا ابنُ الله ما شاء، ثم رفعه اللّهُ إليه، وهؤلاء النسطورية.

وقالتْ فرقة: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله، ثم رفعه اللّهُ إليه، وهؤلاء هم المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتَلوها، فلم يزل الإسلامُ طامساً، حتى بعثَ اللّهُ محمداً ﷺ..»[1].

واختلافُ النصارى في عيسى عليه السلام، وتأليهِ معظمِ طوائفِهم له انحرافٌ بالنصرانية عن أصلِها الصحيح، وتركٌ لما جاءهم به نبيُّهم عيسى عليه السلام، وقد عاقبهم اللّهُ بأنْ أوقعَ بينهم العداوةَ والبغضاء. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ...﴾ [المائدة: ١٤].

الرهبانية المبتدعة الباطلة:

وقد أخبرَنا اللّهُ أنَّ النصارى حَرَّفوا دينهم بعدَ رفعِ عيسى عليه السلام إلى السماء، واتبعوا الباطل. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فاللّهُ بعثَ عيسى ابنَ مريم عليه السلام رسولاً، وأنزلَ عليه الإنجيل، وآمَنَ به صالحون من بني إسرائيل وغيرهم.

﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾. هذا ثناءٌ من الله

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٥٤٤.

على المؤمنين السابقين الصالحين من النصارى، وهم الموحِّدون الذين آمنوا أنَّ عيسى هو عبدُ الله ورسولُه.

فاللّهُ أَوجدَ في قلوبهم رأفةً ورحمة، والرأفةُ أَخَصُّ من الرحمة، صفةٌ قلبية وخُلُقية رفيعةٌ عالية.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ..﴾: الواوُ هنا استئنافيةٌ وليست عاطفةً على الراجح.

و﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبةٌ على «الاشتغال». ويكون العاملُ في نصبها فعْلاً مقدَّراً، يفسِّره ما بعده «ابتدعوها». والتقدير: وابتدعوا رهبانيةً مبتَدَعَة، ما كتبناها عليهم، ولا أَوجبناها عليهم، لكنهم هم الذين ابتدعوها وأَحدثوها، ثم التزموها.

و﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: مصدرٌ صناعي من «الرهبان». رجالِ الدين النصراني.

و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: في محلِّ نصبِ صفةٍ للرهبانية: رهبانيةً مبتدعةً.

و﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾: في محلِّ نصبِ صفةٍ أُخرى لها: رهبانيةً مبتدعةً غيرَ مكتوبة عليهم.

وهاتان الصفتان لذمِّ الرهبانية، وذمِّ أهلها الرهبان، فهم الذين أَحدثوها وابتَدعوها، واللّهُ لم يكتبْها ولم يفرضْها عليهم.

و﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء.

و﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾: استثناءٌ منقطع، على الراجح، وهو ليس من جنسِ المستثنى منه، ويكون هذا الاستثناءُ لتأكيدِ ابتداعِهم لها، وتأكيدِ أنَّ اللّهَ لم يكتبها عليهم.

والتقدير: تلك الرهبانيةُ المبتدعةُ ما كتبناها عليهم، ولكنهم ابتدعوها طالبين بذلك رضوانَ الله كما زعموا.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: هذا ذمٌّ آخرَ للرهبان، فرغم أَنهم

ابتدعوا الرهبانية، وزَعموا أَنهم مبتغونَ وجْهَ اللّهِ فيها، وهي مبتدعةٌ محدثة، إلاّ أَنهم لم يلتزموها، ولم يرعوْها حقَّ رعايتها، بل حَرَّفوها وبَدَّلوها[1].

وخلاصةُ موضوعِ الآية أن اللّهَ جعلَ في قلوب النصارى السابقين الموحِّدين رأفةً ورحمة، ولكن جاءَ أناسٌ آخرون بعدهم خالَفوا الإنجيل، وابتدعوا رهبانية، لم يكتبْها اللّهُ عليهم ولم يأمرهم بها، لكنّهم زَعموا أَنهم يلتزمونها ابتغاءَ رضوانِ الله، ومع ذلك خَرجوا عليها، وما رَعوها حقَّ رعايتها!!

وقَبِلَ اللّهُ عبادةَ المؤمنين الصالحين الموحِّدين منهم، وآتاهم أَجرهم، وهم قلائل، لكنَّ كثيراً من النصارى فاسقون كافرون، ألَّهوا عيسى عليه السلام، فاستحقوا بذلك العقابَ من الله.

قالَ قتادة: الرهبانيةُ ابتدَعَها قومٌ من عندِ أنفسهم، ولم تُكتبْ عليهم، ولكنهم ابتغَوْا بذلك رضوانَ الله، فما رعَوْها حقَّ رعايتها، حيثُ رفضوا النساء، واتخذوا الصوامع.

وقال ابن زيد: ابتدعوا الرهبانيةَ رضوانَ الله تطوُّعاً، فما رعوها حقَّ رعايتها.

وقال الضحاك: اعتزلوا الناس، وصاروا في الصوامع، فلم يزالوا كذلك حتى غيَّرتْ طائفةٌ منهم، فتركوا دينَ الله وأمْرَه وعهدَه الذي عَهِدَ به إليهم، وأخذوا بالبدع، فابتدعوا اليهوديةَ والنصرانية[2].

ذم النصارى لغلوهم في عيسى ودعوتهم إلى توحيد الله:

ذمَّ اللّهُ النصارى لغلوِّهم في عيسى عليه السلام وتأليهِهم له،

---

(١) في إعراب هذه الآية إشكال وأقوال عديدة، وما ذكرناه هو الراجح المتفق مع السياق والله أعلم. انظر في إعرابها: الدر المصون للسمين الحلبي ١٠: ٢٥٤ ـ ٢٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٧: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ودَعاهم إلى الإيمانِ بأنه عبدُ الله ورسولُه، واليقينِ بأنَّ اللّهَ وحدَه ربُّ العالمين، لا شريكَ ولا ولدَ له. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

تبينُ هذه الآياتُ أساسَ الانحرافِ عند النصارى، الذي دَفعهم إلى تأليهِ عيسى عليه السلام، ألا هو الغُلُوّ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ..﴾.

غالى النصارى في النظرِ إلى عيسى عليه السلام، وبالَغوا في إطرائه، والكلامِ عنه، وخَرجوا عن الصوابِ في النظرِ إلى خلْقِه ومعجزاتِه وآياته، وما تصوروا أنْ يكونَ مخلوقاً بشراً، وتصدرَ عنه تلك المعجزات والآيات، ولهذا قالوا بأنه ابنٌ لله!!

وقد دَعانا رسولُنا محمد ﷺ إلى عدمِ المبالغةِ في إطرائه ومدحه، وعلومِ الغلُوِّ في النظرةِ إليه، لئلا نفعلَ كما فعلَ النصارى مع عيسى عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه سمعَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تَطْروني كما أَطْرَت النصارى عيسى ابنَ

مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»[1].

كفر النصارى القائلين بأن الله هو عيسى ابن مريم:

وكانت آياتُ القرآن صريحةً في تكفيرِ النصارى الذين قالوا: إن اللّهَ هو المسيحُ ابن مريم. وقد فَنَّدَتْ كفرهم، وبينتْ أنَّ عيسى وأمَّه عاجزان عن دفعِ أمرِ الله، إذا شاءَ إنزالَه بهما. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

كان النصارى بالنسبةِ إلى تأليهِ عيسى عليه السلام ثلاثَ فرق، وقد نصَّ القرآنُ على كفرِ كلِّ فرقةٍ ألّهتْه.

الفرقةُ الأولى: قالَتْ: إنَّ اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم، وهم كفار، ومخالِفونَ لدينِ عيسى عليه السلام ودعوتِه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فالآيتان: ١٧ و٧٢ من سورةِ المائدة تنصّان على كفرِ هؤلاء النصارى الذين قالوا إن اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم..

كفرِ النصارى القائلين بإلهين اثنين:

الفرقةُ الثانية: قالت: إنَّ المسيحَ ابنُ الله، وأَنه إلهٌ مع الله، وأَنهما إلهان اثنان: الآبُ إله، والابنُ إله آخر.

وقد ردَّ القرآنُ عليهم في أكثرَ من موضع:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٨٢٩. ومسلم برقم: ٢٣٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٩١.

منها قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

لماذا يكونُ له ولد، وهو لا يَحتاجُ إلى مَنْ يساعده، فله كلُّ ما في السموات، وكلُّ ما في الأرض، وهو وحده الوكيلُ على كلِّ شيء، وكفى به وكيلاً..

ومنها قولُه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٢].

من أين يكونُ له سبحان ولد؟ وهو ليستْ له صاحبة، وهو لا يحتاجُ إلى ولد لأنه خلَقَ كلَّ شيء.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

إنها فريةٌ عظيمة، ومنكرٌ فظيع، تكادُ السمواتُ يتفطرن من فظاعتها، والأرضُ تكادُ تنشق، والجبالُ تكادُ تَخِرُّ هداً، ولا ينبغي للّهِ الرحمن أنْ يتخذ ولداً، وهو المالكُ لكلِّ شيء، وكلُّ الأحياء في السموات والأرض يأتونه عبيداً يومَ القيامة.

ومن أَجمعِ الآيات في الردّ على الكفار النصارى وغيرِهم في نسبةِ الولد إلى الله، آياتُ سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وذمَّ اللّهُ النصارى الذين عبدوا إلهيْن اثنيْن، الذين جعلوا اللّهَ الأبَ إلهاً، وجعلوا يسوعَ الابنَ إلهاً، أو الذين جعلوا عيسى إلهاً، وجعلوا أُمَّه إلهاً آخر. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل: ٥١].

وبَيَّنَ كفرَ هؤلاء من خلالِ براءةِ نبيِّ اللّهِ عيسى منهم يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

كفر النصارى القائلين بالتثليث:

الفرقةُ الثالثة: الذين قالوا: إنَّ اللّهَ ثالثُ ثلاثة، وهم دعاةُ التثليث، الذين قالوا: بالأَقانيمِ الثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس.

نهاهم اللّهُ عن القولِ بالتثليث في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا..﴾ [النساء: ١٧١].

فإنْ لم يَنتهوا عن القولِ بالتثليث، فهم كفارٌ بالله. قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ [المائدة: ٧٣].

ونلاحظُ أنه في كلِّ آيةٍ من الآياتِ السابقة التي كانت تبين كفرَ النصارى بطوائفهم الثلاثة، كان النصُّ على وحدانيةِ الله.

اللّهُ ليس له ولد، لأنه إله واحد: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [النساء: ١٧١].

وهو إله واحد، وليس معه إله آخر: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

وليس هناك آلهةٌ ثلاثة، لأنه إله واحد: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

والنتيجةُ أنَّ اللّهَ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَد لم يلدْ ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، كما نصتْ سورةُ الإخلاص.

وبَيَّنَ القرآنُ أنَّ النصارى الذين قالوا بأنَّ اللّهَ معه إله أو إلهان أو ثلاثة، إنما كانوا مقلِّدين ومتابعين للكفارِ الذين سبقوهم، وهذا الكفرُ لم يأمرهم به عيسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١].

ودحضَ القرآنُ فكرةَ ألوهيةِ عيسى وأمِّه، بتركيزِه على بشريتِهما. قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٥ ـ ٧٧].

عيسى بَشَرٌ رسول، وأُمُّه مريم صدّيقة صالحة، وهما ليسا إلهين،

لأنهما بَشَران ضعيفان مخلوقان، يحتاجان إلى أكلِ الطعام، وإلى تصريفِ فضلاته، وإنْ مُنِعَ ذلك عنهما ماتا، وهما لا يملكانِ لأنفسهما ولا لغيرهما ضَراً ولا نفعاً. فكيف يكونان إلهين وهما بهذه الصفات البشرية العاجزة؟

آيات سورة آل عمران في جدال نصارى نجران:

وأنزلَ اللّهُ هذه الآيات من سورةِ آل عمران في محاجَّةِ نصارى نجران لَما جاءوا إلى رسولِ الله ﷺ في المدينة، يجادلون بشأنِ عيسى عليه السلام، ويزعمونَ ربوبيته وألوهيته.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨ ـ ٦٨].

نقدمُ هذه الآيات الكريمةِ في جدالِ النصارى وإقامةِ الحجة عليهم، وإبطالِ ألوهيةِ عيسى عليه السلام، ولا نتكلمُ عن تفسيرِها

واستخلاصِ بعض حقائقها، فالمجالُ لا يسمحُ بهذا، ونَدعو الإخوةَ القراءَ إلى العودةِ إلى كتب التفسير لتحقيقِ ذلك.

الثناء على النصارى الموحدين الداخلين في الإسلام:

وبينما ذمَّ القرآنُ النصارى الكفار، الذين زَعموا أنَّ عيسى عليه السلام إلهاً أو ابناً لله، فقد أثنى القرآنُ على النصارى الموحِّدين، المؤمنين أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ الله ورسولُه، والذين آمَنوا بعد ذلك أن محمداً هو رسولُ الله ﷺ، فأَسلموا واتَّبعوه.

قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٦].

هذه الآياتُ نزلتْ في الثناءِ على موقفِ النجاشي ومَنْ معه، الذين تأثَّروا لما سمعوا آياتِ القرآن، وعَرَفوا أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ وتنطبقُ هذه الآياتُ على أيِّ نصارى في أيِّ زمانٍ ومكان، يَقفون هذا الموقف، فيؤمنون أنَّ عيسى عبدُ الله ورسوله عليه السلام، ثم يؤمنون أنَّ محمداً هو عبدُ الله ورسولُه ﷺ، ويَدخلون في الإسلام، ويكونون مسلمين صادقين.

وهكذا عَرَفْنا أنَّ القرآن أقامَ الحجةَ على النصارى، ونقضَ مزاعِمِهم حولَ كونِ عيسى إلهاً أو ابناً لله أو ثالثَ ثلاثة، وأَثبتَ أنه عبدُ الله ورسولُه عليه الصلاة والسلام!!

[١٧]

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

عَرَفْنا أنَّ اللّهَ رفعَ عيسى عليه السلام إِليه، وأنه الآنَ حيٌّ في السماء، حياةً خاصةً غيبية.

رسولنا يلتقي عيسى في السماء الثانية:

وقد التقى به رسولُنا ﷺ في رحلةِ الإسراءِ والمعراج، التقى به أَوَّلاً في المسجدِ الأقصى، عندما صلّى رسولُ الله ﷺ بالأنبياءِ إِماماً، وكان عيسى عليه السلام مأموماً خلفه.

ثم التقى به ثانياً لَمّا عُرِجَ به إِلى السماء، حيثُ أَخبرنا أنه قابلَ عيسى عليه السلام في السماءِ الثانية.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صَعْصَعَة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج: «... فأتينا السماءَ الثانية، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: مَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: أُرسلَ إِليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعمَ المجيء جاء.

فأَتيتُ على عيسى ويحيى. فقالا: مرحباً بك من أخٍ ونبي...»[١].

رسولنا يصف لنا عيسى ابن مريم:

وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن بعضِ صفاتِ عيسى عليه السلام الخَلْقية، وهيئتِه الخارجية.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ليلةَ أُسريَ بي رأيتُ موسى، فإذا هو رجلٌ ضَرْب، كأنه من رجالِ شَنوءَة.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٢.

ورأيتُ عيسى، فإذا هو رَجُلٌ رَبْعَةٌ، أَحمر، كأنما خرجَ من ديماس...»[1].

الرَّبْعَة: المتوسطُ الطول، لا هو طويلٌ ولا هو قصير.

والأحمر: لونُه أَحمر إلى البياض.

والدّيماس: الحَمّام.

ومعنى: كأنما خرجَ من ديماس: أنه كان مُتَدَفِّقاً حيويةً وبهاءً ونضرة، فكأنَّه خرج من حَمّام!

وروى مسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «... ورأيت عيسى ابنَ مريم مربوعَ الخِلْقَة، إلى الحمرةِ والبياض، سَبْطَ الرأس...»[2].

وروى البخاريُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيم، فأمّا عيسى فأحمرُ، جَعْدٌ، عَريضُ الصدر....»[3].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «وأراني الليلةَ عندَ الكعبة في المنام، فإذا رَجُلٌ آدم، كأحسنِ ما يُرى من أُدْمِ الرِّجال، تَضربُ لِمَّتُهُ بين مَنْكِبَيْه، رَجِلُ الشَّعر، يقطرُ رأسُه ماء، واضعاً يديْه على مَنْكِبَيْ رَجُلين، وهو يطوفُ بالبيت.

فقلت: مَنْ هذا؟

فقالوا: هذا المسيحُ ابن مريم..»[4].

ومن خلالِ النظرِ في هذه الأحاديثِ فإننا نستطيعُ أنْ نشكِّلَ هذه

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٩٤. ومسلم برقم: ١٦٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٨٦.

(٤) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٠. ومسلم برقم: ١٦٩. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٨٧.

الصورةَ لعيسى عليه السلام: قامَتُه معتدلة، ولونُه أَبيض مُشربٌ بالحمرة، وشعْرُ رأسِه سَبْطٌ ممتدٌّ إلى منكبيه، ولونُه أسود، كأنه يقطرُ ماءً ولم يُصبهُ بلل، وذلك من بهائِه، وهو متدفِّقٌ حيويةً ونضارة وبهاءً.

وبما أَننا في معرضِ الحديث عن صفاتِه الخَلْقية، فلْنذكُرْ حديثاً في صفاته الخُلُقِية، دلَّ على شدةِ إِيمانِه بالله، وخوفِه منه.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «رأى عيسى ابنُ مريم رجلاً يَسرق. فقال له: أَسرقْتَ؟ قال: كلّا، والذي لا إله إلا هو!!

فقال عيسى: آمنتُ بالله، وكَذَّبْتُ عيني...»[1].

عيسى عليه السلام رأى رجلاً يَسرق، ولم يشكَّ في رؤيته، وجاءَ إِليه ناصحاً، وسأَلَه لينصَحه: أَسرقْتَ؟

وأَنكرَ الرجلُ السرقة، التي لا ينفعُ معها إِنكار، ولجَّ في إِنكاره، وتجرأَ على الله، فأقسمَ بالله أَنه ما سرقَ!

فاستغربَ عيسى عليه السلام مِن كذبِه ومِن جرأَتِه على الله، فكيفَ يُقسمُ بالله كاذباً؟ وخافَ عيسى من القسم واليمين، وملأَ قلْبَه تعظيماً لله، فقالَ للرجلِ السارقِ الحالفِ الكاذب: آمنتُ بالله، وكذَّبْتُ عيني!!

عيسى رفع حياً وينزل في آخر الزمان:

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن، وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الصحيحِ - بإِعلامِ من الله له - أَنَّ عيسى عليه السلام سينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان.

وهذا معناهُ أَنَّ عيسى حيٌّ لم يَمت، لأنه لو ماتَ فإنه لا يُبعثُ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٤. ومسلم برقم: ٢٣٦٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٩٠.

إلا عندَ قيامِ الساعة، وهذا يؤكِّدُ ما قلناه سابقاً من أنَّ اللّهَ رفَعَهُ إِليه بروحِه وجسمِه، وهذه خصوصيةٌ له، وهي معجزةٌ من الله سبحانه.

وأنَّ اللّهَ أَبقاه حياً في السماءِ الثانية، طيلةَ القرونِ التي مضَتْ حتى الآن ـ عشرون قرناً ـ والقرونِ التي ستأتي، إِلى أَنْ يأذن اللّهُ بنزوله، وحياتُه في السماء حياةٌ غيبية، وليست حياةً كحياتنا، فلا نعرفُ كيفيتَها، لكننا نسلِّمُ بها.

وسينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان، وهذه آيةٌ عظمى من آيات الله، ومعجزةٌ باهرة من معجزاته.

وقد أَشارَ القرآنُ إشارةً موجزة في أكثر من موضع إِلى نزولِه عليه السلام، بينما فصَّلَ رسولُ الله ﷺ ذلك في عدةِ أحاديثَ صحيحة.

إخبار القرآن أنه سيكلم الناس كَهلاً في آخر الزمان:

مواضعُ الإشارةِ إلى نزوله في القرآن هي:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا...﴾ [المائدة: ١١٠].

والشاهدُ في الآيتين ذكْرُ كلامِ عيسى عليه السلام للناس في المهد، وهو كهل.

ووجْهُ الاستشهاد أَنَّهُ ذَكَرَ كلامَه للناس في كهولته: «وكهلاً».

وقد كلمَ الناسَ وهو في المهد، أي: وهو على حضْنِ أمه، حيث بَرَّأَ أُمَّه من الشبهةِ والتهمة، وقَدَّمَ نفسَه إِلى أهلها. وكان كلامُه وهو صغيرٌ في المهد آيةً من آيات الله.

وسيكلمُ الناسَ وهو كهل، حيث سينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان، فيراه الناسُ ويَسمعون كلامَه.

وذكَرَ كلامَه في حالتيْه: في طفولتِه في المهد، وفي كهولتِه، لأنَّ هذا الكلامَ معجزةٌ خارقةٌ من معجزاتِ الله. فليس من مألوفِ البشر وعاداتهم أنْ يتكلمَ طفلٌ لم يمضِ على ولادتِه إلاّ ساعاتٌ أو أيام، كما أنه ليسَ من مألوفِ الناس أنْ يبقى إنسانٌ حياً عشراتِ القرون من السنين، ثم كلامُ الناسِ بعد هذه القرون المتطاولة.

قالَ ابنُ زيد في معنى الآية: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: قد كلَّمهم عليه السلام في المهد. وسيكلِّمهم إذا قتلَ الدجالَ وهو يومئذٍ كَهل..»[1].

وإخبار القرآن أنه «علم للساعة» من علاماتها الكبرى:

الثانية: قولُه تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦٢].

والشاهدُ في الآياتِ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا..﴾.

والهاءُ في «إنه» تعودُ على عيسى عليه السلام، لأنَّ الآياتِ تتحدثُ عنه.

والمعنى: إنَّ عيسى عليه السلام عِلْمٌ تُعلمُ به الساعة. أي أنَّ نزولَه في آخرِ الزمان سيكون علامةً من علاماتِ الساعة، دالةً على قُربِ قيامِها.

---

(١) تفسير الطبري ٣: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: هو خروجُ عيسى ابنِ مريم قبلَ يومِ القيامة.

وقالَ مجاهد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: آيةٌ للساعة خروجُ عيسى عليه السلام قبلَ يومِ القيامة.

وهذا هو قولُ أَبي هريرة وأبي العالية وعكرمة وقتادة والحسن البصري وآخرين(١).

وهذا هو ما نرجِّحُه، لورودِ الأحاديثِ الصحيحةِ الشاهدةِ له، التي تدلُّ على نزولِه عليه الصلاة والسلام في آخرِ الزمان.

وإخبار القرآن أن النصارى سيؤمنون به قبل موته:

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

«إنْ»: حرفُ نفي بمعنى: ما. واجتماعُ «إنْ» و«إلا» يدلُّ على الحصر. والمعنى: ما مِن أهلِ الكتاب مِن أحدٍ إلاّ ليؤمنَنَّ بعيسى عليه السلام قبلَ موته.

والهاءُ في «به»: تعودُ على عيسى بالاتفاق.

أمّا الهاءُ في «موته» ففي ما عادَتْ عليه قولان:

القولُ الأول: تعودُ على عيسى عليه السلام. والمعنى: كلُّ واحدٍ من أهلِ الكتاب سيؤمنُ بعيسى عليه السلام، أَنه عبدُ الله ورسوله. وهذا يكونُ عند نزوله في آخرِ الزمان، حيث يقتلُ الدجال ويكسرُ الصليب، ولا يَقبلُ من الناس إلاّ الإسلام.

قالَ ابنَ عباس: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: قبلَ موتِ عيسى ابن مريم.

وقالَ الحسنُ البصري: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: قبلَ موت عيسى. واللّهِ إنه الآنَ لحيٌّ عند الله، ولكن إذا نزلَ آمنوا به أجمعون.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤: ١٣٤ ـ ١٣٥.

القولُ الثاني: تعودُ على الكتابي. والمعنى إذا احتضرَ الكتابيُّ ودنتْ وفاتُه عاينَ الحقَّ من الباطل بشأنِ عيسى عليه السلام، فلا يموتُ الكتابيُّ إلاّ بعدَ أن يؤمنَ أنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه. ولكن لا ينفعُه ذلك الإيمان.

وهذا قولُ مجاهد.

والراجحُ هو القولُ الأول. لأنَّ السياق في الحديثِ عن عيسى عليه السلام، فكان الحديثُ قبلَ الآية عن تكذيبِ اليهود في مزاعِمِهم بقتلِ عيسى عليه السلام وصلبه، حيث قررَ أَنهم ما قتلوه وما صلبوه يقيناً، وإنما قتلوا شَبَهه، أمّا عيسى فقد رفعَه اللّهُ إليه، وسيُنزلُه في آخرِ الزمان، وكلُّ كتابي يكونُ حياً وقتَ نزوله فلا بدَّ أن يؤمنَ أنه عبدُ الله ورسوله، وإلاّ يقتلُه عيسى عليه السلام.

وباقي الآية يدلُّ على ذلك، حيثُ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾.

والمعنى: أهلُ الكتابِ يؤمنون بعيسى عند نزولِه في آخر الزمان. ويومَ القيامة يكونُ عيسى عليهم شهيداً. يشهدُ على مَنْ كَذَّبه بالكفر، ويشهدُ لمن صَدَّقَه بالإيمان.

وعلى هذا القولِ الراجح تكونُ الآيةُ خبراً عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان..[١].

أمّا الأَحاديثُ الصحيحةُ التي تحدثَتْ عن نزوله فهي كثيرة، بحيث خصَّصَ لها الإمامُ محمد أنور شاه الكشميري كتاباً خاصاً سماه «التصريح بما تواتر في المسيح».

وقد اعتنى بالكتابِ وعلَّقَ عليه وأَشرفَ على طبعه الأستاذُ المحققُ الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

وسنوردُ فيما يلي أهمَّ وأَشهرَ الأحاديث:

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣: ٨٣ ـ ٨٥.

حديث النواس بن سمعان عند مسلم وغيره بنزوله:

روى مسلمٌ وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد عن النوّاسِ بنِ سَمْعان رضي الله عنه قال: «ذكَرَ رسولُ الله ﷺ الدجَّالَ ذاتَ غدة، فَخَفَّضَ فيه ورَفَّعَ، حتّى ظنّنّاه في طائفةِ النخل.

فانصرفْنا من عندِ رسول الله ﷺ، ثم رُحْنا إليه، فعرفَ ذلك فينا، فقال: ما شأنُكم؟

فقلنا: يا رسولَ الله: ذكرتَ الدجالَ غداة، فخفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ، حتى ظنناه في طائفة النخل.

فقال: غيرَ الدجال أخوفني عليكم، إنْ يَخرجْ وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونَكم، وإنْ يَخرجْ ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِه، واللّهُ خليفتي على كل مسلم.

إِنه شابّ، قَطَط، عينُه طافئة، كأنّي أَشبهه بعبدِ العُزّى بنُ قَطَن. فمَنْ أَدركَه منكم فليقرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهف.

إِنه خارجٌ خُلَّةً بين الشام والعراق، فعاثَ يَميناً وعاثَ شِمالاً، يا عبادَ الله فاثْبُتُوا.

قلنا: يا رسولَ الله: وما لبثُه في الأرض؟

قال: أَربعون يوماً: يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائرُ أيامِه كأيامكم.

قلنا: يا رسولَ الله: فذلك اليومُ الذي كسنة، أَتكفينا فيه صلاةُ يوم؟

قال: لا. اقْدُروا له قدْرَه.

قلنا: يا رسولَ الله: وما إسراعُه في الأرض؟

قال: كالغيثِ استدبرَتْهُ الريح. فيأتي على القوم، فيَدْعوهم، فيؤمنون به، ويَستجيبون له. فيأمرُ السماءَ فتمطر، والأرضَ فتنبت،

فتروحُ عليهم سارحتُهم أطولَ ما كانت ذُرىً، وأَسْبَغَه ضُروعاً، وأَمَدَّهُ خواصر.

ثم يأتي القومَ، فيدعوهم، فيردّوا عليه قولَه، فينصرفُ عنهم، فيصبحون مُمْحِلين، ليسَ بأيديهم شيءٌ من أموالهم.

ويمرُّ بالخربة، فيقولُ لها: أَخرجي كنوزَك، فتتبعُه كنوزُها كيعاسيبِ النحل.

ثم يَدعو رجلاً شابّاً، ممتلئاً شباباً، فيضربُه بالسيف، فيقطعُه جزلَتَيْن رميةَ الغَرَض، ثم يدعوه، فيُقبل، ويتهلَّلُ وجهه يضحك..

فبينما هو كذلك، إِذ بعثَ اللّهُ المسيحَ ابنَ مريم، فينزلُ عند المنارةِ البيضاء شرقيَّ دمشق، بين مهرودتَيْن، واضعاً كفَّيه على أجنحةِ مَلَكين، إِذا طأطأَ رأسَه قطر، وإِذا رفَعَه تحدَّرَ منه، جمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نَفَسِه إلا مات، ونَفَسُه يَنتهي حيثُ ينتهي طَرْفُه.

فيطلبُه حتى يدركَه بباب لُدّ، فيقتله!

ثم يأتي عيسى قومٌ قد عصمَهم اللّهُ منه، فيمسحُ عن وجوههم، ويحدثُهم بدرجاتِهم في الجنة.

فبينما هو كذلك، إِذ أَوحى اللّهُ إِلى عيسى عليه السلام: أَني قد أَخرجْتُ عباداً لي، لا يَدانِ لأحدٍ بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إِلى الطور.

ويبعثُ اللّهُ يأجوجَ ومأجوج، وهم مِن كلِّ حَدَبٍ ينسلون، فيمرُّ أوائلُهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماءٌ.

ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدِهم خيراً من مائةِ دينار لأحدكم اليوم. فيرغبُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه إِلى الله تعالى، فيرسِلُ اللّهُ عليهم النغفَ في رقابهم، فيصبحون فَرْسىٰ، كموتِ نَفْسٍ واحدة.

ثم يَهبطُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه إلى الأرض، فلا يَجدون في الأرض موضعَ شبرٍ إلاّ ملأَهُ زَهَمُهُم ونَتَنُهم! فيرغبُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه إلى الله، فيرسلُ اللّهُ طيراً كأعناقِ البُخْت، فتحملُهم فتطرحُهم حيثُ شاء الله.

ثم يرسلُ اللّهُ مَطَراً، لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَقَة.

ثم يُقال للأرض: أَنبتي ثمرتَك، وردّي بركتَك. فيومئذ تأكُلُ العصابةُ من الرمانة، ويَستظِلّون بقَحْفِها! ويبارَكُ في الرِّسْلِ، حتى إنَّ اللِّقحةَ من الإبلِ لتكفي الفئامَ من الناس، واللِّقحةَ من البقرِ لتكفي القبيلةَ من الناس، واللِّقحةَ من الغنم لتكفي الفخذَ من الناس.

فبينما هم كذلك، إذْ بعثَ اللّهُ ريحاً طيبة، فتأخذُهم تحتَ آباطهم، فتَقبضُ روحَ كلِّ مؤمن وكلِّ مسلم، ويبقى شِرارُ الناس يتهارَجون فيها تَهارُجَ الحُمُر، فعليهم تقومُ الساعة..»[1].

وقفة مع حقائق ذلك الحديث الصحيح:

أَوردْنا هذا الحديثَ الصحيحَ بطوله ليقفَ القارئُ على الجوِّ الذي ينزلُ فيه عيسى عليه السلام. ونَدعو القارئَ إلى الوقوفِ على شرحِ النووي له[2]، وشرحِ الشيخ عبد الفتاح أبي غدة له[3].

ويهمُّنا فيه الجزءُ المتعلقُ بنزولِ عيسى عليه السلام. حيث ينزلُه اللّهُ في عنفوانِ قوةِ وطغيانِ المسيح الدجال.

ويكونُ نزولُه من السماء عند المنارةِ البيضاء، شرقيَّ مدينة دمشق المعروفة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٣٧. وأبو داود برقم: ٤٢٩٩. والترمذي برقم: ٢٣٤١. وابن ماجة برقم: ٤٠٧٥. وأحمد في المسند ٤:١٨١ ـ ١٨٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣١٣.

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٨:٦٣ ـ ٧٠.

(٣) انظر التصريح بما تواتر في نزول المسيح للكشميري: ١٠٢ ـ ١٢٦.

وعندما يَنزلُ يكونُ لابساً «مهرودَتَين» وهما حُلَّتان جميلتان، فيهما لونٌ أصفرُ خفيفٌ جميل. فيجمعُ بين جَمالِ الخِلْقَة والهيئة، وجمالِ اللباس والزينة.

ويصاحبُه في النزولِ اثنان من الملائكة، ينزلان معه من السماء، حيث يكونُ بينهما، واضعاً كفَّيْه على أجنحتِهما.

ويكون رأسُه يقطرُ ماءً، وهذا الماءُ عليه من السماء، فإذا طأطأَ عليه السلام رأسَه وخَفَضَه نحو الأسفل، نزلَ منه الماءُ على شكل قطراتٍ كثيرةٍ متتابعة. وإذا رفعَ رأسَه إلى أعلى نزلَ منه الماء بطيئاً، وتكون قطراتُه كبيرةً كحبات اللؤلؤ.

ونزولُه والماءُ يقطر من رأسِه ليوافقَ الحالةَ التي رفعه اللّهُ فيها إلى السماء، حيث مَرَّ مَعَنا كلامُ ابنِ عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام قبلَ أنْ يرفعه اللّهُ إلى السماء، كان رأسُه يقطرُ ماء. فينزلُ ورأسُه يقطر ماء، ليكونَ نزولُه على نفسِ الحالة التي رفعه اللّهُ عليها.

وعندما يَنزلُ عيسى عليه السلام يُقَوِّي اللّهُ نَفَسَه، ويَزيدُ اللّهُ في مدى تأثيره، فيصلُ مفعولُ أنفاسه إلى نهايةِ بصره. وأيُّ كافرٍ يشمُّ نَفَسَه يموتُ مباشرة، قبلَ أنْ يصلَه عيسى عليه السلام، وهذه معجزةٌ لعيسى عليه السلام، يُجريها الله على يديه.

واللطيفُ أنَّ نَفَسَ عيسى عليه السلام جعلَ اللّهُ فيه معجزةً باهرة، فلما كان نبياً في بني إسرائيل كان ينفخُ في التمثال الذي على هيئةِ الطير، فيجعله اللّهُ طيراً حياً، أي أنَّ نَفَسَه كان سبباً مباشراً في إحياءِ التمثال الجماد، وعند نزولِه في آخرِ الزمان يكون نَفَسُه سبباً في موتِ الكفار الأحياءِ! واللّهُ هو المحيي في الأُولى، وهو المميتُ في الثانية.

ويلحقُ عيسى عليه السلام المسيحَ الدجال، فيهربُ الدجالُ منه، ويتوجَّهُ إلى فلسطين، فيدركُه عيسى عليه السلام في مدينة «اللد» فيقتُلُه فيها، وهي مدينةٌ فلسطينية بجانب الرملة، وقريبةٌ من بيت المقدس.

وبقتْلِه للمسيح الدجال يُنهي فتنتَه الكبرى، ويُريحُ الناسَ من شره.

ويتجمعُ حولَ عيسى ابن مريم عليه السلام المؤمنون الصالحون، الذين عصمهم اللّهُ من فتنةِ المسيح الدجال، ويَفرحون بالتخلصِ منه، ويَسعدون بالحياةِ مع عيسى عليه السلام. فيمسحُ على وجوههم ويبشرُهم بالفوز، ويخبرُهم بدرجاتِهم في الجنة.

وبينما هم كذلك في غايةِ السعادةِ والسرور، يُخرجُ اللّهُ قومَ يأجوج ومأجوج من جهةِ الشرق، ويتوجَّهون نحو فلسطين..

ويخبر اللّهُ عيسى عليه السلام أَنه لا قدرةَ لأحدٍ على قتال يأجوج ومأجوج، لأَنهم أَقوى قوةٍ بشرية على وجْهِ الأرض! ويأمُرُ اللّهُ عيسى عليه السلام أنْ يتحصَّنَ مع أَتباعِه المؤمنين في جبل الطور، وهو الجبلُ الذي في سيناء، الذي ناجى موسى عليه السلام ربَّه عليه. فإنَّ الله سيحميهم من يأجوج ومأجوج.

ويتحصَّنُ عيسى عليه السلام مع أَتْباعه المؤمنين على جبلِ الطور، ويغزو يأجوجُ ومأجوج البلاد، وهم كثيرون كثرةً عجيبة، يملأونَ السهول والجبال، ويَنْسِلون ويَسيرون مسرعين في جميعِ البلدان.

ومما يدلُّ على كثرتهم أنَّ أَوَّلَهم يمرُّ على بحيرةِ طبرية المعروفة، الواقعة في الجولان، والتي يخرجُ منها نهرُ الأردن ليصبَّ في البحرِ الميت، فيشربون ماءَها، وما أنْ يأتيَ آخرُهم عليها حتى يروها جافةً لا ماءَ فيها، لأنَّ مَن سَبقوهم استنزفوها وشربوها! فيقولون: عَلِمْنا أنه كان هنا بحيرة، وأنه كان فيها ماء! فأين ذهبَ ماؤُها؟!

ويحاصِرُ يأجوجُ ومأجوج عيسى عليه السلام وأَتْباعَه على جبل الطور، حيث يكونُ المؤمنون محصورين على الجبل، وتكونُ جموعُ يأجوج ومأجوج محيطةً به.

ويشتدُّ الحصارُ على المؤمنين، وتَضيقُ عليهم الأمور، ولا يَجدونَ ما يأكلون، حتى يكونَ رأسُ الثور خيراً من مائةِ دينار، لأَنهم لا يجدونه!

ويُقبلُ عيسى عليه السلام ومَنْ معه على الدعاء، فيدعون اللّهَ ويتضرعون إليه، ويطلبونَ منه إهلاكَ يأجوج ومأجوج.

ويستجيبُ اللّهُ دعاءَ نبيِّه وأوليائِه المحصورين، ويُرسلُ على يأجوج ومأجوجِ المرضَ والوباء، ويكونُ على شكلِ «النَّغَفِ» في رقابهم، والنَّغَفُ دودٌ يكون في أُنوفِ الإبلِ والغنم، ويكون هذا وباءً عاماً يَقضي عليهم في ليلةٍ واحدة. وإهلاكُهم بالدودِ الصغير لهوانِهم على الله، ومكْرِه سبحانه بهم، حيثُ يَقضي عليهم ويهلكهم بأهونِ شيءٍ وأحقره.

وفي الصباح يُصبحون جميعاً أمواتاً، ليس فيهم إنسانٌ حي!

ويَنزلُ عيسى عليه السلام والمؤمنون عن جبلِ الطور، فيجدون أرضَ سيناءَ حول الجبل مغطاةً بجثثِ يأجوجِ ومأجوجِ، ويتأذّون بروائحِ جيفِ الهالكين الكفار. ويَطلبون من الله أَنْ يُريحهم من هذه الجيفِ المنتنة.

ويَستجيبُ اللّهُ دعاءَهم بآيةٍ واضحةٍ من آياته، فيرسلُ طيوراً من عنده، هذه الطيورُ كبيرةٌ ضخمة، الواحدُ منها بحجمِ الجملِ الكبير! فتحملُ الطيورُ تلك الجيفَ وتطرحُها بعيداً.

ويُتِمُّ اللّهُ إِنعامَه على المؤمنين فيرسلُ مطراً شديداً قوياً يعمُّ المنطقة، ويَصلُ كلَّ مدنِها وقراها وبيوتها وخيامها، ويغسلُ هذا المطرُ الأرضَ من آثارِ ونتنِ الكفار ويطهِّرُها ويعقمُها، فتصبحُ نظيفةً نقية معقمة!

ويُقيمُ عيسى عليه السلام والمؤمنون في الأرض المقدسة، ويَحمدون اللّهَ على الخلاصِ من الدجال وجيشه، والخلاصِ من يأجوج ومأجوج. ويَعيشون حياةً هي أسعدُ الحياةِ على وجه الأرض في تاريخِ الأرض كلِّه، منذ آدمَ عليه السلام.

ويأمرُ اللّهُ الأرضَ أنْ تُنبتَ ثمرتَها، وأنْ تُعِمَّ بركَتَها، فقد زالَ

الكفرُ الذي كان يمحقُ البركة، ويهلكُ الثمرة. ويُكرمُ اللّهُ المؤمنين بالخصْبِ والرفاه والبركة.

وتكبرُ ثمارُ الأشجارِ كثيراً، ويباركُ الله فيها، فإنَّ حبةَ الرمانِ الواحدةَ تكفي الجماعةَ من الناس، بحيثُ يَشبعون منها، وإذا قشَّروها وأَكلوها، فإنهم يستظلّون بقشْرِها لكبَرِ حجمه، وكأنه خيمةٌ كبيرة! أي أنَّ حجمَ الرمانة الواحدة يكون بحجمِ الخيمة.

وتَدُرُّ الأنعامُ من الإبل والبقر والغنم، ويباركُ الله في حليبها، فيزيدُه زيادةً كبيرة، بحيثُ إذا حلبوا الناقةَ فإنَّ حليبَها يكفي المجموعةَ الكبيرة من الناس، الذين هم أكثرُ من القبيلة. وإذا حلبوا البقرةَ فإنَّ حليبَها يكفي القبيلةَ ويُشبعها، وإذا حلبوا الشاةَ فإن حليبَها يكفي الفخذَ من القبيلة ويشبعهم.

ويَسعدُ المؤمنون مع عيسى عليه السلام بهذه الحياةِ الإيمانية السعيدة، وهذا الخصبِ والرخاء الاقتصادي.

ويموتُ عيسى عليه السلام موتاً طبيعياً، ويَدفنُه المؤمنون، وبعد فترةٍ يُنهي اللّهُ أَعمارهم، ويَأتيهم بآجالِهم، فيرسلُ عليهم ريحاً طيبة، تأخذُهم تحتَ أباطهم، فيموتون جميعاً بهدوءٍ ويسر!

ولا يبقى إلاّ شرارُ الناس وسفهاؤُهم، ويستحوذُ عليهم الشيطان، ويكونون عبيدَ الشهوات والفواحش، ويتهارَجون كما تتهارَجُ الحمير، بحيث يسيرُ الرجالُ والنساء عراة، ويُجامعُ الرجلُ المرأةَ ويزني فيها علانية، على مرأى من الآخرين!!

وعلى هؤلاءِ السفهاءِ السفلةِ تقومُ الساعة.

هذا معنى الجزءِ المتعلق بعيسى عليه السلام عند نزولِه في آخر الزمان، من حديثِ النواس بن سمعان رضي الله عنه.

ونقتطفُ من الأحاديثِ الصحيحة الأُخرى الجزءَ المتعلقَ بنزولِ عيسى عليه السلام، وأَعمالِه.

وحديث أبي أمامة الباهلي عند أبي داود وغيره:

روى أَبو داود وابنُ ماجة والحاكمُ عن أَبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ، فكانَ أكثَرُ خطبتِه حديثاً حَدَّثَناهُ عن الدجال، وحَذَّرَناه، وكان مما قال: «.... العربُ يومئذ قليل.. وإمامُهم رجلٌ صالح، فبينما إمامهم قد تقدَّمَ يصلي بهم الصبح، إذْ نزلَ عليهم عيسى ابنُ مريم الصبح، فرجعَ ذلك الإمامُ ينكص، يَمشي القهقهرى، ليقدِّم عيسى يُصلي، فيضعُ عيسى عليه السلام يَدَه بين كتفيه، ثم يقولُ له: تَقَدَّمْ فَصَلِّ، فإنها لك أُقيمت. فيصلّي بهم إمامُهم..

فإذا انصرفَ قالَ عيسى عليه السلام: افتحوا الباب.

فيُفْتَح، ووراءَه الدجال، ومعه سبعونَ ألفَ يهودي، كلُّهم ذو سيفٍ مُحَلّى، وساج!

فإذا نظرَ إليه الدجالُ ذاب، كما يذوبُ الملحُ في الماء، وينطلقُ هارباً..

فيدركُه عند بابِ لُدِّ الشرقي فيقتلُه، فيَهزمُ اللّهُ اليهود، فلا يبقى شيءٌ مما خلقَ اللّهُ يَتوارى به يهوديٌّ إلاّ أَنطقَ اللّهُ ذلك الشيء، لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابة - إلاّ الغَرْقَدَةُ فإنها من شجرِهم لا تنطق - إلاّ قال: يا عبدَ الله المسلم: هذا يهوديٌّ فتعالَ اقتله!

.....

فيكونُ عيسى ابنُ مريم في أُمَّتي حكماً عادلاً، وإماماً مقسطاً. يَدُقُّ الصليب، ويَذبحُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويتركُ الصدقة، فلا يُسعىٰ على شاةٍ ولا بعير، وتُرفَعُ الشحناءُ والتباغض، وتُنزعُ حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَة، حتى يُدخلُ الوليدُ - أي الطفلُ الصغير - يَدَه في «في» الحَيَّة - أي: في فمها - فلا تضرُّه، وتَعِزُّ الوليدةُ الأَسَدَ فلا يضرُّها، ويكونُ الذئبُ في الغنم كأنه كلبُها، وتُملأُ الأرضُ من السِّلْمِ كما يُملأُ الإناءُ من

الماء. وتكون الكلمةُ واحدةً، فلا يُعْبَدُ إلاّ الله، وتَضَعُ الحربُ أوزارَها، وتَسْلُبُ قريشٌ مُلْكَها.

وتكونُ الأرضُ كَفاثورِ الفضة، تُنبتُ نباتَها بعهدِ آدم، حتى يجتمعَ النفرُ على القُطْفِ من العنب فيُشبعُهم، ويَجتمعُ النفرُ على الرمانة فتُشبعُهم، ويكون الثورُ بكذا وكذا من المال، وتكونُ الفرسُ بالدُّرَيْهِمات....»[1].

وقفة مع معاني حديث أبي أمامة:

ونَدعو إِلى النظرِ في حديثِ أَبي أمامةَ الباهليِّ كلِّه في المراجعِ التي أَحَلْنا عليها، كما ندعو إِلى الوقوفِ على شرحه في «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»[2].

أَخْبَرَنا رسولُ الله ﷺ في الحديث أنَّ اللّهَ يُنزلُ عيسى عليه السلام عندما تُقامُ صلاةُ الفجر، ويكون المجاهدون المواجهون لجيشِ المسيحِ الدجال مستعدّين للصلاة، فعندما يحسُّ إِمامُهم بحركةِ عيسى نازلاً عليه السلام، يتراجعُ إِلى الخلف، ليصلّي عيسى إماماً.

فيتقدَّمُ إِليه عيسى عليه السلام، ويطلبُ منه أنْ يكونَ هو الإمام، لأنها أُقيمتْ له، ويصلي عيسى عليه السلام مأموماً خلْفَه.

وبعدَ صلاةِ الفجر يتسلَّمُ عيسى عليه السلام قيادةَ الجيشِ المجاهد. ويقومُ بمواجهةِ المسيح الدجال وجيشِه من اليهود وغيرهم.

ويكونُ مع الدجال سبعونَ ألفاً من اليهود، مسلَّحين بالسيوفِ المحلاّة بالذهب والفضة، ويَلبسون الملابسَ الفاخرة.

وعندما يرى المسيحُ الدجالُ عيسى عليه السلام يهربُ منه،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٣٢٢. وابن ماجة برقم: ٤٠٧٧. والحاكم في المستدرك ٤:٥٣٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣١٤. والتصريح رقم: ١٣.

(٢) انظر شرح الحديث في «التصريح»: ١٤٢ ـ ١٥٨.

ويذوبُ كما يذوب الملحُ في الماء، ويَختفي، وتزولُ عنه مظاهرُ القوة التي كان يَدّعيها، ويعلمُ أنَّ نزولَ عيسى عليه السلام معناه انتهاءُ فتنته والقضاءُ عليه.

ويَقتلُ عيسى عليه السلام الدجالَ عند باب اللّدّ الشرقي، ويهزمُ اللّهُ اليهود، ويلاحقُ المجاهدون فُلولَ المنهزمين اليهودِ ويَقضون عليهم، ويُظهرُ اللّهُ آيةً من آياتِه الباهرة. فيُنطقُ سبحانه كلَّ شيء يختفي خلْفَه يهودي، سواء كانَ شجراً أو حجراً أو جداراً أو دابة، فإذا رأى ذلك الشيءُ مسلماً مجاهداً، فإنه يدلُّه على اليهوديِّ المختفي خلْفَه، ويقولُ له: يا عبدَ الله المسلم، هذا يهودي، فتعالَ اقتُلْه.

ولا يتسترُ على اليهودِ إلاّ شجرٌ كريهٌ مُؤذٍ، هو شجرُ «الغَرْقَد» أَوراقُه صغيرة، وأشواكُه كثيرة، و«يُسَوِّرُ» به اليهودُ الآن مزارعَهم التي يقيمونها على أرضِ فلسطين التي اغتصبوها في هذا الزمان.

وهكذا يُبادُ اليهود إبادةً كاملة عند نزولِ عيسى عليه السلام!

وقد أَخبَرَنا رسولُ الله ﷺ عن مظاهرِ حكمِ عيسى عليه السلام، وبعضِ الأعمال التي سَيقومُ بها:

سيكونُ حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً: وهذا معناه أَنه سينزل حاكماً بالشريعةِ الإسلامية، ويُظهرُ العدلَ بين الناس، ويُطبقُ فيهم حكمَ الله.

وسيدقُّ الصليبَ ويَكسره: لأنَّ النصارى يعتقدون أنَّ «يسوع» قد قتلَه اليهودُ وصَلَبوه على الصليب، والصليبُ جزءٌ أَصيلٌ في الديانةِ النصرانية.

فعندما ينزلُ عيسى عليه السلام سَيُكَذِّبُ النصارى في مزاعمهم الصليبية، وسيُعلنُ براءَتَه من الصليب، عندما يقومُ بكسره ودقِّه، وهذا إِبطالٌ منه للنصرانية، وإلغاءٌ لها!

وسيقتلُ الخنزير: وهذا تكذيبٌ منه آخر للنصارى، فالنصارى يتلَذَّذون بأكلِ لحمِ الخنزير، ويزعمونَ أن عيسى أَباحه لهم، ولهذا

سيكونُ قتْلُه للخنزيرِ تكذيباً لهم، وتأكيداً على حرمتِه ونجاسته!

وسيضعُ الجزية: أي يُبطلُها ويُلغيها، وقد كانَ يدفعُها أهلُ الكتاب من اليهودِ والنصارى للمسلمين، مقابلَ حمايتهم لهم وبقائِهم على ديانتهم.

وعندما يَنزلُ عليه السلام سيُلغي اليهوديةَ والنصرانية، فلا يَقبلُ من اليهودِ والنصارى إلا الإسلام، ومَنْ لم يسلم يقتلُه.

وسيتركُ عيسى عليه السلام الصدقة وجمعَ الزكاة، فلا يُرسلُ عمالَه لجمع الزكاة من الإبل والبقر والغنم، ولا يأخذُ زكاةَ الأموال، وذلكَ لأنَّ الناسَ جميعاً يكونون أغنياء، ليس بينهم فقيرٌ واحد، فلمن يَجمعونَ الزكاة؟ ولمن يُعطونها؟ والناسُ جميعاً أغنياء!!

ويكونُ الناس جميعاً في عهد عيسى القادم عليه السلام مسلمين صالحين، وإِخواناً متحابين، ليس بينهم شحناءَ ولا بغضاءَ، وإِنما بينهم مودةٌ ومحبة، ورأفةٌ ورحمة!!

ويعيشونَ حياةً مثالية، هي الذروةُ في السعادة والرفاهية، ويرفعُ اللّهُ عنهم كلَّ أنواع الأذى، حتى الخطرَ الذي كانت تمثلُه الحشراتُ والزواحفُ والحيواناتُ يزيلُه الله!

حتى الحشراتِ والزواحفِ السامة كالأَفاعي والعقارب والزنابير سينزَعُ اللّهُ «حُمَتَها» التي كانت تُفرزُ السم، وتَلدغُ أو تلسعُ بها، فلا تُؤذي بها أحداً.

وسيلعبُ الناسُ بالزواحف والحيوانات، وهم آمِنون مطمئنون، فالطفلُ الصغيرُ سيضعُ يَدَه في فم الحية ملاعِباً لها، وهو آمِن. والطفلةُ الصغيرةُ ستأتي للأَسَد، وتفتحُ فَمَه وتكشفُ عن أسنانِه، وتلاعبه، وهو فَرِحٌ بها لا يؤذيها!!

وسيكونُ الذئبُ مع الغنم، لا يُؤذيها ولا يفترسها، وإنما كأَنَّه كلْبُ حراسةٍ لها يحرسُها.

وسيعمُّ السِّلْمُ والسَّلامُ والأمنُ والأمانُ حياةَ الناس، لأنهم يعيشون في ظلالِ حكمِ الإسلام، الذي يطبقُه عليهم عيسى عليه السلام.

ولا يكونُ في الأرض إلاّ الإسلام، ولا يُعْبَدُ إلا الله، وستضعُ الحربُ أوزارها، وتَنتهي المعاركُ والاشتباكات، لعدمِ وجودِ كفارٍ يقاتلُهم المسلمون.

وسيكونُ الأمْرُ والحكمُ والملكُ لقريش، وسيعيدُ اللّهُ لها ملكها الذي سَلَبَهُ الآخرون منها، وسيكونُ القرشيون مساعدين في الحكمِ لعيسى عليه السلام.

وسيأمرُ اللّهُ الأرضَ بالإنبات والإثمار، ويباركُ لها في ثمارها، إكراماً لهؤلاء المسلمين السعداء.

ستكونُ الأرض «كَفاثورِ الفضة»، والفَاثورُ هو الخِوانُ أو المائدة، أي ستؤتي الأرضُ ثمارَها وخيراتِها على أحسنِ صورة.

ستكونُ الثمارُ كبيرةً مباركة كما كانت في عهدِ آدم عليه السلام، قبلَ أنْ يَظهرَ الكفرُ ويَمحقَ البركةَ.

ومن مظاهرِ ذلك أنْ يكونَ قطفُ العنب كبيراً يُشْبِعُ المجموعةَ الكبيرة من الناس، كما تكونُ الرمانة الواحدة كبيرة تُشبع المجموعةَ من الناس أيضاً.

وسيُقبلُ المسلمون على الزراعةِ بسعادةٍ ودأب ونشاط، لانتهاءِ الحربِ والقتال، وانتشارِ السلام والإسلام، وسترخصُ الخيول جداً لعدم الحاجةِ لها في حرب، بينما سترتفعُ أَثمانُ البقرِ والثيران، بحيث يكونُ الثورُ بكذا وكذا من المال، لكثرةِ الطلبِ عليه في الحراثةِ والزراعة!!..

أحاديث أخرى صحيحة في نزوله وأعماله:

ومن الأحاديثِ الصحيحةِ في نزول عيسى عليه السلام ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ:

«والذي نفسي بيدِه، ليوشِكَنَّ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريم حَكَماً عدلاً، فيكسرُ الصليب، ويَقتلُ الخنزير، ويَضعُ الحرب، ويَفيضُ المالُ حتى لا يقبلَه أَحد، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها.

ثم يقولُ أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[١].

والملاحَظُ أنَّ الرسولَ ﷺ يُقسمُ باللّهِ على نزولِ عيسى عليه السلام، ويذكُرُ من أعمالِهِ، حكْمَه بالقسط والعدل، وكسْرَ الصليب، وقتْلَ الخنزير، وإنهاءَ الحرب ووضْعَها، وسيتمتعُ المؤمنونَ بالغنى وكثرةِ المال، بحيث لا يكونُ بينهم فقير.

والملاحَظُ أنّ أبا هريرة رضي الله عنه استشهدَ بالآية، وهو يَروي الحديث، وهذا من علْمِه وفقهه رضي الله عنه، فالآيةُ تخبرُ عن نزولِ عيسى عليه السلام، وعن إيمانِ أهلِ الكتاب الأَحياءِ به عند نزوله، أنه عبدُ الله ورسولُه ـ كما ذكرنا هذا من قبل ـ والحديثُ جاءَ مؤكّداً لما قررتْه الآية.

ومنها ما رواه مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «واللّهِ! لينزلَنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً. فَلَيَكسِرنَّ الصليب، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزير، وَلَيَضَعنَّ الجزية، وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسعى عليها، وَلَتَذْهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسد، وَلَيُدْعَوَنَّ إلى المالِ فلا يقبلُه أَحد..»[٢].

إنَّ رسولَ الله ﷺ يقسمُ باللّهِ على نزولِ عيسى عليه السلام، ويؤكّدُ على كلِّ فعلٍ من أَفعالِه بعدةِ أدواتِ التوكيد: «لَيَنزلَنَّ، لَيَكْسرَنَّ، لَيَقتلَنَّ، ليضعَنَّ، لَتتركَنَّ، لتذهَبَنَّ، ليدعَوَنَّ..» وذلك لينفي أيَّ شكٍّ في نزوله.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢٢٢. ومسلم برقم: ١٥٥. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٧.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٥٥. وهي رواية أخرى للحديث السابق عند مسلم.

والقِلاصُ التي تُتركُ هي خيارُ الإبل، وأفضلُها عند أصحابها، يتركُها أهلُها لزهدِهم في الدنيا، ورغبتِهم في الدار الآخرة، والقِلاصُ هي أشرفُ الأموال وأفضلُها.

ومن فضْلِ الله على المسلمين في ذلك الزمان أنْ تذهبَ الشحناءُ والبغضاء من بينهم، وأنْ يزولَ التحاسدُ والتهاجرُ عنهم. وهي من أشدِّ وأخطرِ أمراضِ القلوب والنفوس، وسببُها هو التهالكُ على الدنيا والتقاتلُ عليها، ذلك التهالكُ الذي يؤدي إلى العداواتِ بين الناس.

فالناسُ في زمانِ نزول عيسى عليه السلام يكونون زاهدين في الدنيا، مُقبلين على العبادة، راغبين في الآخرة، فَعلى ماذا يَتحاسدون؟ ولماذ يتباغضون؟

وقد أَخْبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ نزولَ عيسى عليه السلام من علاماتِ الساعة الكبرى.

روى مسلمٌ والترمذي عن حذيفةَ بن أُسَيْدٍ رضي الله عنه قال: اطلعَ النبيُّ ﷺ علَينا، ونحن نتذاكَرُ الساعة. فقال: ما تذاكرون؟.

قالوا: نذكُرُ الساعة.

قال: إنها لن تقومَ حتى تروا عَشْرَ آيات: الدخانَ، والدجالَ، والدابةَ، وطلوعَ الشمسِ من مغربها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوجَ ومأجوج، وثلاثَ خسوف: خسفٍ بالمشرق، وخسفٍ بالمغرب، وخسفٍ بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تَخرجُ من قِبَلِ المشرق، تطردُ الناسَ إلى محشرهم...»[1].

وبما أنَّ عيسى عليه السلام سيحكمُ بشريعةِ الإسلام عندما ينزل، فسوفَ يُصلّي بالمسلمين إماماً في الصلوات، وسيذهبُ إلى الحج، وسيؤدّي المناسك!

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٠١. والترمذي: ٢١٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٩٩.

روى مسلمٌ وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لَيُهِلَّنَّ ابنُ مريم بِفَجِّ الرَّوْحاء حاجّاً أو مُعتمراً، أو لَيُثَنِّيَنَّهُما..».

ولفظُ أحمد في المسند: «يَنزلُ عيسى ابنُ مريم، فيقتلُ الخنزير، ويمحو الصليب، وتُجمعُ له الصلاة، ويُعطِئ المال حتى لا يُقبل، ويَضعُ الخراج، وينزل الروحاء، فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما..

وتلا أَبو هريرة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1].

إِنَّ عيسى عليه السلام سيذهبُ للحجِّ أَو العمرة، وسيُحرمُ من «فَجِّ الروحاء» بالتحديد. وهو على بُعْدِ ستةِ أميال من المدينةِ في الطريق إلى مكة.

سيكونُ إِحرامُه بالحجِّ أو بالعمرة، أو بهما معاً.

سينزل عيسى على مؤمنين مجاهدين:

ومن البُشرياتِ التي نأخُذُها من أَحاديثِ رسول الله ﷺ، أَنه عندما يَنزلُ عيسى عليه السلام يَنزلُ على مسلمين مجاهِدين، حيث تكونُ طائفةُ الحق قوية، تجاهدُ أَعداءها، لها أميرٌ يقودُها في الجهاد.

روى مسلمٌ وأحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين إلى يومِ القيامة. فينزلُ عيسى ابنُ مريم عليه السلام.

فيقولُ أميرهم: تعالَ صَلِّ لنا!

فيقول: لا. إِنَّ بعضَكم على بعضٍ أُمراء، تكرمةَ اللّهِ هذه الأمة»[2].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٢٥٢. وأحمد ٢:٢٤٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٨.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٥٦. وأحمد ٣:٣٤٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٣.

«كيف أَنتم إِذا نزلَ ابنُ مريم فيكم، وإِمامُكم منكم..»[1].

وهذه البشرىٰ تُخبِرُنا أنَّ الحقَ أصيلٌ في هذه الأمة، وأنَّ الخيرَ كامِنٌ مستقرٌ فيها، وأنَّ الطائفةَ الثابتةَ على الحق موجودةٌ باقيةٌ فيها، وأنَّ الجهادَ مستمرٌ موصولُ الحلقات.

وآخرُ تلك الحلقات ما كانت عندَ نزولِ عيسى عليه السلام، حيث سينزلُ والمجاهدون موجودون أَقوياء، لهم إِمامٌ يؤمُّهم، وأَميرٌ يقودُهم في الجهاد.

وعندما ينزلُ عيسى عليه السلام تكونُ صلاة الفجر قد أُقيمت، فيرفضُ أنْ يُصليَ بهم إماماً، لأنَّ الصلاةَ أُقيمتْ لأميرهم، فيصلي النبيُّ مأموماً خلفَ الإمام المجاهد، ثم يستلمُ القيادةَ بعد ذلك.

ولا يجوزُ القعودُ والتواكلُ والتكاسلُ، وتركُ الإصلاحِ والدعوةِ والجهاد، بحجةِ تأجيلِ الإصلاح والجهاد بانتظارِ نزولِ عيسى عليه السلام[2].

وهؤلاء المجاهدونَ مع عيسى عليه السلام سيعصمهم اللّهُ من النار.

روى النسائيُّ وأحمدُ عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «عِصابتان من أُمتي أَحرزهما اللهُ من النار: عصابةٌ تَغزو الهند، وعصابةٌ تكونُ مع عيسى ابن مريم عليه السلام..»[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٩. ومسلم برقم: ١٥٥. وأحمد ٢:٣٣٦. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٤.

(٢) انظر المقدمة الجيدة للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله لكتاب التصريح فيما تواتر في نزول المسيح: «كلمة إلى المتواكلين...».

(٣) أخرجه أبو داود برقم: ٤٣٢٤. وأحمد ٢:٤٠٦. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٣٠.

ومعنى العصابة المجموعةُ القويةُ المتماسكة، والتعبير عن المجاهدين بالعصابة يدلُّ على شدتِهم وقوتِهم وبأسِهم وتماسكِهم.

شهدَ الرسولُ ﷺ لمجموعتيْن من مجموعاتِ المجاهدين على مدارِ التاريخ الإسلامي، وليسَ هذا للحصرِ بل للتمثيل، فكلُّ مجموعاتِ المجاهدين الصادقين على الحق، وسيتقبلُ اللّهُ جهادَها، ويُحرزُها ويَعصمُها من النار.

للمجاهدين الذين يفتتحون بلادَ الهندِ أجرٌ عظيمٌ عند الله، وحصلَ هذا في الفتوحات الإسلامية، التي ابتدأَتْ على يد «محمدِ بن القاسم الثقفي» رحمه الله، زمنَ الأمويين، ثم تتابعَتْ بعد ذلك في العهودِ الإسلاميةِ اللاحقة.

وللمجاهدينَ مع عيسى عليه السلام أجْرٌ عظيم، يعصمهمُ اللّهُ به من النار، لأنهم يَقضون على فتنةِ المسيح الدجال، ويُبيدون مَنْ معه من الكفار.

سيموت عيسى ويدفن بعد أربعين سنة من نزوله:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ المسلمينَ الصالحين سيَسْعدونَ بالحياةِ مع عيسى عليه السلام بعد نزولِه أربعين سنة، ونصَّ على أن عيسى سيعيشُ أربعين سنة، يقومُ فيها بالأعمالِ العظيمة.

وبعدَ ذلك سَيُنهي اللّهُ أَجَله، فيموتُ موتاً طبيعياً، ويدفنُه المسلمون بعدَ أنْ يصلّوا عليه.

روى أَبو داود وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «ليس بيني وبينَ عيسى نبي، وإنه نازل، فإذا رأيْتُموه فاعْرِفوه: رجلٌ مربوع، إلى الحمرةِ والبياض، ينزلُ بين مُمَصَّرتَيْن، كأنَّ رأسَه يقطر، وإنْ لم يُصبه بَلَل، فيقاتلُ الناسَ على الإسلام، فيدقُّ الصليب، ويكسرُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويُهلكُ في زمانه المللَ كلَّها إلاّ الإسلام، ويُهلكُ المسيحَ الدجال، فيمكثُ في الأرض أَربعين سنة،

ثم يُتَوَفّى، فيصلي عليه المسلمون...»[1].

ولقد مَرَّت بنا صفاتُ وأفعالُ عيسى عليه السلام بعد نزولِه في أحاديثَ سابقة.

والجديدُ في هذا الحديث تحديدُه المدةَ التي سيعيشُها عيسى عليه السلام بعد نزوله، حيث سيعيشُ أَربعين سنة.

ولا يَتعارضُ هذا التحديدُ مع بعضِ الروايات التي فيها تحديدُ المدةِ بسبع سنين، ومنها روايةٌ في صحيح مسلم.

روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال من جملةِ حديثٍ عن ظهورِ الدجال ونزولِ عيسى عليه السلام ومجيء أشراط الساعة: «.... فيبعثُ اللّهُ عيسى ابنَ مريم، كأنه عروةُ بن مسعود فيطلُبُه، فيهلكه..

ثم يمكثُ الناسُ سبعَ سنين، ليسَ بين اثنين عداوة.

ثم يُرسلُ اللّهُ ريحاً باردةً من قِبَلِ الشام، فلا يَبقى على وجْهِ الأرض أَحَدٌ في قلبه مثقالُ ذرةٍ من خيرٍ أَو إِيمانٍ إلا قبضَتْه، حتى لو أَنَّ أحدَكم دخلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لدخلَتْه عليه، حتى تقبضَه...»[2].

وعروةُ بن مسعود الذي شبهَ رسولُ الله ﷺ عيسى به، صحابيٌّ ثقفيٌّ كان سيدَ ثقيف رضي الله عنه.

والسبعُ سنين المذكورةُ في الحديث ليس لمدةِ لبثِ عيسى في الأرض، فإنه سيلبثُ أَربعين سنة، كما في الحديثِ الصحيح السابق، وإنما هو لمدةِ حياةِ الناس بدونِ شحناء ولا بغضاء ولا عداوة: «ثم يمكث الناس سبع سنين...» و«الناس» فاعل. فالحديثُ عن الناسِ وليسَ عن عيسى عليه السلام!

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٤٠.

والراجحُ أنَّ السبعَ سنين في حديثِ ابن عمرو للتكثير.

والدليلُ على أَنها للتكثير وليستْ للحصر، مجيئُها في بعضِ آياتِ للتكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ..﴾ [لقمان: ٢٧][1].

هذه أهمُّ وأصحُّ الأحاديثِ التي أَخْبَرَنا فيها رسولُ الله ﷺ عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ويجبُ علينا أنْ نقولَ بما قالَتْ هذه الأحاديث، وأنْ نعتقدَ نزولَه عليه الصلاة والسلام.

وقد لاحَظْنا من تلك الأحاديث أَنه ينزلُ بالإسلام، ويطبقُ رسالةَ محمدِ رسولِ الله ﷺ، ولا ينزلُ برسالةٍ جديدة، بل يتبرأُ من النصارى، ويُلزمُهم بالدخولِ في الإسلام، ويَقضي على اليهود، ويُهلكُ المسيحَ الدجال.

أربع حكم لنزول عيسى عليه السلام:

وذكرَ العلماءُ بعضَ الحِكَمِ من نزولِه عليه الصلاة والسلام.

من هذه الحِكَم:

الأُولى: الردُّ على اليهود في زعمِهم أَنهم قتلوه وصلبوه، وَتَبَجُّحِهم بذلك: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾. فنزولُه في آخرِ الزمان تكذيبٌ من الله لهم.

وسيقومُ هو بقتلهم، وقتْلِ ملكِهم المسيح الدجال، فهو الذي يقتلُهم، وليسوا هم الذين قتلوه..

الثانية: يُنزلُهُ الله في آخر الزمان ليستكملَ باقي عمرِه الذي قَدَّرَهُ له، ثم يموت، ويُدفنُ في الأرض.

---

(١) انظر توجيه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة للسبع وللأربعين في تعليقه على الحديث في «التصريح فيما تواتر في نزول المسيح»: ١٢٧ ـ ١٢٩ حاشية.

إنَّ عيسى عليه السلام مخلوق، وهو حيٌّ في السماء حياةً غيبيةً خاصة، طيلةَ هذه القرون، ولا بدَّ أنْ يموت، لأنَّ البقاءَ لله الباقي وحده.

ولا يموتُ في السماء، ولا يُدْفَنُ في السماء، لأنَّ السماءَ ليست مكاناً لموت البشر، ولا مقبرةً لهم. فاللّهُ خلَقَ الناسَ من تراب الأرض، ودفَنَهم في ترابِ الأرض، ويبعثُهم من ترابِ الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾.. [طه: ٥٥].

يُنزلُ اللّهُ عيسى عليه السلام إلى الأرض، ليموتَ على الأرض، ويُدفَنُ فيها، فالسماءُ ليست قبراً له..

الثالثة: تكذيبُه للنصارى في ادعاءاتِهم حولَه، وغُلُوِّهم فيه، فَيَدْعوهم إلى عبادةِ الله وحده، ويرفضُ ما قامَتْ عليه النصرانيةُ من أباطيل وأكاذيب، بكسرِه الصليب، وقتْلِه الخنزير.

ونزولُه حياً في آخرِ الزمان ردٌّ لأباطيلِ النصارى في أنه قُتِل وصُلِب ومات، وخرجَتْ روحُه على الصليب[1].

الرابعة: شهادتُه العمليةُ لخاتمِ النبيين محمدٍ ﷺ، وللإسلام بأنه الشريعةُ الخاتمة، وإلغاؤه لما قبلَه من الديانات المنسوخة، كاليهودية والنصرانية.

وهذا تكذيبٌ آخرُ منه لليهودِ وللنصارى، الذين لم يعترفوا بنبوةِ ورسالةِ محمد ﷺ، فيشهدُ بأعمالِه وجهاده أنَّ محمداً ﷺ هو خاتمُ الأنبياء والمرسلين، وأنَّ رسالتَه هي خاتمةُ الرسالات.

خلاصة لأهم أحوال عيسى وأعماله وأحوال الناس عند نزوله:

ونختمُ كلامَنا عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان بذكْرِ خلاصةٍ لأعمالِه وصفاتِه عند نزوله.

---

(١) انظر هذه الحكم في «التصريح فيما تواتر في نزول المسيح»: ٩٣ ـ ٩٤ حاشية.

نأخذُ هذه الخلاصةَ من الجدولِ الموجزِ النافعِ الذي أَعَدَّهُ الشيخُ محمد شفيع، مفتي باكستان، وتلميذُ الشيخ محمد أنور شاه الكشميري مؤلف كتابِ «التصريح فيما تواتر في نزول المسيح». وقد نشرَ الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله هذا الجدول، وجعلَه ملحقاً لكتاب التصريح.

بعضُ أحوالِه عليه السلام وقتَ نزوله:

يلبسُ ثوبيْن أصفريْن. وينزلُ واضعاً يدَه على أجنحة مَلَكين. ولا يشمُّ كافرٌ أنفاسَه إلا مات. وتبلغُ أنفاسُه إلى نهاية طَرْفِه.

مكان وزمان نزوله:

ينزلُ عند المنارةِ البيضاء، في الجانبِ الشرقي من دمشق، في الشام، وعندَ إقامةِ صلاة الفجر.

بعضُ أحواله بعدَ نزوله:

يدعو إِمامَ المسلمين للإمامة في صلاة الفجر، ويصلّي هو خلْفَه مأموماً. ويقودُ المسلمين بعد ذلك، ويؤمُّهم في صلواتِهم، ويتولّى قيادتَهم في جهادِ الكفار، ويعيشُ بينَهم أربعين سنة.

أهمُّ أعماله بعد نزوله:

يكسرُ الصليب ويستأصلُ عبادته. ويقتلُ الخنزير. ويفتحُ باب المسجدِ بعد نزوله مباشرةً فيرى وراءَه الدجالَ ومجموعةً من اليهود. ويقاتلُ الدجالَ ومَنْ معه من اليهود. ويَقتلُ الدجال عند بابِ اللد. ويقتلُ كلَّ اليهودِ ويُبيدهم نهائياً. ويَشهدُ على اليهود كلُّ شيء من شجرٍ أو حجر أو جدار. ويُبيدُ الكفارَ جميعاً. وينتهي الجهادُ بإبادةِ الكفار. ويضعُ الجزية. ويكثرُ المالُ بين الناس. ولا يوجَدُ فقراء يأخذونَ زكاةً أو صدقة. ويقومُ بأداءِ الحج والعمرة. ويُهِلُّ بهما من «فَجِّ الروحاء» قربَ المدينة. ويقاتلُ يأجوج ومأجوج.

أهمُّ مظاهر البركة بعد نزوله:

زوالُ التحاسدِ والتباغضِ والشحناء من قلوب الناس. ومضاعفةُ حجم الثمار، بحيث تكفي الرمانةُ الواحدةُ المجموعةَ من الناس، وكذلكَ عنقودُ العنب. البركةُ في اللبن بحيث يكفي لبنُ الناقة الجماعةَ الكبيرة. ويكفي لبنُ الشاة القبيلة. وزوالُ العداوة بين الإنسانِ والحيوانات. وزوالُ الآفاتِ والأخطار. وزوالُ العداوةِ بين الحيوانات بحيثُ يَمشي الذئبُ مع الغنم. وانتشارُ السلمِ والأمنِ بين الناس. وانتشارُ الغنى بينهم[1].

وبهذا ننهي كلامَنا عن قصةِ عيسى ابنِ مريم، عبدِ الله ورسولِه، صلى الله عليه وسلم.



(١) انظر الجدول المشار إليه كاملاً في كتاب التصريح: ٢٩٨ ـ ٣٠٨.

الخاتمة

قمنا باستعراضِ موكبِ الأنبياءِ الكرامِ عليهم الصلاة والسلام، في هذه الدراسةِ القرآنيةِ الموسَّعة، ولِلّهِ الحَمدُ والشكر، على إحسانِه وإنعامِه وإعانتِه وتوفيقِه.

وسِرْنا مع الأنبياءِ الكرام عليهم الصلاة والسلام على أساسِ التسلسلِ التاريخي، على المقطوعِ به عند بعضهم، وعلى ما رجَّحْناهُ عند آخرين، والتزَمْنا أنْ نبقى مع آياتِ القرآن، وما صَحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ، ولم نخرجْ عن هذيْن المصدريْن الإسلاميَيْن اليقينيَيْن مطلقاً، ولِلّهِ الحمد، ولم نُثبتْ للأنبياء أيَّ خبرٍ أو حَدَثٍ أو قولٍ أو فعل، إلاّ ذكَرْنا على هذا دليلَنا من صريحِ القرآن وصحيحِ الحديث. ووفَّيْنا بعهدِنا في بدايةِ هذه الدراسة القرآنية في عدمِ الذهابِ إلى الإسرائيلياتِ والخرافاتِ والأساطير، وعدمِ إثباتِ أيِّ شيء إلاّ بإقامةِ الدليلِ عليه، ولله الحمد.

ولهذا نستطيعُ أنْ نقول: لقد جاءت هذه الدراسةُ «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» خاليةً من الإسرائيليات والخرافات، والأخبارِ التي لا دليلَ عليها، ولله الحمدُ والشكرُ والمنّة.

وعندما كنا نتحدثُ عن قصةِ النبي ـ أيِّ نبيٍّ عليه الصلاة والسلام ـ كنا نجمعُ الآياتِ من السور المختلفة، والأحاديثَ الصحيحة، ثم نرتبُ أحداثَ القصةِ حسبَ التسلسلِ التاريخي، على ما وفَّقَنا اللّهُ إلى ترجيحه.

بدأنا الحديثَ عن آدمَ أولِ الأنبياء عليه السلام، وختمناهُ بالحديث عن عيسى ابنِ مريم عليه السلام، آخرِ أنبياءِ بني إسرائيل، ولَمّا تحدَّثْنا عن حياةِ عيسى عليه السلام ختَمْنا حديثَنا عنه بالحديثِ عن نزولِه في آخرِ الزمان.

أما حياةُ حبيبنا ورسولِنا محمدٍ ﷺ، من خلالِ آياتِ القرآن، وصحيحِ السيرة، فإنها تَحتاجُ إلى دراسةٍ خاصةٍ مستقلة، نسألُ اللّهَ أنْ يُعينَنا على القيام بها في أَقرب وقت، إن شاء الله.

وهناك بعضُ القصص القرآني تمثَّلَ في إشاراتٍ قرآنيةٍ سريعة لبعضِ قصصِ السابقين من غيرِ الأنبياء، لم نتحدث عنها في هذه الدراسةِ عن القصص القرآني، لأنَّا تحدَّثْنا عنها بالتفصيلِ في دراستِنا السابقة، التي صدرتْ قبلَ حوالي عشر سنوات، وهي «مع قصص السابقين في القرآن» بأَقسامِها الثلاثة.

من تلك القصص: قصةُ هاروت وماروت، وقصةُ الذي مر على القرية، في سورة البقرة، وقصةُ أصحاب السبت، وقصةُ الذي انسلخ من آيات الله، في سورة الأعراف، وقصةُ أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وقصةُ ذي القرنين في سورة الكهف، وقصةُ لقمان في سورة لقمان، وقصةُ سبأ في سورة سبأ، وقصةُ أصحاب القرية في سورة يّس، وقصةُ أصحاب الأخدود في سورة البروج.

فبما أَنّنا تحدَّثْنا عن هذه القصص في دراساتنا «مع قصص السابقين في القرآن» وبما أَنها قصصُ غيرِ أنبياءَ، على ما هو الراجح، فلذلك لم نجعلْ لها مكاناً في حديثِنا عن الأنبياء في هذه الدراسة.

ونُحيلُ الإخوةَ على كتابِنا السابق «مع قصص السابقين في القرآن» بأقسامِه الثلاثة، للوقوفِ على تلك القصص «القصيرة»!!.

ونقدمُ هذه الدراسةَ القرآنيةَ الموسعة «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» إلى الإخوة الكرام، لعلَّهم يجدون فيها فائدةً أو نفعاً أو إضافة.

ونتقدمُ بهذه الدراسةِ القرآنية إِلى اللّهِ تعالى، حامدين شاكرين له فضْلَه وإِنعامَه وتوفيقه، راجين منه سبحانه القبول والثواب.

ونسألُ اللّهَ أنْ يجعلَ القرآنَ الكريم ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وذهابَ همومنا، وجلاء أحزاننا، وأنْ يرزقَنا تلاوتَه آناءَ الليل وآناءَ النهار، وأنْ يعلِّمَنا منه ما جهلْنا، وأنْ يذكِّرَنا منه ما نسينا، وأنْ يجعلَه حجةً لنا يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي
مساء الثلاثاء ٣٠/٤/١٤١٨هـ
٢/٩/١٩٩٧م



قائمة المراجع

١ ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا، تحقيق الدكتور شعبان محمد إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية وعالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء: إبراهيم العلي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٣ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٤ ـ الاشتقاق: محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٥ ـ إنجيل برنابا: تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٦ ـ إنجيل متى: الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٧ ـ البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٤م.

٨ ـ البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٩ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح: محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٠ ـ التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بدون تاريخ.

١١ ـ تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

١٢ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: الدكتور صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٣ ـ تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، مصورة بالأوفست.

١٤ ـ تفسير القرآن العظيم «تفسير ابن كثير»: إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الحديث، القاهرة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٥ ـ التفسير الكبير «تفسير الرازي»: محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

١٦ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي»: محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، دمشق، مصورة عن الطبعة المصرية.

١٨ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن «تفسير الطبري»: محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩ ـ جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٠ ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه «صحيح البخاري»: محمد بن إسماعيل البخاري، بعناية محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، دار الأرقم، بيروت ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢١ ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: محمود صافي، دار الرشيد، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٢ ـ حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٣ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد: د.صلاح الخالدي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٤ ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف «السمين الحلبي»، تحقيق الدكتور أحمد الخراط، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٥ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٦ ـ الرؤية: علي بن عمر الدارقطني، تحقيق إبراهيم العلي، وأحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٧ ـ الرسول المبلغ ﷺ: د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
٢٨ ـ سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، مصورة عن الطبعة المصرية.
٢٩ ـ سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، مصورة عن الطبعة المصرية.
٣٠ ـ سنن الترمذي: أبو عيسى، محمد بن عيسى الترمذي، بعناية أحمد محمد شاكر، شركة مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٣١ ـ سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٣٢ ـ السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق مصطفى السقا ورفيقاه، طبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.
٣٣ ـ صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي، دار النفائس، عمان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٣٤ ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٣٥ ـ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف «السمين الحلبي»، تحقيق د. محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٣٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، مصورة عن الطبعة السلفية.
٣٧ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الحادية والعشرون ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٣٨ ـ قاموس الكتاب المقدس: د. بطرس عبد الملك ورفيقاه، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة العاشرة ١٩٩٥م.

٣٩ ـ القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤٠ ـ قصص الأنبياء: إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي عبد الحميد بلطه جي ورفيقاه، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٤١ ـ قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، دار إحياء التراث العربي، مصورة عن الطبعة المصرية.

٤٢ ـ الكتاب المقدس: العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٤٣ ـ الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة: موريس بوكاي، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٤ ـ الكشاف «تفسير الزمخشري»: محمود بن عمر الزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، دار الريان، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٥ ـ الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية أبو البقاء: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق د.عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤٦ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل «تفسير النسفي»: عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق مروان الشعار، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٤٧ ـ مسند أحمد بن حنبل: تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤٨ ـ معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٤٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة مناهل العرفان، مصورة عن الطبعة المصرية.

٥٠ ـ معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٥١ ـ المعجم الوسيط: أحمد حسن الزيات ورفاقه، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، تركيا ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٥٢ ـ مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٥٣ ـ مع قصص السابقين في القرآن: د.صلاح الخالدي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥٤ ـ ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق د.محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥٥ ـ المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: يحيى بن شرف النووي، مؤسسة مناهل العرفان، مصورة عن الطبعة المصرية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب صدرت للمؤلف
مرتبة حسب صدور طبعاتها الأولى

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي.
٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.
٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤ ـ مدخل إلى «في ظلال القرآن».
٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن.
٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان.
٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨ ـ في ظلال الإيمان.
٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣.
١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن.
١٣ ـ ثواب للمسلم المعاصر.
١٤ ـ إسرائيليات معاصرة.
١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
١٦ ـ لطائف قرآنية.
١٧ ـ هذا القرآن.
١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.
٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.
٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.
٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.
٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.
٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧.
٢٥ ـ الرسول المبلغ ﷺ.
٢٦ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث: ١ ـ ٤.